

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الفردوس  
www.moswarat.com

المصباح المنير

في تهذيب

نفسه منك كثرها

للإمام إسماعيل بن عمر بن كثير  
رحمه الله

إعداد:

جماعة من أئمة

بإشراف

أشيخ صفى الزمن المبارك فوري

رحمة الله

دار النشر للنشر والتوزيع

أبوظبي

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)





المُصْبَاحُ الْمُنِيرُ فِي تَهْذِيبِ

تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ

جميع حقوق الطبع محفوظة للناسخ

ربيع الثاني ١٤٣٤ هـ / مارس ٢٠١٣ م



دار السلام للنشر والتوزيع

شارع الأمير عبد العزيز بن جلوي (القطيف سابقاً) مقابل الغرفة التجارية

المملكة العربية السعودية من بـ 22743 الرياض 11416

هاتف: 4033982-4034332-00988 فاكس: 1-4021659-00986

E-mail: darussalam@awalnet.net.sa, riyyadh@dar-us-salam.com

Website: www.darussalamksa.com

دار السلام للنشر والتوزيع

■ فرع العليا:

تلفون: 00966-1-4614483

فاكس: 4644945

■ فرع الملز:

تلفون: 00966-1-4735220

فاكس: 4735221

■ فرع السويدي:

تلفون: 00966-1-4286641

■ فرع السويلم:

تلفون: 00966-1-2860422

فاكس: 2860422

■ فرع جدة:

تلفون: 00966-2-6879254

فاكس: 6336270

■ فرع المدينة المنورة:

تلفون: 00966-503417155

فاكس: 8151121

■ فرع خميس مشيط:

تلفون: 00966-7-2207055

فاكس: 2207055

■ فرع الخبر:

تلفون: 00966-3-8692900

فاكس: 8691551

■ فرع الشارقة:

تلفون: 00971-6-5634623

فاكس: 5632624

■ فرع الكويت:

تلفون: 00965-99600845

■ فرع لندن:

تلفون: 0044-208-539 4885

فاكس: 208-5394889

■ فرع نيويورك:

تلفون: 001-718-6255925

فاكس: 718-6251511

■ فرع هيوستن:

تلفون: 001-713-7220419

فاكس: 7220431

■ فرع لاهور:

تلفون: 0092-42-7240024

فاكس: 7354072

■ فرع كراتشي:

تلفون: 0092-21-4393936

فاكس: 4393937

■ فرع اسلام آباد:

تلفون: 0092-51-2500237



# المُصْبَاحُ الْمُنِيرُ فِي تَهْذِيبِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ



طَبَعَتْ جَدِيدَةً مُنْقَحَةً وَمُصَوَّغَةً وَضُبُوطَةً بِالشَّكْلِ  
لِلْإِمَامِ الْجَلِيلِ عَمَادِ الدِّينِ أَبِي الْفِدَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ  
ابْنِ كَثِيرٍ الْقُرَشِيِّ الدِّمَشْقِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ

الْمُتَوَفَّى (٥٧٧٤ هـ)

إِعْدَادُ: جَمَاعَةِ فُرُقِ الْعُلَمَاءِ

بِإِشْرَافِ

السَّيِّخِ صَفِيِّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكُفَوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة الطبعة الأولى

بَحَثُوا عَنِ الْأَحْوَالِ الْجُغَرَفِيَّةِ لِلْأَمَاكِنِ  
وَالْبُلْدَانِ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،  
وَعَنْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ.

وَكَانَ تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ أَهَمِّ مَا  
كُتِبَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَمِنْ أَعْظَمِهِ  
وَأَكْثَرِهِ قَبُولًا وَانْتِشَارًا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِذْ كَانَ  
ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مُتَضَلِّعًا بِعُلُومِ الْكِتَابِ  
وَالسُّنَّةِ، وَبِعُلُومِ تَارِيخِ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ مَعَ  
مَا مَنَحَهُ اللَّهُ مِنَ النَّظَرِ الثَّاقِبِ فِي سُنَّةِ اللَّهِ الَّتِي  
تَجْرِي فِي صَلَاحِ الْأُمَمِ وَفَسَادِهَا وَفِي تَقْدِيمِهَا  
وَتَأْخِيرِهَا وَانْحِطَاطِهَا.

وَكَانَ لَهُ أَطْلَاعٌ وَاسِعٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ  
الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ، فَاخْتَارَ رَحِمَهُ  
اللَّهُ مَنَهَجَ التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ، فَأَكْثَرَ مِنْ إِبْرَادِ  
الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ، وَأَقْوَالِ السَّلَفِ الصَّالِحِ  
مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ  
الْهُدَى وَالْيَقِينِ، وَمِنْ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ  
فِي عِلْمِ تَأْوِيلِ الْكِتَابِ، وَلَمْ يَغْفُلْ جَوَانِبَ  
أُخْرَى أَشْرْنَا إِلَيْهَا. وَبِذَلِكَ جَاءَ تَفْسِيرُهُ جَامِعًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى  
آلِهِ وَصَحْبِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ، وَعَلَى مَنْ تَبِعَهُمْ  
بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَبَعْدُ: فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ أَعَزُّ مَا شَرَّفَ اللَّهُ  
بِهِ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ، فَهُوَ كِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ  
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ  
حَكِيمٍ حَمِيدٍ، وَيَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، فَمَنْ  
تَمَسَّكَ بِهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنْ  
هَجَرَهُ فَهُوَ فِي خُسْرَانٍ عَظِيمٍ.

وَقَدْ اعْتَنَتْ بِهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ اعْتِنَاءً لَا  
مِثِيلَ لَهُ فِي مَا سَلَفَ مِنَ الْأُمَمِ. فَقَدْ بَحَثَ  
عُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَمَّا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: مِنْ  
الْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ، وَالْمَعَانِي وَالنُّكْتِ،  
وَالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَالْأَدِلَّةِ وَالْبَيَانِ،  
وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ،  
وَلَطَائِفِ الْعِبَارَاتِ وَدَقَائِقِ الْإِشَارَاتِ،  
وَجَوَانِبِ الْإِعْجَازِ، وَوُجُوهِ الْإِعْرَابِ،  
وَاخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ، وَأَنْوَاعِ اللَّهْجَاتِ، حَتَّى

الإخوة بِتَخْرِيجِ الْأَحَادِيثِ وَالْأَقْوَالِ تَحْتَ إِشْرَافِهِ، فَقَامَ بِهِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ.

أَمَّا إِضْاحُ الْمَعَانِي مِنَ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فَأَبْقَيْ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ - تَقْرِيْبًا - مَعَ وَضْعِ الْعَنَاوِينَ عَلَى الْمَبَاحِثِ.

ثُمَّ كَلَّفَنِي الْأَخُ عَبْدُ الْمَالِكِ مُجَاهِدًا بِالْمُرَاجَعَةِ وَإِعَادَةِ النَّظَرِ، فَقُمْتُ بِذَلِكَ وَأَصْلَحْتُ وَغَيَّرْتُ وَبَدَّلْتُ وَزِدْتُ وَنَقَّصْتُ، حِينَ رَأَيْتُ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ، كَمَا قَامَ بِبَعْضِ ذَلِكَ أَخُونَا الْفَاضِلُ شَكِيلُ أَحْمَدُ السَّلَفِيُّ أَحَدُ الْبَاحِثِينَ فِي قِسْمِ الْبَحْثِ وَالتَّصْحِيحِ فِي دَارِ السَّلَامِ، وَبِذَلِكَ كُلُّهُ جَاءَ الْكِتَابُ كَمَا يَرُوقُ النَّوَاطِرُ وَيَسُرُّ الْخَوَاطِرَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

بَعْضُ أَعْمَالٍ أُخْرَى:

(١) وَقَدْ جَاءَ هَذَا التَّلْخِصُ مِنْ نُسخَةِ مَطْبُوعَةٍ مِنْ مَكْتَبَةِ دَارِ السَّلَامِ، وَكَانَتْ مُصَحَّحَةً وَمُعْتَمَدَةً عَلَى نُسخَةٍ مِصْرِيَّةٍ قَدِيمَةٍ مَطْبُوعَةٍ بِ«دَارِ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ، لِعِيسَى الْبَابِي الْحَلْبِيِّ وَشُرَكَاهُ» وَتَارِيخُ هَذِهِ الطَّبْعَةِ غَيْرُ مُسَجَّلٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى نَحْوِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ. كَمَا أَنَّ النُّسخَةَ الْمَطْبُوعَةَ بِدَارِ السَّلَامِ كَانَتْ قَدْ قُوِبِلَتْ عَلَى خَمْسِ نُسخٍ أُخْرَى مُحَقَّقَةً وَمَطْبُوعَةً حَدِيثًا حَتَّى تَمَّ تَدَارُكُ الْأَخْطَاءِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ.

(٢) وَكَانَ مِنْ أَوْصَافِ تِلْكَ النُّسخَةِ الَّتِي اتَّبَعْتُ فِي هَذَا التَّلْخِصِ أَيْضًا: أَنَّ مَا وُجِدَ مِنَ الْأَخْطَاءِ فِي أَسْمَاءِ الرِّجَالِ صَوِّبَ

بَيْنَ فَنِّي الرِّوَايَةِ وَالذِّرَايَةِ وَالْمَقُولِ وَالْمَعْقُولِ، وَانْتَفَعَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ أَيْمًا انْتِفَاعًا، وَحَصَلَ لَهُ مِنَ الْقَبُولِ وَالْإِقْبَالِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لغيرِهِ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ إِلَّا نَادِرًا.

وَحَيْثُ إِنَّ أَحَانَا الْفَاضِلَ الشَّيْخَ عَبْدَ الْمَالِكِ مُجَاهِدًا - الْمُدِيرَ الْمَسْئُولَ لِمَكْتَبَةِ دَارِ السَّلَامِ - يَتَمَتَّعُ بِبَهْمَةٍ عَالِيَةٍ، وَقَصْدُ نَبِيلٍ وَعَمَلٍ جَلِيلٍ فِي الْقِيَامِ بِخِدْمَةِ كُتُبِ السَّلَفِ وَنَشْرِهَا فِي صُورٍ أَيْقَنَةٍ وَحُلُلِ قَيْسِيَّةٍ؛ فَقَدْ رَأَى - بَعْدَ الْإِسْتِشَارَةِ وَإِجَالَةِ الْفِكْرِ - أَنْ يَخْتَارَ مَجْمُوعَةً ذَاتَ كِفَاءَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْفَضِيلَةِ الْبَاحِثِينَ وَالْكَاتِبِينَ بِتَرْجَمَةِ هَذَا التَّفْسِيرِ إِلَى لُغَاتٍ عَالَمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ حَيَّةٍ حَتَّى يَسْتَفِيدَ بِهِ مُعْظَمُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْعَالَمِ كُلُّهُ. كَذَلِكَ رَأَى مِنْ الْأَحْسَنِ أَنْ يُلَخِّصَ الْكِتَابَ تَلْخِصًا يَضْغُرُ لِأَجْلِهِ الْحَجْمُ. وَلَا تَقُوتُ الْمَبَاحِثُ.

وَيُوضَعُ لِكُلِّ مَبَحَثٍ أُنْسَبُ عُنْوَانٍ لَهُ. وَتُعْزَى الْأَحَادِيثُ وَالْأَقْوَالُ الْبَاقِيَةُ بَعْدَ التَّلْخِصِ إِلَى مُخْرِجِهَا. حَتَّى تَتِمَّ الْفَائِدَةُ.

وَالْتَمَسَ مِنْ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ/ أَبِي الْأَشْبَالِ أَحْمَدَ شَاغِبٍ - حَفِظَهُ اللَّهُ وَبَارَكَ فِي حَيَاتِهِ - أَنْ يَقُومَ بِهَذَا الْعَمَلِ، فَبَدَلَ جُهْدَهُ الْمَشْكُورَ فِي التَّلْخِصِ، وَذَلِكَ بِإِثْقَاءِ عَدَدٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ يَتِمُّ بِهَا مَعْنَى الْمَوْضُوعِ، وَحَذَفَ بَقِيَّةَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي هِيَ مُجَرَّدُ تَكَرَّرٍ لِمَعْنَى وَاحِدٍ مِنْ طُرُقِ شَتَّى - وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ تَلْخِصُ أَقْوَالِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ - وَكَلَّفَ بَعْضَ



أَصْحَابُ الْفَضِيلَةِ الْعَامِلِينَ فِي قِسْمِ الْبَحْثِ  
وَالْتَّصَحِيحِ فِي الْمَكْتَبَةِ فَجَزَاهُمُ اللَّهُ خَيْرًا .

وَقَدْ رَغِبَتِ الْمَكْتَبَةُ أَنْ يَأْتِيَ هَذَا الْمُلَخَّصُ  
فِي مُجَلَّدٍ وَاحِدٍ مَعَ الْمَقَاسِ الْمُنَاسِبِ وَالسَّعْرِ  
الزَّهِيدِ، لِيَكُونَ سَهْلًا ميسُورًا يَبْلُغُ إِلَى الْآفَاقِ،  
وَلَا يَبْقَى بَيِّنَةٌ مِنْ بَيِّنَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَيَدْخُلُهُ  
هَذَا السَّفَرُ الْمُبَارَكُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَكُونَ زَادًا مُمْتَعًا  
فِي أَسْفَارِهِمْ، وَذُخْرَ خَيْرٍ فِي حِلِّهِمْ وَتَرْحَالِهِمْ،  
عَسَى اللَّهُ أَنْ يُقَدِّرَ ذَلِكَ وَهُوَ الْمُؤَفَّقُ لِلْخَيْرِ،  
وَالْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ  
وَصَحْبِهِ وَبَارَكَ وَسَلَّم

١٤٢٠/٦/١٢ هـ      صَفِيُّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكُ كُفُورِي

بِمُرَاجَعَةِ الْأُصُولِ مِنْ كُتُبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ وُضِعَ  
الصَّوَابُ بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ، وَحَيْثُمَا وُجِدَ الْأَمْرُ  
غَامِضًا نُبِّهَ عَلَيْهِ فِي الْهَامِشِ .

(٣) أَمَّا الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي وَرَدَتْ أَثْنَاءَ  
التَّفْسِيرِ فَوُضِعَتْ مُشْكَلَةً بِخَطِّ الْمُصْحَفِ بَيْنَ  
قَوْسَيْنِ مُخْتَصِّصِينَ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ: ﴿ 》 أَخْذًا مِنْ  
الْمُصْحَفِ الْمُبَرِّجِ فِي الْحَاسِبِ .

(٤) وَوُضِعَ فِي رَأْسِ الصَّفْحَةِ اسْمُ السُّورَةِ  
وَرَقْمُهَا، وَأَرْقَامُ الْآيَاتِ، حَتَّى يَسْهَلَ الْوُصُولُ  
إِلَى الْمَطْلُوبِ .

(٥) وَعِنْدَ اخْتِلَافِ النُّسخِ فِي أَسْمَاءِ السُّورِ  
اخْتِيرَ الْإِسْمُ الْمُثَبَّتُ فِي الْأَصْلِ .

(٦) وَوُضِعَتِ الزِّيَادَاتُ عَلَى النُّسخَةِ الْأَصْلِيَّةِ  
بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ: [ ] وَقَدْ قَامَ بِهِذِهِ الْأَعْمَالِ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَقْدَمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ

لِتَحْقِيقِ هَذَا الْغَرَضِ أَقْوَالُ الْأَيْمَةِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ، فِي تِلْكَ الْأَحَادِيثِ، أَوْ فِي رُؤَايَافِهَا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى التَّيَجَّةِ النَّهَائِيَّةِ فِي تَعْيِينِ مَرْتَبَةِ الْحَدِيثِ مِنَ الضَّعْفِ أَوْ الْحُسْنِ أَوْ الصَّحَّةِ، فَأَخْرَجُوا الضَّعِيفَ وَأَسْقَطُوهُ، وَتَرَكُوا الْبَقِيَّةَ، فَجَزَاهُمُ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْجُهِدِ الْمَشْكُورِ خَيْرًا.

(٢) تَشْكِيلُ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ، وَوَضْعُ الْحَرَكَاتِ عَلَى كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى لَا يَقَعَ الْإِلْتِبَاسُ فِي الْمَوَاضِعِ الصَّعْبَةِ عَلَى عَامَّةِ الْقُرَّاءِ، وَتَتَضَحَّ الْمَعَانِي الصَّحِيحَةُ وَيَسْهُلُ عَلَى الْعَامَّةِ قِرَاءَةُ أَلْفَاظِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَبَارَكَ وَسَلَّم.

١٤٢١/٢/٤ هـ صَفِيُّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكُفُورِيُّ

الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ فِي رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ عَامَ ١٤٣٣ هـ أَوْغُسْطُس، عَامَ ٢٠١٢ مِيلَادِي، وَهِيَ مُشْكَلَةُ الْكَلِمَاتِ، مُصَحَّحَةٌ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهِدْيِهِ وَافْتَقَى أَثَرُهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. وَبَعْدُ، فَهِيَ الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ لِكِتَابِ «الْمُصْبَاحِ الْمُنِيرِ فِي تَهْذِيبِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ» تُقَدِّمُهَا مَكْتَبَةُ دَارِ السَّلَامِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ بِالرِّيَّاضِ، وَقَدْ نَفَذَتْ نَسْخَ الطَّبْعَةِ الْأُولَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فِي أَقْرَبِ فُرْصَةٍ، وَحَصَلَ بِهِ مِنَ الْقَبُولِ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَإِعْجَابِهِمْ بِهِ وَاقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ مَا يَحْتُسُّ عَلَى الشُّكْرِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى إِحْسَانِهِ الْعَمِيمِ وَفَضْلِهِ الْكَرِيمِ.

وَبِمُنَاسَبَةِ هَذِهِ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ رَأَى الْمَسْئُولُونَ الْقِيَامَ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ فِي ضَوْءِ مَشُورَةِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ، عَدَا مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي تَقْدِيمِ الطَّبْعَةِ الْأُولَى. فَكَلَّفُوا لَجَنَةَ الْبَحْثِ وَالْإِعْدَادِ الْعِلْمِيَّ الْقِيَامَ بِهَا وَتَتَلَخَّصُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِيمَا يَلِي:

(١) إِخْرَاجُ جَمِيعِ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي لَمْ يَنْجِبْ ضَعْفُهَا، وَلَمْ تَصِلْ إِلَى دَرَجَةِ الْقَبُولِ، فَلَا يُوجَدُ - بِحَمْدِ اللَّهِ - فِي هَذِهِ الطَّبْعَةِ إِلَّا الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ أَوْ الْحَسَنَةُ أَوْ الضَّعِيفَةُ الَّتِي انْجَبَرَ ضَعْفُهَا، وَارْتَفَقَتْ إِلَى دَرَجَةِ الْقَبُولِ، وَقَدْ رَاجَعَ الْإِخْوَةُ الْبَاحِثُونَ



## شرح الرموز المستعملة في التخریج

ابن أبي حاتم = تفسير ابن أبي حاتم	الترمذي = جامع الترمذي
ابن أبي حاتم غ = تفسير ابن أبي حاتم	الحاكم = المستدرک للحاكم
تحقيق الدكتور الغامدي	الحلية = حلية الأولياء لأبي نعيم
مسودة غير مطبوع	الحميدي = مسند الحميدي
ابن أبي شيبة = المصنف لابن أبي شيبة	الخطيب = التاريخ للخطيب البغدادي
ابن حبان = صحيح ابن حبان	الدارقطني = السنن للإمام الدارقطني
ابن خزيمة = صحيح ابن خزيمة	الدارمي = سنن الدارمي
ابن عدي = الكامل في ضعفاء الرجال	الرازي = التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي
ابن عساكر = تاريخ دمشق لابن عساكر (مختصر)	الزفاف = آداب الزفاف لناصر الدين الألباني
ابن ماجه = السنن للإمام ابن ماجه	سعید بن منصور = سنن سعيد بن منصور
القزويني	السنة = كتاب السنة لابن أبي عاصم
ابن هشام = سيرة ابن هشام	شرح السنة = شرح السنة للإمام البغوي
أبو داود = السنن للإمام أبي داود	الشریعة = لمحمد بن الحسين الآجري
أحمد = مسند الإمام أحمد بن حنبل	الطبراني = المعجم الكبير للطبراني
الإحياء = إحياء العلوم للإمام الغزالي	الطبري = تفسير جامع البيان للطبري
الأم = كتاب الأم للإمام الشافعي	عبدالرزاق = تفسير عبدالرزاق
البخاري = الصحيح للإمام البخاري	عدي = الكامل لابن عدي
البغوي = تفسير الإمام البغوي	العظمة = العظمة لأبي الشيخ-دار
البيهقي = السنن الكبرى للإمام البيهقي	العاصمة الرياض
تحفة الأحوذی = شرح جامع الترمذي	العقيلي = الضعفاء الكبير للعقيلي
للشيخ عبدالرحمن المباركفوري	علل الحديث = لعلي بن المديني
التاريخ الكبير = للإمام البخاري	عمدة التفسير = عمدة التفسير للحافظ ابن كثير (أحمد شاكر)
	غريب الحديث = غريب الحديث لأبي عبيد

القاسم بن سلام	مشكاة	= مشكاة المصابيح للخطيب
فتح الباري	= فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر	التبريزي
القرطبي	= تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.	= مشكل الآثار للطحاوي
الكشاف	= تفسير الكشاف للزمخشري	= المطالب المطالب
الكنز	= كنز العمال	= المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر
المجمع	= مجمع الزوائد	موارد الظمآن = موارد الظمآن لأبي بكر الهيثمي
المحرر الوجيز	= المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبدالحق ابن غالب الغرناطي	الموطأ = موطأ الإمام مالك
المحلى	= المحلى لابن حزم	النسائي في الكبرى = السنن الكبرى للإمام النسائي
مسلم	= الصحيح للإمام مسلم	النسائي = السنن للإمام النسائي
		اليوم والليلة = عمل اليوم والليلة للنسائي

## ترجمة المؤلف

بِقَلَمِ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْأَرْنَؤُوطِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -

وَلَا زَمَ الشَّيْخَ جَمَالَ الدِّينِ يُوسُفَ بْنَ الزَّكِيِّ  
الْمَرْيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٤٢) هـ، وَبِهِ انْتَفَعَ  
وَتَخَرَّجَ وَتَزَوَّجَ بِابْنَتِهِ.

وَقَرَأَ عَلَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ تَقِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ  
ابْنِ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ  
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٢٨) هـ كَمَا قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ  
الْحَافِظِ الْمُؤَرِّخِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ  
ابْنِ عُثْمَانَ ابْنِ قَايِمَارِ الذَّهَبِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ  
(٧٤٨) هـ وَأَجَازَ لَهُ مِنْ مِصْرَ أَبُو مُوسَى  
الْقُرَافِي، وَأَبُو الْفَتْحِ الدَّبُوسِيُّ، وَعَلِيُّ بْنُ عَمَرَ  
السَّوَانِيُّ، وَغَيْرُهُمْ.

قَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ فِي «الْمُعْجَمِ الْمُخْتَصَّرِ»  
عَنِ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ: هُوَ الْإِمَامُ الْمُفْتِي،  
الْمُحَدِّثُ الْبَارِعُ، فَقِيهٌ مُتَّقِنٌ، وَمُفَسِّرٌ نَقَالُ،  
وَلَهُ تَصَانِيفٌ مُفِيدَةٌ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي  
«الدَّرَرِ الْكَامِنَةِ»: اشْتَغَلَ بِالْحَدِيثِ مُطَالَعَةً فِي  
مُتُونِهِ وَرِجَالِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْإِسْتِخْصَارِ، حَسَنَ  
الْمُفَاكَهَةِ، سَارَتْ تَصَانِيفُهُ فِي حَيَاتِهِ، وَانْتَفَعَ  
النَّاسُ بِهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وَقَالَ الْمُؤَرِّخُ الشَّهِيرُ أَبُو الْمَحَاسِنِ جَمَالُ  
الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ سَيْفِ الدِّينِ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ  
تَغْرِي بَرْدِي فِي كِتَابِهِ (الْمَنْهَلُ الصَّافِي

هُوَ الْإِمَامُ الْجَلِيلُ أَبُو الْفِدَاءِ عِمَادُ الدِّينِ  
إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَمَرَ بْنِ كَثِيرِ الْقُرَشِيِّ الْبُصْرِيُّ  
الْأَصْلُ الدَّمَشْقِيُّ النُّشَاءُ وَالتَّرْبِيَّةُ وَالتَّعْلِيمُ.  
وُلِدَ بِـ (مِجْدَل) الْقَرْيَةِ مِنْ أَعْمَالِ مَدِينَةِ  
بُصْرَى سَنَةَ (٧٠١ هـ - ١٣٠٢ م) وَكَانَ أَبُوهُ  
حَطِيبٌ قَرْيَةً، وَمَاتَ أَبُوهُ فِي الرَّابِعَةِ مِنْ  
عُمُرِهِ، وَرَبَّاهُ أَخُوهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْوَهَّابِ وَعَلَّمَهُ  
فِي مَبْدَأِ أَمْرِهِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى دِمَشْقَ الشَّامِ  
الْمَحْرُوسَةِ سَنَةَ (٧٠٦) هـ فِي الْخَامِسَةِ مِنْ  
عُمُرِهِ.

شُبُوخُهُ:

تَفَقَّهَ بِالشَّيْخِ بُرْهَانَ الدِّينِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ  
الرَّحْمَنِ الْفَزَارِيِّ الشَّهِيرِ بِابْنِ الْفَرَكَاحِ الْمُتَوَفَّى  
سَنَةَ (٧٢٩) هـ وَسَمِعَ بِدِمَشْقَ مِنْ عَيْسَى بْنِ  
الْمُطْعِمِ، وَمِنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي طَالِبِ الشَّهِيرِ  
بِابْنِ الشُّحْنَةِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٣٠)، وَمِنْ ابْنِ  
الْحَجَّارِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٣٠) هـ وَمِنْ مُسْنِدِ  
الشَّامِ بَهَاءِ الدِّينِ الْقَاسِمِ بْنِ مُظَفَّرِ بْنِ عَسَاكِرِ  
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٢٣) هـ وَمِنْ ابْنِ السَّيْرَازِيِّ،  
وَمِنْ إِسْحَاقَ بْنِ يَحْيَى الْأَمِيدِيِّ شَيْخِ الظَّاهِرِيَّةِ  
عَفِيفِ الدِّينِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٧٢٥) هـ وَمِنْ  
مُحَمَّدِ بْنِ زَرَّادٍ.

بِالرَّوَايَةِ، وَقَدْ طُبِعَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ،  
وَاخْتَصَرَهُ عِدَّةُ أَشْخَاصٍ.

٢- التَّارِيخُ الْمُسَمَّى بِالْبِدَايَةِ، وَهُوَ الْمَطْبُوعُ  
فِي (١٤) مُجَلَّدًا، بِاسْمِ (الْبِدَايَةِ  
وَالنَّهَائَةِ) ذَكَرَ فِيهِ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ  
الْمَاضِيَةِ، وَالسِّيَرَةَ النَّبَوِيَّةَ، وَالتَّارِيخَ  
الْإِسْلَامِيَّ إِلَى زَمَنِهِ ثُمَّ أَلْفَ «الْفَتْنِ»  
وَأَشْرَاطُ السَّاعَةِ وَالْمَلَا حِمُّ وَأَحْوَالُ  
الْآخِرَةِ.

وَهُوَ الْمَقْصُودُ بـ«النَّهَائَةِ» وَقَدْ طُبِعَتْ  
«الْبِدَايَةُ» أَوَّلًا ثُمَّ طُبِعَتْ «النَّهَائَةُ»  
بِمُفْرَدِهَا، وَحَقَّقَهَا عِدَّةُ أَشْخَاصٍ.

٣- «التَّكْمِيلُ فِي مَعْرِفَةِ الثَّقَاتِ وَالضُّعَفَاءِ  
وَالْمَجَاهِيلِ» جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ كِتَابَيْ شَيْخِهِ  
الْمِزِّيِّ وَالذَّهَبِيِّ «تَهْذِيبِ الْكَمَالِ فِي  
أَسْمَاءِ الرِّجَالِ» وَ«مِيزَانِ الْاِعْتِدَالِ فِي  
نَقْدِ الرِّجَالِ» مَعَ زِيَادَاتٍ مُفِيدَةٍ فِي  
الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

٤- «الْهَدْيُ وَالسُّنَنُ فِي أَحَادِيثِ الْمَسَانِيدِ  
وَالسُّنَنِ» وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِـ«جَامِعِ الْمَسَانِيدِ»  
جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ،  
وَالزُّبَارِ، وَأَبِي يَعْلَى الْمُوَصِّلِيِّ، وَابْنِ أَبِي  
شَيْبَةَ، مَعَ الْكُتُبِ السَّنَةِ: الصَّحِيحَيْنِ،  
وَالسُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ. وَرَتَّبَهُ عَلَى الْأَبْوَابِ،  
طُبِعَ مِنْهُ - حَدِيثًا - بَعْضُ الْأَجْزَاءِ.

٥- «طَبَقَاتُ الشَّافِعِيَّةِ» مُجَلَّدٌ وَسَطٌ، وَمَعَهُ  
مَنَاقِبُ الشَّافِعِيِّ.

وَالْمُسْتَوْفِي بَعْدَ الْوَافِي): هُوَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ  
الْعَلَامَةُ عِمَادُ الدِّينِ أَبُو الْفِدَاءِ، لَازَمَ  
الِاشْتِعَالَ، وَدَأَّبَ وَحَصَلَ وَكَتَبَ، وَبَرَعَ فِي  
الْفَهْمِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَجَمَعَ وَصَنَّفَ،  
وَدَرَسَ وَحَدَّثَ وَأَلْفَ، وَكَانَ لَهُ اِطْلَاعٌ عَظِيمٌ  
فِي الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ، وَالْفَهْمِ وَالْعَرَبِيَّةِ، وَغَيْرِ  
ذَلِكَ، وَأَفْتَى وَدَرَسَ إِلَى أَنْ تُوفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ،  
وَاشْتَهَرَ بِالضَّبْطِ وَالتَّحْرِيرِ، وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ رِيَاسَةُ  
الْعِلْمِ فِي التَّارِيخِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ.

تَلَامِذُهُ:

وَهُمْ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ ابْنُ حِجِّي، وَقَالَ فِيهِ:  
أَحْفَظُ مَنْ أَدْرَكْتَاهُ لِمَتُونِ الْأَحَادِيثِ وَأَعْرِفُهُمْ  
بِجَرْحِهَا وَرِجَالِهَا، وَصَحِيحِهَا وَسَقِيمِهَا، وَكَانَ  
أَقْرَانُهُ وَشُيُوخُهُ يَعْتَرِفُونَ لَهُ بِذَلِكَ، وَمَا أَعْرِفُ  
أَنِّي اجْتَمَعْتُ بِهِ إِلَّا وَاسْتَفَدْتُ مِنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ الْعِمَادِ الْحَنْبَلِيُّ فِي كِتَابِهِ:  
«شَذَرَاتُ الذَّهَبِ فِي أَخْبَارِ مَنْ ذَهَبَ»: هُوَ  
الْحَافِظُ الْكَبِيرُ، عِمَادُ الدِّينِ، كَانَ كَثِيرَ  
الِاسْتِحْضَارِ، قَلِيلَ النِّسْيَانِ، جَيِّدَ الْفَهْمِ،  
يُشَارِكُ فِي الْعَرَبِيَّةِ. وَقَالَ فِيهِ ابْنُ حَبِيبٍ: سَمِعَ  
وَجَمَعَ وَصَنَّفَ، وَأَطْرَبَ الْأَسْمَاعَ بِالْفَتْوَى،  
وَحَدَّثَ وَأَفَادَ، وَطَارَتْ أَوْرَاقُ فِتَاوِيهِ إِلَى  
الْبِلَادِ، وَاشْتَهَرَ بِالضَّبْطِ وَالتَّحْرِيرِ.

مُؤَلَّفَاتُهُ:

مُؤَلَّفَاتُهُ كَثِيرَةٌ:

١- مِنْهَا، وَمِنْ أَعْظَمِهَا تَفْسِيرُهُ لِلْقُرْآنِ  
الْكَرِيمِ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ



- ٦- خَرَجَ أَحَادِيثَ أَدْلَةٍ التَّنْبِيهِ فِي فَقْهِ الشَّافِعِيَّةِ.
- ٧- شَرَعَ فِي شَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُكْمِلْهُ.
- ٨- شَرَعَ فِي كِتَابٍ كَبِيرٍ فِي الْأَحْكَامِ وَلَمْ يُكْمِلْهُ، وَصَلَ فِيهِ إِلَى الْحَجِّ.
- ٩- مُخْتَصَرُ كِتَابِ الْمَدْخَلِ لِلْبَيْهَقِيِّ. وَأَكْثَرُهَا لَمْ يُطْبِعَ.
- ١٠- اخْتَصَرَ عُلُومَ الْحَدِيثِ لِأَبِي عَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ وَسَمَّاهُ «مُخْتَصَرُ عُلُومِ الْحَدِيثِ» وَطَبَعَهُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ شَاكِرٌ الْمُحَدِّثُ الْمِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، مَعَ شَرْحٍ لَهُ، وَسَمَّى شَرْحَهُ «الْبَاعِثُ الْحَثِيثُ فِي شَرْحِ مُخْتَصَرِ عُلُومِ الْحَدِيثِ» وَقَدْ طُبِعَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ.
- ١١- السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ مُطَوَّلَةٌ (ضَمَّنَ الْبِدَايَةَ وَمُخْتَصَرَةَ، وَهُمَا مَطْبُوعَتَانِ).
- ١٢- رِسَالَةٌ فِي الْجِهَادِ، سَمَّاهَا «الْإِجْتِهَادُ فِي طَلَبِ الْجِهَادِ» وَقَدْ طُبِعَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ. وَفَاتُهُ:
- قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكَانَ قَدْ ضُرَّ - يَعْنِي فَقَدَ بَصَرَهُ - فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، وَتُوُفِّيَ بِدِمَشْقَ الشَّامِ الْمَخْرُوسَةِ سَنَةَ (٧٧٤هـ - ١٣٧٣م).
- رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَأَسْكَنَهُ فَرَسِيحَ جَنَانِهِ.



(١) مسلم: ٣٤٣/١ (٢) أحمد: ١٤٥/٥

وَمِنْهُمْ الْجَبْرِ الْبَحْرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ بِرِكَ دَعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُ، حَيْثُ قَالَ: «اللَّهُمَّ فَفَقِّهْ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْنِي التَّوْبِيلَ» (٣). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: نِعِمَّ تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ (٤). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ مَاتَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ عَلَى الصَّحِيحِ، وَعُمَرُ بَعْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا كَسَبَهُ مِنَ الْعُلُومِ بَعْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ؟! وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ: اسْتَخْلَفَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَلَى الْمُؤَسِّمِ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَرَأَ فِي خُطْبَتِهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ - وَفِي رِوَايَةِ سُورَةِ النُّورِ - فَفَسَّرَهَا تَفْسِيرًا لَوْ سَمِعْتَهُ الرُّومُ وَالتُّرُكُ وَالذَّنْبَلُ لَأَسْلَمُوا (٥).

وَلِهَذَا غَالِبَ مَا يَرْوِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّدِّيُّ الْكَبِيرُ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الْأَخْبَانِ يُنْقَلُ عَنْهُمْ مَا يَحْكُوهُ مِنْ أَقَاوِيلِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّتِي أَبَاحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (٦). وَلِهَذَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَدْ أَصَابَ يَوْمَ التِّرْمُذِيِّ زَامِلَتَيْنِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَكَانَ يُحَدِّثُ مِنْهُمَا بِمَا فَهِمَهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْإِذْنِ فِي ذَلِكَ.

[حُكْمُ الرِّوَايَاتِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ]

وَلَكِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ تُذَكِّرُ لِلْإِسْتِشْهَادِ لَا لِلْإِعْضَادِ، فَإِنَّهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: (أَحَدُهَا): مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ مِمَّا بِأَيْدِينَا مِمَّا يَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ، فَذَلِكَ صَحِيحٌ.

(وَالثَّانِي): مَا عَلِمْنَا كُذْبَهُ [بِمَا] عِنْدَنَا، مِمَّا يُخَالِفُهُ.

(وَالثَّلَاثُ): مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ لَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَلَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَكْذِبُهُ، وَيَجُوزُ حِكَايَتُهُ لِمَا تَقَدَّمَ. وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَايِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَى أَمْرِ دِينِي. كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هَذَا أَسْمَاءُ أَصْحَابِ الْكُهْفِ، وَلَوْ نَ كَلِمَتُهُمْ، وَعَدَدَتُهُمْ. وَعَصَا مُوسَى مِنْ أَيْ الشَّجَرِ

(١) أحمد: ١٣١/٤ (٢) الطبري: ٨٠/١ (٣) فتح الباري: ٢٠٥/١ (٤) الطبري: ٩٠/١ (٥) الطبري: ٨١/١ (٦) فتح الباري: ٥٧٢/٦

فَعَلَيْنَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ نَنْتَهِيَ عَمَّا ذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَنْ نَأْتِمِرَ بِمَا أَمَرَنَا بِهِ مِنْ تَعَلُّمِ كِتَابِ اللَّهِ الْمُتَزَّلِ إِلَيْنَا وَتَعْلِيمِهِ، وَتَفْهِيمِهِ وَتَفْهِيمِهِ، قَالَ تَعَالَى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِلذِّكْرِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (الحديد: ١٦، ١٧) فِي ذِكْرِهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ الَّتِي قَبْلَهَا تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ يُبْلِي الْقُلُوبَ بِالْإِيمَانِ وَالْهُدَى بَعْدَ قَسْوَتِهَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَاللَّهُ الْمُؤَمِّلُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا هَذَا، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ. [أُصُولُ التَّفْسِيرِ]

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَحْسَنَ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟

(فَالْجَوَابُ): أَنْ أَصَحَّ الطَّرِيقُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ، فَمَا أَجْمَلَ فِي مَكَانٍ فَإِنَّهُ قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَإِنْ أَعْيَاكَ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمَوْضِحَةٌ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَالِفِينَ حَصِيصًا» [النساء: ١٠٥] وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُ الَّذِي ائْتَمَلُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [النحل: ٦٤] وَقَالَ تَعَالَى: «وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [النحل: ٤٤] وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» (١) يَعْنِي السُّنَّةَ. وَالسُّنَّةُ أَيْضًا تَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ كَمَا يَنْزِلُ الْقُرْآنُ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَتْلَى كَمَا يَتْلَى الْقُرْآنُ.

وَالْعَرَضُ أَنَّكَ تَطْلُبُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ مِنَ السُّنَّةِ. وَإِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ رَجَعْنَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، فَإِنَّهُمْ أَذْرَى بِذَلِكَ، لِمَا شَاهَدُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي اخْتَصَوْا بِهَا، وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ النَّامِ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، لَا سِيَّمَا عُلَمَاءُؤُهُمْ وَكِبَرَاءُؤُهُمْ كَالْأَيِّمَةِ الْأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَالْأَيِّمَةِ الْمُتَهَيِّدِينَ الْمُهَيِّدِينَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ، وَأَيُّنْ نَزَلَتْ. وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَنَالَهُ الْمَطَايَا لَأَكْتَبْتُهُ (٢).

كَانَتْ. وَأَسْمَاءُ الطُّورِ الَّتِي أَحْيَاهَا اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ. وَتَعْيِينَ  
الْبُغْضِ الَّذِي ضَرَبَ بِهِ الْقَتِيلَ مِنَ الْبَقَرَةِ. وَنَوْعِ الشَّجَرَةِ  
الَّتِي كَلَّمَ اللَّهُ مِنْهَا مُوسَى. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ اللَّهُ  
تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ، مِمَّا لَا فَايِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ عَلَى  
الْمُكَلِّفِينَ فِي دِيهِهِمْ وَلَا دُنْيَاهُمْ.

[مَكَانُهُ تَفْسِيرِ التَّابِعِينَ]

(فَصْلٌ) إِذَا لَمْ تَجِدِ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ،  
وَلَا وَجَدْتَهُ عَنِ الصَّحَابَةِ، فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيُّمَةِ فِي  
ذَلِكَ إِلَى أَقْوَالِ التَّابِعِينَ، كَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ، فَإِنَّهُ كَانَ آيَةً  
فِي التَّفْسِيرِ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنَا أَبَانُ بْنُ  
صَالِحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: عَرَضْتُ الْمُضْطَحَفَ عَلَى ابْنِ  
عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، أَوْفَقَهُ عِنْدَ  
كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا<sup>(١)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ أَبِي  
مُليْكَه قَالَ: رَأَيْتُ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ تَفْسِيرِ  
الْقُرْآنِ وَمَعَهُ الْوَاحِخُ، قَالَ: يَقُولُ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَكْتُبْ  
حَتَّى سَأَلَهُ عَنِ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ  
يَقُولُ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَكَسْعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَعِكْرَمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءِ بْنِ  
أَبِي رَبَاحٍ وَالْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ، وَمَسْرُوقَ بْنِ الْأَجْدَعِ وَسَعِيدَ  
بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ، وَقَتَادَةَ  
وَالضَّحَّاكَ بْنَ مَرْجِمٍ وَغَيْرَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ، وَمَنْ  
بَعْدَهُمْ، فَتَذَكَّرْ أَقْوَالَهُمْ فِي الْآيَةِ، فَيَقِفْ فِي عِبَارَاتِهِمْ تَبَايُنَ  
فِي الْأَلْفَاظِ يَحْسِبُهَا مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ اخْتِلَافًا، فَيَحْكِيهَا  
أَقْوَالًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُعَبِّرُ عَنِ الشَّيْءِ  
بِلَا زَمِهِ أَوْ بِتَطْيِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْصُرُ عَلَى الشَّيْءِ بِعَيْنِهِ،  
وَالْكُلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ فِي أَكْثَرِ الْأَمَاكِينِ، فَلْيَنْقِطِ اللَّيْسُ  
لِذَلِكَ، وَاللَّهُ الْهَادِي.

[التَّفْسِيرُ بِالرَّأْيِ]

فَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمَجَرَّدِ الرَّأْيِ فَحَرَامٌ، لِمَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ  
ابْنُ جَبْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ  
قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيُهُ أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ، فَلْيَتَبَوَّأْ  
مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ الثُّرَيْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَأَبُو  
دَاوُدَ. وَقَالَ الثُّرَيْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٤)</sup>.

[السُّكُوتُ عَنْ تَفْسِيرِ غَيْرِ الْمَعْلُومِ]

وَلِهَذَا تَحَرَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ عَنْ تَفْسِيرِ مَا لَا عِلْمَ  
لَهُمْ بِهِ، كَمَا رَوَى ابْنُ جَبْرِ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ قَالَ: قَالَ أَبُو

بَكْرُ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيُّ أَرْضٍ تُقْلَبِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ  
تُطْلَبِي، إِذَا قُلْتَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى أَيْضًا  
عَنْ أَنَسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرَأَ عَلَى الْمُنْبَرِ ﴿وَلَكُمْ وَآبَاءُكُمْ﴾  
[عبس: ٣١] فَقَالَ: هَذِهِ الْفَائِكَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا الْأَبُ؟ ثُمَّ  
رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكْلُفُ يَا عُمَرُ<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا  
مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِنَّمَا أَرَادَا اسْتِكْشَافَ  
عِلْمِ كَيْفِيَّةِ الْأَبِ، وَإِلَّا فَكُونُهُ بَيِّنًا مِنَ الْأَرْضِ ظَاهِرٌ لَا  
يُجْهَلُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَلْبَنَّا فِيهَا حَبَابًا﴾<sup>(٧)</sup> وَعَبَا وَفَقَبَا [عبس:  
٢٧، ٢٨] آيَةٌ

وَرَوَى ابْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ؛ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ  
عَنْ آيَةِ - لَوْ سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُكُمْ لَقَالَ فِيهَا - فَأَبَى أَنْ يَقُولَ  
فِيهَا. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى أَيْضًا عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ  
قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ  
سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا يَوْمٌ؟ كَانَ  
مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج: ٤] فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ إِنَّمَا  
سَأَلْتُكَ لِتُحَدِّثَنِي. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فِي  
كِتَابِهِ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمَا. فَكِرَةٌ أَنْ يَقُولَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا  
يَعْلَمُ<sup>(٩)</sup>.

وَقَالَ اللَّيْثُ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ  
الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ كَانَ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِي الْمَعْلُومِ مِنَ الْقُرْآنِ<sup>(١٠)</sup>.  
وَقَالَ أَيُّوبُ وَابْنُ عَوْنٍ وَهَشَامُ الدَّسْتَوَائِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ  
سَيِّرِينَ: سَأَلْتُ عُبَيْدَةَ يَعْنِي السَّلْمَانِيَّ عَنْ آيَةِ مِنَ الْقُرْآنِ  
فَقَالَ: ذَهَبَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ فِيهِمْ أَنْزَلَ الْقُرْآنُ فَأَتَى  
اللَّهُ وَعَلَيْكَ بِالسَّدَادِ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ مَسْرُوقٍ  
قَالَ: اتَّقُوا التَّفْسِيرَ فَإِنَّمَا هُوَ الرَّوَايَةُ عَنِ اللَّهِ<sup>(١٢)</sup>.

فَهَذِهِ الْأَنْوَارُ الصَّحِيحَةُ وَمَا شَاكَلَهَا عَنِ الصَّحَابَةِ وَأُئِمَّةِ  
السَّلَفِ، مَحْمُولَةٌ عَلَى تَحَرُّجِهِمْ عَنِ الْكَلَامِ فِي التَّفْسِيرِ بِمَا  
لَا عِلْمَ لَهُمْ فِيهِ. فَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ لُغَةً  
وَشَرْعًا فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا رَوَى عَنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ  
أَقْوَالٌ فِي التَّفْسِيرِ، وَلَا مُنَافَاةَ، لِأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيَمَا عِلْمُهُ

(١) الطبري: ٩٠/١ (٢) الطبري: ٩٠/١ (٣) الطبري: ٩١/١

(٤) الطبري: ٧٧/١ وتحفة الأحوذى: ٢٧٧/٨ والنسائي في فضائل القرآن: ١١٤ وأبو داود في العلم من رواية أبي الحسن ابن العبد - قاله المزي في الأطراف: ٤٢٣/٤ (٥) الطبري: ٧٨/١ (٦) الطبري: ٢٢٩/٢٤ (٧) الطبري: ٨٦/١ (٨) الطبري: ٦٠٢/٢٣ (٩) الطبري: ٨٦/١ (١٠) الطبري: ٨٦/١ (١١)

(١٢) الطبري: ٨٦/١



أَلْفًا وَخَمْسَةَ عَشَرَ حَرْفًا. وَقَالَ سَلَامٌ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجَمَانِيُّ: أَنَّ الْحَجَّاجَ جَمَعَ الْقُرَّاءَ وَالْحِفَاطَ وَالْكِتَابَ، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنِ الْقُرْآنِ كُلِّهِ كَمْ مِنْ حَرْفٍ هُوَ؟ قَالَ: فَحَسَبْنَا فَأَجْمَعُوا أَنَّهُ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَسَبْعُمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا.

### [تَفْسِيْمَاتٌ أُخْرَى لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ]

قَالَ: فَأَخْبِرُونِي عَنْ نِصْفِهِ، فَإِذَا هُوَ إِلَى أَلْفَاءٍ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْكَهْفِ ﴿وَلَيَسْأَلَنَّ﴾ [الآية: ١٩] وَثَلَاثَةُ الْأَوَّلِ عِنْدَ رَأْسِ مِائَةِ آيَةٍ مِنْ بَرَاءَةٍ، وَالثَّانِي عَلَى رَأْسِ مِائَةٍ أَوْ إِحْدَى وَمِائَةٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ، وَالثَّالِثُ إِلَى آخِرِهِ، وَسَبْعَةُ الْأَوَّلِ إِلَى الدَّالِّ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ﴾ [النساء: ٥٥] وَالثَّانِي مِنَ الْتَاءِ إِلَى التَّاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿فَأُولَئِكَ حِطَّتْ﴾ (٤) [الآية: ١٤٧] وَالثَّالِثُ إِلَى الْأَلِفِ الثَّانِيَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الرَّعْدِ: ﴿أَكْثَلُهَا﴾ [الآية: ٣٥] وَالرَّابِعُ إِلَى الْأَلِفِ فِي الْحَجِّ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿جَعَلْنَا مَسْكَاً﴾ [الآية: ٣٤] وَالْخَامِسُ إِلَى الْهَاءِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْأَحْزَابِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [الآية: ٣٦] وَالسَّادِسُ إِلَى الْوَوِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْفَتْحِ: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ عَلَى السَّوءِ﴾ [الآية: ٦] وَالسَّابِعُ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ. قَالَ سَلَامٌ أَبُو مُحَمَّدٍ: عَلِمْنَا ذَلِكَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، قَالُوا: وَكَانَ الْحَجَّاجُ يَقْرَأُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رُبْعَ الْقُرْآنِ، فَلَاوُلُ إِلَى آخِرِ الْأَنْعَامِ، وَالثَّانِي إِلَى ﴿وَلَيَسْأَلَنَّ﴾ [الآية: ١٩] مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ، وَالثَّالِثُ إِلَى آخِرِ الزُّمَرِ، وَالرَّابِعُ إِلَى آخِرِ الْقُرْآنِ. وَقَدْ حَكَى الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو الدَّائِي فِي كِتَابِهِ (الْبَيَانِ) خِلَافًا فِي هَذَا كُلِّهِ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

### [التَّحْزِيْبُ وَالتَّجْزِئَةُ]

وَأَمَّا التَّحْزِيْبُ وَالتَّجْزِئَةُ فَقَدْ اسْتَهْرَتِ الْأَجْزَاءُ مِنْ ثَلَاثِينَ. كَمَا فِي الرُّبْعَاتِ بِالْمَدَارِسِ وَغَيْرِهَا. وَقَدْ ذَكَرْنَا - فِيمَا تَقَدَّمَ - الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي تَحْزِيْبِ الصَّحَابَةِ لِلْقُرْآنِ، وَالحَدِيثَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَسَنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَابْنَ مَاجَةَ وَغَيْرِهِمْ عَنْ أَوْسٍ بْنِ حُذَيْفَةَ: أَنَّهُ سَأَلَ أَصْحَابَ

وَسَكَنُوا عَمَّا جَهْلُوهُ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، فَإِنَّهُ كَمَا يَجِبُ السُّكُوتُ عَمَّا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ الْقَوْلُ فِيمَا سُئِلَ عَنْهُ وَمِمَّا يَعْلَمُهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتَسْمَعُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وَلَمَّا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوِي مِنْ طَرُقٍ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أَجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» (١).

### [وُجُوهُ التَّفْسِيرِ]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ: حَدَّثَنَا سُفْيَانٌ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُوهِ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهْلَالِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ (٢).

### [السُّورُ الْمَكِّيَّةُ وَالْمَدَنِيَّةُ]

رَوَى هَمَّامٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْقُرْآنِ الْبَقَرَةُ وَأَلْ عِمْرَانُ، وَالنِّسَاءُ، وَالْمَائِدَةُ وَبَرَاءَةُ، وَالرَّعْدُ، وَالتَّحُلُّ وَالْحَجُّ وَالتَّوْرُ وَالْأَحْزَابُ، وَمُحَمَّدٌ وَالفَتْحُ وَالحُجُرَاتُ، وَالرَّحْمَنُ وَالحَدِيدُ وَالمَجَادَلَةُ، وَالحَشْرُ وَالمُمْتَحِنَةُ وَالصَّفِّ، وَالجُمُعَةُ وَالمُنَافِقُونَ وَالتَّغَابُنُ وَالتَّلَاقُ وَ ﴿يَتْلَاهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إِلَى رَأْسِ الْعَشْرِ، وَ﴿إِذَا نُزِّلَتْ﴾ وَ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ هَؤُلَاءِ السُّورُ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ وَسَائِرُ السُّورِ بِمَكَّةَ (٣).

### [عَدَدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ]

فَأَمَّا عَدَدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فَسِتَّةُ أَلْفِ آيَةٍ، ثُمَّ اخْتَلَفَ فِيمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ: فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: وَمِائَتَا آيَةٍ وَأَرْبَعُ آيَاتٍ، وَقِيلَ: وَأَرْبَعُ عَشْرَةَ آيَةً. وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَتِسْعُ عَشْرَةَ آيَةً، وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَخَمْسُ وَعِشْرُونَ آيَةً، أَوْ سِتُّ وَعِشْرُونَ آيَةً، وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَسِتُّ وَثَلَاثُونَ، حَكَى ذَلِكَ أَبُو عَمْرٍو الدَّائِي فِي كِتَابِهِ الْبَيَانِ.

### [عَدَدُ كَلِمَاتِهِ وَحُرُوفِهِ]

وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ شَادَانَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ: سَبْعٌ وَسَبْعُونَ أَلْفَ كَلِمَةٍ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَثَلَاثُونَ كَلِمَةً.

وَأَمَّا حُرُوفُهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ كَثِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: هَذَا مَا أَحْصَيْنَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ حَرْفٍ، وَأَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ حَرْفٍ، وَمِائَةٌ وَثَمَانُونَ حَرْفًا. وَقَالَ الْفَضْلُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ: ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ حَرْفٍ وَثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ

(١) أحمد: ٢٦٣/٢ ٣٠٥ ٤٩٥ و تحفة الأحوذى: ٤٠٧/٧

والحاكم: ١٠١/١ (٢) الطبري: ٧٥/١ (٣) الإتيقان: ٢٨/١

(٤) كذا جاء، والصواب: ﴿وَلَفِكَ الْأَجْرَةَ حِطَّتْ﴾ كما في الترتيل. وفي بعض النسخ بحذف "فاولئك" في الأول، وهو صحيح أيضًا. الناشر.

## سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ كَيْفَ تُحَرِّزُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا ثَلَاثَ، وَخَمْسَ، وَسَبْعَ، وَتِسْعَ، وَأَحَدَ عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَجِزْبُ الْمُفْصَلِ حَتَّى يُخْتَمَ ①.

[مَعْنَى السُّورَةِ وَاشْتِقَاقُهَا]

(فَضَّلُ) وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى السُّورَةِ مِمَّا هِيَ مُشْتَقَّةٌ.

فَقِيلَ: مِنَ الْإِبَانَةِ وَالْإِرْتِفَاعِ قَالَ النَّابِغَةُ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً

تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَّبُ

فَكَأَنَّ الْقَارِيَّ يَنْتَقِلُ بِهَا مِنْ مَنَزِلَةٍ إِلَى مَنَزِلَةٍ.

وَقِيلَ: لِشَرَفِهَا وَارْتِفَاعِهَا كَسُورِ الْبُلْدَانِ.

وَقِيلَ: سُمِّيَتْ سُورَةٌ لِكُونِهَا قِطْعَةً مِنَ الْقُرْآنِ وَجُزْءًا مِنْهُ، مَأْخُودٌ مِنَ أَشَارِ الْإِنَاءِ وَهُوَ الْبَيْئَةُ. وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ أَصْلُهَا مَهْمُوزًا. وَإِنَّمَا خَفَفَتِ الْهَمْزَةُ فَأُبْدِلَتْ الْهَمْزَةُ وَآوًا لِانْضِمَامِ مَا قَبْلَهَا.

وَقِيلَ: لِتَمَامِهَا وَكَمَالِهَا، لِأَنَّ الْعَرَبَ يُسَمُّونَ النَّاقَةَ الثَّامَةَ سُورَةً (قُلْتُ) وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَمْعِ وَالْإِخَاطَةِ لِآيَاتِهَا، كَمَا يُسَمَّى سُورُ الْبَلَدِ لِإِخَاطَتِهِ بِمَنَازِلِهِ وَدُورِهِ. وَجَمْعُ السُّورَةِ سُورٌ - يَفْتَحُ الْوَاوُ - وَقَدْ يُجْمَعُ عَلَى سُورَاتٍ وَسُورَاتٍ.

[مَعْنَى الْآيَةِ]

وَأَمَّا الْآيَةُ فَمِنَ الْعَلَامَةِ عَلَى انْقِطَاعِ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهَا عَنِ الَّذِي بَعْدَهَا وَانْفِصَالِهِ، أَيْ: هِيَ بَاقِيَةٌ عَنْ أَحْيَا وَمُتَّفِرَّةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨] وَقِيلَ سُمِّيَتْ آيَةً لِأَنَّهَا عَجَبٌ يَعْجُزُ الْبَشَرُ عَنِ التَّكَلُّمِ بِمِثْلِهَا، قَالَ سَيِّوِيَّةٌ: وَأَصْلُهَا آيَةٌ مِثْلُ أَكْمَةٍ وَشَجَرَةٍ، تَحَرَّكَتِ الْيَاءُ وَانْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا فَقَلِبَتْ أَلِفًا، فَصَارَتْ آيَةً بِهَمْزَةٍ بَعْدَهَا مَدَّةً. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: أَصْلُهَا آيَةٌ عَلَى وَزْنِ أَمِيَّةٍ، فَقَلِبَتْ أَلِفًا ثُمَّ خُذِفَتْ لِانْتِزَاعِهَا. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: أَصْلُهَا آيَةٌ، بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ، فَقَلِبَتْ الْأُولَى أَلِفًا كَرَاهِيَةِ التَّشْدِيدِ، فَصَارَتْ آيَةً. وَجَمَعُهَا آيٌ وَآيَاتٌ وَآيَايَ.

[مَعْنَى الْكَلِمَةِ]

وَأَمَّا الْكَلِمَةُ فَهِيَ اللَّفْظَةُ الْوَاحِدَةُ، وَقَدْ تَكُونُ عَلَى حَرْفَيْنِ مِثْلَ «مَا» وَ «لَا» وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَكُونُ أَكْثَرَ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ عَشْرَةَ أَحْرَفٍ مِثْلُ: ﴿يَسْتَخْلِفُهُمْ﴾ [النور: ٥٥] وَ «أَنْزَلْنَاهُمْ كُنُوزًا» [هود: ٢٨] وَ «فَأَنْفَقْتُمْ كُنُوزَهُمْ» [الحجر: ٢٢]. وَقَدْ تَكُونُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ آيَةً مِثْلُ «وَالْفَجْرِ» [الفجر: ١]

﴿وَالضَّحَى﴾ وَ «الْمَصْرِ» وَكَذَلِكَ «الْمَد» وَ «طه» وَ «يس» وَ «حم» فِي قَوْلِ الْكُوفِيِّينَ، وَ «حم» ① عَسَقٌ عِنْدَهُمْ كَلِمَتَانِ، وَغَيْرُهُمْ لَا يُسَمِّي هَذِهِ آيَاتٍ، بَلْ يَقُولُ: هَذِهِ قَوَائِمُ السُّورِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو الدَّانِي: لَا أَغْلُمُ كَلِمَةً هِيَ وَخُذَهَا آيَةً إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُذَاهِمَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] بِسُورَةِ الرَّحْمَنِ.

[الْعُجْمَةُ وَالْقُرْآنُ]

(فَضَّلُ) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ مِنَ التَّرَاكِبِ الْأَعْجَمِيَّةِ، وَأَجْمَعُوا أَنَّ فِيهِ أَغْلَامًا مِنَ الْأَعْجَمِيَّةِ كِإِبْرَاهِيمَ وَنُوحَ وَلُوطَ. وَاخْتَلَفُوا هَلْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ بِالْأَعْجَمِيَّةِ؟ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ الْبَاقِلَانِيُّ وَالطَّبْرِيُّ وَقَالَا: مَا وَقَعَ فِيهِ مِمَّا يُوَافِقُ الْأَعْجَمِيَّةَ فَهُوَ مِنْ بَابِ مَا تَوَافَقَتْ فِيهِ اللُّغَاتُ.

## سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[أَسْمَاءُ الْفَاتِحَةِ وَمَعْنَاهَا]

يُقَالُ لَهَا: الْفَاتِحَةُ، أَيُّ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ خَطًّا، وَبِهَا تُفْتَحُ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَوَاتِ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا: أُمُّ الْكِتَابِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَصَحَّحَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ وَيُقَالُ لَهَا: (الْحَمْدُ) وَيُقَالُ لَهَا: (الصَّلَاةُ) لِقَوْلِهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَالَ اللَّهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي»<sup>(١)</sup> الْحَدِيثُ؛ فَسُمِّيَتْ الْفَاتِحَةُ صَلَاةً لِأَنَّهَا شَرُطُ فِيهَا.

وَيُقَالُ لَهَا: (الرُّقِيَّةُ) لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ فِي الصَّحِيحِ جِئْتُ رَفِيًّا بِهَا الرَّجُلُ السَّلِيمُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟»<sup>(٢)</sup>

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر ٨٧] وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

[عَدَدُ آيَاتِهَا]

وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ بِلَا خِلَافٍ. وَالنِّسْمَلَةُ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مِنْ أَوَّلِهَا، كَمَا هُوَ عِنْدَ جُمْهُورٍ قُرَاءِ الْكُوفَةِ، وَقَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَخَلْفَائِهِ مِنَ الْخَلَفِ.

[عَدَدُ كَلِمَاتِهَا وَحُرُوفِهَا]

قَالُوا: وَكَلِمَاتُهَا خَمْسٌ وَعِشْرُونَ كَلِمَةً، وَحُرُوفُهَا مِائَةٌ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ حَرْفًا.

[لِمَاذَا سُمِّيَتْ أُمُّ الْكِتَابِ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَابِ التَّفْسِيرِ: وَسُمِّيَتْ أُمُّ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ<sup>(٣)</sup>. وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِجُمُوعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ جَامِعٍ أَمْرًا أَوْ مُقَدِّمًا لِأَمْرٍ إِذَا كَانَتْ لَهُ تَوَابِعٌ تَتَّبَعُهُ، هُوَ لَهَا إِمَامٌ جَامِعٌ: أُمَّا، فَتَقُولُ لِلْجُلْدَةِ الَّتِي تَجْمَعُ الدَّمَاعَ: أُمُّ الرُّؤُوسِ، وَيُسَمُّونَ لُؤَاءَ الْجَيْشِ وَرَأَيْتَهُمُ الَّتِي يَخْتَمِعُونَ تَحْتَهَا: أُمًّا. قَالَ: وَسُمِّيَتْ مَكَّةُ أُمُّ الْقُرَى لِتَقْدُّمِهَا أَمَامَ

جَمِيعِهَا وَجَمْعُهَا مَا سِوَاهَا، وَقِيلَ: لِأَنَّ الْأَرْضَ دُحِيتَ مِنْهَا<sup>(٤)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ: «هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَهِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي»<sup>(٦)</sup>. [ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْفَاتِحَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَصَلِّي فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أَجِبْهُ حَتَّى صَلَّيْتُ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟» قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، قَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثُمَّ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ» قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ قُلْتَ: «لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ» قَالَ: «نَعَمْ» ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٨)</sup> وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٩)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا، فَزَلْنَا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٍ، وَإِنْ نَفَرْنَا غَيِّبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَفَنَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْتِيهِ بِرُقِيَّةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شاةً وَسَقَانًا لَبَنًا. فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقِيَّةً أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ فَقَالَ: لَا مَا رَقِيتُ إِلَّا بِأَمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لَا تُحَدِّثُوا شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَ وَتَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ، أَقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي بِسْمَهُمْ»<sup>(١٠)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ): رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي

(١) تحفة الأحوذى: ٢٨٣/٨ (٢) فتح الباري: ٥٢٩/٤ (٣) فتح الباري: ٦/٨ (٤) الطبري: ١٠٧/١ (٥) أحمد: ٢/٤٤٨ (٦) الطبري: ١٠٧/١ (٧) أحمد: ٢١١/٤ (٨) فتح الباري: ٦/٨، ٦٧١ (٩) أبو داود: ١٥٠/٢ والنسائي: ١٣٩/٢ وابن ماجه: ١٢٤٤/٢ (١٠) فتح الباري: ٦٧١/٨

إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» [الإسراء: ٧٨] وَالْمُرَادُ صَلَاةُ الْفَجْرِ، كَمَا جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «أَنَّهُ يَشْهَدُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ»<sup>(٤)</sup>.

[وَجُوبُ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا إِمَامًا كَانَ أَوْ مَأْمُومًا أَوْ مُتَفَرِّدًا]

فَدَلَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَهُوَ اتِّفَاقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ حَيْثُ قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ»<sup>(٥)</sup>. وَالْخِدَاجُ هُوَ النَّاقِصُ، كَمَا فَسَّرَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ «غَيْرُ تَمَامٍ». وَأَيْضًا قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»<sup>(٦)</sup>. وَفِي صَحِيحِي ابْنِ خُزَيْمَةَ وَابْنِ حِبَّانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُجْزِئُ صَلَاةً لَا يَقْرَأُ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ»<sup>(٧)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الثَّابِتِ كَثِيرَةٌ<sup>(٨)</sup>.

[تَفْسِيرُ الْإِسْتِعَاذَةِ وَأَحْكَامُهَا]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَوْفَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(٩)</sup> وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ<sup>(١١)</sup> وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(١٢)</sup> وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ<sup>(١٣)</sup> وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [فصلت: ٣٤-٣٦].

فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لَهُنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، لِيُرِدَّهُ عَنْهُ طَبْعُهُ الطَّيِّبُ الْأَصْلُ إِلَى الْمَوَالَاةِ وَالْمُصَافَاةِ،

(١) مسلم: ٥٥٤/١ والنسائي في الكبرى: ١٢/٥ (٢) مسلم: ٢٩٦/١ والنسائي في الكبرى: ١٢، ١١/٥ (٣) فتح الباري: ٨/٢٥٧ (٤) فتح الباري: ٨/٢٥١ ومسلم: ٤٣٩/١ (٥) أحمد: ٢٥٠/٢ (٦) فتح الباري: ٢/٢٧٦ ومسلم: ١/٢٩٥ (٧) ابن خزيمة: ٢٤٨/١ وابن حبان: ١٣٩/٣ (٨) [عَنْ النَّصْلِيِّ أَنَّ يُقْرَأُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ إِمَامًا كَانَ أَوْ مَأْمُومًا أَوْ مُتَفَرِّدًا فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ وَفِي كُلِّ رَكْعَةٍ وَلَا بَدَأَ].

سُنِّيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيَّنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جِبْرَائِيلُ، إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا فَوْقَهُ، فَرَفَعَ جِبْرِيلُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فُتِحَ قَطُّ، قَالَ: فَتَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَبَشِّرْ بِثَوْرَيْنِ قَدْ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَمْ تَقْرَأْ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيَتْهُ. وَهَذَا لَفْظُ النَّسَائِيِّ وَلِمُسْلِمٍ نَحْوُهُ<sup>(١)</sup>.

[قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ]

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا أَمَّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ - ثَلَاثًا - غَيْرُ تَمَامٍ» فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ خَلْفَ الْإِمَامِ، فَقَالَ: إِقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قَالَ اللَّهُ: حَمِيدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: «الْكَفَرُ الرَّجِيمُ» قَالَ اللَّهُ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» قَالَ اللَّهُ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»<sup>(٢)</sup> صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» قَالَ اللَّهُ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، وَفِي لَفْظٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ وَالنَّسَائِيِّ: «فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»<sup>(٣)</sup>.

الْكَلَامُ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِذَا الْحَدِيثِ

مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْفَاتِحَةِ مِنْ وُجُوهِ

وَهُوَ: أَنَّهُ قَدْ أُطْلِقَ فِيهِ لَفْظُ الصَّلَاةِ، وَالْمُرَادُ الْقِرَاءَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] أَيْ بِقِرَاءَتِكَ، كَمَا جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَصَفُفَهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» ثُمَّ بَيَّنَّ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْقِسْمَةِ فِي قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، فَدَلَّ عَلَى عَظَمَةِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَأَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ أَرْكَانِهَا؛ إِذْ أُطْلِقَتْ الْعِبَادَةُ وَأُرِيدَ بِهَا جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْهَا. وَهُوَ الْقِرَاءَةُ، كَمَا أُطْلِقَ لَفْظُ الْقِرَاءَةِ وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ فِي قَوْلِهِ: «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ»

السُّلَمِيُّ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَهَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ» قَالَ: هَمَزُهُ الْمَوْتَةُ، وَنَفْخُهُ الْكِبَرُ، وَنَفْثُهُ الشَّعْرُ. (٣)

### [الْتَعُوذُ عِنْدَ الْغَضَبِ]

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَعْلَى أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْمُثَنَّى الْمُؤَصِّلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَلَاخَى رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَمَزَّعَ أَنْفُ أَحَدِهِمَا غَضَبًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ شَيْئًا لَوْ قَالَهُ لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» (٤).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، فَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغَضَّبًا قَدْ احْمَرَّتْ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ. وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا مَعَ مُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيَّ (٥).

وَقَدْ جَاءَ فِي الْإِسْتِعَاذَةِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا هَهُنَا، وَمَوْطِنُهَا كِتَابُ الْأَذْكَارِ وَقَصَائِلُ الْأَعْمَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

### [الْإِسْتِعَاذَةُ وَاجِبَةٌ أَوْ مُسْتَحَبَّةٌ؟]

(مَسْأَلَةٌ) وَجْهٌ يُهَوِّرُ الْعُلَمَاءَ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ مُسْتَحَبَّةٌ، لَيْسَتْ بِمُتَحَتِّمَةٍ يَأْتُمُ تَارِكُهَا. وَحَكَى الرَّازِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَجُوبَهَا فِي الصَّلَاةِ وَخَارِجَهَا كُلَّمَا أَرَادَ الْقِرَاءَةَ. وَاحْتَجَّ الرَّازِيُّ لِعَطَاءٍ بِظَاهِرِ الْآيَةِ «فَاسْتَعِذْ» [النحل: ٩٨] وَهُوَ أَمْرٌ ظَاهِرُهُ الْوُجُوبُ، وَبِمَوْاطِئَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهَا، وَلِأَنَّهَا تَذَرُّ شَرَّ الشَّيْطَانِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَلِأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ أَخَوْتُ، فَإِذَا قَالَ الْمُسْتَعِذُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» كَفَى ذَلِكَ.

### [مِنْ لَطَائِفِ الْإِسْتِعَاذَةِ]

وَمِنْ لَطَائِفِ الْإِسْتِعَاذَةِ أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلنَّفْسِ وَمِمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّقَبِ، وَتَطْيِيبٌ لَهُ، وَهُوَ لِيَتَلَاوَهَ كَلَامُ

وَيَأْتُرُ بِالْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مَحَالَةَ، إِذْ لَا يَقْبَلُ مَصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا، وَلَا يَنْتَعِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ، لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَنْبِئُ آدَمَ لَا يَفِينَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ» [الأعراف: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ» [فاطر: ٦] وَقَالَ: «فَاتَّخِذُوهُ وَذَرِّبْتَهُ أَوَّلِيكَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ

يَقْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» [الكهف: ٥٠] وَقَدْ أَقْسَمَ لِلْوَالِدِ - آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ لَهُ لَوْنٌ النَّاصِحِينَ، وَكَذَّبَ، فَكَيْفَ مُعَامَلَتُهُ لَنَا وَقَدْ قَالَ: «فَعِزَّتِكَ لِأَعْوِيَتَهُمْ أَجْمَعِينَ» [إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَصَّصِينَ] [ص: ٨٢، ٨٣] وَقَالَ تَعَالَى: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [١١] إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [١٢] إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» [النحل: ٩٨-١٠٠].

### [الْإِسْتِعَاذَةُ تَكُونُ قَبْلَ التَّلَاوَةِ]

وَمَعْلَى قَوْلِهِ: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [النحل: ٩٨] أَيُّ إِذَا أَرَدْتَ الْقِرَاءَةَ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِذَا قُتِرْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ» [الآيَةُ [المائدة: ٦]]. أَيُّ إِذَا أَرَدْتُمْ الْفَيْتَامَ، وَالذَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَفْتَحَ صَلَاتَهُ وَكَبَّرَ قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ. ثُمَّ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثَلَاثًا - ثُمَّ يَقُولُ: - أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ». وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هُوَ أَشْهُرُ شَيْءٍ فِي هَذَا الْبَابِ (١).

وَقَدْ فُسِّرَ «الْهَمَزُ» بِالْمَوْتَةِ، وَهِيَ الْخَنَقُ، وَالتَّنْفُخُ بِالْكِبَرِ، وَالتَّنْفُثُ بِالشَّعْرِ، كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا - ثَلَاثًا - الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا - ثَلَاثًا - سُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا - ثَلَاثًا - اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ» قَالَ عَمْرُو: هَمَزُهُ الْمَوْتَةُ وَنَفْخُهُ الْكِبَرُ وَنَفْثُهُ الشَّعْرُ (٢). وَقَالَ ابْنُ مَاجَةَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنَا ابْنُ فَضِيلٍ: حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ

(١) أحمد: ٦٩/٣ وأبو داود: ٤٩٠/١ ونحفة الأحوذى: ٢/

٤٧ والنسائي: ١٣٢/٢ وابن ماجه: ٢٦٤/١ (٢) أبو داود: ١/

٤٨٦ وابن ماجه: ٢٦٥/١ (٣) ابن ماجه: ٢٦٦/١ (٤)

النسائي في الكبرى: رقم ١٠٢٣٣ (٥) فتح الباري: ٣٨٨/٦

ومسلم: ٢٠١٥/٤ وأبو داود: ١٤٠/٥ والنسائي في الكبرى: ١٠٤/٦

الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥٦﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

### [تَسْمِيَةُ الشَّيْطَانِ]

الشَّيْطَانُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ إِذَا بَعُدَ، فَهُوَ بَعِيدٌ يَطْبَعُهُ عَنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ، وَيَعِيدُ بِفَسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَقِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطَ، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: كِلَاهُمَا صَحِيحٌ فِي الْمَعْنَى وَلَكِنَّ الْأَوَّلَ أَصَحُّ. وَقَالَ سِبْيَوْنِي: الْعَرَبُ تَقُولُ: تَشْطِنُ فُلَانٌ إِذَا فَعَلَ فِعْلَ الشَّيَاطِينِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَاطَ لَقَالُوا: تَشْطِطُ. فَالشَّيْطَانُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْبُعْدِ عَلَى الصَّحِيحِ، وَلِهَذَا يُسَمَّوْنَ كُلَّ مَنْ تَمَرَّدَ مِنْ جَنِّي وَإِنْسِي وَحَيَوَانٍ شَيْطَانًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» فَقُلْتُ: أَوْ لِلْإِنْسِ شَيْطَانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ»<sup>(١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ». فَقُلْتُ: يَارَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَصْفَرِ؟ فَقَالَ: «الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَكِبَ بِرَدُونًا فَجَعَلَ يَتَبَخَّرُ بِهِ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ، فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا تَبَخُّرًا فَتَزَلَّ عَنْهُ وَقَالَ: مَا حَمَلْتُمُونِي إِلَّا عَلَى شَيْطَانٍ، مَا تَزَلْتُ عَنْهُ حَتَّى أَتَكْرَثَ نَفْسِي. <sup>(٣)</sup> إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

### [مَعْنَى الرَّجِيمِ]

وَالرَّجِيمُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ أَيْ: إِنَّهُ مَرْجُومٌ مَطْرُودٌ عَنِ الْخَيْرِ كُلِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ آلَآدْنَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَاهُ دُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [المك: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا رَزَقْنَاهُ آلَآدْنَا زَيْنَةَ الْكُرْكِيِّ﴾ وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْتَمُونَ إِلَى الْآلَاءِ الْأَعْلَى وَيَقْذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُجُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْمَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ [الصافات: ٦-١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِقَهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ

اللَّهُ، وَهِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ، وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ، وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْبَاطِنِيِّ، الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنَعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ، وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةَ وَلَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ، بِخِلَافِ الْعَدُوِّ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، كَمَا ذَكَرْتُ عَلَى ذَلِكَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَثَانِي. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥] وَقَدْ نَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ لِمُقَاتَلَةِ الْعَدُوِّ الْبَشَرِيِّ، فَمَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الظَّاهِرُ الْبَشَرِيُّ كَانَ شَهِيدًا، وَمَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنِي كَانَ طَرِيدًا، وَمَنْ غَلَبَهُ الْعَدُوُّ الظَّاهِرِيُّ كَانَ مَأْجُورًا، وَمَنْ فَهَرَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنِي كَانَ مَفْتُونًا أَوْ مَوْزُورًا، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يَرَى الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ اسْتَعَاذَ مِنْهُ بِالَّذِي يَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ الشَّيْطَانُ.

[فصل] وَالْإِسْتِعَاذَةُ هِيَ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِلْتِصَاقُ بِجَنَابِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَالْعِيَاذَةُ تَكُونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ، وَالْيَاذُ يَكُونُ لَطَلْبِ جَلْبِ الْخَيْرِ.

### [مَعْنَى الْإِسْتِعَاذَةِ]

وَمَعْنَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، أَيْ اسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ أَوْ يَضُدَّنِي عَنْ فِعْلٍ مَا أُمِرْتُ بِهِ، أَوْ يَحْثُنِي عَلَى فِعْلٍ مَا نَهَيْتُ عَنْهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكْفُهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ، وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى بِمُصَانَعَةِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَمُذَارَاتِهِ بِإِسْدَاءِ الْحَمِيلِ إِلَيْهِ، لِيُرْكَدَهُ طَبْعُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأَذَى، وَأَمَرَ بِالْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ شَيْطَانِ الْجِنِّ، لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رَشُوءَةً، وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ، لِأَنَّهُ شَرِيرٌ بِالطَّبْعِ، وَلَا يَكْفُهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ. وَهَذَا الْمَعْنَى فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَا أَعْلَمُ لَهُنَّ رَابِعَةً، قَوْلُهُ فِي الْأَعْرَافِ: ﴿خُذْ الْعَقْدَ وَأَمْرِ بِالْعَرَفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْبَهَائِلِ﴾ [الآية: ١٩٩] فَهَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُعَامَلَةِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْبَشَرِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّمَا يَنزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ٢٠٠] وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ» ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ حَمِ السَّجْدَةِ: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا

(١) أحمد: ١٧٨/٥ (٢) مسلم: ٣٦٥/١ (٣) الطبري: ١/

رَجِيمٌ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَفَ السَّمْعَ فَأَنعَمَ رَبُّهُ نِهَاً مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦-١٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقِيلَ: رَجِيمٌ بِمَعْنَى رَاجِمٌ لِأَنَّهُ يَرْجُمُ النَّاسَ بِالْوَسْوَاسِ وَالرَّيَاثِثِ. وَالْأَوَّلُ أَشْهُرٌ وَأَصَحُّ.

[الْبَسْمَلَةُ أَوَّلُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ]

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إِفْتَتَحَ بِهَا الصَّحَابَةُ كِتَابَ اللَّهِ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ ثُمَّ اخْتَلَفُوا هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كُنِيتْ فِي أَوَّلِهَا، أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ؟

وَمِمَّنْ حَكِيَ عَنْهُ أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ إِلَّا بَرَاءَةَ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَعَلِيٌّ، وَمِنْ التَّابِعِينَ عَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَكْحُولٌ وَالزُّهْرِيُّ، وَبِهِ يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهٍ وَأَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُمَا: لَيْسَتْ آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا مِنْ الشُّوَرِ، وَقَالَ دَاوُدُ: هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ لَا مِنْهَا، وَهَذِهِ رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ.

[الْجَهْرُ وَالْإِسْرَارُ بِالْبَسْمَلَةِ فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ]

فَأَمَّا الْجَهْرُ بِهَا فِي الصَّلَاةِ فَمَنْ رَأَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ فَلَا يُجْهَرُ بِهَا، وَكَذَا مَنْ قَالَ: إِنَّهَا آيَةٌ مِنْ أَوَّلِهَا، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِأَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ الشُّوَرِ فَاخْتَلَفُوا، فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنَّهَا يُجْهَرُ بِهَا مَعَ الْفَاتِحَةِ وَالسُّورَةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ طَوَائِفٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ سَلَفًا وَخَلَفًا، فَجَهَرَ بِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُعَاوِيَةُ، وَحَكَاةُ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ، وَنَقَلَهُ الْخَطِيبُ عَنْ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، وَهُوَ غَرِيبٌ، وَمِنْ التَّابِعِينَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةَ وَأَبِي قَلَابَةَ وَالزُّهْرِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ وَابْنُ مُحَمَّدٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَمُجَاهِدٌ وَسَالِمٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ، وَأَبِي بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ، وَأَبِي وَائِلٍ وَابْنُ سِيرِينَ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ وَعَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنُهُ مُحَمَّدٌ وَنَافِعُ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ

وَالْأَزْرَقِيُّ بْنُ قَيْسٍ، وَحَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ وَأَبِي الشَّعْنَاءِ وَمَكْحُولٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْقِلٍ بْنُ مُقَرَّنٍ - زَادَ الْبَيْهَقِيُّ -: وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَفْوَانَ وَمُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ - زَادَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -: وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ.

وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا بَعْضُ الْفَاتِحَةِ، فَيُجْهَرُ بِهَا كَسَائِرِ أَبْعَاضِهَا، وَأَيْضًا فَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ جِبَانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ صَلَّى فَجَهَرَ فِي قِرَاءَتِهِ بِالْبَسْمَلَةِ، وَقَالَ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ: إِنِّي لَا شَبْهَكُمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَصَحَّحَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَالْخَطِيبُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: كَانَتْ قِرَاءَتُهُ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَمْدُ بِسْمِ اللَّهِ وَيَمْدُ الرَّحْمَنِ وَيَمْدُ الرَّحِيمِ<sup>(٢)</sup>. وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَصَحِيحِ ابْنِ خُزَيْمَةَ وَمُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّافِعِيُّ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَلَّى بِالْمَدِينَةِ فَتَرَكَ الْبَسْمَلَةَ فَأَتَكَرَّ عَلَيْهِ مِنْ حَضْرَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ذَلِكَ، فَلَمَّا صَلَّى الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ بِسَمَلٍ<sup>(٤)</sup>.

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ النَّبِيِّ أَوْرَدْنَاهَا كِفَايَةً وَمَقْنَعٌ فِي الْإِحْتِجَاجِ لِهَذَا الْقَوْلِ عَمَّا عَدَّاهَا. فَأَمَّا الْمُعَارَضَاتُ وَالرُّوَايَاتُ الْعَرَبِيَّةُ وَتَطْرِيقُهَا، وَتَعْلِيلُهَا وَتَضْعِيفُهَا وَتَقْرِيرُهَا فَلَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ.

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ لَا يُجْهَرُ بِالْبَسْمَلَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَهَذَا هُوَ الثَّابِتُ عَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ، وَطَوَائِفُ مِنْ سَلَفِ التَّابِعِينَ وَالْخَلَفِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ.

(١) النسائي: ١٣٤/٢ وابن خزيمة: ٢٥١/١ وصحيح ابن حبان: ١٤٣/٣ والحاكم: ٢٣٢/١ والدارقطني: ٣٠٥/١ والبيهقي: ٤٦/٢ (٢) فتح الباري: ٧٠٩/٨ (٣) أحمد: ٦/٣٠٢ وأبو داود: ٢٩٤/٤ وابن خزيمة: ٢٤٨/١ والحاكم: ٢/٢٣١ والدارقطني: ٣٠٧/١ (٤) مسند الإمام الشافعي: ٨٠/١ والحاكم: ٢٣٣/١

بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»<sup>(٩)</sup>.

[بِمَاذَا يَتَعَلَّقُ بِسْمِ اللَّهِ]

وَمِنْ هُنَا يَتَكَشَّفُ لَكَ أَنَّ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ النَّحْوَةِ - فِي تَقْدِيرِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِكَ بِسْمِ اللَّهِ، هَلْ هُوَ اسْمٌ أَوْ فِعْلٌ - مُتَّفَارِقَانِ، وَكُلُّ قَدْ وَرَدَ بِهِ الْقُرْآنُ، أَمَّا مَنْ قَدَّرَهُ بِاسْمِ تَقْدِيرُهُ: بِسْمِ اللَّهِ ابْتِدَائِي، فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمْعُهَا وَمَرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١] وَمَنْ قَدَّرَهُ بِالْفِعْلِ أَمْرًا أَوْ خَبَرًا نَحْوُ: ابْتَدَأَ بِسْمِ اللَّهِ أَوْ ابْتَدَأْتُ بِاسْمِ اللَّهِ فَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ الَّتِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١١] وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَصْدَرٍ، فَلَا أَنْ تُقَدَّرَ الْفِعْلُ وَمَصْدَرُهُ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ الْفِعْلِ الَّذِي سَمَّيْتُمْ قَوْلَهُ إِنْ كَانَ قِيَامًا أَوْ قَعُودًا، أَوْ أَكْثَلًا أَوْ شَرْبًا، أَوْ قِرَاءَةً، أَوْ وُضُوءًا أَوْ صَلَاةً، فَالْمَشْرُوعُ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ فِي الشَّرْعِ فِي ذَلِكَ كَلِمَةً تَبَرُّكًا وَتَيْمُنًا وَاسْتِعَانَةً عَلَى الْإِتِمَامِ وَالْتِقَابِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[مَعْنَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ «اللَّهُ»]

[اللَّهُ] عَلَّمَ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُقَالُ: إِنَّهُ الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(١٠)</sup> هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَيْكَ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>(١١)</sup> هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْغُفُورُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الحشر: ٢٢-٢٤] فَأَجْرَى الْأَسْمَاءَ الْبَاقِيَةَ كُلَّهَا صِفَاتٍ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ

وَعِنْدَ الْإِمَامِ مَالِكٍ أَنَّهُ لَا يَقْرَأُ الْبِسْمَلَةَ بِالْكُلِّيَّةِ لَا جَهْرًا وَلَا سِرًّا، وَاجْتَنَبُوا بِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ بِالتَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(١٢)</sup>. وَبِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَكَانُوا يَفْتَتِحُونَ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِمُسْلِمٍ: وَلَا يَذْكُرُونَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلَا فِي آخِرِهَا<sup>(١٣)</sup>. وَنَحْوُهُ فِي الشَّيْخِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعْقَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١٤)</sup>. فَهَذِهِ مَا خِذَ الْأَيْمَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ، لِأَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى صِحَّةِ مَنْ جَهَرَ بِالْبِسْمَلَةِ وَمَنْ أَسَرَ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

فَصَلِّ فِي فَضْلِهَا

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ رَدِيفِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ غَيْرُ بِالنَّبِيِّ ﷺ قُلْتُ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُلْ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، تَعَاظَمَ وَقَالَ: يَقُوْنِي صَرَغَتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِاسْمِ اللَّهِ، تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ»<sup>(١٥)</sup>. وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» وَابْنُ مَرْزُوقٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَهُ وَقَالَ: «لَا تَقُلْ هَكَذَا، فَإِنَّهُ يَتَعَاظَمُ حَتَّى يَكُونَ كَالنَّبِيِّ، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَكُونَ كَالذُّبَابَةِ»<sup>(١٦)</sup>. فَهَذَا مِنْ تَأْثِيرِ بَرَكَةِ بِسْمِ اللَّهِ.

[اسْتِحْبَابُهَا فِي بَدَايَةِ كُلِّ عَمَلٍ]

وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ كُلِّ عَمَلٍ وَقَوْلٍ، فَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ، وَتُسْتَحَبُّ الْبِسْمَلَةُ عِنْدَ دُخُولِ الْخَلَاءِ لِمَا وَرَدَ مِنَ الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ<sup>(١٧)</sup>. وَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ لِمَا جَاءَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالشَّيْخِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ وَأَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «لَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»<sup>(١٨)</sup>. وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَهَكَذَا تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْأَكْلِ، لِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَبِيبِهِ عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ: «قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، وَكُلْ بِبَيْمِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»<sup>(١٩)</sup>. وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَوْجَبَهَا وَالْحَالَةَ هَذِهِ، وَكَذَلِكَ تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْجَمَاعِ، لِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ

(١) ابن أبي حاتم: ١٢/١ (٢) فتح الباري: ٢٦٥/٢ ومسلم: ٢٩٩/١ قال الحافظ في بلوغ المرام: وفي رواية لأحمد والنسائي وابن خزيمة «لا يجهرون بسم الله الرحمن الرحيم» وفي أخرى لابن خزيمة: «كانوا يسرون» وعلى هذا يحمل النفي في رواية مسلم. اهـ (٣) الترمذي: ٢٤٤ (٤) أحمد: ٥٩/٥ (٥) النسائي في الكبرى: ١٤٢/٦ (٦) عون المعبود: ٦/١ (٧) أحمد: ٤١/٣ وأبو داود: ٧٥/١ وتحفة الأحوذى: ١١٥/١ والنسائي: ٦١/١ وابن ماجه: ١٤٠/١ (٨) مسلم: ١٦٠٠/٣ (٩) فتح الباري: ١٣٦/٩ ومسلم: ١٠٥٨/٢



أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ» [الزخرف: ٤٥] وَلَمَّا تَجَهَّرَ مُسْلِمُهُ الْكَذَّابُ وَتَسَمَّى بِرَحْمَنِ الْيَمَامَةِ كَسَاهُ اللَّهُ جِلْبَابَ الْكَذِبِ وَشُهِرَ بِهِ، فَلَا يُقَالُ إِلَّا مُسْلِمُهُ الْكَذَّابُ، فَصَارَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْكَذِبِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ، وَأَهْلِ الْوَبَرِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَالْأَغْرَابِ.

وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ تَقْدِيمُ اسْمِ «اللَّهُ» الَّذِي لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَوَصْفُهُ أَوَّلًا بِالرَّحْمَنِ الَّذِي مُنِعَ مِنَ التَّسْمِيَةِ بِهِ لِغَيْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وَإِنَّمَا تَجَهَّرَ مُسْلِمُهُ الْيَمَامَةِ فِي التَّسْمِيَةِ بِهِ، وَلَمْ يُتَابِعْهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الضَّلَالَةِ. وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرُهُ قَالَ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كَمَا وَصَفَ غَيْرُهُ بِذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّئًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] وَالْحَاصِلُ أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى مَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، كَاسْمِ: اللَّهُ، وَالرَّحْمَنِ، وَالْخَالِقِ، وَالرَّازِقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلِهَذَا بَدَأَ بِاسْمِ اللَّهِ وَوَصَفَهُ بِالرَّحْمَنِ، لِأَنَّهُ أَحْصَى وَأَعْرَفَ مِنَ الرَّحِيمِ، لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ أَوَّلًا إِنَّمَا تَكُونُ بِأَشْرَفِ الْأَسْمَاءِ، فَلِهَذَا ابْتَدَأَ بِالْأَحْصَى فَالْأَخْصَى.

وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ أَمْ سَلَمَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ حَرْفًا حَرْفًا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ﴾ فَقَرَأَ بَعْضُهُمْ كَذَلِكَ وَهُمْ طَائِفَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ وَصَلَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[مَعْنَى الْحَمْدِ]

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَى «الْحَمْدُ لِلَّهِ» الشُّكْرُ لِلَّهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَدُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ

تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup>.

[تَفْسِيرُ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إِسْمَانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالِغَةِ، وَرَحْمُنُ أَشَدُّ مُبَالِغَةً مِنْ رَحِيمٍ، وَفِي كَلَامِ ابْنِ جَرِيرٍ مَا يَفْهَمُ مِنْهُ حِكَايَةُ الْإِتْفَاقِ عَلَى هَذَا، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مُشْتَقٌّ: مَا خَرَجَهُ التَّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ أَسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ»<sup>(٢)</sup>. قَالَ: وَهَذَا نَصٌّ فِي الْإِشْتِقَاقِ، وَإِنْكَارُ الْعَرَبِ لِاسْمِ الرَّحْمَنِ، لِجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ وَبِمَا وَجَبَ لَهُ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: ثُمَّ قِيلَ: هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَنَدَمَانٍ وَنَدِيمٍ، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدٍ. وَقِيلَ: لَيْسَ بِنَاءُ فَعْلَانٍ كَفَعِيلٍ، فَإِنَّ فَعْلَانًا لَا يَمَعُ إِلَّا عَلَى مُبَالِغَةِ الْفِعْلِ، نَحْوُ قَوْلِكَ رَجُلٌ غَضَبَانٌ - لِلرَّجُلِ الْمُتَمَلِّئِ غَضَبًا - وَفَعِيلٌ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ: الرَّحْمَنُ اسْمٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ يَخْتَصُّ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى، وَالرَّحِيمُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا اسْمَانِ رَقِيقَانِ أَحَدُهُمَا أَرْقُ مِنَ الْآخَرِ أَيُّ: أَكْثَرُ رَحْمَةً<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا السَّرِيُّ بْنُ يَحْيَى التَّبِيبِيُّ: حَدَّثَنَا عُمَانُ بْنُ زُفَرٍ: سَمِعْتُ الْعَزْرَمِيَّ يَقُولُ: أَلرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ قَالَ: أَلرَّحْمَنُ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، أَلرَّحِيمُ قَالَ: بِالْمُؤْمِنِينَ<sup>(٤)</sup>. قَالُوا: وَلِهَذَا قَالَ: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ» [الفرقان: ٥٩] وَقَالَ «الرَّحْمَنُ عَلَى الْمَرْشِ اسْتَوَى» [طه: ٥] فَذَكَرَ الْإِسْتِوَاءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنِ لِيَعْلَمَ جَمِيعُ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ، وَقَالَ: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» [الأحزاب: ٤٣] فَخَصَّصَهُ بِاسْمِهِ الرَّحِيمِ، قَالُوا: فَذَلَّ عَلَى أَنَّ الرَّحْمَنَ أَشَدُّ مُبَالِغَةً فِي الرَّحْمَةِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَالرَّحِيمُ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، لَكِنْ جَاءَ فِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا».

وَاسْمُهُ تَعَالَى الرَّحْمَنُ خَاصٌّ بِهِ، لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] وَقَالَ تَعَالَى: «وَسَلَّ مَنْ

(١) فتح الباري: ٢١٨/١١ ومسلم: ٢٠٦٢/٤ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٣/٦ (٣) القرطبي: ١٠٥/١ (٤) الطبري: ١/ ١٢٧ العزرمي هو محمد بن عبيد الله بن أبي سلمان العزرمي أبو عبد الرحمن الكوفي متروك كما قال ابن حجر في التقريب لكن السند إليه حسن. (٥) مسند أحمد (٢٦٠٤٢) لكن بلفظ «آية آية»

وَاللَّهُ أَكْبَرُ، قَدْ عَرَفْنَاهَا. فَمَا الْحَمْدُ لَهُ؟ قَالَ عَلِيٌّ: كَلِمَةٌ أَحَبَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ، وَرَضِيَهَا لِنَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تُقَالَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ<sup>(٤)</sup>: الْحَمْدُ لِلَّهِ كَلِمَةُ الشُّكْرِ، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: شَكَرَنِي عَبْدِي. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٥)</sup>.

### [فَصَائِلُ الْحَمْدِ]

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أُشِيدُكَ مَحَامِدُ حَمِدَتْ بِهَا رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْحَمْدَ» وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى أَبُو عِيسَى الْحَافِظُ التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ إِبرَاهِيمَ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ طَلْحَةَ ابْنِ خِرَاشٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أُنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ»<sup>(٨)</sup>.

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ: «أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ. فَعَضَلْتُ بِالْمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَذَرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانَهَا، فَصَعِدَا إِلَى اللَّهِ فَقَالَا: يَا رَبَّنَا إِنَّ عَبْدًا قَدْ قَالَ مَقَالَ لَا نَذَرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا، قَالَ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ - : مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَا: يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ: لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ. فَقَالَ اللَّهُ لَهُمَا: «اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي، حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا»<sup>(٩)</sup>.

### [الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي الْحَمْدِ لِلاِسْتِغْرَاقِ]

وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي الْحَمْدِ لِلاِسْتِغْرَاقِ جَمِيعِ أَجْنَاسِ

خَلْقِهِ، بِمَا أُنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَدَدُ، وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيْرُهُ أَحَدٌ: فِي تَصْحِيحِ الْأَلَاتِ لِبَطَاعَتِهِ، وَتَمَكِينِ جَوَارِحِ أَجْسَامِ الْمُكَلَّفِينَ لِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، مَعَ مَا بَسَطَ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الرِّزْقِ، وَغَذَّاهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْعَيْشِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مِنْهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَمَعَ مَا بَنَّهُمْ عَلَيْهِ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى دَوَامِ الْخُلُودِ فِي دَارِ الْمَقَامِ فِي النِّعَمِ الْمُقِيمِ، فَلِرَبَّنَا الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا<sup>(١٠)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثَنَاءٌ أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَفِي ضَمْنِهِ أَمْرٌ بِعِبَادَةِ أَنْ يَثْنُوا عَلَيْهِ، فَكَانَتْ قَالَ: قُولُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ. قَالَ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثَنَاءٌ عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، وَقَوْلُهُ: «الشُّكْرُ لِلَّهِ»: ثَنَاءٌ عَلَيْهِ بِنِعَمِهِ وَأَيَادِيهِ<sup>(١١)</sup>.

### [الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ]

وَالْتَّحْقِيقُ أَنَّ بَيْنَهُمَا عُمُومًا وَخُصُوصًا، فَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَلَى الصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، تَقُولُ: حَمْدُهُ لِفَرُوسِيَّتِهِ، وَحَمْدُهُ لِكَرَمِهِ، وَهُوَ أَخْصُ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَوْلِ، وَالشُّكْرُ أَعَمُّ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ [بِهِ]؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالنِّيَّةِ. وَهُوَ أَخْصُ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ لَا يُقَالُ: شَكَرْتُهُ لِفَرُوسِيَّتِهِ، وَتَقُولُ: شَكَرْتُهُ عَلَى كَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيَّ. هَذَا حَاصِلُ مَا حَرَّرَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ أَبُو نَصْرِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَمَادٍ الْجَوْهَرِيُّ: الْحَمْدُ نَقِیْضُ الذَّمِّ، تَقُولُ: حَمِدْتُ الرَّجُلَ أَحْمَدُهُ حَمْدًا، وَمَحْمَدَةً، فَهُوَ حَمِيدٌ وَمَحْمُودٌ، وَالتَّحْمِيدُ أَتْلَعُ مِنَ الْحَمْدِ. وَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ؛ وَقَالَ فِي الشُّكْرِ: هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى الْمُحْسِنِ بِمَا أَوْلَاهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، يُقَالُ: شَكَرْتُهُ وَشَكَرْتُ لَهُ، وَبِاللَّامِ أَفْصَحُ. وَأَمَّا الْمَدْحُ فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْحَمْدِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ لِلْحَيِّ وَلِلْمَيِّتِ وَلِلْجَمَادِ أَيْضًا، كَمَا يُمَدِّحُ الطَّعَامُ وَالْمَكَانَ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَيَكُونُ قَبْلَ الْإِحْسَانِ وَبَعْدَهُ، وَعَلَى الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ وَاللَّازِمَةِ أَيْضًا، فَهُوَ أَعَمُّ.

### ذِكْرُ أَقْوَالِ السَّلَفِ فِي الْحَمْدِ

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ الْقُطَيْبِيُّ: حَدَّثَنَا حَفْصُ وَرَوَاهُ غَيْرُ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ حَفْصِ فَقَالَ: قَالَ عُمَرُ لِعَلِيٍّ - وَأَصْحَابُهُ عِنْدَهُ -: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ،

(١) الطبري: ١٣٥/١ (٢) الطبري: ١٣٧/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٥/١ (٤) هذا القول لم يثبت عن ابن عباس في إسناده علي بن زيد بن جعدان وهو ضعيف انظر تقريب التهذيب لابن حجر رقم الترجمة ٤٧٣٤. (٥) ابن أبي حاتم: ١٣/١ (٦) أحمد: ٤٣٥/٣ والنسائي في الكبرى: ٤١٦/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٢٤/٩ والنسائي في الكبرى: ٢٠٨/٦ وابن ماجه: ١٢٤٩/٢ (٨) ابن ماجه: ١٢٥٠/٢ (٩) ابن ماجه: ١٢٤٩/٢

يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قِطَظَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ<sup>(٤)</sup>.

﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾

[معنى مالك ومملك]

ومالك مأخوذ من المملك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مریم: ٤٠] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢، ١] ومملك مأخوذ من المملك، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْمُلْكُ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْأَمْرَ إِلَّا لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣] وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

[معنى تَخْصِيصِ الْمُلْكِ يَوْمَ الدِّينِ]

وتخصيص المملك يوم الدين لا يتفیه عمّا عداه، لأنه قد تقدّم الإخبار بأنه ربّ العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحدٌ هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحدٌ إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَوْمُ الرُّوحِ وَالْمَلَكَةِ صَفًا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُوقٌ وَسَوِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [٤] يقول: لا يملك أحدٌ معه في ذلك اليوم حُكْمًا، كملكهم في الدنيا<sup>(٥)</sup>.

[معنى يوم الدين]

قال ابن عباس: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه<sup>(٦)</sup>. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر.

﴿الْمَلِكُ وَمَلِكُ الْأَمْلَاقِ هُوَ اللَّهُ﴾

والمملك في الحقيقة هو الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣] وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه

الْحَمْدُ وَصُنُوفُهُ لِهَ تَعَالَى، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ» الْحَدِيث<sup>(١)</sup>.

[معنى الرب]

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ، وَعَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلِإِضْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ لِغَيْرِ اللَّهِ بَلْ بِالِإِضَافَةِ تَقُولُ: رَبُّ الدَّارِ، رَبُّ كَذَا، وَأَمَّا الرَّبُّ فَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ الْإِسْمُ الْأَعْظَمُ.

[معنى العالمين]

وَالْعَالَمِينَ جَمْعُ عَالَمٍ وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَالَمُ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَالْعَوَالِمُ أَصْنَافُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَكُلُّ قَرْيَةٍ مِنْهَا وَجِيلٌ يُسَمَّى عَالَمًا أَيْضًا. قَالَ الْفَرَّاءُ وَأَبُو عُبَيْدٍ: الْعَالَمُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَنْقُلُ، وَهُمْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالْمَلَائِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ، وَلَا يُقَالُ لِلْبَهَائِمِ عَالَمٌ. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ وَأَبِي مُحَيْصِينَ: الْعَالَمُ كُلُّ مَا لَهُ رُوحٌ تَرْفُفُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» كُلُّ صِنْفٍ عَالَمٌ، وَقَالَ الرَّجَاجُ: الْعَالَمُ كُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، إِنَّهُ شَامِلٌ لِكُلِّ الْعَالَمِينَ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ [الشعراء: ٢٣، ٢٤].

[وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْعَالَمِ]

وَالْعَالَمُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَلَامَةِ (قُلْتُ) لِأَنَّهُ عَلِمَ دَالٌ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَصَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ<sup>(٢)</sup>.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي الْبَسْمَلَةِ بِمَا أَغْنَى عَنِ الْإِعَادَةِ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: إِنَّمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بَعْدَ قَوْلِهِ: «رَبِّ الْعَالَمِينَ»، لِيَكُونَ مِنْ بَابِ قَرْيَنٍ التَّرْغِيبِ بَعْدَ التَّوْهِيْبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَقَرَّبُ عِبَادِي إِلَيَّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩، ٥٠]<sup>(٣)</sup> وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] قَالَ: فَالرَّبُّ فِيهِ تَرْهِيْبٌ، وَ«الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» تَرْغِيبٌ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ

(١) الترغيب والترهيب: ٢/٢٥٣ (٢) القرطبي: ١/١٣٩ (٣) القرطبي: ١/١٣٩ (٤) مسلم: ٤/٢١٠٩ (٥) ابن جرير (١٦٦) وابن أبي حاتم (٢٤) وسنده ضعيف جداً وبشر بن عماره وإو الضحاك لم يسمع من ابن عباس. (٦) ابن أبي حاتم: ١/١٩

مَرْفُوعًا: «أَخْنَعُ اسْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى بِمَلِكِ الْأَمْلَاقِ، وَلَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>(١)</sup> وَفِيهِمَا عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَتَيْنَ مُلُوكَ الْأَرْضِ؟ أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»<sup>(٢)</sup>. وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: «لَمَنِ الْكُلُكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» [غافر: ١٦] فَأَمَّا تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا بِمَلِكٍ فَعَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» [البقرة: ٢٤٧] «وَكَانَ وَرَاءَهُ مَلِكٌ» [الكهف: ٧٩] «إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أُنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا» [المائدة: ٢٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «مِثْلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِيرَةِ»<sup>(٣)</sup>.

[تَفْسِيرُ الدِّينِ]

وَالدِّينُ: الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ وَيَنْفَعُ الْعَقَّ» [النور: ٢٥] وَقَالَ: «إِنَّمَا لَكِدَيُونُ» [الصفات: ٥٣] أَيُّ: مَجْزُيُونَ مُحَاسِبُونَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»<sup>(٤)</sup> أَيُّ: حَاسِبَ نَفْسَهُ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَاهَبُوا لِلْعُرْضِ الْأَكْبَرِ عَلَى مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ»<sup>(٥)</sup> «يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ» [الحاقة: ١١٨].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

[مَعْنَى الْعِبَادَةِ لُغَةً وَشَرْعًا]

وَالْعِبَادَةُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الدَّلَّةِ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ أَيُّ: مُذَلَّلٌ وَفِي الشَّرْعِ عِبَادَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمُحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ.

[فَوَائِدُ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ وَالْإِلْتِفَاتِ]

وَقَدْ تَمَّ الْمَفْعُولُ، وَهُوَ إِيَّاكَ، وَكُرِّرَ لِلإِثْمَامِ وَالْحَضَرِ، أَيُّ: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ، وَالدِّينُ كُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ. وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَلْفَاتِحَةُ سِرِّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فَلَاوَلَّ تَبَرُّؤُ مِنَ الشَّرِّ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَتَقْوِيضُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» [هود: ١٢٣]، «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ»

وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا» [الملك: ٢٩]، «رَبِّ لِلشَّرِّ وَالْقُرْبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» [المزمل: ٩] وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وَتَحْوُلُ الْكَلَامِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ بِكَافِ الْخُطَابِ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَتَى عَلَى اللَّهِ فَكَانَتْهُ أَقْتَرَبَ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

[الْفَاتِحَةُ إِشَادَةٌ إِلَى الثَّنَاءِ فَتَجِبُ قِرَاءَتُهَا فِي الصَّلَاةِ] وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالثَّنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى، وَإِشَادَةٌ لِعِبَادِهِ بِأَن يَثْنُوا عَلَيْهِ بِذَلِكَ. وَلِهَذَا لَا تَصِحُّ صَلَاةٌ مَنْ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»<sup>(٦)</sup>.

[تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ]

قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يَعْنِي إِيَّاكَ نُوْحِدُ وَنَخَافُ وَنَرْجُوكَ، يَا رَبَّنَا، لَا غَيْرَكَ<sup>(٧)</sup>.

[تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ]

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عَلَى طَاعَتِكَ وَعَلَى أُمُورِنَا كُلِّهَا<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ وَأَنْ تَسْتَعِينُوهُ عَلَى أُمُورِكُمْ<sup>(٩)</sup>. وَإِنَّمَا قُدِّمَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عَلَى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَهُ هِيَ الْمَقْصُودَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا. وَالِإِهْتِمَامُ وَالْحَزْمُ تَقْدِيمُ مَا هُوَ الْأَمُّ قَالَاهُمْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[تَسْمِيَةُ اللَّهِ نَبِيَّهُ عَبْدًا فِي أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ]

وَقَدْ سَمَى اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِعَبْدِهِ فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ فَقَالَ: «لَعَنَهُ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ» [الكهف: ١] «وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ» [الجن: ١٩]، «سُبْحَنَ الَّذِي

(١) فتح الباري: ١/٦٠٤ ومسلم: ٣/١٦٨٨ (٢) فتح الباري: ١٣/٤٠٤ ومسلم: ٤/٢١٤٨ (٣) فتح الباري: ٦/٨٩ ومسلم: ٣/١٥١٨ (٤) ابن ماجه: ٢/١٤٢٣ (٥) فيه انقطاع بين ثابت ابن حجاج وعمر رضي الله عنه (٦) فتح الباري: ٢/٢٧٦ ومسلم: ١/٢٩٥ (٧) إسناده منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما [جامع التحصيل للعلائي ١٩٩، ٢٠٠] (٨) ابن أبي حاتم: ١/١٩ (٩) ابن أبي حاتم: ١/٢٠



أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴿١﴾ [الإسراء: ١] فَسَمَّاهُ عَبْدًا عِنْدَ إِنْزَالِهِ عَلَيْهِ، وَعِنْدَ قِيَامِهِ فِي الدُّعْوَةِ، وَإِسْرَائِيهِ بِهِ.

[الْإِزْشَادُ إِلَى الْعِبَادَةِ عِنْدَ ضَيْقِ الصَّدْرِ]

وَأَرْشَدَهُ إِلَى الْقِيَامِ بِالْعِبَادَةِ فِي أَوْقَاتٍ يَضِيقُ صَدْرُهُ مِنْ تَكْذِيبِ الْمُخَالِفِينَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ [النحل: ٩٧-٩٩].

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٠٠﴾

[سِرُّ تَأْخِيرِ الدُّعَاءِ بَعْدَ الْحَمْدِ وَالْوَصْفِ]

لَمَّا تَقَدَّمَ الثَّنَاءُ عَلَى الْمَسْئُولِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاسَبَ أَنْ يُعْتَبَرَ بِالسُّؤَالِ كَمَا قَالَ: «فَضِمْهُمَا لِي وَضِمْهُمَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» وَهَذَا أَكْمَلُ أَحْوَالِ السَّائِلِ أَنْ يَمْدَحَ مَسْئُولَهُ ثُمَّ يَسْأَلَ حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] لِأَنَّهُ أَنْجَحَ لِلْحَاجَةِ وَأَنْجَحَ لِلِلَّاحِقَةِ، وَلِهَذَا أَرْشَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ الْأَكْمَلُ. وَقَدْ يَكُونُ السُّؤَالُ بِالْإِخْبَارِ عَنْ حَالِ السَّائِلِ وَاحْتِيَاجِهِ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزْكَلْتُ لَكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. وَقَدْ يَتَقَدَّمُ مَعَ ذَلِكَ وَصْفُ الْمَسْئُولِ كَقَوْلِ ذِي النُّونِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وَقَدْ يَكُونُ بِمُجَرَّدِ الثَّنَاءِ عَلَى الْمَسْئُولِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي

حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا

كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءِ

[مَعْنَى الْهَدَايَةِ]

الْهَدَايَةُ هُنَا الْإِزْشَادُ وَالتَّوْفِيقُ، وَقَدْ تَعَدَّى الْهَدَايَةُ بِنَفْسِهَا كَمَا هُنَا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فَتَضَمَّنْ مَعْنَى أَلْهَمْنَا أَوْ وَفَّقْنَا أَوْ أَرْزَقْنَا أَوْ أَعْطَيْنَا: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أَيْ: بَيْنَا لَهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَقَدْ تَعَدَّى بِإِلَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَجَنَّبُهُ وَهُدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٤] وَذَلِكَ بِمَعْنَى الْإِزْشَادِ وَالِدَّلَالَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وَقَدْ تَعَدَّى بِاللَّامِ كَقَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أَيْ: وَفَّقَنَا لِهَذَا وَجَعَلَنَا لَهُ أَهْلًا.

[مَعْنَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ]

وَأَمَّا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ فَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اغْوِجَاجَ فِيهِ، وَذَلِكَ فِي لُغَةِ جَمِيعِ الْعَرَبِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرِ بْنِ عَطِيَّةَ الْخَطَفِيِّ:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ

إِذَا اغْوَجَ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٌ<sup>(١)</sup>

قَالَ: وَالشَّوَاهِدُ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُخَصَّرَ، قَالَ: ثُمَّ تَسْتَعِيرُ الْعَرَبُ الصِّرَاطَ فَتَسْتَعْمِلُهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَصِفٍ بِاسْتِقَامَةٍ أَوْ اغْوِجَاجٍ، فَتَصِفُ «الْمُسْتَقِيمَ» بِاسْتِقَامَتِهِ وَ«الْمُغْوَجَ» بِاغْوِجَاجِهِ. وَالْمُرَادُ بِهِ الْإِسْلَامُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطُ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرَحَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوِجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيَحْكُ لَا تَفْتَحُهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجُهُ، فَالْصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»<sup>(٢)</sup>.

[سُؤَالُ الْمُؤْمِنِ الْهَدَايَةَ مَعَ اتِّصَافِهِ بِهَا]

فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الْهَدَايَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ؟ فَهَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ أَمْ لَا؟

فَالْجَوَابُ أَنْ لَا، وَلَوْلَا احتِيَاجُهُ لَيْلًا وَنَهَارًا إِلَى سُؤَالِ الْهَدَايَةِ لَمَّا أَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مُفَقِّرٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَتَبُّعِهِ عَلَى الْهَدَايَةِ وَرُسُوحِهِ فِيهَا وَتَبَسُّرِهِ وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأَرْشَدَهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يُهْدِيَ بِالْمُعُونَةِ وَالنَّبَاتِ وَالتَّوْفِيقِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِسُؤَالِهِ فَإِنَّهُ

فَاصْبِرْ سَبِيحًا لِّكَتْمُهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ. وَهُوَ اتَّبَعَ الْحَقَّ، ضَلُّوا، وَكُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، لَكِنْ أَحْصَى أَوْصَافَ الْيَهُودِ الْغَضَبُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وَأَحْصَى أَوْصَافَ النَّصَارَى الضَّلَالُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] وَبِهَذَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ وَالْأَنْبَاءُ، وَذَلِكَ وَاضِحٌ بَيِّنٌ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: جَاءَتْ خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذُوا عَمَّتِي وَنَاسًا، فَلَمَّا أَتَوْا بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَفُّوا لَهُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَأْيِ الْوَافِدُ، وَانْقَطَعَ الْوَلَدُ، وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ، مَا بِي مِنْ خِدْمَةٍ، فَمَنْ عَلَيَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ: «مَنْ وَافِدُكَ؟» قَالَتْ: عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، قَالَ: «الَّذِي قَرَّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؟» قَالَتْ: فَمَنْ عَلَيَّ، فَلَمَّا رَجَعَ وَرَجُلٌ إِلَى جَنْبِهِ - تَرَى أَنَّهُ عَلَيَّ - قَالَ: سَلِيهِ حُمْلَانًا، فَسَأَلَتْهُ فَأَمَرَ لَهَا، قَالَ: فَأَتْنِي فَقَالَتْ: لَقَدْ فَعَلَ فِعْلَةً مَا كَانَ أَبُوكَ يَفْعَلُهَا، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُ فَلَانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ، وَأَتَاهُ فَلَانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ، فَأَتَيْتُهُ فَإِذَا عِنْدَهُ امْرَأَةٌ وَصَيِّبَانٌ، وَذَكَرَ قُرْبَهُمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَلِكٍ كِشْرَى وَلَا قَيْصَرَ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ مَا أَفْرَكَ أَنْ يَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟ مَا أَفْرَكَ أَنْ يَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟» قَالَ: فَأَسْلَمْتُ، فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبَشَرَ وَقَالَ: «إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ: الْيَهُودُ، وَإِنَّ الضَّالِّينَ: النَّصَارَى... وَذَكَرَ الْحَدِيثُ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ»<sup>(١)</sup>.

وَفِي السَّيْرَةِ عَنْ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الشَّامِ يَطْلُبُونَ الدِّينَ الْخَنِيفَ قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الدُّخُولَ مَعَنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيصِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، فَقَالَ: أَنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ أَفْرُ، وَقَالَتْ لَهُ النَّصَارَى: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الدُّخُولَ مَعَنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيصِكَ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، فَقَالَ لَا أَسْتَطِيعُهُ، فَاسْتَمَرَّ عَلَى فِطْرَتِهِ، وَجَانَبَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَدِينِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَدْخُلْ مَعَ أَحَدٍ مِنَ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى، وَأَمَّا أَصْحَابُهُ فَتَضَرَّعُوا وَدَخَلُوا فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوهُ أَقْرَبَ مِنْ دِينِ الْيَهُودِ إِذْ ذَاكَ،

فَقَدْ نَكَثَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ وَلَا سِيَّمَا الْمُضْطَرَّ الْمُحْتَاجَ الْمُفْتَقِرَ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ... آيَةِ [النساء: ١٣٦]. فَقَدْ أَمَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ، لِأَنَّ الْمُرَادَ الثَّبَاتَ وَالِاسْتِمْرَارَ وَالْمُداوِمَةَ عَلَى الْأَعْمَالِ الْمُعِينَةِ عَلَى ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ اسْتَمْرَ بِنَا عَلَيْهِ وَلَا تَعْدِلْ بِنَا إِلَى غَيْرِهِ. ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفصل: ٧]

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِيمَا إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إِلَى آخِرِهَا أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: «هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [٧] مُفسَّرٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ يَدُلُّ مِنْهُ عِنْدَ النَّحْوَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَطْفٌ بَيَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [١٩] ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيمًا [النساء: ٦٩، ٧٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الْمَعْنَى «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ وَمَنْ تَقَدَّمَ وَصَفُهُمْ وَنَعَتْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ الْهُدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَامْتِنَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ، غَيْرِ صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ فَسَدَتْ إِزَادَتُهُمْ فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ، وَلَا صِرَاطَ الضَّالِّينَ، وَهُمْ الَّذِينَ فَقَدُوا الْعِلْمَ فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ. وَأَكَّدَ الْكَلَامَ بِلَا: لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ثَمَّ مَسْلَكَيْنِ فَاسِدَيْنِ هُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لِيُجَنَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، فَإِنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ، الْيَهُودُ فَقَدُوا الْعَمَلَ، وَالنَّصَارَى فَقَدُوا الْعِلْمَ. وَلِهَذَا كَانَ نَصَبٌ لِلْيَهُودِ وَالضَّلَالِ لِلنَّصَارَى، لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ وَتَرَكَ نَحَقَ الْغَضَبِ، بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ، وَالنَّصَارَى لَمَّا كَانُوا

(١) أحمد: ٢٧٨/٤ وتحفة الأحوذى: ٢٨٩/٨

تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] فَلَيْسَ، بِحَمْدِ اللَّهِ، لِمُتَّبِعٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةً صَحِيحَةً، لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ لِيُفْصَلَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ مُفَرِّقًا بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَلَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ، لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

[التَّائِمِينَ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ]

(فَصَلِّ) يُسْتَحَبُّ لِمَنْ يَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا: آمِينَ مِثْلَ لَيْسَ، وَيُقَالُ: آمِينَ بِالْقَصْرِ أَيْضًا [مِثْلَ يَمِينٍ] وَمَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ، وَالذَّلِيلُ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّائِمِينَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقَالَ: آمِينَ، مَدَّ بِهَا صَوْتَهُ<sup>(٣)</sup>. وَلَأَبِي دَاوُدَ: رَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَلَا ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قَالَ: «آمِينَ» حَتَّى يَسْمَعَ مَنْ يَلِيهِ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ<sup>(٥)</sup>. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَزَادَ فِيهِ: فَبَرْتَجَ بِهَا الْمَسْجِدَ<sup>(٦)</sup>. وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَقَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ<sup>(٧)</sup>. وَعَنْ بِلَالٍ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَسْقِنِي بِآمِينَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٨)</sup>.

وَنَقَلَ أَبُو نَصْرِ الْقُسَيْرِيُّ عَنِ الْحَسَنِ وَجَعَلَ الصَّادِقُ أَتَاهُمَا شَدْدَا الْيَمِينِ مِنْ آمِينَ مِثْلَ ﴿آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢].

قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ: وَيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ لِمَنْ هُوَ خَارِجٌ الصَّلَاةِ، وَيَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ الْمُصَلِّي، وَسَوَاءٌ كَانَ مُتَفَرِّدًا أَوْ إِمَامًا أَوْ مَأْمُومًا وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، لَمَّا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(٩)</sup> وَلِمُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ

وَكَانَ مِنْهُمْ وَرَقَهُ بُنْ نَوْفَلٍ حَتَّى هَدَاهُ اللَّهُ بَنِيهِ لَمَّا بَعَثَهُ، أَمِنْ بِمَا وَجَدَ مِنَ الْوَحْيِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.<sup>(١٠)</sup>  
[مُسْتَمَلَاتُ الْفَاتِحَةِ]

(فَصَلِّ) اِسْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ، وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ، عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَمَجِيدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلَزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا، وَعَلَى ذِكْرِ الْعَمَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، وَعَلَى إِرْشَادِهِ عِبِيدَهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَ[التَّبَرُّؤِ] مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَتَوْجِيدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُمَازِلٌ، وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهَدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ، وَتَشْيِيتُهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى [يُفْضِيَ بِهِمْ ذَلِكَ] إِلَى جَوَارِ الصِّرَاطِ [الْحَسَنِ] يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، فِي جَوَارِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَاسْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ لئَلَّا يُخْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ.  
[إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَى اللَّهِ دُونَ الْإِضْلالِ. وَالرَّدُّ عَلَى الْقُدْرَةِ]

وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وَخِذَفَ الْفَاعِلُ فِي الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] وَإِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٤] الْآيَةِ. وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ بِقُدْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وَقَالَ: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ شَبَّحَانَهُ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْهَدَايَةِ وَالْإِضْلالِ، لَا كَمَا تَقُولُ الْفِرَقَةُ الْقُدْرِيَّةُ وَمَنْ حَدَا حَدَوْهُمْ مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ هُمْ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ وَيَفْعَلُونَ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى بَذْعَتِهِمْ بِمُتَشَابِهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَتَرَكُّونَ مَا يَكُونُ فِيهِ صَرِيحًا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ. وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْعُيَّى، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ، فَأَحْذَرُوهُمْ»<sup>(١١)</sup> يَعْنِي فِي قَوْلِهِ

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٧/١٤٢، (٢) فتح الباري: ٥٧/٨ (٣) أحمد: ٣١٥/٤ وأبو داود: ٥٧٤/١ وتحفة الأحوذى: ٦٥/٢ (٤) تحفة الأحوذى: ٦٧/٢ (٥) أبو داود: ٥٧٥/١ (٦) أبو داود: ٥٧٥/١ وابن ماجه: ٢٧٩/١ (٧) الدارقطني: ٣٣٥/١ (٨) أبو داود: ٥٧٦/١ (٩) فتح الباري: ٣٠٧/١ ومسلم: ٢٠٣/١١

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعَثًا، وَهُمْ ذَوُو عَدَدٍ، فَاسْتَقْرَأَهُمْ، فَاسْتَقْرَأَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَتَى عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَحَدِهِمْ سِتًّا فَقَالَ: «مَا مَعَكَ يَا فُلَانُ؟» فَقَالَ: مَعِيَ كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ. فَقَالَ: «أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَذْهَبَ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ: وَاللَّهِ مَا مَنَعَنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ إِلَّا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ لَا أَقُومَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَافْرَاوْهُ، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَرَأَ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مَسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَيَرُفُدُ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أَوْكِيَ عَلَى مِسْكِ». هَذَا لَفْظُ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. ثُمَّ رَوَاهُ مُرْسَلًا، فَاللَّهُ أَعْلَمُ<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ: عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ - وَفَرَسُهُ مُرَبُوطَةٌ عِنْدَهُ - إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَأَنْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا - فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا أَخَذَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ» قَالَ: قَدْ أَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرفَعْتُ رَأْسِي وَأَنْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظِّلَّةِ فِيهَا أَثْمَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا. قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِيَصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»<sup>(٩)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ فِي كِتَابِ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

### ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ آلِ عِمْرَانَ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا

(١) مسلم: ٣٠٧/١ (٢) مسلم: ٣٠٣/١ (٣) أحمد: ٢٨٤/٢  
ومسلم: ٥٣٩/١ وتحفة الأحوذى: ١٨٠/٨ والنسائي في الكبرى: ١٣/٥  
الكبرى: ٢٤٠/٦ (٥) الحاكم: ٢٦٠/٢ (٦) الدارمي: ٣٢٢/٢ (٧) الطبراني: ١٦٣  
وابن حبان: ٧٨/٢ (٨) تحفة الأحوذى: ١٨٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٢٢٧/٥ وابن ماجه: ٧٨/١ (٩) فتح  
الباري: ٦٨٠/٨

اللَّهُ ﷻ قَالَ: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ: آمِينَ، وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَاقَفَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفْرًا لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(١)</sup>. قِيلَ: بِمَعْنَى «مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ» فِي الزَّمَانِ. وَقِيلَ: فِي الْإِجَابَةِ. وَقِيلَ: فِي صِفَةِ الْإِخْلَاصِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَى مَرْفُوعًا «إِذَا قَالَ - يَعْنِي الْإِمَامُ - وَلَا الضَّالِّينَ فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمْ اللَّهُ»<sup>(٢)</sup> وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ مَعْنَاهُ: لَا تُحَيِّبْ رَجَاءَنَا. وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ مَعْنَاهُ: اَللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لَنَا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِزِّ يَا كَرِيمُ

### تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

(ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا) فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بَيُوتَكُمْ قُبُورًا، فَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ». وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٣)</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَفِرُّ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي يَسْمَعُ فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ<sup>(٤)</sup>. وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجْهُ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الدَّارِمِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَا مِنْ بَيْتٍ تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ. وَرَوَى أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَدْخُلْ ذَلِكَ الْبَيْتَ شَيْطَانٌ تِلْكَ اللَّيْلَةُ: أَرْبَعٌ مِنْ أَوَّلِهَا، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَآيَاتَانِ بَعْدَهَا، وَثَلَاثُ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا، وَفِي رِوَايَةٍ: لَمْ يَقْرَبْهُ وَلَا أَهْلُهُ يَوْمَئِذٍ شَيْطَانٌ، وَلَا شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَا يَقْرَأَنَّ عَلَى مَجْنُونٍ إِلَّا أَفَاقَ<sup>(٦)</sup>. وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ الْبَقَرَةُ، وَإِنْ مَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلَةً لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ نَهَارًا لَمْ يَدْخُلْهُ الشَّيْطَانُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ». رَوَاهُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو حَاتِمٍ ابْنُ جَبَانَ فِي صَحِيحِهِ وَابْنُ مَرْدُودٍ<sup>(٧)</sup>.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ



## سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمَّ ❶ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى  
لِّلْمُتَّقِينَ ❷ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ  
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ❸ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا  
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ❹  
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ  
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ❺

بَرَكَهٗ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةً، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ قَالَ: ثُمَّ  
سَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ  
فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، يُظَلَّلَانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا  
عَمَامَتَانِ، أَوْ غَيَّابَتَانِ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، وَإِنَّ  
الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ  
كَالرَّجُلِ الشَّاجِبِ فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا  
أَعْرِفُكَ. فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنَ الَّذِي أَطَمَأَنَّكَ فِي  
الْهَوَاجِرِ وَأَشْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ،  
وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكُ بِسْمِيهِ  
وَالْحُلْدُ بِسْمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى  
وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لُهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَا  
كُتِبْنَا هَذَا؟ فَيَقَالَ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ يَقَالَ: اقْرَأْ  
وَاصْعِدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغَرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ  
يَقْرَأُ، هَذَا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا»<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ مَاجَهٗ مِنْ حَدِيثِ بَشْرِ بْنِ الْمُهَاجِرِ بَعْضَهُ<sup>(٢)</sup>.  
وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

وَلِبَعْضِهِ شَوَاهِدٌ، فَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ  
رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
يَقُولُ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ شَافِعٌ لِأَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا بِأَيَّتَانِ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّابَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا  
فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ أَهْلِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
ثُمَّ قَالَ: اقْرَأُوا الْبَقَرَةَ فَإِنَّ أَحَدَهَا بَرَكَهٗ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةً،  
وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ»<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي  
الصَّلَاةِ<sup>(٤)</sup>.

(الزَّهْرَاوَانِ): الْمُنِيرَتَانِ، وَ(الْغَيَابَةُ): مَا أَظْلَكَ مِنْ  
فَوْقِكَ، وَ(الْفِرْقَى): الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ، وَ(الصَّوَفُ):  
الْمُصْطَلَمَةُ الْمُتَضَامَةُ، وَ(الْبُطْلَةُ) السَّحْرَةُ، وَمَعْنَى (لَا  
تَسْتَطِيعُهَا) أَيُّ: لَا يُمَكِّنُهُمْ حِفْظُهَا وَقِيلَ: لَا تَسْتَطِيعُ  
النُّفُودَ فِي قَارِيئِهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ الثَّوَالِ بْنِ سَمْعَانَ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ  
عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ  
وَآلُ عِمْرَانَ» وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا  
نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: «كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوَادَاوَانِ  
بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ

عَنْ صَاحِبَيْهِمَا»<sup>(٥)</sup> وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٦)</sup>، وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ  
غَرِيبٌ.<sup>(٧)</sup>

## [سُورَةُ الْبَقَرَةِ مَدِينَةٌ بِلَا خِلَافٍ]

(فَضْلٌ) وَالْبَقَرَةُ جَمِيعُهَا مَدِينَةٌ بِلَا خِلَافٍ، وَهِيَ مِنْ  
أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِهَا، لَكِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى فِيهِ: «وَأَتَقُوا يَوْمًا  
تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ»... الْآيَةُ [البقرة: ٢٨١] يُقَالُ: إِنَّهَا  
آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ - وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنْهَا -  
وَكَذَلِكَ آيَاتُ الرَّبِّ مِنَ آخِرِ مَا نَزَلَ. وَكَانَ خَالِدُ بْنُ  
مَعْدَانَ يُسَمِّي الْبَقَرَةَ فُسْطَاطَ الْقُرْآنِ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:  
وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَلْفِ حَبْرٍ، وَأَلْفِ أَمْرٍ، وَأَلْفِ نَهْيٍ.  
وَقَالَ الْعَادُونَ: آيَاتُهَا: مِائَتَانِ وَتَمَانُونَ وَسَبْعُ آيَاتٍ،  
وَكَلِمَاتُهَا: سِتَّةُ آلَافٍ كَلِمَةٍ وَمِائَتَانِ وَإِخْدَى وَعِشْرُونَ  
كَلِمَةً، وَحُرُوفُهَا: خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةً

(١) أحمد: ٣٥٢/٥ (٢) ابن ماجه: ١٢٤٢/٢ (٣) أحمد:

٢٤٩/٥ (٤) مسلم: ٥٥٣/١ (٥) أحمد: ١٨٣/٤ (٦)

مسلم: ٥٥٤/١ (٧) تحفة الأوحدي: ١٩١/٨

حَرْفٍ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَثَمَةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ وَلَا خِلَافَ فِيهِ.

وَرَوَى ابْنُ مَرْذُوقٍ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ عَقِيلِ بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ عُتْبَةَ بْنِ مَرْثَدٍ: رَأَى النَّبِيَّ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ تَأَخَّرًا فَقَالَ: «يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» وَأَطْنُ هَذَا كَانَ يَوْمَ حُتَيْنَ، يَوْمَ وَلَّوْا مُدَبِّرِينَ، أَمَرَ الْعَبَّاسُ فَكَادَاهُمْ: «يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ» يَعْنِي أَهْلَ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ «يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» لِيَسْتَطِيعُوا بِذَلِكَ، فَجَعَلُوا يُقْبِلُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ. وَكَذَلِكَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ مَعَ أَصْحَابِ مُسَيْلَمَةَ جَعَلَ الصَّحَابَةَ يَقْرَءُونَ لِكثَافَةِ جَيْشِ بَنِي حَنِيفَةَ فَجَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَتَنَادَوْنَ: يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمُ، رَضِيَ اللهُ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ أَجْمَعِينَ<sup>(٣)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَعْرُوفِ﴾

[الْكَلَامُ حَوْلَ الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ]

الْحُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّورِ هِيَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ. رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وَقِيلَ: هِيَ أَشْمَاءُ السُّورِ. وَقِيلَ: هِيَ فَوَاتِحُ، افْتَتَحَ اللهُ بِهَا الْقُرْآنَ. وَقَالَ خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: فَوَاتِحُ السُّورِ كُلُّهَا: (قَ وَصَ وَحَمَ وَطَسَمَ وَالرَّ) وَغَيْرُ ذَلِكَ هَجَاءُ مَوْضُوعٍ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: هِيَ حُرُوفٌ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ، اسْتَغْنِي بِذِكْرِ مَا ذَكَرَ مِنْهَا فِي أَوَائِلِ السُّورِ عَنْ ذِكْرِ بَوَاقِيهَا الَّتِي هِيَ تَتِمَّةُ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ حَرْفًا، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: ابْنِي يَكْتُبُ فِي - ا ب ت ث - أَيْ فِي حُرُوفِ الْمُعْجَمِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ، فَيَسْتَغْنِي بِذِكْرِ بَعْضِهَا عَنْ مَجْمُوعِهَا. حَكَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ<sup>(٤)</sup>.

قُلْتُ: مَجْمُوعُ الْحُرُوفِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ يَحْدِفُ الْمُكَرَّرِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ عَشَرَ حَرْفًا، وَهِيَ - ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن - يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ: نَصٌّ حَكِيمٌ قَاطِعٌ لَهُ سِرٌّ. وَهِيَ نِصْفُ الْحُرُوفِ عَدَدًا، وَالْمَذْكُورُ مِنْهَا أَشْرَفُ مِنَ الْمَثْرُوكِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَةِ التَّصْرِيفِ:

قَالَ الرَّمَحْسَرِيُّ: وَهَذِهِ الْحُرُوفُ الْأَرْبَعَةُ عَشَرَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَصْنَافٍ أَجْنَاسِ الْحُرُوفِ، يَعْنِي مِنَ الْمَهْمُوسَةِ وَالْمَجْهُورَةِ، وَمِنَ الرَّخْوَةِ وَالشَّدِيدَةِ، وَمِنَ الْمُطْبَقَةِ وَالْمَفْتُوحَةِ، وَمِنَ الْمُسْتَعْلِيَةِ وَالْمُنْخَفِضَةِ، وَمِنْ حُرُوفِ الْقَلْقَلَةِ. وَقَدْ سَرَدَهَا مُعْصَلَةً ثُمَّ قَالَ: فَسُبْحَانَ الَّذِي دَقَّتْ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِكْمَتُهُ. وَهَذِهِ الْأَجْنَاسُ الْمَعْدُودَةُ مَكْتُورَةٌ بِالْمَذْكُورَةِ مِنْهَا، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مُعْظَمَ الشَّيْءِ وَجْلهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ كُلِّهِ.

وَمِنْ هُنَا لَحَظَ بَعْضُهُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَلَامًا فَقَالَ: لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَمْ يَنْزِلْهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنَّا وَلَا سُدَى، وَمَنْ قَالَ مِنَ الْجَهْلَةِ: إِنَّ فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ تَعَبُّدٌ لَا مَعْنَى لَهُ بِالْكُلِّيَّةِ فَقَدْ أَخْطَأَ خَطَأً كَبِيرًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ لَهَا مَعْنَى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَإِنْ صَحَّ لَنَا فِيهَا عَنِ الْمَعْصُومِ شَيْءٌ قُلْنَا بِهِ، وَإِلَّا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا، وَقُلْنَا: ﴿إِنَّمَا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] وَلَمْ يَجْمَعْ الْعُلَمَاءُ فِيهَا عَلَى شَيْءٍ مُّعَيَّنٍ وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا، فَمَنْ ظَهَرَ لَهُ بَعْضُ الْأَقْوَالِ بِدَلِيلٍ فَعَلَيْهِ اتِّبَاعُهُ وَإِلَّا فَالْوَقْفُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ هَذَا الْمَقَامُ.

[الْحُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ ذَالَةٌ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ]

الْمَقَامُ الْآخَرُ فِي الْحِكْمَةِ الَّتِي افْتَضَتْ إِيرَادَ هَذِهِ الْحُرُوفِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، مَا هِيَ - مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ مَعَانِيهَا فِي أَنْفُسِهَا؟ فَقِيلَ: إِنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ - فِي أَوَائِلِ السُّورِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا - بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا. وَقَدْ حَكَى هَذَا الْمَذْهَبَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْمُبَرِّدِ وَجَمَعَ مِنْ الْمُحَقِّقِينَ، وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنِ الْفَرَّاءِ وَقُطْرُبٍ نَحْوَ هَذَا، وَفَرَّرَهُ الرَّمَحْسَرِيُّ فِي كِتَابِهِ وَنَصَرَهُ أَتَمَّ نَصْرٍ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَشَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمُجْتَهِدُ أَبُو الْحَجَّاجِ الْيَزِيدِيُّ، وَحَكَاهُ لِي عَنْ ابْنِ تَيْمِيَّةَ.

قَالَ الرَّمَحْسَرِيُّ وَلَمْ تَرُدْ كُلُّهَا مَجْمُوعَةً فِي أَوَّلِ الْقُرْآنِ، وَإِنَّمَا كُرِّرَتْ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي التَّحْدِي والتَّكْبِيَتِ، كَمَا كُرِّرَتْ قِصَصٌ كَثِيرَةٌ، وَكُرِّرَ التَّحْدِي بِالصَّرِيحِ فِي أَمَاكِنَ، قَالَ: وَجَاءَ مِنْهَا عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ - ص ن ق - وَحَرْفَيْنِ، مِثْلُ: ﴿حَمْدٌ﴾ وَثَلَاثَةٍ، مِثْلُ: ﴿الْمَعْرُوفِ﴾، وَأَرْبَعَةٍ:

(١) الدر المنثور: ٤٧/١ (٢) الدر المنثور: ٤٧/١ (٣)

المجمع: ١٨٠/٦ (٤) الطبري: ٢٠٨/١

كُونَ ﴿فِيهِ هُدًى﴾ وَهُدًى يَحْتَمِلُ مِنْ حَيْثُ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا عَلَى النَّعْتِ، وَمَنْصُوبًا عَلَى الْحَالِ.

### [اِخْتِصَاصُ الْهُدَايَةِ بِالْمُتَّقِينَ]

وَخُصِّصَتِ الْهُدَايَةُ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُؤْمِنِينَ بِالنِّعَمِ بِالْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ هُوَ فِي نَفْسِهِ هُدًى، وَلَكِنْ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الْأَبْرَارُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَنَالُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يَعْنِي نُورًا لِّلْمُتَّقِينَ.

### [مَعْنَى الْمُتَّقِينَ]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الشُّرَكَ بِبِي، وَيَعْمَلُونَ بِطَاعَتِي<sup>(٣)</sup>. وَعَنْهُ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ: الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللَّهِ عِقَابَهُ فِي تَرْكِ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْهُدَى، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ فِي التَّصَدِيقِ بِمَا جَاءَ بِهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هُمُ الَّذِينَ نَعَتَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وَالَّتِي بَعْدَهَا، وَاخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّ الْآيَةَ نَعَمٌ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَطِيَّةِ السَّعْدِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ» ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٤)</sup>.

### [الْهُدَايَةُ نَوْعَانِ]

وَيُطْلَقُ الْهُدًى وَيُرَادُ بِهِ مَا يَهْدِي فِي الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِهِ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الفصص: ٥٦] وَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ: ﴿مَنْ

مِثْلُ الْقُرْءِ وَالتَّصِّ وَخَمْسَةِ، مِثْلُ: ﴿كَهَيْصَ﴾ - وَ ﴿حَمْدُ﴾ عَسَقٌ لِأَنَّ أَسَالِيبَ كَلَامِهِمْ عَلَى هَذَا مِنَ الْكَلِمَاتِ مَا هُوَ عَلَى حَرْفٍ، وَعَلَى حَرْفَيْنِ، وَعَلَى ثَلَاثَةٍ وَعَلَى أَرْبَعَةٍ، وَعَلَى خَمْسَةٍ لَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

(قُلْتُ) وَلِهَذَا كُلُّ سُورَةٍ افْتِتِحَتْ بِالْحُرُوفِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا الْإِنْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَيَبَيَّنَ إِعْجَازَهُ وَعَظَمَتَهُ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالِاسْتِقْرَاءِ، وَهُوَ الْوَاقِعُ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةٍ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الْعَمَّ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿الْعَمَّ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلْعَمُّ الْقَبِيضُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿الْمَصَّ﴾ كِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴿الرَّ كِتَابُ﴾ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، ﴿الْعَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ﴿حَمْدُ﴾ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمْدُ﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَلِيَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ هُوَ لَا لِمَنْ أَمَعَنَ النَّظَرَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

### [لَا رَيْبَ فِي الْقُرْآنِ]

(الْكِتَابُ): الْقُرْآنُ، وَالرَّيْبُ: الشُّكُّ، قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مَرَّةٍ الْهَمْدَانِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَا رَيْبَ فِيهِ» لَا شَكَّ فِيهِ<sup>(١)</sup> وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو مَالِكٍ، وَنَافِعُ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ وَعَطَاءٌ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: لَا أَعْلَمُ فِي هَذِهِ خِلَافًا<sup>(٢)</sup>. وَمَعْنَى الْكَلَامِ هُنَا أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ الْقُرْآنُ لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّجْدَةِ: ﴿الْعَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [السجدة: ٢، ١] وَقَالَ بَعْضُهُمْ هَذَا خَبَرٌ وَمَعْنَاهُ النَّهْيُ، أَيْ لَا تَرْتَابُوا فِيهِ.

وَمِنْ الْقُرَّاءِ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَيْبَ وَيَبْتَدِئُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وَالْوُقُوفُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَوَّلَى لِلآيَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَلِأَنَّهُ يَصِيرُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُدًى﴾ صِفَةً لِلْقُرْآنِ، وَذَلِكَ أَبْلَغُ مِنْ

(١) الطبري: ٢٢٨/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣١/١ (٣) الطبري (٢٦٥) إسناده ضعيف: الضحاك لم يسمع من ابن عباس وبشر بن عماره الخثعمي ضعيف (٤) تحفة الأحوذى: ١٤٧/٧ وابن ماجه: ١٤٩٠/٢

وَيَنْقُصُ. وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ آثَارٌ كَثِيرَةٌ وَأَحَادِيثُ أَفْرَدْنَا الْكَلَامَ فِيهَا فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْخَشْيَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢] وَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] وَالْخَشْيَةُ: خُلَاصَةُ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

### [الْمُرَادُ بِالْغَيْبِ]

وَأَمَّا الْغَيْبُ الْمُرَادُ هُنَا، فَقَدْ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِيهِ، وَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ تَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْجَمِيعَ مُرَادٌ، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قَالَ: يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَجَنَّتِهِ وَنَارِهِ، وَلِقَائِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبِالْبَعْثِ، فَهَذَا غَيْبٌ كُلُّهُ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنصُورٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ جُلُوسًا، فَذَكَرْنَا أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا سَبَقُونَا بِهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانَ بَيْنَنَا لِمَنْ رَأَاهُ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا آمَنَ أَحَدٌ قَطُّ إِيْمَانًا أَفْضَلَ مِنْ إِيْمَانِي بِغَيْبٍ ثُمَّ قَرَأَ ﴿الْعَمَلُ﴾ ذَلِكَ أَلْكَتُبُ لَا رَبَّ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْزُوقٍ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ الْحَاكِمُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَفِي مَعْنَى هَذَا: الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جُمُعَةَ: حَدَّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: نَعَمْ أَحَدُكَ حَدَّثَنَا حَدِيثًا جَدِيدًا: تَعَدَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا؟ أَسْلَمْنَا مَعَكَ وَجَاهَدْنَا مَعَكَ. قَالَ: «نَعَمْ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْني»<sup>(٩)</sup>.

يُضِلُّ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وَقَالَ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ بَيَانُ الْحَقِّ وَتَوْضِيحُهُ وَالذَّلَالَةُ عَلَيْهِ وَالْإِزْشَادُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] وَقَالَ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] عَلَى تَفْسِيرٍ مِنْ قَالَ: الْمُرَادُ بِهِمَا: الْخَيْرُ وَالشَّرُّ. وَهُوَ الْأَرْجَحُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

### [مَعْنَى التَّقْوَى]

وَأَصْلُ التَّقْوَى: التَّقْوَى مِمَّا يُكْرَهُ، لِأَنَّ أَصْلَهَا وَقْوَى مِنَ الْوَقَايَةِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ عَنِ التَّقْوَى فَقَالَ لَهُ: أَمَّا سَلَكَ طَرِيقًا ذَا شَوْكٍ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ؟ قَالَ شَمَرْتُ وَاجْتَهَدْتُ، قَالَ: فَذَلِكَ التَّقْوَى.

### ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

### [مَعْنَى الْإِيمَانِ]

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ الْمُسَيَّبِ بْنِ رَافِعٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: الْإِيمَانُ التَّصَدِيقُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ: الْإِيمَانُ: الْعَمَلُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يَخْشَوْنَ<sup>(٤)</sup>.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَوَّلَى أَنْ يَكُونُوا مُؤْصِفِينَ بِالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا، وَقَدْ تَدَخَّلَ الْخَشْيَةُ لَهُ فِي مَعْنَى الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ تَصَدِيقُ الْقَوْلِ بِالْعَمَلِ. وَالْإِيمَانُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِلْإِقْرَارِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَتَصَدِيقِ الْإِقْرَارِ بِالْفِعْلِ.

(قُلْتُ) أَمَّا الْإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ فَيُطْلَقُ عَلَى التَّصَدِيقِ الْمَحْضِ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ وَالْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النوبة: ٦١] وَكَمَا قَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِأَيُّبِهِمْ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] وَكَذَلِكَ إِذَا اسْتَعْمَلَ مَقْرُونًا مَعَ الْأَعْمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] فَأَمَّا إِذَا اسْتَعْمَلَ مُطْلَقًا فَالْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ الْمَطْلُوبُ لَا يَكُونُ إِلَّا اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا<sup>(٥)</sup>. وَهُوَ يَزِيدُ

(١) الطبري: ٢٣٥/١ هذا منقطع من معلقات الطبري وأيضا أبو اسحاق مدلس مختلط (٢) الطبري: ٢٣٥/١ (٣) الطبري: ١/٢٣٥ (٤) الطبري: ٢٣٥/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٥/١ (٦) الطبري: ٢٣٦/١ (٧) سعيد بن منصور: ٥٤٤/٢ (٨) ابن أبي حاتم: ٣٤/١ والحاكم: ٢٦٠/٢ (٩) أحمد: ١٠٦/٤

﴿وَيُصِیُّونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٢)

[مَعْنَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَيُصِیُّونَ الصَّلَاةَ﴾ أَيُّ يُصِیُّونَ الصَّلَاةَ بِفَرُوضِهَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ: إِتِمَامُ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَالتَّلَاوُثُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهَا فِيهَا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا. وَوُضُوئُهَا وَرُكُوعُهَا وَسُجُودُهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: إِقَامَتُهَا الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا وَإِسْبَاغُ الطَّهْوَرِ بِهَا، وَتِمَامُ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَالتَّشَهُدُ، وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَهَذَا إِقَامَتُهَا<sup>(٤)</sup>.

[الْمُرَادُ بِالْإِنْفَاقِ]

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قَالَ: زَكَاةُ أَمْوَالِهِمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ مُرَّةَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قَالَ: نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ جُوَيْرٍ عَنْ الضَّحَّاكِ: كَانَتْ النِّفَاقَاتُ قُرْبَانًا يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ عَلَى قَدَرِ مِيسَرَتِهِمْ وَجُهْدِهِمْ حَتَّى نَزَلَتْ فَرَائِضُ الصَّدَقَاتِ: سَبْعُ آيَاتٍ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٍ مِمَّا يُذَكَّرُ فِيهِ الصَّدَقَاتُ، هُنَّ النَّاسِخَاتُ الْمُؤْتَنَاتُ<sup>(٧)</sup>.

(قُلْتُ): كَثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ حَقُّ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ، وَهِيَ مُسْتَمْلَةٌ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَالتَّنَائِي عَلَيْهِ وَتَمَجِيدِهِ وَالْإِتِّهَالِ إِلَيْهِ، وَدُعَائِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ. وَالْإِنْفَاقُ هُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي إِلَيْهِمْ، وَأَوَّلَى النَّاسِ بِذَلِكَ الْقَرَابَاتُ وَالْأَهْلُونَ وَالْمَمَالِكُ، ثُمَّ الْأَجَانِبُ، فَكُلٌّ مِنَ النِّفَاقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ»<sup>(٨)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

[مَعْنَى الصَّلَاةِ]

وَأَصْلُ الصَّلَاةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الدُّعَاءُ. ثُمَّ اسْتَعْمِلَتْ الصَّلَاةُ فِي الشَّرْعِ فِي ذَاتِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَالْأَفْعَالِ الْمَخْصُوصَةِ فِي الْأَوْقَاتِ الْمَخْصُوصَةِ، بِشُرُوطِهَا الْمَعْرُوفَةِ وَصِفَاتِهَا وَأَنْوَاعِهَا الْمَشْهُورَةِ.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٣)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أَيُّ يُصَدِّقُونَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ اللَّهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، لَا يَقْرَفُونَ بَيْنَهُمْ، وَلَا يَجْحَدُونَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ<sup>(٩)</sup>. ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أَيُّ بِالْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ<sup>(١٠)</sup>. وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ الْآخِرَةُ، لِأَنَّهَا بَعْدَ الدُّنْيَا.

[أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ]

وَالْمَوْصُوفُونَ هُنَا هُمْ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُصِیُّونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاثُ عَشْرَةٍ فِي الْمُنَافِقِينَ<sup>(١١)</sup>. فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ عَامَّاتٌ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ انْتَصَفَ بِهَا مِنْ عَرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ، وَكِتَابِيٍّ، مِنْ إِنْسِيٍّ وَجَنِّيٍّ. وَلَيْسَ تَصِحُّ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِدُونِ الْأُخْرَى، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مُسْتَلَزِمَةٌ لِلْأُخْرَى وَشَرْطٌ مَعَهَا، فَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَالْإِيْقَانُ بِالْآخِرَةِ.

كَمَا أَنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ إِلَّا بِذَاكَ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ - كَمَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ... آيَةَ [النساء: ١٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا

(١) الطبري: ٢٤١/١ (٢) الطبري: ٢٤١/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٧/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٧/١ (٥) الطبري: ١/٢٤٣ (٦) الطبري: ٢٤٣/١ (٧) الطبري: ٢٤٣/١ (٨) الفتح: ٦٤/١ (٩) الطبري: ٢٤٤/١ (١٠) ابن أبي حاتم: ٣٩/١ (١١) الطبري: ٢٣٩/١



## يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي غَطَّوْا الْحَقَّ وَسَتَرُوهُ، وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ إِذْذَارُكَ وَعَدَمُهُ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧] وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُعَانِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا أَلَيْسَ يَكُنَّ آيَةً مَّا يَتَّبِعُونَ قِلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، أَيْ إِنَّ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ فَلَا مُسْعِدَ لَهُ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ، وَبَلَّغَهُمُ الرِّسَالَةَ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لَكَ فَلَهُ الْحِطُّ الْأَوْفَرُ، وَمَنْ تَوَلَّى فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهْمُكَ ذَلِكَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْرِصُ أَنْ يُؤْمِنَ جَمِيعُ النَّاسِ وَيَتَّبِعُوهُ عَلَى الْهُدَى، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَلَا يَضِلُّ إِلَّا مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ الشَّقَاوَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ<sup>(١)</sup>.

﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧)

[مَعْنَى الْحَتْمِ]

قَالَ السُّدِّيُّ: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ﴾ أَي طَبَعَ اللَّهُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ إِذْ أَطَاعُوهُ فَحَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ هُدًى وَلَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَقْفَهُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ: الطَّبَعُ. ثَبَّتَ الذُّنُوبَ عَلَى الْقَلْبِ فَحَتَّتْ بِهِ مِنْ كُلِّ نَوَاجِيهِ حَتَّى تَلْتَقِيَ عَلَيْهِ، فَالْتِقَاؤُهَا عَلَيْهِ الطَّبَعُ، وَالطَّبَعُ الْحَتْمُ<sup>(٤)</sup>. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَلْحَتَمَ عَلَى الْقَلْبِ وَالسَّمْعِ<sup>(٥)</sup>. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ أَنَّهُ

أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَاللَّهُمَّ وَجِدْ... الْآيَةَ [العنكبوت: ٤٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ أَوْثَرُوا أَلَيْسَ يَكُنَّ آيَةً مَّا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّهَلُّوا أَلَيْسَ لَكُمْ عَلَى شَيْءٍ حَقٌّ تُقِيمُوا التَّوَرَتَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ بِذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ يَدَيْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكَمَرُوا بَيْنَ يَدَيْ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى جَمِيعِ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ - لَكِنْ لِيُؤْمِنِي أَهْلُ الْكِتَابِ خُصُوصِيَّةً، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا بَأْيَدِيهِمْ مُضْطَلًّا، فَإِذَا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَآمَنُوا بِهِ مُفَضَّلًا كَانَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَإِنَّمَا يَحْصُلُ لَهُ الْإِيمَانُ بِمَا تَقَدَّمَ مُجْمَلًا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تَكْذِبُوهُمْ وَلَا تُصَدِّقُوهُمْ، وَلَكِنْ قُولُوا: آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ»<sup>(١)</sup>. وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ إِيْمَانُ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ وَأَعَمَّ وَأَشْمَلَ، مِنْ إِيْمَانٍ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، فَهُمْ وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَجْرَانِ مِنْ تِلْكَ الْحَيْثِيَّةِ، فَغَيْرُهُمْ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ التَّضَدِيقِ مَا يُبَيِّنُ ثَوَابَهُ عَلَى الْأَجْرَيْنِ الَّذِينَ حَصَلَا لَهُمْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥)

[الْهُدَايَةُ وَالْفَلَاحُ مِنْ نَصِيبِ الْمُؤْمِنِينَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أَي الْمُتَصِفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللَّهُ، وَالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْإِيْقَانِ بِالْأَخِرَةِ، وَهُوَ مُسْتَلْزِمُ الْإِسْتِعْدَادِ لَهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿عَلَى هُدًى﴾ أَيْ عَلَى نُورٍ وَبَيَانٍ وَبَصِيرَةٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِأَنْ أَدْرَكُوا مَا طَلَبُوا وَنَجَوْا مِنْ شَرِّ مَا مِنْهُ هَرَبُوا، فَفَارَزُوا بِالثَّوَابِ وَالْخُلُودِ فِي الْجَنَّاتِ، وَالتَّجَاةِ مِمَّا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْعِقَابِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا

(١) أبو داود: ٥٩/٤ (٢) الطبري: ٢٥٢/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٤٤/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٤٤/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٤٤/١ (٦) الطبري: ٢٥٩/١

وَجَعَلَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، يَقُولُ: عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَلَا يُبْصِرُونَ<sup>(٨)</sup>.

### [ذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ]

لَمَّا تَقَدَّمَ وَصِفُ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ بِأَرْبَعِ آيَاتٍ ثُمَّ عَرَفَ حَالِ الْكَافِرِينَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ شَرَعَ تَعَالَى فِي بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَلَمَّا كَانَ أَمْرُهُمْ يَشْتَبِهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِمْ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ كُلُّ مِنْهَا نِفَاقٌ، كَمَا أَنْزَلَ سُورَةَ بَرَاءَةِ فِيهِمْ، وَسُورَةَ الْمُنَافِقِينَ فِيهِمْ، وَذَكَرَهُمْ فِي سُورَةِ النُّورِ وَغَيْرِهَا مِنَ السُّورِ تَعْرِيفًا لِأَحْوَالِهِمْ لِيُجَنَّبَ، وَيَجْتَنَّبَ مَنْ تَلَبَّسَ بِهَا أَيْضًا، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

### [مَعْنَى النِّفَاقِ]

النِّفَاقُ، هُوَ: إِظْهَارُ الْخَيْرِ وَإِسْرَارُ الشَّرِّ. وَهُوَ أَنْوَاعٌ: اِعْتِقَادِيٌّ، وَهُوَ الَّذِي يُخَلِّدُ صَاحِبَهُ فِي النَّارِ. وَعَمَلِيٌّ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الذُّنُوبِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذَا كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: اَلْمُنَافِقُ يُخَالِفُ قَوْلَهُ فِعْلُهُ، وَبِرُهُ عِلَاقَتُهُ، وَمَدْخَلُهُ مَخْرَجُهُ، وَمَشْهُدُهُ مَغْيِبُهُ<sup>(٩)</sup>.

### [بِدَايَةُ النِّفَاقِ]

وَلَمَّا نَزَلَتْ صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ فِي السُّورِ الْمَدَنِيَّةِ لِأَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نِفَاقٌ، بَلْ كَانَ خِلَافُهُ، مِنَ النَّاسِ مَنْ كَانَ يُظْهِرُ الْكُفْرَ مُسْتَكْرَهًا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُؤْمِنٌ، فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ بِهَا الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَكَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَعْْبُدُونَ الْأَصْنَامَ عَلَى طَرِيقَةِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَبِهَا الْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْلَافِهِمْ، وَكَانُوا ثَلَاثَ قَبَائِلَ: بَنُو قَيْنُقَاعٍ حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ، وَبَنُو النَّضِيرِ وَبَنُو قُرَيْظَةَ حُلَفَاءُ الْأَوْسِ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ قَبِيلَتِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَقَلَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ

سَمِعَ مُجَاهِدًا يَقُولُ: الرَّأْيُ أَيْسَرُ مِنَ الطَّنْبِ، وَالطَّنْبُ أَيْسَرُ مِنَ الْإِقْفَالِ، وَالْإِقْفَالُ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ الْأَعْمَشُ: أَرَانَا مُجَاهِدٌ بِيَدِهِ فَقَالَ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْقَلْبَ فِي مِثْلِ هَذِهِ يَغْنِي الْكَفَّ، فَإِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا ضَمَّ مِنْهُ، وَقَالَ بِأَصْبُعِهِ الْخَنْصِرَ هَكَذَا، فَإِذَا أَذْنَبَ ضَمَّ، وَقَالَ بِأَصْبُعٍ أُخْرَى، فَإِذَا أَذْنَبَ ضَمَّ، وَقَالَ بِأَصْبُعٍ أُخْرَى هَكَذَا، حَتَّى ضَمَّ أَصَابِعَهُ كُلَّهَا، ثُمَّ قَالَ: يُطْبِعُ عَلَيْهِ بِطَاطِيعٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّيُّ<sup>(١١)</sup>.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَاجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْخَتْمِ وَالطَّنْبِ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ مُجَازَاةً لِكُفْرِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]<sup>(١٢)</sup>. وَذَكَرَ حَدِيثَ تَقْلِيلِ الْقُلُوبِ «يَا مُؤَلَّبُ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»<sup>(١٣)</sup> وَذَكَرَ حَدِيثَ حَدِيثَةَ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: «تُعْرَضُ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْخَنْصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نَكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةُ سُودَاءٍ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَكْزَرَهَا نَكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةُ بَيَاضَاءٍ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَحِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا»<sup>(١٤)</sup>...

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْحَقُّ عِنْدِي فِي ذَلِكَ مَا صَحَّ بِنَظِيرِهِ الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةُ سُودَاءٍ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ ضَلَّ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، فَلَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [المطففين: ١٤]<sup>(١٥)</sup>. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٦)</sup>.

### [إِعْرَابُ غِشَاوَةٍ وَمَعْنَاهَا]

وَاعْلَمْ أَنَّ الْوُفْقَ النَّامَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ جُمْلَةً تَامَةً، فَإِنَّ الطَّنْبَ يَكُونُ عَلَى الْقَلْبِ وَعَلَى السَّمْعِ، وَالْغِشَاوَةُ وَهِيَ الْغِطَاءُ يَكُونُ عَلَى الْبَصَرِ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [٧] يَقُولُ: فَلَا يَعْقِلُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ، يَقُولُ:

(١) الطبري: ٢٥٩/١ (٢) الطبري: ٢٥٨/١ (٣) القرطبي: ١٨٧/١ (٤) الترمذي: (٢١٤٠) وابن ماجه: ٣٨٣٤ (٥) مسلم: ١٢٨/١ (٦) الطبري: ٢٦٠/١ (٧) تحفة الأحوزي: ٢٥٤/٩ والنسائي في الكبرى: ٥٠٩/٦ وابن ماجه: ١٤١٨/٢ (٨) الطبري: ٢٦٦/١ (٩) الطبري: ٢٧٠/١

الْمُتَّقِينَ

٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا يَوْمَ الْآخِرَةِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ الْأَوَّلُونَ كَمَا ءَامَنَ السَّافِهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [٩] أَيْ يَظَاهِرُهُمْ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَعَ إِسْرَارِهِمُ الْكُفْرَ يَتَعَقَّدُونَ بِجَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ بِذَلِكَ، وَأَنَّ ذَلِكَ نَافِعُهُمْ عِنْدَهُ، وَأَنَّهُ يُرَوِّجُ عَلَيْهِ كَمَا قَدْ يُرَوِّجُ عَلَى بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] وَلِهَذَا قَابَلَهُمْ عَلَىٰ اعْتِقَادِهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ: وَمَا يَحْسَبُونَ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا، وَلَا يَخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ﴾ قَالَ: يُظَاهِرُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُرِيدُونَ أَنَّ يَحْزَرُوا بِذَلِكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ غَيْرُ ذَلِكَ <sup>(٢)</sup>.

الْيَهُودِ إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ يَفَاقُ أَيُّضًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدَ شَوْكَةِ تَخَافٍ، بَلْ قَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَادَّعَى الْيَهُودَ وَقَبَائِلَ كَثِيرَةً مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوَالِي الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقَعَةُ بَدْرٍ وَأَظْهَرَ اللَّهُ كَلِمَتَهُ وَأَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ، وَكَانَ رَأْسًا فِي الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مِنَ الْخَزَرَجِ، وَكَانَ سَيِّدَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ، فَجَاءَهُمُ الْخَيْرُ وَأَسْلَمُوا وَاسْتَعْلَوْا عَنْهُ، فَقَبِيَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقَعَةُ بَدْرٍ قَالَ: هَذَا أَمْرُ اللَّهِ قَدْ تَوَجَّهَ، فَأَظْهَرَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ، وَدَخَلَ مَعَهُ طَوَائِفٌ مِمَّنْ هُوَ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَنَحْلَتِهِ، وَآخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَمِنْ ثَمَّ وَجِدَ الثَّفَاقَ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ، فَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ نَافِقٍ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُهَاجِرُ مَكْرَهَا، بَلْ يُهَاجِرُ فِتْرَتُكَ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَرْضَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

[تفسير الآية]

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا يَوْمَ الْآخِرَةِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ <sup>(١)</sup>. وَكَذَا فَسَّرَهَا بِالْمُنَافِقِينَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَلِهَذَا نَبَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِظَاهِرِ أَمْرِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَيَقَعَ بِذَلِكَ فَسَادٌ عَرِضٌ مِنْ عَدَمِ الْإِحْتَزَازِ مِنْهُمْ وَمِنْ اعْتِقَادِ إِيْمَانِهِمْ، وَهُمْ كُفَّارٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَهَذَا مِنَ الْمَحْذُورَاتِ الْكِبَارِ أَنْ يُظَنَّ بِأَهْلِ الْفُجُورِ خَيْرٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا يَوْمَ الْآخِرَةِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ يَقُولُونَ ذَلِكَ قَوْلًا لَيْسَ وَرَاءَهُ شَيْءٌ آخَرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون: ١] أَيْ إِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ إِذَا جَاءَوْكَ فَقَطْ لَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلِهَذَا يُؤَكِّدُونَ فِي الشَّهَادَةِ "يَٰنَّ" وَ"لَا" التَّأَكِيدَ فِي خَبَرِهَا. أَكْدُوا أَمْرَهُمْ قَالُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا يَوْمَ الْآخِرَةِ. وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، كَمَا كَذَّبَهُمُ اللَّهُ فِي شَهَادَتِهِمْ وَفِي خَبَرِهِمْ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ اعْتِقَادِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) الطبري: ٢٦٩/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٤٦/١

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنُفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ تَحَنُّنًا لِّعَلَّاهُمْ... [الآية: التوبة: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٠١] ﴿لَمَّا نَبَايَاكُمْ أَتَيْنَا نَبْفُوًا أُخْدُوا وَقُتِلُوا نَفْسِيًّا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١] فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفَهُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْ عَلَى أَغْيَابِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ تَذَكُّرٌ لَهُ صِفَاتِهِمْ فَيَتَوَسَّسُ فِي بَعْضِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ بِالتَّفَاقِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُولٍ، وَقَدْ شَهِدَ عَلَيْهِ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا مَاتَ صَلَّى عَلَيْهِ ﷺ وَشَهِدَ دَفْنَهُ كَمَا يَفْعَلُ بَيِّنَةُ الْمُسْلِمِينَ. وَقَدْ عَاتَبَهُ ﷺ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ فَقَالَ: «إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يُقْتَلُ أَصْحَابُهُ» (٥)، وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ» وَفِي رِوَايَةٍ «لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّابِقِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ» (٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [١١] أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [الْمُرَادُ بِالْفَسَادِ]

قَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعَنِ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قَالَ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ، أَمَّا ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: الْفَسَادُ هُوَ الْكُفْرُ وَالْعَمَلُ بِالْمَعْصِيَةِ (٧). وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: يَعْنِي لَا تَعْصُوا فِي الْأَرْضِ. وَكَانَ فَسَادُهُمْ ذَلِكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، لِأَنَّهُ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَمَرَ بِمَعْصِيَتِهِ فَقَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، لِأَنَّ صَلَاحَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِالطَّاعَةِ (٨). وَهَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ (٩).

[أَنْوَاعُ فَسَادِ الْمُنَافِقِينَ]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَأَهْلُ التَّفَاقِ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ:

(١) ابن أبي حاتم: ٤٧/١ (٢) الطبري: ٢٨٠/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٤٨/١ (٤) الطبري: ٢٨٠/١ (٥) الطبري: ٢٣/٤٠٦ (٦) فتح الباري: ١٨٤/٨ ومسلم: ٢١٤١/٤ (٧) الطبري: ٢٨٨/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٥٠/١ (٩) ابن أبي حاتم: ٥١/١

وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ نَعْتُ الْمُنَافِقِ عِنْدَ كَثِيرٍ: خَنِيعُ الْأَخْلَاقِ، يُصَدِّقُ بِلِسَانِهِ، وَيُنْكِرُ بِقَلْبِهِ، وَيُخَالِفُ بِعَمَلِهِ، وَيُضَيِّعُ عَلَى حَالٍ وَيُمْسِي عَلَى غَيْرِهِ، وَيُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُضَيِّعُ عَلَى غَيْرِهِ، وَيَتَكَفَّ تَكْفُؤَ السَّفِينَةِ كُلَّمَا هَبَّتْ رِيحٌ هَبَّ مَعَهَا (١).

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٣﴾

[الْمُرَادُ بِالْمَرَضِ]

قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ مَرَّةَ الْأَهْمَدَانِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قَالَ: شَكٌّ، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قَالَ: شَكًّا (٢). وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ (٣). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَشْلَمَ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قَالَ: هَذَا مَرَضٌ فِي الدِّينِ، وَلَيْسَ مَرَضًا فِي الْأَجْسَادِ، وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ، وَالْمَرَضُ: الشَّكُّ الَّذِي دَخَلَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ قَالَ: زَادَهُمْ رَجَسًا (٤). وَقَرَأَ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١٣] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]: قَالَ: شَرًّا إِلَى شَرِّهِمْ وَضَلَالَةً إِلَى ضَلَالَتِهِمْ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ - رَجَمَهُ اللَّهُ - حَسَنٌ، وَهُوَ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَكَذَلِكَ قَالَهُ الْأَوَّلُونَ، وَهُوَ تَطْيِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَكَثُرَتْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ [محمد: ١٧] وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ وَفَرَى (يَكْذِبُونَ)، وَقَدْ كَانُوا مُتَصِفِينَ بِهَذَا وَهَذَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا كَذِبَةً، وَيَكْذِبُونَ بِالْغَيْبِ، يَجْمَعُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا.

(نَبِيَّةٌ) قَوْلٌ مَنْ قَالَ: كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْلَمُ أَغْيَانَ بَعْضِ الْمُتَنَافِقِينَ، إِنَّمَا مُسْتَنَدُهُ حَدِيثُ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ فِي تَسْمِيَةِ أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ عَشَرَ مُنَافِقًا فِي غَزْوَةِ بَنِي النَّدِيرِ هَمُّوا أَنْ يُقْتَلُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ظُلُمَاءِ اللَّيْلِ عِنْدَ عَقَبَةٍ هُنَاكَ، عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُقَرُّوا بِهِ النَّاقَةَ لِيَسْقُطَ عَنْهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ، فَأَطْلَعَ عَلَى ذَلِكَ حُذَيْفَةُ. فَأَمَّا غَيْرُ هَؤُلَاءِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمُ

بِمَعْصِيَتِهِمْ فِيهَا رَبَّهُمْ. وَرُكُوبِهِمْ فِيهَا مَا نَهَاهُمْ عَنْ رُكُوبِهِ. وَتَضْيِيعِهِمْ فَرَائِضَهُ، وَشَكْهَمُ فِي دِينِهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ عَمَلٌ إِلَّا بِالتَّضَدِيقِ بِهِ وَالْإِقْيَانِ بِحَقِيقَتِهِ. وَكَذِبُهُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِدَعْوَاهُمْ غَيْرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ. وَمُظَاهَرَتِهِمْ أَهْلَ التَّكْذِيبِ بِاللَّهِ وَكُتْبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إِذَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا. فَذَلِكَ إِفْسَادُ الْمُتَنَافِقِينَ فِي الْأَرْضِ، وَهُمْ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ مُصْلِحُونَ فِيهَا<sup>(١)</sup>.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ، فَإِنَّ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ اتِّخَاذَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] فَقَطَعَ اللَّهُ الْمَوَالَاةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] فَالْمُنَافِقُ لَمَّا كَانَ ظَاهِرُهُ الْإِيمَانَ اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَكَانَ الْفَسَادُ مِنْ جِهَةِ الْمُنَافِقِ حَاصِلًا، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَرَّ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَوَالِيَ الْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ عَلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ لَكَانَ شُرُّهُ أَخْفَ، وَلَوْ أَخْلَصَ الْعَمَلُ لِلَّهِ وَتَطَابَقَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ لِأَفْلَحَ وَنَجَحَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أَيْ تُرِيدُ أَنْ تُنَادِيَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَنَضْطَلِحَ مَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، كَمَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا تُرِيدُ الْإِصْلَاحَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ<sup>(٢)</sup>. فَيَقُولُ اللَّهُ: ﴿آلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ: آلا إِنَّ هَذَا الَّذِي يَعْتَمِدُونَهُ وَيَرْغَمُونَ أَنَّهُ إِصْلَاحٌ هُوَ عَيْنُ الْفَسَادِ، وَلَكِنْ مِنْ جَهْلِهِمْ لَا يَشْعُرُونَ بِكَوْنِهِ فَسَادًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الشُّفَهَاءُ آلا إِنَّهُمْ هُمُ الشُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لِلْمُنَافِقِينَ ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أَيْ كَلِيمَانِ النَّاسِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبُعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ

الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَعَنْهُ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي امْتِنَالِ الْأَوَامِرِ وَتَرْكِ الزَّوَاجِرِ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الشُّفَهَاءُ﴾ يَحْسُبُونَ - لَعَنَهُمُ اللَّهُ - أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ<sup>(٤)</sup>. وَبِهِ يَقُولُ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ<sup>(٥)</sup>. وَغَيْرُهُمْ. يَقُولُونَ: أَنْصِرُ نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ، وَعَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُمْ شُفَهَاءُ؟

وَالشُّفَهَاءُ جَمْعُ سَفِيهِ كَمَا أَنَّ الْحُكَمَاءَ جَمْعُ حَكِيمٍ وَالْحُلَمَاءَ جَمْعُ حَلِيمٍ، وَالسَّفِيهِ هُوَ الْجَاهِلُ الضَّعِيفُ الرَّأْيِ، الْقَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ بِمَوَاضِعِ الْمَصَالِحِ وَالْمَصَارِّ، وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ النِّسَاءَ وَالصَّبِيَّانَ شُفَهَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥] قَالَ عَامَّةُ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: هُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ. وَقَدْ تَوَلَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَوَابَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا فَقَالَ: ﴿آلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فَأَكَّدَ وَحَصَرَ السُّفَاهَةَ فِيهِمْ ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي وَمِنْ تَمَامِ جَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِحَالِهِمْ فِي الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلِ، وَذَلِكَ أَرَادَى لَهُمْ وَأُبْلَغَ فِي الْعَمَى، وَالتَّبَعْدُ عَنِ الْهُدَى.

﴿وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾<sup>(٦)</sup> اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيُذَكِّرُ فِي

طَلْعَتِهِمْ يَعْهَدُونَ ﴿٥﴾

[مَكْرُ الْمُتَنَافِقِينَ وَخِدَاعُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا لَقِيَ هَؤُلَاءِ الْمُتَنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: آمَنَّا، وَأَطْهَرُوا لَهُمُ الْإِيمَانُ وَالْمَوَالَاةُ وَالْمَصَافَاةُ غُرُورًا مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنِفَاقًا وَمُضَانَعَةً وَتَقِيَّةً، وَلِيُشْرِكُوهُمْ فِيمَا أَصَابُوا مِنْ خَيْرٍ وَمَعْنَمٍ ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يَعْنِي إِذَا انْصَرَفُوا وَذَهَبُوا وَخَلَصُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ - وَشَيَاطِينُهُمْ: سَادَتُهُمْ وَكَبَرَاؤُهُمْ مِنْ أَخْبَارِ الْيَهُودِ وَرُؤُوسِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

[شَيَاطِينُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَشَيَاطِينُ كُلِّ شَيْءٍ مَرَدُّهُ، وَيَكُونُ

(١) الطبري: ٢٨٩/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٥٢/١ إسناده ضعيف لأجل تدليس محمد بن إسحاق ولم يصرح وشيخه محمد بن أبي محمد وهو مجهول (٣) الطبري: ٢٩٣/١ (٤) الطبري: ٢٩٤/١

الْبَقَرَةُ

٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مَسْأَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ  
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضَمُّ  
بُكْمٍ عُمَى فَهُمْ لَا يَرِجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ  
ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَصْنَعِيهِمْ فِيءًا إِذْ أَنزَلْنَاهُمْ مِنَ الصَّوْعِ  
حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَاذِبُونَ يُخَطِّفُونَ  
أَبْصَارَهُمْ كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَافِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا  
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ  
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ  
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ  
بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ  
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا  
فَأْتُوا سُورَةَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا  
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

الشَّيْطَانُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ  
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى  
بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

[مَعْنَى الْإِسْتِهْزَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ  
ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنِّي إِنَّا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ  
مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا نَحْنُ نَسْتَهْزِئُ بِالْقَوْمِ وَلَنَلْعَبَ بِهِمْ<sup>(١)</sup>.  
وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾  
سَاجِرُونَ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَذَلِكَ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ  
أَنَسٍ وَقَتَادَةُ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى جَوَابًا وَمُقَابَلَةً عَلَى صَنِيعِهِمْ  
﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيُذِيقُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وَقَالَ ابْنُ  
جَرِيرٍ: أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ فَاعِلٌ بِهِمْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا  
نَقِصَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ  
لَمْ يَأْتِ بِالطُّغْيَانِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهَرَهُ مِنْ فِيْلِهِ الْعَذَابُ﴾... الْآيَةُ  
[الحديد: ١٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَخْشَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَمَّا  
نُحْلُ لَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَحْلُ لَكُمْ لِيُزَادُوا فِي إِثْمَانِهِمْ﴾...  
الْآيَةُ [آل عمران: ١٧٨]، قَالَ: فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ اسْتِهْزَاءِ  
اللَّهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - وَسُخْرِيَّتِهِ وَمَكْرِهِ وَخَدِيعَتِهِ لِلْمُنَافِقِينَ  
وَأَهْلِ الشَّرْكِ بِهِ.

[مَكْرُ الْمُنَافِقِينَ وَبَالَهُ عَلَيْهِمْ]

فَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ مُجَارِبُهُمْ جَزَاءَ الْإِسْتِهْزَاءِ،  
وَمُعَاقِبُهُمْ عُقُوبَةُ الْخِدَاعِ، فَأَخْرَجَ خَبْرَهُ عَنْ جَزَائِهِ إِثَامَهُمْ  
وَعِقَابِهِ لَهُمْ مَخْرَجَ خَبْرِهِ عَنْ فِعْلِهِمُ الَّذِي عَلَيْهِ اسْتَحَقُّوا  
الْعِقَابَ، فِي اللَّفْظِ، وَإِنْ اخْتَلَفَ الْمَعْنَيَانِ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَحَزُوا سِنِينَ سِنِينَ مِنْهَا قَمَحٌ وَشَلَحَ فَاجَرُوا عَلَى  
اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَعْدَى عَلَيْكُمْ فَاغْتَدُوا  
عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فَأَلَوَّلُ ظُلْمٌ وَالثَّانِي عَدْلٌ، فَهُمَا وَإِنْ  
اتَّفَقَ لَفْظُهُمَا فَقَدْ اخْتَلَفَ مَعْنَاهُمَا، قَالَ: وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى  
وَجَّهُوا كُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَظَائِرِ ذَلِكَ. لِأَنَّ الْمَكْرَ  
وَالْخِدَاعَ وَالسُّخْرِيَّةَ عَلَى وَجْهِ اللَّعِبِ وَالْعَيْبِ مُتَنَبِّ عَنْ اللَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ بِالْإِجْمَاعِ، وَأَمَّا عَلَى وَجْهِ الْإِنْتِقَامِ وَالْمُقَابَلَةِ  
بِالْعَدْلِ وَالْمُجَارَاةِ فَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ.

[الْمَدُّ وَالطُّغْيَانُ وَالْعَمَةُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُذِيقُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]  
رَوَى السُّدِّيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ أَنَاسٍ

مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَيُذِيقُهُمْ﴾: يُعْلِي لَهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ  
مُجَاهِدٌ: يَزِيدُهُمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ  
مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ﴾ شَأْنُ لَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ بَلَّ لَا يَنْعُرُونَ [المؤمنون:  
٥٥، ٥٦] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ نَزِيدُهُمْ عَلَى وَجْهِ  
الْإِمْلَاءِ وَالتَّرْكِ لَهُمْ فِي عُتُوِّهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ  
وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]<sup>(٦)</sup> وَالطُّغْيَانُ:  
هُوَ الْمُجَاوَزَةُ فِي الشَّيْءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْكُفْرُ  
حَمَلْنَاكُمْ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [الحاقة: ١١] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَ(الْعَمَةُ):  
الضَّلَالُ. يُقَالُ: عَمِيَ فُلَانٌ يَعْصُهُ عَمَاهُ وَعُصْمُهَا إِذَا ضَلَّ،  
قَالَ: وَقَوْلُهُ: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فِي ضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ  
الَّذِي عَمَرَهُمْ دَسُّهُ وَعَلَاهُمْ رِجْسُهُ، يَتَرَدَّدُونَ حَيَارَى

(١) الطبري: ٣٠٠/١: ضعيف لتدليس ابن إسحاق (٢) الطبري:

٣٠٠/١: ضعيف الضحاک لم يسمع من ابن عباس (٣) الطبري:

٣٠٠/١ (٤) الطبري: ٣١١/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٥٧/١

(٦) الطبري: ٣٠٧/١



طَفِئَتْ نَارُهُ، وَصَارَ فِي ظَلَامٍ شَدِيدٍ لَا يُبْصِرُ وَلَا يَهْتَدِي، وَهُوَ مَعَ هَذَا أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ، أَبْكَمٌ لَا يَنْطِقُ، أَعْمَى لَوْ كَانَ ضِيَاءٌ لَمَا أَبْصَرَ، فَلِهَذَا لَا يَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ فِي اسْتِئْذَانِهِمُ الصَّلَاةَ عَوَضًا عَنِ الْهُدَى وَاسْتِجَابَتِهِمُ الْغَيِّ عَلَى الرُّشْدِ. وَفِي هَذَا الْمَثَلِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أَيِ ذَهَبَ عَنْهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَهُوَ النُّورُ، وَأَبْقَى لَهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، وَهُوَ الْإِحْرَاقُ وَاللُّحْثَانُ ﴿وَوَرَّكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وَهُوَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّكِّ وَالْكَفْرِ وَالْتِفَاقِ ﴿لَا يَبْصُرُونَ﴾ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى سَبِيلِ خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُونَهَا، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿صُمٌّ﴾ لَا يَسْمَعُونَ خَيْرًا ﴿بُكْمٌ﴾ لَا يَتَكَلَّمُونَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ ﴿عُمَى﴾ فِي ضَلَالَةٍ وَعَمَايَةِ الْبَصِيرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَنْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فَلِهَذَا لَا يَرْجِعُونَ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَايَةِ الَّتِي بَاعَوْهَا بِالضَّلَالَةِ.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعَّةٌ وَرَقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ مِنَ الصَّوْنِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يَكَادُ الذَّرَقُ يَخْطُفُ أَنْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْبَصَرَهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

[مَثَلٌ آخَرٌ لِلْمُنَافِقِينَ]

هَذَا مَثَلٌ آخَرُ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِضَرْبِ آخَرٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَهُمْ قَوْمٌ يَظْهَرُ لَهُمُ الْحَقُّ تَارَةً وَيَشْكُونَ تَارَةً أُخْرَى، فَقُلُوبُهُمْ فِي حَالٍ شَكٍّ وَكُفْرِهِمْ وَتَرَدُّدِهِمْ ﴿كَصَيِّبٍ﴾ وَالصَّيْبُ: الْمَطَرُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَنَاسٌ مِنَ الصَّحَابَةِ (٦). وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ، وَالشَّدْيِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ (٧). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ السَّحَابُ (٨). وَالْأَشْهَرُ هُوَ الْمَطَرُ نَزَلَ

ضَلَالًا لَا يَجِدُونَ إِلَى الْمَخْرَجِ مِنْهُ سَبِيلًا، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَخَتَمَ عَلَيْهَا، وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَغْشَاهَا فَلَا يُبْصِرُونَ رُشْدًا وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتْ بِتَحَرُّهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٦﴾

رَوَى الشَّدْيِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ قَالَ: أَخَذُوا الضَّلَالَةَ وَتَرَكُوا الْهُدَى. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا (٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتَحَبُّوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى (٣)، وَهَذَا الَّذِي قَالَ قَتَادَةُ يُشَبِّهُهُ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى فِي تَمُودَ: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾. [فصلت: ١٧]

وَحَاصِلُ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ فِيْمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ عَدَلُوا عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ وَاعْتَاَصُوا عَنِ الْهُدَى بِالضَّلَالَةِ. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أَيِ بَدَلُوا الْهُدَى ثَمَنًا لِلضَّلَالَةِ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ قَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِيمَانُ ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ إِلَى الْكُفْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣] أَوْ أَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى كَمَا يَكُونُ حَالُ فَرِيقٍ آخَرَ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَنْوَاعٌ وَأَقْسَامٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا رِبِحَتْ بِتَحَرُّهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أَيِ مَا رِبِحَتْ صِفَتُهُمْ فِي هَذِهِ السَّبِيْعَةِ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ أَيِ رَاشِدِينَ فِي صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿فَمَا رِبِحَتْ بِتَحَرُّهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قَدْ وَاللَّهِ رَأَيْتُهُمْ خَرَجُوا مِنَ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالَةِ، وَمِنَ الْجَمَاعَةِ إِلَى الْفُرْقَةِ، وَمِنَ الْأَمْنِ إِلَى الْخَوْفِ، وَمِنَ السَّنَةِ إِلَى الْبِدْعَةِ (٤). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِمِثْلِهِ سَوَاءً (٥).

﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَوَرَّكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ ﴿٧﴾ صُمٌّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ

لَا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾

[مَثَلٌ آخَرٌ لِلْمُنَافِقِينَ]

تَقْدِيرُ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سَبَّهَهُمْ فِي اشْتِرَائِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، وَصَيَّرَ وَرَثَتَهُمْ بَعْدَ الْبَصِيرَةِ إِلَى الْعَمَى، بِمَنْ اسْتَوْفَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ وَانْتَفَعَ بِهَا وَأَبْصَرَ بِهَا مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، وَتَأَنَسَ بِهَا، فَيَبِئْسَ هُوَ كَذَلِكَ إِذْ

(١) الطبري: ٣٠٩/١ (٢) الطبري (٣٨٤، ٣٨٣) وابن أبي حاتم (١٥٤) وسنده صحيح. (٣) الطبري (٣٨٢) وابن أبي حاتم (١٥٢) وسنده صحيح أيضًا. (٤) الطبري: ٣١٦/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٦٠/١ (٦) الطبري: ٣٣٤/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٦٦/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٦٧/١

فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴿[الحديد: ١٣]﴾. وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشَرِّكُمْ أَلَيْسَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿[الحديد: ١٢]﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا نُورًا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[التحرير: ٨]﴾.

ذَكَرَ الْحَدِيثُ الْوَارِدُ فِي ذَلِكَ

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قَالَ: عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ يَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ، مِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ النَّخْلَةِ، وَأَذْنَاهُمْ نُورًا مَنْ نُورُهُ فِي إِبْهَامِهِ يَتَقَدُّ مَرَّةً وَيُطْفَأُ أُخْرَى <sup>(٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ إِلَّا يُعْطَى نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيُطْفَأُ نُورُهُ، فَالْمُؤْمِنُ مُشْفِقٌ مِمَّا يَرَى مِنْ إِطْفَاءِ نُورِ الْمُنَافِقِينَ، فَهُمْ يَقُولُونَ ﴿رَبَّنَا أَتَيْنَا نُورًا﴾ [التحرير: ٨] <sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مَرْزَاحٍ: يُعْطَى كُلُّ مَنْ كَانَ يُظْهِرُ الْإِيمَانَ فِي الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورًا، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى الصِّرَاطِ طُفِيَ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ أَشْفَقُوا فَقَالُوا ﴿رَبَّنَا أَتَيْنَا نُورًا﴾ [التحرير: ٨].

﴿أَقْسَامُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَقْسَامُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾  
فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا صَارَ النَّاسُ أَقْسَامًا، مُؤْمِنُونَ خُلُصٌ، وَهُمْ الْمُوصُفُونَ بِالْآيَاتِ الْأَرْبَعِ فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ، وَكُفَّارٌ خُلُصٌ، وَهُمْ الْمُوصُفُونَ بِالْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَمُنَافِقُونَ وَهُمْ قِسْمَانِ: خُلُصٌ، وَهُمْ الْمَضْرُوبُ لَهُمُ الْمَثَلُ النَّارِيُّ، وَمُنَافِقُونَ يَتَرَدَّدُونَ، تَارَةً يَظْهَرُ لَهُمْ لَمْعُ الْإِيمَانِ وَتَارَةً يَخْبُو، وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَثَلِ الْمَائِي، وَهُمْ أَخَفُّ حَالًا مِنَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ.

ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلَ الْعِبَادِ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنََّّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْجَهْلِ

مِنَ السَّمَاءِ فِي حَالِ ظُلُمَاتٍ، وَهِيَ: الشُّكُوكُ وَالْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ ﴿وَرَعَدٌ﴾ وَهُوَ مَا يُرْجَعُ الْقُلُوبُ مِنَ الْخَوْفِ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ وَالْفَزَعَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَجْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المساقفون: ٤] وَقَالَ: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَكُمْ لِمَنْكُمْ وَمَا هُمْ بِبِرٍّ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْزَعُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَخُذُونَ مَلَكًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَكْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧] وَ﴿الْبَرْقُ﴾ هُوَ مَا يَلْمَحُ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الضُّرْبِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوْعِ حَذَرُ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أَيْ وَلَا يُجِدِي عَنْهُمْ حَذَرُهُمْ شَيْئًا، لِأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِقُدْرَتِهِ، وَهُمْ تَحْتَ مَشِيتِهِ وَإِرَادَتِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿٥٧﴾ فَرَعَوْنَ وَمُؤَدَّي ﴿٥٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿٥٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧-٢٠] بِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ أَيْ لِشِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ، وَضَعْفِ بَصَائِرِهِمْ وَعَدَمِ ثَبَاتِهَا لِلْإِيمَانِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ يَقُولُ: يَكَاذُ مُحْكَمُ الْقُرْآنِ يَذُلُّ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُنَافِقِينَ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿كُلَّمَا أَصَابَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ أَطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهِ، وَإِذَا أَصَابَ الْإِسْلَامَ نَكْبَةً قَامُوا لِيَرْجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ <sup>(٢)</sup>. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ [الحج: ١١] وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿كُلَّمَا أَصَابَ لَهُمْ مَسْأَةٌ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أَيْ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَيَتَكَلَّمُونَ بِهِ، فَهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ بِهِ عَلَى اسْتِقَامَةٍ، فَإِذَا ارْتَكَبُوا مِنْهُ إِلَى الْكُفْرِ قَامُوا أَيْ مُتَحَيِّرِينَ <sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالشَّدِيدُ بِسَنَدِهِ عَنِ الصَّحَابَةِ، وَهُوَ أَصَحُّ وَأَظْهَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ <sup>(٤)</sup>.

وَهَكَذَا يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَمَا يُعْطَى النَّاسُ النُّورَ بِحَسَبِ إِيمَانِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى مِنَ النُّورِ مَا يُضِيءُ لَهُ مَسِيرَةَ فَرَاسِخٍ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْفَأُ نُورُهُ تَارَةً وَيُضِيءُ أُخْرَى، فَيَمِشِي عَلَى الصِّرَاطِ تَارَةً وَيَقِفُ أُخْرَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْفَأُ نُورُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَهُمْ الْخُلُصُّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ

(١) الطبري: ٣٤٩/١ (٢) الطبري: ٣٤٩/١ (٣) الطبري: ٣٤٦/١ إسناده ضعيف لوجه: ١- محمد بن حميد الرازي شيخ الطبري ضعيف. ٢- وسلمة بن الفضل أيضًا ضعيف. ٣- محمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح له. ٤- محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت مجهول تفرد عنه ابن إسحاق كما في التفسير. (٤) ابن أبي حاتم: ٧٥/١ (٥) الطبري: ١٧٩/٢٣ (٦) الحاكم: ٤٩٥/٢

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ قَالَ: لِمَا تَرَكُوا مِنَ الْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ [ابن إسحاق]: أَيُّ إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ مَا أَرَادَ بِعِبَادِهِ مِنْ نِقْمَةٍ أَوْ عَفْوٍ قَدِيرٌ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، لِأَنَّهُ حَذَرَ الْمُنَافِقِينَ بِأَسْهٍ وَسَطَوْتِهِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ بِهِمْ مُحِيطٌ، وَعَلَى إِذْهَابِ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ قَدِيرٌ<sup>(٢)</sup>.

وَذَهَبَ ابْنُ جَرِيرٍ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ هَذَيْنِ الْمُثَلِّينِ مَضْرُوبَانِ لِصَنْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَتَكُونُ أَوْ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بِمَعْنَى الْوَاوِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمْ يَأْتِيًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أَوْ تَكُونُ لِلتَّخْيِيرِ أَيِ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِهَذَا وَإِنْ شِئْتَ بِهَذَا. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ. أَوْ لِلتَّسَاوِي مِثْلُ: جَالِسِ الْحَسَنِ أَوْ ابْنِ سِيرِينَ عَلَى مَا وَجَّهَهُ الرَّمُحْشَرِيُّ: أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا مُسَاوٍ لِلْآخَرِ فِي إِبَاحَةِ الْجُلُوسِ إِلَيْهِ. وَيَكُونُ مَعْنَاهُ عَلَى قَوْلِهِ: سَوَاءٌ ضَرَبْتَ لَهُمْ مَثَلًا بِهَذَا أَوْ بِهَذَا فَهُوَ مُطَابِقٌ لِحَالِهِمْ.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْعَبُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾<sup>(٣)</sup> الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَدْنَاءَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

### [تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ]

شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ وَحْدَانِيَّةِ أُلُوهِيَّتِهِ، بِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى عِبِيدِهِ، بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَإِسْبَاغِهِ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، بِأَنَّهُ جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا أَيْ مَهْدًا كَالْفِرَاشِ، مُقَرَّرَةً مُوَطَّاةً مُثَبَّتَةً بِالرَّوَاسِي الشَّامِيخَاتِ ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وَهُوَ السَّقْفُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا

الْمُرَكَّبَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَتَعْلَمُهُمْ كَرَيبٌ يُقِيعُهُ يَحْسَبُهُ الْأَطْمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ الْآيَةُ [النور: ٣٩]، ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلُ الْكُفَّارِ الْجُهَالِ الْجَهْلَ الْبَاسِطَ، وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿أَوْ كَطُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ بِرَنَّهُا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] فَفَسَّمِ الْكُفَّارَ هَهُنَا إِلَى قِسْمَيْنِ: دَاعِيَةٍ وَمُفَلِّدٍ، كَمَا ذَكَرَهُمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَجِّ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨، ٣].

وَقَدْ فَسَّمِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَّلِ الْوَاقِعَةِ وَفِي آخِرِهَا، وَفِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى قِسْمَيْنِ: سَابِقُونَ وَهُمْ الْمُقَرَّبُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ وَهُمْ الْأَبْرَارُ.

فَتَلَخَّصَ مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَانِ: مُقَرَّبُونَ وَأَبْرَارٌ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ صِنْفَانِ: دُعَاءٌ وَمُفَلِّدُونَ، وَأَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا صِنْفَانِ: مُتَافِقٌ خَالِصٌ، وَمُتَافِقٌ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُتَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَوْهَا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّيَمَّنَ خَانَ»<sup>(١)</sup>. اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَكُونُ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ إِيْمَانٍ وَشُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ. إِمَّا عَمَلِيٌّ - لِهَذَا الْحَدِيثِ - أَوْ اعْتِقَادِيٌّ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ.

### [أَنْسَامُ الْقُلُوبِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدٌ، فِيهِ مِثْلُ السَّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفٌ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَتَكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُضْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، فَسِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَتَكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ الْخَالِصِ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُضْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيْمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَمِثْلُ الْإِيْمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبُقْلَةِ يُمِدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمِثْلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْفَرْحَةِ يُمِدُّهَا الْفَتِيحُ وَالْدَّمُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ حَسَنٌ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ

(١) فتح الباري: ١/١١١ ومسلم: ١/٧٨ (٢) أحمد: ١٧/٣

(٣) إسناده ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم وهو صدوق اختلط أخيرا ولم يتميز حديثه فترك (تقريب لابن حجر ٥٨٥). ولاقطاعة: أبو البخري سعيد بن فيروز لم يدرك أبا سعيد البخري. أنظر للتفصيل تحرير تقريب التهذيب ٤١/٢ وجوده ابن كثير والسيوطي! (٤) ابن أبي حاتم: ١/٧٦ إسناده ضعيف ابن إسحاق مدلس ولم يصرح وفيه علل أخرى (٥) الطبري: ١/٣٦١

أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ  
وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَكَرِيمٌ سُودٌ ٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ  
وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ  
عِبَادِهِ الْغُلَامَةُ ٢٨﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨] وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ  
السَّارِحَةُ مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ لِلْمَنَافِعِ، وَمَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ  
مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالنَّبَاتِ الْمُخْتَلِفِ الطُّعُومِ  
وَالْأَرَابِيجِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، مَعَ اتِّحَادِ طَبِيعَةِ التَّرْبَةِ  
وَالْمَاءِ: اسْتَدَلَّ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ  
وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَلَطْفِهِ بِهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَبِرِّهِ  
بِهِمْ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ،  
وَالْآيَاتُ فِي الْقُرْآنِ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ  
وَأَذَعُوا شَهَادَتَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٩﴾  
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ اللَّهِ الَّتِي وَفُودَهَا النَّاسُ  
وَالْمِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٣٠﴾

[إِتْبَاتُ رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ]

ثُمَّ سَرَعَ تَعَالَى فِي تَقْرِيرِ النُّبُوَّةِ بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا  
هُوَ، فَقَالَ مُخَاطِبًا لِلْكَافِرِينَ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا  
عَلَى عَبْدِنَا﴾ بِعَيْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِ مَا جَاءَ  
بِهِ، إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَعَارِضُوهُ بِمِثْلِ مَا جَاءَ  
بِهِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِن كُنْتُمْ لَا  
تَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شَهَادَتَكُمْ﴾  
أَعْوَانَكُمْ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ: شُرَكَاءَكُمْ، أَيْ  
قَوْمًا آخَرِينَ يُسَاعِدُونَكُمْ عَلَى ذَلِكَ، أَيْ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ يَكُنْكُمْ  
فِي ذَلِكَ يَمْدُونَكُمْ وَيَنْصُرُونَكُمْ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿وَأَذَعُوا  
شَهَادَتَكُمْ﴾ قَالَ: نَاسٌ يَشْهَدُونَ بِهِ<sup>(٣)</sup>. يَغْنِي حُكَامَ  
الْفُصَحَاءِ.

[التَّحْدِي وَالْإِعْجَازُ]

وَقَدْ تَحَدَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ  
فَقَالَ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِثْلِ اللَّهِ هُوَ  
أَهْدَى مِنْهَا أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٨﴾ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿[الآية: ٤٩] وَقَالَ  
فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا

وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] وَأَنْزَلَ لَهُمْ مِنَ  
السَّمَاءِ مَاءً، وَالْمُرَادُ بِهِ السَّحَابُ هَهُنَا، فِي وَفْتِهِ عِنْدَ  
اجْتِنَاجِهِمْ إِلَيْهِ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّرُوعِ وَالشَّجَرِ مَا  
هُوَ مُشَاهِدٌ، رِزْقًا لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ، كَمَا قَرَّرَ هَذَا فِي غَيْرِ  
مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَمِنْ أَشْبَهِ آيَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ  
لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ  
صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ  
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] وَمَضْمُونُهُ: أَنَّهُ الْخَالِقُ  
الرَّازِقُ، مَالِكُ الدَّارِ وَسَاكِنِهَا، وَرَازِقُهُمْ، فَبِهَذَا يَسْتَحِقُّ  
أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا  
تَخْلَعُوا اللَّهُ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ  
مَسْعُودٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ  
اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ»<sup>(١)</sup>. الْحَدِيثُ.  
وَكَذَا حَدِيثٌ مُعَاذٍ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ أَنْ  
يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»<sup>(٢)</sup>. الْحَدِيثُ، وَفِي الْحَدِيثِ  
الْآخِرِ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ  
لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»<sup>(٣)</sup>.

[دَلَالَةُ وُجُودِ الْبَارِي تَعَالَى]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَالرَّازِيِّ وَغَيْرِهِ عَلَى  
وُجُودِ الصَّانِعِ تَعَالَى، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى،  
فَإِنْ مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ السُّفْلِيَّةَ وَالْعُلْوِيَّةَ وَاجْتِلَافَ  
أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا، وَطَبَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا، وَوَضْعِهَا فِي  
مَوَاضِعِ التَّنْعِ بِهَا مُحْكَمَةً، عِلْمَ قُدْرَةِ خَالِقِهَا وَحِكْمَتِهِ،  
وَعِلْمَهُ وَإِقْنَانَهُ وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ،  
وَقَدْ سُئِلَ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ تَعَالَى؟ فَقَالَ: يَا  
سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنَّ الْبَعَرَ لِكَيْدٌ عَلَى الْبَعِيرِ، وَإِنَّ أَثَرَ الْأَقْدَامِ  
لَتَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءُ ذَاتُ أَجْرَاجٍ، وَأَرْضُ ذَاتُ  
فِجَاجٍ، وَبَحَارُ ذَاتُ أَمْوَاجٍ؛ أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ  
اللطيف الخبير؟<sup>(٤)</sup>.

فَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ السَّمَوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَمَا  
فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ النَّيرَةِ مِنَ السَّيَّارَةِ وَمِنَ  
النُّوَابِتِ، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل  
يوم و ليلة و ديرة، ولها في أنفسها سبر يخصصها، ونظر إلى  
البحار المُكْتَنَفَةِ لِلْأَرْضِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالْجِبَالِ  
الْمَوْضُوعَةِ فِي الْأَرْضِ لِتَقَرَّ وَيَسْكُنَ سَاكِنُوهَا مَعَ اجْتِلَافِ

(١) فتح الباري: ٣٥٠/٨، ٩٠/١، ٩٠/١ (٢) فتح الباري:

٣٥٩/١٣، ٥٩/١ (٣) أحمد: ٣٨٤/٥، ٣٩٤، ٣٩٨

(٤) الرازي: ٩١/٢ (٥) الطبري: ٣٧٦/١ (٦) ابن أبي حاتم:

٨٤/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٨٥/١

بِالْعَكْسِ - عَلَى الْخِلَافِ - فَكُلُّ مَنْ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ فَصِيحٌ لَا يُحَادِثُ وَلَا يُدَانِي، فَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ مُعْجَبَاتٍ مَاضِيَةٍ كَانَتْ، وَوَقَعَتْ طَبَقٌ مَا أَخْبَرَ سَوَاءً بِسَوَاءٍ. وَأَمَرَ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَنَهَى عَنْ كُلِّ شَرٍّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَيْ صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ، فَكُلُّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَعَدْلٌ وَهُدًى، لَيْسَ فِيهِ مُجَازَفَةٌ وَلَا كَذِبٌ وَلَا أَفْزَاءٌ، كَمَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَكَاذِبِ وَالْمُجَازَفَاتِ الَّتِي لَا يَحْسُنُ شِعْرُهُمْ إِلَّا بِهَا، كَمَا قِيلَ فِي الشُّعْرِ: إِنَّ أَغْذِبَهُ أَكْذَبَهُ. وَتَجِدُ الْقَصِيدَةَ الطَّوِيلَةَ الْمُدِيدَةَ قَدْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا فِي وَصْفِ النِّسَاءِ أَوْ الْحَيْلِ أَوْ الْخَمْرِ، أَوْ فِي مَدْحِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ أَوْ فَرَسٍ أَوْ نَاقَةٍ أَوْ حَرْبٍ أَوْ كَائِنَةٍ أَوْ مَخَافَةٍ أَوْ سَبْعٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الْمُسَاهَدَاتِ الْمُتَعَبِّبَةِ الَّتِي لَا تُفِيدُ شَيْئًا إِلَّا قُدْرَةُ الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَيَّنِ: عَلَى الشَّيْءِ الْخَفِيِّ أَوْ اللَّدِيقِ، أَوْ إِبْرَارُهُ إِلَى الشَّيْءِ الْوَاضِحِ، ثُمَّ تَجِدُ لَهُ فِيهِ بَيِّنَاتٍ أَوْ بَيِّنَاتٍ أَوْ أَكْثَرَ هِيَ بَيِّنَاتُ الْقَصِيدِ، وَسَائِرُهَا هَذَرٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ.

وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَجَمِيعُهُ فَصِيحٌ فِي غَايَةِ نِهَايَاتِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا، مِمَّنْ فَهِمَ كَلَامَ الْعَرَبِ وَتَصَارِيفَ التَّعْبِيرِ، فَإِنَّهُ، إِنْ تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَهُ وَجَدْتَهَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ سَوَاءً كَانَتْ مَبْسُوطَةً أَوْ وَجِيزَةً، وَسَوَاءً تَكَرَّرَتْ أَمْ لَا، وَكُلَّمَا تَكَرَّرَ حَلَا وَعَلَا، لَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَمَلُّ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ.

وَإِنْ أَخَذَ فِي الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ، جَاءَ مِنْهُ مَا تَفْشَعِرُ مِنْهُ الْجِبَالُ الصُّمُّ الرَّاسِيَاتُ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْقُلُوبِ الْفَاهِمَاتِ. وَإِنْ وَعَدَ؛ أَتَى بِمَا يَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَالْآذَانَ، وَيُسَوِّقُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَمُجَاوَرَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، كَمَا قَالَ فِي التَّرْغِيبِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْتَبْنِي جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وَقَالَ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَكُنُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتَ فِيهَا خَالِدٌ﴾ [الزخرف: ٧١] وَقَالَ فِي التَّرْهيبِ: ﴿أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْآلَةِ﴾ [الإسراء: ٦٨] ﴿أَمْ أَمْسَرْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧] وَقَالَ فِي الرَّجْرِ: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وَقَالَ فِي الْوَعْظِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَفْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ

يُمِثِّلُ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَاهِرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وَقَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] وَقَالَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصِيقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨] وَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ مَكِّيَّةٌ.

ثُمَّ تَحَدَّثَاهُمْ بِذَلِكَ أَيْضًا فِي الْمَدِينَةِ فَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ أَيْ شَيْءٍ﴾ ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ - يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ - ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يَعْنِي مِنْ مِثْلِ الْقُرْآنِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ وَالرَّمَحُشِيُّ وَالرَّازِيُّ، وَنَقَلَهُ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَأَكْثَرَ الْمُحَقِّقِينَ، وَرَجَّحَ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ مِنْ أَحْسَنِهَا أَنَّهُ تَحَدَّثَاهُمْ كُلُّهُمْ مُتَفَرِّقِينَ وَمُجْتَمِعِينَ، سَوَاءً فِي ذَلِكَ أُمِّيُّهُمْ وَكِتَابِيُّهُمْ، وَذَلِكَ أَكْمَلُ التَّحَدُّثِ، وَأَشْمَلُ مِنْ أَنْ يَتَحَدَّثَ أَحَادُهُمُ الْأُمِّيُّنَ مِمَّنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يُعَانِي شَيْئًا مِنَ الْعُلُومِ، وَبِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] فَهَذَا التَّحَدُّثُ عَامٌّ لَهُمْ كُلُّهُمْ مَعَ أَنَّهُمْ أَفْضَحُ الْأُمَمِ، وَقَدْ تَحَدَّثَاهُمْ بِهَذَا فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ مَعَ شِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ لَهُ وَبُغْضِهِمْ لِدِينِهِ، وَمَعَ هَذَا عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَقُولُوا وَلَنْ يَنْفِي التَّائِيدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْ وَلَنْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدًا، وَهَلْهُ أَيْضًا مُعْجِزَةٌ أُخْرَى، وَهُوَ أَنَّهُ أَخْبَرَ خَبْرًا جَارِمًا قَاطِعًا مُقَدِّمًا غَيْرَ خَائِفٍ وَلَا مُشْفِقٍ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُعَارِضُ بِمِثْلِهِ أَبَدَ الْأَبَدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ الْأَمْرُ، لَمْ يُعَارِضْ مِنْ لَدُنْهُ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا وَلَا يُمَكِّنُ، وَأَنَّى يَتَأَتَّى ذَلِكَ لِأَحَدٍ وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ؟ وَكَيْفَ يُشَبِّهُ كَلَامَ الْخَالِقِ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ؟!

[مِنْ وَجْهِهِ عَجَازِ الْقُرْآنِ]

وَمِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَجَدَ فِيهِ مِنْ وَجْهِهِ الْإِعْجَازِ فُنُونًا ظَاهِرَةً وَخَفِيَّةً مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] فَأُحْكِمْتَ أَلْفَاظُهُ وَفُصِّلْتَ مَعَانِيهِ، أَوْ

مِنْ أَنْوَاعِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْحَلَاوَةِ.

وَأِنْ جَاءَتِ الْآيَاتُ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، اِسْتَمَلَتْ عَلَى الْأَمْرِ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ حَسَنٍ نَافِعٍ طَيِّبٍ مَحْبُوبٍ، وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ رَذِيلٍ ذَنِيٍّ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ، إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرَعَهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهَا خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَعْرِوفُ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾... آيَةِ [الأعراف: ١٥٧].

وَأِنْ جَاءَتِ الْآيَاتُ فِي وَصْفِ الْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ، وَفِي وَصْفِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِمَا لِأَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ، وَالْمَلَادِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ؛ بَشَّرَتْ بِهِ وَحَدَّرَتْ وَأَنْذَرَتْ، وَدَعَتْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ، وَزَهَّدَتْ فِي الدُّنْيَا وَرَغَبَتْ فِي الْآخِرَةِ، وَثَبَّتَتْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَهَدَّتْ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَشَرَعِيهِ الْقَوِيمِ، وَنَفَتْ عَنِ الْقُلُوبِ رِجْسَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

[الْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجَزَةُ الْعُظْمَى لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ]

وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup> - لَفْظُ مُسْلِمٍ - وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا» أَيِ الَّذِي اخْتَصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُعْجَزُ لِلْبَشَرِ أَنْ يُعَارِضُوهُ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مُعْجَزَةً عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

[الْمُرَادُ بِالْحِجَارَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] أَمَّا الْوَقُودُ، يَفْتَحُ الْوَاوِ، فَهُوَ مَا يُلْتَمَسُ فِي النَّارِ لِإِضْرَامِهَا كَالْحَطَبِ وَنَحْوِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْفَالَسِيُّونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالَوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَفْضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمِنًا ۖ فَاحْكُم بَيْنَكُمْ بِمَا يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

لَهَا وَرُدُّونَ ﴿٢٩﴾ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهَةً مَا رَدَّدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[الأنبياء: ٩٨، ٩٩] وَالْمُرَادُ بِالْحِجَارَةِ هَهُنَا هِيَ حِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ الْعَظِيمَةُ السُّودَاءُ الصُّلْبَةُ الْمُنْتِنَةُ، وَهِيَ أَشَدُّ الْأَحْجَارِ حَرًّا إِذَا حُمِيتْ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا حِجَارَةُ الْأَصْنَامِ وَالْأندَادِ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾... آيَةِ [الأنبياء: ٩٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ الْأَظْهَرُ: أَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿أُعِدَّتْ﴾ عَائِدٌ إِلَى النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدَهُ إِلَى الْحِجَارَةِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ فِي الْمَعْنَى، لِأَنَّهُمَا مُتَلَاذِمَانِ، وَ﴿أُعِدَّتْ﴾ أَيِ أُرْصِدَتْ وَحُصِّلَتْ لِلْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَيِ لِمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح الباري: ٦١٩/٨ ومسلم: ١٣٤/١ (٢) الطبري: ١/ ٣٨٣ إسناده ضعيف لتدليس ابن إسحاق ولوجه أخرى.



[إِنَّ جَهَنَّمَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنْ أَيْمَةِ السُّنَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ النَّارَ مَوْجُودَةَ الْآنَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعَدْتُ﴾ أَيُّ أَرْضِدْتُ وَهَيْئْتُ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ مِنْهَا: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ»<sup>(١)</sup>. وَمِنْهَا «اسْتَأْذَنْتِ النَّارُ رَبَّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِتَفْسِينِ: نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ»<sup>(٢)</sup>. وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ: سَمِعْنَا وَجِبَةً، فَقُلْنَا: مَا هَذِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا حَجَرٌ أُلْقِيَ بِهِ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً، الْآنَ وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا». وَهُوَ عِنْدَ مُسْلِمٍ<sup>(٣)</sup>. وَحَدِيثُ صَلَاةِ الْكُشُوفِ وَلَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

﴿وَيَبْتَغِرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(٤)</sup>

[جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَعَدَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ أَوْلِيَائِهِ مِنَ السَّعْدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ الَّذِينَ صَدَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ.

وَهَذَا مَعْنَى تَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ "مَنَائِي" عَلَى أَصَحِّ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ كَمَا سَبَّسَطُهُ فِي مَوْضِعِهِ، وَهُوَ أَنَّ يَذْكُرُ الْإِيْمَانَ وَيَتَّبِعُ بِذِكْرِ الْكُفْرِ أَوْ عَكْسَهُ، أَوْ حَالِ السَّعْدَاءِ ثُمَّ الْأَشْقِيَاءِ أَوْ عَكْسَهُ، وَحَاصِلُهُ ذِكْرُ الشَّيْءِ وَمُقَابِلُهُ. وَأَمَّا ذِكْرُ الشَّيْءِ وَنَظِيرُهُ فَذَاكَ التَّشَابُهَ كَمَا سَتَوْضُحُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَبْتَغِرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فَوَصَفَهَا بِأَنَّهَا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، أَيُّ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَغُرْفِهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ أَنْهَارَهَا تَجْرَى فِي غَيْرِ أَخْدُوْدٍ<sup>(٥)</sup>، وَجَاءَ فِي الْكُوفَرِ أَنَّ حَافَتَيْهِ قَبَابُ اللَّوْلُؤِ الْمُجَوَّبِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَطِيبَتْهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصَبَاطُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْجَوْهَرُ، نَسَّأَلُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَجْرَى تَحْتَ تِلَالٍ - أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ - الْمِسْكُ»<sup>(٥)</sup> وَرَوَى أَيْضًا عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ

عَبْدُ اللَّهِ: أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَجْرَى مِنْ جِبَلِ الْمِسْكِ<sup>(٦)</sup>.

[مُشَابَهَةٌ ثَمَارِ الْجَنَّةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ يَحْيَى ابْنِ أَبِي كَثِيرٍ، قَالَ: عُشِبُ الْجَنَّةِ الرَّغْفَرَانُ، وَكُثْبَانُهَا الْمِسْكُ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْوَلْدَانُ بِالْفَوَاكِهَ فَيَأْكُلُونَهَا، ثُمَّ يُؤْتَوْنَ بِمِثْلِهَا، فَيَقُولُ لَهُمُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَذَا الَّذِي أَتَيْتُمُونَا آتِفًا بِهِ، فَتَقُولُ لَهُمُ الْوَلْدَانُ: كُلُوا فَالَلُونُ وَاحِدَ وَالطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ﴿وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ قَالَ: يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ قَالَ يُشَبِّهُ ثَمَرَ الدُّنْيَا، غَيْرَ أَنَّ ثَمَرَ الْجَنَّةِ أَطْيَبُ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي ظُيْيَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا يُشَبِّهُ شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا فِي الْأَسْمَاءِ. وَفِي رِوَايَةٍ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ<sup>(١٠)</sup>.

[أَزْوَاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مُطَهَّرَاتٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْقَدْرِ وَالْأَذَى<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مِنَ الْخَنِيْصِ وَالْعَائِطِ وَالْبَوْلِ وَالنَّخَامِ وَالْبِرَاقِ وَالْمَيْيِ وَالْوَلَدِ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَذَى وَالْمَأْثَمِ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: لَا خَنِيْصَ وَلَا كَلْفَ<sup>(١٣)</sup>. وَرَوَى عَنْ عَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَالضُّحَّاكِ وَأَبِي صَالِحٍ وَعَطِيَّةٍ وَالشَّذِيِّ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(١٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هَذَا هُوَ تَمَامُ السَّعَادَةِ، فَإِنَّهُمْ مَعَ هَذَا النِّعَمِ فِي مَقَامِ أَمِينٍ مِنَ الْمَوْتِ وَالْإِنْقِطَاعِ، فَلَا أَجَرَ لَهُ وَلَا انْقِضَاءَ، بَلْ فِي نَعِيمٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ عَلَى الدَّوَامِ، وَاللَّهُ الْمُسْوُوْلُ أَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَتِهِمْ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ بَرٌّ رَحِيمٌ.

(١) مسلم: ٢١٨٦/٤ (٢) البخاري: ٥٣٧ وتحفة الأحوذى:

٣١٧/٧ (٣) مسلم: ٢١٨٤/٤ (٤) في سنده سعيد بن إياس

الجبيري وهو مختلط وسماع يزيد بن هارون عنه متأخر، وقول

سروق، صحيح ثابت. (٥) ابن أبي حاتم: ٨٧/١ (٦) ابن أبي

حاتم: ٨٨/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٩٠/١ (٨) ابن أبي حاتم:

٩٠/١ (٩) الطبري: ٣٩١/١ (١٠) الطبري: ٣٩٢/١ (١١)

الطبري: ٣٩٥/١ (١٢) الطبري: ٣٩٦/١ (١٣) ابن أبي

حاتم: ٩١/١ (١٤) ابن أبي حاتم: ٩٢/١

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالطَّلُوبُ ﴿٧٣﴾ [الحج: ٧٣] وَقَالَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعَبَّةٍ وَإِنَّ أَهْلَ الْبُيُوتِ لَيَشْفَعْنَ عَنِ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٧٤﴾ تُوَفَّى أَكْثَرُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٧٦﴾ يَبْنِي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّالِثِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ...﴾ [آلِة: النحل: ٧٥]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ...﴾ [آلِة: النحل: ٧٦]، كَمَا قَالَ: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ﴾... [آلِة: الروم: ٢٨].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الْأَمْثَالَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا يُؤْمِنُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَيَهْدِيهِمُ اللَّهُ بِهَا<sup>(٥)</sup>.

رَوَى السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يَعْنِي بِهِ الْمُتَنَافِقِينَ، وَيَهْدِي بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَزِيدُ هَؤُلَاءِ ضَلَالَةً إِلَى ضَلَالَتِهِمْ لِتَكْذِيبِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا مِنَ الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ بِمَا ضَرَبَ لَهُمْ، وَأَنَّهُ لِمَا ضَرَبَ لَهُ مُوَافِقٌ، فَذَلِكَ إِضْلَالُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِهِ<sup>(٦)</sup>. ﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾ يَعْنِي الْمَثَلُ ﴿كَثِيرًا﴾ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ، فَيَزِيدُهُمْ هُدًى إِلَى هُدَاهُمْ، وَإِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، لِتَصْدِيقِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُ مَثَلًا، وَإِقْرَارِهِمْ بِهِ، وَذَلِكَ هِدَايَةً مِنَ اللَّهِ لَهُمْ بِهِ ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٧﴾ رَوَى السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ لِلْمُتَنَافِقِينَ، يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ [١٧-٢٠] قَالَ الْمُتَنَافِقُونَ: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يَضْرِبَ هَذِهِ الْأَمْثَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾<sup>(١)</sup> وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: أَيُّ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ أَنْ يَذْكَرَ شَيْئًا مِمَّا قُلَّ أَوْ كَثُرَ. وَإِنَّ اللَّهَ حِينَ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ، قَالَ أَهْلُ الضَّلَالَةِ: مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ ذِكْرِ هَذَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

### [مَثَلُ لِلدُّنْيَا]

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: هَذَا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِلدُّنْيَا أَنَّ الْبَعُوضَةَ تَحْيَا مَا جَاعَتْ، فَإِذَا سَمِنَتْ مَاتَتْ، وَكَذَلِكَ مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ضَرَبَ لَهُمْ هَذَا الْمَثَلُ فِي الْقُرْآنِ إِذَا امْتَلَأُوا مِنَ الدُّنْيَا رِيًّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحْيِي، أَيُّ لَا يَسْتَنْكِفُ، وَقِيلَ: لَا يَخْشَى، أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا، أَيُّ: أَيُّ مَثَلٍ كَانَ، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ، صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أَيُّ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحَقَرُ وَلَا أَصْغَرُ مِنَ الْبَعُوضَةِ. رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِبَّتٌ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»<sup>(٤)</sup> فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَصْغِرُ شَيْئًا يَضْرِبُ بِهِ مَثَلًا وَلَوْ كَانَ فِي الْحَقَارَةِ وَالصَّغَرِ كَالْبَعُوضَةِ، كَمَا لَا يَسْتَنْكِفُ عَنْ خَلْقِهَا كَذَلِكَ لَا يَسْتَنْكِفُ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِهَا، كَمَا ضَرَبَ الْمَثَلُ بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَّخِذُهَا النَّاسُ مَثَلًا فَاسْتَوَعُوا لَهُ إِنَّكَ لِلذَّيْبِ

(١) الطبري: ٣٩٨/١ (٢) الطبري: ٣٩٩/١ (٣) الطبري: ١/

٣٩٨ (٤) مسلم: ١٩٩١/٤ (٥) ابن أبي حاتم: ٩٣/١ (٦)

الطبري: ٤٠٨/١

هُمُ الْمُتَنَافِسُونَ.

وَالنَّاسِيقُ فِي اللَّغَةِ هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ: إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قَشَرَتِهَا. وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْفَأْرَةِ فُوسِيقَةٌ لِخُرُوجِهَا عَنْ مَجْرَحِهَا لِلْفَسَادِ.

وَبُتِّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْغَرَابُ وَالْجِدَاةُ وَالْعَقْرُبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»<sup>(١)</sup>.

فَالْفَاسِقُ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْعَاصِيَّ، وَلَكِنْ فَسُقَ الْكَافِرُ أَشَدَّ وَأَفْحَشَ، وَالْمُرَادُ بِهِ فِي الْآيَةِ النَّاسِيقُ الْكَافِرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ» وَهَذِهِ الصَّفَاتُ صِفَاتُ الْكُفَّارِ الْمُبَايَنَةِ لِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّعْدِ «أَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَا هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَآ الْأَنْبِيَاءِ (١٩) الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْسَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» الْآيَاتِ، إِلَى أَنْ قَالَ: «وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» [الرعد: ١٩-٢٥].

وَالْعَهْدُ الَّذِي وَصَفَ هُوَ لَاءِ الْفَاسِقِينَ يَنْقُضِيهِ، هُوَ: وَصِيَّةُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ، وَأَمْرُهُ إِيَّاهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ، وَنَهْيُهُ إِيَّاهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، فِي كُتُبِهِ وَعَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، وَتَقْضِيَتُهُمْ ذَلِكَ هُوَ تَرْكُهُمُ الْعَمَلَ بِهِ.

وَقِيلَ: بَلْ هِيَ فِي كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُتَنَافِقِينَ مِنْهُمْ، وَالْعَهْدُ الَّذِي تَقْضِيهِ أَهْلُ الْكِتَابِ هُوَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا، وَاتَّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بُعِثَ، وَالتَّصْدِيقُ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَتَقْضِيَتُهُمْ ذَلِكَ، هُوَ: جُحُودُهُمْ بِهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَتِهِ وَإِنْكَارُهُمْ ذَلِكَ، وَكَيْفَانَهُمْ عَلِمَ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ، بَعْدَ إِعْطَائِهِمُ اللَّهَ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْمِيثَاقَ: لِكَيْسَتَهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا. وَهَذَا

اختيار ابن جرير رحمه الله وهو قول مقاتل بن حيان.

وَقِيلَ: بَلْ غُيِّ بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ وَالنِّفَاقِ، وَعَهْدُهُ إِلَى جَمِيعِهِمْ فِي تَوْحِيدِهِ: مَا وَضَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى رَبُوبِيَّتِهِ. وَعَهْدُهُ إِلَيْهِمْ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ: مَا اخْتَجَّ بِهِ لِرُسُلِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ

وَقِيلَ: بَلْ غُيِّ بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ وَالنِّفَاقِ، وَعَهْدُهُ إِلَى جَمِيعِهِمْ فِي تَوْحِيدِهِ: مَا وَضَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى رَبُوبِيَّتِهِ. وَعَهْدُهُ إِلَيْهِمْ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ: مَا اخْتَجَّ بِهِ لِرُسُلِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ

وَقِيلَ: بَلْ غُيِّ بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ وَالنِّفَاقِ، وَعَهْدُهُ إِلَى جَمِيعِهِمْ فِي تَوْحِيدِهِ: مَا وَضَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى رَبُوبِيَّتِهِ. وَعَهْدُهُ إِلَيْهِمْ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ: مَا اخْتَجَّ بِهِ لِرُسُلِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ

أَخَذَ مِنَ النَّاسِ غَيْرُهُمْ: أَنْ يَأْتِيَ [بِمِثْلِهَا]، الشَّاهِدَةُ لَهُمْ عَلَى صِدْقِهِمْ، قَالُوا: وَتَقْضِيَتُهُمْ ذَلِكَ: تَرْكُهُمُ الْإِفْرَارَ بِمَا قَدْ تَبَيَّنَتْ لَهُمْ صِحَّتُهُ بِالْأَدِلَّةِ، وَتَكْذِيبُهُمُ الرُّسُلَ وَالْكِتَابَ، مَعَ عَلَيْهِمْ أَنَّ مَا أَنْوَأَ بِهِ حَقٌّ. وَرَوَى عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ أَيْضًا نَحْوَ هَذَا وَهُوَ حَسَنٌ، وَإِلَيْهِ مَالُ الزَّمَخْشَرِيِّ.

وَقَوْلُهُ: «وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ صِلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ، كَمَا فَسَّرَهُ قَتَادَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ» [محمد: ٢٢]<sup>(٢)</sup> وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ. فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِوَصْلِهِ وَفِعْلِهِ فَقَطَّعُوهُ وَتَرَكَوهُ.

### [الْمُرَادُ بِالْخُسْرَانِ]

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ» قَالَ: فِي الْآخِرَةِ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» [الرعد: ٢٥] وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ شَيْءٍ نَسَبَهُ اللَّهُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ اسْمٍ مِثْلِ خَاسِرٍ، فَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِ: الْكُفْرَ، وَمَا نَسَبَهُ إِلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِ: الذَّنْبَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ»

الْخَاسِرُونَ جَمْعُ خَاسِرٍ، وَهُمْ النَّاقِضُونَ أَنْفُسَهُمْ حُطُوطَهُمْ - بِمَعْصِيَتِهِمُ اللَّهَ مِنْ رَحْمَتِهِ، كَمَا يَخْسِرُ الرَّجُلُ فِي تِجَارَتِهِ بِأَنْ يَوْضَعَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ فِي بَيْعِهِ، وَكَذَلِكَ الْمُتَنَافِقُ وَالْكَافِرُ خَسِرَ بِحِرْمَانِ اللَّهِ إِيَّاهُ رَحْمَتَهُ الَّتِي خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ فِي الْقِيَامَةِ أَجْرًا مَا كَانُوا إِلَى رَحْمَتِهِ. يُقَالُ مِنْهُ خَسِرَ الرَّجُلُ يَخْسِرُ خَسْرًا وَخُسْرَانًا، كَمَا قَالَ جَرِيرُ بْنُ عَطِيَّةَ:

إِنْ سَلِيطًا فِي الْخَسَارِ إِنَّهُ  
أَوْلَادُ قَوْمٍ خُلِفُوا أَقْنَهُ<sup>(٥)</sup>  
كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أُمَمًا قَلْبًا كُنْتُمْ ثُمَّ يُبْسِتُكُمْ  
ثُمَّ يُجِيعُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجْعُكُمْ (١٨)

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُنْصَرِّفُ فِي عِبَادِهِ: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ» أَيُّ كَيْفَ تَجْحَدُونَ وَجُودَهُ أَوْ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ «وَكُنْتُمْ أُمَمًا

ثُمَّ يُجِيعُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ رُجْعُكُمْ (١٨)

(١) فتح الباري: ٤٠٨/٦ ومسلم: ٨٥٦/٢ (٢) الطبري: ١/٤١٦ (٣) ابن أبي حاتم: ١٠١/١ (٤) الطبري: ١/٤١٧ (٥) إسناده ضعيف منقطع الضحَّاك لم يسمع من ابن عباس (٥) الطبري: ١/٤١٧

الْمَلَكُوتِ

٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً  
 قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ  
 نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ  
 ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ  
 فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا  
 سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ  
 ﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْتِهِم بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ  
 أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا  
 تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا  
 لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ  
 ﴿٢٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا  
 حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾  
 فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا  
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٦﴾  
 فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٨﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْجِبَالَ  
 أَرَسَهَا ﴿٣٠﴾ مِمَّا لَكُمْ وَلَا تَعْلَمُونَهُ ﴿٣١﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] فَقَدْ  
 قِيلَ: إِنَّ «نُوحًا» هَهُنَا إِنَّمَا هِيَ لِعَطْفِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ، لَا  
 لِعَطْفِ الْفِعْلِ عَلَى الْفِعْلِ. رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ  
 عَبَّاسٍ<sup>(١)</sup>. كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ

ثُمَّ قَدْ سَادَ - وَقَبْلَ ذَلِكَ - جَدُّهُ

[خُلِقَتِ الْأَرْضُ قَبْلَ السَّمَاوَاتِ]

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي  
 الْأَرْضِ جَمِيعًا» قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا  
 خَلَقَ الْأَرْضَ نَارَ مِنْهَا دُخَانًا، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: «ثُمَّ اسْتَوَى  
 إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» [فصلت: ١١] «فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ»  
 قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَبْعَ أَرْضِينَ يَعْنِي بَعْضُهَا تَحْتَ  
 بَعْضٍ<sup>(٣)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ

فَأَحْيَاكُمْ ﴿١٠﴾ أَيْ وَقَدْ كُنْتُمْ عَدَمًا فَأَخْرَجَكُمْ إِلَى الوجودِ،  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْ  
 خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُؤْفِكُونَ ﴿٢٦﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]  
 وَقَالَ تَعَالَى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا  
 مَذْكُورًا ﴿١﴾ [الإنسان: ١] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَالَ ابْنُ  
 جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا  
 فَأَحْيَاكُمْ» أَمْوَاتًا فِي أَصْلَابِ آبَائِكُمْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا حَتَّى  
 خَلَقَكُمْ، ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ مَوْتَهُ الْحَقِّ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ حِينَ يُبْعَثُكُمْ،  
 قَالَ: وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَمَّا أَنتَيْنِ أَحْيَيْتَا وَأَمَّا أَنتَيْنِ  
 [غافر: ١١]<sup>(١)</sup>.

«هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى

السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾

[يَبَيِّنُ دَلَائِلَ الْقُدْرَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى دَلَالَتهُ مِنْ خَلْقِهِمْ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ  
 أَنْفُسِهِمْ ذَكَرَ دَلِيلًا آخَرَ مِمَّا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ فَقَالَ: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ  
 جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ» أَيْ  
 قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ. وَالِاسْتَوَاءُ هَهُنَا تَضَمُّنٌ مَعْنَى الْقَصْدِ  
 وَالِإِقْبَالِ لِأَنَّهُ عُدِيَ بِإِلَى «فَسَوَّيْنَهُنَّ» أَيْ فَخَلَقَ السَّمَاءَ  
 سَبْعًا، وَالسَّمَاءُ هَهُنَا اسْمُ جَنْسٍ فَلِهَذَا قَالَ: «فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ  
 سَمَوَاتٍ». «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أَيْ وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ  
 مَا خُلِقَ، كَمَا قَالَ: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ» [الملك: ١٤].

[بِدَايَةِ الْخَلْقِ]

وَنَفْصِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ حَمِّ السَّجْدَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ  
 تَعَالَى: «قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ  
 وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ  
 فَوْقَهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَفَدَّرَ فِيهَا أَنْهَارًا فِي أَرْبَعَةِ آيَاتٍ سَوَاءً لِلْسَّالِكِينَ  
 ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا  
 قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٢﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي  
 كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الثَّلَاثَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ  
 الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» [فصلت: ٩-١٢] فَبَيَّنَ هَذَا دَلَالَتهُ عَلَى أَنَّهُ  
 تَعَالَى ابْتَدَأَ بِخَلْقِ الْأَرْضِ أَوَّلًا، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ سَبْعًا،  
 وَهَذَا شَأْنُ الْبِنَاءِ أَنْ يُبْدَأَ بِعِمَارَةِ أَسَافِلِهِ ثُمَّ أَعَالِيهِ بَعْدَ  
 ذَلِكَ، وَقَدْ صَرَّحَ الْمُفَسِّرُونَ بِذَلِكَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ هَذَا.  
 إِنَّ شَاءَ اللَّهُ. فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّمَا أَنْتُمْ مُنَادُونَ أَنْ خَلَقْنَا أَرْضَ السَّمَاءِ  
 بَيْنَهُمَا ﴿٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٨﴾ وَأَغَطَّشَ لَبَنًا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٩﴾

(١) الطبري: ٤١٩/١ (٢) الطبري: ٤٣٧/١ (٣) الطبري: ١/١

السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَاتِ سُورَةِ السَّجْدَةِ الْمَاضِيَةِ. فَهَذِهِ وَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ.

### [دُحِيتِ الْأَرْضُ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ]

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سئِلَ عَنْ هَذَا بِعَيْنِهِ فَأَجَابَ بِأَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ إِنَّمَا دُحِيتْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَلِكَ أَجَابَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَقَدْ حَرَرْنَا ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ، وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّ الدَّخِي مُفسِّرُ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٢٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٢١) وَالْجِبَالَ أَسْفَهَا ﴿ففسَّرَ الدَّخِي بِإِخْرَاجِ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، لَمَّا أَكْمَلْتَ صُورَةَ الْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ثُمَّ السَّمَاوِيَّةِ دَحَى بَعْدَ ذَلِكَ الْأَرْضَ، فَأَخْرَجْتَ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا مِنَ الْمِائَةِ، فَتَبَتِ النَّبَاتَاتُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَصِفَاتِهَا وَالْوُضَائِحُ وَأَشْكَالِهَا، وَكَذَلِكَ جَرَتْ هَذِهِ الْأَفْلاكُ فَدَارَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٠)

[اسْتِخْلَافُ آدَمَ وَبَنِيهِ لِلْمَلَايِكَةِ وَمَا قَالُوهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِامْتِنَانِهِ عَلَى نَبِيِّ آدَمَ بِتَنْبِيهِهِ بِذِكْرِهِمْ فِي الْمَلَايِكَةِ الْأَعْلَى قَبْلَ إِيجَادِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾ [٣٠] أَيَّ وَادَّكَرَ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَايِكَةِ، وَأَقْضُصْ عَلَى قَوْمِكَ ذَلِكَ. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أَيَّ قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وَقَالَ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] وَقَالَ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْوِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩، ومريم: ٥٩] وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ آدَمَ عَيْنًا، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا حَسَنَ قَوْلُ الْمَلَايِكَةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَكَأَنَّهُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ بِعِلْمٍ خَاصٍّ. أَوْ بِمَا فَهَمُوهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يَخْلُقُ هَذَا الصَّنْفَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ. أَوْ فَهَمُوا مِنَ الْخَلِيفَةِ أَنَّهُ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ مَا يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنَ

الْمَظَالِمِ، وَيَرَدُّعُهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ، قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ. وَقَوْلُ الْمَلَايِكَةِ هَذَا لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَى وَجْهِ الْحَسَدِ لِبَنِي آدَمَ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا يَسْبُغُونَهُ بِالْقَوْلِ، أَيُّ: لَا يَسْأَلُونَهُ شَيْئًا لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ، وَهَهُنَا لَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ فِي الْأَرْضِ خَلْقًا - قَالَ قَتَادَةُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ فِيهَا - فَقَالُوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ الْآيَةَ...، وَإِنَّمَا هُوَ سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَاسْتِخْشَافٍ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ، يَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا مَا الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ هَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ عِبَادَتَكَ فَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، أَيُّ نُصَلِّي لَكَ، كَمَا سَبَّأْنِي. أَيُّ وَلَا يَصُدُّرُ مِنَّا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَهَلَّا وَقَعَ الْإِفْصَارُ عَلَيْنَا؟

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ فِي خَلْقِ هَذَا الصَّنْفِ عَلَى الْمَفَاسِدِ الَّتِي ذَكَرْتُمُوهَا مَا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ، فَإِنِّي جَاعِلٌ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، وَأُرْسِلُ فِيهِمُ الرُّسُلَ، وَيُوجَدُ مِنْهُمْ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَالْعِبَادُ وَالزُّهَادُ وَالْأَوْلِيَاءُ وَالْأَبْرَارُ، وَالْمُقَرَّبُونَ وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ، وَالْخَاشِعُونَ وَالْمُحِبُّونَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، الْمُتَّبِعُونَ رُسُلَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ تَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الْمَلَايِكَةَ إِذَا صَعِدَتْ إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ يَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصْلُونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ<sup>(٣)</sup>. وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَتَعَاقَبُونَ فِيْنَا، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَمْكُتُ هَؤُلَاءِ وَيَضَعُدُ أُولَئِكَ بِالْأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ»<sup>(٤)</sup>. فَقَوْلُهُمْ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يَصْلُونَ مِنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وَقِيلَ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى جَوَابًا لَهُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِنَّ لِي حِكْمَةً مُفْصَلَةً فِي خَلْقِ هَؤُلَاءِ، وَالْحَالَةَ مَا ذَكَرْتُمْ، لَا تَعْلَمُونَهَا، وَقِيلَ: إِنَّهُ جَوَابٌ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

(١) فتح الباري: ٤١٧/٨ (٢) الطبري: ٤٦٤/١ (٣) فتح الباري: ٤٢٦/١٣ (٤) مسلم: ١٧٩ ومسند أبي عوانة: ١٤٥/١

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا مَا سُبْحَنَّكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَقَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴿[فَضَّلَ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ]

هَذَا مَقَامٌ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ شَرَفَ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِمَا اخْتَصَّهُ مِنْ عِلْمِ أَسْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُمْ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ سُجُودِهِمْ لَهُ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ هَذَا الْفَضْلَ عَلَى ذَلِكَ لِمُنَاسَبَةِ مَا بَيْنَ الْمَقَامِ وَعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِحِكْمَةِ خَلْقِ الْخَلِيفَةِ - حِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُونَ - وَلِهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ هَذَا الْمَقَامَ عَقِيبَ هَذَا، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ شَرَفَ آدَمَ بِمَا فَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قَالَ: هِيَ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي يَتَعَارَفُ بِهَا النَّاسُ، إِنْسَانٌ وَذَاتَةٌ وَسَمَاءٌ وَأَرْضٌ وَسَهْلٌ وَبَحْرٌ وَخَيْلٌ وَحِمَارٌ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ وَغَيْرِهَا<sup>(١)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَعْبُدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قَالَ: عَلَّمَهُ اسْمَ الصَّخْفَةِ وَالْقَدْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ حَتَّى الْقُسُوءَ وَالْفُسَيْيَةَ<sup>(٢)</sup>. وَقِيلَ: أَسْمَاءُ النُّجُومِ، وَقِيلَ: أَسْمَاءُ ذُرِّيَّتِهِ كُلِّهِمْ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْمَلَائِكَةِ وَأَسْمَاءَ الذَّرِّيَّةِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَتَّى الْقُسُوءَ وَالْفُسَيْيَةَ، يَعْنِي أَسْمَاءَ الذَّوَاتِ وَالْأَفْعَالِ - الْمُكَبَّرِ وَالْمُصَغَّرِ -.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَقَالَ لِي خَلِيفَةُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ: حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ

يَحْمَدُكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ فَقَالَ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ مِنْ وُجُودِ إِبْلِيسَ بَيْنَكُمْ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا وَصَفْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِهِ. وَقِيلَ: بَلْ تَضْمَنَ قَوْلُهُمْ: «أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ طَلَبًا مِنْهُمْ أَنْ يَسْكُنُوا الْأَرْضَ بِدَلِّ بَنِي آدَمَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنْ أَنْ بَقَاءَكُمْ فِي السَّمَاءِ أَصْلَحَ لَكُمْ وَأَلْيَقُ بِكُمْ. ذَكَرَهَا الرَّازِيُّ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَجَوِبَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[وُجُوبُ نَصْبِ الْخَلِيفَةِ، وَبَعْضُ مَسَائِلِ الْخِلَافَةِ]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ نَصْبِ الْخَلِيفَةِ لِيُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَيَقْطَعَ تَنَازُعَهُمْ، وَيَنْتَصِرَ لِمَطْلُوبِهِمْ مِنْ ظَالِمِهِمْ، وَيُقِيمَ الْحُدُودَ، وَيَرْجُرَ عَنْ تَعَاطِيِ الْفَوَاحِشِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُهْمَةِ الَّتِي لَا تُمْكِنُ إِفَامَتُهَا إِلَّا بِالْإِمَامِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. وَالْإِمَامَةُ تُنَالُ بِالنَّصِّ كَمَا يَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الشُّعْبَةِ فِي أَبِي بَكْرٍ، أَوْ بِالْإِيْمَاءِ إِلَيْهِ كَمَا يَقُولُ آخَرُونَ مِنْهُمْ، أَوْ بِاسْتِخْلَافِ الْخَلِيفَةِ آخَرٍ بَعْدَهُ، كَمَا فَعَلَ الصَّدِيقُ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَوْ بِتَرْكِهِ سُورَى فِي جَمَاعَةٍ صَالِحِينَ كَذَلِكَ، كَمَا فَعَلَهُ عُمَرُ، أَوْ بِاجْتِمَاعِ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ عَلَى مُبَايَعَتِهِ، أَوْ بِمُبَايَعَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَهُ فَيَجِبُ التِّزَامُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ.

وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا خَرًّا بَالِغًا عَاقِلًا مُسْلِمًا عَدَلًا مُجْتَنِدًا بِصِيرًا، سَلِيمَ الْأَعْضَاءِ خَيْرًا بِالْحُرُوبِ وَالْآرَاءِ، قُرْبِيًّا عَلَى الصَّحِيحِ - وَلَا يُشْتَرَطُ الْهَاشِمِيُّ وَلَا الْمَعْصُومُ مِنَ الْخَطَا خِلَافًا لِعَلَاةِ الرَّوَافِضِ - وَلَوْ فَسَقَ الْإِمَامُ هَلْ يُنْعَزَلُ أَمْ لَا؟ فِيهِ خِلَافٌ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَا يُنْعَزَلُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»<sup>(١)</sup>. وَهَلْ لَهُ أَنْ يُنْعَزَلَ نَفْسُهُ؟ فِيهِ خِلَافٌ، وَقَدْ عَزَلَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَفْسَهُ، وَسَلَّمُ الْأَمَرِ إِلَى مُعَاوِيَةَ، لَكِنْ كَانَ هَذَا لِعُدْوٍ وَقَدْ مُدِحَ عَلَى ذَلِكَ. فَأَمَّا نَصْبُ إِمَامَيْنِ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَكْثَرَ فَلَا يَجُوزُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ جَاءَكُمْ، وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَكُمْ فَافْتُلُوهُ، كَاثِرًا مِنْ كَانَ»<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَحَكَى إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ عَنِ الْأَسْنَادِ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّهُ جَوَزَ نَصْبَ إِمَامَيْنِ فَأَكْثَرَ إِذَا تَبَاعَدَتِ الْأَقْطَارُ وَاتَّسَعَتِ الْأَقَالِيمُ بَيْنَهُمَا، وَتَرَدَّدَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي ذَلِكَ.

(١) البخاري: ٧٠٥٦ والطبري: ٤٧٧/١ (٢) مسلم: ٣/١٤٧٠ (٣) الطبري: ٤٥٨/١ إسناده ضعيف الضحاک لم يسمع من ابن عباس (٤) الطبري: ٤٨٥/١

الْحَكِيمُ ﴿ هَذَا تَقْدِيرٌ وَتَنْزِيلٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، وَأَنْ يَعْلَمُوا شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أَيِ الْعَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ الْحَكِيمُ فِي خَلْقِكَ وَأَمْرِكَ، وَفِي تَعْلِيمِكَ مَنْ تَشَاءُ، وَمَنْعِكَ مَنْ تَشَاءُ، لَكَ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ وَالْعَدْلُ الثَّامُ.

[إِظْهَارُ فَضْلِ آدَمَ بِعِلْمِهِ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَكَادُمُ اثْنَيْتُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ: قَالَ: أَنْتَ جِبْرَائِيلُ، أَنْتَ مِيكَائِيلُ، أَنْتَ إِسْرَافِيلُ، حَتَّى عَدَدَ الْأَسْمَاءِ كُلِّهَا حَتَّى بَلَغَ الْغُرَابَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿قَالَ يَكَادُمُ اثْنَيْتُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قَالَ: إِسْمُ الْحَمَامَةِ وَالْغُرَابِ وَاسْمُ كُلِّ شَيْءٍ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>. فَلَمَّا ظَهَرَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي سَرْدِهِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أَيِ أَلَمْ أَتَقَدَّمُ إِلَيْكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] وَكَمَا قَالَ إِخْبَارًا عَنِ الْهُدُودِ أَنَّهُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾<sup>(٤)</sup> اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿[النمل: ٢٥، ٢٦].

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ غَيْرُ مَا ذَكَرْنَاهُ، فَارَى الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قَالَ يَقُولُ: أَعْلَمُ السِّرَّ كَمَا أَعْلَمُ الْعَلَانِيَةَ، يَعْنِي مَا كَتَمَ إِبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْإِعْزَازِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فَكَانَ الَّذِي أَبَدُوا هُوَ

حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحْيِي. أَتُوا نَوْحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَهُ يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ سُؤَالَ رَبِّهِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، فَيَسْتَحْيِي، يَقُولُ: أَتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَهُ يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، يَقُولُ: أَتُوا مُوسَى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّهُ، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ، يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ. فَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّهِ. يَقُولُ: أَتُوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحَهُ، فَيَأْتُونَهُ يَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، أَتُوا مُحَمَّدًا عَبْدًا غَوْرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي فَيَأْذِنُ لِي، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُقَالُ: ارْزُقْ رَأْسَكَ وَسَلْ نَعْطَهُ وَقُلْ يُسْمِعْ وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَارْزُقْ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يُعْلَمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي - مِثْلُهُ - ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٧)</sup> وَابْنُ مَاجَهَ.

وَوَجْهُ إِيرَادِهِ هُنَا، وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ﴾. فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ<sup>(٨)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يَعْنِي الْمُسَمَّيَاتِ كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: ثُمَّ عَرَضَ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ: ﴿فَقَالَ أَتَيْتُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٩)</sup> وَمَعْنَى ذَلِكَ فَقَالَ: أَتَيْتُونِي بِأَسْمَاءِ مَنْ عَرَضْتُهُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْقَائِلُونَ: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مِنْ نَفْسٍ فِيهَا وَنَسْفِكَ الدَّمَاءِ﴾ - مِنْ غَيْرِنَا أَمْ مَنَا - فَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي قِيلِكُمْ: إِنِّي إِنْ جَعَلْتُ خَلِيفَتِي فِي الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِكُمْ عَصَانِي وَذَرَيْتُهُ، وَأَفْسَدُوا وَنَسَفَكُوا الدَّمَاءَ، وَإِنْ جَعَلْتُكُمْ فِيهَا أَطَعْتُمُونِي وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرِي بِالْعَظِيمِ لِي وَالتَّقْدِيرِ، فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَرَضْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تُشَاهِدُونَهُمْ، فَأَنْتُمْ بِمَا هُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ مِنَ الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ الَّتِي لَمْ تَوْجَدْ؛ أُخْرَى أَنْ تَكُونُوا غَيْرَ عَالِمِينَ.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ

(١) فتح الباري: ١٠/٨ (٢) مسلم: ١٨١/١ والنسائي في الكبرى: ٢٨٤/٦ وابن ماجه (٣) مسلم: ١٨١/١ والنسائي في الكبرى: ٣٦٤/٦ وابن ماجه: ١٤٤٢/٢ (٤) عبد الرزاق: ٤٢/١ (٥) ابن أبي حاتم: ١١٨/١ (٦) ابن أبي حاتم: ١١٩/١ (٧) ابن أبي حاتم: ١١٩/١ (٨) الطبري: ١/٤٩٨ الضحاك لم يسمع من ابن عباس.



رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَكَ، فَقَالَ: «لَا، لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا  
بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِيَشِيرَ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ  
عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»<sup>(٤)</sup> وَرَجَّحَهُ الرَّازِيُّ.

[إِسْتِكْبَارُ إِبْلِيسَ]

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى  
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حَسَدَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ آدَمَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الْكِرَامَةِ، وَقَالَ: أَنَا نَارِي، وَهَذَا  
طِينِي، وَكَانَ بَدْءُ الذُّنُوبِ الْكَبِيرِ، إِسْتِكْبَارُ عَدُوِّ اللَّهِ أَنْ  
يَسْجُدَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(٥)</sup>. قُلْتُ: وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ  
«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ  
كِبَرٍ»<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ كَانَ فِي إِبْلِيسَ مِنَ الْكِبَرِ - وَالْكَفْرِ - وَالْعِنَادِ  
مَا افْتَضَى طَرْدَهُ وَإِعَادَهُ عَنْ جَنَابِ الرَّحْمَةِ وَحَضْرَةِ  
الْقُدْسِ.

﴿وَقُلْنَا يَتَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا  
وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٧)</sup> فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا  
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي

الْأَرْضِ مَسْكَنٌ وَمَتَّعَ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾

[تَكْرِيمُ آخِرَ لِآدَمَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَمَّا أَكْرَمَ بِهِ آدَمَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ  
الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، إِنَّهُ أَبَاحَ لَهُ الْجَنَّةَ  
يَسْكُنُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، وَيَأْكُلُ مِنْهَا مَا شَاءَ رَغَدًا، أَيُّ:  
هَنِيئًا وَاسِعًا طَيِّبًا: وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ أَبِي  
ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ آدَمَ أَبَتَنَا كَانَ؟ قَالَ:  
«نَعَمْ نَبِيًّا رَسُولًا كَلَّمَهُ اللَّهُ قُبْلًا» - يَعْنِي عَيْنًا - فَقَالَ:  
﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾<sup>(٨)</sup>.

[خُلِقَتْ حَوَاءٌ قَبْلَ دُخُولِ آدَمَ الْجَنَّةَ]

وَسَيَاقُ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ دُخُولِ آدَمَ  
الْجَنَّةَ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ حَيْثُ قَالَ:  
لَمَّا فَرَعَ اللَّهُ مِنَ مُعَاتَبَةِ إِبْلِيسَ أَقْبَلَ عَلَى آدَمَ وَقَدْ عَلَّمَهُ  
الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا فَقَالَ: ﴿يَتَادَمُ أَنْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ:  
﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَلَمْلِمُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٩)</sup> [٣٣، ٣٢] قَالَ: ثُمَّ أُلْفِيَتْ السَّنَةُ  
عَلَى آدَمَ فِيمَا بَلَّغْنَا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ،

قَوْلُهُمْ: أَنْتَجَعَلُ فِيهَا مِنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَكَانَ  
الَّذِي كَتَمُوا بَيْنَهُمْ هُوَ قَوْلُهُمْ: لَنْ يَخْلُقَ رَبُّنَا خَلْقًا إِلَّا كُنَّا  
نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْهُ وَأَكْرَمُ، فَعَرَفُوا أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ عَلَيْهِمْ آدَمَ فِي  
الْعِلْمِ وَالْكَرَمِ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

[تَكْرِيمُ آدَمَ بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ]

وَهَذِهِ كِرَامَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِآدَمَ، إِمْتَنَنْ بِهَا عَلَى  
ذُرِّيَّتِهِ حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ،  
وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَحَادِيثُ أَيْضًا كَثِيرَةٌ، مِنْهَا حَدِيثُ  
الشَّفَاعَةِ الْمُتَقَدِّمِ، وَحَدِيثُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَبِّ أَرِنِي  
آدَمَ الَّذِي أَخْرَجْنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ قَالَ:  
أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِي، وَأَسْجَدَ  
لَهُ مَلَائِكَتُهُ»<sup>(١٠)</sup>.

[دُخُولُ إِبْلِيسَ فِيمَنْ أَمَرَ بِالسُّجُودِ. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ

الْمَلَائِكَةِ]

وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، دَخَلَ  
إِبْلِيسُ فِي خِطَابِهِمْ، لِأَنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ غُضْرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ  
كَانَ قَدْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَتَوَسَّسَ بِأَفْعَالِهِمْ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي  
الْخِطَابِ لَهُمْ، وَذَمَّ فِي مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ، وَسَتَبَسُّطِ الْمَسْأَلَةِ  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ  
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] وَلِذَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ  
إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ إِبْلِيسُ قَبْلَ أَنْ يَرْكَبَ  
الْمُعْصِيَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ اسْمُهُ «عَزَازِيلُ»، وَكَانَ مِنْ سُكَّانِ  
الْأَرْضِ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ الْمَلَائِكَةِ اجْتِهَادًا، وَأَكْثَرِهِمْ  
عِلْمًا، فَذَلِكَ دَعَاهُ إِلَى الْكِبَرِ، وَكَانَ مِنْ حَيٍّ يُسَمُّونَهُ  
جِنًّا<sup>(١١)</sup>.

[كَانَتِ الطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالسَّجْدَةُ لِآدَمَ]

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا  
لِآدَمَ﴾ فَكَانَتِ الطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالسَّجْدَةُ لِآدَمَ، أَكْرَمَ اللَّهُ آدَمَ أَنْ  
أَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: كَانَ هَذَا سُجُودَ  
تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ وَإِكْرَامٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى  
الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا نَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلِ قَدْ  
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] وَقَدْ كَانَ هَذَا مَشْرُوعًا فِي  
الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ وَلَكِنَّهُ نُسِخَ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ مُعَاذٌ: قَدِمْتُ  
الشَّامَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَافِقَتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، فَأَنْتَ يَا

(١) أبو داود: ٢٨/٥ (٢) الطبري: ٥٠٢/١ إسناده ضعيف

لتدليس ابن إسحاق (٣) الطبري: ٥١٢/١ (٤) الترمذي:

١١٥٩ والمجمع: ٣١٠/٤ (٥) ابن أبي حاتم: ١٢٣/١ (٦)

مسلم: ٩٣/١ (٧) العظمة: ١٥٥٣/٥

وَعَبَّرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ: «... ثُمَّ أَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ مِنْ شِقْمِهِ الْأَيْسَرِ وَلَاَمَ مَكَانَهُ لَحْمًا، وَأَدَمَ نَائِمٌ لَمْ يَهَبْ مِنْ نَوْمِهِ، حَتَّى خَلَقَ اللَّهُ مِنْ ضِلْعِهِ تِلْكَ زَوْجَتَهُ حَوَاءَ، فَسَوَّاهَا امْرَأَةً لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا كُتِفَ عَنْهُ السُّنَّةُ وَهَبَ مِنْ نَوْمِهِ رَأَاهَا إِلَى جَنْبِهِ فَقَالَ: - فِيمَا يَزْعُمُونَ وَاللَّهِ أَغْلَمُ - «الْحَمِي وَدَمِي وَزَوْجَتِي» فَسَكَنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا زَوَّجَهُ اللَّهُ وَجَعَلَ لَهُ سَكَنًا مِنْ نَفْسِهِ، قَالَ لَهُ قِيلًا: ﴿يَتَّكِدُمْ أَتَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَلَا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا نَقْرًا هَذِهِ الشَّجَرَةُ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

[اِخْتِبَارُ آدَمَ بِالشَّجَرَةِ وَنَوْعُهَا]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا نَقْرًا هَذِهِ الشَّجَرَةُ﴾ [٣٥] فَهُوَ اخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَامْتِحَانٌ لِآدَمَ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ مَا هِيَ؟ فَقِيلَ: الْكُرْمُ. وَقِيلَ: الْجَنْطَةُ. وَقِيلَ: النَّخْلَةُ. وَقِيلَ: التَّيْنَةُ. وَقِيلَ: شَجَرَةٌ مِنْ أَكْلٍ مِنْهَا أُحْدِثُ، وَقِيلَ: شَجَرَةٌ تَأْكُلُ ثَمَرُهَا الْمَلَائِكَةُ لِيُخْلِدُوهُمْ. قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ ثَنَاؤُهُ - نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بَعْضُهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا، فَأَكَلَا مِنْهَا، وَلَا عِلْمَ عِنْدَنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَقَدْ قِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةُ الْبُرِّ، وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةُ الْعَنْبِ، وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةُ التَّيْنِ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا، وَذَلِكَ عِلْمٌ إِذَا عُلِمَ لَمْ يَنْفَعِ الْعَالِمُ بِهِ عِلْمُهُ، وَإِنْ جَهْلُهُ جَاهِلٌ لَمْ يَضُرَّهُ جَهْلُهُ بِهِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَلِكَ رَجَّحَ [الْإِبْهَامَ] الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، وَغَيْرُهُ. وَهُوَ الصَّوَابُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿عَنْهَا﴾ عَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَرَأَ عَاصِمٌ بْنُ بَهْدَلَةَ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي النَّجُودِ (فَأَزَلَّهُمَا) أَيْ: فَتَحَاوَمَا<sup>(٣)</sup>. وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورِينَ وَهُوَ الشَّجَرَةُ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَفَتَادَةُ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: أَيْ مِنْ قِبَلِ الزَّلَلِ<sup>(٤)</sup>. فَعَلَى هَذَا يَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أَيْ بِسَبَبِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ أَيْكٍ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٩] أَيْ يُصْرِفُ بِسَبَبِهِ مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أَيْ مِنَ اللَّبَاسِ وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ وَالرِّزْقِ الْهَنِيِّ

الْبَقَرَةُ

٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَأَمَّا يَا تَيْتَكُم مَتَى هُدَى فَصَنَعَ يَتَعَ هُدَاى فَلَاحَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارَهْبُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرِيهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسَبُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَآزْكُوا مَعَ الرِّكْكِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُونُوا أَكْثَرًا فَتَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَتَى فَضَلَّتْكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

وَالرَّاحَةِ ﴿وَلَمَّا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكِنْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ﴾ أَيْ قَرَارٌ وَأَزْزَاقٌ وَأَجَالٌ - إِلَى حِينٍ - أَيْ إِلَى وَقْتٍ وَمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ، ثُمَّ تَقُومُ الْقِيَامَةُ.

[بَعْضُ صِفَاتِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طَوَالًا، كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَأَ مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الْجَنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةٌ، فَتَارَعَهَا، فَتَادَاهُ الرَّحْمَنُ: يَا آدَمُ مَتَى تَقْرَأُ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ لَا، وَلَكِنْ اسْتَحْيَا»<sup>(٥)</sup>.

[لَبِثَ آدَمُ فِي الْجَنَّةِ وَهَبُوطُهُ مِنْهَا]

وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا أَشْكَنَ آدَمُ

(١) الطبري: ٥١٤/١ (٢) الطبري: ٥٢٠/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٢٨/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٩، ١٢٨/١ (٥) ابن أبي حاتم: ١٢٩/١

لَهُ: بَلَى، وَعَطَشْتُ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، وَسَبَقَتْ رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ؟ قِيلَ لَهُ: بَلَى، وَكَتَبْتُ عَلَيْكَ أَنْ أَعْمَلَ هَذَا؟ قِيلَ لَهُ: بَلَى، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ ثُبْتُ هَلْ أَتَتْ رَاجِعِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ مَعْبُدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِنَحْوِهِ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ أَيُّ إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾... [آيَةُ [النساء: ١١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ تَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ يَتُوبُ. وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبِيدِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ.

﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٨] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢٦]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَتَدْرَبُ بِهِ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ وَإِبْلِيسَ حِينَ أَهْبَطَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْمُرَادُ الذُّرِّيَّةُ: إِنَّهُ سَيُنْزِلُ الْكُتُبَ وَيَبْعَثُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَلْهُدَى: الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ، وَالنَّبَاتَاتُ وَالْبَيِّنَاتُ<sup>(٩)</sup> ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ﴾ أَيُّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى مَا أَنْزَلْتُ بِهِ الْكُتُبَ وَأَرْسَلْتُ بِهِ الرُّسُلَ ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا قَاتَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ<sup>(١٠)</sup> ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]

(١) الحاكم: ٥٤٢/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ١٣١/١ إسناده ضعيف سماع جرير عن عطاء بعد الاختلاط (٣) ابن أبي حاتم: ١٣٢/١ إسناده ضعيف لأجل عباد بن ميسرة وهو لين الحديث وصدقة بن عمرو الغساني مجهول (٤) مسلم: ٥٨٥/٢ والنسائي: ٩٠/٣ (٥) ابن أبي حاتم: ١٣٦/١ والطبري: ٥٤٣/١ و٥٤٦ (٦) الطبري: ٥٤٣/١ (٧) الطبري: ٥٤٢/١ (٨) الحاكم: ٢/٢٠٥ (٩) ابن أبي حاتم: ١٣٩/١ (١٠) الطبري: ٣٨٩/١٨

الْجَنَّةِ إِلَّا مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَهْبَطَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا «دَحْنًا» بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ<sup>(٢)</sup>. وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: أَهْبَطَ آدَمُ بِالْهِنْدِ، وَحَوَاءَ بِحُدَّةٍ، وَإِبْلِيسَ بِدُسْتُمِسَانَ مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى أُمَيَّالٍ، وَأَهْبَطَتِ الْحَيَّةُ بِأَصْبَهَانَ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا»<sup>(٤)</sup>.

### [شُبْهَةٌ وَجَوَابُهَا]

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَتْ حَتَّةُ آدَمَ الَّتِي أُخْرِجَ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ كَمَا يَقُولُهُ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، فَكَيْفَ تَمَكَّنَ إِبْلِيسُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَقَدْ طُرِدَ مِنْ هُنَالِكَ طَرْدًا قَدْرِيًّا، وَالْقَدْرِيُّ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا بَعْضُهُ اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْجَنَّةَ الَّتِي كَانَ فِيهَا آدَمُ فِي الْأَرْضِ لَا فِي السَّمَاءِ، كَمَا قَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي أَوَّلِ كِتَابِنَا «الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ».

وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ بِأَجْوِبَةٍ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ مُنِعَ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ مُكْرَمًا، فَأَمَّا عَلَى وَجْهِ السَّرِيقَةِ وَالْإِهَانَةِ، فَلَا يَمْتَنِعُ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ - كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ - : أَنَّهُ دَخَلَ فِي فَمِ الْحَيَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسَّوسَ لَهُمَا وَهُوَ خَارِجٌ بَابِ الْجَنَّةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسَّوسَ لَهُمَا وَهُوَ فِي الْأَرْضِ، وَهُمَا فِي السَّمَاءِ، ذَكَرَهَا الزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُ.

﴿فَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾



### [تَوْبَةُ آدَمَ وَدُعَاؤُهُ]

قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُفَسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبَّنَا طَلَعْنَا نَأْكُلْ مِنْ لَدُنْكَ وَنَزَعْتَنَا وَزَوَّجْتَنَا لَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وَرَوَى هَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَخَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ﴾ قَالَ: قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قِيلَ لَهُ: بَلَى، وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قِيلَ

[تَذَكُّرُ الْيَهُودِ بِعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ]

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قَالَ: بِعَهْدِي الَّذِي أَخَذْتُ فِي أَعْنَاقِكُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذَا جَاءَكُمْ، أَنْجِزْ لَكُمْ مَا وَعَدْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَصْدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ بِوَضْعِ مَا كَانَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَصَارِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ فِي أَعْنَاقِكُمْ يَذُنُّبِكُمْ الَّتِي كَانَتْ مِنْ إِحْدَانِكُمْ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ<sup>(٧)</sup>: هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَنْتُمْهُمُ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾...

الآيَةُ [المائدة: ١٢].

وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الَّذِي أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ نَبِيًّا عَظِيمًا يُطِيعُهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ، وَالْمُرَادُ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ عَمَرَ اللَّهُ لَهُ دَنَبَهُ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، وَجَعَلَ لَهُ أَجْرَيْنِ. وَقَدْ أوردَ الرَّازِي بِشَارَاتٍ كَثِيرَةً عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قَالَ عَهْدُهُ إِلَى عِبَادِهِ: دِينَ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَّبِعُوهُ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ؟ قَالَ: أَرْضَ عَنْكُمْ وَأَدْخِلْكُمْ الْجَنَّةَ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا قَالَ الشَّدَّيِّ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْحَمُكُمْ﴾ أَيُّ فَاحْشُونَ<sup>(١٠)</sup>. قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالشَّدَّيِّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْحَمُكُمْ﴾ أَيُّ أَنْ نَزَلَ بِكُمْ مَا أَنْزَلْتُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ مِنَ النِّعَمَاتِ الَّتِي قَدْ عَرَفْتُمْ مِنَ الْمَسْخِ وَغَيْرِهِ<sup>(١١)</sup>. وَهَذَا انْتِقَالٌ مِنَ التَّرْغِيبِ إِلَى التَّرْهِيبِ، فَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ، وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالِاتِّعَاطِ بِالْقُرْآنِ

(١) أبو داود الطيالسي: ٣٥٦ (٢) الطبري: ٥٥٣/١ (٣) الطبري: ٥٥٦/١ (٤) الطبري: ٥٥٦/١ (٥) إسناده ضعيف لتدليس ابن إسحاق وجهالة شيخه محمد بن أبي محمد كما تقدم (٦) الطبري: ٥٥٥/١ (٧) الطبري: ٥٥٨/١ (٨) ابن أبي حاتم: ١٤٣/١ (٩) إسناده ضعيف لعدم سماع ضحاك من ابن عباس (١٠) الطبري: ٥٦٠/١ (١١) ابن أبي حاتم: ١٤٤/١

[١٢٤، ١٢٣] كَمَا قَالَ لَهُنَا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيُّ مُخَلَّدُونَ فِيهَا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا مَحِيصَ.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُكُمْ﴾ ﴿١٢٤﴾ وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا بِآيَاتِنَا قِيلًا وَإِنِّي فَأَنْقُوتُ﴾ ﴿١٢٥﴾

[حَضُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَمُهِيجًا لَهُمْ بِذِكْرِ أَبِيهِمْ إِسْرَائِيلَ وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَقْدِيرُهُ: يَا بَنِي الْعَبْدِ الصَّالِحِ الْمُطِيعِ لِلَّهِ، كُونُوا مِثْلَ أَبِيكُمْ فِي مُتَابَعَةِ الْحَقِّ، كَمَا تَقُولُ: يَا ابْنَ الْكَرِيمِ افْعَلْ كَذَا، يَا ابْنَ الشُّجَاعِ بَارِزِ الْأَبْطَالِ، يَا ابْنَ الْعَالِمِ أَطْلُبِ الْعِلْمَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شَاكِرِينَ﴾ [الإسراء: ٣].

[إِسْرَائِيلَ لَقِبَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

فَإِسْرَائِيلَ هُوَ يَعْقُوبُ بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَضَرَتْ عِصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبُ؟» قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»<sup>(١)</sup> وَرَوَى الطَّبْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ إِسْرَائِيلَ كَقَوْلِكَ: عَبْدُ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>.

[نِعْمَ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: نِعْمَةُ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَمَى، وَفِيمَا سِوَى ذَلِكَ أَنَّ فَجَّرَ لَهُمُ الْحَجَرَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنِّ وَالسَّلَوى، وَنَجَّاهُمْ مِنْ عُبودِيَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: نِعْمَتُهُ أَنْ جَعَلَ مِنْهُمْ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ<sup>(٤)</sup>. قُلْتُ: وَهَذَا كَقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: ﴿يَقُولُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]

يَعْنِي فِي زَمَانِهِمْ، وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ بَلَائِي عِنْدَكُمْ وَعِنْدَ آبَائِكُمْ لَمَّا كَانَ نَجَّاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ<sup>(٥)</sup>.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٢٣﴾  
[الَّتِي عَنْ لَبْسِ الْحَقِّ وَكَيْفَانِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا لِلْيَهُودِ عَمَّا كَانُوا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ تَلْبِيسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَتَمْوِيهِهِ بِهِ، وَكَيْفَانِهِمُ الْحَقَّ، وَإِظْهَارِهِمُ الْبَاطِلَ: ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فَتَهَامُهُمُ عَنِ الشَّيْئَيْنِ مَعًا، وَأَمْرُهُمْ بِإِظْهَارِ الْحَقِّ وَالتَّضَرُّيحِ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ لَا تَخْلُطُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَالصَّدَقَ بِالْكَذِبِ <sup>(٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وَلَا تَلْسُوا الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ دِينَ اللَّهِ الْإِسْلَامَ، وَأَنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ بِدْعَةٌ لَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ <sup>(٧)</sup>. وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ نَحْوَ ذَلِكَ <sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ لَا تَكْتُمُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِي وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَأَنْتُمْ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِيمَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي بَأْيَدِيكُمْ <sup>(٩)</sup>.

(قُلْتُ) وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ عَلَى النَّاسِ مِنْ إِضْلَالِهِمْ عَنِ الْهُدَى الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ، إِلَى أَنْ سَلَكُوا مَا تَبْدُونَهُ لَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ الْمَشُوبِ بِنَوْعٍ مِنَ الْحَقِّ لِثَرَوْجِهِ عَلَيْهِمْ. وَالْبَيَانُ: الْإِيضَاحُ، وَعَكْسُهُ: الْكِتْمَانُ وَخَلْطُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: قَوْلُهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَمْرُهُمْ أَنْ يُصَلُّوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَمْرُهُمْ أَنْ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ أَيُّ يَدْفَعُونَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَمْرُهُمْ أَنْ يَرْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، يَقُولُ: كُونُوا مَعَهُمْ وَمِنْهُمْ <sup>(١٠)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَيُّ وَكُونُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ، وَمِنْ أَحْصَى ذَلِكَ وَأَكْمَلِهِ الصَّلَاةَ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنْ

وَرَوَا جِرِهِ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَتَصْدِيقِ أَخْبَارِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يَعْنِي بِهِ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ، بَيِّنًا وَنَذِيرًا، وَسِرَاجًا مُنِيرًا، مُشْتَمِلًا عَلَى الْحَقِّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، يَقُولُ: لِأَنْتُمْ يَجِدُونَ مُحَمَّدًا ﷺ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَقَتَادَةَ نَحْوَ ذَلِكَ <sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَعِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِكُمْ <sup>(١٢)</sup>. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: يَقُولُ: وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ <sup>(١٣)</sup>، يَعْنِي مِنْ جَنَسِكُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ بَعْدَ سَمَاعِكُمْ بِمَبْعُوثِهِ. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ <sup>(١٤)</sup>. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ «بِهِ» عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ وَكَذَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ لِأَنَّهُمَا مُتَالِفَانِ، لِأَنَّ مَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ فَقَدْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ فَيَعْنِي بِهِ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بَشَرٌ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَاشَرَةً، فَإِنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ أَوَّلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ خُوِطِبُوا بِالْقُرْآنِ، فَكَفَرُوا بِهِ يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُمْ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ جَنَسِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَقُولُ: لَا تَعْتَاَصُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِي وَتَصْدِيقِ رَسُولِي بِالْذُّنُوبِ وَشَهَوَاتِهَا، فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ فَائِنَّةٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ طَلْحِ بْنِ حَبِيبٍ، قَالَ: أَلْتَقَوِي أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ تَتَرُكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ تَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ <sup>(١٥)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ أَنَّهُ تَعَالَى يَتَوَعَّدُهُمْ فِيمَا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ كَيْفَانِ الْحَقِّ وَإِظْهَارِ خِلَافِهِ وَمُخَالَفَتِهِمُ الرُّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) ابن أبي حاتم: ١٤٥/١ (٢) ابن أبي حاتم: ١٤٥/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٤٥/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٤٥/١ (٥) ابن أبي حاتم: ١٤٧/١ (٦) الطبري: ٥٦٩/١ إسناده ضعيف الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٧) ابن أبي حاتم: ١٤٧/١ (٨) ابن أبي حاتم: ١٤٧/١ (٩) ابن أبي حاتم: ١٤٨/١ إسناده ضعيف لتدليس ابن إسحاق كما تقدم (١٠) الكشاف: ١٣٣/١

السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: قِيلَ لِأَسَامَةَ وَأَنَا رَدِيفُهُ: أَلَا تَكَلَّمُ عُمَانًا؟ فَقَالَ: إِنِّكُمْ تَرَوْنَ أَنِّي لَا أَكَلِّمُهُ إِلَّا أَسْمِعُكُمْ، إِنِّي لَأَكَلِّمُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ دُونَ أَنْ أَفْتِيحَ أَمْرًا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ افْتَتَحَهُ، وَاللَّهِ لَا أَقُولُ لِرَجُلٍ: إِنَّكَ خَيْرُ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا، بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ بِهِ أَقْبَابُهُ، فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟» فَيَقُولُ: كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»<sup>(٤)</sup>. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّخَفِيُّ: إِنِّي لَأَكْرَهُ الْقَصَصَ لثَلَاثِ آيَاتٍ: قَوْلُهُ تَعَالَى: «اتَّأَمَّرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» وَقَوْلُهُ: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ»<sup>(٦)</sup> كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» [الصف: ٣، ٢]<sup>(٧)</sup> وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْبٍ: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» [هود: ٨٨].

«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ»<sup>(٨)</sup> الَّذِينَ يَنْظُرُونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»<sup>(٩)</sup>

[الاستِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عَبِيدَهُ فِيمَا يُؤْمَلُونَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، كَمَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حِثَّانٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةُ: اسْتَعِينُوا عَلَى طَلَبِ الْآخِرَةِ بِالصَّبْرِ عَلَى الْفَرَائِضِ وَالصَّلَاةِ، فَأَمَّا الصَّبْرُ فَقِيلَ: إِنَّهُ الصَّبَاطُ<sup>(١٠)</sup>. نَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ: وَلِهَذَا يُسَمَّى رَمَضَانُ شَهْرَ الصَّبْرِ<sup>(١١)</sup>. كَمَا نَطَقَ بِهِ الْحَدِيثُ<sup>(١٢)</sup>. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالصَّبْرِ

الْعُلَمَاءُ بِهِذِهِ الْآيَةِ عَلَى وَجُوبِ الْجَمَاعَةِ.

﴿اتَّأَمَّرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾<sup>(١٣)</sup>

[التَّوْبِيخُ عَلَى تَرْكِ الطَّاعَاتِ لِمَنْ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْمَعْرُوفِ]

يَقُولُ تَعَالَى: كَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنْتُمْ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَهُمْ جَمَاعُ الْخَيْرِ: أَنْ تَنَسُوا أَنْفُسَكُمْ فَلَا تَأْتِمُرُوا بِمَا تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ، وَأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ تَتْلُونَ الْكِتَابَ وَتَعْلَمُونَ مَا فِيهِ عَلَى مَنْ قَصَرَ فِي أَوْامِرِ اللَّهِ؟ «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِأَنْفُسِكُمْ، فَتَسْبِيهُوا مِنْ رِفْدَتِكُمْ، وَتَتَبَصَّرُوا مِنْ عَمَائِيَّتِكُمْ، وَهَذَا كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «اتَّأَمَّرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» قَالَ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِتَقْوَاهُ وَبِالْبِرِّ، وَيُخَالِفُونَ، فَعَبَّرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(١٤)</sup>. وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّدِيدِيُّ وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: «اتَّأَمَّرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ» أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقُونَ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَيَدْعُونَ الْعَمَلَ بِمَا يَأْمُرُونَ بِهِ النَّاسَ، فَعَبَّرَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ أَمَرَ بِخَيْرٍ فَلْيَكُنْ أَشَدَّ النَّاسِ فِيهِ مُسَارَعَةً<sup>(١٥)</sup>. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» أَيِ تَتْرَكُونَ أَنْفُسَكُمْ «وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أَيِ تَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْكُفْرِ بِمَا عِنْدَكُمْ مِنَ الثَّبُوتِ وَالْعَهْدِ مِنَ التَّوَرَاةِ، وَتَتْرَكُونَ أَنْفُسَكُمْ، أَيِ وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ بِمَا فِيهَا مِنْ عَهْدِي إِلَيْكُمْ فِي تَصْدِيقِ رَسُولِي، وَتَنْقُضُونَ مِيثَاقِي، وَتَجْحَدُونَ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ كِتَابِي<sup>(١٦)</sup>.

وَالْعَرَضُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ، وَبَيَّهَهُمْ عَلَى خَطِيئِهِمْ فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ كَانُوا يَأْمُرُونَ بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُونَهُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَمُّهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْبِرِّ مَعَ تَرْكِهِمْ لَهُ، [بَلْ عَلَى تَرْكِهِمْ لَهُ] فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَالِمِ، وَلَكِنَّ الْوَاجِبَ وَالْأَوَّلَى بِالْعَالِمِ أَنْ يَفْعَلَهُ مَعَ مَنْ أَمَرَهُمْ بِهِ، وَلَا يَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» [هود: ٨٨] فَكُلُّ مَنْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَفِعْلُهُ وَاجِبٌ، لَا يَسْقُطُ أَحَدُهُمَا بِتَرْكِ الْآخَرِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ مِنْ

(١) عبد الرزاق: ٤٤/١ (٢) الطبري: ٨/٢ (٣) الطبري: ٢/

٧ (٤) أحمد: ٢٥٥/٥ (٥) فتح الباري: ٣٨١/٦ ومسلم: ٤/

٢٢٩١ (٦) القرطبي: ٣٦٧/١ (٧) ابن أبي حاتم: ١٥٤/١

إسناده ضعيف فيه عمران بن خالد ضعيف الحديث (٨) القرطبي:

٣٧٢/١ (٩) إسناده ضعيف فيه علي بن زيد بن جدعان وهو

ضعيف.

مجاهد قال: كل ظن في القرآن فهو علم وهذا سنده صحيح.

(قُلْتُ) وَفِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَمْ أَرْزُقْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أَسْخَرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبُوعًا؟ فَيَقُولُ: بلى، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»<sup>(١)</sup>.

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ أَذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِیْ أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَأَنِّیْ فَضَّلْتُکُمْ عَلَى

الْعَالَمِیْنَ ﴿٤٧﴾

[تَذْکِیرُ بَنِی إِسْرَءِیْلَ بِتَضْلِیلِهِمْ عَلَى الْأُمَمِ]

يُذْکِرُهُمْ تَعَالَى بِسَالِفِ نِعْمِهِ إِلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ، وَمَا كَانَ فَضْلَهُمْ بِهِ مِنْ إِسْرَاسِلِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ، وَإِنزَالِ الْکُتُبِ عَلَيْهِمْ، عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَهُمْ عَلَى عِلْمِیْ عَلَى الْعَالَمِیْنَ﴾ [الدخان: ٣٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ یَقَوْمِ أَذْکُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ جَعَلَ فِیْکُمْ أَنْبِیَاءَ وَجَعَلَ لَکُمْ مُلُوکًا وَآتَکُمْ مِمَّا لَمْ یُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِیْنَ﴾ [المائدة: ٢٠] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِیُّ عَنِ الرَّبِیعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِیَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنِّیْ فَضَّلْتُکُمْ عَلَى الْعَالَمِیْنَ﴾ قَالَ: بِمَا أُعْطُوا مِنَ الْمُلْکِ وَالرُّسُلِ وَالْکُتُبِ عَلَى عَالَمٍ مَنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالَمًا<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَالرَّبِیعِ بْنِ أَنَسٍ وَفَتَادَةَ وَإِسْمَاعِیلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>.

[أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ بَنِی إِسْرَءِیْلَ]

وَيَجِبُ الْحَمْلُ عَلَى هَذَا، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى خُطَابًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْکِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠] وَفِي الْمَسَائِدِ وَالسَّنَنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ الْقُسَيْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ تُؤْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»<sup>(٤)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ تُذْکِرُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

(١) هذا منقطع أبو سنان سعيد بن سنان لم يسمع من عمر (٢) ابن أبي حاتم: ١٥٥/١ (٣) الطبري: ١٦/٢ (٤) الطبري: ٢/ ١٧ (٥) مسلم: ٢٢٧٩/٤ (٦) الطبري: ٢٤/٢ (٧) ابن أبي حاتم: ١٥٨/١ (٨) أحمد: ٤٤٧/٤ و٣/٥ وتحفة الأحوذى: ٣٥٢/٨ وابن ماجه: ١٤٣٣/٢

الْكَفِّ عَنِ الْمَعَاصِي، وَلِهَذَا قَرَنَهُ بِإِدَاءِ الْعِبَادَاتِ، وَأَعْلَاهَا فِعْلُ الصَّلَاةِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: الصَّبْرُ صَبْرَانِ: صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ حَسَنٌ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ الصَّبْرُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ. قَالَ: وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ نَحْوَ قَوْلِ عُمَرَ<sup>(٢)</sup>.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَالصَّلَاةُ﴾ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾... آيَةُ [العنكبوت: ٤٥].

وَالصَّبْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ عَائِدٌ إِلَى الصَّلَاةِ، نَصٌّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ وَهُوَ الْوَصِيَّةُ بِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ قَارُونَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [القصص: ٨٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَا يَدْعُوا إِلَى أَعْيُنٍ مُرَبِّدَةٍ وَيَتَّبِعُ الْوَسْوَ الْخَاسِئَةَ أَدْفَعْ بِأَلْفِیْ هِیْ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَيْنَکَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ کَأَنَّهُ وَحِدٌ حَمِیمٌ﴾ [٢٢] وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [انصت: ٣٤، ٣٥] أَيْ وَمَا يُلْقَى هَذِهِ الْوَصِيَّةُ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلْقَاهَا أَيْ يُؤْتَاهَا وَيُلْهِمُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أَيْ: مَشَقَّةٌ ثَقِيلَةٌ ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْمُصْذِقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَطْمَئِنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَفُّوا رِجْهَمَ وَإِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهُ، أَيْ وَإِنَّ الصَّلَاةَ أَوْ الْوَصَاةَ لَثَقِيلَةٌ ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الَّذِينَ يَطْمَئِنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَفُّوا رِجْهَمَ أَيْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مَحْشُورُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعْرُوضُونَ عَلَيْهِ، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أَيْ أُمُورُهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى مَشِیَّتِهِ، يَحْكُمُ فِيهَا مَا يَشَاءُ بِعَدْلِهِ، فَلِهَذَا لَمَّا أَيْقَنُوا بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ سَهَّلَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ الطَّاعَاتِ وَتَرَكُوا الْمُنْكَرَاتِ. [الظن بمعنى اليقين] فَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿يَطْمَئِنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَفُّوا رِجْهَمَ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ، رَجَمَهُ اللَّهُ: الْعَرَبُ قَدْ تَسَمَّيَ الْيَقِينَ ظَنًّا، وَالشَّكَّ ظَنًّا، فَظَنُّوا تَسْمِيَتَهُمُ الظُّلْمَةَ سُدُقَةً، وَالضُّبَاءَ سُدُقَةً، وَالْمُغِيثَ صَارِحًا، وَالْمُسْتَعِيثَ صَارِحًا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي يُسَمَّى بِهَا الشَّيْءُ وَضِدُّهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَرَا الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ



[١١٠].

﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [١١٨]

لَمَّا ذَكَرَهُمْ تَعَالَى بِنِعْمِهِ أَوَّلًا، عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ التَّحْذِيرِ مِنْ طُولِ نِقْمِهِ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أَيُّ لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥ الأنعام: ١٦٤] وَقَالَ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] وَقَالَ: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَتَقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [القمان: ٣٣] فَهَذَا أَلْبَغُ الْمَقَامَاتِ أَنَّ كُلًّا مِنَ الْوَالِدِ وَلَدِهِ لَا يُغْنِي أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ شَيْئًا.

[لَا يُقْبَلُ مِنَ الْكُفَّارِ شَفَاعَةٌ وَلَا فِدَاءٌ، وَلَا يُنصَرُونَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ يَعْنِي مِنَ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وَكَمَا قَالَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ﴾ [ولا صديق حميم] [الشعراء: ١٠٠، ١٠١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أَيُّ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا فِدَاءٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهٖ﴾ [آل عمران: ٩١] وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهٖ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠] وَقَالَ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا مِنْكُمْ الْتَأْذِي مَوْلَانَكُمْ﴾... [الآية [الحديد: ١٥]. فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ، وَتَتَابَعُوهُ عَلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ، وَوَفَّوْا اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ قَرَابَةُ قَرِيبٍ وَلَا شَفَاعَةُ ذِي جَاهٍ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ وَلَوْ بِبِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وَقَالَ: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أَيُّ وَلَا أَحَدٌ يَغْضَبُ لَهُمْ فَيَنْصُرُهُمْ وَيُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ لَا يَغْضَبُ عَلَيْهِمْ ذُو قَرَابَةٍ وَلَا ذُو جَاهٍ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ، هَذَا كُلُّهُ مِنْ جَانِبِ التَّلَطُّفِ، وَلَا لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ

الْمَلَأَ الْإِلَهَ

٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ غَرَقْنَاهُ وَأَلْفَرْنَا فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا إِلَهُكُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْنُصُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَمُ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَابْ عَلَىكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلَّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] أَيُّ إِنَّهُ تَعَالَى لَا يُقْبَلُ فِيمَنْ كَفَرَ بِهِ فِدْيَةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ، وَلَا يُنْقِذُ أَحَدًا مِنْ عَذَابِهِ مُنْقِذٌ، وَلَا يُخَلِّصُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَلَا يُجِيرُ مِنْهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وَقَالَ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ [ولا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدٌ] [الفجر: ٢٥، ٢٦] وَقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾ [٢٥] بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ [الصافات: ٢٥، ٢٦] وَقَالَ: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ﴾... [الاحقاف: ٢٨]، وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥] مَا لَكُمْ الْيَوْمَ لَا تُمَانِعُونَ مِنَّا، هِنَاهَا لَيْسَ ذَلِكَ لَكُمْ الْيَوْمَ <sup>(١)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ لَا يَنْصُرُهُمْ نَاصِرٌ كَمَا لَا يَشْفَعُ لَهُمْ شَافِعٌ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا فِدْيَةٌ،

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وَأَمَّا فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ فَلَمَّا قَالَ: ﴿وَكَرِهْتُم بِأَيْدِيهِ وَأَيْدِيهِ وَنِعْمِهِ عَلَيْهِمْ﴾ فَتَنَسَّبَ أَنْ يَقُولَ هُنَاكَ: ﴿يَسْأَلُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذِيحُوتُ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فَعَطَفَ عَلَيْهِ الذَّبْحَ لِيَذِلَّ عَلَى تَعَدُّدِ النِّعَمِ وَالْأَيْدِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.

و"فِرْعَوْنُ" عَلِمَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا مِنْ الْعَمَالِيْقِ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا أَنَّ "فَيْصَرَ" عَلِمَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ الرُّومَ مَعَ الشَّامِ كَافِرًا، وَ"كِسْرَى" لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ، وَ"بُئِج" لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ كَافِرًا، وَالنَّجَاشِي لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَفِي الَّذِي فَعَلْنَا بِكُمْ مِنْ إِنْجَانِنَا آبَاءَكُمْ مِمَّا كُتِّمَ فِيهِ مِنْ عَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ بَلَاءٌ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ، أَيْ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. وَأَصْلُ الْبَلَاءِ الْإِخْتِيَارُ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْخَيْرِ وَفِتْنَةٍ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وَقَالَ: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي الشَّرِّ: بَلَوْتُهُ أَبْلَوُهُ بَلَاءً<sup>(٢)</sup>. وَفِي الْخَيْرِ أُبْلِيَهُ إِبْلَاءً وَبَلَاءً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْتَكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾، مَعْنَاهُ: وَبَعْدَ أَنْ أَنْقَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَخَرَجْتُمْ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَرَجَ فِرْعَوْنُ فِي طَلَبِكُمْ فَفَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ مُفَصَّلًا، كَمَا سَيَأْتِي فِي مَوَاضِعِهِ، وَمِنْ أَسْطِهَا مَا فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ﴿فَأَمْجَيْتَكُمُ﴾ أَيْ خَلَصْنَاكُمْ مِنْهُمْ، وَحَجَزْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَأَغْرَقْنَاهُمْ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْفَى لِمُصْذِرِكُمْ وَأَبْلَغَ فِي إِهَانَةِ عَدُوِّكُمْ.

[صَوْمُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ]

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَانَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ يَصُومُونَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي تَصُومُونَ؟» قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمُ نَجَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَحَقُّ

بَطَلْتُ هُنَاكَ الْمُحَابَاةَ، وَأَضْمَحَلَّتِ الرَّشَا وَالشَّفَاعَاتُ، وَارْتَفَعَ مِنَ الْقَوْمِ التَّنَاصُرُ وَالنَّعَاوُنُ، وَصَارَ الْحُكْمُ إِلَى الْجَبَّارِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ لَدَيْهِ الشُّفَعَاءُ وَالنُّصَرَاءُ، فَيَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا، وَبِالْحَسَنَةِ أَضْعَافَهَا، وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مُسْتَوْفُونَ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٥٠﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٦]<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذِيحُونَ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْتَكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥١﴾

[تَنْجِيَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَإِعْرَاقُ آلِ فِرْعَوْنَ]  
يَقُولُ تَعَالَى: اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَيْ خَلَصْنَاكُمْ مِنْهُمْ، وَأَنْقَذْنَاكُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ صُحْبَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ كَانُوا يَسُومُونَكُمْ، أَيْ يُوْرِدُونَكُمْ وَيَذِلُّونَكُمْ وَيُولُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهُ كَانَ قَدْ رَأَى رُؤْيَا هَالِكَةً، رَأَى نَارًا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَدَخَلَتْ بُيُوتَ الْقِبْطِ بِلَادِ مِصْرَ، إِلَّا بُيُوتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مَضْمُونُهَا: أَنَّ زَوَالَ مُلْكِهِ يَكُونُ عَلَى يَدَي رَجُلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَيُقَالُ: بَلْ تَحَدَّثَ سَمَّارُهُ عِنْدَهُ بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَوَقَّعُونَ خُرُوجَ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُمْ بِهِ دَوْلَةٌ وَرَفْعَةٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ فِرْعَوْنُ لَعَنَهُ اللَّهُ بِقَتْلِ كُلِّ ذَكَرٍ يُولَدُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنْ تُتْرَكَ النِّبَاتُ، وَأَمَرَ بِاسْتِعْمَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مَسَاقِ الْأَعْمَالِ وَأَرْذَلِهَا.

وَهَهْنَا فَسَّرَ الْعَذَابَ بِذَّبْحِ الْأَنْبَاءِ، وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَطَفَ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ: ﴿يَسْأَلُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذِيحُوتُ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] وَسَيَأْتِي تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْقَصَصِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ وَالْمَعُونَةُ وَالتَّأْيِيدُ.

وَمَعْنَى ﴿يَسْأَلُكُمْ﴾ يُولُونَكُمْ، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ. كَمَا يُقَالُ سَأَمَهُ حُطَّةٌ حَسَنٌ، إِذَا أَوْلَاهُ إِيَّاهَا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: يُدِيمُونَ عَذَابَكُمْ، كَمَا يُقَالُ: سَأَمَهُ الْعَنَمُ، مِنْ إِدَامَتِهَا الرَّغْيُ. نَقْلَهُ الْقُرْطُبِيُّ، وَإِنَّمَا قَالَ هَهْنَا: ﴿يَذِيحُونَ أَنْبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَفْسِيرًا لِلنِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْأَلُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِهِذَا لِقَوْلِهِ هَهْنَا:

يَمُوسَى مِنْكُمْ» فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَ بِصَوْمِهِ<sup>(١)</sup>.  
وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ  
مَاجَةَ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ  
ظَالِمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ<sup>(٤)</sup>  
وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ<sup>(٥)</sup>

[اتَّخَذَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي عَفْوِي عَنْكُمْ،  
لَمَّا عَبْدْتُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ عِنْدَ  
انْقِضَاءِ أَمَدِ الْمُوَاعَدَةِ، وَكَانَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَهِيَ  
الْمَذْكُورَةُ فِي الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ  
ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قِيلَ إِنَّهَا: ذُو  
الْقَعْدَةِ بِكَمَالِهِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ. وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ  
خَلَاصِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَإِنجَائِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ وَهُوَ مَا  
يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾  
وَكَانَ ذَلِكَ أَيْضًا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ  
سِيَاقُ الْكَلَامِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ  
آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ  
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الفصص:  
٤٣].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ  
الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ  
بَارِئِكُمْ فَلَبَّابٌ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْوَأَبَ الرَّجِيمُ﴾<sup>(٦)</sup>  
[تُوبَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ]

هَذِهِ صِفَةُ تَوْبَتِهِ تَعَالَى عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبَادَةِ  
الْعِجْلِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ  
الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤] فَقَالَ: ذَلِكَ حِينَ وَقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ  
شَأْنِ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ مَا وَقَعَ حَتَّىٰ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا سِقَظَ  
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا  
وَيَغْفِرْ لَنَا...﴾ [الأعراف: ١٤٩]. قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ  
يَقُولُ مُوسَى: ﴿يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ  
الْعِجْلَ﴾<sup>(٧)</sup> وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالرَّبِيعُ بْنُ  
أَسْسٍ: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أَيُّ إِلَىٰ خَالِقِكُمْ<sup>(٨)</sup>. قُلْتُ:  
وَفِي قَوْلِهِ هَهُنَا ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تَنْبِيهُ عَلَىٰ عِظَمِ جُرْمِهِمْ، أَيُّ

فَتُوبُوا إِلَى الَّذِي خَلَقَكُمْ وَقَدْ عَبْدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ.

وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ، قَالَ: فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ تَوْبَتَهُمْ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ  
وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَنْ لَقِيَ مِنْ وَالِدٍ وَوَلَدٍ، فَيَقْتُلُهُ بِالسَّيْفِ، وَلَا  
يُبَالِي مَنْ قَتَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ، فَتَابَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا  
خَفِيَّيَ عَلَىٰ مُوسَى وَهَارُونَ مَا اطَّلَعَ اللَّهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ،  
فَاعْتَرَفُوا بِهَا، وَفَعَلُوا مَا أَمَرُوا بِهِ، فَغَفَرَ اللَّهُ لِلْقَاتِلِ  
وَالْمَقْتُولِ<sup>(٩)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ مُوسَى  
لِقَوْمِهِ: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ  
بَارِئِكُمْ فَلَبَّابٌ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْوَأَبَ الرَّجِيمُ﴾ قَالَ: أَمَرَ مُوسَى  
قَوْمَهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ، قَالَ: وَأَخْبَرَ  
الَّذِينَ عَبْدُوا الْعِجْلَ، فَجَلَسُوا، وَقَامَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا عَلَى  
الْعِجْلِ، فَأَخَذُوا الْخَنَاجِرَ بِأَيْدِيهِمْ، وَأَصَابَتْهُمْ ظُلْمَةٌ  
شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَانْجَلَتِ الظُّلْمَةُ عَنْهُمْ  
وَقَدْ جَلَّوْا عَنْ سَبْعِينَ أَلْفَ قَتِيلٍ، كُلُّ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ كَانَتْ لَهُ  
تُوبَةٌ، وَكُلُّ مَنْ بَقِيَ كَانَتْ لَهُ تُوبَةٌ<sup>(١٠)</sup>.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ  
الضُّبُعَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾<sup>(١١)</sup> ثُمَّ مَنَّتُكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ<sup>(١٢)</sup>

[طَلَبَ خِيَارِهِمْ رُؤْيَةَ اللَّهِ وَإِمَاتَتَهُمْ وَإِحْيَاؤَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي بَعْثِي لَكُمْ بَعْدَ  
الصُّعْقِ إِذْ سَأَلْتُمْ رُؤْيِي جَهْرَةً عَيْنًا مِمَّا لَا يُسْتَطَاعُ لَكُمْ  
وَلَا لِأَمْثَالِكُمْ، كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ  
الْآيَةِ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾  
[٥٥] قَالَ: عَلَانِيَةً<sup>(١٣)</sup>. وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ: أَيُّ حَتَّىٰ نَرَى  
اللَّهِ<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ عَزُورَةُ ابْنُ رُوَيْمٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾  
قَالَ: صَعِقَ بَعْضُهُمْ وَبَعْضٌ يَنْظُرُونَ<sup>(١٥)</sup>، ثُمَّ بُعِثَ هَؤُلَاءِ،  
وَصَعِقَ هَؤُلَاءِ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الضُّبُعَةُ﴾ فَمَاتُوا، فَقَامَ مُوسَى

(١) أحمد: ٢٩١/١ (٢) فتح الباري: ٢٨٧/٤ ومسلم: ٢/

٧٩٦ والنسائي في الكبرى: ١٥٧/٢ وابن ماجه: ٥٥٣/١ (٣)

ابن أبي حاتم: ١٦٧/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٦٧/١، ١٦٨

(٥) النسائي في الكبرى: ٤٠٤/٦، ٤٠٥ والطبري: ٣٠٦/١٨

وابن أبي حاتم: ١٦٨/١ (٦) الطبري: ٧٣/٢ (٧) الطبري:

٨١/٢ (٨) ابن أبي حاتم: ١٧٠/١ (٩) ابن أبي حاتم: ١/

**[تَظْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ وَإِزْأَالِ أَلَمْنِ وَالسَّلَوَى عَلَيْهِمْ]**

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا دَفَعَهُ عَنْهُمْ مِنَ النَّعْمِ، شَرَعَ يَذْكُرُهُمْ أَيْضًا بِمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النُّعْمِ، فَقَالَ: ﴿وَلَلَّكُنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧] وَهُوَ جَمْعُ غَمَامَةٍ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَغْمُ السَّمَاءَ، أَيْ يُوَارِيهَا وَيَسْتُرُهَا. وَهُوَ السَّحَابُ الْأَبْيَضُ، ظَلُّوا بِهِ فِي التَّيِّهِ لِيَقِيَهُمْ حَرَّ الشَّمْسِ. كَمَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَأَبِي مِجْلَزٍ وَالضَّحَّاكِ وَالسُّدِّيِّ نَحْوَ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿وَلَلَّكُنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ﴾ كَانَ هَذَا فِي الْبَرِّيَّةِ، ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ مِنَ الشَّمْسِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ آخَرُونَ: وَهُوَ غَمَامٌ أَبْرَدُ مِنْ هَذَا وَأَطْيَبُ<sup>(٧)</sup>. كَمَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ: لَيْسَ بِسَحَابٍ. وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: لَيْسَ مِنْ زَيْ هَذَا السَّحَابِ، بَلْ أَحْسَنُ مِنْهُ وَأَطْيَبُ وَأَبْهَى مَنَظَرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ [البقرة: ٥٧] قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ الْمَنَّ يُنْزَلُ عَلَيْهِمْ عَلَى الْأَشْجَارِ، فَيَعْدُونَ إِلَيْهِ، فَيَأْكُلُونَ مِنْهُ مَا شَاءُوا. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ الْمَنَّ يُنْزَلُ عَلَيْهِمْ فِي مَحَلَّتِهِمْ سُقُوطَ الثَّلْجِ، أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ، يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، يَأْخُذُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ قَدْرَ مَا يَكْفِيهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ، فَإِذَا تَعَدَّى ذَلِكَ فَسَدَ وَلَمْ يَبْقَ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ سَادِسِهِ، لِيَوْمِ جُمُعَتِهِ، أَخَذَ مَا يَكْفِيهِ لِيَوْمِ سَادِسِهِ وَيَوْمِ سَابِعِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَوْمَ عِيدٍ لَا يَشْخَصُ فِيهِ لِأَمْرِ مَعِيشَتِهِ، وَلَا يَطْلُبُهُ لَشَيْءٍ، وَهَذَا كُلُّهُ فِي الْبَرِّيَّةِ<sup>(٨)</sup>.

فَالْمَنَّ الْمَشْهُورُ إِنْ أُكِلَ وَحْدَهُ كَانَ طَعَامًا وَحَلَاوَةً، وَإِنْ مُزِجَ مَعَ الْمَاءِ صَارَ شَرَابًا طَيِّبًا، وَإِنْ رُكِّبَ مَعَ غَيْرِهِ صَارَ نَوْعًا آخَرَ. وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ الْمَرَادُ مِنَ الْآيَةِ وَحْدَهُ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ رَوَايَةُ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْكُمَاءُ مِنَ الْمَنَّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ<sup>(١٠)</sup>.

يَبْكِي وَيَدْعُو اللَّهَ، وَيَقُولُ: رَبِّ مَاذَا أَقُولُ لِيَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا أَتَيْتُهُمْ، وَقَدْ أَهْلَكْتَ خِيَارَهُمْ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَلِئِنْ أَتَيْتَهُمْ بِمَا فَعَلَ السَّهْمَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى أَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ مِمَّنْ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُمْ فَقَامُوا وَعَاشُوا [رَجُلًا رَجُلًا]، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ كَيْفَ يُحْيُونَ؟ قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ كَانَ مَوْتُهُمْ عُقُوبَةً لَهُمْ، فَبَعَثُوا مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَسْتَوْفُوا أَجَالَهُمْ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ<sup>(٣)</sup>.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْلَمَ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: قَالَ لَهُمْ مُوسَى - لَمَّا رَجَعَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِالْأَلْوَحِ، قَدْ كُتِبَ فِيهَا التَّوْرَةُ، فَوَجَدَهُمْ يَعْبُدُونَ الْعِجْلَ، فَأَمَرَهُمْ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ فَفَعَلُوا، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ -: إِنَّ هَذِهِ الْأَلْوَحَ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ أَمْرُكُمْ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ، وَنَهْيُكُمْ الَّذِي نَهَاكُمْ عَنْهُ. فَقَالُوا: وَمَنْ يَأْخُذُ بِقَوْلِكَ أَنْتَ؟ لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، حَتَّى يَطْلُعَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَنَقُولَ: هَذَا كِتَابِي فَخُذُوهُ، فَمَا لَهُ لَا يَكْلَمُنَا كَمَا يَكْلَمُكَ أَنْتَ يَا مُوسَى؟ وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قَالَ: فَجَاءَتْ غَضَبُهُ مِنَ اللَّهِ، فَجَاءَتْهُمْ صَاعِقَةٌ بَعْدَ التَّوْبَةِ، فَصَعَقَتْهُمْ فَمَاتُوا أَجْمَعُونَ، قَالَ: ثُمَّ أَحْيَاهُمْ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ، وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: خُذُوا كِتَابَ اللَّهِ، فَقَالُوا: لَا، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَصَابَكُمْ؟ فَقَالُوا: أَصَابَنَا أَنَّا مُتْنَا ثُمَّ أَحْيَيْنَا، قَالَ: خُذُوا كِتَابَ اللَّهِ، قَالُوا: لَا، فَبَعَثَ اللَّهُ مَلَائِكَةً فَتَنَّتِ الْجِبَلَ فَوَقَّهْمُ<sup>(٤)</sup>.

وَهَذَا السِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَلَّفُوا بَعْدَ مَا أُحْيُوا. وَقَدْ حَكَى الْمَأُورِدِيُّ فِي ذَلِكَ قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ سَقَطَ التَّكْلِيفُ عَنْهُمْ لِمَعَايِنَتِهِمُ الْأَمْرَ جَهْرَةً حَتَّى صَارُوا مُضْطَرِّينَ إِلَى التَّصَدِيقِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ مُكَلَّفُونَ؛ لِئَلَّا يَخْلَوْا عَاقِلٌ مِنْ تَكْلِيفٍ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، لِأَنَّ مَعَايِنَتَهُمْ لِلْأُمُورِ الْفُظْيَةِ لَا تَمْنَعُ تَكْلِيفَهُمْ، لِأَنَّ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ قَدْ شَاهَدُوا أُمُورًا عَظِيمًا مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُكَلَّفُونَ، وَهَذَا وَاضِحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَلَّكُنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَرْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(١) ابن أبي حاتم: ١٧٣/١ (٢) ابن أبي حاتم: ١٧٣/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٧٣/١ (٤) الطبري: ٨٨/٢ (٥) ابن أبي حاتم: ١٧٤/١ (٦) ابن أبي حاتم: ١٧٤/١ (٧) الطبري: ٢/٩١ (٨) ابن أبي حاتم: ١٧٦/١ (٩) فتح الباري: ١٤/٨ (١٠) أحمد: ١٨٧/١

الْمُؤْمِنِينَ

٩

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَاذْقُلْنَا اَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا  
وَاَدْخُلُوا الْاَبَابَ سَاجِدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَزِيدَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِي ظَلَمُوا قَوْلًا  
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ  
السَّمَاءِ يَمَاسُ كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى  
لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ  
اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا  
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾  
وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا  
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا ثَلِثُتِ الْاَرْضَ مِنْ بَقَالِهَا وَفِثَائِهَا وَقَوْمِهَا  
وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ اَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ اَدْنٰى  
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اَمْ يَطُؤُا مِصْرًا فَاِنْ لَكُمْ مَاسَا اَلْتُمْتُمْ  
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُ وَعَصَبِ مِنْ  
اللَّهِ ذَلِكَ بِاَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ  
الْاَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

سَحَابَةً فَأَمْطَرْنَاهُمْ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا الْإِبِلَ وَمَلَّوْا  
أَسْفِيفَهُمْ، ثُمَّ نَظَرُوا فَإِذَا هِيَ لَمْ تَجَاوِزِ الْعَشْكَرَ. فَهَذَا  
هُوَ الْأَكْمَلُ فِي اتِّبَاعِ الشَّيْءِ. مَعَ قَدْرِ اللَّهِ، مَعَ مُتَابَعَةِ  
الرُّسُولِ ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا اَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا  
الْأَبَابَ سَاجِدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَزِيدَ  
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِي ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ  
فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَاسُ كَانُوا يَفْسُقُونَ  
﴿٥٩﴾﴾

[تَعَنَّتِ الْيَهُودُ بَعْدَ الْفَتْحِ بَدَلًا مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى]  
يَقُولُ تَعَالَى لَا يَمَاسُ عَلَى نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ وَعَنْ

وَأَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ:  
حَسَنٌ صَحِيحٌ <sup>(١)</sup>. وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ  
السُّمِّ، وَالْكُمَاةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاوُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ» <sup>(٢)</sup>. تَفَرَّدَ  
بِإِخْرَاجِهِ التِّرْمِذِيُّ <sup>(٣)</sup>.

وَأَمَّا السَّلْوَى، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:  
السَّلْوَى طَائِرٌ شَبِيهُ بِالسَّمَانِيِّ، كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ. وَرَوَى  
السُّدِّيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَنْ نَاسٍ مِنَ  
الصَّحَابَةِ: السَّلْوَى طَائِرٌ يُشَبِّهُ السَّمَانِيَّ <sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ  
مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَعِكْرِمَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ  
أَنَسٍ رَجَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى <sup>(٥)</sup>. وَعَنْ عِكْرِمَةَ: أَمَّا السَّلْوَى  
فَطَيْرٌ كَطَيْرٍ يَكُونُ بِالْجَنَّةِ، أَكْبَرُ مِنَ الْعُصْفُورِ أَوْ نَحْوِ  
ذَلِكَ <sup>(٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: السَّلْوَى كَانَ مِنْ طَيْرِ أَقْرَبَ إِلَى  
الْحُمْرَةِ، تَحْشُرُهَا عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْجَنُوبُ، وَكَانَ الرَّجُلُ  
يَذْبَحُ مِنْهَا قَدَرًا مَا يَكْفِيهِ يَوْمُهُ ذَلِكَ، فَإِذَا تَعَدَّى فَسَدَ وَلَمْ  
يَبْقَ عِنْدَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ سَادِسِهِ، لِيَوْمِ جُمُعَتِهِ، أَخَذَ مَا  
يَكْفِيهِ لِيَوْمِ سَادِسِهِ وَيَوْمِ سَابِعِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَوْمَ عِبَادَةِ لَا  
يَشْخَصُ فِيهِ لِشَيْءٍ وَلَا يَطْلُبُهُ <sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [٥٧] أَمْرٌ  
إِبَاحِيٌّ وَإِشَادِيٌّ وَامْتِنَانِيٌّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ  
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٥٧] أَيْ أَمَرْنَاهُمْ بِالْأَكْلِ وَمِمَّا  
رَزَقْنَاهُمْ، وَأَنْ يَعْبُدُوا، كَمَا قَالَ: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ  
وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥] فَخَالَفُوا وَكَفَرُوا، فَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.  
هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالْمُعْجَزَاتِ  
الْقَاطِعَاتِ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ.

[فَضِيلَةُ صَحَابَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى سَائِرِ أَصْحَابِ  
الْأَنْبِيَاءِ]

وَمِنْ هَهُنَا تَبَيَّنَ فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمْ عَلَى سَائِرِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ، فِي صَبْرِهِمْ وَتَبَاتُهِمْ  
وَعَدَمِ تَعَنُّتِهِمْ، مَعَ مَا كَانُوا مَعَهُ فِي أَشْقَائِهِ وَعَزَائِهِ،  
مِنْهَا عَامٌ تَبَوَّكُ، فِي ذَلِكَ الْقَبِيطِ وَالْحَرِّ الشَّدِيدِ وَالْجَهْدِ،  
لَمْ يَسْأَلُوا خَرْقَ عَادَةٍ، وَلَا إِيجَادَ أَمْرٍ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ  
سَهْلًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنْ لَمَّا أَجْهَدَهُمُ الْجُوعُ سَأَلُوهُ  
فِي تَكْثِيرِ طَعَامِهِمْ، فَجَمَعُوا مَا مَعَهُمْ، فَجَاءَ قَدَرٌ مَبْرُكٌ  
الشَّاءِ، فَلَدَعَا اللَّهُ فِيهِ، وَأَمَرَهُمْ فَمَلَّوْا كُلَّ وَغَاءٍ مَعَهُمْ.  
وَكَذَا لَمَّا احْتَأَجُّوا إِلَى الْمَاءِ سَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى، فَجَاءَتْهُمْ

(١) فتح الباري: ١٤/٨ ومسلم: ١٦١٩/٣ وتحفة الأحوذى: ٦/

٢٣٥ والنسائي في الكبرى: ٣٧٠/٤ وابن ماجه: ١١٤٣/٢ (٢)

تحفة الأحوذى: ٢٣٣/٦ (٣) تحفة الأحوذى: ٢٣٥/٦ (٤)

الطبري: ٩٦/٢ (٥) ابن أبي حاتم: ١٧٨/١ (٦) ابن أبي

حاتم: ١٧٩/١ (٧) ابن أبي حاتم: ١٧٩/١

حِطَّةٌ ﴿٥٩﴾ قَالَ: مَغْفِرَةٌ - اِسْتَغْفِرُوا- (٥). وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَيُّ أُحْطُطُ عَنَّا خَطَايَانَا (٦) ﴿تَنْفِرُ لَكُمْ خَلِيبُكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾. وَقَالَ: هَذَا جَوَابُ الْأَمْرِ، أَيُّ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْنَاكُمْ غَفَرْنَا لَكُمْ الْخَطِيئَاتِ، وَصَافَعْنَا لَكُمْ الْحَسَنَاتِ.

وَحَاصِلُ الْأَمْرِ: أَنَّهُمْ أَمُرُوا أَنْ يَخْضَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْفَتْحِ بِالْفِعْلِ وَالْقَوْلِ، وَأَنْ يَغْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ، وَيَسْتَغْفِرُوا مِنْهَا. وَالشُّكْرُ عَلَى النِّعْمَةِ عِنْدَهَا، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَحْبُوبِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا: حِطَّةٌ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا، حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ» (٧). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مُوَفَّقًا وَبَعْضُهُ مُسْنَدًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حِطَّةٌ﴾ قَالَ: فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حَبَّةٌ (٨). وَرَوَى نَحْوَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَعَنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ (٩). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَحَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ: أَنَّهُمْ بَدَّلُوا أَمْرَ اللَّهِ لَهُمْ مِنَ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَأَمُرُوا أَنْ يَدْخُلُوا سُجَّدًا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، مِنْ قِيلِ أَسْتَاهِهِمْ، رَافِعِي رُؤُوسِهِمْ، وَأَمُرُوا أَنْ يَقُولُوا: حِطَّةٌ، أَيُّ أُحْطُطُ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَخَطَايَانَا، فَاسْتَغْفِرُوا فَقَالُوا: حِطَّةٌ فِي شَعِيرَةٍ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْمُعَانَدَةِ، وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ بِسُقُوبِهِمْ، وَهُوَ خُرُوجُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ أَسْمَاءٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الرِّجْزِ يَعْنِي بِهِ الْعَذَابُ (١٠).

(١) ابن أبي حاتم: ١٨١/١ (٢) الرازي: ٨٢/٣ (٣) الطبري: ١١٣/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ١٨٣/١ ضعيف أبو سعيد الأزدي لا يعرف (٥) ابن أبي حاتم: ١٨٣/١ إسناده ضعيف العوفي مع عائلته من الضعفاء (٦) ابن أبي حاتم: ١٨٥/١ (٧) فتح الباري: ١٤/٨ (٨) النسائي في الكبرى: ٢٨٦/٦ (٩) تحفة الأحوذ: ٢٩١/٨ (١٠) الطبري: ١١٨/٢ ضعيف الضحاك لم يسمع من ابن عباس

دُخُولِهِمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، لَمَّا قَدِمُوا مِنْ بِلَادِ مِصْرَ صُحْبَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَمُرُوا بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَقِتَالِ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعَمَالِيْقِ الْكَفَرَةِ، فَتَكَلَّمُوا عَنْ قِتَالِهِمْ وَصَعُّوهُمُ وَاسْتَحْسَرُوا، فَرَمَاهُمُ اللَّهُ فِي النَّيِّهِ عُقُوبَةً لَهُمْ، كَمَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَلِهَذَا كَانَ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ: أَنَّ هَذِهِ الْبَلَدَةَ هِيَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ السُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ (١) وَقَتَادَةُ وَأَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَاشِيًا عَنْ مُوسَى: ﴿يَقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا﴾ ... الْآيَاتِ [المائدة: ٢١]. وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ أَرِيحَاءُ (٢). وَيُحْكَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ.

وَهَذَا كَانَ لَمَّا خَرَجُوا مِنَ النَّيِّهِ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَعَ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفَتْحَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَشِيَّةَ جُمُعَةٍ، وَقَدْ حَبِسَتْ لَهُمُ الشَّمْسُ يَوْمَئِذٍ قَلِيلًا حَتَّى أَمَكَّنَ الْفَتْحَ، وَلَمَّا فَتَحُوهَا أَمُرُوا أَنْ يَدْخُلُوا الْبَابَ الْبَلَدِ ﴿سُجَّدًا﴾ أَيُّ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ، وَرَدَّ بَلَدِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْقَادِهِمْ مِنَ النَّيِّهِ وَالضَّلَالِ، قَالَ الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أَيُّ رُكْعًا. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قَالَ: رُكْعًا مِنْ بَابٍ صَغِيرٍ (٣)، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَزَادَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: فَدَخَلُوا مِنْ قَبْلِ أَسْتَاهِهِمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَمُرُوا أَنْ يَسْجُدُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ حَالِ دُخُولِهِمْ. وَاسْتَبْعَدَهُ الرَّازِيُّ، وَحَكَى عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّ الْمُرَادَ هَهُنَا بِالسُّجُودِ الْخُضُوعُ؛ لِتَعَدُّرِ حَمْلِهِ عَلَى حَقِيقَتِهِ.

وَقَالَ خُصَيْفٌ: قَالَ عِكْرِمَةُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الْبَابُ قِبَلَ الْقِبْلَةِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ بَابُ الْحِطَّةِ مِنْ بَابِ إِيْلَاءٍ: بَيْتُ الْمُقَدَّسِ. وَحَكَى الرَّازِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُ عُنِيَ بِالْبَابِ جِهَةً مِنْ جِهَاتِ الْقِبْلَةِ. وَقَالَ خُصَيْفٌ: قَالَ عِكْرِمَةُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَدَخَلُوا عَلَى شَيْقٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْأَزْدِيِّ عَنْ أَبِي الْكَنْدُودِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: قِيلَ لَهُمْ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فَدَخَلُوا مُفْنِعِي رُؤُوسِهِمْ أَيُّ رَافِعِي رُؤُوسِهِمْ (٤) خِلَافَ مَا أَمُرُوا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقُولُوا

وَهُوَ الْإِنْفَجَارُ، فَكَانَ ذِكْرُ الْإِنْفَجَارِ هَهُنَا وَذَاكَ هُنَاكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْسُكُنَا لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ قَادُ لَنَا رَزَقٌ لَنَا مِنْ ثَمَرِ الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا وَقَتْلَهَا وَفُومِهَا وَعَدَيْهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَذَقَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطُوا وَمَضُوا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾

[طَلَبُهُمُ الطَّعَامَ الدُّنْيَا بَدَلَ الْمَنِّ وَالسَّلَوى]

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي إِنْزَالِي عَلَيْكُمْ الْمَنِّ وَالسَّلَوى طَعَامًا طَيِّبًا نَافِعًا هَيِّئًا سَهْلًا، وَادْكُرُوا دُبْرَكُمْ وَصَجْرَكُمْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ، وَسْأَلَكُمْ مُوسَى اسْتِبْدَالَ ذَلِكَ بِالْأَطْعَمَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْبُقُولِ وَنَحْوِهَا مِمَّا سَأَلْتُمْ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فَبَطَرُوا ذَلِكَ فَلَمْ يَضْبِرُوا عَلَيْهِ، وَذَكَّرُوا عَيْشَهُمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ، وَكَانُوا قَوْمًا أَهْلَ أَغْدَاسٍ وَبَصِلٍ وَبُقُولٍ وَفُومٍ فَقَالُوا: ﴿يَمْسُكُنَا لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ قَادُ لَنَا رَزَقٌ لَنَا مِنْ ثَمَرِ الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا وَقَتْلَهَا وَفُومِهَا وَعَدَيْهَا وَبَصِلَهَا﴾ وَإِنَّمَا قَالُوا ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾ وَهُمْ يَأْكُلُونَ الْمَنِّ وَالسَّلَوى، لِأَنَّهُ لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ كُلُّ يَوْمٍ، فَهُوَ مَأْكُلٌ وَاجِدٌ. فَالْبُقُولُ وَالْقَتَاءُ وَالْعَدَسُ وَالْبَصْلُ كُلُّهَا مَعْرُوفَةٌ، وَأَمَّا الْفُومُ فَوَقَعَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: وَفُومِهَا، بِالْثَاءِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفُومِهَا﴾ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْثُومُ<sup>(١)</sup>. قَالَ: وَفِي اللَّغَةِ الْقَدِيمَةِ: قَوْمُوا لَنَا بِمَعْنَى اخْتَارُوا. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا، فَإِنَّهُ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَبَدِّلَةِ كَقَوْلِهِمْ: «وَقَعُوا فِي عَائُورٍ شَرٌّ، وَعَافُورٍ شَرٌّ، وَأَنَائِي وَأَنَائِي، وَمَعَافِيرٌ وَمَعَائِيرٌ»، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِمَّا تُقَلِّبُ الْفَاءَ ثَاءً وَالثَّاءَ فَاءً لِتَقَارُبِ مَخْرَجَيْهِمَا<sup>(٢)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْفُومُ: الْحِنْطَةُ. وَهُوَ الْبُرُّ الَّذِي يُعْمَلُ مِنْهُ الْخُبْزُ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْخُبُوبُ الَّتِي تُؤْكَلُ كُلُّهَا فُومٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَذَقَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فِيهِ تَقْرِيبٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا سَأَلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَطْعَمَةِ

وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَالسُّدِّيِّ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ: أَنَّهُ الْعَذَابُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَخُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطَّاعُونَ رَجُزٌ، عَذَابُ عَذْبٍ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»<sup>(٤)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٥)</sup>، وَأَصْلُ الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا»<sup>(٦)</sup> الْحَدِيثُ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْوَجَعَ وَالسَّقَمَ رَجُزٌ عَذْبٌ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ»<sup>(٧)</sup> وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلُهُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٨)</sup>.

﴿وَإِذْ أَسْتَفَقَ مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ



[انْفَجَارُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي إِجَابَتِي لِتَبَيُّنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ اسْتَسْقَانِي لَكُمْ، وَتَسْيِيرِي لَكُمْ الْمَاءَ وَإِخْرَاجِهِ لَكُمْ مِنْ حَجَرٍ مَعَكُمْ، وَتَفْجِيرِي الْمَاءَ لَكُمْ مِنْهُ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا، لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِكُمْ عَيْنٌ قَدْ عَرَفُوهَا، فَكُلُوا مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلَوى، وَاشْرَبُوا مِنْ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي أُتْبِعْتُهُ لَكُمْ بِلا سَعْيٍ مِنْكُمْ وَلَا كَدٍّ، وَاعْبُدُوا الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وَلَا تُقَابِلُوا النِّعَمَ بِالْعِصْيَانِ فَتُسَلِّبُوهَا. وَقَدْ بَسَطَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي كَلَامِهِمْ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَجُعِلَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ حَجَرٌ مُرْتَعٍ، وَأَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْرَبَهُ بِعَصَاهُ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهُ ثَلَاثُ عُيُونٍ، وَأَعْلَمَ كُلُّ سِبْطٍ عَيْنَهُمْ، يَشْرَبُونَ مِنْهَا، لَا يَزْتَحِلُّونَ مِنْ مَقْلَةٍ إِلَّا وَجَدُوا ذَلِكَ مَعَهُمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ بِالْمَنْزِلِ الْأَوَّلِ<sup>(٩)</sup>.

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ شَبِيهَةٌ بِالْقِصَّةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَلَكِنْ تِلْكَ مَكِّيَّةٌ، فَلِذَلِكَ كَانَ الْإِخْبَارُ عَنْهُمْ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْصُرُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مَا فَعَلَ لَهُمْ. وَأَمَّا فِي هَذِهِ السُّورَةِ - وَهِيَ الْبَقَرَةُ - فَهِيَ مَدَنِيَّةٌ، فَلِهَذَا كَانَ الْخُطَابُ فِيهَا مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِمْ، وَأُخْبِرَ هُنَاكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّبَعَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وَهُوَ أَوَّلُ الْإِنْفَجَارِ، وَأُخْبِرَ هَهُنَا بِمَا آلَ إِلَيْهِ الْحَالُ آخِرًا،

(١) ابن أبي حاتم: ١٨٧/١ (٢) ابن أبي حاتم: ١٨٦/١ (٣) النسائي في الكبرى: ٣٦٢/٤ (٤) فتح الباري: ١٨٩/١٠ (٥) الطبري: ١١٦/٢ (٦) فتح الباري: ٥١٢/٦ (٧) الطبري: ١٧٣٧/٤ (٨) ابن أبي حاتم: ١٩٣/١ (٩) الطبري: ١٣٠/٢

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا الَّذِي جَارَيْنَاهُمْ مِنَ الدَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ. وَإِحْلَالُ الْغَضَبِ بِهِمْ مِنَ الدَّلَّةِ: بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَإِهَانَتِهِمْ حَمَلَةَ الشَّرْعِ، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ، فَانْتَقَصُوهُمْ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ قَتَلُوهُمْ، فَلَا كُفْرَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

### [تَعْرِيفُ الْكِبَرِ]

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّقِ عَلَى صِحَّتِهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»<sup>(٨)</sup>. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا، وَإِمَامًا صَلَاحَةً. وَمُمَثِّلٌ مِنَ الْمُمَثِّلِينَ»<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وَهَذِهِ عَلَّةٌ أُخْرَى فِي مُجَازَاتِهِمْ بِمَا جُورُوا بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْصُونَ وَيَعْتَدُونَ، فَالْعَصْيَانُ فِعْلُ الْمَنَاهِي، وَالْإِعْتِدَاءُ: الْمُجَاوَزَةُ فِي حَدِّ الْمَادُونِ فِيهِ وَالْمَأْمُورِ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّبِيحِينَ مِنْ ءِمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>

[الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ مَدَارُ النِّجَاتِ فِي كُلِّ

زَمَانٍ]

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ مَنْ خَالَفَ أَوَامِرَهُ، وَارْتَكَبَ زَوَاجِرَهُ، وَتَعَدَّى فِي فِعْلِهِ مَا لَا إِذْنَ فِيهِ، وَانْتَهَكَ الْمَحَارِمَ، وَمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ النَّكَالِ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْأَمَمِ السَّالِفَةِ، وَأَطَاعَ فَإِنَّ لَهُ جَزَاءَ الْخُسْنَى، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كُلُّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ فَلَهُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا يَبْتَغُونَهُ وَيُخْلَفُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وَكَمَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِيكَ قَالُوا رَبُّكَ اللَّهُ ثُمَّ

الذَّيْنَةِ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالطَّعَامِ الْهَنِيِّ الطَّيِّبِ النَّافِعِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّهُمَا فَسَّرَا ذَلِكَ بِمِصْرَ فِرْعَوْنَ<sup>(١٢)</sup>. وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ: مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ، كَمَا رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ، وَالْمَعْنَى عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ لَهُمْ: هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمْ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَزِيزٍ، بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي أَيْ بَلَدٍ دَخَلْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهُ، فَلَيْسَ يُسَاوِي مَعَ ذَنَابَتِهِ وَكَثْرَتِهِ فِي الْأَمْصَارِ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ فِيهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْتَبِذُوا الَّذِي هُوَ أَذَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ أَيْ مَا طَلَبْتُمْ، وَلَمَّا كَانَ سُؤْلُهُمْ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَطَرِ وَالْأَشْرِ، وَلَا ضَرُورَةَ فِيهِ، لَمْ يُجَابُوا إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾<sup>(١٣)</sup>

[ضَرْبُ الدَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ عَلَى الْيَهُودِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أَيْ وُضِعَتْ عَلَيْهِمْ، وَأُلْزِمُوا بِهَا شَرًّا وَقَدَرًا، أَيْ لَا يَزَالُونَ مُسْتَدْلِينَ، مَنْ وَجَدَهُمْ اسْتَدْلَهُمْ وَأَهَانَهُمْ، وَضُرِبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارُ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَذِلَّةٌ مُتَمَسِكُونَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: أَذْلَهُمُ اللَّهُ فَلَا مَنَعَةَ لَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَقَدْ أَدْرَكْتَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَإِنَّ الْمَجُوسَ لَتَجْبِشُهُمُ الْجُزْيَةُ<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ: الْمَسْكَنَةُ: الْفَقَاةُ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعُوفِيِّ: الْخَرَجُ<sup>(١٦)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ مِنَ اللَّهِ<sup>(١٧)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ انْصَرَفُوا وَرَجَعُوا. وَلَا يُقَالُ: بَاءَ إِلَّا مَوْصُولًا إِمَّا بِخَيْرٍ وَإِمَّا بِشَرٍّ، يُقَالُ مِنْهُ: بَاءَ فُلَانٌ بِذَنْبِهِ، يَبُوءُ بِهِ بُوءًا وَبُوءًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] يَعْنِي تَنْصَرَفَ مُتَحَمِّلَهُمَا، وَتَرْجَعَ بِهِمَا قَدْ صَارَا عَلَيْكَ دُونِي. فَمَعْنَى الْكَلَامِ إِذَنْ: رَجَعُوا مُنْصَرِفِينَ مُتَحَمِّلِينَ غَضَبَ اللَّهِ، قَدْ صَارَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ غَضَبٌ، وَوَجِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ سَخَطٌ<sup>(١٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

(١) ابن أبي حاتم: ١٩٤/١ (٢) الطبري: ١٣٤/٢ (٣) ابن أبي حاتم: ١٩٥/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٩٦/١ (٥) ابن أبي حاتم: ١٩٦/١ (٦) الطبري: ١٣٨/٢ (٧) الطبري: ١٣٨/٢ (٨) مسلم: ٩٣/١ (٩) أحمد: ٤٠٧/١



الْآن

١٠

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ  
 مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ  
 عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ  
 أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ  
 بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ  
 بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ  
 الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ  
 فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا  
 بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ  
 مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَالَتَذْبُوحُ  
 هَذِهِ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا  
 أَدْعُ لِنَارِكَ يَبْنَ لِنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ  
 وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ ﴿٦٨﴾  
 قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يَبْنَ لِنَا مَا لَوْ نَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ  
 إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾

إِيمَانِهِمْ، وَشِدَّةِ إِيْقَانِهِمْ، وَلَا تَهْمُ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ  
 الْمَاضِيَةِ وَالْعُيُوبِ الْآتِيَةِ.

## [الصَّابِرُونَ]

وَأَمَّا الصَّابِرُونَ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِمْ، فَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ  
 عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سَلِيمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: الصَّابِرُونَ قَوْمٌ  
 بَيْنَ الْمَجُوسِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَيْسَ لَهُمْ دِينٌ (٣).  
 وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْهُ (٤). وَرَوَى عَنْ عَطَاءٍ وَسَعِيدِ  
 ابْنِ جُبَيْرٍ نَحْوَ ذَلِكَ (٥). وَقِيلَ: فِرْقَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
 يَفْرَأُونَ الزَّبُورَ. وَقِيلَ: قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ. وَقِيلَ: قَوْمٌ  
 يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ. وَأَظْهَرَ الْأَقْوَالِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قَوْلُ  
 مُجَاهِدٍ وَمُتَابِعِيهِ وَوَهْبِ بْنِ مُنْبِهٍ: أَنََّّهُمْ قَوْمٌ لَيْسُوا عَلَى دِينِ  
 الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى وَلَا الْمَجُوسِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا

اسْتَقَمُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا  
 وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿فصلت: ٣٠﴾.

## [تَعْرِيفُ الْمُؤْمِنِ]

رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا  
 وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
 الْآخِرِ﴾ (١) - قَالَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ  
 الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل  
 عمران: ٨٥]. فَإِنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ إِخْبَارٌ عَنْ أَنَّهُ  
 لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ طَرِيقَةً وَلَا عَمَلًا إِلَّا مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرِيعَةِ  
 مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ بِمَا بَعَثَهُ بِهِ، فَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَكُلُّ مَنْ  
 اتَّبَعَ الرَّسُولَ فِي زَمَانِهِ فَهُوَ عَلَى هُدًى وَسَبِيلِ نَجَاةٍ.  
 فَالْيَهُودُ أَتَابَعُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ  
 إِلَى التَّوْرَةِ فِي زَمَانِهِمْ.

## [وَجْهٌ تَسْمِيَةِ الْيَهُودِ]

وَالْيَهُودُ مِنَ الْهُودَةِ - وَهِيَ الْمَوَدَّةُ - أَوْ التَّهَوُّدِ، وَهِيَ  
 التَّوْبَةُ، كَقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾  
 [الأعراف: ١٥٦] أَيْ تَبْنَا. فَكَأَنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ فِي  
 الْأَصْلِ لِتَوْبَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ. وَقِيلَ:  
 لِنِسْبَتِهِمْ إِلَى يَهُودَا أَكْبَرَ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ. وَقَالَ أَبُو غَمْرٍو بْنُ  
 الْعَلَاءِ: لِأَنَّهُمْ يَتَهَوَّدُونَ، أَيْ يَتَحَرَّكُونَ عِنْدَ قِرَاءَةِ التَّوْرَةِ.

## [وَجْهٌ تَسْمِيَةِ النَّصَارَى]

فَلَمَّا بَعَثَ عِيسَى ﷺ وَجَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ اتِّبَاعُهُ  
 وَالْإِقْبَادُ لَهُ، فَأَصْحَابُهُ وَأَهْلُ دِينِهِ هُمُ النَّصَارَى، سُمُّوا  
 بِذَلِكَ لِتَنَاصُرِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ. وَقَدْ يُقَالُ لَهُمْ أَنْصَارٌ أَيْضًا،  
 كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ  
 الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢، الصف: ١٤].  
 وَقِيلَ: إِنَّهُمْ إِنَّمَا سُمُّوا بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا أَرْضًا  
 يُقَالُ لَهَا: "نَاصِرَةٌ". قَالَهُ قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ. وَرَوَى عَنْ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا (٢). وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالنَّصَارَى جَمْعُ نَصْرَانٍ،  
 كَنَسَاوَى جَمْعُ نَسَوَانٍ، وَسُكَارَى جَمْعُ سُكَرَانٍ، وَيُقَالُ  
 لِلْمَرْأَةِ: نَصْرَانَةٌ.

## [الْمُؤْمِنُونَ]

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ، وَرَسُولًا إِلَى  
 بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَجَبَ عَلَيْهِمْ تَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ.  
 وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَالْإِكْفَافُ عَمَّا عَنْهُ رَجَرٌ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ  
 الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، وَسَمِيَتْ أُمُّهُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُؤْمِنِينَ لِكَثْرَةِ

(١) ابن أبي حاتم: ١٩٨/١ (٢) الرازي: ٩٧/٣ (٣) الطبري: ١٤٦/٢ (٤) الطبري: ١٤٦/٢ (٥) ابن أبي حاتم: ١٩٩/١

هُمْ بِأَقْوَنَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ وَلَا دِينَ مُقَرَّرَ لَهُمْ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتُونَهُ، وَلِهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْبِرُونَ مَنْ أَسْلَمَ بِالصَّابِئِ. أَيْ إِنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنْ سَائِرِ أَذْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الصَّابِئُونَ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٤﴾ [أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ الْيَهُودِ مَعَ رَفْعِ الطُّورِ عَلَيْهِمْ وَتَوَلَّيْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمَوَاقِيقِ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَاتَّبَعَ رُسُلِهِ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ رَفَعَ الْجَبَلَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، لِيُقِرُّوا بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ، وَيَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ وَجَزْمٍ وَهَمَّةٍ وَامْتِنَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَلَقَّنا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] فَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ، كَمَا فَسَّرَهُ بِهِ فِي الْأَعْرَافِ، وَنَصَّ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا ظَاهِرٌ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الطُّورُ مَا أُثْبِتَ مِنَ الْجِبَالِ، وَمَا لَمْ يُثْبِتْ فَلَيْسَ بِطُورٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ يَغْنِي التَّوْرَةَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بِقُوَّةٍ﴾: بِعَمَلٍ مَا فِيهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يَقُولُ: [إِقْرَأُوا مَا فِي التَّوْرَةِ وَاعْمَلُوا بِهِ]<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بِنَقْضِكُمْ ذَلِكَ الْمِيثَاقَ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فَعَلَّلْنَاهَا تَكْلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً

لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٥﴾

[اعْتَدَاؤُهُمْ فِي السَّبْتِ وَمَسْحُحُهُمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ مَا أَحَلَّ

مِنَ الْبَاسِ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي عَصَتْ أَمْرَ اللَّهِ، وَخَالَفُوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ السَّبْتِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ، إِذْ كَانَ مَشْرُوعًا لَهُمْ، فَتَحَبَّلُوا عَلَى اضْطِغَادِ الْحِثَانِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِمَا وَضَعُوا لَهَا مِنَ الشُّصُوصِ وَالْحَبَائِلِ وَالْبِرْكِ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ، فَلَمَّا جَاءَتْ يَوْمَ السَّبْتِ عَلَى عَادَتِهَا فِي الْكَثْرَةِ نَسِيتَ بِتِلْكَ الْحَبَائِلِ وَالْحَبِلِ، فَلَمْ تَخْلُصْ مِنْهَا يَوْمَهَا ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَخَذُوهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ السَّبْتِ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ، مَسَحَهُمُ اللَّهُ إِلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ، وَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْإِنْسَانِ فِي الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وَلَيْسَتْ بِإِنْسَانٍ حَقِيقَةً، فَكَذَلِكَ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ وَحِيلَتُهُمْ لَمَّا كَانَتْ مُشَابِهَةً لِلْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ، وَمُخَالَفَةً لَهُ فِي الْبَاطِنِ، كَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَسَلَّمْتُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً لِبِئْسَ الْأَعْرَافِ﴾ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِبَانَتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْجُدُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبَلُّوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] الْقِصَّةُ بِكَمَالِهَا، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فَجَعَلَ اللَّهُ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ، فَرَعَمَ: أَنْ شَبَّابَ الْقَوْمِ صَارُوا قِرَدَةً، وَأَنَّ الْمَسِيحَةَ صَارُوا خَنَازِيرَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ شَيْبَانُ التَّحَوُّيُّ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فَصَارَ الْقَوْمُ قِرَدَةً تَعَاوَى، لَهَا أَذْنَابٌ بَعْدَ مَا كَانُوا رِجَالًا وَنِسَاءً<sup>(٧)</sup>.

[الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ الْمَوْجُودَةُ لَيْسَتْ مِنْ نَسْلِ

الْمَمْسُوحَةِ]

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنَّمَا كَانَ الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ فَجَعَلُوا قِرَدَةً - فَوَاقًا - ثُمَّ هَلَكُوا، مَا كَانَ لِلْمَسْخِ نَسْلٌ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَمَسَحَهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً بِمَعْصِيَتِهِمْ، يَقُولُ: إِذْ لَا

(١) ابن أبي حاتم: ٢٠٣/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٠٣/١ إسناده ضعيف لوجه ١- من مغلقات المؤلف. ٢- الضحاك عن ابن عباس مرسل. ٣- بشر بن عماره الخثعمي ضعيف. (٣) ابن أبي حاتم: ٢٠٤/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٠٥/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٢٠٥/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٢١٠/١ إسناده ضعيف العوفي مع عائلته من جملة الضعفاء. (٧) ابن أبي حاتم: ١/٢٠٩ (٨) ابن أبي حاتم: ٢٠٩/١ إسناده ضعيف فيه عبدالله بن محمد شبه المتروك ومحمد بن مسلم الطائفي ضعيف.

الْبَقَرَةُ

١١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبُّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا  
 إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ  
 تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا  
 أَلَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِذْ  
 قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرُءْ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٩﴾  
 فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُتَوَكِّلِينَ وَيُرِيكُمْ  
 آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ  
 فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ  
 مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنْ  
 مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨١﴾  
 ﴿٨٢﴾ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ  
 يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَ عَنْهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوهُ  
 وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا  
 وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمْعًا  
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٤﴾

يَحْيُونَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، قَالَ: وَلَمْ يَعِشْ مَسْخٌ  
 قَطُّ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ وَلَمْ يَنْسِلُوا،  
 وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْفَرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَسَائِرَ الْخَلْقِ فِي السَّنَةِ  
 الْأَيَّامِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، فَمَسَخَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فِي  
 صُورَةِ الْفَرْدَةِ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ بِمَنْ يَشَاءُ كَمَا يَشَاءُ،  
 وَيُحَوِّلُهُ كَمَا يَشَاءُ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَلًا﴾ أَيُّ فَجَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ  
 الْقُرْيَةَ، وَالْمُرَادُ أَهْلِهَا، بِسَبَبِ اغْتِدَائِهِمْ فِي سَبْتِهِمْ  
 ﴿نَكَلًا﴾ أَيُّ عَاقِبَتَاهُمْ عَقُوبَةً فَجَعَلْنَاهَا عِبرَةً. كَمَا قَالَ اللَّهُ  
 عَنْ فِرْعَوْنَ ﴿تَلَاغَهُ اللَّهُ تَكَالِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أَيُّ مِنْ  
 الْقُرَى، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي جَعَلْنَاهَا بِمَا أَخْلَلْنَا بِهَا مِنْ  
 الْعُقُوبَةِ عِبرَةً لِمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
 ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ  
 يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧] فَجَعَلْنَاهُمْ عِبرَةً وَنَكَالًا لِمَنْ فِي  
 زَمَانِهِمْ، وَمَوْعِظَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِالْخَيْرِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْهُمْ،  
 وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الْمُرَادُ بِالْمَوْعِظَةِ هَهُنَا  
 الزَّاجِرُ أَيُّ جَعَلْنَا مَا أَخْلَلْنَا بِهِؤُلَاءِ مِنَ الْبَأْسِ وَالنَّكَالِ  
 فِي مُقَابَلَةِ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَمَا تَحِيلُوا بِهِ مِنْ  
 الْحِيلِ، فَلْيَحْذَرِ الْمُتَّقُونَ صَنِيعَهُمْ لِقَلَّا يُصِيبُهُمْ مَا  
 أَصَابَهُمْ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ بَطَّةٍ عَنْ أَبِي  
 هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتْ  
 الْيَهُودُ فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَذْنِ الْجِبِلِّ»<sup>(٢)</sup> وَهَذَا إِسْنَادٌ  
 جَيِّدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا  
 أَنْتَجِدْنَا حُرُوءًا قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٧٧﴾

[قِصَّةُ مَقْتُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْبَقَرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي  
 خَرْقِ الْعَادَةِ لَكُمْ فِي شَأْنِ الْبَقَرَةِ، وَبَيَانِ الْقَاتِلِ مَنْ هُوَ  
 بِسَبَبِهَا، وَإِخْبَارِ اللَّهِ الْمُقْتُولِ، وَنَصْبِهِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ مِنْهُمْ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيِّ، قَالَ: كَانَ  
 رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَقِيمًا لَا يُولَدُ لَهُ، وَكَانَ لَهُ مَالٌ  
 كَثِيرٌ، وَكَانَ ابْنُ أَخِيهِ وَارِثُهُ، فَقَتَلَهُ ثُمَّ اخْتَمَلَهُ لَيْلًا، فَوَضَعَهُ  
 عَلَى بَابِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَصْبَحَ يَدْعِيهِ، حَتَّى تَسَلَّحُوا،  
 وَرَكِبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. فَقَالَ دُؤُو الرَّاْيِ مِنْهُمْ وَالتَّهَيَّ:  
 عَلَامَ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ فِيكُمْ؟ فَأَتَوْا

مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ  
 يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَجِدْنَا حُرُوءًا قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ  
 مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قَالَ: فَلَوْ لَمْ يَتَعَرَّضُوا لِأَجْزَائِ عَنَّهُمْ أَذْنَى  
 بَقَرَةٍ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا، فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْبَقَرَةِ  
 الَّتِي أَمَرُوا بِذَبْحِهَا، فَوَجَدُوهَا عِنْدَ رَجُلٍ لَيْسَ لَهُ بَقَرَةٌ  
 غَيْرُهَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْقُصُهَا مِنْ مِلَّةٍ جَلِدَهَا ذَهَبًا،  
 فَأَخَذُوهَا بِمِلَّةٍ جَلِدَهَا ذَهَبًا، فَذَبَحُوهَا، فَضَرَبُوهُ بِبَعْضِهَا،  
 فَقَامَ. فَقَالُوا: مَنْ قَتَلَكَ؟ فَقَالَ: هَذَا - لِابْنِ أَخِيهِ - ثُمَّ  
 مَالَ مَيِّتًا، فَلَمْ يُعْطَ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا، فَلَمْ يَوْرَثْ قَاتِلٌ بَعْدَ<sup>(٣)</sup>.  
 وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِنَحْوِ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ<sup>(٤)</sup>.

﴿قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبُّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا  
 فَارِضٌ وَلَا يَكُرُّ عَوَاتٍ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾  
 قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبُّكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا

(١) الطبري: ١٦٧/٢ إسناده ضعيف الضحاك لم يسمع من ابن

عباس. (٢) إرواء الغليل: ٣٧٥/٥ (٣) ابن أبي حاتم: ١/

١١٤ (٤) الطبري: ١٨٣/٢

لَمَزَتْ ﴿٦٩﴾ أَيُّ إِنَّهَا لَيْسَتْ مُدَلَّلَةً بِالْجِرَاطَةِ، وَلَا مُعَدَّةً لِلْسَّقْيِ فِي السَّاقِيَةِ، بَلْ هِيَ مُكْرَمَةٌ، حَسَنَةٌ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿مُسْلَمَةٌ﴾ يَقُولُ: لَا عَيْبَ فِيهَا <sup>(٩)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُسْلَمَةٌ مِنَ الشَّيَةِ <sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: مُسْلَمَةٌ الْقَوَائِمِ وَالْخَلْقِ <sup>(١١)</sup>. ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا بَيَاضَ وَلَا سَوَادَ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: لَيْسَ فِيهَا بَيَاضٌ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ قَالَ: لَوْنُهَا وَاحِدٌ بَيْضٌ. ﴿قَالُوا أَتَنْ جَنَّتْ بِالْحَقِّ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: الْآنَ بَيْنَتْ لَنَا <sup>(١٢)</sup> ﴿فَذَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَادُوا أَنْ لَا يَفْعَلُوا: وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ لَا يَذْبَحُوهَا <sup>(١٣)</sup>. يَغْنِي أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذِهِ الْأَسْئَلَةِ وَالْأَجْوِبَةِ وَالْإِبْصَاحِ مَا ذَبَّحُوهَا إِلَّا بَعْدَ الْجُهْدِ، وَفِي هَذَا دَمٌ لَهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ إِلَّا التَّعْنَتُ، فَلِهَذَا مَا كَادُوا يَذْبَحُونَهَا. وَقَالَ عَمِيدَةُ وَمُجَاهِدٌ وَوَهْبُ بْنُ مُنْبِيٍّ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّهُمْ اشْتَرَوْهَا بِمَالٍ كَثِيرٍ، وَفِيهِ اخْتِلَافٌ <sup>(١٤)</sup>.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُوهَا﴾ وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٠﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾

[إِحْيَاءُ الْمَقْتُولِ وَتَعْيِينُ الْقَاتِلِ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: ﴿فَادَرَأْتُمُوهَا﴾ اخْتَلَفْتُمْ <sup>(١٥)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ وَالضَّحَّاكُ: اخْتَصَمْتُمْ فِيهَا <sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُوهَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ، وَقَالَ آخَرُونَ:

- (١) ابن أبي حاتم: ٢١٦/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٢١٧/١  
الضحاك عن ابن عباس مرسل. (٣) ابن أبي حاتم (٧٠٦) ١/١  
١٣٩ الطبري ١٢٢٨. (٤) ابن أبي حاتم (٧٠٩) ١/١٣٩ وقول  
الحسن هذا استغفره المصنف ورد الطبري ابن جرير ١/١  
٣٨٨، ٣٨٧ وابن قتية في "غريب القرآن" ص ٥٣. (٥) ابن أبي  
حاتم: ٢٢١/١ إسناده ضعيف العوفي تقدم حكمه (٦) ابن أبي  
حاتم: ٢٢٢/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٢٢٢/١ (٨) الطبري: ٢/٢  
٢٠٢ (٩) الطبري: ٢/٢١٤ (١٠) ابن أبي حاتم: ٢٢٥/١  
(١١) ابن أبي حاتم: ٢٢٦/١ (١٢) ابن أبي حاتم (٧٣٩) ١/١  
١٤٣ (١٣) الطبري: ٢/٢١٩ الضحاك عن ابن عباس  
مرسل (١٤) الطبري: ٢/٢٢١ (١٥) فتح الباري: ٥٠٦/٦  
(١٦) ابن أبي حاتم: ٢٢٩/١

بَقَرَةً صَفْرَاءَ فَاقْعَ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَنْعَ لَنَا رَبِّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْءَ مُسْلَمَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا أَتَنْ جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

[تَعَنُّتُهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنِ الْبَقَرَةِ وَتَضْيِيقُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ لِرُسُولِهِمْ، لِهَذَا لَمَّا ضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ أَنَّهُمْ ذَبَّحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ كَانَتْ، لَوَقَعَتِ الْمَوْقِعَ عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَمِيدَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: ﴿أَنْعَ لَنَا رَبِّكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ أَيُّ مَا هَذِهِ الْبَقَرَةُ، وَأَيُّ شَيْءٍ صِفَتُهَا؟ قَالَ: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا يَكْرُ﴾ أَيُّ لَا كَبِيرَةَ هَرَمَةَ وَلَا صَغِيرَةَ لَمْ يَلْحَقْهَا الْفَحْلُ. كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيُّ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَعَطِيَّةُ الْعُوفِيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ وَوَهْبُ بْنُ مُنْبِيٍّ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا <sup>(١)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿عَوَائِدُ بَيْتِكَ ذَلِكَ﴾، يَقُولُ: نِصْفُ بَيْنِ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ، وَهِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْبَقَرِ، وَأَحْسَنُ مَا تَكُونُ <sup>(٢)</sup>.

وقال مجاهد: إنها كانت صفراء <sup>(٣)</sup>، وروى ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله تعالى: ﴿بَقَرَةً صَفْرَاءَ فَاقْعَ لَوْنُهَا﴾ قال: سوداء شديدة السواد، وهذا غريب والصحيح الأول ولهذا أكد صفرتها بأنه ﴿فَاقْعَ لَوْنُهَا﴾ <sup>(٤)</sup>.

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس ﴿فَاقْعَ لَوْنُهَا﴾ شديدة الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض <sup>(٥)</sup>. وقال السُّدِّيُّ ﴿تَسُرُّ النَّظِيرَ﴾ أَيُّ تُعْجِبُ النَّظِيرَ <sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ <sup>(٧)</sup>. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِيٍّ: إِذَا نَظَرْتَ إِلَى جِلْدِهَا تَحَيَّلْتَ أَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَخْرُجُ مِنْ جِلْدِهَا <sup>(٨)</sup>. وَفِي التَّوْرَةِ: أَنَّهَا كَانَتْ حُمْرَاءَ. فَلَعَلَّ هَذَا خَطَأٌ فِي التَّعْرِيبِ، أَوْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: إِنَّهَا كَانَتْ شَدِيدَةً الصَّفْرَةَ تَضْرِبُ إِلَى حُمْرَةٍ وَسَوَادٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ لِكَثْرَتِهَا، فَصَيَّرَ لَنَا هَذِهِ الْبَقَرَةَ وَصَفَهَا وَجَلَّهَا لَنَا ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إِذَا يَبَيَّنَّا لَنَا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إِلَيْهَا.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي

بَلْ أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ.

﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا تُعَيِّنُونَ<sup>(٣)</sup>.

﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضًا﴾ هَذَا "الْبَعْضُ" أَيُّ شَيْءٍ كَانَ مِنْ أَعْضَاءِ هَذِهِ الْبَقَرَةِ، فَالْمُعْجِزَةُ حَاصِلَةٌ بِهِ، وَخَرَقُ الْعَادَةِ بِهِ كَائِنْ، وَقَدْ كَانَ مُعَيَّنًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَلَوْ كَانَ فِي تَعْيِينِهِ لَنَا فَائِدَةٌ تَعُودُ عَلَيْنَا فِي أَمْرِ الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا لَبَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا، وَلَكِنَّهُ أَبْهَمَهُ وَلَمْ يَجِئْ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحٍ عَنْ مَعْصُومٍ بَيَّانُهُ، فَتَحَنَّنْ بِنُهْمِهِ كَمَا أَبْهَمَهُ اللَّهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُعَيِّنُ اللَّهُ الْفَوْقَ﴾ أَيُّ فَضْرَبُوهُ فَحَبِي، وَتَبَّه تَعَالَى عَلَى قُدْرَتِهِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَمْرِ الْقَتِيلِ، جَعَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ الصَّنِيعَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَى الْمَعَادِ، وَقَاصِلًا مَا كَانَ يَبَيِّنُهُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَالْعِنَادِ.

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِمَّا خَلَقَهُ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ وَهَذِهِ الْفِصَّةُ، وَفِصَّةُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ، [البقرة: ٢٤٣] وَفِصَّةُ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، [البقرة: ٢٥٩] وَفِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالطُّيُورِ الْأَرْبَعَةِ، [البقرة: ٢٦٠] وَتَبَّه تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ صَبْرُورَتِهَا رَمِيمًا. وَشَاهِدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَيْتُمُ اللَّأَرْضَ الْمَيِّتَةَ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَابٌ وَأَجْرَيْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٦﴾ لِیَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥]

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٤)</sup>

[بَيَانُ قَسْوَةِ قُلُوبِ الْيَهُودِ]

يَقُولُ تَعَالَى تَوْيِيحًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَفْرِيعًا لَهُمْ عَلَى مَا شَاهَدُوهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كُلُّهُ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا تَلِينُ أَبَدًا، وَلِهَذَا نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مِثْلِ حَالِهِمْ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ

الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]

قَالَ الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا ضُرِبَ الْمُقْتُولُ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ جَلَسَ أَحْيَا مَا كَانَ قَطُّ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ قَتَلَكَ؟ قَالَ: بَنُو أَحْيَى قَتَلُونِي، ثُمَّ قُبِضَ. فَقَالَ بَنُو أَحْيَى حِينَ قَبَضَهُ اللَّهُ: وَاللَّهِ مَا قَتَلْنَاهُ، فَكَذَّبُوا بِالْحَقِّ بَعْدَ أَنْ رَأَوْهُ، فَقَالَ اللَّهُ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، يَعْنِي أَبْنَاءَ أَحْيَى الشَّيْخُ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾<sup>(٥)</sup>. فَصَارَتْ قُلُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ طَوْلِ الْأَمَدِ قَاسِيَةً بَعِيدَةً عَنِ الْمَوْعِظَةِ بَعْدَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ، فَهِيَ فِي قَسَوَتِهَا كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا عِلَاجَ لِبَلِيَّتِهَا، أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ، فَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَتَفَجَّرُ مِنْهَا الْعُيُونُ بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، وَمِنْهَا مَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَارِيًا، وَمِنْهَا مَا يَهْبِطُ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَفِيهِ إِذْرَاكٌ لِذَلِكَ بِحَسَبِهِ. كَمَا قَالَ: ﴿سُبْحَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أَيُّ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لِأَلْبَيْنَ مِنْ قُلُوبِكُمْ عَمَّا تُدْعَوْنَ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

[وُجُودُ قُوَّةِ الْإِذْرَاكِ فِي الْجَمَادَاتِ]

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ، وَهُوَ إِسْنَادُ الْخُشُوعِ إِلَى الْحِجَارَةِ، كَمَا أُسْنِدَتْ الْإِرَادَةُ إِلَى الْجِدَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَبْقُضَ﴾ [الكهف: ٧٧] قَالَ الرَّازِيُّ وَالْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ. وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْلُقُ فِيهَا هَذِهِ الصِّفَةَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وَقَالَ: ﴿سُبْحَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ الْآيَةِ. [الإسراء: ٤٤] وَقَالَ: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ يَنْفَعُوا لَظَلَمَهُ﴾ الْآيَةِ [النحل: ٤٨] ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا

(١) الطبري: ٢٢٥/٢ (٢) الطبري: ٢٢٥/٢ (٣) ابن أبي حاتم: ٢٢٩/١ (٤) الطبري: ٢٣٤/٢ العوفي مع عائلته ضعفاء. (٥) ابن أبي حاتم: ٢٣٣/١ إسناده ضعيف لتدليس محمد بن إسحاق وجهالة محمد بن أبي محمد

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٢

الْمِائَةُ الْاَلْفُ

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾  
وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ  
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ  
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ ثُمَّ قَلِيلًا  
قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُبُونَ  
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ  
أَتَّخِذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ثُمَّ تَقُولُونَ  
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً  
وَأَحْطَتْ بِهِ هَدَاهُ اللَّهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ  
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ  
أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ  
إِحْسَانًا وَذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا  
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ  
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

[قَطَعَ الطَّمَعُ فِي إِيْمَانِ يَهُودِ زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَنْظِمُون﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا  
لَكُمْ﴾ أَيُّ يَتَفَادُ لَكُمْ بِالطَّاعَةِ هَؤُلَاءِ الْفِرْقَةُ الضَّالَّةُ مِنَ  
الْيَهُودِ الَّذِينَ شَاهَدَ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مَا  
شَاهَدُوهُ، ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴿وَقَدْ كَانَ  
قَرِيبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ﴾ أَيُّ يَتَأَوَّلُونَهُ  
عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أَيُّ فَهَمُوهُ عَلَى  
الْحَلِيلَةِ، وَمَعَ هَذَا يُخَالِفُونَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾  
أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ تَحْرِيفِهِ وَتَأْوِيلِهِ؟ وَهَذَا  
الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ ثَبَتْنَا لَهُمْ  
وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾  
[المائدة: ١٣] قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ

طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ  
الْآيَةِ [الحشر: ٢١]: ﴿وَقَالُوا لِيُجَاهِدَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا  
أَنْظَقْنَا اللَّهَ﴾ الْآيَةِ [فصلت: ٢١]، وَفِي الصَّحِيحِ: «هَذَا  
جَبَلٌ يُجَبِّئُ وَنُجْبَةٌ»<sup>(١)</sup>.

وَكَحْنِيْنِ الْجَنْعِ الْمُتَوَاتِرِ خَبَرُهُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ:  
«إِنِّي لَا أَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ،  
إِنِّي لَا أَعْرِفُهُ إِلَّا الآنَ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي صِفَةِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ: «إِنَّهُ يَشْهَدُ  
لِمَنْ اسْتَلَمَ بِحَقِّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>. وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِي مَعْنَاهُ.

(تَنْبِيْهُ) اِخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] بَعْدَ الْإِجْمَاعِ  
عَلَى اسْتِحَالَةِ كَوْنِهَا لِلشَّكِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَوْ هُنَا بِمَعْنَى  
الْوَاوِ، تَقْدِيرُهُ: فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ وَأَشَدُّ قَسْوَةً، كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمْ مَاءً أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]  
﴿عَذْرًا أَوْ تَذَرًا﴾ [المرسلات: ٦] وَقَالَ آخَرُونَ: أَوْ هُنَا  
بِمَعْنَى بَلْ، فَتَقْدِيرُهُ: فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ بَلْ أَشَدُّ قَسْوَةً،  
وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا فُرِقَ مِنْهُمْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ يَحْشُونَ النَّاسَ كَحَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ  
حَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، «وَأَنْسَلْتُهُ إِلَيْنِ يَأْتِي أَلْفٌ أَوْ  
بَرِيدُونَ» [الصافات: ١٤٧]، «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»  
[النجم: ٩]. وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ  
أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عِنْدَكُمْ، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ:  
مَعْنَى ذَلِكَ فَقُلُوبُكُمْ لَا تَخْرُجُ عَنْ أَحَدِ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ، إِمَّا  
أَنْ تَكُونَ مِثْلَ الْحِجَارَةِ فِي الْقَسْوَةِ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَشَدَّ  
مِنْهَا فِي الْقَسْوَةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمَعْنَى ذَلِكَ عَلَى هَذَا  
التَّأْوِيلِ، فَبَعْضُهَا كَالْحِجَارَةِ قَسْوَةً، وَبَعْضُهَا أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ  
الْحِجَارَةِ<sup>(٤)</sup>؛ وَقَدْ رَجَحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ مَعَ تَوْجِيهِ غَيْرِهِ.

(قُلْتُ): وَهَذَا الْقَوْلُ الْأَخِيرُ يَبْقَى شَبِيْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوَفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] مَعَ قَوْلِهِ:  
﴿أَوْ كَصِيبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ  
كَفَرُوا أََعْمَلْتُمْ كُرْبًا بِبَعْضِهِ﴾ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَطُلُكٍ فِي  
بَحْرِ لَبِيٍّ﴾ الْآيَةِ [النور: ٣٩، ٤٠]، أَيُّ إِنْ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ  
هَكَذَا، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ هَكَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَنْظِمُونُ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ  
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ  
يَعْلَمُونَ﴾ [٥٥] وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا  
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُخَدُّونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ  
لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ

(١) فتح الباري: ٩٨/٦ وانظر الفخر الرازي: ١٣٠/٣ (٢)  
مسلم: ١٧٨٢/٤ (٣) أحمد: ٢٦٦/١ (٤) الطبري: ٢٣٦/٢

وَكَذَآ قَالَ قَتَادَةُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ قَالَ: كَانَ مَا أَسْرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَوَلَّوْا عَنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَخَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: تَنَاهَا أَنْ يُخْبِرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا فِي كِتَابِهِمْ خَشْيَةً أَنْ يُحَاجَّهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا فِي كِتَابِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ<sup>(٧)</sup> ﴿وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي حِينَ قَالُوا لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿أَمَّا﴾. كَذَآ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ<sup>(٨)</sup>.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ﴾<sup>(٧٨)</sup> قَوِيلَ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ. ثُمَّ قَلِيلًا قَوِيلَ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَتَوَلَّى لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ<sup>(٧٩)</sup> ﴿

[مَعْنَى الْأُمِّيِّ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ أَيِّ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَالْأُمِّيُونَ جَمْعُ أُمِّيٍّ، وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ. قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أَيُّ لَا يَذَرُونَ مَا فِيهِ<sup>(٩)</sup>. وَلِهَذَا فِي صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ أُمِّيٌّ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِسَبِيلٍ﴾ إِذَا لَزَزْتَ أَلْمِطْلُونَ<sup>(١٠)</sup> [العنكبوت: ٤٨] وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ، الشَّهْرُ هُكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» الْحَدِيثُ<sup>(١١)</sup>. أَيُّ لَا نَقْتَرِفُ فِي عِبَادَاتِنَا وَمَوَاقِيتِنَا إِلَى كِتَابٍ وَلَا حِسَابٍ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

[تَفْسِيرُ الْأَمَانِيِّ]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ يَقُولُ: ﴿إِلَّا قَوْلًا يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ كَذِبًا﴾<sup>(١١)</sup>. وَقِيلَ: إِلَّا أَمَانِي يَتَمَتَّنُونَهَا.

مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَوَعْدُهُ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الَّذِينَ يُحَرِّفُونَهُ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَهُ هُمُ الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قَالَ: التَّوْرَةُ الَّتِي أُنْزِلَتْهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ يُحَرِّفُونَهَا، يَجْعَلُونَ الْحَلَالَ فِيهَا حَرَامًا وَالْحَرَامَ فِيهَا حَلَالًا، وَالْحَقَّ فِيهَا بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ فِيهَا حَقًّا، إِذَا جَاءَهُمُ الْمُحِقُّ بِرِشْوَةٍ أَخْرَجُوا لَهُ كِتَابَ اللَّهِ، وَإِذَا جَاءَهُمُ الْمُبْطِلُ بِرِشْوَةٍ أَخْرَجُوا لَهُ ذَلِكَ الْكِتَابَ، فَهُوَ فِيهِ مُحِقٌّ، وَإِذَا جَاءَهُمُ أَحَدٌ يَسْأَلُهُمْ شَيْئًا لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ وَلَا رِشْوَةٌ وَلَا شَيْءٌ أَمْرُوهُ بِالْحَقِّ. فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿أَتَأْتِرُونَ النَّاسَ بِاللَّيْرِ وَتَسْتَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]<sup>(١٤)</sup>.

[الْيَهُودُ كَانُوا يُقِرُّونَ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا يُؤْمِنُونَ]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَمَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ الْآيَةُ، رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَمَّا﴾ أَيُّ أَنَّ صَاحِبَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَيْكُمْ خَاصَّةٌ<sup>(١٥)</sup>. وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا: لَا تَحْدُثُوا الْعَرَبَ بِهَذَا، فَإِنَّكُمْ قَدْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ مِنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَمَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ تَقْرُونَ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ قَدْ أَخَذَ لَهُ الْبَيْتَاقَ عَلَيْكُمْ بِاتِّبَاعِهِ. وَهُوَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي كُنَّا نَتَنَظَّرُ وَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا، إِجْحَادُهُ وَلَا تَقْرُوا بِهِ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٦] رَوَى عَبْدِ الرَّزَاقِ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ: سَيَكُونُ نَبِيٌّ فَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾<sup>(١٦)</sup>.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ كَانُوا إِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا: ءَمَّا، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا بَعْضُهُمْ: لَا تَحْدُثُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، مِمَّا فِي كِتَابِكُمْ، لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَيُخْصِمُوكُمْ<sup>(١٧)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: يَعْنِي مَا أَسْرُوا مِنْ كُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَكْذِيبِهِمْ بِهِ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ.

(١) ابن أبي حاتم: ٢٣٦/١ (٢) الطبري: ٢٤٥/٢ (٣) الطبري: ٢٤٦/٢ (٤) الطبري: ٢٥٠/٢ إسناده ضعيف لتدليس ابن إسحاق ووجوه أخرى. (٥) تفسير عبد الرزاق ٥٠/١ وسنده صحيح (٦) ابن أبي حاتم: ٢٣٩/١ (٧) ابن أبي حاتم: ١/٢٤٠ (٨) ابن أبي حاتم: ٢٤٠/١ (٩) ابن أبي حاتم: ١/٢٤١ (١٠) فتح الباري: ١٥١/٤ (١١) الطبري: ٢٦١/٢

لِأَنفُسِهِمْ مِنْ: أَنَّهُمْ لَنْ تَمْسَهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، ثُمَّ يَنْجُونَ مِنْهَا. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أَيُّ بِذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ عَهْدٌ فَهُوَ لَا يُخْلِفُ عَهْدَهُ، وَلَكِنْ هَذَا مَا جَرَى وَلَا كَانَ، وَلِهَذَا أَتَى بِ«أَمْ» الَّتِي بِمَعْنَى بَلْ، أَيُّ بَلْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكُذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ أَلَيْسَ الْيَهُودُ قَالُوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً<sup>(٨)</sup>. زَادَ غَيْرُهُ: وَهِيَ مُدَّةُ عِبَادَتِهِمُ الْعِجَلِ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُوَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أَهْدَيْتِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، شَاءَ فِيهَا سَمًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ هَهُنَا». فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟» قَالُوا: فُلَانٌ، قَالَ: «كَذِبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ». فَقَالُوا: صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي آيِنَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» فَقَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُقُونَا فِيهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اُحْسِنُوا وَاللَّهِ لَا تَخْلُقُكُمْ فِيهَا أَبَدًا». ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّيْءِ سُمًّا؟» فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا حَمَلَكُمُ عَلَى ذَلِكَ؟» فَقَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا أَنْ نَسْتَبْرِحَ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا لَمْ يَضُرْكُ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ بِنَحْوِهِ<sup>(١٠)</sup>.

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ يَقُولُ تَعَالَى: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَمَنِّيْتُمْ وَلَا كَمَا تَشْتَهُونَ،

قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يَقْمَهُونَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُوسَى شَيْئًا، وَلَكِنَّهُمْ يَتَخَرَّصُونَ الْكُذِبَ، وَيَتَخَرَّصُونَ الْأَبَاطِيلَ كَذِبًا وَزُورًا<sup>(١١)</sup>. وَالتَّمَنَّى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ تَخَلُّقُ الْكُذِبِ وَتَخَرُّصُهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يَكْذِبُونَ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ: يَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُّونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ<sup>(١٣)</sup>.

### [وَيُنِلُّ لَهُوْلَاءِ الْيَهُودُ الْمُحَرِّفِينَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنِلُّ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ نَمَنَّا قَلِيلًا...﴾ الْآيَةِ، هَؤُلَاءِ صِنْفٌ آخَرُ مِنَ الْيَهُودِ، وَهُمْ الدَّعَاةُ إِلَى الضَّلَالِ بِالزُّورِ وَالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ، وَأَكَلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ. وَالْوَيْلُ: الْهَلَاكُ وَاللِّمَامُ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مَشْهُورَةٌ فِي اللُّغَةِ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ أَخَذْتُ أَخْبَارَ اللَّهِ، تَقْرَؤُونَهُ غَضًا لَمْ يُشَبَّ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لِيَشْتَرُوا بِهِ نَمَنَّا قَلِيلًا، أَفَلَا يَنْهَاهُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدًا قَطُّ سَأَلَكُمْ عَنْ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ<sup>(١٤)</sup>. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ: الْكُتْمُ الْقَلِيلُ: الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهَا<sup>(١٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنِلُّ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَيُنِلُّ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أَيُّ قَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُذِبِ وَالْبُهْتَانِ وَالْإِفْتِرَاءِ، وَيُنِلُّ لَهُمْ مِمَّا أَكَلُوا بِهِ مِنَ السُّحْتِ، كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿وَيُنِلُّ لَهُمْ﴾ يَقُولُ: فَالْعَذَابُ عَلَيْهِمْ مِنَ الَّذِي كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ ذَلِكَ الْكُذِبِ، ﴿وَيُنِلُّ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يَقُولُ: مِمَّا يَأْكُلُونَ بِهِ النَّاسَ السَّفَلَةَ وَغَيْرَهُمْ<sup>(١٧)</sup>.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾

[مِنْ أَمَانِي الْيَهُودِ أَنَّهُمْ لَا يَمْكُونُ فِي النَّارِ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً]

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْيَهُودِ فِيمَا نَقَلُوهُ وَادَّعَوْهُ

(١) الطبري: ٢٦٢/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٤٥/١ (٥) فتح الباري: ٣٤٤/٥ و ٣٤٥/١٣ و ٥٥٥ (٦) ابن أبي حاتم: ١/٢٤٧ (٧) الطبري: ٢٧٣/٢ الضحاك عن ابن عباس مرسل. (٨) الطبري: ٢٧٦/٢ ضعف للعوفي وعائلته. (٩) دلائل النبوة: ٢٥٦/٤ (١٠) أحمد: ٤٥١/٢ وفتح الباري: ٣١٤/٦ والنسائي في الكبرى: ٤١٣/٦



الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ  
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾  
 ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا  
 مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلْغَامِ وَالْعُدُونِ  
 وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَوْحُومٌ عَلَيْكُمْ  
 إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُومُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ  
 بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ  
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ  
 وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا  
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ  
 يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ  
 بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ  
 بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ  
 اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا  
 قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

[ميثاق بني إسرائيل]

يُذَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ  
 الْأَوَامِرِ، وَأَخَذَهُ مِيثَاقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ  
 كُلِّهِ، وَأَعْرَضُوا قَضًا وَعَمْدًا، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ، وَيَذْكُرُونَهُ،  
 فَأَمَرَهُمُ تَعَالَى أَنْ يُعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِهَذَا أَمَرَ  
 جَمِيعَ خَلْقِهِ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا  
 مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾  
 [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ  
 رَسُولًا أَنْبِئُوا بِحُكْمِ اللَّهِ وَاجْعِلُوا الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ٣٦]  
 وَهَذَا هُوَ أَعْلَى الْحُقُوقِ وَأَعْظَمُهَا، وَهُوَ حَقُّ اللَّهِ تَبَارَكَ  
 وَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

ثُمَّ بَعْدَهُ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ، وَآكُذُّهُمْ وَأَوْلَاهُمْ بِذَلِكَ حَقٌّ

- (١) ابن أبي حاتم: ٢٥٢/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٥٢/١ (٣)  
 ابن أبي حاتم: ٢٥٣/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٥٣/١ (٥)  
 أحمد: ٤٠٢/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٢٥٤/١ إسناده ضعيف  
 لتدليس ابن إسحاق وجهالة محمد بن أبي محمد.

بَلِ الْأَمْرُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً، وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَهُوَ مَنْ  
 وَافَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، بَلْ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ  
 سَيِّئَاتٌ، فَهَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ﴾ أَيُّ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،  
 مِنَ الْعَمَلِ الْمُوَافِقِ لِلشَّرِيعَةِ، فَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهَذَا  
 الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ  
 الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
 وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ  
 أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبْرَةً  
 [النساء: ١٢٣، ١٢٤] وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو وَائِلٍ وَعَطَاءٌ  
 وَالْحَسَنُ: ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُمْ﴾ قَالَ: أَحَاطَ بِهِ  
 شِرْكُهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي رَزِينٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ  
 ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُمْ﴾ قَالَ: الَّذِي يَمُوتُ عَلَى خَطَايَا  
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتُوبَ<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ السُّدِّيِّ وَأَبِي رَزِينٍ نَحْوَهُ<sup>(٣)</sup>.  
 وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُمَا، وَقَتَادَةُ  
 وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ خَطِيئَتُهُمْ﴾ الْمَوْجِبَةُ  
 الْكِبِيرَةُ<sup>(٤)</sup>. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، وَاللَّهُ  
 أَعْلَمُ.

[مُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ إِذَا اجْتَمَعْنَ يُهْلِكُنَّ]

وَيُذَكِّرُ هَهُنَا الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ  
 ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ  
 وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهِنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَهْلِكُنَّ»  
 وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا «كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِأَرْضِ  
 فُلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ  
 بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا،  
 وَأَجَجُوا نَارًا فَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ  
 إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيُّ مَنْ آمَنَ بِمَا  
 كَفَرْتُمْ وَعَمِلَ بِمَا تَرَكْتُمْ مِنْ دِينِهِ، فَلَهُمُ الْجَنَّةُ ﴿خَالِدِينَ  
 فِيهَا﴾، يُخْرِجُهُمْ: أَنَّ الثَّوَابَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرُّ مُقِيمٌ عَلَى  
 أَهْلِهِ أَبَدًا لَا انْقِطَاعَ لَهُ<sup>(٦)</sup>.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ  
 إِحْسَانًا وَذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَوَلُّوْا لِلنَّاسِ حُسْنًا

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا

مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٨٩﴾

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا [النساء: ٣٦]  
فَقَامَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَمْ تَقُمْ بِهِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ  
قَبْلُهَا، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ  
مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَآءَ  
تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ  
عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ  
مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إخراجَهُمْ أَفْتَتُمُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ  
بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ  
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا  
بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْفَظُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ (٨٦)  
[بُؤْسُ الْمِيثَاقِ، وَتَقْضَاهُمْ لَهُ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي  
زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَمَا كَانُوا يُعَاوَنُهُ مِنَ الْقِتَالِ  
مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ، وَهُمْ  
الْأَنْصَارُ، كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عِبَادَ أَصْنَامٍ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ  
حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ، وَكَانَتْ يَهُودُ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَ قَبَائِلَ: بَنُو  
قَيْنُقَاعَ. وَبَنُو النَّضِيرِ: حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ. وَبَنُو قُرَيْظَةَ: حُلَفَاءُ  
الْأَوْسِ. فَكَانَتْ الْحَرْبُ إِذَا تَبَيَّنَتْ بَيْنَهُمْ، قَاتِلَ كُلُّ فَرِيقٍ  
مَعَ حُلَفَائِهِ، فَيَقْتُلُ الْيَهُودِيَّ أَعْدَاءَهُ، وَقَدْ يَقْتُلُ الْيَهُودِيَّ  
الْآخَرُ - مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ - وَذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ  
وَنَصٌّ كِتَابِيهِمْ، وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ، وَيَتَهَبُونَ مَا فِيهَا  
مِنَ الْأَنْثَاثِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْأَمْوَالِ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتِ الْحَرْبُ  
أُوزَارَهَا اسْتَفْكَوا الْأَسَارَى مِنَ الْفَرِيقِ الْمَغْلُوبِ - عَمَلًا  
بِحُكْمِ التَّوْرَةِ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفْتَتُمُونَ بِبَعْضِ  
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا  
مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ  
دِيَارِكُمْ﴾ أَيْ لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يُخْرِجُهُ مِنْ  
مَنْزِلِهِ، وَلَا يُظَاهِرُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَوَبَّأُوا إِلَى  
بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ  
أَهْلَ الْإِمْلَةِ الْوَاحِدَةِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُؤِهِمْ

الْوَالِدَيْنِ، وَلِهَذَا يَقْرَأُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَ حَقِّهِ وَحَقِّ  
الْوَالِدَيْنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى  
النَّصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ  
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿وَوَاتَّذَا  
الْفَرِيقَ حَقًّا وَالْمُسْكِينَ وَالْأَنْفُسَ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٦]  
وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْ  
الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيْ؟  
قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيْ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

قَالَ: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وَهُمْ الصِّغَارُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ مِنَ  
الْآبَاءِ، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ  
وَأَهْلِيهِمْ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَافِ عِنْدَ آيَةِ النَّسَاءِ  
الَّتِي أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهَا صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا  
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾... الْآيَةُ [النساء: ٣٦].  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أَيْ كَلِّمُوهُمْ  
طَيِّبًا، وَلْيَتَوَلَّوْا لَهُمْ جَانِبًا، وَيَدْخُلْ فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ  
بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ، كَمَا قَالَ  
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾:  
فَالْحَسَنُ مِنَ الْقَوْلِ: يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ،  
وَيَحْلُمُ وَيَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ حُسْنًا، كَمَا قَالَ  
اللَّهُ، وَهُوَ كُلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ رَضِيَهُ اللَّهُ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ  
أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:  
«لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَاتَّقِ أَخَاكَ  
بُوجُوهَ مُطْلِقِي». وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَالتِّرْمِذِيُّ،  
وَصَحَّحَهُ<sup>(٣)</sup>.

وَنَاسَبَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِأَنْ يَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا بَعْدَ مَا  
أَمَرَهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِالْفِعْلِ، فَجَمَعَ بَيْنَ طَرَفَيْ الْإِحْسَانِ  
الْفِعْلِيِّ وَالْقَوْلِيِّ. ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِعِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى  
النَّاسِ بِالْمُتَعَمَّنِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ، فَقَالَ:  
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَيْ تَرَكُوهُ وَرَاءَ  
ظُهُورِهِمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ  
مِنْهُمْ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِتَطْيِيرِ ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ  
بِقَوْلِهِ ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا  
وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ  
الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

(١) فتح الباري: ٥/٦ ومسلم: ٨٩/١ (٢) ابن أبي حاتم: ١/٢٥٨ (٣) أحمد: ١٧٣/٥ ومسلم: ٢٠٢٦/٤ وتحفة الأحوذى:

أَخْبَرَتْ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْيَهُودُ عَلَيْهِمُ لَعْنُ اللَّهِ يَتَكَاثَمُونَ بَيْنَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ يَسْبَبُ مُخَالَفَتِهِمْ شَرَعَ اللَّهُ وَأَمَرَهُ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [٨٥] جَزَاءٌ عَلَى مُخَالَفَتِهِمْ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ ﴿وَمَا اللَّهُ يَفْعَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٨٥ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أَيْ اسْتَحَبُّوا عَلَى الْآخِرَةِ وَاخْتَارُوهَا ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ أَيْ لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ أَيْ وَلَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ يُقْذِرُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ السَّرْمَدِيِّ، وَلَا يُجِيرُهُمْ مِنْهُ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذِبْتُمْ وَفَرِقْنَا تَقْتُلُونَ﴾ ٨٧

تَقْتُلُونَ ٨٧

[اسْتِكْبَارُ الْيَهُودِ وَتَكْذِيبُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَقَتْلُهُمْ إِيَّاهُمْ]

يَنْعَتْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْعُتُوِّ وَالْعِنَادِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْإِسْتِكْبَارِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَأَتَتْهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَى مُوسَى الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَةُ، فَحَرَّفُوهَا وَبَدَّلُوهَا، وَخَالَفُوا أَوَامِرَهَا وَأَوَّلُوهَا، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِشَرِيعَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِلُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾... الآية [المائدة: ٤٤]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ: أَتْبَعْنَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَرَدْنَا. وَالْكُلُّ قَرِيبٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

حَتَّى خَتَمَ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَجَاءَ بِمُخَالَفَةِ التَّوْرَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ، وَلِهَذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَهِيَ الْمُعْجَزَاتُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ إِخْبَاءِ الْمَوْتِ، وَخَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ

وَتَوَاضِعُ لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ نَدَّاعِي لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهْرِ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفْرَزْتُمْ وَأَسْتَرْتُمْ فَتَشْهَدُونَ﴾ أَيْ ثُمَّ أَفْرَزْتُمْ بِمَعْرِفَةِ هَذَا الْمِيثَاقِ وَصَحَّتِهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ بِهِ.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ﴾... الآية، رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ﴾... الآية<sup>(٢)</sup>. قَالَ: أَنْبَأَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَذَكَرَ حَرَمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ سَفْكَ دِمَائِهِمْ، وَافْتَرَضَ عَلَيْهِمْ فِيهَا فِدَاءَ أَسْرَاهُمْ، فَكَانُوا فَرِيقَيْنِ: طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بَنُو قَيْنَقَاقَ، وَهُمْ حُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ. وَالنَّصِيرُ، وَفَرِيقَةٌ، وَهُمْ حُلَفَاءُ الْأَوْسِ. فَكَانُوا إِذَا كَانَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ حَرْبٌ خَرَجَتْ بَنُو قَيْنَقَاقَ مَعَ الْخَزْرَجِ، وَخَرَجَتْ النَّصِيرُ وَفَرِيقَةٌ مَعَ الْأَوْسِ، يُظَاهِرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ حُلَفَاءَهُ عَلَى إِخْوَانِهِ، حَتَّى تَسَافَكُوا دِمَاءَهُمْ بَيْنَهُمْ، وَبِأَيْدِيهِمُ التَّوْرَةُ يَعْرِفُونَ فِيهَا مَا عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ، وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَهْلُ شَرِكٍ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، وَلَا يَعْرِفُونَ حِجَّتَهُ وَلَا نَارًا وَلَا بَغْتًا وَلَا قِيَامَةً، وَلَا كِتَابًا، وَلَا حَلَالًا وَلَا حَرَامًا، فَإِذَا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، إِفْتَدَوْا أَسْرَاهُمْ، تَصْدِيقًا لِمَا فِي التَّوْرَةِ وَأَخْذًا بِهِ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَفْتَدِي بَنُو قَيْنَقَاقَ مَا كَانَ مِنْ أَسْرَاهُمْ فِي أَيْدِي الْأَوْسِ، وَيَفْتَدِي النَّصِيرُ وَفَرِيقَةٌ مَا كَانَ فِي أَيْدِي الْخَزْرَجِ مِنْهُمْ، وَيَطْلُبُونَ مَا أَصَابُوا مِنْ دِمَائِهِمْ، وَقَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنْهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُظَاهَرَةً لِأَهْلِ الشَّرِكِ عَلَيْهِمْ، يَقُولُ اللَّهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - حَيْثُ أَنْبَأَهُمْ بِذَلِكَ: ﴿أَفْتَرَمُونُ مِنْ بَعْضِ الْكِتَابِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ﴾ أَيْ تُفَادُونَهُمْ بِحُكْمِ التَّوْرَةِ، وَتَقْتُلُونَهُمْ، وَفِي حُكْمِ التَّوْرَةِ: أَنَّ لَا يَقْتُلَ وَلَا يُخْرِجَ مِنْ دَارِهِ، وَلَا يُظَاهَرُ عَلَيْهِ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ وَيَعْبُدُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِهِ، إِنْغَاءَ عَرْضِ الدُّنْيَا؟ فَفِي ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ مَعَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ - فِيمَا بَلَغَنِي - نَزَلَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ.

وَالَّذِي أَرَشَدَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَهَذَا السِّيَاقُ: ذَمُّ الْيَهُودِ فِي قِيَامِهِمْ بِأَمْرِ التَّوْرَةِ الَّتِي يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا، وَمُخَالَفَةَ شَرْعِهَا، مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ بِذَلِكَ وَشَهَادَتِهِمْ لَهُ بِالصَّحَّةِ، فَلِهَذَا لَا يُؤْتَمَنُونَ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا عَلَى تَقْلِيلِهَا، وَلَا يُصَدَّقُونَ فِيمَا كَتَمُوهُ مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَعْتِهِ وَمَبْعُوثِهِ، وَمُخْرِجِهِ وَمُهَاجِرِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُؤْنِهِ الَّتِي

(١) مسلم: ١٩٩٩/٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦١/١ إسناده ضعيف لتدليس ابن إسحاق وجهالة شيخه. (٣) ابن أبي حاتم: ٢٦٨/١

الْبَقَرَةُ

١٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَغَضِبَ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْتُونَنَا بِمُتَكَلِّمِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قُلُوبًا سَمِيعًا وَعَصِيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَا مُّرُكُمْ بِهِ ءَيُّكُمْ يُبْغِئُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أَيُّ فِي أَكْثَرِ (١١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [عَلَيْهَا] غَشَاوَةٌ (١٢) وَقَالَ عِكْرِمَةُ: عَلَيْهَا طَائِعٌ (١٤). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَيُّ لَا تَفْقَهُ (١٥). قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ (غُلْفٌ)، بِضَمِّ اللَّامِ، وَهُوَ جَمْعٌ

طَيَّرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِبْرَاءِ الْأَسْقَامِ، وَإِخْبَارِهِ بِالْعُيُوبِ (١)، وَتَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا يَذَلُّهُمْ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ. فَاشْتَدَّ تَكْذِيبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ، وَحَسَدُهُمْ وَعِنَادُهُمْ لِمُخَالَفَةِ التَّوْرَةِ فِي الْبَعْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ عِيسَى: ﴿وَلَا حِجْدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾... [آيَةُ آل عمران: ٥٠]، فَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُعَامِلُ الْأَنْبِيَاءَ أَشْوَأَ الْمُعَامَلَةِ، فَفَرِيقًا يُكَذِّبُونَهُ، وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَأْتُونَهُمْ بِالْأُمُورِ الْمُخَالَفَةِ لِأَهْوَائِهِمْ وَأَرَائِهِمْ، وَبِالْإِزْمَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ الَّتِي قَدْ تَصَرَّفُوا فِي مُخَالَفَتِهَا، فَلِهَذَا كَانَ ذَلِكَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ، فَكَذَّبُونَهُمْ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

[رُوحُ الْقُدُسِ هُوَ جَبْرِيلُ]

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ هُوَ جَبْرِيلُ - كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ (٢)، وَتَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ خَالِدٍ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطِيَّةُ الْعُوفِيُّ وَقَتَادَةُ (٣) مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ (٤٣) عَلَى فَلَكَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] -: مَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَضَعَ لِحْسَانَ بْنِ ثَابِتٍ مِثْبَرًا فِي الْمَسْجِدِ، فَكَانَ يَنَافِخُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَيُّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ كَمَا نَافِخُ عَنْ نَبِيِّكَ» (٤). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (٥) وَالتِّرْمِذِيُّ (٦)، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَفِي صَحِيحِ ابْنِ جَبَّانَ (٧)، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفْسٌ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأُجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ» (٨).

[اسْتِمْرَارُ الْيَهُودِ فِي مُحَاوَلَةِ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ]

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: وَفَرِيقًا قَتَلْتُمْ، لِأَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ وَضَعَهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا، لِأَنَّهُمْ حَاوَلُوا قَتْلَ النَّبِيِّ ﷺ بِالسِّحْرِ وَالسَّحَرِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: «مَا زِلْتُ أَكُلُّهُ خَيْرٌ تَعَاوَدَنِي فَهَذَا أَوْانَ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي» (٩). (قُلْتُ): وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (١٠) وَغَيْرِهِ (١١).

(١) ابن أبي حاتم: ٢٦٨/١ إسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦٩/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٠ فتح الباري: ١٠/٥٦٢ (٥) أبو داود: ٥/٢٧٩ (٦) تحفة الأحوذى: ٨/١٣٧ (٧) لم يروه ابن حبان عن ابن مسعود كما ظن المصنف بل هو عند ابن حبان من حديث جابر بمعناه. (٨) السنة: ١٤/٣٠٤ (٩) ابن عدي: ٣/١٢٣٩ (١٠) إنما رواه البخاري معلقًا فكان ينبغي تقييده. (١١) فتح الباري: ٧/٧٣٧ (١٢) الطبري: ٢/٣٢٦ إسناده ضعيف لضعف ابن حميد وسلمة بن الفضل وجهالة محمد بن أبي محمد (١٣) الطبري: ٢/٣٢٦ (١٤) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٤ (١٥) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٣

الْبِرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ أَخُو بَنِي سَلَمَةَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْلِمُوا، فَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَنَحْنُ أَهْلُ شِرْكٍ، وَتُخْبِرُونَنَا بِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ، وَتَصِفُونَهُ بِصِفَتِهِ، فَقَالَ سَلَامُ بْنُ مِشْكَمٍ أَخُو بَنِي النَّضِيرِ: مَا جَاءَنَا بِشَيْءٍ نَعْرِفُهُ، مَا هُوَ الَّذِي كُنَّا نَذْكُرُ لَكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ... آيَةٌ (٣)﴾. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَانَتْ الْيَهُودُ تَسْتَنْصِرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ابْعَثْ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي نَجِدُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَنَا حَتَّى نَعَذِّبَ الْمُشْرِكِينَ وَنَقْتُلَهُمْ. فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَرَأَوْا أَنَّهُ مِنْ غَيْرِهِمْ، كَفَرُوا بِهِ، حَسَدًا لِلْعَرَبِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٤)﴾.

﴿يُسْكَأَ أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥)﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يُسْكَأَ أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠] يَهُودُ شَرُّوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَكُتِمَانِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ بِأَنْ يَبِينُوهُ (٥). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿يُسْكَأَ أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠] يَقُولُ: بَاعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ (٦). يَقُولُ: يُسْكَأَ اعْتَاَصُوا لِأَنْفُسِهِمْ، فَرَضُوا بِهِ وَعَدَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ تَصْدِيقِهِ وَمُؤَاوَزَتِهِ وَنُصْرَتِهِ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ وَالْكَرَاهِيَةِ «أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» وَلَا حَسَدَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْغَضَبِ عَلَى الْغَضَبِ: فَغَضَبَ عَلَيْهِمْ فِيمَا كَانُوا ضَيَّعُوا مِنَ التَّوْرَةِ وَهِيَ مَعَهُمْ، وَغَضَبَ بِكُفْرِهِمْ بِهِذَا النَّبِيِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ (٧).

(قُلْتُ): وَمَعْنَى "بَاءُوا" اسْتَوْجَبُوا وَاسْتَحَقُّوا وَاسْتَفَرُّوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِالْإِنْجِيلِ وَعِيسَى، ثُمَّ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

غِلَافٍ، أَيْ قُلُوبُنَا أَوْعِيَهُ كُلَّ عِلْمٍ، فَلَا نَحْتَاجُ إِلَى عِلْمِكَ (١). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أَيْ طَرَدَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ (٢). ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ وَمَا دَعَوْنَا إِلَى﴾ [فصلت: ٥] وهذا الذي رجحه ابن جرير وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ادَّعَوْا، بَلْ قُلُوبُهُمْ مَلْعُونَةٌ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَىهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَلِيلٌ مَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ. وَقِيلَ: قَلِيلٌ إِيْمَانُهُمْ. بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَمْرِ الْعِبَادِ وَالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَلَكِنَّهُ إِيْمَانٌ لَا يَنْفَعُهُمْ، لِأَنَّهُ مَعْمُورٌ بِمَا كَفَرُوا بِهِ مِنَ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِشَيْءٍ، وَإِنَّمَا قَالَ: قَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ بِالْجَمِيعِ كَافِرُونَ؟ كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: قَلَمَّا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا قَطُّ. تُرِيدُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا قَطُّ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨)﴾

[كَانَتْ الْيَهُودُ تَنْتَظِرُ بَعَثَةَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بُعِثَ كَفَرُوا بِهِ] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾، يَعْنِي الْيَهُودَ، ﴿كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ التَّوْرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ وَقَدْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ مَجِيئِ هَذَا الرَّسُولِ بِهَذَا الْكِتَابِ يَسْتَنْصِرُونَ بِمَجِيئِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا قَاتَلُوهُمْ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ سَيُبْعَثُ نَبِيٌّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرمَ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ يَهُودَ كَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَبْعَثِهِ، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَرَبِ، كَفَرُوا بِهِ وَجَحَدُوا مَا كَانُوا يَقُولُونَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَبِشْرُ بْنُ

(١) القرطبي: ٢٥/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٧٤/١ (٣) الطبري: ٣٣٣/٢ إسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد وضعف ابن حميد وسلمة بن الفضل (٤) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٦ (٥) الطبري: ٣٤٠/٢ (٦) ابن أبي حاتم: ١/٢٧٧ (٧) ابن أبي حاتم: ٢٧٩/١ شيخ ابن إسحاق مجهول

السُّدِّيُّ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ يُعَيِّرُهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي بِآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَالْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ هِيَ: الطُّوفَانُ وَالْجُرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ، وَالْدَّمُ، وَالْعَصَا، وَالْيَدُ، وَفُرْقُ الْبَحْرِ، وَنَظْلِيلُهُمْ بِالْعَمَامِ وَالْمُنِّ وَالسَّلْوَى، وَالْحَجَرُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أَي مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي زَمَانِ مُوسَى وَأَيَّامِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾، أَي مِنْ بَعْدِ مَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَى الطُّورِ لِمُنَاجَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، أَي وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ فِي هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ. وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا سِقْطَ فِئَافِهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَالُوا فَلَوْ لَبِثَ لَمْ يَرَحْمَنَا رَبَّنَا وَيَعْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

[عَصِيَانُ الْيَهُودِ بَعْدَ اخْتِذِ مِيثَاقِهِمْ وَرُؤْيَيْهِمُ الطُّورَ فَوْقَ رُؤْسِهِمْ]

يُعَدِّدُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ خَطَايَاهُمْ، وَمُخَالَفَتَهُمْ لِلْمِيثَاقِ، وَغَوْيَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ، حَتَّى رَفَعَ الطُّورَ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَبِلُوهُ ثُمَّ خَالَفُوهُ، وَلِهَذَا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قَالَ: أَشْرَبُوا حُبَّهُ حَتَّى خَلَصَ ذَلِكَ إِلَى قُلُوبِهِمْ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿أَيَّامِهِمْ بِسْمَا تَعْتَمِدُونَهُ فِي قَدِيمِ الذَّهْرِ وَحَدِيثِهِ مِنْ كُفْرِكُمْ بِآيَاتِ

بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِالْقُرْآنِ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ عِكْرَمَةَ وَقَتَادَةَ وَمِثْلُهُ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لَمَّا كَانَ كُفْرُهُمْ سَبَبَهُ الْبُغْيَ وَالْحَسَدَ، وَمَنْشَأُ ذَلِكَ التَّكْبِيرُ، قُوبِلُوا بِالْإِهَانَةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أَي صَاغِرِينَ حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ رَاغِبِينَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلَمُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولَسْ، تَعْلَمُهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ: عُصَاةُ أَهْلِ النَّارِ<sup>(٣)</sup>».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ وَلِكُفْرِكُمْ بِمَا وَرَاءَهُمْ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾

[ادِّعَاءُ الْيَهُودِ الْإِيمَانَ مَعَ كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَي لِلْيَهُودِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَصَدَّقُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ﴿قَالُوا تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أَي يَكْفِينَا الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَلَا نَقْرَ إِلَّا بِذَلِكَ ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ يَعْنِي بِمَا بَعْدَهُ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أَي وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ الْحَقُّ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ مُنْصُوبًا عَلَى الْحَالِ، أَي فِي حَالِ تَصَدِيقِهِ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلِمَ تَقُولُونَ أَنبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ، فَلِمَ قَتَلْتُمُ الْأَنْبِيََاءَ الَّذِينَ جَاءُوكُمْ بِتَصَدِيقِ التَّوْرَةِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ وَالْحُكْمَ بِهَا وَعَدَمَ نَسْخِهَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَهُمْ؟ فَتَلْتُمُوهُمْ بَغْيًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا عَلَى رُسُلِ اللَّهِ، فَلَسْتُمْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا مُجَرَّدَ الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ وَالنَّهْطِيِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وَقَالَ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٧٨/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٧٩/١ (٣)

أحمد: ١٧٩/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٨١/١ (٥) عبد الرزاق:

٥٢/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٢٨٣/١

الْمُحَذَّرَاتُ

١٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَجْرَسًا أَمْحَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاتِهِ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَجَّحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٧﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٨﴾ أَوْ كَلَّمَآ عَاهِدًا وَعَاهِدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾

تَعْمَلُونَ ﴿[الجمعة: ٦-٨]﴾ فَهُمْ عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ تَعَالَى، لَمَّا زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجْبَاؤُهُ، وَقَالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، دَعُوا إِلَى الْمُبَاهَلَةِ وَالِدُعَاءِ عَلَى أَكْذَابِ الطَّاغُوتَيْنِ: مِنْهُمْ أَوْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا نَكَلُوا عَنْ ذَلِكَ، عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ. لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا جَائِزِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ، لَكَانُوا أَفْهَمُوا عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا تَأَخَّرُوا عَلِمَ كَذِبُهُمْ.

وَهَذَا كَمَا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ وَفَدَّ تَجْرَانِ مِنَ النَّصَارَى بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي الْمُنَاطَرَةِ، وَعُتُوهُمْ وَعِنَادِهِمْ، إِلَى الْمُبَاهَلَةِ، فَقَالَ: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ فَقُلْ تَقَالُوا نَبْعُ أَبْنَاءَ اللَّهِ وَأَبْنَاءُكُمْ وَسَاءَ مَا نُبْنِيكُمْ وَنُقَسِّمُنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» [آل

الله، وَمُخَالَفَتِكُمْ الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ اغْتِمَادُكُمْ فِي كُفْرِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَهَذَا أَكْبَرُ ذُنُوبِكُمْ، وَأَشَدُّ الْأَمْرِ عَلَيْكُمْ، إِذْ كَفَرْتُمْ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ وَسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، الْمُنْعُوتِ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَكَيْفَ تَدْعُونَ لِأَنْفُسِكُمْ الْإِيمَانَ، وَقَدْ فَعَلْتُمْ هَذِهِ الْأَفَاعِيلَ الْقَبِيحَةَ: مِنْ تَقْصِيكُمُ الْمَوَاتِيقَ، وَكُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَعِبَادَتِكُمُ الْعُجَلِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَلَنْ يَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَجْرَسًا أَمْحَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاتِهِ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَجَّحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

[دَعْوَةُ الْيَهُودِ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ]

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيِ ادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ أَكْذَبَ، فَأَبَوْا ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ <sup>(١)</sup>. «وَلَنْ يَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» أَيِ بِلَعْمِهِمْ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِكَ وَالْكَفْرِ بِذَلِكَ، وَلَوْ تَمَنَّوَهُ يَوْمَ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ مَا بَقِيَ عَلَى الْأَرْضِ يَهُودِيٌّ إِلَّا مَاتَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ فَسَلُّوا الْمَوْتَ <sup>(٢)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عِكْرِمَةَ قَوْلَهُ: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ تَمَنَّى يَهُودُ الْمَوْتَ، لَمَاتُوا <sup>(٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَوْ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَشَرِقَ أَحَدُهُمْ بِرِيقِهِ <sup>(٤)</sup>. وَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٍ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: وَبَلَّغْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يَبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا» <sup>(٥)</sup>.

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ ﴿قُلْ يَتَايَا أَلَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَلَا يَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَقْرُونُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكٌ مِنْكُمْ ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَى عِلَاقِ الْعَقَبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٨٤/١ ابن إسحاق مدلس وشيخه مجهول (٢) الطبري: ٣٦٦/٢ الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٣) ابن أبي حاتم: ٢٨٥/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١/٢٨٤ (٥) الطبري: ٣٦٢/٢

أَيَّ خَيْرٍ بَصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُ عِبَادُهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَسَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٧) مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾

### [عَدَاوَةُ الْيَهُودِ لِجِبْرِيلَ]

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّوَلُّدِ جَمِيعًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا لِلْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَهُمْ، وَأَنَّ مِيكَائِيلَ وَلِيُّ لَهُمْ<sup>(١)</sup>. قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ قَالَ عِكْرَمَةُ: جِبْرِ وَمِيكَ وَإِسْرَافُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ بِمَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي أَرْضِ يَحْتَرِفُ، فَآتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي سَأَيْتُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ أَتَمًّا» قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَتَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ. وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامِ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَرِبَادَةُ كَبِدِ النُّحُوتِ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ، نَزَعَ الْوَلَدُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ» قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهَتَ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَهْتَنُونِي، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ» قَالُوا: أَعَادَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. قَالُوا: هُوَ شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَانْتَقَضُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

عمران: [٦١] فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ لِبَعْضٍ: وَاللَّهِ لَئِنْ بَاهَلْتُمْ هَذَا النَّبِيَّ لَا يَبْقَى مِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ، وَبَدَّلُوا الْحِزْبَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ، فَضَرَبَهَا عَلَيْهِمْ، وَبَعَثَ مَعَهُمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ أَمِينًا. وَمِثْلُ هَذَا الْمَعْنَى أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَئِذٍ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] أَيْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ مِنَّا وَمِنْكُمْ فَرَادَاهُ اللَّهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ، وَمَدًّا لَهُ، وَاسْتَدْرَجَهُ، كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ فِي مَوْضِعِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ فَسَّرَتِ الْآيَةُ بِتَمَيُّي الْمَوْتِ دُونَ التَّعَرُّضِ لِلْمُبَاهَلَةِ. وَالْأَوَّلُ أَوْلَى.

وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةُ تَمَنِّيًّا، لِأَنَّ كُلَّ مُحِقٍّ يَوْذُ لَوْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُبْطِلَ الْمُنَاطِرَ لَهُ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ لَهُ فِي بَيَانِ حَقِّهِ وَظُهُورِهِ، وَكَانَتِ الْمُبَاهَلَةُ بِالْمَوْتِ، لِأَنَّ الْحَيَاةَ عِنْدَهُمْ عَزِيزَةً عَظِيمَةً لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ سُوءِ مَا لِيَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ.

### [حَرْصُهُمْ عَلَى طُولِ الْعُمُرِ]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَسْتَوْفُوا أَجْرًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْفَالِغِينَ﴾ (٧٩) وَلَنَجْذِثُنَّ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ أَيْ عَلَى طُولِ الْعُمُرِ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ مَا لِيَهُمْ السَّيِّئُ، وَعَاقِبَتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْخَاسِرَةُ، لِأَنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ، فَهُمْ يَوَدُّونَ لَوْ تَأَخَّرُوا عَنْ مَقَامِ الْآخِرَةِ بِكُلِّ مَا أُمَكَّنْتُهُمْ، - وَمَا يُحَاقِرُونَ مِنْهُ وَاقِعَ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ - حَتَّى وَهُمْ أَحْرَصُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمَنْ أَلْزَمَ أَقْرَبُكُمْ﴾ قَالَ: الْأَعَاجِمُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَوْذُ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قَالَ: حَبِثَ إِلَيْهِمُ الْخَطِيئَةُ طُولَ الْعُمُرِ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يَعْمُرَ﴾ أَيْ وَمَا هُوَ بِمُتَجَنِّبِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكَ لَا يَرْجُو بَعَثًا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَهُوَ يُحِبُّ طُولَ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْيَهُودِيَّ قَدْ عَرَفَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخُزْيِ، بِمَا ضَيَّعَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ أَسْلَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَهُودُ أَحْرَصُ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَقَدْ وَدَّ هَؤُلَاءِ لَوْ يَعْمُرُ أَحَدُهُمْ أَلْفَ سَنَةٍ، وَلَيْسَ بِمُزَحَّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ لَوْ عُمِّرَ، كَمَا أَنَّ عُمُرَ إِبْلِيسَ لَمْ يَنْفَعَهُ إِذْ كَانَ كَافِرًا<sup>(٥)</sup>. ﴿وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

(١) ابن أبي حاتم: ٢٨٦/١ (٢) الحاكم: ٢٦٣/٢ (٣) ابن أبي حاتم: ٢٨٧/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٨٨/١ شيخ ابن إسحاق مجهول كما تقدم (٥) الطبري: ٣٧٦/٢ (٦) الطبري: ٣٧٧/٢



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ عَادَانِي وَمَلَائِكَتِي وَرُسُلِي - وَرُسُلُهُ تَشْمَلُ رُسُلَهُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] - ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَلَ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، فَإِنَّهُمَا دَخَلَا فِي الْمَلَائِكَةِ فِي عُمومِ الرُّسُلِ، ثُمَّ خُصَّصَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي الْإِنْتِصَارِ لِجِبْرِائِيلَ، وَهُوَ السَّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ وَنَبِيِّيَّهِ، وَقَرَنَ مَعَهُ مِيكَائِيلَ فِي اللَّفْظِ، لِأَنَّ الْيَهُودَ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِائِيلَ عَدُوُّهُمْ، وَمِيكَائِيلَ وَلِيُّهُمْ، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ عَادَى وَاحِدًا مِنْهُمَا فَقَدْ عَادَى الْآخَرَ، وَعَادَى اللَّهِ أَيْضًا. وَلِأَنَّهُ أَيْضًا يَنْزِلُ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ بَعْضُ الْأَحْيَانِ، وَلَكِنَّ جِبْرِائِيلَ أَكْثَرُ، وَهِيَ وَطِيقَتُهُ، كَمَا أَنَّ إِسْرَافِيلَ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْثِ فِي الصُّورِ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ فِيهِ إِيقَاعُ الْمُظْهَرِّ مَكَانَ الْمُضْمَرِّ حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ، بَلْ قَالَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾. وَإِنَّمَا أَظْهَرَ اللَّهُ هَذَا الْأِسْمَ هَهُنَا لِتَقْرِيرِ هَذَا الْمَعْنَى وَإِظْهَارِهِ، وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّ مَنْ عَادَى وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ عَادَى اللَّهَ، وَمَنْ عَادَى اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لَهُ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَدُوًّا فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، كَمَا تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْمُحَارَبَةِ)<sup>(٥)</sup>.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(٦)</sup> أَوْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا بَدَدُوا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ<sup>(٧)</sup> وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٨)</sup> وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا

إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ<sup>(١)</sup>، وَقَدْ أَخْرَجَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ أَنَسٍ<sup>(٢)</sup>.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: إِبِلٌ عِبَارَةٌ عَنْ عَبْدٍ، وَالْكَلِمَةُ الْآخَرَى هِيَ اسْمُ اللَّهِ، لِأَنَّ كَلِمَةَ «إِبِلٌ» لَا تَتَغَيَّرُ فِي الْجَمِيعِ، فَوِزَانُهُ: عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَبْدُ الْمَلِكِ عَبْدُ الْقُدُّوسِ، عَبْدُ السَّلَامِ عَبْدُ الْكَافِي، عَبْدُ الْجَلِيلِ، فَعَبْدٌ مُوجُودٌ فِي هَذَا كَلْمُهُ، وَاخْتَلَفَتِ الْأَسْمَاءُ الْمُضَافُ إِلَيْهَا، وَكَذَلِكَ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَعِزْرَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَفِي كَلَامِ غَيْرِ الْعَرَبِ يُقَدِّمُونَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ عَلَى الْمُضَافِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

### [الْتَفْرِيقُ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ كَالْتَفْرِيقِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ]

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَيُّ مَنْ عَادَى جِبْرِائِيلَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ الَّذِي نَزَلَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ عَلَى قَلْبِكَ مِنَ اللَّهِ، بِإِذْنِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَهُوَ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ مَلَكِيٍّ، وَمَنْ عَادَى رَسُولًا فَقَدْ عَادَى جَمِيعَ الرُّسُلِ، كَمَا أَنَّ مَنْ آمَنَ بِرَسُولٍ يَلْزِمُهُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، وَكَمَا أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِرَسُولٍ فَإِنَّهُ يَلْزِمُهُ الْكُفْرُ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِمْ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] الْآيَتِينَ، فَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ الْمُحَقَّقِ إِذْ آمَنُوا بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِمْ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَادَى جِبْرِائِيلَ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِنُفْسِهِ، لِأَنَّ جِبْرِائِيلَ لَا يَنْزِلُ بِالْأَمْرِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُ بِأَمْرِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾... الْآيَةُ [مريم: ٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا رَبِّيَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ<sup>(٤)</sup> عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ»<sup>(٥)</sup>. وَلِهَذَا غَضِبَ اللَّهُ لِجِبْرِائِيلَ عَلَى مَنْ عَادَاهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيُّ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ هُدًى لِقُلُوبِهِمْ وَبُشْرَى لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾... الْآيَةُ [فصلت: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾... الْآيَةُ [الإسراء: ٨٢].

(١) فتح الباري: ١٥/٨ و ٣١٩/٧ (٢) البخاري: ٣٣٢٩، ٣٩١١، ٣٩٣٨، ٣١٥، ٣١٥ (٣) فتح الباري: ٣٤٨/١١ (٤) مسلم: ٥٣٤/١ (٥) فتح الباري: ٣٤٨/١١

الْبَقَرَةُ

١٦

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرُوا  
 سُلَيْمَانَ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ  
 السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَدُوتَ وَمُرُوتَ  
 وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ  
 فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ  
 وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ  
 مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي  
 الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ سَكَرَآءَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ  
 كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ  
 اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾  
 [دَلَالٌ نُّبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ]

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ  
 أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ آيَةٌ...، أَي أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا  
 مُحَمَّدٌ عَلَامَاتٍ وَأَصْحَابَ، دَلَالٌ عَلَى نُبُوتِكَ، وَتِلْكَ  
 الْآيَاتُ هِيَ مَا حَوَاهُ كِتَابُ اللَّهِ مِنْ خَفَايَا عُلُومِ الْيَهُودِ،  
 وَمَكْنُونَاتِ سَرَائِرِ أَخْبَارِهِمْ، وَأَخْبَارِ أَوَائِلِهِمْ مِنْ بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ، وَالتَّبَيُّ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُهُمُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا  
 إِلَّا أَخْبَارُهُمْ وَعُلَمَائُهُمْ، وَمَا حَرَّفَهُ أَوَائِلُهُمْ وَأَوَاخِرُهُمْ  
 وَبَدَّلُوهُ مِنْ أَحْكَامِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي التَّوْرَةِ، فَاطْلَعَ اللَّهُ  
 فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَانَ فِي  
 ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ لِمَنْ أَنْصَفَ نَفْسَهُ، وَلَمْ  
 يَدْعُهَا إِلَى هَلَاكِهَا الْحَسَدُ وَالْبَغْيُ، إِذْ كَانَ فِي فِطْرَةِ كُلِّ  
 ذِي فِطْرَةٍ صَحِيحَةٌ تَصْدِيقٌ مِّنْ أَتَى بِحُثْلٍ مَّجَاءَ بِهِ  
 مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي وَصَفَ - مِنْ غَيْرِ  
 تَعَلُّمٍ تَعَلَّمَهُ مِنْ بَشَرٍ، وَلَا أَخَذَ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ آدَمِيٍّ -  
 كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ  
 بَيِّنَاتٍ﴾ يَقُولُ: فَأَنْتَ تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ، وَتُخْبِرُهُمْ بِهِ غَدَوَةٌ  
 وَعَشِيَّةٌ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَأَنْتَ عِنْدَهُمْ أُمِّيٌّ لَمْ تَقْرَأْ كِتَابًا،  
 وَأَنْتَ تُخْبِرُهُمْ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ عَلَى وَجْهِهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى  
 فِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَبَيَانٌ، وَعَلَيْهِمْ حُجَّةٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ<sup>(١)</sup>.

[نَقَضُ الْيَهُودِ مِنْ عَادَةِ الْيَهُودِ]

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ - حِينَ بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،  
 وَذَكَرَهُمْ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَيْتِاقِ، وَمَا عَهْدُ إِلَيْهِمْ فِي  
 مُحَمَّدٍ ﷺ - : وَاللَّهُ مَا عَهْدُ إِلَيْنَا فِي مُحَمَّدٍ، وَمَا أَخَذَ عَلَيْنَا  
 مِيثَاقًا، فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذُوهُ  
 فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: فِي قَوْلِهِ ﴿بَلْ  
 أَكْذَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ: نَعَمْ، لَيْسَ فِي الْأَرْضِ عَهْدٌ

يُعَاهَدُونَ عَلَيْهِ إِلَّا نَقَضُوهُ وَنَبَذُوهُ، يُعَاهَدُونَ الْيَوْمَ وَيَنْقُضُونَ  
 عَدَا<sup>(٣)</sup>.

[الْيَهُودُ طَرَحُوا كِتَابَ اللَّهِ وَأَقْبَلُوا عَلَى السِّحْرِ]

قَالَ الشَّيْخُ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ  
 لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قَالَ: لَمَّا جَاءَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ عَارِضُهُمُ بِالتَّوْرَةِ،  
 فَخَاصَمُوهُ بِهَا، فَاتَّقَبَتِ التَّوْرَةُ وَالْقُرْآنُ، فَتَبَدَّلَا التَّوْرَةَ،  
 وَأَخَذُوا بِكِتَابِ أَصِفَ، وَسِحْرِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَلَمْ يُوَافِقِ  
 الْقُرْآنُ، فَلَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ: إِنَّ  
 الْقَوْمَ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَلَكِنَّهُمْ نَبَذُوا عِلْمَهُمْ وَكَتَمُوهُ  
 وَجَحَدُوا بِهِ<sup>(٥)</sup>.

(١) الطبري: ٣٩٧/٢ الضحاك عن ابن عباس مرسل (٢)  
 الطبري: ٤٠٠/٢ إسناده ضعيف بجهالة محمد بن أبي محمد مولى  
 زيد بن ثابت (٣) ابن أبي حاتم: ٢٩٥/١ (٤) الطبري: ٢/٢  
 ٤٠٤ (٥) الطبري: ٤٠٤/٢

يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَزَّلَ بِهِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ «هَارُوتَ وَمَارُوتَ» بَدَلًا مِنَ الشَّيَاطِينِ، قَالَ: وَصَحَّ ذَلِكَ إِمَّا لِأَنَّ الْجَمْعَ يُطْلَقُ عَلَى الْإِنْتَيْنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ» [النساء: ١١]<sup>(١)</sup> أَوْ لِكَوْنِهِمَا لَهُمَا أَتْبَاعٌ، أَوْ ذِكْرًا مِنْ بَيْنِهِمْ لِتَمَرُّدِهِمَا، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ عِنْدَهُ: يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ. ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا أَوَّلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَأَصَحُّ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى مَا سِوَاهُ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادِهِ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ»... الْآيَةِ، يَقُولُ: لَمْ يُنْزِلِ اللَّهُ السَّحْرَ<sup>(٢)</sup>. وَبِإِسْنَادِهِ عَنِ الرَّبِيعِ ابْنِ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ» قَالَ: مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا السَّحْرَ<sup>(٣)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا «وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ» مِنَ السَّحْرِ «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ» وَلَا أُنْزِلَ اللَّهُ السَّحْرَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ» مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ «بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ» مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ.

قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: كَيْفَ وَجْهَ تَقْدِيمِ ذَلِكَ؟ قِيلَ وَجْهَ تَقْدِيمِهِ أَنْ يُقَالَ: «وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ» مِنَ السَّحْرِ «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ» وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ السَّحْرَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ «بِالْمَلَكَيْنِ» جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لِأَنَّ سَحْرَةَ الْيَهُودِ، فِيمَا ذَكَرَ كَانَتْ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أُنْزِلَ السَّحْرَ عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ. فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، وَأَخْبَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ لَمْ يَنْزِلَا بِسَحْرِ، وَبَرَأَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا نَحَلُوهُ مِنَ السَّحْرِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ السَّحْرَ مِنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنَّهَا تُعَلِّمُ النَّاسَ ذَلِكَ بِبَابِلَ، وَأَنَّ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَهُمْ ذَلِكَ رَجُلَانِ: إِسْمُ أَحَدِهِمَا هَارُوتَ، وَإِسْمُ الْآخَرِ مَارُوتَ، فَيَكُونُ «هَارُوتَ وَمَارُوتَ» عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَرْجَمَةً عَنِ «النَّاسِ» وَرَدًّا عَلَيْهِمْ<sup>(٤)</sup>. هَذَا لَفْظُهُ بِحَرْوْفِهِ، وَهَذَا

[كَانَ السَّحْرُ قَبْلَ عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ» أَيُّ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَضَعُدُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلشَّمْعِ، فَيَسْتَمِعُونَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَوْتٍ أَوْ غَيْبٍ أَوْ أَمْرٍ، فَيَأْتُونَ الْكَهَنَةَ فَيُخْبِرُونَهُمْ، فَتَحْدُثُ الْكَهَنَةُ النَّاسَ، فَيَجِدُونَهُ كَمَا قَالُوا، فَلَمَّا أَمْتَهُمُ الْكَهَنَةُ كَذَبُوا لَهُمْ، وَأَدْخَلُوا فِيهِ غَيْرَهُ، فَزَادُوا مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ سَبْعِينَ كَلِمَةً، فَكَتَبَ النَّاسُ ذَلِكَ الْحَدِيثَ فِي الْكُتُبِ، وَفُشِيَ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَّ الْجِنَّ تَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَبَعَثَ سُلَيْمَانُ فِي النَّاسِ، فَجَمَعَ تِلْكَ الْكُتُبَ فَجَعَلَهَا فِي صُنْدُوقٍ، ثُمَّ دَفَنَهَا تَحْتَ كُرْسِيِّهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَذْنُو مِنَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا اخْتَرَقَ، وَقَالَ: لَا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أَنَّ الشَّيَاطِينُ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ إِلَّا ضَرَبْتُ عُقْمَهُ. فَلَمَّا مَاتَ سُلَيْمَانُ، وَذَهَبَتِ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَمْرَ سُلَيْمَانَ، وَخَلَفَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ خَلْفٌ، تَمَثَّلَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، ثُمَّ أَتَى نَفَرًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَى كَنْزٍ لَا تَأْكُلُونَهُ أَبَدًا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَاحْفَظُوا تَحْتَ الْكُرْسِيِّ، فَذَهَبَ مَعَهُمْ وَأَرَاهُمُ الْمَكَانَ وَقَامَ نَاجِيَةً، فَقَالُوا لَهُ: فَاذْنُ، فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي هَهُنَا فِي أَيْدِيكُمْ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوهُ فَاقْتُلُونِي، فَحَفَرُوا فَوَجَدُوا تِلْكَ الْكُتُبَ، فَلَمَّا أَخْرَجُوهَا قَالَ الشَّيْطَانُ: إِنَّ سُلَيْمَانَ إِنَّمَا كَانَ يَضْبِطُ الْإِنْسَ وَالشَّيَاطِينِ وَالطَّيْرَ بِهَذَا السَّحْرِ، ثُمَّ طَارَ وَذَهَبَ، وَنَشَأَ فِي النَّاسِ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ سَاحِرًا، وَاتَّخَذَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تِلْكَ الْكُتُبَ، فَلَمَّا جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاصَمُوهُ بِهَا، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا»<sup>(٥)</sup>.

[قِصَّةُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَتَفْسِيرُ الْمَلَكَيْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ» فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ<sup>(٦)</sup>. اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَلَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ «مَا» نَافِيَةٌ أَعْنِي الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ» قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «مَا» نَافِيَةٌ وَمَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ» ثُمَّ قَالَ: «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ» ثُمَّ قَالَ: «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ» وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا

(١) الطبري: ٤٠٥/٢ (٢) القرطبي: ٥٠/٢ (٣) الطبري: ٢/

٤١٩ حكم العوفي تقدم (٤) الطبري: ٤١٩/٢ (٥) الطبري: ٢/

وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِذَا أَتَاهُمَا إِنْسَانٌ يُرِيدُ السَّحْرَ وَعَظَاهُ، وَقَالَ لَهُ: لَا تَكْفُرْ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ، فَإِذَا أَبَى قَالَا لَهُ: إِثْنِ هَذَا الرَّمَادَ قَبْلَ عَلَيْهِ، فَإِذَا بَالَ عَلَيْهِ خَرَجَ مِنْهُ نُورٌ فَسَطَعَ حَتَّى يَدْخُلَ السَّمَاءَ، وَذَلِكَ الْإِيمَانُ، وَأَقْبَلَ شَيْءٌ أَسْوَدُ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي مَسَامِعِهِ وَكُلَّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ غَضَبُ اللَّهِ. فَإِذَا أَخْبَرَهُمَا بِذَلِكَ عِلْمَاهُ السَّحْرُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [الآية (٥)]. وَقَالَ سُيُدُّ عَنْ حَجَّاجٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَا يَجْتَرِئُ عَلَى السَّحْرِ إِلَّا كَافِرٌ، وَأَمَّا الْفِتْنَةُ فَهِيَ الْمِحْنَةُ وَالْإِخْتِبَارُ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ اسْتَدِلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ عَلَى تَكْفِيرِ مَنْ تَعَلَّمَ السَّحْرَ، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَرَّاءُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: (مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)<sup>(٧)</sup> وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ وَلَهُ شَوَاهِدٌ أُخَرُ.

#### [مِنَ السَّحْرِ مَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَتَلَمَّوْنَ مِنْهُمَا مَا يَفْرِقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرَةِ وَزَوْجِهِ﴾ أَيُّ فَيَتَعَلَّمُونَ النَّاسُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مِنْ عِلْمِ السَّحْرِ، مَا يَتَصَرَّفُونَ بِهِ فِيمَا يَتَصَرَّفُونَ [فِيهِ] مِنْ الْأَفَاعِيلِ الْمَذْمُومَةِ، مَا إِنَّهُمْ لَيُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخُلْطَةِ وَالْإِثْلَافِ. وَهَذَا مِنْ صَنِيعِ الشَّيَاطِينِ، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ، فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةٌ، وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا زِلْتُ بِفُلَانٍ حَتَّى تَرَكْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ إِبْلِيسُ: لَا وَاللَّهِ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا وَيَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، قَالَ: فَيَقْرُؤُهُ وَيُذْنِبُهُ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ: نَعَمْ أَنْتَ<sup>(٨)</sup>».

وَسَبَبُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ بِالسَّحْرِ مَا يُخِيلُ إِلَى الرَّجُلِ أَوْ الْمَرْأَةِ مِنَ الْآخَرِ مِنْ سُوءِ مَنْظَرٍ أَوْ خُلُقٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ حِفْدٍ أَوْ بَغْضَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُفْتَضِلَةِ لِلْفِرْقَةِ، وَالْمَرْءُ عِبَارَةٌ عَنِ الرَّجُلِ وَتَأْنِيَةُ امْرَأَةٍ،

(١) القرطبي: ٥١/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٣١٢/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٣١٠/١ (٤) الطبري: ٤٤٣/٢ (٥) الطبري: ٤٤٣/٢ (٦) الطبري: ٤٤٣/٢ (٧) كشف الأستار: ٤٤٣/٢ (٨) مسلم: ٢١٦٧/٤

التَّائِيلُ فِيهِ مِنَ التَّكْلِيفِ مَا لَا يَحْفَى. وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُمَا كَانَا مَلَكَتَيْنِ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَنَّهُمَا أَنْزَلَا إِلَى الْأَرْضِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا كَانَ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا وَرَدَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ: أَنَّ هَذَيْنِ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ لَهُمَا هَذَا، فَيَكُونُ تَخْصِيصًا لَهُمَا، فَلَا تَعَارُضُ حِينَئِذٍ، كَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ مِنْ أَمْرِ إِبْلِيسَ مَا سَبَقَ، وَفِي قَوْلِهِ: إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ، مَعَ أَنَّ شَأْنَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عَلَى مَا ذَكَرَ أَخْفَ مِمَّا وَقَعَ مِنْ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ حَكَاهُ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَكَعْبُ الْأَحْبَارِ وَالسُّدِّيُّ وَالْكَلْبِيُّ. وَأَمَّا قِصَّةُ الزُّهْرَةِ فَمَوْضُوعَةٌ بِلَا مَرِيَّةٍ<sup>(١)</sup>.

قَالَ أَصْحَابُ الْهَيْئَةِ: وَبَعْدُ مَا بَيَّنَّ بَابِلَ، وَهِيَ مِنْ إِفْلِيمِ الْعِرَاقِ، عَنِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ الْغَرْبِيِّ - وَيُقَالُ لَهُ: أَوْقِيَانُوسُ -: سَبْعُونَ دَرَجَةً، وَيُسَمُّونَ هَذَا طُولًا، وَأَمَّا عَرْضُهَا، وَهُوَ بَعْدُ مَا بَيَّنَّهَا وَبَيْنَ وَسَطِ الْأَرْضِ مِنْ نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ، وَهُوَ الْمَسَامِثُ لِحِطِّ الْإِسْتِوَاءِ: اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

#### [تَعَلَّمَ السَّحْرَ كُفْرًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ قَيْسِ ابْنِ عَبَّادٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: فَإِذَا أَتَاهُمَا الْآتِي يُرِيدُ السَّحْرَ نَهْيَاهُ أَشَدَّ النَّهْيِ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا عَلِمَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالْكَفْرَ وَالْإِيمَانَ، فَعَرَفَا أَنَّ السَّحْرَ مِنَ الْكُفْرِ، قَالَ: فَإِذَا أَبَى عَلَيْهِمَا أَمْرَاهُ أَنْ يَأْتِيَا مَكَانَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَتَاهُ عَايِنَ الشَّيْطَانَ فَعَلِمَهُ، فَإِذَا تَعَلَّمَهُ خَرَجَ مِنْهُ الثُّورُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سَاطِعًا فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: يَا حَسْرَتَاهُ، يَا وَيْلَهُ مَاذَا أَصْنَعُ<sup>(٢)</sup>؟! وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: نَعَمْ أَنْزَلَ الْمَلَكَانِ بِالسَّحْرِ، لِيُعَلِّمَا النَّاسَ الْبَلَاءَ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْتَلِي بِهِ النَّاسَ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ أَنْ لَا يُعَلِّمَا أَحَدًا حَتَّى يَقُولَا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ فَتَّادَةُ: كَانَ أَحَدُ عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يُعَلِّمَا أَحَدًا حَتَّى يَقُولَا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ، أَيُّ بَلَاءٍ أُتْبِلْنَا بِهِ، فَلَا تَكْفُرْ<sup>(٤)</sup>.

وَيُنَبِّئُ كُلَّ مَنَّهُمَا وَلَا يُجَمِّعَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[قَضَاءُ اللَّهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرٍ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَذَنُ اللَّهُ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرٍ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَذَنُ اللَّهُ﴾ قَالَ: نَعَمْ، مَنْ شَاءَ اللَّهُ سَلَطَهُمْ عَلَيْهِ، وَمَنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ لَمْ يُسَلِّطْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرَّ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُونَ مَا يُضْرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أَيُّ يَضْرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ وَلَيْسَ لَهُ نَفْعٌ يُوَازِي ضَرَرَهُ ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أَيُّ وَلَقَدْ عَلِمَ الْيَهُودُ الَّذِينَ اسْتَبَدَّلُوا بِالسَّحْرِ عَنْ مَتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ لَمَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ ذَلِكَ، أَنَّهُ «مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: مِنْ نَصِيبِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ مَا سَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ﴾ الْبَدِيلُ مَا اسْتَبَدَّلُوا بِهِ مِنَ السَّحْرِ عَوَضًا عَنِ الْإِيمَانِ وَمَتَابَعَةِ الرَّسُولِ لَوْ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ بِمَا وَعُظُوا بِهِ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أَيُّ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَاتَّقَوْا الْمَحَارِمَ، لَكَانَ مَثُوبَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّا اسْتَحَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَرَضُوا بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُولُوا الْعِلْمِ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِكُهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَتَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ اللَّهِ﴾ مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا النَّسْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٥﴾

[الْأَدَبُ فِي اخْتِيَارِ الْكَلِمَاتِ]

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْكَافِرِينَ فِي مَقَامِهِمْ وَفِعَالِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَانُونَ مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ تَوَرِّيَةٌ لِمَا يَقْصِدُونَهُ مِنَ التَّقْيِصِ، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ، فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَقُولُوا: إِسْمَعْ لَنَا، يَقُولُونَ: رَاعِنَا - وَيُورُونَ بِالرُّعُونَةِ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُخَوِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ

مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْسِنِهِمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، وَكَذَلِكَ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ بِالْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَلِمُوا إِنَّمَا يَقُولُونَ: السَّامُ عَلَيْكُمْ. وَالسَّامُ هُوَ الْمَوْتُ، وَلِهَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَرُدَّ عَلَيْهِمْ بِـ «وَعَلَيْكُمْ» وَإِنَّمَا يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا.

وَالْغَرَضُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكَافِرِينَ قَوْلًا وَفِعْلًا، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَتَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ اللَّهِ﴾. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَتِ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْهُ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»<sup>(٥)</sup> فَبِهِ دَلَالَةٌ عَلَى النَّهْيِ الشَّدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ وَالتَّوْعِيدِ عَلَى التَّشَبُّهِ بِالْكَافِرِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلِبَاسِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمُ الَّتِي لَمْ تُشْرَعْ لَنَا وَلَمْ تَقَرَّرْ عَلَيْنَا.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا﴾ قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَرَعْنَا سَمْعَكَ. وَإِنَّمَا «رَعَيْنَا» كَقَوْلِكَ غَاطِنَا<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَأَبِي مَالِكٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَعَطِيَّةِ الْعُوفِيِّ وَتَادَةَ نَحْوِ ذَلِكَ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا» لَا تَقُولُوا خِلَافًا<sup>(٨)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: لَا تَقُولُوا: إِسْمَعْ مِنَّا، وَنَسْمَعْ مِنْكَ. وَقَالَ عَطَاءٌ: لَا تَقُولُوا «رَعَيْنَا» كَانَتْ لُغَةً تَقُولُهَا الْأَنْصَارُ، فَتَهَى اللَّهُ عَنْهَا<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ، يُدْعَى رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ، يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فَإِذَا لَقِيَهُ فَكَلَّمَهُ قَالَ: أَرَعِنِي سَمْعَكَ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَحْسَبُونَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانَتْ تُفْخَمُ بِهِذَا، فَكَانَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣١٢/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣١١/١ (٣)

ابن أبي حاتم: ٣١٤/١ (٤) أحمد: ٥٠/٢ (٥) أبو داود: ٤/

٣١٤ (٦) الطبري: ٤٦١/٢ الضحاك لم يسمع من ابن

عباس (٧) ابن أبي حاتم: ٣١٧/١ (٨) ابن أبي حاتم: ١/

٣١٨ (٩) ابن أبي حاتم: ٣١٨/١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٧

الْمِائَةُ

﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٧) أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٨﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَقَارِ أَحْسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدْهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ أَلَّاهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٢﴾

غَيْرَهَا. وَسَوَاءٌ نُسَخَ حُكْمُهَا أَوْ خَطُهَا، إِذْ هِيَ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا مُنْسُوخَةٌ<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، فَقَرِءَ عَلَى وَجْهَيْنِ، (نَسَّأَهَا) وَ(نُنْسِهَا). فَأَمَّا مَنْ قَرَأَهَا بِفَتْحِ التَّوْنِ وَالْهَمْزَةِ بَعْدَ السَّيْنِ فَمَعْنَاهُ: نُؤَخِّرُهَا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، يَقُولُ: مَا يُبْدَلُ مِنْ آيَةٍ أَوْ تُرْكَى، لَا يُبْدَلُهَا<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (أَوْ نُنْسِهَا): ثَبَّتْ خَطُهَا وَبُدِّلَ حُكْمُهَا<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ: (أَوْ نُنْسِهَا): نُؤَخِّرُهَا وَنُرْجِيهَا<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعُوفِيِّ: (أَوْ نُنْسِهَا): نُؤَخِّرُهَا فَلَا

نَاسٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: إِسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ غَيْرَ صَاحِرٍ. وَهِيَ كَالَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، فَتَقَدَّمَ اللَّهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَقُولُوا: رَاعِنَا<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ يَنْحُو مِنْ هَذَا<sup>(٢)</sup>.

[شِدَّةُ عَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ لِلْمُسْلِمِينَ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ يَبَيِّنُ بِذَلِكَ تَعَالَى شِدَّةَ عَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ حَذَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مُشَابَهَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، لِيَقْطَعَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَبَيَّنَّ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّرْعِ الثَّامِ الْكَامِلِ الَّذِي شَرَعَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٧) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾ [النَّسْخُ وَتَعْرِيفُهُ]

قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: مَا يُبْدَلُ مِنْ آيَةٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ أَيُّ مَا نَحْنُو مِنْ آيَةٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ قَالَ: ثَبَّتْ خَطُهَا وَبُدِّلَ حُكْمُهَا. حَدَّثَ بِهِ عَنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيِّ نَحْوُ ذَلِكَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الشَّيْخُ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ نَسَخَهَا: قَبَضَهَا<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: يَعْنِي قَبَضَهَا وَرَفَعَهَا، مِثْلُ قَوْلِهِ: (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ). وَقَوْلُهُ: (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَا يَتَعَلَّى لَهُمَا ثَالِثًا)<sup>(٨)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾، مَا نَقُلْ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَبَدَّلَهُ وَتَغَيَّرَهُ، وَذَلِكَ أَنْ نَحُولَ الْحَلَالَ حَرَامًا، وَالْحَرَامَ حَلَالًا، وَالْمُبَاحَ مَحْظُورًا، وَالْمَحْظُورَ مُبَاحًا. وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَظَرِ وَالْإِطْلَاقِ وَالْمَنْعِ وَالْإِبَاحَةِ، فَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَلَا يَكُونُ فِيهَا نَاسِخٌ وَلَا مَنْسُوخٌ، وَأَصْلُ النَّسْخِ مِنْ نَسَخَ الْكِتَابِ، وَهُوَ: نَقْلُهُ مِنْ نُسْخَةٍ إِلَى أُخْرَى غَيْرِهَا، فَكَذَلِكَ مَعْنَى نَسَخِ الْحُكْمِ إِلَى غَيْرِهِ إِمَّا هُوَ تَحْوِيلُهُ وَنَقْلُ عِبَارَتِهِ إِلَى

(١) الطبري: ٤٦٢/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٩٦٥/٣ (٣)

الطبري: ٤٧٣/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٢١/١ (٥) ابن أبي

حاتم: ٣٢٢/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٢٢/١ (٧) ابن أبي

حاتم: ٣٢٢/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٣٢٤/١ (٩) الطبري: ١/

٤٧٢ (١٠) الطبري: ٤٧٦/٢ (١١) الطبري: ٤٧٣/٢ (١٢)

الطبري: ٤٧٧/٢

وَسُلْطَانَهَا دُونَ غَيْرِي، أَحْكُمَ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ، وَأُمِرَ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ، وَأَنْتَ عَمَّا أَشَاءُ، وَأَنْسَخَ وَأَبْدَلْتُ وَأَغَيَّرْتُ مِنْ أَحْكَامِي الَّتِي أَحْكُمُ بِهَا فِي عِبَادِي، بِمَا أَشَاءُ إِذَا أَشَاءُ، وَأَقْرَأُ فِيهِمَا مَا أَشَاءُ.

ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا الْخَبَرُ وَإِنْ كَانَ خَطَابًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى وَجْهِ الْخَبَرِ عَنْ عَظَمَتِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَكْذِيبٌ لِلْيَهُودِ، الَّذِينَ أَنْكَرُوا نَسْخَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ، وَجَحَدُوا بُرْهَانَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لِمَجِيئِهِمَا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بِتَغْيِيرِ مَا غَيَّرَ اللَّهُ مِنْ حُكْمِ التَّوْرَةِ، فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانَهُمَا، وَأَنَّ الْخَلْقَ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ، وَطَاعَتِهِ وَعَلَيْهِمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ. وَأَنَّ لَهُ أَمْرَهُمْ بِمَا يَشَاءُ، وَنَهْيَهُمْ عَمَّا يَشَاءُ، وَنَسْخَ مَا يَشَاءُ، وَإِفْرَارَ مَا يَشَاءُ، وَإِنْشَاءَ مَا يَشَاءُ مِنْ إِفْرَارِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ<sup>(٧)</sup>.

(قُلْتُ): الَّذِي يَحْمِلُ الْيَهُودَ عَلَى الْبَحْثِ فِي مَسْأَلَةِ النَّسْخِ، إِنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ، كَمَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَشَرَائِعِهِ الْمَاضِيَةِ، كَمَا أَحَلَّ لِآدَمَ تَزْوِيجَ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، ثُمَّ حَرَّمَ ذَلِكَ. وَكَمَا أَبَاحَ لِنُوحٍ، بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّفِينَةِ أَكْلَ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ، ثُمَّ نَسَخَ جُلَّ بَعْضِهَا. وَكَانَ نِكَاحُ الْأَخْتَيْنِ مُبَاحًا لِإِسْرَائِيلَ وَبَنِيهِ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ وَمَا بَعْدَهَا. وَأَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، ثُمَّ نَسَخَهُ قَتْلَ الْفِعْلِ. وَأَمَرَ جُمْهُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِ مَنْ عَبْدَ الْعِجْلِ مِنْهُمْ، ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُمْ الْقَتْلَ كَيْلًا يَسْتَأْصِلَهُمُ الْقَتْلُ. وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ يَطُولُ ذِكْرُهَا. وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ وَيَصْدِفُونَ عَنْهُ. وَمَا يُجَابُ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ بِأَجْوَبَةٍ لَفْظِيَّةٍ فَلَا يَصْرِفُ الدَّلَالَهَ فِي الْمَعْنَى، إِذْ هُوَ الْمَقْصُودُ، وَكَمَا فِي كُتُبِهِمْ مَشْهُورًا مِنَ الْبَيِّنَاتِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ، فَإِنَّهُ يُقْبَلُ وَجُوبُ مُتَابَعَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا عَلَى شَرِيعَتِهِ، وَسَوَاءٌ قِيلَ: إِنَّ الشَّرَائِعَ الْمُتَقَدِّمَةَ مُعَيَّاةٌ إِلَى بَعْثِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَا يُسَمَّى ذَلِكَ نَسْخًا لِقَوْلِهِ:

نَسَخَهَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ مِثْلَهُ أَيْضًا، وَكَذَا الرَّيِّعُ بْنُ أَنَسٍ<sup>(٢)</sup>. وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، فَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، قَالَ: كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنْسِي نَبِيَّهُ ﷺ مَا يَشَاءُ، وَيَنْسَخُ مَا يَشَاءُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾، أَيُّ فِي الْحُكْمِ بِالنَّسْخَةِ إِلَى مَصْلَحَةِ الْمُكَلَّفِينَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ يَقُولُ: خَيْرٌ لَكُمْ فِي الْمَنْفَعَةِ، وَأَرْفَقُ بِكُمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾: فَلَا نَعْمَلُ بِهَا (أَوْ نُنْسَاهَا) أَيُّ تُرْجِيهَا عِنْدَنَا، نَأَتْ بِهَا أَوْ نَظِيرَهَا<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ يَقُولُ: نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنَ الَّذِي نَسَخْنَاهُ أَوْ مِثْلَ الَّذِي تَرَكْنَاهُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ يَقُولُ: آيَةٍ فِيهَا تَخْفِيفٌ، فِيهَا رُخْصَةٌ، فِيهَا أَمْرٌ، فِيهَا نَهْيٌ<sup>(٦)</sup>.

### [بَيَانُ صِحَّةِ النَّسْخِ وَالرَّدُّ عَلَى الْيَهُودِ]

فِي اسْتِحْالَتِهِمْ ذَلِكَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ، يُرِيدُ عِبَادَةَ تَعَالَى بِهَذَا إِلَى أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فَكَمَا [يَخْلُقُهُمْ] كَمَا يَشَاءُ، وَيُسَعِّدُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُسْقِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُصْبِحُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُمْرِضُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُوفِّقُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْذُلُ مَنْ يَشَاءُ: كَذَلِكَ يَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَيَحِلُّ مَا يَشَاءُ وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، وَيُبَيِّحُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْظُرُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مَعْتَبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ. وَيَخْتَبِرُ عِبَادَهُ وَطَاعَتَهُمْ لِرُسُلِهِ بِالنَّسْخِ، فَيَأْمُرُ بِالشَّيْءِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصَاحِبَةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا تَعَالَى، ثُمَّ يَنْهَى عَنْهُ لِمَا يَعْلَمُهُ تَعَالَى، فَالطَّاعَةُ كُلُّ الطَّاعَةِ فِي امْتِنَالِ أَمْرِهِ، وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ فِي تَصْدِيقِ مَا أَخْبَرُوا، وَامْتِنَالِ مَا أَمَرُوا، وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زَجَرُوا.

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ عَظِيمٌ وَبَيَانٌ بَلِغٌ لِكُفْرِ الْيَهُودِ، وَتَرْيِيفٌ شُبُهَتِهِمْ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ، فِي دَعْوَى اسْتِحْالَةِ النَّسْخِ، إِمَّا عَقْلًا كَمَا زَعَمَهُ بَعْضُهُمْ جَهْلًا وَكُفْرًا، وَإِمَّا نَفْلًا كَمَا تَحَرَّصَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ أَفْئِرَاءً وَإِفْكَارًا.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: أَلَمْ تَعْلَمَ يَا مُحَمَّدُ، أَنَّ لِي مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) الطبري: ٤٧٧/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٢٦/١ (٣)

الطبري: ٤٨١/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٢٦/١ (٥) ابن أبي

حاتم: ٣٢٧/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٢٧/١ (٧) الطبري: ٢/

فَإِذَا أَمَرْتُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِنْ نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ بَعْدَ مَا أَخْبَرَهُمْ: أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْحَقَّ. فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلُّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ»، ثُمَّ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ» [الْحَدِيثُ (٢)].

ولهذا قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: نُهِنَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ. (٣)

وقوله تعالى: «أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ؟» أَيُّ بَلِّ تَرِيدُونَ، أَوْ هِيَ عَلَى بَابِهَا فِي الْإِسْتِفْهَامِ، وَهُوَ انْكَارِيٌّ، وَهُوَ يُعْمُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْجَمِيعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ» [النساء: ١٥٣] (٤). قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ سَعِيدِ [بْنِ جُبَيْرٍ] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَافِعُ بْنُ خَرَيْمَةَ أَوْ وَهْبُ بْنُ زَيْدٍ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي بَابُ كِتَابٍ نَزَّلَهُ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ نَقْرُؤُهُ، وَفَجَّرْنَا أَنْهَارًا تَنْبَعُ وَتُصَدِّقُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِمْ، «أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» (٥).

والمُرَادُ: أَنَّ اللَّهَ ذَمَّ مَنْ سَأَلَ الرَّسُولَ ﷺ عَنْ شَيْءٍ عَلَى وَجْهِ التَّعْتَبِ وَالِافْتِرَاحِ، كَمَا سَأَلَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعْتَبًا وَتَكْذِيبًا وَعِنَادًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ»، أَيُّ وَمَنْ يَشْتَرِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ «فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» أَيُّ فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ. وَهَكَذَا حَالُ الَّذِينَ عَدَلُوا عَنْ تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ، وَاتَّبَاعِهِمْ وَالِانْقِيَادِ لَهُمْ إِلَى مُحَاذَاتِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَالِافْتِرَاحِ عَلَيْهِمْ بِالْأَسْئَلَةِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا؛ عَلَى وَجْهِ التَّعْتَبِ وَالْكَفْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ

﴿نُرِّأْتُمُوا الْبَيِّنَاتِ إِلَى الْآيَاتِ﴾ وَقِيلَ: إِنَّهَا مُطْلَقَةٌ، وَإِنْ شَرِيعَةً مُحَمَّدٍ ﷺ نَسَخَتْهَا، فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، فَوُجُوبُ مُتَابَعَتِهِ مُتَعَيِّنٌ، لِأَنَّهُ جَاءَ بِكِتَابٍ هُوَ آخِرُ الْكُتُبِ عَهْدًا بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فَفِي هَذَا الْمَقَامِ بَيَّنَّ تَعَالَى جَوَازَ النَّسْخِ، رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [١٠٨] أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... آيَةٌ، فَكَمَا أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ بِلَا مُنَازَعٍ، فَكَذَلِكَ لَهُ الْحُكْمُ بِمَا يَشَاءُ، «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ» [الأعراف: ٥٤] وَ[قُرْآن] فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، الَّتِي نَزَلَ فِي صَدْرِهَا - خُطَابًا مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ - وَقُوعُ النَّسْخِ عِنْدَ الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ»... آيَةٌ [النساء: ٩٣]، كَمَا سَيَأْتِي تَفْسِيرُهُ. وَالْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى جَوَازِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ. وَكُلُّهُمْ قَالَ بِوُقُوعِهِ.

«أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» [١٠٨]  
[الْنَهْيُ عَنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ]

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، عَنْ كَثْرَةِ سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّلَ لَكُمْ سَوْؤُهُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدِلَ لَكُمْ» [المائدة: ١٠١] أَيُّ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ تَفْصِيلِهَا بَعْدَ نُزُولِهَا بُيِّنَ لَكُمْ، وَلَا تَسْأَلُوا عَنِ الشَّيْءِ قَبْلَ كَوْنِهِ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يُحَرِّمَ مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «إِنْ أُعْظِمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مِنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ». وَلَمَّا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يَجِدُ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، فَإِنْ تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ حُكْمَ الْمَلَاعَةِ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ (١).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ،

(١) فتح الباري: ٣/٣٩٨ ومسلم: ١٣٤١/٣ (٢) مسلم: ٢/

٩٧٥ (٣) مسلم: ٤١/١ (٤) الدارمي: ٤٨/١ والمجمع: ١/

١٥٨ (٥) الطبري: ٢/٤٩٠ إسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي



اللَّهُ كُفَرًا وَلَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿١٠٩﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ  
الْفَرَاقَ ﴿١١٠﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: يَتَبَدَّلُ الشَّدَّةُ بِالرَّخَاءِ. <sup>(١)</sup>

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ  
إِيمَانِكُمْ كُفَرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ  
الْحَقُّ فَاعْبُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ  
مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾  
[النَّهْيُ عَنِ سُلُوكِ طَرِيقَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الْكُفَّارِ مِنْ  
أَهْلِ الْكِتَابِ، وَيُعَلِّمُهُمْ بَعْدَاوَتِهِمْ لَهُمْ فِي الْبَاطِنِ  
وَالظَّاهِرِ، وَمَا هُمْ مُسْتَمْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لِلْمُؤْمِنِينَ، مَعَ  
عِلْمِهِمْ بِفَضْلِهِمْ وَفَضْلِ نَبِيِّهِمْ. وَيَأْمُرُ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ  
بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ وَالِاخْتِمَالِ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ مِنَ النَّصْرِ  
وَالْفَتْحِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ، وَيَحْتَنُّهُمْ  
عَلَى ذَلِكَ وَيُرْعَبُهُمْ فِيهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ:  
أَنَّ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ الْيَهُودِيَّ كَانَ شَاعِرًا، وَكَانَ يَهْجُو  
النَّبِيَّ ﷺ، وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
لَوْ يَرُدُّوكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَاعْبُوا وَاصْفَحُوا﴾ <sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولًا أُمِّيًّا يُخْبِرُهُمْ  
بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ وَالْآيَاتِ، ثُمَّ يَصْدُقُ  
بِذَلِكَ كُلَّهُ مِثْلَ تَصْدِيقِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوا ذَلِكَ كُفْرًا  
وَحَسَدًا وَبَغْيًا، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُفَرًا حَسَدًا مِّنْ  
عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يَقُولُ: مِنْ بَعْدِ  
مَا أَضَاءَ لَهُمُ الْحَقُّ، لَمْ يَجْهَلُوا مِنْهُ شَيْئًا، وَلَكِنَّ الْحَسَدَ  
حَمَلَهُمْ عَلَى الْجُحُودِ، فَعَبَّرَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ وَلَا مَهْمُ أَشَدَّ  
الْمَلَامَةِ <sup>(٣)</sup>. وَشَرَعَ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ  
التَّصَدِيقِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِقْرَارِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَا أَنْزَلَ  
مِنْ قَبْلِهِمْ، بِكَرَامَتِهِ وَتَوَابِهِ الْجَزِيلِ وَمَعُونَتِهِ لَهُمْ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنْ قِيلِ  
أَنْفُسِهِمْ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ  
الْحَقُّ﴾ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، يَجِدُونَهُ  
مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَكَفَرُوا بِهِ حَسَدًا  
وَبَغْيًا، إِذْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ <sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ  
أَنَسٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ <sup>(٦)</sup>,

مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلْتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَتَوْا الْكِتَابَ مِنْ  
قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾... الْآيَةُ  
[آل عمران: ١٨٦]، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾،  
نَسَخَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَقْبِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾  
[التوبة: ٥] وَقَوْلُهُ: ﴿فَقْبِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا  
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ صَغُورُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]  
فَنَسَخَ هَذَا عَفْوَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ <sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ  
وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ وَالشَّدِيُّ <sup>(٨)</sup>: إِنَّهَا مَسْخُوخَةٌ بِآيَةِ  
السَّيْفِ. وَيُرْشِدُ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ  
بِأَمْرِهِ﴾.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: كَانَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ  
الْكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ وَيَضْرِبُونَ عَلَى الْأَذَى. قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى: ﴿فَاعْبُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَأَوَّلُ مِنَ الْعَفْوِ مَا  
أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ بِالْقَتْلِ، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ مَنْ قَتَلَ  
مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ <sup>(٩)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ وَلَمْ أَرَهُ فِي  
شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ السَّنَةِ، وَلَكِنْ لَهُ أَضَلُّ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ  
أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ <sup>(١٠)</sup>.

### [الترغيب في الأعمال الحسنة]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا  
لِأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، يَحْتَنُّهُمْ تَعَالَى عَلَى  
الِاشْتِعَالِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَتَعَوُّدِ عَلَيْهِمْ عَاقِبَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ، حَتَّى يُمَكِّنَ لَهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ  
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ  
مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]،  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يَعْنِي  
أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفُلُ عَنْ عَمَلِ عَامِلٍ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ، سَوَاءً  
كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، فَإِنَّهُ سَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. وَرَوَى

(١) ابن أبي حاتم: ٣٣٠/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٣١/١ (٣)  
الطبري: ٥٠٢/٢ إسناده ضعيف الضحاك لم يسمع من ابن  
عباس (٤) ابن أبي حاتم: ٣٣٢/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٣٥/١  
(٦) ابن أبي حاتم: ٣٣٥/١ (٧) ابن أبي حاتم: ٣٣٤/١ (٨)  
ابن أبي حاتم: ٣٣٥/١ (٩) ابن أبي حاتم: ٣٣٣/١ (١٠) فتح  
الباري: ٨٧/٨ ومسلم: ١٤٢٢/٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٨﴾

لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨).

فَعَمَلُ الرُّهْبَانِ وَمَنْ شَابَهُمْ، وَإِنْ فُرِضَ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ فِيهِ لِلَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ، حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ مُتَابِعًا لِلرُّسُولِ ﷺ، الْمُبْعُوثُ إِلَيْهِمْ وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَفِيهِمْ وَأَمثَالُهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلُهُمْ كِرَابٍ يَعْبَقُونَ بِحَسْبِهِ الظُّلُمَاتُ مَا هَئِلَتْ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خِشْيَةُ﴾ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٤﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٥﴾ تَشْفَى مِنْ عَيْنٍ أَدِيمٍ ﴿٦﴾ [الغاشية: ٢-٥].

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ، وَلَكِنْ لَمْ يُخْلِصْ عَامِلُهُ الْقَصْدَ لِلَّهِ، فَهُوَ أَيْضًا

ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١] يَقُولُ: «بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ» (١).

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ تِلْكَ مِنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٤﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَالنَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٥﴾

[أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى اغْتِرَارَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِمَا هُمْ فِيهِ، حَيْثُ ادَّعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهَا، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ١٨] فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مُعَذِّبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَلَوْ كَانُوا كَمَا ادَّعَوْا لَمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَكَمَا تَقَدَّمَ مِنْ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُ لَنْ تَمْسَهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، ثُمَّ يَنْتَقِلُونَ إِلَى الْجَنَّةِ. وَرَدَّ عَلَيْهِمُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، وَهَكَذَا قَالَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى الَّتِي ادَّعَوْهَا بِلا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بَيِّنَةٍ، فَقَالَ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَمَانِي تَمْنُوهَا عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ (٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ (٣). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيُّ يَا مُحَمَّدٌ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: حُجَّتْكُمْ (٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: يَبَيِّنُكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٥) أَيُّ فِيمَا تَدَّعُونَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أَيُّ مَنْ أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِلَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَقُلْ أَتَلَّكَ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ ... الْآيَةُ (آل عمران: ٢٠). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يَقُولُ: مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ (٦). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أَخْلَصَ «وَجْهَهُ»، قَالَ: دِينَهُ (٧). «وَهُوَ مُحْسِنٌ» أَيُّ اتَّبَعَ فِيهِ الرُّسُولَ ﷺ، فَإِنَّ لِلْعَمَلِ الْمَقْبُولِ شَرْطَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ وَخَدَهُ، وَالْآخَرُ أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، فَمَنْ كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا

(١) إسناده ضعيف فيه ابن لهيعة (٢) ابن أبي حاتم: ٣٣٦/١

(٣) ابن أبي حاتم: ٣٣٦/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٣٧/١ (٥) ابن

أبي حاتم: ٣٣٧/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٣٧/١ (٧) ابن أبي

حاتم: ٣٣٨/١ (٨) مسلم: ١٣٤٤/٣

قَوْلِ الْيَهُودِ وَقِيلَهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ قَالَ أُمِّمٌ كَانَتْ قَبْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَقَبْلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فَهُمْ الْعَرَبُ، قَالُوا لَيْسَ مُحَمَّدٌ عَلَى شَيْءٍ<sup>(٥)</sup>. وَاخْتَارَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا عَامَّةٌ تَصْلُحُ لِلْجَمِيعِ، وَلَيْسَ ثَمَّ دَلِيلٌ قَاطِعٌ يُمَيِّنُ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، فَالْحَمْلُ عَلَى الْجَمِيعِ أَوْلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أَيْ إِنَّهُ تَعَالَى يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِقَضَائِهِ الْعَدْلِ، الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالْمُجْرِمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَئِنْ شَرَكُوا لِإِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

[ظَلُمُ مَنْ مَنَعَ عَنِ الْمَسَاجِدِ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا]

الْمُرَادُ مِنَ الَّذِينَ مَنَعُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ وَسَعَوْا فِي خَرَابِهَا، هُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ كَمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾، قَالَ: هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ خَالَوْا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ، وَبَيَّنَ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ، حَتَّى نَحَرَ هَذِهِ بِذِي طُوًى، وَهَادَنَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: «مَا كَانَ أَحَدٌ يُصَدُّ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ، وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ، يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فَلَا يُصَدُّ» فَقَالُوا: لَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا مَنْ قَتَلَ آبَاءَنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَفِينَا بَاقٍ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ قَالَ: إِذْ قَطَعُوا مِنْ بَعْمُرِهَا بِذِكْرِهِ، وَبَاتِنَهَا لِلْحِجِّ وَالْعُمْرَةِ (٦).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ قُرَيْشًا مَعُوا  
النَّبِيَّ ﷺ الصَّلَاةَ عِنْدَ الْكُعْبَةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَأَنْزَلَ

مَرْدُودٌ عَلَى فَاعِلِهِ، وَهَذَا حَالُ الْمُرَائِيَيْنِ وَالْمُنَافِقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ①  
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ② الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ③ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ④ [الماعون: ٤-٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾  
أَحَدًا ⑤ [الكهف: ١١٠] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿بَلَىٰ  
مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وَقَوْلُهُ: "فله أجره عند  
ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" ضَمِنَ لَهُمْ تَعَالَى  
عَلَى ذَلِكَ تَحْصِيلَ الْأَجُورِ، وَأَمْنَهُمْ مِمَّا يَخَافُونَهُ مِنَ  
الْمُحْذَرِ، فَ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، ﴿وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا مَضَى مِمَّا يَتَرَكُونَهُ، كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ  
جُبَيْرٍ، وَ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بَعْنِي فِي الْآخِرَةِ، ﴿وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ﴾ بَعْنِي لَا يَحْزَنُونَ لِلْمَوْتِ. ①

[تَنَازَعُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِيمَا بَيْنَهُمْ كُفْرًا وَعِنَادًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ﴾ وَقَالَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، بَيْنَ بِهِ  
تَعَالَى تَنَاقُضَهُمْ وَتَبَاغُضَهُمْ وَتَعَادِيَهُمْ وَتَعَانُدَهُمْ، كَمَا رَوَى  
مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ أَهْلُ نَجْرَانَ  
مِنَ النَّصَارَى، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَتَتْهُمْ أَحْبَارُ يَهُودَ،  
فَتَنَازَعُوا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَافِعُ بْنُ حُرَيْمَةَ: مَا أَتَيْتُمْ  
عَلَى شَيْءٍ وَكَفَرَ بَعِيسَى وَبِالْإِنْجِيلِ. وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ  
نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى لِلْيَهُودِ: مَا أَتَيْتُمْ عَلَى شَيْءٍ. وَحَدَّثَ بُرَّةُ  
مُوسَى وَكَفَرَ بِالتَّوْرَةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا:  
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ﴾ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ  
الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾<sup>(٢)</sup>. قَالَ: إِنَّ كُلًّا يَتْلُو فِي  
كِتَابِهِ تَصْدِيقَ مَنْ كَفَرَ بِهِ، أَيْ يَكْفُرُ الْيَهُودُ بِعِيسَى وَعِنْدَهُمُ  
التَّوْرَةُ، فِيهَا مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى بِالتَّصْدِيقِ  
بِعِيسَى، وَفِي الْإِنْجِيلِ مَا جَاءَ بِهِ عِيسَى بِتَصْدِيقِ مُوسَى، وَمَا  
جَاءَ مِنَ التَّوْرَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَكُلٌّ يَكْفُرُ بِمَا فِي يَدِ صَاحِبِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، بَيَّنَّ بِهِذَا جَهْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِيمَا تَقَابَلُوا مِنَ الْقَوْلِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِيْمَاءِ وَالْإِشَارَةِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيْمَنْ عُنِيَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَا: وَقَالَتِ النَّصَارَى مِثْلَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٣٨/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٣٩/١  
ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت (٣) ابن  
أبي حاتم: ٣٤١/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٤٠/١ (٥) ابن أبي  
حاتم: ٣٤٠/١ (٦) الطبري: ٥٢١/٢

اللَّهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾<sup>(١)</sup>.

لَمَّا وَجَّهَ اللَّهُ تَعَالَى الدِّمَ فِي حَقِّ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، شَرَعَ فِي دَمِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مِنْ مَكَّةَ، وَمَنَعُوهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَاسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا بِأَصْنَامِهِمْ وَأَنْدَادِهِمْ وَشُرَكَاهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْبُدُوهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَآئِهِمْ إِلَّا الْمَثْنُونُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَمَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَى مَعَكُوا أَنْ يَبْلُغَ مِنْكُمْ لَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنصِبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَكْنَا لَعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]، فَإِذَا كَانَ مَنْ هُوَ كَذَلِكَ مَطْرُودًا مِنْهَا، مَصْدُودًا عَنْهَا فَأَيُّ خَرَابٍ لَهَا أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؟ وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ عِمَارَتِهَا زُخْرَفَتِهَا وَإِقَامَةُ صُورَتِهَا فَقَطْ، إِنَّمَا عِمَارَتُهَا بِذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا وَإِقَامَةُ شَرْعِهِ فِيهَا، وَرَفْعُهَا عَنِ الدَّنَسِ وَالشُّرْكِ.

[بِشَارَةِ بَغْلَبَةِ الْإِسْلَام]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، هَذَا خَبَرٌ مَعْنَاهُ الطَّلَبُ، أَيُّ لَا تُمَكِّنُوا هَؤُلَاءِ إِذَا قَدِرْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِهَا، إِلَّا تَحْتَ الْهَذْنَةِ وَالْجِزْيَةِ، وَلِهَذَا لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ، أَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ أَنْ يُنَادَى بِرَحَابٍ مَنَى: «أَلَا لَا يَحْجُرَنَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ غُرَبَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَجَلٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مَدَّتِهِ»<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا إِنَّمَا كَانَ تَضَدِيقًا وَعَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فلا يَمْسُرُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا بِشَارَةٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُ سَيُظْهِرُهُمْ

عَلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَعَلَى سَائِرِ الْمَسَاجِدِ، وَأَنَّهُ يُذِلُّ الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ، حَتَّى لَا يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا خَائِفًا، يَخَافُ أَنْ يُؤْخَذَ فِعْقَابٌ أَوْ يُقْتَلَ، إِنْ لَمْ يُسَلِّمْ. وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ هَذَا الْوَعْدَ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ مَنَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَأَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَنْ لَا يَبْقَى بِحَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَارٌ، وَأَنْ يُجْلَى الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِتَشْرِيفِ أَكْثَافِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَتَطْهِيرِ الْبُتْمَةِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولَهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، بِشِيرًا وَنَذِيرًا، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الْخِزْيُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا صَدُّوا الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، صُدُّوا عَنْهُ، وَكَمَا أَجْلَوْهُمْ مِنْ مَكَّةَ أَجْلَوْا عَنْهَا، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عَلَى مَا انْتَهَكُوا مِنْ حُرْمَةِ الْبَيْتِ، وَامْتَنَهُوهُ مِنْ نَصَبِ الْأَصْنَامِ حَوْلَهُ، وَدُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ عِنْدَهُ، وَالطَّوَافِ بِهِ غُرَبَانًا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفَاعِيلِهِمُ الَّتِي يَكْرَهُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

وَقَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِالِاسْتِعَادَةِ مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ»<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ﴾<sup>(٥)</sup>

[اِسْتِيقَالُ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ]

وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ مَكَّةَ، وَفَارَقُوا مَسْجِدَهُمْ وَمُصَلَّاهُمْ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يُصَلِّي بِمَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْكَعْبَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَجَّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ صَرَفَهُ اللَّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ، وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَا نُسِخَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقِبْلَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٤١/١ ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد كما مر. (٢) فتح الباري: ٥٦٥/٣ (٣) أحمد: ١٨١/٤

كُلُّهُمْ بِالْكَفَايَةِ وَالْجُودِ وَالْإِفْضَالِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿عَلِمَ﴾ فَإِنَّهُ يُعْنِي عَلِمَ بِأَعْمَالِهِمْ، مَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ، بَلْ هُوَ بِجَمِيعِهَا عَلِيمٌ. <sup>(١)</sup>

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قُلْنَا نُونُ ﴿١١٦﴾ يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

[الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ وَلَدًا]

إِسْتَمَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، وَالَّتِي تَلِيهَا، عَلَى الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ، وَكَذَا مَنْ أَشْبَهَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ، وَمِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، مِمَّنْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ، فَأَكْذَبَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ وَقَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ وَلَدًا. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أَيُّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿بَلْ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا افْتَرَوْا، وَإِنَّمَا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِنَّ، وَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَمُقَدِّرُهُمْ وَمُسَخِّرُهُمْ، وَمُسِيرُهُمْ، وَمُصَرِّفُهُمْ كَمَا يَشَاءُ، وَالْجَمِيعُ عِبِيدُ لَهُ، وَمِلْكُ لَهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِنْهُمْ، وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مِثْلًا مِثْلًا مِنْ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِلَيْنِ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا مُشَارِكٌ فِي عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ، وَلَا صَاحِبَةٌ لَهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُجِرَ لِلْبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مريم: ٨٨-٩٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

أَهْلَهَا الْيَهُودُ، أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَفَرَحَتْ الْيَهُودُ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَعَةِ عَشْرٍ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ يَدْعُو وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿قُولُوا وَجْهَكُمْ سَطْرُكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٤] فَارْتَابَ مِنْ ذَلِكَ الْيَهُودُ، وَقَالُوا: مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وَقَالَ: ﴿فَإِنَّمَا تُؤَلُّوا فِتْنَمُ وَجْهِ اللَّهِ﴾ <sup>(١)</sup> وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَإِنَّمَا تُؤَلُّوا فِتْنَمُ وَجْهِ اللَّهِ﴾ قَالَ: قِبْلَةُ اللَّهِ، أَيْنَمَا تَوَجَّهْتَ شَرْقًا أَوْ غَرْبًا <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَإِنَّمَا تُؤَلُّوا فِتْنَمُ وَجْهِ اللَّهِ﴾ حِينَئِذَا كُنْتُمْ فَلَكُمْ قِبْلَةً تَسْتَقْبِلُونَهَا: الْكَعْبَةُ <sup>(٣)</sup>.

قِيلَ: بَلْ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ قَبْلَ أَنْ يَفْرَضَ التَّوَجُّعَ إِلَى الْكَعْبَةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ نَافَعَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُصَلِّيَ الْمُتَطَوُّعَ حَيْثُ تَوَجَّعَ، مِنْ شَرْقٍ أَوْ غَرْبٍ، فِي مَسِيرِهِ فِي سَفَرِهِ، وَفِي حَالِ الْمُسَافِقَةِ وَشِدَّةِ الْخَوْفِ <sup>(٤)</sup>. فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَيَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَيَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَإِنَّمَا تُؤَلُّوا فِتْنَمُ وَجْهِ اللَّهِ﴾ <sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدُودٍ، وَأَصْلُهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ وَعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الْآيَةِ <sup>(٦)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَأَلَ عَنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصَفِّهَا، ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، صَلُّوا رِجَالًا قِيَامًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَرُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا، قَالَ نَافِعٌ: وَلَا أَرَى ابْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ <sup>(٧)</sup>.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فَمِنْ أَشْبَهَتْ عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ لِأَجْلِ الظُّلْمَةِ وَالسَّحَابِ وَنَحْوِهِمَا فَصَلَّى لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ.

[قِبْلَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ]

وَقَدْ أَوْرَدَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُودٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ، لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ» <sup>(٨)</sup>. وَلَهُ مُتَنَاسِبَةٌ هَهُنَا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ بِلَفْظٍ «مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ» <sup>(٩)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾ يَسَعُ خَلْقُهُ

(١) الطبري: ٥٢٧/٢ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٤٧/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٤٥/١ (٤) الطبري: ٥٣٠/٢ (٥) الطبري: ٢/٥٣٠ (٦) مسلم: ٤٨٦/١ وتحفة الأحوذى: ٢٩٢/٨ والنسائي: ٢٤٤/١ وابن أبي حاتم: ٣٤٤/١ والحاكم: ٢٦٦/٢ (٧) فتح الباري: ٤٦/٨ (٨) العقيلي: ٣٠٩/٤ إسناده ضعيف لأجل أبي معشر المديني أنظر العقيلي (٩) تحفة الأحوذى: ٣١٧/٢ وابن ماجه: ٣٢٣/١ (١٠) الطبري: ٥٣٧/٢

كَقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ جَمْعِهِ إِتَاهُمْ عَلَى صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ وَاسْتِمْرَارِهِمْ: نَعَمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فَمَعْنَى الْكَلَامِ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَهُوَ مَالِكٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، تَشْهَدُ لَهُ جَمِيعُهَا بِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَتُقَرُّ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَهُوَ بَارِئُهَا وَخَالِقُهَا وَمُوجِدُهَا، مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ وَلَا مِثَالٍ إِحْتِدَاهَا عَلَيْهِ، وَهَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ أَنَّ مَنْ يَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ: الْمَسِيحُ - الَّذِي أَصَافُوا إِلَى اللَّهِ بُنُوتهُ - وَإِخْبَارٌ مِنْهُمْ: أَنَّ الَّذِي ابْتَدَعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ، وَعَلَى غَيْرِ مِثَالٍ، هُوَ الَّذِي ابْتَدَعَ الْمَسِيحَ عِيسَى، مِنْ غَيْرِ وَالِدٍ يُقَدِّرُهُ<sup>(١)</sup>.

وَهَذَا مِنْ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كَلَامٌ جَيِّدٌ وَعِبَارَةٌ صَحِيحَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يُبَيِّنُ بِذَلِكَ تَعَالَى كَمَالَ قُدْرَتِهِ، وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا قَدَّرَ أَمْرًا وَأَرَادَ كَوْنَهُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ - أَيْ مَرَّةً وَاحِدَةً - فَيَكُونُ، أَيْ فَيُوجَدُ، عَلَى وَفْقِ مَا أَرَادَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يسر: ٨٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وَنَبَّهَ بِذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ خَلْقَ عِيسَى بِكَلِمَةٍ «كُنْ» فَكَانَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنَزِّلُ عَلَيْنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَافِعُ بْنُ حُرَيْمَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتُ رَسُولًا مِنْ

فَقَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا شَبِيهَ لَهُ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِهِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ مَرْبُوبَةٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهَا وَلَدٌ؟ وَلِهَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْبَقَرَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَّنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَبَرَعَمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ إِنَّ لِي وَلَدًا، فَسُحَّانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»<sup>(١)</sup>.  
إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ، مِنْ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيَعَافِيهِمْ»<sup>(٢)</sup>.

[كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ وَقَائِتٌ لِلَّهِ تَعَالَى]

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ لَمْ فَيَكُونُ﴾ [قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ: أَخْبَرَنَا أَصْبَاطُ عَنْ مُطَرِّبٍ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿فَيَكُونُ﴾ مُصْلًى<sup>(٣)</sup>]. وَقَالَ عِكْرَمَةُ وَأَبُو مَالِكٍ: ﴿كُلُّ لَمْ فَيَكُونُ﴾ مَقْرُونٌ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿كُلُّ لَمْ فَيَكُونُ﴾: يَقُولُ: الْإِخْلَاصُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: يَقُولُ: ﴿كُلُّ لَمْ فَيَكُونُ﴾ أَيْ قَائِمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الشَّدِيدِي: ﴿كُلُّ لَمْ فَيَكُونُ﴾ أَيْ: مُطِيعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿كُلُّ لَمْ فَيَكُونُ﴾ قَالَ: مُطِيعُونَ. كُنْ إِنْسَانًا فَكَانَ، وَقَالَ: كُنْ حِمَارًا فَكَانَ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿كُلُّ لَمْ فَيَكُونُ﴾ مُطِيعُونَ، قَالَ: طَاعَةُ الْكَافِرِ فِي سُجُودِ ظِلِّهِ وَهُوَ كَارِهِ<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ مُجَاهِدٍ - وَهُوَ إِخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ - يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا، وَهُوَ أَنَّ الْقُنُوتَ: هُوَ الطَّاعَةُ وَالِاسْتِكَانَةُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ شَرْعِيٌّ وَقَدَرِيٌّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

[مَعْنَى الْبَدِيعِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: خَالِقُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ. [قَالَهُ] مُجَاهِدٌ وَالشَّدِيدِي. وَهُوَ مَقْتَضَى اللَّغَةِ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلشَّيْءِ الْمُحْدَثِ: بَدْعَةٌ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «إِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بَدْعَةٌ» وَالْبَدْعَةُ عَلَى قِسْمَيْنِ: تَارَةً تَكُونُ بَدْعَةً شَرْعِيَّةً، كَقَوْلِهِ: «إِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ»<sup>(١٠)</sup>. وَتَارَةً تَكُونُ بَدْعَةً لُغَوِيَّةً،

(١) فتح الباري: ١٨/٨ (٢) فتح الباري: ٣٧٢/١٣ ومسلم: ٢١٦٠/٤ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٤٩/١ (٤) ابن أبي حاتم: ١/٣٤٩ إسناده ضعيف عطية العوفي ضعيف (٥) ابن أبي حاتم: ١/٣٥٠ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٥٠/١ (٧) الطبري: ٥٣٨/٢ (٨) ابن أبي حاتم: ٣٤٩/١ (٩) ابن أبي حاتم: ٣٤٨/١ (١٠) مسلم: ٥٩٢/٢ (١١) الطبري: ٥٥٠/٢



وَيَقْرَأُ كَمَا أُنزِلَهُ اللَّهُ، وَلَا يَحْرَفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يَتَأَوَّلُ مِنْهُ شَيْئًا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ<sup>(٧)</sup>. قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: يُحْلُونَ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ<sup>(٨)</sup>. وَعَنْ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ: هُمُ الَّذِينَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ رَحْمَةٍ سَأَلُوهَا مِنَ اللَّهِ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ عَذَابٍ اسْتَعَاذُوا مِنْهَا<sup>(٩)</sup>. قَالَ: وَقَدْ رَوَى هَذَا الْمَعْنَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ رَحْمَةٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ عَذَابٍ تَعَوَّذَ<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خَبَّرَ عَنِ ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أَيُّ: مَنْ أَقَامَ كِتَابَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُتَمَزِّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ حَقَّ إِقَامَتِهِ؛ آمَنَ بِمَا أَرْسَلْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْبَرُوا مِنْ تَوْفِيقِهِ وَفِي ذَلِكَ لَعَلٌّ لِكُلِّ آلٍ﴾... الْآيَةِ [المائدة: ٦٦] ﴿قُلْ يَهْدِي اللَّهُ الْبَشَرَ لِسَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى يُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] أَيُّ: إِذَا أَقَمْتُمُوهَا حَقَّ الْإِقَامَةِ، وَآمَنْتُمْ بِهَا حَقَّ الْإِيمَانِ، وَصَدَقْتُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْإِخْبَارِ بِمَنْبَغِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ وَنَصْرِهِ وَمُؤَارَازَتِهِ؛ فَادَّكُمُ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ وَاتَّبَاعِ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... الْآيَةِ [الأعراف: ١٥٧]، وَقَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخَوِّنُونَ لِلْآذَانِ سُبْحَانَ ﷻ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أَيُّ: إِنْ كَانَ مَا وَعَدْنَا بِهِ - مِنْ شَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ - لَوَاقِعًا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﷻ وَإِذَا بُدِّلَ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﷻ﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ [القصص: ٥٢-٥٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ، وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَا فَطْرَ وَلَا غَلِيطَ، وَلَا صَحَابَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَبْغِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَفْتَحَ بِهِ أَغْنِيَا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا<sup>(١١)</sup>.  
إِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْخُبَارِيُّ، فَرَوَاهُ فِي الْبُيُوعِ وَفِي التَّفْسِيرِ<sup>(١٢)</sup>.  
﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﷻ﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﷻ

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْني بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاهُ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وَلَيْسَتْ الْيَهُودُ يَا مُحَمَّدٌ وَلَا النَّصَارَى بِرَاضِيَةٍ عَنْكَ أَبَدًا، فَذَعَّ طَلَبَ مَا يُرِضِيهِمْ وَيُؤَافِقُهُمْ، وَأَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ رِضَا اللَّهِ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى أَيُّ: قُلْ يَا مُحَمَّدٌ: إِنَّ هَدَى اللَّهُ الَّذِي بَعَثَنِي بِهِ هُوَ الْهُدَى، يَعْنِي هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ<sup>(١٣)</sup> الصَّحِيحُ الْكَامِلُ الشَّامِلُ، قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ قَالَ: خُصُومَةٌ عَلَّمَهَا اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ يُخَاصِمُونَ بِهَا أَهْلَ الضَّلَالَةِ<sup>(١٤)</sup>. قَالَ قَتَادَةُ: وَبَلَّغْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»<sup>(١٥)</sup>. (قُلْتُ): هَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو<sup>(١٦)</sup>. ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْأُمَّةِ عَنِ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بَعْدَ مَا عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْخُطَّابَ مَعَ الرَّسُولِ وَالْأَمْرَ لِأُمَّتِهِ.

#### [مَعْنَى التَّلَاوَةِ الْحَقَّةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: هُمُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ حَقَّ تِلَاوَتُهُ أَنْ يُحْلَلَ حَلَالَهُ، وَيُحَرَّمَ حَرَامَهُ،

(١) أحمد: ١٧٤/٢ (٢) فتح الباري: ٤٠٢/٤ و ٤٤٩/٨  
والأدب المفرد: ٧٢ (٣) الطبري: ٥٦٢/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٥٦/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٥٥/١ (٦) مسلم: ١٩٢٤ (٧) الطبري: ٥٦٧/٢ (٨) الطبري: ٥٦٧/٢ (٩) القرطبي: ٩٥/٢ إسناده ضعيف زيد بن أسلم لم يسمع من عمر رضي الله عنه (١٠) ابن ماجه: ٤٢٩



شَاكِرًا لِأَنْعَمَ أَجْتَنَّهُ وَهَدَنَهُ إِنْ صَرِطَ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٢٢﴾ وَمَا لَكُمْ فِي الذِّبَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَنْتَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا وُفِّقَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٦٢﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٣﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَكُونُ﴾ أَيْ: بِشَرَائِعَ وَأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ تَطْلُقُ، وَيُرَادُ بِهَا الْكَلِمَاتُ الْقَدْرِيَّةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَصَدَقْتَ يَكُونُ رَبِّهَا وَكَتُوبُهُ، وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِينِينَ﴾ [التحریم: ١٢] وَتَطْلُقُ، وَيُرَادُ بِهَا الشَّرْعِيَّةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صَدَقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَيْ: كَلِمَاتُهُ الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ إِمَامٌ خَبِرٌ صَدِيقٌ، وَإِمَامٌ طَلَبَ عَدْلٍ إِنْ كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، أَيْ قَامَ بِهِنَّ، قَالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أَيْ جَزَاءً عَلَى مَا فَعَلَ؛ لَمَّا قَامَ بِالْأَوَامِرِ، وَتَرَكَ الزَّوْاجَرَ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ قُدْوَةً، وَإِمَامًا يُتَّقَى بِهِ وَتُحْتَذَى حُدُوهُ.

#### [مَا هِيَ كَلِمَاتُ الْإِبْتِلَاءِ؟]

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَعْيِينِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي اخْتَبَرَ اللَّهُ بِهَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ رَوَايَاتٍ، فَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِبْتِلَاؤُهُ اللَّهُ بِالْمَنَاسِكِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو إِسْحَاقَ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾، قَالَ: إِبْتِلَاؤُهُ بِالطَّهَّارَةِ: خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ، فِي الرَّأْسِ: قَصُّ الشَّارِبِ وَالْمَضْمَضَةُ، وَالْأَسْتِنْشَاقُ، وَالسَّوَاكُ وَفَرْقُ الرَّأْسِ. وَفِي الْجَسَدِ تَقْلِيمُ الْأَطْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالْخِتَانُ، وَتَنْفُ الْإِبْطِ<sup>(٣)</sup>. وَغَسْلُ أَثَرِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَمُجَاهِدٍ وَالشَّعْبِيِّ وَالنَّخَعِيِّ، وَأَبِي صَالِحٍ وَأَبِي الْجَلْدِ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(٤)</sup>.

لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَنْبِيَاءَ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَابْتَغَوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٢٥﴾ [آل عمران: ٢٠].

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وَفِي الصَّحِيحِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»<sup>(١)</sup>.

﴿يَنْبَغِي إِسْرَافًا أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُكَ شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿١٢٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ، وَكُرِّرَتْ هَهُنَا لِلتَّأْكِيدِ وَالْحَثِّ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ، وَنَعْتَهُ وَاسْمَهُ وَأَمْرَهُ وَأَمَّتَهُ، فَحَذَّرَهُمْ مِنْ كَيْفَانِ هَذَا، وَكَيْفَانِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرِيَّةِ، وَلَا يَحْسُدُوا بَنِي عَمِّهِمْ مِنَ الْعَرَبِ عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ إِرسَالِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ مِنْهُمْ، وَلَا يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ الْحَسَدُ عَلَى مَخَالَفَتِهِ وَتَكْذِيبِهِ وَالْحَيْدِ عَنْ مُوَافَقَتِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قَالَ ابْنُ جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَّخِذُ الْفُلَاحِينَ ﴿١٢٨﴾

#### [ذِكْرُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَتَوَلِّيَتِهِ إِمَامَةً النَّاسِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبْتَدَأًا عَلَى شَرَفِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ يُقْتَدَى بِهِ فِي التَّوْحِيدِ جِئَ قَامَ بِمَا كَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أَيْ وَادَّكَرَ يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابَتَيْنِ - الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَلَيْسُوا عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهَا مُسْتَقِيمٌ فَأَنْتَ وَالَّذِينَ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - أَذْكُرْ لَهُؤُلَاءِ إِبْتِلَاءَ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ، أَيْ اخْتَبَارَهُ لَهُ بِمَا كَلَّمَهُ بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أَيْ قَامَ بِهِنَّ كُلُّهُنَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] أَيْ وَفَّى جَمِيعَ مَا شَرَعَ لَهُ فَعْمَلٌ بِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٩﴾

(١) مسلم: ١٣٤/١ (٢) الطبري: ١٣/٣ (٣) الطبري: ٣/١٣

١٣ (٤) عبد الرزاق: ٥٧/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٥٩/١

الْخَبَرِ، أَنَّهُ لَا يَنَالُ عَهْدُ اللَّهِ بِالْإِمَامَةِ ظَالِمًا، فَفِيهَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ سَيُوجَدُ مِنْ دُرِّيَّتِكَ مَنْ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. وَقَالَ ابْنُ خُوَيْرٍ مُنَادُ الْمَالِكِيِّ: الظَّالِمُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً، وَلَا حَاكِمًا، وَلَا مُفْتِيًا، وَلَا شَاهِدًا وَلَا رَاوِيًا.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلِيكَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَنَا وَالتَّحْدُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

### [فَضْلُ بَيْتِ اللَّهِ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلِيكَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يَقُولُ: لَا يَقْضُونَ فِيهِ وَطْرًا، بِأَثْوَنَهُ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ، ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَيْهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلِيكَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَنَا﴾ يَقُولُ: وَأَنَا مِنَ الْعَدُوِّ وَأَنْ يُحْمَلَ فِيهِ السَّلَاحُ، وَقَدْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ وَهُمْ آمِنُونَ لَا يُسَبَّوْنَ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالسُّدِّيِّ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالُوا: مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا<sup>(٦)</sup>.

وَمَضْمُونُ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ شَرَفَ الْبَيْتِ، وَمَا جَعَلَهُ مَوْصُوفًا بِهِ شَرْعًا وَقَدْرًا، مِنْ كَوْنِهِ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ، أَيْ جَعَلَهُ مَحَلًّا تَشْتَقُّ إِلَيْهِ الْأَرْوَاحُ، وَتَحْجُّ إِلَيْهِ، وَلَا تَقْضِي مِنْهُ وَطْرًا وَلَوْ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ كُلُّ عَامٍ، اسْتِجَابَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، لِدُعَاءِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي قَوْلِهِ ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣٧-٤٠] وَبَصَفَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ جَعَلَهُ آمِنًا، مَنْ دَخَلَهُ آمِنٌ. وَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ، ثُمَّ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَمَا هَذَا الشَّرْفُ إِلَّا لِشَرَفِ بَانِيهِ أَوَّلًا، وَهُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، نَبَّهَ عَلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ الْأَمْرِ

(قُلْتُ): وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَسَرُ مِنَ الْفَطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ، وَالسَّوَالِ، وَاسْتِشْقَاءُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأُظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاكِ، وَتَنْفُ الْإِطِيطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ» وَنَسِيَتْ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنَّ تَكُونَ الْمُضْمَضَةَ. قَالَ وَكَيْعٌ: انْتِقَاصُ الْمَاءِ، يَعْنِي: الِاسْتِنْجَاءُ<sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْفَطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأُظْفَارِ، وَتَنْفُ الْإِطِيطِ»، وَلَفْظُهُ لِمُسْلِمٍ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْكَلِمَاتُ الَّتِي ابْتَلَى اللَّهُ بِهِنَّ إِبْرَاهِيمَ فَأَتَمَّهُنَّ: فِرَاقُ قَوْمِهِ فِي اللَّهِ حِينَ أُمِرَ بِمُقَارَفَتِهِمْ. وَمُحَاجَّتُهُ ثَمُودَ فِي اللَّهِ حِينَ وَقَفَهُ عَلَى مَا وَقَفَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَطَرِ الْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ خِلَافُهُ. وَصَبْرُهُ عَلَى قَذْفِهِ إِثَاءً فِي النَّارِ لِيُحَرِّقُوهُ فِي اللَّهِ، عَلَى هَوْلِ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ. وَالْهَجْرَةُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَطَنِهِ وَبِلَادِهِ فِي اللَّهِ حِينَ أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ عَنْهُمْ. وَمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الضِّيَافَةِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ. وَمَا ابْتَلَى بِهِ مِنْ دَنْجِ ابْنِهِ حِينَ أَمَرَهُ بِذَبْحِهِ. فَلَمَّا مَضَى عَلَى ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ كُلُّهُ، وَأَخْلَصَهُ لِلْبَلَاءِ، قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿اسْلِمْ قَالَ اسْلَمْتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خِلَافِ النَّاسِ وَفِرَاقِهِمْ<sup>(٣)</sup>.

### [عَهْدُ اللَّهِ لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ وَمِنْ دُرِّيَّتِي﴾ قَالَ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامًا سَأَلَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ الْأَيْمَةُ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ دُرِّيَّتِهِ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ، وَأُخْبِرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ دُرِّيَّتِهِ ظَالِمُونَ، وَأَنَّهُ لَا يَنَالُهُمْ عَهْدُ اللَّهِ، وَلَا يَكُونُونَ أئِمَّةً، فَلَا يُقْتَدَى بِهِمْ، وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى طَلِبَتِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي دُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فَكُلُّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وَكُلُّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ؛ فَبَيَّنَ دُرِّيَّتَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فَيُخْبِرُهُ أَنَّهُ كَائِنْ فِي دُرِّيَّتِهِ ظَالِمٌ؛ لَا يَنَالُ عَهْدَهُ، وَلَا يَتَّبَعِي أَنْ يُؤَلِّهَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ دُرِّيَّةِ خَلِيلِهِ. وَمُحْسِنٌ؛ سَتَنْفُذُ فِيهِ دَعْوَتَهُ، وَتَبْلُغُ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ مَسَائِلَتِهِ.

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَإِنْ كَانَتْ ظَاهِرَةً فِي

(١) مسلم: ٢٢٣/١ (٢) فتح الباري: ٣٤٧/١٠ ومسلم: ١/

٢٢٢ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٦٠/١ إسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد كما سبق (٤) الطبري (١٩٦٩) إسناده ضعيف العوفي ضعيف كما مر (٥) الطبري: ٢٩/٣ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٧٠/١

بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ. فَقَالَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

### [مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ]

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قَالَ: الْحَجَرُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيِّ اللَّهِ، قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً، فَكَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ وَيُنَاوِلُهُ إِسْمَاعِيلُ الْحِجَارَةَ. وَلَوْ غَسَلَ رَأْسَهُ -كَمَا يَقُولُونَ- لَأَخْتَلَفَ رِجَالُهُ! (١). وَقَالَ الشَّدِيدِي: الْمَقَامُ الْحَجَرُ الَّذِي وَضَعَتْهُ زَوْجَةُ إِسْمَاعِيلَ تَحْتَ قَدَمِ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى غَسَلَ رَأْسَهُ (٢). حَكَاهُ الْقُرْطُبِيُّ وَضَعَتْهُ، وَرَحَّحَهُ غَيْرُهُ. وَحَكَاهُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَفَتَادَةَ الرَّبِيعِ ابْنِ أَنَسٍ (٣).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرٍ يُحَدِّثُ عَنْ حِجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: لَمَّا طَافَ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ لَهُ عُمَرُ: هَذَا مَقَامُ أَبِينَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: أَفَلَا تَتَّخِذْهُ مُصَلًّى؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (٤). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ مَثَابَةً، يَتَوَبُّونَ: يَرْجِعُونَ. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ أَوْ وَاقِفَتِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْتُ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلْتُ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ. قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَاتِبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ فَقُلْتُ: إِنْ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيْدَلْنَ اللَّهُ رَسُولَهُ خَيْرًا مِنْكُنَّ، حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ مَا يَعْظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعْظُهُنَّ أَنْتَ؟! فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَةً﴾...  
الآيَةُ [التَّحْرِيمُ: ٥].

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: اسْتَلَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّكْنَ، فَرَمَلَ ثَلَاثًا وَمَشَى أَرْبَعًا، ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ فَقَرَأَ ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ (٥). وَهَذَا قِطْعَةٌ مِنَ الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٦). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ عُمَرُو بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكَعَتَيْنِ (٧).

فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَقَامِ إِنَّمَا هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُومُ عَلَيْهِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، لَمَّا ارْتَفَعَ الْجِدَارُ أَتَاهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ لِيَقُومَ فَوْقَهُ، وَيُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، فَيَضَعُهَا بِيَدِهِ لِيَرْفَعَ الْجِدَارَ، وَكُلَّمَا كَمَلَ نَاحِيَةً انْتَقَلَ إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ كُلَّمَا فَرَعَ مِنْ جِدَارٍ نَقَلَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي تَلِيهَا، وَهَكَذَا حَتَّى تَمَّ جِدَارُ الْكَعْبَةِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ، وَكَانَتْ أَثَارُ قَدَمَيْهِ ظَاهِرَةً فِيهِ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا مَعْرُوفًا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قِصِيدَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ اللَّامِيَّةِ:

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ

عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ  
وَقَدْ أَدْرَكَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ فِيهِ، فَعَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: رَأَيْتُ الْمَقَامَ فِيهِ أَصَابِعُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخْمَصُ قَدَمَيْهِ، غَيْرَ أَنَّهُ أَذْهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ.

(قُلْتُ): وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَقَامُ مُلَصَّقًا بِجِدَارِ الْكَعْبَةِ قَدِيمًا وَمَكَانُهُ مَعْرُوفٌ الْيَوْمَ، إِلَى جَانِبِ الْبَابِ مِمَّا يَلِي الْحَجَرَ يُمْنَةَ الدَّخْلِ مِنَ الْبَابِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُسْتَقِلَّةِ هُنَاكَ (٨). وَكَانَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا فَرَعَ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَضَعَهُ إِلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ أَوْ أَنَّهُ انْتَهَى عِنْدَهُ الْبِنَاءُ فَتَرَكَهُ هُنَاكَ وَلِهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أُمِرَ بِالصَّلَاةِ هُنَاكَ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الطَّوُافِ، وَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ انْتَهَى بِنَاءُ الْكَعْبَةِ فِيهِ، وَإِنَّمَا آخَرُهُ عَنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدُ الْأَيْمَةِ الْمُهَدِّدِينَ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الَّذِينَ أُمِرْنَا بِاتِّبَاعِهِمْ، وَهُوَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ قَالَ فِيهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ» (٩). وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنُ بِوَفَاقِهِ فِي الصَّلَاةِ عِنْدَهُ، وَلِهَذَا لَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ: حَدَّثَنِي عَطَاءٌ وَغَيْرُهُ مِنْ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٧١/١ (٢) الطبري: ٣٥/٣ (٣) الرازي: ٤٥/٤ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٧٠/١ (٥) الطبري: ٣٦/٣ (٦) مسلم: ٩٢٠/٢ (٧) فتح الباري: ٥٨٦/٣ (٨) قد أزيلت هذه البقعة، ووضع مقام إبراهيم في عمود قصير من الزجاج والسياح. (٩) الترمذي: ٣٦٦٢

الْبَقَرَةُ

٢٠

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَضَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاجِدُوا مَخْرَجًا لَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتُشُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَمْرِ بِتَطْهِيرِهَا وَتَطْيِيبِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِبَاغَاتِهَا مِنَ الْأَدَى وَالنَّجَاسَاتِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا بُنِيَ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَ لَهُ»<sup>(٨)</sup>. وَقَدْ جَمَعْتُ فِي ذَلِكَ جُزْءًا عَلَى حِدَةٍ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

[تَحْرِيمُ مَكَّةَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] رَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَبْرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ بَيْتَ اللَّهِ وَأَمْنَهُ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، فَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا، وَلَا يُقَطَّعُ عِصَاهُهَا»<sup>(٩)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ

أَصْحَابُنَا، قَالَ: أَوَّلُ مَا نَقَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَيْضًا عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: أَوَّلُ مَنْ أَخَّرَ الْمَقَامَ إِلَى مَوْضِعِهِ الْآنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ الْمَقَامَ كَانَ زَمَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَزَمَانَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُتَنَصِّفًا بِالْبَيْتِ، ثُمَّ أَخَّرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ مَعَ مَا تَقَدَّمَ.

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْنَ اللَّطَائِفِينَ وَالْمَكْكِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾<sup>(٣)</sup> وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٩﴾ وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٠﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣١﴾

[الْأَمْرُ بِتَطْهِيرِ بَيْتِ اللَّهِ]

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ قَوْلُهُ: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ قَالَ: أَمَرَهُمَا اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَاهُ مِنَ الْأَدَى وَالنَّجَسِ، وَلَا يُصِيبَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: مَا عَهْدُهُ؟ قَالَ: أَمْرُهُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿أَنَّ طَهْرًا بَيْنَ اللَّطَائِفِينَ وَالْمَكْكِينَ﴾ قَالَ: مِنَ الْأَوْثَانِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿طَهْرًا بَيْنَ اللَّطَائِفِينَ﴾ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالرَّفَثِ وَقَوْلِ الزُّوْرِ وَالرُّجَسِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّطَائِفِينَ﴾ فَالطَّوَّافُ بِالْبَيْتِ مَعْرُوفٌ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّطَائِفِينَ﴾ يَعْنِي مَنْ أَنَاهُ مِنْ غُرَبَاءِ<sup>(٥)</sup>. ﴿وَالْمَكْكِينَ﴾ الْمُقِيمِينَ فِيهِ، وَهَكَذَا رَوَى عَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، أَنَّهُمَا فَسَّرَا الْعَاكِفِينَ بِأَهْلِهِ الْمُقِيمِينَ فِيهِ، كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ<sup>(٦)</sup>. وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، قَالَ: إِذَا كَانَ مُصَلِّيًا فَهُوَ مِنَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٨)</sup>.

وَتَطْهِيرُ الْمَسَاجِدِ مَأْخُودٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] وَمِنْ السُّنَّةِ مِنْ

(١) المصنف (٨٩٥٥) ٤٨/٥ (٢) المصنف (٨٩٥٣) ٤٧/٥

(٣) ابن أبي حاتم: ٣٧٣/١ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٧٥/١

(٥) ابن أبي حاتم: ٣٧٥/١ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٧٦/١ (٧)

ابن أبي حاتم: ٣٧٦/١ (٨) مسلم: ٣٩٧/١ (٩) الطبري: ٣/

النَّسَائِي<sup>(١)</sup>، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

وَقَدْ أَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ بِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ وَقَدَّرَهُ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ بَدْءِ أَمْرِكَ. فَقَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبُشْرَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَرَأَتْ أُمِّي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ»<sup>(٣)</sup> أَيَّ أَخْبِرْنَا عَنْ بَدْءِ ظُهُورِ أَمْرِكَ، كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ..

### [دُعَاءُ الْخَلِيلِ لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِنْخِبَارًا عَنِ الْخَلِيلِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أَيَّ مِنَ الْخَوْفِ، أَيُّ لَا يُرْعَبُ أَهْلُهُ، وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدَرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦] وَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَبُخَّطَفَ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِيهِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أَيُّ اجْعَلْ هَذِهِ الْبُقْعَةَ بَلَدًا ءَامِنًا. وَنَاسَبَ هَذَا لِأَنَّهُ قَبْلَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ. وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وَنَاسَبَ هَذَا هُنَاكَ لِأَنَّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَأَنَّهُ وَقَعَ دُعَاءُ مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَاسْتِفْرَافِ أَهْلِهِ بِهِ، وَبَعْدَ مَوْلِدِ إِسْحَاقَ الَّذِي هُوَ أَصْغَرُ سِنًا مِنْ إِسْمَاعِيلَ بِنَاتِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الدُّعَاءِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي بَنْدٍ كَعْبٍ: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قَالَ: هُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ أُخَرُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مَكَّةَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُضْطَدُّ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقَطُ لِقَطْعُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِلَّا الْإِذْخِرَ<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ، وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ نَحْوُ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ<sup>(٨)</sup>.

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ: إِذْنٌ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ أَحْدِثُكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَدَّ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ، سَمِعْتُهُ أَذُنًا، وَوَعَاهُ قَلْبِي، وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، إِنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يَحْرَمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَغْضَدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذَنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذَنُ لِي فِيهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ: مَا قَالَ لَكَ عَمْرٍو؟ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ، إِنَّ الْحَرَّمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا وَلَا فَارًّا بِدَمٍ، وَلَا فَارًّا بِخَرَبَةٍ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَهَذَا لَفْظُهُ<sup>(٩)</sup>.

فَإِذَا عُلِمَ هَذَا فَلَا مُتَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَهَا، لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ بَلَّغَ عَنِ اللَّهِ حُكْمَهُ فِيهَا وَتَحْرِيمَهُ إِيَّاهَا، وَأَنَّهَا لَمْ تَزَلْ بَلَدًا حَرَامًا عِنْدَ اللَّهِ قَبْلَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا، كَمَا أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكْتُوبًا عِنْدَ اللَّهِ حَاتِمَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِلٌ فِي طَبِيعَتِهِ، وَمَعَ هَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾... الْآيَةُ،

(١) النسائي في الكبرى: ٤٨٧/٢ (٢) مسلم: ٩٩٢/٢ (٣)

فتح الباري: ٥٦/٤ ومسلم: ٩٨٦/٢ (٤) فتح الباري: ٣/٢٥٣

(٥) فتح الباري: ٥٠/٤ ومسلم: ٩٨٧/٢ (٦) أحمد:

٢٦٢/٥ (٧) مسلم: ٩٨٩/٢ (٨) الطبري: ٥٣/٣ (٩)

الطبري: ٥٤/٣

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ النَّبِيُّ، وَرَفَعِيَهُمَا الْقَوَاعِدَ مِنْهُ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي وَابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُمَا كَانَا يَقْرَأَانِ (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ النَّبِيِّ وَإِسْمَاعِيلُ وَيَقُولَانِ رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (٤).

(قُلْتُ) وَيَذُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُمَا بَعْدَهُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ... آيَةٍ، فَهَمَا فِي عَمَلٍ صَالِحٍ، وَهُمَا يَسْأَلَانِ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُقَبَّلَ مِنْهُمَا، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ وَهَبِ بْنِ الْوَرْدِ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ النَّبِيِّ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا﴾ ثُمَّ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ تَرَفَعُ قَوَائِمَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ مُشْفِقٌ أَنْ لَا يُقَبَّلَ مِنْكَ (٥). وَهَذَا كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أَيْ يُعْطُونَ مَا أُعْطُوا مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْتِقَاتِ وَالْقُرْبَاتِ ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أَيْ خَائِفَةٌ أَنْ لَا يُقَبَّلَ مِنْهُمْ، كَمَا جَاءَ بِهِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا سَيَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ النَّبِيِّ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْرَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنِي بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أَيْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: اللَّهُ أَمْرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إِذَا لَا يُضْعِفُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ. فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ؟ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ النَّبِيَّ، ثُمَّ دَعَا بِهِذِهِ الدَّعَوَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ حَتَّى بَلَغَ

مَنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُحَجِّرُهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: وَمَنْ كَفَرَ أَيْضًا أَرْزُقْنَاهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ، أَأَخْلَقْتُ خَلْقًا لَا أَرْزُقُهُمْ؟ أَمَتُّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيُسِّرُ الْمَصِيرُ (١). ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَتْؤَلَاءَ وَهَتْؤَلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُودٍ. وَرَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ نَحْوَ ذَلِكَ أَيْضًا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٢) مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنَنْفِثُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣) لَنُعَذِّبَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤] وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سَفَافًا مِّنْ فَضَةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٤) وَلِيُؤَيِّدَهُمْ أَتُوبُوا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَكْهُونَ (٥) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيُسِّرُ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ ثُمَّ أَلْجَأَهُ بَعْدَ مَتَاعِهِ فِي الدُّنْيَا، وَبَسْطِنَا عَلَيْهِ مِنْ ظِلِّهَا، إِلَى عَذَابِ النَّارِ، وَيُسِّرُ الْمَصِيرُ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْظِرُهُمْ وَيُمَهِّلُهُمْ ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيْبَةٍ أُمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ، مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» (٦). وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا «إِنَّ اللَّهَ لَيُؤْمِلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَقْلِبْهُ» (٧) ثُمَّ قَرَأَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]

[بِنَاءُ الْكُعْبَةِ وَالِدُّعَاءُ بِقَبُولِ ذَلِكَ الْعَمَلِ]

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ النَّبِيِّ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٨) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَارَنَا مَنَاسِكَا وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فَالْقَوَاعِدُ جَمْعُ قَاعِدَةٍ وَهِيَ السَّارِيَةُ وَالْأَسَاسُ.

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ بِنَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٧٧/١ (٢) فتح الباري: ٣٧٢/١٣  
ومسلم: ٢١٦٠/٤ (٣) فتح الباري: ٢٠٥/٨ (٤) القرطبي: ١٢٦/٢  
(٥) ابن أبي حاتم: ٣٨٤/١

﴿يَسْكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧].

وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَذْرَكَ زَوْجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ،  
وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ.

فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ لِيُطَالِعَ تَرْكُهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْسِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، فَسَكَتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَافْرُقِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُعَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ، كَانَتْهُ أُنْسٌ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلْنِي كَيْفَ عَيْسُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّنا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَفْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَنَقُولَ: غَيْرَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، فَالْحَقِّي بِأَهْلِكَ، وَطَلِّقْهَا، وَتَزَوَّجْ مِنْهُمْ بِأُخْرَى.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِثْرَاهِمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَتَتَبَعُنِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَنْتِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ. قَالَ: االلَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ لَدَعَا لَهُمْ فِيهِ» قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُؤَافِقَا، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِيهِ بُيُوتَ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَنَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَنْتِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَهُوَ يَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَيْ، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكَ .

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ،  
وَإِسْمَاعِيلُ يُبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ رَزْمٍ، فَلَمَّا  
رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، وَصَنَعَ كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ  
بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ:  
فَأَصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأَعِينُكَ،  
قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَتَيْنِي هَهُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ  
مُزْتَمِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ

أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَالنَّاسُ يَتَّحِلُونَ هَذَا الْكَلَامَ لِلْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْزُومٍ<sup>(٥)</sup>.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا تَجَرَّأَتِ الْكَعْبَةَ، فَكَانَ شِقُّ الْبَابِ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَزُهْرَةَ، وَكَانَ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ، وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ لِبَنِي مَخْزُومٍ، وَقَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ انْضَمُّوا إِلَيْهِمْ، وَكَانَ ظَهْرُ الْكَعْبَةِ، لِبَنِي جُمَحٍ وَسَهْمٍ، وَكَانَ شِقُّ الْحَجَرِ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ وَلِبَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَلِبَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبِ ابْنِ لُؤَيٍّ، وَهُوَ الْحَطِيمُ.

ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ هَابُوا هَذِمَهَا وَفَرَقُوا مِنْهُ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ: أَنَا أَبْدُوكُمْ فِي هَذِمِهَا، فَأَخَذَ الْمِعْوَلُ ثُمَّ قَامَ عَلَيْهَا وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَمْ تَرَعْ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ، ثُمَّ هَدَمَ مِنْ نَاحِيَةِ الرُّكْنَيْنِ، فَتَرَبَّصَ النَّاسُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَالُوا: نَنْظُرُ، فَإِنْ أَصِيبَ لَمْ نَهْدِمْ مِنْهَا شَيْئًا، وَرَدَدْنَاهَا كَمَا كَانَتْ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْ شَيْءٌ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ مَا صَنَعْنَا، فَأَصْبَحَ الْوَلِيدُ مِنْ لَيْلَتِهِ غَادِيًا عَلَى عَمَلِهِ، فَهَدَمَ وَهَدَمَ النَّاسُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى الْهَدْمُ بِهِمْ إِلَى الْأَسَاسِ، أُسَاسُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَفْضَوْا إِلَى حِجَارَةٍ خَضِرَ كَالْأَسْنَةِ آخِذَ بَعْضُهَا بَعْضًا، قَالَ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ يَزُورِي الْحَدِيثَ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ كَانَ يَهْدِمُهَا، أَدْخَلَ عَتَلَةً بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْهَا لِيُقْلِعَ بِهَا أَيْضًا أَحَدَهُمَا، فَلَمَّا تَحَرَّكَ الْحَجَرُ تَنَفَّضَتْ مَكَّةُ بِأَسْرَهَا، فَانْتَهَزَا عَنْ ذَلِكَ الْأَسَاسِ<sup>(٦)</sup>.

[النَزَاعُ فِي وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ. وَقَضَاءُ مُحَمَّدٍ بْنِ

عَبْدِ اللَّهِ ﷺ الْقَضَاءُ الْعَادِلُ]

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ جَمَعَتِ الْحِجَارَةَ لِبَنَاتِهَا، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ بَنَوْهَا حَتَّى بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الرُّكْنِ، يَعْنِي الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ، فَاخْتَصَمُوا فِيهِ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الْأُخْرَى، حَتَّى تَحَاوَرُوا وَتَخَالَفُوا وَأَعْدُوا لِلْقِتَالِ، فَقَرَّبَتْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ جَفْنَةً مَمْلُوءَةً دَمًا، ثُمَّ تَعَافَدُوا هُمْ وَبَنُو عَدِيٍّ

الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُتَاوَلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا فَقَلِّ مَنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(١)</sup>. قَالَ: فَجَعَلَا بَيْنَانٍ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا فَقَلِّ مَنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ذَكَرَ بِنَاءَ قُرَيْشِ الْكَعْبَةِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُدَدٍ طَوِيلَةٍ، قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ سِنِينَ وَقَدْ نَقَلَ مَعَهُمْ فِي الْحِجَارَةِ وَلَهُ مِنَ الْعُمَرِ خَمْسُونَ وَثَلَاثُونَ سَنَةً صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ فِي السِّيَرَةِ: وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِبُنْيَانِ الْكَعْبَةِ، وَكَانُوا يَهْمُونَ بِذَلِكَ لِيَسْقِفُوهَا، وَيَهَابُونَ هَدْمَهَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ رَضْمًا فَوْقَ الْقَامَةِ، فَأَرَادُوا رَفْعَهَا وَتَسْقِيفَهَا، وَذَلِكَ أَنَّ نَفَرًا سَرَقُوا كَنْزَ الْكَعْبَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَكُونُ فِي بُئْرِ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ الَّذِي وَجَدَ عِنْدَهُ الْكَنْزَ [دُوَيْكًا]<sup>(٢)</sup> - مَوْلَى بَنِي مُلَيْجٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ خَزَاعَةَ - فَقَطَعَتْ قُرَيْشٌ يَدَهُ، وَبَزَعُمُ النَّاسُ أَنَّ الَّذِينَ سَرَقُوهُ: وَضَعُوهُ عِنْدَ دُوَيْكٍ، وَكَانَ الْبُحْرُ قَدْ رَمَى بِسِفِينَةٍ إِلَى جِدَّةٍ لِرَجُلٍ مِنْ تَجَارِ الرُّومِ، فَتَحَطَّمَتْ، فَأَخَذُوا خَشَبَهَا، فَأَعْدَوْهُ لَتَسْقِيفِهَا، وَكَانَ بِمَكَّةَ رَجُلٌ قِنْطِيطِي نَجَّارٌ، فَهَيَّأَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بَعْضَ مَا يَصْلِحُهَا.

وَكَانَتْ حَيَّةٌ تَخْرُجُ مِنْ بُئْرِ الْكَعْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تُطْرَحُ فِيهَا مَا يَهْدَى لَهَا كُلَّ يَوْمٍ، [فَتَشْرُقُ]<sup>(٣)</sup> عَلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَتْ مِمَّا يَهَابُونَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَدْنُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا اخْرَأَلَتْ وَكَشَّتْ وَفَتَحَتْ فَاهَا، فَكَانُوا يَهَابُونَهَا<sup>(٤)</sup>. فَبَيْنَا هِيَ يَوْمًا تَشْرُقُ عَلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ كَمَا كَانَتْ تَصْنَعُ، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا طَائِرًا فَاخْتَطَفَهَا فَذَهَبَ بِهَا، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّا لَنَرَجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ رَضِيَ مَا أَرَدْنَا، عِنْدَنَا عَامِلٌ رَفِيقٌ، وَعِنْدَنَا خَشَبٌ، وَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ الْحَيَّةَ.

فَلَمَّا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ فِي هَدْمِهَا وَبُنْيَانِهَا، قَامَ أَبُو وَهَبُ ابْنُ عَمْرِو بْنِ عَائِدِ بْنِ عَبْدِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ، فَتَنَاوَلَ مِنَ الْكَعْبَةِ حَجَرًا فَوَثَبَ مِنْ يَدِهِ، حَتَّى رَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَا تَدْخِلُوا فِي بُنْيَانِهَا مِنْ كَسْبِكُمْ إِلَّا طَيِّبًا، لَا يَدْخُلُ فِيهَا مَهْرُ بَغْيٍ، وَلَا يَبِيعُ رَبًّا، وَلَا مَظْلَمَةٌ

(١) فتح الباري: ٤٥٦/٦ (٢) في النسخ: دويك، بدون علامة النصب والمثبت عن السيرة لابن هشام (٢٣١/١). (الناشر) (٣) فتشروق، كذا أثبتناه من السيرة أي تبرز للشمس. وفي الأصل: فتشروق وهو قريب المراد. (٤) كيف سرقوا كنز الكعبة ما دامت الحية قد كانت على هذا الحال؟ (٥) ابن هشام: ٢٠٤/١ (٦) ابن هشام: ٢٠٧/١



وَمُرَّةٌ قَدْ تَقَدَّمَهَا كِلَابٌ  
فَبَوَّأْنَا الْمَلِيكَ بِذَلِكَ عِزًّا  
وَعِنْدَ اللَّهِ يُلْتَمَسُ الثَّوَابُ<sup>(١)</sup>  
[بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ الْكَعْبَةُ عَلَى مَا كَانَ يُرِيدُهُ رَسُولُ اللَّهِ  
ﷺ]

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ الْكَعْبَةُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ  
ثَمَانِي عَشَرَ ذِرَاعًا، وَكَانَتْ تُكْسَى الْقُبَاطِيَّ، ثُمَّ كُتِبَتْ بَعْدَ  
الْبُرُودِ، وَأَوَّلُ مَنْ كَسَاهَا الدِّيْبَاجَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ<sup>(٢)</sup>.  
(قُلْتُ) وَلَمْ تَزَلْ عَلَى بِنَاءِ قُرَيْشٍ حَتَّى اخْتَرَقَتْ فِي أَوَّلِ  
إِمَارَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ سَنَةِ سِتِّينَ وَفِي آخِرِ وَلَايَةِ يَزِيدَ  
ابْنَ مُعَاوِيَةَ، لَمَّا حَاصَرُوا ابْنَ الزُّبَيْرِ، فَحِينَئِذٍ نَقَضَهَا ابْنُ  
الزُّبَيْرِ إِلَى الْأَرْضِ وَبَنَاهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ،  
وَأَدْخَلَ فِيهَا الْحَجَرَ، وَجَعَلَ لَهَا بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا  
مُلَصَّقَيْنِ بِالْأَرْضِ، كَمَا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ خَالِيهِ عَائِشَةَ أُمِّ  
الْمُؤْمِنِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ مُدَّةَ إِمَارَتِهِ،  
حَتَّى قَتَلَهُ الْحَجَّاجُ، فَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ بِأَمْرِ  
عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ لَهُ بِذَلِكَ.

رَوَى مُسْلِمٌ بْنُ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَطَاءٍ،  
قَالَ: لَمَّا اخْتَرَقَ الْبَيْتَ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ حِينَ غَزَاهَا  
أَهْلُ الشَّامِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، تَرَكَ ابْنُ الزُّبَيْرِ  
حَتَّى قَدِمَ النَّاسُ الْمَوْسِمَ، يُرِيدُ أَنْ يُجَرِّثَهُمْ أَوْ يُحَرِّبَهُمْ  
عَلَى أَهْلِ الشَّامِ، فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ،  
أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْكَعْبَةِ أَنْقَضُهَا ثُمَّ أَنْبِي بِنَاءَهَا، أَوْ  
أُصْلِحْ مَا وَهَى مِنْهَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنِّي قَدْ خَرَقَ لِي  
رَأْيٌ فِيهَا، أَرَى أَنْ تُصْلَحَ مَا وَهَى مِنْهَا، وَتَدْعُ بَيْتًا  
أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَأَحْجَارًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَبُعثَ  
عَلَيْهَا ﷺ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: لَوْ كَانَ أَحَدُهُمْ اخْتَرَقَ بَيْتَهُ  
مَا رَضِيَ حَتَّى يُجَدِّدَهُ، فَكَيْفَ بَيْتَ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ؟ إِنِّي  
مُسْتَخِيرٌ رَبِّي ثَلَاثًا، ثُمَّ غَاظِمٌ عَلَى أَمْرِي، فَلَمَّا مَضَتْ  
ثَلَاثٌ، أَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَنْقُضَهَا، فَتَحَامَاهَا النَّاسُ أَنْ  
يَنْزَلَ بِأَوَّلِ النَّاسِ يَصْعَدُ فِيهِ أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ، حَتَّى صَعِدَهُ  
رَجُلٌ، فَأَلْفَى مِنْهُ حِجَارَةً، فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ النَّاسُ أَصَابَهُ  
شَيْءٌ تَتَابَعُوا، فَفَقَضُوهُ حَتَّى بَلَّغُوا بِهِ الْأَرْضَ، فَجَعَلَ  
ابْنُ الزُّبَيْرِ أَعْمَدَةً يَسْتُرُ عَلَيْهَا السُّتُورَ حَتَّى ارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ،

ابْنُ كَعْبٍ بْنُ لُؤَيٍّ عَلَى الْمَوْتِ، وَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي ذَلِكَ  
الدَّمِ فِي تِلْكَ الْجَفْنَةِ، فَمَسُّوا «لَعَقَةَ الدَّمِ» فَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ  
عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسًا، ثُمَّ إِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي  
الْمَسْجِدِ فَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا، فَرَعِمَ بَعْضُ أَهْلِ الرِّوَايَةِ أَنَّ  
أَبَا أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْرُومٍ، وَكَانَ  
عَامِيزًا أَسَنَ قُرَيْشٍ كُلِّهِمْ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اجْعَلُوا  
بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا  
الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُمْ فِيهِ، فَفَعَلُوا، فَكَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ رَضِينَا، هَذَا  
مُحَمَّدٌ.

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ قَالَ ﷺ: هَلُمُّ إِلَيَّ ثَوْبًا،  
فَأَتَيْ بِهِ فَأَخَذَ الرُّكْنَ، يَعْنِي الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ، فَوَضَعَهُ فِيهِ  
بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: لِنَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ ثُمَّ ارْزُقُوهُ  
جَمِيعًا، فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا بَلَّغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ، وَضَعَهُ هُوَ  
بِيَدِهِ ﷺ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ الْوَحْيُ «الْأَمِينُ».

فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنَ الْبُنْيَانِ وَبَنَوْهَا عَلَى مَا أَرَادُوا، قَالَ  
الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَيَّةِ الَّتِي كَانَتْ  
قُرَيْشٌ تَهَابُ بُنْيَانَ الْكَعْبَةِ لَهَا:

عَجِبْتُ لَمَّا تَصَوَّبَتِ الْعُقَابُ  
إِلَى الثُّعْبَانِ وَهِيَ لَهَا اضْطِرَابُ  
وَقَدْ كَانَتْ يَكُونُ لَهَا كَشِيشُ  
وَأَحْبَابًا يَكُونُ لَهَا وَثَابُ  
إِذَا قُمْنَا إِلَى التَّاسِيسِ شَدْتُ  
تَهْيِئَنَا الْبِنَاءِ وَقَدْ تَهَابُ  
فَلَمَّا أَنْ خَشِينَا الزُّجَرَ جَاءَتْ  
عُقَابُ تَلَلِبُ لَهَا انْصِبَابُ  
فَضَمَّتْهَا إِلَيْهَا ثُمَّ خَلَّتْ  
لَنَا الْبُنْيَانُ لَيْسَ لَهُ حِجَابُ  
فَقُمْنَا حَاشِدِينَ إِلَى بِنَاءِ  
لَنَا مِنْهُ الْقَوَاعِدُ وَالْثُرَابُ  
غَدَاةٌ نَرْفَعُ التَّاسِيسَ مِنْهُ  
وَلَيْسَ عَلَى مُسَوِّينَا ثِيَابُ  
أَعَزَّ بِهِ الْمَلِيكَ بَنِي لُؤَيٍّ  
فَلَيْسَ لِأَضْلِهِ مِنْهُمْ ذَهَابُ  
وَقَدْ حَسَدَتْ هُنَاكَ بَنُو عَدِيٍّ

بَابَهَا؟» قَالَتْ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: «تَعَزَّزَا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدْعُوهُ حَتَّى يَرْتَقِيَ، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ» قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: فَقُلْتُ لِلْحَارِثِ: أَنْتَ سَمِعْتَهَا تَقُولُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَتَكَتْ سَاعَةٌ بِعَصَاهُ، ثُمَّ قَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي تَرَكْتُ وَمَا تَحَمَّلْتُ<sup>(٣)</sup>.

### [حَبَشِيٌّ يَهْدِمُ الْكُعْبَةَ قُرْبَ الْقِيَامَةِ]

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْرَبُ الْكُعْبَةُ ذُو السُّوَيْفَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ» أَخْرَجَاهُ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدٌ أَفْحَجُ، يُقْلَعُهَا حَجْرًا حَجْرًا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُحْرَبُ الْكُعْبَةُ ذُو السُّوَيْفَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ، وَيَسْلُبُهَا حَلِيَّتَهَا، وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أَصِيلَعُ أَقْبِدَعُ، يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمِعْوَلِهِ»<sup>(٦)</sup> - أَلْفَدَعُ: رَنَعَ بَيْنَ الْقَدَمِ وَعَظْمِ السَّاقِ - وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، لَمَّا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لِيَحْجَنَّ النَّبِيُّ وَلِيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»<sup>(٧)</sup>.

### [دُعَاءُ الْحَلِيلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةَ لِدُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَتَعَيَّنُ بِذَلِكَ وَاجْعَلْنَا مُسْتَسْلِمِينَ لِأَمْرِكَ، خَاضِعِينَ لِبَطَاعَتِكَ، وَلَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الطَّاعَةِ أَحَدًا سِوَاكَ، وَلَا فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَكَ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ» قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ، «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ.

وَهَذَا الدُّعَاءُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ:

وَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِنِّي سَمِعْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِكُفْرٍ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ الثَّقَةِ مَا يَقُونِي عَلَى بَنَائِهِ لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ خَمْسَةَ أَذْرُعَ، وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ» قَالَ: فَأَنَا أَجِدُ مَا أَتَّفِقُ، وَلَكِنِّي أَخَافُ النَّاسَ، قَالَ: فَزَادَ فِيهِ خَمْسَةَ أَذْرُعَ مِنَ الْحِجْرِ، حَتَّى أَبْدَى لَهُ أَسَا نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَبَنَى عَلَيْهِ الْبِنَاءَ، وَكَانَ طُولُ الْكُعْبَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا زَادَ فِيهِ اسْتَقْصَرَهُ فَرَادَ فِي أَوَّلِهِ عَشْرَةَ أَذْرُعَ وَجَعَلَ لَهُ بَابَيْنِ: أَحَدُهُمَا يَدْخُلُ مِنْهُ، وَالْآخَرُ يُخْرِجُ مِنْهُ.

فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ، كَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يَسْتَجِيرُهُ بِذَلِكَ وَيُخْبِرُهُ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ وَضَعَ الْبِنَاءَ عَلَى أَسْ نَظَرَ إِلَيْهِ الْعُدُولُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِنَّا لَسْنَا مِنْ تَلْطِيطِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي شَيْءٍ، أَمَّا مَا زَادَهُ فِي طَوْلِهِ فَأَقْبِرْهُ، وَأَمَّا مَا زَادَ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ فَرُدَّهُ إِلَى بَنَائِهِ، وَسُدَّ الْبَابَ الَّذِي فَتَحَهُ، فَتَقَضَّهِ وَأَعَادَهُ إِلَى بَنَائِهِ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنْ عَائِشَةَ بِالْمَرْفُوعِ مِنْهُ<sup>(٢)</sup>، وَلَمْ يَذْكُرِ الْقِصَّةَ.

وَقَدْ كَانَتْ السُّنَّةُ إِقْرَارًا مَا فَعَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَدَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ خَشِيَ أَنْ تُنْكِرَهُ قُلُوبُ بَعْضِ النَّاسِ لِحَدَاثَةِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَقُرْبِ عَهْدِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَكِنْ خَفِيتْ هَذِهِ السُّنَّةُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَلِهَذَا لَمَّا تَحَقَّقَ ذَلِكَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا رَوَتْ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَدِدْنَا أَنَّا تَرَكْنَاهُ وَمَا تَوَلَّى. كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: وَقَدْ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي خِلَافَتِهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: مَا أَطْلُ أَبَا خَبِيبٍ، يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ، سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ مَا كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهَا، قَالَ الْحَارِثُ: بَلَى، أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْهَا. قَالَ: سَمِعْتَهَا تَقُولُ مَاذَا؟ قَالَ: قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ قَوْمَكَ اسْتَقْصَرُوا مِنْ بُيُوتِ النَّبِيِّ، وَلَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِالشِّرْكِ أَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ، فَإِنْ بَدَأَ لِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمَّي لِأَرْبِكَ مَا تَرَكُوهُ مِنْهُ» فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعَ، زَادَ الْوَلِيدُ بْنُ عَطَاءٍ - أَحَدُ رُؤَاتِهِ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الْأَرْضِ: شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا، وَهَلْ تَدْرِينَ لِمَ كَانَ قَوْمُكَ رَفَعُوا

(١) مسلم: ٩٧٠/٢ (٢) النسائي: ٢١٨/٥ (٣) مسلم: ٢/

٩٧١ (٤) فتح الباري: ٥٣٨/٣ البخاري ١٥٩٥ ومسلم: ٤/

٢٢٣٢ (٥) فتح الباري: ٥٣٨/٣ (٦) أحمد: ٢٢٠/٢ (٧)

فتح الباري: ٥٣١/٣ (٨) الطبري: ٧٣/٣

وَالْمُرَادُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ نَوَّهَ بِذِكْرِهِ وَشَهَرَهُ فِي النَّاسِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُهُ فِي النَّاسِ مَذْكُورًا مَشْهُورًا سَائِرًا حَتَّى أَفْصَحَ بِاسْمِهِ خَاتَمَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَسَبًا، وَهُوَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَيْثُ قَامَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَظِييًا، وَقَالَ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى بِي، وَرَأْتُ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ السَّمَاءِ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَرَأْتُ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ السَّمَاءِ»، قِيلَ: كَانَ مَنَامًا رَأَتْهُ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ، وَقَصَّتْهُ عَلَى قَوْمِهَا، فَشَاعَ فِيهِمْ وَاشْتَهَرَ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ تَوْطِئَةً. وَتَخْصِيصُ السَّمَاءِ بِظُهُورِ نُورِهِ إِشَارَةً إِلَى اسْتِقْرَارِ دِينِهِ وَثُبُوتِهِ بِبِلَادِ السَّمَاءِ. وَلِهَذَا تَكُونُ السَّمَاءُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَعْقِلًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَبِهَا يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، إِذَا نَزَلَ بِدَمْسَقَ بِالْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْبَيْضَاءِ مِنْهَا. وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «وَهُمْ بِالسَّمَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

### [تفسير الكتاب والحكمة]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، وَ«الْحِكْمَةُ» يَعْنِي الشَّيْءَ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَأَبُو مَالِكٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَقِيلَ: أَلْفَهُمْ فِي الدِّينِ. وَلَا مُنَافَاةَ. ﴿وَرَزَقَهُمُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي طَاعَةَ اللَّهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، فَيَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(٥)</sup> إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(٦)</sup> وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِذْ قَالَ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] وَهَذَا الْقَدْرُ مَرْغُوبٌ فِيهِ شَرْعًا، فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنْ يُحِبَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قَالَ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَدْ لَاحَظْتُ لَكُمْ وَلَكُمْ فِيهِ نَفْسٌ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْتَنِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدُوا الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»<sup>(٧)</sup>.

### [تفسير المناسك]

﴿وَأَرَانَا مَنَاسِكَا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: أَخْبَرَنَا عَتَّابُ بْنُ بَشِيرٍ عَنْ خُصَيْنِفٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴿وَأَرَانَا مَنَاسِكَا﴾ فَأَتَاهُ جِبْرَائِيلُ فَأَتَى بِهِ الْبَيْتَ، فَقَالَ: ارْذُقِ الْقَوَاعِدَ، فَرَفَعَ الْقَوَاعِدَ وَأَتَمَّ الْبَيْتَانَ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ فَأَخْرَجَهُ فَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى الصَّفَا، قَالَ: هَذَا مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إِلَى الْمَرْوَةِ، فَقَالَ: وَهَذَا مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ نَحْوَ مَنَى، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَقَبَةِ إِذَا إِبْلِيسُ قَائِمٌ عِنْدَ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ: كَبَّرَ وَارْمِهِ، فَكَبَّرَ وَرَمَاهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِبْلِيسُ فَقَامَ عِنْدَ الْجُمُرَةِ الْوُسطَى، فَلَمَّا جَارَ بِهِ جِبْرِيلُ وَإِبْرَاهِيمُ، قَالَ لَهُ: كَبَّرَ وَارْمِهِ، فَكَبَّرَ وَرَمَاهُ، فَذَهَبَ الْخَبِيثُ إِبْلِيسُ. وَكَانَ الْخَبِيثُ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فِي الْحَجِّ شَيْئًا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ. فَأَخَذَ بِيَدِ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى أَتَى بِهِ الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَقَالَ: هَذَا الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ، فَأَخَذَ بِيَدِ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى أَتَى بِهِ عَرَافَاتٍ، قَالَ: قَدْ عَرَفْتَ مَا أَرَيْتُكَ؟ قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: «نَعَمْ»<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ وَقَتَادَةَ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(٩)</sup>.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(١٠)</sup>

### [دعاء الخليل يبعث النبي ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَبَارًا عَنْ تَمَامِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، أَيُّ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ وَافَقَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُسْتَجَابَةُ قَدْرَ اللَّهِ السَّابِقِ فِي تَعْيِينِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ رَسُولًا فِي الْأُمَمِينَ إِلَيْهِمْ، وَإِلَى سَائِرِ الْأَعْجَمِيِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

(١) مسلم: ١٢٥٥/٣ (٢) سعيد بن منصور: ٦١٥/٢ (٣) ابن أبي حاتم: ٣٨٧/١ (٤) أحمد: ٢٦٢/٥ (٥) فتح الباري: ٦/ ٧٣١ (٦) ابن أبي حاتم: ١٥٢٤/٢ (٧) ابن أبي حاتم: ٣٩١/١

مُسْلِمُونَ ﴿٢٧﴾

[مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ، لَا يَرْعُبُ عَنْهَا إِلَّا السَّفِيهَ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَدًّا عَلَى الْكُفَّارِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَخَذَتْهُ مِنَ الشَّرِكِ بِاللَّهِ، الْمُخَالِفِ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ إِمَامِ الْحَقَّاءِ، فَإِنَّهُ جَرَدَ تَوْحِيدَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَلَمْ يَدْعُ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَلَا أَشْرَكَ بِهِ طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ سَائِرَ قَوْمِهِ، حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ، فَقَالَ: ﴿يَعْقُوبُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٢٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[الأنعام: ٧٨، ٧٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٩) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَرْغَبَةٍ وَغَدَاً إِنَاءَهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِذْ إِبْرَاهِيمُ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣١) وَمَا تَنَبَّأَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

وَلِهَذَا وَآمَنَالِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عَنْ طَرِيقَتِهِ وَمَنْهَجِهِ، فَيُخَالِفُهَا وَيَرْعُبُ عَنْهَا ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أَيُّ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِسَفْهِهِ وَسَوْءِ تَدْبِيرِهِ، بِتَرْكِهِ الْحَقَّ إِلَى الضَّلَالِ، حَيْثُ خَالَفَ طَرِيقَ مَنْ اصْطَفَاهُ فِي الدُّنْيَا لِلْهُدَايَةِ وَالرَّشَادِ، مِنْ حَدَاثَةِ سَبِّهِ إِلَى أَنْ اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ السُّعَدَاءِ، فَمَنْ تَرَكَ طَرِيقَهُ هَذَا وَمَسَلَكَهُ وَمِلَّتَهُ، وَاتَّبَعَ طَرِيقَ الضَّلَالَةِ وَالْعَيِّ، فَأَيُّ سَفْهِ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا؟ أَمْ أَيُّ ظَلَمٍ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ، أَخَذُوا طَرِيقًا لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَخَالَفُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أَخَذُوهُ (١). وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢٧) إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَالْإِسْتِسْلَامِ

وَالْإِنْقِيَادِ، فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ شَرَعًا وَقَدَرًا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أَيُّ وَصَّى بِهَذِهِ الْمِلَّةِ، وَهِيَ الْإِسْلَامُ لِلَّهِ، أَوْ: يَعُودُ الصُّمِيرُ عَلَى الْكَلِمَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ لِجَرِّصِهِمْ عَلَيْهَا وَمَحَبَّتِهِمْ لَهَا: حَافِظُوا عَلَيْهَا إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ، وَوَصَّوْا أَبْنَاءَهُمْ بِهَا مِنْ بَعْدِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨].

وَقَدْ قَرَأَ بَعْضُ السَّلَفِ: (وَيَعْقُوبُ) بِالتَّصْبِ عَطْفًا عَلَى بَنِيهِ، كَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَصَّى بَنِيهِ وَابْنَ ابْنِهِ يَعْقُوبَ بْنَ إِسْحَاقَ، وَكَانَ حَاضِرًا ذَلِكَ. وَالظَّاهِرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ إِسْحَاقَ وَلَدَ لَهُ يَعْقُوبُ فِي حَيَاةِ الْحَلِيلِ وَسَارَةَ، لِأَنَّ الْبِسَارَةَ وَقَعَتْ بِهِمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَرَّكُنَّهَا إِسْحَاقَ وَمِنْ وَلَدِهِ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١] وَقَدْ قُرِئَ بِتَصْبِ (يَعْقُوبُ) هَهُنَا عَلَى نَزْعِ الْخَافِضِ، فَلَوْ لَمْ يُوْجَدْ يَعْقُوبُ فِي حَيَاتِهِمَا لَمَا كَانَ لِيُذَكِّرَهُ مِنْ بَيْنِ ذُرِّيَةِ إِسْحَاقَ كَبِيرَ فَائِدَةٍ، وَأَيْضًا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ﴾ [الآيَةُ] [العنكبوت: ٢٧]، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وَهَذَا يُفْتَضِي: أَنَّهُ وَجَدَ فِي حَيَاتِهِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ بَانِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، كَمَا نَطَقَتْ بِذَلِكَ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ، وَبُتِّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وَضِعَ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بَيْتُ الْمُقَدَّسِ»، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً» الْحَدِيثُ (٢). وَأَيْضًا فَإِنَّ وَصِيَّةَ يَعْقُوبَ لِبَنِيهِ سَيَاتِي ذِكْرُهَا قَرِيبًا، وَهَذَا يُدُلُّ عَلَى أَنَّهُ هَهُنَا مِنْ جُمْلَةِ الْمُوصِّينَ.

[وُجُوبُ الْإِلْتِزَامِ بِالتَّوْحِيدِ حَتَّى الْمَمَاتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَنْبَغِي إِنَّ اللَّهَ أَصْطَلَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَيُّ أَحْسِنُوا فِي حَالِ الْحَيَاةِ، وَالزَّمُوا هَذَا لِيُزَفَّكُمْ اللَّهُ الْوَفَاةَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَيَبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْكَرِيمُ عَادَتَهُ بِأَنَّ مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وَفَّقَ لَهُ وَيَسَّرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ نَوَى صَالِحًا ثَبَّتَ عَلَيْهِ.

(١) ابن أبي حاتم: ٣٩٢/١ (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٦ ومسلم:

الْحَدِيثُ

٢١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنِي فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ غَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] وَالْإِسْلَامُ هُوَ مِلَّةُ الْأَنْبِيَاءِ قَاطِبَةً وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ مَنَاجِحُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَالْأَحَادِيثُ، فَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ: «نَحْنُ مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أَيِ مَضَتْ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أَيِ إِنَّ السَّلَفَ الْمَاضِينَ مِنْ آبَائِكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، لَا يَنْفَعُكُمْ انْتِسَابُكُمْ إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا خَيْرًا يُمَوِّدُ نَفْسَهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ لَهُمْ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَلِهَذَا

وَهَذَا لَا يُعَارِضُ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»<sup>(٢)</sup>. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ رَوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ «لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ... وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ» وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَطْغَى وَتَنَبَّى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَفْتَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٦﴾

[عَهْدُ يَعْقُوبَ لِبَنِيهِ عِنْدَ الْمَوْتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَبْنَاءَ إِسْمَاعِيلَ وَعَلَى الْكُفَّارِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِأَنَّهُ يَعْقُوبُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَصَّى بَنِيهِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيلِ، لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَمَّهُ. قَالَ نَحَاسٌ: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْعَمَّ أَبَا. نَقَلَهُ الْقُرْطُبِيُّ<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ جَعَلَ الْجَدَّ أَبَا وَحَجَبَ بِهِ الْإِخْوَةَ، كَمَا هُوَ قَوْلُ الصَّدِّيقِ، حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَلَمْ يَخْتَلَفْ عَلَيْهِ<sup>(٤)</sup>. وَإِلَيْهِ ذَهَبَتْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِهِ يَقُولُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَطَاوُسٌ وَعَطَاءٌ. وَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ: إِنَّهُ يُقَاسِمُ الْإِخْوَةَ، وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أَيِ نُوحِدُهُ بِالْأَلُوْهِيَّةِ، وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا غَيْرَهُ، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أَيِ مُطِيعُونَ خَاضِعُونَ،

(١) فتح الباري: ١٠٥/٦ (٢) القرطبي: ١٣٨/٢ (٣) فتح الباري: ١٩/١٢ (٤) أحمد: ٣١٩/٢

جَاءَ فِي الْأَثَرِ: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٢)</sup>

رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ صُورِيًّا الْأَعْوَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا الْهُدَى إِلَّا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَأَتَيْنَا يَا مُحَمَّدَ تَهْتِدُ. وَقَالَتْ النَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أَيُّ لَا تُرِيدُ مَا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، بَلْ تَتَّبِعْ «مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» أَيُّ مُسْتَقِيمًا، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ وَعِيسَى بْنُ جَارِيَّةٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: حَنِيفًا أَيُّ مُتَّبِعًا<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو قِلَابَةَ: الْحَنِيفُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالرُّسُلِ كُلِّهِمْ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ.

﴿قُولُوا ءَآمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرِّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ

مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٦)</sup>

[الْمُسْلِمُ يُؤْمِنُ بِجَمِيعِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَا يَفَرِّقُ بَيْنَ نَبِيِّ وَنَبِيٍّ]

أَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُفْصَلًا، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ مُجْمَلًا، وَنَصَّ عَلَى أَغْيَانٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَأَجْمَلَ ذِكْرَ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْ لَا يَفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَلْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ كُلِّهِمْ، وَلَا يَكُونُوا كَمَنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾<sup>(٧)</sup> أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا... الْآيَةُ [النساء: ١٥٠].

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَفَرِّقُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَصْدُقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا»<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ مَا يُصَلِّي الرُّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ بِ «ءَآمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا» الْآيَةِ، وَالْأُخْرَى بِ

﴿ءَآمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ سُلَيْمَانَ﴾ [آل عمران: ٥٢]<sup>(٩)</sup>.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ: الْأَسْبَاطُ بَنُو يَعْقُوبَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، وَلَكَدْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ، فَسَمُّوا الْأَسْبَاطَ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ وَغَيْرُهُ: الْأَسْبَاطُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْقَبَائِلِ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسْبَاطِ هَهُنَا شُعُوبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمَوْجُودِينَ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ مُوسَى لَهُمْ: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾... الْآيَةُ [المائدة: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَالسَّبْطُ الْجَمَاعَةُ وَالْقَبِيلَةُ الرَّاجِعُونَ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ<sup>(١١)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَصْدُقُوا بِكُتُبِهِ كُلِّهَا وَبِرُسُلِهِ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ حَبِيبٍ: إِنَّمَا أَمَرْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَلَا نَعْمَلْ بِمَا فِيهِمَا<sup>(١٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آمِنُوا بِالتَّوْرَةِ وَالزَّبُورِ وَالْإِنْجِيلِ وَلْيَسَعَكُمُ الْقُرْآنُ»<sup>(١٤)</sup>.

﴿فَإِنْ ءَآمَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَآمَنُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(١٥)</sup> صِنْعَةُ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْكَ اللَّهُ صِنْعَةً وَنَحْنُ لَمْ عَبِدُونَ﴾<sup>(١٦)</sup>

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾، يَعْنِي الْكُفَّارَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ، بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يَفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ أَيُّ فَقَدْ أَصَابُوا الْحَقَّ وَأَرْشَدُوا إِلَيْهِ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيُّ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، أَيُّ فَسَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَيُظْفِرُكَ بِهِمْ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(١) مسلم: ٢٠٧٤/٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٣٩٦/١ [إسناده ضعيف

لجهاالة محمد بن أبي محمد (٣) ابن أبي حاتم: ٣٩٧/١ (٤)

ابن أبي حاتم: ٣٩٧/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٩٧/١ (٦) فتح

الباري: ٢٠/٨ (٧) مسلم: ٥٠٢/١ وأبو داود: ٤٦/٢

والنسائي في الكبرى: ٣٣٩/٦ (٨) ابن أبي حاتم: ٣٩٩/١

(٩) القرطبي: ١٤١/٢ (١٠) ابن أبي حاتم: ٤٠٠/١ (١١)

ابن أبي حاتم: ٤٠٠/١ (١٢) إسناده ضعيف فيه عبيد الله بن أبي

حميد متفق على ضعفه قال ابن حجر: متروك الحديث (تقريب)

الْمُحْكَمَاتِ

٢٢

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ آلِي كَاوُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ زُرِيَ ثَقَلَبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِن الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَيْتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

في الْعِبَادَةِ وَالتَّوَجُّؤِ.

ثُمَّ أَتَى تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ ذَكَرَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ، إِنَّمَا الْيَهُودِيَّةُ وَإِنَّمَا النَّصْرَانِيَّةُ، فَقَالَ: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ يَعْنِي بَلِ اللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا هُودًا وَلَا نَصَارَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الْآيَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا [آل عمران: ٦٧، ٦٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ﴾ قَالَ اللَّهُ: ﴿قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانُوا يَقْرَأُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي آتَاهُمْ: إِنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا بَرَاءً مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَشَهِدُوا لِلَّهِ بِذَلِكَ، وَأَقْرَأُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ اللَّهُ، فَكَتَمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ عِنْدَهُمْ

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَخْبَرَنَا زِيَادُ بْنُ يُونُسَ: حَدَّثَنَا نَافِعُ ابْنُ أَبِي نَعِيمٍ، قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيَّ بَعْضُ الْخُلَفَاءِ مُصْحَفَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ - لِيُضْلِحَهُ - قَالَ زِيَادُ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ لَيَقُولُونَ: إِنَّ مُصْحَفَهُ كَانَ فِي حَجَرِهِ جِبْنٌ قُتِلَ فَوْقَهُ الدَّمُ عَلَى: ﴿سَبِّحْهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فَقَالَ نَافِعُ: بَصُرْتُ عَيْنِي بِالدَّمِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَدْ قَدِمَ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿صَبَغَهُ اللَّهُ﴾، قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: دِينَ اللَّهِ (٢). وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَعِكْرِمَةَ وَإِبْرَاهِيمَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ نَحْوُ ذَلِكَ (٣). وَانْتِصَابُ ﴿صَبَغَهُ اللَّهُ﴾ إِنَّمَا عَلَى الْإِغْرَاءِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَطَرَتْ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠] أَيْ الْإِزْمُوا ذَلِكَ، عَلَيْهِمْ كُمُوهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَلَأَهُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصْكُمْ﴾ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٦﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى ذُرِّهِ مُجَادِلَةِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أَيْ تَتَاطَرَفُونَ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالْإِنْفِيقَادِ، وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ الْمُتَصَرِّفُ فِينَا وَفِيكُمْ، الْمُتَسَتِّجِ لِإِخْلَاصِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أَيْ نَحْنُ بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ، وَأَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنَّا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ اللَّهَ وَمَنِ اتَّبَعْتُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [آل عمران: ٢٠]. وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَحَاجَّاهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الأنعام: ٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾... الْآيَةِ [البقرة: ٢٥٨]. وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصْكُمْ﴾ أَيْ نَحْنُ بَرَاءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنَّا، وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصْكُمْ﴾ أَيْ

(١) ابن أبي حاتم: ٤٠٢/١ (٢) ابن أبي حاتم: ٤٠٢/١ (٣) ابن أبي حاتم: ٤٠٣/١

ضعيف مرسل (٣) ابن أبي حاتم: ٤٠٣/١

يَدْعُو اللَّهَ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُولُوا وَجْهَكُمْ سَطْرًا﴾ أَيَّ نَحْوِهِ، فَارْتَابَ مِنْ ذَلِكَ الْيَهُودُ وَقَالُوا: مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٤)</sup>.

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْبَابِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ، وَحَاصِلُ الْأَمْرِ: أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمِيرًا بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَكَانَ بِمَكَّةَ يُصَلِّي بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، فَتَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكَعْبَةُ وَهُوَ مُسْتَقْبِلُ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ<sup>(٥)</sup>. فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ تَعَدَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْجُمْهُورُ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: أَنَّ الْخَبَرَ وَصَلَ قَوْمًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُمْ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ نَحْوَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ فَتَوَجَّهُوا نَحْوَ الْكَعْبَةِ<sup>(٦)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا النَّاسُ يَسْجُدُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، إِذْ جَاءَهُمْ آيَةٌ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنًا وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ<sup>(٧)</sup>.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّاسَ لَا يَلْزَمُ حُكْمُهُ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ، وَإِنْ تَقَدَّمَ نَزُولُهُ وَإِبْلَاغُهُ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِإِعَادَةِ الْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا، حَصَلَ لِبَعْضِ النَّاسِ - مِنْ أَهْلِ الثَّقَافِ وَالرَّيْبِ وَالْكَفَرَةِ مِنَ الْيَهُودِ - ارْتِيَابٌ، وَزَنَعَ عَنِ الْهُدَى، وَتَخَيَّطَ وَشَكَّ، وَقَالُوا: ﴿مَا وَلَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ أَيَّ قَالُوا: مَا لَهُؤُلَاءِ تَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا وَتَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَوَابَهُمْ فِي قَوْلِهِ ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أَيَّ الْحُكْمِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْأَمْرِ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وَ﴿يَسِّرْ أَلْرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ يَكُنْ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ أَلْرَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أَيَّ الشَّأْنَ كُلُّهُ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللَّهِ، فَحَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا،

مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِفَعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ، أَيَّ إِنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِعَمَلِكُمْ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أَيَّ قَدْ مَضَتْ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أَيَّ لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَلَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمْ إِنْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ، وَلَا تَعْتَرُوا بِمَجْرَدِ النِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ حَتَّى تَكُونُوا مِثْلَهُمْ مُقَادِيرَ لِأَوَامِرِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ، الَّذِينَ يُعْتَوُّوا مُبْتَسِرِينَ وَمُنْدِرِينَ، فَإِنَّهُ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ وَاحِدٍ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الرُّسُلِ، وَلَا سِيَّمَا بِسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup> وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>

### [تحويل القبلة]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعِجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ [صَلَّى] مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، قَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ - قَبْلَ أَنْ تَحُولَ قِبَلَ الْبَيْتِ - رَجُلًا قَبِلُوا لَمْ تَذَرْ مَا تَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ<sup>(٤)</sup> مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَفَرَحَتِ الْيَهُودُ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَمَّةٍ عَشَرَ شَهْرًا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ

(١) ابن أبي حاتم: ٤٥٠/١ (٢) فتح الباري: ٢٠/٨ (٣) مسلم: ٣٧٥/١ (٤) الطبري: ١٣٣/٣ (٥) يعارضه ما ثبت في صحيح البخاري من صلاته ﷺ في الحطيم حينما كان بمكة (انظر حديث (٣٨٥٦) (٦) البخاري: ٣٩٩ وكان هؤلاء بني سلمة، وكانوا ساكنين عند مسجد القبلتين (٧) فتح الباري: ٢٤/٨ ومسلم: ٣٧٥/١



الْعَدْلُ، فَتَدْعُونَ فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلَاغِ، ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَدْعَى قَوْمَهُ، فَيَقَالُ: هَلْ بَلَّغْتُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقَالُ: وَمَا عَلِمْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيًّا ﷺ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: عَذْلًا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الْأَسودِ أَنَّهُ قَالَ: أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَوَافَقْتُهَا وَقَدْ وَقَعَ بِهَا مَرَضٌ فَهُمْ يَمُوتُونَ مَوْتًا ذَرِيعًا، فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَمَرَثُ بِهِ جَنَازَةٌ فَأَتْنِي عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرٌ، فَقَالَ: وَجِبَتْ وَجِبَتْ، ثُمَّ مَرَّ بِأُخْرَى فَأَتْنِي عَلَيْهَا سَرٌّ، فَقَالَ عُمَرُ: وَجِبَتْ. فَقَالَ أَبُو الْأَسودِ: مَا وَجِبَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ، قُلْتُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ» قَالَ: فَقُلْنَا وَثَلَاثَةٌ قَالَ: فَقَالَ: «وَثَلَاثَةٌ» قَالَ: فَقُلْنَا وَاثْنَانِ قَالَ: «وَاثْنَانِ». ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الْوَاحِدِ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

#### [مِنْ حِكْمَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا شَرَعْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ التَّوَجُّهَ أَوَّلًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ صَرَفْنَاكَ عَنْهَا إِلَى الْكَعْبَةِ لِظَهَرِ حَالٍ مَنْ يَتَّبِعُكَ وَيُطِيعُكَ، وَيَسْتَقْبِلُ مَعَكَ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، أَيْ مُرْتَدًّا عَنْ دِينِهِ ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾، أَيْ هَذِهِ الْفِعْلَةُ وَهُوَ صَرَفُ

فَالطَّاعَةَ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَلَوْ وَجَّهْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ إِلَى جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَتَحَنُّ عِبِيدُهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَخِدْمَتِهِ، حَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا، وَهُوَ تَعَالَى لَهُ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَأَمْرُهُ عِنَايَةٌ عَظِيمَةٌ إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَجَعَلَ تَوَجُّهَهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمُبَشِّرَةَ عَلَى اسْمِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَشْرَفَ بُيُوتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، إِذْ هِيَ بِنَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَعْنِي فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: «إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ: آمِينَ»<sup>(٧)</sup>.

#### [فَضْلُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا حَوَّلْنَاكُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاخْتَرْنَا لَكُمْ لِنَجْعَلَكُمْ خِيَارَ الْأُمَمِ، لِتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُهَدَاءَ عَلَى الْأُمَمِ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ مُعْتَرِفُونَ لَكُمْ بِالْفَضْلِ، وَالْوَسْطَ هُنَا: الْخِيَارُ وَالْأَجُودُ، كَمَا يُقَالُ: قُرَيْشٌ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَكَدَارًا، أَيْ خَيْرُهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَطًا فِي قَوْمِهِ، أَيْ أَشْرَفَهُمْ نَسَبًا، وَمِنْهُ الصَّلَاةُ الْوُسْطَى الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ، وَهِيَ الْعَصْرُ: كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا، وَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطًا حَصَّهَا بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ وَأَقْوَمِ الْمَنَاجِحِ وَأَوْضَحِ الْمَذَاهِبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِبَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ هُوَ سَعْتُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَدْعَى قَوْمَهُ فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَنَا مِنْ نَذِيرٍ وَمَا أَنَا مِنْ أَحَدٍ. فَيَقَالُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: وَالْوَسْطُ

(١) أحمد: ١٣٤/٦ (٢) أحمد: ٣٢/٣ (٣) فتح الباري: ٨/

٢١ وتحفة الأحوذى: ٢٩٧/٨ والنسائي في الكبرى: ٢٩٢/٦

وابن ماجه: ١٤٣٢/٢ (٤) أحمد: ٥٨/٣ (٥) أحمد: ٨/

٢١ (٦) فتح الباري: ٢٧١/٣ وتحفة الأحوذى: ١٦٦/٤

والنسائي: ٥١/٤

إِلَى الْقِبْلَةِ الْأُخْرَى، أَي لِيُعْطِيَكُمْ أَجْرَهُمَا جَمِيعًا ﴿١٤٣﴾  
 اللَّهُ بِالنَّاسِ لِرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٤﴾.

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ  
 قَدْ فُرِقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا، فَجَعَلَتْ كُلَّمَا وَجَدَتْ صَبِيًّا مِنْ  
 السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلَصَقَتْهُ بِصَدْرِهَا، وَهِيَ تَدُورُ عَلَى وَلَدِهَا،  
 فَلَمَّا وَجَدَتْهُ صَمَتَهُ إِلَيْهَا وَأَلْقَمَتْهُ ثَدْيِهَا، فَقَالَ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ  
 عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَوَاللَّهِ  
 لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا» ﴿١٤٥﴾.

﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُلَاقِكَ قِبْلَةً رَضَدَهَا قَوْلُ  
 وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ  
 شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا  
 اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤٦﴾

[أَوَّلُ مَا نُسِخَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقِبْلَةُ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ أَوَّلُ مَا  
 نُسِخَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقِبْلَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا  
 هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ أَكْثَرُ أَهْلِهَا الْيَهُودَ فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ  
 يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَفَرَحَتِ الْيَهُودُ فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ بِضَعَةِ عَشْرٍ شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ  
 يَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ رَأَى  
 تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾  
 فَأَرْتَابَ مِنْ ذَلِكَ الْيَهُودُ، وَقَالُوا: ﴿مَا وَلَهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي  
 كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ ﴿١٤٧﴾ [البقرة: ١٤٢]  
 وَقَالَ: ﴿فَأَنبَأْنَا تَوَلُّوْا فَمَنْ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وَقَالَ اللَّهُ  
 تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ  
 يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

[أَهْلُ الْقِبْلَةِ عَنِ الْكَعْبَةِ أَمْ جِهَةُ الْكَعْبَةِ؟]

رَوَى الْحَاكِمُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
 ﴿قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قَالَ: شَطْرُهُ:  
 قِبْلَتُهُ <sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَهَذَا  
 قَوْلُ أَبِي الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ

التَّوَجُّهُ عَنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ إِلَى الْكَعْبَةِ، أَي وَإِنْ كَانَ هَذَا  
 الْأَمْرُ عَظِيمًا فِي النَّفْسِ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ،  
 وَأَتَقَنُوا بِتَصْدِيقِ الرَّسُولِ، وَأَنْ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ  
 الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ،  
 فَلَهُ أَنْ يَكْلِفَ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ وَيَنْسَخَ مَا يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ  
 التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، بِخِلَافِ الَّذِينَ فِي  
 قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَإِنَّهُ كُلَّمَا حَدَثَ أَمْرٌ أَحَدَتْ لَهُمْ شَكًّا، كَمَا  
 يَحْصُلُ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِيقَانٌ وَتَصْدِيقٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
 ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَيَمْتَهُمْ مَنْ يَقُولُ بَيِّنَاتٌ مِمَّا بَيَّنَّا  
 فَمَا الْأُذُنُ مَأْمُونًا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿١٤٨﴾ وَأَمَّا  
 الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ  
 [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ  
 مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾  
 [الاسراء: ٨٢] وَلِهَذَا كَانَ مَنْ ثَبَّتَ عَلَى تَصْدِيقِ  
 الرَّسُولِ ﷺ وَاتَّبَاعِهِ فِي ذَلِكَ وَتَوَجَّهَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ  
 شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ؛ مِنْ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ  
 إِلَى أَنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ هُمُ  
 الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:  
 بَيْنَمَا النَّاسُ يُصَلُّونَ الصُّبْحَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ  
 فَقَالَ: قَدْ أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قُرْآنٌ، وَقَدْ أَمَرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ  
 الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا، فَتَوَجَّهُوا إِلَى الْكَعْبَةِ <sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ  
 مُسْلِمٌ <sup>(٢)</sup> وَالتِّرْمِذِيُّ، وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: أَنَّهُمْ كَانُوا رُكُوعًا  
 فَاسْتَدَارُوا كَمَا هُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ وَهُمْ رُكُوعٌ <sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ  
 مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ مِثْلَهُ <sup>(٤)</sup>. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ طَاعَتِهِمْ لِلَّهِ  
 وَلِرَسُولِهِ، وَانْقِيَادِهِمْ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ  
 أَجْمَعِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ﴾ أَي صَلَاتُكُمْ إِلَى  
 بَيْتِ الْمُقَدَّسِ قَبْلَ ذَلِكَ، مَا كَانَ يَضِيعُ ثَوَابُهَا عِنْدَ اللَّهِ،  
 وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِيِّ عَنِ الْبَرَاءِ  
 قَالَ: مَاتَ قَوْمٌ كَانُوا يُصَلُّونَ نَحْوَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَقَالَ  
 النَّاسُ: مَا حَالُهُمْ فِي ذَلِكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ  
 اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ﴾ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
 وَصَحَّحَهُ <sup>(٥)</sup>.

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّكُمْ  
 ﴾ أَي بِالْقِبْلَةِ الْأُولَى، وَتَصْدِيقُكُمْ بَنِيِّكُمْ، وَاتَّبَاعَهُ

(١) فتح الباري: ٢٢/٨ (٢) مسلم: ٣٧٥/١ (٣) تحفة  
 الأحودي: ٣٠٠/٨ (٤) مسلم: ٣٧٥/١ (٥) فتح الباري: ٨/  
 ٢٠ ونحفة الأحودي: ٣٠٠/٨ (٦) ابن أبي حاتم: ٩٩/١  
 إسناده ضعيف كما مر (٧) مسلم: ٢١٠٩/٤ (٨) ابن أبي  
 حاتم غ: ١٠٣/١ (٩) الحاكم: ٢٦٩/٢

وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَغَيْرِهِمْ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوُجُوهُكُمْ شَطْرَهُ﴾ أَمَرَ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْكُتُبَةِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا وَشِمَالًا وَجَنُوبًا، وَلَا يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا شَيْءٌ سِوَى الثَّاقِلَةِ فِي حَالِ السَّفَرِ، فَإِنَّهُ يُصَلِّيُهَا حَيْثُمَا تَوَجَّهَ قَائِلُهُ، وَقَلْبُهُ نَحْوَ الْكُتُبَةِ. وَكَذَا فِي حَالِ الْمَسَافَةِ فِي الْقِتَالِ يُصَلِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَكَذَا مَنْ جَهِلَ جِهَةَ الْقِبْلَةِ يُصَلِّي بِاجْتِهَادِهِ، وَإِنْ كَانَ مُخْطِئًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا.

[مَسْأَلَةٌ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ كَانَتْ مَعْلُومَةً عِنْدَ الْيَهُودِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أَيِ الْيَهُودِ الَّذِينَ أُنْكَرُوا اسْتِقْبَالَكُمْ وَأَنْصَرَفَكُمْ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُوجِّهُكُمْ إِلَيْهَا، بِمَا فِي كُتُبِهِمْ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ مِنَ النَّبِيِّ وَالصِّفَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرِهِ، وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَشَرْفَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْكِتَابِ يَتَكَاثَمُونَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا، وَلِهَذَا تَهَذِّهُمُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا آتَتْ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ

الظَّلْمِ لَمِنَ الظَّلْمِ﴾<sup>(١٤٥)</sup>

[عِنَادُ الْيَهُودِ وَجُحُودُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ شَأْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّهُ لَوْ أَقَامَ عَلَيْهِمْ كُلُّ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ لَمَا اتَّبَعُوهُ وَتَرَكُوا أَهْوَاءَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ<sup>(١٤٦)</sup> وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَلَمَّا آتَتْ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِلَتَكَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِلَتِهِمْ﴾ إِنْخِبَارٌ عَنْ شِدَّةِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَنَّهُ كَمَا هُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِأَرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ فَهَوَ أَيْضًا مُسْتَمْسِكٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَلَا كَوْنِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِكُونِهَا قِبْلَةَ الْيَهُودِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى. ثُمَّ حَذَرَ تَعَالَى عَنْ مُخَالَفَةِ الْحَقِّ

الْبَقَرَةُ

٢٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ<sup>(١٤٦)</sup> الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ<sup>(١٤٧)</sup> وَلِكُلِّ جَهَةٍ هُومُوتٌ فَاسْتَسِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(١٤٨)</sup> وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ<sup>(١٤٩)</sup> وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوُجُوهُكُمْ شَطْرَهُ لِكَيْ لَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ نَعِمَ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ<sup>(١٥٠)</sup> كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَالَكُمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ<sup>(١٥١)</sup> فَادْكُرُونِي أَدْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ<sup>(١٥٢)</sup> يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ<sup>(١٥٣)</sup>

الَّذِي يَعْلَمُهُ الْعَالِمُ إِلَى الْهَوَى، فَإِنَّ الْعَالِمَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَقْوَمُ مِنْ غَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ مُخَاطِبًا لِلرُّسُولِ وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّلْمِ لَمِنَ الظَّلْمِ﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ<sup>(١٤٦)</sup> الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ<sup>(١٤٧)</sup>﴾

[مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكُتْمَانُهُمُ الْحَقَّ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ، يَعْرِفُونَ صِحَّةَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ كَمَا يَعْرِفُ أَحَدُهُمْ وَلَدَهُ، وَالْعَرَبُ كَانَتْ تَضْرِبُ الْمَثَلَ فِي صِحَّةِ الشَّيْءِ بِهَذَا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ مَعَهُ صَغِيرٌ: «ابْنُكَ هَذَا؟» قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشْهَدُ بِهِ، قَالَ «أَمَا إِنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْكَ وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ»<sup>(١)</sup>. قَالَ الْفَرُطِيُّ: وَيُرْوَى

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٧/١ - ١٠٩ (٢) أحمد: ١٦٣/٤

قَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ أَوَّلُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤] فذَكَرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِجَابَتَهُ إِلَى طَلِبَتِهِ، وَأَمَرَهُ بِالْقَبْلَةِ الَّتِي كَانَ يَوَدُّ التَّوَجُّهَ إِلَيْهَا وَيَرْضَاهَا، وَقَالَ فِي الْأَمْرِ الثَّانِي: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فذَكَرَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ، وَارْتَفَى عَنِ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ - حَيْثُ كَانَ مُوَافِقًا لِرِضَا الرُّسُولِ ﷺ، فَبَيَّنَ أَنَّهُ الْحَقُّ أَيْضًا مِنَ اللَّهِ يُجِبُهُ وَيَرْضَاهُ - وَذَكَرَ فِي الْأَمْرِ الثَّالِثِ حِكْمَةَ قَطْعِ حُجَّةِ الْمُخَالِفِ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا [يَحْتَجُّونَ] بِاسْتِقْبَالِ الرُّسُولِ إِلَى قِبْلَتِهِمْ، وَقَدْ كَانُوا يَعْلَمُونَ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ أَنَّهُ سَيُضَرَفُ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَى الْكَعْبَةِ، وَكَذَلِكَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ انْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ لَمَّا صُرِفَ الرُّسُولُ ﷺ عَنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ، وَقَدْ كَانُوا يُعْظَمُونَ الْكَعْبَةَ، وَأَعْجَبَهُمْ اسْتِقْبَالُ الرُّسُولِ إِلَيْهَا.

[حِكْمَةُ نَسْخِ الْقِبْلَةِ]

وقَوْلُهُ: ﴿لَنَلَّا بِكَوْنٍ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أَيُّ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوَجُّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَإِذَا فَقَدُوا ذَلِكَ مِنْ صِفَتِهَا رُبَّمَا اخْتَجَّوْا بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَنَلَّا يَحْتَجُّوْا بِمُوَافَقَةِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي قُرَيْشٍ. وَوَجَّهَ بَعْضُهُمْ حُجَّةَ الظُّلْمَةِ، وَهِيَ دَاحِضَةٌ، أَنْ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يَزْعُمُ أَنَّهُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ كَانَ تَوَجُّهُهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلِمَ يَزْعُمُ عَنْهُ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَ لَهُ التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوَّلًا، لِمَا لَهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَأَطَاعَ رَبَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، ثُمَّ صَرَفَهُ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ وَهِيَ الْكَعْبَةُ، فَاِمْتَثَلَ أَمْرَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ أَيْضًا، فَهُوَ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مُطِيعٌ لِلَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، لَا يَخْرُجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَأَمَّتُهُ تَبَعَ لَهُ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أَيُّ لَا تَخْشَوْا شُبَّةَ الظُّلْمَةِ الْمُتَعَتِّتِينَ، وَأَفْرِدُوا الْخَشْيَةَ لِي، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ أَهْلُ

عَنْ عَمَرٍ أَنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ: أَنْتُمْ مُحَمَّدًا كَمَا تَعْرِفُ وَلَدَك؟ قَالَ: نَعَمْ وَأَكْثَرُ، نَزَلَ الْأَمِينُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَمِينِ فِي الْأَرْضِ بِتَعْنِيهِ فَعَرَفْتُهُ، وَإِنِّي لَا أَدْرِي مَا كَانَ مِنْ أُمِّهِ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا التَّحَقُّقِ وَالْإِتْقَانِ الْعِلْمِيِّ ﴿لَيَكْمَلُونَ الْحَقَّ﴾ أَيُّ لَيَكْمَلُونَ النَّاسَ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ثُمَّ ثَبَّتَ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُولُ ﷺ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، فَقَالَ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاستَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ

بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[لِكُلِّ أُمَّةٍ قِبْلَةٌ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أَهْلَ الْأَدْيَانِ، يَقُولُ: لِكُلِّ قِبْلَةٍ قِبْلَةٌ يَرْضُونَهَا، وَوُجْهَةُ اللَّهِ حَيْثُ تَوَجَّهَ الْمُؤْمِنُونَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: لِلْيَهُودِيِّ وَجْهَةٌ هُوَ مَوْلَاهَا، وَلِلنَّصْرَانِيِّ وَجْهَةٌ هُوَ مَوْلَاهَا، وَهَذَاكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ لِلْقِبْلَةِ الَّتِي هِيَ الْقِبْلَةُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالضَّحَّاكِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَالسُّدِّيِّ نَحْوَ هَذَا<sup>(٤)</sup>.

وهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَسَّاكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨] وَقَالَ هُنَا: ﴿إِنِ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَى جَمْعِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ وَأَبْدَانُكُمْ.

﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لَنَلَّا بِكَوْنٍ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّكُمْ لَعِنَاءٌ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

[لِمَاذَا تَكَرَّرَ ذِكْرُ نَسْخِ الْقِبْلَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟]

هَذَا أَمْرٌ ثَالِثٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، قِيلَ: إِنَّمَا ذُكِرَ ذَلِكَ لِتَعْلِيلِهِ بِمَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ مِنَ السِّيَاقِ، فَقَالَ أَوَّلًا: ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْسَتْكَ قِبْلَةٌ تَرْضَاهَا﴾ إِلَى

(١) القرطبي: ١٦٣/٢ أخرجه الثعلبي وفيه الكلي وهو كذاب  
أظهر الوسيط للواحد أيضًا (٢) الطبري: ١٩٣/٣ إسناده ضعيف  
عطية العوفي ضعيف (٣) ابن أبي حاتم غ: ١٢١/١ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١٢١-١٢٢

ابْنِ آدَمَ، إِنَّ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي، إِنَّ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - أَوْ قَالَ: فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ - وَإِنْ دَنَوْتُ مِنِّي شَبْرًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا، وَإِنْ دَنَوْتُ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتُكَ هَرْوَلَةً» صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِشُكْرِهِ، وَوَعَدَ عَلَى شُكْرِهِ بِمَزِيدِ الْخَيْرِ فَقَالَ: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» [إبراهيم: ٧] وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعَطَارِدِيِّ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ مِنْ خَزَلٍ لَمْ نَرَهُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا بَعْدَهُ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ» وَقَالَ رُوْحٌ مَرَّةً: «عَلَى عَبْدِهِ»<sup>(٦)</sup>.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَا وَلَكِنَّ لَآ تَشْعُرُونَ ﴿١٥٧﴾

### [فَضْلُ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ]

لَمَّا فَرَعَ تَعَالَى مِنْ بَيَانِ الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ شَرَعَ فِي بَيَانِ الصَّبْرِ، وَالْإِرْسَادِ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِعْمَةٍ فَيَشْكُرُ عَلَيْهَا، أَوْ فِي نِقْمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ»<sup>(٧)</sup>. وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ أَجُودَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى تَحْمِلِ الْمَصَائِبِ: الصَّبْرُ وَالصَّلَاةُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» [البقرة: ٤٥].

وَالصَّبْرُ صَبْرَانِ: فَصَبْرٌ عَلَى تَرْكِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ. وَصَبْرٌ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ. وَالثَّانِي أَكْثَرُ ثَوَابًا لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ. وَأَمَّا الصَّبْرُ الثَّلَاثُ، وَهُوَ: الصَّبْرُ عَلَى

أَنْ يُخْشَى مِنْهُ وَقَوْلُهُ: «وَلَأَنَّمْ نَعْتِي عَلَيْكُمْ» عَطْفٌ عَلَى «وَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُكْمٌ» أَيْ لِأَنَّمْ نَعْتِي عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعْتُ لَكُمْ مِنْ اسْتِثْبَالِ الْكُفْبَةِ، لِتَكْمُلَ لَكُمْ الشَّرِيعَةُ مِنْ جَمِيعِ وَجُوهِهَا «وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» أَيْ إِلَى مَا ضَلَّتْ عَنْهُ الْأُمَمُ، هَدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ وَخَصَّصْنَاكُمْ بِهِ، وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفَ الْأُمَمِ وَأَفْضَلَهَا.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [١٥٦] فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٧﴾ [بِعَنْتِ نَبِينَا مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةً عَظِيمَةً تَوْجِبُ ذِكْرَ اللَّهِ وَشُكْرَهُ]

يُذَكِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْنَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ، وَيُزَكِّيهِمْ، أَيْ يَطَهِّرُهُمْ مِنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَدَسَسِ الثُّفُوسِ وَأَفْعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَيُعَلِّمُهُمُ «الْكِتَابَ»، وَهُوَ الْقُرْآنُ، «وَالْحِكْمَةَ»، وَهِيَ السُّنَّةُ، وَيُعَلِّمُهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ، فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ يُسَفَّهُونَ بِالْقَوْلِ الْفَرِيِّ، فَانْتَقَلُوا بِبَرَكَتِ رِسَالَتِهِ، وَيَمْنِ سَفَارَتِهِ، إِلَى حَالِ الْأَوْلِيَاءِ، وَسَجَايَا الْعُلَمَاءِ. فَصَارُوا أَعَمَقَ النَّاسِ عِلْمًا، وَأَبْرَهُمْ قُلُوبًا، وَأَقْلَهُمْ تَكَلُّفًا، وَأَصْدَقَهُمْ لَهْجَةً. وَقَالَ تَعَالَى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ...» [آل عمران: ١٦٤]، وَذَمَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» [إبراهيم: ٢٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِنِعْمَةِ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ<sup>(٨)</sup>. وَلِهَذَا نَدَبَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَمُقَابَلَتِهَا بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، فَقَالَ: «فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ» يَقُولُ: كَمَا فَعَلْتُ فَادْكُرُونِي<sup>(٩)</sup>.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: «فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» قَالَ: أَذْكُرُونِي فِيمَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكُمْ أَذْكُرْكُمْ فِيمَا أَوْجِبْتُ لَكُمْ عَلَى نَفْسِي<sup>(١٠)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ»<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا

(١) البخاري: ٣٩٧٧ (٢) الطبري: ٢١٠/٣ (٣) ابن أبي حاتم غ: ١٤١/١ (٤) فتح الباري: ٣٩٥/١٣ (٥) أحمد: ١٣٨/٣ وفتح الباري: ٥٢١/١٣ (٦) أحمد: ٤٣٨/٤ (٧) مسلم: ٤/٢٢٩٢

الْمَنَافِعِ

٢٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٥﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ الصَّافِيَ الْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَتِكَ أَنْتَوْبَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَلِلَّهِ كُفْرُ الْوَحْدِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

الْجَانِحِ وَالْخَائِفِ كُلٌّ مِنْهُمَا يَظْهَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾. وَقَالَ هُنَا: ﴿بَشَىءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أَيْ بِقَلِيلٍ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ أَيْ ذَهَابُ بَعْضِهَا ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كَمُوتِ الْأَصْحَابِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَحْبَابِ ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أَيْ لَا تُغْلُ الْحَدَائِقُ وَالْمَزَارِعُ كَعَادَتِهَا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى مِنَ الصَّابِرُونَ الَّذِينَ شَكَرَهُمْ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أَيْ تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ، وَعَلِمُوا: أَنَّهُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ يَتَصَرَّفُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَعَلِمُوا: أَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَحَدَتْ لَهُمْ ذَلِكَ: اعْتِرَافُهُمْ بِأَنَّهُمْ عِبِيدُهُ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا أَعْطَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ:

الْمَصَائِبِ وَالنَّوَائِبِ، فَذَلِكَ أَيْضًا وَاجِبٌ، كَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الْمَعَاصِي. كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الصَّبْرُ فِي بَابَيْنِ: الصَّبْرُ لِلَّهِ بِمَا أَحَبَّ وَإِنْ ثَقُلَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ، وَالصَّبْرُ لِلَّهِ عَمَّا كَرِهَ وَإِنْ نَارَعَتْ إِلَيْهِ الْأَهْوَاءُ، فَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ مِنَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ<sup>(١)</sup>.

## [حَيَاةُ الشَّهَدَاءِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الشَّهَدَاءَ فِي بَرَزَجِهِمْ أَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «أَنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ اطَّلَاعَةً، فَقَالَ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ نَبْغِي، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَبْتَزُّونَ مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَرْدُّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَنَقَاتِلَ فِي سَبِيلِكَ حَتَّى نُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى<sup>(٢)</sup>» - لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ - فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: إِنِّي كَتَبْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ».

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ<sup>(٣)</sup>». فِيهِ دَلَالَةٌ لِعُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا، وَإِنْ كَانَ الشَّهَدَاءُ قَدْ خُصِّصُوا بِالذِّكْرِ فِي الْقُرْآنِ تَشْرِيفًا لَهُمْ وَتَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴿١٥٧﴾

## [يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فَيَصْبِرُ وَيُؤْجِرُ]

أَخْبَرَنَا تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ، أَيْ يَخْتَبِرُهُمْ وَيَمْتَحِنُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فَتَارَةً بِالشَّرِّ وَتَارَةً بِالصَّرِّاءِ مِنْ خَوْفٍ وَجُوعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَادْفَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فَإِنَّ

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٤٤/١ (٢) مسلم: ١٥٠٢/٣ (٣) أحمد: ٤٥٥/٣

[مَعْنَى نَفْيِ الْجُنَاحِ فِي الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ]  
 رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قُلْتُ:  
 أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ  
 حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟﴾  
 قُلْتُ: فَوَاللَّهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، فَقَالَتْ  
 عَائِشَةُ: بِئْسَمَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّهَا لَوْ كُنْتُ عَلَى مَا  
 أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ كَانَتْ (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا)،  
 وَلَكِنَّهَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمُوا كَانُوا  
 يُهْلُونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلِّلِ،  
 وَكَانَ مِنْ أَهْلِ لَهَا يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ،  
 فَسَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا  
 كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَأَنْزَلَ  
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ  
 الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قَالَتْ  
 عَائِشَةُ: ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّوَافَ بِهِمَا، فَلَيْسَ  
 لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الطَّوَافَ بِهِمَا<sup>(٥)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.  
 وَفِي رَوَايَةٍ عَنِ الرَّهْزِيِّ أَنَّهُ قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ  
 أَبَا بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ. فَقَالَ: إِنَّ  
 هَذَا الْعِلْمُ. مَا كُنْتُ سَمِعْتُهُ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ  
 الْعِلْمِ يَقُولُونَ: إِنَّ النَّاسَ - إِلَّا مَنْ ذَكَرَتْ عَائِشَةُ - كَانُوا  
 يَقُولُونَ: إِنَّ طَوَافًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَجَرَيْنِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ.  
 وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنَّمَا أُمِرْنَا بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ،  
 وَلَمْ نُوْمَرْ بِالطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:  
 ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ  
 عَبْدِ الرَّحْمَنِ: فَلَعَلَّهَا نَزَلَتْ فِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ  
 رَوَى الْبُخَارِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ عَنْ أَنَسٍ.  
 وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ إِسَافٌ عَلَى الصَّفَا وَكَانَتْ نَائِلَةً  
 عَلَى الْمَرْوَةِ، وَكَانُوا يَسْتَلِمُونَهَا فَتَحَرَّجُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ مِنَ  
 الطَّوَافِ بَيْنَهُمَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(٧)</sup>.

### [حُكْمُ السَّعْيِ وَأَصْلُهُ]

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ الطَّوِيلِ: أَنَّ رَسُولَ

﴿أَوَّلْتَكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أَيُّ نَنَاءٍ مِنَ اللَّهِ  
 عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَيُّ أَمْنَةٍ مِنَ  
 الْعَذَابِ<sup>(١)</sup>. ﴿وَأَوَّلْتَكَ هُمْ أَلْهَمْتَهُدُونَ﴾ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ  
 عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: نِعَمَ الْعِدْلَانِ وَنِعَمَتِ الْعِلَاوَةُ ﴿وَأَوَّلْتَكَ  
 عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فَهَذَا الْعِدْلَانِ ﴿وَأَوَّلْتَكَ  
 هُمْ أَلْهَمْتَهُدُونَ﴾ فَهَذِهِ الْعِلَاوَةُ<sup>(٢)</sup>. وَهِيَ مَا تُوضَعُ بَيْنَ  
 الْعِدْلَيْنِ، وَهِيَ زِيَادَةٌ فِي الْحَمْلِ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ أَغْطُوا  
 نَوَابِهِمْ وَزَيَّدُوا أَيْضًا.

### [فَضْلُ الْإِسْتِرْجَاعِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ]

وَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوَابِ الْإِسْتِرْجَاعِ، وَهُوَ قَوْلُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ  
 وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ. فَمِنْ  
 ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: أَتَانِي أَبُو  
 سَلَمَةَ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا شَرَرْتُ بِهِ. قَالَ: «لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنْ  
 الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ فَيَسْتَرْجِعُ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ  
 أَجْرِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا فَعَلَ ذَلِكَ  
 بِهِ» قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَحَفِظْتُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا تُوَفِّيَ أَبُو  
 سَلَمَةَ إِسْتَرْجَعْتُ وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ أَجْرِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ  
 لِي خَيْرًا مِنْهَا. ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي، فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ لِي  
 خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي إِسْتَأْذَنَ عَلَيَّ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا أَدْبُعُ إِهَابًا لِي، فَسَلْتُ يَدَيَّ مِنَ الْقَرْطِ،  
 وَأَذِنْتُ لَهُ، فَوَضَعَتْ لَهُ وَسَادَةً أَدَمَ حَشْوَهَا لَيْفًا، فَقَعَدَ  
 عَلَيْهَا، فَخَطَبَنِي إِلَى نَفْسِي، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ قُلْتُ: يَا  
 رَسُولَ اللَّهِ مَا بِي أَنْ لَا يَكُونَ بَكَ الرَّغْبَةُ، لَكِنِّي امْرَأَةٌ فِي  
 غَيْرَةِ شَدِيدَةٍ، فَأَخَافُ أَنْ تَرَى مِنِّي شَيْئًا يُعَذِّبُنِي اللَّهُ بِهِ،  
 وَأَنَا امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلْتُ فِي السَّنِّ، وَأَنَا ذَاتُ عِيَالٍ، فَقَالَ:  
 «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ  
 عَنْكَ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ السَّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي  
 أَصَابَكَ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكَ عِيَالِي».   
 قَالَتْ: فَقَدْ سَلَّمْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فَتَرَوَّجَهَا رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ - فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ بَعْدُ: أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِأَبِي سَلَمَةَ خَيْرًا  
 مِنْهُ، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ<sup>(٣)</sup>. وَنَحْوُهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ  
 مُخْتَصَرًا<sup>(٤)</sup>.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ  
 اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ  
 سَائِرٌ عَلَيْهِ ﷻ﴾

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٥٨/١ إسناده ضعيف فيه عبدالله بن  
 لهيعة (٢) الحاكم: ٢٧٠/٢ وعلقه البخاري. (٣) أحمد: ٤/  
 ٢٧ (٤) مسلم: ٦٣٣/٢ (٥) أحمد: ١٤٤/٦ (٦) فتح  
 الباري: ٥٨١/٣ ومسلم: ٩٢٩/٢ (٧) الطبري ٢٣٣٦، ٢٣٣٤  
 نحوه.

الرَّازِي، وَعَزَى الثَّالِثَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ<sup>(٣)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَاكِرٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ يُسَبِّحُ عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكُثْبِ، عَلَيْهِمْ يَقْدِرُ الْجَزَاءُ فَلَا يَنْحَسُّ أَحَدًا ثَوَابَهُ، وَ﴿لَا يَطْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعْفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُمُونَ مَا أُنْزِلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾<sup>(٤)</sup> إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ<sup>(٥)</sup> إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ<sup>(٦)</sup> خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ<sup>(٧)</sup>﴾

### [اللَّعْنُ الدَّائِمُ لِمَنْ كَتَمَ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ]

هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ، وَالْهُدَى النَّافِعِ لِلْقُلُوبِ، مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مِنْ كُتْبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ<sup>(٨)</sup>. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَلْعَنُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ، فَكَمَا أَنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَوْثُ فِي الْمَاءِ، وَالطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ، فَهَؤُلَاءِ بِخِلَافِ الْعُلَمَاءِ، فَيَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمُسْنَدِ مِنْ طُرُقٍ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ سُبِّحَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»<sup>(٩)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَوْلَا آيَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ، مَا حَدَّثْتُ أَحَدًا شَيْئًا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُمُونَ مَا أُنْزِلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾... آيَةُ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا أَجْدَبَتْ الْأَرْضُ، قَالَتِ الْبَهَائِمُ: هَذَا مِنْ أَجْلِ عُصَاةِ بَنِي آدَمَ، لَعَنَ اللَّهُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ يَعْنِي تَلْعَنُهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ<sup>(١٢)</sup>. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ الْعَالِمَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى الْجَبْتَانِ فِي الْبَحْرِ». وَجَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

اللَّهُ ﷻ لَمَّا فَرَعَ مِنْ طَوَافِهِ بِالْبَيْتِ عَادَ إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الصَّفَا وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ثُمَّ قَالَ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ» وَفِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»<sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي تَجْرَةَ قَالَتْ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالنَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ وَرَاءَهُمْ، وَهُوَ يَسْعَى، حَتَّى أَرَى رُكْبَتَيْهِ مِنْ شِدَّةِ السَّعْيِ يَدُورُ بِهِ إِزَارُهُ وَهُوَ يَقُولُ: «اسْعُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ»<sup>(١٤)</sup>.

وَاسْتَدِلُّ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ السَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ رُكْنٌ فِي الْحَجِّ. وَقِيلَ: إِنَّهُ وَاجِبٌ وَلَيْسَ بِرُكْنٍ، فَإِنْ تَرَكَهُ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا جَبَرَهُ بِدَمٍ. وَقِيلَ: مُسْتَحَبٌّ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ رُكْنٌ أَوْ وَاجِبٌ. فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الطَّوَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، أَيْ مِمَّا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ فِي مَنَاسِكَ الْحَجِّ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ مَا خُوذَ مِنْ تَطَوُّافِ هَاجِرَ وَتَرْدَادِهَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فِي طَلَبِ الْمَاءِ لَوَلَدِهَا، لَمَّا نَفَذَ مَاؤُهُمَا وَزَادَهُمَا حِينَ تَرَكَهُمَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَاكَ، وَلَيْسَ عَنْدهُمَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، فَلَمَّا خَافَتِ الصَّبِيْعَةُ عَلَى وَلَدِهَا هُنَاكَ، وَنَفَذَ مَا عَنْدهُمَا، قَامَتْ تَطْلُبُ الْعَوْتَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمْ تَزَلْ تَتَرَدَّدُ فِي هَذِهِ الْبُتْعَةِ الْمُسَرَّفَةِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، مُتَذَلِّلَةً خَائِفَةً وَجِلَّةً مُضْطَرَّةً فَقِيرَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى كَشَفَ اللَّهُ كُرْبَتَهَا، وَأَتَسَّ غُرْبَتَهَا، وَفَرَّجَ شِدَّتَهَا، وَأَتَبَعَ لَهَا زَمَرَمَ الَّتِي مَاؤُهَا «طَعَامٌ طَعْمٌ، وَشِفَاءٌ سَقْمٌ» فَالْسَّاعِي بَيْنَهُمَا يُنْجِي لَهُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ فَقْرَهُ وَذُلَّهُ وَحَاجَتَهُ إِلَى اللَّهِ، فِي هِدَايَةِ قَلْبِهِ وَصَلَاحِ حَالِهِ وَغُفْرَانِ ذَنْبِهِ، وَأَنْ يَلْتَجِئَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِزِيحِ مَا هُوَ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، وَأَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَيْهِ إِلَى مَمَاتِهِ وَأَنْ يَحُولَهُ مِنْ حَالِهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، إِلَى حَالِ الْكَمَالِ وَالْغُفْرَانِ وَالسَّدَادِ وَالِاسْتِقَامَةِ، كَمَا فَعَلَ بِهَاجِرَ عَلَيْهَا السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قِيلَ: زَادَ فِي طَوَافِهِ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ، ثَابِتَةً وَتَاسِعَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَقِيلَ: يَطُوفُ بَيْنَهُمَا فِي حَجَّةٍ تَطَوُّعٍ أَوْ عُمْرَةٍ تَطَوُّعٍ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ: «تَطَوُّعٌ خَيْرًا» فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ، حَكَى ذَلِكَ

(١) مسلم: ٨٨٦/٢ والنسائي: ٢٣٩/٥ (٢) أحمد: ٤٢١/٦

(٣) الرازي: ١٤٦/٤ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١٧٠/١ (٥)

أحمد: ٤٩٥/٢ (٦) فتح الباري: ٢٥٨/١ (٧) ابن أبي حاتم

غ: ١٧٥/١ (٨) ابن أبي حاتم غ: ١٧٤/١



الْبَقَرَةُ

٢٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ  
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا  
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ  
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَكُنْ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَمِنَ  
النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ  
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٧﴾  
إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ  
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوَ أَنَّا  
لَنَآكِرَةٌ فَتَنَبَّرْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَنَبَّرَُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ  
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٩﴾  
يَأْتِيهَا النَّاسُ كُفُوفًا إِلَى الْأَرْضِ حُلُلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا  
خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧٠﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ  
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾

عمران: ١، ٢﴾. ثُمَّ ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى تَقَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ بِخَلْقِ  
السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِمَّا ذَرَأَ  
وَبَرَأَ، مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، فَقَالَ:  
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ  
الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ  
مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ  
وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَكُنْ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾

[دَلَالُ التَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تِلْكَ فِي  
ارْتِفَاعِهَا وَلَطَافِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَكَوَاكِبِهَا السَّيَّارَةِ وَالنُّوَابِثِ،  
وَدَوْرَانِ فَلَكِهَا، وَهَذِهِ الْأَرْضُ فِي كَثَافَتِهَا وَانْخِفَاضِهَا  
وَجِبَالِهَا وَبِحَارِهَا وَقَفَارِهَا وَوَهَادِهَا وَعُمْرَانِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ  
الْمَنَافِعِ. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. هَذَا يَجِيءُ ثُمَّ

أَنَّ كَاتِمَ الْعِلْمِ يُلْعَنُ اللَّهُ وَالْمَلَايِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ.  
وَاللَّاعِنُونَ أَيْضًا، وَهُمْ: كُلُّ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِيٍّ، إِمَّا بِلِسَانِ  
الْمَقَالِ، أَوْ الْحَالِ، أَنْ لَوْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ. [أَوْ] يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:  
﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا﴾ أَيْ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ،  
وَأَصْلَحُوا أَعْمَالَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ، وَبَيَّنُّوا لِلنَّاسِ مَا كَانُوا  
يَكْتُمُونَهُ ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وَفِي  
هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَةَ إِلَى كُفْرٍ أَوْ بِدْعَةٍ إِذَا تَابَ إِلَى اللَّهِ  
تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَاسْتَمَرَّ بِهِ الْحَالُ إِلَى مَمَاتِهِ  
بِأَنَّ ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ خَالِدِينَ  
فِيهَا ﴿أَيَّ فِي اللَّعْنَةِ التَّابِعَةِ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ  
الْمُصَاحِبَةِ لَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي﴾ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ  
فِيهَا أَيْ لَا يُنْقِصُ عَمَّا هُمْ فِيهِ ﴿وَلَا هُمْ يُظْلَمُونَ﴾ أَيْ لَا  
يُغَيَّرُ عَنْهُمْ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَا يُفْتَرُ، بَلْ هُوَ مُتَوَاصِلٌ دَائِمٌ،  
فَنَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

## [جَوَازُ لَعْنِ الْكُفْرَةِ]

(فصل) لَا خِلَافَ فِي جَوَازِ لَعْنِ الْكُفَّارِ، وَقَدْ كَانَ عَمْرُ  
ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ يُلْعَنُونَ  
الْكُفْرَةَ فِي الْفُتُوتِ وَغَيْرِهِ، فَأَمَّا الْكَافِرُ الْمُعَيَّنُ فَقَدْ ذَهَبَ  
جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُلْعَنُ، لِأَنَّا لَا نَذَرِي بِمَا  
يَخْتِمُ اللَّهُ لَهُ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: بَلْ يَجُوزُ لَعْنُ الْكَافِرِ  
الْمُعَيَّنِ، وَفِي قِصَّةِ الَّذِي كَانَ يُؤْتَى بِهِ سَكْرَانٌ فَيُحْدِثُهُ، فَقَالَ  
رَجُلٌ: لَعَنَهُ اللَّهُ؛ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
«لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»<sup>(١)</sup>. فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَا  
يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُلْعَنُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَقَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا  
عَدِيلَ لَهُ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا  
إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَيْنِ  
الْإِسْمَيْنِ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ شَهْرِ بْنِ  
حَوْشَبٍ عَنْ أَهْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِيِّ عَنْ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ  
﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾  
﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾» [آل

وَنَنصُرُهُمْ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا  
سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦٥﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ  
اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ  
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٦﴾ إِذْ تَبَرَّأَ  
الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ  
الْأَسْبَابُ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرُكَ فَنَنْتَرِهُ مِنكُمْ كَمَا  
تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعَنَهُمْ حَسْرَتٌ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ  
بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٨﴾﴾

[أَحْوَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَبَرُّو  
الْمُتَّبِعِينَ مِنْ تَابِعِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَمَالَهُمْ فِي  
الدَّارِ الْآخِرَةِ، حَيْثُ جَعَلُوا لَهُ أَندَادًا أَيْ أَمْثَالًا وَنُظَرَاءَ،  
يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ، وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،  
وَلَا ضِدُّ لَهُ، وَلَا يَدُّ لَهُ، وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ  
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْ  
الدُّنْبِ أَغْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»<sup>(١)</sup>.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وَلِحُبِّهِمْ لِلَّهِ، وَتَمَامُ  
مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ، وَتَوْفِيرِهِمْ وَتَوْجِيدِهِمْ لَهُ، لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا  
بَلْ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ، وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ، وَيَلْجَأُونَ فِي جَمِيعِ  
أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ.

ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الظَّالِمِينَ لِأَنفُسِهِمْ  
بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ  
لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يَقُولُ: لَوْ يَعْلَمُونَ مَا يُعَانِيُونَهُ هُنَاكَ، وَمَا يَحِلُّ  
بِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الْقَطِيعِ الْمُنْكَرِ الْهَائِلِ عَلَى شَرِكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ:  
لَا تَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ كُفْرِهِمْ بِأَوْتَانِهِمْ وَتَبَرُّي الْمُتَّبِعِينَ مِنْ  
التَّابِعِينَ، فَقَالَ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾  
تَبَرَّأَتْ مِنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُمْ  
فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، فَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا  
إِنَّا بَعِيدُونَ﴾ [الفصص: ٦٣] وَيَقُولُونَ: ﴿سُبْحَنَكَ أَنْتَ  
وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾  
[سبا: ٤١] وَالْجِنَّ أَيْضًا تَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَيَتَنَصَّلُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ  
لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن

يَذْهَبُ، وَيَخْلُقُهُ الْآخَرُ وَيَعْتَقُهُ، لَا يَتَّخِرُ عَنْهُ لِحَظَةً، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبُغِي لَهَا أَنْ تَذْرِكَ الْغَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ  
سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وَتَارَةً يَطُولُ  
هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا، وَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا ثُمَّ يَتَقَارَضَانِ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ  
فِي اللَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩] أَيْ يَزِيدُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا، وَمِنْ  
هَذَا فِي هَذَا.

﴿وَالَّذِلَّكَ أَلَّى تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أَيْ فِي  
تَسْخِيرِ الْبَحْرِ لِحَمْلِ السُّفُنِ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ لِمَعَاشِ  
النَّاسِ وَالِإِنْتِفَاعِ بِمَا عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الْإَقْلِيمِ، وَنَقَلَ هَذَا إِلَى  
هَؤُلَاءِ، وَمَا عِنْدَ أُولَئِكَ إِلَى هَؤُلَاءِ.

﴿وَمَا أَرْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ  
مَوْتِهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَايَهُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْيَتِيَّةُ أَحْيَيْهَا  
وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَا لَا  
يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٦].

﴿وَبَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتٍ﴾ أَيْ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا  
وَأَلْوَانِهَا وَمَنَافِعِهَا وَصِغَرِهَا وَكِبَرِهَا، وَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ  
وَيَزِرُّهُ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَمَا مِنْ ذَاتٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
وُسُودَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿وَصَرِيفِ الرِّيحِ﴾ أَيْ فَتَارَةً تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَارَةً تَأْتِي  
بِالْعَذَابِ، وَتَارَةً تَأْتِي مُبَشِّرَةً بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ، وَتَارَةً  
تُسَوِّفُهُ، وَتَارَةً تَجْمَعُهُ، وَتَارَةً تُفْرِقُهُ، وَتَارَةً تُصَرِّفُهُ، ثُمَّ تَارَةً  
تَأْتِي مِنَ الشَّمَالِ وَهِيَ الشَّامِيَّةُ، وَتَارَةً تَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ  
الْيَمَنِ، وَتَارَةً صَبَا، وَهِيَ الشَّرْقِيَّةُ الَّتِي تَصْدِمُ وَجْهَ الْكَعْبَةِ،  
وَتَارَةً دُبُورًا، وَهِيَ غَرْبِيَّةٌ تَنْفُذُ مِنْ نَاحِيَةِ دُبُرِ الْكَعْبَةِ. وَقَدْ  
صَنَّفَ النَّاسُ فِي الرِّيَّاحِ وَالْمَطَرِ وَالْأَنْوَاءِ كُتُبًا كَثِيرَةً فِيمَا  
يَعْلَقُ بِلِغَاتِهَا وَأَحْكَامِهَا، وَبَسُطَ ذَلِكَ يَطُولُ هَهُنَا، وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ سَائِرِ بَيْنِ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يُسَخَّرُ إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ مِنَ الْأَرَاضِي  
وَالْأَمَاكِينِ، كَمَا يُصَرِّفُهُ تَعَالَى.

﴿لَا تَدْرِي لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دَلَالَاتٌ بَيِّنَةٌ  
عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ  
السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي  
الْأَلْبَابِ ﴿١٦٩﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَلِيلًا وَثَعُودًا وَعَلَى جُوبِهِمْ

[إبراهيم: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْعَلُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً...﴾ [النور: ٣٩]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [١٧] إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [الْأَمْرُ بِأَكْلِ الْحَلَالِ، وَالنَّهْيُ عَنْ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ]

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَقْبَلُ بِالْخَلْقِ، شَرَعَ يَبِينُ أَنَّهُ الرَّزَاقُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ، فَذَكَرَ فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ أَنَّهُ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلَالًا مِنَ اللَّهِ طَيِّبًا، أَيْ مُسْتَطَابًا فِي نَفْسِهِ، غَيْرَ ضَارٍّ لِلْأَبْدَانِ وَلَا لِلْعُقُولِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ. وَهِيَ طَرِيقُهُ وَمَسَالِكُهُ فِيمَا أَصَلَ اتِّبَاعُهُ فِيهِ مِنْ تَحْرِيمِ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ وَنَحْوِهَا، مِمَّا كَانَ زَيْنَةً لَهُمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، كَمَا فِي حَدِيثِ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ كُلَّ مَا لِي مَخْنَعُهُ عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ - وَفِيهِ - وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَفَاءً، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّتْ لَهُمْ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تَنْفِيرٌ عَنْهُ وَتَحذِيرٌ مِنْهُ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّخِذُوا لَهُ وَدَرِيَّتَهُ آوِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: كُلُّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهِيَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا كَانَ مِنْ يَمِينٍ أَوْ نَذْرٍ فِي غَضَبٍ، فَهُوَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ بِأَفْعَالِ السَّيِّئَةِ، وَأَغْلَظَ مِنْهَا الْفَاحِشَةَ كَالزَّنا وَنَحْوِهِ، وَأَغْلَظَ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلاَ عِلْمٍ، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ كَافِرٍ وَكُلُّ مُبْتَدِعٍ أَيْضًا.

لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿١٦٨﴾ وَإِذَا حُجِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٦٩﴾ [الاحقاف: ٥، ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [١٨١، ٨٢] وَقَالَ الْخَلِيلُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ رِجْعًا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢١] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنَحْنُ صَدَدُكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تَجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرِفُوا الْتِدَامًا لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَحَلَّلْنَا الْأَعْلَاقَ فِي أَغْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١-٣٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أَيْ عَابَنُوا عَذَابَ اللَّهِ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْحَبْلُ وَأَسْبَابُ الْخَلَاصِ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنِ النَّارِ مَعْدَلًا وَلَا مَصْرَفًا. قَالَ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» قَالَ: الْمَوَدَّةُ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرًا مَبْنِيًّا كَمَا نَبَرْنَا وَمِنَّا﴾ أَيْ: لَوْ أَنَّ لَنَا عَوْدَةً إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا حَتَّى نَتَّبَرًا مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ، فَلَا تَلْتَقِيتْ إِلَيْهِمْ، بَلْ نُوَحِّدْ اللَّهَ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَهُمْ كَادِبُونَ فِي هَذَا، بَلْ ﴿لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَادِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ تَذَهَبُ وَتَضْمَحِلُّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ مَنَّا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا مِمَّا اسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾... [آلَايَةُ

(١) الطبري ٣/ ٢٩٠ (٢) مسلم: ٤/ ٢١٩٧ (٣) ابن أبي حاتم غ: ١/ ٢٢١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٢٦

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ  
 ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا  
 يَهْتَدُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُثُ  
 بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ  
 ﴿٧٨﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ  
 وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٧٩﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ  
 عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ  
 لغيرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ  
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ  
 الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ شَيْئًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَكُونُ  
 فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارُ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ  
 وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ  
 أَسْرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدْيِ وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا  
 أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿٨٢﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ  
 بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَشِقَاقٌ بَعِيدٌ ﴿٨٣﴾

كَمَا أَنَّ الْأَكْلَ مِنَ الْحَرَامِ يَمْنَعُ قَبُولَ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ. كَمَا  
 جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،  
 قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا  
 يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ،  
 فَقَالَ: «يَتَأَيَّاهُ الرُّسُلُ كُلُّوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا  
 تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: «يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ» ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ  
 السَّمَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا  
 رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ. وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ،  
 وَغَدْيُ الْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ  
 وَالتِّرْمِذِيُّ<sup>(٤)</sup>. وَلَمَّا أَمَنَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِرِزْقِهِ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الْأَكْلِ مِنْ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ  
 ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا  
 يَهْتَدُونَ﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُثُ بِمَا لَا يَسْمَعُ  
 إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾  
 [الْمُشْرِكُ مُقَلِّدًا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَهِذَا إِلهٌ الْكَفَرَةُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ:  
 اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاتْرَكُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ  
 الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ، قَالُوا فِي جَوَابِ ذَلِكَ: بَلْ نَتَّبِعُ مَا  
 أَلْفَيْنَا، أَيْ وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا، أَيْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ  
 وَالْأَنْدَادِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: «أُولَئِكَ كَانَتْ  
 ءَابَاؤُهُمْ» أَيْ الَّذِينَ يُفْتَدُونَ بِهِمْ وَيَفْتَنُونَ أَثَرَهُمْ ﴿لَا  
 يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أَيْ لَيْسَ لَهُمْ فَهْمٌ وَلَا هِدَايَةٌ.  
 وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي طَائِفَةٍ  
 مِنَ الْيَهُودِ، دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالُوا:  
 بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(١)</sup>.

## [مَثَلُ الْمُشْرِكِ مِثْلَ الْحَيَوَانِ]

ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ تَعَالَى مَثَلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ لَا  
 يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠] فَقَالَ: ﴿وَمَثَلُ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيِّ وَالضَّلَالِ  
 وَالْجَهْلِ كَالذُّوَابِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا، بَلْ  
 إِذَا نَعَقَ بِهَا رَاعِيهَا، أَيْ دَعَاَهَا إِلَى مَا يُرِيدُهَا لَا تَفْقَهُ مَا  
 يَقُولُ وَلَا تَفْهَمُهُ، بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَقَطُّ. هَكَذَا رَوَى  
 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَعَطَاءُ  
 وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ نَحْوُ  
 هَذَا<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى﴾ أَيْ صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، بُكْمٌ  
 لَا يَتَفَوَّهُونَ بِهِ، عُمْى عَنْ رُؤْيَةِ طَرِيقِهِ وَمَسْلَكِهِ ﴿فَهُمْ لَا  
 يَعْقِلُونَ﴾ أَيْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُونَهُ.

﴿يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ  
 إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ  
 وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا  
 عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٠﴾

## [الْأَمْرُ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، وَبَيَانُ الْمَحْرَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَكْلِ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا  
 رَزَقَهُمْ تَعَالَى، وَأَنْ يَشْكُرُوهُ -تَعَالَى- عَلَى ذَلِكَ إِنْ كَانُوا  
 عِبِيدَهُ، وَالْأَكْلَ مِنَ الْحَلَالِ سَبَبٌ لِقَبُولِ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ،

(١) الطبري: ٣٠٥/٣ إسناذه ضعيف فيه محمد بن أبي محمد وهو  
 مجهول (٢) ابن أبي حاتم غ: ١/٢٢٥-٢٢٨ (٣) أحمد: ٣/٣٢٨  
 (٤) مسلم: ٢/٧٠٣ وتحفة الأخوذني: ٨/٣٣٣

الْحَدِّ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أَي فِي أَكْلِ ذَلِكَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ: قَاطِعًا لِلْسَّبِيلِ أَوْ مُفَارِقًا لِلْأَمَّةِ، أَوْ خَارِجًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلَهُ الرُّخْصَةُ، وَمَنْ خَرَجَ بَاغِيًا أَوْ عَادِيًا أَوْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلَا رُخْصَةَ لَهُ وَإِنْ اضْطَرَّ إِلَيْهِ. وَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. وَقَالَ سَعِيدٌ فِي رَوَايَةٍ عَنْهُ، وَعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ: غَيْرَ بَاغٍ يَعْنِي غَيْرَ مُسْتَحِلٍّ<sup>(١)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قَالَ ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ فِي الْمَيْتَةِ وَلَا عَادٍ فِي أَكْلِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ، قَالَ: غَيْرَ بَاغٍ فِي الْمَيْتَةِ، أَي فِي أَكْلِهِ: أَنْ يَتَعَدَّى حَلَالًا إِلَى حَرَامٍ، وَهُوَ يَجِدُ عَنْهُ مَذْوَحَةً<sup>(٨)</sup>.

(مَسْأَلَةٌ) إِذَا وَجَدَ الْمُضْطَرُّ مَيْتَةً وَطَعَامَ الْغَيْرِ بِحَيْثُ لَا قَطْعَ فِيهِ وَلَا أَدَى، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَكْلُ الْمَيْتَةِ، بَلْ يَأْكُلُ طَعَامَ الْغَيْرِ بِغَيْرِ خِلَافٍ، رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ بْنِ شُرَيْبٍ الْغُبَرِيِّ قَالَ: أَصَابْنَا عَامًا مَخْمَصَةً، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ حَائِطًا، فَأَخَذْتُ سُبُلًا فَفَرَّقْتُهُ وَأَكَلْتُهُ، وَجَعَلْتُ مِنْهُ فِي كِسَائِي، فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ، فَضَرَبَنِي وَأَخَذَ ثَوْبِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ لِلرَّجُلِ: «مَا أَطْعَمْتُهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا [أَوْ سَاعِيًا]، وَلَا عَلَّمْتُهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا» فَأَمَرَهُ فَرَدَّ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ، فَأَمَرَ لَهُ بِوَسْقٍ مِنْ طَعَامٍ أَوْ نِصْفِ وَسْقٍ<sup>(٩)</sup>. إِسْنَادٌ صَحِيحٌ قَوِيٌّ جَيِّدٌ، وَلَهُ شَوَاهِدٌ كَثِيرَةٌ، مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ عُمَرَو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الثَّمَرِ الْمُعْلَقِ، فَقَالَ: «مَنْ أَصَابَ مِنْهُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ بِفِيهِ غَيْرَ مُتَّخِذٍ حُبْنَةً، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ»<sup>(١٠)</sup>. الْحَدِيثُ.

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ: فِيمَا أَكَلَ مِنَ اضْطِرَارٍ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: عَفُورٌ لِمَا أَكَلَ مِنَ الْحَرَامِ، رَحِيمٌ إِذْ أَحَلَّ لَهُ الْحَرَامَ

طَبِيعِهِ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمَيْتَةَ، وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ خَنْفَ أَنْفِهَا مِنْ غَيْرِ تَذَكِّيَةٍ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ مُنْخَنِقَةً أَوْ مُوقُودَةً أَوْ مُتَرَدِّدَةً أَوْ نَطِيحَةً أَوْ قَدْ عَدَا عَلَيْهَا السَّبُعُ. وَقَدْ خُصِّصَ مِنْ ذَلِكَ مَيْتَةُ الْبَحْرِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: ٩٦] عَلَى مَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلِحَدِيثِ الْعُبَيْرِ فِي الصَّحِيحِ<sup>(١٢)</sup>. وَفِي الْمُسْنَدِ وَالْمَوْطَأِ وَالسُّنَنِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْبَحْرِ: «هُوَ الطَّهْوَرُ مَاؤُهُ، أَلْجَلُ مَيْتَتُهُ»<sup>(١٣)</sup>. وَرَوَى الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ وَالذَّارِقُطِيُّ حَدِيثَ ابْنِ عَمَرَ مَرْفُوعًا: «أَجَلٌ لَنَا مَيْتَانِ وَدَمَانِ، السَّمَكُ وَالْجَرَادُ وَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»<sup>(١٤)</sup>. وَسَيَأْتِي تَقْرِيرُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ.

(مَسْأَلَةٌ) وَلَكِنْ الْمَيْتَةُ وَيَبْضُهَا الْمُتَّصِلُ بِهَا نَجَسٌ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ. لِأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْهَا. وَقَالَ مَالِكٌ فِي رَوَايَةٍ: هُوَ طَاهِرٌ إِلَّا أَنَّهُ يَنْجَسُ بِالْمَجَاوِرَةِ، وَكَذَلِكَ أَنْفَحَةُ الْمَيْتَةِ فِيهَا الْخِلَافُ، وَالْمَشْهُورُ عِنْدَهُمْ، أَنَّهَا نَجِسَةٌ. وَقَدْ أَوْرَدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَكْلَ الصَّحَابَةِ مِنْ جُبْنِ الْمَجُوسِ. فَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي التَّفْسِيرِ هُنَا: [مَا] يَخْلُطُ اللَّبَنَ مِنْهَا يَسِيرٌ، وَتُعْفَى عَنْ قَلِيلِ النَّجَاسَةِ إِذَا خَالَطَ الْكَثِيرَ مِنْ الْمُنَاعِ<sup>(١٥)</sup>. وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ السَّمْنِ وَالْجُبْنِ وَالْفِرَاءِ، فَقَالَ: «الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ»<sup>(١٦)</sup>.

وَكَذَلِكَ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَحْمُ الْخَنزِيرِ سَوَاءً ذُكِّيَ أَمْ مَاتَ خَنْفَ أَنْفِهِ، وَبَدَخُلَ شَحْمُهُ فِي حُكْمِ لَحْمِهِ إِمَّا تَغْلِييًا، أَوْ أَنَّ اللَّحْمَ يَشْمَلُ ذَلِكَ، أَوْ بِطَرِيقِ الْقِيَاسِ عَلَى رَأْيٍ. وَكَذَلِكَ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مَا أَهْلٌ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَهُوَ مَا ذُبِحَ عَلَى غَيْرِ اسْمِهِ تَعَالَى مِنَ الْأَنْصَابِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَزْلَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ يَنْحَرُونَ لَهُ. وَأَوْرَدَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا سُئِلَتْ عَمَّا يَذْبَحُهُ الْعَجَمُ لِأَعْيَادِهِمْ، فَيَهْدُونَ مِنْهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَقَالَتْ: مَا ذُبِحَ لِذَلِكَ الْيَوْمِ فَلَا تَأْكُلُوا مِنْهُ، وَكُلُوا مِنْ أَشْجَارِهِمْ<sup>(١٧)</sup>.

### [إِبَاحَةُ الْحَرَامِ لِلْمُضْطَرِّ]

ثُمَّ أَبَاحَ تَعَالَى تَنَاوُلَ ذَلِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَالِإِحْتِيَاجِ إِلَيْهَا عِنْدَ قَدَرِ غَيْرِهَا مِنَ الْأَطْعِمَةِ، فَقَالَ: ﴿فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أَي فِي غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا غَدْوَانٍ وَهُوَ: مُجَاوِرَةٌ

(١) فتح الباري: ١٥٢/٦ (٢) أحمد: ٣٦٥/٥ والموطأ: ١/٢٢ وأبو داود: ٦٤/١ وتحفة الأحوذى: ٢٢٤/١ والنسائي: ٥٠ وابن ماجه: ١٣٦/١ (٣) ترتيب مسند الشافعي: ١٧٣/٢ وأحمد: ٩٧/٢ وابن ماجه: ١٠٧٣/٢ والدارقطني: ٢٧٢/٤ (٤) القرطبي: ٢٢١/٢ (٥) ابن ماجه: ١١١٧/٢ (٦) القرطبي: ٢٢٤/٢ ابن أبي شيبة (٣٣٣٤، ٢٤٨٥٦). (٧) ابن أبي حاتم غ: ٢٣٦/١ (٨) الطبري: ٣٢٤/٣ (٩) ابن ماجه: ٧٧٠/٢ تحفة الأحوذى: ٥١٠/٤ (١١) ابن أبي حاتم غ: ٢٤٠/١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٢٧

الْمَائِدَاتِ

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْءَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ بِتَائِبَاتِ الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدَ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ عَذَابِ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَنْبَىٰ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

لَأَنَّهُمْ كَتَمُوا وَقَدْ عَلِمُوا، فَاسْتَحَقُّوا الْعُصْبَ، فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ، أَيْ لَا يُشْيِي عَلَيْهِمْ وَلَا يَمْدَحُهُمْ، بَلْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى﴾ أَيْ إغْتَاضُوا عَنِ الْهُدَى، وَهُوَ: نَشَرُ مَا فِي كُتْبِهِمْ مِنْ صِفَةِ الرُّسُولِ، وَذِكْرُ مَبْعِيهِ، وَالْبَشَارَةُ بِهِ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ، وَاتِّبَاعُهُ وَتَصْدِيقُهُ. اسْتَبَدَّلُوا عَنْ ذَلِكَ وَاعْتَاضُوا عَنْهُ بِالضَّلَالَةِ، وَهُوَ تَكْذِيبُهُ، وَالْكَفْرُ بِهِ، وَكُتْمَانُ صِفَاتِهِ فِي كُتْبِهِمْ. ﴿وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أَيْ إغْتَاضُوا عَنِ الْمَغْفِرَةِ بِالْعَذَابِ، وَهُوَ مَا تَعَاطَوْهُ مِنْ أَسْبَابِهِ الْمَذْكُورَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ شَدِيدٍ عَظِيمٍ هَائِلٍ، يَتَعَجَّبُ مَنْ رَأَاهُمْ فِيهَا مِنْ صَبْرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، مَعَ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْتَّكَالِ وَالْأَغْلَالِ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

فِي الْأَضْطِرَارِّ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: مَنْ اضْطُرَّ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ ثُمَّ مَاتَ، دَخَلَ النَّارَ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ أَكْلَ الْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَرِّ عَزِيمَةٌ لَا رُحْصَةً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ نَمْنًا قَلِيلًا أَوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٥﴾﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٦﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٧﴾﴾ [دَمَ الْيَهُودُ عَلَى كُتْمَانِهِمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ الَّذِينَ كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ، مِمَّا تَشْهَدُ لَهُ بِالرَّسَالَةِ وَالنَّبَوَةِ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ لِئَلَّا تَذْهَبَ رِيَاسَتُهُمْ، وَمَا كَانُوا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْعَرَبِ مِنَ الْهَدَايَا وَالتَّحْفِ عَلَى تَعْظِيمِهِمْ إِيَّاهُمْ، فَخَشُوا - لَعَنَهُمُ اللَّهُ - إِنْ أَظْهَرُوا ذَلِكَ أَنَّ يَتَّبِعَهُ النَّاسُ وَيَتْرَكُوهُمْ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ إِنْقَاءً عَلَى مَا كَانَ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ نَزْرُ يَسِيرٍ، فَبَاعُوا أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ. وَاعْتَاضُوا عَنِ الْهُدَى وَاتَّبَاعِ الْحَقِّ وَتَصْدِيقِ الرُّسُولِ وَالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ، بِذَلِكَ النَّزْرِ الْيَسِيرِ، فَخَابُوا وَخَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ لِعِبَادِهِ صِدْقَ رَسُولِهِ بِمَا نَصَبَهُ وَجَعَلَهُ مَعَهُ مِنَ الْآيَاتِ الظَّاهِرَاتِ، وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، فَصَدَّقَهُ الَّذِينَ كَانُوا يَخَافُونَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، وَصَارُوا عَوْنًا لَهُ عَلَى قِتَالِهِمْ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ، وَدَمَّهَمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ آيَةُ الْكَرِيمَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ نَمْنًا قَلِيلًا﴾ وَهُوَ عَرَضُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ مَا يَأْكُلُونَهُ فِي مُقَابَلَةِ كُتْمَانِ الْحَقِّ نَارًا تَأْجِجُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرَّجُرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى غَضَبًا عَلَيْهِمْ،

(١) أيضا غ: ٢٤٠/١ (٢) البيهقي: ٣٥٧/٩ (٣) البخاري:

٥٦٣٤ ومسلم: ٢٠٦٥

أَنَسَ مِنْهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: «وَلَكِنَّ أَلِيراً مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ...  
الْآيَةِ، قَالَ: هَذِهِ أَنْوَاعُ الْإِيرِ كُلُّهَا<sup>(٢)</sup>. وَصَدَّقَ رَحِمَهُ اللَّهُ،  
فَإِنَّ مَنْ اتَّصَفَ بِهِذِهِ الْآيَةِ فَقَدْ دَخَلَ فِي عُرَى الْإِسْلَامِ  
كُلُّهَا، وَأَخَذَ بِمَجَامِيعِ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَأَنَّهُ لَا  
إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَصَدَّقَ بِوُجُودِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ سَفَرَةٌ بَيْنَ  
اللَّهِ وَرُسُلِهِ.

«وَالْكِتَابِ» وَهُوَ اسْمُ جَنْسٍ يَشْمَلُ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنَ  
السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى خُيِّمَتْ بِأَشْرَفِهَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ  
الْمُهَيِّمُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ كُلُّ  
خَيْرٍ، وَاشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ سَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنُسِخَ  
بِهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَهُ، وَءَامَنَ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ كُلِّهِمْ مِنْ  
أَوَّلِهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ  
وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وَقَوْلُهُ: «وَعَاءَى أَلَمَالٍ عَلَى حَيْدِهِ» أَيُّ أَخْرَجَهُ وَهُوَ مُجِبٌّ  
لَهُ رَاغِبٌ فِيهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي  
هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ  
شَيْءٍ، تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى:  
«وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْدِهِ وَنَسِيئًا وَأَسِيرًا<sup>(٤)</sup> إِنَّمَا تُطْعَمُونَ  
لِرَبِّهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاةً وَلَا شُكْرًا» [الإنسان: ٨، ٩] وَقَالَ  
تَعَالَى: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا يُحِبُّونَ» [آل  
عمران: ٩٢] وَقَوْلُهُ: «وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ  
خَصَاصَةٌ» [الحشر: ٩] نَمَطٌ آخَرُ أَرْفَعُ مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنَّهُمْ  
آتَرُوا بِمَا هُمْ مُضْطَرُونَ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ أَعْطَوْا وَأَطْعَمُوا مَا  
هُمْ مُجِبُّونَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: «ذَوَى الْفُرُوبِ» وَهُمْ قَرَابَاتُ الرَّجُلِ، وَهُمْ  
أَوَّلَى مَنْ أُعْطِيَ مِنَ الصَّدَقَةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ:  
«الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ:  
صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ<sup>(٥)</sup>. فَهُمْ أَوَّلَى النَّاسِ بِكَ وَبِيرِكَ وَإِعْطَانِكَ»  
وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ  
الْعَزِيزِ.

«وَالْيَتَامَى» هُمُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ، وَقَدْ مَاتَ  
أَبَاؤُهُمْ وَهُمْ ضَعْفَاءُ صِغَارًا، دُونَ الْبُلُوغِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى  
التَّكْسِبِ. وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» أَيُّ  
إِنَّمَا اسْتَحَقُّوا هَذَا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى  
رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُتُبَهُ بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ  
وإِبْطَالِ الْبَاطِلِ، وَهَؤُلَاءِ اتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا، فَكُتِبَتْ لَهُمْ  
أَمْرُهُمْ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، وَهَذَا  
الرَّسُولُ الْخَاتَمُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ  
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهُمْ يُكَذِّبُونَهُ وَيُخَالِفُونَهُ وَيَجْحَدُونَهُ  
وَيَكْتُمُونَ صِفَتَهُ، فَاسْتَهْزَؤُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى رَسُولِهِ،  
فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ، وَلِهَذَا قَالَ «ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ  
نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ  
بَعِيدٍ»

«لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ  
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالْيَتَامَى وَعَاءَى  
أَلَمَالٍ عَلَى حَيْدِهِ ذَوَى الْفُرُوبِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ  
وَالسَّابِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَاءَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ  
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ  
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ<sup>(٦)</sup>»

### [جَامِعُ الْبِرِّ]

اِشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى جُمْلَةِ عَظِيمَةٍ وَقَوَاعِدِ عَمِيمَةٍ،  
وَعَقِيدَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ.

وَأَمَّا الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا  
أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلًا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ حَوَّلَهُمْ  
إِلَى الْكَعْبَةِ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى نَفُوسٍ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
وَبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانَ حُكْمِهِ فِي ذَلِكَ،  
وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ إِنَّمَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَامْتِنَالُ  
أَوَامِرِهِ، وَالتَّوَجُّهُ حَيْثُمَا وَجَّهَ، وَاتِّبَاعُ مَا شَرَعَ، فَهَذَا هُوَ  
الْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالْإِيمَانُ الْكَامِلُ، وَلَيْسَ فِي لُزُومِ التَّوَجُّهِ إِلَى  
جِهَةٍ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ بَرٌّ وَلَا طَاعَةٌ إِنْ كَمْ يَكُنْ عَنْ  
أَمْرِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ  
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...  
الْآيَةِ، كَمَا قَالَ فِي الْأَصْحَاحِيِّ وَالْهَدَايَا: «لَنْ يَبَالَ اللَّهُ  
لِحُومِهَا وَلَا بِدِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ» [الحج: ٣٧]  
وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَانَتْ الْيَهُودُ تُقْبِلُ قِبَلَ الْمَغْرِبِ، وَكَانَتْ  
النَّصَارَى تُقْبِلُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ  
تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» يَقُولُ: هَذَا كَلَامُ  
الْإِيمَانِ، وَحَقِيقَتُهُ الْعَمَلُ. وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ وَالرَّبِيعِ بْنِ

(١) ابن أبي حاتم غ: ٢٥١/١ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٢٥٣/١

(٣) فتح الباري: ٣٣٤/٣ ومسلم: ٧١٦/٢ (٤) أحمد: ٤/٤

وَالضَّحَّاكَ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١٢)</sup>. وَإِنَّمَا نُصِبَ «الضَّحَّارِينَ» عَلَى الْمَدْحِ، وَالْحَثُّ عَلَى الصَّبْرِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ، لِشِدَّتِهِ وَصُعُوبَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ. وَقَوْلُهُ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا»، أَيُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذَا الصِّفَاتِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي إِيْمَانِهِمْ، لِأَنَّهُمْ حَقَّقُوا الْإِيْمَانَ الْقَلْبِي بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» لِأَنَّهُمْ اتَّقَوْا الْمَحَارِمَ وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ.

«يَتَأْتِي الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَا بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ<sup>(١٧٨)</sup>» وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَذَكَّرُ الْأَلْبَابُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ<sup>(١٧٩)</sup>»

[الْأَمْرُ بِالْقِصَاصِ، وَبَيَانُ مَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعَدْلُ فِي الْقِصَاصِ أَتَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ، حُرُّكُمْ بِحُرِّكُمْ، وَعَبْدُكُمْ بِعَبْدِكُمْ، وَأَنْثَاكُمْ بِأَنْثَاكُمْ، وَلَا تَتَجَاوَزُوا وَتَعْتَدُوا كَمَا اعْتَدَى مَنْ قَبْلَكُمْ، وَغَيْرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَسَبَبُ ذَلِكَ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ، كَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ قَدْ غَزَتْ قُرَيْظَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَهَرُواهُمْ، فَكَانَ إِذَا قَتَلَ النَّضِيرِيُّ الْقُرَيْظِيَّ لَا يُقْتَلُ بِهِ، بَلْ يُفَادَى بِمَائَةٍ وَسَقَى مِنَ التَّمْرِ، وَإِذَا قَتَلَ الْقُرَيْظِيُّ النَّضِيرِيَّ قُتِلَ بِهِ، وَإِنْ فَادَوْهُ فَدَوُّهُ بِمَائَتَيْنِ وَسَقَى مِنَ التَّمْرِ، ضِعْفَ دِيَّةِ قُرَيْظَةَ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ، وَلَا يُتَّبَعُ سَبِيلُ الْمُفْسِدِينَ الْمُحَرِّفِينَ الْمُخَالِفِينَ لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِيهِمْ كُفْرًا وَرِعْبًا، فَقَالَ تَعَالَى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى» وَقَوْلُهُ: «الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدَ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى» مِنْهَا مَنْسُوخَةٌ، نَسَخَتْهَا: «النَّفْسُ بِالنَّفْسِ» [المائدة: ٤٥]، وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يُقْتَلُ بِالْكَافِرِ، لِمَا ثَبَتَ فِي الْبُخَارِيِّ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

ﷺ قَالَ: «لَا يَتَمَّ بَعْدَ حُلْمٍ»<sup>(١)</sup>.

«وَالْمُسْكِينِ» وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ فِي قُوتِهِمْ وَكِسْوَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ، فَيُعْطُونَ مَا تُسَدُّ بِهِ حَاجَتَهُمْ وَخَلَّتْهُمْ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوْفِ الَّذِي تَرُدُّهُ الثَّمَرَةُ وَالْتَمَرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَتًى يَغْنِيهِ وَلَا يَفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

«وَأَبْنُ السَّبِيلِ» وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ الَّذِي قَدْ فَرَغَتْ نَفَقَتُهُ، فَيُعْطَى مَا يُوَصِّلُهُ إِلَى بَلَدِهِ، وَكَذَا الَّذِي يُرِيدُ سَفَرًا فِي طَاعَةٍ، فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الضَّيْفُ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: ابْنُ السَّبِيلِ هُوَ الضَّيْفُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْمُسْلِمِينَ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكَ وَالزَّهْرِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ<sup>(٤)</sup>.

«وَالسَّائِلِينَ» وَهُمْ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلطَّلَبِ فَيُعْطُونَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ، «وَفِي الرِّقَابِ» وَهُمْ الْمُكَاتِبُونَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُؤَدُّونَهُ فِي كِتَابَتِهِمْ، وَسَبَّابِي الْكَلَامِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ مِنْ بَرَاءَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» أَيُّ وَأَتَمَّ أَفْعَالَ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَطُمَأْنِينِهَا وَخُشُوعِهَا عَلَى الْوُجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْضِيِّ، وَقَوْلُهُ: «وَعَنِ الزَّكَاةِ» الْمُرَادُ بِهِ زَكَاةُ الْمَالِ، كَمَا قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا» كَقَوْلِهِ: «الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ» [الرعد: ٢٠] وَعَكْسُ هَذِهِ الصِّفَةِ النِّفَاقُ، كَمَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ»<sup>(٦)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَالضَّحَّارِينَ فِي الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» أَيُّ فِي حَالِ الْفَقْرِ، وَهُوَ الْبَاسَاءُ، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ وَالْأَسْقَامِ، وَهُوَ الضَّرَّاءُ. «وَحِينَ الْبَأْسِ» أَيُّ فِي حَالِ الْقِتَالِ وَالْإِقْيَاءِ الْأَعْدَاءِ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ<sup>(٨)</sup> وَوَمَرَّةُ الْهَمْدَانِي<sup>(٩)</sup> وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ<sup>(١٠)</sup> وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالشَّدِيدِيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَأَبُو مَالِكٍ<sup>(١١)</sup>.

(١) عبد الرزاق: ٤١٦/٦ إسناده ضعيف فيه جوير وهو متروك  
(٢) فتح الباري: ٣٩٩/٣ ومسلم: ٧١٩/٢ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٢٥٩/١ (٤) أيضا غ: ٢٦٠/١ (٥) ابن أبي حاتم غ: ١/٢٦٤ (٦) مسلم: ٧٨/١ (٧) مسلم: ٧٨/١ (٨) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٠/١ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٢٧١/١ (١٠) أيضا غ: ٢٧٠/١ (١١) ابن أبي حاتم غ: ٢٧١/١ (١٢) الطبري: ٣٥٥/٣



سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٢٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَنْقُوتٌ ﴿١٧٩﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٠﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨١﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٢﴾

حَيَّانَ وَالرَّبِّعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْنُ هَذَا<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ أَتَى فِي ذَلِكَ فَلَهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: فَمَنْ قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَةِ أَوْ قَبُولِهَا، فَلَهُ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ أَلِيمٌ مُوجَعٌ شَدِيدٌ، وَهَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِّعِ بْنِ أَنَسٍ وَالسَّيِّدِي وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ: أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَقْتُلُ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَةِ<sup>(٩)</sup>.

### [فَائِدَةُ الْقِصَاصِ وَحِكْمَتُهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حِكْمَةٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَفِي شَرْعِ الْقِصَاصِ لَكُمْ - وَهُوَ قَتْلُ الْقَاتِلِ - حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ لَكُمْ، وَهِيَ بَقَاءُ الْمُهْجِ وَصَوْفُهَا، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ الْقَاتِلُ أَنَّهُ

اللَّهُ ﷻ: «وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»<sup>(١)</sup>. وَلَا يَصِحُّ حَدِيثُ وَلَا تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ هَذَا، وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ بِهِ لِعُمُومِ آيَةِ الْمَائِدَةِ.

(مَسْأَلَةٌ) وَمَذْهَبُ الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَالْجُمْهُورِ أَنَّ الْجَمَاعَةَ يُقْتَلُونَ بِالْوَاحِدِ، قَالَ عُمَرُ فِي غِلَامٍ قَتَلَهُ سَبْعَةٌ فَقَتَلَهُمْ، وَقَالَ: لَوْ تَمَالَأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتَهُمْ، وَلَا يُعْرِفُ لَهُ فِي زَمَانِهِ مُخَالِفٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَذَلِكَ كَالْإِجْمَاعِ. وَحُكِيَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَوَايَةٌ: أَنَّ الْجَمَاعَةَ لَا يُقْتَلُونَ بِالْوَاحِدِ، وَلَا يُقْتَلُ بِالنَّفْسِ إِلَّا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ. وَحَكَاهُ ابْنُ الْمُثَنَّى عَنْ مُعَاذِ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ سِيرِينَ، وَحَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاةً إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ فَالْعَفْوُ أَنْ يُقْبَلَ الدِّيَةُ فِي الْعَمْدِ، وَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَأَبِي الشَّعْنَاءِ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ<sup>(٢)</sup> وَقَتَادَةُ<sup>(٣)</sup> وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يَعْنِي: فَمَنْ تَرَكَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ، يَعْنِي أَخَذَ الدِّيَةَ بَعْدَ اسْتِحْقَاقِ الدَّمِ، وَذَلِكَ الْعَفْوُ<sup>(٥)</sup>. ﴿فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يَقُولُ: فَعَلَى الطَّالِبِ اتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا قَبِلَ الدِّيَةَ، ﴿وَأَدَاةً إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ يَعْنِي مِنَ الْقَاتِلِ مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ وَلَا مَكَلٍ، يَعْنِي الْمَدَافَعَةَ.

### [لَوْلَى الدَّمُ إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا شَرَعَ لَكُمْ أَخْذَ الدِّيَةِ فِي الْعَمْدِ تَخْفِيفًا مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ مِمَّا كَانَ مَحْتُومًا عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ أَوْ الْعَفْوِ، كَمَا رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُتِبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ الْعَفْوُ، فَقَالَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ﴾ وَالْعَمْدُ بِالْعَمْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَالْعَفْوُ أَنْ يُقْبَلَ الدِّيَةُ فِي الْعَمْدِ<sup>(٦)</sup>. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي صَحِيحِهِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ رَحِمَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَأَطْعَمَهُمُ الدِّيَةَ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَهُمْ، فَكَانَ أَهْلُ التَّوْرَةِ إِنَّمَا هُوَ الْقِصَاصُ وَعَفْوُ لَيْسَ بَيْنَهُمْ أَرْضٌ، وَكَانَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ إِنَّمَا هُوَ عَفْوُ أَمْرُوا بِهِ، وَجَعَلَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْقِصَاصَ وَالْعَفْوَ وَالْأَرْضَ. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلِ بْنِ

(١) البخاري: ١١١ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٩، ٢٧٨/١ (٣)

الطبري: ٣٦٨/٣ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٢٧٩/١ (٥) ابن أبي

حاتم غ: ٢٨٠/١ إسناده ضعيف الضحاك عن ابن عباس مرسل

(٦) سنن سعيد بن منصور: ٢/٢٦٢ (٧) صحيح ابن حبان: ٧/

٦٠١ (٨) ابن أبي حاتم غ: ٢٨٥/١ (٩) أيضا ٢٨٧-٢٨٩

الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنِ<sup>(٤)</sup> وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدِ ابْنِ سِيرِينَ وَعِكْرَمَةَ<sup>(٥)</sup> وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ<sup>(٦)</sup> وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ<sup>(٧)</sup> وَطَاوُسَ<sup>(٨)</sup> وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ وَشُرَيْحَ وَالضَّحَّاكَ وَالزُّهْرِيَّ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَسْخُوحَةٌ، نَسَخَتْهَا آيَةُ الْمِيرَاثِ<sup>(٩)</sup>.

### [الْوَصِيَّةُ لِقَرِيبٍ لَا يَرِثُ]

بَقِيَ الْأَقَارِبُ الَّذِينَ لَا مِيرَاثَ لَهُمْ يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يُوصِيَ لَهُمْ مِنَ الثَّلَاثِ إِشْتِنَاسًا بِآيَةِ الْوَصِيَّةِ وَشُمُولِهَا، وَلَمَّا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا حَقَّ امْرِئٌ مُسْلِمٌ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ بَيْتٌ لِثَلَاثِينَ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُذْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي<sup>(١٠)</sup>. وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ بِالْأَمْرِ بِبِرِّ الْأَقَارِبِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ كَثِيرَةٌ جَدًّا.

### [الْوَصِيَّةُ بِالْمَعْرُوفِ]

وَالْمُرَادُ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يُوصِيَ لِأَقْرَبِيهِ وَصِيَّةً لَا تُجِيفُ بَوَرَثَتِهِ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا تَقْتِيرٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ سَعْدًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَالًا وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتِي لِي، أَفَأُوصِي بِثُلَاثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا» قَالَ: فَبِالْشُّطْرِ؟ قَالَ: «لَا» قَالَ: فَالْثُلُثُ؟ قَالَ: «الْثُلُثُ وَالْثُلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»<sup>(١١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثَّلَاثِ إِلَى الرَّابِعِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْثُلُثُ وَالْثُلُثُ كَثِيرٌ»<sup>(١٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يَدُلُّونَهُ» إِنَّ اللَّهَ سَمِعَ عَلَيْهِ ﷺ يَقُولُ تَعَالَى: فَمَنْ بَدَّلَ الْوَصِيَّةَ وَحَرَفَهَا، فَغَيَّرَ حُكْمَهَا وَزَادَ فِيهَا أَوْ نَقَصَ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْكِتْمَانُ لَهَا بِطَرِيقِ الْأُولَى «فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ

يُقْتُلُ إِنَّكَ عَنْ صَنِيعِهِ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَيَاةٌ لِلنَّفُوسِ، وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ. فَجَاءَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي الْقُرْآنِ أَنْصَحَ وَأَبْلَغَ وَأَوْجَزَ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: جَعَلَ اللَّهُ الْقِصَاصَ حَيَاةً، فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ فَتَمْنَعُهُ مَخَافَةُ أَنْ يَقْتُلَ. وَكَذَا رُويَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ ابْنِ أَنَسٍ وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ<sup>(١٣)</sup>. «يَتَأُولَى الْأَلْبَنِي لِمَلَكِكُمْ تَتَّقُونَ» يَقُولُ: يَا أُولِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالنُّهَى، لَعَلَّكُمْ تَنْزَجِرُونَ وَتَنْتَرَكُونَ مَحَارِمَ اللَّهِ وَمَأْتِمَهُ، وَالتَّقْوَى اسْمُ جَامِعٍ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(١٤)</sup> فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يَدُلُّونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِعَ عَلَيْهِ ﷺ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَاصْلَحْ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>(١٥)</sup>.

[الْأَمْرُ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، ثُمَّ نَسَخَهَا فِي

### حَقِّ الْوَرِثَةِ]

إِشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأَمْرِ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ قَبْلَ نَزُولِ آيَةِ الْمَوَارِيثِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْفَرَائِضِ نُسِخَتْ هَذِهِ، وَصَارَتِ الْمَوَارِيثُ الْمُقَدَّرَةُ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ يَأْخُذُهَا أَهْلُهَا، حَتْمًا مِنْ غَيْرِ وَصِيَّةٍ، وَلَا تَحْمِلُ مِثْلَهُ الْمَوْصِي، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي السَّنَنِ وَغَيْرِهَا عَنْ عُمَرَ بْنِ خَارِجَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْطُطُ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ»<sup>(١٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: جَلَسَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ حَتَّى أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فَقَالَ: نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَكَذَا رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَسْصُورٍ، وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ<sup>(١٧)</sup>. وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرِّطِهِمَا. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: «الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ»: نَسَخَتْهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَمِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] ثُمَّ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَأَبِي مُوسَى وَسَعِيدِ بْنِ

(١) ابن أبي حاتم غ: ٢٩٠-٢٩٢ (٢) تحفة الأحوذ: ٦/

٣١٣ والنسائي: ٢٤٧/٦ وابن ماجه: ٩٠٥/٢ (٣) سعيد بن منصور: ٦٦٣/٢ والحاكم: ٢٧٣/٢ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١/

٣٠٢، ٣٠١ (٥) الطبري: ٣٩١/٣ (٦) ابن أبي حاتم غ: ١/

٣٠٢ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٣٠١/١ (٨) الطبري: ٣٨٩/٣

(٩) ابن أبي حاتم غ: ٣٠٣/١ (١٠) فتح الباري: ٥/٤١٩

ومسلم: ١٢٤٩/٣ و١٢٥٠ (١١) فتح الباري: ٥/٧٢٤ ومسلم:

١٢٥٠/٣ (١٢) البخاري: ٢٧٤٣

يُبْدِلُونَهُ<sup>(١)</sup>: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: وَقَدْ وَقَعَ أَجْرُ الْمَيْتِ عَلَى اللَّهِ، وَتَعَلَّقَ الْإِنَّمُ بِالَّذِينَ بَدَّلُوا ذَلِكَ<sup>(٢)</sup> إِنَّ اللَّهَ سَبِيحٌ عَلَيْهِ<sup>(٣)</sup> أَيُّ قَدْ إِطْلَعَ عَلَى مَا أَوْصَى بِهِ الْمَيْتُ، وَهُوَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَبِمَا بَدَّلَهُ الْمُوصَى إِلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِنْثَاءً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ<sup>(٤)</sup> وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ: الْجَنَفُ: الْخَطَأُ<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا يَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْخَطَأِ كُلَّهَا: بِأَنْ زَادَ وَارْتَأَى بِوَاسِطَةٍ أَوْ وَسِيلَةٍ، كَمَا إِذَا أَوْصَى بِبَيْعِهِ الشَّيْءَ الْفُلَانِي مُحَابَاةً، أَوْ أَوْصَى لِابْنِ ابْنَتِهِ لِيزِيدَهَا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ، إِمَّا مُحْطًا غَيْرَ عَامِدٍ، بَلْ يَطْبَعُهُ وَقُوَّةَ شَفَقَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَبَصُّرٍ، أَوْ مُتَعَمِّدًا أَيَّمَا فِي ذَلِكَ، فَلِلْمُوصَى - وَالْحَالَةَ هَذِهِ - أَنْ يُصْلِحَ الْقَضِيَّةَ، وَيَعْدِلَ فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ، وَيَعْدِلَ عَنِ الَّذِي أَوْصَى بِهِ الْمَيْتُ إِلَى مَا هُوَ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ، وَأَشْبَهُ الْأُمُورِ بِهِ، جَمْعًا بَيْنَ مَقْصُودِ الْمُوصَى وَالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ، وَهَذَا الْإِصْلَاحُ وَالتَّوْفِيقُ لَيْسَ مِنَ التَّبْدِيلِ فِي شَيْءٍ، وَلِهَذَا عَطَفَ هَذَا قَبِيئَهُ - عَلَى التَّهْمِ عَنْ ذَلِكَ - لِيُعْلَمَ: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ بِسَبِيلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

#### [فَضْلُ الْعَدْلِ فِي الْوَصِيَّةِ]

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى خَافَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِفْرُؤُوا إِنَّ شَيْئًا: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا»... الْآيَةُ [البقرة: ٢٢٩]<sup>(٦)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ<sup>(٧)</sup>﴾ أَيَّمَا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ<sup>(٨)</sup>﴾

#### [الْأَمْرُ بِالصَّوْمِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَآمِرًا لَهُمْ بِالصِّيَامِ، وَهُوَ الْإِمْسَاكُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْوَقَاقِعِ، بِنِيَّةِ خَالِصَةٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِمَا فِيهِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ وَطَهَارَتِهَا وَتَنْقِيَّتِهَا مِنَ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ

وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَذَكَرَ: أَنَّهُ كَمَا أُوجِبَ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أُوجِبَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، فَلَهُمْ فِيهِ أَسْوَةٌ، وَلِيَجْتَهِدَ هَؤُلَاءِ فِي آدَاءِ هَذَا الْفَرَضِ أَكْمَلَ مِمَّا فَعَلَهُ أَوَّلِيكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾... الْآيَةُ [المائدة: ٤٨]، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ لِأَنَّ الصَّوْمَ فِيهِ تَرْكِةٌ لِلْبَدَنِ وَتَضْيِيقٌ لِمَسَالِكِ الشَّيْطَانِ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»<sup>(٩)</sup>. ثُمَّ بَيَّنَ مِقْدَارَ الصَّوْمِ وَأَنَّهُ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ لَيْلًا يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ فَتَضَعُفُ عَنْ حَمْلِهِ وَأَدَائِهِ.

وَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ عَاشُورَاءَ يُصَامُ، فَلَمَّا نَزَلَ فَرَضُ رَمَضَانَ كَانَ مِنْ شَاءِ صَامَ وَمِنْ شَاءِ أَفْطَرَ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كَمَا قَالَ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ وَأَطْعَمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا، وَهَكَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ يُفْطِرُ، حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَتَسَخَّرَتْهَا<sup>(١٢)</sup>. وَرَوَى أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عُبيدِ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمرَ قَالَ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ مَرْثُةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قَالَ: يَقُولُ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أَيُّ يَتَجَشَّمُونَهُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَكَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ وَأَطْعَمَ مِسْكِينًا<sup>(١٤)</sup>. ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ يَقُولُ: أَطْعَمَ مِسْكِينًا آخَرَ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فَكَانُوا كَذَلِكَ حَتَّى نَسَخَتْهَا ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ

(١) الطبري: ٣٩٧/٣ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٣١٠/١ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٣١١/١ (٤) عبد الرزاق: ٨٨/٩ (٥) فتح الباري: ٨/٩ (٦) فتح الباري: ٢٦/٨ (٧) فتح الباري: ٢٦/٨ (٨) فتح الباري: ٢٩/٨ (٩) فتح الباري: ٢٩/٨ (١٠) فتح الباري: ٢٨/٨

الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ

وَأُنزِلَتْ التَّوْرَةُ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنزِلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ<sup>(٥)</sup>.

## [فَضْلُ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ هَذَا مَدْحٌ لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ هُدًى لِقُلُوبِ الْعِبَادِ يَمُنُّ آمَنٌ بِهِ وَصَدَقَهُ وَاتَّبَعَهُ ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ أَيْ دَلَالٌ وَحُجَجًا بَيِّنَةً وَاضِحَةً جَلِيَّةً لِمَنْ فَهَمَهَا وَتَدَبَّرَهَا، دَالَّةٌ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْهُدَى الْمُتَنَافِي لِلضَّلَالِ، وَالرُّشْدِ الْمُخَالِفِ لِلْعُيِّ، وَمُفَرِّقًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

## [إِجْبَابُ صَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هَذَا إِجْبَابٌ حَتَمٌ عَلَى مَنْ شَهِدَ اسْتِهْلَالَ الشَّهْرِ، أَيْ كَانَ مُقِيمًا فِي الْبَلَدِ حِينَ دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَهُوَ صَحِيحٌ فِي بَدَنِهِ، أَنْ يَصُومَ لَا مَحَالَةَ، وَنَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْإِبَاحَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ لِمَنْ كَانَ صَحِيحًا مُقِيمًا أَنْ يُفْطِرَ وَيَقْطَعَ بِطَاعَمٍ مُسْكِينٍ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، وَلَكَمَا حَتَمَ الصَّيَامُ أَعَادَ ذِكْرَ الرُّخْصَةِ لِلْمَرِيضِ وَلِلْمُسَافِرِ فِي الْإِفْطَارِ، بِشَرْطِ الْقَضَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَنْبَاءِ آخَرٍ﴾ مَعْنَاهُ: وَمَنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ فِي بَدَنِهِ يُشَقُّ عَلَيْهِ الصَّيَامُ مَعَهُ أَوْ يُؤْذِيهِ، أَوْ كَانَ عَلَى سَفَرٍ، أَيْ فِي حَالَةِ السَّفَرِ، فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ، فَإِذَا أَفْطَرَ فَعَلَيْهِ عِدَّةٌ مَا أَفْطَرَهُ فِي السَّفَرِ مِنَ الْأَيَّامِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أَيْ إِنَّمَا رَخَّصَ لَكُمْ فِي الْفِطْرِ فِي حَالِ الْمَرَضِ وَفِي السَّفَرِ مَعَ تَحْتِمِهِ فِي حَقِّ الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ تَبْسِيرًا عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ.

## [مَسَائِلُ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ]

وَقَدْ تَبَيَّنَتِ الشُّكَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ خَرَجَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لِعَزْوَةِ الْفَنَحِ، فَسَارَ حَتَّى بَلَغَ الْكَدِيدَ، ثُمَّ أَفْطَرَ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْفِطْرِ. أَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ<sup>(٦)</sup>. وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ عَلَى التَّخْيِيرِ وَلَيْسَ بِحَتْمٍ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. قَالَ: فَمِمَّا الصَّائِمُ

## [فَذِيَةُ الصَّيَامِ لِلْعَجَزَةِ وَكِبَرِي السَّنِ]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَطَاءٍ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوُّقُوهُ فَذِيَةُ طَعَامٍ مُسْكِينٍ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَتْ مَسْخُوحَةً، هُوَ لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْمَرْأَةِ الْكَبِيرَةِ لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُسْكِينًا<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ، فَحَاصِلُ الْأَمْرِ أَنَّ النَّسْخَ ثَابِتٌ فِي حَقِّ الصَّحِيحِ الْمُقِيمِ بِإِجْبَابِ الصَّيَامِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وَأَمَّا الشَّيْخُ الْفَنَاقِيُّ الْهَرَمِيُّ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصَّيَامَ، فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ، وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ حَالٌ يَصِيرُ إِلَيْهَا يَتِمَّكُنُ فِيهَا مِنَ الْقَضَاءِ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فَذِيَةُ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ، كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوُّقُوهُ) أَيْ: يَتَجَشَّمُونَهُ<sup>(٢)</sup>. كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ. وَهُوَ اخْتِيَارُ الْبُخَارِيِّ فَإِنَّهُ قَالَ: وَأَمَّا الشَّيْخُ الْكَبِيرُ إِذَا لَمْ يُطِيقِ الصَّيَامَ، فَقَدْ أَطْعَمَ أَنْسَ بَعْدَ مَا كَبُرَ عَامًا أَوْ عَامَيْنِ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مُسْكِينًا، خُبْرًا وَلَحْمًا وَأَفْطَرَ<sup>(٣)</sup>.

وَهَذَا الَّذِي عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ قَدْ أَسَنَدَهُ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَيُّوبَ بْنِ أَبِي تَمِيمَةَ، قَالَ: ضَعُفَ أَنْسٌ عَنِ الصَّوْمِ، فَصَنَعَ جُفَّةً مِنْ تَرِيدٍ، فَدَعَا ثَلَاثِينَ مُسْكِينًا فَأَطْعَمَهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَمِمَّا يَلْتَحِقُ بِهِذَا الْمَعْنَى: الْحَامِلُ وَالْمَرُضِعُ إِذَا خَافَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا أَوْ وَلَدَيْهِمَا، يَتَدَيَّانِ فَقَطْ وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِمَا.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَنْبَاءِ آخَرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥)

## [فَضْلُ رَمَضَانَ وَنُزُولُ الْقُرْآنِ فِيهِ]

يَمْدَحُ تَعَالَى شَهْرَ الصَّيَامِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الشُّهُورِ بِأَنْ اخْتَارَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ لِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهِ، وَكَمَا اخْتَصَّهُ بِذَلِكَ قَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُ الشَّهْرُ الَّذِي كَانَتْ الْكُتُبُ الْإِلَهِيَّةُ تُنْزَلُ فِيهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ وَائِلَةَ بِنْتِ أَبِي الْأَشْعَثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ،

(١) فتح الباري: ٢١٨/٨ (٢) الطبري: ٤٣١/٣ (٣) فتح الباري: ١٧٩/٨ (٤) مسند أبي يعلى: ٢٠٤/٧ طبراني كبير (٦٧٥) (٥) أحمد: ١٠٧/٤ (٦) فتح الباري: ٢١٣/٣ ومسلم: ٧٨٤/٢

## [ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى إِتِمَامِ الْعِبَادَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْتَكُونُوا لِلَّهِ عَالِمًا مِمَّا هَدَيْتُكُمْ﴾ أَيْ وَلْتَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ انْقِضَاءِ عِبَادَتِكُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ مَا سَأَلْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وَقَالَ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وَقَالَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [٣٩] وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَرْ الشُّجُورِ [ق: ٣٩، ٤٠] وَلِهَذَا جَاءَتِ السُّنَّةُ بِاسْتِحْبَابِ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا كُنَّا نَعْرِفُ انْقِضَاءَ صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا بِالتَّكْبِيرِ<sup>(٨)</sup>. وَلِهَذَا أَخَذَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَشْرُوعِيَّةَ التَّكْبِيرِ فِي عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلْتَكْمِلُوا الصَّالَةَ وَلْتَكُونُوا لِلَّهِ عَالِمًا مِمَّا هَدَيْتُكُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيْ إِذَا قُمْتُمْ بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ مِنْ طَاعَتِهِ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَتَرْكِ مَحَارِمِهِ وَحِفْظِ حُدُودِهِ، فَلَعَلَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ بِذَلِكَ. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمْ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [١٨٦]

## [اللَّهُ يَسْمَعُ دَعَاءَ عِبَادِهِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لَا نَضَعُ شَرْفًا، وَلَا نَعْلُو شَرْفًا، وَلَا نَهْطُ وَادِيًا، إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ، قَالَ: فَدَنَا مِنَّا، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عَنِّي رَاحِلَتِهِ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ، أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»<sup>(٩)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١٠)</sup>. وَبَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ بِتَحْوِيهِ. وَرَوَى الْإِمَامُ

وَمِمَّا الْمُفْطِرُ، فَلَمْ يَعِْبِ الصَّائِمَ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ، فَلَوْ كَانَ الْإِفْطَارُ هُوَ الْوَاجِبُ لَأَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الصَّيَامَ، بَلِ الَّذِي ثَبَتَ مِنْ فِعْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ صَائِمًا، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا فِيْنَا صَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ رَوَاحَةَ<sup>(١١)</sup>.

وَالْإِفْطَارُ فِي السَّفَرِ أَفْضَلُ، أَخَذًا بِالرُّخْصَةِ، وَلِمَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ: «مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ، وَمَنْ صَامَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ»<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللَّهِ الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ»<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هُمَا سَوَاءٌ، لِحَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّ حَمْرَةَ بِنَ عَمْرِو الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كَثِيرُ الصَّيَامِ، أَفَأَصُومُ فِي السَّفَرِ؟ فَقَالَ: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ». وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١٤)</sup>. وَقِيلَ: إِنْ شَقَّ الصَّيَامَ فَالْإِفْطَارُ أَفْضَلُ، لِحَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا قَدْ ظَلَّلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالُوا: صَائِمٌ، فَقَالَ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّيَامُ فِي السَّفَرِ». أَخْرَجَاهُ<sup>(١٥)</sup>.

فَأَمَّا إِنْ رَغِبَ عَنِ السُّنَّةِ وَرَأَى أَنَّ الْفِطْرَ مَكْرُوهٌ إِلَيْهِ، فَهَذَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْإِفْطَارُ، وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ الصَّيَامُ. وَلَا يَجِبُ التَّنَاضُحُ فِي الْفَضَاءِ، بَلْ إِنْ شَاءَ فَرَّقَ وَإِنْ شَاءَ تَابَعَ، وَعَلَيْهِ ثَبَتَ الدَّلَالَةُ لِأَنَّ التَّنَاضُحَ إِنَّمَا وَجِبَ فِي الشَّهْرِ لِضَرُورَةِ آدَائِهِ فِي الشَّهْرِ، فَأَمَّا بَعْدَ انْقِضَاءِ رَمَضَانَ، فَالْمُرَادُ صِيَامُ أَيَّامٍ عِدَّةٍ مَا أَفْطَرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

## [الْيُسْرُ دُونَ الْعُسْرِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَسَكِّنُوا وَلَا تُتَنَفِّرُوا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١٦)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ: «بَشِّرَا وَلَا تُتَنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَتَطَوَّعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»<sup>(١٧)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أَيْ إِنَّمَا أَرْخَصَ لَكُمْ فِي الْإِفْطَارِ لِلْمَرَضِ وَالسَّفَرِ وَتَحْوِيهِمَا مِنَ الْأَعْذَارِ لِإِرَادَتِهِ بِكُمْ الْيُسْرَ، وَإِنَّمَا أَمَرَكُمُ بِالْقَضَاءِ لِتُكْمِلُوا عِدَّةَ شَهْرِكُمْ.

(١) فتح الباري: ٢١٥/٤ ومسلم: ٧٩٠/٢ (٢) مسلم: ٢/٧٩٠ (٣) مسلم: ٧٨٦/٢ (٤) فتح الباري: ٢١١/٤ ومسلم: ٧٨٩/٢ (٥) فتح الباري: ٢١٦/٤ ومسلم: ٧٨٦/٢ (٦) أحمد: ١٣١/٣ وفتح الباري ٥٤١/١٠ ومسلم: ٣/١٣٥٩ (٧) فتح الباري: ٦٦٠/٧ ومسلم: ١٥٨٧/٣ (٨) البخاري: ٨٤٢ (٩) أحمد: ٤٠٢/٤ (١٠) فتح الباري: ٢/٥٠٩ ومسلم: ٢٠٧٦/٤

الْبَقَرَةُ

٢٩

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتْلُوا بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَاتَّبِعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوا بِهِ أَنْتُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ \* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحُجَّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أُولَئِكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

[الْإِذْنُ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ

فِي لَيَالِي رَمَضَانَ]

هَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ، وَرَفَعَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا أَقْطَرَ أَحَدُهُمْ إِنَّمَا يَحِلُّ لَهُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالْجِمَاعُ إِلَى صَلَاةِ الْعِشَاءِ، أَوْ يَتَأَمَّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَمَتَى نَامَ أَوْ صَلَّى الْعِشَاءَ حَرَّمَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْجِمَاعُ إِلَى اللَّيْلِ الْقَابِلَةِ، فَوَجَدُوا مِنْ ذَلِكَ مَشَقَّةً كَبِيرَةً، وَ«الرَّفَثُ» هُنَا هُوَ الْجِمَاعُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ. وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَطَاوُسٌ وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالزَّهْرِيُّ<sup>(٩)</sup> وَالضَّحَّاكُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ

أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ. قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي»<sup>(١)</sup>.  
[الدُّعَاءُ يُقْبَلُ وَلَا يَضِيعُ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخِرَهَا لَهُ فِي الْأُخْرَى، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشُّؤْمِ مِثْلَهَا» قَالُوا: إِذَا نُكْثِرُ؟ قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ: أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، حَدَّثَهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ بِهَا، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ الشُّؤْمِ مِثْلَهَا: مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»<sup>(٥)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَتَابُهُ الْجَنَّةَ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْإِسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يُسْتَجَبْ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ»<sup>(٧)</sup>.

[ثَلَاثَةٌ لَا تَرُدُّ دَعْوَتَهُمْ]

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَسَنَنِ التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَهَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا تَرُدُّ دَعْوَتَهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْعِمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، يَقُولُ: بِعِزَّتِي لَا أَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»<sup>(٨)</sup>.

«أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتْلُوا بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَاتَّبِعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوا بِهِ أَنْتُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

(١) أحمد: ٢١٠/٣ (٢) أحمد: ١٨/٣ (٣) أحمد: ٣٢٩/٥

(٤) تحفة الأحوذى: ٢٤/١٠ (٥) أحمد: ٣٩٦/٢ (٦) فتح

البارى: ١٤٥/١١ ومسلم: ٢٠٩٥/٤ (٧) مسلم: ٢٠٩٦/٤

(٨) أحمد: ٥٤٤/٣ وتحفة الأحوذى: ٢٢٩/٧ وابن ماجه: ١/

٥٥٧ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٣٦٧-٣٦٩

وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالْحَكَمُ بْنُ عُثْبَةَ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَبَّانَ وَالْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي الْوَلَدَ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَابْتِغُوا الرُّخْصَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: «وَابْتِغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» يَقُولُ: مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ.

[آخِرُ وَقْتِ السَّحُورِ]

قَوْلُهُ: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْإِيلِ» أَبَاحَ تَعَالَى الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبَاحَةِ الْجَمَاعِ فِي أَيِّ اللَّيْلِ شَاءَ الصَّائِمُ إِلَى أَنْ يَبَيَّنَ ضِيَاءُ الصَّبَاحِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالْخَيْطِ الْأَبْيَضِ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ، وَرَفَعَ اللَّيْسَ بِقَوْلِهِ: «مِنَ الْفَجْرِ» كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: أَنْزَلَتْ: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ» وَلَمْ يَنْزِلْ: «مِنَ الْفَجْرِ» وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدَهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، فَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدُ: «مِنَ الْفَجْرِ» فَعَلِمُوا أَنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَدِيِّ، قَالَ: أَخَذَ عَدِيٌّ عِقَالًا أَبْيَضَ وَعِقَالًا أَسْوَدَ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ اللَّيْلِ نَظَرَ فَلَمْ يَسْتَبَيِّنَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلْتُ تَحْتَ وَسَادَتِي، قَالَ: «إِنْ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضُ، أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وَسَادَتِكَ». وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْفَقَا». فَفَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِالْبَلَادَةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، بَلْ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ وَسَادُهُ عَرِيضًا فَقَفَاهُ أَيْضًا عَرِيضٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيُفَسِّرُهُ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْ عَدِيِّ ابْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ. أَهْمَا الْخَيْطَانِ؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْفَقَا إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: لَا، بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»<sup>(٨)</sup>.

وَالسُّدِّيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَبَّانَ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: «هُنَّ لَيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَيَاسٌ لَهُنَّ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَبَّانَ: يَعْنِي هُنَّ سَكَنٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ سَكَنٌ لَهُنَّ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُنَّ لِحَافٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِحَافٌ لَهُنَّ<sup>(٣)</sup>. وَحَاصِلُهُ: أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كُلُّ مِنْهُمَا يُحَالِطُ الْآخَرَ وَيُمَاسُهُ وَيُضَاجِعُهُ، فَتَنَاسَبَ أَنْ يُرَخَّصَ لَهُمْ فِي الْمَجَامَعَةِ فِي لَيْلِ رَمَضَانَ، لِئَلَّا يَشُقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيُخْرِجُوا.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَتَمَّ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ إِلَى مِثْلِهَا، وَإِنْ قَسَرَ بَنَ صِرْمَةً الْأَنْصَارِيِّ كَانَ صَائِمًا، وَكَانَ يَوْمُهُ ذَلِكَ يَعْمَلُ فِي أَرْضِهِ، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ أَطْلُقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، فَعَلَبَتْهُ عَيْنُهُ فَتَمَّ، وَجَاءَتْ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ نَائِمًا قَالَتْ: خَبَيْتُ لَكَ، أَنْبَتْ؟ فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غَشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ أَلْفَ الْفَتْحِ إِلَى نِسَائِكُمْ» إِلَى قَوْلِهِ «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ» فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا<sup>(٤)</sup>.

وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ هَهُنَا مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحَاقَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ كَانُوا لَا يَفْرُبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِذَا صَلُّوا الْعِشَاءَ، حَرُمَ عَلَيْهِمُ النِّسَاءُ وَالطَّعَامُ إِلَى مِثْلِهَا مِنَ الْقَابِلَةِ، ثُمَّ إِنَّ أَنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَصَابُوا مِنَ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَسَكَّوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَقُوا بِرَبِّكُمْ»<sup>(٦)</sup> الْآيَةَ، وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَوْلُهُ: «وَابْتِغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَنَسُ وَشُرَيْحُ الْقَاضِي وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ

(١) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٨ (٢) ابن أبي حاتم غ: ١ / ٣٦٨-٣٦٩  
 (٣) ابن أبي حاتم: ١ / ٣٨١ (٤) الطبري: ٣ / ٤٩٥ (٥)  
 فتح الباري: ٨ / ٣٠ (٦) الطبري: ٣ / ٤٩٦ و ٤٩٨ إسناده  
 ضعيف، حكم العوفي تقدم (٧) ابن أبي حاتم: ١ / ٣٧٧-٣٧٨  
 والطبري: ٣ / ٥٠٦، ٥٠٧ (٨) انظر لجميع هذه الآثار فتح  
 الباري: ٨ / ٣١

## [اسْتِجَابُ السَّحُورِ وَبَيَانُ وَقْتِهِ]

وَفِي إِبَاحِهِ تَعَالَى جَوَازَ الْأَكْلِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِجَابِ السَّحُورِ، لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الرُّخْصَةِ وَالْأَخْذِ بِهَا مَحْبُوبٌ، وَلِهَذَا وَرَدَتْ السُّنَّةُ النَّاتِيَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَثِّ عَلَى السَّحُورِ، فِيهِ الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَهً»<sup>(١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ فَضَلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَهُ السَّحَرُ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَهٌ فَلَا تَدْعُوهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ تَجَرَّعَ جُرْعَةً مَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُسَحِّرِينَ»<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّرْغِيبِ فِي السَّحُورِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ. حَتَّى وَلَوْ بِجُرْعَةٍ مِنْ مَاءٍ تَشَبَّهَ بِالْأَكْلِينَ.

وَيُسْتَحَبُّ تَأْخِيرُهُ إِلَى وَقْتِ انْفِجَارِ الْفَجْرِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: تَسَحَّرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قُمْنَا إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ أَنَسٌ: قُلْتُ لَزَيْدٍ: كَمْ كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟ قَالَ: قَدَّرُ خَمْسِينَ آيَةً<sup>(٤)</sup>.

وَقَدْ رَوَى عَنْ طَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ تَسَامَحُوا فِي السَّحُورِ عِنْدَ مُقَارَبَةِ الْفَجْرِ، رَوَى مِثْلَ هَذَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَحَدِيثُهُ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنُ عُمَرَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَنْ طَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ، مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَأَبُو مِجَلٍّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَأَبُو الصُّحَى، وَأَبُو وَائِلٍ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ، وَالْحَكَمُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَمُجَاهِدٌ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَأَبُو الشَّعْثَاءِ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ، وَاللَّيْثُ دَهَبُ الْأَعْمَشُ وَمَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ، وَقَدْ حَرَّرْنَا أَسَانِيدَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الصِّيَامِ الْمُمْرَدِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الْقَاسِمِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَمْنَعُكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ عَنْ سَحُورِكُمْ، فَإِنَّهُ يُنَادِي بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْذَنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»<sup>(٥)</sup>.

لَفْظُ الْبَخَارِيِّ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ قَيْسِ بْنِ طَلْقٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ فِي الْأَفْقِ

وَلَكِنْ الْمُعْتَرِضُ الْأَحْمَرُ»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَلَفْظُهُمَا: «كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلَا يَهْدِنُكُمْ السَّاطِعُ الْمُضْعِدُ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَمْتَرِضَ لَكُمْ الْأَحْمَرُ»<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ سُمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَغُرُّكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا هَذَا الْبَيَاضُ - لِعَمُودِ الصُّبْحِ - حَتَّى يَسْتَطِيرَ»<sup>(٨)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِثْلَهُ سِوَاءً<sup>(٩)</sup>.

## [مَنْ أَصْبَحَ جُنْبًا فَلَا حَرَجَ فِي صِيَامِهِ]

(مَسْأَلَةٌ) وَمِنْ جَعَلَهُ تَعَالَى الْفَجْرَ غَايَةً لِإِبَاحَةِ الْجَمَاعِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ - لِمَنْ أَرَادَ الصِّيَامَ - يَسْتَدِلُّ عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَصْبَحَ جُنْبًا فَلْيَغْتَسِلْ وَلْيَتِمَّ صَوْمَهُ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا، لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَالَتَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصْبِحُ جُنْبًا مِنْ جَمَاعٍ غَيْرِ احْتِلَامٍ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ وَيَصُومُ. وَفِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْهُمَا: ثُمَّ لَا يَفْطُرُ وَلَا يَقْضِي<sup>(١٠)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُذَرُّنِي الصَّلَاةَ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَنَا تُذَرُّنِي الصَّلَاةَ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ». فَقَالَ: لَسْتُ مِثْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَحْسَنَكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَيْتُ»<sup>(١١)</sup>.

## [الصِّيَامُ يَنْتَهِي بِدُخُولِ اللَّيْلِ فَيُسْرِعُ الْإِفْطَارُ عَلَى

## الْفُجْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ثُمَّ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْإِنْفِطَارَ» عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حُكْمًا شَرْعِيًّا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا، وَآذَبَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّيَامُ»<sup>(١٢)</sup>. وَعَنْ سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

(١) فتح الباري: ١٦٥/٤ ومسلم: ٧٧٠/٢ (٢) مسلم: ٧٧١/٢

(٣) أحمد: ٤٤/٣ فتح الباري: ١٦٤/٤ ومسلم: ٢/

٧٧١ (٥) فتح الباري: ١٦٢/٤ ومسلم: ٧٦٨/٢ (٦) أحمد: ٢٣/٤

(٧) تحفة الأحوذى: ٣٨٩/٣ (٨) الطبري: ١٧/٣

(٩) مسلم: ٧٦٩/٢ (١٠) فتح الباري: ١٨٢/٤ ومسلم: ٢/

٧٨١ (١١) مسلم: ٧٨١/٢ (١٢) فتح الباري: ٢٣١/٤

ومسلم: ٧٧٢/٢



نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(٨)</sup>. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ، وَالشَّيْطَانِيَّ وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ وَمُقَاتِلَ، قَالُوا: لَا يَقْرُبُهَا وَهُوَ مُعْتَكِفٌ<sup>(٩)</sup>.

وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ عَنْ هَؤُلَاءِ هُوَ الْأَمْرُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْمُعْتَكِفَ يَحْرُمُ عَلَيْهِ النِّسَاءُ مَا دَامَ مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ، وَلَوْ ذَهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ لِحَاجَةٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَلَبَّثَ فِيهِ إِلَّا بِمُقَدَّارٍ مَا يَفْرُغُ مِنْ حَاجَتِهِ تِلْكَ مِنْ قَضَاءِ الْغَائِطِ أَوْ الْأَكْلِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْبَلَ امْرَأَتَهُ وَلَا أَنْ يَضُمَّهَا إِلَيْهِ. وَلَا يَسْتَعْلِ بِشَيْءٍ سِوَى اعْتِكَافِهِ، وَلَا يَعُودُ الْمَرِيضُ لَكِنْ يَسْأَلُ عَنْهُ وَهُوَ مَارٌّ فِي طَرِيقِهِ. وَلِلْإِعْتِكَافِ أَحْكَامٌ مُفَصَّلَةٌ فِي بَابِهِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا قِطْعَةً صَالِحَةً مِنْ ذَلِكَ فِي آخِرِ كِتَابِ الصِّيَامِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَلِهَذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ الْمُصَنِّفُونَ يُبْعَثُونَ كِتَابَ الصِّيَامِ بِكِتَابِ الْإِعْتِكَافِ اقْتِدَاءً بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَإِنَّهُ نَبَّهَ عَلَى ذِكْرِ الْإِعْتِكَافِ بَعْدَ ذِكْرِ الصَّوْمِ.

وَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى الْإِعْتِكَافَ بَعْدَ الصِّيَامِ إِرْشَادًا وَتَنْبِيْهُ عَلَى الْإِعْتِكَافِ فِي الصِّيَامِ أَوْ فِي آخِرِ شَهْرِ الصِّيَامِ، كَمَا فِي السُّنَّةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَّخِرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ، أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا<sup>(١٠)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ كَانَتْ تَزُورُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ لِيَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهَا، وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلًا، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَمِشِيَ مَعَهَا حَتَّى تَبْلُغَ دَارَهَا، وَكَانَ مَنْزِلُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فِي جَانِبِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الطَّرِيقِ لَقِيَهِ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا. وَفِي رَوَايَةٍ: تَوَارَبَا. أَيْ حَيَاءً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِكَوْنِ أَهْلِهِ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا

اللَّهُ ﷻ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ» أَخْرَجَاهُ<sup>(١١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعَجَلَهُمْ فِطْرًا»<sup>(١٢)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(١٣)</sup>، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

### [النَّهْيُ عَنْ صَوْمِ الْوَصَالِ]

وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ النَّهْيُ عَنِ الْوَصَالِ، وَهُوَ أَنْ يَصِلَ يَوْمًا بِيَوْمٍ وَلَا يَأْكُلَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُوَاصِلُوا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ: «فَإِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي». قَالَ: فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوَصَالِ فَوَاصِلَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ وَلَيْلَتَيْنِ ثُمَّ رَأَوْا الْهَلَالَ، فَقَالَ: «لَوْ تَأَخَّرَ الْهَلَالُ لَزِدْتُمْ» كَالْمُنْكَلِ لَهُمْ. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١٤)</sup>.

وَقَدْ ثَبَتَ النَّهْيُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، وَثَبَتَ أَنَّهُ مِنْ خِصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ وَيَعَانُ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ ذَلِكَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ فِي حَقِّهِ إِنَّمَا كَانَ مَعْنَوِيًّا لَا جِسْمِيًّا، وَإِلَّا فَلَا يَكُونُ مُوَاصِلًا مَعَ الْجَسَدِ. وَأَمَّا مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمْسِكَ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ فَلَهُ ذَلِكَ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحَرِ» قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاقٍ يَسْقِينِي». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا<sup>(١٥)</sup>.

### [أَحْكَامُ الْإِعْتِكَافِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الرَّجُلِ يَعْتَكِفُ فِي الْمَسْجِدِ فِي رَمَضَانَ أَوْ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ، فَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْكِحَ النِّسَاءَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا حَتَّى يَقْضِيَ اعْتِكَافَهُ<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا اعْتَكَفَ فَخَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ جَامِعًا إِنْ شَاءَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ أَيْ لَا تَقْرُبُوهُمْ مَا دُمْتُمْ عَاكِفِينَ فِي الْمَسْجِدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ<sup>(١٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ حَتَّى

(١) فتح الباري: ٢٣٤/٤ ومسلم: ٧٧١/٢ (٢) أحمد: ٢/

٢٣٧ تحفة الأحوذى: ٣٨٦/٣ (٤) أحمد: ٢٨١/٢ وفتح

الباري: ٢٣٨/٤ ومسلم: ٧٧٤/٢ (٥) فتح الباري: ٣٣٨/٤

(٦) الطبري: ٥٤٠/٣ (٧) الطبري: ٥٤١/٣ (٨) الطبري: ٣/

٥٤١ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٣٨٥-٣٨٧ (١٠) فتح الباري: ٣١٨/٤

٣١٨/٤ ومسلم: ٨٣١/٢

وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَكَلُ الْحَرَامِ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رُويَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَمُقَاتِلَ ابْنِ حَيَّانَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا تُخَاصِمُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ ظَالِمٌ<sup>(٤)</sup>.

**[قَضَاءُ الْقَاضِي لَا يُجِلُّ حَرَامًا وَلَا يُحَرِّمُ حَلَالًا]**

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْخَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذَرْهَا»<sup>(٥)</sup>. فَكَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَهَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُغَيِّرُ الشَّيْءَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَلَا يُجِلُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَرَامًا هُوَ حَرَامٌ، وَلَا يُحَرِّمُ حَلَالًا هُوَ حَلَالٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مُلْزَمٌ فِي الظَّاهِرِ، فَإِنْ طَاقَبَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَذَلِكَ، وَإِلَّا فَلِلْحَاكِمِ أَجْرُهُ، وَعَلَى الْمُحْتَالِ وَزُرُهُ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْمُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ تَعْلَمُونَ بَطْلَانَ مَا تَدْعُونَهُ وَتُرَوِّجُونَهُ فِي كَلَامِكُمْ. قَالَ قَتَادَةُ: إِنْ عِلِمَ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّ قَضَاءَ الْقَاضِي لَا يُجِلُّ لَكَ حَرَامًا، وَلَا يُحِقُّ لَكَ بَاطِلًا، وَإِنَّمَا يَقْضِي الْقَاضِي بِنَحْوِ مَا يَرَى وَيَشْهَدُ بِهِ الشُّهُودُ، وَالْقَاضِي بَشَرٌ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قَضَى لَهُ بِبَاطِلٍ أَنْ خُصِمَتْهُ لَمْ تَنْقُضْ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقْضِي عَلَى الْمُبْطِلِ لِلْمُحِقِّ بِأَجُودَ مِمَّا قَضَى بِهِ لِلْمُبْطِلِ عَلَى الْمُحِقِّ فِي الدُّنْيَا<sup>(٦)</sup>.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٧)</sup>  
**[السُّؤَالُ عَنِ الْأَهْلِ]**

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَأَلَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْأَهْلِ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يَعْلَمُونَ بِهَا حَلَّ دِينِهِمْ وَعِدَّةَ نِسَائِهِمْ وَوَقْتَ

صَفِيَّتِهِ بِنْتُ حُبَيْبٍ، أَيْ لَا تُسْرِعَا وَاعْلَمَا أَنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْبٍ أَيْ زَوْجَتِي، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذَفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا» - أَوْ قَالَ -: «شَرًّا»<sup>(٨)</sup>. قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَعْلَمَ أُمَّتُهُ التَّيَرِّيَ مِنَ التُّهْمَةِ فِي مَحَلِّهَا، لِئَلَّا يَقَعَ فِي مَحْذُورٍ، وَهُمَا كَانَا أَتَقَى اللَّهُ مِنْ أَنْ يَطُنَّا بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ الْمُرَادُ بِالْمُبَاشَرَةِ إِنَّمَا هُوَ الْجَمَاعُ وَدَوَاعِيهِ مِنْ تَقْبِيلٍ وَمُعَانَقَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَأَمَّا مَعَاطَاةُ الشَّيْءِ وَنَحْوُهُ فَلَا بَأْسَ بِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُذْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ فَأَرْجُلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَقَدْ كَانَ الْمَرِيضُ يَكُونُ فِي الْبَيْتِ، فَمَا أَسْأَلُ عَنْهُ، إِلَّا وَأَنَا مَارَةٌ<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ وَفَرَضْنَاهُ وَحَدَدْنَاهُ مِنَ الصِّيَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَمَا أَبْخَنَّا فِيهِ وَمَا حَرَمْنَا وَذَكَّرْنَا غَايَاتِهِ وَرَحَصَهُ وَعَزَائِمُهُ: حُدُودُ اللَّهِ. أَيُّ شَرَعَهَا اللَّهُ وَبَيَّنَّاهُ بِنَفْسِهِ، ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أَيُّ: لَا تَجَاوَزُوهَا وَتَتَعَدَّوهَا. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَعْنِي هَذِهِ الْحُدُودُ الْأَرْبَعَةُ، وَيَقْرَأُ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الْارْتُفُ إِلَى إِسَابِكُمْ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْإِيلِ﴾ قَالَ: وَكَانَ أَبِي وَغَيْرُهُ مِنْ مَسِيحِينَ يَقُولُونَ هَذَا وَيَتْلُونَهُ عَلَيْنَا.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أَيُّ كَمَا بَيَّنَّ الصِّيَامَ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ وَتَفَاصِيلَهُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ سَائِرَ الْأَحْكَامِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيُّ يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَهْتَدُونَ وَكَيْفَ يُطِيعُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَارْءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْمُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>  
**[الرَّشْوَةُ حَرَامٌ]**

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الرَّجُلِ يَكُونُ عَلَيْهِ مَالٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيهِ بَيْتَةٌ، فَيَجْعَدُ الْمَالَ، وَيُخَاصِمُ إِلَى الْحُكَّامِ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ عَلَيْهِ،

(١) فتح الباري: ٣٢٦/٤ ومسلم: ١٧١٢/٤ (٢) فتح الباري: ٣٢٠/٤ ومسلم: ٢٤٤/١ (٣) الطبري: ٥٥٠/٣ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٩٣/١ و٣٩٤ والطبري: ٥٥٠/٣ و٥٥١ (٥) فتح الباري: ١٩٠/١٣ ومسلم: ١٣٧٣/٣ (٦) الطبري: ٥٥٠/٣

الْمُحْسِنِينَ

٣٠

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُونَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَبِلُونَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُقْلُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَاتَّبِعُوا الْحُجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا بِرُءُوسِكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحُجَّةِ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحُجَّةِ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

يَقُولُ: ﴿فَاتَّقُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وفي هذا نظر، لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهيج وإغراء بالأعداء الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله، أي كما يقَاتِلُونَكُمْ فاقْتُلُوهُمْ أَنْتُمْ، كما قال: ﴿وَقَبِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] (٨) ولهذا قال في الآية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي ليكن همّتكم مُتَّبِعَةً عَلَى قِتَالِهِمْ، كما همّتهم مُتَّبِعَةً عَلَى قِتَالِكُمْ، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قِصَاصًا.

[الْتِهْيُ عَنْ الْإِعْتِدَاءِ كَالْمِثْلَةِ وَالْعُلُولِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِلَّا عَلَى اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تَعْتَدُوا فِي ذَلِكَ، وَيَدْخُلُ

حُجَّتُهُمْ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جَعَلَ اللَّهُ الْأَهْلَةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ، فَصُومُوا لِرُؤُوسِهِ، وَأَطُفُوا لِرُؤُوسِهِ، فَإِنْ عَمَّ عَلَيْكُمْ فَعُدُّوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا<sup>(٢)</sup>». وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٣)</sup>.

[مَدَارُ الْبِرِّ عَلَى التَّقْوَى]

وَقَوْلُهُ: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتَا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَعِهَا» رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: كَانُوا إِذَا أَخْرَمُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتَوْا الْبَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتَا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَعِهَا»<sup>(٤)</sup> وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا قَدِمُوا مِنْ سَفَرِهِمْ، لَمْ يَدْخُلِ الرَّجُلُ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانَ أَقْوَامٌ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ سَفَرًا، وَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ يُرِيدُ سَفَرَهُ الَّذِي خَرَجَ لَهُ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ أَنْ يُقِيمَ وَيَدْعَ سَفَرَهُ، لَمْ يَدْخُلِ الْبَيْتَ مِنْ بَابِهِ وَلَكِنْ يَسُورُهُ مِنْ قِبَلِ ظَهْرِهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا... الْآيَةُ<sup>(٦)</sup>». وَقَوْلُهُ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» أَيِ اتَّقُوا اللَّهَ، فافْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَاتْرَكُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ عَدَا، إِذَا وَفَّقْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَجَازِيَكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ.

﴿وَقَبِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِلَّا عَلَى اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١٩١﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُونَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٢﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٣﴾ وَقَبِلُونَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾

[الْأَمْرُ بِقِتَالِ مَنْ يَقَاتِلُ، وَبِقَبْلِهِ حَيْثُ وَجَدَ]

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَبِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾ قَالَ: هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقَاتِلُ مَنْ قَاتَلَهُ، وَيَكُفُّ عَمَّنْ كَفَّ عَنْهُ، حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ بَرَاءة<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، حَتَّى قَالَ: هَذِهِ مَسْخُوحَةٌ

(١) الطبري: ٥٥٤/٣ إسناد ضعيف العوفي مع عائلته كلهم ضعفاء (٢) عبد الرزاق: ١٥٦/٤ (٣) الحاكم: ٤٢٣/١ (٤) الفتح: ٣١/٨ (٥) مسند الطيالسي: ٩٨ (٦) ابن أبي حاتم غ: ٤٠١/١ (٧) الطبري: ٥٦١/٣ (٨) الطبري: ٥٦٢/٣

إِلَّا أَنْ يَبْدُؤَكُمْ بِالْقِتَالِ فِيهِ، فَلَكُمْ حِتِّئِدْ قِتَالُهُمْ وَقِتَالُهُمْ دَفْعًا لِلصَّائِلِ، كَمَا بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى الْقِتَالِ، لَمَّا تَأَلَّثَ عَلَيْهِ بُطُونُ قُرَيْشٍ وَمَنْ وَالَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءٍ نَقِيفٍ وَالْأَحْيَاءِ عَامِئِدْ، ثُمَّ كَفَّ اللَّهُ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنصِبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ فَإِنْ تَرَكُوا الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ، وَأَنَابُوا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْبَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي حَرَمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ لِمَنْ تَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ.

### [الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً]

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أَيْ شِرْكٌ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ<sup>(١)</sup>. ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ أَيْ يَكُونُ دِينُ اللَّهِ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: سِئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حِمَّةً وَيُقَاتِلُ رِبَاءً، أَيْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: فَإِنْ أَنْهَوْا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرْكِ وَقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ فَكُفُّوا عَنْهُمْ، فَإِنْ مَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ أَنْ لَا

فِي ذَلِكَ ارْتِكَابُ الْمَنَاهِي - كَمَا قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - مِنَ الْمُتَمَلُّةِ وَالْعُلُولِ وَقَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ وَالشُّوْخِ، الَّذِينَ لَا رَأْيَ لَهُمْ وَلَا قِتَالَ فِيهِمْ، وَالرُّهْبَانَ وَأَصْحَابِ الصَّوَامِعِ، وَتَحْرِيقِ الْأَشْجَارِ، وَقَتْلِ الْحَيَوَانَ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ. كَمَا قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُهُمْ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ بُرَيْدَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «أَغْرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، أَغْرُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدَرُوا، وَلَا تَمْثَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ»<sup>(٤)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: وَجِدْتُ امْرَأَةً فِي بَعْضِ مَعَارِزِ النَّبِيِّ ﷺ مَقْتُولَةً، فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ<sup>(٥)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

### [الشَّرْكُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ]

وَلَمَّا كَانَ الْجِهَادُ فِيهِ إِزْهَاقُ النَّفْسِ وَقَتْلُ الرِّجَالِ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَالشَّرْكِ بِهِ، وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ، أَبْلَغُ وَأَشَدُّ وَأَعْظَمُ وَأَطْمُ مِنَ الْقَتْلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ قَالَ أَبُو مَالِكٍ: أَيْ مَا أَنْتُمْ مُقِيمُونَ عَلَيْهِ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكْرَمَةُ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يَقُولُ: الشَّرْكُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ.

### [حُرْمَةُ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ، وَجَوَازُ دَفْعِ الصَّائِلِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْصَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ»<sup>(٧)</sup>. يَعْنِي بِذَلِكَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قِتَالَهُ أَهْلَهَا يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ، فَإِنَّهُ فَتَحَهَا عَنُوَّةً، وَقَتَلَتْ رِجَالَ مِنْهُمْ عِنْدَ الْخَنْدَمَةِ، وَقَدْ آمَنَهُمْ بِقَوْلِهِ: «مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

(١) مسلم: ١٣٥٧/٣ (٢) فتح الباري: ١٧٢/٦ ومسلم: ٣/

١٣٦٤ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٤١٢/١ (٤) فتح الباري: ٦/

٣٢٧ ومسلم: ٩٨٦/٢ ٩٨٧ (٥) أحمد: ٢٩٢/٢ (٦) ابن أبي

حاتم غ: ٤١٥-٤١٦ (٧) فتح الباري: ١٣/٤٥٠ ومسلم:

١٥١٣/٣ (٨) فتح الباري: ٥٩٢/١ ومسلم: ٥٣/١

## [حُرْمَةُ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ إِلَّا إِذَا بَدَأَ الْعَدُوُّ بِالْقِتَالِ فِيهَا]

قَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَمِقْسَمٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطَاءٌ وَغَيْرُهُمْ: لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُعْتَمِرًا فِي سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَحَبَسَهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الدُّخُولِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، وَصَدُّوه بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَهُوَ شَهْرٌ حَرَامٌ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى الدُّخُولِ مِنْ قَابِلٍ، فَدَخَلَهَا فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ هُوَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَقَصَّهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَزَلَّتْ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ: «الْقَهْرُ الْحَرَمُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْمَرْمَتِ فِصَاصٌ»<sup>(١)</sup> وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُغْزَوُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، إِلَّا أَنْ يُغْزَى - [أَوْ] يُغْزَوْا - فَإِذَا حَضَرَهُ أَقَامَ حَتَّى يَسْلُخَ. هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ<sup>(٢)</sup>.

وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ مُحَيَّمٌ بِالْحَدِيثِيَّةِ أَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ فِي رِسَالَةٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، بِأَبْعِ أَصْحَابِهِ، وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ، تَحْتَ الشَّجَرَةِ، عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ لَمْ يُقْتَلْ، كَفَّ عَنْ ذَلِكَ، وَجَنَحَ إِلَى الْمُسَالَمَةِ وَالْمُصَالَحَةِ، فَكَانَ مَا كَانَ.

وَكَذَلِكَ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ قِتَالِ هَوَازِنَ يَوْمَ حُثَيْنَ، وَتَحَصَّنَ فَلَهُمْ بِالطَّائِفِ، عَدَلَ إِلَيْهَا فَحَاصَرَهَا، وَدَخَلَ ذُو الْقَعْدَةِ وَهُوَ مُحَاصِرٌ لَهَا بِالْمُنَجَّبِيَّةِ، وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهَا إِلَى كَمَالِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا<sup>(٣)</sup>. كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ، فَلَمَّا كَثُرَ الْقَتْلُ فِي أَصْحَابِهِ انْصَرَفَ عَنْهَا وَلَمْ تُفْتَحْ، ثُمَّ كَرَّ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ وَاعْتَمَرَ مِنَ الْجِعْرَانَةِ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُثَيْنَ، وَكَانَتْ عُمُرُهُ هَذِهِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ أَيْضًا عَامَ ثَمَانٍ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ» أَمْرٌ بِالْعُدْلِ حَتَّى فِي الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ: «وَلِنْ عَاقِبَتُهُ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِثَتْ بِهِ»<sup>(٥)</sup> [النحل: ١٢٦] وَقَوْلُهُ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» أَمْرٌ لَهُمْ بِطَاعَةِ

يُتَّقَلِ إِلَّا مَنْ قَاتَلَ<sup>(٦)</sup>. أَوْ يَكُونُ تَقْدِيرُهُ: فَإِنْ انْتَهَوْا فَقَدْ تَخَلَّصُوا مِنَ الظُّلْمِ، وَهُوَ الشَّرْكُ، فَلَا عُدْوَانَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَالْمَرَادُ بِالْعُدْوَانِ هَهُنَا الْمُعَاقِبَةُ وَالْمُقَاتَلَةُ، كَقَوْلِهِ: «فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ» [١٩٤] وَقَوْلِهِ: «وَجَزَاؤُا سِنَتِهِ سِنَتُهُ مِثْلُهَا» [الشورى: ٤٠] «وَلِنْ عَاقِبَتُهُ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِثَتْ بِهِ» [النحل: ١٢٦] وَلِهَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: الظَّالِمُ الَّذِي أَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ تَحْتَ قَوْلِهِ: «وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُوا فِتْنَةً»... الْآيَةَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَنَا هُجْرَانِي فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ ضَيَّعُوا، وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ وَصَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ فَقَالَ يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ دَمَ أَخِي، قَالَا: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: «وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُوا فِتْنَةً»؟ فَقَالَ: قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةً، وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونُوا فِتْنَةً، وَيَكُونُ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ.

وَزَادَ عُثْمَانُ بْنُ صَالِحٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى ابْنَ عُمَرَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَحْجَّ عَامًا وَتَعْتَمِرَ عَامًا، وَتَتْرَكَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ عِلْمَتُ مَا رَغِبَ اللَّهُ فِيهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، بُيِّئَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَادَاءُ الزَّكَاةِ، وَحُجُّ الْبَيْتِ.

قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: «وَلِنْ طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَكُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا إِلَى تَبَئِي حَتَّى تَقِءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» [الحجرات: ٩] «وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونُوا فِتْنَةً» قَالَ: فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا، فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ، إِمَّا قَتَلُوهُ أَوْ عَذَّبُوهُ، حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ، فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً. قَالَ: فَمَا قَوْلُكَ فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ؟ قَالَ: أَمَّا عُثْمَانُ فَكَانَ اللَّهُ عَفَا عَنْهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَكَرِهْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ. وَأَمَّا عَلِيٌّ فَأَبْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَتَنُهُ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ، فَقَالَ: هَذَا بَيْنُهُ حَيْثُ تَرَوْنَ<sup>(٨)</sup>.

«الْقَهْرُ الْحَرَمُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْمَرْمَتِ فِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ» وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٦﴾

(١) الطبري: ٥٨٤/٣ (٢) الطبري: ٥٧٣/٣ (٣) فتح الباري: ٣٢/٨ وهو عند أحمد: ٣٤٥/٣ (٤) الطبري: ٥٧٦/٣ و٥٧٧/٣ (٥) أحمد: ٣٤٥/٣ (٦) إنما كمل أربعون يومًا من يوم وقعة حنين إلى يوم رجوعه ﷺ من الجعرانة إلى المدينة. (٧) فتح الباري: ٧٠١/٣ ومسلم: ٩١٦/٢

اللَّهُ وَتَقَوَاهُ، وَإِخْبَارُ بَأَنَّهُ تَعَالَى مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِالنَّصْرِ  
وَالثَّابِتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥)

[الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ حُذَيْفَةَ ﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا  
بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي الثَّقَفَةِ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي  
حَاتِمٍ مِثْلَهُ، قَالَ: وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ  
وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٍ، وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ  
وَالسُّدِّيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَقَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ أَسْلَمَ  
أَبِي عِمْرَانَ، قَالَ: حَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ  
عَلَى صَفِّ الْعَدُوِّ حَتَّى خَرَقَهُ، وَمَعَنَا أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ،  
فَقَالَ نَاسٌ: أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: نَحْنُ  
أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، إِنَّمَا نَزَلَتْ فِينَا، صَحَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
وَشَهِدْنَا مَعَهُ الْمَشَاهِدَ وَنَصَرْنَاهُ، فَلَمَّا فَشَا الْإِسْلَامُ وَظَهَرَ،  
اجْتَمَعْنَا مَعَشَرَ الْأَنْصَارِ نَجِيًّا فَقُلْنَا: قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِصُحْبَةِ  
نَبِيِّهِ ﷺ وَنَصْرِهِ، حَتَّى فَشَا الْإِسْلَامُ وَكَثُرَ أَهْلُهُ، وَكُنَّا قَدْ  
أَتَرْنَاهُ عَلَى الْأَهْلِيْنَ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَقَدْ وَضَعَتْ  
الْحَرْبُ أَوْرَارَهَا، فَنَرْجِعُ إِلَى أَهْلِينَا وَأَوْلَادِنَا، فَتَقِيمُ  
فِيهِمَا، فَتَزَلْ فِينَا: ﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى  
التَّهْلُكَةِ﴾، فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَتَرْكُ  
الْجِهَادِ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَعَبْدُ بْنُ  
حُمَيْدٍ، فِي تَفْسِيرِهِ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ  
مَرْدُوَيْهِ وَالْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْتَدْرَكِهِ، وَابْنُ حَبَّانَ فِي  
صَحِيحِهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ  
صَحِيحٌ غَرِيبٌ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ  
يُخْرِجَاهُ.

وَلَفِظَ أَبِي دَاوُدَ عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ: كُنَّا  
بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى أَهْلِ  
الشَّامِ رَجُلٌ - يُرِيدُ: فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ - فَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ  
صَفٌّ عَظِيمٌ مِنَ الرُّومِ، فَصَفَّفْنَا لَهُمْ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ عَلَى الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا،  
فَصَاحَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى  
التَّهْلُكَةِ، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ لَتَتَأَوَّلُونَ  
هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى غَيْرِ التَّأْوِيلِ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِينَا مَعَشَرَ

الْأَنْصَارِ، إِنَّمَا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، قُلْنَا فِيمَا  
يَبَيِّنُ: لَوْ أَقْبَلْنَا عَلَى أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَاهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ  
الْآيَةَ<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّيِّعِيِّ،  
قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: إِنْ حَمَلْتُ عَلَى الْعَدُوِّ  
وَحَدَيْ فَقَتَلُونِي، أَكُنْتُ أَلْقَيْتُ بِيَدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ؟ قَالَ:  
لَا، قَالَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ: ﴿فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا  
نَفْسُكَ﴾ [النساء: ٨٤] وَإِنَّمَا هَذِهِ فِي الثَّقَفَةِ. رَوَاهُ ابْنُ  
مَرْدُوَيْهِ وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى  
شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، وَرَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَفَيْسُ بْنُ  
الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ. فَذَكَرَهُ، وَقَالَ بَعْدَ قَوْلِهِ:  
﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ [النساء: ٨٤]، وَلَكِنْ التَّهْلُكَةُ أَنْ  
يُذَيَّبَ الرَّجُلُ الذَّنْبَ فَيُلْقِيَ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَلَا يُتَوَبُّ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ فِي الْقِتَالِ،  
إِنَّمَا هُوَ فِي الثَّقَفَةِ: أَنْ تُمَسِكَ بِيَدِكَ عَنِ الثَّقَفَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
- وَلَا تُلْقِ بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ -.

وَمَضْمُونُ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فِي سَائِرِ  
وُجُوهِ الْقُرْبَاتِ وَوُجُوهِ الطَّاعَاتِ، وَخَاصَّةً صَرْفُ الْأَمْوَالِ  
فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ، وَبَذْلُهَا فِيمَا يَقْوَى بِهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى  
عَدُوِّهِمْ. وَالْإِخْبَارُ عَنْ تَرْكِ فِعْلِ ذَلِكَ بِأَنَّهُ: هَلَاكٌ وَدَمَارٌ،  
لِمَنْ لَزِمَهُ وَاعْتَادَهُ. ثُمَّ عَطَفَ بِالْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ، وَهُوَ أَعْلَى  
مَقَامَاتِ الطَّاعَةِ، فَقَالَ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَنِيمُوا أَلْجَ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا  
تَحْلِفُوا بِرُءُوسِكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى  
مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِنْ تَمَنَّعَ  
بِالْعَمْرَةِ إِلَى الْجَ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي  
الْجَ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَمْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا  
حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ (١٩٦)

[الْأَمْرُ بِاتِّمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَحْكَامَ الصِّيَامِ، وَعَطَفَ بِذِكْرِ الْجِهَادِ،

(١) فتح الباري: ٣٣/٨ (٢) تحفة الأحوذى: ٣١١/٨ والنسائي  
في الكبرى: ٢٩٩/٦ وابن أبي حاتم غ: ٤٢٤/١ والطبري: ٣/  
٥٩٠ وصحيح ابن حبان: ١٠٥/٧ والحاكم: ٧٧٥/٢ (٣) أبو  
داود: ٢٧/٣

وَأَرْبَعَاثَةً، وَكَانَ مِنْهُمْ بِالْحُدَيْبِيَّةِ خَارِجَ الْحَرَمِ، وَقِيلَ: بَلْ كَانُوا عَلَى طَرَفِ الْحَرَمِ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالْحَضْرُ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَعْدُو أَوْ مَرَضٍ أَوْ ضَلَالٍ - وَهُوَ التَّوَهُانُ عَنِ الطَّرِيقِ - أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كُسِرَ أَوْ عَرِجَ فَقَدْ حَلَّ وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى» قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَا: صَدَقَ<sup>(٨)</sup>. وَأَخْرَجَهُ أَصْحَابُ الْكُتُبِ الْأَرْبَعَةِ<sup>(٩)</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَه: «مَنْ عَرِجَ أَوْ كُسِرَ أَوْ مَرَضَ... فَذَكَرَ مَعْنَاهُ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(١١)</sup> ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَعَلْقَمَةَ، وَسَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدٍ وَالتَّحِيصِيِّ، وَعَطَاءٍ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبِيبٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْإِحْصَارُ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ مَرَضٍ أَوْ كُسِرٍ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: الْإِحْصَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آذَاهُ<sup>(١٣)</sup>.

وَبُكِّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ الْحَجَّ وَأَنَا شَاكِيَّةٌ، فَقَالَ: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنْ مَحَلِّي حَيْثُ حَبَسْتِي»<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِمِثْلِهِ<sup>(١٥)</sup>. فَصَحَّ الْإِشْتِرَاطُ فِي الْحَجِّ لِهَذَا الْحَدِيثِ.

وَقَوْلُهُ: «فَمَا اسْتَسَرَّ مِنَ الْهَدْيِ» رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «فَمَا اسْتَسَرَّ مِنَ الْهَدْيِ»: شَأْنُ<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْهَدْيُ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعْزِ وَالضَّأْنِ<sup>(١٧)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «فَمَا اسْتَسَرَّ مِنَ الْهَدْيِ» قَالَ: يَقْدَرُ بِسَارِيَتِهِ<sup>(١٨)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنْ كَانَ مُوسِرًا فَمِنَ الْإِبِلِ، وَإِلَّا فَمِنَ الْبَقَرِ، وَإِلَّا

شَرَعَ فِي بَيَانِ الْمَنَاسِكِ فَأَمَرَ بِإِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَظَاهِرُ السِّيَاقِ إِكْمَالُ أَفْعَالِهِمَا بَعْدَ الشُّرُوعِ فِيهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: «فَإِنْ أَهْضَرْتُمْ» أَيِ صُدِّدْتُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، وَمُنِعْتُمْ مِنْ إِتْمَامِهِمَا، وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الشُّرُوعَ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مُلْزِمٌ. وَقَالَ مَكْحُولٌ: إِتْمَامُهُمَا: إِنِشَاؤُهُمَا جَمِيعًا مِنَ الْمَقَاتِ<sup>(١٩)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: بَلَّغْنَا أَنَّ عُمَرَ قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ: «وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» مِنْ تَمَامِهِمَا: أَنْ تُفْرَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْآخَرِ، وَأَنْ تُتَمَرَّ فِي غَيْرِ أَشْهُرِ الْحَجِّ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ»<sup>(٢٠)</sup> [البقرة: ١٩٧].

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: «وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» أَيِ أَقِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ<sup>(٢١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْحَجُّ: عَرَفَةُ، وَالْعُمْرَةُ الطَّوْفُ<sup>(٢٢)</sup>. وَكَذَا رَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ فِي قَوْلِهِ: «وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ»، قَالَ: هِيَ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ: (وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ) لَا يُجَاوِزُ بِالْعُمْرَةِ الْبَيْتَ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: كَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ<sup>(٢٣)</sup>. وَقَالَ سُفْيَانُ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ أَنَّهُ قَالَ: (وَأَقِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ)<sup>(٢٤)</sup>. وَكَذَا رَوَى الثَّوْرِيُّ أَيْضًا، عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ مَثُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، أَنَّهُ قَرَأَ: (وَأَقِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ). [إِذَا أَحْصَرَ الْمُحْرَمُ فِي الطَّرِيقِ فَلْيَذْبَحْ وَلْيَحْلِقْ رَأْسَهُ وَيَتَحَلَّلْ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ أَهْضَرْتُمْ فَمَا اسْتَسَرَّ مِنَ الْهَدْيِ» ذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي سَنَةِ سِتٍّ، أَيِ عَامِ الْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ حَالَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ سُورَةَ الْفَتْحِ بِكَمَالِهَا، وَأَنْزَلَ لَهُمْ رُخْصَةً أَنْ يَذْبَحُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْهَدْيِ، وَكَانَ سَبْعِينَ بَدَنَةً، وَأَنْ يَحْلِقُوا رُؤُوسَهُمْ، وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا مِنْ إِحْرَامِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَحْلِقُوا رُؤُوسَهُمْ وَيَتَحَلَّلُوا، فَلَمْ يَفْعَلُوا إِتِّظَارًا لِلنَّشِخِ، حَتَّى خَرَجَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ فَقَعَلَ النَّاسُ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَرَ رَأْسَهُ وَلَمْ يَحْلِقْهُ، فَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحْلِقِينَ» قَالُوا: وَالْمَقْصُرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ فِي النَّالِيَةِ: «وَالْمَقْصُرِينَ»<sup>(٢٥)</sup>. وَقَدْ كَانُوا اشْتَرَكُوا فِي هَدْيِهِمْ ذَلِكَ كُلِّ سَبْعَةٍ فِي بَدَنَةٍ، وَكَانُوا أَلْفًا

(١) ابن أبي حاتم غ: ٤٣٧/١ (٢) أيضًا: ٤٣٧/١ (٣) الطبري: ١٢/٤ (٤) ابن أبي حاتم: ٤٣٩/١ (٥) الطبري: ٤/٧ (٦) الطبري: ٧/٤ (٧) مسلم: ٩٤٦/٢ (٨) أحمد: ٣/٤٥٠ (٩) تحفة الأحوذى: ٨/٤ والنسائي: ١٩٨/٥ (١٠) أبو داود: ٤٣٤/٢ وابن ماجه: ١٠٢٨/٢ (١١) ابن أبي حاتم غ: ٤٤٤/١ (١٢) ابن أبي حاتم غ: ٤٤٥/١ (١٣) أيضًا: ١/٤٤٥ (١٤) فتح الباري: ٣٤/٩ (١٥) مسلم: ٨٦٨/٢ (١٦) الموطأ: ٣٨٥/١ (١٧) ابن أبي حاتم غ: ٤٥٠/١ (١٨) ابن أبي حاتم غ: ٤٥١/١

قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاخْلِقْهُ، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينٍ، أَوْ انْسُكْ نَسِيكَةً»، قَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِي بِأَيِّتِهِنَّ بَدَأُ<sup>(٦)</sup>. وَلَمَّا كَانَ لَفْظُ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ الرُّحْصَةِ جَاءَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ «فَفِدْيَةُ مَن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ شُكْرٍ» وَلَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ بِذَلِكَ أَرْشَدَهُ إِلَى الْأَفْضَلِ فَالْأَفْضَلِ، فَقَالَ: انْسُكْ شَاءَ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينٍ، أَوْ صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَكُلُّ حَسَنٍ فِي مَقَامِهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

### [بَيَانُ التَّمَتُّعِ فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا أَمِنْتُمْ مَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ مَا اسْتَيْسَرَ مَن الْهَدْيِ» أَيِ إِذَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ أَدَاءِ الْمَنَاسِكَ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَمَتِّعًا بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، وَهُوَ يَشْمَلُ مَنْ أَحْرَمَ بِهِمَا، أَوْ أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ أَوَّلًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَحْرَمَ بِالْحَجِّ، وَهَذَا هُوَ التَّمَتُّعُ الْخَاصُّ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْفُقَهَاءِ، وَالتَّمَتُّعُ الْعَامُّ يَشْمَلُ الْقِسْمَيْنِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ، فَإِنَّ مِنَ الرِّوَاةِ مَنْ يَقُولُ: تَمَتَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَآخَرُ يَقُولُ: قَرَنَ. وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ سَأَلَ الْهَدْيَ.

وَقَالَ تَعَالَى: «فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ مَا اسْتَيْسَرَ مَن الْهَدْيِ» أَيِ فَلْيَذْبَحْ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَدْيِ، وَأَقْلَهُ شَاءَ، وَلَهُ أَنْ يَذْبَحَ الْبَقَرَةَ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَبَحَ عَنْ نِسَائِهِ الْبَقَرَةَ. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَبَحَ الْبَقَرَةَ عَنْ نِسَائِهِ وَكَرَّرَ مُتَمَتِّعَاتٍ<sup>(٧)</sup>. رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ مَرْذُودٍ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّمَتُّعِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: نَزَلَتْ آيَةُ الْمُتَمَتِّعِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَفَعَلْنَاهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْزِلْ قُرْآنٌ يُحَرِّمُهَا وَلَمْ يَنْهَ عَنْهَا، حَتَّى مَاتَ، قَالَ رَجُلٌ بِرَأْيِهِ مَا شَاءَ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: يَقَالُ: إِنَّهُ عُمَرُ<sup>(٨)</sup>.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْبُخَارِيُّ قَدْ جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَنْهَى النَّاسَ عَنِ التَّمَتُّعِ وَيَقُولُ: إِنَّ نَاخِذَ بِكِتَابِ اللَّهِ يَأْمُرُ بِالتَّمَامِ، يَعْنِي قَوْلَهُ: «وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» وَفِي نَفْسِ

فَمِنَ الْغَنَمِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُزُورَةَ عَنْ أَبِيهِ «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» قَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ فِيمَا بَيْنَ الرُّحْصِ وَالْغَلَاءِ<sup>(٢)</sup>.

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ إِجْرَاءِ ذَبْحِ الشَّاةِ فِي الْإِحْصَارِ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ ذَبْحَ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، أَيْ مَهْمَا تَيْسَّرَ مِمَّا يُسَمَّى هَدْيًا، وَالْهَدْيُ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، كَمَا قَالَه الْحَبَرُ الْبَحْرُ تَرْجَمَانُ الْقُرْآنِ وَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَهْدَى النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً غَنَمًا<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ» مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» وَلَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ: «فَإِنْ أَحْضَرْتُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» كَمَا زَعَمَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمَّا حَضَرَهُمْ كَثَارٌ قُرْبَشٍ عَنِ الدُّخُولِ إِلَى الْحَرَمِ، حَلَفُوا وَذَبَحُوا هَدْيَهُمْ خَارِجَ الْحَرَمِ، فَأَمَّا فِي خَالِ الْأَمْنِ وَالْوُضُوءِ إِلَى الْحَرَمِ فَلَا يَجُوزُ الْحَلْقُ «حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ» وَيَفْرُغُ النَّاسُ مِنْ أَفْعَالِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ إِنْ كَانَ قَارِنًا، أَوْ مِنْ فِعْلٍ أَحَدِهِمَا إِنْ كَانَ مُفْرَدًا أَوْ مُتَمَتِّعًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حَفْصَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا شَأْنُ النَّاسِ حَلُّوا مِنَ الْعُمْرَةِ، وَلَمْ تَحِلَّ أَنْتَ مِنْ عُمْرَتِكَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي لَبَدْتُ رَأْسِي وَقَلَدْتُ هَدْيِي، فَلَا أَجِلُ حَتَّى أَنْحَرُ»<sup>(٤)</sup>.

### [مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ مُحْرِمًا وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْفِدْيَةُ]

وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرْبِطًا أَوْ يَدٌ أَدَى مِنْ رَأْسِهِ فِدْيَةً مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ شُكْرٍ» رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَصْبَهَانِيِّ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَعْقِلٍ قَالَ: قَعَدْتُ إِلَى كَعْبِ ابْنِ عُجْرَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْكُوفَةِ - فَسَأَلْتُهُ عَنْ فِدْيَةِ مَنْ صِيَامَ، فَقَالَ: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَالْقَمْلُ يَنْتَابِرُ عَلَى وَجْهِ، فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْجَهْدَ بَلَغَ بِكَ هَذَا، أَمَا تَجِدُ شَاءَ؟» قُلْتُ: لَا، قَالَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينٍ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاخْلِقْ رَأْسَكَ» فَتَزَلَّتْ فِيَّ خَاصَّةٌ وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةٌ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: أَتَى عَلِيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أَوْقَدُ تَحْتَ قَدْرِ، وَالْقَمْلُ يَنْتَابِرُ عَلَى وَجْهِ، أَوْ قَالَ: حَاجِبِي، فَقَالَ: «يُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟»

(١) الطبري: ٣٠/٤ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٤٥٢/١ (٣) فتح الباري: ٦٣٩/٣ ومسلم: ٩٥٨/٢ (٤) فتح الباري: ٤٩٣/٣ ومسلم: ٩٠٢/٢ (٥) فتح الباري: ٣٤/٨ (٦) أحمد: ٤/٢٤١ (٧) أبو داود: ٣٦٢/٢ (٨) فتح الباري: ٣٤/٨ ومسلم: ٩٠٠/٢



الْحَجُّ الْمَكْرُومُ

٣١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ  
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ  
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَاتَّقُوا  
يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ  
تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ  
عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ  
وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ  
لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ  
النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ تَابُوا اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾  
فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ  
آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنِ الْكَاسِ مِنْ  
يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ  
خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا  
حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾  
أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

النَّاسُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، فَكَانَ مِنْ  
النَّاسِ مَنْ أَهْدَى فَسَاقَ الْهَدْيَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُهْدِ، فَلَمَّا  
قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ قَالَ لِلنَّاسِ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى فَإِنَّهُ  
لَا يَحِلُّ مِنْ شَيْءٍ حَرُمٌ مِنْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ  
مِنْكُمْ أَهْدَى فَلْيُطْفِئِ بِالْبَيْتِ وَبِالضُّفَى وَالْمَرْوَةِ وَلْيَقْصُرْ  
وَلْيَحْلِلْ، ثُمَّ لِيَهْلِ بِالْحَجِّ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ  
أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ». وَذَكَرَ تَمَامَ  
الْحَدِيثِ، وَالْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٨).

وَقَوْلُهُ: «تِلْكَ عَتْرَةٌ كَامِلَةٌ» قِيلَ: تَأْكِيدٌ، كَمَا تَقُولُ  
الْعَرَبُ: رَأَيْتُ بَعِيْنِي، وَسَمِعْتُ بِأُذُنِي، وَكَتَبْتُ بِيَدِي،  
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَا طَلِيْرٌ يَطْلِيْرُ بِحَاجَتِهِ» [الأنعام: ٣٨]  
وَقَالَ: «وَلَا تَخْطُطُ بِسِمْنِكَ» [العنكبوت: ٤٨] وَقَالَ:

(١) الطبري: ٩٧/٤ (٢) الطبري: ٩٥/٤ (٣) الطبري: ٤/٤  
٩٤ (٤) الطبري: ٩٨-٩٩/٤ (٥) مسلم: ٨٠٠/٢ (٦) عبد  
الرزاق: ٧٦/١ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٤٩٨/٢ (٨) فتح  
الباري: ٦٣٠/٣ ومسلم: ٩٠١/٢

الْأَمْرِ لَمْ يَكُنْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَنْهَى عَنْهَا مُحَرَّمًا لَهَا،  
إِنَّمَا كَانَ يَنْهَى عَنْهَا لِيَكْثُرَ قَصْدُ النَّاسِ لِلْبَيْتِ حَاجِينَ  
وَمُعْتَمِرِينَ، كَمَا قَدْ صَرَّحَ بِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَتَمِّعَ الْهَدْيَ فَلْيَصُمْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ]

وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ  
تِلْكَ عَتْرَةٌ كَامِلَةٌ» يَقُولُ تَعَالَى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلْيَصُمْ  
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، أَيْ فِي أَيَّامِ الْمَنَاسِكِ، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِذَا لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلْيَعْلِهِ صِيَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي  
الْحَجِّ قَبْلَ يَوْمِ عَرَفَةَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ الثَّلَاثِ، فَقَدْ تَمَّ  
صَوْمُهُ، وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ (١). وَكَذَا رَوَى أَبُو  
إِسْحَاقَ عَنْ وَثْرَةَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: يَصُومُ يَوْمًا قَبْلَ  
التَّوْبَةِ، وَيَوْمَ التَّوْبَةِ، وَيَوْمَ عَرَفَةَ (٢). وَكَذَا رَوَى جَعْفَرُ بْنُ  
مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيٍّ أَيْضًا (٣).

فَلَوْ لَمْ يَصُمْهَا أَوْ بَعْضَهَا قَبْلَ الْعِيدِ، يَجُوزُ أَنْ يَصُومَهَا  
فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، لِقَوْلِ عَائِشَةَ وَابْنِ عُمَرَ فِي صَحِيحِ  
الْبُخَارِيِّ: لَمْ يُرَخَّصْ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصُمْ إِلَّا لِمَنْ  
لَمْ يَجِدِ الْهَدْيَ. وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ  
عَنْ عَلِيٍّ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَنْ فَاتَهُ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي  
الْحَجِّ، صَامَهُنَّ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ، وَبِهَذَا يَقُولُ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ  
الَلَيْثِيُّ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ (٤).  
وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِعُمُومِ قَوْلِهِ: «فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ» وَأَمَّا  
مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ قُتَيْبَةَ الْهَذَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامٌ أَكُلَ وَشَرِبَ، وَذَكَرَ اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ» (٥) فَهَذَا غَاثٌ وَرَوَايَةُ عَائِشَةَ وَابْنِ عُمَرَ مَخْصُوصَةٌ  
مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: «وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ» فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا إِذَا  
رَجَعْتُمْ إِلَى رِحَالِكُمْ، الثَّانِي: إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أوطَانِكُمْ،  
رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَالِمٍ، سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: «فَمَنْ لَمْ  
يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ» قَالَ: إِذَا رَجَعَ إِلَى  
أَهْلِهِ (٦). وَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ  
وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَفَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ وَالرَّبِيعُ  
ابْنُ أَنَسٍ (٧).

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ  
قَالَ: تَمَنَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِالْعُمْرَةِ إِلَى  
الْحَجِّ، وَأَهْدَى، فَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ، وَبَدَأَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاهْلًا بِالْعُمْرَةِ، ثُمَّ أَهْلًا بِالْحَجِّ، فَتَمَنَّعَ

أَشْهُرَ الْحَجِّ؟ فَقَالَ: لَا<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا الْمُؤَفُّوفُ أَصَحُّ وَأَثْبَتُ مِنَ الْمُزْفُوعِ، وَيَبْنِي جَيْتُذَ مَذْهَبُ صَحَابِيٍّ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ، مِنَ السَّنَةِ: أَنْ لَا يُحْرَمَ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِهِ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

### [أَشْهُرُ الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: «أَشْهُرُ مَعْلُومَتٌ» قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: هِيَ سُؤَالٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا الَّذِي عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ بِصِغَةِ الْجَزْمِ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مَوْصُولًا عَنْ ابْنِ عُمَرَ: «الْحَجُّ أَشْهُرُ مَعْلُومَتٌ» قَالَ: سُؤَالٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ. إِسْنَادٌ صَحِيحٌ<sup>(٨)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ أَيْضًا فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ: هُوَ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ<sup>(٩)</sup>.

(قُلْتُ) وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَمُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ، وَمَكْحُولٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ<sup>(١٠)</sup>. وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلُ ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: وَصَحَّ إِطْلَاقُ الْجَمْعِ عَلَى شَهْرَيْنِ وَبَعْضِ الثَّلَاثِ لِلتَّغْلِيْبِ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: زُرْتُهُ الْعَامَ وَرَأَيْتُهُ الْيَوْمَ، وَإِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْعَامِ وَالْيَوْمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» [البقرة: ٢٠٣] وَإِنَّمَا تَعَجَّلَ فِي يَوْمٍ وَنَضَفَ يَوْمٌ<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ رَضَ فِيهِكَ الْحَجُّ» أَيُّ أَوْجَبَ بِإِخْرَاجِهِ حَجًّا، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى لُزُومِ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ وَالْمُضِيِّ فِيهِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْفَرْضِ هَهُنَا الْإِيجَابُ وَالْإِلْزَامُ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «فَمَنْ رَضَ فِيهِكَ الْحَجُّ» يَقُولُ: مَنْ أَحْرَمَ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، وَقَالَ عَطَاءٌ: الْفَرْضُ الْإِحْرَامُ<sup>(١٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١٤)</sup>.

«وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَتَ رَبِّهِ» [الاعراف: ١٤٢] وَقِيلَ: مَعْنَى «كَامِلَةً»، الْأَمْرُ بِإِكْمَالِهَا وَإِتْمَامِهَا.

### [لَا يَتَمَتَّعُ أَهْلُ مَكَّةَ]

وَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» حَاضِرُوهُ: هُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ، فَلَا مُتَمَتَّعٌ لَهُمْ. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ: أَلْتَمَعَةُ لِلنَّاسِ - لَا لِأَهْلِ مَكَّةَ - مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ مِنَ الْحَرَمِ. وَكَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» قَالَ: وَتَلَعْنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلُ قَوْلِ طَاوُسٍ<sup>(١٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَأَتَقُوا اللَّهَ» أَيُّ فِيْمَا أَمَرَكُمْ وَمَا نَهَاكُمْ. «وَاتَّقُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» أَيُّ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَارْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجَرُهُ.

«الْحَجُّ أَشْهُرُ مَعْلُومَتٌ» فَمَنْ رَضَ فِيهِكَ الْحَجُّ فَلَا رَفْعَ وَلَا سُوءَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْهُوا فَلَا تَخَرَّ الْقَوِيُّ وَتَقْوَى بِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ<sup>(١٦)</sup> [مَتَى يُحْرَمُ لِلْحَجِّ؟]

قَوْلُهُ: «الْحَجُّ أَشْهُرُ مَعْلُومَتٌ» أَيُّ لَا يَصِحُّ الْإِحْرَامُ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِهِ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١٧)</sup> وَجَابِرٍ، وَبِهِ يَقُولُ عَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَمُجَاهِدٌ رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَالِدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ تَخْصِيصَ وَقْتِ الْحَجِّ بِأَشْهُرٍ مَعْلُومَاتٍ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ شُهُورِ السَّنَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ قَبْلُهَا، كَمِيقَاتِ الصَّلَاةِ.

وَرَوَى الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَتَّبِعِي لِأَحَدٍ أَنْ يُحْرَمَ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي شُهُورِ الْحَجِّ مِنْ أَجْلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «الْحَجُّ أَشْهُرُ مَعْلُومَتٌ»<sup>(١٨)</sup>. وَرَوَى ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَا يُحْرَمُ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ الْحَجِّ أَنْ يُحْرَمَ بِالْحَجِّ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ<sup>(١٩)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلُ الصَّحَابِيِّ: مِنَ السَّنَةِ كَذَا، فِي حُكْمِ الْمُزْفُوعِ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ، وَلَا سِيَّمَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ تَرْجُمَانُهُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثُ مُزْفُوعٍ، رَوَى ابْنُ مُزْدُوَيْهٍ عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَتَّبِعِي لِأَحَدٍ أَنْ يُحْرَمَ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ»<sup>(٢٠)</sup>. وَإِسْنَادُهُ لَا بَأْسَ بِهِ، لَكِنْ رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ مِنْ طُرُقٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُسْأَلُ: أَيُّهَلْ بِالْحَجِّ قَبْلَ

(١) الطبري: ١١١/٤ (٢) الطبري: ١١٥/٤ (٣) الأم: ١٣٢/٢

(٤) ابن خزيمة: ١٦٢/٤ (٥) ابن أبي شيبة: الجزء المفقود /

٣٦١ (٦) الأم: ١٣٢/٢ (٧) فتح الباري: ٣٤٣/٤

٤٩٠/٣ (٨) الطبري: ١١٦/٤ (٩) الحاكم: ٢٧٦/٢ (١٠)

ابن أبي حاتم غ: ٤٨٦/٢ و٤٨٧ و٤٨٨ (١١) الطبري: ٤/

١٢٠ (١٢) الطبري: ١٢١/٤ (١٣) الطبري: ١٢٣/٤ (١٤)

الطبري: ١٢٣/٤

## [الْتَهْيُ عَنِ الرَّفَثِ فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أَيُّ مَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ فَلْيَجْتَنِبِ الرَّفَثَ، وَهُوَ الْجَمَاعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الْبَيْتِ الْبَيْتِ الْبَيْتِ إِلَى بَيْتِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وَكَذَلِكَ يَحْرُمُ تَعَاطِي دَوَاعِيهِ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّقْبِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ التَّكَلُّمُ بِهِ بِحَضْرَةِ النَّسَاءِ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ: الرَّفَثُ: إِثْنَانُ النَّسَاءِ، وَالتَّكَلُّمُ بِذَلِكَ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا ذَكَرُوا ذَلِكَ بِأَفْوَاهِهِمْ. وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: الرَّفَثُ: الْجَمَاعُ وَمَا دُونَهُ مِنْ قَوْلِ الْفُحْشِ. وَكَذَا قَالَ عُمَرُو بْنُ دِينَارٍ. وَقَالَ عَطَاءُ: كَانُوا يَكْرَهُونَ الْعَرَابَةَ - وَهُوَ التَّعْرِضُ - وَهُوَ مُحْرَمٌ. وَقَالَ طَاوُسٌ: هُوَ أَنْ تَقُولَ لِلْمَرْأَةِ إِذَا حَلَلْتَ أَصَبْتِكِ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّفَثُ: غَشْيَانُ النَّسَاءِ وَالْقَبْلُ وَالْعَمْرُ، وَأَنْ يُعْرَضَ لَهَا بِالْفُحْشِ مِنَ الْكَلَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَابْنُ عُمَرَ: الرَّفَثُ غَشْيَانُ النَّسَاءِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ [و] عَطَاءُ، وَمَكْحُولٌ، وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ، وَعَطَاءُ ابْنُ يَسَارٍ، وَعَطِيَّةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالرَّبِيعُ وَالزُّهْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ، وَمَالِكُ ابْنِ أَنَسٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ، وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مَالِكٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ.

## [الْتَهْيُ عَنِ الْفُسُوقِ فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قَالَ يَفْسُقُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، هِيَ: الْمَعَاصِي. وَكَذَا قَالَ عَطَاءُ وَمُجَاهِدٌ، وَطَاوُسٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمُحَمَّدُ ابْنُ كَعْبٍ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَمَكْحُولٌ، وَابْنُ أَبَانَ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ. وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ يُونُسَ عَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ: الْفُسُوقُ: إِثْنَانُ مَعَاصِي اللَّهِ فِي الْحَرَمِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: الْفُسُوقُ هَهُنَا السَّبَابُ. وَقَدْ يَتَمَسَّكُ لِهَذَا بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: الْفُسُوقُ هَهُنَا الدَّنْبُحُ لِلْأَصْنَامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ فِتْنًا أَهْلَ لِبْنِ اللَّهِ

يَوْمَ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْفُسُوقُ: التَّنَابُؤُ بِالْأَلْقَابِ.

وَالَّذِينَ قَالُوا: الْفُسُوقُ هَهُنَا هُوَ جَمِيعُ الْمَعَاصِي الصَّوَابُ مَعَهُمْ، كَمَا نَهَى تَعَالَى عَنِ الظُّلْمِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، وَإِنْ كَانَ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ مِنْهَا عَنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ أَكْثَرُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَيْسَمُ فَلَا تَطْلُبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]. وَقَالَ فِي الْحَرَمِ: ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحَاكِمِ يُطْلَقُ ثُدُقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَزُفْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»<sup>(٤)</sup>.

## [الْتَهْيُ عَنِ الْجِدَالِ فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ الْمُرَادُ بِالْجِدَالِ الْمُخَاصَمَةُ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قَالَ: أَنْ تُمَارِيَ صَاحِبَكَ حَتَّى تُغْضِبَهُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَلِكَ رَوَى يَفْسَمُ وَالضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَعَطَاءُ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ وَمَكْحُولٌ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَعُمَرُو بْنُ دِينَارٍ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ<sup>(٧)</sup>.

## [التَّرْغِيبُ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ]

## وَأَخَذَ الرَّادِّ فِي الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ لَمَّا نَهَاكُمْ عَنْ إِثْنَانِ الْقَبِيحِ قَوْلًا وَفِعْلًا، حَثَّكُمْ عَلَى فِعْلِ الْجَمِيلِ وَأَخْبَرَكُمْ أَنَّهُ عَالِمٌ بِهِ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَزَرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرِّادِّ النَّقْوَى﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَكَزَرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرِّادِّ النَّقْوَى﴾<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى ابْنُ

(١) الطبري: ١٢٦/٤-١٢٩ (٢) ابن أبي حاتم: ٤٩٧/٢-٥٠٠  
(٣) فتح الباري: ١/١٣٥ (٤) فتح الباري: ٤/٢٥ ومسلم: ٢/٩٨٣  
(٥) الطبري: ١٤١/٤ (٦) الطبري: ١٤١/٤ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٥٠٣-٥٠٥ (٨) فتح الباري: ٣/٤٤٩ وأبو داود: ٣٤٩/٢

رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنِ الَّذِي سَأَلْتَنِي، فَلَمْ يُجِبْهُ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ مَوْلَى عُمَرَ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كُنْتُمْ تَتَجَرَّوْنَ فِي الْحَجِّ؟ قَالَ: وَهَلْ كَانَتْ مَعَايِشُهُمْ إِلَّا فِي الْحَجِّ؟<sup>(٦)</sup>

### [الْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إِنَّمَا صُرِفَ عَرَفَاتُ وَإِنْ كَانَ عِلْمًا عَلَى مُؤْتٍ، لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ جَمْعٌ، كَمُسَلِمَاتٍ وَمُؤْمِنَاتٍ، سُمِّيَ بِهِ بُقْعَةً مُعَيَّنَةً فَرُوعِيَ فِيهِ الْأَصْلُ فَصُرِفَ، إِخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٧)</sup>.

وَعَرَفَةُ مَوْضِعُ الْوُقُوفِ فِي الْحَجِّ، وَهِيَ عُمْدَةُ أَفْعَالِ الْحَجِّ، وَلِهَذَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ الدَّيْلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَجَّ عَرَفَاتُ - ثَلَاثًا - فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ، وَأَيَّامُ مَنَى ثَلَاثَةٌ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِنْهَامَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِنْهَامَ عَلَيْهِ»<sup>(٨)</sup>.

وَوَقْتُ الْوُقُوفِ مِنَ الزَّوَالِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ الثَّانِي مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الظُّهْرَ إِلَى أَنْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَقَالَ: «لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ».

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ مَضْرُسٍ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَامِ الطَّائِي، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْمُزْدَلِفَةِ حِينَ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي جِئْتُ مِنْ جَبَلِي طِيٍّ، أَكَلْتُ رَاحِلَتِي، وَأَتَيْتُ نَفْسِي، وَاللَّهُ مَا تَرَكْتُ مِنْ جَبَلٍ إِلَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَهَلْ لِي مِنْ حَجٍّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ، فَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى

جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْدُودٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانُوا إِذَا آخَرُمَا وَمَعَهُمْ أَزْوَاجُهُمْ رَمَوْا بِهَا وَاسْتَأْنَفُوا زَادًا آخَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكُذِّبُوا فَإِنَّكَ خَيْرُ الْزَادِ النَّفَقَى﴾ فَتُهَوِّ عَنْ ذَلِكَ، وَأَمِرُوا أَنْ يَتَزَوَّدُوا الدَّقِيقَ وَالسَّوِيقَ وَالْكَعْكَ<sup>(١٠)</sup>.

### [زَادَ سَفَرُ الْآخِرَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّكَ خَيْرُ الْزَادِ النَّفَقَى﴾ لَمَّا أَمَرَهُمْ بِالزَّادِ لِلْسَّفَرِ فِي الدُّنْيَا أَرْشَدَهُمْ إِلَى زَادِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ اسْتِصْحَابُ التَّقْوَى إِلَيْهَا، كَمَا قَالَ: «وَرِيشًا وَلِبَاسَ النَّفَقَى ذَلِكَ خَيْرٌ» [الأعراف: ٢٦] لَمَّا ذَكَرَ اللَّبَاسَ الْحَسَنَ نَبَهَ مُرْشِدًا إِلَى اللَّبَاسِ الْمُعْتَوِي، وَهُوَ الْخُشُوعُ وَالطَّاعَةُ وَالتَّقْوَى، وَذَكَرَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا وَأَنْفَعُ.

وَقَوْلُهُ: «وَاتَّقُوا بَنَاءَ أَوَّلِي الْأَلْبَابِ» يَقُولُ: وَاتَّقُوا عِقَابِي وَنَكَالِي وَعَذَابِي لِمَنْ خَالَفَنِي وَلَمْ يَأْتِمِرْ بِأَمْرِي، يَا ذَوِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّاكِلِينَ ﴿١٩٨﴾

### [التَّجَارَةُ فِي الْحَجِّ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَتْ عُكَاظُ وَمِجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَأْتُوا أَنْ يَتَجَرَّوْا فِي الْمَوْسِمِ، فَتَزَلَّتْ: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ)<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانُوا يَتَقَوَّنَ الْبُيُوعَ وَالتَّجَارَةَ فِي الْمَوْسِمِ وَالْحَجِّ، يَقُولُونَ: أَيَّامُ ذِكْرِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾<sup>(١٢)</sup>. وَهَكَذَا فَسَّرَهَا مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرَمَةُ وَمَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ، وَقَتَادَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُمْ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَحُجُّ وَمَعَهُ تِجَارَةٌ، فَقَرَأَ ابْنُ عُمَرَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾<sup>(١٣)</sup> وَهَذَا مَوْقُوفٌ، وَهُوَ قَوِيٌّ جَيِّدٌ. وَقَدْ رَوَى مَرْفُوعًا، رَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ التَّيْمِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نَكْرِي فَهَلْ لَنَا مِنْ حَجٍّ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، وَتَأْتُونَ الْمُعَرَفَ، وَتَرْمُونَ الْحِمَارَ، وَتَحْلِفُونَ رُؤُوسَكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ

(١) الطبري: ١٥٦/٤ (٢) فتح الباري: ٣٤/٨ (٣) أبو داود:

٣٥٠/٢ (٤) الطبري: ١٦٥/٤ (٥) أحمد: ١٥٥/٢ (٦)

الطبري: ١٦٨/٤ (٧) الطبري: ١٧١/٤ (٨) أحمد: ٣١٠/٤

وأبو داود: ٤٨٥/٢ وتحفة الأحوذى: ٦٣٣/٣ والنسائي: ٢٥٦/٥

وابن ماجه: ١٠٠٣/٢ (٩) مسلم: ٩٤٣/٢

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ سُئِلَ: كَيْفَ كَانَ يَسِيرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَفَعَ؟ قَالَ: كَانَ يَسِيرُ الْعَتَقَ، فَإِذَا وَجَدَ فُجُوءَ نَصٍّ. وَالْعَتَقُ هُوَ انْسِاطُ السَّيْرِ، وَالنَّصُّ قُوَّةٌ<sup>(٩)</sup>.

### [الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ]

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَالِمٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ الْمُرْدَلِفَةُ كُلُّهَا<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ هُشَيْمٌ عَنْ حَجَّاجٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: «فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ» قَالَ: فَقَالَ: هُوَ الْجَبَلُ وَمَا حَوْلَهُ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيَّ، وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنَسٍ، وَالْحَسَنَ، وَقَتَادَةَ أَنَّهُمْ قَالُوا: هُوَ مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ<sup>(١٢)</sup>.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «كُلُّ عَرَفَاتٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ عُرْنَةِ، وَكُلُّ مُرْدَلِفَةٍ مَوْقِفٌ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسِّرٍ، وَكُلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ مَنْحَرٌ، وَكُلُّ أَيَّامِ الشَّارِقِ ذَبْحٌ»<sup>(١٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُكُمْ» تَنْبِيهُ لَهُمْ عَلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْيَقِينِ وَالْإِشْرَادِ، إِلَى مَشَاعِرِ الْحَجِّ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْهِدَايَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْكَافِرِينَ» قِيلَ: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْهَدْيِ. وَقَبْلِ الْقُرْآنِ. وَقَبْلِ الرُّسُولِ. وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ وَمَتَلَاَزِمٌ وَصَحِيحٌ.

«ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَأَسْتَقْبِرُوا اللَّهَ إِنَّهُ بَكِيٌّ»<sup>(١٤)</sup> اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ<sup>(١٥)</sup>.

[الْأَمْرُ بِالتَّزَامِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَالْإِفَاضَةَ مِنْهَا: لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يَقِفُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ]

ثُمَّ - هَهُنَا - لِعَطْفِ خَبَرٍ عَلَى خَبَرٍ، وَتَرْتِيبِهِ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ

نَدَفَعَ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ وَقَضِيَ تَفَتُّهُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ عَرَفَاتُ لِمَارَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنِي ابْنُ جُرَيْجٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: بَعَثَ اللَّهُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ فَحَجَّ بِهِ، حَتَّى إِذَا أَتَى عَرَفَةَ قَالَ: عَرَفْتُ - وَكَانَ قَدْ أَتَاهَا مَرَّةً قَبْلَ ذَلِكَ -، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ عَرَفَةَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ عَرَفَةَ لِأَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُرِي إِبْرَاهِيمَ الْمَنَاسِكَ فَيَقُولُ: عَرَفْتُ عَرَفْتُ، فَسُمِّيَتْ عَرَفَاتٍ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى نَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٤)</sup> وَابْنِ عُمَرَ وَأَبِي مَجْلَزٍ<sup>(٥)</sup>. فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَتُسَمَّى عَرَفَاتُ: الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ، وَالْمَشْعَرُ الْأَقْصَى، وَ[إِلَّا] عَلَى وَزْنِ هَلَالٍ، وَيُقَالُ لِلْجَبَلِ فِي وَسْطِهَا: جَبَلُ الرَّحْمَةِ.

### [وَقْتُ الْإِفَاضَةِ مِنْ عَرَفَاتٍ وَمُرْدَلِفَةٍ]

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقِفُونَ بِعَرَفَةَ، حَتَّى إِذَا كَانَتِ الشَّمْسُ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ كَانَتْهَا الْعُمَائِمُ عَلَى رُؤُوسِ الرِّجَالِ دَفَعُوا، فَأَخَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّفْعَةَ مِنْ عَرَفَةَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْثُومٍ وَرَادُ: ثُمَّ وَقَفَ بِالْمُرْدَلِفَةِ وَصَلَّى الْفَجْرَ بَعْلَسَ، حَتَّى إِذَا أَشْفَرَ كُلُّ شَيْءٍ وَكَانَ فِي الْوُقُوفِ الْآخِرِ، دَفَعَ. وَهَذَا حَسَنُ الْإِسْنَادِ. وَفِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الطَّوِيلِ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، قَالَ فِيهِ: فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا - يَعْنِي بِعَرَفَةَ - حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةُ خَلْفَهُ، وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ شَقَّ لِلْقُضَاءِ الزَّمَامَ، حَتَّى إِنْ رَأَسَهَا لِيُصِيبَ مَوْرَكَ رَحْلِهِ، وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: «أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ» كُلَّمَا أَتَى حَبَلًا مِنَ الْجِبَالِ<sup>(٧)</sup> أَرَحَى لَهَا قَلِيلًا حَتَّى تَصْعَدَ حَتَّى أَتَى الْمُرْدَلِفَةَ، فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يَسْبَحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، ثُمَّ اضْطَجَعَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ الْقُضُوءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَدَعَا اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَشْفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ<sup>(٨)</sup>.

(١) أحمد: ٢٦١/٤ وأبو داود: ٤٨٦/٢ وتحفة الأحوذى: ٣/٣

٦٣٥ والنسائي: ٢٦٤/٥ وابن ماجه: ١٠٠٤/٢ (٢) عبد

الرزاق: ٩٦/٥ (٣) الطبري: ١٧٤/٤ (٤) الطبري: ١٧٣/٤

(٥) ابن أبي حاتم غ: ٥١٩/٢ (٦) ابن أبي حاتم غ: ٥١٧/٢

(٧) الكلمتان بالحاء المهملة. وهو التل اللطيف من الرمل

الضخم. وفي النهاية: قيل: الحبال في الرمل كالجبال في غير

الرمل. (٨) مسلم: ٨٨٦/٢ (٩) فتح الباري: ٦٠٥/٣ ومسلم:

٩٣٦/٢ (١٠) ابن أبي حاتم غ: ٥٢١/٢ (١١) الطبري: ٤/٤

١٧٦ (١٢) ابن أبي حاتم غ: ٥٢١/٢ و٥٢٢ (١٣) أحمد: ٤/٤

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ:  
يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي دُعَاءَ أَذْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، فَقَالَ:  
«قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ  
إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفُرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ  
الْعَفُورُ الرَّحِيمُ»<sup>(١)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ كَثِيرَةٌ.

﴿قَالُوا فَصَبِّحْهُمْ سَابِقَةً فَادْعُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ  
أَشْكَاءَ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي  
الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾<sup>(٢)</sup> وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ  
رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ  
النَّارِ﴾<sup>(٣)</sup> أَوَّلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ

الْحِسَابِ ﴿٣٢﴾

[الْأَمْرُ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَطَلَبِ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بَعْدَ  
قَضَاءِ الشُّكِّ]

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ وَالْإِكْتَارِ مِنْهُ بَعْدَ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ  
وَقَرَأِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقِفُونَ فِي الْمَوْسِمِ  
فَيَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ: كَانَ أَبِي يُطْعِمُ وَيَحْمِلُ الْحِمَالَاتِ،  
وَيَحْمِلُ الدِّيَاتِ، لَيْسَ لَهُمْ ذِكْرٌ غَيْرُ فِعَالِ آبَائِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ  
عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَاءَ  
ذِكْرًا﴾<sup>(١)</sup> وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ الْحَثُّ عَلَى كَثْرَةِ الذِّكْرِ لِلَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا كَانَ انْتِصَابُ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَشْكَاءَ ذِكْرًا﴾  
عَلَى التَّمْيِيزِ، تَفْذِيرُهُ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَاءَ [مِنْهُ] ذِكْرًا،  
و«أَوْ» - هَهُنَا - لِتَحْقِيقِ الْمُمَازَلَةِ فِي الْخَبَرِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَهِيَ  
كَالْحَبَّارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وَقَوْلُهُ: ﴿يَحْشَوْنَ النَّاسَ  
كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] «وَأَرْسَلْتَهُ إِلَى مَائِدَةِ  
أَلِفٍ أَوْ يَرْبُودَةٍ» [الصافات: ١٤٧] «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ  
أَذْنًى» [النجم: ٩] فَلَيْسَتْ هَهُنَا لِلشُّكِّ قِطْعًا، وَإِنَّمَا هِيَ  
لِتَحْقِيقِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ [بِأَنَّهُ] كَذَلِكَ أَوْ أَزِيدُ مِنْهُ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَرَشَدَ إِلَى دُعَائِهِ بَعْدَ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ فَإِنَّهُ مَطْنُهُ  
الْإِجَابَةِ، وَدَمَّ مَنْ لَا يَسْأَلُهُ إِلَّا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ وَهُوَ مُعْرِضٌ

تَعَالَى أَمَرَ الْوَاقِفَ بِعَرَفَاتٍ أَنْ يَذْفَعَ إِلَى الْمُرْدَلِفَةِ لِيَذْكُرَ اللَّهَ  
عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ وَفَوْهُ مَعَ جُمْهُورِ  
النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ، كَمَا كَانَ جُمْهُورُ النَّاسِ يَصْنَعُونَ، يَقِفُونَ  
بِهَا إِلَّا قُرَيْشًا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَخْرُجُونَ مِنَ الْحَرَمِ،  
فَيَقِفُونَ فِي طَرَفِ الْحَرَمِ عِنْدَ أَذْنَى الْجَلِّ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ  
أَهْلُ اللَّهِ فِي بَلَدِيهِ وَقُطَانُ بَيْتِهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ،  
قَالَتْ: كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُرْدَلِفَةِ،  
وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْحُمْسَ، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ  
بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ  
عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يَقْبِضَ مِنْهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ  
حَيْثُ أَفْكَاسُ النَّاسِ﴾<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ  
وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُهُمْ<sup>(٢)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ  
وَحَكَّى عَلَيْهِ الْإِجْمَاعَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ:  
أَضَلَّكَ بَعِيرًا لِي بِعَرَفَةَ، فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ  
وَاقِفٌ، قُلْتُ: إِنَّ هَذَا مِنَ الْحُمْسِ، مَا شَأْنُهُ هَهُنَا؟<sup>(٣)</sup>  
أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٤)</sup>.

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ  
بِالْإِفَاضَةِ هَهُنَا، هِيَ: الْإِفَاضَةُ مِنَ الْمُرْدَلِفَةِ إِلَى مَتْنِ لِرْمِي  
الْجِمَارِ<sup>(٥)</sup>. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَارِ وَبَعْضُ أَدْعِيَةِ الْإِسْتِغْفَارِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كَثِيرًا  
مَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِذِكْرِهِ بَعْدَ قَضَاءِ الْعِبَادَاتِ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي  
صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ  
يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ثَلَاثًا<sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ نَدَبَ إِلَى  
التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ أَوْرَدْنَاهُ  
فِي جُزْءٍ جَمَعْنَاهُ فِي فَضْلِ يَوْمِ عَرَفَةَ.

وَأُورِدَ ابْنُ مَرْدُودِيهِ هَهُنَا الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ  
عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَبِّدْ  
الِاسْتِغْفَارَ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا  
أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا  
اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ  
بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاعْفُزْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ  
الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا فِي لَيْلَةٍ فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ  
دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا فِي يَوْمِهِ فَمَاتَ دَخَلَ  
الْجَنَّةَ»<sup>(٣)</sup>.

(١) فتح الباري: ٣٥/٨ (٢) الطبري: ١٨٧، ١٨٦/٤ (٣)

أحمد: ٨٠/٤ (٤) فتح الباري: ٦٠٢/٣ ومسلم: ٨٩٤/٢

(٥) فتح الباري: ٣٥/٨ (٦) مسلم: ٤١٤/١ (٧) فتح الباري:

٣٧٨/٢ ومسلم: ٤١٧/١ (٨) فتح الباري: ١٠٠/١١ (٩) فتح

الباري: ٤٨٤/١٣ ومسلم: ٢٠٧٨/٤ (١٠) ابن أبي حاتم غ:

٥٣٠/٢

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٣٢

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ۝ وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۝ بَيَّأَتْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝

عَنْ آخِرَاهُ، فَقَالَ: ﴿فَمَنِ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أَيُّ مِنْ نَصِيبٍ وَلَا حَظٍّ، وَتَضَمَّنَ هَذَا الدُّمُّ التَّنْفِيرَ عَنِ الشُّبْهِ بِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ قَوْمٌ مِنَ الْأَعْرَابِ يَجِئُونَ إِلَى الْمُؤَقِّفِ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عَامَ غَيْثٍ، وَعَامَ خِصْبٍ، وَعَامَ وَلَادٍ حَسَنٍ، لَا يَذْكُرُونَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿فَمَنِ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ وَكَانَ يَجِيءُ بَعْدَهُمْ آخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وَلِهَذَا مَدَحَ مَنْ يَسْأَلُهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَى، فَقَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

فَجَمَعَتْ هَذِهِ الدُّعَاةُ كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا، وَصَرَفَتْ كُلَّ شَرٍّ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ فِي الدُّنْيَا تَشْمَلُ كُلَّ مَطْلُوبٍ دُنْيَوِيٍّ مِنْ غَافِيَةٍ، وَدَارٍ رَحِيَةٍ، وَزَوْجَةٍ حَسَنَةٍ، وَرِزْقٍ وَاسِعٍ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَمَرْكَبٍ هَنِئٍ، وَنِسَاءٍ جَمِيلٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا، فَإِنَّهَا كُلُّهَا مُنْدرَجَةٌ فِي الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا.

وَأَمَّا الْحَسَنَةُ فِي الْآخِرَةِ، فَأَعْلَى ذَلِكَ دُخُولُ الْحِجَّةِ وَتَوَابِعُهُ مِنَ الْأَمْنِ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ فِي الْعَرَصَاتِ، وَتَبْسِيرِ الْحِسَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ الصَّالِحَةِ.

وَأَمَّا النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ فَهِيَ يَقْتَضِي تَبْسِيرَ أَشْيَاءِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ وَالْآثَامِ، وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ وَالْحَرَامِ. وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: مَنْ أُعْطِيَ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَجَسَدًا صَابِرًا، فَقَدْ أُوتِيَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَوُفِّيَ عَذَابَ النَّارِ<sup>(١)</sup>.

وَلِهَذَا وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِالرَّغِيبِ فِي هَذَا الدُّعَاءِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِلَّا هَؤُلَاءِ؟» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ

فَعَجَّلَهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تَطِيعَةَ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعَةَ - فَهَلَّا قُلْتَ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾» قَالَ: فَدَعَا اللَّهُ فَشَفَّاهُ<sup>(٣)</sup>. انفرد بإخراجه مسلم<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي أَجُرْتُ نَفْسِي مِنْ قَوْمٍ عَلَى أَنْ يَحْمِلُونِي، وَوَضَعْتُ لَهُمْ مِنْ أَجْرَتِي عَلَى أَنْ يَدْعُونِي أَحُجَّ مَعَهُمْ، أَفِيْجِزِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَنْتَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾<sup>(٥)</sup> ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يَخْرُجَاهُ.

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ۝ وَمَنِ النَّاسُ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۝ بَيَّأَتْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝

(١) ابن أبي حاتم غ: ٥٤٢/٢ (٢) فتح الباري: ٣٥/٨ (٣) أحمد: ١٠٧/٣ (٤) مسلم: ٢٠٦٨/٤ (٥) الحاكم: ٢٧٧/٢

وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٦٧﴾

[الذِّكْرُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ: أَيَّامُ التَّشْرِيقِ، وَالْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ: أَيَّامُ الْعَشْرِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ يَعْني التَّكْبِيرَ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَوْمَ عَرَفَةَ، وَيَوْمَ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ، عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ»<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ نُبَيْسَةَ الْهَذَلِيَّةِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ» وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا<sup>(٤)</sup>.

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: «عَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ»<sup>(٥)</sup>.

وَتَقَدَّمَ أَيْضًا حَدِيثُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ الدَّبَلِيِّ: «وَأَيَّامُ مِنَى ثَلَاثَةٌ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ طَعْمٍ وَذِكْرِ اللَّهِ»<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُذَافَةَ يَطُوفُ فِي مِنَى: «لَا تَصُومُوا هَذِهِ الْأَيَّامَ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٨)</sup>.

### [بَيَانُ الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ]

وَقَالَ مِقْسَمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ، أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ: يَوْمُ النَّحْرِ، وَثَلَاثَةٌ بَعْدَهُ<sup>(٩)</sup>.

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَبِي مُوسَى وَعَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبِي مَالِكٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَيَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِآنٍ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ<sup>(١٠)</sup>. وَعَلَيْهِ ذَلِكَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَيْثُ قَالَ:

﴿مَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فَذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ بَعْدَ النَّحْرِ.

وَيَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى الْأَضَاجِي، وَالذِّكْرُ الْمُؤَقَّتُ خَلْفَ الصَّلَوَاتِ، وَالْمُطْلَقُ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ، وَيَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ أَيْضًا التَّكْبِيرُ

وَذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ رَمْيِ الْجِمَارَاتِ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمْيِ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١١)</sup>.

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى التَّشْرَ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي وَهُوَ تَفَرُّقُ النَّاسِ مِنْ مَوْسِمِ الْحَجِّ إِلَى سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالْآفَاقِ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ فِي الْمَشَاعِرِ وَالْمَوَاقِفِ، قَالَ: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجُزُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَافِدَ (٢٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُو جَهَنَّمَ وَلَكِنَّ لِلْمُهِكَّادِ (٢٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْغَبَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ (٢٧)﴾

### [بَيَانُ أَحْوَالِ الْمُتَافِقِينَ]

قَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيحٍ التَّقْفِي، جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَفِي بَاطِنِهِ خِلَافٌ ذَلِكَ<sup>(١٢)</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُتَافِقِينَ تَكَلَّمُوا فِي خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ قُتِلُوا بِالرَّجِيعِ وَعَابُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَمِّ الْمُتَافِقِينَ وَمَدْحِ خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْغَبَاتِ اللَّهِ﴾.

وَقِيلَ: بَلْ ذَلِكَ عَامٌّ فِي الْمُتَافِقِينَ كُلِّهِمْ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ<sup>(١٣)</sup>. وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنِ الْقُرْظِيِّ، عَنْ نَوْفٍ - وَهُوَ الْبِكَالِيُّ وَكَانَ مِمَّنْ يَقْرَأُ الْكُتُبَ - قَالَ: إِنِّي لَأَجِدُ صِفَةً نَاسٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُتَزَّلِ: قَوْمٌ يَحْتَالُونَ عَلَى الدُّنْيَا بِالدِّينِ، أَلَسْتَهُمْ أَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنْ

(١) القرطبي: ٣/٣ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٥٤٥/٢ (٣)

أحمد: ١٥٢/٤ (٤) أحمد: ٧٥/٥ ومسلم: ٨٠٠/٢ (٥)

أحمد: ٨٢/٤ (٦) أبو داود: ٤٨٥/٢ (٧) الطبري: ٢١١/٤

(٨) الطبري: ٢١١/٤ (٩) الطبري: ٢١٣/٤ (١٠) ابن أبي

حاتم غ: ٥٤٧-٥٤٩ (١١) أبو داود: ٤٤٧/٢ (١٢)

الطبري: ٢٢٩/٤ (١٣) الطبري: ٢٣٠/٤



السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ<sup>(٦)</sup>.

فَهَذَا الْمُنَافِقُ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الْفُسَادُ فِي الْأَرْضِ  
وَالْهَلَاكُ ﴿الْحَرْثُ﴾، وَهُوَ مَحَلُّ نَمَاءِ الزُّرُوعِ وَالشَّامِ،  
﴿وَالنَّسْلُ﴾، وَهُوَ نِتَاجُ الْحَيَوَانَاتِ الَّذِينَ لَا قِيَامَ لِلنَّاسِ  
إِلَّا بِهِمَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا سَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا مَنَعَ  
اللَّهُ الْقَطْرَ، فَهَلَكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾  
أَيُّ لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، وَلَا مَنْ يَصُدِّرُ مِنْهُ ذَلِكَ.

[مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِ رَدُّ النَّصِيحَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أَيُّ  
إِذَا وَعِظَ هَذَا الْفَاجِرُ فِي مَقَالِهِ وَفَعَالِهِ، وَقِيلَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ  
وَانْزِعْ عَنْ قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ، وَارْجِعْ إِلَى الْحَقِّ؛ ائْتِنِعْ وَأَبَى،  
وَأَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَالْعُصْبُ بِالْإِثْمِ، أَيُّ بِسَبِّ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ  
[قَلْبُهُ] مِنَ الْآثَامِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا  
نُتِلَ عَلَيْهِمْ ءَالِيتُنَا بِبِئْسَ تَعْرِفٍ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
الْمُسْكِرُ بَكَدُونَ يَسْطُورُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَالِيتُنَا  
قُلْ أَفَأُنَبِّتُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢] وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:  
﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُ﴾ أَيُّ هِيَ كَافِيَتُهُ عُقُوبَةً فِي  
ذَلِكَ.

[مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ إِثَارُ مَرَضَةِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ  
اللَّهِ﴾ لَمَّا أَخْبَرَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الدِّمِيَّةِ، ذَكَرَ  
صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَمِيدَةِ فَقَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي  
نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَنَسُ  
وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ وَأَبُو عَثْمَانَ التَّهْدِي وَعِكْرَمَةُ وَجَمَاعَةٌ:  
نَزَلَتْ فِي صُهَيْبِ بْنِ سِنَانِ الرُّومِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ  
بِمَكَّةَ وَأَرَادَ الْهَجْرَةَ، مَنَعَهُ النَّاسُ أَنْ يَهَاجِرَ بِمَالِهِ، وَإِنْ  
أَحَبَّ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنْهُ وَيَهَاجِرَ فَعَلَ، فَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ وَأَعْطَاهُمْ  
مَالَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ، فَتَلَقَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ  
وَجَمَاعَةٌ إِلَى طَرَفِ الْحَرَّةِ وَقَالُوا لَهُ: رَجِعْ الْبَيْعُ، فَقَالَ:  
وَأَنْتُمْ فَلَا أَخْسَرَ اللَّهُ تِجَارَتَكُمْ، وَمَا ذَاكَ؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ اللَّهَ  
أَنْزَلَ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ، وَيُرَوَّى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ:  
«رَجِعْ الْبَيْعَ صُهَيْبُ»<sup>(٧)</sup>.

الصَّبْرِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسْوَكَ الضَّانِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ  
الذَّبَابِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَعَلَيْ يَجْتَرُّونَ؟! وَيَبِي يَعْتَرُونَ؟!  
حَلَفْتُ بِنَفْسِي لَا أَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً تَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانًا.  
قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: تَذَبَّرْتُهَا فِي الْقُرْآنِ فَإِذَا هُمْ الْمُنَافِقُونَ،  
فَوَجَدْتُهَا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾<sup>(١)</sup>. . . آيَةً. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ  
الْقُرْطُبِيُّ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُظْهَرُ  
لِلنَّاسِ الْإِسْلَامَ، وَيُبَارِزُ اللَّهُ بِمَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْكُفْرِ  
وَالنَّفَاقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَحْفِقُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفِقُونَ  
مِنَ اللَّهِ﴾. . . آيَةً [النساء: ١٠٨]، هَذَا مَعْنَى مَا رَوَاهُ ابْنُ  
إِسْحَاقَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٢)</sup>. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ إِذَا أَظْهَرَ  
لِلنَّاسِ الْإِسْلَامَ حَلَفَ، وَأَشْهَدَ اللَّهُ لَهُمْ: أَنَّ الَّذِي فِي قَلْبِهِ  
مُؤَافِقٌ لِلِسَانِهِ. وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ  
ابْنُ زَيْدٍ بَنِي أَسْلَمَ<sup>(٣)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَعَزَاهُ إِلَى ابْنِ  
عَبَّاسٍ، وَحَكَاهُ عَنْ مُجَاهِدٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أَلَدُّ فِي اللَّغَةِ: الْأَعْوَجُ  
﴿وَيُذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [طه: ٩٧] أَيُّ عَوْجًا. وَهَكَذَا الْمُنَافِقُ  
فِي حَالِ خُصُومَتِهِ يَكْذِبُ وَيَزُورُ عَنِ الْحَقِّ، وَلَا يَسْتَقِيمُ  
مَعَهُ، بَلْ يَفْتَرِي وَيُفْجِرُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ،  
وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ  
عَنْ عَائِشَةَ تَرْفَعُهُ، قَالَ: «إِنْ أَبْغَضَ الرَّجَالُ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ  
الْخِصْمُ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ  
الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ أَيُّ هُوَ أَعْوَجُ الْمَقَالِ  
سَيِّءُ الْفِعَالِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ، وَهَذَا فِعْلُهُ، كَلَامُهُ كَذِبٌ،  
وَاعْتِقَادُهُ فَاسِدٌ، وَأَفْعَالُهُ فَيِّحَةٌ، وَالسَّعَى - هَهْنَا - هُوَ  
الْقُصْدُ، كَمَا قَالَ إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَنْتَعِلُ﴾<sup>(٦)</sup>  
فَحَسَرَ فَادَى<sup>(٧)</sup> فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ أَتَحْكُمُونَ<sup>(٨)</sup> فَأَخَذَهُ اللَّهُ تَكَاكُلَ الْآخِرَةِ  
وَالْأُولَى<sup>(٩)</sup> إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى [النازعات: ٢٢-٢٦]  
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ  
الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] أَيُّ أَقْصِدُوا  
وَاعْمَدُوا نَاوِينَ بِذَلِكَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَإِنَّ السَّعَى  
الْحِسْبَى إِلَى الصَّلَاةِ مَنَهِئٌ عَنْهُ بِالسَّيِّئَةِ النَّبَوِيَّةِ: «إِذَا أَتَيْتُمْ  
الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأَتُوهَا وَعَلَيْكُمْ

(١) الطبري: ٢٣٢/٤ (٢) الطبري: ٢٣٠/٤ (٣) الطبري: ٤/

٢٣٣ (٤) فتح الباري: ١١١/١ (٥) فتح الباري: ٣٦/٨ (٦)

مسلم: ٤٢٠/١ (٧) فتح القدير: ٢١٠/١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِكَمَ آتَيْنَهُمْ مِّنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَمَن يُدِلْ نِعْمَةً  
 اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١٧﴾ زَيْنَ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْعُرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ  
 اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ  
 ﴿١١٨﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ  
 وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ  
 فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ ءُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ  
 مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
 لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى  
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٩﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا  
 يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ  
 وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ  
 أَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٢٠﴾ يَسْتَلُونَكَ مَاذَا إِنْفِقُونَ قُلْ  
 مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالتَّحَنُّنِ وَالْمَسْكِينِ  
 وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

البقرة: [١٦٩]، وَ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [فاطر: ٦] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذُوبٌ مُبِينٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَيْ عَدَلْتُمْ عَنْ الْحَقِّ بَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجُجُ، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أَيْ فِي اتِّقَائِهِ لَا يَقُوتُهُ هَارِبٌ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَحْكَامِهِ وَنَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ، وَلِهَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿عَزِيزٌ﴾ فِي يَقْمَتِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَمْرِهِ <sup>(٥)</sup>.

﴿هَلْ يَظُنُّونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفَىٰ أَمْرُهُ﴾ وَإِلَى اللَّهِ رُجْعُ الْأُمُورِ ﴿١٢١﴾

[الْحَثُّ عَلَى عَدَمِ التَّأَخِيرِ فِي الْإِيمَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُهْدِدًا لِلْكَافِرِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ

وَمَعْنَى الْآيَةِ عَامٌ يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] وَلَمَّا حَمَلَ هِشَامُ بْنُ عَامِرٍ بَيْنَ الصَّفِينِ أَثَرَ عَلَيْهِ بَعْضُ النَّاسِ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُمَا، وَتَلَّوْا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢١﴾

[وُجُوبُ الْأَخْذِ بِالْإِسْلَامِ كَامِلًا]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، الْمُصَدِّقِينَ بِرَسُولِهِ، أَن يَأْخُذُوا بِجَمِيعِ عُرَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، وَالْعَمَلِ بِجَمِيعِ أَوَامِرِهِ، وَتَرْكِ جَمِيعِ زَوَاجِرِهِ، مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ ذَلِكَ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ وَالضَّحَّاكِ وَعِكْرَمَةَ وَقَتَادَةَ وَالشَّاذِلِيِّ وَابْنِ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يَعْنِي الْإِسْلَامَ <sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿كَافَّةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَعِكْرَمَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالشَّاذِلِيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ جَمِيعًا <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ اِعْمَلُوا بِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَوُجُوهِ الْبِرِّ <sup>(٣)</sup> خَاصَّةً مَن آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ - كَذَا قَرَأَهَا بِالضَّبِّ - يَعْنِي: مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ مُسْتَمْسِكِينَ بِبَعْضِ أُمُورِ التَّوْرَةِ وَالشَّرَائِعِ الَّتِي أُنْزِلَتْ فِيهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ <sup>(٤)</sup> يَقُولُ: أَدْخُلُوا فِي شَرَائِعِ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا تَدْعُوا مِنْهَا شَيْئًا، وَحَسْبُكُمْ الْإِيمَانُ بِالتَّوْرَةِ وَمَا فِيهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أَيْ اِعْمَلُوا الطَّاعَاتِ وَاجْتَنِبُوا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ الشَّيْطَانُ فَ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾

(١) الطبري: ٢٥٢/٤ وابن أبي حاتم غ: ٥٨٤/٢، ٥٨٥ (٢)  
 ابن أبي حاتم غ: ٥٨٦/٢ - ٥٨٨ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٥٨٥/٢  
 (٤) ابن أبي حاتم غ: ٥٨٢/٢ (٥) ابن أبي حاتم غ: ٥٩١/٢

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَلِلَّهِ اللَّهُ رُجْعُ الْأُمُورِ﴾ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢١٢﴾ وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّهُ لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢١٣﴾﴾ [الفرج: ٢١-٢٣] وَقَالَ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾... [الأنعام: ١٥٨].

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِي عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يَقُولُ: وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجِيءُ فِيمَا يَشَاءُ <sup>(١)</sup>. وَهِيَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ) وَهِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَقُ السَّمَاءُ بِالدَّخَانِ يُزِيلُ الْمَلَائِكَةُ تَزْيِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١٤﴾﴾ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٥﴾﴾ [عِقَابُ تَبْدِيلِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ: كَمْ شَاهَدُوا مَعَ مُوسَى مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ، أُنِي حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ، كَبِدِهِ وَعَصَاهُ، وَقَلْبُهُ الْبَحْرُ، وَضَرْبُ الْحَجَرِ، وَمَا كَانَ مِنْ تَطْيِيلِ الْغَمَامِ عَلَيْهِمْ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمِنْ إِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِدْقِ مَنْ جَرَتْ هَذِهِ الْخَوَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ، وَمَعَ هَذَا أَعْرَضَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْهَا، وَبَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، أُنِي اسْتَبَدَّلُوا بِالْإِيمَانِ بِهَا الْكُفْرَ بِهَا وَالْإِعْرَاضَ عَنْهَا ﴿وَمَنْ يَبْدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا بَعَثَ اللَّهُ كُفْرًا وَآخَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢١٦﴾﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْفَرَارَ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَرْبِيئِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ رَضُوا بِهَا، وَاطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهَا، وَجَمَعُوا الْأَمْوَالَ وَمَتَّعُوهَا عَنْ

وَفِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ مَلَائِكِينَ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ صَبِيحَةً كُلِّ يَوْمٍ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّقِيًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمَسِيكًا تَلْفًا» <sup>(٤)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحِ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَقْبَلْتِ، وَمَا لَبَسْتُ فَأَبْلَيْتِ، وَمَا تَصَدَّقْتُ فَأَمْضَيْتِ، وَمَا سَوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ» <sup>(٥)</sup>.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالٌ مِّنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ» <sup>(٦)</sup>.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٧﴾﴾ [الْإِخْتِلَافُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ دَلِيلٌ عَلَى الْبُغْيِ وَالضَّلَالِ]

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشْرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، قَالَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي

(١) الطبري: ٢٦٤/٤ (٢) الحميدي: ٤٥٩/٢ (٣) الطبراني:

١٩٢/١٠ (٤) فتح الباري: ٣٥٧/٣ (٥) مسلم: ٢١٧٣/٤

(٦) أحمد: ٧١/٦

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ أُنِيَ وَلَهُ الْحُكْمُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»<sup>(٨)</sup> وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأثورِ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْحَقَّ حَقًّا، وَارْزُقْنَا أَتْبَاعَهُ، وَارْزُقْنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ، وَلَا تَجْعَلْهُ مُلْتَبَسًا عَلَيْنَا فَفَضِّلْ، وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا»<sup>(٩)</sup>.

﴿أَمَّ حَسْبَنَهُ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَنَى نَصْرَ اللَّهِ آلَا إِن نَّصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿١٠﴾﴾  
[لَا يَحْصُلُ النَّصْرُ وَدُخُولُ الْجَنَّةِ إِلَّا بَعْدَ الْإِخْتِيَارِ وَالتَّمْيِيزِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمَّ حَسْبَنَهُ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قَبْلَ أَنْ تُتَبَلَّغُوا وَتُخْتَبَرُوا وَتُتَحَنَّنُوا كَمَا فَعَلَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ﴾ وَهِيَ الْأَمْرَاضُ وَالْأَسْقَامُ وَالْأَلَامُ وَالْمَصَائِبُ وَالتَّوَابِثُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الْعَلَاءِ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُرَّةُ الْهَمْدَانِيُّ وَالْحَسَنُ وَفَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ الْفَقْرُ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَالضَّرَاءُ﴾ الْسَقَمُ.

﴿وَزُلُّوا﴾ خَوْفًا مِنَ الْأَعْدَاءِ زِلْزَالًا شَدِيدًا، وَامْتَحَنُوا إِمْتِحَانًا عَظِيمًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ فَقَالَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُخْلَصُ إِلَى قَدَمَيْهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَسَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، لَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ». ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّهُ

فِرَاقَةُ عَبْدِ اللَّهِ: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)<sup>(١١)</sup>. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ<sup>(١٢)</sup> ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، كَذَا رَوَى أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهَا: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)<sup>(١٣)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ فَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قَالَ: كَانُوا عَلَى الْهُدَى جَمِيعًا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بُعِثَ نُوحًا<sup>(١٤)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾... الْآيَةِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِيَانَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَذَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا اللَّهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، فَعَدَا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى»<sup>(١٥)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ أَشْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ فَاخْتَلَفُوا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَاتَّخَذَ الْيَهُودُ يَوْمَ السَّبْتِ، وَالنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. وَاخْتَلَفُوا فِي الْقِتْلَةِ فَاسْتَقْبَلَتِ النَّصَارَى الْمَشْرِقَ، وَالْيَهُودُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْقِبْلَةِ. وَاخْتَلَفُوا فِي الصَّلَاةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرْكَعُ وَلَا يَسْجُدُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْجُدُ وَلَا يَرْكَعُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَلِّي وَهُوَ يَتَكَلَّمُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَلِّي وَهُوَ يَمْشِي، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ. وَاخْتَلَفُوا فِي الصِّيَامِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَصُومُ بَعْضَ النَّهَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصُومُ عَنْ بَعْضِ الطَّعَامِ، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ. وَاخْتَلَفُوا فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: كَانَ يَهُودِيًّا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: كَانَ نَصْرَانِيًّا، وَجَعَلَهُ اللَّهُ حَقِيقًا مُسْلِمًا، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ. وَاخْتَلَفُوا فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَذَّبَتْ بِهِ الْيَهُودُ، وَقَالُوا لِأُمِّهِ بُهْتَانًا عَظِيمًا، وَجَعَلَتْهُ النَّصَارَى إِلَهًا وَوَلَدًا، وَجَعَلَهُ اللَّهُ رُوحَهُ وَكَلِمَتَهُ، فَهَدَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ<sup>(١٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أَيُّ يَعْلَمُوهُ بِهِمْ وَبِمَا هَدَاهُمْ لَهُ. قَالَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ<sup>(١٧)</sup>. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ مِنْ خَلْقِهِ ﴿إِلَى

(١) الطبري: ٢٧٥/٤ (٢) الحاكم: ٥٤٦/٢ (٣) الطبري: ٤/

٧٨ (٤) عبد الرزاق: ٨٢/١ (٥) عبد الرزاق: ٨٢/١ (٦)

الطبري: ٢٨٤/٤ (٧) الطبري: ٢٨٦/٤ (٨) انفراد بإخراجه

مسلم: ٥٣٤/١ (٩) تخريج الإحياء: ١٤١٨/٣ (١٠) ابن أبي

حاتم غ: ٦٦٦/٢

الْمُحْسِنِينَ

٣٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدْعٌ سَبِيلُ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ وَلَا يَرَاؤُنَ يَفْقَهُونَكُمْ حَتَّى يَرُدَّوَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَعِمْتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٥﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾

وَلَا يَمِينُونَ بِنِ مِهْرَانَ هَذِهِ الْآيَةِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ مَوَاضِعُ التَّفَقُّةِ، مَا ذَكَرَ فِيهَا طَبْلًا وَلَا مِزْمَارًا وَلَا تَصَاوِيرَ الْخُشْبِ وَلَا كِسْوَةَ الْجِيْطَانِ<sup>(٥)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أَيْ مَهْمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنْ فِعْلٍ مَعْرُوفٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَطْلُمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

[إِيجَابُ الْجِهَادِ]

هَذَا إِيجَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْجِهَادِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكْفُوا شَرَّ الْأَعْدَاءِ عَنْ حُوزَةِ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ:

(١) فتح الباري: ٧١٦/٦ (٢) فتح الباري: ٢٥/٩ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٦١٩/٢ (٤) الحاكم: ٦١١/٣ (٥) ابن أبي حاتم غ: ٦٢٠/٢

لَيَتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعْجِلُونَ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿آلِهَ﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وَقَدْ حَصَلَ مِنْ هَذَا جَانِبٌ عَظِيمٌ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي يَوْمِ الْأَحْزَابِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَنْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ هُنَاكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلُّوا زَلَالًا شَدِيدًا ﴿١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢﴾ ... الْآيَاتِ [الأحزاب: ١٠-١٢]. وَكَمَا سَأَلَ هِرْقُلُ أَبَا سُفْيَانَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ فَكَيْفَ كَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ؟ قَالَ سِجَالًا، يُدَالُ عَلَيْنَا وَنُدَالُ عَلَيْهِ. قَالَ: كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَيْ سَنَّتُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْحَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨] وَقَوْلُهُ: ﴿وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَنَى نَعَرَ اللَّهِ﴾ أَيْ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَيَدْعُونَ بِقُرْبِ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ عِنْدَ ضَيْقِ الْحَالِ وَالشَّدَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا إِنْ نَعَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [الشرح: ٦٥، ٦٥]. وَكَمَا تَكُونُ الشَّدَّةُ: يَنْزِلُ مِنَ النَّصْرِ مِثْلُهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا إِنْ نَعَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِذِينَ

وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ

اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

[مَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِ؟]

قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: هَذِهِ الْآيَةُ فِي نَفَقَةِ التَّطَوُّعِ<sup>(٣)</sup>. وَمَعْنَى الْآيَةِ: يَسْأَلُونَكَ كَيْفَ يُنْفِقُونَ؟ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ. فَبَيَّنَ لَهُمْ تَعَالَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أَيْ إِصْرُفُهَا فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ، كَمَا جَاءَ الْحَدِيثُ: «أَمَّا مَنْ وَأَبَاكَ وَأَخْتَكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»<sup>(٤)</sup>.

رَجُلَانِ وَبَيَّ بَقِيَّتَهُمُ، فَلَقُوا ابْنَ الْحَضَرَمِيِّ فَقَتَلُوهُ، وَلَمْ يَدْرُوا أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ رَجَبٍ أَوْ مِنْ جُمَادَى، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: قَتَلْتُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾... الآية (٣).

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ هِشَامٍ رَاوِي السِّيَرَةِ، عَنْ زِيَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَكَّائِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارِ الْمَدَنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ لَهُ، أَنَّهُ قَالَ: وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ بْنَ رِثَابِ الْأَسَدِيِّ فِي رَجَبٍ مَقْفَلَةً مِنْ بَدْرِ الْأُولَى، وَبَعَثَ مَعَهُ ثَمَانِيَةَ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، لَيْسَ فِيهِمْ مِنَ الْأَنْصَارِ أَحَدٌ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَنْظُرَ فِيهِ حَتَّى يَسِيرَ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ يَنْظُرَ فِيهِ فَيَمْضِيَ لِمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَلَا يَسْتَكْرِهَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا.

وَكَانَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، ثُمَّ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ: أَبُو حَذِيفَةَ بْنُ عُثْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَمِنْ خُلَفَائِهِمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، وَهُوَ أَمِيرُ الْقَوْمِ، وَعُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَحَدُ بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ، وَمِنْ بَنِي نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ: عُثْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بْنِ جَابِرٍ، حَلِيفٌ لَهُمْ، وَمِنْ بَنِي زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ، وَمِنْ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ: عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، حَلِيفٌ لَهُمْ مِنْ عَنَزِ بْنِ وَاثِلٍ، وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ عَرِينِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ يَرْبُوعٍ، أَحَدُ بَنِي تَمِيمٍ - حَلِيفٌ لَهُمْ - وَخَالِدُ بْنُ الْبُكَيْرِ أَحَدُ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ، حَلِيفٌ لَهُمْ، وَمِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ: سُهَيْلُ بْنُ بَيْضَاءَ. فَلَمَّا سَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ يَوْمَيْنِ، فَتَحَ الْكِتَابَ فَنَظَرَ فَإِذَا فِيهِ: إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا، فَاْمُضْ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، تَرُصِدُ بِهَا قُرَيْشًا، وَتَعْلَمُ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ. فَلَمَّا نَظَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ الْكِتَابَ، قَالَ: سَمِعْنَا وَطَاعَةٌ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: قَدْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى نَخْلَةَ، أَرُصِدُ بِهَا قُرَيْشًا، حَتَّى آتِيَهُ مِنْهُمْ بَخِيرٌ، وَقَدْ نَهَايَنِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الشَّهَادَةَ وَيَرْغُبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ، فَأَمَّا أَنَا فَمَاضٍ لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَضَى

الْجِهَادَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ غَزَا أَوْ قَعَدَ، فَالْقَاعِدُ، عَلَيْهِ إِذَا اسْتُعِينَ أَنْ يُعِينَ، وَإِذَا اسْتُعِيتَ أَنْ يُعِيتَ، وَإِذَا اسْتُنْفِرَ أَنْ يَنْفِرَ، وَإِنْ لَمْ يَخْتِجْ إِلَيْهِ قَعَدَ.

(قُلْتُ) وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» (١). وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْفَتْحِ: «لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَأَنْفِرُوا» (٢).

وَقَوْلُهُ: «وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ» أَيْ شَدِيدٌ عَلَيْكُمْ وَمَشَقَّةٌ. وَهُوَ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يُقْتَلَ أَوْ يُجْرَحَ مَعَ مَشَقَّةِ السَّفَرِ وَمُجَالِدَةِ الْأَعْدَاءِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» أَيْ لِأَنَّ الْقِتَالَ يَغْنُمُهُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالْإِسْتِيلَاءُ عَلَى بِلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ. «وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» وَهَذَا عَامٌّ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، قَدْ يُحِبُّ الْمَرْءُ شَيْئًا وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ خَيْرَةٌ وَلَا مَصْلَحَةٌ، وَمِنْ ذَلِكَ الْقُعُودُ عَنِ الْقِتَالِ قَدْ يَغْنُمُهُ اسْتِيلَاءُ الْعَدُوِّ عَلَى الْبِلَادِ وَالْحُكْمِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» أَيْ هُوَ أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ مِنْكُمْ، وَأَخْبَرُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ، فَاسْتَجِيبُوا لَهُ وَاتَّقُوا لِأَمْرِهِ، لَعَلَّكُمْ تَرْشُدُونَ.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُ يُقَاتِلُكُمْ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣) إِنَّ الدِّينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤)

[سَرِيَّةُ نَخْلَةَ، وَحُكْمُ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ] رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَهْطًا، وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَلَمَّا ذَهَبَ يَنْطَلِقُ بِكَيِّ صَبَابَةٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَسَبَهُ، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ مَكَانَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا، وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَقْرَأَ الْكِتَابَ حَتَّى يَبْلُغَ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ: «لَا تُكْرَهُنَّ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ». فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ اسْتَرْجَعَ، وَقَالَ: سَمِعْنَا وَطَاعَةٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَخَبَرَهُمُ الْخَبَرَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، فَرَجَعَ

(١) مسلم: ١٥١٧/٣ (٢) فتح الباري: ٥٦/٤ (٣) ابن أبي

حاتم غ: ٦٢٨/٢

وَقَالَتِ الْيَهُودُ - تَفَاءَلُوا بِذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -:  
عَمَرُوا بَنِي الْحَضْرَمِيِّ فَكَلَهُ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَمَرُوا:  
الْحَرْبُ، وَالْحَضْرَمِيُّ: حَضَرَتِ الْحَرْبُ، وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ  
اللَّهِ: وَقَدَّتِ الْحَرْبُ، فَجَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ لَا لَهُمْ.

فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:  
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ  
أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أَيْ إِنْ كُنْتُمْ قَتَلْتُمْ  
فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ. فَقَدْ صَدَّوْكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْكُفْرِ  
بِهِ، وَعَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْهُ - وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ -  
﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنْ قَتْلِ مَنْ قَتَلْتُمْ مِنْهُمْ ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ  
مِنَ الْقَتْلِ﴾ أَيْ قَدْ كَانُوا يَقْتَتِلُونَ الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ حَتَّى يَرُدُّوهُ  
إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِيمَانِهِ، فَذَلِكَ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْقَتْلِ ﴿وَلَا  
يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَظَلَمُوا﴾ أَيْ ثُمَّ  
هُمْ مُقِيمُونَ عَلَى أَحَبِّ ذَلِكَ وَأَعْظَمِهِ، غَيْرَ تَائِبِينَ وَلَا  
نَارِعِينَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَذَا مِنَ الْأَمْرِ،  
وَفَرَّجَ اللَّهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشَّفَقِ، قَبِضَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَيْرَ وَالْأَسِيرِينَ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فِي  
فِدَاءِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَكَمِ بْنِ كَيْسَانَ، فَقَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «لَا تُفْدِيكُمُوهُمَا حَتَّى يَبْقُدَ صَاحِبَانَا - يَعْنِي سَعْدُ  
ابْنَ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ - فَإِنَّا نَخْشَاكُمْ عَلَيْهِمَا،  
فَإِنْ تَقَتَّلُوهُمَا نَقْتُلُ صَاحِبَيْكُمْ» فَقَدِمَ سَعْدُ وَعُتْبَةُ،  
[فَأَفَادَهُمَا] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ، فَأَمَّا الْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ  
فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَأَقَامَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قُتِلَ  
يَوْمَ بَيْرِ مَعُونَةَ شَهِيدًا، وَأَمَّا عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَلَحِقَ بِمَكَّةَ  
فَمَاتَ بِهَا كَافِرًا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا تَجَلَّى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ  
وَأَصْحَابِهِ مَا كَانُوا فِيهِ حِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ طَمَعُوا فِي الْأَجْرِ،  
فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْطَمِعُ أَنْ تَكُونَ لَنَا غَزْوَةٌ نُعْطَى فِيهَا  
أَجْرَ الْمُجَاهِدِينَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الدِّينَ أَمَانٌ  
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ  
اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَوَضَعَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَعْظَمِ  
الرَّجَاءِ<sup>(١)</sup>.

وَمَضَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ، لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُمْ أَحَدٌ.

فَسَلَّكَ عَلَى الْحِجَازِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِمَعْدِنِ فَوْقَ الْفُرْعِ  
يُقَالُ لَهُ بَحْرَانُ، أَضَلَّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ  
بَعِيرًا لَهُمَا كَانَا يَعْتَقِبَانِهِ، فَتَخَلَّفَا عَلَيْهِ فِي طَلَبِهِ، وَمَضَى عَبْدُ  
اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَبِقَبِيلِهِ أَصْحَابُهُ حَتَّى نَزَلَ بِنَخْلَةٍ، فَمَرَّتْ بِهِ  
عِيرٌ لِقُرَيْشٍ تَحْمِلُ زَيْبًا وَأُدْمًا وَتِجَارَةً مِنْ تِجَارَةِ قُرَيْشٍ،  
فِيهَا عَمَرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ، وَاسْمُ الْحَضْرَمِيِّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
عَبَادٍ أَحَدُ الصَّدَفِ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَأَخُوهُ  
نُوفَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُخَزُمِيَّانِ، وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ مَوْلَى  
هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَلَمَّا رَأَاهُمُ الْقَوْمُ هَابُوهُمْ، وَقَدْ نَزَلُوا  
قَرِيبًا مِنْهُمْ، فَأَشْرَفَ لَهُمْ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، وَكَانَ قَدْ  
حَلَقَ رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ أَمِنُوا وَقَالُوا: عُمَارٌ، لَا بَأْسَ  
عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ.

وَتَسَاوَرَ الْقَوْمُ فِيهِمْ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبٍ،  
فَقَالَ الْقَوْمُ: وَاللَّهِ لَئِنْ تَرَكْتُمْ الْقَوْمَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَيَدْخُلَنَّ  
الْحَرَمَ، فَلَيْمَتَيْنِ مِنْكُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ لَتَقْتُلْنَهُمْ فِي  
الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَتَرَدَّدَ الْقَوْمُ وَهَابُوا الْإِفْدَامَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ  
شَجِعُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِ مَنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ  
مِنْهُمْ وَأَخَذُوا مَا مَعَهُمْ، فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيَّ  
عَمَرُو بْنُ الْحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَاسْتَأَسَرَ عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ  
اللَّهِ وَالْحَكَمُ بْنُ كَيْسَانَ، وَأَفَلَّتِ الْقَوْمُ نُوفَلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ  
فَأَعْبَجَرَهُمْ. وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ وَأَصْحَابُهُ بِالْغَيْرِ  
وَالْأَسِيرِينَ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ آلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
جَحْشٍ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِمَّا  
غَنِمْنَا الْخُمْسَ. وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَفْرَضَ اللَّهُ الْخُمْسَ مِنَ  
الْمَغَانِمِ، فَعَزَلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خُمْسَ الْغَيْرِ، وَقَسَمَ  
سَائِرَهَا بَيْنَ أَصْحَابِهِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ»  
فَوَقَّفَ الْغَيْرَ وَالْأَسِيرِينَ، وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا.

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَشْقَطَ فِي أَيْدِي الْقَوْمِ،  
وَطَلُّوا أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، وَعَقَّبَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ  
فِيمَا صَنَعُوا، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدْ اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ  
الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَسَفَكُوا فِيهِ الدَّمَ، وَأَخَذُوا فِيهِ الْأَمْوَالَ،  
وَأَسَرُوا فِيهِ الرِّجَالَ؛ فَقَالَ مَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ  
مِمَّنْ كَانَ بِمَكَّةَ: إِنَّمَا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا فِي شَعْبَانَ.

(١) ابن هشام: ٢٥٢/٢-٢٥٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِيتَمَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْ خَيْرٍ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْمُنْفِسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٦﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا مَؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْبَبْتُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٣٧﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٣٨﴾ يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلَقَوْنَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣٩﴾ وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُمَهَّدَةً لِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ عَلَى النَّبَاتِ، وَلَمْ تَكُنْ مُصْرَحَةً بَلْ مُعْرَضَةً، وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قُرِئَتْ عَلَيْهِ: اَللّٰهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. حَتَّى نَزَلَ التَّصْرِيحُ بِتَحْرِيمِهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥). إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ؟ (٤) وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِهِ الثَّقَةُ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَالشَّعْبِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَفَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِنَّ هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْخَمْرِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا كَبِيرٌ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٣٦) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِيتَمَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْ خَيْرٍ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْمُنْفِسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٣٧)

## [التدرُّج في تحريم الخمر]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ، عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ: اَللّٰهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا كَبِيرٌ﴾ فَدَعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اَللّٰهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّسَاءِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ فَكَانَ مُتَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَى: أَنْ لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سُكَرَانٌ، فَدَعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اَللّٰهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، فَدَعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَلَمَّا بَلَغَ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ قَالَ عُمَرُ: إِنْتَهَيْنَا إِنْتَهَيْنَا (١). هَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ (٢)، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: هَذَا الْإِسْنَادُ صَالِحٌ صَحِيحٌ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَسَيَأْتِي هَذَا الْحَدِيثُ أَيْضًا مَعَ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا عِنْدَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾... الْآيَاتِ (٣).

فَقَوْلُهُ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أَمَّا الْخَمْرُ، فَكَمَّا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ كُلُّ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ. كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَكَذَا الْمَيْسِرُ، وَهُوَ الْقِمَارُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ فِيهِمَا كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ أَمَّا إِنْمَهُمَا فَهُوَ فِي الدِّينِ، وَأَمَّا الْمَنَافِعُ فَدُنْيَوِيَّةٌ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِيهَا نَفْعَ الْبَدَنِ وَتَهْضِيمَ الطَّعَامِ - وَإِخْرَاجَ الْفُضْلَاتِ، وَتَشْحِيدَ بَعْضِ الْأَدْمَانِ وَلَدَّةِ الشَّدَّةِ الْمُطَرَّبَةِ الَّتِي فِيهَا، وَكَذَا بَيْعُهَا وَالِانْتِفَاعُ بِمَنْفَعَتِهَا. وَمَا كَانَ يَقْمُشُهُمْ مِنَ الْمَيْسِرِ فَيَنْفِقُهُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عِيَالِهِ. وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَصَالِحُ لَا تُؤَازِي مَضَرَّتَهُ وَمَفْسَدَتَهُ الرَّاجِحَةَ، لِتَعَلُّقِهَا بِالْعَقْلِ وَالدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾،

(١) أحمد: ٥٣١/١ (٢) أبو داود: ٧٩/٤ وتحفة الأحوذى:

٤١٥/٨ والنسائي: ٢٨٧/٨ (٣) أحمد: ٣٥١/٢ (٤) ابن أبي

حاتم غ: ٦٣٦/٢



يَأْكُلُهُ أَوْ يَفْسُدُ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْ إِخْوَانِكُمْ فَلَا تُبَاسُوا عَلَيْهِمْ، لَآئِهِمْ إِيحَاؤُكُمْ فِي بُطْعَائِهِمْ وَشِرَابِهِمْ بِشِرَابِهِمْ<sup>(٨)</sup>﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٩)</sup> وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ<sup>(١٠)</sup>. وَهَكَذَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، كُمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالشَّعْبِيِّ، وَابْنِ أَبِي لَيْلَى وَقَتَادَةَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ<sup>(١١)</sup>.

وَرَوَى وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ مَالُ الْيَتِيمِ عِنْدِي غُرَّةً، حَتَّى أُخْلَطَ طَعَامُهُ بِطَعَامِي، وَشِرَابُهُ بِشِرَابِي<sup>(١٢)</sup>.

فَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أَيْ عَلَى حِدَةٍ، ﴿وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْ إِخْوَانِكُمْ﴾ أَيْ وَإِنْ خُلِطَتْ طَعَامُكُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشِرَابُكُمْ بِشِرَابِهِمْ فَلَا بُاسَ عَلَيْكُمْ، لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْفِيسَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أَيْ يَعْلَمُ مَنْ قَضَاهُ وَيَتَّبِعُ الْإِفْسَادَ أَوْ الْإِصْلَاحَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَضَيَّقَ عَلَيْكُمْ وَأَخْرَجَكُمْ، وَلَكِنَّهُ وَسَّعَ عَلَيْكُمْ، وَخَفَّفَ عَنْكُمْ، وَأَبَاحَ لَكُمْ مُحَالَظَتَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بَلْ قَدْ جَوَّزَ الْأَكْلَ مِنْهُ لِلْفَقِيرِ بِالْمَعْرُوفِ، إِمَّا بِشَرْطِ صَمَانِ الْبَدَلِ لِمَنْ أَيْسَرَ، أَوْ مَجَانًا، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ التَّقَّةُ.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِإِذْنِهِ وَيَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

### [تَحْرِيمُ نِكَاحِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ]

هَذَا تَحْرِيمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا الْمُشْرِكَاتِ مِنْ عِبْدَةِ الْأَوْتَانِ، ثُمَّ إِنْ كَانَ عُمُومُهَا مُرَادًا،

كَبُرٍ، ثُمَّ نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، ثُمَّ نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ فَحُرِّمَتِ الْخَمْرُ<sup>(١)</sup>.

### [الْأَمْرُ بِإِنْفَاقِ مَا فَضَّلَ مِنَ الْمَالِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قُرِئَ بِالنَّصْبِ وَبِالرَّفْعِ، وَكِلَاهُمَا حَسَنٌ مُّتَّجِهٌ قَرِيبٌ. وَقَالَ الْحَكَمُ عَنْ مِقْسَمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ قَالَ: مَا يُفْضَلُ عَنْ أَهْلِكَ<sup>(٢)</sup>. كَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالْقَاسِمُ، وَسَالِمٌ، وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِنْدِي دِينَارٌ، قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى أَهْلِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ: «أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبْصَرُ»<sup>(٤)</sup>؛ وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ عَنْ أَهْلِكَ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا»<sup>(٥)</sup>.

وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: «ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ. وَلَا تَلَامُ عَلَى كَفَافٍ»<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَيْ كَمَا فَضَّلَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَّهَا وَأَوْضَحَهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ سَائِرَ الْآيَاتِ فِي أَحْكَامِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي فِي زَوَالِ الدُّنْيَا وَقَنَائِهَا، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ وَبَقَائِهَا<sup>(٧)</sup>.

### [إِصْلَاحُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْ إِخْوَانِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْفِيسَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ﴾... الْآيَةِ، رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٣٤] وَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٠] إِنْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَفَعَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشِرَابَهُ مِنْ شِرَابِهِ، فَجَعَلَ يُفْضَلُ لَهُ الشَّيْءُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى

(١) الطبري: ٣٣٦-٣٣١/٤ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٦٥٦/٢

(٣) ابن أبي حاتم غ: ٦٥٦/٢ و٦٥٧ (٤) الطبري: ٣٤٠/٤

(٥) مسلم: ٦٩٢/٢ (٦) مسلم: ١٠٣٦ (٧) الطبري: ٤/٤

٣٤٨ (٨) الطبري: ٣٥٠/٤ إسناده ضعيف لاختلاط عطاء بن

السائب (٩) أبو داود: ٢٩١/٣ والنسائي: ٢٥٦/٦ (١٠)

الحاكم: ١٠٣/٢ (١١) الطبري: ٣٥٠-٣٥٣ (١٢)

الطبري: ٣٥٥/٤

وَمَخَالَطَتُهُمْ تَبَعَتْ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَافْتِنَانِهَا وَإِنَارِهَا عَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ وَخِيمَةٌ ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أَيُّ بِشْرِهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ وَمَا نَهَى عَنْهُ ﴿وَبَيْنَ عَابِتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَسَلُّوْكَ عَنِ الْمَحِيصِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيصِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

### [الْأَمْرُ بِاعْتِزَالِ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيصِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يَوَافِقُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَلُّوْكَ عَنِ الْمَحِيصِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيصِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ حَتَّى فَرَعَ مِنَ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ». فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدْعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا، إِلَّا خَالَفْنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَادُ بْنُ بَشْرٍ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ كَذَا وَكَذَا، أَفَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَحَرَجَا فَاسْتَقْلَمَهُمَا هَدِيَّةً مِنْ لَبَنِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنَّ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَقَوْلُهُ: «فَاعْتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيصِ» يَعْنِي الْفَرْجَ، لِقَوْلِهِ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ، إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ مُبَاشَرَةُ الْحَائِضِ فِيمَا عَدَا الْفَرْجَ، رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ بَعْضِ أَرْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ مِنَ الْحَائِضِ شَيْئًا لَقِيَ عَلَى فَرْجِهَا ثَوْبًا<sup>(٢)</sup>.

وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُشْرِكَةٍ مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَوَتَنِيَّةٍ، فَقَدْ خَصَّ مِنْ ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْمُخَصَّنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾: اسْتَنْتَى اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَكْحُولٌ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٢)</sup>. وَقِيلَ: بَلِ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِبَدَةِ الْأَوْثَانِ، وَلَمْ يُرَدْ أَهْلُ الْكِتَابِ بِالْكُلِّيَّةِ. وَالْمَعْنَى قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ حِكَايَتِهِ الْإِجْمَاعَ عَلَى إِبَاحَةِ تَزْوِيجِ الْكِتَابِيَّاتِ: وَإِنَّمَا كَرِهَ عُمَرُ ذَلِكَ لِئَلَّا يَزْهَدَ النَّاسُ فِي الْمُسْلِمَاتِ، أَوْ لِيُغَيِّرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي. كَمَا رَوَى أَبُو كُرَيْبٍ عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: تَزَوَّجَ حُذَيْفَةُ يَهُودِيَّةً، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: خَلِّ سَبِيلَهَا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَتَزْعُمُ أَنَّهَا حَرَامٌ، فَأَخْلَى سَبِيلَهَا؟ فَقَالَ: لَا أَزْعُمُ أَنَّهَا حَرَامٌ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تَعَاطُوا الْمُؤْمِسَاتِ مِنْهُنَّ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: الْمُسْلِمُ يَتَزَوَّجُ النَّصْرَانِيَّةَ، وَلَا يَتَزَوَّجُ النَّصْرَانِي الْمُسْلِمَةَ<sup>(٤)</sup>. قَالَ: وَهَذَا أَصَحُّ إِسْنَادًا مِنَ الْأَوَّلِ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ كَرِهَ نِكَاحَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَتَأَوَّلَ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا أَعْلَمُ شِرْكًَا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ: رَبُّهَا عِيسَى<sup>(٦)</sup>.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبْتُ يَدَاكَ»<sup>(٧)</sup>. وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ مِثْلُهُ<sup>(٨)</sup>. وَلَهُ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أَيُّ لَا تَزَوَّجُوا الرِّجَالَ الْمُشْرِكِينَ النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أَيُّ وَلَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ - وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا - خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ، وَإِنْ كَانَ رَيْسًا سَرِيًّا. ﴿أَوَّلَيْكَ يَدْعُونَ إِلَى الْتَارِ﴾ أَيُّ مُعَاشَرَتُهُمْ

(١) الطبري: ٣٦٢/٤ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٦٦٩/٢-٦٧١

(٣) الطبري: ٣٦٦/٤ (٤) الطبري: ٣٦٦/٤ فيه يزيد بن أبي

زيد الكوفي ضعيف كبر فتغير صار يتلقن، وكان شيعيًا (ت) (٥)

ابن أبي حاتم غ: ٦٧١/٢ (٦) فتح الباري: ٣٢٦/٩ (٧) فتح

الباري: ٣٥/٩ ومسلم: ١٠٨٧/٢ (٨) مسلم: ١٠٨٧/٢ (٩)

مسلم: ١٠٩٠/٢ (١٠) أحمد: ١٣٢/٣ (١١) مسلم: ١/

٢٤٦ (١٢) أبو داود: ٢٨٦/١

حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴿٩﴾ يَعْنِي طَاهِرَاتٍ غَيْرَ حَيْضٍ <sup>(٩)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أَيُّ مِنَ الذَّنْبِ وَإِنْ تَكَرَّرَ غَشِيَانُهُ ﴿وَيُحِبُّ الْمُنْطَهِرِينَ﴾ أَيُّ الْمُتَزَهِّبِينَ عَنِ الْأَفْذَارِ وَالْأَدَى، وَهُوَ مَا نَهَا عَنْهُ مِنْ إِيْتَانِ الْحَائِضِ أَوْ فِي غَيْرِ الْمَأْتَى.

[سَبَبُ نَزُولِ قَوْلِهِ ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلْحَرْثُ مَوْضِعُ الْوَلَدِ <sup>(١٠)</sup>. ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَى شَيْئَمْ﴾ أَيُّ كَيْفَ شَيْئَمْ، مُقْبِلَةً وَمُذْبِرَةً فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ، كَمَا ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ:

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ الْمُثَنِّدِ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا قَالَ: كَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلُ، فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَى شَيْئَمْ﴾ <sup>(١١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ <sup>(١٢)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنِّدِ أَنَّ جَابِرَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَخْبَرَهُ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: مَنْ أَتَى امْرَأَةً، وَهِيَ مُذْبِرَةٌ، جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَلَى شَيْئَمْ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ فِي الْحَدِيثِ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُقْبِلَةً وَمُذْبِرَةً إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْفَرْجِ» <sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ فِي أَنْاسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِثْبَاهًا عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِذَا كَانَ فِي الْفَرْجِ» <sup>(١٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ ابْنَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ أَمْرٍ، وَأَنَا أَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ، قَالَتْ: فَلَا تَسْتَحْيِي يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ: عَنْ إِيْتَانِ النِّسَاءِ فِي أَذْبَارِهِنَّ؟ قَالَتْ: حَدَّثَنِي أُمُّ سَلَمَةَ أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا لَا

وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ أَنَّ سُرُوقًا رَكِبَ إِلَى عَائِشَةَ فَقَالَ: أَلَسَلَامٌ عَلَى النَّبِيِّ وَعَلَى أَهْلِهِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَبُو عَائِشَةَ؟ مَرْحَبًا مَرْحَبًا، فَأَذْنُوا لَهُ، فَدَخَلَ فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ وَأَنَا أَسْتَحْيِي، فَقَالَتْ: إِنَّمَا أَنَا أُمُّكَ وَأَنْتَ ابْنِي، فَقَالَ: مَا لِلرَّجُلِ مِنْ أَمْرَاتِهِ وَهِيَ حَائِضٌ؟ فَقَالَتْ: لَهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا فَرْجُهَا <sup>(١٥)</sup>. وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ.

(قُلْتُ) وَيَجِلُّ مُضَاجَعَتُهَا وَمَوَازَلَتُهَا بِلَا خِلَافٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَأْمُرُنِي فَأَغْسِلُ رَأْسَهُ وَأَنَا حَائِضٌ، وَكَانَ يَتَكَبَّأُ فِي حُجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ <sup>(١٦)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهَا، قَالَتْ: كُنْتُ أَتَعَرَّقُ الْعَرَقَ وَأَنَا حَائِضٌ فَأَغْطِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي وَضَعْتُ فَمِي فِيهِ، وَأَشْرَبُ الشَّرَابَ فَأَنَاوِلُهُ فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كُنْتُ أَشْرَبُ مِنْهُ <sup>(١٧)</sup>.

وَبَتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْهَلَالِيَّةِ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَايِسَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ أَمَرَهَا فَاتَّزَرَّتْ وَهِيَ حَائِضٌ. وَهَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ <sup>(١٨)</sup>. وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ نَحْوُهُ <sup>(١٩)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: مَا يَجِلُّ لِي مِنْ أَمْرَاتِي وَهِيَ حَائِضٌ؟ قَالَ: «مَا فَوْقَ الْإِزَارِ» <sup>(٢٠)</sup>. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ وَنَهَى عَنْ قُرْبَانِهِنَّ بِالْجَمَاعِ مَا دَامَ الْحَيْضُ مَوْجُودًا، وَمَفْهُومُهُ: جِلُّهُ إِذَا انْقَطَعَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فِيهِ نَذْبٌ وَإِشَادٌ إِلَى غَشِيَانِهِنَّ بَعْدَ الْإِغْتِسَالِ. وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا انْقَطَعَ حَيْضُهَا لَا تَحِلُّ حَتَّى تَغْتَسِلَ بِالْمَاءِ أَوْ تَتَيَمَّمُ إِنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا بِشَرَطِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ أَيُّ مِنَ الدَّمِ ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أَيُّ بِالْمَاءِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَاللِّثْبِيُّ بْنُ سَعْدٍ وَغَيْرُهُمْ <sup>(٢١)</sup>.

[تَحْرِيمُ الْوُطْءِ فِي الدُّبْرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي الْفَرْجَ <sup>(٢٢)</sup>. وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ الْوُطْءِ فِي الدُّبْرِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْرِيرُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ أَبُو رَزِينٍ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ

(١) الطبري: ٣٧٨/٤ (٢) فتح الباري: ٤٧٩/١ (٣) مسلم: ٢٤٥/١ (٤) فتح الباري: ٤٨٣/١ ومسلم: ٢٤٣/١ (٥) فتح الباري: ٤٨٠/١ ومسلم: ٢٤٢/١ (٦) أحمد: ٣٤٢/٤ وأبو داود: ١٤٥/١ وتحفة الأحوذى: ٤١٥/١ وابن ماجه: ٢١٣/١

(٧) ابن أبي حاتم غ: ٦٨٢/٢ و٦٨٣ (٨) ابن أبي حاتم غ: ٢/٦٨٤ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٦٨٤/٢ و٦٨٥ (١٠) الطبري: ٤/٣٩٧ (١١) فتح الباري: ٣٧/٨ (١٢) مسلم: ١٠٥٨/٢ وأبو داود: ٦١٨/٢ (١٣) ابن أبي حاتم غ: ٦٩٣/٢ (١٤) أحمد: ٢٦٨/١

الْبَقَرَةُ

٣٦

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّعْنَةِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٢﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٣﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْنِهِنَّ أَحْسَنُ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَمَا سَاكُ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَوَءَاظِكُمْ الَّتِي نَسَبْتُمْ سُبُلًا لِآلٍ بِهَا لَا يُمْسِكُهُ اللَّهُ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوها وَمَنْ يَعْصِ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٦﴾ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَنْ يَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢٧﴾

هُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ أَبِي الْحَبَابِ، قَالَ: قُلْتُ: لِابْنِ عُمَرَ: مَا تَقُولُ فِي الْجَوَارِي حِينَ أُحْمَضُ لَهُنَّ؟ قَالَ: وَمَا التَّحْمِيزُ؟ فَذَكَرْتُ الدُّبْرَ، فَقَالَ: وَهَلْ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ<sup>(٩)</sup>؟ وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ وَنَصْرٌ صَرِيحٌ مِنْهُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ زَيْدٍ النَّيْسَابُورِيُّ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ ابْنُ حِصْنٍ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ رُوحٍ، سَأَلْتُ مَالِكَ بْنَ

يَعْقُوبَ النَّسَاءَ، وَكَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِنَّهُ مِنْ جَبَى امْرَأَتِهِ كَانَ وَلَدُهُ أَحْوَلُ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ نَكَحُوا فِي نِسَاءِ الْأَنْصَارِ فَجَبَوْهُنَّ، فَأَبَتْ امْرَأَةٌ أَنْ تُطِيعَ زَوْجَهَا، وَقَالَتْ: لَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى آتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَذَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرْتُ لَهَا ذَلِكَ، فَقَالَتْ: إِنْ جِئْتِي حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، اسْتَحْيَتْ الْأَنْصَارِيَّةُ أَنْ تَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَتْ، فَحَدَّثْتُ أُمَّ سَلَمَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَدْعِي الْأَنْصَارِيَّةَ» فَدُعِيَتْ، فَتَلَا عَلَيْهَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ﴾ «صِمَامًا وَاحِدًا»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُلْقَمَةَ، عَنْ أَبِي النَّضْرِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ، أَنَّهُ قَالَ لِنَافِعِ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ إِنَّهُ قَدْ أَكْثَرَ عَلَيْكَ الْقَوْلَ، إِنَّكَ تَقُولُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: إِنَّهُ أَفْتَى أَنْ تُؤْتِيَ النِّسَاءَ فِي أَذْبَارِهِنَّ، قَالَ: كَذَبُوا عَلَيَّ، وَلَكِنْ سَأَخْبُثُكَ كَيْفَ كَانَ الْأَمْرُ، إِنَّ ابْنَ عُمَرَ عَرَضَ الْمُصْحَفَ يَوْمًا وَأَنَا عِنْدُهُ حَتَّى بَلَغَ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ﴾ فَقَالَ: يَا نَافِعُ، هَلْ تَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْآيَةِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ، إِنَّا كُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ نَجْبِي النِّسَاءَ، فَلَمَّا دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ وَنَكَحْنَا نِسَاءَ الْأَنْصَارِ أَرَدْنَا مِنْهَا مِثْلَ مَا كُنَّا نُرِيدُ، فِإِذَا هُنَّ قَدْ كَرِهْنَ ذَلِكَ وَاعْظَمْنَهُ، وَكَانَتْ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ قَدْ أَخَذْنَ بِحَالِ الْيَهُودِ، إِنَّمَا يُؤْتَيْنَ عَلَى جُنُوبِهِنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

رَوَى أَحْمَدُ عَنْ خُرَيْمَةَ بِنِ ثَابِتِ الْخَطْمِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَسْتَحْيِي اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ - ثَلَاثًا - لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَعْجَازِهِنَّ»<sup>(٤)</sup>. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ أَتَى رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً فِي الدُّبْرِ»<sup>(٦)</sup>. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَزْمٍ أَيْضًا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ طَلْحٍ، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُؤْتِيَ النِّسَاءَ فِي أَذْبَارِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ<sup>(٧)</sup>. وَأَخْرَجَهُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ:

(١) أحمد: ٣٠٥/٦ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٢٢/٨ (٣) النسائي في الكبرى: ٣١٥/٥ (٤) أحمد: ٢١٥/٥ (٥) النسائي في الكبرى: ٣١٦/٥ وابن ماجه: ٦١٩/١ (٦) تحفة الأحوذى: ٣٢٩/٤ والنسائي في الكبرى: ٣٢٠/٥ وصحيح ابن حبان: ٦/٢٠٢ (٧) ذكره ابن حجر في أطراف المسند ٣٨٤/٤ ولم يوجد في المطبوع (٨) تحفة الأحوذى: ٢٧٤/٤ (٩) الدارمي: ١/٢٧٧ ح ١١٤٣

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْمِلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ﴾ قَالَ: لَا تَجْعَلُوا عُرْضَةَ لِيَمِينِكَ أَنْ لَا تَضَعَ الْخَيْرَ، وَلَكِنْ كَفَّرَ عَنْ يَمِينِكَ وَاضْنَعَ الْخَيْرَ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَالشَّعْبِيُّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَطَاوُسٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ وَعِكْرِمَةُ وَمَكْحُولٌ وَالزُّهْرِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالشَّدْيُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ<sup>(٢)</sup>.

وَيُؤَيِّدُ مَا قَالَهُ هَؤُلَاءِ الْجُمْهُورُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَتَّعَلَّ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»<sup>(٤)</sup>.

### [لَعْنُ الْيَمِينِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أَيُّ لَا يُعَاقِبُكُمْ وَلَا يَلْزِمُكُمْ بِمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الْأَيْمَانِ اللَّاغِيَةِ، وَهِيَ الَّتِي لَا يَقْضُهَا الْحَالِفُ، بَلْ تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ عَادَةً مِنْ غَيْرِ تَعْقِيدٍ وَلَا تَأْكِيدٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>(٥)</sup>. فَهَذَا قَالَهُ لِقَوْمٍ حَدِيثِي عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، قَدْ أَسْلَمُوا، وَالْأَيْسْتُهُمْ قَدْ أَلْفَتْ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَلْفِ بِاللَّاتِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَأَمَرُوا أَنْ يَتَلَفَّظُوا بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ كَمَا تَلَفَّظُوا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، لِتَكُونَ هَذِهِ بِهِذِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾... آيَةٌ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٩٨].

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: (بَابُ لَعْنِ الْيَمِينِ) ثُمَّ رَوَى عَنْ عَطَاءٍ فِي اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ، قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّغْوُ فِي الْيَمِينِ هُوَ كَلَامُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ:

أَنْسِي: مَا تَقُولُ فِي إِثْنَانِ النِّسَاءِ فِي أَذْبَارِهِنَّ؟ قَالَ: مَا أَنْتُمْ قَوْمٌ عَرَبٌ؛ هَلْ يَكُونُ الْحَرْثُ إِلَّا مَوْضِعَ الزَّرْعِ؟ لَا تَعْدُوا الْفَرْجَ، قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ. قَالَ: يَكْذِبُونَ عَلَيَّ يَكْذِبُونَ عَلَيَّ. فَهَذَا هُوَ الثَّابِتُ عَنْهُ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَبِي سَلَمَةَ وَعِكْرِمَةَ وَطَاوُسٍ وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ وَالْحَسَنِ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْلِقُ عَلَى فَاعِلِهِ الْكُفْرَ، وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ مَعَ امْتِنَالٍ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ تَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ﴾ أَيُّ فَيَحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ جَمِيعَهَا ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ الْمُطِيعِينَ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُمْ، أَلْتَارِكِينَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُمْ. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: أَرَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ قَالَ: تَقُولُ: «بِاسْمِ اللَّهِ» التَّسْمِيَةَ عِنْدَ الْجَمَاعِ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَصُرْهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا»<sup>(٧)</sup>.

﴿وَلَا تَحْمِلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلُّوا يَوْمَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

### [الْتِهَانِي عَنْ الْيَمِينِ بِتَرْكِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَجْعَلُوا أَيْمَانَكُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى مَانِعَةً لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَصِلَةِ الرَّحِمِ إِذَا حَلَفْتُمْ عَلَى تَرْكِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولَؤُلَافُ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْلَمُوا وَلِيَصَفَّحُوا أَلَّا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فَلَا سِتْمَارُ عَلَى الْيَمِينِ أَثَمٌ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا بِالتَّخْفِيرِ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّاقِفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٨)</sup>، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهُ لَأَنْ يَلِجَ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ، أَثَمٌ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ»، وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ<sup>(٩)</sup>.

(١) الطبري: ٤١٧/٤ (٢) فتح الباري: ١٣٦/٩ (٣) فتح الباري: ٤٤١/١٢ (٤) مسلم: ١٢٧٦/٣ (٥) أحمد: ٣١٧/٢ (٦) الطبري: ٤٢٢/٤ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٧٠٠-٧٠٢ (٨) فتح الباري: ٥٢٥/١١ (٩) مسلم: ١٢٦٨/٣ (١٠) فتح الباري: ٥٤٥/١١ (١١) مسلم: ١٢٦٨/٢

كَلَّا وَاللَّهِ، وَبَلَىٰ وَاللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَعَنُوا الْيَمِينَ أَنْ تَحْلِفَ وَأَنْتَ غَضَبَانُ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَعَنُوا الْيَمِينَ أَنْ تُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، فَذَلِكَ مَا لَيْسَ عَلَيْكَ فِيهِ كَفَّارَةٌ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رُويَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: (بَابُ الْيَمِينِ فِي الْغَضَبِ) ثُمَّ رَوَى عَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ: أَنَّ أَحْوَبَ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ بَيْنَهُمَا مِيرَاثٌ. فَسَأَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ الْقِسْمَةَ، فَقَالَ: إِنْ عُدْتُ تَسْأَلُنِي عَنِ الْقِسْمَةِ فَكُلُّ مَالِي فِي رِتَاجِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنْ الْكَعْبَةُ غَنِيَّةٌ عَنْ مَالِكَ، كَفَّرَ عَنْ يَمِينِكَ، وَكَلَّمُ أَخَاكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَمِينُ عَلَيْكَ، وَلَا نَذْرٌ فِي مَعْصِيَةِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي قِطْعَةِ الرَّجَمِ، وَفِيمَا لَا تَمْلِكُ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هُوَ أَنْ يَحْلِفَ عَلَى الشَّيْءِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ»... [الْمائدة: ٨٩]. «وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ» أَيُّ عَفْوٍ لِعِبَادِهِ حَلِيمٌ عَلَيْهِمْ.

«لَلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

[الْإِسْلَاءُ وَحُكْمُهُ]

الْإِسْلَاءُ: الْحَلِفُ، فَإِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ أَنْ لَا يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ مُدَّةً، فَلَا يَحِلُّوْا إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَقَلُّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْهَا، فَإِنْ كَانَتْ أَقَلَّ، فَلَهُ أَنْ يَنْتَظِرَ انْقِضَاءَ الْمُدَّةِ ثُمَّ يُجَامِعَ امْرَأَتَهُ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَصْبِرَ، وَلَيْسَ لَهَا مُطَالَبَتُهُ بِالْفَيْتَةِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، آلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا، فَتَزَلَّ لِتَسْعَ وَعِشْرِينَ، وَقَالَ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ»<sup>(٦)</sup>. وَلَهُمَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نَحْوُهُ<sup>(٧)</sup>. فَأَمَّا إِنْ زَادَتْ الْمُدَّةُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَلِلزَّوْجَةِ مُطَالَبَةُ الزَّوْجِ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، إِمَّا أَنْ يَبْقِيَ أَيُّ يُجَامِعُ، وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقَ، فَيُجْبِرُهُ الْحَاكِمُ عَلَى هَذَا، وَهَذَا لِتَلَا يَضُرَّ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «لَلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ» أَيُّ: يَحْلِفُونَ عَلَى تَرْكِ الْجَمَاعِ مِنْ نِسَائِهِمْ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَاءَ يَخْتَصُّ بِالزَّوْجَاتِ دُونَ الْإِمَاءِ،

كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ «تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ» أَيُّ يَنْتَظِرُ الزَّوْجُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ حِينَ الْحَلِفِ، ثُمَّ يُوقَفُ وَيُطَالَبُ بِالْفَيْتَةِ أَوْ الطَّلَاقِ، وَلِهَذَا قَالَ: «إِنْ فَاءُوا» أَيُّ رَجَعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ كِتَابَةُ عَنِ الْجَمَاعِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَالشَّعْبِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَمِنْهُمْ ابْنُ جُرَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(٨)</sup>. «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» لِمَا سَلَفَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمْ بِسَبَبِ الْيَمِينِ.

وَقَوْلُهُ: «وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ» فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ بِمَجْرَدِ مُضِيِّ الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرِ، كَمَا رَوَى مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا آلَى الرَّجُلُ مِنْ امْرَأَتِهِ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ طَلَاقٌ وَإِنْ مَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، حَتَّى يُوقَفَ، فَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقَ وَإِمَّا أَنْ يَبْقِيَ<sup>(٩)</sup>. وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَأَلْتُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الصَّحَابَةِ عَنِ الرَّجُلِ يُؤْلِي مِنْ امْرَأَتِهِ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ حَتَّى تَمُضِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَيُوقَفَ، فَإِنْ فَاءَ وَلَا طَلَّقَ<sup>(١١)</sup>. وَرواه الدَّارَقُطْنِيُّ مِنْ طَرِيقِ سَهْلِ<sup>(١٢)</sup>. (قُلْتُ) وَهُوَ يُرَوَى عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَعَائِشَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَبِهِ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَمُجَاهِدٌ وَطَاوُسٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالْقَاسِمُ.

«وَالطَّلَاقُ يَرْتَضِصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولِهِنَّ أَوْ يَذَّهَبْنَ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ﴿١٧٨﴾

[بَيَانُ عِدَّةِ الْمُطَلَّاقَةِ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْمُطَلَّقاتِ الْمَذْخُولِ بِهِنَّ مِنْ ذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ، بِأَنْ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، أَيُّ بِأَنْ تَمُكَّتْ إِحْدَاهُنَّ بَعْدَ طَلَاقِ زَوْجِهَا لَهَا ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ، ثُمَّ تَتَزَوَّجُ إِنْ شَاءَتْ.

(١) أبو داود: ٥٧٢/٣ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٧١٦/٢ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٧١٥/٢ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٧١٥/٢ (٥) أبو داود: ٥٨١/٣ (٦) فتح الباري: ٣٨٠/٨ ومسلم: ١١١٣/٢ (٧) فتح الباري: ١٤٣/٤ ومسلم: ١١١٠/٢ (٨) الطبري: ٤/٤٦٧، ٤٦٦ (٩) الموطأ: ٥٥٦/٢ (١٠) فتح الباري: ٩/٣٣٥ (١١) الطبري: ٤٩٣/٤ (١٢) الدارقطني: ٦١/٤

## [مَعْنَى الْقُرْءِ]

رَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ عُلُقَمَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَجَاءَهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجِي فَأَرْقَنِي بِوَاحِدَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ، فَجَاءَنِي وَقَدْ وَضَعْتُ مَائِي وَنَزَعْتُ ثِيَابِي وَأَعْلَقْتُ بِأَبِي، فَقَالَ عُمَرُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَاهَا امْرَأَتَهُ مَا دُونَ أَنْ تَحِلَّ لَهَا الصَّلَاةُ، قَالَ عُمَرُ: وَأَنَا أَرَى ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَعُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَأَنَسِ ابْنَ مَالِكٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَمُعَاذٍ، وَأَبِي ابْنِ كَعْبٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعُلُقَمَةُ وَالْأَسْوَدُ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالشَّعْبِيُّ وَالرَّبِيعُ وَمُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانٍ وَالسُّدِّيُّ وَمَكْحُولٌ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْأَقْرَأُ الْحَيْضُ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَبِي حُبَيْشٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهَا: «دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَانِكَ»<sup>(٢)</sup>. فَهَذَا لَوْ صَحَّ لَكَانَ صَرِيحًا فِي أَنَّ الْقُرْءَ هُوَ الْحَيْضُ، وَلَكِنَّ الْمُنْذِرَ - أَحَدَ رَوَاتِهِ - قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ: مَجْهُولٌ لَيْسَ بِمَشْهُورٍ، وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثَّقَاتِ.

## [يُقْبَلُ كَلَامُ النِّسَاءِ فِي الْحَيْضِ وَالطَّهْرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَجْزَائِهَا﴾ أَيُّ مِنْ حَبَلٍ أَوْ حَيْضٍ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ، وَمُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَكَمُ بْنُ عُثَيْبَةَ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تَهْدِيدٌ لَهَا عَلَى خِلَافِ الْحَقِّ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمَرْجِعَ فِي هَذَا إِلَيْهِنَّ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُعْلَمُ إِلَّا مِنْ جَهْتِهِنَّ، وَتَتَعَدَّرُ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ غَالِيًا عَلَى ذَلِكَ، فَرُدَّ الْأَمْرُ إِلَيْهِنَّ، وَتُوَعَّدُنَّ فِيهِ لِئَلَّا يُخْبِرَنَّ بَعِيرُ الْحَقِّ، إِمَّا اسْتِعْجَالًا مِنْهَا لِإِنْقِضَاءِ الْعِدَّةِ أَوْ رَغْبَةً مِنْهَا فِي تَطْوِيلِهَا لِمَا لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ، فَأَمَرَتْ أَنْ تُخْبِرَ بِالْحَقِّ فِي ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ.

## [الزَّوْجُ أَحَقُّ بِالرَّجْعَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُؤْمَلْنَ أَحَقُّ رَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أَيُّ وَزَوْجُهَا الَّذِي طَلَّقَهَا أَحَقُّ بِرَدِّهَا، مَا دَامَتْ فِي عِدَّتِهَا، إِذَا كَانَ مُرَادُهُ بِرَدِّهَا الْإِصْلَاحَ وَالْخَيْرَ، وَهَذَا فِي الرَّجْعِيَّاتِ، فَأَمَّا الْمُطَلَّقَاتُ الْبَوَائِنُ، فَلَمْ يَكُنْ حَالُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ

مُطَلَّقَةً بَائِنًا، وَإِنَّمَا صَارَ ذَلِكَ لَمَّا حُصِرُوا فِي الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ، فَأَمَّا حَالُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَكَانَ الرَّجُلُ أَحَقَّ بِرَجْعَةِ امْرَأَتِهِ وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ، فَلَمَّا قُصِرُوا فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعَدَهَا عَلَى ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ، صَارَ لِلنِّسَاءِ مُطَلَّقَةً بَائِنًا، وَغَيْرُ بَائِنٍ.

## [حُفُوقُ الزَّوْجَيْنِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ وَلَهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ مَا لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ، فَلْيُوَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى الْآخَرِ، مَا يَجِبُ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوْطِئَنَّ فُرُوشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»<sup>(٤)</sup>. وَفِي حَدِيثِ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ الْقُسَيْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدِنَا؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَبْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ وَكِيعٌ عَنْ بَشِيرِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ عِكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِي الْمَرْأَةُ، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٦)</sup>.

## [فَضْلُ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ دَرَجَةٌ﴾ أَيُّ فِي الْفَضِيلَةِ فِي الْخَلْقِ وَالْخَلْقِ، وَالْمَنْزِلَةِ، وَطَاعَةِ الْأَمْرِ وَالْإِنْفَاقِ، وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ وَالْفَضْلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ غَيْرُ حَكِيمٍ﴾ أَيُّ عَزِيزٌ فِي اتِّقَائِهِ وَمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

﴿أَتَطَّلِقُ مَرْثَانًا فَإِمْسَاكُ مَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحُ يُلْحَسِنُ وَلَا يَحِلُّ

(١) الطبري: ٥٠٢/٤ (٢) أبو داود: ١٩١/١ والنسائي: ٦/

٢١١ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٧٤٥/٢ (٤) مسلم: ٢/

٨٨٦ (٥) أبو داود: ٦٠٦/٢ (٦) الطبري: ٥٣٢/٤ وابن أبي

حاتم غ: ٧٥٠/٢ ابن أبي شيبة (١٩٦٠٨).

لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَخْرُجَ زَوْجًا غَيْرًا فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

مِنْكُمْ بِمَا أَعْطَيْتُمُوهُنَّ مِنَ الْأُصْدَقَةِ أَوْ يَعْصِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْصُوهُنَّ لِيُتْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ [النساء: ١٩] فَأَمَّا إِنْ وَهَبَتْ الْمَرْأَةُ شَيْئًا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهَا فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

### [الْأَذْنُ بِالْخُلْعِ وَاسْتِرْجَاعُ الْمَهْرِ فِيهِ]

وَأَمَّا إِذَا تَشَافَقَ الزَّوْجَانِ، وَلَمْ تَقُمْ الْمَرْأَةُ بِحُقُوقِ الرَّجُلِ، وَأَبْغَضَتْهُ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى مُعَاشَرَتِهِ، فَلَهَا أَنْ تَتَنَدَّى مِنْهُ بِمَا أَعْطَاهَا، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِي بَذْلِهَا لَهُ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ... الْآيَةُ.

فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا عُذْرٌ، وَسَأَلَتْ الْإِفْتِدَاءَ مِنْهُ، فَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ثَوْبَانَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ<sup>(٧)</sup>.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ بْنِ شَمَّاسٍ وَامْرَأَتِهِ حَبِيبَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي مَوْطَأِهِ عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ سَهْلِ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ بْنِ شَمَّاسٍ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، خَرَجَ إِلَى الصُّبْحِ، فَوَجَدَ حَبِيبَةَ بِنْتِ سَهْلِ عِنْدَ بَابِهِ فِي الْغُلَسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ هَذِهِ؟» قَالَتْ: أَنَا حَبِيبَةُ بِنْتِ سَهْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. «قَالَ: مَا شَأْنُكِ؟» فَقَالَتْ: لَا أَنَا وَلَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ - لِرُزُوجِهَا - فَلَمَّا جَاءَ زَوْجُهَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذِهِ حَبِيبَةُ بِنْتِ سَهْلِ قَدْ ذَكَرْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَذْكُرَ». فَقَالَتْ حَبِيبَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّ مَا أَعْطَانِي عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ مِنْهَا»، فَأَخَذَ مِنْهَا وَجَلَسَتْ فِي بَيْتِ أَهْلِهَا<sup>(٩)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ<sup>(١٠)</sup>، وَأَبُو دَاوُدَ<sup>(١١)</sup> وَالنَّسَائِيُّ<sup>(١٢)</sup>.

لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَخْرُجَ زَوْجًا غَيْرًا فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

[قَصْرُ الطَّلَاقَاتِ عَلَى الثَّلَاثِ، وَبَيَانُ الرَّجْعِيَّةِ وَالْبَائِثَةِ] هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ رَافِعَةٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ أَحَقُّ بِرَجْعَةِ امْرَأَتِهِ وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ، مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا فِيهِ ضَرَرٌ عَلَى الزَّوْجَاتِ قَصَرَهُمُ اللَّهُ إِلَى ثَلَاثِ طَلَقَاتٍ، وَأَبَاحَ الرَّجْعَةَ فِي الْمَرَّةِ وَالثَّنَيْنِ، وَأَبَانَهَا بِالْكُلِّيَّةِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فِيمَا سَأَلْتُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ شَرِّعٍ بِإِحْسَنِ».

قَالَ أَبُو دَاوُدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سُنَنِهِ: (بَابُ نَسْخِ الْمَرَاجَعَةِ بَعْدَ الطَّلَاقَاتِ الثَّلَاثِ): ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «وَالطَّلَاقُ يُرْصَنُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةً فُرُوقًا وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ»... الْآيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَهُوَ أَحَقُّ بِرَجْعَتِهَا وَإِنْ طَلَّقَهَا ثَلَاثًا، فَنَسَخَ ذَلِكَ فَقَالَ: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ»... الْآيَةُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُرْوَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِامْرَأَتِهِ: لَا أَطْلُقُكَ أَبَدًا، وَلَا أَوْبِكَ أَبَدًا. قَالَتْ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَطْلُقُكَ حَتَّى إِذَا دَنَا أَجْلُكَ رَاجَعْتُكَ، فَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ»<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فِيمَا سَأَلْتُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ شَرِّعٍ بِإِحْسَنِ» أَيُّ إِذَا طَلَّقَتْهَا وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ فِيهَا، مَا دَامَتْ عِدَّتُهَا بَاقِيَةً، بَيْنَ أَنْ تَرْدَهَا إِلَيْكَ، نَاوِيًا الْإِصْلَاحَ بِهَا وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهَا، وَبَيْنَ أَنْ تَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا، فَتَبِينَ مِنْكَ، أَوْ تَطْلُقَ سَرَاحًا مُحْسِنًا إِلَيْهَا، لَا تَطْلُمُهَا مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا وَلَا تُضَارَّ بِهَا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ تَطْلِيقَتَيْنِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي ذَلِكَ، أَيُّ فِي الثَّالِثَةِ، فَإِذَا أَنْ يُمَسِّكَهَا بِمَعْرُوفٍ فَيُحْسِنَ صَحَابَتَهَا، أَوْ يُسَرِّحَهَا بِإِحْسَانٍ فَلَا يَطْلُمُهَا مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا<sup>(٥)</sup>.

### [الْأَنْهَى عَنْ اسْتِرْجَاعِ الْمَهْرِ]

وَقَوْلُهُ: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا» أَيُّ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَضَاجِرُوهُنَّ وَتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ، لِيَفْتَدِينَ

(١) أبو داود: ٦٤٤/٢ (٢) النسائي: ٢١٢/٦ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٧٥٤/٢ (٤) الطبري: ٥٣٩/٤ (٥) الطبري: ٤/٥٤٣ (٦) الطبري: ٥٦٩/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٦٧/٤ (٨) الطبري: ٥٥٦/٤ (٩) الموطأ: ٥٦٤/٢ (١٠) أحمد: ٦/٤٣٣ (١١) أبو داود: ٦٦٧/٢ (١٢) النسائي: ١٦٩/٦



وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ امْرَأَةً ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَغْنَيْ عَنْهُ فِي خُلُقِي وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْبَلِي الْحَدِيثَ وَطَلِّقِيهَا تَطْلِيقَةً»<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup>.

[عِدَّةُ الْمُخْتَلَعَةِ]

رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ مُعَوِّذٍ بْنِ عَمْرٍاءَ، أَنَّهَا اخْتَلَعَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ أَمَرَتْ أَنْ تَعْتَدَ بِحَيْضَةٍ<sup>(٣)</sup>.

[اعْتِدَاءُ حُدُودِ اللَّهِ ظُلْمٌ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَدَّدَ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ هَذِهِ الشَّرَائِعِ الَّتِي شَرَعَهَا لَكُمْ هِيَ حُدُودُهُ فَلَا تَتَجَاوَزُوهَا، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ حَدَّدَ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ مَحَارِمَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحِمَهُ لَكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا»<sup>(٤)</sup>.

[الطَّلَاقُ الثَّلَاثُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ حَرَامٌ]

وَقَدْ اسْتَدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ جَمْعَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ حَرَامٌ، وَيَدُلُّ لَهُ حَدِيثُ مُحَمَّدٍ بْنِ لُبَيْدٍ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثَ طَلِّقَاتٍ جَمِيعًا، فَقَامَ غَضَبَانِ ثُمَّ قَالَ: «أَيْلَعِبُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟» حَتَّى قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَقْتُلُهُ؟<sup>(٥)</sup>.

[لَا رَجْعَةَ بَعْدَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾ أَيُّ إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَلْقَةً ثَالِثَةً بَعْدَ مَا أُرْسِلَ عَلَيْهَا الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ، فَإِنَّهَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ «حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا»، أَيُّ حَتَّى يَطَّأَهَا زَوْجٌ آخَرٌ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ، فَلَوْ وَطَّئَهَا وَاطِئٌ فِي غَيْرِ نِكَاحٍ وَلَوْ فِي مِلْكِ الْيَمِينِ، لَمْ تَحِلَّ لِلأَوَّلِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِزَوْجٍ، وَهَكَذَا لَوْ تَزَوَّجَتْ وَلَكِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا الزَّوْجُ لَمْ تَحِلَّ لِلأَوَّلِ، رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، سُئِلَ عَنِ الْمَرْأَةِ يَتَزَوَّجُهَا الرَّجُلُ فَيَطْلُقُهَا، فَتَزَوَّجُ رَجُلًا فَيَطْلُقُهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، أَتَحِلُّ لِرَجُلٍ آخَرَ؟ قَالَ: «لَا، حَتَّى يَدْخُلَ غُسَيْلَتَهَا»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا<sup>(٧)</sup>.

(١) فتح الباري: ٣٠٦/٩ (٢) النسائي: ١٦٩/٦ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٦٣/٤ (٤) الدارقطني: ٢٩٨/٤ (٥) النسائي: ١٤٢/٦ (٦) مسلم: ١٠٥٧/٢ (٧) فتح الباري: ٢٨٤/٩ (٨) أحمد: ٣٤/٦ (٩) فتح الباري: ٥١٨/١٠ (١٠) مسلم: ١٠٥٧/٢ (١١) النسائي: ١٤٦/٦

نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا  
 أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ  
 اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

[الْأَمْرُ بِحُسْنِ الْمَعَامَلَةِ مَعَ الْمُطَلَّقة]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلرِّجَالِ إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ  
 الْمَرْأَةَ طَلَاقًا لَهُ عَلَيْهَا فِيهِ رَجْعَةٌ: أَنْ يُحْسِنَ فِي أَمْرِهَا إِذَا  
 انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا مِقْدَارُ مَا يُمْكِنُهُ فِيهِ  
 رَجْعَتُهَا، فَإِذَا أَنْ يُمَسِّكَهَا، أَيْ يَرْتَجِعَهَا، إِلَى عِصْمَةِ  
 نِكَاحِهِ، بِمَعْرُوفٍ، وَهُوَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَى رَجْعَتِهَا، وَيُنَوَّى  
 عَشْرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ يُسَرِّحَهَا، أَيْ يَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقَضِيَ  
 عِدَّتُهَا، وَيُخْرِجَهَا مِنْ مَنَازِلِهِ بِأَلْيِّ هَيْ أَحْسَنُ، مِنْ غَيْرِ  
 شِقَاقٍ وَلَا مُخَاصَمَةٍ وَلَا تَقَابُحٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا  
 تُنْكِحُواهُنَّ حَتَّى يُنْفِضَ عَنْهُنَّ الْوَلِيُّ وَالْوَالِدَةُ وَالْمُسْتَوْصِلَةُ  
 وَالْحَسَنُ وَقِتَادَةُ وَالصَّحَاكُ وَالرَّبِيعُ، وَمُقَابِلُ بْنُ حَيَّانَ وَغَيْرُ  
 وَاحِدٍ: كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ، فَإِذَا قَارَبَتْ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ  
 رَاجِعَهَا ضِرَارًا، لِئَلَّا تَذْهَبَ إِلَى غَيْرِهِ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا فَتَعُدُّ،  
 فَإِذَا شَارَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ طَلَّقَ لِنُطُولِ عَلَيْهَا الْعِدَّةِ،  
 فَتَنْفِذُهَا اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ<sup>(٧)</sup>. وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ  
 يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أَيْ بِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ رَوَى ابْنُ  
 جَرِيرٍ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي مُوسَى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
 غَضِبَ عَلَى الْأَشْعَرِيِّينَ، فَأَتَاهُ أَبُو مُوسَى قَالَ: يَا رَسُولَ  
 اللَّهِ، أَغَضِبْتَ عَلَى الْأَشْعَرِيِّينَ؟ فَقَالَ: «يَقُولُ أَحَدُكُمْ: قَدْ  
 طَلَّقْتُ، قَدْ رَاجَعْتُ، لَيْسَ هَذَا طَلَاقَ الْمُسْلِمِينَ، طَلَّقُوا  
 الْمَرْأَةَ فِي قُبُلِ عِدَّتِهَا»<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مَسْرُوقٌ: هُوَ الَّذِي يُطَلِّقُ  
 فِي غَيْرِ كُنْهٍ، وَيُضَارُّ امْرَأَتَهُ بِطَلَاقِهَا وَارْتِجَاعِهَا، لِنُطُولِ  
 عَلَيْهَا الْعِدَّةِ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقِتَادَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ  
 وَالرَّبِيعُ وَمُقَابِلُ بْنُ حَيَّانَ: هُوَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ وَيَقُولُ: كُنْتُ  
 لَا عِيَا. أَوْ يَعْتِقُ أَوْ يَنْكِحُ وَيَقُولُ: كُنْتُ لَا عِيَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

وَالْمُرَادُ بِالْعُسَيْلَةِ الْجِمَاعُ، لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ  
 وَالنَّسَائِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:  
 «أَلَا إِنَّ الْعُسَيْلَةَ: الْجِمَاعُ»<sup>(١٠)</sup>.

[الْلَعْنَةُ عَلَى الْمُحْلِلِ وَالْمُحَلَّلِ لَهُ]

(فَضْلٌ) وَالْمَقْصُودُ مِنَ الزَّوْجِ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي  
 الْمَرْأَةِ، قَاصِدًا لِدَوَامِ عَشْرَتِهَا، كَمَا هُوَ الْمَشْرُوعُ مِنَ  
 الزَّوْجِ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الثَّانِي إِنَّمَا قَصْدُهُ أَنْ يَحْلِلَهَا لِلأَوَّلِ،  
 فَهَذَا هُوَ الْمُحْلِلُ الَّذِي وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِذَمِّهِ وَلَعْنِهِ،  
 وَمَتَى صَرَّحَ بِمَقْصُودِهِ فِي الْعَقْدِ بَطَلَ النِّكَاحُ عِنْدَ جُمْهُورِ  
 الْأَئِمَّةِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ الْوَأَشِمَةَ وَالْمُسْتَوْصِمَةَ، وَالْوَأَصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ،  
 وَالْمُحْلِلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ، وَأَكَلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَاهُ  
 التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(١٢)</sup>. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ  
 صَحِيحٌ. قَالَ: وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ  
 الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ عُمَرُ وَعُثْمَانُ وَابْنُ عُمَرَ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ  
 مِنَ التَّابِعِينَ، وَيُرْوَى ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ  
 عَبَّاسٍ.

وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ نَافِعٍ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ  
 رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا،  
 فَتَزَوَّجَهَا أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ مُؤَامَرَةٍ مِنْهُ لِيُحْلِلَهَا لِأَخِيهِ، هَلْ تَحِلُّ  
 لِلأَوَّلِ؟ فَقَالَ: لَا إِلَّا نِكَاحَ رَغْبَةٍ، كُنَّا نَعُدُّ هَذَا سَفَاحًا عَلَى  
 عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ  
 وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(١٣)</sup>. وَهَذِهِ الصَّبِغَةُ مُشْتَبِهَةٌ بِالرَّفْعِ.

وَهَكَذَا رَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالْجَوْزْجَانِيُّ وَحَرْبُ  
 الْكِرْمَانِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ الْأَثَرِيُّ عَنْ قَبِيصَةَ بِنِ جَابِرٍ، عَنْ عُمَرَ  
 أَنَّهُ قَالَ: لَا أَوْتَى بِمُحْلِلٍ وَلَا مُحَلَّلٍ لَهُ إِلَّا رَجَعْتُمَا<sup>(١٤)</sup>.

[مَتَى تَحِلُّ الْمُطَلَّقةُ ثَلَاثًا لِرِزْوَجِهَا الْأَوَّلِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أَيْ الزَّوْجِ الثَّانِي بَعْدَ الدُّخُولِ بِهَا  
 ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا﴾ أَيْ الْمَرْأَةُ وَالزَّوْجُ الْأَوَّلُ ﴿إِنْ  
 ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أَيْ يَتَعَاشَرَا بِالْمَعْرُوفِ. قَالَ  
 مُجَاهِدٌ: إِنْ ظَنَّا أَنَّ نِكَاحَهُمَا عَلَى غَيْرِ دَلْسَةٍ<sup>(١٥)</sup>. ﴿وَتِلْكَ  
 حُدُودُ اللَّهِ﴾ أَيْ شَرَائِعُهُ وَأَحْكَامُهُ ﴿يُنَبِّئُهَا﴾ أَيْ يُؤْصِحُّهَا  
 ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَنْبِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِحُوهُنَّ  
 بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْكِحُوهُنَّ حَتَّى يَنْفِضَ عَنْهُنَّ الْوَلِيُّ وَالْوَالِدَةُ وَالْمُسْتَوْصِلَةُ  
 وَالْحَسَنُ وَقِتَادَةُ وَالصَّحَاكُ وَالرَّبِيعُ، وَمُقَابِلُ بْنُ حَيَّانَ وَغَيْرُ  
 وَاحِدٍ: كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ، فَإِذَا قَارَبَتْ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ  
 رَاجِعَهَا ضِرَارًا، لِئَلَّا تَذْهَبَ إِلَى غَيْرِهِ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا فَتَعُدُّ،  
 فَإِذَا شَارَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ طَلَّقَ لِنُطُولِ عَلَيْهَا الْعِدَّةِ،  
 فَتَنْفِذُهَا اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ<sup>(١٦)</sup>. وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ  
 يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أَيْ بِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى.

(١) أحمد: ٦٢/٦ وفيه أبو عبد الملك المكي وهو مجهول وقد  
 اختلف في وقفه ورفع وإرساله، ولم أقف على الحديث عند  
 النسائي. (٢) أحمد: ٤٤٨/١ (٣) أحمد: ٤٤٨/١ وتحفة  
 الأحوذى: ٢٦٤/٤ والنسائي: ١٤٩/٦ (٤) الحاكم: ١٩٩/٢  
 (٥) ابن أبي شيبة: ٢٩٤/٤ (٦) الطبري: ٥٩٨/٤ (٧) ابن أبي  
 حاتم غ: ٧٧٢-٧٧٤ والطبري: ٩٢٠١ (٨) الطبري: ٥/  
 ١٤ (٩) الطبري: ٨/٥

مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ<sup>(٨)</sup> بِهِ. وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا، وَلَفْظُهُ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ. أَنَّهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ، ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقًا لَمْ يُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتِ الْعِدَّةُ، فَهَوَّيَهَا وَهَوَّيْتَهُ، ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الْخُطَابِ، فَقَالَ لَهُ: [يَا لَكُعُ]، أَكْرَمْتُكَ بِهَا وَزَوَّجْتُكَ فَطَلَّقْتُهَا، وَاللَّهِ لَا تَرْجِعْ إِلَيْكَ أَبَدًا. آخِرُ مَا عَلَيْكَ. قَالَ: فَلَعَلَّمَ اللَّهُ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا، وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ: سَمِعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ: أَزَوَّجْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ<sup>(٩)</sup>. زَادَ ابْنُ مَرْذُومٍ: وَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يُعْطَى بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ مِنْ مَنَعَ الْوَلَايَا أَنْ يَتَزَوَّجَ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ بِأَتَمِّ بِهِ، وَيَتَّعِظُ بِهِ، وَيَتَّعِلُّ لَهُ ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ﴾. أَيْ يَوْمَ يُشْرَعُ اللَّهُ، وَيَخَافُ وَعِيدَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ، فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ ﴿ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَظْهَرُ﴾ أَيْ إِبْتِغَاءَكُمْ شَرَعَ اللَّهُ، فِي رَدِّ الْمَوْلِيَّاتِ إِلَى أَرْوَاجِهِنَّ، وَتَرَكُ الْحَيَّةِ فِي ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَظْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أَيْ مِنَ الْمَصَالِحِ، فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ الْخَيْرَةِ فِيمَا تَأْتُونَ، وَلَا فِيمَا تَذَرُونَ.

﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَاعَدُ وَلَدَةٌ بَوْلًا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلَةٌ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٢﴾

[لَا رِضَاعَةَ إِلَّا فِي مَدَّةِ الرِّضَاعَةِ]

هَذَا إِشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْوِلْدَاتِ أَنْ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ

﴿وَلَا تَنْحَدُوا عَائِيتِ اللَّهِ هُزُؤًا﴾<sup>(١١)</sup> فَأَلَزَمَ اللَّهُ بِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ فِي إِرسَالِهِ الرُّسُولَ بِالْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ إِلَيْكُمْ ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أَيْ السُّنَّةِ ﴿يُعِظُكُمْ بِهِ﴾ أَيْ يَأْمُرُكُمْ وَيَنْهَاكُمْ وَيَتَوَعَّدُكُمْ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ، ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيْ فِيمَا تَأْتُونَ وَفِيمَا تَذَرُونَ، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَيْ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمُ السَّرِيَّةِ وَالْجَهْرِيَّةِ، وَسَبَّحَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَبْكِينَ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُعْطَى بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَظْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٣٢﴾

[نَهَى الْوَلِيَّ عَنْ مَنَعَ الْمَرْأَةِ أَنْ تَنْكِحَ زَوْجَهَا الْمُطْلَقَ] قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الرَّجُلِ يُطْلِقُ امْرَأَتَهُ طَلْقًا أَوْ طَلْقَتَيْنِ، فَتَنْقَضِي عِدَّتُهَا، ثُمَّ يَبْدُو لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا وَأَنْ يُرَاجِعَهَا، وَتُرِيدُ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ، فَيَمْنَعُهَا أَوْلِيَاؤُهَا مِنْ ذَلِكَ، فَنَهَى اللَّهُ أَنْ يَمْنَعُوهَا<sup>(١٢)</sup>. وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا<sup>(١٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَالضَّحَّاكُ: إِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي ذَلِكَ<sup>(١٤)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ.

[لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ]

وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُزَوَّجَ نَفْسَهَا، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي تَزْوِيجِهَا مِنْ وَلِيٍّ، كَمَا قَالَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا تُزَوَّجُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةُ، وَلَا تُزَوَّجُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوَّجُ نَفْسَهَا»<sup>(١٥)</sup>. وَفِي الْآثَرِ الْآخِرِ: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ مُرْشِدٍ وَشَاهِدَيْنِ عَدْلٍ»<sup>(١٦)</sup>.

[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِيِّ وَأَخِيهِ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الصَّحِيحِ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ أُخْتَهُ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ طَلَّقَهَا زَوْجَهَا، فَتَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَخَطَبَهَا، فَأَبَى مَعْقِلٌ، فَزَلَّتْ: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَبْكِينَ أَرْوَاجَهُنَّ﴾<sup>(١٧)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ مَرْذُومٍ مِنْ طَرَفٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ

(١) ابن أبي حاتم غ: ٧٧٥/٢ و ٧٧٦ (٢) الطبري: ٢٢/٥

(٣) الطبري: ٢٢/٥ (٤) الطبري: ٢٢/٥ و ٢٣ (٥) ابن ماجه:

٦٠٦/١ (٦) الأم للشافعي ٢٢/٥ و البيهقي ١١٢/٧ و ١٢٤ عن

ابن عباس موقوفًا. (٧) فتح الباري: ٤٠/٨ (٨) أبو داود: ٢/

٥٦٩ وتحفة الأحوذ: ٣٢٥/٨ و ابن أبي حاتم غ: ٧٧٨/٢

والطبري: ١٧/٥-١٩ و البيهقي: ١٠٤/٧ (٩) تحفة الأحوذ:

٣٢٤/٨ (١٠) البيهقي: ١٠٤/٧

وَعَلَى وَالِدِ الْطِفْلِ نَفَقَةُ الْوَالِدَاتِ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ،  
أَيُّ بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أُمَّثَلِهِنَّ فِي بَلَدِهِنَّ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ  
وَلَا إِفْتَارٍ، بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ فِي يَسَارِهِ، وَنَوَاسِطِهِ وَإِفْتَارِهِ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنْ شَيْءٍ سَعْيٌ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ  
فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ يَكْفِيكَ اللَّهُ فَنَسًا إِلَّا مَا آتَيْنَاهَا سَيِّجَعُ اللَّهُ  
بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] قَالَ الضَّحَّاكُ: إِذَا طَلَّقَ  
زَوْجَتَهُ وَلَهُ مِنْهَا وَلَدٌ، فَأَرْضَعَتْ لَهُ وَلَدَهُ، وَجَبَ عَلَى  
الْوَالِدِ نَفَقَتُهَا وَكِسْوَتُهَا بِالْمَعْرُوفِ<sup>(٧)</sup>.

### [لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُضَارُّ وَابْنَهُ بِوَلَدِهَا﴾ أَيُّ بِأَنْ تَدْفَعَهُ عَنْهَا  
لِتَضُرَّ أَبَاهُ بِتَرْبِيَّتِهِ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهَا دَفْعُهُ إِذَا وَلَدَتْهُ حَتَّى  
تَسْقِيَهُ اللَّبَأَ الَّذِي لَا يَبِيشُ بِدُونِ تَنَاوُلِهِ غَالِيًا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا  
لَهَا دَفْعُهُ عَنْهَا إِنْ شَاءَتْ، وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ مُضَارَّةً لِأَبِيهِ فَلَا  
يَحِلُّ لَهَا ذَلِكَ، كَمَا لَا يَحِلُّ لَهُ انْتِزَاعُهُ مِنْهَا لِمُجَرِّدِ الضَّرَارِ  
لَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُوهَا﴾ أَيُّ بِأَنْ يُرِيدَ أَنْ  
يَنْتَزِعَ الْوَلَدَ مِنْهَا إِضْرَارًا بِهَا. قَالَه مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ  
وَالزُّهْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ، وَالثَّوْرِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ قِيلَ: فِي عَدَمِ  
الضَّرَارِ لِقَرِيبِهِ. قَالَه مُجَاهِدٌ وَالسَّعْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ. وَقِيلَ:  
عَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى وَالِدِ الْطِفْلِ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْوَلَدَةِ  
الطِفْلِ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا، وَعَدَمِ الْإِضْرَارِ بِهَا، وَهُوَ قَوْلُ  
الْجُمْهُورِ. وَقَدْ اسْتَفْصَى ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، وَقَدْ  
ذَكَرَ أَنَّ الرِّضَاعَةَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ رُبَّمَا ضَرَبَتْ الْوَلَدَ إِمَّا فِي  
بَدَنِهِ أَوْ عَقْلِهِ. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ  
إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ: أَنَّهُ رَأَى امْرَأَةً تُرْضِعُ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ،  
فَقَالَ: لَا تُرْضِعِيهِ<sup>(٩)</sup>.

### [الْفِطَامُ عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ  
عَلَيْهِمَا﴾ أَيُّ فَإِنْ اتَّفَقَ الْوَالِدَا الْطِفْلُ عَلَى فِطَامِهِ قَبْلَ  
الْحَوْلَيْنِ، وَرَأَيَا فِي ذَلِكَ مَضْلَحَةً لَهُ، وَتَشَاوَرَا فِي ذَلِكَ  
وَأَجْمَعَا عَلَيْهِ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ  
انْفِرَادَ أَحَدِهِمَا بِذَلِكَ دُونَ الْآخَرِ لَا يَكْفِي، وَلَا يَجُوزُ

كَمَالَ الرِّضَاعَةِ، وَهِيَ سِتَتَانِ، فَلَا اغْتِبَارَ بِالرِّضَاعَةِ بَعْدَ  
ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرِّضَاعَةُ﴾ فَلَا يُحْرَمُ مِنَ  
الرِّضَاعَةِ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ، فَلَوْ ارْتَضَعَ الْمَوْلُودُ  
وَعُمُرُهُ قَوْفَهُمَا لَمْ يُحْرَمْ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ  
الرِّضَاعَةَ لَا تَحْرُمُ إِلَّا فِي الصَّغَرِ دُونَ الْحَوْلَيْنِ) ثُمَّ رَوَى  
عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُحْرَمُ مِنَ  
الرِّضَاعِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأُمْعَاءُ فِي الثَّدْيِ، وَكَانَ قَبْلَ  
الْفِطَامِ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ  
عَلَى هَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
وغيرِهِمْ، أَنَّ الرِّضَاعَةَ لَا تَحْرُمُ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ،  
وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ الْكَامِلَيْنِ، فَإِنَّهُ لَا يُحْرَمُ شَيْئًا.  
(قُلْتُ) تَفَرَّدَ التِّرْمِذِيُّ بِرِوَايَةِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَرِجَالُهُ عَلَى  
شَرِّطِ الصَّحِيحَيْنِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: إِلَّا مَا كَانَ «فِي الثَّدْيِ» أَيُّ فِي مَحَلِّ  
الرِّضَاعَةِ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ  
أَحْمَدُ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ  
النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ ابْنِي مَاتَ فِي الثَّدْيِ؛ إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا  
فِي الْجَنَّةِ»<sup>(٢)</sup>.

وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ الدَّارِقُطْنِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعِ إِلَّا مَا كَانَ فِي  
الْحَوْلَيْنِ»<sup>(٣)</sup>. (قُلْتُ) وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ  
عَنْ ثَوْرِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْفُوعًا<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ  
الدَّارُورِدِيُّ عَنْ ثَوْرٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَزَادَ:  
«وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ». وَهَذَا أَصَحُّ.

### [رِضَاعَةُ الْكَبِيرِ]

وَقَدْ رَوَى فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا  
كَانَتْ تَرَى رِضَاعَ الْكَبِيرِ يُؤَثِّرُ فِي التَّحْرِيمِ<sup>(٥)</sup>. وَهُوَ قَوْلُ  
عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَأْمُرُ  
بِمَنْ تَخْتَارُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا مِنَ الرِّجَالِ لِيَعْتَضَ نِسَائِهَا،  
فَتَرْضِعُهُ، وَتَحْتَجُّ فِي ذَلِكَ بِحَدِيثِ سَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ  
حَيْثُ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ امْرَأَةً أَبِي حُدَيْفَةَ أَنْ تُرْضِعَهُ وَكَانَ  
كَبِيرًا، فَكَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا بِتِلْكَ الرِّضَاعَةِ، وَأَبَى ذَلِكَ سَائِرُ  
أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَأَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْخَصَائِصِ<sup>(٦)</sup>. وَهُوَ  
قَوْلُ الْجُمْهُورِ.

### [أُجْرَةُ الرِّضَاعَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ

(١) تحفة الأحوذى: ٣١٣/٤ (٢) عمدة التفسير: ١٢٦/١ (٣)

الدارقطني: ١٧٤/٤ (٤) الموطأ: ٦٠٢/٢ (٥) مسلم: ٢/

١٠٧٧ (٦) أبو داود: ٥٤٩/٢ ٥٥٠ (٧) الطبري: ٣٩/٥

(٨) الطبري: ٤٩/٥ ٥٠ (٩) الطبري: ٣٦/٥

الْبَقَرَةُ

٣٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَىٰنَ بِأَنْفُسِهِنَّ  
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ  
فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ  
(٣٨) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ  
أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ  
وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا  
وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٣٩) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ  
مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْوُسْعِ  
قَدَرُهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتَرَدِ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ  
(٤٠) وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ  
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَا أَوْ يَعْفُوا  
الَّذِي بَيْنَهُمَا عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ  
وَلَا تَتَّبِعُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤١)

لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَسْتَبِدَّ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ مُشَاوَرَةِ الْآخَرِ. قَالَهُ  
الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُ. وَهَذَا فِيهِ اخْتِطَاطٌ لِلطُّفْلِ وَالزَّامُ لِلنَّظَرِ فِي  
أَمْرِهِ، وَهُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ حَيْثُ حَجَرَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ  
فِي تَرْبِيَةِ طِفْلِهِمَا، وَأَرَشَدَهُمَا إِلَى مَا يُضِلُّهُمَا وَيُضِلُّهُ،  
كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ: ﴿فَإِنْ أَتَضَعَنَّ لَكُمْ فِتْنَتَهُنَّ أَجُورَهُنَّ  
وَأُتْمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ فَسَرِّعُوا لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٤٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسَرَّضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ  
عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيْ إِذَا اتَّفَقَتِ الْوَالِدَةُ  
وَالْوَالِدُ عَلَى أَنْ يَسْتَلِمَ مِنْهَا الْوَلَدُ إِمَّا لِعَذْرِ مِنْهَا أَوْ لِعَذْرِ  
لَهُ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي بَذْلِهِ، وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا،  
إِذَا سَلَّمَهَا أَجْرَتَهَا الْمَاضِيَةَ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ، وَاسْتَرْضَعَ  
لِوَلَدِهِ غَيْرَهَا بِالْأَجْرَةِ بِالْمَعْرُوفِ. قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُ:  
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيْ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِكُمْ  
وَأَفْوَالِكُمْ.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرَىٰنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ  
أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي  
أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣٨)  
[عِدَّةُ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لِلنِّسَاءِ اللَّاتِي يُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ أَنْ  
يَعْتَدِدْنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَ لَيَالٍ، وَهَذَا الْحُكْمُ يَشْمَلُ  
الزَّوْجَاتِ الْمَذْخُولِ بِهِنَّ وَغَيْرِ الْمَذْخُولِ بِهِنَّ بِالْإِجْمَاعِ.  
وَمُسْتَنَدُهُ فِي غَيْرِ الْمَذْخُولِ بِهَا عُمُومُ آيَةِ الْكَرِيمَةِ،  
وَهَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ  
وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ: أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ تَزَوَّجَ  
امْرَأَةً فَمَاتَتْ عَنْهَا، وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا، وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا،  
فَتَرَدَّدُوا إِلَيْهِ مِرَارًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ  
يَكُ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُ خَطَأً فَمِنِّْي وَمِنْ الشَّيْطَانِ،  
وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ: لَهَا الصَّدَاقُ كَامِلًا، وَفِي لَفْظٍ:  
لَهَا صَدَاقٌ مِثْلُهَا، لَا وَكَسَ وَلَا شَطَطَ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ،  
وَلَهَا الْمِيرَاثُ، فَقَامَ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ الْأَشْجَعِيُّ فَقَالَ:  
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَضَىٰ بِهِ فِي بَرُوعَ بِنْتِ وَاشِقٍ،  
فَفَرَحَ عَبْدُ اللَّهِ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا. وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَامَ رَجُلٌ  
مِنْ أَشْجَعٍ فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَىٰ بِهِ فِي  
بَرُوعَ بِنْتِ وَاشِقٍ.

وَلَا يُخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ  
حَامِلٌ، فَإِنْ عِدَّتْهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ، وَلَوْ لَمْ تَمُتْ بَعْدَهُ  
سِوَى لَحْظَةٍ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ  
حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وَلَمَّا بُنِتَ بِهِ الشَّيْءُ فِي حَدِيثِ سُبَيْعَةَ  
الْأَسْلَمِيَّةِ الْمُخْرَجِ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ: أَنَّهُ تُتَوَفَّى  
عَنْهَا زَوْجُهَا سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشُبْ أَنْ  
وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ: فَوَضَعَتْ حَمْلَهَا  
بَعْدَهُ بِلَيَالٍ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نَفَاسِهَا، تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ،  
فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّائِلِ بْنُ بَعَكٍ، فَقَالَ لَهَا: مَا لِي أَرَاكِ  
مُتَجَمِّلَةً، لَعَلَّكَ تَرْجِينَ النِّكَاحَ؟ وَاللَّهُ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى  
يَمُرَّ عَلَيْكَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ. قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي  
ذَلِكَ، جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي جِئِينَ أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ جِئِينَ

(١) أحمد: ٤٨٠/٣ وأبو داود: ٥٨٨/٢ وتحفة الأحوذى: ٤/٢٩٩  
والنسائي: ١٩٨/٦ وابن ماجه: ٦٠٩/١

وَصَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزْوِجِ إِنْ بَدَأَ لِي<sup>(١)</sup>.

[حِكْمَةُ هَذِهِ الْعِدَّةِ]

وَقَدْ ذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَغَيْرُهُمَا: أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي جَعْلِ عِدَّةِ الْوَفَاةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، لِإِحْتِمَالِ إِشْتِمَالِ الرَّجْمِ عَلَى حَمَلٍ، فَإِذَا انْتَضَرَ بِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ، ظَهَرَ إِنْ كَانَ مَوْجُودًا، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا: «إِنْ خُلِقَ أَحَدُكُمْ يَجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ»<sup>(٢)</sup>. فَهَذِهِ ثَلَاثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، وَالِإِحْتِمَالُ بِعَشْرِ بَعْدَهَا، لِمَا قَدْ يَنْقُصُ بَعْضُ الشُّهُورِ. ثُمَّ لِيُظْهِرَ الْحَرَكَةُ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[عِدَّةُ أُمِّ الْوَلَدِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا سَيِّدُهَا]

وَمِنْ هُنَا ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ إِلَى أَنَّ عِدَّةَ أُمِّ الْوَلَدِ عِدَّةَ الْحُرَّةِ هَهُنَا، وَيُؤَيِّدُهُمْ مَارَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ: لَا تَلْبِسُوا عَلَيْنَا سُنَّةَ نَبِيِّنَا، عِدَّةَ أُمِّ الْوَلَدِ، إِذَا تَوَفَّى عَنْهَا سَيِّدُهَا، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٤)</sup>.

[وُجُوبُ الْإِحْدَادِ فِي هَذِهِ الْعِدَّةِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا وَجُوبُ الْإِحْدَادِ عَلَى الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا مُدَّةَ عِدَّتِهَا، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ وَرَبِّبَ بِنْتِ جَحْشٍ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُجِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»<sup>(٥)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ ابْتَنَى تَوْفِي عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدْ اسْتَكْتَحَ عَيْنُهَا أَفْتَكِحْلَاهَا؟ فَقَالَ: «لَا» كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا» - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَمَكُّتُ سَنَةً»<sup>(٦)</sup>. قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا تَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا دَخَلَتْ جَفْسًا، وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا، وَلَمْ تَمَسَّ طَبِيبًا وَلَا شَيْئًا حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ، ثُمَّ تَخْرُجَ فَتُعْطَى بَعْرَةً، فَتَرْمِي بِهَا، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَلَابَةِ: حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَبِيرٍ فَتَقْتَضُ بِهِ. فَقَلَّمَا تَقْتَضُ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ.

وَالْعَرَضُ أَنَّ الْإِحْدَادَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ الزَّيْنَةِ مِنَ الطَّيِّبِ وَتَلْبُسِ مَا يَذْهَبُهَا إِلَى الْأَزْوَاجِ مِنْ ثِيَابٍ وَحُلِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ وَاجِبٌ فِي عِدَّةِ الْوَفَاةِ قَوْلًا وَاحِدًا، وَيَجِبُ الْإِحْدَادُ عَلَى جَمِيعِ الزَّوْجَاتِ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ، سَوَاءً فِي ذَلِكَ الصَّغِيرَةُ وَالْأَيَّسَةُ وَالْحُرَّةُ وَالْأَمَةُ وَالْمُسْلِمَةُ وَالْكَافِرَةُ، لِعُمُومِ الْآيَةِ.

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» أَيِ انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ. قَالَ الصَّحَّاحُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ. «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» قَالَ الزُّهْرِيُّ: أَيِ عَلَى أَوْلِيَائِهَا<sup>(٧)</sup>. «فِيمَا فَعَلْنَ» يَعْنِي النِّسَاءَ اللَّائِي انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ<sup>(٨)</sup>. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِذَا طَلَّقَتِ الْمَرْأَةُ أَوْ مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا، فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ تَتَزَيَّنَّ وَتَتَصَنَّعَ وَتَتَعَرَّضَ لِلتَّزْوِجِ، فَذَلِكَ الْمَعْرُوفُ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَى عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ نَحْوَهُ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» قَالَ: النِّكَاحُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ وَالزُّهْرِيِّ وَالسَّيِّدِيِّ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(١٢)</sup>.

«وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَنَذْكُرُهُنَّ وَلَكِنْ لَا نُؤَاعِدُهُنَّ يَرَاءً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ»<sup>(١٣)</sup>

[إِبَاحَةُ التَّعْرِيزِ بِالْخِطْبَةِ فِي الْعِدَّةِ، وَالنَّهْيُ عَنِ النِّكَاحِ فِيهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» أَنْ تُعَرَّضُوا بِخِطْبَةِ النِّسَاءِ فِي عِدَّتِهِنَّ مِنْ وَفَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنْ غَيْرِ تَضَرُّعٍ، قَالَ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَجَرِيرٌ وَغَيْرُهُمْ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ» قَالَ: التَّعْرِيزُ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي أُرِيدُ

(١) فتح الباري: ٣٧٩/٩، ومسلم: ١١٢٢/٢ (٢) فتح الباري: ٤٤٩/١٣، ومسلم: ٢٠٣٦/٤ (٣) أحمد: ٣٠٢/٤ وأبو داود: ٣٧٠/٢ (٤) ابن ماجه: ٦٧٣/١ (٥) فتح الباري: ٣٩٤/٩، ومسلم: ١١٢٣/٢ (٦) مسلم: ١١٢٤/٢ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٨١٢/٢ وعند ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما وجدت فيه رواية العوفي عن ابن عباس (٨) ابن أبي حاتم غ: ٨١٣/١ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٨١٣/٢ (١٠) ابن أبي حاتم غ: ٨١٢/٢ (١١) الطبري: ٩٣/٥ (١٢) ابن أبي حاتم غ: ٨١٤٠/٢

قَالَ: يَقُولُ لَوَلِيَّهَا: لَا تَسْبِغِي بِهَا، يَعْنِي لَا تَزُوجْهَا حَتَّى تُعْلِمَنِي<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكَتَبُ أَجَلَهُ﴾ يَعْنِي وَلَا تَعْقِدُوا الْعُقْدَةَ بِالنِّكَاحِ حَتَّى تَنْقَضِيَ الْعِدَّةُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ. وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ. وَأَبُو مَالِكٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَالزُّهْرِيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالشَّدِيدُ وَالثَّوْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكَتَبُ أَجَلَهُ﴾ يَعْنِي وَلَا تَعْقِدُوا الْعُقْدَةَ بِالنِّكَاحِ حَتَّى تَنْقَضِيَ الْعِدَّةُ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْعُقْدُ فِي مَدَّةِ الْعِدَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى مَا يَقَعُ فِي ضَمَائِرِهِمْ مِنْ أُمُورِ النِّسَاءِ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِضْمَارِ الْخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ، ثُمَّ لَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَمْ يَقْطَعْهُمْ مِنْ عَائِدَتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

### [الطَّلَاقُ قَبْلَ الدُّخُولِ]

أَبَاحَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَاقَ الْمَرْأَةِ بَعْدَ الْعُقْدِ عَلَيْهَا، وَقَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَطَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَلَمَسَ النِّكَاحُ<sup>(٣)</sup>. بَلْ وَيَجُوزُ أَنْ يُطْلَقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا وَالْفَرَضُ لَهَا - إِنْ كَانَتْ مَفْوضَةً - وَإِنْ كَانَ فِي هَذَا انْكِسَارٌ لِقَلْبِهَا.

### [مُنْعَةُ الطَّلَاقِ]

وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى بِامْتِنَاعِهَا، وَهُوَ تَعْوِضُهَا عَمَّا فَاتَهَا بِشَيْءٍ تُعْطَاهُ مِنْ زَوْجِهَا بِحَسَبِ حَالِهِ، عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ، وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ، أَنَّهُمَا قَالَا: تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شَرَّاحِيلَ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ، بَسَطَ يَدَهُ لَا تَتَزَوَّجَ غَيْرَهُ<sup>(٤)</sup>.

التَّزْوِجَ، وَإِنِّي أَحِبُّ امْرَأَةً مِنْ أَمْرَهَا وَمِنْ أَمْرِهَا... يُعْرَضُ لَهَا بِالْقَوْلِ بِالْمَعْرُوفِ<sup>(٥)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: وَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ رَزَقَنِي امْرَأَةً.. [صَالِحَةً]. وَنَحْوُ هَذَا. وَلَا يَنْصَبُ لِلْخُطْبَةِ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيْقًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ هُوَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي أُرِيدُ التَّزْوِجَ، وَإِنَّ النِّسَاءَ لِمَنْ حَاجَتِي، وَلَوَدِدْتُ أَنْ يُسَرَّ لِي امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَطَاوُسٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ. وَالزُّهْرِيُّ وَزَيْدُ بْنُ قُسَيْطٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ<sup>(٨)</sup> وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْأُئِمَّةِ فِي التَّعْرِيزِ: إِنَّهُ يَجُوزُ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا مِنْ غَيْرِ تَضَرُّعٍ لَهَا بِالْخُطْبَةِ.

وَهَكَذَا حُكْمُ الْمُطَلَّاقَةِ الْمُبْتَوِّتَةِ يَجُوزُ التَّعْرِيزُ لَهَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ حِينَ طَلَّقَهَا زَوْجَهَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ حَنْصَلٍ آخِرَ ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَ فِي بَيْتِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَقَالَ لَهَا: «إِذَا حَلَلْتَ فَأَذِينِي» فَلَمَّا حَلَّتْ، خَطَبَ عَلَيْهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ مَوْلَاهُ، فَزَوَّجَهَا بِإِثْمِهِ<sup>(٩)</sup>. فَأَمَّا الْمُطَلَّاقَةُ فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهَا لَا يَجُوزُ لغيرِ زَوْجِهَا التَّضَرُّعُ بِخُطْبَتِهَا وَلَا التَّعْرِيزُ لَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ أَضْمَرْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ خُطْبَتَيْهِنَّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [الفصل: ٦٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَرْتُمْ لَهُنَّ﴾ أَيُّ فِي أَنْفُسِكُمْ، فَرَفَعَ الْحَرَجَ عَنْكُمْ فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ لَا تَقُلْ لَهَا: إِنِّي عَاشِقٌ، وَعَاهِدِينِي أَنْ لَا تَتَزَوَّجِي غَيْرِي، وَنَحْوُ هَذَا<sup>(١٠)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيِّ وَعِكْرَمَةَ وَأَبِي الضُّحَى وَالضَّحَّاكِ وَالزُّهْرِيِّ<sup>(١١)</sup> وَمُجَاهِدٍ وَالثَّوْرِيِّ، هُوَ: أَنْ يَأْخُذَ مِيثَاقَهَا أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ غَيْرَهُ<sup>(١٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ<sup>(١٣)</sup> وَالشَّدِيدُ وَالثَّوْرِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي بِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبَاحَةِ التَّعْرِيزِ، كَقَوْلِهِ: إِنِّي فِيكَ لَرَاغِبٌ. وَنَحْوُ ذَلِكَ<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: قُلْتُ لِعُبَيْدَةَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؟

(١) الطبري: ٩٥/٥ (٢) الطبري: ٩٦/٥ (٣) فتح الباري: ٨٤/٩ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٨١٧/٢ و٨١٨ (٥) مسلم: ٢/ ١١١٤ (٦) الطبري: ١٠٧/٥ (٧) ابن أبي حاتم غ: ٨٢١/٢ (٨) الطبري: ١٠٩/٥ (٩) ابن أبي حاتم غ: ٨٢٤/٢ (١٠) الطبري: ١١٤/٥ (١١) ابن أبي حاتم غ: ٨٢٦/٢ (١٢) ابن أبي حاتم غ: ٨٢٨/٢ و٨٢٩ (١٣) ابن أبي حاتم غ: ٨٣١/٢

إِلَيْهَا، فَكَانَتْهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا، وَيَكْسُوَهَا ثَوْبَيْنِ رَازِقَتَيْنِ<sup>(١)</sup>.

﴿وَلِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَيْفَ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا أَلَدَى يَدَيْهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>

[لِلْمَرْأَةِ نِصْفُ الْمَهْرِ إِذَا طَلَّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ]

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُتَعَةِ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْأُولَى، حَيْثُ إِنَّمَا أَوْجَبَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نِصْفَ الْمَهْرِ الْمَفْرُوضِ إِذَا طَلَّقَ الزَّوْجُ قَبْلَ الدُّخُولِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ ثُمَّ وَاجِبٌ آخَرُ مِنْ مُتَعَةٍ لَبَيَّنَّهَا، لَا سِيَّمَا وَقَدْ قَرَنَهَا بِمَا قَبْلُهَا مِنْ اخْتِصَاصِ الْمُتَعَةِ بِتِلْكَ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَتَشْطِيرُ الصَّدَاقِ وَالْحَالَةَ هَذِهِ أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ قَدْ سَمِيَ لَهَا صَدَاقًا ثُمَّ فَارَقَهَا قَبْلَ دُخُولِهِ بِهَا، فَإِنَّهُ يَجِبُ لَهَا نِصْفُ مَا سَمِيَ مِنَ الصَّدَاقِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أَيِ النِّسَاءِ، عَمَّا وَجَبَ لَهَا عَلَى زَوْجِهَا مِنَ النِّصْفِ، فَلَا يَجِبُ لَهَا عَلَيْهِ شَيْءٌ. قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ قَالَ: إِلَّا أَنْ تَعْفُوا الثَّيْبَ فَتَدَعَ حَقَّهَا<sup>(٣)</sup>. قَالَ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَرَوَى عَنْ شُرَيْحٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَعِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالشَّعْبِيِّ وَالْحَسَنِ، وَنَافِعٍ وَقَتَادَةَ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيِّ وَالضَّحَّاكَ وَالزُّهْرِيَّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبَّانٍ وَابْنِ سِيرِينَ وَالرَّبِيعِ ابْنِ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ نَحْوُ ذَلِكَ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَعْفُوا أَلَدَى يَدَيْهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: رَوَى عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لِيُؤْتِيَ عَقْدَةُ النِّكَاحِ الزَّوْجُ»<sup>(٥)</sup> وَهَكَذَا أَسْنَدُهُ ابْنُ مَرْدُودِيٍّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَمَأْخُذُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ حَقِيقَةُ الزَّوْجِ، فَإِنْ بِيَدِهِ عَقْدُهَا وَإِنْ أَمَّا وَنَقَضَهَا وَانْهَدَمَتْهَا، وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يَهَبَ شَيْئًا مِنْ مَالِ الْمَوْلِيَّةِ لِلْغَيْرِ، فَكَذَلِكَ فِي الصَّدَاقِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ بَعْضُهُمْ: خُوطِبَ بِهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ<sup>(٦)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ قَالَ: أَقْرَبُهُمَا لِلتَّقْوَى: الَّذِي يَعْفُو<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنِ الشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِ. وَقَالَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَتَخَفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَرْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مَتْلَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْعَةً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَقَاتِلِينَ ﴿٤١﴾ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾

مُجَاهِدٌ وَالتَّحِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالتُّورِيُّ: الْفَضْلُ - هَهُنَا - أَنْ تَعْفُوا الْمَرْأَةَ عَنْ شَطْرِهَا، أَوْ إِنَّمَا الرَّجُلُ الصَّدَاقَ لَهَا<sup>(١)</sup>. وَهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أَيِ الْإِحْسَانِ. قَالَ سَعِيدٌ<sup>(٢)</sup>: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾<sup>(٣)</sup> فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ<sup>(٤)</sup>

(١) فتح الباري: ٢٦٩/٩ (٢) ابن أبي حاتم غ: ٨٣٩/٢ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٨٤٢-٨٤٠/٢ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٨٤٢/٢ ورواه الدار قطني في سننه (٣٧١٨) والبيهقي في السنن الكبرى ٨/٢٥١ وقال: هذا غير محفوظ وابن لهيعة غير محتج به والله أعلم. ورواه الطبري (٥٣٤٤) بطريق ابن لهيعة مرسلًا وهذا هو المحفوظ. (٥) الطبري: ١٦٢/٥ (٦) الطبري: ١٦٢/٥ (٧) الطبري: ١٦٦/٥ و١٦٧/٥ (٨) الطبري: ١٦٦/٥



اللَّهُ عَنْهُمَا (٦).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَمُرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الْوُسْطَى: صَلَاةُ الْعَصْرِ»<sup>(٧)</sup>. وَفِي لَفْظٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى» وَسَمَّاهَا لَنَا أَنَّهَا هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ<sup>(٨)</sup>. وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هِيَ الْعَصْرُ». قَالَ ابْنُ جَعْفَرٍ: سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى<sup>(٩)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ»<sup>(١١)</sup>. وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ»، ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٢)</sup>. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَلَفْظُهُ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ»<sup>(١٣)</sup>. أَلْحَدِيثُ.

فَهَذِهِ نُصُوصٌ فِي الْمَسْأَلَةِ لَا تَحْمِلُ شَيْئًا، وَوُكِّدَ ذَلِكَ: الْأَمْرُ بِالْحَافِظَةِ عَلَيْهَا: قَوْلُهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»<sup>(١٤)</sup>، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَكْرُوا بِالصَّلَاةِ فِي يَوْمِ الْعَيْمِ، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ، فَقَدْ حِطَّ عَمَلُهُ»<sup>(١٥)</sup>.

[الْتَهَىٰ عَنِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أَيُّ خَاشِعِينَ ذَلِيلِينَ مُسْتَكِنِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهَذَا الْأَمْرُ مُسْتَدْرَكُ تَرْكِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ لِمُنَاقَاةِهِ إِيَّاهَا، وَلِهَذَا لَمَّا اِمْتَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الرَّدِّ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ جِئَ سَلَّمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، اِعْتَدَرَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، وَقَالَ: «إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَكُشْغَلًا» (١٦).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالمَحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا، وَحِفْظِ حُدُودِهَا، وَأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَرْذَنهُ لَرَأَيْتُنِي<sup>(١)</sup>.

[الصَّلَاةُ الْوُسْطَى]

وَحَصَّ تَعَالَى مِنْ بَيِّنِهَا بِعَزِيدِ التَّكْيِيدِ الصَّلَاةَ الْوُسْطَى،  
وَهِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ عَرَبٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ:  
وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَقَالَ الْقَاضِي  
الْمَاوَرِدِيُّ: وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ التَّابِعِينَ: وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو  
عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَثَرِ. وَقَالَ أَبُو  
مُحَمَّدٍ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي تَفْسِيرِهِ: وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ النَّاسِ.  
وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ خَلْفٍ الدِّمَاطِيُّ  
فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِـ«كَشْفِ الْمَعْطَى فِي تَبْيِينِ الصَّلَاةِ  
الْوُسْطَى» وَقَدْ نَصَّ فِيهِ: أَنَّهَا الْعَصْرُ. وَحَكَاهُ عَنْ عُمَرَ  
وَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي أَيُّوبَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَسَمُرَةَ  
ابْنِ جُنْدُبٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ وَحَفْصَةَ وَأُمَّ حَبِيبَةَ  
وَأُمَّ سَلَمَةَ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ عَلَى  
الصَّحِيحِ عَنْهُمْ - وَبِهِ قَالَ عُبَيْدَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ،  
وَرَزِينٌ، وَزُرَّ بْنُ حُبَيْشٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَابْنُ سِيرِينَ،  
وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَالْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ وَعُثْبَةُ بْنُ أَبِي  
مَرْثَمٍ وَغَيْرُهُمْ.

ذَكَرُ الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَيُؤْتِهِمْ نَارًا»، ثُمَّ صَلَّاهَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>، وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٤)</sup>. وَأَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ وَالصَّحَاحِ مِنْ طُرُقٍ عَنْ عَلِيٍّ<sup>(٥)</sup>. وَحَدِيثُ يَوْمِ الْأَحْزَابِ، وَشَغْلُ الْمُشْرِكِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَنْ آدَاءِ صَلَاةِ الْعَصْرِ يَوْمَئِذٍ، مَرْوِيٌّ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ يَطُولُ ذِكْرُهُمْ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ: رِوَايَةُ مَنْ نَصَّ مِنْهُمْ فِي رِوَايَتِهِ أَنَّ الصَّلَاةَ الْوُسْطَى هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَالتَّبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ

(١) فتح الباري: ١٢/٢ ومسلم: ٩٠/١ (٢) أحمد: ١١٣/١  
(٣) مسلم: ٤٣٧/١ (٤) النسائي في الكبرى: ٣٠٣/٦ (٥)  
فتح الباري: ١٢٤/٦ و٤٦٧/٧ و٤٣/٨ و١٩٧/١١ ومسلم: ١/  
٤٣٦ وأبو داود: ٢٨٧/١ وتحفة الأحوذى: ٣٢٨/٨ والنسائي:  
٢٣٦/١ وأحمد: ١٣٧/١ (٦) مسلم: ٤٣٧/١ و٤٣٨ (٧)  
أحمد: ٢٢/٥ (٨) أحمد: ٨/٥ (٩) أحمد: ٧/٥ (١٠)  
تحفة الأحوذى: ٣٢٨/٨ (١١) ابن حبان: ١٢١/٣ (١٢)  
تحفة الأحوذى: ٣٢٩/٨ (١٣) مسلم: ٤٣٧/١ (١٤) مسلم:  
٤٣٦/١ (١٥) ابن ماجه: ٢٢٤/١ (١٦) مسلم: ٣٨٢/١

لَنَا. قَالَ أَنَسٌ: وَمَا يَسْرُنِي بِتِلْكَ الصَّلَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ<sup>(٨)</sup>.

### [الْأَمْرُ بِاتِّمَامِ الصَّلَاةِ فِي حَالَةِ الْأَمْنِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا آمَنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ» أَيِ أَقِيمُوا صَلَاتَكُمْ كَمَا أَمَرْتُمْ، فَأَتِمُّوا رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَقِيَامَهَا وَقُعُودَهَا وَخُشُوعَهَا وَهُجُودَهَا، «كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» أَيِ مِثْلَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وَهَدَاكُمْ، وَعَلَّمَكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَابِلُوهُ بِالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ، كَقَوْلِهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْخَوْفِ: «فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا<sup>(٩)</sup> [النساء: ١٠٣] وَسَتَاتِي الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصِفَاتِهَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ»... آيَةَ [النساء: ١٠٢].

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَكِيمٌ»<sup>(١٠)</sup> وَلِلْمُطْلَقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَوَفَّاتِ<sup>(١١)</sup> كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ<sup>(١٢)</sup> [نَسَخَ هَذِهِ الْآيَةَ]

قَالَ الْأَكْثَرُونَ: هَذِهِ الْآيَةُ مَسْخُوحَةٌ بِأَلَّتِي قَبْلَهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: «يَرِيعُنَ بَأْسُهُنَّ أَنْفُسُهُنَّ أَشْهُرٌ وَعَشْرًا» [البقرة: ٢٣٤] رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا» قَدْ نَسَخْتَهَا الْآيَةُ الْأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ - أَوْ نَدَعُهَا - قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ<sup>(١٣)</sup>.

وَمَعْنَى هَذَا الْإشْكَالِ الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ لِعُثْمَانَ: إِذَا كَانَ حُكْمُهَا قَدْ نُسِخَ بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ فَمَا الْحُكْمُ فِي إِنْقَاءِ رِسْمِهَا مَعَ زَوَالِ حُكْمِهَا، وَبَقَاءِ رِسْمِهَا بَعْدَ الَّتِي نَسَخْتَهَا يَوْمَهُمْ بَقَاءَ حُكْمِهَا؟ فَأَجَابَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ،

(١) مسلم: ٣٨١/١ (٢) أحمد: ٣٦٨/٤ (٣) فتح الباري: ٨٨/٣ ومسلم: ٣٨٣/١ وأبو داود: ٥٨٣/١ وتحفة الأحوذ: ٣٣٠/٨ والنسائي: ١٨/٣ (٤) الموطأ: ١٨٤/١ (٥) فتح الباري: ٤٦/٨ ومسلم: ٥٧٤/١ (٦) مسلم: ٤٧٨/١ و٤٧٩ وأبو داود: ٤٠/٢ والنسائي: ١٦٩/٣ وابن ماجه: ٣٣٩/١ والطبري: ٢٤٧/٥ (٧) الطبري: ٢٤٠/٥ و٢٤١ (٨) فتح الباري: ٥٠٣/٢ (٩) فتح الباري: ٤٨/٨

السَّلَاحِيِّ حِينَ تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَذِكْرُ اللَّهِ»<sup>(١٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَبِيلٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يُكَلِّمُ صَاحِبَهُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَاجَةِ فِي الصَّلَاةِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ». فَأَمَرْنَا بِالشُّكُوتِ<sup>(١٥)</sup>. رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى ابْنِ مَاجَهَ<sup>(١٦)</sup>.

### [صَلَاةُ الْخَوْفِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا آمَنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»، لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ، وَالْقِيَامِ بِحُدُودِهَا، وَشَدَّدَ الْأَمْرَ بِتَأْكِيدِهَا، ذَكَرَ الْحَالَ الَّتِي يَشْتَغِلُ الشَّخْصُ فِيهَا عَنْ أَدَائِهَا عَلَى الْوُجْهِ الْأَكْمَلِ، وَهِيَ حَالُ الْقِتَالِ وَالتَّحَامِ الْحَرْبِ، فَقَالَ: «فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا» أَيِ فَصَلُّوا عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ، رِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا، يَعْنِي مُسْتَقْبِلِي الْقِتْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا، كَمَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصَفَهَا. ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ صَلُّوا رِجَالًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ، أَوْ رُكْبَانًا، مُسْتَقْبِلِي الْقِتْلَةِ أَوْ غَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا، قَالَ نَافِعٌ: لَا أَرَى ابْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ<sup>(١٧)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - وَهَذَا لَفْظُهُ - وَمُسْلِمٌ<sup>(١٨)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّنَاسِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: فَارَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً<sup>(١٩)</sup>. وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَفَتَاةُ وَالضُّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ<sup>(٢٠)</sup>.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: (بَابُ الصَّلَاةِ عِنْدَ مُنَاهَضَةِ الْحُصُونِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ). وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: إِنْ كَانَ تَهَيُّاً لِقِتْلَةٍ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ صَلُّوا إِيمَاءً، كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْإِيمَاءِ أَخْرُوا الصَّلَاةَ حَتَّى يَنْكَشِفَ الْقِتَالُ، أَوْ يَأْمَنُوا، فَيَصَلُّوا رَكْعَتَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا صَلُّوا رَكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا لَا يُجْزِيهِمُ التَّكْبِيرُ، وَيُؤْخِرُونَهَا حَتَّى يَأْمَنُوا. وَبِهِ قَالَ مَكْحُولٌ. وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: حَضَرْتُ مُنَاهَضَةَ حِصْنٍ تُشْتَرَى عِنْدَ إِضَاءَةِ الْفَجْرِ وَاشْتَدَّ اشْتِعَالُ الْقِتَالِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ، فَلَمْ نُصَلِّ إِلَّا بَعْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ، فَصَلَّيْنَاهَا وَنَحْنُ مَعَ أَبِي مُوسَى، فَقُتِحَ

بأنَّ هَذَا أَمْرٌ تَوْفِيقِيٌّ، وَأَنَا وَجَدْتُهَا مُتَّبَعَةً فِي الْمُصْحَفِ كَذَلِكَ بَعْدَهَا، فَأَتَبَّهْتُهَا حَيْثُ وَجَدْتُهَا.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فَكَانَ لِلْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا: نَفَقَتُهَا وَسُكْنَاهَا فِي الدَّارِ سَنَةً، فَتَسَخَّنَهَا أَبُوهُ الْمَوَارِيثِ، فَجُعِلَ لَهُنَّ الرَّبْعُ أَوْ الثُّلُثُ، مِمَّا تَرَكَ الزَّوْجُ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى مِنْ طَرِيقٍ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ امْرَأَتَهُ اعْتَدَّتْ سَنَةً فِي بَيْتِهِ، يُنْفَقُ عَلَيْهَا مِنْ مَالِهِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فَهَذِهِ عِدَّةُ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلًا، فَعِدَّتُهَا أَنْ تَضَعَ مَا فِي بَطْنِهَا، وَقَالَ: ﴿وَلَهُنَّ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ فَبَيْنَ مِيرَاثِ الْمَرْأَةِ، وَتَرَكَ الْوَصِيَّةَ وَالنَّفَقَةَ<sup>(٢)</sup>.

قَالَ: وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرَمَةَ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَّاكَ وَالرَّبِيعَ، وَمُقَاتِلَ بْنِ حَيَّانَ، قَالُوا: نَسَخَهَا ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قَالَ: كَانَتْ هَذِهِ الْعِدَّةُ، تَعْتَدُّ عِنْدَ أَهْلِ زَوْجِهَا، وَاجِبٌ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ قَالَ: جَعَلَ اللَّهُ لَهَا تَمَامَ السَّنَةِ: سَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرِينَ لَيْلَةً وَصِيَّةً، إِنْ شَاءَتْ سَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فَالْعِدَّةُ كَمَا هِيَ، وَاجِبٌ عَلَيْهَا، زُعِمَ ذَلِكَ عَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَالَ عَطَاءٌ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عِدَّتَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾. قَالَ عَطَاءٌ: إِنْ شَاءَتْ اعْتَدَّتْ عِنْدَ أَهْلِهَا، وَسَكَنَتْ فِي وَصِيَّتِهَا، وَإِنْ شَاءَتْ خَرَجَتْ، لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ﴾ قَالَ عَطَاءٌ: ثُمَّ جَاءَ الْمِيرَاثُ فَتَسَخَّ السُّكْنَى، فَتَعْتَدُّ حَيْثُ شَاءَتْ، وَلَا سَكْنَى لَهَا<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُ عَطَاءٍ وَمَنْ تَابَعَهُ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مُسْوُوحٌ بِآيَةِ

الْمِيرَاثِ، إِنْ أَرَادُوا مَا زَادَ عَلَى الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَالْعَشْرِ فَمُسْلَمٌ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنَّ سَكْنَى الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرِ لَا تَجِبُ فِي تَرَكَهَ الْمَيِّتِ، فَهَذَا مَحَلُّ خِلَافٍ بَيْنَ الْأَيُّمَةِ، وَقَدْ اسْتَدَلُّوا عَلَى وَجُوبِ السُّكْنَى فِي مَنْزِلِ الزَّوْجِ، بِمَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي مُوطَّأِهِ عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ كَعْبٍ بِنِ عَجْرَةَ: أَنَّ الْقَرْيَةَ بِنْتُ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْأَلُهُ أَنْ تَرْجَعَ إِلَى أَهْلِهَا فِي بَنِي خُدْرَةَ، فَإِنَّ زَوْجَهَا خَرَجَ فِي طَلَبِ أَعْبُدِلَهُ أَبْقُوا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِطَرَفِ الْقُدُومِ لِحَقِّهِمْ فَفَتَلَوْهُ، قَالَتْ: فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي فِي بَنِي خُدْرَةَ، فَإِنَّ زَوْجِي لَمْ يَتْرُكْنِي فِي مَسْكَنِ يَمْلِكُهُ وَلَا نَفَقَةٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَتْ: فَانْصَرَفْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي الْحَجْرَةِ نَادَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ أَمَرَ بِي فَنُودِيَتْ لَهُ فَقَالَ: «كَيْفَ قُلْتُ؟» فَزِدْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُ لَهُ مِنْ شَأْنِ زَوْجِي، فَقَالَ: «امْكُثِي فِي بَيْتِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» قَالَتْ: فَاعْتَدْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَمَّانَ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَسَأَلَنِي عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرْتُهُ فَاتَّبَعَهُ وَقَضَى بِهِ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

### [وَجُوبُ مَنَعَةِ الطَّلَاقِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ رَجُلٌ: إِنْ شِئْتُ أَحْسَنْتُ فَفَعَلْتُ، وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَفْعَلْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةُ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وَجُوبِ الْمَنَعَةِ لِكُلِّ مُطَلَّاقَةٍ، سَوَاءٌ كَانَتْ مُقَوَّضَةً، أَوْ مَفْرُوضًا لَهَا، أَوْ مُطَلَّاقًا قَبْلَ الْمَيْسِرِ، أَوْ مَذْخُولًا بِهَا، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن أبي حاتم غ: ٨٧١/٢ (٢) الطبري: ٢٥٥/٥ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٨٧٥/٢ (٤) البخاري: ٥٣٤٤، ٤٥٣١ (٥) الموطأ: ٥٩١/٢ (٦) أبو داود: ٧٧٣/٢ وتحفة الأحوذى: ٣١٩/٤، ٣٩٠ والنسائي: ٢٠٠/٦ وابن ماجه: ٦٥٤/١ (٧) الطبري: ٢٦٤/٥ (٨) الطبري: ٢٦٣/٥

وَتَفَرَّقُوا فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ دَهْرٍ، مَرَّ بِهِمْ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يُقَالُ لَهُ: حَزَقِيلُ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُحْيِيَهُمْ عَلَى يَدَيْهِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ: أَيُّهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَّةُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْتَمِعِي، فَاجْتَمَعَ عِظَامُ كُلِّ جَسَدٍ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَنَادَى: أَيُّهَا الْعِظَامُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَكْتَسِي لَحْمًا وَعَصَبًا وَجِلْدًا، فَكَانَ ذَلِكَ، وَهُوَ يُشَاهِدُهُ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَنَادَى: أَيُّهَا الْأَرْوَاحُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَرْجِعَ كُلُّ رُوحٍ إِلَى الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ، فَقامُوا أَحْيَاءَ يُنْظَرُونَ، قَدْ أَحْيَاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ رَفْدِهِمُ الطُّوبَلَةَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.

وَكَانَ فِي إَحْيَائِهِمْ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ الْجِسْمَانِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أَيُّ فِيْمَا يُرِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ، وَالذَّلَالَاتِ الدَّامِغَةِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾<sup>(١)</sup> أَيُّ لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ، عَلَى أَنَّهُ لَنْ يُعْنِيَ حَذَرُ مِنْ قَدَرٍ، وَأَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الْوَبَاءِ، طَلَبًا لَطُولِ الْحَيَاةِ، فَعُومِلُوا بِتَقْيِصِ قُصْدِهِمْ، وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ سَرِيعًا فِي آيٍ وَاحِدَةٍ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْعَ لَقِيَهُ أَمْرَاءُ الْأَجْنَادِ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. فَجَاءَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَكَانَ مُتَعَيِّبًا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ» فَحَمِدَ اللَّهُ عُمَرُ ثُمَّ أَنْصَرَفَ<sup>(٢)</sup>. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٣)</sup>.

[الْفِرَارُ مِنَ الْجَهَادِ لَا يَقْرُبُ الْأَجَلَ وَلَا يُعَدُّهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْكُوسِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَتَرِ قَدَرُهُ مَتْعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] مِنْ بَابِ ذِكْرِ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعُمُومِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أَيُّ فِي إِحْلَالِهِ وَتَحْرِيمِهِ، وَقُرْوَصِهِ وَحُدُودِهِ، فِيْمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، بَيِّنَةً وَوَضَحَةً وَفَسْرَةً، وَلَمْ يَتْرُكْهُ مُجْمَلًا فِي وَقْتِ إَحْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ أَيُّ تَفْهَمُونَ وَتَتَذَكَّرُونَ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٣٧﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣٨﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣٩﴾

[قِصَّةُ هَؤُلَاءِ الْأَمْوَاتِ]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا: دَاوَرْدَانُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عَاصِمٍ: كَانُوا مِنْ أَهْلِ دَاوَرْدَانِ - قَرْيَةٍ عَلَى فَرَسَخٍ مِنْ قَيْلٍ وَاسِطٍ -.

وَرَوَى وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ قَالَ: كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ، خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الطَّاعُونِ، قَالُوا: نَأْتِي أَرْضًا لَيْسَ بِهَا مَوْتُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِمَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا، قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿مُوتُوا﴾ فَمَاتُوا، فَمَرَّ عَلَيْهِمْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحْيِيَهُمْ فَأَحْيَاهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾... آيَةٌ.

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ كَانُوا أَهْلَ بَلَدَةٍ فِي زَمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، اسْتَوْحَمُوا أَرْضَهُمْ، وَأَصَابَهُمْ بِهَا وَبَاءٌ شَدِيدٌ، فَخَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ، هَارِبِينَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، فَزَلُّوا وَادِيًا أَقْبَحَ، فَمَلَأُوا مَا بَيْنَ غُدُوَّتَيْهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَلَائِكَيْنِ، أَحَدُهُمَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي، وَالْآخَرُ مِنْ أَعْلَاهُ، فَصَاحَا بِهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً، فَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ مَوْتَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَحِيزُوا إِلَى حَظَائِرَ، وَبُئِيَ عَلَيْهِمْ جُذْرَانِ وَقُبُورٌ، وَفُتُوا وَتَمَزَّقُوا

(١) الطبري: ٢٦٦/٥ (٢) أحمد: ١٩٤/١ (٣) فتح الباري:

١٨٩/١٠ و ١٩٠ و ١٢/٣٦١ ومسلم: ٤/١٧٤٠

البقرة الباقية

Σ.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْلُ لَهْمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٢٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٩﴾

عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

[قِصَّةُ الْيَهُودِ فِي طَلَبِهِمُ الْمَلِكَ وَالْقِتَالَ مَعَهُ، وَاسْتِقَامَةُ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَانْبِصَارُهُمْ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ شَمُوِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ وَهْبُ  
ابْنِ مُنَبِّهٍ وَغَيْرُهُ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ مُدَّةَ مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ أَحْدَثُوا  
الْأَحْدَاثَ، وَعَبَدَ بَعْضُهُمُ الْأَصْنَامَ، وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ  
أَظْهَرِهِمُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ  
الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُهُمْ عَلَى مَنَهِجِ التَّوْرَةِ، إِلَى أَنْ فَعَلُوا مَا  
فَعَلُوا، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ، فَفَتَكَلُّوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً  
عَظِيمَةً، وَأَسْرَوْا خَلْقًا كَثِيرًا، وَأَخَذُوا مِنْهُمْ بِلَادًا كَثِيرَةً.  
وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُقَاتِلُهُمْ إِلَّا غَلَبُوهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَهُمْ  
التَّوْرَةَ، وَالتَّائِبُونَ الَّذِي كَانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَكَانَ

عَلَيْكُمْ ﴿ أَيْ كَمَا أَنَّ الْحَذَرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدْرِ، كَذَلِكَ  
الْفِرَارُ مِنَ الْجِهَادِ وَتَجَنُّبُهُ لَا يَقْرُبُ أَجَلًا وَلَا يُبَعِّدُهُ، بَلِ  
الْأَجَلَ الْمَحْتَمُومَ وَالرِّزْقَ الْمَقْسُومَ مُقَدَّرٌ مُقَتَّنٌ لَا يَزِيدُ فِيهِ  
وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا  
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ  
كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَىٰ الدُّنْيَا  
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْفَىٰ وَلَا نُظْلَمُونَ فَبَيِّنَّا ﴿٧٧﴾ آيَتِنَا  
تَكُونُوا بِذِكْرِكُمْ الْمَوْتَ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيرِينَ﴾  
[النساء: ٧٧، ٧٨].

وَرَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْجِيُوشِ، وَمُقَدِّمِ الْعَسَاكِرِ، وَحَامِيِ  
خَوَازِجِ الْإِسْلَامِ، وَسَيِّدِ اللَّهِ الْمَسْلُوكِ عَلَى أَعْدَائِهِ: أَبِي  
سُلَيْمَانَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ فِي  
سَبَاقِ الْمَوْتِ: لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَكَذَا مُوَفَّقًا، وَمَا مِنْ عَضْوٍ  
مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا وَفِيهِ رَمِيَّةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ، وَهَا أَنَا ذَا  
أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْعَيْرُ!! فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ  
الْجَنَنَاءِ. يَعْني أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ لِكُونِهِ مَا مَاتَ قِتِيلًا فِي الْحَرْبِ،  
وَيَتَأَسَّفُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَتَأَلَّمُ أَنْ يَمُوتَ عَلَى فِرَاشِهِ<sup>(١)</sup>.

[الْقَرْضُ الْحَسَنُ وَثَوَابُهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ يُحِثُّ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ كَرَّرَ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَفِي حَدِيثِ التَّرْوِيلِ أَنَّهُ يَقُولُ تَعَالَى: «مَنْ يُقْرِضْ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُضْلَعُونَ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَمَلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتَ سَبْعَ سَعَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾... (الْبَقَرَةُ: ٢٦) وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَصْطَلُ﴾ أَيُّ أَتَفَقُوا وَلَا تَبَالُوا، فَاللَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ، يُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فِي الرِّزْقِ، وَيُوسِّعُهُ عَلَى آخَرِينَ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ رَاجِعُونَ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿الَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّ  
لَهُمْ أَتَعَبْتَنَا مَا مَلَكَاتْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ  
إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ الْفِتْنَاءُ أَنْ تَقْتُلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ نَقْتُلَ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ

(١) تهذيب التهذيب: ١٢٤/٣ (٢) مسلم: ٧٥٨ (٣) الطبري:

ذَلِكَ مَوْزُونًا لِّخَلْفِهِمْ عَنْ سُلْفِهِمْ إِلَىٰ مُوسَىٰ الْكَلِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَلَمْ يَزَلْ يَهْمُ تَمَادِيهِمْ عَلَى الصَّلَالِ حَتَّى اسْتَلَبَهُ مِنْهُمْ بَعْضُ الْمُلُوكِ فِي بَعْضِ الْحُرُوبِ، وَأَخَذَ التَّوْرَةَ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ مَنْ يَحْفَظُهَا فِيهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَانْقَطَعَتْ النَّبُوَّةُ مِنْ أَسْبَاطِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ سِبْطِ لَؤْيِي الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْأَنْبِيَاءُ إِلَّا امْرَأَةٌ حَامِلٌ مِنْ بَعْلِهَا وَقَدْ قُتِلَ، فَأَخَذَهَا فَحَسَبُوهَا فِي بَيْتٍ، وَاحْتَفَظُوا بِهَا، لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهَا غَلَامًا يَكُونُ نَبِيًّا لَهُمْ، وَلَمْ تَزَلِ الْمَرْأَةُ تَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْزُقَهَا غَلَامًا، فَسَمِعَ اللَّهُ لَهَا وَوَهَبَهَا غَلَامًا، فَسَمَّاهُ شَمُويلَ. أَيْ سَمِعَ اللَّهُ دُعَائِي. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: شَمْعُونُ، وَهُوَ بِمَعْنَاهُ.

فَسَبَّ ذَلِكَ الْعُلَامَ، وَنَشَأَ فِيهِمْ، أَنْبَتْهُ اللَّهُ نَبَاتًا حَسَنًا، فَلَمَّا بَلَغَ سِنَّ الْأَنْبِيَاءِ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، وَأَمَرَهُ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَتَوْجِيدهِ، فَدَعَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُقِيمَ لَهُمْ مَلِكًا يُقَاتِلُونَ مَعَهُ أَغْدَاءَهُمْ، وَكَانَ الْمَلِكُ أَيْضًا قَدْ بَادَ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ أَقَامَ اللَّهُ لَكُمْ مَلِكًا أَلَّا تَقُولُوا بِمَا التَزَمْتُمْ مِنَ الْقِتَالِ مَعَهُ. «قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا» أَيْ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَّا الْبِلَادُ، وَسَيَّتِ الْأَوْلَادُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. أَيْ مَا وَفَوْا بِمَا وَعَدُوا، بَلْ نَكَلَ عَنِ الْجِهَادِ أَكْثَرُهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِمْ.

«وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا» قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

أَيْ: لَمَّا طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكًا مِنْهُمْ، فَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْ أَجْنَادِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ الْمُلْكِ فِيهِمْ، لِأَنَّ الْمُلْكَ فِيهِمْ كَانَ فِي سِبْطِ يَهُودَا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ ذَلِكَ السَّبْطِ، فَلِهَذَا قَالُوا: «أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا»، أَيْ كَيْفَ يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْنَا «وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ» أَيْ هُوَ مَعَ هَذَا فَقِيرٌ لَا مَالَ لَهُ يَقُومُ بِالْمُلْكِ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كَانَ سَقَاءً. وَقِيلَ: دَبَّاعًا. وَهَذَا اغْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ

وَتَعَنَّتْ، وَكَانَ الْأَوَّلَىٰ بِهِمْ: طَاعَةً وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ.

ثُمَّ قَدْ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ قَائِلًا: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ» أَيْ اخْتَارَهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ، يَقُولُ: لَسْتُ أَنَا الَّذِي عَيَّنْتُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، بَلِ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِ لَمَّا طَلَبْتُمْ مِنِّي ذَلِكَ، «وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» أَيْ وَهُوَ مَعَ هَذَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ وَأَنْبَلُ، وَأَشْكَلُ مِنْكُمْ، وَأَشَدُّ قُوَّةً وَصَبْرًا فِي الْحَرْبِ وَمَعْرِفَةً بِهَا. أَيْ أَتَمُّ عِلْمًا وَقَامَةً مِنْكُمْ. وَمِنْ هَهُنَا يَبْغِي أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ ذَا عِلْمٍ وَشَكْلِ حَسَنِ، وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ فِي بَدَنِهِ وَنَفْسِهِ؛ ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ» أَيْ هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي مَا شَاءَ فَعَلَ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ، لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» أَيْ هُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمُلْكَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ.

«وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

يَقُولُ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ عِلَامَةَ بَرَكَاتِهِ مُلْكُ طَالُوتَ عَلَيْكُمْ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ التَّابُوتَ الَّذِي كَانَ أُخِذَ مِنْكُمْ «فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ» قِيلَ: مَعْنَاهُ وَقَارٌ وَجَلَالَةٌ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ «فِيهِ سَكِينَةٌ» أَيْ وَقَارٌ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ: رَحْمَةٌ. وَكَذَا رُوِيَ عَنِ الْعَوْفِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَقَوْلُهُ: «وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ» رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ» قَالَ: عَصَاهُ، وَرُضَاضُ الْأَلْوِاحِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَعِكْرَمَةُ، وَزَادَ: «وَالْتَّوْرَةَ»<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: سَأَلْتُ الثَّوْرِيَّ عَنْ قَوْلِهِ «وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ»؟ فَقَالَ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: فَقِيرٌ مِنْ مَنْ، وَرُضَاضُ الْأَلْوِاحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْعَصَا

(١) عبد الرزاق: ٩٨/١ (٢) الطبري: ٣٣١/٥ (٣) الطبري:

وَالْتَعْلَانِ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُ التَّابُوتَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى وَضَعَتْهُ بَيْنَ يَدَيِ طَالُوتَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ<sup>(٢)</sup>. قَالَ السُّدِّيُّ: أَصْبَحَ التَّابُوتُ فِي دَارِ طَالُوتَ، فَأَمَّنُوا بِنُبُوَّةِ شَمْعُونَ، وَأَطَاعُوا طَالُوتَ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ﴾ أَيُّ عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَفِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ مِنْ طَاعَةِ طَالُوتَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمَ مِنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ يَإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ<sup>(٤)</sup>﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ طَالُوتَ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ خَرَجَ فِي جُنُودِهِ، وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ جِيشُهُ يَوْمَئِذٍ فِيمَا ذَكَرَهُ السُّدِّيُّ ثَمَانِينَ أَلْفًا<sup>(٥)</sup> - فَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ أَيُّ مُخْتَبِرُكُمْ بِنَهَرٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: وَهُوَ نَهْرُ بَيْنَ الْأَرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ<sup>(٦)</sup>. يَعْنِي نَهْرَ الشَّرِيعَةِ الْمَشْهُورَ، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أَيُّ فَلَا يَصْحُبُنِي الْيَوْمَ فِي هَذَا الْوَجْهِ ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، أَيُّ فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ اغْتَرَفَ مِنْهُ بِيَدِهِ رَوِي، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَرَوْ<sup>(٧)</sup>.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِينَ كَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ ثَلَاثِمِائَةً وَبِضْعَةَ عَشَرَ، عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ، وَمَا جَاوَزَهُ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِنَحْوِهِ<sup>(٩)</sup>.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أَيُّ اسْتَقْتَلُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ، فَتَجَعَّلَهُمْ عِلْمًا وَهُمْ، وَهُمْ الْعَالِمُونَ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، فَإِنَّ النُّصْرَ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٤١

الْبَقَرَةِ

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمَ مِنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ يَإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ<sup>(١٠)</sup> وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ<sup>(١١)</sup> فَهَرَمُوهُمْ يَإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ<sup>(١٢)</sup> تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ<sup>(١٣)</sup>

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. لَيْسَ عَنْ كَثْرَةِ عَدُوٍّ وَلَا عَدُوٍّ. وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿كَمَ مِنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ يَإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ<sup>(١٤)</sup>﴾ فَهَرَمُوهُمْ يَإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ<sup>(١٥)</sup> تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ<sup>(١٦)</sup>﴾

أَيُّ لَمَّا وَاجَهَ جَزْبُ الْإِيمَانِ، وَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ أَصْحَابِ طَالُوتَ، لِعَدُوِّهِمْ أَصْحَابِ جَالُوتَ، وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ

(١) الطبري: ٣٣٣/٥ (٢) الطبري: ٣٣٥/٥ (٣) الطبري: ٥/٣٣٩ (٤) الطبري: ٣٣٩/٥ (٥) الطبري: ٣٤٠/٥ (٦) الطبري: ٣٤٥/٥ (٧) الطبري: ٣٤٦/٥ و٣٤٧ (٨) فتح الباري: ٣٣٩/٧

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيْنَتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ لَا أَكْرَاهُ فِي الَّذِينَ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يَعْنِي مُوسَى وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، وَكَذَلِكَ آدَمُ كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ فِي صَحِيحِ ابْنِ جِبَّانَ عَنْ أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كَمَا تَبَيَّنَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ حِينَ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْبِيَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ بِحَسَبِ تَقَاوُثِ مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْحَدِيثِ الثَّابِتِ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ فِي قَسَمِ يُقْسِمُهُ: لَا وَالَّذِي اضْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ. فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ، فَلَطَمَ بِهَا وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَقَالَ: أَيُّ خَبِيثٍ، وَعَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَجَاءَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَكَى عَلَى الْمُسْلِمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَفْضُلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ»، فَإِنَّ النَّاسَ يَضَعُقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَيُّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا صَبْرًا مِنْ عِنْدِكَ ﴿وَتَبَيَّنَ أَقْدَامُنَا﴾ أَيُّ فِي لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ، وَجَبَّنَا الْفِرَارَ وَالْعَجْزَ ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوِي الْكَثِيرِينَ﴾.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ يَازِدُ اللَّهُ﴾ أَيُّ غَلَبُوهُمْ وَقَهَرُوهُمْ بِنَصْرِ اللَّهِ لَهُمْ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ ذَكَرُوا فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: أَنَّهُ قَتَلَهُ بِقِفْلَاعٍ كَانَ فِي يَدِهِ، رَمَاهُ بِهِ فَأَصَابَهُ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ طَالُوتُ قَدْ وَعَدَهُ إِنْ قَتَلَ جَالُوتَ أَنْ يُرَوِّجَهُ ابْنَتَهُ، وَيُسَاطِرُهُ نِعْمَتَهُ، وَيُشْرِكُهُ فِي أَمْرِهِ، فَوَفَّى لَهُ، ثُمَّ آَلَ الْمَلِكُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنشَأَ اللَّهُ الْمُلُوكَ﴾ الَّذِي كَانَ يَبِيدُ طَالُوتَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أَيُّ النُّبُوَّةِ بَعْدَ شُمُويلَ ﴿وَعَلَّمَهُمْ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أَيُّ مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّهُ بِهِ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أَيُّ لَوْ لَا اللَّهُ يَدْفَعُ عَنْ قَوْمٍ بِآخَرِينَ، كَمَا دَفَعَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَقَاتِلَةِ طَالُوتَ وَشَجَاعَةِ دَاوُدَ لَهْلُوكِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْلَيْتِ صَوْبُوعٌ وَبَيْعٌ وَصَلُوتٌ وَسَجْدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾... آيَةُ [الحج: ٤٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَكُنْ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ مَنْ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ، يَدْفَعُ عَنْهُمْ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَلَهُ الْحُكْمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَيُّ هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي فَضَّلْنَاهَا عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ بِالْحَقِّ، أَيُّ بِالْوَقْعِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الْمُطَابِقُ لِمَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَهَذَا تَوْكِيدٌ وَتَوْطِئَةٌ لِلْقَسَمِ.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيْنَتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٦﴾﴾.

[تَفْضِيلُ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا



### الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ [فَضْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ]

هَذِهِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَلَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ «أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَرَدَّدَهَا مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ أَبِي: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، قَالَ: «لَيْهَنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تَقْدُسُ الْمَلِكُ عِنْدَ سَائِ الْكَرْسِيِّ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>، وَلَيْسَ عَنْهُ زِيَادَةٌ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ... إلخ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، أَنَّهُ كَانَ فِي سَهْوَةٍ لَهُ، وَكَانَتْ الْعُورُ تَجِيءُ فَتَأْخُذُ، فَسَكَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتَهَا فَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ: فَجَاءَتْ، فَقَالَ لَهَا، فَأَخَذَهَا. فَقَالَتْ لَهُ: إِنِّي لَا أَعُودُ. فَأَرْسَلَهَا؛ فَجَاءَتْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» قَالَ: أَخَذْتُهَا، فَقَالَتْ لِي: إِنِّي لَا أَعُودُ، فَأَرْسَلْتُهَا، فَقَالَ: «إِنَّهَا عَائِدَةٌ»، فَأَخَذْتُهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ تَقُولُ: لَا أَعُودُ، وَأَجِئِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُولُ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟» فَأَقُولُ: أَخَذْتُهَا، فَقُولُ: لَا أَعُودُ، فَيَقُولُ: «إِنَّهَا عَائِدَةٌ» فَأَخَذْتُهَا، فَقَالَتْ: أَرْسَلْنِي، وَأَعْلَمُكَ شَيْئًا تَقُولُهُ فَلَا يَفْرُكُكَ شَيْءٌ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ. فَآتَى النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ وَهِيَ كَذُوبٌ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٤)</sup>. وَالْعُورُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ: هُوَ الْجَانُّ إِذَا تَبَدَّى فِي اللَّيْلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ مِثْلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَرَوَى فِي كِتَابِ "فَضَائِلِ الْقُرْآنِ"، وَفِي كِتَابِ "الْوَكَاةِ"، وَفِي "صِفَةِ إِبْلِيسَ" مِنْ صَحِيحِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: لَا زَفْعَتَكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ

يُفِيئُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُورِي بِصَغْفَةِ الطُّورِ؟ فَلَا تُفَضِّلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ»<sup>(١)</sup> وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَحَاكُمُوا فِيهَا عِنْدَ التَّخَاصُمِ وَالتَّشَاجُرِ، وَأَنَّ مَقَامَ التَّفْضِيلِ لَيْسَ إِلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَيْكُمْ الْإِنْفِيَادُ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ، وَالْإِيمَانُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: «وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَنَ» أَيِ الْحُجَجِ وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَيْهِمْ «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ أَيْدَهُ بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنَّا» أَيُّ بَلِّ كُلِّ ذَلِكَ عَنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ».

«يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَعُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِجَ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ» وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٥﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ فِي سَبِيلِهِ، سَبِيلِ الْخَيْرِ، لِيَدْخَرُوا ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَلِيكَهِمْ، وَلِيَبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ» يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ «لَا بَئِجَ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ» أَيُّ لَا يَبْتَاعُ أَحَدٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا يُفَادَى بِمَالٍ لَوْ بَدَلَهُ، وَلَوْ جَاءَ بِجُلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَا تَنْفَعُهُ خَلَّةٌ أَحَدٍ، يَعْنِي صَدَاقَتُهُ بَلِّ وَلَا نَسَابَتُهُ، كَمَا قَالَ: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ» [المؤمنون: ١١٠] «وَلَا شَفْعَةٌ» أَيُّ وَلَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.

وَقَوْلُهُ: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» مُبْتَدَأٌ مُحْضُورٌ فِي خَبَرِهِ، أَيُّ وَلَا ظَالِمٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ وَافَى اللَّهُ يَوْمَئِذٍ كَافِرًا، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» وَلَمْ يَقُلْ: وَالظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ<sup>(٣)</sup>.

«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ

(١) فتح الباري: ٥٠٨/٦ مسلم: ٤٣/٤ (٢) فتح الباري: ٦/١٩٥١ مسلم: ٤٣/٤ (٣) ابن أبي حاتم غ: ٩٦٦/٣ (٤) أحمد: ١٤١/٥ (٥) مسلم: ٥٥٦/١ (٦) أحمد: ٤٢٣/٥ (٧) تحفة الأحوذى: ١٨٣/٨

الْبَقَرَةِ، وَالْإِمْرَانِ وَطَهُ<sup>(٥)</sup> وَقَالَ هِشَامٌ - وَهُوَ ابْنُ عَمَّارٍ خَطِيبٌ دِمَشْقِيٌّ - : أَمَّا الْبَقَرَةُ فَ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَى الْقَيْومِ﴾ وفي آلِ عِمْرَانَ: ﴿الَّذِي﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَى الْقَيْومِ ﴿وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

وهذه الآية مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عَشْرِ جُمَلٍ مُسْتَقِلَّةٍ

١- فَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إِنْجَابٌ بِأَنَّهُ الْمَتَمَرِّدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ.

٢- ﴿أَلَى الْقَيْومِ﴾ أَيِ الْحَيِّ فِي نَفْسِهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا، أَلْمُفِيدِ لغيره. فَجَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، لَا قَوَامَ لَهَا بِدُونِ أَمْرِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

٣- وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْخُذُكُمْ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أَيِ لَا يَغْتَرِيهِ نَقْصٌ وَلَا غَفْلَةٌ وَلَا دُھُولٌ عَنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَمِنْ تَمَامِ الْقِيُومِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَغْتَرِيهِ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، فَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْخُذُكُمْ﴾ أَيِ لَا تَغْلِبُكُمْ ﴿سِنَةٌ﴾ وَهِيَ الْوَسَنُ وَالنَّعَاسُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنَ السَّنَةِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَتَبَغَّى لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النَّورُ أَوْ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»<sup>(٦)</sup>.

٤- وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إِنْجَابٌ بِأَنَّ الْجَمِيعَ عِبِيدُهُ وَفِي مُلْكِهِ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾<sup>(٧)</sup> لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا<sup>(٨)</sup> وَكُلُّهُمْ عَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرْدًا<sup>(٩)</sup> [مريم: ٩٣-٩٥].

٥- وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ

أَسِيرِكَ الْبَارِحَةِ؟﴾ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَأ حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ». فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَيَعُودُ». فَرَصَدْتُهُ، فَجَعَلَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: دَغْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ. فَرَحِمْتُهُ وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةِ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَأ حَاجَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ». فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَعَلَ يَحْتُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ، فَقَالَ: دَغْنِي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَى الْقَيْومِ﴾... حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةِ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَى الْقَيْومِ﴾ وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَبَرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مِنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قُلْتُ: لَا. قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ<sup>(١١)</sup>.

[إِسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَشْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَى الْقَيْومِ﴾ وَ﴿الَّذِي﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَى الْقَيْومِ ﴿إِنَّ فِيهِمَا اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ»<sup>(١٢)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ مَرْدُودٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، فِي ثَلَاثِ سُورَةٍ

(١) فتح الباري: ٦٧٢/٨ و٥٦٨/٤ و٣٨٦/٦ (٢) اللداعي: ٥٣٢ السنن الكبرى للنسائي ٢٣٨/٦ (٣) أحمد: ٦/٤٦١ (٤) أبو داود: ١٦٨/٢ وتحفة الأحوذى: ٤٤٧/٩ وابن ماجه: ١٢٦٧/٢ (٥) الطبراني: ٢٨٢/٨ (٦) مسلم: ١٦٢/١ وسلسلة الأحاديث الصحيحة (٧٤٦). (٦) مسلم: ١٦٢/١

١٠- فَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كَقَوْلِهِ: وَهُوَ  
 ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩] وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَمَا فِيهَا  
 مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ الْأَجُودِ فِيهَا طَرِيقَةُ السَّلَفِ  
 الصَّالِحِ: إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْثِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ.  
 ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ  
 وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ  
 عَلِيمٌ﴾ (١٠)

[لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أَيُّ لَا تُكْرَهُوا أَحَدًا  
 عَلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ وَاضِحٌ، جَلِيٌّ  
 دَلَالَتُهُ وَبَرَاهِينُهُ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكْرَهَ أَحَدٌ عَلَى الدُّخُولِ  
 فِيهِ، بَلْ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ، وَتَوَرَّ  
 بِصِيرَتِهِ، دَخَلَ فِيهِ عَلَى بَيِّنَةٍ، وَمَنْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ وَخَتَمَ  
 عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُبِيدُهُ الدُّخُولُ فِي الدِّينِ مُكْرَهًا  
 مَقْصُورًا.

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْمٍ مِنَ  
 الْأَنْصَارِ، وَإِنْ كَانَ حُكْمُهَا عَامًّا. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ  
 عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مَقْلَاةً، فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا  
 إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تَهْوَدَ، فَلَمَّا أَجْلَيْتْ بَنُو النَّصِيرِ، كَانَ  
 فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ  
 عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٥)،  
 وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ (٦).

فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ. أَنَّ  
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَسْلِمْتَ»، قَالَ: إِنِّي أَجِدُنِي  
 كَارِهًا، قَالَ: «وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا» (٧). فَإِنَّهُ ثَلَاثُ صَحِيحٍ،  
 وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُكْرَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى  
 الْإِسْلَامِ، بَلْ دَعَاهُ إِلَيْهِ، فَأَخْبَرَ أَنْ نَفْسَهُ لَيْسَتْ قَابِلَةً لَهُ، بَلْ  
 هِيَ كَارِهَةٌ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْتَ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا، فَإِنَّ اللَّهَ  
 سَيَرْزُقُكَ حُسْنَ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ.

[التَّوْحِيدُ هُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ  
 اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ مَنْ

بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] وَكَقَوْلِهِ:  
 ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ  
 وَكِبَرِيَّاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَنَّهُ لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَشْفَعَ  
 لِأَحَدٍ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ  
 الشَّفَاعَةِ: «آتَى تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخْرَجَ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا  
 شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي. ثُمَّ يُقَالُ: ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تُسْمَعُ،  
 وَاشْفَعْ تُشْفَعُ - قَالَ: - فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ  
 الْجَنَّةَ» (١).

٦- وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى  
 إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، مَا ضِيهَا وَخَاضِرُهَا  
 وَمُسْتَقْبَلُهَا، كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا  
 بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ يَكُنْ آيَاتِنَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ  
 رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

٧- وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾  
 أَيُّ لَا يَطْلُعُ أَحَدٌ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ  
 عَزَّ وَجَلَّ وَأَطْلَعَهُ عَلَيْهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَا  
 يَطْلِعُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُمُ  
 اللَّهُ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

٨- وَقَوْلُهُ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ رَوَى وَكِيعٌ  
 فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ  
 الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ (٢). وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ  
 فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْفُوفًا مِثْلَهُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ  
 عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (٣). وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ: لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ،  
 بُسِطْنَ، ثُمَّ وُضِلْنَ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضٍ، مَا كُنَّ فِي سَعَةِ  
 الْكُرْسِيِّ إِلَّا بِمَنْزِلَةِ الْحَلَقَةِ فِي الْمَفَازَةِ (٤).

٩- وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَدْرُهُمْ حِفْظُهُمَا﴾ أَيُّ لَا يُثْقِلُهُ وَلَا يَكْرَهُهُ  
 حِفْظُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِمَا، وَمَنْ بَيْنَهُمَا، بَلْ  
 ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ، وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا  
 كَسَبَتْ، الرَّقِيبُ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَغْزُبُ عَنْهُ  
 شَيْءٌ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا حَقِيرَةٌ بَيْنَ  
 يَدَيْهِ، مُتَوَاضِعَةٌ ذَلِيلَةٌ صَغِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، مُحْتَاجَةٌ فَقِيرَةٌ.  
 وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، الْقَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا  
 يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَهُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْحَسِيبُ عَلَى  
 كُلِّ شَيْءٍ، الرَّقِيبُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ  
 سِوَاهُ.

(١) مسلم: ١٨٠/١ (٢) الطبراني: ٣٩/١٢ (٣) الحاكم: ٢/٢٨٢ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٩٨١/٣ (٥) الطبري: ٤٠٧/٥ (٦) أبو داود: ١٣٢/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٠٤/٦ (٧) أحمد: ١٨١/٣

الْبَقَرَةُ

٤٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاهُمْ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ  
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ  
أَنَآءَ أَنَّهُ اللَّهُ الْمَلِكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي  
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي  
بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي  
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ  
عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ  
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ  
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ  
فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى  
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى  
الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا  
تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

الْوُثْقَى، أَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ». قَالَ: وَهُوَ عَبْدُ  
اللَّهِ ابْنُ سَلَامٍ<sup>(٤)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٥)</sup>. وَأَخْرَجَهُ  
الْبُخَارِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ<sup>(٦)</sup>.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاهُمْ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى  
الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(٢٥٧)</sup>  
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَهْدِي مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ،  
فَيُخْرِجُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِّنَ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشُّكِّ وَالرَّيْبِ  
إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الْمُبِينِ السَّهْلِ الْمُنِيرِ، وَأَنَّ  
الْكَافِرِينَ إِنَّمَا وَلِيُّهُمْ الشَّيْطَانُ، يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ  
الْجَهَالَاتِ وَالضَّلَالَاتِ، وَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَجِدُونَ بِهِمْ عَنْ

خَلَعَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبَادَةٍ  
كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَوَحَّدَ اللَّهُ فَعْبَدَهُ وَحْدَهُ، وَشَهِدَ  
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أَيُّ فَقَدْ  
ثَبَّتَ فِي أَمْرِهِ، وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُنْتَهَى، وَالصِّرَاطِ  
الْمُسْتَقِيمِ. رَوَى أَبُو قَاسِمٍ الْبَغَوِيُّ عَنْ حَسَّانَ بْنِ فَائِدٍ  
الْعَبْسِيِّ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الْجَبْتِ  
السَّحَرِ. وَالطَّاغُوتِ الشَّيْطَانُ. وَإِنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْجُبْنَ  
غَرَائِزُ تَكُونُ فِي الرِّجَالِ، يُقَاتِلُ الشَّجَاعُ عَمَّنْ لَا يَعْرِفُ،  
وَيَفِرُّ الْجَبَانُ مِنْ أَمِهِ. وَإِنَّ كَرَمَ الرَّجُلِ دِينُهُ، وَحَسْبُهُ:  
خُلُقُهُ، وَإِنْ كَانَ فَارِسِيًّا أَوْ بَنْطِيًّا<sup>(١)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِهِ فِي  
الطَّاغُوتِ: إِنَّهُ الشَّيْطَانُ. قَوِيٌّ جِدًّا، فَإِنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ شَرٍّ  
كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهَا،  
وَالِاسْتِنْبَارِ بِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أَيُّ  
فَقَدْ اسْتَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِأَقْوَى سَبَبٍ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ بِالْعُرْوَةِ  
الْقَوِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْفَصِمُ، فَهِيَ فِي نَفْسِهَا مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قَوِيَّةٌ،  
وَرَبَطُهَا قَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ  
الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى بَعْثِي  
الْإِيمَانِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ الْإِسْلَامُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ  
أَحْمَدُ عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ  
رَجُلٌ فِي وَجْهِهِ أَثَرٌ مِنْ خُشُوعٍ، فَدَخَلَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ  
أَوْجَزَ فِيهِمَا، فَقَالَ الْقَوْمُ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا  
خَرَجَ اتَّبَعْتُهُ حَتَّى دَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ فَحَدَّثْتُهُ، فَلَمَّا  
اسْتَأْنَسَ، قُلْتُ لَهُ: إِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا دَخَلْتَ قَبْلَ الْمَسْجِدِ،  
قَالُوا كَذَا وَكَذَا، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ  
يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ، وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ؟ إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ  
خَضِرَاءَ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: فَذَكَرَ مِنْ خُضْرَتِهَا وَسَعَتِهَا -  
وَفِي وَسْطِهَا عَمُودٌ حَدِيدٌ أَسْفَلُهُ فِي الْأَرْضِ وَأَعْلَاهُ فِي  
السَّمَاءِ، فِي أَعْلَاهُ عُرْوَةٌ، فَقِيلَ لِي: اضْعُدْ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ:  
لَا أَسْتَطِيعُ، فَجَاءَنِي مِنْصَفٌ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: هُوَ  
الْوَصِيفُ - فَرَفَعَ يَدَيْيَ مِنْ خَلْفِي، فَقَالَ: اضْعُدْ،  
فَصَعَدْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ، فَقَالَ: اسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ،  
فَاسْتَيْقِظْتُ وَإِنِّهَا لَفِي يَدَيَّ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،  
فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: «أَمَّا الرِّوَضَةُ فَرَوْضَةُ الْإِسْلَامِ،  
وَأَمَّا الْعَمُودُ فَعَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الْعُرْوَةُ فَهِيَ الْعُرْوَةُ

(١) الطبري: ١٧/٥ فيه حسان بن فائد العبسي تفرد بالرواية عنه  
أبو إسحاق السبيعي وقال أبو حاتم الرازي: هو شيخ [الجرح  
والتعديل ٢٣٣/٣] (٢) الطبري: ٥/٤٢١ (٣) الطبري: ٥/٥  
٤٢١ (٤) أحمد: ٥/٤٥٢ (٥) فتح الباري: ١٦١/٧ ومسلم:  
١٩٣٠/٤ (٦) فتح الباري: ١٨/٢

وَاحِدٍ: وَذَلِكَ أَنِّي أَوْتَى بِالرَّجُلَيْنِ، قَدْ اسْتَحَقَّا الْقَتْلَ فَأَمَرْتُ بِقَتْلِ أَحَدِهِمَا - فَيُقْتَلُ، وَبِالْعَمَلِ عَنِ الْآخَرِ فَلَا يُقْتَلُ، فَذَلِكَ مَعْنَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ<sup>(١)</sup>.

وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ مَا أَرَادَ هَذَا، لِأَنَّهُ لَيْسَ جَوَابًا لِمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ، وَلَا فِي مَعْنَاهُ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مانِعٍ لِرُجُودِ الصَّانِعِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَدْعِيَ لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَقَامَ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً، وَيُوهِمُ أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِدَلِكِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، كَمَا اقْتَدَى بِهِ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وَلِهَذَا قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ - لَمَّا ادَّعَى هَذِهِ الْمُكَابَرَةَ -: ﴿فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أَيُّ: إِذَا كُنْتَ كَمَا تَدْعِي مِنَ أَنَّكَ تُحْيِي وَتُمِيتُ، فَالَّذِي يُحْيِي وَتُمِيتُ هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي الوجودِ، فِي خَلْقِ ذَوَاتِهِ، وَتَسْخِيرِ كَوَاكِبِهِ وَحَرَكَاتِهِ، فَهَذِهِ الشَّمْسُ تَبْدُو كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَإِنْ كُنْتَ إِلَهًا كَمَا ادَّعَيْتَ: تُحْيِي وَتُمِيتُ، فَأَتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ؟ فَلَمَّا عَلِمَ عَجْزَهُ وَانْقِطَاعَهُ وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُكَابَرَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، ﴿بُهِتَ﴾، أَيُّ أُخْرِسَ، فَلَا يَتَكَلَّمُ. (\*) وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ لَا يُلْهِمُهُمْ حُجَّةً وَلَا بُرْهَانًا، بَلْ ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

وَهَذَا التَّنْزِيلُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَحْسَنُ مِمَّا ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَفَقِّهِينَ: أَنَّ عُدُولَ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ إِلَى الْمَقَامِ الثَّانِي انْتِقَالَ مِنْ دَلِيلٍ إِلَى أَوْضَحَ مِنْهُ... وَبَيِّنُ بَطْلَانِ مَا ادَّعَاهُ نُمُرُودُ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَدْ ذَكَرَ السُّدِّيُّ أَنَّ هَذِهِ الْمُنَاطَرَةَ: كَانَتْ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَنُمُرُودَ بَعْدَ خُرُوجِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ، وَلَمْ يَكُنْ اجْتِمَاعَ بِالْمَلِكِ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَجَرَتْ بَيْنَهُمَا هَذِهِ الْمُنَاطَرَةُ. ﴿أَوْ كَأَنِّي مَرٌّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِنتُ قَالَ لَبِنتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِنتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمْارِكَ وَلِتَعْمَلْكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ

طَرِيقَ الْحَقِّ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِفْكِ ﴿أَوَلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وَلِهَذَا وَحَدَّ تَعَالَى لَفْظَ النَّارِ، وَجَمَعَ الظُّلُمَاتِ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ، وَالْكَفْرَ أَجْنَاسٌ كَثِيرَةٌ، وَكُلُّهَا بَاطِلَةٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فِي لَفْظِهَا إِشْعَارٌ بِتَفَرُّدِ الْحَقِّ وَانْتِشَارِ الْبَاطِلِ وَتَفَرُّقِهِ وَتَسَعُّبِهِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٥٨]

هَذَا الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ هُوَ مَلِكُ بَابِلَ نُمُرُودُ بْنُ كَنْعَانَ بْنِ كُوشِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَيُقَالُ: نُمُرُودُ بْنُ فَالِخِ بْنِ عَابِرِ بْنِ شَالِحِ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَالْأَوَّلُ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: وَمَلِكُ الدُّنْيَا مَسَارِقُهَا وَمَعَارِبُهَا أَرْبَعَةٌ: مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ، فَالْمُؤْمِنَانِ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، وَدَاوُدُ الْقُرَيْنِي، وَالْكَافِرَانِ: نُمُرُودُ وَبُخْتَنَصَّرُ<sup>(١)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أَيُّ بِقَلْبِكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، أَيُّ وُجُودِ رَبِّهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ إِلَهَ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ بَعْدَهُ فِرْعَوْنُ لِمَلِيئِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾. وَمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الطُّغْيَانِ وَالْكَفْرِ الْغَلِيظِ وَالْمَعَانِدَةِ الشَّدِيدَةِ إِلَّا تَجَبُّرُهُ، وَطُولُ مُدَّتِهِ فِي الْمُلْكِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَن ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وَكَأَنَّهُ طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَلِيلًا، عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَيُّ إِنَّمَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِهِ: حَدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُشَاهِدَةِ بَعْدَ عَدَمِهَا، وَعَدَمُهَا بَعْدَ وُجُودِهَا: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، ضَرُورَةٌ، لِأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِنَفْسِهَا، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهَا، وَهُوَ: الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الْمُحَاجَّ - وَهُوَ النُّمُرُودُ - ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾. قَالَ فَتَادَهُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُ

(١) الطبري: ٤٣٣/٥ (٢) الطبري: ٤٣٣/٥، ٤٣٦، ٤٣٧  
(\*) كذا في الأصل: والظاهر: فلم يتكلم

نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ قَالَ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

[قِصَّةُ عَزِيزٍ]

تَقَدَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ وَهُوَ فِي قُوَّةِ قَوْلِهِ: هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، وَلِهَذَا عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَّ كَأَلَّذِي مَرَّ عَلَى قُوتٍ وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ نَاجِيَةِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ عَزِيزٌ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ نَاجِيَةِ نَفْسِهِ<sup>(٢)</sup>. وَحَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَسَلِيمَانَ بْنَ بُرَيْدَةَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ بْنُ جَبْرِ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَأَمَّا الْقُرْيَةُ فَالْمَشْهُورُ أَنَّهَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ، مَرَّ عَلَيْهَا بَعْدَ تَخْرِيْبٍ بُخْتَصِرَ لَهَا، وَقَتْلَ أَهْلِهَا ﴿وَهِيَ حَاوِيَةٌ﴾ أَيُّ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ، قَوْلُهُ: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أَيُّ سَاقِطَةٌ سُقُوفُهَا وَجُدُرَانِهَا عَلَى عَرَصَتَيْهَا، فَوَقَفَ مُتَفَكِّرًا فِيمَا آَلَ أَمْرُهَا إِلَيْهِ بَعْدَ الْعِمَارَةِ الْعَظِيمَةِ، وَقَالَ: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وَذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ دُورِهَا، وَشِدَّةِ خَرَابِهَا، وَبُعْدِهَا عَنِ الْعُودِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا اللَّهُ فَمَنْ مِائَةِ عَامٍ ثُمَّ بَعَثْنَا: قَالَ: وَعُمِّرَتِ الْبَلَدُ بَعْدَ مُضِيِّ سِتِّينَ سَنَةً مِنْ مَوْتِهِ، وَتَكَامَلَتْ سَاكِنُوهَا، وَتَرَاجَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ أَحْيَا اللَّهُ فِيهِ عَيْنِيهِ، لِيَنْظُرَ بِهِمَا إِلَى صُنْعِ اللَّهِ فِيهِ: كَيْفَ يُحْيِي بَدَنَهُ؟ فَلَمَّا اسْتَقْلَّ سَوِيًّا ﴿قَالَ: اللَّهُ لَهُ، أَيُّ بِوَسْاطَةِ الْمَلِكِ: ﴿كَمْ لَيْسَتْ قَالَ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قَالُوا: وَذَلِكَ أَنَّهُ مَاتَ أَوَّلَ النَّهَارِ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَاقِيَةَ ظَنِّ أَنَّهَا شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَقَالَ: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، قَالَ بَلْ لَيْسَتْ مِائَةِ عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَكُنْ سِتِّينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ - فِيمَا ذَكَرَ - عَنَبٌ وَبَيْنٌ وَعَصِيرٌ، فَوَجَدَهُ كَمَا فَقَدَهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ، لَا الْعَصِيرُ اسْتَحَالَ، وَلَا الْبَيْنُ حُمُضٌ وَلَا أَتْنٌ، وَلَا الْعَنَبُ تَعَفَّنَ.

﴿وَأَنْظُرْ إِلَى جِمَارِكَ﴾ أَيُّ كَيْفَ يُحْيِيهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ تَنْظُرُ ﴿وَلَنْجَعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أَيُّ دَلِيلًا عَلَى الْمَعَادِ ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى آلُوطٍ كَيْفَ نُشِرُهَا﴾ أَيُّ رَفَعَهَا، فَيَرْكَبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ

الْمِائَةِ الثَّلَاثِينَ

٤٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤَمِّنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فخذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَثْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَفِيرٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمِثْلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

اللَّهُ ﷻ قَرَأَ: ﴿كَيْفَ نُشِرُهَا﴾ بِالزَّايِ ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ. وَلَمْ يَخْرُجْهُ<sup>(٤)</sup>. وَفُرِيَءَ (نُشِرُهَا) أَيُّ نُحْيِيهَا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ<sup>(٥)</sup>.

﴿ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾: قَالَ السُّدِّيُّ وَعَبِيدَةُ: تَفَرَّقَتْ عِظَامُ جِمَارِهِ حَوْلَهُ يَمِينًا وَيسَارًا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَهِيَ تَلُوحُ مِنْ بَيَاضِهَا، فَبَعَثَ اللَّهُ رِيحًا فَجَمَعَتْهَا مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ تِلْكَ الْمَحَلَّةِ، ثُمَّ رَكَّبَ كُلَّ عِظَمٍ فِي مَوْضِعِهِ حَتَّى صَارَ جِمَارًا قَائِمًا مِنْ عِظَامٍ لَا لَحْمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ كَسَاهَا اللَّهُ لَحْمًا وَعَصَبًا وَغُرُوقًا وَجِلْدًا، وَبَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا فَفَتَحَ فِي مَنْخَرِي الْجِمَارِ، فَنَهَقَ. كُلُّهُ بِأَذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٦)</sup>. وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَرَأَى مِنْ عَزِيزٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ هَذَا كُلُّهُ ﴿قَالَ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ أَنَا عَالِمٌ بِهَذَا، وَقَدْ رَأَيْتُهُ عَيْنَانَا: فَأَنَا

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٠٩/٣ (٢) الطبري: ٤٣٩/٥ (٣) الطبري: ٤٣٩/٥، ٤٤٠ وابن أبي حاتم غ: ١٠٠٩/٣، ١٠١٠ (٤) الحاكم: ٢٣٤/٢ (٥) الطبري: ٤٧٦/٥ (٦) الطبري: ٥/٥

يَأْبَاهُ، فَإِذَا قَدَّمَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ تَرَكَبَ مَعَ بَقِيَّةِ جَسَدِهِ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ<sup>(٤)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَمَا شَاءَ كَانَ بِلاَ مُمَانٍ، لِأَنَّهُ الْعَظِيمُ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشُرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ أَيُّوبَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَرْجَى عِنْدِي مِنْهَا<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْمُكَدِّرِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِابْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: أَيُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ أَرْجَى عِنْدَكَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو: قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَنْقُضُوا﴾ الْآيَةَ [الزمر: ٥٣]، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَكِنْ أَنَا أَقُولُ: قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ بَلَى﴾ فَرَضِي مِنْ إِبْرَاهِيمَ قَوْلُهُ: ﴿بَلَى﴾. قَالَ: فَهَذَا لِمَا يَعْتَرِضُ فِي النَّفْسِ وَيُوسَّسُ بِهِ الشَّيْطَانُ<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِثْلَهُ، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُحَرِّجْهُ<sup>(٧)</sup>.

﴿مِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَثْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبْلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

### [جَزَاءُ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

هَذَا مَثَلُ ضَرْبَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِتَضْعِيفِ الثَّوَابِ لِمَنْ أَتَّفَقَ فِي سَبِيلِهِ وَاتَّبَعَاءِ مَرْضَاتِهِ، وَأَنَّ الْحَسَنَةَ تُضَاعَفُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، فَقَالَ: ﴿مِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي فِي طَاعَةِ اللَّهِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مَكْحُولٌ: يَعْنِي بِهِ الْإِنْفَاقُ فِي الْجِهَادِ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ وَإِعْدَادِ السَّلَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا الْمَثَلُ أُبْلَغَ فِي الثُّغُوسِ مِنْ ذِكْرِ عَدَدِ السَّبْعِمِائَةِ، فَإِنَّ هَذَا

أَعْلَمُ أَهْلَ زَمَانِي بِذَلِكَ، وَقَرَأَ آخَرُونَ (قَالَ اْعْلَمَ) عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ لَهُ بِالْعِلْمِ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[طَلَبُ خَلِيلِ اللَّهِ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى] ذَكَرُوا لِسُؤَالِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْبَابًا، مِنْهَا: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لِنُورِدُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أَحَبَّ أَنْ يَرَفِّقَ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ فِي ذَلِكَ، إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ، وَأَنْ يَرَى ذَلِكَ مُشَاهِدَةً، فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالسُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنُ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي»<sup>(١)</sup>. فَلَيْسَ الْمُرَادُ: هُنَا بِالسُّكِّ مَا قَدْ يَهْمُهُ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ، بَلَا خِلَافٍ، وَقَدْ أُجِيبَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِأَجُوبَةٍ، أَحَدُهَا<sup>(٢)</sup>.

### [جَوَابُ طَلَبِ الْخَلِيلِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ مَا هِيَ، وَإِنْ كَانَ لَا طَائِلَ تَحْتَ تَعْيِينِهَا، إِذْ لَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ مَهْمٌ لَنَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ.... وَقَوْلُهُ: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ: قَطَعْنَهُنَّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو مَالِكٍ وَأَبُو الْأَسْوَدِ الدَّبَلِيُّ وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهِ وَالْحَسَنُ وَالسَّيِّدِي وَغَيْرُهُمْ<sup>(٣)</sup>. فَذَكَرُوا أَنَّهُ عَمِدَ إِلَى أَرْبَعَةٍ مِنَ الطَّيْرِ، فَذَبَحَهُنَّ ثُمَّ قَطَعَهُنَّ وَنَتَفَ رِيشَهُنَّ وَمَزَقَهُنَّ وَخَلَطَ بَعْضَهُنَّ بِبَعْضٍ، ثُمَّ جَزَّاهُنَّ أَجْزَاءً، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، قِيلَ: أَرْبَعَةٌ أَجْبَلٍ. وَقِيلَ: سَبْعَةٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَخَذَ رُؤُوسَهُنَّ بِيَدِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَدْعُوهُنَّ، فَدَعَاهُنَّ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الرِّيشِ يَطِيرُ إِلَى الرِّيشِ، وَالِدَّمُ إِلَى الدَّمِ، وَاللَّحْمُ إِلَى اللَّحْمِ، وَالْأَجْزَاءُ مِنْ كُلِّ طَائِرٍ، يَتَّصِلُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، حَتَّى قَامَ كُلُّ طَائِرٍ عَلَى حِدَّتِهِ، وَأَتَيْنَهُ يَمْشِينَ سَعْيًا، لِيَكُونَ أُبْلَغَ لَهُ فِي الرُّؤْيَا الَّتِي سَأَلَهَا، وَجَعَلَ كُلُّ طَائِرٍ يَجِيءُ لِيَأْخُذَ رَأْسَهُ الَّذِي فِي يَدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِذَا قَدَّمَ لَهُ غَيْرَ رَأْسِهِ

(١) فتح الباري: ٤٩/٨ (٢) هنا بياض بالنسخ التي بأيدينا. وأقول للفائدة أن المعنى (عندي): أَلَمَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِطَلَبِ الْيَقِينِ (ص. المباركفوري) (٣) ابن أبي حاتم غ: ١٠٣٩/٣، ١٠٤٠ (٤) القرطبي: ٣٠٠/٣ (٥) الطبري: ٤٨٩/٥ (٦) ابن أبي حاتم غ: ١٠٣٢/٣ (٧) الحاكم: ٢٦٠/٤ وقال الذهبي في التلخيص: فيه انقطاع (٨) ابن أبي حاتم غ: ١٠٤٧/٣ (٩) ابن أبي حاتم غ: ١٠٤٧/٣

تَعَالَى الْجَزَاءُ الْجَزِيلَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَي تَوَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ، لَا عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَي فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَي عَلَى مَا خَلَفُوهُ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَلَا مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، لَا يَأْسَفُونَ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أَي مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَدُعَاءٌ لِمُسْلِمٍ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أَي عَفْوٌ وَعَفْرٌ عَنْ ظُلْمٍ قَوْلِي أَوْ فِعْلِي ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾، «وَاللَّهُ عَنِّي» عَنْ خَلْقِهِ، «عَلِيمٌ» أَي يَحِلِّمُ وَيَغْفِرُ وَيَضْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ. وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمَنِّ فِي الصَّدَقَةِ، فِيهِ صَحِيحٌ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُتَنَقِّ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»<sup>(٥)</sup>.

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّدَقَةَ تَبْطُلُ بِمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى، فَمَا بَقِيَ ثَوَابُ الصَّدَقَةِ بِخَطِيئَةِ الْمَنِّ وَالْأَذَى، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً لِلنَّاسِ» أَي لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَمَا تَبْطُلُ صَدَقَةُ مَنْ رَأَى بِهَا النَّاسَ، فَأَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ مِدْحَةُ النَّاسِ لَهُ أَوْ شَهْرَتُهُ بِالْصَّفَاتِ الْجَمِيلَةِ لِشُكْرِ بَيْنِ النَّاسِ، أَوْ يُقَالُ: إِنَّهُ كَرِيمٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مَعَ قَطْعِ نَظَرِهِ عَنْ مُعَامَلَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ، وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ ذَلِكَ الْمُرَائِي بِإِنْفَاقِهِ، قَالَ الضَّحَّاكُ: «وَالَّذِي يُتَّبَعُ نَفَقَتُهُ مَنًّا أَوْ أَذًى»<sup>(٦)</sup>. فَقَالَ: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ» وَهُوَ جَمْعُ صَفْوَانَةٍ، [وَ] مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الصَّفْوَانُ يُسْتَعْمَلُ مُفْرَدًا أَيْضًا، وَهُوَ الصَّفَا وَهُوَ الصَّخْرُ الْأَمْلَسُ، «عَلَيْهِ رَثَبٌ فَاصَابُهُ وَابِلٌ» وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ «فَتَرَكَ صَلْدًا» أَي فَتَرَكَ الْوَابِلَ ذَلِكَ الصَّفْوَانُ صَلْدًا أَي أَمْلَسَ يَابِسًا، أَي لَا شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ

فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ يُتِمُّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَصْحَابِهَا، كَمَا يُتِمِّي الزَّرْعَ لِمَنْ بَذَرَهُ فِي الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ، وَقَدْ وَرَدَتْ الشُّعْثَةُ بِتَضْعِيفِ الْحَسَنَةِ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِثَاقَةِ مَخْطُومَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ ثَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ، وَلَفْظُ مُسْلِمٍ: جَاءَ رَجُلٌ بِثَاقَةِ مَخْطُومَةٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِمِائَةُ ثَاقَةٍ»<sup>(٢)</sup>.

حَدِيثٌ آخَرُ: رَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، يَقُولُ اللَّهُ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ طَعَامَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ»<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ هُنَا: «وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَتَّقُ» أَي بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ فِي عَمَلِهِ «وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ» أَي فَضْلُهُ وَاسِعٌ كَثِيرٌ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِهِ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ.

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» ﴿١١١﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ ﴿١١٢﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ رَثَبٌ فَاصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١١٣﴾

[النَّهْيُ عَنْ إِبْتِنَاعِ الصَّدَقَاتِ الْمَنِّ وَالْأَذَى]

يَمْدَحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِهِ، ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ مَنًّا عَلَى مَنْ أَعْطَوْهُ، فَلَا يَمْنُونُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَمْنُونَ بِهِ لَا يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا أَذًى» أَي لَا يَفْعَلُونَ مَعَ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ مَكْرُوهًا يُحِيطُونَ بِهِ مَا سَلَفَ مِنَ الْإِحْسَانِ، ثُمَّ وَعَدَهُمُ اللَّهُ

(١) أحمد: ١٢١/٤ (٢) مسلم: ١٥٠٥/٣ والنسائي: ٤٩/٦

(٣) أحمد: ٤٤٣/٢ (٤) مسلم: ٨٠٧/٢ (٥) مسلم: ١٠٢/١

(٦) الطبري: ٥٢٧/٥



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ  
وَتَنْبِيْهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ  
فَقَانَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلُ  
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ  
لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ  
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا  
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ  
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا  
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ  
بِتَّخَذِيهِ إِلَّا أَنْ تُعْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ  
﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ لِلقَرَوِيَّامُرْكُم بِالْفَحْشَاءِ  
وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾  
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ  
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْآلِ الْبِ

ذَلِكَ الثَّرَابِ، بَلْ قَدْ ذَهَبَ كُلُّهُ، أَيْ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ  
الْمُرَاتِينَ تَذَهَبُ وَتَضْمَحِلُّ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ  
أَعْمَالٌ فِيمَا يَرَى النَّاسُ كَالثَّرَابِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا  
يَقْدُرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ  
وَتَنْبِيْهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاقَانَتْ  
أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلُ وَاللَّهُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٦٥﴾

وَهَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ  
عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ، ﴿وَتَنْبِيْهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ وَهُمْ مُتَحَقِّقُونَ  
مُسْتَبْتُونَ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ، وَنَظِيرُ  
هَذَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى  
صِحَّتِهِ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاجْتِسَابًا»<sup>(١)</sup>. أَيْ يُؤْمِنُ  
أَنَّ اللَّهَ شَرَعَهُ، وَيَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أَيْ كَمَثَلِ بُسْتَانٍ بِرَبْوَةٍ،  
وَهُوَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ: الْمَكَانُ الْمَرْفَعُ الْمُسْتَوِي مِنَ  
الْأَرْضِ، وَزَادَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: وَتَجْرِي فِيهِ  
الْأَنْهَارُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ، كَمَا تَقَدَّمَ،  
فَاقَانَتْ أَكْطُلَهَا أَيْ ثَمَرَتَهَا ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أَيْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى  
غَيْرِهَا مِنَ الْجَنَانِ ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلُ﴾ قَالَ  
الضَّحَّاكُ: هُوَ الرِّدَاذُ، وَهُوَ اللَّيْنُ مِنَ الْمَطَرِ<sup>(٣)</sup>. أَيْ هَذِهِ  
الْجَنَّةُ بِهَذِهِ الرَّبْوَةِ لَا تَمَلُّ أَبَدًا، لِأَنَّهَا إِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ  
فَطُلُ، وَإِنَّمَا مَا كَانَ فَهُوَ كِفَافُهَا، وَكَذَلِكَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِ لَا  
يَبُورُ أَبَدًا، بَلْ يَتَقَبَّلُهُ اللَّهُ وَيُكَثِّرُهُ وَيُتِمِّمُهُ، كُلُّ غَامِلٍ بِحَسَبِهِ،  
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ  
مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ شَيْءٌ.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ  
وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ  
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٦٦﴾

[مَثَالُ ضِيَاعِ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ،  
وَعَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ يَوْمًا  
لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَنْ تُرَوُّنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ؟ ﴿أَيُّودُ

أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قَالُوا: اللَّهُ  
أَعْلَمُ. فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ،  
فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،  
قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلَا تُخَفِّرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ضَرَبْتُ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ:  
أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ  
يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ  
بِالْمَعَاصِي، حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ<sup>(٤)</sup>.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ كِفَايَةٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَتَبَيَّنَ  
مَا فِيهَا مِنَ الْمَثَلِ يَعْمَلُ مَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلِ أَوَّلًا، ثُمَّ بَعْدَ  
ذَلِكَ انْعَكَسَ سَبْرُهُ، فَبَدَّلَ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ، عِيَاذًا  
بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، فَأَبْطَلَ بِعَمَلِهِ الثَّانِي مَا أَسْلَفَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ  
مِنَ الصَّالِحِ، وَاجْتَنَابَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَوَّلِ فِي أَضْبَقِ

(١) فتح الباري: ٤/٣٠٠ (٢) الطبري: ٥/٥٣٧ (٣) الطبري:

٥٣٩/٥ (٤) فتح الباري: ٨/٤٩

الْأَرْضِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ أَطْيَبِ الْمَالِ وَأَجْوَدِهِ وَأَنْفُسِهِ، وَنَهَاَهُمْ عَنِ التَّصَدُّقِ بِرَذَالَةِ الْمَالِ وَدَنِيَّةٍ، وَهُوَ خَيْبَتُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ﴾ أَيُّ تَقْصِدُوا الْحَيِّتَ ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِصَاحِبِيهِ﴾ أَيُّ لَوْ أُعْطِيتُمُوهُ مَا أَخَذْتُمُوهُ، إِلَّا أَنْ تَتَخَاصَّوْا فِيهِ، فَاللَّهُ أَعْنَى عَنْهُ مِنْكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ مَا تَكْرَهُونَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أَيُّ لَا تَعْدِلُوا عَنِ الْمَالِ الْحَلَالِ، وَتَقْصِدُوا إِلَى الْحَرَامِ، فَتَجْعَلُوا نَفَقَتَكُمْ مِنْهُ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾... الْآيَةِ، قَالَ: نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ، كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَ أَيَّامُ جُذَافِ النَّخْلِ أَخْرَجَتْ مِنْ حِطَانِهَا أَقْنَاءَ الْبُسْرِ، فَعَلَّقُوهُ عَلَى حَبْلِ بَيْنَ الْأُسْطُوَانَتَيْنِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْكُلُ فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُ، فَيَعْمِدُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِلَى الْحَشَفِ، فَيَدْخِلُهُ مَعَ أَقْنَاءِ الْبُسْرِ، يَطْرُقُ أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَسْتُمْ بِصَاحِبِيهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ﴾ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لَكُمْ عَلَى أَحَدٍ حَقٌّ، فَجَاءَكُمْ بِحَقِّ دُونِ حَقِّكُمْ لَمْ تَأْخُذْهُ بِحِسَابِ الْجِدِّ حَتَّى تُنْقِصُوهُ، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ﴾ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِي مَا لَا تَرْضَوْنَ لِنَفْسِكُمْ، وَحَقِّي عَلَيْكُمْ مِنْ أَطْيَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ؟ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَزَادَ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ وَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَاتِ وَبِالطَّيِّبِ مِنْهَا فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِيَسَاوِيَ الْغَنِيِّ الْفَقِيرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٢٧] وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَجَمِيعِ خَلْقِهِ فَقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَاسِعٌ

الْأَحْوَالِ، فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَخَانَهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَمْ ذَرِيَّةٌ مُضَعَّافَةً فَآصَابَهَا إِغْصَارٌ﴾ وَهُوَ الرِّيحُ الشَّدِيدُ ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أَيُّ أَحْرَقَ ثِمَارَهَا، وَأَبَادَ أَشْجَارَهَا، فَأَيُّ حَالٍ يَكُونُ حَالُهُ...؟

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا حَسَنًا، وَكُلُّ أَمَثَالِهِ حَسَنٌ، قَالَ: ﴿أَبُودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَمْ جَنَّةٌ مِنْ تَخْضِيلٍ وَأَعْتَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يَقُولُ: صَنَعَهُ فِي شَبَابِهِ ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ وَوَلَدَهُ وَذُرِّيَّتُهُ ضِعَافٌ عِنْدَ آخِرِ عُمُرِهِ، فَجَاءَهُ إِغْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْرَقَ بُشَاتَانَهُ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ قُوَّةٌ أَنْ يَغْرِسَ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ نَسْلِهِ خَيْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا رُدَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَيْسَ لَهُ خَيْرٌ فَيُسْتَعْتَبُ، كَمَا لَيْسَ لِهَذَا قُوَّةٌ فَيَغْرِسَ مِثْلَ بُشَاتَانِهِ، وَلَا يَجِدُهُ قَدَمٌ لِنَفْسِهِ خَيْرًا يَعُودُ عَلَيْهِ، كَمَا لَمْ يُغْنِ عَنْ هَذَا وَلَدُهُ، وَحُرِّمَ أَجْرُهُ عِنْدَ أَفْقَرِ مَا كَانَ إِلَيْهِ، كَمَا حُرِّمَ هَذَا جَنَّةُ اللَّهِ عِنْدَ أَفْقَرِ مَا كَانَ إِلَيْهَا، عِنْدَ كِبَرِهِ وَضَعْفِ ذَرِيَّتِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ عِنْدَ كِبَرِ سِنِّي وَانْقِصَاءِ عُمْرِي»<sup>(٤)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيُّ تَعْتَبِرُونَ وَتَتَفَهَّمُونَ الْأَمْثَالَ وَالْمَعَانِي وَتَنْتَزِلُونَهَا عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْحَيِّتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِصَاحِبِيهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ السَّيِّطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْتِرُكُمْ بِالْمَغْصَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

[تَرْغِيبٌ إِتْفَاقِ الْمَالِ الطَّيِّبِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]  
يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّدَقَةُ هُنَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مِنْ طَيِّبَاتِ مَا زَرَقَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا، وَمِنْ الثَّمَارِ وَالزَّرْعِ الَّتِي أَنْبَتَهَا لَهُمْ مِنْ

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٧٤/٣ العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (٢) الحاكم: ٥٤٢/١ وفيه عيسى بن ميمون وهو متهم وقال الألباني: ضعيف جدًا [سلسلة الأحاديث الضعيفة: ١٣٨٥] (٣) الطبري: ٥٥٩/٥ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١٠٨٨/٣ والطبري: ٥٦٥/٥

الْفَضْلِ، لَا يَنْفُذُ مَا لَدَيْهِ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ وَاسِعُ الْعَطَاءِ، كَرِيمٌ جَوَادٌ، وَسَيَجْزِيهِ بِهَا - وَيُضَاعِفُهَا لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً - مَنْ يَفْرُضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظُلُومٍ، وَهُوَ الْحَمِيدُ، أَيِ الْمَحْمُودِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

### [الْوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِيَّةُ فِي الْإِنْفَاقِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَاِبْعَادُ بِالْشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فَاِبْعَادُ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ مِنَ الشَّيْطَانِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾<sup>(١)</sup> الْآيَةَ، وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابَيْ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا جَمِيعًا<sup>(٢)</sup>.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أَيِ يُخَوِّفُكُمُ الْفَقْرَ لِتُتْسِكُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ، فَلَا تُنْفِقُوهُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ. «وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ» أَيِ مَعَ نَهْيِهِ إِيَّاكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ؛ يَأْمُرُكُمْ بِالْمَعَاصِي وَالْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَمُخَالَفَةِ الْخَلَاقِ، قَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ» أَيِ فِي مُقَابَلَةِ مَا خَوَّفَكُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْفَقْرِ «وَفَضْلًا» أَيِ فِي مُقَابَلَةِ مَا خَوَّفَكُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْفَقْرِ «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

### [مَعْنَى الْحِكْمَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَغْنِي الْمَعْرِفَةَ بِالْقُرْآنِ، نَاسِجِهِ وَمُسَوِّجِهِ، وَمُحْكَمِهِ وَمُشَابِهِهِ، وَمُقَدِّمِهِ وَمُؤَخَّرِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَأَمْثَالِهِ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَاسْلَطَهُ عَلَى هَلَكَيْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»<sup>(٤)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٥)</sup>.

### الْبَقَرَةُ

٤٦

### سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُومُ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٨٠﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٨١﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أَيِ وَمَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكَارِ إِلَّا مَنْ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ، يَبْغِي بِهِ الْخُطَابَ وَمَعْنَى الْكَلَامِ.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ الْعَامِلُونَ مِنْ الْخَيْرَاتِ مِنَ النِّفَاقِ وَالْمُنْذِرَاتِ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مُجَازَاتِهِ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجُزَاءِ لِلْعَامِلِينَ لِذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ وَرَجَاءِ مَوْعُودِهِ، وَتَوَعَّدَ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِطَاعَتِهِ، بَلْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَكَذَّبَ خَبْرَهُ، وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

(١) ابن أبي حاتم غ: ١٠٩٠/٣ (٢) تحفة الأحوزي: ٣٣٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٠٥/٦ (٣) الطبري: ٥٧٦/٥ (٤) أحمد: ٤٣٢/١ (٥) فتح الباري: ١٩٩/١ ومسلم: ٥٥٩/١ والنسائي في الكبرى: ٤٢٦/٣ وابن ماجه: ١٤٠٧/٢

أَنْصَارٍ ﴿ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقْبَدُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقِمَتِهِ .  
[فَضْلُ إِظْهَارِ الصَّدَقَةِ وَإِخْفَائِهَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ بُشِدُوا الصَّدَقَتِ فَنِعْمًا هِيَ﴾ أَيْ إِنْ أَظْهَرْتُمُوهَا فَنِعْمَ شَيْءٌ هِيَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْثَرُوهَا الْفَقْرَةَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ إِسْرَارَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهَا، لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ، إِلَّا أَنْ يَتَرْتَّبَ عَلَى الْإِظْهَارِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنْ افْتِدَاءِ النَّاسِ بِهِ، فَيَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ هَذِهِ الْحَيِّثِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ»<sup>(١)</sup>. وَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِسْرَارَ أَفْضَلُ لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَلَمَّا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَعَةُ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهُ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَعَاتِكُمْ﴾ أَيْ بَدَلَ الصَّدَقَاتِ، وَلَا سِيمًا إِذَا كَانَتْ سِرًّا، يَحْضُلُ لَكُمْ الْخَيْرُ فِي رَفْعِ الدَّرَجَاتِ، وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ السَّيِّئَاتِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ .

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُظْلَمُونَ

ضَرَبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَقْفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَمْعِهِمْ لَا بِسُلُوكِ النَّاسِ إِلَى كِفَافٍ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ<sup>(٤)</sup> الَّذِينَ يُنْفِقُونَ

أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْدِ وَاللِّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ<sup>(٥)</sup>

[الصَّدَقَةُ لِلْمُشْرِكِينَ]

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَحُوا لِأَنْسَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسَالُوا فَرَحَصَ لَهُمْ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦] وَنَظَائِرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: نَفَقَ الْمُؤْمِنُ لِنَفْسِهِ. وَلَا يُنْفِقُ الْمُؤْمِنُ إِذَا أَنْفَقَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: يُعْنِي إِذَا أُعْطِيَ لَوْجُو اللَّهِ فَلَا عَلَيْكَ مَا كَانَ عَمَلُهُ<sup>(٨)</sup>.

وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٍ وَخَاصِلُهُ: أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ إِذَا تَصَدَّقَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِمَنْ أَصَابَ، أَبْرَأُ أَوْ فَاجِرٌ أَوْ مُسْتَحِقٌّ أَوْ غَيْرُهُ، وَهُوَ مُثَابٌّ عَلَى قَصْدِهِ، وَمُسْتَنْدَ هَذَا تَمَامُ الْآيَةِ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ وَالْحَدِيثُ الْمُخْرَجُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ: تَصَدَّقَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تَصَدَّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى غَنِيٍّ، لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تَصَدَّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ! وَعَلَى غَنِيٍّ، وَعَلَى سَارِقٍ. فَأُنِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ زَنَاها، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيَنْفِقَ مِمَّا أُعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ»<sup>(٩)</sup>.

(١) أبو داود: ٨٣/٢ (٢) فتح الباري: ٣٤٤/٣ ومسلم: ٢/

٧١٥ (٣) النسائي في الكبرى: ٣٠٥/٦ (٤) ابن أبي حاتم غ:

١١١٥/٣ (٥) ابن أبي حاتم غ: ١١١٥/٣ (٦) فتح الباري:

٣٤٤/٣ ومسلم: ٧٠٩/٢

## [مَنْ أَحَقُّ بِالصَّدَقَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يزدون به على أنفسهم ما يُغنيهم و ﴿لَا يَسْطِيعُونَ صَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني سفرًا للتسبب في طلب المعاش. والصَرْبُ في الأرض هو السَّفرُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاعِرٌ بِضُرِّهِ فِي الْأَرْضِ يَتَقَوَّنَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي الجاهل بأمورهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقاليهم، وفي هذا المعنى الحديث المُنْتَقَى عَلَى صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالْأَكْلَةُ وَالْأَكْلَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا»<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بما يظهر لذوي الأبواب من صفاتهم، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسِيَاهُمْ فِي وَجْهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وَقَالَ: ﴿وَتَعْرِفُهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي لا يُلْحُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ وَيُكَلِّفُونَ النَّاسَ مَا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَإِنْ مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ عَنِ السُّؤَالِ، فَقَدْ أَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: سَرَّحْتَنِي أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ، فَأَتَيْتُهُ فَقَعَدْتُ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَنِي فَقَالَ: «مَنْ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَعْفَى أَعَفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةٌ أَوْقِيَتْهُ فَقَدْ أَلْحَفَ». قَالَ: فَقُلْتُ: نَاقَتِي الْيَافُوتَةُ خَيْرٌ مِنْ أَوْقِيَّتِي، فَرَجَعْتُ فَلَمْ أَسْأَلُهُ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالسَّائِغِيُّ<sup>(٥)</sup>.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَيْتَ اللَّهُ يَوْمَ عَلَيْكُمْ وَأَتَمَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ.

الْمِيزَانُ

٤٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبَطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا بَيْعُ مِثْلِ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٦﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٠﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمَ مَا تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٨٣﴾

## [مَدْحُ الْمُتَصَدِّقِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هَذَا مَدْحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلْمُتَصَدِّقِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ مِنْ لَيْلٍ وَنَهَارٍ وَالْأَحْوَالِ: مِنْ سِرٍّ وَجَهَارٍ، حَتَّى إِنْ تَنَفَّعَ عَلَى الْأَهْلِ تَدَخَّلَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ حِينَ عَادَهُ مَرِيضًا عَامَ الْفَتْحِ. وَفِي رِوَايَةٍ: عَامَ حَجَّةِ الْوُدَاعِ: «وَأَنْتَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَرَدَدْتُ بِهَا دَرَجَةً وَرَفَعَهُ، حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً».

(١) فتح الباري: ٣/٣٩٩ (٢) أحمد: ١/٣٨٤ (٣) أحمد: ٩/٩٣ (٤) أبو داود: ٢/٢٧٩ والنسائي: ٥/٩٨ (٥) فتح الباري: ٣/١٩٦ ومسلم: ٤/١٢٥٠



وَيُكْتَبُ إِلَّا إِذَا أَظْهَرَ فِي صُورَةِ عَقْدٍ شَرْعِيٍّ، وَيَكُونُ دَاخِلُهُ فَاسِدًا، فَلَا غَيْبًا بِمَعْنَاهُ لَا بِصُورَتِهِ، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ.

﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَتَمَّ﴾ [الذِّبْنَ] آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

### [لَا يَبَارِكُ فِي الرِّبَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَمْحُ الرِّبَا، أَيُّ يُذْهِبُهُ، إِمَّا بِأَنْ يُذْهِبَهُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ يَدِ صَاحِبِهِ، أَوْ يُحَرِّمُهُ بَرَكَةً مَالِهِ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، بَلْ يُعَذِّبُهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُعَاقِبُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَتُهُ الْخَبِيثُ﴾ [المائدة: ١٠٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وَقَالَ: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾... [آيَةُ الرُّوم: ٣٩]، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا﴾: وَهَذَا تَطْيِيرُ الْخَبَرِ الَّذِي رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ [عَنِ النَّبِيِّ ﷺ] أَنَّهُ قَالَ: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ، فَإِنْ عَاقِبَتُهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ»<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِخَوَرِهِ<sup>(٢)</sup>.

[إِنَّ اللَّهَ يُرِي الصَّدَقَاتِ كَمَا يُرِي أَحَدَكُمْ فَلَوْه]

وقوله: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ أَيُّ يُنْمِيهَا. وقيل: يُرَبِّيها. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلٍ ثَمَرَةً مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْه، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْحَبْلِ»<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ<sup>(٤)</sup>.

مَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمُزَابَنَةُ، وَهِيَ: اشْتِرَاءُ الرُّطْبِ فِي رُؤُوسِ النَّخْلِ بِالتَّمْرِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَالْمُحَافَلَةُ، وَهِيَ اشْتِرَاءُ الْحَبِّ فِي سُنْبُلِهِ فِي الْحَقْلِ بِالْحَبِّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. إِنَّمَا حُرِّمَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَمَا شَاكَلَهَا حَسْمًا لِمَادَةِ الرِّبَا، لِأَنَّهُ لَا يُعْلَمُ التَّسَاوِي بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ قَبْلَ الْجَفَافِ، وَبَابُ الرِّبَا مِنْ أَشْكَالِ الْأَبْوَابِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَدْ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثَلَاثٌ وَدِدْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهْدَ إِلَيْنَا فِيهِنَّ عَهْدًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ: الْجَدُّ، وَالْكَلَالَةُ، وَأَبْوَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا<sup>(٥)</sup>. - يَعْنِي بِذَلِكَ بَعْضَ الْمَسَائِلِ الَّتِي فِيهَا شَائِئُهُ الرِّبَا - وَالشَّرِيعَةُ شَاهِدَةٌ بِأَنَّ كُلَّ حَرَامٍ فَالْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ، لِأَنَّ مَا أَقْضَى إِلَى الْحَرَامِ حَرَامٌ، كَمَا أَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ»<sup>(٦)</sup>. وَفِي السَّنَنِ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ عُمَرَ قَالَ: مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ، آيَةُ الرِّبَا، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُضِيَ قَبْلَ أَنْ يُفَسَّرَهَا لَنَا، فَدَعَا الرِّبَا وَالرِّبَاةَ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرِّبَا سَبْعُونَ حُوبًا، أُنْسَرَهَا أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ»<sup>(٩)</sup>.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَهُوَ تَحْرِيمُ الْوَسَائِلِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْمُحَرَّمَاتِ، الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَرَأَهُنَّ، فَحَرَّمَ التَّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ، سِوَى التِّرْمِذِيِّ<sup>(١١)</sup>. كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا، فَبَاغَوْهَا وَآكَلُوا أَثْمَانَهَا»<sup>(١٢)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا عِنْدَ لَعْنِ الْمُحَلَّلِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرُكَ﴾ [البقرة: ٢٣٠] قَوْلُهُ ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكَلَهُ وَشَاهِدِيهِ وَكَاتِبِيهِ»<sup>(١٣)</sup>. قَالُوا: وَمَا يُشْهَدُ عَلَيْهِ

(١) فتح الباري: ٤٨/١٠ ومسلم: ٢٣٢٢/٤ (٢) فتح الباري: ١٥٣/١ ومسلم: ١٢١٩/١ (٣) تحفة الأحوذى: ٢٢١/٧ والنسائي: ٣٢٨/٨ (٤) أحمد: ٣٦/١ وابن ماجه: ٢٢٧٦ (٥) ابن ماجه: ٧٦٤/٣ ونحوه للحاكم في المستدرک: ٣٧/٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (٦) أحمد: ٤٦/٦ فتح الباري: ٥١/٨ ومسلم: ١٢٠٦/٣ وأبو داود: ٧٥٩/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٠٦/٦ وابن ماجه: ١١٢٢/٢ (٨) فتح الباري: ٥٧٢/٦ ومسلم: ١٢٠٧/٣ (٩) مسلم: ١٢١٩ (١٠) الطبري: ١٥/٦ (١١) أحمد: ٣٩٥/١ (١٢) فتح الباري: ٣٢٦/٣ وفتح الباري: ٤٢٦/١٣ (١٣) مسلم: ٧٠٢

ءَامِنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٢٧٩﴾ فَقَالُوا: نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَنَذَرُ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا، فَتَرَكُوهُ كُلَّهُمْ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى تَعَاطِي الرِّبَا بَعْدَ الْإِنذَارِ.

### [أَكُلِ الرِّبَا إِعْلَانً عَنِ الْحَرْبِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾، أَيِ اسْتَيْقِنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ<sup>(٢)</sup>. وَعَنْهُ قَالَ: يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْلِ الرِّبَا: خُذْ سِلَاحَكَ لِلْحَرْبِ، ثُمَّ قَرَأْ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. فَمَنْ كَانَ مُقِيمًا عَلَى الرِّبَا، لَا يَنْزِعُ عَنْهُ فَحَقٌّ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَتِيْبَهُ، فَإِن نَزَعَ وَإِلَّا ضَرَبَ عَنْقَهُ<sup>(٣)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَابْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ أَيِ بِأَخْذِ الزِّيَادَةِ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أَيِ بِوَضْعِ رُءُوسِ الْأَمْوَالِ أَيْضًا، بَلْ لَكُمْ مَا بَدَلْتُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَقْصٍ مِنْهُ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَخْوَصِ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ رِبَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، وَأَوَّلُ رِبَا مَوْضُوعٍ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»<sup>(٤)</sup>.

### [الْإِحْسَانُ إِلَى الْمُعْسِرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنُظَرُهُ إِلَى مِيسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَلَى الْمُعْسِرِ الَّذِي لَا يَجِدُ وَفَاءً، فَقَالَ: ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنُظَرُهُ إِلَى مِيسَرَةٍ﴾ لَا كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِمُدَيْبِهِ إِذَا حَلَّ عَلَيْهِ الدَّيْنُ: إِنَّمَا أَنْ تَقْضِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تُرْبِي، ثُمَّ يَنْدُبُ إِلَى الْوَضْعِ عَنْهُ، وَيَعِدُّ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرَ وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ، فَقَالَ: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيِ وَأَنْ تَتْرَكُوا رَأْسَ الْمَالِ بِالْكُلِّيَّةِ وَتَضَعُوهُ عَنِ الْمِلْإِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ،

(١) ابن أبي حاتم غ: ١١٤٠، ١١٤١ (٢) الطبري: ٢٦/٦

(٣) الطبري: ٢٥/٦ (٤) ابن أبي حاتم غ: ١١٤٧/٣

### [الْكَافِرُ الْأَيْمُ مُبْعُضٌ عِنْدَ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، أَيِ لَا يُحِبُّ كُفُورَ الْقَلْبِ، أَثِيمُ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُنَاسَبَةٍ فِي خَتْمِ هَذِهِ الْآيَةِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَهِيَ أَنَّ الْمُرَاطِبِي لَا يَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحَلَالِ، وَلَا يَكْتَفِي بِمَا شَرَعَ لَهُ مِنَ التَّكْسِبِ الْمُبَاحِ، فَهُوَ يَسْعَى فِي أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، بِأَنْوَاعِ الْمَكَايِبِ الْخَبِيثَةِ، فَهُوَ جَحُودٌ لِمَا عَلَيْهِ مِنَ النِّعْمَةِ، ظُلُومٌ أَثِمٌ بِأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

### [مَدْحُ الشَّاكِرِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَا دَحَا لِلْمُؤْمِنِينَ يَرْبِّهِمُ الْمُطِيعِينَ أَمْرَهُ، الْمُؤَدِّينَ شُكْرَهُ، الْمُحْسِنِينَ إِلَى خَلْقِهِ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ، مُخْبِرًا عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ التَّابِعَاتِ آمِنُونَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنُظَرُهُ إِلَى مِيسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

### [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَاجْتِنَابِ الرِّبَا]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، نَاهِيًا لَهُمْ عَمَّا يُقْرَبُهُمْ إِلَى سَخَطِهِ وَيُبْعِدُهُمْ عَنْ رِضَاهُ، فَقَالَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيِ خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ فِيمَا تَفْعَلُونَ ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أَيِ اثْرَكُوا مَا لَكُمْ عَلَى النَّاسِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَمْوَالِ، بَعْدَ هَذَا الْإِنذَارِ ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ بِمَا شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ تَحْلِيلِ الْبَيْعِ وَتَحْرِيمِ الرِّبَا وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَابْنُ جُرَيْجٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَالسُّدِّيُّ: أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ نَزَلَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ مِنْ ثَقِيفٍ، وَبَنِي الْمُغِيرَةِ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، كَانَ بَيْنَهُمْ رِبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَدَخَلُوا فِيهِ، طَلَبَتْ ثَقِيفٌ أَنْ تَأْخُذَهُ مِنْهُمْ، فَتَسَاوَرُوا، وَقَالَتْ بَنُو الْمُغِيرَةِ: لَا نُؤَدِّي الرِّبَا فِي الْإِسْلَامِ، فَكَتَبَ فِي ذَلِكَ عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ، نَائِبُ مَكَّةَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَكَتَبَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ



الْمُؤْمِنِينَ

٤٨

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى  
فَآتَوْهُمُ وَيَكْتُمُ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب  
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ  
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا  
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ  
أَنْ يُمْلِعَ لَهُ فُلْيُمْلِلْ لَهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِمْ  
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا رِجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمَرَ آتَاكَ  
يَمْنَنَ رِضْوَانٍ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ  
إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا  
أَنْ تَكْتُمُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ  
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ  
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ  
أَلَّا تَكْتُمُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ  
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَلُّوا فَإِنَّهُ فَسَوْفَ إِلَيْكُمْ وَآتَقُوا  
اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا  
يُظْلَمُونَ ﴿٤٩﴾. وَكَذَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ (٦).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى  
فَآتَوْهُمُ وَيَكْتُمُ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب  
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ  
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ  
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلِعَ لَهُ  
فُلْيُمْلِلْ لَهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ  
لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمَرَ آتَاكَ يَمْنَنَ رِضْوَانٍ مِنَ الشَّهَدَاءِ  
أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْب  
الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُمُوا صَغِيرًا أَوْ

قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ  
يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ» قَالَ: ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا  
فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ» قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ  
تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ». ثُمَّ  
سَمِعْتُكَ تَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ  
صَدَقَةٌ»، قَالَ: «لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ  
الَّذِينَ، فَإِذَا حُلَّ الَّذِينَ فَأَنْظَرَهُ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ  
صَدَقَةٌ» (١).

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ: أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ  
كَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَى رَجُلٍ، وَكَانَ يَأْتِيهِ يَتَقَضَّاهُ فَيَحْتَبِي مِنْهُ،  
فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَخَرَجَ صَبِيٌّ، فَسَأَلَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: نَعَمْ هُوَ  
فِي الْبَيْتِ يَأْكُلُ خَزِيرَةً، فَتَادَاهُ، فَقَالَ: يَا فَلَانُ، اخْرُجْ،  
فَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّكَ هَاهُنَا، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا يُعْنِيكَ  
عَنِّي؟ فَقَالَ: إِنِّي مُعْسِرٌ، وَلَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ. قَالَ: اللَّهُ  
إِنَّكَ مُعْسِرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَبَكَى أَبُو قَتَادَةَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ، أَوْ مَحَا عَنْهُ،  
كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي  
صَحِيحِهِ (٣).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُؤَصِّلِيُّ عَنْ حُدَيْفَةَ، قَالَ:  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَى اللَّهُ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
قَالَ: مَاذَا عَمِلْتَ لِي فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: مَا عَمِلْتُ لَكَ  
يَا رَبِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الدُّنْيَا أَرْجُوكَ بِهَا - قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -  
قَالَ الْعَبْدُ عِنْدَ آخِرِهَا: يَا رَبِّ، إِنَّكَ كُنْتَ أَعْطَيْتَنِي فَضْلَ  
مَالٍ، وَكُنْتُ رَجُلًا أَبَايَعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَارُ،  
فَكُنْتُ أَيْسَرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأَنْظِرُ الْمُعْسِرَ، قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَحَقُّ مِنْ يُوسِرَ، ادْخُلِ الْجَنَّةَ». وَقَدْ أَخْرَجَهُ  
الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ حُدَيْفَةَ، زَادَ مُسْلِمٌ: وَعُقِبَهُ  
ابْنُ عَامِرٍ وَأَبِي مَسْعُودٍ الْبُذَرِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ (٤).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يَعْطُ عِبَادَهُ، وَيَذْكُرُهُمْ زَوَالَ الدُّنْيَا، وَفَنَاءَ  
مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا، وَإِتْيَانِ الْآخِرَةِ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ  
تَعَالَى، وَمُحَاسَبَتِهِ تَعَالَى خَلْقَهُ عَلَى مَا عَمِلُوا، وَمُجَازَاتِهِ  
إِيَّاهُمْ بِمَا كَسَبُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَيُحَذِّرُهُمْ عَقُوبَتَهُ، فَقَالَ:  
﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا  
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
نَزْلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
عَبَّاسٍ، قَالَ: أَخْرَجُ شَيْءٌ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا

(١) أحمد: ٣٦٠/٥ (٢) أحمد: ٣٠٨/٥ (٣) مسلم: ٤/

٢٠٧٤ (٤) فتح الباري: ٥٧٠/٦ ومسلم: ١١٩٥/٣ وابن ماجه:

٨٠٨/٢ (٥) النسائي في الكبرى: ٣٠٧/٦ (٦) الطبري: ٦/

٤٠ العوفي لا يحتج به كما مر

عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلَيَسِّرَ اللَّهُ رُكْبَهُ ﴿١﴾ أَيْ وَلَيُمَلِّلِ الْمَدِينُ عَلَى الْكَاتِبِ مَا فِي ذِمَّتِهِ مِنَ الدِّينِ، وَلَيَسِّرَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿٢﴾ وَلَا يَبْصَحُ مِنْهُ شَيْئًا ﴿٣﴾ أَيْ لَا يَكْتُمُ مِنْهُ شَيْئًا ﴿٤﴾ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا ﴿٥﴾ مَحْجُورًا عَلَيْهِ بِتَبْذِيرٍ وَنَحْوِهِ ﴿٦﴾ (أَوْ ضَعِيفًا) أَيْ صَغِيرًا، أَوْ مَجْنُونًا ﴿٧﴾ (أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَمِّلَ هُوَ) إِمَّا لِعِيٍّ أَوْ جَهْلٍ بِمَوْضِعِ صَوَابِ ذَلِكَ مِنْ خَطِيئِهِ ﴿٨﴾ فَلْيُمَلِّلْ وَلْيُؤَمِّلْ بِالْعَدْلِ ﴿٩﴾.

### [الْأَمْرُ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أَمْرٌ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ لِزِيَادَةِ التَّوْقِيفِ ﴿١﴾ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴿٢﴾ وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَمْوَالِ، وَمَا يُفْضَدُ بِهِ الْمَالُ، وَإِنَّمَا أُقِيمَتِ الْمَرْأَتَانِ مَقَامَ الرَّجُلِ لِنُقْصَانِ عَقْلِ الْمَرْأَةِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الْإِسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزَلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «تَكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أُغْلِبَ لِدِي لُبٌّ مِنْكُنَّ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالْدِّينِ؟ قَالَ: «أَمَّا نُقْصَانُ عَقْلُهَا، فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمَكُّتُ اللَّيَالِي لَا تُصَلِّي وَتُقَطِّرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ» ﴿٣﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى اشْتِرَاطِ الْعَدَالَةِ فِي الشُّهُودِ، وَقَوْلُهُ: «أَنْ تَصِلَ إِحْدَهُمَا يَغْنِي الْمَرَاتَيْنِ، إِذَا نَسِيَتِ الشَّهَادَةَ (فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) أَيْ يَحْصُلُ لَهَا ذِكْرُي بِمَا وَقَعَ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ. وَلِهَذَا قَرَأَ آخَرُونَ: ﴿فَتَذَكَّرْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ إِذَا دُعُوا لِلتَّحْمِلِ فَعَلْنَهُمُ الْإِجَابَةَ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ وَمِنْ هَهُنَا اسْتِفْهَادُ أَنَّ تَحْمِلَ الشَّهَادَةِ فَرَضٌ كِفَايَةٌ. وَقِيلَ: - وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ - الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ:

كَاتِبًا إِلَى أَجْلِهِ ذَلِكَ أَمْرٌ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْرَةً حَاضِرَةً تُدْرِكُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَاِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾

### [الْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْمَعَامَلَاتِ الْمُوجَلَةِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ أَحَدَ الْقُرْآنِ بِالْعَرْشِ آيَةَ الدِّينِ <sup>(١)</sup>.

فَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بَيْنَ يَدَيْ إِلَهٍ أَجَلٍ مُسَمًّى فَلَا تَكْتُبُوا﴾ هَذَا إِرْسَادٌ مِنْهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَعَامَلُوا بِمَعَامَلَاتٍ مُوجَلَةٍ أَنْ يَكْتُبُوهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَحْفَظَ لِمَقْدَارِهَا وَمِيقَاتِهَا، وَأَضْطَّ لِلشَّاهِدِ فِيهَا، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى هَذَا فِي آخِرِ الْآيَةِ حَيْثُ قَالَ: ﴿ذَلِكَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسْلِفُونَ فِي الثَّمَارِ السَّتِينَ وَالثَّلَاثَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَسْلَفَ فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ» <sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَكْتُبُوا﴾ أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالْكِتَابَةِ لِلتَّوْقِيفِ وَالْحِفْظِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مَنْ إِذَا دَانَ فَلْيَكْتُبْ، وَمَنْ ابْتَنَعَ فَلْيُشْهَدْ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ وَالشَّعْبِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالْحَسَنُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ <sup>(٤)</sup>: كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا، ثُمَّ نُسِخَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فليؤدِّ الَّذِي أَوْفَّقْنِ آمَنَتَهُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أَيْ بِالْقِسْطِ وَالْحَقِّ، وَلَا يَجُزُّ فِي كِتَابَتِهِ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَكْتُبُ إِلَّا مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أَيْ وَلَا يَمْتَنِعُ مَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ إِذَا سُئِلَ أَنْ يَكْتُبَ لِلنَّاسِ، وَلَا ضُرُورَةٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، فَكَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَى غَيْرِهِ وَمَنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، وَلْيَكْتُبْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ أَنْ تُعَيِّنَ صَانِعًا أَوْ تَضَعُ لِأَخْرَقٍ» <sup>(٥)</sup> وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلُجَامٍ مِنْ نَارٍ» <sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ: وَاجِبٌ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَكْتُبَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيُمَلِّلِ الَّذِي

(١) الطبري: ٤١/٦ (٢) فتح الباري: ١٠٥/٤ ومسلم: ٣/١٢٢٦ (٣) الطبري: ٤٧/٦ (٤) الطبري: ٤٧/٦، ٤٩، ٥٠

(٥) فتح الباري: ١٧٦/٥ (٦) الطبراني: ٥/١١ (٧) مسلم: ٨٧/١

﴿وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾<sup>(١)</sup>: لِلْأَدَاءِ؛ لِحَقِيقَةِ قَوْلِهِ: «الشُّهَدَاءُ». وَالشَّاهِدُ - حَقِيقَةٌ - فَيَمْنُ تَحْمَلُ، فَإِذَا دُعِيَ لِأَدَائِهَا فَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ إِذَا تَعَيَّنَتْ، وَإِلَّا فَهُوَ فَرَضٌ كِفَايَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو مِجْلَزٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِذَا دُعِيتَ لِتَشْهَدَ فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ، وَإِذَا شَهِدْتَ فَدُعِيتَ فَأَجِبْ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهَا تَعْمُ الْحَالَيْنِ: التَّحْمَلُ وَالْأَدَاءُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْإِرْسَادِ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْحَقِّ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا﴾ أَيُّ لَا تَمْلُوا أَنْ تَكْتُبُوا الْحَقَّ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ كَانَ مِنَ الْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْكِتَابَةِ لِلْحَقِّ إِذَا كَانَ مُوجَلًّا ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أَيُّ أَغْدَلُ ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أَيُّ أَثْبَتُ لِلشَّاهِدِ - إِذَا وَضَعَ خَطَّهُ ثُمَّ رَأَى تَذَكَّرَ بِهِ الشَّهَادَةُ - لِإِحْتِمَالِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْتُبْهُ أَنْ يَنْسَاهُ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ غَالِبًا ﴿وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وَأَقْرَبُ إِلَىٰ عَدَمِ الرِّبَةِ بَلْ تَرْجِعُونَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَىٰ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُمُوهُ فَيَفْضِلُ بَيْنَكُمْ بِلَا رِيْبَةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أَيُّ إِذَا كَانَ الْبَيْعُ بِالْحَاضِرِ يَدًا بِيَدٍ، فَلَا بَأْسَ بِعَدَمِ الْكِتَابَةِ لِانْتِفَاءِ الْمَحْذُورِ فِي تَرْكِهَا.

فَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَىٰ الْبَيْعِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وَهَذَا الْأَمْرُ مُنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُوْثِرْ الَّذِي أُوتِيَ مِنْكُمْ أَمْنَتُهُ﴾ أَوْ مَحْمُولٌ عَلَىٰ الْإِرْسَادِ وَالنَّدْبِ لَا عَلَىٰ الْوُجُوبِ، وَالذَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَدِيثُ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ، وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ عَمَّهُ حَدَّثَهُ، وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، إِبْتِنَاعَ فَرَسًا مِنْ أَغْرَابِيٍّ، فَاسْتَبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَفْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبْطَأَ الْأَغْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَغْرَابِيَّ، فَيَسْأَلُونَهُ بِالْفَرَسِ، وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِبْتِنَاعَهُ، حَتَّى زَادَ بَعْضُهُمُ الْأَغْرَابِيَّ فِي السَّوْمِ عَلَى ثَمَنِ الْفَرَسِ الَّذِي إِبْتِنَاعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَتَادَى الْأَغْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ مُبْتِنَاعًا هَذَا الْفَرَسِ

فَاتَّبَعْتُهُ وَإِلَّا بَعْتُهُ. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَغْرَابِيِّ، قَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ ابْتِنَعْتُهُ مِنْكَ؟» قَالَ الْأَغْرَابِيُّ: لَا وَاللَّهِ مَا بَعْتُكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ قَدْ ابْتِنَعْتُهُ مِنْكَ» فَطَفِقَ النَّاسُ يَلُودُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْأَغْرَابِيَّ، وَهُمَا يَتَرَاكِعَانِ، فَطَفِقَ الْأَغْرَابِيُّ يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِدَا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ، فَمَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلْأَغْرَابِيِّ: وَبَلِّغْ إِنْ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، حَتَّى جَاءَ خُزَيْمَةُ فَاسْتَمَعَ لِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُرَاجَعَةِ الْأَغْرَابِيِّ، يَقُولُ: هَلُمَّ شَهِدَا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ، قَالَ خُزَيْمَةُ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: «يَمَّ تَشْهَدُ؟» فَقَالَ: بِتَضَدِّيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ نَحْوَهُ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَارَّ الْكَاتِبُ وَلَا الشَّاهِدُ، فَيَكْتُبْ هَذَا خِلَافَ مَا يُمْلِي، وَيَشْهَدُ هَذَا بِخِلَافِ مَا سَمِعَ، أَوْ يَكْتُمُهَا بِالْكُلِّيَّةِ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمَا<sup>(٥)</sup>». وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَقَعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أَيُّ إِنْ خَالَفْتُمْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَفَعَلْتُمْ مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ، فَإِنَّهُ فُسُوقٌ كَائِنْ بِكُمْ، أَيُّ لَا رِمَ لَكُمْ، لَا تَحِيدُونَ عَنْهُ، وَلَا تَنْفَكُونَ عَنْهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ وَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَاتَّقُوا زَجْرَهُ ﴿وَيُكَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَةً مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ هُوَ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَعَوَاقِبِهَا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُوْثِرْ الَّذِي أُوتِيَ مِنْكُمْ أَمْنَتُهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّاهِدَةِ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

(١) الطبري: ٦٨/٦ (٢) ابن أبي حاتم غ: ١١٨١/٣ والطبري: ٧١/٦ (٣) أحمد: ٢١٥/٥ (٤) أبو داود: ٣١/٤ والتسائي: ٣٠١/٧ (٥) الطبري: ٨٦، ٨٥/٦

## [بَيَانُ الرِّهْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي مُسَافِرِينَ، وَتَدَايَنْتُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يَكْتُبْ لَكُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوْ وَجَدُوهُ، وَلَمْ يَجِدُوا قِرْطَاسًا أَوْ دَوَاةً أَوْ قَلَمًا؛ فَرَهْنٌ مَقْبُوضَةٌ أَيْ فَلْيَكُنْ بَدَلُ الْكِتَابَةِ رَهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فِي يَدِ صَاحِبِ الْحَقِّ. وَقَدْ اسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَرَهْنٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ عَلَى أَنَّ الرِّهْنَ لَا يَلْزَمُ إِلَّا بِالْقَبْضِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، تُوفِّي وَوَرِعَهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ عَلَى ثَلَاثِينَ وَشَقًا مِنْ شَعِيرٍ، رَهْنَهَا فَوْنَا لِأَهْلِهِ. وَفِي رَوَايَةٍ: مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: هَذِهِ نَسَخَتْ مَا قَبْلَهَا <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِذَا اتَّخَذَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلَا بَأْسَ أَنْ لَا تَكْتُبُوا أَوَّلًا تُشْهَدُوا <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبُّكُمْ﴾ يَعْنِي الْمُؤْتَمَنَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ رَوَايَةٍ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ عَنْ سَمُرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذْتَ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ» <sup>(٤)</sup>.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أَيْ لَا تُخْفُوهَا وَتَغْلُوهَا، وَلَا تَظْهَرُوهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: شَهَادَةُ الزُّورِ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَايِرِ، وَكَيْتُمُوهَا كَذَلِكَ <sup>(٥)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَائِمٌ قَلْبُهُ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي فَاجِرٌ قَلْبُهُ <sup>(٦)</sup>. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآدَمِيِّينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا كَوَلُّوا قَوْمَيْنِ بِالْقِسْطِ شَهَادَةَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَائِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ <sup>(٧)</sup>

[أَهْلٌ يُحَاسِبُ الْعِبَادَ عَلَى مَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ] يُخَبِّرُ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَأَنَّهُ الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِيهِنَّ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ

## الْبَقَرَةُ

٤٩

## سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرَهْنٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَائِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ <sup>(٣)</sup> ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ <sup>(٤)</sup>

الظَّاهِرُ، وَلَا السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَحَاسِبُ عِبَادَهُ عَلَى مَا فَعَلُوهُ وَمَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَسْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩] وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ الْبَاطِنَ الْخَفِيُّ﴾ [طه: ٧] وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ بِمَزِيدٍ عَلَى الْعِلْمِ، وَهُوَ الْمُحَاسَبَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ وَضَيَّ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَخَافُوا مِنْهَا، وَمِنْ مُحَاسَبَةِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى جَلِيلِ الْأَعْمَالِ وَخَفِيرِهَا، وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَإِقَانِهِمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى

(١) فتح الباري: ٣٥٤/٤ ومسلم: ١٢٢٦/٣ عن عائشة (٢) ابن أبي حاتم غ: ١٢٠٢/٣ (٣) ابن أبي حاتم غ: ١٢٠٣/٣ (٤) أحمد: ١٣/٥ وأبو داود: ٨٢٢/٣ وتحفة الأحوذى: ٤٨٢/٤ والنسائي في الكبرى: ٤١١/٣ وابن ماجه: ٨٠٢/٢ (٥) الطبري: ١٠٠/٦ (٦) الطبري: ١٠٠/٦

وَقَدْ رَوَى الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمُ السَّيِّئَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ»<sup>(٤)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكِبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاتَّكِبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكِبُوهَا عَشْرًا»<sup>(٥)</sup>.

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾<sup>(٦)</sup> لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٥﴾

### ذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةَ فِي فَضْلِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ

#### الْكَرِيمَتَيْنِ نَفَعَنَا اللَّهُ بِهِمَا

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»<sup>(٦)</sup> وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ مِثْلَهُ<sup>(٧)</sup>. وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ<sup>(٨)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ<sup>(٩)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، قَالَ: ﴿إِذْ يَنْتَقِي السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ٣١] قَالَ: فَرَأَسُ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ جَبُّوا عَلَى الرُّكْبِ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُفَلْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ: الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ، وَلَا نَطِيقُهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلَى قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فَلَمَّا أَقْرَبَ بِهَا الْقَوْمُ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، أُنْزِلَ اللَّهُ فِي أَثَرِهَا ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ فَأُنْزِلَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾... إِلَى آخِرِهِ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فَذَكَرَ مِثْلَهُ، وَلَفْظُهُ: فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ، فَأُنْزِلَ اللَّهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: نَعَمْ. ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ<sup>(٢)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَمَرَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَبَكَى، قَالَ: أَيُّهُ آيَةٌ؟ قُلْتُ: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ أُنْزِلَتْ، غَمَّتْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَمًّا شَدِيدًا، وَغَاطَتْهُمْ غَيْظًا شَدِيدًا، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكْنَا، إِنْ كُنَّا نُواخِذُ بِمَا تَكَلَّمْنَا وَبِمَا نَعْمَلُ، فَأَمَّا قُلُوبُنَا فَلَيْسَتْ بِأَيْدِينَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» فَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، قَالَ: فَنَسَخَهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ إِلَى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فَتَجَوَّزَ لَهُمْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَأَجْدُوا بِالْأَعْمَالِ<sup>(٣)</sup>.

(١) أحمد: ٤١٢/٢ (٢) مسلم: ١١٥/١ (٣) أحمد: ١/٣٣٢ (٤) فتح الباري: ٣٠٠/٩ ومسلم: ١١٧/١ وأبو داود: ٦٥٧/٢ وتحفة الأحوذى: ٣٦١/٤ والنسائي: ١٥٦/٦ وابن ماجه: ٦٥٨/١ (٥) فتح الباري: ٤٧٣/١٣ ومسلم: ١١٧/١ (٦) فتح الباري: ٦٧٢/٨ (٧) مسلم: ٥٥٥/١ وأبو داود: ١١٨/١ وتحفة الأحوذى: ١٨٨/٨ والنسائي في الكبرى: ١٤/٥ وابن ماجه: ٤٣٥/١ (٨) فتح الباري: ٧١٢/٨ و٣٦٩/٧ ومسلم: ٥٥٤/١ (٩) أحمد: ١١٨/٤

لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُفْجَمَاتُ<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي فَصَائِلِ الْفَاتِحَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جِبْرِيلُ، إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا فَوْقَهُ، فَرَفَعَ جِبْرِيلُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ، مَا فُتِحَ قَطُّ، قَالَ: فَتَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَبَشِّرْ بِثَوْنَيْنِ قَدْ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوْتِيَتْهُ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup> وَهَذَا لَفْظُهُ.

### [تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ]

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْجَمِيعِ فَقَالَ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَقُولُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ فَاَلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، فَرَدَّ صَمَدٌ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. وَيُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَالْكَتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، بَلِ الْجَمِيعُ عَنْدهُمْ صَادِقُونَ بَارُونَ رَاشِدُونَ مَهْدِيُونَ هَادُونَ إِلَى سُبُلِ الْخَيْرِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يُنْسَخُ شَرِيعَةً بَعْضٍ بِإِذْنِ اللَّهِ، حَتَّى يُنسخَ الْجَمِيعُ بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، الَّذِي تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شَرِيعَتِهِ، وَلَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّالُوا سَمِعَتَا وَأَطَعَتَا﴾ أَيُّ سَمِعَتَا قَوْلَكَ يَا رَبَّنَا وَفَهَمَتَا، وَفُتِمَا بِهِ وَامْتَنَلْنَا الْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهُ، ﴿عُفِّرَانَاكَ رَبَّنَا﴾ سُؤَالٌ لِلْعُفْرِ وَالرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَيُّ لَا يُكَلِّفُ أَحَدًا فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَهَذِهِ هِيَ النَّاسِخَةُ الرَّافِعَةُ لِمَا كَانَ أَشْفَقَ مِنْهُ الصَّحَابَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أَيُّ هُوَ وَإِنْ حَاسَبَ وَسَّالَ، لَكِنْ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا بِمَا يَمْلِكُ الشَّخْصُ دَفْعَهُ، فَأَمَّا مَا لَا يُمَكِّنُ دَفْعَهُ مِنْ وَسْوَسةِ النَّفْسِ وَحَدِيثِهَا، فَهَذَا لَا يُكَلِّفُ بِهِ الْإِنْسَانَ. وَكَرَاهِيَةُ الْوَسْوَسةِ السَّيِّئَةِ مِنَ الْإِيمَانِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أَيُّ مِنْ خَيْرٍ ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أَيُّ مِنْ شَرٍّ، وَذَلِكَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ التَّكْلِيفِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا عِبَادَهُ إِلَى سُؤَالِهِ، وَقَدْ تَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، كَمَا أَرَشَدُهُمْ وَعَلَّمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أَيُّ إِنْ تَرَكْنَا قَرْصًا عَلَى جِهَةِ النَّسْيَانِ، أَوْ فَعَلْنَا حَرَامًا كَذَلِكَ، أَوْ أَخْطَأْنَا أَيُّ الصَّوَابَ فِي الْعَمَلِ، جَهْلًا مَتَا يُوْجِبُهُ الشَّرْعِي. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»<sup>(٣)</sup>. وَلِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَ اللَّهُ: «قَدْ فَعَلْتُ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أَيُّ لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، وَإِنْ أَطَقْنَاهَا، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَنَا مِنَ الْأَغْلَالِ وَالْأَصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، الَّتِي بَعُثْتَ نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ، بِوَضْعِهِ فِي شَرْعِهِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ السَّهْلِ السَّمْحِ. وَقَدْ ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»<sup>(٥)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ»<sup>(٦)</sup>. وَجَاءَ الْحَدِيثُ مِنْ طُرُقٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أَيُّ مِنْ التَّكْلِيفِ وَالْمَصَائِبِ وَالْبَلَاءِ، لَا تَبْتَلِنَا بِمَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ، وَقَدْ قَالَ مَكْحُولٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: الْعُرْبَةُ وَالْغُلْمَةُ<sup>(٨)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعِظْ عَنَّا﴾ أَيُّ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مِمَّا تَعَلَّمُهُ مِنْ تَقْصِيرِنَا وَزَلَلِنَا ﴿وَأَعِظْ لَنَا﴾ أَيُّ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادِكَ، فَلَا تُظْهِرْهُمْ عَلَى مَسَاوِينَا وَأَعْمَالِنَا الْقَبِيحَةِ ﴿وَارْحَمْنَا﴾ أَيُّ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فَلَا تُؤْفِقْنَا بِتَوَفِيقِكَ فِي ذَنْبٍ آخَرَ، وَلِهَذَا قَالُوا: إِنَّ الْمَذْنِبَ مُحْتَاجٌ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: أَنْ يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ عِبَادِهِ، فَلَا يَفْضَحْهُ بِهِ بَيْنَهُمْ، وَأَنْ يَعْصِمَهُ، فَلَا يُوقِعْهُ فِي تَطْيِيرِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: «نَعَمْ»، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أَيُّ أَنْتَ وَلِيُّنَا وَنَاصِرُنَا، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْكَ التَّكْلَانُ، وَلَا

(١) مسلم: ١٥٧/١ (٢) مسلم: ٥٥٤/١ والنسائي في الكبرى:

١٢/٥ (٣) مسلم: ١١٥/١ (٤) مسلم: ١١٦/١ (٥) مسلم:

١١٥/١ (٦) مسلم: ١١٦/١ (٧) أحمد: ٢٦٦/٥ ١١٦/٦،

٢٣٣ (٨) ابن أبي حاتم غ: ١٢٣٥/٣

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

٥٠

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

## سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ لَا يُخْلَفُ ﴿٩﴾

الْأَنْبِيَاءَ، فَهِيَ تُصَدِّقُهُ بِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ، وَبَشَّرَتْ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَهُوَ يُصَدِّقُهَا، لِأَنَّهُ طَابَقَ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ وَبَشَّرَتْ، مِنَ الْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أَيُّ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أَيُّ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أَيُّ فِي زَمَانِهِمَا. ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وَهُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْعَمَى وَالرَّشَادِ، بِمَا يَذْكُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَائِلِ

(١) الطبري: ١٤٦/٦ إسنادُه ضعيف وفيه أبو إسحاق السبيعي مدلس ولم يصرح، والسند إليه - فيه شيخ الطبري مجهول الحال ومما يدل على أن هناك واسطة بين أبي إسحاق ومعاذ رضي الله عنه ما أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي إسحاق عن رجل: أن معاذًا . . [٨٠٦٢] وروى مثله الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن [٤٣١].

حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ، ﴿فَأَنصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ جَحَدُوا دِينَكَ، وَأَنكَرُوا وَحْدَانِيَّتَكَ، وَرِسَالَاتَكَ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ، وَأَشْرَكُوا مَعَكَ مِنْ عِبَادِكَ، فَأَنصُرْنَا عَلَيْهِمْ، وَاجْعَلْ لَنَا الْعَاقِبَةَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ﴾. وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ﴾.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: أَنَّ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا فَرَّغَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿فَأَنصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: آمِينَ<sup>(١)</sup>.

## تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

لِأَنَّ صَدْرَهَا إِلَى ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ آيَةً مِنْهَا نَزَلَتْ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ، وَكَانَ قُدُومُهُمْ فِي سَنَةِ تِسْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الْمُبَاهَلَةِ مِنْهَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرْنَا مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْبَقَرَةِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٣﴾

قَدْ ذَكَرْنَا الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي أَنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] و﴿الْم﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْم﴾ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَتَقَدَّمَ أَيْضًا الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي نَزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ، أَيُّ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ، بَلْ هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، وَقَوْلُهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيُّ مِنْ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ

أَصْلُهُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْاِشْتِيَاءِ ﴿وَأُخِرُ مُشْكِبَةً﴾ أَيُّ تَحْتَمِلُ دَلَالَتَهَا مُوَافَقَةَ الْمُحْكَمِ، وَقَدْ تَحْتَمِلُ شَيْئًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَالتَّرْكِيْبُ، لَا مِنْ حَيْثُ الْمُرَادُ. فَالْمُحْكَمَاتُ نَاسِخُهُ وَحَلَالُهُ وَحَرَامُهُ وَأَحْكَامُهُ وَحُدُودُهُ وَقَرَانِصُهُ وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ وَيُعْمَلُ بِهِ. وَالْمُتَشَابِهَاتُ: إِنَّهُنَّ الْمُنْسُوخَةُ، وَالْمَقْدَمُ مِنْهُ وَالْمُؤَخَّرُ، وَالْأَمْثَالُ فِيهِ وَالْأَقْسَامُ، وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿بَنَتْ مُعْكَتٌ﴾ فِيهِنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ، وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ، وَدَفْعُ الْخُصُومِ وَالْبَاطِلِ، لَيْسَ لَهُنَّ تَضْرِيفٌ وَلَا تَحْرِيفٌ عَمَّا وَضَعْنَ عَلَيْهِ، قَالَ: وَالْمُتَشَابِهَاتُ فِي الصَّدَقِ، لَهُنَّ تَضْرِيفٌ وَتَحْرِيفٌ وَتَأْوِيلٌ، إِنْتَلَى اللَّهُ فِيهِنَّ الْعِبَادَ، كَمَا ابْتَلَاهُمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، لَا يُضَرَفْنَ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلَا يُحَرَفْنَ عَنِ الْحَقِّ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَنْبٌ﴾ أَيُّ ضَلَالٍ وَخُرُوجٍ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا نَشَاءُ مِنْهُ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ بِالْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يُحَرِّفُوهُ إِلَى مَقَاصِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَيُزَلُّوهُ عَلَيْهَا، لِاحْتِمَالِ لَفْظِهِ لِمَا يَضُرُّوهُ، فَاثِمًا الْمُحْكَمُ فَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهِ، لِأَنَّهُ دَامِعٌ لَهُمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اتَّبِعُوا الْفِتْنَةَ﴾ أَيُّ الْإِضْلَالِ لِاتِّبَاعِهِمْ، إِيهَامَا لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى بَذْعِهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَهَذَا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ، كَمَا لَوْ اخْتَجَّ النَّصَارَى بِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَطَقَ بِأَنَّ عِيسَى هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَتَرَكُوا الْإِحْتِجَاجَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] وَبِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ هَازِمٍ خَفَا مِنْ رَبِّهِ قَالَتْ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ الْمُضَرِّحَةِ بِأَنَّهُ خَلَقَ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، وَعَبْدٌ وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعُوا تَأْوِيلَهُ﴾ أَيُّ تَحْرِيفِهِ عَلَى مَا يُرِيدُونَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُعْكَتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَةٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ﴾ فَقَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ فَهُمْ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ، فَاحْذَرُوهُمْ»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ

الْوَاضِحَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ، وَبَيِّنَتُهُ وَيُوضِّحُهُ وَيُفَسِّرُهُ وَيُزَكِّيهِ وَيُزِيدُهُ إِلَيْهِ وَبَيِّنَتُهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَيُّ جَحَدُوا بِهَا وَأَنْكَرُوهَا وَرَدُّوَهَا بِالْبَاطِلِ، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيُّ مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ، ﴿ذُو أَنْبَاءٍ﴾ أَيُّ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، وَخَالَفَ رُسُلَهُ الْكِرَامَ وَأَنْبِيَاءَهُ الْعِظَامَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هُوَ الَّذِي يُمَوِّزُكُمْ فِي الْأَنْوَاعِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، ﴿هُوَ الَّذِي يُمَوِّزُكُمْ فِي الْأَنْوَاعِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَيُّ يَخْلُقُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَمَا يَشَاءُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَحَسَنَ وَفَاحٍ، وَشَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي خَلَقَ، وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِلَهِيَّةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةُ وَالْأَحْكَامُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيفٌ، بَلْ تَضْرِيفٌ بِأَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ مَخْلُوقٌ، كَمَا خَلَقَ اللَّهُ سَائِرَ الْبَشَرِ، لِأَنَّ اللَّهَ صَوَّرَهُ فِي الرَّحِمِ، وَخَلَقَهُ كَمَا يَشَاءُ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا - كَمَا رَعَمْتُهُ النَّصَارَى، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ - وَقَدْ ثَقَلَتْ فِي الْأَحْشَاءِ، وَتَنَقَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُعْكَتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَةٌ﴾ فَاثِمًا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَنْبٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا نَشَاءُ مِنْهُ اتِّبَاعَ الْفِتْنَةِ وَاتِّبَاعَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِقُ الْيَعْسَكُ ﴿٩﴾

[بَيَانُ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَالْمُحْكَمَاتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، أَيُّ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ الدَّلَالَةِ، لَا الْيَنَاسَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ، وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخَرُ فِيهَا اِشْتِيَاءٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ، وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ، فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أَيُّ



وَسَاغَ هَذَا، وَهُوَ - أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَعْطُوفِ دُونَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ - كَقَوْلِهِ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ بَيْتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا...﴾ الآية [الحشر: ١٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَيْكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٢٢] أَيْ وَجَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ صُفُوفًا صُفُوفًا.

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ ءَمَّا بِهِ﴾، أَيْ بِالْمُشَافَهَةِ، ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أَيْ الْجَمِيعُ مِنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُشَافَهَةِ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُصَدِّقُ الْآخَرَ وَيَشْهَدُ لَهُ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمُخْتَلِفٍ وَلَا مُتَضَادٍّ، لِقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [النساء: ٨٢]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَفْهَمُ وَيَعْقِلُ وَيَتَذَكَّرُ الْمَعَانِي عَلَى وَجْهِهَا أُولُو الْعُقُولِ السَّالِمَةِ وَالْفُهُومِ الْمُسْتَقِيمَةِ. وَرَوَى ابْنُ الْمُنْذِرِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ نَافِعِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: يُقَالُ: الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: الَّتَوَاضِعُونَ لِلَّهِ، الْمُتَذَلِّلُونَ لَهُ فِي مَرْضَاتِهِ، لَا يَتَعَاطُونَ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَلَا يَحْقِرُونَ مَنْ دُونَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ مُخْبِرًا أَنَّهُمْ دَعَا رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أَيْ لَا تُبَلِّغْنَا عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ أَمْتَمْتَهَا عَلَيْهِ، وَلَا تَجْعَلْنَا كَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ ثَبَّتْنَا عَلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ، وَدِينِكَ الْقَوِيمِ، ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أَيْ مِنْ عِنْدِكَ ﴿رَحْمَةً﴾ ثَبَّتْ بِهَا قُلُوبَنَا، وَتَجَمَّعَ بِهَا سَمَلُنَا، وَتَزِيدْنَا بِهَا إِيمَانًا وَإِقَانًا، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا مُغَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيْ

الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْقَدَرِ مِنْ صَحِيحِهِ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الشَّيْءِ مِنْ سُنَنِهِ، ثَلَاثُهُمْ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: ثَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»<sup>(١)</sup>. لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

[لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهَاتِ إِلَّا اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي الْوَقْفِ هَهُنَا. فَقِيلَ: عَلَى الْجَلَالَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: تَفْسِيرٌ لَا يُعَذِّرُ أَحَدٌ فِي فَهْمِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ<sup>(٢)</sup>. وَيُرْوَى هَذَا الْقَوْلُ عَنْ عَائِشَةَ وَعُرْوَةَ، وَأَبِي الشَّعْثَاءِ، وَأَبِي نَهْكَ وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وَتَبِعَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلِ الْأَصُولِ، وَقَالُوا: الْخِطَابُ بِمَا لَا يُفْهَمُ، بَعِيدٌ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ<sup>(٣)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا لِابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَفِّهْ فِي الدِّينِ وَعَلِّمُهُ التَّأْوِيلَ»<sup>(٤)</sup>. وَالتَّأْوِيلُ يُطْلَقُ، وَيُرَادُّ بِهِ فِي الْقُرْآنِ مَعْنَيَانِ، أَحَدُهُمَا: التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى حَقِيقَةِ الشَّيْءِ، وَمَا يُؤَوَّلُ أَمْرُهُ إِلَيْهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] أَيْ حَقِيقَتُهُ مَا أُخْبِرُوا بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ، فَإِنْ أُريدَ بِالتَّأْوِيلِ هَذَا، فَالْوَقْفُ عَلَى الْجَلَالَةِ، لِأَنَّ حَقَائِقَ الْأُمُورِ وَكُنْهَهَا لَا يَعْلَمُهُ عَلَى الْحِلَّةِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مُتَبَدِّلًا وَ﴿يَقُولُونَ ءَمَّا بِهِ﴾ خَبَرَهُ، وَأَمَّا إِنْ أُريدَ بِالتَّأْوِيلِ الْمَعْنَى الْآخَرُ، وَهُوَ التَّفْسِيرُ وَالْبَيَانُ وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الشَّيْءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثَبَّتْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦] أَيْ بِتَفْسِيرِهِ، فَإِنْ أُريدَ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى، فَالْوَقْفُ عَلَى ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ وَيَفْهَمُونَ مَا خُوطِبُوا بِهِ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، وَإِنْ لَمْ يُحِيطُوا عِلْمًا بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ عَلَى كُنْهِ مَا هِيَ عَلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿يَقُولُونَ ءَمَّا بِهِ﴾ حَالًا مِنْهُمْ،

(١) فتح الباري: ٥٧/٨ ومسلم: ٢٠٥٣/٤ وأبو داود: ٦/٥

(٢) الطبري: ٥٧/١ (٣) الطبري: ٢٠٣/٦ (٤) فتح الباري: ٢٠٥/١ وأحمد (٢٣٩٧) ٢٢٥/٤ واللفظ له، وفي البخاري لفظ "الكتاب" يدل "التأويل" (٥) ابن أبي حاتم: ٨٤/٢ والطبري: ٢١٣/٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ  
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابٌ آلِ  
 فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ  
 وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُكَمْ  
 وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُوءُ أَلْمَهُادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ  
 لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنُ وَاللَّهُ  
 يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي  
 الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ  
 وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِطْرَةِ  
 وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ  
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ  
 أَوْثَقُوا بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ  
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ  
 وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

آلِإِمَّهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّقَاتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي  
 سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنُ  
 وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي  
 الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

لتهديد اليهود بأنهم سيغلبون، وحثهم على الإعتبار  
 بيوم بدر

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أَيَّ  
 فِي الدُّنْيَا، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُوءُ  
 أَلْمَهُادُ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ  
 عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَصَابَ مِنْ أَهْلِ بَدْرِ  
 مَا أَصَابَ، وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي  
 قَيْنَقَاعَ. وَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ! أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ  
 مَا أَصَابَ قُرَيْشًا» فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ لَا يَغْرُوكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنْ

يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ: إِنَّكَ يَا رَبَّنَا سَتَجْمَعُ بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ  
 مَعَادِهِمْ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ، وَتَحْكُمُ فِيهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ،  
 وَتَجْزِي كُلًا بِعَمَلِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.  
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ  
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ﴿١٠﴾ كَذَابٌ آلِ  
 فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ  
 وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

[يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ  
 الظَّالِمِينَ مَعَدْرَتُهُمْ وَلَهُمْ أَلْعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾  
 [غافر: ٥٢] وَلَيْسَ مَا أُوْتُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ  
 بِنَافِعٍ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا بِمُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ وَأَلِيمٍ عِقَابِهِ،  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُغْنِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ  
 اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾  
 [التوبة: ٨٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي  
 الْأَرْضِ﴾ ﴿١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا أُوتِيَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُوءُ أَلْمَهُادُ [آل  
 عمران: ١٩٦، ١٩٧]، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا﴾ أَيَّ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَخَالَفُوا كِتَابَهُ،  
 وَلَمْ يَتَّقُوا بِوَحْيِهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا  
 أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أَيَّ حَطَبُهَا  
 الَّذِي تُسَجَّرُ بِهِ، وَتُوقَدُ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ  
 مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...﴾ الْآيَةُ [الأنبياء: ٩٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَابٌ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ: كَصْنَعِ آلِ فِرْعَوْنَ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ  
 وَمُجَاهِدٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ  
 يَقُولُ: كُشْنَةُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَفْعَلِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكُشْبِهِ آلِ  
 فِرْعَوْنَ<sup>(٢)</sup>. وَالْأَلْفَافُ مُتَقَارِبَةٌ، وَالذَّأْبُ: الصَّنِيعُ وَالْحَالُ  
 وَالشَّانُ وَالْأَمْرُ وَالْعَادَةُ، كَمَا يُقَالُ: لَا يَزَالُ هَذَا دَأْبِي  
 وَدَأْبُكَ. وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ  
 الْأَمْوَالُ وَلَا الْأَوْلَادُ، بَلْ يَهْلِكُونَ وَتُعَذَّبُونَ، كَمَا جَرَى  
 لِآلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ  
 مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ، ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيَّ شَدِيدُ  
 الْأَخْذِ، أَلِيمُ الْعَذَابِ، لَا يَمْنَعُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَلَا يَقُوتُهُ  
 شَيْءٌ، بَلْ هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، الَّذِي غَلَبَ كُلَّ شَيْءٍ، وَذَلَّ  
 لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُكُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُوءُ

(١) الطبري: ٦/ ٢٢٤ لم يلق الضحاك ابن عباس كما مر (٢) ابن  
 أبي حاتم: ٩٢/٢

تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ أَوَّلُهُ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿أَيُّ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ وَفَهُمْ يَهْتَدِي بِهِ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ وَأَفْعَالِهِ، وَقَدَرِهِ الْجَارِي بِنَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.

﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْثِقُوا بِخَبَرٍ مِن دَالِكُمْ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

بِالْأَنْبَاءِ ﴿١٥﴾

### [بَيَانُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا زَيْنٌ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلَادُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، فَبَدَأَ بِالنِّسَاءِ، لِأَنَّ الْفِتْنَةَ بِهِنَ أَشَدُّ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»<sup>(١)</sup>. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصْدُ بِهِنَ الْإِعْطَافَ وَكَثْرَةَ الْأَوْلَادِ، فَهَذَا مَطْلُوبٌ مَرْغُوبٌ فِيهِ، مَنُذُوبٌ إِلَيْهِ، كَمَا وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالتَّرْغِيبِ فِي التَّزْوِيجِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ «وَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ كَانَ أَكْثَرُهَا نِسَاءً»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ: إِنَّ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتُهُ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ»<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «حُبُّ إِلَيَّ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ، وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النِّسَاءِ. إِلَّا الْخَيْلُ. وَفِي رِوَايَةٍ: مِنَ الْخَيْلِ. إِلَّا النِّسَاءَ<sup>(٥)</sup>.

وَحُبُّ الْبَنِينَ تَارَةً يَكُونُ لِلتَّقَاخُرِ وَالزَّيْنَةِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا، وَتَارَةً يَكُونُ لِتَكْثِيرِ النِّسْلِ، وَتَكْثِيرِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ

فَقُلْتُ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا، لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ وَاللَّهُ! لَوْ قَاتَلْنَا لَعَرَفْتَ أَنَا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنْتَ لَمْ تَلَقَ مِثْلَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾<sup>(١)</sup>.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أَيُّ قَدْ كَانَ لَكُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ الْقَائِلُونَ مَا قُلْتُمْ آيَةً، أَيُّ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مُعِزُّ دِينِهِ، وَنَاصِرُ رَسُولِهِ، وَمُطَهِّرُ كَلِمَتِهِ، وَمُعَلِّمُ أَمْرِهِ ﴿فِي فِتْنَتَيْنِ﴾ أَيُّ طَائِفَتَيْنِ ﴿التَّقَاتِ﴾ أَيُّ لِقَاتِ الْفِتَنِ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَأُخْرَى كَافَّةٌ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَرْوَنَّهُمْ مِثْلَيْنِمْ رَأَى الْغَنَى﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ - فِيمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ: يَرَى الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَيْنِمْ فِي الْعَدَدِ رَأَى أَغْنِيَهُمْ، أَيُّ جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيمَا رَأَوْهُ سَبَبًا لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إِنَّ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَرْوَنَّهُمْ مِثْلَيْنِمْ رَأَى الْغَنَى﴾ أَيُّ تَرَى الْفِتْنَةَ الْمُسْلِمَةَ الْفِتْنَةَ الْكَافِرَةَ مِثْلَيْنِمْ، أَيُّ ضِعْفَيْنِمْ فِي الْعَدَدِ، وَمَعَ هَذَا نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: وَقَدْ نَظَرْنَا إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَرَأَيْنَاهُمْ يُضِعِفُونَ عَلَيْنَا، ثُمَّ نَظَرْنَا إِلَيْهِمْ فَمَا رَأَيْنَاهُمْ يَزِيدُونَ عَلَيْنَا رَجُلًا وَاحِدًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَيْلًا وَمِثْلَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ... [الْآيَةُ (الْأَنْفَالُ: ٤٤)]، وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَقَدْ قُلُّوا فِي أَعْيُنِنَا حَتَّى قُلْتُ لِرَجُلٍ إِلَى جَانِبِي: تَرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: أَرَاهُمْ مِائَةً، قَالَ: فَأَسْرَنَا رَجُلًا مِنْهُمْ، فَقُلْنَا، كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: أَلْفًا<sup>(٢)</sup>.

فَعِنْدَمَا عَايَنَ كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْآخَرَ، رَأَى الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ مِثْلَيْنِمْ، أَيُّ أَكْثَرَ مِنْهُمْ بِالضَّعْفِ، لِيَتَوَكَّلُوا وَيَتَوَجَّهُوا وَيَطْلُبُوا الْإِعَاذَةَ مِنْ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَأَى الْمُشْرِكُونَ الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ، لِيَحْصُلَ لَهُمُ الرُّغْبُ وَالْخَوْفُ وَالْجَزَعُ وَالْهَلَعُ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ التَّصَافُ، وَالتَّقَى الْفَرِيقَانِ، قَلَّلَ اللَّهُ هَوْلًا فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ، وَهَوْلًا فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ، لِيُقَدِّمَ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ ﴿لِيَقْصِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَاتًا مَفْعُولًا﴾ [الْأَنْفَالُ: ٤٤] أَيُّ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَيُظْهِرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَيُعِزَّ الْمُؤْمِنِينَ وَيَذِلَّ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ

(١) الطبري: ٢٣٤/٦ عاصم بن عمر بن قتادة تابعي، فالرواية

مرسلة (٢) الطبري: ٢٣٦/٦ أبو إسحاق مدلس ولم يصرح وأبو

عبدة لم يسمع من أبيه عبدالله بن مسعود على الراجح كما قال ابن

حجر في التقريب (٣) فتح الباري: ٤١/٩ (٤) فتح الباري: ٩/

١٥ (٥) مسلم: ١٠٩٠/٢ (٦) النسائي في الكبرى: ٢٨٠/٥

(٧) النسائي: ٢١٧/٦ و٦١/٧ عن أنس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْكَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا  
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْقَنِينِ  
وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ  
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ  
اللَّهِ أَلْسَلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ  
بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ  
اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَمِعْتُ  
وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ  
ءِ اسْلَمْتُمْ فَإِنْ اسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا  
عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ  
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ  
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ  
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ مِنَ النَّصِيرِ ﴿٢٢﴾

هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مِنْ زَهْرَتِهَا وَنَعِيمِهَا الَّذِي هُوَ زَائِلٌ لَا  
مَحَالَةَ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ  
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ تَنْحَرِقُ بَيْنَ جَوَانِبِهَا  
وَأَرْجَائِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَشْرَبِ: مِنَ الْعَسَلِ وَاللَّبَنِ  
وَالْخَمْرِ وَالْمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ  
سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ  
مَأْكُونِينَ فِيهَا أَبَدَ الْأَبَادِ، لَا يَنْعَوْنَ عَنْهَا جَوْلًا، ﴿وَأَزْوَاجٌ  
مُطَهَّرَةٌ﴾ أَيْ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ، وَالْأَدَى وَالْحَيْضِ  
وَالنَّعَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَغْتَرِي نِسَاءَ الدُّنْيَا ﴿وَيَرْضَوْنَ  
مِنْ اللَّهِ﴾ أَيْ يَجُلُّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُهُ فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ بَعْدَهُ  
أَبَدًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى الَّتِي فِي بَرَاءَةِ:  
﴿وَيَرْضَوْنَ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أَيْ أَعْظَمُ مِمَّا  
أَعْطَاهُمْ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ

مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهَذَا مَحْمُودٌ مَمْدُوحٌ،  
كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي  
مُكَائِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

وَحُبُّ الْمَالِ كَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالْخِيَلِ،  
وَالْتَكَبُّ عَلَى الضُّعْفَاءِ، وَالتَّجَبُّرُ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَهَذَا  
مَدْمُومٌ، وَتَارَةً يَكُونُ لِلتَّقَةِ فِي الْقُرْبَاتِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ  
وَالْقُرَابَاتِ، وَوُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ، فَهَذَا مَمْدُوحٌ مَحْمُودٌ  
عَلَيْهِ شَرَعًا.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُتَسَرُّونَ فِي مَقْدَارِ الْقِنطَارِ عَلَى أَقْوَالٍ،  
وَخَاصِلُهَا: أَنَّهُ الْمَالُ الْعَزِيزُ. كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ  
وغيره<sup>(٢)</sup>.

(وَحُبُّ الْخَيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَفْسَامٍ) تَارَةً يَكُونُ رَبَطُهَا  
أَصْحَابُهَا مُعَدَّةً لِسَيْلِ اللَّهِ، مَتَى اخْتَأَجُوا إِلَيْهَا غَزَوْا عَلَيْهَا،  
فَهَؤُلَاءِ يَتَابُونَ. وَتَارَةً تُرَبِّطُ فَخْرًا وَبَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ،  
فَهَؤُلَاءِ عَلَى صَاحِبِهَا وَزُرٌّ. وَتَارَةً لِلتَّعَفُّفِ وَافْتِنَاءِ نَسْلِهَا،  
وَلَمْ يَسَّرْ حَقُّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا. فَهَذِهِ لِصَاحِبِهَا سِتْرٌ. كَمَا  
سَيَأْتِي الْحَدِيثُ بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾...  
الْآيَةُ [الأنفال: ٦٠]، وَأَمَّا الْمُسُومَةُ، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْمُسُومَةُ الرَّاعِيَةُ<sup>(٣)</sup> وَالْمُطَهَّمَةُ الْحِسَانُ.  
وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ  
وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي السُّدِّيِّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ  
وَأَبِي سِتَابٍ. وَغَيْرُهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مَكْحُولٌ: الْمُسُومَةُ الْغُرَّةُ  
وَالْتَحْجِيلُ<sup>(٥)</sup>. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ  
أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ  
مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدَّنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجَرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ  
يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ  
مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ - أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ»<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَنْكَمُ﴾ يَعْنِي الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ،  
﴿وَالْحَرْثُ﴾ يَعْنِي الْأَرْضَ الْمُتَّخِذَةَ لِلْغُرَاسِ وَالزَّرَاعَةِ.  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مَتَكُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ إِنَّمَا  
هَذَا زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَزِينَتُهَا الْفَانِيَةُ الزَّائِلَةُ ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ  
حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ أَيْ حُسْنُ الْمَرْجِعِ وَالنَّوَابِ.

[جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْتَيْتُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ أَيْ  
قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ: أَأَخْبِرْكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّا زَيْنَ لِلنَّاسِ فِي

(١) ابن حبان: ١٣٤/٦ (٢) الطبري: ٢٥٠/٦ (٣) الطبري:

٢٥٢/٦ (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٣/٢ - ١٢٥ (٥) ابن أبي

حاتم: ١٢٧/٢ (٦) أحمد: ١٧٠/٥

أَهَنَدُوا وَلَئِنْ قُلُوا فَلَئِنَّ عَلَيْكَ الْبَلْعُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

بِالْإِسْلَامِ ﴿٢٠﴾

[شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ]

شَهِدَ تَعَالَى، وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا، وَهُوَ أَصْدَقُ الشَّاهِدِينَ وَأَعْدَلُهُمْ، وَأَصْدَقُ الْقَائِلِينَ ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ الْمُتَفَرِّدِ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَأَنَّ الْجَمِيعَ عِبِيدُهُ وَخَلْقُهُ وَالْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾ [النساء: ١٦٦]، ثُمَّ قَرَنَ شَهَادَةَ مَلَائِكَتِهِ وَأُولِي الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ، فَقَالَ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أَيُّ هُوَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ كَذَلِكَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ عَظَمَةً وَكِبَرِيَاءً، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشُرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

[الَّذِينَ هُوَ الْإِسْلَامُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَامُ﴾ إِنْخِبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَهُ يَقْبَلُهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كُلِّ جِيلٍ، حَتَّى خْتَمُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِي سُدَّ جَمِيعُ الطُّرُقِ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ بَعْدَ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِدِينٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَتِهِ فَلَيْسَ بِمُتَقَبَّلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ...﴾ [آل عمران: ٨٥]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُخْبِرًا بِإِنْخِبَارِ الَّذِينَ الْمُتَقَبَّلِ عِنْدَهُ فِي الْإِسْلَامِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَامُ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْأَوَّلَ، إِنَّمَا اخْتَلَفُوا بَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بِمَا يَبْتَغُونَ﴾ أَيُّ بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَاخْتَلَفُوا فِي الْحَقِّ، لِتَحَاسُدِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ وَتَدَابُرِهِمْ، فَحَمَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضَ الْبَعْضِ الْآخِرَ عَلَى مُخَالَفَتِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا،

بِالْإِسْلَامِ ﴿٢٠﴾ أَيُّ يُعْطَى كُلًّا بِحَسَبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَطَاءِ. ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَرَبَّنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [الصَّكْرَيْنِ وَالْمَكِيدَةِ وَالْمُفْجِئَةِ وَالْمُسْتَوْدِعَةِ] بِالْأَسْحَارِ ﴿٢١﴾

[دُعَاءُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمْ]

يَصِفُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا﴾ أَيُّ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَيُّ يَا إِيْمَانِنَا بِكَ وَبِمَا شَرَعْتَهُ لَنَا، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَتَقْصِرْنَا مِنْ أَمْرِنَا بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ، ﴿وَرَبَّنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الصَّادِقِينَ﴾ أَيُّ فِي قِيَامِهِمْ بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِهِمُ الْمُحَرَّمَاتِ، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بِمَا يَلْتَزِمُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ وَالْقَنُوتِ الطَّاعَةَ وَالْخُضُوعَ ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ أَيُّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ، وَسَدِّ الْخَلَاتِ، وَمُوَاسَاةِ ذَوِي الْحَاجَاتِ ﴿وَالْمُسْتَوْدِعِينَ﴾ بِالْأَسْحَارِ ﴿٢٢﴾ دَلَّ عَلَى فَضِيلَةِ الْإِسْتِغْفَارِ وَقَتِ الْأَسْحَارِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ يَغْفُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا قَالَ لِنَبِيِّهِ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ إِنَّهُ أَخْرَجَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحْرِ.

وَبُتِّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَسَانِدِ وَالسَّنَنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «يُنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟» (١)... الْحَدِيثُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أُوتِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنْ أَوَّلِهِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ، فَانْتَهَى وَتَرُّهُ إِلَى السَّحْرِ» (٢). وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا نَافِعُ، هَلْ جَاءَ السَّحَرُ؟ فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ، أَقْبَلَ عَلَى الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ حَتَّى يُضْهِجَ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٣).

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٢٠] إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بِمَا يَبْتَغُونَ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ فَإِنْ حَاسِبُوكَ فَقَدْ آسَفْتَ وَتَجِبَى لِلَّهِ وَمَنْ أَتَعَبَنَّ وَقَدْ لَئِذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَيْمَانَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ

(١) فتح الباري: ١٣٣/١١ ومسلم: ٥٢١/١ وأبو داود: ٧٧/٢ وتحفة الأحوذى: ٤٧١/٩ والنسائي في الكبرى: ١٢٣/٦ وابن ماجه: ٤٣٥/١ وأحمد: ٤٨٧/٢ (٢) فتح الباري: ٥٦٤/٢ ومسلم: ٥١٢/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٤٥/٢ والطبري: ٦٧٥٠

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ يَتَّيْتُ اللَّهُ﴾ أَيُّ مَنْ جَحَدَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ وَيَحَاسِبُهُ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَيُعَاقِبُهُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ كِتَابَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ حَاجَّكَ﴾ أَيُّ جَادَلُوكَ فِي التَّوْحِيدِ ﴿فَقُلْ أَتَسْلَتْ وَتَجِئُ لِلَّهِ وَمِنْ أَتْبَعِنَ﴾ أَيُّ فَقُلْ: أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي لِلَّهِ وَخَدَعَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا يَدَّ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، ﴿وَمَنْ أَتْبَعِنَ﴾ أَيُّ عَلَى دِينِي يَقُولُ كَمَا قَالَتِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ ... [يوسف: ١٠٨].

[الإسلام دين الناس كافة، والنبي ﷺ مبعوث إليهم جميعاً]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَدِينِهِ، وَالِدُخُولِ فِي شَرْعِهِ، وَمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ: الْكِتَابَيْنِ مِنَ الْمَلَكَيْنِ، وَالْأَمِينَيْنِ مِنَ الْمُسْرِكَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِلَّا تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ أَيُّ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابُهُمْ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَأْبَهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحُكْمُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْأَعْمَالِ﴾ أَيُّ هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَةَ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْتَلُونَ [الأنبياء: ٢٣] وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِحُكْمِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دلَّ عليه الكتاب والسنة في غير ما آتاه وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيْتُ النَّاسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كُتْبُهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ مُلُوكَ الْأَقَاقِ، وَطَوَائِفَ بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبِهِمْ وَعَجَبِهِمْ كِتَابِيَهُمْ وَأُمِّيَهُمْ، امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي

أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>. رواه مسلم.

وقال ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»، وَقَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيِّنُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [١١] أَوْلَيْكَ الَّذِينَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنَ نَصِيرَةٍ﴾ [١٢]

[دَمُ الْيَهُودِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ]

هَذَا دَمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ فِي تَكْذِيبِهِمْ بَيِّنَاتِ اللَّهِ، قَدِيمًا وَحَدِيثًا، الَّتِي بَلَّغْتُهُمْ بِهَا الرُّسُلَ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ، وَعِنَادًا لَهُمْ، وَتَعَاطُفًا عَلَى الْحَقِّ، وَاسْتِنْكَافًا عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَمَعَ هَذَا قَتَلُوا

(١) فتح الباري: ٤٢/١ ومسلم: ٤/١٩٩٣ (٢) مسلم: ١/١٣٤

(٣) مسلم: ٣٧٠/١ والبخاري: ٣٣٥

وَمَحَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ، وَمَجَازِبُهُمْ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيُّ لَا شَكَّ فِي وَفُوعِهِ وَكَوْنِهِ، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِإِذْنِكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣١﴾ تُولِيهِ الْيَدَ فِي النَّهَارِ وَتُولِيهِ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٢﴾

### [الإرشاد إلى الشكر]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ﴾ يَا مُحَمَّدُ مَعْظَمًا لِرَبِّكَ، وَشَاكِرًا لَهُ، وَمُقَوِّضًا إِلَيْهِ، وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ ﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ أَيُّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ أَيُّ أَنْتَ الْمُعْطِي، وَأَنْتَ الْمَانِعُ، وَأَنْتَ الَّذِي مَا شِئْتَ كَانَ، وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهُ وَإِرْشَادٌ إِلَى شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَهَذِهِ الْأُمَّةِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَوَّلَ النُّبُوَّةَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرَشِيِّ الْمَكِّيِّ الْأُمِّيِّ، خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَرَسُولِ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ مَحَاسِنَ مَن كَانَ قَبْلَهُ، وَخَصَّهُ بِخَصَائِصَ لَمْ يُعْطَهَا نَبِيًّا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا رَسُولًا مِّنَ الرُّسُلِ فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَأَطْلَاعِهِ عَلَى الْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ وَالْآيَةِ، وَكَشْفِهِ لَهُ عَنْ حَقَائِقِ الْآخِرَةِ، وَنَشْرَ أَمْنِهِ فِي الْأَفَاقِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَشَرْعِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ. فَصَلَّوْا اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾...

الْآيَةِ، أَيُّ أَنْتَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِكَ، الْفَعَالُ لِمَا تُرِيدُ، كَمَا رَدَّ تَعَالَى عَلَى مَن يَتَحَكَّمُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قَالَ اللَّهُ رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَهُمَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾... الْآيَةِ [الزخرف: ٣٢]، أَيُّ نَحْنُ نَتَصَرَّفُ فِي خَلْقِنَا كَمَا تُرِيدُ بِلَا مُمَانِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ، وَلَنَا الْحِكْمَةُ

مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ حِينَ بَلَّغُوهُمْ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ بِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا جَرِيْمَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، إِلَّا لِيُكَزِّبَهُمْ دَعْوُهُمْ إِلَى الْحَقِّ ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الْكِبَرِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»<sup>(١)</sup>.

وَلِهَذَا لَمَّا أَنْ تَكَبَّرُوا عَنِ الْحَقِّ وَاسْتَكْبَرُوا عَلَى الْخَلْقِ، فَابْتَلَاهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِالذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَكْبَرْتُمْ بِكَذَابِ آيِسٍ﴾ أَيُّ مُوجِعٍ مُهِينٍ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرٍ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا أُنْثَارٌ إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ وَفَرَّغُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾

[دَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ عَلَى عَدَمِ تَحْكِيمِهِمْ كِتَابَ اللَّهِ] يَقُولُ تَعَالَى مُكْرِئًا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الْمُتَمَسِّكِينَ فِيمَا يَزْعُمُونَ بِكِتَابَيْهِمُ اللَّذَيْنِ بَأْيَدِيهِمْ، وَهُمَا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى مَا فِيهِمَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِيهِمَا مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، تَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ عَنْهُمَا، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنْ دَمِهِمْ، وَالتَّنَوُّيَةِ بِذِكْرِهِمْ بِالْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا أُنْثَارٌ إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أَيُّ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ وَجَرَّاهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْحَقِّ أَفْزَاؤُهُمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْهُ لَأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُعَدُّونَ فِي النَّارِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عَنْ كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ فِي الدُّنْيَا يَوْمًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَرَّغُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ تَبَتُّهُمْ عَلَى دِينِهِمُ الْبَاطِلِ، مَا خَدَعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ النَّارَ لَا تَمْسُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ، وَهُمْ الَّذِينَ أَفْتَرُوا هَذَا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَافْتَعَلُوهُ، وَلَمْ يُنْزِلِ اللَّهُ بِهِ سُلْطَانًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيُّ كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ وَقَدْ أَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَقَتَّلُوا أَنْبِيَاءَهُ، وَالْعُلَمَاءَ مِنْ قَوْمِهِمْ، الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ،

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٥٤

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

كَبِيرٌ ﴿الأنفال: ٧٣﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتُمُوا مِنْهُ تَنْفَةً﴾ أَيُّ إِلَّا مَنْ خَافَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ أَوْ الْأَوْقَاتِ مِنْ شَرِّهِمْ، فَلَهُ أَنْ يَنْقِيَهُمْ بِظَاهِرِهِ لَا بِطَائِبِهِ وَيَنْبِيَّهُ. كَمَا حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ الْحَسَنُ: التَّقِيَّةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أَيُّ يُحَذِّرُكُمْ يَقَمُّهُ أَيُّ مُخَالَفَتُهُ وَسَطَوْتُهُ فِي عَذَابِهِ لِمَنْ وَالَى أَعْدَاءَهُ، وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَيُّ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿قُلْ إِنْ تُحِبُّوْا مَا فِي صُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوْا بِعَلَمِ اللَّهِ وَبَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٦﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ

الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الثَّامَّةُ فِي ذَلِكَ، وَهَكَذَا نُعْطِي النُّبُوَّةَ لِمَنْ نُرِيدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾... الآية [الإسراء: ٢١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أَيُّ تَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فَتَزِيدُهُ فِي قِصَرِ هَذَا، فَيَعْتَدِلَانِ، ثُمَّ تَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَتَقَاوَرَانِ، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ، وَهَكَذَا فِي فُصُولِ الشَّيْءِ رِبْعًا وَصَيِّفًا وَخَرِيفًا وَشَيْئًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَيُّ تُخْرِجُ الْحَيَّةَ مِنَ الزَّرْعِ، وَالزَّرْعَ مِنَ الْحَبَّةِ، وَالتَّخْلَةَ مِنَ النَّوَاةِ، وَالنَّوَاةَ مِنَ التَّخْلَةِ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَالْبَيْضَةَ مِنَ الدَّجَاجَةِ، وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿وَتَزْنِي مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَيُّ تُعْطِي مَنْ شِئْتَ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَعْذُرُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِحْصَائِهِ، وَتَقْتَرُ عَلَى آخِرِينَ لِمَا لَكَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيشَةِ وَالْعُدْلِ.

﴿لَا يَخْذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٣٨﴾

[النَّهْيُ عَنْ مَوَالَاةِ الْمُشْرِكِينَ]

نَهَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أَيُّ وَمَنْ يَرْتَكِبْ نَهْيَ اللَّهِ فِي هَذَا، فَقَدْ بَرَى مِنَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ لَا يَتَّخِذُوا عَدُوًّا وَعَدُوًّاكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْفُوكُمْ فِيهِم بِالْمَوَدَّةِ إِلَى أَنْ قَالُوا: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ لَا يَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ لَا يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَوَلَّيْكُمْ فَيَكُنْ قَائِمًا مِنْكُمْ... الآية [المائدة: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مَوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَعْرَابِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ



أَنْ يَبَيِّنَهَا وَيَبَيِّنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ  
بِالْعَبَادِ ﴿٣٠﴾

[اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ، وَيُخْضِرُ كُلَّ أَعْمَالِ  
الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

دَعَاؤُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ،  
وَالَّذِينَ النَّبَوِيُّ، فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، كَمَا  
تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ  
عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أَيَّ يَحْصُلُ  
لَكُمْ فَوْقَ مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ مَحَبَّتُهُ  
إِيَّاكُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ  
وغيره من السلف: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ،  
فَاتَّبَلَاهُمْ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ  
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٣)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيَّ  
بِاتِّبَاعِكُمْ الرَّسُولَ ﷺ، يَحْصُلُ لَكُمْ هَذَا كُلُّهُ مِنْ بَرَكَتِهِ  
سِفَارَتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ:  
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيَّ خَالَفُوا عَنْ أَمْرِهِ  
﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَتَهُ فِي الطَّرِيقَةِ  
كُفْرٌ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ، وَإِنْ ادَّعَى وَزَعَمَ فِي  
نَفْسِهِ أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ، حَتَّى يُتَابِعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ  
الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ وَرَسُولَ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْحَيِّ  
وَالْأَنْسِيِّ، الَّذِي لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ بَلِ الْمُرْسَلُونَ بَلِ أَوْلُو الْعَزْمِ  
مِنْهُمْ فِي زَمَانِهِ مَا وَسِعَهُمْ إِلَّا اتِّبَاعُهُ، وَالذُّخُولُ فِي طَاعَتِهِ،  
وَاتِّبَاعُ شَرِيعَتِهِ، كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ  
أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾... الْآيَةِ [آل عمران: ١٨١]. إِنْ  
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿لَإِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَى  
الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> ذَرِيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾

[الْمُضْطَفُّونَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ الْبَيُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ  
الْأَرْضِ، فَاصْطَفَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: خَلَقَهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ  
فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسَجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ  
شَيْءٍ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَهْبَطَهُ مِنْهَا لَمَّا لَهُ فِي ذَلِكَ  
مِنْ الْحِكْمَةِ. وَاصْطَفَى نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ  
رَسُولٍ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، لَمَّا عَبْدَ النَّاسُ الْأَوْثَانَ،  
وَأَشْرَكُوا فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَانْتَقَمَ لَهُ

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ  
وَالظُّوَاهِرَ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ، بَلْ عِلْمُهُ  
مُحِيطٌ بِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ وَالْأَزْمَانِ، وَالْأَيَّامِ  
وَاللَّحْظَاتِ وَجَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ  
وَالسَّمُوتِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ  
فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبَحَارِ وَالْجِبَالِ، ﴿وَاللَّهُ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيَّ وَقْدَرْتُهُ نَافِذَةٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، وَهَذَا  
تَنْبِيهٌُ مِنْهُ لِعِبَادِهِ عَلَى خَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ لئَلَّا يَرْتَكِبُوا مَا نَهَى عَنْهُ  
وَمَا يُبْغِضُهُ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَهُوَ قَادِرٌ  
عَلَى مُعَاجَلَتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَإِنْ أَنْظَرَ مَنْ أَنْظَرَ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ  
يُمِهِلُ، ثُمَّ يَأْخُذُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ  
خَيْرٍ مُخْضَرًّا»... الْآيَةِ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْضِرُ  
لِلْعَبْدِ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْقَا  
الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا فَعَلَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] فَمَا رَأَى مِنْ أَعْمَالِهِ  
حَسَنًا سَرَهُ ذَلِكَ وَأَفْرَحَهُ، وَمَا رَأَى مِنْ قَبِيحٍ سَاءَهُ وَغَاطَهُ،  
وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ بَعِيدٌ. كَمَا يَقُولُ  
لِشَيْطَانِهِ الَّذِي كَانَ مُقْتَرِنًا بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي جَرَّاهُ  
عَلَى فِعْلِ الشَّوْءِ ﴿وَبَيَّنْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ التَّمْشِيرِ فَبَيَّنْتَ  
الْفَرِيقَ﴾ [الزخرف: ٣٨]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُؤَكِّدًا وَمَهْدِدًا  
وَمُتَوَعِّدًا: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ﴾ أَيَّ يُخَوِّفُكُمْ عِقَابَهُ، ثُمَّ  
قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُرْجِيًا لِعِبَادِهِ لئَلَّا يَنَاسُوا مِنْ رَحْمَتِهِ  
وَيَقْنَطُوا مِنْ لُطْفِهِ ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَبَادِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ  
الْبَصْرِيُّ: مِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ حَذَرَهُمْ نَفْسُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ<sup>(١)</sup>: أَيَّ  
رَجِيمٍ بِخَلْقِهِ، يُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى صِرَاطِهِ  
الْمُسْتَقِيمِ، وَدِينِهِ الْقَوِيمِ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا رَسُولَهُ الْكَرِيمَ.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ  
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ  
لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

[حُبُّ اللَّهِ فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ  
اللَّهِ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي

(١) الطبري: ٢٠٢/٦ (٢) فتح الباري: ٣٥٥/٥ (٣) ابن أبي  
حاتم: ٢٥٠/٢

لَمَّا طَالَتْ مُدَّتُهُ بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَجَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، فَأَغْرَقَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَهُ عَلَى دِينِهِ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ. وَاضْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَالْإِيمَانُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِعِمْرَانَ هَذَا هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ.

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا لَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦﴾

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمَرْغِمُ أَنَّ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ٣٧﴾

[نُشُوءُ مَرْيَمَ وَكَرَامَتُهَا عَلَى اللَّهِ]

يُخْبِرُ رَبُّنَا أَنَّهُ تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمِّهَا نَذِيرَةً، وَأَنَّهُ «وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا»، أَيَّ جَعَلَهَا شَكْلًا مَلِيحًا وَمَنْظَرًا بَهِيحًا، وَيَسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ الْقَبُولِ، وَقَرَّنَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، تَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ وَالدِّينَ، «وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا» أَيَّ جَعَلَهُ كَافِلًا لَهَا. وَإِنَّمَا قَدَّرَ اللَّهُ كَوْنَ زَكَرِيَّا كَافِلًا لِسَعَادَتِهَا، لِتَقْبَلَسَ مِنْهُ عِلْمًا جَمًّا نَافِعًا، وَعَمَلًا صَالِحًا، وَلِأَنَّهُ كَانَ زَوْجَ خَالَتِهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ: زَوْجُ أُخْتِهَا. كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «إِذَا يَبْحَثُ وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ ذَلِكَ أَيْضًا تَوْشَعًا، فَعَلَى هَذَا كَانَتْ فِي حِصَانَةِ خَالَتِهَا، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى فِي عُمَارَةَ بِنْتِ حَمْزَةَ أَنَّ تَكُونَ فِي حِصَانَةِ

الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَالْإِيمَانُ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِعِمْرَانَ هَذَا هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ.

﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا لَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦﴾

الرَّجِيمِ ٣٦﴾

[قِصَّةُ وَلَادَةِ مَرْيَمَ]

امْرَأَةُ عِمْرَانَ هَذِهِ هِيَ أُمُّ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، وَهِيَ حَتَّةُ بِنْتُ فَاقُودَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ امْرَأَةً لَا تَحْمِلُ، فَرَأَتْ يَوْمًا طَائِرًا يَرْقُ فَرَحَهُ، فَاشْتَهَتْ الْوَلَدَ، فَدَعَتْ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَهَبَهَا وَلَدًا، فَاشْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا، فَوَاقَعَهَا زَوْجُهَا، فَحَمَلَتْ مِنْهُ، فَلَمَّا تَحَقَّقَتِ الْحَمْلَ نَذَرَتْ أَنْ يَكُونَ مُحَرَّرًا، أَيَّ خَالِصًا مُفْرَعًا لِلْعِبَادَةِ، وَلِخِدْمَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَقَالَتْ: «رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أَيَّ السَّمِيعُ لِدُعَائِي، الْعَلِيمُ بِنِيَّتِي، وَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَا فِي بَطْنِهَا: أَذْكَرًا أَمْ أُنْثَى؟ «فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى» أَيَّ فِي الْقُوَّةِ وَالْجَلَدِ فِي الْعِبَادَةِ وَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى «وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ» فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ يَوْمَ الْوِلَادَةِ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السَّبَاقِ لِأَنَّهُ شَرُعَ مِنْ قَبْلُنَا، وَقَدْ حُكِيَ مُفَرَّرًا، وَبِذَلِكَ ثَبَتَ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ».

أَخْرَجَاهُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِيهِمَا: أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ذَهَبَ بِأَخِيهِ حِينَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَنَكُهُ وَسَمَّاهُ عَبْدُ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَلِكَ ثَبَتَتْ تَسْمِيَةُ الْآخَرِينَ يَوْمَ الْوِلَادَةِ.

(١) فتح الباري: ٣٠٦/٣ ومسلم: ١٨٠٧/٤ (٢) فتح الباري: ٥٠١/٩ (٣) أحمد: ٧/٥ وأبو داود: ٢٥٩/٣ وتحفة الأحوذى: ١١٥/٥ والنسائي: ١٦٦/٧ وابن ماجه: ١٠٥٧/٢ (٤) عبد الرزاق: ١١٩/١ (٥) فتح الباري: ٦٠/٨ ومسلم: ٤/١٨٣٨ (٦) فتح الباري: ٥٣٩/٦

خَالَتَهَا امْرَأَةٌ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَ: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَيَادَتِهَا وَجَلَالَتِهَا فِي مَحَلِّ عِبَادَتِهَا، فَقَالَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الشَّعْثَاءِ وَإِبْرَاهِيمُ التَّخَعِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطِيَّةُ الْعُوفِيُّ وَالسُّدِّيُّ: يَغْنِي وَجَدَ عِنْدَهَا فَاحِةَ الصَّنِيفِ فِي الشِّتَاءِ، وَفَاحِةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّنِيفِ<sup>(٢)</sup>. فَإِذَا رَأَى زَكَرِيَّا هَذَا عِنْدَهَا ﴿قَالَ يَمْرَيْمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أَيُّ يَقُولُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾<sup>(٣)</sup> فَدَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ<sup>(٤)</sup> قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ<sup>(٥)</sup> قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ<sup>(٦)</sup>

[دُعَاءُ زَكَرِيَّا وَتَبَشِيرُهُ بِيَحْيَى]

لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامَ فَاحِةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّنِيفِ، وَفَاحِةَ الصَّنِيفِ فِي الشِّتَاءِ، طَمِعَ حِينَئِذٍ فِي الْوَلَدِ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ وَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ، وَاشْتَغَلَ رَأْشُهُ شَيْئًا، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرَةً وَعَاقِرًا، لَكِنَّهُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ سَأَلَ رَبَّهُ وَنَادَاهُ نِدَاءَ حَقِيقَةٍ، وَقَالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ أَيُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أَيُّ وَلَدًا صَالِحًا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَدَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أَيُّ خَاطَبَتُهُ الْمَلَكَةُ شِفَاهَا خِطَابًا أَسْمَعَتْهُ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابِ عِبَادَتِهِ، وَمَحَلِّ خُلُوتِهِ، وَمَجْلِسِ مُنَاجَاتِهِ وَصَلَاتِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا بَشَّرَتْهُ بِهِ الْمَلَكَةُ ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ أَيُّ بِوَلَدٍ يُوْجَدُ لَكَ مِنْ صُلْبِكَ اسْمُهُ يَحْيَى. قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا سُمِّيَ يَحْيَى لِأَنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُ بِالْإِيمَانِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾. رَوَى الْعُوفِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ... وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ

سُورَةُ آلِ اْإِمْرَانِ

٥٥

الْمَلِكِ

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ<sup>(٣٨)</sup> فَدَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ<sup>(٣٩)</sup> قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ<sup>(٤٠)</sup> قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ<sup>(٤١)</sup> وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ<sup>(٤٢)</sup> يَمْرَيْمُ اقْنُطِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ<sup>(٤٣)</sup> ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَيُّهُمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ<sup>(٤٤)</sup> إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ<sup>(٤٥)</sup>

وَأَبُو الشَّعْثَاءِ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ<sup>(١)</sup>. قَوْلُهُ: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمْ: الْحَكِيمُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالتَّوْرِيُّ وَالضَّحَّاكُ: السَّيِّدُ: الْحَكِيمُ التَّخَفِيُّ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ. وَقَالَ عَطِيَّةُ: السَّيِّدُ فِي خَلْقِهِ وَدِينِهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ الْغَضَبُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هُوَ الشَّرِيفُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْكَرِيمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَصُورًا﴾ لَيْسَ مَعْنَاهُ هَهُنَا أَنَّهُ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، بَلْ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ مَغْضُومٌ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْقَادُورَاتِ. وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ تَرْوِيجِهِ بِالنِّسَاءِ الْحَلَالِ وَغَشْيَانِهِنَّ

(١) فتح الباري: ٥٧١/٧ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٢٧/٢-٢٢٩

(٣) ابن أبي حاتم: ٢٣٥/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٣٥/٢-٢٣٥

٢٣٧ (٥) ابن أبي حاتم: ٢٣٨/٢ (٦) الطبري: ٣٧٥/٦

وَأَيُّهَا الَّذِينَ، بَلْ قَدْ يُفْهِمُ وَجُودَ النَّسْلِ لَهُ مِنْ دُعَاءِ زَكْرِيَّا الْمُتَقَدِّمِ حَيْثُ قَالَ: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: وَلَدًا لَهُ ذُرِّيَّةٌ وَنَسْلٌ وَعَقِبٌ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ ثَانِيَّةٌ بِنَبْوَةِ يَحْيَى بَعْدَ الْبَشَارَةِ بِوَلَادَتِهِ، وَهِيَ أَعْلَى مِنَ الْأُولَى، كَقَوْلِهِ لِأُمِّ مُوسَى: ﴿إِنَّا رَأَوُكَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فَلَمَّا تَحَقَّقَ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْبَشَارَةَ، أَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ وَجُودِ الْوَلَدِ مِنْهُ بَعْدَ الْكِبَرِ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أَيُّ الْمَلِكِ ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ هَكَذَا أَمْرُ اللَّهِ عَظِيمٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَتَعَاطَمُهُ أَمْرٌ، ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أَيُّ عِلَامَةً أَتَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى وَجُودِ الْوَلَدِ مِنِّي ﴿قَالَ﴾ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا ﴿أَيُّ إِشَارَةً لَا تَسْتَطِيعُ النَّطْقَ مَعَ أَنَّكَ سَوِيٌّ صَحِيحٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثُمَّ أُمِرَ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّشِيِّ وَالْإِنْكَارِ﴾. وَسَيَأْتِي طَرَفٌ آخَرُ فِي بَسْطِ هَذَا الْمَقَامِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ مَرْيَمَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَلَاكِ عَلَىٰ نِسَاءٍ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢) يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَادْكِي مَعَ الزَّكِيَّاتِ (١٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَكْفَلَهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (١٤)

### [فَضْلُ مَرْيَمَ عَلَى نِسَاءِ عَصْرَهَا]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَاطَبَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُمْ بِذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ قَدِ اصْطَفَاهَا، أَيَّ اخْتَارَهَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهَا وَزَهَادَتِهَا. وَشَرَفَهَا، وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَكْذَارِ وَالْوَسَاوِسِ، وَاصْطَفَاهَا ثَانِيًا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِحَبْلَالَتِهَا: عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. رَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» (١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٢). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمُلْ مِنْ

الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» (٣). وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ (٤). وَلَقَطَ الْبُخَارِيُّ: «كَمُلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنْ فَضَلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَلُ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» (٥). وَقَدْ اسْتَقْصَيْتُ طَرُقَ هَذَا الْحَدِيثِ وَالْفَاطَةَ فِي قِصَّةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي كِتَابِنَا: «الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهَا بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالسُّجُودِ، وَالرُّكُوعِ وَالذُّعُوبِ فِي الْعَمَلِ لَهَا، لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ مِمَّا فِيهِ مِخْنَةٌ لَهَا، وَرَفْعَةٌ فِي الدَّارَيْنِ، بِمَا أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، حَيْثُ خَلَقَ مِنْهَا وَلَدًا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَادْكِي مَعَ الزَّكِيَّاتِ﴾ أَمَّا الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ فِي خُشُوعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلْ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ لِمٍ قَلْبُكَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٦].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ بَعْدَ مَا أَطْلَعَهُ عَلَى جَلِيلَةِ الْأَمْرِ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ نَقَضُهُ عَلَيْكَ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَكْفَلَهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أَيُّ مَا كُنْتَ عَنْدهُمْ يَا مُحَمَّدٌ، فَتُخْبِرُهُمْ عَنْهُمْ مُعَايَنَةً عَمَّا جَرَى، بَلْ أَطْلَعَكَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ كَأَنَّكَ كُنْتَ حَاضِرًا وَشَاهِدًا لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ حِينَ اقْتَرَعُوا فِي شَأْنِ مَرْيَمَ أَيُّهُمْ يَكْفُلُهَا، وَذَلِكَ لِرَغْبَتِهِمْ فِي الْأَجْرِ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: ثُمَّ خَرَجَتْ بِهَا، يَعْنِي أُمَّ مَرْيَمَ بِمَرْيَمَ، تَحْمِلُهَا فِي خَرَقِهَا إِلَى بَنِي الْكَاهِنِ بْنِ هَارُونَ أَخِي مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قَالَ: وَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَلُوتُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَا يَلِي الْحِجْبَةَ مِنَ الْكُفَّةِ، فَقَالَتْ لَهُمْ: دُونَكُمْ هَذِهِ النَّذِيرَةُ، فَإِنِّي خَرَزْتُهَا، وَهِيَ ابْنَتِي، وَلَا تَدْخُلُ الْكَيْسَةَ حَائِضٌ، وَأَنَا لَا أَرُدُّهَا إِلَى بَيْتِي. فَقَالُوا:

(١) تحفة الأحوذى: ٣٨٨/١٠ (٢) فتح الباري: ٥٤٢/٦  
ومسلم: ١٨٨٦/٤ (٣) الطبري: ٣٩٧/٦ (٤) فتح الباري: ٥٤٣/٦  
ومسلم: ١٨٨٦/٤ و تحفة الأحوذى: ٥٦٣/٥ والنسائي في الكبرى: ٩٣/٥ وابن ماجه: ١٠٩١/٢ (٥) فتح الباري: ١٣٣

الْمَلَأْنِي

٥٦

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾  
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ  
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَضَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾  
 وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾  
 وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ  
 أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ  
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ  
 وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخَرُونَ  
 فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾  
 وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلِلَ لَكُمْ  
 بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ  
 فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ  
 هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَسَ عِيسَى مِنْهُمْ  
 الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ  
 أَنْصَارُ اللَّهِ عَامِنَا بِاللَّهِ وَشَهِدْنَا بِمَا نُسَلِّمُونَ ﴿٥٣﴾

عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي حَالِ صِغَرِهِ، مُعْجَزَةٌ وَآيَةٌ،  
 وَحَالِ كُهُولَتِهِ حِينَ يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ  
 إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا  
 تَكَلَّمَ مَوْلُودٌ فِي صِغَرِهِ إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبُ جُرْنِجٍ» (٤).  
 وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:  
 «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى، وَصَبِيٌّ كَانَ فِي  
 زَمَنِ جُرْنِجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرُ» (٥) ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أَيُّ فِي قَوْلِهِ  
 وَعَمَلِهِ لَهُ عِلْمٌ صَحِيحٌ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ.

[خَلَقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَب]

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهَا بِذَلِكَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ  
 وَجَلَّ، قَالَتْ فِي مُتَابَعَاتِهَا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ  
 يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ تَقُولُ: كَيْفَ يُوجَدُ هَذَا الْوَلَدُ مِنِّي وَأَنَا

(١) ابن جرير: ٣٥١/٦ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦٦/٢ (٣) ابن  
 أبي حاتم: ٢٦٧/٢، ٢٦٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٧٢/٢، ٢٧٣  
 ابن إسحاق مدلس ولم يصرح بسماحه (٥) ابن أبي حاتم: ٢/  
 ٢٧٢ والبخاري: ٣٤٣٦ ومسلم: ٢٥٥٠

هَذِهِ ابْنَةُ إِمَامِنَا - وَكَانَ عِمْرَانُ يُؤْمِنُهُمْ فِي الصَّلَاةِ -  
 وَصَاحِبُ قُرْبَانِنَا! فَقَالَ زَكَرِيَّا: ادْفَعُوهَا إِلَيَّ فَإِنِ خَالَتَهَا  
 تَحْتِي، فَقَالُوا: لَا تَطِيبُ أَنْفُسُنَا، هِيَ ابْنَةُ إِمَامِنَا، فَذَلِكَ  
 حِينَ اقْتَرَعُوا بِأَقْلَامِهِمْ عَلَيْهَا الَّتِي يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَةَ،  
 فَفَرَعَهُمْ زَكَرِيَّا فَكَفَّلَهَا (١). وَقَدْ ذَكَرَ عِكْرَمَةُ أَيْضًا (٢)  
 وَالسُّدِّيُّ وَفَتَاةَ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَغَيْرَ وَاحِدٍ، دَخَلَ حَدِيثُ  
 بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: أَنَّهُمْ دَخَلُوا إِلَى نَهْرِ الْأُرْدُنِّ، وَاقْتَرَعُوا  
 هُنَالِكَ عَلَى أَنْ يُقْلَعُوا أَقْلَامُهُمْ، فَأَيُّهُمْ ثَبَّتَ فِي جَرِيَةِ الْمَاءِ  
 فَهُوَ كَافِلُهَا، فَأَقْلَعُوا أَقْلَامَهُمْ، فَاحْتَمَلَهَا الْمَاءُ إِلَّا قَلَمُ  
 زَكَرِيَّا، فَإِنَّهُ ثَبَّتَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ صُعْدًا يَشُقُّ جَرِيَةَ  
 الْمَاءِ (٣). وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ كِبِيرُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وَعَالِمُهُمْ  
 وَإِمَامُهُمْ وَنَبِيِّهُمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ  
 النَّبِيِّينَ.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ  
 الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمَقَرِّينَ﴾ (٥)  
 وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ  
 أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ  
 إِذَا فَضَضَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾  
 [تَبَشِيرُ مَرْيَمَ الصَّالِحَةِ بِعِيسَى]

هَذِهِ بِشَارَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِأَنْ  
 سَيُوجَدُ مِنْهَا وَلَدٌ عَظِيمٌ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ  
 قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أَيُّ يُولَدُ  
 يَكُونُ وَجُودُهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ، أَيُّ يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ،  
 وَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ كَمَا ذَكَرَهُ  
 الْجُمْهُورُ ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أَيُّ يَكُونُ مَشْهُورًا  
 بِهَذَا فِي الدُّنْيَا، يَعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، وَشُمِّيَ الْمَسِيحُ  
 لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا مَسَحَ أَحَدًا مِنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ بَرِيءًا بِإِذْنِ اللَّهِ  
 تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نِسْبَةٌ لَهُ إِلَى أُمِّهِ حَيْثُ لَا  
 أَبَ لَهُ ﴿وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمَقَرِّينَ﴾ أَيُّ لَهُ وَجَاهَةٌ  
 وَمَكَانَةٌ عِنْدَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، بِمَا يُوحِيهِ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ،  
 وَيُزِيلُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا مَتَّعَهُ بِهِ، وَفِي  
 الدَّارِ الْآخِرَةِ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ فِيمَنْ يَأْذَنُ لَهُ فِيهِ، فَيَقْبَلُ مِنْهُ،  
 أَسْوَةٌ بِإِخْوَانِهِ مِنْ أَوْلِي الْعَزْمِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ  
 وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

[كَلَامُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أَيُّ يَدْعُو إِلَى

الْبَقَرَةُ

٥٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

رَبَّاءَ امْتَابَا أُنْزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ  
الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ  
الْمُكْرِينَ ﴿٥٨﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُسَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ  
إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ  
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ  
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ  
كَفَرُوا فَأَعَذِبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا  
لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾  
ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾  
مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ  
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٣﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٤﴾  
فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ  
أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ  
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾

مَعْرُوفٌ، ﴿وَأُنْزِلَتْ﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ.

قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: بَعَثَ اللَّهُ كُلَّ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ  
بِمُعْجَزَةٍ تُنَاسِبُ أَهْلَ زَمَانِهِ، فَكَانَ الْغَالِبُ عَلَى زَمَانِ  
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّحَرُ، وَتَعْظِيمُ السَّحَرَةِ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ  
بِمُعْجَزَةٍ بَهَرَتْ الْأَبْصَارَ، وَحَبَّرَتْ كُلَّ سَحَّارٍ، فَلَمَّا  
اسْتَبَقُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الْعَظِيمِ الْجَبَّارِ انْقَادُوا لِلْإِسْلَامِ،  
وَصَارُوا مِنَ الْأَبْرَارِ. وَأَمَّا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَعَثَهُ فِي  
زَمَنِ الْأَطِبَّاءِ، وَأَصْحَابِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ، فَجَاءَهُمْ مِنْ  
الْآيَاتِ بِمَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدًا مِنَ  
الَّذِي شَرَعَ الشَّرِيعَةَ، فَمِنْ أَيْنَ لِلطَّبِيبِ قُدْرَةٌ عَلَى إِحْيَاءِ  
الْجَمَادِ، أَوْ عَلَى مُدَاوَاةِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، وَبَعَثَ مَنْ هُوَ  
فِي قَبْرِهِ رَهِينٌ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ. وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، بَعَثَهُ فِي  
زَمَانِ الْفُصَحَاءِ وَالْبُلَغَاءِ، وَنَحَارِيرِ الشُّعْرَاءِ، فَأَتَاهُمْ بِكِتَابٍ  
مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا  
بِمِثْلِهِ، أَوْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، لَمْ  
يَسْتَطِيعُوا أَبَدًا، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا، وَمَا ذَاكَ

لَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ، وَلَا مِنْ عَزْمِي أَنْ أَتَزَوَّجَ، وَلَسْتُ  
بَعِيًّا، حَاشَا لِلَّهِ! فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي  
جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيْ هَكَذَا  
أَمَرَ اللَّهُ عَظِيمٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَصَرَّحَ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿يَخْلُقُ  
مَا يَشَاءُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يَفْعَلُ. كَمَا فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا، بَلْ نَصَّ  
هُنَا عَلَى أَنَّهُ يَخْلُقُ لَيْلًا يَبْقَى لِمُطْلِ شَهْوَةٍ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ  
بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَيْ فَلَا يَتَأَخَّرُ  
شَيْئًا، بَلْ يُوجَدُ عَقِيبَ الْأَمْرِ بِلا مُهْلَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا  
أَمْرًا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمص: ٥٠] أَيْ إِنَّمَا نَأْمُرُ  
مَرَّةً وَاحِدَةً لَا مَثْنَوِيَّةَ فِيهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ سَرِيعًا كَلَمْحٍ  
بِالْبَصَرِ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وَرَسُولًا  
إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَيْ قَدْ جِئْتُكُمْ بِنَاصِيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَيْ خَلَقْتُ  
لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا  
بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَرَى الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْخِ الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ  
وَأُنْشِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَشْرَبُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ  
لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ وَمُسَدِّدًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ  
مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحْدِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ  
وَجِئْتُكُمْ بِنَاصِيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ  
رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٨﴾

[صِفَاتُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُعْجَزَاتُهُ وَدَعْوَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَامِ بَشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِإِنْبَاءِهَا  
عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُهُ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾،  
الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ هُنَا: الْكِتَابَةُ، وَالْحِكْمَةُ  
تَقْدَمُ الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ﴿وَالتَّوْرَةَ  
وَالْإِنْجِيلَ﴾: فَالتَّوْرَةُ، هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى  
مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ. وَالْإِنْجِيلُ الَّذِي أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى عِيسَى  
ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَقَدْ كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
يَحْفَظُ هَذَا وَهَذَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَيْ  
يَجْعَلُهُ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ، فَإِنَّمَا لَهُمْ: ﴿أَيْ قَدْ جِئْتُكُمْ  
بِنَاصِيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَيْ خَلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ  
فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ، يُصَوِّرُ  
مِنَ الطَّيْنِ شَكْلَ طَيْرٍ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ، فَيَطِيرُ عَيْنًا بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ  
وَجَلَّ، الَّذِي جَعَلَ هَذَا مُعْجَزَةً لَهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ  
﴿وَأَرَى الْأَكْمَةَ﴾ هُوَ الَّذِي يُؤَلِّدُ أَعْمَى، وَهَذَا الْمَعْنَى  
أَبْلَغُ فِي الْمُعْجَزَةِ، وَأَقْوَى فِي التَّحْدِي ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَدَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْأَخْزَابِ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: «فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ» قَالَ: مَعَ أُمِّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

[هَمَّ الْيَهُودُ بِقَتْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فِيمَا هَمُّوا بِهِ مِنَ الْفُتْكِ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِرَادَتِهِ بِالسَّوْءِ وَالصُّلْبِ حِينَ تَمَالَّوْا عَلَيْهِ، وَوَسَّوْا بِهِ إِلَى مَلِكٍ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَكَانَ كَافِرًا، فَأَتَهُوا إِلَيْهِ أَنْ هَمُّنَا رَجُلًا يُضِلُّ النَّاسَ، وَيُضِدُّهُمْ عَنْ طَاعَةِ الْمَلِكِ، وَيَفْتِنُ الرِّعَايَا، وَيَفْرُقُ بَيْنَ الْأَبِ وَابْنِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَلَّدُوهُ فِي رِقَابِهِمْ، وَرَمَوْهُ بِهِ مِنَ الْكُذْبِ، وَأَنَّهُ وَلَدَ زَنِيَّةٍ حَتَّى اسْتَنَارُوا غَضَبَ الْمَلِكِ، فَبَعَثَ فِي طَلَبِهِ مَنْ يَأْخُذُهُ وَيُضْلِيهِ وَيُنْكَلُ بِهِ. فَلَمَّا أَحَاطُوا بِمَنْزِلِهِ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِهِ، نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِهِمْ، وَرَفَعَهُ مِنْ رُوحَتِهِ ذَلِكَ النَّبِيَّ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَلْقَى اللَّهُ شِبْهَهُ عَلَى رَجُلٍ كَانَ عِنْدَهُ فِي الْمَنْزِلِ، فَلَمَّا دَخَلَ أُولَئِكَ اعْتَقَدُوهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ عِيسَى، فَأَخَذُوهُ وَأَهَانُوهُ وَصَلَبُوهُ، وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ الشُّوْكَ، وَكَانَ هَذَا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُ نَجَّى نَبِيَّهُ، وَرَفَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَتَرَكَّهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ يَعْصَمُونَ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِطَلَبَتِهِمْ، وَأَسْكَنَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ قَسْوَةً، وَعِنَادًا لِلْحَقِّ مُلَازِمًا لَهُمْ، وَأَوْرَثَهُمْ ذِلَّةً لَا تُفَارِقُهُمْ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ».

«إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْعُ إِلِيَّ وَطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَاعِلِ الَّذِينَ آتَيْنَكَ مِنَ الْبَنَاتِ وَكَفَرُوا بِإِلَهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِنْ مَرَّجُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»<sup>(٥)</sup> فَلَمَّا آتَيْنِ كَفَرُوا فَأَعَذَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ<sup>(٦)</sup> وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ<sup>(٧)</sup> ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ<sup>(٨)</sup>

(١) ابن أبي حاتم: ٢٩٠/٣ (٢) أحمد: ٣٢٢/٣ (٣) فتح الباري: ٦٣/٦ ومسلم: ١٨٧٩/٤ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٩٤/٢

إِلَّا لِأَنَّ كَلَامَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُشَبِّهُ كَلَامَ الْخَلْقِ أَبَدًا. وَقَوْلُهُ: «وَأَتَيْنُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» أَيْ أَخْبَرَكُمْ بِمَا أَكَلْتُمْ أَحَدُكُمْ الْآنَ، وَمَا هُوَ مُدْخِرٌ فِي بَيْتِهِ لَعَدِهِ، «إِنْ فِي ذَلِكَ» أَيْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ «لَايَةً لَكُمْ» أَيْ عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»<sup>(٩)</sup> وَمَصَدَقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْحِيدِ أَيْ مُفَرِّدًا لَهَا وَمُثَبِّتًا «وَلَوَحِدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَسَخَ بَعْضَ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ، وَكَشَفَ لَهُمْ عَنِ الْمُغْطَى فِي مَا كَانُوا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ خَطَأً، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «وَلَا يُؤْنِسُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ: «وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ» أَيْ بِحُجَّةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى صِدْقِي فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا»<sup>(١٠)</sup> إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَيْ أَنَا وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ إِلَيْهِ «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

«فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ» قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ<sup>(١١)</sup> رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ<sup>(١٢)</sup> وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ<sup>(١٣)</sup>

[نُصْرَةُ الْخَوَارِثِ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

يَقُولُ تَعَالَى: «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى أَنْ اسْتَشْعَرَ مِنْهُمْ التَّصْمِيمَ عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الضَّلَالِ، قَالَ: «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ» قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَى اللَّهِ»<sup>(١٤)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ مَنْ أَنْصَارِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ؟ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ: «مَنْ رَجُلٌ يُؤَيِّنُنِي حَتَّى أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي. فَإِنْ قُرْبِنَا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي»<sup>(١٥)</sup>. حَتَّى وَجَدَ الْأَنْصَارَ، فَأَوَّوْهُ وَنَصَرُوهُ. وَهَاجَرَ إِلَيْهِمْ، فَاسَمَوْهُ وَمَنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ. وَهَكَذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتَدَبَ لَهُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَمَنُوا بِهِ وَأَزْرَوْهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: «قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»<sup>(١٦)</sup> رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّهِيدِ<sup>(١٧)</sup> الْخَوَارِثُونَ قِيلَ: كَانُوا قَصَارِينَ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْخَوَارِثَ النَّاصِرَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ

## [مَعْنَى مُتَوَفِّيكَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الْمُرَادُ بِالْوَفَاةِ هَهُنَا النَّوْمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِأَنبَاءِ...﴾ [الأنعام: ٦٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا...﴾ [الزمر: ٤٢]. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ إِذَا قَامَ مِنَ النَّوْمِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَكْفُرْهُمْ عَنْ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيَمَ بَيْتُنَا عِظِيمًا﴾ [١٥٦] وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [١٥٧] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيبًا حَكِيمًا [١٥٨] وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا [النساء: ١٥٦-١٥٩] وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ عَائِدٌ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِعِيسَى قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى، وَذَلِكَ حِينَ يَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ، فَجَيِّدٌ يُؤْمِنُ بِهِ أَهْلُ الْكِتَابِ كُلُّهُمْ، لِأَنَّهُ يَضَعُ الْجُزْئِيَّةَ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يَعْنِي وَفَاةَ الْمَنَامِ، رَفَعَهُ اللَّهُ فِي مَنَامِهِ<sup>(٢)</sup>.

## [التَّحْرِيفُ فِي دِينِ الْمَسِيحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ بِرَفْعِي إِيَّاكَ إِلَى السَّمَاءِ ﴿وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ. وَهَكَذَا وَقَعَ، فَإِنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ، تَفَرَّقَتْ أَصْحَابُهُ شَبَعًا بَعْدَهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَابْنُ أُمِّيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ غَلَا فِيهِ فَجَعَلَهُ ابْنَ اللَّهِ، وَآخَرُونَ قَالُوا: هُوَ اللَّهُ، وَآخَرُونَ قَالُوا: هُوَ نَالِثٌ ثَلَاثَةً. وَقَدْ حَكَى اللَّهُ مَقَالَاتِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَرَدَّ عَلَى كُلِّ فَرِيقٍ فَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ نَبَغَ لَهُمْ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْيُونَانِ، يُقَالُ لَهُ: قُسْطَنْطِينُ، فَدَخَلَ فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، قِيلَ: حِيلَةً، لِيُفْسِدَهُ، فَإِنَّهُ كَانَ فَيْلَسُوفًا، وَقِيلَ: جَهْلًا مِنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ بَدَّلَ لَهُمْ دِينَ الْمَسِيحِ وَحَرَفَهُ، وَزَادَ فِيهِ وَنَقَصَ مِنْهُ. وَوُضِعَتْ لَهُ الْقَوَانِينُ، وَالْأَمَانَةُ الْكُبْرَى، الَّتِي هِيَ الْخِيَانَةُ الْحَقِيرَةُ، وَأَجَلَ فِي زَمَانِهِ لَحْمُ الْجَنْزِيرِ، وَصَلُّوا لَهُ إِلَى الْمَشْرِقِ، وَصَوَّرُوا لَهُ

الْكَنَائِسَ، وَزَادُوا فِي صِيَامِهِمْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ مِنْ أَجْلِ ذَنْبِ ارْتِكَابِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ، وَصَارَ دِينَ الْمَسِيحِ دِينَ قُسْطَنْطِينِ، إِلَّا أَنَّهُ بَنَى لَهُمْ مِنَ الْكَنَائِسِ وَالْمَعَابِدِ وَالصَّوَامِعِ وَالذَّبَابَاتِ مَا يَزِيدُ عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ مَعْبَدٍ، وَبَنَى الْمَدِينَةَ الْمُنَشُوبَةَ إِلَيْهِ، وَاتَّبَعَهُ الطَّائِفَةُ الْمَلِكِيَّةُ مِنْهُمْ، وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ قَاهِرُونَ لِلْيَهُودِ، أَتَدَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ أَقْرَبَ إِلَى الْحَقِّ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ كُفَّارًا، عَلَيْهِمْ لَعْنَتُنِ اللَّهِ.

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَكَانَ مَنْ آمَنَ بِهِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ، كَانُوا هُمْ أَتْبَاعَ كُلِّ نَبِيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، إِذْ قَدْ صَدَّقُوا الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، خَاتِمَ الرُّسُلِ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى التَّصْدِيقِ بِجَمِيعِ الْحَقِّ، فَكَانُوا أَوَّلَى بِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ أُمَّتِهِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّتِهِ وَطَرِيقَتِهِ، مَعَ مَا قَدْ حَرَفُوا وَبَدَّلُوا، ثُمَّ لَوْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، لَكَانَ قَدْ نَسَخَ اللَّهُ بِشَرِيعَتِهِ شَرِيعَةَ جَمِيعِ الرُّسُلِ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا يُغَيَّرُ وَلَا يُبَدَّلُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلَا يَزَالُ قَائِمًا مَنْصُورًا ظَاهِرًا عَلَى كُلِّ دِينٍ، فَلِهَذَا فَتَحَ اللَّهُ لِأَصْحَابِهِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَاحْتَازُوا جَمِيعَ الْمَمَالِكِ، وَذَانَتْ لَهُمْ جَمِيعُ الدُّوَلِ، وَكَسَرُوا كِسْرَى، وَقَصَرُوا قِصْرَ، وَسَلَبُوا هُمَا كُنُوزَهُمَا، وَأَنْفَقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ نَبِيُّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...﴾ [الأنعام: ٥٥]، وَلِهَذَا لَمَّا كَانُوا هُمْ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَسِيحِ حَقًّا، سَلَبُوا النَّصَارَى بِلَادَ الشَّامِ، وَأَجْلَوْهُمْ إِلَى الرُّومِ، فَلَجَّؤُوا إِلَى مَدِينَتِهِمُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ فَوْقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمُصَدِّقُ أَمَّتَهُ بِأَنَّهُ أَخْرَجَهُمْ سَقَطَحُونَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَيَسْتَفِيضُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ، وَيَقْتُلُونَ الرُّومَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جَدًّا، لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهَا، وَلَا يَرُونَ بَعْدَهَا نَظِيرَهَا، وَقَدْ جَمَعْتُ فِي هَذَا جُزْءًا مُفْرَدًا.

(١) فتح الباري: ١١/١٣٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٢/٢٩٦



## [تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَخُصِمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥٩) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِمَنْ كَفَرَ بِالْمَسِيحِ مِنَ الْيَهُودِ، أَوْ غَلَا فِيهِ أَوْ أَطْرَاهُ مِنَ النَّصَارَى، عَذِبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ، وَإِزَالَهَ الْأَيْدِي عَنِ الْمَمَالِكِ، وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَذَابُهُمْ أَشَدُّ وَأَشَقُّ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾، وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي قَضَضْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي أَمْرِ عِيسَى، وَمَبْدَأِ مِيلَادِهِ، وَكَيْفِيَّةِ أَمْرِهِ، هُوَ مِمَّا قَالَهُ تَعَالَى وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ، وَنَزَّلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللُّوحِ الْمَحْضُوطِ، فَلَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٦٢) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (مریم: ٣٤، ٣٥) وَهَهُنَا قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٨) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥٩﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَهُ الْغَرِيبِ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

## [الْمَمَثَلَةُ فِي خَلْقِ آدَمَ وَعِيسَى]

يَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَلَا أُمَّ بَلَّ ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فَالَّذِي خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَأُمٍّ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ عِيسَى بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى، وَإِنْ جَارَ ادِّعَاءُ الْبُتُوَّةِ فِي عِيسَى لِكُونِهِ مَخْلُوقًا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَجَوَّازُ ذَلِكَ فِي آدَمَ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلَى. وَمَعْلُومٌ بِالِاتِّفَاقِ أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ، فَدَعَاوَاهَا فِي عِيسَى أَشَدُّ بَطْلَانًا وَأَظْهَرُ فُسَادًا، وَلَكِنَّ الرَّبَّ

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَهُ الْغَرِيبِ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ءَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَكَأَنْتُمْ هُنَا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

جَلَّ جَلَالُهُ أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ قُدْرَتَهُ لِخَلْقِهِ، حِينَ: خَلَقَ آدَمَ لَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا مِنْ أُنْثَى، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، كَمَا خَلَقَ بَقِيَّةَ الْبَرِيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ (مریم: ٢١) وَقَالَ هَهُنَا: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أَيُّ هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْحَقُّ فِي عِيسَى الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ، وَلَا صَحِيحَ سِوَاهُ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ.

## [الدَّعْوَةُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ، أَنْ يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ فِي أَمْرِ عِيسَى بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيَانِ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أَيُّ نُحْضِرُهُمْ فِي حَالِ الْمُبَاهَلَةِ ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أَيُّ نَلْتَعِنُ ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أَيُّ مِتْنَا أَوْ مِنْكُمْ. وَكَانَ سَبَبُ تَرْوِيلِ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ أَوَّلِ

الله، بِأَنَّهُ كَانَ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ  
وَالْأَسْقَامَ، وَيُخَيِّرُ بِالْغُيُوبِ، وَيَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ  
الطَّيْرِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِأَمْرِ اللَّهِ.  
وَلِيَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ، وَيَحْتَجُّونَ فِي قَوْلِهِمْ: بِأَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ،  
يَقُولُونَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ يَعْلَمُ. وَقَدْ تَكَلَّمَ فِي الْمُهْدِ بِشَيْءٍ  
لَمْ يَصْنَعْهُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَهُ. وَيَحْتَجُّونَ فِي قَوْلِهِمْ بِأَنَّهُ  
ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَعَلْنَا وَأَمَرْنَا وَخَلَقْنَا وَقَضَيْنَا،  
فَيَقُولُونَ لَوْ كَانَ وَاحِدًا مَا قَالَ إِلَّا فَعَلْتُ وَقَضَيْتُ وَأَمَرْتُ  
وَخَلَقْتُ. وَلَكِنَّهُ هُوَ وَعِيسَى وَمَرْيَمُ - تَعَالَى اللَّهُ وَتَقَدَّسَ  
وَتَنَزَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِلُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا - فِي  
كُلِّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ قَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَلَى التَّفْسِيرِ إِلَى أَنْ قَالَ: فَلَمَّا  
أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ مِنَ اللَّهِ، وَالْفَضْلَ مِنَ الْقَضَاءِ  
بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَأَمَرَ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ مُلَاعَظَتِهِمْ إِنْ رَدُّوا ذَلِكَ  
عَلَيْهِ، دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، دَعْنَا  
نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا، ثُمَّ نَأْتِيكَ بِمَا نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِيمَا دَعَوْتَنَا  
إِلَيْهِ، فَاَنْصَرِفُوا عَنْهُ، ثُمَّ خَلَوْا بِالْعَاقِبِ، وَكَانَ ذَا رَأْيِهِمْ،  
فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ مَاذَا تَرَى؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ  
النَّصَارَى، لَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا لَنَبِيِّ مَرْسَلٍ، وَلَقَدْ  
جَاءَكُمْ بِالْفَضْلِ مِنْ خَيْرِ صَاحِبِكُمْ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ مَا  
لَا عَنْ قَوْمٍ نَبِيًّا قَطُّ، فَتَجَبَّيْ كِبِيرَهُمْ وَلَا تَبْتَ صَغِيرَهُمْ. وَإِنَّهُ  
لَلْإِسْتِصْالِ مِنْكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ، فَإِنْ كُثِمْتُمْ أَيْبَتُمْ إِلَّا إِلْفٌ  
دِينِكُمْ، وَالْإِقَامَةُ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي  
صَاحِبِكُمْ، فَوَادِعُوا الرَّجُلَ وَانْصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ، فَأَتَوْا  
النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَدْ رَأَيْنَا إِلَّا ثَلَاثَةً،  
وَنَتَرَكُكَ عَلَى دِينِكَ، وَنَرْجِعُ عَلَى دِينِنَا، وَلَكِنْ ابْعَثْ مَعَنَا  
رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ تَرْضَاهُ لَنَا بِحُكْمٍ بَيْنَنَا فِي أَشْيَاءَ  
اخْتَلَفْنَا فِيهَا مِنْ أُمُورِنَا، فَإِنَّكُمْ عِنْدَنَا رَضًا<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ  
الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،  
يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا  
تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعِنَاهُ لَا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا  
عَقِبَتَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ  
مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا، فَقَالَ:

السُّورَةُ إِلَى هُنَا فِي وَفْدِ نَجْرَانَ: أَنَّ النَّصَارَى حِينَ قَدِمُوا  
فَجَعَلُوا يُحَاجُّونَ فِي عِيسَى، وَيَزْعُمُونَ فِيهِ مَا يَزْعُمُونَ مِنَ  
النَّبُوتَةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَيْهِمْ،  
كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ وَغَيْرُهُ. قَالَ  
ابْنُ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ الْمَشْهُورَةِ وَغَيْرِهِ: وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ وَفْدٌ نَصَارَى نَجْرَانَ، سِتُّونَ رَاكِبًا، فِيهِمْ أَرْبَعَةٌ  
عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يُؤُولُ إِلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ وَهُمْ:  
الْعَاقِبُ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْمَسِيحِ، وَالسَّيِّدُ، وَهُوَ الْأَيْهَمُ، وَأَبُو  
حَارِثَةَ بْنُ عُلْقَمَةَ أَخُو بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ، وَأُوَيْسُ بْنُ الْحَارِثِ،  
وَزَيْدٌ، وَقَيْسٌ، وَيَزِيدُ وَنَبِيهٌ، وَخُوَيْلِدٌ، وَعَمْرُو، وَخَالِدٌ،  
وَعَبْدُ اللَّهِ، وَيُحَسِّنُ. وَأَمْرٌ هَؤُلَاءِ يُؤُولُ إِلَى ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ،  
وَهُمْ: الْعَاقِبُ، وَكَانَ أَمِيرَ الْقَوْمِ، وَذَا رَأْيِهِمْ، وَصَاحِبَ  
مَشُورَتِهِمْ، وَالَّذِي لَا يَصْدُرُونَ إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ. وَالسَّيِّدُ وَكَانَ  
عَالِمَهُمْ وَصَاحِبَ رَحْلِهِمْ وَمُجْتَمِعِهِمْ. وَأَبُو حَارِثَةَ بْنُ  
عُلْقَمَةَ، وَكَانَ أَشَقَقَهُمْ وَحَبْرَهُمْ وَإِمَامَهُمْ، وَصَاحِبَ  
مَذَرِاسِهِمْ. وَكَانَ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ،  
وَلَكِنَّهُ تَنَصَّرَ فَطَعَّمَتَهُ الرُّومُ وَمَلُوكُهَا، وَشَرَفُوهُ، وَنَبَّوْا لَهُ  
الْكُنَائِسَ، وَمَوَلَّوْهُ، وَأَخْلَدُوهُ، لِمَا يَعْلَمُونَهُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي  
دِينِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ كَانَ يَعْرِفُ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصِفَتَهُ  
وَشَأْنَهُ، بِمَا عَلِمَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَكِنْ حَمَلَهُ جَهْلُهُ  
عَلَى الْاسْتِمْرَارِ فِي النَّصْرَانِيَّةِ، لِمَا يَرَى مِنْ تَعْظِيمِهِ فِيهَا،  
وَجَاهِهِ عِنْدَ أَهْلِهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ،  
قَالَ: قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ  
مَسْجِدَهُ حِينَ صَلَّى الْعَصْرَ، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْجَبَرَاتِ: جُبٌّ  
وَأَرْدِيَّةٌ، فِي جَمَالِ رِجَالِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ. قَالَ:  
يَقُولُ بَعْضُ مَنْ رَأَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا رَأَيْنَا  
بَعْدَهُمْ وَفْدًا مِثْلَهُمْ، وَقَدْ حَانَتْ صَلَاتُهُمْ، فَقَامُوا فِي  
مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُصَلُّونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
«دَعُوهُمْ» فَصَلُّوا إِلَى الْمَشْرِقِ، قَالَ: فَكَلَّمَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ أَبُو حَارِثَةَ بْنُ عُلْقَمَةَ، وَالْعَاقِبُ  
عَبْدَ الْمَسِيحِ، أَوِ السَّيِّدُ الْأَيْهَمُ، وَهُمْ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ عَلَى  
دِينِ الْمَلِكِ مَعَ اخْتِلَافِ أَمْرِهِمْ يَقُولُونَ: هُوَ اللَّهُ،  
وَيَقُولُونَ: هُوَ وَلَدُ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ: هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، تَعَالَى  
اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ النَّصْرَانِيَّةِ، فَهُمْ يَحْتَجُّونَ فِي قَوْلِهِمْ: هُوَ

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَعْنِي يُطِيعُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أَيْ فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا التَّصْفِ وَهَذِهِ الدَّعْوَةِ، فَأَشْهَدُوهُمْ أَنَّكُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ.

وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَأَسْلِمُ تَسْلِمًا، وَأَسْلِمُ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ﴿يَتَأَهَّلُ الْكُتُبُ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةً سَلَامَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾».

وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّ صَدْرَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ إِلَى بَضْعٍ وَتَمَانِينَ آيَةً مِنْهَا؛ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ نَجْرَانَ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: هُمْ أَوَّلُ مَنْ بَدَلَ الْجِزْيَةِ. وَلَا خِلَافَ أَنَّ آيَةَ الْجِزْيَةِ نَزَلَتْ بَعْدَ الْفَتْحِ! فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ كِتَابَةِ هَذِهِ الْآيَةِ قَبْلَ الْفَتْحِ إِلَى هِرَقْلَ فِي جُمْلَةِ الْكِتَابِ، وَبَيْنَ مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ وَالزُّهْرِيُّ؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ قُدُومَ وَفْدِ نَجْرَانَ كَانَ قَبْلَ الْخُدَيْيَةِ، وَأَنَّ الَّذِي بَدَّلُوهُ مُصَالِحَةً عَنِ الْمَبَاهِلَةِ لَا عَلَى وَجْهِ الْجِزْيَةِ، بَلْ يَكُونُ مِنْ بَابِ الْمُهَادَنَةِ وَالْمُصَالِحَةِ، وَوَافَقَ نَزُولَ آيَةِ الْجِزْيَةِ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ: فَرُضَ الْحُمْسُ وَالْأَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ وَفَقَ مَا فَعَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ فِي تِلْكَ السَّرِيَةِ قَبْلَ بَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَتْ فَرِيضَةُ الْقَسَمِ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ [البقرة: ٢١٧]. وَتَحْتَمِلُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا أَمَرَ بِكُتُبِ هَذَا فِي كِتَابِهِ إِلَى هِرَقْلَ، لَمْ يَكُنْ أُنْزِلَ بَعْدُ، ثُمَّ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ مُوَافَقَةً لَهُ ﷺ، كَمَا نَزَلَ بِمُوَافَقَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي الْحِجَابِ وَفِي الْأَسَارَى، وَفِي عَدَمِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَاجْتَنِبُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وَفِي قَوْلِهِ: ﴿عَسَى رَبُّهُ أَنْ يُلَاقَكُمْ أَنْ تُبَدِّلَهُ﴾

(١) فتح الباري: ٦٩٥/٧ (٢) فتح الباري: ٦٩٦/٧ (٣)

أحمد: ٢٤٨/١ (٤) فتح الباري: ٥٩٥/٨ وتحفة الأحوذى:

٧٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦

﴿لَا تَعْبُدُوا مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ﴾ فَاسْتَشْرَفَ لَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ، فَحَبَّهَ اللَّهُ: إِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَا يَتَنَبَّهَ، حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ، قَالَ: فَقَالَ: «لَوْ فَعَلَ لَأَخَذْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عَيْنَانِ»، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَا لَا وَلَا أَهْلًا»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فِي شَأْنِ عِيسَى هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَعْدِلَ عَنْهُ وَلَا مَحِيدَ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَى اللَّهِ نُفُوسُ الْغَائِبِينَ﴾<sup>(٥)</sup> فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيْ عَنْ هَذَا إِلَى غَيْرِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ فَهُوَ الْمُفْسِدُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ شَرُّ الْجَزَاءِ، وَهُوَ الْقَادِرُ الَّذِي لَا يَقُوتُهُ شَيْءٌ، سُبْحَانَهُ وَيَحْمَدُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ حُلُولِ نِقْمَتِهِ.

﴿قُلْ يَتَأَهَّلُ الْكُتُبُ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةً سَلَامَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٦)</sup>

[مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ]

هَذَا الْخُطَابُ يُعَمُّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ. ﴿قُلْ يَتَأَهَّلُ الْكُتُبُ تَعَالَوْا إِلَيَّ كَلِمَةً﴾ وَالْكَلِمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُفِيدَةِ، كَمَا قَالَ هُنَا، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿سَلَامَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيْ عَدْلٍ وَنُصْفٍ، نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لَا وَثَنًا، وَلَا صُلْبِيًّا، وَلَا صَنْمًا، وَلَا طَاغُوتًا، وَلَا نَارًا، وَلَا شَيْئًا، بَلْ نُفَرِّدُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَهَذِهِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى:

الْحَقُّ

٥٩

سُورَةُ آلِ

يَتَّاهِلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ  
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا  
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَكُفُّوا عَنْ آخِرِهِ  
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ  
الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكمُ  
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ  
عِلْمُهُ ﴿٧٣﴾ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ  
الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ  
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا  
مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ  
سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾  
بَلَى مَن أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ  
الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا  
خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

الْآيَةُ [البقرة: ١٣٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ  
وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى:  
أَحَقُّ النَّاسِ بِمُتَابَعَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ عَلَى  
دِينِهِ، وَهَذَا النَّبِيُّ، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ  
أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بَعْدَهُمْ. رَوَى  
سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وِلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ،  
وَإِنَّ وَلِيَّيَّ مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» ثُمَّ قَرَأَ:  
﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ (١) ... الْآيَةُ. قَوْلُهُ:  
﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ وَلِيِّ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِرُسُلِهِ.

﴿وَدَّتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا  
أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢) يَتَّاهِلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ  
اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَنْهَدُونَ ﴿٧١﴾ يَتَّاهِلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ

أَزْوَجًا خَيْرًا مِنْكُمْ﴾ ... الْآيَةُ [التحریم: ٥].

﴿يَتَّاهِلُ الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ  
وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣) هَكَأُنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ  
فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ  
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ  
لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٤﴾  
[مُحَاجَّةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ]

يُنَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي  
مُحَاجَّتِهِمْ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَدَعَا كُلَّ  
طَافِيَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ، كَمَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ  
ابْنُ يَسَارٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:  
اجْتَمَعَتْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَأَخْبَارُ يَهُودٍ عِنْدَ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ، فَتَنَازَعُوا عِنْدَهُ، فَقَالَتْ الْأَخْبَارُ: مَا كَانَ  
إِبْرَاهِيمَ إِلَّا يَهُودِيًّا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ  
إِلَّا نَصْرَانِيًّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّاهِلُ الْكِتَابَ لِمَ  
تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ ... الْآيَةُ، أَيُّ كَيْفَ تَدْعُونَ - أَيُّهَا  
الْيَهُودُ - أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا، وَقَدْ كَانَ زَمَنُهُ قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ  
التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى؟ وَكَيْفَ تَدْعُونَ - أَيُّهَا النَّصَارَى - أَنَّهُ  
كَانَ نَصْرَانِيًّا (١). وَإِنَّمَا حَدَّثَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بَعْدَ زَمَنِهِ بِدْهَرٍ؟  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَكَأُنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ  
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ... الْآيَةُ. هَذَا  
إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُحَاجُّ فِيمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّ الْيَهُودَ  
وَالنَّصَارَى تَحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ بِمَا عِلْمٌ، وَلَوْ تَحَاجُّوا  
فِيمَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْهُ عِلْمٌ مِّمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَدْيَانِهِمُ الَّتِي شَرَعَتْ  
لَهُمْ إِلَى حِينِ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لَكَانَ أَوَّلَى بِهِمْ، وَإِنَّمَا  
تَكَلَّمُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ،  
وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ  
وَالشَّهَادَةِ الَّذِي يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَجَلِيَّاتِهَا،  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ  
قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ  
حَنِيفًا مُّسْلِمًا أَيُّ مُتَحَنِّنًا عَنِ الشَّرِكِ، قَاصِدًا إِلَى الْإِيمَانِ  
﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي  
سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ ...

الْأَقْدَمِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يَقُولُونَ: لَا تَظْهَرُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ لِلْمُسْلِمِينَ، فَيَتَعَلَّمُوهُ مِنْكُمْ، وَيَسْأَلُوكُمْ فِيهِ، وَيَمْتَارُوا بِهِ عَلَيْكُمْ لِيُشَدَّ الْإِيمَانُ بِهِ، أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ، أَيْ يَتَّخِذُوهُ حُجَّةً عَلَيْكُمْ بِمَا فِي أَيْدِيكُمْ، فَتَقُومَ بِهِ عَلَيْكُمْ الدَّلَالَةُ، وَتَرْكَبَ الْحُجَّةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ

الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ الْأُمُورُ كُلُّهَا تَحْتَ تَصَرُّفِهِ، وَهُوَ الْمُعْطِي الْمَنَاعِ، يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالنَّصُورِ التَّامِّ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَيُعْمِي بَصَرَهُ وَبَصِيرَتَهُ، وَيَخْتِمْ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ، وَيَجْعَلُ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، وَلَهُ الْحُجَّةُ التَّامَّةُ وَالْحُكْمُ الْبَالِغَةُ ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ ٧١ ﴿يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أَيْ اخْتَصَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَا يَحُدُّ وَلَا يُوَصِّفُ بِمَا شَرَّفَ بِهِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَاكُمْ بِهِ إِلَى أَكْمَلِ الشَّرَائِعِ.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُودِّعْهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّعْهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنَيْنِ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٧٢ ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ٧٣

#### [بَيَانُ حَالِ أَمَانَةِ الْيَهُودِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّهُ فِيهِمُ الْخَوَنَةُ، وَيَحْذِرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِهِمْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ﴾ أَيْ مِنَ الْمَالِ ﴿يُودِّعْهُ إِلَيْكَ﴾ أَيْ وَمَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأُولَى أَنْ يُودِّعَهُ إِلَيْكَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّعْهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أَيْ بِالْمُطَالَبَةِ وَالْمُلَازِمَةِ وَالْإِلْحَاحِ فِي اسْتِخْلَاصِ حَقِّكَ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعُهُ فِي الدِّينَارِ فَمَا فَوْقَهُ أُولَى أَنْ لَا يُودِّعَهُ إِلَيْكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنَيْنِ سَكِيلٌ﴾ أَيْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرَجٌ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ، وَهُمْ الْعَرَبُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْلَاهَا لَنَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَقَدْ اخْتَلَفُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَاتَّفَقُوا بِهَذِهِ الضَّلَالَةِ، فَإِنَّ

وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٧٤ ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا عَنَّا عَرَضَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٧٥ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ الْهَدَى اللهُ أَنَا يُؤْتَى اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ ٧٦ ﴿يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ٧٧

#### [حَسَدُ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ وَكَيْدُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ حَسَدِ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَبَغْيِهِمْ إِيَّاهُمْ الْإِضْلَالِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ وَبَالَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ أَنََّّهُمْ مَمْكُورٌ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُكْرًا عَلَيْهِمْ: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أَيْ تَعْلَمُونَ صِدْقَهَا وَتَتَحَقَّقُونَ حَقَّهَا ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ تَكْتُمُونَ مَا فِي كُتُبِكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ ذَلِكَ وَتَتَحَقَّقُونَهُ.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا عَنَّا عَرَضَ﴾ ... الْآيَةُ، هَذِهِ مَكِيدَةٌ أَرَادُوهَا لِيَلْبَسُوا عَلَى الضَّعْفَاءِ مِنَ النَّاسِ أَمْرَ دِينِهِمْ، وَهُوَ أَنَّهُمْ اشْتَرَوْا بَيْنَهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا الْإِيمَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ، وَيُصَلُّوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَإِذَا جَاءَ آخِرُ النَّهَارِ ارْتَدُّوا إِلَى دِينِهِمْ، لِيَقُولَ الْجَهْلَةُ مِنَ النَّاسِ: إِنَّمَا رَدَّاهُمْ إِلَى دِينِهِمْ أَطْلَاعُهُمْ عَلَى تَقِيصَةِ وَعَيْبِ فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْيَهُودِ بِهَذِهِ الْآيَةِ: يَعْنِي يَهُودَ، صَلَّتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَكُفُّوا آخِرَ النَّهَارِ مَكْرًا مِنْهُمْ، لِيَرَوْا النَّاسَ أَنَّ قَدْ بَدَتْ لَهُمْ مِنْهُ الضَّلَالَةُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا اتَّبَعُوهُ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أَيْ لَا تَطْمَئِنُّوا وَتَظْهَرُوا سِرَّكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ، وَلَا تَظْهَرُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ وَيَخْتَجُّوا بِهِ عَلَيْكُمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ الْهَدَى اللهُ هَدَى إِلَهُهُ﴾ أَيْ هُوَ الَّذِي يَهْدِي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَنْتُمْ الْإِيمَانِ بِمَا يُنْزِلُهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ؛ وَإِنْ كَتَمْتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ مَا بِأَيْدِيكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فِي كُتُبِكُمُ الَّتِي نَقَلْتُمُوهَا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ

اللَّهُ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بُهْتُ.

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ صَعْصَعَةَ بْنِ يَرِيدٍ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: إِنَّا نَصِيبُ فِي الْغَزْوِ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الذِّمَّةِ الدَّجَاجَةَ وَالشَّاةَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَقُولُونَ مَاذَا؟ قَالَ: تَقُولُ: لَيْسَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ بَأْسٌ، قَالَ: هَذَا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمْثَلِ سَبِيلٌ﴾، إِنَّهُمْ إِذَا أَدَّوْا الْجَزْيَةَ لَمْ تَحِلَّ لَكُمْ أَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِطَبِيبٍ أَنْفُسِهِمْ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ أَيُّ لَكِنْ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِي عَاهَدْتُمْ اللَّهَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بُعِثَ، كَمَا أَخَذَ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمِهِمْ بِذَلِكَ، وَاتَّقَى مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاتَّبَعَ طَاعَتَهُ وَشَرِيعَتَهُ الَّتِي بَعَثَ بِهَا خَاتَمَ رُسُلِهِ وَسَيِّدَ الْبَشَرِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

[لَا نَصِيبَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ خَالَفَ الْعَهْدَ]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ عَمَّا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَذَكَرِ صِفَتِهِ لِلنَّاسِ وَبَيَّانِ أَمْرِهِ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةَ الْفَاجِرَةَ الْأَيْمَةَ بِالْأَيْمَانِ الْقَلِيلَةِ الزَّهِيدَةِ، وَهِيَ غُرُوضُ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا وَلَا حَظٌّ لَهُمْ مِنْهَا ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ﴾ أَيُّ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ لَهُمْ، يَعْنِي لَا يُكَلِّمُهُمْ كَلَامَ لُطْفٍ بِهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ أَيُّ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَذْنَانِ، بَلْ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ تَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، فَلَنَذْكُرْ بَعْضًا مِنْهَا.

(الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي دَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ خَابِرُوا وَخَسِرُوا؟ قَالَ: وَأَعَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمُتَنَقِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ، وَالْمَنَانُ»<sup>(٣)</sup> وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ الشُّعْبِ<sup>(٤)</sup>.

(الْحَدِيثُ الثَّانِي) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَوْبَةَ

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِيَتَحَسَّبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

الْكِنْدِيِّ، قَالَ: خَاصِمَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ، يُقَالُ لَهُ: إِمْرُؤُ الْقَيْسِ ابْنُ عَبَّاسٍ، رَجُلًا مِنْ حَضْرَمَوْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَرْضِ، فَقَضَى عَلَى الْحَضْرَمِيِّ بِالْبَيْتَةِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيْتَةٌ، فَقَضَى عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ بِالْيَمِينِ، فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ: إِنَّ أَمَكْنَتَهُ مِنَ الْيَمِينِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذَهَبَتْ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ أَرْضِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ خَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةً لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالٌ أَحَدٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» قَالَ رَجَاءٌ - أَحَدُ رُؤَايِهِ -: وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: مَاذَا لِمَنْ تَرَكَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «الْجَنَّةُ». قَالَ: فَاشْهَدْ أَنِّي قَدْ تَرَكَتُهَا لَهُ كُلَّهَا<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٥)</sup>.

(١) عبد الرزاق: ١٢٣/١ فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس لم يصرح بالسماع (٢) أحمد: ١٤٨/٥ (٣) مسلم: ١٠٢/١ وأبو داود: ٣٤٦/٤ وتحفة الأحوذى: ٤٠١/٤ والنسائي: ٢٤٥/٧ وابن ماجه: ٧٤٤/٢ (٤) أحمد: ١٩١/٤ (٥) النسائي في الكبرى: ٤٨٦/٣

مَحْفُوظَةٌ لَا تُحَوَّلُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، فَإِنْ عَنَى وَهَبٌ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَهَا التَّيْدِيلُ وَالتَّحْرِيفُ وَالزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ، وَأَمَّا تَعْرِيبُ ذَلِكَ الْمَشَاهِدِ بِالْعَرَبِيَّةِ فَفِيهِ خَطَأٌ كَبِيرٌ، وَزِيَادَاتٌ كَثِيرَةٌ وَنُقْصَانٌ، وَوَهْمٌ فَاحِشٌ، وَهُوَ مِنْ بَابِ تَفْسِيرِ الْمُعَبَّرِ الْمُعَرَّبِ؛ وَفَهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ بَلْ جَمِيعُهُمْ فَاسِدٌ. وَأَمَّا إِنْ عَنَى كُتِبَ اللَّهُ الَّتِي هِيَ كُتِبَتْ عَنْدَهُ فَنِلْتُكَ كَمَا قَالَ مَحْفُوظَةٌ لَمْ يَدْخُلْهَا شَيْءٌ.

﴿مَا كَانَ لِيَسِيرَ أَنْ يُؤَيِّسَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٨) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٩﴾

[النَّبِيُّ لَا يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَلَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ] أَيُّ مَا يَبْغِي لِيَسِيرَ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ، أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: اعْبُدُونِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَيْ مَعَ اللَّهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يَصْلُحُ لِنَبِيِّ وَلَا لِمُرْسَلٍ، فَلَا أَنْ لَا يَصْلُحُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِهِمْ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى، فَالْجَهْلَةُ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَمَشَائِخِ الضَّلَالِ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ، بِخِلَافِ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَبَلَّغْتُهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكِرَامُ، وَإِنَّمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ، وَبَلَّغْتُهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكِرَامُ، فَالرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، هُمُ السُّفَرَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي آدَاءِ مَا حَمَلُوهُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاجِ الْأَمَانَةِ، فَقَامُوا بِذَلِكَ أَتَمَّ قِيَامٍ وَنَصَحُوا الْخَلْقَ، وَبَلَّغُوهُمْ الْحَقَّ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أَيُّ وَلَكِنْ يَقُولُ الرَّسُولُ لِلنَّاسِ: كُونُوا رَبَّائِينَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو رَزِينٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيُّ حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الصَّحَّاحُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ حَقٌّ عَلَى مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تَحْفَظُونَ أَلْفَاظَهُ.

(الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ) رَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ». فَقَالَ الْأَشْعَثُ: فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ؛ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَاكَ بَيْتَةٌ؟» قُلْتُ: لَا. فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «اخْلِفْ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا يَحْلِفَ فَيَذْهَبَ مَالِي. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾... الآية<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ<sup>(٣)</sup>.

(الْحَدِيثُ الرَّابِعُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُرْكَبُهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عَنْدَهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ - يَعْنِي كَاذِبًا - وَرَجُلٌ بَاعَ إِمَامًا فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٥)</sup>.

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٠)

[تَحْرِيفُ الْيَهُودِ لِكَلَامِ اللَّهِ بِلُغَةِ الْأَلْسِنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ عَلَيْهِمُ لَعْنَتُ اللَّهِ، أَنَّ مِنْهُمْ فَرِيقًا يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَذِلُّونَ كَلَامَ اللَّهِ وَيُزِيلُونَهُ عَنِ الْمُرَادِ بِهِ، لِيُوهِمُوا الْجَهْلَةَ أَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَذَلِكَ، وَيَنْسِبُونَهُ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿يَلُونُ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ﴾ يُحَرِّفُونَهُ<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ وَيَزِيدُونَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُزِيلُ لَفْظَ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ يَحَرِّفُونَهُ: يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ. وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مُتَبِّهِ: إِنَّ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ كَمَا أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى، لَمْ يُعَيَّرْ مِنْهُمَا حَرْفٌ، وَلَكِنَّهُمْ يُضِلُّونَ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ وَكُتِبَ كَانُوا يَكْتُبُونَهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فَأَمَّا كُتُبُ اللَّهِ فَإِنَّهَا

(١) أحمد: ٣٧٩/١ (٢) فتح الباري: ٣٣٦/٥ ومسلم: ١/ ١٢٢ (٣) أحمد: ٤٨٠/٢ (٤) أبو داود: ٧٤٩/٣ وتحفة الأحوذى: ٢١٨/٥ (٥) ابن أبي حاتم: ٣٦١/٢ (٦) ابن أبي حاتم: ٣٦٥/٢

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦١

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

قُلْ ءَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيْمَ  
وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ  
مُوسٰى وَعِيسٰى وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ  
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ  
دِيْنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴿٨٥﴾  
كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ وَشَهِدُوا  
أَنَّ الرُّسُوْلَ حَقٌّ وَجَءَهُمُ الْبَيِّنٰتُ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّٰلِمِيْنَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّٰهِ  
وَالْمَلٰئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ ﴿٨٧﴾ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا لَا يُخَفَّفُ  
عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ  
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ  
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّآلُّوْنَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ  
كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَابًا وَلَوْ  
أَفْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِيْنَ ﴿٩١﴾

حَيَّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ<sup>(٣)</sup>. وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ  
عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ  
وَلَيَنْصُرَنَّهُ. وَقَالَ طَاوُوسٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: أَخَذَ  
اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ أَنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهَذَا لَا  
يُضَادُّ مَا قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي عَبَّاسٍ.

فَالرُّسُولُ مُحَمَّدٌ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ  
دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ الَّذِي لَوْ وُجِدَ فِي  
أَيِّ عَصْرِ وَجِدَ، لَكَانَ هُوَ الْوَاجِبُ الطَّاعَةِ، الْمُقَدَّمُ عَلَى  
الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَلِهَذَا كَانَ إِمَامَهُمْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ لَمَّا اجْتَمَعُوا  
بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَذَلِكَ هُوَ الشَّفِيعُ فِي يَوْمِ الْمَحْشَرِ فِي  
إِتْيَانِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَهُوَ  
الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي لَا يَلِيْقُ إِلَّا لَهُ، وَالَّذِي يَجِيْدُ عَنْهُ  
أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، حَتَّى تَنْتَهِيَ التَّوْبَةُ إِلَيْهِ،

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ  
أَرْبَابًا﴾ أَيْ وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ، لَا نَبِيٍّ مُّرْسَلٍ  
وَلَا مَلِكٍ مُّقَرَّبٍ ﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَيْ لَا  
يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ دَعَا إِلَى  
الْكُفْرِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَخِدَّةُ  
لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ  
رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]  
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ  
وَأَجْتَنِبُوا الصُّلُوغَ﴾... الْآيَةُ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ:  
﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ  
إِلَٰهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وَقَالَ إِنْجَارًا عَنِ الْمَلَايِكَةِ:  
﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ، فَلَذِكَ تَجْرِيهِ جَهَنَّمُ  
كَذَٰلِكَ تَجْزِي الظَّٰلِمِيْنَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ  
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ-  
وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا  
قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٦﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ  
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٨٧﴾﴾

[أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ]  
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ مِيثَاقَ كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَهْمَا أَتَى اللَّهُ  
أَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، وَبَلَغَ أَيُّ مَبْلَغٍ، ثُمَّ جَاءَهُ  
رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وَلَا يَمْتَنِعَهُ مَا هُوَ  
فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالتَّوْبَةِ مِنْ اتِّبَاعِ مَنْ بُعِثَ بَعْدَهُ وَنُصْرَتِهِ،  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا  
آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أَيْ لَمَهْمَا أَعْطَيْنَاكُمْ مِنْ  
كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ  
بِهِ-وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾. وَقَالَ  
ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي  
عَهْدِي<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ﴿إِصْرِي﴾ أَيْ يُقَالُ مَا  
حُمِّلْتُمْ مِنْ عَهْدِي<sup>(٢)</sup>. أَيْ مِيثَاقِي الشَّدِيدَ الْمُؤَكَّدَ ﴿قَالُوا  
أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ  
ذَٰلِكَ﴾ أَيْ عَنْ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ  
الْفٰسِقُونَ﴾، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ عَمَّةٍ عَبْدُ اللَّهِ  
ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ  
الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ، لَئِنْ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَهُوَ

(١) ابن أبي حاتم: ٣٧٣/٢، ٣٧٤ (٢) ابن أبي حاتم: ٢/

٢٧٣ (٣) الطبري: ٥٥٥/٦



فَيَكُونُ هُوَ الْمَخْصُوصُ بِهِ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُوثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ  
وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ  
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ  
لَا نَفَرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ  
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥)  
[الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَلَا يُقْبَلُ غَيْرُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَكْرِرًا عَلَى مَنْ أَرَادَ دِينًا سِوَى دِينِ اللَّهِ  
الَّذِي أُنْزِلَ بِهِ كُتُبُهُ، وَأُرْسِلَ بِهِ رُسُلُهُ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ  
لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي ﴿لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾  
أَيَّ اسْتَسْلَمَ لَهُ مَنْ فِيهِمَا طَوْعًا وَكَرْهًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾... الآية،  
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَفْتَنُوا ظُلُمَهُ  
عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذُرِّيُّونَ﴾ (٨٦) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ  
﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:  
٤٨-٥٠] فَالْمُؤْمِنُ مُسْتَسْلِمٌ بِقَلْبِهِ وَقَالِيهِ لِلَّهِ، وَالْكَافِرُ  
مُسْتَسْلِمٌ لِلَّهِ كَرْهًا، فَإِنَّهُ تَحْتَ التَّشْخِيرِ وَالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ  
الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ، وَقَدْ رَوَى وَكِيعٌ فِي  
تَفْسِيرِهِ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قَالَ: هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِقَوْلِكَ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] (١) وَرَوَى عَنِ  
ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا  
وَكَرْهًا﴾ قَالَ: حِينَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ (٢). ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾  
أَيَّ يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يَعْنِي  
الْقُرْآنَ، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ  
وَيَعْقُوبَ﴾ أَيَّ مِنَ الصُّحُفِ وَالْوَحْيِ، ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وَهُمْ  
بُطُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُتَشَعَّبَةُ مِنْ أَوْلَادِ إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ  
يَعْقُوبُ - الْاِثْنَيْ عَشَرَ، ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ يَعْنِي  
بِذَلِكَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وَهَذَا يَعُمُّ  
جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ جُمْلَةً ﴿لَا نَفَرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي بَلَّ  
نُؤْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ هَذِهِ  
الْأُمَّةِ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ أُنْزِلَ، لَا  
يَكْفُرُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلَّ هُمْ مُصَدِّقُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ  
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾... الآية، أَيَّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا  
سِوَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ  
الْخَاسِرِينَ﴾ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ  
عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ إِذْ  
ذَلِكَ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَجِيءُ  
الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا  
الصَّلَاةُ؛ فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ؛ وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا  
رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ؛ فَيَقُولُ إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ  
فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصِّيَامُ؛ فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ  
تَجِيءُ الْأَعْمَالُ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ،  
ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا  
الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، بَلَّ الْيَوْمَ أَخُذُ  
وَبِكَ أُعْطِي، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا  
فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ تَقَرَّرَ بِهِ  
أَحْمَدُ (٤).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ  
الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ  
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ  
الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٨٧) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ  
وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٨)

[لَا يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ تَابَ]  
رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ  
الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَلِحَقَّ بِالشَّرْكِ، ثُمَّ نَدِمَ، فَأَرْسَلَ  
إِلَى قَوْمِهِ أَنْ سَلُّوا لِي رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ:  
فَزَلْتَ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إِلَى  
قَوْلِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ فَأَسْلَمَ (٥).  
وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ وَابْنُ حِبَّانَ (٦). وَقَالَ

(١) الطبري: ٥٦٥/٦ (٢) الطبري: ٥٦٥/٦ (٣) فتح الباري: ٣٥٥/٥ (٤) أحمد: ٣٦٢/٢ فيه عباد بن راشد التميمي ضعفه الجمهور، أنظر تحرير تقريب التهذيب ١٧٧/٢ والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة كما ذكر ابن كثير هنا، أنظر للتفصيل "جامع التحصيل في أحكام المراسيل" للعلائي ص ١٦٤ ط. عالم الكتب. (٥) الطبري: ٥٧٢/٦ (٦) النسائي في الكبرى: ٦/٣١١ والحاكم: ٣٦٦/٤ وابن حبان: ٣٢٣/٦

الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَيُّ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ وَالْبُرَاهِينُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُولُ، وَوَضَحَ لَهُمُ الْأَمْرُ، ثُمَّ ارْتَدُّوا إِلَى ظُلْمَةِ الشُّرْكِ، فَكَيْفَ يَسْتَحِقُّ هَؤُلَاءِ الْهِدَايَةَ بَعْدَمَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أَيُّ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ، وَيَلْعَنُهُمْ خَلْقُهُ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ فِي اللَّعْنَةِ، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أَيُّ لَا يُفْتَرَّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَهَذَا مِنْ لَطْفِهِ وَبَرِّهِ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَازِدَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ أَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، تَابَ عَلَيْهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأَوَلَيْكَ هُمْ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ (٩١)

[لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْكَافِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا فِذِيَّتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمَهْدِدًا لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ، ثُمَّ أَزْدَادَ كُفْرًا، أَيُّ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ، وَمُخْبِرًا بِأَنَّهُمْ لَنْ تُقْبَلَ لَهُمْ تَوْبَةٌ عِنْدَ مَمَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْلَسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَصَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ... الْآيَةُ [النساء: ١٨]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأَوَلَيْكَ هُمْ الضَّالُّونَ﴾ أَيُّ الْخَارِجُونَ عَنِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ إِلَى طَرِيقِ الْغَيِّ، رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ قَوْمًا أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا، ثُمَّ أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا، فَأَرْسَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ يَسْأَلُونَ لَهُمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ أَيُّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ خَيْرٌ أَبَدًا. وَلَوْ كَانَ قَدْ أَتَفَقَ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا فِيمَا يَرَاهُ قُرْبَةً، كَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ، وَكَانَ يَقْرِي الضَّيْفَ، وَيَتُكِّ الْعَانِي، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ: هَلْ يَنْتَعُهُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «لَا، إِنَّهُ لَمْ يُقْبَلْ

يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» (٢). وَكَذَلِكَ لَوْ افْتَدَى بِمِلَّةٍ الْأَرْضِ ذَهَبًا مَا قُبِلَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةُ﴾ [البقرة: ١٢٣] وَقَالَ: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَثَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ فَعَطْفُ ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ عَلَى الْأَوَّلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُهُ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ أَحْسَنَ مِنْ أَنْ يُقَالَ: أَنَّ الْوَاوَ زَائِدَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيَقْتَضِي ذَلِكَ أَنَّ لَا يُفْتَدَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ قَدْ أَتَفَقَ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَوْ افْتَدَى نَفْسَهُ مِنَ اللَّهِ بِمِلَّةٍ الْأَرْضِ ذَهَبًا، بِوَرْنِ جِبَالِهَا وَتِلَالِهَا وَتُرَابِهَا، وَرِمَالِهَا وَسَهْلِهَا وَوُغْرِهَا وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ خَيْرٍ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ، فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَلَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتُلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَارٍ، لِمَا بَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ شَرِّ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ لَهُ: فَتَقْتَدِي مِنِّي بِطِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ نَعَمْ، فَيَقُولُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَسْرَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيَرُدُّ إِلَى النَّارِ» (٣). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ أَيُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ أَحَدٍ يُفْتَدِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَلَا يُجِيرُهُمْ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْآيَةَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ عِلْمِهِ﴾ (٩٢)

[الْإِنْفَاقُ مِنْ أَحَبِّ الْأَمْوَالِ مِنَ الْبَرِّ]

رَوَى وَكِيعٌ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ ﴿لَنْ نَنَالُوا الْآيَةَ﴾ قَالَ: الْجَنَّةُ (٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، يَقُولُ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالًا،

(١) الدر المنثور: ٢٥٨/٢ (٢) مسلم: ١٩٦/١ (٣) أحمد: ٢٠٧/٣ (٤) الطبري: ٥٨٧/٦ فيه تدليس أبي إسحاق السبيعي ولم يصرح وشريك بن عبدالله القاضي سبى الحفظ.

تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَيْضُ غَلِيظٌ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ أَضْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَّةُ، بِإِذْنِ اللَّهِ: إِنْ عَلَا مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِنْ عَلَا مَاءَ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامَ عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟» قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ قَالُوا: وَأَنْتَ الْآنَ فَحَدِّثْنَا مَنْ وَلَيْكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَعِنْدَهَا نُجَامِعُكَ أَوْ نَفَارِقُكَ. قَالَ: «إِنَّ وَلِيِّي جِبْرِيلُ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ»، قَالُوا: فَعِنْدَهَا نَفَارِقُكَ، لَوْ كَانَ وَلَيْكَ غَيْرُهُ لَتَابَعْنَاكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عِدْوًا لِحَبْرِيلَ...﴾ [البقرة: ٩٧] (٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ قِيلَ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾ أَيْ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ، قُلْتُ: وَلِهَذَا السِّيَاقُ بَعْدَمَا تَقَدَّمَ مَنَاسِبَاتَانِ.

(إِحْدَاهُمَا) أَنْ إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَتَرَكَهَا لِلَّهِ، وَكَانَ هَذَا سَائِعًا فِي شَرِيعَتِهِمْ، فَلَهُ مَنَاسِبَةٌ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَنَا، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمِمَّا يُحِبُّهُ الْعَبْدُ وَيُسْتَهَيِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّى الْمَالُ عَلَى حَبِيبِهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُطِيعُونَ أَمْرًا عَلَى حَبِيبِهِ...﴾ [الأنسان: ٨].

(الْمَنَاسِبَةُ الثَّانِيَةُ) لَمَّا تَقَدَّمَ السِّيَاقُ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى، وَاعْتِقَادِهِمُ الْبَاطِلَ فِي الْمَسِيحِ، وَتَبْيِينِ زَيْفِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَظُهُورِ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ فِي أَمْرِ عِيسَى وَأَمِّهِ، وَكَيْفَ خَلَقَهُ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَبَعَثَهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، شَرَعَ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ قَبْحَهُمُ اللَّهُ، وَبَيَانَ أَنَّ السَّنَخَ الَّذِي أَنْكَرُوا وَفُوعَهُ وَجَوَازَهُ قَدْ وَقَعَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَصَّ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَةَ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ، أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ يَأْكُلُ مِنْهَا، ثُمَّ بَعَدَ هَذَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ

وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءُ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَتَشَرَّبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٌ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءُ، وَإِنَّهَا صَدَقَةُ اللَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَخُفُّ بَخٌ، ذَاكَ مَالٌ رَاحٍ، ذَاكَ مَالٌ رَاحٍ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ (١). أَخْرَجَاهُ (٢). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ أَصِْبْ مَالًا قَطُّ هُوَ أَنَفْسُ عِنْدِي مِنْ سَهْمِي الَّذِي هُوَ بِخَيْرٍ، فَمَا تَأْمُرُنِي بِهِ؟ قَالَ: «حَبْسِ الْأَصْلِ وَسَبْلِ الثَّمَرَةِ» (٣).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ. مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ قَاتِلُوا بِالْتَّوْرَةِ قَاتِلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣) فَمِنْ أَفْرَازٍ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) [أَسْئَلُهُ الْيَهُودَ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَضَرَتْ عِصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسَأُكَ عَنْهُمْ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، قَالَ: «سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ، لَيْنَ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتَتَابِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ» قَالُوا: فَذَلِكَ لَكَ، قَالَ: «فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ». قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ أَرْبَعِ خِلَالٍ: أَخْبِرْنَا أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ وَكَيْفَ مَاءَ الْمَرْأَةِ وَمَاءَ الرَّجُلِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ الذَّكْرُ مِنْهُ وَالْأُنْثَى؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ هَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ فِي التَّوَمِ، وَمَنْ وَلِيُّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ لَيْنَ أَخْبَرَهُمْ لَيَتَابِعُنَّهُ، فَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقَمُهُ، فَتَدَرَّ اللَّهُ نَذْرًا لَيْنَ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لِيَحْرَمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟» فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ

(١) أحمد: ١٤١/٣ (٢) فتح الباري: ٧١/٨ ومسلم: ٢/٦٦٣ (٣) مسلم: ١٢٥٦/٣ والنسائي: ٢٣٢/٦ أخرجه بهذا اللفظ 'حبس الأصل وسبل الثمرة' النسائي وابن ماجه وغيرهما ولم يوجد بهذا اللفظ في الصحيحين. (٤) أحمد: ٢٧٨/١

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

الْاٰیٰتُ

٦٢

لَنْ نُنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَنِ انْفَقَا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَائِلًا لِّىْ اِسْرَءِيْلَ اِلَّا مَا حَرَّمَ اِسْرَءِيْلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ اَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاَتْلُوهَا اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ اِبْرَاهِيْمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩﴾ اِنْ اَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ فِيهِ اٰيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ اِبْرَاهِيْمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ اٰمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ اِنْ اَبْرَاهِيْمٌ مِّنْ اَسْطَعٍ اِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَاِنَّ اللَّهَ عَنِّيْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ قُلْ يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَكْفُرُوْنَ بِآيٰتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَصُدُّوْنَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ اٰمَنَ تَبَعُوْهَُا عَوجًا وَاَنْتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا اِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِيْنَ اٰوْتُوا الْكِتٰبَ يَرُدُّوْكُمْ بِعَدَآئِهِمْ كُفْرِيْنَ ﴿٢٤﴾

فِيهِ اٰيٰتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ اِبْرَاهِيْمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ اٰمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ اِنْ اَبْرَاهِيْمٌ مِّنْ اَسْطَعٍ اِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَاِنَّ اللَّهَ عَنِّيْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾

[الْكَعْبَةُ اَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْعِبَادَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى ﴿٢٠﴾ اِنْ اَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴿٢٠﴾ اَيُّ لِعُمُومِ النَّاسِ لِعِبَادَتِهِمْ وَتُسْكِنِهِمْ، يَطُوفُونَ بِهِ، وَيُصَلُّونَ اِلَيْهِ، وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿٢٠﴾ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴿٢٠﴾ يَعْنِي الْكَعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا اِبْرَاهِيْمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِى يَزُعمُ كُلُّ مَنْ طَافَ بِهَا النَّصَارَى وَالْيَهُودُ اَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ وَمَنْهَجِهِ، وَلَا يَحْجُونَ اِلَى الْبَيْتِ الَّذِى بَنَاهُ عَنْ اَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَنَادَى النَّاسَ اِلَى حَجِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُبَارَكًا﴾ اَيُّ وَضِعَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَدْ رَوَى الْاِمَامُ اَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْاَرْضِ اَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قُلْتُ: ثُمَّ اَيُّ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْاَقْصَى». قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «ارْبَعُونَ سَنَةً». قُلْتُ: ثُمَّ اَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ

عَلَى نَفْسِهِ لِحِمَانِ الْاِبِلِ وَالْبَنَانِهَا، فَاتَّبَعَهُ بَنُوهُ فِي ذَلِكَ، وَجَاءَتِ التَّوْرَةُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ، وَاشْيَاءٌ اٰخَرُ زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ اَدْرَنَ لَادَمَ فِي تَرْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ التَّسْرِي عَلَى الرُّوْحَةِ مُبَاحًا فِي شَرِيعَةِ اِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ فَعَلَهُ اِبْرَاهِيْمُ فِي هَاجَرَ لَمَّا تَسَرَّى بِهَا عَلَى سَارَةٍ، وَقَدْ حَرَّمَ مِثْلَ هَذَا فِي التَّوْرَةِ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْاُخْتَيْنِ سَائِغًا، وَقَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَمَعَ بَيْنَ الْاُخْتَيْنِ، ثُمَّ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ، وَهَذَا كُلُّهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي التَّوْرَةِ عِنْدَهُمْ، وَهَذَا هُوَ الشَّخْخُحُ بِعَيْنِهِ، فَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي اِحْلَالِهِ بَعْضَ مَا حَرَّمَ فِي التَّوْرَةِ، فَمَا بِالْهَمِّ لَمْ يَتَّبِعُوهُ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ؟ وَكَذَلِكَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ، وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمِلَّةَ اَبِيهِ اِبْرَاهِيْمَ، فَمَا بِالْهَمِّ لَا يُؤْمِنُونَ؟

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَائِلًا لِّىْ اِسْرَءِيْلَ اِلَّا مَا حَرَّمَ اِسْرَءِيْلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ اَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ اَيُّ كَانَ حَلَائِلًا لَهُمْ جَمِيعُ الْأَطْعِمَةِ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَةِ اِلَّا مَا حَرَّمَهُ اِسْرَءِيْلُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَاَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاَتْلُوهَا اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنَّهَا نَاطِقَةٌ بِمَا قُلْنَاهُ ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ اَيُّ فَمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ، وَادَّعى أَنَّهُ شَرَعَ لَهُمْ السَّبْتَ وَالتَّمَسُّكَ بِالتَّوْرَةِ دَائِمًا، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا اٰخَرَ يَدْعُو اِلَى اللَّهِ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ بَعْدَ هَذَا الَّذِى بَيَّنَّاهُ مِنْ وَقُوعِ الشَّخْخُحِ وَظُهُورِ مَا ذَكَرْنَاهُ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ اَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ صَدَقَ اللَّهُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَفِيمَا شَرَعَهُ فِي الْقُرْآنِ، ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ اِبْرَاهِيْمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ اَيُّ اتَّبِعُوا مِلَّةَ اِبْرَاهِيْمَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِى لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلٍ مِنْهَا وَلَا أَبْيَنَ وَلَا أَوْضَحَ وَلَا أَتَمَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ اِنِّىْ هَدَيْتُ رَبِّىْ اِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا فِيمَا مِلَّةَ اِبْرَاهِيْمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ اَنْ اَتَّبِعَ مِلَّةَ اِبْرَاهِيْمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿اِنْ اَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾

كَانَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ، فَيَضَعُ فِي عُنُقِهِ صُوفَةً وَيَدْخُلُ الْحَرَمَ، فَيَلْقَاهُ ابْنُ الْمُقْتُولِ فَلَا يَهَيِّجُهُ حَتَّى يَخْرُجَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَعْرُومًا وَيُخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾... الآية [العنكبوت: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤، ٣] وَحَتَّى إِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ تَحْرِيمِهَا حُرْمَةُ اضْطِيَادِ صَيْدِهَا، وَتَنْفِيرِهِ عَنْ أَوْكَارِهِ، وَحُرْمَةِ قَطْعِ شَجَرِهَا وَقَلْعِ حَشِيشِهَا، كَمَا ثَبَّتَ الْأَحَادِيثُ وَالْأَنَارُ فِي ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا، فِي الصَّحَابَةِ، فِي الصَّحَابَةِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ: «لَا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتَفْرَضْتُمْ فَانْفِرُوا» وَقَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَجَلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَجَلَّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْقَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا الْإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِيُوتِبَهُمْ، فَقَالَ: «إِلَّا الْإِذْخِرَ»<sup>(١)</sup>.

وَلَهُمَا، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ أَيْضًا، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ: ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ أَحْذُثَكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ، سَمِعْتُهُ أَذْنًا، وَوَعَاهُ قَلْبِي، وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، أَنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمُهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَجَلُّ لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يُعْصَدَ بِهَا شَجَرَةٌ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ». فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ: مَا قَالَ لَكَ

حَيْثُ أَدْرَكَتِ الصَّلَاةَ فَصَلِّ، فَكَلَّمَهَا مَسْجِدًا<sup>(٢)</sup> وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

[وَجْهُ تَسْمِيَةِ بَكَّةَ، وَأَسْمَاءُ مَكَّةَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِي يَبْكُهُ﴾ بَكَّةَ مِنْ أَسْمَاءِ مَكَّةَ عَلَى الْمَشْهُورِ، قِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبْكُ أَغْنَاقَ الظَّلَمَةِ وَالْجَبَابِرَةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ [يَذْلُونَ] بِهَا، وَيَخْضَعُونَ عِنْدَهَا. وَقِيلَ: لِأَنَّ النَّاسَ يَتَبَاكُونَ فِيهَا، أَيْ يَزْدَحِمُونَ. وَقَدْ ذَكَرُوا لِمَكَّةَ أَسْمَاءَ كَثِيرَةً: مَكَّةُ، وَبَكَّةُ، وَالْبَيْتُ الْعَتِيقُ، وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ، وَالْبَلَدُ الْأَمِينُ، وَالْمَأْمُونُ، وَأُمُّ رَحِمٍ، وَأُمُّ الْقُرَى، وَصَلَاحٌ، وَالْعَرْشُ عَلَى وَزْنِ بَذَرٍ، وَالْقَادِسُ، لِأَنَّهَا تُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمَقْدَسَةُ، وَالنَّاسَةُ بِالنُّونِ، وَبِالْبَاءِ أَيْضًا، وَالْحَاطِمَةُ، وَالنَّسَّاسَةُ، وَالرَّأْسُ، وَكُوْتَى، وَالْبَلْدَةُ، وَالْبَيْتَةُ، وَالْكَعْبَةُ.

[مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِ أَيْتٌ بَيِّنَةٌ﴾ أَيْ دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّهُ مِنْ بَنَاءِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّ اللَّهَ عَظَّمَهُ وَشَرَّفَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يَعْنِي الَّذِي لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى رَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنْهُ وَالْجُدُرَانِ، حَيْثُ كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ، وَيَتَاوَلُهُ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ، وَقَدْ كَانَ مُلْتَصِقًا بِجِدَارِ الْبَيْتِ حَتَّى أَخْرَجَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي إِمَارَتِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الطَّوَافُ مِنْهُ، وَلَا يُشَوِّشُونَ عَلَى الْمُصَلِّينَ عِنْدَهُ بَعْدَ الطَّوَافِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَأَقِمُّوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ فِي ذَلِكَ فَاعْنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هَهُنَا، وَ اللَّهِ الْحَمْدُ وَالْبُيُوتَةُ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهِ أَيْتٌ بَيِّنَةٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيْ فَمِنْهُمْ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَشْعَرُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَنْتَرُ قَدَمَيْهِ فِي الْمَقَامِ آيَةَ بَيِّنَةً<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْحَسَنِ وَتَقَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَمُقَاتِلَ بْنِ حَبَّانٍ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ:

وَمَوْطِيءُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ

عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيَا غَيْرَ نَاعِلٍ

[الْحَرَمُ مَقَامُ أَمْنٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يَعْنِي حَرَمَ مَكَّةَ إِذَا دَخَلَهُ الْخَائِفُ بِأَمْنٍ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ:

(١) أحمد: ١٥٠/٥ (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٦ ومسلم: ١/٣٧٠ (٣) الطبري: ٢٦/٧ (٤) الطبري: ٢٧/٧ (٥) ابن أبي حاتم: ٤١٢/٢، ٤١٣ (٦) فتح الباري: ٥٦/٤ ومسلم: ٩٨٦/٢

مُسْلِمٌ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ»<sup>(١٠)</sup> وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(١١)</sup>.

### [مُنْكَرُ الْحَجِّ كَافِرًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيُّ وَمَنْ جَحَدَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ فَقَدْ كَفَرَ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ. وَقَدْ رَوَى أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ الْحَافِظُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَنْ أَطَاقَ الْحَجَّ فَلَمْ يَحُجَّ، فَسَوَاءٌ عَلَيْهِ يَهُودِيًّا مَاتَ أَوْ نَصْرَانِيًّا. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١٢)</sup>.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١٤)</sup>

[تَغْنِيفُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ]

هَذَا تَغْنِيفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكُفْرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى عِبَادِهِمْ لِلْحَقِّ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِهِ مَنَ أَرَادَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، بِجَهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ، مَعَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَالسَّادَةِ الْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَمَا بَشَّرُوا بِهِ وَنَوَّهُوا بِهِ مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْهَاشِمِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ، وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَسُولِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، بِأَنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ بِمَا خَالَفُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمُقَابَلَتِهِمُ الرَّسُولَ الْمُبَشِّرَ بِهِ بِالْكَذِبِ وَالْجُحُودِ وَالْعِنَادِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، أَيُّ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

عَمَرُو؟ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ، إِنَّ الْحَرَمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا، وَلَا فَارًا بِدَمٍ، وَلَا فَارًا بِخَرِيَّةٍ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَجِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ»<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْحَمْرَاءِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: وَهُوَ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ فِي سُوقِ مَكَّةَ، «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَهَذَا لَفْظُهُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

### [بَيَانُ وَجُوبِ الْحَجِّ]

وَقَوْلُهُ: «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حِجٌّ أَلَيْتَ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» [آل عمران: ٩٧] هَلِوِ آيَةُ وَجُوبِ الْحَجِّ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ بِأَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَدَعَائِمِهِ وَقَوَائِدِهِ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ إِجْمَاعًا ضَرُورِيًّا، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ فِي الْعُمُرِ مَرَّةً وَاحِدَةً بِالْغَضِّ وَالْإِجْمَاعِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: حَظَبْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا» فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ» ثُمَّ قَالَ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكٌ مَنَ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤْلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»<sup>(٥)</sup>، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ نَحْوَهُ<sup>(٦)</sup>.

### [مَعْنَى الْاسْتَطَاعَةِ]

وَأَمَّا الْاسْتَطَاعَةُ فَأَقْسَامٌ: تَارَةً يَكُونُ الشَّخْصُ مُسْتَطِيعًا بِنَفْسِهِ، وَتَارَةً بِغَيْرِهِ كَمَا هُوَ مَقَرَّرٌ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ، رَوَى أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَامَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ الْحَاجُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الشَّعْتُ الْقَتْلُ»، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْعُجُّ وَالشُّجُّ»، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: مَا السَّبِيلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرَّأْدُ وَالرَّاحِلَةُ»<sup>(٧)</sup>، وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» فَقِيلَ: مَا السَّبِيلُ؟ قَالَ: «الرَّأْدُ وَالرَّاحِلَةُ»، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ

(١) مسلم: ٩٨٧/٢ (٢) مسلم: ٩٨٩/٢ (٣) أحمد: ٤/

٣٠٥ (٤) تحفة الأحوذى: ٤٢٦/١٠ والنسائي في الكبرى: ٢/

٤٧٩ وابن ماجه: ١٠٣٧/٢ (٥) أحمد: ٥٠٨/٢ (٦) مسلم: ٩٧٥/٢

(٧) تحفة الأحوذى: ٣٤٨/٨ (٨) ابن ماجه: ٢/

٩٦ (٩) الحاكم: ٤٤٢/١ (١٠) أحمد: ٢٢٥/١ (١١) أبو

داود: ٣٥٠/٢ (١٢) الحلية: ٢٥٢/٩

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

[مَا هُوَ حَقُّ تَقَاتِهِ؟]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ قَالَ: أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ مَوْقُوفٌ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ<sup>(٢)</sup>. كَذَا قَالَ، وَالْأَطْهَرُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَرَوَى عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَتَّقِي الْعَبْدُ اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ حَتَّى يَخْزَنَ لِسَانَهُ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَيُّ حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٢﴾

[تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ طَاعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]

يُحَذِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يُطِيعُوا طَائِفَةً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَمَا مَنَحَهُمْ بِهِ مِنْ إِرسَالِ رَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَنًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ... آيَاتُ [البقرة: ١٠٩]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: [إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ] [آل عمران: ١٠٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١] يَعْني أَنَّ الْكُفْرَ بَعِيدٌ مِنْكُمْ وَحَاشَاكُمْ مِنْهُ، فَإِنَّ آيَاتِ اللَّهِ تَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ لَيًّا وَنَهَارًا، وَهُوَ يَتْلُوها عَلَيْكُمْ وَيُتْلِعُها إِلَيْكُمْ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الآيَةُ بَعْدَهَا [الحديد: ٨]]. وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟» قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» وَذَكَرُوا الْأَنْبِيَاءَ، قَالَ: «وَكَيْفَ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قَالُوا: فَتَحْنُ. قَالَ: «وَكَيْفَ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟» قَالُوا: فَأَيُّ النَّاسِ أَعْجَبُ إِيمَانًا؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] أَيُّ وَمَعَ هَذَا فَلَا عِصْصَامَ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ هُوَ الْعُمْدَةُ فِي الْهُدَايَةِ، وَالْعُمْدَةُ فِي مُبَاغِدَةِ الْعَوَاثِيَةِ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى الرَّشَادِ، وَطَرِيقُ السَّدَادِ وَحُصُولِ الْمُرَادِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ. وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

(١) الطبراني: ٢٣، ٢٢/٤ نحو هذا المعنى انظر أيضًا مسند الإمام أحمد ١٠٦/٤ وتقدم أيضًا تحت آية البقرة رقم ٣. (٢) ابن أبي حاتم: ٤٤٦/٢ (٣) الحاكم: ٢٩٤/٢ (٤) ابن أبي حاتم: ٢/٤٤٨

عَلَيْهِ، فَعِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ جَالِسٌ، مَعَهُ مَجْنُونٌ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» وَلَوْ أَنَّ فَطْرَةَ مِنَ الزُّفُومِ فُطِرَتْ لَأَمَرَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْسَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزُّفُومُ؟<sup>(١)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ جَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يَخْرُجَاهُ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»<sup>(٥)</sup>.

[الْأَمْرُ بِالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» قِيلَ: «بِحَبْلِ اللَّهِ» أَيُّ بَعْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُفْعَلُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ» أَيُّ بَعْدِ وَذِمَّةً.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا تَفَرَّقُوا» أَمَرُهُمُ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ، وَالْأَمْرُ بِالْإِجْتِمَاعِ وَالْإِثْلَافِ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا»... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَهَذَا السِّيَاقُ فِي شَأْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، فَإِنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ وَضَعَايُنُ وَإِحْرَنٌ وَذُخُولٌ، طَالَ بِسَبَبِهَا قِتَالُهُمْ وَالْوَقَائِعُ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَدَخَلَ فِيهِ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ، صَارُوا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ بِجَلَالِ اللَّهِ، مُتَوَاصِلِينَ فِي ذَاتِ اللَّهِ،

مُتَعَاوِينَ عَلَى الْبُرِّ وَالنَّقَوْرِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي أَبَدَكَ بِصُرَّةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ» وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنْهَا: أَنَّ هَذَا هُمُ الْإِيمَانُ، وَقَدْ ائْتَنَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، فَعَبَّتْ مَنْ عَبَّ مِنْهُمْ، لِمَا فَضَّلَ عَلَيْهِمْ فِي الْقِسْمَةِ، بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَعَانَكُمْ اللَّهُ بِي؟» فَكَلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُ<sup>(٧)</sup>.

«وَلَكِنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ<sup>(٨)</sup> يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ<sup>(٩)</sup> وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ<sup>(١٠)</sup> تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ<sup>(١١)</sup> وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ<sup>(١٢)</sup>

[الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَكِنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ» مُتَّصِبَةٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». قَالَ الضَّحَّاكُ: هُمْ خَاصَّةُ الصَّحَابَةِ وَخَاصَّةُ الرُّوَاةِ، يَعْنِي الْمُجَاهِدِينَ وَالْعُلَمَاءَ<sup>(١٣)</sup>. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، أَنْ تَكُونَ فِرْقَةٌ مِنَ الْأُمَّةِ مُتَّصِدَةً لِهَذَا الشَّأْنِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسَبِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

(١) أحمد: ٣٠٠/١ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٠٧/٧ والنسائي في الكبرى: ٣١٣/٦ وابن ماجه: ١٤٤٦/٢ وابن حبان: ٢٧٨/٩ والحاكم: ٢٩٤/٢ (٣) أحمد: ٣١٥/٣ (٤) مسلم: ٤/٢٢٠٥ (٥) فتح الباري: ٣٩٥/١٣ ومسلم: ٢٠٦١/٤ (٦) مسلم: ١٣٤٠/٣ (٧) صحيح البخاري ٤٣٣٠ وصحيح مسلم ١٠٦١ عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه (٨) الطبري: ٩٢/٧



سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦٤

الْمُرَاتِلِ

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُتِبَ خِرَآئِمَةً أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَفْتِكُلُواكُمْ يُولُوكُمْ لِأَذْبَارِكُمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَنْ مَانِقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَآءُ وَبَغَضِبَ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

قَالَ: رَأَى أَبُو أُمَامَةَ رُؤُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجٍ مَسْجِدٍ دِمَشْقَ<sup>(٨)</sup>، فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: كِلَابُ النَّارِ، شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَيْدِي السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قُلْتُ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا - حَتَّى عَدَّ سَبْعًا - مَا

فَبَقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدٍ»<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَنْعَتَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ<sup>(٣)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ، مَعَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْسِيرُهَا فِي أَمَاكِنِهَا.

### [النَّهْيُ عَنِ التَّفَرُّقَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الْآيَةَ، يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ تَكُونَ كَالْأُمَمِ الْمَاضِينَ فِي تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ وَتَرْكِهِمْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالتَّهْيِي عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عَامِرٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ لُحِيٍّ، قَالَ: حَجَجْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَامَ حِينَ صَلَّى الظُّهْرَ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِينَ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - كُلِّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً - وَهِيَ الْجَمَاعَةُ - وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تُجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ» وَاللَّهُ يَأْمُرُ الْعَرَبَ، لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ لَعَبْرُكُمْ مِنَ النَّاسِ أُخْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمُحَمَّدَ ابْنِ يَحْيَى<sup>(٥)</sup>.

### [ثَمَرَاتُ الْأَلْفَةِ وَالْفُرْقَةِ يَوْمَ الْحَشْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ تَبْيَضُّ وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا<sup>(٦)</sup>. «فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ» قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَهُمْ الْمُتَنَافِقُونَ<sup>(٧)</sup>. «فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» وَهَذَا الْوَصْفُ يَعُمُّ كُلَّ كَافِرٍ «وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» يَعْنِي الْجَنَّةَ، مَا كُنُوا فِيهَا أَبَدًا، لَا يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا، وَقَدْ رَوَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي غَالِبٍ،

(١) مسلم: ٧٠، ٦٩/١ (٢) أحمد: ٣٨/٥ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٩٠/٦ (٤) أحمد: ١٠٢/٤ (٥) أبو داود: ٥/٥ (٦) ابن أبي حاتم: ٤٦٤/٢ (٧) ابن أبي حاتم: ٤٦٥/٢ موضوع فيه مجاشع بن عمرو هو أحد الكذابين كما قال ابن معين [ميزان الاعتدال ٣/٣٤٦ قال ابن حبان: كان ممن يضع الحديث على اللغات ويروي الموضوعات عن أقوام ثقات لا يحل ذكره في الكتب إلا على سبيل القدح فيه ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار للخواص [المجروحين ٣/١٨] قال الأزدي: كذاب دامر لا تحل الرواية عنه [الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٣/٣٥] (٨) هم رؤوس الخوارج كما في المعجم الكبير للطبراني ٨/٢٦٧ والازارقة يعني الخوارج كما في مسند أحمد ٥/٢٥٣.

وَيُرَوَّى مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأَبِي سَعِيدٍ نَحْوَهُ، وَإِنَّمَا حَارَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بَيْنِهَا مُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرَعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ، لَمْ يُعْطِهِ نَبِيًّا قَبْلَهُ، وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ، فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسَبِيلِهِ يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ مَقَامَهُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهْرًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ»<sup>(١)</sup> وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ يُنَاسِبُ ذِكْرُ بَعْضِهَا هَهُنَا.

وَبُكِّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وَجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرَفَعُ نَبْرَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ»<sup>(٢)</sup>.

نَوْعٌ آخَرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَشَرَفِهَا وَكَرَامَتِهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعَ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثُلُثُ النَّاسِ» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا الشُّطْرَ»<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ عَنْ طَرِيقٍ آخَرَ<sup>(٤)</sup>. وَهُوَ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ بِنَحْوِهِ<sup>(٦)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أَيْدِي اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أَيُّ هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَجُهُ وَبَيِّنَاتُهُ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ نَكْشِفُ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ لَيْسَ بِظَالِمٍ لَهُمْ، بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَخْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ مُلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ ﴿وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ أَيُّ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الْحَاكِمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(٧)</sup> لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَصُرُونَ<sup>(٨)</sup> ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَةَ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَكَأُودَ بَعْضٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ<sup>(٩)</sup> [فَضْلُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَكَوْنُهَا خَيْرَ أُمَّةٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَغْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ<sup>(١٠)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ<sup>(١١)</sup>. وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَسَنَنِ ابْنِ مَاجَةَ وَمُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ مِنْ رِوَايَةِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١٢)</sup>. وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ، وَقَدْ حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ،

(١) تحفة الأحوذى: ٣٥١/٨ (٢) ابن ماجه: ٦٢/١ وأحمد: ٢٥٦/٥ فتح الباري: ٧٢/٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٢/٤٧٣، ٤٧٢ أحمد: ٣/٥ و تحفة الأحوذى: ٣٥٢/٨ وابن ماجه: ١٤٣٣/٢ (٦) أحمد: ٩٨/١ (٧) فتح الباري: ١١/٤١٣ ومسلم: ١٩٧/١ (٨) أحمد: ٣٤٦/٣ (٩) أحمد: ٣/٣٨٣

الصَّلَاةَ وَالْكَفْرَ وَالْفُسْقَ وَالْعُصْيَانَ.

[الشَّارَةُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَمُبَشِّرًا لَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الْكَفَرَةِ الْمُلْحِدِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَوْلَادًا ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَنْصُرُوا﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ، فَإِنَّهُمْ يَوْمَ خَيْرِ أَزْلِهِمْ اللَّهُ وَأَرْزَعَهُمْ أَنْوَفَهُمْ، وَكَذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ بَنِي قَيْنِقَاعَ وَبَنِي النَّصِيرِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ كُلُّهُمْ أَذْلَهُمُ اللَّهُ، وَكَذَلِكَ النَّصَارَى بِالشَّامِ كَسَرَهُمُ الصَّحَابَةُ فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ، وَسَلَبُوهُمْ مُلْكَ الشَّامِ أَبَدَ الْأَبْدِينَ وَدَهَرُ الدَّاهِرِينَ، وَلَا تَزَالُ عَصَابَةُ الْإِسْلَامِ قَائِمَةً بِالشَّامِ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَهُمْ كَذَلِكَ، وَيَحْكُمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشَرْعِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، فَيُخَسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ. وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفْعَلُوا إِلَّا يَحْبِلَ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيْ أَلَزَمَهُمُ اللَّهُ الذَّلَّةَ وَالصَّغَارَ أَيْنَمَا كَانُوا فَلَا يَأْمَنُونَ إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ أَيْ بِدِمَّةٍ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ عَقْدُ الذَّمَّةِ لَهُمْ، وَصَرَّبَ الْجِزْيَةَ عَلَيْهِمْ، وَإِلَزَمَهُمْ أَحْكَامَ الْمِلَّةِ ﴿وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيْ أَمَانٍ مِنْهُمْ لَهُمْ، كَمَا فِي الْمُهَادَنَ وَالْمُعَاهِدِ وَالْأَسِيرِ إِذَا أَمِنَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْ امْرَأَةً - وَكَذَا عَبْدٌ، عَلَى أَحَدِ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيْ بِعَهْدٍ مِنَ اللَّهِ وَعَهْدٍ مِنَ النَّاسِ<sup>(١)</sup>. هَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءٌ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَأْمُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيْ أَلَزِمُوا فَالْتَزَمُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ ﴿وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أَيْ

عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ. وَثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»<sup>(٣)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُرَيْدَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا»<sup>(٤)</sup> وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَنْ طَرِيقٍ آخَرَ<sup>(٥)</sup>. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأَوْتِنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَذَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، غَدَاً لِلْيَهُودِ، وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ<sup>(٨)</sup> - وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ» وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ<sup>(٩)</sup>.

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَغَيْرُهَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُقِيمُونَ بِاللَّهِ﴾ فَمَنْ انْتَصَفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالْمَدْحِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: بَلَّغْنَا أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَجَّةٍ حَجَّهَا، رَأَى مِنَ النَّاسِ سُرْعَةً، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثُمَّ قَالَ: مَنْ سَرُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ، فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا<sup>(١٠)</sup>. رَوَاهُ

ابْنُ جَرِيرٍ، وَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ أَشْبَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَسْنَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾... الْآيَةُ [المائدة: ٧٩]، وَلِهَذَا لَمَّا مَدَحَ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ، شَرَعَ فِي ذَمِّ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَأْيِيبِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أَيْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَيْ قَلِيلٌ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَى

(١) فتح الباري: ١١/٣٨٥ ومسلم: ١/٢٠٠ (٢) أحمد: ٥/٣٥٥ (٣) أحمد: ٥/٣٤٧ (٤) تحفة الأحوذى: ٧/٢٥٦ (٥) ابن ماجه: ٢/١٣٤ (٦) البخاري: ٨٩٦، ٣٤٨٦، ٣٤٨٧ ومسلم: ٨٥٥ (٧) مسلم: ٨٥٥ (٨) الطبري: ٧/١٠٢ ضعيف: قتادة عن عمر مرسل قال العلائي: أحد المشهورين بالتدليس وهو أيضا يكثر من الإرسال... ولم يسمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا من أنس رضي الله عنه كما قال الإمام أحمد أنظر [جامع التحصيل رقم ٦٣٣] (٩) الطبري: ٧/١١٢ فيه عطية العوفي وعائلته وتقدم مرارا حاله (١٠) ابن أبي حاتم: ٢/٤٨٠، ٤٨١

الْزِمُوهَا قَدْرًا وَشَرْعًا .

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِقَائِنَةِ اللَّهِ يَكْفُلُونَ الْآلِهِيَّاتَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أَيْ وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْكِبْرُ وَالْبُغْيُ وَالْحَسَدُ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ وَالْمُسْكَنَةُ أَبَدًا مُتَّصِلًا بِذَلِكَ الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِ رُسُلِ اللَّهِ، وَتُخْصُوا لِذَلِكَ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُكْثِرُونَ الْعِصْيَانَ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَشْيَانَ لِمَعَاصِي اللَّهِ، وَالْإِعْتِدَاءَ فِي شَرْعِ اللَّهِ، فَعِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْتَعَانُ.

﴿١٧٧﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَالِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ  
اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٧٨﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي  
الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧٩﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ  
فَلَن يَكْفُرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ  
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨١﴾ مِثْلُ مَا يَتَّبِقُونَ فِي هَذِهِ  
الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَاقَ قَوْمٍ ظَلَمُوا  
أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ  
يَظْلِمُونَ ﴿١٨٢﴾

[فَضْلٌ مِّنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ - وَرَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ آمَنَ مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَسِيدِ بْنِ عُبَيْدٍ وَتَعْلَبَةَ بْنِ سَعِيَّةٍ وَأَسِيدِ بْنِ سَعِيَّةٍ وَغَيْرِهِمْ، أَيْ لَا يَسْتَوِي مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ بِالذِّمِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ <sup>(١)</sup> أَيْ لَيْسُوا كُلُّهُمْ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، بَلْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ وَمِنْهُمْ الْمُجْرِمُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أَيْ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مُطِيعَةٌ لِسَرْعِهِ، مُتَّبِعَةٌ نَبِيِّ اللَّهِ، فِيهِ قَائِمَةٌ، بَعْضُهَا مُسْتَقِيمَةٌ ﴿يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أَيْ يَقُومُونَ اللَّيْلَ وَيُكْثِرُونَ التَّهَجُّدَ، وَيَتْلُونَ الْقُرْآنَ فِي صَلَوَاتِهِمْ ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسِرُّونَ فِي الْأَخْيَارِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ ...

المجلة الرابع

70

سُورَةُ الْعَمْرَانِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ  
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾  
ثَلَّمُوا مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا  
صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا  
ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا  
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي  
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُمْ تُعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾  
هَٰأَنتُمْ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتَوَمَّنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ  
وَإِذَا الْقَوْمُ فَالَوْا ءَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ  
مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾  
إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ سَّوَّهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا  
بِهَا وَإِن تُصِبرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا  
إِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ  
نَبِيُّ الْمُؤْمِنِينَ مَقْبَعٌ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

الآيَةُ [آل عمران: ١٩٩]، وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَمَا يَتَّبِعُكُم مِّنْ حَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أَي لَا يَضِيعُ عِنْدَ اللَّهِ، بَلْ يَجْزِيهِمْ بِهِ أَوْفَرُ الْجَزَاءِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أَي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ عَمَلٌ عَامِلٍ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرٌ مِّنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفْرَةِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُ: ﴿لَن نُّنْفِخَ عَنْهُمْ أَسْفَافَهُمْ وَلَا أُولَئِهِمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أَي لَا يُزِيدُ عَنْهُمْ بَأْسَ اللَّهِ وَلَا عَذَابُهُ إِذَا أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

[بَيَانُ مَثَلِ مَا يُنْفِقُهُ الْكُفَّارُ]

ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِمَا يُنْفِقُهُ الْكُفَّارُ فِي هَذِهِ الدَّارِ. قَالَه مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٢)</sup>. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِثْلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أَيُّ بَرْدٍ شَدِيدٍ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ

حَافِظٌ كَاتِبٌ، فَلَوْ اتَّخَذْتُهُ كَاتِبًا، قَالَ: قَدْ اتَّخَذْتُ إِذَا بَطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٥)</sup>. فَقِي هَذَا الْأَكْثَرُ مَعَ هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الدِّمَةِ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ الَّتِي فِيهَا اسْتِطَالَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَاطَّلَاعٌ عَلَى دَوَاحِلِ أُمُورِهِمُ الَّتِي يُخْشَى أَنْ يَفْشَوْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْلُوكُمْ خَبَالًا وَلَا دُورًا مَا عَنِتُّمْ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ﴾ أَيُّ قَدْ لَاحَ عَلَى صَفَحَاتِ وَجُوهِهِمْ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ، مَعَ مَا هُمْ مُسْتَمِلُونَ عَلَيْهِ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مَا لَا يَخْفَى مِثْلُهُ عَلَى لِسَبٍ عَاقِلٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَآتَيْتُمْ أَولَاءَ حُيُوتِهِمْ وَلَا يَحِثُّونَكُمْ﴾ أَيُّ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تُحِثُّونَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا يُظْهِرُونَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَتُحِثُّونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَهُمْ لَا يُحِثُّونَكُمْ لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَيُّ لَيْسَ عِنْدَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ، وَهُمْ عِنْدَهُمُ الشُّكُّ وَالرَّيْبُ وَالْحَيْرَةُ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَيُّ بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِهِمْ وَبِمَا مَضَى مِنَ الْكِتَابِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكِتَابِكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْبَغْضَاءِ لَهُمْ مِنْهُمْ لَكُمْ<sup>(٦)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَيْتَكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ الْقَيْطِ﴾ وَالْأُنَامِلُ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ. قَالَهُ قَتَادَةُ<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمَوَدَّةَ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَيْتَكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ الْقَيْطِ﴾ وَذَلِكَ أَشَدُّ الْغَيْظِ وَالْحَنَقِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْتِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ مَهْمَا كُنْتُمْ تَحْسُدُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَغِيظُكُمْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُتِمُّ نِعْمَتِهِ عَلَى

وَالصَّحَّاءُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْرُهُمْ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَطَاءٌ: بَرْدٌ وَجَلِيدٌ<sup>(٢)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا. وَمَجَاهِدٌ: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أَيُّ نَارٌ<sup>(٣)</sup>. وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ، فَإِنَّ الْبَرْدَ الشَّدِيدَ وَلَا سِيمَا الْجَلِيدَ يَحْرِقُ الزَّرُوعَ وَالشَّجَارَ، كَمَا يُحْرِقُ الشَّيْءُ بِالنَّارِ ﴿أَصَابَتْ حَرَّتَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكْنَهُ﴾ أَيُّ فَأَحْرَقْتَهُ، يَعْنِي بِذَلِكَ الشَّفْعَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى حَرِّ قَدْ آنَ جَدَادُهُ أَوْ حَصَادُهُ، فَدَمَّرَتْهُ وَأَعْدَمَتْ مَا فِيهِ مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ، فَذَهَبَتْ بِهِ وَأَفْسَدَتْهُ، فَعَدَمَتْهُ صَاحِبُهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ. فَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ يَمَحُوقُ اللَّهُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَتَمَرَّتْهَا، كَمَا أَذْهَبَ ثَمَرَةَ هَذَا الْحَرِّ بِذُنُوبِ صَاحِبِهِ. وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ بَنَوْهَا عَلَى غَيْرِ أَصْلٍ وَعَلَى غَيْرِ آسَاسٍ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَكْتُمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَلَا دُورًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هَآتَيْتُمْ أَولَاءَ حُيُوتِهِمْ وَلَا يَحِثُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَيْتَكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ الْقَيْطِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْتِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَتُؤْتَمُّ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

[النَّهْيُ عَنْ اتِّخَاذِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِطَانَةً]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ بِطَانَةً، أَيُّ يُطْلَعُونَهُمْ عَلَى سَرَائِرِهِمْ، وَمَا يُضْمِرُونَهُ لِأَعْدَائِهِمْ، وَالْمُنَافِقُونَ بِجَهْدِهِمْ وَطَائِفِهِمْ لَا يَأْلُونَ الْمُؤْمِنِينَ خَبَالًا، أَيُّ يَسْعَوْنَ فِي مُحَالِفَتِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ بِكُلِّ مُمَكِّنٍ، وَبِمَا يَسْتَطِيعُونَهُ مِنَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، وَيُودُّونَ مَا يُغْنِي الْمُؤْمِنِينَ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَسُقُّ عَلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَنْخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، وَبِطَانَةِ الرَّجُلِ هُمْ خَاصَّةُ أَهْلِهِ الَّذِينَ يَطْلَعُونَ عَلَى دَاخِلِهِ أَمْرِهِ. وَقَدْ رَوَى الْخَارِثِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ أَبِي الدُّهْمَانَةِ، قَالَ: قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَهُنَا غَلَامًا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ

(١) ابن أبي حاتم: ٤٩٤/٢، ٤٩٥ (٢) ابن أبي حاتم: ٢/٢

٤٩٦ (٣) ابن أبي حاتم: ٤٩٥/٢ (٤) فتح الباري: ١٣/٢٠١

والنسائي: ١٥٨/٧ (٥) ابن أبي حاتم: ٢/٥٠٠ ابن أبي شيبة

٤٧٠/٨ (٢٦٣٩٢) ابن أبي الدهقانة أو أبو دهقانة ما وجدت

ترجمته في المراجع والمصادر التي لدي (٦) الطبري: ١٤٩/٧

(٧) الطبري: ١٥٣/٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٦

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْسَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى  
 اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢١﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ  
 أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٢٢﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ  
 أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بَنَاتِكُمْ فِي الْأَفْرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ  
 مُزَلَّاتٍ ﴿١٢٣﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ  
 هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ  
 ﴿١٢٤﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرَى لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا  
 النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٥﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا  
 مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنَافِقُوا أَخَابِينَ ﴿١٢٦﴾ لَيْسَ لَكَ  
 مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ ظِلْمُوتٌ  
 ﴿١٢٧﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ  
 وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الرِّبَا أضعافاً مضاعفةً وَاتَّقُوا اللَّهَ  
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٩﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ  
 ﴿١٣٠﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣١﴾

وَرُؤُوسًا مِنْ بَقِي لَأَبِي سَفِيَّانَ: ارْضُدْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ لِقِتَالِ  
 مُحَمَّدٍ، فَأَنْفَقُوهَا فِي ذَلِكَ، فَجَمَعُوا الْجُمُوعَ وَالْأَحَابِيشَ،  
 وَأَقْبَلُوا فِي نَحْوِ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ أُحُدٍ  
 بِلِقَاءِ الْمَدِينَةِ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَلَمَّا  
 فَرَغَ مِنْهَا صَلَّى عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي النَّجَارِ يُقَالُ لَهُ: مَالِكُ  
 ابْنُ عَمْرٍو، وَاسْتَشَارَ النَّاسَ «أَيُخْرِجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُتُ  
 بِالْمَدِينَةِ؟» فَأَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَالْمَقَامِ بِالْمَدِينَةِ، فَإِنْ  
 أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَحْسِسٍ، وَإِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ فِي  
 وَجُوهِهِمْ، وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ،  
 وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ. وَأَشَارَ آخَرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ،  
 مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
 فَلَيْسَ لَأَمَتِهِ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ نَدِمَ بَعْضُهُمْ وَقَالُوا: لَعَلَّنَا  
 اسْتَكْرَهْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ شِئْتَ  
 أَنْ نَمْكُتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَيْسَ

عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمُكْمَلُ دِينِهِ، وَمُعِلُ كَلِمَتِهِ، وَمُظْهِرُ  
 دِينِهِ، فَمُوتُوا أَنْتُمْ بَعِظُكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ  
 هُوَ عَلِيمٌ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَائِرُكُمْ وَتَكُنْهُ سَرَائِرُكُمْ مِنْ  
 الْبَغْضَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مُجَارِيكُمْ عَلَيْهِ  
 فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُرِيَكُمْ خِلَافَ مَا تُؤْمَلُونَ، وَفِي الْآخِرَةِ  
 بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ خَالِدُونَ فِيهَا، فَلَا  
 خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً سَنُوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ  
 سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وَهَذِهِ الْحَالُ ذَالَّةٌ عَلَى شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ  
 مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ خَضْبٌ  
 وَنَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَكَثُرُوا وَعَزَّ أَنْصَارُهُمْ، سَاءَ ذَلِكَ الْمُتَنَافِقِينَ،  
 وَإِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ سَهٌّ أَيْ جَدْبٌ، أَوْ أُدِيلَ عَلَيْهِمْ  
 الْأَعْدَاءُ، لِمَا لِلَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ - كَمَا جَرَى  
 يَوْمَ أُحُدٍ - فَرِحَ الْمُتَنَافِقُونَ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا  
 عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ  
 شَيْئًا﴾... الْآيَةُ، يُرِيدُهُمْ تَعَالَى إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ  
 الْأَشْرَارِ، وَكَيْدِ الْفُجَّارِ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى  
 وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ، فَلَا حَوْلَ وَلَا  
 قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ. وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ  
 يَكُنْ، وَلَا يَبْقَى فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ  
 تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ.

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ أُحُدٍ وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ  
 الْإِخْتِبَارِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ  
 وَالْمُنَافِقِينَ وَبَيْنَ صَبْرِ الصَّابِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى:  
 ﴿وَإِذْ عَدَّدْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّأَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ  
 عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْسَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى  
 اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ  
 فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

[بَيَانُ غَرْوَةِ أُحُدٍ]

الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْوُقُوفَةِ يَوْمُ أُحُدٍ عِنْدَ الْجَنْهُورِ. قَالَهُ ابْنُ  
 عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَتَقَادَةُ وَالشَّدْيُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ <sup>(١)</sup>. وَكَانَتْ  
 وَقْعَةُ أُحُدٍ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهَجْرَةِ.  
 وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَوْمَ السَّبْتِ لِلنَّصْفِ مِنْ شَوَّالٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.  
 وَكَانَ سَبَبُهَا: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ  
 يَوْمَ بَدْرٍ، وَسَلِمَتِ الْعِيرُ بِمَا فِيهَا مِنَ التَّجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ  
 أَبِي سَفِيَّانَ، فَلَمَّا رَجَعَ فَلَهُمْ إِلَى مَكَّةَ، قَالَ أَبْنَاءُ مَنْ قُتِلَ

لَأَمْتُهُ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ».

فَسَارَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانُوا بِالشَّوْطِ، رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فِي ثُلْثِ الْجَيْشِ مُغْضَبًا، لِكُونِهِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى قَوْلِهِ، وَقَالَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ: لَوْ نَعْلَمُ الْيَوْمَ قِتَالًا لَا نَتَّبِعَانَكُمْ، وَلَكِنَّا لَا نَرَاكُمْ تَقَاتِلُونَ الْيَوْمَ. وَاسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَائِرًا حَتَّى نَزَلَ الشَّعْبُ مِنْ أُحُدٍ فِي غُدُوَةِ الْوَادِي، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ، وَقَالَ: «لَا يَفَاتِلُنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ». وَتَهَيَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْقِتَالِ وَهُوَ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. وَأَمَرَ عَلَى الرِّمَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ. وَالرِّمَاءُ يَوْمَئِذٍ خَمْسُونَ رَجُلًا، فَقَالَ لَهُمْ: «انْصَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا وَلَا تُؤْتِينَ مِنْ قِبَلِكُمْ وَالرِّمَاءُ مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ التَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطِفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ» وَظَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ دِرْعَيْنِ، وَأَعْطَى اللِّوَاءَ مُصْغَبَ بْنَ عَمِيرٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ. وَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَوْمَئِذٍ، وَأَرْجَأَ آخَرِينَ، حَتَّى امْضَاهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ بِقَرِيبٍ مِنْ سِتِّينَ. وَتَبَعَاتُ فَرَسٍ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، وَمَعَهُمْ مِائَتَا فَرَسٍ قَدْ جَنَّبُوهَا، فَجَعَلُوا عَلَى مِمْنَةِ الْخَيْلِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَعَلَى الْمَيْسِرَةِ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ، وَدَفَعُوا إِلَى بَنِي عَبْدِ الدَّارِ اللَّوَاءَ، ثُمَّ كَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَا سَبَّأَنِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوَاضِعِهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ أَيِ تُنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَتَجْعَلُهُمْ مِمْنَةً وَمَيْسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيِ سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...﴾ الْآيَةُ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...﴾ الْآيَةُ، قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ. وَمَا نَجِبُ - وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسْرُبِي أَنَّهَا لَمْ تُنْزَلْ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهَا﴾<sup>(١)</sup> وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ<sup>(٢)</sup>.

[التَّذْكِيرُ بِتَصْرِ اللَّهِ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ قَلَّةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ أَيِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانَ فِي يَوْمٍ جُمُعَةٍ وَافَقَ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَهُوَ يَوْمُ الْفُرْقَانِ الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ

الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَدَمَعَ فِيهِ الشَّرْكَ، وَخَرَّبَ مَحَلَّهُ، مَعَ قَلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثِمِائَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فِيهِمْ فَرَسَانِ وَسَبْعُونَ بَعِيرًا، وَالْبَاقُونَ مَشَاةً، لَيْسَ مِنْهُمْ مِنَ الْعَدَدِ جَمِيعٌ مَا يَخْتِاجُونَ إِلَيْهِ. وَكَانَ الْعَدُوُّ يَوْمَئِذٍ مَا بَيْنَ الثَّسْعِمِائَةِ إِلَى الْأَلْفِ فِي سَوَابِغِ الْحَدِيدِ وَالْبَيْضِ، وَالْعُدَّةُ الْكَامِلَةُ، وَالْخُبُولُ الْمُسَوَّمَةُ، وَالْحُلِيِّ الرَّائِدُ، فَأَعَزَّ اللَّهُ رَسُولَهُ، وَأَظْهَرَ وَحْيَهُ وَتَنْزِيلَهُ، وَبَيَّضَ وَجْهَ النَّبِيِّ وَقَبِيلَهُ، وَأَخْزَى الشَّيْطَانَ وَجَبَلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحِزْبِهِ الْمُتَّقِينَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أَيِ قَلِيلٌ عَدَدُكُمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ إِلَى ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧]. وَبَدْرٌ: مَحَلَّةٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ تُعْرَفُ بِبِئْرِهَا، مَنْسُوبَةٌ إِلَى رَجُلٍ حَفَرَهَا، يُقَالُ لَهُ: بَدْرُ بْنُ النَّارِينِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أَيِ تَقُومُونَ بِطَاعَتِهِ.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ﴾ بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُبَدِّلْكُمْ رَيْبَكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْفَرِيقِ الْحَكِيمِ﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكِيدَهُمْ فَيَقْبَلُوا خَائِبِينَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَاِنَّهُمْ طَائِفَةٌ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾

رَحِيمٌ ﴿١٢٤﴾

[النَّصْرُ بِالْمَلَائِكَةِ]

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْوَعْدِ، هَلْ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أَوْ يَوْمَ أُحُدٍ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وَرَوَى هَذَا عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعَامِرِ الشَّعْبِيِّ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٣)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. قَالَ عَبَادُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَيْبَكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ قَالَ: هَذَا يَوْمُ بَدْرٍ<sup>(٤)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ثُمَّ رَوَى عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ

(١) فتح الباري: ٦٣/٨ (٢) مسلم: ١٩٤٨/٤ (٣) ابن أبي حاتم: ٥١٩-٥٢١ (٤) الطبري: ١٧٤/٧

بَلَّغَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَنَّ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ يُمِدُّ الْمُشْرِكِينَ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ يَكُنْكُمْ أَنْ يُدْعِمَكُمْ رَبُّكُمْ يَثَلَّةً ۖ الْفَرْقَ مِنَ الْمَلَكَةِ مُنْزِلِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مُسُومِينَ﴾ قَالَ: فَلَبَّغَتْ كُرْزًا الْهَزِيمَةَ، فَلَمْ يُمِدَّ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يُمِدَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْخَمْسَةِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: أَمَدَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْف، ثُمَّ صَارُوا ثَلَاثَةَ آلَافٍ، ثُمَّ صَارُوا خَمْسَةَ آلَافٍ<sup>(٢)</sup>. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَبَيَّنَّ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ التَّنْصِصَ عَلَى الْآلِفِ - هَهُنَا - لَا يُتَافَى الثَّلَاثَةَ

الْآلَافَ فَمَا فَوْقَهَا، لِقَوْلِهِ: ﴿مُرَوِّفِينَ﴾ بِمَعْنَى يَزِدُّهُمْ غَيْرُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ أَلُوفٌ أُخَرُ مِثْلُهُمْ. وَهَذَا السِّيَاقُ شَبِيهُ بِهَذَا السِّيَاقِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. فَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ يَعْنِي: تَصْبِرُوا عَلَى مُصَابَرَةِ عَدُوِّكُمْ، وَتَتَّقُونِي وَتُطِيعُوا أَمْرِي. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَا تُوكُم مِّن قَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَفَتَادَةُ الرَّبِيعِ وَالسَّدِّيُّ: أَيُّ مِنْ وَجْهِهِمْ هَٰذَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ سَفَرِهِمْ هَٰذَا، وَيُقَالُ: مِنْ غَضَبِهِمْ هَٰذَا<sup>(٤)</sup>.

إِلَّا يَوْمَ بَدْرٍ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبَّادٍ أَنَّ الزُّبَيْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ عَلَيْهِ يَوْمَ بَدْرٍ عِمَامَةٌ صَفْرَاءُ مُعْتَجِرًا بِهَا، فَتَرَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ، عَلَيْهِمْ عِمَامَتُهُمْ صُفْرًا<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَمَيْنَ قُلُوبِكُمْ بِهِ﴾ أَيُّ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَأَعْلَمَكُمْ بِإِزَالِهِمْ إِلَّا بِشَارَةً لَّكُمْ، وَتَطْيِيبًا لِّقُلُوبِكُمْ وَتَطْمِينًا، وَإِلَّا فَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي لَوْ شَاءَ لَآتَنَصَرَ مِنْ أَغْدَائِهِ بِدُونِكُمْ، وَمِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى قِتَالِكُمْ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقِتَالِ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَنَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِأَلْبَابِ ۚ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢١٧]. وَبَلَّغَهُمْ لَنَتَّعَ عَرَفَهَا هُمْ [محمد: ٤-٦] وَلِهَٰذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلَسَطَمَيْنَ قُلُوبِكُمْ بِهِ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ أَيُّ: هُوَ ذُو الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةُ فِي قَدَرِهِ وَالْإِحْكَامُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ أَمَرَكُمْ بِالْجِهَادِ وَالْجِلَادِ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي كُلِّ تَقْدِيرٍ، وَلِهَٰذَا ذَكَرَ جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْمُمَكِّنَةِ فِي الْكُفَّارِ الْمُجَاهِدِينَ، فَقَالَ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ أَيُّ لِيُهْلِكَ أُمَّةً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ أَيُّ يُخْرِبُهُمْ وَيُرُدُّهُمْ بِغَيْظِهِمْ لَمَّا لَمْ يَتَالُوا مِنْكُمْ مَا أَرَادُوا. وَلِهَٰذَا قَالَ: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا﴾ أَيُّ يَرْجِعُوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أَيُّ لَمْ يَحْصُلُوا عَلَى مَا أَمَّلُوا.

ثُمَّ اعْتَزَّصَ بِجُمْلَةٍ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَيُّ بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَكَفَّاتُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤٠] وَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ فِي عِبَادِي إِلَّا مَا أَمَرْتُكَ بِهِ فِيهِمْ<sup>(٨)</sup>. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى بَقِيَّةَ الْأَقْسَامِ، فَقَالَ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ

بَلَّغَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَنَّ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ يُمِدُّ الْمُشْرِكِينَ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ يَكُنْكُمْ أَنْ يُدْعِمَكُمْ رَبُّكُمْ يَثَلَّةً ۖ الْفَرْقَ مِنَ الْمَلَكَةِ مُنْزِلِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مُسُومِينَ﴾ قَالَ: فَلَبَّغَتْ كُرْزًا الْهَزِيمَةَ، فَلَمْ يُمِدَّ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يُمِدَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْخَمْسَةِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: أَمَدَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْف، ثُمَّ صَارُوا ثَلَاثَةَ آلَافٍ، ثُمَّ صَارُوا خَمْسَةَ آلَافٍ<sup>(٢)</sup>. فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَبَيَّنَّ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَوِّفِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ التَّنْصِصَ عَلَى الْآلِفِ - هَهُنَا - لَا يُتَافَى الثَّلَاثَةَ

الْآلَافَ فَمَا فَوْقَهَا، لِقَوْلِهِ: ﴿مُرَوِّفِينَ﴾ بِمَعْنَى يَزِدُّهُمْ غَيْرُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ أَلُوفٌ أُخَرُ مِثْلُهُمْ. وَهَذَا السِّيَاقُ شَبِيهُ بِهَذَا السِّيَاقِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. فَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ يَعْنِي: تَصْبِرُوا عَلَى مُصَابَرَةِ عَدُوِّكُمْ، وَتَتَّقُونِي وَتُطِيعُوا أَمْرِي. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَا تُوكُم مِّن قَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَفَتَادَةُ الرَّبِيعِ وَالسَّدِّيُّ: أَيُّ مِنْ وَجْهِهِمْ هَٰذَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ سَفَرِهِمْ هَٰذَا، وَيُقَالُ: مِنْ غَضَبِهِمْ هَٰذَا<sup>(٤)</sup>.

ثُمَّ اعْتَزَّصَ بِجُمْلَةٍ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَيُّ بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَكَفَّاتُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤٠] وَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْحُكْمِ شَيْءٌ فِي عِبَادِي إِلَّا مَا أَمَرْتُكَ بِهِ فِيهِمْ<sup>(٨)</sup>. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى بَقِيَّةَ الْأَقْسَامِ، فَقَالَ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ

(١) ابن أبي حاتم: ٥٢٠/٢ (٢) الطبري: ١٧٨/٧ (٣) ابن أبي حاتم: ٥٢٣/٢، ٥٢٤ (٤) الطبري: ١٨٢/٧ العوفي تقدم حاله (٥) ابن أبي حاتم: ٥٢٥/٢ أبو إسحاق السبيعي مدلس مختلط كما مر (٦) ابن أبي شيبة: ٣٥٤/١٤ (٧) ابن أبي حاتم: ٥٢٧/٢ (٨) الطبري: ١٩٥/٧



سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦٧

الْمُحْسِنِينَ

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا  
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٠﴾ الَّذِينَ يُفْقُونَ  
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ  
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ وَالَّذِينَ إِذَا  
فَعَلُوا فُجُورًا ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا  
لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَعْفُرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى  
مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ  
مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ جَبْرِ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٣﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ  
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ  
﴿١٣٤﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٥﴾  
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ  
﴿١٣٦﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ  
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ  
ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٧﴾

وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٩﴾  
﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا  
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٤٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾  
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَى  
مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ  
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٣﴾ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ  
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا  
فَعَلُوا فُجُورًا ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ  
وَمَن يَعْفُرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ  
يَعْلَمُونَ ﴿١٤٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ جَبْرِ  
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٤٦﴾  
[حُرْمَةُ الرِّبَا عَلَى الْإِطْلَاقِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ تَعَاطِي الرِّبَا،

الْكُفْرَ وَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ  
ظَالِمُونَ﴾ أَيُّ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ  
مِنَ الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فَلَانًا وَفَلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ  
اللَّهُ لِمَن حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ  
لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (١) ... الْآيَةُ وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فَلَانًا، اللَّهُمَّ الْعَنِ  
الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ الْعَنِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، اللَّهُمَّ  
الْعَنِ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ» فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ  
الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فَتَيَبَ  
عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ (٣).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ، أَوْ يَدْعُوَ  
لِأَحَدٍ، قَتَتْ بَعْدَ الرُّكُوعِ وَرُبَّمَا قَالَ: إِذَا قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ  
لِمَن حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ: اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ،  
وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رِبْعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ  
الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُصْرٍ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ  
سِنِينَ كَسَنِي يُونُسَ» يَجْهَرُ بِذَلِكَ. وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ  
صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فَلَانًا وَفَلَانًا» لِأَحْيَاءٍ  
مِّنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ  
شَيْءٌ﴾ ... الْآيَةُ (٤).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ حُمَيْدٌ وَنَابِثٌ، عَنْ أَنَسِ بْنِ  
مَالِكٍ: شَجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أَحُدٍ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ  
شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» فَتَرَلَّتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ  
النَّبِيَّ ﷺ، كَسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أَحُدٍ، وَشَجَّ فِي جَبْهَتِهِ  
حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ  
فَعَلُوا هَٰذَا بَيْنَهُمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رِبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ؟»  
فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ  
فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٦) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ  
الْجَمِيعِ مِلْكٌ لَهُ، وَأَهْلُهَا عِبِيدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿يَعْفُرُ لِمَن يَشَاءُ  
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أَيُّ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ،

(١) فتح الباري: ٧٣/٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٣١٤/٦

(٣) أحمد: ٩٣/٢ (٤) البخاري: ٤٥٦٠ (٥) فتح الباري: ٧/

٣٦٥ (٦) أحمد: ٩٩/٣ (٧) مسلم: ١٧٩١

﴿كَرِضَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالنَّارِ فِي أَشْفَلِ سَافِلِينَ، فَلَا تُنَافِي بَيْنَ كَوْنِهَا كَعَرَضِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبَيْنَ وُجُودِ النَّارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ﴾ أَيُّ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، كَمَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤] وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتَعْلِفُهُمْ أَمْرٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنْفَاقِ فِي مَرَاضِيهِ. وَالْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أَيُّ إِذَا نَارَ بِهِمْ الْغَيْظُ كَظَمُوهُ، بِمَعْنَى كَتَمُوهُ، فَلَمْ يَعْمَلُوهُ، وَعَفَوْا مَعَ ذَلِكَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الشَّيْخَانُ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ، وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فِتْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزَنٌ بِرَبْوَةٍ - ثَلَاثًا - أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ. وَالسَّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ، وَمَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٌ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ جَوْفَهُ إِيْمَانًا»<sup>(٥)</sup>. انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ لَيْسَ فِيهِ مَجْرُوحٌ، وَمَتْنُهُ حَسَنٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ» وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَرَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جُرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٌ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ»<sup>(٧)</sup>.

(١) فتح الباري: ١٤/٦ (٢) كشف الأستار: ٤٣/٣ صحيح ابن حبان ٣٠٦/١ والمستدرک ٣٦/١ (٣) أحمد: ٢٣٦/٢ (٤) فتح الباري: ٥٣٥/١٠ ومسلم: ٢٠١٤/٤ (٥) أحمد: ١/٣٢٧ (٦) أحمد: ٤٣٨/٣، ٤٤٠ وأبو داود: ١٣٧/٥ وتحفة الأحوذی: ١٣٩/٦ وابن ماجه: ١٤٠٠/٢ (٧) أحمد: ١٢٨/٢

وَأَكْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِذَا حَلَّ أَجَلَ الدِّينِ: إِمَّا أَنْ يَقْضِيَ وَإِمَّا أَنْ يُرْبِيَ، فَإِنْ قَضَاهُ، وَإِلَّا زَادَهُ فِي الْمُدَّةِ، وَزَادَهُ الْآخِرُ فِي الْقَدْرِ، وَهَكَذَا كُلُّ عَامٍ، فَرُبَّمَا تَضَاعَفَ الْقَلِيلُ حَتَّى يَصِيرَ كَثِيرًا مُضَاعَفًا. وَأَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالتَّقْوَى لَعَلَّهُمْ يُفْلِحُونَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَى، ثُمَّ تَوَعَّدَهُم بِالنَّارِ وَحَذَّرَهُمْ مِنْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

### [النَّدْبُ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَحُصُولِ الْجَنَّةِ]

ثُمَّ نَدَبَهُمْ إِلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى تَبَلُّغِ الْقَرَابَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ كَمَا أُعِدَّتِ النَّارُ لِلْكَافِرِينَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ - تَنْبِيْهَا عَلَى اتِّسَاعِ طَوْلِهَا - كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ فُرُشِ الْجَنَّةِ: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أَيُّ: فَمَا ظَنُّكَ بِاطِّهَايِرٍ؟ وَقِيلَ: بَلْ عَرْضُهَا كَطَوْلِهَا، لِأَنَّهَا قُبَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَالشَّيْءُ الْمُقْبَبُ وَالْمُسْتَدِيرُ عَرْضُهُ كَطَوْلُهُ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَسَقَفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ»<sup>(١)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ [الحديد: ٢١].

رَوَى الْبَزَّازُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فَأَيْنَ النَّارُ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ النَّهَارُ؟» قَالَ: حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: «وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ (أَحَدُهُمَا): أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ مُشَاهَدَتِنَا اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي مَكَانٍ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. (الثَّانِي) أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّ النَّهَارَ إِذَا تَغَشَّى وَجْهَ الْعَالَمِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ يَكُونُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرَ، فَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَعَرْضُهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(١)</sup>.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْكَاذِبِينَ الْعَظِيمَ﴾ أَيُّ لَا يُعْمَلُونَ غَضَبُهُ فِي النَّاسِ، بَلْ يَكْفُونَ عَنْهُمْ شَرَّهُمْ، وَيَحْتَسِبُونَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أَيُّ مَعَ كَفِّ الشَّرِّ يَغْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَلَا يَبْقَى فِي أَنْفُسِهِمْ مُوجِدَةٌ عَلَى أَحَدٍ، وَهَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فَهَذَا مِنْ مَقَامَاتِ الْإِحْسَانِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «ثَلَاثٌ أَفْسِمَ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِغَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالذِّبْ﴾ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيُّ إِذَا صَدَرَ مِنْهُمْ ذَنْبٌ اتَّبَعُوهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاعْفُوهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَلَعِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفُوهُ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفُوهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفُوهُ لِي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»<sup>(٣)</sup>. أَخْرَجَهُ فِي الصَّحِيحِ بَنُو خُوَيْمٍ<sup>(٤)</sup>.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ إِبْلِيسَ حِينَ نَزَلَتْ ﴿وَالذِّبْ﴾ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ... الْآيَةُ، بَكَى<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذَّنْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أَيُّ لَا يَغْفِرُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ تَابُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ عَنِ قَرِيبٍ، وَلَمْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْمُعْصِيَةِ وَيَصِرُوا عَلَيْهَا. غَيْرَ مُقْلَعِينَ عَنْهَا، وَلَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ الذَّنْبُ تَابُوا عَنْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبِيدِ بْنِ عَمِيرٍ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ مَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾

أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «ارْحَمُوا تَرْحَمُوا، وَاعْفُوا يُعْفَرْ لَكُمْ، وَيُلْ لِقَمَاعِ الْقَوْلِ، وَيُلْ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»<sup>(٦)</sup> تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَصْفِهِمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ «أَوَلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ» أَيُّ جَزَاؤُهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ «مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أَيُّ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوبَاتِ «خَالِدِينَ فِيهَا» أَيُّ مَا كَثُرَتْ فِيهَا «وَيَعْمَرُ أَجْرُ الْعَمَلِينَ» يَمْدُحُ تَعَالَى الْجَنَّةَ.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾<sup>(٧)</sup> هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ<sup>(٨)</sup> وَلَا تَهْمُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ<sup>(٩)</sup> إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ<sup>(١٠)</sup> وَلِيَمْجِصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ<sup>(١١)</sup> أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ<sup>(١٢)</sup> وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ<sup>(١٣)</sup>

[بَيَانُ حِكْمَةِ مَا أُصِيبُوا بِهِ يَوْمَ أُحُدٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطًا بِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أَيُّ قَدْ جَرَى نَحْوُ هَذَا عَلَى الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ، وَالِدَائِرَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ فِيهِ بَيَانٌ لِلْأُمُورِ عَلَى جَلِيلَتِهَا، وَكَيْفَ كَانَ الْأُمَمُ الْأَقْدَمُونَ مَعَ أَغْدَائِهِمْ ﴿وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، فِيهِ خَيْرٌ مَّا قَبْلَكُمْ. وَ ﴿هُدًى﴾ لِقُلُوبِكُمْ، وَ ﴿مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ زَاجِرٌ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ.

(١) ابن ماجة: ١٤٠١/٢ (٢) أحمد: ٢٣١/٤ (٣) أحمد: ٢٩٦/٢ (٤) فتح الباري: ٤٧٤/١٣ (٥) عبد الرزاق: ١/١٣٣ (٦) أحمد: ١٦٥/٢

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمِنْ يُرْدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِهَ مِنْهَا وَمَنْ يُرْدُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِهَ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيبِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ أَقْدَامُ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

رَأَيْتُمُوهُ ﴿١٤١﴾ يَعْنِي الْمَوْتَ شَاهِدْتُمُوهُ وَقَتَ لَمَعَانِ الشُّبُوفِ، وَحَدَّ الْأَسِنَّةِ، وَاشْتَبَاكَ الرِّمَاحِ، وَصُفُوفِ الرِّجَالِ لِلْقِتَالِ، وَالْمُتَكَلِّمُونَ يُعْبِرُونَ عَنْ هَذَا بِالتَّخْيِيلِ. وَهُوَ مُشَاهَدَةُ مَا لَيْسَ بِمَحْسُوسٍ كَالْمَحْسُوسِ كَمَا تَتَخَيَّلُ الشَّأْ صَدَاقَةُ الْكَبْشِ، وَعَدَاوَةُ الدُّبِّ.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرْدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِهَ مِنْهَا وَمَنْ يُرْدُ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِهَ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيبِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ أَقْدَامُ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أَيْ لَا تَضَعُفُوا بِسَبَبِ مَا جَرَى ﴿وَلَا تَهْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ الْعَافِيَةَ وَالنُّصْرَةَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ أَيْ إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ، وَقُتِلَ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ، فَقَدْ أَصَابَ أَغْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِ وَجِرَاحٍ ﴿وَلَكِ الْآيَاتُ نَذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أَيْ نُدْبِلُ عَلَيْكُمْ الْأَغْدَاءَ نَارَةً، وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ الْعَافِيَةُ، لِمَا لَنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مِثْلِ هَذَا: لِيَرَى مَنْ يَضْطَرُّ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَغْدَاءِ وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴿يَعْنِي يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ، وَيَنْذِلُونَ مُهْجَهُمْ فِي مَرْضَاتِهِ﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيْ يُكَمِّرَ عَنْهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ ذُنُوبٌ. وَإِلَّا رَفَعَ لَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا أَصِيبُوا بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ فَإِنَّهُمْ إِذَا ظَفَرُوا بَعَا وَبَطَرُوا، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ دِمَارِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَمَحْقِهِمْ وَفَنَائِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أَيْ أَحْسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ تَتَّبَلُّوا بِالْقِتَالِ وَالشَّدَائِدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِهِمْ أَلَسَاءُ الْفِتْرَةِ وَزُرُوا﴾... [الآيَةُ: الْبَقَرَةُ: ٢١٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُبْزَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾... [الآيَةُ: الْعَنْكَبُوتُ: ٢، ١]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ أَيْ لَا يَحْصُلُ لَكُمْ دُخُولُ الْجَنَّةِ حَتَّى تَتَّبَلُّوا، وَيَرَى اللَّهُ مِنْكُمْ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مُقَارَاةِ الْأَغْدَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ أَيْ قَدْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ، تَتَمَنَّوْنَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَتَتَحَرَّقُونَ عَلَيْهِمْ، وَتَوَدُّوْنَ مُنَاجَزَتَهُمْ وَمُصَابَرَتَهُمْ، فَهَا قَدْ حَصَلَ لَكُمْ الَّذِي تَمَنَّيْتُمُوهُ وَطَلَبْتُمُوهُ، فَدُونَكُمْ فَقَاتِلُوا وَصَابِرُوا، وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِبْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّبُوفِ»<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ

وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

[ذِكْرُ إِشَاعَةِ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ، وَبَيَانُ الْمَوْقِفِ الصَّحِيحِ فِي حَالَةِ مَوْتِهِ]

لَمَّا انْهَزَمَ مِنَ انْهَزَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أَحَدٍ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ، نَادَى الشَّيْطَانُ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، وَرَجَعَ ابْنُ قَمَيْةٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: قَتَلْتُ مُحَمَّدًا، فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ، وَجَوَّزُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، كَمَا قَدْ قَصَّ اللَّهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَحَصَلَ ضَعْفٌ وَوَهْنٌ وَتَأَخَّرَ عَنِ الْقِتَالِ، فَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَيُّ لَهُ أَسُوءَةٌ بِهِمْ فِي الرِّسَالَةِ وَفِي جَوَازِ الْقَتْلِ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ أَبِيهِ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا فُلَانُ، أَشَعَرْتُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قُتِلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ فَقَدْ بَلَغَ، فَقَاتِلُوا عَنْ دِينِكُمْ، فَتَرَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ النَّيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَكْرِّراً عَلَى مَنْ حَصَلَ لَهُ ضَعْفٌ ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أَيُّ رَجَعْتُمْ الْقَهْقَرَى ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ قَامُوا بِطَاعَتِهِ، وَقَاتَلُوا عَنْ دِينِهِ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا. وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ الْإِسْلَامِ مِنْ طَرَفٍ مُتَعَدِّدَةٍ تَفِيدُ الْقَطْعَ، وَقَدْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ فِي مُسْنَدِي الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الصَّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكِنِهِ بِالسُّنْحِ، حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَبَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُعْشَى بِثَوْبٍ حَبْرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ وَقَبَّلَهُ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا. وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ يُحَدِّثُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا

بَعْدُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قَالَ: فَوَ اللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا النَّاسُ مِنْهُ كُلُّهُمْ، فَمَا سَمِعَهَا بَشَرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا تَلَاهَا. وَعَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ: أَنَّ عُمَرَ قَالَ: وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَوَّزْتُ حَتَّى مَا تُقَلِّنِي رَجُلَايَ، وَحَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ أَيُّ لَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَحَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْمُدَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُتَّسِقٌ وَعِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢] وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَشْجِيعٌ لِلْجَبَنَاءِ، وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ الْإِفْدَامَ وَالْإِحْجَامَ لَا يَنْقُصُ مِنَ الْعُمُرِ وَلَا يَزِيدُ فِيهِ، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حَبِيبِ بْنِ صُهَبَانَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَهُوَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ -: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَعْبُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْعُدُوِّ هَذِهِ النُّطْفَةَ - يَعْنِي دَجَلَةَ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ ثُمَّ أَفْحَمَ فَرَسَهُ دَجَلَةَ، فَلَمَّا أَفْحَمَ، أَفْحَمَ النَّاسُ، فَلَمَّا رَأَاهُمُ الْعُدُوُّ، قَالُوا: دِيوَانُ! فَهَرَبُوا (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُزِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُزِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أَيُّ مَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا فَقَطْ نَالَ مِنْهَا مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ، وَمَنْ قَصَدَ يَعْمَلُهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْهَا مَعَ مَا قَسَمَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَمَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (٤) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا

(١) دلائل النبوة: ٢٤٨/٣ (٢) فتح الباري: ٧٥١/٧ (٣) ابن أبي حاتم: ٥٨٤/٢، وديوان جمع ديوان، وهو بالفارسية والهندية: العفريت الكبير.

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦٩

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا  
يَرُدُّوْكُمْ عَلٰٓى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ ﴿١٤٩﴾  
بَلِ اللّٰهُ مَوْلٰىكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّصِيْرِيْنَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِيْ  
فِيْ قُلُوْبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ  
مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَمَا وُثِّقَتْ لَهُمْ  
مَتٰوٰى الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ  
وَعْدُهُ اِذْ تَحْسُوْنَهُمْ بِاٰدِنِهٖ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ  
وَتَنَزَعْتُمْ فِيْ الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰىكُمْ  
مَّا تَحِبُّوْنَ مِنْكُمْ مِّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ  
مَّنْ يُرِيْدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ  
وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللّٰهُ ذُوْ فَضْلٍ عَلٰٓى الْمُؤْمِنِيْنَ  
﴿١٥٢﴾ اِذْ تُصْعِدُوْنَ وَلَا تَكُوْنُوْنَ عَلٰٓى اَحَدٍ  
وَالرُّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِيْ اٰخِرَتِكُمْ فَاتَّبِعْكُمُ  
عَمَّا يَعْزِمُ لِكَيْلًا تَحَرُّوْا عَلٰٓى مَا فَاتَكُمْ  
وَلَا مَآ اَصْبَحْكُمْ وَاللّٰهُ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٥٣﴾

مَوْلٰىكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّصِيْرِيْنَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِيْ فِيْ قُلُوْبِ الَّذِينَ  
كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا  
وَمَا وُثِّقَتْ لَهُمْ مَتٰوٰى النَّارِ وَيَسَّ مَتٰوٰى الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ  
اللّٰهُ وَعْدُهُ اِذْ تَحْسُوْنَهُمْ بِاٰدِنِهٖ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ  
وَتَنَزَعْتُمْ فِيْ الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰىكُمْ مَّا تَحِبُّوْنَ  
مِنْكُمْ مِّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ  
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللّٰهُ ذُوْ  
فَضْلٍ عَلٰٓى الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١٥٢﴾ اِذْ تُصْعِدُوْنَ وَلَا تَكُوْنُوْنَ عَلٰٓى  
اَحَدٍ وَالرُّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِيْ اٰخِرَتِكُمْ فَاتَّبِعْكُمُ عَمَّا يَعْزِمُ  
لِكَيْلًا تَحَرُّوْا عَلٰٓى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ اَصْبَحْكُمْ وَاللّٰهُ  
خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٥٣﴾

[النَّهْيُ عَنْ طَاعَةِ الْكُفَّارِ، وَبَيَانُ اَسْبَابِ مَا حَصَلَ فِي

[الإسراء: ١٨، ١٩] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَسَجَّزِيَ  
الْمُشْكِرِينَ﴾ أَيْ سَنُعْطِيهِمْ مِنْ فَضْلِنَا وَرَحْمَتِنَا فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسْتَلَبًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَمَّا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ  
يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ﴾ قِيلَ:  
مَعْنَاهُ: كَمْ مِنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ، وَقُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ مِنْ أَصْحَابِهِ كَثِيرٌ.  
وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: وَكَمْ مِنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ  
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَصْحَابِهِ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ، وَكَلَامُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي  
السِّيَرَةِ يَقْتَضِي قَوْلًا آخَرَ، قَالَ: أَيْ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَّبِيٍّ أَصَابَهُ  
الْقَتْلُ وَمَعَهُ رَيْثُونٌ، أَيْ جَمَاعَاتٌ، فَمَا وَهَتُوا بَعْدَ نَبِيِّهِمْ،  
وَمَا ضَعُفُوا عَنْ عَدُوِّهِمْ، وَمَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي  
الْجِهَادِ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ دِينِهِمْ، وَذَلِكَ الصَّبْرُ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الصَّابِرِينَ﴾ فَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ﴾ حَالًا، وَقَدْ نَصَرَ  
هَذَا الْقَوْلُ الشَّهْلِيُّ، وَبَالَغَ فِيهِ، وَلَهُ اتِّجَاهٌ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا  
وَهَتُوا لِمَا أَصَابَهُمْ... الْآيَةُ، وَكَذَلِكَ حَكَاهُ الْأُمَوِيُّ فِي  
مَغَازِيهِ عَنْ كِتَابِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَقُلْ غَيْرَهُ، وَرَوَى  
سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿رَيْثُونٌ كَثِيرٌ﴾ أَيْ أَلُوفٌ <sup>(١)</sup>.  
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ  
وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: الرَّيْثُونُ:  
الْجُمُوعُ الْكَثِيرَةُ <sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الْحَسَنِ ﴿رَيْثُونٌ كَثِيرٌ﴾  
أَيْ عُلَمَاءُ كَثِيرٌ، وَعَنْهُ أَيْضًا: عُلَمَاءُ صَبَرُوا وَأَقْبِيَاءُ.  
﴿فَمَا وَهَتُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا  
اسْتَكَانُوا﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ يَقْتُلُ  
نَبِيِّهِمْ <sup>(٣)</sup> ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ يَقُولُ: فَمَا ارْتَدُّوا عَنْ بَصِيرَتِهِمْ  
وَلَا عَنْ دِينِهِمْ أَنْ قَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّ اللَّهِ حَتَّى  
لَحِقُوا بِاللَّهِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾  
تَخَشَّعُوا، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: وَمَا ذَلُّوا لِعَدُوِّهِمْ،  
﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا  
أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى  
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ أَيْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَجِيرَى إِلَّا ذَلِكَ  
﴿فَقَاتَلَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أَيْ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ وَالْعَاقِبَةَ  
﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أَيْ جَمَعَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ هَذَا ﴿وَاللَّهُ  
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا  
يَرُدُّوْكُمْ عَلٰٓى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللّٰهُ

(١) الطبري: ٢٦٦/٧ (٢) ابن أبي حاتم: ٥٨٨، ٥٨٧/٢ (٣)  
ابن أبي حاتم: ٥٩١/٢

## أُحِدِ مِنَ النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ ثَوْرُ الرَّدَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُدْخِلُوكُمْ عَلَىٰ آغْفٍ كُفٍّ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ وَمُؤَالَاتِهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُ سَيُلْقِي فِي قُلُوبِ أَعدَائِهِمُ الْخَوْفَ مِنْهُمْ، وَالذَّلَّةَ لَهُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشُرْكِهِمْ، مَعَ مَا ادَّخَرَهُ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ، فَقَالَ: ﴿سَيُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ وَقَدْ بَيَّنَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أَيُّ أَوَّلِ النَّهَارِ ﴿إِذْ تَحْسَبُونَهُمْ﴾ أَيُّ تَقْتُلُونَهُمْ ﴿بِآيَاتِهِ﴾ أَيُّ بِسَلِيلِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿حَوْصًا﴾ إِذَا قَسَيْتُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَسْلُ: الْجُنُودُ<sup>(٢)</sup> ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ كَمَا وَقَعَ لِلرَّمَاةِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ وَهُوَ الظَّفَرُ مِنْهُمْ ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدَّيْسَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ رَغِبُوا فِي الْمَغْنَمِ حِينَ رَأَوْا الْهَزِيمَةَ ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثُمَّ أَدَالَهُمْ عَلَيْهِمْ لِيَخْتَبِرَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أَيُّ غَفَرَ لَكُمْ ذَلِكَ الصَّنِيعَ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِكَثْرَةِ عَدَدِ الْعَدُوِّ وَعُدُوْدِهِمْ، وَقِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعُدُوْدِهِمْ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرَّمَاةِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَالَ: «لَا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا» فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ هَرَبُوا، حَتَّى رَأَيْنَا السَّاءَ يَشْتَدِدُنَّ فِي الْجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سَوْفِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلَاجِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ:

عَهْدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَا تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وَجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا، فَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «لَا تُجِيبُوهُ». فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ فَقَالَ: «لَا تُجِيبُوهُ». فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنْ هُوَ لَا قَدْ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءَ لَأَجَابُوا. فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، قَدْ أَبْقَى اللَّهُ لَكَ مَا يُخْزِنُكَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اغْلُ هُبْلُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ أَغْلَى وَأَجْلُ». فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَى وَلَا عُزَى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمَ يَوْمٍ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مِثْلَهُ لَمْ أَمْرٌ بِهَا وَلَمْ تَسْأَلْنِي<sup>(٣)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ الزُّبَيْرَ ابْنَ الْعَوَّامِ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَنْظُرَ إِلَى خَدَمِ هِنْدٍ وَصَوَاحِبَاتِهَا مُشْمَرَاتٍ هَوَارِبَ مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ كَثِيرٍ وَلَا قَلِيلٍ. وَمَالَتِ الرَّمَاةُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفْنَا الْقَوْمَ عَنْهُ، يُرِيدُونَ النَّهْبَ، وَخَلَّوْا ظَهْرَنَا لِلْجَلِ، فَأَتَيْنَا مِنْ أَدْبَارِنَا، وَصَرَخَ صَارُخٌ: أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاثْكَفَانَا، وَانْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْنَا أَصْحَابَ اللِّوَاءِ، حَتَّى مَا يَذْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمْ يَزَلْ لَوَاءُ الْمُشْرِكِينَ صَرِيحًا حَتَّى أَخَذَتْهُ عَمْرَةَ بِنْتُ عَلْقَمَةَ الْحَارِثِيَّةُ، فَدَفَعَتْهُ لِقُرَيْشٍ فَلَاثُوا بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ رَافِعٍ أَحَدُ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ، قَالَ: انْتَهَى أَنَسُ بْنُ النَّصْرِ عَمَّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَطَلْحَةَ بْنِ عُثَيْدٍ اللَّهِ فِي رَجَالٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَدْ أَلْقَوْا مَا بَأْيَدِيهِمْ، فَقَالَ: مَا يُخْلِيكُمْ؟ فَقَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَمَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ قَوْمُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقَوْمُ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَمَّهُ يَعْنِي أَنَسَ

(١) فتح الباري: ١/٥١٩ ومسلم: ١/٣٧٠ (٢) الطبري: ٧/

٢٩١ (٣) فتح الباري: ٧/٤٠٥ (٤) ابن هشام: ٨٨/٣

الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَيْضًا قَالَ: رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنْ يَسَارِهِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضٌ، يُقَاتِلَانِ عَنْهُ أَشَدَّ الْقِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا بَعْدَهُ، يَعْنِي جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ أَبِي ابْنُ خَلْفٍ أَخُو بَنِي جُمَحٍ، قَدْ خَلَفَ وَهُوَ بِمَكَّةَ لَيَقْتُلَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَتْ رَسُولَ اللَّهِ حَلْفَتُهُ، قَالَ: «بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ، أَقْبَلَ أَبِي فِي الْحَدِيدِ مُقْنَعًا وَهُوَ يَقُولُ: لَا نَجُوتُ إِنْ نَجَا مُحَمَّدٌ، فَحَمَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ قَتْلَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ مُضْعَبُ ابْنِ عُمَيْرٍ، أَخُو بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، يَقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ، فَقَتَلَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَأَبْصَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَرْقُوتَهُ أَبِي بْنِ خَلْفٍ، مِنْ فُرْجَةٍ بَيْنَ سَابِغَةِ الدَّرْعِ وَالْبَيْضَةِ، وَطَعَنَهُ فِيهَا بِحَرَبَتِهِ، فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ عَنْ فَرْسِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ طَعْنَتِهِ دَمٌ، فَأَنَاهُ أَصْحَابُهُ فَاحْتَمَلُوهُ، وَهُوَ يَخُورُ خُورَ الثَّوْرِ، فَقَالُوا لَهُ: مَا أَجَزَعَكَ إِنَّمَا هُوَ خَدَشٌ؟ فَذَكَرَ لَهُمْ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ أَنَا أَقْتُلُ أُبَيًّا». ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي بِي، بِأَهْلِ ذِي الْمَجَازِ لَمَاتُوا أَجْمَعُونَ، فَمَاتَ إِلَى النَّارِ، فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ. وَقَدْ رَوَاهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي مَغَازِيهِ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ بِخَوَرِهِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: جُرْحٌ وَجْهٌ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ، وَهَشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكَانَ عَلِيٌّ يَسْكُبُ عَلَيْهَا بِالْمِجَنِّ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةً حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ، حَتَّى إِذَا صَارَ رَمَادًا أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَأَنْبَكِكُمْ عَمَّا بَعْثُوا إِلَى فِجَارِكُمْ عَمَّا عَلَى عَمِّ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: نَزَلْتُ بَيْتِي فَلَانَ،

ابْنُ النَّضْرِ، غَابَ عَنْ بَدْرِ فَقَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْتَنِي أَشْهَدَنِي اللَّهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَيْنَ اللَّهُ مَا أُجِدُّ، فَلَقِي يَوْمَ أُحُدٍ فَهَزِمَ النَّاسُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَتَقَدَّمَ بَيْنَهُمَا فَلَقِي سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: أَيْنَ يَا سَعْدُ، إِنِّي أُجِدُّ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى فَقَتِلَ، فَمَا عَرِفَ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِنَاتِهِ أَوْ بِشَامَةِ، وَبِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمِيَةٍ بِسَهْمٍ. هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ<sup>(١١)</sup>. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثٍ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ بِخَوَرِهِ<sup>(١٢)</sup>.

[ذَكَرَ مَا أَصَابَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْهَزِيمَةِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ أَيْ صَرَفَكُمُ عَنْهُمْ» [إِذْ تُصْعِدُونَ] أَيْ فِي الْجَبَلِ هَارِبِينَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ. وَفَرَأَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ [إِذْ تُصْعِدُونَ] أَيْ فِي الْجَبَلِ<sup>(١٣)</sup>. «وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ» أَيْ وَأَنْتُمْ لَا تَلُوتُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الدَّهْشِ وَالْخَوْفِ وَالرُّعْبِ «وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ» أَيْ وَهُوَ قَدْ خَلَفْتُمُوهُ وَرَاءَ طُهُورِكُمْ، يَدْعُوكُمْ إِلَى تَرْكِ الْفِرَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَإِلَى الرَّجْعَةِ وَالْعُودَةِ وَالْكُرَّةِ. قَالَ السُّدِّيُّ: لَمَّا شَدَّ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِأُحُدٍ فَهَزَمُوهُمْ، دَخَلَ بَعْضُهُمُ الْمَدِينَةَ، وَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ فَوْقَ الْجَبَلِ إِلَى الصَّخْرَةِ فَقَامُوا عَلَيْهَا. وَجَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ «إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادَةُ اللَّهِ» فَذَكَرَ اللَّهُ صُغُودَهُمْ عَلَى الْجَبَلِ، ثُمَّ ذَكَرَ دُعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ»<sup>(١٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(١٥)</sup>.

#### [دِفَاعُ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ]

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَاءً وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ، يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ<sup>(١٦)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي عُمَانَ النَّهْدِيِّ، قَالَ: لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي قَاتَلَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، غَيْرُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعْدٍ، عَنْ حَدِيثِهِمَا<sup>(١٧)</sup>.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: نَثَلَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِنَانَتَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَالَ: «إِذَا مِمَّا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»، وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(١٨)</sup>. وَثَبَتَ فِي

(١) فتح الباري: ٤١١/٧ (٢) مسلم: ١٥١٢/٣ (٣) ابن أبي

حاتم: ٦٠٩/٢ (٤) الطبري: ٣٠١/٧ (٥) الطبري: ٣٠٣/٧

(٦) فتح الباري: ٤١٦/٧ (٧) البخاري: ٤٠٦٠ ومسلم:

٢٤١٤ (٨) البخاري: ٤٠٥٥ (٩) البخاري: ٤٠٥٤ ومسلم:

٢٣٠٦ (١٠) البخاري ٢٩١١، ٤٠٧٥، ومسلم ١٧٩٠.



سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٧٠

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخَفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لَا خَافِيهِمْ إِذَا صَرُّوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَّوْكَانُوا عِندَنَا مَا تَدَّوْنُوا مَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

وَنَزَّلْتُ عَلَىٰ بَنِي فَلَانٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَأَصْلَيْتُكُمْ فِي جُدُوعِ التَّلْحِ﴾ [طه: ٧١] أَيُّ عَلَى جُدُوعِ التَّلْحِ<sup>(١)</sup>. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْعَمُّ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ، وَحِينَ قِيلَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ. وَالثَّانِي حِينَ عَلَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَوْقَ الْجَبَلِ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَغْلِبُونَا» وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: الْعَمُّ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ. وَالثَّانِي حِينَ قِيلَ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ، كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ مِنَ الْهَزِيمَةِ. رَوَاهُمَا ابْنُ مَرْدُودٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَتَنَادَ: الْعَمُّ الْأَوَّلُ سَمَاعُهُمْ قَتْلَ مُحَمَّدٍ، وَالثَّانِي: مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ. وَعَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَكْسُهُ. وَعَنِ السُّدِّيِّ: الْأَوَّلُ مَا فَاتَهُمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ، وَالثَّانِي إِشْرَافُ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أَيُّ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالظَّفَرِ بَعْدُكُمْ ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقَتْلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَالْحَسَنُ وَتَنَادَ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٢)</sup>. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ يُخَفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [إِنزَالُ الْأَمْنَةِ، وَهِيَ النَّعَاسُ أَثْنَاءَ الْغَزْوَةِ، عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَذِكْرُ هَلَعِ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُثْنًا عَلَىٰ عِبَادِهِ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمْنَةِ، وَهُوَ النَّعَاسُ الَّذِي غَشِيَهُمْ وَهُمْ مُسْتَأَلِمُو السَّلَاحِ فِي حَالِ هَمِّهِمْ وَعَدَمِهِمْ، وَالنَّعَاسُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿إِذْ يُضَيِّكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ﴾... الْآيَةُ [الأنفال: ١١] وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ نَعَسَهُ النَّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ

وَأَخَذَهُ، وَيَسْقُطُ وَأَخَذَهُ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ فِي الْمَغَازِي مُعَلَّقًا. وَفِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مُسْنَدًا<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ، قَالَ: رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ، وَجَعَلْتُ أَنْظُرُ، وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النَّعَاسِ. لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: كُنْتُ فِيمَنْ أَلْفَى عَلَيْهِ النَّعَاسُ. الْحَدِيثُ<sup>(٦)</sup>.

قَالَ: وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ، أَجَبَنَ قَوْمٌ وَأَرْعَنَهُ وَأَخَذَهُ لِلْحَقِّ ﴿يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أَيُّ إِنَّمَا هُمْ كَذِبَةٌ، أَهْلُ شَكٍّ وَرَيْبٍ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ بِغْنِي أَهْلَ الْإِيمَانِ

(١) الطبري: ٣٠٤/٧ (٢) ابن أبي حاتم: ٦١٣/٢ (٣) فتح الباري: ٢٢/٧ (٤) فتح الباري: ٧٦/٨ ونحفة الأحوذى: ٨/٣٥٨ (٥) تحفة الأحوذى: ٣٥٨/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٤٩ والحاكم: ٢٩٧/٢ (٦) النسائي في الكبرى: ٣٤٩/٦

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أَيَّ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أَيُّ يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَحْلُمُ عَنْ حَلْفِهِ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: لَقِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: مَا لِي أَرَاكَ جَفَوْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أُبَلِّغُهُ أَنِّي لَمْ أَفِرْ يَوْمَ عَيْنِينَ - قَالَ عَاصِمٌ: يَقُولُ: يَوْمَ أُحُدٍ - وَلَمْ أَنْخَلَفْ عَنْ بَدْرٍ، وَلَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ، قَالَ: فَاذْطَلَقْ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ عُثْمَانَ. قَالَ: فَقَالَ: أَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي لَمْ أَفِرْ يَوْمَ عَيْنِينَ، فَكَيْفَ يُعْزِي بِي ذَنْبٌ قَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي تَخَلَّفْتُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنِّي كُنْتُ أَمْرَضُ رَفِيقَةَ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَاتَتْ، وَقَدْ ضَرَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَهْمٍ فَقَدْ شَهِدَ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي تَرَكْتُ سُنَّةَ عُمَرَ فَإِنِّي لَا أَطِيقُهَا وَلَا هُوَ. فَأْتِيَهُ فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ <sup>(١)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُبَيِّتُ مَا يَشَاءُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ <sup>(٢)</sup> وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ <sup>(٣)</sup> وَلَكِنْ مَتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَّهِ تَعَالَى تَحْسَبُونَ <sup>(٤)</sup>.

[النَّهْيُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي تَعْلِيلِ الْمَوْتِ وَأُمُورِ

الْقَدْرِ بِغَيْرِ مَسِيئَةٍ اللَّهِ تَعَالَى]

يُنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي اعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ، الدَّالِّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْأَسْفَارِ وَفِي الْحُرُوبِ: لَوْ كَانُوا تَرَكُوا ذَلِكَ لَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أَيُّ عَنْ إِخْوَانِهِمْ ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ سَافَرُوا لِلتَّجَارَةِ وَنَحْوَهَا ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾ أَيُّ كَانُوا فِي الْعَزْوِ ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أَيُّ فِي الْبَلَدِ ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أَيُّ مَا مَاتُوا فِي السَّفَرِ، وَمَا قُتِلُوا فِي الْعَزْوِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي

وَالْيَقِينِ وَالنَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الصَّادِقِ، وَهُمْ الْجَارِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَيُنْجِزُ لَهُ مَأْمُولَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يَكُنْ فِدَا أَمَتِهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي لَا يَعْشَاهُمُ النَّعَاسُ مِنَ الْفَلَقِ وَالْجَزَعِ وَالْخَوْفِ ﴿يَطْمَئِنُّونَ بِاللَّهِ عِندَ الْحَقِّ ظَنِّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [الفتح: ١٢]، وَهَكَذَا هُوَ لَا يَعْتَقِدُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا ظَهَرُوا تِلْكَ السَّاعَةَ أَنَّهَا الْفَيْضُ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَادَ وَأَهْلُهُ. وَهَذَا شَأْنُ أَهْلِ الرِّبِّ وَالشُّكِّ، إِذَا حَصَلَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ الْقَاطِعَةِ تَحْصُلُ لَهُمْ هَذِهِ الظُّنُونُ الشَّيْعَةُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿يَقُولُونَ﴾ فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَلَأَمْتُ كُلُّهُمُ اللَّهُ يَخْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ مَا أَخْفَوَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا﴾ أَيُّ يُسِرُّونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ عَلَيْنَا، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ، فَمَا مِنَّا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا دَفَنَهُ فِي صَدْرِهِ، قَالَ: فَوَ اللَّهُ إِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِ بْنِ قُسَيْرٍ مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَأَلْهَمٍ يَقُولُ: لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا. فَحَفَظْتُمَا مِنْهُ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهْنَا﴾ لِقَوْلِ مُعْتَبِ <sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أَيُّ هَذَا قَدَرٌ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَحُكْمٌ حَتْمٌ لَا زِمَ لَا يَحَادُ عَنْهُ، وَلَا مَنَاصَ مِنْهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَتَنَبَّأِ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ يَخْتَبِرُكُمْ بِمَا جَرَى عَلَيْكُمْ، لِيَجِيزَ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَيُظْهِرَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ لِلنَّاسِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ بِمَا يَخْتَلِجُ فِي الصُّدُورِ مِنَ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ.

[ذِكْرُ تَوَلَّى بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ وَبَيَانُ الْعَفْوِ عَنْهُمْ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أَيُّ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَإِنْ مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا،

(١) ابن أبي حاتم: ٢/٢٢٠ (٢) أحمد: ١/٦٨

قُلُوبِهِمْ ۖ أُنِيَ خَلْقَ هَذَا الْإِعْتِقَادِ فِي نَفْسِهِمْ لِيُزَادُوا حَسْرَةً عَلَىٰ مُوتِهِمْ وَتَقْلِبُهُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ أُنِيَ بِيَدِهِ الْخَلْقُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يُزَادُ فِي عُمُرٍ أَحَدٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أُنِيَ وَعِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَعْرِفَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَوْتَ أَيْضًا، وَسَبِيلُهُ إِلَىٰ نَبْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمْعِ حُطَايَاهَا الْفَانِي، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجَعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَجْزِيهِ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنْ مَتُّمُ أَوْ قُتِلْتُمْ لِأَنَّ اللَّهَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ١٥٩ إِنَّ بَصِيرَتَهُ مِنَ اللَّهِ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٦٠ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّىٰ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٦١ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٦٢ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ لِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزُكْرِيَّتَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٦٤ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥

بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ۚ وَالْفُظُّ: الْغَلِيظُ، وَالْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا غَلِيظُ الْكَلَامِ، لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أُنِيَ لَوْ كُنْتُ سَيِّئَ الْكَلَامِ، فَاسِيَ الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَأَنْفَضُوا عَنْكَ وَتَرَكُوكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ، وَأَلَانَ جَانِبَكَ لَهُمْ تَأْلِيْقًا لِقُلُوبِهِمْ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّهُ رَأَىٰ صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ إِنَّهُ لَيْسَ بِفُظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفِرُ وَيَصْفَحُ. (١)

[الْأَمْرُ بِالشُّورَى وَالْعَمَلُ بِهَا]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وَلِلذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي

قُلُوبِهِمْ ۖ أُنِيَ خَلْقَ هَذَا الْإِعْتِقَادِ فِي نَفْسِهِمْ لِيُزَادُوا حَسْرَةً عَلَىٰ مُوتِهِمْ وَتَقْلِبُهُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ أُنِيَ بِيَدِهِ الْخَلْقُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يُزَادُ فِي عُمُرٍ أَحَدٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أُنِيَ وَعِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَعْرِفَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَوْتَ أَيْضًا، وَسَبِيلُهُ إِلَىٰ نَبْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمْعِ حُطَايَاهَا الْفَانِي، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجَعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَجْزِيهِ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنْ مَتُّمُ أَوْ قُتِلْتُمْ لِأَنَّ اللَّهَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ١٥٩ إِنَّ بَصِيرَتَهُ مِنَ اللَّهِ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٦٠ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّىٰ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٦١ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٦٢ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ لِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزُكْرِيَّتَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٦٤

[مِنْ صِفَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الرَّحْمَةُ وَاللِّينُ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُحَاطِيًا رَسُولَهُ، مُمْتَنًا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا أَلَانَ بِهِ قَلْبُهُ عَلَى أُمَّتِهِ الْمُتَّبِعِينَ لِأَمْرِهِ، التَّارِكِينَ لِزَجْرِهِ، وَأَطَابَ لَهُمْ لَفْظُهُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ أُنِيَ: أُنِيَ شَيْءٌ جَعَلَكَ لَهُمْ لَيْتًا، لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكَ وَبِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ يَقُولُ فَبِرَحْمَةِ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ، وَ«مَا» صِلَةٌ، وَالْعَرَبُ تَصِلُهَا بِالْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِثْقَلَهُمْ﴾ وَبِالنِّكَرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ وَهَكَذَا هَهُنَا قَالَ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ أُنِيَ بِرَحْمَةِ مِنَ اللَّهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَذَا خَلَقَ مُحَمَّدٌ ﷺ، بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَبِيهَةٌ

الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾ نَزَلَتْ فِي قَطِيفَةِ حَمْرَاءَ فَقَدَتْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَعَلَّ رَسُولَ اللَّهِ أَخَذَهَا، قَالَ: فَأَكْتَرُوا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَكُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٦)</sup>. وَهَذِهِ تَبَرُّهُ لَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ عَنْ جَمِيعِ وُجُوهِ الْخِيَانَةِ فِي آدَاءِ الْأَمَانَةِ وَقَسَمِ الْغَنِيمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، وَقَدْ وَرَدَتْ الشُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا فِي أَحَادِيثٍ مُتَعَدِّدَةٍ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طَوَّفَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللَّثِيَّةِ، عَلَى الصَّدَقَةِ، فَجَاءَ فَقَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي لِي. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَنَبْرِ فَقَالَ: «مَا بَالُ الْعَامِلِ تَبَعْتَهُ فَيَجِيءُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَهْدِي إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَبْعَرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا غُفْرَةً يُطْفِئُ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ» ثَلَاثًا، وَزَادَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ فَقَالَ أَبُو حُمَيْدٍ: بَصُرَ عَيْنِي، وَسَمِعَ أُذُنِي، وَسَلَوَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. أَخْرَجَاهُ<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ عَنْ مُعَاذِ ابْنِ جَبَلٍ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ، فَلَمَّا

الْأَمْرُ إِذَا حَدَثَ، تَطَيَّبًا لِقُلُوبِهِمْ، لِيَكُونَ أَنْسَطَ لَهُمْ فِيمَا يَفْعَلُونَهُ، كَمَا شَاوَرَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْعِيرِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بَنَّا عُرْضَ الْبَحْرِ لَقَطَعْنَاهُ مَعَكَ، وَلَوْ سِرَتْ بَنَّا إِلَى بَرِكِ الْغِمَادِ لَسَرْنَا مَعَكَ، وَلَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ. وَلَكِنْ نَقُولُ: اذْهَبْ، فَتَحْنُ مَعَكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ مُقَاتِلُونَ. وَشَاوَرَهُمْ أَيْضًا أَيْنَ يَكُونُ الْمَنْزِلُ، حَتَّى أَشَارَ الْمُنِيرُ بْنُ عَمْرٍو - الْمُعَقِّقُ لِيَمُوتَ - بِالتَّقَدُّمِ إِلَى أَمَامِ الْقَوْمِ. وَشَاوَرَهُمْ فِي أَحَدٍ فِي أَنْ يَقْعُدَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ يَخْرُجَ إِلَى الْعَدُوِّ، فَأَشَارَ جُمْهُورُهُمْ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ. وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي مُصَالَحَةِ الْأَحْزَابِ بِثَلَاثِ نِمَارِ الْمَدِينَةِ عَامِيذٍ، فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلِكَ السَّعْدَانِ: سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَتَرَكَ ذَلِكَ. وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَنْ يَمِيلَ عَلَى ذَرَارِي الْمُشْرِكِينَ. فَقَالَ لَهُ الصَّدِيقُ: إِنَّا لَمْ نَجِءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَإِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، فَأَجَابَهُ إِلَى مَا قَالَ. وَقَالَ ﷺ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمِ أَبْنَاءِ أَهْلِي وَزَمَوُهُمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنَاهُمْ بِمَنْ؟ وَاللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا»<sup>(١)</sup>. وَاسْتَشَارَ عَلَيْهِ وَأَسَامَةَ فِي فِرَاقِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُهُمْ فِي الْخُرُوبِ وَنَحْوَهَا وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»<sup>(٢)</sup> وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَحَسَنَهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

### [التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بَعْدَ الْمَشُورَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ إِذَا شَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَزَمْتَ عَلَيْهِ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَصْرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَصْرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا اتَّصَرَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَكَلَّ اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

### [الْغُلُولُ لِسَنِّ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ

(١) البخاري: ٤٧٥٧ (٢) ابن ماجه: ١٢٣٣/٢ (٣) أبو داود: ٣٤٥/٥ وتحفة الأحوذى: ١٠٩/٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٣٧/٢ (٥) الطبري: ٣٤٨/٧ (٦) أبو داود: ٢٨٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٣٥٩/٨ (٧) أحمد: ١٤٠/٤ فيه عبد الله بن محمد بن عقيل أبو محمد المدني في حديثه لين ويقال تغير بآخره. كما في التقريب لابن حجر رحمه الله. (٨) أحمد: ٤٢٣/٥ والبخاري: ٢٥٩٧، ٧١٧٤ ومسلم: ١٨٣٢

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: يَعْنِي: أَهْلُ الْخَيْرِ وَأَهْلُ الشَّرِّ دَرَجَاتٌ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْكَسَائِيُّ: مَنَازِلُ. يَعْنِي مُنْكَافِئُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، وَدَرَكَاتِهِمْ فِي النَّارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مَنَازِلٌ عَمِلُوا﴾... الآية [الأنعام: ١٣٢]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَاللَّهُ بِصِيْرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَيِ وَسَيُوفِيهِمْ إِيَّاهَا، لَا يَظْلِمُهُمْ خَيْرًا، وَلَا يَزِيدُهُمْ شَرًّا، بَلْ يَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

[بِعَنَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةً عَظِيمَةً]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيِ مِنْ جَنَسِهِمْ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ مُحَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَمُجَالَسَتِهِ وَالِاتِّفَاعِ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] أَيِ مِنْ جَنَسِكُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾... الآية [الكهف: ١١٠]. وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَسْتَغْنُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْعَشِرَ لِحَنٍ وَلَا يُبَالِيسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فَهَذَا أُبْلَغَ فِي الْإِثْنَانِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ، بِحَيْثُ يُمَكِّنُهُمْ مُحَاطَبَتُهُ وَمُرَاجَعَتُهُ فِي فَهْمِ الْكَلَامِ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أَيِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِيَتَزَكَّوْا نَفُسُهُمْ، وَتَطْهَرَ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخَبَثِ الَّذِي كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهِ فِي حَالِ شُرُكِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، ﴿وَلِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ مِنْ قَبْلِ هَذَا الرَّسُولِ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيِ لَفِي غَيٍّ وَجَهْلٍ ظَاهِرٍ جَلِيٍّ بَيْنَ لِكُلِّ أَحَدٍ.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَوْصِيئَةً﴾ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا فَلَمَّا أَنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَبَكُمْ

سِرْتُ أَرْسَلَ فِي أَثَرِي فَرُدِّدْتُ، فَقَالَ: «أَتَدْرِي لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ؟ لَا تُصِيبَنَّ شَيْئًا بِغَيْرِ إِذْنِي، فَإِنَّهُ غُلُولٌ» ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لِهَذَا دَعَوْتُكَ فَاْمُضْ لِعَمَلِكَ<sup>(١)</sup>. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بِغَيْرِ لَهُ رُغَاءً، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أُبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمَحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أُبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنَيْ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ أُبْلَغْتُكَ»<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: فَلَانٌ شَهِيدٌ وَفَلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ، فَقَالُوا: فَلَانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٍ -». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ». قَالَ: فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ: أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ الشَّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>.

[لَيْسَ الْأَمِينُ وَالْعَالُ سَوَاءٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ بِهِمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيِ لَا يَسْتَوِي مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ فِيمَا شَرَعَهُ، فَاسْتَحَقَّ رِضْوَانَ اللَّهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ، وَأَجِيرَ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، وَمَنْ اسْتَحَقَّ غَضَبَ اللَّهِ وَأَلَزِمَ بِهِ، فَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ، وَمَا وَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَهَذِهِ لَهَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَتْلُو آيَاتِنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَأَلْقَى كَمَنْ هُوَ أَهْوَى﴾ [الرعد: ١٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الآية [القصص: ٦١].

(١) تحفة الأحوذى: ٥٦٤/٤ فيه داود بن يزيد بن عبد الرحمن الأودي ضعيف (تقريب) واستنكر له ابن عدي هذا الحديث بعينه في الكامل ٨٠/٣ ط. دار الفكر بيروت (٢) أحمد: ٤٢٦/٢ (٣) فتح الباري: ٢١٤/٦ ومسلم: ١٤١٦/٣ (٤) أحمد: ١/٣٠ ومسلم: ١١٤ والترمذي: ١٥٧٤ (٥) ابن أبي حاتم: ٢/٦٤٦ والطبري: ٣٦٧/٧

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٥﴾  
 وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ  
 يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٦﴾  
 الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ  
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٧﴾  
 [سَبَبٌ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَحِكْمَتُهُ]  
 يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ وَهِيَ مَا  
 أَصَابَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ  
 مِثْلَهَا﴾ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ  
 قِتِيلًا، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ أَسِيرًا، ﴿قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا﴾ أَيُّ مَنْ  
 أَتَى جَرَى عَلَيْنَا هَذَا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ رَوَى ابْنُ  
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ  
 أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، غَوِيُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ  
 أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَابُ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ، وَكَسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ  
 عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَوْ  
 لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ  
 مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ  
 إِسْحَاقَ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ ﴿قُلْ هُوَ  
 مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ سَبَبٍ عَصَيْنَاكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
 حِينَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ، يَعْنِي  
 بِذَلِكَ الرَّمَاةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ﴾ أَيُّ يَفْعَلُ مَا  
 يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ.

بِالدَّعَاءِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: رَابَطُوا. فَتَقَالُوا قَاتِلِينَ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ  
 قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنُونَ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَلْقَوْنَ  
 حَرْبًا لَجِئْنَاكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَلْقَوْنَ قِتَالًا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:  
 ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى  
 أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ تَقَلَّبَ فِي الْأَحْوَالِ، فَيَكُونُ فِي حَالِ  
 أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ، وَفِي حَالِ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ، لِقَوْلِهِ:  
 ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾  
 يَعْنِي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْقِدُونَ صِحَّتَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ  
 هَذَا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ فَإِنَّهُمْ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ جُنْدًا  
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ جَاءُوا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَى  
 الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا أَصَابَ مِنْ سَرَاتِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ. وَهُمْ  
 أَضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ كَاتِبٌ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ لَا مُحَالَةَ. وَلِهَذَا  
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا  
 لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أَيُّ لَوْ سَمِعُوا مِنْ  
 مَشُورَتِنَا عَلَيْهِمْ فِي التَّعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قُتِلُوا مَعَ مَنْ

يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٥﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ  
 نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَيَقْتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ  
 قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ  
 يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٦﴾  
 الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ  
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٧﴾

[سَبَبٌ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَحِكْمَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ وَهِيَ مَا  
 أَصَابَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ  
 مِثْلَهَا﴾ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَبْعِينَ  
 قِتِيلًا، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ أَسِيرًا، ﴿قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا﴾ أَيُّ مَنْ  
 أَتَى جَرَى عَلَيْنَا هَذَا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ رَوَى ابْنُ  
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ  
 أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، غَوِيُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ  
 أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ، وَفَرَّ أَصْحَابُ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ، وَكَسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، وَهَشِمَتْ الْبَيْضَةُ  
 عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَوْ  
 لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ  
 مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ  
 إِسْحَاقَ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ ﴿قُلْ هُوَ  
 مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ سَبَبٍ عَصَيْنَاكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
 حِينَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ، يَعْنِي  
 بِذَلِكَ الرَّمَاةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ﴾ أَيُّ يَفْعَلُ مَا  
 يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ﴾  
 أَيُّ فَرَارِكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَدُوِّكُمْ، وَقَتْلُهُمْ لِحِمَاةِ مِنْكُمْ،  
 وَجَرَّاحَتُهُمْ لِأَخْرِيهِ؛ كَانَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلَهُ  
 الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ صَبَرُوا  
 وَتَبَتُّوا وَلَمْ يَتَزَلَّزَلُوا ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَيَقْتُلُوا  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ يَعْنِي  
 أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلُولَ الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي  
 أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَاتَّبَعَهُمْ مَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ،  
 يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِيَابِ وَالْقِتَالِ وَالْمُسَاعَدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ:  
 ﴿أَوْ أَذْفَعُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ  
 وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي كَثُرُوا  
 سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ: أَذْفَعُوا

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أَصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَابِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى فَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَشْرِبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ، وَحَسَنَ مُتَقَلِّبِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لِكَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ وَمَا بَعْدَهَا<sup>(٤)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ وَالضَّحَّاكُ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَتْلَى أُحُدٍ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُرْدُوَيْهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: نَظَرَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا جَابِرُ، مَا لِي أَرَكَ مُهَمِّمًا؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَشْهَدَ أَبِي، وَتَرَكَ ذَنْبًا وَعِيَالًا، فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا»، قَالَ عَلِيٌّ: الْكِفَاحُ الْمُؤَاجَهَةُ فَقَالَ: سَلْنِي أُعْطِكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ أَرُدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، فَقَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلُ: إِنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ. قَالَ: أَيُّ رَبِّ قَابِلُغٍ مِنْ وَرَائِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾... الآية<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهَرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضِرَاءَ، يُخْرَجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٨)</sup>.

(١) الطبري: ٣٨٣/٧ رواه ابن جريج عن مجاهد وابن جريج ثقة مدلس لم يسمع التفسير من مجاهد. قال عمرو بن علي: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: لم يسمع ابن جريج من مجاهد إلا حديثًا واحدًا [تقدمه الجرح والتعديل: ٢٤٥] وقال الدوري عن يحيى بن معين: لم يسمع ابن جريج من مجاهد إلا حرفًا [تاريخ يحيى بن معين برواية الدوري ٣٧٢/٢] والسند إلى ابن جريج ضعيف لأن فيه الحسين بن داود المصيصي الذي كان يلحق شيخه الحجاج انظر تقريب التهذيب (٢٩٢٥). (٢) مسلم: ١٥٠٢/٣ (٣) أحمد: ١٢٦/٣ ومسلم: ١٨٧٧ (٤) أحمد: ٢٦٥/١ (٥) الطبري: ٣٨٩/٧، ٣٩٠ (٦) دلائل النبوة للبيهقي: ٢٩٩/٣ (٧) أحمد: ٢٦٦/١ (٨) الطبري: ٣٨٧/٧

قُبُلٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ إِنْ كَانَ الْقَعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ، فَيَنْبَغِي أَنْكُمْ لَا تَمُوتُونَ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾<sup>(٢)</sup> فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِغَيْرِ عَقْبٍ قُلْ هُمُ السَّالِفُونَ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوكُمْ بَغْيًا لَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ إِنَّهُمْ فِي الْعَذَابِ مُنْتَبِهُونَ﴾<sup>(٣)</sup> الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿وَالَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ الْتَأَسَّيْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾<sup>(٤)</sup> فَاتَّقِلُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَسْأَلْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ فَاذْكُرُوا أَنَّهُمْ فِي الْغِيَابِ مُوَاعِدُونَ﴾<sup>(٥)</sup> إِنْ تَأْتَاكُمْ الشُّبُهَاتُ فَاذْكُرُوا أَنَّهُمْ فِي الْغِيَابِ مُوَاعِدُونَ

### [فَضْلُ الشَّهَدَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الشَّهَدَاءِ بِأَنَّهُمْ وَإِنْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنْ أَرْوَاحُهُمْ حَيَّةٌ مَرْزُوقَةٌ فِي دَارِ الْقَرَارِ. رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ فَقَالَ: أَمَّا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جُوفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا فَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَسْتَهْوِي؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ، تُرْكُوا<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رَوَى نَحْوُهُ عَنْ أَنَسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسْرُهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدُ، فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

الْمُرْسَلِينَ

٧٣

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

فَاتَّقِلُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَّآ فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ لِيُدْرِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بِلْ هُوَسْرٍ لَّهُمْ سَيُطَوَّفُونَ مَا يَجْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

وَسُورُوا لِمَا عَايَنُوا مِنْ وَفَاءِ الْمُؤْعَدِ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَشْلَمَ: هَذِهِ الْآيَةُ جَمَعَتْ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ سِوَاءَ الشَّهَدَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَقَلَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ فَضْلًا ذَكَرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ، وَتَوَابًا أَعْطَاهُمْ: إِلَّا ذَكَرَ مَا أَعْطَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

[ذَكَرَ غَزْوَةَ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ وَفَضْلُ مَنْ شَهِدَهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ هَذَا كَانَ يَوْمُ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَرُّوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَمَرُّوا فِي سَبِيلِهِمْ تَنَدَّوْا لِمَ لَا تَمَّمُوا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَجَعَلُوهَا الْفَيْصَلَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَدَّبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الذَّهَابِ وَرَاءَهُمْ، لِيُرْعَبَهُمْ، وَيُرِيَهُمْ أَنَّ بِهِمْ قُوَّةً وَجَلْدًا، وَلَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ

وَهُوَ إِسْنَادٌ جَيِّدٌ. وَكَأَنَّ الشَّهَدَاءَ أَقْسَامٌ: مِنْهُمْ مَنْ تَسَرَّحَ أَرْوَاحُهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى هَذَا النَّهْرِ بَيَابِ الْجَنَّةِ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَتْنُهُ سَبْرَهُمْ إِلَى هَذَا النَّهْرِ، فَيَجْتَمِعُونَ هُنَاكَ، وَيُعْدَى عَلَيْهِمْ بِرِزْقِهِمْ هُنَاكَ وَيُرَاحُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَيْنَا فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ حَدِيثًا فِيهِ الْبَشَارَةُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِأَنْ رُوحَهُ تَكُونُ فِي الْجَنَّةِ تَسَرَّحَ أَيْضًا فِيهَا، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَرَى مَا فِيهَا مِنَ النَّصْرَةِ وَالشُّرُورِ، وَتَشَاهِدُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهَا مِنَ الْكِرَامَةِ، وَهُوَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَزِيزٍ عَظِيمٍ، اجْتَمَعَ فِيهِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْمُتَّبَعَةِ، فَإِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ الْأَصْبَحِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»<sup>(١)</sup>.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: «إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ» وَأَمَّا أَرْوَاحُ الشَّهَدَاءِ فَكَمَا تَقَدَّمَ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرَ، فِيهَا كَالْكَوَاكِبِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَرْوَاحِ غُثُومِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَنَهَا تَطِيرُ بِأَنْفُسِهَا، فَتَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ الْمَنَّانَ أَنْ يَنْبِتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، أَيِ الشَّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحْيَاءَ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُمْ فَرِحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِنَى، وَمُسْتَبْشِرُونَ بِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: أَنَّهُمْ يَقْدُمُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ مِمَّا أَمَامَهُمْ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ وَرَاءَهُمْ. نَسَأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ. وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ بَيْرُ مَعُونَةَ السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَتَّتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ، قَالَ أَنَسٌ: وَنَزَلَ فِيهِمْ قُرْآنُ قِرْآنَاهُ حَتَّى رُفِعَ: «أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَأَرْضَانَا»<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: اسْتَبْشَرُوا

(١) أحمد: ٤٥٥/٣ (٢) فتح الباري: ٤٤٥/٧ ومسلم: ١/



السَّيِّئَاتِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ قَالَ: النِّعْمَةُ: أَنَّهُمْ سَلِمُوا. وَالْفَضْلُ: أَنَّ عِيرًا مَرَّتْ. وَكَانَ فِي أَيَّامِ الْمَوْسِمِ، فَاسْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَبِحَ فِيهَا مَا لَا فَقَسَمَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أَيُّ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ، وَيُوهِمُكُمْ أَنَّهُمْ ذَوُو بَأْسٍ وَذَوُو شِدَّةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ إِذَا سَوَّلَ لَكُمْ وَأَوْهَمَكُمْ فَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ، وَالْجَاؤُوا إِلَيَّ، فَإِنِّي كَافِيكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المجادلة: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنِي أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَالَ: ﴿وَلَيَضْحَكُنَّ اللَّهُ مِنْ بَضْرُؤِهِ﴾ [الحج: ٤٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَصَرُوا اللَّهَ بِضُرِّهِمْ...﴾ [الآية: محمد: ٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ] [غافر: ٥١، ٥٢].

﴿وَلَا يَعْزُبُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمَلِّي لَهُمْ حَيًّا لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا تُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ [مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ إِيمًا

سِوَى مَنْ حَضَرَ الْوُفْعَةَ يَوْمَ أُحُدٍ، سِوَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِمَا سَنَدُكَ - فَاتَّذَبَّ الْمُسْلِمُونَ - عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْجِرَاحِ - وَالْإِثْخَانِ طَاعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرَمَةَ، قَالَ: لَمَّا رَجَعَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ أُحُدٍ، قَالُوا: لَا مَحْمَدًا قَتَلْتُمْ، وَلَا الْكُوَاعِبَ أَرَدَقْتُمْ، بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ، ارْجِعُوا، فَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَتَذَبَّ الْمُسْلِمِينَ، فَاتَّذَبُّوا حَتَّى بَلَغَ حُمْرَاءُ الْأَسَدِ - أَوْ بَنُو أَبِي عَيْيَةَ - الشُّكَّ مِنْ سُفْيَانٍ - فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: نَرْجِعُ مِنْ قَابِلٍ، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ نَعْدُ غَزْوَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ [الآية: قُلْتُ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لَمَّا أَصَابَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، فَقَالَ: «مَنْ يَرْجِعُ فِي إِثْرِهِمْ؟» فَاتَّذَبَّ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُتَّفِرِدًا بِهَذَا السِّيَاقِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا...﴾ [الآية: أَيُّ الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ النَّاسُ بِالْجُمُوعِ، وَخَوْفُهُمْ بِكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ، فَمَا أَكْثَرُوا لَذَلِكَ، بَلْ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَاسْتَعَانُوا بِهِ. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ]. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْثُودٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ يَوْمَ أُحُدٍ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٤)</sup>.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ﴾ أَيُّ لَمَّا تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ كَفَاهُمْ مَا أَهَمَّهُمْ، وَرَدَّ عَنْهُمْ بَأْسَ مَنْ أَرَادَ كَيْدَهُمْ، فَرَجَعُوا إِلَى بَلَدِهِمْ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ﴾ مِمَّا أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وَرَوَى

(١) النسائي في الكبرى: ١١٠٨٣ (٢) البخاري: ٤٠٧٧ (٣) فتح الباري: ٧٧/٨ (٤) فتح الباري ٢٢٩/٨ ط السلفية وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن مردويه وأخرجه الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" ٨٦/١١ فيه أبو بكر بن عياش هو ثقة عابد إلا أنه لما كبر ساء حفظه وشيخه حميد الطويل مدلس قد عنعن. (٥) دلائل النبوة: ٣١٨/٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٤

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ  
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ  
ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٧٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ  
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٧٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ  
اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا تَأْتِيَنَا مَعَ رَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ  
تَأْكُلُهُ الْتَارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ  
وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٨﴾  
فَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ نَكْتُبُ لَكُمُ الْيَوْمَ الذِّكْرَ الَّذِي أَنْتُمْ  
تَكْتُبُونَ ﴿١٧٩﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ  
أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ فَمَن زُحِجَ عَنِ الْتَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا  
إِلَّا لَمَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴿١٨٠﴾ لَتَبُولُوا فِي أَمْوَالِكُمْ  
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ  
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا  
وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عِزِّ الْأُمُورِ ﴿١٨١﴾

عَبِيدِهِ أَحَدًا ﴿١٧٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ مِّن بَيْنِ  
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿الجن: ٢٦، ٢٧﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:  
﴿فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ وَرُسُلَهُ﴾ أَي أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَاتَّبِعُوهُ فِيمَا  
شَرَعَ لَكُمْ ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ وَتَوَلَّوْا فَلَكُمْ أَعْرَ عَظِيمٌ﴾.

[ذَمُّ الْبُخْلِ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ  
مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أَي لَا يَحْسَبَنَّ  
الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالِ يَنْفَعُهُ، بَلْ هُوَ مُضَرَّةٌ عَلَيْهِ فِي  
دِينِهِ، وَرَبَّمَا كَانَ فِي دُنْيَاهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَالِ أَمْرِ مَالِهِ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا يَحْمِلُونَ بِهِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ﴾.  
رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ  
شُجَاعًا أَفْرَعًا، لَهُ زَيْبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ

ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ  
مَا يَحْمِلُونَ بِهِ يَوْمَ الْفِتْنَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ  
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧٦﴾

[تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي  
الْكُفْرِ﴾ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى النَّاسِ، كَانَ يَحْزَنُهُ  
مُبَادَرَةُ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ وَالشَّقَاقِ، فَقَالَ  
تَعَالَى: لَا يَحْزَنُكَ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ  
اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أَيِ حِكْمَتِهِ فِيهِمْ أَنَّهُ  
يُرِيدُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ  
﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ  
إِخْبَارًا مُّقَرَّرًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أَيِ  
اسْتَبَدَّلُوا هَذَا بِهَذَا ﴿لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أَيِ وَلَكِنْ يَصُرُونَ  
أَنفُسَهُمْ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُنْفِي لَهُمْ حَبْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا تُنْفِي لَهُمْ لِيُزَادُوا  
إِنْسًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ  
مِن مَّالٍ وَنَبِينٍ ﴿٥٥﴾﴾ شَارَعَ لَهُمْ فِي الْفِتْرِ بَلْ لَا يَتَّعَرُونَ ﴿المؤمنون:  
٥٥، ٥٦﴾ وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾ بِهَذَا الْخَبِيرِ سَسْتَدِجُهُم  
مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْمِلُونَ ﴿القلم: ٤٤﴾ وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعْجَبْ  
أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ  
أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ  
عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْرَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أَيِ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعِدَ سَبَبًا  
مِّنَ الْبُخْتِ، يَظْهَرُ فِيهِ وَلِيُّهُ، وَيَقْتَضِصُ فِيهِ عَدُوُّهُ، يُعْرِفُ بِهِ  
الْمُؤْمِنُ الصَّابِرَ، وَالْمُنَافِقُ الْفَاجِرَ، يَعْنِي بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ  
الَّذِي امْتَحَنَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَظَهَرَ بِهِ إِيْمَانُهُمْ وَصَبْرُهُمْ  
وَجَلَدُهُمْ وَتَبَاتُّهُمُ وَطَاعَتُهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَهَتَكَ بِهِ  
سِتْرَ الْمُنَافِقِينَ. فَظَهَرَ مُخَالَفَتُهُمْ وَكُفُولُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ،  
وَخِيَانَتُهُمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ  
لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْرَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾  
قَالَ مُجَاهِدٌ: مَيِّزَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: مَيِّزَ بَيْنَهُمْ  
بِالْجِهَادِ وَالْهَجْرَةِ <sup>(٢)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ  
عَلَى الْغَيْبِ﴾ أَيِ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَتَّى  
يُمَيِّزَ لَكُمْ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ  
الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن  
رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمُ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ

لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨١﴾ أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقَرُّبًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَضْغِيرًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِتِنَا إِلَّا نُوْثِيَ لِرُسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى تَكْذِيبًا أَيْضًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ، أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِرُسُولٍ حَتَّى يَكُونُوا مِنْ مُعْجَزَاتِهِ أَنْ مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ أَمَّتِهِ، فَقَبِلَتْ مِنْهُ، أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ تَأْكُلُهَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمَا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَالَيْسَتْ﴾ أَيُّ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أَيُّ وَبِنَارٍ تَأْكُلُ الْقُرَآئِينَ الْمُتَكَبِّلَةَ، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أَيُّ فَلِمَ قَاتَلْتُمُوهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْمَعَانِدَةِ وَقَتَلْتُمُوهُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنْكُمْ تَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَتَتَّقَادُونَ لِلرُّسُلِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْيَمِينِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَيُّ لَا يَهْدِيكَ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ لَكَ، فَلَكَ أُسْوَةٌ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مَعَ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَهِيَ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ الْمُتَلَفَاتُ مِنَ السَّمَاءِ، كَالصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَيُّ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْحَلِيِّ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُجِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿لَسَبُّوكم فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَرُّوْا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٨٣﴾

[كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَامًّا يُمْعُ جَمِيعَ الْخَلِيقَةِ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿١٨٤﴾ وَيَتَنَبَّأُ بِهِ رَبُّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿[الرحمن: ٢٦، ٢٧] فَهُوَ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَنْفَرُ الْوَاحِدُ الْأَخَذُ الْقَهَّارُ بِالْإِيمَانِ وَالْبَقَاءِ، فَيَكُونُ آخِرًا كَمَا كَانَ

بِلَهْرَمَتِهِ - يَعْنِي بِشِدْقِهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كُنْزُكَ ﴿ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا يَحْصِيَنَّ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾...﴾ (١) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تَقَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَبَانَ فِي صَحِيحِهِ (٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَقْرَعُ يَتَّبِعُهُ، يَمُرُّ مِنْهُ وَهُوَ يَتَّبِعُهُ، يَقُولُ: أَنَا كُنْزُكَ» ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ مُصَدِّقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٤) ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴿[الحديد: ٧] فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَدِّمُوا لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ﴾ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ بَيِّنَاتِكُمْ وَصَمَائِرِكُمْ.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاةُ سَكَتْنَاهُمْ مَا قَالُوا وَقَتَلْنَاهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُوا دُونُوا عَذَابَ الْخَرْبِ﴾ ﴿١٨٥﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يُظْلِمَ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿١٨٦﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِتِنَا إِلَّا نُوْثِيَ لِرُسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَالَيْسَتْ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْيَمِينِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ﴿١٨٨﴾

[وَعِيدُ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ]

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قَالَتِ الْيَهُودُ: يَا مُحَمَّدُ، افْتَقَرْنَا رَبَّنَا، يَسْأَلُ عِبَادَةَ الْقُرْصُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاةُ﴾... الْآيَةَ، رَوَاهُ ابْنُ مَرْدُودٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَكَتْنَاهُمْ مَا قَالُوا﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، وَلِهَذَا قَرَنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَتَلْنَاهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أَيُّ هَذَا قَوْلُهُمْ فِي اللَّهِ، وَهَذِهِ مُعَامَلَتُهُمْ لِرُسُلِ اللَّهِ، وَسَيَجْزِيهِمْ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَقُولُ دُونُوا عَذَابَ الْخَرْبِ﴾ ﴿١٨٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يُظْلِمُ

(١) فتح الباري: ٧٨/٨ (٢) ابن حبان: ١٠٧/٥ (٣) أحمد:

٣٧٧/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٣٩٣/٨ والنسائي في الكبرى:

٣١٧/٦ وابن ماجه: ٥٦٨/٢

مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنْ أَلَدِكُمْ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا ﴿١٨١﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِمُ الْمَدِينَةَ، قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، مُسْلِمًا لَهُمْ عَمَّا نَالَهُمْ مِنَ الْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَأَمِيرًا لَهُمْ بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ حَتَّى يُفْرَجَ اللَّهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَرَاءَهُ، يَعُودُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، قَالَ: حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَالْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتْ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّائِيَّةِ، حَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ وَقَالَ: لَا تُعْبَرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ وَقَفَ، فَتَزَلَّ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ: أَيُّهَا الْمَرْءُ، إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا. ازْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْضُصْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَعَشْنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نَحِبُ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ، حَتَّى كَادُوا يَتَنَاقَرُونَ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُقَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ، فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَيَّ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟» يُرِيدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ، فَوَاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، وَلَقَدْ اضْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ عَلَى أَنْ يُتَّجَوْهُ، وَيُعَصَّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا أَبَى اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ، شَرَقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،

أَوَّلًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيفُ لِجَمِيعِ النَّاسِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَتَّى يَمُوتَ، فَإِذَا انْقَضَتْ الْمُدَّةُ وَفَرَعَتِ النُّطْفَةُ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ وُجُودَهَا مِنْ صُلْبِ آدَمَ، وَانْتَهَتْ الْبَرِيَّةُ، أَقَامَ اللَّهُ الْقِيَامَةَ، وَجَارَى الْخَلَائِقَ بِأَعْمَالِهَا جَلِيلِهَا وَخَفِيرِهَا، كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا، فَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّا نُوَفِّتُكُمْ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

### [لَمَنِ الْفَوْزُ؟]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ دُحِخَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أَيُّ مَنْ جُنِبَ النَّارُ، وَنَجَا مِنْهَا، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ كُلُّ الْفَوْزِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَنْ دُحِخَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾». هَذَا حَدِيثٌ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ يَدُونُ هَذِهِ الزِّيَادَةُ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ يَدُونُ هَذِهِ الزِّيَادَةُ أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ<sup>(٢)</sup> وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورُ﴾ تَصْغِيرُ لِشَأْنِ الدُّنْيَا، وَتَحْقِيرُ لِأَمْرِهَا، وَأَنَّهَا دُنْيَاءٌ فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ تُوَفَّرُوا الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الاعلى: ١٦، ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَرَبَّيْتُمْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى [القصص: ٦٠] وَفِي الْحَدِيثِ: «وَاللَّهُ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ إِلَيْهِ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورُ﴾ هِيَ مَتَاعٌ، هِيَ مَتْرُوكَةٌ، أَوْشَكَتْ - وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - أَنْ تَضْمَحَلَّ عَنْ أَهْلِهَا، فَخُدُوا مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ طَاعَةَ اللَّهِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

### [الْمُؤْمِنُ يُبْتَلَى وَيَسْمَعُ مِنَ الْعَدُوِّ الْأَذَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِئْسَ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرُّثِ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ، أَيُّ لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ أَهْلِهِ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَاحٌ زَيْدٌ فِي الْبَلَاءِ ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) فتح الباري: ١٠٠/٦ (٢) ابن حبان: ٢٥٢/٩ (٣)

الحاكم: ٢٩٩/٢ (٤) مسلم: ٢٨٥٨ والترمذي: ٢٣٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٥

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِيمَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْآبَرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

[ذَمُّهُمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ وَحُبُّهُمْ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا

لَمْ يَفْعَلُوا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَرَاتِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ بِمَا لَمْ يُعْطُوا، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ ادَّعَى دَعْوَةَ كَاذِبَةٍ لِيَتَكَبَّرَ بِهَا، لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا قِلَّةً»<sup>(٣)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا «الْمُسْتَسْعِ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلْبِيسِ ثَوْبِي زُورٍ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ: أَذْهَبَ يَا زَافِعُ - لِيَوَابِهِ - إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: لَيْزَنَ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ مِمَّا فَرِحَ بِمَا أُتِيَ، وَأَحَبُّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، مُعَذِّبًا، لَتُعَذِّبَنَّ أَجْمَعُونَ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَهَذِهِ؟ إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ

وَأَصْحَابُهُ يَغْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَضْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قِبَلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾... الْآيَةُ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَاسًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْلَمُوا وَأَصْحَحُوا حَتَّىٰ بَيَّنَّ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾... الْآيَةُ [البقرة: ١٠٩]، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ فِي الْعَفْوِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، حَتَّىٰ أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارٍ قُرَيْشِي. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبْدَةُ الْأَوْتَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَأَسْلَمُوا<sup>(١)</sup>.

فَكُلُّ مَنْ قَامَ بِحَقٍّ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْذَى، فَمَا لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الصَّبْرُ فِي اللَّهِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِيمَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

[ذَمُّ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى نَبَذِ الْعُهُودِ وَكْتُمَانِ الْحَقِّ]

هَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ، لِيَكُونُوا عَلَى أَهْبَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَإِذَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَابِعُوهُ فَكُنْتُمْ ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وَعَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالدُّونِ الطَّيْفِ، وَالْحِظُّ الدُّنْيَوِيُّ السَّخِيفُ، فَبُيِّنَتْ الصَّفَقَةُ صَفَقَتُهُمْ، وَبُيِّنَتْ الْبَيْعَةُ بَيْعَتُهُمْ، وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ، فَيُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، وَيُسْلِكَ بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ. فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا يَأْذِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الدَّلَالِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيُّ مِنْ طَرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»<sup>(٢)</sup>.

(١) البخاري: ٤٥٦٦ ومسلم: ١٧٩٨ (٢) الطبراني: ٤٠١/٨

(٣) البخاري: ٦١٠٥، ٦٦٥٢ ومسلم: ١٠٤/١ (٤) مسلم:

هَذِهِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَاتِّضَاعِهَا، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُشَاهِدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ كَوَاكِبَ سَيَّارَاتٍ، وَثَوَابِتٍ، وَبَحَارٍ وَجِبَالٍ وَقِفَارٍ، وَأَشْجَارٍ وَبَنَاتٍ، وَزُرُوعٍ وَثَمَارٍ، وَحَيَوَانَ وَمَعَادِنَ، وَمَنَافِعَ مُخْتَلِفَةٍ الْأَلْوَانِ وَالرَّوَانِحِ وَالطُّعُومِ وَالْخَوَاصِ، **﴿وَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾** أَيْ تَعَاوَيْهِمَا وَتَقَارُضِهِمَا الطُّولِ وَالْقِصَرِ، فَتَارَةً يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ ثُمَّ يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا، فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا. وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **﴿لَا يَنْبَغِي لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾** أَيْ الْعُقُولِ الثَّامَةِ الذِّكْيَةِ الَّتِي تُذَكِّرُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَى جَلِيلَاتِهَا، وَلَيْسُوا كَالصُّمِّ الْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: **﴿وَكَايْنِ مِنَ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾** (١٥٠) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى أُولَى الْأَلْبَابِ، فَقَالَ: **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾**. كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ قَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ» (١). أَيْ لَا يَقْطَعُونَ ذِكْرَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِسَرَائِرِهِمْ وَصَمَائِرِهِمْ وَالسِّنِّيَّاتِ، **﴿وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أَيْ يَتَفَهَمُونَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْحِكْمِ الدَّالِّهِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَا يَتَعَبَّرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ وَقُدْرَتِهِ وَآيَاتِهِ، فَقَالَ: **﴿وَكَايْنِ مِنَ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾** (١٥٠) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦] وَمَدَحَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** قَائِلِينَ: **﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾** أَيْ مَا خَلَقْتَ هَذَا الْخَلْقَ عَبَثًا، بَلْ بِالْحَقِّ، لِيَتَجَرَّى الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَتَجَرَّى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. ثُمَّ

أَتَوْا الْكِتَابَ لِيَتَنَبَّهَ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْثُرَ مَنَافِعُهُمْ فَسَبَّحُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثُمَّ نَسُوا قَلِيلًا فَيَسَّ مَا يَشْتَرُونَ **﴿وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَقْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجَوِّحُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾**... الْآيَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَثِمُوا إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بغيرِهِ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنَّ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ، وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرَحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كَيْفَانِهِمْ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ (٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ، وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا (٣). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُتَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْعَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرَحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَزْوِ اعْتَدُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحْبَبُوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَتَرَكْتُ: **﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَقْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجَوِّحُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾**... الْآيَةُ، وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِخَوَرِهِ (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارِفٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾** يُقْرَأُ بِالنَّاءِ عَلَى مُخَاطَبَةِ الْمُفْرَدِ، وَبِالْيَاءِ عَلَى الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ، أَيْ لَا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْعَذَابِ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** أَيْ هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فَهَابُوهُ وَلَا تُخَالِفُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ وَنِقْمَتَهُ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، وَالْقَدِيرُ الَّذِي لَا أَقْدَرَ مِنْهُ.

**﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾** (١٥١) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَذَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٥٢) رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخِيلِ النَّارِ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٥٣) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَلْبَارِ (١٥٤) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ (١٥٥) [دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ لِأُولَى الْأَلْبَابِ، وَصِفَاتُهُمْ وَقَوْلُهُمْ وَدَعَاؤُهُمْ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أَيْ

(١) أحمد: ٢٩٨/١ (٢) فتح الباري: ٨١/٨ ومسلم: ٤/٢١٤٣ وتحفة الأحوذى: ٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٣١٨/٦ (٣) البخاري: ٤٥٦٧ ومسلم: ٢٧٧٧ (٤) فتح الباري: ٢/٦٨٤

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرًا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَا ذُخْلَهُمْ جَنَّتِ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا لَا أَنْهَرُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَعْرِفَنَّ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبَرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِكَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

### سُورَةُ النَّبَاِ

لَيْلَتِي حَتَّى مَسَّ جِلْدُهُ جِلْدِي، ثُمَّ قَالَ: «دَرَبِي أَنْعَبْتُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَعْبُدَ لِرَبِّكَ، فَقَامَ إِلَى الْقُرْبَةِ. فَتَوَضَّأَ وَلَمْ يُكْثِرْ صَبَّ الْمَاءِ، ثُمَّ قَامَ بِصَلَاةٍ، فَبَكَى حَتَّى بَلَ لِحَيْتِهِ، ثُمَّ سَجَدَ، فَبَكَى حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى جَنْبِهِ فَبَكَى، حَتَّى إِذَا أَتَى بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ. قَالَتْ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يُبْكِيكَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «وَيْحَكَ: يَا بِلَالُ، وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾» ثُمَّ قَالَ: «وَيْلٌ لِّمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»<sup>(٣)</sup>.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

نَزَّهُوهُ عَنِ الْعَبَثِ وَخَلَقِ الْبَاطِلِ، فَقَالُوا: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أَيْ عَنْ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أَيْ يَا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، يَا مَنْ هُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبَثِ. قِنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَقِيضْنَا لِأَعْمَالٍ تَرْضَى بِهَا عَنَّا. وَوَفَّقْنَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ تَهْدِينَا بِهِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَتُجِيرُنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْأَلِيمِ. ثُمَّ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ أَيْ أَهْنَتْهُ وَأَظْهَرْتَ خِزْيَهُ لِأَهْلِ الْجَمْعِ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ. وَلَا مُحِيدَ لَهُمْ عَمَّا أَرَدْتَ بِهِمْ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أَيْ دَاعِيًا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أَيْ يَقُولُ: آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، أَيْ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَاتَّبَعْنَاهُ، ﴿رَبَّنَا فَاعْفِ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَيْ بِإِيمَانِنَا وَاتَّبَاعِنَا بِبَيْتِكَ، ﴿فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أَيْ اسْتَرْهَا، ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أَيْ الْجَنَّةِ بِالصَّالِحِينَ، ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ عَلَى الْإِيمَانِ بِرُسُلِكَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ. وَهَذَا أَظْهَرُ - ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أَيْ لَا بُدَّ مِنَ الْمِيعَادِ الَّذِي أَخْبَرْتَ عَنْهُ رُسُلُكَ وَهُوَ الْقِيَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعُشْرَ مِنْ آخِرِ آلِ عِمْرَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لِتَهَجُّدِهِ، فَرَوَى الْبُخَارِيُّ رَجَمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَثُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيِّمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ قَعَدَ، فَظَفَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنْ، فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَدْنَى بِلَالٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ مَرْثُومٍ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا، وَبَيْنَمَا وَبَيْنَهَا حِجَابٌ، فَقَالَتْ: يَا عُبَيْدُ مَا يَمْنَعُكَ مِنْ زِيَارَتِنَا؟ قَالَ: قَوْلُ الشَّاعِرِ: زُرْ غَيًّا تَزْدُدُ حُبًّا. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: ذَرِينَا، أَخْبَرِنَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَكَتْ وَقَالَتْ: كُلُّ أَمْرِهِ كَانَ عَجَبًا، أَنَانِي فِي

(١) فتح الباري: ٨٣/٨ (٢) مسلم: ٥٣٠/١ (٣) ابن حبان (إِلْحَاسَان): ٦٢٠

لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ، لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطَى إِلَّا جَزِيلاً كَثِيراً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ التَّوَابِ﴾ أَيُّ عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا.

﴿لَا يَغْرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسِّرَ الْيَهُادَ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِيكَ فِيهَا نَزَّلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ ﴿١٩٨﴾

[التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِعْتِرَارِ بِأَهْلِ الدُّنْيَا، وَبَيَانُ مَا

لِلصَّالِحِينَ مِنَ الْجَزَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَنْتَظِرُوا إِلَى مَا هُوَ لَاءُ الْكُفَّارِ مُتَرَفُونَ فِيهِ مِنَ النُّعْمَةِ وَالْعِبْطَةِ وَالشَّرِّ، فَعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ، وَيُصْبِحُونَ مُرْتَهَنِينَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، فَإِنَّمَا نُؤَدُّ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا، وَجَمِيعُ مَا هُمْ فِيهِ ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسِّرَ الْيَهُادَ﴾. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي عَائِدَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ [غافر: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِثُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَنُعَذِّبَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]... وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَتَاهُمْ رُؤْيَا﴾ [الطارق: ١٧] أَيُّ قَلِيلًا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمِنْ وَعْدِنَا وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَنَعْتَهُ مَنَعَ الْحَبْوَةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١] وَهَكَذَا لَمَّا ذَكَرَ حَالِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَذَكَرَ مَا لَهُمْ إِلَى النَّارِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِيكَ فِيهَا نَزَّلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَيُّ ضِيقًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ، وَمَا مِنْ كَافِرٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْنِي فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ وَيَقُولُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيُذَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] <sup>(١)</sup>.

وَأُودُوا فِي سَبِيلِ وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ التَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

[استجابة الله لأولي الألباب]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَيُّ فَاجَابَهُمْ، رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ سَلَمَةَ - رَجُلٍ مِنْ آلِ أُمِّ سَلَمَةَ - قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءِ فِي الْهَجْرَةِ بِشَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَيُّ لَا أَصْبِحَ عَمَلٌ عَمِلَ مِنْكُمْ مِنْ ذِكْرِ أَوْ أَتَى... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: هِيَ أَوَّلُ طَعْنَةٍ قَدِمَتْ عَلَيْنَا <sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى سِرِّ الْبَخَارِيِّ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ <sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنِّي لَا أَصْبِحُ عَمَلٌ عَمِلَ مِنْكُمْ مِنْ ذِكْرِ أَوْ أَتَى﴾ هَذَا تَفْسِيرٌ لِلْجَابَةِ، أَيُّ قَالَ لَهُمْ مُجِيبًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا يُصْبِحُ عَمَلٌ عَمِلَ لَدَيْهِ، بَلْ يُؤْفِي كُلَّ عَامِلٍ بِقِسْطِ عَمَلِهِ مِنْ ذِكْرِ أَوْ أَتَى، وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أَيُّ جَمِيعُكُمْ فِي ثَوَابِي سَوَاءٍ، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أَيُّ تَرَكُوا دَارَ الشُّرْكِ وَأَتَوْا إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ، وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْإِخْوَانَ وَالْخُلَآنَ وَالْجِيرَانَ، ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أَيُّ ضَاقَتْهُمْ الْمُسْكُونُ بِالْأَذَى حَتَّى أُلْجِئُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَطْرَافِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِ﴾ أَيُّ إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُمْ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَخَدَعَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَجَرَّجُونَ الرَّسُولَ وَإِيتَاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ وَهَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُغْفَرَ جَوَادُهُ، وَيُغْفَرَ وَجْهُهُ بِدَمِهِ وَتُرَابِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، أَيْكَفَرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ قُتِلْتُ؟» فَأَعَادَ عَلَيْهِ مَا قَالَ، فَقَالَ: «نَعَمْ، إِلَّا الدِّينَ، قَالَهُ لِي جَبْرِيلُ آمِنًا» <sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيُّ تَجَرَّى فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ

(١) سعيد بن منصور: ١١٣٦/٣ (٢) الحاكم: ٣٠٠/٢ (٣)

مسلم: ١٥٠١/٣ (٤) الطبري: ٤٩٦/٧ فيه فرج بن فضالة التنوخي الشامي قال الإمام البخاري: منكر الحديث [التاريخ



﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

### [حَالُ بَغْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَجْرُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، مَعَ مَا هُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنْقَدِمَةِ، وَأَنَّهُمْ خَاشِعُونَ لِلَّهِ، أَيْ مُطِيعُونَ لَهُ، خَاضِعُونَ مُتَذَلِّلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أَيْ لَا يَكْتُمُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِشَارَاتِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَذَكَرَ صِفَتَهُ وَنَعْيَهُ وَمَعْيَتَهُ، وَصِفَتَهُ أُمِّيَهُ، وَهُوَ لَا هُمْ خَيْرَةٌ أَهْلُ الْكِتَابِ وَصَفَوْنَهُمْ، سِوَاءَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا بَلَغَ لَيْلُهُمْ قَالَوا ءَمَّا بِهِنَّ إِلَهُ الْحَقِّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِمْ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ ... الْآيَةُ [القصص: ٥٢-٥٤]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ... الْآيَةُ [البقرة: ١٢١]. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَالِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آتِلٍ وَهُمْ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجْرُونَ لِلآذْقَانِ سَجْدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ وَيَجْرُونَ لِلآذْقَانِ يَتَكَوَّمُونَ وَيَرِيدُهُمْ خُسُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وَهَذِهِ الصَّفَاتُ تُوجَدُ فِي الْيَهُودِ، وَلَكِنْ قَلِيلًا كَمَا وَجَدَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمثالِهِ مِنْ أَمَنِ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، وَلَمْ يَلْعَنُوا عَشْرَةَ أَنْفُسٍ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَهْتَدُونَ وَيَتَقَادُونَ لِلْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا فَجَنَّتْ يَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ... الْآيَةُ [المائدة: ٨٢-٨٥]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ... الْآيَةُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ ﴿كَهَقَمَصَ﴾ [مریم: ١] بِحَضْرَةِ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ وَعِنْدَهُ الْبَطَارِكَةُ وَالْقَسَاوِسَةُ، بَكَى وَبَكَوْا مَعَهُ حَتَّى أَخْضَبُوا لِحَاهُمْ<sup>(١)</sup>. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّجَاشِيَّ لَمَّا مَاتَ نَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ: «إِنَّ أَخَا لَكُمْ بِالْحَبَشَةِ قَدْ مَاتَ، فَصَلُّوا عَلَيْهِ» فَخَرَجَ إِلَى الصَّخْرَاءِ فَصَفَّوهُمْ وَصَلَّى عَلَيْهِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بِغْنَى مُسْلِمَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ بْنُ مَنْصُورٍ: سَأَلْتُ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ... الْآيَةُ، قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَاتَّبَعُوهُ، وَعَرَفُوا الْإِسْلَامَ، فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَجْرَ اثْنَيْنِ: لِلَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِالَّذِي اتَّبَعُوا مُحَمَّدًا ﷺ. رَوَاهُمَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ» ...<sup>(٤)</sup> فَذَكَرَ مِنْهُمْ: «وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِهِ»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أَيْ لَا يَكْتُمُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ، كَمَا فَعَلَهُ الطَّائِفَةُ الْمُرْذُولَةُ مِنْهُمْ، بَلْ يَتَذَلِّلُونَ ذَلِكَ مَجَانًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: «سَرِيعُ الْحِسَابِ» يَعْنِي سَرِيعُ الْإِحْصَاءِ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ.

### [الْأَمْرُ بِالْمُصَابَرَةِ وَالْمُرَابَطَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أُمِرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَدْعُوهُ لِسَرَاءٍ وَلَا لِضَرَاءٍ وَلَا لِشِدَّةٍ وَلَا لِرَخَاءٍ، حَتَّى يَمُوتُوا

الصغير ١٧٣/٢ وفي نسخة ١٨٧/٢ التاريخ الكبير ١٣٤/٧ وقال البخاري: كل من قتل فيه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه [لسان الميزان تحت ترجمة أبان بن جبهه الكوفي ٣٠/١] ورواية لقمان بن عامر الوصابي عن أبي الدرداء مرسله كما قال أبو حاتم الرازي [الجرح والتعديل ١٨٢/٧]. (١) ابن هشام: ٣٥٧/١ (٢) فتح الباري: ٢٣٠/٧ ومسلم: ٦٥٧/٢ (٣) الطبري: ٧/٤٩٩ (٤) فتح الباري: ١٦٩/٦ ومسلم: ١٣٤/١

قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ<sup>(٩)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ حَبْرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعًا مِنَ الرُّومِ، وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلُ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مَنْزِلَةٍ شِدَّةً يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَهَا فَرْجًا. وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْذِّكْرُ أَمْثَلُ صُرُوفٍ وَأَصْبَرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>. وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي سُكَيْنَةَ، قَالَ: أَمْلَى عَلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ هَذِهِ الْآيَاتِ بِطَرَسُوسَ، وَوَدَّعْتُهُ لِلْخُرُوجِ، وَأَشَدَّهَا مَعِيَ إِلَى الْفُضَيْلِ ابْنِ عِيَاضٍ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِائَةٍ، وَفِي رِوَايَةٍ: سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ.

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ أَوْ كَانَ يَتَعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا وَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارِ الْأَطْيَبِ وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ لَا يَسْتَوِي وَغُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا

لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ قَالَ: فَلَقِيتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ بِكِتَابِهِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَلَمَّا قَرَأَهُ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ: صَدَقَ أَبُو

مُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُصَابِرُوا الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ دِيْنَهُمْ<sup>(١١)</sup>. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ.

وَأَمَّا الْمُرَابِطَةُ فَهِيَ الْمُدَاوَمَةُ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ وَالنَّبَاتِ، وَقِيلَ: انْتَظَرُ الصَّلَاةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَهْلُ ابْنُ حَنْبَلٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُمْ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَهُنَا الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»<sup>(١٢)</sup>.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُرَابِطَةِ هَهُنَا مُرَابِطَةُ الْعُرُو فِي نُحُورِ الْعُدُوِّ، وَحِفْظُ ثُعُورِ الْإِسْلَامِ، وَصِيَانَتُهَا عَنْ دُخُولِ الْأَعْدَاءِ إِلَى حَوَازَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ بِالتَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ، وَذَكَرُ كَثْرَةَ الثَّوَابِ فِيهِ، فَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»<sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَفِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَانُ»<sup>(١٤)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمُرُ فِتْنَةُ الْقَبْرِ»<sup>(١٥)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٦)</sup>، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ جِبَانَ فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا<sup>(١٧)</sup>.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(١٨)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكُ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعَيْنَانِ قَرَسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشَعَّتْ رَأْسُهُ، مُعْبَرَةٌ

(١) الطبري: ٥٠٢/٧ (٢) مسلم: ٢١٩/١ والنسائي: ٨٩/١

(٣) البخاري: ٢٨٩٢ (٤) مسلم: ١٩١٣ (٥) أحمد: ٢٠/٦

(٦) أبو داود: ٢٠/٣ وتحفة الأحوذني: ٢٤٩/٥ (٧) ابن حبان:

٦٩/٧ (٨) الترمذي: ١٦٣٩ (٩) البخاري: ٢٨٨٦ (١٠)

الطبري: ٥٠٣/٧

المجلة الثالثة

VV

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَّخِذُهَا النَّاسُ أَتْقَوَارِكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا  
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ  
عِيشَهُ وَالْآرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ  
وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْخَيْرِ بِالْطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ  
كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا  
مَاطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا  
فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا  
النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نَحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ  
هَيْعًا رِزْقًا ﴿٤﴾ وَلَا تَزُولُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ  
فِيهَا وَرِزْقُهُمْ فِيهَا وَكُتُومٌ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا  
الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ اسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا  
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ  
غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا  
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ۖ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

سُوءًا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَحِدِ اللَّهُ عَفْوَراً  
رَّجِماً» [النساء: ١١٠] <sup>(٤)</sup> ثُمَّ قَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ،  
إِنْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ سَمِعَ مِنْ أَبِيهِ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ.

وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَلَوْنِي عَنْ سُورَةِ النَّسَاءِ فَإِنِّي قَرَأْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا صَغِيرٌ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرَجَاهُ<sup>(٥)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا﴾

عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَنَصَحَنِي، ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ مِمَّنْ يَكْتُبُ  
الْحَدِيثَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاكْتُبْ هَذَا الْحَدِيثَ،  
كَرَاءَ حَمَلِكَ كِتَابِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَيْنَا، وَأَمَلَى عَلَيَّ  
الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ: حَدَّثَنَا مَضُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ عَنْ أَبِي  
صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،  
عَلَّمَنِي عَمَلًا أَنَالُ بِهِ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،  
فَقَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصَلِّيَ فَلَا تَقُتِّرَ، وَتَصُومَ فَلَا  
تُفْطِرَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَضَعَفُ مِنْ أَنْ أَتَسْتَطِيعَ  
ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ طُوفْتَ  
ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ  
فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيْسَتْ فِي طَوْلِهِ، فَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ  
الْحَسَنَاتُ؟» (١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَعَاذِ حِينِ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ»<sup>(٢)</sup>. ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ أَي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُقْلِحُونَ﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا بَيْنَيْكُمْ وَبَيْنَهُمْ، لَعَلَّكُمْ تُقْلِحُونَ عَدَا إِذَا لَقِيتُمُونِي<sup>(٣)</sup>. اِنْتَهَى تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ، نَسْأَلُهُ الْمَوْتَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، آمِينَ.

[تَفْسِيرُ] سُورَةِ النَّسَاءِ

[مَدِينَةٌ، وَبَعْضُ مَا لِهَذِهِ السُّورَةِ مِنْ فَضَائِلَ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ سُورَةُ النَّسَاءِ بِالْمَدِينَةِ. وَكَذَا رَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ. وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ لِحُفَسَ آيَاتٍ مَا يَسُرُّنِي أَنْ لِي بِهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٤٠]، و ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نَهَوْا عَنْهُ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٣١]، و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٦٤] [وَفِي رَوَايَةٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاۗهُۥ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ  
وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالتَّذْكِيرُ بِالْخَلْقِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا خَلَقَهُ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ عِبَادَتُهُ وَخَلْقَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُنْبَهَا لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُمْ بِهَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وَهِيَ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ، خُلِقَتْ مِنْ ضُلْعِهِ الْأَيْسَرِ، مِنْ خَلْفِهِ وَهُوَ نَائِمٌ، فَاسْتَبَقَتْ فَرَاَهَا فَأَعْجَبَتْهُ، فَأَنْسَ إِلَيْهَا وَأَنْسَتْ إِلَيْهِ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرَتْهُ، وَإِنْ اسْتَمْتَعَتْ بِهَا اسْتَمْتَعَتْ بِهَا وَفِيهَا عَوَجٌ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاۗهُۥ﴾ أَيْ وَذَرَا مِنْهُمَا أَيْ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَنَسَرَهُمْ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعَادُ وَالْمَحْشَرُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أَيْ وَاتَّقُوا اللَّهَ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ. قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أَيْ كَمَا يُقَالُ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ وَبِالرَّحِمِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي بِهِ تُعَاقِدُونَ وَتُعَاهِدُونَ<sup>(٣)</sup>. وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوَهَا، وَلَكِنْ بَرُّوَهَا وَصِلُّوَهَا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (وَالْأَرْحَامَ) بِالْخَفْضِ عَلَى الْعُطْفِ عَلَى الضَّمِيرِ فِي بِهِ، أَيْ تَسَاءَلُونَ بِاللَّهِ وَبِالْأَرْحَامِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أَيْ هُوَ مُرَاقِبٌ لِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ كَمَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا إِرْشَادٌ وَأَمْرٌ بِمُرَاقَبَةِ الرَّقِيبِ. وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنْ أَصْلَ الْخَلْقِ مِنْ آبٍ وَاحِدٍ وَأُمَّ وَاحِدَةٍ، لِيَعُطِفَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيُحَنِّنَهُمْ عَلَى ضَعْفَائِهِمْ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ مُضَرَ، وَهُمْ مُجْتَابُوا النَّمَارِ - أَيْ مِنْ عَرَبِهِمْ وَتَقَرَّبَهُمْ - قَامَ فَحَطَبَ النَّاسَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ... حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ. وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرِهَا﴾ [الحشر: ٥٩]، ثُمَّ حَضَّهُمْ عَلَى الصَّدَقَةِ فَقَالَ: «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»<sup>(٧)</sup>. وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشَّيْخَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي خُطْبَةِ الْحَاجَةِ<sup>(٨)</sup>. وَفِيهَا: ثُمَّ يقرأ ثَلَاثَ آيَاتٍ هَذِهِ مِنْهَا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ... الْآيَةَ.

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَعَهُ وَتِلْكَ وَرِثَةُ الْوَالِدِ فَلَنْ يُخْفِيَ اللَّهُ الْوَالِدِينَ وَالْأَسْفَلَ فَوْجَهُ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آدَقُ الَّذِي تَقُولُونَ ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدُقَيْنِمْ نَحْلَةً فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَسَا فَاكْلُوهُ هَبْنَا

مَرِيئًا ﴿١﴾

[الْأَمْرُ بِحِفْظِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى]

يَأْمُرُ تَعَالَى بِدَفْعِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى إِلَيْهِمْ إِذَا بَلَغُوا النُّحْلَ كَامِلَةً مُوفَرَةً، وَيَنْهَى عَنْ أَكْلِهَا وَضَمِّهَا إِلَى أَمْوَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَبْدَلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ﴾ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالزُّهْرِيُّ: لَا تُعْطِ مَهْزُولًا وَتَأْخُذَ سَمِينًا<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّحْجِيُّ وَالضَّحَّاكُ: لَا تُعْطِ زَانِفًا وَتَأْخُذَ جَيِّدًا<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ أَحَدُهُمْ يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِينَةَ مِنْ غَنَمِ الْيَتِيمِ، وَيَجْعَلُ فِيهَا مَكَانَهَا الشَّاةَ الْمَهْزُولَةَ، وَيَقُولُ: شَاةُ بَشَاةٍ، وَيَأْخُذُ الدَّرْهَمَ الْجَيِّدَ، وَيَطْرَحُ مَكَانَهُ الرَّثِفَ، وَيَقُولُ: دِرْهَمٌ بِدِرْهَمٍ<sup>(١١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِآنٍ وَالسُّدِّيُّ وَسُفْيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ: أَيْ لَا تَخْطُطُوهَا فَتَأْكُلُوهَا جَمِيعًا<sup>(١٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ إِنَّمَا كَبِيرًا عَظِيمًا<sup>(١٣)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ وَقَتَادَةَ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبِآنٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَأَبِي سَيَّانٍ مِثْلَ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١٤)</sup> وَالْمَعْنَى: إِنَّ أَكْلَكُمْ أَمْوَالَهُمْ مَعَ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ عَظِيمٌ وَخَطَأٌ

(١) فتح الباري: ٤١٨/٦ (٢) الطبري: ٥١٩/٧ (٣) الطبري: ٥١٨/٧

(٤) الطبري: ٥٢٢، ٥٢١/٧ (٥) الطبري: ٥١٩/٧

(٦) فتح الباري: ١٤٠/١ (٧) مسلم: ٧٠٥/٢ (٨) أحمد: ٣٥٨/٤

والنسائي: ٧٥/٥ وابن ماجه: ٧٤/١ (٩) الطبري: ٧/٥٢٥

(١٠) الطبري: ٥٢٥/٧ (١١) الطبري: ٥٢٦/٧ (١٢) الطبري: ٥٢٨/٧

(١٣) الطبري: ٥٣٠/٧ (١٤) الطبري: ٧/٥٣٠

كَبِيرٌ فَاجْتَنِبُوهُ.

## [الْهَيْئَةُ عَنْ نِكَاحِ الْيَتِيمَةِ بِصَدَاقٍ دُونَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً﴾، أَيُّ إِذَا كَانَ تَحْتَ حِجْرٍ أَحَدِكُمْ يَتِيمَةً، وَخَافَ أَنْ لَا يُعْطِيَهَا مَهْرَ مِثْلِهَا، فَلْيُعِدِلْ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ كَثِيرٌ، وَلَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَنَكَحَهَا، وَكَانَ لَهَا عَذْقٌ، وَكَانَ يُمْسِكُهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ، فَزَلَّتْ فِيهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أَحْسِبُهُ قَالَ: كَانَتْ شَرِيكَتُهُ فِي ذَلِكَ الْعَذْقِ وَفِي مَالِهِ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾، قَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي، هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حِجْرٍ وَلَيْلَهَا، تَشْرُكُهُ فِي مَالِهِ، وَيُعْجِبُهُ مَالُهَا وَجَمَالُهَا، فَيُرِيدُ وَلَيْلَهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا، فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ، فَتُهْوَأُ أَنْ يَنْكِحُوهَا إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا. وَيَتْلَعُوا بِهِنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ، وَأَمُرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ. قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَإِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَقَوْلُ اللَّهِ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَتَرْجُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ إِذَا كَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَتُهْوَأُ أَنْ يَنْكِحُوا مِنْ رَغْبَا فِي مَالِهِ وَجَمَالِهِ مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُمْ إِذَا كُنَّ قَلِيلَاتِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ<sup>(٢)</sup>.

## [قَصْرُ الزَّوْاجِ عَلَى أَرْبَعٍ مِنَ النِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَثْنً وَثُلَّةً وَرُبْعٌ﴾ أَيُّ انكِحُوا مَا شِئْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ، إِنْ شَاءَ أَحَدُكُمْ ثِنْتَيْنِ، وَإِنْ شَاءَ ثَلَاثًا، وَإِنْ شَاءَ أَرْبَعًا. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿جَاوِلْ الْمَلَكَةَ رُؤُلًا أُولَىٰ بِأَحْضٍ مِثْنً وَثُلَّةً وَرُبْعٌ﴾ [فاطر: ١] أَيُّ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ، وَلَا يَبْقَى مَا عَدَا ذَلِكَ فِي الْمَلَائِكَةِ لِذِلَالَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ قَصْرِ الرِّجَالِ عَلَى أَرْبَعٍ، فَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ. كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ، لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ امْتِنَانٍ وَإِبَاحَةٍ، فَلَوْ كَانَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعٍ لَذَكَرَهُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ غَيْلَانَ بْنَ

سَلَمَةَ الثَّقَفِيُّ أَسْلَمَ وَتَحَتَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اخْتَرِ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا» فَلَمَّا كَانَ فِي عَهْدِ عُمَرَ طَلَّقَ نِسَاءَهُ، وَقَسَمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَطُرُ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ سَمِعَ بِمَوْتِكَ فَقَدَفَهُ فِي نَفْسِكَ، وَلَعَلَّكَ لَا تَمُكُّ إِلَّا قَلِيلًا. وَابْنُ اللَّهِ لَتَرَا جَعَلَ نِسَاءَكَ، وَلَتَرَجِعَنَّ فِي مَالِكَ، أَوْ لَا وَرَّئُهُنَّ مِنْكَ، وَلَا مَرَدَّ بِقَبْرِكَ فَيَرْجِمَ كَمَا رَجِمَ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ. وَهَكَذَا رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالدَّارِقُطْنِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُمْ، إِلَى قَوْلِهِ: «اخْتَرِ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا» وَبَاقِي الْحَدِيثِ فِي قِصَّةِ عُمَرَ مِنْ أَفْرَادِ أَحْمَدَ<sup>(٣)</sup>.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعٍ لَسَوَّغَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَائِرُهُنَّ فِي بَقَاءِ الْعُشْرَةِ، وَقَدْ أَسْلَمْنَ مَعَهُ، فَلَمَّا أَمَرَهُ بِإِمْسَاكِ أَرْبَعٍ، وَفَرَاقِ سَائِرُهُنَّ، ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعٍ بِحَالٍ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الدَّوَامِ، فَفِي الْإِسْتِثْنَاءِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

## [الْإِكْتِفَاءُ بِالْوَاحِدَةِ عِنْدَ خَشْيَةِ عَدَمِ الْعَدْلِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، أَيُّ فَإِنْ خَشِيتُمْ مِنْ تَعْدَادِ النِّسَاءِ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَقْتَصِرْ عَلَى وَاحِدَةٍ، أَوْ عَلَى الْجَوَارِي السَّرَارِيِّ، فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ قِسْمُ بَيْنَهُنَّ، وَلَكِنْ يُسْتَحَبُّ، فَمَنْ فَعَلَ فَحَسَنَ، وَمَنْ لَا فَلَا حَرَجَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ أَتَىٰ أَلَّا تُعْوَلُوا﴾ أَيُّ أَنْ لَا تَجُورُوا. يُقَالُ: عَالَ فِي الْحُكْمِ إِذَا قَسَطَ وَظَلَمَ وَجَارَ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مُرْدُوَيْهِ وَأَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿ذَلِكَ أَتَىٰ أَلَّا تُعْوَلُوا﴾ قَالَ: «لَا تَجُورُوا»<sup>(٤)</sup>. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: قَالَ أَبِي: هَذَا حَدِيثٌ خَطَأً. وَالصَّحِيحُ: عَنْ عَائِشَةَ مَوْقُوفٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنَ وَأَبِي مَالِكٍ وَأَبِي رَزِينٍ وَالتَّحِييَ وَالتَّحِييَ وَالشَّعْبِيَّ وَالضُّحَّاكَ وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيِّ وَقَتَادَةَ وَالسَّيِّدِيَّ وَمُقَاتِلَ بْنَ

(١) فتح الباري: ٨/٨٧ (٢) فتح الباري: ٨/٨٧ (٣) أحمد:

١٤/٢ والألم: ٥/٤٩ والترمذي: ١١٢٨ وابن ماجه: ١٩٥٣

وسنن الدارقطني: ٣/٢٧١ والبيهقي: ٧/١٨٢ (٤) ابن حبان:

حَيَّانَ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا تَمِيلُوا<sup>(١)</sup>. هُمُ الْيَتَامَى<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: هُمُ النِّسَاءُ<sup>(٣)</sup>.

### [إِعْطَاءُ الصَّدَاقِ وَاجِبٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: النِّحْلَةُ: الْمَهْرُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ: «نِحْلَةٌ»: فَرِيضَةٌ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: «نِحْلَةٌ» أَيُّ فَرِيضَةٍ. زَادَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مُسْمَاءٌ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: النِّحْلَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْوَاجِبُ، يَقُولُ: لَا تَنْكِحَهَا إِلَّا بِشَيْءٍ وَاجِبٍ لَهَا، وَلَيْسَ يَتَّبِعِي لِأَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَنْكِحَ امْرَأَةً إِلَّا بِصَدَاقٍ وَاجِبٍ، وَلَا يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ تَسْمِيَةُ الصَّدَاقِ كَذِبًا بِغَيْرِ حَقٍّ<sup>(٦)</sup>. وَمَضْمُونُ كَلَامِهِمْ: أَنَّ الرَّجُلَ يَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُ الصَّدَاقِ إِلَى الْمَرْأَةِ حَتْمًا، وَأَنْ يَكُونَ طَيِّبَ النَّفْسِ بِذَلِكَ، كَمَا يَمْنَعُ الْمَنِيحَةَ وَيُعْطِي النِّحْلَةَ طَيِّبًا بِهَا، كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يُعْطِيَ الْمَرْأَةَ صَدَاقَهَا طَيِّبًا بِذَلِكَ، فَإِنْ طَابَتْ هِيَ لَهُ بِهِ بَعْدَ تَسْمِيَتِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلَيْسَ كُلُّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وَابْلَاؤُا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ اسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْفُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا<sup>(٧)</sup>.

### [الْحَجَرُ عَلَى الشُّفَهَاءِ]

يَنْهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَمْكِينِ الشُّفَهَاءِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا، أَيُّ تَقْوَمُ بِهَا مَعَاشُهُمْ مِنَ التِّجَارَاتِ وَغَيْرِهَا، وَمِنْ هَهُنَا يُؤْخَذُ الْحَجَرُ عَلَى الشُّفَهَاءِ، وَهُمْ أَفْسَامٌ، فَتَارَةً يَكُونُ الْحَجَرُ لِلصَّغِيرِ، فَإِنَّ الصَّغِيرَ مَسْلُوبُ الْعِبَارَةِ. وَتَارَةً يَكُونُ الْحَجَرُ لِلْمَجْنُونِ. وَتَارَةً لِسَوْءِ التَّصَرُّفِ لِنَقْصِ الْعَقْلِ أَوْ الدِّينِ. وَتَارَةً يَكُونُ الْحَجَرُ لِلْفُلَسِ. وَهُوَ مَا إِذَا أَحَاطَ الذُّيُونُ بِرَجُلٍ، وَضَاقَ مَالُهُ عَنْ وَقَائِهَا، فَإِذَا سَأَلَ الْعُرَمَاءُ الْحَاكِمَ الْحَجَرَ عَلَيْهِ، حَجَرَ عَلَيْهِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قَالَ: هُمُ بَنُوكَ وَالنِّسَاءُ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالْحَكَمُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ: هُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:

[الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْمَحْجُورِينَ بِالْمَعْرُوفِ] وَقَوْلُهُ: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، يَقُولُ: لَا تَعْبُدْ إِلَى مَالِكَ وَمَا خَوْلَكَ اللَّهُ، وَجَعَلَهُ لَكَ مَعِيشَةً، فَتُعْطِيهِ أَمْرًا تَكُ أَوْ بَيْنَكَ، ثُمَّ تَنْظُرُ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَلَكِنْ أَمْسِكْ مَالَكَ وَأَصْلَحْهُ، وَكُنْ أَنْتَ الَّذِي تُنْفِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ كِسْوَتِهِمْ وَمُؤْنَتِهِمْ وَرِزْقِهِمْ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، يَعْنِي فِي الْبِرِّ وَالصَّلَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ انْتَضَمَتْ إِلَى إِحْسَانٍ إِلَى الْعَائِلَةِ وَمَنْ تَحْتَ: الْحَجَرُ بِالْفِعْلِ مِنْ الْإِنْفَاقِ فِي الْكَسَاوِي وَالْأَرْزَاقِ، وَالْكَلَامُ الطَّيِّبُ، وَتَحْسِينُ الْأَخْلَاقِ.

[الْأَمْرُ بِاخْتِيَارِ الْيَتَامَى، وَدَفْعِ أَمْوَالِهِمْ لَهُمْ عِنْدَ الرُّشْدِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَابْلَاؤُوا الْيَتَامَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ بْنُ حَيَّانَ: أَيُّ اخْتَبَرُوهُمْ<sup>(١١)</sup>. ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي النُّحْلَ<sup>(١٢)</sup>. قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْبُلُوغُ فِي الْعُلَامِ تَارَةً يَكُونُ بِالْحُلْمِ، وَهُوَ أَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَنْزِلُ بِهِ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ، وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «لَا يَتِمُّ بَعْدَ احْتِلَامٍ، وَلَا ضَمَاتٍ يَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ»<sup>(١٣)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ عَنْ عَائِشَةَ وَغَيْرِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيْقَ»<sup>(١٤)</sup>. أَوْ يَسْتَكْمِلُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَخَذُوا ذَلِكَ مِنْ

(١) الطبري: ٥٤٩/٧-٥٥١ (٢) الطبري: ٥٥٣/٧ (٣) الطبري: ٥٥٣/٧ (٤) الطبري: ٥٥٣/٧ (٥) الطبري: ٥٦٢ (٦) الطبري: ٥٦٢/٧ (٧) الطبري: ٥٦٣/٧ (٨) الطبري: ٥٦٤/٧ (٩) الطبري: ٥٧٠/٧ (١٠) الطبري: ٥٧٤ (١١) الطبري: ٥٧٥/٧ (١٢) أبو داود: ٢٩٣/٣ إسناده ضعيف: فيه خالد بن سعيد بن أبي مريم مجهول، لا يتابع عليه [تحرير تقريب التهذيب ١٦٤] ويعني عنه حديث حنظلة مرفوعاً: لا يتم بعد احتلام ولا يتم على جارية إذا هي حاضت [المعجم الكبير (٣٥٠٢) ١٤/٤] (١٣) أبو داود: ٥٥٨-٥٦٠

الْبَيْتِ

٧٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْضُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيَخَشَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْوِثْقَةِ لِلْأُنثَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرَثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُّسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ عَآبَاءُكُمْ وَأَبَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

إِلَيْهِمْ أَمْوَالُهُمْ لِئَلَّا يَقَعَ مِنْ بَعْضِهِمْ جُحُودٌ وَإِن كَارَ لِمَا قَبَضَهُ وَتَسَلَّمَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أَيُّ وَكَفَى بِاللَّهِ مُحَاسِبًا وَشَهِيدًا وَرَقِيبًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ فِي حَالِ نَظَرِهِمْ لِلْأَيْتَامِ، وَحَالِ تَسْلِيمِهِمْ لِلْأَمْوَالِ، هَلْ هِيَ كَامِلَةٌ مُّوَفَّرَةٌ أَوْ مُنْقُوصَةٌ مُّبْخُوسَةٌ مُّدْخَلَةٌ، مُرَوِّجٌ حِسَابُهَا، مُدْلَسٌ أَمْوَرُهَا؟ اللَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَلِيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»<sup>(٨)</sup>.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿٧﴾ وَإِذَا

الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمرَ، قَالَ: عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعٍ عَشْرَةَ فَلَمْ يُجِزْنِي، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسٍ عَشْرَةَ فَأَجَازْنِي، فَقَالَ عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا الْحَدِيثُ: إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ<sup>(١)</sup>.

وَاخْتَلَفُوا فِي إِنْثَابِ الشَّعْرِ الْحَثِينِ حَوْلَ الْفَرْجِ، وَهِيَ الشَّعْرَةُ، وَالصَّحِيجُ أَنَّهَا بُلُوعٌ، وَقَدْ ذَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: عُرِضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ، فَكَانَ مَنْ أَتَيْتَ قِتْلَ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّي سَبِيلُهُ، فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ فَخُلِّي سَبِيلِي<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ بِنَحْوِهِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ عَاسَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْني صَلَاحًا فِي دِينِهِمْ، وَحِفْظًا لِأَمْوَالِهِمْ. وَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ: مَتَى بَلَغَ الْغُلَامُ مُصْلِحًا لِدِينِهِ وَمَالِهِ أَنْفَكَ الْحَجْرُ عَنْهُ، فَيَسْلَمَ إِلَيْهِ مَالُهُ الَّذِي تَحْتَ يَدِ وَلِيِّهِ بِطَرِيقِهِ.

[جَوَازُ الْأَكْلِ لِلْفُقَرَاءِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِقَدْرِ قِيَامِهِمْ عَلَيْهِ] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَُا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ أَيُّ مُبَادَرَةً قَبْلَ بُلُوغِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ مَنْ كَانَ فِي غَنِيَّةٍ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ فَلْيَسْتَعْفِفْ عَنْهُ، وَلَا يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئًا، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي وَالِي الْيَتِيمِ ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ قِيَامِهِ عَلَيْهِ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عُمرِ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَيْسَ لِي مَالٌ وَلِي يَتِيمٌ؟ فَقَالَ: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبْذِرٍ وَلَا مُتَأَثِّلٍ مَالًا، وَمَنْ غَيْرُ أَنْ تَقِيَّ مَالَكَ - أَوْ قَالَ: تَقْدِي مَالَكَ - بِمَالِهِ شَكَّ حُسَيْنٌ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يَعْني بَعْدَ بُلُوغِهِمْ الْحُلُمَ، وَإِبْنُ عَبَّاسٍ الرَّشِدَ، فَحِينَئِذٍ سَلَّمُوا أَمْوَالَهُمْ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿فَاشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ وَهَذَا أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْأَوْلِيَاءِ أَنْ يُشْهَدُوا عَلَى الْأَيْتَامِ إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ، وَسَلَّمُوا

(١) البخاري: ٢٦٦٤ ومسلم: ١٨٦٨ (٢) أحمد: ٣١٠/٤

(٣) أبو داود: ٥٦١/٤ وتحفة الأحوذني: ٢٠٧/٥ والنسائي في

الكبرى: ١٨٥/٥ وابن ماجه: ٨٤٩/٢ (٤) الطبري: ٥٧٦/٧

(٥) الطبري: ٥٩٣/٧ (٦) فتح الباري: ٨٩/٨ (٧) مسند

أحمد: ٢١٦٠٢١٥/٢ (٨) مسلم: ١٤٥٨/٣

يَرْتُونَ، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ قِسْمَةً مَالٍ جَزِيلٍ، فَإِنْ أَنْفُسُهُمْ تَنَوَّقُوا إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ إِذَا رَأَوْا هَذَا يَأْخُذْ وَهَذَا يَأْخُذْ، وَهُمْ يَأْسُونَ لَا شَيْءَ يُعْطُونَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ، أَنْ يُرْضَخَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَسْطِ، يَكُونُ بَرًّا بِهِمْ وَصَدَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ وَجَبْرًا لِكَسْرِهِمْ.

### [الْعَدْلُ فِي الْوَصِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ...﴾ الآية. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الرَّجُلِ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ، فَيَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُوصِي بِوَصِيَّةٍ تَضُرُّ بَوْرَتِيهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي يَسْمَعُهُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ وَيُوقِفَهُ وَيُسَدِّدَهُ لِلصَّوَابِ. وَلْيَنْظُرْ لِبَوْرَتِيهِ، كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَصْنَعَ بِبَوْرَتِيهِ إِذَا خَشِيَ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٨)</sup>. وَبُتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَعُودُهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ذُو مَالٍ وَلَا يَرْتِنِي إِلَّا ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: فَالْثُّلُثُ؟ قَالَ: «لَا». قَالَ: فَالْثُّلُثُ؟ قَالَ: «الْثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»<sup>(٩)</sup>.

### [الْوَعْدُ لِمَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ]

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْآيَةِ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فِي مُبَاشَرَةِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١٠)</sup>. وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ يَتَأَيَّدُ بِمَا بَعْدَهُ مِنَ التَّهْدِيدِ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا، أَيْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ تُعَامَلَ ذُرِّيَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ، فَعَامِلِ النَّاسَ فِي ذُرِّيَّاتِهِمْ إِذَا وَلِيَتْهُمْ. ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَنْ أَكَلَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أَيُّ إِذَا أَكَلُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى بِلا سَبَبٍ فَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ نَارًا تَتَّجَّجُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

حَصَرَ الْقِسْمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿١٠﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٢﴾

### [الْأَمْرُ بِالتَّوَرِثِ وَالرَّضْخِ لِحَاضِرِي الْقِسْمَةِ مِنْ غَيْرِ الْوَرَثَةِ]

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجْعَلُونَ الْمَالَ لِلرِّجَالِ الْكِبَارِ، وَلَا يُورَثُونَ النِّسَاءَ وَلَا الْأَطْفَالَ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾... الآية، أَيِ الْجَمِيعِ فِيهِ سَوَاءٌ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، يَسْتَوُونَ فِي أَصْلِ الْوَرَاثَةِ، وَإِنْ تَفَاوَتُوا بِحَسَبِ مَا فَرَضَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْهُمْ بِمَا يَذِلِّي بِهِ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْ قَرَابَةٍ، أَوْ زَوْجِيَّةٍ، أَوْ وَلَاءٍ، فَإِنَّهُ لُحْمَةٌ كُلُّحْمَةٍ النَّسَبِ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: جَاءَتْ أُمُّ كُحَّةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي ابْنَتَيْنِ، وَقَدْ مَاتَ أَبُوهُمَا، وَلَيْسَ لَهُمَا شَيْءٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾... الآية، وَسَيَأْتِي هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَ آتِي الْمِيرَاثِ بِسِيَاقٍ آخَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية، قِيلَ: الْمُرَادُ وَإِذَا حَصَرَ قِسْمَةَ الْمِيرَاثِ ذُوو الْقُرْبَى مِمَّنْ لَيْسَ يُوَارِثُ ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ﴾ فَلْيَرْضَخْ لَهُمْ مِنَ التَّرَكَةِ نَصِيبٌ<sup>(١)</sup>. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٢)</sup>: ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ أَوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ﴾. قَالَ: هِيَ مُحْكَمَةٌ وَلَيْسَتْ بِمَنْسُوحَةٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هِيَ قَائِمَةٌ يُعْمَلُ بِهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: هِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى أَهْلِ الْمِيرَاثِ مَا طَابَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي مُوسَى وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمَكْحُولٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وَالزُّهْرِيُّ وَبَنِي بَنٍ يَعْمَرُ: أَنَّهَا وَاجِبَةٌ. وَقِيلَ: هَذَا بِالْوَصِيَّةِ يُوصِي بِهِ الْمَيِّتُ. وَقِيلَ: بَلْ هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوحَةٌ.

قَالَ الْعَوْفِيُّ<sup>(٦)</sup> عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَإِذَا حَصَرَ الْقِسْمَةَ﴾ وَهِيَ قِسْمَةُ الْمِيرَاثِ، وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا، إِذَا حَصَرَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ مِنَ الْقَرَابَةِ الَّذِينَ لَا

(١) أبو داود: ٣١٤/٣ (٢) فتح الباري: ٩٠/٨ (٣) الطبري:

٨/٨ (٤) الطبري: ٨/٨ (٥) الطبري: ٨/٨ (٦) فيه عائلة

العوفي الضعفاء (٧) الطبري: ١٩/٨ (٨) الطبري: ٢١/٨

(٩) فتح الباري: ٤٢٧/٥ ومسلم: ١٢٥٣/٤ (١٠) الطبري:

٢٣/٨ أفته. العوفي وعائلته



وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٦)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ حَدِيثَ جَابِرِ الْأَوَّلِ إِنَّمَا نَزَلَ بِسَبَبِهِ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ كَمَا سَيَأْتِي، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ لَهُ إِذْ ذَاكَ أَخَوَاتٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَنَاتٌ، وَإِنَّمَا كَانَ يُورَثُ كَلَالَةً، وَلَكِنْ ذَكَرْنَا الْحَدِيثَ هَهُنَا تَبَعًا لِلْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ ذَكَرَهُ هَهُنَا، وَالْحَدِيثَ الثَّانِي عَنْ جَابِرٍ أَشْبَهَ بِزُورٍ هَذِهِ الْآيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْأَوْلَادُ يَرِثُونَ بِحِسَابٍ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ]

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» أَيُّ يَأْمُرُكُمْ بِالْعَدْلِ فِيهِمْ، فَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَجْعَلُونَ جَمِيعَ الْمِيرَاثِ لِلذَّكَوَرِ دُونَ الْإِنَاثِ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ، وَفَاوَتْ بَيْنَ الصَّنَفَيْنِ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، وَذَلِكَ لِاحْتِيَاجِ الرَّجُلِ إِلَى مَوْنَةِ التَّقَةِ وَالْكُلْفَةِ، وَمُعَانَاةِ التَّجَارَةِ وَالتَّكْسِبِ، وَتَجَسُّمِ الْمَشَقَّةِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُعْطَى ضِعْفُ مَا تَأْخُذُهُ الْأُنْثَى، وَقَدْ اسْتَنْبَطَ بَعْضُ الْأَذْكِيَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» أَنَّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدِ بَوْلَدِهِ، حَيْثُ أَوْصَى الْوَالِدَيْنِ بِأَوْلَادِهِمْ، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَقَدْ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ تَدُورُ عَلَى وَلَدِهَا، فَلَمَّا وَجَدَتْهُ مِنَ السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِصَدْرِهَا وَأَرْضَعَتْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «اتْرُكُوا هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَوَاللَّهِ أَنَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ هَهُنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الْمَالُ لِلْوَلَدِ، وَكَانَتِ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ، فَتَسَخَّ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَحَبَّ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسَ وَالثَّلْثَ، وَجَعَلَ لِلزَّوْجَةِ الثُّمَنَ وَالرُّبْعَ، وَلِلزَّوْجِ الشُّطْرَ وَالرُّبْعَ<sup>(٨)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُفَوِّقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْبِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»<sup>(١)</sup>.

«يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا»<sup>(٢)</sup>.

[الْأَمْرُ بِالْمَوَارِيثِ وَالْحَضُّ عَلَى تَعَلُّمِهَا]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، وَالَّتِي بَعْدَهَا، وَالْآيَةُ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ هَذِهِ السُّورَةِ هُنَّ آيَاتُ عِلْمِ الْفَرَائِضِ، وَهُوَ مُسْتَنْبَطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ، وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ مِمَّا هُوَ كَالْتَفْسِيرِ لِلذَّكَرِ مِنْهَا مَا هُوَ مُتَمَلِّقٌ بِتَفْسِيرِ ذَلِكَ. وَقَدْ وَرَدَ التَّرْغِيبُ فِي تَعَلُّمِ الْفَرَائِضِ، وَهَذِهِ الْفَرَائِضُ الْخَاصَّةُ مِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ. قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَرَائِضُ بِصِفِّ الْعِلْمِ، لِأَنَّهُ يُتَنَلَّى بِهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ.

[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلَمَةَ مَاشِيَيْنَ، فَوَجَدَنِي الْبَنِيَّ ﷺ لَا أَقْعِلُ شَيْئًا، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ، فَأَقْفَتُ فَقُلْتُ: مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَتَزَلْتُ: «يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ»<sup>(٣)</sup> وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٤)</sup>، وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ كُلُّهُمْ<sup>(٥)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ عَنْ جَابِرٍ فِي سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ) رَوَى أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ فِي أُحُدٍ شَهِيدًا، وَإِنْ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالًا، وَلَا يُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ، قَالَ: فَقَالَ: «يُقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ» قَالَ: فَتَزَلْتُ آيَةَ الْمِيرَاثِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَمَّهُمَا فَقَالَ: «أَعْطِ ابْنَتِي سَعْدِ الثَّلَاثَيْنِ، وَأَمَّهُمَا الثُّمَنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ»<sup>(٥)</sup>.

(١) فتح الباري: ٤٦٢/٥ ومسلم: ٩٢/١ (٢) فتح الباري: ٨/٩١

(٣) مسلم: ١٢٣٥/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٢٠/٦ (٤)

فتح الباري: ١١٨/١ ومسلم: ١٢٣٤/٣ وأبو داود: ٣٠٨/٣

وتحفة الأحوذني: ٣٦٨/٨ والنسائي: ٧٧/١ وابن ماجه: ٢/٩١١

(٥) أحمد: ٣٥٢/٣ (٦) أبو داود: ٣١٤/٣ وتحفة

الأحوذني: ٢٦٧/٦ وابن ماجه: ٩٠٨/٢ (٧) مسلم: ٤/٢١٠٩

(٨) فتح الباري: ٩٣/٨

## [مِيرَاثُ الْبَنَاتِ إِذَا انْفَرَدْنَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: قَوْلُهُ: ﴿فَوْقَ﴾ زَائِدَةٌ، وَتَقْدِيرُهُ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْيَانِ﴾ [الأنفال: ١٢] وَهَذَا غَيْرُ مُسْلَمٍ لَا هُنَا وَلَا هُنَاكَ. فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ، ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مَا قَالُوهُ لَقَالَ: فَلَهُمَا ثُلُثَا مَا تَرَكَ، وَإِنَّمَا اسْتَفِيدَ كَوْنُ الثَّلَثَيْنِ لِلْبَنَتَيْنِ مِنْ حُكْمِ الْأَخْتَيْنِ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ فِيهَا لِلأَخْتَيْنِ بِالثَّلَثَيْنِ. وَإِذَا وَرَثَ الْأَخْتَانِ الثَّلَثَيْنِ فَلَأَنْ يَرثَ ابْنَتَانِ الثَّلَثَيْنِ بِطَرِيقِ الْأُولَى. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، حَكَمَ لِابْنَتَيْ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ بِالثَّلَثَيْنِ، فَدَلَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فَلَوْ كَانَ لِلْبَنَتَيْنِ النِّصْفُ لَنَصَّ عَلَيْهِ أَيْضًا، فَلَمَّا حَكَمَ بِهِ لِلوَاحِدَةِ عَلَى انْفِرَادِهَا، دَلَّ عَلَى أَنَّ الْبَنَتَيْنِ فِي حُكْمِ الثَّلَاثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

## [مِيرَاثُ الْوَالِدَيْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلْوَالِدَيْنِ لِلْكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ﴾ إِلَى آخِرِهِ، الْأَبَوَانِ لَهُمَا فِي الْمِيرَاثِ أَحْوَالٌ: (أَحَدُهَا) أَنْ يَجْتَمِعَا مَعَ الْأَوْلَادِ فَيُفْرَضُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا ابْنَتٌ وَاحِدَةٌ، فُورَضَ لَهَا النِّصْفُ، وَلِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ، وَأَخَذَ الْأَبُ الشُّدُسَ الْآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ، فَيُجْمَعُ لَهُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ بَيْنَ الْفَرَضِ وَالتَّعْصِيبِ.

(الْحَالُ الثَّانِي) أَنْ يَنْفَرِدَ الْأَبَوَانِ بِالْمِيرَاثِ، فَيُفْرَضُ لِلأُمِّ - وَالْحَالَةُ - الثُّلُثُ، وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِيَّ بِالتَّعْصِيبِ الْمَحْضِ، وَيَكُونُ قَدْ أَخَذَ ضِعْفِي مَا فُرِضَ لِلأُمِّ، وَهُوَ الثُّلُثَانِ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُمَا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَخَذَ الزَّوْجُ النِّصْفَ وَالزَّوْجَةُ الرُّبْعَ. ثُمَّ تَأْخُذُ الْأُمُّ بَعْدَ فَرَضِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ، تِلْكَ الْبَاقِي فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ، لِأَنَّ الْبَاقِي كَانَتْهُ جَمِيعُ الْمِيرَاثِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهَا نِصْفَ مَا جَعَلَ لِلأَبِ. فَتَأْخُذُ تِلْكَ الْبَاقِي وَيَأْخُذُ الْأَبُ ثُلُثَيْهِ.

(وَالْحَالُ الثَّلَاثُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَبَوَيْنِ) وَهُوَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعَ الْإِخْوَةِ، سَوَاءً كَانُوا مِنَ الْأَبَوَيْنِ أَوْ مِنَ الْأَبِ أَوْ مِنَ الْأُمِّ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْتُونَ مَعَ الْأَبِ شَيْئًا، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ

يَحْجُبُونَ الْأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ إِلَى الشُّدُسِ، فَيُفْرَضُ لَهَا مَعَ وُجُودِهِمُ الشُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ سِوَاهَا وَسِوَى الْأَبِ، أَخَذَ الْأَبُ الْبَاقِيَّ. وَحُكْمُ الْأَخَوَيْنِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَحُكْمِ الْإِخْوَةِ عِنْدَ الْجُمُهورِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلأُمِّ الشُّدُسُ﴾ أَصْرُوا بِالْأُمِّ وَلَا يَرْتُونَ، وَلَا يَحْجُبُهَا الْأَخُ الْوَاحِدُ مِنَ الثُّلُثِ وَيَحْجُبُهَا مَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَكَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَرَوْنَ أَنََّّهُمْ إِنَّمَا حَجَبُوا أُمَّهُمْ عَنِ الثُّلُثِ: أَنَّ آبَاءَهُمْ يَلِي إِنْكَاحَهُمْ وَنَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ دُونَ أُمَّهُمْ، وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ.

## [تَقْدِيمُ الدِّينِ ثُمَّ الْوَصِيَّةِ عَلَى الْمِيرَاثِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ سَلَفًا وَخَلَفًا أَنَّ الدِّينَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ، وَذَلِكَ عِنْدَ امْتِعَانِ النَّظَرِ يُفْهِمُ مِنْ فَحْوَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أَيُّ إِنَّمَا فَرَضْنَا لِلآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، وَسَاوَيْنَا بَيْنَ الْكُلِّ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ، عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، مِنْ كَوْنِ الْمَالِ لِلْوَلَدِ، وَلِلوَالِدَيْنِ الْوَصِيَّةُ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، إِنَّمَا نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا، فَفَرَضَ لَهُوْلَاءِ وَلَهُوْلَاءِ بِحَسَبِهِمْ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَأْتِيهِ النَّفْعُ الدُّنْيَوِيُّ أَوْ الْآخِرِيُّ أَوْ هُمَا مِنْ أَبِيهِ مَا لَا يَأْتِيهِ مِنْ ابْنِهِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْعَكْسِ، وَلِذَا قَالَ: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أَيُّ كَانَ النَّفْعُ مُتَوَقَّعًا وَمَرْجُوًّا مِنْ هَذَا، كَمَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوٌّ مِنَ الْآخَرِ، فَلِهَذَا فَرَضْنَا لِهَذَا وَلِهَذَا، وَسَاوَيْنَا بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَفْصِيلِ الْمِيرَاثِ وَإِعْطَاءِ بَعْضِ الْوَرَثَةِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ، هُوَ فَرَضٌ مِنَ اللَّهِ، حَكَمَ بِهِ وَقَضَاهُ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا، وَيُعْطِي كُلَّ مَا يَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْوَاحُكُمْ إِنْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ وَمِمَّا تَرَكَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ وَلَهُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُمُ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَ وَإِنْ

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّيَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لهنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَا أُمْرَأَةٍ وَلَهُ أَحٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

[حُكْمُ أَوْلَادِ الْأُمِّ مِنْ غَيْرِ أَبِيهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أَحٌ أَوْ أُخْتُ﴾ أَيُّ مِنْ أُمِّ كَمَا هُوَ فِي قِرَاءَةِ بَعْضِ السَّلَفِ، مِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَكَذَا فَسَّرَهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِيمَا رَوَاهُ قَتَادَةُ عَنْهُ ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ وَإِخْوَةُ الْأُمِّ يُخَالِفُونَ بَقِيَّةَ الْوَرِثَةِ مِنْ وَجْهِ: أَحَدُهَا أَنَّهُمْ يَرِثُونَ مَعَ مَنْ أَذَلُّوا بِهِ، وَهِيَ الْأُمُّ. الثَّانِي: أَنَّ ذُكُورَهُمْ وَإِنَّا نَهُمْ فِي الْوِثَارَةِ سَوَاءً. الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ إِلَّا إِذَا كَانَ مِثْلُهُمْ يُورِثُ كِلَا أُمِّهِ، فَلَا يَرِثُونَ مَعَ أَبٍ وَلَا جَدٍّ وَلَا وَلَدٍ وَلَا ابْنٍ. الرَّابِعُ: أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ عَلَى الثُّلُثِ، وَإِن كَثُرَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَّا نَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ أَيُّ لَتَكُونُ وَصِيَّتُهُ عَلَى الْعَدْلِ، لَا عَلَى الْإِضْرَارِ وَالْجَوْرِ

كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَا أُمْرَأَةٍ وَلَهُ أَحٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

[مِيرَاثُ الرُّوَجَيْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَكُمْ أَثْمَانُ الرِّجَالِ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِذَا مَتَّ عَنْ غَيْرِ وَلَدٍ، فَإِن كَانَ لهنَّ وَلَدٌ، فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الدَّيْنَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ، وَبَعْدَهُ الْوَصِيَّةُ ثُمَّ الْوِثَارَةُ، وَهَذَا أَمْرٌ مُّجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَحُكْمُ أَوْلَادِ الْبَنِينَ وَإِن سَفَلُوا حُكْمُ أَوْلَادِ الصُّلْبِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ ... إِلَى آخِرِهِ، وَسَوَاءٌ فِي الرُّبْعِ أَوِ الثُّمُنِ الزَّوْجَةُ وَالزَّوْجَتَانِ الْاِثْنَتَانِ وَالثَّلَاثُ وَالْأَرْبَعُ يَشْتَرِكْنَ فِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ ... إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ.

[تَعْرِيفُ الْكِلَالَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَا أُمْرَأَةٍ مُّشْتَقَّةً مِنَ الْإِكْلِيلِ، وَهُوَ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَالْمُرَادُ هُنَا مِنْ يَرِثُهُ مِنْ حَوَاشِيهِ، لَا أَصُولُهُ وَلَا قُرُوعُهُ. كَمَا رَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْكِلَالَةِ، فَقَالَ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِن يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِن يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِئَانِ مِنْهُ: الْكِلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ، فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ قَالَ: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أَخَالَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي رَأْيٍ رَأَاهُ<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ آخِرَ النَّاسِ عَهْدًا بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَلْقُولُ مَا قُلْتُ، فَقُلْتُ: وَمَا قُلْتُ؟ قَالَ: الْكِلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَصَحَّ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَبِهِ يَقُولُ الشَّعْبِيُّ وَالنَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَالْحَكَمُ<sup>(٣)</sup>. وَبِهِ يَقُولُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، بَلْ جَمِيعِهِمْ، وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ وَاحِدٍ.

(١) الطبري: ٥٣/٨ هذه الرواية من مراسيل الشعبي لأن عامر الشعبي عن أبي بكر وعمر مرسل [جامع التحصيل ٣٢٢] (٢) الطبري: ٥٩/٨ (٣) الطبري: ٥٧-٥٥/٨

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَسَيِّقُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ أَيْمٌ وَأَكْمَلُ.

﴿وَأَلَيْكَ يَا أَيُّهَا الْفَجْشَةُ مِنْ يَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا<sup>(٥)</sup>﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَتَادُوهُمَا فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا<sup>(٦)</sup>﴾

[الْأَمْرُ بِحَبْسِ الزَّانِيَةِ فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ نَسَخَ هَذَا الْأَمْرَ] كَانَ الْحُكْمُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا زَنَتْ، فَكَبَّتْ زَنَاهَا بِالْبَيْتَةِ الْعَادِلَةِ، حُبِسَتْ فِي بَيْتِ، فَلَا تُمْكِنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَلَيْكَ يَا أَيُّهَا الْفَجْشَةُ﴾ يَعْنِي الزَّانَا ﴿مِنْ يَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فَالسَّبِيلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ هُوَ النَّاسِخُ لَذَلِكَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ الثَّوْرِ، فَنَسَخَهَا بِالْجُلْدِ أَوْ الرَّجْمِ، وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ، وَسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَأَبِي صَالِحٍ وَقَتَادَةَ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَالضَّحَّاكَ، أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ، وَهُوَ أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوُحْيُ، أَثَّرَ عَلَيْهِ، وَكُرِبَ لَذَلِكَ، وَتَرَدَّدَ وَجْهُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ، قَالَ: «خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الثَّيْبُ بِالثَّيْبِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، الثَّيْبُ جُلْدٌ مِائَةً وَرَجْمٌ بِالْحَجَارَةِ، وَالْبِكْرُ جُلْدٌ مِائَةً ثُمَّ نَفِي سَنَةً<sup>(٥)</sup>». وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ مِنْ طُرُقٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَفْظُهُ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جُلْدٌ مِائَةً وَتَغْرِيبٌ عَامٍ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جُلْدٌ مِائَةً وَرَجْمٌ<sup>(٦)</sup>»

وَالْحَيْفُ بِأَنْ يَحْرِمَ بَعْضُ الْوَرَثَةِ أَوْ يَنْقُصَهُ، أَوْ يَزِيدَهُ عَلَى مَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْفَرِيشَةِ، فَمَتَى سَعَى فِي ذَلِكَ، كَانَ كَمَنْ ضَادَّ اللَّهَ فِي حُكْمِيهِ وَقِسْمَتِهِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِرَاثٍ<sup>(١)</sup>».

﴿بِذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ<sup>(٢)</sup>﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ<sup>(٣)</sup>﴾

[الْوَعْدُ عَلَى تَعَدِّي الْحُدُودِ فِي الْمَوَارِيثِ]

أَيُّ هَذِهِ الْفَرَائِضُ وَالْمَقَادِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلْوَرَثَةِ بِحَسَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ الْمَيِّتِ، وَاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ، وَفَقْدِهِمْ لَهُ عِنْدَ عَدَمِهِ، هِيَ حُدُودُ اللَّهِ، فَلَا تَعْتَدُوهَا وَلَا تَجَاوِزُوهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيُّ فِيهَا، فَلَمْ يَزِدْ بَعْضُ الْوَرَثَةِ وَلَمْ يَنْقُصْ بَعْضًا بِحِيلَةٍ وَوَسِيلَةٍ، بَلْ تَرَكَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَفَرِيشَتِهِ وَقِسْمَتِهِ ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ<sup>(٢)</sup> وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ<sup>(٣)</sup> أَيُّ لِكُوزِهِ غَيْرَ مَا حَكَمَ اللَّهُ بِهِ، وَضَادَّ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَصُدُّ عَنْ عَدَمِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ، وَحَكَمَ بِهِ، وَلِهَذَا يُجَازِيهِ بِالْإِهَانَةِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمُقِيمِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى خَافَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ» قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ، أَفَرَأَوْا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿بِذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي بَابِ الْإِضْرَارِ فِي الْوَصِيَّةِ مِنْ سُنَنِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ، أَوْ الْمَرْأَةُ، بِطَاعَةِ اللَّهِ سَبْعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَخْضُرُهُمَا الْمَوْتُ، فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ» وَقَالَ: قَرَأَ عَلَيَّ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ هَئِنَا: ﴿مَنْ بَعَدَ وَصِيَّتَهُ يُوْحَىٰ بِهَا أَوْ دِينِي غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا

(١) أبو داود: ٢٨٧٠، والترمذي: ٢١٢١، والنسائي: ٣٦٧٣ وابن ماجه: ٢٧١٢، ٢٧١٣ (٢) أحمد: ٢٧٨/٢ (٣) أبو داود: ٢٨٨/٣ (٤) تحفة الأحوذى: ٣٠٤/٦ وابن ماجه: ٩٠٢/٢ (٥) أحمد: ٣١٧/٥ (٦) مسلم: ١٣١٦/٣ وأبو داود: ٥٧٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٧٠٥/٤ والنسائي في الكبرى: ٢٧٠/٤ وابن ماجه: ٨٥٢/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٠

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَأَلَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكَمْ فَاسْتَشْهِدُوا  
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي  
الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا  
(١٥) وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا  
وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا  
(١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ  
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ  
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ  
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ  
قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ  
أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) يَأْتِيهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ  
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ اتِّبَعُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَدْحَشَةٍ  
مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى  
أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعل الله فيه خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)

وعمل السوء (٩).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «ثُمَّ يَتُوبُونَ  
مِنْ قَرِيبٍ» قَالَ: مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَلِكِ  
الْمَوْتِ (١١). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَا كَانَ دُونَ الْمَوْتِ فَهُوَ  
قَرِيبٌ (١١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ  
قَرِيبٍ»، مَا لَمْ يُعْرِغْ (١٢). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الدُّنْيَا كُلُّهَا  
قَرِيبٌ (١٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ  
النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُعْرِغْ» (١٤).  
رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.  
وَوَقَعَ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَهُوَ

(١) الطبري: ٨٥/٨ (٢) الطبري: ٨٢/٨ (٣) أبو داود: ٤/٦٠٧  
وتحفة الأحوذى: ٢١/٥ والنسائي في الكبرى: ٤/٣٢٢  
وابن ماجه: ٨٥٦/٢ (٤) فتح الباري: ٤/٤٩١ ومسلم: ٣/١٣٣٨  
(٥) الطبري: ٨٩/٨ (٦) الطبري: ٨٩/٨ (٧) عبد  
الرزاق: ١٥١/١ (٨) الطبري: ٩٠/٨ (٩) الطبري: ٩٠/٨  
(١٠) الطبري: ٩٤/٨ (١١) الطبري: ٩٤/٨ (١٢) الطبري: ٩٤/٨  
(١٣) الطبري: ٩٤/٨ (١٤) أحمد: ١٣٢/٢

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا» أَيِ  
وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِ الْفَاحِشَةَ فَتَاذُوهُمَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمَا وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمَا: أَيِ بِالشَّتْمِ  
وَالْتَعْيِيرِ وَالضَّرْبِ بِالتَّعَالِ (١). وَكَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ،  
حَتَّى نَسَخَهُ اللَّهُ بِالْجَلْدِ أَوْ الرَّجْمِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ  
فِي الرَّجُلَيْنِ إِذَا فَعَلَا - لَا يَكْنِي - (٢). وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ  
اللُّوَاطَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ رَوَى أَهْلُ السُّنَنِ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَعْمَلُ  
عَمَلٍ قَوْمٌ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» (٣).  
وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا» أَيِ أَقْلَعَا وَتَزَعَا عَمَّا  
كَانَا عَلَيْهِ، وَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُمَا وَحَسُنَتْ، «فَاعْرِضُوا  
عَنْهُمَا» أَيِ لَا تَعْتَقُوهُمَا بِكَلَامٍ قَبِيحٍ بَعْدَ ذَلِكَ، لِأَنَّ  
التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ «إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا  
رَحِيمًا». وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ إِذَا زَنَتْ أُمَةٌ أَحَدَكُمْ  
فَلْيُجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يَتْرَبْ عَلَيْهَا (٤) أَيِ ثَمَّ لَا يُعِيرُهَا  
بِمَا صَنَعَتْ بَعْدَ الْحَدِّ الَّذِي هُوَ كَفَّارَةٌ لِمَا صَنَعَتْ.

«إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ  
يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ  
حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ  
يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)»  
[قَبُولُ تَوْبَةِ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ]

يَقُولُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ عَمِلَ  
السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُ وَلَوْ قَبْلَ مُعَايِنَةِ الْمَلِكِ الَّذِي يَقْبِضُ  
رُوحَهُ، أَيِ قَبْلَ الْغُرْعَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: كُلُّ مَنْ  
عَصَى اللَّهَ خَطَأً أَوْ عَمْدًا فَهُوَ جَاهِلٌ، حَتَّى يَنْزِعَ عَنِ  
الذَّنْبِ (٥). وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ  
أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يَقُولُونَ: كُلُّ ذَنْبٍ أَصَابَهُ  
عَبْدٌ فَهُوَ بِجَهَالَةٍ (٦). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ:  
أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: اجْتَمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ فَرَأَوْا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَصِي بِهِ فَهُوَ جَهَالَةٌ، عَمْدًا كَانَ  
أَوْ غَيْرَهُ (٧). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ عَنْ  
مُجَاهِدٍ، قَالَ: كُلُّ غَامِلٍ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ جَاهِلٌ حِينَ  
عَمِلَهَا. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَقَالَ لِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ  
نَحْوَهُ (٨). وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مِنْ جَهَالَتِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨١

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢١﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٣﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾

وَأِنْ شَاءُوا زَوْجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يَرْجُوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ: ﴿يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ (٣).

[النَّهْيُ عَنِ الْإِضْرَارِ بِالنِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أَيُّ لَا تَضَارُوهُنَّ فِي الْعِشْرَةِ، لِتَتْرَكَ لَكَ مَا أَصْدَقْتَهَا، أَوْ بَعْضَهُ، أَوْ حَقًّا مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْكَ، أَوْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْقَهْرِ لَهَا وَالْإِضْطِهَادِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ وَالشَّعْبِيُّ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، وَسَعِيدُ ابْنُ جَبْرِ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو قِلَابَةَ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ

وَهُمْ، إِنَّمَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فَأَمَّا مَتَى وَقَعَ الْإِبَاسُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَعَايَنَ الْمَلِكُ، وَحَشَرَ جَبَ الرُّوحِ فِي الْحَلْقِ، وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ، وَبَلَغَتْ الْحُلُقُومُ، وَغَرَّغَتِ النَّفْسُ صَاعِدَةً فِي الْغَلَّاصِمِ، فَلَا تَوْبَةَ مُقْبِلَةً جَنِينًا، وَلَا تَجِينَ مَنَاصِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْقَتْلَ﴾ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ...﴾ [الْآيَتَيْنِ: غافر: ٨٤، ٨٥]، وَكَمَا حَكَمَ تَعَالَى بِعَدَمِ تَوْبَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذَا عَايَنُوا الشَّمْسَ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾... [الْآيَةُ: الأنعام: ١٥٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يَعْنِي أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ لَا يَنْفَعُهُ نَدْمُهُ وَلَا تَوْبَتُهُ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدْيَةٌ وَلَوْ بِمِلْءِ الْأَرْضِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ. ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قَالُوا: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ سَلْمَانَ: أَنَّ أَبَا ذَرٍّ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ، أَوْ يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ، مَا لَمْ يَقَعْ الْحِجَابُ». قِيلَ: وَمَا وَفُوعُ الْحِجَابِ؟ قَالَ: «أَنْ تَخْرُجَ النَّفْسُ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ» (٢). وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيُّ مُوجِعًا شَدِيدًا مُقِيمًا.

﴿يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَايَرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (٣) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢١﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٣﴾

[مَعْنَى إِرْثِ النِّسَاءِ كَرِهًا]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - ﴿يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قَالَ: كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَائِهِ أَحَقُّ بِأَمْرَائِهِ، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزْوِجَهَا،

(١) تحفة الأحوذى: ٥٢١/٩ وابن ماجه: ١٤٢٠/٢ (٢) أحمد: ١٧٤/٥ إسناده ضعيف لجهالة ابن نعيم وأسماء بن سلمان مجهول أيضًا ويُعني عنه حديث ابن عمر الذي تقدم "إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغفر" (٣) فتح الباري: ٩٣/٨

مُؤْمِنَةٍ، إِنْ سَخَطَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرٌ<sup>(٥)</sup>.

[النَّهْيُ عَنْ اسْتِزْدَادِ الصَّدَاقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَمَاتَيْتَهُمْ إِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْئَتِكُمْ وَلِأَنَّمْ مَيِّتًا﴾ أَيُّ إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُفَارِقَ امْرَأَةً، وَيَسْتَبْدِلَ مَكَانَهَا غَيْرَهَا، فَلَا يَأْخُذَنَّ مِمَّا كَانَ أَصْدَقَ الْأُولَى شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ قِنطَارًا مِنْ مَالٍ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ الْإِصْدَاقِ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ نَهَى عَنْ كَثْرَةِ الْإِصْدَاقِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: أَلَا لَا تَغْلُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَكْرَمَةً فِي الدُّنْيَا، أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ، كَانَ أَوْلَاكُمْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، مَا أَصْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ، وَلَا أَصْدَقَتْ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَسْتَكِلِي بِصَدَقَةِ امْرَأَتِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهَا عَدَاوَةٌ فِي نَفْسِهِ، وَحَتَّى يَقُولَ: كُلُّتُ إِلَيْكَ عِلْقَ الْقُرْبَى<sup>(٦)</sup>. ثُمَّ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ طُرُقٍ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: رَكِبَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ مِثْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَا إِكْتَارُكُمْ فِي صُدُقِ النِّسَاءِ؟ وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَالصَّدَقَاتُ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ ذَرَاهِمَ، فَمَا دُونَ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ الْإِكْتَارُ فِي ذَلِكَ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ أَوْ كَرَامَةً لَمْ تَسْقُوهُمْ إِلَيْهَا. فَلَا أَعْرِفُ مَا زَادَ رَجُلٌ فِي صَدَاقِ امْرَأَةٍ عَلَى أَرْبَعُمِائَةٍ ذَرَاهِمَ. قَالَ: ثُمَّ نَزَلَ، فَاعْتَرَضَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَهَيْتَ النَّاسَ أَنْ يَزِيدُوا النِّسَاءَ صَدَاقَهُمْ عَلَى أَرْبَعُمِائَةٍ ذَرَاهِمَ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: وَأَيُّ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَاتَيْتَهُمْ إِنْطَارًا﴾... الْآيَةُ؟ قَالَ: فَقَالَ: اللَّهُمَّ غَفْرًا، كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ. ثُمَّ رَجَعَ فَرَكِبَ الْمِثْرَ فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ

أَسْلَمَ، وَسَعِيدُ بْنُ أَبِي هَلَالٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ الزَّانَا. يَعْنِي إِذَا زَنَتْ فَلَكَ أَنْ تَسْتَرْجِعَ مِنْهَا الصَّدَاقَ الَّذِي أُعْطَيْتَهَا، وَتُضَاجِرَهَا حَتَّى تَتْرُكَهُ لَكَ، وَتُخَالِعَهَا<sup>(١)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ... الْآيَةُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَالصَّحَّاحُ: الْفَاحِشَةُ الْمُبَيَّنَةُ النُّشُورُ وَالْعُضْيَانُ<sup>(٢)</sup>. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ يُعْمُ ذَلِكَ كُلُّهُ: الزَّانَا وَالْعُضْيَانُ، وَالنُّشُورُ وَبَدَاءُ اللِّسَانِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ. يَعْنِي أَنَّ هَذَا كُلُّهُ يُبَيِّحُ مَضَاجِرَهَا حَتَّى تُبْرِئَهُ مِنْ حَقِّهَا أَوْ بَعْضِهِ. وَيُفَارِقُهَا، وَهَذَا جَيِّدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْأَمْرُ بِحُسْنِ عَشْرَةِ النِّسَاءِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أَيُّ طَبَّبُوا أَقْوَالَكُمْ لَهُنَّ، وَحَسَّنُوا أَفْعَالَكُمْ وَهَيَّأْتَكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ، كَمَا تُحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا، فَافْعَلْ أَلْتَ بِهَا مِثْلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»<sup>(٣)</sup> وَكَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ ﷺ أَنَّهُ جَمِيلُ الْعِشْرَةِ، دَائِمُ الْبِشْرِ، يُدَاعِبُ أَهْلَهُ، وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ، وَيُوسِّعُهُمْ نَفَقَتَهُ، وَيُضَاحِكُ نِسَاءَهُ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُسَاقُ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يَتَوَدَّدُ إِلَيْهَا بِذَلِكَ، قَالَتْ: سَابَقَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَفَقْتُهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ أَحْمِلَ اللَّحْمَ، ثُمَّ سَابَقْتُهُ بَعْدَ مَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: «هَذِهِ بَيْتُكَ»<sup>(٤)</sup>.

وَيَجْمَعُ نِسَاؤُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَأْكُلُ مَعَهُنَّ الْعِشَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، ثُمَّ تَتَصَرَّفُ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى مَنَزِلِهَا، وَكَانَ يَتَامُ مَعَ الْمَرْأَةِ مِنْ نِسَائِهِ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ، يَضَعُ عَنْ كَتِفِهِ الرِّدَاءَ وَيَتَامُ بِالْإِزَارِ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ يَدْخُلُ مَنَزِلَهُ، يَسْمُرُ مَعَ أَهْلِهِ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَتَامَ، يُؤَانِسُهُمْ بِذَلِكَ ﷺ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أَيُّ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَبْرُكُمْ مَعَ إِسْمَاحِكُمْ لَهُنَّ وَكَرَاهَتِهِنَّ، فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُوَ أَنْ يَغْتَلَفَ عَلَيْهَا فَيُزَوِّقَ مِنْهَا وَلَدًا، وَيَكُونَ فِي ذَلِكَ الْوَلَدِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا يَفْرُقُ مُؤْمِنٌ

(١) الطبري: ١١٥-١١٧/٨ (٢) الطبري: ١١٧/٨ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٩٤/١٠ (٤) أبو داود: ٦٦/٣ (٥) مسلم: ١/ ١٠٩١ (٦) أحمد: ٤٠/١ (٧) أبو داود: ٥٨٢/٢ وتحفة الأحوذى: ٢٥٥/٤ والنسائي: ١١٧/٦ وابن ماجه: ٦٠١/١

نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَزِيدُوا النِّسَاءَ فِي صَدَاقِهِنَّ عَلَى أَرْبَعِيَّةٍ دِرْهَمٍ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَ مِنْ مَالِهِ مَا أَحَبَّ. قَالَ أَبُو يَعْلَى: وَأَظْهَرُهُ قَالَ: فَمَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ فَلْيَفْعَلْ، إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِيٌّ.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أَيْ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَ الصَّدَاقَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَقَدْ أَفْضَيْتَ إِلَيْهَا وَأَفْضَتْ إِلَيْكَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَمَاعَ<sup>(١)</sup>. - وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ لِلْمُتَلَاعِنَيْنِ بَعْدَ فِرَاقِهِمَا مِنْ تَلَاُعِهِمَا: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ. فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» ثَلَاثًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَالِي؟ - يَعْنِي مَا أَصْدَقَهَا - قَالَ: «لَا مَالَ لَكَ. إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهَوَّ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَهَوَّ أَبْعَدَ لَكَ مِنْهَا»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِثْقَالًا غَلِيظًا﴾ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: الْعَقْدَ<sup>(٣)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ فِي خُطْبَةٍ حَجَّةَ الْوَدَاعِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِيهَا: «وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانٍ مِنَ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ»<sup>(٤)</sup>.

تَحْرِيمُ زَوَاجَاتِ الْأَبِّ عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَحُكْمُ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ الْآيَةُ، يُحَرِّمُ اللَّهُ تَعَالَى زَوَاجَاتِ الْأَبَاءِ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا أَنْ تَوَطَّأَ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى إِنَّهَا لَتَحَرِّمُ عَلَى الْإِبْنِ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا أَمْرًا الْأَبِ وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ»<sup>(٥)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٦)</sup>.

فَهُوَ حَرَامٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، مُبْتَسَعٌ غَايَةَ التَّبَسُّعِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَجِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١] وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّكُمْ كَانُمْ فَجِشَةً

وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فَرَادَ هَهُنَا ﴿وَمَقْتًا﴾ أَيْ بُغْضًا أَيْ هُوَ أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِهِ، وَيُؤَدِّي إِلَى مَقْتِ الْإِبْنِ أَبَاهُ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِأَمْرَأَتِهِ، فَإِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ بِأَمْرَأَةٍ يُبْغِضُ مَنْ كَانَ زَوْجَهَا قَبْلَهُ، وَلِهَذَا حُرِّمَتْ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْأُمَّةِ، لِأَنَّهُنَّ أُمَّهَاتُ لِكُونِهِنَّ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ. وَهُوَ كَالْأَبِ، بَلْ حَقُّهُ أَكْثَرُ مِنْ حَقِّ الْأَبَاءِ بِالْإِجْمَاعِ، بَلْ حُبُّهُ مُقَدَّمٌ عَلَى حُبِّ النَّفْسِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَاحٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَقْتًا﴾ أَيْ يَمْقُتُ اللَّهُ عَلَيْهِ، «وَسَاءَ سَبِيلًا» أَيْ وَبُئْسَ طَرِيقًا لِمَنْ سَلَكَهُ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَعَاطَا بَعْدَ هَذَا فَقَدْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، فَيُقْتَلُ، وَيَصِيرُ مَالُهُ فَيْئًا لِسَيِّبِ الْمَالِ. كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ طَرِيقٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، عَنْ خَالِهِ أَبِي بُرْدَةَ - وَفِي رِوَايَةٍ: ابْنُ عُمَرَ، وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ عَمِّهِ - أَنَّهُ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ أَمْرَأَةً أَبِيهِ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَقْتُلَهُ وَيَأْخُذَ مَالَهُ<sup>(٧)</sup>.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَكَهَنَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأَهْنُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ أَرْضَعَةٍ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَيِّئِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَفَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٢٤﴾

[بَيَانُ الْمُحَرَّمَاتِ الْأَبَدِيَّةِ وَغَيْرِ الْأَبَدِيَّةِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ تَحْرِيمِ الْمُحَارِمِ مِنَ النَّسَبِ، وَمَا يَتَّبَعُهُ مِنَ الرِّضَاعِ، وَالْمُحَارِمِ بِالْصُّهْرِ، كَمَا رَوَى ابْنُ

(١) الطبري: ١٢٦/٨ (٢) فتح الباري: ٩/٣٦٦ ومسلم: ٢/

١١٣١ (٣) الطبري: ١٢٩/٨ (٤) مسلم: ٨٨٩/٢ (٥)

الطبري: ١٣٢/٨ (٦) الطبري: ١٣٢/٨-١٣٤ (٧) أحمد:

٢٩٠/٤ وأبو داود: ٦٠٩/٤ وتحفة الأحوذى: ٥٩٨/٤ والنسائي

في الكبرى: ٢٩٦/٤ وابن ماجه: ٨٦٩/٢



وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِحْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَتَغَوَّا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٣﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنَيْتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مَتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْ تَبْنَى بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْنَّ يَصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٤﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي حَجَرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ [وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبِّبِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ فَجُمُوهُورُ الْأَيِّمَةِ عَلَى أَنَّ الرِّبِّيَّةَ حَرَامٌ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي حَجَرِ الرَّجُلِ، أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حَجَرِهِ، قَالُوا: وَهَذَا الْخَطَابُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْهِلُوا قَبْلَكُمْ عَلَى الْبَيْلَةِ إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْصًا﴾ [النور: ٣٣]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْكِحْ أُخْتِي بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ. وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: عَزَّةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: «أَوْ تُحْبِبِينَ ذَلِكَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيةٍ، وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرِ أُخْتِي، قَالَ: «فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لِي». قَالَتْ: فَإِنَّا نَحْدُثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: «بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «إِنِّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ رِبِّيَّةً فِي حَجَرِي مَا حَلَّتْ لِي، إِنِّهَا لَبِنْتُ أُخْتِي

أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ سَبْعُ نَسَبٍ وَسَبْعُ صِهْرٍ، وَقَرَأَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ...﴾ الْآيَةَ <sup>(١)</sup>. وَرَوَى الطَّبْرِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ سَبْعٌ، وَمِنَ الصَّهْرِ سَبْعٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ <sup>(٢)</sup> فَهِنَّ النَّسَبُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخُوتُكُمْ مِنَ الرَّضْعَةِ﴾ أَيْ كَمَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ، كَذَلِكَ يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ الَّتِي أَرْضَعْتُكَ، وَلِهَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرِّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ»، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» <sup>(٣)</sup>.

[قَدَّرَ مَا يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَمَدَّتْهَا]

وَلَا يَحْرُمُ أَقْلٌ مِنْ خَمْسٍ رَضَعَاتٍ، لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أُتْرِلَ مِنَ الْقُرْآنِ، عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يَحْرُمْنَ، ثُمَّ نُسِخَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتَوَفَّى النَّبِيُّ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ <sup>(٤)</sup>. وَفِي حَدِيثٍ سَهْلَةٌ بِنْتُ سَهْلٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهَا أَنْ تُرْضِعَ سَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ خَمْسَ رَضَعَاتٍ <sup>(٥)</sup>.

ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ الرِّضَاعَةُ فِي سِنِّ الصَّغَرِ دُونَ الْحَوْلَيْنِ. كَمَا قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿يُضَعْنَ بَنَاتُهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَتَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنكِحَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

[حُرْمَةُ أُمَّهَاتِ الزَّوْجَاتِ وَبَنَاتِهِنَّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، أَمَّا أُمُّ الْمَرْأَةِ فَإِنَّهَا تُحَرِّمُ بِمَجَرَّدِ الْعُقْدِ عَلَى ابْتِنَائِهَا، سَوَاءٌ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ، وَأَمَّا الرِّبِّيَّةُ، وَهِيَ بِنْتُ الْمَرْأَةِ، فَلَا تُحَرِّمُ بِمَجَرَّدِ الْعُقْدِ عَلَى أُمِّهَا حَتَّى يَدْخُلَ بِهَا، فَإِنْ طَلَّقَ الْأُمُّ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا جَارَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنَتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَرَبِّبَاتُكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فِي تَزْوِيجِهِنَّ، فَهَذَا خَاصٌّ بِالرَّبَائِثِ وَخَدَهِنَّ.

(١) الطبري: ١٤٢/٨ (٢) الطبري: ١٤١/٨ (٣) فتح الباري:

٤٣/٩ ومسلم: ١٠٦٨/٢ (٤) مسلم: ١٠٧٥/٢ (٥) أبو

داود: ٥٥٠/٢

سَلَفٌ... الْآيَةُ. أَيُّ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ  
مَعَ فِي التَّرْوِيجِ، وَكَذَا فِي مِلْكِ الْيَمِينِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْكُمْ  
فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ فَقَدْ عَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَفَرْنَاهُ. فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ  
لَا مَثْوِيَّةٌ فِيهَا يُسْتَقْبَلُ وَلَا اسْتِثْنَاءٌ فِيهَا سَلَفٌ، كَمَا قَالَ:

﴿لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى﴾ [الدخان:

٥٦] فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ أَبَدًا، وَقَدْ

أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ قَدِيمًا

وَحَدِيثًا عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ فِي النِّكَاحِ،

وَمَنْ أَسْلَمَ وَتَحْتَهُ أُخْتَانِ خَيْرٌ، فَيُمْسِكُ إِحْدَاهُمَا وَيُطَلِّقُ

الْأُخْرَى لَا مَحَالَةَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ

فَيْرُوزٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَسْلَمْتُ وَعِنْدِي امْرَأَتَانِ أُخْتَانِ،

فَأَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أُطَلِّقَ إِحْدَاهُمَا<sup>(٧)</sup>.

[تَحْرِيمُ الْمُحْصَنَاتِ إِلَّا إِذَا صِرَ مِلْكُ الْيَمِينِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُكُمْ﴾ أَيُّ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمُ مِنَ الْأَجْنِيَّاتِ الْمُحْصَنَاتِ،

وَهُنَّ الْمُزَوَّجَاتُ ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، يَعْنِي إِلَّا مَا

مَلَكَتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ فَإِنَّهُ يَحِلُّ لَكُمْ وَطُوهُنَّ إِذَا

اسْتَبْرَأْتُمُوهُنَّ، فَإِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ. وَرَوَى الْإِمَامُ

أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: أَصَبْنَا نِسَاءً مِنْ سَبْيِ

أَوْطَاسٍ، وَلَهُنَّ أَزْوَاجٌ، فَكَرِهْنَا أَنْ نَقَعَ عَلَيْهِنَّ وَلَهُنَّ

أَزْوَاجٌ، فَسَأَلْنَا النَّبِيَّ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ

مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فَاسْتَحْلَلْنَا بِهَا

فُرُوجَهُنَّ<sup>(٨)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(٩)</sup>، وَرَوَاهُ

النَّسَائِيُّ<sup>(١٠)</sup>، وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١١)</sup>، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي

صَحِيحِهِ<sup>(١٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ هَذَا التَّحْرِيمِ

كِتَابَ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَالزُّمُوا كِتَابَهُ، وَلَا تَخْرُجُوا عَنْ

حُدُودِهِ، وَالزُّمُوا شَرْعَهُ وَمَا فَرَضَهُ.

[إِخْلَالُ نِكَاحٍ غَيْرٍ مِمَّنْ ذُكِرْنَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أَيُّ مَا عَدَا

مِنَ الرِّضَاعَةِ، أَرَضَعْتَنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثَوْبِيَّةً، فَلَا تَرْضَعَنَّ عَلَيَّ  
بَنَاتِيكَ وَلَا أَخَوَاتِيكَ<sup>(١)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «إِنِّي لَوْ  
لَمْ أَتَزَوَّجْ أُمَّ سَلَمَةَ مَا حَلَّتْ لِي»<sup>(٢)</sup>. فَجَعَلَ الْمَنَاطَ فِي  
التَّحْرِيمِ مُجَرَّدَ تَزْوِيجِهِ أُمَّ سَلَمَةَ، وَحَكَمَ بِالتَّحْرِيمِ لِذَلِكَ.

[تَفْسِيرُ الدُّخُولِ]

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أَيُّ نَكَحْتُمُوهُنَّ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ

عَطَاءٍ: هُوَ أَنْ تُهْدَى إِلَيْهِ فَيَكْشِفَ وَيُقَشِّشَ وَيَجْلِسَ بَيْنَ

رِجْلَيْهَا. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتِ أَهْلِهَا؟ قَالَ:

هُوَ سَوَاءٌ، وَحَسْبُهُ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ابْتِنَاهُ<sup>(٤)</sup>.

[تَحْرِيمُ زَوَاجَاتِ الْأَبْنَاءِ دُونَ زَوَاجَاتِ الْمُتَبَنَّى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾

أَيُّ وَحَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ زَوَاجَاتِ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ وَلَدْتُمُوهُنَّ مِنْ

أَصْلَابِكُمْ، يَخْتَرُ بِذَلِكَ عَنِ الْأَدْعِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَبَنُّوهُنَّ

فِي الْجَاهِلِيَّةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا

زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنِيَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ

أَدْعِيَائِهِمْ... الْآيَةُ [الْأَحْزَابُ: ٣٧]، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:

سَأَلْتُ عَطَاءً عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ

أَصْلَابِكُمْ﴾. قَالَ: كُنَّا نَحَدِّثُ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

لَمَّا نَكَحَ امْرَأَةً زَيْدًا، قَالَ الْمُشْرِكُونَ بِمَكَّةَ فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾

وَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الْأَحْزَابُ: ٤]،

وَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ﴾

[الْأَحْزَابُ: ٤٠]<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ

مُحَمَّدٍ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مُبْهَمَاتٌ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾،

﴿وَأَمْهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ طَاوُسٍ وَإِبْرَاهِيمَ

وَالزُّهْرِيِّ وَمَكْحُولٍ، نَحْوَ ذَلِكَ.

(قُلْتُ) مَعْنَى مُبْهَمَاتٍ أَيُّ عَامَّةٌ فِي الْمَدْخُولِ بِهَا وَغَيْرِ

الْمَدْخُولِ، فَتَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[شُبْهَةٌ وَجَوَائِزُهَا]

(فَإِنْ قِيلَ): فَمِنْ أَيْنَ تَحْرُمُ امْرَأَةُ ابْنِهِ مِنَ الرِّضَاعَةِ كَمَا هُوَ

قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْكِيهِ إِجْمَاعًا وَلَيْسَ مِنْ صُلْبِهِ،

(فَالْجَوَابُ) مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ

النِّسَبِ»<sup>(٦)</sup>.

[تَحْرِيمُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ فِي النِّكَاحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ

(١) فتح الباري: ٦٤/٩ ومسلم: ١٠٧٣/٢ (٢) فتح الباري:

٦٢/٩ (٣) الطبري: ١٤٨/٨ (٤) الطبري: ١٤٨/٨ (٥)

الطبري: ١٤٩/٨ (٦) مسلم: ١٠٧٢/٢ (٧) أحمد: ٤/

٢٣٢ (٨) أحمد: ٧٢/٣ (٩) تحفة الأحوذى: ٢٨٢/٤ (١٠)

النسائي في الكبرى: ٣٠٨/٣ (١١) الطبري: ١٥٣/٨ (١٢)

مسلم: ١٠٨٠/٢

بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ كُفِرْتُمْ مِنْ أَهْلِيهِمْ وَآلِهِمْ  
أَجْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ  
أَحْدَانٍ فَإِنْ آتَيْتُمْ بِكِحْشَةٍ فَعَلَيْنَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ  
مِنْ الْعَدَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَمَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تُصْبِرُوا خَيْرٌ  
لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

[جَوَازُ نِكَاحِ الْإِمَاءِ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ نِكَاحُ الْحَرَائِرِ]  
يَقُولُ تَعَالَى: وَمَنْ لَمْ يَجِدْ «مِنْكُمْ طَوْلًا» أَيُّ سَعَةٍ  
وَقُدْرَةٍ «أَنْ يَسْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» أَيُّ الْحَرَائِرِ  
الْعَفَائِفِ الْمُؤْمِنَاتِ «فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ  
الْمُؤْمِنَاتِ» أَيُّ فَتَرَوُجُوا مِنَ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ اللَّاتِي  
يَمْلِكُهُنَّ الْمُؤْمِنُونَ، «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ  
بَعْضٍ» أَيُّ هُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَسَرَائِرِهَا، وَإِنَّمَا لَكُمْ  
أَيُّهَا النَّاسُ الظَّاهِرُ مِنَ الْأُمُورِ، ثُمَّ قَالَ: «فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ  
أَهْلِهِنَّ» فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السَّيِّدَ هُوَ وَلِيُّ أُمَّتِهِ، لَا تَزُوجُ إِلَّا  
بِإِذْنِهِ، وَكَذَلِكَ هُوَ وَلِيُّ عَبْدِهِ، لَيْسَ لِعَبْدِهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ  
إِذْنِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ  
مَوْلَاهُ فَهُوَ عَاهَرٌ»<sup>(٦)</sup>. أَيُّ زَانٍ. فَإِنْ كَانَ مَالِكُ الْأُمَةِ امْرَأَةً  
زَوَّجَهَا مِنْ يَزُوجُ الْمَرْأَةَ، بِإِذْنِهَا؛ لَمَّا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:  
«لَا تَزُوجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، وَلَا الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ  
الَّتِي تَزُوجُ نَفْسَهَا»<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ  
بِالْمَعْرُوفِ» أَيُّ وَادْفَعُوا مَهْرَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، أَيُّ عَنْ طِيبِ  
نَفْسٍ مِنْكُمْ، وَلَا تَبْخَسُوا مِنْهُ شَيْئًا اسْتِثْنَانَهُ بِهِنَّ لِكُرْبِهِنَّ  
إِمَاءً مَمْلُوكَاتٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مُحْصَنَاتٍ» أَيُّ عَفَائِفَ عَنِ  
الزَّانَا، لَا يَتَعَاطِيهِنَّ، وَلِهَذَا قَالَ: «غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ» وَهُنَّ  
الزَّوَانِي اللَّاتِي لَا يَمْنَعْنَ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ - وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى: «وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَحْدَانٍ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:  
الْمُسَافِحَاتُ هُنَّ الزَّوَانِي الْمُعْلَنَاتُ<sup>(٩)</sup>. يَعْنِي الزَّوَانِي  
الَّتِي لَا يَمْنَعْنَ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ وَتُتَّخِذَاتِ «أَحْدَانٍ»  
يَعْنِي أَخِلَاءَ. وَكَذَا رُويَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمُجَاهِدٍ  
وَالشَّعْبِيِّ، وَالضَّحَّاكِ، وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَيَحْيَى بْنِ أَبِي  
كَثِيرٍ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ وَالسُّدِّيَّ، قَالُوا: أَخِلَاءُ<sup>(١٠)</sup>.

مَنْ ذُكِرَ مِنَ الْمَحَارِمِ، هُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ، قَالَ عَطَاءٌ  
وغيره<sup>(١١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْ تَسْتَوُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنِينَ غَيْرَ  
مُسْفَحِينَ» أَيُّ تَحْصِلُوا بِأَمْوَالِكُمْ مِنَ الزَّوْجَاتِ إِلَى أَرْبَعِ،  
أَوْ السَّرَّارِي مَا شِئْتُمْ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ:  
«مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ  
مِنْهُنَّ فَاَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» أَيُّ كَمَا تَسْتَمْتَعُونَ بِهِنَّ  
فَاتَوْهُنَّ مَهْرَهُنَّ فِي مَقَابِلَةِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
«وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ»  
[النساء: ٢١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتٍ خُلَّةً»  
[النساء: ٤]، وَكَقَوْلِهِ: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا  
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا» [البقرة: ٢٢٩].

[بَيَانُ مَنَعَةِ النِّسَاءِ وَحُرْمَتِهَا]

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبِي بَنْ كَعْبٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ  
وَالسُّدِّيُّ يَقْرَءُونَ: (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى  
فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً)<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي  
نِكَاحِ الْمُتْنَعَةِ<sup>(١٣)</sup>. وَالْعُمْدَةُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِيرِ  
الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: قَالَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
عَنْ نِكَاحِ الْمُتْنَعَةِ، وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ يَوْمَ خَيْبَرَ<sup>(١٤)</sup>.  
وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ بْنِ مَعْبُدٍ الْجُهَنِيِّ،  
عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ:  
«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي كُنْتُ أَذُنْتُ لَكُمْ فِي الْإِسْتِمْنَاعِ مِنَ  
النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ  
عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخْلِ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ  
شَيْئًا»<sup>(١٥)</sup> وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ  
مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» مَعْنَاهُ كَقَوْلِهِ: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتٍ  
خُلَّةً»... الْآيَةُ [النساء: ٤]، أَيُّ إِذَا فَرَضْتَ لَهَا صَدَاقًا  
فَأَبْرَأْتَكَ مِنْهُ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ وَلَا عَلَيْهَا  
فِي ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ، قَالَ: زَعَمَ الْحَضَرَمِيُّ: أَنَّ  
رَجُلًا كَانُوا يَقْرِضُونَ الْمَهْرَ، ثُمَّ عَسَى أَنْ يَذْرَكَ أَحَدُهُمُ  
الْعُسْرَةَ، فَقَالَ: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَتُّيَا النَّاسَ، فِيمَا  
تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ<sup>(١٦)</sup>. يَعْنِي إِنْ وَضَعْتَ لَكَ مِنْهُ  
شَيْئًا فَهُوَ لَكَ سَائِعٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا  
حَكِيمًا» مُتَّاسِبٌ ذِكْرُ هَذَيْنِ الْوُضُفَيْنِ بَعْدَ شَرْعِ هَذِهِ  
الْمُحَرَّمَاتِ.

«وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ  
فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

(١) الطبري: ١٧٢/٨ (٢) الطبري: ١٧٦/٨-١٧٨ (٣)

الطبري: ١٧٦/٨ (٤) فتح الباري: ٥٩٠/٩ ومسلم: ١٠٢٧/٢

(٥) مسلم: ١٠٢٥/٢ (٦) الطبري: ١٨٠/٨ (٧) أبو داود:

٥٦٣/٢ (٨) ابن ماجه: ٦٠٦/١ (٩) الطبري: ١٩٣/٨

(١٠) الطبري: ١٩٤/٨

[عَلَى الْأَمَةِ إِذَا رَزَتْ نِصْفَ عَذَابِ الْحُرَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتَ فَإِنَّ أَتَيْتَ بِفَحْشَى فَعَلَيْتَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَةِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِحْصَانِ هَهُنَا التَّرْوِيجُ، لِأَنَّ سِبَاقَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَتِ الْمُؤْمِنَتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَتِ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ سِبَاقُهَا كُلُّهَا فِي الْفَتَيَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتَ﴾ أَيْ تَرَوَّجْنِ، كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَنْ تَبِعَهُ <sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَةِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يُمكنُ تَنْصِيفُهُ، وَهُوَ: الْجُلْدُ لَا الرِّجْمُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أَيْ إِنَّمَا يُبَاحُ نِكَاحُ الْإِمَاءِ بِالشُّرُوطِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْوُفُوعَ فِي الزَّانَا، وَشَقَّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَنِ الْجَمَاعِ، وَعَنَتَ بِسَبَبِ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَحِينَئِذٍ يَتَزَوَّجُ بِالْأَمَةِ، وَإِنْ تَرَكَ تَزَوُّجَهَا وَجَاهَدَ نَفْسَهُ فِي الْكُفِّ عَنِ الزَّانَا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ لِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَهَا جَاءَ أَوْلَادُهُ أَرْقَاءً لِسَيِّدِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُخَيِّرَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

ضَعِيفًا ﴿٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يَعْنِي طَرِيقَهُمْ الْحَمِيدَةَ وَاتِّبَاعَ شَرَائِعِهِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ مِنَ الْإِثْمِ وَالْمَحَارِمِ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أَيْ يُرِيدُ اتِّبَاعُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالزَّانَا أَنْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أَيْ فِي شَرَائِعِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَمَا يَقْدَرُهُ لَكُمْ، وَلِهَذَا أَبَاحَ الْإِمَاءَ بِشُرُوطِهِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ <sup>(٢)</sup>. ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ فَتَأَسَّبَهُ التَّخْفِيفُ لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ وَضَعْفِ عَزْمِهِ وَهَمَّتِهِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ طَاوُسٍ، ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٠﴾ إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿١١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿١٣﴾

ضَعِيفًا﴾ أَيْ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ وَكِيعٌ: يَذْهَبُ عَقْلُهُ عِنْدَهُنَّ.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٠﴾ إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَارًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿١١﴾

[النَّهْيُ عَنِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ]

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَأْكُلُوا أَمْوَالَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالْبَاطِلِ، أَيْ بِأَنْوَاعِ الْمَكْسَبِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ شَرْعِيَّةٍ كَأَنْوَاعِ الرِّبَا وَالْقِمَارِ، وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ صُنُوفِ الْحِيلِ، وَإِنْ ظَهَرَتْ فِي غَالِبِ الْحُكْمِ

(١) الطبري: ٢٠٢/٨ (٢) الطبري: ٢١٥/٨ (٣) الطبري: ٨/٨

بِأَصْحَابِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ «يَا عَمْرُو، صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي اخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرْدِ، فَاشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ، فَصَحَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا<sup>(٥)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٦)</sup>. وَأُورِدَ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسِمْسَمٍ فَسِمْسَمُهُ فِي يَدِهِ، يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ مُتَرَدِّدٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»، وَهَذَا الْحَدِيثُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٧)</sup>. وَعَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذَّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٨)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْعَلْ ذَلِكَ عُدُوًّا وَظُلْمًا﴾ أَيْ وَمَنْ يَتَعَاطَى مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ مُعْتَدِيًا فِيهِ ظَالِمًا فِي تَعَاتِيهِ أَيْ عَالِمًا بِتَحْرِيمِهِ مُتَجَاسِرًا عَلَى انْتِهَاكِهِ ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾... الْآيَةُ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، فَلْيَحْذَرِ مِنْهُ كُلُّ عَاقِلٍ لِيَبِىَّ مِمَّنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

### [تُكَفَّرُ الصَّغَائِرُ إِذَا اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَحْتَبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾... الْآيَةُ، أَيْ إِذَا اجْتَنَبْتُمْ كَبَائِرَ الْأَنَامِ الَّتِي نُهَيْتُمْ عَنْهَا، كَفَرْنَا عَنْكُمْ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ وَأَدْخَلْنَاكُمْ الْجَنَّةَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، فَلَنَذْكُرْ بَعْضًا مِنْهَا، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَدْرِي مَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ؟»

(١) الطبري: ٢١٧/٨ (٢) الطبري: ٢٢١/٨ (٣) فتح الباري: ٣٨٥/٤ ومسلم: ١١٦٣/٣ (٤) فتح الباري: ٣٩٠/٤ (٥) أحمد: ٢٠٣/٤، ٢٠٤ (٦) أبو داود: ٣٣٤ (٧) البخاري: ٥٧٧٨ ومسلم: ١٠٩ (٨) أحمد: ٣٣/٤

الشَّرْعِي مِمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّ مُتَعَاتِيَهَا إِنَّمَا يُرِيدُ الْحِيلَةَ عَلَى الرِّبَا، حَتَّى رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الرَّجُلِ يَشْتَرِي مِنَ الرَّجُلِ الثُّوبَ فَيَقُولُ: إِنْ رَضِيْتُهُ أَخَذْتُهُ، وَإِلَّا رَدَدْتُهُ وَرَدَدْتُ مَعَهُ دِرْهَمًا، قَالَ: هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قَالَ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَانَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَالطَّعَامُ هُوَ أَفْضَلُ أَمْوَالِنَا، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنَّا أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ، فَكَيْفَ لِلنَّاسِ؟ فَانْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿لَيْسَ عَلَى الْآعْمَى حَرَجٌ﴾... الْآيَةُ [النور: ٦١]، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَكْرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ فَرَى تِجَارَةً بِالرَّفْعِ وَبِالنَّصْبِ وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تَتَعَاطَوْا الْأَسْبَابَ الْمُحَرَّمََةَ فِي اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ، وَلَكِنْ الْمَتَاجِرَ الْمَشْرُوعَةَ الَّتِي تَكُونُ عَنْ تَرَاضٍ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَافْعَلُوهَا، وَتَسَبَّوْا بِهَا فِي تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَكْرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ بَيْعًا أَوْ عَطَاءً يُعْطِيهِ أَحَدٌ أَحَدًا<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

### [خِيَارُ الْمَجْلِسِ فِي الْبَيْعِ مِنْ تَمَامِ التَّرَاضِي فِي التِّجَارَةِ]

وَمِنْ تَمَامِ التَّرَاضِي إِثْبَاتُ خِيَارِ الْمَجْلِسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَالٌ يَتَفَرَّقَا»<sup>(٣)</sup> وَفِي لَفْظِ الْبَخَارِيِّ: «إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَالٌ يَتَفَرَّقَا»<sup>(٤)</sup>.

### [النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ وَالْوَعْدُ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيْ بِإِزْكَابِ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَتَعَاتِيِ مَعَاصِيهِ، وَأَكْلِ أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أَيْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ، عَامَ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، قَالَ: اخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ شَدِيدَةِ الْبُرْدِ، فَاشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ

النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، - أَوْ قَتْلُ النَّفْسِ، شُعْبَةُ الشَّاكِّ - وَالْيَمِينُ الْعَمُوسُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٧)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي السَّبَبِ إِلَى شَمِّ الْوَالِدَيْنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يُلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قَالُوا: وَكَيْفَ يُلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ» وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: صَحِيحٌ، وَبُتِيَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقَتَالُهُ كُفْرٌ»<sup>(٩)</sup>.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾<sup>(١٠)</sup>  
[التَّهْنِئَةُ عَنْ تَمَنِّي مَا فَضَّلَ بِهِ غَيْرُهُ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَارَسُولَ اللَّهِ، يَغْزَوُ الرِّجَالُ وَلَا نَغْزُو، وَلَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾<sup>(١١)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(١٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أَيُّ كُلِّ لَهُ جِزَاءٌ عَلَى عَمَلِهِ بِحَسَبِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ فِي الْمِيرَاثِ، أَيُّ كُلِّ يَرِثُ بِحَسَبِهِ، رَوَاهُ الْوَالِئِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيُّ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَحْتُومٌ، وَالتَّمَنِّي لَا يُجْعِلُ شَيْئًا، وَلَكِنْ سُلُوبِي مِنْ فَضْلِي أُعْطِيتُمْ، فَإِنِّي كَرِيمٌ وَهَابٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أَيُّ هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الدُّنْيَا فَيُعْطِيهِ مِنْهَا، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ فَيَفْقِرُهُ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْآخِرَةَ فَيَقْبِضُ لِأَعْمَالِهَا، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَذْلَانَ فَيَخْذُلُهُ عَنْ تَعَاطِيهِ الْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ،

(١) أحمد: ٤٣٩/٥ (٢) فتح الباري: ٤٦٢/٥ ومسلم: ١/٩٢ (٣) أحمد: ١٣١/٣ (٤) فتح الباري: ٤١٩/١٠ ومسلم: ٩١/١ (٥) فتح الباري: ٣٠٩/٥ ومسلم: ٩١/١ (٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩٠/١ (٧) أحمد: ٢٠١/٢ والبخاري: ٦٦٧٥ وتحفة الأحوذني: ٣٠٢١ والنسائي: ٦٣/٨ (٨) مسلم: ٩٠ (٩) البخاري: ٥٩٧٣ ومسلم: ٦٤ (١٠) أحمد: ٣٢٢/٦ (١١) تحفة الأحوذني: ٣٧٧، ٣٧٥/٨

قُلْتُ: هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ آبَاكُمْ، قَالَ: «لَكِنِّي أَذْهَبُ مَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، لَا يَتَطَهَّرُ الرَّجُلُ فَيُحَسِّنُ طَهْرَهُ، ثُمَّ يَأْتِي الْجُمُعَةَ فَيَنْصِبُ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ صَلَاتَهُ إِلَّا كَانَ كَفَّارَةً لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، مَا اجْتَنَبْتَ الْمَقْتَلَةَ»<sup>(١٣)</sup>. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ نَحْوَهُ.

### [السَّبَبُ الْمَوْبِقَاتُ]

(تَفْسِيرُ هَذِهِ السَّبَبِ) وَذَلِكَ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبَبَ الْمَوْبِقَاتِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»<sup>(١٤)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ، فِيهِ ذِكْرُ شَهَادَةِ الزُّورِ): رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكَبَائِرَ، أَوْ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ، فَقَالَ: «الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وَقَالَ: «أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قَالَ: قَوْلُ الزُّورِ - أَوْ شَهَادَةُ الزُّورِ -» قَالَ شُعْبَةُ: أَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ: «شَهَادَةُ الزُّورِ»<sup>(١٥)</sup>. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِهِ<sup>(١٦)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَارَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَكِنًا، فَجَلَسَ فَقَالَ: «أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ» فَمَارَالَ يَكْرَرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ<sup>(١٧)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ فِيهِ ذِكْرُ قَتْلِ الْوَلَدِ) وَهُوَ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ - وَفِي رِوَايَةٍ - أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ»<sup>(١٨)</sup> ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

(حَدِيثٌ آخَرُ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَفِيهِ ذِكْرُ الْيَمِينِ الْعَمُوسِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيحَتُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيبٍ وَغَيْرُهُمْ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى﴾ أَيَّ وَرَثَةٍ (١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ: أَيُّ عَصَبَةٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَرَبُ تَسْمِي ابْنَ الْعَمِّ مَوْلًى.

قَالَ: وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾، مِنْ تَرِكَةِ وَالِدَيْهِ وَأَقْرَبِيهِ مِنَ الْمِيرَاثِ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَلِكُلِّكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - جَعَلْنَا عَصَبَةً يَرِثُونَهُ مِمَّا تَرَكَ وَالِدَاهُ وَأَقْرَبُوهُ مِنْ مِيرَاثِهِمْ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيحَتُهُمْ﴾ أَيُّ وَالَّذِينَ تَحَالَفْتُمْ بِالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ أَنْتُمْ وَهُمْ، فَاتُّوهُمْ نَصِيحَتُهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ، كَمَا وَعَدْتُمُوهُمْ فِي الْإِيمَانِ الْمُعْلَظَةِ، إِنَّ اللَّهَ شَاهِدٌ بَيْنَكُمْ فِي تِلْكَ الْعُهُودِ وَالْمُعَاقِدَاتِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأُمِرُوا أَنْ يُوفُوا لِمَنْ عَاقَدُوا، وَلَا يُنْشِئُوا بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مُعَاقِدَةً. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى﴾ قَالَ: وَرَثَتُهُ، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرِيُّ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ، لِأَخْوَةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى﴾ نُسِخَتْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيحَتُهُمْ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالرَّقَادَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ، وَيُوصَى لَهُ (٢).

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخْتَفُونَ شُؤْرَهُمْ﴾ فَيُطَوِّهُمْ وَهَاجِرُهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ إِنْ أَنْفَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (٣٤)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أَيُّ الرَّجُلُ قِيمٌ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَهُوَ رَئِيسُهَا وَكَبِيرُهَا وَالْحَاكِمُ عَلَيْهَا وَمُؤَدِّبُهَا إِذَا اغْوَجَتْ، ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أَيُّ لِأَنَّ الرِّجَالَ أَفْضَلُ مِنَ النِّسَاءِ، وَالرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ. وَلِهَذَا كَانَتِ النُّبُوَّةُ مُخْتَصَّةً بِالرِّجَالِ، وَكَذَلِكَ

الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ لِقَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يُفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣). وَكَذَا مَنْصِبُ الْقَضَاءِ وَغَيْرُ ذَلِكَ، «وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» أَيُّ مِنَ الْمُهْرِ وَالنِّقَاقَاتِ وَالْكَلْفِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَهُنَّ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَالرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهِ، وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَيْهَا وَالْإِفْضَالُ، فَتَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ قِيمًا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾... الْآيَةُ [البقرة: ٢٢٨].

### [عَلَامَةُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ أَيُّ مِنَ النِّسَاءِ «فَتَنَبَّهْتُ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي: مُطِيعَاتٍ لِأَزْوَاجِهِنَّ (٤). «حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ» وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: أَيُّ تَحْفَظُ زَوْجَهَا فِي غَيْبِهِ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أَيُّ الْمَحْفُوظُ مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ (٥). رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ النِّسَاءِ امْرَأَةٌ إِذَا تَنَظَّرَتْ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَبَتْ عَنْهَا حَفِظْتَكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكَ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إِلَى آخِرِهَا (٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ الْأَبْوَابِ شِئْتَ» (٧).

### [النُّشُورُ وَعِلَاجُهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ شُؤْرَهُمْ﴾ أَيُّ وَالنِّسَاءِ اللَّاتِي تَتَخَوَّفُونَ أَنْ يَنْشُرْنَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَالنُّشُورُ هُوَ الْإِرْتِفَاعُ، فَالْمَرْأَةُ النَّاشِزُ هِيَ الْمُرتَفِعَةُ عَلَى زَوْجِهَا، التَّارِكَةُ لِأَمْرِهِ، الْمُعْرِضَةُ عَنْهُ، الْمُبْعِضَةُ لَهُ، فَتَمَّتْ ظَهَرَ لَهُ مِنْهَا أَمَارَاتُ النُّشُورِ فَلْيَعِظْهَا وَلْيَخَوْفْهَا عِقَابَ اللَّهِ فِي

(١) الطبري: ٢٧١، ٢٧٠/٨ (٢) فتح الباري: ٩٦/٨ (٣) فتح الباري: ٧٣٢/٧ (٤) الطبري: ٢٩٤/٨ (٥) الطبري: ٨/٢٩٥ (٦) الطبري: ٢٩٥/٨ إسناده ضعيف: فيه أبو معشر نجيع ابن عبد الرحمن المدني مولى بني هاشم قال البخاري: منكر الحديث [التاريخ الكبير ١١٤/٨] وكان يحدث عن نافع والمقبري بأحاديث منكورة وله طريق آخر عند أحمد ٥١/٢ والسنن الكبرى للنسائي (٨٩٦١) والمستدرک للحاكم ٣/١٦٢، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. (٧) أحمد: ١٩١/١ قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده منقطع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٤

سُورَةُ النِّسَاءِ

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ  
عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَصْرَبَتْ  
قَلِيلٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ  
شُرُوهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ  
وَأَصْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا  
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٢٥﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ  
بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ  
يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا  
﴿٢٥﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ  
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ  
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ  
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ  
كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ  
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ  
مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٢٧﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ  
أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا  
حَكِيمًا﴾ ﴿٢٥﴾

[تَحْكِيمُ حَكَمَيْنِ عِنْدَ خَوْفِ الشَّقَاقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ]  
ذَكَرَ الْحَالِ الْأَوَّلَ وَهُوَ إِذَا كَانَ التُّقُورُ وَالتُّشُورُ مِنْ  
الزَّوْجَةِ. ثُمَّ ذَكَرَ الْحَالِ الثَّانِيَّ وَهُوَ إِذَا كَانَ التُّقُورُ مِنْ  
الزَّوْجَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا  
حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وَقَالَ الْفَقْهَاءُ: إِذَا وَقَعَ  
الشَّقَاقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، أَسْكَنَهُمَا الْحَاكِمُ إِلَى جَنْبِ ثِقَّةٍ يَنْظُرُ  
فِي أَمْرِهِمَا، وَيَمْنَعُ الظَّالِمَ مِنْهُمَا مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنْ تَقَامَ  
أَمْرُهُمَا وَطَالَتْ حُضُورَتُهُمَا، بَعَثَ الْحَاكِمُ ثِقَّةً مِنْ أَهْلِ

عِصْيَانِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ حَقَّ الزَّوْجِ عَلَيْهَا وَطَاعَتَهُ،  
وَحَرَّمَ عَلَيْهَا مَعْصِيَتَهُ، لِمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْفَضْلِ  
وَالْإِفْضَالِ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا  
أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا  
مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَعَا  
الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ  
حَتَّى تُصْبِحَ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَلَفْظُهُ: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ  
هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»<sup>(٣)</sup>.  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ شُرُوهُمْ فَعِظُوهُمْ﴾.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْهَجْرُ هُوَ أَنْ لَا يُجَامِعَهَا. وَيُصَاحِبُهَا  
عَلَى فِرَاشِهَا وَيُؤَلِّقُهَا ظَهْرَهُ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ.  
وَرَادَ آخَرُونَ مِنْهُمْ السَّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ وَعِكْرِمَةُ وَابْنُ  
عَبَّاسٍ فِي رَوَايَةٍ: وَلَا يُكَلِّمَهَا مَعَ ذَلِكَ وَلَا يُحْدِثُهَا<sup>(٥)</sup>.  
وَفِي الشُّنَنِ وَالْمُسْنَدِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَنِيْدَةَ الشُّشَيْرِيِّ أَنَّهُ  
قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ امْرَأَةٍ أَحَدِنَا؟ قَالَ: «أَنْ  
تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تُضْرِبَ  
الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ:  
﴿وَأَصْرِبُوهُمْ﴾، أَيُّ إِذَا لَمْ يَزِدْغَنَّ بِالْمَوْعِظَةِ وَلَا  
بِالْهَجْرَانِ، فَلَكُمْ أَنْ تَضْرِبُوهُمْ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ، كَمَا  
ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ  
فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ  
عَوَانٍ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوْطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا  
تَكْرَهُنَّ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ،  
وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ  
ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ<sup>(٨)</sup>. قَالَ  
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْنِي غَيْرَ مُؤَثِّرٍ<sup>(٩)</sup>.

[لَا سَبِيلَ عَلَى الْمَرْأَةِ إِذَا أَطَاعَتْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ  
سَبِيلًا﴾ أَيُّ إِذَا أَطَاعَتِ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي جَمِيعِ مَا  
يُرِيدُ مِنْهَا مِمَّا أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْهَا، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا  
بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَهُ ضَرْبُهَا وَلَا هَجْرَانُهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ  
اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ تَهْدِيدٌ لِلرِّجَالِ إِذَا بَغَوْا عَلَى  
النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، فَإِنَّ اللَّهَ الْعَلِيمَ الْكَبِيرَ وَلِيَهُنَّ،  
وَهُوَ يَنْتَقِمُ مِمَّنْ ظَلَمَهُنَّ وَبَغَى عَلَيْهِنَّ.

(١) تحفة الأحوذى: ٣٢٣/٤ (٢) فتح الباري: ٢٠٥/٩ (٣)  
مسلم: ١٠٥٩/٢ (٤) الطبري: ٣٠٢/٨ (٥) الطبري: ٨/  
٣٠٢-٣٠٤ (٦) أبو داود: ٦٠٦/٢ والنسائي في الكبرى: ٥/  
٣٧٥ وابن ماجه: ٥٩٣/١ وأحمد: ٣/٥ (٧) مسلم: ٨٨٦/٨  
(٨) الطبري: ٣١٤/٨ (٩) الطبري: ٣١٦/٨



[١٤]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَفَضَىٰ رُبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ثُمَّ عَطَفَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقُرَابَاتِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمُسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّجْمِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ»<sup>(٣)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا مَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ، وَمَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْحَنُوءِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وَهُمْ الْمَحَاجِرُ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَقُومُ بِكَفَايَتِهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمُسَاعَدَتِهِمْ بِمَا تَنَبَّهَ بِهِ كِفَايَتُهُمْ، وَتَرَوُلُ بِهِ ضُرُورَتُهُمْ، وَسَيَّأَتِي الْكَلَامُ عَلَى الْفَقِيرِ وَالْمُسْكِينِ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ.

### [حَقُّ الْجَارِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾، يَعْنِي الَّذِي يَتَنَكَّبُ وَيَتَنَبَّهُ قَرَابَةً<sup>(٤)</sup>. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الَّذِي لَيْسَ يَتَنَكَّبُ وَيَتَنَبَّهُ قَرَابَةً<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَمَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ وَالضَّحَّاكِ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ وَقَتَادَةَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يَعْنِي الرَّفِيقَ فِي السَّفَرِ<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالْوَصَايَا بِالْجَارِ، فَتَذَكَّرْ بَعْضًا مِنْهَا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

(الْحَدِيثُ الْأَوَّلُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَارَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»<sup>(٨)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٩)</sup>.

(الْحَدِيثُ الثَّانِي) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَارَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ نَحْوَهُ ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ<sup>(١١)</sup>.

(الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ) رَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

الْمَرْأَةِ، وَثِقَةً مِنْ قَوْمِ الرَّجُلِ، لِيَجْتَمِعَا، فَيَنْظُرَا فِي أَمْرِهِمَا، وَيَقْعَلَا مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ مِمَّا يَرَيَانِهِ مِنَ التَّفْرِيقِ أَوْ التَّوْفِيقِ، وَتَشَوُّفِ الشَّارِعِ إِلَى التَّوْفِيقِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثُوا رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَهْلِ الرَّجُلِ، وَرَجُلًا مِثْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ، فَيَنْظُرَا إِلَيْهِمَا الْمُسِيءَ، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ هُوَ الْمُسِيءَ حَجَبُوا عَنْهُ امْرَأَتَهُ، وَفَضَرُوهُ عَلَى النَّفَقَةِ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ هِيَ الْمُسِيئَةَ، فَضَرَوْهَا عَلَى زَوْجِهَا، وَمَنْعَوْهَا النَّفَقَةَ، فَإِنْ اجْتَمَعَ رَأْيُهُمَا عَلَى أَنْ يُفَرَّقَا أَوْ يَجْمَعَا، فَأَمَرُهُمَا بِجَائِزٍ، فَإِنْ رَأَيَا أَنْ يَجْمَعَا فَرَضِي أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ وَكَرِهَ ذَلِكَ الْآخَرُ، ثُمَّ مَاتَ أَحَدُهُمَا، فَإِنَّ الَّذِي رَضِيَ يَرِثُ الَّذِي كَرِهَ وَلَا يَرِثُ الْكَارِهَ الرَّاضِي<sup>(١٢)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ. قَالَ الشُّنَّعُ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْحَكَمَيْنِ إِذَا اخْتَلَفَ قَوْلُهُمَا فَلَا عِبْرَةَ بِقَوْلِ الْآخِرِ. وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ قَوْلَهُمَا نَافِذٌ فِي الْجَمْعِ وَإِنْ لَمْ يُوَكِّلْهُمَا الزَّوْجَانِ. وَاخْتَلَفُوا هَلْ يَنْفَذُ قَوْلُهُمَا فِي التَّفْرِيقِ، ثُمَّ حَكَى عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ يَنْفَذُ قَوْلُهُمَا فِيهَا أَيْضًا مِنْ غَيْرِ تَوَكُّلٍ.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَيَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

[الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ

وغيرهم]

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ الْأَنَابَاتِ وَالْحَالَاتِ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ مِنْهُمْ أَنْ يُوحِّدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»<sup>(١٣)</sup> ثُمَّ أَوْصَى بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَهُمَا سَبَبًا لِخُرُوجِكَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الوجودِ وَكَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ عِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ [لقمان:

(١) الطبري: ٣٢٥/٨ (٢) فتح الباري: ٣٥٩/١٣ (٣) تحفة الأحوذ: ٣٢٤/٣ (٤) الطبري: ٣٣٥/٨ (٥) الطبري: ٨/٣٣٨ (٦) الطبري: ٣٣٦، ٣٣٥/٨ (٧) الطبري: ٨/٣٤١ (٨) أحمد: ٨٥/٢ (٩) فتح الباري: ٤٥٥/١٠ ومسلم: ٢٠٢٥/٤ (١٠) أحمد: ١٦٠/٢ (١١) أبو داود: ٣٥٧/٥ وتحفة الأحوذ: ٧٣، ٧٢/٦

النَّسَائِي<sup>(٨)</sup>، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ لِقَهْرْمَانَ لَهُ: هَلْ أُعْطِيتَ الرَّفِيقَ قُوتَهُمْ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَأَنْطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْسِبَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُمْ»<sup>(٩)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ، وَلَا يَكْلَفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُطِيقُ»<sup>(١٠)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيَنْوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيُّ حَرِّهِ وَعِلَاجُهُ»<sup>(١١)</sup>. وَلَفْظُهُ لِلْبَخَارِيِّ.

[إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، أَيْ مُخْتَالًا فِي نَفْسِهِ، مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا فَخُورًا عَلَى النَّاسِ، يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ قَلِيلٌ، وَعِنْدَ النَّاسِ بَغِيضٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ يَغْنِي مُتَكَبِّرًا ﴿فَخُورًا﴾ يَغْنِي يَعُدُّ مَا أُعْطِيَ، وَهُوَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى<sup>(١٢)</sup>. يَغْنِي يَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ نِعَمِهِ، وَهُوَ قَلِيلُ الشُّكْرِ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَاقِدٍ أَبِي رَجَاءٍ الْهَرَوِيُّ، قَالَ: لَا تَجِدُ سَيِّئَ الْمَلَكَهَ إِلَّا وَجَدْتُهُ مُخْتَالًا فَخُورًا، وَتَلَا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ... الْآيَةَ، وَلَا عَاقًا إِلَّا وَجَدْتُهُ جَبَّارًا شَقِيًّا، وَتَلَا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ [بَلْهَجِيمَ]، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: «إِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ»<sup>(١٣)</sup>.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا

عَمَرُوا بَيْنَ الْعَاصِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِحَارِهِ»<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(١٥)</sup>.

(الْحَدِيثُ الرَّابِعُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «مَا تَقُولُونَ فِي الزَّانَا؟» قَالُوا: حَرَامٌ، حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرٍ نِسْوَةٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةٍ جَارِهِ»، قَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي السَّرْقَةِ؟» قَالُوا: حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهِيَ حَرَامٌ، قَالَ: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ آيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ»<sup>(١٦)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»<sup>(١٧)</sup>.

(الْحَدِيثُ الْخَامِسُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: إِنْ لِي جَارَتَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أَهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِيهِمَا مِنْكَ بَابًا»، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(١٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ قَالَا: هِيَ الْمَرْأَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ: هُوَ الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الرَّفِيقُ الصَّالِحُ. وَأَمَّا ﴿ابْنُ السَّبِيلِ﴾ فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ: هُوَ الضَّيْفُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَالْحَسَنُ، وَالضُّحَّاكُ وَمُقَاتِلٌ: هُوَ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْكَ مُجْتَازًا فِي السَّفَرِ وَهَذَا أَظْهَرُ. وَبِاللَّهِ التَّوَكُّلُ.

[الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَمْلُوكِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وَصِيَّةٌ بِالْأَرْقَاءِ، لِأَنَّ الرَّفِيقَ ضَعِيفَ الْحِيلَةِ، أَسِيرٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَلِهَذَا ثَبِتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ بُوصِي أُمَّتُهُ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ، يَقُولُ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فَجَعَلَ يَرُدُّهَا حَتَّى مَا يَقْبِضُ بِهَا لِسَانَهُ<sup>(١٩)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّادِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ»<sup>(٢٠)</sup> وَرَوَاهُ

(١) أحمد: ١٦٧/٢ (٢) تحفة الأحوذى: ٧٥/٦ (٣) أحمد:

٨/٦ (٤) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩٠/١ (٥) أحمد:

١٧٥/٦ والبخاري: ٦٠٢٠ (٦) النسائي في الكبرى: ٢٥٨/٤

فيه تدليس قتادة ولم يصرح (٧) أحمد: ١٣١/٤ (٨) النسائي

في الكبرى: ٣٧٦/٥ (٩) مسلم: ٦٩٢/٢ (١٠) مسلم: ٣/

١٢٨٤ (١١) فتح الباري: ٢١٤/٥ ومسلم: ١٢٨٤/٣ (١٢)

الطبري: ٣٥٠/٨ (١٣) أحمد: ٦٤/٥ ابن أبي حاتم (٥٣١٤)

٩٥١/٣

سُورَةُ النِّسَاءِ

٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ  
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا  
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ  
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ  
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ  
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ  
كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ  
اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ  
وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي  
سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرِحَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ  
أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَايَةِ أَوْ لَمْ يَمْسَسْهُ الْبُيُوتُ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً  
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ  
اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ  
الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

وَالْغَايَةِ، وَالْمُنْفِقِ الْمُرَّاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ: «يَقُولُ صَاحِبُ  
الْمَالِ: مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ فِي  
سَبِيلِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ: جَوَادٌ،  
فَقَدْ قِيلَ: أَيْ فَقَدْ أَخَذْتَ جَزَاءَكَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي  
أَرَدْتُ بِفِعْلِكَ»<sup>(٤)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا  
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ»... الآية، أَيْ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ  
هَذَا الْقَبِيحَ، وَعُدُولِهِمْ عَنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ عَلَى وَجْهِهَا  
الشَّيْطَانُ، فَإِنَّهُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، وَقَارَنَهُمْ، فَحَسَنَ  
لَهُمُ الْقَبَائِحَ: «وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا»  
[النساء: ٣٨].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ» الآية، أَيْ وَآيُ شَيْءٍ يَضُرُّهُمْ لَوْ  
آمَنُوا بِاللَّهِ وَسَلَكُوا الطَّرِيقَ الْحَمِيدَةَ، وَعَدَلُوا عَنِ الرِّيَاءِ إِلَى

ءَاتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾  
وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا  
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا  
عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ  
اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

[دَمُّ الْبُخْلِ]

يَقُولُ تَعَالَى دَامًا الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ أَنْ يُنْفِقُوهَا  
فِيمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى  
الْأَقَارِبِ، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى،  
وَالْجَارِ الْجُنُبِ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَا  
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الْأَرْقَاءِ، وَلَا يَذْفَعُونَ حَقَّ اللَّهِ فِيهَا،  
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ أَيْضًا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
«وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ، فَإِنَّهُ  
أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَلْبُكُمْ، أَمَرَهُمُ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَّعُوا، وَأَمَرَهُمُ  
بِالْفَجْرِ فَقَحَّرُوا»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»  
فَالْبُخِيلُ جَحُودٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، لَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ وَلَا تَبِينُ، لَا  
فِي مَأْكَلِهِ وَلَا فِي مَلْبَسِهِ وَلَا فِي إِعْطَائِهِ وَبَذْلِهِ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ»<sup>(٣)</sup> وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ  
أَيُّ بِحَالِهِ وَسَمَائِلِهِ «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» [العاديات:  
٦-٨] وَقَالَ هَهُنَا: «وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»  
وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: «وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا»  
وَالْكَفَرُ هُوَ السُّتْرُ وَالتَّعَطُّيَةُ، فَالْبُخِيلُ يَسْتُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ  
وَيَكْتُمُهَا وَيَجْحَدُهَا، فَهُوَ كَافِرٌ لِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَفِي  
الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ  
أَثَرُهَا عَلَيْهِ»<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى  
بُخْلِ الْيَهُودِ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ الَّذِي عِنْدَهُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ  
وَكِتْمَانِهِمْ ذَلِكَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ مُحْتَمَلَةٌ لِذَلِكَ،  
وَالظَّاهِرُ أَنَّ السِّيَاقَ فِي الْبُخْلِ بِالْمَالِ، وَإِنْ كَانَ الْبُخْلُ  
بِالْعِلْمِ دَاخِلًا فِي ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى، فَإِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ  
فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى الْأَقَارِبِ وَالضَّعَفَاءِ، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي  
بَعْدَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: «وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ»  
فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمُؤْمِسِّكِينَ الْمَذْمُومِينَ وَهُمْ الْبُخْلَاءُ، ثُمَّ ذَكَرَ  
الْبَازِلِينَ الْمُرَائِينَ الَّذِينَ يَقْصِدُونَ بِإِعْطَائِهِمُ السَّمْعَةَ وَأَنْ  
يُمْدَحُوا بِالكَرَمِ، وَلَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ. وَفِي حَدِيثِ  
الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ تُسَجَّرُ بِهِمُ النَّارُ وَهُمْ: الْعَالِمُ،

(١) الأدب المفرد: ٨٣ (٢) أبو داود: ٣٢٤/٢ (٣) الطبراني  
الكبير: ١٣٥/١٨ الصحيحة ١٣٢٠، ١٢٩٠/٣. (٤) النسائي:

الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ يَكُونُ هَذَا خَاصًّا بِأَبِي طَالِبٍ مِنْ دُونِ الْكُفَّارِ بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يَنَابُ عَلَيْهِ الرِّزْقُ فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ»<sup>(٣)</sup>.

### [مَعْنَى الْأَجْرِ الْعَظِيمِ]

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَعِزْرَةُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: «وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا»: يَعْنِي الْجَنَّةَ، نَسَأَلَ اللَّهُ رِضَاهُ وَالْجَنَّةَ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، قَالَ: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ مُجَالَسَةً مِنِّي لِأَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَدِمَ قَبْلِي حَاجًّا وَقَدِمْتُ بَعْدَهُ، فَإِذَا أَهْلُ الْبَصْرَةِ يَأْتِرُونَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ الْحَسَنَةَ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ» فَقُلْتُ: وَيَحْكُمُ مَا كَانَ أَحَدٌ أَكْثَرَ مُجَالَسَةً مِنِّي لِأَبِي هُرَيْرَةَ، وَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَلْحَقَهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ انْطَلَقَ حَاجًّا، فَأَنْطَلَقْتُ إِلَى الْحَجِّ أَنْ أَلْقَاهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، سَمِعْتُ إِخْوَانِي بِالْبَصْرَةِ يُزْعَمُونَ أَنَّكَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ» فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاللَّهِ بَلْ سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفِي أَلْفِ حَسَنَةٍ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: «فَمَا مَتَّعَ الْحِكْمَةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» [التوبة: ٣٨].

[شَهَادَةُ نَبِيَّنَا ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَمْنِي الْكُفَّارِ

### الْمَوْتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَّةِ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْأَمْرُ وَالْحَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَجِيءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشَّهَادَةِ»... [الزمر: ٦٩]؛ وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ

الْإِخْلَاصِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَجَاءِ مَوْعُودِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لِمَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا، وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا» أَيُّ وَهُوَ عَلِيمٌ بِشَأْنِهِمُ الصَّالِحَةِ وَالْفَاسِدَةِ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّوْفِيقَ مِنْهُمْ فَيُوفِّقُهُ، وَبِلَهُمُ رُشْدَهُ، وَيَقِيضُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ يَرْضَى بِهِ عَنْهُ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخُذْلَانَ وَالطَّرْدَ عَنِ الْجَنَابِ الْأَعْظَمِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَنْ طُرِدَ عَنْ بَابِهِ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا»<sup>(٤)</sup> فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا<sup>(٥)</sup> يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ سَوَى بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ

### حَدِيثًا<sup>(٦)</sup>]

### [لَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ: لَا يَظْلِمُ عَدَدًا مِنْ عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، بَلْ يُؤْفِقُهَا لَهُ، وَيُضَاعِفُهَا لَهُ إِنْ كَانَتْ حَسَنَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ...» [الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ لُقْمَانَ أَنَّهُ قَالَ: «يَبْنَئُ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ»... [الآية: لقمان: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: «يَوْمَئِذٍ يُصَدِّرُ النَّاسَ أَشْنَانًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ»<sup>(٧)</sup> فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ<sup>(٨)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٩)</sup> [الزلزلة: ٦-٨] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ، وَفِيهِ: «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ» وَفِي لَفْظٍ: «أَذْنَى أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو سَعِيدٍ: إِفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ»... [الآية: ١].

### [هَلْ يُخَفِّفُ الْعَذَابَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ]

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: «وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا» فَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيُخَفَّفُ عَنْهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ أَبَدًا. وَقَدْ اسْتَدِلَّ لَهُ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ الْعَبَّاسَ قَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَمَكَ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَنْصُرُكَ، فَهَلْ نَفَعْتُهُ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ هُوَ فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ

(١) فتح الباري: ٤١٣/١٣ ومسلم: ١٦٧/١ (٢) البخاري:

٣٨٨٣ و٦٢٠٨ ومسلم: ٢٠٩ (٣) مسند الطيالسي: ٤٧ ومسلم:

أَنْفُسِهِمْ... الآية [النحل: ٨٩] وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْرَأْ عَلَيَّ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، افْرَأْ عَلَيَّ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» فَقَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَوْمَ يُدْعَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا أَيُّ لَوْ أَنْشَقْتُ وَبَلَعْتُهُمْ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ أَهْوَالِ الْمُؤَقِفِ وَمَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْفُضِيحَةِ وَالتَّوْبِيخِ، كَقَوْلِهِ: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ»... الآية [النبا: ٤٠]، وَقَوْلُهُ: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَغْتَرِفُونَ بِجَمِيعِ مَا فَعَلُوهُ، وَلَا يَكْتُمُونَ مِنْهُ شَيْئًا. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: أَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: مَا هُوَ؟ أَشْكُ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: لَيْسَ هُوَ بِالشُّكِّ، وَلَكِنْ اخْتِلَافٌ قَالَ: فَهَاتِ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: أَسْمَعُ اللَّهَ يَقُولُ: «ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣] وَقَالَ: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» فَقَدْ كَتَمُوا. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَّا قَوْلُهُ: «ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣] فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَلَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَلَا يَغْفِرُ شِرْكًَا جَحَدَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالُوا: «وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣] رَجَاءً أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، فَحَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتَكَلَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ: «يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا»<sup>(٢)</sup>.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْهَقًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا» ﴿٢٣﴾

فُرْبَانٍ وَمَحَالَّهَا - الَّتِي هِيَ الْمَسَاجِدُ - لِلْجُنُبِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَازًا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ مِنْ غَيْرِ مُكْثٍ، وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ»... الآية [البقرة: ٢١٩] فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَاهَا عَلَى عُمَرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا. فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَلَاهَا عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا. فَكَانُوا لَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْكَامُ يَجِسُّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ» [المائدة: ٩٠، ٩١] فَقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا<sup>(٣)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ: فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّسَاءِ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» فَكَانَ مُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَتِ الصَّلَاةُ يُنَادِي: أَنْ لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سُكَرَانُ<sup>(٤)</sup>. لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ. وَذَكَرُوا فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ سَعِيدٍ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ، صَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا فَدَعَا أَنَسًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَأَنَسًا مِنْ الْأَنْصَارِ، فَأَكَلْنَا وَشَرَبْنَا حَتَّى سَكَرْنَا، ثُمَّ افْتَحَرْنَا، فَرَفَعَ رَجُلٌ لَحْيَ بَعِيرٍ فَفَزَزَ بِهِ أَنْفَ سَعِيدٍ، فَكَانَ سَعِيدٌ مَفْرُورَ الْأَنْفِ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، فَتَزَلَّتِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى»<sup>(٥)</sup>. الآية، وَالْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ عِنْدَ مُسْلِمٍ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ<sup>(٧)</sup>.

(سَبَبُ آخَرٍ) رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ، فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَّمُوا فَلَنَّا، قَالَ: فَقَرَأَ: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَتَحَنُّنٌ تَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ»<sup>(٨)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَكَذَا رَوَاهُ

النَّهْثِيُّ عَنْ اقْتِرَابِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ وَالْجَنَابَةِ [يُنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ فِعْلِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ الْمُصَلِّي مَا يَقُولُ، وَعَنْ

(١) فتح الباري: ٧١٢/٨ (٢) عبد الرزاق: ١٦٠/١ (٣) أحمد: ٥٣/١ (٤) أبو داود: ٨٠/٤ (٥) مسند الطيالسي: ٢٨ (٦) مسلم: ١٨٧٨/٤ (٧) أبو داود: ١٧٧٣ وتحفة الأحوذني: ٤٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦ (٨) الطبري: ٣٧٨/٨

وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

### [بَيَانُ التَّيْمُمِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَاطِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أَمَّا الْمَرَضُ الْمُسَبِّحُ لِلتَّيْمُمِ، فَهُوَ الَّذِي يُخَافُ مَعَهُ مِنَ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ، فَوَاتَ غُضْبُ أَوْ شَيْئُهُ أَوْ تَطْوِيلُ الْبُرَّةِ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ جَوَّزَ التَّيْمُمَ بِمَجَرَّدِ الْمَرَضِ، لِعُمُومِ الْآيَةِ. وَالسَّفَرُ مَعْرُوفٌ، وَلَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الطَّوِيلِ وَالْقَصِيرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْمَاطِطِ﴾ الْغَائِطُ: هُوَ الْمَكَانُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ، كُنِيَ بِذَلِكَ عَنِ التَّغَوُّطِ، وَهُوَ الْحَدَثُ الْأَصْغَرُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فَقَرِئَ (لَمَسْتُمْ) وَ(لَا مَسْتُمْ)، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قَالَ: الْجَمَاعُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ وَالْحَسَنِ وَعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيِّ وَقَتَادَةَ وَمُقَاتِلَ بْنَ حَبَّانٍ، نَحْوُ ذَلِكَ<sup>(١٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا مُعْتَزِلًا لَمْ يُصَلِّ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ، أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ؟» قَالَ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَلَكِنْ أَصَابَنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ»<sup>(١٤)</sup>. وَالتَّيْمُمُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْقَصْدُ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَيَمَّمَكَ اللَّهُ بِحِفْظِهِ، أَيْ قَصَدَكَ. وَالصَّعِيدُ هُوَ التُّرَابُ فَقَطْ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠] أَيْ تُرَابًا أَمْلَسَ طَيِّبًا، وَلَمَّا ثَبَّتَ فِي

التُّرْمُذِيِّ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هَذَا أَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي حَدِّ السَّكَرَانِ أَنَّهُ الَّذِي لَا يَذَرِي مَا يَقُولُ، فَإِنَّ الْمَخْمُورَ فِيهِ تَخْلِيطٌ فِي الْفِرَاقَةِ وَعَدَمٌ تَذَبُّرُهُ وَخُشُوعِهِ فِيهَا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَنْصَرِفْ فَلْيَنْمَ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ»<sup>(٢)</sup>. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ هُوَ وَالسَّائِي<sup>(٤)</sup>. وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ: «فَلَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَنْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ قَالَ: لَا تَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ وَأَنْتُمْ جُنُبٌ، إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ، قَالَ: تَمُرُّ بِهِ مَرًّا، وَلَا تَحِلُّسٍ<sup>(٦)</sup>. ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَأَبِي الضُّحَى، وَعَطَاءٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَمَسْرُوقٍ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَالْحَكَمُ بْنُ عُثَيْبَةَ، وَعِكْرَمَةُ، وَالْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ، وَابْنُ شِهَابٍ، وَقَتَادَةُ نَحْوُ ذَلِكَ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَتْ أَبْوَابُهُمْ فِي الْمَسْجِدِ، فَكَانَتْ تُصَيِّمُهُمْ جَنَابَةً وَلَا مَاءَ عِنْدَهُمْ، فَيَرِيدُونَ الْمَاءَ وَلَا يَجِدُونَ مَرًّا إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾<sup>(٨)</sup> وَيَشْهَدُ لِصِحَّةِ مَا قَالَهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، مَا ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سُدُّوا كُلَّ خَوْخَةٍ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا قَالَهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ﷺ، عَلِمًا مِنْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَبَلِي الْأَمْرِ بَعْدَهُ، وَبَحْتِاجَ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْمَسْجِدِ كَثِيرًا لِلْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ فِيمَا يَصْلُحُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ بِسَدِّ الْأَبْوَابِ الشَّارِعَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَّا بَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ رَوَى: «إِلَّا بَابَ عَلِيٍّ»، كَمَا وَقَعَ فِي بَعْضِ السَّنَنِ فَهُوَ خَطَأٌ، وَالصَّوَابُ مَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ. وَقَدْ ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَاوِلْنِي الْخُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ» فَقُلْتُ: إِنِّي حَائِضٌ، فَقَالَ: «إِنَّ حَيْضَتَكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ»<sup>(١٠)</sup>. وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلُهُ<sup>(١١)</sup>. فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ مُرُورِ الْحَائِضِ فِي الْمَسْجِدِ، وَالنِّسَاءِ فِي مَعْنَاهَا،

(١) تحفة الأحوذى: ٣٨٠/٨ (٢) أحمد: ١٤٢/٣ (٣) فتح الباري: ٣٧٧/١ (٤) السائي: ٢١٥/١ (٥) فتح الباري: ١/٣٧٥ (٦) الطبري: ٣٨٢/٨ (٧) الطبري: ٣٨١-٣٨٤/٨ (٨) الطبري: ٣٨٤/٨ (٩) فتح الباري: ١/٦٦٥ (١٠) مسلم: ١/٢٤٥ (١١) مسلم: ١/٢٤٥ (١٢) الطبري: ٨/٣٩٢ (١٣) الطبري: ٨/٣٩٣ (١٤) فتح الباري: ١/٥٤٥ ومسلم: ٤٧٤/١

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿١٥﴾  
 مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ  
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَا لِسِنِّهِمْ  
 وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا  
 لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ  
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا  
 مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهًا فَرَدَّهَا  
 عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ  
 اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ  
 ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا  
 ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ  
 وَلَا يَظْلُمُونَ قِتِيلًا ﴿١٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَقْضُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ  
 وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا  
 مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُغُوتِ وَيَقُولُونَ  
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٢١﴾

الصَّلَاةِ، أَنْ تَفْعَلَ عَلَى هَيْئَةٍ نَاقِصَةٍ، مِنْ سُكْرِ حَتَّى يَبْصُرَ  
 الْمَكْلَفُ وَيَعْقِلَ مَا يَقُولُ، أَوْ جَنَانَةٍ حَتَّى يَغْتَسِلَ، أَوْ حَدَثٍ  
 حَتَّى يَتَوَضَّأَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَرِيضًا أَوْ عَادِمًا لِلْمَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ  
 عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرْخَصَ فِي التَّيْمُمِ، وَالْحَالَةَ هَذِهِ، رَحْمَةً بِعِبَادِهِ  
 وَرَأْفَةً بِهِمْ، وَتَوْسِيعَةً عَلَيْهِمْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(ذَكَرَ سَبَبَ نَزُولِ مَشْرُوعِيَةِ التَّيْمُمِ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ  
 عَائِشَةَ، قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَشْفَارِهِ  
 حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْحِجْشِ، انْقَطَعَ عَقْدُ لِي،  
 فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى التَّيْمَامِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ  
 وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ  
 فَقَالُوا: أَلَا تَرَى إِلَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ، أَقَامَتْ بِرَسُولِ  
 اللَّهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ فَجَاءَ

صَحِيحٌ مُسْلِمٌ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ: «فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا  
 كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا،  
 وَجُعِلَتْ تَرَبُّتُهَا لَنَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ» <sup>(١)</sup> فَخَصَّصَ  
 الطُّهُورِيَّةَ بِالتُّرَابِ، فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ، فَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ يَقُومُ  
 مَقَامَهُ لَذَكَرَهُ مَعَهُ، وَالطُّيْبُ هَهُنَا قِيلَ: الْحَلَالُ، وَقِيلَ:  
 الَّذِي لَيْسَ بِنَجَسٍ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، إِلَّا  
 ابْنُ مَاجَهٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الصَّعِيدُ  
 الطُّيْبُ طَهُورٌ مُسْلِمٌ، وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ، فَإِذَا  
 وَجَدَهُ فَلْيُوسِّسْهُ بِشَرَّتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ» <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ:  
 حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَوْلُهُ: «فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ» التَّيْمُمُ  
 بَدَلٌ عَنِ الْوُضُوءِ فِي التَّطَهُّرِ بِهِ، لَا أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْهُ فِي جَمِيعِ  
 أَعْضَائِهِ، بَلْ يَكْفِي مَسْحَ الْوُجْهِ وَالْيَدَيْنِ فَقَطْ بِالْإِجْمَاعِ،  
 وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَكْفِي لَهُ مَسْحُ الْوُجْهِ وَالْكَفَيْنِ بِضَرِيَّةٍ وَاحِدَةٍ.  
 رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِيزَى: أَنَّ رَجُلًا أَتَى  
 عُمَرَ، فَقَالَ: إِنِّي أَجَنَّبْتُ فَلَمْ أَجِدْ مَاءً، فَقَالَ عُمَرُ: لَا  
 تُصَلِّ، فَقَالَ عُمَرُ: أَمَا تَذْكُرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ أَنَا وَأَنْتَ  
 فِي سَرِيَّةٍ فَأَجَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ مَاءً، فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ، وَأَمَّا  
 أَنَا فَتَمَعَكْتُ فِي التُّرَابِ فَصَلَّيْتُ، فَلَمَّا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرْتُ  
 ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ» وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ  
 الْأَرْضَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا وَمَسَحَ بِهَا وَجْهَهُ وَكَفَيْهِ <sup>(٣)</sup>. وَهَذِهِ  
 الْأُمَّةُ مُخْتَصَّةٌ بِمَشْرُوعِيَةِ التَّيْمُمِ، دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ، كَمَا ثَبَتَ  
 فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،  
 قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ  
 قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ  
 مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةُ  
 فَلْيُصَلِّ» وَفِي لَفْظٍ: «فَعِنْدَهُ طَهُورُهُ وَمَسْجِدُهُ، وَأُحِلَّتْ لِي  
 الْعَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشُّفَاعَةَ، وَكَانَ  
 النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» <sup>(٤)</sup>. وَتَقَدَّمَ  
 فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ عَنْهُ مُسْلِمٌ «فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ،  
 جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ  
 مَسْجِدًا، وَتَرَبُّتُهَا طَهُورًا إِذَا لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ» <sup>(٥)</sup> وَقَالَ تَعَالَى  
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ  
 كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا» أَيُّ وَمِنْ عَفْوِهِ عَنْكُمْ وَغُفْرَانِهِ لَكُمْ أَنْ شَرَعَ  
 التَّيْمُمَ، وَأَبَاحَ لَكُمْ فِعْلَ الصَّلَاةِ بِهِ إِذَا فَقَدْتُمُ الْمَاءَ، تَوْسِيعَةً  
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً لَكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِيهَا تَنْزِيهُ

(١) مسلم: ٣٧١/١ (٢) أحمد: ١٨٠/٥ وأبو داود: ٢٣٥/١  
 وتحفة الأحوزي: ٣٨٨/١ والنسائي: ١٧١/١ (٣) أحمد: ٤/  
 ٢٦٥ فتح الباري: ٥١٩/١ ومسلم: ٣٧٠/١ (٥) مسلم:

وَالْعُقُوبَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْمِعْ عَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أَيْ أَسْمِعْ مَا نَقُولُ، لَا سَمِعْتَ. رَوَاهُ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا اسْتِهْزَاءٌ مِنْهُمْ وَاسْتِهْزَاءٌ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ، ﴿وَرَاعِنَا لِيَا يَأْسِنْتُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ أَيْ يُوْهِمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَاعِنَا سَمِعَكَ يَقُولُهُمْ: رَاعِنَا، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ الرُّغُونَةَ بِسَبِّهِمُ النَّبِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِكَلَامِهِمْ خِلَافَ مَا يُظْهِرُونَهُ: ﴿لِيَا يَأْسِنْتُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾، يَعْنِي بِسَبِّهِمُ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ قُلُوبُهُمْ مَطْرُودَةٌ عَنِ الْخَيْرِ مُبْعَدَةٌ مِنْهُ، فَلَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ نَافِعٌ لَهُمْ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِيْمَانًا نَافِعًا.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وَجُوهًا فَزَرَدَهَا عَلَيَّ أَذْبَارَهَا أَوْ نُلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾<sup>(٥)</sup> إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغَيِّرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا<sup>(٦)</sup>

### [دَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ مَعَ التَّهْدِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِنَا أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْإِيمَانِ بِمَا نَزَّلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ [وَأَرْسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ تَصْدِيقُ الْأَخْبَارِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبَشَارَاتِ، وَمَتَّهَدًا لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْغَسَ وَجُوهًا فَزَرَدَهَا عَلَيَّ أَذْبَارَهَا﴾: قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَطَمَسَهَا: أَنْ تَعْمَى. ﴿فَزَرَدَهَا عَلَيَّ أَذْبَارَهَا﴾ يَقُولُ: نَجْعَلُ وَجُوهَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَفْقِيَّتِهِمْ، فَيَمْسُحُونَ الْقَهْقَرَى، وَنَجْعَلُ لِأَحْدِهِمْ عَيْنَيْنِ مِنْ قَفَاهُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَهُوَ مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لَهُمْ فِي صَرْفِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَرَدِّهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ، وَرُجُوعِهِمْ عَنِ الْمَحَجَّةِ الْبَيِّنَةِ إِلَى سُبُلِ الضَّلَالَةِ، يُهْرَعُونَ وَيَمْسُحُونَ الْقَهْقَرَى عَلَى

أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضِعَ رَأْسَهُ عَلَى فَخْذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسَ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعَنُ يَدَهُ فِي خَاصِرَتِي، وَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَخْذِي، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التِّيْمَمِ، فَتَيَمَّمُوا. فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَعَبَّعْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَوَجَدْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُشْرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتْلُوا السَّيْلَ﴾<sup>(٣)</sup> وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا<sup>(٤)</sup> مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمِعْ عَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَا يَأْسِنْتُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٥)</sup> [دَمَ الْيَهُودَ عَلَى اخْتِيَارِهِمُ الضَّلَاةَ وَتَحْرِيفِ الْكَلِمِ وَالْعُصْيَانَ، وَلَيَّ الْأَلْسُنَ وَالطَّعْنَ فِي الدِّينِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - أَنَّهُمْ يَشْرُونَ الضَّلَاةَ بِالْهَدَى، وَيَعْرِضُونَ عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَيَتْرَكُونَ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتْلُوا السَّيْلَ﴾ أَيْ يَوْدُونَ لَوْ تَكْفُرُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أَتَاهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَتَتْرَكُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أَيْ هُوَ يَعْلَمُ بِهِمْ وَيَحْذَرُكُمْ مِنْهُمْ، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أَيْ كَفَى بِهِ وَلِيًّا لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ وَنَصِيرًا لِمَنْ اسْتَنْصَرَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [مِنْ] فِي هَذَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أَيْ يَتَأَوَّلُونَ الْكَلَامَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيُقَسِّرُونَهُ بِغَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَصْدًا مِنْهُمْ وَافْتِرَاءً ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أَيْ يَقُولُونَ: سَمِعْنَا مَا قُلْتُمْ يَا مُحَمَّدٌ وَلَا نَطِيعُكَ فِيهِ. هَكَذَا فَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٣)</sup>. وَهُوَ الْمُرَادُ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ بَعْدَمَا عَقَلُوهُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِثْمِ

(١) فتح الباري: ١/٥١٤ (٢) فتح الباري: ٧/٢٤ و ١٢/١٨٠  
ومسلم: ١/٢٧٩ (٣) الطبري: ٨/٤٣٣ (٤) الطبري: ٨/٤٣٤  
ضعيف كما مر (٥) الطبري: ٨/٤٤٠ تقدم حكم العوفي وعائلته  
(٦) الطبري: ٨/٤٤١



«عَلَى رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ»، قَالَ: فَخَرَجَ أَبُو ذَرٍّ وَهُوَ يَجُرُّ إِزَارَهُ وَهُوَ يَقُولُ: وَإِنْ رَغَمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ بِهَذَا بَعْدَ، وَيَقُولُ: وَإِنْ رَغَمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ<sup>(٣)</sup>. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ حُسَيْنٍ بِهِ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْبَزَّازُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: قَالَ: كُنَّا نُمْسِكُ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ حَتَّى سَمِعْنَا نَبِيَّنَا ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» وَقَالَ: «أَخَّرْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَايِرِ مِنْ أَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا» كَقَوْلِهِ: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣] وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ<sup>(٦)</sup>.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ شَيْئًا»<sup>(٧)</sup> أَنْظَرَ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ وَكَيْفَ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا<sup>(٨)</sup> أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا<sup>(٩)</sup> أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا<sup>(١٠)</sup>

[ذَمُّ الْيَهُودِ وَلَعْنُهُمْ عَلَى تَرْكِهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِيمَانِهِمْ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَقَلْبُهُمُ الْهَدَايَةِ وَالْإِيمَانِ] قَالَ الْحَسَنُ وَقَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى جِئْنَا قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجِبَاءُهُ<sup>(١١)</sup> وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَزَلَتْ فِي قَوْلِهِمْ: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ» [المائدة: ١٨]، وَفِي قَوْلِهِمْ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى»<sup>(١٢)</sup>

[البقرة: ١١١]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ» أَيِ الْمَرْجِعِ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَغَوَامِضِهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَا يَظْلُمُونَ شَيْئًا» أَيِ وَلَا يُتْرَكُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَجْرِ مَا يُؤَاوِزُ مَقْدَارَ الْقِتْلِ. قَالَ

أَدْبَارِهِمْ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَفْئَةً لِّأَنفُسِهِمْ فَهَمَّ ثُمْثُخُونُ»<sup>(١٣)</sup> وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَبْطًا... الْآيَةُ [يس: ٨، ٩]: إِنَّ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَمَعْنِيهِمْ عَنِ الْهُدَى.

[إِسْلَامُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ عِنْدَ سَمَاعِهِ هَذِهِ الْآيَةُ] وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ كَعْبَ الْأَخْبَارِ أَسْلَمَ حِينَ سَمِعَ هَذِهِ الْآيَةَ. رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عِيسَى بْنِ الْعُمَيْرَةِ، قَالَ: تَذَكَّرْنَا عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ إِسْلَامَ كَعْبٍ، فَقَالَ: أَسْلَمَ كَعْبٌ زَمَانَ عُمَرَ، أَقْبَلَ وَهُوَ يُرِيدُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَمَرَّ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا كَعْبُ، أَسْلِمْتَ. فَقَالَ: أَلَسْتُ تَقْرَأُونَ فِي كِتَابِكُمْ «مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ» إِلَى «أَسْفَارًا» [الجمعة: ٥] وَأَنَا قَدْ خُمِلْتُ الثَّورَةَ، قَالَ: فَتَرَكَهُ عُمَرُ. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى حِمَصٍ، فَسَمِعَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِهَا حَزِينًا وَهُوَ يَقُولُ: «يَتَابِعُهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْوَيسَ وُجُوهًا فَتَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا»... الْآيَةُ، قَالَ كَعْبٌ: [يَا رَبِّ أَمْنْتُ] يَا رَبِّ أَسْلَمْتُ مَخَافَةَ أَنْ تُصِيبَهُ هَذِهِ الْآيَةُ، ثُمَّ رَجَعَ فَاتَى أَهْلَهُ فِي الْيَمَنِ، ثُمَّ جَاءَ بِهِمْ مُسْلِمِينَ<sup>(١٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: «أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَعْتَبَ السَّبْتِ» يَعْنِي الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي سَبْتِهِمْ بِالْجَلِيلَةِ عَلَى الْأَصْطِيَادِ، وَقَدْ مَسَّحُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ. وَسَيَأْتِي بَسْطُ قِصَّتِهِمْ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ. وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» أَيِ إِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ فَإِنَّهُ لَا يَخَالَفُ وَلَا يَمَانَعُ.

[لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ أَبَدًا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ «لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» أَيِ: لَا يَغْفِرُ لِعَبْدٍ لِقَبِيْهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِهِ، «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ»، أَيِ مِنَ الذُّنُوبِ «لِمَنْ يَشَاءُ»، أَيِ مِنْ عِبَادِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: يَا عَبْدِي مَا عَبْدَتَنِي وَرَجَوْتَنِي، فَإِنِّي غَافِرٌ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، يَا عَبْدِي إِنَّكَ إِنْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي، لَقِيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»<sup>(١٥)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ -ثَلَاثًا-». ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ:

(١) الطبري: ٤٤٦/٨ ضعيف: فيه عيسى بن المغيرة التميمي مجهول الحال [تقريب] وجابر بن نوح بن جابر ضعيف الحديث [الجرح والتعديل ٥٠٠/٢] (٢) أحمد: ١٥٤/٥ (٣) أحمد: ١٥٢/٥ (٤) فتح الباري: ٢٩٤/١٠ ومسلم: ٩٥/١ (٥) كشف الأستار: ٨٤/٤ (٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ١/٩٠ (٧) الطبري: ٤٥٢/٨ (٨) الطبري: ٤٥٣/٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

٨٧

الْبَيْتُ الْخَامِسُ

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجْعَلَهُ نَصِيرًا ﴿٥٣﴾  
 أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٤﴾  
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا  
 آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾  
 فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٦﴾  
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصْلِي  
 جُلُودَهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ  
 كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٧﴾  
 وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا  
 لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَوْجٌ مُطَهَّرٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٨﴾  
 إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ  
 النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا  
 بَصِيرًا ﴿٥٩﴾  
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي  
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ  
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦٠﴾

[لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ لِاسْتِنصَارِهِم بِالْمُشْرِكِينَ]  
 وَهَذَا لَعْنٌ لَهُمْ وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُمْ لَا نَاصِرَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا  
 فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا ذَهَبُوا يَسْتَنْصِرُونَ بِالْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا  
 قَالُوا لَهُمْ ذَلِكَ، لِيَسْتَمِيلُوهُمْ إِلَىٰ نُصْرَتِهِمْ، وَقَدْ أَجَابُوهُمْ  
 وَجَاءُوا مَعَهُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، حَتَّى حَفَرَ النَّبِيُّ ﷺ  
 وَأَصْحَابُهُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ الْخَنْدَقِ، فَكَفَى اللَّهُ شَرَّهُمْ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِظَتِهِمْ لَمْ يَبَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ  
 وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٤﴾  
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ

(١) الطبري: ٤٥٨/٨، ٤٥٩ (٢) محمد بن إسحاق هنا وهم أو خطأ من الناسخ الفخبر معروف من رواية أبي إسحاق السبيعي عن حسان بن فاقد. كما ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم وابن حجر في "تغليق التعليق" ١٩٦/٤ ط. المكتب الإسلامي من طرق عن أبي إسحاق. وقد ذكره المصنف بالصواب في سورة البقرة تحت آية رقم ٢٥٦ (٣) الطبري: ٤٦٢/٨ (٤) ابن أبي حاتم غ: ٣/٩٩٤ (٥) الطبري: ٤٦٢/٨

إِبْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ  
 وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: هُوَ مَا يَكُونُ فِي شِقِّ النَّوَاةِ <sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ:  
 ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ﴾ أَيُّ فِي تَرْكِيبِهِمْ أَنْفُسَهُمْ  
 وَدَعَاؤُهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجِبَاؤُهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ  
 الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: ١١١]،  
 وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [آل عمران: ٢٤]  
 وَاتِّكَالِهِمْ عَلَى أَعْمَالِ آبَائِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ  
 أَنَّ أَعْمَالَ الْآبَاءِ لَا تَجْزِي عَنِ الْبَنَاءِ شَيْئًا فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ تِلْكَ  
 أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ [البقرة: ١٣٤]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَكَفَى بِهِ إِيمًا مُبِينًا﴾ أَيُّ وَكَفَى  
 بِصَنِيعِهِمْ هَذَا كَذِبًا وَافْتِرَاءً ظَاهِرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى  
 الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالْطَّغُوتِ﴾  
 أَمَّا الْجِبْتُ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ <sup>(٢)</sup>، عَنْ حَسَّانَ بْنِ  
 فَائِدٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: الْجِبْتُ: السَّحَرُ،  
 وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الْعَلَامَةُ أَبُو نَصْرِ إِسْمَاعِيلُ  
 ابْنُ حَمَادٍ الْجَوْهَرِيُّ فِي كِتَابِهِ «الصَّحَاحُ»: الْجِبْتُ كَلِمَةٌ  
 تَقَعُ عَلَى الصَّنَمِ وَالْكَاهِنِ وَالسَّاحِرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ  
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الطَّوَاعِيَةِ،  
 فَقَالَ: هُمْ كُفَّاهُ تَنْزُلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ:  
 الطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ  
 صَاحِبُ أَمْرِهِمْ <sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: الطَّاغُوتُ هُوَ كُلُّ  
 مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[لَا فَضْلَ لِلْكَفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُولَاءُ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أَيُّ يُفَضِّلُونَ الْكَفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِجَهْلِهِمْ،  
 وَقَلَّةِ دِينِهِمْ، وَكُفْرِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ بِأَيْدِيهِمْ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ  
 أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: جَاءَ حَيْثُ بُنِيَ أُخْطَبُ وَكَعْبُ  
 ابْنِ الْأَشْرَفِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ  
 وَأَهْلُ الْعِلْمِ، فَأَخْبَرُونَا عَنَّا وَعَنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: مَا أَنْتُمْ  
 وَمَا مُحَمَّدٌ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ نَصِلُ الْأَرْحَامَ، وَنَنْحَرُ الْكُؤْمَاءَ،  
 وَنَسْقِي الْمَاءَ عَلَى اللَّبَنِ، وَنَفُكُ الْعَنَاءَ، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ،  
 وَمُحَمَّدٌ صُبُورٌ قَطَعَ أَرْحَامَنَا، وَاتَّبَعَهُ سُرَاقُ الْحَجِيجِ بَنُو  
 غِفَارٍ، فَتَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ فَقَالُوا: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى سَبِيلًا،  
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا...﴾ [الآية]، وَقَدْ  
 رُوِيَ هَذَا مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ  
 السَّلَفِ.

عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ  
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ  
مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

[بَيَانُ عَذَابٍ مَنْ يَكْفُرُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ]

يُنْخِرُ تَعَالَى عَمَّا يَعَاقِبُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ  
وَصَدَّ عَنْ رُسُلِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا...  
الآيَةِ، أَيْ نُدْخِلُهُمْ نَارًا دُخُولًا يُحِيطُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِمْ  
وَأَجْزَائِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ دَوَامِ عِقَابِهِمْ وَنَكَالِهِمْ، فَقَالَ:  
﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ قَالَ  
الْأَعْمَشُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: إِذَا اخْتَرَقَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلُوا جُلُودًا  
غَيْرَهَا بَيْضَاءُ أَمْثَالُ الْقَرَاتِيسِ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.  
وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ قَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ  
جُلُودُهُمْ... الْآيَةِ، قَالَ: تَنْضِجُهُمْ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ أَلْفَ  
مَرَّةٍ. قَالَ حُسَيْنٌ: وَزَادَ فِيهِ فَضْلٌ عَنْ هِشَامٍ عَنِ الْحَسَنِ  
﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ كُلَّمَا أَنْضَجْتَهُمْ فَأَكَلَتْ لَحُومُهُمْ قِيلَ  
لَهُمْ: عُدُّوا فَعَادُوا<sup>(٤)</sup>.

[بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَهُوَ الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ  
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ هَذَا إِنْخِبَارٌ عَنْ مَالِ  
السَّعْدَاءِ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي تَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارُ فِي جَمِيعِ  
فَجَائِهَا، وَمَحَالِّهَا وَأَرْجَائِهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ ارْتَدُّوا،  
وَهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ وَلَا يَبْغُونَ  
عَنْهَا حَوْلًا. وَقَوْلُهُ: ﴿هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أَيْ مِنْ  
الْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ وَالْأَذَى وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَالصِّفَاتِ  
النَّاقِصَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَقْدَارِ  
وَالْأَذَى<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالنَّخَعِيُّ  
وَأَبُو صَالِحٍ وَعَطِيَّةُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ  
الْبَوْلِ وَالْحَيْضِ وَالنَّخَامِ وَالْبُرَاقِ وَالْمَنِيِّ وَالْوَلَدِ. وَقَوْلُهُ:  
﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أَيْ ظِلًّا عَمِيقًا كَثِيرًا غَزِيرًا طَيِّبًا  
أَيْضًا. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:  
«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا  
يَقْطَعُهَا: شَجَرَةُ الْخُلْدِ»<sup>(٧)</sup>.

إِزْهِيمَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَمَا تَنْتَهُمُ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٦﴾ فَيَنْهَمُ مَنْ آمَنَ  
بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٧﴾  
[بُخْلُ الْيَهُودِ وَحَسَدُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ نُنْصِبْ مِنَ الْمُلْكِ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ  
إِنْكَارِيٌّ، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ  
بِالْبُخْلِ، فَقَالَ: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾، أَيْ لَا تَنْهَمُ لَوْ  
كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا  
مِنَ النَّاسِ - وَلَا سِوَمَا مُحَمَّدًا ﷺ - شَيْئًا، وَلَا مَا  
يَمْلَأُ «النَّقِيرَ» وَهُوَ النُّقْطَةُ الَّتِي فِي النَّوَاةِ فِي قَوْلِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ وَالْأَكْثَرِينَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ  
تَمْلِكُونَ خَزَائِينَ رَحْمَةٍ رِيقٍ إِذَا لَأَنْتَسِكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أَيْ  
خَوْفُ أَنْ يَذْهَبَ مَا بِأَيْدِيكُمْ مَعَ أَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ نَفَادَهُ، وَإِنَّمَا  
هُوَ مِنْ يُخْلِكُكُمْ وَشُحْكُكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ  
قَتُورًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٠٠] أَيْ بِخَيْلٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ  
النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ حَسَدَهُمْ  
النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَنْعَهُمْ  
مِنْ تَصْدِيقِهِمْ إِيَّاهُ حَسَدَهُمْ لَهُ، لِكُذُوبِهِ مِنَ الْعَرَبِ وَلَيْسَ  
مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي  
قَوْلِهِ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ... الْآيَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:  
نَحْنُ النَّاسُ دُونَ النَّاسِ<sup>(١)</sup>. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا  
عَالِ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَمَا تَنْتَهُمُ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أَيْ فَقَدْ  
جَعَلْنَا فِي أَشْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ  
إِبْرَاهِيمَ، النُّبُوَّةَ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ، وَحَكَمُوا فِيهِمْ  
بِالسَّنَنِ، وَهِيَ الْحِكْمَةُ، وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ الْمُلُوكَ وَمَعَ هَذَا  
﴿فَيَنْهَمُ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾، أَيْ بِهَذَا الْإِتْيَاءِ وَهَذَا الْإِنْعَامِ،  
﴿وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أَيْ كَفَرَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَسَعَى فِي  
صَدِّ النَّاسِ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْهُمْ وَمِنْ جَنْسِهِمْ مِنْ بَنِي  
إِسْرَائِيلَ. فَقَدْ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِمْ، فَكَيْفَ بِكَ يَا مُحَمَّدٌ  
وَلَسْتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَيَنْهَمُ مَنْ آمَنَ  
بِهِ﴾، أَيْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾<sup>(٢)</sup>. فَالْكُفْرَةُ  
مِنْهُمْ أَشَدُّ تَكْذِيبًا لَكَ، وَأَبْعَدُ عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى،  
وَالْحَقُّ الْمُبِينُ، وَلِهَذَا قَالَ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ: ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ  
سَعِيرًا﴾ أَيْ وَكَفَى بِالنَّارِ عِقُوبَةً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ  
وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ كُتُبَ اللَّهِ وَرُسُلَهُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ  
جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

(١) الطبراني: ١٤٦/١١ (٢) الطبري: ٤٨٢/٨ (٣) الطبري:

٤٨٤/٨ (٤) الطبري: ٤٨٥/٨ (٥) الطبري: ٣٩٥/١ (٦)

ابن أبي حاتم: ٩٢/١ (٧) الطبري: ٤٨٩/٨ إسناده ضعيف فيه  
أبو الضحاك مجهول ولكن أخرجه البخاري (٤٨٨١) ومسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ  
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ  
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ  
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ  
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا  
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا  
إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا  
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي  
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا  
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ  
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ  
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ  
حَتَّى يَحْكُمُواكَ فَِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا  
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾

سَنَةً<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْهَا عِبَادَهُمْ﴾ أَيُّ يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنْ  
أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ  
أَوَامِرِهِ وَنَهْيَاتِهِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ الشَّامِلَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ أَيُّ سَمِيمًا لِأَقْوَالِكُمْ، بَصِيرًا  
بِأَفْعَالِكُمْ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ  
نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿٦٥﴾

(٢٨٣٦) وغيرهما ولفظه: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب في  
ظلها مائة عام لا يقطعها وأقرؤها إن شئتُم "وظل ممدود" وليس فيه  
"شجرة الخلد". (١) أحمد: ٤١٤/٣ وأبو داود: ٨٠٥/٣  
وتحفة الأحوذى: ٤٧٩/٤ (٢) مسلم: ١٩٩٧/٤ (٣)  
الطبري: ٩٢/٨ إسناداه ضعيف فيه: الحسين بن داود المصيصي  
الذي كان يلقن شيخه الحجاج. قد تقدم ذكره (٤) الطبري: ٨/  
٤٩٠ (٥) ابن ماجه: ٧٧٥/٢ وعند ابن ماجه لفظ "القاضي"  
بدل "الحاكم" (٦) ما وجدته بهذا اللفظ والرواية ضعيفة انظر  
[ضعيف الترغيب للألباني ٧١، ٧/٢] الكنز: ١٢/٦

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ  
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأُ عِبَادِكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا  
بَصِيرًا﴾ ﴿٥٨﴾

### [الْأَمْرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا. وَفِي  
حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ سَمُرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَدَّ  
الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ اتَّعَمَكَ، وَلَا تَخُذْ مِنْ خَانَكَ» رَوَاهُ  
الإمام أحمد وأهل السنن<sup>(١)</sup>. وَهَذَا يُعْمُ جَمِيعَ الْأَمَانَاتِ  
الْوَاجِبَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ  
مِنَ الصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ وَالصِّيَامِ وَالْكَفَّارَاتِ وَالتَّدْوِيرِ  
وغير ذلك مِمَّا هُوَ مُؤْتَمَنٌ عَلَيْهِ، وَلَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ الْعِبَادُ،  
وَمِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَالْوَدَائِعِ وَغَيْرِ  
ذَلِكَ مِمَّا يَأْتُمُونُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ إِطْلَاعٍ  
بَيِّنَةٍ عَلَى ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَدَائِهَا، فَمَنْ لَمْ  
يَفْعَلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أَخَذَ مِنْهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا  
ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:  
«لَتُؤَدَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُفْتَصَّرَ لِلنَّسَاءِ الْجَمَاءُ مِنْ  
الْقُرَّانِ»<sup>(٢)</sup>. رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي الْآيَةِ،  
قَالَ: نَزَلَتْ فِي عُمَانَ بْنِ طَلْحَةَ، قَبَضَ مِنْهُ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ مِفْتَاحَ الْكُعْبَةِ، فَدَخَلَ فِي النَّبْتِ يَوْمَ الْفَتْحِ،  
فَخَرَجَ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا  
الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا... الْآيَةَ، فَدَعَا عُمَانَ إِلَيْهِ فَدَفَعَ إِلَيْهِ  
الْمِفْتَاحَ. قَالَ: وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكُعْبَةِ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ  
تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا - فَذَاهُ أَبِي وَأُمِّي مَا سَمِعْتُهُ  
يَتْلُوهَا قَبْلَ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا مِنْ الْمَشْهُورَاتِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ  
نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ أَوْ لَا،  
فَحُكْمُهَا عَامٌّ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ ابْنُ الْحَقِيقَةِ:  
هِيَ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، أَيُّ هِيَ أَمْرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ.

### [الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أَمْرٌ  
مِنْهُ تَعَالَى بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ  
كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا  
نَزَلَتْ فِي الْأَمْرَاءِ<sup>(٤)</sup>. يَعْنِي الْحُكَّامَ بَيْنَ النَّاسِ، وَفِي  
الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْحَاكِمِ مَا لَمْ يَجُرْ، فَإِذَا جَارَ وَكَلَهُ  
اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ»<sup>(٥)</sup>. وَفِي الْأَثَرِ: «عَدْلُ يَوْمٍ كَعِبَادَةِ أَرْبَعِينَ

## [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ الْأَمِيرِ فِي الْمَعْرُوفِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» قَالَ: تَزَلَّتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا خَرَجُوا وَجَدَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ، قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَكُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: اجْمَعُوا لِي حَطْبًا، ثُمَّ دَعَا بِنَارٍ فَأَصْرَمَهَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَتَدْخُلْنَهَا، قَالَ: فَهَمَّ الْقَوْمُ أَنْ يَدْخُلُوهَا قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ شَأْبٌ مِنْهُمْ: إِنَّمَا فَرَزْتُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنَ النَّارِ، فَلَا تَعْجَلُوا حَتَّى تَلْقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمُ أَنْ تَدْخُلُوهَا فَادْخُلُوهَا. قَالَ: فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»<sup>(٣)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ». وَأَخْرَجَاهُ<sup>(٥)</sup>. وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا. وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قَالَ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ»<sup>(٦)</sup>. أَخْرَجَاهُ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيَّةً»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٧)</sup>. وَعَنْ أُمِّ الْخَضَمِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: «وَلَوْ اسْتَعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُوذُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، اسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>. وَفِي لَفْظٍ لَهُ: «عَبْدًا حَبَشِيًّا مَجْدُوعًا» وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»<sup>(٩)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «أَطِيعُوا اللَّهَ» أَيِ اتَّبِعُوا كِتَابَهُ «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» أَيِ خُذُوا بِسُنَّتِهِ «وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» أَيِ فِيمَا أَمَرُوكُمْ

بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»<sup>(١٠)</sup>.

## [الْأَمْرُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عِنْدَ التَّنَازُعِ]

وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَيِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ<sup>(١١)</sup>. وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ كُلُّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يَرُدَّ التَّنَازُعُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» [الشورى: ١٠] فَمَا حَكَمَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَشَهِدَا لَهُ بِالصَّحَّةِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» أَيِ رُتُّوا الْخُصُومَاتِ وَالْجَهَالَاتِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَتَحَاكُمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ» «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» فَذَلَّ عَلَى أَنْ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَحَلِّ التَّنَازُعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَرْجِعْ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ خَيْرٌ» أَيِ التَّحَاكُمِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِمَا فِي فَضْلِ التَّنَازُعِ خَيْرٌ «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أَيِ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَالًا. كَمَا قَالَ الشُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَأَحْسَنُ جَزَاءً<sup>(١٣)</sup> وَهُوَ قَرِيبٌ.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَتُهُمْ قَوْلًا

(١) فتح الباري: ١٠١/٨ (٢) مسلم: ١٤٦٥/٣ وأبو داود: ٣/

٩٢ وتحفة الأحوذى: ٣٦٤/٥ والنسائي: ١٥٤/٧ (٣) أحمد:

٨٢/١ (٤) فتح الباري: ٦٥٥/٧ ومسلم: ١٤٦٩/٣ (٥) أبو

داود: ٢٦٢٦ والبخاري: ٧١٤٤ ومسلم: ١٨٣٩ (٦) فتح

الباري: ٢٠٤/١٣ ومسلم: ٤٧٠/٣ (٧) فتح الباري: ١٣/

١٣٠ (٨) مسلم: ١٨٣٨ (٩) فتح الباري: ١١٩/١٣ ومسلم:

١٤٦٦/٣ (١٠) فتح الباري: ١٣/١٣ (١١) الطبري: ٨/

٥٠٤ (١٢) الطبري: ٥٠٦/٨ (١٣) الطبري: ٥٠٦/٨

بَلِيغًا (١٣)

[مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَحَاكَمَ إِلَى مَا سِوَاهُمَا فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ]

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي فَضْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، كَمَا ذَكَرَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ تَخَاصُّمًا، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ، وَذَلِكَ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ. وَقِيلَ: فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، أَرَادُوا أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى حُكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهَا ذَاتُهُ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَهُوَ الْمَرَادُ بِالطَّاعُوتِ هَهُنَا، وَلِهَذَا قَالَ: «يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ... إِلَى آخِرِهَا. وَقَوْلُهُ: «يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» أَيُّ يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا كَالْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ: «وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نُنَبِّئُكَ مَا هُوَ حَاشَاكَ عَلَيْهِمْ عِلْمًا» [لقمان: ٢١] وَهَؤُلَاءِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»... [الآية [النور: ٥١].

[ذَمُّ الْمُنَافِقِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ: «فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ» أَيُّ فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا سَاقَتْهُمْ الْمَقَادِيرُ إِلَيْكَ فِي مَصَائِبَ تَطْرُقُهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَاحْتَاجُوا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ: «ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا» أَيُّ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكَ، وَيَخْلِفُونَ مَا أَرَدْنَا بِذَهَابِنَا إِلَى غَيْرِكَ، وَتَحَاكَمْنَا إِلَى عَدَاكَ إِلَّا بِالْإِحْسَانِ وَالتَّوْفِيقِ، أَيُّ الْمُدَارَاةِ وَالْمُضَانَعَةِ، لَا اعْتِقَادًا مِنَّا صِحَّةَ تِلْكَ الْحُكُومَةِ، كَمَا أَخْبَرَنَا تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ فِي قَوْلِهِ: «فَيَضْحِكُوا عَلَى مَا آسَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَذْمِيتٌ» [المائدة: ٥٢]. وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيُّ كَاهِنًا يَقْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ فِيهِ، فَتَنَافَرَ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ

وَجَلَّ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ» إِلَى قَوْلِهِ: «وَنُودُوا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا» (١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» هَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَاتَّكَفَى بِهِ يَا مُحَمَّدٌ فِيهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِينِهِمْ. وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: «فَاعْرِضْ عَنْهُمْ» أَيُّ لَا تُعْنِثُهُمْ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ «وَعِظْهُمْ» أَيُّ وَانْهَهُمْ عَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ التَّفَاقِ وَسَرَائِرِ الشَّرِّ، «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» أَيُّ وَانْصَحْهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ رَادِعٍ لَهُمْ.

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» (٢) فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (٣)

[طَاعَةُ الرَّسُولِ وَاجِبَةٌ حَتْمًا]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ» أَيُّ فَرَضْتُ طَاعَتَهُ عَلَى مَنْ أَرْسَلُهُ إِلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: «بِإِذْنِ اللَّهِ» قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ لَا يُطِيعُ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِي (٢). يَعْني لَا يُطِيعُهُمْ إِلَّا مَنْ وَقَفَتْهُ لِدَلِيلِكَ، كَقَوْلِهِ: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ» [آل عمران: ١٥٢] أَيُّ عَنِ أَمْرِهِ وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَسْلِيطِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» الْآيَةُ، يُرْشِدُ تَعَالَى الْعَصَاةَ وَالْمُذْنِبِينَ إِذَا وَقَعَ مِنْهُمْ الْخَطَأُ وَالْعِصْيَانُ أَنْ يَأْتُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَيَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ عِنْدَهُ وَيَسْأَلُوهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا».

[لَا يَكُونُ الْمَرْءُ مُؤْمِنًا حَتَّى يُحَكِّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي

خُصُومَاتِهِ وَيَرْضَى بِهِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ]

وَقَوْلُهُ: «فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ» يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحَكِّمَ الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَمَا

سُورَةُ النِّسَاءِ

٨٩

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ لَا تَتَذَكَّرُ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا ﴿٧٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اخذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيَقْتُلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

عِلْمًا ﴿٧٠﴾

[أَكْثَرُ النَّاسِ يُعَانِدُونَ لِمَا يُؤْمَرُونَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أُمِرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُوهُ مِنَ الْمَنَاهِي لَمَّا فَعَلُوهُ، لِأَنَّ طِبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةُ مَجْبُولَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ، وَهَذَا مِنْ عِلْمِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِمَا لَمْ يَكُنْ أَوْ كَانَ، فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾... الآية، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أَيُّ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ، وَتَرَكُوا مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أَيُّ مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَارْتِكَابِ النَّهْيِ ﴿وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا﴾. قَالَ السُّدِّيُّ: أَيُّ وَأَشَدَّ تَضَدُّيقًا ﴿وَإِذَا لَا تَتَذَكَّرُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أَيُّ مِنْ عِنْدِنَا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَيُّ فِي

حَكَمٍ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الْإِقْبَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أَيُّ إِذَا حَكَمُوكَ طَبِيعُونَكَ فِي بَوَاطِينِهِمْ فَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَمْتَ بِهِ، وَيَتَقَادُونَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فَيُسَلِّمُونَ لَذَلِكَ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ وَلَا مَدَافَعَةٍ وَلَا مُتَارَعَةٍ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا فِي شَرِيحٍ مِنَ الْحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ» فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ اخْسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَذْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ». وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَكَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا ﷺ بِأَمْرِ لُهُمَا فِيهِ سَعَةٌ، قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَخْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يَوْمُنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (١)... الآية.

(سَبَبُ آخِرُ) - رَوَى الْحَافِظُ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ دُحَيْمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ ضَمْرَةٍ: أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى لِلْمُحَقِّ عَلَى الْمُبْطِلِ، فَقَالَ الْمُقْضِي عَلَيْهِ: لَا أَرْضَى، فَقَالَ صَاحِبُهُ: فَمَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أَنْ نَذْهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَذَهَبَا إِلَيْهِ، فَقَالَ الَّذِي قَضَى لَهُ: قَدْ اخْتَصَمْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَضَى لِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَأَنْتُمَا عَلَى مَا قَضَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى صَاحِبُهُ أَنْ يَرْضَى، قَالَ: نَأْتِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَأَتِيَاهُ فَقَالَ الْمُقْضِي لَهُ: قَدْ اخْتَصَمْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَضَى لِي عَلَيْهِ، فَأَبَى أَنْ يَرْضَى، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: كَذَلِكَ. فَدَخَلَ عُمَرُ مَنْزِلَهُ وَخَرَجَ وَالسَّيْفُ فِي يَدِهِ قَدْ سَلَّهُ، فَضَرَبَ بِهِ رَأْسَ الَّذِي أَبَى أَنْ يَرْضَى فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يَوْمُنُونَ﴾... الآية (٢).

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا﴾ (٦٦) وَإِذَا لَا تَتَذَكَّرُ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨ (٢) الدر المنثور: ٣٢٢/٢ إسناده ضعيف ضمرة لم يدرك عمر رضي الله عنه فهو مرسل.

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

النَّبِيِّنَّ، وَإِنْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَكَ، فَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَدِّسِيُّ فِي كِتَابِهِ "صِفَةُ الْجَنَّةِ" ثُمَّ قَالَ: لَا أَرَى بِإِسْنَادِهِ بَأْسًا<sup>(٥)</sup>، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَبُكِّتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَبِيْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوءِهِ وَحَاجَّتِهِ، فَقَالَ لِي: «سَلْ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَاعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْثَةَ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَصَلَّيْتُ الْخُمْسَ، وَأَدَيْتُ زَكَاةَ مَالِي. وَصُمْتُ شَهْرَ رَمَضَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا - وَنَصَبَ أَصْبُعِهِ - مَا لَمْ يَمُتْ وَالِدِيهِ»<sup>(٧)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَأَعْظَمَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ بِشَارَةً مَا ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ طُرُقٍ مُتَوَاتِرَةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ، فَقَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرَحَ الْمُسْلِمُونَ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ. وَفِي رَوَايَةٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي أُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأُحِبُّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَرْجُو أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثَنِي مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ كَعَمَلِهِمْ<sup>(٨)</sup>. قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ بِرَحْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَهْلَهُمْ لِذَلِكَ لَا بِأَعْمَالِهِمْ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِمًا﴾ أَيُّ هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾<sup>(٩)</sup> وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا<sup>(١٠)</sup> وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ

[مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَهُوَ مَعَ الْمُكْرَمِينَ عِنْدَ اللَّهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أَيُّ مَنْ عَمِلَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسَكِّنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ، وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ وَهُمْ الصِّدِّيقُونَ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ثُمَّ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ صَلَحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ، ثُمَّ أَنْتَى عَلَيْهِمْ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خَيْرُ بَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا فَأَخَذَتْهُ بَحَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ<sup>(١١)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٢)</sup>. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «اللَّهُمَّ [فِي] الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»<sup>(١٣)</sup> - ثَلَاثًا - ثُمَّ قَضَى عَلَيْهِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ.

#### ذَكَرَ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُحْزُونٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا فُلَانُ، مَا لِي أَرَكَ مُحْزُونًا؟» قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، شَيْءٌ فَكَّرْتُ فِيهِ، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: نَحْنُ نَعُدُّو عَلَيْكَ وَتَرْوَحُ، نَنْظُرُ إِلَى وَجْهِكَ وَنُجَالِسُكَ، وَغَدَا تَرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّينَ، فَلَا نَصِلُ إِلَيْكَ، فَلَمْ يَرِدْ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...﴾ الْآيَةِ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فَبَشَّرَهُ<sup>(١٤)</sup>. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْأَثَرُ مُرْسَلًا عَنْ مَسْرُوقٍ، وَعِكْرَمَةَ، وَغَامِرِ الشَّعْبِيِّ وَقَتَادَةَ، وَعَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِهَا سَنَدًا، وَقَدْ رَوَى مَرْفُوعًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ، رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْذُوبٍ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ فَانْظُرْ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨ (٢) مسلم: ١٨٩٣/٤ (٣) مسلم: ١٨٩٤/٤ (٤) الطبري: ٥٣٤/٨ (٥) الطبراني: ٣٣٠٨ ومن طريق أبي نعيم في الحلية ١٢٥/٨ (٦) مسلم: ٤٨٩ (٧) جامع المسانيد والسنن: ٧٧/١٠ (٨) فتح الباري: ٥١/٧



وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ  
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ  
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ  
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الْطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ  
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ  
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ  
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ  
كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِغَ الدُّنْيَا  
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَلَيْسَ  
تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ  
حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا  
هَذِهِ مِنْ عِندِ قُلٍّ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ  
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ  
سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

وَعَدَمَ إِيْمَانِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
يُقَاتِلْ أَوْ يُغَلَبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيُّ كُلِّ مَنْ قَاتَلَ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ - سَوَاءً قُتِلَ أَوْ غَلِبَ وَسَلِبَ - فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَثْوًى  
عَظِيمٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «وَتَكْفُلُ  
اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ  
إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» (٤).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ  
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا  
وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥) الَّذِينَ  
آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ  
الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ

ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

[الْحَضْرُ عَلَى الْقِتَالِ لِإِنْقَاذِ الْمُسْتَضْعَفِينَ]

يُحَرِّصُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ،  
(١) الطبري: ٥٣٧/٨ (٢) الطبري: ٥٣٨/٨ (٣) الطبري: ٥٣٨/٨ (٤) فتح الباري: ٢٥٣/٦ ومسلم: ١٤٩٦/٣

فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٦﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ  
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
يُقَاتِلْ أَوْ يُغَلَبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٧﴾  
[الْأَمْرُ بِأَخِذِ الْحَذَرِ مِنَ الْعَدُوِّ]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخِذِ الْحَذَرِ مِنْ  
عَدُوِّهِمْ، وَهَذَا يَشْتَلِرُهُمُ التَّائِبُ لَهُمْ بِإِعْدَادِ الْأَسْلِحَةِ  
وَالْعَدُوِّ، وَتَكْثِيرِ الْعَدَدِ بِالْبَقِيرِ فِي سَبِيلِهِ ﴿ثَبَاتٌ﴾ أَيُّ  
جَمَاعَةٍ بَعْدَ جَمَاعَةٍ وَفِرْقَةٍ بَعْدَ فِرْقَةٍ وَسَرِيَّةٍ بَعْدَ سَرِيَّةٍ.  
وَالثَّبَاتُ جَمْعُ ثُبَّةٍ، وَقَدْ تَجَمَّعَ الثُّبَّةُ عَلَى ثُبَيْنٍ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ  
أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أَيُّ عَصَبًا  
يَعْنِي، سَرَايَا مُتَفَرِّقِينَ ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ يَعْنِي كُلُّكُمْ (١).  
وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَالسُّدِّيَّ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ  
وَعَطَاءٍ الْخُرَّاسَانِيَّ وَمُقَاتِلَ بْنِ حَبَّانٍ وَخُصَيْفَ الْجَزْرِيَّ (٢).

[مِنْ عَلَامَاتِ الْمُنَافِقِينَ التَّخَلُّفُ عَنِ الْجِهَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ يُخَلِّفُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ  
وَاحِدٍ: نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ (٣). وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ:  
﴿يُخَلِّفُ﴾ أَيُّ لِيَخْلَفَنَّ عَنِ الْجِهَادِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ  
الْمُرَادُ أَنَّهُ يَتَبَاطَأُ هُوَ فِي نَفْسِهِ، وَيَطْئُ غَيْرُهُ عَنِ الْجِهَادِ  
كَمَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ سَلُولٌ - فَحَبَّهُ اللَّهُ - يَفْعَلُ،  
يَتَأَخَّرُ عَنِ الْجِهَادِ وَيَبْطِئُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ فِيهِ. وَهَذَا  
قَوْلُ ابْنِ جُرَيْجٍ وَابْنِ جَرِيرٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ  
الْمُنَافِقِ أَنَّهُ يَقُولُ: إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْجِهَادِ ﴿فَإِنْ أَصَبْتُكُمْ  
مُصِيبَةً﴾ أَيُّ قَتَلَ وَشَهَادَةً وَغَلَبَ الْعَدُوَّ لَكُمْ لِمَا لِلَّهِ فِي  
ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ قَالَ: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ  
شَهِيدًا﴾ أَيُّ إِذْ لَمْ أَحْضَرْ مَعَهُمْ وَقَعَةَ الْقِتَالِ، بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ  
نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ أَوْ  
الشَّهَادَةِ إِنْ قُتِلَ.

﴿وَلَيْنِ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ نَصْرٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ  
﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أَيُّ كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ  
أَهْلِ دِينِكُمْ ﴿يَلْتَمِصْنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أَيُّ  
بِأَنْ يُضْرَبَ لِي بِسَهْمٍ مَعَهُمْ، فَأَحْصَلَ عَلَيْهِ. وَهُوَ أَكْبَرُ  
قَصْدِهِ وَغَايَةُ مَرَادِهِ.

[الْتَرَعِيبُ فِي الْجِهَادِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أَيُّ الْمُؤْمِنُ النَّافِرُ ﴿فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ  
يَبْعَثُونَ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِكُفْرِهِمْ

وَعَلَى السَّعْيِ فِي اسْتِثْقَاذِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ الْمُتَبَرِّمِينَ مِنَ الْمَقَامِ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ بِغَيْرِ مَكَّةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أَيُّ سَحَرٍ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا وَنَاصِرًا. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ أَيُّ الْمُؤْمِنُونَ يَقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَالْكَافِرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ. ثُمَّ هَمَّجَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَغْدَائِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَّا أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلَ لَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُضَيِّعُوهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُضَيِّعُوهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

[اللَّهُمَّ عَلَى حُبِّ تَأَخَّرِ فَرَضِ الْقِتَالِ مِمَّنْ كَانُوا يُرِيدُونَهُ]

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ذَاتَ النُّصَبِ، لَكِنْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِمُوَسَّاسَةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَالصَّبْرِ إِلَى جَيْنِ، وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ، وَيَوَدُّونَ لَوْ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ لِيَسْتَفْتُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَلَمْ يَكُنِ الْحَالُ إِذْ ذَاكَ مُنَاسِبًا لِأَسْبَابِ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا: قِلَّةُ عَدَدِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ. وَمِنْهَا: كَوْنُهُمْ كَانُوا فِي بِلَدِهِمْ، وَهُوَ بِلَدٌ حَرَامٌ، وَأَشْرَفُ بَقَاعِ الْأَرْضِ، فَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ فِيهِ ابْتِدَاءً، [لَا تَقَا] فَلِهَذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْجِهَادِ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ لَمَّا صَارَتْ لَهُمْ دَارٌ وَمَنْعَةٌ وَأَنْصَارٌ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا أُمِرُوا بِمَا كَانُوا يُودُّونَهُ، جَزَعَ بَعْضُهُمْ مِنْهُ، وَخَافُوا مُوَاجَهَةَ النَّاسِ

خَوْفًا شَدِيدًا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَّا أَجَلَ قَرِيبٍ﴾ أَيُّ لَوْ مَا أَخَّرْتَ فَرْضَهُ إِلَى مَدَّةٍ أُخْرَى، فَإِنَّ فِيهِ سَفْكَ الدِّمَاءِ، وَتَمَّ الْأَنْبَاءِ، وَتَأْيِمْ النَّسَاءِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولِ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠]. . . الْآيَاتِ، رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابًا لَهُ اتَّوَا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كُنَّا فِي عِرٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذْلَةً، قَالَ: «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تَقَاتِلُوا الْقَوْمَ»، فَلَمَّا حَوَّلَهُ اللَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَمَرَهُ بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. . . الْآيَةَ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ<sup>(٣)</sup> وَقَوْلُهُ: «قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ الْآخِرَةُ» أَيُّ آخِرَةُ الْمُتَّقِي خَيْرٌ مِنْ دُنْيَاهُ. ﴿وَلَا تَطْلُمُونَ قِيلَ لَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أَيُّ أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ، وَلَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «كُلٌّ مَنَ عَلَيْنَا فَنُوْهُنَّ أَنْتُمْ الْجَزَاءُ، وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لَهُمْ عَنِ الدُّنْيَا وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَتَحْرِيسٌ لَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ.

#### [لَا مَفْرَ مِنْ الْمَوْتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ أَيُّ أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ، وَلَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «كُلٌّ مَنَ عَلَيْنَا فَنُوْهُنَّ أَنْتُمْ الْجَزَاءُ، وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لَهُمْ عَنِ الدُّنْيَا وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَتَحْرِيسٌ لَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ.

#### [طَبِيرَةُ الْمُنَافِقِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تُضَيِّعُوهُمْ حَسَنَةً﴾ أَيُّ خِصْبٌ وَرِزْقٌ مِنْ ثَمَارِ

(١) فتح الباري: ١٠٣/٨ (٢) الطبري: ٥٤٩/٨ (٣) النسائي في الكبرى: ٣٢٥/٦ والحاكم: ٣٠٧/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩١

سُورَةُ النِّسَاءِ

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ آخِذًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقُنْ لِلَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُلُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَجَاحٍ فَخُودُوا بِإِحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» أَيُّ مَا عَلَيْكَ مِنْهُ، إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ فَمَنْ اتَّبَعَكَ سَعِدَ وَنَجَا، وَكَانَ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ نَظِيرٌ مَا حَصَلَ لَهُ، وَمَنْ تَوَلَّى عَنْكَ خَابَ وَخَسِرَ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ إِلَّا نَفْسُهُ»<sup>(٣)</sup>.

[بَيَانُ سَفَاهَةِ الْمُتَنَافِقِينَ]

وَقَوْلُهُ: «وَيَقُولُوا طَاعَةٌ» يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ يَظْهَرُونَ الْمَوَاقِفَةَ وَالطَّاعَةَ «فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ» أَيُّ خَرَجُوا وَتَوَارَوْا عَنْكَ «بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ»

وَزُرُوعَ وَأَوْلَادَ وَنَحْوَ ذَلِكَ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيِّ «يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نُصِبَتْ سَيِّئَةٌ» أَيُّ قُحْطٌ وَجَذْبٌ وَتَقْصُصٌ فِي الثَّمَارِ وَالزُّرُوعِ، أَوْ مَوْتٌ أَوْلَادٍ أَوْ نَتَاجٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيُّ «يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ» أَيُّ مِنْ قِبَلِكَ وَيَسْبَبُ اتِّبَاعَنَا لَكَ وَاقْتِدَائَنَا بِدِينِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمٍ فَرِعَوْنَ: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ» [الأعراف: ١٣١] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ»... [الآية [الحج: ١١] وَهَكَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْمُتَنَافِقُونَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا، وَهُمْ كَارِهُونَ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلِهَذَا إِذَا أَصَابَهُمْ شَرٌّ إِنَّمَا يُسَيِّدُونَهُ إِلَى اتِّبَاعِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» فَقَوْلُهُ: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، أَيُّ الْجَمِيعِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَهُوَ نَافِذٌ فِي الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُرَادُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ لِيَحْضِلَ الْجَوَابُ «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ» أَيُّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَنِّهِ وَلَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ «وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ» أَيُّ فِيمِنْ قِبَلِكَ، وَمِنْ عَمَلِكَ أَنْتَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْرِفُونَ عَنْ كَثِيرٍ» [الشورى: ٣٠] قَالَ السُّدِّيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ «فَمِنْ نَفْسِكَ» أَيُّ بِذَنْبِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي الْآيَةِ: «فَمِنْ نَفْسِكَ» عَقُوبَةُ لَكَ. يَا ابْنَ آدَمَ بِذَنْبِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا» أَيُّ تُبَلِّغُهُمْ شَرَائِعَ اللَّهِ وَمَا يُجِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَنْهَاهُ «وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا» أَيُّ عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلْنَاكَ، وَهُوَ شَهِيدٌ أَيْضًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَعَالِمٌ بِمَا تُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ، وَبِمَا يَرُدُّونَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ كُفْرًا وَعِنَادًا.

«مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

[طَاعَةُ الرَّسُولِ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ

(١) أحمد: ٢٥٢/١ (٢) فتح الباري: ١٣٥/٦ ومسلم: ٣/

١٤٦٦ (٣) مسلم: ٥٩٤/٢

وَأَخِي، وَإِذَا مَسِيحَةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ فْتَمَارُوا فِيهَا حَتَّى ارْتَقَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغَضَّبًا، حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْهَهُ، يَرْمِيهِمْ بِالْثَرَابِ وَيَقُولُ: «مَهْلًا يَا قَوْمَ، بِهِذَا أَهْلَكْتَ الْأُمَّمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكِتَابَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكْذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، إِنَّمَا يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَإِنَّا لَجُلُوسٌ إِذْ اخْتَلَفَ اثْنَانِ فِي آيَةٍ، فَارْتَقَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكْتَ الْأُمَّمُ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

### [الْتَّهْيُ عَنْ إِشَاعَةِ الْخَبَرِ دُونَ تَحْقِيقِ]

وَقَوْلُهُ: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ»، إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يَبَادِرُ إِلَى الْأُمُورِ قَبْلَ تَحْقِيقِهَا، فَيُخْبِرُ بِهَا وَيُنْشِئُهَا وَيَنْشُرُهَا، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا صِحَّةٌ. وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي مُقَدِّمَةِ صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ مِنْ سُنَنِهِ<sup>(٥)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ<sup>(٦)</sup>. أَيُّ الَّذِي يُكْثِرُ مِنَ الْحَدِيثِ عَمَّا يَقُولُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ، وَلَا تَدْبِيرٍ، وَلَا تَبَيَّنٍ. وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبَيْنِ»<sup>(٧)</sup>. وَلَنَذْكُرَ هَهُنَا حَدِيثَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الْمُتَّفَقَ عَلَى صِحَّتِهِ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، طَلَّقَ نِسَاءَهُ، فَجَاءَ مِنْ مَنْزِلِهِ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَوَجَدَ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَضِرَّ حَتَّى اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَفْهَمَهُ أَطْلَقْتَ نِسَاءَكَ؟ فَقَالَ: «لَا» فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ. وَعِنْدَ مُسْلِمٍ قُلْتُ: أَطْلَقْتَهُنَّ؟ فَقَالَ: «لَا» فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي، لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ

أَيَّ اسْتَسْرُوا لَيْلًا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِغَيْرِ مَا أَظْهَرُوهُ لَكَ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ» أَيُّ يَعْلَمُهُ وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ حَفَظَتُهُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ هُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْعِبَادِ، يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا التَّهْدِيدِ أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَضْمُرُونَهُ وَيُسِرُّونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَمَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ لَيْلًا مِنْ مُحَاَلَفَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَعِصْيَانِهِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَالْمُوَافَقَةَ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا...» الْآيَةَ [النور: ٤٧]، وَقَوْلُهُ: «فَاعْرِضْ عَنْهُمْ» أَيُّ أَصْفَحْ عَنْهُمْ، وَاحْلُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ، وَلَا تُكْشِفْ أُمُورَهُمْ لِلنَّاسِ، وَلَا تَحْفَ مِنْهُمْ أَيْضًا «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» أَيُّ: كَفَى بِهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا، لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَتَانَا بِهِ.

«أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»<sup>(٨)</sup> وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى الْأُمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا»<sup>(٩)</sup> [الْقُرْآنُ حَقٌّ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لَهُمْ بِتَذَكُّرِ الْقُرْآنِ وَنَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَعَنْ تَفْهَمِ مَعَانِيهِ الْمُحْكَمَةِ وَالْأَفَاطِلِهِ الْبَلِيغَةِ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا اضْطِرَابَ، وَلَا تَضَادَّ وَلَا تَعَارُضَ لِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ حَقٍّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالًا» [محمد: ٢٤]، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ» أَيُّ لَوْ كَانَ مُفْتَعَلًا مُخْتَلَفًا، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُ مِنْ جَهْلَةِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي بَوَاطِيهِمْ «لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا»، أَيُّ اضْطِرَابًا وَتَضَادًا «كَثِيرًا»، أَيُّ وَهَذَا سَالِمٌ مِنَ الْاِخْتِلَافِ، فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ حَيْثُ قَالُوا: «ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» [آل عمران: ٧] أَيُّ مُحْكَمُهُ وَمُتَشَابِهُهُ حَقٌّ، فَلِهَذَا رَدُّوا الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ فَاهْتَدَوْا، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رِيعٌ رَدُّوا الْمُحْكَمَ إِلَى الْمُتَشَابِهِ فَعَوُّوا، وَلِهَذَا مَدَحَ تَعَالَى الرَّاسِخِينَ وَدَمَّ الرَّافِعِينَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا

(١) أحمد: ١٨١/٢ (٢) أحمد: ١٩٢/٢ (٣) مسلم: ٤/

٢٠٥٣ والنسائي في الكبرى: ٣٣/٥ (٤) مسلم: ١٠/١ (٥)

أبو داود: ٢٢٦/٥ (٦) مسلم: ٥ وأبو داود: ٤٩٩٢ (٧)

مسلم: ٩/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٢

سُورَةُ النِّسَاءِ

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ  
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ  
فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ  
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا أَنْ  
تَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ  
حَتَّى يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ  
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾  
إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ  
حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْبَلُواكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ  
اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلْتُمُوهُمْ فَإِنْ مَآرَبْتُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ  
وَأَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾  
سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ  
مَارَدٌ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُواكُمْ وَلَقُوا إِلَيْكُمْ  
السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ  
ثَقُمْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

الَّتِي وُلِدَ فِيهَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُبَشِّرُ النَّاسَ  
بِذَلِكَ؟ فَقَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ  
لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ  
وَسْطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ  
تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ  
وَمَعَاذٍ<sup>(٧)</sup> وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، نَحْوُ ذَلِكَ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ  
الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ  
بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا وَنَبِيًّا،  
وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، قَالَ: فَحَبِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ:  
أَعَدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ الْعَبْدَ بِهَا مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي

الْآيَةِ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ، وَلَوْ  
رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ  
مِنْهُمْ﴾ فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ<sup>(١)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِهِ:  
يَسْتَنْبِطُونَهُ أَيْ يَسْتَخْرِجُونَهُ [وَيَسْتَعْمِلُونَهُ] مِنْ مَعَادِينِهِ،  
يُقَالُ: اسْتَنْبَطَ الرَّجُلُ الْعَيْنَ إِذَا حَفَرَهَا وَاسْتَخْرَجَهَا مِنْ  
فُجُورِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قَالَ عَلِيُّ  
ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup>.

﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى  
اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسْ أُولَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ  
تَنْكِيلًا﴾<sup>(٣)</sup> مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ  
يَنْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
مُقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَابٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رَدُّوهَا إِنْ  
اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيرًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ  
إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

[أَمْرُ اللَّهِ رَسُولُهُ بِأَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ  
بِنَفْسِهِ، وَمَنْ نَكَلَ عَنْهُ فَلَا عَلَيْهِ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا  
تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ،  
قَالَ: سَأَلْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ عَنِ الرَّجُلِ يَلْقَى مِائَةً مِنَ  
الْعَدُوِّ فَيُقَاتِلُ أَبْيَكُونَ مِمَّنْ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى  
الْهَلَاكِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؟ قَالَ: قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّ ﷺ:  
﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.  
وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ  
عِيَّاشٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: قُلْتُ لِلْبَرَاءِ: الرَّجُلُ يَحْمِلُ  
عَلَى الْمُشْرِكِينَ، أَهُوَ مِمَّنْ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى الْهَلَاكِ؟ قَالَ:  
لَا، لِأَنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولَهُ ﷺ وَقَالَ: ﴿فَقَتِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا  
تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾. إِنَّمَا ذَلِكَ فِي التَّفَقُّهِ<sup>(٣)</sup>.

[تَحْرِيزُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ عَلَى الْقِتَالِ، وَرَغَبُهُمْ  
فِيهِ، وَشَجْعُهُمْ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ لَهُمْ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ  
يُسَوِّي الصُّفُوفَ: «قُومُوا إِلَى جَنَّتِهِ عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ  
وَالْأَرْضُ»<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي التَّرغِيبِ فِي  
ذَلِكَ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ  
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ  
أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ

(١) فتح الباري: ١٨٧/٩ ومسلم: ١١٠٥/٢ (٢) الطبري: ٨/٥٧٥ (٣) أحمد: ٢٨١/٤ (٤) مسلم: ١٥١٠/٣ (٥) فتح  
الباري: ١٤/٦ (٦) تحفة الأحوي: ٢٣٧/٧ (٧) ابن ماجه: ١٤٤٨/٢

فَأَمَّا أَهْلَ الذِّمَّةِ فَلَا يُلْدُونَ بِالْإِسْلَامِ وَلَا يُرَادُونَ، بَلْ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَلِمَ عَلَيْكُمُ الْيَهُودُ فَلِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقُلْ: وَعَلَيْكَ»<sup>(٨)</sup>. وفي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالْإِسْلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاصْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِهِ»<sup>(٩)</sup>.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَذَلَّكُمْ عَلَى أَمْرِ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» إِبْخَارٌ بِتَوْحِيدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَنَصَمَنَ قَسَمًا لِقَوْلِهِ: «لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ» وَهَذِهِ اللَّامُ مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، فَقَوْلُهُ: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» خَبَرٌ وَقَسَمٌ أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا» أَيُّ لَا أَحَدٌ أَصْدَقُ مِنْهُ فِي حَدِيثِهِ وَخَبَرِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨) وَدَوَّ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَحِّذُوا مِنْهُمْ وَلَكِنَّا لَا نَضِيقُ (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَبِثَّةٌ أَوْ جَاءَتْكُمْ حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقْبِلُوكُمْ أَوْ يُقْبِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقْبِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلَسْتُمْ قَوْمًا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ الْعَاقِبِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا

الْجَنَّةَ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(١١)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَوْلُهُ: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» أَيُّ بِتَحْرِيفِكُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى الْقِتَالِ تَنْبَعُ هِمُّهُمْ عَلَى مُنَاجَرَةِ الْأَعْدَاءِ. وَمُذَافَعَتِهِمْ عَنْ حَوَازَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَمُقَاوَمَتِهِمْ وَمُصَابِرَتِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّلًا» أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ...» الْآيَةُ [محمد: ٤].

### [الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ]

وَقَوْلُهُ: «مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا» أَيُّ مَنْ سَعَى فِي أَمْرِ، فَيَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، «وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا» أَيُّ يَكُونُ عَلَيْهِ وَزْرٌ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ الَّذِي تَرَتَّبَ عَلَى سَعْيِهِ وَيَنْتَبِئُهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ»<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي شَفَاعَاتِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ<sup>(١٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ وَعَطِيَّةٌ وَقَتَادَةُ وَمَطَرُ الْوَرَّاقِ: «مُقِيمًا» أَيُّ حَافِظًا<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شَهِيدًا، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: حَسِيًّا<sup>(١٥)</sup>.

### [الْأَمْرُ بِرَدِّ السَّلَامِ بِأَحْسَنِ مِنْهُ]

وَقَوْلُهُ: «وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَجَوبُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا» أَيُّ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْمُسْلِمُ فَرُدُّوا عَلَيْهِ أَفْضَلَ مِنْمَا سَلَّمَ، أَوْ رُدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلَّمَ، فَالزِّيَادَةُ مَذْبُوحَةٌ، وَالْمِثَالُ مَفْرُوضَةٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «عَشْرًا»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «ثَلَاثُونَ»<sup>(١٦)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَالْبَزْزَارُ، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوُجُوهِ. وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَعَلِيِّ وَسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ<sup>(١٧)</sup>. فَإِنْ بَلَغَ الْمُسْلِمُ غَايَةَ مَا شَرَعَ فِي السَّلَامِ، رَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا قَالَ.

(١) مسلم: ١٥٠١/٣ (٢) فتح الباري: ٣٥١/٣ (٣) الطبري:

٥٨١/٨ (٤) الطبري: ٥٨٣/٨ (٥) الطبري: ٥٨٣/٨ (٦)

أحمد: ٤٣٩/٤ (٧) أبو داود: ٣٧٩/٥ وتحفة الأحوذى: ٧/

٤٦٣ وكشف الأستار: ٤١٨/٢ (٨) فتح الباري: ٢٩٣/١٢

ومسلم: ١٧٠٦/٤ (٩) مسلم: ١٧٠٧/٤ (١٠) أبو داود: ٥/

قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَغْتَرلَوْكُمْ  
وَبَلَّغُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفؤْا أَيْدِيَهُمْ فُحْدُوهُمْ وَأَقْلَبُوهُمْ  
حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا  
مُبِينًا ﴿٩١﴾

[التَّكْبِيرُ عَلَى اخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ فِيمَنْ رَجَعَ مِنْ أُحُدٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَكَبِّرًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي اخْتِلَافِهِمْ فِي  
الْمُتَافِقِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ: وَاخْتَلَفَ فِي سَبَبِ ذَلِكَ فَرَوَى  
الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ  
إِلَى أُحُدٍ فَرَجَعَ نَاسٌ خَرَجُوا مَعَهُ، فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ يَقُولُ: نَقْتُلُهُمْ، وَفِرْقَةٌ يَقُولُ:  
لَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ﴾. فَقَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا طَبِئَةٌ وَإِنَّهَا تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الْكِبْرُ  
خَبَثَ الْحَدِيدِ»<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ  
العوفي عن ابن عباس: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا بِمَكَّةَ قَدْ  
تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، وَكَانُوا يُظَاهِرُونَ الْمُشْرِكِينَ، فَخَرَجُوا  
مِنْ مَكَّةَ يَطْلُبُونَ حَاجَةً لَهُمْ فَقَالُوا: إِنْ لَقِينَا أَصْحَابَ  
مُحَمَّدٍ فَلَيْسَ عَلَيْنَا مِنْهُمْ بَأْسٌ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا أُخْبِرُوا  
أَنَّهُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ، قَالَتْ فِتْنَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: أَرْكَبُوا  
إِلَى الْجُبْنَاءِ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُظَاهِرُونَ عَلَيْكُمْ عَدُوَّكُمْ،  
وَقَالَتْ فِتْنَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: سُبْحَانَ اللَّهِ - أَوْ كَمَا  
قَالُوا - أَتَقْتُلُونَ قَوْمًا قَدْ تَكَلَّمُوا بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُمْ بِهِ؟

[أ] مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُهَاجِرُوا وَلَمْ يَتْرَكُوا دِيَارَهُمْ، تُسْتَحَلُّ  
دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ؟ فَكَانُوا كَذَلِكَ فِتْنَتَيْنِ، وَالرُّسُولُ عَنْدهُمْ  
لَا يَنْهَى وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنْ شَيْءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَمَا  
لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ﴾<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أَيَّ رَدَّهُمْ  
وَأَوْقَعَهُمْ فِي الْخَطِإِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أَيَّ  
أَوْقَعَهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أَيَّ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ  
وَمُخَالَفَتِهِمُ الرُّسُولَ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا  
مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أَيَّ لَا طَرِيقَ  
لَهُ إِلَى الْهُدَى وَلَا مَخْلَصَ لَهُ إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ  
كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أَيَّ هُمْ يَوَدُّونَ لَكُمْ الصَّلَاةَ  
لِتَسْتَوُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ  
وَبُغْضِهِمْ لَكُمْ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَنَجِدُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى  
يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيَّ تَرَكُوا الْهَجْرَةَ. قَالَهُ  
العوفي عن ابن عباس<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ.

وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ  
مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى  
أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ  
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ  
مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ  
إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ  
فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ  
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا  
مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَأْتِيهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَاتِلُوا وَلَا تَقُولُوا  
لِمَنْ أَلْفَتْ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ  
عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَارِمُ كَثِيرَةٌ  
كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ  
فَتَقَاتِلُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

[مَنْ يُقَاتِلُ وَمَنْ لَا يُقَاتِلُ؟]

ثُمَّ اسْتَنْتَى اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى  
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ﴾ أَيَّ إِلَّا الَّذِينَ لَجَبُوا وَتَحَيَّزُوا إِلَى  
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مُهَادَنَةٌ، أَوْ عَقْدَ ذِمَّةٍ فَاجْعَلُوا حُكْمَهُمْ  
كَحُكْمِهِمْ. وَهَذَا قَوْلُ السُّدِّيِّ وَابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٦)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي قِصَّةِ ضَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ: فَكَانَ  
مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي ضَلْحِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ... وَمَنْ  
أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي ضَلْحِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ  
وَعَهْدِهِمْ...<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:  
نَسَخَهَا قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا أَسْلَحَ الْأَكْثَرُ الْمُكْرَمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ  
وَجَدْتُمُوهُمْ﴾<sup>(٨)</sup>... الْآيَةُ [التوبة: ٥].

(١) أحمد: ١٨٤/٥ (٢) فتح الباري: ١١٥/٤ ومسلم: ٢/١٠٠٧ (٣) الطبري: ١٠/٩ ضعيف العوفي وعائلته كلهم  
ضعفاء (٤) الطبري: ١٥/٩ (٥) الطبري: ١٧/٩ (٦)  
الطبري: ١٩/٩ (٧) فتح الباري: ٣٨٨/٥ وأحمد: ٣٢٥/٤  
(٨) الطبري: ١٨/٩

يَجِدُ قَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُكَاتِبَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَاتَ اللَّهُ  
عَلَيْهَا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَدًّا  
فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ  
وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾  
[حُكْمُ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ خَطَا]

يَقُولُ تَعَالَى: لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ بِرَجْوَةٍ  
مِّنَ الرُّجُوهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا  
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ  
بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ  
لِلْجَمَاعَةِ»<sup>(٣)</sup>. ثُمَّ إِذَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ، فَلَيْسَ  
لِأَحَدٍ مِنَ أَحَادِ الرِّعْيَةِ أَنْ يَقْتُلَهُ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ أَوْ  
نَائِبِهِ. وَقَوْلُهُ: «إِلَّا خَطَا» قَالُوا: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُّتَقَطِعٌ،  
وَاخْتِلَفَ فِي سَبَبِ تَرْوُلِ هَذِهِ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ:  
نَزَلَتْ فِي عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رِبْعَةَ أَخِي أَبِي جَهْلٍ لِأُمِّهِ، وَهِيَ  
أَسْمَاءُ بِنْتُ مُحَرَّبَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا يُعَذِّبُهُ مَعَ أَخِيهِ  
عَلَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الْخَارِثُ بْنُ يَزِيدَ الْعَامِرِيُّ، فَأَضْمَرَ لَهُ  
عِيَّاشُ السُّوءَ، فَأَسْلَمَ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَهَاجَرَ، وَعِيَّاشُ لَا  
يَشْعُرُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ رَأَى فَظْرًا أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ فَحَمَلَ  
عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٤)</sup>. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ  
زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي الدَّرْدَاءِ لِأَنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا وَقَدْ  
قَالَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ حِينَ رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ، فَأَهْوَى بِهِ إِلَيْهِ  
فَقَالَ كَلِمَتَهُ، فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: إِنَّمَا قَالَهَا  
مُتَعَوِّذًا فَقَالَ لَهُ: «هَلَا شَقِئْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟»<sup>(٥)</sup>. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ  
فِي الصَّحِيحِ لِغَيْرِ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

وَقَوْلُهُ: «وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ  
وَدِيَّةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ» هَذَانِ وَاجِبَانِ فِي قَتْلِ الْخَطَا،  
أَحَدُهُمَا: الْكُفَّارَةُ لِمَا ارْتَكَبَهُ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَإِنْ كَانَ  
خَطَا، وَمِنْ شَرْطِهَا أَنْ تَكُونَ عِنْتُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَلَا تُجْزَى  
الْكَافِرَةُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَّهُ  
جَاءَ بِأَمَةٍ سَوْدَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَلَيَّ عِنْتُ رَقَبَةٍ  
مُّؤْمِنَةٍ، فَإِنْ كُنْتُ تَرَى هَذِهِ مُؤْمِنَةً أَعْتَقْتُهَا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ  
اللَّهِ: «أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ:

وَقَوْلُهُ: «أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ»... الْآيَةُ،  
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ آخَرُونَ مِنَ الْمُشْكِنِينَ عَنِ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ،  
وَهُمُ الَّذِينَ يَجِيئُونَ إِلَى الْمَصَافِّ وَهُمْ حَصْرَةٌ صُدُورُهُمْ،  
أَيُّ ضَبَقَةٌ صُدُورُهُمْ، مُبْغِضِينَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ، وَلَا يَهْوُونَ  
عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ مَعَكُمْ، بَلْ هُمْ لَا لَكُمْ  
وَلَا عَلَيْكُمْ «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتَلُوكُمْ» أَيُّ مِنْ  
لُطْفِهِ بِكُمْ أَنْ كَتَبَهُمْ عَنْكُمْ «فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْفَوْا  
إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ» أَيُّ الْمُسَالَمَةِ «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ  
سَبِيلًا» أَيُّ فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ مَا دَامَتْ حَالُهُمْ  
كَذَلِكَ. وَهَؤُلَاءِ كَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ بَنِي  
هَاشِمٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَحَضَرُوا الْقِتَالَ وَهُمْ كَارِهُونَ،  
كَالْعَبَّاسِ وَنَحْوِهِ وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَتْلِ  
الْعَبَّاسِ وَأَمَرَ بِأَسْرِهِ، وَقَوْلُهُ: «سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ  
يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ» الْآيَةُ، هَؤُلَاءِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ  
كَمَنْ تَقَدَّمَهُمْ، وَلَكِنْ نِيَّةُ هَؤُلَاءِ غَيْرُ نِيَّةِ أَوْلَيْكَ، فَإِنَّ  
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّنَافِقُونَ: يُظْهِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَاُصْحَابِهِ  
الْإِسْلَامَ، لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ  
وَذَرَارِيِّهِمْ، وَيُضَافِعُونَ الْكُفَّارَ فِي الْبَاطِنِ، فَيَعْبُدُونَ مَعَهُمْ  
مَا يَعْبُدُونَ، لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مَعَ  
أَوْلَيْكَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا  
مَعَكُمْ»... الْآيَةُ [البقرة: ١٤]، وَقَالَ هَهُنَا: «كُلُّ مَا رَدُّوا  
إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا» أَيُّ انْهَمَكُوا فِيهَا. وَقَالَ السُّدِّيُّ:  
الْفِتْنَةُ - هَهُنَا - الشَّرْكُ<sup>(١)</sup>. وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهَا  
نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيُسَلِّمُونَ  
رَبَّاءَ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى قُرَيْشٍ فَيَرْتَكِسُونَ فِي الْأَوْتَانِ، يَنْتَعُونَ  
بِذَلِكَ أَنْ يَأْمَنُوا هَهُنَا وَهَهُنَا، فَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ إِنْ لَمْ يَغْتَرِلُوا  
وَيُضْلِحُوا<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَإِنْ لَمْ يَغْتَرِلُوا وَتَلَفُوا إِلَيْكُمْ  
أَسْلَمَ» الْمُهَادَنَةُ وَالضَّلْحُ، «وَيَكُونُوا أَيْدِيَهُمْ» أَيُّ عَنِ  
الْقِتَالِ، «فَحَذُّوهُمْ» أُسْرَاءُ، «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ يَفْتَنُوكُمْ» أَيُّ  
أَيْنَ لَقِيتُمُوهُمْ، «وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا» أَيُّ  
بَيِّنًا وَاضِحًا.

«وَمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا  
خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ» إِلَّا أَنْ  
يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ  
رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّبْرَئٌ  
فَدِيَّةٌ مُّسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ

(١) الطبري: ٢٨/٩ (٢) الطبري: ٢٧/٩ (٣) فتح الباري:

٢٠٩/١٢ ومسلم: ١٣٠٢/٣ (٤) الطبري: ٣٢/٩ (٥)

الطبري: ٣٤/٩



مَرَضٍ أَوْ حَيْضٍ أَوْ نَفَاسٍ اسْتَأْنَفَ، وَقَوْلُهُ: ﴿تَوَكَّبَهُ مِنَ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿أَيُّ هَذِهِ تَوَكُّبُهُ الْقَاتِلُ خَطَا إِذَا لَمْ يَجِدِ الْعِنَقَ صَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ.

### [الْوَعْدُ عَلَى قَتْلِ الْعَمْدِ]

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حُكْمَ الْقَتْلِ الْخَطِئِ شَرَعَ فِي بَيَانِ حُكْمِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا... آيَاتِهِ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعْدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَعَالَى هَذَا الذَّنْبَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ مَقْرُونٌ بِالشَّرِكِ بِاللَّهِ فِي غَيْرِ مَا آتَى فِي كِتَابِ اللَّهِ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾... آيَاتِهِ [الفرقان: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ قَاتِلُوا أَوْلَادَكُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾... آيَاتِهِ [الأنعام: ١٥١]، وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِ الْقَتْلِ كَثِيرَةٌ جَدًّا: فَمِنْ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»<sup>(٥)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْتَقًا (مُسْرَعًا فِي الطَّاعَةِ) صَالِحًا مَا لَمْ يُصَبَّ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَغَ»<sup>(٦)</sup> (وَقَعَ فِي الْهَلَكَةِ). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»<sup>(٧)</sup>.

### [هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَةُ قَاتِلِ الْعَمْدِ؟]

وَقَدْ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَرَى أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لِقَاتِلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: اخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ الْكُوفَةِ، فَوَحَلْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ، وَمَا نَسَخَهَا شَيْءٌ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَيْضًا مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٩)</sup>. وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ

«أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَتُؤْمِنِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «أَغْنَيْهَا»<sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ وَجَهَالَةٌ الصَّحَابِيِّ لَا تَضُرُّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ هُوَ الْوَاجِبُ الثَّانِي فِيمَا بَيْنَ الْقَاتِلِ وَأَهْلِ الْقَتِيلِ عَوَضًا لَهُمْ عَمَّا فَاتَهُمْ مِنْ قَرِيبِهِمْ، وَهَذِهِ الدِّيَّةُ إِنَّمَا تَجِبُ أَخْمَاسًا، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشُّنَنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي دِيَةِ الْخَطِئِ عَشْرِينَ بَنَتَ مَخَاضٍ، وَعَشْرِينَ بَنِي مَخَاضٍ ذُكُورًا، وَعَشْرِينَ بَنَتَ لُبُونٍ، وَعَشْرِينَ جَذَعَةً، وَعَشْرِينَ حَقَّةً، لَفْظُ النَّسَائِيِّ<sup>(٢)</sup>. وَهَذِهِ الدِّيَّةُ إِنَّمَا تَجِبُ عَلَى عَاقِلَةٍ الْقَاتِلِ لَا فِي مَالِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: اقْتَتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هَذِلٍ فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلَتْهَا وَمَا فِي بَطْنِهَا، فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَضَى أَنَّ دِيَةَ جَنِينِهَا غُرَّةٌ عَبْدًا أَوْ أَمَةً، وَقَضَى بِدِيَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا يَقْضِي أَنَّ حُكْمَ عَمْدِ الْخَطِئِ حُكْمُ الْخَطِئِ الْمُخْضِ فِي وُجُوبِ الدِّيَةِ، لَكِنْ هَذَا تَجِبُ فِيهِ الدِّيَةُ أَثْلَانًا كَالْعَمْدِ لِشَبْهَةِ الْعَمْدِ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَانًا صَبَانًا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُهُمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ»<sup>(٤)</sup>. وَبَعَثَ عَلِيًّا قُودَى قَتْلَاهُمْ وَمَا أَلْفَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى مِيلَعَةَ الْكَلْبِ. وَهَذَا الْحَدِيثُ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ خَطَا الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ يَكُونُ فِي بَيْتِ الْمَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ أَيُّ فَتَجِبُ فِيهِ الدِّيَةُ مُسْلَمَةً إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقُوا بِهَا، فَلَا تَجِبُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أَيُّ إِذَا كَانَ الْقَتِيلُ مُؤْمِنًا، وَلَكِنْ أَوْلِيَاؤُهُ مِنَ الْكُفَرِ أَهْلُ حَرْبٍ، فَلَا دِيَةَ لَهُمْ، وَعَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ لَا غَيْرَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حِدَّةٌ﴾... آيَاتِهِ، أَيُّ فَإِنْ كَانَ الْقَتِيلُ أَوْلِيَاؤُهُ أَهْلُ دِمَةٍ أَوْ هُدْنَةٍ، فَلَهُمْ دِيَةٌ قَتِيلِهِمْ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا فِدِيَةٌ كَامِلَةٌ، وَجِبَتْ أَيْضًا عَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أَيُّ لَا إِفْطَارَ بَيْنَهُمَا بَلْ يَسْرُدُ صَوْمَهُمَا إِلَى آخِرِهِمَا، فَإِنْ أَفْطَرَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ مِنْ

(١) أحمد: ٤٥١/٣ (٢) النسائي: ٤٧٩٩ وأحمد ٣٨٤/١ وأبو داود: ٤٥٤٥ والترمذي: ١٣٨٦ وابن ماجه: ٢٦٣١ (٣) فتح الباري: ١٢/٢٦٣ ومسلم: ١٣٠٩/٣ (٤) فتح الباري: ٧/٦٥٣ (٥) فتح الباري: ١١/٤٠٢ ومسلم: ١٣٠٤/٣ (٦) جامع المسانيد والسنن: ٧/١٤٣ (٧) تحفة الأحوذى: ٤/٦٥٢ (٨) فتح الباري: ٨/١٠٦ (٩) مسلم: ٤/٢٣١٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٢٦

وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»<sup>(٢)</sup>.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا صَرَسَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُوا وَلَا يَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ أَلَسَلَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَعَ كَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

[السلام من علامات الإسلام]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَزْعَى غَنَمًا لَهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْنَا إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنَّا، فَعَمَدُوا إِلَيْهِ فَقَتَلُوهُ، وَأَتَوْا بِغَنَمِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَتَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾<sup>(٣)</sup> إِلَى آخِرِهَا، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي التَّفْسِيرِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا يَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ أَلَسَلَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ رَجُلٌ فِي غَنَمَةٍ لَهُ فَلَجَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا غَنِيمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا يَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ أَلَسَلَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَرَضُ الدُّنْيَا تِلْكَ الْغَنِيمَةُ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَلَسَلَكُمْ﴾<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي حَذَرْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، [عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَذَرْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِصْمَ فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ، وَمُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ بْنِ قَيْسٍ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَطْنِ إِصْمَ، مَرَّ بِنَا عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ الْأَشْجَعِيُّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ، مَعَهُ مَتَبَعٌ (تصغير متاع وهو السلعة وأثاث البيت) لَهُ وَوَطْبٌ (سقاء اللبن) مِنْ لَبَنٍ، فَلَمَّا مَرَّ بِنَا سَلَّمَ عَلَيْنَا، فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ فَقَتَلَهُ، بِسَيْفٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمَتَبِعَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ

سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا: أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ تَوْبَةٌ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ تَابَ وَأَتَابَ، وَخَشَعَ وَخَضَعَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، وَعَوَّضَ الْمَقْتُولَ مِنْ ظُلَامَتِهِ وَأَرْضَاهُ عَنْ [طَلَابَتِهِ] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾... الْآيَةُ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وَهَذَا خَبَرٌ لَا يَجُوزُ نَسْخُهُ وَحَمْلُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَحَمْلُهُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ خِلَافَ الظَّاهِرِ، وَيَحْتَاجُ حَمْلُهُ إِلَى دَلِيلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾... الْآيَةُ [الزمر: ٥٣]، وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مِنْ كُفْرٍ وَشُرْكَ وَنِفَاقٍ وَقَتْلٍ وَفُسْقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كُلٌّ مِنْ تَابَ أَيْ مِنْ أَيْ ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْيِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مَا عَدَا الشُّرْكَ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ وَقِيلَهَا لِتَقْوِيَةِ الرَّجَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَبُتِيَ فِي الصَّحِيحَيْنِ خَبَرُ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ ثُمَّ أَرْشَدَهُ إِلَى بَلَدٍ يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ، فَهَاجَرَ إِلَيْهِ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ<sup>(١)</sup>. كَمَا ذَكَرْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَإِنْ كَانَ هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَا أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى، لِأَنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنَّا الْأَصَارَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ وَبَعَثَ نَبِيَّنَا بِالْخَفِيفَةِ السَّمْحَةِ.

فَأَمَّا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾... الْآيَةُ، فَقَدْ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ: هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جَازَاهُ، وَمَعْنَى هَذِهِ الصَّيْغَةِ: أَنَّ هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جُوزِيَ عَلَيْهِ، وَكَذَا كُلُّ وَعِيدٍ عَلَى ذَنْبٍ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ لِذَلِكَ مُعَارِضٌ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تَمْنَعُ وَصُولَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ إِلَيْهِ عَلَى قَوْلِي أَصْحَابِ الْمُوَازَنَةِ وَالْإِحْبَاطِ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا يُسَلِّكُ فِي بَابِ الْوَعِيدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْصَّوَابِ. وَبِتَقْدِيرِ دُخُولِ الْقَاتِلِ إِلَى النَّارِ، إِنَّمَا عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَنْ وَافَقَهُ: أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لَهُ، أَوْ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ حَيْثُ لَا عَمَلٌ لَهُ صَالِحًا يَنْجُو بِهِ، فَلَيْسَ بِمُخْلَدٍ فِيهَا أَبَدًا، بَلِ الْخُلُودُ هُوَ الْمَكْتُ الطَّوِيلُ،

(١) فتح الباري: ٥٩١/٦ ومسلم: ٢١١٨/٤ (٢) البخاري: ٤٤، ٧٥٠٩ والترمذي: ٢٥٩٨ (٣) أحمد: ٢٧٢/١ (٤) تحفة الأحوذني: ٣٨٦/٨ (٥) الحاكم: ٢٣٥/٢ (٦) فتح الباري: ١٠٧/٨

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسِئَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٥٥) دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٦)

### [لَا يَسْتَوِي الْمُجَاهِدُونَ وَالْقَاعِدُونَ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدًا فَكَتَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَشَكَا ضَرَارَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ (٥٦). رَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ رَأَى مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ فِي الْمَسْجِدِ، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْلَى عَلَيَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمِيلُهَا عَلَيَّ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ، وَكَانَ أَعْمَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَكَانَ فَخْذُهُ عَلَى فَخْذِي، فَتَقَلَّتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرْضَى فَخْذِي، ثُمَّ شَرَّيْتُ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ (٦١).

إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ عَنْ بَدْرِ وَالْحَارِثِ إِلَى بَدْرِ، وَلَمَّا نَزَلَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ، قَالَ [أَبُو أَحْمَدُ بْنُ جَحْشٍ] وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ: إِنَّا أَعْمَيَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَهَلْ لَنَا رُحْصَةٌ؟ فَتَزَلَّتْ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، فَهَؤُلَاءِ الْقَاعِدُونَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٥٥) دَرَجَتٍ مِنْهُ عَلَى الْقَاعِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ. هَذَا لَفْظُ التِّرْمِذِيِّ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ (٧). فَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَانَ مُطْلَقًا، فَلَمَّا نَزَلَ بِوَحْيٍ سَرِيعٍ ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾، صَارَ ذَلِكَ مَخْرَجًا لِدَوَى الْأَعْدَارِ الْمُسِيحَةِ لِتَرْكِ

اللَّهِ ﷻ وَأَخْبَرَنَاهُ الْخَبَرَ نَزَلَ فِيْنَا [الْقُرْآنُ] ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿خَيْرًا﴾ تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ (١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُقَدَّادِ: «إِذَا كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَقَتَلْتُهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتُ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلِ». هَكَذَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ (٢) هَذَا الْحَدِيثَ مُعَلِّقًا مُخْتَصِرًا. وَقَدْ رَوَى مُطَوَّلًا مُؤْصَلًا، فَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبُرَّاءُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فِيهَا الْيَمْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، فَلَمَّا أَتَوْا الْقَوْمَ وَجَدُوهُمْ قَدْ تَفَرَّقُوا. وَبَقِيَ رَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لَمْ يَبْرَحْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَهْوَى إِلَيْهِ الْيَمْدَادُ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: أَقَتَلْتَ رَجُلًا شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ وَاللَّهِ لَا ذِكْرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ رَجُلًا شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَتَلْتَهُ الْيَمْدَادُ. فَقَالَ: «ادْعُوا لِي الْيَمْدَادَ، يَا يَمْدَادُ، أَقَتَلْتَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَيْفَ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَدًا؟» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ اسَلَّمْتُ لَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبَيَّنُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَكَانُهُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُقَدَّادِ: «كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيْمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيْمَانَهُ فَقَتَلْتُهُ، فَكَذَلِكَ كُنْتُ أَنْتَ تُخْفِي إِيْمَانَكَ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلِ» (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَكَانُهُ كَثِيرٌ﴾ أَيْ خَيْرٌ مِمَّا رَغِبْتُمْ فِيهِ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ مِثْلِ هَذَا الَّذِي أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ، وَأَظْهَرَ إِلَيْكُمْ الْإِيْمَانَ، فَتَغَافَلْتُمْ عَنْهُ، وَاتَّهَمْتُمُوهُ بِالْمُضَانَعَةِ وَالتَّيْبَةِ، لِيَتَبَيَّنُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرُّزْقِ الْحَلَالِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ مَالِ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ قَدْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالِ كَهَذَا الَّذِي يُسِرُّ إِيْمَانَهُ وَيُخْفِيهِ مِنْ قَوْمِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ آتِنَا، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾ [الأنفال: ٢٦]، وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ تَسْتَضْعَفُونَ بِإِيْمَانِكُمْ كَمَا اسْتَضَفَى هَذَا الرَّاعِي بِإِيْمَانِهِ (٤).

(١) أحمد: ١١/٦ (٢) البخاري: ٦٨٦٦ (٣) مجمع الزوائد:

٩/٧ (٤) عبد الرزاق: ١٧٠/١ (٥) فتح الباري: ١٠٨/٨

(٦) فتح الباري: ١٠٨/٨ (٧) تحفة الأحمدي: ٣٨٨/٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٤

الْمُجَاهِدِينَ

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

الْمُتَافِقِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، وَخَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَأَصِيبُوا فِيمَنْ أَصِيبَ، فَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ (٤) غَامَةً فِي كُلِّ مَنْ أَقَامَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمُشْرِكِينَ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْهَجْرَةِ، وَلَيْسَ مُتَمَكِّنًا مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ، فَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، مُرْتَكِبٌ حَرَامًا، بِالْإِجْمَاعِ وَبِنَصِّ هَذِهِ الْآيَةِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيِ بَتْرِكِ الْهَجْرَةِ ﴿قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ﴾ أَيِ لِمَ مَكَّنْتُمْ هَاهُنَا وَتَرَكْتُمْ الْهَجْرَةَ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيِ لَا نَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْبَلَدِ، وَلَا الدَّهَابِ فِي الْأَرْضِ ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾... الْآيَةُ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ، أَمَّا بَعْدُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ» (٥).

(١) فتح الباري: ٧/٧٣٢ (٢) مسلم: ١٥٠١/٣ (٣) فتح الباري: ٨/١١١ (٤) الطبري: ٩/١٠٨ (٥) أبو داود: ٣/٢٢٤ إسناده ضعيف فيه جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب قال ابن حجر: ليس بالقوي. [تقريب التهذيب].

الْجِهَادِ مِنَ الْعَمَى وَالْعَرَجِ وَالْمَرَضِ، عَنْ مُسَاوَاتِهِمْ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا يَسِرُّهُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ» قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ» (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أَيِ الْجَنَّةِ وَالْجَزَاءِ الْجَزِيلِ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ بِفَرْضٍ عَيْنٍ، بَلْ هُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِمَا فَضَّلَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ، فِي غَرْفِ الْجَنَانِ الْعَالِيَاتِ، وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ، وَخُلُوفِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَاتِ، إِحْسَانًا مِنْهُ وَتَكْرِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَا وَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

[الْتَّهْيِي عَنْ الْمُكْتِ فِي الْمُشْرِكِينَ لِلْقَادِرِينَ عَلَى

الْهَجْرَةِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبِي الْأَسْوَدِ، قَالَ: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْثُ، فَاتَّخِذْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرَمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فَهَاجِرًا عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكْثِرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ، فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرِبُ عَنْقَهُ فَيَقْتُلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (٣). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي نَاسٍ مِنْ

الْأَعْمَالِ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، ثُمَّ أَكْمَلَ بِذَلِكَ الْعَابِدِ الْمِائَةَ ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ ثُمَّ أَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ. فَلَمَّا ارْتَحَلَ مِنْ بَلَدِهِ مُهَاجِرًا إِلَى الْبَلَدِ الْآخَرِ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَانْتَضَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَ هُوَ لَاءٍ: إِنَّهُ جَاءَ تَائِبًا، وَقَالَ هُوَ لَاءٍ: إِنَّهُ لَمْ يُصَلِّ بَعْدُ، فَأَمَرُوا أَنْ يُقَسِّمُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أُتَيْتَهُمَا كَانَ أَقْرَبَ فَهُوَ مِنْهَا، فَأَمَرَ اللَّهُ هَذِهِ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْ هَذِهِ، وَهَذِهِ أَنْ تَبْعُدَ، فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا بِشِيرٍ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ. وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ لَمَّا جَاءَهُ الْمَوْتُ نَاءً بِصَدْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا<sup>(٨)</sup>.

﴿وَإِذَا ضَرَأْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾<sup>(٩)</sup>  
[صَلَاةُ الْقَصْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَأْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي سَافَرْتُمْ فِي الْبِلَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَضًى وَآخَرُونَ يَضُرُّونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...﴾<sup>(١٠)</sup> الْآيَةَ. [المزمل: ٢٠] وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أَي تُخَفِّفُوا فِيهَا مِنْ كَمِّيَّتِهَا بِأَنْ تُجْعَلَ الرُّبَاعِيَّةُ ثُنَائِيَّةً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَقَدْ يَكُونُ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجِ الْغَالِبِ حَالِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّ فِي مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ كَانَ غَالِبُ أَصْفَارِهِمْ مَخُوفَةً، بَلْ مَا كَانُوا يَنْهَضُونَ إِلَّا إِلَى غَزْوٍ عَامٍّ، أَوْ فِي سَرِيَّةٍ خَاصَّةٍ. وَسَائِرُ [الْأَحْيَاءِ] حَزْبٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَالْمَنْطُوقُ إِذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ أَوْ عَلَى حَادِثَةٍ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَهِكُمْ إِنَّ أَرْدَنَ نَحْوَكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبِّبْنَاهُمْ

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا السُّفَهَاءَ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، هَذَا عَذْرٌ مِنَ اللَّهِ لَهُوْلَاءٍ فِي تَرْكِ الْهَجْرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ قَدَرُوا مَا عَرَفُوا يَسْلُكُونَ الطَّرِيقَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ: يَعْنِي طَرِيقًا<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْتِقَهُمْ﴾ أَي يَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ بِتَرْكِ الْهَجْرَةِ. وَعَسَى مِنَ اللَّهِ مُوجِبَةٌ. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَمُوًّا عَفُوًّا﴾. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الْعِشَاءَ إِذْ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِينَى يُوسُفَ»<sup>(١٢)</sup>.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: أَتَبْنَا أَبُو النُّعْمَانِ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِلَّا السُّفَهَاءَ﴾ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنْ عَذْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(١٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، هَذَا تَحْرِيطٌ عَلَى الْهَجْرَةِ وَتَرْغِيبٌ فِي مُفَارَقَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ حَيْثُمَا ذَهَبَ وَجَدَ عَنْهُمْ مَدْوَحَةً وَمَلْجَأً يَتَحَصَّنُ فِيهِ، وَالْمُرَاعَمُ مُصَدَّرٌ تَقُولُ الْعَرَبُ: رَاعِمٌ فَلَانٌ قَوْمُهُ مُرَاعِمًا وَمُرَاعِمَةً. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُرَاعَمُ: التَّحْوُلُ مِنَ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ<sup>(١٤)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنِ الصَّحَّاحِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَالتَّوْرِيِّ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُرْعَمًا كَثِيرًا﴾ يَعْنِي مُتَزَحِّزِحًا عَمَّا يَكْرَهُ. قَوْلُهُ: ﴿سَعَةً﴾ يَعْنِي الرِّزْقَ.

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قِتَادَةُ حَيْثُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ إِي [وَاللَّهُ] مِنَ الصَّلَاةِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنْ الْقِلَّةِ إِلَى الْغِنَى<sup>(١٦)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي وَمَنْ خَرَجَ مِنْ مَنَزِلِهِ بِنِيَّةِ الْهَجْرَةِ فَمَاتَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ مَنْ هَاجَرَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَّاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَالشُّنَنِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»<sup>(١٧)</sup>. وَهَذَا عَامٌّ فِي الْهَجْرَةِ وَفِي جَمِيعِ

(١) الطبري: ١١١/٩ (٢) فتح الباري: ١١٣/٨ (٣) فتح الباري: ١١٣/٨ (٤) الطبري: ١١٩/٨ (٥) الطبري: ٨/١١٩، ١٢٠ (٦) الطبري: ١٢١/٩ (٧) فتح الباري: ١٦٤/١ (٨) ومسلم: ١٥١٥/٣ وأبو داود: ٦٥١/٢ وتحفة الأحوذى: ٥/٢٨٣ والنسائي: ٧١٣/٧ وابن ماجه: ١٤١٣/٢ وأحمد: ٢٥/١ (٩) فتح الباري: ٥٩١/٦ ومسلم: ٢١١٨/٤

فَرَادَى مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا وَرَجَالًا وَرُكْبَانًا، وَلَهُمْ أَنْ يَمْشُوا وَالْحَالَةَ هَذِهِ وَيَضْرِبُوا الضَّرْبَ الْمُتَّبَاعَ فِي مَتْنِ الصَّلَاةِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: يُصَلُّونَ وَالْحَالَةَ هَذِهِ رُكْعَةً وَاحِدَةً لِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ رُكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رُكْعَةً. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٩)</sup>. وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ. قَالَ الْمُنْذِرِيُّ فِي الْحَوَاشِي: وَبِهِ قَالَ عَطَاءٌ وَجَابِرٌ وَالْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَكَمُ وَقَتَادَةُ وَحَمَّادٌ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ طَاوُسٌ وَالضُّحَّاكُ، وَقَدْ حَكَى أَبُو عَاصِمٍ الْعَبَادِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ نَصْرِ الْمُرُوزِيِّ: أَنَّهُ يَرَى رَدَّ الصُّبْحِ إِلَى رُكْعَةٍ فِي الْخَوْفِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ حَزْمٍ أَيْضًا. وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوِيَه: أَمَّا عِنْدَ الْمُسَايِقَةِ فَيُجْزَلُ رُكْعَةً وَاحِدَةً تُؤْمَى بِهَا إِيْمَاءً، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَسَجْدَةً وَاحِدَةً لِأَنَّهَا ذُكِرَ اللَّهُ.

وَلِنَدُّكَرِ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَوَّلًا قَبْلَ ذِكْرِ صِفَتِهَا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عِيَّاشٍ الزُّرَقِيُّ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغُسْفَانَ، فَاسْتَقْبَلَنَا الْمُشْرِكُونَ، عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَهُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ، فَقَالُوا: لَقَدْ كَانُوا عَلَى حَالٍ لَوْ أَصَبْنَا غَرَّتَهُمْ، ثُمَّ قَالُوا: تَأْتِي عَلَيْهِمْ الْآنَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، قَالَ: فَتَنَزَّلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قَالَ: فَحَضَرْتُ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذُوا السَّلَاحَ، فَصَفَّنَا خَلْفَهُ صَفَيْنِ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَكَعْنَا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّفِّ الَّذِي بِلَيْهِ، وَالْآخَرُونَ قِيَامًا يَحْرِسُونَهُمْ، فَلَمَّا سَجَدُوا وَقَامُوا جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا فِي مَكَانِهِمْ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَصَافِّ هَؤُلَاءِ، وَجَاءَ هَؤُلَاءِ إِلَى مَصَافِّ

الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ إِسَاءِكُمْ﴾... الْآيَةُ [النساء: ٢٣]، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ، قَالَ: سَأَلْتُ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَقَدْ آمَنَ [اللَّهُ] النَّاسُ؟ فَقَالَ لِي عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَجِبْتُ وَمَا عَجِبْتُ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَأَقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»<sup>(١٠)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ، وَلَا يُحْفَظُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوُجُوهِ وَرَجَالِهِ مَعْرُوفُونَ. وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ أَبِي حَنْظَلَةَ الْحَدَّاءِ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنْ صَلَاةِ السَّفَرِ، فَقَالَ: رُكْعَتَانِ، فَقُلْتُ: أَيْنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَنَحْنُ آمِنُونَ؟ فَقَالَ: سُنَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(١٢)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَكَانَ يُصَلِّي رُكْعَتَيْنِ رُكْعَتَيْنِ حَتَّى رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، قُلْتُ: أَقَمْتُمْ بِمَكَّةَ شَيْئًا؟ قَالَ: أَقَمْنَا بِهَا عَشْرًا<sup>(١٣)</sup>. وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبٍ الْخُزَاعِيِّ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ بِمِنَى أَكْثَرَ مَا كَانَ النَّاسُ، وَأَمَنَهُ رُكْعَتَيْنِ<sup>(١٥)</sup>. وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى ابْنِ مَاجَةَ<sup>(١٦)</sup>. وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آمَنَ مَا كَانَ بِمِنَى رُكْعَتَيْنِ<sup>(١٧)</sup>.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنُفِيقَنَّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَهُمْ وَالدِّينَ كَفَرُوا لَوْ تَفَلَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْعِيكُمْ فَمِيعُونَ عَلَيْكُمْ مِثْلَهُ وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

### [بَيَانُ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَأَنْوَاعِهَا]

صَلَاةُ الْخَوْفِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، فَإِنَّ الْعُدُوَّ تَارَةً يَكُونُ تَجَاهَ الْقِبْلَةَ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي غَيْرِ صَوْبِهَا، وَالصَّلَاةُ تَارَةً تَكُونُ رُبَاعِيَّةً، وَتَارَةً ثَلَاثِيَّةً كَالْمَغْرِبِ، وَتَارَةً تَكُونُ ثَنَائِيَّةً كَالصُّبْحِ وَصَلَاةِ السَّفَرِ، ثُمَّ تَارَةً يُصَلُّونَ جَمَاعَةً، وَتَارَةً يَلْتَجِمُ الْحَرْبُ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَمَاعَةِ، بَلْ يُصَلُّونَ

(١) أحمد: ٢٥/١ (٢) مسلم: ٤٧٨/١ وأبو داود: ٧/٢ وتحفة الأحوذى: ٣٩٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٢٧/٦ وابن ماجه: ٣٣٩/١ (٣) ابن أبي شيبة: ٤٤٧/٢ (٤) فتح الباري: ٢/٢٥٣ (٥) مسلم: ٤٨١/١ وأبو داود: ٢٥/٢ وتحفة الأحوذى: ١١٠/٣ والنسائي: ١٢١/٣ وابن ماجه: ٣٤٢/١ (٦) أحمد: ٣٠٦/٤ (٧) فتح الباري: ٦٥٥/٢ ومسلم: ٤٨٤/١ وأبو داود: ٤٩٣/٢ وتحفة الأحوذى: ٦٢١/٣ والنسائي: ١١٩/٣ (٨) فتح الباري: ٦٥٥/٢ (٩) مسلم: ٦٨٧ وأبو داود: ١٢٤٧ والنسائي: ١٦٩/٣ وابن ماجه: ١٠٦٨

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٣﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٥﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٦﴾

لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٦﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٥﴾

[الْأَمْرُ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ، وَإِنْ كَانَ مَشْرُوعًا مُرَعَّبًا فِيهِ أَيْضًا -بَعْدَ- غَيْرِهَا، وَلَكِنْ هَهُنَا أَكْثَرُ، لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّخْفِيفِ فِي أَرْكَانِهَا، وَمِنْ الرُّخْصَةِ فِي الدَّهَابِ فِيهَا وَالْإِتَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْأَشْهُرِ

هَؤُلَاءِ، ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ فَرَفَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَالصَّفُّ الَّذِي بِلَيْهِ، وَالْآخَرُونَ قِيَامًا يَحْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا جَلَسُوا جَلَسَ الْآخَرُونَ فَسَجَدُوا، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفَ، قَالَ: فَصَلَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً يُعْسِفَانِ، وَمَرَّةً بِأَرْضِ بَنِي سُلَيْمٍ <sup>(١)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ <sup>(٢)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ وَلَهُ شَوَاهِدٌ كَثِيرَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، فَكَبَّرَ وَكَبَّرُوا مَعَهُ، وَرَكَعَ وَرَكَعَ نَاسٌ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدُوا مَعَهُ، ثُمَّ قَامَ الثَّانِيَةَ، فَقَامَ الَّذِينَ سَجَدُوا وَحَرَسُوا إِخْوَانَهُمْ، وَأَتَتْ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَرَكَعُوا وَسَجَدُوا مَعَهُ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ يَحْرُسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا <sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، صَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الْخَوْفِ، فَقَامَ صَفٌّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَصَفٌّ خَلْفَهُ، فَصَلَّى بِالَّذِي خَلْفَهُ رُكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هَؤُلَاءِ حَتَّى قَامُوا فِي مَقَامِ أَصْحَابِهِمْ، وَجَاءَ أُولَئِكَ حَتَّى قَامُوا فِي مَقَامِ هَؤُلَاءِ، فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، فَكَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ رُكْعَتَيْنِ، وَلَهُمْ رُكْعَةٌ <sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَهُوَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ بِلَفْظٍ آخَرَ، وَقَدْ رَوَاهُ عَنْ جَابِرٍ جَمَاعَةٌ كَثِيرُونَ فِي الصَّحِيحِ وَالسَّنَنِ وَالْمُسَانِيدِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قَالَ: هِيَ صَلَاةُ الْخَوْفِ، صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَحَدِي الطَّائِفَتَيْنِ رُكْعَةً، وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى مُقْبِلَةً عَلَى الْعُدُوِّ، وَأَقْبَلَتِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى النَّبِيَّ كَانَتْ مُقْبِلَةً عَلَى الْعُدُوِّ فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رُكْعَةً أُخْرَى، ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ، ثُمَّ قَامَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَصَلَّتْ رُكْعَةً رُكْعَةً <sup>(٥)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ طَرِيقِ مَعْمَرِ بْنِ يَسَارٍ. وَلِهَذَا الْحَدِيثُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ أَجَادَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ مَرْذُوقٍ فِي سَرْدِ طُرُقِهِ وَالْفَاطِظُ، وَكَذَا ابْنُ جَرِيرٍ. وَأَمَّا الْأَمْرُ بِحِمْلِ السِّلَاحِ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ فَمَحْمُولٌ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْوُجُوبِ لِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَيَذَلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أَيُّ بَحِثٍ تَكُونُونَ عَلَى أَهْمِيَّةٍ إِذَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهَا لِبَسْتُمُوهَا بِلاَ كُلْفَةٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ

(١) أحمد: ٦٠، ٥٩/٤ (٢) أبو داود: ٢٨/٢ والنسائي: ٣/ ١٧٧، ١٧٦ (٣) فتح الباري: ٥٠٢/٢ (٤) أحمد: ٢٩٨/٣ والنسائي: ١٧٤/٣ ومسلم: ٨٤٠ (٥) الدر المنثور: ٣٧٥/٢

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ  
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ  
خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ  
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ  
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ  
عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ  
الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ  
سُوءًا أَوْ يَطْلُبْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا  
رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَى نَفْسِهِ  
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا  
ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا  
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ  
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ  
شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ  
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ

يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

[الْأَمْرُ بِالْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ  
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ هُوَ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْحَقَّ فِي  
خَبَرِهِ وَطَلَبِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بَيَّنَّ  
فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، سَمِعَ جَلْبَةَ خَضَمِ بَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ  
إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِمَا  
أَسْمَعُ، وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ يَحُجِّجُهُ مِنْ بَعْضِ  
فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ  
نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذَرْهَا»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ  
سَلَمَةَ، قَالَتْ: جَاءَ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ يَخْتَصِمَانِ إِلَى

الْحُرْمِ: ﴿فَلَا تَطْلُبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] وَإِنْ  
كَانَ هَذَا مِنْهَا عَنْهُ فِي غَيْرِهَا، وَلَكِنْ فِيهَا أَكْثَرُ، لِشِدَّةِ  
حُرْمَتِهَا وَعَظَمَتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ  
فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ﴾ أَيُّ فِي سَائِرِ  
أَحْوَالِكُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾  
أَيُّ فَإِذَا أَمِنْتُمْ وَذَهَبَ الْخَوْفُ، وَحَصَلَتِ الطَّمَأْنِينَةُ  
﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَيُّ فَأَتِمُّوْهَا وَأَقِيمُوهَا كَمَا أُمِرْتُمْ  
بِحُلُودِهَا، وَخُشُوعِهَا، وَرُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، وَجَمِيعِ  
شُرُونِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا  
مَوْقُوتًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ مَفْرُوضًا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّ  
لِلصَّلَاةِ وَقْتًا كَوَقْتُ الْحَجِّ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ  
مُجَاهِدٍ وَسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ  
وَالْحَسَنِ وَمُقَاتِلِ بْنِ السُّدِّيِّ وَعَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ<sup>(٤)</sup>.

[الْحَضُّ عَلَى مُطَارَدَةِ الْعَدُوِّ رَغْمَ الْجِرَاحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهَيَّؤْا فِي بَيْتِغَاءٍ الْقَوْمَ﴾ أَيُّ لَا تَضَعُوا  
فِي طَلَبِ عَدُوِّكُمْ، بَلْ جِدُّوا فِيهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ، وَأَقْعِدُوا لَهُمْ  
كُلَّ مَرَصِدٍ ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾  
أَيُّ كَمَا يُصِيبُكُمْ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ كَذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُمْ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾  
[آل عمران: ١٤٠].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أَيُّ أَنْتُمْ  
وَأَيَّاهُمْ سُوءًا فِيمَا يُصِيبُكُمْ وَإَيَّاهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْآلَامِ،  
وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ الْمُتَوَبَّةَ وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ، كَمَا  
وَعَدَكُمْ إِيَّاهُ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَهُوَ وَعْدٌ  
حَقٌّ، وَخَيْرٌ صِدْقٍ، وَهُمْ لَا يَرْجُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْتُمْ  
أَوْلَى بِالْجِهَادِ مِنْهُمْ، وَأَشَدُّ رَغْبَةً فِي إِقَامَةِ كَلِمَةِ اللَّهِ  
وِإِعْلَانِهَا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيُّ هُوَ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ  
فِيمَا يَقْدَرُهُ وَيَقْضِيهِ وَيَقْدُرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنْ أَحْكَامِهِ الْكُؤُوبِيَّةِ  
وَالشَّرْعِيَّةِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ  
اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَافِينَ خَصِيمًا﴾<sup>(٥)</sup> وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ  
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٤﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ  
اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١١٥﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا  
يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ  
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١١٦﴾ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ

(١) الطبري: ١٦٩/٩ (٢) الطبري: ١٦٩/٩ (٣) الطبري: ٩/٩

(٤) فتح الباري: ١٢٨/٥ ومسلم: ١٣٣٧/٣

(٥) ١٦٨، ١٦٧



وَكَيْلًا.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَهَا يَريَا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (٤)

[الترغيب في التوبة والاستغفار والوعيد لمن يكسب الإثم أو يرمي به البريء]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَخْبَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِعَفْوِهِ وَحِلْمِهِ وَكَرَمِهِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ فَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَعْظَمَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ (٣). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا تَفَعَّنِي اللَّهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَفَعَّنِي مِنْهُ. وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ - وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدَٰلِكَ الذَّنْبِ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ» وَفَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...﴾ الْآيَةِ، «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...» (٤). الْآيَةِ [آل عمران: ١٣٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ...﴾ الْآيَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وَزِدَ أُخْرَىٰ الْآيَةِ [فاطر: ١٨]، يَغْنِي أَنَّهُ لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ لَا يَحْمِلُ عَنْهَا غَيْرَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيُّ مِنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ كَانَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَوَارِيثَ بَيْنَهُمَا قَدْ دَرَسَتْ، لَيْسَ عِنْدَهُمَا بَيِّنَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا إِسْطِطَامًا (الحديدة التي تحرك بها النار) فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ مِنْهُمَا: حَقِّي لِأَخِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِذَا قُلْتُمَا قَاذِبًا فَاقْتَسِمَا، ثُمَّ تَوَخَّيَا الْحَقَّ ثُمَّ اسْتَغْنِيَا، ثُمَّ لِيُخْلِلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ» (١).

وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَرْذُوقٍ، مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنْ نَفَرَا مِنَ الْأَنْصَارِ غَزَاً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ، فَسَرَقَتْ دِرْعٌ لِأَحَدِهِمْ، فَأُطْلِفَ بِهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَى صَاحِبَ الدَّرْعِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ طُعْمَةَ بَنِ أُبَيْرِقٍ سَرَقَ دِرْعِي، فَلَمَّا رَأَى السَّارِقَ ذَلِكَ عَمَدَ إِلَيْهَا فَأَلْقَاهَا فِي بَيْتِ رَجُلٍ بَرِيءٍ، وَقَالَ لِنَفَرٍ مِنْ عَشِيرَتِهِ: إِنِّي عَيَّبْتُ الدَّرْعَ وَالْقَيْئُهَا فِي بَيْتِ فُلَانٍ، وَسَتُوجَدُ عِنْدَهُ. فَاظْلُقُوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ لَيْلًا فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنْ صَاحِبَنَا بَرِيءٌ. وَإِنَّ صَاحِبَ الدَّرْعِ فُلَانٌ، وَقَدْ أَحْطَنَّا بِذَلِكَ عِلْمًا، فَاغْزُرْ صَاحِبَنَا عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ وَجَادِلْ عَنْهُ. فَإِنَّهُ إِنْ لَا يَعْصِمُهُ اللَّهُ بِكَ يَهْلِكُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ فَبَرَّاهُ، وَعَذَرَهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِنَّمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ...﴾ الْآيَةِ، هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْمُتَنَافِقِينَ فِي كُذُوبِهِمْ يَسْتَخْفُونَ بِقَبَائِحِهِمْ مِنَ النَّاسِ لَيْلًا يُنْكِرُوا عَلَيْهِمْ؛ وَيُجَاهِرُونَ اللَّهَ بِهَا، لِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِهِمْ، وَعَالِمٌ بِمَا فِي صُمَائِرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الْآيَةِ، أَيُّ هَبْ أَنْ هُمُ لَآئِنَ انْتَصَرُوا فِي الدُّنْيَا بِمَا أَبَدُوهُ أَوْ أُبْدِيَ لَهُمْ عِنْدَ الْحُكَّامِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالظَّاهِرِ، وَهُمْ مُتَعَبِدُونَ بِذَلِكَ، فَمَاذَا يَكُونُ صَنِيعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَوَكَّلُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي تَرْوِيجِ دَعْوَاهُمْ؟ أَيُّ لَا أَحَدٌ يَكُونُ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ وَكِيلًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ

(١) أحمد: ٣٢٠/٦ (٢) ابن جرير (١٠٤٣٥) ورواه الترمذي:

٣٠٣٦، وحسنه الألباني رحمه الله (٣) الطبري: ١٩٥/٩ (٤)

أحمد: ٨/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٧

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَدَّنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتْهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْثَهُمْ فَلْيَغْيِرْكُ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَحِذُونَ عَنْهَا مُحِصًا ﴿١٢١﴾

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُضْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيُنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»، وَقَالَتْ: لَمْ أَسْمِعْهُ يُرْخَصُ فِي شَيْءٍ مِّمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: فِي الْحَرْبِ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثِ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا، قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومُ بِنْتُ عُقْبَةَ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ اللَّاتِي بَايَعَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ سِوَى ابْنِ مَاجَةَ<sup>(٢)</sup>. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَّامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ»، قَالَ: «وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَلِهَذَا قَالَ: «وَمَن يَفْعَلْ

يَكْسِبُ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ أَخْتَلَمَ بِهِنَا وَإِنَّمَا بُيِّنَ: كَمَا أَنَّهُمْ يَتَوَأْبِقُونَ بِضَنَائِهِمْ الْقَبِيحَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، وَهُوَ لَيْدٌ بُنْ سَهْلٍ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ، أَوْ زَيْدٌ بُنْ السَّمِينِ الْيَهُودِيُّ عَلَى مَا قَالَهُ الْآخَرُونَ، وَقَدْ كَانَ بَرِيًّا وَهُمْ الظَّالِمَةُ الْخَوَنَةُ، كَمَا أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ رَسُولُهُ ﷺ. ثُمَّ هَذَا التَّقْرِيعُ وَهَذَا التَّوْبِيخُ عَامٌّ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ وَمِنَ انْتِصَافٍ مِّثْلُ صِفَتِهِمْ، وَازْتِكَابٍ مِّثْلُ خَطِيئَتِهِمْ فَعَلَيْهِ مِثْلُ عُثُوبَتِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ - وَذَكَرَ قِصَّةَ بَنِي أُبَيْرِقٍ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ يَعْنِي: أُسَيِّرْ بَنَ غُرُورًا وَأَصْحَابَهُ. يَعْنِي بِذَلِكَ لَمَّا أَتَوْا عَلَى بَنِي أُبَيْرِقٍ وَلَا مَوَا قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ فِي كُوزِهِ أَتَاهُمْ، وَهُمْ صَلَحَاءُ بَرَاءَةٍ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا أَتَاهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَضْلَ الْقِصَّةِ وَجَلَاءَهَا لِرَسُولِهِ ﷺ.

ثُمَّ آمَنَ عَلَيْهِ بِتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَعِظْمَتِهِ لَهُ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَالْحِكْمَةُ، وَهِيَ السُّنَّةُ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أَيَّ قَبْلَ نُزُولِ ذَلِكَ عَلَيْكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، [الشورى: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

### [نَجْوَى الْخَيْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ يَعْنِي كَلَامَ النَّاسِ ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أَيَّ إِلَّا نَجْوَى مَنْ قَالَ ذَلِكَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ أَنَّهَا سَمِعَتْ

(١) أحمد: ٤٠٣/٦ (٢) فتح الباري: ٣٥٣/٥ ومسلم: ٤/ ٢٠١١ وأبو داود: ٢١٨/٥ وتحفة الأحوذى: ٧٠/٦ والنسائي في الكبرى: ١٩٣/٥ (٣) أحمد: ٤٤٤/٦ وأبو داود: ٤٩١٩ والترمذي: ٢٥٠٩

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ  
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ  
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ  
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ  
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ  
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ  
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ  
أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ  
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا  
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ  
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ  
الَّتِي لَا تَوْفُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ  
وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنَ الْوُلَدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى  
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

[الشُّرْكُ لَا يُغْفَرُ وَالْمُشْرِكُونَ يَعْبدُونَ الشَّيْطَانَ فِي

[الْحَقِيقَةِ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ...﴾ الْآيَةِ. وَذَكَرْنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَيْ فَقَدْ سَلَكَ غَيْرَ الطَّرِيقِ الْحَقِّ، وَضَلَّ عَنِ الْهُدَى وَبَعُدَ عَنِ الصَّوَابِ، وَأَهْلَكَ نَفْسَهُ وَخَسِرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَاتَتْهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا﴾ وَقَالَ [جَوْزِي] عَنِ الضَّحَّاكِ فِي الْآيَةِ، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ [الْمَلَائِكَةَ] بَنَاتُ اللَّهِ<sup>(١)</sup>. وَإِنَّمَا تَعْبُدُهُمْ لِئَقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، قَالَ: فَاتَّخَذُوهُنَّ أَرْبَابًا، وَصَوَّرُوهُنَّ جَوَارِي، [فَحَسَّنُوا] وَقَلَّدُوا، وَقَالُوا: هَؤُلَاءِ يُسَبِّحْنَ بَنَاتِ اللَّهِ الَّذِي

ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴿ أَيْ مُخْلِصًا فِي ذَلِكَ مُحْتَسِبًا نَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ نَوَابًا جَزِيلًا كَثِيرًا وَاسِعًا.

[جَزَاءً مَنْ شَاقَّ الرَّسُولَ وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ]

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ أَيْ وَمَنْ سَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ، فَصَارَ فِي شِقِّ، وَالشَّرْعُ فِي شِقِّ، وَذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ مِنْهُ بَعْدَ مَا ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ وَبَيَّنَّ لَهُ وَاتَّضَحَّ لَهُ.

وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا مَلَا زُمْ لِلصِّفَةِ الْأُولَى، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ الْمُخَالَفَةُ لِنَصِّ الشَّارِعِ، وَقَدْ تَكُونُ لِمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِيمَا عِلِمَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَيْهِ تَحْقِيقًا، فَإِنَّهُ قَدْ ضَمَّنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةَ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْخَطَا، تَشْرِيفًا لَهُمْ وَتَعْظِيمًا لِنَبِيِّهِمْ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ صَحِيحَةٌ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ تَوَعَّدَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿تَوَلَّيْ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أَيْ إِذَا سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ جَارَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ نُحَسِّنَهَا فِي صَدْرِهِ وَنُزِنَتْنَا لَهُ إِسْتِزْجَارًا لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْكِتَابِ سَنُتْرِكُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَبْلُغُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وَجَعَلَ النَّارَ مَصِيرَهُ فِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْهُدَى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا إِلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ...﴾ الْآيَةِ [الصافات: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَمَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّطَنًا مَرِيدًا ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَازِدَاكَ الْأَنْصَارَ وَلَا أُنِيرَنَّهُمْ فَلَيَعْبُدَنَّكَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿يَعْدُهُمْ وَيَمْنِيَنَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿١٢٧﴾

نَعْبُدُهُ، يَعْتَوْنَ الْمَلَائِكَةَ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ شَبِيهُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ﴾... الآيات [النجم: ١٩-٢٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْسًا﴾... الآية [الزخرف: ١٩]، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجًّا﴾... الآيتين [الصافات: ١٥٨، ١٥٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَدْعُواكَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ وَحَسَنَهُ وَزَيَّنَهُ لَهُمْ، وَهُمْ إِنَّمَا يَعْبدُونَ إِبْلِيسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتِي عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾... الآية [يس: ٦٠]. وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْمُسْرِكِينَ الَّذِينَ ادَّعَوْا عِبَادَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أَيُّ طَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جِوَارِهِ، وَقَالَ: ﴿لَا تَأْخُذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أَيُّ مُعَيَّنًا مُقَدَّرًا مَعْلُومًا. قَالَ مُقَابِلُ بْنُ حَبَّانٍ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ، ﴿وَلَا ضَلَالَتُهُمْ﴾ أَيُّ عَنِ الْحَقِّ، ﴿وَلَا يُدْعِيهِمْ﴾ أَيُّ أُرِيزَ لَهُمْ تَرْكُ التَّوْبَةِ، وَأَعِدَّهُمُ الْأَمَانِي، وَأَمَرَهُمُ بِالتَّسْوِيفِ وَالتَّأْخِيرِ، وَأَعَزَّهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَمْرُهُمْ فَبَيْتِكَ عَادَاتُ الْأَقْصَمِ﴾. قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: يَغْنِي تَشْقِيقُهَا وَجَعْلُهَا سِمَةً وَعَلَامَةً لِلْجَحِيمَةِ وَالسَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقُ اللَّهِ﴾، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ: يَغْنِي بِذَلِكَ الْوَشْمُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، النَّهْيُ عَنِ الْوَشْمِ فِي الْوَجْهِ، وَفِي لَفْظٍ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ<sup>(٢)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُنْتَمِصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغْيِرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَغْنِي قَوْلُهُ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾<sup>(٣)</sup> [الحشر: ٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَتِلْكَ خَسَارَةٌ لَا تَجْزِي لَهَا، وَلَا إِسْتِزْدَاكَ لِفَاتِيهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُعْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ أَوْلِيَاءَهُ وَيُعْنِيهِمْ بِأَنَّهُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ كَذَبَ

(١) الطبري: ٢١٤/٩ (٢) مسلم: ١٦١٨/٣ وفتح الباري: ٣٩٢/١٠ (٣) فتح الباري: ٤٩٨/٨

## [النَّجَاحُ لَيْسَ بِالْأَمَانِيِّ بَلْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ]

قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ افْتَحَرُوا، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبَيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَكُتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، فَتَحَنُّ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، وَنَبِيُّنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَكُتَابُنَا يَقْضِي عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾... الآية، ثُمَّ أَفْلَحَ اللَّهُ حُجَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنِ الشَّدِيِّ وَمَسْرُوقٍ وَالصَّحَّاحِ وَأَبِي صَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: تَخَاصَمَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ، فَقَالَ أَهْلُ التَّوْرَةِ: كِتَابُنَا خَيْرُ الْكُتُبِ، وَنَبِيُّنَا خَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَالَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ: لَا دِينَ إِلَّا الْإِسْلَامُ، وَكُتَابُنَا نَسَخَ كُلَّ كِتَابٍ، وَنَبِيُّنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَمِرْتُمْ وَأَمَرْنَا أَنْ تُؤْمِنَ بِكِتَابِكُمْ وَتَعْمَلَ بِكِتَابِنَا، فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ، وَقَالَ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾... الآية<sup>(٣)</sup>.

وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ، وَلَكِنْ مَا وَفَّرَ فِي الْقُلُوبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ هُوَ الْمُحِقُّ سَمِعَ قَوْلُهُ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَكُمْ وَلَا لَهُمْ النَّجَاحُ بِمُجَرَّدِ التَّمَنِّيِّ بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَاتَّبَاعَ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الْكَرَامِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٧، ٨] وَقَدْ رَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لَأَعْلَمُ أَشَدَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «مَا هِيَ يَا عَائِشَةُ؟» قُلْتُ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾، فَقَالَ: «هُوَ مَا يُصِيبُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ حَتَّى التَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو دَاوُدَ<sup>(٥)</sup>.

رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا، وَالتَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا»<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ<sup>(٧)</sup>. وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَجِدُ لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِلَّا أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ<sup>(٩)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾... الآية، لَمَّا ذَكَرَ الْجَزَاءَ عَلَى السَّيِّئَاتِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَ مُسْتَحِقُّهَا مِنَ الْعَبْدِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْأَجُودُ لَهُ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - وَسَأَلَهُ الْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالصَّفْحَ وَالْعَفْوَ وَالْمُسَامَحَةَ - شَرَعَ فِي بَيَانِ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادِهِ، ذَكَرَانِهِمْ وَإِنَانِهِمْ بِشَرْطِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ سَيَذْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلِمُهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا مِقْدَارَ النَّقِيرِ، وَهُوَ: الثَّقَرَةُ الَّتِي فِي طَهْرِ نَوَاةِ الثَّمَرَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْفَتِيلِ وَهُوَ: الْخَيْطُ الَّذِي فِي شَقِّ النَّوَاةِ، وَهَذَا النَّقِيرُ، وَهُمَا فِي نَوَاةِ الثَّمَرَةِ. وَكَذَا الْقُطْمِيرُ وَهُوَ: اللَّفَافَةُ الَّتِي عَلَى نَوَاةِ الثَّمَرَةِ. وَالثَّلَاثَةُ فِي الْقُرْآنِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أَخْلَصَ الْعَمَلُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَعَمِلَ إِيمَانًا وَاحِسَابًا، وَهُوَ مُحْسِنٌ أَيُّ اتَّبَعَ فِي عَمَلِهِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، وَمَا أُرْسِلَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَهَذَانِ الشَّرْطَانِ لَا يَصِحُّ عَمَلٌ عَامِلٍ بِدُونِهِمَا، أَيُّ يَكُونُ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِلشَّرِيعَةِ، فَيَصِحُّ ظَاهِرُهُ بِالْمُتَابَعَةِ، وَبَاطِنُهُ بِالْإِخْلَاصِ. فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ أَحَدَ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ فَسَدَ، فَمَنْ فَقَدَ الْإِخْلَاصَ كَانَ مُنَافِقًا، وَهُمْ الَّذِينَ يُرَاءُونَ النَّاسَ، وَمَنْ فَقَدَ الْمُتَابَعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلًا، وَمَتَى جَمَعَهُمَا فَهُوَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ

(١) الطبري: ٢٢٩/٩ (٢) الطبري: ٢٣١-٢٢٩/٩ (٣)

الطبري: ٢٣٠/٩ (٤) الطبري: ٢٤٤/٩ (٥) الطبري: ٩/

٢٤٦ وأبو داود: ٤٧١/٣ (٦) سعيد بن منصور: ١٣٧٨/٤

(٧) أحمد: ٢٤٨/٢ (٨) مسلم: ١٩٩٣/٤ وتحفة الأحوذ:

٤٠٠/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٢٨/٦ (٩) الطبري: ٢٣٩/٩

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ ذَرَّةٌ لِمَا تَرَاهُ لِلنَّاطِرِينَ وَمَا تَوَارَى.

﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمُّ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغَبُونَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ وَالْمُسْتَفْتِينَ مِنْ بَيْنِ الْأُولَدِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ

عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

### [حُكْمُ النِّسَاءِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ النِّسَاءُ، هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا، قَدْ شَرَكْتُهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعَدَنِ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا، وَيَكْرَهُ أَنْ يُرَوِّجَهَا رَجُلًا فَيَشْرَكَهُ فِي مَالِهِ بِمَا شَرَكْتُهُ، فَيُفْضِلُهَا، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَلِكَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الْآيَةَ، قَالَتْ: وَالَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يُتْلَى عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ، الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي قَالَ اللَّهُ: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]<sup>(٦)</sup>. وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ﴾ رَغَبَهُ أَحَدُكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حِجْرِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةً الْمَالِ وَالْجَمَالِ، فَتُفْهِمُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغَبَتِهِمْ عَنْهُنَّ. وَأَصْلُهُ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٧)</sup>. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ فِي حِجْرِهِ يَتِيمَةً يَحِلُّ لَهُ تَزْوِيجُهَا، فَتَارَةً يَرْغَبُ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَمَهَّرَهَا أُسْوَةً أَمْثَالِهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُعِدِلْ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ، فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَهَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى الَّتِي فِي أَوَّلِ

سَيِّئَاتِهِمْ - الْآيَةُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وَهُمْ مُحَمَّدٌ وَأَتَّبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ...﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْكَ أَنْ أَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وَالْحَنِيفُ هُوَ الْمَائِلُ عَنِ الشُّرْكِ قَصْدًا، أَيْ تَارِكًا لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ وَمُقْبِلٌ عَلَى الْحَقِّ بِكُلِّيَّتِهِ، لَا يَصُدُّهُ عَنْهُ صَادٌّ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْهُ رَادٌّ.

### [إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّرْغِيبِ فِي اتِّبَاعِهِ، لِأَنَّهُ إِمَامٌ يُفْتَدَى بِهِ، حَيْثُ وَصَلَ إِلَى غَايَةِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعِبَادُ لَهُ، فَإِنَّهُ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الْخَلَةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِكَثْرَةِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ، كَمَا وَصَفَهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾ الْآيَةُ [البقرة: ١٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمُّهُ قَاتِنًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾ الْآيَةُ وَالْآيَةُ بَعْدَهَا [النحل: ١٢٠، ١٢١]، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: إِنَّ مُعَاذًا لَمَّا قَدِمَ الْيَمَنَ صَلَّى بِهِمْ الصُّبْحَ، فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: لَقَدْ قَرَأْتُ عَيْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ<sup>(٨)</sup>. وَإِنَّمَا سُمِّيَ خَلِيلُ اللَّهِ لِشِدَّةِ مَحَبَّةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ، لِمَا قَامَ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي يُجِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَطَبَهُمْ فِي آخِرِ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا، قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»<sup>(٩)</sup>.

وَجَاءَ مِنْ طَرِيقٍ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجَلِّيِّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيِ الْجَمِيعِ مُلْكُهُ وَعَيْدُهُ وَخَلْقُهُ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، لَا رَادَّ لِمَا قَضَى، وَلَا مُعَقِّبٌ لِمَا حَكَمَ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ وَلَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكْلُ شَيْءٌ مُخِطًا﴾ أَيِ عِلْمُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ حَافِيَةٌ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَا يَغْرُبُ عَنْ عِلْمِهِ

(١) فتح الباري: ٦٦٢/٧ (٢) فتح الباري: ١٥/٧ ومسلم: ٤/

١٨٥٤ (٣) مسلم: ٣٧٧/١ وابن ماجه: ٥٠/١ ومسلم: ٤/

١٨٥٥ (٤) فتح الباري: ١١٤/٨ (٥) مسلم: ٣٠١٨ (٦)

الطبري: ٢٥٨/٩ (٧) فتح الباري: ٦/٩ ومسلم: ٢٣١٣/٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٩

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَافِيًا خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَافِيًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَكَانِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أَيُّ مِنَ الْفِرَاقِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أَيُّ الصُّلْحِ عِنْدَ الْمُشَاحَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْفِرَاقِ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: خَشِيتُ سَوْدَةَ أَنْ يُطْلَقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تُطْلِقْنِي، وَاجْعَلْ يَوْمِي لِعَائِشَةَ فَعَلَّ، وَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾... الْآيَةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا اضْطَلَحَا عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ جَائِزٌ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٥)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا كَبُرْتُ سَوْدَةَ بِنْتُ زَمْعَةَ

السُّورَةِ. وَتَارَةً لَا يَكُونُ لِلرَّجُلِ فِيهَا رَغْبَةٌ لِدِمَامَتِهَا عِنْدَهُ أَوْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَهَآءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْضَلَهَا عَنْ الْأَزْوَاجِ خَشْيَةً أَنْ يَشْرُكُوهُ فِي مَالِهِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿فِي يَتَمَتَّى النِّسَاءَ﴾... الْآيَةَ، كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَكُونُ عِنْدَهُ الْيَتِمَةُ فَيُلْقِي عَلَيْهَا ثَوْبَهُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا أَبَدًا، فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً وَهَوِيَهَا تَزَوَّجَهَا، وَأَكَلَ مَالَهَا، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً مَنَعَهَا الرِّجَالُ أَبَدًا حَتَّى تَمُوتَ، فَإِذَا مَاتَتْ وَرِثَهَا. فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَنَهَى عَنْهُ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالنِّسَاءُ يَتَمَتَّى مِنْ أَوْلَادِنَ﴾ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُورَثُونَ الصَّغَارَ وَلَا الْبَنَاتِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تُؤْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَبَيَّنَ لِكُلِّ ذِي سَهْمٍ سَهْمَهُ، فَقَالَ: ﴿لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ<sup>(٢)</sup> وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا لِيَتَمَتَّى بِالْقِسْطِ﴾ كَمَا إِذَا كَانَتْ ذَاتُ جَمَالٍ وَمَالٍ نَكَحَتْهَا وَاسْتَأْثَرَتْ بِهَا، كَذَلِكَ إِذَا لَمْ تَكُنْ ذَاتُ مَالٍ وَلَا جَمَالٍ فَانْكِحْهَا وَاسْتَأْثِرْ بِهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ تَهْيِيجًا عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَامْتِنَالِ الْأَمْرِ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَافِيًا خَبِيرًا﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَافِيًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

### [أَحْكَامُ نُشُورِ الزَّوْجِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَمُشَرِّعًا عَنْ حَالِ الزَّوْجَيْنِ، تَارَةً فِي حَالِ نُفُورِ الرَّجُلِ عَنِ الْمَرْأَةِ، وَتَارَةً فِي حَالِ اتِّفَاقِهِ مَعَهَا، وَتَارَةً فِي حَالِ فِرَاقِهِ لَهَا، فَالْحَالَةُ الْأُولَى مَا إِذَا خَافَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَنْفِرَ عَنْهَا أَوْ يُعْرِضَ عَنْهَا، فَلَهَا أَنْ تُسْقِطَ عَنْهُ حَقَّهَا أَوْ بَعْضَهُ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ كِسْفَةٍ أَوْ مَسِيَّتٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْهِ، وَلَهُ أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْهَا، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِي بَذْلِهَا ذَلِكَ لَهُ، وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

(١) الطبري: ٩/ ٢٦٤ (٢) الطبري: ٩/ ٢٥٥ (٣) الطبري: ٩/ ٢٥٥ (٤) مسند الطيالسي: ٣٤٩ إسناده ضعيف لأن رواية سماك ابن حرب عن عكرمة مضطربة قال ابن حجر: صدوق وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة وقد تغير بآخره فكان ربما يلقن [تقريب التهذيب] لكن أصل الحديث في الصحيحين أنظر ما بعده. (٥) تحفة الأحوذى: ٨/ ٤٠٣

وَهَبَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْسِمُ لَهَا يَوْمَ سَوْدَةَ<sup>(١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ نَحْوَهُ<sup>(٢)</sup>.  
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ «وَلِإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا» قَالَتْ: الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْمُسِنَّةَ لَيْسَ بِمُسْتَكْبِرٍ مِنْهَا يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا فَتَقُولُ: أَجْعَلْكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(٣)</sup>.

[مَعْنَى «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ»]

وَقَوْلُهُ: «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني التَّخْيِيرَ: أَنْ يُخَيَّرَ الزَّوْجُ لَهَا بَيْنَ الْإِفَاقَةِ وَالْفِرَاقِ خَيْرٌ مِنْ تَمَادِي الزَّوْجِ عَلَى أَثَرِ غَيْرِهَا عَلَيْهَا<sup>(٤)</sup>. وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ صُلْحَهُمَا عَلَى تَرْكِ بَعْضِ حَقِّهَا لِلزَّوْجِ وَقَبُولِ الزَّوْجِ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْمَفَارَقَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ عَلَى أَنْ تَرَكَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَلَمْ يُفَارِقْهَا، بَلْ تَرَكَهَا مِنْ جُمْلَةِ نِسَائِهِ، وَفَعَلَهُ ذَلِكَ لِتَنَاسَى بِهِ أُمَّتُهُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ وَجَوَازِهِ، فَهُوَ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلَمَّا كَانَ الْوِفَاقُ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْفِرَاقِ قَالَ: «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» بَلِ الطَّلَاقُ بَعْضُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: «وَإِنْ تَحْسَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا فَعَلْتُمْ خَيْرًا» وَإِنْ تَتَجَسَّسُوا مَشَقَّةَ الصَّبْرِ عَلَى مَنْ تَكْرَهُونَ مِنْهُمْ، وَتَفْسِمُوا لَهُمْ أَسْوَأَ أَمْثَالِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ» أَيْ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَتُهَا النَّاسُ أَنْ تَسَاوُوا بَيْنَ النِّسَاءِ مِنْ جَمِيعِ النُّجُوهِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ وَقَعَ الْقِسْمُ الصُّورِيُّ لَيْلَةً وَلَيْلَةً، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْمَحَبَّةِ وَالشُّهُورَةِ وَالْجَمَاعِ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدَةُ السَّلْمَانِيِّ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاجِمٍ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشَّيْخِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَفْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلْمِني فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ» يَعْنِي الْقَلْبَ، هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ: «فَلَا تَوَيْلُوا كَلَّ الْمَيْلِ» أَيْ فَإِذَا مِلْتُمْ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ فَلَا تَبَالِغُوا فِي الْمَيْلِ بِالْكُلِّيَّةِ «فَتَدْرُوهَا كَالْمَمْلُوقَةِ» أَيْ فَتَقْبِضْ هَذِهِ الْأُخْرَى مُعَلَّقَةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ

(١) فتح الباري: ٢٢٣/٩ ومسلم: ١٠٨٥/٢ (٢) فتح الباري: ٢٥٧/٥ (٣) البخاري: ٤٦٠١ (٤) الطبري: ٢٧٢/٩ (٥) الطبري: ٢٨٥-٢٨٧ (٦) أبو داود: ٢١٣٤ وتحفة الأحوذ: ١١٤٠ وابن ماجه: ١٩٧١ والنسائي: ٦٣/٧ (٧) الطبري: ٩/٢٩٢-٢٩٣ (٨) مسند الطيالسي: ٣٢٢



سُورَةُ النِّسَاءِ

١٠٠

سُورَةُ النِّسَاءِ

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ يَلْقِطُ شَهَادَةً لِلَّهِ  
وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوَّلَ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا  
أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ  
تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَلْيَنْتَبِهُوا فَلْيَعْمَلُوا خَيْرًا ﴿١٣٥﴾ يَتَأْتِيهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ  
عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ  
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ  
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا  
ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَادَدُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ  
سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ  
يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوا  
عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي  
الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا  
تَعْدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا أَنْتُمْ  
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

فَلَا تُرَاعِهِمْ فِيهَا، بَلِ اشْهَدَ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَادَ ضَرَرُهَا عَلَيْهِمْ،  
فَإِنَّ الْحَقَّ حَاجِمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ [وَهُوَ مُقَدِّمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ].  
وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أَيُّ لَا  
تُرْعَاهُ لِعَنَاهُ، وَلَا تُشْفِقْ عَلَيْهِ لِفَقْرِهِ، اللَّهُ يَتَوَلَّاهُمَا، بَلْ هُوَ  
أَوْلَىٰ بِهِمَا مِنْكَ، وَأَعْلَمُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا  
تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أَيُّ فَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ الْهَوَىٰ وَالْعَصِيَّةُ  
وَبُغْضُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِي أُمُورِكُمْ  
وَشُؤْنِكُمْ، بَلِ الزُّمُوا الْعَدْلَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ، كَمَا قَالَ  
نَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا  
هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُ  
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُصُ عَلَى أَهْلِ  
خَبِيرٍ يَمَارَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ، فَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ لِيَرْفُقَ بِهِمْ،  
فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَيَّ، وَلَا أَنْتُمْ  
أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ أَعْدَادِكُمْ مِنَ الْفُورَةِ وَالْحَنَازِيرِ وَمَا يَحْمِلُنِي  
حُبِّي إِيَّاهُ، وَبُغْضِي لَكُمْ عَلَى أَنْ لَا أَعْدِلَ فِيكُمْ، فَقَالُوا:  
بِهَذَا قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ. وَسَيَأْتِي الْحَدِيثُ مُسْتَدًا

يَقْدَرُهُ وَيَسْرِعُهُ، قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ  
بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَيُّ هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، الرَّقِيبُ  
الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ  
وَيَأْتِ بِخَآخِرَةٍ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَى  
إِذْهَابِكُمْ وَتَبْدِيلِكُمْ بِغَيْرِكُمْ إِذَا عَصَيْتُمُوهُ، وَكَمَا قَالَ: ﴿وَلَيْتَ  
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا عَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]  
وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ يَا مَنْ لَيْسَ هُمُ إِلَّا الدُّنْيَا، إِعْلَمُ أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ  
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِذَا سَأَلْتَهُ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ أَغْنَاكَ  
وَأَعْطَاكَ وَأَقْنَاكَ، كَمَا قَالَ نَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَلْكَاسٍ مَنْ  
يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَمْ يَفِ الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ ﴿١٣٥﴾  
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ  
حَسَنَةً وَفِي عَذَابِ النَّارِ ﴿١٣٦﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا  
كَسَبُوا... الآية [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، وَقَالَ نَعَالَى:  
﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرَّ الْآخِرَةِ نَزَلَ لَمْ يَفِ حَرِّهِ﴾... الآية  
[الشورى: ٢٠]، وَقَالَ نَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَمَلْنَا  
لَمْ يَفِهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ يُرِيدُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ  
عَلَىٰ بَعْضٍ... الآية [الإسراء: ٢١]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ  
سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ يَلْقِطُ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ  
عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوَّلَ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ  
أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَلْيَنْتَبِهُوا  
فَلْيَعْمَلُوا خَيْرًا﴾ ﴿١٣٥﴾

#### [الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالْعَدْلِ وَبِإِدَاءِ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ]

يَأْمُرُ نَعَالَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ  
أَيُّ بِالْعَدْلِ، فَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَلَا تَأْخُذْهُمْ  
فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَآئِمٌ وَلَا يَصْرِفُهُمْ عَنْهُ صَارِفٌ، وَأَنْ يَكُونُوا  
مُتَعَاوِنِينَ مُتَسَاعِدِينَ مُتَعَايِدِينَ مُتَنَاصِرِينَ فِيهِ، وَقَوْلُهُ:  
﴿شَهَادَةُ اللَّهِ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]  
أَيُّ لَيْكُنْ أَدَاؤُهَا إِيْتِغَاءُ وَجْهِ اللَّهِ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ صَحِيحَةً  
عَادِلَةً حَقًّا خَالِيَةً مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّكْثِمَانِ، وَلِهَذَا  
قَالَ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ اشْهَدَ بِالْحَقِّ وَلَوْ عَادَ ضَرَرُهَا  
عَلَيْكَ، وَإِذَا سُئِلْتَ عَنِ الْأَمْرِ فَقُلِ الْحَقُّ فِيهِ وَلَوْ عَادَتْ  
مَضَرَّتُهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لِمَنْ أَطَاعَهُ فَرجًا،  
وَمَخْرَجًا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَضِيقُ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَّلَ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ  
وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أَيُّ وَإِنْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ عَلَى الْوَالِدِ وَقَرَاتِكَ

اللَّهُ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٣٦﴾

[أَحْوَالُ الْمُنَافِقِينَ وَمَصِيرُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ، ثُمَّ عَادَ فِيهِ، ثُمَّ رَجَعَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى ضَلَالِهِ وَازْدَادَ حَتَّى مَاتَ، فَإِنَّهُ لَا تَوْبَةَ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَلَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ، وَلَا يَجْعَلُ لَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ فَرْجًا وَلَا مَخْرَجًا وَلَا طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَدِيهِمْ سَبِيلًا﴾. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ قَالَ: تَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ حَتَّى مَاتُوا. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ<sup>(١)</sup>: ﴿ثُمَّ قَالَ: «يَتَّبِعُ الْمُتَّقِينَ» يَأْنِ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

يَغْنِي أَنْ الْمُتَّقِينَ مِنْ [أَهْلِ] هَذِهِ الصَّفَةِ: فَإِنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ، يُؤَلِّقُونَهُمْ وَيُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ إِذَا خَلَوْا بِهِمْ: إِنَّمَا نَحْنُ مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، أَيْ بِالْمُؤْمِنِينَ، فِي إِظْهَارِنَا لَهُمْ الْمَوَاقِفَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَلَكَوهُ مِنْ مَوَالِئِ الْكَافِرِينَ ﴿أَيَبْنَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّ الْعِزَّةَ كُلَّهَا لَهُ وَخُدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِمَنْ جَعَلَهَا لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَّقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا: التَّهْيِيجُ عَلَى طَلَبِ الْعِزَّةِ مِنْ جَنَابِ اللَّهِ، وَالِاقْتِالُ عَلَى عُيُوبِهِ، وَالْإِنْتِظَامُ فِي جُمْلَةِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمْ النُّصْرَةُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ إِذَا مَثَلُهُمْ﴾ أَيْ: إِنَّكُمْ إِذَا ارْتَكَبْتُمُ النَّهْيَ بَعْدَ وَضُوعِهِ إِلَيْكُمْ، وَرَضِيْتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَضُ بِهَا، وَأَقْرَبَتْهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ إِذَا مَثَلُهُمْ﴾ فِي الْمَأْتَمِ،

فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تَعْرَضُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: ﴿تَلَّوْا﴾، أَيْ تُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ وَتُغَيِّرُوهَا<sup>(٢)</sup>. وَاللَّيْ: هُوَ التَّحْرِيفُ وَتَعَمُّدُ الْكُذِبِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُومُونَ أَسْنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾... الْآيَةُ [آل عمران: ٧٨]، وَالْإِعْرَاضُ هُوَ: كِتْمَانُ الشَّهَادَةِ وَتَرْكُهَا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَائِدٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُ الشَّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ»<sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَالِئِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ أَيْ وَسَيَجَازِيكُمْ بِذَلِكَ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٣٧﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ الْإِيمَانِ]

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْدُخُولِ فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَشُعْبِهِ وَأَرْكَانِهِ وَدَعَائِمِهِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ، بَلْ مِنْ بَابِ تَكْمِيلِ الْكَامِلِ وَتَقْرِيرِهِ وَتَثْبِيْتِهِ وَالْإِسْتِمْرَارَ عَلَيْهِ، كَمَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أَيْ بَصُرْنَا فِيهِ وَرَدَّنَا هُدًى وَتَبَيَّنَّا عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُمُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ يَغْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وَهَذَا جَنْسٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿نَزَلَ﴾ لِأَنَّهُ نَزَلَ مُفَرَّقًا مُتَّجِمًا عَلَى الْوَقَائِعِ بِحَسَبِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَأَمَّا الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ، فَكَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً<sup>(٤)</sup>. [وَإِلَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَيْ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَبَعُدَ عَنِ الْقَصْدِ كُلِّ الْبُعْدِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿١٣٨﴾ يَتَّبِعُ الْمُتَّقِينَ يَأْنِ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٩﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنَبْنَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ

(١) الطبري: ٣٠٨/٩ (٢) مسلم: ١٣٤٤/٣ (٣) التعبير بالإنزال في حق القرآن أكثر من التعبير بالتنزيل (٤) الطبري: ٩/٣١٥ إنشاده ضعيف فيه حفص بن جميع وهو ضعيف [تقريب] وأيضاً رواية سماك عن عكرمة مضطربة كما مر قريباً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠١

سُورَةُ النِّسَاءِ

الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مَذْذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَنَتَّخِذُوا لَكَ كُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَن يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

عَبْدُ الرَّزَاقِ عَنِ يُسْعَى الْكِنْدِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: كَيْفَ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَذُنُهُ أَذُنُهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قَالَ: ذَاكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَى السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿سَبِيلًا﴾ أَيُّ حُجَّةٍ<sup>(٤)</sup>. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا بَأْنَ يُسَلِّطُوا عَلَيْهِمْ اسْتِثْلَاءً اسْتِثْصَالًا بِالْكَلْبَةِ، وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ ظَفَرٌ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ

وَالَّذِي أُحِيلَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ النَّهْيِ فِي ذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ﴿وَإِنَّا رَأَيْنَا الَّذِينَ يَبْغُضُونَ فِيءًا بَيْنَنَا فَانْقَضَ عَنْهُمْ﴾... الآية [الأنعام: ٦٨]، قَالَ مُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانَ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، يَعْنِي نُسِخَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا إِذَا مَثَلَهُمْ﴾ لِقَوْلِهِ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن جَسَادِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أَيُّ كَمَا أَشْرَكُوهُمْ فِي الْكُفْرِ كَذَلِكَ يُشَارِكُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا، وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ وَالْقَيْدِ وَالْأَغْلَالِ، وَشَرَابِ الْحَوِيمِ - وَالْعُسْلِينِ لَا الزَّلَّالِ.

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٤١﴾ [تَرْبِصُ الْمُنَافِقِينَ بِالْمُسْلِمِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ: أَنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ دَوَائِرَ السَّوَاءِ، بِمَعْنَى يَنْتَظِرُونَ زَوَالَ دَوْلَتِهِمْ وَظُهُورَ الْكُفْرِ عَلَيْهِمْ وَذَهَابَ مِلَّتِهِمْ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ نَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أَيُّ يَتَوَدَّدُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أَيُّ إِدَالَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَمَا وَقَعَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَإِنَّ الرُّسُلَ تُبْتَلَى ثُمَّ يَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ سَاعَدْنَاكُمْ فِي الْبَاطِنِ، وَمَا أَلَوْنَاهُمْ خَبَالًا وَتَخْذِيلًا حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ: نَغْلِبُ عَلَيْكُمْ<sup>(١)</sup>. كَقَوْلِهِ: ﴿اسْتَحِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة: ١٩] وَهَذَا أَيْضًا تَوَدَّدَ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَايِعُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، لِيَحْظُوا عِنْدَهُمْ وَيَأْمَنُوا كَيْدَهُمْ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ إِيْمَانِهِمْ وَقِلَّةِ إِيقَانِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَيُّ بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْكُمْ أَنَّهَا الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْبَوَاطِنِ الرَّدِيَّةِ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِجَرَائِنِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَيْكُمْ ظَاهِرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُكُمْ ظَوَاهِرُكُمْ بَلْ هُوَ يَوْمٌ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَيَحْصُلُ مَا فِي الصُّدُورِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ رَوَى

(١) الطبري: ٣٢٥/٩ (٢) عبد الرزاق: ١٧٥/١ (٣) الطبري:

٣٢٨/٩ (٤) الطبري: ٣٢٨/٩ (٥) الطبري: ٣٢٨/٩

﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أَي لَا إِخْلَاصَ لَهُمْ وَلَا مُعَامَلَةً مَعَ اللَّهِ، بَلْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ النَّاسَ نَقِيَّةً لَهُمْ وَمُضَانَعَةً، وَلِهَذَا يَتَخَلَّفُونَ كَثِيرًا عَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي لَا يُرَوْنَ فِيهَا غَالِيًا: كَصَلَاةِ الْعِشَاءِ فِي وَقْتِ الْعَمَةِ، وَصَلَاةِ الصُّبْحِ فِي وَقْتِ الْغَلَسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَثْقَلَ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُتَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُمَرَ بِالصَّلَاةِ فَتَقَامَ، ثُمَّ أُمِرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُنْطَلِقَ مَعِيَ بِرَجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأُحَرِّقُ عَلَيْهِمْ بَيُوتَهُمْ بِالنَّارِ»<sup>(١)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرَقًا سَمِيمًا أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لَشَهِدَ الصَّلَاةَ، وَلَوْ لَا مَا فِي الْبُيُوتِ مِنَ النَّسَاءِ وَالذَّرِيَّةِ لَحَرَقْتُ عَلَيْهِمْ بَيُوتَهُمْ بِالنَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي فِي صَلَاتِهِمْ لَا يَخْشَعُونَ، وَلَا يَذَرُونَ مَا يَقُولُونَ، بَلْ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ لَاهُونَ، وَعَمَّا يُرَادُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مُعْرَضُونَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَتَنَرَ أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ -يَعْنِي الْمُتَافِقِينَ- مُحَبِّبِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بَلْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَوَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرِبُ الشُّكَّ، فَتَارَةً يَبِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ وَتَارَةً يَبِيلُ إِلَى أُولَئِكَ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَسْأَوْفَةٌ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾... الْآيَةُ [البقرة: ٢٠]، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ

رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... الْآيَةُ [غافر: ٥١]، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ رَدًّا عَلَى الْمُتَافِقِينَ فِيمَا أَمَلُوهُ وَرَجَّوهُ وَانْتَظَرُوهُ مِنْ زَوَالِ دَوْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِيمَا سَلَكُوهُ مِنْ مُضَانَعَتِهِمُ الْكَافِرِينَ، خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْهُمْ إِذَا هُمْ ظَهَرُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَأْصَلُوهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ يَسْعُرُونَ فِيهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿تَنْذِيرًا﴾ [المائدة: ٥٢]. ﴿إِنَّ الْمُتَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٥)</sup> مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا<sup>(٦)</sup>.

[مُخَادَعَةُ الْمُتَافِقِينَ لِلَّهِ وَكَسَلُهُمْ فِي الصَّلَاةِ وَتَذَبُّبُهُمْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ]

فَدَقَّعْتُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الآية: ٩] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ الْمُتَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يُخَادَعُ، فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَلَكِنَّ الْمُتَافِقِينَ لِيَجْهَلِيَهُمْ وَقَلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ يَعْتَقِدُونَ: أَنَّ أَمْرَهُمْ كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وَجَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ أَمْرَهُمْ يَرُوجُ عِنْدَهُ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ: أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْلِفُونَ لَهُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ وَالسَّادَةِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُمْ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَلْفُفُونَ لَهُمْ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ... الْآيَةُ [المجادلة: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أَي هُوَ الَّذِي يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ، وَيَخْدُلُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُضُوءِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ ثَوْرِكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَيْسَ الْمَصِيدُ﴾ [الحديد: ١٣-١٥] وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا﴾... الْآيَةُ، هَذِهِ صِفَةُ الْمُتَافِقِينَ فِي أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا وَخَيْرِهَا، وَهِيَ الصَّلَاةُ إِذَا قَامُوا إِلَيْهَا، قَامُوا وَهُمْ كَسَالَى عَنْهَا، لِأَنَّهُمْ لَا نِيَّةَ لَهُمْ فِيهَا، وَلَا إِيْمَانَ لَهُمْ بِهَا، وَلَا حَشْيَةً، وَلَا يَفْعَلُونَ مَعْنَاهَا، وَهَذِهِ صِفَةُ ظَوَاهِرِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ بَوَاطِنِهِمْ الْفَاسِدَةِ، فَقَالَ:

(١) فتح الباري: ٣٤٣/١١ (٢) فتح الباري: ٥٣/٢ ومسلم: ٤٥١/١ (٣) فتح الباري: ٢٤٨/٢ ومسلم: ٣٢٥/١ (٤) الموطأ: ٢٢٠/١ (٥) مسلم: ٤٣٤/١ وتحفة الأحوذى: ١/٤٩٧ والنسائي: ٢٥٤/١

عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعْبُرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَلَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَتَّبِعُ»<sup>(١)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أَيُّ وَمَنْ صَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرِيدًا﴾ [الكهف: ١٧] فَإِنَّهُ ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ فَلَا هَادِيَ لَهُمْ وَلَا مُنْقِذَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [١٥٩] إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا<sup>(٣)</sup> [١٦٠] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا<sup>(٤)</sup> مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا<sup>(٥)</sup> [الأنهي عن ولأئ الكفار]

يُنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي مُصَاحَبَتَهُمْ وَمُضَادَّةَتَهُمْ، وَمُنَاصَحَتَهُمْ وَإِسْرَارَ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ، وَإِفْشَاءَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوهُمُ مِنْهُ تَقْدَةً وَبِعِزَّتِكَ اللَّهُ تَعَالَى﴾ [آل عمران: ٢٨] أَيُّ يُحَذِّرُكُمْ عُقُوبَتَهُ فِي ارْتِكَابِكُمْ نَهْيَهُ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أَيُّ حُجَّةً عَلَيْكُمْ فِي عُقُوبَتِهِ إِيَّاكُمْ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالنَّضْرُ بْنُ عَرَبِيٍّ.

[الْمُنَافِقُونَ - الْمَوَالُونَ لِلْكَفَّارِ - فِي أَسْفَلِ النَّارِ إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا]

دَرَجَاتٍ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قَالَ: فِي تَوَابِتٍ مِنْ نَارٍ تُطْبِقُ عَلَيْهِمْ، أَيُّ مُغْلَقَةٌ مُغْلَقَةٌ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ سُئِلَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ: يُجْعَلُونَ فِي تَوَابِتٍ مِنْ نَارٍ تُطْبِقُ عَلَيْهِمْ فِي أَسْفَلِ دَرَكٍ مِنَ النَّارِ<sup>(٥)</sup> ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أَيُّ يُقْذَرُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، تَابَ عَلَيْهِ وَقِيلَ نَذْمُهُ إِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ، وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ، وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أَيُّ بَدَلُوا الرِّيَاءَ بِالْإِخْلَاصِ، فَيَنْفَعُهُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَإِنْ قَلَّ ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(١) الطبري: ٣٣٣/٩ (٢) مسلم: ٢١٤٦/٤ (٣) الطبري: ٩/٣٣٩ (٤) الطبري: ٣٣٩/٩ (٥) ابن أبي حاتم: ١٠٩٨/٤ (٦١٥٦) إسناده ضعيف فيه علي بن يزيد الألهاضي ضعيف (تقريب) قال الدار قطني متروك [الضعفاء] ويغني عنه ما تقدم.

بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

[الْإِيمَانُ يَبْغِضُ الرُّسُلَ وَالْكَفَرُ يَبْغِضُهُمْ كُفْرٌ خَالِصٌ]

تَوَعَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَافِرِينَ بِهِ وَرُسُلِهِ، مِنَ الْيُهودِ وَالنَّصَارَى حَيْثُ فَرَّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ فِي الْإِيمَانِ، فَآمَنُوا بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، بِمُجَرَّدِ التَّشْهِي وَالْعَادَةِ، وَمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، لَا عَنْ دَلِيلٍ فَادَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْهَوَى وَالْعَصَبِيَّةِ، فَالْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعْنَاتُ اللَّهِ - آمَنُوا بِالْأَنْبِيَاءِ إِلَّا عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالنَّصَارَى آمَنُوا بِالْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِخَاتَمِهِمْ وَأَشْرَفِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالسَّامِرَةُ لَا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيِّ تَعَدَّ يُوْشَعَ خَلِيفَةُ مُوسَى ابْنِ عِمْرَانَ، وَالْمَجُوسُ يُقَالُ: إِنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيِّ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: زَرَادُشْتُ، ثُمَّ كَفَرُوا بِشَرْعِهِ، فَرَفَعَ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَاجِبٌ بِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَنْ رَدَّ بُيُوتَهُ لِلْحَسَدِ أَوْ الْعَصَبِيَّةِ أَوْ التَّشْهِي، تَبَيَّنَ أَنَّ إِيْمَانَهُ بِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ إِيْمَانًا شَرْعِيًّا، إِنَّمَا هُوَ عَنْ غَرَضٍ وَهَوَى وَعَصَبِيَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فَوَسَمَهُمْ بِأَنَّهُمْ كُفَرَاءُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أَيْ فِي الْإِيمَانِ ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أَيْ طَرِيقًا وَمَسْلَكًا، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أَيْ كُفْرُهُمْ مُحَقَّقٌ لَا مَحَالَةَ بِمَنْ ادَّعَوْا الْإِيمَانَ بِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَرْعِيًّا، إِذْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ لَكُونَهُ رَسُولُ اللَّهِ، لَا مُمْنًا بِنَظِيرِهِ، وَبِمَنْ هُوَ أَوْضَحُ دَلِيلًا وَأَقْوَى بُرْهَانًا مِنْهُ، أَوْ نَظَرُوا حَقَّ النَّظَرِ فِي بُيُوتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أَيْ كَمَا

أَيَّ فِي زُمْرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَذِّبُ الْعِبَادَ بِذُنُوبِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أَيْ أَصْلَحْتُمْ الْعَمَلَ وَامْتَنَّمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَاحِكًا عَلِيمًا﴾ أَيْ مَنْ شَكَرَ شَكَرَ لَهُ، وَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِهِ عَلِمَهُ وَجَازَاهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) إِنْ بُدِّدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

[الْإِذْنُ بِالْجَهْرِ بِالسُّوءِ لِلْمَظْلُومِ مَعَ تَرْغِيهِ فِي الْعَفْوِ]

قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يَقُولُ: لَا يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا، فَإِنَّهُ قَدْ أُرْخِصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وَإِنْ صَبَرَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَا يَدْعُ عَلَيْهِ، وَلْيُقِلْ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِ، وَاسْتَخْرِجْ حَقِّي مِنْهُ<sup>(٢)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ قَالَ: قَدْ أُرْخِصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَدَّى عَلَيْهِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مَالِكٍ الْجَزَرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هُوَ الرَّجُلُ يَشْتُمُكَ فَتَشْتُمُهُ، وَلَكِنْ إِنْ افْتَرَى عَلَيْكَ فَلَا تَقْتَرِ عَلَيْهِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].<sup>(٣)</sup> وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْتَبَانُ مَا قَالَا، فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا مَا لَمْ يَتَّخِذِ الْمَظْلُومُ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ بُدِّدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا قَدِيرًا﴾ أَيْ إِنْ تَطَهَّرُوا أَتَيْهَا النَّاسُ خَيْرًا أَوْ أَخَفَيْتُمُوهُ أَوْ عَفَوْتُمْ عَنْ أَسَاءِ إِلَيْكُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُقَرِّبُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَيَجْزِلُ ثَوَابَكُمْ لَدَيْهِ، فَإِنْ مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى أَنْ يَغْفَرَ عَنْ عِبَادِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى عِقَابِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا قَدِيرًا﴾ وَلِهَذَا وَرَدَّ فِي الْأَثَرِ: أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: سُبْحَانَكَ عَلَى جِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: سُبْحَانَكَ عَلَى غَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِغَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»<sup>(٥)</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا

(١) الطبري: ٣٤٤/٩ (٢) الطبري: ٣٤٤/٩ إسناده ضعيف فيه

هشيم بن بشير وهو مدلس ولم يصرح (٣) ابن أبي حاتم ٤/

١١٧٢ (٤) أبو داود: ٤٨٩٤ (٥) مسلم: ٢٠١/٤

حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَسْهَدَ نَظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ إِلَىٰ بَيْتِ أَرْغَمٍ وَقَالُوا لَوْلَا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مِنَ رَبِّهِمْ إِنَّمَا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مِنَ اللَّهِ عَزِيزٍ ذُو عِلْمٍ ﴿٥٦﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَيُّ مِنْ بَعْدِهَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاهِرَةِ عَلَىٰ يَدِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بِلَادِ مِصْرَ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ وَجَمِيعِ جُنُودِهِ فِي النَّيْمِ، فَمَا جَاوَزُوهُ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّىٰ أَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ فَقَالُوا لِمُوسَىٰ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾... الْآيَتَيْنِ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَىٰ قِصَّةَ إِتْخَاذِهِمُ الْعِجْلَ، مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ طه، بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَىٰ إِلَىٰ مَنَاجَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ لَمَّا رَجَعَ وَكَانَ مَا كَانَ، جَعَلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ مِنَ الَّذِي صَنَعُوهُ وَابْتَدَعُوهُ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ مِنْهُمْ مَنْ عِبَدَهُ، فَجَعَلَ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ أَحْيَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَقَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَمَا لَنَا بِمُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا قَوْمَهُمُ الطُّورَ بِبَيِّنَتِهِمْ﴾ وَذَلِكَ جِئًا امْتَنَعُوا مِنَ الْإِلْتِزَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ، وَظَهَرَ مِنْهُمْ إِيَّاءُ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَفَعَ اللَّهُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ جِبَلًا، ثُمَّ أَلْزَمُوا: فَالْتَزَمُوا وَسَجَدُوا، وَجَعَلُوا يُنْظَرُونَ إِلَىٰ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ، خَشْيَةً أَنْ يَنْقُطَ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبَلِ قَوْمَهُمْ كَانُمْ ظُلْمٌ وَطَنًا أَنْتُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾... الْآيَةِ [الأعراف: ١٧١] ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أَيُّ فَخَالَفُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَإِنَّهُمْ أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا بَابَ بَيْتِ الْقُدُسِ سُجَّدًا وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ، أَيُّ اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا فِي تَرْكِهَا الْجِهَادِ وَنُكُولِنَا عَنْهُ، حَتَّىٰ تَهِنَا فِي التَّيِّهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَدَخَلُوا يَرْحُفُونَ عَلَىٰ أَشْهَائِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ فِي شَعْرَةٍ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أَيُّ وَصَيْنَاهُمْ بِحِفْظِ السَّبْتِ وَالْتِزَامِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، مَا دَامَ مَشْرُوعًا لَهُمْ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أَيُّ شَدِيدًا، فَخَالَفُوا وَعَصَوْا وَتَحَيَّلُوا عَلَىٰ ارْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾... الْآيَاتِ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

اسْتَهَانُوا بِمَنْ كَفَرُوا بِهِ، إِنَّمَا لَعَدَمَ نَظَرِهِمْ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَقَبَالِهِمْ عَلَىٰ جَمْعِ حُطَامِ الدُّنْيَا مِمَّا لَا ضَرُورَةَ بِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَكْفُرُهُمْ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِبُيُوتِهِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ أَجْبَارِ الْيَهُودِ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ حَسَدُوهُ عَلَىٰ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَادُوهُ وَقَاتَلُوهُ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّ الدُّنْيَوِيَّ الْمُؤْصُولَ بِالذِّلِّ الْأُخْرَوِيِّ ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالسَّكَنَةَ وَبَاءُوا بِفَضْسٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقِرُّوا بَيْنَ أَعْلَمِ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾... الْآيَةِ [البقرة: ٢٨٥]، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمُ الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ وَالثَّوَابَ الْجَلِيلَ وَالْعَطَاءَ الْجَمِيلَ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ عَلَىٰ مَا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَيُّ لِدُنُوبِهِمْ، أَيُّ إِنْ كَانَ لِبَعْضِهِمْ ذُنُوبٌ.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَقَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَمَا لَنَا بِمُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وَرَفَعْنَا قَوْمَهُمُ الطُّورَ بِبَيِّنَتِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٣﴾

#### [عِنَادُ الْيَهُودِ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَالشَّدْيِيُّ وَتَقَادَةُ: سَأَلَ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ كَمَا نَزَلَتْ التَّوْرَةُ عَلَىٰ مُوسَىٰ مَكْتُوبَةً<sup>(١)</sup>. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: سَأَلُوهُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ صُحُفًا مِنَ اللَّهِ مَكْتُوبَةً إِلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ بِتَضَدِّيقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا إِنَّمَا قَالُوهُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَالْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، كَمَا سَأَلَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَبْلَهُمْ نَظِيرَ ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي سُورَةِ سُحْرَانَ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾... الْآيَاتِ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أَيُّ بِطَغْيَانِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَعُتُوهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَهَذَا مُفسَّرٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ

﴿فَمَا تَقْضِيهِمْ مِثْقَلُهُمْ وَعُكْفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٥﴾ وَكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْنَاءُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾ فِطْرِهِمِ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١﴾ وَكَانَ مِنْ خَبَرِ الْيَهُودِ، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ وَسَخَطُهُ وَغَضَبُهُ وَعِقَابُهُ: أَنَّهُ لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى حَسَدُوهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ الَّتِي كَانَ يُبْرِئُ بِهَا الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ طَائِرًا، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ، فَيَكُونُ طَائِرًا يُشَاهَدُ طَيْرَانُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهَا وَأَجْرَاهَا عَلَى يَدَيْهِ، وَمَعَ هَذَا كَذَبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَسَعَوْا فِي أَذَاهُ بِكُلِّ مَا أَمَكْنَهُمْ، حَتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُسَاكِنُهُمْ فِي بَلَدِهِ، بَلْ يَكْثُرُ السَّيَاحَةُ هُوَ وَأُمَّهُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثُمَّ لَمْ يَقْنَعْنَاهُ ذَلِكَ، حَتَّى سَعَوْا إِلَى مَلِكٍ دَمَشَقَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَكَانَ رَجُلًا مُشْرِكًا مِنْ عِبَادَةِ الْكُؤَاكِبِ، وَكَانَ يُقَالُ لِأَهْلِ مِلَّتِهِ: الْيُونَانُ، وَأَنْهَوْا إِلَيْهِ:

﴿فَمَا تَقْضِيهِمْ مِثْقَلُهُمْ وَعُكْفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٥﴾ وَكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْنَاءُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾

### [إِجْرَائِمُ الْيَهُودِ]

وَهَذِهِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا مِمَّا أَوْجَبَ لَعْنَتَهُمْ وَطَرْدَهُمْ وَإِبْعَادَهُمْ عَنِ الْهُدَى، وَهُوَ تَقْضِيهِمُ الْمَوَاتِقَ وَالْعُهُودَ الَّتِي أَخَذَتْ عَلَيْهِمْ. وَكُفْرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، أَيْ حُجْجِهِ وَبَرَاهِينِهِ، وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا عَلَى [أَيْدِي] الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ إِجْرَائِمِهِمْ وَإِجْرَائِهِمْ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا جَمًّا غَيْرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيْ فِي غَطَاءٍ <sup>(١)</sup>. وَهَذَا كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْتَفٍ وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ...﴾ الْآيَةَ [فصلت: ٥] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ كَانَتْهُمْ اغْتَدَرُوا إِلَيْهِ بِأَن قُلُوبَهُمْ لَا تَعِي مَا يَقُولُ، لِأَنَّهَا فِي غُلْفٍ وَفِي أَكْتَفٍ، فَقَالَ اللَّهُ: بَلْ هِيَ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ تَمَرَّتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَقَلَّةُ الْإِيمَانِ.

### [قَوْلُهُمْ فِي مَرْيَمَ وَادْعَاؤُهُمْ قَتْلَ عِيسَى وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ]

﴿وَكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَنَّهُمْ رَمَوْهَا بِالزَّنَا <sup>(٢)</sup>. وَكَذَلِكَ قَالَ السُّدِّيُّ وَجُوبَيْرٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ <sup>(٣)</sup>. وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ، أَنَّهُمْ رَمَوْهَا وَابْنَهَا بِالْعِظَائِمِ، فَجَعَلُوهَا زَانِيَةً، وَقَدْ حَمَلَتْ بِوَلَدِهَا مِنْ ذَلِكَ، زَادَ بَعْضُهُمْ: وَهِيَ حَائِضٌ. فَعَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي يَدْعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمُنْصَبَ قَتَلْنَاهُ، وَهَذَا مِنْهُمْ مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ وَالْإِسْتِهْزَاءِ، كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ ﴿يَتَأْتِيهَا

(١) الطبري: ٩/ ٣٦٤ (٢) الطبري: ٩/ ٣٦٧ (٣) الطبري: ٩/ ٣٦٧



أَنَّ فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ رَجُلًا يَفْتِنُ النَّاسَ وَيُضِلُّهُمْ، وَيُفْسِدُ عَلَى الْمَلِكِ رِعَايَاهُ، فَغَضِبَ الْمَلِكُ مِنْ هَذَا، وَكَتَبَ إِلَى نَائِبِهِ بِالْمُقَدَّسِ أَنْ يَحْتَاطَ عَلَى هَذَا الْمَذْكُورِ، وَأَنْ يَضْلِبُهُ وَيَضَعُ الشُّوكَ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَكْفَأَ أَدَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابَ امْتَثَلَ مُتَوَلِّي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ذَلِكَ، وَذَهَبَ هُوَ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى الْمَنْزِلِ الَّذِي فِيهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ - إِنَّا عَشَرَ أَوْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ، وَقِيلَ: سَبْعَةَ عَشَرَ نَفَرًا - وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ لَيْلَةَ السَّبْتِ، فَحَصَرُوهُ هُنَاكَ. فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ وَأَنَّهُ لَا مَحَالَةَ مِنْ دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ أَوْ خُرُوجِهِ عَلَيْهِمْ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَيُّكُمْ يُلْقِي عَلَيْهِ شِبْهِي وَهُوَ رَافِقِي فِي الْجَنَّةِ؟ فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ شَابٌّ مِنْهُمْ فَكَأَنَّهُ اسْتَضَعَّرَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَعَادَهَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَنْتَدِبُ إِلَّا ذَلِكَ الشَّابُّ، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ، وَالْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ شِبْهَ عِيسَى حَتَّى كَأَنَّهُ هُوَ، وَفِيحَتْ رُوزَنَةٌ مِنْ سَقْفِ الْبَيْتِ، وَأَخَذَتْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سِتْرَهُ مِنَ الثَّوْمِ، فَرَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾... [الآية [آل عمران: ٥٥]]، فَلَمَّا رَفَعَ خَرَجَ أُولَئِكَ النَّفَرُ، فَلَمَّا رَأَى أُولَئِكَ ذَلِكَ الشَّابُّ، ظَنُّوا أَنَّهُ عِيسَى، فَأَخَذُوهُ فِي اللَّيْلِ وَصَلَبُوهُ، وَوَضَعُوا الشُّوكَ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَظْهَرُوا الْيَهُودَ أَنَّهُمْ سَعَوْا فِي صَلْبِهِ، وَتَبَجَّحُوا بِذَلِكَ، وَسَلَّمْ لَهُمْ طَوَائِفُ مِنَ النَّصَارَى ذَلِكَ، لِيَجْهَلِيَهُمْ وَقَلَّةُ عَقْلِهِمْ، مَا عَدَا مَنْ كَانَ فِي الْبَيْتِ مَعَ الْمَسِيحِ، فَإِنَّهُمْ شَاهَدُوا رَفْعَهُ. وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَّ الْيَهُودُ: أَنَّ الْمَضْلُوبَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، حَتَّى ذَكَرُوا: أَنَّ مَرْيَمَ جَلَسَتْ تَحْتَ ذَلِكَ الْمَضْلُوبِ وَبَكَتْ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ خَاطَبَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ امْتِحَانِ اللَّهِ عِبَادَهُ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ.

وَقَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ الْأَمْرَ وَجَلَّاهُ وَبَيَّنَّهُ، وَأَظْهَرَهُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ، الْمُتَوَفِّيهِ بِالْمُعْجَزَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ، وَالِدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ، الْمُطَّلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شِبْهَ لَهُمْ﴾ أَيُّ رَأَوْا شِبْهَهُ فَظَنُّوهُ إِثَابَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَنْ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَغِي شَكِّي

مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ قَتَلَهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ سَلَّمَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ جُهَاِلِ النَّصَارَى: كُلُّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ وَحَيْرَةٍ وَضَلَالٍ وَسُحْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أَيُّ وَمَا قَتَلُوهُ مُتَقَبِّحِينَ أَنَّهُ هُوَ، بَلْ شَاكِينَ مُتَوَهِّمِينَ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا أَعْيُنَ مَنْعِ الْجَنَابِ، لَا يُرَامُ جَنَابُهُ، وَلَا يُضَامُ مِنْ لَدُنْ بِنَابِهِ، ﴿حَكِيمًا﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ مَا يُقَدَّرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخْلُقُهَا، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ وَالسُّلْطَانُ الْعَظِيمُ وَالْأَمْرُ الْقَدِيمُ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ، خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَفِي الْبَيْتِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ، يَعْنِي فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ: إِنْ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي انْتِنِي عَشْرَةَ مَرَّةٍ، بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُلْقِي عَلَيْهِ شِبْهِي فَيَقْتُلَ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي؟ فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِتْرًا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ ذَلِكَ الشَّابُّ، فَقَالَ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ الشَّابُّ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ ذَاكَ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شِبْهَ عِيسَى، وَرَفَعَ عِيسَى مِنْ رُوزَنَةٍ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبَّهَ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ صَلَبُوهُ، فَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ انْتِنِي عَشْرَةَ مَرَّةٍ بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، وَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ، كَانَ اللَّهُ فِيهَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيهَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيهَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ، فَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَقَتَلُوها، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ بَنِيهِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ يُلْقِي عَلَيْهِ شِبْهِي فَيَقْتُلَ مَكَانِي، وَهُوَ رَافِقِي فِي الْجَنَّةِ؟

(١) ابن أبي حاتم: ٤/ ١١١٠ (٢) النسائي في الكبرى: ٤٨٩/٦

وَأَمَّاكُمْ مِنْكُمْ»<sup>(٩)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٠)</sup>.

(طَرِيقُ أُخْرَى) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنِّي أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مَمَّصَرَانِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبَهُ بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلِكَ كُلَّهُمَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، ثُمَّ تَقَعُ الْأَمْنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْأَسُودُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنَّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذَّنَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَلَيَلْعَبَ الصَّبِيَّانِ بِالْحَيَاتِ لَا تَضُرَّهُمْ، فَيَمُوتُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَتَوَفَّى، وَيُصَلَّى عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ» وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(١١)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمِئِذٍ، فَإِذَا تَصَافَوْا، قَالَتِ الرُّومُ: خَلَوْا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَّوْا مِنَّا نَقَاتِلَهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا وَاللَّهِ، لَا نَخْلِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا. فَيَقَاتِلُونَهُمْ: [فَيَنْهَزُهُمْ] ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَحُ الثُّلُثُ لَا يَفْتَنُونَ أَبَدًا، فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينَةَ، فَيَبْنِيانَهَا هُمُ يَبْنِيانَهَا الْعَنَائِمُ قَدْ عَلَقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ. فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ فَيَبْنِيانَهَا هُمُ يُعْدُونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَأَاهُ عَدُوُّ اللَّهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ

[يُؤْمِنُ جَمِيعُ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ بِالْمَسِيحِ قَبْلَ مَوْتِهِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا» رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَ ذَلِكَ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ: «إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» قَالَ: ذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِ عِيسَى، وَقَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا آمَنَ بِهِ<sup>(١٤)</sup>. [ذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةَ فِي نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ «ذِكْرِ الْأَنْبِيَاءِ» مِنْ صَحِيحِهِ الْمُتَّفَقِ بِالْقَبُولِ: نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَقْضِي الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ «وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا»<sup>(١٥)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٦)</sup> وَقَوْلُهُ: «قَبْلَ مَوْتِهِ» أَيُّ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

(طَرِيقُ أُخْرَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيَهْلَنَ عِيسَى بِفَجِّ الرُّوحَاءِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ، أَوْ لَيَنْتَبِهَهُمَا جَمِيعًا»<sup>(١٧)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٨)</sup> وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَيَمْحُو الصَّلِيبَ، وَتُجْمَعُ لَهُ الصَّلَاةُ، وَيُعْطَى الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْتُلَ، وَيَضَعُ الْخَرَاجَ، وَيَنْزِلُ الرُّوحَاءَ فَيَحُجُّ مِنْهَا أَوْ يَعْتَمِرُ أَوْ يَجْمَعُهُمَا» قَالَ: وَتَلَا أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَلَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ»... الْآيَةَ، فَزَعَمَ حَظَلُهُ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: يُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى. فَلَا أَذْرِي هَذَا كُلُّهُ حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ شَيْءٌ قَالَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ<sup>(١٩)</sup>؟ وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

(طَرِيقُ أُخْرَى) رَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) الطبري: ٣٨٠/٩ (٢) الطبري: ٣٨٠/٩ (٣) الطبري: ٩/٩

٣٨٠ (٤) فتح الباري: ٥٦٦/٦ (٥) مسلم: ١٣٥/١ وانظر

أيضاً فتح الباري: ٤٤/٥ ٤٨٣/٤ (٦) أحمد: ٥١٣/٢ (٧)

مسلم: ١٣٥/١ (٨) أحمد: ٢٩٠/٢ (٩) فتح الباري: ٦/٦

٥٦٦ (١٠) أحمد: ٢٧٢/٢ ومسلم: ١٣٦/١، ١٣٧ (١١)

أحمد: ٤٠٦/٢ وأبو داود: ٤٣٢٤ والطبري: ٣٨٨/٩

لَا نَذَابَ حَتَّىٰ يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، فَيَرْبِهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ»<sup>(١)</sup>.

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَتَقَاتِلَنَّ الْيَهُودَ فَلَتَقْتُلَنَّهُمْ، حَتَّى يَقُولَ الْحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيٌّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، يَقُولُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»<sup>(٣)</sup>.

وَلَنَذْكُرَ حَدِيثَ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ هَهُنَا: رَوَى مُسْلِمٌ بِنُ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَضَ فِيهِ وَرَفَعَ حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِنَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً فَخَفَضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجَ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُمْ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجَ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمُرُّوْا حَاجِبَهُمْ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِيَةٌ كَأَنِّي أَشَبُّهُ بِعَبْدِ الْعَزْزِيِّ بْنِ قُطَيْنٍ، مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاقْتُلُوا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا لَبْنُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمَ كَسَنِهِ، وَيَوْمَ كَشْهَرٍ، وَيَوْمَ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَسَنَهُ أَتُكْفِيْنَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، افْذَرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى قَوْمٍ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَيَمْطُرُ، وَالْأَرْضَ فَتَنْبُتُ، فَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ دُرَى، وَأَسْبَعُهُ ضُرُوعًا، وَأَمَلَهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُضِيبُونَ مُنْجِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِيبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ، فَتَنْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّخْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْلِكًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَّةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ، فَيَقْبِلُ

وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ وَيَضْحَكُ، فَيَبْنِمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيٍّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاصْبَعًا كَفَيْهِ عَلَى أَجْنِحَةٍ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسُهُ قَطَرٌ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، وَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِنَابٍ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسُحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَيَبْنِمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَاتِلِهِمْ، فَحَرَّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَّلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةٍ فَيَسْرُبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ يَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةٌ مَاءٌ، وَيُخَصِّرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ النُّورِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيَضِيبُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبِيرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَتَنَنَّهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْخَيْطِ، فَتَحُولُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُرُّ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ، وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالزَّلْفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَخْرِجِي ثَمْرَكَ وَرُدِّي بَرَكَتَكَ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعُصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَهْفِهَا، وَيَبَارِكُ اللَّهُ فِي الرُّسْلِ حَتَّى إِنَّ اللَّفْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتُكْفِي الْفَنَامَ، [وَمِنَ النَّاسِ وَاللَّفْحَةَ مِنَ الْعَنَمِ لَتُكْفِي الْفَخْدَ مِنَ النَّاسِ] فَيَبْنِمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَاهِمُ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمْرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ<sup>(٤)</sup> وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ<sup>(٥)</sup>. وَسَنَذْكُرُهُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿حَقَّقْ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾... الْآيَةُ [الْأَنْبِيَاءُ: ٩٦].

(١) مسلم: ٢٢٢١/٤ (٢) مسلم: ٢٢٣٨/٤ (٣) مسلم: ٤/٢٢٣٩ (٤) مسلم: ٢٢٥٠/٤ (٥) أحمد: ١٨١/٤ وأبو داود: ٤٩٦/٤ وتحفة الأحوذ: ٤٩٩/٦ والنسائي في الكبرى: ١٥/٥ وابن ماجه: ١٣٥٦/٢

[المزمل: ١٧]، وَذَلِكَ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] (١).

### (صِفَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبِهِ بَلَلٌ» (٢). وَفِي حَدِيثِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ: «فَيُنْزَلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْفِي دَمَشَقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفِّهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكََيْنِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرٌ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ مِثْلُ جُمَانِ اللَّوْلُؤِ، لَا يَجُلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ» (٣). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى» قَالَ: فَفَتَعَتْهُ: فَإِذَا رَجُلٌ حَسْبُهُ قَالَ: «مُضْطَرَبٌ، رَجُلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رَجَالِ شَنْوَاءٍ» قَالَ: «وَلَقِيتُ عِيسَى» فَفَتَعَتْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «رَبُّعُهُ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ» يَعْنِي الْحَمَامَ «وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدَهُ بِهِ» (٤) الْحَدِيثُ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَى فَادَمٌ جَسِيمٌ سَبَطُ، كَأَنَّهُ مِنْ رَجَالِ الرُّطْبِ» (٥). وَلَهُ وَلِمُسْلِمٍ عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَانِي النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْنَةُ طَافِيَةٍ» (٦). وَلِمُسْلِمٍ عَنْهُ مَرْفُوعًا «وَأَرَانِي اللَّهَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا تَرَى مِنْ آدَمِ الرَّجَالِ، تَضْرِبُ لِمَتَّهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ رَجُلُ الشَّعْرِ، يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ رَأَيْتُ وَرَاءَهُ رَجُلًا جَعْدًا قَطَطًا، أَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَشْبَهُ مَنْ رَأَيْتُ بِابْنِ قُطْنٍ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ، يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الْمَسِيحُ الدَّجَالُ» (٧).

[وَقَدْ بُنِيَ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةً مَنَارَةً لِلْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ بَيْضَاءُ مِنْ حِجَارَةٍ مَنُحَوِّتَةٍ عَوْضًا عَنِ الْمَنَارَةِ الَّتِي هُدِمَتْ بِسَبَبِ الْحَرِيقِ الْمُنْسُوبِ إِلَى صَنِيعِ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعْنَتُ اللَّهِ الْمَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وَكَانَ أَكْثَرُ عِمَارَتِهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَقَوِيَتِ الظُّنُونُ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي يَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا وَرَدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ].

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ يَعْقُوبَ ابْنِ عَاصِمٍ بِنِ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ التَّقْفِي قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عَمْرٍو، وَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ، تَقُولُ: إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ - أَوْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَحَدُثُ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا: يُحَرِّقُ الْبَيْتَ وَيَكُونُ وَيَكُونُ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُخْرِجُ الدَّجَالَ فِي أُمَّتِي فَيَمُكُّتُ أَرْبَعِينَ، لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمُكُّتُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِيلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ - أَوْ إِيْمَانٍ - إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلْتُهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ» قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «فَيَنْتَهِي شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَمَثُلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْتَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقُهُمْ، حَسَنَ عَيْشِهِمْ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَضَعُ وَيَضَعُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُ - أَوْ قَالَ الظَّلُ - نَعْمَانُ الشَّاكُ - فَتَبَيَّتْ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. ثُمَّ يُقَالُ: أَيُّهَا النَّاسُ: هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿وَقَفُّهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفافات: ٢٤] قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾

(١) مسلم: ٢٢٥٨/٤ (٢) أبو داود: ٤٩٨/٤ (٣) مسلم: ٤/٢٥٣ (٤) فتح الباري: ٤٩٣/٦ ومسلم: ١٥٤/١ (٥) فتح الباري: ٥٤٩/٦ (٦) مسلم: ٢٢٤٨/٤ (٧) مسلم: ١٥٤/١

سورة النساء

١٠٤

سورة النساء

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿١٦٢﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٣﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٤﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٧﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٨﴾ يَأْتِيهِمُ النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُلُّهُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٦٩﴾

سُوءُهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٦٦﴾ [الأنعام: ١٤٦] أَيْ إِنَّمَا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ بِسَبَبِ بَعْثِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أَيْ صَدُّوا النَّاسَ وَصَدُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَهَذِهِ سَجِيَّةُ لَهُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَا مِنْ قَدِيمِ الذَّهْرِ وَحَدِيثِهِ، وَلِهَذَا كَانُوا أَعْدَاءَ الرُّسُلِ، وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَذَّبُوا عِيسَى وَمُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ﴾ أَيْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَاَهُمْ عَنِ الرِّبَا فَتَنَّاوَلُوهُ وَأَخَذُوهُ وَاخْتَالُوا عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْحَيْلِ، وَصُوفٍ مِنَ الشُّبُهَةِ، وَأَكَلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ثُمَّ

ثُمَّ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعِيسَى: أَحْمَرُ، وَلَكِنْ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ أَدَمُ سَبْطُ الشَّعْرِ، يَتَهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، يُنَظِّفُ رَأْسَهُ مَاءً - أَوْ يَهْرَاقُ رَأْسَهُ مَاءً - فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا ابْنُ مَرْيَمَ، فَذَهَبْتُ أَلْتَفْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ، جَعَدَ الرَّأْسَ، أَغَوَّرَ عَيْنَيْهِ الْيُمْنَى، كَانَ عَيْنُهُ عَيْنَةً طَافِيَةً، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: الدَّجَالُ، وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا ابْنُ قَطَنِ» قَالَ الزُّهْرِيُّ: رَجُلٌ مِنْ خِزَاعَةِ هَلَكٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ<sup>(١)</sup>. هَذِهِ كُلُّهَا أَلْفَاظُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَهَ مِنَ اللَّهِ، وَأَقَرَّ بِعُيُودِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا تَكْوِيلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ إِلَهِي قَوْلِهِ ﴿الْمَرْيَمُ الْحَكِيمَةُ﴾ [الأنعام: ١١٦-١١٨].

﴿فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿١٦٧﴾ وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٨﴾ لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ الْزَّكَاةُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٩﴾

[تَحْرِيمُ طَيِّبَاتٍ عَلَى الْيَهُودِ لِأَجْلِ ظُلْمِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بِسَبَبِ ظُلْمِ الْيَهُودِ بِمَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الذُّنُوبِ الْعَظِيمَةِ، حَرَّمَ عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ كَانَ أَحْلَاهَا لَهُمْ، وَهَذَا التَّحْرِيمُ قَدْ يَكُونُ قَدْرِيًّا، بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى قَبَضَهُمْ لِأَن تَأَوَّلُوا فِي كِتَابِهِمْ، وَحَرَّوْا وَبَدَّلُوا أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ، فَحَرَّمُوها عَلَى أَنْفُسِهِمْ تَشْدِيدًا مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَضْيِيقًا وَتَنْطَعًا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ شَرْعِيًّا بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ: أَنَّ الْجَمِيعَ مِنَ الْأَطْعِمَةِ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ مَا عَدَا مَا كَانَ حَرَّمَ إِسْرَءِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ وَالْبَئِطِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي التَّوْرَةِ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ

وَيُوسُفُ وَيُؤُوبُ وَشُعَيْبٌ وَمُوسَى وَهَارُونُ وَيُؤُسُ وَدَاوُدُ  
وَسُلَيْمَانُ وَالْيَاسُ وَالْيَسَعَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى  
وَالْكَافِلُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَسَيَدُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أَي خَلَقًا آخَرِينَ  
لَمْ يُذَكِّرُوا فِي الْقُرْآنِ.

[فَضْلُ مُوسَى]

قَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِمُوسَى  
عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُ: الْكَلِيمُ. وَقَدْ رَوَى  
الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ:  
جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ عِيَّاشٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقْرَأُ  
(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا قَرَأَ هَذَا إِلَّا  
كَافِرٌ، قَرَأْتُ عَلَى الْأَعْمَشِ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ عَلَى يَحْيَى بْنِ  
وَثَّابٍ، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ عَلَى أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ،  
وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَرَأَ  
عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى  
تَكْلِيمًا﴾<sup>(١)</sup>. وَإِنَّمَا اشْتَدَّ غَضَبُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عِيَّاشٍ رَحِمَهُ  
اللَّهُ عَلَى مَنْ قَرَأَ كَذَلِكَ، لِأَنَّهُ حَرَفَ لَفْظَ الْقُرْآنِ وَمَعْنَاهُ،  
وَكَانَ هَذَا مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ  
السَّلَامُ أَوْ يَكَلِّمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ. كَمَا رَوَيْنَاهُ عَنْ بَعْضِ  
الْمُعْتَزَلَةِ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى بَعْضِ الْمَشَائِخِ (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى  
تَكْلِيمًا) فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ اللَّحْنَاءِ، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟  
يَعْنِي أَنَّ هَذَا لَا يَحْتَمِلُ التَّحْرِيفَ، وَلَا التَّأْوِيلَ.

[الْقَصْدُ مِنْ بَعْثَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَي يُبَشِّرُونَ مَنْ  
أَطَاعَ اللَّهَ وَاتَّبَعَ رِضْوَانَهُ بِالْخَيْرَاتِ، وَيُنذِرُونَ مَنْ خَالَفَ  
أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ بِالْعِقَابِ وَالْعَذَابِ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ  
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أَي  
إِنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالتَّنَادَرَةِ، وَبَيَّنَّ  
مَا يُحِبُّهُ وَيُرْضَاهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، لَئَلَّا يَبْقَى لِمُعْتَزِلٍ  
عُذْرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ  
لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ  
تُنْزِلَ وَتُنْزِلَ﴾ [طه: ١٣٤]، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ الرَّاْسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أَيِ الثَّابِتُونَ فِي  
الدِّينِ، لَهُمْ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ  
عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عَطَفَ عَلَى  
﴿الرَّاْسُخُونَ﴾ وَخَبَرَهُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ  
قَبْلِكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْزَلْتُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَتُعَلِّبُهُ  
ابْنُ سَعْيَةَ وَأَسَدُ بْنُ زَيْدٍ بْنُ سَعْيَةَ وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، الَّذِينَ دَخَلُوا  
فِي الْإِسْلَامِ، وَصَدَّقُوا بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ الزَّكَاةُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ  
زَكَاةَ الْأَمْوَالِ، وَيَحْتَمِلُ زَكَاةَ النُّفُوسِ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ،  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَيِ يَصْدُقُونَ بِأَنَّهُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِالتَّبَعِثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْجَزَاءِ عَلَى  
الْأَعْمَالِ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ﴾ هُوَ الْخَبَرُ عَمَّا  
تَقَدَّمَ ﴿سَيُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْسَ مِنْ بَعْدِهِ  
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ  
وَعِيسَى وَيُؤُوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾  
وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ  
وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَئَلَّا يَكُونَ  
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾  
[أَوْحَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ مَا أَوْحَى إِلَى مَنْ قَبْلَهُ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ  
عِكْرَمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ  
سَكِينٌ وَعَدِي بْنُ زَيْدٍ: يَا مُحَمَّدُ مَا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى  
بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ مُوسَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا:  
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْسَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إِلَى  
آخِرِ الْآيَاتِ<sup>(١)</sup>. فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ  
مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا أَوْحَى إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ،  
فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْسَ مِنْ  
بَعْدِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وَالزَّبُورُ اسْمُ  
الْكِتَابِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[الْمَذْكُورُونَ فِي الْقُرْآنِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَسُولًا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ  
نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أَيِ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْآيَةِ، يَعْنِي فِي السُّورِ  
الْمَكِّيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَهَذِهِ تَسْمِيَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ نَصَّ اللَّهُ عَلَى  
أَسْمَائِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَهُمْ: آدَمُ وَإِدْرِيسُ وَنُوحٌ وَهُودُ  
وَصَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَلُوطٌ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ

(١) الطبري: ٤٠٠/٩ إسناد ضعيف محمد بن أبي محمد شيخ  
محمد بن إسحاق مجهول كما مر مرارا. (٢) الطبراني الأوسط:  
(٨٦٠٢) عبد الجبار بن عبد الله لا يعرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٥

سُورَةُ النِّسَاءِ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا  
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ  
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ  
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ  
وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ  
الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ  
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ  
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
فَيُوفِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ  
اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا  
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ  
قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾  
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ  
فِي رَحْمَتِهِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٥﴾

الْحَقُّ، وَسَعَوْا فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَالْإِفْتِدَاءِ بِهِ،  
قَدْ خَرَجُوا عَنِ الْحَقِّ وَضَلُّوا عَنْهُ، وَبَعُدُوا مِنْهُ بُعْدًا  
عَظِيمًا شَاسِعًا، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي الْكَافِرِينَ  
بِآيَاتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ، الظَّالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ وَبِالْصَّدِّ  
عَنْ سَبِيلِهِ وَارْتِكَابِ مَاتِمِهِ وَانْتِهَاكِ مَحَارِمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ  
لَهُمْ ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ أَيْ سَبِيلًا إِلَى الْخَيْرِ ﴿إِلَّا طَرِيقَ  
جَهَنَّمَ﴾ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾...  
الْآيَةُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ الرَّسُولُ  
بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أَيْ قَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ  
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَالْبَيَانِ  
الشَّافِي مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمِنُوا بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ  
وَاتَّبِعُوهُ، يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ  
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ فَهُوَ غَيَّبَ عَنْكُمْ وَعَنِ إِيْمَانِكُمْ،  
وَلَا يَنْصَرُّ بِكُفْرَانِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ

نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾... الْآيَةُ [القصص: ٤٧].  
وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ  
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ  
الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَا  
أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ  
مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ  
رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ» (١).

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ  
يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿١٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ  
سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا  
لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغَيِّرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٧٣﴾ إِلَّا طَرِيقَ  
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧٤﴾ يَأْتِيهَا  
النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ  
وَلَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
حَكِيمًا ﴿١٧٥﴾

لَمَّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إِلَى آخِرِ  
السِّيَاقِ، إِثْبَاتَ نُبُوَّتِهِ ﷺ وَالرَّدَّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ نُبُوَّتَهُ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ  
بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ وَإِنْ كَفَرَ بِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِمَّنْ كَذَبَكَ  
وَحَالَفَكَ، قَالَهُ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ  
الْكِتَابَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ  
يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]  
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أَيْ فِي عِلْمِهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ  
يُطْلِعَ الْعِبَادَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى وَالْقُرْآنَ، وَمَا يُجِبُهُ  
اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْغُيُوبِ  
مِنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَمَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى  
الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ إِلَّا أَنْ  
يُعَلِّمَهُ اللَّهُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ  
إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَقَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ  
عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أَيْ بِصَدَقِ مَا جَاءَكَ  
وَأَوْحَى إِلَيْكَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ مَعَ شَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ  
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ  
ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَيْ كَفَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، فَلَمْ يَتَّبِعُوا

إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ أَيَّ إِنَّمَا هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَ لَهُ: كُنْ فَكَانَ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، أَيَّ خَلَقَهُ بِالكَلِمَةِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَرْيَمَ، فَفَتَحَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَانَ عِيسَى بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْفَتْحَةُ الَّتِي نَفَخَهَا فِي جَيْبِ دُرْعِمَا، فَتَزَلَّتْ حَتَّى وَلَجَتْ فَرْجَهَا بِمَنْزِلَةِ لِقَاحِ الْأَبِ وَالْأُمِّ، وَالْجَمِيعُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا قِيلَ لِعِيسَى: إِنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحٌ مِنْهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ تَوَلَّدَ مِنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاشِئٌ عَنِ الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَ لَهُ بِهَا: كُنْ، فَكَانَ. وَالرُّوحُ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَنتُمْ صَادِقَةٌ كَانَا يَكْفُرَانِ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٧٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [التحریم: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ...﴾ [الزخرف: ٥٩].

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿كُنْ﴾ فَكَانَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سِنَانٍ الْوَاسِطِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ شَاذَ بْنَ يَحْيَى يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قَالَ: لَيْسَ الْكَلِمَةُ صَارَتْ عِيسَى، وَلَكِنْ بِالْكَلِمَةِ صَارَ عِيسَى<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»<sup>(٦)</sup>.

زَادَ فِي رِوَايَةٍ: «مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيُّهَا شَاءَ»<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>. فَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ: (١) أَحْمَد: ٢٣/١ (٢) فتح الباري: ٥٥١/٦ (٣) أحمد: ٣/ ١٥٣ (٤) عبد الرزاق: ١٧٧/١ (٥) ابن أبي حاتم: ٦٣١٠ (٦) فتح الباري: ٥٤٦/٦ (٧) فتح الباري: ٥٤٧/٦ (٨) مسلم: ٥٧/١

تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَكِيمٌ [إبراهيم: ٨] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أَيَّ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمْ الْهَدَايَةَ فِيهِدِيهِ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَايَةَ فَيُعَوِّيهِ، ﴿حَكِيمًا﴾ أَيَّ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشُرْعِهِ وَقُدْرِهِ. ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لَا تَسْأَلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [٧١] [نَهَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَإِطْرَاءِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ]

يُنْهَى تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ وَالْإِطْرَاءِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي عِيسَى حَتَّى رَفَعُوهُ فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَتَقُولُوه مِنْ حِزْبِ الثَّبُوءِ، إِلَى أَنْ اتَّخَذُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَعْبُدُونَهُ. بَلْ قَدْ غَلَوْا فِي أَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ، فَادَّعَوْا فِيهِمُ الْعِصْمَةَ، وَاتَّبَعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ سِوَاءَ كَانَتْ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا، أَوْ ضَلَالًا أَوْ رَشَادًا، أَوْ صَحِيحًا أَوْ كَذِبًا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَهُمْ يَتَّبِعُهُمْ أَزْكَبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣١]. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ. فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَلَفْظُهُ: «فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرِنَا وَابْنَ خَيْرِنَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٣)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ أَيَّ لَا تَقْتَرُوا عَلَيْهِ وَتَجْعَلُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا، تَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ غُلُوًّا كَبِيرًا، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ وَتَوَحَّدَ فِي سُودِدِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا



وَعَشْرُونَ عَلَى مَقَالَةٍ، وَمِائَةٌ عَلَى مَقَالَةٍ، وَسَبْعُونَ عَلَى مَقَالَةٍ، وَأَزِيدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْقُصُ. فَلَمَّا رَأَى مِنْهُمْ عِصَابَةً قَدْ زَادُوا عَلَى الثَّلَاثِ مِائَةً بِمِائَتَيْ عَشَرَ نَفَرًا، وَقَدْ تَوَافَقُوا عَلَى مَقَالَةٍ، فَأَخَذَهَا الْمَلِكُ وَنَصَرَهَا وَأَيَّدَهَا - وَكَانَ فِيلُسُوفًا ذَاهِيَةً - وَمَحَقَّ مَا عَدَاهَا مِنَ الْأَقْوَالِ، وَانْتَضَمَ دَسْتُ أُولَئِكَ الثَّلَاثِ مِائَةٍ وَالثَّمَانِيَةِ عَشَرَ، وَبُنِيَتْ لَهُمُ الْكِنَائِسُ، وَوَضِعُوا لَهُمْ كُتُبًا وَقَوَائِينَ، وَأَخَذُوا فِيهَا الْأَمَانَةَ الَّتِي يُلْقِنُونَهَا الْوُلْدَانَ مِنَ الصِّغَارِ، لِيَعْتَقِدُوهَا، وَيُعَمِّدُونَهُمْ عَلَيْهَا، وَأَتَّبَعَ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمَلَكِيَّةُ. ثُمَّ إِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا مَجْمَعًا ثَانِيًا، فَحَدَّثَ فِيهِمُ الْيَعْقُوبِيَّةُ، ثُمَّ مَجْمَعًا ثَالِثًا فَحَدَّثَ فِيهِمُ النَّسْطُورِيَّةُ، وَكُلُّ هَذِهِ الْفِرَقِ تَثْبُتُ الْأَقَانِيمَ الثَّلَاثَةَ فِي الْمَسِيحِ، وَيَحْتَلِفُونَ فِي كَيْفِيَّةِ ذَلِكَ، وَفِي اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ - عَلَى رُغْمِهِمْ - هَلِ اتَّحَدَا، أَوْ مَا اتَّحَدَا، أَوْ امْتَزَجَا، أَوْ حَلَّ فِيهِ عَلَى ثَلَاثِ مَقَالَاتٍ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يُكْفَرُ الْفِرْقَةُ الْأُخْرَى، وَنَحْنُ نُكْفَرُ الثَّلَاثَةَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْتَهُمَا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

أَيُّ يَكُنْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴿لَئِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَكَ وَلَدٌ﴾ وَأَيُّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ مُلْكُهُ وَخَلْقُهُ، وَجَمِيعُ مَا فِيهَا عِبْدُهُ وَهُمْ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَنَصْرِيهِ، وَهُوَ وَكِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهُمْ صَاحِبَةٌ وَوَلَدٌ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَبْعَثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ﴾ ... الْآيَةِ [الأنعام: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَرَدَّا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْمِلْهُمُ إِلَهُهُ جَمِيعًا﴾ قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٧﴾

[الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَسْتَنْكِفُونَ عَنْ كَوْنِهِمْ عِبَادَ اللَّهِ] رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ لَنْ يَسْتَكْبِرَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَنْ يَحْتَشِمَ ﴿الْمَسِيحُ

«وَرُوحٌ مِنْهُ» كَقَوْلِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [البجائية: ١٣] أَيْ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ، وَلَيْسَتْ مِنْهُ لِلتَّعْيِيزِ، كَمَا تَقُولُهُ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَّبَاعَةُ - بَلْ هِيَ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى. وَأُضِيفَتِ الرُّوحُ إِلَى اللَّهِ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيفِ، كَمَا أُضِيفَتِ النَّاقَةُ وَالْبَيْتُ إِلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤] وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَطَهْرَ بَيْتِي لِطَافِينَ﴾ [الحج: ٢٦] وَكَمَا رَوَى فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «فَادْخُلْ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ»<sup>(١)</sup>. أَصَافَهَا إِلَيْهِ إِصَافَةً تَشْرِيفٍ [لَهَا]، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ قَبِيلِ وَاحِدٍ وَنَمِطٍ وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيْ فَصَدَّقُوا بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ، لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ، وَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا بِأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أَيْ لَا تَجْعَلُوا عِيسَى وَأُمَّهُ مَعَ اللَّهِ شَرِيكَيْنِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالَّتِي فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] وَكَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ الْمَذْكُورَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْعُدُونِي ... الْآيَةِ [الأنعام: ١١٦] وَقَالَ فِي أَوَّلِهَا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ... الْآيَةِ [المائدة: ٧٢] فَالنَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ - مِنْ جَهْلِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ ضَابطٌ، وَلَا لِكُفْرِهِمْ حَدٌّ، بَلْ أَقْوَالُهُمْ وَضَلَالَتُهُمْ مُتَتَبِرَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ إِلَهًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ شَرِيكًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ وَلَدًا، وَهُمْ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ لَهُمْ آراءٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَأَقْوَالٌ غَيْرُ مُؤْتَلَفَةٍ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ حَيْثُ قَالَ: لَوْ اجْتَمَعَ عَشْرَةٌ مِنَ النَّصَارَى لَا فَرَّقُوا عَلَى أَحَدٍ عَشَرَ قَوْلًا.

[فِرْقُ النَّصَارَى]

وَلَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ عُلَمَائِهِمُ الْمَشَاهِيرُ عَنْدهُمْ وَهُوَ سَعِيدُ ابْنُ بَطْرِيْقٍ، بَنَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ فِي حُدُودِ سَنَةِ أَرْبَعِمِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ: أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا [فِي] الْمَجْمَعِ الْكَبِيرِ الَّذِي عَقَدُوا فِيهِ الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ الَّتِي لَهُمْ، وَإِنَّمَا هِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيرَةُ الصَّغِيرَةُ، وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ قُسْطَنْطِينِ بَانِي الْمَدِينَةِ الْمَشْهُورَةِ، وَأَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ اخْتِلَافًا لَا يَنْضَبُطُ وَلَا يَنْحَصِرُ، فَكَانُوا أَزِيدَ مِنَ الْفَلْسَفَةِ؛ أَسْفَقًا، فَكَانُوا أَحْزَابًا كَثِيرَةً، كُلُّ خَمْسِينَ مِنْهُمْ عَلَى مَقَالَةٍ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٦

سُورَةُ النِّسَاءِ

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُ هَٰذَا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَتُهُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضُلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧٧﴾

يُكَلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿١٧٧﴾

[حُكْمُ الْكَلَالَةِ، وَهِيَ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: أَخْرَجَ سُورَةُ نَزَلَتْ بَرَاءُهُ، وَأَخْرَجَ آيَةُ نَزَلَتْ: يَسْتَفْتُونَكَ <sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَرِيضٌ لَا أَقْعُلُ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَبَّ عَلَيَّ، أَوْ قَالَ: صَبُّوا عَلَيَّ، فَعَقَلْتُ فَقُلْتُ: إِنَّهُ لَا يَرِثُنِي إِلَّا كَلَالَةٌ، فَكَيْفَ الْمِيرَاثُ؟ [قَالَ] فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْفَرَائِضِ <sup>(٥)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ. وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَافِ: فَنَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ» <sup>(٧)</sup>. وَالْآيَةُ <sup>(٨)</sup>. وَكَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -

أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا أَلَمَّتْ بَكَّةُ الْمَرْثُونَ <sup>(٩)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: «وَمَنْ يَسْتَفْتِكَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَيَسْخَرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا أَيْ يَجْمَعُهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَنْصَلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُوزُ فِيهِ، وَلَا يَجِبُ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَبُوَيْبَتْ لَهُمْ أَجُورُهُمْ وَزَيَّادَةٌ مِنْ فَضْلِهِ» أَيْ فَيُعْطِيهِمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَزَيَّادَةٌ عَلَى ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَسِعَةً وَرَحْمَةً وَأَمْتِنَانِهِ «وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا» أَيْ: ائْتَمَعُوا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ ذَلِكَ «فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» كَقَوْلِهِ: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» أَيْ صَاغِرِينَ خَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ كَمَا كَانُوا مُتَكَبِّرِينَ مُسْتَكْبِرِينَ.

«يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا» <sup>(١٠)</sup> فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مَنَّهُ وَفَضْلِ وَبَهْدِهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا <sup>(١١)</sup>. [أَوْصَافُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا جَمِيعَ النَّاسِ وَمُخْبِرًا بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنْهُ بُرْهَانٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ الدَّلِيلُ الْفَاطِعُ لِلْعُدْرِ، وَالْحُجَّةُ الْمُزِيلَةُ لِلشُّبْهَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا» أَيْ ضِيَاءً وَاضِحًا عَلَى الْحَقِّ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُ: وَهُوَ الْقُرْآنُ <sup>(١٢)</sup> «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ» أَيْ جَمَعُوا بَيْنَ مَقَامِي الْعِبَادَةِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِالْقُرْآنِ <sup>(١٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. «فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مَنَّهُ وَفَضْلٍ» أَيْ يَرْحَمُهُمْ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَزَيَّادَةٌ مِنْ ثَوَابٍ وَمُضَاعَفَةٌ وَرَفْعًا فِي دَرَجَاتِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، «وَبَهْدِهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» أَيْ طَرِيقًا وَاضِحًا قَصْدًا قِيَامًا لَا اغْوَجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مِنْهَاجِ الْإِسْتِقَامَةِ وَطَرِيقِ السَّلَامَةِ فِي جَمِيعِ الْأَعْتِقَادَاتِ وَالْعَمَلِيَّاتِ، وَفِي الْآخِرَةِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُقْضِي إِلَى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ.

«يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُ هَٰذَا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ

(١) الطبري: ٤٢٤/٩ (٢) الطبري: ٤٢٨/٩ (٣) الطبري: ٤٢٩/٩ (٤) فتح الباري: ١١٧/٨ (٥) أحمد: ٢٩٨/٣ (٦) فتح الباري: ٢٦/١٢ (٧) فتح الباري: ١٢/٥ (٨) مسلم: ١٢٣٥/٣ (٩) أبو داود: ٣٠٨/٣ (١٠) تحفة الأحوذ: ٦/٢٧٣ (١١) النسائي في الكبرى: ٥٩/٤ (١٢) وابن ماجه: ٤٦٢/١

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْأَسْوَدِ قَالَ: قَضَىٰ فِينَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: النِّصْفَ لِلْبَيْتِ وَالنِّصْفَ لِلْأُخْتِ. ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ: قَضَىٰ فِينَا. وَلَمْ يَذْكُرْ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَيْضًا عَنْ هُزَيْلِ بْنِ شُرَحْبِيلٍ قَالَ: سُئِلَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ عَنْ ابْنَةٍ وَابْنَةٍ ابْنٍ وَأُخْتٍ، فَقَالَ: لِلْابْنَةِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ، وَأَتِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَسَيِّئَ بَعْثِي، فَسَأَلَ ابْنَ مَسْعُودٍ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَقْصَىٰ فِيهَا بِمَا قَضَىٰ النَّبِيُّ ﷺ: النِّصْفَ لِلْبَيْتِ، وَلِلْبَيْتِ الْإِبْنُ السُّدُسُ تَكْمِلَةَ الثَّلَاثِينَ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ، فَاتَيْنَا أَبَا مُوسَى، فَأَخْبَرَنَا بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْخَبَرُ فِيكُمْ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ» أَيُّ: وَالْأَخُ يَرِثُ جَمِيعَ مَالِهَا إِذَا مَاتَتْ كَلَالَةً، وَلَيْسَ لَهَا وَلَدٌ أَيُّ: وَلَا وَالِدٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَا وَالِدٌ لَمْ يَرِثْ الْأَخُ شَيْئًا، فَإِنْ فُرِضَ أَنْ مَعَهُ مَنْ لَهُ فَرَضٌ صُرِفَ إِلَيْهِ فَرَضُهُ، كَزَوْجٍ أَوْ أَخٍ مِنْ أُمٍّ، وَصُرِفَ الْبَاقِي إِلَى الْأَخِ، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْحَقُّوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبْقَتْ الْفَرَائِضَ فَلِأَوْلَىٰ رَجُلٍ ذَكَرَ»<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «إِنْ كَانَتْ أُنْتَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ» أَيُّ فَإِنْ كَانَ لِمَنْ يَمُوتُ كَلَالَةً أُخْتَانِ، فُرِضَ لَهُمَا الثَّلَاثَانِ، وَكَذَا مَا زَادَ عَلَى الْأُخْتَيْنِ فِي حُكْمِهِمَا، وَمِنْ هَهُنَا أَخَذَ الْجَمَاعَةُ حُكْمَ الْبَيْتَيْنِ، كَمَا اسْتَفِيدَ حُكْمُ الْأَخَوَاتِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مِمَّا تَرَكَ» [النساء: ١٢].

وَقَوْلُهُ: «وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» هَذَا حُكْمُ الْعَصَبَاتِ مِنَ الْبَنِينَ وَبَنِي الْبَنِينَ وَالْإِخْوَةِ إِذَا اجْتَمَعَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ، أُعْطِيَ الذَّكَرُ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ. وَقَوْلُهُ: «بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ» أَيُّ يَفْرَضُ لَكُمْ فَرَائِضُهُ، وَيَحْدُ لَكُمْ حُدُودُهُ، وَيُوضَّحُ لَكُمْ سَرَائِعُهُ. وَقَوْلُهُ: «أَنْ تَضِلُّوا» أَيُّ لِكَلَّا تَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ الْبَيِّنَاتِ «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أَيُّ هُوَ عَالِمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ لِعِبَادِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرَابَاتِ بِحَسَبِ قُرْبِهِ مِنَ الْمُتَوَفَّى.

يَسْتَفْتُونَكَ عَنِ الْكَلَالَةِ ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ فِيهَا، فَدَلَّ الْمَذْكُورُ عَلَى الْمُتْرُوكِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْكَلَالَةِ وَاشْتِقَاقِهَا، وَأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ الْإِكْلِيلِ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَلِهَذَا فَسَّرَهَا أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ بِمَنْ يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ﴾، وَقَدْ أَشْكَلَ حُكْمَ الْكَلَالَةِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: ثَلَاثٌ وَوَدُثٌ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَادَ عَهْدَ الْإِنَّا فِيهِنَّ عَهْدًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ: الْجَدُّ وَالْكَالَةُ وَبَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرَّبَا<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ عَنِ الْكَلَالَةِ حَتَّى طَعَنَ بِإِضْبَاعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النَّسَاءِ»<sup>(٥)</sup> هَكَذَا رَوَاهُ مُخْتَصَرًا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مُطَوَّلًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا<sup>(٦)</sup>. وَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِآيَةِ الصَّيْفِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي فَضْلِ الصَّيْفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[ذِكْرُ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَاهَا وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ وَعَلَيْهِ

### التَّكْلَانُ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ﴾ أَيُّ مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] كُلُّ شَيْءٍ يَفْنَى وَلَا يَبْقَى إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْمَلَكِطِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. قَوْلُهُ: «لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ» أَيُّ: الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدٌ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَلَهُ» أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَلَوْ كَانَ مَعَهَا أَبٌ لَمْ تَرِثْ شَيْئًا، لِأَنَّهُ يَحْجُبُهَا بِالْإِجْمَاعِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَلَا وَالِدٍ، بِالنِّصِّ عِنْدَ التَّامُّلِ أَيْضًا، لِأَنَّ الْأُخْتَ لَا يَفْرَضُ لَهَا النِّصْفُ مَعَ الْوَالِدِ، بَلْ لَيْسَ لَهَا مِيرَاثٌ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ فِي الْمَيِّتِ: تَرَكَ بَنَاتًا وَأَخَاتًا إِنَّهُ لَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَهُ» أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ قَالَ: فَإِذَا تَرَكَ بَنَاتًا فَقَدْ تَرَكَ وَلَدًا فَلَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ، وَخَالَفَهُمَا الْجُمْهُورُ فَقَالُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: لِلْبَيْتِ النِّصْفُ بِالْفَرَضِ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ الْآخَرُ بِالتَّعْصِيبِ بِدَلِيلِ غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصَّتْ أَنْ يُفْرَضَ لَهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ. وَأَمَّا وَرَأَتْهَا بِالتَّعْصِيبِ فَلَمَّا

(١) فتح الباري: ٤٨/١ ومسلم: ٢٣٢٢/٤ (٢) أحمد: ١/

٢٦ (٣) مسلم: ١٢٣٦/٣ (٤) البخاري: ٦٧٤١ (٥)

البخاري: ٦٧٣٦ (٦) فتح الباري: ١٧/١٢ ومسلم: ١٢٣٣/٣

الْمَائِدَةِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَلَالٍ فَاسْتَحْلَوْهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهَا مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ، وَزَادَ: وَسَأَلْتُهَا عَنْ خُلْقِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: الْقُرْآنُ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(١١)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُكَلِّفُ غَيْرَ حِلٍّ الصِّيدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾<sup>(١)</sup> يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيذَ وَلَا آيَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْبَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ سِتْنَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(٢)</sup>

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: إِعْهَدْ إِلَيَّ، فَقَالَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعَاهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ بِأَمْرٍ بِهِ أَوْ شَرٍّ يَنْهَى عَنْهُ. وَعَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَهُوَ فِي التَّوْرَةِ: يَا أَيُّهَا الْمَسَاكِينُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْني بِالْعُقُودِ الْعُهُودُ<sup>(١٢)</sup>. وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: وَالْعُهُودُ مَا كَانُوا يَتَعَاهَدُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَلْفِ وَغَيْرِهِ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يَعْني بِالْعُهُودِ، يَعْني مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَمَا حَرَّمَ، وَمَا فَرَضَ وَمَا حَدَّ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ، فَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَنْكُثُوا، ثُمَّ شَدَّدَ فِي

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخَذَ عُمَرُ كَيْفًا وَجَمَعَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: لَا أَقْضِيَنَّ فِي الْكَلَالَةِ قَضَاءً تَحْدُثُ بِهِ النِّسَاءُ فِي خُدُورِهِنَّ، فَخَرَجَتْ حَيْثُ نِلَتْ حَتَّى مِنَ الْبَيْتِ فَتَفَرَّقُوا، فَقَالَ: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُبَيِّنَ هَذَا الْأَمْرَ لَأَتَمَّهُ<sup>(١٤)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَرَوَى الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ النَّيْسَابُورِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: لَأَنْ أَكُونَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ثَلَاثٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ: مِنَ الْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ؟ وَعَنْ قَوْمٍ قَالُوا: تَقَرُّ بِالزَّكَاةِ فِي أَمْوَالِنَا وَلَا نُؤَدِّيْهَا إِلَيْكَ، أَيَحِلُّ فِتْنَتُهُمْ؟ وَعَنِ الْكَلَالَةِ. ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(١٥)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ رَوَى عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَنْ أَخْلِفَ فِيهِ أَبَا بَكْرٍ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: هُوَ مَا عَدَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ<sup>(١٦)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الصَّدِيقُ عَلَيْهِ جُمُهورُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، كَمَا أَرَشَدَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ وَوَضَّحَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ

### [فَصَائِلُ الْمَائِدَةِ وَزَمَنُ نَزُولِهَا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَشْمَاءِ بِنْتِ يَزِيدٍ، قَالَتْ: إِنِّي لَأَخِذَةٌ بِزِمَامِ الْعُضْبَاءِ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْمَائِدَةُ كُلُّهَا، وَكَادَتْ مِنْ ثِقَلِهَا تَدُقُّ عَضْدَ النَّاقَةِ<sup>(١٧)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَتَزَلَّ عَنْهَا. فَفَرَّقَ بِهِ أَحْمَدُ<sup>(١٨)</sup>.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ وَالْفَتْحُ. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(١٩)</sup>. وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾<sup>(٢٠)</sup> [النصر: ١]. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ نَحْوَ رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٢١)</sup>. وَرَوَى الْحَاكِمُ أَيْضًا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، قَالَ: حَجَجْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ لِي: يَا جُبَيْرُ، تَقْرَأُ

(١) الطبري: ٤٣٩/٩ (٢) الحاكم: ٣٠٤/٢ (٣) الطبري: ٩/٤٣٧ (٤) مسند أحمد ٤٥٥/٤٦ إسناده ضعيف فيه ليث بن أبي سليم صدوق اختلط فلم يتميز حديثه فترك كما في التقريب وشيخه شهر بن حوشب كثير الأوهام والإرسال (٥) مسند أحمد ١٧٦/٢ فيه حثي بن عبدالله قال البخاري فيه نظر [الكامل لابن عدي ٢/٨٥٥] وعبدالله بن لهيعة فيه ضعف أيضا (٦) تحفة الأحوذى: ٤٣٦/٨ فيه أيضا حثي بن عبدالله (٧) تحفة الأحوذى: ٨/٤٣٧ (٨) الحاكم: ٣١١/٢ (٩) الحاكم: ٣١١/٢ (١٠) أحمد: ١٨٨/٦ (١١) النسائي في الكبرى: ١١١٣٨ (١٢) الطبري: ٤٥٠/٩ (١٣) الطبري: ٤٤٩/٩

رَجِيءٌ» [النحل: ١١٥] أَي: أَبْحَثْنَا تَنَاقُلَ الْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَرِّ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا مُعَدٍّ، وَهَكَذَا هُنَا أَي: كَمَا أَخْلَلْنَا الْأَنْعَامَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ فَحَرِّمُوا الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بِهِذَا، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

### [الْأَمْرُ بِاخْتِرَامِ الْحَرَمِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ مَنَاسِكَ الْحَجِّ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ، وَالْهَدْيُ وَالْبُدْنُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ<sup>(٩)</sup>. وَقِيلَ: شَعَائِرُ اللَّهِ: مَحَارِمُهُ، أَي: لَا تَحْلُوا مَحَارِمَ اللَّهِ الَّتِي حَرَّمَهَا تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ تَحْرِيمَهُ وَالْاعْتِرَافَ بِتَعْظِيمِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ مِنَ الْإِنْتِدَاءِ بِالْقِتَالِ وَتَأْكِيدِ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾... آيَةُ [التوبة: ٣٦]، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ: اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثُ مَتَوَالِيَاتٍ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ»<sup>(١٠)</sup>. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ تَحْرِيمِهَا إِلَى آخِرِ وَقْتٍ.

### [الْإِهْدَاءُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيَّةَ﴾ يَعْنِي لَا تَتْرَكُوا الْإِهْدَاءَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَإِنَّ فِيهِ تَعْظِيمًا لَشَعَائِرِ اللَّهِ، وَلَا تَتْرَكُوا تَقْلِيدَهَا فِي أَغْنَاقِهَا لِتَسْمِيَةِ بِهِ عَمَّا عَدَاهَا مِنَ الْأَنْعَامِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهَا هَدْيٌ إِلَى الْكِبَرَةِ فَيجَنَّبُهَا مَنْ يُرِيدُهَا بِسُوءٍ، وَتَبَعَتْ مَنْ يَرَاهَا عَلَى الْإِثْنَيْنِ بِمِثْلِهَا؛ فَإِنَّ مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَلِهَذَا لَمَّا حَجَّ

ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِغُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿سُوءَ الدَّارِ﴾<sup>(١١)</sup> وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ: مَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ مِنَ الْمِيثَاقِ عَلَى مَنْ أَقَرَّ بِالْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَالْكِتَابِ أَنْ يُوفُوا بِمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَرَائِضِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

### [بَيَانُ مَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ هِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ. قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١٢)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَلِكَ هُوَ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ بِهِذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِبَاحَةِ الْجَنِينِ إِذَا وَجِدَ مَيِّتًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا دُبِحَتْ<sup>(١٣)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ فِي الشَّيْخِ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَنْحَرُ النَّاقَةَ وَنَذْبَحُ الْبَقْرَةَ أَوْ الشَّاةَ فِي بَطْنِهَا الْجَنِينِ، أُنْفِقِيهِ أَمْ نَأْكُلُهُ؟ فَقَالَ: «كُلُّوهُ إِنْ شِئْتُمْ، فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاءُ أُمِّهِ» وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(١٤)</sup>. رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ذَكَاءُ الْجَنِينِ ذَكَاءُ أُمِّهِ»<sup>(١٥)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَقَّى عَلَيْكُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَزِيرِ<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَيْتَةَ وَمَنَامَهُ يُذَكِّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ<sup>(١٧)</sup>. وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلُ لُغَتِهِ اللَّهُ بِهِ وَالْمُنْتَفِقَةُ وَالْمُؤَفَّذَةُ وَالْمُرَدِّيَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَنْعَامِ إِلَّا أَنَّهَا تَحْرُمُ بِهِذِهِ الْعَوَارِضِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا مَا ذُكِّمْتُ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ يَعْنِي مِنْهَا فَإِنَّهُ حَرَامٌ لَا يُمَكِّنُ اسْتِدْرَاكُهُ وَتَلَاخُفُهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يَتَلَقَّى عَلَيْكُمْ﴾ أَي: إِلَّا مَا سَيَتَلَقَّى عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْرِيمِ بَعْضِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ مَحْلٍ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ بِالْأَنْعَامِ مَا يَعْصِي الْإِنْسِي مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَمَا يَعْصِي الْوَحْشِي كَالطَّيْلِ وَالْبَقَرِ وَالْحُمْرِ، فَاسْتَشْنَى مِنَ الْإِنْسِيِّ مَا تَقَدَّمَ، وَاسْتَشْنَى مِنَ الْوَحْشِيِّ الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَخْلَلْنَا لَكُمْ الْأَنْعَامَ [فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ] إِلَّا مَا اسْتَشْنَى مِنْهَا - لِمَنْ التَزَمَ تَحْرِيمَ الصَّيْدِ، وَهُوَ حَرَامٌ - لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَيْتَ اللَّهُ عَفْوَرٌ

(١) الطبري: ٤٥٢/٩ (٢) الطبري: ٤٥٥/٩ (٣) الطبري: ٩/

٤٥٦ (٤) أبو داود: ٢٥٢/٣ وتحفة الأحوذى: ٤٨/٥ وابن

ماجه: ١٠٦٦/٢ (٥) أبو داود: ٢٥٣/٣ (٦) الطبري: ٩/

٤٥٨ (٧) الطبري: ٤٥٨/٩ (٨) الطبري: ٤٦٣/٩ (٩)

الطبري: ٤٦٣/٩ (١٠) فتح الباري: ١٠/١٠

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بَاتَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ وَهُوَ وَادِي الْعَقِيقِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ طَافَ عَلَى نِسَائِهِ وَكُنَّ تَسْعًا، ثُمَّ اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ أَشْعَرَ هَذِيهَ وَقَلَدَهُ، وَأَهْلَ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَكَانَ هَذِيهَ إِيْلًا كَثِيرَةً تَنِيْفٌ عَلَى السَّيِّئِينَ، مِنْ أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْطَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ وَمَعْنَاهَا ظَاهِرٌ أَيْ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ قَدْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَذَلِكَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ، عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، فَتَقْتَضُوا مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، بَلِ احْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]

أَيْ لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ، فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ. فِي كُلِّ أَحَدٍ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَّةِ وَأَصْحَابُهُ حِينَ صَدَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ النَّبِيِّ، وَقَدْ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَمَرَّ بِهِمْ أَنَسُ بْنُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ يُرِيدُونَ الْعُمْرَةَ، فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ: نَصُدُّ هَؤُلَاءِ كَمَا صَدَدْنَا أَصْحَابَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَالشَّانُ هُوَ: الْبُغْضُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْعُدْوَانِ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ - وَهُوَ الْإِثْرُ - وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَهُوَ التَّقْوَى. وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْإِثْمُ: تَرْكُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِفِعْلِهِ. وَالْعُدْوَانُ: مُجَاوَزَةُ مَا حَدَّ اللَّهُ فِي دِينِكُمْ، وَمُجَاوَزَةُ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِي غَيْرِكُمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَصْرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ ظَالِمًا؟ قَالَ «تَحْجُزُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَلِكَ نَصْرُهُ»<sup>(٦)</sup>.

(١) الطبري: ٣٣٢/١٠ (٢) الطبري: ٤٨١، ٤٨٠/٩ (٣) الطبري: ٤٧٢/٩، ٤٧٥ (٤) الطبري: ٤٧٨/٩ (٥) الطبري: ٤٩٠/٩ (٦) أحمد: ٩٩/٣

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ فَلَا تَسْتَحِلُّوهُا؛ وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا خَرَجُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ فِي غَيْرِ الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ قَلَدُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّعْرِ وَالْوَبْرِ، وَتَقَلَّدَ مُشْرِكُو الْحَرَمِ مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ [الْحَرَمِ] فَيَأْمَنُونَ بِهِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: نُسِخَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ آيَاتَانِ آيَةُ الْقَلَالِدِ وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَآخُذْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾<sup>(١)</sup> [المائدة: ٤٢].

[تَحْرِيمٌ مِنْ قَصْدِ النَّبِيِّ الْحَرَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا ءَايِينَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أَيْ وَلَا تَسْتَحِلُّوهُا قِتَالَ الْقَاصِدِينَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَكَذَا مَنْ قَصَدَهُ طَالِبًا فَضْلَ اللَّهِ وَرَاجِبًا فِي رِضْوَانِهِ، فَلَا تَصُدُّوهُ وَلَا تَمْنَعُوهُ وَلَا تُهَيِّجُوهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَمُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ عَمِيرٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ التَّجَارَةَ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وَقَوْلُهُ ﴿وَرِضْوَانًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَتَرَضَّوْنَ اللَّهُ بِحَبِّهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ عِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْحُطَمِ بْنِ هِنْدِ الْبَكْرِيِّ، كَانَ قَدْ آغَارَ عَلَى سَرَحِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ اعْتَمَرَ إِلَى النَّبِيِّ، فَأَرَادَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ أَنْ يَعْتَرِضُوا عَلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى النَّبِيِّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا ءَايِينَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾<sup>(٣)</sup>.

[إِبَاحَةُ الصَّيْدِ بَعْدَ الْحَلَالِ مِنَ الْإِحْرَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أَيْ إِذَا فَرَعْتُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمْ وَأَحْلَلْتُمْ مِنْهُ فَقَدْ أَبَحْنَا لَكُمْ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ مِنَ الصَّيْدِ، وَهَذَا أَمْرٌ بَعْدَ الْحُظْرِ، وَالصَّحِيحُ - الَّذِي يَثْبُتُ عَلَى السَّبْرِ -: أَنَّهُ يَرُدُّ

(١) الطبري: ٤٧٢/٩، ٤٧٥ (٢) الطبري: ٤٧٨/٩ (٣) الطبري: ٤٩٠/٩ (٦) أحمد: ٩٩/٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٧

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْجَفَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَمِيسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَحْمَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مَعَ لَكُمُ اللَّهُ فُكُلُوا أَمَّا أَسْكَنْ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حُلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حُلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَةِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤﴾

أَسْلَمَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ يَعْنِي إِنْسِيَّهُ وَوَحْشِيَّهُ، وَاللَّحْمُ يَعْصَمُ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ حَتَّى الشَّحْمُ، وَلَا يُحْتَاجُ إِلَى تَحْدِثِ الظَّاهِرَةِ فِي جُمُودِهِمْ هَهُنَا، وَتَعَسُّفِهِمْ فِي الْإِحْتِجَاجِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَيْسَ رَجْسٌ أَوْ فِسْقٌ﴾ يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيسَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] أَعَادُوا الضَّمِيرَ فِيمَا فَهَمُوهُ عَلَى الْخِنْزِيرِ حَتَّى يَعْصَمَ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ. وَهَذَا بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ اللَّغَةُ، فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ الضَّمِيرُ إِلَّا إِلَى الْمُضَافِ دُونَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ اللَّحْمَ يَعْصَمُ جَمِيعَ الْأَجْزَاءِ كَمَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ لَعْنَةِ الْعَرَبِ، وَمِنْ الْعُرْفِ الْمُطْرَدِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ

إِنْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ هُشَيْمٍ بِهِ نَحْوُهُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَضْبُرُ عَلَى آذَانِهِمْ، أَكْثَرُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَضْبُرُ عَلَى آذَانِهِمْ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»<sup>(٣)</sup>.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْجَفَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَمِيسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَحْمَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٢﴾

[مَا حُرِّمَ أَكْلُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عِبَادَهُ خَيْرًا مُتَّصِمًا النَّهْيِ عَنْ تَعَاطِي هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ مِنَ الْمَيْتَةِ، وَهِيَ مَا مَاتَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ حَتَّى أَنْفَهُ مِنْ غَيْرِ ذِكَاةٍ وَلَا اضْطِيَادٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ، لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّمِ الْمُحْتَفَنِ، فَهِيَ ضَارَّةٌ لِلدِّينِ وَلِلدِّينِ، فَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَتُسْتَنَى مِنَ الْمَيْتَةِ السَّمَكُ، فَإِنَّهُ حَلَالٌ سِوَاءَ مَا تَذَكِّيَتْ أَوْ غَيْرَهَا لِمَا رَوَاهُ مَالِكٌ فِي مُوطَّئِهِ، وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةٍ فِي سُنَنِهِمْ، وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ جِبَانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ، فَقَالَ: «هُوَ الطَّهْرُ مَاؤُهُ الْحُلُّ مِيتَتُهُ»<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا الْجَرَادُ

لِمَا سَيَأْتِي مِنَ الْحَدِيثِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْدَّمُ﴾ [المائدة: ٣] يَعْنِي بِهِ الْمَسْفُوحُ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الطَّحَالِ فَقَالَ: كُلُّهُ، فَقَالُوا: أَنَّهُ دَمٌ، فَقَالَ: إِنَّمَا حُرِّمَ عَلَيْكُمُ الدَّمُ الْمَسْفُوحُ، وَقَدْ رَوَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحِلُّ لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمِيتَتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَابْنُ مَاجَةٍ وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَالبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ

(١) فتح الباري: ١١٧/٥ (٢) أحمد: ٣٦٥/٥ (٣) مسلم: ٢٢٤/٤ (٤) أبو داود: ٦٤/١ وتحفة الأحوذ: ١/٢٢٤ والنسائي: ٥٠/١ وابن ماجه: ١٣٦/١ وابن خزيمة: ٥٩/١ وابن حبان: ٢٧٢/٢ (٥) ترتيب مسند الشافعي: ١٧٣/٢ (٦) أحمد: ٩٧/٢ والدارقطني: ٢٧٢/٤ والبيهقي: ٢٥٤/١

مِنْ مَذْبَحِهَا . وَالطَّيْحَةُ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ، أَيِ مَنْطُوحَةٍ .  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّعْيُ﴾ أَيِ مَا عَدَا عَلَيْهَا أَسَدٌ  
أَوْ فَهْدٌ أَوْ نَمِرٌ أَوْ ذَيْبٌ أَوْ كَلْبٌ، فَأَكَلَ بَعْضَهَا فَمَاتَتْ  
بِذَلِكَ، فَهِيَ حَرَامٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ سَالَ مِنْهَا الدَّمُ، وَلَوْ مِنْ  
مَذْبَحِهَا، فَلَا تَحِلُّ بِالْإِجْمَاعِ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ  
يَأْكُلُونَ مَا أَفْضَلَ السَّعْيِ مِنَ الشَّاةِ أَوْ الْبَعِيرِ أَوْ الْبَقَرَةِ أَوْ  
نَحْوِ ذَلِكَ، فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى مَا يُمْكِنُ عَوْدُهُ عَلَيْهِ  
مِمَّا انْعَدَدَ سَبَبَ مَوْتِهِ، فَأَمَكَنَ تَدَارُكُهُ بِذِكَاةٍ وَفِيهِ حَيَاةٌ  
مُسْتَقَرَّةٌ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالْمُتَخِفَةُ وَالْمَوْفُودَةُ  
وَالْمُرْدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّعْيُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ يَقُولُ: إِلَّا مَا  
ذَكَيْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ وَفِيهِ رُوحٌ فَكُلُوهُ، فَهُوَ ذَكِيٌّ<sup>(٩)</sup> . وَكَذَا  
رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَالسَّيِّدِيِّ<sup>(١٠)</sup> .  
وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: إِذَا أَذْرَكْتَ ذَكَاةَ الْمُفُودَةِ  
وَالْمُرْدِيَّةِ وَالطَّيْحَةِ، وَهِيَ تُحَرِّكُ يَدًا أَوْ رِجْلًا  
فَكُلْهَا<sup>(١١)</sup> . وَهَكَذَا رَوَى عَنْ طَاوُسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ  
وَعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَالضَّحَّاكَ وَغَيْرَ وَاحِدٍ: أَنَّ الْمَذَكَاةَ مَتَى  
تَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ تَذُلُّ عَلَى بَقَاءِ الْحَيَاةِ فِيهَا بَعْدَ الذَّبْحِ ،  
فَهِيَ حَلَالٌ<sup>(١٢)</sup> .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا  
رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا قُوَّةَ لِلْعَدُوِّ غَدًا، وَلَيْسَ مَعَنَا مَدَى، أَفَنَذْبَحُ  
بِالْقَصَبِ؟ فَقَالَ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ،  
فَكُلُوهُ، لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفْرُ، وَسَأَحْدِثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ: أَمَّا  
السِّنُّ فَعِظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمُدَى الْحَبَسَةِ»<sup>(١٣)</sup> .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصْبِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ  
جُرَيْجٍ: كَانَتْ النُّصْبُ حِجَارَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ<sup>(١٤)</sup> . قَالَ ابْنُ  
جُرَيْجٍ: وَهِيَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نَصْبًا، كَانَتْ الْعَرَبُ فِي  
جَاهِلِيَّتِهَا يَذْبَحُونَ عِنْدَهَا، وَيَنْصَحُونَ مَا أَقْبَلَ مِنْهَا إِلَى  
الْبَيْتِ بِدِمَاءِ تِلْكَ الذَّبَائِحِ، وَيُسْرَحُونَ اللَّحْمَ وَيَصْعُقُونَهُ عَلَى

بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّزْدِشِيرِ، فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي  
لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَدَمِهِ»<sup>(١٥)</sup> . فَإِذَا كَانَ هَذَا التَّنْفِيرُ لِمُجَرَّدِ  
اللَّحْمِ، فَكَيْفَ يَكُونُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعْدُ الْأَكِيدُ عَلَى أَكْلِهِ  
وَالْتَعَذُّي بِهِ؟ وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى شُمُولِ اللَّحْمِ لِجَمِيعِ الْأَجْزَاءِ  
مِنَ الشَّحْمِ وَغَيْرِهِ؟ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْحَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ»  
فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا تُطْلَى بِهَا  
السُّفْنُ، وَتُدَهَّنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِغُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ:  
«لَا، هُوَ حَرَامٌ»<sup>(١٦)</sup> . وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي  
سُفْيَانَ أَنَّهُ قَالَ لِهَرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ: نَهَانَا عَنِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَهْلُ لَعَنَ اللَّهُ بِهِ﴾ [المائدة: ٤] أَيِ مَا ذُبِحَ  
فَذَكَرَ عَلَيْهِ اسْمُ غَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ حَرَامٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ  
أَنْ تَذْبَحَ مَخْلُوقَاتُهُ عَلَى اسْمِهِ الْعَظِيمِ، فَمَتَى عُدِلَ بِهَا عَنْ  
ذَلِكَ، وَذَكَرَ عَلَيْهَا اسْمُ غَيْرِهِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ طَاغُوتٍ أَوْ وَثْنٍ  
أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ فَإِنَّهَا حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ .

قَوْلُهُ: ﴿وَالْمُتَخِفَةُ﴾ وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ بِالْحَقَنِ، إِمَّا  
فَقَصْدًا، وَإِمَّا إِتِّفَاقًا، بِأَنْ تَتَخَلَّلَ فِي [وَتَأْتِيهَا]، فَتَمُوتَ بِهِ،  
فَهِيَ حَرَامٌ . وَأَمَّا «الْمَوْفُودَةُ» فَهِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِشَيْءٍ  
ثَقِيلٍ غَيْرِ مُحَدَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ  
وَاحِدٍ: هِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِالْحَشِيشَةِ، حَتَّى [تَوْفَدَ بِهَا]  
فَتَمُوتَ<sup>(١٧)</sup> . قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَضْرِبُونَهَا  
بِالْعَصِيِّ، حَتَّى إِذَا مَاتَتْ أَكَلُوهَا<sup>(١٨)</sup> . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ  
عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرْمِي  
بِالْمُغْرَاضِ الصَّيْدَ فَأُصِيبُ؟ قَالَ: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمُغْرَاضِ  
فَخَزَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَ بَعْضُهُ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيدٌ، فَلَا  
تَأْكُلْهُ»<sup>(١٩)</sup> . فَفَرَّقَ بَيْنَ مَا أَصَابَهُ بِالسَّهْمِ أَوْ بِالْمُزْرَاقِ  
وَنَحْوِهِ بِحَدِّهِ، فَأَحَلَّهُ، وَمَا أَصَابَ بَعْضُهُ فَجَعَلَهُ وَقِيدًا لَمْ  
يُحَلِّهِ، وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ .

وَأَمَّا «الْمُرْدِيَّةُ» فَهِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ شَاهِقٍ أَوْ مَوْضِعٍ  
عَالٍ، فَتَمُوتُ بِذَلِكَ، فَلَا تَحِلُّ . قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْمُرْدِيَّةُ الَّتِي تَسْقُطُ مِنْ جَبَلٍ<sup>(٢٠)</sup> . وَقَالَ  
قَتَادَةُ: هِيَ الَّتِي تَرْدَى فِي بُئْرٍ<sup>(٢١)</sup> . وَقَالَ السَّيِّدِيُّ: هِيَ الَّتِي  
تَقَعُ مِنْ جَبَلٍ أَوْ تَرْدَى فِي بُئْرٍ<sup>(٢٢)</sup> .

وَأَمَّا «الطَّيْحَةُ» فَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطْحٍ غَيْرِهَا  
لَهَا، فَهِيَ حَرَامٌ، وَإِنْ جَرَحَهَا الْقُرْنُ وَخَرَجَ مِنْهَا الدَّمُ، وَلَوْ

(١) مسلم: ١٧٧٠/٤ (٢) فتح الباري: ٤٩٥/٤ ومسلم: ٣/١٢٠٧ (٣) الطبري: ٤٩٦/٩ (٤) الطبري: ٤٩٦/٩ (٥) فتح الباري: ٥١٨/٩ (٦) الطبري: ٤٩٨/٩ (٧) الطبري: ٩/٤٩٨ (٨) الطبري: ٤٩٨/٩ (٩) الطبري: ٥٠٢/٩ (١٠) الطبري: ٥٠٧، ٥٠٤/٩ (١١) الطبري: ٥٠٣/٩ (١٢) الطبري: ٥٠٤/٩ (١٣) فتح الباري: ٥٥٤/٩ ومسلم: ٣/١٥٥٨ (١٤) الطبري: ٥٠٨/٩



الْغُصْبِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، فَهِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ هَذِهِ الذَّبَابِجِ الَّتِي فُعِلَتْ عِنْدَ الثُّصِبِ - حَتَّى وَلَوْ كَانَ يُذَكَّرُ عَلَيْهَا اسْمُ اللَّهِ فِي الذَّنَجِ عِنْدَ الثُّصِبِ - مِنَ الشَّرِكِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ هَذَا عَلَى هَذَا، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ تَحْرِيمُ مَا أَهْلُ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ.

### [حُرْمَةُ الْإِسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أَيِ حَرَمِ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْإِسْتِقْسَامَ بِالْأَزْلَامِ، وَاجِدَهَا زَلَمٌ، وَقَدْ تَفَتَّحَ الرَّأْيُ، فَيُقَالُ: زَلَمٌ، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّيْهَا يَتَعَاطُونَ ذَلِكَ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحِ ثَلَاثَةٍ، عَلَى أَحَدِهَا مَكْتُوبٌ: اِفْعَلْ، وَعَلَى الْآخَرِ: لَا تَفْعَلْ، وَالثَّلَاثُ: غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: مَكْتُوبٌ عَلَى الْوَاحِدِ: أَمْرِنِي رَبِّي، وَعَلَى الْآخَرِ: نَهَانِي رَبِّي، وَالثَّلَاثُ: غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَإِذَا أَجَالَهَا فَطَلَعَ سَهْمُ الْأَمْرِ فَعَلَهُ، أَوْ النَّهْيُ تَرَكَهُ، وَإِنْ طَلَعَ الْفَارِغُ أَعَادَ، وَالْإِسْتِقْسَامُ مَأْخُودٌ مِنْ طَلَبِ الْقِسْمِ مِنْ هَذِهِ الْأَزْلَامِ، هَكَذَا قَرَّرَ ذَلِكَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ قِدَاحٌ كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا الْأُمُورَ<sup>(٢)</sup>. وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: إِنَّ أَعْظَمَ أَصْنَامٍ قُرَيْشٍ صَنَمٌ كَانَ يُقَالُ لَهُ هُبْلٌ، مَنصُوبٌ عَلَى بَثْرِ دَاخِلِ الْكُعْبَةِ، فِيهَا تَوْضَعُ الْهَدَايَا، وَأَمْوَالُ الْكُعْبَةِ فِيهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ سَبْعَةُ أَزْلَامٍ، مَكْتُوبٌ فِيهَا مَا يَتَحَاكَمُونَ فِيهِ مِمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ، فَمَا خَرَجَ لَهُمْ مِنْهَا رَجَعُوا إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْدِلُوا عَنْهُ<sup>(٣)</sup>. وَبَتَّ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا دَخَلَ الْكُعْبَةَ، وَجَدَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ مُصَوِّرَيْنِ فِيهَا، وَفِي أَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ فَقَالَ: «قَاتِلَهُمُ اللَّهُ، لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا»<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قَالَ: هِيَ سِهَامُ الْعَرَبِ، وَكِبَابُ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَانُوا يَتَقَامَرُونَ [بِهَا]<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي الْأَزْلَامِ أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ لِلْقِمَارِ، فِيهِ نَظَرٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْإِسْتِخَارَةِ تَارَةً وَفِي الْقِمَارِ أُخْرَى. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ [فَرَّقَ] بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقِمَارِ، وَهُوَ الْمَيْسِرُ فَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْغَنَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِمَّنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٦)</sup> إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أُمُورِهِمْ أَنْ يَسْتَخِيرُوهُ، بِأَنْ يَعْبُدُوهُ ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الْخَيْرَةَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالبَخَارِيُّ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، فَاصْرِفْني عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»<sup>(٧)</sup>. لَفْظُ أَحْمَدَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

### [بِأَسِ الْكُفَّارِ وَالشَّيْطَانِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ ﴿الَّذِينَ يَسِّسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي يَتَّبِعُوا أَنْ يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَالسُّدِّيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ<sup>(٩)</sup>. وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَرُدُّ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسِّسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»<sup>(١٠)</sup>. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُوا مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُسْلِمِينَ، لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُخَالَفَةِ لِلشَّرِكِ وَأَهْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى أَمْرًا

(١) الطبري: ٥٠٨/٩ (٢) الطبري: ٥١٥/٩ (٣) الطبري: ٩/٥١٣ (٤) فتح الباري: ٤٤٦/٦ (٥) الطبري: ٥١٢/٩ (٦) أحمد: ٣٤٤/٣ وفتح الباري: ٥٨/٣ وأبو داود: ١٨٧/٢ ونحفة الأحوذ: ٥٩١/٢ والنسائي: ٨٠/٦ وابن ماجه: ٤٤٠/١ (٧) الطبري: ٥١٦/٩ (٨) الطبري: ٥١٦/٩ (٩) مسلم: ٢١٦٦/٤

لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَتَذَكَّرُوا فِي مَخَالَفَةِ الْكُفَّارِ، وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، فَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أَيُّ لَا تَخَافُوهُمْ فِي مَخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَاخْشَوْنِي، أَنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَأُبْذِلْهُمْ، وَأُظْفِرْكُمْ بِهِمْ، وَأَشْفِ صُدُورَكُمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلْكُمْ قُوفَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[إِكْمَالُ دِينِ الْإِسْلَامِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَلَا إِلَى نَبِيِّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعَثَهُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَالْجِنِّ، فَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لَا كِذْبَ فِيهِ وَلَا خُلْفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَيُّ صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُمُ الدِّينَ، تَمَّتْ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أَيُّ فَارْضُوهُ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّهُ الدِّينُ الَّذِي أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ، وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَلَ الرُّسُلِ الْكَرِيمِ، وَأَنْزَلَ بِهِ أَشْرَفَ كُتُبِهِ.

### [إِبَاحَةُ الْمَيْتَةِ فِي حَالَةِ الْإِضْطِرَارِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُجَانِفٍ لِإِيْمَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ فَمَنْ احْتَاجَ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِضَرُورَةٍ أَلْجَأَتْهُ إِلَى ذَلِكَ، فَلَهُ تَنَاوُلُهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَهُ، لِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ حَاجَةَ عَبْدِهِ الْمُضْطَرِّ وَانْتِفَارَهُ إِلَى ذَلِكَ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُ، وَيَغْفِرُ لَهُ، وَفِي الْمُسْتَدِّ وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»<sup>(١)</sup>. لَفْظُ ابْنِ حِبَّانَ. وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ جَوَازِ تَنَاوُلِ الْمَيْتَةِ أَنْ يَمْضِيَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لَا يَجِدُ طَعَامًا، كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعَوَامِّ وَغَيْرِهِمْ، بَلْ مَتَى اضْطَرَّ إِلَى ذَلِكَ جَازَ لَهُ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي وَقَائِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا بِأَرْضٍ تُصَيِّبُنَا بِهَا الْمُخْمَصَةُ، فَمَتَى نَحِلُّ لَنَا بِهَا الْمَيْتَةَ؟ فَقَالَ: «إِذَا لَمْ تَضْطَحُوا، وَلَمْ تَغْتَنِّقُوا، وَلَمْ تَحْتَفِنُوا بَقْلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا»<sup>(٢)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ طَارِقٍ، قَالَ: قَالَتْ الْيَهُودُ لِعُمَرَ: وَاللَّهِ! إِنْكُمْ تَقْرَأُونَ آيَةً لَوْ نَزَلَتْ فِيْنَا لَاتَّخَذْنَاهَا عِيدًا. فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَاَعْلَمُ حِينَ أَنْزَلْتَ، وَأَيْنَ أَنْزَلْتَ، وَأَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ أَنْزَلْتَ: يَوْمَ عَرَفَةَ، وَأَنَا وَاللَّهُ بِعَرَفَةَ، قَالَ سُفْيَانُ: وَأَشْكُ: كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَمْ لَا؟ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> الْآيَةِ. وَشَكَّ سُفْيَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنْ كَانَ فِي الرِّوَايَةِ، فَهُوَ تَوَرُّعٌ حَيْثُ شَكَّ: هَلْ أَخْبَرَهُ شَيْخُهُ بِذَلِكَ أَمْ لَا؟ وَإِنْ كَانَ شَكًّا فِي كَوْنِ الْوُقُوفِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ كَانَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَهَذَا مَا إِخَالَهُ يَصْدُرُ عَنِ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ مَقْطُوعٌ بِهِ، لَمْ يَخْتَلَفْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ، وَلَا مِنَ الْفُقَهَاءِ. وَقَدْ وَرَدَتْ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثٌ مُتَوَاتِرَةٌ لَا يُشْكُ فِي صِحَّتِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ عُمَرَ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ هَارُونَ بْنِ عَثَرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، بَكَى عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يَبْكُكَ؟» قَالَ: أَبْكَانِي أَنَا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا، فَأَمَّا إِذَا أُكْمِلَ فَإِنَّهُ لَمْ يُكْمَلْ شَيْءٌ إِلَّا نَقَصَ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ»<sup>(١)</sup>. وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى الْحَدِيثُ الثَّابِتُ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْكُمْ تَقْرَأُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ، لَوْ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: قَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَاَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ الْحَسَنِ

(١) الطبري: ٥١٩/٩ (٢) مسلم: ١٣٠/١ (٣) أحمد: ١/٣٨ (٤) فتح الباري: ١٢٩/١ (٥) مسلم: ٢٣١٣/٤ وتحفة الأحوذى: ٤٠٧/٨ والنسائي: ٢٥١/٥ (٦) فتح الباري: ٨/١١٩ (٧) ابن حبان: ١٨٢/٤ (٨) أحمد: ٢١٨/٥

وَرَوَى عَنْ خَيْثَمَةَ وَطَاوُسٍ وَمُجَاهِدٍ وَمَكْحُولٍ وَيَحْيَى ابْنِ أَبِي كَثِيرٍ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَمَّا مَا صَادَ مِنَ الطَّيْرِ الْبَارَاتِ وَغَيْرُهَا مِنَ الطَّيْرِ، فَمَا أَدْرَكَتْ فَهُوَ لَكَ، وَإِلَّا فَلَا تَطْعَمُهُ<sup>(٢)</sup>. قُلْتُ: وَالْمُحْكِي عَنْ الْجُمُهور: إِنَّ الصَّيْدَ بِالطَّيْرِ كَالصَّيْدِ بِالْكِلَابِ، لِأَنَّهُ تَكَلَّبَ الصَّيْدَ بِمَخَالِيهَا، كَمَا تَكَلَّبُهُ الْكِلَابُ، فَلَا فَرْقَ. كَمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ صَيْدِ الْبَارِي فَقَالَ: «مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَكُلْ»<sup>(٣)</sup>.

وَسَمَّيْتُ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يُضْطَادُّ بِهِنَّ: جَوَارِحَ مِنَ الْجَرْحِ، وَهُوَ الْكَسْبُ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: فَلَانِ جَرَحَ أَهْلُهُ خَيْرًا، أَيْ كَسَبَهُمْ خَيْرًا، وَيَقُولُونَ: فَلَانِ لَا جَارِحَ لَهُ، أَيْ لَا كَاسِبَ لَهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ» [الأنعام: ٦٠] أَيْ مَا كَسَبْتُمُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مُكَلِّبِينَ» يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ الضَّمِيرِ فِي «عَلَّمْتُمْ» فَيَكُونُ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمَفْعُولِ، وَهُوَ «الْجَوَارِحُ» أَيْ وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ فِي حَالِ كَوْنِهِنَّ مُكَلَّبَاتٍ لِلصَّيْدِ، وَذَلِكَ أَنْ تَقْتَضِيَهُ بِمَخَالِيهَا أَوْ أَظْفَارِهَا، فَيَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - عَلَى أَنَّ الْجَارِحَ إِذَا قَتَلَ الصَّيْدَ بِصَدْمَتِهِ لَا بِمَخَالِيهِ وَظَفَرِهِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ «تَعْلَمُونَهُنَّ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ» وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَرْسَلَهُ اسْتَرْسَلَ، وَإِذَا أَشْلَاهُ اسْتَشْلَى، وَإِذَا أَخَذَ الصَّيْدَ أَمْسَكَهُ عَلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَجِيءَ إِلَيْهِ، وَلَا يُمْسِكُهُ لِنَفْسِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَكُلُوا بِمَا أَمْسَكُنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» فَمَتَى كَانَ الْجَارِحُ مُعَلَّمًا، وَأَمْسَكَ عَلَى صَاحِبِهِ، وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَتَ إِزْسَالِهِ، حَلَّ الصَّيْدُ وَإِنْ قَتَلَهُ بِالْإِجْمَاعِ. وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِمِثْلِ مَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرْسِلُ الْكِلَابَ الْمُعَلَّمَةَ وَادْكُرُ اسْمَ اللَّهِ. فَقَالَ: «إِذَا أُرْسَلَتْ كَلَبَكَ

أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَهُوَ إِسْنَادُ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحَيْنِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «مَا لَمْ تَضْطَبِّحُوا» يَغْنِي بِهِ الْعَدَاءُ «وَمَا لَمْ تَغْتَبِقُوا» يَغْنِي بِهِ الْعُشَاءُ «أَوْ تَحْتَفِقُوا بَقْلًا فَشَأْنَكُمْ بِهَا» فَكُلُوا مِنْهَا.

وَقَوْلُهُ: «غَيْرَ مُتَجَانِبٍ لِإِنْسَانٍ» أَيْ مُتَعَاظٍ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبَاحَ ذَلِكَ لَهُ، وَسَكَتَ عَنِ الْآخِرِ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: «فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [النحل: ١١٥] وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ الْعَاصِيَ بِسَفَرِهِ لَا يَتَرَحَّصُ شَيْءٍ مِنْ رُحْصِ السَّفَرِ، لِأَنَّ الرُّحْصَ لَا تَنَالُ بِالْمَعْصِيَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

«يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ أَنْطَبِيتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا بِمَا أَمْسَكُنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْفَعُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»

### [بَيَانُ الْحَلَالِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْخَبَائِثِ الصَّارَةِ لِمُتَنَاوِلِهَا إِمَّا فِي بَدَنِهِ أَوْ فِي دِينِهِ أَوْ فِيهِمَا، وَاشْتَنَى مَا اسْتَشْنَاهُ فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ» [الأنعام: ١١٩] قَالَ بَعْدَهَا: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ أَنْطَبِيتُ» كَمَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: الطَّيِّبَاتُ: مَا أَحَلَّ لَهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يُصِيبُوهُ وَهُوَ الْحَلَالُ مِنَ الرِّزْقِ. وَقَدْ سِئِلَ الزُّهْرِيُّ عَنْ شُرْبِ الْبُولِ لِلتَّدَاوِي فَقَالَ: لَيْسَ هُوَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

### [حُكْمُ صَيْدِ الْجَوَارِحِ الْمُعَلَّمَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» أَيْ أَحَلَّ لَكُمْ الذَّبَائِحَ الَّتِي ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ، وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا [اضْطَرَرْتُمُوهُ] بِالْجَوَارِحِ، وَهِيَ الْكِلَابُ وَالْفُهوُودُ وَالصُّقُورُ وَأَشْبَاهُهَا، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمُهورِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ. وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» وَهِنَّ الْكِلَابُ الْمُعَلَّمَةُ، وَالْبَارِي، وَكُلُّ طَيْرٍ يُعَلَّمُ لِلصَّيْدِ. وَالْجَوَارِحُ: يَغْنِي الْكِلَابُ الصَّوَارِي وَالْفُهوُودُ وَالصُّقُورُ وَأَشْبَاهُهَا<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، ثُمَّ قَالَ:

(١) الطبري: ٥٤٨/٩ (٢) الطبري: ٥٤٧/٩، ٥٤٨ (٣) الطبري:

٥٤٩/٩ فيه ابن جريج هو ثقة لكنه معروف بالتدليس (٤) الطبري:

٥٥٠/٩ فيه مجالد بن سعيد تغير في آخر عمره ليس بالقوي كما مر

وقد انفرد بذكر البازي في هذا الحديث فإن الحفاظ قد رووا هذا

الحديث عن الشعبي عن عدي بن حاتم في الكلب المعلم. ولم

يذكروا البازي.

الْمُعَلَّمِ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ». قُلْتُ: وَإِنْ قَتَلْتُمْ؟ قَالَ: «وَأِنْ قَتَلْتُمْ. مَا لَمْ يَشْرِكْهَا كُلُّ لَيْسَ مِنْهَا، فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمَيْتَ عَلَى كُلِّكَ وَلَمْ تَسْمِ عَلَى غَيْرِهِ» قُلْتُ لَهُ: فَإِنِّي أُرْمِي بِالْمِعْرَاضِ الصَّيْدَ فَأُصِيبُ؟ فَقَالَ: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بَعْضُ، فَإِنَّهُ وَقِيدٌ، فَلَا تَأْكُلْهُ»<sup>(١)</sup>. وَفِي لَفْظٍ لَهُمَا: «وَإِذَا أُرْسِلَتْ كُلُّكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَادْكُرْهُ حَيًّا فَادْبَحْهُ، وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ، فَإِنْ أَخَذَ الْكَلْبُ ذَكَاتَهُ»<sup>(٢)</sup> وَفِي رِوَايَةٍ لَهُمَا: «فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ»<sup>(٣)</sup>.

### [التَّسْمِيَةُ عَلَى الْجَارِحِ عِنْدَ إِزْسَالِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ عِنْدَ إِزْسَالِهِ لَهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «إِذَا أُرْسِلَتْ كُلُّكَ الْمُعَلَّمُ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ، فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ»<sup>(٤)</sup>. وَفِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْمُخَرَّجِ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا «إِذَا أُرْسِلَتْ كُلُّكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ»<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يَقُولُ: إِذَا أُرْسِلَتْ جَارِحُكَ فَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَإِنْ نَسِيتَ فَلَا حَرَجَ<sup>(٦)</sup>. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْأَكْلِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَ رَبِيئَةَ عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فَقَالَ: «سَمِ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»<sup>(٧)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ قَوْمًا يَأْتُونَنَا - حَدِيثَ عَهْدِهِمْ يَكْفُرُ - بِلُحْمَانٍ لَا نَدْرِي أَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا أَمْ لَا؟ فَقَالَ: «سَمُّوا اللَّهَ أَنْتُمْ وَكُلُوا»<sup>(٨)</sup>.

﴿الْيَوْمَ أَجِلْ لَكُمْ الطَّيْبَتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَاللَّحْصَنَتِ مِنَ الْمُؤْمِنَتِ وَالْمُحْصَنَتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا عَانَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْكُوحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي

الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

### [حِلُّ ذَبِيحَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَبَائِثِ، وَمَا أَحَلَّهُ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿الْيَوْمَ أَجِلْ لَكُمْ الطَّيْبَتِ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ حُكْمَ ذَبَائِحِ أَهْلِ الْكِتَابِينَ، مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَقَالَ: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو أَمَامَةَ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعُكْرَمَةُ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ، وَمَكْحُولٌ وَإِبْرَاهِيمُ التَّحِييُّ، وَالشَّدْيُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: يَعْنِي ذَبَائِحَهُمْ<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، أَنَّ ذَبَائِحَهُمْ حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَا يَذْكُرُونَ عَلَى ذَبَائِحِهِمْ إِلَّا اسْمَ اللَّهِ، وَإِنْ اعْتَقَدُوا فِيهِ تَعَالَى مَا هُوَ مُتَزَعٌ عَنْهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغْفَلٍ، قَالَ: أَذْلَيْتُ بِجِرَابٍ مِنْ شَحْمِ يَوْمٍ خَيْرٌ فَحَضَّيْتُهُ وَقُلْتُ: لَا أُعْطِي الْيَوْمَ مِنْ هَذَا أَحَدًا، وَالثَّنْتُ فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ يَنْتَسِمُ<sup>(١٠)</sup>. فَاسْتَدَلَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ، عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ تَنَاوُلُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ، قَبْلَ الْقِسْمَةِ. وَهَذَا ظَاهِرٌ. وَاسْتَدَلَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ الْحَنَفِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَالْحَنَابِلَةُ، عَلَى أَصْحَابِ مَالِكٍ فِي مَنْعِهِمْ أَكْلَ مَا يَعْتَقِدُ الْيَهُودُ تَحْرِيمَهُ مِنْ ذَبَائِحِهِمْ، كَالشُّحُومِ وَنَحْوِهَا مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ. وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِمُ الْجُمْهُورُ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَأَجُودُ مِنْهُ فِي الدَّلَالَةِ، مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ أَهْلَ خَيْبَرٍ أَهْدَوْا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شاةً مُضْلِيَةً، وَقَدْ سَمُّوا ذِرَاعَهَا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ الذَّرَاعُ، فَتَنَاوَلَهُ، فَتَهَشَّ مِنْهُ نَهَشَةً، فَأَخْبَرَهُ الذَّرَاعُ أَنَّهُ مَسْمُومٌ، فَلَفَظَهُ، وَأَثَّرَ ذَلِكَ فِي ثَنَائَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي أَبْهَرِهِ، وَأَكَلَ مَعَهُ مِنْهَا بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنُ مَعْرُورٍ فَمَاتَ، فَقِيلَتْ الْيَهُودِيَّةُ الَّتِي سَمَّيْنَاهَا، وَكَانَ اسْمُهَا زَيْنَبُ. وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْهُ أَنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَكْلِهَا وَمَنْ مَعَهُ، وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ هَلْ نَزَعُوا مِنْهَا مَا يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَهُ مِنْ شَحْمِهَا أَمْ لَا؟<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ أَيُّ وَيَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ، وَلَيْسَ هَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْحُكْمِ عِنْدَهُمْ، اَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَيْرًا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ: مِنْ الْأَكْلِ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ، ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، سَوَاءً كَانَ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ أَوْ غَيْرِهَا. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى. أَيُّ

(١) فتح الباري: ٥٢٧/٩ ومسلم: ١٥٢٩/٣ (٢) فتح الباري: ٥١٣/٩ ومسلم: ١٥٣٠/٣ (٣) فتح الباري: ٥٢٧/٩ ومسلم: ١٥٢٩/٣ (٤) فتح الباري: ٥٢٤/٩ (٥) فتح الباري: ٥٢٧/٩ ومسلم: ١٥٣٢/٣ (٦) الطبري: ٥٧١/٩ (٧) فتح الباري: ٤٣١/٩ ومسلم: ١٥٩٩/٣ (٨) فتح الباري: ٥٥٠/٩ (٩) الطبري: ٥٧٧-٧٣/٩ (١٠) فتح الباري: ٥٥٢/٩ (١١) فتح الباري: ٥٦٩/٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٨

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا  
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ  
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا  
وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ  
أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا  
فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ  
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ  
وَلِيُثَبِّتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾  
وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ  
بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
الْصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ  
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاءُ قَوْمٍ عَلَى  
أَلَّا تَعْدِلُوا أَعِدُوا لَهُمْ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ  
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: بَانَ الرَّجُلُ إِذَا نَكَحَ امْرَأَةً فَزَلَّتْ قَبْلَ  
دُخُولِهِ بِهَا أَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا. وَتَرُدُّ عَلَيْهِ مَا بَدَّلَ لَهَا مِنَ  
الْمَهْرِ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾  
فَكَمَا شَرَطَ الْإِحْصَانَ فِي النِّسَاءِ، وَهِيَ الْعِفَّةُ عَنِ الزَّانَا،  
كَذَلِكَ شَرَطَهَا فِي الرِّجَالِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ أَيْضًا  
مُحْصِنًا عَافِيًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ وَهُمْ الزَّانَاةُ  
الَّذِينَ لَا يَرْتَدُّعُونَ عَنْ مَعْصِيَةِ، وَلَا يَرُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَمَّنْ  
جَاءَهُمْ ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أَيُّ ذَوِي الْعِشْيَقَاتِ الَّذِينَ لَا  
يَفْعَلُونَ إِلَّا مَعَهُنَّ. كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ - سَوَاءً -

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا  
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ  
إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ

وَلَكُمْ أَنْ تَطْعَمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ كَمَا أَكَلْتُمْ مِنْ  
ذَبَائِحِهِمْ. وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمُكَافَاةِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالْمُجَازَاةِ،  
كَمَا أَلْبَسَ النَّبِيُّ ﷺ ثَوْبَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سَلُولًا،  
حِينَ مَاتَ وَدَفَنَهُ فِيهِ، قَالُوا: لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ كَسَا الْعَبَّاسَ  
حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ثَوْبَهُ، فَجَازَاهُ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ بِذَلِكَ،  
فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي فِيهِ: «لَا تَصْحَبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا  
يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»<sup>(١)</sup> فَمَحْمُولٌ عَلَى التَّدْبِيرِ  
وَالِاسْتِحْبَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[جَوَازُ نِكَاحِ الْحَرَائِرِ الْعَفَافِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَيُّ وَأَجِلْ لَكُمْ نِكَاحُ  
الْحَرَائِرِ الْعَفَافِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ. وَالظَّاهِرُ مِنْ  
الْآيَةِ: أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَفِيفَاتِ عَنِ الزَّانَا، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا  
مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٥] وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ  
لَا يَرَى التَّزْوِيجَ بِالنِّصْرَانِيَّةِ، وَيَقُولُ: لَا أَعْلَمُ شِرْكًَا  
أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ رَبَّهَا عَيْسَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُوْفِيَ<sup>(٢)</sup>﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٢١].

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْغِفَارِيِّ، عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى  
يُوْفِيَ﴾ قَالَ فَحُجِرَ النَّاسُ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي  
بَعْدَهَا ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فَكَفَّ  
النَّاسُ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ تَزَوَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ  
مِنْ نِسَاءِ النِّصَارَى، وَلَمْ يَرَوْا بِذَلِكَ بَأْسًا، أَخَذًا بِهَذِهِ الْآيَةِ  
الْكَرِيمَةِ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾  
فَجَعَلُوا هَذِهِ مُحْصَصَةً لِلَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَلَا تَنْكِحُوا  
الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُوْفِيَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٢١] وَهَذَا إِنْ قِيلَ بِدُخُولِ  
الْكِتَابِيَّاتِ فِي عُمُومِهَا وَإِلَّا فَلَا مُعَارَضَةَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهَا، لِأَنَّ  
أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ انْفَضَّلُوا فِي ذِكْرِهِمْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْرِ  
مَوْضِعٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ﴾ [الْبَيْنَةُ: ١] وَكَقَوْلِهِ:  
﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ ءَسَلَّمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَّمُوا فَقَدْ  
أَهْتَدُوا﴾ [الْآيَةُ (آلِ عِمْرَانَ: ٢٠)].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أَيُّ مُهَوَّرَهُنَّ. أَيُّ كَمَا  
هُنَّ مُحْصَنَاتٌ عَفَافَاتٌ فَاذْبُلُوا لَهُنَّ الْمُهَوَّرَ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ.  
وَقَدْ أَفْتَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ

(١) أبو داود: ١٦٧/٥ (٢) صحيح البخاري (٥٢٨٥) (٣)  
الطبري: ٥٨٥/٩، ٥٨٦

عَلَّ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لِمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾  
[الْأَمْرُ بِالْوُضُوءِ]

قَوْلُهُ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الْآيَةُ أَمْرَةٌ بِالْوُضُوءِ عِنْدَ الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ هُوَ فِي حَقِّ الْمُحَدِّثِ وَاجِبٌ، وَفِي حَقِّ الْمُطَهَّرِ نَدْبٌ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْأَمْرَ بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ كَانَ وَاجِبًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بَرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خَفِيهِ، وَصَلَّى الصَّلَاةَ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ. قَالَ: «إِنِّي عَمَدًا فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ»<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السَّنَنِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ الْمُشِيرِ، قَالَ: رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُصَلِّي الصَّلَاةَ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا بَالَ أَوْ أَحْدَثَ، تَوَضَّأَ وَمَسَحَ بِفَضْلِ طَهْرِهِ الْخَفِيِّ. فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَشَيْءٌ تَصْنَعُهُ بِرَأْيِكَ؟ قَالَ: بَلْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَصْنَعُهُ، فَأَنَا أَصْنَعُهُ كَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَصْنَعُهُ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَرَأَيْتَ وَُضُوءَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ لِكُلِّ صَلَاةٍ طَاهِرًا كَانَ أَوْ غَيْرَ طَاهِرٍ، عَمَّنْ هُوَ؟ قَالَ: حَدَّثَنِي أَشْمَاءُ بِنْتُ زَيْدِ ابْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَنْظَلَةَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ الْغَسِيلِ، حَدَّثَهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَمْرًا بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ طَاهِرًا كَانَ أَوْ غَيْرَ طَاهِرٍ، فَلَمَّا شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَمَرَ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَوَضَعَ عَنْهُ الْوُضُوءَ إِلَّا مِنْ حَدَثٍ. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَرَى أَنَّ بِهِ قُوَّةَ عَلَى ذَلِكَ، كَانَ يَفْعَلُهُ حَتَّى مَاتَ<sup>(٥)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٦)</sup>. وَفِي فِعْلِ ابْنِ عُمَرَ هَذَا وَمُدَاوَمَتِهِ عَلَى إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ دَلَالَةٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ ذَلِكَ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ طَعَامًا، فَقَالُوا: أَلَا نَأْتِيكَ بِوُضُوءٍ؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا أُمِرْتُ بِالْوُضُوءِ إِذَا قُمْتُ إِلَى

الصَّلَاةِ»<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَى الْخَلَاءَ، ثُمَّ إِنَّهُ رَجَعَ فَأَتَى بَطْعَامَ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَتَوَضَّأُ؟ فَقَالَ: «لِمَ أَأُصَلِّي فَأَتَوَضَّأُ؟»<sup>(٩)</sup>.

[الْنِيَّةُ وَالتَّسْمِيَةُ فِي الْوُضُوءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قَدْ اسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ عَلَى وَجُوبِ النِّيَّةِ فِي الْوُضُوءِ، لِأَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ: إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ لَهَا. كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: إِذَا رَأَيْتَ الْأَمِيرَ فَقُمْ، أَيْ لَهُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثُ: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَانَوِيٌّ»<sup>(١٠)</sup>. وَيُسْتَحَبُّ قَبْلَ غَسْلِ الْوَجْهِ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى وَضُوءِهِ، لِمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ جَيِّدَةٍ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا وَُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»<sup>(١١)</sup>. وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَغْسِلَ كَفَّيْهِ قَبْلَ إِدْخَالِهِمَا فِي الْإِنَاءِ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ عِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ النَّوْمِ، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَدْخُلْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا، فَإِنْ أَحَدُكُمْ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»<sup>(١٢)</sup>. وَحَدَّثَ الْوَجْهَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ مَا بَيْنَ مَتَابِعِ شَعْرِ الرَّأْسِ - وَلَا اغْتِبَارَ بِالصَّلَعِ وَلَا بِالْغَنَمِ - إِلَى مُتَتَهَى اللَّحْيَيْنِ وَالذَّقَنِ طَوْلًا، وَمِنْ الْأُذُنِ إِلَى الْأُذُنِ عَرْضًا.

[تَحْلِيلُ اللَّحْيَةِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: رَأَيْتُ عُثْمَانَ يَتَوَضَّأُ...، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، قَالَ: وَخَلَّلَ اللَّحْيَةَ ثَلَاثًا جِئْنَ غَسَلَ وَجْهَهُ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَ الَّذِي رَأَيْتُمْوَنِي فَعَلْتُ<sup>(١٣)</sup>. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(١٤)</sup>.

(١) أحمد: ٣٥٨/٥ (٢) مسلم: ٢٣٢/١ وأبو داود: ١٢٠/١  
وتحفة الأحوذى: ١٩٤/١ والنسائي: ٨٦/١ وابن ماجة: ١/١  
١٧٠ (٣) الطبري: ١١/١٠ (٤) ابن ماجة: ١٧٠/١ (٥)  
أحمد: ٢٢٥/٥ (٦) أبو داود: ٤١/١ (٧) أبو داود: ٣٦/٤  
(٨) تحفة الأحوذى: ٥٧٩/٥ والنسائي: ٨٥/١ (٩) مسلم: ١/١  
٢٨٣ (١٠) فتح الباري: ١٥/١ ومسلم: ١٥١٥/٣ (١١) أبو  
داود: ٧٥/١ (١٢) فتح الباري: ٣١٦/١ ومسلم: ٢٣٣/١  
(١٣) جامع المسانيد والسنن: ١٩٧/١٧ (١٤) تحفة الأحوذى:  
١٣٣/١ وابن ماجة: ١٤٨/١

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَحَسَنُهُ الْبُخَارِيُّ.

[كَيْفِيَّةُ الْوُضُوءِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَوَضَّأَ فَغَسَلَ وَجْهَهُ: أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَتَضَمَّضَ بِهَا وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً فَجَعَلَ بِهَا هَكَذَا، يُعْنِي أَضَافَهَا إِلَى يَدِهِ الْأُخْرَى، فَغَسَلَ بِهَا وَجْهَهُ، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا يَدَهُ الْيُمْنَى، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا يَدَهُ الْيُسْرَى، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَى رِجْلَيْهِ الْيُمْنَى حَتَّى غَسَلَهَا، ثُمَّ أَخَذَ غُرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا رِجْلَهُ الْيُسْرَى، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْنِي يَتَوَضَّأُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أَي مَعَ الْمَرَافِقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٢].

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُتَوَضِّئِ أَنْ يَشْرَعَ فِي الْعُضُدِ فَيَغْسِلَهُ مَعَ ذِرَاعَيْهِ لِمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أُمِّي يَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»<sup>(٣)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يَقُولُ: «تَبْلُغُ الْحَلِجَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الْبَاءُ لِلِالْضَّاقِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيقٍ مَالِكٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ بِنِ عَاصِمٍ، وَهُوَ جَدُّ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرَبِّتَنِي كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ: نَعَمْ فَدَعَا بِوُضُوءٍ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ ثَلَاثًا، وَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَذْبَرَ بَدَأَ بِمَقْدَمِ رَأْسِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ رَدَّهُمَا حَتَّى رَجَعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ<sup>(٥)</sup>.

وَفِي حَدِيثٍ عَبْدِ خَيْرٍ عَنْ عَلِيٍّ فِي صِفَةِ وَضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَحْوَ هَذَا<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ مُعَاوِيَةَ وَالْمُقَدَّمِ ابْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ فِي صِفَةِ وَضُوءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَهُ<sup>(٧)</sup>. فَبَيْنَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى وَجُوبِ تَكْمِيلِ مَسْحِ جَمِيعِ الرَّأْسِ.

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَبَانَ، قَالَ: رَأَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ تَوَضَّأَ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ ثَلَاثًا، فَغَسَلَهُمَا، ثُمَّ تَضَمَّضَ وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْمِرْفَقِ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ قَدَمَهُ الْيُمْنَى ثَلَاثًا، ثُمَّ الْيُسْرَى ثَلَاثًا مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(٨)</sup> أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٩)</sup>. وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عُثْمَانَ فِي صِفَةِ الْوُضُوءِ: وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً<sup>(١٠)</sup>.

[وُجُوبُ غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ دُونَ الْمَسْحِ]

قَوْلُهُ: ﴿وَأَزِيلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قُرِءَ ﴿وَأَزِيلُكُمْ﴾ بِالنَّضْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿وَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا ﴿وَأَزِيلُكُمْ﴾ يَقُولُ: رَجَعْتُ إِلَى الْغُسْلِ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَعُرْوَةَ وَعَطَاءٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ، وَإِبْرَاهِيمُ وَالضَّحَّاكُ، وَالسَّيِّدِيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَالرُّهْرِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(١٢)</sup>. وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي وَجُوبِ الْغُسْلِ، كَمَا قَالَ السَّلَفُ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ بِالْخَفْضِ عَلَى الْمُجَاوَرَةِ وَتَنَاسُبِ الْكَلَامِ، كَمَا فِي قَوْلِ الْعَرَبِ: جَحْرُ ضَبِّ خَرِبٍ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: (عَلَيْهِمْ نِتَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) [الْإِنْسَان: ٢١] وَهَذَا دَائِعٌ شَائِعٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ شَائِعٌ.

ذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةَ فِي غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ

قَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَمُعَاوِيَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ بِنِ عَاصِمٍ وَالْمُقَدَّمِ ابْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَسَلَ الرَّجْلَيْنِ فِي وَضُوءِهِ إِذَا مَرَّةً، وَإِذَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، عَلَى اخْتِلَافٍ رَوَايَاتِهِمْ.

(١) أحمد: ٢٦٨/١ (٢) فتح الباري: ٢٩٠/١ (٣) فتح الباري: ٢٨٣/١ ومسلم: ٢١٦/١ (٤) مسلم: ٢١٩/١ (٥) فتح الباري: ٣٤٧/١ ومسلم: ٢١٠/١ (٦) أبو داود: ٨٢/١ (٧) أبو داود: ٨٩، ٨٨/١ (٨) عبد الرزاق: ٤٤/١ (٩) فتح الباري: ٣١١/١ ومسلم: ٢٠٥/١ (١٠) أبو داود: ٨٢، ٨٠ (١١) الطبري: ٥٥/١٠ (١٢) الطبري: ٥٤-٥٧

عَنْ هَمَّامٍ قَالَ: بَالَ جَرِيرٌ ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَيْهِ، فَقِيلَ: تَفْعَلُ هَذَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَالَ ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَيْهِ، قَالَ الْأَعْمَشُ: قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَكَانَ يُعْجِبُهُمْ هَذَا الْحَدِيثُ لِأَنَّ إِسْلَامَ جَرِيرٍ كَانَ بَعْدَ نَزُولِ الْمَائِدَةِ<sup>(١٤)</sup>. لَفْظُ مُسْلِمٍ. وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَشْرُوعِيَّةُ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَيْنِ قَوْلًا مِنْهُ وَفَعَلًا.

[الْأَمْرُ بِالتَّيْمُمِ عِنْدَ عَدَمِ وُجُودِ الْمَاءِ وَلِلْمَرِيضِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لِمَسْتُمُ النِّسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ كُلُّ ذَلِكَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النِّسَاءِ، فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى إِعَادَتِهِ لِكَلَّا يَطُولُ الْكَلَامُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَبَبَ نَزُولِ آيَةِ التَّيْمُمِ هُنَاكَ، لَكِنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى هَهُنَا حَدِيثًا خَاصًّا بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَقَدْ رَوَى عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَقَطَتْ قِلَادَةُ لِي بِالْبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ الْمَدِينَةَ، فَأَنَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلَ، فَتَنَى رَأْسَهُ فِي حِجْرِي رَاقِدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَكَزَنِي لَكَزَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: حَبَسْتَ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ، فَتَمَنَيْتُ الْمَوْتَ لِمَكَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنِّي، وَقَدْ أَوْجَعَنِي، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَقَيْطَ، وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ، فَالْتَمَسَ الْمَاءَ فَلَمْ يَوْجَدْ، فَتَزَلَّتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ: لَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا بِبَرَكَةِ لَهُمْ<sup>(١٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أَيُّ فَلِهَذَا سَهَّلَ عَلَيْكُمْ وَيَسَّرَ، وَلَمْ يُعَسِّرْ، بَلْ أَبَاحَ التَّيْمُمَ عِنْدَ الْمَرَضِ، وَعِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ تَوْسِيعَةً عَلَيْكُمْ، وَرَحْمَةً بِكُمْ، وَجَعَلَهُ فِي حَقِّ مَنْ شَرَعَ لَهُ: يَقُومُ مَقَامَ الْمَاءِ إِلَّا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، وَكَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: تَخَلَّفَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرْنَاهَا، فَأَذْرَكْنَا وَقَدْ أَرْهَقَتْنَا الصَّلَاةُ، صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا فَتَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ، وَبِلِّ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»<sup>(١٦)</sup>. وَكَذَلِكَ هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ<sup>(١٧)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ، وَبِلِّ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»<sup>(١٨)</sup>. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ [جَزْءٍ] أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَبِلِّ لِلْأَعْقَابِ وَطُوبَى الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ»<sup>(١٩)</sup>. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالْحَاكِمُ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: أَنَّ رَجُلًا تَوَضَّأَ فَتَرَكَ مَوْضِعَ ظِفْرِ عَلَى قَدَمِهِ، فَأَبْصَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وَضُوءَكَ»<sup>(٢٠)</sup>. وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ تَوَضَّأَ وَتَرَكَ عَلَى قَدَمِهِ مِثْلَ مَوْضِعِ الظَّفْرِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وَضُوءَكَ»<sup>(٢١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَصَلِّي، وَفِي ظَهْرِ قَدَمِهِ لُغْمَةٌ قَدِرَ الدَّرْهَمَ لَمْ يَصْبِهَا الْمَاءُ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعِيدَ الْوُضُوءَ<sup>(٢٢)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ بَقِيَّةَ، وَزَادَ: وَالصَّلَاةَ<sup>(٢٣)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ صَحِيحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْأَمْرُ بِالتَّخْلِيلِ بَيْنَ الْأَصَابِعِ] وَفِي حَدِيثِ حُمْرَانَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي صِفَةِ وَضُوءِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ خَلَّلَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ<sup>(٢٤)</sup>. وَرَوَى أَهْلُ السُّنَنِ عَنْ لَقِيطِ بْنِ صَبْرَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ. فَقَالَ: «أَسْبِغِ الْوُضُوءَ، وَخَلِّلْ بَيْنَ الْأَصَابِعِ، وَبَالِغٌ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا»<sup>(٢٥)</sup>.

[الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَيْنِ سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ] رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ أُوسِ بْنِ أَبِي أُوسٍ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى نَعْلَيْهِ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ<sup>(٢٦)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أُوسِ بْنِ أَبِي أُوسٍ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى سُبَاطَةَ قَوْمٍ، فَقَالَ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى نَعْلَيْهِ وَقَدَمَيْهِ<sup>(٢٧)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ: أَنَا أَسْلَمْتُ بَعْدَ نَزُولِ الْمَائِدَةِ، وَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ بَعْدَمَا أَسْلَمْتُ<sup>(٢٨)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ

(١) فتح الباري: ٣١٩/١ ومسلم: ٢١٤/١ (٢) فتح الباري: ٣٢١/١ ومسلم: ٢١٥/١ (٣) مسلم: ٢١٣/١ (٤) البيهقي: ٧٠/١ والحاكم: ١٦٢/١ (٥) مسلم: ٢١٥/١ (٦) البيهقي: ٧٠/١ (٧) أحمد: ٤٢٤/٣ (٨) أبو داود: ١٢١/١ (٩) مجمع الزوائد: ٢٣٥/١ (١٠) أبو داود: ٩٩/١ وتحفة الأحوذ: ١٤٩/١ والنسائي: ٧٩/١ وابن ماجه: ١٤٢/١ (١١) أحمد: ٨/٤ (١٢) أبو داود: ١١٣/١ (١٣) أحمد: ٤/٣٦٣ (١٤) فتح الباري: ٥٨٩/١ ومسلم: ٢٢٨/١ (١٥) فتح الباري: ١٢١/٨



كِتَابِ الْأَحْكَامِ الْكَبِيرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ يُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ التَّوْسِيعَةِ وَالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالشَّهِيلِ وَالسَّمَاخَةِ.

[الدَّعَاءُ بَعْدَ الْوُضُوءِ]

وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِالْحَثِّ عَلَى الدَّعَاءِ عَقِبَ الْوُضُوءِ بِأَنْ يَجْعَلَ فَاعِلُهُ مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ الدَّاخِلِينَ فِي امْتِنَالِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ عَقْبَةِ بْنِ غَامِرٍ قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبِي فَرَوَّحْتُهَا بِعِشْيٍ، فَأَذْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّمَا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَذْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» قَالَ: قُلْتُ: مَا أَجُودَ هَذَا! فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجُودَ مِنْهَا، فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جِئْتَ أَنَا، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُصَلِّي - أَوْ فَيَسْبُغُ - الْوُضُوءَ، يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»<sup>(١)</sup>. لَفْظُ مُسْلِمٍ.

[فَضْلُ الْوُضُوءِ]

وَرَوَى مَالِكٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَّتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»<sup>(٢)</sup> رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الطَّهُّورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصُّومُ جُنَّةٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوقِفُهَا»<sup>(٤)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٠٩

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَاسِئَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

صَدَقَهُ مِنْ غُلُولٍ، وَلَا صَلَاةَ بِغَيْرِ طَهُّورٍ»<sup>(٥)</sup>.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّ شَتَنَاقٍ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا يَتَدَلَّلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ الرِّسَالَةِ وَالْإِسْلَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا عَبْدَهُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ فِي

(١) أحمد: ١٥٣/٤ ومسلم: ٢٠٩/١ وأبو داود: ١١٨/١

والنسائي: ٩٢/١ وابن ماجه: ١٥٩/١ (٢) الموطأ: ٣٢/١

(٣) مسلم: ٢١٥/١ (٤) مسلم: ٢٠٣/١ (٥) مسلم: ٢٠٤/١

شَرَعَهُ لَهُمْ هَذَا الدِّينَ الْعَظِيمَ وَإِذْ سَالَهُ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولُ الْكَرِيمَ، وَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ فِي مُبَايَعَتِهِ عَلَى مُتَابَعَتِهِ وَمُتَاصِرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ، وَالْقِيَامِ بِدِينِهِ وَإِبْلَاغِهِ عَنْهُ، وَقَبُولِهِ مِنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وَهَذِهِ هِيَ النِّبْيَةُ الَّتِي كَانُوا يُبَايِعُونَ عَلَيْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ كَمَا قَالُوا: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَأَثَرِهِ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِلْيُسُوفِ إِذْ يَمُوتُونَ﴾ [الحديد: ٨] وَقِيلَ: هَذَا تَذْكَارٌ لِلْيَهُودِ بِمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوَاقِفِ وَالْعُهُودِ فِي مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْإِقْبَادِ لِشَرْعِهِ. رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاقْفُوا لِلَّهِ﴾ تَأْكِيدٌ وَتَحْرِيزٌ عَلَى مُوََاطَئَةِ التَّقْوَى فِي كُلِّ حَالٍ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَخْتَلِجُ فِي الصَّمَائِرِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

### [الْأَمْرُ بِالتَّزَامِ الْعَدْلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أَيُّ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا لِأَجْلِ النَّاسِ وَالسُّمُوعَةِ، وَكُونُوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أَيُّ بِالْعَدْلِ لَا بِالْجَوْرِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّهُ قَالَ: نَحَلْنِي أَبِي نُحْلًا، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةَ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَهُ لِيُشْهَدَهُ عَلَى صَدَقَتِي، فَقَالَ: «أَكُلْ وَلَدِكَ نَحَلْتُ مِنْهُ؟» قَالَ: لَا، فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ». وَقَالَ: «إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرِ» قَالَ: فَرَجَعَ أَبِي فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أَيُّ لَا يَجْعَلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، بَلِ اسْتَعْمِلُوا الْعَدْلَ فِي كُلِّ أَحَدٍ صَدِيقًا كَانَ أَوْ عَدُوًّا، وَلِهَذَا قَالَ ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أَيُّ عَدْلُكُمْ أَقْرَبُ إِلَى التَّقْوَى مِنْ تَرْكِهِ، وَدَلَّ الْفِعْلُ عَلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي عَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ، كَمَا فِي نَظَائِرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّبِعُوا فَإْتِمِيزُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

التَّفْضِيلِ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي لَيْسَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْهُ شَيْءٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] وَكَقَوْلِ بَعْضِ الصَّحَابِيَّاتِ لِعُمَرَ: أَنْتَ أَقْطُ وَأَغْلُظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاقْفُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ حَسِيدٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ أَفْعَالِكُمُ الَّتِي عَمِلْتُمُوهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أَيُّ لِلذُّنُوبِ بِهَمْزٍ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ وَهُوَ الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، لَا يَتَأَلَوْنَهَا بِأَعْمَالِهِمْ بَلْ بِرَحْمَتِهِ مِنْهُ وَفَضْلِهِ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ وُصُولِ الرَّحْمَةِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَهُوَ تَعَالَى الَّذِي جَعَلَهَا أَشْبَابًا إِلَى تَبَلُّ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ. فَالْكُلُّ مِنْهُ وَلَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَهَذَا مِنْ عَذَابِهِ تَعَالَى، وَحُكْمِهِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ، بَلِ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ.

### [كَفَّ أَيْدِيَ الْكُفَّارِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾. رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ مِنْزِلًا، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِصَاءِ يَسْتَظِلُّونَ تَحْتَهَا، وَعَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ سِلَاحَهُ بِشَجَرَةٍ، فَجَاءَ أَغْرَابِيٌّ إِلَى سَنَفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَسَلَّهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». قَالَ الْأَغْرَابِيُّ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُ». قَالَ: فَشَامَ الْأَغْرَابِيُّ السَّيْفَ، فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ، فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ الْأَغْرَابِيِّ، وَهُوَ جَالِسٌ إِلَى جَنْبِهِ، وَلَمْ يُعَاقِبْهُ. وَقَالَ مَعْمَرٌ: كَانَ فَتَادَةٌ يَذْكُرُ نَحْوَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ أَرَادُوا أَنْ يَقْتُلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلُوا هَذَا الْأَغْرَابِيَّ، وَتَأَوَّلَ: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ الْآيَةَ<sup>(٣)</sup>. وَفِصَّةُ هَذَا الْأَغْرَابِيِّ - وَهُوَ غَوْرُثُ بْنُ الْحَارِثِ - ثَابِتَةٌ فِي الصَّحِيحِ<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح الباري: ٢٥٠/٥، ومسلم: ١٢٤٢/٣ (٢) صحيح

البخاري (٣٩٤، ٣٦٨٣، ٦٠٨٥) (٣) عبد الرزاق: ١٨٥/١

(٤) البخاري: ٤١٣٥، ٤١٣٦، ٤١٣٩

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٠

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِنْهُمُ  
فَسَوْحًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ الْعَدَاوَةَ  
وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ  
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَأْهَلِ الْكِتَابِ  
قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا  
كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ  
كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ  
مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ  
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى  
النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ  
﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ  
ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ  
أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي  
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

وَذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ  
وَعَبْرٌ وَاحِدٌ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بَنِي النَّضِيرِ حِينَ أَرَادُوا  
أَنْ يُلْقُوا عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الرَّحَى، لَمَّا جَاءَهُمْ  
يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ الْعَامِرِيِّينَ، وَوَكَّلُوا عَمْرُو بْنَ جِحَاشِ بْنِ  
كَعْبٍ بِذَلِكَ، وَأَمَرُوهُ إِنْ جَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَ الْجِدَارِ  
وَاجْتَمَعُوا عِنْدَهُ أَنْ يُلْقَى تِلْكَ الرَّحَى مِنْ فَوْقِهِ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ  
النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا تَمَلَّؤُوا عَلَيْهِ، فَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَبِعَهُ  
أَصْحَابُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يَعْنِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَمَا  
أَلَّفَهُ مَا أَهَمَّهُ، وَحَفِظَهُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ وَعَصَمَهُ، ثُمَّ أَمَرَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَغْدُوَ إِلَيْهِمْ، فَحَاصَرَهُمْ حَتَّى أَنْزَلَهُمْ  
فَأَجْلَاهُمْ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ  
اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ  
وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ  
قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُمُ جَنَّتٍ تَجْرَى  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ  
ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٧﴾ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا  
قُلُوبَهُمْ قَلَسِيَةً يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا  
حَظًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا  
مِنْهُمْ فَأَعَفَ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ وَمِنَ  
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِنْهُمُ أَخَذْنَا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ  
فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ  
وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٩﴾

[مِيثَاقُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَعْنَتُهُمْ عَلَى نَقْضِهِ]

لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ وَمِيثَاقِهِ  
الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ،  
وَأَمَرَهُمْ بِالْقِيَامِ بِالْحَقِّ، وَالشَّهَادَةِ بِالْعَدْلِ، وَذَكَرَهُمْ بَعْمَهُ  
عَلَيْهِمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ فِيمَا هَدَاهُمْ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى،  
شَرَعَ يَبَيِّنُ لَهُمْ كَيْفَ أَخَذَ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِفَ عَلَى مَنْ كَانَ  
قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، فَلَمَّا نَقَضُوا  
عَهْدَهُ وَمَوَاقِفَهُ أَغْقَبَهُمْ ذَلِكَ لَعْنًا مِنْهُ لَهُمْ، وَطَرَدًا عَنْ بَابِهِ  
وَجَنَابِهِ، وَحِجَابًا لِقُلُوبِهِمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى وَدِينِ  
الْحَقِّ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَقَالَ تَعَالَى:  
﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ  
عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يَعْنِي عُرَفَاءَ عَلَى قَبَائِلِهِمْ بِالْمَبَايَعَةِ وَالسَّمْعِ

وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ  
وَأَبْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّ هَذَا كَانَ لَمَّا تَوَجَّهَ مُوسَى  
عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقِتَالِ الْجَبَارَةِ، فَأَمَرَ بِأَنْ يُقِيمَ نَقَبَاءَ، مِنْ كُلِّ  
سِبْطٍ نَقِيبٌ <sup>(١)</sup>.

[نَقَبَاءُ الْأَنْصَارِ لَيْلَةُ الْعَقَبَةِ]

وَهَكَذَا لَمَّا بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَنْصَارَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ،  
كَانَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا: ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ: وَهُمْ أُسَيْدُ بْنُ  
الْحَضِيرِ، وَسَعْدُ بْنُ خَيْمَةَ، وَرِفَاعَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَيُقَالُ  
بِذَلِكَ: أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ النَّيَّانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَتِسْعَةٌ مِنَ  
الْخَزَرَجِ وَهُمْ: أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، وَسَعْدُ بْنُ  
الرَّبِيعِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الْعُجْلَانِ،  
وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ،  
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ عُمَرَ بْنِ [خُثَيْسٍ]  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَدْ ذَكَرَهُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فِي شِعْرِ لَهُ.

قَتَادَةُ: هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَاعْتَفُ عَنْهُمْ وَاَصْفَحْ﴾ مَنسُوحَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلْيَلْأُوا الَّذِينَ لَا يُولِئُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾...  
الْآيَةُ [التوبة: ٢٩] (٣).

### [مِيثَاقُ النَّصَارَى وَنَسْيَانُهُمْ لَهُ وَتَبِيعَتُهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أَيُّ وَمِنَ الَّذِينَ ادَّعَوْا لِأَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ نَصَارَى مُتَابِعُونَ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَيَسُوا كَذَلِكَ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمُ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمُنَاصَرَتِهِ، وَمُؤَازَرَتِهِ، وَاقْتِفَاءِ آثارِهِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِكُلِّ نَبِيٍّ يُرْسِلُهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَعَلُّوا كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ، خَالَفُوا الْمَوَاقِيقَ، وَنَقَضُوا الْعُهُودَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لِمَعْصِيَتِهِمْ بَعْضًا، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ النَّصَارَى عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ لَا يَزَالُونَ مُتَبَاغِضِينَ مُتَعَادِينَ يُكْفَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَكُلُّ فِرْقَةٍ تَحْرِمُ الْأُخْرَى، وَلَا تَدْعُهَا تِلْجَ مَعْبَدَهَا، فَالْمَلِكِيَّةُ تُكْفَرُ الْيَهُودِيَّةَ، وَكَذَلِكَ الْآخَرُونَ، وَكَذَلِكَ النَّسْطُورِيَّةُ وَالْأَرِيوسِيَّةُ، كُلُّ طَائِفَةٍ تُكْفَرُ الْأُخْرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَوْفَ يُنْفِثُهُمُ اللَّهُ يَمًا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ لِلنَّصَارَى عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، وَمَا نَسَبُوهُ إِلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا مِنْ جَعْلِهِمْ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا. تَعَالَى الْوَاحِدُ الْأَخَذُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفَوْنَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُبُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥)  
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

كَمَا أوردَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ (١). وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا عُرَفَاءَ عَلَى قَوْمِهِمْ لِيَلْتَمِذَ عَنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَهُمْ الَّذِينَ وَلُوا الْمُعَاقِدَةَ وَالْمُبَايَعَةَ عَنْ قَوْمِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أَيُّ بِحِفْظِي وَكَلَامَتِي وَنَصْرِي ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أَيُّ صَدَقْتُمُوهُمْ فِيمَا يَجِئُونَكُمْ بِهِ مِنْ الْوَحْيِ ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أَيُّ نَصَرْتُمُوهُمْ وَوَارَزْتُمُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وَهُوَ الْإِنْفَاقُ، فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أَيُّ ذُنُوبِكُمْ، أَمْحُوها وَأَسْتُرْهَا وَلَا أُوَاجِدْكُمْ بِهَا ﴿وَلَأُجْزِلَنَّكُمْ جَزَاءً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيُّ أَذْفَعُ عَنْكُمْ الْمُحْذَرُ، وَأُحْصَلُ لَكُمْ الْمَقْصُودُ.

### [الْمِيثَاقُ وَنَقْضُهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ صَلَّى سَوَاءً السَّبِيلِ﴾ أَيُّ فَمَنْ خَالَفَ هَذَا الْمِيثَاقَ بَعْدَ عَقْدِهِ وَتَوْكِيدِهِ وَشَدْوِهِ، وَجَحَدَهُ وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةً مِّنْ لَا يَعْرِفُهُ، فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ، وَعَدَلَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عِنْدَ مُحَالَاتِهِمْ مِيثَاقَهُ وَنَقْضِهِمْ عَهْدَهُ، فَقَالَ: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ أَيُّ فَنَسَبَ نَقْضِهِمُ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ لَعْنَاهُمْ، أَيُّ أَبْعَدَنَاهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَطَرَدْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أَيُّ فَلَا يَتَعَطَّوْنَ بِمَوْعِظَةٍ لَّغَلْظِهَا وَقَسَاوَرِيهَا ﴿يُخْرِفُونَ إِلِكُمُ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أَيُّ فَسَدَتْ قُلُوبُهُمْ وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ، وَحَمَلُوهُ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ، وَقَالُوا عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أَيُّ وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِه رَغْبَةً عَنْهُ. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مَكْرَهُمْ وَغَدَرَهُمْ لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بِذَلِكَ تَمَالُؤُهُمْ عَلَى الْفِتَنِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢).

﴿فَاعْتَفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وَهَذَا هُوَ عَيْنُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عَامَلْتَ مِنْ عَصَى اللَّهِ فَيْكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ. وَبِهَذَا يَحْصُلُ لَهُمْ تَأْلِيفٌ وَجَمْعٌ عَلَى الْحَقِّ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يَعْنِي بِهِ الصَّفْحَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ. وَقَالَ

(١) ابن هشام: ٨٧، ٨٦/٢ (٢) الطبري: ١٣١/١٠ (٣) الطبري: ١٣٤/١٠

## [بَيَانُ الْحَقِّ بِالرُّسُولِ وَالْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَبَيْنَ الْحَقِّ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ: عَرَبِيَهُمْ وَعَجَبِيَهُمْ، أُمِّيَّهُمْ وَكِتَابِيَهُمْ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْفُرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أَيُّ بَيِّنٍ مَا بَدَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَأَوَّلُوهُ، وَافْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ فِيهِ، وَيَسْكُتُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا غَيَّرُوهُ وَلَا فَايِدَةَ فِي بَيَانِهِ. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَنْ كَفَرَ بِالرَّجْمِ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. قَوْلُهُ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فَكَانَ الرَّجْمُ مِمَّا أَخْفَوْهُ (١). ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ فَقَالَ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٢) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ إِلَى أَهْلِ طُرُقِ النَّجَاةِ وَالسَّلَامَةِ وَمَنَاهِجِ الْإِسْقَامَةِ (٣) وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَهَدِيَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) أَيُّ يُنْجِيهِمْ مِنَ الْمَهَالِكِ، وَيُوضِّحُ لَهُمْ أَمْرَ الْمَسَالِكِ، فَيُضَرِّفُ عَنْهُمْ الْمُخْذُورَ، وَيُحْصِلُ لَهُمْ أَحَبَّ الْأُمُورِ، وَيُنْفِي عَنْهُمْ الضَّلَالَةَ، وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى أَفْوَرِ حَالَةٍ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٦) [شِرْكُ النَّصَارَى وَكُفْرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَحَاكِمًا بِكُفْرِ النَّصَارَى فِي إِدْعَائِهِمْ فِي الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ - وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ - أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا. ثُمَّ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١١١

الْمَائِدَةِ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٧) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا أَدْرُكُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُمْ مَلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَالَهُمْ ثُبُوتٌ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٩) يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٠) قَالُوا يَمُوسَى إِنْ فِيهَا قَوْمٌ مُجْرِمُونَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (١١) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مَوَافِينَ (١٢)

قَالَ مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَكُونِهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أَيُّ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْهُ، أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى صَرْفِهِ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ وَمُلْكُهُ وَخَلْقُهُ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَدْلِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَّبَاعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِمْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ أَيُّ نَحْنُ مُتَّسِبُونَ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَهُمْ بُنُوهُ، وَلَهُ بِهِمْ

سِينَكِ وَأَزْدَادُوا سَعًا» [الكهف: ٢٥] أَي قَمَرِيَّةٌ لِتَكْمِيلِ ثَلَاثِمِائَةِ الشَّمْسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَعْلُومَةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانَتْ الْفَتْرَةُ بَيْنَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ آخِرَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»<sup>(١)</sup>.

وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ بُعِثَ بَعْدَ عِيسَى نَبِيٌّ، يُقَالُ لَهُ خَالِدٌ بُنْ سِنَانٍ كَمَا حَكَاهُ الْقَضَاعِيُّ وَغَيْرُهُ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وَتَغْيِيرِ الْأَدْيَانِ، وَكَثْرَةِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالتَّيْرَانِ وَالصُّلْبَانِ، فَكَانَتِ النُّعْمَةُ بِهِ أَتَمَّ النِّعَمِ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَمْرُ عَمَمٍ، فَإِنَّ الْفَسَادَ كَانَ قَدْ عَمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ، وَالطُّغْيَانَ وَالْجَهْلَ قَدْ ظَهَرَ فِي سَائِرِ الْعِبَادِ، إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِقِيَائِهِ مِنْ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، مِنْ بَعْضِ أَخْبَارِ الْيَهُودِ وَغِبَادِ النَّصَارَى وَالصَّابِيِّينَ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم مَّا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُفَاءَ كُلُّهُمْ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ فَأَصْلَحَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَتْلِيكَ وَأَتْلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَان. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحْرِقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ: يَا رَبِّ إِذْنُ يَتْلَعُوا رَأْسِي، فَيَدْعُوهُ خُبْرَةً، فَقَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نَعْرَكَ، وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَنُتَوَّقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا تَبْعَثُ خَمْسَةَ أَمْثَالِهِ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ. وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ مُتَصَدِّقٌ. وَرَجُلٌ رَجِيمٌ رَفِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِّ

عِنَايَةٍ، وَهُوَ يُجِبُّنَا. وَتَقْلُوا عَنْ كِتَابِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِعَبْدِهِ إِسْرَائِيلَ: «أَنْتَ ابْنِي بِكَرِّي» فَحَمَلُوا هَذَا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَحَرَفُوهُ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عَقَلَانِهِمْ وَقَالُوا: هَذَا يُطْلَقُ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّشْرِيفِ وَالْإِكْرَامِ. كَمَا نَقَلَ النَّصَارَى عَنْ كِتَابِهِمْ: أَنَّ عِيسَى قَالَ لَهُمْ: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَأَيِّكُمْ، يَعْنِي رَبِّي وَرَبَّكُمْ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبُتُوَّةِ مَا ادَّعَوْهَا فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا مِنْ ذَلِكَ مَعَزَتَهُمْ لَدَيْهِ وَحُطُوتَهُمْ عِنْدَهُ، وَلِهَذَا قَالُوا: نَحْنُ أَنْبَاءُ اللَّهِ وَأَحْيَاؤُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ «قَدْ قَلِمَ يَعِدُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» أَي لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَدْعُونَ أَنْبَاءَهُ وَأَحْيَاءَهُ، فَلِمَ أَعَدَّ لَكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ عَلَى كُفْرِكُمْ وَكَذِبِكُمْ وَافْتِرَائِكُمْ؟

«بَلْ أَشَدُّ بَشَرًا وَمِمَّنْ خَلَقَ» أَي لَكُمْ أَسْوَدُ أَمْثَالِكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَهُوَ سُخْرَانَةُ الْحَاكِمِ فِي جَمِيعِ عِبَادِهِ «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» أَي هُوَ فَاعِلٌ لِمَا يُرِيدُ، لَا مُعَقَّبٌ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ «وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أَي الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ «وَالِيَهُ الْمَصِيرُ» أَي الْمَرْجِعُ وَالْمَأْتِ بِإِلَيْهِ، فَيَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ. «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»<sup>(٢)</sup>.

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِأَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، الَّذِي لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ، بَلْ هُوَ الْمُعَقَّبُ لِجَمِيعِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ» أَي بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ مَا بَيْنَ إِرسَالِهِ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ هَذِهِ الْفِتْرَةِ كَمْ هِيَ؟ فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ التَّهْدِيدِيُّ وَفَتَادَةُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: كَانَتْ سِتْمِائَةِ سَنَةٍ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ فَتَادَةَ: خَمْسِمِائَةٍ وَسِتُّونَ سَنَةً<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ: خَمْسِمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً<sup>(٦)</sup>. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: سِتْمِائَةٍ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْقَائِلَ الْأَوَّلَ أَرَادَ سِتْمِائَةَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ. وَالْآخِرَ أَرَادَ: قَمَرِيَّةً، وَبَيْنَ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ وَبَيْنَ الْقَمَرِيَّةِ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ

(١) البغوي: ٢٣/٢ (٢) فتح الباري: ١٠١/٣٢٤ (٣)

البغوي: ٢٣/٢ (٤) عبد الرزاق: ١٨٦/١ (٥) فتح الباري:

ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ . وَرَجُلٌ غَفِيفٌ قَوِيْرٌ ذُو عِيَالٍ . وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا [زَبْرًا] لَهُ : الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ نَجَعٌ - أَوْ تَبَعَاءُ ، شَكٌّ بِحَيٍّ - لَا يَنْتَعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ [البُخْلُ] أَوْ الْكَذِبَ «وَالسَّنْظِيرُ الْفَاحِشُ»<sup>(١)</sup> .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ إِبْرَادِ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ : «وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَجْمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ : «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»<sup>(٢)</sup> . وَكَانَ الدِّينُ قَدِ اتَّسَعَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَهَدَى الْخَلَائِقَ وَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَتَرَكَهُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أَيِ لَيْثًا تَحْتَجُّوا وَتَقُولُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ وَغَيَّرُوهُ : مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ وَيُنْذِرُ مِنَ الشَّرِّ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَاهُ إِنِّي قَادِرٌ عَلَى عِقَابِ مَنْ عَصَانِي ، وَتَوَابِ مَنْ أَطَاعَنِي<sup>(٣)</sup> .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ آدَمًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ يَنْقُورُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُدُوا عَنْ آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكَبُوا عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَانْكَبُوا عَلَيْهِمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّآ لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥﴾

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمَانِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَطَوَعَتْ لَهُ، نَفْسُهُ، قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَاصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُؤَدِّرِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَيِّلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَدِّرِي سَوَاءَ أَخِي فَاصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٢١﴾

عِمْرَانٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ذَكَرَ بِهِ قَوْمُهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالْآيَةِ لَدَيْهِمْ فِي جَمْعِهِ لَهُمْ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةِ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أَيِ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ قَامَ فِيكُمْ نَبِيٌّ مِنْ لَدُنْ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ، وَكَذَلِكَ كَانُوا لَا يَزَالُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ، وَيُحَذِّرُونَ نَفْسَهُ، حَتَّى خَتِمُوا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَسْهُوبِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَهُوَ أَشْرَفُ مِنْ كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْهُمْ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قَالَ : الْخَادِمُ وَالْمَرْءُ

[تَذَكِيرُ مُوسَى قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَأَمْرُهُ بِدُخُولِهِمْ فِي

الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَتَمَرُّدُهُمْ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بْنِ

(١) أحمد: ٤/ ١٦٢ (٢) مسلم: ٤/ ٢١٩٧ (٣) الطبري: ١٠/

تَعَالَى. فَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَقُومُوا  
ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ﴾ أَيِ الْمُطَهَّرَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَيِ الَّتِي  
وَعَدَكُمْوهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِ أَبِيكُمْ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ وَرَآئِهِ مَنْ آمَنَ  
مِنْكُمْ ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَى آذَانِكُمْ﴾ أَيِ وَلَا تَتَكَلَّمُوا عَنِ الْجِهَادِ  
﴿فَتَقَبِّلُوا خَاسِرِينَ﴾ (١) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن  
نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿وَلَا  
أَيِ اعْتَدُوا بِأَنَّ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي أَمَرْتَنَا بِدُخُولِهَا وَقِتَالِ  
أَهْلِهَا، قَوْمًا جَبَّارِينَ، أَيِ ذَوِي خَلْقٍ هَائِلَةٍ، وَقُوَى  
شَدِيدَةٍ، وَإِنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى مُقَاوَمَتِهِمْ وَلَا مُصَاوَلَتِهِمْ، وَلَا  
يُمْكِنُنَا الدُّخُولُ إِلَيْهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا  
دَخَلْنَاها، وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ.

[خُطْبَةٌ يُوَسِّعُ وَكَالِبُ عَنِ الْجِهَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْتُمْ اللَّهُ  
عَلَيْهِمَا﴾ أَيِ فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَمُتَابَعَةِ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَرَضَهُمْ رَجُلَانِ لِلَّهِ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ  
عَظِيمَةٌ، وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ أَمْرَ اللَّهِ وَيَخْشَى عِقَابَهُ، وَقَرَأَ  
بِفَضْلِهِمْ: (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ). أَيِ مِمَّنْ لَهُمْ  
مَهَابَةٌ وَمَوْضِعٌ مِنَ النَّاسِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُمَا يُوَسِّعُ بَنُ نُونٍ،  
وَكَالِبُ بْنُ يُوْفَتَّا. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ،  
وَعَطِيَّةُ وَالسُّدِّيُّ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ  
السَّلَفِ وَالْخَلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ (٢). فَقَالَا: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ  
الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرَهُ، وَوَأَقْبَلْتُمْ  
رَسُولَهُ، نَصَرَكُمُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَأَيَّدَكُمُ وَظَفَرَكُمُ بِهِمْ.  
وَدَخَلْتُمْ الْبَلَدَ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَكُمْ، فَلَمْ يَنْفَعِ ذَاكَ فِيهِمْ شَيْئًا  
﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ  
وَرَبُّكَ فَفَتَحْنَا إِنَّا هُمَا قَائِدُونَ﴾ وَهَذَا نَكُولُ مِنْهُمْ عَنِ  
الْجِهَادِ، وَمُخَالَفَةِ لِرَسُولِهِمْ، وَتَخَلُّفٍ عَنْ مُقَاتَلَةِ الْأَعْدَاءِ.

[حُسْنُ جَوَابِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ بَدْرٍ]

وَمَا أَحْسَنَ مَا أَجَابَ بِهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ  
بَدْرٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ اسْتَشَارَهُمْ فِي قِتَالِ النِّعِيرِ،  
الَّذِينَ جَاؤُوا لِمَنْعِ الْعِيرِ، الَّذِي كَانَ مَعَ أَبِي سَفْيَانَ،

وَالْبَيْتُ (١). وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ  
قَالَ: الْمَرْءُ وَالْخَادِمُ. ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ  
الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ ظَهَرَانِهِمْ يَوْمَئِذٍ. ثُمَّ قَالَ  
الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ (٢).  
وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا أَوَّلَ مَنْ اتَّخَذَ الْخَدَمَ (٣).

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَاوِيَ فِي  
جَسَدِهِ، أَمِنَا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِزْبَتْ لَهُ  
الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا» (٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي  
عَالِمِي زَمَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْرَفَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ مِنَ  
الْيُونَانِ وَالْقِبْطِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ بَنِي آدَمَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ  
ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَزَوَّجْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ  
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] وَقَالَ تَعَالَى إِنْخِبَارًا  
عَنْ مُوسَى لَمَّا قَالُوا: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ  
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ (٥) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ (٦) قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْيَعَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى  
الْعَالَمِينَ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠] وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُمْ  
كَانُوا أَفْضَلَ زَمَانِهِمْ، وَإِلَّا فَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفُ مِنْهُمْ،  
وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَكْمَلُ شَرِيعَةً، وَأَقْوَمُ مِنْهَاجًا، وَأَكْرَمُ  
نَبِيًّا، وَأَعْظَمُ مُلْكًا، وَأَعَزُّ أَرْزَاقًا، وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا،  
وَأَوْسَعُ مَمْلَكَةً، وَأَدْوَمُ عِزًّا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ  
جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]،  
وَقَدْ ذَكَرْنَا الْأَحَادِيثَ الْمُتَوَاتِرَةَ فِي فَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ  
وَشَرَفِهَا وَكَرَمِهَا عِنْدَ اللَّهِ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ  
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَحْرِيطِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْجِهَادِ وَالْدُّخُولِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ  
الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيهِمْ فِي زَمَانِ أَبِيهِمْ يَعْثُوبٌ، لَمَّا ارْتَحَلَ هُوَ  
وَنَبُوهُ وَأَهْلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ لَمْ  
يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى، فَوَجَدُوا فِيهَا قَوْمًا مِنَ  
الْعَمَالِقَةِ الْجَبَّارِينَ قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا وَتَمَلَّكُوهَا، فَأَمَرَهُمْ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالدُّخُولِ إِلَيْهَا، وَبِقِتَالِ  
أَعْدَائِهِمْ، وَبَشَرَهُمْ بِالنُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ، فَتَكَلَّمُوا وَعَصَوْا  
وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، فَعُوقِبُوا بِالذَّهَابِ فِي النَّيِّ، وَالتَّمَادِي فِي  
سَيْرِهِمْ حَارِثِينَ، لَا يَذَرُونَ كَيْفَ يَتَوَجَّهُونَ فِيهِ إِلَى مَقْصِدٍ،  
مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى تَقْرِيطِهِمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ

(١) عبد الرزاق: ١٨٧/١ (٢) الحاكم: ٣١٢/٢ (٣)

الطبري: ١٦٣/١٠ (٤) الترمذي: ٢٣٤٦ (٥) الطبري: ١٠



عَبَّاسٍ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ: إِفْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: أُرْفُقْ: إِفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. [تَحْرِيمُ دُخُولِ الْيَهُودِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ، لَمَّا دَعَا عَلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ حَكَمَ اللَّهُ بِتَحْرِيمِ دُخُولِهَا عَلَيْهِمْ مُدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَوَقَعُوا فِي التَّيِّهِ يَسِيرُونَ دَائِمًا، لَا يَهْتَدُونَ لِلخُرُوجِ مِنْهُ، وَفِيهِ كَانَتْ أُمُورٌ عَجِيبَةٌ، وَخَوَارِقُ كَثِيرَةٌ مِنْ تَطْلِيلِهِمْ بِالْغَمَامِ، وَإِنزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ، وَمِنْ إِخْرَاجِ الْمَاءِ الْجَارِي مِنْ صَخْرَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَثَبَّتَ اللَّهُ بِهَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ. وَهُنَاكَ نَزَلَتْ التَّوْرَةُ، وَشُرِعَتْ لَهُمُ الْأَحْكَامُ، وَعُمِلَتْ فِتْنَةُ الْعَهْدِ وَيُقَالُ لَهَا: فِتْنَةُ الزَّمَانِ.

### [فَتْحُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ مَنْصُوبٌ بِقَوْلِهِ ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فَلَمَّا انْقَضَتْ الْمُدَّةُ، خَرَجَ بِهِمْ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ بِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وَبَسَائِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْجِيلِ الثَّانِي، فَقَصَدَ بِهِمُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ فَحَاصَرَهَا، فَكَانَ فَتْحُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَلَمَّا تَضَيَّقَتْ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ وَخَشِيَ دُخُولَ السَّبْتِ عَلَيْهِمْ، قَالَ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، الْلَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ. فَحَبَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى فَتَحَهَا، وَأَمَرَ اللَّهُ يَوْشَعَ بْنَ نُونٍ، أَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ يَدْخُلُونَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، أَنْ يَدْخُلُوا بِأَبْهَا سَجْدًا، وَهُمْ يَقُولُونَ: حِطَّةٌ، أَيْ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبُنَا. فَبَدَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، وَدَخَلُوا يَرْحَفُونَ عَلَى أَسْنَانِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا كُلُّهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: فَتَاهُوا أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ: فَهَلْكَ مُوسَى وَهَارُونُ فِي التَّيِّهِ، وَكُلُّ مَنْ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا مَضَتْ الْأَرْبَعُونَ سَنَةً، نَاهَضَهُمْ يَوْشَعَ بْنُ نُونٍ، وَهُوَ

فَلَمَّا فَاتَ إِفْتِنَاصُ الْعِيرِ، وَاقْتَرَبَ مِنْهُمْ النَّيِّرُ، وَهُمْ فِي جَمْعٍ مَا بَيْنَ التَّسْعِمَانَةِ إِلَى الْأَلْفِ فِي الْعُدَّةِ، وَالْبَيْضِ وَالْيَلْبِ، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ تَكَلَّمَ مَنْ تَكَلَّمَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ» وَمَا يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا لِيَسْتَعْلِمَ مَا عِنْدَ الْأَنْصَارِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا جُمُهورَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: كَأَنَّكَ تُعَرِّضُ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعَرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ، فَخَضْتَهُ لَخَضَنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَّرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللَّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَيَسِرَ بِنَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ، فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ سَعْدٌ وَنَشَطَهُ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُزْدَوِيهِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا سَارَ إِلَى بَدْرِ اسْتَشَارَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّا كُمْ يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: إِذَا لَا نَقُولُ لَهُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَوَدُونَ﴾ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَهَا إِلَى بِرِّكَ الْعِمَادِ لَا تَبْعَانَا. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَرَوَاهُ ابْنُ جَبَّانٍ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي الْمَعَارِجِ وَفِي التَّفْسِيرِ مِنْ طَرَفٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَلَفْظُهُ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ قَالَ: قَالَ الْمُقَدِّدُ يَوْمَ بَدْرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَوَدُونَ﴾ وَلَكِنْ اامضْ وَنَحْنُ مَعَكَ. فَكَانَتْ سُرِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٣)</sup>.

### [دُعَاءُ مُوسَى عَلَى الْيَهُودِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يَعْنِي لَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ الْقِتَالِ غَضِبَ عَلَيْهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ دَاعِيًا عَلَيْهِمْ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أَيْ لَيْسَ أَحَدٌ يُطِيعُنِي مِنْهُمْ فَيَمْتَلِ أَمْرُ اللَّهِ وَيُجِيبُ إِلَى مَا دَعَوْتُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَا وَأَخِي هَارُونُ ﴿فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي اافضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ

(١) البداية والنهاية: ٣/٢٦٢ (٢) أحمد: ١٠٥/٣ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٣٤ وابن حبان: ١٠٩/٧ (٣) البخاري: ٤٦٠٩ (٤) الطبري: ١٠/١٨٨ (٥) الطبري: ١٠/١٨٩ (٦) الطبري: ١٨٩/١٠

بِاسْطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾  
 إِنَّي أُرِيدُ أَنْ نَبْنِئَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ  
 جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ  
 مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ  
 كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَوْا عَجْرَتًا أَنْ أَكُونَ مِثْلَ  
 هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

### [قِصَّةُ هَابِيلَ وَقَابِيلَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبِينًا وَخِيمَ عَاقِبَةِ النَّبِيِّ وَالْحَسَدِ وَالظُّلْمِ،  
 فِي خَبَرِ ابْنَيْ آدَمَ لِصُلْبِهِ وَهُمَا قَابِيلُ وَهَابِيلُ كَيْفَ عَدَا  
 أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَتَلَهُ، بَغْيًا عَلَيْهِ وَحَسَدًا لَهُ فِيمَا وَهَبَهُ  
 اللَّهُ مِنَ النِّعْمَةِ، وَتَقَبَّلَ الْقُرْبَانَ الَّذِي أَخْلَصَ فِيهِ لِلَّهِ عَزَّ  
 وَجَلَّ، فَفَارَزَ الْمُقْتُولُ بِوَضْعِ الْأَتَامِ وَالِدُخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ،  
 وَخَابَ الْقَاتِلُ وَرَجَعَ بِالصِّفَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَقَالَ  
 تَعَالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أَيِ أَفْضَلِ  
 عَلَى هَؤُلَاءِ الْبُعَاةِ الْحَسَدَةِ، إِخْوَانِ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرَدَةِ، مِنَ  
 الْيَهُودِ وَأُمَّتَالِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ، خَبَرِ ابْنَيْ آدَمَ، وَهُمَا هَابِيلُ  
 وَقَابِيلُ، فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيِ عَلَى الْجَلِيلَةِ وَالْأَمْرِ الَّذِي لَا يُبْسَ  
 فِيهِ وَلَا كَذِبَ، وَلَا وَهْمَ وَلَا تَبْدِيلَ، وَلَا زِيَادَةَ وَلَا  
 نُقْصَانَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ﴾ [آل  
 عمران: ٦٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَحْنُ نَفْصُ عَلَيْنِكَ نَبَأَهُمْ  
 بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] وَقَالَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ  
 الْحَقِّ﴾ [مریم: ٣٤]، وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِمَا فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ  
 وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ لِآدَمَ عَلَيْهِ  
 السَّلَامُ، أَنْ يَزُوجَ بَنَاتَهُ مِنْ بَيْنِهِ لِضُرُورَةِ الْحَالِ، وَلَكِنْ  
 قَالُوا: كَانَ يُؤَلَّدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، فَكَانَ يَزُوجُ  
 أَنْثَى هَذَا الْبَطْنِ لِذَكَرِ الْبَطْنِ الْآخَرِ، وَكَانَتْ أُخْتُ هَابِيلَ  
 دَمِيمَةً، وَأُخْتُ قَابِيلَ وَضِيئَةً، فَأَرَادَ أَنْ يُسْتَأْذِنَ بِهَا عَلَى  
 أَخِيهِ، فَأَبَى آدَمُ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يُقَرَّبَا قُرْبَانًا، فَمَنْ تَقَبَّلَ مِنْهُ  
 فَهِيَ لَهُ، فَتَقَبَّلَ مِنْ هَابِيلَ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ قَابِيلَ، فَكَانَ مِنْ  
 أَمْرِهِمَا مَا قَصَّهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: نُهِيَ أَنْ  
 تَنْكِحَ الْمَرْأَةُ أَخَاهَا تَوَآمَهَا، وَأَمَرَ أَنْ يَنْكِحَهَا غَيْرُهُ مِنْ  
 إِخْوَتِهَا، وَكَانَ يُؤَلَّدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ، فَبَيْنَمَا هُمُ

الَّذِي قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَ مُوسَى، وَهُوَ الَّذِي افْتَتَحَهَا <sup>(١)</sup>.  
 وَهُوَ الَّذِي قِيلَ لَهُ: «الْيَوْمَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ». فَهَمُّوا بِافْتِتَاحِهَا  
 وَدَنَبَ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، فَخَشِيَ أَنْ دَخَلَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ  
 أَنْ يَسْبِتُوا، فَنادَى الشَّمْسُ: إِنِّي مَأْمُورٌ، وَإِنَّكَ مَأْمُورَةٌ،  
 فَوَقَفَتْ حَتَّى افْتَتَحَهَا، فَوَجَدَ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَمْ يَرِ  
 مِثْلُهُ قَطُّ، فَقَرَّبُوهُ إِلَى النَّارِ فَلَمْ تَأْتِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ  
 الْعُلُولُ، فَدَعَا رُؤُوسَ الْأَسْبَاطِ وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا  
 قَبَايِعَهُمْ، وَالتَّصَفَّتْ يَدُ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِيَدِهِ فَقَالَ: الْعُلُولُ  
 عِنْدَكَ فَأَخْرِجْهُ، فَأَخْرَجَ رَأْسَ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ لَهَا عَنَانٌ  
 مِنْ يَاقُوتٍ وَأَسْنَانٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ فَوَضَعَهُ مَعَ الْقُرْبَانِ، فَأَتَتْ  
 النَّارُ فَأَكَلَتْهُ. وَهَذَا السِّبَاقُ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ.

### [تَسْلِيَةُ اللَّهِ لِمُوسَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تَسْلِيَةٌ  
 لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُمْ، أَيْ لَا تَأْسَفْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ  
 فِيمَا حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِهِ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ  
 الْقِصَّةُ تَضَمَّنَتْ تَفْرِيعَ الْيَهُودِ، وَبَيَانَ فَضَائِحِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ  
 لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَتُكُولِهِمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ  
 الْجِهَادِ، فَضَعُفَتْ أَنْفُسُهُمْ عَنْ مُصَابِرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ  
 وَمُقَاتَلَتِهِمْ، مَعَ أَنَّ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَلِيمَهُ  
 وَصِفِيَّهِ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُوَ يَعِدُهُمْ بِالنَّصْرِ  
 وَالظَّفَرِ بِأَعْدَائِهِمْ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بَعْدُوهُمْ  
 فِزَعُونَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْغَرَقِ لَهُ وَلِجُنُودِهِ فِي الْيَمِّ  
 وَهُمْ يَنْظُرُونَ، لِيَقَرَّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ، ثُمَّ  
 يَنْكَلُونَ عَنْ مُقَاتَلَةِ أَهْلِ بَلَدِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ لَا  
 تَوَازِي عَشَرَ الْمُعَشَارِ فِي عُدَّةِ أَهْلِهَا وَعَدِيدِهِمْ، فَظَهَرَتْ  
 قَبَائِحُ صَنِيعِهِمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَافْتَضَحُوا فَضِيحَةً لَا  
 يُعْطِيهَا اللَّيْلُ، وَلَا يَسْتُرُهَا الذُّبُلُ، هَذَا وَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ  
 يَمْمَهُونَ، وَفِي عَيْهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَهُمْ الْبُعْضَاءُ إِلَى اللَّهِ  
 وَأَعْدَاؤُهُ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ،  
 فَقَبَّحَ اللَّهُ وُجُوهَهُمْ الَّتِي مُسِخَ مِنْهَا الْخَنَازِيرُ وَالْقِرَدُ،  
 وَالزَّرَمَهُمْ لَعْنَةً تَضَحُّهُمْ إِلَى النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ، وَيَقْضِي لَهُمْ  
 فِيهَا بِتَأْيِيدِ الْخُلُودِ، وَقَدْ فَعَلَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي جَمِيعِ  
 الْوُجُودِ.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ  
 مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا  
 يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [٧] لِيَنْ بَسَطَتْ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا

كَذَلِكَ إِذْ وُلِدَ لَهُ امْرَأَةٌ وَضِيئَةٌ، وَوُلِدَ لَهُ أُخْرَى فَبِيحَةٌ دَمِيمَةٌ، فَقَالَ أَخُو الدَّمِيمَةِ: أَنْتَ حَنِي أَخْتُكَ وَأَنْتَ حَك أَخْتِي، فَقَالَ لَا، أَنَا أَحَقُّ بِأَخْتِي، فَقَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ صَاحِبِ الْكَنْسِ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ صَاحِبِ الزَّرْعِ، فَقَتَلَهُ<sup>(١)</sup>. إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيِ مِمَّنِ اتَّقَى اللَّهَ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: لَأَنْ أَشْتَقِينَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَقَبَّلَ لِي صَلَاةً وَاحِدَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيْكَ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَقُولُ لَهُ أَخُوهُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الَّذِي تَقَبَّلَ اللَّهُ قُرْبَانَهُ لِنَفْسِهِ، حِينَ تَوَعَّدَهُ أَخُوهُ بِالْقَتْلِ عَلَى غَيْرِ مَا ذُنِبَ مِنْهُ إِلَيْهِ ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَيْكَ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ أَيِ لَا أَقْبَلُكَ عَلَى صَنِيعِكَ الْفَاسِدِ بِمِثْلِهِ فَكُونَ أَنَا وَأَنْتَ سَوَاءٌ فِي الْخَطِيئَةِ ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيِ مِنْ أَنْ أَضْغَعُ كَمَا تُرِيدُ أَنْ تَضْغَعَ، بَلْ أَضْغِرُ وَأَحْتَسِبُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: وَإِمْ اللَّهُ إِنْ كَانَ لِأَشَدِّ الرَّجُلَيْنِ، وَلَكِنْ مَنَعَهُ التَّحَرُّجُ، يَعْنِي الْوَرَعَ. وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا تَوَاجَعَ الْمُسْلِمَانِ بِسِنْفَيْهِمَا، فَأَلْقَايِلَ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا الْقَائِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ عِنْدَ فِتْنَةِ عُثْمَانَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي» قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَنِي قَيْسَ يَدُهُ إِلَيَّ لِيَقْتُلَنِي؟ فَقَالَ: «كُنْ كَابْنِ آدَمَ»<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَخَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ وَأَبِي بَكْرِ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَقَّادٍ وَأَبِي مُوسَى وَخَرَشَةَ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَتَنَادَةُ وَالسَّيِّدِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أَيِ بِإِثْمِ قَتْلِي وَإِثْمِكَ الَّذِي عَلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَيِ فَحَسَنْتَ وَسَوَّلْتَ لَهُ نَفْسَهُ، وَشَجَعْتَهُ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، أَيِ بَعْدَ هَذِهِ

(١) الطبري: ٢٢٣/١٠ (٢) فتح الباري: ٣٥/١٣ ومسلم: ٤/٢٢١٤ (٣) أحمد: ١٨٥/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٤٣٦/٦ (٥) الطبري: ٢١٦، ٢١٥/١٠ (٦) الطبري: ٥٣٦/٤ (٧) عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف وهذا الحديث رواه عبدالرحمن بن زيد عن أبيه [تقريب] وقال الإمام أبو عبدالله الحاكم روى عن أبيه أحاديث موضوعة [المدخل إلى الصحيح] (٨) أحمد: ٣٨٣/١ (٩) فتح الباري: ١٢/١٩٨ ومسلم: ٣/١٣٠٣ وتحفة الأحوذى: ٤٣٦/٧ والسائي في الكبرى: ٦/٣٣٤ وابن ماجه: ٨٧٣/٢ (١٠) الطبري: ٢١٩/١٠ فيه محمد بن إسحاق وهو مدلس لم يصرح بالسماع وشيخه حكيم بن حكيم بن عباد بن ضيف مختلف فيه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ  
نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ  
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ  
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا  
مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا  
جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ  
فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ  
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ  
لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ  
﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ  
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ أَنَّهُمْ  
لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوهُ بِهِ مِنْ  
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أَي حَرَّمَ قَتْلَهَا وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ، فَقَدْ سَلِمَ  
النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَأَنَّمَا  
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وَقَالَ الْأَعْمَشُ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي  
صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُثْمَانَ يَوْمَ  
الدَّارِ فَقُلْتُ: جِئْتُ لَأَنْصُرَكَ، وَقَدْ طَابَ الضَّرْبُ يَا أَمِيرَ  
المُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَيْسُرُكَ أَنْ تُقَتِّلَ النَّاسَ  
جَمِيعًا وَإِلَائِي مَعَهُمْ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَ رَجُلًا  
وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قَتَلْتَ النَّاسَ جَمِيعًا، فَانْصَرَفَ مَا دُونًا لَكَ  
مَأْجُورًا غَيْرَ مَا زُورٍ، قَالَ: فَانْصَرَفْتُ وَلَمْ أَقَاتِلْ. <sup>(٤)</sup>

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ كَمَا قَالَ  
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ  
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا  
النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وَإِحْيَاؤها أَلَّا يُقَتَّلَ نَفْسًا حَرَّمَهَا اللَّهُ،

(١) الطبري: ١٠/٢٢٥ (٢) الطبري: ١٠/٢٢٦ (٣) أبو داود: ٢٠٨/٥ (٤) [الطبقات لابن سعد ٣/٥١] فيه الأعمش سلمان ابن مهران ثقة حافظ لكنه يبدل ولم يصرح

كَيْفَ يُؤَرَى سَوْءَهُ أَخِيهِ قَالَ يُؤَيِّلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ  
هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَرَى سَوْءَهُ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ  
السُّدِّيُّ بِإِسْنَادِهِ الْمُتَقَدِّمِ إِلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: لَمَّا  
مَاتَ الْغُلَامُ تَرَكَهُ بِالْعَرَاءِ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ يَذْفُو، فَبَعَثَ اللَّهُ  
غُرَابَيْنِ أَخَوَيْنِ فَافْتَتَلَا، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَحَفَرَ لَهُ،  
ثُمَّ حَتَّى عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ: ﴿يُؤَيِّلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ  
مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَرَى سَوْءَهُ أَخِي﴾ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي  
طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ غُرَابٌ إِلَى غُرَابٍ مَيِّتٍ،  
فَحَتَّى عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ حَتَّى وَارَاهُ، فَقَالَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ:  
﴿يُؤَيِّلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَرَى سَوْءَهُ  
أَخِي﴾ <sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:  
عَلَاهُ اللَّهُ بِنْدَامَةً بَعْدَ خُسْرَانٍ.

### [تَعْجِيلُ عَقُوبَةِ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ]

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ  
أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عَقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لِصَاحِبِهِ  
فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» <sup>(٣)</sup>. وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي  
فِعْلِ قَابِلٍ هَذَا وَهَذَا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا  
يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا  
وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ  
رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ  
لَمُسْرِفُونَ﴾ <sup>(٣٢)</sup> إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ  
فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ  
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ  
خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا  
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾

### [يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَرِمَ الْإِنْسَانَ]

يَقُولُ تَعَالَى: مِنْ أَجْلِ قَتْلِ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ ظُلْمًا وَعَدْوَانًا  
﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَي شَرَعْنَا لَهُمْ وَأَعْلَمْنَاهُمْ  
﴿أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا  
قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ  
جَمِيعًا﴾ أَي مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ سَبَبٍ مِنْ فِصَاصٍ أَوْ فَسَادٍ  
فِي الْأَرْضِ، وَاسْتَحْلَلَ قَتْلَهَا بِلا سَبَبٍ وَلَا جِنَايَةٍ، فَكَأَنَّمَا  
قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ نَفْسٍ وَنَفْسٍ

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ... الْآيَةُ، الْمُحَارَبَةُ هِيَ الْمُضَادَّةُ وَالْمُخَالَفَةُ، وَهِيَ صَادِقَةٌ عَلَى الْكُفْرِ، وَعَلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَإِخَافَةِ السَّبِيلِ. وَكَذَا الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ يُطْلَقُ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرِّ، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، قَالَا: «إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» إِلَى «أَنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ» نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْمُسْرِكِينَ، فَمَنْ تَابَ مِنْهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْتَلُوا عَلَيْهِ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ سَبِيلٌ. وَلَيْسَتْ تَحَرُّزُ هَذِهِ الْآيَةِ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ مِنَ الْحَدِّ إِنْ قُتِلَ، أَوْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، أَوْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، ثُمَّ لَحِقَ بِالْكَفَّارِ، قَبْلَ أَنْ يُقْتَلُوا عَلَيْهِ، لَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ الَّذِي أَصَابَ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا»، نَزَلَتْ فِي الْمُسْرِكِينَ، مَنْ تَابَ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلُوا عَلَيْهِ، لَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ الَّذِي أَصَابَهُ<sup>(٦)</sup>.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ غَامَّةٌ فِي الْمُسْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ ارْتَكَبَ هَذِهِ الصِّفَاتِ؛ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي قِلَابَةَ - وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ الْجَرَمِيُّ الْبَصْرِيُّ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَّةٍ، قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَاسْتَوْحَمُوا الْمَدِينَةَ، وَسَقَمَتْ أَجْسَامُهُمْ فَشَكُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيْنَا فِي إِبِلِهِ فَتَصِيْبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا؟» فَقَالُوا: بَلَى، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا الرَّاعِي، وَطَرَدُوا الْإِبِلَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَأَذْرَكُوا فَجَاءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ، ثُمَّ بُذِلُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا. لَفْظُ مُسْلِمٍ، وَفِي لَفْظٍ لَهَا: مِنْ عُكْلٍ أَوْ غَرَبِيَّةٍ، وَفِي لَفْظٍ: وَأَلْفُوا فِي الْحَرَّةِ فَجَعَلُوا يَسْتَسْقُونَ، فَلَا يُسْقَوْنَ<sup>(٧)</sup>.

(١) الطبري: ٢٣٥/١٠ (٢) الطبري: ٢٣٦/١٠ (٣) الطبري: ٢٣٣/١٠ وقد تقدم الكلام على العوفي وعائلته (٤) الطبري: ٢٣٥/١٠ (٥) الطبري: ٢٤٤/١٠ (٦) أبو داود: ٥٣٦/٤ والنسائي: ١٠١/٧ (٧) فتح الباري: ١١٤/١٢ ومسلم: ٣/١٢٩٦

فَذَلِكَ الَّذِي أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، يَعْنِي أَنَّهُ مِنْ حَرَمٍ قَتَلَهَا إِلَّا بِحَقٍّ، حَيَّى النَّاسُ مِنْهُ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: «وَمَنْ أَحْيَاهَا» أَيْ كَفَّ عَنْ قَتْلِهَا<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا»، يَقُولُ: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا وَاحِدَةً حَرَّمَهَا اللَّهُ فَهُوَ مِثْلُ مَنْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَنْ اسْتَحْلَلَ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَحْلَلَ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا، وَمَنْ حَرَّمَ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: «فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» مَنْ قَتَلَ النَّفْسَ الْمُؤْمِنَةَ مُتَعَمِّدًا، جَعَلَ اللَّهُ جَزَاءَهُ جَهَنَّمَ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا، يَقُولُ: لَوْ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا لَمْ يَزِدْ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْعَذَابِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ مُجَاهِدٌ: «وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» قَالَ: مَنْ لَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا فَقَدْ حَيَّى النَّاسَ مِنْهُ<sup>(٤)</sup>.

#### [تَهْدِيدُ الْمُسْرِكِينَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أَيْ بِالْحُجَجِ وَالْبُرَاهِينِ وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ «ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَكُسُوفُونَ» وَهَذَا تَفْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى ارْتِكَابِهِمُ الْمُحَارِمَ بَعْدَ عَلِيمِهِمْ بِهَا، كَمَا كَانَتْ بَنُو فَرِيطَةَ وَالنَّضِيرَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ بَنِي قَيْنِقَاعَ مِمَّنْ حَوَّلَ الْمَدِينَةَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ مَعَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْحُرُوبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتِ الْحُرُوبُ أوزَارَهَا. فَدَا مِنْ أَسْرُوهُ، وَوَدَا مِنْ قَتْلُوهُ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ حَيْثُ يَقُولُ: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ» ﴿٨٥﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسْدَى الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

#### [جَزَاءُ الْمُحَارِبِينَ وَالْأَشْرَارِ]

وَقَوْلُهُ: «إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ

بَعْضًا، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْزُهُ إِلَى اللَّهِ: إِنْ شَاءَ عَذَّبْهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ، فَاللهُ أَعَدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَشْنِي عُقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ، فَاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ»<sup>(٥)</sup>. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَقَدْ سُئِلَ الْحَافِظُ الدَّارِقُطِيُّ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ<sup>(٦)</sup> فَقَالَ: رَوَى مَرْفُوعًا وَمَوْفُوقًا، قَالَ: وَرَفَعَهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا» يَعْنِي سَرًّا وَعَارًا وَنَكَالًا وَذِلَّةً وَعُقُوبَةً فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ. «وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» أَيُّ إِذَا لَمْ يَتُوبُوا مِنْ فِعْلِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى هَلَكُوا، لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَعَ الْجَزَاءِ الَّذِي جَازَيْنَهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعُقُوبَةُ الَّتِي عَاقَبَتْهُمْ بِهَا فِيهَا «عَذَابٌ عَظِيمٌ» يَعْنِي عَذَابٌ جَهَنَّمُ<sup>(٧)</sup>.

[تَسْقُطُ حَدُودُ الْمُحَارِبِينَ إِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ» أَمَّا عَلَى قَوْلٍ مِنْ قَالَ: إِنَّهَا فِي أَهْلِ الشَّرْكِ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا الْمُحَارِبُونَ الْمُسْلِمُونَ، فَإِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَنْهُمْ انْحِتَامُ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَقَطْعِ الرَّجْلِ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي سُقُوطَ الْجَمِيعِ، وَعَلَيْهِ عَمَلُ الصَّحَابَةِ. كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: كَانَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرٍ التَّيْمِيُّ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ قَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَحَارَبَ، فَكَلَّمَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنْهُمْ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، فَكَلَّمُوا عَلِيًّا فِيهِ فَلَمْ يُؤْمِنْهُ، فَآتَى سَعِيدَ بْنَ قَيْسٍ الْهَمْدَانِيَّ فَخَلَفَهُ فِي دَارِهِ، ثُمَّ أَتَى عَلِيًّا، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتَ مَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ» [المائدة: ٣٤] قَالَ: فَكُتِبَ لَهُ أَمَانًا، قَالَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يَبْغُلُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ» قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: مَنْ شَهَرَ السَّلَاحَ فِي فِتْنَةِ الْإِسْلَامِ، وَأَخَافَ السَّبِيلَ ثُمَّ ظَفِرَ بِهِ وَقُدِرَ عَلَيْهِ فِيمَا مِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ بِالْخِيَارِ: إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ وَإِنْ شَاءَ صَلَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ قَطَعَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالضَّحَّاكُ. وَرَوَى ذَلِكَ كُلُّهُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup> وَمُسْتَدْرَكُ هَذَا الْقَوْلِ: أَنَّ ظَاهِرَ (أَوْ) لِلتَّخْيِيرِ كَمَا فِي نِظَائِرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ «فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بِلَغِ الْكُتُبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا» [المائدة: ٩٥] وَكَقَوْلِهِ فِي كَفَّارَةِ الْفُؤَادِيَّةِ: «فَنَ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَدَى مِنْ رَأْسِهِ فِئْدَتُهُ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلْبٍ» [البقرة: ١٩٦] وَكَقَوْلِهِ فِي كَفَّارَةِ الْبَيْمِينَ: «فَكَفَّرْتَهُمْ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» [المائدة: ٨٩] هَذِهِ كُلُّهَا عَلَى التَّخْيِيرِ فَكَذَلِكَ فَلْتَكُنْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ» قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ أَنْ يَطْلُبَ حَتَّى يُفْتَدَرَ عَلَيْهِ فَيَقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ. أَوْ يَهْرَبَ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالزُّهْرِيُّ، وَاللِّثْبِيُّ بْنُ سَعْدٍ وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ أَنْ يُنْفَى مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ أَوْ يُخْرِجُهُ السُّلْطَانُ أَوْ نَائِبُهُ مِنْ مُعَامَلَتِهِ بِالْكَلْفَةِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الشَّعْنَاءِ وَالْحَسَنُ وَالزُّهْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانَ: إِنَّهُ يُنْفَى وَلَا يُخْرَجُ مِنَ الْأَرْضِ الْإِسْلَامِ. وَقَالَ آخَرُونَ: الْمُرَادُ بِالنَّفْيِ هَهُنَا السَّجْنُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» أَيُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ مِنْ قَتْلِهِمْ وَمِنْ صَلْبِهِمْ وَقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ وَنَفْيِهِمْ - خِزْيٌ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَعَ مَا أَذْخَرَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَهَذَا يُؤَيِّدُ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ. فَأَمَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَبَقِيَ صَحِيحُ مُسْلِمٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النَّسَاءِ أَلَّا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا يَعْصُهُ بَعْضُنَا

(١) الطبري: ٢٦٣/١٠ (٢) الطبري: ٢٦٢/١٠ (٣) ٢٦٣ (٤) مسلم: ١٣٣٣/٣ (٥) أحمد: ١٥٩/١ وَتَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ: ٣٧٧/٧ وَابْنُ مَاجَهَ: ٨٦٨/٢ (٦) الدارقطني: ٢١٥/٣ (٧) الطبري: ٢٧٦/١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٤

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا  
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا  
أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ  
﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ  
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ  
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ  
لَا يَخْرُكُ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ  
قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ  
هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ  
آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ  
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا  
وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ. مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ  
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَفْعَلْ  
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالْوَسِيلَةِ وَالْجِهَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمَرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ إِذَا  
قُرِنَتْ بِطَاعَتِهِ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الْإِنْكَفَافُ عَنِ الْمَحَارِمِ  
وَتَرْكُ الْمُنْهَيَّاتِ، وَقَدْ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ  
الْوَسِيلَةَ﴾. قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ طَلْحَةَ عَنْ  
عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيِ الْفُرْجَةِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ  
وَأَبُو وَائِلٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ  
زَيْدٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيُّ تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ  
وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضَاهُ<sup>(٢)</sup>. وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ  
يَبْتَغُونَ إِلَهُ رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبري: ٢٨٠/١٠ إسناده ضعيف فيه مجالد بن سعيد وتقدم  
الكلام عليه (٢) الطبري: ٢٨٤/١٠ ضعيف فيه الوليد بن مسلم  
كثير التدليس وهو يبدل تدليس التسوية ولم يصرح هنا (٣)  
الطبري: ٢٩١/١٠ (٤) الطبري: ٢٩١/١٠ (٥) الطبري: ٢٩١/١٠

سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ: فَإِنَّهُ حَارِثَةُ بْنُ بَلَرٍ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١)</sup>.  
وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ غَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ  
مُرَادٍ إِلَى أَبِي مُوسَى وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ فِي إِمَارَةِ عُثْمَانَ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَمَا صَلَّى الْمَكْتُوبَةَ، فَقَالَ: يَا أَبَا  
مُوسَى، هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ، أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ  
الْمُرَادِيُّ، وَإِنِّي كُنْتُ حَارِثْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَسَعَيْتُ فِي  
الْأَرْضِ فَسَادًا، وَإِنِّي ثَبْتُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُقْدِرُوا عَلَيَّ، فَقَامَ  
أَبُو مُوسَى فَقَالَ: إِنَّ هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، وَإِنَّهُ كَانَ حَارِبَ  
اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَإِنَّهُ تَابَ مِنْ قَبْلِ  
أَنْ تُقْدِرَ عَلَيْهِ، فَمَنْ لَقِيَهُ فَلَا يَعْزُضْ لَهُ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنْ يَكُ  
صَادِقًا فَسَبِّحْ مِنْ صَدَقَ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا تَذَرِكُهُ ذُنُوبُهُ،  
فَأَقَامَ الرَّجُلُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ، فَأَذْرَكَ اللَّهُ تَعَالَى  
بِذُنُوبِهِ فَقَتَلَهُ. ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُوسَى بْنِ إِسْحَاقَ  
الْمَدَنِيِّ: أَنَّ عَلِيًّا الْأَسَدِيَّ حَارِبَ وَأَخَافَ السَّبِيلَ  
وَأَصَابَ الدَّمَ وَالْمَالَ فَطَلَبَهُ الْأَيْمَةُ وَالْعَامَّةُ، فَاْمْتَنَعَ وَلَمْ  
يُقْدِرُوا عَلَيْهِ حَتَّى جَاءَ تَائِبًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ  
هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَجْعَلُ الَّذِينَ أَتَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ  
رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾  
[الزمر: ٥٣] فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَعِدْ قِرَاءَتَهَا،  
فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ، فَغَمَدَ سِنْفَهُ، ثُمَّ جَاءَ تَائِبًا حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ  
مِنَ السَّحَرِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى  
الصُّبْحَ، ثُمَّ قَعَدَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فِي غِمَارٍ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا  
أَسْفَرُوا عَرَفَهُ النَّاسُ فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: لَا سَبِيلَ لَكُمْ  
عَلَيَّ، جِئْتُ تَائِبًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُقْدِرُوا عَلَيَّ، فَقَالَ أَبُو  
هُرَيْرَةَ: صَدَقَ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ حَتَّى أَتَى مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ،  
وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: هَذَا عَلِيُّ  
جَاءَ تَائِبًا، وَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَلَا قَتْلَ، فَتَرَكَ مِنْ ذَلِكَ  
كُلَّهُ، قَالَ وَخَرَجَ عَلَيَّ تَائِبًا مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي  
الْبَحْرِ، فَلَقُوا الرُّومَ فَقَرَّبُوا سَفِينَتَهُ إِلَى سَفِينَةٍ مِنْ سَفِينِهِمْ  
فَاقْتَحَمَ عَلَى الرُّومِ فِي سَفِينَتِهِمْ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَى شَقَاهَا  
الْآخِرِ، فَمَالَتْ بِهِ وَبِهِمْ فَغَرَّقُوا جَمِيعًا<sup>(٢)</sup>.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ  
وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ لِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ  
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤١﴾  
يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ

يَرَاوْنَ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّتِهِ وَآلِيمٌ مَسَّهُ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَكَلَّمَا رَفَعَهُمُ اللَّهُ فَصَارُوا فِي أَعْلَى جَهَنَّمَ صَرَبَتْهُمْ الرِّبَانِيَّةُ بِمَقَامِعِ الْحَدِيدِ، فَيَرُدُّوهُمْ إِلَى أَسْفَلِهَا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أَي دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا، وَلَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهَا. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ؟ فَيَقُولُ: شَرٌّ مَضْجَعٍ، فَيَقَالُ: هَلْ تَقْتَدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ يَارَبِّ، فَيَقُولُ اللَّهُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيُؤَمَّرُ بِهِ إِلَى النَّارِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

### [الْأَمْرُ بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ]

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا وَأَمِيرًا يَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ وَالسَّارِقَةِ، وَقَدْ كَانَ الْقَطْعُ مَعْمُولًا بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَرَّرَ فِي الْإِسْلَامِ، وَزِيدَتْ شُرُوطُ أُخْرَى كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا كَانَتِ الْقِسَامَةُ وَالْذَّبِيَّةُ وَالْقِرَاضُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي وَرَدَ الشَّرْعُ بِتَقْرِيرِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَزِيَادَاتُ هِيَ مِنْ تَمَامِ الْمَصَالِحِ.

### [مَتَى تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ؟]

وَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ»<sup>(٤)</sup>.

وَأُخْرِجَ الشَّيْخَانِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ فِي رُبْعٍ دِينَارٍ فَصَاعِدًا»<sup>(٥)</sup> وَلِمُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعٍ دِينَارٍ فَصَاعِدًا»<sup>(٦)</sup>. فَهَذَا الْحَدِيثُ فَاصِلٌ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَنَصٌّ فِي إغْتِيَابِ رُبْعِ الدِّينَارِ لَا مَا سَاوَاهُ. وَحَدِيثُ ثَمَنِ الْجَمْعِ -

وَالْوَسِيلَةُ هِيَ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى تَخْصِيلِ الْمَقْصُودِ. وَالْوَسِيلَةُ أَيْضًا عَلَمٌ عَلَى أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَارُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ أَقْرَبُ أَمَكِنَةِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ جِئَ يَسْمَعُ النَّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ النَّامِيَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتٍ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْتَعْتُهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لَمَّا أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ الْمَحَارِمِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ، أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الْخَارِجِينَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّارِكِينَ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ، وَرَعَبَهُمْ فِي ذَلِكَ بِالَّذِي أَعَدَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْفَلَاحِ، وَالسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ الْخَالِدَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا تَحُولُ وَلَا تَزُولُ فِي الْغُرَبِ الْعَالِيَةِ الرَّبِيعَةِ، الْأَمَةِ الْحَسَنَةِ مَنَاطِرُهَا، الطَّيِّبَةِ مَسَاكِنُهَا، الَّتِي مَنْ سَكَنَهَا بَنِعُمْ لَا يَبْأَسُ، وَيَخْشَى لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ.

[لَا تُقْبَلُ الْفِدْيَةُ مِنَ الْكُفَّارِ وَهُمْ يَسْتَمِرُّونَ فِي عَذَابٍ

### [النَّارِ]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِجُلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَبِمِثْلِهِ لَيَفْتَدِيَ بِذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَتَقَنَّ وَصَوْلَهُ إِلَيْهِ، مَا تُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ، بَلْ لَا مَنُودِحَةَ عَنْهُ وَلَا مَحِيصَ وَلَا مَنَاصِرَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي مُوجِعٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾... الْآيَةُ [الحج: ٢٢] فَلَا

(١) فتح الباري: ٢٥١/٨ (٢) مسلم: ٢٨٨/١ (٣) مسلم: ٤/٢١٦٢ والنسائي: ٣٦/٦ (٤) فتح الباري: ٨٣/١٢ ومسلم: ٣/١٣١٤ (٥) فتح الباري: ٩٩/١٢ ومسلم: ١٣١٢/٣ (٦) مسلم: ١٣١٣/٣



مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>(١)</sup>. وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت، وحديثها ثابت في الصحيحين من رواية الزهري عن عروة، عن عائشة: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِءُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حَبِيبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأُتِيَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟» فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اِسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعِشِيُّ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاخْتَطَبَ فَأَتَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَهَا» ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقُطِعَتْ يَدُهَا. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَسَنْتُ تَوْبَتَهَا بَعْدُ، وَتَزَوَّجْتُ، وَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَزْنَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ. وَفِي لَفْظٍ لَهُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَتْ امْرَأَةٌ مَخْزُومِيَّةً تَشْتَعِيرُ الْمَتَاعَ وَتَجَحِّدُهُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَطْعِ يَدِهَا<sup>(٣)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ هُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ، الْحَاكِمُ فِيهِ، الَّذِي لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]. ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ

مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْنُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ أَكَلُوا لِلشَّحْوِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ

وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَةَ ذَرَاهِمَ - لَا يُتَابِي هَذَا، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الدِّينَارُ بِأُتْيَ عَشْرَ ذَرَاهِمَ، فَهِيَ ثَمَنُ رُبْعِ دِينَارٍ، فَأَمَكَنَّ الْجَمْعُ بِهَذَا الطَّرِيقِ، وَيُرْوَى هَذَا الْمَذْهَبُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَبِهِ يَقُولُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهُ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، وَأَبُو ثَوْرٍ، وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الطَّاهِرِيُّ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، إِلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ رُبْعِ الدِّينَارِ وَالثَّلَاثَةِ ذَرَاهِمَ مَرْدٌ شَرِيعِيٌّ، فَمَنْ سَرَقَ وَاحِدًا مِنْهُمَا أَوْ مَا يُسَاوِيهِ قُطِعَ.

وَأَمَّا الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدُ وَزُفَرٌ، وَكَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فَإِنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ النَّصَابَ عَشْرَةُ ذَرَاهِمَ مَضْرُوبَةٍ غَيْرِ مَعْشُوشَةٍ، [وَالثَّانِي] هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ الْقَطْعُ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا.

وَإِنَّمَا نَاسَبَ فِي بَابِ السَّرِقَةِ أَنْ يَكُونَ الْقَدْرُ الَّذِي تُقَطَّعُ فِيهِ رُبْعُ دِينَارٍ، لِثَلَاثِ سَارِعِ النَّاسِ فِي سَرِقَةِ الْأَمْوَالِ، فَهَذَا هُوَ عَيْنُ الْحِكْمَةِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ مُجَازَاةً عَلَى صَنِيعِهِمَا السَّيِّئِ فِي أَخْذِهِمَا أَمْوَالَ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ، فَتَنَاسَبَ أَنْ يُقَطَّعَ مَا اسْتَعَانَا بِهِ فِي ذَلِكَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ، أَيُّ تَنْكِيلًا مِنَ اللَّهِ بِهِمَا عَلَى ارتِكَابِ ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيُّ فِي انْتِقَامِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيُّ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

[تَوْبَةُ السَّارِقِ مَقْبُولَةٌ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ مَنْ تَابَ بَعْدَ سَرِقَتِهِ وَأَتَابَ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ بِهَا الَّذِينَ سَرَقَتْهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ سَرَقَتْنَا. قَالَ قَوْمُهَا: فَتَحْنُ نَفْسَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْطَعُوا يَدَهَا» فَقَالُوا: نَحْنُ نَفْسَهَا بِحَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ، فَقَالَ: «افْطَعُوا يَدَهَا» فَقُطِعَتْ يَدُهَا الْيُمْنَى، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكَ كَيَوْمَ وَلَدْتِكِ أُمُّكِ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿فَمَنْ تَابَ

(١) أحمد: ١٧٧/٢ (٢) فتح الباري: ٦١٩/٧ ومسلم: ٣/

١٣١٥ (٣) مسلم: ١٣١٦/٣

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١١٥

سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلْسُّحْرِ إِن جَاءُوكَ  
فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ  
يَضُرُّكَ شَيْعًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ  
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤١﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُ اللَّهُ فِيهَا  
أَلَّا تَزِلَّ الْجَاذِبَةُ فِيهَا هُدًى وَتُزِيلُ أَهْلَ الْيَتِيمِ الَّذِينَ  
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّزِينَونَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ  
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ  
وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٢﴾

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا  
هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا الْيَتِيمُونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ  
هَادُوا وَالرَّزِينَونَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ  
اللَّهُ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ  
وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ  
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٣﴾ وَكُنَّا عَلَيْنَهُمْ  
فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ  
بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ  
فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ  
لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٤﴾

ذَلِكَ.

وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ،  
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنِيًّا، فَقَالَ  
لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ  
الرَّجْمِ؟» فَقَالُوا: نَفَضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ، إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ، فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ، فَأَتُوا  
بِالتَّوْرَةِ فَشَرَّوْهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ  
مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: اِرْفَعْ يَدَكَ،  
فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ  
الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ  
يَخْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَمِينَهَا الْحِجَارَةَ. أَخْرَجَاهُ، وَهَذَا لَفْظُ  
الْبُخَارِيِّ، وَفِي لَفْظٍ لَهُ: فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «مَا تَصْنَعُونَ بِهِمَا؟»  
قَالُوا: نُسَخِّمُ وَجُوهَهُمَا وَنُخْرِبُهُمَا، قَالَ: «فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ  
فَأَنُتَلُّوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [آل عمران: ٩٣] فَجَاءُوا  
فَقَالُوا لِرَجُلٍ مِنْهُمْ مِمَّنْ يَرِضُونَ أَعْوَرَ: اقْرَأْ، فَقَرَأَ حَتَّى

يَضُرُّوكَ شَيْعًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ  
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤١﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُ اللَّهُ فِيهَا هُدًى وَتُزِيلُ أَهْلَ الْيَتِيمِ  
الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّزِينَونَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ  
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ  
وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٢﴾

[التَّلْقِينُ بَعْدَ الْحُزْنِ عَلَى تَصَرُّفَاتِ الْيَهُودِ وَالْمَنَافِقِينَ]  
نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكُرِيمَاتُ فِي الْمُسَارَعِينَ فِي الْكُفْرِ،  
الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، الْمُقَدِّمِينَ آرَاءَهُمْ  
وَأَهْوَاءَهُمْ عَلَى شَرَائِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ «مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا  
بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ» أَيْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِالْسِتِّهِمْ،  
وَقُلُوبُهُمْ خَرَابٌ خَاوِيَةٌ مِنْهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَنَافِقُونَ «وَمِنْ  
الَّذِينَ هَادُوا» أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ، وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ  
«سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ» أَيْ مُسْتَجِيبُونَ لَهُ، مُتَعَمِّلُونَ عَنْهُ  
«سَمِعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ» أَيْ يَسْتَجِيبُونَ لِأَقْوَامٍ  
آخَرِينَ لَا يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّهُمْ  
يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ وَيُتَهَوَّنُونَ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ مِمَّنْ لَا يَحْضُرُ  
عِنْدَكَ مِنْ أَعْدَائِكَ.

[تَحْرِيفُ الْيَهُودِ وَمُحَاوَلَةُ انْحِرَافِهِمْ عَنِ الرَّجْمِ فِي قِصَّةِ  
الْيَهُودِيِّينَ]

«يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ» أَيْ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى  
غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَبْدُلُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَاعَقْلُوهُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ  
«يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا»  
قِيلَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ قَتَلُوا قَتِيلًا، وَقَالُوا: تَعَالَوْا  
حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنْ حَكَمَ بِالذِّبَّةِ فَاقْبَلُوهُ، وَإِنْ  
حَكَمَ بِالْقِصَاصِ فَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيِّينَ الَّذِينَ زَنَيَا، وَكَانُوا  
قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِرَجْمِ مَنْ  
أَخْصَنَ مِنْهُمْ، فَحَرَّفُوهُ وَاضْطَلَحُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ عَلَى الْجَلْدِ  
مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَالتَّحْمِيمِ وَالْإِرْكَابِ عَلَى حِمَارٍ مَقْلُوبِينَ، فَلَمَّا  
وَقَعَتْ تِلْكَ الْكَائِنَةُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ قَالُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ: تَعَالَوْا  
حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَيْهِ، فَإِنْ حَكَمَ بِالْجَلْدِ وَالتَّحْمِيمِ فَخُذُوا عَنْهُ،  
وَاجْعَلُوهُ حُجَّةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَيَكُونُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ  
قَدْ حَكَمَ بَيْنَكُمْ بِذَلِكَ، وَإِنْ حَكَمَ بِالرَّجْمِ فَلَا تَتَّبِعُوهُ فِي

﴿فَخُذُوهُ﴾ أَيِ إِقْبَلُوهُ، ﴿وَلَنْ لَّمْ تُوْتَوْهَ فَاحْذَرُوا﴾ أَيِ مِنْ قَبُولِهِ وَاتَّبَاعِهِ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٤١) سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَيِ الْبَاطِلِ ﴿أَكْثَلُونَ لِلشَّحِّ﴾ أَيِ الْحَرَامِ، وَهُوَ الرِّشْوَةُ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٤٢). أَيِ وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَيْفَ يَظْهَرُ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَأَنَّى يَسْتَجِيبَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ وَكَأَنَّ أَيِ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْكَ﴾ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا أَيِ فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَحْكَمْ بَيْنَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ يَتَحَاكَمُهُمْ إِلَيْكَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ، بَلْ مَا يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ، وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ يَمَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾ (٤٣). ﴿وَلَنْ حَكَمْتَ فَاحْكَمْ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أَيِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً خَارِجِينَ عَنْ طَرِيقِ الْعَدْلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

[دُمْ مَقَاصِدِ الْيَهُودِ الرَّائِغَةِ وَمَدْحُ كِتَابِهِمُ التَّوْرَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَمَقَاصِدِهِمُ الرَّائِغَةِ فِي تَرْكِهِمْ مَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ مِنْ الْكِتَابِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ، الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِالْمَسْكِ بِهِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ حُكْمِهِ، وَعَدَلُوا إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بُطْلَانَهُ وَعَدَمَ لُزُومِهِ لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿كَيْفَ يُحْكَمُ عَلَيْكُمْ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤) ثُمَّ مَدَحَ التَّوْرَةَ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، فَقَالَ: ﴿وَأَنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أَيِ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمِهَا وَلَا يُدِّلُونَهَا وَلَا يُحَرِّفُونَهَا ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْكِتَابِ﴾ أَيِ وَكَذَلِكَ الرَّاسِخُونَ مِنْهُمْ، وَهُمْ: الْعُلَمَاءُ الْعَبَادُ.

انْتَهَى إِلَى مَوْضِعٍ مِنْهَا، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ: اِرْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ، فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ تَلَوُّحٌ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ فِيهَا آيَةَ الرَّجْمِ، وَلَكِنَّا نَتَكَاتَمُ بَيْنَنَا، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا (١).

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَبَى يَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةً قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودٌ فَقَالَ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟» قَالُوا: نَسُودُ وُجُوهُهُمَا وَنُحْمَمُهُمَا، وَنُحْمِلُهُمَا وَنُخَالِفُ بَيْنَ وَجُوهِهِمَا وَيُطَافُ بِهِمَا. قَالَ: ﴿فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣] قَالَ: فَجَاءُوا بِهَا فَفَرَّعُوهَا، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِآيَةِ الرَّجْمِ، وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَ يَدَهُ، فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَهُمَا مِنَ الْحِجَابَةِ بِنَفْسِهِ (٢).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَتَى نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ فَدَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْقُفِّ، فَأَتَانَهُمْ فِي بَيْتِ الْمِدْرَاسِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ رَجُلًا مِمَّنَّا زَنَى بِامْرَأَةٍ فَاحْكَمْ. قَالَ: وَوَضَعُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «اثْنُونِي بِالتَّوْرَةِ» فَأَتَى بِهَا، فَتَرَعَ الْوَسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ وَوَضَعَ التَّوْرَةَ عَلَيْهَا، وَقَالَ: «أَمَنْتُ بِكَ وَبِمَنْ أُنْزِلَ» ثُمَّ قَالَ: «اثْنُونِي بِأَعْلَمِكُمْ» فَأَتَى بِفَتَى شَابٍّ... ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ الرَّجْمِ نَحْوَ حَدِيثِ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ (٣).

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَكَمَ بِمُوافَقَةِ حُكْمِ التَّوْرَةِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِكْرَامِ لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ، لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِ الشَّرْعِ الْمُحَمَّدِيِّ لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنْ هَذَا بِوَحْيٍ خَاصٍّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَسُؤَالُهُ إِيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ: لِيَقَرَّرَهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ - مِمَّا تَوَاطَوْا عَلَى كِتْمَانِهِ وَجَحْدِهِ وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ تِلْكَ الدَّهْوَرِ الطَّوِيلَةِ - فَلَمَّا اغْتَرَفُوا بِهِ، مَعَ عَمَلِهِمْ عَلَى خِلَافِهِ: بِأَنَّ زَيْعَهُمْ وَعِنَادَهُمْ وَتَكْذِيبَهُمْ - لِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ - مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ... (\*)

وَعَدُولُهُمْ إِلَى تَحْكِيمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا كَانَ عَنْ هَوَى مِنْهُمْ، وَشَهْوَةِ لِمُوافَقَةِ آرَائِهِمْ لَا لِإِعْقَادِهِمْ صِحَّةَ مَا يُحْكَمُ بِهِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ أَيِ: الْجَلْدَ وَالتَّحْمِيمَ

(١) الموطأ: ٨١٩/٢ (٢) مسلم: ١٣٢٦/٣ (٣) أبو داود: ٥٩٧/٤ (\*) الظاهر أن جواب "لما" غير مذكور، أي لما

اعترفوا بذلك كله وقعت عليهم الحجة. ووقع في بعض النسخ مع علمهم أي وقع التقرير عليهم لعلمهم بهذا كله. والله أعلم (٤) الطبري: ٣١٩/١٠ (٥) الطبري: ٣٣٠-٣٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٦

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
التَّوْرَةِ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ  
يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ  
أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ  
اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ  
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا  
عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ  
عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا  
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا  
آتَاكُمْ فَاسْتَمِيقُوا ۖ الْخَيْرَاتُ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا  
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا  
أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنِ  
بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم  
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۚ وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ  
الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ إِنَّمَا أُنزِلَتْ فِي الدِّيَةِ فِي بَنِي النَّصِيرِ وَبَنِي  
قُرَيْظَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ قَتْلَى بَنِي النَّصِيرِ كَانَ لَهُمْ شَرَفٌ، تُؤَدَّى لَهُمْ  
الدِّيَةُ كَامِلَةً، وَأَنَّ قُرَيْظَةَ كَانُوا يُؤَدَّى لَهُمْ نِصْفُ الدِّيَةِ،  
فَتَحَاكُمُوا فِي ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيهِمْ،  
فَحَمَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْحَقِّ فِي ذَلِكَ، فَجَعَلَ الدِّيَةَ فِي  
ذَلِكَ سَوَاءً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ (٣). وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو  
دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ إِسْحَاقَ بِنَحْوِهِ (٤).

وَقَدْ رَوَى الْعَوْفِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْوَالِئِيُّ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيِّينَ اللَّذِينَ رَزَّيْنَا،  
كَمَا تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ، وَقَدْ يَكُونُ اجْتِمَاعُ هَذَانِ  
السَّبَبَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ،  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ  
النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَهَذَا يَقْوَى

وَالْأَخْبَارُ وَهُمْ: الْعُلَمَاءُ ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أَيُّ  
بِمَا اسْتَوْدَعُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يُظْهِرُوهُ  
وَيَعْمَلُوا بِهِ ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ  
وَإَخْشَوُا﴾ أَيُّ لَا تَخَافُوا مِنْهُمْ وَخَافُوا مِنِّي ﴿وَلَا تَشْكُرُوا  
بِيَائِي مَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ  
الْكَافِرُونَ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ سَيَأْتِي بَيَانُهُمَا.

سَبَبٌ آخَرُ فِي نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَنزَلَ:  
﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾  
﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ: أُنزِلَتْهَا اللَّهُ فِي الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ، وَكَانَتْ  
إِحْدَاهُمَا قَدْ قَهَرَتْ الْأُخْرَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى ارْتَضَوْا  
وَاصْطَلَحُوا عَلَى أَنْ كُلُّ قَبِيلٍ قَتَلَتْهُ الْعَزِيزَةُ مِنَ الدَّلِيلَةِ فِدْيَتُهُ  
خَمْسُونَ وَسَقًا، وَكُلُّ قَبِيلٍ قَتَلَتْهُ الدَّلِيلَةُ مِنَ الْعَزِيزَةِ فِدْيَتُهُ  
مِائَةٌ وَسَقًا، فَكَانُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ [فَذَلَّتْ  
الطَّائِفَتَانِ كِلَاهُمَا لِمَقْدَمِ رَسُولِ ﷺ وَيَوْمَئِذٍ لَمْ يَظْهَرْ، وَلَمْ  
يُوطِئْهُمَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصُّلْحِ] فَتَقَلَّتِ الدَّلِيلَةُ مِنَ الْعَزِيزَةِ  
قَتِيلًا، فَأَرْسَلَتْ الْعَزِيزَةُ إِلَى الدَّلِيلَةِ أَنْ ابْعَثُوا لَنَا بِمِائَةِ  
وَسَقًا، فَقَالَتِ الدَّلِيلَةُ: وَهَلْ كَانَ هَذَا فِي حَيِّينَ قَطُّ دَيْنُهُمَا  
وَاحِدٌ، وَسَبْهُمَا وَاحِدٌ، وَبَلَدُهُمَا وَاحِدٌ: دِيَّةُ بَعْضِهِمْ  
نِصْفُ دِيَّةِ بَعْضٍ، إِنَّمَا أَغْطَيْنَاكُمْ هَذَا ضَمِيمًا مِنْكُمْ لَنَا،  
وَفَرَقًا مِنْكُمْ، فَأَمَّا إِذْ قَدِمَ مُحَمَّدٌ فَلَا نُعْطِيكُمْ ذَلِكَ، فَكَادَتْ  
الْحَرْبُ تَهْبِجُ بَيْنَهُمَا ثُمَّ ارْتَضَوْا عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَتِ الْعَزِيزَةُ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا مُحَمَّدٌ  
بِمُعْطِيكُمْ مِنْهُمْ ضَعْفٌ مَا يُعْطِيهِمْ مِنْكُمْ، وَلَقَدْ صَدَقُوا، مَا  
أَعْطَوْنَا هَذَا إِلَّا ضَمِيمًا مِنَّا وَفَهَرًا لَهُمْ، فَدُسُوا إِلَى مُحَمَّدٍ  
مَنْ يُخْبِرُكُمْ رَأْيَهُ، إِنْ أَعْطَاكُمْ مَا تُرِيدُونَ حَكَمْتُمُوهُ، وَإِنْ  
لَمْ يُعْطِكُمْ حَذَرْتُمْ فَلَمْ تَحْكُمُوهُ. فَدُسُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
نَاسًا مِنَ الْمُتَافِقِينَ لِيُخْبِرُوا لَهُمْ رَأْيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا  
جَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَخْبَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَمْرِهِمْ كُلِّهِ  
وَمَا أَرَادُوا، فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا مَحْزَنَ  
لَكَ فِي الْكُفْرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ فَبَيْنَهُمْ  
وَاللَّهُ أَنزَلَ، وَإِيَّاهُمْ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١). وَرَوَاهُ أَبُو  
دَاوُدَ بِنَحْوِهِ (٢).

وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الْآيَاتِ  
الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ قَوْلُهُ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إِلَى

(١) أحمد: ٢٤٦/١ (٢) أبو داود: ٧/٤ (٣) الطبري: ١٠

٣٢٦ (٤) أحمد: ٣٦٣/١ وأبو داود: ١٦/٤ والنسائي: ١٩/٨

الظَّالِمُونَ ﴿لَا تَنفَعُهُمْ لَمْ يُنصِفُوا الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالنِّسْوَةِ بَيْنَ الْجَمِيعِ فِيهِ، فَخَالَفُوا وَظَلَمُوا وَعَدَّوْا﴾<sup>(٧)</sup> عَلَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

### [يُقْتَلُ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ]

وَقَدْ حَكَى الْإِمَامُ أَبُو نَصْرِ بْنِ الصَّبَّاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الشَّامِلِ». إِجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ، عَلَى الْاِخْتِجَاجِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَقَدْ اِحتَجَّ الْأَيْمَةُ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَكَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ فِي كِتَابِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ: «أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ»<sup>(٨)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَائُهُمْ»<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.

وَيُؤَيِّدُ مَا قَالَهُ ابْنُ الصَّبَّاحِ مِنَ الْاِخْتِجَاجِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْحَدِيثُ الثَّانِي فِي ذَلِكَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ الرُّبَيْعَ عَمَّةَ أَنَسٍ، كَسَرَتْ نَيْتَهُ جَارِيَةً، فَطَلَبُوا إِلَى الْقَوْمِ الْعُقُوفَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «الْقِصَاصُ»، فَقَالَ أَخُوهَا أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تُكْسِرُ نَيْتَهُ فُلَانَةٌ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ، كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ» قَالَ: فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسِرُ نَيْتَهُ فُلَانَةٌ؟! قَالَ: فَرَضِي الْقَوْمَ فَعَفَوْا، وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»<sup>(١٠)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١١)</sup>.

### [قِصَاصُ الْجُرُوحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تُقْتَلُ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَتُقَطَّعُ الْعَيْنُ بِالْعَيْنِ، وَيُقَطَّعُ الْأَنْفُ بِالْأَنْفِ، وَتُنَزَّعُ السِّنُّ بِالسِّنِّ، وَتُقْتَصَّرُ الْجِرَاحُ بِالْجِرَاحِ<sup>(١٢)</sup>. فَهَذَا يَسْتَوِي فِيهِ أَخْرَافُ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ رِجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ، إِذَا كَانَ عَمْدًا، فِي النَّفْسِ وَمَا دُونَ النَّفْسِ، وَيَسْتَوِي فِيهِ الْعَبِيدُ رِجَالُهُمْ

أَنَّ سَبَبَ النُّزُولِ قِصَّةُ الْقِصَاصِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَحَدَّثَنِي بَنُو الْيَمَانِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو مِجْلَزٍ وَأَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ وَعِكْرَمَةُ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ<sup>(١)</sup>. زَادَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَهِيَ عَلَيْنَا وَاجِبَةٌ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَضِيَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأَمَةِ بِهَا. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: مَنْ جَحَدَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَقْرَبَ بِهِ وَلَمْ يَحْكَمْ بِهِ فَهُوَ ظَالِمٌ فَاسِقٌ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ [ابْنِ] طَاوُسٍ، قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ﴾... الْآيَةِ، قَالَ: هِيَ بِهَ كُفْرٍ.

قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ: وَلَيْسَ كَمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ: كَفَرُ دُونَ كُفْرٍ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ، وَفُسْقٌ دُونَ فُسْقٍ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ وَكِيعٌ عَنْ سَعِيدِ الْمَكِّيِّ، عَنْ طَاوُسٍ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ: لَيْسَ بِكَفَرٍ يُقْتَلُ عَنِ الْمِلَّةِ<sup>(٦)</sup>.

﴿وَكُنِينَا عَلَيْهِمْ فِيمَا أَنْزَلَ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّفَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(٦٥)</sup>

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا وَبَحَثَ بِهِ الْيَهُودُ وَفَرَعُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ فِي نَصِّ التَّوْرَةِ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَهُمْ يُخَالِفُونَ حُكْمَ ذَلِكَ عَمْدًا وَعِنَادًا، وَيُقِيدُونَ النَّصْرِيَّ مِنَ الْفَرَطِيِّ، وَلَا يُقِيدُونَ الْفَرَطِيَّ مِنَ النَّصْرِيِّ، بَلْ يَعْدِلُونَ إِلَى الدِّيَةِ، كَمَا خَالَفُوا حُكْمَ التَّوْرَةِ الْمَنْصُوصَ عِنْدَهُمْ فِي رَجْمِ الزَّانِي الْمُخْصَنِّ، وَعَدَلُوا إِلَى مَا اضْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْجُلْدِ وَالتَّحْيِيمِ وَالْإِشْهَارِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ جَحَدُوا حُكْمَ اللَّهِ قَضَا مِنْهُمْ وَعِنَادًا وَعَمْدًا، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) الطبري: ٣٥٧-٣٤٧/١٠ (٢) الطبري: ٣٥٧/١٠ (٣)

الطبري: ٣٥٦/١٠ (٤) الطبري: ٥٩٧/٤ (٥) عبد الرزاق:

١٩١/١ والطبري: ٥٩٥/٤ (٦) الطبري: ٣٥٥/١٠ (٧) كذا

في الأصل والوجه أن يقال: وتعدى بعضهم على بعض. (٨)

النسائي: ٥٨/٨ (٩) ابن ماجه: ٨٩٥/٢ (١٠) أحمد: ٣/

١٦٧ (١١) فتح الباري: ١٢٤/٨ ومسلم: ١٣٠٢/٣ (١٢)

الطبري: ٣٦٠/١٠

مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ  
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

### [ذِكْرُ عِيسَى وَمَذْهَبِ الْإِنجِيلِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أُنْبَغْنَا ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ بِعَنِي  
أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
التَّورَةِ﴾ أي مُؤْمِنًا بِهَا حَاسِمًا بِمَا فِيهَا ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ  
هُدًى وَنُورٌ﴾ أي هُدًى إِلَى الْحَقِّ وَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِزَالَةِ  
الشُّبُهَاتِ وَحُلِّ الْمُسْكِلاتِ ﴿وَمَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
التَّورَةِ﴾ أي مُتَّبِعًا لَهَا غَيْرَ مُخَالِفٍ لِمَا فِيهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ  
مِمَّا بَيْنَ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضُ مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ:  
﴿وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]  
وَلِهَذَا كَانَ الْمَشْهُورُ مِنْ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْإِنجِيلَ  
نَسَخَ بَعْضَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً  
لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وَجَعَلْنَا الْإِنجِيلَ ﴿هُدًى﴾ يُهْتَدَى بِهِ  
﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أي زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ  
﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَ وَعِيدَهُ وَعِقَابَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾  
فُرِيَءَ (وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ) بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَا مُ  
كُنِي، أَيْ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ لِيَحْكُمَ أَهْلَ مِلَّةِهِ بِهِ فِي زَمَانِهِمْ،  
وَفُرِيَءَ ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بِالْجَزْمِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَا مُ الْأَمْرِ، أَيْ  
لِيُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا فِيهِ، وَلِيُقِيمُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فِيهِ، وَمِمَّا  
فِيهِ الْبَشَارَةُ بِعِثَةِ مُحَمَّدٍ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ وَتَصْدِيقِهِ إِذَا  
وُجِدَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ  
حَتَّىٰ تَقِيمُوا التَّورَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾...  
الآيَةُ [المائدة: ٦٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ  
الَّذِي الْأُمِّيُّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ﴾  
إِلَى قَوْلِهِ ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وَلِهَذَا قَالَ  
هَهُنَا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾  
أَيِ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، الْمَائِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ،  
التَّارِكُونَ لِلْحَقِّ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي  
النَّصَارَى. وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ السِّيَاقِ.

وَيَسْأَلُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، إِذَا كَانَ عَمَدًا فِي النَّفْسِ وَمَا دُونَ  
النَّفْسِ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.  
قَاعِدَةُ مُهِمَّةٌ

لَا يَجُوزُ أَنْ يُقْتَصَرَ مِنَ الْجَرَاحَةِ حَتَّى تَنْدَمِلَ جَرَاحَةُ  
الْمَجْنُونِ عَلَيْهِ، فَإِنْ اقْتَصَرَ مِنْهُ قَبْلَ الْإِنْدِمَالِ ثُمَّ زَادَ جُرْحُهُ،  
فَلَا شَيْءَ لَهُ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ  
عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلًا طَعَنَ رَجُلًا  
بِقَرْنٍ فِي رُكْبَتِهِ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَقِذْنِي، فَقَالَ:  
«حَتَّى تَبْرَأَ»، ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَقِذْنِي، فَأَقَادَهُ فَقَالَ: يَا  
رَسُولَ اللَّهِ، عَرِجْتُ، فَقَالَ: «قَدْ نَهَيْتُكَ فَعَصَيْتَنِي، فَأَبْعَدَكَ  
اللَّهُ وَبَطَلَ عَرَجُكَ» ثُمَّ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقْتَصَرَ مِنْ  
جُرْحٍ حَتَّى يَبْرَأَ صَاحِبُهُ<sup>(١)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

(مُسْأَلَةٌ) فَلَوْ اقْتَصَرَ الْمَجْنُونُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَانِي فَمَاتَ مِنَ  
الْقِصَاصِ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ مِنَ  
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ.

### [الْعَفْوُ كَفَّارَةٌ لِلذُّنُوبِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾  
قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ  
بِهِ﴾ يَقُولُ: فَمَنْ عَفَا وَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْمَطْلُوبِ  
وَأَجْرٌ لِلطَّالِبِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ  
السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ  
فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْجَارِحِ. وَأَجْرُ الْمَجْرُوحِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٣)</sup>.  
رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ  
تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قَالَ: لِلْمَجْرُوحِ، وَرَوَى  
عَنِ الْحَسَنِ الْبُسْرِيِّ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ وَأَبِي  
إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيَّ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قَالَ: سَمِعْتُ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُجْرَحُ مِنْ جَسَدِهِ  
جَرَاحَةٌ فَيَتَصَدَّقُ بِهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ مِثْلَ مَا تَصَدَّقَ بِهِ»<sup>(٤)</sup>  
وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الظَّالِمُونَ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ عَنْ طَاوُسٍ وَعَطَاءٍ أَنَّهُمَا قَالَا: كُفِّرَ  
دُونَ كُفْرِ، وَظَلَمَ دُونَ ظُلْمٍ، وَفَسَقَ دُونَ فِسْقٍ.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
التَّورَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

(١) أحمد: ٢١٧/٢ (٢) الطبري: ٣٦٧/١٠ (٣) الطبري:

٣٢٦/١٠ (٤) أحمد: ٣١٦/٥ (٥) النسائي في الكبرى: ٦/

٣٣٥ والطبري: ٣٦٤/١٠

وَعَنِ الْوَالِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أَيُّ شَهِيدًا<sup>(٤)</sup>.  
وَكَذًا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أَيُّ حَاكِمًا  
عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ<sup>(٥)</sup>.

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ الْمَعْنَى، فَإِنَّ اسْمَ الْمُهَيِّمِ  
يَتَضَمَّنُ هَذَا كُلَّهُ، فَهُوَ أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ  
قَبْلَهُ، جَعَلَ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ: آخِرَ  
الْكُتُبِ وَخَاتِمَهَا وَأَسْمَلَهَا وَأَعْظَمَهَا وَأَكْمَلَهَا، حَيْثُ جَمَعَ  
فِيهِ مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ، مَا لَيْسَ فِي  
غَيْرِهِ، فَلِهَذَا جَعَلَهُ شَاهِدًا وَأَمِينًا وَحَاكِمًا عَلَيْهَا كُلِّهَا،  
وَتَكْفُلُ تَعَالَى بِحِفْظِهِ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا  
نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أَيُّ  
فَأَحْكُمْ يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ النَّاسِ، عَرَبِهِمْ وَعَجَبِهِمْ، أُمَمِهِمْ  
وَكِتَابِهِمْ، بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ،  
وَبِمَا قَوَّرَهُ لَكَ مِنْ حُكْمٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ  
يَنْسَخْهُ فِي شَرَعِكَ<sup>(٦)</sup>. هَكَذَا وَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِمَعْنَاهُ، رَوَى  
ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُخَيَّرًا  
إِنْ شَاءَ حَكَمَ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ فَزَادَهُمْ إِلَى  
أَحْكَامِهِمْ، فَتَزَلَّتْ ﴿وَأِنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ  
أَهْوَاءَهُمْ﴾ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا فِي  
كِتَابِنَا<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيُّ أَرَائِهِمْ الَّتِي اضْطَلَحُوا  
عَلَيْهَا، وَتَرَكُوا يَسْبِيهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أَيُّ لَا  
تَنْصَرِفَ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ إِلَى أَهْوَاءِ هَؤُلَاءِ  
الْجَهْلَةِ الْأَشْقِيَاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً  
وَمِنْهَا جَا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا  
مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾ [المائدة: ٤٨] قَالَ: سَبِيلًا<sup>(٨)</sup> وَعَنْهُ: سَبِيلًا  
وَسُنَّةً.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وَهَذَا خِطَابٌ

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا  
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً  
وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي  
مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا  
فِيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وَأِنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُولُوا عَنْ بَعْضِ مَا  
أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ  
ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أَفَحُكْمُ الْجَهْلِيَّةِ  
يَتَوَلَّوْنَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

[مَدْحُ الْقُرْآنِ وَوصْفُهُ وَالْأَمْرُ بِالْحُكْمِ بِهِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى التَّوْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى مُوسَى كَلِيمِهِ،  
وَمَدَحَهَا وَأَثْنَى عَلَيْهَا، وَأَمَرَ بِاتِّبَاعِهَا حَيْثُ كَانَتْ سَائِغَةً  
الِاتِّبَاعِ، وَذَكَرَ الْإِنْجِيلَ وَمَدَحَهُ وَأَمَرَ أَهْلَهُ بِإِقَامَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَا  
فِيهِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ  
عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ  
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ بِالصِّدْقِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ  
اللَّهِ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أَيُّ مِنْ الْكِتَابِ  
الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدَحَهُ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَانَ نَزْوُهُ كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ،  
مِمَّا زَادَهَا صِدْقًا عِنْدَ حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ الَّذِينَ  
انْقَادُوا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَاتَّبَعُوا شَرَائِعَ اللَّهِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ  
قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا  
إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أَيُّ إِنْ كَانَ  
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ مَجِيءِ مُحَمَّدٍ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أَيُّ لَكَائِنَا لَا مَحَالَةَ وَلَا بُدَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ  
وغيره، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ التَّيْمِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:  
أَيُّ مُؤَمِّمًا عَلَيْهِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ: الْمُؤَمِّمُ الْأَمِينُ، قَالَ: الْقُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى كُلِّ  
كِتَابٍ قَبْلَهُ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ  
وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَعَطِيَّةَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَعَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيَّ  
وَالسُّدِّيَّ وَابْنَ زَيْدٍ نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الْقُرْآنُ  
أَمِينٌ عَلَى الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَبْلَهُ، فَمَا وَافَقَهُ مِنْهَا فَهُوَ حَقٌّ،  
وَمَا خَالَفَهُ مِنْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ.

(١) الطبري: ٣٧٨/١٠ (٢) الطبري: ٣٧٩/١٠ (٣) الطبري:

٣٧٧-٣٨٠ (٤) الطبري: ٣٧٧/١٠ (٥) الطبري: ١٠/

٣٧٩ (٦) الطبري: ٣٨٢/١٠ (٧) الطبري: ٣٣٢/١٠ (٨)

الطبري: ٣٨٧/١٠ إسناده ضعيف فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس ولم يصرح.

أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِضُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾... الآية [الأنعام: ١١٦].

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ وَابْنُ صَلُوبَا وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ صُورِيَا وَشَأْسُ بْنُ قَيْسٍ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَفْتِنَهُ عَنْ دِينِهِ، فَأَنُوهَ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّا أَحْبَابُ يَهُودَ، وَأَشْرَافُهُمْ، وَسَادَاتُهُمْ، وَإِنَّا إِنِ اتَّبَعْنَاكَ اتَّبَعْنَا يَهُودَ وَلَمْ يُخَالِفُونَا، وَإِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا خُصُومَةٌ، فَنَحَاكُمُهُمْ إِلَيْكَ، فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ، وَتُؤْمِنُ لَكَ وَنُصَدِّقُكَ، فَأَبَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ: ﴿وَأَن آخِذَكُمْ يَتَّبِعُهُمُ بَآئِرُ اللَّهِ وَلَا تُفْلِحُ عَنْهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَقَوْمٍ يُفْقِنُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لَقَوْمٍ يُفْقِنُونَ﴾ يُكَيِّرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ، وَعَدِلَ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ، بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الصَّلَاحَاتِ وَالْجَهَالَاتِ، مِمَّا يَضَعُونَهَا بَارَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ النَّاسُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمُلْكِيَّةِ الْمَأْخُودَةِ عَنْ مِلْكِهِمْ جَنْكِيْزُ خَانَ الَّذِي وَضَعَ لَهُمْ «الْيَسَاقَ»، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدْ افْتَبَسَهَا مِنْ شَرَائِعِ شَيْءٍ: مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ، فَصَارَتْ فِي بَيْنِهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا يُقَدِّمُونَهُ عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. فَلَا يُحْكَمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أَيِ يَسْتَعُونَ وَيُرِيدُونَ، وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ؟ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لَقَوْمٍ يُفْقِنُونَ﴾؟ أَيِ وَمَنْ أَعْدَلَ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ، وَأَمَّنَ بِهِ، وَأَيَقِنَ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَحْكَمُ

لِجَمِيعِ الْأُمَمِ، وَإِخْبَارٌ عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْعَظِيمَةِ، الَّتِي لَوْ شَاءَ لَجَمَعَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَشَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يُنْسَخُ شَيْءٌ مِنْهَا، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِكُلِّ رَسُولٍ شَرِيعَةً عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ نَسَخَهَا أَوْ بَعْضَهَا بِرِسَالَةِ الْآخِرِ الَّذِي بَعْدَهُ، حَتَّى نَسَخَ الْجَمِيعَ بِمَا بَعَثَ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، الَّذِي ابْتَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً، وَجَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَسِّرْكُمْ فِي مَآءَاتِكُمْ﴾ أَيِ أَنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ الشَّرَائِعَ مُخْتَلِفَةً لِيَخْتَبِرَ عِبَادَهُ فِيهَا شَرَعَ لَهُمْ، وَيُنَبِّهَهُمْ أَوْ يَعَاقِبَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ بِمَا فَعَلُوهُ أَوْ عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ: ﴿فِي مَآءَاتِكُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ الْكِتَابِ.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَذَّبَهُمْ إِلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَاتِّبَاعُ شَرْعِهِ الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ، وَالتَّصَدِيقُ بِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ آخِرُ كِتَابٍ أَنزَلَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيِ مَعَادُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَمَصِيرُكُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أَيِ فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِدِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ الْعَادِلِينَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، بَلْ هُمْ مُعَانِدُونَ لِلْبُرَاهِينِ الْفَاطِعَةِ، وَالْحُجَجِ الْبَالِغَةِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّامِغَةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يَعْنِي أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْأَوَّلَ أَظْهَرَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَن آخِذَكُمْ يَتَّبِعُهُمُ بَآئِرُ اللَّهِ وَلَا تُفْلِحُ عَنْهُمْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ وَالنَّهْيِ عَنْ خِلَافِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَيِ وَاحْذَرُوا أَعْدَاءَكُمْ الْيَهُودَ أَنْ يُدْلِسُوا عَلَيْكَ الْحَقَّ فِيمَا يُنْهَوْنَ إِلَيْكَ مِنْ أُمُورٍ، فَلَا تَقْتَرِ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَذَبَتْ كَفَرَةٌ خَوْنَةٌ ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أَيِ عَمَّا تَحْكُمُ بِهِ بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، وَخَالَفُوا شَرْعَ اللَّهِ ﴿فَاعَلَمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أَيِ فَاغْلَمْنَا أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ وَحُكْمَتِهِ فِيهِمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الْهُدَى، لِمَا لَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ الَّتِي افْتَضَتْ إِضْلَالَهُمْ وَنَكَالَهُمْ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أَيِ إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ نَاكِبُونَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا

(١) الطبري: ٣٩٣/١٠ فيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت لا يعرف



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ يَآسِرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِيَّاهُمْ كَحِبَّتِ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فُسُوفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أُولَٰئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَا يَمُرُّ بِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ ﴿٥٤﴾ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْعِلَابُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلِعِبَائِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

يَقَعُ أَمْرٌ مِنَ ظَهْرِ الْكَافِرِينَ بِالْمُسْلِمِينَ، فَتَكُونُ لَهُمْ أَيْدٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي فَتْحَ مَكَّةَ (٥). ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾. قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي ضَرْبَ الْجَزْيَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿فَيُصِيبُهُمْ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ وَالُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنَ الْمَوَالَةِ ﴿تَدْمِيمٌ﴾ أَيِ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِمَّا لَمْ يُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْذُورًا، بَلْ كَانَ عَيْنَ الْمَفْسِدَةِ، فَإِنَّهُمْ فُضِّحُوا، وَأَظْهَرَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَسْئُورِينَ - لَا يُدْرَى كَيْفَ حَالُهُمْ - فَلَمَّا انْعَقَدَتِ الْأَسْبَابُ الْفَاضِحَةُ لَهُمْ تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ. فَتَعَجَّبُوا مِنْهُمْ كَيْفَ كَانُوا يُظْهِرُونَ أَنََّّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُونَ، فَبَانَ

الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا؟ فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ يَتَّبِعِي فِي الْإِسْلَامِ شَنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَطَالِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُرِيَقَ دَمَهُ» (١). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الْيَمَانِ بِإِسْنَادِهِ نَحْوَهُ بِزِيَادَةٍ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ يَآسِرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِيَّاهُمْ كَحِبَّتِ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ ﴿٥٣﴾

[الَّتِي عَنْ مَوَالَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَام] يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مَوَالَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ - فَاتْلَهُمُ اللَّهُ - ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ ... الآية. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَنَّ عُمَرَ أَمَرَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أُعْطِيَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ لَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ ذَلِكَ، فَعَجِبَ عُمَرُ وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَحَفِيفٌ، هَلْ أَنْتَ قَارِئٌ لَنَا كِتَابًا فِي الْمَسْجِدِ جَاءَ مِنَ الشَّامِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَجُنُبٌ هُوَ؟ قَالَ: لَا بَلْ نَصْرَانِيٌّ. قَالَ: فَانْتَهَرْنِي وَضَرَبَ فَخِذِي، ثُمَّ قَالَ: أَخْرِجُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ ... الآية (٣). ثُمَّ رَوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْبَةَ: لَيْسَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. قَالَ: فَظَنَّنَاهُ يُرِيدُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ ... الآية (٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَيِ شَكٌّ وَرَيْبٌ وَتَفَاقٌ، يُسَارِعُونَ فِيهِمْ، أَيِ يَبَادِرُونَ إِلَى مَوَالَاتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، ﴿يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أَيِ يَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَمَوَالَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يَحْشَوْنَ أَنْ

(١) الطبراني: ٣٧٤/١٠ (٢) فتح الباري: ٢١٩/١٢ (٣) الدر المنثور: ١٠٠/٣ (٤) ابن أبي حاتم: ١١٥٦/٤ (٥) الطبري: ٤٥٥/١٠

ءَامَنُوا فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ فَاغْلِبُونَ ﴿٥٤﴾

[مِنْ صِفَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّى عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَبْدِلُ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ، وَأَشَدُّ مَنَعَةً، وَأَقْوَمَ سَبِيلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ أَنْ يُخْرِجُوا إِلَى اللَّهِ فَرَادَىٰ لَهُمْ أَنَّ الْقَوْمَ يَكُونُوا لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]. أَيْ يُمْتَنِعُ وَلَا صَعْبَ. وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا بَلَاءًا بَلَاءً وَمَا تَحْصُرُ مِنْهُمُ النَّفْسُ لِيُذِيقَهُم مَّا وَعَدُوا رَبَّهُمْ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]. وَهَذَا خِطَابٌ عَامٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَذَلُّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ آدَارَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْكَمَلِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ وَلَوْلَاهُ، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وَفِي صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ الضُّحُوكُ الْقَتَالُ. فَهُوَ ضُحُوكٌ لِأَوْلِيَائِهِ، قَتَالٌ لِأَعْدَائِهِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أَيْ لَا يُرَدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا يُرَدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ صَادٌّ، وَلَا يَحِيكُ فِيهِمْ لَوْمٌ لَائِمٌ، وَلَا عَذْلٌ عَادِلٌ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ: أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالذُّنُوفِ مِنْهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّجَمَ وَإِنْ أَذْبَرْتُ، وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكْثَرَ مِنْ قَوْلٍ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهُمْ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ<sup>(٢)</sup>.

وَبَتَّ فِي الصَّحِيحِ: «مَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَتَحَمَّلُ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يُطِيقُ»<sup>(٣)</sup>. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ

كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُولِ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

### [سَبَبُ النُّزُولِ]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَكَانَتْ أَوَّلَ قَبِيلَةٍ مِنَ الْيَهُودِ تَقَضَّتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَنُو قَيْنِقَاعَ، فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سُلُوكٍ حِينَ أَمَكَنَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنَ فِي مَوَالِيٍّ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنَ فِي مَوَالِيٍّ، قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ. قَالَ: فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دُرْعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُرْسِلْنِي» وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى رَأَوْا لَوَجْهَهُ ظَلَلًا، ثُمَّ قَالَ: «وَيَحْكُ أُرْسِلْنِي» قَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِيٍّ: أَرْبَعِمِائَةِ حَاسِرٍ، وَثَلَاثِمِائَةِ ذَارِعٍ، قَدْ مَنَعُونِي مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ؟ إِنِّي أَمْرُو أَخْشَى الدَّوَابِّ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمْ لَكَ».

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ يَسَارٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: لَمَّا حَارَبَتْ بَنُو قَيْنِقَاعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، تَشَبَّهَ بِأَمْرِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، وَقَامَ دُونَهُمْ، وَمَشَى عُبَادَةَ بْنُ الصَّامِتِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَحَدُ بَنِي عَوْفٍ بْنِ الْخَزْرَجِ، لَهُ مِنْ حِلْفِهِمْ مِثْلُ الَّذِي لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أُبَيٍّ، [فَحَلَعَهُمْ] إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبَرَّأَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ حِلْفِهِمْ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ مِنْ حِلْفِهِمْ، وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَبْرَأُ مِنْ حِلْفِ الْكُفَّارِ، وَوَلَايَتِهِمْ، فَفِيهِ وَفِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أُبَيٍّ نَزَلَتْ الْآيَاتُ فِي الْمَائِدَةِ ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْجِدُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى قَوْلِهِ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾<sup>(٢)</sup> إِنَّمَا وَلَكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رُكْعُونَ<sup>(٣)</sup> وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ

(١) ابن هشام: ٥٢/٣ (٢) أحمد: ١٥٩/٥ (٣) أحمد: ٥/

٤٠٥ وتحفة الأحمدي: ٥٣١/٦ وابن ماجه: ١٣٣٢/٢

وَاِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا نَيْبُهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْأَثَرُ أَكْثِلَهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعِنُوا بِمَا قَالُوا لَئِنْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقْ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيزِيدَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَّةَ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

يَقُولُونَ ﴿٥٨﴾

[الْأَنْهَى عَنْ مَوَالَاةِ الْكُفَّارِ]

هَذَا تَفْصِيلٌ مِنْ مَوَالَاةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنَ الْكُتَّابِيِّينَ وَالْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَفْضَلَ مَا يَعْمَلُهُ الْعَالَمُونَ، وَهِيَ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُحْكَمَةِ، الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ دُنْيَوِيٍّ وَأُخْرَوِيٍّ، يَتَّخِذُونَهَا هُزُوعًا يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، وَلَعِبًا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ اللَّعِبِ فِي نَظَرِهِمُ الْفَاسِدِ، وَفِكْرِهِمُ الْبَارِدِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ﴾ مِنْ هَهُنَا لِيَبَانَ الْجَنَسُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (وَالْكَفَّارُ) بِالْخَفْضِ عَطْفًا، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَعْمُودٌ ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تَقْدِيرُهُ: «وَلَا الْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ» أَيُّ لَا تَتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءَ. وَالْمُرَادُ بِالْكَفَّارِ هَهُنَا الْمُشْرِكُونَ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ: (لَا تَتَّخِذُوا

مَنْ انْصَفَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَتَوْفِيقِهِ لَهُ ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ وَاسِعَ الْفَضْلُ، عَلَيْهِمْ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِمَّنْ يَحْرِمُهُ إِيَّاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيُّ لَيْسَ الْيَهُودُ بِأَوْلِيَاءِكُمْ، بَلْ وَلَا يَتَّخِذُكُمْ رَاجِعَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أَيُّ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّصِفُونَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ: عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِتْيَاءُ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ وَمُسَاعَدَةُ لِلْمُحْتَاجِينَ وَالْمَسَاكِينِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فَقَدْ نَوَّهَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أَيُّ فِي حَالِ رُكُوعِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا كَذَلِكَ، لَكَانَ دَفْعُ الزَّكَاةِ فِي حَالِ الرُّكُوعِ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ مَمْدُوحٌ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِمَّنْ نَعْلَمُهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْفَتَاوَى، [فَالْمَعْنَى] ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أَيُّ يَحْضُرُونَ فِي صَلَوَاتِهِمْ الْفَرِيضَةِ فِي مَسَاجِدِ اللَّهِ، لِإِدَاءِ صَلَوَاتِهِمْ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَيُتَّفِقُونَ صَدَقَاتِهِمْ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ].

[سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ]

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلَّهَا نَزَلَتْ فِي عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ تَبَرَّأَ مِنْ جُلْفِ الْيَهُودِ، وَرَضِيَ بِوَلَايَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِيَّاتِ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿١١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المجادلة: ٢١، ٢٢] فَكُلُّ مَنْ رَضِيَ بِوَلَايَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَتَّصِرٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ أَيِ اتَّقُوا اللَّهَ أَنْ تَتَّخِذُوا هُزُؤًا لِأَعْدَاءِ لَكُمْ وَلِدِينِكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ يَشْرَعُ اللَّهُ الَّذِي اتَّخَذَهُ هُزُؤًا هُزُؤًا وَلَعِبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ اللَّهِ فِي سَعَةٍ لَّا أَن تَسْتَفْقُوا مِنْهُ تَغَنُّ وَيَعِذُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

### [اسْتَهْزَاءُ الْكَافِرِ بِالصَّلَاةِ وَالْأَذَانِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ أَيِ وَكَذَلِكَ إِذَا أَذَنْتُمْ دَاعِينَ إِلَى الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أَيْضًا «هُزُؤًا وَلَعِبًا» ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ مَعَانِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ، وَهَذِهِ صِفَاتُ أَتْبَاعِ الشَّيْطَانِ الَّذِي «إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ أَذْبَرَ وَلَهُ حُصَاصٌ - أَيِ ضُرَاطٌ - حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينَ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوبَ لِلصَّلَاةِ أَذْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ الثُّوبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا - لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ - حَتَّى يَظِلَّ الرَّجُلُ لَا يَذْكُرُ كَيْفَ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ، فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ السَّلَامِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ التَّأْذِينَ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ هَلْ تَقُومُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾<sup>(٤)</sup> قُلْ هَلْ أَتَيْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ مُتَوَّعٍ عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ<sup>(٥)</sup> وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ<sup>(٦)</sup> وَرَبِّ كَيْفًا مِنْهُمْ يُسِرُّونَ فِي الْإِنْتِهَاءِ وَالْعَدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٧)</sup> لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّوتُ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنْتِهَاءِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ<sup>(٨)</sup>

### [نَفَمُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿هَلْ تَقُومُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أَيِ هَلْ لَكُمْ عَلَيْنَا مَطْعَنٌ

أَوْ عَيْبٌ إِلَّا هَذَا؟ وَهَذَا لَيْسَ بِعَيْبٍ وَلَا مَذْمَةٍ. فَيَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مُنْطَظًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤] وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ «مَا يَنْفَمُ ابْنُ جَبَلٍ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ»<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى «أَنَّ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ» أَيِ وَآمَنَّا بِأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ، أَيِ خَارِجُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

### [أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْتَحْقُونَ شَرَّ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ هَلْ أَتَيْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ مُتَوَّعٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيِ هَلْ أَخْبَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ جَزَاءً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا تَظُنُّونَهُ بِنَا؟ وَهُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ هُمْ مُتَّصِفُونَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ الْمَفْسُورَةِ بِقَوْلِهِ: «مَن لَعَنَهُ اللَّهُ» أَيِ أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ أَيِ غَضِبًا لَا يَرْضَى بَعْدَهُ أَبَدًا «وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ» كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَكَمَا سَبَّأَنِي إِضَاحُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَقَدْ رَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْفِرَّةِ وَالْخَنَازِيرِ: أَهِيَ مِمَّا مَسَحَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْلِكْ قَوْمًا - أَوْ لَمْ يَمْسَحْ قَوْمًا - فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَإِنَّ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ»<sup>(١٠)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أَيِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ مَن خَدَمَ الطَّاغُوتَ، أَيِ خُدَامَهُ وَعَبِيدَهُ، وَالْمَعْنَى أَنَّكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الطَّاغُوتَ فِي دِينِنَا وَالَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَاتِ دُونَ مَا سِوَاهُ، كَيْفَ يَصْدُرُ مِنْكُمْ هَذَا، وَأَنْتُمْ قَدْ وَجَدْتُمْ مِنْكُمْ جَمِيعُ مَا ذُكِرَ؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أَيِ مِمَّا تَظُنُّونَ بِنَا «وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» وَهَذَا مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ التَّقْضِيلِ فِيمَا لَيْسَ فِي الطَّرَفِ الْآخِرِ مُشَارَكَةً، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

(١) الطبري: ٤٣٠/١٠ (٢) البخاري: ١٢٢٢، ٦٠٨، ١٢٣١  
ومسلم: ٣٩٨، ٢٩١/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١١٦٤/٤ (٤) فتح  
الباري: ٣٨٨/٣ ومسلم: ٦٧٦/٢ (٥) مشكل الآثار: ٢٧٥/٤  
(٦) مسلم: ٢٠٥١/٤

## [مِنْ عَادَاتِ الْمُتَافِقِينَ إِظْهَارُ الْإِيمَانِ وَإِبْطَانُ الْكُفْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُتَافِقِينَ مِنْهُمْ: أَنَّهُمْ يُضَافُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ وَقُلُوبُهُمْ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الْكُفْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أَيْ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِالْكُفْرِ﴾ أَيْ مُسْتَضْحِينَ الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ خَرَجُوا وَهُوَ كَأَمِنْ فِيهَا، لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا قَدْ سَمِعُوا مِنْكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا نَجَعَتْ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ وَلَا الرُّوَاغِرُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فَخَصَّهُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أَيْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِسَرَائِرِهِمْ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صُمَائِرُهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لِخَلْقِهِ خِلَافَ ذَلِكَ، وَتَرْتَبُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَنْتُمْ الْجَزَاءُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْمُذْنِبِ وَأَكْلِهِمْ الشَّحْتُ﴾ أَيْ يُبَادِرُونَ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَاطِي الْمَأْثِمِ وَالْمَحَارِمِ، وَالْإِغْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَهُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أَيْ لَيْسَ الْعَمَلُ كَانَ عَمَلُهُمْ، وَبَشَسَ الْإِغْتِدَاءِ إِغْتِدَاؤُهُمْ.

## [التَّكْبِيرُ عَلَى الرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَخْبَارِ عَلَى تَرْكِهِمُ النَّهْيِ عَنِ الْمَعَاصِي]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بِغْنِي هَلَا كَانَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ، وَالرَّبَّانِيُّونَ هُمُ الْعُلَمَاءُ الْعُمَّالُ أَرْبَابُ الْوَلَايَاتِ عَلَيْهِمْ، وَالْأَخْبَارُ: هُمُ الْعُلَمَاءُ فَقَطْ. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١)</sup>: يَعْني الرَّبَّانِيِّينَ، أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ، يَعْنِي فِي تَرْكِهِمْ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَشَدَّ تَوْبِيخًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> قَالَ: كَذَا قَرَأَ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمُرٍ قَالَ: خَطَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِرُكُوبِهِمُ الْمَعَاصِي، وَلَمْ يَنْهَهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ، فَلَمَّا تَمَادَّوْا فِي الْمَعَاصِي أَخَذَتْهُمْ الْعُقُوبَاتُ. فَمَرُّوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِقَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّاتُ الْعِيشِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِذَا يَدْعُوكُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّغُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا دَعَانَا فَلَا نُخْلِفُ عَنْهُ شَيْئًا وَنَحْمِلُ الْإِثْمَ وَالْآثِمَ وَالْمَحَارِمَ وَالْإِغْتِدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَهُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أَيْ لَيْسَ الْعَمَلُ كَانَ عَمَلُهُمْ، وَبَشَسَ الْإِغْتِدَاءَ إِغْتِدَاؤُهُمْ.

قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ مِثْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يَقْطَعُ رِزْقًا وَلَا يُقَرِّبُ أَجَلًا<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْنَعُ، وَلَمْ يُعَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعَذَابٍ»<sup>(٤)</sup>. تَقَرَّرَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ أَنْ يُعَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُعَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا»<sup>(٥)</sup> وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٦)</sup>.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَئِذَا يَدْعُوكُمْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ

(١) الطبري: ٤٥٠/١٠ (٢) الطبري: ٤٤٩/١٠ (٣) كنز العمال: ٦٨٣/٣ (٤) أحمد: ٣٦٣/٤ (٥) أبو داود: ٤/٥١٠ (٦) ابن ماجه: ١٣٢٩/٢

إِلَّا عِنْدَهُ خَزَائِنُهُ، وَهُوَ الَّذِي مَا يَخْلُقُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي خَلَقَ لَنَا كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فِي لَيْلِنَا وَنَهَارِنَا، وَحَضَرْنَا وَسَفَرْنَا، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِنَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَتْ، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَتَفَقَ مِنْهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَمِينِهِ - قَالَ - وَعَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ. وَفِي يَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ». وَقَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنْفِقْ، أَنْفِقْ عَلَيْكَ»<sup>(٤)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٥)</sup>.

[مَا نَزَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَزِيدُ الْيَهُودَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أَيِ يَكُونُ مَا آتَاكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ مِنَ النِّعْمَةِ نِقْمَةً فِي حَقِّ أَعْدَائِكَ مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ، فَكَمَا يَزْدَادُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ تَصَدِيقًا وَعَمَلًا صَالِحًا، وَعِلْمًا نَافِعًا، يَزْدَادُ بِهِ الْكَافِرُونَ الْحَاسِدُونَ لَكَ وَلَا مَتَكَ ﴿طُغْيَانًا﴾، وَهُوَ الْمُبَالَاةُ وَالْمَجَاوِزَةُ لِلْحَدِّ فِي الْأَشْيَاءِ، ﴿وَكُفْرًا﴾ أَيِ تَكْذِيبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الاسراء: ٨٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ لَا تَجَمُّعَ قُلُوبُهُمْ بَلِ الْعَدَاوَةُ وَاقِعَةٌ بَيْنَ فِرْقَتِهِمْ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ دَائِمًا، لِأَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى حَقٍّ، وَقَدْ خَالَفُواكَ وَكَذَّبُواكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ طُغْيَانًا اللَّهُ﴾ أَيِ كَلِمًا عَقَدُوا أَسْبَابًا يَكِيدُونَكَ بِهَا، وَكَلِمًا أَبْرَمُوا أُمُورًا يُحَارِبُونَكَ بِهَا، أَبْطَلَهَا اللَّهُ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَاقَ مَكْرَهُمُ السَّيِّئُ بِهِمْ ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ طُغْيَانًا اللَّهُ وَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَأَخْلَفْنَاهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمُ ﴿١١١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آفَافُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْبِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾

[قَوْلُ الْيَهُودِ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا: بِأَنَّهُ بَخِيلٌ، كَمَا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ فَقِيرٌ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، وَعَبَّرُوا عَنِ الْبُخْلِ بِأَنَّهُ قَالُوا: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قَالَ: لَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مُوثَقَةٌ، وَلَكِنْ يَقُولُونَ: بِخَيْلٍ يَعْنِي أَمْسَكَ مَا عِنْدَهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ وَالضَّحَّاكِ<sup>(٢)</sup>. وَقَرَأَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَلْحُورًا﴾ [الاسراء: ٢٩] يَعْنِي أَنَّهُ يَنْهَى عَنِ الْبُخْلِ وَعَنِ التَّيْذِيرِ، وَهُوَ زِيَادَةُ الْإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَعَبَّرَ عَنِ الْبُخْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الاسراء: ٢٩] وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي فِتْحِاصِ الْيَهُودِيِّ<sup>(٣)</sup> عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ الَّذِي قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وَرَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ مَا قَالُوهُ، وَقَابَلَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوهُ وَافْتَرَوْهُ وَاتَّفَكُوهُ، فَقَالَ: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعُنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ لَهُمْ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبُخْلِ، وَالْحَسَدِ، وَالْجُبْنِ، وَالذَّلَّةِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ نَكُنْ مِنْ أَلَمِكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَكَ النَّاسُ بَعِيرًا﴾<sup>(٤)</sup> أَمْ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا... الْآيَةُ [النساء: ٥٣، ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿صُرِّتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾... [آل عمران: ١١٢] الْآيَةُ.

[يَدُ اللَّهِ مَبْسُوطَتَانِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَيِ بَلْ هُوَ الْوَاسِعُ الْفَضْلُ، الْجَزِيلُ الْعَطَاءُ، الَّذِي مَا مِنْ شَيْءٍ

(١) الطبري: ٤٥٢/١٠ (٢) الطبري: ٤٥٣/١٠ (٣) الطبري:

١٥٣/١٠ (٤) أحمد: ٣١٣/٢ (٥) فتح الباري: ٤١٥/١٣

ومسلم: ٦٩١/٢

الرَّسَالَةَ، وَأَمَرَا لَهُ بِإِبْلَاحِ جَمِيعِ مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ، وَقَدْ امْتَثَلَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ذَلِكَ، وَقَامَ بِهِ أَتَمُّ الْقِيَامِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَذَبَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِبَلْغٍ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾... الْآيَةُ<sup>(١)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ هَاهُنَا مُخْتَصَرًا وَقَدْ أَخْرَجَهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِهِ مُطَوَّلًا، وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ<sup>(٢)</sup>. وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابَيْ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا<sup>(٣)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهَا أَيْضًا أَنَّهَا قَالَتْ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: مِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةَ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ شَهِدَتْ لَهُ أُمَّتُهُ بِإِبْلَاحِ الرَّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَاسْتَطَقَّ هُمْ بِذَلِكَ فِي أَعْظَمِ الْمَحَافِلِ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ مِنْ أَصْحَابِهِ نَحْوُ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا<sup>(٦)</sup>. كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَئِذٍ: «أُتِيهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَعَلَ يُرْفَعُ إصْبَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَقْلِبُهَا إِلَيْهِمْ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ يَغْنِي وَإِنْ لَمْ تُؤَدِّ إِلَى النَّاسِ مَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ، ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رَسُولَتَهُ﴾ أَيُّ وَقَدْ عَلِمَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رَسُولَتَهُ﴾ يَغْنِي إِنْ كَتَمْتَ آيَةً مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَمْ تُبْلَغْ رَسُولَتَهُ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيُّ بَلَّغَ أَنْتَ

الْمُفْسِدِينَ ﴿أَيُّ مِنْ سَجِيَّتِهِمْ أَنْتُمْ دَائِمًا يَسْعَوْنَ فِي الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ.

[لَوْ عَمِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِكِتَابِهِمْ لَحَصَلَ لَهُمْ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أَيُّ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاتَّقَوْا مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنَ الْمَالِ وَالْمَحَارِمِ ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَكَلَّهِنَّ جَنَّةَ النَّعِيمِ﴾ أَيُّ لَأَرْزَأْنَا عَنْهُمْ الْمَحْذُورَ وَأَنْتَلْنَاهُمْ الْمَقْصُودَ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: يَغْنِي الْقُرْآنُ<sup>(١)</sup>. ﴿لَأَكْلَوْا مِنْ قُوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أُنْجُلِهِمْ﴾ أَيُّ لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي الْكُتُبِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا تَغْيِيرٍ، لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَى مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنْ كُتِبَهُمْ نَاطِقَةً بِتَصْدِيقِهِ وَالْأَمْرَ بِاتِّبَاعِهِ حَتَّى لَا مَحَالَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَأَكْلَوْا مِنْ قُوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أُنْجُلِهِمْ﴾ يَغْنِي بِذَلِكَ كَثْرَةُ الرُّزْقِ النَّازِلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِثِ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... الْآيَةُ [الأعراف: ٩٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وَكَقَوْلِهِ عَنْ أَتْبَاعِ عِيسَى ﴿فَتَأْتِيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ... الْآيَةُ [الحديد: ٢٧]، فَجَعَلَ أَعْلَى مَقَامَاتِهِمُ الْإِقْبَادَ، وَهُوَ أَوْسَطُ مَقَامَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ رُتْبَةُ السَّابِقِينَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَرْزَأْنَا الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [فاطر: ٣٢، ٣٣].

﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِبَلْغٍ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رَسُولَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصَمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْكَافِرِينَ﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّبْلِيغِ وَالْوَعْدُ بِالْعِصْمَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِاسْمِ

(١) الطبري: ٤٦٣/١٠ (٢) فتح الباري: ١٢٤/٨ (٣) مسلم:

١٥٩/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٤٤١/٨ والنسائي في الكبرى:

٣١٥/٦ (٥) فتح الباري: ٤١٥/١٣ ومسلم: ١٦٠/١ (٦) فتح

الباري: ٥١٢/١٣ (٧) هكذا والرواية في ذلك كما يقول القاضي

سليمان المنصورفوري في رحمة للعالمين ٢٦٦/١ وهو يذكر

خطبته ﷺ في حجة الوداع بعرفة: «وقد بلغ عدد العابدين لله في

هذه الأرض مائة وأربعًا وأربعين، أو أربعًا وعشرين ألفًا». (٨)

مسلم: ٨٨٦/٢ (٩) الطبري: ٤٦٨/١٠

وَحَسِبُوا أَن لَّاتَكُونَ فَتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَكْتَفَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٠﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧١﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ اتَّبِعُونِ مِن دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٣﴾

مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْإِيمَانُ بِمَنْعِيهِ، وَالْإِقْدَاءُ بِشَرِيعَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيَرْيَدَنَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تَقْدِيمُ تَفْسِيرِهِ ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَةِ ﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ لَمَّا طَالَ الْفَضْلُ حَسَنَ الْعَطْفِ بِالرَّفْعِ، وَالصَّابِقُونَ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى وَالْمَجُوسِ لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا النَّصَارَى فَمَعْرُوفُونَ، وَهُمْ حَمَلَةُ الْإِنْجِيلِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ الْمِعَادُ وَالْجَزَاءُ يَوْمَ الدِّينِ، وَعَمِلَتْ عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

(١) أحمد: ١٤١/٦ (٢) فتح الباري: ٢٣٢/١٣ ومسلم: ٤/ ١٨٧٥ (٣) فتح الباري: ٩٥/٦ ومسلم: ١٨٧٥/٤ والصحيح أن دخوله ﷺ بعائشة كان في السنة الأولى من الهجرة. (٤) تحفة الأحوذى: ٤١٠/٨ (٥) الطبري: ٤٦٩/١٠ والحاكم: ٣١٣/٢

رِسَالَتِي وَأَنَا حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ، وَمُؤَيِّدُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ وَمُظْفَرُكَ بِهِمْ، فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، فَلَن يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْكَ بِشَيْءٍ يُؤْذِيكَ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ يُحْرَسُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَهَرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَهِيَ إِلَى جَنْبِهِ قَالَتْ: قُلْتُ مَا شَأْنُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يُحْرَسُنِي اللَّيْلَةَ» قَالَتْ: فَبَيْنَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّلَاحِ، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: أَنَا سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ. فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قَالَ: جِئْتُ لِأُحْرَسَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ غَطِيطَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَوْمِهِ<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>. وَفِي لَفْظٍ: سَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ مُقَدِّمَهُ الْمَدِينَةَ. يَعْنِي عَلَى إِثْرِ هِجْرَتِهِ بَعْدَ دُخُولِهِ بِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ مِنْهُ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُوكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قَالَتْ: فَأَخْرَجَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ بَلَّغَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ: ﴿فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَرْيَدَنَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّادِقُونَ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

[لَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أَيْ مِنَ الدِّينِ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، أَيْ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا بَأْيَدِيكُمْ مِنَ الْكِتَابِ الْمُتَنَزِّلَةِ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَتَعَمَّلُوا بِمَا فِيهَا، وَمِمَّا فِيهَا: الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ



وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْمَسِيحُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَنَقَّلَ بِهَا وَهُوَ صَغِيرٌ فِي الْمَهْدِ أَنْ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَنَا اللَّهُ، وَلَا ابْنُ اللَّهِ، بَلْ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٠-٣٦] وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُمْ فِي حَالِ كُھُولَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ أَمْرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَبِّهِمْ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أَيُّ فِعْعُدْ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أَيُّ فَقَدْ أَوْجَبَ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَدْعَىٰ صَاحِبُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ أَفِضُوا عَلَيَّ مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِنَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُنَادِيًا يَنَادِي فِي النَّاسِ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُّسْلِمَةٌ» وَفِي لَفْظٍ: «مُؤْمِنَةٌ»<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَصْكَارٍ﴾ أَيُّ وَمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ نَاصِرٌ وَلَا مُعِينٌ، وَلَا مُنْقِذٌ مِّمَّا هُوَ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّصَارَى خَاصَّةً، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ فِي جَعْلِهِمُ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ الْهَيْلَيْنِ مَعَ اللَّهِ، فَجَعَلُوا اللَّهَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ<sup>(٢)</sup> بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ.

قَالَ السُّدِّيُّ: وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ الْآيَةُ [المائدة: ١١٦]<sup>(٣)</sup>، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أَيُّ لَيْسَ مُتَعَدِّدًا بَلْ هُوَ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلَهُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ وَسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا: ﴿وَإِن لَّمْ يَتَنَبَّهُوا عَمَّا يُقُولُونَ﴾ أَيُّ مِنْ هَذَا الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ ﴿لَيَسِّنَ اللَّهُ لِيُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْآلِيمِ﴾ أَيُّ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَغْلَالِ وَالنَّكَالِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

بَعْدَ إِزْسَالِ صَاحِبِهَا الْمُبْعُوثِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، فَمَنْ انْتَصَفَ بِذَلِكَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَلَا عَلَى مَا تَرَكُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَفْصِيلِهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالُوا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَتَقَضُّوا تِلْكَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ وَاتَّبَعُوا أَرَءَاهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وَقَدَّمُواهَا عَلَى الشَّرَائِعِ، فَمَا وَافَقَهُمْ مِنْهَا قَبِلُوهُ وَمَا خَالَفَهُمْ رَدُّوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا أَيُّ وَحَسِبُوا أَنَّ لَا يَتَرْتَّبَ لَهُمْ شَرٌّ عَلَىٰ مَا صَنَعُوا، فَتَرْتَّبَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمُوا عَنِ الْحَقِّ وَصَمُوا، فَلَا يَسْمَعُونَ حَقًّا وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، أَيُّ مِمَّا كَانُوا فِيهِ، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ أَيُّ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَايَةَ مِنْهُمْ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَصْكَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَتَنَبَّهُوا عَمَّا يُقُولُونَ لَيَسِّنَ اللَّهُ لِيُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْآلِيمِ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُنذِرُ صَبِيحَةَ كَانَا بِأَكْثَانِ الظُّلُمَاتِ أَنْظِرْ كَيْفَ بُعِثَ لَهُمُ الْآيَاتُ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُوقَفُوا ﴿٧٥﴾

[كُفِرَ النَّصَارَى وَدَعَوْهُ الْمَسِيحَ لِلتَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا بِتَكْفِيرِ فِرْقِ النَّصَارَى مِنَ الْمَلَكِيَّةِ وَالنَّبِيِّيَّةِ وَالنَّسْطُورِيَّةِ، مِمَّنْ قَالَ مِنْهُمْ: بِأَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ وَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عُلُوًّا كَبِيرًا، هَذَا

(١) فتح الباري: ٢٠٧/٦ (٢) الطبري: ٤٨٣/١٠ (٣)

الطبري: ٤٨٣/١٠

الْمَسِيحُ

١٢١

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

قُلْ يَتَاَهَلُ الْكَتَبِ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا أَخَذْنَاهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٨١﴾ لَنَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَسَيُكْفِّرُونَ وَلَهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوَدَّةٌ مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

## [الْمَسِيحُ عَبْدٌ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَيُّ لَهُ سَوِيَّةٌ أَمْثَالُهُ مِنْ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ الْكَرَامِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ﴾ أَيُّ مُؤْمِنَةٌ بِهِ مُصَدِّقَةٌ لَهُ، وَهَذَا أَعْلَى مَقَامَاتِهَا، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أَيُّ يَحْتَاجَانِ إِلَى التَّغْذِيَةِ بِهِ، وَإِلَى خُرُوجِهِ مِنْهُمَا، فَهُمَا عَبْدَانِ كَسَائِرِ النَّاسِ، وَلَيْسَا بِالْهَيْئِ كَمَا زَعَمَتْ فِرْقَةُ النَّصَارَى الْجَهْلَةُ، عَلَيْهِمُ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أَيُّ نَوَّضَحُهَا وَنُظْهِرُهَا ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أَيُّ ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ وَبِأَيِّ قَوْلٍ يَتَمَسَّكُونَ؟ وَإِلَى أَيِّ مَذْهَبٍ مِنَ الضَّلَالِ يَذْهَبُونَ؟

﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَاَهَلُ الْكَتَبِ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

## [النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ وَالْعُلُوِّ فِي الدِّينِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ عَبْدَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ، وَمُبَيِّنًا لَهُ أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْإِلَهِيَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْعَابِدِينَ غَيْرُ اللَّهِ مِنْ سَائِرِ فِرْقِ بَنِي آدَمَ، وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ النَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ ﴿أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ ضَرِّ عَنْكُمْ وَلَا إِضْطَالِ نَفْعٍ إِلَيْكُمْ ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيُّ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْهُ إِلَى عِبَادَةِ جَمَادٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا لغيرِهِ وَلَا لِنَفْسِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ يَتَاَهَلُ الْكَتَبِ لَا تَعْلُوا فِي

دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أَيُّ لَا تَجَاوِزُوا الْحَدَّ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَلَا تُطْرُقُوا مَنْ أَمَرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ، فَتَبَالِغُوا فِيهِ حَتَّى تُخْرِجُوهُ عَنْ حَيْزِ الثَّبُوتِ إِلَى مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ، كَمَا صَنَعْتُمْ فِي الْمَسِيحِ وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَجَعَلْتُمُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِقْدَائِكُمْ بِشُيُوحِكُمْ، شُبُوحِ الضَّلَالِ الَّذِينَ هُمْ سَلَفُكُمْ مِمَّنْ ضَلَّ قَدِيمًا ﴿وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أَيُّ وَخَرَجُوا عَنْ طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْإِعْدَالِ إِلَى طَرِيقِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا أَخَذْنَاهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٨١﴾

[لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ فِيمَا أُنْزِلُهُ عَلَى دَاوُدَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، بِسَبِّ عِصْيَانِهِمْ لِلَّهِ، وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ، قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لُعِنُوا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَفِي الزَّبُورِ وَفِي الْفُرْقَانِ. ثُمَّ بَيَّنَّ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أَيُّ كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنْ ارْتِكَابِ الْمَأْثِمِ وَالْمَحَارِمِ. ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِيُحَذَّرَ أَنْ يُرَكَّبَ مِثْلُ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

[أَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ

عَنِ الْمُنْكَرِ]

وَالْأَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَلِنُدَكِّرَ مِنْهَا مَا يُنَاسِبُ هَذَا الْمَقَامَ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٢)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَعِزِّهِ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقْلِهِ، وَذَلِكَ أَوْضَعُ الْإِيمَانِ»<sup>(٣)</sup> رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنِ الْعُرْسِ، يَعْنِي ابْنَ عَمِيرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مِنْ شَهَدَا فَكَّرِهَا - وَقَالَ مَرَّةً: فَأَنْكَرَهَا - كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَزَيَّهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا»<sup>(٤)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعَذِّبُوا - أَوْ يُعَذِّبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ خَطِيبًا، فَكَانَ فِيمَا قَالَ: «أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ». قَالَ: فَبَكَى أَبُو سَعِيدٍ، وَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ رَأَيْنَا أَشْيَاءَ فَهَيْبَتَا<sup>(٦)</sup>.

وَفِي حَدِيثٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ» قِيلَ: وَكَيْفَ يَذِلُّ نَفْسَهُ؟! قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(٩)</sup>.

[ذَمُّ الْمُنَافِقِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ بِالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ مَا فَدَمْتَ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَوَالَاتِهِمْ لِلْكَافِرِينَ، وَتَرْكُهُمْ مَوَالَاةَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّتِي أَعَقَبَتْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَسْخَطَتْ اللَّهَ عَلَيْهِمْ سَخَطًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ مَعَادِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وَفَسَّرَ بِذَلِكَ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ «فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ» يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِهَةً آخَرَ﴾ أَيُّ لَوْ آمَنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ لَمَا ارْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ مَوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي الْبَاطِنِ، وَمُعَادَاةَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ «وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ» أَيُّ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، مُخَالِفُونَ لِآيَاتِ وَحْيِهِ وَتَرْكِهُ.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ فِي دَلَالٍ بَاطِلٍ﴾<sup>(١٠)</sup> يَنْبَغِي أَنْ يُفَسَّرَ بِذَلِكَ وَرُفْهَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ<sup>(١١)</sup> وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ<sup>(١٢)</sup> وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ<sup>(١٣)</sup> فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ

(١) أحمد: ٣٨٨/٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٩١/٦ (٣)

مسلم: ٦٩/١ (٤) أبو داود: ٤٣٤٥ (٥) أبو داود: ٤٣٤٧

(٦) ابن ماجه: ٤٠٠٧ (٧) أبو داود: ٥١٤/٤ وتحفة الأحوذى:

٣٩٥/٦ وابن ماجه: ١٣٢٩/٢ (٨) أحمد: ١٤٠٥/٥ (٩)

تحفة الأحوذى: ٥٣١/٦ وابن ماجه: ١٣٣٢/٢

الْبَاقِيَاتُ

١٢٢

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٥﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّ مَواطِنَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٦﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ بِطَعَامٍ عَشْرَةِ مَسْكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٨﴾

فَتَبَيَّنَتْ وَرَهْبَانًا فَقَالَ: هُمُ الرُّهْبَانُ الَّذِينَ هُمُ فِي الصَّوَامِعِ وَالْخَرَبِ. فَدَعَوْهُمْ فِيهَا. قَالَ سَلْمَانُ: وَقَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ فَيَسِيئَاتٍ» فَأَقْرَأَنِي (ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقَيْنِ وَرَهْبَانًا) (٣). فَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ فَيَسِيئَاتٍ وَرَهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» نَصَّمَن وَصَفُهُمْ بِأَنَّ فِيهِمُ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ وَالتَّوَاضُّعَ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالْإِنْفِيَادِ لِلْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْصَافِ، فَقَالَ: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ» أَيِّ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَشَارَةِ بِبَيْعَتِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ «يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» أَيِّ مَعَ مَنْ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ هَذَا وَيُؤْمِنُ بِهِ.

وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ النَّصَارَى هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ

(١) الطبري: ٥٠٠، ٤٩٩/١٠ (٢) الطبري: ٥٠١/١٠ (٣) الطبراني: ٢٦٦/٦ إسناده ضعيف فيه يحيى بن عبد الحميد الحماني ونصير بن زياد الطائي كلاهما ضعيف [مجمع الزوائد ٧/ ١١٧]

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٣﴾ [بَيَانُ سَبَبِ التَّوَلُّو لِهَذِهِ الْآيَاتِ]

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: نَزَلَتْ فِي وَفْدِ بَعْثُهُمُ النَّجَاشِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَسْمَعُوا كَلَامَهُ وَيَرَوْا صِفَاتِهِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ أَسْلَمُوا وَبَكَوْا وَخَشَعُوا، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فَأَخْبَرُوهُ (١). وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَاحٍ: هُمُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ أَسْلَمُوا حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مَهَاجِرَةُ الْحَبَشَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمُ قَوْمٌ كَانُوا عَلَى دِينِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَلَمَّا رَأَوْا الْمُسْلِمِينَ، وَسَمِعُوا الْقُرْآنَ أَسْلَمُوا وَلَمْ يَتَلَعَّمُوا (٢). وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي صِفَةِ أَقْوَامٍ بِهِدِهِ الْمُنَابَةِ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الْحَبَشَةِ أَوْ غَيْرِهَا.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا» مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ كُفْرٌ عِنَادٍ وَجُحُودٍ وَمُبَاهَاةٌ لِلْحَقِّ وَغَمْطٌ لِلنَّاسِ وَتَنْقُصٌ بِحَمَلَةِ الْعِلْمِ، وَلِهَذَا قَتَلُوا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى هَمُّوا بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَسَمَوْهُ وَسَجَرُوهُ، وَأَلْبَسُوا عَلَيْهِ أَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» أَيُّ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ نَصَارَى مِنْ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ وَعَلَى مِنْهَاجِ إِنْجِيلِهِ، فِيهِمْ مَوَدَّةٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إِذْ كَانُوا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ مِنَ الرَّفَقَةِ وَالرَّأْفَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً» [الحديد: ٢٧] وَفِي كِتَابِهِمْ: مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَأَذَرْ لَهُ خَدَّكَ الْأَيْسَرَ. وَلَيْسَ الْقِتَالُ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ فَيَسِيئَاتٍ وَرَهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» أَيُّ يُوجَدُ فِيهِمُ الْقَسِيصُونَ وَهُمْ حُطْبَاءُؤُهُمْ وَعُلَمَاءُؤُهُمْ، وَاجِدُهُمْ قَسِيصٌ وَقَسٌّ أَيْضًا، وَقَدْ يُجْمَعُ عَلَى قُسُوسٍ، وَالرُّهْبَانُ جَمْعُ رَاهِبٍ، وَهُوَ الْعَابِدُ، مُسْتَقٌّ مِنَ الرَّهْبَةِ، وَهِيَ الْخَوْفُ، كَرَاكِبٍ وَرُكْبَانٍ، وَفَرَسَانٍ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حَامِيَةِ بِنِ رَثَابٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَلْمَانَ وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ

تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ...﴾ [آل عمران: ١٩٩] وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وَلَئِنْ يَتْلُ عَالِيَهُمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿فَأَتَيْنَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أَيْ فَجَازَاهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَاعْتِرَافِهِمْ بِالْحَقِّ ﴿حَبَّتْ نَجْوَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ مَا كَيْشَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ فِي اتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ وَاتِّبَاعِهِمْ لَهُ، حَيْثُ كَانَ وَأَيْنُ كَانَ وَمَعَ مَنْ كَانَ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الْأَشْيَاءِ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ جَحَدُوا بِهَا وَخَالَفُوهَا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أَيْ هُمْ أَهْلُهَا وَالِدَاخِلُونَ فِيهَا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿وَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [٨٧]

### [لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَام]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالُوا: نَقَطْعُ مَذَائِيرَنَا، وَنَتْرُكُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَنَسِيخُ فِي الْأَرْضِ كَمَا يَفْعَلُ الرُّهْبَانُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي، وَأَنَا، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَمَنْ أَخَذَ بِسُنَّتِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْعُوفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى الْفِرَاشِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنَا، وَأَقُومُ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٨٨]

### [اللَّغْوُ فِي الْيَمِينِ]

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَأَنَّهُ قَوْلُ الرَّجُلِ فِي الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ: لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ.

### [كَفَّارَةُ الْيَمِينِ]

﴿فَكَفَّرتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ يَعْنِي مَحَاوِيجَ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَمَنْ لَا يَجِدُ مَا يَكْفِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ: أَيْ مِنْ أَغْذَلِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: مِنْ أَمَثَلِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ هِيَ أَنْ يَذْفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْكِسْوَةِ مَا يَصِحُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، إِنْ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً كُلٌّ بِحَسَبِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) الطبري: ٥١٨/١٠ (٢) فتح الباري: ٥/٩ ومسلم: ٢/

١٠٢٠ (٣) الطبري: ٥٤١/١٠ (٤) الطبري: ٥٣١/١٠

الْمَائِدَةِ

١٢٣

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَذْلَمُ رَجَسٌ  
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ  
الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ  
وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا  
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى  
رَسُولِنَا الْبَلْعُ الْأَمِينُ ﴿١٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آذَيْنَا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ  
﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ إِشْيَاءَ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ  
أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ  
ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ  
وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ  
يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ  
مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا  
سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْقِصَارٍ ﴿١٥﴾

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: عِبَاءَةٌ لِكُلِّ مَسْكِينٍ أَوْ  
شَمْلَةٌ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَذْنَاهُ ثَوْبٌ وَأَعْلَاهُ مَا شِئْتَ <sup>(٢)</sup>.  
وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ  
التَّحِيصِيُّ وَحَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ وَأَبُو مَالِكٍ. ثَوْبٌ  
ثَوْبٌ <sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُؤِمَّةً كَمَا  
تَبَيَّنَ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ الَّذِي هُوَ فِي  
مَوْطَأٍ مَالِكٍ وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ  
عَلَيْهِ عِثْقَ رَقَبَةٍ، وَجَاءَ مَعَهُ بِجَارِيَةٍ سُودَاءَ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ  
أَنَا؟» قَالَتْ: رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤِمَّةٌ» <sup>(٤)</sup>  
الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ.

فَهَذِهِ خِصَالُ ثَلَاثٍ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، أَيْهَا فَعَلَ الْحَانِثُ  
أَجْزَأَ عَنْهُ بِالْإِجْمَاعِ، وَقَدْ بَدَأَ بِالْأَسْهَلِ، فَإِلْطَاعُ أَهْلِهِ  
وَأَيْسَرُ مِنَ الْكِسْفَةِ، كَمَا أَنَّ الْكِسْفَةَ أَيْسَرُ مِنَ الْعِثْقِ، فَزُقِيَ  
فِيهَا مِنَ الْأَذْنَى إِلَى الْأَعْلَى، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرِ الْمُكَلَّفُ عَلَى  
وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ كَفَّرَ بِصِيَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾. وَقَدْ قَرَأَهَا  
أَبِي بَنْ كَعْبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأَصْحَابُهُ: (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ  
مُتَتَابِعَاتٍ) <sup>(٥)</sup>. وَهَذِهِ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ كَوْنُهَا قُرْآنًا مُتَوَاتِرًا، فَلَا  
أَقْلَ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا وَاحِدًا أَوْ تَفْسِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَهُوَ  
فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ.

قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أَيْ هَذِهِ كَفَّارَةُ  
الْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:  
مَعْنَاهُ: لَا تَتَرَكُوهَا بِغَيْرِ تَكْفِيرٍ <sup>(٦)</sup>. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ  
لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أَيْ يَوْضَحُهَا وَيُفَسِّرُهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.  
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَذْلَمُ رَجَسٌ مِنْ  
عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ  
أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ  
ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا  
الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْعُ  
الْأَمِينُ﴾ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آذَيْنَا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا  
طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا  
ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ﴾

[تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ تَعَاطِي الْخَمْرِ

وَالْمَيْسِرِ، وَهُوَ الْقِمَارُ، وَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَبِيهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ  
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الشُّطْرُنُجُ مِنَ  
الْمَيْسِرِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِيهِ بِسَنَدِهِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ <sup>(٧)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ لَيْثٍ، عَنْ  
عَطَاءٍ وَمُجَاهِدٍ وَطَاوُسٍ قَالُوا: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْقِمَارِ فَهُوَ مِنَ  
الْمَيْسِرِ حَتَّى لَعِبُ الصَّبْيَانِ بِالْجُوزِ <sup>(٨)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ،  
قَالَ: الْمَيْسِرُ هُوَ الْقِمَارُ <sup>(٩)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ، قَالَ: الْمَيْسِرُ هُوَ الْقِمَارُ، كَانُوا يَتَقَامَرُونَ فِي  
الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى مَجِيءِ الْإِسْلَامِ، فَنَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ  
الْأَخْلَاقِ الْفَاسِدَةِ <sup>(١٠)</sup>.

(١) الطبري: ٥٤٧/١٠ عطية العوفي تقدم حكمه (٢) الطبري:  
٥٤٥/١٠ (٣) الطبري: ٥٤٦، ٥٤٥/١٠ (٤) الموطأ: ٢/٧٧٦  
والرسالة: ٧٥ ومسلم: ٣٨/١ (٥) الطبري: ٣١/٥ (٦)  
الطبري: ٥٦٢، ٥٦٠/١٠ (٧) إسناده مرسل (٨) الطبري: ٤/  
٣٢٣، ٣٢٢ (٩) الطبري: ٣٢٥/٤ (١٠) الطبري: ٣٢٤/٤  
الضحاك لم يلق ابن عباس كما مر.



فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾...  
الآيَةُ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أُدِيرُ الْكُأْسَ عَلَى أَبِي طَلْحَةَ وَأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَأَبِي دُجَانَةَ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَسُهَيْلِ بْنِ بَيْضَاءَ حَتَّى مَالَتُ رُؤُوسَهُمْ مِنْ خَلِيطِ بُسْرِ وَتَمَرٍ، فَسَمِعْتُ مُتَاوِيًا يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِمَتْ. قَالَ: فَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا دَاخِلٌ وَلَا خَرَجَ مِنَّا خَارِجٌ حَتَّى أَهْرَقْنَا الشَّرَابَ، وَكَسَرْنَا الْقِلَاقَ، وَتَوَضَّأَ بَعْضُنَا، وَاعْتَسَلَ بَعْضُنَا، وَأَصْبَنَا مِنْ طِيبٍ أَمْ سَلِيمٍ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا لَكُمْ الْخَمْرُ وَاللَّذَائِمُ وَالْأَصْأَبُ وَالْأَزْلَمُ يَجُسُّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَرَى فِيمَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْرِبُهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾... الْآيَةُ، فَقَالَ رَجُلٌ لِقَتَادَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقَالَ رَجُلٌ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَوْ حَدَّثَنِي مَنْ لَمْ يَكْذِبْ. مَا كُنَّا نَكْذِبُ، وَلَا نَدْرِي مَا الْكَذِبُ<sup>(٢)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجُهٍ: لُعِنَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا، وَشَارِبُهَا، وَسَاقِهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهَا، وَآكِلُ ثَمَنِهَا»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُرَيْدِ فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَكُنْتُ مَعَهُ، فَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ، وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَتَأَخَّرْتُ عَنْهُ، فَكَانَ عَنْ يَمِينِهِ وَكُنْتُ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَتَنَحَّيْتُ لَهُ فَكَانَ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُرَيْدَ فَإِذَا بِرِفَاقٍ عَلَى الْمُرَيْدِ فِيهَا خَمْرٌ - قَالَ ابْنُ عُمَرَ: - فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُدْيَةِ - قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَمَا عَرَفْتُ الْمُدْيَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ - فَأَمَرَ بِالرِّفَاقِ فَشَقَّتْ، ثُمَّ قَالَ: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ وَشَارِبُهَا، وَسَاقِهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهَا، وَعَاصِرُهَا وَمُعْتَصِرُهَا، وَآكِلُ ثَمَنِهَا»<sup>(٥)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ سَعْدٍ قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي الْخَمْرِ أَرْبَعُ آيَاتٍ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ،

قَالَ: وَصَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا فَدَعَانَا، فَشَرَبْنَا الْخَمْرَ قَبْلَ أَنْ نُحَرَّمَ حَتَّى انْتَشَيْنَا فَتَفَاحَرْنَا، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: نَحْنُ أَفْضَلُ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: نَحْنُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَحْيَ جَزُورٍ، فَضَرَبَ بِهِ أَنْفَ سَعْدٍ فَفَزَرَهُ - وَكَانَ أَنْفُ سَعْدٍ مَفْرُورًا - فَتَرَلَّتْ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَاللَّذَائِمُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ<sup>(٦)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا لَكُمْ الْخَمْرُ وَاللَّذَائِمُ وَالْأَصْأَبُ وَالْأَزْلَمُ يَجُسُّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قَالَ: هِيَ فِي التَّوْرَةِ: إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْحَقَّ لِيُذْهِبَ بِهِ الْبَاطِلَ، وَيَبْطِلَ بِهِ اللَّعِبُ وَالْمَزَامِيرُ، وَالزُّفْنُ، وَالْكِبَارَاتُ - يَعْنِي الْبَرَابِطُ - وَالزَّمَارَاتُ - يَعْنِي بِهِ الدَّفُّ - وَالطَّنَابِيرُ وَالشُّعْرُ وَالْخَمْرُ، مُرَّةً لِمَنْ طَعَمَهَا، أَقْسَمَ اللَّهُ بِبَيْمِنِهِ وَعِزَّتِهِ مَنْ شَرِبَهَا بَعْدَ مَا حَرَّمْتُهَا لَا أُعْطِشَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ تَرَكَهَا بَعْدَ مَا حَرَّمْتُهَا لَأَسْقِيَنَّهُ إِيَّاهَا فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَبْنَانَا مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَ فِي الْآخِرَةِ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَمَاتَ وَهُوَ يَذُمُّهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ»<sup>(٩)</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ يَقُولُ: اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ، إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ فِيمَنْ خَلَا قَبْلَكُمْ يَتَعَبَّدُ وَيَعْتَزِلُ النَّاسَ فَعَلَقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةً فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا نَدْعُوكَ لِشَهَادَةٍ، فَدَخَلَ مَعَهَا، فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَعْلَقَتْهُ دُونُهُ، حَتَّى أَقْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضَبَّتْ عَنْدَهَا غَلَامٌ وَبَاطِيئَةٌ خَمْرٍ فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ! مَا دَعَوْتُكَ لِشَهَادَةٍ، وَلَكِنْ

(١) فتح الباري: ١٣٣/٥ ومسلم: ١٥٧٠/٣ (٢) الطبري:

٥٧٨/١٠ فيه عباد بن راشد التميمي البصري البزاز ضعيف لكن رواه البخاري (٥٦٠٠) ومسلم (١٩٨٠/٧) من طريق قتادة به مختصراً (٣) أحمد: ٢٥/٢ (٤) أبو داود: ٣٦٧٤ وابن ماجه:

٣٣٨٠ (٥) أحمد: ٧١/٢ (٦) البيهقي: ٢٨٥/٨ ومسلم:

١٧٤٨ (٧) ابن أبي حاتم: ١١٩٦/٤ (٨) مسند الشافعي:

١٧٦٣ والبخاري: ٥٥٧٥ ومسلم: ٢٠٠٣ (٩) مسلم: ٢٠٠٣



أَخَذَهُ بِالْأَيْدِي وَالرِّمَاحِ سِرًّا وَجَهْرًا، لِيُظْهَرَ طَاعَةُ مَنْ يُطِيعُ مِنْهُمْ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بَعْدَ هَذَا الْإِعْلَامِ وَالْإِنذَارِ وَالتَّقَدُّمِ، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ لِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ وَشَرْعَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ وَهَذَا تَحْرِيمٌ مِنْهُ تَعَالَى لِقَتْلِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، وَنَهْيٌ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ، وَلَا يُسْتَنْتَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ، وَالْجِدَادَةُ، وَالْعُقْرُبُ، وَالْفَارَةُ، وَالْكَلْبُ الْعُقُورُ»<sup>(٧)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ لَيْسَ عَلَى الْمُحْرِمِ فِي قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ: الْغُرَابُ، وَالْجِدَادَةُ، وَالْعُقْرُبُ، وَالْفَارَةُ، وَالْكَلْبُ الْعُقُورُ»<sup>(٨)</sup>. أَخْرَجَاهُ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَاهُ أَيُّوبُ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَهُ<sup>(١٠)</sup>. قَالَ أَيُّوبُ: فَقُلْتُ لِنَافِعٍ: فَالْحَيَّةُ؟ قَالَ: الْحَيَّةُ لَا شَكَّ فِيهَا، وَلَا يُخْتَلَفُ فِي قَتْلِهَا<sup>(١١)</sup>. وَالْحَقُّ بِالْكَلْبِ الْعُقُورِ الذُّبُّ وَالسَّبُعُ وَالنَّمْرُ وَالْفَهْدُ، لِأَنَّهَا أَشَدُّ ضَرَرًا مِنْهُ، أَوْ لِأَنَّ الْكَلْبَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَمَّا يَقْتُلُ الْمُحْرِمُ؟ فَقَالَ: «الْحَيَّةُ، وَالْعُقْرُبُ، وَالْفَوْسِقَةُ، وَبَرِيءُ الْغُرَابِ وَلَا يَقْتُلُهُ، وَالْكَلْبُ الْعُقُورُ، وَالْجِدَادَةُ، وَالسَّبُعُ الْعَادِي» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(١٢)</sup>.

### [جَزَاءُ قَتْلِ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ أَوْ الْإِحْرَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ بْنُ جَبْرِ: الْمُرَادُ بِالْمُتَعَمِّدِ هُنَا الْقَاصِدُ إِلَى قَتْلِ الصَّيْدِ، النَّاسِي لِإِحْرَامِهِ<sup>(١٣)</sup>. فَأَمَّا

دَعْوَتُكَ لِيَتَّقَ عَلَيَّ أَوْ تَقْتُلْ هَذَا الْعِلَامَ، أَوْ تَشْرَبَ هَذَا الْخَمْرَ فَسَقَتُهُ كَأَسَا فَقَالَ: زِيدُونِي فَلَمْ يَزِدْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَقَتْلُ النَّفْسِ. فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ هِيَ وَالْإِيمَانُ أَبَدًا إِلَّا أَوْشَكَ أَحَدُهُمَا أَنْ يُخْرَجَ صَاحِبُهُ. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْتِثْنَاءٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ «ذَمُّ الْمُسْكِرِ» مَرْفُوعًا. وَالْمَوْفُوفُ أَصَحُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا حُرِّمَتْ الْخَمْرُ قَالَ نَاسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصْحَابُنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَشْرَبُونَهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَلَمَّا حُولَتْ الْقِبْلَةُ قَالَ نَاسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِخْوَانُنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قِيلَ لِي: أَنْتَ مِنْهُمْ» وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِهِ<sup>(٣)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَاءَلَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُم لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup> يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بِلَاغٍ لِكَلِمَةٍ أَوْ كَذَرَّةٌ طَعْلًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا يَذُوقُ وَكَانَ أَمْرُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ<sup>(٥)</sup>

### [حُرْمَةُ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ]

قَالَ الْوَالِيبِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَاءَلَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُم﴾ قَالَ: هُوَ الضَّعِيفُ مِنَ الصَّيْدِ وَصَغِيرُهُ، يَنْتَلِي اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ فِي إِحْرَامِهِمْ، حَتَّى لَوْ شَاءُوا لَتَنَاوَلُوهُ بِأَيْدِيهِمْ، فَتَهَاكُمُ اللَّهُ أَنْ يَقْرُبُوهُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَنَاءَلَهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يَعْنِي صِعَارَ الصَّيْدِ وَفَرَاحَهُ، ﴿وَرِمَاكُم﴾ يَعْنِي كِبَارَهُ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَكَانَتْ الْوُحُشُ وَالطَّيْرُ وَالصَّيْدُ تَعْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ قَطُّ فِيمَا خَلَا، فَتَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ قَتْلِهِ وَهُمْ مُحْرِمُونَ ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾<sup>(٨)</sup> يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يَنْتَلِيهِمْ بِالصَّيْدِ، يَعْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، يَتَمَكَّنُونَ مِنْ

(١) البيهقي: ٢٨٨، ٢٨٧/٨ (٢) أحمد: ٢٩٥/١ (٣) مسلم:

١٩١٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٤١٩/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/

٣٣٧ (٤) الطبري: ٥٨٤/١٠ (٥) الطبري: ٥٨٣/١٠ (٦)

الدر المنثور: ١٨٥/٣ (٧) البخاري: ٣٣١٤ ومسلم: ١١٩٨

(٨) الموطأ: ٣٥٦/١ (٩) فتح الباري: ٤٢/٤ ومسلم: ٢/

٨٥٨ (١٠) النسائي: ١٩٠/٥ (١١) فتح الباري: ٤٤/٦

(١٢) أبو داود: ٤٢٤/٢ وتحفة الأحوذى: ٥٧٦/٣ وابن ماجه:

١٠٣٢/٢ (١٣) الطبري: ٨/١١

قَتَلَ الْمُحْرَمَ شَيْئًا مِنَ الصَّيْدِ حُكِمَ عَلَيْهِ فِيهِ، فَإِنْ قَتَلَ ظَبْيًا أَوْ نَحْوَهُ فَعَلَيْهِ شَاءُ تَذْبِجٍ بِمَكَّةَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَأَطْعَمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَإِنْ قَتَلَ أَيًّا أَوْ نَحْوَهُ، فَعَلَيْهِ بَقَرَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ عَشْرِينَ مَسْكِينًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ عَشْرِينَ يَوْمًا، وَإِنْ قَتَلَ نَعَامَةً أَوْ حِمَارًا وَحْشٍ أَوْ نَحْوَهُ، فَعَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنَ الْإِبِلِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ ثَلَاثِينَ مَسْكِينًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ، وَزَادَ: الطَّعَامُ مَدُّ مَدٍّ يُسَبِّعُهُمْ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أَيُّ أَوْجَبْنَا عَلَيْهِ الْكَفَّارَةَ لِيَذُوقَ عُقُوبَةَ فِعْلِهِ الَّذِي ارْتَكَبَ فِيهِ الْمُخَالَفَةَ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ أَيُّ فِي زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ وَاتَّبَعَ شَرْعَ اللَّهِ، وَلَمْ يَرْتَكِبِ الْمَعْصِيَةَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أَيُّ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَبُلُوغِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ إِلَيْهِ ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: مَا ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾؟ قَالَ: عَمَّا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قَالَ: وَمَنْ عَادَ فِي الْإِسْلَامِ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ، وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ الْكَفَّارَةُ. قَالَ: قُلْتُ: فَهَلْ فِي الْعُودِ مِنْ حَدِّ تَعْلُمُهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: قُلْتُ: فَتَرَى حَقًّا عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُعَاقِبَهُ؟ قَالَ: لَا، هُوَ ذَنْبٌ أَذْنَبُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ يَنْتَدِي<sup>(٥)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ بِالْكَفَّارَةِ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءُ<sup>(٦)</sup>. ثُمَّ الْجُمْهُورُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى أَنَّهُ مَتَى قَتَلَ الْمُحْرَمَ الصَّيْدَ وَجَبَ الْجَزَاءُ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ، وَإِنْ تَكَرَّرَ مَا تَكَرَّرَ، سَوَاءٌ الْخَطَأُ فِي ذَلِكَ وَالْعَمْدُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ يَقُولُ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَاللَّهُ مَنِيعٌ فِي سُلْطَانِهِ، لَا يَفْهَرُهُ قَاهِرٌ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ انْتَقَمَ مِنْهُ - وَلَا مِنْ عُقُوبَةٍ مَنْ أَرَادَ عُقُوبَتَهُ - مَانِعٌ، لِأَنَّ الْخَلْقَ خَلَقَهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، لَهُ الْعِزَّةُ وَالْمَنْعَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ ذُو مُعَاقِبَةٍ لِمَنْ عَصَاهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِنَاءً<sup>(٧)</sup>.

الْمُتَعَمِّدُ لِقَتْلِ الصَّيْدِ مَعَ ذِكْرِهِ لِإِحْرَامِهِ، فَذَلِكَ أَمْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُكْفَرُ، وَقَدْ بَطَلَ إِحْرَامُهُ، وَهُوَ قَوْلٌ غَرِيبٌ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ الْعَامِدَ وَالتَّاسِي سَوَاءٌ فِي جُوبِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: دَلَّ الْكِتَابُ عَلَى الْعَامِدِ، وَجَرَتْ الشُّنَّةُ عَلَى التَّاسِي<sup>(١)</sup>. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى جُوبِ الْجَزَاءِ عَلَى الْمُتَعَمِّدِ وَعَلَى تَأْيِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴿وَجَاءَتِ الشُّنَّةُ مِنْ أَحْكَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَحْكَامِ أَصْحَابِهِ بِوُجُوبِ الْجَزَاءِ فِي الْخَطَأِ، كَمَا دَلَّ الْكِتَابُ عَلَيْهِ فِي الْعَمْدِ، وَأَيْضًا فَإِنْ قَتَلَ الصَّيْدَ إِنْثِلَافًا، وَإِنْثِلَافٌ مَضْمُونٌ فِي الْعَمْدِ وَفِي الشُّنَّانِ، لَكِنْ الْمُتَعَمِّدُ مَا تُؤْتَمُّ، وَالْمُخْطِئُ غَيْرُ مَلُومٍ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَجَزَاءٌ مِمَّا قَتَلَ مِنْ الْأَنْعَامِ﴾ دَلِيلٌ لُجُوبِ الْجَزَاءِ مِنْ مِثْلِ مَا قَتَلَهُ الْمُحْرَمُ، إِذَا كَانَ لَهُ مِثْلٌ مِنَ الْحَيَوَانِ الْإِنْسِي كَمَا حَكَمَ بِهِ الصَّحَابَةُ فِي الْمِثْلِ، فَإِنَّهُمْ حَكَمُوا فِي النَّعَامَةِ بِدَنَةٍ، وَفِي بَقَرَةِ الْوَحْشِ بِبَقَرَةٍ، وَفِي الْغَزَالِ بِعَنْزٍ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ مِثْلِيًّا، فَقَدْ حَكَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيهِ بِتَمَنِيهِ يُحْمَلُ إِلَى مَكَّةَ. رَوَاهُ النَّيْهَقِيُّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْجَزَاءِ فِي الْمِثْلِ - أَوْ بِالْقِيَمَةِ فِي غَيْرِ الْمِثْلِ - عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي جَرِيرٍ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: أَصَبْتُ ظَبْيًا وَأَنَا مُحْرَمٌ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، فَقَالَ: اثْبَتِ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِكَ فَلْيَحْكُمَا عَلَيْكَ، فَأَثَبْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَسَعْدًا فَحَكَمَا عَلَيَّ بِتِسْعِ أَغْفَرٍ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ طَارِقٍ، قَالَ: أَوْطَأَ أَرْبُدُ ظَبْيًا فَقَتَلْتُهُ وَهُوَ مُحْرَمٌ، فَأَتَى عُمَرَ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: احْكُمْ مَعِيَ، فَحَكَمَا فِيهِ جَدْيًا قَدْ جَمَعَ الْمَاءَ وَالشَّجَرَ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَلَغَ الْأَكْمَةِ﴾ أَيُّ وَاصِلًا إِلَى الْأَكْمَةِ، وَالْمُرَادُ وَصُولُهُ إِلَى الْحَرَمِ بِأَنْ يُذْبَحَ هُنَاكَ، وَيُفَرَّقَ لَحْمُهُ عَلَى مَسَاكِينَ الْحَرَمِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَفَّرَتْهُ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أَيُّ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُحْرَمُ مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ، أَوْ لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ مِنْ ذَوَاتِ الْأَمْثَالِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿هَذَا بَلَغَ الْأَكْمَةِ أَوْ كَفَّرَتْهُ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾، فَإِذَا

(١) الطبري: ١١/١١ (٢) الطبري: ٢٧/١١ (٣) الطبري:

(٤) ٢٦/١١ (٥) الطبري: ٣١/١١ (٦) الطبري: ٤٨/١١ (٧)

الطبري: ٥٠/١١ (٧) الطبري: ٥٧/١١

الْحَرَامُ

١٢٤

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغَنَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدِ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يُدُونُ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعَجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْتِيَ الْآلِبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِّلَ لَكُمْ سُلُوكُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدِّلْ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنَّا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغَنَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدِ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يُدُونُ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

## [إِحْلَالُ صَيْدِ الْبَحْرِ لِلْمُحْرِمِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمْ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يَعْنِي مَا يُضْطَادُّ مِنْهُ طَرِيًّا<sup>(١)</sup>. ﴿وَطَعَامُهُ﴾ مَا يَتَزَوَّدُ مِنْهُ مَلِيحًا يَابِسًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الرَّوَايَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُ: صَيْدُهُ مَا أُخِذَ مِنْهُ حَيًّا ﴿وَطَعَامُهُ﴾ مَا لَفَظُهُ مَيِّتًا، وَهَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَزَيْدِ بْنِ نَابِتٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو وَأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَعِكْرَمَةُ وَأَبِي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ.

وَقَوْلُهُ ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغَنَةِ﴾ أَيُّ مَنَفَعَةٍ وَقَوْلُهُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ ﴿وَاللِّسَانَةِ﴾ وَهُمْ جَمْعُ سَيَّارٍ. قَالَ عِكْرَمَةُ: لِمَنْ كَانَ بِحَضْرَةِ الْبَحْرِ وَالسَّفَرِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: الطَّرِيقُ مِنْهُ: لِمَنْ يَضْطَادُّهُ مِنْ حَاضِرَةِ الْبَحْرِ، وَطَعَامُهُ مَا مَاتَ فِيهِ أَوْ اضْطَيْدَ مِنْهُ وَمُلِحَ وَقُدِّدَ زَادًا لِلْمُسَافِرِينَ وَالثَّانِينَ عَنِ الْبَحْرِ. وَقَدْ رَوَى نَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُيَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَأَنَا فِيهِمْ، قَالَ: فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَبَيَّ الرَّادِّ، فَأَمَرَ أَبُو عُيَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الْجَيْشِ، فَجَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَكَانَ مِزْوَدِي تَمَرٍ، قَالَ: فَكَانَ يَمُوتُنَا كُلُّ يَوْمٍ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى فَنِي، فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، فَقُلْتُ: وَمَا تُعْنِي التَّمْرَةُ؟ فَقَالَ: فَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا جِبْنَ فَنِيَتْ، قَالَ: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا حَوْثٌ مِثْلُ الطَّرْبِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُيَيْدَةَ بِضَلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَصَبَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرَحَلْتُ، وَمَرَّتْ تَحْتَهُمَا، فَلَمْ نَصِبْهُمَا<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى مَالِكُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نُرْكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ

مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطَشْنَا، أَفْتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْجَلُّ مَيْتَةً»<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ الْإِمَامَانِ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعُ، وَصَحَّحَهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُمْ، وَقَدْ رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ<sup>(٧)</sup>.

## [تَحْرِيمُ صَيْدِ الْبَرِّ لِلْمُحْرِمِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أَيُّ فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ يَحْرُمُ عَلَيْكُمْ الْأَضْيَادُ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ، فَإِذَا اضْطَادَّ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ مُتَعَمِّدًا أَثِمَ وَغَرِمَ، أَوْ مُخْطِئًا غَرِمَ وَحُرِّمَ عَلَيْهِ أَكْلُهُ، لِأَنَّهُ فِي حَقِّهِ

(١) الطبري: ٥٩/١١ (٢) الطبري: ٧١/١١ (٣) الطبري: ٧٣، ٧٢/١١ (٤) الموطأ: ٩٣٠/٢ (٥) فتح الباري: ١٥٢/٥ (٦) مسند الشافعي: ١٥٣٥/٣ (٧) الموطأ: ٢٢/١ (٨) مسند الشافعي: ٢٥ وأحمد: ٢٣٧/٢ وأبو داود: ٨٣ والترمذي: ٦٩ والنسائي: ٥٠/١ وابن ماجه: ٣٨٦ وابن خزيمة: ١١١ وابن حبان: ١١٩

كَالْمَيْتَةِ، وَكَذَا فِي حَقِّ غَيْرِهِ مِنَ الْمُحْرَمِينَ وَالْمُجَلِّينَ.  
وَأَمَّا إِذَا صَادَ حَلَالٌ صَيْدًا، فَأَهْدَاهُ إِلَى مُحْرِمٍ، فَإِنْ كَانَ الْحَلَالُ قَدْ قَصَدَ الْمُحْرِمَ بِذَلِكَ الصَّيْدِ، لَمْ يَجْزِ لِلْمُحْرِمِ أَكْلُهُ لِحَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَتَّامَةَ أَنَّهُ أَهْدَى لِلنَّبِيِّ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأُبُوءِ أَوْ بِوَدَانَ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حُرْمٌ». وَهَذَا الْحَدِيثُ مُحَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup>. وَلَهُ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ، قَالُوا: فَوَجْهُهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَنَّ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا صَادَهُ مِنْ أَجْلِهِ، فَرَدَّهُ لَذَلِكَ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَقْصِدْهُ بِالْأَصْطِنَادِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الْأَكْلُ مِنْهُ؛ لِحَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ حِينَ صَادَ حِمَارٌ وَحْشٍ، وَكَانَ حَلَالًا لَمْ يُحْرَمْ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ مُحْرَمِينَ، فَتَوَقَّفُوا فِي أَكْلِهِ ثُمَّ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا، أَوْ أَعَانَ فِي قَتْلِهَا؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَكُلُوا» وَأَكَلَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ثَابِتَةٌ أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ بِالْأَلْفَاظِ كَثِيرَةٍ<sup>(٢)</sup>.

[١] «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشُرُونَ» يَقُولُ تَعَالَى: وَاحْشَوْا اللَّهَ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَاحْذَرُوهُ، بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أُنْزِلَتْهَا عَلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ: مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ، وَعَنْ إِصَابَةِ صَيْدِ الْبَرِّ وَقَتْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ. فَإِنَّ اللَّهَ مَصِيرُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ، فَيُعَاقِبُكُمْ بِمَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ، وَيُجَازِيكُمْ فَيُنِيبُكُمْ عَلَى طَاعَتِكُمْ لَهُ. «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ» يَقُولُ تَعَالَى: صَيَّرَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَا قِيَامَ لَهُمْ: مِنْ رَأْسِ يَحْجُزُ قَوِيَّتِهِمْ عَنْ ضَعِيفَتِهِمْ، وَمُسِيئَتِهِمْ عَنْ مُحْسِنَتِهِمْ، وَظَالِمَتِهِمْ عَنْ مَظْلُومَتِهِمْ «وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْأَهْدَى وَالْقَلْبَدِيَّ» يَقُولُ: وَجَعَلَ هَذِهِ أَيْضًا قِيَمًا لِلنَّاسِ، كَمَا جَعَلَ الْكَعْبَةَ قِيَمًا لَهُمْ، فَحَجَزَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِيَامٌ غَيْرُهُ، وَجَعَلَهَا مَعَالِمَ لِدِينِهِمْ وَمَصَالِحَ أُمُورِهِمْ. وَجَعَلَ تَعَالَى الْكَعْبَةَ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْأَهْدَى وَالْقَلْبَدِيَّ قِيَمًا لِمَنْ كَانَ يُحْرَمُ ذَلِكَ مِنَ الْعَرَبِ وَيُعَظَّمُهُ، بِمَنْزِلَةِ الرَّئِيسِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ أَمْرُ تَبَاعِهِ، وَأَمَّا الْكَعْبَةُ: فَالْحَرَمُ كُلُّهُ. وَسَمَّاها اللَّهُ «حَرَامًا» لِتَحْرِيمِهِ إِيَّاهَا أَنْ

يُصَادَ صَيْدُهَا أَوْ يُخْتَلَى خَلَاها أَوْ يُعْصَدَ شَجَرُهَا. وَكَذَلِكَ كَانَتْ الْكَعْبَةُ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْأَهْدَى وَالْقَلْبَدِيَّ قِيَامًا أَمْرَ الْعَرَبِ، الَّذِي كَانَ بِهِ صَلَاحُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَهِيَ فِي الْإِسْلَامِ مَعَالِمٌ حَجَّهْمُ وَمَنَاسِكُهُمْ، وَمُتَوَجَّهُهُمْ لِصَلَاتِهِمْ «ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» يَقُولُ تَعَالَى: صَيَّرْتُ لَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - ذَلِكَ قِيَمًا، كَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ أَحَدَتْ لَكُمْ لِمَصَالِحِ دُنْيَاكُمْ مَا أَحَدَتْ - مِمَّا بِهِ قِيَامُكُمْ - عِلْمًا مِنْهُ بِمَنَافِعِكُمْ وَمَصَارِكُمْ: أَنَّهُ كَذَلِكَ يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِمَّا فِيهِ صَلَاحٌ عَاجِلِكُمْ وَآجِلِكُمْ. وَلَتَعْلَمُوا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَهُوَ مُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُجَازِيَ الْمُحْسِنَ مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ مِنْكُمْ بِإِسَاءَتِهِ «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» يَقُولُ تَعَالَى: اعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ سَرَائِرِ أَعْمَالِكُمْ وَعَلَانِيَتِهَا. شَدِيدُ عِقَابِهِ مَنْ عَصَاهُ وَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ، وَهُوَ غَفُورٌ لِدُنُوبِ مَنْ أَطَاعَهُ وَأَنَابَ إِلَيْهِ، رَحِيمٌ بِهِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ بَعْدَ إِتَابَتِهِ وَتَوْبَتِهِ مِنْهَا «مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» وَهَذَا مِنَ اللَّهِ تَهْدِيدٌ لِعِبَادِهِ وَوَعِيدٌ. يَقُولُ: لَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ، إِلَّا أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْكُمْ رِسَالَتَنَا، ثُمَّ إِلَيْنَا التَّوَابُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَلَيْنَا الْعِقَابُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَغَيْرُ خَفِيِّ عَلَيْنَا الْمُطِيعُ مِنْكُمْ الْقَابِلُ رِسَالَتَنَا، مِنَ الْعَاصِي الْآبِي

(١) البخاري: ١٨٢٥، ٢٥٧٣، ومسلم: ٨٥٠/٢ (٢) فتح الباري: ٥٢٨/٩، ٨٥٢/٢ (\*) ذكر الحافظ ابن كثير هنا أربع آيات. هي: ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩ ثم فسر أكثر الآية الأولى منها فقط إلى هذا الموضع، ولم يذكر تفسير آخرها ولا الثلاثة بعدها. وهذا هو الثابت في كل الأصول المخطوطة والمطبوعة. والظاهر أنه منها عن ذلك، رحمه الله. فمن البعيد جدًا أن يكون ذلك سهواً من الناسخين يتفقون عليه في جميع النسخ على اختلاف مصادرها. فرأيت - تكميل هذا النقص، بإثبات تفسيرها من تفسير إمام المفسرين: ابن جرير الطبري - بشيء من الاختصار والتصرف، والافتصار على التفسير نفسه. مراعيًا الدقة في المحافظة على عبارته العالية ما استطعت، إن شاء الله، وبه الاستعانة. (تكميل بقلم الشيخ أحمد شاكر، هذا كتب هنا في الأصل: سقط من هذا الموضع تفسير الثلاث الآيات ٩٧، ٩٨، ٩٩ وترك لها بياض في النسخة المكية. وليس فيه هذا التكميل). الناشر.

سَأَلُوهُ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَعِدَ الْمِئْبَرُ، فَقَالَ: «لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيِّنَتُهُ لَكُمْ» فَأَشْفَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيِ أَمْرِ قَدْ حَضَرَ، فَجَعَلْتُ لَا أَلْتَقِثُ بَيِّنًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا وَجَدْتُ كُلًّا لَا قَا رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ كَانَ يَلَاحِي فَيَدْعِي إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «أَبُوكَ حُدَافَةُ». قَالَ: ثُمَّ قَامَ عُمَرُ - أَوْ قَالَ: فَأَنْشَأَ عُمَرُ - فَقَالَ:

رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا عَائِدًا بِاللَّهِ - أَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الْفِتَنِ - قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ أَرْ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ، صُوِّرَتْ لِي الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا ذَوْنِ الْحَائِطِ»<sup>(٤)</sup>. أَخْرَجَاهُ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ<sup>(٥)</sup>.

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَافَتُهُ: أَيْنَ نَافَتِي؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ: «يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ»... حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْآيَةِ كُلِّهَا<sup>(٦)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» [آل عمران: ٩٧] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفِي كُلِّ عَامٍ؟ فَسَكَتَ، فَقَالُوا: أَفِي كُلِّ عَامٍ؟ فَسَكَتَ، فَقَالَ: «لَا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَّا اسْتَطَعْتُمْ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ» الْآيَةَ، وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٧)</sup>. وَظَاهِرُ الْآيَةِ التَّهْيِ عَنْ السُّؤَالِ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي إِذَا عَلِمَ بِهَا الشَّخْصُ سَاءَتُهُ، فَلَا وَلَى: الْإِعْرَاضُ عَنْهَا وَتَرْكُهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ» أَيِ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نُهَيْتُمْ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهَا، حِينَ يَنْزِلُ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَبَيَّنَ لَكُمْ «وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» [التغابن: ٧].

رِسَالَتَنَا. لِأَنَّا نَعْلَمُ مَا عَمِلَهُ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فَأَظْهَرَهُ بِجَوَارِحِهِ وَنَطَقَ بِهِ بِلِسَانِهِ، وَمَا تُخْفُونَهُ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ إِيْمَانٍ وَكُفْرٍ، أَوْ يَقِينٍ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ. فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ضَمَائِرِ الصُّدُورِ، وَظَوَاهِرِ أَعْمَالِ النُّفُوسِ، مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَبَيْنَهُ الثُّوَابُ وَالْعِقَابُ، فَحَقِيقٌ أَنْ يَتَّقَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى].

«قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أَلَذِّبَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ» يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: «قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ» أَيِ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ «كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» يَعْنِي أَنَّ الْقَلِيلَ الْحَلَالِ النَّافِعَ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الْحَرَامِ الضَّارِّ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا قُلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِّمَّا كَثُرَ وَاللَّهُ»<sup>(١)</sup>. «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أَلَذِّبَ» أَيِ يَا ذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَتَحَبَّبُوا الْحَرَامَ وَدَعُوهُ وَافْتَنُوا بِالْحَلَالِ وَاتَّقُوا بِهِ «لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ» أَيِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

### [دَمُ السُّؤَالِ بِدُونِ فَائِدَةٍ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ» هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَهْيٌ لَهُمْ عَنْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِي السُّؤَالِ وَالتَّنْقِيبِ عَنْهَا، لِأَنَّهَا إِنْ أَظْهَرَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْأُمُورَ رَبِّمَا سَاءَتْهُمْ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ سَمَاعُهَا، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، وَقَالَ فِيهَا: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَصَحَحْتُكُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قَالَ: فَعَطَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُوهَهُمْ لَهُمْ حِينٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «فُلَانٌ» فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ»<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَمُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: «يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ»... الْآيَةَ، قَالَ: فَحَدَّثَنَا: أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) أحمد: ١٩٧/٥ (٢) فتح الباري: ١٣٠/٨ (٣) فتح الباري:

٣٢٦/١١ ومسلم: ١٨٣٢/٤ وأحمد: ١٨٠/٣ وتحفة الأحوذ:

٤٢١/٨ وتحفة الأشراف: ٤١٣/١ (٤) الطبري: ١٠٠/١١ (٥)

فتح الباري: ٤٧/١٣ ومسلم: ١٨٣٤/٤ (٦) فتح الباري: ١٣٠/٨

(٧) أحمد: ١١٣/١ والترمذي: ٣٠٥٥ وابن ماجه: ٢٨٨٤

وَأِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا  
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ  
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ  
لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا  
فَإِن نَبِّئْتُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدُوا  
بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا  
عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ  
فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تُحْسِنُونَهَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ  
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ  
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّالْئِمِينَ ﴿١٠٥﴾ فَإِنْ عُدِلَ  
أَنْهَمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ  
اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ  
مِنْ شَهِدَتِهِمَا وَمَا آعْتَدِينَا إِنَّا إِذًا لَّالْمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ  
أَدْفَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَحْفَافُوا أَنْ تَرُدَّ آمِنٌ بَعْدَ  
أَيْمَنِهمُ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

يُحْمَلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ. وَسَمَوُةُ الْحَامِي (٤). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ  
وَالنَّسَائِيُّ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ  
النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِثَ وَعَبَدَ  
الْأَصْنَامَ أَبُو خُرَاعَةَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجُرُّ  
أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ» (٦). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.  
عَمْرُو هَذَا هُوَ ابْنُ لُحْيٍ بْنِ قَمْعَةَ، أَحَدُ رُؤَسَاءِ خُرَاعَةَ  
الَّذِينَ وَلُوا الْبَيْتَ بَعْدَ جُرْهُمَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ  
إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، فَادْخَلَ الْأَصْنَامَ إِلَى الْحِجَازِ، وَدَعَا  
الرَّعَاعَ مِنَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَتِهَا وَالتَّقَرُّبِ بِهَا، وَشَرَعَ لَهُمْ  
هَذِهِ الشَّرَائِعَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ

ثُمَّ قَالَ: «عَمَّا اللَّهُ عَنَّا» أَيَّ عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ  
«وَاللَّهُ عَمُّوُ حَلِيمٌ» وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «وَلَنْ تَسْأَلُوا عَنَّا  
حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ بُدْلَ لَكُمْ» أَيُّ: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ  
تَسْتَأْنِفُونَ السُّؤَالَ عَنْهَا، فَلَعَلَّهُ قَدْ يُنْزَلُ بِسَبَبِ سُؤَالِكُمْ  
تَشْدِيدٌ أَوْ تَضْيِيقٌ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «أَعْظَمُ  
الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَحْرَمْ، فَحَرَّمَ مِنْ  
أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» (١). «عَمَّا اللَّهُ عَنَّا» أَيُّ مَا لَمْ يَذْكُرْهُ فِي كِتَابِهِ  
فَهُوَ مِمَّا عَمَّا عَنْهُ، فَاسْكُتُوا أَنْتُمْ عَنْهَا. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ  
مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» (٢).  
وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَيْضًا: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ  
فَلَا تَضْيَعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا  
تَتَّبِعُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نَسْيَانٍ فَلَا  
تَسْأَلُوا عَنْهَا» (٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا  
كَافِرِينَ» أَيُّ قَدْ سَأَلَ هَذِهِ الْمَسَائِلَ الْمُنْهِيَّ عَنْهَا قَوْمٌ مِنْ  
قَبْلِكُمْ فَاجْتَبِئُوا عَنْهَا، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، فَأَصْبَحُوا بِهَا  
كَافِرِينَ، أَيُّ بِسَبَبِهَا، أَيُّ بَيِّنَتٍ لَهُمْ فَلَمْ يَتَّبِعُوهَا بِهَا،  
لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَلَىٰ وَجْهِ الْإِسْتِزَادِ بَلْ عَلَىٰ وَجْهِ  
الِاسْتِهْزَاءِ وَالْعِتَادِ.

«مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحْرٍ وَلَا سَابِغٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَذَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (١١)  
قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا  
وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا  
يَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

### [تَفْسِيرُ الْحَيَوَانَاتِ الْمَذْكُورَةِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ:  
"الْبَحِيرَةُ": الَّتِي يَنْمَعُ دُرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ  
مِنَ النَّاسِ، وَ"السَّائِيَةُ": كَانُوا يُسَبِّغُونَهَا لِأَهْلِيهِمْ لَا يُحْمَلُ  
عَلَيْهَا شَيْءٌ. قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
"رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ عَامِرٍ الْخُرَاعِيَّ يَجُرُّ قُضْبَةً فِي النَّارِ، وَكَانَ  
أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِثَ" وَ"الْوَصِيلَةُ": النَّاقَةُ الْبُكْرُ تُبَكَّرُ -  
فِي أَوَّلِ نِتَاجِ إِبِلٍ - ثُمَّ تُنْتَى بَعْدَ بَأْنَتِي، وَكَانُوا يُسَبِّغُونَهَا  
لِطَّوَاغِيَتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ،  
وَ"الْحَامُ": فَحْلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضَّرْبَ الْمَعْدُودَ، فَإِذَا  
قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ، وَأَغْفُوهُ عَنِ الْحَمْلِ، فَلَمْ

(١) البخاري: ٧٢٨٩ ومسلم: ٢٣٥٨ (٢) مسلم: ١٨٣١/٤

(٣) البيهقي: ١٢/١٠ (٤) فتح الباري: ١٣٣/٨ (٥) مسلم:

٢١٩٢/٤ والنسائي في الكبرى: ٣٣٨/٦ (٦) أحمد: ٤٤٦/١

إسناده ضعيف فيه إبراهيم بن مسلم الهجري قال ابن حجر: "لين

الحديث رفع موقوفات" [تقريب التهذيب]

لِلذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَإِنْ كَانَتْ مِثَّةً اشْتَرَكُوا فِيهَا. وَأَمَّا الْحَامِي: فَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا لَفَّحَ فَحُلَّهُ عَشْرًا قِيلَ: حَامٍ فَأَتْرَكُوهُ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو رُوَيْحٍ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَأَمَّا الْحَامُ فَالْفَحْلُ مِنَ الْإِبِلِ إِذَا وَلَدَ لَوَلَدِهِ قَالُوا: حَمَى هَذَا ظَهْرَهُ، فَلَا يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ شَيْئًا وَلَا يَجْزُونَ لَهُ وَبَرًا، وَلَا يَمْنَعُونَهُ مِنْ حِمَى رَعِي، وَمِنْ حَوْضٍ يَشْرَبُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الْحَوْضُ لِعَبْرٍ صَاحِبِهِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: أَمَّا الْحَامُ فَمِنْ الْإِبِلِ، كَانَ يَضْرِبُ فِي الْإِبِلِ فَإِذَا انْقَضَى ضَرَابُهُ جَعَلُوا عَلَيْهِ رِيشَ الطَّوَاوِيسِ وَسَيَّوَهُ، وَقَدْ قِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحَاقَ السَّيِّعِيِّ، عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ الْجُسَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي خُلُقَانٍ مِنَ الثِّيَابِ، فَقَالَ لِي: «هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ: مِنَ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَالْخَيْلِ، وَالرَّقِيقِ، قَالَ: «فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَاتَّخِذْ عَلَيْكَ»، ثُمَّ قَالَ: «تُنْتِجُ إِبِلَكَ وَافِيَةً أَذْنَاهَا؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَهَلْ تَنْتِجُ الْإِبِلَ إِلَّا كَذَلِكَ؟ قَالَ: «فَلَعَلَّكَ تَأْخُذُ الْمَوْسَى فَتَقْطَعُ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ [بُحْرًا] وَتَسْقُو آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ حُرْمٌ» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَلَا تَفْعَلْ، إِنَّ كُلَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ جَلٌّ»، ثُمَّ قَالَ: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ». أَمَّا الْبَحِيرَةُ، فَفِي الَّتِي يَجْدَعُونَ أَذْنَاهَا فَلَا تَنْتِجُ امْرَأَتَهُ وَلَا بَنَاتَهُ وَلَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ بِصُوفِهَا، وَلَا أَوْبَارِهَا، وَلَا أَشْعَارِهَا، وَلَا أَلْبَانِهَا، فَإِذَا مَاتَتْ اشْتَرَكُوا فِيهَا<sup>(٨)</sup>.

وَأَمَّا السَّائِيَةُ، فَفِي الَّتِي يُسَيِّونَ لِأَلْهَتِهِمْ وَيَذْهَبُونَ إِلَى أَلْهَتِهِمْ فَيُسَيِّونَهَا، وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ، فَالسَّاءُ تِلْدُ سِنَّةً أَبْطُنٍ، فَإِذَا وَلَدَتْ السَّابِعَ جُدَعَتْ وَقُطِعَ قُرْنُهَا، فَقَوْلُونَ: قَدْ وَصَلَتْ فَلَا يَذْبَحُونَهَا، وَلَا تَضْرِبُ وَلَا تُنَمَّعُ مِنْهَا وَرَدَتْ عَلَى حَوْضٍ. هَكَذَا يُذَكَّرُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ مُدْرَجًا فِي الْحَدِيثِ،

تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ [الأنعام: ١٣٦].

فَأَمَّا الْبَحِيرَةُ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هِيَ النَّاقَةُ إِذَا نُتِجَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ، نَظَرُوا إِلَى الْخَامِسِ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ، فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى جَدَعُوا أَذْنَاهَا، فَقَالُوا: هَذِهِ بَحِيرَةٌ<sup>(١)</sup>. وَذَكَرَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ قَرِيبًا مِنْ هَذَا<sup>(٢)</sup>. وَأَمَّا السَّائِيَةُ فَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ مِنَ الْغَنَمِ. نَحْوُ مَا فَسَّرَ مِنَ الْبَحِيرَةِ إِلَّا أَنَّهَا: مَا وَلَدَتْ مِنْ وَلَدٍ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ سِنَّةٌ أَوْلَادٍ، كَانَتْ عَلَى هَيْئَتِهَا، فَإِذَا وَلَدَتْ السَّابِعَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى أَوْ ذَكَرَيْنِ ذَبَحُوهُ، فَأَكَلَهُ رِجَالُهُمْ دُونَ نِسَائِهِمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ. السَّائِيَةُ هِيَ النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ مِنَ الْوَلَدِ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ، سَيِّتٌ فَلَمْ تُرْكَبْ وَلَمْ يَجْزَ وَبَرَّهَا وَلَمْ يُحْلَبْ لَبْنُهَا إِلَّا لِضَيْفٍ. وَقَالَ أَبُو رُوَيْحٍ: السَّائِيَةُ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا خَرَجَ فَقَضِيَتْ حَاجَتُهُ، سَيَّبَ مِنْ مَالِهِ نَاقَةً أَوْ غَيْرَهَا، فَجَعَلَهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فَمَا وَلَدَتْ مِنْ شَيْءٍ كَانَ لَهَا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا قَضِيَتْ حَاجَتُهُ، أَوْ عَوْفِي مِنْ مَرَضٍ، أَوْ كَثُرَ مَالُهُ، سَيَّبَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ لِلْأَوْتَانِ، فَمَنْ عَرَضَ لَهُ مِنَ النَّاسِ عَوْقَبَ بِعُقُوبَةٍ فِي الدُّنْيَا.

وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ السَّاءُ إِذَا نُتِجَتْ سَبْعَةُ أَبْطُنٍ، نَظَرُوا إِلَى السَّابِعِ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَهُوَ مَيِّتٌ - اشْتَرَكَ فِيهِ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى اسْتَحْيَوْهَا، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ اسْتَحْيَوْهُمَا وَقَالُوا: وَصَلْتُهُ أُخْتَهُ فَحَرَمْتُهُ عَلَيْهَا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَنْبَأَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾، قَالَ: فَالْوَصِيلَةُ مِنَ الْإِبِلِ كَانَتْ النَّاقَةُ تَنْتَكِرُ بِالْأُنْثَى، ثُمَّ تَنْتِ بِأُنْثَى فَسَمَّوْهَا الْوَصِيلَةَ، وَيَقُولُونَ: وَصَلْتُ أُنْثَيْنِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ، فَكَانُوا يَجْدَعُونَهَا لِطَّوَاغِيتِهِمْ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ ابْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: الْوَصِيلَةُ مِنَ الْغَنَمِ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ فِي خَمْسَةِ أَبْطُنٍ، تَوَآمَيْنَ تَوَآمَيْنٍ فِي كُلِّ بَطْنٍ، سُمِّيَتْ الْوَصِيلَةَ وَتُرِكَتْ، فَمَا وَلَدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى جُعِلَتْ

(١) الطبري: ١٢٩/١١ (٢) الطبري: ١٣٠/١١ (٣) الطبري:

١٢٨/١١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٢٢/٤ (٥) عبد الرزاق: ١/

١٩٦ (٦) الطبري: ١٢٩/١١ العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (٧)

ابن أبي حاتم: ١٢٢٥/٤ (٨) ابن أبي حاتم: ١٢٢٠/٤

الْوَصِيَّةِ أَتَيْنَا دَوًّا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ عَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَشْيَافِ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَهْمَا اسْتَحَقَّا إِنَّمَا فَخَارَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَنَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُونَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيَتِنَاهُمْ فَأَتُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

### [شَهَادَةُ عَدْلَيْنِ عَلَى الْوَصِيَّةِ]

اِسْتَمَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ عَلَى حُكْمٍ عَزِيزٍ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ أَيُّ شَهَادَةِ اثْنَيْنِ، وَقِيلَ: أَنْ يَشْهَدَ اثْنَانِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿دَوًّا عَدْلٍ﴾ وَصَفَ الْإِثْنَيْنِ بِأَنْ يَكُونَا عَدْلَيْنِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْكُمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ عَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ عَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قَالَ: مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ سَافَرْتُمْ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وَهَذَانِ شَرْطَانِ لِحُجُوزِ اسْتِشْهَادِ الدَّمِيِّينَ عِنْدَ فَقْدِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي سَفَرٍ، وَأَنْ يَكُونَ فِي وَصِيَّةٍ، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شُرَيْحُ الْقَاضِي. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ شُرَيْحٍ قَالَ: لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَّا فِي سَفَرٍ، وَلَا تَجُوزُ فِي سَفَرٍ إِلَّا فِي الْوَصِيَّةِ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ (٥). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَقَتَادَةُ وَعِكْرَمَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: يَعْنِي صَلَاةَ الْمُسْلِمِينَ (٦). وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ يُقَامَ هَذَانِ الشَّاهِدَانِ بَعْدَ صَلَاةِ اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا بِحَضْرَتِهِمْ ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أَيُّ فَيُخْلِفَانِ بِاللَّهِ ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أَيُّ إِنْ ظَهَرَتْ لَكُمْ مِنْهُمَا رِيبةٌ، أَنَّهُمَا خَانَا أَوْ غَلَا، فَيُخْلِفَانِ حَيْثُ دَلَّ بِاللَّهِ ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أَيُّ بِأَيْمَانِنَا.

(١) أحمد: ١٣٦/٤ (٢) أحمد: ٥/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٢٢٩/١٢ (٤) الطبري: ١٦٤، ١٦٣/١١ (٥) الطبري: ١١/١٧٢ (٦) الطبري: ١٧٤/١١

وَقَدْ رَوَى وَجْهٌ آخَرُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، مِنْ قَوْلِهِ، وَهُوَ أَشْبَهُ. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ أَبِي الزُّعْرَاءِ عَمْرٍو بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَمِّهِ أَبِي الْأَخْوَصِ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ نُضْلَةَ، عَنْ أَبِيهِ، بِهِ. وَلَيْسَ فِيهِ تَفْسِيرُ هَذِهِ (١). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذِبُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أَيُّ مَا سَرَعَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَلَا هِيَ عِنْدَهُ قُرْبَةٌ، وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ افْتَرَوْا ذَلِكَ، وَجَعَلُوهُ شَرْعًا لَهُمْ، وَقُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلِ لَهُمْ، بَلْ هُوَ وَبَالَ عَلَيْهِمْ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أَيُّ إِذَا دُعُوا إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَمَا أَوْجَبَهُ، وَتَرَكُوا مَا حَرَّمَهُ، قَالُوا: يَكْفِينَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْأَبَاءَ وَالْأَجْدَادَ مِنَ الطَّرِيقِ وَالْمَسَالِكِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أَيُّ لَا يَفْهَمُونَ حَقًّا وَلَا يَغْرِفُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَالْحَالَةَ هَذِهِ، لَا يَتَّبِعُهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ أَجْهَلُ مِنْهُمْ وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

### [الْأَمْرُ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُصْلِحُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيَتَعَلَّمُوا الْخَيْرَ بِجُهِدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ أَمْرُهُ لَا يَضُرُّهُ فُسَادُ مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاسِ، سِوَاءَ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَوْ بَعِيدًا.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَتَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُتَكَبِّرَ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ، يُوشِكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْصَهُمْ بِعِقَابِهِ». قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي أَكُفُّمُ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ (٢).

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْنَا الْغُيُوبَ ﴿١٢٦﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِصَ ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيَعْقِصَ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٩﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَن قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٣٠﴾

قَالَ مُتَابِلُ بْنُ حَيَّانَ. ﴿ثُمَّ﴾ أَيُّ لَا نَعْتَاضُ عَنْهُ بِعَوَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الرَّائِلَةِ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أَيُّ وَلَوْ كَانَ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ قَرِيبًا لَنَا لَا نُحَابِيهِ ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أَضَافَهَا إِلَى اللَّهِ تَشْرِيفًا لَهَا وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهَا ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَلَمِينَ﴾ أَيُّ إِنْ فَعَلْنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ تَحْرِيفِ الشَّهَادَةِ أَوْ تَبْدِيلِهَا أَوْ تَغْيِيرِهَا أَوْ كُتْمِهَا بِالْكَلْبَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ عَمِرَ عَلَىٰ أَهْمًا اسْتَحَقَّ إِنَّمَا﴾ أَيُّ فَإِنْ اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين: أَنَّهُمَا خَافَا أَوْ غَلَا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ الْمُوصَىٰ بِهِ إِلَيْهِمَا، وَظَهَرَ عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ ﴿فَقَارَئَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيُّ مَتَى تَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالْخَبَرِ الصَّحِيحِ عَلَىٰ خِيَانَتِهِمَا، فَلْيَقُمْ اثْنَانِ مِنَ التَّوْرَةِ الْمُسْتَحَقِّينَ لِلتَّرِكَةِ، وَلْيَكُونَا مِنْ أَوْلَى مَنْ يَرِثُ ذَلِكَ الْمَالِ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا﴾ أَيُّ لَقَوْلُنَا: إِنَّهُمَا خَافَا، أَحَقُّ وَأَصَحُّ وَأَثْبَتُ مِنْ شَهَادَتِهِمَا الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿وَمَا أَصَدَّقْنَا﴾ أَيُّ فِيمَا قُلْنَا فِيهِمَا مِنَ الْخِيَانَةِ، ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ إِنْ كُنَّا قَدْ كَذَبْنَا عَلَيْهِمَا. وَهَذَا التَّحْلِيفُ لِلتَّوْرَةِ وَالرُّجُوعُ إِلَى قَوْلِهِمَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ: كَمَا يَحْلِفُ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ إِذَا ظَهَرَ لَوْثٌ فِي جَانِبِ الْقَاتِلِ، فَيُقْسِمُ الْمُسْتَحَقُّونَ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُدْفَعُ بِرُمَّتِهِ إِلَيْهِمْ. كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي بَابِ الْقَسَامَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ أَذَقُ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا﴾ أَيُّ شَرْعِيَّةُ هَذَا الْحُكْمِ عَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ الْمُرْضِي مِنْ تَحْلِيفِ الشَّاهِدَيْنِ الدَّمِينَيْنِ - [وَقَدْ] اسْتَرْبَ بِهِمَا - أَقْرَبُ إِلَى إِقَامَتِهِمَا الشَّهَادَةَ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمُرْضِي. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أَيُّ يَكُونُ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى الْإِثْنَانِ بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا هُوَ تَعْظِيمُ الْحَلْفِ بِاللَّهِ، وَمُرَاعَاةُ جَانِبِهِ وَإِجْلَالُهُ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفُضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ رُدَّتِ الْيَمِينُ عَلَى التَّوْرَةِ، فَيَحْلِفُونَ وَيَسْتَحَقُّونَ مَا يَدْعُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ، ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أَيُّ وَأَطِيعُوا، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيُّ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ وَمَتَابَعَةِ شَرْعِيَّتِهِ.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ ﴿١٢٦﴾﴾

[يَسْأَلُ الْأَنْبِيَاءُ عَنْ أَمْرِهِمْ]

هَذَا إِخْبَارٌ عَمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

عَمَّا أُجِيبُوا بِهِ مِنْ أَمْرِهِمُ الَّذِينَ أُرْسِلَهُمُ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وَقَوْلُ الرُّسُلِ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ<sup>(١)</sup>. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ الثَّوْرِيِّ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ فَيَفْرَعُونَ فَيَقُولُونَ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٣)</sup> وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ﴾ يَقُولُونَ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ: لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا عِلْمُ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا<sup>(٤)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، ثُمَّ اخْتَارَهُ وَهُوَ مِنْ

(١) الطبري: ٢١٠/١١ (٢) عبد الرزاق: ٢٠١/١ (٣)

الطبري: ٢١٠/١١ (٤) الطبري: ٢١١/١١

يَاذِنُ اللَّهُ وَخَلَقَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَبَرَّئِ الْأَكْمَةَ وَالْأَرْصَ يَاذِي﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَ يَاذِي﴾ أَيْ تَدْعُوهُمْ فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَاذِنُ اللَّهُ وَتُدْرِيهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ وَادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ فِي كَفِّي إِيَّاهُمْ عَنْكَ حِينَ جِئْتَهُمْ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ عَلَى بُيُوتِكَ وَرَسَائِلِكَ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوكَ وَاتَّهَمُوكَ بِأَنَّكَ سَاحِرٌ، وَسَعَوْا فِي قَتْلِكَ وَصَلَبِكَ فَتَجَبَّحْتَ مِنْهُمْ، وَرَفَعْتُكَ إِلَيَّ، وَطَهَرْتُكَ مِنْ دَنَسِهِمْ، وَكَفَيْتُكَ شَرَّهُمْ. وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْإِمْتِنَانَ يَكُونُ وَاقِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَغُبْرٌ عَنْهُ بِصِغَةِ الْمَاضِي دَلَالَةٌ عَلَى وَقُوعِهِ لَا مَحَالَةَ، وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ الْغُيُوبِ الَّتِي أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرَسُولِي﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْإِمْتِنَانِ عَلَيْهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَنْ جَعَلَ لَهُ أَصْحَابًا وَأَنْصَارًا. وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْوَحْيِ وَحْيُ الْإِلَهَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِي﴾ الْآيَةُ [القصص: ١٧]، وَهُوَ وَحْيُ الْإِلَهَامِ بِلَا خِلَافٍ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ أَنْ تَنْخِذَ مِنْ لَدُنْكَ بَيُوتًا مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ثُمَّ كُنِيَ مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ فَاسْتَلْكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذَلِكَ﴾ الْآيَةُ [النحل: ٦٨، ٦٩]، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَلْهِمَّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ. وَقَالَ السُّدِّي: قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: «ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قَالُوا يُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَتَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْنَا وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

[بَيَانُ نَزُولِ الْمَائِدَةِ]

هَذِهِ قِصَّةُ الْمَائِدَةِ وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ السُّورَةُ، فَيَقَالُ سُورَةُ الْمَائِدَةِ، وَهِيَ مِمَّا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ

بَابُ التَّادِبِ مَعَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، أَيْ لَا عِلْمَ لَنَا بِالنَّسَبَةِ إِلَى عِلْمِكَ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَتَحَنَّنْ وَإِنْ كُنَّا أَجْنَبًا وَعَرَفْنَا مَنْ أَجَابَنَا، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كُنَّا إِنَّمَا نَطْلُعُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا عِلْمَ لَنَا بِبَاطِنِهِ، وَأَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْمُطَّلِعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَعَلِمْنَا بِالنَّسَبَةِ إِلَى عِلْمِكَ كَلَّا عِلْمٍ، فَإِنَّكَ أَنتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبَرَّئِ الْأَكْمَةَ وَالْأَرْصَ يَاذِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَ يَاذِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

[تَذَكُّيرُ عِيسَى بِالنَّعَمِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا أَجْرَاهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، فَقَالَ: ﴿اَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أَيْ فِي خَلْقِي إِيَّاكَ مِنْ أُمِّ بَلَا ذَكَرَ، وَجَعَلِي إِيَّاكَ آيَةً وَدَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِي عَلَى الْأَشْيَاءِ، ﴿وَعَلَى وَلَدَتِكَ﴾ حَيْثُ جَعَلْتُكَ لَهَا بُرْهَانًا عَلَى بَرَاءَتِهَا مِمَّا نَسَبَهُ الظَّالِمُونَ وَالنَّجَاهِلُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلْتُكَ نَبِيًّا دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ، فَأَطَقْتُكَ فِي الْمَهْدِ صَغِيرًا، فَشَهِدْتَ بِبَرَاءَةِ أُمِّكَ مِنْ كُلِّ غَيْبٍ، وَاعْتَرَفْتَ لِي بِالْعِبُودِيَّةِ، وَأَخْبَرْتَ عَنْ رِسَالَتِي إِيَّاكَ. وَدَعَوْتَ إِلَى عِبَادَتِي. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أَيْ تَدْعُو إِلَى اللَّهِ النَّاسَ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ وَضَمَّنَ ﴿تُكَلِّمُ﴾ تَدْعُو، لِأَنَّ كَلَامَهُ النَّاسَ فِي كَهُولِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أَيْ الْخَطَّ وَالْفَهْمَ «وَالتَّوْرَةَ» وَهِيَ الْمُتَرْتَلَةُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ الْكَلِيمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أَيْ تُصَوِّرُهُ وَتُشَكِّلُهُ عَلَى هَيْئَةِ الطَّائِرِ بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ، فَيَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِي أَيْ فَتَنْفُخُ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي شَكَلْتَهَا، بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ، فَتَكُونُ طَيْرًا ذَا رُوحٍ تَطِيرُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٧

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخِيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٨﴾ إِنْ تَعْبُدُونَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَعْفُرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٠﴾ لِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢١﴾

عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، عَلَيْهَا سَبْعَةُ أَرْغِفَةٍ، وَسَبْعَةُ أَخْوَاتٍ، يَأْكُلُونَ مِنْهَا مَا شَاءُوا. قَالَ: فَسَرَقَ بَعْضُهُمْ مِنْهَا وَقَالَ: لَعَلَّهَا لَا تَنْزِلُ عَذَابًا. فَرُفِعَتْ<sup>(٥)</sup>.

وَهَذِهِ الْأَثَارُ وَغَيْرُهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيَّامَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، إِجَابَةً مِنَ اللَّهِ لِدَعْوَتِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ ظَاهِرُ هَذَا السِّيَاقِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الْآيَةُ.

[وَأَقِصَّةُ تَارِيخِيَّةٍ غَرِيبَةٍ]

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ التَّارِيخِ أَنَّ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ نَائِبَ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي قُتُوخِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَجَدَ الْمَائِدَةَ هُنَالِكَ مُرْصَعَةً بِاللَّيْلِ وَأَنْوَاعَ الْجَوَاهِرِ، فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بَانِي جَامِعِ دِمَشْقَ، فَمَاتَ وَهِيَ فِي

(١) الطبري: ١١/٢٢٥ (٢) الطبري: ١١/٢٢٥ (٣) الطبري:

١١/٢٣٣ (٤) الطبري: ٥/١٣٢ وابن أبي حاتم: ٤/١٢٤٦

(٥) الطبري: ٥/١٣٤

عِيسَى، لَمَّا أَجَابَ دُعَاءَهُ بِنُزُولِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةً بَاهِرَةً وَحُجَّةً قَاطِعَةً، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وَالْمَائِدَةُ هِيَ الْخُزَانُ عَلَيْهِ الطَّعَامُ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا ذَلِكَ لِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةٌ كُلَّ يَوْمٍ يَتَنَاثَرُونَ مِنْهَا وَيَتَفَرَّقُونَ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ فَاجَابَهُمُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَسْأَلُوا هَذَا، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لَكُمْ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أَيْ نَحْنُ مُخْتَارُونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا، ﴿وَتَعْلَمِينَ قُلُوبًا﴾ إِذَا شَاهَدْنَا نُزُولَهَا رِزْقًا لَنَا مِنَ السَّمَاءِ، ﴿وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا﴾ أَيْ وَنَزَدَادُ إِيمَانًا بِكَ وَعِلْمًا بِرِسَالَتِكَ ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيْ وَنَشْهَدُ أَنَّهَا الْآيَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِكَ وَصِدْقِ مَا جِئْتَ بِهِ. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: أَيْ تَخْجِذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نَعْظُمُهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدَنَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: يَعْني يَوْمًا نُصَلِّي فِيهِ<sup>(٢)</sup>. ﴿وَأَيُّهَا مِنْكَ﴾ أَيْ دَلِيلًا تَنْصِبُهُ عَلَى قُدْرَتِكَ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَعَلَى إِجَابَتِكَ لِدَعْوَتِي، فَيَصْدُقُونِي فِيمَا أُبَلِّغُهُ عَنْكَ، ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أَيْ مِنْ عِنْدِكَ رِزْقًا هَيِّئًا بِلَا كُفْلَةٍ وَلَا تَعَبٍ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ أَيْ فَمَنْ كَذَّبَ بِهَا مِنْ أُمَّتِكَ يَا عِيسَى وَعَائِدَتِهَا، ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ مِنْ عَالَمِي زَمَانِكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخِلُوا أَعَالٍ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَجَةِ الْأَعْلَى مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْمُتَنَافِقُونَ، وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَائِدَةِ، وَأَلْ فِرْعَوْنُ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَالُوا لَهُ: اذْعُ اللَّهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ: فَتَزَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ بِالْمَائِدَةِ يَحْمِلُونَهَا، عَلَيْهَا سَبْعَةُ أَخْوَاتٍ، وَسَبْعَةُ أَرْغِفَةٍ، حَتَّى وَضَعَتْهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَأَكَلَ مِنْهَا آخِرُ النَّاسِ كَمَا أَكَلَ مِنْهَا أَوَّلُهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أَيِ كُنْتُ أَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حِينَ كُنْتُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَامَ فِيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حُفَاةَ عُرَاءَ غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ، أَلَا وَلَئِنَّ بُجَاءَ بِرَجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [١] إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَيَقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ» (٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ رَدَّ الْمَشِيتَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَيَتَضَمَّنُ التَّبَرُّيَّ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، وَجَعَلُوا لَهُ نِدَاءً وَصَاحِبَةً وَوَلَدًا، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ لَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَبَنَاءٌ عَجِيبٌ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ بِهَا لَيْلَةً حَتَّى الصَّبَاحُ يَرُدُّدَهَا.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١] لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾

[لَا يَنْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الصَّدْقُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِيمَا أَنْهَاهُ إِلَيْهِ: مِنَ التَّبَرُّيِّ مِنَ النَّصَارَى الْمُلْحِدِينَ الْكَاذِبِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ. وَمِنْ رَدِّ الْمَشِيتَةِ فِيهِمْ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: يَوْمَ يَنْفَعُ الْمُؤَحِّدِينَ تَوْحِيدُهُمْ، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ

الطَّرِيقِ، فَحُمِلَتْ إِلَى أَخِيهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ، فَرَأَاهَا النَّاسُ فَتَعَجَّبُوا مِنْهَا كَثِيرًا، لِمَا فِيهَا مِنَ الْيَوَاقِيتِ النَّفِيسَةِ وَالْجَوَاهِرِ الْيَتِيمَةِ. وَيَقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَائِدَةَ كَانَتْ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ [١] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٣]

[الْمَسِيحُ يَتَبَرَّأُ مِنَ الشِّرْكِ وَيُفِرُّ بِالتَّوْحِيدِ]

هَذَا أَيْضًا مِمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَضْرَةِ مَنْ اتَّخَذَهُ وَأُمَّهُ إِلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّصَارَى وَتَوْبِيخٌ وَتَفْرِيعٌ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ. هَكَذَا قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ، وَاسْتَدَلَّ قَتَادَةُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هَذَا تَوْفِيقٌ لِلتَّأْدِيبِ فِي الْجَوَابِ الْكَامِلِ، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: يُلْقَى عِيسَى حُجَّتَهُ، وَلَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: فَلَقَاهُ اللَّهُ ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (١). وَقَدْ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ طَاوُسٍ بِنَحْوِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أَيِ إِنْ كَانَ صَدَرَ مِنِّي هَذَا فَقَدْ عَلِمْتُمْ يَا رَبِّ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ، فَمَا قُلْتُهُ وَلَا أَرَدْتُهُ فِي نَفْسِي وَلَا أَضْمَرْتُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ [١] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَيِ مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَّا إِلَى الَّذِي أُرْسَلْتَنِي بِهِ وَأَمَرْتَنِي بِإِبْلَاغِهِ: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَيِ هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ لَهُمْ.

(١) ابن أبي حاتم: ١٢٥٣/٤ (٢) مسند الطيالسي: ٣٤٣ (٣) فتح الباري: ١٣٥/٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ  
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي  
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ  
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ  
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ  
آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ  
لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَستَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَمْ  
يُرَوِّكُم أَهْلُكُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ  
تُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ  
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا  
آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ  
لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ  
عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَاهُ مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾

آخِرُ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَأَنْبِئُوهُ وَلَا  
تَتَّبِعُوا السَّيْلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ثُمَّ  
قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَيُّ وَمَعَ  
هَذَا كُلِّهِ كَفَرُوا بِهِ بَعْضُ عِبَادِهِ، وَجَعَلُوا لَهُ شَرِيكًَا وَعَدَلًا،  
وَاتَّخَذُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا. تَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ  
عُلُوًّا كَبِيرًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يَعْنِي  
أَبَاهُمْ آدَمَ، الَّذِي هُوَ أَصْلُهُمْ، وَمِنْهُ خَرَجُوا فَانْتَشَرُوا فِي  
الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى  
عِنْدَهُ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ثُمَّ قَضَىٰ  
أَجَلًا﴾ يَعْنِي الْمَوْتَ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يَعْنِي الْآخِرَةَ (٥).  
وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،

تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلَيْنِ فِيهَا أَبَدًا﴾ أَيُّ مَا كَيْتَبَ فِيهَا، لَا  
يُحَوَّلُونَ وَلَا يَزُولُونَ، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَرِضُونُ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أَيُّ هَذَا الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا  
أَعْظَمَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾  
[الصافات: ٦١] وَكَمَا قَالَ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾  
[المطففين: ٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ  
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ، الْمَالِكُ لَهَا،  
الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، الْقَادِرُ عَلَيْهَا، فَالْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ  
وَقُدْرَتِهِ، وَفِي مَشِيتَتِهِ، فَلَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا وَزِيرَ، وَلَا عَدِيلَ،  
وَلَا وَالِدَ، وَلَا وَلَدَ، وَلَا صَاحِبَةَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ  
سِوَاهُ. قَالَ ابْنُ وَهْبٍ سَمِعْتُ حَبِيبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ عَنْ  
أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبْلِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: آخِرُ  
سُورَةِ أَنْزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ (١).

## تفسير سورة الأنعام وهي مكية

[فصل سورة الأنعام وزمن نزولها]

قَالَ الْعَوْفِيُّ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنْزَلَتْ  
سُورَةُ الْأَنْعَامِ بِمَكَّةَ (٢). وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،  
قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ بِمَكَّةَ لَيْلًا جُمْلَةً وَاحِدَةً،  
حَوْلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجَازُونَ حَوْلَهَا بِالنَّبِيِّ (٣).  
وَقَالَ الشَّيْخُ عَنْ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ  
الْأَنْعَامِ يُشَيِّعُهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ (٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ  
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي  
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ  
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ  
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

[الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ جَلِيلِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا دَحَا نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ، وَحَامِدًا لَهَا  
عَلَىٰ خَلْقِهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَرَارًا لِعِبَادِهِ، وَجَعَلَ  
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ مَنَفَعَةً لِعِبَادِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. فَجَمَعَ  
لَفْظَ الظُّلُمَاتِ، وَوَحَدَ لَفْظَ النُّورِ، لِيُكَوِّنَهُ أَشْرَفَ، كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨] وَكَمَا قَالَ فِي

(١) الترمذي: ٣٠٦٣ (٢) الدر المنثور: ٢٤٣/٣ (٣)  
الطبراني: ٢١٥/١٢ إسناده ضعيف فيه يوسف بن مهران البصري  
قال ابن حجر: لم يرو عنه إلا ابن جُدعان لين الحديث [تقريب  
٣٩٢] وعلي بن زيد بن جُدعان ضعيف (٤) الدر المنثور: ٣/٣  
٢٤٣ (٥) الطبري: ٢٥٧/١١

الدُّنْيَا مَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ، مِنَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَاسْتِغْلَالًا لِلْأَرْضِ، وَعِمَارَةً لَهَا، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أَيْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَعْمَارِ، وَالْجَاهِ الْعَرِيسِ وَالسَّعَةِ وَالْجُنُودِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أَيْ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أَيْ أَكْثَرْنَا عَلَيْهِمْ أَطْطَارَ السَّمَاءِ وَيَتَابَعِ الْأَرْضِ، أَيْ اسْتَدْرَجْنَا وَإِمْلَاءَ لَهُمْ ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَدْوَاهُمْ﴾ أَيْ بِخَطَايَاهُمْ، وَسَيِّئَاتِهِمُ الَّتِي اجْتَرَحُوهَا ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أَيْ فَذَهَبَ الْأَوَّلُونَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أَيْ جِيلًا آخَرَ لِنُخْتَرِمَهُمْ، فَعَمِلُوا مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ، فَأَهْلَكُوا كَأَهْلَاكِهِمْ، فَاحْذَرُوا أَثِمًا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَمَا أَنْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ، وَالرَّسُولُ الَّذِي كَذَّبْتُمُوهُ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ رَسُولِهِمْ، فَانْتُمْ أَوْلَى بِالْعَذَابِ وَمُعَاجِلَةِ الْعُقُوبَةِ، مِنْهُمْ، لَوْلَا لُطْفُهُ وَإِحْسَانُهُ.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ فَلَسَوْهُ بِإِلَيْهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ٧ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُصِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ ٨ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَسَبْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ ٩ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ١٠ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ١١

[ذَمُّ الْمُعَانِدِينَ وَإِبَاؤُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ، وَمُبَاهِجَتِهِمْ وَمُنَازَعَتِهِمْ فِيهِ، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ فَلَسَوْهُ بِإِلَيْهِمْ﴾ أَيْ عَابِيُوهُ وَرَأَوْا نُزُولَهُ، وَبَاشَرُوا ذَلِكَ، ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُكَابَرَتِهِمْ لِلْمَحْسُوسَاتِ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ٧ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سِحْرٌ مَبْرُورٌ﴾ ٨ ﴿أَبْصُرْنَا بِهَذَا نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾

وَالْحَسَنِ وَقَنَادَةَ وَالضَّحَّاكَ، وَزَيْدَ بْنِ أَسْلَمَ وَعَطِيَّةَ وَالسُّدِّيَّ، وَمُقَاتِلَ بْنِ حَبِآنَ وَغَيْرِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ يَعْنِي مُدَّةَ الدُّنْيَا<sup>(٢)</sup>. ﴿وَأَجَلَ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يَعْنِي عُمُرَ الْإِنْسَانِ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ. وَكَأَنَّهُ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عِنْدَهُمْ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عَبْدُ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِأَمْرِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿تَشْكُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ١٧ فِيمَ أَنْتَ مِنْ دِكْرِنَهَا<sup>(٣)</sup> إِلَى رَبِّكَ مِنْهَا<sup>(٤)</sup> [النازعات: ٤٢-٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي تَشْكُونَ فِي أَمْرِ السَّاعَةِ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أَيْ هُوَ الْمَدْعُو: اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، أَيْ بَعْدَهُ وَيُوحِّدُهُ وَيُقِرُّ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَيُسْمُونَهُ: اللَّهُ، وَيَدْعُونَهُ رَغْبًا وَرَهْبًا، إِلَّا مَنْ كَفَرَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤] أَيْ هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أَيْ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ خَيْرًا وَشَرًّا.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ١٢ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ١٣ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَدْوَاهُمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ١٤

[عِنَادُ الْمُشْرِكِينَ وَتَوَعُّدُهُمْ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ: أَنَّهُمْ مَهْمَا أَتَتْهُمْ مِنْ آيَةٍ أَيْ دَلَالَةٍ وَمُعْجَزَةٍ وَحُجَّةٍ مِنَ الدَّلَالَاتِ، عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ، فَإِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهَا، فَلَا يُنْظَرُونَ إِلَيْهَا وَلَا يُبَالُونَ بِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ، بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرٌ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَيُجِدْنَ غِيَةً وَلَيَدُوقَنَّ وَبَالَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى وَاعْظَا لَهُمْ وَمَحْذَرًا لَهُمْ، أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ

(١) الطبري: ٢٥٦/١١-٢٥٨ (٢) الطبري: ٢٥٦/١١ (٣)

الطبري: ٢٦٠/١١

الْأَنْعَامُ

١٢٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَسْنَهَزْنا بَرُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْبَيْتِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَيْدِيَّ وَأَفْطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٧﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَذْفَقْ رَحْمَةً، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٨﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ خَيْرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَهُوَ الْغَاثُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٠﴾

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْبَيْتِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَيْدِيَّ وَأَفْطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَذْفَقْ رَحْمَةً، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٥﴾

[اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ فَيَجِبُ الْإِنْفِقَادُ لَهُ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِمَا، وَأَنَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الرَّحْمَةَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» (٢). وَقَوْلُهُ: «لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ» هَذِهِ اللَّامُ هِيَ الْمُؤَطَّتَةُ لِلْقَسَمِ،

[الطور: ٤٤] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أَيْ لِيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أَيْ لَوْ نَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، لَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْعَذَابُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا نُظِرَ فِي [الحجر: ٨] وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ الْآيَةُ [الفرقان: ٢٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أَيْ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَعَ الرَّسُولِ الْبَشَرِيَّ مَلَكًا، أَيْ لَوْ بَعَثْنَا إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مَلَكِيًّا، لَكَانَ عَلَى هَيْئَةِ الرَّجُلِ لِيُمْكِنَهُمْ مُخَاطَبَتُهُ وَالْإِنْفِقَاعُ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأَلْتَسَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، كَمَا هُمْ يَلْبَسُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي قُبُولِ رِسَالَةِ الْبَشَرِيِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] فَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْخَلَائِقِ رُسُلًا مِنْهُمْ، لِيَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلِيُمْكِنَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَتَّبِعَ بِبَعْضٍ، فِي الْمَخَاطَبَةِ وَالسُّؤَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوعِهِمْ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١٦٤]، قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَاهُمْ مَلَكٌ، مَا أَنَاهُمْ إِلَّا فِي صُورَةِ رَجُلٍ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ النَّظَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الثُّورِ. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أَيْ وَلَخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَخْلُطُونَ (١). وَقَالَ الْوَالِيزِيُّ عَنْهُ: وَلَسَبَّهْنَا عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَزْنا بَرُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَوَعْدٌ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِالنُّصْرَةِ وَالْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أَيْ فَكُفُّوا فِي أَنْفُسِكُمْ، وَانظُرُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَعَانَدُوهُمْ، مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا آذَرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَكَيْفَ نَجَّى رُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ

(١) الطبري: ٢٦٨/١١ الضحاک لم یلق ابن عباس (٢) فتح الباری: ٣٩٥/١٣ ومسلم: ٢١٠٧/٤

فَأَقْصَمَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، لِيَجْمَعَ عِبَادَهُ ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ تَعْلَمُونَ﴾  
 [الواقعة: ٥٠] وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، أَيْ لَا  
 شَكَّ فِيهِ عِنْدَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَمَّا الْجَا حِلْدُونَ الْمُكْذِبُونَ،  
 فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾  
 أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ لَا يُصَدِّقُونَ  
 بِالْمَعَادِ، وَلَا يَخَافُونَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:  
 ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيْ كُلُّ ذَاتَةٍ فِي السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ الْجَمِيعِ عِبَادُهُ وَخَلْقُهُ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصْرِفِهِ  
 وَتَدْبِيرِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيْ  
 السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ  
 وَسَرَائِرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ،  
 الَّذِي بَعَثَهُ بِالْتَّوْحِيدِ الْعَظِيمِ وَبِالشَّرْعِ الْقَوِيمِ، وَأَمَرَهُ أَنْ  
 يَدْعُو النَّاسَ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيذُ  
 وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي  
 أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] وَالْمَعْنَى لَا أَتَّخِذُ وَلِيًّا إِلَّا  
 اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَيْ  
 خَالِقُهُمَا وَمُبْدِعُهُمَا، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿هُوَ يُطْعِمُ وَلَا  
 يُطْعَمُ﴾ أَيْ هُوَ الرِّزَاقُ لِخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ احتِياجٍ إِلَيْهِمْ، كَمَا  
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونِي﴾ الْآيَةُ  
 [الذاريات: ٥٦]، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ هَهُنَا (هُوَ يُطْعِمُ وَلَا  
 يُطْعَمُ) أَيْ لَا يَأْكُلُ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُ، قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - مِنْ أَهْلِ قُبَاءَ -  
 النَّبِيَّ ﷺ عَلَى طَعَامٍ، فَأَنْطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ النَّبِيُّ ﷺ  
 وَغَسَلَ يَدَيْهِ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ،  
 وَمَنْ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَانَا  
 مِنَ الْعُرْيِ، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرُ مُودِعٍ  
 رَبِّي، وَلَا [مُكَافِيٍّ] وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ. الْحَمْدُ  
 لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَانَا  
 مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالِ، وَبَصَرَنَا مِنَ الْعَمَى،  
 وَفَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ  
 الْعَالَمِينَ»<sup>(١)</sup>. ﴿قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾  
 أَيْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿وَلَا تَكُونْتُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي  
 أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ﴾ أَيْ الْعَذَابُ ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يَعْنِي  
 رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْيُسْبِيءُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ رُحِنَ عَنِ  
 الْكُتَارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

وَالْفَوْزُ: حُصُولُ الرِّبْحِ، وَنَفْيُ الْخَسَارَةِ.  
 ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ  
 بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ  
 الْحَكِيمُ الْحَقِيرُ ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ  
 وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذِهِ الْقُرْآنُ لِأُذَكِّرَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّكَ مَعَ  
 اللَّهِ. وَاللَّهُ آخِرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا  
 تَشْرِكُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ  
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى  
 اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٦﴾

[اللَّهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْقَاهِرُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا: أَنَّهُ مَالِكُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ، وَأَنَّهُ  
 الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، لَا مَعْصِيَةَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ  
 لِقَضَائِهِ، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ  
 وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا



﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٢٢) ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَنْ مِّنْ يَّسْتَعِ إِلَىٰكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُذَّبًا يَوَدُّ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوِي عَنْهُ وَإِنَّ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

[يُسَالِ الْمُشْرِكُونَ عَنْ شِرْكِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ، قَائِلًا لَهُمْ: ﴿إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصاص: ٦٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أَيُّ حُجَّتِهِمْ وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ بَلِيَّتُهُمْ حِينَ ابْتُلُوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣). قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٢٤) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَوْ تَكُنْ لَدَعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَصِلُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

[لَا يَسْتَفِيدُ الشَّقِيُّ مِنَ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّسْتَعِ إِلَىٰكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُذَّبًا يَوَدُّ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أَيُّ يَجِثُونَ لِيَسْتَمِعُوا قِرَاءَتَكَ، وَلَا تَجْزِي عَنْهُمْ شَيْئًا، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَيُّ أُعْطِيَهُ، لِئَلَّا يَفْقَهُوا الْقُرْآنَ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أَيُّ صَمَمًا عَنِ السَّمْعِ النَّافِعِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْقُوعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾... الآية [البقرة: ١٧١]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُذَّبًا يَوَدُّ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أَيُّ مَهْمَا رَأَوْا مِنْ الْآيَاتِ وَالذَّلَالَاتِ وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ، لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، فَلَا فَهْمَ عَنْهُمْ وَلَا إِنْصَافَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ﴾... الآية [الأنفال: ٢٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أَيُّ

يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية [فاطر: ٢٢]، وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» (١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْفَاحِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرُّقَابُ، وَذَلِكَ لَهُ الْجَبَابِرَةُ، وَعَنْتَ لَهُ الرُّجُومُ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَدَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ، وَتَوَاضَعَتْ لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ، وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَاسْتِكَانَتِ وَتَضَاعَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَحَتَّ قَهْرُهُ وَحُكْمُهُ، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ ﴿الْقَهِيرُ﴾ بِمَوَاضِعِ الْأَشْيَاءِ وَمَحَالِّهَا، فَلَا يُعْطِي إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ، وَلَا يَمْنَحُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَتَىٰ شَيْءٌ أَكْثَرَ شَهَادَةً﴾ أَيُّ مِنْ أَكْظَمِ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيُّ هُوَ الْعَالِمُ بِمَا جِئْتُمْ بِهِ، وَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ لِي ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أَيُّ هُوَ نَذِيرٌ لِّكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَكْثُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: حَقٌّ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَنْ يَدْعُو كَالَّذِي دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ يُنْذِرَ بِالَّذِي أَنْذَرَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُ﴾ [الأنعام: ١٥٠] ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

[أَهْلُ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ بِمَا عَنْدهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَنْبَاءِ، عَنِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ بَشَرُوا بِوُجُودِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْيِهِ وَصِفَتِهِ، وَبَلَدِهِ وَمَهَاجِرِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَيُّ خَسِرُوا كُلَّ الْخَسَارَةِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِهَذَا الْأَمْرِ الْحَقِّ الظَّاهِرِ الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَتَوَهَّتْ بِهِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ تَقُولُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أَيُّ لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ تَقُولُ عَلَى اللَّهِ، فَادَّعَى أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلَهُ، ثُمَّ لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَحُجَجِهِ، وَبَرَاهِينِهِ، وَذَلَالَاتِهِ. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ لَا يُفْلِحُ هَذَا وَلَا هَذَا، لَا الْمُفْتَرِي وَلَا الْمُكَذِّبُ.

## الْبَيِّنَاتُ

١٣١

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

يُحَاجُّونَكَ وَيُنَاطِرُونَكَ، فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِطُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيُّ مَا هَذَا الَّذِي جِئْتُ بِهِ، إِلَّا مَا خُودًا مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ، وَمَنْقُولٌ عَنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أَيُّ أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَتَصْدِيقِ الرَّسُولِ وَالْإِنْفِصَادِ لِلْقُرْآنِ، ﴿وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أَيُّ وَيَبْغِدُونَ هُمُ عَنْهُ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْفُغْلِيِّينَ الْقَيْسِيِّينَ، لَا يَنْتَفِعُونَ وَلَا يَدْعُونَ أَحَدًا يَنْتَفِعُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يَرُدُّونَ النَّاسَ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: كَانَ كُفَّارُ فُرَيْشٍ لَا يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّبَّاحُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>. ﴿وَلَنْ يَهْلِكُوا إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ﴾ أَيُّ وَمَا يَهْلِكُونَ بِهَذَا الصَّنِيعِ، وَلَا يَبُودُ وَيَالَهُ إِلَّا عَلَيْهِمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾

## [لَا تُفِيدُ الْأَمَانِي عِنْدَ رُؤْيَا الْعَذَابِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْكُفَّارِ، إِذَا وَقَعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّارِ، وَشَاهَدُوا مَا فِيهَا مِنَ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، وَرَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ تِلْكَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ وَالْأَهْوَالَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ، قَالُوا ﴿يَلَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، لِيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يَكْذِبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ بَلْ ظَهَرَ لَهُمْ حِينَئِذٍ مَا كَانُوا يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْمُعَانَدَةِ، وَإِنْ أَنْكَرُوهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ قَبْلَهُ يَسِيرٌ ﴿ثُمَّ لَوْ فَكَّرْ فَنَدَّتْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ ظَهَرَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، مِنْ صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانُوا يَظْهَرُونَ لِاتِّبَاعِهِمْ خِلَافَهُ، فَكَوْلِهِ مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى، أَنَّهُ قَالَ

لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ الْآيَةُ [إِسْرَاءُ: ١٠٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَجَعَلُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وَأَمَّا مَعْنَى الْإِضْرَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، فَإِنَّهُمْ مَا طَلَبُوا الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ، بَلْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَابَوْهُ، جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَسَأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا، لِيَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا مِنَ النَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيُّ فِي تَمَيُّهِمُ الرَّجْعَةَ، رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿لَوْ رَدُّوا﴾ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ - ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيُّ فِي

(١) الطبري: ٣١١/١١ (٢) الطبري: ٣١١/١١ فيه حجاج بن أُرطاة هو كثير الخطأ والتدليس ولم يصرح هنا بالسماع (٣) الطبري: ٣١٢/١١

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣١) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٤)

[تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ، فِي تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أَيُّ قَدْ أَحْطْنَا عِلْمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ، وَحُزْنِكَ وَتَأْسُفِكَ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَزَنًا﴾ [فاطر: ٨] كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَمَّا كَذَّبَ بَعْضُ قَوْمِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فَلَمَّا كَذَّبَ بَعْضُ قَوْمِكَ عَلَى عَاقِبَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيُّ لَا يَكْفُرُونَ بِكَ بِالْكَذِبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيُّ وَلَكِنَّهُمْ يُعَانِدُونَ الْحَقَّ، وَيَذْفَعُونَهُ بِضُدُّوهِمْ. وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ فِي قِصَّةِ أَبِي جَهْلٍ، حِينَ جَاءَ يَسْمَعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيحٍ، وَلَا يَشْعُرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْآخِرِ، فَاسْتَمَعُوهَا إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا هَجَمَ الصُّبْحُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ كُلُّ مِنْهُمْ لِلْآخِرِ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا جَاءَ بِهِ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا؛ لِمَا يَخَافُونَ مِنْ عِلْمِ شَبَابِ قُرَيْشٍ بِهِمْ، لِئَلَّا يَفْتَنُوا بِمَجِيئِهِمْ، فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةَ جَاءَ كُلُّ مِنْهُمْ، طَنًّا أَنْ صَاحِبِيهِ لَا يَجِيئَانِ، لِمَا سَبَقَ مِنَ الْعُهُودِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَتَلَاوَمُوا ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا؛ فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةَ جَاؤُوا أَيْضًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا لِمِثْلِهَا ثُمَّ تَفَرَّقُوا، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيحٍ أَحَدَ عَصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ ابْنَ حَرْبٍ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِكَ فِيمَا سَمِعْتَ

قَوْلِهِمْ: ﴿يَلْتَمِزْنَا نَرُدُّ وَلَا تَكْذِبْ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ - وَقَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أَيُّ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ. وَلَقَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أَيُّ مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، ثُمَّ لَا مَعَادَ بَعْدَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ أَوْفَقُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: ﴿الَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟﴾ أَيُّ أَلَيْسَ هَذَا الْمَعَادُ بِحَقٍّ، وَلَيْسَ بِطَائِلٍ كَمَا كُنْتُمْ تَطُنُّونَ؟ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَيُّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ، فَذُوقُوا الْيَوْمَ مَسَّهُ ﴿أَفَيْسَ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصَرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوَارِهِمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرِثُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلْآخِرَةِ حِزٌّ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٧)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَسَارَةِ مَنْ كَذَّبَ بِلِقَائِهِ، وَعَنْ خَيْبَتِهِ إِذَا جَاءَتْهُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، وَعَنْ نَدَامَتِهِ عَلَى مَا فَرَطَ مِنَ الْعَمَلِ، وَمَا أَسْلَفَ مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصَرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ وَهَذَا الصُّبُورُ يَحْتَمِلُ عَوْدَهُ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعَلَى الْأَعْمَالِ وَعَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، أَيُّ فِي أَمْرِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوَارِهِمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرِثُونَ﴾ أَيُّ يَحْمِلُونَ. وَقَالَ أَسْبَاطُ عَنِ الشَّدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ظَالِمٍ يَدْخُلُ قَبْرَهُ، إِلَّا جَاءَهُ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، أَسْوَدُ اللَّوْنِ، مُتْنِنُ الرِّيحِ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ دَنَسَتْ، حَتَّى يَدْخُلَ مَعَهُ قَبْرَهُ، فَإِذَا رَأَهُ قَالَ: مَا أَقْبَحَ وَجْهَكَ؟ قَالَ: كَذَلِكَ كَانَ عَمَلُكَ قَبِيحًا، قَالَ: مَا أَتَنَزَّ رِيحَكَ؟ قَالَ: كَذَلِكَ كَانَ عَمَلُكَ مُتْنِنًا، قَالَ: مَا أَذْنَسَ ثِيَابَكَ؟ قَالَ: يَقُولُ: إِنَّ عَمَلُكَ كَانَ دَنَسًا، قَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: عَمَلُكَ. قَالَ: فَيَكُونُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ، فَإِذَا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ لَهُ: إِنِّي كُنْتُ أَحْمِلُكَ فِي الدُّنْيَا بِاللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ تَحْمِلُنِي، قَالَ: فَيَرْكَبُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَسُوقُهُ حَتَّى يَدْخِلَهُ النَّارَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوَارِهِمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرِثُونَ﴾ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلْآخِرَةِ حِزٌّ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الْأَنْعَامُ

١٣٢

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ٣٧ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا فَارَقُنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغِيرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُنْفِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالنَّصَرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

يُؤْمِنُ إِلَّا مَنْ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِدَعَائِكَ يَا مُحَمَّدٌ مَنْ يَسْمَعُ الْكَلَامَ وَيَعْبُو وَيَهْمُهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ يُنذِرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ الْكُفَّارَ، لِأَنَّهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ، فَسَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِأَمْوَاتِ الْأَجْسَادِ، فَقَالَ: ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّهْكُمِ بِهِمْ وَالْإِذْرَاءِ عَلَيْهِمْ.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٧) وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَارَقُنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ

مِنْ مُحَمَّدٍ، قَالَ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، وَاللَّهُ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أَغْرَفُهَا، وَأَغْرَفُ مَا يُرَادُ بِهَا، وَسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا عَرَفْتُ مَعْنَاهَا وَلَا مَا يُرَادُ بِهَا. قَالَ الْأَخْنَسُ: وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتُ بِهِ. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، مَا رَأَيْكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: مَاذَا سَمِعْتُ؟ قَالَ: تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ: أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطُوا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَائَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسِي رِهَانٍ، قَالُوا: مِثًا نَبِيٍّ، يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَتَى نُنْذِرُكَ هَذِهِ؟ وَاللَّهُ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ وَتَرَكَهُ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرُوا ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَعَزُّيَةٌ لَهُ، فِيمَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَمَرَ لَهُ بِالصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَوَعَدَ لَهُ بِالنَّصْرِ كَمَا نَصَرُوا، وَبِالظَّفَرِ حَتَّى كَانَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، بَعْدَ مَا نَالَهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ مِنْ قَوْمِهِمْ وَالْأَذَى الْبَلِيعِ، ثُمَّ جَاءَهُمُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا كَمَا لَهُمُ النَّصْرُ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ الَّتِي كَتَبَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْفَرَسِيِّ ﴾ (٦٧) إِنَّهُمْ لَمُ الْمَنْصُورُونَ (٦٧)

وَلَقَدْ حَسَدَنَا لَهُمُ الْفَالِغُونَ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَى أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّنَا الْفَرَسِيِّ ﴾ أَيُّ مِنْ خَبَرِهِمْ، كَيْفَ نَصَرُوا وَأَيَّدُوا عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَشْوَةٌ وَبِهِمْ فُدُوءٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أَيُّ إِنْ كَانَ شَقَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْكَ ﴿ فَإِنْ اسْتَعْلَمْتَ أَنْ تَتَّبِعِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: التَّقَى: السَّرْبُ، فَتَذَهَّبَ فِيهِ ﴿ فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ ﴾ أَوْ تَجْعَلَ لَكَ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ، فَتَضَعُ فِيهِ فَتَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ، أَفْضَلُ مِمَّا أَتَيْتَهُمْ بِهِ فَاغْفَلُ (٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْإِلْهَالِيِّ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ الْآيَةُ [يونس: ٩٩]، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ﴾ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَحْرُصُ أَنْ يُؤْمِنَ جَمِيعُ النَّاسِ، وَيَتَابِعُوهُ عَلَى الْهَدْيِ، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا

(١) ابن هشام: ٣٣٧/١ متقطع إسناده. (٢) الطبري: ١١/١

٣٣٨ (٣) الطبري: ١١/٣٣٨ (٤) الطبري: ١١/٣٤٠

مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٦﴾

[مُطَالَبَةُ الْمُشْرِكِينَ بِآيَةٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، أَيْ خَارِقٌ عَلَى مُقْتَضَى مَا كَانُوا يُرِيدُونَ، وَمِمَّا يَتَعَتَّوْنَ كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بُيُوتَنَا﴾ [الأنعام: ٩٠-٩٣]: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ هُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى تَقْتَضِي تَأْخِيرَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَوْ أُنْزِلَ وَفَقَ مَا طَلَبُوا ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا، لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، كَمَا فَعَلَ بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا مُنْذِرَةٌ لِقَوْمٍ يُبْصِرُونَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ تَنْجِفُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ لَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَعْتَقَهُمْ لَمَّا خَضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

[مَا الْمُرَادُ بِالْأُمَمِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ أَصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: الطَّيْرُ أُمَّةٌ، وَالْإِنْسُ أُمَّةٌ، وَالْجِنُّ أُمَّةٌ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ﴾ أَيْ خَلْقٌ أَمْثَالُكُمْ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيْ الْجَمِيعِ عِلْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَنْسَى وَاحِدًا مِنْ جَمِيعِهَا مِنْ رِزْقِهِ وَتَنْبِيهِهِ، سَوَاءً كَانَ بَرِّيًّا أَوْ بَحْرِيًّا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَوْعِمَهَا وَنُسُودَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ مُفْصِح بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمَظَانِّهَا، وَحَاصِرٍ لِحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا رِيحُهُمْ يُمْشِرُونَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا رِيحُهُمْ يُمْشِرُونَ﴾ قَالَ: حَشَرُهَا الْمَوْتُ<sup>(٤)</sup>. وَقِيلَ: إِنَّ حَشَرَهَا هُوَ يَوْمٌ بَعَثَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْنَا رِيحُهُمْ يُمْشِرُونَ﴾ قَالَ: يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْبَهَائِمُ وَالْدَّوَابُّ وَالطَّيْرُ وَكُلُّ شَيْءٍ، فَيُنْفَخُ مِنْ عَذَلِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ، أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تَرَابًا. فَلِذَلِكَ

يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَلْتَنِي كُتُّ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠]<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا فِي حَدِيثِ الصُّورِ.

[الْكَفَّارُ صَمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَيْ مَثَلُهُمْ فِي جَهْلِهِمْ، وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ، وَعَدَمِ فَهْمِهِمْ كَمَثَلِ: أَصَمٌّ وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ - أَبْكَمٌ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ، فَكَيْفَ يَهْتَدِي بِمِثْلِ هَذَا إِلَى الطَّرِيقِ، أَوْ يَخْرُجُ مِمَّا هُوَ فِيهِ؟ كَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨]. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَطُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لَيْلٍ يَنْشَلُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ بَدَلُهُ لَمْ يَكُنْ بِهَا وَنَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ فُورًا فَمَا لَهُمْ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٦)</sup> بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ<sup>(٧)</sup> وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْأَسَاءِ وَالْأَفْرَادِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ<sup>(٨)</sup> فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٩)</sup> فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُزِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ<sup>(١٠)</sup> فَقَطَّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(١١)</sup>

[إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِدُعَائِهِمْ اللَّهَ وَحْدَهُ عِنْدَ الْعَذَابِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى صَرْفِ حُكْمِهِ عَنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ يُجِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ﴾ أَيْ أَتَاكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيْ لَا تَدْعُونَ غَيْرَهُ

(١) الطبري: ٣٤٥/١١ (٢) الطبري: ٣٤٥/١١ (٣) الطبري:

٣٤٥/١١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٨٦/٤ (٥) الطبري: ١١/

لَعَلَّكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَفْعِ ذَلِكَ سِوَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ:  
هَلْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُتَعَذِّبِينَ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٣٣

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

نَمُوتُ ۖ أَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُتَعَذِّبِينَ ۚ

أَنِّي مَلَكٌ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّنَ الْبَشَرِ، يُوحَى إِلَيَّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، شَرَفَنِي بِذَلِكَ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أَيُّ لَسْتُ أَخْرُجُ عَنْهُ قِيدَ شِبْرٍ وَلَا أَذْنَى مِنْهُ، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أَيُّ هَلْ يَسْتَوِي مَنْ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَهُدِيَ إِلَيْهِ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَلَمْ يَتَّقْ لَهُ، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذِرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيَّ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيُّ وَأَنْذِرْ بِهِذَا الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] ﴿وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أَيُّ يَوْمَئِذٍ ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيُّ لَا قَرِيبَ لَهُمْ وَلَا شَفِيعَ فِيهِمْ، مِنْ عَذَابِهِ إِنْ أَرَادَهُ بِهِمْ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أَيُّ أُنْذِرْ هَذَا الْيَوْمَ، الَّذِي لَا حَاجِمَ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فَيَعْمَلُونَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، عَمَلًا يُنْجِيهِمُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ، وَيُضَاعَفُ لَهُمْ فِي الْجَزِيلِ مِنْ ثَوَابِهِ.

[نَهَى الرَّسُولُ عَنْ طَرْدِ أَصْحَابِهِ الضُّعَفَاءِ وَالْأَمْرُ

بِتَكْرِيمِهِمْ إِذَا جَاءُوا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيُّ لَا تُبْعِدْ هَؤُلَاءِ الْمُتَضَمِّنِينَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ عَنْكَ، بَلْ اجْعَلْهُمْ جُلَسَاءَكَ وَأَخِصَاءَكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أَيُّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ وَيَسْأَلُونَهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَادَةُ: الْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [عافر: ٦٠] أَيُّ أَتَقَبَّلْ مِنْكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيُّ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَهُمْ مُخْلِصُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ

أَرَبَيْتُكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ﴾ أَيُّ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ بِهِ، حَتَّى بَعْتَكُمْ وَفَجَأَكُمْ، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أَيُّ ظَاهِرًا عَيْنًا، ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا كَانَ يُحِيطُ بِالظَّالِمِينَ أَنْفُسُهُمْ بِالشَّرِّ بِاللَّهُ. وَيَنْجُوا الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَيُّ مُبَشِّرِينَ عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، بِالْخَيْرَاتِ، وَمُنذِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ: النِّقَمَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أَيُّ فَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُمْ، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَيُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَاتَهُمْ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَصَنِيعِهَا، اللَّهُ وَلِيُّهُمْ فِيمَا خَلَفُوهُ، وَحَافِظُهُمْ فِيمَا تَرَكُوهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْمِئُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أَيُّ يَنَالُهُمُ الْعَذَابُ، بِمَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَخَرَجُوا عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَارْتَكَبُوا مِنْ مَنَاهِهِ وَمَحَارِمِهِ وَأَنْتَهَاكِ حُرْمَاتِهِ.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِيَّيَّ مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيَّ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَقَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

[الرَّسُولُ لَا يَمْلِكُ خِزَائِنَ اللَّهِ وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أَيُّ لَسْتُ أَمْلِكُهَا وَلَا أَتَصَرَّفُ فِيهَا ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أَيُّ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ، إِنَّمَا ذَاكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا أَطْلُعُ مِنْهُ إِلَّا عَلَى مَا أَطْلَعَنِي عَلَيْهِ، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِيَّيَّ مَلَكٌ﴾ أَيُّ وَلَا أَدْعِي

الْبَاقِي

١٣٤

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقُضِي الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾

الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجهاها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً، ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ﴾ كل من عصى الله فهو جاهل، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقنع وعزم على أن لا يعود، وأصلح العمل في المستقبل، ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي» (٢) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٣).

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٧) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ

عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿٥٤﴾ كَقَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِي جَوَابِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (٥٥) قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ [الشعراء: ١١١-١١٣] أَيْ إِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِي مِنْ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَقَطَرْدَهُمْ فَكَفُّوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ إِنْ فَعَلْتَ هَذَا وَالْحَالَةَ هَذِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَيْ ابْتَلَيْنَا وَاخْتَبَرْنَا وَامْتَحَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ غَالِبٌ مِنَ اتَّبَعَهُ فِي أَوَّلِ بَعِثَتِهِ، ضَعْفَاءُ النَّاسِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ مِنَ الْأَشْرَافِ إِلَّا قَلِيلٌ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ لِنُوحٍ: ﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدَى الرَّأْيِ﴾ [الآية: هود: ٢٧]، وَكَمَا سَأَلَ هِرْقُلُ مَلِكَ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ جِئْنَا سَأَلَهُ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ، فَقَالَ لَهُ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فَقَالَ: بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ، فَقَالَ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَالْعَرَضُ: أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ كَانُوا يَسْخَرُونَ بِمَنْ آمَنَ مِنْ ضَعْفَائِهِمْ، وَيَعْدُبُونَ مَنْ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ أَيْ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْدِيَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْخَيْرِ لَوْ كَانَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ خَيْرًا، وَيَدْعُنَا! كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ هَؤُلَاءِ بَيْنَتِي قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ ذَلِكَ: ﴿وَكَرَّاهُكُمَا فَلَئِنْ مَنَّ قَرْنٌ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَبَّكَ﴾ [مريم: ٧٤] وَقَالَ فِي جَوَابِهِمْ جِئْنَا قَالُوا: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أَيْ أَلَيْسَ هُوَ أَعْلَمُ بِالشَّاكِرِينَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ، فَيُوقِفُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ فَأَكْرِمُهُمْ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ، وَبَشِّرُهُمْ بِرَحْمَةِ

(١) مسلم: ١٩٨٧/٤ (٢) أحمد: ٣١٣/٢ (٣) فتح الباري:

٣٩٥/١٣ ومسلم: ٢١٠٧/٤



يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَظُنُّهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الرَّسُولُ عَلَى نَبِيٍّ مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَالْجَزَاءُ بِيَدِ اللَّهِ وَلَيْسَ بِيَدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا بَيَّنَّا مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنَ الْحُجَجِ وَالذَّلَائِلِ، عَلَى طَرِيقِ الْهَدَايَةِ وَالرَّشَادِ وَدَمَّ الْمُجَادَلَةِ وَالْعِنَادِ، ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أَيِ الَّتِي يَحْتَاجُ الْمُخَاطَبُونَ إِلَى بَيَانِهَا، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيِ وَلِتُظْهَرَ طَرِيقُ الْمُجْرِمِينَ الْمُخَالَفِينَ لِلرُّسُلِ، وَقُرِئَ: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيِ وَلِتَسْتَبِينَ يَا مُحَمَّدُ - أَوْ يَا مُخَاطَبُ - سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى نَبِيٍّ مِنْ رَبِّي﴾ أَيِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي أَوْحَاهَا اللَّهُ إِلَيَّ ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أَيِ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَنِي مِنَ اللَّهِ ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ أَيِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَيِ إِنَّمَا يَرْجِعُ أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ شَاءَ أَتَخَّرَكُمْ وَأَجَلَكُمْ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ﴾ أَيِ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْ فَصْلِ الْقَضَايَا، وَخَيْرُ الْفَاتِحِينَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيِ لَوْ كَانَ مَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَيَّ، لَأَوْفَعْتُ لَكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ مَا تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحِينَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِيَالِيلَ بْنِ عَبْدِكُلَالٍ، فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَشْتَقِ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّلَالِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ ظَلَمَتْنِي، فَطَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَتَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، ثُمَّ

قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَقَدْ بَعَثَنِي رُكَّكَ إِلَيْكَ، لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَطِيعْتُ عَنْهُمْ الْأَخْشَبِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»<sup>(١)</sup>. وَهَذَا لَفْظٌ مُسْلِمٌ، فَقَدْ عَرَضَ عَلَيْهِ عَذَابُهُمْ وَاسْتِئْصَالُهُمْ، فَاسْتَأْنَى بِهِمْ، وَسَأَلَ لَهُمُ التَّأْخِيرَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا... فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فَالْجَوَابُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلَّتْ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِلَيْهِ وَقُوعُ الْعَذَابِ الَّذِي يَطْلُبُونَهُ حَالِ طَلِبِهِمْ لَهُ، لَا وَقَعَهُ بِهِمْ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ وَقُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ، بَلْ عَرَضَ عَلَيْهِ مَلَكُ الْجِبَالِ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ أَطِيعُوا عَنْهُمْ الْأَخْشَبِينَ، وَهُمَا جَبَلَا مَكَّةَ اللَّذَانِ يَكْتَنِفَانِهَا جَنُوبًا وَشِمَالًا. فَلِهَذَا اسْتَأْنَى بِهِمْ وَسَأَلَ الرَّفْقَ لَهُمْ.

### [لَا يَعْلَمُ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ»<sup>(٢)</sup> إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُزِيلُ الْغَيْبَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [لقمان: ٣٤]<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَيِ مُحِيطٌ عِلْمُهُ الْكَرِيمُ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، بَرِّيَّهَا وَبَحْرِيَّهَا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلَا يُثْقَلُ دَرَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أَيِ وَيَعْلَمُ الْحَرَكَاتِ حَتَّى مِنَ الْجِمَادَاتِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْحَيَوَانَاتِ، وَلَا سَيِّمَا الْمُكَلَّفُونَ مِنْهُمْ مِنْ جَنِّهِمْ وَإِنْسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [عافر: ١٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُوَفِّيكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ

(١) فتح الباري: ٦/ ٣٦٠، ومسلم: ٣/ ١٤٢٠ (٢) فتح الباري: ١٤١/ ٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٣٥

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٥﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُم الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿١٣٦﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِشْيَانِ ﴿١٣٧﴾

[الْعِبَادُ بَيْنَ اللَّهِ قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّهُ يَتَوَفَّى عِبَادَهُ فِي مَنَامِهِمْ بِاللَّيْلِ، وَهَذَا هُوَ التَّوَفَّى الْأَصْغَرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَا ضَرَفَ إِلَيْهِ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] فَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْوَفَاتَيْنِ الْكُبْرَى وَالصَّغْرَى، وَهَكَذَا ذَكَرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، حُكْمَ الْوَفَاتَيْنِ الصَّغْرَى ثُمَّ الْكُبْرَى، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أَيَّ وَيَعْلَمُ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِالنَّهَارِ<sup>(١)</sup>.

وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُّعْتَرِضَةٌ ذَلَّتْ عَلَىٰ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ، فِي حَالِ سُكُونِهِمْ وَحَالِ حَرَكَتِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أَيَّ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] أَيَّ فِي النَّهَارِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أَيَّ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أَيَّ فِي النَّهَارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَفَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يَعْنِي بِهِ أَجَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ أَيَّ فَيُخَبِّرُكُمْ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيَّ وَيَجْزِيكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أَيَّ وَهُوَ الَّذِي فَهَرَّ كُلَّ شَيْءٍ وَخَضَعَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ كُلَّ شَيْءٍ، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ أَيَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ بَدَنَ الْإِنْسَانِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ مُّعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] وَحَفَظَةٌ يَحْفَظُونَ عَمَلَهُ وَيَحْصُونَهُ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا عَلَىٰ كُفْرَانٍ﴾ الْآيَةُ [الأنفطار: ١٠]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَتْلَىٰ الْمُتَفَاتِنَ عَلَىٰ الْعَيْنِ وَعَنِ الْيَمَانِ قَعِيدٌ﴾ ﴿٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٨﴾ [ق: ١٧، ١٨] وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أَيَّ اجْتَضَرَ وَحَانَ أَجَلُهُ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أَيَّ مَلَائِكَةُ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: لِمَلَائِكَةِ الْمَوْتِ أَغْوَانٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ<sup>(٢)</sup>. يُخْرِجُونَ الرُّوحَ مِنَ الْجَسَدِ فَيُقْبِضُهَا مَلَكُ الْمَوْتِ إِذَا انْتَهَتْ إِلَى الْحُلُقُومِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ أَيَّ فِي حِفْظِ رُوحِ الْمُتَوَفَّى، بَلْ يَحْفَظُونَهَا وَيُزِيلُونَهَا حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ فَفِي عِلِّيِّينَ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْفَجَّارِ فَفِي سَجِّيْنِ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: اخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ،

كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَخْرَجِي حَمِيدَةً، وَأُبَشِّرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقَالُ: فَلَانٌ، فَيَقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأُبَشِّرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءَ، قَالُوا: أَخْرَجِي أَتَيْهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، أَخْرَجِي ذَمِيمَةً وَأُبَشِّرِي بِحَمِيمٍ وَعَسَاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقَالُ: فَلَانٌ، فَيَقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لَكَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تُصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلِسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ... فَيَقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ - وَجُلِسَ الرَّجُلُ السَّوْءُ...<sup>(١)</sup> فَيَقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «ثُمَّ رُدُّوْا» يَعْنِي الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ «إِلَى اللَّهِ» يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ<sup>(٢)</sup> لَمَجْبُوعُونَ إِلَى يَوْمِ الْبَيْتِ يَوْمَ نَعْلَمُ» [الواقعة: ٤٩، ٥٠] وَقَالَ: «وَحَضَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» إِلَى قَوْلِهِ: «وَلَا يَبْظُلُهُ رِزْقُ أَحَدًا» [الكهف: ٤٩] وَلِهَذَا قَالَ: «مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَمَرُ الْحَسِيِّينَ».

«قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَمْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ...» [الآية: يونس: ٢٢]، وَقَوْلُهُ: «أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بَشْرًا بَيِّنَ يَدَى رَحْمَتِهِ» أَوَّلُهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» [العنكبوت: ٦٣] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» أَيَّ جَهْرًا وَسِرًّا «لَّيْنٍ أَنْجَمْنَا» أَيَّ مِنْ هَذِهِ الصَّائِقَةِ «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» أَيَّ بَعْدَهَا. قَالَ اللَّهُ: «قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ» أَيَّ تَدْعُونَ مَعَهُ فِي حَالِ الرَّفَاهَةِ إِلَهَةً أُخْرَى. وَقَوْلُهُ: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»: لَمَّا قَالَ «ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ» عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا» أَيَّ بَعْدَ إِنْجَائِهِ إِيَّاكُمْ، كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ: «رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَعَّوْا مِنْ فَضْلِهِ» إِثْمَ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا<sup>(٣)</sup> وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا<sup>(٤)</sup> أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا<sup>(٥)</sup> أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا [الإسراء: ٦٦-٦٩].

رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَفْقَهُونَ» يَلْبِسُكُمْ: يَخْلِطُكُمْ مِنَ الْإِلْتِبَاسِ، يَلْبِسُوا: يَخْلِطُوا، شِيْعًا: فِرْقًا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» «أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» «أَوْ يَلْبِسُكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذِهِ أَهْوَنُ أَوْ أَيْسَرُ»<sup>(٦)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ أَيْضًا فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا فِي التَّفْسِيرِ<sup>(٨)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَرَرْنَا

[بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ وَبَطْشِهِ وَقَهْرِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى عِبَادِهِ، فِي إِنْجَائِهِ الْمُضْطَرِّينَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَيِ الْحَاثِرِينَ الْوَاقِعِينَ فِي الْمَهَامَةِ الْبَرِّيَّةِ، وَفِي اللَّجَجِ الْبَحْرِيَّةِ، إِذَا هَاجَتِ الرِّيَّاحُ الْعَاصِفَةُ، فَحَيِّثُذِ يُرْدُونَ الدُّعَاءَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَقَوْلِهِ: «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ» [الآية: الإسراء: ٦٧]، وَقَوْلُهُ: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَّهَنَّ يَوْمَ يَرْجِعُ طَائِفٌ مِنْهَا جَاءَهَا

(١) أحمد: ٣٦٤/٢ (٢) فتح الباري: ١٤١/٨ (٣) فتح

الباري: ٤٠٠/١٣ (٤) النسائي في الكبرى: ٣٤٠/٦

## [الدَّعْوَةُ إِشَادٌ بِغَيْرِ إِكْرَاهٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي بِالْقُرْآنِ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ، وَالْهَدَى وَالْبَيَانَ، ﴿تَوَكَّلْ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أَيِ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِكَلِيلٍ﴾ أَيِ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِحَفِيطٍ، وَلَسْتُ بِمُكَلِّ بِكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أَيِ إِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فَمَن اتَّبَعَنِي سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَن خَالَفَنِي فَقَدْ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيِ لِكُلِّ نَبَرٍ حَقِيقَةٌ، أَيِ لِكُلِّ خَبَرٍ وَفُوعٌ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] وَقَالَ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

## [النَّهْيُ عَنِ الْجُلُوسِ مَعَ مَنْ يَخُوضُ فِي

## آيَاتِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أَيِ بِالْكَذِبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ. ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أَيِ حَتَّى يَأْخُذُوا فِي كَلَامٍ آخَرَ غَيْرَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، ﴿وَلَمَّا يُسَبِّحُكَ الشَّيْطَانُ﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلُّ فِرْدٍ مِنْ آحَادِ الْأُمَّةِ، أَنْ لَا يَجْلِسَ مَعَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَيَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، فَإِنْ جَلَسَ أَحَدٌ مَعَهُمْ نَاسِيًا ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾: بَعْدَ التَّذَكُّرِ ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسِيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»<sup>(١)</sup>.

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمُسَارُّ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إِنَّكُمْ إِذَا جَلَسْتُمْ مَعَهُمْ، وَأَقْرَبْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ سَاوَيْتُمُوهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِن حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيِ

عَلَى مَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ، فَدَخَلَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، فَصَلَّيْنَا مَعَهُ، فَتَأَجَّي رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا: سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالْعُرْقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّيَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَتِيهَا». انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ، فَرَوَاهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ<sup>(١)</sup>.

(حَدِيثُ آخَرَ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِ مَوْلَى بَنِي زُهْرَةَ، وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: وَافَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ صَلَّاهَا كُلَّهَا، حَتَّى كَانَ مَعَ الْفَجْرِ، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدْ صَلَّيْتُ اللَّيْلَةَ صَلَاةً مَا رَأَيْتُكَ صَلَّيْتُ مِثْلَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلٌ إِنَّهَا صَلَاةٌ رَغَبَ وَرَهَبٍ، سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا ثَلَاثَ خِصَالٍ، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَهْلِكَ بِنَا أَهْلُكَ بِهِ الْأَمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُظْهَرَ عَلَيْنَا عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُلْبِسَنَا شَيْعًا فَمَنْعَتِيهَا»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْفِتَنِ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شَيْعًا﴾ يَعْنِي يَجْعَلُكُمْ مُتَّبِيسِينَ شَيْعًا: فِرْقًا مُتَخَالِفِينَ. وَقَالَ الْوَالِيزِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْأَهْوَاءَ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيُّ مِنْ طَرِيقٍ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَسَتَقْفِرُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»<sup>(٦)</sup> وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي يُسَلِّطُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْعَذَابِ وَالْقَتْلِ<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ﴾ أَيِ نُبَيِّنُهَا وَنُوضِّحُهَا مَرَّةً وَنُفَسِّرُهَا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أَيِ يَفْهَمُونَ وَيَتَذَبَّرُونَ عَنِ اللَّهِ آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ تَوَكَّلَ بِهِ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِكَلِيلٍ ﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ وَلَمَّا يُسَبِّحُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنَّ ذِكْرًا لِّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

(١) أحمد: ١/١٧٥ ومسلم: ٢٨٩٠ (٢) أحمد: ١٠٨/٥ (٣) النسائي: ٣/٢١٧ وابن حبان: ١٧٩/٩ وتحفة الأحوذى: ٦/٣٩٧ وأحمد: ١٠٨/٥ (٤) الطبري: ١١/٤٢٠ (٥) الطبري: ١١/٤١٩ (٦) أبو داود: ٥/٥ وتحفة الأحوذى: ٧/٣٩٩ وابن ماجه: ٢/١٣٢٢ (٧) الطبري: ١١/٤٢١ (٨) ابن ماجه: ١/٦٥٩

الْمُتَّاعِينَ

١٣٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآئِلِهَآ وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اسْتِنَّا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

[مَثَلٌ مَنْ يَرْجِعُ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ

الصَّالِحِ]

قَالَ السُّدِّيُّ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: إِنِّبِعُوا سَبِيلَنَا وَاتَّرَكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ أَيْ فِي الْكُفْرِ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فَيَكُونُ مَثَلُنَا مَثَلُ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ، يَقُولُ: مَثَلُكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ، كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ مَعَ قَوْمٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَصَلَّ الطَّرِيقَ، فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَاسْتَهْوَتْهُ فِي الْأَرْضِ، وَأَصْحَابُهُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ: إِنِّبِنَا فَإِنَّا عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ، فَلَذَلِكَ مَثَلٌ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِي يَدْعُو

إِذَا تَجَنَّبُوهُمْ، فَلَمْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ بَرَّئُوا مِنْ عَهْدَتِهِمْ وَتَخَلَّصُوا مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ وَلَكِنْ أَمَرْنَاكُمْ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، حِينَئِذٍ تَذَكَّرُوا لَهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ذَلِكَ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآئِلِهَآ وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧١)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآئِلِهَآ وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أَيْ دَعَهُمْ وَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَمْهِلْهُمْ قَلِيلًا فَإِنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَذَكَرَ بِهِمْ﴾ أَيْ ذَكَرَ النَّاسَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ الْأَلِيمِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أَيْ لِئَلَّا تَبْسَلَ. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ، وَالْحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ: تَبْسَلَ: تُسْلِمُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْوَالِيبِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَفْتَضَحُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: تُحَسِّنُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مَرَّةً وَابْنُ زَيْدٍ: تُوَاجِهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: تُجْزَى<sup>(٥)</sup>. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالْعِبَارَاتِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، وَخَاصِلُهَا الْإِسْلَامُ لِلْهَلَكَةِ، وَالْحَسَنُ عَنْ الْخَبِيرِ وَالْإِزْهَانُ عَنْ ذَرِكِ الْمَطْلُوبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٧٨) إِلَّا أَحَبَّ إِلَيْنِ [المدثر: ٣٨، ٣٩] وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أَيْ وَلَوْ بَدَّلَتْ كُلُّ مَبْدُولٍ مَا قُبِلَ مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ مِنْ أَحَدِهِمْ نِيلَةَ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ (آل عمران: ٩١)، وَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اسْتِنَّا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ

(١) الطبري: ٤٤٣/١١ (٢) الطبري: ٤٤٤/١١ (٣) الطبري:

٤٤٣/١١ (٤) الطبري: ٤٤٣/١١ (٥) الطبري: ٤٤٤/١١

عَمِرُوا قَالَ: قَالَ أَغْرَابِي: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الصُّورُ؟ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»<sup>(٤)</sup>.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَارِذَ أَنْتَخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٧٤) وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَزَّ عَلَيْهِ الْيَلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَعَظُّهُ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَعَظَ أَبَاهُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَزَجَرَهُ عَنْهَا وَنَهَاها، كَمَا قَالَ: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَارِذَ أَنْتَخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً؟ أَيْ أَتَتَأَلَّهُ لِيَصْنَعَ تَعْبُدَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ [إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ] أَيْ السَّالِكِينَ مَسَلَكَكَ [فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ] أَيْ تَائِهِينَ لَا يَهْتَدُونَ أَيْنَ يَسْلُكُونَ، بَلْ فِي حَيْرَةٍ وَجَهْلٍ، وَأَمْرُكُمْ فِي الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ بَيْنَ وَاصِحٍ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ. وَقَالَ تَعَالَى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا» (٨١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَأْتٍ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٨٢) يَتَأْتٍ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْلَكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٨٣) يَتَأْتٍ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَسْكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٨٤) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَأْتِيهِمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٨٥) قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٨٦) وَأَعَزَّلْنَاهُ مَا نَدْعُوتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا [مريم: ٤١-٤٨] فَكَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا مَاتَ عَلَى الشُّرْكِ وَتَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمَ ذَلِكَ، رَجَعَ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لَهُ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا كَانَتْ آسِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدْنَاهَا بِهَا فَلَمَّا بُدِّئَ لَهُ أَنَّكَ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» وَتَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ، يَلْقَى أَبَاهُ أَرَزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَهُ أَرَزَ: يَا بُنَيَّ الْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنَّكَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ

إِلَى الطَّرِيقِ، وَالطَّرِيقُ هُوَ الْإِسْلَامُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١)</sup> وَقَوْلُهُ: «كَأَلَيْ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ» هُمُ الْغِيْلَانُ يَدْعُوْنَهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَجَدِّهِ، فَيَتَّبِعُهَا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ فِي شَيْءٍ، فَيُصْبِحُ وَقَدْ رَمَتْهُ فِي هَلَكَةٍ، وَرَبَّمَا أَكَلْتَهُ، أَوْ تَلْقِيهِ فِي مَضَلَّةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَهْلِكُ فِيهَا عَطَشًا، فَهَذَا مَثَلٌ مَنْ أَجَابَ الْآلِهَةَ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: «قُلْ إِنَّكَ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْغَايُ» [البقرة: ١٢٠] كَمَا قَالَ: «وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ مِنْ مُضِلٍّ» [الزمر: ٣٧] وَقَالَ: «إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ» [النحل: ٣٧] وَقَوْلُهُ: «وَأَمْرًا لِلنَّبِيِّ لِرَبِّ الْمَلَكُوتِ» أَيْ نُحْلِصَ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، «وَأَنْ أَمِيقُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا» أَيْ وَأَمِرْنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَتَتَّقُوا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ «وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» أَيْ بِالْعَدْلِ فَهُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا، وَالْمَدَبِّرَ لَهُمَا وَلَمَنْ فِيهِمَا، وَقَوْلُهُ: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ» يَغْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ: كُنْ، فَيَكُونُ عَنْ أَمْرِهِ كَلِمَةُ الْبَصَرِ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، وَ«يَوْمَ» مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْعَطْفِ عَلَى قَوْلِهِ: «وَاتَّقُوا»، وَتَقْدِيرُهُ: وَاتَّقُوا يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ، فَيَكُونُ. وَإِمَّا عَلَى قَوْلِهِ: «خَلَقَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضَ» أَيْ وَخَلَقَ يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ فَيَكُونُ. فَذَكَرَ بَدْءَ الْخَلْقِ وَإِعَادَتَهُ، وَهَذَا مُنَاسِبٌ. وَإِمَّا عَلَى إِضْمَارِ فِعْلِ تَقْدِيرُهُ: وَ(اِذْكُرْ) يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ، فَيَكُونُ. وَقَوْلُهُ: «قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ» جُمْلَتَانِ مَحَلُّهُمَا الْجَزُّ عَلَى أَنَّهُمَا صِفَتَانِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

[بَيَانُ نَفْخِ الصُّورِ]

وَقَوْلُهُ: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ»، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِقَوْلِهِ: «وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» كَقَوْلِهِ: «لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» [غافر: ١٦] كَقَوْلِهِ: «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا» [الفرقان: ٢٦] وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَالْمُرَادُ بِالصُّورِ الْقَرْنُ الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ إِسْرَافِيلَ قَدْ أَلْتَمَمَ الصُّورَ، وَحَتَّى جَبْهَتُهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفَخُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

(١) الطبري: ٤٥٢/١١ (٢) الطبري: ٤٥٢/١١ (٣) الطبري:

٢٣٨/٥ (٤) تحفة الأوحدي: ١١٧/٧ وأحمد: ١٦٢/٢

يَبْعَثُونَ، وَأَيُّ حِزْبٍ أُخْزِيَ مِنْ أَبِي الْأَبْعَد؟ فَيَقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْظُرْ مَا وَرَاءَكَ، فَإِذَا هُوَ بِذِيحٍ مُتَلَطِّحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ<sup>(١)</sup>.

[إِنْكِشَافٌ دَلَالِ التَّوْحِيدِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ]

قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ تَبَيَّنَ لَهُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِي نَظَرِهِ إِلَى خَلْقِهِمَا، عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِي مَلِكِهِ وَخَلْقِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَيْئًا نُخْفِي بِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ﴾ [سبا: ٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أَيُّ تَعَشَّاهُ وَسَتَرَهُ ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أَيُّ نَجْمًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أَيُّ غَابَ، قَالَ: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلَيتَ﴾ قَالَ فَتَادَهُ: عَلِمَ أَنَّ رَبَّهُ دَائِمٌ لَا يَزُولُ<sup>(٢)</sup>. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أَيُّ طَالِعًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أَيُّ هَذَا الْمُنِيرُ الطَّالِعُ رَبِّي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أَيُّ جُزْمًا مِنَ النَّجْمِ وَمِنْ الْقَمَرِ، وَأَكْثَرُ إِضَاءَةً ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أَيُّ غَابَتْ ﴿قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٧٨] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ إِلَى الْأَخْلَاصِ دِينِي، وَأَفْرَدْتُ عِبَادَتِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيُّ خَلَقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿حَنِيفًا﴾ أَيُّ فِي حَالٍ كُزْنِي حَنِيفًا، أَيُّ مَا بِلَا عَنِ الشَّرِكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

[هَذَا مَقَامُ الْمُنَاطَرَةِ لِاطْلَبِ التَّحْقِيقِ]

قد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلًا بقوله "لئن لم يهديني ربي"

وَالنَّصْرِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. وَبَيَّنَ فِي هَذَا الْمَقَامِ خَطَأَهُمْ وَضَلَالَتَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْهَيْكَلِ، وَهِيَ الْكُوكِبُ السَّيَّارَةُ السَّيِّئَةُ الْمُتَحَيِّرَةُ، وَهِيَ: الْقَمَرُ وَعُطَّارِدُ وَالزُّهْرَةُ وَالشَّمْسُ وَالْمَرِيخُ وَالْمُشْتَرِي وَزُحْرُلُ، وَأَشَدُّهُمْ إِضَاءَةً وَأَشْرَفُهُمْ عِنْدَهُمُ الشَّمْسُ، ثُمَّ الْقَمَرُ ثُمَّ الزُّهْرَةُ، فَبَيَّنَ أَوَّلًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّ هَذِهِ الزُّهْرَةَ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّهَا مُسَخَّرَةٌ مُقَدَّرَةٌ بِسَيْرٍ مُعَيَّنٍ، لَا تَرِيغُ عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَلَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا تَصَرُّفًا، بَلْ هِيَ جَزْمٌ مِنَ الْأَجْرَامِ خَلَقَهَا اللَّهُ مُبِيرَةً، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ ثُمَّ تَسِيرُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَغْرِبِ حَتَّى تَغِيبَ عَنِ الْأَبْصَارِ فِيهِ، ثُمَّ تَبْدُو فِي اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ عَلَى هَذَا النِّمَالِ، وَمِثْلُ هَذِهِ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْقَمَرِ فَبَيَّنَ فِيهِ مِثْلَ مَا بَيَّنَ فِي النَّجْمِ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الشَّمْسِ كَذَلِكَ، فَلَمَّا انْتَهَتْ الْإِلَهِيَّةُ عَنْ هَذِهِ الْأَجْرَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ أُنُورٌ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ

وَالْحَقُّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاطِرًا لِقَوْمِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْهَيْكَلِ وَالْأَصْنَامِ، فَبَيَّنَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ مَعَ أَبِيهِ خَطَأَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الْأَرْضِيَّةِ، الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِ الْمَلَائِكَةِ السَّمَاوِيَّةِ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ إِلَى الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، [الَّذِي] هُمْ - عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ - أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَإِنَّمَا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ مَلَائِكَتِهِ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الرِّزْقِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٣٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمَنُ  
وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى  
قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَاءَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾  
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا  
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُرِّيَّةٍ لِّدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ  
يُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾  
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾  
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِلْيَاسَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا أَفَضَلْنَا عَلَى  
الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ  
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي  
بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عَبَادَهُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ  
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ  
﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدِ قُلْ لَا  
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافَتُهُ ﴿٩٠﴾ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٩١﴾  
فِيمَا يَنْتَبِهَتْ لَكُمْ؟ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأَلِهَةَ بَاطِلَةٌ فَتَنْزَجِرُوا  
عَنْ عِبَادَتِهَا؟ وَهَذِهِ الْحُجَّةُ نُظِيرُ مَا اِخْتَجَّ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ هُوْدُ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ عَادٍ، فِيمَا قَصَّ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ،  
حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي  
الْإِلَهِاتِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا  
أَعْرَبَكَ بَعْضُ الْإِلَهِاتِ يَسُوءُ قَالِ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ  
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٤﴾ إِنِّي  
تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ  
رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ [هود: ٥٣-٥٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَيْفَ  
أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أَيُّ كَيْفَ أَخَافُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي  
تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ  
يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قَالِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ  
السَّلَفِ: أَيُّ حُجَّةٍ <sup>(١)</sup>. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ

الْأَبْصَارُ، وَتَحَقَّقَ ذَٰلِكَ بِالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ، ﴿قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي  
بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أَيُّ أَنَا بَرِيءٌ مِنْ عِبَادَتِهِمْ وَمُؤَالَاتِهِمْ،  
فَإِنْ كَانَتْ إِلَهَةٌ فَيَكِيدُونِي بِهَا جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿إِنِّي  
وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِيًا وَمَا أَنَا  
مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا أَعْبُدُ خَالِقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ  
وَمُخْتَرِعَهَا وَمُسَخَّرَهَا وَمُقَدِّرَهَا وَمُدَبِّرَهَا، الَّذِي بِيَدِهِ  
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ وَإِلَهُهُ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ  
يُظِلُّهُ حَبِيبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ  
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] قَالَ اللَّهُ  
فِي حَقِّهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ  
عَالِمِينَ﴾ ﴿٩١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبْنَيْهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا  
عِبَادَةٌ ﴿الْآيَاتِ [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وَمِمَّا يُؤْيَدُ أَنَّهُ كَانَ  
فِي هَذَا الْمَقَامِ مَنَاطِرًا لِقَوْمِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشَّرِكِ لَا  
نَاطِرًا، قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَحَاجَّتْهُ قَوْمُهُ قَالِ اعْبُدُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا  
تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ  
عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا  
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ  
سُلْطَانًا قَالِ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ  
مُهْتَدُونَ ﴿٩٤﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ  
دَرَجَاتٍ مِّنْ شَاءَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٩٥﴾  
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، حِينَ جَادَلَهُ قَوْمُهُ  
فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَنَاطَرُوهُ بِشُبُهٍ مِنَ الْقَوْلِ، أَنَّهُ  
قَالَ: ﴿اعْبُدُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أَيُّ تَجَادُلُونِي فِي أَمْرِ  
اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَقَدْ بَصَّرَنِي وَهَدَانِي إِلَى الْحَقِّ،  
وَأَنَا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ، فَكَيْفَ أَتَيْتُ إِلَى أَقْوَالِكُمُ الْفَاسِدَةِ،  
وَشُبُهِكُمُ الْبَاطِلَةِ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا  
أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أَيُّ وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِكُمْ فِيمَا  
ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ: أَنَّ هَذِهِ الْأَلِهَةَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لَا تُؤْتِرُ شَيْئًا،  
وَأَنَا لَا أَخَافُهَا وَلَا أَبَالِيهَا، فَإِنْ كَانَ لَهَا كَيْدٌ فَيَكِيدُونِي بِهَا،  
وَلَا تُنْظِرُونِ بَلْ عَاجِلُونِي بِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ  
يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ إِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيُّ لَا يَصْرُ وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا  
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أَيُّ أَحَاطَ عِلْمُهُ



هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ دُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا وَيْحَ يَعْقِبَ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَهُدَّيْنَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٦﴾ وَكَذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْيَدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٨٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْنَ بِهَا بِكَفِيرِينَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْنَدَهُ قَدْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

### لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

[هبة إسحق ويعقوب لإبراهيم في شيوخه]  
يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَهَبَ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ طَعَنَ فِي السَّنِّ، وَأَيُّسَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ سَارَةُ مِنَ الْوَلَدِ، فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ، فَبَشَّرُوهُمَا بِإِسْحَاقَ، فَتَعَجَّبَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ ذَلِكَ، وَ«قَالَتْ يَوَلَّىكَ إِلَهُدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَرَكَّلْتُهِ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ [هود: ٧٢، ٧٣] فَبَشَّرُوهُمَا - مَعَ وُجُودِهِ - بِنُوحٍ، وَبِأَنَّ لَهُ نَسْلًا وَعَقِيًّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [الصفات: ١١٢] وَهَذَا أَكْمَلُ فِي الْبَشَارَةِ وَأَعْظَمُ فِي النِّعْمَةِ، وَقَالَ: «فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ» [هود: ٧١] أَيْ وَيُولَدُ لِهَذَا الْمَوْلُودِ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُمَا، فَتَقَرُّ أَعْيُنُكُمَا بِهِ، كَمَا قَرَّتْ بِوَالِدِهِ، فَإِنَّ الْفَرَحَ بِوَلَدِ الْوَلَدِ شَدِيدٌ لِقَاءَ النَّسْلِ وَالْعَقَبِ، وَلَكِنْ كَانَ وَلَدُ الشَّيْخِ وَالشَّيْخَةِ قَدْ يَتَوَهَّمُ: أَنَّهُ لَا يُعْقِبُ لِضَعْفِهِ، وَقَعَتِ الْبَشَارَةُ بِهِ وَبَوَلَدِهِ بِاسْمِ يَعْقُوبَ الَّذِي فِيهِ اشْتِقَاقُ الْعَقَبِ وَالذَّرِّيَّةِ، وَكَانَ هَذَا مُجَازَاةً لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ اعْتَزَلَ قَوْمَهُ وَتَرَكَهُمْ وَنَزَحَ عَنْهُمْ، وَهَاجَرَ مِنْ بِلَادِهِمْ ذَاهِبًا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَعَوَّضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ، بِأَوْلَادٍ صَالِحِينَ مِنْ صُلْبِهِ عَلَى ذِيْنِهِ، لِتَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

شُرَكَاءُ سَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ اللَّهُ [الشورى: ٢١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَتَمَّ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» [يوسف: ٤٠] وَقَوْلُهُ: «فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أَيْ فَأَيُّ طَائِفَتَيْنِ أَصُوبٌ: الَّذِي عَبْدَ مَنْ بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ، أَوِ الَّذِي عَبْدَ مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، بِلَا دَلِيلٍ، أَتَيْهُمَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» أَيْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَحْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، هُمُ الْأَمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

### [الشُّرْكُ هُوَ الظُّلْمُ الْعَظِيمُ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ «وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» قَالَ أَصْحَابُهُ وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَتَزَلَّتْ «إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣] <sup>(١)</sup> وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: «يَبْنَئِي لَا شُرْكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣]؟ إِنَّمَا هُوَ الشُّرْكُ» <sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ» أَيْ وَجْهَنَا حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بِذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ» <sup>(٣)</sup>... الْآيَةُ. وَقَدْ صَدَّقَهُ اللَّهُ وَحَكَمَ لَهُ بِالْأَمْنِ وَالْهِدَايَةِ فَقَالَ: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كَلِمَةً: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ» تَرَفَعَ دَرَجَتِهِ مِنْ شَأْنِهِ: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» أَيْ حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، عَلِيمٌ أَيْ بِمَنْ يَهْدِيهِ وَمَنْ يُضِلُّهُ، وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ، كَمَا قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [يونس: ٩٦، ٩٧] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

«وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا

(١) فتح الباري: ٨/ ١٤٤ (٢) أحمد: ١/ ٤٤٤ (٣) الطبري:

إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَمِّهِ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُ لَا أَبَ لَهُ: رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي حَرْبٍ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ، قَالَ: أَرْسَلَ الْحَجَّاجُ إِلَى يَحْيَى بْنِ يَعْمَرٍ، فَقَالَ: بَلِّغْنِي أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ مِنْ ذُرِّيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، تَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ - وَقَدْ قَرَأْتُهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَنْعَامِ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَيَحْيَى وَيَعْقُوبَ﴾ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَلَيْسَ عِيسَى مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَيْسَ لَهُ أَبٌ؟ قَالَ صَدَقْتَ<sup>(١)</sup>. فَلِهَذَا إِذَا أَوْصَى الرَّجُلُ لِذُرِّيَّتِهِ، أَوْ وَقَفَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ، أَوْ وَهَبَهُمْ، دَخَلَ أَوْلَادُ الْبَنَاتِ فِيهِمْ، فَأَمَّا إِذَا أُعْطِيَ الرَّجُلُ بَنِيهِ، أَوْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَخْتَصُّ بِذَلِكَ بَنُوهُ لِضَلْبِهِ وَبَنُو بَنِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ذَكَرَ أَصُولَهُمْ وَفُرُوعَهُمْ، وَدَوْرِي طَبَقَتِهِمْ وَأَنَّ الْهَدَايَةَ وَالْإِجْتِيَاءَ شَمَلَهُمْ كُلَّهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاجْنِبْتُمْ وَهْدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

#### [الشَّرْكُ يَحِيطُ أَعْمَالُ الْمُخْلُوقِينَ حَتَّى الرُّسُلِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَيُّ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَهِدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تَشْدِيدٌ لِأَمْرِ الشَّرْكِ، وَتَغْلِيظٌ لِشَأْنِهِ، وَتَعْظِيمٌ لِمَلَابَسَتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحِطَّنَ عَلَيْكَ﴾ الْآيَةُ [الزمر: ٦٥]، وَهَذَا شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي جَوَازَ الْوُقُوعِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْجِدَ هَؤُلَاءِ لَاتَّخَذْتُهُمْ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ١٤]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْزَكْرَ وَالنَّبُوَّةَ﴾ أَيُّ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، رَحْمَةً لِلْعِبَادِ بِهِمْ، وَلُطْفًا مِنَّا بِالْخَلِيقَةِ، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أَيُّ بِالنَّبُوَّةِ، وَبِحُتْمَلُ أَنْ يَكُونَ الصُّمُورُ عَائِدًا عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ، الْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنَّبُوَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ

وَيَعْقُوبُ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿[مریم: ٤٩] وَقَالَ هُنَا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ مِنْ قَبْلِهِ هَدَيْنَاهُ كَمَا هَدَيْنَاهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ ذُرِّيَّةً صَالِحَةً.

#### [خُصُوصِيَّةُ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ]

وَكُلٌّ مِنْهُمَا لَهُ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، أَمَّا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ صَجَّوهُ فِي السَّفِينَةِ، جَعَلَ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ، فَالْأَنْسَ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَأَمَّا الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَهُ نَبِيًّا، إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الْآيَةُ [العنكبوت: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي أَثَرِ الذُّكْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أَيُّ وَهَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الْآيَةُ، وَعَوْدُ الصُّمِيرِ إِلَى نُوحٍ - لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ - ظَاهِرٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ<sup>(١)</sup>. وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَعَوْدُهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ - لِأَنَّهُ الَّذِي سَبَقَ الْكَلَامَ مِنْ أَجْلِهِ - حَسَنٌ، لَكِنْ يَشْكُلُ عَلَيْهِ لُوطٌ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، بَلْ هُوَ ابْنُ أَخِيهِ مَارَانَ بْنِ آزَرَ، أَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَقَالَ: إِنَّهُ دَخَلَ فِي الذُّرِّيَةِ تَغْلِيظًا، وَكَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] فَإِسْمَاعِيلُ عَمُّهُ دَخَلَ فِي آبَائِهِ تَغْلِيظًا، وَكَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَمِعَ الْمَلَأِكَةُ كُلَّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> إِلَّا إِبْلِيسَ أَلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [الحجر: ٣٠، ٣١] فَدَخَلَ إِبْلِيسُ فِي أَمْرِ الْمَلَأِكَةِ بِالسُّجُودِ، وَذَمٌّ عَلَى الْمُخَالَفَةِ لِأَنَّهُ كَانَ فِي تَشْبِهِ بِهِمْ، فَعُومِلَ مَعَامَلَتَهُمْ، وَدَخَلَ مَعَهُمْ تَغْلِيظًا، وَإِلَّا فَهُوَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ وَطَبِيعَتُهُ مِنَ النَّارِ، وَالْمَلَأِكَةُ مِنَ الثُّورِ.

وَفِي ذِكْرِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ - أَوْ نُوحٍ، عَلَى الْقَوْلِ الْآخِرِ - دَلَالَةٌ عَلَى دُخُولِ وَلَدِ الْبَنَاتِ فِي ذُرِّيَةِ الرَّجُلِ، لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا يُنسَبُ إِلَى

(١) الطبري: ٥٠٧/١١ (٢) الدر المنثور: ٣١١/٣ ابن أبي حاتم ٧٥٥٤/٤ فيه علي بن عباس وهو ضعيف كما في التقریب.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٣٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۚ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمَا مَا تَعْلَمُونَ ۚ أَنْتُمْ وَلَآءَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٣٩﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٤٠﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٤١﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۖ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤٢﴾

عَجِبَ أَنْ أُوحِيَآ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنَّ أَنْزِلَ النَّاسُ [يونس: ٢] وَكَفَّوْهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٣٩﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي يَسْتَشِيرُ الْمُطِيعِينَ لَنَزَلْتُ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا [الإسراء: ٩٤، ٩٥] وَقَالَ لَهُمَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِإِنزَالِ شَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فِي جَوَابِ سَلْبِهِمُ الْعَامَّ، بِإِثْبَاتِ قَضِيَّةِ جُزْئِيَّةٍ مُّوجِبَةٍ: ﴿مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ وَهُوَ التَّوْرَةُ الَّتِي قَدْ عَلِمْتُمْ وَكُلُّ أَحَدٍ: أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنزَلَهَا عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، أَيْ: لِيَسْتَضَاءَ بِهَا فِي كَشْفِ الْمُسْكَلَاتِ، وَيَهْتَدِيَ بِهَا مِنْ ظُلَمِ الشُّبُهَاتِ.

(١) الطبري: ٥١٦، ٥١٥/١١ (٢) فتح الباري: ١٤٤/٨ (٣) الطبري: ٥٢٤/١١

وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَالشَّدِيدُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>. ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أَيْ إِنْ يَكْفُرُ بِهَذِهِ النِّعَمِ، مَن كَفَرَ بِهَا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ، وَمِلِّيِّينَ وَكِتَابِيِّينَ، فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا آخَرِينَ، أَيْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَأَتْبَاعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أَيْ لَا يَجْحَدُونَ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَا يَرُدُّونَ مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا، بَلْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِهَا، مُحْكِمِيهَا وَمُتَشَابِهِيهَا، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ يَمِينَهُ وَكَرِيمَهُ وَإِحْسَانِيَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿أُولَئِكَ﴾ يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ، مَعَ مَن أَضِيفَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَبَاءِ وَالذَّرِّيَّةِ وَالْإِخْوَانِ، وَهُمْ الْأَشْيَاءُ، ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أَيْ هُمْ أَهْلُ الْهُدَى لَا غَيْرُهُمْ ﴿فِيهِدْتُهُمْ أَفْتَدِيهِ﴾، أَيْ أَفْتَدِ وَاتَّبِعْ، وَإِذَا كَانَ هَذَا أَمْرًا لِلرَّسُولِ ﷺ، فَأَمَّتُهُ تَبِعْ لَهُ، فِيمَا يَشْرَعُهُ وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ أَفِي (ص) سَجْدَةٍ؟ فَقَالَ نَعَمْ، ثُمَّ تَلَا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فِيهِدْتُهُمْ أَفْتَدِيهِ﴾ ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْهُمْ. زَادَ فِي رَوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ... فَقَالَ: نَبِيَّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أَمَرَ أَنْ يَفْتَدِيَ بِهِمْ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ لَّا آتَيْنَاكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَيْ لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ عَلَى إِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ أَجْرًا أَيْ أَجْرَةً، وَلَا أُرِيدُ مِنْكُمْ شَيْئًا، [إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ] أَيْ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ، فَيَرْتَدُّوا مِنَ الْعَمَى إِلَى الْهُدَى، وَمِنَ الْعَمَى إِلَى الرَّشَادِ، وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمَا مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَآءَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٤٠﴾

[بَشَرِيَّةُ الرَّسُولِ وَإِنزَالُ الْكِتَابِ عَلَيْهِ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا عَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، إِذْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ إِلَيْهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ<sup>(٣)</sup>. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ، ﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿أَكَاكَ لِلنَّاسِ



الْيَوْمَ تُهَانُونَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ، كَمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ، وَتَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ وَالْإِقْبَادِ لِرُسُلِهِ.

وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ فِي كَيْفِيَةِ اخْتِصَارِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَهِيَ مُقَرَّرَةٌ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ هَذَا، كَمَا قَالَ: «وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» أَيُّ كَمَا بَدَأْنَاكُمْ أَعْدَانًاكُمْ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَتَسْتَعِدُّونَهُ، فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَكَّبْنَا مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ النِّعَمِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي افْتَنَيْتُمُوهَا، فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَثَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْفَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَا هِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ بَذَجٌ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَيْنَ مَا جَمَعْتَ؟ فَيَقُولُ يَارَبِّ، جَمَعْتُهُ وَتَرَكْتُهُ أَوْفَرَ مَا كَانَ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَلَا يَرَاهُ قَدَّمَ شَيْئًا، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْنَا مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الْآيَةَ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُعْلَةً كُفٍّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ تَقْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا كَانُوا اتَّخَذُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، ظَانِينَ أَنَّهَا تَنْفَعُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، إِنْ كَانَ تَمَّ مَعَادُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَانْزَاخَ الضَّلَالُ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، وَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْبُصُونَكُمْ [الشعراء: ٩٢، ٩٣] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُعْلَةً كُفٍّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أَيُّ فِي الْعِبَادَةِ لَهُمْ، فِيكُمْ قِسْطٌ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ لَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ قُرِئَ بِالرَّفْعِ؛ أَيُّ شَمَلَكُمْ، وَبِالنَّصْبِ؛ أَيُّ لَقَدْ نَقَطَ مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْوَصَلَاتِ وَالْوَسَائِلِ، ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أَيُّ ذَهَبَ عَنْكُمْ

﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ مِنْ رَجَاءِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَقَتَّلَ عَلَيْهِمُ الْأَسْبَابَ﴾ [١١٦، ١١٧] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا شِئْخٌ فِي الصُّورِ فَلَا أَشَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الْآيَةَ [القصص: ٦٤]، وَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ نَضْرِبُهمُ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ تَوْفِكُونَ ﴿٥٥﴾ فَالِقُ الْأَسْبَاجِ وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَلِيمِ ﴿٩١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

[التَّعْرِيفُ بِاللَّهِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ]

يُخْرِجُ تَعَالَى أَنَّهُ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، أَيُّ يَشْقُهُ فِي النَّوَى، فَتَبَيَّنَ مِنْهُ الزَّرُّوعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، مِنْ الْحُبُوبِ وَالشَّمَارِ، عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا وَطُغُومِهَا مِنَ النَّوَى، وَلِهَذَا فَسَّرَ قَوْلُهُ: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَيُّ يُخْرِجُ النَّبَاتَ الْحَيَّ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، الَّذِي هُوَ كَالْجَمَادِ الْمَيِّتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَيُّهُمُ الْآلِئَةُ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وَقَدْ عَبَّرُوا عَنْ هَذَا وَهَذَا بِعِبَارَاتٍ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ مُؤَدِّيَةٌ لِلْمَعْنَى، فَمِنْ قَائِلٍ: يُخْرِجُ الدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ وَعَكْسَهُ، وَمِنْ قَائِلٍ: يُخْرِجُ الْوَلَدَ الصَّالِحَ مِنَ الْفَاجِرِ

الْمُزْمَلِ

١٤٠

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ تَوْفُكُونَ ﴿١٤٠﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٤١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِهَيْتُوْا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٤٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَدِيَةٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٤﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ آجِنَ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٤٥﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤٦﴾

[فصلت: ١٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِهَيْتُوْا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ اعْتَقَدَ فِي هَذِهِ النُّجُومِ غَيْرَ ثَلَاثٍ فَقَدْ أَخْطَأَ وَكَذَّبَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَيُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أَيْ قَدْ بَيَّنَّاها وَوَضَحْنَاهَا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ يَعْلَمُونَ وَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَيَتَجَبَّوْنَ الْبَاطِلَ.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٤٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَدِيَةٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يَعْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

وَعَكْسَهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُهَا الْآيَةُ وَتَشْمُلُهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أَيْ فَاعِلُ هَذَا، هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَالِقُ تَوْفُكُونَ﴾ أَيْ كَيْفَ تَضَرُّفُونَ عَنْ الْحَقِّ وَتَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، فَتَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرُهُ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أَيْ خَالِقُ الضِّيَاءِ وَالظَّلَامِ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أَيْ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَفْلِقُ ظُلَامَ اللَّيْلِ عَنْ غُرَّةِ الصَّبَاحِ، فَيُضِيءُ الْوُجُودَ، وَيَسْتَبِيرُ الْأَفْقَ، وَيَضْمَحِلُ الظَّلَامَ، وَيَذْهَبُ اللَّيْلُ بِسَوَادِهِ وَظُلَامِ رَوَاقِهِ، وَيَجِيءُ النَّهَارُ بِضِيَائِهِ وَإِشْرَاقِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْنِي أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فَيَبِينُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ، وَقَابِلُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَنًا﴾ أَيْ سَاجِدًا مُظْلِمًا، لِيَتَسَكَّنَ فِيهِ الْأَشْيَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢، ١] وَقَالَ: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَنْتَنَى﴾ ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢، ١] وَقَالَ: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أَيْ يَجْرِيَانِ بِحِسَابٍ مُقَدَّرٍ، لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَضْطَرِبُ، بَلْ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَنَازِلُ يَسْلُكُهَا فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، فَيَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ طَوْلًا وَقَصْرًا، كَمَا قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [الآية: يونس: ٥]، وَكَمَا قَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وَقَالَ: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أَيْ الْجَمِيعُ جَارٍ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَغْرُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَكَثِيرًا مَا إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرَ، يَخْتِمُ الْكَلَامَ بِالْعَزَّةِ وَالْعِلْمِ، كَمَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ أَيْلُ تَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمُ مُظْلِمُونَ﴾ ﴿١٤٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [يس: ٣٨، ٣٧] وَلَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، فِي أَوَّلِ سُورَةِ حَمِّ السَّجْدَةِ، قَالَ: ﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَفْطًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤١

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ  
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠١﴾ لَا تَدْرِكُهُ  
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٢﴾  
قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ  
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نَصُفُّ  
الْآيَاتِ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾  
اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ  
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ  
حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ  
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيْنًا  
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ  
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا  
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٨﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْسَدَهُمْ وَابْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ  
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدْرَهُمْ فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْصِمُونَ ﴿١٠٩﴾

أَيَّ حَفِظٌ وَرَقِيبٌ، يُدَبِّرُ كُلَّ مَا سِوَاهُ، وَيَرْزُقُهُمْ وَيَكْلُفُهُمْ  
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

### [رُؤْيَا اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أَيَّ لَا تَدْرِكُهُ فِي الدُّنْيَا،  
وَأِنْ كَانَتْ تَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ، عَنْ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنْ غَيْرِ مَا طَرِيقِ ثَابِتٍ، فِي الصَّحَاحِ  
وَالْمَسَانِيدِ وَالسَّنَنِ. كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:  
مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَبْصَرَ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى  
اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ  
الْأَبْصَرَ﴾<sup>(١)</sup>. وَتَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى  
الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي  
لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ  
قَبْلَ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، حِجَابُهُ الثُّورُ - أَوْ النَّارُ

وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ، فَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ  
بِالْعِبَادَةِ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرِّفُوا لَهُ  
بَيْنَ وَبَيْنَ يَغْيِرْ عَلَيْهِ﴾ يُبَيِّنُهُ بِهِ تَعَالَى عَنْ ضَلَالٍ مَنْ ضَلَّ فِي  
وَصْفِهِ تَعَالَى بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا، كَمَا يُزْعَمُ مَنْ قَالَهُ مِنَ الْيَهُودِ فِي  
غَزِيرٍ، وَمَنْ قَالَ مِنَ النَّصَارَى فِي عِيسَى، وَمَنْ قَالَ مِنَ  
مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي الْمَلَائِكَةِ: إِنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ. تَعَالَى اللَّهُ  
عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا. وَمَعْنَى ﴿وَحَرِّفُوا﴾ أَيَّ  
اخْتَلَفُوا وَاتَّفَقُوا وَتَخَرَّصُوا وَكَذَّبُوا. كَمَا قَالَهُ عُلَمَاءُ  
السَّلَفِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَنَكُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾  
أَيَّ تَقْدَسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاطَمَ، عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ  
الضَّالُّونَ، مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَتْدَادِ وَالنَّظَرَاءِ وَالشُّرَكَاءِ.  
﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ  
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

### [مَعْنَى الْبَدِيعِ]

﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيَّ مُبْدِعُهُمَا، وَخَالِقُهُمَا،  
وَمُنْشِئُهُمَا، وَمُحْدِثُهُمَا، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ<sup>(٢)</sup>. كَمَا قَالَ  
مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ. وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْبَدْعَةُ بَدْعَةً، لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ  
لَهَا فِيمَا سَلَفَ ﴿أَنَّ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَيَّ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟  
﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾، أَيَّ وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مَثُولًا بَيْنَ  
شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُتَنَاسَبُ وَلَا يُشَابَهُ شَيْءٌ مِنْ  
خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا  
إِذَا<sup>(٣)</sup> إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُلُّهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]  
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فَبَيَّنَ تَعَالَى  
أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فَكَيْفَ  
يَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ مِنْ خَلْقِهِ تَنَاسِبُهُ؟ وَهُوَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ،  
فَأَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَٰلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا.

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ  
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠١﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ  
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٢﴾

### [اللَّهُ هُوَ رَبُّكُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَيَّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ  
شَيْءٍ، وَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ  
شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أَيَّ فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَقْرُوا لَهُ  
بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا وَلَدَ وَلَا  
صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ وَلَا عَدِيلَ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

(١) الطبري: ٥٤٠/٢ (٢) فتح الباري: ٤٧٢/٨ ومسلم: ١/

١٥٩ وتحفة الأحوذى: ٤٤١/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٣٥/٦

ومسلم: ٤٩/٦



بِحَافِظٍ وَلَا رَقِيبٍ، بَلْ أَنَا مُبَلِّغٌ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ﴾ أَيْ وَكَمَا فَضَّلْنَا الْآيَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، هَكَذَا نُوَضِّحُ الْآيَاتِ وَنُفَسِّرُهَا وَنُيَسِّجُهَا فِي كُلِّ مَوْطِنٍ، لِجَهَالَةِ الْجَاهِلِينَ وَلِيَقُولَ الْمُشْرِكُونَ وَالْكَافِرُونَ الْمُكْذِبُونَ: دَارَسْتَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَارَأْتَهُمْ، وَتَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ. هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ كَيْسَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: (دَارَسْتَ): تَلَوْتَ، خَاصَمْتَ، جَادَلْتَ<sup>(٣)</sup>.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ كَذِبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا فِكْ أَفَرَنَاهُ وَكَاذِبَةٌ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾<sup>(٤)</sup> وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلُ كَاسْتَنْبَهَا فِيهِ شَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا<sup>(٥)</sup> [الفرقان: ٤، ٥] وَقَالَ تَعَالَى

إِخْبَارًا عَنْ زَعِيمِهِمْ وَكَاذِبِهِمْ ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَفَدَّرَ﴾<sup>(٦)</sup> فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ<sup>(٧)</sup> ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ<sup>(٨)</sup> ثُمَّ نَظَرَ<sup>(٩)</sup> ثُمَّ عَسَّ وَبَسَرَ<sup>(١٠)</sup> ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ<sup>(١١)</sup> فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَعْضُ يَوْمَاتِ<sup>(١٢)</sup> إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ<sup>(١٣)</sup>

[المدرث: ١٨-٢٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَلِنُؤْصِحَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَيَتَّبِعُونَهُ، وَالْبَاطِلَ فَيَجْتَنِبُونَهُ، فَلِلَّهِ تَعَالَى الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي إِضْلَالِ أَوَّلِيكَ وَبَيَانِ الْحَقِّ لِهَؤُلَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ بِهٖ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهٖ

كَثِيرًا﴾<sup>(١٤)</sup> الْآيَةُ [البقرة: ٢٦]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لِيَحْكُمَ مَا يُنْفِي الشَّيْطَانُ فَتَنَهُ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾...

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٣]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرِزَادَ

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَزَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ

اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدرث: ٣١] وَقَالَ: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَمَوْ عَلَيْهِمْ عَمَّى أُولَئِكَ يَبْذُلُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفصل: ٤٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ

(١) مسلم: ١٦٢/١ (٢) الطبري: ٢٧/١٢ (٣) الطبراني:

لَوْ كَسَفَهُ لَأُخْرِفَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْفِهِ<sup>(١٥)</sup>. وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى لَمَّا سَأَلَ الرُّؤْيَى: يَا مُوسَى، إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَتَّىٰ إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَأْسُ إِلَّا تَذَهَّدَهُ، أَيْ تَذَعَّرَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَغِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وَنَفَىٰ هَذَا الْأَثَرُ الْإِذْرَاكَ الْخَاصَّ لَا يَنْفِي الرُّؤْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا يَشَاءُ، فَاثِمًا جَلَالَةً وَعَظَمَتُهُ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، فَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ.

وَلِهَذَا كَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تُثَبِّتُ الرُّؤْيَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتُنْفِيهَا فِي الدُّنْيَا، وَتَحْتَاجُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فَالَّذِي نَفَيْتُهُ: الْإِذْرَاكَ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى رُؤْيَى الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ لِلْبَشَرِ، وَلَا لِلْمَلَائِكَةِ، وَلَا لِشَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أَيْ يُحِيطُ بِهَا وَيَعْلَمُهَا عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ خَلَقَهَا، كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ بِالْأَبْصَارِ عَنِ الْمُبْصِرِينَ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ لَا

يَرَاهُ شَيْءٌ، وَهُوَ يَرَى الْخَلَائِقَ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قَالَ: ﴿اللَّطِيفُ

لَا سَبِيحَ رَاجِحَا، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بِمَكَانِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ لُقْمَانَ، فِيمَا وَعَظَ بِهِ ابْنَهُ ﴿يَتْلُ مَا أُتِيَ

إِنَّكَ تَكُنْ مِنْ خَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخَرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾<sup>(١٦)</sup> وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ

وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ<sup>(١٧)</sup>

[تفسير البصائر]

الْبَصَائِرُ هِيَ الْبَيِّنَاتُ وَالْحُجُجُ الَّتِي اسْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ كَقَوْلِهِ:

﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَلِنَا هُدًى وَإِنَّمَا يُضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ لَمَّا ذَكَرَ

الْبَصَائِرَ، قَالَ: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أَيْ إِنَّمَا يَعُودُ وَبِأَلِّهِ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا لَا نَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِن نَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي

فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ أَيْ

جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ»<sup>(٣)</sup>. أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ وَكَمَا زَيْنًا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ حُبَّ أَصْنَانِهِمْ، وَالْمَحَامَاةَ لَهَا وَالْإِنْصَارَ، كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْحَالِيَةِ عَلَى الضَّلَالِ عَمَلُهُمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ، وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، فِيمَا يَسْأَوُهُ وَيَخْتَارُهُ ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ أَيُّ مَعَادُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ يُجَارِبُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ بِآيَةٍ لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلُوبُ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١٩)</sup> وَنَقَلَبَ أَفْعِدْتُهُمْ وَابْصَرْتُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ<sup>(٢٠)</sup>.

[طَلَبُ الْمُعْجَزَاتِ وَالْإِقْسَامُ عَلَى الْإِيمَانِ عِنْدَ مَحِيَّتِهَا] يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ، أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، أَيُّ حَلَفُوا أَيْمَانًا مُؤَكَّدَةً ﴿لَنْ جَاءَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أَيُّ مُعْجَزَةٍ وَخَارِقَةٍ ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾ أَيُّ لَيُصَدِّقَنَّهَا ﴿قُلُوبُ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ قُلُوبُ: يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ الْآيَاتِ تَعْتَنَّا وَكُفِّرُوا وَعِنَادًا، لَا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَالْإِسْتِرْشَادِ: إِنَّمَا مَرْجِعُ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ جَاءَكُمْ بِهَا، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قِيلَ: الْمُخَاطَبُ بِمَا يُشْعِرُكُمْ الْمُشْرِكُونَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِدٌ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ: وَمَا يُذَرِّبُكُمْ بِصِدْقِكُمْ، فِي هَذِهِ الْأَيْمَانِ الَّتِي تُقْسِمُونَ بِهَا، وَعَلَى هَذَا فَالْقِرَاءَةُ: إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ بِكُفْرٍ (إِنَّمَا) عَلَى اسْتِثْنَاءِ الْخَبَرِ عَنْهُمْ، يَنْتَقِي الْإِيمَانِ عِنْدَ مَجِيءِ الْآيَاتِ الَّتِي طَلَبُوهَا... وَقِيلَ: الْمُخَاطَبُ بِقَوْلِهِ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ الْمُؤْمِنُونَ، أَيُّ وَمَا يُذَرِّبُكُمْ أَهْلُهَا الْمُؤْمِنُونَ. وَعَلَى هَذَا فَيَجُوزُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّهَا﴾ الْكُسْرُ كَالْأَوَّلِ وَالْفَتْحُ عَلَى أَنَّهُ مَعْمُولٌ ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ لَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صِلَةً

الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، وَأَنَّهُ يُضِلُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ<sup>(٢١)</sup>.

[الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِمَنْ أَتَّبَعَ طَرِيقَتَهُ: ﴿أَتَبِعَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيُّ أَتَّبَعْتَهُ بِهِ وَافْتَتَبَ أَثَرَهُ، وَاعْمَلْ بِهِ، فَإِنَّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ، الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، لِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيُّ اغْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ وَاحْتَمِلْ أَذَاهُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لَكَ، وَيَنْصُرَكَ وَيُطْفِرَكَ عَلَيْهِمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ حِكْمَةً فِي إِضْلَالِهِمْ، فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَوْ شَاءَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أَيُّ بَلْ لَهُ الْمَشِيتَةُ وَالْحِكْمَةُ، فِيمَا يَسْأَوُهُ وَيَخْتَارُهُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أَيُّ حَافِظًا، تَحْفَظُ أَقْوَالَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَيُّ مُوَكَّلٍ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَأُمُورِهِمْ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾<sup>(٢٢)</sup> لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ [الغاشية: ٢١، ٢٢] وَقَالَ: ﴿فَلَنَمَّا عَلَيْكَ الْبَلْعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْأَلُوا اللَّهَ عَدُوًّا بَعِيرٍ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾<sup>(٢٣)</sup>.

[النَّهْيُ عَنْ سَبِّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَسُبُّوا اللَّهَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَضْلَحَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَنَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبِّكَ إِلَهَتَنَا، أَوْ لَنَهْجُونَ رَبَّكَ، فَنَهَاَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ ﴿فَيَسْأَلُوا اللَّهَ عَدُوًّا بَعِيرٍ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٢٤)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أَصْنَامَ الْكُفَّارِ، فَيَسُبُّ الْكُفَّارُ اللَّهَ عَدُوًّا بَعِيرٍ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾<sup>(٢٥)</sup> وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ - وَهُوَ تَرْكُ الْمَضْلَحَةِ لِمَفْسَدَةٍ أَرْجَحَ مِنْهَا - مَا

(١) الطبري: ٣٤/١٢ (٢) عبد الرزاق: ٢١٥/٢ (٣) فتح الباري: ٤١٧/١٠

سورة الأنعام

١٤٢

سورة الأنعام

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يُلِيمُونَ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَلِيَصْغِيَ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١٤٤﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤٦﴾ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٤٧﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٤٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٩﴾

قَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ٢٢] وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أَيُّ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، وَحَرَامٌ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَتَقْدِيرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ تَوَدُّونَ لَهُمْ ذَلِكَ، حِرْصًا عَلَى إِيْمَانِهِمْ: أَنَّهُمَا إِذَا جَاءَهُمُ الْآيَاتُ يُؤْمِنُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَنْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمَّا جَحَدَ الْمُشْرِكُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، لَمْ تَثْبُتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَرَدَّتْ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَنْصُرَهُمْ﴾ وَنَحْوُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيْمَانِ، وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ فَلَا يُؤْمِنُونَ، كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيْمَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ ابْنُ أَسْلَمَ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَ اللَّهُ مَا الْعِبَادُ قَائِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَقُولُوهُ، وَعَمَلُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. وَقَالَ - (وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ)

[فاطر: ١٤] جَلَّ وَعَلَا - (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنَّكَ لِي كَرِهَتْ فَأُكَوتُ مِنَ الْمُنْحَسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨] فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، أَنَّهُمْ لَوْ رَدُّوا لَمْ يَكُونُوا عَلَى الْهُدَى، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَنْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [قال:] وَلَوْ رَدُّوا إِلَى الدُّنْيَا، لِحِيلِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهُدَى، كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا <sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أَيُّ تَنَزُّهُهُمْ ﴿فِي طَلْعِنَاهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ: فِي كُفْرِهِمْ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ: فِي ضَلَالِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قَالَ الْأَعْمَشُ: يَلْعَبُونَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ، وَأَبُو مَالِكٍ، وَغَيْرُهُمْ: فِي كُفْرِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ.

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يُلِيمُونَ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّا أَجَبْنَا سُؤَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْْمَانِهِمْ، لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، فَزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ تُخَبِّرُهُمْ بِالرَّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ بِتَصْدِيقِ الرُّسُلِ، كَمَا سَأَلُوا فَقَالُوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا﴾

[الإسراء: ٩٢] وَ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا آيَةً﴾ وَ ﴿قَالَ تَعَالَى﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تِلْكَ آيَةٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وَ ﴿قَالَ تَعَالَى﴾ [الفرقان: ٢١] ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أَيُّ فَأَخْبَرُوهُمْ بِصِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ﴿وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (قَبْلًا) بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْبَاءِ، مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَايَنَةِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِضَمِّهِمَا، قِيلَ: مَعْنَاهُ مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَايَنَةِ أَيْضًا، كَمَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ <sup>(٣)</sup>. وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ ابْنُ أَسْلَمَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿قَبْلًا﴾ أَيُّ أَفْوَاجًا، قَبْلًا قَبِيلًا <sup>(٤)</sup>. أَيُّ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ كُلُّ أَمَةٍ بَعْدَ أَمَةٍ، فَيُخَبَّرُونَ بِصِدْقِ الرُّسُلِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿مَا كَانُوا يُلِيمُونَ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿أَيُّ أَنْ الْهُدَايَةَ إِلَيْهِ لَا إِلَيْهِمْ، بَلْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ

(١) الطبري: ٤٤/١٢ العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (٢) الطبري:

٤٥/١٢ (٣) الطبري: ٤٩/١٢ (٤) الطبري: ٤٩/١٢، ٥٠،

السُّدِّيُّ: قُلُوبُ الْكَافِرِينَ ﴿وَلِيَرَوْهُ﴾ أَيُّ يُحِبُّوهَ  
وَيُرِيدُوهُ<sup>(١)</sup>. وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ذَلِكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ وَمَا تُبَدِّلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> مَا آتَاهُ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ<sup>(٣)</sup> إِلَّا  
مَنْ هُوَ صَالٍ الْحَنِيمِ ﴿الصفات: ١٦١-١٦٣﴾ وَقَالَ تَعَالَى:  
﴿إِنَّكَ لَبِى قَوْلٍ تَخْلِفُ﴾<sup>(٤)</sup> يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴿الذاريات: ٨، ٩﴾  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيَقْرَئُوا مَا هُمْ مَقْرُؤُونَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَلِيَكْتَسِبُوا مَا هُمْ مُكْتَسِبُونَ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ  
وَأَيْضًا زَيْدٌ: وَلِيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ<sup>(٦)</sup>.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ  
مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ  
فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾<sup>(٧)</sup> وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا  
مُبَدِّلَ لِكَلِمَتَيْهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ<sup>(٨)</sup>﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ،  
الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَى حَكْمًا﴾ أَيُّ بَيْنِي  
وَبَيْنَكُمْ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أَيُّ  
مُبِينًا ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أَيُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى  
﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، أَيُّ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ  
الْبَشَارَاتِ بِكَ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ  
الْمُمْتَرِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ  
الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ  
فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤] وَهَذَا شَرْطٌ،  
وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي وُقُوعَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ  
رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: صِدْقًا فِيمَا قَالَ، وَعَدْلًا فِيمَا  
حَكَمَ<sup>(٩)</sup>. يَقُولُ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ،  
فَكُلُّ مَا أَخْبَرَ بِهِ فَحَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ  
فَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا عَدْلَ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ فَبَاطِلٌ،  
فَإِنَّهُ لَا يَنْهَى إِلَّا عَنْ مَفْسَدَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُمْ  
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ﴿لَا مُبَدِّلَ  
لِكَلِمَتَيْهِ﴾ أَيُّ لَيْسَ أَحَدٌ يُغَيِّبُ حُكْمَهُ تَعَالَى، لَا فِي الدُّنْيَا  
وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾  
بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، الَّذِي يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿وَإِنْ طَغَى أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ فَيضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ  
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ

مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ  
يَسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ  
وَعَلْبَتِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَدْيَانَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ  
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١١)</sup> وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا  
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي  
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ  
فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾<sup>(١٢)</sup> وَلِيَصْحَعَ إِلَيْهِ أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا  
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَيَقْرَأُوا مَا هُمْ مَقْرُؤُونَ<sup>(١٣)</sup>﴾  
[لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَعْدَاءَ  
يُخَالِفُونَكَ وَيُعَادُونَكَ وَيُعَادُونَكَ، جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ  
قَبْلِكَ أَيْضًا أَعْدَاءَ فَلَا يَحْزُنُكَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُذَوُّوا﴾  
الْآيَةُ [الأنعام: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ  
فِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾  
[فصلت: ٤٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ  
الْمُجْرِمِينَ﴾ الْآيَةُ، وَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نُفَيْلٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ  
لَمْ يَأْت أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي. وَقَوْلُهُ:  
﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿عَدُوًّا﴾ أَيُّ لَهُمْ أَعْدَاءُ مِنْ  
شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَالشَّيْطَانُ كُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ نَظِيرِهِ  
بِالشَّرِّ، وَلَا يُعَادِي الرُّسُلَ إِلَّا الشَّيَاطِينُ مِنْ هَؤُلَاءِ  
وَهَؤُلَاءِ، فَبَحَّهْمُ اللَّهُ وَلَعَنَهُمْ، قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا  
مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ قَالَ:  
مِنْ الْجِنِّ شَيْطَانٌ، وَمِنْ الْإِنْسِ شَيْطَانٌ، يُوحِي بَعْضُهُمْ  
إِلَى بَعْضٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ  
غُرُورًا﴾ أَيُّ يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ الْمُرَيَّنَ  
الْمُزَخْرَفَ، وَهُوَ الْمُرَوِّقُ الَّذِي يَغْتَرُّ سَامِعُهُ مِنَ الْجَهْلَةِ  
بِأَمْرِهِ، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيُّ وَذَلِكَ كُلُّهُ بِقَدْرِ اللَّهِ  
وَقَضَائِهِ، وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيتَتِهِ، أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوٌّ مِنْ  
هَؤُلَاءِ ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أَيُّ فَذَرَهُمْ ﴿وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ أَيُّ يَكْذِبُونَ.  
أَيُّ دَعَا أَذَاهُمْ، وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي عَدَاوَتِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ  
كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَصْحَعَ إِلَيْهِ﴾  
أَيُّ وَلِيَتِمِيلَ إِلَيْهِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ<sup>(١٤)</sup>. ﴿أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا  
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَقَالَ

(١) الطبري: ٥٨/١٢ الطبري: ٥٩/١٢ (٣) الطبري:

٥٩/١٢ (٤) الطبري: ٦٠/١٢ (٥) الطبري: ٦٣/١٢

يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

[أَكْثَرُ النَّاسِ فِي ضَلَالٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، مِنْ بَنِي آدَمَ أَنَّهُ الضَّلَالُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصفات: ٧١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَإِنَّمَا هُمْ فِي ظُنُونٍ كَاذِبَةٍ وَحُسْبَانٍ بَاطِلٍ، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فَإِنَّ الْخَرْصَ هُوَ الْحَزْرُ، وَمِنْهُ خَرْصُ النَّخْلِ، وَهُوَ حَزْرٌ مَا عَلَيْهَا مِنَ الثَّمَرِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ وَمُسَبِّتِهِ ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فَيَسِّرُهُ لِدَلِّكَ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فَيَسِّرُهُمْ لِدَلِّكَ، وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ لَيُّلُونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾

[إِخْلَالُ مَا ذُبِحَ بِاسْمِ اللَّهِ]

هَذَا إِبَاحَةٌ مِنَ اللَّهِ، لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الدَّبَائِحِ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُهُ، وَمَقْهُومُهُ: أَنَّهُ لَا يُبَاحُ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَمَا كَانَ يَسْتَبِيحُهُ كُفَّارٌ قُرَيْشِي مِنْ أَكْلِ الْمَيْتَاتِ، وَأَكْلٍ مَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ نَدَبَ إِلَى الْأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَوَضَّحَهُ، قَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَصَّلَ﴾ بِالنَّشِيدِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالتَّخْفِيفِ، وَالْكُلُّ بِمَعْنَى الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أَيْ إِلَّا فِي حَالِ الْاضْطِرَارِ، فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَكُمْ مَا وَجَدْتُمْ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى جِهَالَ الْمُشْرِكِينَ، فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ، مِنْ اسْتِحْلَالِهِمُ الْمَيْتَاتِ، وَمَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ كَثُرَ لَيُّلُونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أَيْ هُوَ أَعْلَمُ بِاعْتِدَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ.

﴿وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ إِنْ أَلَّيْتُمْ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ

سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْرُقُونَ﴾ ﴿١١٩﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ﴾ الْمَعْصِيَةُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ

١٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ لَيُّلُونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾ وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ إِنْ أَلَّيْتُمْ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْرُقُونَ ﴿١١٩﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيجدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢٠﴾ أَوْ مِنْ كَانَ مِثْلَ فَاحِشَتِهِ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿أَيُّ سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ <sup>(٢)</sup>. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْرُقُونَ﴾ أَيْ سَوَاءٌ كَانَ ظَاهِرًا أَوْ خَفِيًّا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ، رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْإِثْمِ، فَقَالَ: «الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ» <sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيجدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾

[تَحْرِيمُ مَا ذُبِحَ بِغَيْرِ اسْمِ اللَّهِ]

أُسْتَدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الدَّبِيحَةَ لَا تَحِلُّ إِذَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ الدَّبَاحُ مُسْلِمًا، وَقَوْلُهُ

(١) الطبري: ٧٣/١٢ (٢) الطبري: ٧٢/١٢ (٣) مسلم: ٤/

فَقَالَ اللَّهُ فَلَا تَأْكُلُونَهُ، وَمَا دَبَّحْتُمْ أَنْتُمْ تَأْكُلُونَهُ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَطَعْتُوهُمْ﴾ فَأَكَلْتُمْ الْمَيْتَةَ ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾<sup>(٨)</sup>. وَهَكَذَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ<sup>(٩)</sup>.

[تَقْدِيمُ قَوْلِ أَحَدٍ عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ شَرْكَ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَطَعْتُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أَيُّ حَيْثُ عَدَلْتُمْ، عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَشَرَعِهِ إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ، فَقَدَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ، فَهَذَا هُوَ الشَّرْكُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُءُوسَهُمْ أَرْكَبَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الآية: التوبة: ٣١]، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ: فِي تَفْسِيرِهَا عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَبْدُوهُمْ، فَقَالَ: «بَلَى إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ»<sup>(١٠)</sup>.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَاحْتَبَنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١١)</sup>

### [مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ]

هَذَا مَثَلُ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي كَانَ مِثْلًا، أَيْ فِي الضَّلَالَةِ هَالِكًا حَائِرًا، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ أَيْ أَحْيَا قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ، وَهَدَاهُ لَهُ وَوَفَّقَهُ لِاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أَيْ يَهْدِي كَيْفَ يَسْلُكُ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهِ، وَالنُّورُ هُوَ الْقُرْآنُ كَمَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ، وَابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْإِسْلَامُ<sup>(١٣)</sup>. وَالْكُلُّ صَحِيحٌ ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَيِ الْجَهَالَاتِ، وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أَيْ لَا يَهْدِي إِلَى مَنَافَةٍ وَلَا مَخْلَصٍ مِمَّا هُوَ فِيهِ، وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ

فِي آيَةِ الصِّيدِ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثُمَّ قَدْ أَكَّدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ ﴿وَلَا تَلْبَسُوا﴾ وَالصَّوْمِ، قِيلَ: عَائِدٌ عَلَى الْأَكْلِ، وَقِيلَ: عَائِدٌ عَلَى الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَبِالْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَمْرِ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الذَّبْحِ وَالصِّيدِ، كَحَدِيثِي عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ وَأَبِي ثَعْلَبَةَ: «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمُعْلَمُ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ»<sup>(١٤)</sup>. وَهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَحَدِيثُ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ: «مَا أَنَهَرَ الدَّمَ، وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ»<sup>(١٥)</sup>. وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا. وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلْجَنِّ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»<sup>(١٦)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَحَدِيثُ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ الْجَلِّيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ حَتَّى صَلَّيْنَا، فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللَّهِ»<sup>(١٧)</sup>. أَخْرَجَاهُ.

### [وَحْيِ الشَّيْطَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوهُمْ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، قَالَ: صَدَقَ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ﴾<sup>(١٨)</sup>. وَعَنْ أَبِي زَيْدٍ، قَالَ: كُنْتُ قَاعِدًا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَجَّ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، زَعَمَ أَبُو إِسْحَاقَ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَقَ، فَتَفَرَّتْ، وَقُلْتُ: يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَقَ؟! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا وَحْيَانِ: وَحْيِ اللَّهِ وَوَحْيِ الشَّيْطَانِ، فَوَحِيَ اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَوَحِيَ الشَّيْطَانُ إِلَى أُولِيَائِهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ﴾<sup>(١٩)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ عِكْرَمَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ خُفْرَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نَحْوُ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُجْدِلُوهُمْ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لِيُجْدِلُوهُمْ﴾ قَالَ: يُوحِي الشَّيَاطِينُ إِلَى أُولِيَائِهِمْ: تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلْتُمْ، وَلَا تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟ وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الَّذِي قَتَلْتُمْ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ الَّذِي قَدْ مَاتَ، لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ<sup>(٢٠)</sup>.

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: كَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَتَّبِعُونَ مَرْصَاةَ اللَّهِ، فَمَا

(١) فتح الباري: ٥٢٤/٩ ومسلم: ١٥٢٩/٣ وفتح الباري: ٩/

١٣٧ و مسلم: ١٥٣٢/٣ (٢) فتح الباري: ٥٤٦/٩ ومسلم:

١٥٥٨/٣ (٣) مسلم: ٣٣٢/١ (٤) فتح الباري: ٥٤٦/٩

ومسلم: ١٥٥١/٣ (٥) ابن أبي حاتم: ١٣٧٩/٤ فيه أبو بكر بن

عياش قد اختلط (٦) الطبري: ٨٦/١٢ (٧) الطبري: ٨١/١٢

(٨) الطبري: ٨١/١٢ (٩) الطبري: ٨٠/١٢ (١٠) تحفة

الأحوذى: ٤٩٢/٨ لم أجده بهذا اللفظ عند الترمذي بل عنده

"أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً

استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه [ترمذي: ٣٩٥] فيه غطيف

ابن أعين ليس بمعروف في الحديث. يحتمل أن ابن كثير رواه

بالمعنى (١١) الطبري: ٩١/١٢ (١٢) الطبري: ٩١/١٢

ابن عباس: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِهَا لِمَكْرُورٍ فِيهَا﴾ قَالَ: سَلَطْنَا شِرَارَهُمْ فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِهَا عَظَمَائُهَا﴾<sup>(١)</sup>. قُلْتُ: وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ يُعْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وَالْمُرَادُ بِالْمَكْرِ هَهُنَا دَعَاؤُهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ بِزُخْرُفٍ مِنَ الْمَقَالِ وَالْفَعَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ يَقُولُ أَلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup> قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا نَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَائِي<sup>(٤)</sup> وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾<sup>(٥)</sup> الْآيَةُ [سبأ: ٣١-٣٣]، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: كُلُّ مَكْرٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ عَمَلٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>(٦)</sup> أَيْ وَمَا يَعُودُ وَبَالَ مَكْرِهِمْ ذَلِكَ وَإِضْلَالِهِمْ مِنْ أَضْلُوهُ إِلَّا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وَقَالَ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ عَايَةُ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَلُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾<sup>(٧)</sup>

أَحْمَدُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَسَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»<sup>(٨)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّاحِبُونَ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَتَّبِعِ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَتَّبِعِ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَشْيِ وَالْأَصْنَمِ وَالْبَصِيرِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾<sup>(٩)</sup> وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ<sup>(١٠)</sup> وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ<sup>(١١)</sup> وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ<sup>(١٢)</sup> إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩-٣٣]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَوَجْهَ الْمُنَاسَبَةِ فِي ضَرْبِ الْمَثَلَيْنِ هَهُنَا بِالنُّورِ وَالظُّلُمَاتِ مَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> أَيْ حَسَنًا لَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ، قَدَّرَا مِنَ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ بِالْعَقَّةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرُ مُجْرِمِهَا لِمَكْرُورٍ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>(١٤)</sup> وَإِذَا جَاءَتْهُمْ عَايَةُ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَلُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾<sup>(١٥)</sup>

[أَكْبَرُ الْمُجْرِمِينَ وَجِيلُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا فِي قَرْيَتِكَ يَا مُحَمَّدُ أَكْبَرُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ، وَرُؤَسَاءَ وَدُعَاةَ إِلَى الْكُفْرِ، وَالصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِلَى مُحَاذِلَتِكَ وَعَدَاوَتِكَ، كَذَلِكَ كَانَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ يُبْتَلَوْنَ بِذَلِكَ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾<sup>(١٦)</sup> الْآيَةُ [الفرقان: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾<sup>(١٧)</sup> الْآيَةُ [إسراء: ١٦]، قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ فَخَالَفُوا، فَدَمَرْنَاهُمْ، قِيلَ: أَمَرْنَاهُمْ أَمْرًا قَدَرِيًّا، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لِمَكْرُورٍ فِيهَا﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِهَا لِمَكْرُورٍ فِيهَا﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ

عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ... الْآيَةُ [الزخرف: ٣١، ٣٢]، يَعْثُونَ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ جَلِيلٍ مُبْجَلٍ فِي أَغْيَبِهِمْ ﴿٣٢﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَيُّ مِنْ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ - قَسَمَهُمُ اللَّهُ - كَانُوا يَزِدُّونَ بِالرُّسُولِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخْذُوكَ إِلَّا هُزُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَخْذُوكَ إِلَّا هُزُورًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِهِ كَارِهِونَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَفْهَيْتَ يُرْسِلُ مِنْ قِبَلِكَ فِئَاتٍ بِالَّذِينَ سَخَّرَ مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].

[اعتراف الكفار بعلو نسب النبي ﷺ]

هَذَا وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِفَضْلِهِ وَسُورِهِ وَنَسَبِهِ، وَطَهَارَةِ بَيْتِهِ وَمَرْبَاهُ، وَمَنْشِئِهِ صَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ بَيْنَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ: «الْأَمِين» وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ رَئِيسُ الْكُفَّارِ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ سَأَلَهُ هِرْقُلُ مَلِكُ الرُّومِ: وَكَيْفَ نَسَبُهُ فَيَكْفُ؟ قَالَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا. الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ، الَّذِي اسْتَدَلَّ مَلِكُ الرُّومِ بِطَهَارَةِ صِفَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى صِدْقِ نُبُوتِهِ وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاضْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاضْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاضْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاضْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» <sup>(١)</sup> إِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ <sup>(٢)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ» <sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَمِصِبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾... الْآيَةُ، هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِنَ اللَّهِ، وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَنْ اتِّبَاعِ رُسُلِهِ وَالْإِقْبَادِ لَهُمْ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ، فَإِنَّهُ سَمِصِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيِّنٌ يَدِي اللَّهِ صَغَارٌ وَهُوَ الدَّلَّةُ الدَّائِمَةُ، لِمَا أَنَّهُمْ اسْتَكْبَرُوا فَأَغْبَاهُمْ ذَلِكَ ذُلًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَا اسْتَكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أَيُّ صَاغِرِينَ دَلِيلِينَ حَقِيرِينَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ لَمَّا كَانَ الْمَكْرُ غَالِبًا إِنَّمَا يَكُونُ خَفِيفًا، وَهُوَ التَّلَطُّفُ فِي التَّحِيلِ وَالْخَدِيعَةِ، فَوَلَبُوا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جَزَاءً وَفَاقًا ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ ثُتِّلَ الْأَسْرَارُ﴾ [الطارق: ٩] أَيُّ تَظْهَرُ الْمُسْتَرَاتُ وَالْمَكْنُونَاتُ وَالضَّمَائِرُ، وَجَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِئْثَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ» <sup>(٤)</sup>. وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَدْرُ خَفِيفًا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَصِيرُ عَلَمًا مَنْشُورًا عَلَى صَاحِبِهِ بِمَا فَعَلَ.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ

(١) أحمد: ١٠٧/٤ (٢) مسلم: ١٦٨٢/٤ (٣) فتح الباري: ٦٥٣/٦ (٤) فتح الباري: ٣٢٧/٦ ومسلم: ١٣٦١/٣



عَنْهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِ وَطَاقَتِهِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُولُ: كَمَا يَجْعَلُ اللَّهُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيْقًا حَرَجًا، كَذَلِكَ يُسَلِّطُ اللَّهُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ، يَمْنُنُ أَبِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَيُعْزِيهِ وَيَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّجْسُ الشَّيْطَانُ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الرَّجْسُ: كُلُّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: الرَّجْسُ الْعَذَابُ.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾<sup>(٩)</sup>  
 ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَرِيقَ الضَّالِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ الصَّادِينَ عَنْهَا، نَبَّهَ عَلَى شَرَفِ مَا أُرْسِلَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ مُنْصَوِّبٌ عَلَى الْحَالِ، أَيْ هَذَا الدِّينُ الَّذِي شَرَعَنَاهُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، هُوَ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمُ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ﴾ أَيْ وَضَحْنَاهَا وَبَيَّنَّاهَا وَفَسَّرْنَاهَا ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أَيْ لِمَنْ لَهُ فَهْمٌ وَوَعْيٌ يَعْقِلُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ وَهِيَ الْجَنَّةُ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا وَصَفَ اللَّهُ الْجَنَّةَ هَهُنَا بِدَارِ السَّلَامِ، لِسَلَامَتِهِمْ فِيهَا سَلَكُوهُ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُفْتَنِيِّ أَثَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَطَرِيقَتِهِمْ، فَكَمَا سَلِمُوا مِنْ آفَاتِ الْإِغْوِجَاجِ أَفْضَلُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أَيْ حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ ﴿وَبِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ جَزَاءً عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، تَوَلَّاهُمْ وَأَتَاهُمْ الْجَنَّةَ بِمَنْهَ وَكَرَمِهِ.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا لِمَنْعَرَجٍ لَئِنْ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ اسْتَغْنَى بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ فَدَخَلُوا فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(١١)</sup>

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا تَقْضُهُ عَلَيْهِمْ وَتَنْذِرُهُمْ بِهِ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي الْجِنَّ

يُضِلُّهُ يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١٢)</sup>  
 يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أَيْ يُسِّرْهُ لَهُ وَيُسْطِطْهُ وَيُسَهِّلْهُ لِذَلِكَ، فَهَذِهِ عَلَامَاتٌ عَلَى الْخَيْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: يَقُولُ تَعَالَى: يُوسِّعُ قَلْبَهُ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ<sup>(١٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾ فُرِيَ بَفَتْحِ الضَّادِ وَتَشْكِينِ الْيَاءِ، وَالْأَكْثَرُونَ ﴿ضَيْقًا﴾ بِشَدِيدِ الْيَاءِ وَكَشْرهَا، وَهُمَا لُغَتَانِ كَهَيْنَ وَهَيْنَ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (حَرَجًا) بَفَتْحِ الْحَاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ قِيلَ: بِمَعْنَى آثِمٍ. قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَقِيلَ: بِمَعْنَى الْفِرَاقَةِ الْأُخْرَى: ﴿حَرَجًا﴾ بَفَتْحِ الْحَاءِ وَالرَّاءِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَسَّعُ لِشَيْءٍ مِنَ الْهُدَى، وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مَا يَنْفَعُهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا يَنْفَعُهُ فِيهِ.

وَقَدْ سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنْ مُذَلِّجٍ عَنِ "الْحَرْجَةِ"، فَقَالَ: هِيَ الشَّجَرَةُ تَكُونُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، لَا تَصِلُ إِلَيْهَا رَاعِيَةٌ وَلَا وَحْشِيَّةٌ وَلَا شَيْءٌ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ<sup>(١٤)</sup>. ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ عَلَيْهِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾، قَالَ: لَا يَجِدُ فِيهِ مَسْلَكًا إِلَّا صُعْدًا<sup>(١٥)</sup>.

وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يَقُولُ: فَكَمَا لَا يَسْتَطِيعُ ابْنُ آدَمَ أَنْ يَبْلُغَ السَّمَاءَ، فَكَذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ قَلْبَهُ، حَتَّى يَدْخُلَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ<sup>(١٦)</sup>.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا مَثَلُ صَرَبَةِ اللَّهِ لِقَلْبِ هَذَا الْكَافِرِ فِي شِدَّةِ ضَيْقِهِ عَنْ وُضُوءِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ، يَقُولُ: فَكَيْفَ فِي امْتِنَاعِهِ مِنْ قَبُولِ الْإِيمَانِ وَضَيْقِهِ عَنْ وُضُوءِهِ إِلَيْهِ، مَثَلُ امْتِنَاعِهِ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَعَجْزِهِ

(١) الدر المنثور: ٣٥٦/٣ (٢) الطبري: ١٠٤/١٢ إسناده ضعيف فيه مجاهيل (٣) الطبري: ١٠٥/١٢ (٤) الدر المنثور: ٣٥٦/٣ (٥) الطبري: ١٠٩/١٢ (٦) الطبري: ١١٠/١٢ (٧) الطبري: ١١١/١٢ (٨) الطبري: ١١١/١٢

بِالظَّالِمِينَ نُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَنُهْلِكَ بَعْضَهُمْ  
بِبَعْضٍ وَنَسْتَقِمْ مِنْ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، جَزَاءً عَلَى ظُلْمِهِمْ  
وَبِعِيتِهِمْ.

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِلَهُ بِأَيْكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ  
آيَاتِي وَيُذَرُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ  
لِخَبْرَةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾  
[تَفْرِيعُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ بِالسُّؤَالِ عَنْ إِزْسَالِ الرُّسُلِ  
وَاعْتِرَافِهِمْ بِذَلِكَ]

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يُفْرَعُ اللَّهُ بِهِ كَافِرِي الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ، حَيْثُ يَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ هَلْ بَلَّغْتَهُمُ الرُّسُلَ  
رِسَالَاتِهِ؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ تَفْرِيعٍ: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِلَهُ  
بِأَيْكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ جُمْلَتِكُمْ، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ  
فَقَطُّ وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رُسُلٌ، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِدٌ  
وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيْمَةِ مِنَ السَّلَفِ  
وَالْخَلَفِ<sup>(١)</sup>. وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا هُمْ مِنَ الْإِنْسِ،  
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْنِ مِنْ  
بَعْدِهِ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ  
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]. وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾  
[العنكبوت: ٢٧] فَحَصَرَ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ فِي  
ذُرِّيَّتِهِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ: إِنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ فِي الْجِنِّ  
قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ، ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ بِعِيتِهِ، وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الرُّسُلِ إِلَّا إِنْهُمْ لَيَأْكُلُونَ  
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وَقَالَ: ﴿وَمَا  
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾  
[يوسف: ١٠٩] وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِنَّ تَبِعَ لِلْإِنْسِ فِي هَذَا  
الْبَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ  
نَفَرَ مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا  
قُصِيَ لَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ قَالُوا يَقَوْمُنَا إِنَّا سَمِعْنَا  
كَتَبًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مِثْلٍ مِثْلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ  
وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ يَقَوْمُنَا آجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرُ  
لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ إِلَهِكُمْ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ لَا يُجِبُ دَاعِيَ  
اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي

وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا،  
وَيَعْبُدُونَ بِهِمْ وَيُطِيعُونَهُمْ، وَيُوجِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ  
زُخْرَفُ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ قَدْ اسْتَكْرَثُوا مِنَ  
الْإِنْسِ﴾ أَيُّ ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ يَدُلُّ  
عَلَى الْمَحْذُوفِ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿قَدْ اسْتَكْرَثُوا مِنَ الْإِنْسِ﴾  
أَيُّ مِنْ إِعْوَانِهِمْ، وَإِضْلَالِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ  
إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ  
مُتِينٌ ﴿١١﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ  
مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَقَلَّمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢] وَقَالَ  
أَوَّلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ يَعْنِي أَنَّ  
أَوَّلِيَاءَ الْجِنِّ مِنَ الْإِنْسِ قَالُوا: مُجِيبِينَ لَكَ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ  
بِهَذَا.

قَالَ الْحَسَنُ: وَمَا كَانَ اسْتِمْتَاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، إِلَّا أَنَّ  
الْجِنَّ أَمَرَتْ وَعَمِلَتْ الْإِنْسُ<sup>(١)</sup>.  
وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَنْزِلُ  
الْأَرْضَ فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِكَ فِي الْوَادِي. فَذَلِكَ  
اسْتِمْتَاعُهُمْ، فَاعْتَدُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(٢)</sup>. وَأَمَّا اسْتِمْتَاعُ  
الْجِنِّ بِالْإِنْسِ فَإِنَّهُ كَانَ - فِيمَا ذَكَرَ - مَا يَتَأَلَّ الْجِنُّ مِنَ  
الْإِنْسِ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي اسْتِعَانَتِهِمْ بِهِمْ، فَيَقُولُونَ:  
قَدْ شَدَّنَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ. ﴿وَبَلَّغْنَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا﴾ قَالَ  
السُّدِّيُّ: يَعْنِي الْمَوْتَ ﴿قَالَ أَلَنَّا مَوْتَكُمْ﴾ أَيُّ مَا وَكَلَّمْ  
وَمَنْزِلَكُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ وَأَوْلِيَاءُكُمْ ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ مَا كُنِينَ  
فِيهَا مَكْنًا مُحَلَّدًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ.

﴿وَكَذَلِكَ نُوحِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣١﴾﴾

[تَوْحِيَةُ بَعْضِ الظَّالِمِينَ عَلَى بَعْضٍ]

وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: يُوحِي اللَّهُ بَعْضَ  
الظَّالِمِينَ بَعْضًا فِي النَّارِ، يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ  
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ نُوحِي بَعْضَ  
الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قَالَ: ظَالِمِي الْجِنِّ وَظَالِمِي الْإِنْسِ. وَقَرَأَ:  
﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ سَطْرَتَا هُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٤﴾﴾  
[الزخرف: ٣٦] قَالَ: وَنُسَلِّطُ ظَلَمَةَ الْجِنِّ عَلَى ظَلَمَةِ  
الْإِنْسِ، وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا

وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيِّئِلِي بِظَالِمٍ  
وَمَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا وَلَّيْنَا هَؤُلَاءِ الْخَاسِرِينَ مِنَ  
الْإِنْسِ تِلْكَ الطَّائِفَةَ الَّتِي أَغْوَيْنَاهُمْ مِنَ الْجِنِّ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ

(١) الدر المنثور: ٣٥٧/٣ (٢) الطبري: ١١٦/١٢ (٣) عبد

الرزاق: ٢١٨/٢ (٤) الطبري: ١١٩/١٢ (٥) الطبري: ١١٢/

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٥

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَعْمَلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا  
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ  
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا  
أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا  
تُوعَدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمُ  
اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ  
مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ  
﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ  
نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا  
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ  
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ  
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ  
لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ  
شُرَكَاءُؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ  
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿[النحل: ٨٨]﴾ وَمَا  
رُبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿[النحل: ٨٨]﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَيْ وَكُلُّ ذَلِكَ  
مِنْ عَمَلِهِمْ يَا مُحَمَّدُ يَعْلَمُ مِنْ رَبِّكَ، يُحْصِيهَا وَيُثَبِّتُهَا لَهُمْ  
عِنْدَهُ، لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا عِنْدَ لِقَائِهِمْ يَأْتِهِمْ وَمَعَادِهِمْ إِلَيْهِ <sup>(١)</sup>.  
﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ  
بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾  
إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمُ  
اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ  
لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

[الْوَعْدُ بِإِذْهَابِهِمْ إِذَا عَصَوْا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْغَنِيُّ﴾ أَيْ عَنْ  
جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ  
أَحْوَالِهِمْ ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أَيْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَحِيمٌ بِهِمْ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ضَلَّلِي مُبِينٍ ﴿[الأحقاف: ٢٩-٣٢]﴾ وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ  
الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا عَلَيْهِمْ  
سُورَةَ الرَّحْمَنِ، وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَفَرُغْ لَكُمْ أَنَّهُ  
الْفَقْلَانِ﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١، ٣٢]. <sup>(١)</sup>

وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿يَمْعَشَرُ الْحَيُّ  
وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُزِدُونَكُمْ  
لِقَاءَهُ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٢٠] أَيْ  
أَفَرَزْنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُونَا رِسَالَاتِكَ وَأَنْذَرُونَا لِقَاءَكَ، وَأَنَّ  
هَذَا الْيَوْمَ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّضَهُمُ الْحَيَاةَ  
الدُّنْيَا﴾ أَيْ وَقَدْ فَرَطُوا فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَهَلَكُوا  
بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمُ لِلْمُعْجَزَاتِ، لَمَّا اغْتَرَوْا بِهِ مِنْ  
زُخْرُفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى  
أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَنْتُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أَيْ فِي  
الدُّنْيَا، بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.  
﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَعْمَلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ  
وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا أَعَذَرْنَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِإِرسَالِ الرُّسُلِ  
وَأَنْزَالِ الْكُتُبِ، لِئَلَّا يُوَآخِذَ أَحَدٌ بِظُلْمِهِ وَهُوَ لَمْ تَبْلُغْهُ  
دَعْوَةٌ، وَلَكِنْ أَعَذَرْنَا إِلَى الْأُمَمِ، وَمَا عَذَبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ  
إِرسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا  
فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ  
أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]  
كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى بَعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]  
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ سَالَمَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ  
نَذِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴿[الملك: ٨، ٩] وَالْآيَاتُ  
فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

قَالَ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَعْمَلُوا﴾ أَيْ  
وَلِكُلِّ عَامِلٍ فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَوْ مَعْصِيَتِهِ مَرَاتِبٌ وَمَنَازِلُ مِنْ  
عَمَلِهِ، يُبْلَغُهُ اللَّهُ إِلَيْهَا وَيُنِيبُهُ بِهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ  
شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿قُلْتُ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُعَوَّدَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَعْمَلُوا﴾  
عَمَلُؤُهُمْ أَيْ مِنْ كَافِرِي الْحَيِّ وَالْإِنْسِ، أَيْ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ  
فِي النَّارِ بِحَسَبِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ [الأعراف: ٣٨]  
وَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَزِيدُهُمْ عَذَابًا

(١) تحفة الأحوذى: ١٧٧/٩ (٢) الطبري: ١٢٥/١٢

[المجادلة: ٢١] وَقَالَ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٥) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر: ٥١، ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾  
فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِيعِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ  
إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

### [بَيَانُ بَعْضِ أَعْمَالِ الشِّرْكِ]

هَذَا ذِمٌّ وَتَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا بِدْعًا وَكُفْرًا وَشِرْكًَا، وَجَعَلُوا لِلَّهِ جُزْءًا مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي مِمَّا خَلَقَ وَبَرَأ ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ أي مِنَ الزَّرْعِ وَالثَّمَارِ ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أي جُزْءًا وَقَسَمًا ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِيعِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ كَانُوا إِذَا حَرَّثُوا حَرْثًا أَوْ كَانَتْ لَهُمْ ثَمَرَةٌ، جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْهُ جُزْءًا وَلِلْوَثَنِ جُزْءًا، فَمَا كَانَ مِنْ حَرْثٍ أَوْ ثَمَرَةٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَصِيبِ الْأَوْتَانِ، حَفَظُوهُ وَأَخْصَوْهُ وَإِنْ سَقَطَ مِنْهُ شَيْءٌ فِيمَا سَمِيَ لِلصَّمَدِ، رَدُّوهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ، وَإِنْ سَبَقَهُمُ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ فَسَقَى شَيْئًا جَعَلُوهُ لِلَّهِ جَعَلُوا ذَلِكَ لِلْوَثَنِ، وَإِنْ سَقَطَ شَيْءٌ مِنَ الْحَرْثِ وَالثَّمَرِ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ فَاخْتَلَطَ بِالَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ قَالُوا: هَذَا فَقِيرٌ، وَلَمْ يَرُدُّهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ، وَإِنْ سَبَقَهُمُ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ فَسَقَى مَا سَمِيَ لِلْوَثَنِ تَرَكُوهُ لِلْوَثَنِ، وَكَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِيَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامَّ فَيَجْعَلُونَهُ لِلْأَوْتَانِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَرِّمُونَهُ قُرْبَةَ اللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ آيَةٌ (٣). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أَيِ إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أَيِ قَوْمًا آخَرِينَ، أَيِ يَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ أَيِ هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، كَمَا أَذْهَبَ الْقُرُونُ الْأُولَى وَأَتَى بِالَّذِي بَعْدَهَا، كَذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِ هَؤُلَاءِ وَالْإِثْبَانِ بِآخَرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا [النساء: ١٣٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ أُنْتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٣٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [فاطر: ١٥-١٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٨] وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُثْبَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَانَ بْنَ عُثْمَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾: الذَّرِيَّةُ: الْأَصْلُ. وَالذَّرِيَّةُ: النَّسْلُ (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ مَا نُوَعِدُونَ لَأَتِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيِ أَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ، أَنَّ الَّذِي يُوعِدُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيِ وَلَا تُعْجِزُونَ اللَّهَ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَإِنْ صِرْتُمْ تَرَابًا رُفَاتًا وَعِظَامًا، هُوَ قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِلَى عَامِلٍ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعْدٌ أَكِيدٌ، أَيِ اسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَنَاجِيَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى، فَإِنَّا مُسْتَمِرٌّ عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ (٢) وَانْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ [هود: ١٢١، ١٢٢] قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ نَاجِيَتِكُمْ (٣). فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يَقْلَعُ الظَّالِمُونَ أَيِ أَتَكُونُ لِي أَوْ لَكُمْ؟ وَقَدْ أُنْجِزَ اللَّهُ مَوْعِدُهُ لِرُسُلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَيِ: فَإِنَّهُ تَعَالَى مَكْنَهُ فِي الْبِلَادِ وَحَكْمَهُ فِي نَوَاصِي مُخَالِفِيهِ مِنَ الْعِبَادِ، وَفَتَحَ لَهُ مَكَّةَ وَأَظْهَرَهُ عَلَى مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوِيهِ وَعَادَاهُ وَنَاوَاهُ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُ عَلَى سَائِرِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَكَذَلِكَ الْيَمَنُ وَالْبَحْرَيْنِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ، ثُمَّ فُتِحَتِ الْأَمْصَارُ وَالْأَقَالِيمُ وَالرَّسَائِقُ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي أَيَّامِ خُلَفَائِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلْأَعْرَابِ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(١) الدر المنثور: ٣/٣٦١ (٢) الطبري: ١٢/١٢٩ (٣)

الطبري: ١٢/١٣١، ١٣٢

## [بَعْضُ تَحْرِيمَاتِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَنْعَامِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (الْحَجَرُ): الْحَرَامُ، مِمَّا حَرَّمُوا مِنَ الْوَصِيلَةِ وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا<sup>(٦)</sup>. وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ﴾ تَحْرِيمٌ كَانَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَتَغْلِيظٌ وَتَشْدِيدٌ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَالَ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ﴿حَجَرٌ﴾ إِنَّمَا اخْتَجَرُوهَا لِإِلَهَتِهِمْ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِغْمِهِمْ﴾ يَقُولُونَ: حَرَامٌ أَنْ يَطْعَمَ إِلَّا مَنْ شِئْنَا<sup>(٩)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَرْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ وَاللَّهِ أَزُوتُ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرُّوتُ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَهِيمَةٍ وَلَا سَائِبِغٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَلِمٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي حُرِّمَتْ طَهُورُهَا فِيهِ الْبَهِيمَةُ وَالسَّائِبَةُ وَالْوَصِيلَةُ وَالْحَامُ. وَأَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا: لَا إِذَا وَلَدُوهَا وَلَا إِذَا نَحَرُوهَا.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ: قَالَ لِي أَبُو وَاثِلٍ: أَتَذَرِي مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ طَهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قُلْتُ: لَا، قَالَ: هِيَ الْبَهِيمَةُ كَانُوا لَا يَحْجُونَ عَلَيْهَا<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ مِنْ إِبِلِهِمْ طَائِفَةٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهَا: لَا إِنْ رَكَبُوا وَلَا إِنْ حَلَبُوا، وَلَا إِنْ حَمَلُوا، وَلَا إِنْ نَحَجُوا وَلَا إِنْ عَمِلُوا شَيْئًا<sup>(١١)</sup>. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ عَلَى اللَّهِ وَكَذِبًا مِنْهُمْ فِي إِسْنَادِهِمْ ذَلِكَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَلَا رِضِيَهُ مِنْهُمْ ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ عَلَيْهِ، وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَانَ مِنْ مَيْتَةٍ فَهُوَ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي الْآيَةِ: كُلُّ شَيْءٍ يَجْعَلُونَهُ اللَّهُ مِنْ ذَبْحٍ يَذْبَحُونَهُ لَا يَأْكُلُونَهُ أَبَدًا حَتَّى يَذْكُرُوا مَعَهُ أَسْمَاءَ الْأَلْهَةِ، وَمَا كَانَ لِلْأَلْهَةِ لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ مَعَهُ، وَقَرَأَ الْآيَةَ حَتَّى بَلَغَ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾<sup>(١٣)</sup>. أَيُّ سَاءَ مَا يَقْسِمُونَ. فَإِنَّهُمْ أَخْطَأُوا أَوَّلًا فِي الْقِسْمِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ، وَلَهُ الْمُلْكُ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَفِي تَصْرِفِهِ وَتَحْتِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيتِهِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ثُمَّ لَمَّا قَسَمُوا فِيمَا زَعَمُوا الْقِسْمَةَ الْفَاسِدَةَ لَمْ يَحْفَظُوهَا بَلْ جَارَوْا فِيهَا، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْكُفْرُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتَ ضَرْبًا [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾

## [زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا زَيَّنَتْ الشَّيَاطِينُ لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهُ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا، كَذَلِكَ زَيَّنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ - خَشْيَةُ الْإِمْلَاقِ - وَوَأَذَ الْبَنَاتِ خَشْيَةُ الْعَارِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾: زَيَّنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ شَيَاطِينُهُمْ يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَبْدُوا أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الْعَبَلَةِ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَمَرْتُهُمُ الشَّيَاطِينُ أَنْ يَقْتُلُوا الْبَنَاتِ، إِمَّا ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ فَيَهْلِكُوهُمْ، ﴿و﴾ إِمَّا ﴿لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أَيُّ فَيَخْلِطُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ<sup>(١٦)</sup> وَنَحْوُ ذَلِكَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيُّ كُلُّ هَذَا وَاقِعٌ بِمَشِيتِهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ لِذَلِكَ كَوْنًا، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِي ذَلِكَ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ فَدَعَهُمْ وَاجْتَنَبَهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ فَسَيَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ طَهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَأَيْتُمْ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

(١) الطبري: ١٣٣/١٢ (٢) الطبري: ١٣٤/١٢ (٣) الطبري:

١٣٦/١٢ (٤) الطبري: ١٣٦/١٢ (٥) الطبري: ١٣٧/١٢

(٦) الطبري: ١٤٣/١٢ (٧) الطبري: ١٤٣/١٢ (٨) الطبري:

١٤٣/١٢ (٩) الطبري: ١٤٣/١٢ (١٠) الطبري: ١٤٤/١٢

(١١) الطبري: ١٤٥/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَقَالُوا هَذِهِ أَفْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن  
نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنعَمَ حَرَمْتُ طُحُورُهَا وَأَنعَمَ لَا يَذْكُرُونَ  
أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا  
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ  
خَالِصَةٌ لَّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن  
مِثْنَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ  
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ  
سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ  
قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ \* وَهُوَ الَّذِي  
أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ  
مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ  
مُتَشَابِهٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاثُوا حَقَّهُ، يَوْمَ  
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾  
وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ  
اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً  
عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿[الأنعام: ١٤٠]﴾  
وهكذا رواه البخاريُّ مُتَّفَقًا فِي كِتَابِ «مَنَاقِبِ قُرَيْشٍ» مِنْ  
صَحِيحِهِ (٦).

«وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ  
وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ  
كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا  
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ  
وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ  
لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾»

[اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الثَّمَرَ وَالْحَبَّ وَالْأَنْعَامَ]  
يَقُولُ تَعَالَى مُبِينًا أَنَّهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الزُّرُوعِ

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبْعِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْهَدَيْلِ عَنْ  
ابْنِ عَبَّاسٍ «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ  
لَّذُكُورِنَا» الْآيَةُ قَالَ: اللَّبَنُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ  
لَّذُكُورِنَا»: فَهُوَ اللَّبَنُ كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ عَلَى إِنَائِهِمْ وَيُسْرِبُهُ  
ذُكْرَانُهُمْ. وَكَانَتْ الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ، وَكَانَ  
لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِن كَانَتْ أُنْثَى تُرِكَتْ فَلَمْ تُذْبَحْ،  
وَإِن كَانَتْ مِثْنَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، فَهَيَّ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ<sup>(٢)</sup>.  
وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ السَّعْدِيُّ: الْبَحِيرَةُ لَا يَأْكُلُ مِنْ لَبَنِهَا إِلَّا الرِّجَالُ،  
وَإِن مَاتَ مِنْهَا شَيْءٌ أَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ. وَكَذَا قَالَ  
عِكْرَمَةُ وَفَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ  
الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لَّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا» قَالَ: هِيَ  
السَّائِبَةُ وَالْبَحِيرَةُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَفَتَادَةُ فِي  
قَوْلِ اللَّهِ: «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ» أَيُّ قَوْلِهِمُ الْكَذِبُ فِي  
ذَلِكَ<sup>(٥)</sup>. يَعْني كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ  
الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِكُمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ  
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ ﴿١٣٩﴾ مَنَعٌ... الْآيَةُ  
[النحل: ١١٦، ١١٧] «إِنَّهُ حَكِيمٌ» أَيُّ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ  
وَسُرْعِهِ وَقَدْرِهِ «عَلِيمٌ» بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ  
وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا أَثَمَ الْجَزَاءِ.

«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا  
رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾»

يَقُولُ تَعَالَى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ فَعَلُوا هَذِهِ الْأَفْعَالَ فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَخَسِرُوا أَوْلَادَهُمْ بِقَتْلِهِمْ،  
وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ فَحَرَّمُوا أَشْيَاءَ ابْتَدَعُوهَا مِنْ  
تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ. وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَيَصِيرُونَ إِلَى شَرِّ الْمَنَازِلِ  
بِكُذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَافْتِرَائِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ  
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ ﴿١٣٩﴾ مَنَعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ  
إِنَّمَا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ يَنْفِقُهُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا  
يَكْفُرُونَ» [يونس: ٧٠، ٦٩] وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ  
مَرْدُودِيهِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا، قَالَ: إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ، فَافْقُرْ مَا  
فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ

(١) الطبري: ١٤٦/١٢ أبو إسحاق السبيعي مدلس قد عنعن ولم  
يصرح بالسماع (٢) الطبري: ١٤٧/١٢ العوفي وعائلته قد تقدم  
حكمهم (٣) الطبري: ١٢ / ١٤٨ (٤) الطبري: ١٤٨ / ١٢ (٥)  
الطبري: ١٥٢ / ١٢ (٦) فتح الباري: ٦ / ٦٣٦

الْمَعْرُوفِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ ابْنِ شِمَاسٍ، جَدُّ نَحْلًا لَهُ فَقَالَ: لَا يَأْتِينِي الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا أَطْعَمْتُهُ فَأَطْعَمَ حَتَّى أَمْسَى، وَلَيْسَتْ لَهُ ثَمَرَةٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّا لَا نُحِبُّ الْمُشْرِفِينَ﴾ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ. لَكِنَّ الظَّاهِرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِفُوا﴾ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى الْأَكْلِ، أَيْ لَا تُشْرِفُوا فِي الْأَكْلِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَصْرَةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الْآيَةِ [الأعراف: ٣١].

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ تَعْلِيلًا: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبُسُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ»<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

### [فَوَائِدُ الْأَنْعَامِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا﴾ أَيْ وَأَنْشَأَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَا هُوَ حَمُولَةٌ وَمَا هُوَ فَرَسٌ، قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَمُولَةِ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْفَرَسُ الصَّغَارُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: حَمُولَةٌ: مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ وَفَرَسًا الصَّغَارُ مِنَ الْإِبِلِ. رَوَاهُ الْحَاجِمُ وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْحَمُولَةُ: مَا تَرْكَبُونَ. وَالْفَرَسُ: مَا تَأْكُلُونَ وَتَحْلِبُونَ، شَاءَ لَا تَحْمَلُ تَأْكُلُونَ لَحْمَهَا وَتَتَّخِذُونَ مِنْ صُوفِهَا لِحَافًا وَفَرَسًا<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَسَنٌ، يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ [١٦] وَذَلِكَ لَهَا لَمْ يَفْعَلْهُمْ وَفِيهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [يس: ٧١، ٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَرَةٌ لَتُفَكِّرُمْ بِمَا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَرَمٍ بَنًا خَالِصًا سَابِقًا لِلشَّرِيعِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَاتًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٦٦-٨٠].

وَالثَّمَارِ وَالْأَنْعَامِ الَّتِي تَصَرَّفَ فِيهَا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِفُونَ بِأَرَانِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَقَسَمُوهَا وَجَزَّوْهَا فَجَعَلُوا مِنْهَا حَرَامًا وَحَلَالًا، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَسْمُوكَاتٍ. وَفِي رَوَايَةٍ: فَالْمَعْرُوشَاتُ مَا عَرَّشَ النَّاسُ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ مَا خَرَجَ فِي الْبَرِّ وَالْجِبَالِ مِنَ الثَّمَرَاتِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَا عَرَّشَ مِنَ الْكَرْمِ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ مَا لَمْ يُعَرَّشَ مِنَ الْكَرْمِ. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿مُنْشِكِيهَا وَغَيْرَ مُنْشِكِيهَا﴾ قَالَ: ﴿مُنْشِكِيهَا﴾ فِي الْمَنْظَرِ وَغَيْرَ مُنْشِكِيهَا فِي الْمَطْعَمِ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قَالَ: مِنْ رُطْبِهِ وَعَنِهِ<sup>(١٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا حَضَرَكَ الْمَسَاكِينُ طَرَحْتَ لَهُمْ مِنْهُ<sup>(١٣)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ: عِنْدَ الزَّرْعِ يُعْطِي الْقَبْضَةَ، وَعِنْدَ الصَّرَامِ يُعْطِي الْقَبْضَةَ وَيَتَرَكُهُمْ فَيَنْتَبِعُونَ أَثَارَ الصَّرَامِ<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، قَالَ: يُعْطِي مِثْلَ الصُّغْتِ<sup>(١٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: ﴿وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا قَبْلَ الزَّكَاةِ، لِلْمَسَاكِينِ الْقَبْضَةُ وَالصُّغْتُ لِعَلْفِ دَابَّتِهِ.

وَقَدْ دَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ يَصْرِفُونَ وَلَا يَتَصَدَّقُونَ، كَمَا ذَكَرَ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ فِي سُورَةِ «ن» ﴿إِذْ أَقْبَتُوا لَبِصْرُهَا مُصْبِحِينَ﴾ [١٧] وَلَا يَسْتَنْوُونَ [١٨] فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ [١٩] فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [القم: ١٧-٢٠] أَيْ كَاللَّيْلِ الْمُذْلِلِ لِهَيْمِ سَوْدَاءٍ مُحْتَرِقَةٍ [فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ] [٢١] أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْوِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [٢٢] فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَنْخَفُونَ [٢٣] أَنْ لَا يَدْخُلَنَّا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِنًا [٢٤] وَغَدُوا عَلَى حَرٍّ قَدِيرٍ [٢٥] أَيْ قُوَّةَ وَجَلْدٍ وَهَمَّةٍ [فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَائُونَ] [٢٦] بَلْ عَنْ غُرُومٍ [٢٧] قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَقْلُ لَكُمْ لَوْلَا سَيْحُونَ [٢٨] قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [٢٩] فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ [٣٠] قَالُوا يَرَتَّلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [٣١] عَنِ رَبِّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا حَرًّا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ [٣٢] كَذَلِكَ الْقَتَالَةُ وَلَعَنَتِ الْأَخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [القم: ١٧-٣٣].

### [بَيَانُ الْإِسْرَافِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّا لَا نُحِبُّ الْمُشْرِفِينَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تُشْرِفُوا فِي الْإِعْطَاءِ فَتَعْطُوا فَوْقَ

(١) الطبري: ١٥٦/١٢ (٢) الطبري: ١٥٧/١٢ (٣) الطبري: ١٥٧/١٢ (٤) الطبري: ١٦٣/١٢ (٥) عبد الرزاق: ٢١٩/٢ (٦) الطبري: ١٦٥/١٢ (٧) كتاب اللباس تحت الباب الأول، وفيه: «وتصدقوا» بعد «البسوا» (٨) الحاكم: ٣١٧/٢ (٩) الطبري: ١٨١/١٢

[كُلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهَا خُطُوتَ

الشَّيْطَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْهَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ أَيِّ مِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرُوعِ وَالْأَنْعَامِ فَكُلْهَا خَلَقَهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا رِزْقًا لَكُمْ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ أَيِّ طَرِيقِهِ وَأَوَامِرِهِ كَمَا اتَّبَعَهَا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، أَيُّ مِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرُوعِ إِفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ أَيُّ إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيُّهَا النَّاسُ لَكُمْ ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أَيُّ بَيِّنٌ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُ آدَمَ لَا يَفْقَهُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَنْتِذِرُهُمْ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ.

﴿ثُمَّ نَبِّئِ الْأَزْوَاجَ مِنَ الصَّانِ أَتَيْنَ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنَ قُلْ  
الَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَّيْنَ  
نَبِّئُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَتَيْنَ وَمِنَ  
الْبَقَرِ أَتَيْنَ قُلْ الَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ  
أَرْحَامَ الْأُنثِيَّيْنَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِدًا  
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ  
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

هَذَا بَيَانٌ لِيَجْهَلَ الْعَرَبُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، فِيمَا كَانُوا حَرَّمُوا  
مِنَ الْأَنْعَامِ وَجَعَلُوهَا أَجْزَاءً وَأَنْوَاعًا بِحَيْرَةٍ وَسَايَةِ وَوَصِيلَةٍ  
وَحَامًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا فِي الْأَنْعَامِ  
وَالزَّرُوعِ وَالثَّمَارِ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ جَنَابَ مَعْرُوشَاتٍ  
وَعَبَرِ مَعْرُوشَاتٍ، وَأَنَّهُ أَنْشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ حُمُولَةً وَقَرُشًا، ثُمَّ  
بَيَّنَ أَصْنَافَ الْأَنْعَامِ إِلَى غَنَمٍ وَهُوَ بَيَاضٌ وَهُوَ الضَّأْنُ،  
وَسَوَادٌ وَهُوَ الْمَعَزُ ذَكَرُهُ وَأُنْثَاهُ، وَإِلَى إِبِلٍ ذُكُورُهَا وَإِنَاثُهَا  
وَبَقَرٍ كَذَلِكَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا شَيْئًا  
مِنْ أَوْلَادِهَا، بَلْ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِبَنِي آدَمَ أَكَلًا وَرُكُوبًا  
وَحُمُولَةً وَحَلَبًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ الْمَنَافِعِ، كَمَا قَالَ:  
﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ الْأَزْوَاجِ﴾ [الزمر: ٦] الْآيَةُ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ رَدٌّ  
عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئِدَةِ خَالِصَةٌ  
لِلنَّكُورِ وَمَحْرُومٌ عَلَى الْأَزْوَاجِ﴾ الْآيَةُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

ثَمِينَةَ الْأَزْوَاجِ مِنَ الصَّانِ أَتَيْنَ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنَ  
قُلْ الَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ  
أَرْحَامَ الْأُنثِيَّيْنَ نَبِّئُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾  
وَمِنَ الْإِبِلِ أَتَيْنَ وَمِنَ الْبَقَرِ أَتَيْنَ قُلْ الَّذِينَ حَرَّمَ  
أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَّيْنَ  
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِدًا فَمَنْ  
أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ  
عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَحَدٌ  
فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُخَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ  
مِيسَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ  
فِسْقًا أَهْلٌ لِبَغْيِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ  
رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا  
كُلَّ ذِي ظُفْرِ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ  
شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا  
اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

﴿نَبِّئُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ أَخْبِرُونِي عَنْ  
يَقِينٍ، كَيْفَ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَا رَعَيْتُمْ تَحْرِيمَهُ مِنْ  
الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ ﴿ثَمِينَةَ الْأَزْوَاجِ مِنَ  
الصَّانِ أَتَيْنَ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنَ﴾ فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ الْأَزْوَاجِ ﴿قُلْ  
الَّذِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ يَقُولُ: لَمْ أَحَرِّمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ  
﴿أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ يَعْنِي هَلْ يَشْتَمِلُ الرَّحْمُ  
إِلَّا عَلَى ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، فَلِمَ تَحَرِّمُونَ بَعْضًا وَتُحِلُّونَ بَعْضًا؟  
﴿نَبِّئُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: كُلُّهُ  
حَلَالٌ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ  
اللَّهُ بِهِدًا﴾ تَهَكُّمٌ بِهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَافْتَرَوْهُ عَلَى اللَّهِ مِنْ  
تَحْرِيمٍ مَا حَرَّمَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ  
كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَيُّ لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُمْ ﴿وَإِنَّ  
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

(١) الطبري: ١٨٧/١٢ مَرَّ حَكَمُ الْعَوْفِيِّ وَعَاتِلْتُهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ



عَمْرُو بْنُ لَحَى بْنِ قَمْعَةَ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ، وَحَمَى الْحَامِي. كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ<sup>(١)</sup>.  
﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاجٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>

[بَيَانُ الْأَشْيَاءِ الْمُحَرَّمَاتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاجٍ وَلَا عَادٍ﴾ أَيُّ فَمَنْ اضْطَرَّ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ غَيْرُ مُتَلَبِّسٍ بِغَيْرِهَا وَلَا عُذْوَانٍ ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ غَفُورٌ لَهُ رَحِيمٌ بِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ.

وَالْعَرَضُ مِنْ سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَحْرِيمِ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، بِإِرَائِهِمُ الْفَاسِدَةَ مِنَ الْبَحِيرَةِ، وَالسَّائِيَةِ، وَالْوَصِيلَةَ، وَالْحَامَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ رَسُولُهُ أَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَجِدُ فِيهَا أَوْحَاءَ اللَّهِ إِلَيْهِ أَنْ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ الْمَسْفُوحِ وَلَحْمِ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ. وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَلَمْ يُحَرَّمْ، وَإِنَّمَا هُوَ غَفُورٌ مَسْكُوتٌ عَنْهُ، فَكَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنْتُمْ أَنَّهُ حَرَامٌ وَمِنْ أَيْنَ حَرَمْتُمُوهُ وَلَمْ يُحَرِّمَهُ اللَّهُ؟

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِغَلظِ ذَلِكَ جَرَيْنَهُمَا يُبَغِّمُ وَإِنَّ لَصَادِقُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

[مَا حَرَّمَ عَلَى الْيَهُودِ مِنَ الْحَلَالِ لِيُبَغِّمُ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ كُلَّ ذِي ظُفْرٍ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ<sup>(٤)</sup> كَالْإِبِلِ وَالنَّعَامِ وَالْإِوَرِّ وَالْبُطِّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي الثَّرْبَ وَشَحْمَ الْكُلَيْتَيْنِ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِنَّهُ حَرَمَهُ إِسْرَائِيلُ فَتَحْنُ نَحْرُمُهُ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا﴾ يَعْنِي مَا عَلِقَ بِالظَّهْرِ مِنَ الشُّحُومِ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ:

وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ مَرْذُوبٍ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ أَشْيَاءَ وَيَتْرَكُونَ أَشْيَاءَ تَقْدَرُ، فَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ وَأَحْلَلَ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، فَمَا أَحْلَلَ فَهُوَ حَلَالٌ وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ غَفُورٌ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ...﴾ الْآيَةَ، وَهَذَا لَفْظُ ابْنِ مَرْذُوبٍ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَاتَتْ شَاةٌ لِسُودَةٍ بِنْتُ زَمْعَةَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَاتَتْ فَلَانَةٌ تَعْنِي الشَّاةَ، قَالَ: «فَلَوْ لَا أَخَذْتُمْ مَسْكَهَا؟» قَالَتْ: نَأْخُذُ مِنْكَ شَاةً قَدْ مَاتَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا

(١) فتح الباري: ١٣٢/٨ (٢) الطبري: ١٩٣/١٢ (٣)

الحميدي: ٣٧٩/٢ (٤) فتح الباري: ٥٧٠/٩ وأبو داود: ٤/

١٦٢ (٥) أبو داود: ٣٨٠٠ والحاكم: ١١٥/٤ (٦) أحمد:

٣٢٧/١ (٧) فتح الباري: ٥٧٧/١١ والنسائي: ١٧٣/٧ (٨)

راجع تفسير سورة آل عمران الآية ٩٣ (٩) الطبري: ٢٠٢/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدَ أَمْ أَنْتُمْ شَهِدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُوا مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْكُمْ مَنْ مَلَاقِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَلَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

وَسِعَتْ وَهَذَا تَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي ابْتِغَاءِ رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ تَرْهَبُ لَهُمْ مِنْ مُخَالَفَتِهِمُ الرُّسُولَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَىٰ عَذَابِي أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٩] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩]، ٥٠ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾

(١) الطبري: ٢٠٣/١٢ (٢) الطبري: ٢٠٤/١٢ (٣) الطبري: ٢٠٤/١٢ (٤) الطبري: ٢٠٥/١٢ (٥) الطبري: ٢٠٥/١٢ (٦) الطبري: ٢٠٦/١٢ (٧) فتح الباري: ٤٨٣/٤ و مسلم: ٣/ ١٢٠٧ (٨) فتح الباري: ٤٩٥/٤ (٩) فتح الباري: ٤٩٥/٤ و مسلم: ١٢٠٧/٣ وأبو داود: ٣٥٦/٣ وتحفة الأحوذى: ٥٢١/٤ والنسائي: ٣٠٩/٧ وابن ماجه: ٧٣٢/٢

الْحَوَايَا جَمْعٌ وَاحِدُهَا حَاوِيَاءٌ وَحَاوِيَةٌ وَحَوِيَّةٌ وَهُوَ مَا تَحْوِي مِنَ الْبَطْنِ فَاجْتَمَعَ وَاسْتَدَارَ، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّبَنِ، وَهِيَ: الْمَبَاعِرُ وَتُسَمَّى الْمَرَابِضُ، وَفِيهَا الْأَمْعَاءُ. قَالَ: وَمَعْنَى الْكَلَامِ: وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ مَا حَمَلَتِ الْحَوَايَا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَوِ الْحَوَايَا وَهِيَ الْمَبْعَرُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْحَوَايَا الْمَبْعَرُ وَالْمَرِيضُ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يَعْنِي إِلَّا مَا اخْتَلَطَ مِنَ الشُّحُومِ بِعَظْمٍ فَقَدْ أَهْلَلْنَاهُ لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: شَحْمُ الْأَلْيَةِ مَا اخْتَلَطَ بِالْعُضْعُصِ فَهُوَ حَلَالٌ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقَوَائِمِ وَالْجَنْبِ وَالرَّأْسِ وَالْعَيْنِ وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ فَهُوَ حَلَالٌ<sup>(٤)</sup>. وَنَحْوُهُ قَالَهُ السُّدِّيُّ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِغَيْبٍ﴾ أَيْ هَذَا التَّضْيِيقُ إِنَّمَا فَعَلْنَاهُ بِهِمْ وَالزَّمْنَاهُمْ بِهِ مَجَازَةً عَلَى بَغْيِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوْامِرَنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيعَتِ أَجَلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أَيْ وَإِنَّا لَعَادِلُونَ فِيمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، مِنْ تَحْرِيمِنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لَا كَمَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّ إِسْرَائِيلَ هُوَ الَّذِي حَرَمَهُ عَلَى نَفْسِهِ<sup>(٦)</sup>.

### [حِيلَةُ الْيَهُودِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: بَلَغَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ سَمُرَةَ بَاعَ خَمْرًا فَقَالَ: قَاتَلَ اللَّهُ سَمُرَةَ أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا». أَخْرَجَاهُ<sup>(٧)</sup>. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِزِيرِ وَالْأَصْنَامِ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يَدْمَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَتُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيَسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: «لَا، هُوَ حَرَامٌ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهَا ثُمَّ بَاعُوهَا وَآكَلُوهَا لَعْنَهُ»<sup>(٨)</sup>. وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ<sup>(٩)</sup>.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: فَإِنْ كَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مُخَالَفُوكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَمَنْ شَابَهُهُمْ، ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ



الْمَصِيرُ ﴿١٥١﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [لقمان: ١٥، ١٤] فَأَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا - وَإِنْ كَانَ مُشْرِكِينَ - بِحَسَبِهِمَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: حَدَّثَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَرْذَنَّهُ لَرَادَنِي<sup>(٥)</sup>.

### [النهي عن قتل الأولاد]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ﴾ لَمَّا أَوْصَى تَعَالَى بِالْوَالِدَيْنِ وَالْأَجْدَادِ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْإِنْتَاءِ وَالْأَخْفَادِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ كَمَا سَوَّلَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ ذَلِكَ، فَكَانُوا يَتَدُونُ النَّبَاتِ خَشْيَةَ الْعَارِ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَ الذُّكُورِ خَشْيَةَ الْإِفْتِقَارِ. وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الآية [الفرقان: ٦٨]]<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْفَقْرُ<sup>(٧)</sup>. أَيُّ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ مِنْ فَقْرِكُمْ الْحَاصِلِ. وَقَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أَيُّ لَا تَقْتُلُوهُمْ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ فِي الْآجِلِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ:

إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(١)</sup>.

وَأَمَّا تَفْسِيرُهَا فَيَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَقَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ فَعَلُوهُ بِأَرَائِهِمْ وَتَسْوِيلِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ، ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿تَعَالَوْا﴾ أَيُّ هَلُمُّوا وَأَقْبَلُوا ﴿أَتَلَّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ أَفْضَرُ عَلَيْكُمْ وَأُخْبِرَكُمْ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا لَا تَخْرُصًا وَلَا ظَنًّا بَلْ وَحْيًا مِنْهُ وَأَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ.

### [النهي عن الشرك]

﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَكَأَنَّ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفًا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَتَقْدِيرُهُ: وَأَوْصَاكُمْ ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ ﴿ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي جَبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مِنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أَمَلِكُ دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ»<sup>(٢)</sup> وَفِي بَعْضِ الْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَأَنِي أَغْفِرُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، وَلَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً أَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، وَإِنْ أَخْطَأْتُ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ»<sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا شَاهِدٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(٤)</sup>. وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

### [الأمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيُّ وَأَوْصَاكُمْ وَأَمَرَكُمْ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أَيُّ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وَفَرَأَ بَعْضُهُمْ: (وَوَصَّىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أَيُّ أَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ طَاعَتِهِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ

(١) الحاكم: ٣١٨/٢ (٢) البخاري: ١٢٣٧ ومسلم: ٩٤ (٣) أحمد: ١٧٢/٥ وتحفة الأحوذى: ٥٢٤/٩ عن أنس (٤) مسلم: ٩٤/١ (٥) فتح الباري: ١٢/٢ ومسلم: ٨٩/١ (٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩١/١ (٧) الطبري: ٢١٧/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿تَحَنَّنْ رِزْقَهُمْ وَإِنَّكَ﴾ فَبَدَأَ بِرِزْقِهِمْ لِإِهْتِمَامِهِ بِهِمْ، أَيْ لَا تَخَافُوا مِنْ فَقْرِكُمْ بِسَبَبِ رِزْقِهِمْ فَهُوَ عَلَى اللَّهِ، وَأَمَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَلَمَّا كَانَ الْفَقْرُ حَاصِلًا قَالَ: ﴿تَحَنَّنْ رِزْقُكُمْ وَإِسَاءَهُمْ﴾ لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ هَهُنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِ الْأَيْتِمِ وَبِاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمِيرٍ عَنْ وَرَادٍ عَنْ مَوْلَاهُ الْمُغْبِيرَةِ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ مَعَ امْرَأَتِي رَجُلًا لَصَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُضَفِّحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ فَوَاللَّهِ! لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ.

[النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وَهَذَا مِمَّا نَصَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى النَّهْيِ عَنْهُ تَأَكِيدًا، وَإِلَّا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، فَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجِلُّ دَمُ امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأَخْذِي ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ جَاءَ النَّهْيُ وَالرَّجْرُ وَالْوَعِيدُ فِي قَتْلِ الْمُعَاهِدِ وَهُوَ الْمُسْتَأْمَنُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، فَروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَرْفُوعًا «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَهُ دِمَّةُ اللَّهِ وَدِمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَحْفَرَ بِدِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَرَحْ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَالتِّرْمِذِيُّ،

وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ هَذَا مِمَّا وَصَّاهُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٦)</sup>

[تَحْرِيمُ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ]

قَالَ عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وَ«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا» الْآيَةَ [النساء: ١٠]، فَانْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ

(١) فتح الباري: ١٤٦/٨ و مسلم: ٢١١٤/٤ قد تقدم هذا الحديث (٢) فتح الباري: ٤١١/١٣ و مسلم: ١١٣٦/٢ (٣) فتح الباري: ٢٠٩/١٢ و مسلم: ١٣٠٢/٣ (٤) فتح الباري: ٣٧٠/١٢ تحفة الأحوذى: ٦٥٨/٤ وابن ماجه: ٨٩٦/٢

[الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالتَّهْيِ عَنْ اتِّبَاعِ السَّبِيلِ الْأُخْرَى]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وفي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَفْبَهُوا الَّذِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] وَنَحْوُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاَهُمْ عَنِ الْإِخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللَّهِ<sup>(٤)</sup>. وَنَحْوُ هَذَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَبِيلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطَابًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا» وَخَطَبَ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السَّبِيلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَاللَّفْظُ لِأَحْمَدَ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَبَ خَطَابًا هَكَذَا أَمَامَهُ فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» وَخَطَبَ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَبَ عَنْ شِمَالِهِ وَقَالَ: «هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ» ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾<sup>(٨)</sup> وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ مِنْ سُنَنِهِ، وَالْبَرَاءُ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ مَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ؟ قَالَ: تَرَكْنَا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَذْنَاهُ وَطَرَفُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَنْ يَمِينِهِ جَوَادٌ وَعَنْ يَسَارِهِ جَوَادٌ، ثُمَّ رَجُلٌ يَدْعُونَ مَنْ مَرَّ بِهِمْ، فَمَنْ أَخَذَ فِي تِلْكَ الْجَوَادِ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى النَّارِ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى الصِّرَاطِ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾... الْآيَةَ<sup>(١٠)</sup>.

(١) أبو داود: ٢٩١/٣ (٢) الطبري: ٢٢٣/١٢ (٣) الطبري: ٢٢٥/١٢ (٤) الطبري: ٢٢٩/١٢ (٥) الطبري: ٢٢٩/١٢ (٦) أحمد: ٤٦٥/١ (٧) الحاكم: ٣١٨/٢ (٨) أحمد: ٣٩٧/٣ وعبد بن حميد: ٣٤٥ (٩) ابن ماجه: ١١ (١٠) الطبري: ١٢/٢٣٠ إسناده وإياه أبو عبيد بن عياش متروك.

مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يُفْضِلُ الشَّيْءَ فَيَحْسَبُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ - وَيُقَسِّدُ - . فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُواهُمْ فَأَخْوَأَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] قَالَ: فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَهُمْ. بِشَرَابِهِمْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ﴾ قَالَ الشَّعْبِيُّ وَمَالِكٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: يَعْني حَتَّى يَحْتَلِمَ<sup>(٢)</sup>.

[الْأَمْرُ بِإِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْأَخْذِ وَالْإِعْطَاءِ، كَمَا تَوَعَّدَ عَلَى تَرْكِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطْفِفِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ<sup>(٣)</sup> وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ<sup>(٤)</sup> أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ<sup>(٥)</sup> يَوْمَ عَظِيمٍ<sup>(٦)</sup> يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآلَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦] وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا يَنْحَسِبُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَكِلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَيِ مَنْ اجْتَهَدَ فِي آدَاءِ الْحَقِّ وَأَخْذِهِ، فَإِنْ أَخْطَأَ بَعْدَ اسْتِفْرَاجِ وُسْعِهِ وَبَذَلَ جُهِدَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ.

[الْأَمْرُ بِالشَّهَادَةِ الْعَادِلَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾... الْآيَةَ [المائدة: ٨]، وَكَذَا الَّتِي نَشَبَهَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْفَعَالِ وَالْمَقَالِ عَلَى الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ حَالٍ.

[الْأَمْرُ بِإِيفَاءِ عَهْدِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: وَبِوَصِيَّةِ اللَّهِ الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا فَأَوْفُوا، وَإِيفَاءُ ذَلِكَ أَنْ تُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاَكُمْ وَتَعْمَلُوا بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴿ذَلِكَكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا أَوْصَاكُمْ بِهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ وَأَكَّدَ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَيِ تَتَعَطَّوْنَ وَتَنْتَهَوْنَ عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ قَبْلَ هَذَا<sup>(٣)</sup>.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنْبِي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَدْعُو: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا ادْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيَحْكُ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلَجَّهُ، فَالْصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَاتَّبِعُونَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ» إِنَّمَا وَحَدَّ سَبِيلَهُ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ، وَلِهَذَا جَمَعَ السَّبِيلَ لِتَفَرُّقِهَا وَتَشَعُّبِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [البقرة: ٢٥٧].

«ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ» وَهَذَا كِتَابُهُ أَزَلَنَّهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُونَهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [١٥٥].

#### [مَدْحُ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ]

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُونَهُ» عَظَفَ بِمَدْحِ التَّوْرَةِ وَرَسُولِهَا، فَقَالَ: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» وَكَثِيرًا مَا يَبْرُنُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ ذِكْرِ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَاسَا عَرَبِيًّا» [الأحزاب: ١٢] وَقَوْلُهُ أَوَّلَ هَذِهِ السُّورَةِ «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِلُوا فِرَاطِيسَ بُدُونِهَا وَتُخَفُونَ كَثِيرًا» الْآيَةَ [الأنعام: ٩١]، وَبَعْدَهَا «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ» الْآيَةَ [الأنعام: ٩١، ٩٢].

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَى مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ مَا أَوْفَى مُوسَى» قَالَ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَى مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ» [القصص: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا: «يَقُولُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلْ لَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ» [١٥٨] «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَأَسْتَفْتِيَهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [١٥٩] «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» [١٦٠] «قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [١٦١] «قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [١٦٢] «وَبِذَلِكَ أَمُرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» [١٦٣] «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» [١٦٤] «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» [١٦٥]

مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ... الْآيَةَ [الأحزاب: ٣٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا» أَيْ آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ تَمَامًا كَامِلًا جَامِعًا، لِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي شَرِيْعَتِهِ كَقَوْلِهِ: «وَكِتَابَنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ... الْآيَةَ [الأعراف: ١٤٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ» أَيْ جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ فِي الْعَمَلِ وَقِيَامِهِ بِأَوْامِرِنَا وَطَاعَتِنَا كَقَوْلِهِ: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ» [الرحمن: ٦٠] وَكَقَوْلِهِ: «وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رِئُوسَهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمَّتْ قَالِ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» [البقرة: ١٢٤] وَكَقَوْلِهِ: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» [السجدة: ٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً» فِيهِ (١) أحمد: ١٨٢/٤ (٢) تحفة الأحوذى: ١٥٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٦١/٦

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ (١٥٨)

[تَهْدِيدٌ مِّنْ سَوَفَ بِإِيمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِهِ وَالْمُخَالِفِينَ لِرُسُلِهِ وَالْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِهِ وَالصَّادِقِينَ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ وَذَلِكَ كَائِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ وَذَلِكَ قَبْلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَائِنْ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا حِينَ يَرَوْنَ شَيْئًا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا» فَذَلِكَ حِينَ «لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ» (٤).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ» (٥). وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَعَنْدُهُ: «وَالذَّخَانُ» (٦).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ جُرَيْرٍ قَالَ: جَلَسَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَرْوَانَ بِالْمَدِينَةِ فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنِ الْآيَاتِ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَهَا الذَّجَالُ: قَالَ: فَانْصَرَفُوا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَحَدَّثُوهُ بِالَّذِي سَمِعُوهُ مِنْ مَرْوَانَ فِي الْآيَاتِ. فَقَالَ: لَمْ يَثْقُلْ مَرْوَانَ شَيْئًا، حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ ضُحَى، فَأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا» ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - وَكَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ -: وَأَطْرُقُ أَوَّلَهَا خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلَّمَا غَرَبَتْ أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ وَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنْتْ فِي الرَّجُوعِ، فَأُذِنَ لَهَا فِي الرَّجُوعِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ اللَّهُ أَنْ تَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا فَعَلَتْ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ، أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ فَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنْتْ فِي

مَدْحِ لِكِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلَتْهُ مِبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ، يُرْغَبُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ وَيَأْمُرُهُمْ بِتَذْكُرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَوصَفَهُ بِالْبَرَكَةِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَجَزَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (١٥٧) [الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لِلَّهِ عَلَى خَلْقِهِ]

قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: مَعْنَاهُ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ لِنَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يَعْنِي لِيَنْقَطِعَ غُذْرُكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَا قَدِمَتْ آيَاتِهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الْآيَةُ [الْقَصَص: ٤٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (١). قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى (٢). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ أَيُّ وَمَا كُنَّا نَفْهَمُ مَا يَقُولُونَ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِلِسَانِنَا وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَشُغْلٍ مَعَ ذَلِكَ عَمَّا هُمْ فِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أَيُّ وَقَطَعْنَا تَعَلُّكُكُمْ أَنْ تَقُولُوا: لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فِيمَا أُوتُوهُ كَقَوْلِهِ ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لِيَنْجِبَهُمْ مِنْ جَاهِهِمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِمْدَى الْأُمَمِ﴾ ... الْآيَةُ [فَاطِر: ٤٢]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يَقُولُ: فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ قُرْآنٌ عَظِيمٌ فِيهِ بَيَانٌ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَهُدًى لِمَا فِي الْقُلُوبِ وَرَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتَفُونَ مَا فِيهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أَيُّ لَمْ يَتَّبِعْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَلَا اتَّبَعَ مَا أُرْسِلَ بِهِ وَلَا تَرَكَ غَيْرَهُ بَلْ صَدَفَ عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ؛ أَيُّ صَرَفَ النَّاسَ وَصَدَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ. قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أَعْرَضَ عَنْهَا.

(١) الطبري: ٢٣٩/١٢ (٢) الطبري: ٢٤٠/١٢ (٣) الطبري:

٢٤١/١٢ (٤) فتح الباري: ١٤٧/٨ (٥) الطبري: ٢٦٥/١٢

(٦) أحمد: ٤٤٥/٢



الرُّجُوع، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْءٌ ثُمَّ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ، فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ وَعَرَفْتَ أَنَّهُ إِذَا أُذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوعِ لَمْ تَذْكُرِي الْمَشْرِقَ! قَالَتْ: رَبِّ مَا أَبْعَدَ الْمَشْرِقُ! مَنْ لِي بِالنَّاسِ؟ حَتَّى إِذَا صَارَ الْأَفُقُ كَأَنَّهُ طُوقٌ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ فَقِيلَ لَهَا: مِنْ مَكَانِكَ فَاطْلُعِي فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، ثُمَّ تَلَا عَبْدُ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ (١) ... الْآيَةُ (٢). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ فِي سُنَنِهِمَا (٣).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيْمَانًا يَوْمَئِذٍ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ ذَلِكَ: فَإِنْ كَانَ مُضِلِّحًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُضِلِّحًا فَأَحَدَتْ تَوْبَةً حَتَّى يَكُنَّ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ، كَمَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَيُّ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ سَوَّفَ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لِاقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَظُهُورِ أَشْرَاطِهَا كَمَا قَالَ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ هُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذَكَرْتَهُمْ﴾ [محمد: ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٤) فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا ... الْآيَةُ [غافر: ٨٤، ٨٥].

الرُّجُوع، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْءٌ ثُمَّ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ، فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ وَعَرَفْتَ أَنَّهُ إِذَا أُذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوعِ لَمْ تَذْكُرِي الْمَشْرِقَ! قَالَتْ: رَبِّ مَا أَبْعَدَ الْمَشْرِقُ! مَنْ لِي بِالنَّاسِ؟ حَتَّى إِذَا صَارَ الْأَفُقُ كَأَنَّهُ طُوقٌ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ فَقِيلَ لَهَا: مِنْ مَكَانِكَ فَاطْلُعِي فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، ثُمَّ تَلَا عَبْدُ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ (١) ... الْآيَةُ (٢). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ فِي سُنَنِهِمَا (٣).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيْمَانًا يَوْمَئِذٍ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ ذَلِكَ: فَإِنْ كَانَ مُضِلِّحًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُضِلِّحًا فَأَحَدَتْ تَوْبَةً حَتَّى يَكُنَّ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ، كَمَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَيُّ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ سَوَّفَ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لِاقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَظُهُورِ أَشْرَاطِهَا كَمَا قَالَ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ هُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذَكَرْتَهُمْ﴾ [محمد: ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٤) فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا ... الْآيَةُ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ لِنَمَّا أَمَرَهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَنْتَهُمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥)

### [ذَمُّ التَّفَرُّقَةِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَتَقَادَرُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى (٦). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اخْتَلَفُوا قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَتَفَرَّقُوا، فَلَمَّا بَعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (٧) الْآيَةُ (٨). وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ فَارَقَ دِينَ اللَّهِ، وَكَانَ مُحَالِفًا لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَشَرَعُهُ وَاحِدٌ لَا

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا أَمْلًا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٩)

### [الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا]

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُفَصَّلَةٌ لِمَا أَجْمَلَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ مُطَابِقَةً لِهَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إِنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ» (١٠) وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (١١).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ

(١) أحمد: ٢٠١/٢ (٢) مسلم: ٢٢٦٠/٤ وأبو داود: ٤٩٠/٤  
(٣) وابن ماجه: ١٣٥٣/٢ (٤) الطبري: ٢٧٠، ٢٦٩/١٢ (٥) فتح  
الطبري: ٢٦٩/١٢ العوفي وعائلته مشهورون بالضعف (٦) فتح الباري: ١١/١١  
الباري: ٥٥٠/٦ (٧) أحمد: ٢٧٩/١ (٨) (٩) فتح الباري: ١١/١١  
٣٣١ ومسلم: ١١٨/١ والنسائي في الكبرى: ٣٩٦/٤

﴿مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ١٧٨] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ① شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ② وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ ③ ثُمَّ أَوحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣] وَلَيْسَ يُلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ ﷺ أَمِيرًا بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةِ، أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَكْمَلَ مِنْهُ فِيهَا، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ بِهَا قِيَامًا عَظِيمًا وَأَكْمَلَ لَهُ إِكْمَالًا تَامًا لَمْ يَسْفُهْ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الْكَمَالِ. وَلِهَذَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِبْلَاقِ، وَصَاحِبَ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ الَّذِي يَرْغَبُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ حَتَّى الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَيَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالَ: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ» ④.

### [الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يَأْمُرُهُ تَعَالَى أَنْ يُخْبِرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ وَيَذْبُحُونَ لِغَيْرِ اسْمِهِ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ صَلَاتَهُ لِلَّهِ وَنُسُكَهُ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] أَيْ أَخْلِصْ لَهُ صَلَاتَكَ وَذَبْحَكَ؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَذْبُحُونَ لَهَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمُخَالَفَتِهِمْ وَالْانْحِرَافِ عَمَّا هُمْ فِيهِ وَالْإِقْبَالَ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ وَالْعَزْمِ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ الشُّكُّ: الدُّبُحُ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ.

عَشْرَ أَثْنَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَبَّحَةً فَجَزَّأُهَا مِنْهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيَني لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شَيْئًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً ① وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ②. وَاعْلَمْ أَنَّ تَارِكَ السَّبَّحَةِ الَّذِي لَا يَعْمَلُهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَفْئَامٍ تَارَةً يَتْرُكُهَا اللَّهُ فَهَذَا نُكِبَتْ لَهُ حَسَنَتُهُ عَلَى كُفِّهِ عَنْهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذَا: عَمَلٌ وَبِئْسَ. وَلِهَذَا جَاءَ أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ أَلْفَافِ الصَّحِيحِ: «فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَائِي أَيْ مِنْ أَجْلِي» وَتَارَةً يَتْرُكُهَا نِسْيَانًا وَذُهُولًا عَنْهَا، فَهَذَا لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْوِ خَيْرًا وَلَا فَعَلَ شَرًّا، وَتَارَةً يَتْرُكُهَا عَجْزًا وَكَسَلًا عَنْهَا بَعْدَ السَّعْيِ فِي أَسْبَابِهَا وَالتَّلَبُّسِ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهَا، فَهَذَا بِمَنْزِلَةِ فَاعِلِهَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَفِيهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بِالْأَقَاتِلِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» ③.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجُمُعَةُ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا﴾» ④. وَعَنْ أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَقَدْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَهَذَا لَقِظُهُ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَزَادَ: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا﴾ الْيَوْمَ بَعَثَرَةَ أَيَّامٍ» ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ ⑤. وَالْأَحَادِيثُ وَالْأَثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَفِيمَا ذَكَرَ كِفَايَةً إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثِّقَةُ.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ⑥ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑦ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُسْلِمِينَ ⑧

### [الْإِسْلَامُ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا نَبِيَّهُ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ أَنْ يُخْبِرَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ: مِنَ الْهُدَايَةِ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا إِعْجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ ﴿وَبِنَا قِيَمًا﴾ أَيْ قَائِمًا ثَابِتًا

(١) أحمد: ١٥٣/٥ (٢) مسلم: ٢٠٦٨/٤ (٣) البخاري:

٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣ (٤) الطبراني: ٢٩٨/٣ إسناده ضعيف فيه محمد بن إسماعيل بن عياش مع ضعفه لم يسمع من أبيه شيئا [الجرح والتعديل] رقم الترجمة ١٠٧٨ لكن يشهد له حديث أبي هريرة عند مسلم ٢٧، ٨٥٧/٢٦، وغيره بنحوه وليس فيه ذكر الآية.

(٥) أحمد: ١٤٦/٥ وتحفة الأحوذني: ٤٧٠/٣ والنسائي: ٤/

٢١٨ وابن ماجه: ٥٤٥/١ (٦) أحمد: ٢٣٦/١

وَأَمَّاتٍ شَتَّى، فَالَّذِينَ وَاحِدٌ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنْ تَوَعَّتِ الشِّرَائِعُ الَّتِي هِيَ بِمَنْزِلَةِ الْأَمَّاتِ، كَمَا أَنَّ إِخْوَةَ الْأَخْيَافِ عَكْسُ هَذَا بَنُو الْأُمِّ الْوَاحِدَةِ مِنْ أَبَاءٍ شَتَّى. وَالْإِخْوَةُ الْأَغْيَانُ الْأَشْقَاءُ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا كَبَّرَ اسْتَفْتَحَ ثُمَّ قَالَ: «وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»<sup>(١)</sup>.

[دين جميع الأنبياء هو الإسلام]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» قَالَ قَتَادَةُ: أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ<sup>(٢)</sup>. وَهُوَ كَمَا قَالَ. فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُلُّهُمْ كَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَصْلُهُ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء: ٢٥] وَقَدْ أَخْبَرَنَا تَعَالَى عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [يونس: ٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِّي فَلِي إِزْهَارٌ وَلَا مِنْ سِفَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْتُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» [٣٦] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٣٧] وَوَعَى بِهَا إِزْهَارُهُ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبُ بْنُ يَحْيَى إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [البقرة: ١٣٠-١٣٢] وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» [يوسف: ١٠١] وَقَالَ مُوسَى: «يَعْلَمُونَ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» [٨٩] فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِهِ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٨٥] وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوَمِ الْكَافِرِينَ [يونس: ٨٤-٨٦] وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّشِيدُونَ وَالْأَعْيَارُ...» [المائدة: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» [المائدة: ١١١] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رُسُلَهُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِيهِ بِحَسَبِ شَرَائِعِهِمُ الْخَاصَّةِ الَّتِي يَنْسَخُ بَعْضُهَا بَعْضًا، إِلَى أَنْ نَسَخْتُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي لَا تُنْسَخُ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَلَا تَرَالُ قَائِمَةٌ مَنْصُورَةٌ وَأَعْلَامُهَا مَنْصُورَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَالٍ، وَبَيْنَنَا وَوَاحِدٌ»<sup>(٣)</sup>. فَإِنَّ أَوْلَادَ الْعِلَالِ هُمُ الْإِخْوَةُ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ

﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّي وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [١٦٤]

[الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ التَّوَكُّلِ]

يَقُولُ تَعَالَى: «قُلْ» يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ فِي إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ﴿أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّي﴾ أَيُّ أَطْلُبُ رَبًّا سِوَاهُ، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُرَبِّنِي وَيَحْفَظُنِي وَيَكُلِّفُنِي وَيَذَبِّرُ أَمْرِي، أَيُّ لَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا أُتِيَّبُ إِلَّا إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. فَبِئْسَ هَذِهِ الْآيَةُ الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ التَّوَكُّلِ، كَمَا تَضَمَّنَتْ الَّتِي قَبْلَهَا إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى يَقْرَأُ بِالْآخِرِ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُرْشِدًا لِعِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا لَهُ: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَمَّا يَدْعُونَ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] وَقَوْلِهِ:

(١) الحاكم: ٤٦٧/٢ إسناده ضعيف لضعف محمد بن إسحاق وجهالة حال أبي عياش المغامري المصري أنظر للتفصيل في الإرواء للالباني (١١٣٨) (٢) الطبري: ٢٨٥/١٢ (٣) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٤) أحمد: ١٠٢/١ (٥) مسلم: ٥٣٤/١

﴿رَبِّ الشَّرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]  
وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

### [لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكِثُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَىٰ وَزْنِهَا وَلَا تُزَادُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، إِنْجَابٌ عَنِ الْوَاقِعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَزَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ، أَنَّ النَّفُوسَ إِنَّمَا تُجَازَى بِأَعْمَالِهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَأَنَّهُ لَا يُحْمَلُ مِنْ خَطِيئَةِ أَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ: أَيُّ فَلَا يُظْلَمُ بِأَنَّ: يُحْمَلُ عَلَيْهِ سَيِّئَاتُ غَيْرِهِ. وَلَا يُهْضَمُ بِأَنَّ: يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينًا﴾ (٢٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ [المدثر: ٣٨، ٣٩] مَعْنَاهُ كُلُّ نَفْسٍ مُرْتَهَنَةٌ بِعَمَلِهَا السَّيِّئِ، إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فَإِنَّهُ قَدْ يَعُودُ بَرَكَهُ أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةِ عَلَى دُرِّيَّاتِهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الطُّورِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآية: ٢١]، أَيُّ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فِي الْجَنَّةِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ شَارَكُوهُمْ فِي الْأَعْمَالِ، بَلْ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ، ﴿وَمَا أَلْتْنَاهُمْ﴾ أَيُّ أَنْقَضْنَا أَوَّلِيكَ السَّادَةِ الرَّفْعَاءِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَيْئًا، حَتَّى سَاوَيْنَاهُمْ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَنْقَضُ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً، بَلْ رَفَعَهُمْ تَعَالَى إِلَىٰ مَنْزِلَةِ الْآبَاءِ بِرَحْمَةِ أَعْمَالِهِمْ بِفَضْلِهِ وَمِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ أَنْفُسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينًا﴾ أَيُّ مِنْ شَرٍّ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَكُمْ إِلَهُكُمْ فَتَعْلَمُونَ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ أَيُّ اإِعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ عَلَىٰ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَسَتَعْرِضُونَ وَنُعَرِّضُ عَلَيْهِ، وَنَبْنِئُ وَإِنَّا كُمْ بِأَعْمَالِنَا وَأَعْمَالِكُمْ وَمَا كُنَّا نَخْتَلِفُ فِيهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُكُمْ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ [سبا: ٢٥، ٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥)

[جَعَلَ اللَّهُ النَّاسَ خُلَافَةً وَمُتَفَاتِيَةً الدَّرَجَاتِ لِيَبْلُوَهُمْ] يَقُولُ تَعَالَى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ

جَعَلَ لَكُمُ تَعْمُرُونَهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَقَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ وَخَلَفًا بَعْدَ سَلَفٍ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِيفَةً فِي الْأَرْضِ تَجْلِفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وَقَوْلُهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِندَكُمْ رَسُولُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أَيُّ فَاتَوَتْ بَيْنَكُمْ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَحَاسِنِ وَالْمَسَاسِيءِ وَالْمَنَاطِرِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، وَلَهُ الْحُكْمَةُ فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَحْنُ فَهَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَآءَ﴾ [الزخرف: ٣١] وَقَوْلُهُ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أَيُّ لِيَخْتَبِرَكُمْ فِي الَّذِي أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْكُمْ وَامْتَحَنَكُمْ بِهِ، لِيَخْتَبِرَ الْغَنَىٰ فِي غِنَاهُ وَيَسْأَلَهُ عَنْ شُكْرِهِ، وَالْفَقِيرَ فِي فَقْرِهِ وَيَسْأَلَهُ عَنْ صَبْرِهِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَتَاطَرُ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَىٰ إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ» (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تَرْهيبٌ وَتَرْغِيبٌ: أَنَّ حِسَابَهُ وَعِقَابَهُ سَرِيعٌ، فَيَمُنُّ عَصَاهُ وَخَالَفَ رُسُلَهُ ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لِمَنْ وَالَاهُ وَاتَّبَعَ رُسُلَهُ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَطَلَبَ. وَكَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، كَقَوْلِهِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وَقَوْلُهُ: ﴿بَيْنَ عِبَادَتِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩، ٥٠] إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ، فَتَارَةً يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ وَصِفَةِ الْجَنَّةِ وَالتَّرْغِيبِ فِيمَا لَدَيْهِ، وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ بِالرَّهْبَةِ وَذِكْرِ النَّارِ وَأَنْكَالِهَا وَعَذَابِهَا وَالْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا، وَتَارَةً بِهِمَا لِيَنْجَعَ فِي كُلِّ بِحْسَبِهِ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْ أَطَاعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ نَهَىٰ وَرَجَرَ،

سُورَةُ الْأَعْرَافِ ١٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ① كَتَبْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ  
 لِنَذِيرِهِ ۖ وَذَكَرَى الْمُؤْمِنِينَ ② أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ  
 مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ③  
 وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ  
 ④ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا  
 ظَالِمِينَ ⑤ فَلَنَسْتَكَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكُنَّ  
 الْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعَثُ مَا كُنَّا عَلَيْهِمْ ⑦  
 وَأَلَوْزَنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۖ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُولَئِكَ هُمُ  
 الْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا  
 أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ⑨ فَلَقَدْ مَكَّتْكُمْ  
 فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ⑩  
 وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا  
 لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ⑪

ظَالِمِينَ ⑤ فَلَنَسْتَكَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكُنَّ الْمُرْسَلِينَ ⑥  
 فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعَثُ مَا كُنَّا عَلَيْهِمْ ⑦  
 [أَحْوَالُ قُرَى أَهْلَكْتَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَيُّ بِمُخَالَفَةِ رُسُلِنَا  
 وَتَكْذِيبِهِمْ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ خِزْيُ الدُّنْيَا مُؤْضُولًا بِدَلِّ الْآخِرَةِ،  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ  
 سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]  
 وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ  
 خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥]  
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا  
 فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ يَشْكُنْ مِنْ بَدْوِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَعْنُ  
 الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨] وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ  
 قَائِلُونَ﴾ أَيُّ فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُ أَمْرُ اللَّهِ وَبَاسُهُ وَنِقْمَتُهُ بَيِّنَاتٍ

وَصَدَقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ سَمِيعٌ الدُّعَاءِ جَوَادٌ  
 كَرِيمٌ وَهَابٌ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: أَنَّ  
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ  
 الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ  
 مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَطَعَ أَحَدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ  
 فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْفِهِ يَتَرَا حُمُونَ بِهَا، وَعِنْدَ اللَّهِ تِسْعَةٌ  
 وَتِسْعُونَ» وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١)</sup>.  
 وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ  
 كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ  
 غَضَبِي»<sup>(٢)</sup>. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

### تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 ① كَتَبْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِنَذِيرِهِ  
 ② أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ③  
 قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ  
 بِالْحُرُوفِ ④ كَتَبْنَا إِلَيْكَ أَيُّ هَذَا كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَيُّ  
 مِنْ رَبِّكَ ⑤ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ⑥ قَالَ مُجَاهِدٌ وَتَقَادَةُ  
 وَالسُّدِّيُّ: شَكٌّ مِنْهُ<sup>(٣)</sup>. وَقِيلَ: لَا تَخْرُجْ بِهِ فِي إِبْلَاغِهِ  
 وَالْإِنْذَارِ بِهِ ⑦ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ⑧  
 [الاحقاف: ٣٥] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِنَذِيرِهِ﴾ أَيُّ أُنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ  
 لِنَذِيرِ بِهِ الْكَافِرِينَ ⑨ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ⑩ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ  
 أَيُّ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ⑪ أَيُّ أَتَّبِعُوا  
 آثَارَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ  
 كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ⑫ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ⑬ أَيُّ لَا  
 تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَكُونُوا قَدْ  
 عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ ⑭ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ⑮  
 كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تُلَاحِظْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ  
 يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ١١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا  
 يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ①﴾  
 فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا

(١) أحمد: ٣٣٤/٢ وتحفة الأحوذى: ٥٢٧/٩ ومسلم: ٤/٤  
 ٢١٠٩ (٢) مسلم: ٤/٢١٠٧ (٣) الطبري: ١٢/٢٩٦

﴿الْحَقُّ﴾ أَي لَا يَظْلُمُ تَعَالَى أَحَدًا كَقَوْلِهِ ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ  
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ ثِقَلُ  
حَبْكَةٍ مِنْ خَزَائِكُمْ عَلَيْهَا وَكَفَى بِسَائِرِ حَسْبِيتٍ﴾ [الأنبياء: ٤٧]  
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرَفًا وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً  
يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ  
رَاضِيَةٍ ﴿٦٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦٣﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٦٤﴾  
وَمَا آذَنَكَ مَا هِيَ ﴿٦٥﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-١١] وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فُجِعَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا  
يَسْأَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ  
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

(فصل) وَالَّذِي يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قِيلَ:  
الْأَعْمَالُ وَإِنْ كَانَتْ أَغْرَاضًا إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُهَا يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ أَجْسَامًا. قَالَ الْبَغَوِيُّ: يُرْوَى نَحْوُ هَذَا عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ<sup>(٣)</sup>. كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ الْقُبْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ  
يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَّابَتَانِ أَوْ فُرْقَانِ مِنْ  
طَرَفِ صَوَافٍ<sup>(٤)</sup>. وَمِنْ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ قِصَّةُ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ  
يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةٍ شَابٌ شَاحِبُ اللَّوْنِ يَقُولُ: مَنْ  
أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا الْقُرْآنُ الَّذِي أَشْهَرْتُ لَيْلَكَ وَأَطْمَأَنَّ  
نَهَارَكَ<sup>(٥)</sup>. وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ فِي قِصَّةِ سُؤَالِ الْقَبْرِ: «فَيَأْتِي  
الْمُؤْمِنَ شَابٌ حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ الرَّيْحِ فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟  
فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ»<sup>(٦)</sup>. وَذَكَرَ عَكْسَهُ فِي شَأْنِ  
الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ.

وَقِيلَ: يُورَنُ كِتَابُ الْأَعْمَالِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ  
الْبُطَّاقَةِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ وَيُوضَعُ لَهُ فِي كَفِّهِ تِسْعَةٌ  
وَتِسْعُونَ سِجْلًا كُلُّ سِجْلٍ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِتِلْكَ  
الْبُطَّاقَةِ فِيهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا هَذِهِ الْبُطَّاقَةُ  
مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ.  
فَتُوضَعُ تِلْكَ الْبُطَّاقَةُ فِي كَفِّهِ الْمِيزَانِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
«فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبُطَّاقَةُ»<sup>(٧)</sup> رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِنَحْوِ  
مِنْ هَذَا وَصَحَّحَهُ.

وَقِيلَ: يُورَنُ صَاحِبُ الْعَمَلِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «يُؤْتَى

أَي لَيْلًا، أَوْ هُمْ قَائِلُونَ مِنَ الْقَائِلَةِ وَهِيَ الْأَسْتِرَاحَةُ وَسَطُ  
النَّهَارِ، وَكِلَا الْوَقْتَيْنِ وَثُتْ غَفْلَةٌ وَلَهُوَ، كَمَا قَالَ: ﴿أَفَأَمِنْ  
أَهْلَ الْفَرَجِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيْنَا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٠﴾ أَوْ أَمِنْ أَهْلَ  
الْفَرَجِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧،  
٩٨] وَقَالَ: ﴿أَفَأَمِنْ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ  
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي  
تَقْلِبِهِمْ مَتَا هُمْ يَمْتَعِرِينَ ﴿٩٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ  
رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا  
كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَي فَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ عِنْدَ مَجِيءِ الْعَذَابِ، إِلَّا  
أَنْ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّهُمْ حَقِيقُونَ بِهِذَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾... الْآيَةُ.  
كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصاص:  
٦٥] وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَرْسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوا لَا  
عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ [المائدة: ١٠٩] فَيَسْأَلُ اللَّهُ  
الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أَجَابُوا رُسُلَهُ فِيمَا أُرْسِلَهُمْ بِهِ،  
وَيَسْأَلُ الرُّسُلَ أَيْضًا عَنْ إِبْلَاحِ رِسَالَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ  
أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ  
الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قَالَ: عَمَّا  
بَلَّغُوا<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا  
عَالِمِينَ﴾ يُوَضِّعُ الْكِتَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ<sup>(٢)</sup>. ﴿وَمَا كُنَّا عَالِمِينَ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يُخَيِّرُ عِبَادَهُ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا قَالُوا وَبِمَا عَمِلُوا، مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَجَلِيلٍ  
وَحَقِيرٍ، لِأَنَّهُ تَعَالَى الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ  
شَيْءٌ، وَلَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الْعَالِمُ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ  
وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَفَقَةٍ إِلَّا بِأَعْلَمُهَا وَلَا  
حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾  
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا

يَظْلِمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

### [بَيَانُ وَزْنِ الْأَعْمَالِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أَي لِلْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) الطبري: ٣٠٦/١٢ (٢) الطبري: ٣٠٨/١٢ (٣) البغوي:

١٤٩/٢ (٤) مسلم: ٥٥٣/١ (٥) ابن ماجه: ١٢٤٢/٢ (٦)

أحمد: ٢٨٧/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٩٥/٧

لِلْمَلَكَةِ إِيَّيْ خَلِيقٌ يَشْكُرُ مِنْ صَلَاحٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجْدِينَ ﴿٢٩﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩] وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِهِ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ، وَصَوْرُهُ بَشَرًا سَوِيًّا، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَعْظِيمًا لِشَأْنِ الرَّبِّ تَعَالَى وَجَلَالِهِ، فَسَمِعُوا كُلُّهُمْ وَأَطَاعُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى إِبْلِيسَ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ آدَمَ وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ بِالْجَمْعِ، لِأَنَّهُ أَبُو الْبَشَرِ، كَمَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَطَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧] وَالْمُرَادُ آبَاؤُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ مُوسَى، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى الْآبَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَصْلُ، صَارَ كَأَنَّهُ وَاقِعٌ عَلَى الْآبَاءِ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنبياء: ١٢]، فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ آدَمَ الْمَخْلُوقَ مِنَ السَّلَالَةِ - وَذَرِيَّتَهُ مَخْلُوقُونَ مِنْ نُطْفَةٍ - وَصَحَّ هَذَا لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ: ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الْجِنْسَ لَا مَعْنِيًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ

طِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ﴾ تَقْدِيرُهُ: مَا أَخْرَجَكَ وَأَلَزَمَكَ وَاضْطَرَّكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ... وَنَحْوُ هَذَا، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ حَسَنٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مِنَ الْعُذْرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ، كَأَنَّهُ ائْتَمَعَ مِنَ الطَّاعَةِ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاضِلُ بِالسُّجُودِ لِلْمُفْضُولِ، - يَعْنِي لَعَنَهُ اللَّهُ - وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي بِالسُّجُودِ لَهُ؟ ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ بِأَنَّهُ خَلِقَ مِنْ نَارٍ، وَالنَّارُ أَشْرَفُ مِمَّا خَلَقْتَهُ مِنْهُ وَهُوَ الطِّينُ، فَنَظَرَ اللَّعِينُ إِلَى أَصْلِ الْعُنْصُرِ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى التَّشْرِيفِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَقَاسَ قِيَاسًا فَاسِيدًا فِي مُقَابَلَةِ نَصِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَعُوا لَهُمُ سَجْدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] فَشَدَّ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ لِتَرْكِ السُّجُودِ، فَلِهَذَا أَبْلَسَ مِنَ الرَّحْمَةِ أَيُّ: أَيْسَ مِنَ الرَّحْمَةِ. فَأَخْطَأَ - قَبَحَهُ اللَّهُ - فِي قِيَاسِهِ، وَدَعَاؤُهُ: أَنَّ النَّارَ أَشْرَفُ مِنَ الطِّينِ - أَيْضًا - فَإِنَّ الطِّينَ مِنْ شَأْنِهِ الرِّزَانَةُ وَالْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ وَالتَّثَبُّتُ، وَالطِّينُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّيِّئِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تَقْبَلْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ زَنًّا﴾ [الكهف: ١٠٥] ﴿١﴾. وَفِي مَنَاقِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ دَقَّةِ سَاقِيهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَهْمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ» ﴿٢﴾. وَقَدْ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآثَارِ بِأَنَّ يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحًا، فَتَارَةً تُوزَنُ الْأَعْمَالُ، وَتَارَةً تُوزَنُ مَحَالُّهَا، وَتَارَةً يُوزَنُ فَاعِلُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ﴿وَلَقَدْ كَفَرْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣١﴾

[سَائِرُ نِعَمِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ خُلِقَتْ لِلْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: مُمْتَنًّا عَلَى عِبِيدِهِ فِيمَا مَكَّنَ لَهُمْ، مِنْ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ وَأَنْهَارًا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَنَازِلَ وَبُيُوتًا وَأَبَاحَ لَهُمْ مَنَافِعَهَا، وَسَخَّرَ لَهُمُ السَّحَابَ لِإِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَعَاشٍ أَيْ مَكَاسِبَ وَأَسْبَابًا يَكْسِبُونَ بِهَا وَتَتَجَرَّوْنَ فِيهَا وَيَسْتَبِشِرُونَ أَنْوَاعَ الْأَسْبَابِ وَأَكْثَرُهُمْ مَعَ هَذَا قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﴿إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وَقَدْ قَرَأَ الْجَمِيعُ: ﴿مَعَاشٍ﴾ بِلَا هَمْزٍ إِلَّا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ هُرْمُزٍ الْأَعْرَجُ فَإِنَّهُ هَمَزَهَا. وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ بِلَا هَمْزٍ، لِأَنَّ مَعَاشَ جَمْعَ مَعِيشَةٍ، مِنْ عَاشَ يَعِيشُ عَيْشًا، وَمَعِيشَةٌ أَصْلُهَا: مَعِيشَةٌ، فَاسْتَقْبَلَتْ الْكُسْرُ عَلَى الْبَاءِ فَتَقِلَّتْ إِلَى الْعَيْنِ فَصَارَتْ مَعِيشَةً، فَلَمَّا جُمِعَتْ رَجَعَتْ الْحَرَكَةُ إِلَى الْبَاءِ لِزَوَالِ الْإِسْتِقْفَالِ فَقِيلَ: مَعَاشٍ وَوَزْنُهُ مَفَاعِلٌ، لِأَنَّ الْبَاءَ أَصْلِيَّةٌ فِي الْكَلِمَةِ بِخِلَافِ مَدَائِنَ وَصَحَائِفَ وَبَصَائِرَ، جَمْعُ مَدِينَةٍ وَصَحِيفَةٍ وَبَصِيرَةٍ مِنْ مَدَنَ وَصَحَّفَ وَأَبْصَرَ، فَإِنَّ الْبَاءَ فِيهَا زَائِدَةٌ، وَلِهَذَا تُجْمَعُ عَلَى فَعَائِلَ وَتُهْمَزُ لِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

[قِصَّةُ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ وَاسْتِكْبَارِ إِبْلِيسَ]

يُنَبِّهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى شَرَفِ أَبِيهِمْ آدَمَ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ عَدَاوَةَ عَدُوِّهِمْ إِبْلِيسَ، وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لَهُمْ وَلَا يَبْهِيهِمْ آدَمَ، لِيَحْذَرُوهُ وَلَا يَتَّبِعُوا طَرِيقَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٢

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا سَجَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ  
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ  
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ  
﴿١٥﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ  
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ  
وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرُهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ  
أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَتَّبِعَ مِنْهُمْ لَا مَلَآنَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ  
أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ وَيَتَّكِدُمْ أَكْثَرُ أَتَى وَرَزَوَجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ  
شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ فَوَسَّوَسَ  
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْمَهِمَا وَقَالَ  
مَا نَهَىٰكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونُوا  
مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢١﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢٢﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَيْمَهُمَا طُفِقَا  
بِخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا  
عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾

الَّذِي أَبْعَدَنِي بِسَبَبِهِ - عَلَى ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أَيُّ طَرِيقِ  
الْحَقِّ وَسَبِيلِ النَّجَاةِ، لِأَصْلُغَتْهُمْ عَنْهَا لِيَتَلَا يَعْبُدُوكَ وَلَا  
يُوحِدُوكَ بِسَبَبِ إِضْلَالِكَ إِيَّايَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صِرَاطِكَ  
الْمُسْتَقِيمَ﴾ بَغْيِي الْحَقِّ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَبْرَةَ بِنِ أَبِي  
الْفُكَيْهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ  
قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطَرَفِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: أَسْلِمُ  
وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ» - قَالَ: قَعَدَ  
لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ: أَتَهَاجِرُ وَتَدْعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟  
وَأِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ، فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ. ثُمَّ  
قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجَهَادِ وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَقَالَ:  
تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتَنْصَحُ الْمَرْأَةَ وَيُقَسِّمُ الْمَالَ؟ - قَالَ: فَعَصَاهُ  
وَجَاهَدَ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: - مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ  
فَمَاتَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ قُتِلَ كَانَ

مَحَلُّ النَّبَاتِ وَالنَّمُوِّ وَالزِّيَادَةِ وَالْإِصْلَاحِ. وَالنَّارُ مِنْ شَأْنِهَا:  
الْإِحْرَاقُ وَالطَّيْشُ وَالسَّرْعَةُ، وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيسُ غَضْرَهُ وَنَفَعَ  
أَدَمَ غَضْرَهُ بِالرُّجُوعِ وَالْإِنَابَةِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَالِانْقِيَادِ  
وَالِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالِاغْتِرَافِ وَطَلَبِ التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ  
إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصِفَ لَكُمْ»<sup>(١)</sup>.

[أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسَ]

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ  
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قَالَ: قَاسَ إِبْلِيسُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَاسَ<sup>(٢)</sup>.  
إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَرَوَى عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: أَوَّلُ مَنْ قَاسَ  
إِبْلِيسُ، وَمَا عُبِدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِلَّا بِالْمَقَاسِ<sup>(٣)</sup>. إِسْنَادُ  
صَحِيحٌ أَيْضًا.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ  
الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ  
﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِإِبْلِيسَ بِأَمْرِ قَدَرِي كَوْنِي ﴿فَاهْبِطْ  
مِنْهَا﴾ أَيُّ بَسَبِ عَصِيَانِكَ لِأَمْرِي وَخُرُوجِكَ عَنْ طَاعَتِي،  
فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا، قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ:  
الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا إِلَى الْمَنْزِلَةِ  
الَّتِي هُوَ فِيهَا فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ  
الصَّاغِرِينَ﴾ أَيِ الدَّلِيلِينَ الْحَقِيرِينَ، مُعَامَلَةً لَهُ بِتَقْيِضِ قَضَائِهِ  
وَمُكَافَأَةٍ لِمَرَادِهِ بِضِدِّهِ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْرَكَ اللَّعِينُ وَسَأَلَ النَّظْرَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ،  
قَالَ: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ أَجَابَهُ  
تَعَالَى إِلَى مَا سَأَلَ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ  
وَالْمُشِيئَةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ، وَلَا مُعَقَّبٌ لِحُكْمِهِ وَهُوَ  
سَرِيعُ الْحِسَابِ.

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ  
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرُهُمْ

شَاكِرِينَ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَنْظَرَ إِبْلِيسَ ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾  
وَاسْتَوْتَقَ إِبْلِيسَ بِذَلِكَ، أَخَذَ فِي الْمَعَانِدَةِ وَالتَّمَرُّدِ، فَقَالَ:  
﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أَيُّ كَمَا أُغْوِيَنِي،  
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَمَا أَضَلَلْتَنِي<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: كَمَا  
أَهْلَكْتَنِي. ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ لِإِعْبَادِكَ - الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَذَا

(١) مسلم: ٢٢٩٤/٤ (٢) الطبري: ٣٢٨/١٢ (٣) الطبري:

٣٢٨/١٢ (٤) الطبري: ٣٣٢/١٢



الْعَيْبِ مِنَ الذَّمِّ. قَالَ: وَالْمَذْهُورُ: الْمُقْصِي، هُوَ الْمُتَعَدُّ الْمَطْرُودُ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: مَا نَعْرِفُ الْمَذْهُومَ وَالْمَذْمُومَ إِلَّا وَاحِدًا<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الثَّمِيمِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ قَالَ: مَقِيَّتًا<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: صَغِيرًا مَقِيَّتًا<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَقِيَّتًا مَطْرُودًا<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَعِينًا مَقِيَّتًا<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَنُفِيًّا مَطْرُودًا<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: مَذْذُومًا مَنُفِيًّا وَالْمَذْهُورُ الْمَصْرُورُ<sup>(١٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَمَلَكَ مِنْهُمْ لَأْمَلَانٌ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكَ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾<sup>(١٥)</sup> وَاسْتَفْرَزَ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْنِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا<sup>(١٦)</sup> إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا [الإسراء: ٦٣-٦٥].

﴿وَبَقَادُمْ اسْتَكَرْنَا أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْنَا وَلَا نَقْبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١٧)</sup> فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُذَيِّقَ لَهَا مَا وَدَّى عَنْهُمَا مِنْ سُوءِ تَوْبَعَا وَقَالَ مَا نَهَنَّا رُبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ<sup>(١٨)</sup> وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيْ لَكُمْ لَيْنَ النَّصِيحَةِ<sup>(١٩)</sup>

[مَكَرَ الشَّيْطَانُ مَعَ آدَمَ وَحَوَاءَ وَأَكْلَهُمَا مِنَ الشَّجَرَةِ] يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَبَاحَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِزَوْجَتِهِ حَوَاءَ الْجَنَّةَ أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا مِنْ جَمِيعِ ثِمَارِهَا إِلَّا شَجَرَةَ وَاحِدَةً. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ حَسَدَهُمَا الشَّيْطَانُ وَسَعَى فِي الْمَكْرِ وَالْوَسْوَسَةِ وَالْخَدِيعَةِ، لِيَسْلُبَهُمَا مَا هُمَا فِيهِ مِنَ النِّعَمَةِ وَاللِّبَاسِ الْحَسَنِ ﴿وَقَالَ﴾ كَذَبًا وَافْتِرَاءً: ﴿مَا نَهَنَّا رُبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أَيْ لِئَلَّا تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ خَالِدَيْنِ هَا هُنَا، وَلَوْ أَنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْهَا لَحَصَلَ لَكُمَا

حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرَقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ<sup>(٢٠)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الْآيَةُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أَشْكَكُهُمْ فِي آخِرِيهِمْ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَرْغَبُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ أَشَبَّهُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ ﴿وَعَنْ شَمَالِيهِمْ﴾ أَشْهَى لَهُمُ الْمَعَاصِي<sup>(٢١)</sup>.

وَالْمُرَادُ جَمِيعُ طُرُقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَالْخَيْرُ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَالشَّرُّ يَحْبِبُهُ لَهُمْ. وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَالِيهِمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ فَوْقِهِمْ، لِأَنَّ الرَّحْمَةَ تَنْزِلُ مِنْ فَوْقِهِمْ<sup>(٢٢)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شُكْرِيَةً قَالَ: مُوحَّدِينَ<sup>(٢٣)</sup>. وَقَوْلُ إِبْلِيسَ هَذَا إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ مِنْهُ وَتَوَهُمٌ، وَقَدْ وَافَقَ فِي هَذَا الْوَاقِعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢٤)</sup> وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ [سبأ: ٢٠، ٢١] وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ تَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ جِهَاتِهِ كُلِّهَا.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي. اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي. اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» قَالَ وَكَيْعٌ: مِنْ تَحْتِي يَعْنِي الْخَسْفَ<sup>(٢٥)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ<sup>(٢٦)</sup>. وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ.

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا لَنْ يَمَلَكَ مِنْهُمْ لَأْمَلَانٌ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

أَجْمَعِينَ

أَكَّدَ تَعَالَى عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةَ وَالطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ وَالنَّفْيَ عَنْ مَحَلِّ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، بِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَمَّا الْمَذْمُومُ فَهُوَ الْمُعِيبُ، وَالذَّامُ - غَيْرُ مُشَدَّدٍ - الْعَيْبُ. يُقَالُ: ذَامَهُ يَذَامُهُ ذَامًا فَهُوَ مَذْمُومٌ. وَتَرَكُونِ الْهَمَزَةَ فَيَقُولُونَ: ذِمَّتْهُ أَذِيْمُهُ ذِيْمًا وَذَامًا، وَالذَّامُ وَالذِّمُّ أُبْلَغَ فِي

(١) أحمد: ٤٨٣/٣ (٢) الطبري: ٣٣٨/١٢ (٣) الطبري: ٣٤١/١٢ (٤) الطبري: ٣٤٢/١٢ (٥) أحمد: ٢٥/٢ (٦) أبو داود: ٣١٥/٥ والنسائي: ٢٨٢/٨ وابن ماجه: ١٢٧٣/٢ وابن حبان: ١٥٥/٢ والحاكم: ٥١٧/١ (٧) الطبري: ١٢/٣٤٢ (٨) الطبري: ٣٤٤/١٢ (٩) الطبري: ٣٤٤/١٢ إسناده ضعيف فيه أبو إسحاق السبيعي مدلس ولم يصرح بالسماع (١٠) الطبري: ٣٤٣/١٢ (١١) الطبري: ٣٤٣/١٢ (١٢) الطبري: ٣٤٣/١٢ (١٣) الطبري: ٣٤٣/١٢ (١٤) الطبري: ٣٤٤/١٢

ذَلِكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ هَلْ أَتَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلُ﴾ [طه: ١٢٠] كَقَوْلِهِ: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [المائدة: ١٧٦] أَيْ لِئَلَّا تَضِلُّوا ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن يَبِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أَيْ لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ ﴿وَوَاسَّهُمَا﴾ أَيْ حَلَفَ لَهُمَا بِاللَّهِ ﴿إِنِّي لَكُمَا لَيِّنُ النَّاصِيَتِ﴾ فَإِنِّي مِنْ قَبْلِكُمَا هَاهُنَا وَأَعْلَمُ بِهَذَا الْمَكَانِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمُفَاعَلَةِ، وَالْمُرَادُ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ. أَيْ حَلَفَ لَهُمَا بِاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَدَعَهُمَا وَقَدْ يُخَدَعُ الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي الْآيَةِ: حَلَفَ بِاللَّهِ: إِنِّي خُلِفْتُ قَبْلَكُمْ وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمَا فَاتَّبِعَانِي أَرْضِدْكُمْ.

﴿قَدْ لَبَّيْهُمَا يَوْمَئِذٍ فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطُفِقَا بَخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٢٢] قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّارْتِفَاعَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ آدَمُ رَجُلًا طَوَالًا كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، كَثِيرُ شَعْرِ الرَّأْسِ، فَلَمَّا وَقَعَ فِيهَا وَقَعَ بِهِ مِنَ الْخَطِيئَةِ، بَدَتْ لَهُ عَوْرَتُهُ عِنْدَ ذَلِكَ وَكَانَ لَا يَرَاهَا، فَانْطَلَقَ هَارِبًا فِي الْجَنَّةِ فَتَعَلَّقَتْ بِرَأْسِهِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهَا: أَرْسِلِينِي. فَقَالَتْ: إِنِّي غَيْرُ مُرْسِلَتِكَ. فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ أَمِنِّي تَقَرُّ؟ قَالَ: يَارَبِّ! إِنِّي اسْتَحْيَيْتُكَ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طُرُقٍ، عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَرْفُوعًا<sup>(٢)</sup>. وَالْمَوْقُوفُ أَصَحُّ إِسْنَادًا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَطُفِقَا بَخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قَالَ: وَرَقُ التَّيْنِ<sup>(٣)</sup>. صَحِيحٌ إِلَيْهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: جَعَلَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، قَالَ: كَهَيْئَةِ النَّوْبِ<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قَالَ: كَانَ لِبَاسُ آدَمَ وَحَوَّاءَ نُورًا عَلَى فُرُوجِهِمَا لَا يَرَى هَذَا عَوْرَةَ هَذِهِ وَلَا هَذِهِ عَوْرَةَ هَذَا، فَلَمَّا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا<sup>(٥)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ إِلَيْهِ. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: قَالَ آدَمُ: أَيْ رَبِّ! أَرَأَيْتَ إِنْ ثُبْتُ وَاسْتَفْرُتُ، قَالَ: إِذَا أَذْخَلْتُكَ الْجَنَّةَ. وَأَمَّا إِبْلِيسُ فَلَمْ يَسْأَلْهُ التَّوْبَةَ وَسَأَلَهُ النَّظْرَةَ، فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الَّذِي سَأَلَهُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُرَاجِمٍ فِي قَوْلِهِ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّارْتِفَاعَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَلَفَّاهَا آدَمُ مِنْ رَبِّهِ<sup>(٧)</sup>.

﴿قَالَ أَهَيُّطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ﴾ [٢٤] قَالَا فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ [إِهْبَاطُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ]

قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْخِطَابِ فِي «أَهَيُّطُوا» آدَمُ وَحَوَّاءُ وَإِبْلِيسُ وَالْحَيَّةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرِ الْحَيَّةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْعُمْدَةُ فِي الْعِدَاوَةِ آدَمُ وَإِبْلِيسُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه قَالَ: «أَهَيُّطَا مِنْهَا جَمِيعًا»... الْآيَةُ. وَحَوَّاءُ تَبَعَ لِآدَمَ، وَالْحَيَّةُ - إِنْ كَانَ ذِكْرُهَا صَحِيحًا - فَهِيَ تَبَعَ لِإِبْلِيسَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ الْأَمَّاكِينَ الَّتِي هَبَطَ فِيهَا كُلُّ مِنْهُمْ، وَبَرَجُ حَاصِلِ تِلْكَ الْأَخْبَارِ إِلَى الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصَحَّتِهَا، وَلَوْ كَانَ فِي تَعْيِينِ تِلْكَ الْبِقَاعِ فَائِدَةٌ تَعُودُ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ لَذَكَرَهَا اللَّهُ

(١) الطبري: ٣٥٤/١٢ (٢) الطبري: ٣٥٢/١٢ (٣) الطبري:

٣٥٤/١٢ (٤) الطبري: ٣٥٣/١٢ (٥) الطبري: ٣٥٥/١٢

(٦) عبد الرزاق: ٢٢٦/٢ (٧) الطبري: ٣٥٧/١٢

وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الْإِيْنَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٦﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ  
وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن  
دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾

[عَمَلُ الْكُفَّارِ الْفَاحِشَةِ وَنَسْبَتُهَا إِلَى اللَّهِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءَ.  
يَقُولُونَ: نَطُوفُ كَمَا وَلَدْنَا أُمَّهَاتِنَا، فَتَضَعُ الْمَرْأَةُ عَلَى  
فَرْجِهَا الشَّعَةَ أَوْ الشَّيْءَ وَتَقُولُ:  
الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ  
وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَحِلُّهُ<sup>(٣)</sup>

فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ  
أَمْرًا بِهَا﴾... الْآيَةُ، قُلْتُ: كَانَتِ الْعَرَبُ مَا عَدَا قُرَيْشًا لَا  
يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي لِبِسُوهَا، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَلِكَ:  
أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِ عَصَا اللَّهِ فِيهَا، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ -  
وَهُمُ الْحُمْسُ - يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِهِمْ، وَمَنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ  
ثَوْبًا طَافَ فِيهِ، وَمَنْ مَعَهُ ثَوْبٌ جَدِيدٌ طَافَ فِيهِ ثُمَّ يَلْقِيهِ فَلَا  
يَتَمَلَّكُهُ أَحَدٌ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ ثَوْبًا جَدِيدًا، وَلَا أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ  
ثَوْبًا طَافَ عُرْيَانًا، وَرُبَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ فَتَطُوفُ عُرْيَانَةً  
فَتَجْعَلُ عَلَى فَرْجِهَا شَيْئًا لِيَسْتُرَهُ بَعْضُ الشَّرِّ فَتَقُولُ:  
الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ

وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَحِلُّهُ  
وَأَكْثَرُ مَا كَانَ النِّسَاءُ يَطْفَنَ عُرَاءَ بِاللَّيْلِ، وَكَانَ هَذَا  
شَيْئًا قَدْ ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَلَقَّاءِ أَنْفُسِهِمْ وَاتَّبَعُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ،  
وَيَتَقَبَّلُونَ أَنْ فَعَلَ آبَاؤُهُمْ مُسْتَنَدٌ إِلَى أَمْرِ مِنَ اللَّهِ وَشَرَعٍ،  
فَانْتَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً  
قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرًا بِهَا﴾

[إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، بَلْ بِالْقِسْطِ وَالْإِحْلَاصِ]  
فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ﴾ أَمَّا يَا مُحَمَّدُ لِمَنِ ادَّعَى  
ذَلِكَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أَمَّا هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَهُ  
فَاحِشَةٌ مُنْكَرَةٌ، وَاللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا  
لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَمَّا أَتُسْنِدُونَ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا لَا  
تَعْلَمُونَ صِحَّتَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أَمَّا  
بِالْعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ  
وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الْإِيْنَ﴾ أَمَّا أَمْرُكُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي عِبَادَتِهِ  
فِي مَحَالِّهَا وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْمُرْسَلِينَ الْمُؤَيَّدِينَ بِالْمُعْجَزَاتِ،

(١) الطبري: ٣٦٤/١٢ (٢) الطبري: ٣٦٨/١٢ (٣) الطبري:

تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، أَوْ رَسُولُهُ ﷺ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ  
مُسْتَفَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] أَيْ قَرَارٌ، وَأَعْمَارٌ  
مَضْرُوبَةٌ إِلَى أَجَالٍ مَعْلُومَةٍ، قَدْ جَرَى بِهَا الْقَلَمُ وَأَخْصَاهَا  
الْقَدَرُ، وَسَطُرَتْ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ فِيهَا  
تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾  
[طه: ٥٥] يُخْبِرُ تَعَالَى: أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ دَارًا لِبَنِي آدَمَ مُدَّةَ  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِيهَا مَحْيَاهُمْ وَفِيهَا مَمَاتُهُمْ، وَقُبُورُهُمْ وَمِنْهَا  
نُشُورُهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، الَّذِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ  
وَالْآخِرِينَ، وَبِحَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

﴿يَبْقَى آدَمُ قَدْ أُرْنَاكَ عَلَيْكَ لِبَاسًا يَوْمَ سَوَّيْنَاكَ وَرِبَّيْنَا وَلِبَاسَ  
الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

[إِنْزَالُ اللَّبَاسِ وَالزَّيْنَةِ]

يَمْتَرُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّبَاسِ  
وَالرَّيْشِ، فَاللَّبَاسُ الْمَذْكُورُ هَهُنَا لِسِتْرِ الْعَوْرَاتِ وَهِيَ  
السُّوَاتُ، وَالرِّيَاشُ وَالرَّيْشُ مَا يَتَجَمَّلُ بِهِ ظَاهِرًا، فَالْأَوَّلُ  
مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ وَالرَّيْشُ مِنَ التَّكْمِلَاتِ وَالزَّيْنَاتِ. قَالَ  
ابْنُ جَرِيرٍ: أَلَرِّيَاشُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْأَثَاثُ وَمَا ظَهَرَ مِنَ  
الْثِّيَابِ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى﴾  
يَبْقَى اللَّهُ فَيُورِي عَوْرَتَهُ فَذَلِكَ لِبَاسُ الْقَوَى<sup>(٢)</sup>.

﴿يَبْقَى آدَمُ لَا يَفْنَىكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ  
الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَهُمَا إِنَّهُمْ فِي بَرْصَةٍ  
هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا رَوْبَ لَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ  
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

[التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الشَّيْطَانِ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ مِنْ إِبْلِيسَ وَقَبِيلِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ  
عِدَاوَتَهُ الْقَدِيمَةَ لِأَبِي الْبَشَرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي سَعْيِهِ  
فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ دَارُ النِّعَمِ إِلَى دَارِ التَّعَبِ  
وَالْعَنَاءِ، وَالتَّسَبُّبِ فِي هَتَاكَ عَوْرَتِهِ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُسْتَوْرَةً  
عَنْهُ، وَمَا هَذَا إِلَّا عَنْ عِدَاوَةٍ أَكِيدَةٍ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿أَفَنَنْجِدُوهُ وَدَرَيْتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ  
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرًا بِهَا قُلْ  
إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾  
قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُفَاءً، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ»<sup>(١)</sup>. الْحَدِيثُ. وَوَجْهَ الْجَمْعِ عَلَى هَذَا: أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ فِي ثَانِي الْحَالِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَطَرَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ وَتَوْحِيدِهِ وَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، كَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِذَلِكَ وَجَعَلَهُ فِي غَرَائِزِهِمْ وَفَطَرِهِمْ وَمَعَ هَذَا قَدَّرَ أَنَّ مِنْهُمْ شَقِيًّا وَمِنْهُمْ سَعِيدًا «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» [التغابن: ٢] وَفِي الْحَدِيثِ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَاتَعَ نَفْسَهُ فَمَعَّتْهَا أَوْ مُوَبِّهًا»<sup>(٢)</sup>. وَقَدَّرَ اللَّهُ نَافِذَ فِي بَرِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ هُوَ «الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى» [الأعلى: ٣] وَ«الَّذِي أَتَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقُهُ ثُمَّ هَدَى» [طه: ٥٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»<sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْآيَاتِ أُوتِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ»<sup>(٤)</sup> الْآيَةِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى خَطَا مَنْ زَعَمَ: أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةِ رَكِبَهَا أَوْ ضَلَالَةٍ إِعْتَقَدَهَا، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُ بِضَوَابِ وَجْهَهَا، فَيَرَكِبَهَا عِنَادًا مِنْهُ لِرَبِّهِ فِيهَا.

لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ فَرِيقِ الضَّلَالَةِ - الَّذِي ضَلَّ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ هَادٍ - وَفَرِيقِ الْهُدَى، فَرْقٌ. وَقَدْ فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ أَسْمَائِهِمَا وَأَحْكَامِهِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ<sup>(٥)</sup>.

«يَبْنِي عَادَمٌ خُدُوءَ زَيْنَكُمُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

سُرُوقًا إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ»<sup>(٦)</sup>

[الْأَمْرُ بِالتَّجَمُّلِ عِنْدَ الدَّهَابِ إِلَى الْمَسَاجِدِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ، مِنَ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ غُرَاةً كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتَّسَائِيَّ وَابْنَ جَرِيرٍ - وَاللَّفْظُ لَهُ - مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ

(١) الطبري: ٣٨٥/١٢ (٢) الطبري: ٣٨٥/١٢ (٣) الطبري: ٣٨٦/١٢

(٤) الطبري: ٣٨٥/١٢ (٥) الطبري: ٣٨٦/١٢ (٦) فتح الباري: ٤٤٥/٦ ١٣٥/٨ ومسلم: ٢١٩٤/٤ (٧)

الطبري: ٣٨٢/١٢ (٨) فتح الباري: ٤٨٦/١١ (٩) فتح الباري: ٢٩٠/٣ ومسلم: ٢٠٤٧/٤ (١٠) مسلم: ٢١٩٧/٤

(١١) مسلم: ٢٠٣/١ (١٢) فتح الباري: ٢٦٧/٣ ومسلم: ٢٠٣٩

(١٣) الطبري: ٣٨٨/١٢

فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ وَمَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَبِإِخْلَاصٍ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ الْعَمَلَ حَتَّى يَجْمَعَ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ، أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا مِنَ الشَّرِّ.

[مَقْهُومُ الْبَدْءِ وَالْعَوْدَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» إِلَى قَوْلِهِ: «الضَّلَالَةَ» اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» فَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» يُحْيِيكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَمَا بَدَأَكُمْ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ تَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» قَالَ: بَدَأَ فَخَلَقَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا شَيْئًا ثُمَّ ذَهَبُوا ثُمَّ يُعِيدُهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَمَا بَدَأَكُمْ أَوَّلًا كَذَلِكَ يُعِيدُكُمْ آخِرًا<sup>(٤)</sup>. وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَيَّدَهُ بِمَا رَوَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً غُرَاةً غُرْلًا، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»<sup>(٥)</sup> وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٦)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»<sup>(٧)</sup> فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ خَلْقَ ابْنِ آدَمَ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا، كَمَا قَالَ: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» [التغابن: ٢] ثُمَّ يُعِيدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا بَدَأَهُمْ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا<sup>(٨)</sup>: قُلْتُ: وَبَيَّأَيْدِ هَذَا الْقَوْلِ بِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ»<sup>(٩)</sup>. قُلْتُ: وَلَا بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ - إِنْ كَانَ هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ - وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»

[الروم: ٣٠] وَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيَمَجْسَنَانِهِ»<sup>(١٠)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ، قَالَ: قَالَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٤

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا  
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ  
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا  
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ  
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَفِي الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا  
بَطَنٌ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ  
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ  
فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾  
يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَتَّبِعُكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ  
اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ  
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ  
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ  
بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَذِبِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ  
رُسُلُنَا يَتَوَقَّعُهُمْ قَالُوا أَأَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
قَالُوا اضْلُوعًا وَعَنَّا وَشَهِدْوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَوْلُهُ ﴿لَكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ حَدَّهُ فِي حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ، الْغَالِينَ فِيَمَا أَحَلَّ بِإِخْلَالِ الْحَرَامِ أَوْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُحَلَّلَ مَا أَحَلَّ وَيُحَرَّمَ مَا حَرَّمَ، وَذَلِكَ الْعَدْلُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ <sup>(١)</sup>.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ

(١) مسلم: ٤/٢٣٢٠ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٤٥ والطبري: ١٢/٣٩٠ (٢) الطبري: ١٢/٣٩١ إسناده ضعيف، فيه العوفي وعاتلته (٣) الطبري: ١٢/٣٩٢-٣٩٤ (٤) أحمد: ١/٢٤٧ (٥) أبو داود: ٤/٣٣٢ وتحفة الأحوذى: ٧/٧٢ وابن ماجه: ١/٤٧٣ (٦) فتح الباري: ١٠/٢٦٤ (٧) الطبري: ١٢/٣٩٤ (٨) أحمد: ٤/١٣٢ (٩) الترمذي: ٢٣٨٠ والنسائي في الكبرى: ٤/١٧٨ (١٠) الطبري: ١٢/٣٩٤ (١١) الطبري: ١٢/٣٩٥

سَلَّمَ بَنُ كُهَيْلٍ عَنْ مُسْلِمِ الْبُطَيْنِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَ: كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عَرَاءَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، الرِّجَالُ بِالنَّهَارِ وَالنِّسَاءُ بِاللَّيْلِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَقُولُ: أَلْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ

وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَجْلُهُ <sup>(١)</sup> فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الْآيَةُ، قَالَ: كَانَ رِجَالٌ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عَرَاءَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالزَّيْنَةِ، وَالزَّيْنَةُ: اللَّبَاسُ، وَهُوَ مَا يُوَارِي السَّوَاءَ وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الْبَرِّ وَالْمَتَاعِ، فَأَمَرُوا أَنْ يَأْخُذُوا زِينَتَهُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ <sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَإِبْرَاهِيمُ التَّخَعِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالضُّحَّاكُ، وَمَالِكٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ <sup>(٣)</sup>، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَيْمَةِ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي طَوَافِ الْمُشْرِكِينَ بِالْبَيْتِ عَرَاءَ. وَلِهَذِهِ الْآيَةُ وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنَ السُّنَنِ يُسْتَحَبُّ التَّجَمُّلُ عِنْدَ الصَّلَاةِ - وَلَا سِيَّمَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْيَعِيدِ - وَالطَّيِّبُ، لِأَنَّهُ مِنَ الزَّيْنَةِ، وَالسَّوَاكُ، لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ ذَلِكَ.

وَمِنْ أَفْضَلِ اللَّبَاسِ الْبَيَاضُ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفُّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، وَإِنْ خَيْرٌ أَكْحَالِكُمْ الْإِثْمَدُ، فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ» <sup>(٤)</sup>. هَذَا حَدِيثٌ حَيْثُ الْإِسْنَادِ، رِجَالُهُ عَلَى شَرَطِ مُسْلِمٍ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ <sup>(٥)</sup>.

### [الْتَهْيُ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا...﴾ الْآيَةُ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا شِئْتَ وَالْبَسُ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ خَصْلَتَانِ: سَرَفٌ وَمَخِيلَةٌ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ نُورٍ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَحَلَّ اللَّهُ الْأَكْلَ وَالشَّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ سَرَفًا أَوْ مَخِيلَةً <sup>(٢)</sup>. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ الْمُقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبِ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَكَ ابْنُ آدَمَ وَغَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتٌ يُمْضِنُ صَلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مَحَالَةَ، فَتَلَّتْ طَعَامًا، وَتَلَّتْ شَرَابًا، وَتَلَّتْ لِنَفْسِهِ» <sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ وَفِي نُسَخَةٍ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى مَنْ حَرَّمَ شَيْئًا مِنَ الْمَأْكَلِ أَوْ الْمَشَارِبِ أَوْ الْمَلَابِيسِ، مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ شَرْعٍ مِنَ اللَّهِ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَ بِآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَابْتِدَآئِهِمْ ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةُ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الْآيَةُ، أَيُّ: هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَبَدَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِيهَا الْكُفَّارُ حُبًّا فِي الدُّنْيَا فَهِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَشْرِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْحِجَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾

[الْحَرَامُ هُوَ الْفَوَاحِشُ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ وَالشُّرْكُ وَالْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْبَرُ مِنَ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>. وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ. وَقَوْلُهُ: «وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» قَالَ السُّدِّيُّ: أَمَّا الْإِثْمُ فَالْمَعْصِيَةُ وَالْبَغْيُ أَنْ تَبْغِيَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْإِثْمُ: الْمَعَاصِي كُلُّهَا وَأَخْبَرَ أَنَّ الْبَاغِيَّ، بَغْيُهُ عَلَى نَفْسِهِ<sup>(٤)</sup>. وَحَاصِلُ مَا فُسِّرَ بِهِ الْإِثْمُ أَنَّهُ الْخَطَايَا الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْفَاعِلِ نَفْسِهِ، وَالْبَغْيُ هُوَ التَّعَدِّي إِلَى النَّاسِ فَحَرَّمَ اللَّهُ هَذَا وَهَذَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا» أَيُّ تَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِ «وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» مِنَ الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ مِنْ دَعْوَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ، كَقَوْلِهِ: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ» الْآيَةُ [الحج: ٣٠].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ بَيْنِي بَيْنَكُمْ رَسُولٌ يُنْصِتُكُمْ يَنْصِتُكُمْ عَلَى كَيْفِ فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ» أَيُّ قَرْنٍ وَجِيلٍ «أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ» أَيُّ مِيقَاتِهِمُ الْمُقَدَّرُ لَهُمْ «لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ثُمَّ أَنْذَرَ تَعَالَى بَيْنِي آدَمَ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يَنْصِتُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيَسْرُ وَحَدَّرَ، فَقَالَ: ﴿فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ﴾ أَيُّ تَرَكَ الْمَحْرَمَاتِ وَفَعَلَ الطَّاعَاتِ ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيُّ مَا كَانُوا فِيهَا مُكَلَّدًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ يَكُونُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّنْ أَلْكَتِ النَّارُ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ قَالُوا هَذَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَاشْهَدُوا عَلَيْنَا نَفْسُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾

[الْمُشْرِكُونَ الْمُفْتَرُونَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ وَيَضِلُّ عَنْهُمْ أُولَئَاؤُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ]

يَقُولُ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا﴾ أَيُّ لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ، مِمَّنْ افْتَرَى الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ: «أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَتَابِ» قَالَ: عَمَلُهُ وَرِزْقُهُ وَعُمْرُهُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ<sup>(٦)</sup>. كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُهُ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٣٧﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا [القمان: ٢٣، ٢٤] الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ﴾ الْآيَةُ، يُخْبِرُ تَعَالَى: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا تَوَقَّتِ الْمُشْرِكِينَ تَفَزَّعَهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَفُضِّصَ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى النَّارِ يَقُولُونَ لَهُمْ: أَيْنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَدْعُونَهُمْ وَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَدْعُوهُمْ يَخْلَصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ قَالُوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أَيُّ ذَهَبُوا عَنَّا فَلَا تَرْجُو نَفْعَهُمْ وَلَا خَيْرَهُمْ ﴿وَشْهَدُوا عَلَيْنَا نَفْسُهُمْ﴾ أَيُّ أَقْرَأُوا وَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَنْتُمْ لَهَا خُبْرًا حَتَّى إِذَا أَذْرَكُوا فِيهَا

(١) أحمد: ٣٨١/١ (٢) فتح الباري: ٢٣٠/٩ و مسلم: ٤/

٢١١٤ (٣) الطبري: ٤٠٣/١٢ (٤) الطبري: ٤٠٣/١٢ (٥)

الطبري: ٤١٣/١٢ (٦) الطبري: ٤١٤، ٤١٣/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٥

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ فِتْنَةً أَلَّا تُسْعَى أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٣﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَتَعْنُ صَدَدُكُمْ عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْإِيلِ وَاللَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آصْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣٢، ١٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

[الْمُكَذِّبُونَ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أَبَدًا]

قَوْلُهُ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ لَا يَرْفَعُ لَهُمْ مِنْهَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَا دُعَاءٌ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ

جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ فِتْنَةً أَلَّا تُسْعَى أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٣﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقُولُهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ الْمَكْذِبِينَ بِآيَاتِهِ: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمُورٍ﴾ أَيْ مِنْ أَمْثَالِكُمْ وَعَلَى صِفَاتِكُمْ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَيْ مِنَ الْأُمَمِ الشَّالِفَةِ الْكَافِرَةِ ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ ﴿فِي أُمَمٍ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أَيْ مَعَ أُمَمٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ الْآيَةُ [العنكبوت: ٢٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَمَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعَنَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أَيْ اجْتَمَعُوا فِيهَا كُلُّهُمْ ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ﴾ أَيْ أَخْرَاهُمْ دُخُولًا، وَهُمْ الْأَتْبَاعُ لِأُولَئِهِمْ وَهُمْ الْمُتَّبِعُونَ، لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ جُرْمًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، فَدَخَلُوا قَبْلَهُمْ فَيُسْكَوهُمْ الْأَتْبَاعُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَصْلَوْهُمْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ﴾ أَيْ أضعِفْ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وَجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ بَلَلَّتْنَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَوْنا السَّبِيلَ﴾ ﴿٣٩﴾ رَبَّنَا عَاتِبْهُمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الْآيَةُ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ أَيْ قَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ وَجَازَيْنَا كُلًّا بِحَسَبِهِ، كَقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾ الْآيَةُ [النحل: ٨٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَوْرَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الْآيَةُ [النحل: ٢٥]، وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَقَاتِهِمْ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ فِتْنَةً أَلَّا تُسْعَى أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٣﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أَيُّ مِنْ حَسَدٍ وَبُغْضٍ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسِبُوا عَلَى قَطْرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَاقْتَصَرَ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هَدُّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ أَحَدَهُمْ يَمْنُرُهُ فِي الْجَنَّةِ أَذَلُّ مِنْهُ بِمَسْكِنِهِ كَانِ فِي الدُّنْيَا» (١٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ» الْآيَةَ، إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا سَفِقُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَجَدُوا عِنْدَ بَابِهَا شَجَرَةً، فِي أَصْلِ سَاقِهَا عَيْنَانِ فَشَرِبُوا مِنْ إِحْدَاهُمَا فَيَنْزِعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فَهُوَ الشَّرَابُ الطَّهُّورُ، وَاعْتَسَلُوا مِنَ الْأُخْرَى فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النِّعَمِ، فَلَمْ يَشْعُرُوا وَلَمْ يَتَسَحَّوْا بَعْدَهَا أَبَدًا (١٣).

وَرَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ - وَاللَّفْظُ لَهُ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةً» (١٤). وَلِهَذَا لَمَّا أُورِثُوا مَقَاعِدَ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الْجَنَّةِ «وَوَدُّوا أَنْ يَلِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أَيُّ بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمْ: نَالَتْكُمْ الرَّحْمَةُ، فَدَخَلْتُمْ الْجَنَّةَ. وَتَبَوَّأْتُمْ مَنَازِلَكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِكُمْ. وَإِنَّمَا وَجِبَ الْحُمْلُ عَلَى هَذَا لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» (١٥).

﴿وَأَدْنَى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ

جُبَيْرٌ، وَرَوَاهُ الْعَوْفِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (١). وَكَذَا رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ عَنْ لَيْثٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (٢). وَقِيلَ: الْمُرَادُ لَا تُفْتَحُ لِأَرْوَاحِهِمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ. رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٤). وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنِ الْبَرَاءِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ قَبْضَ رُوحِ الْفَاجِرِ، وَأَنَّهُ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ [قَالَ]: فَيُصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا تُثْمَرُ عَلَى مَلَأٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْحَيَّةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ بِأَفْجَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَتْ يُدْعَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيَسْتَفْتَحُونَ بَابَهَا لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ» الْآيَةَ (٥). هَكَذَا رَوَاهُ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٦).

وَقَدْ قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: «لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ» لَا تُفْتَحُ لِأَعْمَالِهِمْ وَلَا لِأَرْوَاحِهِمْ (٧). وَهَذَا فِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» فَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ الْبَعِيرُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الْجَمَلُ ابْنُ النَّاقَةِ، وَفِي رِوَايَةِ زَوْجِ النَّاقَةِ (٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهَا: (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) بِضَمِّ الْجِيمِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ، يَعْنِي الْحَبْلَ الْغَلِيظَ فِي حُرْمِ الْإِبْرَةِ (٩). وَقَوْلُهُ: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ» قَالَ: الْقُرْشُ «وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ» قَالَ: اللَّحْفُ (١٠). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ وَالسُّدِّيُّ (١١).

﴿وَكَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَوَدُّوا أَنْ يَلِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

[بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَأَحْوَالِهِمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ السَّعْدَاءِ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيُّ أَمَنْتُمْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ضِدَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا، وَبُنِيَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ بِهِ سَهْلٌ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ:

(١) الطبري: ٤٢٢/١٢، ٤٢٣ (٢) الطبري: ٤٢٢/١٢، ٤٢٣ (٣) الطبري: ٤٢٢/١٢، ٤٢٣ (٤) الطبري: ٤٢٢/١٢، ٤٢٣ (٥) الطبري: ٤٢٤/١٢، ٤٢٥ (٦) أبو داود: ١١٤/٥ والنسائي: ٧٨/٤ وابن ماجه: ٤٩٤/١ (٧) الطبري: ٤٢٣/١٢، ٤٢٣ (٨) الطبري: ٤٢٨/١٢، ٤٢٨ (٩) الطبري: ٤٣١/١٢، ٤٣١ (١٠) الطبري: ٤٣٦/١٢، ٤٣٦ (١١) الطبري: ٤٣٦/١٢، ٤٣٦ (١٢) فتح الباري: ١١٥/٥ (١٣) الطبري: ٤٣٦/١٢، ٤٣٦ (١٤) النسائي في الكبرى: ٤٤٧/٦ (١٥) فتح الباري: ٣٠٠/١١، ٣١٧/٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٦

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لِيَدْخُلُوا مَعَهُمْ يَطْمَئِنُّوا ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا زَرَعْتُمْ اللَّهُ قَالُوا لَئِنْ أَتَاكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ لَكُنْتُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

أَبْصَرُهُمْ لِقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾  
[الْأَعْرَافُ وَأَصْحَابُهَا]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مُخَاطَبَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَعَ أَهْلِ النَّارِ بَنَى أَنْ يَبَيِّنَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حِجَابًا وَهُوَ الْحَاجِزُ الْمَانِعُ مِنْ وَصُولِ أَهْلِ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهُوَ السُّورُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بُسُورًا لَهُمْ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ فِجْلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وَهُوَ الْأَعْرَافُ. الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾<sup>(١)</sup> ثُمَّ رَوَى بِإِسْنَادِهِ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وَهُوَ السُّورُ، وَهُوَ الْأَعْرَافُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَعْرَافُ حِجَابٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، سُورٌ لَهُ بَابٌ<sup>(٣)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَعْرَافُ جَمْعُ عُرْفٍ، وَكُلُّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عِنْدَ الْعَرَبِ يُسَمَّى عُرْفًا، وَإِنَّمَا قِيلَ لِعُرْفِ الدِّيكِ: عُرْفًا

وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾

[لِأَهْلِ جَهَنَّمَ حَسْرَةٌ فَوْقَ حَسْرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا يُخَاطَبُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ إِذَا اسْتَقَرُّوا فِي مَنَازِلِهِمْ ﴿٤٤﴾ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا ﴿٤٥﴾ هَهُنَا مَفْسَرَةٌ لِلْقَوْلِ الْمُحْذَوْفِ، ﴿وَقَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ، أَيْ قَالُوا لَهُمْ: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ عَنِ الَّذِي كَانَ لَهُ قَرِينٌ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿فَاطْلِعْ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْحَجِيرِ﴾<sup>(٥٥)</sup> قَالَ تَالَهُ إِنَّ كِدْتَ لَتُرِيدُنِي ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمِيتَتَيْنِ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْلَانَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيَيْنِ﴾ [الصافات: ٥٥-٥٩] أَيْ: يُنْكِرُ عَلَيْهِ مَقَالَتَهُ الَّتِي يَقُولُهَا فِي الدُّنْيَا وَيَقْرَعُهَا بِمَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ، وَكَذَلِكَ تَقْرَعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾<sup>(٥٧)</sup> أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٥٨﴾ أَصْلُهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦] وَكَذَلِكَ قَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَى الْقَلْبِ يَوْمَ بَدْرٍ فَنَادَى: «يَا أَبَا جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ، وَيَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَسَمَى رُؤُوسَهُمْ - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تُخَاطَبُ قَوْمًا قَدْ جَافُوا؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ أَعْلَمَ مُعْلِمٌ وَنَادَى مُنَادٍ ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ مُسْتَقَرَّةٌ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَيَبْغُونَ أَنْ تَكُونَ السَّبِيلُ مُعْوَجَّةً غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ حَتَّى لَا يَتَّبِعَهَا أَحَدٌ ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾ أَيْ وَهُمْ بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَافِرُونَ، أَيْ: جَاحِدُونَ مُكْذِبُونَ بِذَلِكَ لَا يُصَدِّقُونَهُ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، فَلِهَذَا لَا يُبَالُونَ بِمَا يَأْتُونَ مِنْ مُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ حِسَابًا عَلَيْهِ وَلَا عِقَابًا، فَهُمْ شَرُّ النَّاسِ أَقْوَالًا وَأَعْمَالًا.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لِيَدْخُلُوا مَعَهُمْ يَطْمَئِنُّوا﴾<sup>(٤٦)</sup> وَإِذَا صُرِفَتْ

(١) مسلم: ٢٢٠٣/٤ (٢) الطبري: ٢٤٩/١٢ (٣) الطبري:

٤٤٩/١٢ (٤) الطبري: ٤٥١/١٢

لَا زَيْفَ فِيهِ.

وَقَالَ الشَّدِيُّ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْأَعْرَافُ: أَعْرَافًا لِأَنَّ أَصْحَابَهُ يَعْرِفُونَ النَّاسَ<sup>(١)</sup>. وَأَصْحَابُ الْأَعْرَافِ هُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، نَصَّ عَلَيْهِ حَدِيثُهُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ - قَالَ - فَقَالَ: هُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ فَقَعَدَتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ وَخَلَفَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمْ عَنِ النَّارِ، قَالَ: فَوَقَفُوا هُنَاكَ عَلَى السُّورِ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيهِمْ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يظْمَئُونَ﴾ قَالَ: وَاللَّهِ مَا جَعَلَ ذَلِكَ الطَّعْمَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا لِكِرَامَةٍ يُرِيدُهَا بِهِمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ أَنْبَأَكُمْ اللَّهُ بِمَكَانِهِمْ مِنَ الطَّعْمِ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا بِإِغْوَاءِ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَعَرَفُوهُمْ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٥)</sup>.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ بِمَا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمِئِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾<sup>(٦)</sup> أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَبَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ<sup>(٧)</sup> يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ تَفْرِيعِ أَهْلِ الْأَعْرَافِ لِرِجَالٍ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَقَادَتِهِمْ يَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِسِمَائِهِمْ ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أَيُّ كَثْرَتِكُمْ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيُّ لَا يَنْفَعُكُمْ كَثْرَتُكُمْ وَلَا جُمُوعُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، بَلْ صِرْتُمْ إِلَى مَا أَنتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَبَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ - قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ - ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾<sup>(٨)</sup>.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٩)</sup> الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَائِبِينَ يَحْدُثُونَ<sup>(١٠)</sup>

[نَعِيمُ الْجَنَّةِ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ذِلَّةِ أَهْلِ النَّارِ وَسَوْأِهِمْ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ شَرَابِهِمْ وَطَعَامِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ. قَالَ:

الشَّدِيُّ ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يَعْنِي الطَّعَامَ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: عَنْ عُثْمَانَ الثَّقَفِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: يُنَادِي الرَّجُلُ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ فَيَقُولُ لَهُ: قَدْ احْتَرَفْتُ فَأَفِضْ عَلَيَّ مِنَ الْمَاءِ، فَيَقَالَ لَهُمْ: أَجِيبُوهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يَعْنِي طَعَامَ الْجَنَّةِ وَشَرَابَهَا<sup>(١٣)</sup>.

ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى الْكَافِرِينَ بِمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي الدُّنْيَا بِاتِّخَاذِهِمُ الدِّينَ لَهْوًا وَلَعِبًا وَاعْتِرَازِهِمْ بِالذُّنُوبِ وَزَيْفَتِهَا وَزُخْرُفِهَا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أَيُّ يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةً مِنْ نَسِيهِمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشُدُّ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْسَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ كَقَوْلِهِ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وَقَالَ ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ أُنْتَنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسُكُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [العجاثية: ١٣٤] وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قَالَ: نَسِيَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَلَمْ يَنْسَهُمْ مِنَ الشَّرِّ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تَنَزَّكُّهُمْ كَمَا تَرَكَوْا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: تَنَزَّكُّهُمْ فِي النَّارِ. وَقَالَ الشَّدِيُّ تَنَزَّكُّهُمْ مِنَ الرَّحْمَةِ كَمَا تَرَكَوْا أَنْ يَعْمَلُوا لِلِقَاءِ يَوْمِهِمْ هَذَا. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَمْ أَرْوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ؟» فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَطُنَّتَ أَنْتَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَنُصَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي<sup>(١٤)</sup>.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ

(١) الطبري: ٤٤٩/١٢ (٢) الطبري: ٤٥٣/١٢ ذكر البيهقي في "البعث والنشور" ص ١٠٥ أن رواية الشعبي عن حذيفة مرسلة. (٣) عبد الرزاق: ٢٣٠/٢ (٤) الطبري: ٤٦٥/١٢

(٥) الطبري: ٤٦٣/١٢ هذا أيضًا منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس كما مر. (٦) الطبري: ٤٦٩/١٢ (٧) الطبري: ١٢/٤٧٣

(٨) الطبري: ٤٧٤/١٢ (٩) الطبري: ٤٧٤/١٢ (١٠) مسلم: ٢٢٧٩/٤

يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ  
سُوءَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ  
فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ  
وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

[لَا مَجَالَ لِلْمُشْرِكِينَ لِإِعْذَارٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِعْذَارِهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ بِإِرسَالِ  
الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ بِالْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ، وَأَنَّهُ كِتَابٌ  
مُفَصَّلٌ مُبَيِّنٌ كَقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ أَخْكَمْتُ بَيْنَهُ ثُمَّ قُضِلَتْ﴾ [آيَةُ  
[هود: ١]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَصَلَّنَاهُ عَلَى عَلِيٍّ أَتَى عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِمَا  
فَصَلَّنَاهُ بِهِ. كَقَوْلِهِ: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِنَا﴾ [النساء: ١٦٦]  
وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَ بِمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْخَسَارَةِ فِي  
الْآخِرَةِ ذَكَرَ: أَنَّهُ قَدْ أَزَاحَ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا بِإِرسَالِ الرُّسُلِ  
وَأَنْزَالِ الْكُتُبِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾  
[الاسراء: ١٥] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أَيْ مَا  
وَعُدُّوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْكَتَالِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ  
وغير واحد<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَهُ ابْنُ  
عَبَّاسٍ<sup>(٢)</sup>. يَقُولُ الَّذِينَ سُوءَ مِنْ قَبْلُ: أَيْ تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ  
وَتَنَاسَوْهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا  
مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أَيْ فِي خَلَاصِنَا مِمَّا صَرْنَا إِلَيْهِ مِمَّا  
نَحْنُ فِيهِ ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا  
نَعْمَلُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ رَدُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَكَلِّمُنَا نَرُدُّ وَلَا  
تُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٧] بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ  
مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَبَّهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [الأنعام:  
٢٧، ٢٨] كَمَا قَالَ هُتَيْتَا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا  
كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ  
وَدُخُولِهِمْ فِيهَا ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ ذَهَبَ عَنْهُمْ  
مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا يَشْفَعُونَ فِيهِمْ وَلَا  
يَنْصُرُونَهُمْ وَلَا يَقْذِرُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ  
أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِطًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ  
وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ  
الْعَالَمِينَ﴾ [٥٤]

[خَلَقَ الْكَوْنُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ الْعَالَمَ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ وَمَا بَيْنَ  
ذَلِكَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ  
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ  
الَّذِينَ سُوءَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا  
مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ  
قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾  
إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ  
أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِطًا  
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ  
وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا  
وُخُوفَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي  
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ  
اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ  
الرِّيحَ بَشْرًا يَكِدُّ يَدَى رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا  
ثِقَالًا اسْقَنَهُ لِبَدًا مِمَّيْنٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ  
الشَّعْبِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

الْقُرْآنَ، وَالسِتَّةُ الْأَيَّامُ هِيَ: الْأَحَدُ وَالْإِثْنَيْنِ وَالثَلَاثَاءُ  
وَالْأَرْبَعَاءُ وَالْخَمِيسُ وَالْجُمُعَةُ وَفِيهِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُ،  
وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ هَلْ كُلُّ  
يَوْمٍ مِنْهَا كَهَذِهِ الْأَيَّامِ كَمَا هُوَ الْمُتَبَادِّرُ إِلَى الْأَذْهَانِ أَوْ كُلُّ  
يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِدٌ<sup>(٣)</sup>. وَالْإِمَامُ  
أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ. وَيُرْوَى ذَلِكَ مِنْ رِوَايَةِ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ، فَأَمَّا يَوْمُ السَّبْتِ فَلَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقٌ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ  
السَّابِعُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ السَّبْتُ وَهُوَ الْقَطْعُ. رَوَى الْإِمَامُ  
أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ:  
خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ  
الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ  
الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ الثَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ  
الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ  
فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى

(١) الطبري: ٤٧٩/١٢ (٢) الطبري: ٤٧٩/١٢ (٣) الطبري:

اللَّيْلِ<sup>(١)</sup>.كُلُّهُ<sup>(٢)</sup>.

## [تفسير الاستواء]

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فَلِلنَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا، وَإِنَّمَا نَسْلُكُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَالثَّوْرِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهُوِيهِ وَغَيْرِهِمْ، مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ. وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادُّرُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مَنَاقِبُ عَنِ اللَّهِ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ وَ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَيْمَةُ مِنْهُمْ نَعِمَ بِنُ حَمَادٍ الْخَزَاعِيِّ شَيْخِ الْبُخَارِيِّ قَالَ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَعَلَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهِ، فَمَنْ أَثَبَتَ اللَّهُ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ، وَنَفَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى النِّقَاطِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى.

## [اللَّيْلِ وَالتَّهَارُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَعْنَى أَيْلُ التَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ﴾ أَيْ يَذْهَبُ ظِلَامٌ هَذَا بِضِيَاءٍ هَذَا وَضِيَاءٌ هَذَا بِظِلَامٍ هَذَا وَكُلُّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَيْثُكَ أَيْ سَرِيعًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، بَلِ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا وَعَكْسُهُ كَقَوْلِهِ ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمُ الْيَلُّ فَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ﴾ [الشمس: ٢٧] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَرَبِ الْعَلِيَّةِ (٢٨) وَالْقَمَرُ قَدَرْتُهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوُونِ الْقَدِيرِ (٢٩) لَا الشَّمْسُ يَبْغِي لَهَا أَنْ تَذَرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس: ٣٧-٤٠] فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا الْيَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أَيْ لَا يَقُوتُهُ بِوَقْتٍ يَتَأَخَّرُ عَنْهُ بَلْ هُوَ فِي أَثَرِهِ بَلَا وَاسِطَةً بَيْنَهُمَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالشُّجُومُ مَسْحَرَتٍ بِأَمْرِهِ﴾ مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ وَكَلاَهُمَا قَرِيبُ الْمَعْنَى، أَيْ الْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَمَشِيتِيهِ وَلِهَذَا قَالَ مِنْهَا: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أَيْ لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] كَقَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا...﴾ [الفرقان: ٦١].

وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْتُورِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَرَوَى مَرْفُوعًا: «اللَّهُمَّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَالْإِلَهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ

﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ نَضَرًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُنْعَدِينَ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾

## [التَّوَعُّبُ فِي الدُّعَاءِ]

أَرْشَدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ الَّذِي هُوَ صَلَاحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ فَقَالَ ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ نَضَرًا وَخُفْيَةً﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً، وَخُفْيَةً كَقَوْلِهِ ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الآية: الأعراف: ٢٠٥] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالْأَدْعَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ»<sup>(٣)</sup>. الْحَدِيثُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿نَضَرًا﴾ تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً لَطَاعَتِهِ وَ﴿خُفْيَةً﴾ يَقُولُ: بِخُشُوعِ قُلُوبِكُمْ وَصِحَّةِ الْيَقِينِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ لَا جَهْرًا مُرَاءَةً<sup>(٤)</sup>.

## [النَّهْيُ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ]

رَوَى عَنْ عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُنْعَدِينَ﴾ فِي الدُّعَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو مَجْلَزٍ: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُنْعَدِينَ﴾ لَا يَسْأَلُ مَنَازِلَ الْأَنْبِيَاءِ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي نُعَامَةَ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ مَعْقِلٍ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَعُدْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ»<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٨)</sup>. وَهُوَ إِسْنَادٌ حَسَنٌ لَا بَأْسَ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أحمد: ٣٢٧/٢ ومسلم: ٢١٤٩ (٢) ضعيف، المرفوع روي من حديث أبي سعيد الخدري عند البيهقي في الشعب (٤٤٠٠) والديلمي في "مسند الفردوس" ٦٨١٧ وفيه خالد بن يزيد كذبه أبو حاتم ويحيى وقال ابن حبان: "يروي الموضوعات عن الأثبات" وعن حذيفة عند أحمد ٣٩٦/٥ وفي إسناده جهالة وعن سعد بن أبي وقاص عند البيهقي في الشعب (٤٣٩٩) وفي إسناده أبو بلج يحيى بن سليم قال البخاري فيه نظر. (٣) فتح الباري: ١٩١/١١ ومسلم: ٢٠٧٦/٤ (٤) الطبري: ٤٨٥/١٢ (٥) الطبري: ٤٨٦/١٢ (٦) الطبري: ٤٨٦/١٢ (٧) أحمد: ٥٥/٥ (٨) ابن ماجه: ٢١٧١/٢ وأبو داود: ٧٣/١

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَادِرُ رَبَّهُ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ  
إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾  
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ  
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾  
قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ  
يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ  
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى  
رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ  
فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا  
بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ  
هُودًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ  
﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي  
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ  
لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿سُقْنَتُهُ لِيَكِلَ مَيْتٌ﴾ أَيِ إِلَىٰ أَرْضٍ مَيْتَةٍ مُجْدِيَّةٍ  
لَا نَبَاتَ فِيهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَيَّاهُ لَمْ تَرَ الْأَرْضَ الَّتِي تَحْتُهَا أَحْيَيْتَهَا﴾  
الْآيَةُ [يس: ٣٣]. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾  
كَذَلِكَ تُخْرِجُ الْمَوْتَى أَيِ كَمَا أَحْيَيْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا  
كَذَلِكَ نُحْيِي الْأَجْسَادَ بَعْدَ صَيُورِهَا رَمِيمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ:  
يُنْزِلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَاءً مِنَ السَّمَاءِ فَيُمْطِرُ الْأَرْضَ  
أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَتَنْبُتُ مِنْهُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا يَنْبُتُ  
الْحَبُّ فِي الْأَرْضِ. وَهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ يُضْرَبُ  
اللَّهُ مَثَلًا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِأَحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَادِرُ  
رَبَّهُ﴾ أَيِ وَالْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ يَخْرِجُ نَبَاتَهَا سَرِيعًا حَسَنًا كَقَوْلِهِ  
﴿وَأَنْبَتْنَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ﴿وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ  
إِلَّا نَكِدًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: كَالسَّبَّاحِ <sup>(١)</sup> وَنَحْوِهَا.  
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ

[الْهَيَّ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾  
يَنْهَى تَعَالَىٰ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَصْرُهُ بَعْدَ  
الْإِصْلَاحِ! فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ مَاشِيَةً عَلَى السَّدَادِ ثُمَّ وَقَعَ  
الْإِفْسَادُ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ أَصْرًا مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ، فَهَنَى  
تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالتَّذَلُّلِ  
لَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَيِ خَوْفًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنْ  
وَبِيلِ الْعِقَابِ وَطَمَعًا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ ثُمَّ قَالَ:  
﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيِ: إِنَّ رَحْمَتَهُ  
مُرْصِدَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَوَامِرَهُ وَيَتْرَكُونَ زَوَاجِرَهُ  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَخَيِّرْنِي﴾  
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿الْآيَةُ [الأعراف: ١٥٦] وَقَالَ: ﴿قَرِيبٌ﴾ وَلَمْ  
يَقُلْ: (قَرِيبَةٌ) لِأَنَّهُ ضَمَّنَ الرَّحْمَةَ مَعْنَى الثَّوَابِ أَوْ لِأَنَّهَا  
مُضَافَةٌ إِلَى اللَّهِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.  
وَقَالَ مَطَرُ الْوَرَّاقِ: تُنْجِزُوا مَوْعُودَ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ، فَإِنَّهُ قَضَى:  
أَنَّ رَحْمَتَهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ <sup>(١)</sup>.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا  
أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَتَهُ لِمَنْ يَشَاءُ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ  
مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾  
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَادِرُ رَبَّهُ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا  
نَكِدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

[مِنْ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يُنْزِلُ الْمَطَرَ وَيُخْرِجُ الثَّمَرَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّهُ  
الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْمُدَبِّرُ الْمُسَخِّرُ، وَأَرَشَدَ إِلَى دُعَائِهِ لِأَنَّهُ  
عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ، تَبَّهَ تَعَالَىٰ عَلَى أَنَّهُ الرَّزَّاقُ وَأَنَّهُ يُعِيدُ  
الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ نُشْرًا)  
أَيِ نَاشِرَةً بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ الْحَامِلِ لِلْمَطَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ  
قَرَأَ: ﴿بُشْرًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرِينَ﴾  
[الروم: ٤٦].

وَقَوْلُهُ ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيِ بَيْنَ الْمَطَرِ كَمَا قَالَ:  
﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ  
أَوَّلُ الْحَمِيدِ﴾ [الشورى: ٢٨] وَقَالَ: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ  
اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَجَائِبِ الْمَوْثَى وَهُوَ  
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ  
سَحَابًا يَفْقَالُ﴾ أَيِ حَمَلَتِ الرِّيَّاحُ سَحَابًا ثِقَالًا أَيِ مِنْ كَثْرَةِ  
مَا فِيهَا مِنَ الْمَاءِ تَكُونُ ثَقِيلَةً قَرِيبَةً مِنَ الْأَرْضِ مُذْلِمَةً.

اللَّهُ ﷻ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَى كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا نَفِثَةٌ قَلِيلَتِ الْمَاءِ فَأَنْبَتَ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»<sup>(١)</sup>.

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولَتِي رَسَلْتُ رَجُلًا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ﴿٦٢﴾ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولَتِي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ وَهَذَا شَأْنُ الرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ مُبَلِّغًا فَصِيحًا نَاصِحًا، عَالِمًا بِاللَّهِ لَا يُذَرِّهُمُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ وَهُمْ أَوْفَرُ مَا كَانُوا وَأَكْثَرُ جَمْعًا: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّبْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ أَصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ [يَتَكَلَّمُهَا] عَلَيْهِمْ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»<sup>(٢)</sup>.

«أَوْ عَجَبْتُ أَنْ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِكَ لِيُذَرِّكَ وَلِيُنْفِئَكَ وَلِيَكُلِّمَكَ رُحْمُونَ» ﴿٦٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَصِيًّا ﴿٦٥﴾ يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ «أَوْ عَجَبْتُ... الْآيَةُ، أَيُّ لَا تَعْبَجُوا مِنْ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يُوحِيَ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ وَلُطْفًا وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ، لِيُذَرِّكَمْ وَلِيُنْفِئَكَ نَفْمَةً اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ» ﴿٦٦﴾ وَكَلَّمَكَ رُحْمُونَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَكَذَّبُوهُ» أَيُّ تَمَادَوْا عَلَى تَكْذِيبِهِ وَمُخَالَفَتِهِ وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ [هود: ٤٠]: «فَأَجَبْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ» أَيُّ السَّفِينَةِ كَمَا قَالَ: «فَأَجَبْتَهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ» [العنكبوت: ١٥]: «وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» كَمَا قَالَ: «وَمِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَارًا» [نوح: ٢٥] وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَصِيًّا» أَيُّ عَنِ الْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ لَهُ، فَبَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ آدَمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ وَفَرَّغَ مِنْهُ، شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، فَابْتَدَأَ بِذِكْرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ نُوحٌ ابْنُ لَامَكَ بْنِ مَتُوشَلَخَ بْنِ خَنُوحَ وَهُوَ إِدْرِيسُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا يَزْعُمُونَ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ - ابْنُ يَزِيدَ بْنِ مِهْلِيلِ بْنِ قَيْنِ بْنِ يَانِشَ بْنِ شِيثَ بْنِ آدَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هَكَذَا نَسَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ النَّسَبِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: وَكَانَ أَوَّلُ مَا عُبِدَتْ الْأَصْنَامُ: أَنَّ قَوْمًا صَالِحِينَ مَاتُوا فَبَنَى قَوْمُهُمْ عَلَيْهِمْ مَسَاجِدَ وَصَوَّرُوا صُورَةَ أُولَئِكَ فِيهَا، لِيَتَذَكَّرُوا حَالَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ فَيَتَسَبَّهُوا بِهِمْ، فَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ جَعَلُوا أَجْسَادًا عَلَى تِلْكَ الصُّورِ، فَلَمَّا تَمَادَى الزَّمَانُ عَبَدُوا تِلْكَ الْأَصْنَامَ وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَاءِ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ وَذَا، وَسَوَاعًا وَيَعُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرًا. فَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - رَسُولَهُ نُوحًا فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ: «يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦٧﴾ أَيُّ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِذَا لَقِيتُمْ اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ. «قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ» أَيُّ

### [قِصَّةُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ]

(١) فتح الباري: ٢١١/١ (٢) مسلم: ٨٩٠/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٩

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

أَتْلَعُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَلَنْ نَدِينَهُمْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَيْبٌ أَلْتَجِدُونََنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَظَرِّينَ ﴿٧١﴾ فَأَجْعِلْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بَرْحَةً مِنَّا وَطَعْنَاهُ دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ نَصِيحَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾

نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَنَعُّتُهُ نَعْتٌ رَجُلٍ قَدْ رَأَاهُ، قَالَ: لَا وَلَكِنِّي قَدْ حَدَّثْتُ عَنْهُ، فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ: وَمَا شَأْنُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: فِيهِ قَبْرُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ <sup>(١)</sup>.  
وَهَذَا فِيهِ فَائِدَةٌ: أَنَّ مَسَاجِدَهُمْ كَانَتْ بِالْيَمَنِ، فَإِنَّ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ دُفِنَ هُنَاكَ. وَقَدْ كَانَ مِنْ أَشْرَفِ قَوْمِهِ نَسَبًا؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْقَبَائِلِ وَأَشْرَفِهِمْ. وَلَكِنْ كَانَ قَوْمُهُ كَمَا شَدَّدَ خَلْقُهُمْ شَدَّدَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَكَانُوا مِنْ أَشَدِّ الْأُمَمِ تَكْذِيبًا لِلْحَقِّ، وَلِهَذَا دَعَاهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِلَى طَاعَتِهِ وَتَقْوَاهُ.

[مَا دَارَ بَيْنَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وَالْمَلَأُ هُمْ

اِنْتَقَمَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَأُنْجَى رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الْآيَةُ [غافر: ٥١].

وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ، فِي عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِيهَا لِلْمُتَّقِينَ وَالظَّالِمِينَ وَالْغَلَبَ لَهُمْ، كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالْعَرَقِ وَنَجَّى نُوحًا وَأَصْحَابَهُ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: بَلَغَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ نَجَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ رَجُلًا أَحَدُهُمْ جُرْهُمُ، وَكَانَ لِسَانُهُ عَرَبِيًّا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَرَوَى مُتَّصِلًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَلِإِذَا عَادَ آخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ أَتْلَعُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٦٩﴾

[قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَسَبُ قَوْمِ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ نُوحٍ نُوحًا، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُمْ وَلَدُ عَادِ بْنِ إِرَمَ بْنِ عَوْصِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ.  
قُلْتُ: هَؤُلَاءِ هُمْ عَادُ الْأَوَّلَى الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ، وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِرَمَ الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إِلَى الْعَمَدِ فِي الْبَرِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦٨﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧١﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ﴾ [الفجر: ٦-٨] وَذَلِكَ لِشِدَّةِ بَاسِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

[مَسَاجِدُ قَوْمِ عَادٍ]

وَقَدْ كَانَتْ مَسَاجِدُهُمْ بِالْيَمَنِ بِالْأَخْقَافِ وَهِيَ جِبَالُ الرَّمْلِ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ لِرَجُلٍ مِنْ حَضْرَمَوْتٍ: هَلْ رَأَيْتَ كَثِيبًا أَحْمَرَ، يُخَالِطُهُ مَدْرَةٌ حُمْرَاءُ، ذَا أَرَاكِ وَسِندٍ كَثِيرٍ بِتَاجِيَةٍ كَذَا وَكَذَا مِنْ أَرْضِ حَضْرَمَوْتٍ. هَلْ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ:

(١) الطبري: ٥٠٧/١٢ إسناده ضعيف فيه محمد بن عبدالله بن أبي سعيد الخزازي لا يعرف وابن إسحاق مدلس ولم يصرح.

مِنْ رِجْزٍ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ: سُخْطٌ وَغَضَبٌ<sup>(١)</sup>.  
 ﴿أَتُحَدِّثُونَ فِي آسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أَيُّ  
 أَتُحَاوِلُونَ فِي هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ  
 إِلَهَةً وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَى  
 عِبَادَتِهَا حُجَّةً وَلَا دَلِيلًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا  
 مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ  
 وَوَعِيدٌ مِنَ الرَّسُولِ لِقَوْمِهِ وَلِهَذَا عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ:

### [مَصِيرُ قَوْمِ عَادٍ]

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَطَغَيْنَا دَايِرَ الَّذِينَ  
 كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ  
 صِفَةً إِيْلَاحِيَّةً فِي أَمَاكِنَ أُخَرَ مِنَ الْقُرْآنِ، بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ  
 الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ  
 كَالرِّيمِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَتَوْكُوا  
 بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَالِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَجَّانَةٍ أَبَاسٍ  
 خُشُومًا فَفَرَّقَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ  
 تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨] لَمَّا تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا  
 أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِرِيحٍ عَالِيَةٍ فَكَانَتْ تَحْمِلُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَرْفَعُهُ  
 فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تُنْكِسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتُلْغُ رَأْسَهُ حَتَّى تُبْسِئَهُ مِنْ  
 جُتْبَتِهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٧]  
 وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانُوا يَسْكُنُونَ بِالْيَمَنِ بَيْنَ عُمانَ  
 وَحَضْرَمَوْتَ وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ قَدْ فَسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَفَهَرُوا  
 أَهْلُهَا بِفَضْلِ قُوَّتِهِمُ الَّتِي آتَاهُمُ اللَّهُ وَكَانُوا أَصْحَابَ أَوْتَانٍ  
 يَغْدُوْنَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ  
 وَهُوَ مِنْ أَوْسَطِهِمْ نَسَبًا وَأَفْضَلِهِمْ مَوْضِعًا فَأَمَرَهُمْ أَنْ  
 يُوحِدُوا اللَّهَ وَلَا يَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ وَأَنْ يَكْفُوا عَنْ ظُلْمِ  
 النَّاسِ فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً وَاتَّبَعَهُ  
 مِنْهُمْ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرُ يَكْتُمُونَ إِيْمَانَهُمْ، فَلَمَّا عَتَتْ عَادُ عَلَى  
 اللَّهِ وَكَذَّبُوا نَبِيَّهَ وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، وَتَجَبَّرُوا وَبَنَوْا  
 بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً عَنَّا بِغَيْرِ نَفْعٍ كَلَّمَهُمْ هُودٌ فَقَالَ: ﴿أَتَنْبِئُونَ بِكُلِّ  
 رِيحٍ مَاءٍ تَقُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَسْخَرُونَ مَصَالِيحَ لَكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِنَّا  
 بِطُغْيَانِكُمْ بِطَشْمَرٍ جَابِرِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاقْفُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١]  
 ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي  
 آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ إِنَّ قَوْلَ إِلَّا  
 أَعْرَضْتَ بَعْضَ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ أَيُّ بِجُونٍ ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ

الْجُمُهورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ مِنْهُمْ﴾ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ  
 وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَيُّ فِي ضَلَالَةٍ حَيْثُ تَدْعُونَا  
 إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ،  
 كَمَا تَعَجَّبَ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ  
 فَقَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الْآيَةُ [ص: ٥]. ﴿قَالَ  
 يَقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ  
 لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ بَلْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ مِنَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ  
 شَيْءٍ فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ﴿أَتُفَكِّكُمْ رَسُولَتِي رَبِّي وَأَنَا  
 لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الرَّسُولُ:  
 الْبَلَاغُ وَالنُّصْحُ وَالْأَمَانَةُ ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ  
 عَلَى نَجْلِ يَنْكُرُ يُبْذِرْكُمْ﴾ أَيُّ لَا تَعَجَبُوا أَنْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ  
 رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ أَيَّامَ اللَّهِ وَلِقَاءَهُ، بَلْ أَحْمَدُوا  
 اللَّهَ عَلَى ذَاكُمْ ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قُورَيْشٍ﴾  
 أَيُّ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي جَعْلِكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ الَّذِي  
 أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ لَمَّا خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ  
 ﴿وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أَيُّ زَادَ طَوْلَكُمْ عَلَى النَّاسِ  
 ﴿بَسْطَةً﴾ أَيُّ جَعَلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكُمْ كَقَوْلِهِ فِي  
 قِصَّةِ طَالُوتَ ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾  
 [البقرة: ٢٤٧] ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أَيُّ نِعْمَهُ وَمِنَنَهُ عَلَيْكُمْ  
 ﴿لَعَلَّكُمْ تَتْلُوهُنَّ﴾ وَالْآلَاءُ جَمْعٌ إِلَى وَقِيلَ: أَلَى.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَنَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ  
 آبَاؤُنَا فَأَمَّا زَيْنًا يَمَّا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ قَالَ قَدْ  
 وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُحَدِّثُونَ فِي آسْمَاءٍ  
 سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا  
 إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧١﴾﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ  
 مِنَّا وَطَغَيْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾  
 يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَرُّدِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ  
 عَلَى هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ  
 وَنَحْدَهُ...﴾ الْآيَةُ، كَقَوْلِ الْكُفَّارِ مِنْ قُرَيْشٍ ﴿وَإِذْ قَالُوا  
 اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا  
 جِجَارَةً مِثْلَ الْجَسَدِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]  
 وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ أَنََّّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ  
 أَصْنَامًا، فَصَنَمٌ يُقَالُ لَهُ: صُدَاءُ. وَآخَرُ يُقَالُ: صُمُودٌ.  
 وَآخَرُ يُقَالُ لَهُ: الْهَبَاءُ. وَلِهَذَا قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَدْ  
 وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أَيُّ قَدْ وَجَبَ  
 عَلَيْكُمْ بِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ قِيلَ: هُوَ مَقْلُوبٌ



وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا شَكَّرْتُمْ ۖ (٥٤) مِنْ دُونِهِ ۖ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۖ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ (٥٦) [هود: ٥٣-٥٦]

### [قِصَّةُ وَافِدِ عَادٍ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَارِثِ الْبَكْرِيِّ قَالَ: خَرَجْتُ أَشْكُو الْعِلَاءَ بَنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَرَرْتُ بِالرَّبْدَةِ إِذَا بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٍ بِهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ! إِنَّ لِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَاجَةً هَلْ أَنْتَ مُبْلَغُنِي إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَحَمَلْتُهَا فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ إِذَا الْمَسْجِدُ غَاصُّ بِأَهْلِهِ، وَإِذَا رَايَةُ سَوْدَاءٍ تَخْفِقُ، وَإِذَا بِلَالٌ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ قَالُوا: يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَجْهًا. قَالَ: فَجَلَسْتُ فَدَخَلُ مَنْرَلَهُ - أَوْ قَالَ رَحْلَهُ - فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ وَسَلَّمْتُ، فَقَالَ: «هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ تَمِيمٍ شَيْءٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، وَكَانَتْ لَنَا الدَّبْرَةُ عَلَيْهِمْ، وَمَرَرْتُ بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٍ بِهَا، فَسَأَلْتَنِي أَنْ أَحْمِلَهَا إِلَيْكَ وَهِيَ بِي بِالْبَابِ، فَأَذِنَ لَهَا فَدَخَلْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ رَأَيْتُ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ تَمِيمٍ حَاجِزًا فَاجْعَلِ الدَّهْنَاءَ، فَحَمِيتِ الْعُجُوزَ وَاسْتَوْفَرْتُ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَإِلَى أَيْنَ [تَضْطَرُّ مُضْرَكًا؟] قَالَ: قُلْتُ: إِنَّ مَثَلِي مَثَلُ مَا قَالَ الْأَوَّلُ: «مِعْزَى حَمَلْتُ حَنْفَهَا» حَمَلْتُ هَذِهِ وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَانَتْ لِي خَصْمًا، أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدِ عَادٍ. قَالَ لِي: «وَمَا وَافِدٌ عَادٍ؟» وَهُوَ أَغْلَمُ بِالْحَدِيثِ مِنْهُ وَلَكِنْ يَسْتَطِيعُهُ، قُلْتُ: إِنَّ عَادًا فُحِطُوا فَبَعُثُوا وَافِدًا لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: قَيْلٌ، فَمَرَّ بِمَعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ فَأَقَامَ عِنْدَهُ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ وَتُعْنِيهِ جَارِيَتَانِ يُقَالُ لَهُمَا: الْجَرَادَتَانِ، فَلَمَّا مَضَى الشَّهْرُ خَرَجَ إِلَى جِبَالِ مَهْرَةَ. فَقَالَ: أَلَلَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجِءْ إِلَى مَرِيضٍ فَأَدَاوِيهِ، وَلَا إِلَى أَسِيرٍ فَأُفَادِيهِ، أَلَلَّهُمَّ اسْقِ عَادًا مَا كُنْتُ تَسْقِيهِ. فَمَرَّتْ بِهِ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنَوْدِي مِنْهَا: اخْتَرِي، فَأَوْمَأُ إِلَى سَحَابَةٍ مِنْهَا سَوْدَاءَ فَنَوْدِي مِنْهَا: خُذْهَا رِمَادًا رَمِيدًا، لَا تَبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا. قَالَ: فَمَا بَلَغُنِي أَنَّهُ بَعَثَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا قَدَّرَ مَا يَجْرِي فِي خَاتَمِي هَذَا حَتَّى هَلَكُوا. قَالَ أَبُو وَائِلٍ: وَصَدَقَ. قَالَ: وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ إِذَا بَعُثُوا وَافِدًا لَهُمْ قَالُوا: «لَا تَكُنْ كَوَافِدِ عَادٍ». هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۖ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ (٧٦) فَعَقَرُوا التَّنَاقُفَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ۖ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَنجِبُونَ النَّصِيحَتِ ۖ (٧٩) وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۖ (٨١)

نَحْوَهُ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٣).

«وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرْوَهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسَوِّوْهُ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ (٧٣) وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۖ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ (٧٦) فَعَقَرُوا التَّنَاقُفَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

(١) الطبري: ٥٠٧/١٢ (٢) أحمد: ٤٨٢/٣ (٣) تحفة الأحوذني: ١٦١/٩ والنسائي في الكبرى: ١٨١/٥ وابن ماجه: ٩٤١/٢

جَنِينٍ ﴿٧٨﴾

[مَسَاكِينُ قَوْمِ ثَمُودَ وَنَسَبُهُمْ]

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ وَالنَّسَبِ: ثَمُودُ بْنُ عَائِثِ بْنِ إِدْرِمْ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ وَهُوَ أَخُو جَدِيسِ بْنِ عَائِثٍ، وَكَذَلِكَ قَبِيلُهُ طَسَمٌ؛ كُلُّ هَؤُلَاءِ كَانُوا أَحْيَاءَ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَابِيَّةِ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَتْ ثَمُودُ بَعْدَ عَادٍ وَمَسَاكِينُهُمْ مَشْهُورَةٌ فِيمَا بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ، إِلَى وَادِي الْقَرْيَةِ وَمَا حَوْلَهُ، وَقَدْ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ عَلَى تَبُوكَ نَزَلَ بِهِمُ الْحَجَرُ عِنْدَ ثُبُوتِ ثَمُودَ، فَاسْتَقَى النَّاسُ مِنَ الْآبَارِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرُبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا وَنَضَبُوا لَهَا الْقُدُورَ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَهْرَقُوا الْقُدُورَ وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ. ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبُئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرُبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عَذَّبُوا وَقَالَ: «إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْحَجَرِ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»<sup>(٢)</sup>. وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٣)</sup>.

[قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالِئِكَ ثَمُودٌ﴾ أَيْ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ فَجَمِيعُ الرُّسُلِ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاطَ﴾ [النحل: ٣٦].

[ثَمُودُ طَلَبَتْ نَاقَةً مِنْ صَخْرَةٍ فَظَهَرَتْ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أَيْ قَدْ جَاءَكُمْ حُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى صَدْقِ مَا جِئْتُمْ بِهِ وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا صَالِحًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ وَافْتَرَحُوا عَلَيْهِ بِأَنْ تُخْرَجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءٌ عَيْنُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ صَخْرَةٌ مُتَفَرِّدَةٌ فِي نَاحِيَةِ الْحَجَرِ يُقَالُ لَهَا:

الْكَاثِبَةُ. فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ تُخْرَجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةٌ عُسْرَاءُ تَمَخَضُ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِحٌ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِفَ لِنِ اجَابَتِهِمْ اللَّهُ إِلَى سُؤَالِهِمْ وَأَجَابَهُمْ إِلَى طَلِبَتِهِمْ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَلِيَتَّبِعَهُ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَهُمْ وَمَوَاقِفَهُمْ قَامَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صَلَاتِهِ، وَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ ثُمَّ انْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةٍ جَوْفَاءَ وَبَرَاءَ، يَتَحَرَّكُ جَنِينُهَا بَيْنَ جَنِينَيْهَا كَمَا سَأَلُوا، فَعِنْدَ ذَلِكَ آمَنَ رِيسُ الْقَوْمِ جُنْدَعُ ابْنُ عَمْرٍو وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَرَادَ بَقِيَّةُ أَشْرَافِ ثَمُودَ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَصَدَّهُمْ ذُوَابُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ لَبِيدٍ، وَالْحَبَابُ صَاحِبُ أَوْثَانِيهِمْ، وَرَبَابُ بْنُ [صَمْعَرٍ] بْنُ جَلْهَسٍ، وَكَانَ لِحُجْدَعِ بْنِ عَمْرٍو، ابْنُ عَمٍّ يُقَالُ لَهُ: شِهَابُ ابْنِ خَلِيفَةَ بْنِ مِخْلَةَ بْنِ لَبِيدِ بْنِ جَوَّاسٍ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ ثَمُودَ وَأَفَاضِلِهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُسَلِّمَ أَيْضًا فَنَهَاهُ أُولَئِكَ الرَّمْطُ فَأَطَاعَهُمْ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ رَجُلٌ مِنْ مُؤْمِنِي ثَمُودَ يُقَالُ لَهُ: مَهْوشُ بْنُ [عَنْمَةَ] بْنِ الدَّمِيلِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَكَانَتْ غَضَبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرٍو

إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَا شُهَابًا

عَزِيزَ ثَمُودَ كُلُّهُمْ جَمِيعًا

فَهُمْ بِأَنْ يُجِيبَ فَلَوْ أَجَابَا

لَأَضْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا

وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُوَابًا

وَلَكِنَّ الْغُفَاةَ مِنْ آلِ حَجَرٍ

تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمْ ذُنَابًا

وَأَقَامَتِ النَّاقَةُ وَفَصِيلُهَا - بَعْدَ مَا وَضَعَتْهُ - بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مُدَّةً تَشْرَبُ مِنْ بُئْرِهَا يَوْمًا وَتَدْعُهُ لَهُمْ يَوْمًا، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمَ شُرْبِهَا يَحْتَلِبُونَهَا فَيَمْلَأُونَ مَا شَاؤُوا مِنْ أَوْعِيَتِهِمْ وَأَوَانِيهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَيَبْتَنُّونَ أَنْ الْمَاءَ فَمَسَهُ يَبْتَنُّ كُلُّ شَرِبٍ مُخَضَّرٍ﴾ [القمر: ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكِنَّ شَرِبَ يَوْمٍ مَقْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وَكَانَتْ تَسْرُحُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ تَرُدُّ مِنْ فَجٍّ وَتَصْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ لِيَسْعَهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَنْضَلَعُ مِنَ الْمَاءِ وَكَانَتْ عَلَى مَا ذَكَرَ خَلْقًا هَائِلًا وَمَنْظَرًا رَائِعًا، إِذَا مَرَّتْ بِأَنْعَامِهِمْ نَفَرَتْ مِنْهَا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَاسْتَدَّتْ تَكْذِيبَهُمْ لِصَالِحِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ

(١) أحمد: ١١٧/٢ (٢) أحمد: ٧٤/٢ (٣) فتح الباري: ٦/

٤٣٦ ومسلم: ٢٢٨٦/٤

السَّلَامُ - عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهَا لِيَسْتَأْذِنُوا بِالْمَاءِ كُلَّ يَوْمٍ. فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى قَتْلِهَا. قَالَ قَتَادَةُ: بَلَّغَنِي أَنَّ الَّذِي قَتَلَهَا طَافَ عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ: أَنَّهُمْ رَاضُونَ بِقَتْلِهَا؟ حَتَّى عَلَى النِّسَاءِ فِي خُدُورِهِنَّ وَعَلَى الصَّبِيَّانِ<sup>(١)</sup>.

قُلْتُ: وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَسَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤] وَقَالَ: ﴿وَالْيَنَّا ثَمُودَ أَن تَأْتِيَهُم مَّيْمَرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] وَقَالَ: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فَأَسْبَدَ ذَلِكَ عَلَى مَجْمُوعِ الْقَبِيلَةِ، فَدَلَّ عَلَى رِضَا جَمِيعِهِمْ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[قَتْلُ النَّاقَةِ]

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: أَنَّ سَبَبَ قَتْلِ النَّاقَةِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهَا: عُبَيْرَةُ ابْنَةُ عَنَمِ بْنِ مَجْلَزٍ، وَتُكْنَى أُمُّ عَنَمٍ كَانَتْ عَجُوزًا كَافِرَةً، وَكَانَتْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَتْ لَهَا بَنَاتٌ حِسَانٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ، وَكَانَ زَوْجُهَا ذُوَابُ ابْنِ عَمْرِو أَحَدَ رُؤَسَاءِ ثَمُودَ، وَامْرَأَةٌ أُخْرَى يُقَالُ لَهَا: صُدُوفُ بِنْتُ الْمُحَيَّا بْنِ دَهْرٍ بْنِ الْمُحَيَّا، ذَاتُ حَسَبٍ وَمَالٍ وَجَمَالٍ، وَكَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ مِنْ ثَمُودَ فَفَارَقَتْهُ، فَكَانَتَا تَجْعَلَانِ لِمَنْ التَزَمَ لِهَمَّا بِقَتْلِ النَّاقَةِ، فَدَعَتْ صُدُوفُ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: الْحَبَّابُ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا إِنْ هُوَ عَقَرَ النَّاقَةَ فَأَبَى عَلَيْهَا، فَدَعَتْ ابْنَ عَمٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ: مِصْدَعُ بْنُ مَهْرَجِ بْنِ الْمُحَيَّا فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، وَدَعَتْ عُبَيْرَةَ بِنْتُ عَنَمٍ قُدَارُ بْنُ سَالِفِ بْنِ جُنْدَعٍ، وَكَانَ رَجُلًا أَحْمَرَ أَرْزَقَ قَصِيرًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ وَلَدَ زَيْتٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَبِيهِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَهُوَ سَالِفٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: صَهْبَادٌ وَلَكِنْ وَلِدَ عَلَى فِرَاشِ سَالِفٍ. وَقَالَتْ لَهُ: أَعْطِيكَ أَيَّ بَنَاتِي شِئْتَ عَلَى أَنْ تَعْقِرَ النَّاقَةَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ انْطَلَقَ قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ، وَمِصْدَعُ بْنُ مَهْرَجٍ فَاسْتَوْجَبَا غَوَاةً مِنْ ثَمُودَ فَاتَّبَعَهُمَا سَبْعَةُ نَفَرٍ، فَصَارُوا بِسَعَةِ رَهْطٍ وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِي الْوَادِيَةِ سَبْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] وَكَانُوا رُؤَسَاءَ فِي قَوْمِهِمْ فَاسْتَمْلَأُوا الْقَبِيلَةَ الْكَافِرَةَ بِكَمَالِهَا فَطَاوَعْتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَانْطَلَقُوا فَرَصَدُوا النَّاقَةَ حِينَ صَدَرَتْ مِنَ الْمَاءِ، وَقَدْ كَمَنَ لَهَا قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ فِي أَضَلِّ صَخْرَةٍ عَلَى طَرِيقِهَا، وَكَمَنَ لَهَا مِصْدَعُ بْنُ سَالِفٍ فِي أَضَلِّ أُخْرَى، فَمَرَّتْ عَلَى مِصْدَعٍ فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ، فَانْتَظَمَ بِهِ غَضَلَةً سَاقِهَا وَخَرَجَتْ أُمُّ عَنَمٍ عُبَيْرَةُ

وَأَمَرَتْ ابْنَتَهَا وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، فَسَفَرَتْ عَنْ وَجْهِهَا لِقُدَارٍ وَدَمَرَتْهُ، [فَشَدَّ] عَلَى النَّاقَةِ بِالسَّيْفِ فَكَسَفَ عُرْقُوبَهَا فَخَرَّتْ سَاقِطَةً إِلَى الْأَرْضِ وَرَعَتْ رُغَاةً وَاحِدَةً تُحَذِّرُ سَبْقَهَا ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَتِهَا فَنَحَرَهَا، وَانْطَلَقَ سَبْقُهَا وَهُوَ فَصِيلُهَا حَتَّى أَتَى جَبَلًا مَتِيعًا، فَصَعِدَ أَعْلَى صَخْرَةٍ فِيهِ وَرَعَا<sup>(٢)</sup>. فَزَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَمَّنْ سَمِعَ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ أَيْنَ أُمِّي؟ وَيُقَالُ: إِنَّهُ رَعَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَإِنَّهُ دَخَلَ فِي صَخْرَةٍ فَنَابَ فِيهَا، وَيُقَالُ: بَلَّ اتَّبَعُوهُ فَعَقَرُوهُ مَعَ أُمِّهِ<sup>(٣)</sup>. فَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ وَفَرَعُوا مِنَ عَقْرِ النَّاقَةِ وَبَلَغَ الْخَبَرُ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَجَاءَهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ، فَلَمَّا رَأَى النَّاقَةَ بَكَى وَقَالَ: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [الآية: هود: ٦٥].

[مُحَاوَلَةُ الْمُفْسِدِينَ بِقَتْلِ صَالِحٍ وَبِدَايَةُ الْعَذَابِ بِهِمْ، ثُمَّ نَزُولُ الْعَذَابِ عَلَى ثَمُودَ]

وَكَانَ قَتْلُهُمُ النَّاقَةَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، فَلَمَّا أَمْسَى أُولَئِكَ الشَّعَةُ الرَّهْطُ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَقَالُوا: إِنْ كَانَ صَادِقًا عَجَلْنَاهُ قَبْلَنَا وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ<sup>(٥)</sup> فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ<sup>(٦)</sup> [الأنعام: ٤٩-٥١]، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَوَاطَوْا عَلَيْهِ، وَجَاوُوا مِنَ اللَّيْلِ لِيَفْتَكُوا بَنِيَّ اللَّهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً فَرَضَحَتْهُمْ سَلَفًا وَتَعَجِيلًا قَبْلَ قَوْمِهِمْ، وَأَصْبَحَ ثَمُودُ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَهُوَ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ النَّظَرَةِ وَوُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةٌ كَمَا وَعَدَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّاجِيلِ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَوُجُوهُهُمْ مُحْصَرَّةٌ، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ أَيَّامِ الْمَتَاعِ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ وَوُجُوهُهُمْ مُسَوَّدَةٌ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ وَقَدْ تَحَنُّطُوا وَقَعْدُوا يَنْتَظِرُونَ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ - عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - لَا يَذَرُونَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ وَلَا كَيْفَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ، وَأَشْرَفَتِ الشَّمْسُ: جَاءَتْهُمْ صَيْحَةً مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةً شَدِيدَةً مِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ، فَفَاضَتْ الْأَرْوَاحُ وَرَهَقَتِ الثُّغُوسُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا﴾<sup>(٧)</sup> أَيُّ صَرَخَى لَا أَرْوَاحَ

(١) الطبري: ٥٣٧/١٢ (٢) الطبري: ٥٣١/١٢ (٣) عبد الرزاق: ٢٣١/٢ فيه شيخ معمر مبهم.

رِسَالَةَ رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ ﴿٧٩﴾ أَيُّ فَلَمْ تَتَّبِعُوا بِذَلِكَ، لِأَنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْحَقَّ وَلَا تَتَّبِعُونَ نَاصِحًا، وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾  
[قِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿و﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿لُوطًا﴾ أَوْ تَقْدِيرُهُ: ﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ﴿وَلُوطٌ هُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ وَهُوَ ابْنُ أَحِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ قَدْ آمَنَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ سُدُومَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَزْكِيُونَهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي اخْتَرَعُوهَا، لَمْ يَسْفِكْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا غَيْرِهِمْ، وَهُوَ اثْنَانِ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ بَنُو آدَمَ تَعْبُدُهُ وَلَا تَأْلِفُهُ وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ أَهْلُ سُدُومَ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: مَا نَرَا ذَكَرَ عَلَى ذَكَرٍ حَتَّى كَانَ قَوْمُ لُوطٍ (٥). وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ أَيُّ عَدَلْتُمْ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْهُنَّ إِلَى الرِّجَالِ، وَهَذَا إِسْرَافٌ مِنْكُمْ وَجَهْلٌ، لِأَنَّهُ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [هود: ٧١]

فَأَرَشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ فَأَعْتَدُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهُمْ لَا يَشْتَهُونَهُنَّ، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا رِيدُ﴾ [هود: ٧٩] أَيُّ لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا إِزْبَ لَنَا فِي النِّسَاءِ وَلَا (١) الطبري: ٥٣٤/١٢ (٢) عبد الرزاق: ٢٣٢/٢ هذا مرسل كما قال ابن كثير وقد روي متصلًا عند أبي داود كتاب الخراج باب نبش القبور العادية يكون فيها المال (٣٠٨٨) وإسناده ضعيف بحير بن أبي بحير مجهول وقال ابن كثير: تفرد بوصله بحير بن أبي بحير هذا وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. أنظر أيضًا البداية والنهاية ١٥٨/١ وله شواهد ضعيفة. (٣) عبد الرزاق: ٢/ ٢٣٢ (٤) فتح الباري: ٣٥١/٧ ومسلم: ٢٢٠٣/٤ (٥) الطبري: ٥٤٨/١٢

فِيهِمْ، وَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ لَا صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ لَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى، قَالُوا: إِلَّا جَارِيَةً كَانَتْ مُفْعَدَةً وَاسْمُهَا كَلْبَةُ ابْنَةِ السَّلَوِيِّ، وَيُقَالُ لَهَا: الزُّرَيْقَةُ، وَكَانَتْ كَافِرَةً شَدِيدَةَ الْعَدَاوَةِ لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا رَأَتْ مِنَ الْعَذَابِ أُطْلِقَتْ رَجُلَاهَا، فَقَامَتْ تَسْعَى كَأَسْرَعَ شَيْءٍ، فَأَنْتَ حَيًّا مِنَ الْأَحْيَاءِ فَأَخْبَرْتَهُمْ بِمَا رَأَتْ وَمَا حَلَّ بِقَوْمِهَا ثُمَّ اسْتَسْقَتْهُمْ مِنَ الْمَاءِ، فَلَمَّا شَرِبَتْ مَاتَتْ (١).

قَالَ عُلَمَاءُ التفسير: وَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذُرِّيَّةِ نَمُودَ أَحَدٍ سِوَى صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ تَبِعَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: أَبُو رِغَالٍ كَانَ لَمَّا وَقَعَتِ النَّفْثَةُ بِقَوْمِهِ مُقِيمًا إِذْ ذَاكَ فِي الْحَرَمِ فَلَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ، فَلَمَّا خَرَجَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى الْجَلِّ جَاءَهُ حَجَرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَفَتَلَهُ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ: أَخْبَرَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرِ أَبِي رِغَالٍ فَقَالَ: «أَتَذَرُونَ مَنْ هَذَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ رَجُلٍ مِنْ نَمُودَ، كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ حَرَمُ اللَّهِ عَذَابَ اللَّهِ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ فَدُفِنَ هَاهُنَا، وَدُفِنَ مَعَهُ غَضُنٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَنَزَلَ الْقَوْمُ فَأَبْتَدَرُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ فَبَحَثُوا عَنْهُ فَاسْتَخَرَجُوا الْغَضْنَ» (٢). وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: أَبُو رِغَالٍ: أَبُو ثَقِيفٍ (٣).

﴿فَقَتَلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَفْقَهُوْا لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَصَحَّتْ

لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ (٧٩)

هَذَا تَفْرِيعٌ مِنْ صَالِحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِقَوْمِهِ، لَمَّا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَإِيَابَتِهِمْ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الْعَمَى، قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ ذَلِكَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، تَفْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَهُمْ يَسْمَعُونَ ذَلِكَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ أَقَامَ هُنَاكَ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَأْسَيْهِ فَنُذِتْ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَرَكِبَهَا ثُمَّ سَارَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْقَلْبِ قَلْبِ بَدْرٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «يَا أَبَا جَهْلٍ بْنَ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَيْبَعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَيْبَعَةَ، وَيَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَقْوَامٍ قَدْ جِيئُوا؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ - لِمَا أَقُولُ - مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ» (٤).

وَهَكَذَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿لَقَدْ أَهْلَكْتُمْكُمْ

إِرَادَةً، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مُرَادَنَا مِنْ أَضْيَافِكَ.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ

قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ (٨٢)

أَيَّ مَا أَجَابُوا لُوطًا إِلَّا أَنْ هَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ وَتَفْيِهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَالِمًا وَأَهْلَكَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَاغِرِينَ مُهَانِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: غَابُوهُمْ بِغَيْرِ عَيْبٍ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ مِنْ أَذْبَارِ الرِّجَالِ وَأَذْبَارِ النِّسَاءِ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى مِثْلَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا<sup>(٣)</sup>.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ﴾ (٨٣)

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤)

يَقُولُ تَعَالَى: فَأَنجَيْنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ، سِوَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَطَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) فَمَا وَدَّعْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] إِلَّا امْرَأَتَهَا فَإِنَّهَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ، بَلْ كَانَتْ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا تَمَائِلُهُمْ عَلَيْهِ وَتَعْلِمُهُمْ بِمَنْ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ مِنْ ضَيْفَانِهِ بِإِشَارَاتِ بَيْتِهَا وَبَيْنَهُمْ. وَلِهَذَا لَمَّا أَمَرَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُسْرِيَ بِأَهْلِهِ أَمَرَ أَنْ لَا يَعْلَمَهَا وَلَا يُخْرِجَهَا مِنَ الْبَلَدِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلِ اتَّبَعَتْهُمْ فَلَمَّا جَاءَ الْعَذَابُ انْتَفَتَتْ هِيَ، فَأَصَابَهَا مَا أَصَابَهُمْ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا لَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْبَلَدِ وَلَا أَعْلَمَهَا لُوطٌ بَلْ بَقِيََتْ مَعَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ﴾ أَيُّ الْبَاقِينَ.

وَقِيلَ: مِنَ الْهَالِكِينَ وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنُصُورٍ﴾ (٨٦) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ [هود: ٨٢، ٨٣] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيُّ أَنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ! كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيُكَذِّبُ رُسُلَهُ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ<sup>(٤)</sup>.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِينَ﴾ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤) وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥)

[قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَدْيَنَ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُمْ مِنْ سُلَالَةِ مَدْيَنَ بْنِ مَدْيَانَ ابْنِ إِدْرِاهِيمَ، وَشُعَيْبٌ وَهُوَ ابْنُ مَيْكِلَ بْنِ يَشْجَرَ، قَالَ: وَاسْمُهُ بِالسَّرْيَانِيَّةِ يَثْرُونَ<sup>(٥)</sup>.

(قُلْتُ) مَدْيَنُ تُطْلَقُ عَلَى الْقَبِيلَةِ وَعَلَى الْمَدِينَةِ، وَهِيَ الَّتِي يَقْرُبُ مَعَانَ مِنْ طَرِيقِ الْحِجَازِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ﴾ [الفصص: ٢٣] وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ التَّثَنُّ. ﴿قَالَ يَنْقُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هَذِهِ دَعْوَةُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ قَدْ أَقَامَ اللَّهُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُمْ بِهِ، ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي مُعَامَلَتِهِمُ النَّاسَ بِأَنْ

(١) الطبري: ٥٥٠/١٢ (٢) الطبري: ٥٥٠/١٢ (٣) الطبري: ٥٥٠/١٢

(٤) أحمد: ٣٠٠/١ والترمذي: ١٤٥٦ وأبو داود: ٤٤٦٢ وابن ماجه: ٢٥٦١ (٥) الطبري: ٥٥٤/١٢

سورة الأعراف

١٦٢

سورة الأعراف

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ  
كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ  
بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مَتْنَهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ  
اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ  
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْ كُنَّا إِذَا الْخَسِرُونَ  
﴿٩٠﴾ فَآخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾  
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا  
كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ  
أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ  
عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا  
أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ  
بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ  
ءَابَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يُوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ،  
أَيُّ لَا يَحُونُوا النَّاسَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَيَأْخُذُوا بِهَا عَلَى وَجْهِ  
الْبَخْسِ وَهُوَ: نَقْصُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ خُفْيَةً وَتَذْلِيلًا،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾  
[المطففين: ٦-١] وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، نَسَأُ اللَّهُ  
الْعَاقِبَةَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْبٍ الَّذِي يُقَالُ  
لَهُ: خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ، لِفَصَاحَةِ عِبَارَتِهِ، وَجَزَالَةِ مُوَاعِظَتِهِ.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْذِرُوا إِذْ كُنْتُمْ  
قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٩﴾  
وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ  
لَمْ يُؤْمَرُوا فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَخُصَّكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٩٠﴾  
بَيْنَهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ الْحِصِيِّ  
وَالْمَعْنَوِيِّ يَقُولُهُ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾  
أَيُّ تَتَوَعَّدُونَ النَّاسَ بِالْقَتْلِ إِنْ لَمْ يُعْطَوْكُمْ أَمْوَالَهُمْ. قَالَ  
السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: كَانُوا عَشَارِينَ<sup>(١)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ  
وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾  
أَيُّ تَتَوَعَّدُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْآتِينَ إِلَى شُعَيْبٍ لِيَتَّبِعُوهُ<sup>(٢)</sup>.  
وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وَهُوَ الطَّرِيقُ  
وَهَذَا الثَّانِي هُوَ قَوْلُهُ ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ  
بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيُّ وَتَوَدُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُ اللَّهِ  
عِوَجًا مَائِلَةً ﴿وَأَنْذِرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ أَيُّ  
كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ لِقِلَابَتِكُمْ فَصَرْنُمُ أَعَزَّةً لِكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ فَأَذْكُرُوا  
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ  
الْمُفْسِدِينَ﴾ أَيُّ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا  
حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِاجْتِرَائِهِمْ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ  
وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ.

وَقَوْلُهُ ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ  
بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمَرُوا﴾ أَيُّ قَدْ اخْتَلَفْتُمْ عَلَيَّ ﴿فَأَصْبِرُوا﴾ أَيُّ  
إِنْتَظَرُوا ﴿حَتَّى يَخُصَّكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وَبَيْنَكُمْ أَيُّ بِفَصْلِ  
خَيْرِ الْحَاكِمِينَ ﴿فَإِنَّهُ سَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، وَالْدَّمَارَ عَلَى  
الْكَافِرِينَ.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ  
كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ  
جَعَلْنَا اللَّهُ مَتْنَهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا

وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ  
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا وَاجَهَتْ بِهِ الْكُفَّارُ بَيْنَهُ شُعَيْبًا  
وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَعُّدِهِمْ إِثَابَهُ وَمَنْ مَعَهُ بِالْقَتْلِ عَنْ  
الْقَرْيَةِ أَوْ الْإِكْرَاهِ عَلَى الرُّجُوعِ فِي مِلَّتِهِمْ وَالِدُخُولِ مَعَهُمْ  
فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَهَذَا خِطَابٌ مَعَ الرُّسُولِ، وَالْمُرَادُ أَتْبَاعُهُ  
الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ عَلَى الْمِلَّةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾  
يَقُولُ: أَوْ أَنْتُمْ فَاعِلُونَ ذَلِكَ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ مَا تَدْعُونَا  
إِلَيْهِ! فَإِنَّا إِنْ رَجَعْنَا إِلَى مِلَّتِكُمْ وَدَخَلْنَا مَعَكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ،  
فَقَدْ أَعْظَمْنَا الْفِرْيَةَ عَلَى اللَّهِ فِي جَعْلِ الشُّرَكَاءِ مَعَهُ أَتْدَادًا،  
وَهَذَا تَعْيِيرٌ مِنْهُ عَنْ أَتْبَاعِهِ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ  
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وَهَذَا رَدٌّ إِلَى الْمَشِيشَةِ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ  
وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أَيُّ فِي أُمُورِنَا  
مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾

﴿يَقُولُ لَقَدْ أَرْسَلْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّكُمْ فَذَرَكُوهُ فَذُرْتُمُوهُ أَوْ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكُمْ وَلَا يُقَالُ لَوْلَا رَبُّنَا الَّذِي أَمَّا لِلْمُكَافَرِ الْإِنْفِرُ﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٠) ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ (٩١)

### [إِتِلَاءُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا اخْتَبَرَ بِهِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ الَّذِينَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ، يَعْنِي بِالْبَأْسَاءِ مَا يُصِيبُهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَسْقَامٍ، وَالضَّرَاءِ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾، أَيْ يَدْعُونَ وَيَخْشَعُونَ وَيَتَهَلَّلُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُشْفِ مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَتَقْدِيرِ الْكَلَامِ: أَنَّهُ إِبْتِلَاءُهُمْ بِالشَّدَةِ لِيَضُرَّعُوا، فَمَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنَ الَّذِي أَرَادَ مِنْهُمْ، فَقَلَبَ عَلَيْهِمُ الْحَالَ إِلَى الرَّخَاءِ لِيُخَبِّرَهُمْ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أَيْ حَوَّلْنَا الْحَالَ مِنْ شِدَّةٍ إِلَى رَخَاءٍ، وَمِنْ مَرَضٍ وَسَقَمٍ إِلَى صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ، وَمِنْ فَقْرٍ إِلَى غِنَى لِيَشْكُرُوا عَلَى ذَلِكَ فَمَا فَعَلُوا، وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أَيْ كَثُرُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، يُقَالُ: عَفَا الشَّيْءُ إِذَا كَثُرَ.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِبْتِلَاءُنَاهُمْ بِهَذَا وَهَذَا، لِيَضُرَّعُوا وَيُنِيبُوا إِلَى اللَّهِ فَمَا نَجَّعَ فِيهِمْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، وَلَا إِنْتَهَوْا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا، بَلْ قَالُوا: قَدْ مَسَّنَا مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، ثُمَّ بَعْدَهُ مِنَ الرَّخَاءِ مِثْلُ مَا أَصَابَ آبَاءَنَا فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَالذَّهْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ الذَّهْرُ تَارَتْ وَتَارَتْ، بَلْ لَمْ يَتَفَقَّطُوا لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ وَلَا اسْتَشْعَرُوا إِبْتِلَاءَ اللَّهِ لَهُمْ فِي الْحَالَيْنِ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَيَضُرُّعُونَ عَلَى الضَّرَّاءِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»<sup>(١)</sup>. فَأَلْهَمُوا مَنْ يَتَفَقَّطُ لِمَا إِبْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ أَيْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ بَعْنَةً،

أَيَّ أَحْكَمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أَيْ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، فَإِنَّكَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شَيْئًا إِتَّكُرُوا إِذَا لَخِيرْتُمْ﴾ (٩٢) فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ (٩٣) الَّذِينَ كَذَّبُوا شَيْعًا كَانُوا لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شَيْعًا كَانُوا هُمُ الْخَبِيرِينَ﴾ (٩٤)

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلْحَقِّ، وَلِهَذَا أَفْسَمُوا وَقَالُوا: ﴿لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شَيْعًا إِتَّكُرُوا إِذَا لَخِيرْتُمْ﴾ فَلِهَذَا عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى هُنَا: أَنَّهُمْ أَخَذْنَاهُمُ الرَّجْفَةَ، وَذَلِكَ كَمَا أَرْجَفُوا شَيْعًا وَأَصْحَابَهُ وَتَوَعَّدُوهُمْ بِالْجَلَاءِ - كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ هُودٍ فَقَالَ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شَيْعًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ [هود: ٩٤] - وَالْمُنَاسِبَةُ هُنَاكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّهُمْ لَمَّا تَهَكَّمُوا بِهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَسْأَلُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الْآيَةُ [هود: ٨٧]، فَجَاءَتِ الصَّيْئَةُ فَأَسْكَتَتْهُمْ. وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ١٨٩] وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ فِي سَبَاقِ الْقِصَّةِ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ١٨٧] الْآيَةَ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ، وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظْلَمَتْ فِيهَا شَرٌّ مِنْ نَّارٍ وَلَهَبٌ وَوَهَجٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ وَفَاضَتِ النُّفُوسُ وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا﴾ أَيْ كَانَتْهُمْ لَمَّا أَصَابَتْهُمْ النِّقْمَةُ لَمْ يَقِيمُوا بِدِيَارِهِمُ الَّتِي أَرَادُوا إِجْلَاءَ الرُّسُولِ وَصَحْبِهِ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَابِلًا لِقِيلِهِمْ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَيْعًا كَانُوا هُمُ الْخَبِيرِينَ﴾.

﴿فَقَوْلَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَقُولُوا لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّكُمْ فَذَرَكُوهُ فَذُرْتُمُوهُ أَوْ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّكُمْ وَلَا يُقَالُ لَوْلَا رَبُّنَا الَّذِي أَمَّا لِلْمُكَافَرِ الْإِنْفِرُ﴾

الْأَعْرَافُ

١٦٣

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ  
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ ﴿١٦٣﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا  
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٦٤﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا  
ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٦٥﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ  
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦٦﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ  
يَرْتُوبُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ  
يَذُوبُهُمْ وَنُطْبِعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٦٧﴾  
تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ  
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٨﴾ وَمَا وَجَدْنَا  
لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٦٩﴾  
ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ  
فَطَلَمُوا بِهِآ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧٠﴾  
وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧١﴾

## يَسْمَعُونَ ﴿١٧١﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: «أَوَلَمْ يَهْدِ  
لِلَّذِينَ يَرْتُوبُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا» أَوْ لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّ  
لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ<sup>(٢)</sup>.  
وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: يَقُولُ تَعَالَى: أَوْ لَمْ  
يُبَيِّنْ لِلَّذِينَ يَسْتَخْلِفُونَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ آخَرِينَ  
فَقُلُوبُهُمْ كَانُوا أَهْلَهَا، فَسَارُوا سَبِيلَهُمْ وَعَمِلُوا أَعْمَالَهُمْ وَعَتَوْا  
عَلَىٰ رَبِّهِمْ «أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» يَقُولُ: أَن لَّوْ  
نَشَاءُ فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ «وَنُطْبِعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ»  
يَقُولُ وَنَحْنُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ «فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» مُوَظَّعَةً وَلَا  
تَذْكِيرًا<sup>(٣)</sup>.

(قُلْتُ) وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا  
قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي

أَبْصَارٍ عَلَىٰ بَعْثَتِهِ، وَعَدَمَ شُعُورِ مِنْهُمْ، أَيْ أَخَذْنَا لَهُمْ فِتْنَةً كَمَا  
فِي الْحَدِيثِ: «مَوْتُ الْفِتْنَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخْذُهُ أَصْفَى  
لِلْكَافِرِ»<sup>(١)</sup>.

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦٣﴾  
أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٦٤﴾ أَوْ  
أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٦٥﴾ أَفَأَمِنُوا  
مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦٦﴾

## [الْبَرَكَاتُ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْبُطْشُ مَعَ الْكُفْرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِلَّةِ إِيمَانِ أَهْلِ الْقُرَى الَّذِينَ أُرْسِلَ فِيهِمْ  
الرُّسُلُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «فَلَوْلَا كُنْتُ قَرِيبَةً أَمَنْتُ فَتَفَعَّلَهَا  
إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَهُمُ الْخَزْيَ فِي  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ» [يونس: ٩٨] أَيْ مَا أَمَنْتُ  
قَرِيبَةً بِتَمَامِهَا إِلَّا قَوْمَ يُوسُفَ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا وَذَلِكَ بَعْدَ مَا  
عَاينُوا الْعَذَابَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِئَاةٍ أَلَيْبٍ أَوْ  
يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَفَتَحْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ» [الصافات:

[١٤٨، ١٤٧]

وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيبٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا آيَةً،  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا» أَيْ أَمَنْتُ  
قُلُوبُهُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَصَدَّقْتُ بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَاتَّقَوْا  
يَفْعَلُ الطَّاعَاتِ وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ «لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» أَيْ قَطَرُ السَّمَاءِ وَنَبَاتُ الْأَرْضِ، قَالَ  
تَعَالَى: «وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أَيْ  
وَلَٰكِن كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ فَعَاقِبَتَاهُمُ بِالْهَلَاكِ عَلَىٰ مَا كَسَبُوا مِنْ  
الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحَوِّفًا وَمُحَذِّرًا مِنْ  
مُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَالتَّجَرُّؤِ عَلَىٰ زَوَاجِرِهِ: «أَفَأَمِنَ أَهْلُ  
الْقُرَىٰ» أَيْ الْكَافِرَةُ «أَن يَأْتِيَهُمْ» أَيْ عَذَابُنَا وَنَكَالُنَا  
«بَيِّنًا» أَيْ لَبِيلًا «وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٦٤﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن  
يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ» أَيْ فِي حَالِ شُغْلِهِمْ  
وَعَفْلَتِهِمْ «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ» أَيْ بِأَسْهُ وَبِقَمَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ  
عَلَيْهِمْ وَأَخَذَهُ إِيَّاهُمْ فِي حَالِ سَهْوِهِمْ وَعَفْلَتِهِمْ «فَلَا يَأْمَنُ  
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ  
الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِقٌ  
وَجَلَّ خَائِفٌ، وَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ.

«أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُوبُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ  
نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنُطْبِعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

(١) أحمد: ١٣٦/٦ (٢) الطبري: ٥٨٠/١٢ (٣) الطبري:



أَنْتُمْ هُمْ ﴿طه: ١٢٨﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦] وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿١١٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخَشِيتُهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [طه: ٩٨] أَيْ هَلْ تَرَى لَهُمْ شَخْصًا أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتًا؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى حُلُولِ نِقْمِهِ بِأَعْدَائِهِ وَحُصُولِ نِعْمِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، وَلِهَذَا عَقَّبَ بِقَوْلِهِ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ:

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٥﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١١٦﴾﴾

لَمَّا قَصَّ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِهِ الْكَافِرِينَ وَإِنجَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَعْدَزُ إِلَيْهِمْ بِأَنْ يَبَيِّنَ لَهُمْ الْحَقَّ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أَيْ يَا مُحَمَّدُ! مِنْ أَنْبَاءِهَا أَيْ مِنْ أَخْبَارِهَا ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ الْحُجَجِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الأنبياء: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٧﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠٠، ١٠١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَلْبَاءُ سَبِيَّةٍ، أَيْ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ أَوَّلَ مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ. حَكَاهُ ابْنُ عَطِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ مُتَّجِهٌ حَسَنٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُشِيرُوكُمْ أُنْهَأَ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٨﴾ وَقُلْتُ أَفَلَا تَهْتَفُونَ لَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠]. وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أَيْ لِأَكْثَرِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أَيْ وَلَقَدْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ فَاسِقِينَ خَارِجِينَ عَنِ الطَّاعَةِ وَالْإِمْتِنَالِ. وَالْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ هُوَ مَا جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ وَفَطَرَهُمْ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْلَابِ: أَنَّهُ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

فَاقْرَءُوا بِذَلِكَ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ. وَخَالَفُوهُ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَعَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ لَا مِنْ عَقْلِ وَلَا شَرْعٍ - وَفِي الْفُطْرَةِ السَّلِيمَةِ خِلَافُ ذَلِكَ - وَجَاءَتِ الرُّسُلُ الْكِرَامُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُقَّاءَ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخْلَلْتُ لَهُمْ»<sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفُطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيَمَجِّسَانِهِ»<sup>(٢)</sup>. الْحَدِيثُ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

[قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَيْ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِ

(١) مسلم: ٢١٩٧/٤ (٢) فتح الباري: ٣/٢٩٠ و مسلم: ٤/٢٠٤٧

هَارُونَ عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ﴾ فَتَحَوَّلَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً فَاعْرَا فَاهَا مُسْرَعَةً إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَاهَا فِرْعَوْنَ أَنَّهَا قَاصِدَةٌ إِلَيْهِ اقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ وَاسْتَعَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكْفِهَا عَنْهُ فَفَعَلَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مِثْنُ﴾ الثُّعْبَانُ الذَّكَرُ مِنَ الْحَيَّاتِ، فَاتِحَةً فَاهَا وَاضِعَةً لَحْيَيْهَا الْأَسْفَلَ فِي الْأَرْضِ وَالْأَعْلَى عَلَى سُورِ الْقَصْرِ، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ فِرْعَوْنَ لِتَأْخُذَهُ، فَلَمَّا رَأَاهَا دَعَرَ مِنْهَا وَوَتَبَ وَأَخَذَتْ، وَلَمْ يَكُنْ يُحَدِّثُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَصَاحَ يَا مُوسَى! خُذْهَا وَأَنَا أُوْمِنُ بِكَ وَأُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَخَذَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَادَتْ عَصَا<sup>(٤)</sup>.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّظَرِ﴾ أَيُّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ دَرْعِهِ بَعْدَ مَا أَدْخَلَهَا فِيهِ، فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ تَتَلَأَلُّ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا مَرَضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٍّ﴾ [الزُّمَر: ١٢]. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٍّ﴾ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى كُمِّهِ فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٦)</sup>.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَنْصِكَمْ فَمَازَا تَأْمُرُونَ<sup>(٧)</sup>. [قَوْلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي مُوسَى: إِنَّهُ سَاحِرٌ وَاتَّفَقُهُمْ عَلَى مُعَارَضَتِهِ بِالسَّحَرَةِ]

أَيُّ قَالَ الْمَلَأُ - وَهُمْ الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ - مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ مُوَافِقِينَ لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ فِيهِ بَعْدَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ رَوْعُهُ وَاسْتَقَرَّ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ﴾ فَوَافَقُوا وَقَالُوا كَمَا قَالَتْهُ وَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِهِ كَيْفَ يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِهِ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ حِيلَتُهُمْ فِي إِطْفَاءِ نُورِهِ وَإِخْمَادِ كَلِمَتِهِ وَظُهُورِ كَذِبِهِ وَافْتِرَائِهِ؟ وَتَخَوُّوا أَنْ يَسْتَمِيلَ النَّاسُ بِسُخْرِهِ - فِيمَا يَعْتَقِدُونَ - فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لظُهُورِهِ عَلَيْهِمْ وَإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَالَّذِي خَافُوا مِنْهُ وَقَعُوا فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

(١) الطبري: ١٦/١٣ (٢) الطبري: ١٧/١٣ (٣) الطبري: ١٦/١٣ مسند أبي يعلى (٢٦١٨) ١٠/٥-٢٩ مطولا والسنن الكبرى للنسائي وذكره ابن كثير أيضا في تفسير سورة طه: ٤٠. (٤) الطبري: ١٥/١٣ (٥) الطبري: ١٧/١٣ (٦) الطبري: ١٨/١٣

ذَكَّرَهُمْ كَنُوحَ وَهُودَ وَصَالِحَ وَلُوطَ وَشُعَيْبَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ. ﴿مُوسَى يَتَكَلَّمُ﴾ أَيُّ بِحُجَّتِنَا وَدَلَالَتِنَا الْبَيِّنَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَهُوَ مَلِكٌ مُضَرٌّ فِي زَمَنِ مُوسَى ﴿وَمَلَكِهِ﴾ أَيُّ قَوْمِهِ ﴿فَطَلَّمُوا بِهَا﴾ أَيُّ جَحَدُوا وَكَفَرُوا بِهَا ظُلْمًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا، وَكَفَّوْهُ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] أَيُّ الَّذِينَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، أَيُّ انْظُرْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، أَعَرَفْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِمَرَأَى مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّكَاثُفِ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَأَشْفَى لِقُلُوبِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مُوسَى وَقَوْمِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا تَنْبَأُ فَاثِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُنَاطَرَةِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ وَالْجَامِهِ إِثَّاهُ بِالْحُجَّةِ وَإِظْهَارِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِحُضْرَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ قَبْطٍ مُضَرٍّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ أَرْسَلَنِي الَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ، ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أَيُّ وَاجِبٌ وَحَقٌّ عَلَى ذَلِكَ أَنْ لَا أُخْبِرَ عَنْهُ إِلَّا بِمَا هُوَ حَقٌّ وَصَدَقٌ، لِمَا أَعْلَمُ مِنْ جَلَالِهِ وَعَظِيمِ شَأْنِهِ ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ مِنَ اللَّهِ أَعْطَانِيهَا ذَلِيلًا عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ﴾ أَيُّ أَطْلُقُهُمْ مِنْ أَسْرِكَ وَتَهْرِكْ، وَدَعُهُمْ وَعِبَادَةَ رَبِّكَ وَرَبَّهُمْ، فَإِنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيِّ كَرِيمٍ إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا تَنْبَأُ فَاثِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيُّ قَالَ فِرْعَوْنَ: لَسْتُ بِمُصَدِّقِكَ فِيمَا قُلْتَ وَلَا بِمُطِيعِكَ فِيمَا طَلَبْتَ، فَإِنْ كَانَتْ مَعَكَ حُجَّةٌ فَأَظْهَرَهَا لِنَرَاهَا إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا ادَّعَيْتَ.

﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مِثْنُ﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّظَرِ

[عَصَا مُوسَى وَيَدُهُ الْبِيْضَاءُ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعْبَانُ مِثْنُ﴾ الْحَيَّةُ الذَّكَرُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ<sup>(٢)</sup>. وَفِي حَدِيثِ الْفُتُونِ مِنْ رِوَايَةِ يَزِيدَ بْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦٥

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالُوا أَمْ آتَيْنَا رَبَّ الْأَعْلِينَ ﴿١٦٥﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالَ  
فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ  
فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ لَأَقْطَعَنَّ  
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْبِلَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٨﴾  
قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٦٩﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنْ آلِ أَنْتَ أَمَّا  
بِأَيِّتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَارِبْنَا أَعْرَفٌ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأَ مُسْلِمِينَ  
﴿١٧٠﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتُمْ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيَفْسِدُوا  
فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ فِي الْأَهْطَالِ قَالَ اسْتَغْنِي عَنْهُمْ وَرَدِّي  
نِسَاءَهُمْ وَإِنِّي آفُقُهُمْ قَهْرُوتٌ ﴿١٧١﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ  
اسْتَغْنِيُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ  
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا أَوَدِينَا  
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ  
أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ  
فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ  
بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٧٤﴾

﴿فَلَمَّا أَتَوْا سَكَرُوا فَأَعْيَبَ النَّاسُ وَاسْتَهْزَهُمْ﴾ أَيَّ خَبَلُوا إِلَى  
الْأَبْصَارِ أَنْ مَا فَعَلُوا لَهُ: حَقِيقَةُ فِي الْخَارِجِ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا  
مُجَرَّدُ صُنْعَةٍ وَخَيَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ  
خِيفَةً مُوسَى﴾ ﴿١٧٠﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١٧١﴾ وَأَلْقَى مَا فِي  
يَمِينِكَ لَلْفَقْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ  
حَيْثُ أَتَى ﴿طه: ٦٧-٦٩﴾.

رَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَلْقَوْا جِبَالَ  
غِلَظًا وَخَشَبًا طَوَالًا، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ بُخَيْلٌ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ  
أَنَّهُ تَسْعَى <sup>(٢)</sup>.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُلُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾  
فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا  
صَغِيرِينَ ﴿١٧٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا أَمَّا رَبُّ  
الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٨٢﴾

﴿وَرَبِّي فِرْعَوْنٌ وَهَمَدَنَ وَخُونَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾  
[القصص: ٦] فَلَمَّا تَشَاوَرُوا فِي شَأْنِهِ وَاتَّخَمُوا بِمَا فِيهِ،  
إِتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿قَالُوا أَزِمْهُ وَآخَاهُ وَارْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ  
سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَزِمْهُ﴾ أَخْزَهُ <sup>(١)</sup> ﴿وَارْسِلْ﴾ أَيَّ إِنْجَثَ  
﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ أَيَّ فِي الْأَقَالِيمِ وَمَدَائِنِ مُلْكِكَ ﴿حَاشِرِينَ﴾  
أَيَّ مَنْ يَحْشُرُ لَكَ السَّحَرَةَ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ وَيَجْمَعُهُمْ وَقَدْ  
كَانَ السَّحَرُ فِي زَمَانِهِمْ غَالِبًا كَثِيرًا ظَاهِرًا، وَاعْتَقَدَ مَنْ  
اعْتَقَدَ مِنْهُمْ وَأَوْهَمَ مَنْ أَوْهَمَ مِنْهُمْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى  
عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبِيلٍ مَا تَسْعِيْدُهُ سَحَرُهُمْ، فَلِهَذَا جَمَعُوا لَهُ  
السَّحَرَةَ لِيُعَارِضُوهُ بِظَهْرِ مَا أَرَاهُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، كَمَا أَخْبَرَ  
تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ  
بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُغْلِبُكَ عَنْهُ وَلَا أَنْتَ مَكَاكُ سَوَى﴾ ﴿١١٢﴾ قَالَ  
مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ الْإِنْسَ صُحًى ﴿١١٣﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ  
كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿طه: ٥٨-٦٠﴾ وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ  
الْغَالِبِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَعِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٥﴾  
[الْجَمْعُ السَّحَرَةُ وَمُقَابَلَتُهُمْ مَعَ مُوسَى وَتَمْوِيهِهُمْ فِي  
تَحْوِيلِ جِبَالِهِمْ وَعَصِيهِمْ حَيَاتٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَشَارَطَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَالسَّحَرَةُ الَّذِينَ  
اسْتَدْعَاهُمْ لِمُعَارَضَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنَّ غَلَبُوا مُوسَى  
لَيُعْطِيَهُمْ وَلَيُعْطِيَهُمْ عَطَاءَ جَزِيلًا، فَوَعَدَهُمْ وَمَنَاهُمْ أَنْ  
يُعْطِيَهُمْ مَا أَرَادُوا وَيَجْعَلُهُمْ مِنْ جُلَسَائِهِ وَالْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ،  
فَلَمَّا تَوَقَّعُوا مِنْ فِرْعَوْنَ - لَعْنَهُ اللَّهُ -

﴿قَالُوا بِمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١١٦﴾  
قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَكَرُوا فَأَعْيَبَ النَّاسُ وَاسْتَهْزَهُمْ وَجَاءُوا  
بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾

هَذِهِ مَبَارَزَةٌ مِنَ السَّحَرَةِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِمْ:  
﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أَيَّ قَبْلَكَ. كَمَا  
قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]  
فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَلْقُوا﴾ أَيَّ أَنْتُمْ أَوَّلًا.  
قِيلَ: أَلْحِكْمَةُ فِي هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِيَرَى النَّاسُ صَنِيعَهُمْ  
وَيَتَأَمَّلُوا، فَإِذَا فَرَعُوا مِنْ بَهْرَجِهِمْ وَمَحَالِهِمْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ  
الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ بَعْدَ التَّطَلُّبِ لَهُ وَالْإِنْتِظَارِ مِنْهُمْ لِمَجِيئِهِ،  
فَيَكُونُ أَوْقَعُ فِي الثُّقُوسِ، وَكَذَا كَانَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

## [غَلَبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحَرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي ذَلِكَ الْمُوقِفِ الْعَظِيمِ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِأَمْرِهِ بِأَنْ يُلْقَى مَا فِي يَمِينِهِ وَهِيَ عَصَاهُ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أَي تَأْكُلُ ﴿مَا يَأْكُونُ﴾ أَي مَا يُلْقَوْنَهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ وَهُوَ بَاطِلٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَجَعَلَتْ لَا تَمُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ جِبَالِهِمْ وَلَا مِنْ خَشَبِهِمْ إِلَّا اتَّقَمَّتْهُ فَعَرَفَتْ السَّحَرَةَ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ هَذَا بِسِحْرِ فَحَرُّوا سَجْدًا وَقَالُوا: ﴿أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: جَعَلَتْ [تَبْتَلِعُ] تِلْكَ الْجِبَالَ وَالْعِصْيَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، حَتَّى مَا يَرَى بِالْوَادِي قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ مِمَّا أَلْقَوْا، ثُمَّ أَخَذَهَا مُوسَى فَإِذَا هِيَ عَصَا فِي يَدِهِ كَمَا كَانَتْ، وَوَقَعَ السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا: أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ لَوْ كَانَ هَذَا سَاحِرًا مَا غَلَبَنَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَرَّةَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ فَاعْرِ فَا هُ تَبْتَلِعُ جِبَالَهُمْ وَعِصْيَهُمْ فَأَلْقَى السَّحَرَةَ عِنْدَ ذَلِكَ سَجْدًا، فَمَا رَعَوْا رُؤُوسَهُمْ حَتَّى رَأَوْا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَتَوَابَ أَهْلُهُمَا<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَايَتُهُمْ بِهٖ قَبْلَ اَنْ ءَاذَنْ لَكُمْ اِنْ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُمُ فِي الْمَدِيْنَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا اَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ﴾ لَأُطْعَمَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا نَفْعُ مِنَّا إِلَّا آتَ ءَامِنًا يَتَايَتِ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنا مُسْلِمِينَ ﴿١٦﴾

## [تَهْدِيدُ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَجَوَابُهُمْ لَهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا أَظْهَرَهُ لِلنَّاسِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا﴾ أَي إِنَّ غَلَبَتَهُ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا، إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَسَاوُرٍ مِنْكُمْ وَرِضًا مِنْكُمْ لِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿إِنَّهُمْ لَكَاِبِرٌ لَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩، ٥٠] وَهُوَ يَعْلَمُ وَكُلُّ مَنْ لَهُ لُبٌّ أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطِلِ الْبَاطِلِ، فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُجَرَّدِ مَا جَاءَ مِنْ مَدِينٍ دَعَا فِرْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ، وَأَظْهَرَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةَ وَالْحُجَجَ الْقَاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي مَدَائِنِ مُلْكِهِ وَمَعَامِلَةِ سُلْطَنِيَّتِهِ فَجَمَعَ سَحَرَةً مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بِلَادٍ مُضَرٍّ، مِنْ خِيتَارٍ هُوَ وَالْمَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ

وَأَحْصَرَهُمْ عِنْدَهُ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ، وَلِهَذَا قَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الظُّهُورِ فِي مَقَامِهِمْ ذَلِكَ وَالتَّقَدُّمُ عِنْدَ فِرْعَوْنَ. وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَلَا رَأَى وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ، وَفِرْعَوْنُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسْتَرْيًا وَتَذَلُّيسًا عَلَى رَعَاعِ دَوْلَتِهِ وَجَهْلَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] فَإِنَّ قَوْمًا صَدَّقُوهُ فِي قَوْلِهِ ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] مِنْ أَجْهَلِ خَلْقِ اللَّهِ وَأَصْلَهُمْ.

وَقَالَ الشَّدِيدُ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادِهِ الْمَشْهُورِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قَالَ: اِلْتَقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمِيرُ السَّحَرَةِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَرَأَيْتَكَ إِنْ غَلَبْتُكَ أَتُؤْمِنُ بِي وَتُسَهِّدُ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ حَقٌّ؟ قَالَ السَّاحِرُ: لَا تَيَنَّ عَدَا بِسِحْرِ لَا يُغْلِبُهُ سِحْرٌ، فَوَاللَّهِ! لَئِنْ غَلَبْتَنِي لِأَوْمِنَنَّ بِكَ، وَلَا سَهْدَنَّا أَنَّكَ حَقٌّ، وَفِرْعَوْنُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا. قَالُوا: فَلِهَذَا قَالَ مَا قَالَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا﴾<sup>(٣)</sup> أَي تَخْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَهُوَ، وَتَكُونُ لَكُمْ دَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ، وَتُخْرِجُوا مِنْهَا الْأَكَابِرَ وَالرُّؤُسَاءَ، وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ وَالتَّصَرُّفُ لَكُمْ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَي مَا أَصْنَعُ بِكُمْ، ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ يَعْنِي يَقْطَعُ يَدَ الرَّجُلِ الْيُمْنَى وَرِجْلَهُ الْبُسْرَى أَوْ بِالْعَكْسِ ﴿ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أَي عَلَى الْجُذُوعِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَلَبَ وَأَوَّلَ مَنْ قَطَعَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلَ مِنْ خِلَافٍ فِرْعَوْنُ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُ السَّحَرَةِ ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أَي قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَعَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ، وَنَكَالُهُ - عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ - أَعْظَمُ مِنْ نَكَالِكَ، فَلَنَصْبِرَنَّ الْيَوْمَ عَلَى عَذَابِكَ لِتَخْلَصَ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَي عُمَّا بِالْصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ ﴿وَتَوَقَّنا مُسْلِمِينَ﴾ أَي مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّا ءَامِنَا بِرَبِّنَا لِيُنْفِرَ لَنَا خَطْبَيْنَا

(١) الطبري: ٣٠/١٣ (٢) الطبري: ٣٠/١٣ (٣) الطبري:

٣٣/١٣ (٤) الطبري: ٣٤/١٣

سورة الأعراف

١٦٦

سورة الأعراف

فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيُتَسَحَّرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۚ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ۖ يَمَاعِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسَلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلُغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا ۚ الَّذِينَ بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ ۚ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

وَالْعِيقَةُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدٍ مَا جِئْتَنَا ۚ أَيُّ قَدْ فَعَلُوا بِنَا مِثْلَ مَا رَأَيْتَ مِنَ الْهَوَانِ وَإِلَّا ذُلَالٍ مِنْ قَبْلِ مَا جِئْتَ يَا مُوسَى وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَقَالَ مُنْبَهَا لَهُمْ عَلَىٰ حَالِهِمُ الْحَاضِرِ وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي ثَانِي الْحَالِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾... الآية، وَهَذَا تَحْضِيضٌ لَهُمْ عَلَى الْعَزْمِ عَلَى الشُّكْرِ عِنْدَ حُلُولِ النِّعَمِ وَرَوَالِ النِّعَمِ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيِّئِ وَنَقِصٍ مِنَ التَّحَارِبِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ۚ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٠﴾

[إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيِّئِ﴾ أَيُّ اخْتَبَرْنَا هُمْ وَامْتَحَنَّا هُمْ وَابْتَلَيْنَاهُمْ ﴿بِالسَّيِّئِ﴾ وَهِيَ [سِنِي] الْجُوعِ

وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي ﴿١٣٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا ۖ فَإِنْ لَمْ يَجْهَتُمْ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٤٠﴾ وَمَنْ يَأْتِيَهُ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ قَالُوا لَيْكَ لَمْ يَلِدْ وَلَكِنْ أَنْتَ الْكَافِرُ الْغَلِيٌّ ﴿طه: ٧٢-٧٥﴾ فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً، فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَّةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: كَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً وَفِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ <sup>(١)</sup>.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذْكُرُوا وَلِئَلَّاهُتْ قَالَ سَنَقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿١٤١﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ۚ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٢﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤٣﴾

[تَحْرِيزُ الْقَوْمِ وَاسْتِعْدَادُ فِرْعَوْنَ لِقَتْلِ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَشُكُوكُ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَى مُوسَى وَوَعْدُهُ بِنَصْرِ اللَّهِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَأَهُ وَمَا أَضْمَرُوهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْبَغْضَةِ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: أَيُّ لِفِرْعَوْنَ: أَتَنْدَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ أَيُّ أَتَدْعُهُمْ ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ لِيُفْسِدُوا أَهْلَ رِعْيَتِكَ، وَيَذْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ؟ يَا لِلَّهِ الْعَجَبُ! صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَادِ مُوسَى وَقَوْمِهِ - أَلَا إِنْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ - وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَيَذْكُرُوا وَلِئَلَّاهُتْ﴾. وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذْكُرُوا وَلِئَلَّاهُتْ﴾ وَاللَّهُ - فِيمَا زَعَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ - كَانَتْ الْبَقَرُ كَانُوا إِذَا رَأَوْا بَقَرَةً حَسَنَةً أَمَرَهُمْ فِرْعَوْنُ أَنْ يَعْبُدُوهَا، فَلِذَلِكَ أَخْرَجَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ <sup>(٢)</sup>.

فَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْنُ فِيمَا سَأَلُوهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَنَقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ بِهَذَا الصَّنِيعِ، وَقَدْ كَانَ نَكَلٌ بِهِمْ قَبْلَ وَلَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَذَرًا مِنْ وُجُودِهِ، فَكَانَ خِلَافَ مَا رَأَاهُ وَضَدًا مَا قَصَدَهُ فِرْعَوْنُ. وَهَكَذَا غُوِمِلَ فِي صَنِيعِهِ أَيْضًا لَمَّا أَرَادَ إِذْلالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَقَهْرَهُمْ فَجَاءَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا أَرَادَ: أَعَزَّهُمُ اللَّهُ وَأَذَلَّهُ، وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ وَأَعْرَفَهُ وَجُنُودَهُ. وَلَمَّا صَمَّمِ فِرْعَوْنُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ مِنْ الْمُسَاوَةِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ وَوَعَدَهُمُ بِالْعَاقِبَةِ وَأَنَّ الدَّارَ سَتَصِيرُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

عَبَّاسٍ: هُوَ الشُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحِنْطَةِ<sup>(٨)</sup>. وَعَنْهُ أَنَّهُ الدَّبِيُّ - وَهُوَ الْجَرَادُ الصَّغِيرُ الَّذِي لَا أَجْنَحَةَ لَهُ<sup>(٩)</sup>. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ. وَعَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: الْقُمَّلُ: دَوَابُّ شَوْدٌ صَغَارٌ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: لَمَّا أَتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْنَ قَالَ لَهُ: أُرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يُرْسِلْهُمْ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ، وَهُوَ الْمَطَرُ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مِنْهُ شَيْئًا خَافُوا أَنْ يَكُونَ عَذَابًا فَقَالُوا لِمُوسَى: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفْ عَنَّا الْمَطَرَ، فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَلْبَسَتْ لَهُمْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ شَيْئًا لَمْ يُنْبِئْهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ وَالْكَلَالِ، فَقَالُوا: هَذَا مَا كُنَّا نَتَمَنَّى! فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ فَسَلَطَهُ عَلَى الْكَلَالِ، فَلَمَّا رَأَوْا أَثَرَهُ فِي الْكَلَالِ عَرَفُوا أَنَّهُ لَا يُبْقِي الزَّرْعَ، فَقَالُوا: يَا مُوسَى! ادْعُ لَنَا رَبَّكَ فَيَكْشِفْ عَنَّا الْجَرَادَ فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ الْجَرَادَ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَدَاسُوا وَأَحْرَقُوا فِي النَّبُوتِ. فَقَالُوا: قَدْ أَحْرَقْنَا فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ وَهُوَ الشُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ، فَكَانَ الرَّجُلُ يُخْرِجُ عَشْرَةَ أَجْرَبَةٍ إِلَى الرَّحَى فَلَا يَرُدُّ مِنْهَا إِلَّا ثَلَاثَةً أَفْزَرَهُ. فَقَالُوا: يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفْ عَنَّا الْقُمَّلَ فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَ فِرْعَوْنَ إِذْ سَمِعَ نَقِيقَ ضِفْدَعٍ فَقَالَ لِفِرْعَوْنَ: مَا تَلْقَى أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ كَيْدٌ هَذَا؟ فَمَا أَمْسُوا حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ يَجْلِسُ إِلَى دَفْنِهِ فِي الضَّفَادِعِ وَبِهِمْ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيَتَّبِ الضَّفْدَعُ فِي فِيهِ، فَقَالُوا لِمُوسَى: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفْ عَنَّا هَذِهِ الضَّفَادِعَ فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ فَكَانُوا مَا اسْتَقَوْا مِنَ الْأَنْهَارِ وَالْأَبَارِ وَمَا كَانَ فِي أَوْعِيَّتِهِمْ

بِسَبَبِ قِلَّةِ الزُّرُوعِ ﴿وَنَقِصَ مِنَ الشَّجَرِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهُوَ دُونَ ذَلِكَ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ: كَانَتِ التَّخْلَةُ لَا تَحْمِلُ إِلَّا ثَمَرَةً وَاحِدَةً<sup>(١٢)</sup>. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ أَتَى مِنَ الْخُسْبِ وَالرِّزْقِ ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أَيْ هَذَا لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّهُ ﴿وَلِنْ نَصْنَعَهُ سَيِّئَةً﴾ أَيْ جَذَبَ وَقَحَطَ ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أَيْ هَذَا بِسَبَبِهِمْ وَمَا جَاءُوا بِهِ ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَقُولُ: مَصَابِيَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١٤)</sup>.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١٥)</sup> فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ<sup>(١٦)</sup> وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَنْ كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ<sup>(١٧)</sup> فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُورُونَ<sup>(١٨)</sup>

[تَمَرَّدُ قَوْمُ فِرْعَوْنَ وَعِقَابُ اللَّهِ لَهُمْ بِآيَاتٍ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ تَمَرُّدِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ، وَإِضْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ فِي قَوْلِهِمْ ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُونَ: أَيُّ آيَةٍ جِئْتَنَا بِهَا وَدَلَالَةٍ وَحُجَّةٍ أَقَمْتَهَا رَدَدْنَاهَا فَلَا نَقْبَلُهَا مِنْكَ، وَلَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَ بِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رَوَايَةٍ: كَثُرَ الْأَمْطَارُ الْمُغْرِقَةُ الْمُثْلِفَةُ لِلزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ. وَعَنْهُ فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى: هُوَ كَثْرَةُ الْمَوْتِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الطُّوفَانُ: الْمَاءُ وَالطَّاعُونُ عَلَى كُلِّ حَالٍ<sup>(١٩)</sup>.

وَأَمَّا الْجَرَادُ فَمَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ، وَهُوَ مَأْكُولٌ، لِمَا تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي يَعْفُورَ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى عَنِ الْجَرَادِ، فَقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ نَأْكُلُ الْجَرَادَ<sup>(٢٠)</sup>. وَرَوَى الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ وَابْنُ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عُمرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَجِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: الْحُوثُ وَالْجَرَادُ، وَالْكَبِيدُ وَالطُّحَالُ»<sup>(٢١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ قَالَ: كَانَتْ تَأْكُلُ مَسَامِيرَ أَبْوَابِهِمْ وَتَدْعُ الْخَشَبَ<sup>(٢٢)</sup>. وَأَمَّا الْقُمَّلُ فَعَنِ ابْنِ

(١) الطبري: ٤٦/١٣ (٢) الطبري: ٤٦/١٣ (٣) الطبري: ٤٨/١٣ (٤) الطبري: ٥٠/١٣ (٥) فتح الباري: ٥٣٥/٩ ومسلم: ١٥٤٦/٣ (٦) مسند الشافعي: ١٧٣/٢ وأحمد: ٩٧ وابن ماجه: ١٠٧٣/٢ (٧) الطبري: ٦٨/١٣ (٨) الطبري: ٥٤/١٣ (٩) الطبري: ٥٤/١٣ (١٠) الطبري: ١٣/٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦٧

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَجَوزْنَا بِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْمُقُونَ عَلَى  
 أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ  
 قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُواهُمْ فِيهِ وَيَطُلُّ  
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا  
 وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَخْبَرْنَاكُمْ  
 مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْنِلُونَ  
 أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ  
 رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ \* وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً  
 وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتَ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ  
 مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْ فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ  
 سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ  
 رَبُّهُ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ  
 إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَخَلَّى  
 رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ  
 قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

عَنْهَا عَصَائِبُ ﴿١٣٨﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ  
 الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَكَمَتِ كُلُّ رِجْلٍ أَخْبَتِي  
 عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْغَعُ فِرْعَوْنُ  
 وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٩﴾

[إِغْرَاقُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْيَمِّ وَتَوْرِيثُ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
 الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوْا وَتَمَرَّدُوا مَعَ ابْنِ لَآئِهِ إِثَاهُمْ  
 بِالْآيَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ - وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ - ائْتَمَّ مِنْهُمْ  
 بِإِغْرَاقِهِ إِثَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَقَهُ لِمُوسَى،  
 فَجَاوَزَهُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعَهُ، ثُمَّ وَرَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ عَلَى  
 إِثْرِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَكْمَلُوا فِيهِ ائْتَمَّ عَلَيْهِمْ فَعَرَفُوا عَنْ  
 آخِرِهِمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَعَاظُلِهِمْ عَنْهَا،  
 وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْرَثَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ،  
 وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا.

وَجَدُوهُ دَمَا عَيْطًا، فَسَكَّوْا إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ ابْتُلِينَا  
 بِالْدَّمَ وَلَيْسَ لَنَا شَرَابٌ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ سَحَرَكُمُ! فَقَالُوا: مِنْ  
 أَيْنَ سَحَرْنَا وَنَحْنُ لَا نَجِدُ فِي أَوْعِيَّتِنَا شَيْئًا مِنَ الْمَاءِ إِلَّا  
 وَجَدْنَاهُ دَمَا عَيْطًا! فَأَتَوْهُ وَقَالُوا: يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ  
 يَكْشِفْ عَنَّا هَذَا الدَّمَ، فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبُّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يُرْسِلُوا  
 مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَدْ رَوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
 وَالسُّدِّيِّ وَتَفَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ: أَنَّهُ أَخْبَرَ  
 بِذَلِكَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَرَجَعَ عَدُوُّ  
 اللَّهِ فِرْعَوْنُ حِينَ آمَنَتِ السَّحَرَةُ مَغْلُوبًا مَغْلُولًا، ثُمَّ أَتَى إِلَّا  
 الْإِقَامَةَ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّمَادِي فِي الشَّرِّ فَتَابَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ  
 الْآيَاتِ فَأَخَذَهُ بِالسِّنِينَ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الطُّوفَانَ، ثُمَّ الْجَرَادَ،  
 ثُمَّ الْقُمَّلَ، ثُمَّ الضَّفَادِعَ، ثُمَّ الدَّمَ، آيَاتٍ مُفْصَّلَاتٍ،  
 فَأَرْسَلَ الطُّوفَانَ وَهُوَ الْمَاءُ فَقَاضَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، ثُمَّ  
 رَكَدَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَخْرُتُوا وَلَا أَنْ يَعْمَلُوا شَيْئًا حَتَّى  
 جَهَدُوا جُوعًا، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلِكَ ﴿قَالُوا يَمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ  
 يَمَا عَهْدَ عِنْدِكَ لِنَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الْجَحْرَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ  
 مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فَدَعَا مُوسَى رَبُّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ  
 يَقُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ فَأَكَلَ  
 الشَّجَرَ فِيمَا بَلَغْنِي، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيَأْكُلُ مَسَامِيرَ الْأَبْوَابِ  
 مِنَ الْحَدِيدِ حَتَّى تَقَعَ دُورُهُمْ وَمَسَاكِينُهُمْ فَقَالُوا مِثْلَ مَا  
 قَالُوا. فَدَعَا رَبُّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَقُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا.  
 فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ فَذَكَرَ لِي أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
 أَمَرَ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى كِتَابٍ حَتَّى يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ فَمَسَى إِلَى  
 كِتَابٍ أَهِيلَ عَظِيمٍ فَضْرَبَهُ بِهَا، فَانْثَالَ عَلَيْهِمْ قُمَّلًا حَتَّى  
 غَلَبَ عَلَى النَّبِيِّاتِ وَالْأَطْعِمَةِ، وَمَنْعَهُمُ النَّوْمَ وَالْقَرَارَ، فَلَمَّا  
 جَهَدَهُمْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالُوا. فَدَعَا رَبُّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ  
 يَقُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ فَمَلَأَتْ  
 النَّبِيِّاتِ وَالْأَطْعِمَةَ وَالْآيَةَ، فَلَا يَكْشِفُ أَحَدٌ ثُوبًا وَلَا طَعَامًا  
 إِلَّا وَجَدَ فِيهِ الضَّفَادِعَ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَهَدَهُمْ ذَلِكَ  
 قَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالُوا فَسَأَلَ رَبُّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَقُوا لَهُ  
 بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ فَصَارَتْ مِيَاهُ آلِ  
 فِرْعَوْنَ دَمًا لَا يَسْتَقُونَ مِنْ بَرٍّ وَلَا نَهْرٍ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ مِنْ  
 إِنَاءٍ إِلَّا عَادَ دَمَا عَيْطًا <sup>(١)</sup>.

﴿فَانْقَمَتَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَأْتُهُمْ كَذْبُؤُنَا بِمَا كَانُوا

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبُصْرِيِّ وَقَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَشْرُوفَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا أَلَىٰ بَرْكِنَا فِيهَا﴾ يَغْنِي الشَّامَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْقَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جَرِيرٍ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وَتَمَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فَرَعَوْنَ وَهَمَدَنَ وَخَوَدَهْمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ [القصص: ٥، ٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَدَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فَرَعَوْنَ وَقَوْمُهُ﴾ أَيْ وَخَرَّبْنَا مَا كَانَ فَرَعَوْنَ وَقَوْمُهُ يَصْنَعُونَهُ مِنَ الْعِمَارَاتِ وَالْمَزَارِعِ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ يَبْنُونَ<sup>(١)</sup>.

﴿وَجَوَدْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَاوْا عَلَىٰ قَوَرٍ يَعْكِفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٢)</sup>.

[مُجَاوَزَةُ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ وَمُرُورُهُمْ بِمَعْبُودٍ مُجَسَّمٍ] يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا قَالَهُ جَهْلُهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ جَاوَزُوا الْبَحْرَ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ مَا رَأَوْا ﴿فَأَتَاوْا﴾ أَيْ فَمَرُّوا ﴿عَلَىٰ قَوَرٍ يَعْكِفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾.

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ كَانُوا مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ. وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ لَحْمٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانُوا يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا عَلَىٰ صُورِ الْبَقَرِ فَلِهَذَا أُنَارَ ذَلِكَ شُبْهَةً لَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ الْعِجْلَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالُوا: ﴿يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> أَيْ تَجْهَلُونَ عَظَمَةَ اللَّهِ وَجَلَالَهُ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يَنْزَهُ عَنْهُ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْمِثِيلِ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ﴾ أَيْ هَالِكٌ ﴿وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ: أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ حُثَيْنَ، قَالَ: وَكَانَ لِلْكَفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكِفُونَ عِنْدَهَا، وَيَعْلَمُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ - قَالَ: - فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةِ خَضِرَاءَ عَظِيمَةٍ قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ: «فَلْتَمَّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَىٰ لِمُوسَىٰ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ<sup>(٤)</sup> إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَنَظِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٥)</sup>».

﴿قَالَ أَعْبَدِ اللَّهَ أَنبِئَكُمْ إِلَهَهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وَإِذْ أُنْجِيتُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ<sup>(٦)</sup>.

[تَذَكُّيرُ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِنِعَمِ اللَّهِ] يَذْكُرُهُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِنْقَادِهِمْ مِنْ أَشْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْهُوَانِ، وَالذَّلَّةِ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالِاشْتِفَاءِ مِنْ عُدُوِّهِمْ، وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي حَالِ هَوَانِهِ وَهَلَاكِهِ وَغَرْقِهِ، وَدَمَارِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي الْبَقَرَةِ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

﴿وَوَدَّعْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَتَ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾<sup>(٧)</sup>.

[صَامَ مُوسَىٰ وَانْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً] يَقُولُ تَعَالَىٰ مُمْتَنًا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ بِتَكْلِيمِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَةَ، وَفِيهَا أَحْكَامُهُمْ وَتَفَاصِيلُ شُرْعِهِمْ. فَذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ وَاعَدَ مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: فَصَامَهَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطَوَّأَهَا، فَلَمَّا تَمَّ الْوَيْقَاتِ إِسْنَاكَ بِلِحَاءِ شَجَرَةٍ فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَكْمُلَ بِعَشْرِ: أَرْبَعِينَ، فَلَمَّا تَمَّ الْوَيْقَاتِ وَعَزَمَ مُوسَىٰ عَلَى اللَّهِ هَبَ إِلَى الطُّورِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ فَذَ أَجْنَحُكَ مِنْ عُدُوكَ وَوَعَدْتُكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ... الْآيَةَ، فَحِينَئِذٍ اسْتَخْلَفَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ وَوَصَّاهُ بِالْإِصْلَاحِ وَعَدَمِ الْإِفْسَادِ، وَهَذَا تَنْبِيهُ وَتَذَكُّيرٌ، وَإِلَّا فَهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ شَرِيفٌ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَلَالَةٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا جَعَلَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٨)</sup>.

[طَلَبُ مُوسَىٰ رُؤْيَا رَبِّهِ] يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ

(١) الطبري: ٧٨/١٣، ٧٩ (٢) الطبري: ٨٠/١٣ (٣)

الطبري: ٨٢/١٣



سورة الأعراف

١٦٨

سورة الأعراف

قَالَ يَمْؤُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلْمِي  
فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا  
لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ  
شَيْءٍ فَاخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ  
دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ  
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا  
بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا  
سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ  
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ  
عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمِيزُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ  
سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ  
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا  
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

غَضَبُهُ فَلَطَمْتُهُ فَقَالَ: «لَا تُخَيِّرُونِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ  
النَّاسَ يَضَعِفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفْبِقُ، فَإِذَا أَنَا  
بِمُوسَىٰ أُخِذَ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ  
قُبُلِي أَمْ جُوزِي بِصَفْعَةِ الطُّورِ؟»<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي  
أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ صَحِيحِهِ وَمُسْلِمٌ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ،  
وَأَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ مِنْ سُنَنِهِ<sup>(٧)</sup>. وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي  
هُرَيْرَةَ فَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانُ بِنَحْوِهِ<sup>(٨)</sup>.

﴿قَالَ يَمْؤُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلْمِي فَخُذْ مَا  
آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾<sup>(١٤٤)</sup> وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ  
كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ

لِمِيقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَصَلَ لَهُ التَّكْلِيمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى  
سَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ  
إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾ حَرْفُ «لَنْ» هُنَا عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي  
الدُّنْيَا. لِأَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّ  
الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَمَا سُورُذَهَا عِنْدَ قَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يُّؤْمَرُ تَاضِرَةٌ ﴿١٤٥﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [عبس]:  
[٢٣، ٢٢].

وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ: «يَا مُوسَىٰ! إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَتَّىٰ إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَأْسُرُ  
إِلَّا تَذَهَّدَهُ»<sup>(١)</sup> وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلُهُ  
دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ  
النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَمَّا تَخَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قَالَ: قَالَ  
«هَكَذَا» يَعْنِي أَنَّهُ أَخْرَجَ طَرَفَ الْخِنْصِرِ<sup>(٢)</sup>.

وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا  
حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي  
مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ طَرَفٍ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ. وَقَالَ: هَذَا  
حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ  
السُّدِّيُّ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:  
﴿فَلَمَّا تَخَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قَالَ: مَا تَخَلَّىٰ مِنْهُ إِلَّا قَدَرَ  
الْخِنْصِرِ ﴿جَمَعَهُ دَكًّا﴾ قَالَ: تَرَابًا، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾  
قَالَ: مَغْشِيًا عَلَيْهِ<sup>(٥)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. كَمَا أَنَّ هُنَا قَرِينَةٌ  
تَدُلُّ عَلَى الْغَشْيِ. وَهِيَ قَوْلُهُ ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ وَالْإِفَاقَةُ لَا تَكُونُ  
إِلَّا عَنْ غَشْيٍ ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ تَنَزُّبُهَا وَتَعْظِيمُهَا وَإِجْلَالُهَا أَنَّ  
يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ. وَقَوْلُهُ ﴿ثُبَّتْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ  
مُجَاهِدٌ: أَنْ أَسْأَلَكَ الرُّؤْيَةَ، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.  
وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَىٰ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنَّهُ  
لَا يَرَاكَ أَحَدٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فِيهِ أَبُو سَعِيدٍ  
وَأَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: فَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ فَأَسَنَدُهُ  
الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ هُنَا، عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ  
الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ لَطِمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ  
رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ لَطَمَ وَجْهِي، قَالَ:  
«إِذْعَوْهُ» فَدَعَوْهُ. قَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ  
اللَّهِ! إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِيِّ فَمَسِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ  
مُوسَىٰ عَلَى الْبَشَرِ قَالَ: قُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ؟ وَأَخَذْتَنِي

(١) البداية والنهاية: ١١٢/٣ (٢) أحمد: ١٢٥/٣ (٣) تحفة  
الأحوذى: ٤٥١/٨ (٤) الحاكم: ٣٢٠/٢ (٥) الطبري: ١٣/  
٩٧ (٦) فتح الباري: ١٥٢/٨ (٧) البخاري: ٢٤١٢، ٣٣٩٨،  
٤٦٣٨، ٦٩١٧، ٧٤٢٧، ٦٥١٨ ومسلم: ٢٣٧٤ وأبو داود:  
٤٦٦٨ (٨) أحمد: ٢٦٤/٢ وفتح الباري: ٤٥٥/١٣ ومسلم:  
١٨٤٤/٤

قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

[اضطفأء موسى وإعطأؤه الألواح]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَاطَبَ مُوسَى بِأَنَّهُ اضْطَفَأَهُ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ بِرِسَالَاتِهِ تَعَالَى وَبِكَلَامِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَلِهَذَا اخْتَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ جَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِي تَسْتَمِرُّ شَرِيعَتُهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَأَتْبَاعُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ﴾ أَيْ مِنَ الْكَلَامِ وَالْمُنَاجَاةِ ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَيْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تَطْلُبْ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ، قِيلَ: كَانَتْ الْأَلْوَحُ مِنْ جَوْهَرٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ وَأَحْكَامًا مُفَصَّلَةً مُبَيَّنَةً لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَحُ مُشْتَمِلَةً عَلَى التَّوْرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [الفصص: ٤٣] وَقِيلَ: الْأَلْوَحُ أَعْطَاهَا مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أَيْ بِعَزْمٍ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعْدٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَأْخُذَ بِأَشَدِّ مَا أَمَرَ قَوْمُهُ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيْ سَتَرُونَ عَاقِبَةَ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي، كَيْفَ يَصِيرُ إِلَى الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ وَالنَّجَابِ؟.

﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِيَّتِي الَّذِينَ يَكْتُمُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً بِآيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٦﴾

[يُحْرَمُ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِيَّتِي الَّذِينَ يَكْتُمُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَيْ سَأَمْنَعُ فَهَمَّ الْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَيْ كَمَا اسْتَكْبَرُوا

بِغَيْرِ حَقٍّ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ بِالْجَهْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَصْدِرُهُمْ كَمَا لَوْ يَوْمُنَا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِيَّتِي الَّذِينَ يَكْتُمُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قَالَ: أَنْزِعْ عَنْهُمْ فَهَمَّ الْقُرْآنِ وَأَصْرِفْهُمْ عَنْ آيَاتِي<sup>(٢)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخُطَابَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ<sup>(٣)</sup>.

(قُلْتُ) لَيْسَ هَذَا بِالْأَزْمِ لِأَنَّ ابْنَ عُيَيْنَةَ إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ هَذَا مُطَرَّدٌ فِي حَقِّ كُلِّ أُمَّةٍ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ وَآخَرٍ فِي هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً بِآيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أَيْ وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ سَبِيلُ الرُّشْدِ أَيْ طَرِيقُ النِّجَاةِ لَا يَسْلُكُوهَا، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ طَرِيقُ الْهَلَاكِ وَالضَّلَالِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ثُمَّ عَلَّلَ مَصِيرَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُونَ [شَيْئًا مِمَّا] فِيهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ﴾ أَيْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا نُجَازِيهِمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ وَكَمَا تَدِينُ لِدُنَّ.

﴿وَأَتَّخِذُ قَوْمَ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلِيلِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٧﴾

[قِسْصَةُ عِبَادَةِ الْعِجَلِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ الَّذِي اتَّخَذَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ، مِنْ حُلِيِّ الْقَبِيطِ

(١) الطبري: ١١٠/١٣ إسناده ضعيف فيه أبو سعد هو البقال سعيد بن مرزبان الكوفي الأعور ضعيف مدلس [تقريب] قال البخاري منكر الحديث قال ابن عدي هو في جملة الضعفاء [التاريخ الكبير ٥١٥/٢ الكامل في ضعفاء الرجال ٢٨٣/٢].

(٢) الطبري: ١١٢/١٣ (٣) الطبري: ١١٣/١٣

الْأَعْرَافِ

١٦٩

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضِبَ عَلَيْهِمْ أَقْبَالَ بِسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَّا لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا بِرَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَآخَرُ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِيُقَدِّمْنَا أَقْلَمًا أَخَذْتَهُمُ الرِّجْعَةَ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَاسْتَأْذِنْتُكَ لَمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنْ إِنْ هِيَ إِلَّا فَنَنُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

أَلْقَى الْأَلْوَحَ غَضَبًا عَلَى قَوْمِهِ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلْفًا. وَقَوْلُهُ: «وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ» خَوْفًا أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَرَ فِي نَهْيِهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «قَالَ يَهْرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا» ﴿١٥٢﴾ أَلَا تَتَّبِعْتِ أَفْعَصْتِ أَمْرِي ﴿١٥٣﴾ قَالَ يَنْبَغُ لَا تَأْخُذْ بِلِجَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» ﴿طه: ٩٢-٩٤﴾ وَقَالَ هُنَا: «ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» ﴿١٥٠﴾ أَيْ لَا تَسْتَفْهِمِ مَسَافَهُمْ وَلَا تَخْلِطْنِي مَعَهُمْ وَإِنَّمَا قَالَ: ابْنَ أُمِّ لِيَكُونَ أَرْقَ وَأَنْجَعَ عِنْدَهُ وَإِلَّا فَهُوَ شَقِيقُهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ فَلَمَّا تَحَقَّقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَرَاءَةَ سَاحَةِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقُولُ إِنَّمَا فَتَنَّاهُ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي» ﴿طه: ٩٠﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ «قَالَ» مُوسَى «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

الَّذِي كَانُوا اسْتَعَارَوْهُ مِنْهُمْ فَشَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا، ثُمَّ أَلْقَى فِيهِ الْقَبْضَةَ مِنَ الثَّرَابِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ - وَالْخَوَارُ: صَوْتُ الْبَقْرِ - وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِيَمِيقَاتِ رَبِّهِ تَعَالَى، فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّورِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الشَّامِرِيُّ» ﴿طه: ٨٥﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْعِجْلِ هَلْ صَارَ لَحْمًا وَدَمًا لَهُ خَوَارٌ، أَوْ اسْتَمَرَّ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ ذَهَبٍ إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيَصَوْتُ كَالْبَقْرِ عَلَى قَوْلَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمَّا صَوَّتَ لَهُمُ الْعِجْلُ رَفَعُوا حَوْلَهُ وَافْتَتَنُوا بِهِ وَقَالُوا: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَسَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا بَرَجًا لِأَيْمِهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًْا وَلَا نَفْعًا» ﴿طه: ٨٩﴾ وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» يُكَبِّرُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ بِالْعِجْلِ وَدُهُولِهِمْ عَنْ خَالِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ أَنْ عَبَدُوا مَعَهُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ، لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى خَيْرٍ، وَلَكِنْ غُطِّيَ عَلَى أَعْيُنٍ بَصَائِرُهُمْ عَمَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ وَقَوْلُهُ: «وَلَمَّا سَقَطَ وَتَ أَيْدِيهِمْ» أَيْ نَدَمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا «وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا» وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: «لَيْنَ لَمْ تَرْحَمْنَا» بِالتَّاءِ الْمُتَتَابِعَةِ مِنْ فَوْقِ (رَبَّنَا) مُتَادِي (وَتَغْفِرْ لَنَا) «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أَيْ مِنَ الْهَالِكِينَ، وَهَذَا إِعْزَافٌ مِنْهُمْ بِذَنبِهِمْ، وَالنِّجَاحُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضِبَ عَلَيْهِمْ أَقْبَالَ بِسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَعَالَى وَهُوَ غَضَبَانُ أَسِيفٌ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: الْأَسِيفُ: أَشَدُّ الْغَضَبِ. «قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي» يَقُولُ: بِسْمَا مَا صَنَعْتُمْ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ وَتَرَكْتُمْكُمْ، وَقَوْلُهُ: «أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ» يَقُولُ: اسْتَعْجَلْتُمْ مَجِيئِي إِلَيْكُمْ وَهُوَ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ «وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ» وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَانِيَةِ» <sup>(١)</sup> ثُمَّ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّهُ إِنَّمَا

وَعَضَبَا لَهُ ﴿وَفِي شُحْنَهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾<sup>(١)</sup>  
يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفْسِرِينَ: إِنَّهَا لَمَّا أَلْقَاهَا تَكَسَّرَتْ ثُمَّ جَمَعَهَا  
بَعْدَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: فَوَجَدَ فِيهَا هُدًى  
وَرَحْمَةً. وَأَمَّا التَّفْصِيلُ: فَذَهَبَ. وَزَعَمُوا أَنَّ رُضَاصَهَا لَمْ يَزَلْ  
مَوْجُودًا فِي خَزَائِنِ الْمُلُوكِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ هَذَا. وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّهَا تَكَسَّرَتْ  
حِينَ أَلْقَاهَا، وَهِيَ مِنْ جَوَاهِرِ الْجَنَّةِ فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا  
أَخَذَهَا بَعْدَ مَا أَلْقَاهَا وَجَدَ فِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ  
يَرْهَبُونَ. صَمَّنَ الرُّهْبَةَ مَعْنَى الْخُضُوعِ، وَلِهَذَا عَدَّاهَا بِاللَّامِ.  
﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ  
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي أُمَّتِكُمْ بِمَا فَعَلَ السَّمْعَاءُ  
وَمَا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ  
وَلِنَا فَاعْفُ رَحْمَةً وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ ﴿١٥٠﴾﴾<sup>(٢)</sup> وَكَتَبْنَا لَنَا فِي  
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا أِلَيْكَ ﴿١٥١﴾<sup>(٣)</sup>  
[ذَهَابَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمِيقَاتِ رَبِّهِمْ،  
وَأَهْلَاكَهُمْ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ  
الْآيَةِ: كَانَ اللَّهُ أَمْرَهُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا  
فَاخْتَارَ سَبْعِينَ رَجُلًا، فَبَرَزَ بِهِمْ لِيَدْعُو رَبَّهُمْ وَكَانَ فِيهَا  
دَعْوَا اللَّهِ أَنْ قَالُوا: اللَّهُمَّ أَعْطِنَا مَا لَمْ تُعْطِهِ أَحَدًا قَبْلَنَا،  
وَلَا تُعْطِهِ أَحَدًا بَعْدَنَا، فَكَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ دَعَائِهِمْ فَأَخَذَهُمُ  
الرَّجْفَةُ، قَالَ مُوسَى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ  
وَائْتِي﴾<sup>(٤)</sup> الْآيَةِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَهُ  
فِي ثَلَاثِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ  
وَوَعَدَهُمْ مَوْعِدًا ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾<sup>(٦)</sup> عَلَى  
عَيْنَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمْ لِيَعْتَذِرُوا فَلَمَّا اتَّوَا ذَلِكَ الْمَكَانَ قَالُوا:  
﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ يَا مُوسَى ﴿حَتَّى رَى اللَّهُ جَهْرَةً﴾ فَإِنَّكَ قَدْ  
كَلَمْتَهُ فَأَرَانَاهُ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الضُّعُفَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] فَمَاتُوا،  
فَقَامَ مُوسَى يَبْكِي وَيَدْعُو اللَّهَ وَيَقُولُ: رَبِّ مَاذَا أَقُولُ لِبَنِي  
إِسْرَائِيلَ إِذَا لَقِيتُهُمْ وَقَدْ أَهْلَكْتَ خِيَارَهُمْ؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ  
أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي﴾<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:  
اخْتَارَ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَبْعِينَ رَجُلًا الْخَيْرَ فَالْخَيْرَ،

الرَّحِيمِ ﴿وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمَعَانِ كَالْمُخْبِرِ،  
أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ قَتَلُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يَلْقَ الْأَلْوَحَ، فَلَمَّا  
رَأَاهُمْ وَعَابَتْهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَحَ»<sup>(٨)</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾<sup>(٩)</sup> وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ  
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾<sup>(١٠)</sup>  
أَمَّا الْغَضَبُ الَّذِي نَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ  
فَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْ لَهُمْ تَوْبَةً حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُمْ  
بَعْضًا، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَقَتَلُوا إِلَى بَابِكُمْ فَأَقْلَعُوا  
أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَلَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْوَرَابُ  
الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] وَأَمَّا الذَّلَّةُ فَأَعْلَبَتْهُمْ ذَلِكَ ذُلًا وَصَغَارًا  
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾...  
نَائِلَةٌ لِكُلِّ مَنْ افْتَرَى بَدْعًا، فَإِنَّ ذُلَّ الْبِدْعَةِ وَمُخَالَفَةَ الرِّسَالَةِ  
مُتَّصِلَةٌ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى كَيْفِيهِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: إِنَّ  
ذُلَّ الْبِدْعَةِ عَلَى أَكْثَانِهِمْ وَإِنْ هَمَلَجَتْ بِهِمُ الْبَغْلَاتُ  
وَطَقَطَتْ بِهِمُ الْبِرَادِينُ. وَهَكَذَا رَوَى أَيُّوبُ السَّخِينِيُّ عَنْ  
أَبِي قِلَابَةَ الْجَرْمِيِّ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُفْتَرِينَ﴾ فَقَالَ: هِيَ وَاللَّهُ لِكُلِّ مُفْتَرٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(١١)</sup>.  
وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كُلُّ صَاحِبٍ بِدْعَةٍ ذَلِيلٌ<sup>(١٢)</sup>. ثُمَّ تَبَّهَ  
تَعَالَى عِبَادَهُ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عِبَادِهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ  
كَانَ حَتَّى وَلَوْ كَانَ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شِرْكٍ أَوْ يَفَاقٍ أَوْ شِقَاقٍ،  
وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الْفِصَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ  
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ التَّوْبَةِ  
وَنَبِيَّ الرَّحْمَةِ ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَيُّ مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْفِعْلَةِ ﴿لَغَفُورٌ  
رَحِيمٌ﴾. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ  
سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ يَعْنِي عَنِ الرَّجُلِ يَزِينُ بِالْمَرْأَةِ ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا  
فَقَالَا هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا  
وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾<sup>(١٣)</sup> فَتَلَاهَا عَبْدُ اللَّهِ  
عَشْرَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِهَا وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْهَا<sup>(١٤)</sup>.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي شُحْنَهَا

هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

[أَخَذَ مُوسَى الْأَلْوَحَ بَعْدَ أَنْ سَكَتَ الْغَضَبُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أَيُّ سَكَنَ ﴿عَنْ مُوسَى  
الْغَضَبُ﴾ أَيُّ غَضَبُهُ عَلَى قَوْمِهِ ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ﴾ أَيُّ الَّتِي كَانَ  
أَلْقَاهَا مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ عَلَى عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، غَيْرَهُ اللَّهُ

(١) ابن ماجه: ٣٨٠/٢ (٢) الطبري: ١٣٥/١٣ (٣) الطبري:

١٣٦/١٣ (٤) الدر المنثور: ٥٦٦/٣ (٥) الطبري: ١٣/

١٤١ (٦) الطبري: ١٤٠/١٣

سورة الأعراف

١٧٠

سورة الأعراف

وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا أَيْنِكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ قَالُوا يَا مَوْلاُ بِهٖ وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْحَسَنَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [الآية: ٢٠١] ﴿إِنَّا هُنَا أَيْنِكَ﴾ أَيُّ تَبَيَّنَّا وَرَحِمْنَا وَأَنْبَأْنَا إِلَيْكَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكُ وَإِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٤)</sup>. وَهُوَ كَذَلِكَ لَعَنَ.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ

بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾

[رَحْمَةُ اللَّهِ مَكْتُوبَةٌ لِلْمُتَّقِينَ الْمَرْكُومِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِنَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الآية]، قَالَ: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أَيُّ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ وَأَحْكُمُ مَا أُرِيدُ، وَلِيَّ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ، سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

وَقَالَ: إِنِّظِلُّوا إِلَى اللَّهِ فَتَوْبُوا إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعْتُمْ وَسلُوهُ التَّوْبَةَ عَلَى مَنْ تَرَكْتُمْ وَرَأَيْتُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ، صُومُوا وَطَهِّرُوا وَطَهِّرُوا تَابِكُمْ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورٍ سِنَاءَ لِمِيقَاتٍ وَقَتَهُ لَهُ رَبُّهُ، وَكَانَ لَا يَأْتِيهِ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْهُ وَعِلْمٍ، فَقَالَ لَهُ السَّبْعُونَ - فِيمَا ذَكَرَ لِي - حِينَ صَنَعُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَخَرَجُوا مَعَهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ لِمُوسَى: أَطْلُبْ لَنَا نَسْمَعَ كَلَامَ رَبَّنَا، فَقَالَ: أَفْعَلْ، فَلَمَّا دَنَا مُوسَى مِنَ الْجَبَلِ وَقَعَ عَلَيْهِ غَمُودُ الْغَمَامِ حَتَّى تَغَشَّى الْجَبَلَ كُلَّهُ، وَدَنَا مُوسَى فَدَخَلَ فِيهِ وَقَالَ لِلْقَوْمِ: أَذْنُوا وَكَانَ مُوسَى إِذَا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَقَعَ عَلَى جَبْهَةِ مُوسَى نُورٌ سَاطِعٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَضَرَبَ دُونَهُ بِالْحِجَابِ وَدَنَا الْقَوْمُ، حَتَّى إِذَا دَخَلُوا فِي الْغَمَامِ وَقَعُوا سُجُودًا فَسُومُوهُ وَهُوَ يَكَلِّمُ مُوسَى بِأَمْرِهِ وَيَنْهَاهُ، أَفْعَلْ وَلَا تَفْعَلْ. فَلَمَّا فَرَّغَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ انْكَشَفَ عَنْ مُوسَى الْغَمَامُ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا مُوسَى! لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ وَهِيَ الصَّاعِقَةُ [فَأَفْتَلَتْ] أَرْوَاهُكُمْ فَمَاتُوا جَمِيعًا، فَقَامَ مُوسَى يُنَادِي رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ وَيَرْغُبُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي﴾ قَدْ سَفِهُوا، أَفْتَهْلِكُ مَنْ وَرَأَيْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ جُرَيْرٍ: إِنَّهُمْ أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا قَوْمَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعَجَلِ وَلَا نَهَوْهُمْ<sup>(٢)</sup>. وَيَتَوَجَّهُ هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِ مُوسَى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأَسْهَاقُ مِنَّا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أَيُّ إِبْتِلَاؤُكَ وَاجْتِبَارُكَ وَامْتِحَانُكَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ<sup>(٣)</sup>. وَلَا مَعْنَى لَهُ غَيْرُ ذَلِكَ، يَقُولُ: إِنْ الْأَمْرُ إِلَّا أَمْرُكَ وَإِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لَكَ فَمَا شِئْتَ كَانَ، تُضِلُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، وَلَا هَادِي لِمَنْ أَضَلَّكَ وَلَا مُضِلٌّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعٌ لِمَا أُعْطِيَ، فَالْمُلْكُ كُلُّهُ لَكَ وَالْحُكْمُ كُلُّهُ لَكَ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْتَ وَلَيْتَا فَاعْفُرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ الْغَفْرُ هُوَ السِّرُّ وَتَرَكُ الْمُؤَاخَذَةَ بِالذَّنْبِ، وَالرَّحْمَةُ إِذَا قُرُنَتْ مَعَ الْغَفْرِ يَرَادُ بِهَا أَنْ لَا يُوَقَّعُ فِي مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أَيُّ لَا يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِلَّا أَنْتَ. وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ مِنَ الدَّعَاءِ لِدَفْعِ الْمَحْذُورِ وَهَذَا لِتَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ أَوْجِبْ لَنَا وَأَنْتَبْ لَنَا فِيهِمَا حَسَنَةً.

(١) الطبري: ١٤٠/١٣ (٢) الطبري: ١٤٣/١٣، ١٤٤ (٣) الطبري: ١٥١/١٣ (٤) الطبري: ١٥٤، ١٥٥

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي صَخْرٍ الْعُقَيْلِيِّ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، قَالَ: جَلَبْتُ حُلُوتَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ بَيْعِي قُلْتُ: لَا لِقِينَ هَذَا الرَّجُلَ فَلَا سَمْعَنَ مِنْهُ قَالَ: فَلَقَانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ يَمْشُونَ. فَتَبِعْتُهُمْ حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ نَاشِرًا التَّوْرَةَ يَقْرَؤُهَا، يُعْزِّي بِهَا نَفْسَهُ عَنِ ابْنِ لَهُ فِي الْمَوْتِ، كَأَجْمَلِ الْفَتَيَانِ [وَأَحْسَنِهِ] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْشُدْكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ هَذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟» فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا، أَيْ لَا. فَقَالَ ابْنُهُ: إِي وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا صِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ. وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَقِيمُوا الْيَهُودِيَّ عَنْ أَخِيكُمْ» ثُمَّ تَوَلَّى كَفَنَهُ وَالصَّلَاةَ عَلَيْهِ<sup>(٥)</sup>. هَذَا حَدِيثٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ قَالَ: أَجَلُ، وَاللَّهُ! إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ كَصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ «يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» [الأحزاب: ٤٥] وَجِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمِّيتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِقَطْ وَلَا غَلِيظَ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ أَلَمَّةَ الْعُوجَاءِ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَتَنَحَّ بِه قُلُوبًا غُلْفًا وَأَذَانًا صُمًّا وَأَعْيُنًا عُمَيَّا، قَالَ عَطَاءٌ: ثُمَّ لَقِيتُ كَعْبًا فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَمَا اخْتَلَفَ حَرْفًا إِلَّا أَنَّ كَعْبًا قَالَ بَلَعْتِهِ: قَالَ: قُلُوبًا غُلُوفِيًّا وَأَذَانًا صُومِيًّا وَأَعْيُنًا عُمُومِيًّا<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ: لَيْسَ بِقَطْ وَلَا غَلِيظَ: وَلَا صَخَابَ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ<sup>(٨)</sup>. وَذَكَرَ حَدِيثَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، ثُمَّ قَالَ: وَيَقَعُ فِي كَلَامٍ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ إِطْلَاقُ التَّوْرَةِ عَلَى كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مَا يُشِيرُ هَذَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آيَةُ عَظِيمَةُ الشُّمُولِ وَالْعُمُومِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [إِغْفَار: ١٧]. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُنْدُبٍ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ أَغْرَابِيٌّ فَأَنَاحَ رَاحِلَتَهُ ثُمَّ عَقَلَهَا ثُمَّ صَلَّى خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَى رَاحِلَتَهُ فَأَطْلَقَ عَقَالَهَا ثُمَّ رَكِبَهَا ثُمَّ نَادَى: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِنَا أَحَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَقُولُونَ هَذَا أَصْلُ أَمْ بَعِيرُهُ؟ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «لَقَدْ حَظَرْتُ رَحْمَةً وَاسِعَةً، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَنْزَلَ رَحْمَةً يَتَعَاطَفُ بِهَا الْخَلْقُ جَنُودًا وَإِنْسًا وَبَهَائِمًا وَآخَرَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً. أَتَقُولُونَ هُوَ أَصْلُ أَمْ بَعِيرُهُ؟»<sup>(١)</sup> رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ سَلْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَاخَمُ بِهَا الْخَلْقُ وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوُحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا وَآخَرُ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup> فَفَرَّدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: «فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ»... الْآيَةُ، يَغْنِي فَسَأَوْجِبُ حُصُولَ رَحْمَتِي مِنْهُ مِنِّي وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وَقَوْلُهُ: «لِلَّذِينَ يَنْقُونَ» أَيِ سَأَجْعَلُهَا لِلْمُتَصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، وَهُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ «لِلَّذِينَ يَنْقُونَ» أَيِ الشُّرَكَ وَالْعَظَائِمِ مِنَ الذُّنُوبِ. قَوْلُهُ: «وَيُؤْتُونَكَ الزَّكَاةَ» قِيلَ: زَكَاةُ النَّفُوسِ وَقِيلَ: الْأَمْوَالُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ غَامَةً لَهُمَا فَإِنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ «وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيَابِنَا يُؤْمِنُونَ» أَيِ يُصَدِّقُونَ.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاذْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَارٌ وَقُورًا وَنَصَرُوهُ وَأَتَّخِذُوا التَّوْرَ الَّتِي أَنْزَلَ مَعَهُ

أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

[صِفَاتُ ذَلِكَ الرَّسُولِ ﷺ]

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ بَشَرُوا أُمَّمَهُمْ بِبَعْثِهِ وَأَمَرُوهُمْ بِمَتَابِعَتِهِ، وَلَمْ تَزَلْ صِفَاتُهُ مُوجُودَةً فِي كُتُبِهِمْ يَعْرِفُهَا عُلَمَاؤُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ.

(١) أحمد: ٣١٢/٤ إسناده ضعيف لجهالة أبي عبدالله الجُشَمي وأصل الحديث عند البخاري في كتاب الآداب (٦٠١٠) من حديث أبي هريرة مختصراً (٢) أبو داود: ١٩٧/٥ (٣) أحمد: ٤٣٩/٥ (٤) مسلم: ٢١٠٨/٤ (٥) أحمد: ٤١١/٥ (٦) فتح الباري: ٢٥٩/٣ (٧) الطبري: ١٦٤/١٣ (٨) فتح الباري: ٤/٤٠٢ يبدو أن نسخة الطبري عند ابن كثير كانت خالية من هذه الزيادة، وإلا فهي موجودة عند الطبري المطبوع. كما بأعلاه.

الْمُفْلِحُونَ» أَي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨)

[عُمُومُ رِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ! يَتَّيِبُهَا النَّاسُ﴾ وَهَذَا خِطَابٌ لِلْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَالْعَرَبِيِّ وَالْعَجَمِيِّ ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أَيِ جَمِيعِكُمْ وَهَذَا مِنْ شَرَفِهِ وَعَظَمَتِهِ ﷺ: أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذَكِّرَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْغُ﴾ [الأنعام: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأُلْتَأْذِرُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُنْيَسَ: اسْلَمُوا فَإِنْ اسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِلَّا قَوْلًا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ كَمَا أَنَّ الْأَحَادِيثَ فِي هَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ضُرُورَةٌ أَنَّهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ. رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مُحَاوَرَةٌ فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَأَنْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ» أَيِ غَاصَبَ وَحَاقَدًا. قَالَ: وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ» (١) انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا أَنَّ رَسُولَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هَذِهِ صِفَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنْ شَرٍّ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَتَّيِبُهَا إِلَيْكَ يَا مَعْشَرَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فَأَزْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ. وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ وَأَعْظَمِهِ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَخَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالتَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ كَمَا أَرْسَلَ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أَيِ يُحِلُّ لَهُمْ مَا كَانُوا حَرَمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ وَالْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ضَمُّوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّهُمْ الْخُزَيْرِ وَالرَّبَا، وَمَا كَانُوا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَاكِلِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى (٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ أَنَّهُ جَاءَ بِالتَّيْسِيرِ وَالسَّامِحَةِ وَقَالَ ﷺ لِأَمِيرِيهِ مُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ لَمَّا بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ: «بَشِّرَا وَلَا تُفْرَا وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَطَاطَعَا وَلَا تُخْتَلِفَا» (٣). وَقَالَ صَاحِبُهُ أَبُو بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيُّ: إِنِّي صَحَبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَشَهِدْتُ تَيْسِيرَهُ، وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَمُ الَّتِي قَبَلْنَا فِي شَرَائِعِهِمْ ضَيِّقٌ عَلَيْهِمْ، فَوَسَّعَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أُمُورَهَا وَسَهَّلَهَا لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ» (٤). وَقَالَ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» (٥) وَلِهَذَا أَرْشَدَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وَتَبَّتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ كُلِّ سُؤَالٍ مِنْ هَذِهِ: قَدْ فَعَلْتُ. قَدْ فَعَلْتُ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَصَرُّوهُ وَتَضَرُّوهُ﴾ أَيِ عَظِّمُوهُ وَوَقِّرُوهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أَيِ الْقُرْآنَ وَالْوَحْيَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلِّغًا إِلَى النَّاسِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ

(١) الطبري: ١٦٦/١٣ (٢) فتح الباري: ١٨٨/٥ (٣) فتح الباري: ٣٠٠/٩ (٤) ابن ماجه: ٦٥٩/١ (٥) فتح الباري: ١٥٣/٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٧١

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرِيدًا ﴿١٦٢﴾ فَذَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٣﴾ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٤﴾

عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرِيدًا ﴿١٦٢﴾ فَذَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٣﴾

تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَا كُلِّهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ، وَهَذَا السِّيَاقُ مَكِّيٌّ وَبَنَيْنَا عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا السِّيَاقِ وَذَلِكَ، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ

اللَّهُ ﷻ قَالَ: «أَعْطَيْتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيَّ قَبْلِي وَلَا أَقْوَلُهُ فَخَرًا: بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً: الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ، وَنُصِرْتُ بِالرَّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ فَأَخَّرْتُهَا لِأَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهِ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»<sup>(١)</sup> إِسْنَادٌ جَيِّدٌ وَلَمْ يُخْرِجُوهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي لَمْ يَمْلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صِفَةُ ﴿اللَّهِ﴾ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أَيِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ الَّذِي يَبْدُو الْمُلْكُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ. ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أَيِ الَّذِي وَعَدْتُمْ بِهِ وَبَشَّرْتُمْ بِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُنْتَمِدَّةِ، فَإِنَّهُ مَنَعْتُ بِذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أَيِ يُصَدِّقُ قَوْلَهُ عَمَلُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أَيِ اسْلُكُوا طَرِيقَهُ وَافْتَقُوا أَتْرَهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَيِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

﴿وَمَنْ قَوْمَ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ: أَنَّ مِنْهُمْ طَائِفَةً يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَيَعْدِلُونَ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ كُلِّ نَازِلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْفَعُونَ بِعَائِبَتِ اللَّهِ شَيْئًا قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ زَكَاةً وَسَرِيعَ الْجِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَلَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٢] وَإِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴿٥٤﴾ الْآيَةُ [القصص: ٥٢-٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُولُوا أَلْمَامَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ يُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٥٦﴾ وَيُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُ وَيَرْبِكُهُمْ خُشوعًا ﴿٥٧﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا

(١) أحمد: ٣٠١/١ هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد الهاشمي لكن هذا الحديث صَحَّحَ بالشواهد ومنها حديث جابر عند أحمد ٣/٣٠٤ والبخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) وحديث أبي ذر عند أحمد ٥/١٤٥، ١٤٨، ١٦١ وحديث عبدالله بن عمرو عند أحمد ٢/٢٢٢.



الْبَقَرَةُ

١٧٢

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَأَقَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ  
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْفُتُونَ ﴿١٦٦﴾  
فَلَمَّا سَأَلُوا مَادَّ كُرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ  
وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٧﴾  
فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَنَاهُوعِنَا فَلْنَاهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٨﴾  
وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ  
يُسْؤِمُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ  
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَامًا مِنْهُمْ  
الضَّالِّحُونَ وَمِنْهُمْ دُونِ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ  
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٠﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ  
وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا  
وَأِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ  
أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارِ الْأُخْرَىٰ  
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ  
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٢﴾

[مَسْخُومٌ قِرَدَةً وَنَجَاةُ النَّاهِينَ دُونَ السَّاكِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى ثَلَاثِ  
فُرُقٍ: فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتِ الْمُحْذُورَ وَاحْتَالُوا عَلَى اضْطِیَادِ  
السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَفِرْقَةٌ  
نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ وَاعْتَزَلَتْهُمْ. وَفِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْهَ  
وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكَرَةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ  
مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَيْ لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلَاءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ  
قَدْ هَلَكُوا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ مِنَ اللَّهِ؟ فَلَا فَائِدَةَ فِي نَهْيِكُمْ  
إِيَّاهُمْ، قَالَتْ لَهُمُ الْمُنْكَرَةُ: ﴿مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أَيْ فِيمَا

يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِبَانُهُمْ يَوْمَ سَنِيهِمْ  
شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا  
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾

[عُدْوَانُ الْيَهُودِ فِي السَّبْتِ]

هَذَا السِّيَاقُ هُوَ بَسْطُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ  
أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الْآيَةُ [البقرة: ٦٥]، يَقُولُ تَعَالَى  
لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ أَيْ وَاسْأَلْ  
هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ  
خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ، فَقَاجَأْتَهُمْ نِقْمَتُهُ عَلَى صِيغِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ  
وَاحْتِيَالِهِمْ فِي الْمَخَالِفَةِ، وَحَذَّرَ هَؤُلَاءِ مِنْ كَيْفَانِ صِفَتِكَ  
الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي كُتُبِهِمْ لِقَالِ يَحِلُّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِأَخْوَانِهِمْ  
وَسَأَلْتَهُمْ. وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ هِيَ «أَيْلَةَ» وَهِيَ عَلَى شاطئِ بَحْرِ  
الْقَلْزُومِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحَصِينِ عَنْ  
عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ  
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قَالَ: هِيَ قَرْيَةُ يُقَالُ  
لَهَا: «أَيْلَةُ»، بَيْنَ مَدْيَنَ وَالطُّورِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ  
وَمُجَاهِدٌ وَتَقَادَةُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي  
السَّبْتِ﴾ أَيْ يَعْتَدُونَ فِيهِ وَيُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ لَهُمْ بِالْوَصَاةِ  
بِهِ إِذْ ذَاكَ ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِبَانُهُمْ يَوْمَ سَنِيهِمْ شُرْعًا﴾.  
قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ ظَاهِرَةً عَلَى الْمَاءِ<sup>(٣)</sup>.  
قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ لَا تَأْتِيهِمْ  
كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ﴾ أَيْ نَحْتَبِرُهُمْ بِإِظْهَارِ السَّمَكِ لَهُمْ عَلَى  
ظَهْرِ الْمَاءِ فِي الْيَوْمِ الْمُحَرَّمِ عَلَيْهِمْ صَيْدُهُ وَإِخْفَائِهِ عَنْهُمْ فِي  
الْيَوْمِ الْحَلَالِ لَهُمْ صَيْدُهُ ﴿كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ﴾ نَحْتَبِرُهُمْ  
﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يَقُولُ: يَفْسُقُهُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ  
وُخْرُوجِهِمْ عَنْهَا<sup>(٤)</sup>. وَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ إِحْتَالُوا عَلَى انْتِهَاكِ  
مَحَارِمِ اللَّهِ بِمَا تَعَاطَوْا مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي مَعْنَاهَا  
فِي الْبَاطِنِ: تَعَاطَى الْحَرَامَ. وَقَدْ رَوَى الْفَقِيهَ الْإِمَامُ أَبُو  
عَبْدِ اللَّهِ بْنُ بَطَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
قَالَ: «لَا تَزْكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ فَتَسْتَعْلُوا مَحَارِمَ اللَّهِ  
بِأَذْنِ الْحَيْلِ»<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا  
شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْفُتُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا سَأَلُوا  
مَادَّ كُرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا  
بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ  
فَلْنَاهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

(١) الطبري: ١٨٠/١٣ (٢) الطبري: ١٨١، ١٨٠/١٣ (٣)  
الطبري: ١٨٣/١٣ الضحاك لم يسمع من ابن عباس كما  
تقدم (٤) الطبري: ١٨٣/١٣ (٥) الزفاف: ١٩٢ إرواء الغليل  
١٥٣٥/٥ قال الألباني: وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات معروفون  
من رجال "التهذيب" غير أبي الحسن أحمد بن محمد بن مسلم  
وهو المخرمي كما جاء منسوباً في أكثر من موضع من كتابه الآخر  
"الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية" (ق ١٤٤ و ٢/١١) وأما  
الحافظ ابن كثير فقد أورد الحديث في تفسيره من طريق ابن بطّة.

أَمَرِهِمْ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ أَنْصَارًا لِلدَّجَالِ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ مَعَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ آخِرَ الزَّمَانِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أَي لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ شَرْعَهُ ﴿وَلَئِنَّ لَعَنُورَ رَجِيمٍ﴾ أَي لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ. وَهَذَا مِنْ بَابِ قَرْنِ الرَّحْمَةِ مَعَ الْعُقُوبَةِ لِئَلَّا يَحْصُلَ الْيَأْسُ، فَيَقْرَنُ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ كَثِيرًا، لِيَتَّبِعِيَ النَّفْسُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِثْقَلُ الذَّنْبِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللِّدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٦٧﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٦٨﴾

[إِتِّشَارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَرَّقَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا، أَي طَوَائِفَ وَفِرْقًا كَمَا قَالَ: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُتُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] وَمِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴿[الإسراء: ١٠٤] أَي فِيهِمُ الصَّالِحُ وَغَيْرُ ذَلِكَ كَقَوْلِ الْحِجْرِ: ﴿وَأَنَّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِفَ فِدَا﴾ [الحجر: ١١] ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أَي اخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أَي بِالرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْعَافِيَةِ وَالْبَلَاءِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى﴾ الْآيَةُ: يَقُولُ تَعَالَى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْجِيلِ الَّذِينَ فِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ خَلَفَ آخَرٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَقَدْ وَرِثُوا دِرَاسَةَ الْكِتَابِ وَهُوَ التَّوْرَةُ: وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى﴾ قَالَ: لَا يَشْرَفُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا أَخَذُوهُ - حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا - وَيَتَمَتَّعُونَ بِالْمَغْفَرَةِ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ <sup>(٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى﴾ إِي وَاللَّهِ لَخَلَفُ سُوءٍ ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ

أَخَذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يَقُولُونَ: وَلَعَلَّهُمْ لِهَذَا الْإِنْكَارِ يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتَرَكُونَهُ وَيَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ، فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أَي فَمَّا أَبَى الْفَاعِلُونَ قَبُولَ النَّصِيحَةِ ﴿أَجْمَعًا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيِ إِرْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فَصَصَ عَلَى نَجَاةِ التَّائِبِينَ وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ وَسَكَتَ عَنِ السَّاكِتِينَ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَذْحًا فِيمَدَحُوا وَلَا إِرْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُذَمُّوا. وَعَنْ عِكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ، قَالَ: مَا أَذْرِي أَتَجَا الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَمْ يَعْطُوا قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أَمْ لَا؟ قَالَ: فَلَمْ أَرْزَلْ بِهِ حَتَّى عَرَفْتُهُ أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فَكَسَانِي حُلَّةً <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ بِالْمَفْهُومِ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ بَقُوا نَجَوْا. وَ ﴿بَئِيسٍ﴾ مَعْنَاهُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ: الشَّدِيدُ <sup>(٢)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ: أَلِيمٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُوجِعٌ <sup>(٣)</sup>. وَالْكُلُّ مُتَغَارِبٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿خَمِيسِينَ﴾ أَي ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ مُهَانِينَ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ لِبَعْنِ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْأَلُ مِنْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَلَئِنَّ لَعَنُورَ

رَجِيمٍ﴾

[الذَّلَّةُ الدَّائِمَةُ لِلْيَهُودِ]

﴿تَأَذَّتْ﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الْأَذَانِ أَي: أَعْلَمَ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَمَرَ. وَفِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُفِيدُ مَعْنَى الْقَسَمِ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ، وَلِهَذَا [تَلَقَّيْتُ] بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيُعَذَّبَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أَي عَلَى الْيَهُودِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْأَلُ مِنْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَي بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ وَأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَاحْتِيَالِهِمْ عَلَى الْمَحَارِمِ، وَيُقَالُ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْخَرَاجَ سَبْعَ سِنِينَ، وَقِيلَ: ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ الْخَرَاجَ ثُمَّ كَانُوا فِي قَهْرِ الْمُلُوكِ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَالْكُشْدَانِيِّينَ وَالْكَلْدَانِيِّينَ، ثُمَّ صَارُوا إِلَى قَهْرِ النَّصَارَى وَإِذْلَالِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَأَخَذِهِمْ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ وَالْخَرَاجُ. ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَكَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَذِمَّتِهِ يُؤَدُّونَ الْخَرَاجَ وَالْجِزْيَةَ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: هِيَ الْمَسْكَنَةُ وَأَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ <sup>(٤)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: يَسْتَحِبُّ أَنْ تُبْعَثَ الْأَنْبَاطُ فِي الْجِزْيَةِ <sup>(٥)</sup>. قُلْتُ: ثُمَّ آخِرُ

(١) الطبري: ١٨٧/١٣ (٢) الطبري: ٢٠٢/١٣ (٣) الطبري:

٢٠٢/١٣ (٤) الطبري: ٢٠٥/١٣ (٥) عبد الرزاق: ٢٤٠/٢

(٦) الطبري: ٢١٢/١٣

سورة الأعراف

١٧٣

سورة الأعراف

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلْمَةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾  
 وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَقْلَمَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا نَظِيمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا وَلِيكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

[رَفَعَ الطُّورَ عَلَى رُؤُوسِ الْيَهُودِ لِيَتَمَرَّدَهُمْ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ﴾ يَقُولُ: رَفَعْنَاهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ﴾<sup>(٤)</sup> [النساء: ١٥٤] وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: رَفَعْنَاهُ الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤] وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ثُمَّ سَارَ بِهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَ مَا سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَأَمَرَهُمْ بِالَّذِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مِنَ الْوُظَائِفِ فَتَقَلَّتْ عَلَيْهِمْ، وَأَبَوْا أَنْ يُفَرِّقُوا بِهَا حَتَّى تَنَقَّ اللَّهُ الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ ﴿كَانَهُ ظِلْمَةٌ﴾ قَالَ: رَفَعْنَاهُ الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِطَوِيلِهِ<sup>(٥)</sup>.

وَرُؤُوسِهِمْ أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ وَعَهْدَ إِلَيْهِمْ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ [الآية: مريم: ٥٩] قَالَ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تَمَنَّوْا عَلَى اللَّهِ أَمَانِيَّ وَغِرَّةَ يَغْتَرُونَ بِهَا ﴿وَإِنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ لَا يَسْغِلُهُمْ شَيْءٌ وَلَا يَنْهَاهُمْ شَيْءٌ عَنْ ذَلِكَ، كُلَّمَا هَفَّ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا أَكَلُوهُ لَا يَبَالُونَ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَوْلُهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَدَّرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قَالَ: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا يَسْتَفْضُونَ قَاضِيًا إِلَّا ارْتَشَى فِي الْحُكْمِ وَإِنْ خَيَّرَهُمْ اجْتَمَعُوا، فَأَخَذَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الْعُهُودَ أَنْ لَا يَقْعُلُوا وَلَا يَرْتَشُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا اسْتَفْضَى ارْتَشَى فَيَقَالُ لَهُ: مَا شَأْنُكَ تَرْتَشِي فِي الْحُكْمِ؟ فَيَقُولُ: سَيُغْفَرُ لِي، فَتَطْعُنُ عَلَيْهِ الْبَقِيَّةُ الْآخَرُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا صَنَعَ، فَإِذَا مَاتَ أَوْ نَزِعَ وَجُعِلَ مَكَانَهُ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَطْعُنُ عَلَيْهِ فَيَرْتَشِي، يَقُولُ: وَإِنْ يَأْتِ الْآخَرِينَ عَرَضُ الدُّنْيَا يَأْخُذُوهُ<sup>(٢)</sup>. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الآية: ١] يَقُولُ تَعَالَى مُكْرِمًا عَلَيْهِمْ فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا مَعَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِيثَاقِ لِيُبَيِّنَ الْحَقَّ لِلنَّاسِ، وَلَا يَكْتُمُونَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قَالَ: فِيمَا يَتَمَنَّوْنَ عَلَى اللَّهِ مِنْ غُفْرَانٍ ذُنُوبَهُمُ الَّتِي لَا يَزَالُونَ يَعُودُونَ فِيهَا وَلَا يَتُوبُونَ مِنْهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذَارِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يَرْغَبُهُمْ فِي جَزِيلِ نَوَائِبِهِ وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، أَيْ وَتَوَائِبِي وَمَا عِنْدِي خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى الْمَحَارِمَ وَتَرَكَ هَوَى نَفْسِهِ وَأَقْبَلَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يَقُولُ: أَفَلَيْسَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اغْتَاضُوا بِعَرَضِ الدُّنْيَا عَمَّا عِنْدِي غَفْلٌ يَرِدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّغْوِ وَالتَّبَذِيرِ، ثُمَّ أَتَى تَعَالَى عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَى اتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أَيْ اغْتَصَمُوا بِهِ وَاقْتَدُوا بِأَوَامِرِهِ، وَتَرَكُوا زَوَاجِرَهُ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضْمِيعُ أَجْرَ الْمُضْلِمِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلْمَةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

(١) الطبري: ٢١٣/١٣ (٢) الطبري: ٢١٣/١٣ (٣) الطبري: ٢١٥/١٣ (٤) الطبري: ٢١٨/١٣ (٥) النسائي في الكبرى:

أَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْ لَمْ تُعْطَهَا ابْنُكَ دَاوُدُ؟ قَالَ: «فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ» ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٦)</sup>.

فهذه الأحاديث وأمثالها دالة على أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ وَمَيَّرَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» أَيُّ أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا. وَالشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالْقَوْلِ كَقَوْلِهِ: «قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا»... [الآية: ١٣٠]، وَتَارَةً تَكُونُ حَالًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفَرِ» [التوبة: ١٧] أَيُّ حَالُهُمْ شَاهِدَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَيْتَهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ» [العنكبوت: ٧] كَمَا أَنَّ السُّؤَالَ تَارَةً يَكُونُ بِالْقَالِ وَتَارَةً يَكُونُ بِالْحَالِ كَقَوْلِهِ: «وَأَتَسْتَكْمِنُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» [إبراهيم: ٣٤] قَالُوا: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا هَذَا: أَنَّ جَعَلَ هَذَا الْإِشْهَادَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الْإِشْرَافِ، فَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ هَذَا كَمَا قَالَ مَنْ قَالَ لَكَ كُلُّ أَحَدٍ يَذْكُرُهُ لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَيْهِ. فَإِنْ قِيلَ: إِنْ خَبَّرَ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ كَافٍ فِي وُجُودِهِ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْمُكْذِبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَكْذِبُونَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ، وَهَذَا جُعِلَ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَيْهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْفِطْرَةُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا مِنَ الْإِفْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ وَلِهَذَا قَالَ: «أَنْ تَقُولُوا» أَيُّ لَيْلًا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ «إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا» أَيُّ التَّوْحِيدِ «غَافِلِينَ»<sup>(٧)</sup> أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا الْآيَةُ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

«وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَاَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَابَيْنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ»<sup>(٨)</sup> وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَتَّبِعْهُ كَتَلِّبَ الْكَلْبَ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكَّضَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»<sup>(٩)</sup> أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ»<sup>(١٠)</sup> وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»<sup>(١١)</sup>

### [بَيَانُ الْعَهْدِ الْمَأْخُوذِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَضْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَمَلِكُهُمْ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى: «فَافْقِدْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» [الروم: ٣٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجْسِنَانِهِ كَمَا تُولَدُ [الْبَهِيمَةُ] بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْشَرُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ»<sup>(١٢)</sup> وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَنَلَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّكَ لَهُمْ»<sup>(١٣)</sup>. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ فِي أَخْذِ الذَّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَمْيِيزِهِمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَصْحَابِ الشَّمَالِ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»<sup>(١٤)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١٥)</sup>.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبٍّ؟ مَنْ هُوَ؟ قَالَ: هُوَ لَا ذُرِّيَّتَكَ فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعَجَبَهُ وَبَيْصٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ قَالَ: أَيُّ رَبٍّ؟ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ. قَالَ: رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً قَالَ: أَيُّ رَبٍّ؟ وَقَدْ وَهَبْتُ لَهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ قَالَ:

(١) فتح الباري: ٢٩٠/٣ ومسلم: ٢٠٤٧/٤ (٢) مسلم: ٤/٢١٩٧ (٣) أحمد: ١٢٧/٣ (٤) فتح الباري: ٤١٩/٦ ومسلم: ٢١٦٠/٤ (٥) تحفة الأحوذ: ٤٥٧/٨ (٦) الحاكم: ٣٢٥/٢

بِأَيِّنَّا فَاقْصِصْ الْفَقْصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ  
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَانفُسُهُمْ كَالْوِطْإِ يَتْلُمُونَ ﴿١٧٧﴾  
[قِصَّة بُلْعَمِ بْنِ بَاعُورَاءَ وَمَثَلِ الْعَالَمِ الَّذِي يَنْسَلِخُ عَنْ  
عِلْمِهِ]

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الْوَيْحِ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ آيَاتُنَا فَأَنسَلَخْ  
مِنْهَا﴾ الْآيَةَ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ: بُلْعَمُ  
بْنُ بَاعُورَاءَ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ مَنْصُورٍ  
بِهِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:  
هُوَ صِيفِيُّ ابْنِ الرَّاهِبِ. قَالَ قَتَادَةُ: وَقَالَ كَعْبٌ: كَانَ  
رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَلْعَاءِ وَكَانَ يَعْلَمُ الْأَسْمَ الْأَكْبَرَ وَكَانَ مُقِيمًا  
بِبَيْتِ الْمُقَدَّسِ مَعَ الْجَبَّارِينَ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ: بُلْعَمُ أَتَاهُ  
اللَّهُ آيَاتِهِ فَتَرَكَهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ مُجَابِبَ الدَّعْوَةِ يُقَدِّمُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ، بَعَثَهُ  
نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَلِكٍ مَدِينٍ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ  
فَأَقْطَعَهُ وَأَعْطَاهُ، فَتَبِعَ دِينَهُ وَتَرَكَ دِينَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.  
وَقَالَ [عِمْرَانُ] بَنُ عَيْنَةَ عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحَارِثِ  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ بُلْعَمُ بْنُ بَاعِرٍ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ  
وَعِكْرَمَةُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَتْ ثَقِيفٌ: هُوَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ.

وَأَمَّا الْمَشْهُورُ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَإِنَّمَا  
هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي زَمَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا قَالَ ابْنُ  
مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ  
ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ مَدِينَةِ الْجَبَّارِينَ يُقَالُ لَهُ: بُلْعَمُ  
وَكَانَ يَعْلَمُ اسْمَ اللَّهِ الْأَكْبَرَ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَ مُوسَى بِهِمْ يَغْنِي بِالْجَبَّارِينَ وَمَنْ  
مَعَهُ أَتَاهُ - يَغْنِي بُلْعَمُ - أَتَاهُ بَنُو عَمِّهِ وَقَوْمُهُ فَقَالُوا: إِنَّ  
مُوسَى رَجُلٌ حَدِيدٌ وَمَعَهُ جُنُودٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ إِنْ يَطْهَرُ عَلَيْنَا  
يُهْلِكُنَا فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ عَنَّا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، قَالَ: إِنِّي  
إِنْ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ذَهَبَتْ دُنْيَايَ  
وَأَخْرَجَتِي، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى دَعَا عَلَيْهِمْ، فَسَلَخَهُ اللَّهُ مَا  
كَانَ عَلَيْهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ  
الشَّيْطَانُ﴾ الْآيَةَ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى  
الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أَيْ  
لَرَفَعْنَاهُ مِنَ التُّدْنُسِ عَنْ قَادُورَاتِ الدُّنْيَا بِالْآيَاتِ الَّتِي آتَيْنَاهُ

إِيَّاهَا ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أَيْ، مَالَ إِلَى زِينَةِ  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا وَأَقْبَلَ عَلَى لَذَائِهَا وَنَعِيمِهَا، وَغَرَّتْهُ  
كَمَا غَرَّتْ غَيْرُهُ مِنْ غَيْرِ أَوَّلِي الْبَصَائِرِ وَالْهَيْ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ سَالِمِ أَبِي النَّضْرِ  
أَنَّهُ حَدَّثَ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نَزَلَ فِي أَرْضِ بَنِي  
كَثْنَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، أَتَى قَوْمَ بُلْعَمَ إِلَيْهِ فَقَالُوا لَهُ: هَذَا  
مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ جَاءَ يُخْرِجُنَا مِنْ  
بِلَادِنَا وَيَقْتُلُنَا وَيُحِلُّهَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّا قَوْمُكَ وَلَيْسَ لَنَا  
مَنْزِلٌ وَأَنْتَ رَجُلٌ مُجَابِبُ الدَّعْوَةِ، فَأَخْرَجَ فَادْعَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ،  
قَالَ: وَيَلْكُمْ نَبِيُّ اللَّهِ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، كَيْفَ  
أَذْهَبَ أَذْغُو عَلَيْهِمْ وَأَنَا أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا أَعْلَمُ؟ قَالُوا لَهُ: مَا  
لَنَا مِنْ مَنْزِلٍ فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ يُرْفِقُونَهُ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى  
فَتَنُوهُ، فَافْتَنَ، فَكَرِبَ حِمَارَةً لَهُ مُتَوَّجَهَا إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي  
يُطْلَعُ عَلَى عَسْكَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ جَبَلُ «حُسْبَانَ» فَلَمَّا  
سَارَ عَلَيْهَا غَيْرَ كَثِيرٍ، رَبَضَتْ بِهِ فَتَزَلَّ عَنْهَا فَضَرَبَهَا حَتَّى إِذَا  
أَزْلَقَهَا قَامَتْ فَكَرِبَهَا، فَلَمْ تَسِرْ بِهِ كَثِيرًا حَتَّى رَبَضَتْ بِهِ  
فَضَرَبَهَا، حَتَّى إِذَا أَزْلَقَهَا أَدْنَى اللَّهُ لَهَا فَكَلَّمَتْهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِ  
فَقَالَتْ: وَيَحَكَ يَا بُلْعَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ؟ أَمَا تَرَى الْمَلَائِكَةَ  
أَمَامِي تَرُدُّنِي عَنْ وَجْهِي هَذَا؟ تَذْهَبُ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ  
وَالْمُؤْمِنِينَ لَتَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْزِعْ عَنْهَا فَضَرَبَهَا فَخَلَّى اللَّهُ  
سَبِيلَهَا حِينَ فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَتْ بِهِ  
عَلَى رَأْسِ «حُسْبَانَ» عَلَى عَسْكَرِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ جَعَلَ  
يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَلَا يَدْعُو عَلَيْهِمْ بِشَرٍّ إِلَّا صَرَفَ اللَّهُ لِسَانَهُ إِلَى  
قَوْمِهِ وَلَا يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إِلَّا صَرَفَ لِسَانَهُ إِلَى بَنِي  
إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَتَذْهَبُ يَا بُلْعَمُ مَا تَصْنَعُ؟ إِنَّمَا  
تَدْعُو لَهُمْ وَتَدْعُو عَلَيْنَا؟ قَالَ: فَهَذَا مَا لَا أَمْلِكُ. هَذَا شَيْءٌ  
قَدْ غَلَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ. قَالَ: وَانْدَلَعَ لِسَانُهُ فَوَقَعَ عَلَى صَدْرِهِ  
فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الْآنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَلَمْ يَبْقَ  
إِلَّا الْمَكْرُ وَالْحِيلَةُ فَسَأْمَكُرْ لَكُمْ وَأَخْتَالُ، جَمِّلُوا النِّسَاءَ  
وَأَعْطُوهُنَّ السَّلْعَ، ثُمَّ أَرْسِلُوهُنَّ إِلَى الْعَسْكَرِ يَبِغْتَنَّهُ فِيهِ،  
وَمُرُوهُنَّ فَلَا تَمْنَعُ امْرَأَةٌ نَفْسَهَا مِنْ رَجُلٍ أَرَادَهَا، فَإِنَّهُمْ إِنْ  
زَنَى رَجُلٌ مِنْهُمْ وَاحِدٌ كَفَيْتُمُوهُمْ، فَفَعَلُوا. فَلَمَّا دَخَلَ

(١) عبد الرزاق: ٤٤٣/٢ (٢) الطبري: ٢٥٣/١٣ (٣)

الطبري: ٢٦١/١٣ العوفي وعائلته من الضعفاء (٤) الطبري:

٢٥٣/١٣ (٥) الطبري: ٢٥٤/١٣ (٦) الطبري: ٢٥٣/١٣

(٧) الطبري: ٢٥٨/١٣ (٨) الطبري: ٢٦٠/١٣

أَنَّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ وَالضَّالِّ ضَعِيفٌ فَارْغُ مِنَ الْهُدَى فَهُوَ كَثِيرُ الْوَجِيبِ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذَا بِهَذَا. نُقِلَ نَحْوُهُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾ أَيُّ لَعَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَالَمِينَ بِحَالِ بُلْعَامَ، وَمَا جَرَى لَهُ فِي إِضْلالِ اللَّهِ إِيَّاهُ وَإِنْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ؛ بِسَبَبِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَعْلِيمِهِ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، فِي غَيْرِ طَاعَةِ رَبِّهِ، بَلْ دَعَا بِهِ عَلَى جِزْبِ الرَّحْمَنِ وَشَعْبِ الْإِيمَانِ، أَتْبَاعَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، كَلِمَ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيُّ فَيَحْذَرُوا أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاهُمْ عِلْمًا وَمَيَّزَهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَجَعَلَ بِأَيْدِيهِمْ صِفَةً مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْرفُونَهَا كَمَا يَعْرفُونَ أَتْبَاعَهُمْ، فَهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَمُتَابَعَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ، كَمَا أَخْبَرَهُمْ أَنْبِيَائُهُمْ بِذَلِكَ وَأَمَرَهُمْ بِهِ، وَلِهَذَا مَنْ خَالَفَ مِنْهُمْ مَا فِي كِتَابِهِ وَكَتَمَهُ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ الْعِبَادَ أَحَلَّ اللَّهُ بِهِ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا مَوْضُوعًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يَقُولُ تَعَالَى: سَاءَ مَثَلًا مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا أَيُّ: سَاءَ مَثَلُهُمْ أَنْ شَبَّهُوا بِالْكِلَابِ الَّتِي لَا هِمَّةَ لَهَا إِلَّا فِي تَحْصِيلِ أَكْثَلِ أَوْ شَهْوَةٍ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ جِزْرِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَأَقْبَلَ عَلَى شَهْوَةِ نَفْسِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ صَارَ شَبِيهَا بِالْكَلْبِ. وَبِئْسَ الْمَثَلُ مِثْلُهُ، وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ لَنَا مِثْلُ السَّوءِ، الْعَائِدُ فِي هَبْتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أَيُّ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَى، وَطَاعَةِ الْمَوْلَى، إِلَى الرُّكُودِ إِلَى دَارِ الْبِلَى، وَالْإِقْبَالِ عَلَى تَحْصِيلِ اللَّذَاتِ وَمُوَافَقَةِ الْهَوَى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا وَلِيكَ هُمْ

الْمُفْسِدُونَ﴾ (١٧٨)

يَقُولُ تَعَالَى مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ لَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لَا مَحَالَةَ. فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ:

(١) الطبري: ١٣/٢٦٥ (٢) فتح الباري: ٥/٢٨٨

النِّسَاءُ الْعَسْكَرَ مَرَّتْ إِمْرَأَةٌ مِنَ الْكُنْعَانِيِّينَ اسْمُهَا [كَنْسِي] ابْنَةُ صُورٍ - رَأْسُ أُتْمِيه - بِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ زَمْرِيُّ ابْنِ شَلُومَ رَأْسُ سِبْطِ شَمْعُونَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا رَأَاهَا أُعْجِبَتْهُ، فَقَامَ فَأَخَذَ يَدَيْهَا وَأَتَى بِهَا مُوسَى وَقَالَ: إِنِّي أَظُنُّكَ سَتَقُولُ هَذَا حَرَامٌ عَلَيْكَ لَا تَقْرُبُهَا؟ قَالَ: أَجَلْ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ لَا أَطِيعُكَ فِي هَذَا، فَدَخَلَ بِهَا فُبَّتَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الطَّاغُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ فِتْنَا حَاصٍ بَيْنَ الْعِيزَارِ بْنِ هَارُونَ صَاحِبِ أَمْرِ مُوسَى، وَكَانَ غَايِبًا حِينَ صَنَعَ زَمْرِيُّ بْنُ شَلُومَ مَا صَنَعَ، فَجَاءَ وَالطَّاغُونَ يَجُوسُ فِيهِمْ فَأَخْبَرَ الْخَبَرَ فَأَخَذَ حَرْبَتَهُ. وَكَانَتْ مِنْ حَدِيدٍ كُلِّهَا، ثُمَّ دَخَلَ الْقُبَّةَ وَهُمَا مُتَصَاحِبَانِ فَانْتَظَمَهُمَا بِحَرْبَتِهِ ثُمَّ خَرَجَ بِهِمَا رَافِعُهُمَا إِلَى السَّمَاءِ، وَالْحَرْبَةُ قَدْ أَخَذَهَا بِذِرَاعِهِ وَاعْتَمَدَ بِمِرْفَقِهِ عَلَى خَاصِرَتِهِ وَأَسْنَدَ الْحَرْبَةَ إِلَى [لِحْيَتِهِ] وَكَانَ بِكُرِّ الْعِيزَارِ - وَجَعَلَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَكَذَا نَفْعَلُ بِمَنْ يَعْصِيكَ. وَرُفِعَ الطَّاغُونَ، فَحُسِبَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الطَّاغُونَ فِيمَا بَيْنَ أَنْ أَصَابَ زَمْرِيُّ الْمَرْأَةَ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ فِتْنَا حَاصٍ، فَوَجَدُوهُ قَدْ هَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا. وَالْمُتَقَلِّلُ لَهُمْ يَقُولُ: عَشْرُونَ أَلْفًا. فِي سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ، فَمِنْ هُنَالِكَ تُعْطِي بَنُو إِسْرَائِيلَ وَلَدَ فِتْنَا حَاصٍ مِنْ كُلِّ ذَبِيحَةٍ ذَبَحُوهَا الرِّقَبَةَ وَالذِّرَاعَ وَاللِّحْيَ وَالْبِكْرَ مِنْ كُلِّ أُمُومَالِهِمْ وَأَنْفُسِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ بِكُرِّ أَبِيهِ الْعِيزَارِ، فَفِي بُلْعَامَ ابْنِ بَاغُورَاءَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَقْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَدَّ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثَ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ، فَعَلَى سِيَاقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِي النَّضْرِ: أَنَّ بُلْعَامًا ائْتَلَعَ لِسَانَهُ عَلَى صَدْرِهِ<sup>(١)</sup>، فَتَشَبَّهَ بِالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهِ إِنْ رُجِرَ وَإِنْ تَرَكَ ظَاهِرًا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَصَارَ مِثْلَهُ فِي ضَلَالِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ فِيهِ وَعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِالْدُّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ وَعَدَمِ الدُّعَاءِ، كَالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي حَالَتَيْهِ إِنْ حَمَلَتْ عَلَيْهِ وَإِنْ تَرَكَتْهُ هُوَ يَلْهَثُ فِي الْحَالَيْنِ. فَكَذَلِكَ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِالْمُوعِظَةِ وَالْدُّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَا عَدِمِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٤

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٤﴾  
 وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٥﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٧٨﴾ أُولَٰئِكَ يَنْفَكِرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٧٩﴾ أُولَٰئِكَ يَنْظُرُوا فِي مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدْرًا قَرِيبًا أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٠﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ يُنْقَلِتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكُمْ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

«إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾

[الْكَفْرُ وَالْقُدْرُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أَيَّ خَلَقْنَا وَجَعَلْنَا لِجَهَنَّمَ ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أَيَّ هَيَأْتَانَهُمْ لَهَا وَيَعْمَلُ أَهْلِهَا يَعْمَلُونَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ عَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ كَوْنِهِمْ فَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»<sup>(٢)</sup>.

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَمَسْأَلَةُ الْقَدْرِ كَبِيرَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يَعْنِي لَيْسَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سَبَبًا لِلْهُدَايَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] هَذَا فِي حَقِّ الْمُتَافِقِينَ.

وَقَالَ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وَلَمْ يَكُونُوا صُمًّا وَلَا بُكْمًا وَلَا عُمْيًا إِلَّا عَنْ الْهُدَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وَقَالَ: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَعْمَىٰ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزمر: ٢١] وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ﴾ أَيَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا

يُبْصِرُونَ الْهُدَى. كَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْخَوَاسِ مِنْهَا إِلَّا فِي الَّذِي يُقِيئُهَا فِي ظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُثُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١] أَيَّ وَمَثَلُهُمْ فِي حَالِ دُعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ كَمَثَلِ الْأَنْعَامِ إِذَا دَعَاهَا رَاعِيهَا لَا تَسْمَعُ إِلَّا صَوْتَهُ، وَلَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ. وَلِهَذَا قَالَ فِي هَؤُلَاءِ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أَيَّ مِنَ الدَّوَابِّ، لِأَنَّهَا قَدْ تَسْتَجِيبُ مَعَ ذَلِكَ لِرَاعِيهَا إِذَا أَسَسَ بِهَا، وَإِنْ لَمْ تَفْقَهُ كَلَامَهُ بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ. وَلِأَنَّهَا تَفْعَلُ مَا خُلِقَتْ لَهُ إِمَّا بِطَبْعِهَا وَإِمَّا بِتَسْخِيرِهَا بِخِلَافِ الْكَافِرِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ لِيُعْبَدَ اللَّهَ وَيُوحِدَهُ فَكَفَرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ.

وَلِهَذَا مَن أَطَاعَ اللَّهَ مِنَ الْبَشَرِ كَانَ أَشْرَفَ مِنْ مِثْلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي مَعَادِهِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ مِنَ الْبَشَرِ كَانَتْ الدَّوَابُّ

(١) أحمد: ١/٣٩٢ وأبو داود: ٥٩١/٢ وتحفة الأحوذى: ٤/

٢٣٧ والنسائي: ١٠٥/٣ وابن ماجه: ٦٠٩/١ (٢) مسلم: ٤/

ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَصُرُّهُمْ مَنْ خَدَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ. وَفِي رِوَايَةٍ: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» وَفِي رِوَايَةٍ: «وَهُمْ بِالشَّامِ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ وَوُجُوهَ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا سَأَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ» ﴿١٧٤﴾ قَطَعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَحَمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٥﴾ [الانعام: ٤٤، ٤٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَأُمْلِي لَهُمْ» أَيِّ وَسْأُمْلِي لَهُمْ، أَيُّ أُطَوِّلُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، «إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» أَيُّ قُوَّتِي شَدِيدٌ.

﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٧٦﴾ يَقُولُ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَنْفَكُّوْا» هُوَ لَا الْمُكَذَّبُونَ بِآيَاتِنَا «مَا بِصَاحِبِهِمْ» يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ «مِنْ جَنَّةٍ» أَيُّ لَيْسَ بِهِ جُحُومٌ، بَلْ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، دَعَا إِلَى حَقٍّ «إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» أَيُّ ظَاهِرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ لُبٌّ وَقَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ وَيَعْيِي بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا صَاحِبُكُمْ يَمْلِكُونَ» [التكوير: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْقَرِعِينَ» أَيُّ مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ، «ثُمَّ لَنَنْفَكُّوْا» فِي هَذَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِالرَّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ أَبَهِ جُحُومٌ أَمْ لَا، فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ: بَانَ لَكُمْ وَظَهَرَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا. وَقَالَ قَتَادَةُ بْنُ دَعَامَةَ: ذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى الصِّفَا فَدَعَا قُرَيْشًا، فَجَعَلَ يُفْخِخُهُمْ فَخِذًا فَخِذًا: يَا بَنِي فُلَانٍ! يَا بَنِي فُلَانٍ! فَحَذَرَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَوَقَائِعِ اللَّهِ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا لَمَجْنُونٌ بَاتَ يُصَوِّتُ إِلَى الصَّبَاحِ - أَوْ حَتَّى أَصْبَحَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:

أَتَمَّ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَقْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي

أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾

[يَبَيِّنُ أَسْمَاءَ اللَّهِ الْحُسْنَى]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوَثَرَ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup>. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ مِثْلَهُ.

ثُمَّ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ فِي تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بِدَلِيلٍ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ أُمِّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدَلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَشْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِّيتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبْعَ قَلْبِي، وَتُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَدَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَحًا» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قَالَ: «إِلْحَادُ الْمُلْحِدِينَ أَنْ دَعَوْا اللَّاتَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ»<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ» قَالَ: «اسْتَشْفُوا اللَّاتَ مِنْ اللَّهِ، وَالْعَرَى مِنَ الْعَزِيزِ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: يُلْحِدُونَ: يُشْرِكُونَ فِي أَسْمَائِهِ<sup>(٥)</sup>. وَأَصْلُ الْإِلْحَادِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْعُدُولُ عَنِ الْقَصْدِ، وَالْمَيْلُ وَالْجَوْرُ وَالْإِنْجِرَافُ، وَمِنْهُ: اللَّحْدُ فِي الْقَبْرِ لِإِنْجِرَافِهِ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ عَنْ سَمْتِ الْحَفْرِ.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا» أَيُّ بَعْضِ الْأُمَمِ «أُمَّةٌ» قَائِمَةٌ بِالْحَقِّ قَوْلًا وَعَمَلًا «يَهْدُونَ بِالْحَقِّ» يَقُولُونَهُ وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ «وَبِهِ يَعْدِلُونَ» يَعْمَلُونَ وَيَقْضُونَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَارِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ، هِيَ: هَذِهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي

(١) فتح الباري: ٤١٧/٥ ٢١٨/١١ ومسلم: ٢٠٦٢/٤ (٢)

أحمد: ٣٩١/١ (٣) الطبري: ٢٨٢/١٣ العوفي مَرَّارًا (٤)

الطبري: ٢٨٣/١٣ (٥) الطبري: ٢٨٣/١٣ (٦) فتح الباري:

١٥٢٤/٣ ومسلم: ٤٥١/١٣



﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾<sup>(١)</sup>.  
﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

يَقُولُ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَنْظُرُوا هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ بَيِّنَاتِنَا فِي مُلْكِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِيمَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ فِيهِمَا، فَيَتَذَكَّرُوا ذَلِكَ وَيَتَعَبَّرُوا بِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ لِمَنْ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ، وَمِنْ فِعْلِ مَنْ لَا يَتَّبِعِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ وَالِدِينُ الْخَالِصُ إِلَّا لَهُ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ وَيُصَدِّقُوا رَسُولَهُ، وَيُسَبِّحُوا إِلَى طَاعَتِهِ، وَيَخْلَعُوا الْأَنْدَادَ وَالْأَوْتَانَ، وَيَحْذَرُوا أَنْ تَكُونَ آجَالُهُمْ قَدِ اقْتَرَبَتْ فَيَهْلِكُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَيَصِيرُوا إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُولُ: فَيَأْتِي تَحْوِيلٌ وَتَحْذِيرٌ وَتَرْهيبٌ بَعْدَ تَحْذِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْهيبِهِ، الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي آيِ كِتَابِهِ، يُصَدِّقُونَ إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا هَادِيَ لَهُمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾<sup>(٣)</sup>  
يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ، وَلَوْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِيمَا نَظَرَ فَإِنَّهُ لَا يَجْزِي عَنْهُ شَيْئًا ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]  
وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآبَتِ وَالْأَنْدَادُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيُ عَتَاٍ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٤)</sup>

#### [بَيَانُ السَّاعَةِ وَأَسْرَاطِهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قِيلَ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ، وَقِيلَ: فِي نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ لَأَنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَكَانُوا يَسْأَلُونَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ اسْتِيعَادًا لَوُفُوعِهَا وَتَكْذِيبًا بِوُجُودِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ: مُتَّهَاهَا<sup>(٥)</sup>. أَيَّ مَتَى مَحْطُهَا وَأَيَّانَ آخِرُ مَدَّةِ الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ أَوَّلُ وَقْتِ السَّاعَةِ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجِيبُنَا لَوْفَتِهَا أَيَّ يَعْطِي جَلِيَّةَ أَمْرِهَا وَمَتَى يَكُونُ عَلَى التَّحْدِيدِ: لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ تَعَالَى وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٦)</sup>. قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الْحَسَنُ: إِذَا جَاءَتْ؛ ثَقُلَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. يَقُولُ: كَثُرَتْ عَلَيْهِمْ<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا يُصِيبُهُ مِنْ ضَرَرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: إِذَا جَاءَتْ انْشَقَّتِ السَّمَاءُ وَانْتَرَبَتِ الشُّجُومُ، وَكُورِبَتِ الشَّمْسُ، وَسِيرَتِ الْجِبَالُ، وَكَانَ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَذَلِكَ ثَقُلُهَا.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَقُولُ: خَفِيتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَلَا يَعْلَمُ قِيَامَهَا حِينَ تَقُومُ مِلْكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ<sup>(٩)</sup>. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ يَبْغِثُهُمْ قِيَامُهَا تَأْتِيهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ قَضَى اللَّهُ أَنَّهَا ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ قَالَ: وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ السَّاعَةَ تَهْبِجُ بِالنَّاسِ، وَالرَّجُلُ يَضْلِحُ حَوْضَهُ وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَا شِئْتَهُ، وَالرَّجُلُ يُقِيمُ سِلْعَتَهُ فِي السُّوقِ وَيَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَلَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَبْطَأُ بَيْنَهُمَا وَلَا يَطْوِيَانِهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِفْحَتِهِ فَلَا

(١) الطبري: ٢٨٩/١٣ (٢) الطبري: ٢٩٤/١٣ (٣) عبد الرزاق: ٢٤٤/٢ (٤) عبد الرزاق: ٢٤٥/٢ (٥) والضحاك لم يسمع من ابن عباس (٦) الطبري: ٢٩٥/١٣ (٧) الطبري: ١٣/٢٩٧

يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيْطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا»<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنَّا» يَقُولُ: كَأَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ كَأَنَّكَ صَدِيقٌ لَهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا سَأَلَ النَّاسُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ سَأَلُوهُ سُؤَالَ قَوْمٍ كَانَتْهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مُحَمَّدًا خَفِيَ بِهِمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَهُ إِشْتَارَ بِهِ، فَلَمْ يُطْلِعِ اللَّهُ عَلَيْهَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا رَسُولًا<sup>(٢)</sup>. وَالصَّحِيحُ عَنْ مُجَاهِدٍ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ وَغَيْرِهِ. «يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنَّا» قَالَ: أُسْتَحْفِيتْ عَنْهَا السُّؤَالُ حَتَّى عَلِمْتُ وَفَقْتُهَا.

وَلِهَذَا قَالَ: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أَمْرَ دِينِهِمْ، فَجَلَسَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَ السَّائِلِ الْمُسْتَرْشِدِ، وَسَأَلَهُ ﷺ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ عَنِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ عَنِ الْإِحْسَانِ، ثُمَّ قَالَ: فَمَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» أَيْ لَسْتُ أَعْلَمُ بِهَا مِنْكَ وَلَا أَحَدٌ أَعْلَمُ بِهَا مِنْ أَحَدٍ، ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» الْآيَةَ [لقمان: ٣٤].

وَفِي رِوَايَةٍ: فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَبَيَّنَ لَهُ أَشْرَاطَ السَّاعَةِ، ثُمَّ قَالَ: «فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ» وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَفِي هَذَا كُلُّهُ يَقُولُ لَهُ بَعْدَ كُلِّ جَوَابٍ: صَدَقْتَ، وَلِهَذَا عَجِبَ الصَّحَابَةُ مِنْ هَذَا السَّائِلِ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! ثُمَّ لَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ»<sup>(٣)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «وَمَا أَتَانِي فِي صُورَةٍ إِلَّا عَرَفْتُهُ فِيهَا، إِلَّا صُورَتُهُ هَذِهِ». وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَتْ الْأَعْرَابُ إِذَا قَلِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَيَنْظُرُ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ قَائِلًا: «إِنْ يَعْشَى هَذَا لَمْ يَذَرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»<sup>(٤)</sup>. يَعْنِي بِذَلِكَ مَوْتَهُمْ الَّذِي يُقْضِي بِهِمْ إِلَى الْحُصُولِ فِي بَرْزَخِ الدَّارِ الْآخِرَةِ. ثُمَّ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ يَعْشَى هَذَا الْعِلَامُ فَعَسَى أَنْ لَا يَذَرِكُهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»<sup>(٥)</sup> انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ: «تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ، وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ! مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنُفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَمَرَ مِثْلَهُ، قَالَ ابْنُ عَمَرَ: وَإِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِخْرَاجَ ذَلِكَ الْقُرْآنِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، فَذَكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ - قَالَ -: فَردُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَردُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا فَردُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى فَقَالَ عِيسَى: أَمَّا وَجِبَتْهَا فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيمَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الدَّجَالَ خَارِجٌ - قَالَ -: وَمَعِيَ فَضِيانٌ، فَإِذَا رَأَيْتَنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرِّصَاصُ، قَالَ: فَيَهْلِكُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا رَأَيْتَنِي حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَ وَالْحَجَرَ يَقُولُ: يَا مُسْلِمُ! إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، قَالَ: فَيَهْلِكُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ بِأَجُوجَ وَمَاجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَطْأُونَ بِلَادَهُمْ لَا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكَوْهُ وَلَا يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ. قَالَ: ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ فَيَسْكَوْنَهُمْ، فَأَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ فَيَهْلِكُهُمْ وَيُمِيتُهُمْ حَتَّى تَجُوزَ الْأَرْضُ مِنْ تَتْنٍ رِيحِهِمْ - أَيْ تَتْنُيْنِ - قَالَ: فَيُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَطَرَ فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَقْدِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ». قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: قَالَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ: ثُمَّ تُنْسَفُ الْجِبَالُ وَتُمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ هُشَيْمٍ، قَالَ: «فَفِيمَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمُتِمِّ لَا يَذَرِي أَهْلَهَا مَتَى تُفَاجِئُهُمْ يَوْلَادَتِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ نَحْوَهُ<sup>(٧)</sup>. فَهَؤُلَاءِ أَكْبَارُ أُولِي الْعِزَمِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ لَيْسَ عَنْدهُمْ عِلْمٌ بِوَقْتِ السَّاعَةِ عَلَى التَّعْيِينِ، وَإِنَّمَا رَدُّوا الْأَمْرَ إِلَى عِيسَى

(١) فتح الباري: ١١/٣٦٠ (٢) الطبري: ١٣/٢٩٨ فيه ضعف  
العوفي (٣) فتح الباري: ١/١٤٠ (٤) مسلم: ٤/٢٢٦٩ (٥)  
مسلم: ٤/٢٢٧٠ (٦) أحمد: ١/٣٧٥ (٧) ابن ماجه: ٢/١٣٦٥

عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَكَلَّمَ عَلَى أَشْرَاطِهَا لِأَنَّهُ يَنْزِلُ فِي آخِرِ هَذِهِ  
الْأُمَّةِ مُتَقَدِّمًا لِأَحْكَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقْتُلُ الْمَسِيحَ  
الدَّجَالَ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ هَلَكَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بِرَكَّةٍ دُعَائِهِ،  
فَأَخْبَرَ بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يَجْلِيهَا لَوْفَهَا  
إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وَلَكِنْ سَأَخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا  
يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا، إِنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةٌ وَهَرَجًا قَالُوا: يَا  
رَسُولَ اللَّهِ! الْفِتْنَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا الْهَرَجُ؟ قَالَ: «يَلْسَانُ  
الْحَبَشَةِ: الْقَتْلُ» قَالَ: «وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاقُرُ، فَلَا يَكَادُ  
أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا» (١) لَمْ يَزُوهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْكُتُبِ  
السُّنَّةِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: كَانَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَزَالُ يَذْكُرُ مِنْ شَأْنِ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ  
﴿سَتُكَلِّمُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَبَانٌ مُرْسَلًا﴾ [الأنبياء: ١٠١]. وَرَوَاهُ  
النَّسَائِيُّ (٢). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، فَهَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ سَيِّدُ  
الرُّسُلِ وَخَاتِمُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيُّ  
الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمُلْحَمَةِ، وَالْعَاقِبُ وَالْمُقَفِّي،  
وَالْحَاشِرُ الَّذِي تُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْهِ، مَعَ قَوْلِهِ فِيمَا  
تَبَيَّنَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» (٣). وَقَرَنَ  
بَيْنَ أَصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ  
أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ وَقْتِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: ﴿قُلْ  
إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ  
أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ  
أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ  
مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا  
تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا  
اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنِي صَاحِبًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾  
فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى  
اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ  
﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾  
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُوهُمْ  
أَمْ أَنْتُمْ صَاحِبُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
عِبَادُ أَثْمَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمُ الْكُرْمِ  
كَتُمْتُمْ صَدِيقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ آرَاجٌ يَمْشُونَ يَهَاهُ أَمْرُهُمْ أَيْدٍ  
يَبْطِشُونَ يَهَاهُ أَمْرُهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ يَهَاهُ أَمْرُهُمْ أَدَانٌ  
يَسْمَعُونَ يَهَاهُ قُلُوبٌ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ، لَوْ كُنْتُ  
أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَعْدَدْتُ لِلْسُّنَةِ الْمُجَدِّدَةِ مِنَ الْمُخْصِيَةِ وَلَوْفَتِ  
الْغُلَاءِ مِنَ الرُّخْصِ، فَاسْتَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الرُّخْصِ. وَقَالَ  
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: «وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ» قَالَ:  
لَا جَنَّبْتُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَانْقِصَتْ (١). ثُمَّ  
أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ، أَيْ نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ وَبَشِيرٌ  
لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ  
لِلْيَسَّارِ لِيُخْبِرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ  
أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ  
يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

[الرَّسُولُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا حَتَّى  
لِنَفْسِهِ]

أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُفَوِّضَ الْأُمُورَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُخْبِرَ عَنْ  
نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ الْمُسْتَقْبِلَ وَلَا اِطْلَاعَ لَهُ عَلَى  
شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ... [الأنبياء: ٢٦].  
قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ  
الْغَيْبَ لَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أَيْ مِنَ الْمَالِ. وَفِي رِوَايَةٍ:  
لَعَلِمْتُ - إِذَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا - مَا أَرَبْتُ فِيهِ، فَلَا أَبِيعُ شَيْئًا  
إِلَّا رِبَحْتُ فِيهِ «وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ» وَلَا يُصِيبُنِي الْفَقْرُ (٥).

(١) أحمد: ٣٨٩/٥ (٢) الطبري: ٢٩٢/١٣ (٣) النسائي في  
الكبرى: ٥٠٦/٦ (٤) فتح الباري: ٣٥٥/١١ (٥) الدر  
المثور: ٦٢٢/٣ الضحاك مَرَّ حَكَمَهُ (٦) الطبري: ٣٠٢/١٣

يُشْرِكُونَ ﴿١٩١﴾

[كُلُّ النَّاسِ أَوْلَادُ آدَمَ]

وَعَنْهُ قَالَ: عَنِ بِهَا ذُرِّيَّةَ آدَمَ وَمَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ بَعْدَهُ  
يَعْنِي ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ (١٩٢).

وَعَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: هُمُ الْيَهُودُ،  
وَالنَّصَارَى رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَوْلَادًا فَهَوِّدُوا وَنَصَّرُوا (١٩٣). وَهَذِهِ  
أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ عَنِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ فَسَّرَ الْآيَةَ  
بِذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ التَّفَاسِيرِ وَأَوَّلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ  
الْآيَةُ.

وَأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ آدَمَ وَحَوَّاءَ، وَإِنَّمَا  
الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ: الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَهُوَ كَالِاسْتِطْرَادِ  
مِنْ ذِكْرِ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ رَزَقَنَا السَّمَاءَ  
الْأُولَى بِمِصْرَاحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّ  
الْمِصْرَاحَ وَهِيَ النُّجُومُ الَّتِي رُزِّقَتْ بِهَا السَّمَاءُ لَيْسَتْ هِيَ  
الَّتِي يُزْمَى بِهَا، وَإِنَّمَا هَذَا اسْتِطْرَادٌ مِنْ شَخْصِ الْمِصْرَاحِ  
إِلَى جِنْسِهَا، وَلِهَذَا نَظَّارٌ فِي الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْفُونَ﴾ (١٩٤) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ  
نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٥﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا  
يَسْتَجِيبُوا سِوَاكَ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتَ صَمِيمٌ ﴿١٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا  
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٧﴾ أَلَهُمْ رُجُلٌ يَمْسُحُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ  
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ  
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ  
رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٩﴾ وَالَّذِينَ  
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ  
يَنْصُرُونَ ﴿٢٠٠﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْكُهُمْ  
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾

[الْهَةُ الْمُشْرِكِينَ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَنْصُرُ وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا]

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ  
غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ  
مَرْبُوبَةٌ مَصْنُوعَةٌ، لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ وَلَا تَنْصُرُ وَلَا  
تَنْفَعُ، وَلَا تَبْصُرُ وَلَا تَنْصُرُ لِعِبَادِيهَا، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا

يُبْنِيهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ. وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَتَهُ حَوَّاءَ ثُمَّ انْتَشَرَ النَّاسُ  
مِنْهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ  
وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ  
أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا  
رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأنعام: ١٢١]  
وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا  
لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أَيْ لِيَأْلَفَهَا وَيَسْكُنَ بِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ  
ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ  
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] فَلَا أَلْفَةَ بَيْنَ زَوْجَيْنِ  
أَعْظَمَ مِمَّا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ السَّاجِرَ رُبَّمَا  
تَوَصَّلَ بِكَيْدِهِ إِلَى التَّفَرِّقَةِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

﴿فَلَمَّا تَعَاشَرَا﴾ أَيْ وَطَّئَا ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾  
وَذَلِكَ أَوَّلُ الْحَمْلِ لَا تَجِدُ الْمَرْأَةَ لَهُ أَلَمًا، إِنَّمَا هِيَ النُّطْفَةُ  
ثُمَّ الْعَلَقَةُ ثُمَّ الْمُضْغَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: اسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهِ (١).  
وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالسُّدِّيَّ نَحْوَهُ (٢).  
وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ عَنْ أَبِيهِ: اسْتَحَفَّتْهُ. وَقَالَ أَيُّوبُ:  
سَأَلْتُ الْحَسَنَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قَالَ: لَوْ كُنْتُ رَجُلًا  
عَرَبِيًّا لَعَرَفْتُ مَا هِيَ؟ إِنَّمَا هِيَ فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ (٣). وَقَالَ  
قَتَادَةُ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا (٤). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:  
مَعْنَاهُ اسْتَمَرَّتْ بِالْمَاءِ قَامَتْ بِهِ وَقَعَدَتْ (٥). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: اسْتَمَرَّتْ بِهِ فَشَكَتْ أَحْمَلْتُ أَمْ لَا؟ ﴿فَلَمَّا  
أَفْلَحَتْ﴾ أَيْ صَارَتْ ذَاتَ ثَقُلٍ بِحَمْلِهَا (٦). وَقَالَ السُّدِّيُّ:  
كَبُرَ الْوَلَدُ فِي بَطْنِهَا (٧). ﴿دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا﴾  
أَيْ بَشَرًا سَوِيًّا، كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَشْفَقَا  
أَنْ يَكُونَ بَهِيمَةً (٨). وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الْبَخْرِيِّ وَأَبُو مَالِكٍ:  
أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُونَ إِنْسَانًا (٩).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَئِنْ آتَيْنَا غُلَامًا (١٠). ﴿لَنَكُونَنَّ  
مِنَ الْمُشْكِرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا  
ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا  
ءَاتَاهُمَا﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ الْوِلْدَانِ وَلَمْ يَكُنْ  
بِأَدَمَ (١١).

(١) الطبري: ٣٠٥/١٣ (٢) الطبري: ٣٠٥، ٣٠٤/١٣ (٣)

الطبري: ٣٠٤/١٣ (٤) الطبري: ٣٠٥/١٣ (٥) الطبري:

٣٠٤/١٣ (٦) الطبري: ٣٠٥/١٣ (٧) الطبري: ٣٠٥/١٣

(٨) الطبري: ٣٠٦/١٣ (٩) الطبري: ٣٠٦/١٣ (١٠)

الطبري: ٣٠٦/١٣ (١١) الطبري: ٣١٤/١٣ (١٢) الطبري:

٣١٤/١٣ (١٣) الطبري: ٣١٥/١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٧٦﴾  
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا  
أَنْفُسَهُمْ يَصُدُّونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا  
وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ  
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٧٩﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ  
الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٠﴾ إِنَّ  
الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا  
فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٨١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ  
لَا يُقْصِرُونَ ﴿١٨٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا أَلَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا  
قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحِي إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ  
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ  
فَأَسْمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٨٤﴾ وَأَذْكُرَنَّكَ  
فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ  
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٨٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ  
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿١٨٦﴾

اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَجَعَلَ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ مَا وَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ الآية، يعني  
أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهَا، وَسَوَاءٌ لَدَيْهَا مَنْ  
دَعَاهَا وَمَنْ دَحَاهَا، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿يَتَّبِعْتُمْ لِمَ تَقْبَلُ مَا لَا  
يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مریم: ٤٢] ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى  
أَنَّهَا عَبِيدٌ مِثْلَ عَابِدِيهَا أَيْ مَخْلُوقَاتٌ مِثْلَهُمْ، بَلِ الْإِنْسَانِيُّ  
أَكْمَلُ مِنْهَا، لِأَنَّهَا تَسْمَعُ وَتُبْصِرُ وَتَبْطِشُ، وَتِلْكَ لَا تَفْعَلُ  
شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أَيْ  
اسْتَغْنُوا بِهَا عَلَيَّ فَلَا تُؤْخِرُونِي طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَاجْهَدُوا  
جَهْدَكُمْ ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾  
أَيَّ اللَّهُ حَسْبِي وَكَافِي، وَهُوَ نَصِيرِي وَعَلَيْهِ مُتَكَلِّي وَإِلَيْهِ  
الْجَأُ، وَهُوَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ صَالِحٍ  
بَعْدِي. وَهَذَا كَمَا قَالَ هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لَهُ قَوْمُهُ:  
﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا  
أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٦٧] مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا  
تُظْهِرُونِ ﴿٦٨﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ

تَتَحَرَّكَ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَعَابِدُوهَا أَكْمَلُ مِنْهَا  
يَسْمَعُهُمْ وَيَبْصِرُهُمْ وَيُطِيبُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُبَشِّرُكُمْ مَا لَا  
يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أَيْ أُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ مَا لَا  
يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ  
ضَرْبٌ مِثْلُ مَا اسْتَجَعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا لَلْذَّبَابُ شَيْئًا لَا  
يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّلَبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٦﴾ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ  
حَقَّ فَكْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] أَخْبَرَ  
تَعَالَى أَنَّ إِلَهُتَهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا خَلْقَ ذُبَابَةٍ  
بَلْ لَوْ سَلَبْتَهُمُ الذُّبَابَةَ شَيْئًا مِنْ حَقِيرِ الْمَطَاعِمِ وَطَارَتْ، لَمَا  
اسْتَطَاعُوا إِنْقَادَهُ مِنْهَا، فَمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَحَالُهُ كَيْفَ يُعْبَدُ -  
لِيُزَوَّقَ - وَيُسْتَنْصَرُ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ  
يُخْلِقُونَ﴾ أَيْ بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ مَصْنُوعُونَ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ:  
﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ﴾ الآية [الصافات: ٩٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا﴾ أَيْ لِعَابِدِيهِمْ  
﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصُدُّونَ﴾، يَعْنِي وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ مِمَّنْ  
أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ، كَمَا كَانَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
يَكْسِرُ أَصْنَامَ قَوْمِهِ وَيُهِنُهَا غَايَةَ الْإِهَانَةِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى  
عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣] وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا ثُمَّ لَعَلَهُمْ إِلَيْهِ  
يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] وَكَمَا كَانَ مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ  
الْجُمُوحِ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَكَانَا شَابِئِينَ قَدْ  
أَسْلَمَا لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَكَانَا يَعْدُوَانِ فِي  
اللَّيْلِ عَلَى أَصْنَامِ الْمُشْرِكِينَ يَكْسِرَانِهَا وَيُتْلِفَانِهَا وَيَتَخَذَانِهَا  
حَطَبًا لِلْأَرَامِلِ لِيَعْتَبَرَ قَوْمُهُمَا بِذَلِكَ، وَيَزَوُّوا لِأَنْفُسِهِمْ،  
فَكَانَ لِعَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ - وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ - صَنْمٌ  
يَعْبُدُهُ وَيُطِيبُهُ، فَكَانَا يَجِيئَانِ فِي اللَّيْلِ فَيَنْكَسِرَانِهِ عَلَى رَأْسِهِ  
وَيُلَطِّخَانِهِ بِالْعَذَرَةِ، فَيَجِيءُ عَمْرٍو بْنُ الْجُمُوحِ فَيَرَى مَا  
صَنَعَ بِهِ، فَيَغْسِلُهُ وَيُطِيبُهُ وَيَضَعُ عَنْدَهُ سِنْفًا وَيَقُولُ لَهُ:  
اَنْتَصِرْ، ثُمَّ يَعْدُوَانِ لِمِثْلِ ذَلِكَ، وَيَعُودُ إِلَى صَنِيعِهِ أَيْضًا،  
حَتَّى آخِذَاهُ مَرَّةً فَقَرَنَاهُ مَعَ [حَبْرٍ] كَلْبٍ مَيِّتٍ، وَدَلِيلَاهُ فِي  
حَبْلِ فِي بَيْتٍ هُنَاكَ، فَلَمَّا جَاءَ عَمْرٍو بْنُ الْجُمُوحِ وَرَأَى  
ذَلِكَ، نَظَرَ فَقَلِمَ أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ بَاطِلٌ، وَقَالَ:

نَالَهُ لَوْ كُنْتُ إِلَهًا مُسْتَدِنٌ

لَمْ تَكْ وَالْكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ

ثُمَّ أَسْلَمَ فَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، وَقِيلَ يَوْمَ أُخِذَ شَهِيدًا رَضِيَ

وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الْعُرْفُ: الْمَعْرُوفُ. ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ بْنُ حُذْفَةَ، فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُذْنِبُهُمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسٍ عُمَرُ وَمُشَاوَرَتِهِ كُتُوبًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أُخِي! لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَاذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَاذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَاذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَ اللَّهُ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوَفِّعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٨)</sup>. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ.

وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ مَعْنَى الْآيَةِ، فَسَبَّكَ فِي بَيِّنَةٍ فِيهِمَا جَنَاسٌ، فَقَالَ:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفِ كَمَا

أَمَرْتَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

وَلَنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ

فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَوَالِينِ

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: النَّاسُ رَجُلَانِ، فَرَجُلٌ مُحْسِنٌ

فَخُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَلَا تُكَلِّفُهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ وَلَا

مَا يُحْرِجُهُ. وَإِمَّا مُسِيءٌ فَمُرْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ تِمَادَى

عَلَى ضَلَالِهِ وَاسْتَعْصَى عَلَيْكَ وَاسْتَمَرَّ فِي جَهْلِهِ،

فَأَعْرِضْ عَنْهُ، فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾<sup>(٩)</sup> وَقُلْ

رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ<sup>(١٠)</sup> وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ

الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(١١)</sup> وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا

بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] وَكَقَوْلِ الْخَلِيلِ: ﴿أَسْتَعِزُّ بِأَبَائِكُمُ الْآقَمُونَ﴾<sup>(١٢)</sup> فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ<sup>(١٣)</sup> الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٦-٧٨]، وَكَقَوْلِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِينَ﴾<sup>(١٤)</sup> وَصَلَّاهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٧، ٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، مُؤَكَّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ إِلَّا أَنَّهُ بِصِيغَةِ الْخُطَابِ وَذَلِكَ بِصِيغَةِ الْغَيْبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاكُمْ﴾ [الآية: فاطر: ١٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إِنَّمَا قَالَ: ﴿يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ يَقَابِلُونَكَ بِعُيُونٍ مُصَوَّرَةٍ كَأَنَّهَا نَاطِرَةٌ وَهِيَ جَمَادٍ. وَلِهَذَا عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةً مَنْ يَعْقِلُ لِأَنَّهَا عَلَى صُورَةٍ مُصَوَّرَةٍ كَالْإِنْسَانِ، وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ، فَعَبَّرَ عَنْهَا بِضَمِيرٍ مَنْ يَعْقِلُ.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(١٥)</sup> وَإِمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ<sup>(١٦)</sup> [الْأَمْرُ بِالْعَفْوِ]

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ<sup>(١٧)</sup>. وَقَالَ غَيْرٌ وَاحِدٌ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قَالَ: مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجَسُّسٍ<sup>(١٨)</sup>. وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ<sup>(١٩)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ قَالَ: خُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ هِشَامَ عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ عَنْ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: إِنَّمَا أُنْزِلَ ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ<sup>(٢٠)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ لِيَعْبُورِهِ: عَنْ هِشَامَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ<sup>(٢١)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ: عَنْ هِشَامَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ<sup>(٢٢)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ جَمِيعًا: حَدَّثَنَا يُونُسُ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ هُوَ ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ [أُمِّ] قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ أَنْ تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ،

(١) الطبري: ٣٢٨/١٣ (٢) الطبري: ٣٢٧/١٣ (٣) الطبري:

٣٢٧/١٣ (٤) فتح الباري: ١٥٥/٨ (٥) فتح الباري: ٨/

١٥٦ (٦) فتح الباري: ١٥٦/٨ (٧) الطبري: ١٥٤/٦ وابن

أبي حاتم: ١٦٣٨/٥ (٨) فتح الباري: ١٥٥/٨

كَانُوا فِيهِ.

[إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ يَمْدُونُ فِي الْعَنِيِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وإِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ﴾ أَيُّ وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْمَذِينِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الاسراء: ٢٧] وَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُسْتَمِعُونَ لَهُمْ، الْقَابِلُونَ لِأَمْرِهِمْ ﴿يَمْدُونَهُمْ فِي الْعَنِيِّ﴾ أَيُّ تُسَاعِدُهُمُ الشَّيَاطِينُ عَلَى الْمَعَاصِي وَتُسَهِّلُهَا عَلَيْهِمْ وَتَحْسِنُهَا لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الْمَدُّ: الزِّيَادَةُ يَعْنِي يَزِيدُونَهُمْ فِي الْعَنِيِّ، يَعْنِي الْجَهْلَ وَالسَّفَهَ. ﴿ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ الشَّيَاطِينِ تَمُدُّ [و] الْإِنْسَ لَا تُفْصِرُ فِي أَعْمَالِهِمْ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وإِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْعَنِيِّ ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: لَا الْإِنْسُ يُفْصِرُونَ عَمَّا يَعْمَلُونَ، وَلَا الشَّيَاطِينُ تُمَسِّكُ عَنْهُمْ<sup>(١)</sup>. ﴿لَا يُفْصِرُونَ﴾ لَا تَقْتَرُ فِيهِ وَلَا تَبْطُلُ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزَّعُوا﴾ [مريم: ٨٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: تُزْعِجُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي إِزْعَاجًا<sup>(٢)</sup>.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجَبَتْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِمَا يَبُوحُ إِلَٰهٌ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ﴾

[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا لَوْلَا آجَبَتْنَاهَا﴾ يَقُولُ: لَوْلَا تَلَقَّيْنَاهَا. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: لَوْلَا أَحَدَثْنَاهَا فَأَسْتَأْنَاهَا<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجَبَتْنَاهَا﴾ قَالَ: لَوْلَا اقْتَضَيْنَاهَا، قَالُوا: تُنْخَرِجُهَا عَنْ نَفْسِكَ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٦)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ أَيُّ مُعْجِزَةٍ وَخَارِقٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ شَاءَ نَزَّلْنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَطَلَتْ أَغْصَانُهُمْ لَهَا خَضِرُونَ﴾ [الشعراء: ٤] يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ: أَلَا تَجْهَدُ نَفْسَكَ فِي طَلَبِ الْآيَاتِ مِنَ اللَّهِ، حَتَّى تَرَاهَا وَتُؤْمِنَ بِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِمَا يَبُوحُ إِلَٰهٌ مِنْ رَبِّي﴾ أَيُّ أَنَا لَا

(١) الطبري: ٣٣٢/١٣ (٢) الطبري: ٣٣٨/١٣ (٣) الطبري: ٣٤١/١٣

(٤) الطبري: ٣٤١/١٣ (٥) الطبري: ٣٤١/١٣ (٦) الطبري: ٣٤٢

وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ ﴿وَلَمَّا يَزْعَمَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ أَيْضًا: ﴿وَلَمَّا يَزْعَمَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فَهَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي الْأَعْرَافِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَحَمَّ السَّجْدَةِ لَا رَابِعَ لَهُنَّ، فَإِنَّهُ تَعَالَى، يُرْشِدُ فِيهِنَّ إِلَى مُعَامَلَةِ الْعَاصِي مِنَ الْإِنْسِ بِالْمَعْرُوفِ بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكْفُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ التَّمَرُّدِ بِإِذْنِهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا أَلَذَّى يَبْنُكَ وَيَبْنِيكَ عَدَاوَةً كَانَتْ وَلِيَّ حَمِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤] ثُمَّ يُرْشِدُ تَعَالَى إِلَى الْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجَانِّ، فَإِنَّهُ لَا يَكْفُهُ عَنْكَ الْإِحْسَانُ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ هَلَاكَكَ وَدَمَارَكَ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَكَ وَلِأَيِّكَ مِنْ قَبْلِكَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا يَزْعَمَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ وَإِنَّمَا يُغْضِبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِ وَيَحْمِلُكَ عَلَى مُجَازَاتِهِ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يَقُولُ: فَاسْتَجِرْ بِاللَّهِ مِنْ نَزْعِهِ ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سَمِيعٌ لِيَجْهَلَ الْجَاهِلُ عَلَيْكَ وَالْإِسْتِعَاذَةَ بِهِ مِنْ نَزْعِهِ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامٍ خَلَقَهُ. لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، عَلِيمٌ بِمَا يُذْهِبُ عَنْكَ نَزْعَ الشَّيْطَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ خَلَقَهُ<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَحَادِيثَ الْإِسْتِعَاذَةِ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ أَحَدٌ إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

يُفْصِرُونَ﴾

[عَمَلُ أَهْلِ التَّقْوَى عِنْدَ الْوَسْوَسَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَطَاعُوهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكُوا مَا عَنْهُ زَجَرَ، أَنَّهُمْ ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أَيُّ أَصَابَهُمْ (طِيفٌ). وَقَرَأَ الْآخَرُونَ ﴿طَلِيفٌ﴾ وَهُمَا قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ، قِيلَ: بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَقِيلَ: بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالْغَضَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِمَسِّ الشَّيْطَانِ بِالْصَّرْعِ وَنَحْوِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْهَمِّ بِالذَّنْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِإِصَابَةِ الذَّنْبِ وَقَوْلُهُ: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أَيُّ عِقَابَ اللَّهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَوَعْدُهُ، وَوَعِيدُهُ، فَتَابُوا وَأَنَابُوا وَاسْتَعَاذُوا بِاللَّهِ وَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أَيُّ قَدْ اسْتَقَامُوا وَصَحُّوا وَمَا

الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية. وَإِنَّمَا ذَكَرَهُمْ بِهَذَا لِيُفْتَدَى بِهِمْ فِي كَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، وَلِهَذَا شَرَعَ لَنَا السُّجُودَ هَهُنَا - لِمَا ذَكَرَ سُجُودَهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، يُثْمِنُونَ الصُّفُوفَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»<sup>(٣)</sup>. وَهَذِهِ أَوَّلُ سَجْدَةٍ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يُشْرَعُ لِتَالِيهَا وَمُسْتَمْعِهَا السُّجُودَ بِالْإِجْمَاعِ.

### تفسير سورة الأنفال وهي مدنيّة

آيَاتُهَا سَبْعُونَ وَخَمْسُ آيَاتٍ. كَلِمَاتُهَا: أَلْفُ كَلِمَةٍ وَسِتِّمِائَةِ كَلِمَةٍ، وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ كَلِمَةً. حُرُوفُهَا: خَمْسَةٌ أَلْفٍ وَمِائَتَانِ وَأَرْبَعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفًا. وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

[تفسير الأنفال]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَنْفَالُ: الْمَغَانِمُ، ثُمَّ رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سُورَةُ الْأَنْفَالِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ<sup>(٤)</sup>. أَمَّا مَا عَلَّقَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْأَنْفَالُ: الْغَنَائِمُ، كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَالِصَةً لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهَا شَيْءٌ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ، وَعَطَاءٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَشْلَمَ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّهَا الْمَغَانِمُ<sup>(٦)</sup>. [وَقِيلَ: أَلْتَقُلُ مَا يُقَالُ الْإِمَامُ لِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ، مِنْ سَلَبٍ أَوْ نَحْوِهِ بَعْدَ قَسَمِ أَصْلِ الْمُغْنَمِ، وَقِيلَ: هُوَ الْخُمْسُ بَعْدَ الْأَرْبَعَةِ مِنْ

أَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا أَتَيْتُ مَا أَمَرَنِي بِهِ، فَأَمْتِثِلُ مَا يُوحِيهِ إِلَيَّ، فَإِنْ [بَعَثَ] آيَةً قَبِلْتُهَا وَإِنْ مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ ابْتِدَاءً إِنِّي أَهْمًا، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ أَكْثَرُ الْمُعْجَزَاتِ وَأَبْيُنُ الدَّلَالَاتِ وَأَصْدَقُ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ، فَقَالَ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾<sup>(٧)</sup>  
[الْأَمْرُ بِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا لَهُ وَاخْتِرَامًا، لَا كَمَا كَانَ يَعْتمِدُهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ، الْمُشْرِكُونَ، فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَى فِيهِ﴾ الآية [فصلت: ٢٦]. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كُنَّا نُسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الصَّلَاةِ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾<sup>(٨)</sup>.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾<sup>(٩)</sup> إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ وَلَهُمْ يُسْجَدُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>

[الْأَمْرُ بِالذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ كَثِيرًا، كَمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَ الصَّلَاةَ الْخُمُسَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، وَهَذِهِ آيَةُ مَكِّيَّةٌ. وَقَالَ هَهُنَا: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ، ﴿وَالْآصَالِ﴾ جَمْعُ أَصِيلٍ، كَمَا أَنَّ الْأَيْمَانَ جَمْعُ يَمِينٍ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أَيُّ أَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً وَبِالْقَوْلِ لَا جَهْرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ﴾ وَهَكَذَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ لَا يَكُونُ نِدَاءً وَجَهْرًا بَلِيغًا.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالِدُعَاءِ فِي بَعْضِ الْأَسْفَارِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! ارْزِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقٍ رَاحِلَتِهِ»<sup>(١١)</sup>. وَالْمُرَادُ: الْحَضَرُ عَلَى كَثْرَةِ الذِّكْرِ مِنَ الْعِبَادَةِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، لِئَلَّا يَكُونُوا مِنَ الْغَافِلِينَ، وَلِهَذَا مَدَحَ

(١) إسناده منقطع: المسيب بن رافع لم يسمع من عبد الله بن مسعود شيئًا كما قال أحمد وأبو حاتم الرازي [جامع التحصيل وتهذيب التهذيب] (٢) فتح الباري: ١٥٧/٦ ومسلم: ٢٠٧٧/٤ (٣) مسلم: ٣٢٢/١ (٤) فتح الباري: ١٥٦/٨ (٥) الطبري: ٣٧٨/١٣ (٦) الطبري: ٣٦١/١٣



سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ  
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ  
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ  
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ  
يُسِفُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ  
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ  
مِنَ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾  
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ  
وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا  
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ  
وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ  
﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ إِذَا أَغَارَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ نَفَلَ الرَّبْعَ، فَإِذَا أَقْبَلَ  
[وَكُلُّ النَّاسِ] رَاجِعًا نَفَلَ الثَّلَثَ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْأَنْفَالَ<sup>(٤)</sup>.  
[وَيَقُولُ:] لِيَزِدَ قُوَّةَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ضَعْفِهِمْ]. وَرَوَاهُ  
التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ نَحْوَهُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ  
حَسَنٌ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَيِ  
اتَّقُوا اللَّهَ فِي أُمُورِكُمْ، وَأَصْلِحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَلَا تَظَالَمُوا  
وَلَا تَخَاصَمُوا، وَلَا تَسْأَجِرُوا، فَمَا آتَاكُمْ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى  
وَالْعِلْمِ خَيْرٌ مِمَّا تَخْتَصِمُونَ بِسَبِيلِهِ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾  
أَيِ فِي قِسْمِهِ بَيْنَكُمْ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَقْسِمُهُ كَمَا  
أَمَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا

الْأَخْمَاسِ. وَقِيلَ: هُوَ الْفَيْءُ. وَهُوَ مَا أَخَذَ مِنَ الْكُفَّارِ  
مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، وَمَا شَذَّ مِنْهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ دَابَّةٍ أَوْ  
عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ أَوْ مَتَاعٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ  
صَالِحِ ابْنِ حَيٍّ قَالَ: بَلَغَنِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ  
الْأَنْفَالِ﴾: قَالَ: السَّرَايَا. وَمَعْنَى هَذَا مَا يُنْفَلُهُ الْإِمَامُ لِبَعْضِ  
السَّرَايَا زِيَادَةً عَلَى قِسْمِهِمْ مَعَ بَقِيَّةِ الْجَيْشِ.

### [سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا  
رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ شَفَانِي اللَّهُ الْيَوْمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَهَبْ لِي  
هَذَا السَّيْفَ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَا لَكَ وَلَا لِي، ضَعْنَاهُ»  
قَالَ: فَوَضَعْنَاهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ قُلْتُ: عَسَى أَنْ يُعْطَى هَذَا  
السَّيْفَ مَنْ لَا يُبْلِي بِلَايَتِي، قَالَ: فَإِذَا رَجُلٌ يَدْعُونِي مِنْ  
وَرَائِي قَالَ: قُلْتُ: قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيَّ شَيْئًا؟ قَالَ ﷺ: «كُنْتُ  
سَأَلْتُنِي السَّيْفَ وَلَيْسَ هُوَ لِي، وَإِنَّهُ قَدْ وَهَبَ لِي، فَهُوَ  
لَكَ». قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ  
الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ  
وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٢)</sup>.

### سَبَبُ آخَرٍ فِي نَزُولِ الْآيَةِ

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عِبَادَةَ  
عَنِ الْأَنْفَالِ؟ فَقَالَ: فِينَا - أَصْحَابَ بَدْرٍ - نَزَلَتْ، حِينَ  
اخْتَلَفْنَا فِي النِّقْلِ، وَسَاعَتْ فِيهِ أَخْلَافُنَا، فَأَنْتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ  
أَيْدِينَا وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَوَاءٍ - يَقُولُ: عَنْ سِوَاءٍ -<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى  
الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،  
قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا،  
فَالْتَقَى النَّاسُ، فَهَزَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَدُوَّ، فَاَنْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي  
آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ، وَأَقْبَلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ  
يُحَوِّزُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ، وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا  
يُصِيبُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غَرَّةٌ، حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَفَاءَ النَّاسُ  
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ: نَحْنُ  
حَوَائِنَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ. وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي  
طَلَبِ الْعَدُوِّ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا، نَحْنُ مَنَعْنَا عَنْهُ الْعَدُوَّ  
وَهَرَمْنَاهُمْ. وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: [لَسْتُمْ  
بِأَحَقَّ مِنَّا نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ] خِفْنَا أَنْ يُصِيبَ  
الْعَدُوُّ مِنْهُ غَرَّةٌ فَاسْتَعْلَنَّا بِهِ. فَتَزَلَّتْ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ  
الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾

(١) أحمد: ١٧٨/١ (٢) أبو داود: ١٧٧/٣ وتحفة الأحوزي:

٤٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦ (٣) أحمد: ٣٢٢/٥

(٤) أحمد: ٣٢٣/٥ (٥) تحفة الأحوزي: ٤٦٨/٨ وابن ماجه:

الآيَةِ وَأَشْبَاهَهَا عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَفَاضُلِهِ فِي الْقُلُوبِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ، بَلْ قَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيِّمَةِ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ. كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ مُسْتَقْصَى فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

### [بَيَانُ التَّوَكُّلِ]

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أَيُّ لَا يَرْجُونَ سِوَاهُ، وَلَا يَقْضُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يُلْذَنُونَ إِلَّا بِجَنَابِهِ، وَلَا يَطْلُبُونَ الْحَوَائِجَ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يَرْغَبُونَ إِلَّا إِلَيْهِ، وَاتَّهَ الْمُتَصَرِّفُ فِي شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَاتَّهَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَلِهَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ جَمَاعُ الْإِيمَانِ.

### [بَيَانُ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يُنْبِئُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بَعْدَمَا ذَكَرَ اعْتِقَادَهُمْ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ تَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْخَيْرِ كُلِّهَا، وَهُوَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَهُوَ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا وَوُضُوءِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: إِقَامَتُهَا الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا، وَإِسْبَاغُ الطَّهْوَرِ فِيهَا، وَتِمَامُ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَالتَّسْهُدُ وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. هَذَا إِقَامَتُهَا<sup>(٢)</sup>. وَالْإِنْفَاقُ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ: يَشْمَلُ إِخْرَاجَ الزَّكَاةِ وَسَائِرِ الْحَقُوقِ لِلْعِبَادِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ. وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِبَالُ اللَّهِ فَاحْبَبَهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعَهُمْ لِحَلْقِهِ.

### [بَيَانُ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، أَيِ الْمُتَصَرِّفُونَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا الْإِيمَانِ.

### [تَمَرَّةُ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ مَنَازِلُ وَمَقَامَاتُ وَدَرَجَاتُ فِي الْجَنَّاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣] ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾

تَحْرِيجٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [عَلَى الْمُؤْمِنِينَ] أَنْ يَقْتُلُوا [اللَّهُ] وَيُضْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَيِ لَا تَسْتَبُوا<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ

عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

### [أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. قَالَ: الْمُنَافِقُونَ لَا يَدْخُلُ قُلُوبُهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ آدَاءِ فَرَائِضِهِ. وَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُونَ، وَلَا يُصَلُّونَ إِذَا غَابُوا، وَلَا يُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَأَدَّوْا فَرَائِضَهُ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يَقُولُ: زَادَتْهُمْ تَصْدِيقًا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يَقُولُ: لَا يَرْجُونَ غَيْرَهُ<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَرَقْتُ أَيِ فَرِغْتُ وَخَافْتُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ - حَقِّ الْمُؤْمِنِ - الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَ قَلْبُهُ<sup>(٦)</sup>.

أَيِ خَافَ مِنْهُ، فَفَعَلَ أَوَامِرَهُ وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ

فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبْصِرُوا

عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وَكَقَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [١٠١] فَإِنَّ

الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ

الثَّوْرِيُّ: سَمِعْتُ السُّدِّيَّ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا

الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ

يُرِيدُ أَنْ يَظْلِمَ أَوْ قَالَ: يَهُمُ بِمَعْصِيَةِ فَيَقَالُ لَهُ: إِنِّي اللَّهُ.

فَيَجِلَ قَلْبُهُ.

### [زِيَادَةُ الْإِيمَانِ إِذَا تَنَلَّى آيَاتُ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، كَقَوْلِهِ:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

[التوبة: ١٢٤]. وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَيِّمَةِ بِهِذِهِ

(١) الطبري: ٣٨٤/١٣ (٢) الطبري: ٣٨٤/١٣ (٣) الطبري:

٣٨٤/١٣ (٤) الطبري: ٣٨٦/١٣ (٥) الطبري: ٣٨٦/١٣

(٦) الطبري: ٣٨٦/١٣ (٧) ابن أبي حاتم: ٣٧/١ (٨) ابن

أبي حاتم: ٣٧/١

وَيَرَفَعُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، وَيَجْعَلُهُ غَالِبًا عَلَى الْأَدْيَانِ، وَهُوَ أَغْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَهُوَ الَّذِي يَدَّبِّرُكُمْ بِحُسْنٍ تَدْبِيرِهِ، وَإِنْ كَانَ الْعِبَادُ يُحِبُّونَ خِلَافَ ذَلِكَ فِيمَا يَظْهَرُ لَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ مُقْبِلًا مِنَ الشَّامِ نَذَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: «هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَأَخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُفْلِحَكُمْوهَا». فَانْتَدَبَ النَّاسُ فَحَفَّتْ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَلْقَى حَرْبًا، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ اسْتَنْفَرَ حِينَ دَنَا مِنَ الْحِجَازِ يَتَجَسَّسُ الْأَخْبَارَ، وَيَسْأَلُ مَنْ لَقِيَ مِنَ الرُّكْبَانِ تَخَوُّفًا عَلَى أَمْرِ النَّاسِ، حَتَّى أَصَابَ خَبْرًا مِنْ بَعْضِ الرُّكْبَانِ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لَكَ وَلِعَبْرِكَ، فَحَذَرَ عِنْدَ ذَلِكَ فَاسْتَأْجَرَ ضَمْصَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ، فَعَبَّهٗ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ قُرَيْشًا فَيَسْتَنْفِرَهُمْ إِلَى أَمْوَالِهِمْ، وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ، فَخَرَجَ ضَمْصَمُ بْنُ عَمْرٍو سَرِيعًا إِلَى مَكَّةَ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ، حَتَّى بَلَغَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ: ذَفِرَانُ، فَخَرَجَ مِنْهُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِهِ نَزَلَ، وَأَتَاهُ الْخَبَرُ عَنْ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِهِمْ، لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ، فَاسْتَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْشٍ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ، فَأَحْسَنَ. ثُمَّ قَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ، فَأَحْسَنَ. ثُمَّ قَامَ الْمُقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِمضْ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، فَتَحْنُ مَعَكَ وَاللَّهُ! لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ، فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لَوْ سِرْتُ بِنَا إِلَى بَرْكِ الْغَمَادِ، يَعْنِي مَدِينَةَ الْحَبَشَةِ<sup>(١)</sup> لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ!» وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَدَدَ النَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ

أَيَّ يَغْفِرُ لَهُمْ السَّيِّئَاتِ وَيَشْكُرُ لَهُمُ الْحَسَنَاتِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ عَلَيْنَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكُوكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِ السَّمَاءِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَنَالُهَا غَيْرُهُمْ. فَقَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ [عَطِيَّة] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ وَأَنْعَمًا»<sup>(٣)</sup>.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَهُ﴾ ⑤ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَظُنُّونَ ⑥ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَرَّ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ يَكْفِيَهُ. وَيَقْطَعُ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ⑦ لِيُخَيِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُعْرِضُونَ ⑧

[إِتْبَاعُ الرَّسُولِ بَاعِثُ خَيْرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ]

قَوْلُهُ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: شَبَّهَ بِهِ - فِي الصَّلَاحِ لِلْمُؤْمِنِينَ - إِتْقَانَهُمْ رَبَّهُمْ وَإِصْلَاحَهُمْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ وَطَاعَتَهُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: كَمَا أَنَّكُمْ لَمَّا اخْتَلَفْتُمْ فِي الْمَغَانِمِ وَتَسَاحَحْتُمْ فِيهَا فَانْتَزَعَهَا اللَّهُ مِنْكُمْ وَجَعَلَهَا إِلَى قِسْمِهِ وَقَسَمَ رَسُولُهُ ﷺ، فَقَسَمَهَا عَلَى الْعَدْلِ وَالنُّسُوبِ، فَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَصْلَحَةُ الثَّامَّةُ لَكُمْ. وَكَذَلِكَ لَمَّا كَرِهْتُمْ الْخُرُوجَ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ قِتَالِ ذَاتِ الشُّوْكَ، وَهُمْ الْفَيْرُ الَّذِينَ خَرَجُوا لِنَصْرِ دِينِهِمْ وَإِحْرَازِ عِيرِهِمْ، فَكَانَ عَاقِبَةُ كَرَاهَتِكُمْ لِلْقِتَالِ - بِأَنْ قَدَّرَهُ لَكُمْ، وَجَمَعَ بِهِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عُدُوِّكُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ - رُشْدًا وَهُدًى، وَنَصْرًا وَقِتْحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] قَالَ الشُّدِّي: «وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَهُ» لَطَلَبَ الْمُشْرِكِينَ ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ مُجَادَلَةً كَمَا جَادَلُوكَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالُوا: أَخْرَجْنَا لِعَبْرٍ وَلَمْ نُعْلِمْنَا قِتَالًا فَتَسْتَعِدُّ لَهُ؟ ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ يَكْفِيَهُ﴾ أَيُّ هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَهَا الشُّوْكَ وَالْقِتَالُ، لِيُظْفِرَكُمْ بِهِمْ وَيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُظْهِرَ دِينَهُ

(١) فتح الباري: ٦/٣٦٨ ومسلم: ٤/٢١٧٧ (٢) أحمد: ٣/٢٧ وأبو داود: ٤/٢٨٧ وتحفة الأحوذى: ٨/١٤٢ وابن ماجه: ١/٣٧ إسناده ضعيف فيه عطية العوفي وهو ضعيف مدلس وله شواهد ضعيفة (\*) وهي الآن مدينة من اليمن، كما عند المؤرخين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ  
مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفٍ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى  
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ  
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾ إِذْ يَغْشِيكُمْ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ  
عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفْرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجَرِ  
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿٣﴾  
إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا  
سَأَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ  
الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا أَمْتَهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ  
شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ  
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ ذَلِكَ كَفْرُكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ لِلْكَافِرِينَ  
عَذَابَ النَّارِ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا رَحَقًا فَلَاحُوا قُلُوبَهُم بِالْأَذْبَارِ ﴿٧﴾ وَمَن يُؤْلَهِمْ يَوْمَئِذٍ  
دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ  
بِعَظْمٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَلَهُ جَهَنَّمَ وَبِسُ الْمَصِيرِ ﴿٨﴾

بَايَعُوهُ بِالْعَقْبَةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا بَرَاءٌ مِنْ ذِمَّتِكَ حَتَّى  
تَصِلَ إِلَى دَارِنَا، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا، نَمْنَعُكَ  
مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَتْبَاعَنَا وَنِسَاءَنَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّفُ  
أَنْ لَا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نُصْرَتَهُ، إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ  
بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوِّ  
مِنْ بِلَادِهِمْ، فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ  
مُعَاذٍ: وَاللَّهِ لَكَائِكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ» فَقَالَ:  
فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ،  
وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاقِفَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،  
فَأَمَضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! إِنْ  
اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخَضْتَهُ لَخَضَانَاهُ مَعَكَ، مَا يَتَخَلَّفُ مِنَّا  
رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَرُهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَنُصَبِّرُ عِنْدَ  
الْحَرْبِ صُدُقَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقْرُبُهُ عَيْنُكَ،  
فَيَسِّرُ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَسَّطَهُ  
ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: «سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ  
وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهُ! لَكَائِي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ  
الْقَوْمِ» <sup>(١)</sup> وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَ هَذَا <sup>(٢)</sup>. وَكَذَلِكَ  
قَالَ السُّدِّيُّ وَفَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَشْلَمَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ  
مِّنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ <sup>(٣)</sup>. اخْتَصَرْنَا أَقْوَالَهُمْ إِكْتِفَاءً بِسِيَاقِ  
مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفٍ﴾ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾

[اسْتِجَابَةُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِجَابَةُ اللَّهِ لَهُمْ  
بِإِنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:  
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكَرِهَ  
اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: شَهِدْتُ  
مِنَ الْبُقْعَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهُدًا لِأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ  
مِمَّا غَدِلُ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ  
فَقَالَ: لَا تَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: (أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ  
فَقَاتِلَا) وَلَكِنَّا نَقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ  
وَحَلْفِكَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ. بَعْنِي:  
قَوْلُهُ <sup>(٤)</sup>. ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ  
بَدْرٍ: «اللَّهُمَّ! أَنْشُدْكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ! إِنْ شِئْتَ لَمْ

تُعْبَدُ» فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:  
«سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْكُونَ الدُّبُرَ». وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ <sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى: ﴿بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفٍ﴾ أَيُّ يُرَدِّفُ بَعْضُهُمْ  
بَعْضًا كَمَا قَالَ هَارُونُ بْنُ هُبَيْرَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿مُرَدِّفٍ﴾  
مُتَّبَاعِينَ <sup>(٦)</sup>. رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:  
وَأَمَدَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ  
جِبْرِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُجَنَّبَةٍ، وَمِيكَائِيلُ فِي  
خَمْسِمِائَةٍ مُجَنَّبَةٍ <sup>(٧)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَبْرِ  
وَمُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ حَدِيثًا <sup>(٨)</sup> فِيهِ: بَيْنَا رَجُلٌ  
مِّنَ الْمُسْلِمِينَ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ  
سَمِعَ ضَرْبَهُ بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتُ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمَ

(١) الطبري: ٣٩٩/١٣ (٢) الطبري: ٤٠٣/١٣ (٣) الطبري: ٤٠٥، ٤٠٢/١٣ (٤) فتح الباري: ٣٣٥/٧ (٥) فتح الباري: ٣٣٥/٧ والنسائي في الكبرى: ٤٧٧/٦ (٦) الطبري: ٤١٢/١٣ (٧) الطبري: ٤٢٣/١٣ (٨) الطبري: ٤٠٩/١٣ ومسلم: ٣/١٣٨٣

حَيُّوْهُمْ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَحَرَّ مُسْتَلْقِيَا، قَالَ: فَتَطَرَّ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِمَ أَنْفُهُ وَشَقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَدَقْتُ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»، فَقَتِلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسْرُوا سَبْعِينَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: بَابُ شُهُودِ الْمَلَائِكَةِ بَدْرًا. ثُمَّ رَوَى عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ الزُّرْقِيِّ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا تَعْدُونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: «مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ<sup>(٢)</sup>. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ وَقَدْ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ وَهُوَ خَطَأٌ، وَالصَّوَابُ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ لَمَّا شَارَوْهُ فِي قَتْلِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يَذْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى» آيَةً، أَيْ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ بَعَثَ الْمَلَائِكَةَ وَإِعْلَامَهُ إِيَّاكُمْ بِهِمْ إِلَّا بُشْرَى «وَلَتَعْلَمَنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ» وَإِلَّا فَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى نَصْرِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَمَا أَنْصَرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَرَقُونَهُمْ فَشَدُّوا الْوُثَاكُ فَمَا مَتَا بَعْدَ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَأَهَا ذَلِكَ وَلَوْ بَشَاءَ اللَّهِ لَأَنْصَرُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيْسُوا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ<sup>(٤)</sup> سَيَجْزِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ<sup>(٥)</sup> وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا هُمْ» [محمد: ٤-٦] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَاكُمُ الْآيَاتُامُ ثَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ<sup>(٦)</sup> وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» [آل عمران: ١٤٠، ١٤١] فَهَذِهِ حِكْمٌ شَرَعَ اللَّهُ جِهَادَ الْكُفَّارِ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِهَا. وَقَدْ كَانَ تَعَالَى إِنَّمَا يَعْقِبُ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ الْمَكْذِبَةَ لِلْأَنْبِيَاءِ بِالْقَوَارِعِ الَّتِي تَعُمُّ تِلْكَ الْأُمَمَ الْمَكْذِبَةَ كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ، وَعَادًا الْأُولَى بِالذَّبُورِ، وَثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ، وَقَوْمَ لُوطٍ بِالْخَسْفِ وَالْقَلْبِ وَجِبَارَةَ السَّجِيلِ، وَقَوْمَ شَعْبٍ يَوْمَ الظُّلَّةِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى وَأَهْلَكَ عُدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِالْعُرْقِيِّ فِي الْيَمِّ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى التَّوْرَةَ شَرَعَ فِيهَا قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَاسْتَمَرَ الْحُكْمُ فِي بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ بَعْدَهُ

عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ» [الفصل: ٤٣] وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ، أَشَدُّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ، وَأَشْفَى لِبُصُورِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: «فَقَتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ» [التوبة: ١٤] وَلِهَذَا كَانَ قَتْلُ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِأَعْيُنٍ اَزْدِرَائِهِمْ، أَنْكَى لَهُمْ وَأَشْفَى لِبُصُورِ حِزْبِ الْإِيمَانِ، فَقَتْلُ أَبِي جَهْلٍ فِي مَعْرَكَةِ الْفَتَالِ وَحَوْمَةِ الْوَعَى أَشَدُّ إِهَانَةً لَهُ مِنْ مَوْتِهِ عَلَى فِرَاشِهِ بِقَارِعَةٍ أَوْ صَاعِقَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ لَعَنَهُ اللَّهُ بِالْعَدَسَةِ بَحِثٌ لَمْ يَقْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْ أَقَارِبِهِ، إِنَّمَا عَسَلُوهُ بِالْمَاءِ قَذْفًا مِنْ بَعِيدٍ، وَرَجَمُوهُ حَتَّى دَفَنُوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» أَيْ لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ» [غافر: ٥١] «حَكِيمٌ» فِيمَا شَرَعَهُ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى دِمَارِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيَتَبَيَّنَ بِهِ الْأَقْدَامُ<sup>(١)</sup> إِذْ يُوحَىٰ رُبَّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَلَيْسَ لَكُمْ فَتْنَةٌ أَلَيْسَ آمَنُوا سَائِلِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فَوَّحُوا قُبُورَهُمْ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ<sup>(٢)</sup> ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُسَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(٣)</sup> ذَلِكَ كَمْ قَدَّوْهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ<sup>(٤)</sup> [غَلَبَةُ النُّعَاسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ]

يُذَكِّرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِلْقَائِهِ النُّعَاسَ عَلَيْهِمْ أَمَانًا آمَنَهُمْ بِهِ مِنْ خَوْفِهِمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ...» آيَةً [آل عمران: ١٥٤]، قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: كُنْتُ مِنْ أَصَابِهِ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَقَدْ سَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِي مِرَارًا يَسْقُطُ

(١) مسلم: ١٣٨٤/٣ (٢) فتح الباري: ٣٦٢/٧ (٣) فتح الباري: ٣٥٥/٧ ومسلم: ١٩٤١/٤

وَأَخَذَهُ، وَيَسْقُطُ وَأَخَذَهُ، وَلَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ يَمِيدُونَ وَهُمْ تَحْتَ الْحَجَفِ. وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمِقْدَادِ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ، إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي تَحْتَ شَجَرَةٍ وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: النَّعَاسُ فِي الْقِتَالِ أَمَنَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: النَّعَاسُ فِي الرَّأْسِ، وَالنُّومُ فِي الْقَلْبِ<sup>(٣)</sup>. قُلْتُ: أَمَّا النَّعَاسُ فَقَدْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَمْرٌ ذَلِكَ مَشْهُورٌ جِدًّا. وَأَمَّا الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ بَدْرٍ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى وَقُوعِ ذَلِكَ أَيْضًا، وَكَأَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ شِدَّةِ الْبَأْسِ لِيَتَكُونَ قُلُوبُهُمْ أَمَنَةً مُطْمَئِنَّةً بِنَصْرِ اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ وَبِعَمَلِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [الشرح: ٥، ٦] وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْعَرِيشِ مَعَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهَمَا يَدْعُوَانِ أَخَذَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سِنَّةٌ مِنَ النَّوْمِ، ثُمَّ اسْتَبَقَطَ مُتَسِمًّا فَقَالَ:

«أُبَشِّرُ يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَائِيهِ النَّفْعُ» ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الْعَرِيشِ وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَيَرْجُمُ الْجَعَمُ وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]<sup>(٤)</sup>.

### [نُزُولُ الْمَطَرِ لَيْلَةَ بَدْرٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَارَ إِلَى بَدْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ رَمْلَةٌ دَعَصَةٌ، وَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْظَ يُؤَسُّوسُ بَيْنَهُمْ: تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَقَدْ غَلَبَكُمْ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَاءِ وَأَنْتُمْ تُصَلُّونَ مُجْنِبِينَ، فَأَمَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا شَدِيدًا فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ وَتَطَهَّرُوا وَأَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَجَسَ الشَّيْطَانِ وَتَبَتِ الرِّمْلُ حِينَ أَصَابَهُ الْمَطَرُ، وَمَشَى النَّاسُ عَلَيْهِ وَالِدَوَابُّ فَسَارُوا إِلَى الْقَوْمِ، وَأَمَدَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ جِبْرِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنَّبَةٍ، وَمِيكَائِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنَّبَةٍ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنِتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ وَتَمَجَّدَ - أَوْحَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَنْزَلَهُمْ لِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَدِينِهِ وَحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ يُوحِي إِلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَنْ يُنِيتُوا الَّذِينَ آمَنُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ﴾ أَيِ تَبَيَّنُوا أَنْتُمْ الْمُؤْمِنِينَ وَقَفُّوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَغْدَائِهِمْ عَنْ أَمْرِي لَكُمْ، بِذَلِكَ سَأَلَنِي الرُّغْبَ وَالذَّلَّةَ وَالصَّعَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَكَذَّبَ رَسُولِي ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أَيِ اضْرِبُوا الْأَطْرَافَ مِنْهُمْ وَهِيَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: اضْرِبُوا الرُّؤُوسَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَوْقَ الْأَعْنَاقِ أَيِ عَلَى الْأَعْنَاقِ وَهِيَ الرِّقَابُ. قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ. وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْشَدَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا

(١) مسند أبي يعلى: ٢٤٢/١ (٢) الطبري: ٤١٩/١٣ (٣) ابن أبي حاتم: ١٦٦٤/٥ (٤) دلائل النبوة: ٥٤/٣ (٥) الطبري: ٤٢٣/١٣ (٦) الواقي في المغازي: ٥٤/١ (٧) الطبري: ٤٢٥/١٣

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

١٧٩

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا  
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ  
الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ  
وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ  
فَتْحُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَأَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عُنَاهُ وَأَنْتُمْ  
تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ  
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّةُ الْبُكْمُ  
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ  
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ  
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ  
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

الضَّحَّاكُ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَنْ أَصْحَابِهِ لِيَرَى غِرَّةَ مِنَ الْعُدُوِّ  
فَيُصِيبُهَا «أَوْ مُتَحَرِّيًا إِلَيْ فِتْنَةٍ» أَيْ فَرَّ مِنْ هَاهُنَا إِلَى فِتْنَةٍ  
أُخْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُعَاوَنُهُمْ وَيُعَاوَنُونَهُ. فَيَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ.  
حَتَّى لَوْ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَقَرَّ إِلَى أَمِيرِهِ (٣) أَوْ إِلَى الْإِمَامِ  
الْأَعْظَمِ دَخَلَ فِي هَذِهِ الرُّحْصَةِ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا قُتِلَ عَلَى الْجِسْرِ بِأَرْضِ  
فَارِسَ، لِكَثْرَةِ الْجَيْشِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَجُوسِ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ  
تَحَيَّرَ إِلَيَّ لَكُنْتُ لَهُ فِتْنَةً. هَكَذَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ سَبْرِينَ عَنْ  
عُمَرَ. وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي عُمَرَ التَّهْدِيدِ عَنْ عُمَرَ، قَالَ: لَمَّا  
قُتِلَ أَبُو [عُبَيْدٍ] قَالَ عُمَرُ: أَيُّهَا النَّاسُ! أَنَا فَتَنُكُمْ. وَقَالَ  
مُجَاهِدٌ: قَالَ عُمَرُ: أَنَا فِتْنَةٌ كُلُّ مُسْلِمٍ. وَقَالَ عَبْدُ الْمَالِكِ  
ابْنُ عُمَيْرٍ عَنْ عُمَرَ: أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَعْرِتُكُمْ هَذِهِ الْآيَةُ،  
فَإِنَّمَا كَانَتْ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَنَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي

لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَفْتَضْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ  
[محمد: ٤]. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: كَانَ النَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ  
يَعْرِفُونَ قَتْلَى الْمَلَائِكَةِ مِمَّنْ قَتَلُوهُمْ بِضَرْبٍ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ  
وَعَلَى الْبَنَانِ مِثْلَ سِمَةِ النَّارِ قَدْ أُحْرِقَ بِهِ. وَقَوْلُهُ: «وَأَضْرِبُوا  
مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ وَأَضْرِبُوا مِنْ  
عَذَابِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ طَرَفٍ وَمَنْفَصِلٍ مِنْ أَطْرَافِ  
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ. وَالْبَنَانُ جَمْعُ بَنَانَةٍ (١). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ... فَذَكَرَ قِصَّةَ بَدْرٍ إِلَى أَنْ قَالَ: فَقَالَ أَبُو  
جَهْلٍ: لَا تَقْتُلُوهُمْ قَتْلًا وَلَكِنْ خُذُوهُمْ أَخْذًا، حَتَّى  
تَعْرِفُوهُمْ الَّذِي صَنَعُوا مِنْ طَعْنِهِمْ فِي دِيْنِكُمْ وَرَغْبَتِهِمْ عَنْ  
اللَّاتِ وَالْعَزَى، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ «أَيَّ مَعَكُمْ فَتَنُوا  
الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا  
فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» الْآيَةَ، فَقَتَلَ أَبُو  
جَهْلٍ لَعْنَهُ اللَّهُ فِي تِسْعَةِ وَسِتِّينَ رَجُلًا، وَأَسْرَعَ عُثْبَةُ بْنُ أَبِي  
مُعَيْطٍ فَقَتَلَ صَبْرًا فَوْفَى ذَلِكَ سَبْعِينَ قَتِيلًا، وَلِهَذَا  
قَالَ تَعَالَى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أَيْ خَالَفُوهُمَا  
فَسَارُوا فِي شِقِّ، وَتَرَكُوا الشَّرْعَ وَالْإِيمَانَ بِهِ وَأَتْبَاعَهُ فِي  
شِقِّ. وَمَا خُوذَ أَيْضًا مِنْ شِقِّ الْعَصَا، وَهُوَ: جَعَلُهَا فِرْقَتَيْنِ  
«وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَمَنَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ» أَيْ هُوَ  
الطَّالِبُ الْغَالِبُ لِمَنْ خَالَفَهُ وَنَاوَاهُ، لَا يَقُوتهُ شَيْءٌ وَلَا يَقُومُ  
لِعُصْبِهِ شَيْءٌ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ  
«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ» هَذَا خِطَابٌ  
لِلْكَفَّارِ أَيْ ذُوْقُوا هَذَا الْعَذَابَ وَالتَّكَالُ فِي الدُّنْيَا، وَاعْلَمُوا  
أَيْضًا أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ.  
«يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ  
الْأَدْبَارَ» (٢) وَمَنْ يُولُهُمْ يَوْمِيذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّيًا لِقَالٍ أَوْ  
مُتَحَرِّيًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءَ بِعَصَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ  
وَبَشَّرَ النَّصِيرَ (٣)

[اللَّهْيُ عَنِ التَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ وَجَزَاؤُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الرَّحْفِ بِالنَّارِ لِمَنْ  
فَعَلَ ذَلِكَ: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
زَحَفًا» أَيْ تَقَارَبْتُمْ مِنْهُمْ وَدَنَوْتُمْ إِلَيْهِمْ «فَلَا تُولُوهُمْ  
الْأَدْبَارَ» أَيْ تَقَرُّوا وَتَتَرَكُّوا أَصْحَابَكُمْ «وَمَنْ يُولُهُمْ يَوْمِيذٍ  
دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّيًا لِقَالٍ» أَيْ يَبْرُ بَيْنَ يَدَيْ قَرْبِهِ - مَكِيدَةً -  
لِيُرِيَهُ أَنَّهُ قَدْ خَافَ مِنْهُ فَيَعْبُدُهُ ثُمَّ يَكُرُّ عَلَيْهِ، فَيَقْتُلُهُ فَلَا بَأْسَ  
عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، نَصَّ عَلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ (٢). وَقَالَ

(١) الطبري: ٤٣١/١٣ (٢) الطبري: ٤٣٦/١٣، ٤٣٧ (٣)

الطبري: ٤٣٦/١٣

حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا حَسَّانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَوْصِرِيُّ: حَدَّثَنَا خَلَادُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْحَضْرَمِيُّ: حَدَّثَنَا نَافِعٌ أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَمَرَ قُلْتُ: إِنَّا قَوْمٌ لَا نَثْبُتُ عِنْدَ قِتَالٍ عَدُوَّنَا، وَلَا نَذَرِي مِنَ الْفِتْنَةِ إِمَامًا أَوْ عَسْكَرَنَا؟ فَقَالَ: إِنَّ الْفِتْنَةَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ الْآيَةَ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنْزَلْتَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ لَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾: أَلْمُتَحَيِّزُ: الْفَارُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَّ الْيَوْمَ إِلَى أَمِيرِهِ أَوْ أَصْحَابِهِ<sup>(١)</sup>. فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْفِرَارُ لَا عَنْ سَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ وَكَبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَاثِرِ، لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ وَالسَّخَرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ بَكَءُ﴾ أَيُّ رَجَعَ ﴿بِفَضْبٍ مِّنْ اللَّهِ وَمَاوَدُهُ﴾ أَيُّ مَصِيرُهُ وَمُنْقَلَبُهُ يَوْمَ مِيعَادِهِ ﴿جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿فَلَمْ تَقُولُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَلَّهْمُ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلَئِن لَّا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِلَّا أَنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ<sup>(٤)</sup>

[قَتَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ وَرَمَاهُمْ بِالْتُّرَابِ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ خَيْرٍ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَفَّقَهُمْ لِذَلِكَ وَأَعَانَهُمْ عَلَيْهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَمْ تَقُولُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَلَّهْمُ﴾ أَيُّ لَيْسَ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ قَتَلْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِكُمْ. أَيُّ بَلِّ هُوَ الَّذِي أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْزُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَابَسَتْ مَذْرِبَاتُ الْوَأْتِ: ٢٥﴾ [يُعْلَمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ عَلَى كَثْرَةِ الْعَدَدِ وَلَا بِلَيْسِ اللَّأَمَةِ وَالْعَدَدِ، وَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّ ﷺ أَيْضًا فِي

شَأْنِ الْقُبْضَةِ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي حَصَبَ بِهَا وَجُوهَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ بَدْرِ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْعَرْشِ، بَعْدَ دُعَائِهِ وَنَضْرَعِهِ وَاسْتِكَانَتِهِ، فَرَمَاهُمْ بِهَا وَقَالَ: «شَاهَبَتِ الْوُجُوهَ» ثُمَّ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَصُدُّوا الْحُمْلَةَ إِثْرَهَا، فَفَعَلُوا فَأَوْصَلَ اللَّهُ تِلْكَ الْحَضَبَاءَ إِلَى أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا نَالَهُ مِنْهَا مَا شَغَلَهُ عَنْ حَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾<sup>(٥)</sup>. أَيُّ هُوَ الَّذِي بَلَغَ ذَلِكَ إِلَهُهُمْ وَكَتَبَهُمْ بِهَا لَا أَنْتَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنُ الرُّبَيْرِ عَنْ غُرُورَةَ بْنِ الرُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن لَّا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أَيُّ لِيُعْرِفَ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِظْهَارِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، لِيُعْرِفُوا بِذَلِكَ حَقَّهُ وَيَشْكُرُوا بِذَلِكَ نِعْمَتَهُ<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا فَسَّرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا، وَفِي الْحَدِيثِ: «كُلُّ بَلَاءٍ حَسَنٌ أَبْلَانًا». وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ سَمِيعُ الدُّعَاءِ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ وَالْغَلَبَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ أُخْرَى مَعَ مَا حَصَلَ مِنَ النَّصْرِ أَنَّهُ أَغْلَبَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُضْعِفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، مُضْعِفُ أَمْرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ وَكُلُّ مَا لَهُمْ فِي تَبَارٍ وَدَمَارٍ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٧)</sup>

[إِجَابَةُ اسْتِفْتَاكِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ أَيُّ تَسْتَنْصِرُوا وَتَسْتَفْضُوا اللَّهَ وَتَسْتَحْكِمُوهُ أَنْ يَفْضَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: اأَلَلَّهُمُ أَتَيْنَا كَانَ أَقْطَعَ لِلرَّحِمِ وَأَتَانَا بِمَا لَا يُعْرِفُ فَأَحْنِهِ الْعُدَّةَ. وَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاخًا مِنْهُ فَزَلَّتْ: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ حِينَ انْقَضَى الْقَوْمُ: اأَلَلَّهُمُ أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُ فَأَحْنِهِ الْعُدَّةَ. فَكَانَ الْمُسْتَفْتِيحُ<sup>(٩)</sup>. وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي

(١) الطبري: ٤٣٧/١٣ (٢) فتح الباري: ٥/٤٦٢ ومسلم: ١/٩٢

(٣) الطبري: ٤٤٤/١٣ (٤) الطبري: ١٣/٤٤٨ (٥)

الطبري: ١٣/٤٥٣ (٦) أحمد: ٥/٤٣١



التفسير. وكذا رواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه<sup>(١)</sup>، وروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد. وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأشتار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم، انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾. يقول: قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ...﴾ الآية<sup>(٢)</sup> [الأنفال: ٣٢]. وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدَ﴾ كقولهم ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاكُمْ﴾ [الأسراء: ٨] معناه: وإن عُدْتُمْ إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة. ﴿وَلَنْ تُفْنَى عَنْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي ولو جمعتم من المجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المضطفوي.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم ولو آسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴿الْأَمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويذرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجه ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وقال ابن إسحاق: هم المنافقون، فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واشتجباوا وليسوا كذلك<sup>(٣)</sup>. ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ أي عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا

يَعْقِلُونَ﴾ هؤلاء شر البرية لأن كل ذات مما سواهم مطيع لله فيما خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذَى يَتَعَوَّى بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَنِدَاةً...﴾ الآية [البقرة: ١٧١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قرشي. روي عن ابن عباس ومجاهد. واختاره ابن جرير<sup>(٤)</sup>. وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون، قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا، لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصدي إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خِيراً لَآَسَمَعَهُمْ﴾ أي لآفهمهم وتقدير الكلام: ﴿وَلَوْ كُنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ فَلَمْ يُفهمهم، لآَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ آَسَمَعَهُمْ﴾ أي آفهمهم ﴿لتولوا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ تُخْشَوْنَ﴾

[الْأَمْرُ بِاسْتِجَابَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ]

قال البخاري ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أجبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يضلحكم. ثم روى عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آتته حتى صليت ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟» ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. وقال معاذ: أن حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ﷺ... بهذا. وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي: السبع المثاني<sup>(٥)</sup>. وقال محمد بن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

(١) النسائي في الكبرى: ٣٥٠/٦ والحاكم: ٣٢٨/٢ (٢)

الطبري: ٥٥٣/١٣ (٣) الطبري: ٤٥٨/١٣ (٤) الطبري:

٤٦٠/١٣ (٥) فتح الباري: ١٥٨/٨

يُحْيِيكُمْ: أَيُّ لِلْحَرْبِ الَّتِي أَعَزَّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا بَعْدَ الذَّلِّ، وَقَوَّاهُمْ بِهَا بَعْدَ الضَّعْفِ، وَمَنَعَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ مِنْهُمْ لَكُمْ<sup>(١)</sup>.

[اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَبَيْنَ الْكَافِرِ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مُوَفَّقًا، وَقَالَ: صَحِيحٌ وَلَمْ يُخْرِجْهُ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَعَطِيَّةٌ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَالشَّدْيِيُّ<sup>(٤)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أَيُّ حَتَّى يَثْرُكَهُ لَا يَعْقِلُ، وَقَالَ الشَّدْيِيُّ: يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَكْفُرَ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا يُنَاسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ تَعَالَى يُقَلِّبُهَا»<sup>(٥)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الْقَدْرِ مِنْ جَامِعِهِ، وَقَالَ: حَسَنٌ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزَيِّعَهُ أَرَاغَهُ» وَكَانَ يَقُولُ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» قَالَ: «وَالْمِيزَانَ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ»<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٨)</sup>.

﴿وَأَتَّقُوا فَتْنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَمُوا

أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(٩)</sup>﴾

[التَّحْذِيرُ مِنْ فَتْنَةٍ عَامَةٍ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فَتْنَةَ أَيُّ اخْتِبَارًا وَمِخْنَةً يَعْمُ بِهَا الْمُسِيءُ وَغَيْرُهُ لَا يَخْصُ بِهَا أَهْلَ الْمَعَاصِي، وَلَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنْبَ بَلْ يَعْمُهَا حَيْثُ لَمْ تُدْفَعْ وَتُرْفَعْ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُطَرِّبٍ قَالَ: قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! مَا جَاءَ بِكُمْ؟ ضَبِعْتُمُ الْخَلِيفَةَ الَّذِي قُتِلَ ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بَدْمِي؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّا قَرَأْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَأَتَّقُوا

فِتْنَتَهُ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لَمْ تَكُنْ نَحْسِبُ أَنَّ أَهْلَهَا حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا فَتْنَتَهُ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ لَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُعْرِثُوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَيَعْمَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ<sup>(١١)</sup>. وَهَذَا تَفْسِيرٌ حَسَنٌ جَدًّا، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا فَتْنَتَهُ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ هِيَ أَيْضًا لَكُمْ<sup>(١٢)</sup>.

وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَمِيلٌ عَلَى فِتْنَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] فَأَيُّكُمْ اسْتَعَاذَ فَلَيْسَتْ عِزَّةُ اللَّهِ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ<sup>(١٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَالْقَوْلُ بِأَنَّ هَذَا التَّحْذِيرَ يَعْمُ الصَّحَابَةَ وَغَيْرَهُمْ وَإِنْ كَانَ الْخُطَابُ مَعَهُمْ - هُوَ الصَّحِيحُ، وَيُذَلُّ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْفِتَنِ، وَلِلذَلِكَ كِتَابٌ مُسْتَقِلٌّ يَوْضَحُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا فَعَلَهُ الْأَيْمَةُ وَأَفَرَّدُوهُ بِالْتَّصْنِيفِ. وَمِنْ أَحْصَى مَا يُذَكِّرُ هَهُنَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ»<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الرَّقَادِ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ مَوْلَايَ فَلَدِفْتُ إِلَى حُدَيْفَةَ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَصِيرُ مُنَافِقًا، وَإِنِّي لَأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِي الْمَقْعَدِ الْوَاحِدِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَحَاضُنَّ عَلَى الْخَيْرِ أَوْ لَيُسْحِتَنَّكُمْ» اللَّهُ جَمِيعًا بِعَذَابٍ، أَوْ لَيُؤْمَرَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ<sup>(١٥)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ

(١) ابن هشام: ٣٢٤/٢ (٢) الطبري: ٤٦٨/١٣ (٣) الحاكم:

٣٢٨/٢ (٤) الطبري: ٤٧٠/١٣، ٤٧١ (٥) أحمد: ١١٢/٣

(٦) تحفة الأحوذى: ٣٥٠، ٣٤٩/٦ (٧) أحمد: ١٨٢/٤ (٨)

النسائي في الكبرى: ٤١٤/٤ وابن ماجه: ٧٢/١ (٩) أحمد:

١٦٥/١ (١٠) الطبري: ٤٧٤/١٣ (١١) الطبري: ٤٧٤/١٣

(١٢) الطبري: ٤٧٥/١٣ (١٣) الطبري: ٤٧٥/١٣ (١٤)

أحمد: ٣٨٨/٥ (١٥) أحمد: ٣٩٠/٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨٠

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ  
 أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَوَارِكُمْ وَيَدْرِكُمْ بِصُرُورٍ وَرَزَقَكُمْ  
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
 لَا تَخَوْنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ  
 ﴿٦٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاكُمُ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ  
 عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَفَّوْا  
 اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ  
 لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ  
 اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِذْ أَنْتَ عَلَىٰ آلِهِمْ عِثْنَا  
 قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا  
 أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا  
 هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ  
 أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧٢﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ  
 وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٧٣﴾

بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَطَبٌ، فَقَالَ: وَأَوْمًا بِأَصْبَعِيهِ إِلَى  
 أُذُنَيْهِ [سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ] يَقُولُ: «مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى  
 حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا وَالْمُدَاهِنِ فِيهَا: كَمِثْلِ قَوْمٍ رَكِبُوا  
 سَفِينَةً فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا وَأَوْعَرَهَا وَشَرُّهَا وَأَصَابَ  
 بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا الْمَاءَ  
 مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَادَّوَّهُمْ فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِينَا  
 خَرَقًا فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ وَلَمْ نُوْذِ مَنْ فَوْقَنَا: فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَأَمَرَهُمْ  
 هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا جَمِيعًا»<sup>(١)</sup>.  
 انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ قَرَوَاهُ فِي الشَّرِكَةِ  
 وَالشَّهَادَاتِ<sup>(٢)</sup>. وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْفِتَنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ<sup>(٣)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ  
 النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا  
 ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»  
 فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمَا فِيهِمْ أَنْاسٌ صَالِحُونَ؟ قَالَ:  
 «بَلَى» قَالَتْ: فَكَيْفَ يَصْنَعُ أُولَئِكَ؟ قَالَ: «يُصِيبُهُمْ مَا  
 أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ»<sup>(٤)</sup>.  
 (حَدِيثٌ آخَرٌ) وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ جَرِيرٍ: أَنَّ  
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي  
 هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُونَ ثُمَّ لَمْ يُعِيرُوهُ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ  
 بِعِقَابٍ»<sup>(٥)</sup>. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٦)</sup>.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ  
 يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَوَارِكُمْ وَيَدْرِكُمْ بِصُرُورٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ  
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

[تَذَكُّيرُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الذَّلِّ وَالضَّعْفِ وَمَا  
 آلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالنَّصْرِ]

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعْمِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِهِ  
 إِلَيْهِمْ، حَيْثُ كَانُوا قَلِيلِينَ فَكَثَّرَهُمْ وَمُسْتَضْعَفِينَ خَائِفِينَ  
 فَقَوَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ، وَفُقَرَاءَ عَالَةً فَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ  
 وَاسْتَشْكَرَهُمْ، فَاطَاعُوهُ وَامْتَثَلُوا جَمِيعٌ مَا أَمَرَهُمْ. وَهَذَا  
 كَانَ حَالُ الْمُؤْمِنِينَ حَالَ مَقَامِهِمْ بِمَكَّةَ قَلِيلِينَ مُسْتَحْتَجِينَ  
 مُضْطَهَدِينَ يَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَهُمُ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ بِلَادِ اللَّهِ  
 مِنْ مُشْرِكٍ وَمَجُوسِيٍّ وَرُومِيٍّ، كُلُّهُمْ أَعْدَاءُ لَهُمْ لِقَلَّتِيهِمْ  
 وَعَدَمَ قُوَّتِهِمْ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِبُهُمْ حَتَّى أَوْذَى اللَّهُ لَهُمْ فِي  
 الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَوَاهُمُ إِلَيْهَا وَوَيْضَ لَهُمْ أَهْلُهَا أَوَّوْا  
 وَنَصَرُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ، وَوَأَسَّوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَبَذَلُوا مَهْجَهُمْ  
 فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ. قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ

السُّدُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ  
 قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، قَالَ: كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْعَرَبِ  
 أَذَلَّ النَّاسِ ذَلًّا، وَأَشْقَاهُ عِيشًا، وَأَجْوَعَهُ بَطُونًا، وَأَعْرَاهُ  
 جُلُودًا، وَأَبْيَنَهُ ضَلَالًا، مَنْ عَاشَ مِنْهُمْ عَاشَ شَقِيًّا، وَمَنْ  
 مَاتَ مِنْهُمْ رَدَى فِي النَّارِ، يُؤْكَلُونَ وَلَا يَأْكُلُونَ، وَاللَّهُ! مَا  
 نَعَلَمُ قَبِيلًا مِنْ حَاضِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ كَانُوا أَشَرَّ مِنْزِلًا  
 مِنْهُمْ حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَكَنَ بِهِ فِي الْبِلَادِ، وَوَسَّعَ بِهِ  
 فِي الرِّزْقِ وَجَعَلَهُمْ بِهِ مُلُوكًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَبِالْإِسْلَامِ  
 أَعْطَى اللَّهُ مَا رَأَيْتُمْ فَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ فَإِنَّ رَبَّكُمْ مُنْعِمٌ  
 يُحِبُّ الشُّكْرَ، وَأَهْلُ الشُّكْرِ فِي مَرِيدٍ مِنَ اللَّهِ<sup>(٧)</sup>.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ  
 تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاكُمُ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ

(١) أحمد: ٢٦٩/٤ (٢) فتح الباري: ٣٤٥، ١٥٧/٥ (٣)  
 تحفة الأحوذني: ٣٩٤/٦ (٤) أحمد: ٣٠٤/٦ (٥) أحمد: ٤/٦  
 ٣٦٤ (٦) أحمد: ٣٦٦/٤ وابن ماجه: ١٣٢٩/٢ (٧)  
 الطبري: ٤٧٨/١٣

عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

[سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْخِيَانَةِ]

فِي الصَّحِيحَيْنِ قِصَّةُ حَاطِبِ بْنِ أَبِي لَيْثَةَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ لِيُعْلِمَهُمْ بِقَصْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهُمْ عَامَ الْفَتْحِ، فَاطَّلَعَ اللَّهُ رَسُولُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَبَعَثَ فِي إِثْرِ الْكِتَابِ فَاسْتَرْجَعَهُ وَاسْتَحْضَرَ حَاطِبًا فَأَقْرَأَ بِمَا صَنَعَ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: «دَعُهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَذْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَذْرِ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». قُلْتُ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ، وَإِنْ صَحَّ أَنَّهَا وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ. فَالْأَخْذُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَالْخِيَانَةُ تَعُمُّ الذُّنُوبَ الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ اللَّازِمَةَ وَالْمُتَعَدِّيَةَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «وَتَحَوَّنَا أَمْنَتَكُمْ» الْأَمَانَةُ: الْأَعْمَالُ الَّتِي اتَّخَذَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ، يَغْنِي الْفَرِيضَةَ. يَقُولُ: «لَا تَحَوَّنَا» لَا تَنْقُضُوهَا<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: نَهَاكُم أَنْ تَحَوَّنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ كَمَا صَنَعَ الْمُنَافِقُونَ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ»، أَيْ اخْتِبَارٌ وَامْتِحَانٌ مِنْهُ لَكُمْ إِذْ أَعْطَاكُمْوهَا لِيَعْلَمَ أَتَشْكُرُونَهُ عَلَيْهَا وَتُطِيعُونَهُ فِيهَا أَوْ تَشْتَعِلُونَ بِهَا عَنْهُ وَتَعْتَاضُونَ بِهَا مِنْهُ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» [التغابن: ١٥] وَقَالَ: «وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةٌ» [الأنبياء: ٣٥]. وَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [المنافقون: ٩]. وَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ» الْآيَةُ [التغابن: ١٤]. وَقَوْلُهُ: «وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» أَيْ نَوَابُهُ وَعَطَاؤُهُ وَجَنَانُهُ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، فَإِنَّهُ قَدْ يُوجَدُ مِنْهُمْ عَدُوٌّ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْمَالِكُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَدَيْهِ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ

كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ»<sup>(٣)</sup>، بَلْ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُقَدَّمٌ عَلَى الْأَوْلَادِ وَالْأَمْوَالِ وَالنَّفْسِ<sup>(٤)</sup>. كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»<sup>(٥)</sup>.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»<sup>(٦)</sup>. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَفَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: «فُرْقَانًا» مَخْرَجًا.

زَادَ مُجَاهِدٌ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ<sup>(٧)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «فُرْقَانًا» نَجَاةً، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ نَصْرًا، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «فُرْقَانًا» أَيْ فَضْلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ مِنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَعَمُّ مِمَّا تَقَدَّمَ وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَإِنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ يَفْعَلُ أَوَامِرَهُ وَتَرْكُ رَوَاجِرِهِ وَفَقَّ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ نَصْرِهِ وَنَجَاتِهِ وَمَخْرَجِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَسَعَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَكْفِيرِ ذُنُوبِهِ وَهُوَ مَحْوُهَا، وَغَفْرُهَا: سَتَرُهَا عَنِ النَّاسِ - سَبَبًا لِيَبْلُ ثَوَابَ اللَّهِ الْجَزِيلَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْخِذْكُمْ مِنْ كُلِّ مَكْرَهٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ. وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [الحديد: ٢٨].

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ»<sup>(٨)</sup>. [ذِكْرُ مَا دَبَّرَهُ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ حَبْسِهِ أَوْ إِجْلَائِهِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَفَتَادَةُ: «لِيُثْبِتُوكَ» لِيُقَيِّدُوكَ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْإِثْبَاتُ هُوَ الْحَبْسُ وَالْوُثَاقُ<sup>(٨)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ صَاحِبُ الْمَغَازِي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: وَحَدَّثَنِي الْكَلْبِيُّ عَنْ بَادَانَ مَوْلَى أُمِّ هَانِيَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أَشْرَافٍ كُلِّ قَبِيلَةٍ اجْتَمَعُوا لِيَدْخُلُوا دَارَ النَّدْوَةِ فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ جَلِيلٍ فَلَمَّا رَأَوْهُ

(١) الطبري: ٤٨٥/١٣ (٢) الطبري: ٤٨٣/١٣ (٣) مسلم: ٦٦/١ (٤) مسلم: ٦٧/١ (٥) فتح الباري: ٧٥/١ (٦) الطبري: ٤٨٩/١٣، ٤٩٠ (٧) الطبري: ٤٩١/١٣ (٨) الطبري: ٤٩٢/١٣

قَالُوا لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، سَمِعْتُ أَنْتُمْ أَجْتَمَعْتُمْ فَأَرَدْتُ أَنْ أَحْضَرُكُمْ وَلَنْ يَعْذَمَكُمْ رَأْيِي وَنُصْجِي .  
قَالُوا: أَجَلْ، أَدْخُلْ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ، فَقَالَ: انْظُرُوا فِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ، وَاللَّهُ لَيُوشِكُنَّ أَنْ يُؤَايِيَكُمْ فِي أَمْرِكُمْ بِأَمْرِهِ .  
فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: إِحْسِبْهُ فِي وَثَاقٍ ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ زُهَيْرٌ وَالتَّابِغَةُ، إِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ . قَالَ: فَصَرَخَ عَدُوُّ اللَّهِ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ فَقَالَ: وَاللَّهِ! مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي، وَاللَّهُ! لَيُخْرِجَنَّ رَبُّهُ مِنْ مَحْسَبِهِ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيُوشِكُنَّ أَنْ يُبَيِّتُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَأْخُذُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ فَيَمْنَعُوهُ مِنْكُمْ، فَمَا آمَنْ عَلَيْكُمْ أَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ . قَالُوا: صَدَقَ الشَّيْخُ فَاَنْظُرُوا فِي غَيْرِ هَذَا . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَخْرِجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا خَرَجَ لَنْ يَضُرَّكُمْ مَا صَنَعَ وَأَيَّنْ وَقَعَ إِذَا غَاب عَنْكُمْ أَذَاهُ وَاسْتَرَحْنُمْ، وَكَانَ أَمْرُهُ فِي غَيْرِكُمْ . فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: وَاللَّهِ! مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي، أَلَمْ تَرَوْا حَلَاوَةَ قَوْلِهِ وَطَلَاةَ لِسَانِهِ . وَأَخَذَ الْقُلُوبَ مَا تَسْمَعُ مِنْ حَدِيثِهِ؟ وَاللَّهِ! لَيَنْ فَعَلْتُمْ ثُمَّ اسْتَعْرَضَ الْعَرَبَ لِيَجْتَمِعُوا عَلَيْهِ ثُمَّ لَيَأْتِيَنَّ إِلَيْكُمْ حَتَّى يُخْرِجَكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ وَيَقْتُلَ أَشْرَافَكُمْ . قَالُوا: صَدَقَ وَاللَّهِ! فَاَنْظُرُوا رَأْيَا غَيْرَ هَذَا . قَالَ: فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ: وَاللَّهِ! لَا شَيْبَرٌ عَلَيْكُمْ بِرَأْيِي مَا أَرَاكُمْ أَبْصَرْتُمُوهُ بَعْدَ، لَا أَرَى غَيْرَهُ . قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَأْخُذُونَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ غُلَامًا شَابًّا وَسَيْطًا نَهْدًا، ثُمَّ يُعْطَى كُلُّ غُلَامٍ مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا قَتَلُوهُ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، فَمَا أَظُنُّ هَذَا الْحَيِّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَقُودُونَ عَلَى حَرْبٍ قُرَيْشٍ كُلِّهَا . فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ، قَبِلُوا الْعَقْلَ وَاسْتَرَحْنَا وَقَطَعْنَا عَنَّا أَذَاهُ . قَالَ: فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: هَذَا وَاللَّهِ! الرَّأْيُ، الْقَوْلُ مَا قَالَ الْفَتَى، لَا أَرَى غَيْرَهُ . قَالَ: فَتَفَرَّقُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ . فَأَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَبِيتَ فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيتُ فِيهِ وَأَخْبَرَهُ بِمَكْرِ الْقَوْمِ، فَلَمْ يَبِثْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالْخُرُوجِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْدَ قُدُومِهِ الْمَدِينَةَ الْأَنْفَالَ يَذْكُرُ نِعْمَهُ عَلَيْهِ وَبَلَاءَهُ عِنْدَهُ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ وَأَنْزَلَ فِي قَوْلِهِمْ: تَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ سَاعَةً نَنْبُتُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فَكَانَ ذَلِكَ

الْيَوْمَ يُسَمَّى يَوْمَ الرَّحْمَةِ لِلَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ <sup>(١)</sup> .  
وَعَنِ الشَّدِيِّ نَحْوُ هَذَا السِّيَاقِ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾: أَيْ فَمَكَرْتُ بِهِمْ يَكِيدِي الْمَتِينِ حَتَّى خَلَصْتُكَ مِنْهُمْ <sup>(٢)</sup> .  
﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنَّا لَنَّا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ <sup>(٣)</sup> وَإِذَا قَالُوا اللَّهُ هَذَا كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطَرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آفِتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ <sup>(٤)</sup> وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ <sup>(٥)</sup> .  
[رَزَعُمُ قُرَيْشٍ فِي إِيْتَانِهِمْ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ قُرَيْشٍ وَعُتُوهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَدَعْوَاهُمْ الْبَاطِلَ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِهِ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وَهَذَا مِنْهُمْ قَوْلٌ بِلَا فِعْلٍ، وَإِلَّا فَقَدْ تَحَدَّوْا غَيْرَ مَا مَرَّةً أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، فَلَا يَجِدُونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَإِنَّمَا هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ يُعْرَوْنَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْقَائِلَ لِذَلِكَ هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لَعَنَهُ اللَّهُ، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالشَّدِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ، فَإِنَّهُ لَعَنَهُ اللَّهُ كَانَ قَدْ ذَهَبَ إِلَى بِلَادِ فَارِسَ وَتَعَلَّمَ مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِهِمْ رُسْتَمَ وَأُسْفَنْدِيَارَ، وَلَمَّا قَدِمَ وَجَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ اللَّهُ وَهُوَ يَتْلُو عَلَى النَّاسِ الْقُرْآنَ، فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسٍ جَلَسَ فِيهِ النَّضْرُ فَحَدَّثَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ أَوْلِيكَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا لَللَّهِ! أَيُّنَا أَحْسَنُ قِصَصًا أَنَا أَوْ مُحَمَّدٌ؟ وَلِهَذَا لَمَّا أَمَكَنَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَوَقَعَ فِي الْأَسَارَى أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُضْرَبَ رَقَبَتُهُ ضَرْبًا بَيْنَ يَدَيْهِ فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ . وَمَعْنَى ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَهُوَ جَمْعُ أُسْطُورَةٍ أَيْ كَتَبَتْهَا فُتِّبَتْهَا فَهِيَ يَتَعَلَّمُ مِنْهَا وَيَتْلُوها عَلَى النَّاسِ، وَهَذَا هُوَ الْكُذِبُ الْبُحْثُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ <sup>(٦)</sup> قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا [الفرقان: ٥، ٦] أَيْ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ مِنْهُ وَيَصْفَحُ عَنْهُ .

## [اِسْتِفْتَاخُ الْمُشْرِكِينَ وَطَلَبُهُمُ الْعَذَابَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هَذَا مِنْ كَثْرَةِ جَهْلِهِمْ وَشِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَغُتُوهِمْ، وَهَذَا مِمَّا عَيَّبُوا بِهِ وَكَانَ الْأَوَّلَى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ وَوَقِّفْنَا لِاتِّبَاعِهِ، وَلَكِنْ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَعَجَلُوا الْعَذَابَ، وَتَقْدِيمَ الْعُقُوبَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَتَجْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَؤُلَاءِ الْعَذَابِ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَضَاءَ قَبْلِ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [١] لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١-٣] وَكَذَلِكَ قَالَ الْجَهْلَةُ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وَقَالَ هَؤُلَاءِ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قَالَ شُعْبَةُ عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ صَاحِبِ الزُّيَادِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: هُوَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فَتَرَلْتُ: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ <sup>(١)</sup>.

[وُجُودُ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتِغْفَارُ الْمُشْرِكِينَ كَانَا أَمَانِينَ مِنْ

## الْعَذَابِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ، قَدْ، وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَفْلِكُهُ وَمَا مَلَك. وَيَقُولُونَ: غُفْرَانِكَ غُفْرَانِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الْآيَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ فِيهِمْ أَمَانَانِ: النَّبِيُّ ﷺ وَالِاسْتِغْفَارُ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَبَقِيَ الْاسْتِغْفَارُ <sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الثَّوْمِيَّ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لِأُمَّتِي» ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ فَإِذَا مَضَتْ تَرَكْتُ فِيهِمْ الْاسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُوا فَأَفَاءَ اللَّهُ مَوْلَكُمْ كَمَا نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٣١﴾

الْقِيَامَةِ <sup>(٣)</sup>. وَشَهِدَ لِهَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَالتَّحَاكُمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ يَا رَبِّ! لَا أَبْرُحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي! لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي» <sup>(٤)</sup>. ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجْهُ <sup>(٥)</sup>.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

## [عَذَابُ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ إِزْكَابِهِمُ الْفُطَانِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْلٌ لَّأَنْ يُعَذِّبَهُمْ، وَلَكِنْ لَمْ يُوقِعْ ذَلِكَ فِيهِمْ لِيَرْكَهَ مَقَامَ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، وَلِهَذَا

(١) فتح الباري: ١٦٠/٨ (٢) الطبري: ٥١١/١٣ (٣) تحفة الأحادي: ٤٧٢/٨ (٤) أحمد: ٢٩/٣ (٥) الحاكم: ٢٦١/٤

لَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ أَوْقَعَ اللَّهُ بِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَتَلَ صَنَادِيدَهُمْ وَأَسِيرَ سَرَاتِهِمْ وَأَرْشَدَهُمْ تَعَالَى إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِهَا مِنَ الشُّرْكِ وَالْفَسَادِ. فَلَوْلَا مَا كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَغْفِرِينَ لَوَقَعَ بِهِمُ الْبَأْسُ الَّذِي لَا يَرُدُّ، وَلَكِنْ دَفَعَ عَنْهُمْ بِسَبِّ أُولَئِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي يَوْمِ الْحُدَيْبِيَّةِ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَذَا مَكْرُهُمْ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَرِسَالَةٌ مُؤْمِنَةٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَقَاطَعَهُمْ فُصُيْبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ إِلَّا الْمُتَفَقُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَكَيْفَ لَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - أَيْ الَّذِي بِمَكَّةَ - يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ وَالطَّوَافِ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ إِلَّا الْمُتَفَقُّونَ﴾ أَيْ هُمْ لَيْسُوا أَهْلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِنَّمَا أَهْلُهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٢٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ- وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، الْآيَةُ [البقرة: ٢١٧]. وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ رِفَاعَةَ قَالَ: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا فَقَالَ: «هَلْ فِيكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ؟» فَقَالُوا: «فِينَا ابْنُ أُخْتِنَا وَفِينَا حَلِيفُنَا وَفِينَا مَوْلَانَا، فَقَالَ: «حَلِيفُنَا مِثًا وَابْنُ أُخْتِنَا مِثًا، وَمَوْلَانَا مِثًا إِنَّ أَوْلِيَاءِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ». ثُمَّ قَالَ: هَذَا صَحِيبٌ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عُرْوَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُّونَ﴾ قَالَ: هُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ:

هُمْ الْمُجَاهِدُونَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَا كَانُوا يُعَاوِلُونَهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُضِلُّونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُضِلُّونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغَابِرُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ (٢٨) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٩)

[إِنْفَاقَ الْكُفَّارِ أَمْوَالَهُمْ لِلصَّدَقَاتِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَكُونُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي الرَّهْرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ حَبَّانَ وَعَاصِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ بْنُ مُعَاذٍ قَالُوا: لَمَّا أُصِيبَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ وَرَجَعَ فَلَهُمْ إِلَى مَكَّةَ وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بِعِيَرِهِ، مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رِبْعَةَ وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ

(١) لحاكم: ٣٢٨/٢ (٢) الطبري: ٥٢٦، ٥٢٢/١٣ (٣) الطبري: ٥٢٥/١٣ (٤) الطبري: ٥٢٧/١٣ (٥) الطبري:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِ﴾ (٣٨) ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ قَائِمًا أُنْتَهُوا قَائِمًا اللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ﴾ (٣٩) ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يَغْمُ الْمَوْلَى وَيَغْمُ النَّصِيرُ﴾ (٤٠)

[تَرْغِيبُ الْكَافِرِ فِي التَّوْبَةِ وَتَرْهِيْبُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ]  
يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَشَاقَّةِ وَالْعِنَادِ، وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي مِنْ كُفْرِهِمْ، وَدُؤْبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ. كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَائِلٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخِذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أَخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ»<sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَعُودُوا﴾ أي يَسْتَمِرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِ﴾ أي فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتِي فِي الْأَوَّلِينَ: أَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَى عِنَادِهِمْ أَنَا نَعَاجِلُهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ.

#### [الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ لِإِنْهَاءِ الْكُفْرِ وَالشَّرِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ قَائِمًا أُنْتَهُوا قَائِمًا اللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ﴾ (٣٩) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! أَلَا تَضَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ﴾ (٣٨) أَلَا تَضَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! أَعَيَّرَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلَا أَقَاتِلُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعَيَّرَ بِالْآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [النِّسَاء: ٩٣]. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: قَدْ فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ كَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا وَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ، إِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُوثِقُوهُ حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُ فِيمَا يُرِيدُ قَالَ: فَمَا قَوْلُكُمْ فِي عَلَيٍّ

وَأَبْنَاءَهُمْ وَإِخْوَانَهُمْ بِبَدْرٍ، فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ - مِنْ قُرَيْشٍ - تِجَارَةٌ، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ لَعَلَّنَا أَنْ نُنْذِرَكَ مِنْهُ ثَارًا يَمُنْ أَصِيبَ مِنَّا فَفَعَلُوا، قَالَ: فَفِيهِمْ كَمَا ذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُضِلُّونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَكَمِ بْنِ عُثَيْنَةَ وَفَقَادَةَ وَالسُّدِّيَّ، وَابْنُ أَبِي نَجْوَى: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ وَتَفَقَّهَ الْأَمْوَالُ فِي أَحَدٍ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ بَدْرٍ<sup>(٣)</sup>. وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهِيَ عَامَّةٌ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا خَاصًّا، فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْكَافِرَ يُضِلُّونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِلُّوا عَنْ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الْحَقِّ فَسَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَذَهَبُ أَمْوَالُهُمْ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً - أَيْ نَدَامَةً - حَيْثُ لَمْ تَجِدْ شَيْئًا لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ وَظُهُورَ كَلِمَتِهِمْ عَلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَاللَّهُ مِنْهُمُ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَنَاصِرُ دِينِهِ، وَمُعَلِّنُ كَلِمَتِهِ وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ. فَهَذَا الْخِزْيُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، فَمَنْ عَاشَ مِنْهُمْ رَأَى بَعِيْثَهُ وَسَمِعَ بِأَذْنِهِ مَا يَسُوهُ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ أَوْ مَاتَ فَإِلَى الْخِزْيِ الْأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ السَّامِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَيُضِلُّونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: فَيَمِيزُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ<sup>(٤)</sup>. وَلِيَمِيزَ مَنْ يُطِيعُهُ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ، أَوْ يَعْصِيهِ بِالْتَّكْوَلِ عَنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ - الْآيَةُ [آل عمران: ١٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسِرَّ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ النَّصِيرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] فَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا: إِنَّمَا ابْتَلَيْنَاكُمْ بِالْكَفَرِ يُقَاتِلُونَكُمْ وَأَقْدَرْنَاكُمْ عَلَى إِنْثَاقِ الْأَمْوَالِ وَبَذْلِهَا فِي ذَلِكَ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبَهُ﴾ أَيْ يَجْمَعُهُ كُلُّهُ وَهُوَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أَيْ هَؤُلَاءِ هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) الطبري: ٥٣٢/١٣ (٢) الطبري: ٥٣١، ٥٣٠/١٣ (٣) الطبري: ٥٣٣/١٣ (٤) الطبري: ٥٣٤/١٣ (٥) فتح الباري: ٢٠٥/٤ (٦) مسلم: ١٢١ وأحمد: ٢٠٥/٤



سورة الأنفال

١٨٢

سورة الأنفال

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّنْقِيهِ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خَقْلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَسْتَهُمْ وَلَنَنْزَعْتَهُمْ الْأَمْثَرَ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ [البقرة: ١٩٣] وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَسَامَةَ: لَمَّا عَلَا ذَلِكَ الرَّجُلُ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِأَسَامَةَ: «أَقْتُلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» وَ«كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا، قَالَ: «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِكَ؟» وَجَعَلَ يَقُولُ وَيُكْرِرُ عَلَيْهِ، «مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ أَسَامَةُ: حَتَّى تَمَيَّنْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ [إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ] ﴿١١﴾.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا تَوَلَّوْا فَاغْلَبُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ بِعَمَلِ الْمَوَلَى وَبِعَمَلِ

وَعُثْمَانَ؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَمَّا قَوْلِي فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ: أَمَّا عُثْمَانُ، فَكَانَ اللَّهُ قَدْ عَفَا عَنْهُ وَكَرِهْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَأَبْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَتَنَهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ وَهَدِيَهُ ابْنَتَهُ أَوْ بَنَتَهُ حَيْثُ تَرَوْنَ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا أَوْ إِلَيْنَا ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: كَيْفَ تَرَى فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ؟ فَقَالَ: وَهَلْ تَذَرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً، وَلَيْسَ بِقِتَالِكُمْ عَلَى الْمُلْكِ<sup>(٢)</sup>. هَذَا كُلُّهُ سِيَاقُ الْبَحَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ يَعْنِي: لَا يَكُونُ شِرْكٌ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيبٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: بَلَغَنِي عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَائِنَا، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ حَتَّى لَا يَفْتَنَ مُسْلِمٌ عَنْ دِينِهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: يُخْلَصُ التَّوْحِيدُ لِلَّهِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾: أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَيَكُونُ التَّوْحِيدُ خَالِصًا لِلَّهِ، لَيْسَ فِيهِ شِرْكٌ، وَيَخْلَعُ مَا دُونَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾، لَا يَكُونُ مَعَ دِينِكُمْ كُفْرًا<sup>(٨)</sup>. وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَمُرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ، حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَجَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٩)</sup> وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ أَنْهَوْا﴾ أَيْ بِقِتَالِكُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ فَكَفُّوا عَنْهُ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بِوَاطِنِهِمْ ﴿فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِمَّامًا يَعْمَلُونَ بَصِيرَةً﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] الْآيَةِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿فَلْيَخْزَكُمْ فِي الَّذِينَ﴾ [البقرة: ١١]، وَقَالَ: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ

(١) فتح الباري: ١٦٠/٨ (٢) فتح الباري: ١٦٠/٨ (٣) الطبري: ٥٣٨/١٣ (٤) ابن أبي حاتم: ١٧٠١/٥ (٥) ابن أبي حاتم: ١٧٠١/٥ (٦) الطبري: ٥٣٩، ٥٣٨/١٣ (٧) ابن هشام: ٣٢٧/٢ (٨) الطبري: ٥٣٩/١٣ (٩) فتح الباري: ١/٩٥ ومسلم: ٥٣/١ (١٠) البخاري: ١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨ (١١) مسلم: ٩٦/١

النَّصِيرُ أَيُّ وَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلَافِكُمْ وَمُحَارَبَتِكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ، وَسَيُدْكُمُ وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْكَانِ يَوْمَ اتَّفَقَ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[حُكْمُ الْغَنِيمَةِ وَالْفِيءِ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى تَفْصِيلَ مَا شَرَعَهُ مُحْصَصًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الشَّرِيفَةِ، مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ إِحْلَالِ الْمَغَانِمِ. وَالْغَنِيمَةُ، هِيَ: الْمَالُ الْمَأْخُودُ مِنَ الْكُفَّارِ، بِإِيحَافِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، وَالْفِيءُ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَالْأَمْوَالِ الَّتِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا أَوْ يُتَوَفَّوْنَ عَنْهَا وَلَا وَارِثَ لَهُمْ، وَالْحِزْبَةُ، وَالْخَرَجُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ تَوْكِيدٌ لِتَحْمِيسِ كُلِّ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ حَتَّى الْخَيْطِ وَالْمِخِيطِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١] وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً فَغَنِمُوا خُمُسَ الْغَنِيمَةِ، فَضَرَبَ ذَلِكَ الْخُمُسَ فِي خُمُسَةٍ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قَالَ:

وَقَوْلُهُ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مِفْتَاحُ كَلَامٍ: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. فَجَعَلَ سَهْمَ اللَّهِ وَسَهْمَ الرَّسُولِ ﷺ وَاحِدًا<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ، وَالْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَرِيدَةَ وَفَتَادَةُ وَمُغِيرَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، أَنَّ سَهْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاحِدٌ<sup>(٢)</sup>. وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ رَجُلٍ [مِنْ بَلَقَيْنَ] قَالَ:

أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بِوَادِي الْقُرَى، وَهُوَ يُعْرِضُ فَرَسًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تَقُولُ فِي الْغَنِيمَةِ؟ فَقَالَ: «اللَّهُ خُمُسُهَا وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهَا لِلْجَيْشِ» قُلْتُ: فَمَا أَحَدٌ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا السَّهْمُ تَسَخَّرُجُهُ مِنْ [جَنْبِكَ]: لَيْسَ أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ»<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ

وَأَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى، فَإِنَّهُ يُصْرَفُ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ، لِأَنَّ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَارِثُوا بَنِي هَاشِمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَدَخَلُوا مَعَهُمْ فِي الشَّعْبِ

(١) الطبري: ٥٤٩/١٣ (٢) الطبري: ٥٤٨/١٣ (٣) البيهقي: ٣٢٤/٦ (٤) أحمد: ٣١٦/٥ إسناده ضعيف فيه أبو بكر ابن عبد الله بن أبي مريم وهو ضعيف (٥) أحمد: ١٨٤/٢ وأبو داود: ٢٦٩٤ وانظر تفسير الآية آل عمران: ١٦١ (٦) أبو داود: ٢٧٥٥ (٧) أحمد: ٢٧١/١ والترمذي: ١٥٦١ (٨) أبو داود: ٢٩٩٤

[بَعْضُ تَفَاصِيلِ يَوْمِ بَدْرٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفُرْقَانِ ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا الْقَرْيَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ ﴿وَهُمْ﴾ أَيِ الْمُشْرِكُونَ نَزُولُ ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أَيِ الْبُعِيدَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى نَاحِيَةِ مَكَّةَ، ﴿وَالرَّكْبَ﴾ أَيِ الْغَيْرِ الَّذِي فِيهِ أَبُو سُفْيَانٌ بِمَا مَعَهُ مِنَ التَّجَارَةِ، ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أَيِ مِمَّا يَلِي سَيْفَ الْبَحْرِ، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أَيِ أَنْتُمْ وَالْمُشْرِكُونَ إِلَى مَكَانٍ ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ مِيعَادٍ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ، ثُمَّ بَلَغَكُمْ كَثْرَةُ عَدُوِّهِمْ وَقَلَّةُ عَدُوِّكُمْ، مَا لَقِيتُمُوهُمْ ﴿وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أَيِ لَيَقْضِي اللَّهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ إِغْرَازِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلالِ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ، عَنْ غَيْرِ مِلٍّ مِنْكُمْ، فَفَعَلَ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ بِطُغْيَانِهِ<sup>(١)</sup>. وَفِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ<sup>(٢)</sup>. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَنَا مِنْ بَدْرٍ، عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَتَجَسَّسُونَ لَهُ الْخَبَرَ، فَأَصَابُوا سُقَاءَ لِقُرَيْشٍ غُلَامًا لِبَنِي سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَغُلَامًا لِبَنِي الْحَجَّاجِ، فَأَتَوْا بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدُوهُ يُصَلِّي فَجَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُمَا لِمَنْ أَنْتُمَا؟ فَيَقُولَانِ: نَحْنُ سُقَاءُ لِقُرَيْشٍ، بَعَثُونَا نَسْقِيهِمْ مِنَ الْمَاءِ، فَكَرِهَ الْقَوْمُ خَبَرَهُمَا، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لِأَبِي سُفْيَانَ فَضَرَبُوهُمَا، فَلَمَّا أَذْلَقُوهُمَا قَالَا: نَحْنُ لِأَبِي سُفْيَانَ فَتَرَكُوهُمَا، وَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، وَقَالَ: «إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرْبَتْهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا وَاللهُ! إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ، أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ؟» قَالَا: هُمْ وَرَاءَ هَذَا الْكَيْبِ الَّذِي تَرَى بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى - وَالْكَيْبِ: الْعَقَنْقَلُ - فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمْ الْقَوْمُ؟» قَالَا: كَثِيرٌ. قَالَ: «مَا

غَضَبًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَمَاعَتِهِ لَهُ، مُسْلِمُهُمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَكَافَرُهُمْ حِمِيَّةٌ لِلْعَشِيرَةِ، وَأَنَفَةٌ وَطَاعَةٌ لِأَبِي طَالِبٍ عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْيَمَنَى﴾ أَيِ يَتَامَى الْمُسْلِمِينَ. ﴿وَالْمَسْكِينَ﴾. هُمْ: الْمَحَاطِبُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَشُدُّ حَلَّتُهُمْ. وَمَسَكَّتَهُمْ.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ هُوَ الْمُسَافِرُ أَوْ الْمُرِيدُ لِلسَّفَرِ إِلَى مُسَافَةٍ تُقْصَرُ فِيهَا الصَّلَاةُ، وَلَيْسَ لَهُ مَا يُفِقُّهُ فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ، وَسَبَّأَتِي تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى عَبْدِنَا﴾ أَيِ إِمْتِثِلُوا مَا شَرَعْنَا لَكُمْ مِنَ الْخُمْسِ فِي الْغَنَائِمِ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أُنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثٍ وَقَدْ عَبْدِ الْقَيْسِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «وَأَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْتُمْ عَنْ أَرْبَعٍ. أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَذَرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ»<sup>(١)</sup>. الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ، فَجَعَلَ أَدَاءَ الْخُمْسِ مِنْ جُمْلَةِ الْإِيمَانِ، وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِهِ، فَقَالَ: (بَابُ أَدَاءِ الْخُمْسِ مِنَ الْإِيمَانِ) ثُمَّ أَوْرَدَ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا، وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. يُبَيِّنُ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ، بِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِبَدْرٍ، وَيُسَمَّى الْفُرْقَانُ، لِأَنَّ اللَّهَ أَعْلَى فِيهِ كَلِمَةُ الْإِيمَانِ عَلَى كَلِمَةِ الْبَاطِلِ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ وَنَصَرَ نَبِيَّهَ وَحِزْبَهُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِحَةَ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ بَدْرٍ فَرَّقَ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ الْحَاجِمُ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَمِقْسَمٌ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُ يَوْمُ بَدْرٍ<sup>(٣)</sup>.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبَحَّى مَنْ

(١) فتح الباري: ١٥٧/١ ومسلم: ٤٦/١ (٢) الطبري: ١٣/

٥٦١ (٣) الطبري: ١٣/٥٦١، ٥٦٣ (٤) ابن هشام: ٣٢٨/٢

(٥) الطبري: ١٣/٥٦٦

حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾

عِدْتُهُمْ؟» قَالَا: مَا نَدْرِي. قَالَ: «كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟» قَالَا: يَوْمًا تِسْعًا وَيَوْمًا عَشْرًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقَوْمُ مَا بَيْنَ التَّسْعِمَاةِ إِلَى الْأَلْفِ» ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: «فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟» قَالَا: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَأَبُو الْبَخَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ، وَحَكِيمُ بْنُ جِرَامٍ، وَنُوفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نُوفَلٍ، وَطُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ نُوفَلٍ، وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسودِ، وَأَبُو جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَبُيُتَّةُ وَمُتَبَّةُ ابْنَا الْحِجَاجِ، وَسَهَيْلُ بْنُ عَمْرِو، وَعَمْرُو بْنُ عَدُوْدٍ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَادَ كَيْدِهَا»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبَحَىٰ مَنْ حَبَىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ»، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: أَيُّ لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ الْحُجَّةِ لِمَا رَأَى مِنَ الْآيَةِ وَالْعِبَرَةِ، وَيُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ. وَبَسَطَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّمَا جَمَعَكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، لِيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَرْفَعَ كَلِمَةَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، لِيَصِيرَ الْأَمْرُ ظَاهِرًا وَالْحُجَّةُ قَاطِعَةً وَالْبَرَاهِينُ سَاطِعَةً، وَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ، وَلَا شُبْهَةٌ، فَحِينَئِذٍ يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ أَوْ يَسْتَوِرُ فِي الْكُفْرِ مَنْ اسْتَمَرَّ فِيهِ، عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ: أَنَّهُ مُبْطِلٌ - لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ - «وَبَحَىٰ مَنْ حَبَىٰ» أَيُّ يُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ «عَنْ بَيِّنَةٍ» أَيُّ حُجَّةٍ وَبَصِيرَةٍ، وَالْإِيمَانُ هُوَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ» وَقَالَتْ عَائِشَةُ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ: فَهَلَكَ فِيَّ مَنْ هَلَكَ، أَيُّ قَالَ فِيهَا مَا قَالَ مِنْ الْبُهْتَانِ وَالْإِفْكِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ» أَيُّ لِدَعَائِكُمْ وَتَضَرُّعِكُمْ وَاسْتِعَاثَتِكُمْ بِهِ، «عَلِيمٌ» أَيُّ يَكُنْ، وَأَنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِكُمُ الْكَفَرَةَ الْمُعَانِدِينَ.

«وَإِذْ يُرِيدُكُمْ اللَّهُ فِي مَنَاصِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَثَرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»<sup>(٤)</sup> وَإِذْ يُرِيدُكُمْ اللَّهُ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْبِضَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى

اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٨﴾

[تَقْلِيلُ اللَّهِ كُلِّ فِتْنَةٍ فِي عَيْنِ الْأُخْرَى]

قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُمْ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا، وَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، فَكَانَ تَثْبِيثًا لَهُمْ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ

(١) ابن هشام: ٢٦٨/٢ (٢) الطبري: ٥٦٨/١٣ (٣) أحمد: ١٩٥/٦ (٤) الطبري: ٥٧٠/١٣ (٥) الطبري: ٥٧٠/١٣ (٦) الطبري: ٥٧٢/١٣ إسناده ضعيف أبو إسحاق مدلس ولم يصرح وأبو عبيده لم يسمع من عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (٧) ابن أبي حاتم: ١٧١٠/٥ (٨) ابن هشام: ٣٢٨/٢ وابن أبي حاتم: ١٧١٠/٥

كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا  
فَلَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾  
[تَعْلِيمُ آدَابِ الْحَرْبِ]

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ آدَابِ اللِّقَاءِ  
وَطَرِيقِ الشَّجَاعَةِ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ ثَبَّتْ فِي الصَّاحِبِينَ  
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ انْتَهَرَ فِي  
بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ  
قَامَ فِيهِمْ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لَا تَمْتَنُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ،  
وَأَسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ  
الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ:  
«اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمَ  
الْأَحْزَابِ، اهْزِمْنَاهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>. وَعَنْ كَعْبِ  
الْأَحْبَارِ قَالَ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قِرَاءَةِ  
الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَمَرَ النَّاسَ بِالصَّلَاةِ  
وَالْقِتَالِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ أَمَرَ النَّاسَ بِالذِّكْرِ عِنْدَ الْقِتَالِ،  
فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا  
اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

#### [الْأَمْرُ بِالنَّبَاتِ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ]

وَأَمَرَ تَعَالَى بِالنَّبَاتِ عِنْدَ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ وَالصَّبْرِ عَلَى  
مُبَارَزَتِهِمْ، فَلَا يَقْرَءُوا وَلَا يَنْكَلُوا وَلَا يَجْبُثُوا، وَأَنْ يَذْكُرُوا  
اللَّهَ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَلَا يَنْسُوهُ، بَلْ يَسْتَعِينُوا بِهِ وَيَتَوَكَّلُوا  
عَلَيْهِ وَيَسْأَلُوهُ النَّصَرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَأَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ، فَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ائْتَمَرُوا،  
وَمَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ انْتَهَرُوا. وَلَا يَتَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَيْضًا  
فَيَحْتَلِفُوا فَيَكُونُ سَبَبًا لِيَتَخَذَلَهُمْ وَفَسْلَهُمْ، ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾  
أَيُّ قُوَّتُكُمْ وَجِدَّتُكُمْ، وَمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْإِقْبَالِ، ﴿وَأَصِيرُوا﴾  
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَقَدْ كَانَ لِلصَّاحِبَةِ رَضِي اللَّهِ عَنْهُمْ فِي  
بَابِ الشَّجَاعَةِ وَالْإِثْمَارِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ،  
وَأَمْتِنَالِ مَا أَرْسَدَهُمْ إِلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ  
وَالْقُرُونِ قَبْلَهُمْ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، فَإِنَّهُمْ بِرِكَّةِ  
الرُّسُولِ ﷺ وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ، فَتَحُوا الْقُلُوبَ وَالْأَقَالِيمَ  
شَرْقًا وَغَرْبًا، فِي الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، مَعَ فَلَةٍ عَدَدِهِمْ بِالنَّسْبَةِ إِلَى  
جُيُوشِ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ، مِنَ الرُّومِ، وَالْفَرَسِ، وَالتُّرْكِ،  
وَالصَّقَالِيَّةِ، وَالْبَرْبَرِ، وَالْحَبُوشِ، وَأَصْنَافِ السُّودَانِ،  
وَالْقِبْطِ، وَطَوَائِفِ بَنِي آدَمَ. فَهَرُوا الْجَمِيعَ حَتَّى عَلَتْ كَلِمَةُ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَفَلَسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ  
وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ  
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ  
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ  
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ  
عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ  
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ  
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينَهُمْ  
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾  
وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ  
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَ هُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ  
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾  
كَذَٰبٌ أَلْفِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ  
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

اللَّهُ، وَظَهَرَ دِينُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَأَمْتَدَّتِ الْمَمَالِكُ  
الإِسْلَامِيَّةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فِي أَقَلِّ مِنْ  
ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ أَجْمَعِينَ، وَحَشَرْنَا  
فِي زُمْرَتِهِمْ إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَّابٌ.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ  
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾<sup>(١)</sup> وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ  
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ  
وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ  
إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ  
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

(١) فتح الباري: ١٤٠/٦ و مسلم: ١٣٦٢/٣ (٢) ابن أبي حاتم  
(٩١٣٢) ١٧١١/٥ فيه عبدالله بن عياش وهو ضعيف يعتبر به  
[تحرير تقريب التهذيب] ويزيد بن قودر ذكره ابن أبي حاتم ولم  
يذكر فيه جرْحًا ولا تعديلاً.

## [كَيْفِيَّةُ خُرُوجِ الْمُشْرِكِينَ لِيَوْمِ بَدْرٍ]

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِخْلَاصِ فِي الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الشَّكِّ بِالْمُشْرِكِينَ فِي خُرُوجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، ﴿بَطَرًا﴾ أَي دَفْعًا لِلْحَقِّ، وَرِشَاءَ النَّاسِ وَهُوَ الْمَفَاخِرَةُ وَالتَّكَبُّرُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ الْعِيرَ قَدْ نَجَا فَارْجِعُوا، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ، حَتَّى نَرِدَ مَاءَ بَدْرٍ، وَنَتَحَرَّ الْجُرُزَ، وَنَشْرَبَ الْخَمْرَ، وَتَعْرِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِمَكَانِنَا فِيهَا يَوْمَنَا أَبَدًا. فَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَجْمَعُ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا وَرَدُوا مَاءَ بَدْرٍ وَرَدُّوا بِهِ الْجَمَامَ، وَرَمَوْا فِي أَطْوَاءِ بَدْرٍ مُهَانِينَ أَدْلَاءً، صَغَرَةَ أَشْقِيَاءَ، فِي عَذَابٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أَي عَالِمٌ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَلَهُ، وَلِهَذَا جَازَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ لَهُمْ<sup>(١)</sup>. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ﴾ قَالُوا: هُمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَمَّا خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَدْرٍ، خَرَجُوا بِالْقِيَانِ وَالذُّفُوفِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

## [تَرْيِيسُ الشَّيْطَانِ وَتَغْرِيرُهُ الْمُشْرِكِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ الْآيَةُ، حَسَنَ لَهُمْ - لَعَنَهُ اللَّهُ - مَا جَاءُوا لَهُ وَمَا هُمُوا بِهِ، وَأَطْمَعَهُمْ أَنَّهُ لَا غَالِبَ لَهُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ<sup>(٣)</sup>. وَنَفَى عَنْهُمْ الْحَشْيَةَ مِنْ أَنْ يُؤْتُوا فِي دِيَارِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ بَنِي بَكْرٍ، فَقَالَ: أَنَا «جَارٌّ لَكُمْ» وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَدَّى لَهُمْ فِي صُورَةِ شِرَاقَةِ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، سَيِّدِ بَنِي مُدَلِجٍ، كَبِيرِ تِلْكَ النَّاجِيَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِعُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، سَارَ إِبْلِيسُ بِرَأْيِهِ وَجُنُودِهِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَغْلِبَكُمْ، وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ، فَلَمَّا انْتَفَوْا وَنَظَرَ الشَّيْطَانُ إِلَى إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ، «نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ» قَالَ: رَجَعَ مُدْبِرًا، وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الْآيَةُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

جَاءَ إِبْلِيسُ يَوْمَ بَدْرٍ فِي جُنْدٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَعَهُ رَأْيَتُهُ، فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مُدَلِجٍ، فِي صُورَةِ شِرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ، فَلَمَّا اضْطَفَّتِ النَّاسُ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُبْضَةً مِنَ الثَّرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وَجُوهِ الْمُشْرِكِينَ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَأَقْبَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى إِبْلِيسَ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، انْتَرَعَ يَدَهُ ثُمَّ وَلَّى مُدْبِرًا هُوَ وَشِيعَتُهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا شِرَاقَةُ أَنْزِعْ عَنْكَ لَنَا جَارًا؟ فَقَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ. وَذَلِكَ حِينَ رَأَى الْمَلَائِكَةُ<sup>(٥)</sup>.

## [مَوْفِقُ الْمَنَافِقِينَ يَوْمَ بَدْرٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ يَكْفُلُ الَّنَّفَقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: قَالَ: لَمَّا دَنَا الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ قَلَّلَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَلَّلَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ قَلْتِهِمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ سَهَرُومُونَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَكَانَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: رَأَوْا عِصَابَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَشَدَّدَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَذَكَرَ لَنَا: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ عَدُوَّ اللَّهِ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْلِبُوا اللَّهَ بَعْدَ الْيَوْمِ، قَسْوَةً وَعُتُوًّا<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ: كَانَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَدْ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، فَخَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَمَّا رَأَوْا قِلَّةَ الْمُسْلِمِينَ، قَالُوا: غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيِ يَعْتَمِدْ عَلَى جَنَابِهِ ﴿فَكَانَ اللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيِ لَا يُضَامُ مِنَ التَّجَا إِلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَعْمَالِهِ لَا يَضَعُهَا إِلَّا فِي مَوَاضِعِهَا، فَيَنْصُرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ، وَيَخْذُلُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِدَلِكِ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَكَّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى الْمَلَائِكَةِ يَبْصُرُونَ

وُجُوهُهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُفُوفًا عَذَابِ الْحَرِيقِ﴾<sup>(٩)</sup> ذَلِكَ يَمَّا قَدَمَتْ

أَيُّدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾<sup>(١٠)</sup>

(١) ابن هشام: ٣٢٩/٢ (٢) الطبري: ٩٠٨/١٤ (٣) الطبري:

١١/١٤ (٤) الطبري: ٩/١٤ (٥) الطبري: ٧/١٤ (٦) الدر

المثور: ٧٨/٤ (٧) الطبري: ١٤/١٤ (٨) الطبري: ١٣/١٤

سورة الأنفال

١٨٤

سورة الأنفال

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُ ۖ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾ فَإِنَّمَا تَتَّفِقَتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيفَتَهُ فَأَيُّدِ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۖ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ۖ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَمَنْ هُوَ دُونُهُمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ۗ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ فَآخَذَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٥٢﴾  
يَقُولُ تَعَالَى: فَعَلَّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، كَمَا فَعَلَ الْأُمَمُ الْمُكَذِّبَةُ قَبْلَهُمْ، فَفَعَلْنَا بِهِمْ مَا هُوَ دَأْبُنَا أَيْ عَادَتُنَا وَسُنَّتُنَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ، الْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ وَأَخَذَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقَدِّرٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ وَلَا يَقُوتُهُ هَارِبٌ.  
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٢﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَاهُ ۖ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾

[ضَرَبُ الْمَلَائِكَةِ الْكُفَّارَ عِنْدَ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَوْ عَايَنْتَ يَا مُحَمَّدُ حَالَ تَوَفِّي الْمَلَائِكَةِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ، لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا هَائِلًا فَظِيمًا مُنْكَرًا، إِذْ «بَضَرُوا وَجُوهَهُمْ وَأَذْنَبَتْهُمْ» وَيَقُولُونَ لَهُمْ: «وَدُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ». قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «وَأَذْنَبَتْهُمْ»: أَسْتَاهَهُمْ. قَالَ: يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا أَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، ضَرَبُوا وَجُوهَهُمْ بِالسُّيُوفِ، وَإِذَا وَلَّوْا أَذْنَبَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ فَضَرَبُوا أَذْنَابَهُمْ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا السِّيَاقُ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهُ وَقَعَةُ بَدْرٍ، وَلَكِنَّهُ عَامٌّ فِي حَقِّ كُلِّ كَافِرٍ، وَلِهَذَا لَمْ يُخَصِّصْهُ تَعَالَى بِأَهْلِ بَدْرٍ، بَلْ قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْنَبَتْهُمْ» وَفِي سُورَةِ الْقِتَالِ مِثْلُهَا [الآية: ٢٧]، وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» [الأنعام: ٩٣] أَيْ بِاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ بِالضَّرْبِ فِيهِمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ - إِذَا اسْتَضَعَبَتْ أَنْفُسُهُمْ، وَامْتَنَعَتْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَجْسَادِ-: أَنْ تَخْرُجَ قَهْرًا، وَذَٰلِكَ إِذْ بَشَّرُوهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ: إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِذَا جَاءَ لِلْكَافِرِ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الْمُنْكَرَةِ، يَقُولُ: أَخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةَ إِلَى سُمُومٍ وَحُمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، فَتَفْتَرِّقُ فِي بَدَنِهِ فَيَسْتَخْرِجُوجُوهَا مِنْ جَسَدِهِ، كَمَا يُخْرِجُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتَخْرُجُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ<sup>(٢)</sup>.  
وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لَهُمْ: «دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ» أَيْ هَذَا الْجَزَاءُ بِسَبَبِ مَا عَمِلْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا، جَازَاكُمْ اللَّهُ بِهَا هَذَا الْجَزَاءَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ﴾ أَيْ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، عِنْدَ مُسْلِمٍ رَجَمَهُ اللَّهُ، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْتُمْ لَكُمْ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»<sup>(٣)</sup>.  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

(١) الطبري: ١٦/١٤ (٢) أحمد: ٢٨٧/٤، ٢٨٨ (٣) مسلم: ١٩٩٤/٤

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عَذْلِهِ وَفُسْطِهِ فِي حُكْمِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى أَحَدٍ، إِلَّا بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

وقوله: ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي كَصْنَعِهِ بِآلِ فِرْعَوْنَ وَأَمْثَالِهِمْ، حِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِهِ، أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَسَلَبَهُمْ تِلْكَ النِّعَمَ الَّتِي أَسَدَّهَا إِلَيْهِمْ، مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ بَلْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّمَا تَتَفَقَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

[الْأَمْرُ بِشِدَّةٍ ضَرْبٍ مَنْ يَكْفُرُ وَيَنْقُضُ الْعَهْدَ]

أَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ شَرَّ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَقَضُوهُ، وَكُلَّمَا أَكْدُوهُ بِالْإِيمَانِ نَكثُوهُ، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أَي لَا يَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْآثَامِ ﴿فَإِنَّمَا تَتَفَقَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أَي تَغْلِبُهُمْ وَتُظْفِرُ بِهِمْ فِي حَرْبٍ ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ أَي نَكَلَ بِهِمْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَابْنُ عُيَيْنَةَ <sup>(١)</sup>. وَمَعْنَاهُ غَلَطَ عَقُوبَتَهُمْ وَأَخْنَجَهُمْ قَتْلًا، لِيَخَافَ مِنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، وَيَصْبِرُوا لَهُمْ عِزَّةً ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾. وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَقُولُ: لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا فَيُضَيِّعَ بِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ <sup>(٢)</sup>.

﴿وَمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَاكَ فَاتِّذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ الْفَافِينَ﴾ ﴿٥٣﴾

[الْأَمْرُ بِنُقُضِ الْعَهْدِ عَلَى سَوَاءٍ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ﴾ قَدْ عَاهَدْتَهُمْ ﴿خِيفَاكَ﴾ أَي نَقَضَا لِمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمَوَاقِفِ وَالْعُهُودِ ﴿فَإِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أَي عَهْدُهُمْ ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أَي أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ، حَتَّى يَتَّقَى عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِأَنَّكَ حَزَبٌ لَهُمْ وَهُمْ حَزَبٌ لَكَ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، عَلَى السَّوَاءِ، أَي تَسْتَوِي أَنْتَ وَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَافِينَ﴾ أَي حَتَّى وَلَوْ فِي حَقِّ

الْكَافِرِينَ لَا يُجِبُّهَا أَيْضًا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَلِيمِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: كَانَ مُعَاوِيَةُ يَسِيرُ فِي أَرْضِ الرُّومِ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَمَدٌ، فَأَرَادَ أَنْ يَذْنُو مِنْهُمْ، فَإِذَا انْقَضَى الْأَمَدُ غَزَاهُمْ، فَإِذَا شَيْخٌ عَلَى دَابَّةٍ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَفَاءٌ لَا غَدْرًا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحِلُّنَّ عُقْدَةً وَلَا يَشُدَّهَا حَتَّى يَنْقُضِي أَمَدَهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، فَارْجَعَ، فَإِذَا الشَّيْخُ عَمْرُو بْنُ [عَبْسَةَ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ <sup>(٣)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ <sup>(٤)</sup>.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْزِرُونَ﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبُوءَ بِإِيتَاكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴿٥٤﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِعْدَادِ حَسَبِ الْمُسْتَطَاعِ حَتَّى يَرْهَبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: وَلَا تَحْسَبَنَّ يَا مُحَمَّدُ! ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أَي فَاتُونَا، فَلَا تَقْدِرْ عَلَيْهِمْ بَلْ هُمْ تَحْتَ قَهْرٍ قُدْرَتِنَا، وَفِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِنَا، فَلَا يُعْزِرُونَنَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٤] أَي يَظُنُّونَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْزِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ مَلِكٍ أَلَمَ يَكْفُرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْزِرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢١٧] مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٥﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِعْدَادِ لِأَلَابِ الْحَرْبِ، لِمَقَاتِلَتِهِمْ حَسَبِ الطَّاقَةِ وَالْإِمْكَانِ وَالِاسْتِطَاعَةِ، فَقَالَ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أَي مَهْمَا أَمَكَنْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴿رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرِّمِيَّ، أَلَا

(١) الطبري: ٢٣/١٤، ٢٤، (٢) الطبري: ٢٣/١٤، (٣) أحمد: ١١١/٤ (٤) أبو داود الطيالسي: ١٥٧ وأبو داود: ١٩٠/٣ وتحفة الأحوذى: ٢٠٣/٥ والنسائي: ٢٢٣/٥ وابن حبان: ٧/١٨٢



إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّةَ<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ، لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ. فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَاعَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَوْضَةِ، كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا - فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يَرُدَّ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَعَنُّبًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظَهْرِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِبَاءً وَنَوَاءً، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ» وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحُمْرِ، فَقَالَ «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْقَادَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾<sup>(٣)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»<sup>(٤)</sup>. [الزلزلة: ٧، ٨]. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَهَذَا لَفْظُهُ، وَمُسْلِمٌ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ، وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ، وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ، فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يُرْبِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَلْفُهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ - وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللَّهُ - وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ، فَالَّذِي يُقَامِرُ أَوْ يَرَاهُنَّ عَلَيْهَا، وَأَمَّا فَرَسُ الْإِنْسَانِ، فَالْفَرَسُ يَرْبِطُهَا الْإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ مِنَ الْفَقْرِ»<sup>(٦)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ الْبَارِقِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ»<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ: «تَرْهَبُونَ» أَيُّ تَخَوُّفُونَ ﴿يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي بَنِي قُرَيْظَةَ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: فَارِسٌ<sup>(٩)</sup>.

وَقَالَ مَقَاتِلُ بْنُ حَبَانَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُمُ الْمُتَنَافِقُونَ<sup>(١٠)</sup>. وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَوَقِّفُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْأَنفَاقِ لَا يَعْلَمُونَ خَمْرٌ تَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ﴾ أَيُّ مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ فِي الْجِهَادِ، فَإِنَّهُ يُوفَّى إِلَيْكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ،

وَأَنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَدْعُكَ أَنْ يَضْرَهُ. وَالْمُؤْمِنِينَ<sup>(١٦)</sup> وَالْفَافَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفَلَّتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ<sup>(١٧)</sup> يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرْصُ اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١٨)</sup> يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرْصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَعْلَبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَعْلَبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ<sup>(١٩)</sup> أَكُنْ خَفِيفٌ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَعْلَبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلَبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ<sup>(٢٠)</sup> مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ النَّبِيِّا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ<sup>(٢١)</sup> لَوْ لَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لِّسَبْقِكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ<sup>(٢٢)</sup> فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ<sup>(٢٣)</sup>

كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَدْعُكَ أَنْ يَضْرَهُ. وَالْمُؤْمِنِينَ<sup>(٢٤)</sup> وَالْفَافَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفَلَّتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ<sup>(٢٥)</sup>

[الْأَمْرُ بِالْجُنُوحِ لِلْسَّلَامِ إِنْ جَنَحَ لَهَا الْعَدُو] يَقُولُ تَعَالَى: إِذَا خِفَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ، فَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى حَرْبِكَ وَمُنَابَذَتِكَ، فَقَاتِلْهُمْ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أَيُّ مَالُوا ﴿لِلْسَّلَامِ﴾ أَيُّ الْمُسَالَمَةِ

(١) أحمد: ١٥٦/٤ (٢) مسلم: ١٥٢٢/٣ (٣) الموطأ: ٢/٤١٤ (٤) البخاري: ٢٨٦٠ ومسلم: ٩٨٧ (٥) أحمد: ١/٣٩٥ (٦) فتح الباري: ٦٦/٦ (٧) الطبري: ٣٦/١٤ (٨) الطبري: ٣٦/١٤ (٩) الطبري: ٣٦/١٤

عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ  
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ  
مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١١﴾

[التَّحْرِيزُ عَلَى الْقِتَالِ وَالتَّبَشِيرُ بِأَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ يَغْلِبُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْكُفَّارِ]

يُحَرِّضُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ وَمُنَاجَرَةِ  
الْأَعْدَاءِ وَمُبَارَاةِ الْأَقْرَانِ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّهُ حَسْبُهُمْ أَيْ كَافِيهِمْ  
وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَإِنْ كَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ  
وَتَرَدَّدَتْ أَمَدَادُهُمْ، وَلَوْ قَلَّ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أَيْ حُثُّهُمْ  
وَدَمْرُهُمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّضُ عَلَى  
الْقِتَالِ، عِنْدَ صَفِّهِمْ وَمُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ، كَمَا قَالَ لِأَصْحَابِهِ  
يَوْمَ بَدْرٍ حِينَ أَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ فِي عَدُوِّهِمْ وَعَدَدِهِمْ: «قُومُوا  
إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ  
الْحُمَامِ: عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
«نَعَمْ»، فَقَالَ: بَخْ بَخْ، فَقَالَ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ:  
بَخْ بَخْ؟» قَالَ: رَجَاءُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ «فَإِنَّكَ مِنْ  
أَهْلِهَا». فَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ، فَكَسَرَ جَنْفَ سَيْفِهِ، وَأَخْرَجَ تَمْرَاتٍ  
فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ أَلْقَى بَقِيَّتَهُنَّ مِنْ يَدَيْهِ وَقَالَ: لَيْتَ أَنَا  
حَيٌّ حَتَّى أَكْلَهُنَّ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى  
قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٣)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ  
عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا  
أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كُلُّ وَاحِدٍ بِعَشْرَةٍ، ثُمَّ نُسِخَ هَذَا  
الْأَمْرُ وَبَقِيَ الْبَشَارَةُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: حَدَّثَنَا  
جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ: حَدَّثَنِي الزُّبَيْرُ بْنُ الْخَزِيذِ، عَنْ عِكْرِمَةَ  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ  
صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى  
فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَقِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ، ثُمَّ جَاءَ  
التَّخْفِيفُ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ:  
﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قَالَ: خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ، وَنَقَصَ  
مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ  
حَدِيثِ ابْنِ الْمُبَارَكِ نَحْوَهُ<sup>(٥)</sup>.

وَالْمُصَالَحَةُ وَالْمُهَادَنَةُ، ﴿فَاتَّخَذَ لَهَا﴾ أَيْ قَبِلَ إِلَيْهَا وَقَبِلَ  
مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ  
الصُّلْحَ، وَوَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَسَعَ  
سِنِينَ، أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ مَعَ مَا اشْتَرَطُوا مِنَ الشُّرُوطِ الْآخِرِ.  
وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي  
اخْتِلَافٌ - أَوْ أَمْرٌ - فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ السَّلْمُ  
فَاعْمَلْ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أَيْ صَالِحُهُمْ وَتَوَكَّلْ  
عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ، وَلَوْ كَانُوا يُرِيدُونَ  
بِالصُّلْحِ خَدِيعَةً، لَيَتَّقَوْا وَيَسْتَعِدُّوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أَيْ  
كَافِيكَ وَحَدَهُ.

[التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ التَّالِيفِ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ]

ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ بِمَا أَيْدَهُ بِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ  
وَالْأَنْصَارِ، فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَلَّفَ  
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴿أَيَّ جَمَعَهَا عَلَى الْإِيمَانِ بِكَ، وَعَلَى طَاعَتِكَ  
وَمُنَاصَرَتِكَ وَمُؤَاوَزَتِكَ﴾ لَوْ أَتَفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا  
أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴿أَيَّ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ  
وَالْبَغْضَاءِ فَإِنَّ الْأَنْصَارَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي  
الْجَاهِلِيَّةِ، بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَأُمُورٌ يَلْزَمُ مِنْهَا  
السُّلْسُلُ فِي الشَّرِّ، حَتَّى قَطَعَ اللَّهُ ذَلِكَ بِنُورِ الْإِيمَانِ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ  
بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ  
النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾  
[آل عمران: ١٠٣].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَطَبَ  
الْأَنْصَارَ، فِي شَأْنِ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ، قَالَ لَهُمْ: «يَا مَعْشَرَ  
الْأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً  
فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي» كَلَّمَا قَالَ  
شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُ<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَلَوْ كُنَّ أَلْفٌ بَيْنَهُمْ إِتَّخَذُوا عِزًّا عِزُّ حَكِيمٍ﴾ أَيْ عَزِيزُ  
الْجَنَابِ، فَلَا يُخَيِّبُ رَجَاءً مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، حَكِيمٌ فِي  
أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَتَأْتِيَا  
النَّبِيَّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ  
صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ

(١) أحمد: ٩٠/١ (٢) فتح الباري: ٦٤٤/٧ ومسلم: ٢/٧٣٨ (٣) مسلم: ١٥١١/٣ (٤) أبو داود: ١٠٥/٣ (٥) فتح الباري: ١٦٣/٨

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

١٨٦

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي آيَاتِكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْظِفَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَإِيمَانُ لَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيُنَاصِرُكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْعَهُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُكُلِّ شَيْءٌ عَلِيمٌ (٧٥)

اللَّهُ ﷻ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِسُودِ الرُّؤُوسِ غَيْرَنَا» وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا»<sup>(٦)</sup>. فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا مِنَ الْأَسَارَى الْفِدَاءَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ فِدَاءَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِمِائَةً<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ اسْتَقَرَّ الْحُكْمُ فِي الْأَسْرَى عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ. أَنَّ الْإِمَامَ

ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ثَقُلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْظَمُوا أَنْ يُقَاتِلَ عَشْرُونَ مِائَتِينَ، وَمِائَةً أَلْفًا، فَخَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَتَسَخَّرَهَا بِالْآيَةِ الْأُخْرَى، فَقَالَ: «الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا»<sup>(٨)</sup> الْآيَةَ، فَكَانُوا إِذَا كَانُوا عَلَى الشَّطْرِ مِنْ عَدُوِّ لَهُمْ، لَمْ يَسْغَ لَهُمْ أَنْ يَفِرُّوا مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَإِذَا كَانُوا دُونَ ذَلِكَ، لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمْ قِتَالُهُمْ، وَجَارَ لَهُمْ أَنْ يَتَحَوَّزُوا عَنْهُمْ<sup>(٩)</sup>.

«مَا كَانَتْ لِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يَخْرُجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»<sup>(١٠)</sup> لَوْلَا كِتَابُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ<sup>(١١)</sup> فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (٦٦)

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ فِي الْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَّاكُمْ مِنْهُمْ» فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَّاكُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَنْفُسِ» فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، فَأَعْرِضْ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَرَى أَنْ تَغْفُو عَنْهُمْ، وَأَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ. قَالَ: فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ، فَعَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «لَوْلَا كِتَابُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «لَوْلَا كِتَابُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» يَعْنِي: فِي أُمِّ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ: أَنَّ الْمَغَانِمَ وَالْأَسَارَى حَلَالٌ لَكُمْ «لَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ» مِنَ الْأَسَارَى «عَذَابٌ عَظِيمٌ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا»<sup>(١٣)</sup> الْآيَةَ. وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَى مِثْلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءٍ وَالحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَقَتَادَةَ وَالْأَعْمَشَ أَيْضًا<sup>(١٥)</sup>. أَنَّ الْمُرَادَ «لَوْلَا كِتَابُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِحْلَالِ الْغَنَائِمِ.

وَيَسْتَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ، بِمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

(١) البخاري: ٤٦٥٢، ٤٦٥٣ (٢) أحمد: ٢٤٣/٣ (٣)

الطبري: ٦٥/١٤ (٤) الطبري: ٦٥-٦٩ (٥) فتح الباري:

٥١٩/١ و مسلم: ٣٧٠/١ (٦) النسائي في الكبرى: ٣٥٢/٦

(٧) أبو داود: ١٣٩/٣

«لَا وَاللَّهِ! لَا تَذَرُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا»<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ، عَنْ عُرْوَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ جَمَاعَةٍ سَمَّاهُمْ قَالُوا: بَعَثْتُ قُرَيْشًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ فَقَدَى كُلُّ قَوْمٍ أَسِيرَهُمْ بِمَا رَضُوا، وَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ يُجْزِيكَ، وَأَمَّا ظَاهِرُكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا فَاقْتَدِرْ نَفْسَكَ وَانْبِيْ أَخِيكَ نُوْفَلَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَقِيلَ ابْنِ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَحَلِيفَكَ عُبَيْةَ بْنَ عَمْرِو أَخِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ» قَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ أَصْبَتْ فِي سَفَرِي هَذَا، فَهَذَا الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَهُ لِبَنِي الْفَضْلِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَقَتُّمْ؟» قَالَ: وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عِلْمُهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَصْبَتُمْ مِنِّي عَشْرِينَ أَوْقِيَةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْكَ». فَقَدَى نَفْسَهُ وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ الْعَبَّاسُ: فَأَعْطَانِي اللَّهُ مَكَانَ الْعَشْرِينَ الْأَوْقِيَةِ فِي الْإِسْلَامِ عَشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ، مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٤)</sup>.

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَقَالَ: «انْثَرُوهُ فِي مَسْجِدِي». قَالَ: وَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِذَا جَاءَ الْعَبَّاسُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعْطِنِي فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي، وَفَادَيْتُ عَقِيلًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ» فَحَتَا فِي نَوْبِهِ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُولُهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: مَرُّ بَعْضَهُمْ يَرْفَعُهُ إِلَيَّ قَالَ:

مُخَيَّرَ فِيهِمْ إِنْ شَاءَ قَتَلَ كَمَا فَعَلَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَإِنْ شَاءَ فَادَى بِمَالٍ كَمَا فَعَلَ بِأَسْرَى بَدْرٍ، أَوْ بِمَنْ أُسِرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْجَارِيَةِ وَابْتَيْهَا - اللَّيْنِ كَانَتَا فِي سَبْيِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ - حَيْثُ رَدَّهَمَا وَأَخَذَ فِي مُقَابَلَتِهِمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ شَاءَ اسْتَرْقَ مَنْ أُسِرَ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

[وَعُدَّ الْأَسْرَى بِعَوَضٍ أَحْسَنَ إِنْ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: «إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أَنْاسًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كَرْهًا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ - أَيْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ - فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبُخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَا يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا» فَقَالَ أَبُو حَذِيفَةَ بْنُ عُثْبَةَ: أَنْقَلْتُ أَبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَعَشَائِرَنَا، وَتَرَكْتُ الْعَبَّاسَ، وَاللَّهِ! لَئِنْ لَقِيتُهُ لَأُلْجِمَنَّهُ بِالسِّنْفِ، فَلَبَغَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِعُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ: «يَا أَبَا حَفْصٍ! - قَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ! إِنَّهُ لَأَوَّلُ يَوْمٍ كَتَانِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا حَفْصٍ - أَيَضْرِبُ وَجْهَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسِّنْفِ؟» فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذْنٌ لِي فَأَضْرِبَ عَنْقَهُ قَوَالِهِ! لَقَدْ نَافَقَ. فَكَانَ أَبُو حَذِيفَةَ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: وَاللَّهِ! مَا آمَنْتُ مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي قُلْتُ، وَلَا أَزَالُ مِنْهَا خَائِفًا إِلَّا أَنْ يُكْفَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَنِّي بِشَهَادَةٍ، فَقَتِلَ يَوْمَ الْبِمَامَةِ شَهِيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١)</sup>. وَبِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، وَالْأَسَارَى مَحْبُوسُونَ بِالْوُثَاقِ، بَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاهِرًا أَوَّلَ اللَّيْلِ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا لَكَ لَا تَنَامُ؟ وَقَدْ أَسَرَ الْعَبَّاسَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَمِعْتُ أَنَيْنَ عَمِّي الْعَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ». فَأَطْلَقُوهُ فَسَكَتَ، فَتَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ<sup>(٢)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ عُثْبَةَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذْنٌ لَنَا فَلَنُتْرِكَ لِابْنِ أُحَيَّةِ عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ. قَالَ:

(١) ابن سعد: ١٠/٤ أنظر أيضًا دلائل النبوة للبيهقي ٣/١٤٠ (٢) ابن سعد: ١٣/٤ دلائل النبوة للبيهقي ٣/١٤١ إسناده صحيح. (٣) فتح الباري: ٣٧٣/٧ (٤) القرطبي: ٥٢/٨ إسناده ضعيف محمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح لإيهام روايه.

وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ... الآية [التوبة: ١١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدُوقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ... الآية [الحشر: ٨، ٩]. وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أَي لَا يَحْسُدُونَهُمْ عَلَى فَضْلٍ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَلَى هَجْرَتِهِمْ. فَإِنَّ ظَاهِرَ الْآيَاتِ تَقْدِيمُ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ.

### [لَا وَلَايَةَ لِمَنْ آمَنَ وَلَمْ يُهَاجِرْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ﴾ قَرَأَ حَمَزَةً: (وَلَا يَتَمَّهِمْ) بِالْكَسْرِ، وَالْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ، وَهُمَا وَاحِدٌ كَالدَّلَالَةِ وَالذَّلَالَةِ ﴿مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ هَذَا هُوَ الصَّنْفُ الثَّلَاثُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا، بَلْ أَقَامُوا فِي بَوَادِيهِمْ، فَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْمَغَانِمِ نَصِيبٌ، وَلَا فِي خُمُسِهَا إِلَّا مَا حَضَرُوا فِيهِ الْقِتَالُ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ الْأَشْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ جَيْشٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، وَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى اخْدَاثِ ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيُّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ: ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَعْلِمُهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَأَنْ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ. فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ

﴿لَا﴾ قَالَ فَارْفَعَهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: «لَا» فَتَرَّ مِنْهُ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ ثُمَّ انْطَلَقَ. فَمَا زَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَّبِعُهُ بَصَرُهُ حَتَّى خَفِيَ عَنْهُ عَجَبًا مِنْ جِرْصِهِ. فَمَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَمَّ مِنْهَا دَرَاهِمُ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِهِ تَغْلِيْقًا بِصِغَةِ الْجَزْمِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ ﴿وَلَنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فِيمَا أَظْهَرُوا لَكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ مِنْ قَبْلِ بَدْرِ بِالْكَفْرِ بِهِ ﴿فَأَمَكَنَّ مِنْهُمْ﴾ أَيِ بِالْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرِ ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ أَيِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُهُ حَكِيمٌ فِيهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْزَعُوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرَ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢)

### [الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ]

ذَكَرَ تَعَالَى أَصْنَافَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَسَمَهُمْ إِلَى مُهَاجِرِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَجَاءُوا لِنَصْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، وَبَدَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَإِلَى أَنْصَارٍ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِذْ ذَاكَ، آوَوْا إِخْوَانَهُمُ الْمُهَاجِرِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَوَسَّوهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنَصَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْقِتَالِ مَعَهُمْ فَهَؤُلَاءِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أَيِ كُلُّ مِنْهُمْ أَحَقٌّ بِالْآخَرِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَلِهَذَا أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كُلَّ اثْنَيْنِ أَخَوَانِ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِذَلِكَ إِزَاءً مُقَدِّمًا عَلَى الْقَرَابَةِ، حَتَّى نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِالْمَوَارِيثِ، ثَبَّتَ ذَلِكَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٣)</sup>. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرٍ - هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَالطُّلُقَاءُ مِنْ قُرْبَى، وَالْعُنُقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٤)</sup>. تَقَرَّرَ بِهِ أَحْمَدُ.

وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فِي غَيْرِ مَا آتِيَ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... الآية [التوبة: ١٠٠] وَقَالَ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ

(١) البيهقي: ٣٥٦/٦ (٢) البخاري: ٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥

(٣) فتح الباري: ٣٠/١٢ (٤) أحمد: ٣٦٣/٤

عَنِ الذُّنُوبِ إِنْ كَانَتْ، وَيَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ وَهُوَ: الْحَسَنُ الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ، الشَّرِيفُ، دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا، لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَنْقُضِي، وَلَا يُسَامُ وَلَا يُمَلُّ، لِحُسْنِهِ وَتَوَعُّوهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَتْبَاعَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهُمْ مَعَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.. الآية [النوبة: ١٠٠] وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾... الآية [الحشر: ١٠]. وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بَلِ الْمُتَوَاتِرِ مِنْ طُرُقٍ صَحِيحَةٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»<sup>(٦)</sup> وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ» وَفِي رِوَايَةٍ: «حَشِرَ مَعَهُمْ»<sup>(٧)</sup>.

### [الْإِرْثُ لِلْأَقَارِبِ]

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أَيْ فِي حُكْمِ اللَّهِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ خُصُوصِيَّةٌ مَا يُطْلَقُهُ عُلَمَاءُ الْفَرَائِضِ عَلَى الْقَرَابَةِ الَّذِينَ لَا فَرْصَ لَهُمْ وَلَا هُمْ عَصَبَةٌ، بَلْ يُدْلُونَ بِوَارِثٍ: كَالْخَالَاتِ وَالْخَالَ، وَالْعَمَّةِ، وَأُولَادِ النِّسَاءِ، وَأُولَادِ الْأَخَوَاتِ وَنَحْوِهِمْ - كَمَا قَدْ بَرَعَهُ بَعْضُهُمْ وَبَحَّجَ بِالْآيَةِ وَيَعْتَقِدُ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي الْمَسْأَلَةِ! بَلِ الْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْقَرَابَاتِ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٨)</sup> عَلَى أَنَّهَا نَاسِخَةٌ لِلْإِرْثِ بِالْجِلْفِ، وَالْإِخَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهِمَا أَوَّلًا، وَعَلَى هَذَا فَتَشْمَلُ دَوَى الْأَرْحَامِ بِالْإِسْمِ الْخَاصِّ. وَمَنْ لَمْ يُورَثْهُمْ يَحْتَجُّ بِأَدْلَةٍ، مِنْ أَقْوَاهَا حَدِيثُ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِيُورِثُ»<sup>(٩)</sup>. قَالُوا: فَلَوْ كَانَ ذَا حَقٍّ لَكَانَ لَهُ فَرْصٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَسْمًى، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَارِثًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ. فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ ثُمَّ قَاتِلْهُمْ»<sup>(١)</sup>. انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>. وَعِنْدَهُ زِيَادَاتٌ أُخَرُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَلْيَتَلَكَّمِ النَّصْرُ﴾ الْآيَةَ، يَقُولُ تَعَالَى: وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابَ، الَّذِينَ لَمْ يَهَاجِرُوا فِي قِتَالِ دِينِي عَلَى عَدُوِّ لَهُمْ فَانْصُرُوهُمْ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ نَصْرُهُمْ، لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ، «يَتَنَكَّمُ وَيَنْتَهِمُ مَيْتَقٌ» أَيْ مُهَادَنَةٌ إِلَى مَدَّةٍ، فَلَا تُخْفَرُوا ذِمَّتْكُمْ وَلَا تُنْقَضُوا أَيْمَانُكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ، وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا<sup>(٣)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَائِهِمْ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup>

[الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَائُ بَعْضٍ وَلَا وَلَايَةٌ لَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَائُ بَعْضٍ، قَطَعَ الْمُوَالَاةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ، كَمَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أُسَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا، وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا - ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَائِهِمْ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾». ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ<sup>(٥)</sup>. قُلْتُ: الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»<sup>(٦)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أَيْ إِنْ لَمْ تُجَابِئُوا الْمُشْرِكِينَ وَتَوَالَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَإِلَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ فِي النَّاسِ، وَهُوَ الْبَيَاسُ الْأَمْرُ وَاخْتِلَاطُ الْمُؤْمِنِ بِالْكَافِرِ، فَيَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ فَسَادٌ مُتَشَبِّهٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾<sup>(٧)</sup> وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ<sup>(٨)</sup>

[الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَطَفَ بِذِكْرِ مَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيَجَازِيهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالصَّفْحِ

(١) أحمد: ٣٥٢/٥ (٢) مسلم: ١٣٥٧/٣ (٣) الطبري: ١٤/

٨٣ (٤) الحاكم: ٢٤٠/٢ (٥) فتح الباري: ٥١/١٢ ومسلم:

١٢٣٣/٣ (٦) فتح الباري: ٥٧٣/١٠ (٧) الطبراني: ١٩/٣

(٨) الطبري: ٩٠/١٤ (٩) أبو داود: ٢٩١/٣

## تفسير سورة التوبة [وهي] مدنية

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾  
فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ  
اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

[لِمَ لَمْ تَكْتَبِ الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ؟]

هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: أَخْرَجَ آيَةَ نَزَلَتْ:  
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ [المائدة: ١٧٦]  
وَأَخْرَجَ سُورَةَ بَرَاءَةٍ<sup>(١)</sup>. وَإِنَّمَا لَمْ يُسْمَلْ فِي أَوَّلِهَا لِأَنَّ  
الصَّحَابَةَ لَمْ يَكْتُبُوا الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِهَا فِي الْمُصْحَفِ  
الْإِمَامِ، بَلِ افْتَدَوْا فِي ذَلِكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. وَأَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ نَزَلَ  
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُمْ بِالْحَجِّ،  
ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَحْضُرُونَ عَامَهُمْ هَذَا الْمَوْسِمَ عَلَى  
عَادَتِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عَرَاءً، فَكَرِهَ  
مُخَالَطَتَهُمْ فَبَعَثَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمِيرًا عَلَى  
الْحَجِّ هَذِهِ السَّنَةِ، لِيُقِيمَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكَهُمْ وَيُعَلِّمَ الْمُشْرِكِينَ  
أَنْ لَا يَحْجُوا بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَأَنْ يُتَادِيَ فِي النَّاسِ:  
﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فَلَمَّا قَفَلَ أَتْبَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ  
لِيَكُونَ مُبْلَغًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِكُونِهِ عُضْبَةً لَهُ، كَمَا  
سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

## [إِعْلَانُ الْبَرَاءَةِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ]

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيُّ هَذِهِ بَرَاءَةٌ أَيْ  
تَبَرُّؤُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾  
فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ هَذِهِ الْآيَةُ لِلذَّوِي الْعَهْدِ  
الْمُطْلَقَةِ غَيْرِ الْمُؤَقَّتَةِ، أَوْ مَنْ لَهُ عَهْدٌ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ  
فَيَكْمَلُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ فَأَجَلُهُ  
إِلَى مُدَّتِهِ مَهْمَا كَانَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاقْتُمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى  
مُدَّتِهِمْ﴾ الْآيَةُ، وَلَمَّا سَيَأْتِي فِي الْحَدِيثِ. «وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ  
وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ». وَرَوَى عَنِ  
الْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ أَبُو مَعْشَرَ الْمَدَنِيِّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ  
وغيره قالوا: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرَ أَمِيرًا عَلَى  
الْمَوْسِمِ سَنَةِ تِسْعٍ، وَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ بِثَلَاثِينَ آيَةً،  
أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً مِنْ «بَرَاءَةٍ» فَقَرَأَهَا عَلَى النَّاسِ، يُؤَجِّلُ

سُورَةُ التَّوْبَةِ ١٨٧  
سُورَةُ التَّوْبَةِ  
بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾  
فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي  
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِنَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ  
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُنْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا  
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ  
﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ  
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَى  
مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ  
فَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ  
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾  
وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ  
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَعَكَ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

الْمُشْرِكِينَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ  
يَوْمَ عَرَفَةَ أَجْلَهُمْ عَشْرِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَالْمَحَرَّمِ وَصَفَرَ  
وَشَهْرَ رَجَبٍ الْأَوَّلِ وَعَشْرًا مِنْ رَجَبٍ الْآخِرِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ  
فِي مَنَازِلِهِمْ، وَقَالَ: لَا يَحْجُّ بَعْدَ عَامِنَا هَذَا مُشْرِكٌ وَلَا  
يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ<sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَذِنَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ  
بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُنْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ  
تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِعْلَامٌ: ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ - وَتَقَدَّمَ -  
وَإِنذَارٌ إِلَى النَّاسِ ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ  
الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ أَيَّامِ الْمَنَاسِكَ وَأَظْهَرُهَا وَأَكْثَرُهَا جَمْعًا  
﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أَيُّ بَرِيءٌ مِنْهُمْ أَيْضًا ثُمَّ

(١) فتح الباري: ١٦٧/٨ (٢) الطبري: ١٤/١٠٠-١٠٢ (٣)  
الطبري: ٣٠٤/٦

يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُزَيَّانُ. وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ إِلَىٰ مَدَّتِهِ فَلَمْ يَحُجَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَمْ يَطُفْ بِالْبَيْتِ عُزَيَّانُ، ثُمَّ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ هَذَا مِنْ بَرَاءَةٍ فِيمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشُّرْكِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ الْعَامِ وَأَهْلِ الْمُدَّةِ إِلَى الْأَجْلِ الْمُسَمَّى (٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِقَابَ إِيمَانِهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

[مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ وَلَمْ يَنْقُصْ فَعَهْدُهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ]  
هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ ضَرْبِ مُدَّةِ التَّاجِيلِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لِمَنْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ لَيْسَ بِمَوْقَّتٍ، فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ يَبْسُجُ فِي الْأَرْضِ يَذْهَبُ فِيهَا لِيَسْجُوَ بِنَفْسِهِ حَيْثُ شَاءَ، إِلَّا مَنْ لَهُ عَهْدٌ مُوَقَّتٌ فَأَجَلُهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ الْمَضْرُوبَةِ الَّتِي عُوِّدَ عَلَيْهَا، وَقَدْ تَقَدَّصَتِ الْأَحَادِيثُ: «وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَهْدُهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ». وَذَلِكَ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَنْقُصَ الْمُعَاهَدُ عَهْدَهُ وَلَمْ يُظَاهِرْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا أَيْ يُمَالِيَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سِوَاهُمْ، فَهَذَا الَّذِي يُوفَى لَهُ بِدَمِيَّتِهِ وَعَهْدِهِ إِلَىٰ مَدَّتِهِ وَلِهَذَا حَرَضَ تَعَالَى عَلَى الْوَفَاءِ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيِ الْمُؤْمِنِينَ بِعَهْدِهِمْ.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقِمْوهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾

[هَذِهِ هِيَ آيَةُ السَّيْفِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَشْهُرُ التَّسْيِيرِ الْأَرْبَعَةَ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا (٤) بِقَوْلِهِ: ﴿فَيَسْجُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ [التوبة: ٢-٥] أَيْ إِذَا انْقَضَتْ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي حَرَّمْنَا عَلَيْكُمْ فِيهَا قِتَالَهُمْ وَأَجَلْنَاهُمْ فِيهَا فَحَيْثُمَا وَجَدْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أَيِ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَهَذَا عَامٌّ، وَالْمَشْهُورُ تَخْصِيصُهُ بِتَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِي

دَعَاَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ تَابْتُمْ﴾ أَيْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالضَّلَالِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَيْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَمَشِيتِهِ ﴿وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا بِالْجَزْيِ وَالنَّكَالِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْمَقَامِعِ وَالْأَغْلَالِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي الْمُؤَذِّنِينَ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ، يُؤَذِّنُونَ بِمَنَى: أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُزَيَّانُ. قَالَ حُمَيْدٌ: ثُمَّ أَرْدَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةٍ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مَنَى يَوْمَ النَّحْرِ بِبَرَاءَةٍ، وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُزَيَّانُ (١).

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِيمَنْ يُؤَذِّنُ يَوْمَ النَّحْرِ بِمَنَى: إِلَّا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُزَيَّانُ. وَيَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ: يَوْمَ النَّحْرِ، وَإِنَّمَا قِيلَ: «الْأَكْبَرُ» مِنْ أَجْلِ قَوْلِ النَّاسِ: الْحَجُّ الْأَصْغَرُ. فَنبَذَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ فَلَمْ يَحُجَّ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ الَّذِي حَجَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُشْرِكٌ (٢). وَهَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ كَانَ بَعَثَ أَبَا بَكْرٍ لِيُخَيِّمَ الْحَجَّ لِلنَّاسِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ بَعَثْتَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: «لَا يُؤَذِّنُ عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي» ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا فَقَالَ: «اخْرُجْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةٍ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بِمَنَى: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْحَجَّةَ كَافِرٌ. وَلَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ. وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُزَيَّانُ. وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ» فَخَرَجَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى نَاقَةٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعُضْبَاءِ حَتَّى أَدْرَكَ أَبَا بَكْرٍ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ؟ فَقَالَ: بَلْ مَأْمُورٌ، ثُمَّ مَضَى فَاقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ الْحَجَّ وَالْعَرَبَ إِذْ ذَاكَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْحَجِّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ النَّحْرِ قَامَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالَّذِي أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْحَجَّةَ كَافِرٌ. وَلَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ. وَلَا

(١) فتح الباري: ١٦٨/٨ (٢) فتح الباري: ١٦٨/٨ (٣)

الطبري: ١٠٧/١٤ (٤) الطبري: ١٣٧، ١٣٦/١٤



مَأْمَنُكُمْ ﴿٦﴾ أَنَّى وَهُوَ آمِنٌ مُسْتَمِرٌّ الْأَمَانُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بِلَادِهِ وَدَارِهِ وَمَأْمَنِهِ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّى إِنَّمَا شَرَعْنَا أَمَانٌ مِثْلَ هَؤُلَاءِ لِيَعْلَمُوا دِينَ اللَّهِ وَتَنْتَشِرَ دَعْوَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: إِنْسَانٌ يَأْتِيكَ لِيَسْمَعَ مَا تَقُولُ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ، فَهُوَ آمِنٌ حَتَّى يَأْتِيكَ فَيَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ، وَحَتَّى يَبْلُغَ مَأْمَنَهُ حَيْثُ جَاءَ<sup>(٣)</sup>. وَمِنْ هَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي الْأَمَانَ لِمَنْ جَاءَهُ مُسْتَرَشِدًا أَوْ فِي رِسَالَةٍ، كَمَا جَاءَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْهُمْ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ وَمِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ وَسَهْلُ بْنُ عَمْرٍو وَغَيْرُهُمْ، وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ يَتَرَدَّدُونَ فِي الْقِصَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فَرَأَوْا مِنْ إِعْظَامِ الْمُسْلِمِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا بَهَرَهُمْ وَمَا لَمْ يُشَاهِدُوهُ عِنْدَ مَلِكٍ وَلَا قَيْصَرَ، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَأَخْبَرُوهُمْ بِذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ وَأَمْنَاهُ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ هِدَايَةِ أَكْثَرِهِمْ، وَلِهَذَا أَيْضًا لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «أَتَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلَمَةَ رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ عُقْنَكَ»<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ ضَرْبَ الْعُنُقِ فِي إِمَارَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَى الْكُوفَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ التَّوَّاحَةِ، ظَهَرَ عَنْهُ فِي زَمَانِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ يَشْهَدُ لِمُسَيْلَمَةَ بِالرِّسَالَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّكَ الْآنَ لَسْتَ فِي رِسَالَةٍ» وَأَمَرَ بِهِ فُضِرَتْ عُقْنُهُ.

لَا رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَعَنَهُ. وَالْغَرَضُ أَنَّ مَنْ قَدِمَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فِي آدَاءِ رِسَالَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ طَلَبِ صُلْحٍ أَوْ مَهَادَنَةٍ أَوْ حَمَلِ جَزِيَّةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَطَلَبَ مِنَ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ أَمَانًا أُعْطِيَ أَمَانًا مَا دَامَ مُتَرَدِّدًا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، وَحَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَأْمَنِهِ وَوَطَنِهِ.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَضَا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧﴾

[تَأْكِيدُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَنَظَرَتِهِ

الْحَرَمِ، يَقُولُهُ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْبَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَبِلْتُمْ كَفَرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَعُدُّوهُمْ﴾ أَيْ وَأَسْرِوهُمْ إِنْ شِئْتُمْ قَتْلًا وَإِنْ شِئْتُمْ أَسْرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أَيْ لَا تَكْتَفُوا بِمَجْرَدِ وَجْدَانِكُمْ لَهُمْ، بَلِ اقْصِدُوهُمْ بِالْحِصَارِ فِي مَعْقِلِهِمْ وَخُصُونِهِمْ وَالرَّصْدُ فِي طُرُقِهِمْ وَمَسَالِكِهِمْ، حَتَّى تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الْوَاسِعَ وَتَضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْقَتْلِ أَوْ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلِهَذَا اعْتَمَدَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِتَالِ مَا بَعِيَ الزَّكَاةَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَمْنَاهَا، حَيْثُ حَرَمَتْ قِتَالَهُمْ بِشَرْطِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَهِيَ: الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامُ بِآدَاءِ وَاجِبَاتِهِ. وَتَبَّ بِأَعْلَاهَا عَلَى أَذْنَاهَا، فَإِنَّ أَشْرَفَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ: الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ حَقُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَعْدَهَا آدَاءُ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ نَفْعٌ مُتَعَدٍّ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِجِ، وَهِيَ أَشْرَفُ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَخْلُوقِينَ، وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ. وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَمُرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»...<sup>(١)</sup> الْحَدِيثُ.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ: إِنَّهَا نَسَخَتْ كُلَّ عَهْدٍ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَكُلَّ عَهْدٍ وَكُلَّ مِدَّةٍ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ وَلَا ذِمَّةٌ مُنْذُ نَزَلَتْ بَرَاءَةُ، وَانْسِلَاخُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَمُدَّةٌ مِنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ [بَرَاءَةُ]: أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ - مِنْ يَوْمِ أُنْزِلَ بَرَاءَةُ إِلَى عَشْرِ مِنْ أَوَّلِ شَهْرِ رَجَبِ الْآخِرِ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْنِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾

[إِذَا طَلَبَ الْمُشْرِكُ الْأَمْنَ فَيُعْطَى]

يَقُولُ تَعَالَى لِتَبَيُّهِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ بِقِتَالِهِمْ وَأَخْلَلْتُ لَكَ اسْتِجَابَةَ نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أَيْ اسْتَأْمَنَكَ فَاجِبُهُ إِلَى طَلَبَتِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ أَيْ الْقُرْآنَ تَقْرُؤَهُ عَلَيْهِ وَتُذَكِّرُ لَهُ شَيْئًا مِنْ [أَمْرِ] الدِّينِ تَقِيْمُ عَلَيْهِ بِهِ حُجَّةَ اللَّهِ ﴿ثُمَّ ابْنِغْهُ

(١) فتح الباري: ٩٥/١ ومسلم: ٥٣/١ (٢) الطبري: ١٤/

١٣٣ (٣) الطبري: ١٣٩/١٤ (٤) ابن هشام: ٤/٢٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨٨

سُورَةُ التَّوْبَةِ

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا إِلَيْكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِعَيْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَيْمَةً الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْلِيلُونَ قَوْمًا نَكَحُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً أَنْحَسُونَهُمْ فَأَلَّاهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿أَشْرَوْا بِعَيْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ اغْتَاصَبُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ بِمَا نَهَوْا بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْخَبِيثَةِ ﴿فَفَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيِ مَنْعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إِلَى آخِرِهَا تَقَدَّمتْ.

﴿وَإِنْ تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَيْمَةً الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ

يَنْتَهُونَ﴾ ﴿١٣﴾

[لَا أَيْمَانَ لِأَيِّمَةِ الْكَافِرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِنْ نَكَثَ الْمُشْرِكُونَ الدِّينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ﴿أَيْمَنَهُمْ﴾ أَيِ عُهُودِهِمْ وَمَوَائِقِهِمْ ﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أَيِ عَابَوْهُ وَانْتَقَصَوْهُ، وَمِنْ هُنَا أُحِذِّقُ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، أَوْ

إِيَّاهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ السَّنَةُ الْمَرْهَفُ أَيْنَ تَقْبَلُوا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أَيِ أَمَانٍ وَيُتْرَكُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ كَافِرُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِجْلَهُ﴾ ... الْآيَةُ [الفتح: ٢٥] ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أَيِ مَهْمَا تَمَسَّكُوا بِمَا عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَعَاهَدْتُمُوهُمْ مِنْ تَرْكِ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ سِنِينَ ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وَقَدْ فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ. اسْتَمَرَّ الْعَهْدُ وَالْهَدْنَةُ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فِي سَنَةِ سِتٍّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْشُ الْعَهْدَ وَمَالُوا حُلَفَاءَهُمْ وَهُمْ بَنُو بَكْرِ عَلَى خِرَازَةِ أَخْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَقَلَّبُوا مَعَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَيْضًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْبَلَدَ الْحَرَامَ وَمَكَّنَهُ مِنْ نَوَاصِيهِمْ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. فَأُطْلِقَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ فَشَمُّوا الطُّلُقَاءَ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَلْفَيْنِ، وَمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَفَرَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ بِالْأَمَانِ وَالتَّسْيِيرِ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ، وَمِنْهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرُهُمَا، ثُمَّ هَدَاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ التَّامِّ، وَاللَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَفْعَلُهُ.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُعَادَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ وَمُبَيِّنًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَهْدٌ لِشُرْكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَكُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا تَنْهَى إِذَا ظَهَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَدْبَلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَقْبَلُوا وَلَمْ يَذَرُوا، وَلَا رَاقِبُوا فِيهِمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَعِكْرِمَةُ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِلَّا لُ: الْقَرَابَةُ، وَالذِّمَّةُ: الْعَهْدُ <sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ <sup>(٢)</sup>.

﴿أَشْرَوْا بِعَيْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِمًّا لِلْمُشْرِكِينَ وَحَثًّا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨٩

سُورَةُ التَّوْبَةِ

قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِضَرْمِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُسْفِ صُدُورِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

اللَّهُ ﷻ عَامَ الْفَتْحِ وَكَانَ مَا كَانَ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَتُخَشَّنَهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تُخَشَّنَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: لَا تُخَشَّنَهُمْ وَاحْشُونَهُمْ فَإِنَّا أَهْلُ أَنْ يَخْشَى الْعِبَادُ مِنْ سَطَوْتِي وَعُظُوْتِي، فَيَبْدِي الْأَمْرَ، وَمَا شِئْتُ كَانَ، وَمَالَمْ أَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ثُمَّ قَالَ، عَزِيمَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَيَنَانًا لِحُكْمَتِهِ، فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْجِهَادِ - مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى إِهْلَاكِ الْأَعْدَاءِ بِأَمْرِ مِنْ عِنْدِهِ -: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِضَرْمِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾: وَهَذَا عَامٌّ فِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَيُسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي خَزَاعَةَ<sup>(١)</sup>. وَأَعَادَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ﴾ عَلَيْهِمْ أَيْضًا. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيِ مَنْ عِبَادِهِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَيِ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ

مَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ ذَكَرَهُ بِنَقْصٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةً الْكَفَرِ إِنَّهُمْ لَا آيَمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ أَيِ يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكَفْرِ وَالْعِنَادِ وَالضَّلَالِ. وَقَدْ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: أَيْمَةُ الْكَفْرِ. كَأَبِي جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَسَيْبَةُ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَعَدَدٌ رَجَالًا. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ عَنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ قَالَ: مَا قُوتِلَ أَهْلُ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِثْلُهُ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، فَهِيَ عَامَّةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ الْوَلِيدُ ابْنُ مُسْلِمٍ: حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ بْنِ نَفِيرٍ: أَنَّهُ كَانَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّاسِ حِينَ وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّامِ قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ قَوْمًا مُحَوَّفَةً رُؤُوسُهُمْ، فَاضْرِبُوا مَعَاقِدَ الشَّيْطَانِ مِنْهُمْ بِالسُّيُوفِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَقْتُلَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ سَبْعِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةً الْكَفَرِ﴾ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٣)</sup>.

﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَكَثُوا آيَمَتَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتُخَشَّنَهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تُخَشَّنَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِضَرْمِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾

[الْحَثُّ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَبَيَانُ بَعْضِ فَوَائِدِهِ] وَهَذَا أَيْضًا تَهْيِيجٌ وَتَحْضِيضٌ وَإِعْرَاضٌ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ النَّاكِثِينَ بِآيَمَانِهِمُ الَّذِينَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْ مَكَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْمِرُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيتَاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الْآيَةُ [المتحنة: ١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾... الْآيَةُ [الأنفال: ٧٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ: يَوْمَ بَدْرٍ حِينَ خَرَجُوا لِنَصْرِ عِيْرِهِمْ، فَلَمَّا نَجَتْ وَعَلِمُوا بِذَلِكَ اسْتَمَرُّوا عَلَى وَجْهِهِمْ، طَلَبًا لِلْقِتَالِ بَغْيًا وَتَكْبَرًا كَمَا تَقَدَّمَ بَسْطُ ذَلِكَ. وَقِيلَ الْمُرَادُ: نَقَضَهُمُ الْعَهْدَ وَقَتَلَهُمْ مَعَ حُلَفَائِهِمْ بَنِي بَكْرٍ لِخَزَاعَةِ أَخْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى سَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ

(١) الطبري: ١٥٦/١٤ (٢) ابن أبي حاتم: ١٧٦١/٦ (٣) الطبري: ١٦١/١٤

قَرَأَ: (مَسَجِدَ اللَّهِ) فَأَرَادَ بِهِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَشْرَفَ الْمَسَاجِدِ فِي الْأَرْضِ الَّذِي بُنِيَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَسَسَهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، هَذَا وَهُمْ شَاهِدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أَيَّ بِحَالِهِمْ وَيَقَالِهِمْ قَالَ السُّدِّيُّ: لَوْ سَأَلْتُ النَّصْرَانِيَّ مَا دِينُكَ؟ لَقَالَ: نَصْرَانِيٌّ، وَلَوْ سَأَلْتُ الْيَهُودِيَّ مَا دِينُكَ؟ لَقَالَ: يَهُودِيٌّ، وَالصَّابِيُّ لَقَالَ: صَابِيٌّ، وَالْمُشْرِكُ لَقَالَ: مُشْرِكٌ<sup>(١)</sup>. «أُولَئِكَ حَاطَتْ أَعْمَلُهُمْ» أَيَّ بِشِرْكَهُمْ «وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ» وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْلَمُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [الأنفال: ٣٤].

### [أَهْلُ الْإِيمَانِ يَعْمُرُونَ الْمَسَاجِدَ]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» فَشَهِدَ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ لِعُمَارِ الْمَسَاجِدِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» وَرَوَاهُ الثِّرِمِذِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ قَالَ: أَدْرَكْتُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَسَاجِدَ بَيُوتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكْرِمَ مَنْ زَارَهُ فِيهَا. وَقَوْلُهُ: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» أَيَّ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ «وَأَتَى الزَّكَاةَ» أَيَّ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ إِلَى بَرِّ الْخَلَائِقِ. وَقَوْلُهُ: «وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» أَيَّ وَلَمْ يَخَفْ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَخْشَ سِوَاهُ «فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» يَقُولُ: مَنْ وَحَدَ اللَّهُ وَآمَنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ آمَنَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ «وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» يَقُولُ: لَمْ يَعْبُدْ إِلَّا اللَّهَ ثُمَّ قَالَ: «فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ كَقَوْلِهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا» [الإسراء: ٧٩] يَقُولُ: إِنَّ رَبَّكَ سَيَبْعَثُكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَهِيَ الشَّفَاعَةُ، وَكُلُّ «عَسَى» فِي

﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْوَالِهِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ فَيَعْمَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا، وَلَا يُضَيِّعُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، بَلْ يُجَازِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْجُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» ﴿١٦﴾

### [مِنْ حِكْمَةِ الْقِتَالِ اخْتِبَارَ الْمُسْلِمِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: «أَمْ حَسِبْتُمْ» أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تُتْرَكُوا مُهْمَلِينَ لَا نَخْتَبِرْكُمْ بِأُمُورٍ يَظْهَرُ فِيهَا أَهْلُ الْعَزْمِ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ؟ وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْجُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً» أَيَّ بَطَانَةً وَدَحِيلَةً بَلْ هُمْ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى النُّصْحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَانْتَفَى بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الْآخَرِ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» [العنكبوت: ١-٣] وَقَالَ تَعَالَى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الْقَادِرِينَ» [آل عمران: ١٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» الْآيَةُ [آل عمران: ١٧٩].

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا شَرَعَ الْجِهَادَ لِعِبَادِهِ بَيَّنَّ أَنْ لَهُ فِيهِ حِكْمَةٌ وَهُوَ اخْتِبَارُ عِبِيدِهِ مَنْ يُطِيعُهُ وَمَنْ يَعْصِيهِ، وَهُوَ تَعَالَى الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، فَيَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ وَمَعَ كَوْنِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَا رَادَّ لِمَا قَدَرَهُ وَآمُضَاهُ.

«مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَاطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ» ﴿١٧﴾ «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» «فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» ﴿١٨﴾

### [لَا يَعْمُرُ الْمُشْرِكُونَ مَسَاجِدَ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: مَا يَبْغِي لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ الَّتِي بُنِيََتْ عَلَى اسْمِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَنْ

(١) الطبري: ١٦٥/١٤ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٦٥/٧

والحاكم: ٢١٢/١

الْقُرْآنَ، فَهِيَ وَاجِبَةٌ<sup>(١)</sup>.

﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup> الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَظْهَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٣﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمَةٌ مُقِيمَةٌ ﴿٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٥﴾ [سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَا يُساوِيَانِ

### الإِيمَانُ وَالْجِهَادُ

قَالَ الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: عِمَارَةُ بَيْتِ اللَّهِ وَقِيَامٌ عَلَى السَّقَايَةِ خَيْرٌ مِمَّنْ آمَنَ وَجَاهَدَ، وَكَانُوا يَفْخَرُونَ بِالْحَرَمِ وَيَسْتَكْبِرُونَ بِهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ أَهْلُهُ وَعِمَارُهُ، فَذَكَرَ اللَّهُ اسْتِكْبَارَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ، فَقَالَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلِّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ لَنَكْصُونَ﴾<sup>(٦)</sup> مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿٧﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِالْحَرَمِ قَالَ: ﴿بِهِ سَمِيرًا﴾ كَانُوا يَسْمُرُونَ بِهِ وَيَهْجُرُونَ الْقُرْآنَ وَالنَّبِيَّ ﷺ فَخَيَّرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عِمَارَةِ الْمُشْرِكِينَ الْبَيْتِ وَقِيَامِهِمْ عَلَى السَّقَايَةِ وَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَعَ الشِّرْكِ بِهِ أَنْ كَانُوا يَغْمُرُونَ بَيْتَهُ وَيَخْدُمُونَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعِمَارَةِ، فَسَمَّاهُمْ اللَّهُ ظَالِمِينَ بِشِرْكِهِمْ فَلَمْ تَغْنِ عَنْهُمْ الْعِمَارَةُ شَيْئًا<sup>(٨)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: نَزَلَتْ فِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حِينَ أُسِرَ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ: لَئِنْ كُنْتُمْ سَبَقْتُمُونَا بِالْإِسْلَامِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ لَقَدْ كُنَّا نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَنَسْقِي الْحَاجَّ، وَنَفُكُ الْعَانِي، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ فِي الشِّرْكِ، وَلَا أَقْبَلُ مَا كَانَ فِي الشِّرْكِ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ الصَّحَّاحُ بْنُ مَرْجَمٍ: أَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْعَبَّاسِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أُسْرُوا يَوْمَ بَدْرٍ يُعَيِّرُونَهُمْ بِالشِّرْكِ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: أَمَّا وَاللَّهِ! لَقَدْ كُنَّا نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَنَفُكُ الْعَانِي، وَنَحْجُبُ الْبَيْتَ وَنَسْقِي الْحَاجَّ، فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾... الْآيَةَ<sup>(١٠)</sup>.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

١٩٠

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمَةٌ مُقِيمَةٌ ﴿١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمْ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾

وَقَدْ وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ هُنَا، رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ نَبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْنَا الْجُمُعَةَ دَخَلْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ [فَسَأَلْنَاهُ]. فَزَلَّتْ: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾<sup>(١١)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

(١) الطبري: ١٦٧/١٤ (٢) الطبري: ١٧٠/١٤ (٣) الطبري: ١٧٠/١٤

(٤) الطبري: ١٧٢/١٤ (٥) مسلم: ١٨٧٩ وعبد

الرزاق: ٢٦٨/٢ مسلم (١٨٧٩)

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَنِتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرَابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكْفُرُوا وَلَوْ تَوَفَّقُوا ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمُ الْكَسَادُهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [الْأَمْرُ بِتَرْكِ مَوَالِيَ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَقَارِبَ]

أَمَرَ تَعَالَى بِمُبَايَنَةِ الْكُفَّارِ بِهِ وَإِنْ كَانُوا آبَاءَ أَوْ أَبْنَاءَ، وَنَهَى عَنِ مَوَالِيهِمْ إِذَا اسْتَحَبُّوا، أَيْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَتَدَّبَهُمْ رُوحٌ مِنْهُ وَيَدْلُحُّهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾... [المجادلة: ٢٢]، وَرَوَى الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شُوذَبٍ قَالَ: جَعَلَ أَبُو أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ يَنْعَتُ لَهُ الْإِلَهَةَ يَوْمَ بَدْرٍ وَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحِدُّ عَنْهُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ الْجَرَّاحُ قَصْدَهُ ابْنُهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] الْآيَةَ (١). ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ أَثَّرَ أَهْلُهُ وَقَرَابَتُهُ وَعَشِيرَتُهُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا أَوْ بُيُوتُكُمْ أَوْ مَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أَيْ فَانْتَظِرُوا مَاذَا يَجْلُ بِكُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَنِكَالِهِ بِكُمْ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبُدٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: وَاللَّهِ! لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ» فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الْآنَ وَاللَّهِ! أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ» (٢). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ (٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ

وَأَبُو دَاوُدَ - وَاللَّفْظُ لَهُ - عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْتَةِ، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» (٤).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

[إِنْ حَضَرَ الْفَتْحَ عَلَى النَّصْرِ الْغَيْبِيُّ]

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنْ «بَرَاءة» يُذَكِّرُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانَهُ لَدَيْهِمْ

(١) البيهقي: ٢٧/٩ (٢) أحمد: ٣٣٦/٤ (٣) فتح الباري:

٥٣٢/١١ (٤) أحمد: ٤٢/٢ وأبو داود: ٣٤٦٢

فِي نَصْرِهِ إِتَّاهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ، وَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَبِتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ، لَا يَبْعُدُهُمْ وَلَا يَبْعُدُهُمْ، وَبَنَّهُمْ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ، سَوَاءٌ قَلَّ الْجَمْعُ أَوْ كَثُرَ، فَإِنَّ يَوْمَ حُتَيْنَ أَغْجَبَتْهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وَمَعَ هَذَا مَا أَجْدَى ذَلِكَ عَنْهُمْ شَيْئًا قَوْلُوا مُدِيرِينَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَنْزَلَ نَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَعَهُ - كَمَا سَيَبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - مُفَصَّلًا، لِيُعْلَمَهُمْ: أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَيَأْمَدَادِهِ وَإِنَّ قَلَّ الْجَمْعُ، فَ«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» [البقرة: ٢٤٩].

### [وَفَعَهُ غَزْوَةَ حُتَيْنَ]

وَقَدْ كَانَتْ وَقَعَةُ حُتَيْنَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي شَوَّالِ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ. وَذَلِكَ لَمَّا فَرَّغَ ﷺ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ وَتَمَهَّدَتْ أُمُورُهَا وَأَسْلَمَ عَامَّةُ أَهْلِهَا، وَأَطْلَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَهُ أَنَّ هَوَازِنَ جَمَعُوا لَهُ لِيُفَاتِلُوهُ، وَأَنَّ أَمِيرَهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ، وَمَعَهُ ثِقِيفٌ بِكَمَالِهَا، وَبَنُو جُشَمٍ، وَبَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، وَأَوَزَاعٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ، وَهُمْ قَلِيلٌ، وَنَاسٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ وَعَوْفٍ بْنِ عَامِرٍ، وَقَدْ أَقْبَلُوا وَمَعَهُمُ النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ وَالشَّاءُ وَالنَّعَمُ، وَجَاءُوا بِقَصَصِهِمْ وَقَضِيضِهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جَيْشِهِ الَّذِي جَاءَ مَعَهُ لِلْفَتْحِ وَهُوَ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَمَعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُمْ الطُّلَقَاءُ فِي أَلْفَيْنِ أَفْضًا، فَسَارَ بِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ فَالْتَقَوْا بِوَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ: (حُتَيْنَ) فَكَانَتْ فِيهِ الْوَقَعَةُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فِي غَلَسِ الصُّبْحِ، انْحَدَرُوا فِي الْوَادِي وَقَدْ كَمَنْتَ فِيهِ هَوَازِنَ، فَلَمَّا تَوَاجَهُوا لَمْ يَشْعُرِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا بِهِمْ قَدْ تَأَوَّرُوهُمْ، وَرَشَقُوا بِالْبَنَالِ وَأَضْلَتُوا الشُّيُوفَ وَحَمَلُوا حَمَلَةً رَجُلٌ وَاحِدٌ كَمَا أَمَرَهُمْ مَلِكُهُمْ، فِعِنْدَ ذَلِكَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدِيرِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَبَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ يَوْمِئِذٍ بَعْلَتُهُ الشَّهْبَاءُ يَسُوقُهَا إِلَى نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَالْعَبَّاسُ عَمَهُ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْمَنِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْسَرِ، يُثْقَلَانِهَا لِكَلَّا تُسْرِعَ السَّيْرَ وَهُوَ يَتَوَّه بِاسْمِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَدَعَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجْعَةِ وَيَقُولُ: «إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ» وَيَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» وَكَبَتْ مَعَهُ مِنْ

أَصْحَابِهِ قَرِيبٌ مِنْ مِائَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ثَمَانُونَ: فَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ وَالْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ، وَأَيْمَنُ ابْنُ أُمِّ أَيْمَنَ، وَأَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثُمَّ أَمَرَ ﷺ عَمَهُ الْعَبَّاسَ وَكَانَ جَهِيرَ الصَّوْتِ أَنْ يُنَادِيَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ، يَعْنِي شَجَرَةَ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ الَّتِي بَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ تَحْتَهَا عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا عَنْهُ. فَجَعَلَ يُنَادِي بِهِمْ يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، وَيَقُولُ تَارَةً: يَا أَصْحَابَ شُورَةِ الْبَقَرَةِ. فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا لَيْلِكَ، يَا لَيْلِكَ، وَانْعَطَفَ النَّاسُ فَرْتَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يَطَاوِعْهُ بَعِيرُهُ عَلَى الرَّجُوعِ لَيْسَ دِرْعُهُ ثُمَّ انْحَدَرَ عَنْهُ وَأَرْسَلَهُ وَرَجَعَ بِنَفْسِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَجَعَتْ شِرْذِمَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَمَرَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَصْدُقُوا الْحَمَلَةَ، وَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ ثُرَابٍ بَعْدَ مَا دَعَا رَبَّهُ وَاسْتَسْتَصْرَهُ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ! أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي» ثُمَّ رَمَى الْقَوْمَ بِهَا، فَمَا بَقِيَ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَصَابَهُ مِنْهَا فِي عَيْنَيْهِ وَفِيهِ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ الْقِتَالِ ثُمَّ انْهَرَمُوا، فَاتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ أَفْقَاءَهُمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ، وَمَا تَرَاجَعَ بَقِيَّةُ النَّاسِ إِلَّا وَالْأَسْرَى مُجْتَذِلَةً بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عُمَارَةَ، أَفَرَزْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُتَيْنَ؟ فَقَالَ: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاءَ، فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ انْهَرَمُوا، فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْغَنَائِمِ فَاشْتَقَبَلُونَا بِالسَّهَامِ فَانْهَرَمَ النَّاسُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ آخِذٌ بِلِجَامِ بَعْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَهُوَ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»<sup>(١)</sup>

قُلْتُ: وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّجَاعَةِ التَّامَّةِ، إِنَّهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ، وَقَدْ انْكَشَفَ عَنْهُ جَيْشُهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا عَلَى بَعْلَةٍ وَلَيْسَتْ سَرِيعَةَ الْجَزْيِ، وَلَا تَصْلُحُ لِفَرٍّ وَلَا لِكَرٍّْ وَلَا لِهَرْبٍ، وَهُوَ مَعَ هَذَا أَيْضًا يَرْكُضُهَا إِلَى وُجُوهِهِمْ وَيَتَوَّه بِاسْمِهِ لِيَعْرِفَهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَمَا هَذَا كُلُّهُ إِلَّا ثِقَّةٌ بِاللَّهِ وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ، وَعِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ وَيُنِّمُ مَا أَرْسَلَهُ

حَرَّمَ اللَّهُ رَسُولُهُمْ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾  
[مَنْعُ الْمُشْرِكِينَ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ]

أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الطَّاهِرِينَ دِينًا وَذَاتًا بِتَنْفِي  
الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ نَجَسٌ دِينًا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَأَنْ  
لَا يَقْرُبُوهُ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَانَ نَزُولُهَا فِي سَنَةِ تِسْعٍ،  
وَلِهَذَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا صُحْبَةً أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا عَامِدًا وَأَمَرَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْمُشْرِكِينَ أَنْ لَا يَحْجُجَ بَعْدَ  
هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ غُرَبَاءُ. فَاتَمَّ اللَّهُ ذَلِكَ  
وَحَكَمَ بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ جَابِرِ بْنِ  
عَبْدِ اللَّهِ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا  
يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عِلْمِهِمْ هَذَا﴾: إِلَّا أَنْ يَكُونَ  
عَبْدًا أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الدِّمَةِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو  
الْأَوْزَاعِيُّ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ  
امْنَعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ دُخُولِ مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ  
وَأَتَّبَعَ نَهْيَهُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. وَقَالَ  
عَطَاءٌ: الْحَرَمُ كُلُّهُ مَسْجِدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ  
الْحَرَامَ بَعْدَ عِلْمِهِمْ هَذَا﴾ وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى  
نَجَاسَةِ الْمُشْرِكِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى طَهَارَةِ الْمُؤْمِنِ، وَلَمَّا وَرَدَ  
فِي الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنُ لَا يَنْجُسُ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ  
فَضْلِهِ﴾ قَالَ [مُحَمَّدٌ] بْنُ إِسْحَاقَ: وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ  
قَالُوا: لَنَقْطَعَنَّ عَنَّا الْأَسْوَاقَ وَلَنَهْلِكَنَّ التِّجَارَةَ وَلَنَذْهَبَنَّ  
[عَنَّا] مَا كُنَّا نَصِيبُ فِيهَا مِنَ الْمَرْافِقِ فَتَزَلَّتْ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ  
عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِنْ وَجْهِ غَيْرِ ذَلِكَ  
﴿إِنْ شَاءَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أَيْ إِنَّ هَذَا عَوَضٌ  
مَا تَخَوَّفْتُمْ مِنْ قَطْعِ تِلْكَ الْأَسْوَاقِ فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِمَا قُطِعَ  
عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الشُّرْكِ: مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ أَغْنَاكِ أَهْلِ الْكِتَابِ  
مِنَ الْجِزْيَةِ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ  
وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَفَتَادَةَ وَالصَّحَّاحَ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٤)</sup>.  
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أَيْ بِمَا يُضْلِحُكُمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيْ فِيمَا يَأْمُرُ  
بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ لِأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، الْعَادِلُ فِي  
خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا عَوَّضَهُمُ عَنْ تِلْكَ

بِهِ، وَيُظْهِرُ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ  
أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أَيْ طُمَأْنِينَتَهُ وَبَدَأَتْهُ عَلَى رَسُولِهِ  
﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ الَّذِينَ مَعَهُ ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾  
وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا  
الْقَاسِمُ قَالَ: حَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ عَرْفَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي الْمُعْتَمِرُ  
ابْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ عَوْفٍ - هُوَ ابْنُ أَبِي جَمِيلَةَ - الْأَعْرَابِيُّ  
قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ مَوْلَى ابْنِ بُرْزَنْ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ  
كَانَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ حُتَيْنَ قَالَ: لَمَّا التَقَيْنَا نَحْنُ  
وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُتَيْنَ لَمْ يَقُومُوا لَنَا حَلَبَ  
شَاةً، قَالَ: فَلَمَّا كَسَفْنَاهُمْ جَعَلْنَا نَسُوقُهُمْ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى  
انْتَهَيْنَا إِلَى صَاحِبِ الْبُعْلَةِ الْبَيْضَاءِ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
قَالَ: فَتَلَقَّانَا عَنْدهُ رِجَالٌ بِيضٌ جَسَانُ الْوُجُوهِ، فَقَالُوا لَنَا:  
شَاهَبَ الْوُجُوهُ، ازْجِعُوا: قَالَ: فَانْهَزَمْنَا وَرَكِبُوا أَكْتَافَنَا  
فَكَانَتْ إِيَّاهَا<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ  
عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى بَقِيَّةِ هَوَازِنَ فَأَسْلَمُوا وَقَلِمُوا  
عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ، وَلَحِقُوهُ وَقَدْ قَارَبَ مَكَّةَ عِنْدَ الْجَعْرَانَةِ، وَذَلِكَ  
بَعْدَ الْوَفْقَةِ بِقَرِيبٍ مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَيْرُهُمْ بَيْنَ  
سَبِيهِمْ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ فَأَخْتَارُوا سَبِيَهُمْ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ  
أَسِيرٍ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَامْرَأَةٍ، فَزَدَهُ عَلَيْهِمْ، وَقَسَمَ أَمْوَالَهُمْ بَيْنَ  
الْعَالِيَيْنِ وَنَقَلَ أَنَا سَا مِنْ الطُّلَقَاءِ لِيَتَأَلَّفَ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ  
فَأَعْطَاهُمْ مِائَةَ مِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةٍ مَنْ أَعْطِيَ مِائَةَ  
مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّضْرِيِّ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا كَانَ،  
فَامْتَدَحَهُ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ  
فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ  
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتُنِدِي  
وَمَتَى تَشَأُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِي عَدِي  
وَإِذَا الْكِتَابَةُ عَرَدَتْ أَنْيَابُهَا  
بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرَبَ كُلُّ مُهَنَّدٍ  
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ

وَسَطَ الْهَبَاءُ خَادِرٌ فِي مَرَصِدٍ  
﴿يَتَابُهَا الَّذِينَ﴾ أَمْوًا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا  
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عِلْمِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ  
يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾  
فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا

(١) الطبري: ١٨٦/١٤ (٢) عبد الرزاق: ٢٧١/٢ (٣) فتح  
الباري: ١٥٠/٣ (٤) الطبري: ١٩٧/١٤ (٥) الطبري: ١٤



جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَصْبَاحِهِ»<sup>(١)</sup>.

وَلِهَذَا اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تِلْكَ الشُّرُوطَ الْمَعْرُوفَةَ فِي إِذْلَاقِهِمْ وَتَضْغِيرِهِمْ، وَذَلِكَ مِمَّا رَوَاهُ الْأَيْمَةُ الْحَفَاطُ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنَمٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ صَالَحَ نَصَارَى مِنْ أَهْلِ الشَّامِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ نَصَارَى مَدِينَةِ كَذَا وَكَذَا: إِنَّكُمْ لَمَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْنَا سَأَلْنَاكُمْ الْأَمَانَ لَأَنْفُسِنَا وَذَرَارِينَا وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلٍ وَلِيَّنَا، وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا أَنْ لَا نُحَدِّثَ فِي مَدِينَتِنَا وَلَا فِيمَا حَوْلَهَا ذِكْرًا وَلَا كَيْسَةً وَلَا فَلَائَةً (هُوَ تَعْرِيْبٌ "كَلَادَةٌ" وَهِيَ مِنْ بَيُوتِ عِبَادَاتِ النَّصَارَى) وَلَا صُومَعَةً رَاهِبٍ، وَلَا نُجَدِّدُ مَا حَرَبَ مِنْهَا، وَلَا نُحْيِي مِنْهَا مَا كَانَ خِطَطًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نَمْنَعُ كَنَائِسَنَا أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، وَأَنْ نُوَسِّعَ أَبْوَابَنَا لِلْمَارَّةِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَأَنْ نُنْزِلَ مَنْ مَرَّ بِنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ نَطْعُمُهُمْ، وَلَا نُؤْوِي فِي كَنَائِسِنَا وَلَا مَنَازِلِنَا جَاسُوسًا، وَلَا نَكْتُمُ عَشًّا لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا نَعْلَمُ أَوْلَادَنَا الْقُرَّانَ، وَلَا نَظْهَرُ شِرْكًَا وَلَا نَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدًا، وَلَا نَمْنَعُ أَحَدًا مِنْ دَوِي قَرَابَتِنَا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ، وَأَنْ نُؤَفِّرَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ نَقُومَ لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِنَا إِنْ أَرَادُوا الْجُلُوسَ، وَلَا تَنْشَبَهُ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ مَلَابِسِهِمْ فِي قَلَنْسُوءَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ، وَلَا نَعْلِينَ وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ، وَلَا تَنْكَلِمَ بِكَلَامِهِمْ وَلَا نَكْتَنِي بِكَلَامِهِمْ، لَا نَرْكَبَ السُّرُوحَ وَلَا نَتَقَلَّدَ السُّيُوفَ، وَلَا تَتَخَذَ شَيْئًا مِنَ السَّلَاحِ، وَلَا نَحْمِلُهُ مَعَنَا، وَلَا نَنْقُشَ خَوَاتِمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا نَبِيعَ الْخُمُورَ. وَأَنْ نَجْزِيَ مَقَادِيمَ رُؤُوسِنَا، وَأَنْ نَلْزِمَ زَيْنًا حَيْثُمَا كُنَّا، وَأَنْ نَشُدَّ الزَّيَّانِيَّ عَلَى أَوْسَاطِنَا، وَأَنْ لَا نَظْهَرُ الصَّلِيبَ عَلَى كَنَائِسِنَا، وَأَنْ لَا نَظْهَرُ ضَلْبِنَا وَلَا كُتْبِنَا فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَشْوَاقِهِمْ، وَلَا نَضْرِبَ نَوَافِيسِنَا فِي كَنَائِسِنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيفًا، وَأَنْ لَا نَرْفَعَ أَصَوَاتَنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا فِي شَيْءٍ مِنْ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نُخْرِجَ سَعَانِينَ (عِيدٌ مَعْرُوفٌ لِلنَّصَارَى) وَلَا بَاغُوتًا (الْبَاغُوتُ لِلنَّصَارَى كَالِاسْتِسْقَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ)، وَلَا

الْمَكَاسِبَ بِأَمْوَالِ الْجَزْيَةِ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ. [التَّخْرِيسُ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّى يُعْطُوا الْجَزْيَةَ] فَقَالَ: «فَتِلْكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجَزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَمَّا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِيْمَانٌ صَحِيحٌ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا بِمَا جَاءُوا بِهِ وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ لَا لِأَنَّهُ شَرَعَ اللَّهُ وَدِينَهُ، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِمَا بَايَدَهُمْ إِيْمَانًا صَحِيحًا لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِيْمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ بَشَرُوا بِهِ وَأَمَرُوا بِاتِّبَاعِهِ، فَلَمَّا جَاءَ وَكَفَرُوا بِهِ وَهُوَ أَشْرَفُ الرُّسُلِ، عَلِمَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مَتَمَسِّكِينَ بِشَرْعِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. بَلْ لِحُطُولِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، فَلِهَذَا لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ بِبَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ كَفَرُوا بِسَيِّدِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ وَخَاتَمِهِمْ وَأَكْمَلِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَتِلْكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ نَزَلَتْ أَوَّلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَمَا تَمَهَّدَتْ أُمُورُ الْمُشْرِكِينَ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا.

فَلَمَّا اسْتَقَامَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابَتَيْنِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَنِيٍّ وَلِهَذَا تَجَهَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقِتَالِ الرُّومِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ، وَبَعَثَ إِلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ فَدَنَّهُمْ فَأَوْعَبُوا مَعَهُ، وَاجْتَمَعَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَتَخَلَّفَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ جَدِبٍ وَوَقَّتْ قَيْظٌ وَحَرٌّ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ الشَّامَ لِقِتَالِ الرُّومِ، فَبَلَغَ ثَبُوكَ فَتَزَلَّ بِهَا، وَأَقَامَ عَلَى مَايْهَا قَرِيبًا مِنْ عَشْرِينَ يَوْمًا، ثُمَّ اسْتَحَارَ اللَّهُ فِي الرُّجُوعِ فَرَجَعَ عَامَهُ ذَلِكَ لِضَيْقِ الْحَالِ وَضَعْفِ النَّاسِ، كَمَا سَبَّأَتِي بَيَانُهُ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

#### [الْجَزْيَةُ عَلَامَةُ الذِّلَّةِ وَالْكَفْرِ]

وَقَوْلُهُ: «حَتَّى يُعْطُوا الْجَزْيَةَ» أَيِ إِنْ لَمْ يُسَلِّمُوا «عَنْ يَدٍ» أَيِ عَنْ قَهْرٍ لَهُمْ وَعَلَبَةٍ «وَهُمْ صَاغِرُونَ» أَيِ ذَلِيلُونَ خَفِيرُونَ مَهَانُونَ، فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ إِغْرَازُ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَلَا رَفْعُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَلْ هُمْ أَذْلَاءُ صَغَرَةَ أَشْفِيَاءَ، كَمَا

الْبَاطِلِ

١٩٢

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِيعَ نُورُهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣١﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كَثُرَ مِنْ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَبْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُودُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ يَخْلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي عُنُقِي عَدِي صَلِيبٌ مِنْ فِضَّةٍ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ فَقَالَ: «بَلَى إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحْلَوْا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِنِّي أَنُحَرِّمُ اللَّهُ ﷻ: «يَا عَدِي مَا تَقُولُ؟ أَيْفُوكَ؟ أُنْفِرُكَ أَنْ يَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنْ اللَّهِ؟ مَا يُفْرُكَ؟ أَيْفُوكَ أَنْ يَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ؟» ثُمَّ دَعَا إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبَشَّرَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمُ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ حَدِيثُهُ بْنُ الْيَمَانِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُمَا فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: «إِنَّهُمْ اتَّبَعُوهُمْ فِيمَا حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ

نَزَعَ أَصْوَاتَنَا مَعَ مَوْتَانَا وَلَا نُظْهِرُ النَّيِّرَانَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ طَرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقِهِمْ، وَلَا نَجَاوَرُهُمْ بِمَوْتَانَا، وَلَا نَتَّخِذُ مِنَ الرِّقِيقِ مَا جَرَى عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ نُرْشِدَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا نَطْلُعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ.

قَالَ: فَلَمَّا أَتَيْتُ عُمَرَ بِالْكِتَابِ زَادَ فِيهِ: وَلَا نُضْرِبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. شَرَطْنَا لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا وَقَبَلَتْنَا عَلَيْهِ الْأَمَانَ، فَإِنْ نَحْنُ خَالَفْنَا فِي شَيْءٍ مِمَّا شَرَطْنَا لَكُمْ وَوَضَعْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا، فَلَا دِمَّةَ لَنَا، وَقَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنَّا مَا يَحِلُّ مِنْ أَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشَّقَاقِ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ أَبِي اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَلَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَوْفُوكُونَ﴾<sup>(٤)</sup> اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾<sup>(٥)</sup>

[شُرِكُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَكُفْرُهُمْ هُوَ سَبَبُ قِتَالِهِمْ] وَهَذَا إِغْرَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ الْكُفَّارِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِمَقَالَتِهِمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ الشَّنِيعَةَ وَالْفُزْيَةَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَمَّا الْيَهُودُ فَقَالُوا فِي عِزِّي: «إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ» تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَأَمَّا ضَلَالُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ فَظَاهِرٌ، وَلِهَذَا كَذَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الطَّائِفَتَيْنِ فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أَيْ لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ فِيمَا ادَّعَوْهُ سِوَى افْتِرَائِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ ﴿يُضَاهُونَ﴾ أَيْ يُشَابِهُونَ ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ ضَلُّوا كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ ﴿فَتَلَاهُمُ اللَّهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَعَنَهُمُ اللَّهُ. ﴿أَنْ يَوْفُوكُونَ﴾ أَيْ كَيْفَ يُصَلُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَيَعْدِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ؟! وَقَوْلُهُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرُقٍ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَّ إِلَى الشَّامِ وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَسِيرَتْ أُخْتُهُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أُخْتِهِ وَأَعْطَاهَا فَرَجَعَتْ إِلَى أُخِيهَا فَرَعَّبَتْهُ فِي الْإِسْلَامِ وَفِي الْقُدُومِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدِمَ عَدِيُّ الْمَدِينَةَ وَكَانَ رَئِيسًا فِي قَوْمِهِ طِيءٍ وَأَبُوهُ حَاتِمُ الطَّائِي الْمَشْهُورُ بِالْكَرَمِ، فَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِقُدُومِهِ، فَدَخَلَ عَلَى

(١) من البيهقي الكبرى: ٢٠٢/٩، والمحلى: ٣٤٦/٧ (٢)

أحمد: ٣٧٨/٤ وتحفة الأحرادي: ٤٩٢/٨ والطبري: ٢١٠/١٤

(٣) الطبري: ٢١٢/١٤

تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أَيِ  
الَّذِي إِذَا حَرَّمَ الشَّيْءَ فَهُوَ الْحَرَامُ وَمَا حَلَّلَهُ فَهُوَ الْحَلَالُ،  
وَمَا شَرَعَهُ اتَّبِعْ، وَمَا حَكَمَ بِهِ نَفَذْ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَيِ: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ  
الشُّرَكَاءِ وَالنَّظَرَاءِ، وَالْأَعْوَانِ وَالْأَصْدَادِ وَالْأَوْلَادِ، لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ  
يُشْعَرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ  
بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ  
الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٤﴾

[مُحَاوَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ إطفاء نُورِ الْإِسْلَام]

يَقُولُ تَعَالَى: يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ  
الْكِتَابِ ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أَيِ: مَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ،  
فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شِعَاعَ الشَّمْسِ أَوْ  
نُورَ الْقَمَرِ بِتَفَخُّهِ، وَهَذَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ مَا أُرْسِلَ بِهِ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبَدٍ أَنْ يَتِمَّ وَيُظْهَرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى  
مُقَابِلًا لَهُمْ فِيمَا رَامُوهُ وَأَرَادُوهُ: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشْعَرَ  
نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وَالْكَافِرُ هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ الشَّيْءَ  
وَيُعْطِيهِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ اللَّيْلُ كَافِرًا، لِأَنَّهُ يَسْتُرُ الْأَشْيَاءَ.  
وَالزَّرَاعُ كَافِرًا، لِأَنَّهُ يُعْطِي الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ. كَمَا قَالَ:  
﴿عَجِبَ الْكُفَّارُ بِنَاءِهِ﴾ [الحديد: ٢٠].

[دِينُ الْإِسْلَامِ يَغْلِبُ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ  
الْحَقِّ﴾ فَالْهُدَى: هُوَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْأَخْبَارَاتِ الصَّادِقَةِ  
وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ. وَدِينِ الْحَقِّ، هُوَ  
الْأَعْمَالُ [الصَّالِحَةُ] الصَّحِيحَةُ النَّافِعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.  
﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَيِ: عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ  
كَمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ  
زَوَى لِي الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا  
زَوَى لِي مِنْهَا»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ تَيْمِيمِ الدَّارِيِّ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ  
هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا  
وَيْرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، يَعِزُّ عَزِيزٌ أَوْ يَذُلُّ ذَلِيلٌ، عِزًّا يُعِزُّ  
اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ» فَكَانَ تَيْمِيمُ الدَّارِيِّ  
يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ [فِي] أَهْلِ بَيْتِي: لَقَدْ أَصَابَ مَنْ

أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْخَيْرَ وَالشَّرَفَ وَالْعِزَّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ  
كَافِرًا مِنْهُمْ الذُّلَّ وَالصَّغَارَ وَالْجِزْيَةَ<sup>(٢)</sup>.  
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ  
لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
وَالَّذِينَ يَكْرِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٣٥﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ  
فَتُكَوَّرُ بِهَا جَاهُتُهُمْ وَجُودُهُمْ وَيُظْهَرُهُمْ هَذَا مَا كَرَرْتُمْ  
لَأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

[التَّحْذِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ الشُّوءِ وَعِبَادِ الضَّلَالِ]

قَالَ السُّدِّيُّ: الْأَخْبَارُ مِنَ الْيَهُودِ، وَالرُّهْبَانُ مِنَ  
النَّصَارَى<sup>(٣)</sup>. وَهُوَ كَمَا قَالَ: فَإِنَّ الْأَخْبَارَ هُمْ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ  
كََمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرَّاغِبُونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ  
الْإِنَّمَا وَاعْتَمِدُوا الشَّعْتَ﴾ [المائدة: ٦٣] وَالرُّهْبَانُ: عِبَادُ  
النَّصَارَى. وَالْقِسِيسُونَ: عُلَمَاؤُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسَ وَرُهْبَانًا﴾. [المائدة: ٨٢]  
وَالْمَقْصُودُ: التَّحْذِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ الشُّوءِ وَعِبَادِ الضَّلَالِ،  
كَمَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ  
شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنَ  
النَّصَارَى. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ  
كَانَ قَبْلَكُمْ حَذَوُ الْقِدَّةِ بِالْقِدَّةِ» قَالُوا: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟  
قَالَ: «فَمَنْ؟» - وَفِي رَوَايَةٍ: فَارِسُ وَالرُّومُ؟ قَالَ:  
«فَمَنْ النَّاسُ إِلَّا هَؤُلَاءِ؟»<sup>(٤)</sup>.

وَالْحَاصِلُ: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ  
وَأَعْوَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ  
بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَذَلِكَ، أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ  
الدُّنْيَا بِالْدِّينِ وَمَنَاصِبِهِمْ وَرِيَاسَتِهِمْ فِي النَّاسِ، يَأْكُلُونَ  
أَمْوَالَهُمْ بِذَلِكَ، كَمَا كَانَ لِأَخْبَارِ الْيَهُودِ عَلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ  
شَرَفٌ، وَلَهُمْ عِنْدَهُمْ خَرْجٌ وَهَدَايَا وَضَرَائِبُ تَجِيءُ إِلَيْهِمْ،  
فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ اسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ  
وَعِنَادِهِمْ، طَمَعًا مِنْهُمْ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ تِلْكَ الرِّيَاسَاتُ  
فَأُطْلِقَهَا اللَّهُ يُنَوِّرُ الثُّبُوتَ وَسَلَبَهُمْ إِثَابَهَا، وَعَوَّضَهُمُ الذُّلَّ  
وَالصَّغَارَ وَبَاءُوا بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيِ وَهُمْ مَعَ

(١) مسلم: ٢٢١٥/٤ (٢) أحمد: ١٠٣/٤ (٣) الطبري: ١/١٤

٢١٦ (٤) الشريعة: ص ١٨

طَاعَةَ اللَّهِ عَذَابَ بِهِ. وَهَؤُلَاءِ لَمَّا كَانَ جَمْعُ هَذِهِ الْأَمْوَالِ أَثَرٌ عِنْدَهُمْ مِنْ رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ عَذْبُوا بِهَا، كَمَا كَانَ أَبُو لَهَبٍ لَعْنَهُ اللَّهُ جَاهِدًا فِي عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرًا تَعِينُهُ فِي ذَلِكَ، كَانَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَوْنًا عَلَى عَذَابِهِ أَيْضًا، ﴿فِي جِدِّهَا﴾ أي: عَنْقِهَا ﴿حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، أي: تَجْمَعُ مِنَ الْحَطَبِ فِي النَّارِ وَتُلْقَى عَلَيْهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي عَذَابِهِ مِمَّنْ هُوَ أَشْفَقُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ لَمَّا كَانَتْ أَغْرَ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْبَابِهَا كَانَتْ أَضَرَّ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَنَاهِيكَ بِحَرِّهَا، فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ ثَوْبَانَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا، مِثْلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ رَيْبَتَانِ يَتَّبَعُهُ وَيَقُولُ: وَبِئْسَ مَا أَنْتَ؟» يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ، وَلَا يَزَالُ يَتَّبَعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِمَهَا، ثُمَّ يُنْعِمُهَا سَائِرَ جَسَدِهِ» وَرَوَاهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ هُرَيْرَةَ، وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٤)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَانِخٌ مِنْ نَارٍ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهُتُهُ وَظَهْرُهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِنَّمَا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا إِلَى النَّارِ»<sup>(٥)</sup>. . . . وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ: مَرَرْتُ عَلَى أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ فَقُلْتُ مَا أَنْزَلَكَ بِهَذِهِ الْأَرْضِ؟ قَالَ: كُنَّا بِالشَّامِ فَقَرَأْتُ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هَذِهِ فِينَا، مَا هَذِهِ إِلَّا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: قُلْتُ: إِنَّهَا لَفِينَا وَفِينَا<sup>(٦)</sup>.

أَكْلِهِمُ الْحَرَامَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَيَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُظْهِرُونَ لِمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْجَهْلَةِ: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَلَيْسُوا كَمَا يَزْعُمُونَ، بَلْ هُمْ دَعَاةٌ إِلَى النَّارِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ.

[عَذَابٌ مَنْ يَكْنِزُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هَؤُلَاءِ هُمُ الْقِسْمُ الثَّلَاثُ مِنْ رُؤُوسِ النَّاسِ، فَإِنَّ النَّاسَ عَالَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَعَلَى الْعِبَادِ وَعَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ، فَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ

وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَزُهَبَانِهَا وَأَمَّا الْكَنْزُ فَقَالَ مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُؤَدِّي زَكَاةَهُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ فَقَالَ: هَذَا قَبْلُ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا نَزَلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طَهْرَةً لِلْأَمْوَالِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعِرَاكُ ابْنُ مَالِكٍ: نَسَخَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الْآيَةَ [التوبة: ١٠٣].

وَقَدْ جَاءَ فِي مَدَحِ التَّقَالُّ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَدَمِّ التَّكْثُرِ مِنْهُمَا أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ. وَلَنُورِدُ مِنْهَا هُنَا طَرَفًا يَدُلُّ عَلَى الْبَاقِي. رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَضِيٍّ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الْآيَةَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَبًّا لِلذَّهَبِ، تَبًّا لِلْفِضَّةِ» يَقُولُهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَسَقَ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: فَأَيُّ مَالٍ نَتَّخِذُ؟ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أَعْلَمُ لَكُمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ أَصْحَابَكَ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: فَأَيُّ الْمَالِ نَتَّخِذُ؟ قَالَ: «لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَرَوْجَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَدَرَوْا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: يُقَالُ لَهُمْ هَذَا الْكَلَامُ تَبْكِينًا وَتَقْرِيعًا وَتَهْكِيمًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابٍ الْحَمِيمِ﴾ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] أي: هَذَا بِذَلِكَ، وَهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ لِأَنْفُسِكُمْ، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا وَقَدَّمَهُ عَلَى

(١) الموطأ: ٢٥٦/١ (٢) فتح الباري: ٨/ ١٧٥ (٣) عبد الرزاق: ٢٦٣/٢ إسناده ضعيف ذكره العلامة الزيلعي في تخريج الكشاف ٧١/٢ وعزاه لعبد الرزاق في تفسيره . . . ثم قال: "الحاصل أنه حديث ضعيف لما فيه من الاضطراب". (٤) الطبري: ٣٦٣/٦ وابن حبان: ٨٠٣ وابن خزيمة: ٢٢٥٥ والبخاري: ٤٦٥٩ (٥) مسلم: ٦٨٢/٢ (٦) فتح الباري: ٨/ ١٧٣

فَلَا يَدُّ مِنْ دَوْرَانِهَا، فَلَعَلَّهُمْ سَمَوْهُ بِذَلِكَ أَوَّلَ مَا سُمِّيَ،  
عِنْدَ جُمُودِ الْمَاءِ فِي الْبَرْدِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:  
وَلَيْلَةٌ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَّةٍ  
لَا يَبْصُرُ الْعَبْدُ فِي ظُلُمَائِهَا الظُّنْبَا  
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ

حَتَّى يَلْفَ عَلَى خُرْطُومِهِ الذَّنْبَا  
وَيُجْمَعُ عَلَى جُمَادِيَّاتٍ، كَحَبَارَى وَحَبَارِيَّاتٍ. وَقَدْ  
يُذَكَّرُ وَيُؤْتَّى فَيُقَالُ: جُمَادَى الْأُولَى وَالْأَوَّلُ. وَجُمَادَى  
الْآخِرُ وَالْآخِرَةُ. رَجَبٌ مِنَ التَّرْجِيبِ - وَهُوَ التَّعْظِيمُ -  
وَيُجْمَعُ عَلَى أَرْجَابٍ وَرَجَابٍ وَرَجَبَاتٍ. شَعْبَانٌ مِنْ تَشْعُبٍ  
الْقَبَائِلِ وَتَفَرُّقِهَا لِلْعَارَةِ، وَيُجْمَعُ عَلَى شَعَابِينَ وَشَعْبَانَاتٍ.  
رَمَضَانٌ مِنْ شِدَّةِ الرَّمْضَاءِ، وَهُوَ الْحَرُّ يُقَالُ: رَمَضَتِ  
الْفِصَالُ إِذَا عَطِشَتْ، وَيُجْمَعُ عَلَى رَمَضَانَاتٍ وَرَمَاضِينَ  
وَأَرْمِضَةٍ، قَالَ: وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ  
خَطَأٌ لَا يُعْرَجُ عَلَيْهِ وَلَا يُنْفَتَحُ إِلَيْهِ.

(قُلْتُ): قَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ وَلَكِنَّهُ ضَعِيفٌ وَبَيِّنَتْهُ فِي  
أَوَّلِ كِتَابِ الصِّيَامِ. سُؤَالٌ مِنْ شَالَتْ الْإِبِلُ بِأَذْنَابِهَا لِلطَّرَافِ  
قَالَ: وَيُجْمَعُ عَلَى سُوَاوِلَ وَسُوَاوِيلَ وَسُوَالَاتٍ. الْقَعْدَةُ  
يَفْتَحُ الْقَافَ - (قُلْتُ): وَكُسْرُهَا - لِقُعُودِهِمْ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ  
وَالْتَرَحُّالِ، وَيُجْمَعُ عَلَى ذَوَاتِ الْقَعْدَةِ. الْحِجَّةُ بِكُسْرِ  
الْحَاءِ - (قُلْتُ): وَفَتْحِهَا - سُمِّيَ بِذَلِكَ لِإِقَامَتِهِمُ الْحَجَّ  
فِيهِ، وَيُجْمَعُ عَلَى ذَوَاتِ الْحِجَّةِ.

أَسْمَاءُ الْأَيَّامِ، أَوَّلُهَا: الْأَحَدُ وَيُجْمَعُ عَلَى أَحَادٍ  
وَأَوْحَادٍ وَوُحُودٍ. ثُمَّ يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ وَيُجْمَعُ عَلَى اِثْنَيْنِ.  
الثَّلَاثَاءُ يُمَدُّ وَيُذَكَّرُ وَيُؤْتَّى، وَيُجْمَعُ عَلَى ثَلَاثَاوَاتٍ،  
وَأَثَالِتٍ. ثُمَّ الْأَرْبِعَاءُ بِالْمَدِّ وَيُجْمَعُ عَلَى أَرْبِعَاوَاتٍ  
وَأَرْبَاعٍ. وَالْخَمِيسُ يُجْمَعُ عَلَى أَخْمِسَةٍ وَأَخَامِسٍ، ثُمَّ  
الْجُمُعَةُ بِضَمِّ الْمِيمِ وَإِسْكَانِهَا وَفَتْحِهَا أَيْضًا وَيُجْمَعُ عَلَى  
جُمُعٍ وَجُمَاعَاتٍ. السَّبْتُ مَاخُودٌ مِنَ السَّبْتِ وَهُوَ الْقَطْعُ  
لِانْتِهَاءِ الْعَدَدِ عِنْدَهُ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُسَمِّي الْأَيَّامَ: أَوَّلُ،  
ثُمَّ أَهْوَنُ، ثُمَّ جَبَارٌ، ثُمَّ ذُبَارٌ، ثُمَّ مُؤْنَسٌ، ثُمَّ الْعَرُوبَةُ، ثُمَّ  
شِيَارٍ. قَالَ الشَّاعِرُ - مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ الْعَارِبَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ  
:-

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ  
يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الْدِّينُ  
الْقَدِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً  
كَمَا بَقِلْتُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾  
[السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فِي  
حَجَّتِهِ فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ الرُّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ  
حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ  
وَرَجَبٌ مُضَرٌ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ» ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ  
هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ  
سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، ثُمَّ  
قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى  
ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا:  
بَلَى، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ  
فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَتْ  
الْبَلَدَةُ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - وَأَخْسِيئَكُمْ  
قَالَ: - وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي  
شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. وَتَسْتَلْقُونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ  
أَعْمَالِكُمْ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ  
رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ،  
فَلَعَلَّ مَنْ يَبْلُغُهُ يَكُونُ أَدْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَن سَمِعَهُ» (١). رَوَاهُ  
الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢).

(فصل) ذَكَرَ الشَّيْخُ عِلْمُ الدِّينِ السَّخَاوِيُّ فِي جُزْءٍ جَمَعَهُ  
سَمَاهُ (المَشْهُورُ فِي أَسْمَاءِ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ) أَنَّ الْمُحَرَّمَ  
سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِكُونِهِ شَهْرًا مُحَرَّمًا - وَعِنْدِي أَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ  
تَأْكِيدًا لِتَحْرِيمِهِ، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَقَلَّبُ بِهِ فَتَحِلُّهُ عَامًا  
وَتَحَرِّمُهُ عَامًا - قَالَ: وَيُجْمَعُ عَلَى مُحَرَّمَاتٍ وَمَحَارِمٍ  
وَمَحَارِيمٍ. وَصَفَرُ سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِخُلُوقِ بَيُوتِهِمْ مِنْهُمْ حِينَ  
يَخْرُجُونَ لِلْقِتَالِ وَالْأَسْفَارِ، يُقَالُ: صَفَرَ الْمَكَانَ إِذَا خَلَا،  
وَيُجْمَعُ عَلَى أَصْفَارٍ كَجَمَلٍ وَأَجْمَالٍ. وَشَهْرُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ  
سُمِّيَ بِذَلِكَ لِارْتِبَاعِهِمْ فِيهِ، وَالْارْتِبَاعُ: الْإِقَامَةُ فِي عِمَارَةِ  
الرَّبِيعِ، وَيُجْمَعُ عَلَى أَرْبِعَاءٍ كَنَصِيبٍ وَأَنْصِبَاءٍ، وَعَلَى أَرْبَعَةٍ  
كَرَغِيفٍ وَأَرْغِفَةٍ. وَرَبِيعُ الْآخِرِ كَالْأَوَّلِ. جُمَادَى سُمِّيَ  
بِذَلِكَ لِجُمُودِ الْمَاءِ فِيهِ، قَالَ: وَكَانَتْ الشُّهُورُ فِي حِسَابِهِمْ  
لَا تَدُورُ - وَفِي هَذَا نَظَرٌ، إِذْ كَانَتْ شُهُورُهُمْ مُنَوَّطَةً بِالْأَهْلَةِ

(١) أحمد: ٣٧/٥ (٢) فتح الباري: ١٧٥/٨ و ٣٣٨/٦ و ١٠/

١٠ ومسلم: ١٣٠٥/٣

الْبُرْجُ

١٩٣

سُورَةُ التَّوْبَةِ

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ، عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ، عَامًا لِيُوَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْتٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَأْتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْصَرُوا يَنْعِزْ بَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصَرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ إِلَّا تَنْصَرُوا فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَكُونُ مَعَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. وقال: إن الله اضطقى صفابا من خلقه. اضطقى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا، واضطقى من الكلام ذكره، واضطقى من الأرض المساجد. واضطقى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واضطقى من الأيام يوم الجمعة واضطقى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله. فإنما [تعظم] الأمور بما عظمها الله به، عند أهل الفهم وأهل العقل.

[القتال في الأشهر الحرم]

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: جميعكم ﴿كَمَا يُبْلِغُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: جميعهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ واعلموا أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعْبَرَةَ اللَّهِ

أَرْجِي أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي بِأَوَّلٍ أَوْ بِآخِرُونَ أَوْ جَبَارٍ أَوْ التَّالِي دُبَارٍ فَإِنْ أَفْنَيْتُهُ فَمُؤَيَّسٌ أَوْ عَرُوبَةٌ أَوْ شِيَارٍ [الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ]

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم: «النبسل» كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقا وتشديدا. وأما قوله: «ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى «مضر» ليس صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه «ربيعه» من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم، فيبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرّد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويستغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والإغتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْقِتْمَ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم من أمثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحدو بها على ما سبق في كتاب الله الأول، قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلبد الحرام تضاعف لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُضْلِلْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراما وعظم حرمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم<sup>(١)</sup>. وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾ إن الظلم

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قَالَ: النَّسِيءُ: أَنْ جُنَادَةَ ابْنَ عَوْفٍ بَنِ أُمَيَّةَ الْكِنَانِيِّ كَانَ يُوَافِي الْمُؤَسِّمَ فِي كُلِّ عَامٍ وَكَانَ يُكْنَى أَبَا ثُمَامَةَ فَيُنَادِي: أَلَا إِنَّ أَبَا ثُمَامَةَ لَا يُجَابُ وَلَا يُعَابُ، أَلَا وَإِنَّ صَفَرَ الْعَامِ الْأَوَّلِ الْعَامَ حَلَالٍ، فَيُحِلُّهُ لِلنَّاسِ فَيَحَرِّمُ صَفْرًا عَامًا وَيَحَرِّمُ الْمُحَرَّمَ عَامًا، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يَقُولُ: يَتَرَكُونَ الْمُحَرَّمَ عَامًا وَعَامًا يُحَرِّمُونَهُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يَأْتِي كُلَّ عَامٍ إِلَى الْمُؤَسِّمِ عَلَى حِمَارٍ لَهُ فَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي لَا أَعَابُ وَلَا أَجَابُ وَلَا مَرَدٌّ لِمَا أَقُولُ، إِنَّا قَدْ حَرَمْنَا الْمُحَرَّمَ وَأَحْرَنَّا صَفَرَ. ثُمَّ يَجِيءُ الْعَامُ الْمُقْبِلَ بَعْدَهُ فَيَقُولُ مِثْلَ مَقَالَتِهِ وَيَقُولُ: إِنَّا قَدْ حَرَمْنَا صَفَرَ وَأَحْرَنَّا الْمُحَرَّمَ، فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قَالَ: يَعْني الْأَرْبَعَةَ، فَيُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ بِتَأْخِيرِ هَذَا الشَّهْرِ الْحَرَامِ<sup>(٣)</sup>. فَالنَّسِيءُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يُحِلُّونَ شَهْرَ الْمُحَرَّمَ عَامًا وَيَحَرِّمُونَ عِوَضَهُ صَفْرًا، وَبَعْدَهُ رَبِيعٌ، وَرَبِيعٌ... إِلَى آخِرِ السَّنَةِ بِحَالِهَا عَلَى نِظَامِهَا وَعِدَّتِهَا وَأَسْمَاءُ شَهُورِهَا. ثُمَّ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ يُحَرِّمُونَ الْمُحَرَّمَ وَيَتَرَكُونَهُ عَلَى تَحْرِيمِهِ، وَبَعْدَهُ صَفَرٌ، وَرَبِيعٌ، وَرَبِيعٌ... إِلَى آخِرِهَا فَ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أَيُّ: فِي تَحْرِيمِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنَ السَّنَةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ تَارَةً يَقْدُمُونَ تَحْرِيمَ الشَّهْرِ الثَّلَاثِ مِنَ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَالِيَةِ، وَهُوَ الْمُحَرَّمُ، وَتَارَةً يَنْسُتُونَهُ إِلَى صَفَرٍ، أَيُّ: يُؤَخِّرُونَهُ.

وَقَدْ تَكَلَّمَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَلَى هَذَا فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ كَلَامًا جَيِّدًا مُفِيدًا حَسَنًا فَقَالَ: كَانَ أَوَّلُ مَنْ نَسَأَ الشُّهُورَ عَلَى الْعَرَبِ، فَأَحَلَّ مِنْهَا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَحَرَّمَ مِنْهَا مَا أَحَلَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَلْفَلَسَ وَهُوَ: حُدْفَةُ بْنُ عَبْدِ قُصَيْمٍ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَامِرٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدٍّ بْنِ عَدْنَانَ. ثُمَّ قَامَ بَعْدَهُ عَلَى ذَلِكَ ابْنُهُ عَبَادٌ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ عَبَادِ ابْنُهُ قَلْعُ بْنُ عَبَادٍ، ثُمَّ ابْنُهُ أُمَيَّةُ ابْنُ قَلْعٍ، ثُمَّ ابْنُهُ عَوْفُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ ابْنُهُ: أَبُو ثُمَامَةَ جُنَادَةُ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ آخِرَهُمْ

(١) الطبري: ٢٤٥/١٤ (٢) الطبري: ٢٤٦/١٤ (٣) الطبري:

وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ [المائدة: ٢] وَقَالَ: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْمُرْتَضِ فَقَضَاءٌ فَمَنْ أَغْدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آغَدْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]... الآية، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحَرَامَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ...﴾ الآية [التوبة: ٥].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُوكُمْ كَافَّةً﴾ فَهُوَ إِذْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَقْتَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِذَا كَانَتْ الْبِدَاءَةُ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْمُرْتَضِ وَقَضَاءٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ...﴾ الآية [البقرة: ١٩١] أَمَّا حِصَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الطَّائِفِ وَاسْتِصْحَابِهِ الْحِصَارَ إِلَى أَنْ دَخَلَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَإِنَّهُ مِنْ تَتَمَّةِ قِتَالِ هَوَازِنَ، وَأَخْلَافِهَا مِنْ ثَقِيفٍ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا الْقِتَالَ وَجَمَعُوا الرِّجَالَ، وَدَعَوْا إِلَى الْحَرْبِ وَالتَّرَالِ، فَعِنْدَهَا قَصَدَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا تَحَصَّنُوا بِالطَّائِفِ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ لِيُنْزِلَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ، فَنَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَتَلُوا جَمَاعَةً، وَاسْتَمَرَّ الْحِصَارُ بِالْمَجَانِيقِ وَغَيْرِهَا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَكَانَ ابْتِدَآؤُهُ فِي شَهْرِ حَلَالٍ، وَدَخَلَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَاسْتَمَرَّ فِيهِ أَيَّامًا، ثُمَّ قَلَّ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ يُعْتَقَرُ فِي الدَّوَامِ مَا لَا يُعْتَقَرُ فِي الْإِبْتِدَاءِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُقَرَّرٌ وَلَهُ نِظَائِرٌ كَثِيرَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْتٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾﴾

### دَمُ التَّصَرُّفِ فِي الشَّرْعِ بِالرَّأْيِ

هَذَا مِمَّا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ تَصَرُّفِهِمْ فِي شَرْعِ اللَّهِ بِأَرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَتَغْيِيرِهِمْ أَحْكَامَ اللَّهِ بِأَهْوَائِهِمُ الْبَارِدَةِ، وَتَحْلِيلِهِمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمِهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْحَمِيَّةِ مَا اسْتَطَاعُوا بِهِ مَدَّةَ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ فِي التَّحْرِيمِ الْمَنَاعِ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ أَوْطَارِهِمْ مِنْ قِتَالِ أَعْدَائِهِمْ، فَكَانُوا قَدْ أَخَذُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمُدَّةٍ تَحْلِيلِ الْمُحَرَّمَ، فَأَخْرَوْهُ إِلَى صَفَرٍ فَيُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَيَحَرِّمُونَ الشَّهْرَ الْحَلَالَ لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ: الْأَشْهُرَ الْأَرْبَعَةَ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:

الْقَطْرَ فَكَانَ عَذَابُهُمْ<sup>(٤)</sup>. ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أَي: لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد ٣٩] ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ أَي: وَلَا تَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا بِتَوَلِّيْكُمْ عَنْ الْجِهَادِ، وَتَكُولِكُمْ وَتَتَأْفِكُمْ عَنْهُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي: قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِصَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِدُونِكُمْ.

﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آل عمران ٩٤-٩٦]  
[اللَّهُ نَاصِرٌ نَبِيِّهِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ﴾ أَي: تَضُرُّوا رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيَّدُهُ وَكَافِيهِ وَحَافِظُهُ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثَ اثْنَيْنِ﴾ أَي: عَامَ الْهَجْرَةِ لَمَّا هَمَّ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلِهِ أَوْ حَبْسِهِ أَوْ نَفْيِهِ فَخَرَجَ مِنْهُمْ هَارِبًا بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَلَجَا إِلَى غَارٍ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، لِيَرْجِعَ الطَّلَبُ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي آثَارِهِمْ ثُمَّ يَسِيرُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَجُزُّ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ فَيُخَلِّصُ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْهُمْ أَدَى، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيُسَبِّتُهُ وَيَقُولُ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِهُمَا»<sup>(٥)</sup> كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِهُمَا»<sup>(٦)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٧)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أَي: تَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: عَلَى أَبِي بَكْرٍ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُعْنِي بِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا: الشُّرْكَ. وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ<sup>(٨)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى

وَعَلَيْهِ قَامَ الْإِسْلَامُ، فَكَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا فَرَعَتْ مِنْ حَجَّهَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ، فَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا فَحَرَّمَ رَجَبًا وَذَا الْقَعْدَةِ وَذَا الْحِجَّةِ، وَيُحِلُّ الْمُحَرَّمَ عَامًا وَيَجْعَلُ مَكَانَهُ صَفَرًا، وَيُحَرِّمُهُ عَامًا لِيُطَاطَأَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَيُحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، يُعْنِي: وَيُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ<sup>(٩)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾<sup>(١٠)</sup> إِلَّا تَنْفِرُوا بِمُؤَيَّدِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(١١)</sup> [الْعَنَابُ وَالتَّهْدِيدُ عَلَى التَّنَاقُلِ عَنِ الْجِهَادِ]

هَذَا شُرُوعٌ فِي عِتَابٍ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ تَبُوكَ، حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَحِمَارَةِ الْفَيْظِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أَي: تَكَاسَلْتُمْ وَمَلَّيْتُمْ إِلَى الْمَقَامِ فِي الدَّعَةِ وَالْخَفْضِ وَطَيْبِ الثَّمَارِ ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أَي: مَا لَكُمْ فَعَلْتُمْ هَكَذَا، أَرْضَا مِنْكُمْ بِالدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ؟ ثُمَّ زَهَدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا، وَرَغَبَ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ أَخِي بَنِي فِهْرِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجِعُ؟» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ<sup>(١٢)</sup>. ائْتَفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ الْأَعْمَشِ فِي الْآيَةِ ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قَالَ: كَرَادِ الرَّابِعِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ: لَمَّا حَضَرَتْ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ الْوَفَاةُ، قَالَ: ائْتُونِي بِكَفَنِي الَّذِي أَكْتَنُ فِيهِ، أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَمَا لِي مِنْ كَبِيرٍ؟ مَا أُخْلِفَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا هَذَا؟ ثُمَّ وَلَّى ظَهْرَهُ فَبَكَى، وَهُوَ يَقُولُ أَفْ لَكَ مِنْ دَارٍ! إِنْ كَانَ كَثِيرُكَ لَقَلِيلٌ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلُكَ لَقَصِيرٌ، وَإِنْ كُنَّا مِنْكَ لَفِي غُرُورٍ.

ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ فَقَالَ: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا بِمُؤَيَّدِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اسْتَنْفَرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيًّا مِنَ الْعَرَبِ فَتَتَأَفَلَّوْا عَنْهُ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُمْ

(١) ابن هشام: ٤٥/١ (٢) أحمد: ٢٢٨/٤ (٣) مسلم: ٤/

٢١٩٣ (٤) الطبري: ٢٥٥/١٤ (٥) فتح الباري: ١٧٦/٨

(٦) أحمد: ٤/١ (٧) فتح الباري: ١١/٧ ومسلم: ١٨٥٤/٤

(٨) الطبري: ٢٦١/١٤



الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٩٤

سُورَةُ التَّوْبَةِ

أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾  
 لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ  
 عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجًا  
 مَعَكُمْ يَلْكَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾  
 عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ  
 صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ  
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ  
 وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ  
 لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ  
 فِي رَيْبِهِمْ يترددون ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ  
 لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ  
 وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ  
 مَارَازِدُكُمْ لَأَخْبَا لَا وَلَا وُضِعُوا لَكُمْ يَبْعُونَكُمْ  
 الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي حَبَّانُ بْنُ زَيْدٍ الشَّرْعِيُّ قَالَ:  
 نَفَرْنَا مَعَ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو وَكَانَ وَالِيًا عَلَى جَنْصَ قَيْلِ  
 الْأَفْسُوسِ إِلَى الْجَرَّاجِمَةِ فَرَأَيْتُ شَيْخًا كَبِيرًا هِمًّا قَدْ سَقَطَ  
 حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فِيمَنْ  
 أَغَارَ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا عَمُّ! لَقَدْ أَغْدَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ قَالَ:  
 فَرَفَعَ حَاجِبَيْهِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! اسْتَفْتَرْنَا اللَّهَ خِفَافًا  
 وَثِقَالًا، أَلَا إِنَّهُ مَنْ يُجِبُهُ اللَّهُ يَتَّبِعْهُ ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ فَيُفْقِئِهِ،  
 وَإِنَّمَا يَتَّبِعِي اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ شَكَرَ، وَصَبَرَ، وَذَكَرَ، وَلَمْ  
 يَعْبُدْ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٥)</sup>.

ثُمَّ رَغَبَ تَعَالَى فِي التَّقَةِ فِي سَبِيلِهِ وَبَذَلَ الْمُهَجَ فِي  
 مَرْضَاتِهِ وَمَرْضَاةَ رَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ  
 وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ  
 الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حِمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِبَاءً، أَيُّ ذَلِكَ  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا  
 فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيُّ: فِي  
 انْتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ، مَنِيعُ الْجَنَابِ، لَا يُضَامُ مَنْ لَا ذِيَّ بِيَاهِ،  
 وَاحْتَمَى بِالتَّمَسُّكِ بِخَطَابِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.  
 ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ  
 اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾

[تَحْتِمُ الْجِهَادَ عَلَى كُلِّ حَالٍ]

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الصُّحَيْ مُسْلِمِ بْنِ  
 صَبِيحٍ: هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ  
 سُورَةِ بَرَاءةٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: زَعَمَ  
 حَضْرَمِيٌّ أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُ: أَنَّ نَاسًا كَانُوا عَسَى أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ  
 عَلِيًّا وَكَبِيرًا فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَتَمُّ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا  
 وَثِقَالًا﴾ الْآيَةُ<sup>(٣)</sup>. أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّغْيِيرِ الْعَامِ مَعَ رَسُولِ  
 اللَّهِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ، لِغِتَالِ أَغْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الرُّومِ الْكَفَرَةِ  
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَحَتَمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى  
 كُلِّ حَالٍ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ: فَقَالَ:  
 ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ: كُھُولَا  
 وَشَبَابًا. مَا سَمِعَ اللَّهُ عَذْرَ أَحَدٍ. ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ فَقَاتَلَ  
 حَتَّى قُتِلَ. وَفِي رِوَايَةٍ: قَرَأَ أَبُو طَلْحَةَ سُورَةَ بَرَاءةٍ فَأَتَى عَلَى  
 هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ  
 وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَقَالَ: أَرَى رَبَّنَا اسْتَفْتَرْنَا شَيْوَحًا  
 وَشَبَابًا جَهَّزُونِي يَا بَنِي! فَقَالَ بَنُوهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ! قَدْ  
 غَزَوْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى  
 مَاتَ، وَمَعَ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ فَتَحْنُ نَغْزُو عَنْكَ فَأَبَى، فَزَكَبَ  
 الْبَحْرَ فَمَاتَ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفُونُهُ فِيهَا، إِلَّا بَعْدَ  
 تِسْعَةِ أَيَّامٍ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ فَدَفَنُوهُ فِيهَا<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الشَّيْخُ قَوْلُهُ:  
 ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يَقُولُ: غَنِيًّا وَفَقِيرًا، وَقَوِيًّا  
 وَضَعِيفًا، فَجَاءَهُ رَجُلٌ يَوْمِيذٍ، زَعَمُوا أَنَّهُ الْمَقْدَادُ وَكَانَ  
 عَظِيمًا سَمِينًا فَشَكَا إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ، فَأَبَى، فَزَكَتْ  
 يَوْمِيذٍ: ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَدَّ  
 عَلَى النَّاسِ، فَتَسَخَّهَا اللَّهُ فَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى  
 الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا  
 نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

(١) فتح الباري: ١/٢٦٨ ومسلم: ٣/١٥١٢ (٢) الطبري:

١٤/٢٧٠ (٣) الطبري: ١٤/٢٦٦ (٤) ابن أبي حاتم: ٦/

١٨٠٢ (٥) الطبري: ١٤/٢٦٤

مِنْهُمْ»... الآية<sup>(٥)</sup> [النور: ٦٢]. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَنَاسٍ قَالُوا: اسْتَأْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنْ أَدِنَ لَكُمْ فَافْعَدُوا، وَإِنْ لَمْ يَأْذِنْ لَكُمْ فَافْعَدُوا<sup>(٦)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: فِي إِدْءِ الْأَعْذَارِ ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: هَلَّا تَرَكْتَهُمْ لِمَا اسْتَأْذَنُوكَ فَلَمْ تَأْذِنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْقُعُودِ لِتَعْلَمَ الصَّادِقَ مِنْهُمْ فِي إِطْهَارِ طَاعَتِكَ مِنَ الْكَاذِبِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مُصْرِّينَ عَلَى الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنْ لَمْ تَأْذِنْ لَهُمْ فِيهِ.

وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: فِي الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْجِهَادَ قُرْبَةً، وَلَمَّا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ بَادَرُوا وَامْتَنَلُوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ أي: فِي الْقُعُودِ وَمَنْ لَا عُذْرَ لَهُ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لَا يَزْجُونَ ثَوَابَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿وَأَزْنَابُ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شَكَّتْ فِي صِحَّةِ مَا جَسَّتْهُمْ بِهِ ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُّونَ﴾ أي: يَتَحَيَّرُونَ يَقْدُمُونَ رِجْلًا وَيُؤْخِرُونَ أُخْرَى، وَلَيْسَتْ لَهُمْ قَدَمٌ ثَابِتَةٌ فِي شَيْءٍ، فَهُمْ قَوْمٌ حَيَارَى هَلْ كُنِي، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ لَوْ خَرَجُوا فَيَكُرُّ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَاَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

[كُشِفَ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ أي: مَعَكَ إِلَى الْغَزْوِ ﴿لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً﴾ أَي لَكَانُوا تَأَهُبُوا لَهُ ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي: أَنْبَغَضَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَكَ قَدَرًا ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أَخْرَهُمْ ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أَي قَدَرًا، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى وَجْهَ كَرَاهِيَّتِهِ لِيُخْرِجَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فَيَكُرُّ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لِأَنَّهُمْ جُبْنَاءُ مَخْذُولُونَ ﴿وَلَاَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ

أَي: هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّكُمْ تَعْرِمُونَ فِي الْفِتْنَةِ قَلِيلًا، فَيَغْنَمُكُمْ اللَّهُ أَمْوَالَ عَدُوِّكُمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخِرُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَكْفَلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرَدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»<sup>(٨)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾... [البقرة: ٢١٦]

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَسْلِمَ» قَالَ: أَجِدُنِي كَارِهَا قَالَ: «أَسْلِمَ وَإِنْ كُنْتُ كَارِهَا»<sup>(٩)</sup>.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سَبَبُ تَخَلُّفِ الْمُنَافِقِينَ وَبَيَانُ حِيلَتِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُوَبِّحًا لِلَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَقَعَدُوا بَعْدَمَا اسْتَأْذَنُوهُ فِي ذَلِكَ مُظْهِرِينَ أَنَّهُمْ ذَوُو أَعْذَارٍ وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ فَقَالَ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَنِيمَةٌ قَرِيبَةٌ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قَرِيبًا أَيْضًا ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لَكَانُوا جَاءُوا مَعَكَ لِذَلِكَ ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أَيِ الْمَسَافَةِ إِلَى الشَّامِ ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا أَعْذَارٌ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزْنَابُ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُّونَ ﴿٩﴾ [مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِذْنِهِ لَهُمْ]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَوْنٍ قَالَ: هَلْ سَمِعْتُمْ بِمُعَاتَبَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ؟ إِذْءَاءُ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَاتَبَةِ فَقَالَ: ﴿عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُورِقُ الْعُجْلِيِّ وَغَيْرُهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: عَاتَبَهُ كَمَا تَسْمَعُونَ، ثُمَّ أَنْزَلَ النَّبِيَّ فِي سُورَةِ الثَّوْرِ فَرُخِّصَ لَهُ فِي أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ إِنْ شَاءَ فَقَالَ: ﴿لَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ

(١) مسلم: ١٤٩٦/٤ (٢) أحمد: ١٠٩/٣ (٣) ابن أبي حاتم: ١٨٠٥/٦ (٤) الطبري: ٢٧٤/١٤ (٥) الطبري: ١٤/٢٧٣ (٦) الطبري: ٢٧٣/١٤

الْمُنَافِقِينَ

١٩٥

سُورَةُ التَّوْبَةِ

لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُنِي وَلَا تَفْتِنَنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوِلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرْصَدُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٥٤﴾

سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ مَنْ يَقُولُ لَكَ: يَا مُحَمَّدُ! ﴿أَتَذُنُنِي﴾ فِي الْفُتُورِ ﴿وَلَا تَفْتِنَنِي﴾ بِالْخُرُوجِ مَعَكَ بِسَبَبِ الْجَوَارِي مِنْ نِسَاءِ الرُّومِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أَيُّ: قَدْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ وَبِزَيْدِ بْنِ رُوْمَانَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَعَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ، قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - وَهُوَ فِي جِهَارِهِ - لِلْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ أَخِي بَنِي سَلَمَةَ: «هَلْ لَكَ يَا جَدُّ الْعَامِ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْغَرِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ تَأْذُنُ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي، فَوَاللَّهِ! لَقَدْ عَرَفَ قَوْمِي مَا رَجُلٌ أَشَدَّ عَجَبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الْأَصْغَرِ أَنْ لَا أَضِيرَ عَنْهُمْ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «قَدْ أَذْنُتُ لَكَ». فَبَيَّ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ نَزَلَتْ هَذِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ

الْفِتْنَةَ﴾ أَيُّ: وَلَا سَرَعُوا السَّيْرَ وَالْمَسِيَّ بَيْنَكُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْفِتْنَةِ ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ أَيُّ: مُطِيعُونَ لَهُمْ وَسَمْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ فَيُؤَدِّي إِلَى وُقُوعِ شَرِّ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَفَسَادِ كَبِيرٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ الَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا - فِيمَا بَلَغَنِي مِنْ ذَوِي الشَّرَفِ - مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولَ وَالْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ وَكَانُوا أَشْرَافًا فِي قَوْمِهِمْ، فَجَبَّطَهُمُ اللَّهُ، لِيَعْلَمُوا بِهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ فَيُقْسِدُوا عَلَيْهِ جُنْدَهُ<sup>(١)</sup>. وَكَانَ فِي جُنْدِهِ قَوْمٌ أَهْلُ مَحَبَّةٍ لَهُمْ وَطَاعَةٍ فِيمَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ، لِشَرَفِهِمْ فِيهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ لَوْ خَرَجُوا؟ وَمَعَ هَذَا مَا خَرَجُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُؤُا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اقْرَبُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾ وَإِذَا لَا يَتَنَبَّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ وَلِهَذَا يَتَنَبَّهُمْ صِرطًا مُسْتَقِيمًا [النساء: ٦٦-٦٨] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّصًا لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمُتَافِقِينَ: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أَيُّ: لَقَدْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجَالُوا آرَاءَهُمْ فِي كَيْدِكَ وَكَيْدِ أَصْحَابِكَ، وَخَذَلَانِ دِينِكَ وَإِخْمَادِهِ مَدَّةً طَوِيلَةً. وَذَلِكَ أَوَّلُ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ رَمَتْهُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَحَارَبَتْهُ يَهُودُ الْمَدِينَةِ وَمُنَافِقُوهَا. فَلَمَّا نَصَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ. فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا، ثُمَّ كُلَّمَا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ غَاطَهُمْ ذَلِكَ وَسَاءَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُنِي وَلَا تَفْتِنَنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ

بِكُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٤)</sup>. ﴿وَنَحْنُ نَرَبِّصُ بِكُمْ﴾ أي: نَنْتَظِرُ بِكُمْ ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي: نَنْتَظِرُ بِكُمْ هَذَا، أَوْ هَذَا، إِمَّا ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بِسَبَبِي أَوْ بِقَتْلِ ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ طَائِعِينَ أَوْ مُكْرَهِينَ ﴿لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ لَ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: وَالْأَعْمَالُ إِنَّمَا تَصِحُّ بِالْإِيمَانِ ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: لَيْسَ لَهُمْ قَدَمٌ صَاحِبٌ وَلَا هِمَّةٌ فِي الْعَمَلِ ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نَفَقَةً ﴿إِلَّا وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمُضْذَوِّقُ ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَأَنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا. فَلِهَذَا لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ نَفَقَةً وَلَا عَمَلًا، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْبَلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

﴿فَلَا تُعْجِبَكْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

### كُفْرُونُ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبَكْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُوا رِيكَ حَيْرٍ وَابْقَى﴾ [طه: ١٣١] وَقَالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٠﴾ شَارِعٌ لَهُمْ فِي الْغَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: بِزَكَاتِهَا وَالتَّقَفِّ مِنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: وَيُرِيدُ أَنْ يُمِيتَهُمْ - حِينَ يُمِيتُهُمْ - عَلَى الْكُفْرِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْكَلَى لَهُمْ وَأَشَدَّ لِعَذَابِهِمْ. عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا يَكُونُ مِنْ بَابِ الْإِسْتِدْرَاجِ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنْهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥١﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَحًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾

أَنْذَنَ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي... الآية. أي: إِنْ كَانَ إِنَّمَا يَخْشَى مِنْ نِسَاءِ بَنِي الْأَصْفَرِ - وَلَيْسَ ذَلِكَ بِهِ - فَمَا سَقَطَ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ بِخَلْفِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالرَّغْبَةِ بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسِهِ، أَعْظَمُ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ. وَقَدْ كَانَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ هَذَا مِنْ أَشْرَافِ بَنِي سُلَيْمَةَ<sup>(٢)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سُلَيْمَةَ؟» قَالُوا: «الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى أَنَّا بَنَاهُ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَذَوْا مِنَ الْبُخْلِ؟» وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ الْفَتَى الْجَدُّ الْأَبْيَضُ بِشَرِّ بَنِي الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنِ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا مَحِصَ وَلَا مَهْرَبَ.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوَهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوَلُّوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٢﴾﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يُعْلَمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِعَدَاوَةِ هَؤُلَاءِ لَهُ، لِأَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَهُ مِنْ حَسَنَةٍ أَوْ فَتَحٍ وَظَفَرٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِمَّا يَسُرُّهُ وَيَسُرُّ أَصْحَابَهُ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: قَدْ اخْتَرْنَا مِنْ مُتَابَعَتِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴿وَيَسْتَوَلُّوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ فَارْتَشَدَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَوَابِهِمْ فِي عَدَاوَتِهِمْ هَذِهِ - التَّامَّةَ - فَقَالَ: ﴿قُلْ﴾ أي: لَهُمْ ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: نَحْنُ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: سَيِّدُنَا وَمَلِجُونَا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرَبِّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيكُمْ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٤﴾﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ أي: نَنْتَظِرُونَ بِنَا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ شَهَادَةً أَوْ ظَفَرَ

(١) الطبري: ٢٨٧/١٤ (٢) الطبري: ٢٨٧/١٤ (٣) الحاكم:

٢١٩/٣ (٤) الطبري: ٢٩٢/١٤ (٥) الطبري: ٢٩٦/١٤

## [بَيَانُ هَلْعِ الْمُتَافِقِينَ]

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ جَزَعِهِمْ وَزَعَجِهِمْ وَفَرَقِهِمْ وَهَلْعِهِمْ، أَنَّهُمْ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ يَمِينًا مُؤَكَّدَةً ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أَي: فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْزَعُونَ﴾ أَي: فَهُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْحَلْفِ ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلَجًا﴾ أَي: حِصْنًا يَتَحَصَّنُونَ بِهِ وَجِزْرًا يَتَحَرَّزُونَ بِهِ ﴿أَوْ مَعْرَدًا﴾ وَهِيَ الَّتِي فِي الْجِبَالِ ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وَهُوَ السَّرْبُ فِي الْأَرْضِ وَالنَّقْطُ. قَالَ ذَلِكَ - فِي الثَّلَاثَةِ - ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ. ﴿لَوْلَوْ إِيَّاهُ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أَي: يُسْرِعُونَ فِي ذَهَابِهِمْ عَنْكُمْ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَالِطُونَكُمْ كَرَاهًا لَا مَحَبَّةً، وَوَدُّوا أَنَّهُمْ لَا يُخَالِطُونَكُمْ وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَامًا، وَلِهَذَا لَا يَزَالُونَ فِي هَمٍّ وَحَزَنٍ وَعَمٍّ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ لَا يَزَالُ فِي عِزٍّ وَنَصْرِ وَرَفْعَةٍ، فَلِهَذَا كُلَّمَا سَرَّ الْمُسْلِمُونَ سَاءَ هُمْ ذَلِكَ، فَهُمْ يُوَدُّونَ أَنْ لَا يُخَالِطُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلَجًا أَوْ مَعْرَدًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَوْ إِيَّاهُ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

[لَمَزَ الْمُتَافِقِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَطَمَعُهُمْ فِيهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أَي: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أَي: يَجِبُّ عَلَيْكَ ﴿فِي﴾ قَسَمِ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إِذَا فَرَّقْتَهَا وَيَتَّهَمُكَ فِي ذَلِكَ، وَهُمْ الْمُتَهَمُونَ الْمَأْبُوثُونَ، وَهُمْ مَعَ هَذَا لَا يَنْكِرُونَ لِلدِّينِ، وَإِنَّمَا يَنْكِرُونَ لِحِطِّ أَنْفُسِهِمْ وَلِهَذَا إِنْ ﴿أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ أَي: يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يَقُولُ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْعُنُ عَلَيْكَ فِي الصَّدَقَاتِ. وَذَكَرَ لَنَا: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ حَدِيثَ عَهْدٍ بِأَعْرَابِيٍّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ ذَهَبًا وَفِضَّةً، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ! لَيْتَ كَانَ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَعْدِلَ، مَا عَدَلْتُ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلَكَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْدِلُ عَلَيْكَ بَعْدِي؟» ثُمَّ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ: «احْذَرُوا هَذَا وَأَشْبَاهَهُ، فَإِنَّ فِي أُمَّتِي أَشْبَاهَ هَذَا، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ». وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٦

سُورَةُ التَّوْبَةِ

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْزَعُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْدُوثُ مَلَجًا أَوْ مَعْرَدًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَوْ إِيَّاهُ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أُعْطِيَكُمْ شَيْئًا وَلَا أَمْنَعُكُمْوهُ، إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ»<sup>(١)</sup>.

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ قَتَادَةُ يُشْبِهُ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ فِي قِصَّةِ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ - وَاسْمُهُ خُرْفُوصٌ - لَمَّا اعْتَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ جَيْنَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُثَيْنَ فَقَالَ لَهُ: اعْدِلْ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ. فَقَالَ: «لَقَدْ جِئْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَقَدْ رَأَى مُقَفِّيًّا: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَيْضِيءٍ هَذَا قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمُرُّونَ مِنَ الدِّينِ مَرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَيْدِي السَّمَاءِ»<sup>(٢)</sup>. وَذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

(١) الطبري: ٣٠٢/١٤ (٢) فتح الباري: ٣٠٢/١٢ ومسلم:

قِسْطًا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَقْرَبَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ، لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ [بْنِ] رِبْعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّهُ انْطَلَقَ هُوَ وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ يَسْأَلَانِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيَسْتَعْمِلَهُمَا عَلَى الصَّدَقَةِ فَقَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِأَلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاحُ النَّاسِ»<sup>(٥)</sup>.

### [الْمَوْلَةُ قُلُوبُهُمْ]

وَأَمَّا الْمَوْلَةُ قُلُوبُهُمْ فَأَقْسَامٌ: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِلْيُسْلَمِ، كَمَا أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ، وَقَدْ كَانَ شَهِدَهَا مُشْرِكًا، قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ يُعْطِينِي حَتَّى صَارَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَيَّ<sup>(٦)</sup>. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ<sup>(٨)</sup>. وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَحْسَنَ إِسْلَامُهُ وَيَثْبُتَ قَلْبُهُ، كَمَا أَعْطَى يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا جَمَاعَةً مِنْ صَنَادِيدِ الطُّلُقَاءِ وَأَشْرَافِهِمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَقَالَ: «إِنِّي لَأَعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةً أَنْ يَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»<sup>(٩)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذَهَبِيَّةٍ فِي ثُرْبَتِهَا مِنَ الْبَيْسِ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَعُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَعَلْقَمَةَ بْنَ عَلَاتَةَ، وَزَيْدَ الْخَيْزِرِ، وَقَالَ: «أَتَأَلَّفُهُمْ»<sup>(١٠)</sup> وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِمَا يُرْجَى مِنْ إِسْلَامِ نَظَرَانِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَجْبِيَ الصَّدَقَاتِ وَمَنْ يَلِيهِ، أَوْ لِيُدْفَعَ عَنْ حَوَازَةِ الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

### [الرَّقَابُ]

وَأَمَّا الرَّقَابُ فَرَوِي عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالتَّحَوِّيِّ وَالزُّهْرِيِّ وَابْنِ زَيْدٍ: أَنَّهُمْ الْمَكَاتِبُونَ<sup>(١١)</sup>. وَرَوِي عَنْ أَبِي

سَيُوبَةَ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَذْبًا عَظِيمًا وَسِرًّا شَرِيفًا، حَيْثُ جَعَلَ الرِّضَا: بِمَا آتَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَالتَّوَكَّلُ: عَلَى اللَّهِ وَخَدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾. وَكَذَلِكَ الرَّغْبَةُ: إِلَى اللَّهِ وَخَدَهُ، فِي التَّوْفِيقِ لِبَطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، وَتَصَدِيقِ أَخْبَارِهِ وَالْإِقْبَاءِ بِآثَارِهِ.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِا وَالْمَوْلَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرَّقَابِ وَالْعَزِيمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِمَّا مَلَكَ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴾

### [بَيَانُ مَصَارِفِ الرِّكَازِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اغْتِرَاضَ الْمُتَنَافِقِينَ الْجَهْلَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمَزَهُمْ إِيَّاهُ فِي قِسْمِ الصَّدَقَاتِ، بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَسَمَهَا وَبَيَّنَّ حُكْمَهَا وَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِنَفْسِهِ. وَلَمْ يَكُلْ قَسَمَهَا إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ. فَجَزَّأَهَا لَهُؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ الْفُقَرَاءَ هَهُنَا عَلَى الْبَقِيَّةِ لِأَنَّهُمْ أَحْوَجُ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَلِشِدَّةِ فَاقَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ. وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَابْنِ زَيْدٍ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّ الْفَقِيرَ هُوَ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا. وَالْمَسْكِينُ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ وَيَطْوُفُ وَيَتَّبِعُ النَّاسَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْفَقِيرُ مَنْ يَهْ زَمَانَهُ، وَالْمَسْكِينُ: الصَّحِيحُ الْجِسْمُ<sup>(٢)</sup>. وَلَنَذْكُرَ أَحَادِيثَ تَتَعَلَّقُ بِكُلِّ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ.

### [الْفُقَرَاءُ]

فَأَمَّا الْفُقَرَاءُ فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِعَنِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ<sup>(٣)</sup>.

### [الْمَسَاكِينُ]

وَأَمَّا الْمَسَاكِينُ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمَسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَافِ الَّذِي يَطْوُفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ» قَالُوا: فَمَنِ الْمَسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُمْطِنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ<sup>(٤)</sup>.

### [الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا]

وَأَمَّا الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا فَهُمْ الْجُبَاةُ وَالسَّعَاةُ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ

(١) الطبري: ٣٠٦/١٤ (٢) الطبري: ٣٠٦/١٤ (٣) أحمد: ١٦٤/٤ وأبو داود: ٢٨٥/٢ وتحفة الأحوذى: ٣١٧/٣

(٤) فتح الباري: ٣٩٩/٣ ومسلم: ٧١٩/٢ (٥) مسلم: ٢/٧٥٢ (٦) مسلم: ١٨٠٦/٤ (٧) أحمد: ٤٦٥/٦ (٨) مسلم: ٣٣٤/٣ وتحفة الأحوذى: ٣٣٤/٣ (٩) فتح الباري: ٣/٣٩٩

(١٠) فتح الباري: ٤٣٣/٦ ومسلم: ٧٤١/٢ (١١) الطبري: ٣١٧/١٤

مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ نَحْوُهُ<sup>(١)</sup>.

[فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

وَأَمَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْهُمْ الْغَزَاءُ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الدِّيَّانِ.

[إِنَّ السَّبِيلَ]

وَابْنُ السَّبِيلِ هُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ فِي بَلَدٍ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى سَفَرِهِ، فَيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ مَا يَكْفِيهِ إِلَى بَلَدِهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ، وَهَكَذَا الْحُكْمُ فِيمَنْ أَرَادَ إِنْشَاءَ سَفَرٍ مِنْ بَلَدِهِ وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ، فَيُعْطَى مِنْ مَالِ الرِّكَاعَةِ كِفَايَتَهُ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ. وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْآيَةِ، وَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِعَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: لِعَامِلٍ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ غَارِمٍ، أَوْ غَارٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مُسْكِينٍ تُصَدَّقُ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِعَنِيٍّ»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: «فَرِيضَةٌ مِنْكَ اللَّهُ» أَيُّ: حُكْمًا مُقَدَّرًا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَفَرَضِهِ وَقَسَمِهِ «وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ» أَيُّ: عَلِيمٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِنِهَا وَبِمَصَالِحِ عِبَادِهِ. حَكِيمٌ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ وَيَسْرَعُهُ وَيَحْكُمُ بِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

«وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»<sup>(٣)</sup>

[مِنْ سِمَاتِ الْمُتَافِقِينَ إِذَا نَبِيٌّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ قَوْمٌ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْكَلَامِ فِيهِ، وَيَقُولُونَ: «هُوَ أُذُنٌ» أَيُّ: مَنْ قَالَ لَهُ شَيْئًا صَدَقَهُ فِينَا، وَمَنْ حَدَّثَهُ صَدَقَهُ، فَإِذَا جِئْنَا وَحَلَفْنَا لَهُ صَدَقْنَا. رُوِيَ مَعْنَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ<sup>(٤)</sup>. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ» أَيُّ: هُوَ أُذُنٌ خَيْرٌ، يَعْرِفُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» أَيُّ وَيُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ «وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» أَيُّ وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ. وَلِهَذَا قَالَ: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ: لَا بَأْسَ أَنْ تُتَقَى الرَّقَبَةُ مِنَ الزَّكَاةِ، أَيُّ: إِنَّ الرِّقَابَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ الْمُكَاتَبُ أَوْ يَشْتَرَى رَقَبَةً فَيُعْتِقَهَا اسْتِقْلَالًا. وَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوَابِ الْإِعْتَاقِ وَفِكَ الرَقَبَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ: أَنَّ اللَّهَ يُعْتِقُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ مُعْتِقِهَا حَتَّى الْفَرْجَ بِالْفَرْجِ. وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [الصفحات: ٣٩].

[مَا وَرَدَ فِي الْعِتَاقِ]

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنِ النَّبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ؟ فَقَالَ: «أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفَكَ الرَقَبَةَ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ لَيْسَا وَاحِدًا؟ قَالَ: «لَا، عَتَقَ النَّسَمَةَ: أَنْ تُفَرِّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَ الرَقَبَةَ: أَنْ تُعِينَ فِي تَمْنِئِهَا»<sup>(٥)</sup>.

[الْغَارِمُونَ]

وَأَمَّا الْغَارِمُونَ فَهُمْ أَقْسَامٌ: فَمِنْهُمْ مَنْ تَحَمَّلَ حِمَالَةً أَوْ ضَمَنَ دَيْنًا فَلَزِمَهُ فَأَجْحَفَ بِمَالِهِ، أَوْ غَرِمَ فِي آدَاءِ دَيْنِهِ، أَوْ فِي مَعْصِيَةٍ ثُمَّ تَابَ، فَهَؤُلَاءِ يُدْفَعُ إِلَيْهِمْ، وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثُ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهَلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حِمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمَّ حَتَّى تَأْتِيَا الصَّدَقَةَ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا». قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حِمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكَ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاَحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَرَابَةِ قَوْمِهِ فَيَقُولُوا: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ سَخَتْ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سَخْتًا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٦)</sup>.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثِمَارٍ ابْتِاعَهَا فَكَثُرَ دَيْنُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ» فَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُرْمَائِهِ: «خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٧)</sup>.

(١) الطبري: ٣١٦/١٤ (٢) أحمد: ٢٩٩/٤ (٣) مسلم: ٢/٧٢٢ (٤) مسلم: ١١٦١/٣ (٥) أبو داود: ٢٨٨/٢ وابن ماجه: ٥٩٠/١ (٦) الطبري: ٢٢٦/١٤

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبْدَلَهُمْ خَلِيدًا فِيهَا الْخَزْيَ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

[وَمِنْهَا مُحَاوَلَةٌ إِرْضَاءِ النَّاسِ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ]

قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الآية. قَالَ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُتَأَفِّفِينَ قَالَ: وَاللَّهِ! إِنْ هُوَ لَإِخْيَارُنَا وَأَشْرَافُنَا، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا، لَهُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ. قَالَ: فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: وَاللَّهِ! مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لِحَقِّ، وَلَأَنْتَ أَشَرُّ مِنَ الْحِمَارِ، قَالَ: فَسَعَى بِهَا الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَدَعَاهُ فَقَالَ «مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ؟» فَجَعَلَ يُلْتَعِنُ وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! صَدِّقِ الصَّادِقَ وَكَذِّبِ الْكَاذِبَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ <sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، أَيُّ أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ حَادِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَيُّ: شَاقَّةٌ وَحَارِبَةٌ وَخَالِفَةٌ، وَكَانَ فِي حَدِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي حَدِّ ﴿فَأَبْدَلَهُمْ خَلِيدًا فِيهَا﴾ أَيُّ: مُهَانًا مُعَذَّبًا، وَذَلِكَ الْخَزْيُ الْعَظِيمُ أَيُّ: وَهَذَا هُوَ الذِّلُّ الْعَظِيمُ وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ.

﴿يَحْدَرُ الْمُتَفَقِّهُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾

يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبْدَلَهُمْ خَلِيدًا فِيهَا الْخَزْيَ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

[وَمِنْهَا مُحَاوَلَةٌ إِرْضَاءِ النَّاسِ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ]

قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الآية. قَالَ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُتَأَفِّفِينَ قَالَ: وَاللَّهِ! إِنْ هُوَ لَإِخْيَارُنَا وَأَشْرَافُنَا، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا، لَهُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ. قَالَ: فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: وَاللَّهِ! مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لِحَقِّ، وَلَأَنْتَ أَشَرُّ مِنَ الْحِمَارِ، قَالَ: فَسَعَى بِهَا الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَدَعَاهُ فَقَالَ «مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ؟» فَجَعَلَ يُلْتَعِنُ وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! صَدِّقِ الصَّادِقَ وَكَذِّبِ الْكَاذِبَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ <sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، أَيُّ أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ حَادِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَيُّ: شَاقَّةٌ وَحَارِبَةٌ وَخَالِفَةٌ، وَكَانَ فِي حَدِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي حَدِّ ﴿فَأَبْدَلَهُمْ خَلِيدًا فِيهَا﴾ أَيُّ: مُهَانًا مُعَذَّبًا، وَذَلِكَ الْخَزْيُ الْعَظِيمُ أَيُّ: وَهَذَا هُوَ الذِّلُّ الْعَظِيمُ وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ.

﴿يَحْدَرُ الْمُتَفَقِّهُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾

[وَمِنْهَا خَوْفُهُمْ مِنْ إِفْشَاءِ السِّرِّ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُونَ الْقَوْلَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَى اللَّهُ أَنْ لَا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرًّا هَذَا <sup>(٢)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ حَدِيثٌ بِمَا لَمْ يَحْكُ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُسَرُّ الْمُصِيدُ﴾ [المجادلة: ٨]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ سَيَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَفْضَحُكُمْ بِهِ وَيَبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية، [محمد: ٢٩، ٣٠] وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ: كَانَتْ تُسَمَّى هَذِهِ السُّورَةُ الْقَاضِحَةَ: فَاضِحَةُ الْمُتَأَفِّفِينَ <sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ

إِيْمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبُ طَائِفَةً يَأْتِيهِمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ ﴿٦٦﴾

[وَمِنْهَا تَحَايِلُهُمْ وَاعْتِدَارُهُمْ بِالْبَاطِلِ]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَائِنَا هَذَا أَرْغَبَ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا، وَلَا أَجَبْنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَسْجِدِ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُتَافِقٌ لِأَخْبَرَنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ [عُمَرَ]: أَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقِّبِ نَافَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنْكِبُهُ الْحِجَارَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَبِإِلَهِهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾... الآية <sup>(٤)</sup>.

(١) الطبري: ٣٢٩/١٤ (٢) الطبري: ٣٣١/١٤ (٣) الطبري: ٣٣٢/١٤ (٤) الطبري: ٣٣٣/١٤



وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَافِقِينَ مِنْهُمْ وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ أَخُو بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ، وَرَجُلٌ مِنْ أَشْجَعِ حَلِيفٍ لِبَنِي سَلَمَةَ يُقَالُ لَهُ: [مُحْشَنٌ] بْنُ حُمَيْرٍ، يَسِيرُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى تَبُوكَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْتَحِسُونَ جِلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ كَقِتَالِ الْعَرَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؟ وَاللَّهِ! لَكَأَنَّ بِكُمْ عَدَا مُقَرَّرِينَ فِي الْجِبَالِ - إِنْ جَافَا وَتَرَهَبَا لِلْمُؤْمِنِينَ - فَقَالَ [مُحْشَنٌ] بْنُ حُمَيْرٍ: وَاللَّهِ! لَوِدِدْتُ أَنْ أَقَاضِي عَلَى أَنْ يُضْرَبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَإِنَّا نَنْفِلُكَ أَنْ يَنْزِلَ فِيْنَا قُرْآنٌ - لِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فِيمَا بَلَغَنِي - لِعِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ: «أَدْرِكَ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدْ اخْتَرَفُوا، فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَى، قُلْتُمْ كَذًا وَكَذَا» فَانْطَلَقَ إِلَيْهِمْ عِمَارٌ فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاقِفْ عَلَى رَاحِلَتِهِ - فَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ آخِذٌ بِحَقَبَيْهَا - يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. فَقَالَ مُحْشَنٌ بْنُ حُمَيْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَعَدَ بِي إِسْمِي وَاسْمُ أَبِي. فَكَانَ الَّذِي غَفِيَ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: [مُحْشَنٌ] بْنُ حُمَيْرٍ، فَتَسَمَّى عَبْدَ الرَّحْمَنِ. وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُقْتَلَ شَهِيدًا لَا يُعْلَمُ مَكَانُهُ، فَقُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ أَثَرٌ.

وَقَوْلُهُ: «لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» أَيُّ: بِهَذَا الْمَقَالِ الَّذِي اسْتَهْزَأْتُمْ بِهِ «إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تَعَذَّبَ طَائِفَةٌ» أَيُّ: لَا يُغْفَى عَنْ جَمِيعِكُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَذَابِ بَعْضِكُمْ «يَأْتِيهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» أَيُّ مُجْرِمِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الْفَاجِرَةِ الْخَاطِئَةِ.

«الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُتَنَفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» (٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَنَفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٨)

[بَيَانُ بَعْضِ خِصَالِ الْمُتَافِقِينَ الْأُخْرَى]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُتَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى خِلَافِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: وَلَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، كَانَ هَؤُلَاءِ: «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» أَيُّ: عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ «نَسُوا اللَّهَ» أَيُّ: نَسُوا ذِكْرَ اللَّهِ «فَنَسِيَهُمْ»

أَيُّ: عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةً مِنْ نَسِيهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» [الجنابة: ٣٤] «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» أَيُّ: الْخَارِجُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ الدَّاخِلُونَ فِي طَرِيقِ الضَّلَالَةِ. وَقَوْلُهُ: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَنَفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ» أَيُّ: عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي ذَكَرَ عَنْهُمْ «خَالِدِينَ فِيهَا» أَيُّ: مَا كَثُرَ فِيهَا مُخْلَدِينَ، هُمْ وَالْكُفَّارُ «هِيَ حَسْبُهُمْ» أَيُّ: كِفَايَتُهُمْ فِي الْعَذَابِ «وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ» أَيُّ: طَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ «وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ».

«كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِينَ خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةُ آَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (٩)

يَقُولُ تَعَالَى: أَصَابَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ. وَقَوْلُهُ: «بِخَلْقِهِمْ» قَالَ

رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ أُنِىَ: بِالْحُجَجِ وَالِدَلَالِ الْقَاطِعَاتِ، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أُنِىَ: يَاهْلَاكِهَ إِنَاهُمْ لِأَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِزَاحَةِ الْعِلَلِ، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أُنِىَ: يَتَكَذَّبُونَهُمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتَهُمُ الْحَقَّ، فَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالذَّمَارِ.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

### حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

#### [صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحْمُودَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى صِفَاتِ الْمُتَافِقِينَ الذِّمِّمَةِ عَطَفَ بِذِكْرِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحْمُودَةِ، فَقَالَ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أُنِىَ يَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاوَدُونَ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»<sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَسَنِ وَالسَّهْرِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١٠٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أُنِىَ: يُطِيعُونَ اللَّهَ وَيُحْسِنُونَ إِلَى خَلْقِهِ ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أُنِىَ: فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أُنِىَ: سَيَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ انْقَضَ بِهِذِهِ الصَّفَاتِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ أُنِىَ: يُعِزُّ مَنْ أَطَاعَهُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حَكِيمٌ فِي قِسْمَتِهِ هَذِهِ الصَّفَاتِ لَهُوْلَاءِ، وَتَخْصِصِهِ الْمُتَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

#### [الْبَشَارَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّعْمِ الدَّائِمَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْ

الْحَسَنِ [البَصْرِيُّ]: بِدِينِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرِضْوَانٌ كَالَّذِي خَاصُوا﴾ أُنِىَ فِي الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أُنِىَ: بَطَلَتْ مَسَاعِيَهُمْ فَلَا ثَوَابَ لَهُمْ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا فَاسِدَةٌ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَحْضُلْ لَهُمْ عَلَيْهَا ثَوَابٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا أَشَبَّهُ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ! ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هُوْلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ شَبَّهْنَا بِهِمْ لَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَنَبِّئَنَّهُمْ حَتَّى لَوْ دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَنَبِّئَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَيْبًا بِشَيْبٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، وَبَاعًا بِبَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْلُ الْكِتَابِ؟ قَالَ «فَمَنْ؟»<sup>(٣)</sup> وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

#### [نَصِيحَةُ الْمُتَافِقِينَ بِأَنْ يَتَعَبَّرُوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى وَاعِظًا لَهُوْلَاءِ الْمُتَافِقِينَ الْمَكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أُنِىَ: أَلَمْ تُخْبِرُوا خَبَرَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ لِلرُّسُلِ ﴿قَوْمٌ نُوحٍ وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بَعْدَهُ وَرَسُولُهُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ وَعَادٌ ﴿وَكَيْفَ أَهْلَكُوا بِالرَّيْحِ الْعَقِيمِ لَمَّا كَذَّبُوا هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ وَثَمُودٌ ﴿كَيْفَ أَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ لَمَّا كَذَّبُوا صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ ﴿كَيْفَ نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِمْ وَأَهْلَكَ مَلِكَهُمْ نُمْرُودَ ابْنَ كُتْلَانَ بْنِ كُوشِ الْكُتْنَانِيِّ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴿وَهُمْ قَوْمٌ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَيْفَ أَصَابَتْهُمْ الرَّجْفَةُ وَعَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴿قَوْمٌ لُوطٍ وَقَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي مَدَائِنَ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣] أُنِىَ: الْأُمَمُ الْمُؤْتَفِكَةُ: وَقِيلَ: أَمْ قُرَاهُمْ، وَهِيَ سُدُومُ، وَالْعَرَضُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّ اللَّهِ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِتْيَانِهِمُ الْفَاجِسَةَ الَّتِي لَمْ يَسْفِهُهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿أَنَّهُمْ

(١) الطبري: ٣٤٣/١٤ (٢) الطبري: ٣٤٢/١٤ (٣) الطبري:

٣٤٢/١٤ (٤) فتح الباري: ١٠/٤٦٤ (٥) فتح الباري: ١٠/٤٥٢

الْبَيْتُ الثَّانِي

١٩٩

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ  
وَمَا أُوتِيتُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ  
مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ  
وَهُمْ أَوَّامِلٌ فَلَا يَتُوبُونَ إِلَّا أَنْ أَعْنَدَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ  
مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعَذِّبْهُمْ  
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ  
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ  
آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾  
فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ  
﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا  
اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ  
الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا  
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ!  
وَقَدْ أَطَعْنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَلَا  
أَعْطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ! وَأَيُّ شَيْءٍ  
أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَجِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ  
عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ <sup>(١)</sup>.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُوتِيتُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَوَّامِلٌ فَلَا يَتُوبُونَ إِلَّا أَنْ أَعْنَدَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٧٤﴾

الْخَيْرَاتِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي ﴿جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ مَا كُنْتُمْ فِيهَا أَبَدًا ﴿وَسَكَنَ لَيْتَةً﴾ أَيُّ: حَسَنَةً الْبِنَاءِ طَيِّبَةُ الْفَرَارِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءَ الْكِبَرَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» <sup>(١)</sup>. وَبِهِ قَالَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَحِيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُونَ مِيلًا فِي السَّمَاءِ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ، لَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» <sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ [جَلَسَ] فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نُخَبِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةً دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفُرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَجَرُّ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ» <sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَسَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْوَسِيلَةُ؟ قَالَ: «أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ» <sup>(٤)</sup>.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ [أَبِي] مُجَاهِدٍ الطَّائِي عَنْ أَبِي الْمُدَلِّجَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بَنَّاؤُهَا؟ قَالَ: «لَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبَنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمُسْكُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّرْعَفَرَانُ. مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ، لَا يَبْئَسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى سَبَابُهُ» <sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أَيُّ رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ.

(١) فتح الباري: ٤٩١/٨، ١٦٣/١ (٢) فتح الباري:

٤٩١/٨، ٢١٨٢/٤ (٣) فتح الباري: ١٤/٦ (٤)

أحمد: ٢٦٥/٢ (٥) أحمد: ٣٠٤/٢ (٦) فتح الباري: ١١/

٤٢٣، ٢١٧٦/٤

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فَقَالَ: «إِنَّهُ سَيَأْتِيَكُمْ إِنْسَانٌ فَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنِي الشَّيْطَانِ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ» فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ طَلَعَ رَجُلٌ أَرْزُقِي، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «عَلَامَ تَسْتَمْنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟» فَاِنْطَلَقَ الرَّجُلُ فَجَاءَهُ بِأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا بِاللَّهِ مَا قَالُوا حَتَّى تَجَاوَزَ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية.

[هَمُّ الْمُتَنَافِقِينَ بِقَتْلِهِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمُوا يَمَّا لَمْ يَسْأَلُوا﴾ قِيلَ: أَنْزَلْتُ فِي الْجُلَاسِ ابْنَ سُوَيْدٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ هَمَّ بِقَتْلِ ابْنِ امْرِأَتِهِ حِينَ قَالَ: لِأَخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقِيلَ: فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي هَمَّ بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي أَنَسٍ أَرَادُوا أَنْ يُتَوَجَّعُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَإِنْ لَمْ يَرْضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ هُمُوا بِالنَّفْكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فِي بَعْضِ تِلْكَ اللَّيَالِي فِي حَالِ السَّيْرِ، وَكَانُوا بِضَعَةِ عَشَرَ رَجُلًا، قَالَ الضَّحَّاكُ: فَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَذَلِكَ بَيْنَ فِيمَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ النَّبْهَقِيُّ فِي كِتَابِ «دَلَالِ الْبُتَّةِ»، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِخَطَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقُودُ بِهِ، وَعَمَّارٌ يَسُوقُ النَّاقَةَ، أَوْ أَنَا أَسُوقُهُ وَعَمَّارٌ يَقُودُهُ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْعَقَبَةِ فَإِذَا أَنَا بِاثْنَيْ عَشَرَ رَاكِبًا قَدْ اغْتَرَضُوهُ فِيهَا، قَالَ: [فَأَنْبَهُتُ] رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ، فَصَرَخَ بِهِمْ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ عَرَفْتُمْ الْقَوْمَ؟» قُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ كَانُوا مُتَلَمِّسِينَ، وَلَكِنَّا قَدْ عَرَفْنَا الرِّكَابَ قَالَ: «هَؤُلَاءِ الْمُتَنَافِقُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مَا أَرَادُوا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «أَرَادُوا أَنْ يُزَاجِحُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَقَبَةِ فَيُلْقُوهُ مِنْهَا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تَبْعَثُ إِلَى عَشَائِرِهِمْ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْكَ كُلُّ قَوْمٍ بِرَأْسِ صَاحِبِهِمْ؟ قَالَ: «لَا، أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بَيْنَهَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَاتَلَ بِقَوْمٍ حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ، أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ - ثُمَّ قَالَ -: اللَّهُمَّ! ارْمِهِم بِالْأُبَيْلَةِ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْأُبَيْلَةُ؟ قَالَ: «شِهَابٌ مِنْ نَارٍ يَقَعُ عَلَى نِيطِ قَلْبٍ أَحَدِهِمْ فَيَهْلِكُ»<sup>(٧)</sup>.

[الْأَمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُتَنَافِقِينَ وَالْغُلَظَّةِ عَلَيْهِمْ]  
أَمَرَ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُتَنَافِقِينَ وَالْغُلَظَّةِ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَمَرَهُ بِأَنْ يَخْفِضَ جَنَاحَهُ لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ مَصِيرَ الْكُفَّارِ وَالْمُتَنَافِقِينَ إِلَى النَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قَالَ: يَدِيهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَكْفِهْ فِي وَجْهِهِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ، وَالْمُتَنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ. وَأَذْهَبَ الرَّفُوعُ عَنْهُمْ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: جَاهِدِ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ وَاغْلُظْ عَلَى الْمُتَنَافِقِينَ بِالْكَلَامِ وَهُوَ مُجَاهِدُهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَعَنْ مُقَاتِلٍ وَالرَّبِيعِ مِثْلُهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ وَفَتَادَةُ: مُجَاهِدُهُمْ: إِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، لِأَنَّهُ تَارَةً يُؤَاخِذُهُمْ بِهَذَا وَتَارَةً يَهْذَأُ بِحَسَبِ الْأَحْوَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[سَبَبُ النَّزُولِ]

قَالَ الْأُمَوِيُّ فِي مَعَارِيهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: وَكَانَ مِمَّنْ تَخَلَّفَ مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ وَنَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ مِنْهُمْ، مِمَّنْ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، الْجُلَاسُ بْنُ سُوَيْدٍ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَانَ عَلَى أُمِّ عُمَيْرٍ بْنِ سَعْدٍ، وَكَانَ عُمَيْرٌ فِي حِجْرِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ بِمَا ذَكَرَ مِمَّا أَنْزَلَ فِي الْمُتَنَافِقِينَ. قَالَ الْجُلَاسُ: وَاللَّهِ! لَئِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ صَادِقًا فِيمَا يَقُولُ، لَنَحْنُ شَرُّ مِنَ الْحَمِيرِ. فَسَمِعَهَا عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ! يَا جُلَاسُ! إِنَّكَ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَأَحْسَنُهُمْ عِنْدِي بَلَاءً، وَأَعَزُّهُمْ عَلَيَّ أَنْ يَصِلَهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَلَقَدْ قُلْتُ مَقَالَةً لَئِنْ ذَكَرْتُهَا لَتَفْضَحُنِي وَلَئِنْ كَتَمْتُهَا لَتَهْلِكُنِي، وَلِإِحْدَاهُمَا أَهْوَى عَلَيَّ مِنَ الْأُخْرَى، فَمَشَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ مَا قَالَ الْجُلَاسُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْجُلَاسُ خَرَجَ حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالَ مَا قَالَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ، وَلَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَوَقَّعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهَا، فَزَعَمُوا أَنَّ الْجُلَاسَ تَابَ فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، وَنَزَعَ فَأَحْسَنَ النَّزْوَعِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

(١) الطبري: ٣٥٨/١٤ (٢) الطبري: ٣٥٩/١٤ (٣) الطبري:

٣٥٩/١٤ (٤) ابن أبي حاتم: ١٨٤٢/٦ (٥) الطبري: ١٤/

٣٥٩ (٦) الطبري: ٣٦٣/١٤ (٧) دلائل النبوة: ٢٦٠/٥

يَمَّا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٥﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ ﴿٧٦﴾

[مِنْ سِمَاتِ الْمُتَافِقِينَ طَلَبَ الْمَالِ ثُمَّ الْبُخْلِ بِالصَّدَقَةِ] يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ مَنْ أَعْطَى اللَّهُ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ لِنِئَانِهِ مِنْ فَضْلِهِ لِيَصَّدَّقَ مِنْ مَالِهِ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَمَا وَفَى بِمَا قَالَ وَلَا صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى، فَأَعْقَبَهُمْ هَذَا الصَّنِيعَ نِفَاقًا سَكَنَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمَّا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الْآيَةُ، أَيِ أَغْلَبَهُمُ النِّفَاقَ فِي قُلُوبِهِمْ بِسَبَبِ إِخْلَافِهِمُ الْوَعْدَ وَكَذِبِهِمْ، كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «آيَةُ الْمُتَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الْآيَةُ، يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِضَمَائِرِهِمْ وَإِنْ أَطْهَرُوا أَنَّهُ إِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَمْوَالٌ تَصَدَّقُوا مِنْهَا وَشَكَرُوا عَلَيْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى عَلَّامُ الْغُيُوبِ أَيِ يَعْلَمُ كُلَّ غَيْبٍ وَشَهَادَةٍ، وَكُلَّ سِرٍّ وَنَجْوَى وَيَعْلَمُ مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[وَمِنْهَا لَمَزَ الْمُطَّوِّعِينَ وَالسُّخْرِيَّةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ] وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْمُتَافِقِينَ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ عَيْنِهِمْ وَلَمْزِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ حَتَّى وَلَا الْمُتَصَدِّقُونَ يَسْلَمُونَ مِنْهُمْ، إِنْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَالٍ جَزِيلٍ قَالُوا هَذَا مُرَاءٍ، وَإِنْ جَاءَ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا أَبُو الثَّعْمَانِ الْبَصْرِيُّ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نَحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا، فَجَاءَ رَجُلٌ فَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا: مُرَائِي، وَجَاءَ رَجُلٌ فَصَدَّقَ بِضَاعٍ. فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا. فَنَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ

عَنْ أَبِي الطَّفِيلِ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعَقَبَةِ وَبَيْنَ حَذِيفَةَ بَعْضُ مَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ: أُنْشِدْكَ بِاللَّهِ كَمْ كَانَ أَصْحَابُ الْعَقَبَةِ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: أَخْبِرْهُ إِذْ سَأَلَكَ، فَقَالَ: كُنَّا نَخْبِرُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ، فَإِنْ كُنْتُ مِنْهُمْ فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ خَمْسَةً عَشَرَ، وَأَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْهُمْ حَرَبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، وَعَدَرَ ثَلَاثَةٌ قَالُوا: مَا سَمِعْنَا مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا عَلِمْنَا بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ، وَقَدْ كَانَ فِي حَرَّةٍ فَمَشَى، فَقَالَ: «إِنَّ الْمَاءَ قَلِيلٌ فَلَا يَسْبِقُنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ». فَوَجَدَ قَوْمًا قَدْ سَبَقُوهُ فَلَعَنَهُمْ يَوْمئِذٍ<sup>(١)</sup>. وَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي حَذِيفَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدُونَ رَيْحَهَا حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ: ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكُهُمُ الدُّبَيْلَةَ، سِرَاجٌ مِنْ نَارٍ يَظْهَرُ بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ حَتَّى يَنْجُمَ فِي ضُورِهِمْ»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا كَانَ حَذِيفَةُ يُقَالُ لَهُ: صَاحِبُ السَّرِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ أَيِ: مِنْ تَعْيِينِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَافِقِينَ، وَهُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دُونَ غَيْرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيِ: وَمَا لِلرَّسُولِ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنْ اللَّهَ أَغْنَاهُمْ بِبَرَكَتِهِ وَيُمْنِ سَعَادَتِهِ، وَلَوْ تَمَّتْ عَلَيْهِ السَّعَادَةُ لَهَذَاهُمْ اللَّهُ لَمَّا جَاءَ بِهِ كَمَا قَالَ ﷺ لِلْأَنْصَارِ: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْتَقَكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي» كَلِمًا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَّنْ<sup>(٣)</sup>. وَهَذِهِ الصَّبِيغَةُ تُقَالُ حَيْثُ لَا ذَنْبَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الْآيَةُ.

ثُمَّ دَعَاهُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى التَّوْبَةِ فَقَالَ: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعْذِبُهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيِ: وَإِنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقِهِمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا، أَيِ: بِالْقَتْلِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَالْآخِرَةِ، أَيِ: بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْهَوَانِ وَالصَّغَارِ ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أَيِ: وَلَيْسَ لَهُمْ أَحَدٌ يُسَعِدُهُمْ وَلَا يُنْجِدُهُمْ، لَا يُحْصِلُ لَهُمْ خَيْرًا وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَرًّا.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْتُؤَدِّيَ لَهُمُ الْقَرْضَ آلَتَنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا عَاهَدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بِجَلْوَاهُ بِهِ. وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٨﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ

(١) مسلم: ٢١٤٤/٤ (٢) مسلم: ٢١٤٣/٤ (٣) فتح الباري:

٦٤٤/٧ (٤) فتح الباري: ١١١/١ ومسلم: ٧٨/١

الْمُطَّوِّعِينَ ﴿١﴾... (الآية (١)). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا فِي صَحِيحِهِ (٢).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ يَوْمًا فَنَادَى فِيهِمْ أَنْ أَجْمَعُوا صَدَقَاتِكُمْ، فَجَمَعَ النَّاسُ صَدَقَاتِهِمْ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ آخِرِهِمْ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ، بَيْتٌ لِيَلْبِي أَجْرُ بِالْجَرِيرِ الْمَاءِ، حَتَّى نِلْتُ صَاعَيْنِ مِنْ تَمْرٍ، فَأَمْسَكْتُ أَحَدَهُمَا وَأَتَيْتُكَ بِالْآخَرِ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَنْثُرَهُ فِي الصَّدَقَاتِ، فَسَجَرَ مِنْهُ رَجُلًا وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَغَنِيَانِ عَنْ هَذَا، وَمَا يَصْنَعُونَ بِصَاعِكَ مِنْ شَيْءٍ، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرُكَ» فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: فَإِنَّ عِنْدِي مِائَةً أَوْفَقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ فِي الصَّدَقَاتِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمْجُوتُونَ أَنْتَ؟ قَالَ: لَيْسَ بِي جُنُونٌ، قَالَ: أَفَعَلْتَ مَا فَعَلْتُ؟ قَالَ: نَعَمْ مَالِي ثَمَانِيَّةُ آلَافٍ، أَمَا أَرْبَعَةُ آلَافٍ فَأَقْرِضْهَا رَبِّي، وَأَمَا أَرْبَعَةُ آلَافٍ فَلِي. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ» وَلَمَزَهُ الْمُتَأَفِّقُونَ فَقَالُوا: وَاللَّهِ! مَا أُعْطِيَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ عَطِيَّتَهُ إِلَّا رِبَاءً وَهُمْ كَاذِبُونَ، إِنَّمَا كَانَ بِهِ مُطَوَّعًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِذْرَهُ وَعَذَرَ صَاحِبِهِ الْمُسْكِينِ الَّذِي جَاءَ بِالصَّاعِ مِنَ التَّمْرِ فَقَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾... (الآية (٣)).

وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَغَيْرٍ وَاحِدٍ وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ مِنَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، تَصَدَّقَ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ أَخُو بَنِي الْعَجْلَانِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَغِبَ فِي الصَّدَقَةِ وَحَضَّ عَلَيْهَا، فَقَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَتَصَدَّقَ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ، وَقَامَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ وَتَصَدَّقَ بِمِائَةٍ وَسَقَى مِنْ تَمْرِ فَلَمَزُوهُمَا وَقَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا رِبَاءٌ، وَكَانَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِجُهْدِهِ أَبُو عَقِيلٍ أَخُو بَنِي أُنَيْبٍ الْأَرَاثِيُّ حَلِيفُ بَنِي عَمْرٍو ابْنِ عَوْفٍ، أَتَى بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ فَأَفْرَعَهُ فِي الصَّدَقَةِ فَتَصَاحَكُوا بِهِ وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ أَبِي عَقِيلٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ وَاسْتِغْفَارِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَعَامَلَهُمْ مَعَامَلَةً مِّنْ سَخِرَ مِنْهُمْ

الْمُؤْمِنِينَ ٢٠٠  
اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجٍ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَضِلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَّتَى أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْعَامٍ بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٨٦﴾

انْتِصَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا. وَأَعَدَّ لِلْمُتَأَفِّقِينَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا أَلِيمًا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠)

[الْغَيْثُ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لِلْمُتَأَفِّقِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَفِّقِينَ لَيْسُوا أَهْلًا لِلِاسْتِغْفَارِ، وَأَنَّهُ لَوْ اسْتَغْفَرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ السَّبْعِينَ إِنَّمَا ذُكِرَتْ حَسْمًا لِمَادَةِ الْإِسْتِغْفَارِ لَهُمْ، لِأَنَّ الْعَرَبَ فِي أَسَالِبِ كَلَامِهَا تَذَكُّرُ السَّبْعِينَ فِي مُبَالَغَةٍ كَلَامِهَا. وَلَا تُرِيدُ التَّحْلِيدَ بِهَا، وَلَا أَنْ يَكُونَ مَا زَادَ عَلَيْهَا بَخْلَافِهَا، وَقِيلَ: بَلْ لَهَا مَقْهُومٌ، كَمَا قَالَ الشَّعْبِيُّ: لَمَّا ثَقُلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْطَلَقَ ابْنُهُ إِلَى

(١) فتح الباري: ٣/٣٣٢ (٢) مسلم: ٧٠٦/٢ (٣) الطبري: ٣٨٣/١٤ عطية العوفي ضعيف كما تقدم

مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودِ ﴿٢٦﴾ وَلَهُمْ مَقَامٌ مِنْ حَيْدِرٍ ﴿٢٧﴾ كَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرٍ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿[الحج: ١٩-٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلًّا نَبُذَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أَيُّ: لَوْ أَنَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَيَفْقَهُونَ لَنَفَرُوا مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْحَرِّ، لِيَقْتُلُوا بِهِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ الَّذِي هُوَ أضعافُ أَضعافِ هَذَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ مُتَوَعِّدًا هَؤُلَاءِ الْمُنافِقِينَ عَلَى صَنِيعِهِمْ هَذَا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا... الْآيَةِ، قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الدُّنْيَا قَلِيلٌ فَلْيَضْحَكُوا فِيهَا مَا شَاءُوا، فَإِذَا انْقَطَعَتِ الدُّنْيَا وَصَارُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَأْنَفُوا بُكَاءً لَا يَنْقُطُ أَبَدًا.

﴿إِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنَوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ ﴿٢٧﴾

[لَا يُؤْذَنُ لِلْمُنافِقِينَ بِالْخُرُوجِ فِي الْحَرْبِ] يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ﴾ أَيُّ: رَدَّكَ اللَّهُ مِنْ غَزْوَتِكَ هَذِهِ ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا<sup>(١)</sup>. ﴿فَاسْتَدْنَوْكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أَيُّ: مَعَكَ إِلَى غَزْوَةِ أُخْرَى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أَيُّ: تَغِيرًا لَهُمْ وَعُقُوبَةً، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَقَلِبْ أَوْدَانَهُمْ وَانصَرَفَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ﴿الآيَةِ [الأنعام: ١١٠] فَإِنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، كَمَا أَنَّ ثَوَابَ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا، كَقَوْلِهِ فِي عُمَرَةَ الْخُدَيْيَّةِ: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَيَّ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا... الْآيَةِ [الفتح: ١٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزَا<sup>(٢)</sup>.

النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَبِي قَدْ اخْتَصَرَ فَأَجِبْ أَنْ تَشْهَدَهُ وَتُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا اسْمُكَ؟» قَالَ: الْحَبَابُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «بَلْ أَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّ الْحَبَابَ اسْمُ شَيْطَانٍ» فَانْطَلَقَ مَعَهُ حَتَّى شَهِدَهُ وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَهُ وَهُوَ عَرَقٌ، وَصَلَّى عَلَيْهِ فَقِيلَ لَهُ: أَنْصَلِّي عَلَيْهِ [وَهُوَ مُنَافِقٌ؟] فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَا تَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ وَ سَبْعِينَ وَ سَبْعِينَ﴾<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِأَسَانِيدِهِ<sup>(٤)</sup>.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا نَفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

[فَرِحَ الْمُنافِقِينَ عَلَى تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الْغَزْوَةِ] يَقُولُ تَعَالَى ذَاتًا لِلْمُنافِقِينَ الْمُخَلَّفِينَ عَنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَفَرَحُوا بِقُعُودِهِمْ بَعْدَ خُرُوجِهِ ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ مَعَهُ ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أَيُّ: بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿لَا نَفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْخُرُوجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَانَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ عِنْدَ طَيْبِ الظَّلَالِ وَالْثَمَارِ، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَا نَفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ الَّتِي يُصَيِّرُونَ إِلَيْهَا بِمُخَالَفَتِكُمْ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وَمِمَّا قَرَرْتُمْ مِنْهُ مِنَ الْحَرِّ بَلْ أَشَدُّ حَرًّا مِنَ النَّارِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقَدُونَهَا، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ؟ فَقَالَ: «فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا»<sup>(٥)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَنْ لَهُ تَغْلَانٍ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ، لَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْهُ، وَإِنَّهُ أَهْوَنُهُمْ عَذَابًا»<sup>(٧)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٨)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ النَّبَوِيَّةُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةً لِلنَّسْوَى﴾ [المعارج: ١٥، ١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُصَبِّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ يَصْهَرُ بِهِ.

(١) الطبري: ٣٩٦/١٤ (٢) الطبري: ٣٩٧، ٣٩٦/١٤ (٣) الموطأ: ٩٩٤/٢ (٤) فتح الباري: ٣٨٠/٦ ومسلم: ٤/٢١٨٤ (٥) الحاكم: ٥٨٠/٤ (٦) فتح الباري: ٤٢٥/١١ ومسلم: ١٩٦/١ (٧) الطبري: ٤٠٤/١٤ (٨) الطبري: ٤٠٤

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَمْ يُحْمَلْهُمْ ظَنًّا لَا يَجِدُ مَا أَجَلَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

### [ذَمُّ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا وَذَمًّا لِلْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ التَّالِكِينَ عَنْهُ - مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَوُجُودِ السَّعَةِ وَالطُّولِ - وَاسْتَأْذَنُوا الرُّسُولَ فِي الْقُعُودِ، وَقَالُوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ وَرَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِالْعَارِ وَالْقُعُودِ فِي الْبَلَدِ مَعَ النِّسَاءِ، وَهَرُ الْخَوَالِفِ بَعْدَ خُرُوجِ الْجَيْشِ، فَإِذَا وَقَعَ الْحَرْبُ كَانُوا أَجَبَنَ النَّاسِ، وَإِذَا كَانَ أَمْنٌ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ كَلَامًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ لِقَافُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ لِقَافُ سَلَفُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَايَ﴾ [الأحزاب: ١٩] أَيْ عَلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْكَلَامِ الْحَادِّ الْقَوِيِّ، فِي الْأَمْنِ. وَفِي الْحَرْبِ أَجَبَنُ شَيْءٍ.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾

### [الْتِهَامُ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ]

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَأَنْ لَا يُصَلِّيَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إِذَا مَاتَ، وَأَنْ لَا يَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُ أَوْ يَدْعُوَ لَهُ، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا عَلَيْهِ، وَهَذَا حُكْمٌ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ عَرَفَ نِفَاقَهُ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سَلُولُ رَأْسِ الْمُنَافِقِينَ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَبِيضَهُ يَكْفُرُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِتَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» [التوبة: ٨٠] وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ قَالَ: إِنَّهُ مُتَافِقٌ. قَالَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةً: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نَفْسِهِ أَيْضًا بِنَحْوِ مِنْ هَذَا<sup>(٣)</sup>. وَفِيهِ: قَالَ: ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ وَمَشَى مَعَهُ وَقَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْهُ، قَالَ: فَعَجِبْتُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَوَاللَّهِ! مَا كَانَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى تَرَلْتُ هَاتَانِ الْآيَتَانِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الْآيَةَ. فَمَا صَلَّيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَهُ عَلَى مُتَافِقٍ وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي التَّفْسِيرِ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٥)</sup>.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾

قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ نَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

(١) فتح الباري: ١٨٤/٨ (٢) فتح الباري: ١٨٥/٨ (٣) أحمد: ١٦/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٤٩٥/٨ (٥) فتح الباري:



عَنِ الْقِتَالِ، فَذَكَرَ مِنْهَا مَا هُوَ لَازِمٌ لِلشَّخْصِ لَا يَنْفَكُ عَنْهُ، وَهُوَ الضَّعْفُ فِي التَّرَكِيبِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ الْجَلَادُ فِي الْجِهَادِ، وَمِنَهُ الْعَمَى وَالْعَرَجُ وَنَحْوُهُمَا، وَلِهَذَا بَدَأَ بِهِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ عَارِضٌ بِسَبَبِ مَرَضٍ عَنْ لَهُ فِي بَدَنِهِ، شَغْلُهُ عَنِ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ بِسَبَبِ فَقْرِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّجْهِيزِ لِلْحَرْبِ، فَلَيْسَ عَلَى هَؤُلَاءِ حَرَجٌ إِذَا قَعَدُوا وَنَصَحُوا فِي حَالِ فُجُودِهِمْ، وَلَمْ يُزِجُوا بِالنَّاسِ وَلَمْ يُتَبَطَّوْهُمْ وَهُمْ مُحْسِنُونَ فِي حَالِهِمْ هَذَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: خَرَجَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْتِسْقَاءِ فَقَامَ فِيهِمْ بِالْبَلِّ بْنُ سَعْدٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ مَنْ حَضَرَ! أَلَسْتُمْ مُقَرَّرِينَ بِالْإِسَاءَةِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ! نَعَمْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ! إِنَّا نَسْمَعُكَ تَقُولُ: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ اللَّهُمَّ! وَقَدْ أَفْرَزْنَا بِالْإِسَاءَةِ، فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَاشْفِنَا، وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَرَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ فَسَفُوا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَّبِعُوا غَارِيزَ مَعَهُ، فَجَاءَتْهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْقِلِ بْنِ مَقْرِنٍ الْمُزَنِيُّ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! احْمِلْنَا. فَقَالَ لَهُمْ: «وَاللَّهِ! لَا أَحِجُّ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ» فَتَوَلَّوْا وَهُمْ يَبْكُونَ، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْلِسُوا عَنِ الْجِهَادِ وَلَا يَجِدُونَ نَفَقَةً وَلَا مَحْمِلًا. فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ حِرْصَهُمْ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ أَنْزَلَ عُذْرَهُمْ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ إِلَى قَوْلِهِ﴾ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نَزَلَتْ فِي بَنِي مُقَرِّنٍ مِنْ مُزَيْنَةَ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ خَلَقْتُمْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا نِلْتُمْ مِنْ عُدُوِّ نَيْلًا، إِلَّا وَقَدْ شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِجُّ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الْآيَةَ<sup>(٤)</sup>. وَأَصْلُ الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ» قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟

وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوَّكَ لَهُمْ﴾ طَاعَهُ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ... الْآيَةُ [محمد: ٢٠، ٢١]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أَيُّ: بِسَبَبِ نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ وَالْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ أَيُّ: لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ صَلَاحٌ لَهُمْ فَيَفْعَلُوهُ، وَلَا مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ، فَيَجْتَنِبُوهُ.

﴿لَكِنِ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا بِأَمْرِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتَ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ<sup>(٥)</sup> لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى ذَنْبَ الْمُنَافِقِينَ وَبَيَّنَ ثَنَاءَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَمَالَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿لَكِنِ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَهْدُوا... إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ مِنْ بَيَانِ حَالِهِمْ وَمَالِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فِي جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ وَالذَّرَجَاتِ الْعُلَى.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ ذَوِي الْأَعْدَارِ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ الَّذِينَ جَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُعْتَذِرُوا إِلَيْهِ وَيُبَيِّنُوا لَهُ مَا هُمْ فِيهِ، مِنَ الضَّعْفِ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْخُرُوجِ، وَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْأَعْرَابِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، إِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ: (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ) بِالْتَّخْفِيفِ وَيَقُولُ: هُمْ أَهْلُ الْعُذْرِ. لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيُّ لَمْ يَأْتُوا لِيُعْتَذِرُوا، ثُمَّ أَوْعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فَقَالَ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا

يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِجُّ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَاهُمْ فَفِضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَرْحًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ<sup>(٦)</sup> إِنَّمَا لِسَبِيلِ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانٍ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٧)</sup> [بَيَانُ الْعُذْرِ الشَّرْعِيِّ لِعَدَمِ الْمُشَارَكَةِ فِي الْجِهَادِ]

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى الْأَعْدَارَ الَّتِي لَا حَرَجَ عَلَى مَنْ قَعَدَ مَعَهَا

(١) ابن أبي حاتم: ١٨٦٢/٦ (٢) الطبري: ٤٢٠/١٤ (٣) الطبري: ٤٢١/١٤ العوفي ضعيف كما مر (٤) ابن أبي حاتم: ١٨٦٣/٦ هذا مرسل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٢

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَيَرْضَوْنَهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَابِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَالْأَعْرَابُ مِنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِوَىٰ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سِوَىٰ ذَلِكَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

## [الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا]

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ فِي الْأَعْرَابِ كُفْرًا وَمُنَافِقِينَ وَمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ كُفْرَهُمْ وَنِفَاقَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَشَدُّ وَأَجْدَرُ، أَيُّ: أُخْرَى أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ كَمَا قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: جَلَسَ أَعْرَابِي إِلَى زَيْدِ بْنِ صُوحَانَ وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ وَكَانَتْ يَدُهُ قَدْ أَصِيبَتْ يَوْمَ نَهَاوَنْدَ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللَّهِ! إِنَّ حَدِيثَكَ لَيُعْجِبُنِي، وَإِنَّ يَدَكَ لَتَرِيْبُنِي! فَقَالَ زَيْدٌ: مَا يُرِيْبُكَ مِنْ يَدِي إِنَّهَا الشَّمَالُ؟! فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللَّهِ! مَا أَدْرِي الْيَمِينَ يَقْطَعُونَ أَوْ الشَّمَالَ؟ فَقَالَ زَيْدٌ بْنُ صُوحَانَ: صَدَقَ اللَّهُ: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ (١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ

قَالَ: «نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ» (٢). ثُمَّ رَدَّ تَعَالَى الْمَلَامَةَ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْقُعُودِ وَهُمْ أَغْيَاءٌ، وَأَنْبَهُهُمْ فِي رِضَاهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ النِّسَاءِ الْخَوَالِفِ فِي الرَّحَالِ ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَيَرْضَوْنَهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) [بَيَانُ مَكْرِ الْمُنَافِقِينَ]

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِمْ ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أَيُّ لَنْ تُصَدِّقَكُمْ ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾ أَيُّ قَدْ أَغْلَسْنَا اللَّهُ أَحْوَالَكُمْ ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أَيُّ: سَيُظْهِرُ أَعْمَالَكُمْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: فَيُخَبِّرُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ مُعْتَذِرِينَ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَلَا تُؤْتِيَهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ احْتِقَارًا لَهُمْ، ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ أَيُّ خُبْتُ، نَجَسٌ بِوَاطِئِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِهِمْ، وَمَا وَاهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ جَهَنَّمَ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيُّ مِنَ الْإِتَامِ وَالْخَطَايَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ رَضُوا عَنْهُمْ بِحَلْفِهِمْ لَهُمْ ﴿فَلَا يَرْضَى اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيُّ: الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فَإِنَّ الْفُسْقَ هُوَ الْخُرُوجُ، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْفَارَةُ فَوَيْسِقَةُ لِحُرُوجِهَا مِنْ جُحْرِهَا لِلْإِفْسَادِ. وَيُقَالُ: «فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ»: إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَابِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِوَىٰ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سِوَىٰ ذَلِكَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

(١) فتح الباري: ٧/٧٣٢ ومسلم: ١٩١١ (٢) الطبري: ١٤/٤٢٩ عند الطبراني بسند ضعيف لأن فيه جهالة شيخ المصنف لكن عند ابن سعد في الطبقات الكبرى بسند صحيح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٣

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ  
اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ  
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا  
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ  
مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ  
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ  
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا  
وَعَمَلًا سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾  
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ  
إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ  
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ  
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عِلِّيِّ الْعِلْمِ وَالشَّهَادَةِ  
فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مَرْجُونَ لَأَمْرٍ  
اللَّهُ أَمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ سَبَّهُمْ، أَوْ أَبْغَضَ أَوْ سَبَّ بَعْضَهُمْ، وَلَا  
سِيَّمَا سَيِّدَ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الرَّسُولِ وَخَيْرَهُمْ وَأَفْضَلَهُمْ أَغْنَى  
الصَّدِيقُ الْأَكْبَرُ وَالْخَلِيفَةُ الْأَعْظَمُ أَبَا بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ الطَّائِفَةَ الْمَخْذُولَةَ مِنَ الرَّافِضَةِ يُعَادُونَ  
أَفْضَلَ الصَّحَابَةِ وَيَبْغِضُونَهُمْ وَيَسُبُّونَهُمْ. عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ  
ذَلِكَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَقُولَهُمْ مَعْكُوسَةٌ وَقُلُوبُهُمْ  
مَنْكُوسَةٌ، فَأَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ؟ إِذْ يَسُبُّونَ مَنْ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ! وَأَمَّا أَهْلُ الشُّبُهَةِ فَإِنَّهُمْ يَتَرَضَّوْنَ عَنْ رَضِيِّ  
اللَّهِ عَنْهُ، وَيَسُبُّونَ مَنْ سَبَّهَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيُؤَالُونَ مَنْ يُوَالِي  
اللَّهَ وَيُعَادُونَ مَنْ يُعَادِي اللَّهَ، وَهُمْ مُتَّبِعُونَ لَا مُتَّبِعُونَ،  
وَيَقْتَدُونَ وَلَا يَتَّبِعُونَ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ جِزْبُ اللَّهِ الْمُفْلِحُونَ  
وَعِبَادَةُ الْمُؤْمِنُونَ.

عَقَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ أَقْبَتَ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ  
وَالْتِّرِمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٢)</sup>.  
وَلَمَّا أَهْدَى ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ تِلْكَ الْهَدْيَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَدَّ  
عَلَيْهِ أَضْعَافَهَا حَتَّى رَضِيَ، قَالَ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَقْبَلَ  
هَدْيَةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ»<sup>(٣)</sup>.  
لِأَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْمُدُنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ وَالْمَدِينَةَ  
وَالْيَمَنَ، فَهُمْ أَلْطَفُ أَخْلَاقًا مِنَ الْأَعْرَابِ، لِمَا فِي طِبَاعِ  
الْأَعْرَابِ مِنَ الْجَفَاءِ.

وَقَوْلُهُ: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أَيُّ: عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ  
يَعْلَمَهُ الْإِيمَانُ وَالْعِلْمُ، حَكِيمٌ فِيمَا قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ مِنْ  
الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالنِّفَاقِ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا  
يَفْعَلُ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مِنْهُمْ «مَنْ يَتَّخِذُ مَا  
يُنْفِقُ» أَيُّ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ «مَغْرَمًا» أَيُّ: غَرَامَةً وَخَسَارَةً  
«وَيَتَرَبَّصُّ بِكُلِّ الدَّوَابِّ» أَيُّ يَنْتَظِرُ بِكُمْ الْحَوَادِثَ وَالْآفَاتِ  
«عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ» أَيُّ هِيَ مُنْعَكِسَةٌ عَلَيْهِمْ، وَالسُّوءُ  
دَائِرَةٌ عَلَيْهِمْ «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أَيُّ: سَمِيعٌ لِدُعَاءِ عِبَادِهِ  
عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْخِذْلَانَ. وَقَوْلُهُ:  
«وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ  
مَا يُنْفِقُ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ» هَذَا هُوَ الْقِسْمُ  
الْمُتَدَوِّحُ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مَا يُنْفِقُونَ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ قُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَيَتَّبِعُونَ بِذَلِكَ دُعَاءَ  
الرَّسُولِ لَهُمْ «إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ» أَيُّ: أَلَا إِنَّ ذَلِكَ حَاصِلُ  
لَهُمْ «سَيَذَلِّهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ.

وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ  
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾  
[فَضَائِلُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ]  
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَاهُ عَنِ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ  
وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعَدَّ  
لَهُمْ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالتَّعِيمِ الْمُتِيمِ. قَالَ الشَّعْبِيُّ:  
السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: مَنْ أَدْرَكَ  
بِعَةِ الرِّضْوَانِ عَامَ الْحُدُوبَةِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ  
وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ:  
هُمْ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ  
أَخْبَرَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ  
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَيَاوِيلُ

(١) أحمد: ٣٥٧/١ (٢) أبو داود: ٢٧٨/٣ وتحفة الأحوذى:  
٥٣٢/٦ والنسائي: ١٩٥/٧ (٣) النسائي: ٢٨٠/٦ (٤)  
الطبري: ٤٣٥/١٤ (٥) الطبري: ٤٣٦/١٤، ٤٣٧، ٤٣٩

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَشَفُّونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ  
مَرَدُّوْا عَلَى الْغِيظِ لَا تَعْلَمُوهُمْ تَحَنُّنًا لِّعَلَّاهُمْ سَعْدًا لَهُمْ مَّرَرَيْنِ ثُمَّ  
يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٦﴾  
[مُتَافِقُو الْأَعْرَابِ وَالْمَدِينَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولُهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنَّ  
فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُتَافِقُونَ، وَفِي أَهْلِ  
الْمَدِينَةِ أَيْضًا مُتَافِقُونَ ﴿مَرَدُّوْا عَلَى التَّفَاقِ﴾ أَيْ: مَرَبُّوْا  
وَأَسْتَمَرُّوْا عَلَيْهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ. وَيُقَالُ:  
تَمَرَّدَ فَلَانٌ عَلَى اللَّهِ، أَيْ: عَنَّا وَتَجَبَّرَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ  
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لَا يَنَافِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ  
فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمِهِمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]  
لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّمِ فِيهِمْ بِصِفَاتٍ يُعْرِفُونَ بِهَا، لَا أَنَّهُ  
يُعْرِفُ جَمِيعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ التَّفَاقِ وَالرَّيْبِ عَلَى  
التَّيْسِينِ، وَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي بَعْضِ مَنْ يُخَالِطُهُ مِنْ أَهْلِ  
الْمَدِينَةِ يَفَاقًا، وَإِنْ كَانَ يَرَاهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَتَقَدَّمَ فِي  
تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوْا﴾ أَنَّهُ ﷺ أَعْلَمَ حُذِيْقَةً  
بِأَعْيَانِ أَرْبَعَةِ عَشَرَ أَوْ خَمْسَةِ عَشَرَ مُتَافِقًا، وَهَذَا تَخْصِيصٌ  
لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ أَطَّلَعَ عَلَى أَسْمَائِهِمْ وَأَعْيَانِهِمْ كُلِّهِمْ، وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي هَذِهِ  
الْآيَةِ: أَنَّهُ قَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَكَلَّفُونَ عِلْمَ النَّاسِ، فَلَا نَّ  
فِي الْحِجَّةِ وَفُلَانٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا سَأَلْتَ أَحَدَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ  
قَالَ: لَا أَذْرِي! لَعَمْرِي أَنْتَ [بِنَفْسِكَ] أَعْلَمُ مِنْكَ بِأَحْوَالِ  
النَّاسِ، وَلَقَدْ تَكَلَّفْتُ شَيْئًا مَا تَكَلَّفَهُ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَكَ، قَالَ نَبِيُّ  
اللَّهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾  
[الشعراء: ١١٢] وَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بَقِيتُ  
اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾  
[هود: ٨٦] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ  
تَعْلَمُهُمْ﴾ (١).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ ﴿سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: يَعْني الْقَتْلَ وَالسَّيِّئَ، وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ: بِالْجُوعِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، ﴿ثُمَّ يَرْدُّوْنَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: أَمَّا عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا فَلَا مَوَالَ وَالْأَوْلَادَ، وَقَرَأَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْجِبْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَدَهُمْ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥] فَهَذِهِ الْمَصَائِبُ لَهُمْ عَذَابٌ وَهِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَجْرٌ، وَعَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ فِي النَّارِ ﴿ثُمَّ

يُرْدُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٣﴾  
 ﴿وَأَخْرَجُوا عَدُوَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى  
 اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾  
 [الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْجِهَادِ كَسَلًا]

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ الْمُتَخَلِّفِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْغَزَاةِ رَغْبَةً عَنْهَا وَتَكْذِيبًا وَشُكًّا، شَرَعَ فِي بَيَانِ حَالِ الْمُذْنِبِينَ الَّذِينَ تَأَخَّرُوا عَنِ الْجِهَادِ كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الرَّاحَةِ مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ بِالْحَقِّ، فَقَالَ: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَي: أَقْرَفُوا بِهَا وَاعْتَرَفُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ أُخْرُ صَالِحَةٌ خَلَطُوا هَذِهِ بِتِلْكَ، فَهَؤُلَاءِ تَحْتَ عَفْوِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أَنَاسٍ مُعَيَّنِينَ إِلَّا أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ الْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُخْلِطِينَ الْمُتَلَوِّينَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَخْرُونَ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَبُو لُبَابَةَ. وَخَمْسَةٌ مَعَهُ. وَقِيلَ: وَسَبْعَةٌ مَعَهُ. وَقِيلَ: وَتِسْعَةٌ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ، رَطَبُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَوَارِي الْمَسْجِدِ وَحَلَفُوا لَا يَحُلُّهُمْ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَطْلَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَفَا عَنْهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَمُرَةَ بِنِ جُنْدُبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَنَا: «أَتَانِي اللَّيْلَةُ آتِيَانِ فَابْتَغَايَا، فَأَتَتْهُمَا بِي إِلَى مَدِينَةِ مَبِيتِهِ بِلَيْنٍ ذَهَبَ وَلَبِنٍ فِضَّةٍ، فَتَلَقَانَا رَجَالٌ، شَطَرٌ مِنْ خَلْفِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنتَ رَاءٍ، وَشَطَرٌ كَأَفْقَحِ مَا أَنتَ رَاءٍ، قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوْقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ الشُّؤْءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةٌ عَذْنٍ وَهَذَا مَزْلُكٌ، قَالَا: وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطَرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطَرٌ مِنْهُمْ فَبِيعْ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا نَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ»<sup>(٥)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُخْتَصَرًا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

(١) عبد الرزاق: ٢/٢٨٥ (٢) الطبري: ١٤/٤٤٢ (٣)  
 الطبري: ١٤/٤٤٤ (٤) الطبري: ١٤/٤٣٧ (٥) فتح الباري:  
 ١٩٣/٨

الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

[الْأَمْرُ بِأَخْذِ الزَّكَاةِ وَبَيَانُ فَوَائِدِهَا]

أَمَرَ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ بِأَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً يُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيَهُمْ بِهَا، وَهَذَا عَامٌّ وَإِنْ أَعَادَ بَعْضُهُمُ الصُّومِرَ فِي «أَمْوَالِهِمْ» إِلَى الَّذِينَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَخَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، وَلِهَذَا اغْتَفَدَ بَعْضُ مَا نَبِيِ الزَّكَاةِ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ: أَنَّ دَفْعَ الزَّكَاةِ إِلَى الْإِمَامِ لَا يَكُونُ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا خَاصًّا بِالرَّسُولِ ﷺ، وَلِهَذَا اخْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً...﴾ الآية، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّأْوِيلَ وَالْفَهْمَ الْفَاسِدَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ، وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى أَدُّوا الزَّكَاةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ كَمَا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى قَالَ الصَّدِيقُ: وَاللَّهِ! لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا - وَفِي رِوَايَةٍ: عِقَالًا - كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَأَقَاتَلْتَهُمْ عَلَى مَنْعِهِ <sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ: ادْعُ لَهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَى بِصَدَقَةٍ قَوْمَ صَلَّى عَلَيْهِمْ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى» <sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ صَلَوَاتِكَ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (صَلَوَاتِكَ) عَلَى الْجَمْعِ، وَآخَرُونَ قَرَأُوا: ﴿إِنَّ صَلَوَاتَكَ﴾. عَلَى الْإِفْرَادِ ﴿سَكَنَ لَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَحْمَةً لَهُمْ <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أَيِ: لِدَعَائِكَ ﴿عَلِيمٌ﴾ أَيِ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْكَ، وَمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ هَذَا تَهْنِيجٌ إِلَى التَّوْبَةِ وَالصَّدَقَةِ اللَّتَيْنِ كُلُّهُمَا يَحِطُّ الذُّنُوبُ وَيَمَحُضُهَا وَيَمَحُضُهَا، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ حَلَالٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَقَبَّلُهَا بِبَيْمِنِهِ فَيَرْبِّيَهَا لِصَاحِبِهَا حَتَّى تَصِيرَ الثَّمَرَةُ مِثْلَ أُخْدٍ، كَمَا جَاءَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِبَيْمِنِهِ فَيَرْبِّيَهَا لِأَحَدِكُمْ، كَمَا يُرْبِي أَحَدَكُمْ مُهْرَةً، حَتَّى إِنَّ اللَّقْمَةَ لَتَكُونُ مِثْلَ أُخْدٍ» وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿يَمَحُضُ اللَّهُ أَرْيَاوًا وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] <sup>(٤)</sup>. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ تَقَعُ فِي يَدِ

السَّائِلِ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] <sup>(٥)</sup>.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَيُرَدُّونَ إِلَى عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالْشَّهَادَةِ فَيُنْشَرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الْوَعْدُ لِلْعَصَاةِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا وَعِيدٌ <sup>(٦)</sup>. يَعْنِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُخَالِفِينَ أَوَامِرَهُ بِأَنْ أَعْمَلَالَهُمْ سَتَعْرُضُ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَهَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ ثُلِي الشَّارِبُ﴾ [الطارق: ٩] وَقَالَ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وَقَدْ يُظْهِرُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِذَا أَعْجَبَكَ حَسَنُ عَمَلٍ أَمْرِيءٍ مُسْلِمٍ فَقُلْ: ﴿أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ <sup>(٧)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ شَبِيهٌ بِهِذَا، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَعْبُجُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمِ يَخْتُمُ لَهُ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ - أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ - . يَعْمَلُ صَالِحٌ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ يَسْتَعْمَلُهُ؟ قَالَ: «يُوقِفُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ يَبْغِضُهُ عَلَيْهِ» <sup>(٨)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

﴿وَاخْرُجُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهُكُمْ إِلَهُكُمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [١٠٥]

[إِرْجَاءُ أَمْرِ الْمُتَخَلِّفِينَ الثَّلَاثَةِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هُمُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِفُوا أَيِ: عَنِ التَّوْبَةِ، وَهُمْ مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَهَيْلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ، فَعَدُّوا عَنْ غُرُورَةِ تَبُوكَ فِي جُمْلَةٍ مَنْ قَعَدَ كَسَلًا وَمِثْلًا إِلَى الدَّعْوَةِ وَالْحِفْظِ وَطَيْبِ الثَّمَارِ وَالظَّلَالِ، لَا شَكًّا وَنَفَاقًا، فَكَانَتْ

(١) فتح الباري: ١٣/٢٦٤ (٢) مسلم: ٧٥٦/٢ (٣) الطبري:

٤٥٧/١٤ (٤) الطبري: ٤٦١/١٤ (٥) الطبري: ٤٦٠/١٤

(٦) الطبري: ٤٦٣/١٤ (٧) فتح الباري: ١٣/٥١٢ (٨)

أحمد: ١٢٠/٣

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٢٠٤

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ  
 الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ  
 وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ  
 (١٠٧) لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ  
 يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا  
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ  
 عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ  
 عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ فِيهِ نَارِجَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي  
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُدْنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً  
 فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)  
 إِنْ اللَّهُ أَشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ  
 بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبِلُوكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ  
 وَيُقْبَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ  
 وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا  
 بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

وَنَالُوا مِنْهُ وَسْوَءَهُ، فَارْجَعْ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهُ! لَقَدْ أَصَابَ  
 قَوْمِي بَعْدِي شَرٌّ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ دَعَاهُ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ  
 فِرَارِهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَبَى أَنْ يُسَلِّمَ وَتَمَرَّدَ، فَدَعَا  
 عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَمُوتَ بَعِيدًا طَرِيدًا، فَقَالَتْ هَذِهِ  
 الدَّعْوَةُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّغَ النَّاسُ مِنْ أَحَدٍ، وَرَأَى أَمْرَ  
 الرَّسُولِ ﷺ فِي ارْتِفَاعٍ وَظُهُورٍ، ذَهَبَ إِلَى هِرْقُلَ مَلِكِ  
 الرُّومِ يَسْتَنْصِرُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَعَدَهُ وَمَنَاهُ وَأَقَامَ عِنْدَهُ،  
 وَكَتَبَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ التَّنَاقِ  
 وَالرَّبِّ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ أَنَّهُ سَيَقْدُمُ بِجَيْشٍ يُقَاتِلُ بِهِ رَسُولَ  
 اللَّهِ ﷺ وَيَغْلِبُهُ وَيَرُدُّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا لَهُ  
 مَعْقِلًا يَقْدُمُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مَنْ يَقْدُمُ مِنْ عِنْدِهِ لِأَدَاءِ كُتُبِهِ، وَيَكُونُ  
 مَرَصِدًا لَهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَشَرَعُوا فِي بِنَاءِ مَسْجِدٍ  
 مُجَاوِرٍ لِمَسْجِدِ قُبَاءَ فَبَنَوْهُ وَأَحْكَمُوهُ، وَقَرَعُوا مِنْهُ قَبْلَ  
 خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى تَبُوكَ، وَجَاءُوا فَسَأَلُوا رَسُولَ

مِنْهُمْ طَائِفَةً رَبَطُوا أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي كَمَا فَعَلَ أَبُو لُبَابَةَ  
 وَأَصْحَابُهُ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَهُمْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ  
 الْمَذْكُورُونَ، فَتَزَلَّتْ تَوْبَتُهُ أَوَّلِكَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ، وَأُرْجِئَ  
 هَؤُلَاءِ عَنِ التَّوْبَةِ، حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْآيَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ:  
 ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الْآيَةُ، ﴿وَعَلَى  
 الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾  
 الْآيَةُ (١). كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ.  
 وَقَوْلُهُ: ﴿إِمَّا يَعِدُهُمْ وَإِمَّا يَنْتَوِبُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: هُمْ تَحْتَ عَفْوِ  
 اللَّهِ إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ هَذَا وَإِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ  
 رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ عَلِيمٌ بِمَنْ  
 يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ  
 وَأَقْوَالِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ  
 الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ  
 إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧) لَا تَقْعُدُوا فِيهِ  
 أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ  
 فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨)  
 [مَسْجِدُ الضَّرَارِ وَمَسْجِدُ التَّقْوَىٰ]

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُرِيمَاتِ: أَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ -  
 قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهَا - رَجُلٌ مِنَ الْخَزَرَجِ يُقَالُ  
 لَهُ: «أَبُو غَامِرِ الرَّاهِبِ» وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَرَأَ  
 عِلْمَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانَ فِيهِ عِبَادَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَهُ  
 شَرَفٌ فِي الْخَزَرَجِ كَبِيرٌ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُهَاجِرًا  
 إِلَى الْمَدِينَةِ وَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ وَصَارَتْ لِلْإِسْلَامِ  
 كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ، وَأَظْهَرَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ، شَرِيقَ اللَّعِينِ أَبُو غَامِرٍ  
 بِرِيقِهِ، وَبَارَزَ بِالْعِدَاوَةِ وَظَاهَرَ بِهَا، وَخَرَجَ فَارًّا إِلَى كُفَّارِ  
 مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، يُمَالِئُهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
 فَاجْتَمَعُوا بِمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَقَدِمُوا عَامَ أَحَدٍ،  
 فَكَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ مَا كَانَ، وَامْتَحَنَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،  
 وَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَكَانَ هَذَا الْفَاسِقُ قَدْ حَفَرَ حَفَائِرَ  
 فِيمَا بَيْنَ الصَّفَيْنِ، فَوَقَعَ فِي إِحْدَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
 وَأُصِيبَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَجُرِحَ وَجْهُهُ وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ الَّتِي  
 السُّفْلَى، وَشَجَّ رَأْسُهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَتَقَدَّمَ  
 أَبُو غَامِرٍ فِي أَوَّلِ الْمُبَارَزَةِ إِلَى قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ،  
 فَخَاطَبَهُمْ وَاسْتَمَأْنَاهُمْ إِلَى نَصْرِهِ وَمُوَافَقَتِهِ، فَلَمَّا عَرَفُوا  
 كَلَامَهُ قَالُوا: لَا أَنْعَمُ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ،

بَنَاهُ وَأَسَّسَهُ أَوَّلَ قُدُومِهِ وَنَزَلَهُ عَلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ كَانَ جَبْرِيلُ، هُوَ الَّذِي عَيَّنَ لَهُ جِهَةً الْقِبْلَةَ<sup>(١)</sup>. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ سَاعِدَةَ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنَاهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الثَّنَاءَ فِي الطُّهُورِ فِي قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ، فَمَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي تَطَهَّرُونَ بِهِ؟» فَقَالُوا: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا نَعْلَمُ شَيْئًا، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَنَا جِيرَانٌ مِنَ الْيَهُودِ فَكَانُوا يَغْسِلُونَ أَذْيَارَهُمْ مِنَ الْغَائِطِ فَعَسَلْنَا كَمَا غَسَلُوا<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «لَمَسْجِدُ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ» دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ الْقَدِيمَةِ الْمَوْسَسَةِ مِنْ أَوَّلِ بِنَائِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَلَى اسْتِحْبَابِ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ الصَّالِحِينَ وَالْعِبَادِ الْعَامِلِينَ، الْمُحَافِظِينَ عَلَى إِسْبَاحِ الْوُضُوءِ وَالتَّنَزُّهِ عَنْ مَلَابَسَةِ الْقَادُورَاتِ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ فَقَرَأَ الرُّومَ فِيهَا فَأَوْهَمَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «إِنَّهُ يُنْسَخُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ، إِنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يَصُلُّونَ مَعَنَا، لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ»<sup>(٤)</sup>. فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ إِكْمَالَ الطَّهَارَةِ يُسَهِّلُ الْقِيَامَ فِي الْعِبَادَةِ، وَيُعِينُ عَلَى إِتِمَامِهَا وَإِكْمَالِهَا وَالْقِيَامَ بِمَشُورَعَاتِهَا.

«أَقَمَنْ أُسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَاكِرٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»<sup>(٥)</sup> لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ<sup>(٦)</sup>.

[الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَا يَسْتَوِي مَنْ أُسَسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ،

اللَّهُ ﷻ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِمْ فَيُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِهِمْ لِيَحْتَجُّوا بِصَلَاتِهِ فِيهِ عَلَى تَقْرِيرِهِ وَإِبَاتِهِ، وَذَكَرُوا: أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَنَوْهُ لِلضُّعْفَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ الْعِلَّةِ فِي اللَّيْلَةِ الشَّائِئَةِ، فَعَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَقَالَ: «إِنَّا عَلَى سَفَرٍ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا. إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فَلَمَّا قَفَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ تَبُوكَ وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ، نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ بِخَبَرِ مَسْجِدِ الضَّرَارِ، وَمَا اعْتَمَدَهُ بَانُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَسْجِدِهِمْ مَسْجِدِ قُبَاءَ الَّذِي أُسَسَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى التَّقْوَى. فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ مَنْ هَدَمَهُ قَبْلَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ. كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: هُمْ أَنَاسٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَنَوْا مَسْجِدًا فَقَالَ لَهُمْ أَبُو عَامِرٍ: ابْنُوا مَسْجِدًا وَاسْتَعِدُّوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ سِلَاحٍ، فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى قَبْصَرِ مَلِكِ الرُّومِ، فَآتِي بِجُنُودٍ مِنَ الرُّومِ وَأُخْرِجُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، فَلَمَّا فَرَعُوا مِنْ مَسْجِدِهِمْ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: قَدْ فَرَعْنَا مِنْ بِنَاءِ مَسْجِدِنَا فَتُحِبُّ أَنْ تُصَلِّيَ فِيهِ وَتَدْعُو لَنَا بِالْبَرَكَةِ، فَانْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا» إِلَى قَوْلِهِ: «الظَّالِمِينَ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَلْيَكْفُرُوا» أَيِ الَّذِينَ بَنَوْهُ «إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَبَ» أَيِ: مَا أَرَدْنَا بُنْيَانِهِ إِلَّا خَيْرًا وَرَفَقًا بِالنَّاسِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» أَيِ فِيمَا قَصَدُوا وَفِيمَا نَوَّوْا. وَإِنَّمَا بَنَوْهُ ضَرَارًا لِمَسْجِدِ قُبَاءَ، وَكُفْرًا بِاللَّهِ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، «وَإِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ» [التوبة: ١٠٧] وَهُوَ أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: الرَّاهِبُ، لَعَنَهُ اللَّهُ. وَقَوْلُهُ: «لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا» نَهَى لَهُ ﷺ - وَالْأَمَةُ تَبِعَ لَهُ فِي ذَلِكَ - عَنْ أَنْ يَقُومَ فِيهِ أَيِ: يُصَلِّيَ فِيهِ أَبَدًا.

[فَضْلُ مَسْجِدِ قُبَاءَ وَالصَّلَاةِ فِيهِ]

ثُمَّ حَتَّهَ عَلَى الصَّلَاةِ بِمَسْجِدِ قُبَاءَ الَّذِي أُسَسَ - مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ - بُنْيَانُهُ عَلَى التَّقْوَى، وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ وَجَمْعًا لِكَلِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَعْقِلًا وَمَوْئِلًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «لَمَسْجِدُ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» وَالسِّيَاقُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِضِ مَسْجِدِ قُبَاءَ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ كَعُمْرَةٍ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَزُورُ مَسْجِدَ قُبَاءَ رَاكِبًا وَمَاشِيًا<sup>(٣)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا

(١) الطبري: ٤٧٠/١٤ (٢) ابن ماجه: ٤٥٢/١ والترمذي:

٣٢٤ (٣) فتح الباري: ٨٢/٣ ومسلم: ١٣٩٩ (٤) أبو داود:

٤٤ والترمذي: ٣١٠٠ وابن ماجه: ٣٥٧ (٥) أحمد: ٤٢٢/٣

(٦) ابن خزيمة: ٤٥/١ (٧) أحمد: ٤٧١/٣ ٤٧٢

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٢٠٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ

التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْلِصُونَ  
الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
وَالنَّكَاهُوتِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ  
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ  
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ  
مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٢﴾ وَمَا كَانِ  
أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ  
فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ  
﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّى  
يُبَيِّنَ لَهُمْ مَآيَتَقُونِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ  
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ  
دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٥﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى  
النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي  
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ  
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٦﴾

رُسُلِهِ فِي كُتُبِهِ الْكُبَارِ، وَهِيَ التَّوْرَةُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى مُوسَى،  
وَالْإِنْجِيلُ الْمُنَزَّلُ عَلَى عِيسَى، وَالْقُرْآنُ الْمُنَزَّلُ عَلَى  
مُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَقَوْلُهُ:  
﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾ فَإِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْبِعَادَ.  
هَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ  
أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاسْتَشِيرُوا  
بَيْنَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ أَيُّ:  
فَاسْتَشِيرُوا مَنْ قَامَ بِمُقْتَضَى هَذَا الْعَقْدِ وَوَفَّى بِهِذَا الْعَهْدِ  
بِالْقَوْرِ الْعَظِيمِ وَالنَّيِّمِ الْمُقِيمِ.

﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ

الْمُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُوتِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ  
اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾

(\*) أى قامته وفي بعض النسخ: مُثَالَةً وهو غير واضح والله  
أعلم (١) الطبري: ٤٩٣/١٤ (٢) الطبري: ٤٩٥/١٤ (٣) الطبري: ٤٩٩/١٤ (٤) الطبري: ٤٩٩/١٤ (٥) فتح  
الباري: ٢٥٤/٦ ومسلم: ١٤٩٦/٣

فَأَتَمَّا يَبْنِي هَؤُلَاءِ بُنْيَانَهُمْ ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾، أَيُّ:  
طَرَفٍ حَفِيرَةٍ مِثْلَهُ (\*) ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: لَا يُصْلِحْ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ جَابِرُ بْنُ  
عَبْدِ اللَّهِ: رَأَيْتُ الْمَسْجِدَ الَّذِي بُنِيَ ضِرَارًا يَخْرُجُ مِنْهُ  
الدُّخَانُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا  
يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أَيُّ: شُكًّا وَنِفَاقًا،  
بِسَبَبِ إِفْدَائِهِمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ أَوْرَثَهُمْ نِفَاقًا فِي  
قُلُوبِهِمْ كَمَا أَشْرَبَ عَابِدُو الْعَجَلِ حُبَّهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ  
تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيُّ: بِمَوْتِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ  
وَقَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالسُّدِّيُّ، وَحَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ،  
وَالضَّحَّاكُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ  
عُلَمَاءِ السَّلَفِ (٢). ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ: بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ  
﴿حَكِيمٌ﴾ فِي مُجَازَاتِهِمْ عَنْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ  
لَّهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا  
عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى  
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَشِيرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ  
هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ (٣)

[اشْتَرَى اللَّهُ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالْجَنَّةِ]  
يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَاوَضَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ  
وَأَمْوَالِهِمْ - إِذْ بَذَلُوهَا فِي سَبِيلِهِ - بِالْجَنَّةِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ  
وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَإِنَّهُ قَبِلَ الْعَوَاضَ عَمَّا يَمْلِكُهُ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ  
عَلَى عِبِيدِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ. وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ  
وَقَتَادَةُ: بَايَعَهُمُ وَاللَّهُ! فَأَعْلَى تَمَنُّهِمْ (٤). وَقَالَ شِمْرُ بْنُ  
عَطِيَّةٍ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي عَقْبِهِ بَيْعَةً، وَفَى  
بِهَا أَوْ مَاتَ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (٥). وَلِهَذَا يُقَالُ: مَنْ  
حَمَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَايَعَ اللَّهَ. أَيُّ: قَبِلَ هَذَا الْعَقْدَ وَوَفَّى  
بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾  
أَيُّ: سَوَاءً قُتِلُوا أَوْ قُتِلُوا، أَوْ اجْتَمَعَ لَهُمْ هَذَا وَهَذَا، فَقَدْ  
وَجَبَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ.

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «وَنَكَفَلَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي  
سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَتَصَدِيقَ بَرُسُلِي،  
بِأَنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ  
مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» (٦). وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَدًا  
عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ﴾ تَأْكِيدٌ لِهَذَا  
الْوَعْدِ وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُ قَدْ كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى



يُخَاطَبُ ثُمَّ قَامَ مُسْتَعِيرًا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا رَأَيْنَا مَا صَنَعْتَ. قَالَ: «إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّي فَأَذِنَ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي» فَمَا رَيْتُمْ بَاكِيًا أَكْثَرَ مِنْ يَوْمَيْدٍ<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ الْعُوفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ» الْآيَةِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَأُمِّهِ فَتَنَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ»... الْآيَةِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، كَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَأَسْكَبُوا عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لِأَمْوَاتِهِمْ وَلَمْ يُنْهَوْا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْأَحْيَاءِ حَتَّى يَمُوتُوا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ: «وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ» الْآيَةَ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا زَالَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: لَمَّا مَاتَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَلْقَى أَبَاهُ، وَعَلَى وَجْهِ أَبِيهِ الْقَتْرَةَ وَالْعَبْرَةَ. فَيَقُولُ: يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنِّي كُنْتُ أَغْصِيكَ وَإِنِّي الْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ. فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ! أَلَمْ تَعُدَّنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ. فَيَقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَرَاءَكَ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ، أَيُّ: قَدْ مُسِخَ ضَبْعًا ثُمَّ يَسْحَبُ بِقَوَائِمِهِ وَيُلْقِي فِي النَّارِ<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ قَالَ: الْأَوَّاهُ: الدَّعَاءُ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ<sup>(١٠)</sup>. وَقِيلَ: الْمُتَضَرِّعُ. وَقِيلَ: الرَّجِيمُ. وَقِيلَ: الْمُؤْفِقُ الْمُؤْمِنُ. وَقِيلَ: الْمُسِيحُ. وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ.

«وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ» إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ<sup>(١١)</sup> إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ

هَذَا نَعَتْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اشْتَرَى اللَّهُ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْخِلَالِ الْجَلِيلَةِ «الَّتِي هُنَّ» مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ «الْمُيْتَرِّينَ» أَيُّ: الْقَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا وَهِيَ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ، فَمِنْ أَحْصَى الْأَقْوَالِ الْحَمْدُ، فَهَذَا قَالَ: «الْحَمْدُ» وَمِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الصِّيَامُ، وَهُوَ تَرْكُ الْمَلَأَدِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْجِمَاعِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالسَّيَاحَةِ هَهُنَا، وَلِهَذَا قَالَ: «الْمُسْكِينُونَ» كَمَا وَصَفَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «سَبَّحْتَ» [التَّحْرِيم: ٥] أَيُّ: صَائِمَاتٍ، وَكَذَا الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ وَهُمَا عِبَادَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ» وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَتَّقُونَ خَلْقَ اللَّهِ وَيُؤْشِدُونَهُمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ بِأَمْرِهِمُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ الْعِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ وَيَجِبُ تَرْكُهُ، وَهُوَ حِفْظُ حُدُودِ اللَّهِ فِي تَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا، فَقَامُوا بِعِبَادَةِ الْحَقِّ وَنُصَحَ الْخَلْقِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ، وَالسَّعَادَةُ كُلَّ السَّعَادَةِ لِمَنْ انْتَصَفَ بِهِ.

«مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ»<sup>(١٢)</sup> وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ<sup>(١٣)</sup>

[النَّهْيُ عَنِ الدَّعَاءِ لِلْمُشْرِكِينَ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوُفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! أَتَزْعُبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَقَالَ: أَنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتَّعِظْ عَنْكَ» فَزَلَّتْ: «مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» قَالَ: وَنَزَلَتْ فِيهِ. «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»<sup>(١٤)</sup> [الْقَصَص: ٥٦] أَخْرَجَاهُ<sup>(١٥)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، أَتَى رَسْمَ قَبْرِ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ

(١) أحمد: ٤٣٣/٥ (٢) فتح الباري: ١٩٢/٨ ومسلم: ٥٤/١

(٣) الطبري: ٤٨٩/٦ (٤) الطبري: ٥١٢/١٤ (٥) الطبري:

٥١٣/١٤ (٦) الطبري: ٥١٩/١٤ (٧) الطبري: ١٤/

٥١٩، ٥١٨ (٨) الطبري: ٥٢١/١٤ (٩) الطبري: ١٤/

٥٢٤، ٥٢٣ (١٠) الطبري: ٥٢٤/١٤

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

[لَا مُؤَاخَذَةً إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَحُكْمِهِ الْعَادِلِ: إِنَّهُ لَا يُضِلُّ قَوْمًا إِلَّا بَعْدَ إِبْلَاجِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ، حَتَّى يَكُونُوا قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَعَدَّتْهُمْ﴾ [الآيَةُ (فصلت: ١٧)]، وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ [الآيَةُ]، قَالَ: بَيَّانُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي تَرْكِ الْإِسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ خَاصَّةً، وَفِي بَيَانِهِ لَهُمْ مَعْصِيَتُهُ وَطَاعَتُهُ عَامَّةً. فَافْعَلُوا أَوْ ذَرُّوا<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَقْضِيَ عَلَيْكُمْ فِي اسْتِغْفَارِكُمْ لِمَوْتَاكُمْ الْمُشْرِكِينَ بِالضَّلَالِ بَعْدَ [إِذْ] رَزَقَكُمْ الْهَدَايَةَ وَوَفَّقَكُمْ لِلِإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، حَتَّى يَتَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالنَّهْيِ عَنْهُ فَتَتَرَكُوا. فَأَمَّا قَبْلَ أَنْ يَبَيَّنَ لَكُمْ كَرَاهَةَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ، ثُمَّ تَعَدَّدُوا نَهْيَهُ إِلَى مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَإِنَّهُ لَا يَحْكُمُ عَلَيْهِنَّ بِالضَّلَالِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ إِنَّمَا يَكُونَانِ مِنَ الْأُمُورِ وَالْمَنْهِيِّ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ [يُؤْمَرْ] وَلَمْ يَنْهَ فَعَبْرُ كَائِنٍ مُطِيعًا أَوْ عَاصِيًا فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ وَلَمْ يَنْهَ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَم مَّلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هَذَا تَحْرِيسٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمُلُوكِ الْكُفْرِ، وَأَنْ يَقُولُوا بِنَصْرِ اللَّهِ مَالِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَزْهَبُوا مِنْ أَعْدَائِهِ، فَإِنَّهُ لَا وَلِيَّ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلَا نَصِيرَ لَهُمْ سِوَاهُ<sup>(٣)</sup>.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ فُلُوبُ قَرِيبٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [بَيَّانُ غَزْوَةِ تَبُوكَ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا إِلَيْهَا فِي شِدَّةٍ مِنَ الْأَمْرِ، فِي سَنَةِ مُجَدِّيَّةٍ وَحَرٍّ شَدِيدٍ وَعُسْرِ مِنَ الرِّأْدِ وَالْمَاءِ<sup>(٤)</sup>. قَالَ فَتَادَهُ: خَرَجُوا إِلَى الشَّامِ عَامَ تَبُوكَ فِي لَهْبَانِ الْحَرِّ - عَلَى مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنَ الْجُهْدِ - أَصَابَهُمْ فِيهَا جَهْدٌ شَدِيدٌ، حَتَّى لَقَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ كَانَا يَشْقَانِ الثَّمَرَةَ بَيْنَهُمَا، وَكَانَ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٢٠٦

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِعُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٨﴾ مَا كَانَ لِلْأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يُرْعَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِن عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٩﴾ وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُم لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢١﴾

الْفَرَّ يَتَدَاوَلُونَ الثَّمَرَةَ بَيْنَهُمْ يَمْضُهَا هَذَا ثُمَّ يَشْرِبُ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَمْضُهَا هَذَا ثُمَّ يَشْرِبُ عَلَيْهَا، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَقْلَهُمْ مِنْ غَزْوَتِهِمْ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي شَأْنِ الْعُسْرَةِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَتَرَلْنَا مَتَرًا فَأَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رَقَابَتَنَا سَتَنْقَطِعُ، وَحَتَّى إِذَا كَانَ الرَّجُلُ لَيَذْهَبُ يَلْتَمِسُ الْمَاءَ فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رَقَبَتَهُ سَتَنْقَطِعُ، وَحَتَّى إِذَا كَانَ الرَّجُلُ لَيَنْحَرُ بِعِمْرَةٍ فَيَعْصُرُ فَرْتَهُ فَيَشْرِبُهُ، وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَوَّذَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ لَنَا. فَقَالَ «تُحِبُّ ذَلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَرْجِعْهُمَا حَتَّى سَالَتْ السَّمَاءُ فَأَهْطَلَتْ ثُمَّ سَكَتَتْ، فَمَلَأُوا مَا مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا

(١) الطبري: ٥٣٧/١٤ (٢) الطبري: ٥٣٦/١٤ (٣) الطبري: ٥٣٨/١٤ (٤) الطبري: ٥٤٠/١٤ (٥) الطبري: ٥٤١/١٤

طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ، وَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعُرُ، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لَكُمْ أَنْتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعْ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَأَقُولُ لِنَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادَى بِي حَتَّى [سَمَرًا] بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، وَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقَهُ فَعَدَوْتُ بَعْدَ مَا فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادَى بِي حَتَّى

أَسْرَعُوا، وَتَفَارَطَ الْعَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأَلْحَقَهُمْ وَلَيْتَ أَنِّي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ ذَلِكَ لِي، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ [خُرُوجِ] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [طَفِقْتُ فِيهِمْ] يُحْزِنُنِي أَنْ لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَعْمُوصًا عَلَيْهِ فِي الثَّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: حَبَسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! بُرْذَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِيهِ، فَقَالَ لَهُ مَعَاذُ بَنِ جَبَلٍ: بِسْمَا قُلْتُ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ، حَضَرَنِي بَنِي وَطَفِقْتُ أَتَذْكُرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرَجَ مِنْ سَخَطِهِ عَدَا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجِ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى رُكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُتَخَلِّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَخْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضَعَةِ وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَيَقْبَلُ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلِمْتُ عَلَيْهِ بِسْمِ تَبَسُّمِ الْمُغْصَبِ، ثُمَّ قَالَ لِي: «تَعَالَى» فَجِئْتُ أُمْسِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ اشْتَرَيْتَ ظَهْرًا؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتَ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدِي، لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ

جَاوَزْتَ الْعُسْكَرَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَتَبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ» أَيُّ مِنَ التَّفَقُّةِ وَالظَّهْرِ وَالزَّادِ وَالْمَاءِ «وَمِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرْيَبُ قُلُوبُ قَرِيبٍ مِنْهُمْ» أَيُّ عَنِ الْحَقِّ، وَيَسْئَلُ فِي دِينِ الرَّسُولِ ﷺ وَيَرْتَابُ لِلَّذِي نَالَهُمْ مِنْ الْمُسْقَافَةِ وَالشَّدَةِ فِي سَفَرِهِمْ وَعَزْوِهِمْ «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ» يَقُولُ: ثُمَّ رَزَقَهُمُ الْإِنَابَةَ إِلَى رَبِّهِمْ وَالرُّجُوعَ إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ «إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهُوْهُ تَحِيَّةً»<sup>(٢)</sup>.

«وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»<sup>(٣)</sup> يَتَابُهُا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ<sup>(٤)</sup>

### [قِصَّةُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبٍ بَنَ مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ. قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ ابْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: لَمْ أَتَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزَاةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزَاةٍ بَذَرٍ وَلَمْ يُعَاتَبَ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهَا، وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ فَرْنِشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعُقَبَةِ حِينَ تَوَاقَعْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أَحْبَبْتُ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدٌ بَذَرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَذَرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَرَ، وَكَانَ مِنْ خَبْرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَاللَّهِ! مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاجِلَتَيْنِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ فَعَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرْ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَقَارًا، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا [فَجَلَى] لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةً عَدُوَّهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ وَجْهَهُ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، لَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدُّيُونَ - قَالَ كَعْبُ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى عَلَيْهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَخِي مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزَاةَ حِينَ

كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُبْشِرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّى جَاءَ فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكٍ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغْنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْكَ فِي دَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نَوَاسِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهُ: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، قَالَ: فَتَيَمَّمْتُ بِهِ التُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهِ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ، إِذَا بِرَسُولٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي يَقُولُ: يَا مُرُكُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَعْتَزَلَ أَمْرَاتِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ: أَطْلُقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ فَقَالَ: بَلِ اغْتَرَلْهَا وَلَا تَقْرُهَا، قَالَ: وَأَرْسَلَ إِلَيَّ صَاحِبِي بِمِثْلِ ذَلِكَ. قَالَ: فَقُلْتُ لِأَمْرَأَتِي: الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَا يَشَاءُ. قَالَ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ هَلَالَ بْنَ شَيْخٍ ضَعِيفٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدِمَهُ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ [لَا يَقْرُبُكَ]» قَالَتْ: وَإِنَّهُ وَاللَّهِ! مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ! مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أَمْرَاتِكَ، فَقَدْ أَذِنَ لِمَرْأَةٍ هَلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدِمَهُ. قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ! لَا اسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا أَذْرِي مَا يَقُولُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ.

قَالَ: فَلَبِثْنَا عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمَلْنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى عَنْ كَلَامِنَا. قَالَ: ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الصُّبْحِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَنَا، قَدْ ضَافَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَافَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، سَمِعْتُ صَارِحًا أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ سَلَعَ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَبْشِرْ يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ! قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْنَا، فَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الْفَجْرَ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبْشِرُونَا وَذَهَبَ قَيْلٌ صَاحِبِي مُبْشِرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ قَرَسًا وَسَعَى سَاعَ مِنْ أَسْلَمَ، وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبْشِرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَاللَّهِ! مَا أَتَمَّلْتُ يَوْمِيذٍ غَيْرَهُمَا، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَأَنْطَلَقْتُ أَزُومُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَلَقَانِي النَّاسُ

لِئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ بِحَدِيثٍ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلِئِنْ حَدَّثْتُكَ بِصِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو عُقْبَى ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهِ! مَا كَانَ لِي عُدْرٌ، وَاللَّهِ! مَا كُنْتُ قَطُّ أَفْرَعُ وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ» فَقُمْتُ وَقَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَأَتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ! مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنِبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ مِنْ ذَنْبِكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَبِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ، فَأَكْذَبْتُ نَفْسِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ مَعِيَ هَذَا أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، لَقِيَته مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: فَمَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَامِرِيُّ وَهَلَالُ ابْنِ أُمَيَّةَ الْوَاقِعِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بِذَرٍّ لِي فِيهِمَا أَسْوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي. قَالَ: وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا - أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ - مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَتَعَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي فِي نَفْسِي الْأَرْضَ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ. وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَدَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ بِالْأَشْوَاقِ فَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَاتَّبَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَاسْلَمَ وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَحْرَكَ شَفِيتِي بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصْلَيْ قَرِيبًا مِنْهُ وَأَسَارِفُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، فَإِذَا التَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ حَائِطَ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ! مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ! أُنَشِّدُكَ اللَّهَ هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أَحْبَبْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ قَالَ: فَسَكَتَ، قَالَ: فَعَدْتُ لَهُ فَتَشَدَّدْتُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ. فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا أَنَا بِبَطْطِيٍّ مِنْ أَنْبَاطِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى

عَنْهُمْ فَلَمَّا فَاتَ اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [التوبة: ٩٦، ٩٥] قَالَ: وَكُنَّا - أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ - خُلِفْنَا عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا قَبَائِعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ وَلَيْسَ تَخْلِيفُهُ إِثْنَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرُنَا الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِفْنَا بِتَخْلِيفِنَا عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ (١).

هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ ثَابِتٌ مَتَّفِقٌ عَلَى صِحَّتِهِ رَوَاهُ صَاحِبَا الصَّحِيحِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ بِنَحْوِهِ (٢). فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَبْسَطِهَا، وَكَذَا رُويَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا، كَمَا رَوَاهُ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ قَالَ: هُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَهَيْلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ، وَمُرَّادَةُ بْنُ الرَّبِيعِ. وَكُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ (٣).

#### [الْأَمْرُ بِقَوْلِ الصَّدَقِ]

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فَرَّجَ بِهِ عَنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الضِّيقِ وَالْكَرْبِ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ لَيْلَةً بِأَيَّامِهَا، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، أَيْ مَعَ سَعَتِهَا: فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكُ وَالْمَذَاهِبُ فَلَا يَهْتَدُونَ مَا يَصْنَعُونَ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَاسْتَكَانُوا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَتَبَتُوا حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تَخْلِيفِهِمْ، وَأَنَّهُ كَانَ عَنْ غَيْرِ عَذْرٍ فَعُوْقُوا عَلَى ذَلِكَ هَذِهِ الْمُدَّةَ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ عَاقِبَتُهُ صِدْقَهُمْ خَيْرًا لَهُمْ وَتَوْبَةً عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيِ اضْطَقُوا وَالزَّمُوا الصَّدَقَ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ وَتَنْجُوا مِنَ الْمَهَالِكِ، وَيجعل لكم فرجا من أموركُم ومخرجًا، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يَكُتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِيَّاكُمْ

فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بِتَوْبَةِ اللَّهِ، يَقُولُونَ: لِيَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ حَوْلُهُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ يَهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّائِي، وَاللَّهُ! مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ. قَالَ: فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَسْأَلُهَا لَطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ الشَّرُّورِ: «أَبَشِرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتُكَ أَمَلَكَ». قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قُطْعَةُ قَمَرٍ حَتَّى يَعْرِفَ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قَالَ: فَقُلْتُ: فَإِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا نَجَانِي اللَّهُ بِالصَّدَقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحْدِثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ، قَالَ: فَوَاللَّهِ! مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ مِنَ الصَّدَقِ فِي الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَهُ مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا بَقِيَ.

قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ النُّشُورِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِسُوءِ أِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٨) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١٩) إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ. قَالَ كَعْبٌ: فَوَاللَّهِ! مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ، أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبْتُهُ فَأَهْلِكُ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَّبُوهُ حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرًّا مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَعَنَرُوهَا عَنْهُمْ فَأَعَرُوهَا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَنُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢٠) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا

(١) أحمد: ٤٥٧/٣ (٢) فتح الباري: ١٩٣/٨ ومسلم: ٤/

٢١٢١ (٣) الطبري: ٥٤٤/١٤

ضَرَّ ابْنُ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» يُرَدِّدُهَا مِرَارًا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَاِدْيَا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾... الآية: مَا اَزْدَادَ قَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بُعْدًا مِنْ أَهْلِهِمْ إِلَّا اَزْدَادُوا قُرْبًا مِنَ اللَّهِ<sup>(٤)</sup>.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَهُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَسْفَهُوا فِي الَّذِينَ وَلِشَذَرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَا أَرَادَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْيَاءِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ التَّغْيِيرُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] وَقَالَ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾... الآية [التوبة: ١٢٠]، قَالَ: فَتَسَخَّرَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِمُرَادِهِ تَعَالَى مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا، وَشِرْذِمَةٍ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ - إِنْ لَمْ يَخْرُجُوا كُلُّهُمْ - لِيَتَفَقَّهَ الْخَارِجُونَ مَعَ الرَّسُولِ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ، وَيُذَكِّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ، فَيَجْتَمِعَ لَهُمُ الْأَمْرَانِ فِي هَذَا التَّغْيِيرِ الْمُعَيَّنِ. وَبَعْدَهُ ﷺ تَكُونُ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ مِنَ الْحَيِّ، إِمَّا لِلتَّفَقُّهِ وَإِمَّا لِلْجِهَادِ. فَإِنَّهُ فَرَضَ كِفَايَةَ عَلَى الْأَحْيَاءِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَهُوا كَافَّةً﴾ يَقُولُ: مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَهُوا جَمِيعًا وَيَتْرَكُوا النَّبِيَّ ﷺ وَحْدَهُ ﴿فَلَوْلَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يَعْنِي غُصْبَةً، يَعْنِي السَّرَايَا. وَلَا يَتَسَرَّوْا إِلَّا بِإِذْنِهِ فَإِذَا رَجَعَتِ السَّرَايَا - وَقَدْ أُنْزِلَ بَعْدَهُمْ قُرْآنٌ تَعَلَّمَهُ الْقَاعِدُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - [قَالُوا]: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أُنْزَلَ عَلَى نَبِيِّكُمْ قُرْآنًا وَقَدْ تَعَلَّمْتَاهُ، فَتَمَكَّنَتْ السَّرَايَا يَتَعَلَّمُونَ مَا أُنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِمْ بَعْدَهُمْ، وَيَبْعَثُ سَرَايَا أُخْرَى، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَيَسْفَهُوا فِي الَّذِينَ﴾ يَقُولُ: [لَيَتَعَلَّمُوا] مَا أُنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِمْ، وَلَيَتَعَلَّمُوا السَّرَايَا إِذَا رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَنْاسٍ مِنْ أَصْحَابِ

وَالْكَذِبِ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَلُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَلِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ﴾

### [جَزَاءُ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوَةِ]

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، وَرَغَبْتَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُوَسَّاتِهِ فِيمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ، فَإِنَّهُمْ نَقَضُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ لِأَنَّهُمْ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَهُوَ الْعَطَشُ﴾ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وَهُوَ التَّعَبُ ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وَهِيَ الْمَجَاعَةُ ﴿وَلَا يَطَلُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أَيْ يَنْزِلُونَ مَنْزِلًا يُرْهِبُ عَدُوَّهُمْ ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ مِنْهُ ظَفَرًا وَغَلَبَةً عَلَيْهِ ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ﴾ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَيْسَتْ دَاخِلَةً تَحْتَ قَدَرِهِمْ، وَإِنَّمَا هِيَ نَاشِئَةٌ عَنْ أَفْعَالِهِمْ أَعْمَالًا صَالِحَةً وَثَوَابًا جَزِيلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَا يُفْقِرُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُفْقِرُونَ﴾ هُوَ لَا غَزَاةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أَيْ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أَيْ فِي السَّبْرِ إِلَى الْأَعْدَاءِ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ هَهُنَا: ﴿بِهِمْ﴾ لِأَنَّ هَذِهِ أَفْعَالٌ صَادِرَةٌ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَقَدْ حَصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَظٌّ وَافِرٌ وَنَصِيبٌ عَظِيمٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتَقَّى فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ الثَّقَاتِ الْجَلِيلَةِ وَالْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ. وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ:

جَاءَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي تَوْبِهِ حَتَّى جَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشَ الْمُسَرَّةِ، قَالَ: فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْلِبُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ: «مَا

(١) أحمد: ٣٨٤/١ (٢) فتح الباري: ١٠/٥٢٣ ومسلم: ٤/

٢٠١٢ (٣) أحمد: ٦٣/٥ (٤) الطبري: ١٤/٥٦٥ (٥)

الطبري: ١٤/٥٦٧

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ  
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾  
وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ  
إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ  
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا  
إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ  
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ  
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ  
سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ  
ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ  
﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ  
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ  
رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ التَّوْبَةِ

النَّبِيِّ ﷺ، خَرَجُوا فِي الْبُؤَادِي فَأَصَابُوا مِنَ النَّاسِ مَعْرُوفًا،  
وَمِنَ الْخُصْبِ مَا يَنْتَعِمُونَ بِهِ، وَدَعَوْا مَنْ وَجَدُوا مِنَ النَّاسِ  
إِلَى الْهُدَى، فَقَالَ النَّاسُ لَهُمْ: مَا تَرَاكُمْ إِلَّا وَقَدْ تَرَكْتُمْ  
أَصْحَابَكُمْ وَجِئْتُمُونَا؟ فَوَجَدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَلِكَ تَحَرُّجًا  
وَأَقْبَلُوا مِنَ الْبَادِيَةِ كُلُّهُمْ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ  
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يَبْغُونَ  
الْخَيْرَ ﴿لِيَسْتَفْهَمُوا فِي الدِّينِ﴾ وَلِيَسْتَمِعُوا مَا فِي النَّاسِ وَمَا  
أَنْزَلَ اللَّهُ [بَعْدَهُمْ]، ﴿وَلِيَذْكُرُوا قَوْمَهُمُ﴾ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِذَا  
رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي الْآيَةِ: هَذَا إِذَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
الْجُيُوشَ أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَغْزُوا بِنِسْبَةِ ﷺ، وَتَقِيمَ طَائِفَةٌ مَعَ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَتَنْطَلِقَ طَائِفَةٌ تَدْعُو قَوْمَهَا  
وَتُحَذِّرُهُمْ وَقَائِعَ اللَّهِ فَيَمْنَحَ خَلَا قَبْلَهُمْ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَمَا  
كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسِفِرُوا كَافَّةً﴾: إِنَّهَا لَيْسَتْ فِي الْجِهَادِ،  
وَلَكِنْ لَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مُضَرٍّ بِالسِّينِ، أَجْدَبَتْ  
بِلَادَهُمْ وَكَانَتْ الْقَبِيلَةُ مِنْهُمْ ثَقِيلًا بِأَسْرِهَا، حَتَّى يَحِلُّوا  
بِالْمَدِينَةِ مِنَ الْجَهْدِ وَيَعْتَلُوا بِالْإِسْلَامِ وَهُمْ كَاذِبُونَ، فَضَيَّقُوا  
عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَجْهَدُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى  
يُخَبِّرُ رَسُولَهُ أَنََّّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، فَزَادَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى  
عَشَائِرِهِمْ وَحَذَّرَ قَوْمَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلَهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:  
﴿وَلِيَذْكُرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾... الْآيَةُ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ

وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

[الْأَمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْأَقْرَبُ بِالْأَقْرَبِ]

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقَاتِلُوا الْكُفَّارَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا،  
الْأَقْرَبَ بِالْأَقْرَبِ إِلَى حُزْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا بَدَأَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُمْ  
وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالطَّائِفَ، وَالْيَمَنَ وَالْيَمَامَةَ  
وَهَجَرَ وَخَيَّرَ وَحَضَرَمَوْتَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَقَالِيمِ جَزِيرَةِ  
الْعَرَبِ، وَدَخَلَ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فِي دِينِ اللَّهِ  
أَفْوَاجًا، شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَتَجَهَّزَ لِعَزْوِ الرُّومِ  
الَّذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَوَّلَى النَّاسِ  
بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَبَلَغَ تَبُوكَ ثُمَّ  
رَجَعَ لِأَجْلِ جَهْدِ النَّاسِ وَجَدِبِ الْبِلَادِ وَضِيقِ الْحَالِ،  
وَذَلِكَ سَنَةٌ تَسَعٍ مِنْ هِجْرَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ اسْتَعَلَّ فِي

السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ بِحَجَّةِ الْوُدَّاعِ، ثُمَّ عَاجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ - صَلَوَاتُ  
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بَعْدَ حَجَّتِهِ بِأَحَدٍ وَتَمَانِينَ يَوْمًا، فَاخْتَارَهُ  
اللَّهُ لِمَا عِنْدَهُ وَقَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَزِيرُهُ وَصِدِّيقُهُ وَخَلِيفَتُهُ أَبُو  
بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ مَالَ الدِّينُ مَيْلَةً كَادَ أَنْ  
يَنْجِفَلَ، فَثَبَّتَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، فَوَطَّدَ الْقَوَاعِدَ وَثَبَّتَ الدَّعَائِمَ،  
وَرَدَّدَ شَارِدَ الدِّينِ وَهُوَ رَاغِمٌ، وَرَدَّدَ أَهْلَ الرَّدَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ،  
وَأَخَذَ الزَّكَاةَ مِنْ مَنْ مَنَعَهَا مِنَ الطَّعَامِ، وَبَيَّنَ الْحَقَّ لِمَنْ  
جَهَلَ، وَأَدَّى عَنِ الرَّسُولِ مَا حَمَلَهُ، ثُمَّ شَرَعَ فِي تَجْهِيْزِ  
الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى الرُّومِ عَبْدَةَ الصُّلْبَانِ، وَإِلَى الْفُرْسِ  
عَبْدَةَ الشِّرَانِ، فَفَتَحَ اللَّهُ بِبَرَكَتِهِ سِفَارَتِهِ الْبِلَادَ، وَأَرَاغَمَ أَنْفَ  
كَسْرَى وَفَيْصَرَ وَمَنْ أَطَاعَهُمَا مِنَ الْعِبَادِ. وَأَنْفَقَ كُنُوزَهُمَا  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَانَ تَمَامُ  
الْأَمْرِ عَلَى يَدَيْ وَصِيِّهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَوَلِيِّ عَهْدِهِ الْفَارُوقِ  
الْأَوَّابِ، شَهِيدِ الْمُخْرَابِ، أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

وَاللَّهُ الْمَسْئُولُ الْمَأْمُولُ أَنْ يُمَكِّنَ الْمُسْلِمِينَ [مِنْ] نَوَاصِي أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يُعْلِي كَلِمَتَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ. إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

[إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَالْمُتَافِقُونَ يَزِدُّونَ رِجْسًا] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ فَمِنْ الْمُتَافِقِينَ ﴿مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾ أَيْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ إِيْمَانًا؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَكْبَرِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْإِيْمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنَ أَيْمَةِ الْعُلَمَاءِ. بَلْ قَدْ حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ بَسِطَ الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أَيْ زَادَتْهُمْ شُكًّا إِلَى شَكِّهِمْ وَرِيًّا إِلَى رِيْبِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٨٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَعَادَتِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فَصَلَتْ: ٤٤] وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ شَفَائِهِمْ أَنَّ مَا يَهْدِي الْقُلُوبَ يَكُونُ سَبَبًا لِضَلَالِهِمْ وَدَمَارِهِمْ، كَمَا أَنَّ سَبَبَ الْمَزَاجِ لَوْ غَدِيَ بِهِ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا خَبَالًا وَنَقْصًا.

﴿وَأُولَئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَبِّعُكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

[ابْتِلَاءُ الْمُتَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَوْ لَا يَرَى هَؤُلَاءِ الْمُتَافِقُونَ ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أَيْ يُخْتَبَرُونَ ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أَيْ: لَا يَتُوبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ. وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ: يُخْتَبَرُونَ بِالسَّيِّئَةِ وَالْجُوعِ <sup>(١)</sup>.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَرْغَمَ اللَّهُ بِهِ أُنُوفَ الْكُفَرَةِ الْمُلْحِدِينَ، وَقَمَعَ الطُّغَاةَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاسْتَوَلَى عَلَى الْمَمَالِكِ شَرْقًا وَغَرْبًا. وَحُمِلَتْ إِلَيْهِ خَزَائِنُ الْأَمْوَالِ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بَعْدًا وَقُرْبًا. فَفَرَّقَهَا عَلَى الْوُجُوهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالسَّبِيلِ الْمَرْضِيِّ. ثُمَّ لَمَّا مَاتَ شَهِيدًا وَقَدْ عَاشَ حَيِيدًا، أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَى خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَهِيدَ الدَّارِ.

فَكَسَى الْإِسْلَامُ حُلَّةَ سَابِعَةٍ. وَأَمَدَّتْ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ حُجَّةُ اللَّهِ الْبَالِغَةُ. فَظَهَرَ الْإِسْلَامُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَعَارِبِهَا. وَعَلَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَظَهَرَ دِينُهُ. وَبَلَغَتِ الْإِيمَةُ الْحَنِيفَةَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ غَايَةَ مَارِبِهَا. وَكُلَّمَا عَلُوا أُمَّةٌ انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْعَنَاءِ الْقُبَارِ، امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أَيْ وَلِيَجِدِ الْكُفَّارُ مِنْكُمْ غِلْظَةً عَلَيْهِمْ فِي قِتَالِكُمْ لَهُمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ رَفِيقًا لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ غَلِظًا عَلَى عَدُوِّهِ الْكَافِرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٥٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الْفَتْحُ: ٢٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَغُلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ قَاتِلُوا الْكُفَّارَ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ إِذَا اتَّقَيْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ، وَهَكَذَا الْأَمْرُ لَمَّا كَانَتِ الْقُرُونُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي غَايَةِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَزَالُوا ظَاهِرِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ. وَلَمْ تَزَلِ الْفُتُوحَاتُ كَثِيرَةً، وَلَمْ تَزَلِ الْأَعْدَاءُ فِي سَفَالٍ وَخَسَارٍ.

ثُمَّ لَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنُ وَالْأَهْوَاءُ وَالْإِخْتِلَافَاتُ بَيْنَ الْمُلُوكِ، طَمَعَ الْأَعْدَاءُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ وَتَقَدَّمُوا إِلَيْهَا، فَلَمْ يُمَانَعُوا - لِشُغْلِ الْمُلُوكِ بِبَعْضِهِمْ بَعْضٌ - ثُمَّ تَقَدَّمُوا إِلَى حَوْرَةِ الْإِسْلَامِ فَأَخَذُوا مِنَ الْأَطْرَافِ بُلْدَانًا كَثِيرَةً، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا حَتَّى اسْتَحْوَذُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، فَكُلَّمَا قَامَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ وَأَطَاعَ أَوْ أَمَرَ اللَّهُ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْبِلَادِ، وَاسْتَرْجَعَ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِحَسْبِهِ وَبِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ.



وَالْأَخْرَوِيَّ إِلَيْكُمْ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ حُرْمَةً إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَطْلُعُ مِنْكُمْ مُطْلِعٌ، أَلَا وَإِنِّي آجِزٌ بِحُجْرَتِكُمْ أَنْ تَهَافُتُوا فِي النَّارِ كَتَهَافَتِ الْفَرَّاشِ أَوْ الذَّبَابِ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رُدُّوهُ رَجِيمًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣٥)</sup> فَإِنَّ عَصْوَك فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ<sup>(٣٦)</sup> وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ<sup>(٣٧)</sup> [الشعراء: ٢١٥-٢١٧] وَهَكَذَا أَمَرَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيُّ: تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْعَظِيمَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْكَامِلَةِ الشَّامِلَةِ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ: اللَّهُ كَافِيٌّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ الْشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أَيُّ: هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ، لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُوَ سَفَفُ الْمَخْلُوقَاتِ. وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا تَحْتَ الْعَرْشِ، مَقْهُورُونَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَقُدْرُهُ نَافِذٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ قَالَ: أَخِرَ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ<sup>(٤)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ زَيْدًا قَالَ: فَوَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ بَرَاءَةِ مَعَ خَزِيمَةَ بْنِ ثَابِتٍ أَوْ أَبِي خَزِيمَةَ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ تَذَكَّرُوا ذَلِكَ [عَنْ] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - كَمَا قَالَ خَزِيمَةُ بْنُ ثَابِتٍ حِينَ ابْتَدَأَهُمْ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ<sup>(٥)</sup>. آخِرُ سُورَةِ بَرَاءَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَجْدِثُمْ أَنْصَرَفُوا صَرَفَكُمُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ هَذَا أَيْضًا إِخْبَارٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أَيُّ: تَلَفَّتُوا ﴿هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَجْدِثُمْ أَنْصَرَفُوا﴾ أَيُّ: تَوَلَّوْا عَنْ الْحَقِّ وَأَنْصَرَفُوا عَنْهُ، وَهَذَا خَالِفُهُمْ فِي الدُّنْيَا لَا يَتَّبِعُونَ عِنْدَ الْحَقِّ وَلَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَفْهَمُونَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا هُمْ عَنْ التَّذَكُّرِ مُعْرِضِينَ﴾<sup>(٦)</sup> كَأَنَّهُمْ حُرٌّ مُسْتَنْفِرَةٌ<sup>(٧)</sup> قَرَّتْ مِنْ قَسْوَمَةٍ [المدثر: ٤٩-٥١] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَبِمَا كُنَّا فِيهِ مِنَ الْقَوْمِ الْيَاسِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧] أَيُّ: مَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ يَتَفَلَّلُونَ عَنْكَ يَمِينًا وَشِمَالًا هُرُوبًا مِنَ الْحَقِّ وَذَهَابًا إِلَى الْبَاطِلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَكُمُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أَيُّ: لَا يَفْهَمُونَ عَنْ اللَّهِ خَطَابَهُ، وَلَا يَتَصَدَّقُونَ لِقَوْلِهِ، وَلَا يُرِيدُونَهُ بَلْ هُمْ فِي شُغْلٍ عَنْهُ وَتَقْوَرُ مِنْهُ، فَلِهَذَا صَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ يَا مُؤْمِنِينَ رُدُّوهُ رَجِيمًا﴾<sup>(٨)</sup> فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ<sup>(٩)</sup>

[بِعِثَّةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَيُّ: مِنْ جَنْسِهِمْ وَعَلَى لِعَنِتُّمْ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ: مِنْكُمْ وَبَلَّغْتُكُمْ كَمَا قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّجَاشِيِّ وَالْمُعِيرَةِ ابْنِ شُعْبَةَ لِرَسُولٍ كَسَرَى: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِفَتَهُ، وَمَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ<sup>(١٠)</sup>... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أَيُّ: يَعِزُّ عَلَيْهِ الشَّيْءُ الَّذِي يُعِثُّ أَمْتُهُ وَيَسْقُ عَلَيْهِهَا. وَفِي الصَّحِيحِ «إِنَّ هَذَا الَّذِي يُسَرُّ»<sup>(١١)</sup>. وَشَرِيعَتُهُ كُلُّهَا سَهْلَةٌ سَمْحَةٌ كَامِلَةٌ، يَسِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسَرَّهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ: عَلَى هِدَايَتِكُمْ وَوُضُولِ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيِّ

(١) أحمد: ٢٠٢/١ و ٢٩١/٥ (٢) فتح الباري: ١١٦/١

(٣) أحمد: ٣٩٠/١ (٤) أحمد: ١١٧/٥ (٥) فتح الباري:

## تفسير سورة يونس - عليه السلام - وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾  
أَمَّا الْحُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾  
أَيُّ هَذِهِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمُحْكَمِ الْمُبِينِ.

[لَا يَكُونُ الرَّسُولُ إِلَّا بَشَرًا]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾... الآية. يَقُولُ تَعَالَى مُكْرِيًا عَلَى مَنْ تَعَجَّبَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ إِزْسَالِ الْمُرْسَلِينَ مِنَ الْبَشَرِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وَقَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ لِقَوْمِهِمَا: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٤] وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ، أَوْ مِنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ، فَقَالُوا: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا مِثْلَ مُحَمَّدٍ، قَالَ: فَانْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾... الآية<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ يَقُولُ: سَبَقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ: صَلَاتُهُمْ وَصَوْمُهُمْ وَصَدَقَتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمْ - قَالَ -: وَمُحَمَّدٌ ﷺ يَشْفَعُ لَهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ

مَعَ أَنَّا بَعَثْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ جِنْسِهِمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ ظَاهِرٌ وَهُمْ الْكَافِرُونَ فِي ذَلِكَ.

﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكَ كُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾  
﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٢ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾  
﴿إِنْ أَنْخِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ ٦

اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾

[اللَّهُ خَالِقُ الْكَوْنِ وَرَبُّهُ وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِ جَمِيعِهِ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ. قِيلَ: كَهَذِهِ الْأَيَّامِ. وَقِيلَ: كُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، كَمَا سَبَّأَنِي بَيَّاتُهُ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَقْفُهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أَيُّ يُدِيرُ [أَمْرٌ] الْخَلَائِقِ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣] وَلَا يُشْغِلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَا تُغْلِظُهُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يَتَّبِعُهُ بِالْحَاجِ الْمُلْحِجِينَ، وَلَا يُلْهِمُهُ تَذْيِيرُ الْكَبِيرِ عَنِ الصَّغِيرِ، فِي الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْعُمُرَانِ وَالْقِفَارِ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾... الآية: [هود: ٦]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا فِي يَدَيْهِ وَلَا حِجَابٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي

(١) الطبري: ١٣/١٥ الضحَّاك لم يسمع من ابن عباس كما تقدم

(٢) الطبري: ١٥/١٥ (٣) الطبري: ١٤/١٥ العوفي ضعيف -

خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَبُونَ ﴿٦﴾

[كُلُّ شَيْءٍ شَاهِدٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَنَّهُ جَعَلَ الشَّعَاعَ الصَّادِرَ عَنْ جِزْمِ الشَّمْسِ ضِيَاءً، وَجَعَلَ شُعَاعَ الْقَمَرِ نُورًا، هَذَا فَنٌ وَهَذَا فَنٌ آخَرُ، فَقَارَتْ بَيْنَهُمَا لَيْلًا يَسْتَبِيهَا، وَجَعَلَ سُلْطَانَ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ، وَسُلْطَانَ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ، وَقَدَّرَ الْقَمَرَ مَنَازِلَ: فَأَوَّلُ مَا يَبْدُو صَغِيرًا، ثُمَّ يَتَزَايَدُ نُورُهُ وَجِزْمُهُ حَتَّى يَسْتَوْسِقَ وَيَكْمُلُ إِبْدَارُهُ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النِّقْصِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلَى فِي تَمَامِ شَهْرٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ ﴿٦٦﴾ لَا الشَّمْسُ بَلْبَعِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿يس: ٣٩﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ الْآيَةُ

[الأنعام: ٩٦]. وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَقَدَرَهُ﴾ أَيِ الْقَمَرَ ﴿مَنَازِلَ لِّعَلَّمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْجَسَابِ﴾ فَبِالشَّمْسِ تُعْرَفُ الْأَيَّامُ، وَبِسِيرِ الْقَمَرِ تُعْرَفُ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيِ لَمْ يَخْلُقْهُ عَبَثًا بَلْ لَهُ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي ذَلِكَ، وَحُجَّةٌ بِالْبَعَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون: ١١٦، ١١٥] وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أَيِ يَبَيِّنُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيِ تَعَاثُفِهِمَا إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا، وَإِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ شَيْئًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ تَطْلُمُهُ حَيْثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وَقَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ بَلْبَعِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾... الْآيَةُ [يس: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ٩٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيِ مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ: ﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ [يوسف: ١٠٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ وَالْأَرْضِ﴾ [سبا: ٩]

كَلِمَتَيْنِ ﴿[الأنعام: ٥٩] وَقَالَ الدَّرَاوَرْدِيُّ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ عُجْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: جِئْتُ نَزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿إِنَّكَ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾... الْآيَةَ [الأعراف: ٥٤]، لِقَبِيهِمْ رُكْبٌ عَظِيمٌ لَا يُرَوْنَ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالُوا لَهُمْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنَ الْجِنِّ، خَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، أَخْرَجْتَنَا هَذِهِ الْآيَةُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ﴾ [سبا: ٢٣] وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيِ أَفَرُدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيِ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ، تَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَهُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَقَرَّدُ بِالْخَلْقِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧] وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا وَالَّتِي بَعْدَهَا.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١﴾

[مَرْجِعُ الْجَمِيعِ إِلَى اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَبْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا حَتَّى يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَمَا بَدَأَ الْخَلْقَ كَذَلِكَ يُعِيدُهُ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أَيِ بِالْعَدْلِ وَالْجَزَاءِ الْأَوْفَى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أَيِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ مِنْ سُمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظُلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿هَذَا فَلْيَذوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاءَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَنْوَاعٌ [ص: ٥٨، ٥٧]، ﴿هَلْهُمَّ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّعَلَّمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْجَسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

٢٠٩

سُورَةُ الْيُونُسَ

وَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أَيُّ الْعُقُولِ.  
وَقَالَ هَهُنَا: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَيُّ عِقَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ وَعَذَابِهِ.  
﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨)  
[مَاؤِي مُنْكَرِي السَّاعَةِ جَهَنَّمَ]  
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَرْجُونَ فِي لِقَائِهِ شَيْئًا، وَرَضُوا بِهِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهَا نَفْسُهُمْ. قَالَ الْحَسَنُ: وَاللَّهُ! مَا زَيَّيْنَاهَا وَلَا رَفَعْنَاهَا حَتَّى رَضُوا بِهَا وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُوثِيَّةِ - فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا، وَالشَّرْعِيَّةِ - فَلَا يَأْتِمِرُونَ بِهَا: بِأَنَّ مَاؤَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمُ النَّارُ، جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الْآثَامِ وَالْخَطَايَا وَالْأَجْرَامِ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.  
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٩) دَعَوْنَهُمْ فِيمَا سَبَّحَكَ اللَّهُ وَفِيحْنَهُمْ فِيمَا سَلَّمَ وَءَاخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠)

[الْجَزَاءُ الْحَسَنُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ]

هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ السَّعْدَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ، وَامْتَنَلُوا مَا أُمُّرُوا بِهِ، فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، بِأَنَّهُ سَيَهْدِيهِمْ بِإِيمَانِهِمْ، يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْبَاءُ هَهُنَا سَبَبِيَّةً، فَتَقْدِيرُهُ: بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ حَتَّى يَجُوزُوهُ وَيَخْلُصُوا إِلَى الْجَنَّةِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْإِسْتِعَانَةِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قَالَ: يَكُونُ لَهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيمَا سَبَّحَكَ اللَّهُ وَفِيحْنَهُمْ فِيمَا سَلَّمَ وَءَاخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ: هَذَا حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا شَبَهٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾... الْآيَةُ [الاحزاب: ٤٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (١٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: ٢٥، ٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (١٦) سَلَامٌ عَلَيْهِمْ... الْآيَةُ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُحْمَدُ أَبَدًا، الْمُعْبُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسُهُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ، وَفِي ابْتِدَاءِ كِتَابِهِ، وَعِنْدَ ابْتِدَاءِ تَنْزِيلِهِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَطُولُ بَسْطُهَا، وَأَنَّهُ الْمُحْمَدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ [وَإِنِّي جَمِيعَ الْأَحْوَالِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ»<sup>(٢)</sup>. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ تَزَايُدِ نِصَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَتَكَرَّرَ وَتَعَادَلَ وَتَزَدَادُ، فَلَيْسَ لَهَا انْقِصَاءٌ وَلَا أَمَدٌ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ

أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

[لَا يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دُعَاءَ الشَّرِّ مِثْلَ اسْتِجَابَتِهِ دُعَاءَ الْخَيْرِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جُلْمِهِ وَطُغْيَانِهِ بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ أَوْلَادِهِمْ بِالشَّرِّ فِي حَالِ ضَجْرِهِمْ وَغَضَبِهِمْ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْهُمْ عَدَمَ الْقَصْدِ [بِالشَّرِّ] إِلَى إِرَادَةِ ذَلِكَ، فَلِهَذَا لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ، وَالْحَالَةُ هَذِهِ، لُطْفًا وَرَحْمَةً، كَمَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِذَا دَعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَوْ لِأَمْوَالِهِمْ أَوْ لِأَوْلَادِهِمْ بِالْخَيْرِ وَالْبِرَّةِ وَالنَّمَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ الْآيَةُ، أَيُّ لَوْ اسْتَجَابَ لَهُمْ كُلَّمَا دَعَوْهُ بِهِ فِي ذَلِكَ لَأَهْلَكَهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَبْنَعِي الْإِكْتَارُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُؤَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دَعْوَاهُ بِالْخَيْرِ﴾... الْآيَةُ [الْإِسْرَاءُ: ١١]، وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾... الْآيَةُ: هُوَ قَوْلُ الْإِنْسَانِ لَوْلِيهِ أَوْ مَالِهِ إِذَا غَضِبَ عَلَيْهِ: اللَّهُمَّ! لَا تَبَارِكْ فِيهِ وَالْعَنَةُ<sup>(٢)</sup>. فَلَوْ يُعْجِلُ لَهُمُ الْإِسْتِجَابَةَ فِي ذَلِكَ، كَمَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ لَأَهْلَكَهُمْ.

﴿وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ أَضْرَدَنَا لِحَبِيهٍ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الْإِنْسَانُ يَذْكُرُ اللَّهَ عِنْدَ الشَّدَّةِ وَيَنْسَاهُ عِنْدَ الرَّخَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَضَجْرِهِ وَقَلْبِهِ إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدَّوْ دَعَا عَرِيضَ﴾ [فصلت: ٥١] أَيُّ كَثِيرٍ، وَهُمَا فِي مَعْنَى وَاحِدٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَلِقَ لَهَا، وَجَزَعَ مِنْهَا، وَأَخْثَرَ الدُّعَاءَ عِنْدَ ذَلِكَ، فَدَعَا اللَّهَ فِي كَشْفِهَا وَرَفْعِهَا عَنْهُ فِي حَالِ اضْطِجَاعِهِ وَقُعُودِهِ وَقِيَامِهِ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. فَإِذَا فَرَّجَ اللَّهُ شِدَّتَهُ وَكَشَفَ كُرْبَتَهُ أَغْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَذَهَبَ كَأَنَّهُ مَا كَانَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مَسَّهُ﴾. ثُمَّ دَمَّ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ وَطَرِيقَتِهِ فَقَالَ:

﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فَأَمَّا مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ الْهِدَايَةَ وَالسَّدَادَ وَالتَّوْفِيقَ وَالرَّشَادَ، فَإِنَّهُ مُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] وَكَقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا [لِأَمْرِ] الْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

[الْعِبْرَةُ بِأَهْلَاكِ الْقُرُونِ الْأُولَى]

أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا أَحَلَّ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا لِيَنْظُرَ طَاعَتَهُمْ لَهُ، وَاتِّبَاعَهُمْ رَسُولَهُ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَتَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى: أَنَّ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ كَأَنَّ سَبَبًا ذُلِّي مِنْ السَّمَاءِ فَانْتَشِطَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أُعِيدَ، فَانْتَشِطَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ ذَرَعَ النَّاسُ حَوْلَ الْمُنْبَرِ، فَقَضَلَ عُمَرُ بِثَلَاثَةِ أَذْرُعَ [إِلَى] الْمُنْبَرِ، فَقَالَ عُمَرُ: دَعْنَا مِنْ رُؤْيَاكَ، لَا أَرَبَ لَنَا فِيهَا، فَلَمَّا اسْتَخْلَفَ عُمَرُ قَالَ: يَا عَوْفُ! رُؤْيَاكَ؟ قَالَ: وَهَلْ لَكَ فِي رُؤْيَايَ مِنْ حَاجَةٍ أَوْ لَمْ تَنْتَهَرْنِي؟ قَالَ: وَيَحْكُ إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ تَنْتَعِيَ لِخَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ، فَقَصَّرَ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا... حَتَّى إِذَا بَلَغَ: ذَرَعَ النَّاسُ إِلَى الْمُنْبَرِ بِهِذِهِ الثَّلَاثِ الْأَذْرُعَ. قَالَ: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ: فَإِنَّهُ كَانَ خَلِيفَةً. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَئِيمَ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَإِنَّهُ شَهِيدٌ، قَالَ: فَقَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فَقَدْ اسْتَخْلَفْتُ يَا

(١) أبو داود: ١٨٥/٢ (٢) الطبري: ٣٤/١٥ (٣) مسلم: ٤/

٢٢٩٥ (٤) مسلم: ٢٠٩٨/٤

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمْ تُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

ابن أم عمر! فانظر كيف تعمل! وأما قوله: فإنني لا أخاف في الله لومة لائم فما شاء الله! وأما قوله: شهيد، فأني لعمر الشهادته والمسلمون مطيعون به؟ (١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

[بيان تعنت رؤساء قريش]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ تَعَنَّتِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ الْجَاهِلِينَ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ: أَنَّهُمْ إِذَا قَرَأَ عَلَيْهِمُ الرِّسُولُ ﷺ كِتَابَ اللَّهِ، وَحُجَّجَهُ الْوَاضِحَةَ قَالُوا لَهُ: أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا، أَمْ رَدُّ هَذَا وَجِئْنَا بِغَيْرِهِ مِنْ نَمِطٍ آخَرَ، أَوْ بَدَّلَهُ إِلَىٰ وَضْعٍ آخَرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ أَي: لَيْسَ هَذَا إِلَيَّ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ، وَرَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ﴾ ثُمَّ قَالَ مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ فِي صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ:

[ثبوت صدق القرآن]

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أَي: هَذَا إِنَّمَا جِئْتُكُمْ بِهِ عَنْ إِذْنِ اللَّهِ لِي فِي ذَلِكَ وَمَشِيتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَالذَّلِيلُ عَلَىٰ أَنِّي لَسْتُ أَتَقُولُهُ مِنْ عِنْدِي وَلَا أَفْتَرِيْتُهُ: أَنَّكُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي وَأَمَانَتِي مُنْذُ نَشَأْتُ بَيْنَكُمْ إِلَىٰ حِينِ بَعَثَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَا تَتَّقِدُونَ عَلَيَّ شَيْئًا تَغْمِضُونِي بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: أَفَلَيْسَ لَكُمْ عَقُولٌ تَعْرِفُونَ بِهَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؟ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ فِيمَا سَأَلَهُ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ هِرَقْلُ لِأَبِي سُفْيَانَ: هَلْ كُنْتُمْ تَنْهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ:

قُلْتُ: لَا. وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ إِذْ ذَاكَ رَأْسَ الْكُفْرَةِ، وَزَعِيمَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَعَ هَذَا اعْتَرَفَ بِالْحَقِّ. وَالْفَضْلُ مَا شَهِدْتُ بِهِ الْأَعْدَاءَ. فَقَالَ لَهُ هِرَقْلُ: فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدْعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ (٢). وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِلتَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ: بَعَثَ اللَّهُ

فِينَا رَسُولًا نَعْرِفُ صِدْقَهُ وَنَسَبَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَقَدْ كَانَتْ مُدَّةُ مُقَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ أَظْهَرِنَا قَبْلَ النَّبُوَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً (٣).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ وَلَا أَعْتَى وَلَا أَشَدَّ إِجْرَامًا مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَتَقُولُ عَلَى اللَّهِ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، فَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْبَرَ جُرْمًا وَلَا أَعْظَمَ ظُلْمًا مِنْ هَذَا، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَحْفَىٰ أَمْرُهُ عَلَى الْأَغْيَاءِ، فَكَيْفَ يَسْتَبِيحُ حَالُ هَذَا بِالْأَنْبِيَاءِ؟ فَإِنَّ مَنْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا فَلَا بُدَّ أَنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى

(١) الطبري: ٣٩/١٥ إسناؤه ضعيف جدًا فيه زيد بن عوف تركه عمرو بن علي الفلاس وشغل عنه أبو حاتم فقال: "تعرف وتتكبر" وحرك يده [الجرح والتعديل ٣/٥٧٠] قال البخاري: "سكتوا عنه" [التاريخ الكبير] وقد رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/٢٥٢-٢٥٣ بدون هذا اللفظ. (٢) فتح الباري: ٨/٨٢ (٣) أحمد: ٢٠٢/١

وَكِذْبُهُ، فَكَيْفَ بِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، وَأَصْحَابِ الْعُقُولِ السَّالِمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ وَالْحَجَى؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُبْرِمُونَ﴾ وَكَذَلِكَ مَنْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ، لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُ.

﴿وَعَبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٧) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِيَ بَيْنَهُمْ فِيهِمْ يَوْمَ يُعْتَقَدُ الْمُشْرِكُونَ فِي الْهَيْهَمِ]

يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ ظَانِينَ أَنَّ تِلْكَ الْأَلِهَةَ تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا، وَلَا يَنْفَعُ شَيْءٌ مِمَّا يَزْعُمُونَ فِيهَا، وَلَا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَتَشْفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ أَتُخْبِرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَكُونُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؟ (٤) ثُمَّ نَرَاهُ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَنْ شُرِكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

[الشُّرْكُ حَدِيثٌ]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الشُّرْكَ حَدِيثٌ فِي النَّاسِ، كَائِنْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحَ عَشْرَةَ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ (٥). ثُمَّ وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَ النَّاسِ، وَعَبَدَتِ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ، فَبَعَثَ اللَّهُ الرُّسُلَ بِآيَاتِهِ وَبَيِّنَاتِهِ وَحُجَجِهِ الْبَالِغَةِ وَبَرَاهِينِهِ الدَّامِغَةِ ﴿لِيُهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾... الْآيَةُ

(١) أحمد: ٤٥١/٥ (٢) انظر زاد المعاد: ٦٤٧/٣. وأصل القصة في البخاري: ٦٣ ومسلم: ١٢ وغيرهما. (٣) البداية والنهاية: ٣٢٦/٦ (٤) الطبري: ٤٦/١٥ (٥) البداية والنهاية: ١٠١/١ وقال: رواه البخاري.

بِرِّهِ أَوْ فُجُورِهِ، مَا هُوَ أَظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ، فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَيْنَ مُسَيِّمَةِ الْكَذَابِ لِمَنْ شَاهَدَهُمَا أَظْهَرُ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ وَقْتِ الضُّحَى وَبَيْنَ نَضْفِ اللَّيْلِ فِي جَنْدِسِ الظُّلُمَاءِ، فَمَنْ شَبِهَ كُلَّ مِنْهُمَا وَأَفْعَالِهِ وَكَلَامِهِ يَسْتَدِلُّ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَذِبِ مُسَيِّمَةِ الْكَذَابِ وَسَجَاحِ، وَالْأَسْوَدِ الْعُنْسِيِّ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ، فَكُنْتُ فِيْمَنْ انْجَفَلَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ رَجُلٍ كَذَّابٍ، قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامًا، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» (١). وَلَمَّا وَقَدَّ صِيَامًا بَنَى ثَعْلَبَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْمِهِ بَنَى سَعْدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ - فِيمَا قَالَ لَهُ - مَنْ رَفَعَ هَذِهِ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: وَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ؟ قَالَ «اللَّهُ» قَالَ: وَمَنْ سَطَحَ هَذِهِ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: فَبِالَّذِي رَفَعَ هَذِهِ السَّمَاءَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَسَطَحَ هَذِهِ الْأَرْضَ اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ! نَعَمْ» ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصِّيَامِ، وَيَحْلِفُ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدَةٍ هَذِهِ الْيَمِينِ، وَيَحْلِفُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: صَدَقْتَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أُرِيدُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا أَنْقُصُ، فَاكْتَمَى هَذَا الرَّجُلُ بِمَجَرَّدِ هَذَا، وَقَدْ أَتَقَنَ بِصِدْقِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِمَا رَأَى وَشَاهَدَ مِنَ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ (٢).

وَذَكَرُوا أَنَّ عَمْرَوَ بْنَ الْعَاصِ وَقَدَّ عَلَى مُسَيِّمَةِ، وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ عَمْرُو لَمْ يُسْلِمَ بَعْدُ، فَقَالَ لَهُ مُسَيِّمَةُ: وَيَحْكُ، يَا عَمْرُو! مَاذَا أُنْزِلَ عَلَى صَاحِبِكُمْ، يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ؟ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ أَصْحَابَهُ يَقْرَأُونَ سُورَةَ عَظِيمَةً قَصِيرَةً، فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: ﴿وَالنَّصْرِ﴾ (٣) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِنَفْسٍ خُسْرٍ... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَفَكَّرَ مُسَيِّمَةُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: وَأَنَا قَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ مِثْلُهُ، فَقَالَ: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: يَا وَبُرُّ، يَا وَبُرُّ. إِنَّمَا أَنْتَ أَذُنَانِ وَصَدْرٌ. وَسَائِرُكَ حَفَرٌ نَقْرٌ. كَيْفَ تَرَى يَا عَمْرُو؟ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: وَاللَّهِ! إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ تَكْذِبُ (٤).

فَإِذَا كَانَ هَذَا مِنْ مُشْرِكٍ فِي حَالِ شُرْكِهِ، لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ حَالُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِدْقُهُ، وَحَالُ مُسَيِّمَةِ - لَعَنَهُ اللَّهُ -

[طه: ١٢٩]. أَي لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَجَلَ الْخَلْقَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ، لَفَضَى بَيْنَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَأَسْعَدَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْتَبَ الْكَافِرِينَ.

﴿وَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠)

[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ آيَةً]

أَي يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَةُ الْمُكَذِّبُونَ الْمُعَايِدُونَ: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، يَعْثُونَ كَمَا أَعْطَى اللَّهُ تَمُودَ النَّاقَةَ، أَوْ أَنْ يُحَوِّلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، أَوْ يُزِيلَ عَنْهُمْ جِبَالَ مَكَّةَ، وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا بَسَاتِينَ وَأَنْهَارًا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا اللَّهُ عَلَيْهِ قَادِرٌ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلَ لَكَ فُصُوزًا﴾ (١١) بَلْ كَذَبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا [الفرقان: ١٠، ١١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ ... الآية [الإسراء: ٥٩]، يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ سُتْبِي فِي خَلْقِي: أَنِّي إِذَا أَتَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عَاجَلْتُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ. وَلِهَذَا لَمَّا خَيْرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا، فَإِنْ آمَنُوا وَإِلَّا عُذِّبُوا، وَبَيْنَ إِنْظَارِهِمْ، اخْتَارَ إِنْظَارَهُمْ، كَمَا حَلَمَ عَنْهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِرْشَادًا لِنَبِيِّ ﷺ إِلَى الْجَوَابِ عَمَّا سَأَلُوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ أَيُّ الْأَمْرِ كُلِّهِ لِلَّهِ وَهُوَ يَعْلَمُ الْعَوَاقِبَ فِي الْأُمُورِ.

﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أَيِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ حَتَّى تَشَاهِدُوا مَا سَأَلْتُمْ، فَانْتَظِرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيَّ وَفِيكُمْ. هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ آيَاتِهِ ﷺ أَعْظَمَ مِمَّا سَأَلُوا حِينَ أَشَارَ بِحَضْرَتِهِمْ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ إِبْدَارِهِ فَانشَقَّ [بِاسْتِثْنَاءٍ] فِرْقَةٌ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ، وَفِرْقَةٌ مِنْ دُونِهِ. وَهَذَا أَعْظَمُ مِنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ مِمَّا سَأَلُوا وَمَا لَمْ يَسْأَلُوا، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ اسْتِزْشَادًا وَتَنْتَبَهًا لِأَجَابَتِهِمْ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عِنَادًا وَتَعَثُّيًا فَتَرَكَهُمْ فِيمَا زَالَهُمْ، وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ... الآية [يونس: ٩٦، ٩٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ

الْحَقُّ

٢١١

سُورَةُ يُونُسَ

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَغِيكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَفَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِירוْنَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا أُمْرًا نَالِيًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥﴾

الَّتَوَقُّ وَحَضَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... الآية [الأنعام: ١١١]، وَلَمَّا فِيهِمْ مِنَ الْمُكَابَرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ ... الآية [الحجر: ١٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ الآية [الطور: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ زَلَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ أَقْلٌ مِنْ أَنْ يُجَابُوا إِلَى مَا سَأَلُوهُ، لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي جَوَابِهِمْ، لِأَنَّهُ دَائِرٌ عَلَى تَعَتُّيهِمْ وَعِنَادِهِمْ، لِكثْرَةِ فُجُورِهِمْ وَفَسَادِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (١١) هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٢) فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ



يَدْعُنَا إِلَىٰ صِرَاطٍ مَّسْهُومٍ ﴿١٢﴾ [يونس: ١٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> أَيُّ إِنَّمَا يَدُوقُ وَيَبَالَ هَذَا الْبُعْيُ أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ، وَلَا تَصُورُونَ بِهِ أَحَدًا غَيْرَكُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ عِقَابُهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخُرُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبُعْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿مَتَّعُ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ إِنَّمَا لَكُمْ مَتَاعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ ﴿ثُمَّ إِنَّمَا مَرَّجَعُكُمْ﴾ أَيُّ مَصِيرُكُمْ وَمَالُكُمْ ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ أَيُّ فَتُخِيرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ، وَتُؤْفِكُمْ بِإِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْوَرْدِ مِنَ السَّمَاءِ فَالْخَلْقُ بِهِ، بَاتَ الْآرِضُ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾

[مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]

صَرَبَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَثَلًا لَزُهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَسُرْعَةِ انْقِضَائِهَا وَزَوَالِهَا، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ، بِمَاءٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، وَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ مِنْ أَبِّ وَقَضْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أَيُّ زِينَتَهَا الْفَائِيَّةَ ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أَيُّ حَسَنَتْ بِمَا خَرَجَ مِنْ زُيَّانِهَا مِنْ زُهُورٍ نَضْرَةٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا وَغَرَسُوهَا﴾ أَيُّ أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَيُّ عَلَىٰ جُذَائِهَا وَحَصَادِهَا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ أَوْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ، فَأَيَّسَتْ أَوْرَاقَهَا وَأَثْلَفَتْ ثِمَارَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتْنَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أَيُّ بِإِسَاءِ بَعْدِ الْخُسْرَةِ وَالنَّصَارَةِ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ أَيُّ كَأَنَّهَا مَا كَانَتْ حِينًا قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ﴾ كَأَن لَّمْ تَنْعَم. وَهَكَذَا الْأُمُورُ بَعْدَ زَوَالِهَا كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ.

يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَرِيٍّ غَيْرٍ يُتَايَاسُ النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعُ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّمَا مَرَّجَعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

[تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ حِينَ تَصْيِبُهُ الرَّحْمَةُ بَعْدَ الضَّرِّ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا أَذَاقَ النَّاسُ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُمْ كَالرَّحَاءِ بَعْدَ الشَّدَةِ، وَالْخِصْبِ بَعْدَ الْجَدْبِ، وَالْمَطَرِ بَعْدَ الْقَحْطِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِسْتَهْزَاءٌ وَتَكْذِيبٌ<sup>(١)</sup>. كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾... الْآيَةُ [يونس: ١٢]، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، أَيُّ مَطَرٍ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِيرُنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِيرُنَا بِنُورٍ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أَيُّ أَشَدُّ اسْتِدْرَاجًا وَإِمْهَالًا حَتَّىٰ يَظُنُّ الظَّالِمُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُعَذِّبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي مَهْلَةٍ، ثُمَّ يُؤْخَذُ عَلَىٰ غَرَّةٍ مِنْهُ، وَالْكَافِرُونَ الْكَرَامُ يَكْتُبُونَ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَفْعَلُهُ، وَيُحْصُونَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَفْرُصُونَهُ عَلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَيُجَازِيهِ عَلَى الْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ وَالْقَبِيرِ وَالْقَطِيمِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَيُّ يَحْفَظُكُمْ وَيَكْلُؤُكُمْ بِحِرَاسَتِهِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَّيْنَا بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَّحُوا بِهَا﴾ أَيُّ بِسُرْعَةِ سَيْرِهِمْ رَافِقِينَ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أَيُّ تِلْكَ الشَّقَقِ ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أَيُّ شَدِيدَةٌ ﴿وَجَاءَتْهُمُ الْمَوُجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَيُّ اغْتَلَمَ الْبَحْرُ عَلَيْهِمْ ﴿وَعَلَّتْ أَوْرَاقُهَا﴾ أَيُّ هَلَكُوا ﴿دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أَيُّ لَا يَدْعُونَ مَعَهُ صَنَمًا وَلَا وَثَنًا، بَلْ يُفَرِّدُونَهُ بِالْدُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وَقَالَ هُتَنَّا: ﴿دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أَمْنَيْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أَيُّ هَذِهِ الْحَالِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَيُّ لَا نُشْرِكُ بِكَ أَحَدًا، وَلَنَفْرَدَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ هُنَاكَ، كَمَا أَفْرَدْنَاكَ بِالْدُّعَاءِ هُنَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَجْتَهُمُ﴾ أَيُّ مِنْ تِلْكَ الْوَرْطَةِ ﴿إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَرِيٍّ غَيْرٍ﴾ أَيُّ كَأَن لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ﴿كَأَن لَّمْ

(١) الطبري: ٤٩/١٥ (٢) فتح الباري: ٦٠٧/٢ (٣) أبو داود:

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُعْمَسُ فِي النَّارِ عَمْسَةً، فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا، فَيُعْمَسُ فِي النَّعِيمِ عَمْسَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى إِنْخَبَارًا عَنِ الْمُهْلِكِينَ: «فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيمِينَ»<sup>(٢)</sup> كَانَ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا» [هود: ٦٧، ٦٨].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَأَيِّ نُبُيِّنُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ»<sup>(٣)</sup> لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا الْمَثَلِ فِي زَوَالِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِهَا سَرِيعًا مَعَ اغْتِرَارِهِمْ بِهَا، وَتَمَكُّنِهِمْ وَثِقَتِهِمْ بِمَوَاعِيدِهَا، وَتَفَلُّطِهَا عَنْهُمْ، فَإِنَّ مِنْ طَبْعِهَا الْهَرَبَ مِمَّنْ طَلَبَهَا، وَالطَّلَبَ لِمَنْ هَرَبَ مِنْهَا، وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلِ الدُّنْيَا بِنَبَاتِ الْأَرْضِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: «وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَانْخَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا» [الكهف: ٤٥] وَكَذَا فِي سُورَةِ الزُّمَرِ [الآية: ٢١] وَالْحَدِيدِ [الآية: ٢٠] يَضْرِبُ اللَّهُ بِذَلِكَ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

[التَّرغِيبُ فِي النِّعَمِ الدَّائِمَةِ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ» الْآيَةِ. لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهَا، رَغَّبَ فِي الْجَنَّةِ وَدَعَا إِلَيْهَا، وَسَمَّاَهَا دَارَ السَّلَامِ، أَيَّ مِنَ الْآفَاتِ وَالنِّقَاصِ وَالنَّكَاتِ فَقَالَ: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي، وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ: اسْمَعْ، سَمِعْتُ أَدْنُكَ، وَاعْقِلْ، وَعَقْلُ قَلْبِكَ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أَمْنِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرُّسُولَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ، فَاللَّهُ الْمَلِكُ، وَالدَّارُ الْإِسْلَامُ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ! رَسُولُ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَرْفُوعًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَبِحَبِيبِهَا مَلَكَانِ يُتَادِيَانِ يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٢

سُورَةُ الْيُونُسِ

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا عِبُدُونَ ﴿٢٣﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَفْلَةٍ ﴿٢٤﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ هُنَالِكَ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمِنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٦﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾

[أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ]

التَّقَاتِي: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، إِنَّ مَا قَلَّ وَكَثُرَ خَيْرٌ مِمَّا تَكْتَرُ وَأَهْلِي» قَالَ: وَأَنْزَلَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ» الْآيَةِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup>.

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْحُسْنَىٰ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ» [الرحمن: ٦٠] وَقَوْلُهُ: «وَزِيَادَةٌ» هِيَ تَضْعِيفُ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ بِالْحَسَنَةِ: عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ وَزِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا،

(١) مسلم: ٢١٦٢/٤ (٢) الطبري: ٦١/١٥ إسناده منقطع سعيد ابن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله ووصله الحاكم في المستدرک ٢/٣٣٨، ٣٣٩ فيه عبد الله بن صالح فيه ضعف من قبل حفظه. (٣) الطبري: ٦٠/١٥ وأحمد: ١٩٧/٥

كَمَا قَالَ: ﴿وَرَبُّهُمْ يُعْرِضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ...﴾  
 الْآيَةِ [الشورى: ٤٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ مُطَاعِينَ مُقْبِي رُؤُوسِهِمْ... الْآيَاتِ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أَيُّ مَانِعٍ وَلَا وَاكِ يَبْقِيهِمُ الْعَذَابَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْآخِرَ أَكْبَرُ مِنْ الْأَوَّلِ﴾ [١]، وَإِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ [القيامة: ١٠-١٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّمْنَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ﴾... الْآيَةِ، إِخْبَارٌ عَنْ سَوَادٍ وَجُوهَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌُ وَسَوَدٌ وَجُوهٌُ قَامًا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [٢]، وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحِمَهُ اللَّهُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُؤْمِنٌ يَوْمَئِذٍ مُسْمَرٌ﴾ صَاحِبٌ مُسْتَبْشِرٌ [٣]، وَوَجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ... الْآيَةِ [عبس: ٣٨-٤٠].

﴿يَوْمَ تَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَحْبُونَ﴾  
 فَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلًا  
 هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ  
 وَصَدَّلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

[تَبْرِي إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]  
 يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُهُمْ﴾ أَيُّ أَهْلِ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ مِنْ جَنِّ وَإِنْسٍ وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ أَيُّ الزُّمُورِ أَنْتُمْ وَهُمْ مَكَانًا مُعَيَّنًا، امْتَنَزَلُوا فِيهِ عَنْ مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٥] وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ أَيُّ يَصِيرُونَ صِدْعِينَ، وَهَذَا يَكُونُ إِذَا جَاءَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَلِهَذَا قِيلَ: ذَلِكَ... (٤) يَسْتَنْفِعُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَأْتِي لِفَضْلِ الْقَضَاءِ وَيُرِيحَنَا مِنْ مَقَامِنَا هَذَا، وَفِي الْحَدِيثِ

(١) الطبري: ٦٣/١٥-٦٨ (٢) أحمد: ٣٣٣/٤ (٣) مسلم: ١٦٣/١ وحققة الأحوذني: ٥٢٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/٣٦١ وابن ماجه: ٦٧/١ (٤) هنا بياض في الأصل وانظر الحديث عند الآية ٣١ من تفسير البقرة.

وَيَسْمَلُ مَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ فِي الْجَنَانِ مِنَ الْفُصُورِ وَالْحُورِ وَالرَّضَا عَنْهُمْ، وَمَا أَخْفَاهُ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْلَاهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ مَا أُعْطُوا، لَا يَسْتَحْفِظُونَهَا بِعَمَلِهِمْ، بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَقَدْ رَوَى تَفْسِيرُ الزِّيَادَةِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْكَرِيمِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ وَخُذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ وَمُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ وَعَامِرُ بْنُ سَعْدٍ، وَعَطَاءٌ وَالصَّحَّاحُ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١)</sup>. مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَقَدْ وَرَدَتْ فِيهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صُهِيبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّيٍّ وَزِيَادَةٌ﴾ وَقَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَ كُمُوهَ فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، أَلَمْ يَبْيَضْ وَجُوهَنَا، وَنُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَنُجْرِزَنَا مِنَ النَّارِ؟ - قَالَ - : فَيَكْشِفُ لَهُمُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ! مَا أُعْطَاهُمْ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَلَا أَقْرَ لَأَعْيُنِهِمْ»<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرَهُمْ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ﴾ أَيُّ قَتَامٌ وَسَوَادٌ فِي عَرَصَاتِ الْمَحْشَرِ، كَمَا يَغْتَرِي وَجُوهُ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ مِنَ الْفَتَرَةِ وَالْعَبْرَةِ ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أَيُّ هَوَانٌ وَصَغَارٌ، أَيُّ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ إِهَانَةٌ فِي الْبَاطِنِ وَلَا فِي الظَّاهِرِ، بَلْ هُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ: ﴿وَقَوْلُهُمُ اللَّهُ سَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَهُمْ نَصْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أَيُّ نَصْرَةٌ فِي وَجُوهِهِمْ وَسُرُورًا فِي قُلُوبِهِمْ. جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ آمِينَ.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْنُلُهَا وَهُمْ فِيهَا مِنَ اللَّهِ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَلَّمْنَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ فُطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

#### [جَزَاءُ الْمُجْرِمِينَ]

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ السَّعْدَاءِ الَّذِينَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَاتُ، وَزِدَادُونَ عَلَى ذَلِكَ، عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ، فَذَكَرَ تَعَالَى عَذْلَهُ فِيهِمْ، وَأَنَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا، لَا يَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَرَبُّهُمْ﴾ أَيُّ تَعْتَرِبُهُمْ وَتَعْلُوهُمْ ﴿ذَلَّةٌ﴾ مِنْ مَعَاصِيهِمْ وَخَوْفِهِمْ مِنْهَا،

الْآخِرِ «نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ فَوْقَ النَّاسِ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ  
اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِخْبَارًا عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ  
الْمُشْرِكِينَ وَأَوْثَانَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ  
فَرِيقًا بَيْنَهُمْ»... الْآيَةِ: «أَنْتُمْ أَنْكُرُوا عِبَادَتَهُمْ وَتَبَرُّوا مِنْهُمْ  
كَقَوْلِهِ: «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ» الْآيَةِ [مريم: ٨٢].  
وَقَوْلِهِ: «إِذَا تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا»  
[البقرة: ١٦٦] وَقَوْلِهِ: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ  
لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ» وَإِذَا  
خُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً»... الْآيَةِ [الأحقاف: ٥، ٦].

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِخْبَارًا عَنْ قَوْلِ الشُّرَكَاءِ فِيمَا  
رَاجِعُوا فِيهِ عَابِدِيهِمْ عِنْدَ ادْعَائِهِمْ عِبَادَتَهُمْ: «فَكَفَى بِاللَّهِ  
شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ»... الْآيَةِ، أَيْ مَا كُنَّا نَشْعُرُ بِهَا وَلَا  
نَعْلَمُ بِهَا، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي بِكُمْ،  
وَاللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَنَا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا، وَلَا  
أَمَرْنَاكُمْ بِهَا، وَلَا رَضِينَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ.

وَقَالَ تَعَالَى: «هَؤُلَاءِ تَبَلَّوْا كُلِّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ» أَيْ فِي  
مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُخَبِّرُ كُلُّ نَفْسٍ وَتَعْلَمُ مَا  
سَلَفَ مِنْ عَمَلِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَوْمَ تَبْلَى  
السَّائِرَةُ» [الطارق: ٩] وَقَالَ تَعَالَى: «بَلِّغُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ  
وَأَخَّرَ» [القيامة: ١٣] وَقَالَ تَعَالَى: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا» أَفَرَأَى كَيْفَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ  
حَسِيبًا» [الإسراء: ١٣، ١٤] وَقَوْلُهُ: «وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ  
الْحَقُّ» أَيْ: وَرَجَعَتِ الْأُمُورُ كُلُّهَا إِلَى اللَّهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ،  
فَفَضَّلَهَا، وَأَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ  
«وَمَسَدَ عَنْهُمْ» أَيْ ذَهَبَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ «مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ»  
أَيْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفْتِرَاءً عَلَيْهِ.

«قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ  
وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ  
الْأَمْرَ» فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ  
فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ  
كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾  
[اعْتَرَفَ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ، وَإِقَامَةَ  
الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ]

يَحْتَجُّ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِاعْتِرَافِهِمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ  
وَرُبُوبِيَّتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ [إِلَهِه]، فَقَالَ تَعَالَى: «قُلْ مَنْ  
يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» أَيْ مَنْ ذَا الَّذِي يُنَزِّلُ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً الْمَطَرُ فَيَسْقُ الْأَرْضَ شَقًّا يَقْدَرْتَهُ وَمَشِئَتِهِ  
فَيَخْرُجُ مِنْهَا ﴿جَاءَ﴾ ﴿وَعَبَا وَضَعَا﴾ ﴿وَرَبُّنَا وَنَحْلًا﴾ ﴿وَحَدَائِقَ  
غُلَابًا﴾ ﴿وَفِكَهَةً وَأَبَا﴾ [عبس: ٢٧-٣١] أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ؟ فَسَيَقُولُونَ  
اللَّهُ، «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ» [الملك: ٢١]؟  
وَقَوْلُهُ: «أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ» أَيْ الَّذِي وَهَبَكُمْ  
هَذِهِ الْقُوَّةَ السَّامِعَةَ، وَالْقُوَّةَ الْبَاصِرَةَ، وَلَوْ شَاءَ لَذَهَبَ بِهَا  
وَلَسَلَبَكُمْ إِيَّاهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ  
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ»... الْآيَةِ [الملك: ٢٣]. وَقَالَ: «قُلْ  
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ»... الْآيَةِ [الأنعام: ٤٦].  
وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ  
الْحَيِّ» أَيْ يَقْدَرْتَهُ الْعَظِيمَةَ وَمِثْلَهُ الْعَمِيمَةَ.

وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ» أَيْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوثَ كُلِّ  
شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ  
الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ  
«يَسْتَلِمُونَ» فِي السَّنَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [الرحمن: ٢٩]  
فَالْمُلْكُ كُلُّهُ الْعُلُوبِيُّ وَالسُّفْلِيُّ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ مَلَائِكَةٍ  
وَأَنْسٍ وَجَانٍّ، فَيَقِيرُونَ إِلَيْهِ، عَبِيدُ لَهُ، خَاضِعُونَ لَدَيْهِ  
«فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ» أَيْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ «فَقُلْ  
أَفَلَا تَتَّقُونَ» أَيْ أَفَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ  
بَارِئًاكُمْ وَجَهْلِكُمْ؟.

وَقَوْلُهُ: «فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ»... الْآيَةِ، أَيْ فَهَذَا  
الَّذِي اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ الْحَقُّ  
الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ»  
أَيْ فَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ  
لَهُ. «فَأَنَّى تُصْرَفُونَ» أَيْ فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى  
عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ  
شَيْءٍ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ؟! وَقَوْلُهُ: «كَذَلِكَ حَقَّتْ  
كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا»... الْآيَةِ، أَيْ كَمَا كَفَرَ  
هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى شُرِكِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَ  
اللَّهِ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ  
الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ وَحْدَهُ، الَّذِي بَعَثَ رُسُلَهُ بِتَوْحِيدِهِ،  
فَلِهَذَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ أَنَّهُمْ أَشْقِيَاءُ مِنْ سَاكِنِي  
النَّارِ كَقَوْلِهِ: «قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى  
الْكَافِرِينَ» [الزمر: ٧١].

الْحَقُّ يَهْدِي لِّلْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ

٢١٣

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْجُدُ  
الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنَّ تَوْفُوكُمْ ﴿٢١٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي  
إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ  
يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَأَلْكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢١٥﴾

وَمَا يُنْبِئُ أَكْثَرَهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ  
اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ  
فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ  
مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١٨﴾  
بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ كَذْ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢١٩﴾  
وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ  
بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٢٢٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ  
أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ  
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢٢﴾

اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ  
يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ كَذْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢١٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ  
وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٢٢٠﴾

[الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ حَقًّا، وَبَيَانٌ إِعْجَازُهُ]

هَذَا بَيَانٌ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ أَنْ  
يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِعَشْرِ سُوْرٍ وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، لِأَنَّهُ  
بِفَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ وَوَجَازَتِهِ وَحِلَاوَتِهِ وَاشْتِمَالِهِ عَلَى  
الْمَعَانِي الْغَزِيْرَةِ النَّافِعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ  
عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي  
أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، فَكَلَامُهُ لَا يُشَبِّهُهُ كَلَامُ الْمَخْلُوقِينَ، وَلِهَذَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ  
مِثْلُ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَا يُشَبِّهُ هَذَا  
كَلَامَ الْبَشَرِ ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيُّ مِنَ الْكِتَابِ  
الْمُتَقَدِّمَةِ، وَتَهْمِيْمًا عَلَيْهِ، وَمُتَبَيِّنًا لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّحْرِيفِ  
وَالْتَأْوِيلِ وَالتَّبْدِيلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْجُدُ  
الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنَّ تَوْفُوكُمْ ﴿٢١٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي  
إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ  
لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَأَلْكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢١٥﴾ وَمَا يُنْبِئُ  
أَكْثَرَهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا  
يَفْعَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

وَهَذَا إِنْطَالٌ لِدَعْوَاهُمْ فِيمَا أَسْرَكُوا بِاللَّهِ غَيْرُهُ، وَعَبَدُوا  
مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ  
يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤] أَيُّ مَنْ بَدَأَ خَلْقَ هَذِهِ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ ثُمَّ يُنْشِئُ مَا فِيهِمَا مِنَ الْخَلَائِقِ، وَيُفَرِّقُ أَجْرَامَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيُبْدِلُهُمَا بِنَاءً مَا فِيهِمَا، ثُمَّ يُعِيدُ  
الْخَلْقَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا،  
وَيَسْتَقْبَلُ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَأَنْ تَوْفُوكُمْ﴾ أَيُّ فَكَيْفَ  
تُضَرِّفُونَ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ إِلَى الْبَاطِلِ؟! ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ  
مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أَيُّ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ  
شُرَكَاءَكُمْ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ ضَالٍّ، وَإِنَّمَا يَهْدِي الْحَيَارَى  
وَالضَّلَالِ، وَيُغْلِبُ الْقُلُوبَ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرُّشْدِ - اللَّهُ الَّذِي  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي  
إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ أَيُّ أَفْتَبِيعُ الْعَبْدُ: الَّذِي يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ  
وَيُبْصِرُ بَعْدَ الْعَمَى - أَمْ الَّذِي لَا يَهْدِي إِلَى شَيْءٍ إِلَّا أَنْ  
يُهْدَى لِعَمَاهُ وَبُكْمِهِ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ  
قَالَ: ﴿يَتَّبِعْ لِمَ يُقَدِّمُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ  
شَيْئًا﴾ [مریم: ٤٢] وَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ﴿وَاللَّهُ  
خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ  
الْآيَاتِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ فَمَا بِالْأَكْمَرِ  
أَنْ يَذْهَبَ بِعُقُولِكُمْ؟ كَيْفَ سَوَّيْتُمْ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ،  
وَعَدَلْتُمْ هَذَا بِهِذَا، وَعَبَدْتُمْ هَذَا وَهَذَا؟ وَهَلَّا أَفَرَدْتُمْ الرَّبَّ  
جَلَّ جَلَالُهُ أَلَمَّا لِكَ الْحَاكِمِ الْهَادِي مِنَ الضَّلَالَةِ بِالْعِبَادَةِ  
وَحْدَهُ، وَأَخْلَصْتُمْ إِلَيْهِ الدَّعْوَةَ وَالْإِنَانَةَ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُمْ  
لَا يَبْصُرُونَ فِي دِينِهِمْ هَذَا ذَلِيلًا وَلَا بُرْهَانًا، وَإِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ  
مِنْهُمْ، أَيْ تَوَهُّمٌ وَتَحْوِيلٌ، وَذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا ﴿إِنَّ  
اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ، لِأَنَّهُ تَعَالَى  
أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَنْتُمْ الْجَزَاءُ.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ  
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢١٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ أَيُّ وَبَيَانَ الْأَحْكَامِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ بَيَانًا شَافِيًا كَافِيًا، حَقًّا لَا مَرِيَّةَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ أَيُّ إِنْ ادَّعَيْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ وَشَكَكْتُمْ فِي أَنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَقُلْتُمْ كَذِبًا وَمِثْنًا: إِنْ هَذَا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، فَمُحَمَّدٌ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَقَدْ جَاءَ - فِيمَا زَعَمْتُمْ - بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَأْتُوا أَنْتُمْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، أَيُّ مِنْ جَنْسِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مَنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِنْسٍ وَجَانٍّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يَقُولُ: بَلْ كَذَّبَ هَؤُلَاءِ بِالْقُرْآنِ، وَلَمْ يَفْهَمُوهُ وَلَا عَرَفُوهُ ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أَيُّ وَلَمْ يَحْصُلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ إِلَى جِئِن تَكْذِيبِهِمْ بِهِ جَهْلًا وَسَفَهًا ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَجَهْلًا، فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُكْذِبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ...﴾ الْآيَةُ، أَيُّ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ! مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَيَتَّبِعُكَ وَيَتَّبِعُ بِمَا أُرْسِلْتَ بِهِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بَلْ يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَّبِعُ عَلَيْهِ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أَيُّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ فَيَهْدِيهِ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَةَ فَيُضِلُّهُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، بَلْ يُعْطِي كُلَّ مَا يَسْتَحِقُّهُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلُمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

[الْأَمْرُ بِالْتَّبَرِّي مِنَ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: وَإِنْ كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ وَمِنْ عَمَلِهِمْ ﴿فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ بَيْنَايَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿إِلَى آخِرِهَا﴾ [الكافرون: ١-٢]، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ وَأَتْبَاعُهُ لِقَوْمِهِمُ الْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّا بُرْءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الْآيَةُ [الممتحنة: ٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُونَ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ يَسْمَعُونَ كَلَامَكَ الْحَسَنَ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، وَالْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ الْفَصِيحَةَ النَّافِعَةَ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَدْيَانِ وَالْأَبْدَانِ، وَفِي هَذَا كِفَايَةُ

وَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الثَّلَاثُ فِي التَّحْدِي، فَإِنَّهُ تَعَالَى تَحَدَّاهُمْ وَدَعَاهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ: أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَلْيَعَارِضُوهُ بِنَظِيرٍ مَا جَاءَ بِهِ وَخَدِّهِ، وَلْيَسْتَعِينُوا بِمَنْ شَاءُوا، وَأَخْبَرَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الاسراء: ٨٨] ثُمَّ تَقَاصَرَ مَعَهُمْ إِلَى عَشْرِ سُورٍ مِنْهُ، فَقَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ هُودٍ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِكِينَ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] ثُمَّ تَنَازَلَ إِلَى سُورَةِ فَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَكَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ، تَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ مِنْهُ وَأَخْبَرَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ أَبَدًا فَقَالَ: ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا بِالنَّارِ...﴾ الْآيَةُ [البقرة: ٢٤]، هَذَا وَقَدْ كَانَتْ الْفَصَاحَةُ مِنْ سَجَايَاهُمْ، وَأَشْعَارُهُمْ وَمُعَلَّقَاتُهُمْ إِلَيْهَا الْمُنْتَهَى فِي هَذَا اللَّبَابِ، وَلَكِنْ جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ، وَلِهَذَا آمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِمَا عَرَفَ مِنْ بَلَاغَةِ هَذَا الْكَلَامِ وَحَلَاوَتِهِ وَجَزَالَتِهِ وَظَلَاوَتِهِ، وَإِفَادَتِهِ وَبَرَاعَتِهِ، فَكَانُوا أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ، وَأَفْهَمَهُمْ لَهُ، وَأَنْبَغَهُمْ لَهُ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ انْقِيَادًا، كَمَا عَرَفَ السَّحَرَةُ لِعِلْمِهِمْ بِقُنُونِ السَّحَرِ، أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَصُدِّرُ إِلَّا عَنْ مُؤَيَّدٍ مُسَدِّدٍ مُرْسَلٍ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ هَذَا لَا يَسْتَطَاعُ لِبَشَرٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَكَذَلِكَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعِثَ فِي زَمَانٍ عُلَمَاءُ الطَّبِّ وَمُعَالَجَةُ الْمَرَضَى، فَكَانَ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا مَدْخَلَ لِلْعِلَاجِ وَالِدَوَاءِ فِيهِ، فَعَرَفَ مَنْ عَرَفَ مِنْهُمْ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٤

سُورَةُ يُوسُفَ

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا نَرِيكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّئُكَ فَإِنَّا نَمَرِّجُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَسْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمَدِّدُونَ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنٌ بَيْنَهُمْ لَئِن كُنْتُمْ بِهِمْ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

عَدَدَ سِنِينَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا لَيْسَ بِيَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَالِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنْ لَّيْسَ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿المؤمنون: ١١٢-١١٤﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ يَعْرِفُ الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاةُ، وَالْقَرَابَاتُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ كُلُّ مَشْغُولٍ بِنَفْسِهِ ﴿فَإِذَا فُتِحَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾... الآية [المؤمنون: ١٠١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْتَلِ حِمِيٌّ حِمِيًّا﴾... الآيات [المعارج: ١١-١٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ بِوَيْحٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] لِأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، وَلَا خَسَارَةَ أَكْثَرُ مِنْ خَسَارَةِ مَنْ فُرِقَ بَيْنُهُ وَبَيْنَ أَجَبَتِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ.

﴿وَإِنَّا نَرِيكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّئُكَ فَإِنَّا نَمَرِّجُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [٤٦] وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ

عَظِيمَةً، وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى إِسْمَاعِ الْأَصَمِّ - وَهُوَ الْأُطْرَشُ - فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أَيْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَإِلَى مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ التَّوَدُّعِ، وَالسَّمْتِ الْحَسَنِ، وَالْخُلُقِ الْعَظِيمِ، وَالِدَّلَالَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى نُبُوتِكَ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى. وَهَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ كَمَا يَنْظُرُ غَيْرُهُمْ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ كَمَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ، بَلِ الْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْوَقَارِ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْإِحْتِقَارِ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾... الآية [الفرقان: ٤١].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئًا وَإِنْ كَانَ قَدْ هَدَى بِهِ مَنْ هَدَى، وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعُمْى، وَفَتَحَ بِهِ أَغْيَا عُمْيَا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَأَصْلَ بِهِ عَنِ الْإِيمَانِ آخَرِينَ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مَلِكِهِ بِمَا يَشَاءُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿يَمُرُّ بِهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا» - إِلَى أَنْ قَالَ فِي آخِرِهِ - يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِطَوِيلِهِ<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [٤٥]

[الشعور بقصر الحياة الدنيا عند الحشر]

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا لِلنَّاسِ قِيَامَ السَّاعَةِ وَحَشَرَهُمْ مِنْ أَجْدَانِهِمْ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾... الآية. كَقَوْلِهِ: ﴿كَانْتُمْ يَوْمَ يَرْزُوقُ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ [الاحقاف: ٣٥] وَكَقَوْلِهِ: ﴿كَانْتُمْ يَوْمَ يَرْوَتْهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا﴾ [٥٢] يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَّيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٥٣﴾ تَحْنُ أَعْيُنُهُمْ يَمَّا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَّيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا [طه: ١٠٢-١٠٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُفْقِسُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَسُوا عِزَّ سَاعَةٍ﴾... الْآيَتِينَ [الروم: ٥٥، ٥٦]، وَهَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِقْصَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ

فَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

[لِيُنْتَقَمَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ سَوَاءٌ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ] يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلَمَّا رُبِّنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ أَيِ نَتَقِمُ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِكَ لِتَقَرَّ عَيْنُكَ مِنْهُمْ ﴿أَوْ نَوَفِّئَكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أَيِ مَصِيرُهُمْ وَمُنْقَلَبُهُمْ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ بِعَدْلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ <sup>(١)</sup>. ﴿فَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾... الْآيَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْأَرْضَ بِشَوْرٍ رَّبِّهَا﴾... الْآيَةُ [الزمر: ٦٩]، فَكُلُّ أُمَّةٍ تُعْرَضُ عَلَى اللَّهِ بِحَضْرَةِ رَسُولِهَا، وَكِتَابُ أَعْمَالِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، مَوْضُوعٌ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ، وَحَفَظَتُهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شُهَدَاءُ أَيْضًا - أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ - وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الشَّرِيفَةُ وَإِنْ كَانَتْ آخِرَ الْأُمَمِ فِي الْخَلْقِ إِلَّا أَنَّهَا أَوَّلُ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُفَصِّلُ بَيْنَهُمْ وَيُقْضَىٰ لَهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُقْضَىٰ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ» <sup>(٢)</sup>. فَأَمَّتُهُ إِنَّمَا حَارِثُ قَصَبِ السَّبْقِ بِشَرَفِ رَسُولِهَا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابٌ بَيْنَاتًا أَوْ بَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُدَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ ءَالَتْنِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

[إِسْتَعْجَالُ الْمُنْكَرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَوَابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتَعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ وَسُؤَالِهِمْ عَنْ وَقْتِهِ قَبْلَ التَّعْيِينِ مِمَّا لَا فَايِدَةَ لَهُمْ فِيهِ كَقَوْلِهِ: ﴿تَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِمَّا وَعِلْمُونَ أَنَّهَا لَحَقٌّ﴾ [الشورى: ١٨] أَيِ كَائِنَتِهِ لَا مَحَالَةَ، وَوَاقِعَةً وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا وَقْتُهَا عَيْنًا، وَلِهَذَا أَرْشَدَ تَعَالَىٰ رَسُولُهُ ﷺ إِلَىٰ جَوَابِهِمْ فَقَالَ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾... الْآيَةُ، لَا أَقُولُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي، وَلَا أَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا اسْتَأْتَرَبَهُ إِلَّا أَنْ يُطْلِعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَنَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَيْكُمْ، وَقَدْ أَخْبَرْتُكُمْ بِمَجِيءِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا كَائِنَةٌ، وَلَمْ يُطْلِعَنِي عَلَىٰ وَقْتُهَا وَلَكِنْ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أَيِ لِكُلِّ قَرْنٍ مُدَّةٌ مِنَ الْعُمُرِ مُقَدَّرَةٌ، فَإِذَا انْقَضَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٥

سُورَةُ يُونُسَ

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٥﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فِذْلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَلِلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَاتَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾

أَجَلُهُمْ ﴿٦١﴾ فَلَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ ﴿٦٢﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾... الْآيَةُ [المنافقون: ١١].

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ سَيَاتِيهِمْ بَعْتُهُ فَقَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَ بَيْنَاتٍ أَوْ نَهَارًا﴾ أَيِ: لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ أَتُدَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ ءَالَتْنِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَالُوا ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾... الْآيَةُ [السجدة: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَتَّ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٥٩﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴿٥٢﴾ أَيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ هَذَا تَبَكُّيتًا وَتَفْرِيعًا كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ﴿٦٠﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٦١﴾ أَفَسِحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا

(١) الطبري: ٩٩/١٥ (٢) فتح الباري: ٥٩٥/٦ ومسلم: ٢/



بُصِرُوا ﴿٥٦﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿الطور: ١٣-١٦﴾.

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ بِأَقْحَقِّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ ﴿٥٨﴾﴾

[الْقِيَامَةُ حَقٌّ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَيَسْتَحْبِرُونَكُمْ ﴿أَقْحَقُّ هُوَ﴾ أَيِ الْمَعَادِ وَالْقِيَامَةِ مِنَ الْأَجْدَاثِ بَعْدَ صَيُورَةِ الْأَجْسَامِ تَرَابًا ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيِ لَيْسَ صَيُورَتُكُمْ تَرَابًا بِمُعْجِزِ اللَّهِ عَنْ إِعَادَتِكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وَهَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَ لَهَا تَلْفِيزٌ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا ابْتِغَاءً أُخْرَيَانِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يُقَسِّمَ بِهِ عَلَى مَنْ أَكْثَرَ الْمَعَادِ فِي سُورَةِ سَبَأٍ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [الآية: ٣] وَفِي التَّغَابُنِ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْتَبَأَ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُفَنِّئُنَّ ثُمَّ لَنَنْبِتَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الآية: ٧] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ يَوْمَ الْكَافِرِ لَوْ افْتَدَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِجِلْدِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أَيِ بِالْحَقِّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ هُوَ بِحُجَّتِي وَيُسَبِّحُ وَإِلَيْهِ

يُتِمُّونَ ﴿٦٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّ وَعْدَهُ حَقٌّ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ، الْعَلِيمُ بِمَا تَفَرَّقَ مِنَ الْأَجْسَامِ وَتَمَرَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبَحَارِ وَالْفِجَارِ.

﴿يَتَابِعُ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي

الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ

فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

[الْقُرْآنُ مَوْعِدَةٌ وَشِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ وَهُدًى]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى خَلْقِهِ بِمَا أُنْزِلَهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ: ﴿يَتَابِعُ النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيِ زَاجِرٌ عَنِ الْفَوَاحِشِ ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أَيِ مِنَ الشُّبُهَةِ وَالشُّكُوكِ، وَهُوَ إِزَالَةُ مَا فِيهَا مِنْ رِجْسٍ

وَدَنْسٍ، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أَيِ يَحْصُلُ بِهِ الْهُدَايَةُ وَالرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْمُصْذِفِينَ الْمُؤَقِنِينَ بِمَا فِيهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُرْقَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيَدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الاسراء: ٨٢] وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ...﴾ [الآية: ٤٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أَيِ بِهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ الْهُدَى وَوَيْبِنِ الْحَقِّ فَلْيَفْرَحُوا، فَإِنَّهُ أَوَّلَى مَا يَفْرَحُونَ بِهِ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيِ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزُّهْرَةِ الْفَانِيَةِ الدَّاهِيَةِ لَا مَحَالَةَ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

[لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ أَنْ يُحِلَّ أَوْ يُحَرِّمَ شَيْئًا]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَالضُّحَاكُ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرُهُمْ: نَزَلَتْ إِنْكَارًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ<sup>(١)</sup>. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ وَمَا دَرَأَ مِنْهُ مِنَ الْكُرْبِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾... الْآيَاتِ [الأنعام: ١٣٦]، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا رَثْتُ الْهَيْئَةَ فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مَالٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ: مِنَ الْإِبِلِ وَالرَّيْقِ وَالْخَيْلِ وَالْغَنَمِ، فَقَالَ: «إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُفِّرْ عَلَيْكَ» - وَقَالَ: «هَلْ تَنْتَجِعُ إِلَيْكَ صَاحِبًا آذَانَهَا، فَتَعْمِدَ إِلَى مُوسَى فَتَقَطَعَ آذَانَهَا، فَتَقُولَ: هَذِهِ بَحْرٌ. وَتَشَقُّ جُلُودَهَا وَتَقُولَ: هَذِهِ صُرْمٌ. وَتَحَرِّمَهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ جِلٌّ، سَاعِدُ اللَّهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَى اللَّهُ أَحَدٌ مِنْ مُوسَاكَ»<sup>(٢)</sup>. وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. وَهَذَا حَدِيثٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ الْإِسْنَادُ.

وَقَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، أَوْ أَحَلَّ مَا حَرَّمَ بِمُجَرَّدِ الْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ الَّتِي لَا مُسْتَنَدَ لَهَا وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: ﴿وَمَا ظَنُّ

(١) الطبري: ١١٢/١٥، ١١٣ (٢) أحمد: ٤٧٣/٣ و ٤٧٣/٤

الْحَيَاتِ الْوَالِدَاتِ

٢١٦

سُورَةُ الْيُونُسَ

الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٦١﴾ أَلَيْسَ مَا ظَنُّهُمْ أَنْ يُضْمَعَ بِهِمْ يَوْمَ مَرْجِعِهِمْ إِلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: فِي تَرْكِهِ مُعَاجَلَتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا<sup>(١)</sup>.  
 (قُلْتُ) وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِمَّا خَلَقَهُ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ أَوْ دِينِهِمْ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بَلْ يُحَرِّمُونَ مَا آتَمَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَجْعَلُونَ بَعْضًا حَلَالًا وَبَعْضًا حَرَامًا. وَهَذَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا شَرَعُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ فِي دِينِهِمْ.  
 ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٢﴾﴾  
 [كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ]  
 يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ أُمَّتِهِ وَجَمِيعَ الْخَلَائِقِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانٍ وَلَحْظَةٍ، وَأَنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي حَقَارَتِهَا وَصِغَرِهَا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْهَا وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا كِتَابٌ هُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ حَرَكَةَ الْأَشْجَارِ وَغَيْرَهَا مِنَ الْجَمَادَاتِ، وَكَذَلِكَ الدَّوَابِّ السَّارِحَةِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَطْلُرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمُّ أَمْثَالِكُمْ﴾... الْآيَةُ [الأنعام: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾... الْآيَةُ [هود: ٦]، وَإِذَا كَانَ هَذَا عِلْمُهُ بِحَرَكَاتِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَكَيْفَ عِلْمُهُ بِحَرَكَاتِ الْمَكْلُفِينَ الْمَأْمُورِينَ بِالْعِبَادَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦٣﴾ الَّذِي يَرْسُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٦٤﴾ وَتَقْلُوكَ فِي السُّجُودِ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أَيُّ إِذْ تَأْخُذُونَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ: نَحْنُ مُشَاهِدُونَ لَكُمْ، رَءُودٌ سَامِعُونَ. وَلِهَذَا قَالَ ﷺ لَمَّا سَأَلَهُ جَبْرِيلُ عَنِ الْإِحْسَانِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ

كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»<sup>(٢)</sup>.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٦﴾﴾  
 [مَعْرِفَةُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، كَمَا فَسَّرَ بِهِمْ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا ف ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا يُغِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ» قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ؟ قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ

مُقَرَّرٌ مُثَبَّتٌ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾.

نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ ﴿ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

[الْمُرَادُ بِالْبُشْرَى الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ]

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَهُمُ النَّشْرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» فَقَدْ عَرَفْنَا بُشْرَى الْآخِرَةِ، الْحَجَّةَ، فَمَا بُشْرَى الدُّنْيَا؟ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْعَبْدُ أَوْ تُرَى لَهُ. وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا أَوْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الرَّجُلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»<sup>(٣)</sup> رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَهُمُ النَّشْرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» - قَالَ: - «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يُبَشِّرُهَا الْمُؤْمِنُ، هِيَ جُزْءٌ مِنْ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ، فَمَنْ رَأَى ذَلِكَ فَلْيُخْبِرْ بِهَا، وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَلِكَ، فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَهُ، فَلْيَنْتَفِ عَنْ يَسَارِهِ تَلَاثًا، وَلْيَكْبِرْ، وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا»<sup>(٥)</sup>. لَمْ يُخْرِجُوهُ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ بُشْرَى الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ بِالْحَجَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكِ الْأَوَّلَ خَافُوا وَلَا يَخْرُجُوا وَابْتَشَرُوا بِالْحَجَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾<sup>(٦)</sup> نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ<sup>(٧)</sup> تَزَلُّوا مِنْ عَفْوٍ رَحِيمٍ [فصلت:

٣٠-٣٢] وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ جَاءَهُ مَلَائِكَةُ بَيضُ الْوُجُوهِ يَبِضُّ الثِّيَابَ فَقَالُوا: اخْرُجِي أَيُّهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ: وَرَبُّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَخَرُجْ مِنْ فِيهِ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فَمِ السَّقَاءِ<sup>(٨)</sup>. وَأَمَّا بُشْرَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَتُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أَيُّ هَذَا الْوَعْدُ لَا يُبَدِّلُ وَلَا يُخْلَفُ وَلَا يُغَيَّرُ، بَلْ هُوَ

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْوَرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(٩)</sup> أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ<sup>(١٠)</sup> هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ<sup>(١١)</sup>

[الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْكَوْنِ دُونَ غَيْرِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ قَوْلٌ هُوَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فِ الْوَرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا أَيُّ جَمِيعَهَا لَهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أَيُّ السَّمِيعِ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا لَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا، بَلْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِي ذَلِكَ ظَنُّوهُمْ وَتَخَرُّصَهُمْ وَكُذِّبَهُمْ وَإِفْكَهَهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لِعِبَادِهِ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ، أَيُّ يَسْتَرِيحُونَ فِيهِ مِنْ نَصَبِهِمْ وَكَلَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا أَيُّ مُضِيًّا لِمَعَاشِهِمْ وَسَعِيهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ<sup>(١٢)</sup> إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ أَيُّ يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْحُجَجُ وَالْأَدِلَّةُ، فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمَقْدَرِهَا وَمُسِيرِهَا.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقْلُحُونَ<sup>(١٤)</sup> مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا

(١) الطبري: ١٢٠/١٥ (٢) الطبري: ١٣٢/١٥ إسناده ضعيف فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف (تقريب) وأيوب بن خالد بن صفوان لا يعرف له رواية عن عبادة بن صامت رضي الله عنه والأحسن منه مارواه ابن جرير بطريق أبي حميد الحمصي عن عبادة رضي الله عنه وصححه الألباني في "الصحيحة" (١٧١٦) (٣) أحمد: ١٥٦/٥ (٤) مسلم: ٢٠٣٤/٤ (٥) أحمد: ٢١٩/٢ إسناده ضعيف: لضعف عبدالله بن لهيعة ودراج (٦) أحمد: ٢٨٧/٤

مَرَجَعَهُمْ ثُمَّ يُدِيبُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

[الله مُنَزَّهٌ عَنِ الرُّوْبَةِ وَالْأَوْلَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ ادَّعَى أَنَّ لَهُ ﴿وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أَيُّ تَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ، هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَمِمَّا خَلَقَ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَمْلُوكٌ لَهُ، عَبْدُهُ ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أَيُّ لَيْسَ عِنْدَكُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَا تَقُولُونَهُ مِنَ الْكُذِبِ وَالْبُهْتَانِ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِنْكَارٌ وَوَعْدٌ أَكِيدُ وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٧١﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٧٢﴾ تَكْذَابُ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِعُ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٧٣﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٧٤﴾ وَمَا يَبْنِي الرَّحْمَنُ لِنَدْحٍ وَلَدًا ﴿٧٥﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عَبْدٌ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ أَهْضَمْنَاهُمْ عَذَابًا ﴿٧٧﴾ وَكُلُّهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٧٨﴾ [مريم: ٨٨-٩٥] ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ الْمُفْتَرِينَ - مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا - بِأَنَّهُمْ لَا يَفْلَحُونَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ إِذَا اسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، مَتَّعَهُمْ قَلِيلًا. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] كَمَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿مَتَّعُ فِي الدُّنْيَا﴾ أَيُّ مُدَّةً قَرِيبَةً ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ يُدِيبُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أَيُّ الْمَوْجِعِ الْمُؤْلِمِ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أَيُّ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْا مِنَ الْإِفْكِ وَالزُّورِ.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِمَا نَبَأْتُ اللَّهَ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿٧٩﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٨٠﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٨١﴾

[قِصَّةُ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ أَخْبَرْتُهُمْ وَأَقْضَصْتُ عَلَيْهِمْ، أَيُّ عَلَى كُفَّارٍ مَكَّةَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَكَ وَيُخَالِفُونَكَ ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أَيُّ خَبَرَهُ مَعَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَدَمَّرَهُمُ بِالْغَرَقِ أَجْمَعِينَ عَنْ

سُورَةُ يُوسُفَ

٢١٧

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِمَا نَبَأْتُ اللَّهَ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿٧٩﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٨٠﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٨١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٨٤﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ عَمَّا وَعَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا خُنَّا لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٦﴾

أَخْرَجَهُمْ، لِيَحْذَرُ هَؤُلَاءِ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْذَّمَّارِ مَا أَصَابَ أَوْلِيَّكَ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِنَّ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ عَظُمَ عَلَيْكُمْ ﴿مَقَامِي﴾ أَيُّ فِيكُمْ بَيْنَ أَطْهَرُكُمْ ﴿وَتَذَكِّرِي﴾ إِيَّاكُمْ ﴿بِمَا نَبَأْتُ اللَّهَ﴾ أَيُّ بِحُجَّتِهِ وَبِرَاهِيئِهِ ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَيُّ فَإِنِّي لَا أَبَالِي وَلَا أَكُفُّ عَنْكُمْ، سِوَاءَ عَظُمَ عَلَيْكُمْ أَوْ لَا ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أَيُّ فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ صَنَمٍ وَوَتَنٍ ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَيُّ وَلَا تَجْعَلُوا أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ مُلْتَبَسًا، بَلْ أَفْصِلُوا خَالِكُمْ مَعِي، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ مُحِقُونَ فَاقْضُوا إِلَيَّ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أَيُّ وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً، أَيُّ مَهْمَا قَدَّرْتُمْ فَافْعَلُوا، فَإِنِّي لَا أَبَالِيكُمْ وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ، لِأَنَّهُمْ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ هُوَذَا لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَآلِهَدْرًا أَنِّي بَرِيءٌ وَمِمَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكُونُ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿٨٨﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ... الْآيَةُ [هود: ٥٤-٥٦].

## [الْإِسْلَامُ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ]

الْمُكَذِّبِينَ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعَتِّينَ ﴿٧٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، أَيِ بِالْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ فَمَا كَانَتْ الْأُمَمُ لِيُؤْمِنَ بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ أَوَّلَ مَا أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْتُ أَفَتُكْفِرُونَ بِمَا كَذَّبْتُمْ وَتُصَدِّقُونَ بِالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِي﴾ [الأنعام: ١١٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعَتِّينَ﴾ أَيِ كَمَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ فَمَا آمَنُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ الْمُتَقَدِّمِ هَكَذَا يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ مَنْ أَشَبَّهُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَيَحْضُمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، وَالْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ لِلرُّسُلِ، وَأَنْجَى مَنْ آمَنَ بِهِمْ، وَذَلِكَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ زَمَانِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْإِسْلَامِ إِلَى أَنْ أَحْدَثَ النَّاسُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا يَقُولُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ (٣). وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الآية: الإسراء: ١٧]، وَفِي هَذَا إِذْذَارٌ عَظِيمٌ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ كَذَّبُوا سَيِّدَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ أَصَابَ مَنْ كَذَّبَ بِتِلْكَ الرُّسُلِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، فَمَاذَا ظَنُّ هَؤُلَاءِ وَقَدْ ارْتَكَبُوا أَكْبَرَ مِنْ أُولَئِكَ؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ سِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِدُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَاكَ بِالْبَيِّنَاتِ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْكَ آبَاءَنَا وَكَانُوا كَكُلِّ الْكَاذِبِينَ ﴿٧٨﴾﴾

يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾

(١) الطبري: ٣٨٨/١٠ (٢) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٣) البداية والنهاية: ١٠١/١ وقال: رواه البخاري.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَيِ كَذَّبْتُمْ وَأَذْبَرْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ﴾ أَيِ لَمْ أَطْلُبْ عَلَى نُصْحِي إِيَّاكُمْ شَيْئًا ﴿إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَيِ وَأَنَا مُمْتَثِلٌ مَا أَمَرْتُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مَنَاهِلُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَبِيلًا وَسُنَّةً (١). فَهَذَا نُوحٌ يَقُولُ: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ: ﴿إِذْ قَالَ لِرَبِّهِ أَسْلِمْتُ قَالَ أَتَسْلَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِدَّ اللَّهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١-١٣٢] وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْتَ يَا مُسْلِمًا وَالْحَقُّقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وَقَالَ مُوسَى: ﴿يَقُولُ إِنْ كُنْتُمْ مَأْمَنُكُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ وَقَالَ السَّحَرَةُ: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِغًا وَوَكَّنَّا لِمُوسَى﴾ [الأعراف: ١٢٦] وَقَالَتْ بَلْقِيسُ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا فِيهَا هُدًى وَنُورًا يَجْعَلُكُمُ فِيهَا الْبَيْتُوتَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَحْيَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمَنُوا بِ رِسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَآسَمَدُ إِنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] وَقَالَ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَسَيِّدُ الْبَشَرِ ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاحِي وَشُكِّي وَخِيَايَ وَمَنَافِي اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَمْ وَذَلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] أَيِ: مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الثَّابِتِ عَنْهُ: «نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ. وَدِينُنَا وَاحِدٌ» (٢). أَيِ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُنَا، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «أَوْلَادُ عَلَاتٍ» وَهُمْ الْإِخْوَةُ مِنْ أُمَهَاتٍ شَتَّى وَالْأَبُ وَاجِدٌ.

## [عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ السَّيِّئَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أَيِ عَلَى دِينِهِ ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وَهِيَ السَّفِينَةُ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ أَيِ فِي الْأَرْضِ ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُذْذَرِينَ﴾ أَيِ يَا مُحَمَّدُ! كَيْفَ أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٨

سُورَةُ يُوسُفَ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ  
 قَالُوا لِمُوسَى اأَنْتُمْ مُلْقَوْنَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ  
 مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ  
 عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُخَوِّتُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ  
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى  
 خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ  
 فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ  
 ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ  
 تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا  
 بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ  
 أَن تَوَكَّلَا عَلَى الْقَوْمِ كَمَا بَصُرْتُمَا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً  
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى  
 رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ  
 الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُنَّ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ  
 وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

بِالْحَقِّ بَعْدَهُ فَيَدْخَعُ بِاطْلَاهُمْ.

ولهذا لما ألقوا سحرُوا أَعْيَنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ  
 وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى﴾ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا لَا  
 تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٨٠﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ لَلْفَقَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا  
 صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَقَى ﴿طه: ٦٧-٦٩﴾  
 فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لِمَا أَلْقَوْا: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ  
 اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَيُخَوِّتُ اللَّهُ الْحَقَّ  
 بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ  
 وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٨٣﴾

[لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا جَاءَ  
 بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ وَالْبَرَاهِينِ  
 السَّاطِعَاتِ، - إِلَّا قَلِيلٌ مِّن قَوْمِ فِرْعَوْنَ مِنَ الذَّرِّيَّةِ وَهُمْ  
 الشُّبَابُ - عَلَى وَجَلٍ وَخَوْفٍ مِنْهُ وَمِنْ مَلَكِهِ أَن يَرُدُّوهُمْ إِلَى

[قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الرُّسُلِ﴾ ﴿مُوسَى  
 وَهَارُونَ﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿أَي قَوْمِهِ﴾ ﴿يَا بَيْنَتَا﴾ أَي  
 حُجَجَنَا وَبَرَاهِينَنَا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أَي  
 اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْإِقْبَادِ لَهُ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ  
 ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّثِينٌ﴾ كَأَنَّهُمْ  
 - قَبَّحَهُمُ اللَّهُ - أَقْسَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَالُوهُ  
 كَذِبٌ وَبُهْتَانٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا وَأَسْبَقْنَتَهَا  
 أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية [النمل: ١٤] ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ ﴿مُوسَى﴾  
 مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ  
 السَّحَرُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَاكَ لِتُلْقِنَاكَ أَيْ تَنْشِئَنَا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ  
 ءَابَاءَنَا﴾ أَي الدِّينَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ﴿وَتَكُونُ لَكُمَا﴾ أَي لَكَ  
 وَلِهَارُونَ ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أَي الْعِظَمَةُ وَالرِّيَاسَةُ ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا  
 تَحْتَ لَكُمَا يَمُؤِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ  
 لَهُمْ مُوسَى اأَنْتُمْ مُلْقَوْنَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا  
 جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ  
 الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُخَوِّتُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ  
 الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

[بَيْنَ مُوسَى وَالسَّحَرَةِ]

ذَكَرَ اللَّهُ شُبْحَانَهُ قِصَّةَ السَّحَرَةِ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي  
 سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا هُنَاكَ، وَفِي هَذِهِ  
 السُّورَةِ، وَفِي سُورَةِ طه وَفِي الشُّعَرَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ -  
 لَعَنَهُ اللَّهُ - أَرَادَ أَنْ يَبْهَرَجَ عَلَى النَّاسِ، وَيُعَارِضَ مَا جَاءَ بِهِ  
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ. بِزُخْرَافِ السَّحَرَةِ  
 وَالْمُسْتَعْبِذِينَ، فَانْعَكَسَ عَلَيْهِ النَّظَامُ، وَلَمْ يَحْضَلْ لَهُ ذَلِكَ  
 الْمَرَامُ، وَظَهَرَتْ الْبَرَاهِينُ الْإِلَهِيَّةُ فِي ذَلِكَ الْمَحْفِلِ الْعَامِّ  
 ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ رَبِّ  
 مُوسَى وَهَارُونَ ﴿الأعراف: ١٢٠-١٢٢﴾ فَظَنَّ فِرْعَوْنُ أَنَّهُ  
 يَسْتَنْصِرُ بِالسَّحَرِ، عَلَى رَسُولٍ عَالِمِ الْأَسْرَارِ، فَخَابَ  
 وَخَسِرَ الْحِجَّةَ وَاسْتَوْجَبَ النَّارَ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ  
 عَلِيمٍ﴾ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى اأَنْتُمْ مُلْقَوْنَ ﴿٨٠﴾  
 وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا اضْطَفَّوْا، وَقَدْ وَعِدُوا مِنْ  
 فِرْعَوْنَ بِالتَّقْرِيبِ وَالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ﴿قَالُوا بِمُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْقَى  
 وَإِنَّمَا أَن تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿٨٠﴾ قَالَ بَلْ أَلْقَوْا ﴿فَارَادَ مُوسَى أَن  
 تَكُونَ الْبِدَءَةُ مِنْهُمْ، لِيَرَى النَّاسُ مَا صَنَعُوا، ثُمَّ يَأْتِي

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لَا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَيَقْتُلُونَا<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أَيُّ خَلَصْنَا بِرَحْمَةٍ مِنْكَ وَإِحْسَانٍ ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَقَّ وَسَرُّوهُ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا بِكَ وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ يُونَا وَاجْعَلُوا يُونَتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٨٧)</sup>

[أَمْرُهُمْ بِالصَّلَاةِ فِي الْبُيُوتِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى سَبَبَ إِنْجَائِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَكَيْفِيَّةِ خَلَاصِهِمْ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنْ يَتَوَّعَا أَيُّ يَتَّخِذَا لِقَوْمِهِمَا بِمِصْرَ يُونَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلُوا يُونَتَكُمْ قِبْلَةً﴾ وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَظْهَرَ صَلَاتَنَا مَعَ الْفِرَاعَةِ. فَأَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِمْ، وَأَمَرُوا أَنْ يَجْعَلُوا يُونَتَهُمْ قِبْلَ الْقِبْلَةِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَاجْعَلُوا يُونَتَكُمْ قِبْلَةً﴾ لَمَّا خَافَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ أَنْ يُقْتُلُوا فِي الْكَنَائِسِ الْجَامِعَةِ أَمَرُوا أَنْ يَجْعَلُوا يُونَتَهُمْ مَسَاجِدَ مُسْتَقْبِلَةَ الْكُعْبَةِ، يُصَلُّونَ فِيهَا سِرًّا<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ<sup>(٦)</sup>.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلِّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾<sup>(٨٨)</sup> قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَعِظُوا وَلَا تَنَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٨٩)</sup>

[دُعَاءُ مُوسَىٰ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا دَعَا بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ لَمَّا أَبَوْا قَبُولَ الْحَقِّ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، مُعَانِدِينَ جَاوِدِينَ ظُلْمًا وَعُلُوًّا، وَتَكْبَرًا وَعِغْوًا. قَالَ مُوسَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ أَيُّ مِنْ أَثَابِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أَيُّ جَزِيلَةً كَثِيرَةً ﴿فِي﴾ هَذِهِ (الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلِّوا عَنْ سَبِيلِكَ) -

مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، لِأَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - كَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا، مُسْرِفًا فِي التَّمَرُّدِ وَالْعُتُوِّ، وَكَانَتْ لَهُ سَطْوَةٌ وَمَهَابَةٌ تَخَافُ رَعِيَّتُهُ مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ قَالَ: فَإِنَّ الذَّرِيَّةَ الَّتِي آمَنَتْ لِمُوسَى - مِنْ أَنَاسٍ غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ يَسِيرُ، مِنْهُمْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ، وَخَازِنُ فِرْعَوْنَ، وَامْرَأَةُ خَازِنِهِ<sup>(١)</sup>.

وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَالْمَعْرُوفُ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ آمَنُوا بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَبَشَرُوا بِهِ، وَقَدْ كَانُوا يَعْرِفُونَ نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ وَالْإِشَارَةَ بِهِ مِنْ كُتُبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَقْضِيهِمْ بِهِ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ، وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَ هَذَا فِرْعَوْنَ حَذِرَ كُلَّ الْحَذَرِ، فَلَمْ يُجِدْ عَنْهُ شَيْئًا، وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ آذَاهُمْ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْأَدَى، وَ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذَابُكُمْ رَسُولُكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ<sup>(٣)</sup> [الأعراف: ١٢٩] وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مُؤْمِنٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ<sup>(٥)</sup> وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ<sup>(٦)</sup>

[تَحْرِيبُ مُوسَىٰ قَوْمَهُ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَىٰ أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ أَيُّ فَإِنَّ اللَّهَ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وَكَثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي كُلِّ صَلَاتِهِمْ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وَقَدْ امْتَثَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ فَقَالُوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ لَا تُظْهِرْهُمْ بِنَا وَتُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا، فَيُظْهِرُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَلَطُوا لَأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَنَحْنُ عَلَى الْبَاطِلِ، فَيَقْتُلُونَا بِذَلِكَ. هَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي مَجْلَزٍ وَأَبِي الضُّحَى<sup>(٧)</sup>.

(١) الطبري: ١٦٤/١٥ (٢) الطبري: ١٦٩/١٥ (٣) عبد الرزاق: ٢٩٧/٢ (٤) الطبري: ١٧٤/١٥ (٥) الطبري: ١٧٥/١٥ (٦) الطبري: ١٧٣/١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٩

سُورَةُ يُوسُفَ

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ  
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ  
فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ  
الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ  
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ  
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلَيْكُم نَجِيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ  
خَلَفَكَ ءَايَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾  
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ  
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ  
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ  
فَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ  
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَ  
مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ  
﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ  
﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

فَلَجَّحُوهُمْ وَفَتَّ شُرُوقَ الشَّمْسِ ﴿٩٧﴾ فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانِ قَالَ  
أَصْحَبُ مِصْرَ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿الشعراء: ٦١﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا  
انتهوا إلى ساحل البحر، وفزعون وراءهم، ولم يبق إلا  
أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى - عليه السلام -  
- عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول:  
إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَسْأَلَ هَهُنَا ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾  
[الشعراء: ٦٢] فَعِنْدَمَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ. فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى  
أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بَعْضَاهُ، فَضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ، فَكَانَ كُلُّ  
فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ، أَيْ كَالْجَبَلِ الْعَظِيمِ، وَصَارَ اثْنِي  
عَشَرَ طَرِيقًا لِكُلِّ سَبِيلٍ وَاحِدٍ، وَأَمَرَ اللَّهُ الرِّيحَ فَنَشَفَتْ أَرْضَهُ  
﴿فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى﴾  
[طه: ٧٧] وَتَحَرَّقَ الْمَاءُ بَيْنَ الطَّرِيقِ كَهَيْئَةِ الشَّبَايِكِ، لِيَرَى  
كُلُّ قَوْمٍ الْآخَرِينَ، لِئَلَّا يَطْنُوا أَنَّهُمْ هَلَكُوا. وَجَاوَزَتْ بَنُو  
إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ، فَلَمَّا خَرَجَ آخِرُهُمْ مِنْهُ انْتَهَى فِرْعَوْنُ

بِفَتْحِ الْيَاءِ - أَيْ أُعْطِيَتْهُمْ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ  
بِمَا أَرْسَلْتَنِي بِهِ إِلَيْهِمْ، اسْتِذْجَارًا مِنْكَ لَهُمْ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿لَيَقْتُلَنَّهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿يُضَلُّوْا﴾ - بِضَمِّ  
الْيَاءِ - أَيْ لَيَقْتُلَنَّ بِمَا أُعْطِيَتْهُمْ مَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ، لَيُطْنَنَّ  
مَنْ أَعُوَيْتَهُ أَنْكَ إِنَّمَا أُعْطِيَتْهُمْ هَذَا لِحُبِّكَ إِيَّاهُمْ وَاعْتِنَاكَ  
بِهِمْ ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: أَيْ  
أَهْلِكْهَا <sup>(١)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ:  
جَعَلَهَا اللَّهُ حِجَارَةً مَفْقُوشَةً كَهَيْئَةِ مَا كَانَتْ <sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ اطْمَع  
عَلَيْهَا <sup>(٣)</sup>. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وَهَذِهِ الدَّعْوَةُ  
كَانَتْ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ غَضَبًا لِلَّهِ وَلِدِينِهِ عَلَى فِرْعَوْنَ  
وَمَلِكِهِ الَّذِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَلَا يَجِيءُ مِنْهُمْ  
شَيْءٌ، كَمَا دَعَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى  
الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ <sup>(٤)</sup> إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا  
يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿نوح: ٢٦، ٢٧﴾ وَلِهَذَا اسْتَجَابَ اللَّهُ  
تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الَّتِي آمَنَ  
عَلَيْهَا أَخُوهُ هَارُونُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾  
أَيْ قَدْ أَجَبْنَا كُمَا فِيمَا سَأَلْتُمَا مِنْ تَدْمِيرِ آلِ فِرْعَوْنَ. وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ الْآيَةُ، أَيْ كَمَا  
أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا عَلَى أَمْرِي. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ  
ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فَاْمُضِيَا لِأَمْرِي، وَهِيَ  
الِاسْتِقَامَةُ <sup>(٥)</sup>.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا  
وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي  
ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ <sup>(٩٠)</sup> ءَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ  
قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلَيْكُم نَجِيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ  
لِمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾  
[نَجَاةُ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَعَرَقُ آلِ فِرْعَوْنَ]

يَذْكُرُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ إِغْرَاقِهِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، فَإِنَّ بَنِي  
إِسْرَءِيلَ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ بِصُحْبَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،  
وَهُمْ فِيمَا قِيلَ: سِتْمَائَةٌ أَلْفَ مَقَاتِلٍ سِوَى الدَّرِّيَّةِ، وَقَدْ  
كَانُوا اسْتَعَارُوا مِنَ الْقَبْطِ حُلِيًّا كَثِيرًا، فَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ،  
فَاسْتَدَّ حَتَّى فِرْعَوْنُ عَلَيْهِمْ، فَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ،  
يَجْمَعُونَ لَهُ جُنُودَهُ مِنْ أَقَالِيمِهِ، فَزَكَبَ وَرَاءَهُمْ فِي أَبْهَةِ  
عَظِيمَةٍ وَجُيُوشٍ هَائِلَةٍ، لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ، وَلَمْ  
يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ لَهُ دَوْلَةٌ وَسُلْطَانٌ فِي سَائِرِ مَمْلَكَتِهِ،

(١) الطبري: ١٨١/١٥ (٢) الطبري: ١٨٠/١٥ (٣) الطبري:

١٨١/١٥ (٤) الطبري: ١٨٧/١٥



وَجُودُهُ إِلَى حَافَتِهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى، وَهُوَ فِي مِائَةِ أَلْفٍ أَهَمَّ سِوَى بَقِيَّةِ الْأَلْوَانِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ هَالَهُ، وَأَحْجَمَ وَهَابَ، وَهَمَّ بِالرُّجُوعِ، وَهَيْهَاتَ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصِرٍ، نَفَذَ الْقُدْرَ، وَاسْتَجِيبَتِ الدَّعْوَةُ.

وَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فَرَسٍ وَدِيقِ حَائِلٍ، فَمَرَّ إِلَى جَانِبِ حِصَانِ فِرْعَوْنَ، فَحَمَحَمَ إِلَيْهَا، وَاقْتَحَمَ جِبْرِيلُ الْبَحْرَ فَاقْتَحَمَ الْحِصَانُ وَرَاءَهُ، وَلَمْ يَنْقُ فِرْعَوْنَ يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا، فَتَجَلَدَ لِأَمْرَائِهِ، وَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِأَحَقَّ بِالْبَحْرِ مِنَّا. فَاقْتَحَمُوا كُلُّهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَمِيكَائِيلُ فِي سَاقِيهِمْ، لَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا أَلْحَقَهُ بِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَوْسَقُوا فِيهِ وَتَكَاثَلُوا، وَهَمَّ أَوْلَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ أَمَرَ اللَّهُ الْقَدِيرُ الْبَحْرَ أَنْ يَرْتَطِمَ عَلَيْهِمْ، فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَجَعَلَتِ الْأَمْوَاجُ تَرْفَعُهُمْ وَتُخَفِّضُهُمْ، وَتَرَاكَمَتِ الْأَمْوَاجُ فَوْقَ فِرْعَوْنَ، وَعَشِيَّتُهُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «أَمِنْتُ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فَامَنَّ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ الْإِيمَانُ «فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ» (١) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا سَلَّتِ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَحَسِرَ هُنَاكَ الْكُفْرُونَ» [عافر: ٨٤، ٨٥]

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ مَا قَالَ: «ءَاكْفَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ» أَيُّ أَهَذَا الْوَقْتُ تَقُولُ، وَقَدْ عَصَيْتَ اللَّهَ قَبْلَ هَذَا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ «وَكُنْتَ مِنَ الْفَاسِقِينَ» أَيُّ فِي الْأَرْضِ - الَّذِينَ أَضَلُّوا النَّاسَ. «وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِسْمَةِ لَا يُصْرُونَ» [القصص: ٤١] - . وَهَذَا الَّذِي حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِهِ هَذَا، فِي حَالِهِ ذَلِكَ، مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ الَّتِي أَعْلَمَ اللَّهُ بِهَا رَسُولُهُ ﷺ، وَلِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّبَايِسِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخِذٌ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُهُ فِي فَمِ فِرْعَوْنَ مَخَافَةً أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ» (١). وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ (٢) وَابْنُ جَرِيرٍ (٣)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ: «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَيْدِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَكُّوا فِي مَوْتِ فِرْعَوْنَ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْبَحْرَ أَنْ يُلْقِيَهُ بِجَسَدِهِ سَوِيًّا بِلا رُوحٍ، وَعَلَيْهِ ذَرْعُهُ الْمَعْرُوفَةُ، عَلَى نَجْوَى

وَقَدْ بَوَّأَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مُوَاَ صِدْقٍ وَرَفَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (١٣)

[تَمْكِينُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْأَرْضِ وَرِفْقُهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: «مُبَوَّأ صِدْقٍ» قِيلَ: هُوَ بِلاَدٌ مِصْرَ وَالشَّامُ مِمَّا يَلِي بَيْتَ الْمُقَدَّسِ وَتَوَاجِيَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَجُودَهُ اسْتَفْرَتْ يَدُ الدَّوْلَةِ الْمُوسَوِيَّةِ عَلَى بِلاَدِ مِصْرَ بِكَمَالِهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَأَوْثَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَفْضِعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ» [الأعراف: ١٣٧] وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «فَأَعْرَضْنَاهُمْ مِنْ جَنَّتِ وَعَيْنٍ» (١٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَابِرَ كَرِيمٍ (١٨) كَذَلِكَ وَأَوْثَقْنَاهُ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ» [الشعراء: ٥٧-٥٩] وَقَالَ: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتِ وَعَيْنٍ» ... الْآيَاتِ [الدخان: ٢٥-٢٩]، وَلَكِنْ اسْتَمَرُّوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ طَالِبِينَ إِلَى بِلاَدِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَهِيَ بِلاَدُ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاسْتَمَرَّ مُوسَى بِمَنْ مَعَهُ طَالِبًا بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، وَكَانَ فِيهِ قَوْمٌ

(١) مسند الطيالسي: ٣٤١ (٢) تحفة الأحوزي: ٥٢٦/٨ (٣)

الطبري: ١٩١، ١٩٠/١٥ (٤) الطبري: ١٩٦/١٥ (٥)

الطبري: ١٩٧/١٥ (٦) فتح الباري: ١٩٨/٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٢٠

سُورَةُ يُونُسَ

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنْتَ فَتَنْفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا  
ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ  
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ  
جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا  
كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمَرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ  
عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾  
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ  
قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نَسِجِي  
رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُؤْمِنِينَ  
﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ  
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم وَيُمْرَرُ  
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا  
وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ  
مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

إِلَيْهِمُ الْمَلَكُوتَ وَلَهُمُ الْوَقْتُ وَحَسْرَتًا عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا  
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١٠٧﴾  
[الانعام: ١١١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنْتَ فَتَنْفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا  
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿٩٨﴾  
[لَمْ يَنْفَعِ الْإِيْمَانُ أَحَدًا عِنْدَمَا جَاءَ الْعَذَابُ إِلَّا قَوْمٌ  
يُونُسَ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَهَلَّا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنْتَ بِكَمَالِهَا مِنَ الْأَمْرِ  
السَّالِفَةِ الَّذِينَ بَعَثْنَا إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، بَلْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا  
مُحَمَّدُ! مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ، كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿يَحْزَنُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ  
إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا  
مِن قَبْلِكَ فِي قَرِيبٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ

مِنَ الْعِمَالَةِ، فَتَكَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ قِتَالِهِمْ، فَشَرَدَهُمُ اللَّهُ  
تَعَالَى فِي النَّيِّهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَمَاتَ فِيهِ هَارُونُ ثُمَّ مُوسَى  
عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَخَرَجُوا بَعْدَهُمَا مَعَ يُوْشَعَ بْنِ نُونٍ، فَفَتَحَ  
اللَّهُ عَلَيْهِمُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَاسْتَقَرَّتْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهَا حِينًا مِنَ  
الزَّمَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أَيِ الْحَلَالِ مِنَ الرِّزْقِ  
الطَّيِّبِ النَّافِعِ الْمُسْتَطَابِ طَبْعًا وَشَرْعًا، وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا  
أَخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أَيُّ مَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ مِنَ  
الْمَسَائِلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، أَيُّ وَلَمْ يَكُنْ  
لَهُمْ أَنْ يَخْتَلِفُوا، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَهُمْ وَأَزَالَ عَنْهُمْ اللَّبْسَ،  
وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى  
وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ  
فِرْقَةً، وَاسْتَفْتَرَقَ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً،  
مِنْهَا وَاحِدَةٌ فِي الْحَقِّ، وَاثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ» قِيلَ:  
مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»<sup>(١)</sup>.  
رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أَيُّ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ  
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ  
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ  
الْمُتَارِكِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَلَا تَكُونَ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ  
مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا  
يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ  
الْأَلِيمَ﴾ ﴿١٠٢﴾

[تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ فِي الْكِتَابِ السَّابِقَةِ]

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي  
يُحَدِّثُهُمْ مَكُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... الْآيَةُ  
[الأعراف: ١٥٧]، ثُمَّ مَعَ هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ مِنْ كُتُبِهِمْ  
كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ يَلْبِسُونَ ذَلِكَ، وَيَحَرِّفُونَهُ وَيَبْدُلُونَهُ،  
وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَلَوْ  
جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَيُّ لَا يُؤْمِنُونَ  
إِيْمَانًا يَنْفَعُهُمْ، بَلْ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا، وَلِهَذَا لَمَّا  
دَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِئِهِ قَالَ: ﴿رَبَّنَا  
أُطِّسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا  
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢١

سُورَةُ يُونُسَ

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ  
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ  
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ  
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ  
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ  
مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ يُونُسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكْبُ أَحْكَمُ إِنَّهُ ثُمَّ فَضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾  
الْأَعْبَادُ وَاللَّهُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا  
رَبَّهُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ يَمِيعَةً مِّنْ عَنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ  
كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ  
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ  
يَلْبِثُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعِشُونَ شِيَابَهُمْ  
يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴿الرعد: ٣١﴾ وَلِهَذَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أَي تُلْزِمُهُمْ وَتُلْجِئُهُمْ ﴿حَتَّى  
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَلَا إِلَيْكَ بَلِ اللَّهُ  
﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ  
حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي  
مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ﴿لَكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ إِلاَّ يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿فَلِنَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿فَذَكِّرْ  
إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الناس: ١١] لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ ﴿[الناشئة: ٢١]،  
٢٢﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ  
الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، الْهَادِي مَنْ يَشَاءُ، الْمُضِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ،  
لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ لِنَفْسٍ  
أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ﴾ وَهُوَ الْخَبَالُ

(١) فتح الباري: ١٠/٢٢٤ (٢) الطبري: ١٥/٢٠٧ (٣)

الطبري: ١٥/٢٠٨-٢١٠

أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وَفِي  
الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ  
وَمَعَهُ الْفِئَامُ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ  
مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»<sup>(١)</sup>. ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَةَ  
أَتْبَاعِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَةَ أُمَّةٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ  
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ كَثْرَةَ سَدَّتِ الْخَافِقَيْنِ الشَّرْقِيِّ وَالْغَرْبِيِّ.  
وَالْغَرْضُ: أَنَّهُ لَمْ تَوْجَدْ قَرْيَةً أَمِنَتْ بِكَمَالِهَا بَنِيهِمْ مِمَّنْ  
سَلَفَ مِنَ الْقُرَى إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ، وَهُمْ أَهْلُ يَنبُوعَ، وَمَا  
كَانَ إِيمَانُهُمْ إِلَّا تَخَوُّفًا مِنْ وَضُوءِ الْعَذَابِ الَّذِي أُنْذِرُهُمْ بِهِ  
رَسُولُهُمْ بَعْدَمَا عَايَنُوا أَسْبَابَهُ، وَخَرَجَ رَسُولُهُمْ مِنْ بَيْنِ  
أَظْهُرِهِمْ، فَعِنْدَمَا جَاءُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغَاثُوا بِهِ، وَتَضَرَّعُوا  
لَهُ وَاسْتَكَانُوا، وَأَحْضَرُوا أَطْفَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ،  
وَسَأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي أُنْذِرُهُمْ بِهِ  
نَبِيُّهُمْ، فَعِنْدَهَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَكَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ،  
وَأَخْرَجَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا  
عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرَزِيِّ فِي الْحَيَوتِ الْدُنْيَا وَنَجَّيْنَاهُمْ إِلَىٰ جَنَّةٍ﴾ وَقَالَ  
قَتَادَةُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: لَمْ يَنْفَعِ قَرْيَةً كَفَرَتْ ثُمَّ أَمِنَتْ  
حِينَ حَضَرَهَا الْعَذَابُ فَتَرَكَتْ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ، لَمَّا فَقَدُوا  
نَبِيَّهُمْ وَظَنُّوا أَنَّ الْعَذَابَ قَدْ دَنَا مِنْهُمْ، فَذَفَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ  
التَّوْبَةَ، وَلَبَسُوا الْمُسُوحَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَهِيمَةٍ وَوَلِيدَةٍ،  
ثُمَّ عَجَّوْا إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا عَرَفَ اللَّهُ مِنْهُمْ الصَّدْقَ  
مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَالتَّوْبَةَ وَالتَّوَابَةَ عَلَى مَا مَضَى مِنْهُمْ، كَشَفَ  
عَنْهُمْ الْعَذَابَ بَعْدَ أَنْ تَدَلَّى عَلَيْهِمْ. قَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرَ أَنَّ  
قَوْمَ يُونُسَ بَنِي نَوَى أَرْضِ الْمُوصِلِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ  
مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ  
السَّلَفِ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ  
النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا كُنْتَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا  
بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الذُّلَّةِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٧﴾

[لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ]  
يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ! لَأَذِنَ لِأَهْلِ  
الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي الْإِيمَانِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ، فَأَمَنُوا كُلُّهُمْ، وَلَكِنْ  
لَهُ حِكْمَةٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ تَعَالَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ  
لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ  
وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ  
أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِصِلِ الَّذِينَ

وَالضَّالَّالِ ﴿١٠٩﴾ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٨﴾ أَيُّ حُجَجِ اللَّهِ وَأَدْلَتُهُ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ، فِي هِدَايَةِ مَنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ.

﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٠٦﴾ ثُمَّ نَتَجَى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]

يُرْشِدُ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ لِدَوَى الْأَلْبَابِ، وَمَا فِي السَّمَوَاتِ مِنْ كَوَاكِبَ تَنِيرَاتٍ، نُوَابِتٍ وَسَيَّارَاتٍ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاخْتِلَافِهِمَا، وَإِبْلَاجِ أَحَدِهِمَا فِي الْآخَرِ حَتَّى يَطُولَ هَذَا وَيَقْصُرَ هَذَا، ثُمَّ يَقْصُرَ هَذَا وَيَطُولَ هَذَا، وَارْتِفَاعِ السَّمَاءِ وَاتْسَاعِهَا وَحُسْنِهَا وَزِينَتِهَا، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْهَا مِنْ مَطَرٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَخْرَجَ فِيهَا مِنْ أَفَانِينَ الثَّمَارَ وَالزَّرْعَ وَالْأَزَاهِيرَ وَصُنُوفِ النَّبَاتِ، وَمَا ذَرَأَ فِيهَا مِنْ دَوَابٍّ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَالْمَنَافِعِ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَسُهُولٍ وَقِفَارٍ وَعُغْرَانٍ وَخَرَابٍ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْأَمْوَاجِ، وَهُوَ مَعَ هَذَا مُسَخَّرٌ مُذَلَّلٌ لِلسَّالِكِينَ، يَحْمِلُ سُفُنَهُمْ وَيُجْرِي بِهَا بِرْفَقٍ، بِتَسْخِيرِ الْقَدِيرِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ: وَأَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي الْآيَاتُ السَّمَاوِيَّةَ وَالْأَرْضِيَّةَ، وَالرُّسُلُ بَيَّانَاتُهَا وَحُجَجُهَا وَبَرَاهِينُهَا الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِهَا عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ؟! كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾... الآية [يونس: ٩٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ فَهَلْ يَنْظُرُونَ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ! مِنَ الثَّقَمَةِ وَالْعَذَابِ: إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِهِمْ ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ ثُمَّ نَتَجَى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ وَتَهْلِكُ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾ حَقًّا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿قُلْ يَتَّخِذُ النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَغْدُو الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقْدَرُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَلَئِنْ يُرِيدْكَ بِتَحِيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٠١﴾

[الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَنَا لَا أَغْدُو الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ كَمَا أَحْيَاكُمْ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، فَإِنْ كَانَتْ إِلَهَتُكُمْ الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَقًّا فَأَنَا لَا أَغْدُهَا، فَادْعُوهَا فَلْتَضْرِبْنِي، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَإِنَّمَا الَّذِي بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ هُوَ: اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَقْدَرُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾... الآية أَيُّ أَخْلَصُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ حَنِيفًا، أَيُّ مُتَحَرِّفًا عَنِ الشَّرِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾... الآية، فِيهِ بَيَانٌ لَأَنَّ الْخَيْرَ وَالسَّرَّ وَالنَّفْعَ وَالضَّرَّ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أَيُّ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَلَوْ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ، حَتَّى مِنَ الشَّرِّ بِهِ، فَإِنَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ.

﴿قُلْ يَتَّخِذُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُخَبِّرَ النَّاسَ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، فَمَنِ اهْتَدَى بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ الْإِتِّبَاعِ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَيُّ وَمَا أَنَا مُوَكَّلٌ بِكُمْ حَتَّى تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ. وَالْهِدَايَةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أَيُّ تَمَسَّكْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ، وَاصْبِرْ عَلَى مُخَالَفَةِ مَنْ خَالَفَكَ

مِنَ النَّاسِ ﴿حَتَّىٰ يَمُوتَ اللَّهُ﴾ أَيُّ يَفْتَحُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أَيُّ خَيْرِ الْفَاتِحِينَ بَعْدِلِهِ وَحِكْمَتِهِ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[سُورَةُ هُودٍ مِمَّا شَبَّهَتِ النَّبِيُّ ﷺ]

رَوَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ شَبَّهْتَ. قَالَ: «شَبَّهْتَنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». وَفِي رَوَايَةٍ: «هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»<sup>(١)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَنْتُ أَكُنْتُ إِنَّمَا ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ① أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ②﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُبْعَثْكُمْ مِّنْعَا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④﴾

[الْقُرْآنُ وَدَعْوَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُرُوفِ الْهَجَاءِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَكُنْتُ إِنَّمَا ثُمَّ فَضَّلْتُ﴾ أَيُّ هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي لَفْظِهَا مُفْضَلَةٌ فِي مَعْنَاهَا، فَهُوَ كَامِلٌ صُورَةً وَمَعْنًى. هَذَا مَعْنَى مَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَفَتَادَةَ<sup>(٢)</sup> وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أَيُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْحَكِيمِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَحْكَامِهِ، خَيْرٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أَيُّ نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُحْكَمُ الْمُفْضَلُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أَيُّ إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ، وَبَشِيرٌ بِالتَّوْبِ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَعَدَ الصَّفَا فَدَعَا بَطُونَ قُرَيْشٍ الْأَقْرَبَ ثُمَّ الْأَقْرَبَ، فَاجْتَمَعُوا، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تُصَبِّحُكُمْ أَلَسْتُمْ مُصْذِقِي؟» فَقَالُوا: مَا جَرَّبْنَا

عَلَيْكَ كَذِبًا قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ»<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُبْعَثْكُمْ مِّنْعَا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أَيُّ وَأَمَرْتُكُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ، وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِيمَا تَسْتَغْفِلُونَهُ، وَأَنْ تَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿يُبْعَثْكُمْ مِّنْعَا حَسَنًا﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. قَالَه فَتَادَةُ<sup>(٤)</sup>. كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتٍ طَيِّبَةً﴾... الْآيَةُ [النحل: ٩٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يَنَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيُّ مَعَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِ وَاتِّقَانِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَإِعَادَةِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا مَقَامُ التَّرْهِيبِ كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ مَقَامُ تَرْغِيبٍ.

﴿أَلَّا إِنَّمَا يَنْتَوْنُ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَغْفِرُوا مِنْهُ إِلَّا جِئَ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَاتٍ

الضُّمُورِ ⑤﴾

[اللَّهُ خَبِيرٌ بِكُلِّ شَيْءٍ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا السَّمَاءَ بِمُرُوجِهِمْ، وَحَالَ وَقَاعِهِمْ، فَأَنزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. رَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَ: ﴿أَلَّا إِنَّمَا يَنْتَوْنُ صُدُورُهُمْ﴾ الْآيَةَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ! مَا تَنْتَوْنِي صُدُورُهُمْ؟ قَالَ: الرَّجُلُ كَانَ يُجَامِعُ امْرَأَتَهُ فَيَسْتَحْيِي أَوْ: يَتَخَلَّى فَيَسْتَحْيِي. فَتَرَلْتُ: ﴿أَلَّا إِنَّمَا يَنْتَوْنِي صُدُورُهُمْ﴾<sup>(٥)</sup>.

وَفِي لَفْظٍ آخَرَ لَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَسُّ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا فَيَفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنْ يُجَامِعُوا نِسَاءَهُمْ فَيَفْضُوا إِلَى السَّمَاءِ. فَتَرَلْتُ ذَلِكَ فِيهِمْ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يَسْتَعْشُونَ﴾ يَعْطُونَ رُؤُوسَهُمْ<sup>(٧)</sup>.

(١) تحفة الأحوذى: ١٨٤/٩ (٢) الطبري: ٢٢٧/١٥ (٣) دلائل النبوة: ١٨١/٢ (٤) الطبري: ٢٣١/١٥ (٥) فتح الباري: ٢٠٠/٨ (٦) فتح الباري: ٢٠٠/٨ (٧) فتح الباري: ٢٠٠/٨

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

[الله مُتَكَفِّلٌ بِأَرْزَاقِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ]

أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مُتَكَفِّلٌ بِأَرْزَاقِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ سَائِرِ دَوَابِّ الْأَرْضِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا بَحْرِيَّهَا وَبَرِّيَّهَا، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، أَيُّ يَعْلَمُ أَيْنَ مُنْتَهَى سَيْرِهَا فِي الْأَرْضِ، وَأَيْنَ تَأْوِي إِلَيْهِ مِنْ وَكْرِهَا، وَهُوَ مُسْتَوْدَعُهَا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا» أَيُّ حَيْثُ تَأْوِي «وَمُسْتَوْدَعَهَا» حَيْثُ تَمُوتُ<sup>(١)</sup>. وَأَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ مَكْتُوبٌ فِي «كِتَابٍ» عِنْدَ اللَّهِ «مُبِينٍ» عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» [الأنعام: ٣٨] وَقَوْلُهُ: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا بَاسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» [الأنعام: ٥٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

[خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَأَنَّ عَرْشَهُ كَانَ عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَيْمٍ» قَالُوا: قَدْ بَشَرْتَنَا، فَأَعْطِنَا، قَالَ: «اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ» قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا. فَأَخْبَرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ كَيْفَ كَانَ؟ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ» قَالَ: فَأَتَانِي أَبِي فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ! انْحَلَّتْ نَافَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا فَلَا أَذْرِي مَا كَانَ بَعْدِي<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ بِأَلْفَاظٍ كَثِيرَةٍ<sup>(٣)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٢

سُورَةُ هُودٍ

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْكُمْ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَأَنْفَقْتُ أُنْفِقُ عَلَيْكَ» وَقَالَ: «يَا اللَّهُ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَخَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» وَقَالَ: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَيُّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَنْفَعَ عِبَادَهُ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَلَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا، كَقَوْلِهِ: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

(١) الطبري: ٢٤١/١٥ (٢) أحمد: ٤٣١/٤ (٣) فتح الباري: ٣٣٠/٦ ومسلم: ٢٠٤١/٤ (٤) مسلم: ٢٠٤٤/٤ (٥) فتح الباري: ٢٠٢/٨

وَقَوْلِهِ فِي يُوسُفَ: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]. وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْإِمَامِ الْمُتَّقِدَى بِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَفِيفًا وَلَهُ بِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]. وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْمِلَّةِ وَالَّذِينَ كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وَتُسْتَعْمَلُ فِي الْجَمَاعَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُ﴾ [القصص: ٢٣] وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يظْلُمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] وَالْمَرَادُ مِنَ الْأُمَّةِ هُنَا: الَّذِينَ يَبْعَثُ فِيهِمُ الرُّسُولَ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ»<sup>(١)</sup>. وَأَمَّا أُمَّةُ الْأَتْبَاعِ فَهُمْ الْمُصَدِّقُونَ لِلرُّسُلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ خَبَرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وَفِي الصَّحِيحِ: «فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي»<sup>(٢)</sup>. وَتُسْتَعْمَلُ الْأُمَّةُ فِي الْفِرْقَةِ وَالطَّائِفَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وَكَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾... الْآيَةُ [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ﴾<sup>(٣)</sup> وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسْتَهةً لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ<sup>(٤)</sup> إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ<sup>(٥)</sup> [تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّهُ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ حَصَلَ لَهُ بَأْسٌ وَقُطُوعٌ مِنَ الْخَيْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، وَكُفْرٌ وَجُحُودٌ لِمَاضِي الْحَالِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَ خَيْرًا وَلَمْ يَرَجُ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَجًا. وَهَكَذَا إِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِقْمَةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ أَيُّ يَقُولُ: مَا يَنَالُنِي بَعْدَ هَذَا ضَيْمٍ وَلَا سُوءٍ ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أَيُّ فَرِحَ بِمَا فِي يَدِهِ بَطَرًا، فَخُورٌ عَلَى غَيْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَيُّ

كُفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾... الْآيَةُ [الذاريات: ٥٦] وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ أَيُّ لِيُخْتَبِرَكُمْ ﴿أَتَكُونُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَكْثَرُ عَمَلًا، بَلْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ حَسَنًا حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَتَى فَقَدْ الْعَمَلُ وَاجِدًا مِنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ حَيْطٌ وَيَطْلُ.

[جِدَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَاسْتِعْجَالُهُمْ لِلْعَذَابِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾... الْآيَةُ. يَقُولُ تَعَالَى: وَلَكِنْ أَخْبَرْتُ يَا مُحَمَّدُ! هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ اللَّهَ سَيَبْعَثُهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ كَمَا بَدَأَهُمْ. مَعَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] وَهُمْ مَعَ هَذَا يُنْكِرُونَ الْبُعْثَ وَالْمَعَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُدْرَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْبَدَاءَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَيُّ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحِدَةً﴾ [القمان: ٢٨].

وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا: مَا نُصَدِّقُكَ عَلَى وُفُوعِ الْبُعْثِ، وَمَا يَذْكُرُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ سَحَرَتْهُ فَهُوَ يَتَّبِعُكَ عَلَى مَا تَقُولُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾... الْآيَةُ. يَقُولُ تَعَالَى: وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا الْعَذَابَ وَالْمُؤَاخَذَةَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ وَأَمَدٍ مَحْضُورٍ، وَأَوْعَدْنَاهُمْ إِلَى مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ تَكْذِيبًا وَاسْتِعْجَالًا، «مَا يَحْسِبُهُ» أَيُّ يُؤَخِّرُ هَذَا الْعَذَابَ عَنَّا؟ فَإِنَّ سَجَايَاهُمْ قَدْ أَلْفَتِ التَّكْذِيبَ وَالشَّكَّ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَحِيصٌ عَنْهُ وَلَا مَحِيدٌ.

[مَعَانِي الْأُمَّةِ]

وَالْأُمَّةُ تُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَبَرَأَ بِهَا الْأَمَدُ، كَقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٣

سُورَةُ هُودٍ

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ  
وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾  
فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ  
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ  
﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ  
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَمَنْ كَانَ  
عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَتَبَلَّوْهُ شَاهِدًا مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كُتِبَ  
مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ  
مِنَ الْأَحْزَابِ فَاَلْتَأْتِ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيضٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ  
مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ  
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ  
عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَّا شَهِدْتُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى  
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

## [بَيَانُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ]

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى إِعْجَازَ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ  
يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ، وَلَا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، لِأَنَّ  
كَلَامَ الرَّبِّ تَعَالَى لَا يُشَبِّهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ كَمَا أَنَّ صِفَاتِهِ  
لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِ الْمَخْدُودَاتِ. وَذَاتُهُ لَا يُشَبِّهُهَا شَيْءٌ، تَعَالَى  
وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ثُمَّ قَالَ  
تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فَإِنْ لَمْ يَأْتُوا بِمُعَارَضَةٍ مَا  
دَعَوْتُهُمْ إِلَيْهِ فَاَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ هَذَا  
الْكَلَامَ مُتَزَلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُتَضَمِّنٌ عِلْمَهُ وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ﴿وَأَنَّ  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا  
وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا  
النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

عَلَى الشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيْ: فِي  
الرَّخَاءِ وَالْعَاقِبَةِ ﴿أُولَئِكَ هُمْ مَقْبُورُونَ﴾ أَيْ: بِمَا يُصِيبُهُمْ  
مِنَ الصَّرَاءِ ﴿وَأَجْرٌ كَثِيرٌ﴾ بِمَا أَسْلَفُوهُ فِي زَمَنِ الرَّخَاءِ،  
كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ  
الْمُؤْمِنَ هَمٌّ، وَلَا غَمٌّ، وَلَا نَصَبٌ، وَلَا وَصَبٌ، وَلَا  
حَزَنٌ، حَتَّى الشُّوْكَهُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ  
خَطَايَاهُ» (١). وَفِي الصَّحِيحِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي  
اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ  
كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ  
ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ» (٢). وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿١٩﴾ ... الْآيَاتِ [المعارج:  
١٩-٢٢].

﴿فَلَمَّا كُنَّا نَارُكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِبُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ  
يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ  
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا  
بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ. مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ  
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ  
وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٦﴾

## [تَضَائِقُ الرَّسُولِ عَنْ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَتَسْلِيَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسْلِمًا لِرَسُولِهِ ﷺ عَمَّا كَانَ يَتَّعَتُّ بِهِ  
الْمُشْرِكُونَ فِيمَا كَانُوا يَقُولُونَهُ عَنِ الرَّسُولِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى  
عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ  
وَيَسْتَمِئُ فِي الْأَسْرَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ  
نَذِيرٌ﴾ ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ  
مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾  
[الفرقان: ٧، ٨] فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى  
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ لَا يَصِيقَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ  
صَدْرُهُ، وَلَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ وَلَا يَتَّيْنُهُ عَنْ دُعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ  
وَجَلَّ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ  
تَعَلَّمْنَاكَ بِصِيقِ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ... الْآيَةِ [الحجر: ٩٧]،  
وَقَالَ هُنَا: ﴿فَلَمَّا كُنَّا نَارُكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِبُ  
بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا﴾ أَيْ: لَقَوْلِهِمْ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ،  
وَلَكَّ أَسْوَةٌ بِأَخْوَانِكَ مِنَ الرُّسُلِ قَبْلَكَ، فَإِنَّهُمْ كَذَبُوا وَأَوْدُوا  
فَصَبَرُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.



[مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ حَظٌّ فِي الْآخِرَةِ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ أَهْلَ الرِّبَا يُعْطَوْنَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا يَقُولُ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا لِيَتَمَسَّ الدُّنْيَا صَوْمًا أَوْ صَلَاةً أَوْ تَهَجُّدًا بِاللَّيْلِ لَا يَعْمَلُهُ إِلَّا التَّمَسُّ الدُّنْيَا، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْفِيهِ الَّذِي التَّمَسَّ فِي الدُّنْيَا: مِنَ الْمَثَابَةِ، وَحِطَّ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ لِاتِّمَامِ الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ. <sup>(١)</sup> وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَالْحَسَنُ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الرِّبَا <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ وَنِيَّتُهُ وَطَلِبَتُهُ جَزَاهُ اللَّهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا جَزَاءٌ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَجْازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَيُنَازِلُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ <sup>(٥)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَحُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا» <sup>(٦)</sup> وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا <sup>(٧)</sup> كُلَّا نُمِدُّ هُنَّوَاءً وَهُنَّوَاءً مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا <sup>(٨)</sup> أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَةٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا <sup>(٩)</sup> [الاسراء: ١٨-٢١] وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» [الشورى: ٢٠].

«أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ. وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ. كُتِبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنْ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهُ فَإِنَّهُ لَآتٍ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» <sup>(١٠)</sup>

[إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَكُونُ عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا عِبَادَهُ مِنَ الْإِعْزَافِ لَهُ: بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَأَمَّا وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»... الآية [الروم: ٣٠]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ كَمَا تُولَدُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُجْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟»... الْحَدِيثُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ

ابْنِ حِمَارٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّتْ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ شُطْرَانًا» <sup>(١)</sup> فَالْمُؤْمِنُ بَاقٍ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ.

قَوْلُهُ: «وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أَيُّ: وَجَاءَهُ شَاهِدٌ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُكْمَلَةِ الْمُعْظَمَةِ الْمُخْتَمَةِ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَهُ مِنَ الْفِطْرَةِ مَا يَشْهَدُ لِلشَّرِيعَةِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ، وَالتَّفَاصِيلُ تُؤْخَذُ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَالْفِطْرَةُ تُصَدِّقُهَا وَتُؤْمِنُ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ. وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» وَهُوَ الْقُرْآنُ بَلَّغَهُ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَبَلَّغَهُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى أُمَّتِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَمِنْ قَبْلِهِ. كُتِبَ مُوسَى» أَيُّ: وَمِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ كِتَابُ مُوسَى وَهُوَ التَّوْرَةُ «إِمَامًا وَرَحْمَةً» أَيُّ: أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى تِلْكَ الْأُمَّةِ إِمَامًا لَهُمْ وَقُدُوةً يُقْتَدُونَ بِهَا، وَرَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِهِمْ، فَمَنْ آمَنَ بِهَا حَقَّ الْإِيمَانِ، قَادَهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ أَوْ بَشَيْءٍ مِنْهُ: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهُ» أَيُّ: وَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مُشْرِكِيهِمْ وَكَافِرِيهِمْ وَأَهْلِي الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ مِمَّنْ بَلَّغَهُ الْقُرْآنُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «لَا تُؤْخَذُكُمْ بِهِ. وَمَنْ يَلْعَنُ» [الانعام: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: «قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» [الاعراف: ١٥٨] وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهُ».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ» <sup>(٢)</sup>.

(١) الطبري: ٢٦٣/١٥ العوفي معروف بالضعف كما تقدم (٢)  
الطبري: ٢٦٥، ٢٦٤/١٥ (٣) الطبري: ٢٦٥/١٥ (٤)  
الطبري: ٢٦٦/١٥ (٥) الطبري: ٢٦٤/١٥ (٦) فتح الباري: ٢٩٠/٣  
ومسلم: ٢٠٤٧/٤ (٧) مسلم: ٢١٩٧/٤ (٨) مسلم: ١٣٥/١

## [مُصَدِّقُ كُلِّ حَدِيثٍ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ]

وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتْيَانِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: كُنْتُ لَا أَسْمَعُ بِحَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ إِلَّا وَجَدْتُ مُصَدِّقَهُ - أَوْ قَالَ -: تَصْدِيقَهُ فِي الْقُرْآنِ، فَلَبَغْتَنِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ» فَبَعَلْتُ أَقُولُ: أَيْنَ مُصَدِّقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: وَقَلَمًا سَمِعْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَجَدْتُ لَهُ تَصْدِيقًا فِي الْقُرْآنِ، حَتَّى وَجَدْتُ هَذِهِ الْآيَةَ «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلَنَّا مَوْعِدَهُ» قَالَ: مِنَ الْمَلَأِ كُلِّهَا<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: «فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ مَتَّ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِنْ رَحْمَتِكَ»... الْآيَةَ، أَيِ الْقُرْآنِ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ لَا مِرْيَةَ وَلَا شَكَّ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْعَمَّ<sup>(٢)</sup> تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْعَمَّ<sup>(٣)</sup> ذَلِكَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢] وَقَوْلُهُ: «وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» [يوسف: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَنْ نَقْطِعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» [الأنعام: ١١٦] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [سبأ: ٢٠].

«وَمَنْ أَظَاهَرُ مِنِّي أَقْرَبَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ»<sup>(٤)</sup> الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ<sup>(٥)</sup> أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ<sup>(٦)</sup> أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ<sup>(٧)</sup> لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ<sup>(٨)</sup>

[الْمُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الصَّادُونَ عَنْ سَبِيلِهِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ] يَبِينُ تَعَالَى حَالُ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ وَفَضِيحَتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَسَائِرِ الْبَشَرِ وَالْجَانِّ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَرَّرٍ قَالَ: كُنْتُ أَخْذًا بِبَيْدِ ابْنِ عَمَرَ إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ قَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنِينَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتَرْهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَقْرَأُ بِذُنُوبِهِ وَيَقُولُ لَهُ: أَنْعَرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَنْعَرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟

## الْمِيزَانُ

٢٢٤

## سُورَةُ هُودٍ

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ<sup>(٩)</sup> أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ<sup>(١٠)</sup> لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ<sup>(١١)</sup> إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاجْتَنَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ<sup>(١٢)</sup> مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ<sup>(١٣)</sup> وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِلَى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ<sup>(١٤)</sup> أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ<sup>(١٥)</sup> فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادِيَ الرَّأْيَ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ<sup>(١٦)</sup> قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَءَالِئِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُصِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ كُفَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَهَاكُوهُونَ<sup>(١٧)</sup>

أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَرَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ثُمَّ يُعْطَى كِتَابُ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» الْآيَةَ<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» أَيِ: يُرْذِلُونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَشُلُوكِ طَرِيقِ الْهُدَى الْمَوْصِلَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُجَنِّبُونَهُمُ الْجَنَّةَ «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» أَيِ: وَيُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ طَرِيقُهُمْ عِوَجًا غَيْرَ مُعْتَدِلَةٍ «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» أَيِ: جَاحِلُونَ بِهَا مُكَذِّبُونَ بِوُفُوعِهَا وَكَوْنِهَا «أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» أَيِ بَلْ كَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَعِلْبَتِهِ وَفِي قَبْضَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ

(١) الطبري (١٨٠٨٥) إسناده صحيح. (٢) أحمد: ٧٤/٢ (٣) فتح الباري: ٢٠٤/٨ ومسلم: ٢١٢٠/٤

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَاِمْتَنَّا قُلُوبُهُمْ وَعَمَلْتَ  
جَوَارِحُهُمْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا، مِنَ الْإِنْيَانِ  
بِالطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَبِهَذَا وَرَثُوا الْجَنَّاتِ،  
الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْغُرَفِ الْعَالِيَاتِ، وَالشَّرَرِ الْمُصْفُوفَاتِ،  
وَالْقُطُوفِ الدَّانِيَاتِ، وَالْفُرُشِ الْمُرتَفَعَاتِ، وَالْحِسَانِ  
الْخَيْرَاتِ، وَالْفَوَاحِشِ الْمُتَنَوِّعَاتِ، وَالْمَأْكَلِ الْمُشْتَهَيَاتِ  
وَالْمَشَارِبِ الْمُسْتَلَذَّاتِ، وَالنَّظَرِ إِلَى خَالِقِ الْأَرْضِ  
وَالسَّمَوَاتِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ، لَا يَمُوتُونَ وَلَا  
يَهْرَمُونَ، وَلَا يَمْرَضُونَ وَلَا يَنَامُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا  
يَبْصُقُونَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، إِنَّ هُوَ إِلَّا رَشَحُ مِسْكِ يَعْرِفُونَ.

### [مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ]

ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿مَثَلُ  
الْفَرِيقَيْنِ﴾ أَيِ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ أَوَّلًا بِالشَّقَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ  
بِالسَّعَادَةِ، فَأُولَئِكَ ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْوَى﴾ وَهَؤُلَاءِ كَالْبَصِيرِ  
وَالسَّمِيعِ. فَالْكَافِرُ أَعْمَى عَنْ وَجْهِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُهُ. أَصَمُّ عَنْ سَمَاعِ الْحُجَجِ فَلَا  
يَسْمَعُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾...  
الآيَةُ [الأنفال: ٢٣].

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَقَطِنٌ ذَكِيٌّ لَبِيبٌ، بَصِيرٌ بِالْحَقِّ بُمَيُزٍ بَيْنَهُ  
وَبَيْنَ الْبَاطِلِ، فَتَبَيَّنَ الْخَيْرُ وَتَرُكُ الشَّرِّ، سَمِيعٌ لِلْحُجَّةِ يُفَرِّقُ  
بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشُّبْهِةِ، فَلَا يَرُوجُ عَلَيْهِ بَاطِلٌ، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا  
وَهَذَا؟ ﴿أَفَلَا لَذَكْرُونَ﴾ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ، فَتَفْقَرُونَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ  
وَهَؤُلَاءِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ  
النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (١) وَلَا الظُّلُمْتُ  
وَلَا النُّورُ (٢) وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُورُ (٣) وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَاءُ وَلَا  
الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٤)  
إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٥) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ  
إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩-٢٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِلَى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٦) أَنْ لَا  
تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيسَ (٧) فَقَالَ  
الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَبَّلَكَ إِلَّا سَبْرًا وَتِلْكَ مَا تَرَبَّلَكَ  
أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَ بَادِيَ الرُّأْيِ وَمَا نَرَى لَكَ عَلَيْكَ  
مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكَ كَذِبِي (٨)

عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ﴿إِنَّمَا  
يُؤْخِرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلطَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ  
لَمْ يُقْلِعْهُ» (١) وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الْآيَةُ  
أَيُّ: يُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ  
لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفِيدَةً، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا  
أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفِيدَتُهُمْ، بَلْ كَانُوا ضَمًّا عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ  
عُمِيًّا عَنْ اتِّبَاعِهِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ حِينَ دُخُولِهِمُ النَّارَ  
كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾  
[الملك: ١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ يَذَنَّبُهُمْ عَذَابًا فَوقَ الْعَذَابِ﴾ الْآيَةُ [الحل: ٨٨]، وَلِهَذَا  
يُعَذَّبُونَ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ تَرَكُوهُ، وَعَلَى كُلِّ نَهْيٍ ارْتَكَبُوهُ.  
وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَفْتَرُونَ﴾ أَيُّ: خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ أَدْخَلُوا نَارًا حَامِيَةً،  
فَهُمْ مُعَذَّبُونَ فِيهَا لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا طَرْفَةٌ عَيْنٍ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا حَبَتِ زَيْنَتُهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَيُّ ذَهَبَ عَنْهُمْ ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾  
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ فَلَمْ تُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا، بَلْ  
ضَرَبَتْهُمْ كُلُّ الضَّرَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا  
لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّخَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّخَعُوا وَرَأَوْا  
الْعَذَابَ وَنُقِطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] إِلَى غَيْرِ  
ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى خَسَرِهِمْ وَدَمَارِهِمْ، وَلِهَذَا  
قَالَ: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ  
مَالِهِمْ أَنَّهُمْ أَخْسَرُ النَّاسِ صَفَقَةً فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ  
اسْتَبَدَّلُوا الدَّرَكَاتِ عَنِ الدَّرَجَاتِ، وَاعْتَاضُوا عَنْ نَعِيمِ  
الْجَنَانِ بِحُمِيمِ آذٍ، وَعَنْ شُرْبِ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ بِسُمُومِ  
وَحِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، وَعَنْ الْخُورِ الْعَيْنِ بِطَعَامٍ مِنْ  
غَسِيلِينَ، وَعَنْ الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ بِالنَّهَائِيَةِ، وَعَنْ قُرْبِ  
الرَّحْمَنِ وَرُؤْيِيهِ بِغَضَبِ الدَّيَّانِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَا جَرَمَ لَهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ  
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى  
وَالْأَصْوَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا لَذَكْرُونَ (٢)

### [جَزَاءُ أَهْلِ الْإِيمَانِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ نَتَى بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ وَهُمْ

(١) فتح الباري: ٢٥٠/٨ ومسلم: ١٩٩٧/٤

## [قِصَّةُ نُوحٍ وَجَوَارِهِ مَعَ قَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَبْدَهُ الْأَضْنَامَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ ظَاهِرِ النَّذَارَةِ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ أَنْتُمْ عَبْدَنْتُمْ غَيْرَ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾ أَيُّ: إِنْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ عَذْبَكُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا شَاقًّا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وَالْمَلَأُ هُمُ السَّادَةُ وَالْكِبَرَاءُ مِنَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ﴿مَا زِلْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أَيُّ: لَسْتُ بِمَلَكٍ وَلَكِنَّكَ بَشَرٌ فَكَيْفَ أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ دُونِنَا، ثُمَّ ﴿وَمَا زِلْنَاكَ إِلَّا الْيَدِيبَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ كَالْبَاعَةِ وَالْحَاكَةِ وَأَشْبَاهِهِمْ، وَلَمْ يَتَّبِعْ الْأَشْرَافُ وَلَا الرُّؤَسَاءُ مَنَّا، ثُمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّبَعُواكَ لَمْ يَكُنْ عَنْ تَرَوٍّ مِنْهُمْ وَلَا فِكْرٍ وَلَا نَظَرٍ، بَلْ بِمَجْرَدِ مَا دَعَوْتَهُمْ أَجَابُوكَ فَاتَّبَعُوكَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَمَا زِلْنَاكَ إِلَّا الْيَدِيبَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أَيُّ: فِي أَوَّلِ بَادِي [الرَّأْيِ] ﴿وَمَا زِلْنَاكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا لَكُمْ عَلَيْنَا فَضِيلَةً فِي خَلْقِي وَلَا خُلُقِي، وَلَا رِزْقِي، وَلَا حَالٍ لَمَّا دَخَلْتُمْ فِي دِينِكُمْ هَذَا ﴿بَلْ تَنْظُرُونَ كَذِبِي﴾ أَيُّ: فِيمَا تَدْعُونَهُ لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، إِذَا صِرْتُمْ إِلَيْهَا، هَذَا اغْتِرَاضُ الْكَافِرِينَ عَلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَتْبَاعِهِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِعَارٍ عَلَى الْحَقِّ رَدَالَهُ مَنْ اتَّبَعَهُ، فَإِنَّ الْحَقَّ فِي نَفْسِهِ صَحِيحٌ سَوَاءٌ اتَّبَعَهُ الْأَشْرَافُ أَوْ الْأَرَاذِلُ، بَلِ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ اتِّبَاعَ الْحَقِّ هُمُ الْأَشْرَافُ وَلَوْ كَانُوا أَفْقَرَاءَ، وَالَّذِينَ يَأْبُونَهُ هُمُ الْأَرَاذِلُ وَلَوْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ، ثُمَّ الْوَاقِعُ غَالِبًا أَنَّ مَا يَتَّبِعُ الْحَقَّ ضَعْفَاءُ النَّاسِ، وَالْغَالِبُ عَلَى الْأَشْرَافِ وَالْكِبَرَاءِ مُخَالَفَتُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وَلَمَّا سَأَلَ هِرْقُلُ مَلِكَ الرُّومِ أَبَا سَفْيَانَ صَخْرَ بْنَ حَرْبٍ عَنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَوْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ: بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ، فَقَالَ هِرْقُلُ: هُمْ أَتْبَاعُ الرَّسُلِ <sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُمْ ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ لَيْسَ بِمَذْمُومَةٍ وَلَا عَيْبٍ، لِأَنَّ الْحَقَّ إِذَا وَضَحَ لَا يَبْقَى لِلرَّأْيِ وَلَا لِلْفِكْرِ مَحَالٌ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ

لِكُلِّ ذِي زَكَاءٍ وَذَكَاءٍ - بَلْ لَا يُفَكِّرُ هَهُنَا إِلَّا غَيْبِي أَوْ عَيْبِي، وَالرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعُونَ إِنَّمَا جَاءُوا بِأَمْرِ جَلِيلٍ وَاضِحٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا زِلْنَاكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ هُمْ لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ لِإِنْتِهَائِهِمْ عَمِّي عَنِ الْحَقِّ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ، بَلْ هُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَفِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ يَغْمَهُونَ، وَهُمْ الْأَفَّاكُونَ الْكَاذِبُونَ الْأَقْلُونَ الْأَرْذَلُونَ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ.

﴿قَالَ يَقُولُ أَهْلُيَمَّ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَآلَتْنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ كَذِبًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرْهُونَ﴾ (٢٨)

## [جَوَابُ نُوحٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ فِي ذَلِكَ: ﴿أَهْلُيَمَّ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّي﴾ أَيُّ: عَلَى يَمِينٍ وَأَمْرٍ جَلِيلٍ وَبُورَةٍ صَادِقَةٍ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ الْعَظِيمَةُ مِنَ اللَّهِ بِهِ وَبِهِمْ ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ: خَفِيَتْ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَهْتَدُوا إِلَيْهَا، وَلَا عَرَفْتُمْ قَدَرَهَا، بَلْ بَادَرْتُمْ إِلَى تَكْذِيبِهَا وَرَدَّهَا ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ كَذِبًا﴾ أَيُّ: أَنْغَصَبُكُمْ بِقَبُولِهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ.

﴿وَيَقُولُ لَا اسْتَنْتَكُمُ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٩) وَيَقُولُ مَنْ يَبْصُرُ مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣٠)

يَقُولُ لِقَوْمِهِ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى نَضِجِي لَكُمْ مَالًا: أَجْرَةَ أَخْذِهَا مِنْكُمْ، إِنَّمَا أَتَّبَعِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ اخْتِشَامًا وَنَفَاسَةً مِنْهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ، كَمَا سَأَلَ أَمْثَالُهُمْ خَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ أَنْ يَطْرُدَ عَنْهُمْ جَمَاعَةً مِنَ الضَّعَفَاءِ، وَيَجْلِسَ مَعَهُمْ مَجْلِسًا خَاصًّا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْظُرُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوَةِ وَالْعَمَى﴾ ... [الآية: ٥٢ من سورة الأنعام]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ... [الآيات [سورة الأنعام الآية: ٥٣ وما بعدها].

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (٣١) إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٢)

يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخُدَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٥

سُورَةُ هُودٍ

وَيَقُولُوا لَا آسَأُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن آجَرَىٰ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوْنَ بِهِمْ وَلِنَكْفِي أَرْبُكُم قَوْمًا مَّجْهَلُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُوا مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا فَأُنْبِئْ بِنَا إِمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ أَنَا اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾ [مُطَالَبَةُ قَوْمِ نُوحٍ بِالْعَذَابِ وَجَوَابُهُ لَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِعْجَالِ قَوْمِ نُوحٍ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ وَسَخَطَهُ - وَالْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ - : ﴿قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا﴾ أَيُّ: حَاجَجْتَنَا فَأَكْثَرْتَ مِنْ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَا تَنْتَبِعُ ﴿قَالَيْنَا يَمَا تَعِدُنَا﴾ أَيُّ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ، أَدْعُ عَلَيْنَا بِمَا شِئْتَ، فَلْيَأْتِنَا مَا تَدْعُو بِهِ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ ﴿٢٣﴾ أَيُّ: إِنَّمَا الَّذِي يُعَاقِبُكُمْ وَيُعْجَلُهَا لَكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ يُجِدِّي عَلَيْكُمْ: إِبْلَاجِي لَكُمْ، وَإِنْدَارِي إِيَّاكُمْ، وَنُصْحِي ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أَيُّ إِغْوَاءَكُمْ وَدَمَارَكُمْ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ: هُوَ مَالِكُ أَرْمَةِ الْأُمُورِ، الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، لَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ وَهُوَ الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ، مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا فَأُنْبِئْ بِنَا إِمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾

[مُطَالَبَةُ قَوْمِ نُوحٍ بِالْعَذَابِ وَجَوَابُهُ لَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِعْجَالِ قَوْمِ نُوحٍ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ وَسَخَطَهُ - وَالْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ - : ﴿قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا﴾ أَيُّ: حَاجَجْتَنَا فَأَكْثَرْتَ مِنْ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَا تَنْتَبِعُ ﴿قَالَيْنَا يَمَا تَعِدُنَا﴾ أَيُّ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ، أَدْعُ عَلَيْنَا بِمَا شِئْتَ، فَلْيَأْتِنَا مَا تَدْعُو بِهِ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ ﴿٢٣﴾ أَيُّ: إِنَّمَا الَّذِي يُعَاقِبُكُمْ وَيُعْجَلُهَا لَكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ يُجِدِّي عَلَيْكُمْ: إِبْلَاجِي لَكُمْ، وَإِنْدَارِي إِيَّاكُمْ، وَنُصْحِي ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أَيُّ إِغْوَاءَكُمْ وَدَمَارَكُمْ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ: هُوَ مَالِكُ أَرْمَةِ الْأُمُورِ، الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، لَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ وَهُوَ الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ، مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ

مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾

[اسْتِطْرَادُ لِسَانِ صَدِيقِ النَّبِيِّ ﷺ]

هَذَا كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مُؤَكِّدٌ لَهَا، مُرَرَّرٌ لَهَا يَقُولُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ: أَمْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الْجَا حِدُونَ أَفْتَرَىٰ هَذَا وَافْتَعَلَهُ مِنْ عِنْدِهِ ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ

إِجْرَامِي﴾ أَيُّ: فَإِنَّمُ ذَلِكَ عَلَيَّ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أَيُّ: لَيْسَ ذَلِكَ مُفْتَعَلًا وَلَا مُفْتَرَى، لِأَنِّي أَعْلَمُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِمَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا يَنْتَبِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنَا وَوَحْيِنَا وَوَحْيُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوتُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٢٩﴾

[الْوَحْيُ إِلَىٰ نُوحٍ بِمَصِيرِ الْقَوْمِ وَالْأَمْرُ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ - لَمَّا اسْتَعَجَلَ قَوْمُهُ نِقْمَةَ اللَّهِ بِهِمْ، وَعَذَابَهُ لَهُمْ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ دَعْوَتَهُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهْمُكَ أَمْرُهُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٦

سُورَةُ هُودٍ

وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكَلَّمَ مَرْعِيَهُ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوتُ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَنْ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِيزُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْوِى إِلَى جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَبَسِّمَاءِ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءَ وَفُصِّى الْأَمْوُ وَأَسْوَتِ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ﴾ بَغْنَى السَّفِينَةَ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أَي: بِمَرَأَى مِنَّا ﴿وَوَحَيْنَا﴾ أَي: تَعْلِيمِنَا لَكَ مَا تَصْنَعُهُ ﴿وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِتْمَمُ مَغْرِفُونَ﴾ وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ التَّوْرَةِ: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَصْنَعَهَا مِنْ خَشَبِ السَّاجِ، وَأَنْ يَجْعَلَ طُولَهَا ثَمَانِينَ ذِرَاعًا، وَعَرْضَهَا خَمْسِينَ ذِرَاعًا، وَأَنْ يُطْلِيَ بَاطِنَهَا وَظَاهِرَهَا بِالْقَارِ، وَأَنْ يَجْعَلَ لَهَا جُوجُؤًا أَزُورَ يَشُقُّ الْمَاءَ، وَكَانَ ارْتِفَاعُهَا فِي السَّمَاءِ ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ، كُلُّ طَبَقَةٍ عَشْرَةُ أَذْرُعٍ، فَالْسُّفْلَى لِلدَّوَابِّ وَالْوُحُوشِ، وَالْوُسْطَى لِلْإِنْسِ، وَالْعُلْيَا لِلطُّيُورِ، وَكَانَ بَابُهَا فِي عَرْضِهَا وَلَهَا غِطَاءٌ مِنْ فَوْقِهَا مُطْبِقٌ عَلَيْهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكَلَّمَ مَرْعِيَهُ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أَي: يَهْزُونَ بِهِ وَيَكْذِبُونَ بِمَا يَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾... الْآيَةُ: وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أَي: يُهَيِّئُهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ﴾ أَي: دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَنْ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

[بِدَايَةِ الطُّوفَانِ وَحَمْلِ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ]

هَذِهِ مَوْعِدَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ مِنَ الْأَمْطَارِ الْمُتَابِعَةِ وَالْهَتَانِ الَّذِي لَا يُفْلَحُ وَلَا يَنْتَرِ، بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفَتْحْنَا آيُونَ السَّمَاءِ بِمَاؤِ مُنْهَرٍ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُورَ﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِرَ ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القم: ١١-١٤] وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: التَّنُورُ وَجْهُ الْأَرْضِ<sup>(١)</sup>. أَي: صَارَتِ الْأَرْضُ عُيُونًا تَقُورُ، حَتَّى فَارَ الْمَاءُ مِنَ التَّنَائِيرِ الَّتِي هِيَ مَكَانُ النَّارِ صَارَتْ تَقُورُ مَاءً، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ الْخَلْفِ، فَجَبْتَنِيذَ أَمْرِ اللَّهِ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ صُنُوفِ الْمَخْلُوقَاتِ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ، قِيلَ: وَغَيْرِهَا مِنَ النَّبَاتَاتِ، ائْتَيْنِ: ذَكَرَا وَأُتْنَى. فَقِيلَ: كَانَ أَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَ مِنَ [الدَّوَابِّ]: الدَّرَّةُ وَآخِرُ مَنْ أَدْخَلَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْحِمَارُ، فَتَعَلَّقَ إِبْلِيسُ بِذَنْبِهِ، وَجَعَلَ يُرِيدُ أَنْ يَنْهَضَ فَيُفْقِلُهُ إِبْلِيسُ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِذَنْبِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ لَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَالِكَ وَيَحْكُ!

أَدْخَلَ، فَيَنْهَضُ وَلَا يَقْدِرُ، فَقَالَ: أَدْخُلْ وَإِنْ كَانَ إِبْلِيسُ مَعَكَ، فَدَخَلَ فِي السَّفِينَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أَي: وَاحْمِلْ فِيهَا أَهْلَكَ وَهُمْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَقَرَابَتِهِ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ، مِمَّنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ، فَكَانَ مِنْهُمْ ابْنُهُ الَّذِي انْعَزَلَ وَخَذَهُ، وَأَمْرًا نُوحٍ وَكَانَتْ كَافِرَةً بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أَي: مِنْ قَوْمِكَ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أَي: نَزَرَ يَسِيرٌ مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ وَالْمَقَامِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانُوا ثَمَانِينَ نَفْسًا مِنْهُمْ نِسَاؤُهُمْ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِيزُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَهِيَ تَجْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْوِى إِلَى جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا

(١) الطبري: ٣١٨/١٥ (٢) الطبري: ٣٢٦/١٥

عَاصِمَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَفِينَ ﴿٤٣﴾

[الرُّكُوبُ فِي السَّفِينَةِ وَجَرِيْهَا فِي الْأَمْوَاجِ الْهَائِلَةِ]  
يَقُولُ تَعَالَى إِنْخِبَارًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ قَالَ لِلَّذِينَ أَمَرَ بِحَمْلِهِمْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَمُتَرَسِّبُهَا﴾ أَيُّ: بِسْمِ اللَّهِ يَكُونُ جَرِّبُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَبِسْمِ اللَّهِ يَكُونُ مُتَتَهَّى سَبْرُهَا وَهُوَ رُسُومُهَا، وَقَرَأَ أَبُو رَجَاءٍ الْعَطَارِدِيُّ: (بِسْمِ اللَّهِ مُجَرِّبُهَا وَمُتَرَسِّبُهَا) <sup>(١)</sup> وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ اتَّخَذَ اللَّهُ إِلَيْنَا حَذَرَ الْفُلُوفِ الْفُلُوبِ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْ مُزَلًّا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨، ٢٩] وَلِهَذَا تَسْتَحَبُّ التَّسْمِيَةُ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ عِنْدَ الرُّكُوبِ عَلَى السَّفِينَةِ وَعَلَى الدَّائِبَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَنْزِلَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُوكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٧) لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣]، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ بِالْحَثِّ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّذَبُّبِ إِلَيْهِ، كَمَا سَيَأْتِي فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثَّقَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مُنَاسِبٌ عِنْدَ ذِكْرِ الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْكَافِرِينَ بِإِغْرَاقِهِمْ أَجْمَعِينَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يَثْرُنُ فِيهَا بَيْنَ رَحْمَتِهِ وَإِنْتِقَامِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُي تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أَيُّ: السَّفِينَةُ سَائِرَةٌ بِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي قَدْ طَبَّقَ جَمِيعَ الْأَرْضِ حَتَّى طَفَّتْ عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ وَارْتَفَعَ عَلَيْهَا بِخُمْسَةِ عَشَرَ ذِرَاعًا، وَقِيلَ: بِثَمَانِينَ مِيلًا، وَهَذِهِ السَّفِينَةُ جَارِيَةٌ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ سَائِرَةٌ، يَأْذِنُ اللَّهُ وَتَحْتَ كَنَفِهِ، وَعِنَانِيَّتِهِ وَجِرَاسَتِهِ وَامْتِنَانِيَّتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبُلَابِ (١١) لِنَجْلِيَنَّ لَكَ نَذْرَكَ وَنَعِيمًا أَذُنٌ وَدَعْبَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَسُورِ (١٢) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٣-١٥].

### [قِصَّةُ غَرَقِ ابْنِ نُوحٍ الْكَافِرِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ...﴾ الْآيَةُ، هَذَا هُوَ الْإِبْنُ الرَّابِعُ وَاسْمُهُ يَامُ وَكَانَ كَافِرًا، دَعَاهُ أَبُوهُ عِنْدَ رُكُوبِ السَّفِينَةِ أَنْ يُؤْمِنَ وَيَرْكَبَ مَعَهُمْ، وَلَا يَغْرُقُ مِثْلَ مَا يَغْرُقُ

الْكَافِرُونَ ﴿قَالَ سَوَاوِي إِلَّا جَبِلَ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ إِعْتَقَدَ بِجَهْلِهِ أَنَّ الطُّوفَانَ لَا يَبْلُغُ إِلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَأَنَّهُ لَوْ تَعَلَّقَ فِي رَأْسِ جَبِلٍ لَنَجَّاهُ ذَلِكَ مِنَ الْغَرَقِ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أَيُّ: لَيْسَ شَيْءٌ يَعْصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَفِينَ.

﴿وَقِيلَ يَتَّزِشْ آلُيَ مَاءَكَ وَنَسَمَاءُ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسَوْتُ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ (٤٤)

### [نِهَآيَةُ الطُّوفَانِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ إِلَّا أَصْحَابَ السَّفِينَةِ أَمَرَ الْأَرْضَ أَنْ تَبْلُعَ مَاءَهَا الَّذِي نَبَعَ مِنْهَا وَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا، وَأَمَرَ السَّمَاءَ أَنْ تَقْلِعَ عَنِ الْمَطَرِ ﴿وَغِيصَ الْمَاءِ﴾ أَيُّ: شَرَعَ فِي النَّقْصِ ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَيُّ: فُزِعَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً مِمَّنْ كَفَرَ بِاللَّهِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ دَيَّارٌ ﴿وَأَسَوْتُ﴾ السَّفِينَةُ يَمُنُ فِيهَا ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهُوَ جَبِلٌ بِالْجَزِيرَةِ، تَشَامَخَتِ الْجِبَالُ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْغَرَقِ وَتَطَاوَلَتْ، وَتَوَاضَعَ هُوَ اللَّهُ عَزَّ جَلَّ، فَلَمْ يَغْرُقْ، وَأُرْسَتْ عَلَيْهِ سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتَوَتْ عَلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى تَزَلُّوا مِنْهَا. قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ أَبْقَى اللَّهُ سَفِينَةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْجُودِيِّ مِنْ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ عِبْرَةً وَآيَةً. حَتَّى رَأَاهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَمْ مِنْ سَفِينَةٍ قَدْ كَانَتْ بَعْدَهَا فَهَلَكَتْ وَصَارَتْ رَمَادًا <sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: هَلَاكًا وَخَسَارًا لَهُمْ وَبَعْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَقِيَّةٌ.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)﴾ قَالَ يَسُوعُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي آخُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)

(١) الطبري: ٣٢٨/١٥ (٢) الطبري: ٣٣٧/١٥ (٣) (٣٢٧٦١) (٣) الطبري: ٣٣٨/١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٧

سُورَةُ هُودٍ

قَالَ يَنْتُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُصَالِحٍ فَلَا تَسْتَأْنِ  
 مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٦﴾  
 قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا  
 تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾ قِيلَ يَنْتُوحُ  
 أَهَيْطَ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُورٍ مِمَّنْ مَعَكَ  
 وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ تِلْكَ  
 مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ  
 مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ وَإِلَى عَادٍ  
 أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ  
 غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْرَوُونَ ﴿٢٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ  
 أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾  
 وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ  
 عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ مِّنْ قُوَّةٍ إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا  
 مُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ  
 بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

[الْعُودُ إِلَى قِصَّةِ ابْنِ نُوحٍ وَذِكْرُ مَا دَارَ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى  
 وَبَيْنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوْلَ ابْنِهِ]

هَذَا سُؤَالُ اسْتِعْلَامٍ وَكَشْفٍ مِنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ  
 حَالِ وَلَدِهِ الَّذِي غَرِقَ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَنبِيٌّ مِنْ أَهْلِي﴾ أَيُّ:  
 وَقَدْ وَعَدْتَنِي بِنَجَاةِ أَهْلِي، وَوَعَدْتُكَ الْحَقَّ الَّذِي لَا يُخْلَفُ،  
 فَكَيْفَ غَرِقَ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ؟ ﴿قَالَ يَنْتُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ  
 مِنْ أَهْلِكَ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ وَعَدْتَ إِنجَاءَهُمْ، لِأَنِّي إِنَّمَا  
 وَعَدْتُكَ بِنَجَاةِ مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَهْلِكَ  
 إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فَكَانَ هَذَا الْوَلَدُ مِمَّنْ سَبَقَ  
 عَلَيْهِ الْقَوْلُ بِالْغَرَقِ لِكُفْرِهِ وَمُخَالَفَتِهِ أَبَاهُ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا عَلَيْهِ  
 السَّلَامُ.  
 وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ وَعَدْتُكَ  
 نَجَاتَهُ.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُوَ ابْنُهُ غَيْرَ أَنَّهُ  
 خَالَفَهُ فِي الْعَمَلِ وَالنِّيَّةِ. قَالَ عِكْرِمَةُ: فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ:  
 (إِنَّهُ عَمِلَ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ) <sup>(١)</sup>. وَالْخِيَانَةُ تَكُونُ عَلَى غَيْرِ  
 بَابٍ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ  
 بِذَلِكَ: وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ زَيْدٍ قَالَتْ:  
 سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ: (إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ) <sup>(٢)</sup>.

﴿قِيلَ يَنْتُوحُ أَهَيْطَ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُورٍ مِمَّنْ  
 مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[الْأَمْرُ بِالنُّزُولِ مِنَ السَّفِينَةِ بِالسَّلَامِ وَالْبَرَكَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا قِيلَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُرْسِيَتْ  
 السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ مِنَ السَّلَامِ عَلَيْهِ، وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ  
 الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ دُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا  
 قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: دَخَلَ فِي هَذَا السَّلَامِ كُلُّ مُؤْمِنٍ  
 وَمُؤْمِنَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَذَلِكَ فِي الْعَذَابِ وَالْمَتَاعِ كُلِّ  
 كَافِرٍ وَكَافِرَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. <sup>(٣)</sup> وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:  
 لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكْفِ الطُّوفَانَ أَرْسَلَ رِيحًا عَلَى وَجْهِ  
 الْأَرْضِ، فَسَكَنَ الْمَاءُ وَانْسَدَّتْ يَتَابِيعُ الْأَرْضِ [الْعُوطُ]  
 الْأَكْبَرُ <sup>(٤)</sup> وَأَبْوَابُ السَّمَاءِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ يَكْرَأُ  
 أَلْبَنَى مَاءُكَ﴾ الْآيَةُ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْقُصُ وَيَغِيضُ وَيُذِيرُ، وَكَانَ  
 اسْتِواءُ الْفُلِّ عَلَى الْجُودِيِّ - فِيمَا يَزْعُمُ أَهْلُ التَّوْرَةِ -:

فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ لِسَبْعِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ مَضَتْ مِنْهُ، وَفِي أَوَّلِ  
 يَوْمٍ مِنَ الشَّهْرِ الْعَاشِرِ رُئِيَ رُؤُوسُ الْجِبَالِ. فَلَمَّا مَضَى بَعْدَ  
 ذَلِكَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا فَتَحَ نُوحٌ كُوَّةَ الْفُلِّ الَّتِي رَكِبَ فِيهَا ثُمَّ

(١) الطبري: ٣٤٣/١٥ (٢) مسند أحمد ٤٥٤/٦ والطبري (١٦٣١) أبوداود (٣٩٨٢) والمستدرک للحاکم ٢٤٩/٢ صحیح لشواهدہ. انظر الصحیحة للالبانی (٢٨٠٩). (٣) الطبري: ١٥/٣٥٣ إسناده ضعیف فیہ موسی بن عبیدة الربدی والضعف علی رواياته بین کما قال ابن عدي [الکامل فی ضعفاء الرجال ٦/٦٣٧] (٤) وفي اللسان لابن منظور: وانسدَّتْ يتابع الغوط الأكبر (مادة غوط، أي التنور) وهو أظھر، واللّه أعلم البداية والنهاية ١/١٣٢.



وَكَشَفَ نُوحٌ غَطَاءَ الْفُلِّكَ، وَفِي الشَّهْرِ الثَّانِي مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ فِي سِتِّ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً مِنْهُ ﴿قِيلَ يَتُوجُّ أَهْبَاطُ بِسَلَمٍ مِنَّا﴾... الآية (١).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩)  
[قِصَصُ الْغَيْبِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: هَذِهِ الْقِصَّةُ وَأَشْبَاهُهَا ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾، يَعْنِي مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّالِفَةِ، نُوحِيهَا إِلَيْكَ عَلَى وَجْهِهَا، كَأَنَّكَ شَاهِدُهَا ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أَيْ نَعْلَمُكَ بِهَا وَخَبَرًا مِنَّا إِلَيْكَ ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أَيْ: لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا، حَتَّى يَقُولَ مَنْ يَكْذِبُكَ: إِنَّكَ تَعْلَمُهَا مِنْهُ، بَلْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا مُطَابَقَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الصَّحِيحُ، كَمَا تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، فَاصْبِرْ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَذَاهُمْ لَكَ، فَإِنَّا سَنَنْصُرُكَ وَنَحُوطُكَ بَعَائِنَنَا، وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَالْإِتْبَاعَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا فَعَلْنَا بِالْمُرْسَلِينَ، حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾... الآية [عافر: ٥١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُتُبُنَا لِعِبَادِنَا الثَّوَلِينَ﴾ (١٧٧) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ... الآية [الصافات: ١٧١، ١٧٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلِإِىَّ عَادَ أَخَاهُمْ هُودٌ قَالَ يُقَوِّمُ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْرَوُونَ﴾ (٥٠) يَقَوِّمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥١) وَيَقَوِّمُ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبَرِّدْكُمْ قُوَّةَ إِيَّايَ فُوتِيكُمْ وَلَا تُنْزِلُوا بُحْرِمِينَ﴾ (٥٢)

[قِصَّةُ هُودٍ وَقَوْمِهِ عَادَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿و﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَى عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أَمْرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي افْتَرَوْهَا، وَاخْتَلَفُوا لَهَا أَسْمَاءَ الْأَلِهَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ مِنْهُمْ أَجْرَةً عَلَى هَذَا النُّصْحِ وَالْبَلَاغِ مِنَ اللَّهِ، إِنَّمَا يَبْغِي ثَوَابَهُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي فَطَرَهُ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ غَيْرِ أَجْرَةٍ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي فِيهِ تَخْفِيرُ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ وَبِالتَّوْبَةِ عَمَّا يَسْتَقْبِلُونَ، وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ بَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ

سُورَةُ هُودٍ

٢٢٨

سُورَةُ هُودٍ

إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَاكَ بَعْضُ الْهَيْئَةِ بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَلُفَ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادُ جَحْدُوا بِنَاصِيَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْعَادِ قَوْمُ هُودٍ ﴿٦٠﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا لِيَصْلِحْ فَكَذَّبُوا فَمِنْهُمْ رَجُوعٌ قَبْلَ هَذَا أَنْهَنَّا إِيَّاهُ نَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

رِزْقَهُ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَحَفِظَ شَأْنَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾.

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَاكَ بَعْضُ الْهَيْئَةِ بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

[الْحَوَارِ بَيْنَ عَادٍ وَهُودَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أَيْ: بِحُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ عَلَى مَا نَدْعِيهِ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أَيْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكَ: أُنْزِلْهُمْ، تَنْزِيلَهُمْ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بِمُصْطَفَيْنَ ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَاكَ بَعْضُ الْهَيْئَةِ بِسُوءٍ﴾ يَقُولُونَ: مَا نَنْظُرُ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْأَلِهَةِ أَصَابَكَ بِجُنُونٍ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَاسَنِي  
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي  
غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَكُمْ آيَةٌ  
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ مَا عَدِلَ  
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ  
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ  
أَمْرُنَا بِجَنَّتَيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا  
وَمِنْ خِزْيٍ يُومِذُ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ  
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيصِينَ  
﴿١٧﴾ كَانُوا يَغْنَوْهَا فَإِنْ شَمُودًا كَفَرُوا وَهُمْ الْآبِعَادُ  
لِشَمُودٍ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا  
سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا  
رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً  
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٢٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةً  
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٢١﴾

الرَّشِيد، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، فَلِهَذَا اتَّبَعُوا فِي الدُّنْيَا  
لَعْنَةً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّمَا ذُكِرُوا، وَبُنَادَى  
عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا  
كَفَرُوا رَبَّهُمْ...﴾ الآية.

﴿وَإِلَى شَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ  
إِلَهِ غَيْرِهِ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا  
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ ﴿٢١﴾

[فَصَّةُ صَالِحٍ وَشَمُودَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿إِنْ شَمُودَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ  
كَانُوا يَسْكُنُونَ مَدَائِنَ الْحَجَرِ بَيْنَ تَبُوكَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانُوا  
بَعْدَ عَادٍ فَبَعَثَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ  
اللَّهِ وَحْدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ: ابْتَدَأَ  
خَلْقَكُمْ مِنْهَا: خَلَقَ مِنْهَا أَبَاكُمْ آدَمَ ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أَيْ:  
جَعَلَكُمْ عُمَّارًا تَعْمُرُونَهَا وَتَسْتَغْلِقُونَهَا ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ لِسَالِفِ  
ذُنُوبِكُمْ ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

وَحَبْلٌ فِي عَفْوِكَ بِسَبَبِ نَهْيِكَ عَنْ عِبَادَتِهَا وَعَيْنِكَ لَهَا﴾ قَالَ  
إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِهِ﴾  
يَقُولُ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ ﴿فَكَيْدُونِي  
جَمِيعًا﴾ أَيْ: أَنْتُمْ وَاللَّهُتُكُمْ إِنْ كَانَتْ حَقًّا ﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾  
أَيْ: طَرَفَةَ عَيْنٍ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ  
دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أَيْ: تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ،  
وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ فِي حُكْمِهِ، فَإِنَّهُ عَلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْمَقَامُ حُجَّةً بِالْعَةِ، وَدَلَالَةً قَاطِعَةً،  
عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ، وَبُطْلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ  
الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، بَلْ هِيَ جَمَادٍ لَا تَسْمَعُ  
وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تُؤَالِي وَلَا تُعَادِي، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ إِخْلَاصَ  
الْعِبَادَةِ، اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَلَهُ  
التَّصَرُّفُ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا تَحْتَ مُلْكِهِ وَقَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ،  
فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ، إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا  
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ  
أَمْرُنَا بِجَنَّتَيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ  
غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَذَلِكَ عَادٌ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ  
كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٥﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ  
عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ﴾ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ لَهُمْ هُودٌ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ  
اللَّهِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ  
بِإِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ رَسُولَ اللَّهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا  
غَيْرَكُمْ﴾ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ، وَلَا يُبَالِي بِكُمْ،  
فَإِنِّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ، بَلْ يَعُودُ وَبِأَلْ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ﴿إِنَّ  
رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ﴾ أَيْ: شَاهِدٌ وَحَافِظٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ  
وَأَفْعَالِهِمْ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ.

[إِهْلَاكُ عَادٍ وَنَجْيَةُ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ]

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وَهُوَ الرِّيحُ الْعَقِيمُ فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَنْ  
آخِرِهِمْ وَنَجَّى هُودًا وَاتَّبَاعَهُ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ بِرَحْمَتِهِ تَعَالَى  
وَلُطْفِهِ ﴿وَذَلِكَ عَادٌ جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كَفَرُوا بِهَا وَعَصَوْا  
رُسُلَ اللَّهِ، وَذَلِكَ، أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ فَقَدْ كَفَرَ بِجَمِيعِ  
الْأَنْبِيَاءِ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي وُجُوبِ الْإِيمَانِ  
بِهِ، فَعَادٌ كَفَرُوا بِهِودٍ فَتَزَلَّ كُفْرُهُمْ مَنْرَلَةً مِنْ كُفْرِ بِجَمِيعِ  
الرُّسُلِ ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تَرَكُوا اتِّبَاعَ رَسُولِهِمْ

أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّالِجِ إِذَا دَعَاكَ. . . الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا يَصْنَعُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَإِنِّي مِنْكُمْ وَمَنْ رَحِمَهُ فَمَنْ يَضُرِّي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْ هَذَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿٦٧﴾﴾

### [الحوار بين صالح وثمود]

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ بَيْنَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أَيْ: كُنَّا نَرْجُوكَ فِي عَقْلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مَا قُلْتَ ﴿أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُنَا ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ أَيْ: شَكٌّ كَثِيرٌ ﴿قَالَ يَتَّبِعُونَ آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ فِيمَا أُرْسِلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ عَلَىٰ بَيِّنٍ وَبُزْهَانٍ ﴿وَأَنذَرْتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرِّي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْ﴾ وَتَرَكْتُ دَعْوَتَكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ، فَلَوْ تَرَكْتُمْ لَمَا نَفَعْتُمُونِي وَلَمَا زِدْتُمُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ أَيْ خَسَارَةً.

﴿وَيَتَّبِعُونَ هَذِهِ نَاقَةَ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٨﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَثَرُنَا بَنَيْنَا صُلْحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْغَوِيُّ الْعَرِيرُ ﴿٧٠﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧١﴾ كَأَن لَّمْ يَتَوَفَّا فِيهَا آلَاءُ إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّتَمُودَ ﴿٧٢﴾﴾

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ هَذِهِ الْقِصَّةِ مُسْتَوْفَىٰ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ [الآية: ٧٣-٧٨] بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَتَنَّتْهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ ﴿٧٥﴾ قَالَتْ يَوْتَلَقَىٰ ءَالِدًا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٧﴾﴾

[مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَتَبَشِيرُهُمْ بِإِسْحَاقَ]

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٣٠

سُورَةُ هُودٍ

قَالَتْ يَوْتَلَقَىٰ ءَالِدًا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ يُجَدِّدُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٨﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٩﴾ يَتَابَرَهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رِيكٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٨٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَافَىٰ بِهِمْ ذُرْعَاوَهُ قَالَ هَذَا يَوْمُ عَصِيبٍ ﴿٨١﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوْمُهُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٨٢﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٨٣﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا إِنَّكَ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨٥﴾﴾

### [وَيَعْقُوبُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ﴾ قِيلَ: تَبَشَّرُهُ بِإِسْحَاقَ وَقِيلَ: بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، وَتَشْهَدُ لِلأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ يُجَدِّدُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أَيْ: عَلَيْهِمُ، قَالَ عَلَمَاءُ الْبَيَانِ: هَذَا أَحْسَنُ مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ، لِأَنَّ الرَّفْعَ يَدُلُّ عَلَى الثَّبُوتِ وَاللَّدَوَامِ ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أَيْ: ذَهَبَ سَرِيعًا فَأَتَاهُمْ بِالصَّيْفَةِ، وَهُوَ عِجْلٌ قَبِيضٌ الْقَبْرِ، حَنِيذٌ: مَشْوِيٌّ عَلَى الرُّضْفِ وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْمُحْمَاةُ. هَذَا مَعْنَى مَا رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَتَفَادَةً وَغَيْرِ وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعِجْلٍ سَبِينٍ ﴿٨٦﴾ فَفَرَّغَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آدَابَ الصَّيْفَةِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ.

إِسْمَاعِيلَ. وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْإِسْتِدْلَالِ وَأَصَحِّهِ وَأَبْيَنِهِ وَ اللَّهِ الْحَمْدُ.

﴿قَالَتْ يَوَئِلَىٰ ذَاكَ مَا لَكَ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾...  
الآيَةُ حُكِي قَوْلُهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا حُكِيَ فِعْلُهَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿فَأَقْبَلَ بَعْثُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩] كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الشَّاءِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ عِنْدَ التَّعَجُّبِ ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾...  
أَيُّ: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهَا: لَا تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ. فَلَا تَعْجَبِينَ مِنْ هَذَا وَإِنْ كُنْتَ عَجُوزًا عَقِيمًا وَبَعْلُكَ شَيْخًا كَبِيرًا، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿رَحِمْتَ اللَّهُ وَرَكَّنتَهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ أَيُّ: هُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، مُحْمُودٌ مُمَجَّدٌ فِي صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ. وَلِهَذَا بُنِيَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُمْ قَالُوا: قَدْ عَلِمْنَا السَّلَامَ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»<sup>(١)</sup>.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَأْتِيهِمْ أَغْرَضٌ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رَلِكٌ وَإِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧٦)

### [مُجَادَلَةُ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْمِ لُوطٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ - وَهُوَ مَا أَوْجَسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ خِيفَةً حِينَ لَمْ يَأْكُلُوا - وَبَشَّرُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْوَلَدِ، وَأَخْبَرُوهُ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، أَخَذَ يَقُولُ كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي الْآيَةِ، قَالَ: لَمَّا جَاءَهُ جِبْرِيلُ وَمَنْ مَعَهُ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١] قَالَ لَهُمْ: أَفَتَهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا ثَلَاثُمِائَةٍ مُؤْمِنٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَفَتَهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا مِائَتًا مُؤْمِنٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَفَتَهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا أَرْبَعُونَ مُؤْمِنًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: ثَلَاثُونَ؟ قَالُوا: لَا، حَتَّى بَلَغَ خَمْسَةَ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ وَاحِدٌ أَفَتَهْلِكُونَهَا؟ قَالُوا: لَا، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنِّي فِيهَا لُوطٌ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تَنَكَّرَهُمْ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ، وَلَا يَشْتَهَوْنَهُ وَلَا يَأْكُلُونَهُ، فَلِهَذَا رَأَىٰ حَالَهُمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ، فَارْغَبَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَكِرَهُمْ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قَالَ الشَّدْيِيُّ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ لِقَوْمِ لُوطٍ أَقْبَلَتْ تَمْشِي فِي صُورِ رِجَالِ شُبَّانٍ، حَتَّى نَزَلُوا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَتَضَيَّفُوهُ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ أَجْلَهُمْ ﴿فَرَأَىٰ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ يَعْبِلُ سِيمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٦] فَذَبَحَهُ، ثُمَّ شَوَاهُ فِي الرَّضْفِ، وَأَتَاهُمْ بِهِ، فَفَعَدَ مَعَهُمْ. فَلَمَّا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ: أَلَا تَأْكُلُونَ؟ قَالُوا: يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّا لَا نَأْكُلُ طَعَامًا إِلَّا بِثَمَنِ، قَالَ: فَإِنَّ لِهَذَا ثَمَنًا، قَالُوا: وَمَا ثَمَنُهُ؟ قَالَ: تَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ أَوَّلِهِ، وَتَحْمَدُونَهُ عَلَىٰ آخِرِهِ، فَنَظَرَ جِبْرِيلُ إِلَىٰ مِيكَائِيلَ فَقَالَ: حَقٌّ لِهَذَا أَنْ يَتَّخِذَهُ رَبُّهُ خَلِيلًا. ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يَقُولُ: فَلَمَّا رَأَاهُمْ لَا يَأْكُلُونَ، فَنَزَعَ مِنْهُمْ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فَلَمَّا نَظَرَتْ سَارَةَ أَنَّهُ قَدْ أَكْرَمَهُمْ، وَقَامَتْ هِيَ تَخْدُمُهُمْ صَحِيحَةً، وَقَالَتْ: عَجَبًا لِأَضْيَافِنَا هَؤُلَاءِ، نَخْدُمُهُمْ بِأَنْفُسِنَا كَرَامَةً لَهُمْ، وَهُمْ لَا يَأْكُلُونَ طَعَامَنَا!<sup>(١)</sup>

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ أَيُّ قَالُوا: لَا تَخَفْ مِنَّا ﴿إِنَّا﴾ مَلَائِكَةُ ﴿أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ لُوطٍ﴾ لِتَهْلِكَهُمْ، فَصَحَّحْتَ سَارَةَ اسْتِشَارًا بِهَلَاكِهِمْ، لِكَثْرَةِ فَسَادِهِمْ وَعِلَظِ كُفْرِهِمْ، فَلِهَذَا جُوزِيَتْ بِالْبِشَارَةِ بِالْوَلَدِ بَعْدَ الْإِبَاسِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: صَحَّحْتَ وَعَجَبْتَ أَنَّ قَوْمًا يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ وَرَثَةِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ أَيُّ: يُولَدُ لَهَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَعَقِبٌ وَنَسْلٌ، فَإِنَّ يَعْقُوبَ وَلَدَ إِسْحَاقَ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وَمِنْ هُنَا اسْتَدْلٌّ مِنْ اسْتَدْلٍ بِهِذِهِ الْآيَةِ: عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ إِنَّمَا هُوَ إِسْمَاعِيلُ، وَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْحَاقَ، لِأَنَّهُ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ وَأَنَّهُ سَيُولَدُ لَهُ يَعْقُوبُ، فَكَيْفَ يُؤْمَرُ إِبْرَاهِيمُ بِذَبْحِهِ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ وَلَمْ يُولَدْ لَهُ - بَعْدُ - يَعْقُوبَ الْمَوْعُودُ بِوُجُودِهِ وَوَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ لَا خُلْفَ فِيهِ؟! فَيَمْتَنِعُ أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِ هَذَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ

(١) الطبري: ٣٨٩/١٥ (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٦ ومسلم: ١/٣٠٥

فَارْسَدَهُمْ إِلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُكُومًا مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦] وَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ أَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ ضَيَافَةِ الرِّجَالِ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾ لَعَنُوكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٠-٧٢] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَمْ يَكُنْ بَنَاتِهِ، وَلَكِنْ كُنَّ مِنْ أُمَّتِهِ، وَكُلُّ نَبِيٍّ أَبُو أُمَّتِهِ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ قَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أَيْ اقْبَلُوا مَا أَمَرُكُمْ بِهِ مِنَ الْإِفْتِسَارِ عَلَى نِسَائِكُمْ ﴿الَّذِينَ سَأَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ رَشِيدٌ أَيْ: فِيهِ خَيْرٌ يَقْبَلُ مَا أَمَرَهُ بِهِ، وَيَتْرُكُ مَا أَنْهَاهُ عَنْهُ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أَيْ: إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءَنَا لَا أَرْبَ لَنَا فِيهِنَّ وَلَا نَسْتَهِيهِنَّ ﴿وَالَّذِينَ لَعَلُّوا مَا رُئِيَ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَنَا غَرَضٌ إِلَّا فِي الذُّكُورِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، فَأَيُّ حَاجَةٍ فِي تَكَرُّرِ الْقَوْلِ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ؟

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأُنْزِلْ بِهِ هَالِكًا يَقْطَعُ مِنَ النَّارِ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبْحُ لَلَّذِينَ الصَّبْحُ بِفَرَسٍ ﴿٨١﴾﴾

[عَجَزَ لُوطٌ وَتَمَنَّى الْقُوَّةَ، وَإِخْبَارَ الْمَلَائِكَةِ لَهُ

بِالْحَقِيقَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ لُوطًا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾... الْآيَةُ: أَيْ: لَكُنْتُ نَكَلْتُ بِكُمْ وَقَعَلْتُ بِكُمْ الْأَفَاعِيلَ بِنَفْسِي وَعَشِيرَتِي، وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى لُوطٍ، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» - يَعْنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - «فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا فِي ثُرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ»<sup>(٧)</sup>. فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخْبَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ أَنََّّهُمْ رُسُلُ

لَنَنْجِيَنَّكُمْ وَأَهْلَكُمْ إِلَّا أَمْرَاتَهُ... الْآيَةُ [العنكبوت: ٣٢]. فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ مَدَحٌ لِإِبْرَاهِيمَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْصِرْ عَنْ هَذَا إِنَّكَ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾... الْآيَةُ، أَيْ: أَنَّهُ قَدْ نَفَّذَ فِيهِمُ الْقَضَاءَ وَحَقَّقَ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةَ بِالْهَلَاكِ وَخُلُوعِ النَّبَاسِ الَّذِي لَا يَرُدُّ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يَمْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ يَنْقُورُ هَؤُلَاءِ بَنَاتٍ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي الَّذِي سَأَلْتَ مِنْكَ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا رُئِيَ ﴿٧٩﴾﴾

[مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى لُوطٍ وَمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الضَّيْقِ وَمَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُدُومِ رُسُلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، بَعْدَ مَا أَعْلَمُوا إِبْرَاهِيمَ بِهَلَاكِهِمْ، وَفَارَقُوهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِهَلَاكِ اللَّهِ قَوْمَ لُوطٍ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَانْطَلَقُوا مِنْ عِنْدِهِ فَأَتَوْا لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ - عَلَى مَا قِيلَ - فِي أَرْضٍ لَهُ. وَقِيلَ: فِي مَنْزِلِهِ. وَوَرَدُوا عَلَيْهِ، وَهُمْ فِي أَجْمَلِ صُورَةٍ تَكُونُ، عَلَى هَيْئَةِ شُبَّانِ حَسَنِ الْوُجُوهِ، ابْتِلَاءً مِنَ اللَّهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَسَاءَ شَأْنُهُمْ، وَضَاقَتْ نَفْسُهُ بِسَبَبِهِمْ، وَخَشِيَ أَنْ لَمْ يُضَيِّفَهُمْ: أَنْ يُضَيِّفَهُمْ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ فَيَنَالَهُمْ بِسُوءٍ ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: شَدِيدٌ بِلَاؤُهُ<sup>(٩)</sup>. وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَدْفَعُ عَنْهُمْ وَيَسْقُ عَلَيْهِ ذَلِكَ. وَذَكَرَ قَتَادَةُ: أَنََّّهُمُ اتَّوَوْهُ وَهُوَ فِي أَرْضٍ لَهُ<sup>(١٠)</sup> فَتَضَيَّفُوهُ فَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ فَاَنْطَلَقَ أَمَامَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ كَالْمُعْرِضِ لَهُمْ بِأَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُ: إِنَّهُ وَاللَّهِ! يَا هَؤُلَاءِ، مَا أَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَهْلَ بَلَدٍ أَخْبَتَ مِنْ هَؤُلَاءِ. ثُمَّ مَشَى قَلِيلًا، ثُمَّ أَعَادَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حَتَّى كَرَّرَهُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، قَالَ قَتَادَةُ: وَقَدْ كَانُوا أُمِرُوا أَنْ لَا يُهْلِكُوهُمْ حَتَّى يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ بِذَلِكَ<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَمْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَيْ يُسْرِعُونَ وَيَهْرَوُلُونَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أَيْ: لَمْ يَزَلْ هَذَا مِنْ سَجِيَّتِهِمْ حَتَّى أَخَذُوا وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْحَالِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ يَنْقُورُ هَؤُلَاءِ بَنَاتٍ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يُرِيدُهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ، فَإِنَّ النَّبِيَّ لِلْأُمَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ،

(١) الطبري: ٤٠٣/١٥ إسناده ضعيف من أجل شيخ الطبري محمد بن حميد الرازي قال ابن حجر: حافظ ضعيف (تقريب) قال البخاري في حديثه نظر [التاريخ الصغير] (٢) الطبري: ١٥/٤١١ (٣) الطبري: ٤٠٨/١٥ (٤) الطبري: ٤٠٨/١٥ (٥) الطبري: ٤١٤/١٥ (٦) الطبري: ٤١٣/١٥ (٧) الترمذي: ٣١١٦

الْمَزِيدُ

٢٣١

سُورَةُ هُودٍ

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا  
 حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ  
 وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ  
 شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوِّمَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ  
 وَلَا تَتَّبِعُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ فِي أَرْضِكُمْ بِخَيْرٍ  
 وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوِّمُ  
 أَوْفُوا الْمَكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا  
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾  
 بَقِيتُ اللَّهُ خَيْرَ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ  
 بِحَفِيفٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ  
 نَّتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ  
 إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَتَقَوِّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ  
 كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْنِي مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ  
 أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَيْدُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ  
 مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْضُودٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْضُودَةٌ فِي السَّمَاءِ أَيْ  
 مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿مَنْضُودٍ﴾ أَيْ: يَتَّبِعُ بَعْضُهَا  
 بَعْضًا فِي نَزُولِهَا عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُسَوِّمَةً﴾ أَيْ: مُعَلِّمَةً مَّخْتُومَةً عَلَيْهَا أَسْمَاءُ  
 أَصْحَابِهَا، كُلُّ حَجَرٍ مَّكْتُوبٌ عَلَيْهِ اسْمُ الَّذِي يَنْزِلُ  
 عَلَيْهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ: ﴿مُسَوِّمَةً﴾ مَطُوقَةٌ، بِهَا نَضْحٌ  
 مِنْ حُمْرَةٍ<sup>(٣)</sup>. وَذَكَرُوا: أَنَّهَا نَزَلَتْ عَلَى أَهْلِ الْبَلَدِ وَعَلَى  
 الْمُتَفَرِّقِينَ فِي الْقَرْيَةِ مِمَّا حَوْلَهَا، فَبَيْنَا أَحَدُهُمْ يَكُونُ عِنْدَ  
 النَّاسِ يَتَحَدَّثُ إِذْ جَاءَهُ حَجَرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَسَقَطَ عَلَيْهِ مِنْ  
 بَيْنِ النَّاسِ، فَدَمَرَهُ، فَتَبِعَهُمُ الْحِجَارَةُ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ  
 حَتَّى أَهْلَكْتَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَقَوْلُهُ:  
 ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أَيْ: وَمَا هَذِهِ النِّقْمَةُ وَمِنْ  
 تَسْبِيهِ بِهِمْ فِي ظُلْمِهِمْ بِبَعِيدٍ عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ

اللَّهُ إِلَهُهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَا وَصُولَ لَهُمْ إِلَيْهِ ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ  
 رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ وَأَمْرُهُ أَنْ يُسْرِيَ بِأَهْلِهِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ،  
 وَأَنْ يَتَّبِعَ أَذْبَارَهُمْ أَيْ: يَكُونُ سَاقَةً لِأَهْلِهِ ﴿وَلَا يَلْفُتْ  
 مِنْكُمْ أَمَدٌ﴾ أَيْ: إِذَا سَمِعْتَ مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَلَا تَهْوُلَنَّكُمْ  
 تِلْكَ الْأَصْوَاتُ الْمُزْعِجَةُ، وَلَكِنْ اسْتَمَرُّوا ذَاهِبِينَ ﴿إِلَّا  
 أَمْرًا لَّكَ﴾ قَالَ الْأَكْثَرُونَ مَعْنَاهُ: أَنَّهَا لَا تَسْرِي وَلَا تَذْهَبُ  
 مَعَكَ، بَلْ تَبْقَى فِي بَيْتِهَا وَتُهْلِكُ. وَقِيلَ: بَلْ مَعْنَاهُ: أَنَّهَا  
 تَلْتَفِتُ، وَذَكَرَ هُؤُلَاءِ: أَنَّهَا خَرَجَتْ مَعَهُمْ وَأَنَّهَا لَمَّا سَمِعَتْ  
 الْوَجْبَةَ انْتَفَتَتْ، وَقَالَتْ: وَاقُومَاهُ! فَجَاءَهَا حَجَرٌ مِنَ السَّمَاءِ  
 فَفَقَّتْهَا.

ثُمَّ قَرَّبُوا لَهُ هَلَاكَ قَوْمِهِ تَبْسِيرًا لَهُ، لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ:  
 أَهْلِكُوهُمْ السَّاعَةَ، فَقَالُوا: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ الْيَسْبُحُ  
 بِقُرْبٍ﴾ هَذَا وَقَوْمٌ لُوطٌ وَتَوَفَّى عَلَى الْبَابِ عُكُوفٌ، فَذُ  
 جَاءُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلُوطٌ وَاقِفٌ عَلَى  
 الْبَابِ يُدَايِعُهُمْ وَيَرَدِّعُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، وَهُمْ لَا  
 يَقْبَلُونَ مِنْهُ، بَلْ يَتَوَعَّدُونَهُ وَيَتَهَدَّدُونَهُ. فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ  
 عَلَيْهِمْ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضَرَبَ وَجُوهَهُمْ بِجَنَاحِهِ،  
 فَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ فَارْجَعُوا وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ الطَّرِيقَ، كَمَا قَالَ  
 تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَافِيَةٍ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِ  
 وَذُرِّ﴾ ... الْآيَةُ [القمر: ٣٧].

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً  
 مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ  
 بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

[قَلْبُ قَرْيَةِ قَوْمِ لُوطٍ وَإِهْلَاكُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ طُلُوعِ  
 الشَّمْسِ ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ وَهِيَ سُدُومٌ ﴿سَافِلَهَا﴾ كَقَوْلِهِ:  
 ﴿فَقَسَّيْنَا مَا عَشَى﴾ [النجم: ٥٤] أَيْ: أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً  
 مِنْ سِجِّيلٍ وَهِيَ بِالْفَارِسِيَّةِ حِجَارَةُ مِنْ طِينٍ. قَالَ ابْنُ  
 عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَيْ مِنْ «سَنَكٍ» وَهُوَ  
 الْحَجَرُ، «وَكُلٌّ» وَهُوَ الطِّينُ، وَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى  
 ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ»، أَيْ مُسْتَحْجَرَةً قَوِيَّةً شَدِيدَةً. وَقَالَ  
 بَعْضُهُمْ: مَسْوِيَّةٌ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: سِجِّيلٌ: الشَّدِيدُ الْكَبِيرُ.  
 سِجِّيلٌ، وَسِجِّينٌ: اللَّامُ وَالْتُونُ أُخْتَانِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ تَمِيمُ بْنُ  
 مُقْبِلٍ:

وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ صَاحِبَةً  
 ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِّينَا

(١) الطبري: ٤٣٤/١٥ (٢) فتح الباري: ٢٠٢/٨ (٣) نضح  
 من حمرة: أي أثر وبقية، الطبري: ٤٣٨/١٥

الْمُرُويِّ فِي السَّنَنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلٍ قَوْمٍ لَوْطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»<sup>(١)</sup>.  
 ﴿وَالَّذِي مَدَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ بِهِ﴾<sup>(٢)</sup>

[فَصَّةٌ مَدِينٌ وَدَعْوَةٌ شُعَيْبٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى مَدْيَنَ، وَهُمْ قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ، كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ قَرِيبًا مِنْ مَعَانَ. بِلَادًا تُعْرَفُ بِهِمْ يُقَالُ لَهَا: مَدْيَنُ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا، وَكَانَ مِنْ أَشْرَفِهِمْ نَسَبًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّطَفُّيفِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أَيُّ: فِي مَعِيشَتِكُمْ وَرِزْقِكُمْ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تُسَلِّبُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ، بِانْتِهَايَكُم مَحَارِمَ اللَّهِ ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ بِهِ﴾ أَيُّ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

﴿وَيَتَقَوَّمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُتَّبِعِينَ﴾<sup>(٣)</sup> بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ<sup>(٤)</sup>

يَنْهَاهُمْ أَوَّلًا عَنْ نَقْصِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِذَا أَعْطَوْا النَّاسَ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْكَتِيلِ وَالْوِزْنِ بِالْقِسْطِ، آخِذِينَ وَمُعْطِينَ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْعُتُوِّ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، وَقَدْ كَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أَيُّ: مَا يَفْضُلُ لَكُمْ مِنَ الرِّبْحِ بَعْدَ وِفَاءِ الْكَتِيلِ وَالْمِيزَانِ، خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ. قَالَ: ﴿وَقَدْ رُويَ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٥)</sup>. (قُلْتُ): وَيُسَبِّحُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾... الْآيَةُ [المائدة: ١٠٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أَيُّ: بِرَقِيبٍ وَلَا حَفِيظٍ، أَيُّ أَفْعَلُوا ذَلِكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا تَفْعَلُوا لِيَرَاكُمُ النَّاسُ بَلْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ

الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾<sup>(٦)</sup>

[جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ]

يَقُولُونَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ - فَبَحَّهْمُ اللَّهُ - :

﴿أَصْلَوتُكَ﴾ قَالَ الْأَعْمَشُ: أَيُّ قِرَاءَتُكَ ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أَيُّ: الْأَوْتَانِ وَالْأَصْنَامَ ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فَتَتْرَكَ التَّطَفُّيفَ عَلَى قَوْلِكَ، وَهِيَ أَمْوَالُنَا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نُرِيدُ. قَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصْلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إِي وَاللَّهِ! إِنَّ صَلَاتَهُ لَتَأْمُرُهُمْ أَنْ يَتْرَكُوا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يَعْنُونَ الرِّكَاءَ ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمِمْوَنُ بْنُ مِهْرَانَ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ أَسْلَمَ وَابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُونَ ذَلِكَ - أَعْدَاءُ اللَّهِ - عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِهْزَاءِ، فَبَحَّهْمُ اللَّهُ وَلَعَنَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَقَدْ فَعَلَ<sup>(٨)</sup>.

﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْخَلِفَكُمْ إِيَّاهُ أَنْتُمْ لَكُمْ مِنْهُ رِزْقًا إِلَّا أُلْخَلِفَ مَا أَسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾<sup>(٩)</sup>

[رَدُّ شُعَيْبٍ عَلَى قَوْمِهِ]

يَقُولُ لَهُمْ: هَلْ رَأَيْتُمْ يَا قَوْمُ! ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي﴾ أَيُّ: عَلَى بَصِيرَةٍ فِيمَا أَدْعُو إِلَيْهِ ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قِيلَ: أَرَادَ الثَّبُوءَ. وَقِيلَ: أَرَادَ الرِّزْقَ الْحَلَالَ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْخَلِفَكُمْ إِيَّاهُ أَنْتُمْ لَكُمْ مِنْهُ رِزْقًا﴾ أَيُّ: لَا أَنْهَأَكُم عَنِ الشَّيْءِ وَأُخَالِفُ أَنَا فِي السَّرِّ فَأَفْعَلُهُ خُفْيَةً عَنْكُمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْخَلِفَكُمْ إِيَّاهُ أَنْتُمْ لَكُمْ مِنْهُ رِزْقًا﴾ يَقُولُ: لَمْ أَكُنْ أَنْهَأَكُم عَنْ أَمْرِ وَأَرْزَيْكُمْ<sup>(١٠)</sup>. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أَيُّ: فِيمَا أَمُرُّكُمْ وَأَنْهَأَكُم إِنَّمَا أُرِيدُ إِصْلَاحَكُمْ جُهْدِي وَطَاقَتِي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أَيُّ: فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ فِيمَا أُرِيدُهُ ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فِي جَمِيعِ أُمُورِي ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَيُّ: أَرْجِعُ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ<sup>(١١)</sup>.

﴿وَيَتَقَوَّمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾<sup>(١٢)</sup> وَاسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ نُبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ<sup>(١٣)</sup> يَقُولُ لَهُمْ: ﴿وَيَتَقَوَّمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أَيُّ: لَا

(١) أبو داود: ٤٤٦٢، والترمذي: ١٤٥٦، وابن ماجه: ٢٥٦١  
 (٢) الطبري: ٤٤٧/١٥ (٣) الطبري: ٤٤٧/١٥ (٤) الطبري: ٤٥١/١٥ (٥) الطبري: ٤٥٣/١٥ (٦) الطبري: ٤٥٣/١٥ (٧)  
 الطبري: ٤٥٤/١٥

الْمِائَةِ

٢٣٢

سُورَةُ

وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرَمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمُ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيَّ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جثثين ﴿٩٤﴾ كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

## [تَهْدِيدُ شُعَيْبٍ قَوْمَهُ]

لَمَّا بَيَّنَّ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ قَالَ: يَا قَوْمِ! «أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ» أَيُّ: طَرِيقَتِكُمْ. وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ «إِنِّي عَمِلٌ» عَلَى طَرِيقَتِي «سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ» أَيُّ: مَنِّي وَمِنْكُمْ «وَأَرْتَقِبُوا» أَيُّ: انظَرُّوا «إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ». قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جثثين» وَقَوْلُهُ: «جثثين» أَيُّ: هَامِئِينَ لَا حَرَكَ بِهِمْ. وَذَكَرَ هَهُنَا أَنَّهُ أَتَتْهُمْ «صَيْحَةٌ» [الآية: ٩٤] وَفِي الْأَعْرَافِ: «رَجْفَةٌ» [الآية: ٩١] وَفِي الشُّعْرَاءِ: «عَذَابٌ يَوْمَ الظَّلَّةِ» [الآية: ١٨٩] وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ عَذَابِهِمْ هَذِهِ النِّقَمُ كُلُّهَا، وَإِنَّمَا ذَكَرَ فِي كُلِّ سِيَاقٍ مَا يُنَاسِبُهُ فِي الْأَعْرَافِ لَمَّا قَالُوا: «لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا» [الآية: ٨٨]

تَحْمِلَنَّكُمْ عَذَابِي وَبَعْضِي عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفِسَادِ، فَيُصِيبُكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ وَقَوْمُ هُودٍ وَقَوْمُ صَالِحٍ وَقَوْمُ لُوطٍ مِنَ النَّقْمَةِ وَالْعَذَابِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: «وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرَمُكُمْ شِقَاقِي» يَقُولُ: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ فِرَاقِي<sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَذَابِي، عَلَى أَنْ تَمَادَوْا فِي الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ فَيُصِيبُكُمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا أَصَابَهُمْ. وَقَوْلُهُ: «وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» قِيلَ: الْمُرَادُ فِي الزَّمَانِ، قَالَ قَتَادَةُ: يَعْني إِنَّمَا هَلَكُوا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ بِالْأَمْسِ. وَقِيلَ: فِي الْمَكَانِ. وَيُحْتَمَلُ الْأَمْرَانِ. «وَأَسْتَغْفِرُكُمْ رَبِّكُمْ» مِنْ سَالِفِ الذُّنُوبِ «ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيَّ» فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَقَوْلُهُ: «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» لِمَنْ تَابَ. «قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

## [جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ]

يَقُولُونَ: «يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ» مَا نَفَقَهُمْ «كَثِيرًا» مِنْ قَوْلِكَ وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: كَانَ يُقَالُ لَهُ: خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ<sup>(٢)</sup>. قَالَ السُّدِّيُّ: «وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا» قَالَ: أَنْتَ وَاحِدٌ، وَقَالَ أَبُو رُوَيْقٍ: يَعْنُونَ ذَلِيلًا، لِأَنَّ عَشِيرَتَكَ لَبَسُوا عَلَى دِينِكَ. «وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ» أَيُّ: قَوْمُكَ لَوْلَا مَعَزَّتُهُمْ عَلَيْنَا لَرَجَمْنَاكَ. قِيلَ: بِالْحِجَارَةِ. وَقِيلَ: لَسَبَيْنَاكَ. «وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» أَيُّ: لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ مَعَزَةٌ.

## [رَدُّ شُعَيْبٍ عَلَى قَوْمِهِ]

«قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ» يَقُولُ: أَتَتَرَكُونَنِي لِأَجْلِ قَوْمِي وَلَا تَتَرَكُونَنِي إِعْظَامًا لِجَنَابِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ تَتَّالُوا نَبِيَّهِ بِمَسَاقَةٍ، وَقَدْ اتَّخَذْتُمْ جَانِبَ اللَّهِ «وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا» أَيُّ: نَبَذْتُمُوهُ خَلْفَكُمْ لَا تُطِيعُونَهُ وَلَا تُعْظَمُونَهُ «إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» أَيُّ: هُوَ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ [بِهَا].

«وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ» ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جثثين ﴿٩٤﴾ كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾



الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٣٣

سُورَةُ هُودٍ

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ  
 الْمُرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ  
 الرَّقْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ  
 مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا  
 أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ  
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيْئًا ﴿١٠١﴾  
 وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ  
 أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ  
 ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لُهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا  
 تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ بَاتَ لَاتُكَ لَمْ تَنْفَسْ  
 إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمُنَى  
 النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلْدَيْنِ فِيهَا مَادَامَتِ  
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ  
 ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَمِنْهُمْ خَلْدٌ فِيهَا مَادَامَتِ  
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

أَي: أَتَّبَعْنَاهُمْ - زِيَادَةً عَلَى عَذَابِ النَّارِ - لَعْنَةً فِي الدُّنْيَا  
 ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّقْدُ الْمَرْفُودُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: زِيدُوا لَعْنَةً  
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَتِلْكَ لَعْنَتَانِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿بِئْسَ الرَّقْدُ الْمَرْفُودُ﴾ قَالَ: لَعْنَةُ الدُّنْيَا  
 وَالْآخِرَةِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ<sup>(٣)</sup>. وَهُوَ كَقَوْلِهِ:  
 ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا  
 يُبْصَرُونَ﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ  
 مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿الفصص: ٤١، ٤٢﴾ وَقَالَ تَعَالَى:  
 ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا  
 آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. [غافر: ٤٦].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾  
 وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ  
 الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا  
 تَنْبِيْئًا ﴿١٠١﴾

نَاسَبَ أَنْ يُذَكَّرَ الرَّجْفَةُ، فَرَجِفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ الَّتِي ظَلَمُوا  
 بِهَا وَأَرَادُوا إِخْرَاجَ نَبِيِّهِمْ مِنْهَا، وَهَهُنَا لَمَّا أَسَاءُوا الْأَدَبَ  
 فِي مَقَالَتِهِمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ ذَكَرَ الصَّيْحَةَ الَّتِي اسْتَلَبَتْهُمْ  
 وَأَخْمَدَتْهُمْ، وَفِي الشُّعْرَاءِ لَمَّا قَالُوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا  
 مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الآية: ١٨٧] قَالَ:  
 ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.  
 وَهَذَا مِنَ الْأَسْرَارِ الدَّقِيقَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ كَثِيرًا دَائِمًا.  
 وَقَوْلُهُ: ﴿كَانَ لَمْ يَتَوَّأ فِيهَا﴾ أَي: يَعِيشُوا فِي دَارِهِمْ  
 قَبْلَ ذَلِكَ ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَنْ كَمَا بَعْدَتْ شُعُودٌ﴾ وَكَانُوا جِيرَانَهُمْ  
 قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي الدَّارِ، وَشَبَّهَهَا بِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَقَطَعَ الطَّرِيقَ،  
 وَكَانُوا عَرَبًا مِثْلَهُمْ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ ثَمِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ  
 وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِرِشْدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ  
 قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ ﴿٩٨﴾  
 وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّقْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾  
 [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِرْسَالِ مُوسَى بِآيَاتِهِ وَدَلَالَتِهِ  
 الْبَاهِرَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ الْقُبْطِ وَمَلِكِهِ ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾  
 أَي: مَنِجَّحَهُ وَمَسْلُكَهُ وَطَرِيقَتَهُ فِي الْغَيِّ ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ  
 إِلَّا بِرِشْدٍ﴾ أَي: لَيْسَ فِيهِ رُشْدٌ وَلَا هُدًى. وَلَئِنَّمَا هُوَ جَهْلٌ  
 وَضَلَالٌ وَكُفْرٌ وَعِنَادٌ، وَكَمَا أَنَّهُمْ اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ  
 مُقَدِّمُهُمْ وَرِئِيسُهُمْ، كَذَلِكَ هُوَ يَقْدُمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَى نَارِ  
 جَهَنَّمَ، فَأَوْرَدَهُمْ إِلَيْهَا، وَشَرَّبُوا مِنْ حِيَاضِ رَدَاهَا، وَلَهُ فِي  
 ذَلِكَ الْحِطُّ الْأَوْفَرُ، مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
 ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزم: ١٦] وَقَالَ  
 تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٩٦﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٩٧﴾ فَحَسَرَ فَنَادَى ﴿٩٨﴾  
 فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٩٩﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿١٠٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢١-٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ  
 قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ﴾  
 وَكَذَلِكَ شَأْنُ الْمُتَّبِعِينَ يَكُونُونَ مُوقِفِينَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ  
 الْقِيَمَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾  
 [الأعراف: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْكُفْرَةِ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ  
 فِي النَّارِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَلْعَنَّا سَادَتَنَا وَكُفَرَاءَنَا فَافْضِلْنَا أَلْسِيْلًا ﴿٧٧﴾  
 رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضِعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ... [الآية: الأحزاب: ٦٨، ٦٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ... [الآية،

(١) الطبري: ٤٦٨/١٥ (٢) الطبري: ٤٦٩/١٥ (٣) الطبري:

## [الَاتِّعَاضُ بِالْقُرَى الْمُهْلَكَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَبَرَ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَ أُمَّمِهِمْ، وَكَيْفَ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أي: أَخْبَارِهِمْ ﴿نَقَضُكُمْ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أي: غَامِرٌ ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي: هَالِكٌ. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: إِذْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا وَكُفْرِهِمْ بِهِمْ ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أَوْثَانُهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيَدْعُونَهَا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مَا نَفَعُوهُمْ وَلَا أَنْقَذُوهُمْ [لَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ] بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تَنْبِيْئًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: أَيُّ غَيْرِ تَخْسِيرٍ، وَذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِاتِّبَاعِهِمْ تِلْكَ الْأِلَٰهَةَ، فَلِهَذَا خَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ<sup>(١)</sup>.

﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١١٧)

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَهْلَكْنَا أَوَّلِيكَ الْقُرُونَ الظَّالِمَةَ الْمُكَذِّبَةَ لِرُسُلِنَا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِأَشْبَاهِهِمْ ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَقْلِبْهُ»<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ... الْآيَةَ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ<sup>(٣)</sup> وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ (١١٨) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [إِهْلَاكُ الْقُرَى دَلِيلٌ عَلَى قِيَامِ السَّاعَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ فِي إِهْلَاكِنَا الْكَافِرِينَ وَإِنِّجَانِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَآيَةً﴾ أي: عِظَةً وَاعْتِبَارًا عَلَى صِدْقِ مَوْعِدِنَا فِي الْآخِرَةِ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الْآيَةُ [إبراهيم: ١٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ أي: عَظِيمٌ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَيَجْتَمِعُ فِيهِ الرُّسُلُ، وَتُحْشَرُ الْخَلَائِقُ بِأَسْرِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالطَّيْرِ، وَالْوُحُوشِ وَالْدَّوَابِّ، وَيَحْكُمُ فِيهِ الْعَادِلُ الَّذِي ﴿لَا يَظْلُمُ فِي شِقَاقٍ ذَرَّةً﴾ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا﴾ [النساء: ٤٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ

## الْمُرَّةِ الْفَلَاةِ عَشْرًا

٢٣٤

## سُورَةُ هُودٍ

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَقْصُوفٍ﴾ (١١٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١٢٠) وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِكُتُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمُ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٢١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٢٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١٢٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١٢٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَبْهَتُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١٢٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْرِحُونَ﴾ (١٢٧)

مُعَدَّدٍ﴾ أي: لِمُدَّةٍ مُّوَقَّتَةٍ لَا يَزَادُ عَلَيْهَا وَلَا يُنْقُصُ مِنْهَا ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: يَوْمَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وَقَالَ: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ ... الْآيَةُ [طه: ١٠٨]. وَفِي الصَّحِيحِينَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ! سَلِّمْ سَلِّمْ»<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي شَقِيٍّ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ كَمَا قَالَ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾. [الشورى: ٧] وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى فِي مُسْنَدِهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَلَامَ نَعْمَلُ؟ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ أَمْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يُفْرَغْ مِنْهُ؟

(١) الطبري: ٤٧٣/١٥ (٢) فتح الباري: ٢٠٥/٨ ومسلم: ٤/

١٩٩٧ (٣) فتح الباري: ٣٤١/٢ ومسلم: ١٦٩/١

فَقَالَ: «عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ يَا عُمْرُ! وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَلَكِنْ كُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»<sup>(١)</sup>. ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حَالِ الْأَشْقِيَاءِ وَحَالِ السَّعْدَاءِ فَقَالَ:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾<sup>(٢)</sup>  
خَلِيدٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ<sup>(٣)</sup>

[حَالِ الْأَشْقِيَاءِ وَمَصِيرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الزَّفِيرُ فِي الْحُلِيِّ، وَالشَّهِيقُ فِي الصَّدْرِ أَيْ: تَنَفُّسُهُمْ زَفِيرًا، وَأَخَذَهُمُ النَّفْسُ شَهِيقًا<sup>(٤)</sup>. لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ﴿خَلِيدٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ: مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَصِفَ الشَّيْءَ بِالْذَّوَامِ أَبَدًا قَالَتْ: «هَذَا دَائِمٌ ذَوَامَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ: «هُوَ بَاقٍ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»، «... وَمَا سَمَرَ ابْنَا سَمِيرٍ»، «... وَمَا لَأَلَّتِ [الْعُمْرُ بِأَذْنَابِهَا]»<sup>(٥)</sup> يَعْنُونَ بِذَلِكَ كُلَّهُ: أَبَدًا. فَخَاطَبَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِمَا يَتَعَارَفُونَهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿خَلِيدٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾<sup>(٦)</sup>.

(قُلْتُ): وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ: الْجَنَسُ، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي عَالَمِ الْآخِرَةِ مِنْ سَمَوَاتٍ وَأَرْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ» [إبراهيم: ٤٨] وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قَالَ: يَقُولُ: سَمَاءٌ غَيْرُ هَذِهِ السَّمَاءِ وَأَرْضٌ غَيْرُ هَذِهِ: فَمَا دَامَتِ تِلْكَ السَّمَاءُ وَتِلْكَ الْأَرْضُ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨] قِيلَ: إِنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ عَائِدٌ عَلَى الْعَصَاةِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ مِمَّنْ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ: الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى يَسْفَعُوهُمْ فِي أَصْحَابِ الْكِبَايِرِ، ثُمَّ تَأْتِي رَحْمَةُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، فَتُخْرِجُ [مِنَ النَّارِ] مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، وَقَالَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَضْمُونِ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَجَابِرٍ وَأَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَا يَنْتَقِي بَعْدَ ذَلِكَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ فِيهَا، وَلَا مَجِيدَ لَهُ عَنْهَا. وَهَذَا الَّذِي

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾<sup>(٧)</sup>  
[حَالِ السَّعْدَاءِ وَمَصِيرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُدُوا﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ أَيْ: فَمَأْوَاهُمْ الْجَنَّةُ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ: مَا كَيْشَ فِيهَا أَبَدًا ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ مَعْنَى الْإِسْتِثْنَاءِ هُنَا أَنَّ ذَوَامَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ لَيْسَ أَمْرًا وَاجِبًا بِذَاتِهِ بَلْ هُوَ مُوَكَّلٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَهُ الْمَنَّةُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا، وَلِهَذَا يُلْهِمُونَ النَّسِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهِمُونَ النَّفْسَ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هِيَ فِي حَقِّ عَصَاةِ الْمُؤَحِّدِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّارِ ثُمَّ أُخْرِجُوا مِنْهَا. وَعَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ أَيْ: غَيْرَ مَقْطُوعٍ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٩)</sup>. لِكُلِّ يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِهِ الْمَشِيئَةِ: أَنَّ تَمَّ [انْقِطَاعًا أَوْ لَبْسًا أَوْ شَيْئًا] بَلْ حَتَمَ لَهُ بِالْذَّوَامِ وَعَدَمِ الْإِنْقِطَاعِ، كَمَا بَيَّنَّ هُنَاكَ: أَنَّ عَذَابَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ دَائِمًا مُرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ، وَأَنَّهُ يَبْدُلُهُ وَحِكْمَتِهِ عَذَابَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ يَسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وَهَذَا طَيِّبُ الْقُلُوبِ وَتَبَّتِ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ: ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «يُوتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةٍ كَبِشٍ أَمْلَحَ فَيُذْنَخُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»<sup>(١٠)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: «فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَتَّيَبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»<sup>(١١)</sup>.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُؤْتَوُهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾<sup>(١٢)</sup> وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

(١) الترمذي: ٣١١١ (٢) الطبري: ٤٨٠/١٥ (٣) وقع في الأصل: وَمَا لَأَلَّتِ الْعِيرُ بِأَذْنَابِهِمْ (٤) الطبري: ٤٨١/١٥ (٥) مسلم: ٢١٨١/٤ (٦) الطبري: ٤٩٠/١٥ (٧) فتح الباري: ٢٨٢/٨ ومسلم: ٢١٨٨/٤ (٨) مسلم: ٢١٨٢/٤

النُّبِيِّ، فَإِنَّهُ مَصْرَعَةٌ حَتَّى وَلَوْ كَانَ عَلَى مُشْرِكٍ، وَأَعْلَمَ  
تَعَالَى أَنَّهُ بَصِيرٌ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ لَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يَخْفَى  
عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي  
طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا تَدَاهَنُوا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ: وَلَا تَمِيلُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ  
حَسَنٌ، أَيْ: لَا تَسْتَعِينُوا بِالظَّالِمَةِ فَتَكُونُوا كَأَنْتُمْ قَدْ رَضِيتُمْ  
بِأَعْمَالِهِمْ ﴿فَتَسْكُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ  
ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ يُنْقِذْكُمْ  
وَلَا نَاصِرٍ يُخَلِّصُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ  
السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ وَأَمِيرٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ  
الْمُحْسِنِينَ<sup>(٤)</sup>

### [الْأَمْرُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ  
طَرَفِي النَّهَارِ﴾ قَالَ: يَغْنِي الصُّبْحُ وَالْمَغْرِبُ<sup>(٥)</sup> وَكَذَا قَالَ  
الْحَسَنُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بَنِي أَسْلَمَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ -  
فِي رِوَايَةٍ - [وَأَقِمِ الصَّلَاةَ وَالصُّبْحَ وَالْمَغْرِبَ] هِيَ الصُّبْحُ  
وَالْعَصْرُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الصُّبْحُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَالظُّهْرُ  
وَالْعَصْرُ [مِنْ آخِرِهِ، وَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ  
وَالصُّبْحُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ] ﴿وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمْ: يَعْْنِي صَلَاةَ الْعِشَاءِ. وَقَالَ  
الْحَسَنُ فِي رِوَايَةٍ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ مُبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ، عَنْهُ:  
﴿وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ يَعْْنِي الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ. قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «هُمَا زُلْفَا اللَّيْلِ: الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ»<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا  
قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَقَتَادَةُ، وَالصُّبْحُ: إِنَّهَا  
صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ  
نَزَلَتْ قَبْلَ فَرْضِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا  
كَانَ يَجِبُ مِنَ الصَّلَاةِ صَلَاتَانِ: صَلَاةٌ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ  
وَصَلَاةٌ قَبْلَ غُرُوبِهَا، وَفِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ، قِيَامٌ عَلَيْهِ وَعَلَى  
الْأُمَّةِ، ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ وَبَنَتْ وَجُوبُهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ نُسِخَ

لَقَضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْسٍ<sup>(٧)</sup> وَإِنْ كَلَّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ  
رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ<sup>(٨)</sup>  
[الشُّرُكُ ضَلَالٌ لَا شَكَّ فِيهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾  
الْمُشْرِكُونَ، إِنَّهُ بَاطِلٌ وَجْهٌ وَضَلَالٌ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ  
مَا ﴿يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا هُمْ  
فِيهِ إِلَّا اتِّبَاعُ الْأَبَاءِ فِي الْجَهَالَاتِ، وَسَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ عَلَى  
ذَلِكَ أَمَّ الْجَزَاءِ، فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا، وَإِنْ كَانَ  
لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَقَدْ وَقَّاهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ  
ابْنُ زَيْدٍ بَنِي أَسْلَمَ: لَمُوقِفُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ  
مَنْقُوصٍ<sup>(٩)</sup>. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَتَى مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ  
النَّاسُ فِيهِ، فَمِنْ مُؤْمِنٍ بِهِ وَمِنْ كَافِرٍ بِهِ، فَلَمْ يَمَنْ سَلَفَ  
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ! أَسُوءُ فَلَا يَغِيبُ عَنْكَ تَكْذِيبُهُمْ لَكَ  
وَلَا يَهْدِيكَ ذَلِكَ.

﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَقَمَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَى بَيْنَهُمْ﴾ قَالَ  
ابْنُ جَرِيرٍ: لَوْ لَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَأْجِيلِهِ الْعَذَابَ إِلَى أَجَلٍ  
مَعْلُومٍ لَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ  
أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِرْسَالِ  
الرَّسُولِ إِلَيْهِ<sup>(١٠)</sup>. كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ  
رَسُولًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٥] فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى:  
﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَقَمَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾<sup>(١١)</sup> فَأَصِيرَ  
عَلَى مَا يَقُولُونَ<sup>(١٢)</sup> [طه: ١٢٩، ١٣٠] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَجْعَلُ  
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الْأَمَمِ وَيَجْزِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا  
فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ فَقَالَ: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ  
أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيْ: عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ جَمِيعِهَا،  
جَلِيلُهَا وَخَفِيرُهَا، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ قِرَاءَاتٌ  
كَثِيرَةٌ يَرْجِعُ مَعْنَاهَا إِلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ﴾. [يس: ٣٢]

﴿فَأَسْقِمَتْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْلُوعًا إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ  
بَصِيرٌ﴾ وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَسْكُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ<sup>(١٣)</sup>

### [الْأَمْرُ بِالِاسْتِقَامَةِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولُهُ وَعِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالِدَّوَامِ  
عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ، وَذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى النَّصْرِ عَلَى  
الْأَعْدَاءِ وَمُخَالَفَةِ الْأَضْدَادِ، وَنَهَى عَنِ الطُّغْيَانِ وَهُوَ

(١) الطبري: ٤٩٢/١٥ (٢) الطبري: ٤٩٣/١٥ (٣) الطبري:

٥٠١/١٥ (٤) الطبري: ٥٠٣/١٥ (٥) الطبري: ٥٠٣/١٥

(٦) الطبري (١٨٦٤٧) إسناده ضعيف لإرسال الحسن البصري  
وفوق الإرسال تدليس مبارك بن فضالة قال ابن حجر: صدوق  
يدلس ويسوي (تقريب) ولم يصرح.

عَنْهُ أَيْضًا فِي قَوْلِ اللَّهِ أَعْلَمُ.

[إِنَّ الْحَسَنَاتِ تَمْحُو السَّيِّئَاتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ تَمْحُو السَّيِّئَاتِ﴾ يَقُولُ: إِنَّ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ يَكْفِرُ الذُّنُوبَ السَّالِفَةَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ الشُّنَنِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ حَدِيثًا نَفَعَنِي اللَّهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعَنِي مِنْهُ، وَإِذَا حَدَّثَنِي عَنْهُ أَحَدٌ اسْتَحْلَفْتُهُ فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدَقْتُهُ، وَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ إِلَّا غُفِرَ لَهُ»<sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ: أَنَّهُ تَوَضَّأَ لَهُمْ كَوْضُوءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ وَقَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يَحْدِثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ بَابَ أَحَدِكُمْ نَهْرًا غَمْرًا، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ ذَنْبِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَكَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَ الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ»<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ فَاخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَأَنذِرْ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتِهَارِ وَزُلْفَا مِنْ الْبَيْتِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْ هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»<sup>(٥)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ وَأَخْرَجَهُ فِي التَّفْسِيرِ بَنَحْوِهِ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى عُمَرَ، فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ تَبَايَعُهُ فَأَدْخَلْتُهَا الدَّوْلَجَ، فَأَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ الْجَمَاعِ، فَقَالَ: وَنَحَكَ لَعَلَّهَا مَغِيْبَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: أَجَلْ، قَالَ: فَاتَتْ أَبَا بَكْرٍ فَسَلُّهُ. قَالَ: فَأَتَاهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: لَعَلَّهَا مَغِيْبَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: «فَلَعَلَّهَا مَغِيْبَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟» وَنَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿وَأَنذِرْ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتِهَارِ وَزُلْفَا مِنْ الْبَيْتِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ: يَا

سُورَةُ هُودٍ

٢٣٥

سُورَةُ هُودٍ

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاكَ مُخْتَلِفِينَ  
(١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ  
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٩) وَكَلَّا نَقْصُ  
عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئُ بِهِ عُقَادًا وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ  
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ (٢١) وَانظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ  
(٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا  
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٣)

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الرَّتِّلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا  
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ  
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ  
لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ  
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)

رَسُولَ اللَّهِ، لِي خَاصَّةٌ أَمْ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ؟ فَضَرَبَ يَغْنِي عُمَرُ  
صَدْرَهُ يَبْدُوهُ وَقَالَ: لَا وَلَا نِعْمَةَ عَيْنٍ، بَلْ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ، فَقَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ»<sup>(٧)</sup>.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتَ عَنْ الْفَسَادِ  
فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ  
الْقُرَى يَظْلِمَ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١٧)

[لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ جَمَاعَةٍ تَنْتَهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَهَلَّا وَجَدَ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ بَقَايَا مِنْ

(١) أحمد: ٩/١ وأبو داود: ١٨٠/٢ وتحفة الأحوذى: ٣٥٧/٨ والنسائي في الكبرى: ١٠٩/٦ وابن ماجه: ٤٤٦/١ (٢) فتح الباري: ٣٢٠/١ ومسلم: ٢٦٠/١ (٣) البخاري: ٥٢٨ ومسلم: ٦٦٧ (٤) مسلم: ٢٠٩/١ (٥) فتح الباري: ١٢/٢ (٦) فتح الباري: ٢٠٦/٨ (٧) أحمد: ٢٤٥/١ إسناد ضعيف من أجل علي بن زيد بن جُدعان وهو سَيِّءُ الْحِفْظِ وَاسْتَكْرَأَ ابْنَ عَدِي فِي "الْكَامِلِ" هَذَا الْحَدِيثَ بِعَيْنِهِ لَعَلِيَّ بْنَ زَيْدٍ - وَالْأَحَادِيثُ الْمَذْكُورَةُ مِنَ الصَّحِيحَيْنِ تَغْنِي عَنْهُ.

وَسَقَتَرُقْ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً» قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ بِهَذِهِ الزِّيَادَةِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَجْمَعِينَ» يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ لِعِلْمِهِ التَّامِّ وَحِكْمَتِهِ النَّافِذَةِ: أَنَّ مِمَّنْ خَلَقَهُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّارَ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنْ هَذَيْنِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُكْمَةُ النَّامَةُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ! فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَسْأَاءِ، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَنْتَقِمُ بِكَ مِمَّنْ أَسْأَاءِ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ، حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا يُسْكِنُ فَضْلَ الْجَنَّةِ، وَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَزَالُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ»<sup>(٤)</sup>.

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي

هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

### [الْخَاتِمَةُ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكُلُّ أَخْبَارٍ نَقُصُّهَا عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ قَبْلِكَ مَعَ أُمُومِهِمْ، وَكَيْفَ جَرَى لَهُمْ مِنَ الْمُحَاجَّاتِ وَالْخُصُومَاتِ، وَمَا اخْتَمَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى، وَكَيْفَ نَصَرَ اللَّهُ حِزْبَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَخَدَلَ أَعْدَاءَهُ الْكَافِرِينَ. كُلُّ هَذَا مِمَّا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ أَيُّ: قَلْبَكَ يَا مُحَمَّدُ! لِيَكُونَ لَكَ بِمَنْ مَضَى مِنْ إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أَيُّ: هَذِهِ السُّورَةُ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ يَعْنِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَيْفَ أَنْجَاهُمُ اللَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ؛ جَاءَكَ فِيهَا قِصَصُ حَقٍّ، وَبَيِّنَاتٌ صِدْقٍ، وَمَوْعِظَةٌ يَرْتَدِعُ بِهَا الْكَافِرُونَ، وَذِكْرٌ يَتَذَكَّرُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ.

(١) ابن ماجه: ١٣٢٧/٢ (٢) أحمد: ٣٣٢/٢ وأبو داود: ٤/٥

وتحفة الأحوذى: ٣٩٧/٧ وابن ماجه: ١٣٢٢/٢ (٣) الحاكم:

١٢٩/١ (٤) فتح الباري: ٤٤٤/١٣ ومسلم: ٢١٨٦/٤

أَهْلَ الْخَيْرِ يَنْهَوْنَ عَمَّا كَانَ يَفْعُ بَيْنَهُمْ مِنَ الشُّرُورِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيُّ قَدْ وَجَدَ مِنْهُمْ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ قَلِيلٌ لَمْ يَكُونُوا كَثِيرًا، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْجَاهُمُ اللَّهُ عِنْدَ حُلُولِ غَضَبِهِ وَفَجَاءَ نِقْمَتِهِ، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ الشَّرِيفَةَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجَيْتَنَا مِنْهُمْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ﴾ أَيُّ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِنْكَارِ أُولَئِكَ حَتَّى فَجَّاهُمْ الْعَذَابُ ﴿وَكَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ قَرْيَةً إِلَّا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا، وَلَمْ يَأْتِ قَرْيَةً مُصْلِحَةً بِأَسْأَةٍ وَعَذَابُهُ قَطُّ حَتَّى يَكُونُوا هُمُ الظَّالِمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِلَّذَلِكَ خَلْقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَجْمَعِينَ﴾

[لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ الْإِيمَانَ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِ النَّاسِ كُلِّهِمْ أُمَّةً وَاحِدَةً مِنْ إِيمَانٍ أَوْ كُفْرٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ أَيُّ: وَلَا يَزَالُ الْخُلْفُ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَذْيَانِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِ مِلَلِهِمْ وَنَحْلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَآرَائِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أَيُّ: إِلَّا الْمَرْحُومِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِمَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الدِّينِ، أَخْبَرَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَزَلْ ﷺ ذَلِكَ دَابُّهُمْ حَتَّى كَانَ النَّبِيُّ وَخَاتَمَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَاتَّبَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ وَوَارَوْهُ [فَفَارَوْا] بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ فِي الْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ مِنْ طَرَفٍ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا: «إِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً،

أَشْرَفَ الرُّسُلُ بِسَفَارَةِ أَشْرَفِ الْمَلَائِكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَشْرَفِ بَقَاعِ الْأَرْضِ، وَابْتَدَى إِتْرَائُهُ فِي أَشْرَفِ شُهُورِ السَّنَةِ، وَهُوَ رَمَضَانُ. فَكَمَّلَ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بِسَبَبِ إِحْيَائِنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ. [سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ]

وَقَدْ وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا؟ فَتَرَلْتُ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَجْدِينَ﴾<sup>(٢)</sup>

[رُؤْيَا يُوسُفَ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَذْكَرُ لِقَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ، فِي قَصَصِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾، وَأَبُوهُ هُوَ يَعْقُوبُ ابْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَخِي<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ تَكَلَّمَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى تَغْيِيرِ هَذَا الْمَنَامِ أَنَّ الْأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا عِبَارَةٌ عَنْ إِخْوَتِهِ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا سِوَاهُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ عِبَارَةٌ عَنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ. رُوِيَ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَدْ وَقَعَ تَفْسِيرُهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: ثَمَانِينَ سَنَةً، وَذَلِكَ حِينَ رَفَعَ أَبُوبُرْدٍ عَلَى الْعَرْشِ وَهُوَ سَرِيرُهُ، وَإِخْوَتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿وَحَرُّوا لَهُمْ سَجْدًا﴾ وَقَالَ يَتَأَبَّتْ هَذَا نَأْوِيلَ رُءُوسِي مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا<sup>(٤)</sup> [يوسف: ١٠٠]<sup>(٥)</sup>.

﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقُصُّ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(٦)</sup>

[أَمْرُ وَالِدِ يُوسُفَ بِإِخْفَاءِ الرُّؤْيَا حَدَرًا مِنْ كَيْدِ

الشَّيْطَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحْضِرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لِإِبْنِهِ يُوسُفَ حِينَ قَصَّ عَلَيْهِ مَا رَأَى مِنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي تَغْيِيرُهَا: خُضُوعُ إِخْوَتِهِ لَهُ، وَتَعْظِيمُهُمْ إِيَّاهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا بِحَيْثُ يَخْرُونَ لَهُ سَاجِدِينَ إِجْلَالًا وَاحْتِرَامًا وَإِكْرَامًا، فَخَشِيَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ

(١) الطبري: ٥٥٢/١٥ (٢) الطبري: ٥٥٤/١٥ (٣) الطبري: ٥٥٧/١٥

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾<sup>(٧)</sup> وَانْظُرُوا إِنَّا مُنْظَرُونَ﴾<sup>(٨)</sup>

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ﴾ أَيُّ عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَمَنْهَجِكُمْ ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أَيُّ: عَلَى طَرِيقَتِنَا وَمَنْهَجِنَا ﴿وَانْظُرُوا إِنَّا مُنْظَرُونَ﴾ أَيُّ: فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَعْدَهُ، وَنَصَرَهُ وَأَيَّدَهُ، وَجَعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا، وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا الشُّفْلَى، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَعِنْدَهُ وَكُوكَلٌ عَلَيْهِ وَمَا رُبُّكَ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٩)</sup>

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ عَالِمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَى، وَسَيُوتِي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، فَأَمَرَ تَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ كَافٍ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا رُبُّكَ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: لَيْسَ يَخْطِئُ عَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ مُكَذَّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ، بَلْ هُوَ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَسَيَنْصُرُكَ وَجِزْبَكَ عَلَيْهِمْ فِي الدَّارَيْنِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير سورة يوسف - عليه السلام - وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾<sup>(١)</sup> إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ<sup>(٢)</sup> نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ<sup>(٣)</sup>

[أَوْصَافُ الْقُرْآنِ]

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أَيُّ هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ، أَيُّ: الْوَاضِحُ الْجَلِيلُ الَّذِي يُفْصِحُ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُبْهَمَةِ، وَيُفَسِّرُهَا وَيُبَيِّنُهَا ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ أَفْضَحُ اللُّغَاتِ وَأَبْيَنُهَا وَأَوْسَعُهَا وَأَكْثَرُهَا تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تَقُومُ بِالنَّفُوسِ، فَلِهَذَا أَنْزَلَ أَشْرَفَ الْكُتُبِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ، عَلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٦

سُورَةُ يُوسُفَ

قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْعِلُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَاسْتَخَرْنَا رَبَّنَا عَلَيْكَ حِكْمَهُ ﴿٦﴾ ۖ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ۖ آيَاتٍ لِلْمَسَّالِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالَ لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا بِمَا لَنَا حِلٌّ وَلَا تَنْصَحُنَا ۖ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١١﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٣﴾

شَقِيقَهُ لِأُمِّهِ، ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أَيُّ: جَمَاعَةٍ، فَكَيْفَ أَحَبَّ ذَيْنِكَ الْإِنْسَانِ أَكْثَرَ مِنَ الْجَمَاعَةِ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يَعْنُونَ فِي تَقْدِيرِهِمَا عَلَيْنَا، وَمَحَبَّتِهِ إِيَّاهُمَا أَكْثَرَ مِنَّا.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ يَقُولُونَ: هَذَا الَّذِي يَزَاحِمُكُمْ فِي مَحَبَّةِ أَبِيكُمْ لَكُمْ أَغْدِمُوهُ مِنْ وَجْهِ أَبِيكُمْ، لِيَخْلُوَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ، إِمَّا بِأَنْ تَقْتُلُوهُ أَوْ تُلْقُوهُ فِي أَرْضٍ مِنَ الْأَرْضِ تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، وَتَخْلُوا أَنْتُمْ بِأَبْيَكُمْ ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ فَأَضْمَرُوا التَّوْبَةَ

(١) مسلم: ١٧٧٢/٤ هذا الحديث ملفق من ثلاثة أحاديث. الأول: حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري (٦٩٨٥) والترمذي (٣٤٤٩) وأحمد ٨/٣ والثاني: حديث جابر بن عبد الله عند مسلم ٢٢٦٢/٥ وأبي داود (٥٠٢٢) وابن ماجه (٣٩٠٨) وأحمد ٣٥٠/٣ والثالث: حديث أبي قتادة عند البخاري (٣٢٩٢) ومسلم (٢٢١١) وأبي داود (٥٠٢١) والترمذي ٢٢٧٨ وأحمد ٥/٢٩٦. (٢) أحمد: ١٠/٤ وأبو داود: ٢٨٣/٥ وابن ماجه: ٢/١٢٨٨ (٣) الطبري: ٥٦٠/١٥

السَّلَامُ أَنْ يُحَدِّثَ بِهَذَا الْمَنَامِ أَحَدًا مِنْ إِخْوَتِهِ، فَيَحْشُدُونَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَبْنُونَ لَهُ الْغَوَائِلَ حَسَدًا مِنْهُمْ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: ﴿لَا نَقْصُصُ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أَيُّ: يَحْتَالُوا لَكَ حِيلَةً يُرْذُونَكَ فِيهَا، وَلِهَذَا تَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَحَوَّلْ إِلَى جَنْبِهِ الْآخَرِ، وَلْيَتَمَلَّ عَنْ بَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تُضَرَّهُ» (١). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَبَعْضُ أَهْلِ السُّنَنِ مِنْ رَوَايَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَبْدَةَ الْقُسَيْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ» (٢).

﴿وَكَذَلِكَ يَجْعِلُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَخَرْنَا رَبَّنَا عَلَيْكَ حِكْمَهُ﴾

[تَعْبِيرُ رُؤْيَا يُوسُفَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ يَعْقُوبَ لَوْلَدِهِ يُوسُفَ: إِنَّهُ كَمَا اخْتَارَكَ رَبُّكَ وَأَرَاكَ هَذِهِ الْكَوَاكِبَ مَعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ سَاجِدَةً لَكَ: ﴿كَذَلِكَ يَجْعِلُكَ رَبُّكَ﴾ أَيُّ: يَخْتَارُكَ وَيَصْطَفِيكَ لِنُبُوَّتِهِ ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي تَعْبِيرَ الرُّؤْيَا (٣). ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أَيُّ: يَازَسَالِكَ وَالْإِيحَاءِ إِلَيْكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَهُوَ الْخَلِيلُ ﴿وَاسْتَخَرْنَا رَبَّنَا عَلَيْكَ حِكْمَهُ﴾ أَيُّ: هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى [الأنعام: ١٢٤].

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ۖ آيَاتٍ لِلْمَسَّالِينَ﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

[قِصَّةُ يُوسُفَ وَفِيهَا آيَاتٌ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَقَدْ كَانَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَخَبَرِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ، أَيُّ: عِبَرَةٌ وَمَوَاعِظٌ لِلْمَسَّالِينَ عَنْ ذَلِكَ، الْمُسْتَخْبِرِينَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ خَبَرَ عَجِيبٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهُ ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مِنَّا﴾ أَيُّ: حَلَفُوا - فِيمَا يَطْنُونَ - وَاللَّهُ لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ، يَعْنُونَ بِنِيَامِينَ وَكَانَ



الْبَيْتُ الْغَابِي

٢٣٧

سُورَةُ يُوسُفَ

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَابَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَا هَبْنَا نَصَبِيْقُ وَتَرَكْنَا يُوْسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلْهُ الذَّيْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهِ بِدَمْرٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بَضْعَةً وَلِلَّهِ عَلَيْهِمْ إِمَاعٌ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِمَنْ بَخِيسَ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اسْتَرْبَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرَأَتِي أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَانَ الْيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

عُصْبَةً إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿٢٣﴾

[جواب الأب]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّ يَعْقُوبَ أَنَّهُ قَالَ لَبَنِيهِ فِي جَوَابِ مَا سَأَلُوا مِنْ إِزْسَالِ يُوسُفَ مَعَهُمْ إِلَى الرَّغْيِ فِي الصَّخْرَاءِ ﴿إِنِّي لَخَيْرُكُمْ أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أَيُّ: يَسْئَلُ عَلَيَّ مُفَارَقَتَهُ مَدَّةَ ذَهَابِكُمْ بِهِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ، وَذَلِكَ لِغُرْطِ مَحَبَّتِهِ لَهُ، لِمَا يَتَوَسَّمُ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ وَشَمَائِلِ النُّبُوَّةِ وَالْكَمَالِ فِي الْخَلْقِ وَالْخَلْقِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّيْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ يَقُولُ: وَأَخْشَى أَنْ تَسْتَعْلُوا عَنْهُ بِرَبِّكُمْ وَرَغَبِكُمْ، فَيَأْتِيَهُ ذَنْبٌ فَيَأْكُلُهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، فَأَخَذُوا مِنْ فَمِهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، وَجَعَلُوهَا عُذْرَهُمْ فِيمَا فَعَلُوهُ، وَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ عَنْهَا فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّيْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ

(١) الطبري: ٥٦٥، ٥٦٤/١٥. (٢) ابن أبي حاتم (١١٣٦٠)

وفيه سلمة بن الفضل صدوق كثير الخطأ (تقريب). (٣) الطبري:

٥٧٠/١٥ (٤) الطبري: ٥٧١/١٥

قَبْلَ الذَّنْبِ. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ وَاسْمُهُ رُوَيْلٌ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الَّذِي قَالَ ذَلِكَ، يَهُودًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ شَمْعُونُ الصَّفَا: ﴿لَا تَقْنَلُوا يُوسُفَ﴾ أَيُّ: لَا تَصْلُوا فِي عِدَاوَتِهِ وَبُغْضِهِ إِلَى قَتْلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى قَتْلِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ يُرِيدُ مِنْهُ أَمْرًا لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهِ وَإِنْمَائِهِ مِنَ الْإِحْيَاءِ إِلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ، وَمِنْ التَّمْكِينِ لَهُ بِبِلَادِ مِصْرَ وَالْحُكْمِ بِهَا، فَصَرَفَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ بِمَقَالَةِ رُوَيْلٍ فِيهِ، وَإِشَارَتِهِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يُلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَهُوَ أَسْفَلُهُ. قَالَ قَتَادَةُ: وَهِيَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ﴿يَلْقُظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أَيُّ الْمَارَةِ مِنَ الْمُسَافِرِينَ، فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ بِهِذَا، وَلَا حَاجَةَ إِلَى قَتْلِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ أَيُّ: إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَى مَا تَقُولُونَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارٍ: لَقَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَعُثُوقِ الْوَالِدِ، وَقَلَّةِ الرَّافَةِ بِالصَّغِيرِ الضَّرْعِ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ، وَبِالْكَبِيرِ الْفَانِي ذِي الْحَقِّ وَالْحُرْمَةِ وَالْفَضْلِ، وَخَطَرِهِ عِنْدَ اللَّهِ - مَعَ حَقِّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ لِيُقَرَّفُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَحَبِيبِهِ عَلَى كِبَرِ سِنِّهِ وَرِقَّةِ عَظْمِهِ، مَعَ مَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ [فِيمِنْ] أَحَبَّهُ طِفْلًا صَغِيرًا، وَبَيْنَ ابْنِهِ عَلَى ضَعْفِ قُوَّتِهِ وَصِغَرِ سِنِّهِ وَحَاجَتِهِ إِلَى لُطْفِ وَالِدِهِ وَسُكُونِهِ إِلَيْهِ - يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَقَدِ اخْتَمَلُوا أَمْرًا عَظِيمًا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ سَلَمَةَ ابْنِ الْفَضْلِ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[اسْتِثْنَانُ الْإِخْوَةِ بِذَهَابِ يُوسُفَ]

لَمَّا تَوَاطَآوا عَلَى أَخْذِهِ وَطَرَحُوهُ فِي الْبُئْرِ كَمَا أُنْشَرِ بِهِ عَلَيْهِمْ أَخُوهُمْ الْكَبِيرُ رُوَيْلٌ، جَاءُوا أَبَاهُمْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالُوا: مَا بِكَ ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ وَهَذِهِ تَوَطُّةٌ وَدَعْوَى، وَهُمْ يُرِيدُونَ خِلَافَ ذَلِكَ؛ لِمَا لَهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ لِحُبِّ أَبِيهِ لَهُ ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا﴾ أَيُّ: ابْعَثَهُ مَعَنَا (غَدًا نَرْتَعُ وَنَلْعَبُ) وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْيَاءِ: ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَسْعَى وَيَسْتَشْطُ<sup>(٣)</sup> وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٤)</sup>. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ يَقُولُونَ: وَنَحْنُ نَحْفَظُهُ وَنَحُوطُهُ مِنْ أَجْلِكَ.

﴿قَالَ إِنِّي لَخَيْرُكُمْ أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّيْبُ

وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿٢٦﴾﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّيْبُ وَنَحْنُ

إِنَّا إِذَا لَخِمْسُورُونَ ﴿١٥﴾ يَقُولُونَ: لَيْنَ عَدَا عَلَيْهِ الذُّبُّ فَأَكَلَهُ مِنْ بَيْنِنَا وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ، إِنَّا إِذَا لَهَا لِكُونٌ عَاجِزُونَ. ﴿١٦﴾ فَلَمَّا دَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾

### [إِلْقَاءُ يُوسُفَ فِي الْبُئْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَلَمَّا دَهَبَ بِهِ إِخْوَتُهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ بَعْدَ مُرَاجَعَتِهِمْ لَهُ فِي ذَلِكَ ﴿١٥﴾ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ﴿١٦﴾ هَذَا فِيهِ تَعْظِيمٌ لِمَا فَعَلُوهُ، أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى الْإِلْقَاءِ فِي أَشْفَلِ ذَلِكَ الْجُبِّ، وَقَدْ أَخَذُوهُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ، فِيمَا يُظْهِرُونَهُ لَهُ، إِكْرَامًا لَهُ وَبَسْطًا وَشَرَحًا لَصَدْرِهِ، وَإِدْخَالًا لِلشُّرُورِ عَلَيْهِ، فَيَقَالُ: إِنَّ يَغُتُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَمَّا بَعَثَهُ مَعَهُمْ ضَمَّهُ إِلَيْهِ وَقَبْلَهُ وَدَعَا لَهُ. فَذَكَرَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ إِكْرَامِهِمْ لَهُ وَبَيْنَ إِظْهَارِ الْأَذَى لَهُ إِلَّا أَنْ غَابُوا عَنْ عَيْنِ أَبِيهِ وَتَوَارَوْا عَنْهُ، ثُمَّ شَرَعُوا يُؤْذِنُونَهُ بِالْقَوْلِ: مِنْ شَمِّمْ وَنَحْوِهِ، وَالْقَوْلِ: مِنْ ضَرْبٍ وَنَحْوِهِ. ثُمَّ جَاءُوا بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْجُبِّ الَّذِي اتَّفَقُوا عَلَى رَمِيهِ فِيهِ، فَرَبَطُوهُ بِحَبْلٍ وَدَلُّوهُ فِيهِ، فَكَانَ إِذَا لَجَأَ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَطَمَهُ وَشَتَمَهُ، وَإِذَا تَشَبَّثَ بِحَافَاتِ الْبُئْرِ ضَرَبُوا عَلَى يَدَيْهِ، ثُمَّ قَطَعُوا بِهِ الْحَبْلَ مِنْ نِصْفِ الْمَسَافَةِ، فَسَقَطَ فِي الْمَاءِ فَعَمَرَهُ، فَصَعِدَ إِلَى صَخْرَةٍ تَكُونُ فِي وَسْطِهِ يُقَالُ لَهَا: «الرَّاعُوفَةُ»، فَقَامَ فَوْقَهَا <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذَاكِرًا لَطْفَهُ وَرَحْمَتَهُ وَعَائِدَتَهُ وَإِزَالَةَ الْيُسْرِ فِي حَالِ الْعُسْرِ: إِنَّهُ أَوْحَى إِلَى يُوسُفَ فِي ذَلِكَ الْحَالِ الصِّبْغَ تَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ وَتَنْبِيًا لَهُ: إِنَّكَ لَا تَحْزَنُ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ، فَإِنَّ لَكَ مِنْ ذَلِكَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا حَسَنًا، وَسَيَنْصُرُكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَيُعْلِيكَ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَكَ، وَسَتُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا مَعَكَ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَتُنَبِّئُهُمْ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا فِي حَقِّكَ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَكَ وَلَا يَشْعُرُونَ بِكَ <sup>(٢)</sup>.

﴿وَجَاءَ آبَاؤُهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾ قَالُوا يَا بَنَانَا إِنَّا دَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهِ، يَدْمِرُ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

### [مَكْرُ إِخْوَةَ يُوسُفَ مَعَ أَبِيهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الَّذِي اعْتَمَدَهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ بَعْدَ

مَا أَلْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ: أَنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَبْكُونَ، وَيُظْهِرُونَ الْأَسْفَ وَالْجَزَعَ عَلَى يُوسُفَ، وَيَتَعَمَّمُونَ لِأَبِيهِمْ، وَقَالُوا مُعْتَذِرِينَ عَمَّا وَقَعَ فِيمَا رَعَمُوا ﴿١٨﴾ إِنَّا دَهَبْنَا نَسْتَقِ أَيُّ: نَتَرَامِي ﴿١٩﴾ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا أَيُّ: ثِيَابَنَا وَأَمْتِعَتَنَا، ﴿فَأَكَلَهُ الذُّبُّ﴾ وَهُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ جَزَعَ مِنْهُ وَحَذَرَ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ تَلَطَّفَ عَظِيمٌ فِي تَقْرِيرِ مَا يُحَاوِلُونَهُ. يَقُولُونَ: وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تُصَدِّقُنَا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - لَوْ كُنَّا عِنْدَكَ صَادِقِينَ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَتَّهَمُنَا فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّكَ خَشِيتَ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ، فَأَكَلَهُ الذُّبُّ، فَأَنْتَ مَعْدُورٌ فِي تَكْذِيبِكَ لَنَا لِعِزَابَةِ مَا وَقَعَ، وَعَجِيبٌ مَا اتَّفَقَ لَنَا فِي أَمْرِنَا هَذَا. ﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِبٍ﴾ أَيُّ: مَكْدُوبٌ مُفْتَرَى، وَهَذَا مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُؤَكِّدُونَ بِهَا مَا تَمَالَكُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَكِيدَةِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى سَخْلَةٍ - فِيمَا ذَكَرَهُ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ - فَذَبَحُوهَا وَلَطَّخُوا ثَوْبَ يُوسُفَ بِدَمِهَا <sup>(٣)</sup>. مُوهِمِينَ أَنْ هَذَا قَيْصِيهِ الَّذِي أَكَلَهُ فِيهِ الذُّبُّ، وَقَدْ أَصَابَهُ مِنْ دَمِهِ، وَلَكِنَّهُمْ نَسُوا أَنْ يُخْبِرُوهُ، فَلِهَذَا لَمْ يَرْجُ هَذَا الصَّنِيعَ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ يَغُتُوبَ، بَلْ قَالَ لَهُمْ مُعْرِضًا عَنْ كَلَامِهِمْ إِلَى مَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ لُبْسِهِمْ عَلَيْهِ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أَيُّ: فَسَأَصْبِرُ صَبْرًا جَمِيلًا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي اتَّفَقْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُفَرِّجَهُ اللَّهُ بِعُونِهِ وَلُطْفِهِ ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أَيُّ: عَلَى مَا تَذْكُرُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْمَحَالِ.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْ رَأْيُ هَذَا عُلَمٌ وَأَسْرُهُ بَضْعَةٌ وَاللَّهُ عَلَيْهِمَا يَمَّا يَمْلِكُونَ﴾ وَشَرُّهُ يَشْمَنُ بَحْسِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

### [إِخْرَاجُ يُوسُفَ مِنَ الْبُئْرِ وَبَيْعُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا جَرَى لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ وَتَرَكُوهُ فِي ذَلِكَ الْجُبِّ وَجِدًا فَرِيدًا، فَمَكَثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْبُئْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِيمَا قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ جَلَسُوا حَوْلَ الْبُئْرِ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، يَنْظُرُونَ مَاذَا يَصْنَعُ وَمَا يُصْنَعُ بِهِ، فَسَاقَ اللَّهُ لَهُ سَيَّارَةً، فَتَزَلُّوا قَرِيبًا مِنْ تِلْكَ الْبُئْرِ، وَأَرْسَلُوا

(١) الطبري: ٥٧٤/١٥ (٢) الطبري: ٥٧٧/١٥ (٣) الطبري:

وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾

[يُوسُفُ فِي مِصْرَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِالطَّافِيهِ يُيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَيَّضَ لَهُ  
الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ حَتَّى اعْتَنَى بِهِ وَكَرَّمَهُ، وَأَوْصَى أَهْلَهُ  
بِهِ، وَتَوَسَّمَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالصَّلَاحَ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي  
مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وَكَانَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ  
مِصْرَ عَزِيزُهَا وَهُوَ الْوَزِيرُ بِهَا. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي  
عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: أُرْسِلُ النَّاسُ ثَلَاثَةً:  
عَزِيزٌ مِصْرَ حِينَ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾. وَالْمَرْأَةُ  
الَّتِي قَالَتْ لِأَيِّهَاهَا ﴿يَتَأْتِيكَ اسْتَعِجْرَةٌ...﴾ [القصص: ٢٦]، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ حِينَ اسْتَخْلَفَ عُمَرُ بْنُ  
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا<sup>(١)</sup>. يَقُولُ تَعَالَى: كَمَا أَنْقَذْنَا  
يُوسُفَ مِنْ إِخْوَتِهِ ﴿كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي  
بِلَادِ مِصْرَ.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ:  
هُوَ تَعْيِيرُ الرُّؤْيَا<sup>(٢)</sup>. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ أَمِيرٌ﴾ أَيُّ: إِذَا أَرَادَ  
شَيْئًا فَلَا يَرُدُّ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ، بَلْ هُوَ الْغَالِبُ لِمَا  
سِوَاهُ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ أَمِيرٌ﴾  
أَمِيرٌ: أَيُّ فَعَالٌ لِمَا يَشَاءُ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَقُولُ: لَا يَدْرُونَ حِكْمَتَهُ فِي خَلْقِهِ وَتَلَطُّفِهِ وَفِعْلِهِ  
لِمَا يُرِيدُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَئْي: يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
﴿أَشَدَّهُ﴾ أَيُّ اسْتَكْمَلَ عَقْلَهُ وَتَمَّ خَلْقَهُ ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾  
يَعْنِي الثَّبُوتَ أَنَّهُ حَبَّاهُ بِهَا بَيْنَ أَوْلِيكَ الْأَقْوَامِ ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيُّ: إِنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا فِي عَمَلِهِ عَامِلًا بِطَاعَةِ اللَّهِ  
تَعَالَى.

﴿وَرَزَوْنَاهُ الْتِي هُوَ فِي بَيْتِهِ عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَّقَتِ الْأَنْوَابَ وَقَالَتْ  
هَبْ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظَّالِمُونَ ﴿٢٢﴾

[حُبُّ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ وَمَكِيدَتُهَا بِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ الَّتِي كَانَ يُيُوسُفُ فِي بَيْتِهَا  
بِمِصْرَ، وَقَدْ أَوْصَاهَا زَوْجُهَا بِهِ وَيَاكُرَامِهِ، فَرَاوَدَتْهُ عَنْ  
نَفْسِهِ، أَيُّ: حَاوَلَتْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَدَعَتْهُ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا

وَارِدَهُمْ - وَهُوَ الَّذِي يَطْلُبُ لَهُمُ الْمَاءَ - فَلَمَّا جَاءَ ذَلِكَ  
الْبِئْرَ وَأَذَلَّى دَلْوُهُ فِيهَا، تَسَبَّتْ يُيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا،  
فَأَخْرَجَتْهُ وَاسْتَبَشَّرَ بِهِ، وَقَالَ: ﴿يَكْبُشْرِي هَذَا عِلْمٌ﴾.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضْعَ عَشْرَ  
يَعْنِي إِخْوَهُ يُيُوسُفَ أَسْرَوْا شَأْنَهُ، وَكَتَمُوا أَنْ يَكُونَ أَحَاهُمْ،  
وَكَتَمَ يُيُوسُفُ شَأْنَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَقْتُلَهُ إِخْوَتُهُ، وَاخْتَارَ الْبَيْعَ،  
فَذَكَرَهُ إِخْوَتُهُ لِوَارِدِ الْقَوْمِ، فَنَادَى أَصْحَابَهُ ﴿يَكْبُشْرِي هَذَا  
عِلْمٌ﴾ يَبَاعُ قَبَاعَةُ إِخْوَتِهِ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ  
إِخْوَهُ يُيُوسُفَ وَمُسْتَرُوهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِ ذَلِكَ وَدَفْعِهِ،  
وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ وَقَدَرٌ سَابِقٌ، فَتَرَكَ ذَلِكَ لِيَفْضِي مَا قَدَرَهُ  
وَقَضَاهُ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾  
[الأعراف: ٥٤] وَفِي هَذَا تَعْرِضُ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ  
وَإِعْلَامٌ لَهُ بِأَنِّي عَالِمٌ بِأَدَى قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا قَادِرٌ عَلَى  
الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنِّي سَأَمْلِي لَهُمْ ثُمَّ أَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ  
وَالْحُكْمَ عَلَيْهِمْ، كَمَا جَعَلْتُ لِيُيُوسُفَ الْحُكْمَ وَالْعَاقِبَةَ عَلَى  
إِخْوَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَرَّوهُ بِمَنْ بَخَسَ دَرَاهِمَ مَعْدُونَةٍ﴾ يَقُولُ  
تَعَالَى: وَبَاعَهُ إِخْوَتُهُ بِثَمَنِ قَلِيلٍ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ.  
وَالْبَخْسُ: هُوَ النِّقْصُ<sup>(٢)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ  
بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣] أَيُّ: إِغْتَاصَ عَنْهُ إِخْوَتُهُ بِثَمَنِ  
دُونِ قَلِيلٍ، وَمَعَ ذَلِكَ ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ كَانُوا  
فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ أَيُّ: لَيْسَ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِيهِ، بَلْ لَوْ سِئِلُوهُ  
بِلَا شَيْءٍ لَأَجَابُوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ:  
إِنَّ الصَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَرَّوهُ﴾ عَائِدٌ عَلَى إِخْوَةِ  
يُيُوسُفَ<sup>(٣)</sup>. وَكَانُوا قَدْ بَاعُوهُ بِأَنْقَصِ الْأَثْمَانِ. وَلِهَذَا  
قَالَ: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُونَةٍ﴾، فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ: بَاعُوهُ بِعِشْرِينَ دِرْهَمًا<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
وَنُوفٌ الْبِكَالِيُّ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ، وَزَادَ:  
إِفْتَسَمُوهَا دِرْهَمَيْنِ دِرْهَمَيْنِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ:  
﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا بُيُوتَهُ  
وَمَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ  
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ  
وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ أَمِيرٌ وَلَكِنْ  
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا

(١) الطبري: ٦/١٦ مَرَّ حُكْمُ الْعَوْفِيِّ مَرَارًا (٢) الطبري: ١٦/

١٢ (٣) الطبري: ١٤/١٦-١٧ (٤) الطبري: ١٢/١٦ (٥)

الطبري: ١٤/١٦ (٦) الطبري: ١٩/١٦ صحيح بطرقة (٧)

الطبري: ٢٠/١٦ (٨) الطبري: ٢١/١٦

الْبَابُ الْخَامِسُ

٢٣٨

سُورَةُ يُوسُفَ

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ  
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ  
إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا  
لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ  
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا  
الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ  
قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ  
أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ  
الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ  
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ  
مِنَ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ  
هَذَا وَاسْتَعْفَرَى لِدُنْيَاكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾  
وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا  
عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

الرَّجَرُ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا حُجَّةَ قَاطِعَةً عَلَى تَعْيِينِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَالْصَّوَابُ أَنْ يُطْلَقَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى .

وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أَي كَمَا أَرَيْنَاهُ بُرْهَانًا صَرَفَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ، كَذَلِكَ نَقِيهِ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أَي: مِنَ الْمُجْتَنِبِينَ الْمُطَهَّرِينَ الْمُخْتَارِينَ، الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ (٥).

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ

أَحَبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا، لِحِمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ، فَحَمَلَهَا ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَجَمَّلَتْ لَهُ، وَغَلَّقَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ، وَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فَاْمْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الِامْتِنَاعِ، ﴿وَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وَكَانُوا يُطْلَقُونَ الرَّبَّ عَلَى السَّيِّدِ وَالْكَبِيرِ، أَي: إِنَّ بَعْلَكَ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ أَي: مَنْزِلِي، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَلَا أَقَابِلُهُ بِالْفَاحِشَةِ فِي أَهْلِهِ ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قَالَ ذَلِكَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُمْ. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فَقَرَأَهُ كَثِيرُونَ بِنَتْحِ الْهَاءِ وَإِسْكَانِ الْيَاءِ وَفَتْحِ النَّاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مَعْنَاهُ: أَنَّهَا تَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا (١). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ عِكْرَمَةُ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أَي: هَلُمَّ لَكَ؛ بِالْحَوْرَانِيَّةِ. وَهَكَذَا ذَكَرَهُ مُعَلَّقًا (٢). وَقَرَأَ آخَرُونَ: (هَيْتُ لَكَ) بِكَسْرِ الْهَاءِ وَالْهَمْزِ وَضَمِّ النَّاءِ، بِمَعْنَى تَهَيَّأْتُ لَكَ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: هَيْتُ بِالْأَمْرِ أَيْ هَيْتُ. وَمِمَّنْ رَوَى عَنْهُ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ وَأَبُو وَاثِلٍ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ، وَكُلُّهُمْ يَفْسِّرُهَا بِمَعْنَى تَهَيَّأْتُ لَكَ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى: ﴿هَيْتُ﴾ لَا تَنْتَنِي، وَلَا تُجْمِعْ، وَلَا تُؤْنِتْ، بَلْ يُخَاطَبُ الْجَمِيعُ بِلَفْظِ وَاحِدٍ، فَيُقَالُ: هَيْتَ لَكَ، وَهَيْتَ لَكُمْ، وَهَيْتَ لَكُمَا، وَهَيْتَ لَكُنَّ، وَهَيْتَ لَهُنَّ.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِمْ بِهَا خَطَرَاتُ حَدِيثِ النَّفْسِ، حِكَاةُ الْبُعُوثِ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ، ثُمَّ أُرِدَ الْبُعُوثُ هَهُنَا حَدِيثُ عَبْدِ الرَّزَاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكَبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاتَّكَبُوهَا حَسَنَةً، فَلَمَّا تَرَكَهَا مِنْ جَرَائِي، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكَبُوهَا بِمِثْلِهَا» (٣). وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَلَهُ أَلْفَاظُ كَثِيرَةٌ، هَذَا مِنْهَا (٤).

وَأَمَّا الْبُرْهَانُ الَّذِي رَأَى فِيهِ أَقْوَالًا، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ رَأَى آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَزْجُرُهُ عَمَّا كَانَ هَمُّ بِهِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ صُورَةً يُعْقُوبُ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ صُورَةً الْمَلِكِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا رَأَى مَكْتُوبًا مِنْ

(١) الطبري: ٢٧/١٦ (٢) فتح الباري: ٢١٤/٨ (٣) البغوي:

٤٢٠/٢ (٤) فتح الباري: ٤٧٣/١٣ ومسلم: ١١٧/١ (٥)

الطبري: ٤٩/١٦

عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمَا حِينَ خَرَجَا يَسْتَبِقَانِ إِلَى الْبَابِ: يُوسُفُ هَارِبٌ، وَالْمَرْأَةُ تَطْلُبُهُ لِيَرْجِعَ إِلَى الْبَيْتِ، فَلَحِقَتْهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ فَأَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ، فَقَدَتْهُ قَدْأَ فَظِيْعًا، يُقَالُ: إِنَّهُ سَقَطَ عَنْهُ، وَاسْتَمَرَّ يُوسُفُ هَارِبًا ذَاهِبًا، وَهِيَ فِي إِثْرِهِ، فَالْقِيَا سَيِّدَهَا وَهُوَ زَوْجُهَا عِنْدَ الْبَابِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَتْ مِمَّا هِيَ فِيهِ بِمَكْرَهَا وَكَيْدِهَا، وَقَالَتْ لِرَّوْجِهَا مُتَّصِلَةً وَقَافَةً يُوسُفُ يَدَايِهَا مِمَّا جَزَأَ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴿٣٠﴾ أَيُّ: فَاجِشَهُ ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجِّنَ﴾ أَيُّ: يُجَبِّسَ، ﴿أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ أَيُّ: يُضْرَبُ ضَرْبًا شَدِيدًا مُوجِعًا. فَعِنْدَ ذَلِكَ انْتَصَرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَقِّ، وَتَبَرَّأَ مِمَّا رَمَتْهُ بِهِ مِنَ الْحِيَانَةِ، وَقَالَ ﴿بَارَأَ صَادِقًا﴾ هِيَ رَدَوْتَنِي عَنْ نَفْسِي ﴿وَذَكَرَ: أَنَّهَا اتَّبَعَتْهُ تَجِدْبُهُ إِلَيْهَا حَتَّى قَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنَ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبْلِ أَيُّ: مِنْ قُدَامِهِ ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أَيُّ: فِي قَوْلِهَا: إِنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ لَمَّا دَعَاها وَأَبَتْ عَلَيْهِ دَفَعَتْهُ فِي صَدْرِهِ، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ، فَبَصَحَ مَا قَالَتْ. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَذَلِكَ يَكُونُ - كَمَا وَقَعَ - لَمَّا هَرَبَ مِنْهَا وَتَطَلَّبَتْهُ، أَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ لِيَرُدَّهُ إِلَيْهَا فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ وَرَائِهِ.

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا الشَّاهِدِ: هَلْ هُوَ صَغِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ؟ فَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنَ أَهْلِهَا﴾ قَالَ: ذُو لَحْيَةٍ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ مِنْ خَاصَّةِ الْمَلِكِ <sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَغَيْرُهُمْ: إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنَ أَهْلِهَا﴾ قَالَ: كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ <sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهَلَالِ بْنِ يَسَافٍ وَالْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ: أَنَّهُ كَانَ صَبِيًّا فِي الدَّارِ <sup>(٤)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا رَمَا قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ أَيُّ: لَمَّا تَحَقَّقَ زَوْجُهَا صِدْقَ يُوسُفَ وَكَذِبِهَا فِيمَا قَدَفَتْهُ وَرَمَتْهُ بِهِ ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكِ﴾ أَيُّ: إِنَّ هَذَا الْبُهْتُ وَاللَّطْحُ الَّذِي لَطَخْتَ عَرَضَ هَذَا الشَّابُّ بِهِ مِنْ جُمْلَةِ كَيْدِكِ ﴿إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٩

سُورَةُ يُوسُفَ

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوِءًا أَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجِي عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمُرَةٍ لَّيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَلَا أَتَصَرَّفُ فِي كَيْدِهِنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْعَاجِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجَنَّهُ، حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتِلْكَ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا لَا تَنْتَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

ثُمَّ قَالَ أَمِيرًا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَيْمَانٍ مَا وَقَعَ ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ أَيُّ: إِضْرِبَ عَنْ هَذَا صَفْحًا، أَيُّ: فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ.

﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ، وَقَدْ كَانَ لَيِّنَ الْعَرِيكَةِ سَهْلًا، أَوْ أَنَّهُ عَذَرَهَا لِأَنَّهَا رَأَتْ مَا لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ، فَقَالَ لَهَا: اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ، أَيُّ: الَّذِي وَقَعَ مِنْكَ مِنْ إِرَادَةِ السُّوءِ بِهَذَا الشَّابِّ، ثُمَّ قَذَفَهُ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ ﴿إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

﴿وَقَالَ يَسْرُوءُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ

(١) عبدالرزاق ٣٢٢/٢ إسناده ضعيف رواية سماك عن عكرمة مضطربة كما مر. (٢) الطبري إسناده ضعيف لضعف جابر الجعفي. (٣) الطبري: ٥٦/١٦ العوفي ضعيف وفي سند آخر سعيد بن المرزبان ضعيف مدلس (٤) الطبري: ٥٥، ٥٤/١٦ عند الطبري رواية أبي هريرة أيضا ضعيفة فيها أبو بكر العدلي اخباري متروك الحديث انظر للتفصيل الضعيفة ٨٨٠/٣.

مِنْهُمْ سَكِينًا: هَلْ لَكُنَّ فِي النَّظَرِ إِلَى يُوسُفَ؟ قُلْنَ: نَعَمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِنَّ تَأْمُرُهُ أَنْ أَخْرِجَ إِلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُ جَعَلْنَ يَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَرْجِعَ لِرَبِّتِهِ مُقْبِلًا وَمُدْبِرًا، فَرَجَعَ وَهُنَّ يَحْزَنْنَ فِي أَيْدِيَهُنَّ، فَلَمَّا أَحْسَسْنَ بِالْأَلَمِ جَعَلْنَ يُؤَلِّلْنَ، فَقَالَتْ: أَتَنْتِ مِنْ نَظَرَةٍ وَاجِدَةٍ فَعَلْتِ هَذَا، فَكَيْفَ أَلَامَ أَنَا؟ ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ثُمَّ قُلْنَ لَهَا: وَمَا نَرَى عَلَيْكِ مِنْ لَوْمٍ بَعْدَ هَذَا الَّذِي رَأَيْنَا، لِأَنَّهُنَّ لَمْ يَرَيْنَ فِي الْبَشَرِ شَيْبَهُ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، قَالَ: «فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ»<sup>(٣)</sup>. وَعَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ رَبِيعَةَ الْجُرَشِيِّ قَالَ: قُسِمَ الْحُسْنُ بَيْنَ ثَلَاثِينَ، فَأُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ سَارَةَ نِصْفَ الْحُسْنِ. وَالنِّصْفُ الْآخَرُ بَيْنَ سَائِرِ الْحَلْقِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الشَّهْلِيُّ: مَعْنَاهُ: أَنَّ يُوسُفَ كَانَ عَلَى النِّصْفِ مِنْ حُسْنِ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ عَلَى أَكْمَلِ صُورَةٍ وَأَحْسَنِهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يُوَازِيهِ فِي جَمَالِهِ. فَلِهَذَا قَالَ هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عِنْدَ رُؤْيِيهِ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾: قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مَعَاذَ اللَّهِ<sup>(٤)</sup>. «مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ تَقُولُ هَذَا مُعْتَذِرَةً إِلَيْهِنَّ بِأَنَّ هَذَا حَقِيقٌ أَنَّ يُحِبُّ لِحَمَالِهِ وَكَمَالِهِ، ﴿وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أَيُّ: فَاِمْتَنَعَ. قَالَ بَعْضُهُمْ: لَمَّا رَأَيْنَ جَمَالَهِ الظَّاهِرَ أَخْبَرْتُهُنَّ بِصِفَاتِهِ الْحَسَنَةِ الَّتِي تَخْفَى عَنْهُنَّ، وَهِيَ الْعِفَّةُ مَعَ هَذَا الْجَمَالِ.

ثُمَّ قَالَتْ تَتَوَعَّدُهُ: ﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُوهُ لَيْسَجَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَعَاذَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ شَرِّهِنَّ وَكَيْدِهِنَّ، وَقَالَ: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْفَاجِشَةِ ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ أَيُّ: إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي فَلَيْسَ لِي مِنْهَا قُدْرَةٌ، وَلَا أَمْلِكُ لَهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، أَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التَّكْلَانِ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي ﴿أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾... الْآيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَمَهُ اللَّهُ عِصْمَةً عَظِيمَةً،

أَرْسَلَتْ إِلَيْنَ وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مُكْكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْرَمَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُوهُ لَيْسَجَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢١﴾

[وَصُولُ الْخَبَرِ إِلَى نِسْوَةِ الْمَدِينَةِ وَمَكِيدَتُهُنَّ بِيُوسُفَ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ خَبَرَ يُوسُفَ وَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ شَاعَ فِي الْمَدِينَةِ، وَهِيَ مِصْرُ، حَتَّى تَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مِثْلُ نِسَاءِ الْكِبَرَاءِ وَالْأَمْرَاءِ، يُنْكِرُونَ عَلَى امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ الْوَزِيرُ وَيَعْنِي ذَلِكَ عَلَيْهَا: ﴿أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تَرْوَدُ فَتَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أَيُّ: تَحَاوَلْ غَلَامَهَا عَنْ نَفْسِهِ وَتَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أَيُّ: قَدْ وَصَلَ حُبُّهُ إِلَى شِغَافِ قَلْبِهَا وَهُوَ غِلَافُهُ. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الشَّغَفُ: الْحُبُّ الْقَاتِلُ. وَالشَّغَافُ حِجَابُ الْقَلْبِ. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ: فِي صَنِيعِهَا هَذَا مِنْ حُبِّهَا فَتَاهَا، وَمُرَاوَدَّهَا إِيَّاهُ عَنْ نَفْسِهِ، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَقُولُهُنَّ: «ذَهَبَ الْحُبُّ بِهَا». وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: بَلْ بَلَّغَهُنَّ حُسْنَ يُوسُفَ، فَأَحْبَبْنَ أَنْ يَرَيْنَهُ، فَقُلْنَ ذَلِكَ لِيَتَوَصَّلْنَ إِلَى رُؤْيِيهِ وَمُشَاهَدَتِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَتْ إِلَيْنَ أَيُّ: دَعَتْهُنَّ إِلَى مَنْزِلِهَا لِتُصَيِّفَهُنَّ ﴿وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مُكْكًا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالشَّدِيدُ وَغَيْرُهُمْ: هُوَ الْمَجْلِسُ الْمُعَدُّ فِيهِ مَقَارِشُ، وَمَحَادُّ، وَطَعَامٌ، فِيهِ مَا يَقْطَعُ بِالسَّكَاكِينِ مِنْ أُنْزُجٍ وَنَحْوِهِ<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا﴾ وَكَانَ هَذَا مَكِيدَةً مِنْهَا، وَمَقَابَلَةً لَهُنَّ فِي اخْتِيَالِهِنَّ عَلَى رُؤْيِيهِ ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ خَبَأَتْهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ ﴿فَلَمَّا﴾ خَرَجَ وَرَأَيْتَهُ أَكْرَمَهُ أَيُّ: أَعْظَمْتُهُ أَيُّ: أَعْظَمْتَنِي شَانَهُ، وَأَجْلَلْتَنِي قُدْرَهُ، وَجَعَلْنَ يَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ دَهْشًا بِرُؤْيِيهِ، وَهُنَّ يَطْنُنَّ أَنَّهُنَّ يَقَطَعْنَ الْأُنْزُجَ بِالسَّكَاكِينِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُنَّ حَزَزْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِهَا. قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup>.

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُنَّ بَعْدَ مَا أَكَلْنَ وَطَابَتْ أَنْفُسُهُنَّ، ثُمَّ وَضَعَتْ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ أُنْزُجًا، وَآتَتْ كُلَّ وَاجِدَةٍ

(١) الطبري: ٧٢، ٧١/١٦ (٢) الطبري: ٧٨-٧٦/١٦ (٣)

مسلم: ١٤٦/١ (٤) الطبري: ٨٤/١٦

الْمَلَأَ قُلُوبَهُمْ

٢٤٠

سُورَةُ يُوسُفَ

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَاءُ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ يَصْحَجِي السِّجْنَاءُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلِبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٣١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَنَّكَ الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُءُوسِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءُوسِ يَاعْتَبِرُونَ ﴿٣٣﴾

[دَعَا يُوسُفُ السَّجِينَيْنِ إِلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ التَّعْبِيرِ]

يُخْبِرُهُمَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمَا مَهْمَا رَأَيَا فِي مَنَامِهِمَا مِنْ حُلُمٍ فَإِنَّهُ عَارِفٌ بِتَفْسِيرِهِ، يُخْبِرُهُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ وَفُوعِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِيهِ إِلَّا بِتَأْتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُ: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِيهِ﴾ فِي يَوْمِكُمَا ﴿إِلَّا بِتَأْتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ (٣). ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّايَ، لِأَنِّي اجْتَبَيْتُ مِلَّةَ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يَرْجُونَ ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا فِي الْمَعَادِ ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾. يَقُولُ: هَجَرْتُ طَرِيقَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَسَلَكْتُ طَرِيقَ هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَهَكَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى، وَاتَّبَعَ طَرِيقَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَعْرَضَ عَنْ طَرِيقِ

وَحِمَاهُ فَاثْتَنَعَ مِنْهَا أَشَدَّ الْإِمْتِنَاعِ، وَاخْتَارَ السَّجْنَ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَقَامَاتِ الْكَمَالِ أَنَّهُ مَعَ شَبَابِهِ وَجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ تَدْعُوهُ سَيِّدَتُهُ، وَهِيَ امْرَأَةٌ عَزِيزٌ مُضَرٌّ، وَهِيَ مَعَ هَذَا فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالرِّيَاسَةِ، وَيَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَخْتَارُ السَّجْنَ عَلَى ذَلِكَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ.

وَلِهَذَا ثَبِتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمُسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» (١).

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتَ لَيْسُهُنَّهٗ حَتَّىٰ جِئَ﴾ (٣٥)

[الْقَرَارُ بِسَجْنِ يُوسُفَ وَتَنْفِيذُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ثُمَّ ظَهَرَ لَهُمْ مِنَ الْمُضْلَحَةِ فِيمَا رَأَوْهُ أَنَّهُمْ يَسْجُونُهُ إِلَى جِينٍ، أَيٍّ: إِلَى مُدَّةٍ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا عَرَفُوا بَرَاءَتَهُ وَظَهَرَتْ الْآيَاتُ، وَهِيَ الْأُدَّةُ عَلَى صِدْقِهِ فِي عَقْدِهِ وَنَزَاهَتِهِ، وَكَأَنَّهُمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - إِنَّمَا سَجَنُوهُ لَمَّا شَاعَ الْحَدِيثُ إِيَّاهَا أَنَّهُ رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا وَأَنَّهُمْ سَجَنُوهُ عَلَى ذَلِكَ. وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَ الْمَلِكُ الْكَبِيرُ فِي آخِرِ الْمُدَّةِ امْتِنَاعَ مِنَ الْخُرُوجِ، حَتَّى تَتَبَّنَ بَرَاءَتُهُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ الْخِيَانَةِ. فَلَمَّا تَقَرَّرَ ذَلِكَ، خَرَجَ وَهُوَ نَقِي الْعَرُضِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٦)

[سَجِينَانِ يَسْأَلَانِ يُوسُفَ عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُمَا]

قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ أَحَدُهُمَا سَاقِي الْمَلِكِ، وَالْآخَرُ خَبَّازُهُ (٢). ثُمَّ إِنَّهُمَا رَأَيَا مَنَامًا وَطَلَبَا تَعْبِيرَهُ.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِيهِ إِلَّا بِتَأْتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

(١) فتح الباري: ١٦٨/٢ ومسلم: ٧١٥/٢ (٢) الطبري: ١٦/

٩٥ (٣) الطبري: ١٠٠/١٦

خَمْرًا ﴿ وَهُوَ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يُعْصِرُ خَمْرًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ لَيْلًا يَحْزَنُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا أَبْهَمَهُ فِي قَوْلِهِ. ﴿وَأَمَّا الْآخِرُ فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خَبْرًا، ثُمَّ أَعْلَمَهُمَا أَنَّ هَذَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، لِأَنَّ الرُّؤْيَا عَلَى رَجُلٍ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ. وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ الْقُعْقَاعِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا قَالَا مَا قَالَا وَأَخْبَرَهُمَا، قَالَا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا، فَقَالَ: ﴿فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾<sup>(١)</sup>. وَحَاصِلُهُ: أَنَّ مَنْ تَحَلَّمَ بِبَاطِلٍ، وَفَسَّرَهُ فَإِنَّهُ يُلْزَمُ بِتَأْوِيلِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الرُّؤْيَا عَلَى رَجُلٍ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ

سِنِينَ﴾

قَالَ يُوسُفُ لِلسَّاقِي اذْكُرْنِي عِنْدَ الْمَلِكِ

وَلَمَّا ظَنَّ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ السَّاقِي نَاجٍ، قَالَ لَهُ يُوسُفُ خُفِيَةً عَنِ الْآخِرِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لَيْلًا يُشْعِرُهُ أَنَّهُ الْمَضْلُوبُ قَالَ لَهُ: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يَقُولُ: اذْكُرْ قِصَّتِي عِنْدَ رَبِّكَ، وَهُوَ الْمَلِكُ، فَتَسِي ذَلِكَ الْمُوصَى أَنْ يُذَكَّرَ مَوْلَاهُ الْمَلِكُ بِذَلِكَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ لَيْلًا يَطْلُعُ نَبِيُّ اللَّهِ مِنَ السَّجْنِ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ: أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ﴾ عَائِدٌ عَلَى النَّاجِي. كَمَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَعَبْدُ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>.

وَأَمَّا الْبِضْعُ فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى السَّبْعِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُتْيَةَ: مَكَثَ أُيُوبُ فِي الْبَلَاءِ سَبْعًا، وَيُوسُفُ فِي السَّجْنِ سَبْعًا، وَعُذْبٌ بِخُنْصَرٍ سَبْعًا<sup>(٥)</sup>.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ إِنِّي أَخْبَرْتُكَ فِي

الضَّالِّينَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي قَلْبَهُ، وَيَعْلَمُهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، وَيَجْعَلُهُ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي الْخَيْرِ، وَدَاعِيًا إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ هَذَا التَّوْحِيدُ وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ: أَوْحَاهُ إِلَيْنَا وَأَمَرَنَا بِهِ. ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إِذْ جَعَلْنَا دَعَاةَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿أَيُّ: لَا يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِرسالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، بَلْ يَدُلُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآلَوَارِ﴾. [إبراهيم: ٢٨]

﴿يَصْنَعِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَهَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْبَلَ عَلَى الْفَتَنِ بِالْمُخَاطَبَةِ وَالِدَعَاءِ لَهُمَا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلَعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُمَا، فَقَالَ: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أَيُّ: الَّذِي ذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِعِزِّ جَلَالِهِ وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمَا: أَنَّ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا وَيُسَمُّونها إِلَهَةً إِنَّمَا هِيَ جَهْلٌ مِنْهُمْ، وَتَسْمِيَةٌ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، تَلَقَّاهَا خَلْفُهُمْ عَنْ سَلْفِهِمْ، وَلَيْسَ لِذَلِكَ مُسْتَنَدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَيُّ: حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْحُكْمَ وَالتَّصَرُّفَ وَالْمُسَيِّئَةَ وَالْمُلْكُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَقَدْ أَمَرَ عِبَادَةَ قَاطِبَةً أَنْ لَا يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَأَنْزَلَ بِهِ الْحُجَّةَ وَالْبُرْهَانَ الَّذِي يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: فَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ، ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. [يوسف: ١٠٣] وَلَمَّا فُرِغَ مِنْ دَعْوَتِهِمَا شَرَعَ فِي تَعْبِيرِ رُؤْيَاهُمَا فَقَالَ:

﴿يَصْنَعِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ

تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١٠٤﴾

[تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا]

يَقُولُ لَهُمَا: ﴿يَصْنَعِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ

(١) الطبري: ١٠٨/١٦ لم يسمع من ابن مسعود هذا إسناد مرسل وقد ورد موصولاً عند الحاكم ٣٤٦/٢ وقال: حديث صحيح. (٢) أحمد: ١٠/٤ (٣) الطبري: ١٦/١١٣ (٤) الطبري: ١١٥/١٦ (٥) الطبري: ١١٤/١٦



رَبِّيَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَصْنَعْتَ أَخْلَامَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُسَبِّتُ لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ﴿٤٩﴾

[رُؤْيَا مَلِكٍ مُضْرًا]

هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ مَلِكٍ مُضْرٍ مِمَّا قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهَا كَانَتْ سَبَبًا لِيُخْرَجَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّجْنِ، مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ رَأَى هَذِهِ الرُّؤْيَا، فَهَالَتْهُ وَتَعَجَّبَ مِنْ أَمْرِهَا وَمَا يَكُونُ تَفْسِيرُهَا، فَجَمَعَ الْكَهَنَةُ [وَالْحَزَازَةَ] وَكُبَّارَ دَوْلَتِهِ وَأَمْرَاءَهُ فَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى، وَسَأَلَهُمْ عَنْ تَأْوِيلِهَا، فَلَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ، وَاعْتَدَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهَا «أَصْنَعْتَ أَخْلَامَ» أَيُّ: أَخْلَاطُ أَخْلَامٍ اقْتَضَتْهُ رُؤْيَاكَ هَذِهِ «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالِمِينَ» أَيُّ: لَوْ كَانَتْ رُؤْيَا صَحِيحَةً مِنْ أَخْلَاطٍ لَمَا كَانَ لَنَا مَعْرِفَةُ تَأْوِيلِهَا - وَهُوَ تَغْيِيرُهَا -

فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ الَّذِي نَجَا مِنْ ذَيْنِكَ الْفَتَنِ اللَّذَيْنِ كَانَا فِي السَّجْنِ مَعَ يُوسُفَ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ أَنْسَاهُ مَا وَصَّاهُ بِهِ يُوسُفُ مِنْ ذِكْرِ أَمْرِهِ لِلْمَلِكِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ «بَعْدَ أُمَّةٍ» أَيُّ مَدَّةٍ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (بَعْدَ أُمَّةٍ) أَيُّ بَعْدَ نِسْيَانٍ، فَقَالَ لَهُمْ - أَيُّ لِلْمَلِكِ وَالَّذِينَ جَمَعَهُمْ لِذَلِكَ -: «أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ» أَيُّ: بِتَأْوِيلِ هَذَا الْمَنَامِ، «فَأَرْسِلُونِ» أَيُّ: فَابْعَثُونِ إِلَى يُوسُفَ الصِّدِّيقِ إِلَى السَّجْنِ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ فَبَعَثُوهُ فَجَاءَ [هُ] فَقَالَ: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا» وَذَكَرَ الْمَنَامَ الَّذِي رَأَاهُ الْمَلِكُ.

[تَغْيِيرُ رُؤْيَا الْمَلِكِ]

فَعِنْدَ ذَلِكَ ذَكَرَ لَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَغْيِيرُهَا مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ لِلْفَتَى فِي نِسْيَانِهِ مَا وَصَّاهُ بِهِ، وَمِنْ غَيْرِ اشْتِرَاطٍ لِلخُرُوجِ قَبْلَ ذَلِكَ، بَلْ قَالَ: «تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا» أَيُّ يَأْتِيكُمْ الْخُضْبُ وَالْمَطَرُ سَبْعَ سِنِينَ مُتَوَالِيَاتٍ، فَقَسَرَ الْبَقَرُ بِالسِّنِينَ لِأَنَّهَا تُبَيِّرُ الْأَرْضَ الَّتِي [تُسْعَلُ] مِنْهَا التَّمَرَاتُ وَالزُّرُوعُ، وَهِنَّ السُّبُلَاتُ الْخُضْرُ، ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى مَا

[يَعْتَمِدُونَهُ] فِي تِلْكَ السِّنِينَ، فَقَالَ: «فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ» إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ» أَيُّ: مِمَّا اسْتَعْلَلْتُمْ فِي هَذِهِ السَّبْعِ السِّنِينَ الْخُضْبِ، فَادَّخِرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ، لِيَكُونَ أَتَقَى لَهُ، وَأَتَعَدَّ عَنْ إِسْرَاعِ الْفَسَادِ إِلَيْهِ، إِلَّا الْبَقْدَارُ الَّذِي تَأْكُلُونَهُ، وَلَيْكُنْ قَلِيلًا قَلِيلًا، لَا تُسْرِفُوا فِيهِ، لِتَنْتَفِعُوا فِي السَّبْعِ الشَّدَادِ، وَهِنَّ السَّبْعُ السِّنِينَ الْمُحُلُّ الَّتِي تَعْقُبُ هَذِهِ السَّبْعَ الْمُتَوَالِيَاتِ، وَهِنَّ الْبَقَرَاتُ الْعِجَافُ اللَّاتِي تَأْكُلُ السَّمَانَ، لِأَنَّ سِنِي الْجَذْبِ يُؤْكَلُ فِيهَا مَا جَمَعُوهُ فِي سِنِي الْخُضْبِ، وَهِنَّ السُّبُلَاتُ الْيَابِسَاتُ، وَأَخْبَرَهُمْ: أَنَّهُنَّ لَا يُبَيِّنَنَّ شَيْئًا، وَمَا بَدَرُوهُ فَلَا يَرْجِعُونَ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ: «يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ» ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بَعْدَ الْجَذْبِ الْعَامَ الْمُتَوَالِي بِأَنَّهُ يَغْفُفُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَامٍ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ، أَيُّ: يَأْتِيهِمُ الْغَيْثُ وَهُوَ الْمَطَرُ وَتُغْلَى الْبِلَادُ، وَيَعْرِشُ النَّاسُ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ مِنْ زَيْتٍ وَنَحْوِهِ، وَسَكَرٍ وَنَحْوِهِ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ (٥٢) ﴿وَمَا أَتَيْتُ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالنُّسْوَةِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٣)

[تَحْقِيقُ مَا جَرَى بَيْنَ يُوسُفَ وَبَيْنَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَنِسْوَةِ مِصْرَ]

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلِكِ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِ بِتَغْيِيرِ رُؤْيَاہِ الَّتِي كَانَ رَأَاهَا بِمَا أَعْجَبَهُ، وَأَيَّقَنَّهُ، فَعَرَفَ فَضْلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَعِلْمَهُ وَحُسْنَ إِطْلَاعِهِ عَلَى رُؤْيَاہِ، وَحُسْنَ أَخْلَاقِهِ عَلَى مَنْ يَبْلِيهِ مِنْ رِعَايَاہِ، فَقَالَ: ﴿أَتَأْتُونِي بِهِ؟﴾ أَيْ: أَخْرِجُوهُ مِنَ السَّجْنِ وَأَحْضُرُوهُ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ بِذَلِكَ اِمْتَنَعَ مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّى يَتَحَقَّقَ الْمَلِكُ وَرَعِيَّتَهُ بَرَاءَةَ سَاحِبِهِ وَنَزَاهَةَ عِرْضِهِ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ جَهَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، وَأَنَّ هَذَا السَّجْنَ لَمْ يَكُنْ عَلَى أَمْرِ يَفْتَضِيهِ، بَلْ كَانَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَقَالَ: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ...﴾ الْآيَةُ. وَقَدْ وَرَدَتْ الشُّنَّةُ بِمَدْحِهِ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، وَعُلُوِّ قَدْرِهِ وَصَبْرِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فِيهِ الْمُسْتَدِّ وَالصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...» الْآيَةُ [البقرة: ٢٦]، وَيَرْحَمُ اللَّهُ لَوْطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ<sup>(١)</sup>. وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَنَا، لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ وَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُدْرَ»<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الْمَلِكِ حِينَ جَمَعَ النِّسْوَةَ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عِنْدَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ مُحَاطِبًا لَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَهُوَ بَرِيدٌ امْرَأَةٌ وَزِيرُهُ، وَهُوَ الْعَزِيزُ، قَالَ الْمَلِكُ لِلنِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُمْ؟﴾ أَيْ: شَأْنُكُمْ وَخَبْرُكُمْ ﴿إِذْ رَوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الضِّيَافَةِ،

﴿وَمَا أَتَيْتُ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالنُّسْوَةِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَاجِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ (٥٧) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَّا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي (٦٠) قَالُوا اسْرُدْ عَنْهُ آيَاتَهُ وَانَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفَتْنِهِ أَجْعَلُوا بَضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ (٦٣)

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أَيْ: قَالَتِ النِّسْوَةُ جَوَابًا لِلْمَلِكِ: حَاشَ لِلَّهِ أَنْ يَكُونَ يُوسُفَ مُتَّبِعًا، وَاللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنِّ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: تَقُولُ: الْآنَ بَيَّنَّ الْحَقُّ<sup>(٣)</sup>. وَظَهَرَ وَبَرَزَ، ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيْ فِي قَوْلِهِ: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]. ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ تَقُولُ: إِنَّمَا اعْتَرَفْتُ بِهَذَا عَلَى نَفْسِي لِيَعْلَمَ رَوْجِي أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَلَا وَقَعَ الْمَحْذُورُ الْأَكْبَرُ، وَإِنَّمَا رَاوَدْتُ هَذَا الشَّابَّ مَرَاوِدَةً فَاِمْتَنَعَ، فَلِهَذَا اعْتَرَفْتُ لِيَعْلَمَ أَنِّي بَرِيئَةٌ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ (٥٢) وَمَا أَتَيْتُ نَفْسِي تَقُولُ الْمَرْأَةُ: وَلَسْتُ أُبْرِيءُ نَفْسِي، فَإِنَّ النَّفْسَ تَتَحَدَّثُ وَتَتَمَنَّى، وَلِهَذَا رَاوَدْتُهُ

(١) أحمد: ٣٢٦/٢ وفتح الباري: ٢١٦/٨ ومسلم: ١/١٣٣

(٢) أحمد: ٣٤٦/٢ (٣) الطبري: ١٦/١٣٨

خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٧﴾

[حُكْمُ يُوسُفَ فِي مِصْرَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أَرْضَ مِصْرَ، ﴿يَتِمَّوْا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قَالَ الشَّدِيدُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَتَّخِذُ مِنْهَا مَنَزَلًا حَيْثُ يَشَاءُ بَعْدَ الضَّيْقِ وَالْحَبْسِ وَالْإِسَارِ<sup>(٢)</sup>. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وَمَا أَضَعْنَا صَبْرَ يُوسُفَ عَلَى أَدَى إِخْوَتِهِ، وَصَبْرَهُ عَلَى الْحَبْسِ بِسَبَبِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، فَلِهَذَا أَعَقَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ [السَّلَامَةَ] وَالنَّصْرَ وَالتَّائِيدَ.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَا أَدَّخَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَكْثَرُ وَأَجَلُ مِمَّا حَوَّلَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالتَّقْوُذِ فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ فِي حَقِّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>(٤)</sup> وَإِنَّ لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا لَقَوْلُ وَحْشٍ مَتَابُ [ص: ٣٩، ٤٠] وَالْغَرَضُ: أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَهُ مَلِكُ مِصْرَ الرَّيَّانُ ابْنُ الْوَلِيدِ الْوَزَارَةَ فِي بِلَادِ مِصْرَ - مَكَانَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ - زَوْجَ النِّبِيِّ رَاوَدَتْهُ - وَأَسْلَمَ الْمَلِكُ عَلَى يَدَيْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَمْ يُمَكِّنُوا لَهُمْ<sup>(٥)</sup> وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَجْرِكُمْ مِمَّنْ يَبْئَلُكُمْ أَلَا تَتُورُونَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾<sup>(٦)</sup> فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾<sup>(٧)</sup> قَالُوا سَرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾<sup>(٨)</sup> وَقَالَ لِفَتَاتِهِ أَجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِجَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾<sup>(٩)</sup>

[وَرُودُ إِخْوَةِ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ وَرُجُوعُهُمْ مَعَ الْمِيرَةِ وَتَعَهُدُهُمْ بِإِثْبَانِ أَخِيهِمُ الْأَصْغَرَ]

ذَكَرَ الشَّدِيدُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي أَقْدَمَ إِخْوَةَ يُوسُفَ بِلَادَ مِصْرَ، أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَاشَرَ الْوَزَارَةَ بِمِصْرَ وَمَضَتْ السَّبْعُ السِّنِينَ الْمُخْصِبَةُ، ثُمَّ تَلَتْهَا السَّبْعُ السِّنِينَ الْمُجْدِبَةُ، وَعَمَّ الْقَحْطُ بِلَادَ مِصْرَ بِكَمَالِهَا، وَوَصَلَ إِلَى بِلَادِ كَنْعَانَ، وَهِيَ الَّتِي فِيهَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوْلَادُهُ، وَجِئَتْهُمُ اخْتِطَاطُ يُوسُفَ

لِأَنَّ «النَّفْسَ لَأَمَارَةً بِالشَّوْءِ إِلَّا مَا رَجَعَهَا رَبِّي» أَي: إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَشْهُرُ وَالْأَلْيَقُ وَالْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْقِصَّةِ وَمَعَانِي الْكَلَامِ. وَقَدْ حَكَاهُ الْمَازِدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، وَانْتَدَبَ لِنَصْرِهِ الْإِمَامُ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَأَقْرَدَهُ بِتَضْيِيفِ عَلَى حِدَةٍ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ فِي زَوْجَتِهِ «بِالْغَيْبِ»... الْآيَتَيْنِ أَي: إِنَّمَا رَدَدْتُ الرَّسُولَ لِيَعْلَمَ الْمَلِكُ بَرَاءَتِي، وَلِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ» فِي زَوْجَتِهِ «بِالْغَيْبِ» وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ... الْآيَةَ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي لَمْ يَحِكْ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ سِوَاهُ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْوَى وَأَظْهَرُ، لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ كُلُّهُ مِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بِحَضْرَةِ الْمَلِكِ، وَلَمْ يَكُنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَهُمْ، بَلْ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْضَرَهُ الْمَلِكُ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾<sup>(١٠)</sup> قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهٍ﴾<sup>(١١)</sup>

[مَكَانَةُ يُوسُفَ فِي عَيْنِ الْمَلِكِ]

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلِكِ حِينَ تَحَقَّقَ بَرَاءَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَزَاهَةُ عَرْضِهِ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ، قَالَ: «أَتَأْتُونِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي» أَي: أَجْعَلُهُ مِنْ خَاصَّتِي وَأَهْلِ مَشُورَتِي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أَي: خَاطَبَهُ الْمَلِكُ، وَعَرَفَهُ، وَرَأَى فَضْلَهُ وَبَرَاعَتَهُ، وَعَلِمَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقٍ وَخَلْقٍ وَكَمَالٍ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» أَي: إِنَّكَ عِنْدَنَا قَدْ بَقِيتَ ذَا مَكَانَةٍ وَأَمَانَةٍ، فَقَالَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهٍ» مَدَحَ نَفْسَهُ، وَيَجُوزُ لِلرَّجُلِ ذَلِكَ - إِذَا جُهِلَ أَمْرُهُ - لِلْحَاجَةِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ «حَفِيظٌ» أَي: خَازِنٌ أَمِينٌ «عَلِيمٌ» ذُو عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ بِمَا يَتَوَلَّاهُ. وَإِنَّمَا سَأَلَهُ أَنْ يَجْعَلَهُ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْأَهْرَامُ الَّتِي يُجْمَعُ فِيهَا الْغُلَاثُ، لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ السِّنِينَ الَّتِي أَخْبَرَهُمْ بِشَأْنِهَا، فَيَتَصَرَّفُ لَهُمْ عَلَى الْوُجُوهِ الْأَحْوَطِ وَالْأَصْلَحِ وَالْأَرْشَدِ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ رَغْبَةً فِيهِ وَتَكْرِمَةً لَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتِمَّوْا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١٢)</sup> وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٢٤٣

سورة يوسف

قَالَ هَلْ ءَامَنْتُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا ءَامَنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهَ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَا بَنَانَا مَا نَبغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتَوَّنُوا مُوَفَّقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّاءُ أَتَوْهُ مُوَفِّقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَى لَئِنْ دَخَلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخَلُوا مِنْ آخَرٍ أَتُفَرِّقُونَهُ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

يَسْعُرُونَ، ﴿لَعَلَّهُمْ رَجَعُوا﴾ بِهَا، قِيلَ: خَشِيَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَهُمْ بِضَاعَةٌ أُخْرَىٰ يَرْجِعُونَ لِلْمِيرَةِ بِهَا.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا بَنَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنْتُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا ءَامَنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهَ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٦٥﴾

[طَلَبُهُمْ مِنْ يَعْقُوبَ أَنْ يَذْهَبُوا بَيْنِيَامِينَ وَجَوَابَهُ] يَقُولُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ ﴿قَالُوا يَا بَنَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ﴾ يَتَوَّنُونَ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ. إِنْ لَمْ تُرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا بَيْنِيَامِينَ لَا نَكْتَلْ، فَأَرْسِلْهُ مَعَنَا نَكْتَلْ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْبَاءِ أَيْ: يَكْتَلُ هُوَ، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ أَيْ لَا نَخَفُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَيْكَ. وَهَذَا كَمَا قَالُوا لَهُ فِي يُوسُفَ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا عَدَا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ: ﴿هَلْ ءَامَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ هَلْ أَتَيْتُمْ

عَلَيْهِ السَّلَامَ لِلنَّاسِ فِي غَلَاتِهِمْ، وَجَمَعَهَا أَحْسَنَ جَمْعٍ، فَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغٌ عَظِيمٌ ﴿أَهْرَاءُ﴾ مُتَعَدِّدَةٌ هَائِلَةٌ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالْمَعَامِلَاتِ، يَمْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَعِيَالِهِمْ، فَكَانَ لَا يُعْطِي الرَّجُلَ أَكْثَرَ مِنْ جُمْلٍ بَعِيرٍ فِي السَّنَةِ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَا يُشْبِعُ نَفْسَهُ، وَلَا يَأْكُلُ هُوَ وَالْمَلِكُ وَجُنُودُهُمَا إِلَّا أَكَلَةً وَاحِدَةً فِي وَسْطِ النَّهَارِ، حَتَّىٰ [يَتَكَفَّى] النَّاسُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مَدَّةَ السَّنَةِ سِنِينَ، وَكَانَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ عَلَىٰ أَهْلِ مِصْرَ.

فَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِّنْ وَرَدَ لِلْمِيرَةِ إِخْوَهُ يُوسُفَ عَنْ أَمْرِ أَبِيهِمْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ بَلَّغَهُمْ أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ يُعْطِي النَّاسَ الطَّعَامَ بِثَمَنِهِ، فَأَخَذُوا مَعَهُمْ بِضَاعَةً يَتَعَاضُونَ بِهَا طَعَامًا، وَرَكِبُوا عَشْرَةَ نَفَرٍ، وَاحْتَسِبَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَهُ ابْنُهُ بَيْنَامِينَ شَقِيقَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ أَحَبَّ وَلَدِهِ إِلَيْهِ بَعْدَ يُوسُفَ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَهْبَتِهِ وَرِيَاسَتِهِ وَسَيَادَتِهِ، عَرَفَهُمْ حِينَ نَظَرَ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ أَيْ: لَا يَعْرِفُونَهُ، لِأَنَّهُمْ فَارَقُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ، وَبَاعُوهُ لِلسَّيَّارَةِ وَلَمْ يَدْرُوا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهِ، وَلَا كَانُوا يَسْتَشْعِرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَصِيرَ إِلَىٰ مَا صَارَ إِلَيْهِ، فَلِهَذَا لَمْ يَعْرِفُوهُ، وَأَمَّا هُوَ فَعَرَفَهُمْ. فَذَكَرَ الشَّدِيدُ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ شَرَعَ يُحَاطِ بِهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ كَالْمُنْكَرِ عَلَيْهِمْ: مَا أَقْدَمَكُمْ بِلَادِي؟ فَقَالُوا: أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّا قَدِمْنَا لِلْمِيرَةِ، قَالَ: فَلَعَلَّكُمْ عَيُونَ؟ قَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ. قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتُمْ؟ قَالُوا: مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ، وَأَبُونَا يَعْقُوبُ نَبِيُّ اللَّهِ. قَالَ: وَلَهُ أَوْلَادٌ غَيْرُكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ كُنَّا اثْنِي عَشَرَ، فَذَهَبَ أَصْغَرُنَا، هَلَكَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَكَانَ أَحَبَّنَا إِلَىٰ أَبِيهِ، وَبَقِيَ شَقِيقُهُ فَاحْتَسَبَهُ أَبُوهُ لِيَسْأَلَ بِهِ عَنْهُ، فَأَمَرَ بِإِنزَالِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ أَيْ: أَوْفَىٰ لَهُمْ كَيْلَهُمْ، وَحَمَلَ لَهُمْ أَحْمَالَهُمْ، قَالَ: اثْنُونِي بِأَخِيكُمْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ، لِأَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا ذَكَرْتُمْ ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَىٰ الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يَرْعِبُهُمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَهَبَهُمْ فَقَالَ: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي...﴾ الْآيَةِ، أَيْ: إِنْ لَمْ تَقْدُمُوا بِهِ مَعَكُمْ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي مِيرَةٌ، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ﴿٦٦﴾ قَالُوا سَرَوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿أَيْ: سَنَحْرِصُ عَلَىٰ مَجِيئِهِ إِلَيْكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، وَلَا نُبْقِي مَجْهُودًا لَتَعْلَمَ صِدْقَنَا فِيمَا قُلْنَا، وَقَالَ لِفَتِيلَتِهِ﴾ أَيْ: غِلْمَانِهِ ﴿اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ﴾ أَيْ الَّتِي قَدِمُوا بِهَا - لِيَمْتَارُوا عَوَضًا عَنْهَا - ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أَيْ: فِي أَمْتِعَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا

## خَشْيَةُ الْعَيْنِ

يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَابًا عَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ لَمَّا جَهَّزَهُمْ مَعَ أَخِيهِمْ بَنِيَامِينَ إِلَى مِصْرَ: أَنْ لَا يَدْخُلُوا كُلُّهُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَلِيَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّهُ خَشِيَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي جَمَالٍ وَهَيْئَةٍ حَسَنَةٍ، وَمُنْظَرٍ وَبَهَاءٍ، فَخَشِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصَيِّبَهُمُ النَّاسُ بِعُيُوبِهِمْ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، تَسْتَنْزِلُ الْفَارِسَ عَنْ فَرَسِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيُّ إِنْ هَذَا الْإِخْتِرَازَ لَا يَرُدُّ قَدْرَ اللَّهِ وَقَضَاءَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ، ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانَتْ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴿قَالُوا: هِيَ دَفْعُ إِصَابَةِ الْعَيْنِ لَهُمْ﴾ (وَأَنَّهُ لَدُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمَتْهُ) قَالَ قَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ: لَدُو عَمَلٌ بِعِلْمِهِ (٣). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَدُو عِلْمٌ لِتَعْلِيمِنَا إِثَابُهُ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ فَلَا تَبْتَسِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

## تَسْلِيَةُ يُوسُفَ لِبَنِيَامِينَ

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ، لَمَّا قَدِمُوا عَلَى يُوسُفَ وَمَعَهُمْ أَخُوهُ شَقِيقُهُ بَنِيَامِينَ، وَأَدْخَلَهُمْ دَارَ كَرَامَتِهِ وَمَنْزِلَ ضِيَافَتِهِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ وَالْأَلْفَافَ وَالْإِحْسَانَ، وَاخْتَلَى بِأَخِيهِ فَاطْلَعَهُ عَلَى شَأْنِهِ وَمَا جَرَى لَهُ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ أَخُوهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿لَا تَبْتَسِ﴾ أَيُّ لَا تَأْسَفْ عَلَى مَا صَنَعُوا بِي، وَأَمَرَهُ بِكَيْتَمَانِ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَأَنْ لَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى مَا أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّهُ أَخُوهُ، وَتَوَاطَأَ مَعَهُ أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَى أَنْ يُقْبِيَهُ عِنْدَهُ مُعْزَرًا مُكْرَمًا مُعْظَمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِهَاجَرِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُ يُوسُفَ لِيُكَلِّمَهُمْ (١٩) قَالُوا وَاقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٢٠) قَالُوا نَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٢١)﴾

صَانِعُونَ بِهِ إِلَّا كَمَا صَنَعْتُمْ بِأَخِيهِ مِنْ قَبْلُ، تُعَيِّنُونَهُ عَنِّي، وَتَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؟ ﴿قَالَ لَهُ خَيْرٌ حِفْظًا﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (حِفْظًا) ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَيُّ: هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِي، وَسَيَرَحُّكُمْ كِبَرِي وَضَعْفِي وَوَجْدِي بَوْلَدِي، وَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيَّ وَيَجْمَعَ شِمْلِي بِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنِيَّانَا مَا بَغَىٰ هَذِهِ. بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ سَيِّدٍ (٢٢) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحْطَأَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٣)﴾

## خُرُوجُ الْبِضَاعَةِ مِنَ الْمَتَاعِ

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَمَّا فَتَحَ إِخْوَةُ يُوسُفَ مَتَاعَهُمْ، وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، وَهِيَ الَّتِي كَانَ أَمَرَ يُوسُفَ فِتْيَانَهُ بِوَضْعِهَا فِي رَحَالِهِمْ، فَلَمَّا وَجَدُوهَا فِي مَتَاعِهِمْ ﴿قَالُوا يَا بَنِيَّانَا مَا بَغَىٰ﴾ أَيُّ: مَاذَا نُرِيدُ؟ ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا؟﴾ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: مَا نَبْغِي وَرَاءَ هَذَا، إِنَّ بِضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا، وَقَدْ أَوْفَىٰ لَنَا الْكَيْلُ (٢٢) ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أَيُّ: إِذَا أُرْسَلَتْ أَخَانًا مَعَنَا تَأْتِي بِالْمِيرَةِ إِلَى أَهْلِنَا، وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴿وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُعْطِي كُلَّ رَجُلٍ حِمْلَ بَعِيرٍ.

﴿ذَلِكَ كَيْلُ سَيِّدٍ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ، أَيُّ: إِنَّ هَذَا سَيِّرٌ فِي مَقَابِلَةِ أَخِيهِمْ مَا يَغْدِلُ هَذَا ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: تَحْلِفُونَ بِالْعَهْدِ وَالْمَوَاطِنِ ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحْطَأَ بِكُمْ﴾ إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا كُلُّكُمْ وَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى تَخْلِيصِهِ ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ أَكَدَهُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ بَعْثِهِمْ لِأَجْلِ الْمِيرَةِ الَّتِي لَا غِنَى لَهُمْ عَنْهَا، فَبَعَثَهُ مَعَهُمْ (٢٣).

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٢٤) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانَتْ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمَتْهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾

[أَمَرَ يَعْقُوبَ بَنِيهِ أَنْ يَدْخُلُوا مِصْرَ إِلَّا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ

(١) الطبري: ١٦٢/١٦ (٢) الطبري: ١٦٤/١٦ (٣) الطبري:

١٦٨/١٦ (٤) الطبري: ١٦٨/١٦

[جَعَلَ صُورَ الْمَلِكِ فِي رَحْلِ أَخِيهِ وَحَبَسَهُ بِهَذِهِ الْحِجَلَةِ]

لَمَّا جَهَّزَهُمْ وَحَمَلَ لَهُمْ أَبْعَرَهُمْ طَعَامًا، أَمَرَ بَعْضَ فِتْيَانِهِ أَنْ يَضَعَ السَّقَايَةَ، وَهِيَ إِنَاءٌ مِنْ فِضَّةٍ فِي قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ، وَقِيلَ: مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَ يَشْرَبُ فِيهِ<sup>(١)</sup>. وَيَكِيلُ لِلنَّاسِ بِهِ مِنْ عَزَّةِ الطَّعَامِ إِذْ ذَاكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: صُورَ الْمَلِكِ - قَالَ - : كَانَ مِنْ فِضَّةٍ يَشْرَبُونَ فِيهِ، وَكَانَ مِثْلَ الْمَكْوَلِ<sup>(٣)</sup>. فَوَضَعَهَا فِي مَتَاعِ بَنِيَامِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ، ثُمَّ نَادَى مُتَادِي يَبْتَهُمْ «أَتَيْتُمَا الْوَيْلَ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ» فَالْتَفَتُوا إِلَى الْمُتَادِي وَقَالُوا: «مَاذَا تَقْعُدُونَ»<sup>(٤)</sup> قَالُوا نَفَقَدُ صُورَ الْمَلِكِ أَيُّ: صَاعَهُ الَّذِي يَكِيلُ بِهِ «وَلَمَّا جَاءَ بِهِ جَمْلُ يَعْقِبَ» وَهَذَا مِنْ بَابِ الْجُعَالَةِ، «وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ» وَهَذَا مِنْ بَابِ الضَّمَانِ وَالْكِفَالَةِ.

«قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ»<sup>(٥)</sup> قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ<sup>(٦)</sup> قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ<sup>(٧)</sup> قَبْدًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ<sup>(٨)</sup>

لَمَّا اتَّهَمَهُمْ أُولَئِكَ الْفِتْيَانُ بِالسَّرِقَةِ، قَالَ لَهُمْ إِخْوَةُ يُوسُفَ: «تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ» أَيُّ: لَقَدْ تَحَقَّقْتُمْ وَعِلْمُكُمْ مِنْذُ عَرَفْتُمُونَا - لِأَنَّهُمْ شَاهَدُوا مِنْهُمْ سِيرَةً حَسَنَةً - أَنَا «مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ» أَيُّ: لَيْسَتْ سَجَايَانَا تَقْتَضِي هَذِهِ الصِّفَةَ، فَقَالَ لَهُمُ الْفِتْيَانُ: «فَمَا جَزَاؤُهُ» أَيُّ: السَّارِقُ إِنْ كَانَ فِيكُمْ «إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ» أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ عُقُوبَتُهُ إِنْ وَجَدْنَا فِيكُمْ مَنْ أَخَذَهُ؟ «قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» وَهَكَذَا كَانَتْ شَرِيعَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ السَّارِقَ يُدْفَعُ إِلَى الْمَسْرُوقِ مِنْهُ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ، أَيُّ فَتَسْهَى قَبْلَهُ تَوْرِيَةً، «ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ» فَأَخَذَهُ مِنْهُمْ بِحُكْمِ اعْتِزَالِهِمْ وَالْتِزَامِهِمْ، وَالْزِمَامَا لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ،

٢٤٤

الْحَمْدُ لِلَّهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنُ أَيْتَمَهَا الْوَيْلَ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ<sup>(٩)</sup> قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَقْعُدُونَ<sup>(١٠)</sup> قَالُوا نَفَقَدُ صُورَ الْمَلِكِ وَلَمَّا جَاءَ بِهِ جَمْلُ يَعْقِبَ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ<sup>(١١)</sup> قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ<sup>(١٢)</sup> قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ<sup>(١٣)</sup> قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ<sup>(١٤)</sup> قَبْدًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ<sup>(١٥)</sup> قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ<sup>(١٦)</sup> قَالُوا يَا أَبَتِ ابْنُ الْغَرِيبِ إِنَّ لَهُ وَأَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ<sup>(١٧)</sup>

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» وَهَذَا مِنَ الْكَيْدِ - الْمَخْبُوبِ الْمُرَادِ - الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمُصْلَحَةِ الْمَطْلُوبَةِ.

وَقَوْلُهُ: «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ» أَيُّ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَخْذُهُ فِي حُكْمِ مَلِكٍ مُضِرٍّ، قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ<sup>(١٨)</sup>. وَإِنَّمَا قَبَضَ اللَّهُ لَهُ أَنْ التَّزَمَ لَهُ إِخْوَتُهُ بِمَا التَّزَمُوهُ، وَهُوَ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ شَرِيعَتِهِمْ، وَلِهَذَا مَدَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ: «رَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنٍ» كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الْآيَةَ، «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَيْسَ عَالِمٌ إِلَّا فَوْقَهُ عَالِمٌ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(١٩)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَحَدَّثَ بِحَدِيثِ عَجِيبٍ، فَتَعَجَّبَ رَجُلٌ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، «فَوْقَ كُلِّ ذِي

(١) الطبري: ١٧٢/١٦ (٢) الطبري: ١٧٣/١٦ (٣) الطبري:

١٧٦/١٦ (٤) الطبري: ١٨٨/١٦ (٥) الطبري: ١٩٣/١٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٤٥

سُورَةُ يُوسُفَ

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَبِیضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْنَا نَدْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

[مُشَاوَرَتُهُمْ وَمَشُورَةُ كَبِيرِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ أَنَّهُمْ لَمَّا يَسُّوْا مِنْ تَخْلِيصِ أَخِيهِمْ بَنِيَامِينَ الَّذِي قَدْ التَزَّمُوا لِأَبِيهِمْ بِرَدِّهِ إِلَيْهِ، وَعَاهِدُوهُ عَلَى ذَلِكَ، فَاثْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿خَلَصُوا﴾ أَي: انْفَرَدُوا عَنِ النَّاسِ ﴿نَجِيًّا﴾ يَتَنَجَّوْنَ فِيهَا بَيْنَهُمْ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وَهُوَ رُوبِيلُ، وَقِيلَ: يَهُودَا، وَهُوَ الَّذِي أَسَارَ

(١) عبد الرزاق: ٣٢٧/٢ (٢) الطبري: ١٩٢/١٦ (٣) الطبري: ١٩٢/١٦ (٤) الطبري: ١٩٣/١٦ (٥) أمر العوفي مبين

عِلْمَ عَلَيْهِ ﴿فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَسُّ مَا قُلْتُ: اللَّهُ لَعَلِيَّ﴾ [وَهُوَ] فَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ ﴿١﴾ وَكَذَا رَوَى سِمَاكٌ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ قَالَ: يَكُونُ هَذَا أَعْلَمُ مِنْ هَذَا، وَهَذَا أَعْلَمُ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ فَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ ﴿٢﴾ وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ ﴿٣﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ، حَتَّى يَتَّبِعِي الْعِلْمُ إِلَى اللَّهِ، مِنْهُ بُدِئَ، وَتَعَلَّمَتِ الْعُلَمَاءُ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (وَفَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ عَلَيْهِ) ﴿٤﴾.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿٧٩﴾

[إِخْوَةُ يُوسُفَ اتَّهَمُوهُ بِالسَّرِقَةِ]

وَقَالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَمَّا رَأَوْا الصُّوَاعَ قَدْ أُخْرِجَ مِنْ مَتَاعِ بَنِيَامِينَ ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يَتَنَصَّلُونَ إِلَى الْعَزِيزِ مِنَ التَّشْبِيهِ بِهِ، وَيَذْكُرُونَ: أَنَّ هَذَا فَعَلَ كَمَا فَعَلَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، يَغْنُونُ بِهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ يَغْنِي الْكَلِمَةَ الَّتِي بَعْدَهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أَي: تَذْكُرُونَ، قَالَ هَذَا فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهِ لَهُمْ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِضْمَارِ قَبْلَ الذِّكْرِ، قَالَ الْعُوفِيُّ ﴿٥﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾، قَالَ: أَسْرَ فِي نَفْسِهِ: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ [إِفْتِرَاحُ الْإِخْوَةِ أَخْذَ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَدَلَ بَنِيَامِينَ وَالرَّدُّ عَلَى هَذَا الْإِفْتِرَاحِ]

لَمَّا تَعَيَّنَ أَخْذَ بَنِيَامِينَ وَتَقَرَّرَ تَرْكُهُ عِنْدَ يُوسُفَ بِمُقْتَضَى اغْتِرَافِهِمْ، شَرَعُوا يَتَرَفَّقُونَ لَهُ وَيَعْطِفُونَهُ عَلَيْهِمْ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يَغْنُونُ وَهُوَ يُجِبُهُ حُبًّا شَدِيدًا وَيَسْأَلِي بِهِ عَنْ وَلَدِهِ الَّذِي فَقَدَهُ ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أَي: بَدَلَهُ يَكُونُ عِنْدَكَ عَوَضًا عَنْهُ، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَي: الْعَادِلِينَ الْمُنْصِفِينَ الْقَائِلِينَ لِلْخَيْرِ، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أَي: كَمَا قُلْتُمْ وَاعْتَرَفْتُمْ ﴿إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ﴾ أَي: إِنْ أَخَذْنَا بَرِيئًا يَسْتَقِيمُ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٤٦

سُورَةُ يُوسُفَ

عَلَيْهِمْ بِالْقَائِهِ فِي الْبُئْرِ عِنْدَمَا هُمَا يَقْتُلُهُ، قَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي أَنَا أَنَا قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَظِعًا مِنَ اللَّهِ﴾ لَتَرُدُّهُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ تَعَذَّرَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ مَعَ مَا تَقَدَّمَ لَكُمْ مِنْ إِضَاعَةِ يُوسُفَ عَنْهُ ﴿فَلَنْ أُنَبِّئَ الْآرَضَ﴾ أَيُّ: لَنْ أَفَارِقَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ رَاضِيًا عَنِّي ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قِيلَ: بِالسَّيْفِ، وَقِيلَ: بِأَنْ يُمْكِنَنِي مِنْ أَخِي أَجِي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا آبَاءَهُمْ بِصُورَةِ مَا وَقَعَ، حَتَّى يَكُونَ عَذْرًا لَهُمْ عِنْدَهُ، وَتَتَصَلَّلُوا إِلَيْهِ وَيَبْرَأُوا مِمَّا وَقَعَ بِقَوْلِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَعَكْرِمَةُ: مَا عَلِمْنَا أَنَّ ابْنَكَ سَرَقَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْلَمَ: مَا عَلِمْنَا فِي الْغَيْبِ أَنَّهُ سَرَقَ لَهُ شَيْئًا، إِنَّمَا سَأَلْنَا مَا جَزَاءُ السَّارِقِ؟ ﴿وَسَقِلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾: قِيلَ: الْمُرَادُ مِصْرُ<sup>(٢)</sup>. قَالَهُ قَتَادَةُ<sup>(٣)</sup>. وَقِيلَ: غَيْرَهَا ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أَيُّ النَّبِيِّ رَافِقَتَاهَا: عَنْ صِدْقَتَا وَأَمَانَتَا وَحِفْظِنَا وَجَرَّاسَتِنَا، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ سَرَقَ وَأَخَذَهُ بِسَرِقَتِهِ﴾ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٤)</sup> وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّسِقَ عَلَى يُوسُفَ وَابْتِصَمَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ<sup>(٥)</sup> قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوُوا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَصًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ<sup>(٦)</sup> قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ<sup>(٧)</sup> [جَوَابُ نَبِيِّ اللَّهِ وَحَالُهُ بَعْدَ سَمَاعِ الْخَبَرِ الْمُؤْلَمِ]

يَتَّسِقَ عَلَى يُوسُفَ أَيُّ: أَعْرَضَ عَنْ بَنِيهِ، وَقَالَ مُتَدَكِّرًا حُزْنَ يُوسُفَ الْقَدِيمِ الْأَوَّلِ ﴿يَتَّسِقَ عَلَى يُوسُفَ﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْنَ الْإِبْنَيْنِ الْحُزْنَ الدَّفِينِ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَتَيْنَا الثَّوْرِيَّ عَنْ سُفْيَانَ الْعَصْفَرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْإِسْتِرْجَاعَ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَتَّسِقَ عَلَى يُوسُفَ وَابْتِصَمَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾<sup>(٨)</sup> أَيُّ: سَاكَتْ لَا يَشْكُو أَمْرَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ الصَّحَّاحُ: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كَتِيبَ حَزِينٌ<sup>(١٠)</sup>.

فَعِنْدَ ذَلِكَ رَقَّ لَهُ بَنُوهُ، وَقَالُوا لَهُ عَلَى سَبِيلِ الرَّفْقِ بِهِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِ: ﴿تَاللَّهِ تَقْتَوُوا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أَيُّ: لَا تُفَارِقُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَصًا﴾ أَيُّ: ضَعِيفَ

يَتَّسِقَ عَلَى يُوسُفَ أَيُّ: أَعْرَضَ عَنْ بَنِيهِ، وَقَالَ مُتَدَكِّرًا حُزْنَ يُوسُفَ الْقَدِيمِ الْأَوَّلِ ﴿يَتَّسِقَ عَلَى يُوسُفَ﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْنَ الْإِبْنَيْنِ الْحُزْنَ الدَّفِينِ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَتَيْنَا الثَّوْرِيَّ عَنْ سُفْيَانَ الْعَصْفَرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْإِسْتِرْجَاعَ، أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَتَّسِقَ عَلَى يُوسُفَ وَابْتِصَمَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾<sup>(٨)</sup> أَيُّ: سَاكَتْ لَا يَشْكُو أَمْرَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ الصَّحَّاحُ: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كَتِيبَ حَزِينٌ<sup>(١٠)</sup>.

(١) الطبري: ٢١٢، ٢١١/١٦ (٢) الطبري: ٢١٠/١٦ (٣)

الطبري: ٢١٢/١٦ (٤) الطبري: ٢١٤/١٦ (٥) عبد الرزاق:

٢٢٧/٢ (٦) الطبري: ٢١٦/١٦ (٧) الطبري: ٢١٨/١٦



وَهَذَا أَحَى قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ  
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ  
ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ  
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾  
[تَعْرِفُ يُوسُفَ إِلَى إِخْوَتِهِ وَغَفَوَهُ عَنْهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ  
لَهُ إِخْوَتُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالضِّيقِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ  
وَعُذُومِ الْجَدْبِ، وَتَذَكَّرَ أَبَاهُ وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزَنِ لِفَقْدِ  
وَلَدَيْهِ، مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالسَّعَةِ، فَعِنْدَ  
ذَلِكَ أَخَذَتْهُ رِقَّةٌ وَرَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَشَفَقَةٌ عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ،  
وَبَدَّرَهُ الْبُكَاءُ فَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ  
يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يَعْنِي كَيْفَ فَرَّقُوا بَيْنَهُ  
وَبَيْنَ أَخِيهِ ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا حَمَلَكُمُ عَلَى هَذَا  
الْجَهْلِ بِمَقْدَارِ هَذَا الَّذِي ارْتَكَبْتُمُوهُ، وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ  
- أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا تَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِتَمْسِيهِ بِإِذْنِ اللَّهِ  
تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْفَى مِنْهُمْ نَفْسَهُ فِي  
الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ،  
وَلَكِنْ لَمَّا ضَاقَ الْحَالُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ، فَرَجَّحَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ  
ذَلِكَ الضِّيقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ  
الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦٥]، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ  
يُوسُفُ﴾ وَقَرَأَ أَبِي بَنْ كَعْبٍ: (أَوَ أَنْتَ يُوسُفُ) وَقَرَأَ ابْنُ  
مُحَيِّصِينَ: (إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ) وَالْفِرَاءَةُ الْمَشْهُورَةُ هِيَ  
الْأُولَى، لِأَنَّ الْإِسْتِفْهَامَ يَدُلُّ عَلَى الْإِسْتِعْظَامِ، أَيُّ إِنَّهُمْ  
تَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ مِنْ سَتَيْنِ وَأَكْثَرٍ وَهُمْ لَا  
يَعْرِفُونَهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَعْرِفُهُمْ وَيَكْتُمُ نَفْسَهُ، فَلِهَذَا قَالُوا  
عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ  
وَهَذَا أَخِي﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ: بِجَمْعِهِ بَيْنَنَا بَعْدَ  
التَّفَرُّقَةِ وَبَعْدِ الْمُلَّةِ ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا  
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ  
عَلَيْنَا... الآية، يَقُولُونَ مُعْتَرِفِينَ لَهُ بِالْفَضْلِ وَالْأَثَرَةِ  
عَلَيْهِمْ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ وَالسَّعَةِ وَالْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ  
وَالنَّبُوَّةِ أَيْضًا، وَأَقْرَبُوا لَهُ بِأَنَّهُمْ أَسَاءُوا إِلَيْهِ وَأَخْطَأُوا فِي

الْقُوَّةِ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يَقُولُونَ: إِنَّ اسْتِمْرَارَ بَكَ  
هَذَا الْحَالِ خَشِينَا عَلَيْكَ الْهَلَاكَ وَالتَّلَفَ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا  
بَنَى وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ: أَجَابَهُمْ عَمَّا قَالُوا بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا  
أَشْكُوا بَنَى وَحُزْنِي﴾ أَيُّ: هَمِّي وَمَا أَنَا فِيهِ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾  
وَحُدَّةً، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: أَرْجُو مِنْهُ كُلَّ  
خَيْرٍ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي  
رُؤْيَا يُوسُفَ أَنَّهَا صِدْقٌ <sup>(١)</sup>. وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَدُّ أَنْ يَظْهَرَهَا.

﴿يَبْقَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّنُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ  
رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٩٧﴾  
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَأَيَّأُ الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا  
بِضَعَعٍ مُرَجَّحَةٍ فَأَوَفَّ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي  
الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٩٨﴾﴾

### [الْأَمْرُ بِتَحَسُّسِ يُوسُفَ وَأَخِيهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَغْفُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ نَدَبَ  
بَنِيهِ عَلَى الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ يَسْتَعْلِمُونَ أَخْبَارَ يُوسُفَ  
وَأَخِيهِ بَنِيَامِينَ، وَالتَّحَسُّسُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ، وَالتَّجَسُّسُ  
يَكُونُ فِي الشَّرِّ، وَنَهَضَهُمْ وَبَشَّرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَتَأَسُّوا  
مِنْ رُوحِ اللَّهِ، أَيُّ لَا يَقْطَعُوا رَجَاءَهُمْ وَأَمَلَهُمْ مِنَ اللَّهِ  
فِيمَا يَرُومُونَهُ وَيَقْصِدُونَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَقْطَعُ الرَّجَاءَ وَلَا يَتَأَسُّ  
مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.

### [إِخْوَةُ يُوسُفَ بَيْنَ يَدَيْهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: فَذَهَبُوا فَدَخَلُوا  
مِصْرَ، وَدَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴿قَالُوا يَتَأَيَّأُ الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا  
الضَّرَّ﴾ يَعْنُونَ مِنَ الْجَدْبِ وَالْقَحْطِ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ، ﴿وَجِئْنَا  
بِضَعَعٍ مُرَجَّحَةٍ﴾ أَيُّ: وَمَعَنَا ثَمَنُ الطَّعَامِ الَّذِي نَمْتَارُهُ،  
وَهُوَ ثَمَنٌ قَلِيلٌ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ <sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿فَأَوَفَّ لَنَا الْكِيلَ﴾ أَيُّ أَعْطَيْنَا بِهِذَا  
الْثَمَنَ الْقَلِيلَ مَا كُنْتَ تُعْطِينَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ:  
(فَأَوْفَرَ رِكَابَنَا وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا) <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:  
﴿وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ بِرَدِّ أَخِينَا إِلَيْنَا <sup>(٤)</sup>.

وَسُئِلَ شُعْبَانُ بْنُ عَيْثَةَ: هَلْ حَرَمَتِ الصَّدَقَةُ عَلَى أَحَدٍ  
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ: ﴿فَأَوَفَّ  
لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ رَوَاهُ ابْنُ  
جُرَيْجٍ <sup>(٥)</sup>.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ  
جَاهِلُونَ﴾ <sup>(٨٩)</sup> قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ

(١) الطبري: ٢٢٧/١٦ (٢) الطبري: ٢٣٨/١٦ (٣) الطبري:

٢٣٨/١٦ (٤) الطبري: ٢٤٣/١٦ (٥) الطبري: ٢٤٢/١٦

سورة يوسف

٢٤٧

سورة يوسف

فَلَمَّا أَتَى الْبَيْتَ قَالَ لِلْغُلَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبْنَوتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

عَلَى وَجْهِ أَبِيهِ فَرَجَعَ بِصِيرًا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ لِنَبِيِّهِ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أَيُّ: أَعْلَمُ: أَنَّ اللَّهَ سَيُرِّدُهُ إِلَيَّ، وَقُلْتُ لَكُمْ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفْنِدُونِ﴾.

## [نَدَامَةُ إِخْوَةِ يُوسُفَ]

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا لِأَبِيهِمْ مُتَرَفِّقِينَ لَهُ: ﴿يَبْنَوتُ أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾<sup>(٣)</sup> قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ<sup>(٤)</sup> أَيُّ: مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَإِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ وَعَمْرُو بْنُ قَيْسٍ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ: أَرْجَاهُمْ إِلَى وَفَتِ السَّحَرِ<sup>(٥)</sup>.  
﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا

حَقَّهُ﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَقُولُ: أَيُّ: لَا تَأْتِبَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَتَبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ، وَلَا أُعِيدَ عَلَيْكُمْ ذَنْبَكُمْ فِي حَقِّي بَعْدَ الْيَوْمِ، ثُمَّ زَادَهُمُ الدُّعَاءَ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ فَقَالَ: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(٦)</sup> وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفْنِدُونَ<sup>(٧)</sup> قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ<sup>(٨)</sup>.

## [قَمِيصُ يُوسُفَ وَوِجْدَانُ يَعْقُوبَ رِيحَ يُوسُفَ]

يَقُولُ: إِذْهَبُوا بِهَذَا الْقَمِيصِ<sup>(٩)</sup> فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا<sup>(١٠)</sup> وَكَانَ قَدْ عَمِيَ مِنْ كَثَرَةِ الْبُكَاءِ، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَيُّ: بِجَمِيعِ بَنِي يَعْقُوبَ، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أَيُّ: خَرَجَتْ مِنْ مِصْرَ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ بَعْثِي يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَنْ بَقِيَ عِنْدَهُ مِنْ بَنِيهِ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفْنِدُونَ﴾ تَنْسِبُونِي إِلَى الْفَنَدِ وَالْكِبَرِ، رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ، قَالَ: لَمَّا خَرَجَتْ الْعِيرُ هَاجَتْ رِيحٌ، فَجَاءَتْ يَعْقُوبَ بِرِيحِ قَمِيصِ يُوسُفَ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفْنِدُونَ﴾ قَالَ: فَوَجَدَ رِيحَهُ مِنْ مَسِيرَةِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ<sup>(١١)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَسُعْبَةُ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي سِنَانٍ بِهِ<sup>(١٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْلَا أَن تُفْنِدُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: تُسْقِطُونَ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا وَالْحَسَنُ: تَهْرُمُونَ<sup>(١٤)</sup>. وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَفِي خَطَايِكَ الْقَدِيمِ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيُّ: مِنْ حُبِّ يُوسُفَ لَا تَنْسَاهُ وَلَا تَنْسَاهُ، قَالُوا لِوَالِدِهِمْ كَلِمَةً غَلِيظَةً لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَقُولُوهَا لِوَالِدِهِمْ وَلَا لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ<sup>(١٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ<sup>(١٧)</sup>.

﴿فَلَمَّا أَتَى الْبَيْتَ قَالَ لِلْغُلَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١٨)</sup> قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ<sup>(١٩)</sup> قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ<sup>(٢٠)</sup>.

## [جَاءَ يَهُودًا بِالْقَمِيصِ بَشِيرًا]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالصَّحَّاحُ: ﴿الْبَشِيرُ﴾ الْبَرِيدُ<sup>(٢١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: كَانَ يَهُودًا بَنِي يَعْقُوبَ<sup>(٢٢)</sup>. قَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّمَا جَاءَ بِهِ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَاءَ بِالْقَمِيصِ وَهُوَ مُلَطَّحٌ بِدَمٍ كَذِبٍ، فَأَحَبَّ أَنْ يَغْسِلَ ذَلِكَ بِهَذَا، فَجَاءَ بِالْقَمِيصِ فَالْقَاهُ

(١) عبد الرزاق: ٣٢٩/٢ (٢) الطبري: ٢٥٠/١٦ (٣) الطبري: ٢٥٣/١٦ (٤) الطبري: ٢٥٥/١٦ (٥) الطبري: ٢٥٧/١٦ (٦) الطبري: ٢٥٧/١٦ (٧) الطبري: ٢٥٧/١٦ (٨) الطبري: ٢٥٨/١٦ (٩) الطبري: ٢٥٨/١٦ (١٠) الطبري: ٢٥٩/١٦ (١١) الطبري: ٢٦٢/١٦

لِأَسَافَتِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعَ سَجَدَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟» فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَافَتِهِمْ، وَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يُسْجَدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»<sup>(٦)</sup>. وَالْغَرَضُ: أَنَّ هَذَا كَانَ جَائِزًا فِي شَرِيعَتِهِمْ، وَلِهَذَا خَرُّوا لَهُ سُجْدًا، فَعِنْدَهَا قَالَ يُوسُفُ: «يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» أَي: هَذَا مَا آلَ إِلَيْهِ الْأُمُورُ، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ» [الأعراف: ٥٣] أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتِيهِمْ مَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وَقَوْلُهُ: «قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» أَي: صَحِيحَةً صِدْقًا - يَذْكُرُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ - «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ» أَي: الْبَادِيَةِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُ: كَانُوا أَهْلَ بَادِيَةِ وَمَاشِيَةِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ: كَانُوا يَسْكُنُونَ بِالْعَرَبَاتِ مِنْ أَرْضِ فَلَسْطِينَ مِنْ غَوْرِ الشَّامِ، «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ» أَي: إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قِيَضَ لَهُ أَسْبَابًا وَقَدَرَهُ وَيَسَّرَهُ «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ» بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، «الْحَكِيمُ» فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَمَا يَخْتَارُهُ وَبُرِيدُهُ.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَفَنِي مُسْلِمًا وَالْحَقَنِي بِالصَّالِحِينَ﴾<sup>(٨)</sup>  
[الدُّعَاءُ بِالْحَاثِمَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ]

هَذَا دُعَاءٌ مِنْ يُوسُفَ الصَّدِيقِ، دَعَا بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا تَمَّتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِاجْتِمَاعِهِ بِأَبَوَيْهِ وَإِخْوَتِهِ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَرَةِ وَالْمُلْكِ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَسْتَمِرَّ بِهَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَتَوَفَّاهُ مُسْلِمًا حِينَ يَتَوَفَّاهُ - قَالَهُ الضَّحَّاكُ - وَأَنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ، وَهُمْ إِخْوَانُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا الدُّعَاءُ يَحْتَمِلُ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَهُ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي

مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾  
[اسْتِقْبَالُ يُوسُفَ أَبَوَيْهِ وَصِدْقُ رُؤْيَاةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ وُرُودِ يَغْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقُدُومِهِ بِلَادَ مِصْرَ - لَمَّا كَانَ يُوسُفُ قَدْ تَقَدَّمَ لِإِخْوَتِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِأَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ، فَتَحَمَّلُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَتَرَحَّلُوا مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ قَاصِدِينَ بِلَادَ مِصْرَ - فَلَمَّا أَخْبِرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِفْتِرَائِهِمْ، خَرَجَ لِقَائِهِمْ وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَمْرَاءَهُ وَأَكَابِرَ النَّاسِ بِالْخُرُوجِ مَعَ يُوسُفَ لِقَائِي نَبِيِّ اللَّهِ يَغْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُقَالُ: إِنَّ الْمَلِكَ خَرَجَ أَيْضًا لِقَائِهِ، وَهُوَ الْأَشْبَهُ، وَقَوْلُهُ: «وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ» أَي: قَالَ لَهُمْ بَعْدَ مَا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَأَوَاهُمُ إِلَيْهِ: ادْخُلُوا مِصْرَ، وَصَمْنَةُ: «اسْكُنُوا مِصْرَ» إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ، أَي: مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْفَقْطِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَاوَيْتُ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِنَّمَا كَانَ أَبَاهُ وَخَالَتَهُ<sup>(١)</sup>. وَكَانَتْ أُمُّهُ قَدْ مَاتَتْ قَدِيمًا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جُرَيْجٍ: كَانَ أَبُوهُ وَأُمُّهُ يَعِيشَانِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَلَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَوْتِ أُمِّهِ، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى حَيَاتِهَا، وَهَذَا الَّذِي نَصَرَهُ هُوَ الْمَنْصُورُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَغْنِي السَّرِيرَ، أَيْ أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ<sup>(٤)</sup>. «وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا» أَي: سَجَدَ لَهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ الْبَاقُونَ. وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا، «وَقَالَ يَتَأَبَّتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلِ» أَي: الَّتِي كَانَ قَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ مِنْ قَبْلِ، «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا...» الْآيَةُ [يوسف: ٤]، وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِعًا فِي شَرَائِعِهِمْ إِذَا سَلَّمُوا عَلَى الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى شَرِيعَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَحَرَّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ، وَجُعِلَ السُّجُودُ مُخْتَصًا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَذَا مَضْمُونُ قَوْلِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ<sup>(٥)</sup>.

وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ مُعَاذًا قَدِمَ الشَّامَ فَوَجَدَهُمْ يَسْجُدُونَ

(١) الطبري: ٢٦٧/١٦ (٢) الطبري: ٢٦٩/١٦ (٣) الطبري:

٢٦٧/١٦ (٤) الطبري: ٢٦٧/١٦ (٥) الطبري: ٢٦٩/١٦

(٦) ابن ماجه: ٥٩٥/١ (٧) الطبري: ٢٧٦/١٦ (٨) الطبري:

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٤٨

سُورَةُ يُوسُفَ

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾  
وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا  
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يَوْمُنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا  
وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ  
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ  
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَنَ  
اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ  
إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي  
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى  
إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ  
نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ  
﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ  
حَدِيثًا يُنْفِرُ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ  
وَتَقْصِصُ كُلَّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يَوْمُنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾  
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً  
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

[عَدَمَ تَفَكَّرِ النَّاسِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غَفْلَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ  
اللَّهِ وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
مِنْ كَوَاكِبَ زَاهِرَاتٍ نَوَابِتٍ، وَسَيَّارَاتٍ وَأَفْلَاقٍ دَائِرَاتٍ،  
وَالْجَمِيعِ مُسَخَّرَاتٍ. وَكَمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قِطْعٍ  
مُتَجَاوِرَاتٍ، وَحَدَائِقَ وَجَنَّاتٍ، وَجِبَالٍ رَاسِيَاتٍ، وَبَحَارٍ  
زَاخِرَاتٍ، وَأَمْوَاجٍ مُتَلَاطِمَاتٍ، وَفَقَارٍ شَاسِعَاتٍ. وَكَمْ مِنْ  
أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتٍ، وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ. وَشُمَرَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ  
وَمُخْتَلِفَاتٍ فِي الطُّعُومِ وَالرَّوَانِحِ وَالْأَلْوَانِ وَالصِّفَاتِ.  
فَسُبْحَانَ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، خَالِقِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ، الْمُتَفَرِّدِ  
بِالدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ، وَالصَّمَدِيَّةِ لِلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَغَيْرِ

الصَّحِيحِينَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
جَعَلَ يَرْفَعُ أَصْبَعَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ  
الْأَعْلَى» ثَلَاثًا<sup>(١)</sup>. وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ سَأَلَ الْوَفَاةَ عَلَى الْإِسْلَامِ  
وَاللِّحَاقَ بِالصَّالِحِينَ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ، وَانْقَضَى عُمُرُهُ.  
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا  
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ  
يُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ  
لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

[مَا سَبَقَ مِنَ الْقِصَصِ هُوَ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ نَبَأَ إِخْوَةِ يُوسُفَ،  
وَكَيْفَ رَفَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ لَهُ الْعَاقِبَةَ وَالنَّصْرَ وَالْمُلْكَ  
وَالْحُكْمَ، مَعَ مَا أَرَادُوا بِهِ مِنَ السُّوءِ وَالْهَلَاكِ وَالْإِغْدَامِ،  
هَذَا وَأَمَثَالُهُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَخْبَارِ الْغُيُوبِ السَّابِقَةِ ﴿نُوحِيهِ  
إِلَيْكَ﴾ وَتَعْلَمُكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعِبَرَةِ لَكَ،  
وَالِاتِّعَاطِ لِمَنْ خَالَفَكَ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ حَاضِرًا عِنْدَهُمْ  
وَلَا مُشَاهِدًا لَهُمْ﴾ ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أَيْ: عَلَى إِلْقَائِهِ فِي  
الْجُبِّ ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بِهِ، وَلَكِنَّا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ وَحْيًا إِلَيْكَ  
وَإِنْزَالًا عَلَيْكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ  
أَقْلَامَهُمْ...﴾ الْآيَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْقَرْيَةِ  
إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ...﴾ الْآيَةِ [القصص: ٤٤]، إِلَى  
قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا...﴾

[القصص: ٤٦] الْآيَةِ، وَقَالَ: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ  
مَدْيَنَ تَتَلَوُا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا...﴾ الْآيَةِ [القصص: ٤٥]، يَقُولُ  
تَعَالَى: إِنَّهُ رَسُولُهُ وَإِنَّهُ قَدْ أَطْلَعَهُ عَلَى أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ،  
مِمَّا فِيهِ عِبْرَةٌ لِلنَّاسِ وَنَجَاةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَمَعَ  
هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ  
وَلَوْ حَرَصْتَ يُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَنْ تُلْعَقَ أَكْثَرُ مَنْ فِي  
الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ  
فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨] إِلَى غَيْرِ  
ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَيْ:  
مَا تَسْأَلُهُمْ يَا مُحَمَّدُ، عَلَى هَذَا النُّصْحِ وَالِدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ  
وَالرُّشْدِ، مِنْ أَجْرٍ، أَيْ: مِنْ جُعَالَةٍ وَلَا أُجْرَةٍ عَلَى ذَلِكَ،  
بَلْ تَفْعَلُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَنُصْحًا لِحَقِّهِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ  
لِلْعَالَمِينَ﴾ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ، وَيَنْجُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ.

﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

ذَلِكَ.

يَايُؤْمِنُ ﴿٧٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٧٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٩﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ

وَسَبِّحْنَا اللَّهَ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾﴾

[سَبِيلُ الرَّسُولِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، أَمْرًا لَهُ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ أَنَّ هَذِهِ سَبِيلُهُ أَيْ طَرِيقُهُ وَمَسْلُكُهُ وَسُنَّتُهُ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِهَا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ وَيَقِينُ وَبُرهَانٍ: هُوَ وَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَهُ يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينُ وَبُرهَانٍ عَقْلِيٍّ وَشَرْعِيٍّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَبِّحْنَا اللَّهَ﴾ أَيْ: وَأَنْزَرَهُ اللَّهُ وَأَجَلَهُ وَأَعْظَمَهُ وَأَقْدَسَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ، أَوْ صَاحِبُهُ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ، تَبَارَكَ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ غُلُوبًا كَبِيرًا، ﴿شَيْخٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا بَشَرًا وَرِجَالًا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رَسُولَهُ مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى أَمْرَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِي آدَمَ وَحْيَ تَشْرِيعٍ. وَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَشْعَرِيُّ عَنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي النِّسَاءِ نَبِيَّةٌ، وَإِنَّمَا فِيهِنَّ صِدِّيقَاتٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَشْرَفِهِنَّ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فَوَصَفَهَا فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهَا بِالصَّدِّيقَةِ، فَلَوْ كَانَتْ نَبِيَّةً

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ إِيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالَ؟ قَالُوا: اللَّهُ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَعِكْرَمَةُ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ<sup>(٢)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْسِيتِهِمْ: لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكٌ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَعْظَمُ يُعْبَدُ مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قَالَ: ذَلِكَ الْمُتَأَفِّقُ يَعْمَلُ إِذَا عَمِلَ رِبَاءَ النَّاسِ، وَهُوَ مُشْرِكٌ بِعَمَلِهِ ذَلِكَ بِغَيْبِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وَتَمَّ شِرْكُ آخَرُ خَفِيَ لَا يَشْعُرُ بِهِ غَالِيًا فَاعِلُهُ، كَمَا رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: دَخَلَ حَدِيثُهُ عَلَى مَرِيضٍ فَرَأَى فِي عَضْدِهِ سِنِيرًا فَقَطَّعَهُ - أَوْ انْتَزَعَهُ - ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾. وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ مِنْ رَوَايَةِ ابْنِ عُمَرَ<sup>(٥)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شِرْكٌ»<sup>(٦)</sup>. وَفِي لَفْظٍ لَهَا: «الطَّيْرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِثْلُهَا... وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالْتَّوَكُّلِ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ...﴾ الْآيَةِ، أَيْ أَفَأَمِنَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرٌ يَغْشَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْغَمَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>(٨)</sup> أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٩﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيْنَا وَهُمْ

(١) الطبري: ٢٩٢/١٦ (٢) الطبري: ٢٩٢/١٦ (٣) مسلم: ٨٤٣/٢ (٤) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩٠/١ (٥) تحفة الأحوذى: ١٣٥/٥ (٦) أحمد: ٣٨١/١ وأبو داود: ٢١٢/٤ وابن ماجه: ١١٦٧/٢ (٧) أحمد: ٣٨٩/١ وأبو داود: ٢٣٠/٤

لَذِكْرُ ذَلِكَ فِي مَقَامِ التَّشْرِيفِ وَالْإِعْظَامِ، فَهِيَ صِدْقَةٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

[الأنبياء من البشر لا من الملائكة]

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا...﴾ الآية، أَيُّ: لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا قُلْتُمْ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْتَصِدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ...﴾ الآية [الفرقان: ٢٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ [الأنبياء: ٩، ٨]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية [الحاقف: ٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ الْمُرَادُ بِالْقُرَى: الْمُدُنُ. لَا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي، الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَجْفَى النَّاسِ طِبَاعًا وَأَخْلَاقًا.

[الْعِبْرَةُ فِيمَنْ سَبَقَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي الْأَرْضِ ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ، كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا؟ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا...﴾ الآية [الحج: ٤٦]، فَإِذَا اسْتَمَعُوا خَبَرَ ذَلِكَ رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلِوَهُ كَانَتْ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيُّ: وَكَمَا نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ كَتَبْنَا لَهُمُ النِّجَاةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَهِيَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِكَثِيرٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر: ٥١، ٥٢] وَأَضَافَ الدَّارَ إِلَى الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ كَمَا يُقَالُ: صَلَاةُ الْأَوَّلَى وَمَسْجِدُ الْجَامِعِ، وَعَامٌ [الأولى]، وَبَارِحَةُ الْأَوَّلَى، وَيَوْمُ الْخَمِيسِ.

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِنْ نَشَائِهِ وَلَا يَرْدُ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾

[النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ وَضِيقِ الْحَالِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّ نَصْرَهُ يُنَزَّلُ عَلَى رُسُلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ عِنْدَ ضِيقِ الْحَالِ وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ مِنَ اللَّهِ، فِي أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَزَّلْنَا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ...﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿كُذِّبُوا﴾ قَرَأَتَانِ: إِحْدَاهُمَا بِالتَّشْدِيدِ (قَدْ كُذِّبُوا) وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقْرَأُهَا: رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ قَالَ: قُلْتُ: أَكُذِّبُوا؟ أَمْ كُذِّبُوا؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: (كُذِّبُوا). قُلْتُ: فَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ؟ قَالَتْ: أَجَلٌ، لَعَمْرِي لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ. فَقُلْتُ لَهَا: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قَالَتْ: مَعَادَ اللَّهِ، لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ؟ قَالَتْ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ، وَاسْتَأَخَرَ عَنْهُمْ النَّصْرُ ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَطَلَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ<sup>(٢)</sup>. قَالَ عُرْوَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: لَعَلَّهَا ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ مُحَقَّقَةٌ؟ قَالَتْ: مَعَادَ اللَّهِ. إِنْتَهَى مَا ذَكَرَهُ<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ؛ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَهَا: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ خَفِيفَةً. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ هُوَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ ثُمَّ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا بَشَرًا، ثُمَّ تَلَا ﴿حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ﴾ آتٍ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة: ٢١٤] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَقَالَ لِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: وَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّهَا خَالَفَتْ ذَلِكَ وَأَبَتْهُ، وَقَالَتْ: مَا وَعَدَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيَكُونُ حَتَّى مَاتَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلِ الْبَلَاءُ بِالرُّسُلِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ مَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ كَذَّبُوهُمْ. قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ فِي حَدِيثِ عُرْوَةَ، كَانَتْ عَائِشَةُ تَقْرَأُهَا: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مُثْقَلَةً مِنَ التَّكْذِيبِ<sup>(٤)</sup>.

وَالْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ بِالتَّخْفِيفِ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِهَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا تَقَدَّمَ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِيمَا رَوَاهُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ

(١) الدر المنثور: ٥٩٥/٤ الضحاك لم يدرك ابن عباس (٢) فتح الباري: ٢١٧/٨ (٣) فتح الباري: ٢١٨/٨ (٤) الطبري: ١٦/٣٠٧

الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ وَهُوَ يُصَدِّقُ مَا فِيهَا مِنَ الصَّحِيحِ، وَيَنْفِي مَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ، وَيُحْكَمُ عَلَيْهَا بِالنَّسخِ أَوْ التَّقْرِيرِ ﴿وَتَقْصِصَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ وَمَحْبُوبٍ وَمَكْرُوهٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمْرِ بِالطَّاعَاتِ وَالْوَجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمَحْرَمَاتِ وَمَا شَاكَلَهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمُورِ [عَلَى] الْجَلِيَّةِ، وَعَنِ الْغُيُوبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الْمُجْمَلَةِ وَالتَّفْصِيلِيَّةِ، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَتَنْزِيهِهِ عَنِ مُمَاثِلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلِهَذَا كَانَ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تَهْتَدِي بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ النَّهْيِ إِلَى الرَّشَادِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى السَّدَادِ، وَيَتَّبِعُونَ بِهِ الرَّحْمَةَ مِنَ رَبِّ الْعِبَادِ، فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْمَعَادِ، فَسَأَلَ اللَّهُ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَوْمَ يَقُورُ بِالرَّيْحِ الْمُبِصَّةِ وَجُوهُهُمُ النَّاصِرَةُ، وَيَرْجِعُ الْمُسَوَّدَةُ وَجُوهُهُمُ بِالْصَّفَقَةِ الْخَاسِرَةِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ اللَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ بِهِ الْمُسْتَعَانُ.

## تفسير سورة الرعد وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْءَ يَلِكُ عَائِتُ الْكُتُبِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ]

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَقَدَّمْنَا أَنَّ كُلَّ سُورَةٍ ابْتَدَتْ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ فَفِيهَا الْإِنْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَبَيِّنَانُ أَنَّ نَزْلَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ وَلَا رَيْبَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أَيُّ هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ عَطْفَ صِفَاتٍ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ خَبَرٌ تَقَدَّمَ مُبْتَدؤه، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ

وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾ مُحَقِّقَةٌ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هُوَ الَّذِي تَكْرَهُ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾ قَالَ: لَمَّا آيَسَتِ الرُّسُلُ أَنَّ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ وَطَنَ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوهُمْ، جَاءَهُمُ النَّصْرُ عَلَى ذَلِكَ ﴿فَنَجَّى مِنْ نَشَأَةٍ﴾.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي [حُرَّة] الْجَزَرِيِّ قَالَ: سَأَلَ فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ سَعِيدَ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ هَذَا الْحَرْفُ، فَإِنِّي إِذَا أَتَيْتُ عَلَيْهِ تَمَيَّيْتُ أَنْ لَا أَقْرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾؟ قَالَ: نَعَمْ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ مِنْ قَوْمِهِمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُمْ، وَطَنَ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوا. فَقَالَ الضُّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ رَجُلًا يَدْعَى إِلَى عِلْمٍ فَيَتَلَكَّأُ لَوْ رَحَلْتُ إِلَى الْيَمَنِ فِي هَذِهِ كَانَ قَلِيلًا. ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ أَنَّ مُسْلِمَ بْنَ يَسَارٍ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ ذَلِكَ، فَأَجَابَهُ بِهَذَا الْجَوَابِ، فَقَامَ إِلَى سَعِيدٍ فَاعْتَفَقَ وَقَالَ: فَارْحَ اللَّهُ عَنْكَ كَمَا فَارَحْتَ عَنِّي<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ فَسَّرَهَا كَذَلِكَ، وَكَذَا فَسَّرَهَا مُجَاهِدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ إِلَّا أَنَّ بَعْضَ مَنْ فَسَّرَهَا كَذَلِكَ يُعِيدُ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾ إِلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعِيدُهُ إِلَى الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ، أَيْ وَطَنَ الْكُفَّارُ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوا مُحَقِّقَةً فِيمَا وَعَدُوا بِهِ مِنَ النَّصْرِ. وَأَمَّا ابْنُ مَسْعُودٍ، فَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ تَمِيمِ بْنِ حَذَلَمٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ مِنْ إِيْمَانٍ قَوْمِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ، وَطَنَ قَوْمُهُمْ حِينَ أَبْطَأَ الْأَمْرُ: أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا بِالْتَّخْفِيفِ<sup>(٢)</sup>.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[الْعِبْرَةُ لِمَنْ اعْتَبَرَ]

يَقُولُ تَعَالَى: لَقَدْ كَانَ فِي خَبَرِ الْمُرْسَلِينَ مَعَ قَوْمِهِمْ، وَكَيْفَ نَجَّيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْكَافِرِينَ ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وَهِيَ الْعُقُولُ، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ أَيْ وَمَا كَانَ لِهَذَا الْقُرْآنِ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَيْ يُكْذَبُ وَيُخْتَلَقُ ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيْ: مِنَ الْكُتُبِ

(١) الطبري: ٣٠٣/١٦ (٢) الطبري: ٣٠٤/١٦

(٣) الطبري: ٣٢٤/١٦ (٤) الطبري: ٣٢٤/١٦ (٥) الطبري:

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْأَشْجَارُ أَلْهَافًا لَّيَالِيًا فِي ذَلِكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُوفٌ غَيْرُ صُنُوفٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَجَعَبُ قَوْلِهِمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقَ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨] وَقِيلَ: الْمُرَادُ إِلَى مُسْتَقَرِّهِمَا وَهُوَ تَحْتَ الْعَرْشِ مِمَّا يَلِي بَطْنَ الْأَرْضِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَإِنَّهُمَا وَسَائِرُ الْكَوَاكِبِ إِذَا وَصَلُوا هُنَاكَ يَكُونُونَ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ عَنِ الْعَرْشِ، لِأَنَّهُ عَلَى الصَّحِيحِ - الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ - قِيَّتُهُ مِمَّا يَلِي الْعَالَمَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَيْسَ بِمُحِيطٍ كَسَائِرِ الْأَفلاكِ، لِأَنَّ لَهُ قَوَائِمَ وَحَمَلَةً يَحْمِلُونَهُ، وَلَا يَتَصَوَّرُ هَذَا فِي الْفُلْكِ الْمُسْتَدِيرِ، وَهَذَا وَاضِحٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، وَ اللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَذَكَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِأَنَّهُمَا أَظْهَرُ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ  
السَّعَةِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنَ الثَّوَابِ، فَإِذَا كَانَ قَدْ  
سَخَّرَ هَذِهِ، فَلَأَن يَدْخُلَ فِي التَّسْخِيرِ سَائِرُ الْكَوَاكِبِ  
بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى، كَمَا نَبَّهَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا  
تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن  
كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ مَعَ أَنَّهُ صَرَّحَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣] أَيَّ مَعَ هَذَا  
الْبَيَانِ وَالْحَلَاءِ وَالْوُضُوحِ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ، لِمَا فِيهِمْ مِنَ  
الشَّقَاقِ وَالْعِنَادِ وَالنَّفَاقِ.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ  
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ  
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢١﴾﴾

[بَيَانُ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ أَنَّهُ  
الَّذِي يَأْذِينَهُ وَأَمْرُهُ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، بَلْ يَأْذِينَهُ  
وَأَمْرُهُ وَتَسْخِيرِهِ رَفَعَهَا عَنِ الْأَرْضِ بُعْدًا لَا تَنَالُ وَلَا يُدْرِكُ  
مَدَاهَا، فَالسَّمَاءُ الدُّنْيَا مُحِيطَةٌ بِجَمِيعِ الْأَرْضِ وَمَا حَوْلَهَا  
مِنَ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا وَجِهَاتِهَا وَأَرْجَائِهَا،  
مُرْتَفَعَةٌ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلَى السَّوَاءِ، وَبُعْدُ مَا بَيْنَهَا  
وَبَيْنَ الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ،  
وَسَمَكُهَا فِي نَفْسِهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ. ثُمَّ السَّمَاءُ  
الثَّانِيَةُ مُحِيطَةٌ بِالسَّمَاءِ الدُّنْيَا وَمَا حَوْلَ، وَبَيْنَهُمَا مِنْ بُعْدِ  
الْمَسِيرِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَسَمَكُهَا خَمْسِمِائَةِ عَامٍ. وَهَكَذَا  
السَّمَاءُ الثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ وَالسَّابِعَةُ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَرِجْزَ الْأَرْضِ  
مِثْلَهُنَّ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٠٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿بِعِزِّ عَمِدٍ تَرَوْهَا﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ  
وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَهَا عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا  
تُرَى <sup>(١)</sup>. وَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ  
الْقُبَّةِ، يَعْنِي بِلَا عَمَدٍ <sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ، وَهَذَا هُوَ  
اللَّائِقُ بِالسِّيَاقِ <sup>(٣)</sup> وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُمَسِّكُ  
السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] فَعَلَى  
هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿تَرَوْهَا﴾ تَأْكِيدًا لِنَفْيِ ذَلِكَ، أَيِ هِيَ  
مَرْفُوعَةٌ بِغَيْرِ عَمِدٍ كَمَا تَرَوْهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي  
الْقُدْرَةِ.

[الاستِواءُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَسْرَجْنَا عَلَى الْعَرْشِ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي  
سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَأَنَّهُ يُمَرُّ كَمَا جَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَنْسِيَةٍ  
وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَمَثِيلٍ، تَعَالَى اللَّهُ عُلُوتًا كَبِيرًا.

[تَسْخِيرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَجَرَيَانُهُمَا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾  
قِيلَ: الْمُرَادُ: أَنَّهُمَا يَجْرِيَانِ إِلَى انْقِطَاعِهِمَا بِقِيَامِ السَّاعَةِ،



أَغْنَاب، فَيَكُونُ مَجْرُورًا. وَلِهَذَا قَرَأَ بِكُلِّ مِنْهُمَا طَائِفَةً مِنَ الْأَيَّامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ﴾ الصَّنُونُ: هِيَ الْأُصُولُ الْمُجْتَمِعَةُ فِي مَنَبَتٍ وَاحِدٍ، كَالرُّمَانِ وَاللِّينِ، وَبَعْضُ النَّخِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَغَيْرُ الصَّنُونِ: مَا كَانَ عَلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، كَسَائِرِ الْأَشْجَارِ، وَمِنْهُ: سُمِّيَ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُونُ أَبِيهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُونُ أَبِيهِ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُسْقَى يَمَاءٌ وَاحِدٌ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «تُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ» قَالَ: «الدَّقْلُ، وَالْفَارِسِيُّ، وَالْحُلُوفُ، وَالْحَامِضُ»<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ، أَيْ هَذَا الْإِخْتِلَافُ فِي أَجْنَاسِ الشَّمَرَاتِ وَالزَّرُوعِ فِي أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا، وَطُغُومِهَا وَرَوَائِحِهَا، وَأَوْرَاقِهَا وَأَزْهَارِهَا، فَهَذَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْحُمُوضَةِ، وَذَا فِي غَايَةِ الْمَرَارَةِ، وَذَا غَضٌّ، وَهَذَا عَذْبٌ، وَهَذَا جَمَعَ هَذَا وَهَذَا، ثُمَّ يَسْتَحِيلُ إِلَى طَعْمٍ آخَرَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا أَصْفَرٌ، وَهَذَا أَحْمَرٌ، وَهَذَا أَبْيَضٌ، وَهَذَا أَسْوَدٌ، وَهَذَا أَزْرَقٌ، وَكَذَلِكَ الزُّهُورَاتُ مَعَ أَنَّهَا كُلُّهَا تُسْتَمَدُّ مِنْ طَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ الْمَاءُ، مَعَ الْإِخْتِلَافِ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا يَنْحَصِرُ وَلَا يَنْضَبُطُ، فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَالَاتِ عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الَّذِي يَقْدِرُهُ فَآوَتْ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ، وَخَلَقَهَا عَلَى مَا يُرِيدُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

❖ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَدَا كَمَا تَرَبَّأْنَا لَهُنَّ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَى فِي أَغْنَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

[إِنْكَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ عَجِيبٌ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالْمَعَادِ، مَعَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَدَلَالِيهِ فِي خَلْقِهِ عَلَى أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَمَعَ مَا يَغْتَرِفُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ فَكَوْنُهَا

﴿وَالسَّمَسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أَيْ يُوَضِّحُ الْآيَاتِ وَالِدَّلَالَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلْقَ إِذَا شَاءَ كَمَا بَدَأَهُ.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ وفي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَحَوِّرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَبِ وَزَرَاعٍ وَنَحِيلٍ صِنُونٌ وَغَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى يَمَاءً وَاحِدٌ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

[آيَاتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْعَالَمَ الْعُلُوفِيَّ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَإِحْكَامِهِ لِلْعَالَمِ السُّفْلِيِّ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أَيْ جَعَلَهَا مُتَبَعَةً مُتَمَدَّةً فِي الطُّولِ - وَالْعَرْضِ، وَأَرْسَاهَا بِجِبَالٍ رَاسِيَّاتٍ شَامِخَاتٍ، وَأَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارَ وَالْجُدَاوِلَ وَالْعُيُونَ، لِيَسْقِيَ مَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّغُومِ وَالرَّوَاحِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴿أَيَّ مِنْ كُلِّ شَكْلِ صِنْفَانِ﴾ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ ﴿أَيَّ جَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَشِيئًا، فَإِذَا ذَهَبَ هَذَا غَشِيَ هَذَا، وَإِذَا انْقَضَى هَذَا جَاءَ الْآخَرُ، فَيَتَصَرَّفُ أَيْضًا فِي الزَّمَانِ كَمَا يَتَصَرَّفُ فِي الْمَكَانِ وَالشَّكْلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ أَيْ فِي آيَةِ اللَّهِ وَحِكْمِهِ وَدَلَالِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَحَوِّرَةٌ﴾ أَيْ أَرْضٌ يُجَاوِرُ بَعْضُهَا بَعْضًا، مَعَ أَنَّ هَذِهِ طَبِيعَةٌ ثَبَتَتْ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَهَذِهِ سَبِيحَةٌ مَالِحَةٌ لَا ثَبَتَ شَيْئًا، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>.

وَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اخْتِلَافُ أَلْوَانِ بَقَاعِ الْأَرْضِ: فَهَذِهِ تُرْبَةٌ حَمْرَاءُ، وَهَذِهِ بَيَضَاءُ، وَهَذِهِ صَفْرَاءُ، وَهَذِهِ سَوْدَاءُ، وَهَذِهِ مُسْجِرَةٌ، وَهَذِهِ سَهْلَةٌ، وَهَذِهِ مُرْمَلَةٌ، وَهَذِهِ سَمِيكَةٌ، وَهَذِهِ رَقِيقَةٌ، وَالْكُلُّ مُتَجَاوِرَاتٌ، فَهَذِهِ بِصِفَتِهَا، وَهَذِهِ بِصِفَتِهَا الْآخَرَى، فَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَبِ وَزَرَاعٍ وَنَحِيلٍ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً عَلَى جَنَاتٍ، فَيَكُونُ وَزَرَاعٍ وَنَحِيلٍ مَرْفُوعَيْنِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى

١٦/٣٢٥ (١) الطبري: ١٦/٣٣١-٣٣٣ (٢) مسلم: ٢/

٦٧٧ (٣) تحفة الأحوذى: ٨/٥٤٤

الْبَرِّ وَالْأَنفَالِ

٢٥٠

سُورَةُ الرِّدِّ

وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ  
 قَبْلِهِمُ الْمَثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ  
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا  
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ  
 ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ  
 وَمَا تَرْذَاوُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ  
 وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَعَ  
 الْقَوْلُ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ  
 بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ يَمِينِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ  
 مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ  
 وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ  
 وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَلْبَرَكُمْ خُوفًا وَطَمَعًا  
 وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ  
 وَالْمَلَأْتِكُمْ مِنْ خِفَّتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا  
 مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾

الآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أَيُّ  
 إِنَّهُ تَعَالَى ذُو عَفْوٍ وَصَفَحٍ وَسَتْرٍ لِلنَّاسِ مَعَ أَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ  
 وَيُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، ثُمَّ قَرَنَ هَذَا الْحُكْمَ بِأَنَّهُ شَدِيدُ  
 الْعِقَابِ، لِيَعْتَدِلَ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ  
 كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرْدُ بِأُسْرَةٍ عَنِ  
 الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٧] وَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ  
 لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وَقَالَ:  
 ﴿يَنْبَغِي عِبَادَتِي أَيْدِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنْ عَذَابِي هُوَ  
 الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٥٩، ٥٠] إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ  
 الْآيَاتِ الَّتِي تَجْمَعُ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ

مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿٧﴾

[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَةَ وَالرَّدَّ عَلَيْهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ كُفْرًا  
 وَعِنَادًا: لَوْلَا يَأْتِينَا بَيَّةٌ مِنْ رَبِّهِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ، كَمَا  
 تَعَتَّبُوا عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُرِيحَ عَنْهُمْ

بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ هَذَا يُكَذِّبُونَ  
 خَبْرَهُ فِي أَنَّهُ سَيُعِيدُ الْعَالَمَ خَلْقًا جَدِيدًا، وَقَدْ اعْتَرَفُوا  
 وَشَاهَدُوا مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا كَذَّبُوا بِهِ، فَالْعَجَبُ مِنْ  
 قَوْلِهِمْ: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَنَعْلَمُ خَلْقَ جَدِيدٍ﴾ وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ  
 عَالِمٍ وَعَاقِلٍ أَنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ  
 النَّاسِ، وَأَنْ مَنْ بَدَأَ الْخَلْقَ فَلَا عَادَةَ عَلَيْهِ أَسهْلُ، كَمَا قَالَ  
 تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئِ  
 يَخْلِقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾  
 [الأحقاف: ٣٣] ثُمَّ نَعَتْ الْمُكْذِبِينَ بِهَذَا فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْكَ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْتَلُ فَاعْتَابِهِمْ﴾ أَيُّ  
 يُسْحَبُونَ بِهَا فِي النَّارِ ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
 خَالِدُونَ﴾ أَيُّ مَا كُنْتُمْ فِيهَا أَبَدًا لَا يَحُولُونَ عَنْهَا وَلَا  
 يَزُولُونَ.

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ  
 الْمَثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ  
 لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٦﴾

[إِسْتِعْجَالُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ﴾ أَيُّ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبُونَ  
 بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ أَيُّ بِالْعُقُوبَةِ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي  
 قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيُنَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿١﴾ لَوْ  
 مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نَزَّلَ الْمَلَكَةَ  
 إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ [الحجر: ٧٦] وَقَالَ تَعَالَى:  
 ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ... الْآتِيَيْنِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَلَ  
 سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وَقَالَ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ  
 لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا  
 الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا﴾ ... الْآيَةُ  
 [ص: ١٦]، أَيُّ عِقَابِنَا وَجَسَابِنَا، كَمَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ:  
 ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عَذَابِكَ ...  
 الْآيَةُ، [الأَنْفَال: ٣٢] فَكَانُوا مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ  
 وَكُفْرِهِمْ يَطْلُبُونَ [مِنْ الرَّسُولِ] أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ، قَالَ  
 اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُ﴾ أَيُّ قَدْ أَوْفَعْنَا  
 يَقَمْنَا بِالْأَمْرِ الْخَالِيَةِ، وَجَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً وَعِظَةً لِمَنْ اتَّعَظَ  
 بِهِمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْلَا جُلْمُهُ وَعَفْوُهُ لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ  
 كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يَؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ  
 عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَاتِ بَرَةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وَقَالَ تَعَالَى فِي هَلِوِ

أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ﴾ يُعْنِي السَّقَطَ، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يَقُولُ: مَا زَادَتِ الرَّحِمُ فِي الْحَمْلِ عَلَى مَا غَاضَتْ حَتَّى وَلَدَتْهُ تَمَامًا، وَذَلِكَ أَنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَحُولُ عَشْرَةُ أَشْهُرٍ، وَمَنْ تَحْمِلُ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَزِيدُ فِي الْحَمْلِ، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَنْقُصُ، فَذَلِكَ الْغَيْضُ وَالزِّيَادَةُ، الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلُّ ذَلِكَ يَعْلَمُهُ تَعَالَى<sup>(٦)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أَيُّ بِأَجَلٍ، حِفْظُ أَرْزَاقِ خَلْقِهِ وَاجْأَلُهُمْ، وَجَعَلَ لِدَيْكَ أَجَلًا مَعْلُومًا. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بَعَثَتْ إِلَيْهِ أَنَّ ابْنًا لَهَا فِي الْمَوْتِ، وَأَنَّهَا تُحِبُّ أَنْ يَحْضُرَهُ. فَبَعَثَتْ إِلَيْهَا يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَحَدٌ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرُوهَا فَلْتَضْمِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»<sup>(٧)</sup>. الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيُّ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يُشَاهِدُهُ الْعِبَادُ وَمِمَّا يَغِيبُ عَنْهُمْ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ «الْكَبِيرُ» الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، «الْمُعَالِ» أَيُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ «قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا» [الطلاق: ١٢] وَفَهَرُ كُلِّ شَيْءٍ، فَخَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابَ وَدَانَ لَهُ الْعِبَادَ طَوْعًا وَكَرْهًا.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾<sup>(٨)</sup> لَمْ مَعْقِنَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ<sup>(٩)</sup>

[عَلِمُ اللَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ ظَاهِرٍ وَخَفِيٍّ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ أَسَرَ قَوْلَهُ أَوْ جَهَرَ بِهِ، فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالْخَفِيَّ﴾ [طه: ٧] وَقَالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سُبْحَانَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، وَاللَّهُ! لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى

الْجِبَالِ، وَيَجْعَلُ مَكَانَهَا مُرُوجًا وَأَنْهَارًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَعْنَى أَنْ تُرْسِلَ بِالْأَنْبَاءِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾... الْآيَةُ [الإسراء: ٥٩]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾. أَيُّ إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ اللَّهِ الَّتِي أَمَرَكَ بِهَا، وَ«لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» [البقرة: ٢٧٢] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ<sup>(١٠)</sup>. كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ وَعِنْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ<sup>(١١)</sup>.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾<sup>(١٢)</sup> عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُنْعَالِ<sup>(١٣)</sup>

[عَالِمُ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا تَحْمِلُهُ الْحَوَامِلُ مِنْ كُلِّ إِبْطَاءِ الْحَيَوَانَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أَيُّ مَا حَمَلَتْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، أَوْ حَسَنِ أَوْ قَبِيحٍ، أَوْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، أَوْ طَوِيلٍ الْعُمُرِ أَوْ قَصِيرِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾... الْآيَةُ [النجم: ٣٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ لَثِيثٍ﴾ [الزمر: ٦] أَيُّ خَلَقَكُمْ طَوْرًا مِنْ بَعْدِ طَوْرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾<sup>(١٤)</sup> ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفْلَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ<sup>(١٥)</sup> ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفْلَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظْلًا فَكُنُوزًا أَعْظَمَ لَمَعًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ

[المؤمنون: ١٢-١٤] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مَضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، يَكْتُبُ رِزْقَهُ، وَعُمُرَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ»<sup>(١٦)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «فَيَقُولُ الْمَلَكُ: أَيُّ رَبِّ أَذْكَرُ أَمْ أَتْنَى؟ أَيُّ رَبِّ أَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ»<sup>(١٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي عِدِّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ،

(١) الطبري: ٣٥٧/١٦ (٢) الطبري: ٣٥٦/١٦ (٣) فتح الباري: ٤٨٦/١١ (٤) فتح الباري: ٢٠٣٦/٤ (٥) فتح الباري: ٢٢٥/٨ (٦) الطبري: ٣٥٩/١٦ (٧) فتح الباري: ٥٠٢/١١

تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْثِيُ السَّحَابَ الْقِثَالَ﴾ (١٢) وَيَسْخِرُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾

[السَّحَابُ وَالْبَرْقُ وَالرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ الْبَرْقَ، وَهُوَ مَا يَرَى مِنْ الثَّوْرِ اللَّامِعِ سَاطِعًا مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَتَبَ إِلَى أَبِي الْجَلْدِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْبَرْقِ، فَقَالَ: الْبَرْقُ الْمَاءُ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: خَوْفًا لِلْمَسَافِرِ يَخَافُ أَذَاهُ وَمَشَقَّتُهُ، وَطَمَعًا لِلْمَقِيمِ يَرْجُو بَرَكَتَهُ وَمَنْعَتَهُ، وَيَطْمَعُ فِي رِزْقِ اللَّهِ، ﴿وَيُنْثِيُ السَّحَابَ الْقِثَالَ﴾ أَيْ وَيَخْلُقُهَا مَنَشَاءً جَدِيدَةً، وَهِيَ لِكَثْرَةِ مَاثِهَا ثَقِيلَةٌ قَرِيبَةٌ إِلَى الْأَرْضِ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿السَّحَابُ الْقِثَالُ﴾ الَّذِي فِيهِ الْمَاءُ<sup>(٦)</sup>. قَالَ: ﴿وَيَسْخِرُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْسِجُ بِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ: أَخْبَرَنِي أَبِي، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا إِلَى جَنْبِ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي الْمَسْجِدِ، فَمَرَّ شَيْخٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ حُمَيْدٌ، فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! وَسَّعَ [لَهُ] فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَإِنَّهُ قَدْ صَحِبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَقَالَ لَهُ حُمَيْدٌ: مَا الْحَدِيثُ الَّذِي حَدَّثْتَنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: سَمِعْتُ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُنْثِيُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النَّطْقِ، وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ»<sup>(٧)</sup>. وَالْمُرَادُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ نُطْقَهَا الرَّعْدُ وَضَحْكُهَا الْبَرْقُ. وَقَالَ مُوسَى بْنُ عُثَيْدَةَ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: يَنْتَعِثُ اللَّهُ الْعَيْنُ فَلَا أَحْسَنَ مِنْهُ مَضْحَكًا، وَلَا آنَسَ مِنْهُ مَنْطِقًا، فَضَحِكُهُ الْبَرْقُ، وَمَنْطِقُهُ الرَّعْدُ.

[الدُّعَاءُ عِنْدَ الرَّعْدِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَا فِي جَنْبِ النَّبِيِّ، وَإِنَّهُ لِيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ كَلَامِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ﴾ أَيْ مُخْتَفٍ فِي قَعْرِ بَيْتِهِ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أَيْ ظَاهِرٌ مَا شِ فِي بَيَاضِ النَّهَارِ وَضِيائِهِ، فَإِنَّ كِلَيْهِمَا فِي عِلْمِ اللَّهِ عَلَى السَّوَاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَخْشُونَ رَبَّاهُمْ﴾... [الآية: هود: ٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ نَقْلًا ذَرَفَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

[الْمَلَائِكَةُ الْحَفَظَةُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ مَعَبَّتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أَيْ لِلْعَبْدِ مَلَائِكَةٌ يَتَعَابُونَ عَلَيْهِ، حَرَسَ بِاللَّيْلِ وَحَرَسَ بِالنَّهَارِ، يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْأَسْوَءِ وَالْحَادِثَاتِ، كَمَا يَتَعَابَبُ مَلَائِكَةُ آخَرُونَ لِحِفْظِ الْأَعْمَالِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ، فَائْتَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ: صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَصَاحِبُ الشَّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ. وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَيَحْرُسَانِهِ، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِهِ وَآخَرُ مِنْ قُدَامِهِ. فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَمْلاكٍ بِالنَّهَارِ، وَأَرْبَعَةِ آخَرِينَ بِاللَّيْلِ - بَدَلًا - حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «يَتَعَابُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ، وَجَمْعُهُمْ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيُصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ» قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَلَا بَأْمُرَنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»<sup>(٣)</sup>. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ وَلَا أَهْلِ بَيْتٍ يَكُونُونَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَيَتَحَوَّلُونَ مِنْهَا إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، إِلَّا حَوْلَ اللَّهِ عَنْهُمْ مَا يُجِبُونَ إِلَى مَا يَكْرَهُونَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ

(١) البخاري: ٧٣٨٥ والنسائي في الكبرى: ١١٥٧٠ وابن ماجه:

١٨٨ والطبري: ٥/٢٨ (٢) فتح الباري: ٤٢٦/١٣ (٣)

أحمد: ٤٠١/١ (٤) مسلم: ٢٨١٤ (٥) الطبري: ٣٨٧/١٦

(٦) الطبري: ٣٨٨/١٦ (٧) أحمد: ٤٣٥/٥



﴿وَالْأَصْلَ﴾ وَهُوَ جَمْعُ أَصِيلٍ، وَهُوَ آخِرُ النَّهَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُوا ظِلَالُهُ﴾... الآية [النمل: ٤٨].

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأُنْقِصَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

### [إثبات التوحيد]

يَقَرُّ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ رَبُّهَا وَمَلَبَّزُهَا، وَهُمْ مَعَ هَذَا قَدْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ يَعْبُدُونَهُمْ، وَأُولَئِكَ الْأَلِهَةُ لَا تَمْلِكُ لِأَنْفُسِهَا - وَلَا لِعِبَادِيهَا بِطَرِيقِ الْأُولَى - نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، أَيْ لَا تُحْصِلُ لَهُمْ مَنَفْعَةً وَلَا تُدْفَعُ عَنْهُمْ مَضَرَّةً، فَهَلْ يَسْتَوِي مَنْ عِبَدَ هَذِهِ الْأَلِهَةَ مَعَ اللَّهِ، وَمَنْ عِبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ أَجْعَلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً تَنَاطُرُ الرَّبُّ وَتَمَانُلُهُ فِي الْخَلْقِ، فَخَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَدْرُونَ أَنَّهُمَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مَخْلُوقٍ غَيْرِهِ؟ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يُشَابَهُ شَيْءٌ، وَلَا يُمَانِلُهُ، وَلَا يَنْدُ لَهُ وَلَا عِدْلُ لَهُ، وَلَا وَزِيرُ لَهُ وَلَا وَلَدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنَّمَا عِبَدَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مَعَهُ إِلَهَةً هُمْ مُعْتَرِفُونَ أَنَّهُمَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ، عِبِيدُ لَهُ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَّتِهِمْ: لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، وَكَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فَأَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ حَيْثُ اعْتَقَدُوا ذَلِكَ، وَهُوَ تَعَالَى لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾

- ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ قَالَ: الْمُعْقِبَاتُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَحْفَظُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، ثُمَّ ذَكَرَ أَرْبَدَ وَمَا قَتَلَهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية<sup>(١)</sup> [وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مُخْتَصَرًا: ٤٠٩١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أَيْ يَشْكُونَ فِي عَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: شَدِيدُهُ مِمَّا حَلَّتْهُ فِي عَقُوبَةِ مَنْ طَغَى عَلَيْهِ، وَعَنَّا وَتَمَادَى فِي كُفْرِهِ<sup>(٢)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [النمل: ٥١، ٥٠] وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ أَيْ شَدِيدُ الْإِخْذِ<sup>(٣)</sup>.

﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمَقٍّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَهَيْئَةِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِلَاقِيهِ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

### [تمثيل عجز ألوهة المشركين]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمَقٍّ﴾ قَالَ: التَّوْحِيدُ<sup>(٤)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ: ﴿لَمْ دَعَوْهُ لَمَقٍّ﴾: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ<sup>(٥)</sup>. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾... الآية، أَيْ وَمَثَلُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ إِلَهَةً غَيْرَ اللَّهِ ﴿كَبْسِطٍ كَهَيْئَةِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: كَمَثَلِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ الْمَاءَ مِنْ طَرَفِ الْبُئْرِ بِيَدِهِ وَهُوَ لَا يَتَأَلَّهَ أَبَدًا بِيَدِهِ، فَكَيْفَ يَبْلُغُ فَاهُ؟<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كَبْسِطٍ كَهَيْئَةِ﴾ يَدْعُو الْمَاءَ بِلِسَانِهِ وَيُشِيرُ إِلَيْهِ فَلَا يَأْتِيهِ أَبَدًا<sup>(٧)</sup>. وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ أَنَّ الَّذِي يَسْطُرُ يَدَهُ إِلَى الْمَاءِ إِمَّا قَابِضًا وَإِمَّا مَتَنَاوِلًا لَهُ مِنْ بَعْدٍ: كَمَا أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَى فِيهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَحَلًّا لِلشَّرْبِ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا غَيْرَهُ، لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ أَبَدًا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْعُدُوِّ

### وَالْأَصْلَ

### [كُلُّ شَيْءٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِيهِ، الَّذِي فَهَرَّ كُلُّ شَيْءٍ، وَدَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا يَسْجُدُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَكَرْهًا مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿وَالظُّلُمَاتُ يَلْعَنُوهُ﴾ أَيْ الْبُكْرُ

(١) الطبراني: ٣٧٩/١٠ - إسناده ضعيف لضعف عبد العزيز ابن عمران قال ابن حجر: متروك احترقت كتبه فحدث من حفظه فاشتد غلطه. [تقريب] (٢) الطبري: ٣٩٤/١٦ (٣) الطبري: ٣٩٦/١٦ إسناده واه فيه سيف بن عمر الضبي (٤) الطبري: ١٦/٣٩٨ فيه علة سابقة (٥) الطبري: ١٦/٣٩٨ إسناده ضعيف رواية سماك عن عكرمة وهي رواية مضطربة لكن أخرجه ابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات من طرق آخر وفيه انقطاع (٦) الطبري: ١٦/٤٠٠ (٧) الطبري: ١٦/٤٠٠

﴿أَمِنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذُرُ  
أُولَئِكَ الْكِتَابَ ۖ الَّذِينَ يُوَفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْوَعْدَ  
وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ  
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ  
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ  
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ ۖ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا  
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ  
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ  
ۖ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا  
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ  
وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ اللَّهُ يُسْطِرُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا  
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۖ وَيَقُولُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ  
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ  
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۖ﴾

قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِيمَكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ  
الْأَمْثَالَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا  
يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِفُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وقال بعضُ  
السلف: كُنْتُ إِذَا قَرَأْتُ مَثَلًا مِنَ الْقُرْآنِ فَلَمْ أَفْهَمْهُ، بَكَيْتُ  
عَلَى نَفْسِي، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا  
الْعَاكِفُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾... الآية، هذا  
مثل ضربته الله، اِخْتَمَلْتُ مِنْهُ الْقُلُوبَ عَلَى قَدْرِ يَقِينِهَا  
وَشَكَّيْهَا، فَأَمَّا الشُّكُّ فَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ الْعَمَلُ، وَأَمَّا الْيَقِينُ  
فَيَنْفَعُ اللَّهَ بِهِ أَهْلُهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ وَهُوَ الشُّكُّ،  
﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِيمَكُّ فِي الْأَرْضِ﴾ وَهُوَ  
الْيَقِينُ، وَكَمَا يُجْعَلُ الْحُلِيِّ فِي النَّارِ فَيُؤْخَذُ خَالِصُهُ وَيَتْرَكُ  
خَبَثُهُ فِي النَّارِ، فَكَذَلِكَ يَقْبَلُ اللَّهُ الْيَقِينَ وَيَتْرَكُ الشُّكَّ<sup>(١)</sup>.

[سباء: ٢٣] ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية [النجم: ٢٦]،  
وَقَالَ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ  
عَبْدًا﴾ ۖ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ  
فَرَدًّا﴾ [مریم: ٩٣- ٩٥] فَإِذَا كَانَ الْجَمِيعُ عِبِيدًا، فَلِمَ يَغْبُذُ  
بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، بَلِ الْمُجَرَّدُ الرَّأْيُ  
وَالِاخْتِرَاعُ وَالِابْتِدَاعُ، ثُمَّ قَدْ أُرْسِلَ رُسُلُهُ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى  
آخِرِهِمْ، تَرْجُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَتَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَى  
اللَّهِ، فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ لَا  
مَحَالَةَ ۖ وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا  
رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ  
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا  
مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ  
الْأَمْثَالَ﴾

### [مَثَلَانِ لِبَقَاءِ الْحَقِّ وَفَنَاءِ الْبَاطِلِ]

اِشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى مَثَلَيْنِ مُضَرَوَيْنِ لِلْحَقِّ  
فِي ثَبَاتِهِ وَبَقَائِهِ، وَالْبَاطِلِ فِي اضْمِحْلَالِهِ وَفَنَائِهِ، فَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أَيْ مَطَرًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ  
بِقَدَرِهَا﴾ أَيْ أَخَذَ كُلُّ وَادٍ بِحَسْبِهِ، فَهَذَا كَبِيرٌ وَسِعَ كَثِيرًا مِنْ  
الْمَاءِ، وَهَذَا صَغِيرٌ وَسِعَ بِقَدَرِهِ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْقُلُوبِ  
وَتَقَاوُيْهَا، فَمِنْهَا مَا يَسْعُ عِلْمًا كَثِيرًا، وَمِنْهَا مَنْ لَا يَسْعُ  
لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ بَلْ يَضِيقُ عَنْهَا ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾  
أَيْ فَجَاءَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الَّذِي سَالَ فِي هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ زَبَدٌ  
عَالٍ عَلَيْهِ، هَذَا مِثْلٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾...  
الْآيَةُ، هَذَا هُوَ الْمَثَلُ الثَّانِي، وَهُوَ مَا يُسَبِّكُ فِي النَّارِ مِنْ  
ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ، أَيْ لِيَجْعَلَ حِلْيَةً نَحَاسَ - أَوْ  
حَدِيدَ، فَيَجْعَلُ مَتَاعًا - فَإِنَّهُ يَغْلُوهُ زَبَدٌ مِنْهُ كَمَا يَغْلُو ذَلِكَ زَبَدٌ  
مِنْهُ ۖ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۖ أَيْ إِذَا اجْتَمَعَا، لَا ثَبَاتَ  
لِلْبَاطِلِ وَلَا دَوَامَ لَهُ، كَمَا أَنَّ الزَّبَدَ لَا يَثْبُتُ مَعَ الْمَاءِ وَلَا مَعَ  
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَنَحْوَهُمَا مِمَّا يُسَبِّكُ فِي النَّارِ، بَلْ يَذْهَبُ  
وَيُضْمَجَلُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أَيْ لَا  
يُتَنَفَّعُ بِهِ بَلْ يَتَفَرَّقُ وَيَتَمَرَّقُ، وَيَذْهَبُ فِي جَانِبِي الْوَادِي،  
وَيَعْلَقُ بِالشَّجَرِ، وَتَسْبِغُهُ الرِّيحُ، وَكَذَلِكَ خَبَثَ الذَّهَبِ  
وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ، يَذْهَبُ وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُ شَيْءٌ،  
وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْمَاءُ وَذَلِكَ الذَّهَبُ وَنَحْوُهُ. يُتَنَفَّعُ بِهِ. وَلِهَذَا

لأوامره، وَصَدَقُوا أَخْبَارَهُ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ، فَلَهُمْ ﴿الْحُسْنُ﴾ وَهُوَ الْجَزَاءُ الْحَسَنُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقُرْبَيْنِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٢١﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِمًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أَي لَمْ يُطِيعُوا اللَّهَ، ﴿لَوْ أَنك لَهْمَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَوْ أَنَّ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ، وَلَكِنْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرَفًا وَلَا عَدْلًا ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. أَي يُنَاقَشُونَ عَلَى التَّغْيِيرِ وَالْقُطْعِ، وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أُوْنَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلَّهِ﴾.

﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ﴾

الْأَلْبَابِ ﴿

[لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ]

يَقُولُ تَعَالَى لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الَّذِي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَا مِرْيَةَ، وَلَا لُبْسَ فِيهِ، وَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ، بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، لَا يُضَادُّ شَيْءٌ مِنْهُ شَيْئًا آخَرَ، فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ، وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَدْلٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَي صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ، فَلَا يَسْتَوِي مَنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئْتُ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، وَمَنْ هُوَ أَعْمَى لَا يَهْتَدِي إِلَىٰ خَيْرٍ وَلَا يَفْهَمُهُ، وَلَوْ فَهَمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ وَلَا صَدَقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ أَي أَفْهَذَا كَهَذَا؟ لَا اسْتِوَاءَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ﴾ أَي إِنَّمَا يَتَعَبَّرُ وَيَتَغَيَّرُ وَيَعْقِلُ أُولُو الْعُقُولِ السَّالِمَةِ الصَّالِحَةِ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ [٢١] وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا

[ذَكَرَ مَرِيدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ]

وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لِلْمُتَنَافِقِينَ مَثَلَيْنِ: نَارِيًا وَمَائِيًا، وَهَمَا قَوْلُهُ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾... الْآيَةِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَنَارٌ﴾ الْآيَةِ [البقرة: ١٨، ١٩]، وَهَكَذَا ضَرَبَ لِلْكَافِرِينَ فِي سُورَةِ النُّورِ مَثَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾... الْآيَةِ [النور: ٣٩]، وَالسَّرَابُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ: فَيَقَالُ لِلْيَهُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: أَي رَبَّنَا عَطِشْنَا فَاسْقِنَا. فَيَقَالُ: أَلَا تَرُدُّونَ؟ فَيَرُدُّونَ النَّارَ فَإِذَا هِيَ كَسَرَابٍ يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي الْمَثَلِ الْآخَرِ: ﴿أَوْ كَطُلُمٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ الْآيَةِ [النور: ٤٠] <sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَسْكَبَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا، وَرَعَوْا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْحَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ، فَعِلْمٌ وَعِلْمٌ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» <sup>(٢)</sup>. فَهَذَا مَثَلُ مَائِيٍّ. وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ - الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ - يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قَالَ -: فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا أَخِذْتُ بِحُجْرَتِكَ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي، فَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا» <sup>(٣)</sup>. وَآخَرُجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ أَيْضًا، فَهَذَا مَثَلُ نَارِيٍّ <sup>(٤)</sup>.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنك لَهْمَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَا أُوْنَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلَّهِ ﴿

[جَزَاءُ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَالِ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أَي أَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَانْقَادُوا

(١) فتح الباري: ٩٨/٨ ومسلم: ١٦٨/١ (٢) فتح الباري: ١/٢١١ ومسلم: ١٧٨٨/٤ (٣) أحمد: ٣١٢/٢ (٤) فتح الباري: ٣٢٣/١١ ومسلم: ١٧٩٠/٤



يُجْمَعُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحْبَابِهِمْ فِيهَا مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَهْلِيْنَ  
وَالْأَبْنَاءِ، وَمَنْ هُوَ صَالِحٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لِنَقَرٍ  
أَعْيُنُهُمْ بِهِمْ حَتَّى إِنَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتُهُ الْأَدْنَى إِلَى دَرَجَةِ الْأَعْلَى  
إِمْتِنَانًا مِنَ اللَّهِ وَإِحْسَانًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِصٍ لِلأَعْلَى عَنْ دَرَجَتِهِ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَفْظَةِ  
ذُرِّيَّتُهُمْ﴾... الآية [الطور: ٢١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (١٣) سَلَّمَ عَلَيْهِمْ  
بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عَقْبَى الدَّارِ، أَيْ وَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ  
هَهُنَا وَمِنْ هَهُنَا لِلتَّهْنِئَةِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَعِنْدَ دُخُولِهِمْ إِيَّاهَا  
تَفْدٍ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مُسْلِمِينَ، مُهَيَّئِينَ لَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ  
مِنْ اللَّهِ مِنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِنْعَامِ، وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ السَّلَامِ، فِي  
جَوَارِ الصَّادِقِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْكَرَامِ. وَرَوَى الْإِمَامُ  
أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ أَوَّلَ مَنْ  
يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.  
قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ: الْفُقَرَاءُ  
الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تَسُدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَتُنْقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ،  
وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً،  
فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: انْتَوَهُمْ فَحْيُوهُمْ،  
فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخَيْرَتُكَ مِنْ  
خَلْقِكَ، أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟ فَيَقُولُ:  
إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ  
الثُّغُورُ، وَتُنْقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي  
صَدْرِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً - قَالَ - : فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ  
عِنْدَ ذَلِكَ فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿سَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِمَا  
صَبَرْتُمْ فِعْمَ عَقْبَى الدَّارِ﴾»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ عَهْدُ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ  
بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ

الدَّارِ ﴿١٤﴾

[أَوْصَافُ الْأَشْقِيَاءِ الَّتِي تُوْدِي إِلَى اللَّعْنَةِ وَسُوءِ

الدَّارِ]

هَذَا حَالُ الْأَشْقِيَاءِ وَصِفَاتُهُمْ، وَذَكَرَ مَا لِيَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.  
وَمَصِيرُهُمْ إِلَى خِلَافِ مَا صَارَ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا أَنََّّهُمْ  
انْصَفُوا بِخِلَافِ صِفَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَأُولَئِكَ كَانُوا يُؤْفُونَ

أَمَرَ اللَّهِ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١٥﴾  
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ  
سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةً أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿١٦﴾  
جَنَّتْ عَنِ يَدْخُلُوهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ  
يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٧﴾ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عَقْبَى  
الدَّارِ ﴿١٨﴾

[أَوْصَافُ السَّعْدَاءِ الَّتِي تُوْدِي إِلَى الْجَنَّةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنِ انْصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ  
بِأَنَّ لَهُمْ عَقْبَى الدَّارِ، وَهِيَ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِمَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْيَمِينَ﴾ وَلَيْسُوا  
كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا عَاهَدَ أَحَدُهُمْ غَدَرُوا، وَإِذَا خَاصَمَ  
فَجَرَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اتَّخَمَ خَانَ ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا  
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ مِنْ صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ،  
وَالِى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاجِرِ، وَبَذَلَ الْمَعْرُوفِ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أَيْ فِيمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذَرُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، يُرَاقِبُونَ اللَّهَ  
فِي ذَلِكَ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَلِهَذَا  
أَمَرَهُمْ عَلَى السَّدَادِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ  
وَسَكَنَاتِهِمْ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ الْقَاصِرَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ ﴿وَالَّذِينَ  
صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتَمِ، فَطَقَمُوا  
أَنْفُسَهُمْ عَنْهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ  
﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بِحُدُودِهَا وَمَوَاقِيتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا  
وُخُشُوعِهَا، عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْصُوقِ ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا  
رَزَقْنَاهُمْ﴾ أَيْ عَلَى الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِنْفَاقُ لَهُمْ مِنْ  
زَوْجَاتٍ وَقَرَابَاتٍ وَأَجَائِبَ، مِنْ فُقَرَاءٍ وَمَحَاجِرٍ وَمَسَاكِينٍ  
﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أَيْ فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ، لَمْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ  
ذَلِكَ حَالٌ مِنَ الْأَحْوَالِ، أَنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ  
﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةً﴾ أَيْ يَذْفَعُونَ الْقَبِيحَ بِالْحَسَنِ،  
فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِالْجَمِيلِ صَبْرًا وَاحْتِمَالًا وَصَفْحًا  
وَعَفْوًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي  
يَبْنُكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٢) وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ  
صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: ٣٤، ٣٥]

وَلِهَذَا قَالَ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السَّعْدَاءِ الْمُتَصَفِينَ بِهَذِهِ  
الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ بِأَنَّ لَهُمْ عَقْبَى الدَّارِ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:  
﴿جَنَّتْ عَنِ يَدْخُلُونَ: الْإِقَامَةُ، أَيْ جَنَّتْ إِقَامَةُ يَدْخُلُونَ  
فِيهَا.

الْبُرْهَانُ

٢٥٣

سُورَةُ الرَّعْدِ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ  
مَآبٍ ﴿١٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ  
لِتَسْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ  
قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَآبٍ ﴿٢٠﴾  
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ خَلِقُ  
بِهِ الْإِنْسَانُ لَدَلَّ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الْبَشَرُ إِلَّا نَذِيرٌ  
أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ  
وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَشِرْتُ بِرُسُلِي  
مَنْ قَبْلِكَ فَأَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ  
عِقَابِ ﴿٢٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا  
لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ  
يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ  
السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢٤﴾

بِعَهْدِ اللَّهِ، وَيَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَهَؤُلَاءِ  
﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ  
أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: «آيَةُ  
الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا  
أُتِيَ بِخَبَرٍ» (١). وَفِي رَوَايَةٍ: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ  
فَجَرَ» (٢). وَلِهَذَا قَالَ: «وَأُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ» وَهِيَ الْإِبْعَادُ عَنِ  
الرَّحْمَةِ، «وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» وَهِيَ سُوءُ الْعَاقِبَةِ وَالْمَالِ،  
«وَمَا أُنَبِّئُهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْهَادِ» [الرعد: ١٨].

«اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا لِلْآخِرَةِ  
الَّذِينَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ» ﴿٢٦﴾  
[السَّعَةِ فِي الرِّزْقِ وَالْقُرْبَى بَيْنَ اللَّهِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوسِّعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ،  
وَيُقْتَرُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ،  
وَفَرَحَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا - اسْتِدْرَاجًا  
لَهُمْ وَإِثْمَالًا - كَمَا قَالَ: «يَتَحَسَّبُونَ أَنَّمَا نُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ  
وَبَيْنَ» ﴿٢٥﴾ شَاعِرٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَتَفَعَّلُونَ [المؤمنون:  
٥٦، ٥٥] ثُمَّ حَضَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَدَّخَرَهُ تَعَالَى  
لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَقَالَ: «وَمَا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ» كَمَا قَالَ: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ  
خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَطْلُمُونُ فَنِيلًا» [النساء: ٧٧] وَقَالَ: «بَلْ  
تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» ﴿٢٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» [الأعلى:  
١٦، ١٧]. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُسْتَوْدِدِ أَبِي بَنِي فِهْرٍ  
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا  
يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَنْ تَرَجِعُ»  
وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ (٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٤). وَفِي  
الْحَدِيثِ الْآخَرِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَ مَيْتٍ  
- وَالْأَسَكُ: الصَّغِيرُ الْأَذُنَيْنِ - فَقَالَ: «وَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ  
عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَى أَهْلِهِ حِينَ أَلْقَوْهُ» (٥).

«وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ  
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ  
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَبْلِ الْمُشْرِكِينَ «لَوْلَا» أَيْ هَلَا «أُنْزِلَ  
عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ»، كَقَوْلِهِمْ «فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ  
الْأَوَّلُونَ» [الأنبياء: ٥٠]. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ،

وَأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى إِجَابَةِ مَا سَأَلُوا، وَفِي الْحَدِيثِ: إِنَّ اللَّهَ  
أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ - لَمَّا سَأَلُوهُ أَنْ يُحَوِّلَ لَهُمُ الصَّافَا ذَهَبًا،  
وَأَنْ يُجَرِّيَ لَهُمْ يَنْبُوعًا، وَأَنْ يُرِيحَ الْجِبَالَ مِنْ حَوْلِ مَكَّةَ،  
فَيَصِيرُ مَكَانُهَا مَرْوَجٌ وَبَسَاتِينٌ -: إِنَّ شَيْئًا يَا مُحَمَّدُ  
أَعْطَيْتَهُمْ ذَلِكَ، فَإِنْ كَفَرُوا أَعَذَّبُهُمْ عَذَابًا لَا أَعَذَّبُهُ أَحَدًا مِنَ  
الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ،  
فَقَالَ: «بَلْ تَنْتَحِلُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ» (٦). وَلِهَذَا قَالَ  
لِرَسُولِهِ: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ»  
أَيْ هُوَ الْمُضِلُّ وَالْهَادِي سَوَاءٌ بَعَثَ الرُّسُولَ بِآيَةٍ عَلَى وَفَى  
مَا اقْتَرَحُوا أَوْ لَمْ يُجِبْهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ، فَإِنَّ الْهَدَايَةَ  
وَالْإِضْلَالَ لَيْسَ مَتَوَطًا بِذَلِكَ وَلَا عَدَمِهِ، كَمَا قَالَ: «وَمَا  
تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» [يونس: ١٠١] وَقَالَ:  
«إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ» ﴿٢٩﴾ وَلَوْ

(١) فتح الباري: ١/١١١ (٢) فتح الباري: ١/١١١ (٣)

أحمد: ٢٢٨/٤ (٤) مسلم: ٢١٩٣/٤ (٥) مسلم: ٢٩٥٧

(٦) أحمد: ٢٤٢/١

الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٠﴾  
[مما بُعِثَ بِهِ نَبِيْنَا ﷺ، تِلَاوَةً مَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ، وَالذَّعْوَةُ إِلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أَيُّ تَبْلُغُهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْكَافِرَةِ بِاللَّهِ، وَقَدْ كَذَّبَ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِكَ فَلَيْكَ بِهِمْ أُسْوَةٌ، وَكَمَا أَوْفَعْنَا بَأْسَنَا وَنَفَعْنَا بِأَوْلِيكَ، فَلْيَحْذَرِ هَؤُلَاءِ مِنْ حُلُولِ النَّقَمِ بِهِمْ، فَإِنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَكَ أَشَدُّ مِنْ تَكْذِيبِ غَيْرِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثَالِثًا لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الْآيَةَ [النحل: ٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] أَيُّ كَيْفَ نَصَرْنَاهُمْ، وَجَعَلْنَا الْعَاقِبَةَ لَهُمْ وَلِاتِّبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أَيُّ هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثْنَاكَ فِيهِمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ لَا يُقْرُونَ بِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتِفُونَ مِنْ وَصْفِ اللَّهِ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلِهَذَا أَيْفَوْا يَوْمَ الْحُدُوبِ أَنْ يَكْتُبُوا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَقَالُوا: مَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. قَالَهُ قَتَادَةُ<sup>(٩)</sup>. وَالْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ<sup>(١٠)</sup>. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَبًا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»<sup>(١١)</sup>. ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي تَكْفُرُونَ بِهِ، أَنَا مُؤْمِنٌ بِهِ مُعْتَرِفٌ، مُقَرِّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ أُمُورِي، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ أَيُّ إِلَيْهِ أَرْجِعُ وَأُتِيبُ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ﴾  
(١) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٢) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٣) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٤) البغوي: ١٨/٣ (٥) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٦) الطبري: ٤٣٥/١٦ (٧) البخاري: ٦٥٥٢ ومسلم: ٢٨٢٧ (٨) مسلم: ١٩٩٤/٤ (٩) الطبري: ٤٤٦/١٦ (١٠) فتح الباري: ٣٩٠/٥ (١١) مسلم: ١٦٨٢/٣

جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَى النَّارِ لَنَاصِبًا وَسُجُنًا وَنَحْرًا عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ قَبِلًا مَا كَانُوا يَلْمِزُونَنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ لَيْسَ اللَّهُ بِضِلٍّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ أَيُّ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ إِلَى اللَّهِ وَرَجَعَ إِلَيْهِ وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَضَرَّعَ لَدَيْهِ.

[طُمَأْنِينَةً قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِذِكْرِ اللَّهِ]  
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَيُّ تَطْيِبُ وَتَزْكُنُ إِلَى جَانِبِ اللَّهِ، وَتَسْكُنُ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَتَرْضَى بِهِ مَوْلَى وَنَصِيرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أَيُّ هُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ.

[بَيَانُ طُوبَى]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَتَابٌ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَرَحَ وَقُرَّةُ عَيْنٍ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نِعْمَ مَالُهُمْ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: غِبْطَةٌ لَهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: خَيْرٌ لَهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ، يَقُولُ الرَّجُلُ: طُوبَى لَكَ، أَيُّ أَصَبْتَ خَيْرًا<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ فِي رَوَايَةٍ: ﴿طُوبَى لَهُمْ حُسْنَى لَهُمْ﴾<sup>(٦)</sup>. ﴿وَحَسُنَ مَتَابٌ﴾ أَيُّ مَرْجِعٌ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، لَا مُتَافَاةَ بَيْنَهَا.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ جَمِيعًا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا» قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهِ التَّعْمَانَ بْنَ أَبِي عَيَّاشٍ الزُّرْقِيَّ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ الْجَوَادُ الْمُضْمَرُّ السَّرِيعُ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا»<sup>(٧)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسَآئِلَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمُخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي الْبَحْرِ»<sup>(٨)</sup>. ... الْحَدِيثُ بِطَوِيلِهِ، وَقَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُقَالُ لَهَا: طُوبَى. لَهَا ضُرُوعٌ، كُلُّهَا تُرْضِعُ صَبِيَّانَ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ سِفْطَ الْمَرْأَةِ يَكُونُ فِي نَهْرٍ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يُتَقَلَّبُ فِيهِ حَتَّى تَقُومَ الْقِيَامَةُ، فَيُبْعَثُ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِنَتْلُوَا عَلَيْهِمْ

الْقَصْلُ، لَيْسَ بِالْهَزْلُ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ لَا يَصْنَعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا شَاءَ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلْ<sup>(٤)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ بِسَنَدِهِ عَنْهُ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ أَيُّ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لَا تَزَالُ الْقَوَارِعُ تُصِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا أَوْ تُصِيبُ مَنْ حَوْلَهُمْ، لِيَتَعَطَّوْا وَيَعْتَبِرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٧] وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَنْثَرِ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾. [الأنبياء: ٤٤] قَالَ قَتَادَةُ عَنِ الْحَسَنِ: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ أَيُّ الْقَارِعَةِ<sup>(٥)</sup> وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً﴾ قَالَ: عَذَابٌ مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ يَعْنِي نَزُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ وَقَالَ إِيَّاهُمْ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ فِي رَوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿قَارِعَةً﴾ أَيُّ نَكْبَةٍ. وَكُلُّهُمْ قَالَ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يَعْنِي فَتَحَ مَكَّةَ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أَيُّ لَا يَنْقُصُ وَعْدَهُ لِرُسُلِهِ بِالْخُصْرَةِ لَهُمْ وَلَا تَبَاعُثُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣١﴾

[تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أَيُّ فَلَكَ فِيهِمْ أَسُوءَةٌ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ أَنْظَرْتُهُمْ وَأَجَلْتُهُمْ، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أَخَذَةً رَابِيَةً، فَكَيْفَ بَلَغَكَ مَا صَنَعْتَ بِهِمْ وَعَاقِبْتُهُمْ وَأَمَلَيْتُ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَيْتُ هَآ وَهِيَ ظَالِمَةٌ لِمَ أَخَذْتُهَا وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى

الْمَوْتِ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

[فَضْلُ الْقُرْآنِ وَجُحُودُ الْكُفَّارِ بِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مَا دِحًا لِلْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَمُقْضًى لَهُ عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ قَبْلَهُ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أَيُّ لَوْ كَانَ فِي الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ كِتَابٌ تُسَيَّرُ بِهِ الْجِبَالُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، أَوْ تُقَطَّعُ بِهِ الْأَرْضُ وَتَنْشَقُّ، أَوْ تُكَلَّمُ بِهِ الْمَوْتَى فِي قُبُورِهَا، لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ، أَوْ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِعْجَازِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ وَالْجِنُّ عَنْ آخِرِهِمْ إِذَا اجْتَمَعُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ لِأَنَّ الْمُشْرِكُونَ كَافِرُونَ بِهِ، جَاحِدُونَ لَهُ ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أَيُّ مَرْجِعُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ.

وَقَدْ يُطْلَقُ اسْمُ الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، لِأَنَّهُ مُسْتَقْتٌ مِنَ الْجَمِيعِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَفَقْتُ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةَ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ تُسْرَجَ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ»<sup>(١)</sup>. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ<sup>(٢)</sup>. وَالْمُرَادُ بِالْقُرْآنِ هُوَ الزَّبُورُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيُّ مِنْ إِيْمَانِ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَيَعْلَمُوا، أَوْ يَتَّبِعُوا ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ حُجَّةٌ وَلَا مُعْجَزَةٌ أَبْلَغُ وَلَا أَنْجَعُ فِي الْعُقُولِ وَالنَّفُوسِ، مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي لَوْ أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتُهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ. وَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>. مَعْنَاهُ: أَنَّ مُعْجَزَةَ كُلِّ نَبِيٍّ انْفَرَضَتْ بِمَوْجِبِهِ، وَهَذَا الْقُرْآنُ حُجَّةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى الْآبَادِ، لَا تَنْقُضِي عَجَازَتَهُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَسْبُعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، هُوَ

(١) أحمد: ٣١٤/٢ (٢) فتح الباري: ٢٤٨/٨ (٣) فتح

الباري: ٦١٩/٨ (٤) الطبري: ٤٤٧/١٦ (٥) الطبري: ١/١٦

إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُوا لَكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].<sup>(١)</sup>

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظِهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [٣٢].

[لا اشتراك بين الله وبين الهة المشركين بوجه من الوجوه]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ أَمْ يَحِيطُ عَلَيْهِمْ رَقِيبٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ مَفْهُوسَةٍ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَلَا يُخْفِي عَلَيْهِ خَافِيَةٌ﴾ [وما تكون في شأنٍ وما تتلون منه من قرآنٍ ولا تعملون من عملٍ إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه] [يونس: ٦١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْطِفُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] وَقَالَ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِثْمِهِ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ الْغِيْثَ وَخَفَى طُهُ: ٧﴾ وَقَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠] أَفَمَنْ هُوَ كَذَلِكَ كَالْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، لَا تَسْمَعُ وَلَا تَبْصُرُ، وَلَا تَعْقِلُ، وَلَا تَمْلِكُ نَفْعًا لِنَفْسِهَا وَلَا لِعَابِدِيهَا، وَلَا كَشَفَ ضُرِّ عَنْهَا وَلَا عَنْ عَابِدِيهَا؟ وَحَذَفَ هَذَا الْجَوَابُ الْكِتَابَ بِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أَيُّ عَبْدُوهَا مَعَهُ مِنْ أَصْنَامٍ وَأَنْدَادٍ وَأَوْتَانٍ ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أَيُّ أَعْلَمُونَا بِهِمْ، وَاشْفِئُوا عَنْهُمْ حَتَّى يُعْرِفُوا، فَإِنَّهُمْ لَا حَقِيقَةَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ لَا وُجُودَ لَهُ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ وُجُودٌ فِي الْأَرْضِ لَعَلِمَهَا، لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿أَمْ يَبْظِهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَظُنُّ مِنَ الْقَوْلِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ الصَّحَّاحُ وَقَفَادَةُ: يَبْاطِلُ مِنَ الْقَوْلِ<sup>(٣)</sup>. أَيُّ إِنَّمَا عَبْدْتُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ يَظُنُّ مِنْكُمْ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ، وَسَمِّئُوهَا آلِهَةً ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَشْهُمًا وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَبْتَغُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] ﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: قَوْلُهُمْ<sup>(٤)</sup> أَيُّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [٣٥] وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ [٣٦] وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ [٣٧] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ [٣٨] يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ [٣٩] وَإِنْ مَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ [٤٠] أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعٌ الْحِسَابِ [٤١] وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ الْعِلْمُ الْكَفْرَ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ [٤٢]

الضَّلَالِ وَالذَّغْوَةِ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ عَنْهُمْ قُرْآنَهُمْ فَرَيْنَا لَهُمْ...﴾ [الآية: فصلت: ٢٥]، ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ مَنْ قَرَأَهَا يَفْتَحُ الصَّادَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمَّا زَيْنَ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ: دَعَوْا إِلَيْهِ، وَصُدُّوا النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الرُّسُلِ. وَمَنْ قَرَأَهَا بِالضَّمِّ، أَيُّ: بِمَا زَيْنَ لَهُمْ مِنْ صِحَّةٍ مَا هُمْ عَلَيْهِ، صُدُّوا بِهِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يُرِيدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] وَقَالَ: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحُورِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [٣٥] مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى

(١) فتح الباري: ٢٥٥/٨ ومسلم: ١٩٩٧/٤ (٢) الطبري:

٤٦٦/١٦ (٣) الطبري: ٤٦٦/١٦ (٤) الطبري: ٤٦٧/١٦

## الْكَافِرِينَ النَّارَ ﴿٣٦﴾

[بَيَانُ عِقَابِ الْكُفَّارِ وَجَزَاءِ الْأَبْرَارِ]

ذَكَرَ تَعَالَى عِقَابَ الْكُفَّارِ وَثَوَابَ الْأَبْرَارِ، فَقَالَ بَعْدَ إِخْبَارِهِ عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ قَتْلًا وَأَسْرًا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ الْمُدْحَرِّمِ هَذَا الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا ﴿أَشَقُّ﴾ أَيُّ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِنِينَ: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»<sup>(١)</sup>. وَهُوَ كَمَا قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَهُ انْقِصَاءٌ، وَذَلِكَ دَائِمٌ أَبَدًا فِي نَارِ هِيَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ سَبْعُونَ ضِعْفًا، وَوَنَاقٌ لَا يَتَصَوَّرُ كَثَافَتَهُ وَشِدَّتَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عِلَابَهُ أَحَدٌ﴾ (٥٥) وَلَا يُؤْتِقُ وَاقَهُ أَحَدٌ ﴿[الفجر: ٢٥، ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (٥٦) إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا نَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ (٥٧) وَإِذَا أَلْفَوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (٥٨) لَا نَدْعُوا أَلْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ (٥٩) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَصِيرًا ﴿[الفرقان: ١١-١٥] وَلِهَذَا قَرَنَ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أَيُّ صِفَتِهَا وَنَعْتِهَا ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيُّ سَارِحَتِهَا فِي أَرْجَائِهَا وَجَوَائِبِهَا، وَحَيْثُ شَاءَ أَهْلُهَا يُفَجَّرُونَهَا تَفْجِيرًا، أَيُّ يَصْرِفُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا وَأَيَّنَ شَاءُوا، كَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ... الْآيَةُ [محمد: ١٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَكُلُوا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أَيُّ فِيهَا الْفَوَاحِشُ وَالْمَطَاعِمُ وَالْمَشَارِبُ لَا انْقِطَاعَ [لَهَا] وَلَا فَنَاءً، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، وَفِيهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَحَكَّعْتَ، فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ - أَوْ أُرَيْتُ الْجَنَّةَ - فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُمْ لَأَكَلْتُمْ مِنْهَا مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا»<sup>(٢)</sup>.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ [فِيهَا] وَيَسْرُبُونَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، طَعَامُهُمْ جُشَاءٌ كَرِيحِ الْمِسْكِ، وَيُلْهَمُونَ النَّسِيجَ وَالتَّقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ ثُمَامَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، تَزْعُمُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَسْرُبُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ وَالشَّهْوَةِ». قَالَ: إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَسْرُبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ، وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ أَذَى؟ قَالَ: «تَكُونُ حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رَشْحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ كَرِيحِ الْمِسْكِ فَيَضُمُّ بَطْنَهُ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٤)</sup>.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَفَكَهَمُوا كَيْفَ﴾ (٣٦) لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ ﴿[الواقعة: ٣٢، ٣٣] وَقَالَ: ﴿وَدَائِمَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَطْرُفُهَا نَدِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] وَكَذَلِكَ ظِلُّهَا لَا يَزُولُ وَلَا يَقْلُصُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَسَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وَكَثِيرًا مَا يَفْرُقُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ صِفَةِ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ النَّارِ لِيُرْغَبَ فِي الْجَنَّةِ وَيُحْذَرَ مِنَ النَّارِ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ صِفَةَ الْجَنَّةِ بِمَا ذَكَرَ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَلَاكُ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُفْوَى الْكَافِرِينَ النَّارُ». كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُبْهِتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَهٌ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَصِيرٌ﴾ (٣٦) وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَكِنْ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَهُ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

## وَأَبِ ﴿٣٧﴾

[يَفْرَحُ الصَّادِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لَتَصْدِيقِ كُتُبِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وَهُمْ قَائِمُونَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى صِدْقِهِ وَالْإِشَارَةِ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾... الْآيَةُ [البقرة: ١٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أَيُّ إِنْ كَانَ مَا وَعَدْنَا

(١) مسلم: ١١٣١/٢ (٢) فتح الباري: ٢٧١/٢ ومسلم: ٢/

٦٢٦ (٣) مسلم: ٢٨٣٥ (٤) أحمد: ٣٦٧/٤

رَغِبَ عَنْ سِتْنِي فَلَيْسَ مِنِّي»<sup>(٢)</sup>.

[الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ لَيْسَ مِنْ مُسْتَطَاعِ الرَّسُولِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَيُّ لَمْ يَكُنْ يَأْتِي قَوْمَهُ بِخَارِقٍ إِلَّا إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، بَلْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أَيُّ لِكُلِّ مُدَّةٍ مَضْرُوبَةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ بِهَا، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [الحج: ٧٠].

[مَا يُمَحَى وَيُزَالُ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ]

﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا﴾ وَيُنِثُّ بِغَضِي: حَتَّى نُسِخَتْ كُلُّهَا بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنِثُّ﴾ إِلَّا الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، وَالشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ فَإِنَّهُمَا لَا يَتَغَيَّرَانِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مَنْصُورٌ: سَأَلْتُ مُجَاهِدًا، فَقُلْتُ: أَرَأَيْتَ دُعَاءَ أَحَدِنَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنْ كَانَ اسْمِي فِي السَّعْدَاءِ فَأُثْبِتْهُ فِيهِمْ، وَإِنْ كَانَ فِي الْأَشْقِيَاءِ فَامْحُ عَنَّهُمْ، وَاجْعَلْهُ فِي السَّعْدَاءِ؟ فَقَالَ: حَسَنٌ. ثُمَّ لَقِيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحَوْلٍ أَوْ أَكْثَرٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾... [الآيَتَيْنِ [الدخان: ٤٣، ٤٤]، قَالَ: يُقْضَى فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ مِنْ رِزْقٍ أَوْ مُصِيبَةٍ، ثُمَّ يُقَدَّمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخَّرُ مَا يَشَاءُ، فَأَمَّا كِتَابُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فَهُوَ ثَابِتٌ لَا يُغَيَّرُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ: إِنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ كَتَبْتَنِي أَشْقِيَاءَ، فَامْحُ وَاكْتُبْنِي سَعْدَاءَ، وَإِنْ كُنْتُ كَتَبْتَنِي سَعْدَاءَ فَأُثْبِتْنِي، فَإِنَّكَ تَمَحُو مَا تَشَاءُ وَتُنِثُّ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ<sup>(٥)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَرَوَى نَحْوُ مِنْ هَذَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَابْنِ مَسْعُودٍ. وَمَعْنَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ: أَنَّ الْأَقْدَارَ يَنْسَخُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا، وَيُنِثُّ مِنْهَا مَا يَشَاءُ، وَقَدْ يُسْتَأْنَسُ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْرَمُ الرِّزْقَ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرُ إِلَّا

اللَّهُ بِهِ فِي كُتُبِنَا مِنْ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَحَقًّا وَصِدْقًا مَفْعُولًا لَا مَحَالَةَ، وَكَائِنًا، فَسُبْحَانَهُ مَا أَصْدَقَ وَعْدَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَحْدَهُ» وَيَحْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُوتُ وَيَزِيدُهُنَّ خُشُوعًا» [الإسراء: ١٠٨، ١٠٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ الْآخِرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ أَيُّ وَمِنَ الطَّوَائِفِ مَنْ يَكْذِبُ بِبَعْضِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَمِنَ الْآخِرَابِ﴾ أَيُّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ أَيُّ بَعْضَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾... [الآيَةِ [آل عمران: ١٩٩]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ﴾ أَيُّ إِنَّمَا بُعِثْتُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا أُرْسِلُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ أَيُّ إِلَى سَبِيلِهِ أَدْعُو النَّاسَ ﴿وَلِلَّهِ مَتَابٌ﴾ أَيُّ مَرْجِعِي وَمَصِيرِي.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أَيُّ وَكَمَا أُرْسَلْنَا قَبْلَكَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ مِنَ السَّمَاءِ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحْكَمًا مُعَرَّبًا، شَرَفْنَاكَ بِهِ، وَفَضَّلْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيُّ آرَاءَهُمْ ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أَيُّ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ وَهَذَا وَعِيدٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعُوا سُبُلَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ بَعْدَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ سُلُوكِ السُّنَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْمَحَجَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [٢٨] يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنِثُّ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ [٢٩]

[الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا بَشَرًا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولًا بَشَرِيًّا، كَذَلِكَ قَدْ بَعَثْنَا الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ بَشَرًا، يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَأْتُونَ الزَّوْجَاتِ، وَيُولَدُ لَهُمْ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِأَشْرَفِ الرُّسُلِ وَخَاتَمِهِمْ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ

(١) الطبري: ٤٧٤/١٦ (٢) فتح الباري: ٥/٩ ومسلم: ٢/

١٠٢٠ (٣) الطبري: ٤٧٩/١٦ (٤) الطبري: ٤٨٠/١٦ في

إسناده محمد بن حميد الرازي تقدم حاله. لكن بدون هذا اللفظ

ثابت عن مجاهد وغيره عند الطبري (٥) الطبري: ٤٨١/١٦

الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبُرُ» وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(١)</sup>.

وَبَيَّنْتُ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ صِلَةَ الرَّجْمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ<sup>(٢)</sup>.  
وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْقَضَاءَ لَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «يَمَحُوهُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُبَيِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» يَقُولُ: هُوَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ الزَّمَانَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ثُمَّ يَعُودُ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَيَمُوتُ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَهُوَ الَّذِي يَمَحُو، وَالَّذِي يُبَيِّتُ، الرَّجُلُ يَعْمَلُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَقَدْ كَانَ سَبَقَ لَهُ خَيْرٌ حَتَّى يَمُوتَ وَهُوَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَهُوَ الَّذِي يُبَيِّتُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهَا بِمَعْنَى: «فَيَعْمُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»<sup>(٤)</sup> [البقرة: ٢٨٤].

«وَأَنْ مَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ»<sup>(٥)</sup> أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَفَيْهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ. وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ<sup>(٦)</sup>.  
[عَلَى الرُّسُولِ الْبَلَاغُ وَعَلَى اللَّهِ الْحِسَابُ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: «وَأَنْ مَا تُرِيكَ» يَا مُحَمَّدُ، بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّ أَغْدَاءَكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالتَّكَالُفِ فِي الدُّنْيَا «أَوْ نَتَوَقَّعُكَ» أَيْ قَبْلَ ذَلِكَ، «فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ» أَيْ إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ لِتُبَلِّغَهُمْ رِسَالَاتِ اللَّهِ، وَقَدْ فَعَلْتَ مَا أُمِرْتَ بِهِ «وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» أَيْ حِسَابُهُمْ وَجَزَائُهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْكَرٌ»<sup>(٧)</sup> لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ<sup>(٨)</sup> إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ<sup>(٩)</sup> فَعِدَّتُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ<sup>(١٠)</sup> إِنَّ إِيَّانَا يَابِسُ<sup>(١١)</sup> ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية: ٢١-٢٦] وَقَوْلُهُ: «أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَفَيْهَا» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَفْتَحُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ الْأَرْضَ بَعْدَ الْأَرْضِ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ ظُهُورُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ<sup>(١٣)</sup>. كَقَوْلِهِ: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى»... [الآية [الأحقاف: ٢٧].

«وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَنَسِيعُهُمُ الْكَفْرُ لِمَنْ عَفَى عَنِ الدَّارِ»<sup>(١٤)</sup>.

[مَكَرَ الْكُفَّارُ وَالْوَعِيدُ عَلَى ذَلِكَ]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» بِرُسُلِهِمْ، وَأَرَادُوا إِخْرَاجَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ، فَمَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، كَقَوْلِهِ: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ

أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِكِينَ» [الأنفال: ٣٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»<sup>(١٥)</sup> فَنَظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [الأنبياء: ٥٠، ٥١]. وَقَوْلُهُ: «يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ» أَيْ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِجَمِيعِ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. (وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ)، وَالْقِرَاءَةُ الْأُخْرَى: «الْكَفَرُ» [لِمَنْ عَفَى الدَّارَ] أَيْ لِمَنْ تَكُونُ الدَّائِرَةُ وَالْعَاقِبَةُ، لَهُمْ أَوْ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ؟ كَلَّا، بَلْ هِيَ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

«وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ»<sup>(١٦)</sup>.

[الْأَسْتِشْهَادُ بِعِلْمِ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلرَّسَالَةِ]

[الْمُحَمَّدِيَّةُ]

يَقُولُ تَعَالَى: يُكَذِّبُكَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ وَيَقُولُونَ: «لَسْتَ مُرْسَلًا» أَيْ مَا أَرْسَلَكَ اللَّهُ «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» أَيْ حُسْبِيَ اللَّهُ، هُوَ الشَّاهِدُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ. شَاهِدٌ عَلَيَّ فِيمَا بَلَّغْتُ عَنْهُ مِنَ الرَّسَالَةِ، وَشَاهِدٌ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ فِيمَا تَقْتَرُونَهُ مِنَ الْبُهْتَانِ. وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ». قِيلَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ<sup>(١٧)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ غَرِيبٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ إِنَّمَا أَسْلَمَ فِي أَوَّلِ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَالْأَظْهَرُ فِي هَذَا مَا قَالَهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى<sup>(١٨)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: مِنْهُمْ ابْنُ سَلَامٍ وَسَلْمَانُ وَتَمِيمُ الدَّارِيُّ<sup>(١٩)</sup>.

وَالصَّحِيحُ فِي هَذَا: أَنَّ «وَمَنْ عِنْدَهُ» اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَجِدُونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتَهُ فِي كُتُبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ بَشَارَاتِ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ»<sup>(٢٠)</sup> الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرُّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمْرَ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... [الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] وَقَالَ تَعَالَى:

(١) أحمد: ٢٧٧/٥، وابن ماجه: ٩٠ (٢) مسلم: ٢٥٥٧ (٣)

الطبري: ٤٨٣/١٦ حال العوفي تقدم (٤) القرطبي: ٣٣١/٩

(٥) الطبري: ٤٩٣/١٦ (٦) الطبري: ٤٩٤/١٦ (٧) الطبري:

٥٠٢/١٦ (٨) الطبري: ٥٠٢/١٦ (٩) الطبري: ٥٠٣/١٦



﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٧]، وَأَمَّا ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ الْإِخْبَارُ عَنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مِنْ كُتُبِهِمُ الْمُتَرْتِلَةِ.   
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّعْدِ، وَ اللَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير سورة إبراهيم - عليه السلام - وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ١ ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ٢ ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ٣ ﴿[التَّعْرِيفُ بِالْقُرْآنِ وَمَقْصُودُهُ وَالْوَيْلُ لِمَنْ خَالَفَهُ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أَيْ هَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ كِتَابِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ، عَلَى أَشْرَفِ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِهَا عَرَبِيَّهِمْ وَعَجَبِيَّهِمْ ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَيْ إِنَّمَا بَعَثْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِهَذَا الْكِتَابِ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعَيِّ إِلَى الْهُدَى وَالرُّشْدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ عَائِتٍ يَنْتَهِ لِيُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ الآية [الحديد: ٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ هُوَ الْهَادِي لِمَنْ قُدِّرَ لَهُ الْهُدَايَةُ عَلَى يَدَيِ رَسُولِهِ الْمُبْعُوثِ عَنْ أَمْرِهِ: يَهْدِيهِمْ ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ أَيْ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُغَالَبُ، بَلْ هُوَ الْفَاهِرُ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ ﴿الْحَمِيدِ﴾ أَيْ الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ الصَّادِقِ فِي خَبَرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ مُسْتَأْنَفًا مَرْفُوعًا، وَقَرَأَ آخَرُونَ عَلَى الْإِثْبَاعِ، صِفَةً لِلْجَلَالَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِيَّي رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾

سُورَةُ الْإِبْرَاهِيمِ

٢٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٣﴾

## سُورَةُ الْإِبْرَاهِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ١ ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ٢ ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ٣ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٤ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ ٥ ﴿اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَةٌ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ٦

الآيَةُ [الأعراف: ١٥٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أَيْ وَتِلْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ خَالَفُواكَ يَا مُحَمَّدُ وَكَذَّبُوكَ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، أَيْ يَفْضَلُونَهَا وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَيْهَا وَيَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا، وَنَسُوا الْآخِرَةَ وَتَرَكُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَهِيَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ وَيُحِبُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُ اللَّهِ عِوَجًا: مَائِلَةً عَائِلَةً، وَهِيَ مُسْتَقِيمَةٌ فِي نَفْسِهَا لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا، وَلَا مَنْ خَذَلَهَا، فَهُمْ فِي ابْتِغَائِهِمْ ذَلِكَ فِي جَهْلِ وَضَلَالٍ بَعِيدٍ مِنَ الْحَقِّ، لَا يُرْجَى لَهُمْ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - صَلَاحٌ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٤ ﴿كُلُّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لَتَكُونَ الْهُدَايَةُ أَوْ الضَّلَالُ

بَعْدَ تَبْيِينِهِ

هَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ، لِيَفْهَمُوا عَنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ، وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ،

سورة إبراهيم

٢٥٦

سورة إبراهيم

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا قَانُوا بِسُلْطَانِ مُبِينٍ ﴿١٠﴾

السَّراء، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: نِعَمَ الْعَبْدُ عَبْدٌ إِذَا ابْتَلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»<sup>(٤)</sup>.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى حِينَ ذَكَرَ قَوْمَهُ بِأَيَّامِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ أَنْجَاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَمَا كَانُوا

وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ بَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الْهُدَى، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَفْعَالِهِ، فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِدَلِّكَ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ: أَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي أُمَّةٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَلْغَتِهِمْ، فَاخْتَصَّ كُلَّ نَبِيٍّ بِإِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ إِلَى أُمَّتِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَاخْتَصَّ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعُمُومِ الرِّسَالَةِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ حَمَسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةً، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَيُبعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُ إِتَى فِي ذَلِكَ لَا يَنْبَ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿٥﴾ [بَعَثَهُ يُوسُفَ وَوَعِظَهُ لِقَوْمِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، تَدْعُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا مُوسَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِآيَاتِنَا، قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ السُّنْعُ الْآيَاتُ ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أَيُّ أَمْرَانَهُ قَائِلِينَ لَهُ ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَيُّ ادْعُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ لِيُخْرِجُوا مِنَ ظُلُمَاتِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَبَصِيرَةِ الْإِيمَانِ، وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ أَيُّ بِآيَاتِهِ وَنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ وَظُلْمِهِ وَعَشْمِهِ، وَإِنْجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَذَابِهِمْ، وَلَقِيَهُ لَهُمُ الْبَحْرُ، وَتَطْيِيلُهُ إِيَّاهُمْ بِالْعَمَامِ، وَإِنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ. قَالَ ذَلِكَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَيُّ إِنْ فِيهَا صَعْنًا بِأَوَّلِيَّاتِنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ أَنْقَذْنَاهُمْ مِنْ يَدِ فِرْعَوْنَ، وَأَنْجَيْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، لَعِبْرَةٌ لِكُلِّ ﴿صَبَّارٍ﴾ أَيُّ فِي الضَّرَاءِ ﴿شَكُورٍ﴾ أَيُّ فِي

(١) فتح الباري: ١/١٩٥، ١/٣٧٠ (٢) الطبري: ١٦/

٥٢١ (٣) الطبري: ١٦/٥٢٣ (٤) مسلم: ٤/٢٢٩٥

أَرْسَلْنَاهُ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١﴾  
[تَكْذِيبُ الْأُمَمِ لِرُسُلِهِمْ وَمَا دَارَ بَيْنَهُمْ]

هذا خبرٌ مُسْتَأْنَفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، فَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ قَصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكْذِبَةِ لِلرُّسُلِ مِمَّا لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالْحُجَجِ وَالِدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ الْبَاهِرَاتِ الْقَاطِعَاتِ. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ (٣) عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ كَذَبَ النَّسَابُونَ (٤). وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: مَا وَجَدْنَا أَحَدًا يَعْرِفُ مَا بَعْدَ مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ (٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ أَشَارُوا إِلَى أَفْوَاهِ الرُّسُلِ بِأَمْرِهِمْ بِالسُّكُوتِ عَنْهُمْ لَمَّا دَعَوْهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقِيلَ: بَلْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ تَكْذِيبًا لَهُمْ. وَقِيلَ: بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ سُكُوتِهِمْ عَنْ جَوَابِ الرُّسُلِ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ: غَضُّوا عَلَيْهَا غِظًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَقَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ كَذَّبُوهُمْ وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ (٦). قُلْتُ: وَيُؤَيِّدُ مُجَاهِدًا تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِتَمَامِ الْكَلَامِ ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ عَجِبُوا وَرَجَعُوا بِأَيْدِيَهُمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ (٧) ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ﴾... الْآيَةُ، يَقُولُونَ: لَا نَصْدُقُكُمْ فِيمَا جِئْتُمْ بِهِ، فَإِنَّ عِنْدَنَا فِيهِ شَكًّا قَوِيًّا.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أُنثَىٰ شَيْءٍ نَّهْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ بَعِيدًا أَبَاؤُنَا فَأَنُوتَا يُسْلَطْنَ يُسِيبُ﴾ (٨) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تَأْتِيَكُمْ يُسْلَطْنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٩) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

يَسْمُومُونَهُمْ بِهِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْإِذْلَالِ، حَيْثُ كَانُوا يَدْعُونَ مَنْ وَجَدَ مِنْ أُنْبَاءِهِمْ، وَيَتْرُكُونَ إِنَائَهُمْ، فَانْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أَيْ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ، أَنْتُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا. وَقِيلَ: وَفِيمَا كَانَ يَصْنَعُهُ بِكُمْ قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ مِنْ تِلْكَ الْأَفَاعِيلِ ﴿بَلَاءٌ﴾ أَيْ اخْتِبَارٌ عَظِيمٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هَذَا وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَلْوِئُهُمْ بِالْمَسَنَدِ وَالسِّنَدَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُحُومُكُمْ﴾ أَيْ أَذْنُكُمْ وَأَعْلَمُكُمْ بِوَعْدِهِ لَكُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَإِذْ أَقْسَمَ رَبُّكُمْ وَاللَّهُ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُحُومُكُمْ لِيَجْزِيَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَكِنْ شَكَّرْتُمْ لَا زِيَادَ لَكُمْ﴾ أَيْ لَيْسَ شُكْرُكُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لَا زِيَادَ لَكُمْ مِنْهَا، ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أَيْ كَفَرْتُمْ النِّعَمَ وَسَتَرْتُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَشَيْدٌ﴾ وَذَلِكَ بِسُلْبِهَا عَنْهُمْ، وَعَقَابِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيُحْرَمَ الرِّزْقُ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ» (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ﴾ أَيْ هُوَ غَفِيْرٌ عَنْ شُكْرِ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمَحْمُودُ، وَإِنْ كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَأِنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ عَنْكُمْ﴾... الْآيَةُ [الزمر: ٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيْرٌ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَجْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاجِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ» (٢).

فَسَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.  
﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

(١) أحمد: ٢٨٢/٥ (٢) مسلم: ١٩٩٤/٤ (٣) والأصل ابو إسحاق كما عند الطبري (٢٠٥٩١) وابن سعد ٤٧/١ وأبو إسحاق مدلس لم يصرح (٤) الطبري: ٥٢٨/١٦ (٥) القرطبي: ٩/ ٣٤٤ (٦) الطبري: ٥٣٤/١٦ (٧) الطبري: ٥٣٣/١٦ إسناده ضعيف .

الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٣﴾

[الْمُجَادَلَةُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْكَفَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا دَارَ بَيْنَ الْكَفَّارِ وَبَيْنَ رُسُلِهِمْ مِنَ الْمُجَادَلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّتَهُمْ لَمَّا وَاجَهُوهُمْ بِالشُّكِّ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَتْ الرُّسُلُ: ﴿أَفَى اللَّهِ سَكُتٌ﴾ أَي: أَفِي إِلَهِيَّتِهِ وَتَقَرُّدِهِ بِوُجُوبِ الْعِبَادَةِ لَهُ شَكٌّ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ! فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَمِ كَانَتْ مُفِرَّةً بِالصَّنَاعِ، وَلَكِنْ تَعُدُّ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْوَسَائِطِ الَّتِي يَظُنُّونَهَا تَنْفَعُهُمْ أَوْ تُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ زُلْفَى، وَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُثَبِّتُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَقَامَهُمْ﴾... [الآية (هود: ٣)]، فَقَالَتْ لَهُمُ الْأُمَمُ مُحَاجِّجِينَ فِي مَقَامِ الرَّسَالَةِ بَعْدَ تَقْدِيرِ تَسْلِيمِهِمْ الْمَقَامَ الْأَوَّلَ.

[عَدِمَ اعْتِرَافَ الْكَفَّارِ بِرِسَالَةِ الرُّسُلِ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ بَشَرًا وَحَاصِلُ مَا قَالُوهُ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أَي كَيْفَ تَتَّبِعُكُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكُمْ وَلَمَّا نَرِ مِنْكُمْ مُعْجَزَةً، ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أَي خَارِقٍ تَقَرِّحُهُ عَلَيْكُمْ] قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَي صَحِيحٌ إِنْ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَي بِالرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ ﴿وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ عَلَى وَفَى مَا سَأَلْتُمْ﴾ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أَي بَعْدَ سُؤَالِنَا إِيَّاهُ وَإِذْنِهِ لَنَا فِي ذَلِكَ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، ثُمَّ قَالَتْ الرُّسُلُ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي وَمَا يَمْنَعُنَا مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَقَدْ هَدَانَا لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحَهَا وَأَبْيَنَهَا ﴿وَلَنُصَرِّحَنَّ عَلَى مَا آذَيْنُمُونَا﴾ أَي مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ وَالْأَفْعَالِ السَّخِيفَةِ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُّنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وَلَنُكَيِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيتٍ وَمِنْ

الْمُتَوَكِّلِينَ

٢٥٧

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمَ

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُّنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُكَيِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُنَا لَهُمْ كَرَامًا أَشَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

وَرَأَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

[تَهْدِيدُ الْأُمَمِ رُسُلَهُمْ وَتَبَشِيرُ اللَّهِ لَهُمْ لَاءِ الرُّسُلِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْكَافِرَةَ رُسُلَهُمْ مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنْ أَرْضِهِمْ وَالتَّفْيِ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ، كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبَ لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ وَيُشْعِبُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾... [الآية (الأعراف: ٨٨)]. وَكَمَا قَالَ قَوْمُ لُوطٍ: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾... [الآية (النمل: ٥٦)]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَسْتَغْفِرَنَّكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِلَّا يَلْسَنُوكَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ﴾ [الأفعال: ٣٠] وَكَانَ مِنْ صُنْعِهِ تَعَالَى أَنَّهُ أَظْهَرَ رَسُولَهُ وَنَصَرَهُ، وَجَعَلَ لَهُ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنْ مَكَّةَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا، وَجُنْدًا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَزَلْ يُرْقِيهِ تَعَالَى مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ، وَمَكَرَ لَهُ فِيهَا، وَأَرْغَمَ أَنْوْفَ أَغْدَائِهِ

يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنُتَادِي الْخَلَائِقَ، فَتَقُولُ: إِنِّي وَكُلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ<sup>(٣)</sup>. الْحَدِيثُ. أَنِّي خَابَ وَخَسِرَ حِينَ اجْتَهَدَ الْأَنْبِيَاءُ فِي الْإِنْتِهَالِ إِلَى رَبِّهَا الْعَزِيزِ الْمُقْتَدِرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ وَرَأَيْهِ جَهَنَّمُ﴾ وَرَاءَ هُنَا بِمَعْنَى أَمَامَ، كَقَوْلِهِ نَعَالَى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُهَا: (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ). أَيُّ مِنْ وَرَاءَ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ: جَهَنَّمُ، أَيُّ هِيَ لَهُ بِالْمُرْصَادِ يَسْكُنُهَا مُخْلَدًا يَوْمَ الْمَعَادِ، وَيُعْرَضُ عَلَيْهَا غَدَاً وَعَشِيًّا إِلَى يَوْمِ النَّتَادِ ﴿وَسُئِلَ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ أَيُّ فِي النَّارِ، لَيْسَ لَهُ شَرَابٌ إِلَّا مِنْ حَمِيمٍ وَعَسَاقٍ، فَهَذَا حَارٌّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ، وَهَذَا بَارِدٌ فِي غَايَةِ الْبُرْدِ وَالسَّيِّئِ، كَمَا قَالَ: ﴿هَذَا قَلِيدُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ<sup>(٥)</sup>﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجُ<sup>(٦)</sup> [ص: ٥٨، ٥٧] وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: الصَّدِيدُ مِنَ الْقَيْحِ وَالْدَّمِ<sup>(٧)</sup>.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَسُئِلُوا مَاءَ حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وَيَقُولُ: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾... الآية [الكهف: ٢٩]، وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَجَرَّعُهُمْ﴾ أَيُّ يَتَغَصَّصُهُ وَيَتَكَرَّهُهُ، أَيُّ يُشْرِبُهُ قَهْرًا وَقَسْرًا لَا يَضَعُهُ فِي فَمِهِ حَتَّى يَضْرِبَهُ الْمَلِكُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١]، ﴿وَلَا يَكْذِبُ سَفِيهُهُ﴾ أَيُّ يَزِدُّهُ لِسُوءِ طَعْمِهِ وَلَوْنِهِ وَرِيحِهِ وَحَرَارَتِهِ، أَوْ يَزِدُّهُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ ﴿وَبَيَاتِهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أَيُّ يَأْلَمُ لَهُ جَمِيعُ بَدَنِهِ وَجَوَارِحِهِ وَأَعْضَائِهِ. قَالَ عَمْرُو بْنُ مِيمُونٍ بِنِ مِهْرَانَ: مِنْ كُلِّ عَظْمٍ وَعَصَبٍ وَعَرَقٍ<sup>(٦)</sup>.

وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَبَيَاتِهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قَالَ: أَنْوَاعُ الْعَذَابِ الَّذِي يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، لَيْسَ مِنْهَا نَوْعٌ إِلَّا بَيَاتِهِ الْمَوْتُ مِنْهُ لَوْ كَانَ يَمُوتُ، وَلَكِنْ لَا يَمُوتُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾<sup>(٧)</sup> [فاطر: ٢٦] وَمَعْنَى كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ مَا مِنْ

مِنْهُمْ وَمِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَقْوَابًا، وَظَهَرَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَبَيَّنَّ عَلَى سَائِرِ الْأَذْيَانِ، فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا فِي أُنْسَرِ زَمَانٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ<sup>(١٣)</sup>﴾ وَلَنَسَخِّنَكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَدَنِهِمْ﴾ وَكَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِذْنِ الْفَرَسَيْنِ<sup>(١٤)</sup>﴾ إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَصْرُورُونَ<sup>(١٥)</sup> وَإِنْ جُنَدًا لَكُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ... الْآيَةَ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّهُ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا آلِي بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِي﴾ أَيُّ وَعِيدِي هَذَا لِمَنْ خَافَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَخَشِيَ مِنْ وَعِيدِي وَهُوَ تَخَوُّفِي وَعَذَابِي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى<sup>(١٦)</sup>﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا<sup>(١٧)</sup> فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩] وَقَالَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أَيُّ اسْتَنْصَرَتِ الرُّسُلُ رَبَّهَا عَلَى قَوْمِهَا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ: اسْتَفْتَحَتْ الْأُمَمُ عَلَى أَنْفُسِهَا<sup>(٢)</sup>. كَمَا قَالُوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُرَادًا وَهَذَا مُرَادًا، كَمَا أَنَّهُمْ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاسْتَفْتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَنْصَرَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾... الآية [الأنفال: ١٩]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أَيُّ مُتَجَبَّرٍ فِي نَفْسِهِ عَنِيدٌ مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ<sup>(٣)</sup>﴾ مَتَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ<sup>(٤)</sup> الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤-٢٦] وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّهُ

(١) الطبري: ٥٤٤/١٦ (٢) الطبري: ٥٤٥/١٦ (٣)

الترمذي: ٢٥٧٣، ٢٥٧٤ (٤) الطبري: ٥٤٨/١٦ (٥)

الطبري: ٥٤٩/١٦ (٦) الدر المنثور: ١٦/٥ إسناده

ضعيف (٧) الدر المنثور: ١٦/٥

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمَ

٢٥٨

الْمِيقَاتُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرُّوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَا لَكُمُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْبَضْتُمُ إِلَّامُ تَرَى أَنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوَّأْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُخْبِتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾

نوع من هذه الأنواع مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ اقْتَضَى أَنْ يَمُوتَ مِنْهُ لَوْ كَانَ يَمُوتُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَمُوتُ لِيُخْلَدَ فِي دَوَامِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَمِيتٍ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أَيُّ وَلَهُ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْحَالِ عَذَابٌ آخَرُ غَلِيظٌ، أَيُّ مُؤْلِمٌ صَعْبٌ شَدِيدٌ أَغْلَظُ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ، وَأَذَى وَأَمْرٌ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ شَجَرَةِ الرَّقُومِ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ ﴿٢٦﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٢٧﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الظُّلُومُ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَجِيمٍ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٨] فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَارَةً يَكُونُونَ فِي أَكْلِ رَقُومٍ، وَتَارَةً فِي شَرْبِ حَجِيمٍ، وَتَارَةً يَرُدُّونَ إِلَى حَجِيمٍ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٢﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَ حَئِيمٍ ءَاوَى﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتِ الرَّقُومِ ﴿٤٦﴾ طَلْعُهَا الْأَيْبِيمُ ﴿٤٧﴾ كَأَلْمُهِلْ يَقْبَلِي فِي الظُّلُومِ ﴿٤٨﴾ كَعَلَى الْحَجِيمِ ﴿٤٩﴾ حَذُوهُ فَاعْتَبُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَجِيمِ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ صُوبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَجِيمِ ﴿٥١﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَذِيبُ الْكَرِيمُ ﴿٥٢﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠] وَقَالَ: ﴿وَاصْحَبِ السَّمَاءِ مَا اصْحَبَ السَّمَاءِ ﴿٥١﴾ فِي سُورِ وَجِيمٍ ﴿٥٢﴾ وَطِلَّ مِنْ يَمِينٍ ﴿٥٣﴾ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا وَابِتٌ لِلطَّغْيَةِ لَشَرِّ مَقَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمُ يَصْלוَتْهَا فَيَنْسُ الْمِهَادِ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَبِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجُ﴾ [ص: ٥٥-٥٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَنَوُّعِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ، وَتَكَرُّارِهِ وَأَنْوَاعِهِ، وَأَشْكَالِهِ مِمَّا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ

الصَّلَافُ الْعَبِيدُ ﴿١٧﴾﴾

[مَثَلُ لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ]

هَذَا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ عَبْدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَبَنَوْا أَعْمَالَهُمْ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ صَحِيحٍ، فَانْهَارَتْ، وَعَدِمُوهَا أَخْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أَيُّ مَثَلُ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا طُلِبُوا ثَوَابُهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُمْ

كَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى شَيْءٍ فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئًا، وَلَا أَلْفُوا حَاصِلًا إِلَّا كَمَا يُحْصَلُ مِنَ الرَّمَادِ إِذَا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أَيُّ ذِي رِيحٍ شَدِيدَةٍ عَاصِفَةٍ قَوِيَّةٍ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَسَبُوا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى جَمْعِ هَذِهِ الرَّمَادِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُلْطَوْنَ أَصْدَقُكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَأَلَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْعَبِيدُ﴾ أَيُّ سَعْيُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ وَلَا اسْتِقَامَةٍ، حَتَّى فَقَدُوا

مَجِيبٌ ﴿٦١﴾

[مَجَادِلَةُ التَّابِعِينَ وَالتَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَبَرِّزُوا﴾ أَيِ بَرَزَتْ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا بِرَّهَا وَفَاجِرُهَا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، أَيِ اجْتَمَعُوا لَهُ فِي بَرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَسْتُرُ أَحَدًا ﴿فَقَالَ الصُّعْفَتَوَانِ﴾ وَهُمْ الْأَتْبَاعُ لِقَادَتِهِمْ وَسَادَتِهِمْ وَكِبَرَائِهِمْ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَنْ مُوَافَقَةِ الرُّسُلِ، قَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا﴾ أَيِ مَهْمَا أَمَرْتُمُونَا اسْتَمَرْنَا وَفَعَلْنَا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْغَوُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيِ فَهَلْ تَذْعُمُونَ عَنَّا شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ كَمَا كُنْتُمْ تَعِدُونَنَا وَتُؤْمِنُونَا، فَقَالَتِ الْقَادَةُ لَهُمْ: ﴿لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمُ﴾ وَلَكِنْ حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا، وَسَبَقَ فِينَا وَفِيكُمْ قَدَرُ اللَّهِ، وَحَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَجِيبٍ﴾ أَيِ لَيْسَ لَنَا خَلَاصٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ، إِنْ صَبَرْنَا عَلَيْهِ أَوْ جَرَعْنَا مِنْهُ.

قُلْتُ: وَالظَّاهِرُ: أَنَّ هَذِهِ الْمُرَاجَعَةَ فِي النَّارِ بَعْدَ دُخُولِهِمُ إِلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الصُّعْفَتَوَانِ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْغَوُونَ عَنَّا نَهِيًا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ [غافر: ٤٧، ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَنْتَ أَخْنَهَا حَتَّى إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَنَاتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتْ أُولِنَهُمْ لِأَخْرِجْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذَرُّوا الْعَذَابَ يَمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ [الأعراف: ٣٨، ٣٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا سَبِيلًا﴾ ﴿٦٤﴾ رَبَّنَا أَنْتَ ضَعِيفٌ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كِبِيرًا [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] وَأَمَّا تَخَاضُعُهُمْ فِي الْمَحْشَرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ آلِيلٍ وَالتَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَغْنَانِ الَّذِينَ

تَوَابُهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلَإُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٦٧﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٦٨﴾

[بُرْهَانُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَعَادِ الْأَبْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاسْتِغَاةِهَا وَعَظَمَتِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وَالْحَرَكَاتِ الْمُتَخَفِّفَاتِ، وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَهَذِهِ الْأَرْضُ بِمَا فِيهَا مِنْ مَهَادٍ وَوَهَادٍ وَأَوْتَادٍ، وَبَرَازٍ وَصَحَارٍ، وَقَفَارٍ وَبِحَارٍ، وَأَشْجَارٍ وَنَبَاتٍ، وَحَيَوَانٍ عَلَى اخْتِلَافٍ أَصْنَافِهَا وَمَنَافِعِهَا وَأَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلِفْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْهَوَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٩﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٠﴾ قُلْ يُجِيبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٧٢﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٧٣﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٤﴾ فَسَبِّحْنِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يس: ٧٧-٨٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٧٥﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٧٦﴾ أَيِ بِعَظِيمٍ مُّتَنَبِّعٌ بَلْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ أَنْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ عَلَىٰ غَيْرِ صِفَتِكُمْ كَمَا قَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٧٧﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧٨﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [فاطر: ١٥-١٧] وَقَالَ: ﴿وَلَيْتَ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رِبْدَةٍ مِنْكُمْ عَن دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وَقَالَ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّعْفَتَوَانِ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْغَوُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٢٥٩

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمَ

تَوَفَّى أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ  
 لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ  
 كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ  
 ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ  
 الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ  
 اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا  
 وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ  
 الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ  
 تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَمْضُوا أَمْثَارَ مَا زَنَتْهُمْ سَرَاوِيلًا  
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ  
 بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ  
 فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْإِنْتَهَرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ  
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

وَاتَّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ، لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَالظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ  
 الْآيَةِ: أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ تَكُونُ مِنْ إِبْلِيسَ بَعْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ  
 كَمَا قَدَّمْنَا. وَقَالَ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ: يَقُومُ خَطِيبَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ:  
 «أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخَذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» إِلَى  
 قَوْلِهِ «قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ» قَالَ: وَيَقُومُ  
 إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - فَيَقُولُ: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ  
 إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» الْآيَةَ (٣).

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَالَ الْأَشْقِيَاءِ وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ  
 الْجَزْيِ وَالنَّكَالِ، وَأَنَّ خَطِيئَتَهُمْ إِبْلِيسُ، عَطَفَ بِمَالِ  
 السُّعْدَاءِ، فَقَالَ: «وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» سَارِحَةً فِيهَا حَيْثُ سَارُوا  
 وَأَيْنَ سَارُوا «خَالِدِينَ فِيهَا» مَا كَثِيرٌ أَبَدًا لَا يُحَوَّلُونَ وَلَا

كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [سبأ: ٣١، ٣٣].  
 «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ  
 وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ  
 فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا  
 أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ  
 لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْذِنُ رَبُّهُمْ فَيَعْتَمِدُ  
 فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٨﴾»

[خطاب إبليس أتباعه واعتذاره إليهم يوم القيامة]  
 يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا خَاطَبَ بِهِ إِبْلِيسَ أَتْبَاعَهُ، بَعْدَ مَا قُضِيَ  
 اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّاتِ، وَأَسْكَنَ  
 الْكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ، فَقَامَ فِيهِمْ إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - يَوْمِئِذٍ  
 خَطِيبًا لِيَزِيدَهُمْ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ، وَغَبْنًا إِلَى غَبْنِهِمْ،  
 وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ  
 الْحَقِّ» أَيَّ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَوَعَدْتُكُمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ  
 وَالسَّلَامَةَ، وَكَانَ وَعْدًا حَقًّا وَخَيْرًا صِدْقًا، وَأَمَّا أَنَا  
 فَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَعَذَّبُهُمْ  
 وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعَذَّبُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» [النساء: ١٢٠]،  
 ثُمَّ قَالَ: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أَيَّ مَا كَانَ لِي  
 عَلَيْكُمْ فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ذَلِيلٌ وَلَا حُجَّةٌ فِيمَا وَعَدْتُكُمْ بِهِ  
 «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي» بِمَجَرَّدِ ذَلِكَ، هَذَا وَقَدْ أَقَامَتْ  
 عَلَيْكُمْ الرُّسُلُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ عَلَى صِدْقِ مَا  
 جَاءَكُمْ بِهِ، فَخَالَفْتُمُوهُمْ فَصَرَّيْتُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ «فَلَا  
 تَلُمُونِي» الْيَوْمَ «وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ» فَإِنَّ الذَّنْبَ لَكُمْ لِكُونِكُمْ  
 خَالَفْتُمُ الْحُجَجَ، وَاتَّبَعْتُمُونِي بِمَجَرَّدِ مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى  
 الْبَاطِلِ «مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ» أَيَّ بِنَافِعِكُمْ وَمُنْفِذِكُمْ  
 وَمُخْلِصِكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي» أَيَّ بِنَافِعِي  
 بِإِنْقَادِي مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ «إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا  
 أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ» قَالَ قَتَادَةُ: أَيَّ سَبَبٍ مَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ  
 قَبْلُ (١). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: إِنِّي جَعَلْتُ أَنْ أَكُونَ  
 شَرِيكًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (٢). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ الرَّاجِحُ، كَمَا  
 قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ  
 لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ  
 كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» [الأحقاف: ٦، ٥] قَالَ:  
 «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» [مريم: ٨٢].  
 وَقَوْلُهُ: «إِنَّ الظَّالِمِينَ» أَيَّ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ

(١) الطبري: ٥٦٤/١٦ (٢) الطبري: ٥٦١/١٦ (٣) الطبري:



لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ  
آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينَ ﴿يُؤْذَنُ  
رَبِّهَا﴾ أَيُّ كَامِلًا حَسَنًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ  
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هَذَا  
مَثَلُ كُفْرِ الْكَافِرِ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا ثَبَاتٍ، مُشَبَّهٌ بِشَجَرَةٍ  
الْحَنْظَلِ، وَيُقَالُ لَهَا: الشَّرْيَانُ. رَوَاهُ شُعْبَةُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ  
قُرَّةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّهَا شَجَرَةُ الْحَنْظَلِ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ:  
﴿أَجْتَنَّتْ﴾ أَيُّ اسْتَوْصَلَتْ ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾  
أَيُّ لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا ثَبَاتٍ، كَذَلِكَ الْكُفْرُ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا  
قَرَعَ، وَلَا يَصْعَدُ لِلْكَافِرِ عَمَلٌ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ شَيْءٌ.

﴿يَتَّبِعُ اللَّهُ الْآزِيزَ ءَأْمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾<sup>(٦)</sup>  
[تَثْبِيتُ الْمُؤْمِنِ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ إِذَا سئِلَ فِي الْقَبْرِ شَهِدَ أَنْ لَا  
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَتَّبِعُ  
اللَّهُ الْآزِيزَ ءَأْمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي  
الْآخِرَةِ﴾<sup>(٦)</sup> وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا وَبَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ كُلُّهُمْ<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: خَرَجْنَا  
مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا  
إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا  
حَوْلَهُ كَأَنَّا عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُثُ بِهِ  
الْأَرْضَ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اسْتَعِذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ  
الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ  
فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ  
مِنَ السَّمَاءِ بَيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّهُمْ وُجُوهُهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ  
كَفَرٌ مِنَ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى  
يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ  
عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ  
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ - قَالَ - : فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ، كَمَا تَسِيلُ

يَزُولُونَ ﴿يَاذُنُ رَبِّهِمْ خَيْرٌ مِنْهَا سَلَامٌ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ  
عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ  
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾<sup>(٨)</sup> سَلَامٌ عَلَيْكُمْ [الرعد: ٢٣، ٢٤]. وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا خَبِيثَةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥] وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَفَيْتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَعَاوَرُ  
دَعْوَتُهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ  
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾<sup>(٩)</sup> ثَوَقٌ أَكْلَهَا كُلُّ حَبِيبٍ  
يَاذُنُ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ<sup>(١٠)</sup>  
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا  
لَهَا مِنْ قَرَارٍ<sup>(١١)</sup>

[مَثَلُ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْقَوْلِ بِالْبَاطِلِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلًا  
كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾  
وَهُوَ الْمُؤْمِنُ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فِي  
قَلْبِ الْمُؤْمِنِ. ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يَقُولُ: يُرْفَعُ بِهَا عَمَلُ  
الْمُؤْمِنِ إِلَى السَّمَاءِ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَسَعِيدُ بْنُ  
جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup>: إِنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ  
عَمَلِ الْمُؤْمِنِ، وَقَوْلِهِ الطَّيِّبِ، وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ. وَإِنَّ  
الْمُؤْمِنَ كَشَجَرَةٍ مِنَ النَّخْلِ لَا يَزَالُ يُرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ فِي  
كُلِّ حَبِيبٍ وَوَقْتٍ وَصَبَاحٍ وَمَسَاءٍ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشَبَّهُ - أَوْ كَالرَّجُلِ -  
الْمُسْلِمَ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا صَيْفًا وَلَا شِتَاءً، وَتُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ  
حَبِيبٍ يَأْذُنُ رَبِّهَا». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا  
النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ  
أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ  
النَّخْلَةُ». فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ، وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ  
فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ. قَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ؟ قُلْتُ: لَمْ  
أَرَكُمُ تَتَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا، قَالَ  
عُمَرُ: لِأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا<sup>(٣)</sup>.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قَالَ: هِيَ شَجَرَةٌ  
فِي الْجَنَّةِ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿ثَوَقٌ أَكْلَهَا كُلُّ حَبِيبٍ﴾ قِيلَ: عُذُودٌ  
وَعَشِيشًا، وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ مِثْلَهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ  
لَا يَزَالُ يُوجَدُ مِنْهَا ثَمَرٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَيْفٍ أَوْ شِتَاءٍ أَوْ

(١) الطبري: ٥٦٧/١٦ (٢) الطبري: ٥٧٢/١٦، ٥٧٣ (٣)

فتح الباري: ٢٢٨/٨ (٤) الطبري: ٥٧٣/١٦ (٥) الطبري:

٥٦٩/١٦ (٦) فتح الباري: ٢٢٩/٨ (٧) مسلم: ٢٢٠١/٤

وأبو داود: ١١٢/٥ وتحفة الأحوذى: ٥٤٧/٨ والنسائي في

الكبرى: ٣٧٢/٦

يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْفَتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ آيَاتُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج: ٣١] فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَافْرُشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيَصِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ فَيَبِحُ الْوَجْهَ، فَيَبِحُ الثِّيَابَ، مَتْنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهَ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ<sup>(١)</sup> وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قُرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالَ: فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا» قَالَ قَتَادَةُ: وَذَكَرْنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ بِهِ، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ يُونُسَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُؤَدَّبِ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَنَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: مُنْكَرٌ وَالْآخَرُ نَكِيرٌ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ

الْقَطْرَةَ مِنْ فِي السَّمَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَوِطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطِيبِ نَفْحَةٍ مِسْكٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يَعْنِي - عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْفَتَحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ فَيُسَبِّحُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عَمَلُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَقْتُ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَافْرُشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ - قَالَ -: فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيْبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهَ الَّذِي يَأْتِي بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَاقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّةَ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَعَظَبٍ - قَالَ -: فَتَفْرُقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِفَّةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَفْجَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ

(١) أحمد: ٢٨٧/٤ (٢) أبو داود: ٥٤٦/٣ والنسائي: ٧٨/٤

وابن ماجه: ٤٩٤/١ (٣) المنتخب لعبد بن حميد: ١١٧٨ (٤)

مسلم: ٢٨٧٠ والنسائي: ٩٧/٤

ذِرَاعًا وَيُؤَوِّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فَيَرْدَادُ غِنَطَةً وَشُرُورًا، ثُمَّ تُجْعَلُ نَسَمَتُهُ فِي النَّسَمِ الطَّيِّبِ، وَهِيَ طَيْرٌ خُضِرُ تَعْلُقُ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ، وَيُعَادُ الْجَسَدُ إِلَى مَا بَدِءَ مِنَ التُّرَابِ» وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿يُبَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ... فَذَكَرَ جَوَابَ الْكَافِرِ وَعَذَابَهُ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ طَاوُسٍ ﴿يُبَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الْمَسْأَلَةُ فِي الْقَبْرِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَيُبَيِّتُهُمُ بِالْخَيْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: فِي الْقَبْرِ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ<sup>(٧)</sup>.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾<sup>(٨)</sup> جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّ الْفَرَارَ<sup>(٩)</sup> وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ<sup>(١٠)</sup>

[مَصِيرٌ مِنْ بَدَلِ نِعْمَةِ اللَّهِ كُفْرًا]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: أَلَمْ تَعْلَمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [الفيل: ١] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَزَبُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣] أَلْبَوَارِ الْهَلَكَ، بَارَ يُؤَرِّبُونَ، ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨] هَالِكِينَ. حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَمْرِو عَنْ عَطَاءٍ؛ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قَالَ: هُمْ كُفَّارُ أَهْلِ مَكَّةَ<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ أَنَّ ابْنَ الْكُوَّاءِ سَأَلَ عَلِيًّا عَنِ ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قَالَ: هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ: مُشْرِكُو قُرَيْشٍ أَتَتْهُمْ نِعْمَةُ اللَّهِ: الْإِيمَانُ، فَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. وَالْمَعْنَى يَعُمُّ جَمِيعَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ وَنِعْمَةً لِّلنَّاسِ، فَمَنْ قَبِلَهَا وَقَامَ بِشُكْرِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ رَدَّهَا وَكَفَّرَهَا دَخَلَ النَّارَ.

(١) الترمذي: ١٠٧١ (٢) الطبري: ٥٩٦/١٦ (٣) الطبري:

٥٩٦/١٦ (٤) ابن حبان: ٤٥/٥ (٥) عبد الرزاق: ٣٤٢/٢

(٦) الطبري: ٦٠٢/١٦ (٧) الطبري: ٦٠٢/١٦ (٨) فتح

الباري: ٢٢٩/٨ (٩) الطبري: ٦/١٧

فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، وَيُؤَوِّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ نَوْمَةَ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُمْ، لَا أَذْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، فَيَقَالُ لِلْأَرْضِ: النَّبِيَّ عَلَيْهِ، فَتَلْتَمِمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يُبَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ - قَالَ -: ذَلِكَ إِذَا قِيلَ لَهُ فِي الْقَبْرِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيَقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ، عَلَى هَذَا عِشْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ الْمَيِّتَ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ حِينَ يُؤَلَّوْنَ عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتْ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالصَّوْمُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيُؤْتَى مِنْ قَبْلِ رَأْسِهِ، فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قَبْلِي مَدْخُلٌ، فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قَبْلِي مَدْخُلٌ، فَيُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَيَقُولُ الصَّيَّامُ: مَا قَبْلِي مَدْخُلٌ، فَيُؤْتَى عِنْدَ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ: مَا قَبْلِي مَدْخُلٌ، فَيَقَالُ لَهُ: اجْلِسْ، فَيَجْلِسُ قَدْ مَثَلَتْ لَهُ الشَّمْسُ قَدْ دَنَتْ لِلْعُرُوبِ، فَيَقَالُ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسَأَلُكَ، فَيَقُولُ: دَعْنِي حَتَّى أَصْلُبَ، فَيَقَالُ لَهُ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ فَأَخْبِرْنَا عَمَّا نَسَأَلُكَ، فَيَقُولُ: وَعَمَّ نَسَأَلُونِي؟ فَيَقَالُ: أَرَأَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَاذَا تَقُولُ بِهِ، وَمَاذَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: أُمُحَمَّدًا؟ فَيَقَالُ لَهُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَيَقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِّتْ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمَ

٢٦٠

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمَ

وَأَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَسْأَلَتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٢﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعُنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٥﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٦﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٣٩﴾

رَفَعْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة: ٢٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٦﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٧﴾ وَأَنْتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ

الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٨﴾﴾

[بَيَانُ نِعَمِ اللَّهِ الْعَلِيدَةِ]

يُعَدُّ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى خَلْقِهِ بِأَنْ خَلَقَ لَهُمُ السَّمَوَاتِ سَفْعًا مَحْضُوظًا، وَالْأَرْضَ فِرَاشًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى، مَا بَيْنَ ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ مُخْتَلِفَةٍ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطَّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْمَنَافِعِ. وَسَخَّرَ الْفُلُكَ بِأَنْ جَعَلَهَا طَافِيَةً عَلَى تَيَّارِ مَاءِ الْبَحْرِ تَجْرِي

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيَّ جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ عَبْدُوهُمْ مَعَهُ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُهْدِدًا لَهُمْ وَمَتَوَعِّدًا لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ تَسْعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أَيَّ مَهْمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَافْعَلُوا، فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أَيَّ مَرْجِعَكُمْ وَمَوَئِلَكُمْ إِلَيْنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَسْتَعْتِبُكُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ ﴿٣١﴾ [الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِعِبَادَةِ بِطَاعَتِهِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ، بِأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يُؤْتُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ بِأَدَاءِ الزَّكَاةِ وَالْتَفَتَهُ عَلَى الْقَرَابَاتِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَجَابِ، وَالْمُرَادُ بِإِقَامَتِهَا هُوَ الْمُحَافَظَةُ عَلَى وَقْفِهَا وَخُدُودِهَا وَرُكُوعِهَا وَخُشُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَأَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَ: فِي السِّرِّ أَيْ فِي الْخَفِيَّةِ، وَالْعَلَانِيَةِ وَهِيَ الْجَهْرُ. وَلِيَسِيرُوا إِلَى ذَلِكَ لِخَلَاصِ أَنْفُسِهِمْ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿لَا بَئِعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ أَيَّ وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ فِدْيَةً بِأَنْ تُبَاعَ نَفْسُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: لَيْسَ هُنَاكَ مُخَالَةٌ خَلِيلٍ فَيَضْمَحُ عَنْهُ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ عَنِ الْعِقَابِ لِمُخَالَفَتِهِ، بَلْ هُنَاكَ الْعُدْلُ وَالْقِسْطُ. وَالْخِلَالُ مُضَدُّ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: خَالَلتُ فَلَانًا فَأَنَا أَخَالُهُ مُخَالَةً وَخِلَالًا<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ فِي الدُّنْيَا بَيُوعًا وَخِلَالًا يَتَخَالَوْنَ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَنْظُرُ رَجُلٌ مِّنْ يُخَالِلُ، وَعَلَامٌ يُصَاحِبُ، فَإِنْ كَانَ اللَّهُ فَلْيُدْأَمَ، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ اللَّهِ فَسَيَقْطَعُ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>. قُلْتُ: وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا بَيْعٌ وَلَا فِدْيَةٌ، وَلَوْ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَوْ وَجَدَهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ صِدَاقَةُ أَحَدٍ وَلَا شَفَاعَةُ أَحَدٍ إِذَا لَقِيَ اللَّهَ كَافِرًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا نَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا

[العنكبوت: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ فَعَرَفَهُ لِأَنَّهُ دَعَا بِهِ بَعْدَ بِنَائِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَأَمَّا حِينَ ذَهَبَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ وَهُوَ رَضِيعٌ إِلَى مَكَانٍ مَكَّةَ فَإِنَّهُ دَعَا أَيْضًا فَقَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَاكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مُسْتَفْصًى مُطَوَّلًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ يَبْنِي لِكُلِّ دَاعٍ أَنْ يَدْعُو لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ افْتَنِيَ بِالْأَصْنَامِ خَلَائِقُ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَهَا، وَرَدَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذِّبُهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ، تَقْوِيلٌ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وَلَيْسَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنَ الرَّدِّ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَجْوِزُ وَفُورَ ذَلِكَ. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَنَا وَلِلنَّاسِ...﴾ الْآيَةِ، وَقَوْلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ...﴾ الْآيَةِ [المائدة: ١١٨]، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أُمِّي، اللَّهُمَّ أُمِّي، اللَّهُمَّ أُمِّي» وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ: إِذْهَبْ يَا جَبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - وَسَلِّمْ مَا يُنْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ: فَقَالَ اللَّهُ: إِذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ: إِنَّا سَرَضْنَاهُ فِي أُمِّتِكَ وَلَا نَسْؤُكَ<sup>(١)</sup>.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَاحٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٢٧) وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا دَعَاءً ثَانٍ بَعْدَ الدُّعَاءِ الْأَوَّلِ الَّذِي دَعَا بِهِ عِنْدَمَا وَلَّى عَنْ هَاجِرَ وَوَلَدَيْهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ بِنَائِهِ<sup>(٤)</sup>. تَأْكِيدًا وَرَغْبَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ

عَلَيْهِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسَخَّرَ الْبَحْرَ لِيَحْمِلَهَا لِيُقْطَعَ الْمَسَافِرُونَ بِهَا مِنْ إِفْلِيمَ إِلَى إِفْلِيمَ آخَرَ لِيَجْلِبَ مَا هُنَا إِلَى هُنَا، وَمَا هُنَاكَ إِلَى هُنَا، وَسَخَّرَ الْأَنْهَارَ تَشْقِي الْأَرْضَ مِنْ قُطْرِ إِلَى قُطْرِ رِزْقًا لِلْعِبَادِ مِنْ شَرْبٍ وَسَقْيٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ﴾ أَيُّ يَسِيرَانِ لَا يَفْتَرَانِ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] «يُعْثَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» [الأعراف: ٥٤] فَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَتَعَاقَبَانِ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَتَعَاقَبَانِ، فَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا فَيَطُولُ، ثُمَّ يَأْخُذُ الْآخَرُ مِنْ هَذَا فَيَقْصُرُ ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤْلِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [القمان: ٢٩] ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْعِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: ٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يَقُولُ: هَيَّا لَكُمْ مَا تَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ مِمَّا تَسْأَلُونَهُ بِحَالِكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجْزِ الْعِبَادِ عَنْ تَعْدَادِ النِّعَمِ فَضْلًا عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلَا مُوَدِّعٍ، وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ رَبَّنَا»<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ رَوِيَ فِي الْأَثَرِ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَشْكُرُكَ وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مِنْكَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الْآنَ شَكَرْتَنِي يَا دَاوُدُ، أَيُّ حِينَ اعْتَرَفْتَ بِالتَّقْصِيرِ عَنْ أَدَاءِ شُكْرِ الْمُنْعَمِ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٢٥) رَبِّ إِنِّي أَنَا وَلِلنَّاسِ فَمَنْ يَبْعِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٦)

[دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَكَّةَ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ] يَذْكُرُ تَعَالَى فِي هَذَا الْمَقَامِ مُحْتَاجًا عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ بِأَنَّ الْبَلَدَ الْحَرَامَ بِمَكَّةَ إِنَّمَا وُضِعَتْ أَوَّلَ مَا وُضِعَتْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ - الَّذِي كَانَتْ عَامِرَةً بِسَبَبِهِ آهْلَةٌ - تَبَرَّأَ مِمَّنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ دَعَا لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ الْآيَةِ

(١) فتح الباري: ٤٩٣/٩ (٢) شعب الإيمان للبيهقي ٤/٤٤١٤

وفي نسخة ٨/٣٦٠ إسناده ضعيف وفيه صالح المرئي ضعيف.

(٣) مسلم: ١/١٩١ (٤) يفيد بل يصرح حديث البخاري رقم:

(٣٣٦٤) أن إبراهيم دعا بهذا الدعاء حينما جاء مكة لأول وهلة

وترك بها إسماعيل رضيًا

الْمِيزَانِ

٢٦١

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمَ

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ  
هَوَاءٌ ﴿٤٤﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ  
ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ  
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم  
مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٥﴾ وَسَكَتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا  
لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٦﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ  
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ  
﴿٤٧﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ  
ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٨﴾ يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ  
وَيَرْوِي اللَّهُ الْوَحِيدَ الْقَهَّارَ ﴿٤٩﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ  
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٠﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانَ وَتَقَشَّى  
وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥١﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ  
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٢﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذِرُوا  
بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا أُولَٰئِكَ

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ  
لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ  
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٧﴾

[إمهال الله للكافرين ليس عن غفلة]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ  
الظَّالِمُونَ، أَيْ لَا تَحْسَبْنَهُ إِذَا أَنْظَرَهُمْ وَأَجَلَّهُمْ أَنَّهُ غَافِلٌ  
عَنْهُمْ مُهْمِلٌ لَهُمْ، لَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَى صُنْعِهِمْ، بَلْ هُوَ يُخَصِّي  
ذَلِكَ وَيَعُدُّهُ عَلَيْهِمْ عَدًّا ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ  
الْأَبْصَارُ﴾ أَيْ مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى  
كَيْفِيَّةَ قِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَعَجَلَتُهُمْ إِلَى قِيَامِ الْمَحْشَرِ،  
فَقَالَ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أَيْ مُسْرِعِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ  
يُحْشَرُونَ لِلْعَذَابِ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَعَسَى الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ  
الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١٠٨-١١١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَعْدَانِ

وَجَلٍّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا  
لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ ﴿الْمُحَرَّمَ﴾  
أَيْ إِنَّمَا جَعَلْتَهُ مُحَرَّمًا لِيَتِمَّ كُنْ أَهْلُهُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ عِنْدَهُ  
﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ: لَوْ قَالَ [أَفْئِدَةُ النَّاسِ]  
لَا زَدَحَمَ عَلَيْهِ فَارِسٌ وَالرُّومُ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالنَّاسُ  
كُلُّهُمْ <sup>(١)</sup> وَلَكِنْ قَالَ: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فَاخْتَصَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّرْعِ﴾ أَيْ لِيَكُونَ ذَلِكَ عَوْنًا  
لَّهُمْ عَلَى طَاعَتِكَ، وَكَمَا أَنَّهُ وَادٍ غَيْرُ ذِي زَرْعٍ فَاجْعَلْ لَهُ  
ثِمَارًا يَأْكُلُونَهَا، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ ذَلِكَ كَمَا قَالَ: ﴿أَوَلَمْ  
تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا عَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾  
[القصص: ٥٧] وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ  
وَبَرَكَتِهِ، أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ مَكَّةَ شَجَرَةً مُثْمِرَةً، وَهِيَ  
تُجْبَى إِلَيْهَا ثَمَرَاتٌ مَا حَوْلَهَا اسْتِجَابَةً لِدُعَاءِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي  
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ  
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ  
الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي  
وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ  
أَنَّهُ قَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أَيْ أَنْتَ تَعْلَمُ  
قَصْدِي فِي دُعَائِي، وَمَا أَرَدْتُ بِدُعَائِي لِأَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ،  
وَإِنَّمَا هُوَ الْقَصْدُ إِلَى رِضَاكَ وَالْإِخْلَاصُ لَكَ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ  
الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ  
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ حَمِدَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا  
رَزَقَهُ مِنَ الْوَلَدِ بَعْدَ الْكِبَرِ، فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي  
عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أَيْ إِنَّهُ  
يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ، وَقَدْ اسْتَجَابَ لِي فِيمَا سَأَلْتُهُ مِنْ  
الْوَلَدِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أَيْ مُحَافِظًا  
عَلَيْهَا مُقِيمًا لِحُدُودِهَا ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أَيْ فِيمَا سَأَلْتُكَ فِيهِ كُلَّهُ  
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وَكَانَ هَذَا قِيلَ أَنْ يَبَيِّرَ مِنْ أَبِيهِ لَمَّا  
تَبَيَّنَ لَهُ عِدَاوَتُهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ كُلَّهُمْ ﴿يَوْمَ  
يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أَيْ يَوْمَ تُحَاسِبُ عِبَادَكَ فَتُجَازِيهِمْ  
بِأَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

يَرَاكَ... الآية [المعارج: ٤٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿مُقَبِّلِي رُءُوسِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: رَافِعِي رُءُوسِهِمْ<sup>(١)</sup>. ﴿لَا يَزِيدُ الْإِيمَانَ طَوْفَهُمْ﴾ أَيُّ أَضَارِهِمْ طَائِرَةٌ شَاحِصَةٌ يُدِيمُونَ النَّظَرَ، لَا يَطْرُقُونَ لِحَظَةٍ لِكثْرَةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْفِكْرَةِ. وَالْمُخَافَةُ لِمَا يَحِلُّ بِهِمْ، عِبَادًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَقْبَدْتُهُمْ هَوَاهُ﴾ أَيُّ وَقْلُوهُمْ حَاوِيَةً خَالِيَةً لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ لِكثْرَةِ الْوَجَلِ وَالْخَوْفِ، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَجَمَاعَةٌ: إِنَّ أَمَكِنَةَ أَقْبَدَتِهِمْ خَالِيَةً لِأَنَّ الْقُلُوبَ لَدَى الْحَنَاجِرِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ أَمَانِهَا مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَأَذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۖ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۖ وَكَانَ مَكْرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

[لَا مَهْلَةَ بَعْدَ مَجِيءِ الْعَذَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَبْلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ عِنْدَ مُعَاتِيَةِ الْعَذَابِ: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَ أَعْدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾... الآية [المؤمنون: ٩٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَايَأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَّا تَلَهَّوْا أَمْوَالَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٩-١٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾... الآية [السجدة: ١٢] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يُؤْفَكُوا عَلَى النَّارِ فَيَقُولُوا يَلْبَسْنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ تَبَايَأُ رَبَّنَا﴾... الآية [الأنعام: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾... الآية [فاطر: ٣٧]، قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أَيُّ أَوْ لَمْ تَكُونُوا تَحْلِفُونَ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ أَنَّهُ لَا زَوَالٍ لَكُمْ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا مَعَادَ وَلَا جَزَاءَ؟ فَدَوَّقُوا هَذَا بِذَلِكَ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أَيُّ مَا لَكُمْ مِنْ انْتِقَالٍ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ<sup>(٣)</sup>. كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾... الآية [النحل: ٣٨]، ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ أَيُّ قَدْ رَأَيْتُمْ وَبَلَّغْتُمْ مَا أَخْلَلْنَا

بِالْأَمْسِ الْمَكْذِبَةِ قَبْلَكُمْ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِمْ مُعْتَبَرٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا أَوْفَعْنَا بِهِمْ لَكُمْ مُزْدَجَّرٌ ﴿حِكْمَةً بَلَّغْنَا فَمَا تَعْنِ الْأَنْذُرُ﴾ [القمر: ٥] وَقَدْ رَوَى شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ [ابْنِ دَاوُدَ] أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قَالَ: أَخَذَ ذَلِكَ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ نَشْرِينَ صَغِيرَيْنِ، فَرَبَّاهُمَا حَتَّى اسْتَغْلَطَا وَاسْتَفْحَلَا وَشَبَّأ، قَالَ: فَأَوْتُقُ رَجُلًا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِوَيْدٍ إِلَى تَابُوتٍ وَجَوَّعَهُمَا، وَقَعَدَ هُوَ وَرَجُلٌ آخَرُ فِي التَّابُوتِ، قَالَ: وَرَفَعَ فِي التَّابُوتِ عَصَا عَلَى رَأْسِهِ اللَّحْمُ فَطَارَا، وَجَعَلَ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: أَنْظِرْ مَا تَرَى؟ قَالَ: أَرَى كَذَا وَكَذَا حَتَّى قَالَ: أَرَى الدُّنْيَا كُلَّهَا كَأَنَّهَا دُبَابٌ. قَالَ: فَصَوَّبَ الْعَصَا، فَصَوَّبَهَا فَهَيَّطَ جَبِيصًا، قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ لَيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)<sup>(٤)</sup> قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ).

وَذَكَرَ مُجَاهِدٌ هَذِهِ الْقِصَّةَ عَنْ بُخْتَنَصَرَ، وَأَنَّهُ لَمَّا انْقَطَعَ بَصَرُهُ عَنِ الْأَرْضِ وَأَهْلِهَا، نُودِيَ: أَيُّهَا الطَّاعِيَةُ أَيْنَ تُرِيدُ؟ فَفَرَّقَ ثُمَّ سَمِعَ الصَّوْتَ فَوَقَّه، فَصَوَّبَ الرِّمَاحَ فَصَوَّبَتِ الشُّوَرُ، فَفَرَعَتِ الْجِبَالُ مِنْ هَدْيَتِهَا، وَكَادَتِ الْجِبَالُ أَنْ تَزُولَ مِنْ جِسْرِ ذَلِكَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا - (لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) بِفَتْحِ اللَّامِ الْأُولَى وَضَمِّ الثَّانِيَةِ. وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يَقُولُ: مَا كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ. وَوَجَّهَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَكُفْرِهِمْ بِهِ، مَا ضَرَّ شَيْئًا مِنَ الْجِبَالِ وَلَا غَيْرِهَا، وَإِنَّمَا عَادَ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، قُلْتُ: وَنُسِبَهُ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقِشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الأنعام: ١٣٧]. وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِهَا مَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يَقُولُ: شِرْكُهُمْ. كَقَوْلِهِ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ

(١) الطبري: ٣٢، ٣١/١٧ (٢) الطبري: ٣٤/١٧ (٣) الطبري: ٣٦/١٧ (٤) الطبري: ٣٩/١٧ إسناده ضعيف لجهالة عبدالرحمن بن دايد وقيل ابن أذنان (٥) الطبري: ٣٩/١٧

مِنْهُ... الْآيَةُ [مريم: ٩٠]<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَفَتَادَةُ<sup>(٢)</sup>.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٧) **يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴿٨﴾

[لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرَّرًا لَوَعْدِهِ وَمُؤَكَّدًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ﴾ أَيُّ مَنْ نُصِرْتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ذُو عِزَّةٍ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ، وَلَا يُعَالَبُ، وَذُو انْتِقَامٍ مِمَّنْ كَفَرُوا بِهِ وَجَحَّدُوا<sup>(٣)</sup> يَوْمَ يَمِيزُ الْفَاسِقِينَ ﴿[المرسلات: ١٥]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ أَيُّ وَعْدُهُ هَذَا حَاصِلٌ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ، وَهِيَ هَذِهِ عَلَى غَيْرِ الصِّفَةِ الْمَأْلُوفَةِ الْمَعْرُوفَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ»<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ قَالَتْ: قُلْتُ: أَأَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «عَلَى الصَّرَاطِ»<sup>(٥)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ مُتَّفَرِّدًا بِهِ دُونَ الْبُخَارِيِّ، وَالتِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ بَنَ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَهُ خَبَرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يَصْرَعُ مِنْهَا، فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي». فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُكَ أَسْأَلُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْئًا إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنِي، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَعَهُ فَقَالَ: «سَلْ» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجَبْرِ» قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَارَةً؟ فَقَالَ: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ». فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحَفِّظُهُمْ جِئِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «زِيَادَةُ كَيْدِ التَّوْنِ»

قَالَ: فَمَا غَدَاؤُهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «يُنْحَرُ لَهُمْ نُورُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا» قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: وَجِئْتُكَ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيُّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ. قَالَ: «أَيَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنِي. قَالَ: جِئْتُكَ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ، قَالَ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَيْضٌ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَعِيَ الرَّجُلِ مَعِيَ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا عَلَا مَعِيَ الْمَرْأَةُ مَعِيَ الرَّجُلِ، أَثَنَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ. وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِي اللَّهُ بِهِ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أَيُّ خَرَجَتْ الْخَلَائِقُ جَمِيعُهَا مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ ﴿الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أَيُّ الَّذِي فَهَرَّ كُلُّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ وَدَانَتْ لَهُ الرِّقَابُ وَخَضَعَتْ لَهُ الْأَلْيَابُ.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٨) سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٩﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠﴾

[أَحْوَالُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَتَبَرُّرُ الْخَلَائِقِ لِدَيَانِهَا، تَرَى يَا مُحَمَّدُ يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمِينَ وَهُمْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أَيُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَدْ جُمِعَ بَيْنَ النَّظَرِ - أَوِ الْأَشْكَالِ - مِنْهُمْ، كُلُّ صِنْفٍ إِلَى صِنْفٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْزَجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وَقَالَ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وَقَالَ: ﴿وَالنَّاسِطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ (١٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [ص: ٣٨، ٣٧]

وَالْأَصْفَادُ هِيَ الْقَيْدُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْأَعْمَشُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ<sup>(٨)</sup> وَهُوَ مَشْهُورٌ فِي اللُّغَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ أَيُّ ثِيَابُهُمُ الَّتِي يَلْبَسُونَهَا مِنْ قَطِرَانٍ، وَهُوَ الَّذِي تُهْتَأُ بِهِ الْإِبِلُ أَيْ تُطْلَى. قَالَ فَتَادَةُ:

(١) الطبري: ٤١/١٧ (٢) الطبري: ٤١/١٧ (٣) فتح الباري: ٣٧٩/١١ ومسلم: ٢١٥٠/٤ (٤) أحمد: ٣٥/٦ (٥) مسلم: ٢١٥٠/٤ وتحفة الأحوذ: ٥٤٨/٨ وابن ماجه: ١٤٣٠/٢ (٦) مسلم: ٣١٥ (٧) الطبري: ٥٤، ٥٣/١٧



## سُورَةُ الْحَجَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتَلَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرَّانٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا  
وَيَسْتَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا  
مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أَمْرِهِ  
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَوُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا إِنَّمَا الْإِنشَاءُ عَلَى  
الذِّكْرِ أَنْ لَكُمْ لِمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ  
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نَزَّلَ الْمَلَكُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا  
إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾  
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَجْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ  
رَسُولٍ إِلَّا لَأُفَكِّرَنَّهُمْ بِهِ فَيَنْسَوْنَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي  
قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ  
﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ  
﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

## تفسير سورة الحجر وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّتَلَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرَّانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا  
وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿٣﴾

[يَتَمَنَّى الْكُفَّارُ فِي وَقْتٍ مَا أَنْ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ  
السُّورِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا...  
الْآيَةِ، إِخْبَارٌ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَنْدُمُونَ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ  
الْكُفْرِ، وَيَتَمَنُّونَ لَوْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُسْلِمِينَ. وَقَالَ سَفِيَانُ  
الثَّوْرِيُّ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كَهِيلٍ، عَنْ أَبِي الزَّرْعَاءِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ  
فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قَالَ:

(١) الطبري: ٥٦/١٧ (٢) الطبري: ٥٦، ٥٥/١٧ (٣) أحمد:

٣٤٢/٥ (٤) مسلم: ٦٤٤/٢

وَهُوَ أَلْصَقُ شَيْءٍ بِالنَّارِ.

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: الْقَطْرَانُ هُنَا الشَّحَاسُ  
الْمُذَابُ<sup>(١)</sup>. وَرَبِّمَا قَرَأَهَا: (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرِ آبٍ) أَيْ مِنْ  
نَحَاسٍ حَارٍّ قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ. وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ  
وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ:  
﴿وَتَقْنَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿تَلَفَعَ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ  
فِيهَا كَالْحُحُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ  
اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ: أَنَّ أَبَانَ بْنَ يَزِيدَ عَنْ  
يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي سَلَامٍ، عَنْ أَبِي  
مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي  
مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهَا: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ،  
وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالشُّجُومِ، وَالتَّيَاحَةُ  
عَلَى الْمَيِّتِ، وَالتَّائِيحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»<sup>(٣)</sup>.  
انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أَيْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَتَوْا بِمَا عَمِلُوا... الْآيَةِ  
[النجم: ٣١]﴾ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَيْ فِي حَالِ  
مُحَاسَبَتِهِ لِعِبْدِهِ سَرِيعُ التَّجَازِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا  
يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَإِنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ بِالنَّسَبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ  
كَالْوَاحِدِ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْتَكُمُ إِلَّا  
كَفَّسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨] وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ:  
﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إِحْصَاءً.

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ  
أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا الْقُرْآنُ بَلَاغٌ لِلنَّاسِ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تُذَكِّرْكُمْ  
بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ﴾ [الأنعام: ١٩] أَيْ هُوَ بَلَاغٌ لِيَجْمَعَ الْخَلْقُ مِنْ  
إِنْسٍ وَجِنٍّ كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ  
إِلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الْآيَةِ [إبراهيم:  
١]، ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أَيْ لِيَتَعَطَّوْا بِهِ ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ  
وَاحِدٌ﴾ أَيْ يَسْتَدِلُّوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالِدَّلَالَاتِ عَلَى أَنَّهُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَلِيَذْكُرَ أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ ذُوو الْعُقُولِ.

أَخْبَرُ تَفْسِيرَ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،  
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْحَجَرِ

٢٦٣

سُورَةُ

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبَّتْهَا لِلنَّظِيرِ ﴿١٦﴾  
 وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِمْ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ  
 فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا  
 رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا  
 مَعِيشَ وَمَنْ لَنْتُمْ لَهُ بِرِزْقَيْنِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا  
 خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ  
 لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُمُوهَ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ  
 بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾  
 وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾  
 وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ  
 مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ  
 السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ  
 صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَادَّاسُوهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ  
 رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ  
 أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جَبَرٌ مُتَجَبِّرٌ ﴿٢٢﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢] وَكَذَا قَالَ  
 فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَأِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا  
 مُنْظَرِينَ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَأِكَةُ إِلَّا  
 بِالْحَقِّ﴾ بِالرَّسَالَةِ وَالْعَذَابِ <sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَرَّرَ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي  
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَهُوَ الْحَافِظُ لَهُ مِنَ التَّغْيِيرِ  
 وَالتَّيْدِيلِ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ  
 إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ  
 الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾  
 [استهزاءً مُشْرِكِي كُلِّ أُمَّةٍ بِرُسُلِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسْتَلَبًا لِرَسُولِهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ  
 كُفَّارِ قُرَيْشٍ: إِنَّهُ أَرْسَلَ مِنْ قَبْلِهِ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَإِنَّهُ مَا  
 أَتَى أُمَّةً مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبُوهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ

هَذَا فِي الْجَهَنَّمِيِّينَ إِذَا رَأَوْهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ <sup>(١)</sup>. وَرَوَى  
 ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَسْرَبْنَ مَالِكٌ كَانَا يَتَأَوَّلَانِ هَذِهِ  
 الْآيَةَ ﴿زَيْمًا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ يَتَأَوَّلَانِهَا:  
 يَوْمَ يَحْسِبُ اللَّهُ أَهْلَ الْخَطَايَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ  
 فِي النَّارِ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُمُ الْمُشْرِكُونَ: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ مَا  
 كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَغْضَبُ اللَّهُ لَهُمْ بِفَضْلِ  
 رَحْمَتِهِ فَيُخْرِجُهُمْ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿زَيْمًا يَوْذُ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ <sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ،  
 وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى  
 النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ  
 تُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلِيَهُمُ الْأَمَلُ﴾ أَيِ  
 عَنِ النَّوِيَّةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ أَيِ عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١﴾ مَا نَسِيقُ مِنْ  
 أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزُونُ ﴿٢﴾﴾

[لِكُلِّ قَرْيَةٍ أَجَلٌ يَتِمُّ إِلَيْهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ قَرْيَةً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا  
 وَانْتِهَاءِ أَجْلِهَا، وَأَنَّهُ لَا يُؤَخَّرُ أُمَّةٌ حَانَ هَلَاكُهَا عَنْ مِقَاتِهِمْ  
 وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْ مُدَّتِهِمْ، وَهَذَا تَنْبِيْهُ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْشَادٌ لَهُمْ  
 إِلَى الْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالْعِنَادِ وَالْإِلْحَادِ  
 الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْهَلَاكَ.

﴿وَقَالُوا بَلْآيَاتُهَا الَّتِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١﴾ لَوْ مَا  
 تَأْتِينَا بِالْمَلَأِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢﴾ مَا نَزَّلَ الْمَلَأِكَةُ  
 إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٣﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ  
 لَحَافِظُونَ ﴿٤﴾﴾

[رَمَى الرَّسُولَ بِأَنَّهُ مَجْنُونٌ وَطَلَبَ نَزُولَ الْمَلَأِكَةِ  
 وَالرَّدَّ عَلَيْهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِهِمْ وَعَتُوهُمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ:  
 ﴿بَلْآيَاتُهَا الَّتِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أَيِ الَّذِي يَدْعَى ذَلِكَ ﴿إِنَّكَ  
 لَمَجْنُونٌ﴾ أَيِ فِي دُعَائِكَ إِيَّانَا إِلَى اتِّبَاعِكَ وَتَرْكِ مَا وَجَدْنَا  
 عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿لَوْ مَا﴾ أَيِ هَلَا ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَأِكَةِ﴾ أَيِ يَشْهَدُونَ  
 لَكَ بِصِحَّةِ مَا جِئْتَ بِهِ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. كَمَا قَالَ  
 فِرْعَوْنُ: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ  
 الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ  
 لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَأِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي  
 أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ

(١) الطبري: ٦٢/١٧ (٢) الطبري: ٦٢/١٧ (٣) الطبري:

كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ  
يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ  
ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ  
عَلَى صَفْوَانٍ» قَالَ عَلِيٌّ وَقَالَ غَيْرُهُ: صَفْوَانٌ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ،  
فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا - لِلَّذِي  
قَالَ - الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْفَوُ  
السَّمْعِ، وَمُسْتَرْفَوُ السَّمْعِ هَكَذَا وَاحِدٌ فَوْقَ آخَرَ، وَوَصَفَ  
سُفْيَانٌ بِيَدِهِ، وَفَرَجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى، نَصَبَهَا بَعْضَهَا  
فَوْقَ بَعْضٍ، فَرُبَّمَا أَذْرَكَ الشَّهَابُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ  
بِهَا إِلَى صَاحِبِهِ فَيَحْرِقُهُ، وَرُبَّمَا لَمْ يَذْرِكُهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا  
إِلَى الَّذِي يَلِيهِ إِلَى الَّذِي هُوَ أَشْفَلُ مِنْهُ، حَتَّى يُلْقَوْهَا إِلَى  
الْأَرْضِ، وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ فَتُلْقَى  
عَلَى قَمِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ  
فَيَقْضُدُ، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا  
وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا - لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ<sup>(٦)</sup>.  
ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَهُ الْأَرْضَ وَمَدَّ إِثَابَهَا وَتَوَسَّعَهَا وَبَسَطَهَا،  
وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي، وَالْأَوْدِيَةِ،  
وَالْأَرَاضِي، وَالرَّمَالِ، وَمَا أَنْبَتَ فِيهَا مِنَ الزَّرُوعِ وَالثَّمَارِ  
الْمُنْتَسِبَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ» أَيَّ مَعْلُومٍ،  
وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَأَبُو مَالِكٍ وَمُجَاهِدٌ  
وَالْحَكَمُ بْنُ عَتِيْبَةَ وَالْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَأَبُو صَالِحٍ  
وَقَتَادَةُ<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا» يَذْكُرُ تَعَالَى  
أَنَّهُ صَرَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ فِي صُنُوفِ الْأَشْيَابِ وَالْمَعَايِشِ  
وَهِيَ جَمْعُ مَعِيشَةٍ. وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ» قَالَ  
مُجَاهِدٌ: هِيَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُمْ  
الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ وَالِدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ، وَالْقَصْدُ أَنَّهُ تَعَالَى يَمْتَنُّ  
عَلَيْهِمْ بِمَا يَسَّرَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْمَكَايِصِ وَوُجُوهِ الْأَسْبَابِ  
وَصُنُوفِ الْمَعَايِشِ، وَبِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي  
يَرْكَبُونَهَا، وَالْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا، وَالْعَبِيدَ وَالْإِمَاءَ الَّتِي  
يَسْتَعْدِمُونَهَا، وَرَزَقَهُمْ عَلَى خَالِقِهِمْ لَا عَلَيْهِمْ، فَلَهُمْ هُمْ  
الْمُنْفَعَةُ، وَالرَّزْقُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى<sup>(٩)</sup>.

سَلَكَ التَّكْذِيبَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ عَانَدُوا  
وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِ الْهُدَى. قَالَ أَنَسٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:  
«كَذَلِكَ نَسَلَكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» يَعْنِي الشُّرَكَ<sup>(١٠)</sup>.  
وَقَوْلُهُ: «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» أَيُّ قَدْ عَلِمَ مَا فَعَلَ تَعَالَى  
بِمَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ مِنَ الْهَالِكِ وَالذَّمَّارِ، وَكَيْفَ أَنْجَى اللَّهُ  
الْأَنْبِيَاءَ وَاتَّبَاعَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

«وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ» لَقَالُوا  
إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَنْ قَوْمٍ مَسْحُورُونَ<sup>(١١)</sup>.

[الْمَعَانِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ لَا يُؤْمِنُونَ مَهْمَا رَأَوْا

مِنَ الْآيَاتِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُوَّةِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ  
أَنَّهُ لَوْ فَتَحَ لَهُمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَجَعَلُوا يَصْعَدُونَ فِيهِ لَمَا  
صَدَّقُوا بِذَلِكَ، بَلْ قَالُوا: «إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا» قَالَ  
مُجَاهِدٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَالضَّحَّاكُ: سُدَّتْ أَبْصَارُنَا<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ  
قَتَادَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أُحْذِثْ أَبْصَارُنَا. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ  
ابْنِ عَبَّاسٍ: شُبِّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّمَا سَجَرْنَا<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ:  
«سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا» السَّكْرَانُ الَّذِي لَا يَفْعَلُ.

«وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبَّتْهَا لِلنَّظِيرِينَ» وَحَفِظْنَاهَا

مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ<sup>(١٤)</sup> إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَسْعَقَ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ  
مُيِّنٍ<sup>(١٥)</sup> وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ  
كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ<sup>(١٦)</sup> وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ

يَرْزُقِينَ<sup>(١٧)</sup>.

[قُدْرَةُ اللَّهِ وَآيَاتُهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ السَّمَاءِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَمَا رَزَّيْنَاهُ بِهِ مِنْ  
الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، لِمَنْ تَأَمَّلَ وَكَرَّرَ النَّظَرَ فِيمَا  
يُرَى مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ، مَا يُحَارُّ نَظْرُهُ فِيهِ،  
وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: الْبُرُوجُ هُنَا هِيَ الْكَوَاكِبُ<sup>(١٨)</sup>.  
(قُلْتُ): وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي  
السَّمَاءِ بُرُوجًا»... الْآيَةُ [الفرقان: ٦١]. وَقَالَ عَطِيَّةُ  
الْعَوْفِيُّ: الْبُرُوجُ هُنَا هِيَ قُصُورُ الْحَرَسِ<sup>(١٩)</sup>. وَجَعَلَ  
الشَّهَبَ حَرَسًا لَهَا مِنْ مَرَدَةِ الشَّيَاطِينِ لِئَلَّا يَسْمَعُوا إِلَى  
الْمَلَأِ الْأَعْلَى، فَمَنْ تَمَرَّدَ وَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ  
جَاءَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ فَأَنْتَفَعَهُ، فَرُبَّمَا يَكُونُ قَدْ أَلْقَى الْكَلِمَةَ الَّتِي  
سَمِعَهَا قَبْلَ أَنْ يَذْرِكُهُ الشَّهَابُ إِلَى الَّذِي هُوَ دُونَهُ،  
فَيَأْخُذُهَا الْآخَرُ وَيَأْتِي بِهَا إِلَى وَلِيِّهِ، كَمَا جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ  
فِي الصَّحِيحِ.

(١) الطبري: ٧٠/١٧ (٢) الطبري: ٧٤/١٧ (٣) الطبري:

٧٥/١٧ حكم العوفي تقدم (٤) الطبري: ٧٧/١٧ (٥) البغوي:

٤٥/٣ فتح الباري: ٢٣١/٨ (٦) الطبري: ٧٧/١٧-٨١

(٨) الطبري: ٨٢/١٧ (٩) الطبري: ٨٢/١٧

[الواقعة: ٦٨-٧٠] وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]. وقوله: ﴿وَمَا أَنْشَأْ لَكُمْ بَحْرَيْنِ﴾ أي وَمَا أَنْشَأْ لَهُ بَحْرَيْنِ، بَلْ نَحْنُ نُنْزِلُهُ وَنَحْفَظُهُ عَلَيْكُمْ، وَنَجْعَلُهُ مَعِينًا وَيَتَابِعَ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ شَاءَ تَعَالَى لَأَغَارَهُ وَذَهَبَ بِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ أَنْزَلَهُ وَجَعَلَهُ عَذْبًا، وَحَفِظَهُ فِي الْعُيُونِ وَالْأَبَارِ وَالْأَنْهَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، لِيَتَقَى لَهُمْ فِي طُولِ السَّنَةِ يَشْرَبُونَ وَيَسْقُونَ أَنْعَامَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ.

[بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ]

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ إِنْخَارٌ عَنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَحْيَا الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ، ثُمَّ يُمِيتُهُمْ ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ كُلَّهُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ بِهِمْ أَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾... الآية، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْمُسْتَقْدِمُونَ كُلُّ مَنْ هَلَكَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمُسْتَأْخِرُونَ مَنْ هُوَ حَيٌّ وَمَنْ سَيَأْتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى نَحْوُهُ عَنْ عِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَالشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَهُوَ اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي مَعْشَرٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ عُونََ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ يُذَكِّرُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ وَأَنَّهَا فِي صُفُوفِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَيْسَ هَكَذَا، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ أَلَمِيتُ وَالْمُسْتَأْخِرُونَ وَالْمُسْتَقْدِمُونَ وَالْمُسْتَأْخِرُونَ مَنْ يُخْلَقُ بَعْدُ ﴿وَإِن رَّبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُمْ لَحَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فَقَالَ عُونَُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَقَفَّكَ اللَّهُ وَجَزَاكَ خَيْرًا<sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ وَالْحَمْدُ لِحَقِّقَتُهُ مِنْ قَبْلِ مَنْ تَارَ السَّمُورُ ﴿٧٧﴾

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿٧٨﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذِنًا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَكُمْوهُ وَمَا أَنْشَأْ لَكُمْ بَحْرَيْنِ ﴿٧٩﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْأَوَّلُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٨١﴾ وَإِن رَّبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُمْ لَحَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾

[خَزَائِنُ كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، وَأَنَّ عِنْدَهُ خَزَائِنُ الْأَشْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الصُّنُوفِ ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ كَمَا نَشَاءُ وَكَمَا يُرِيدُ، وَلَمَّا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ لَا عَلَى جِهَةِ الْوُجُوبِ، بَلْ هُوَ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، قَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي زِيَادٍ عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ: مَا مِنْ عَامٍ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَقْسِمُهُ بَيْنَهُمْ حَيْثُ شَاءَ عَامًا هَهُنَا وَعَامًا هَهُنَا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ الآية<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

[مَنْفَعَةُ الرِّيحِ]

وقوله تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْفِحَ﴾ أَي تَلْفَحُ السَّحَابَ فَتَدْرُ مَاءً، وَتَلْفَحُ الشَّجَرَ فَتَنْفُخُ عَنْ أَوْرَاقِهَا وَأُكْمَامِهَا، وَذَكَرَهَا بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِيَكُونَ مِنْهَا الْإِنْتِاجُ بِخِلَافِ الرِّيحِ الْعَقِيمِ، فَإِنَّهُ أَفْرَدَهَا وَوَصَفَهَا بِالْعَقِيمِ وَهُوَ عَدَمُ الْإِنْتِاجِ، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ شَيْئَيْنِ فَصَاعِدًا.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ قَالَ: تُرْسَلُ الرِّيحُ فَتَحْمِلُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَمْرِي السَّحَابَ حَتَّى تَدْرُ كَمَا تَدْرُ اللَّفْحَةُ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَقَتَادَةُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَبْعَثُهَا اللَّهُ عَلَى السَّحَابِ فَتَلْفَحُهُ فَيَمْتَلِئُ مَاءً<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ: يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُسْرَةَ فَتَقْمُ الْأَرْضَ قَمًا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُسْرَةَ فَتَشِيرُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُؤَلَّفَةَ فَتَوَلِّفُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ اللَّوْفِحَ فَتَلْفَحُ الشَّجَرَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْفِحَ﴾<sup>(٥)</sup>.

[الْمَاءُ الْعَذْبُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ]

وقوله: ﴿فَاسْقَيْنَكُمْوهُ﴾ أَي أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ عَذْبًا يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تَشْرَبُوا مِنْهُ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا، كَمَا بَيَّنَّ عَلَى ذَلِكَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ مَا أَنْتُمْ أَرْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَرْنِ أَمْ نَحْنُ الْمَزْلُونَ ﴿٨٤﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٨٥﴾

(١) الطبري: ٨٤/١٧ إسناداه ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد (٢) الطبري: ٨٦/١٧ المعجم الكبير للطبراني ٩٠٨٠/٩ (٣) الطبري: ٨٨، ٨٧/١٧ (٤) الطبري: ٨٨/١٧ (٥) الطبري: ٨٨/١٧ (٦) الطبري: ٩١/١٧ (٧) الطبري: ٩١/١٧ (٨) الطبري: ٩٠/١٧ إسناداه ضعيف لضعف أبي معشر نجيع بن عبد الرحمن (تقريب)

## [مَادَّةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْجَانِّ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَدَّادَةُ: الْمُرَادُ بِالصَّلْصَالِ هَهُنَا التُّرَابُ الْيَابِسُ<sup>(١)</sup>. وَالظَّاهِرُ: أَنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾<sup>(٢)</sup> وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ [الرحمن: ١٤، ١٥] وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا ﴿صَلْصَلٍ﴾ الْمَتْنِ<sup>(٣)</sup>. وَتَفْسِيرُ الْآيَةِ بِالْآيَةِ أَوْلَى. قَوْلُهُ: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ أَيِ الصَّلْصَالِ مِنْ حَمَلٍ، وَهُوَ الطِّينُ. وَالْمَسْنُونُ: الْأَمْلَسُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ مِنْ قَبْلِ الْإِنْسَانِ ﴿مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ السَّمُومُ الَّتِي تَقْتُلُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُمَرَ الْأَصَمِّ أَعُوذُهُ، فَقَالَ: أَلَا أَدْعُوكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: هَذِهِ السَّمُومُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنَ السَّمُومِ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا الْجَانُّ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾<sup>(٥)</sup>: وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ مَّا وَصِفَ لَكُمْ»<sup>(٦)</sup>. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ التَّنْبِيْهُ عَلَى شَرَفِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَطَيْبِ غُضْرِهِ وَطَهَارَةِ مَحْتَدِهِ.

﴿وَأَدَّ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾<sup>(٨)</sup> فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدِينَ<sup>(٩)</sup> فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ<sup>(١٠)</sup> إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ<sup>(١١)</sup> قَالَ يَتْلُو مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ<sup>(١٢)</sup> قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ<sup>(١٣)</sup>

[خُلِقَ آدَمُ وَأُمِرَ الْمَلَائِكَةُ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَتَمَرَّدَ إِبْلِيسُ] يَذْكُرُ تَعَالَى تَنْوِيْهَهُ بِذِكْرِ آدَمَ فِي مَلَائِكَتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ وَتَشْرِيفَهُ بِأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَيَذْكُرُ تَخَلُّفَ إِبْلِيسَ عُدُوَّهُ عَنِ السُّجُودِ لَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا وَافْتِخَارًا بِالْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] وَقَوْلِهِ: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ... الْآيَةِ [الإسراء: ٦٢].

﴿قَالَ فَخَرَجَ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾<sup>(١٤)</sup> وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ<sup>(١٥)</sup> قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ<sup>(١٦)</sup> قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ<sup>(١٧)</sup> إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ<sup>(١٨)</sup>

## الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٦٤

## سُورَةُ الْحَجَرِ

قَالَ يَتْلُو مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ<sup>(٢٢)</sup> قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ<sup>(٢٣)</sup> قَالَ فَخَرَجَ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ<sup>(٢٤)</sup> وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ<sup>(٢٥)</sup> قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ<sup>(٢٦)</sup> قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ<sup>(٢٧)</sup> إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ<sup>(٢٨)</sup> قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ<sup>(٢٩)</sup> إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ<sup>(٣٠)</sup> قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ<sup>(٣١)</sup> إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ<sup>(٣٢)</sup> وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ<sup>(٣٣)</sup> لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ<sup>(٣٤)</sup> إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ<sup>(٣٥)</sup> أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ<sup>(٣٦)</sup> وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ<sup>(٣٧)</sup> لَا يُمَسَّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ<sup>(٣٨)</sup> نَجَّى عِبَادِيَ إِبْرَاهِيمَ الْغُفُورَ الرَّحِيمَ<sup>(٣٩)</sup> وَأَنَّا عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ<sup>(٤٠)</sup> وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ<sup>(٤١)</sup>

[إِخْرَاجُ إِبْلِيسَ مِنْ مَقَامِهِ عِنْدَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَإِمِهَالُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَمَرَ إِبْلِيسَ أَمْرًا كَوْنِيًّا لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَأَنَّهُ «رَجِيمٌ» أَيِ مَرْجُومٌ، وَأَنَّهُ قَدْ أَتْبَعَهُ لَعْنَةً لَا تَزَالُ مُتَّصِلَةً بِهِ لَا حِقَّةَ لَهُ، مُتَوَاتِرَةً عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا لَعَنَ اللَّهُ إِبْلِيسَ، تَغَيَّرَتْ صُورَتُهُ عَنْ صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ، وَرَدَّ رَتَّهُ، فَكُلَّ رَتَّهُ فِي الدُّنْيَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْهَا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(٢٩)</sup> إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ<sup>(٣٠)</sup> قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ<sup>(٣١)</sup> إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ<sup>(٣٢)</sup> وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ<sup>(٣٣)</sup> لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ

(١) الطبري: ٩٦/١٧ (٢) الطبري: ٩٧/١٧ (٣) الطبري: ٩٩/١٧ (٤) الطبري: ٢١/١٦ (٥) مسلم: ٢٢٩٤/٤

بَابُ مَنَّهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿١١﴾

[تَحْدِي إِبْلِيسَ بِالْإِغْوَاءِ، وَوَعِيدُ اللَّهِ لَهُ

بِجَهَنَّمَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ إِبْلِيسَ وَتَمَرُّدِهِ وَغَوِّهِ أَنَّهُ قَالَ لِلرَّبِّ: ﴿يَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أَيُّ سَبَبٍ مَا أَغْوَيْتَنِي وَأَصْلَلْتَنِي ﴿لَأَزِيَنَّ لَهُمْ﴾ أَيُّ لَذَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ أَحَبَّ إِلَيْهِمُ الْمَعَاصِي وَأَرْغَبُهُمْ فِيهَا وَأُزْرَهُمْ إِلَيْهَا، وَأُزْعِجُهُمْ إِلَيْهَا إِزْعَاجًا ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَيُّ كَمَا أَغْوَيْتَنِي وَقَدَّرْتَ عَلَيَّ ذَلِكَ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿كَقَوْلِهِ: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَكِنَ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأنعام: ٦٢]﴾ قَالَ: اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعَّدًا هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ أَيُّ مَرَجِعُكُمْ كُلُّكُمْ إِلَيَّ، فَأُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرِّصَادٍ﴾ [النحل: ٩]. كَقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أَيُّ الَّذِينَ قَدَّرْتُ لَهُمُ الْهِدَايَةَ فَلَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهِمْ وَلَا وُصُولَ لَكَ إِلَيْهِمْ ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُقْطَعٌ. وَقَدْ أوردَ ابْنُ جَرِيرٍ هَهُنَا عَنْ يَزِيدَ بْنِ قُسَيْطٍ قَالَ: كَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ يَكُونُ لَهُمْ مَسَاجِدُ خَارِجَةٌ مِنْ قُرَاهُمْ، فَإِذَا أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْبِئَ رَبَّهُ عَنْ شَيْءٍ خَرَجَ إِلَى مَسْجِدِهِ فَصَلَّى مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ مَا بَدَأَ لَهُ، فَيُنَبِّئُ نَبِيَّ فِي مَسْجِدِهِ إِذْ جَاءَ عَدُوُّ اللَّهِ - يَعْنِي إِبْلِيسَ - حَتَّى جَلَسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، [فَقَالَ عَدُوُّ اللَّهِ: أَرَأَيْتَ الَّذِي تَعُوذُ مِنْهُ فَهُوَ هُوَ فَقَالَ النَّبِيُّ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ] قَالَ: فَرَدَّدَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ عَدُوُّ اللَّهِ: أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ تَنْجُو مِنِّي؟ فَقَالَ النَّبِيُّ: بَلْ أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ [مَرَّتَيْنِ]؟ فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. قَالَ عَدُوُّ اللَّهِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُؤَلِّدَ. قَالَ النَّبِيُّ: وَيَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَحْسَسْتُ بِكَ قَطُّ إِلَّا اسْتَعَذْتُ بِاللَّهِ مِنْكَ. قَالَ عَدُوُّ اللَّهِ: صَدَقْتَ بِهِذَا تَنْجُو مِنِّي، فَقَالَ النَّبِيُّ: أَخْبِرْنِي بِأَيِّ شَيْءٍ تَغْلِبُ ابْنَ آدَمَ؟

قَالَ: أَخَذُهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَالْهَوَىٰ ١١.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَيُّ جَهَنَّمَ مَوْعِدٌ جَمِيعٍ مِنَ اتَّبَعِ إِبْلِيسَ، كَمَا قَالَ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِيَوْمٍ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْثَارُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧].

[أَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ]

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ لِجَهَنَّمَ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أَيُّ قَدْ كُتِبَ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ اتِّبَاعِ إِبْلِيسَ يَدْخُلُونَهُ لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا، وَكُلُّ يَدْخُلُ مِنْ بَابٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ، وَتَسْتَقَرُّ فِي ذَلِكَ بِقَدَرِ عَمَلِهِ وَمَنَازِلُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُتَحَرِّجِينَ﴾ ﴿يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا عِبَادَاتِ آفِي أَنَا الْعُقُورُ الرَّحِيمِ﴾ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

[بَيَانُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَحْوَالِهِمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ النَّارِ عَطَفَ عَلَىٰ ذِكْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهُمْ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أَيُّ سَالِمِينَ مِنَ الْآفَاتِ، مُسَلِّمٌ عَلَيْكُمْ ﴿ءَامِينَ﴾ أَيُّ مِنْ كُلِّ خَوْفٍ وَفَزَعٍ، وَلَا تَخْشَوْا مِنْ إِخْرَاجٍ وَلَا انْقِطَاعٍ وَلَا فَنَاءٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ رَوَى الْقَاسِمُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا فِي صُدُورِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّخَاءِ وَالضَّعَائِنِ، حَتَّى إِذَا تَوَافَوْا وَتَقَابَلُوا نَزَعَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ غَلٍّ ٢١. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. هَكَذَا فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ، وَالْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي رَوَايَتِهِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ضَعِيفٌ، وَلَكِنْ هَذَا مُوَافِقٌ لِمَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ رَوَايَةِ قَتَادَةَ: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُؤَكَّلِ النَّاجِي أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قُطْرَةِ بَيْنِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. فَيُقْتَصَّرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَطَالِمِ كَانَتْ يَبْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ» ٢٢.

(١) الطبري: ١٧/١٠٥ مرسل. (٢) الطبري: ١٧/١٠٧ إسناده ضعيف فيه بشر بن نمير البصري متروك منهم (تقريب) والمثنى شيخ الطبري مجهول الحال. (٣) البخاري: ٦٥٣٥

الْمَلَأْنَاهُمْ كَبِيرًا

٢٦٥

سُورَةُ الْحَجَرِ

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا ابْشِرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا نِهَا لِمَن الْغَدِيرِ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَهُمْ لَآءٌ مَّقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِغْفِيرٌ فَلَا تُفْضَحُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَنْفُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾

لَهُ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يَعْنُونَ قَوْمَ لُوطٍ، وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ سَيُجْزَوْنَ أَل لُوطٍ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَّا أَمْرَاتُهُ فَإِنَّهَا مِنَ الْهَالِكِينَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا نِهَا لِمَن الْغَدِيرِ﴾ أَي الْبَاقِينَ الْمُهْلَكِينَ.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾

[مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ لُوطٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ لُوطٍ لَمَّا جَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حَسَنٍ الْوُجُو، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ دَارَهُ قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ يَعْنُونَ بَعْدَابِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمُ الَّذِي كَانُوا يَسْكُونُ فِي وَفُوعِهِ بِهِمْ وَحُلُولِهِ بِسَاحَتِهِمْ ﴿وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يَعْنِي الْمَشَقَّةَ وَالْأَدَى، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بِنَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَضَبٍ لَا صَحَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبٍ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنْ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَمَرُّصُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَسْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَقِيمُوا فَلَا تَطْعَمُوا أَبَدًا»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿بَيْنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٦١﴾ وَأَنَّ عِبَادِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أَي أَخْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عِبَادِي أَنِّي ذُو رَحْمَةٍ وَذُو عَذَابٍ أَلِيمٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهِيَ ذَالَةٌ عَلَى مَقَامِي الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ.

﴿وَتَبَشِّرُهُمْ عَنْ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٥٨﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالُوا أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا ابْشِرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

[ضَيْفُ إِبْرَاهِيمَ وَتَبَشِيرُهُمْ إِيَّاهُ بِغُلَامٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَنْ قِصَّةِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَالضَيْفُ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ كَالزُّورِ وَالسُّفَرِ، وَكَيْفَ﴾ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٩﴾ أَي خَافُونَهُ، وَقَدْ ذَكَرَ سَبَبَ خَوْفِهِ مِنْهُمْ، لَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَى مَا قُرْبَهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الضَّيَافَةِ، وَهُوَ الْعَجَلُ السَّيِّئُ الْحَنِيدُ ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أَي لَا تَخَفْ ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أَي إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ هُودٍ ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ مُتَعَجِّبًا مِنْ كِبَرِهِ وَكِبَرِ زَوْجَتِهِ، وَمُتَحَقِّقًا لِلْوَعْدِ: ﴿أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ فَأَجَابُوهُ مُؤَكِّدِينَ لَمَّا بَشَّرُوهُ بِهِ تَحْقِيقًا وَبِشَارَةً بَعْدَ بَشَارَةٍ ﴿قَالُوا ابْشِرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا نِهَا لِمَن الْغَدِيرِ ﴿٦٠﴾

[سَبَبُ مَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى، أَنَّهُ شَرَعَ يَسْأَلُهُمْ عَمَّا جَاءُوا

(١) فتح الباري: ١٦٦/٧ ومسلم: ١٨٨٧/٤ (٢) مسلم: ٤/٤٢١٢

نَزَّلَ الْمَلَكُ إِلَا بِالْحَقِّ [الحجر: ٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تَأْكِيدٌ لِيُخْبِرَهُمْ بِإِيَّاهُ بِمَا أَخْبَرُوهُ بِهِ مِنْ نَجَاتِهِ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ.

﴿فَأَنسِرْ بِأَهْلِكَ يَفْقَعْ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ وَقَضَيْتَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿١٦﴾

[أمر لوطٍ بخروجه مع أسرته في الليل]

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهُ أَنْ يُسْرِيَ بِأَهْلِهِ بَعْدَ مُضِيِّ جَانِبِ مِنَ اللَّيْلِ، وَأَنْ يَكُونَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْشِي وَرَاءَهُمْ لِيَكُونَ أَحْفَظَ لَهُمْ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي فِي الْعَزْوِ، إِنَّمَا يَكُونُ سَاقَةٌ يُرْجَى الضَّعِيفُ وَيَحْمِلُ الْمُتَّقِطُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أَيْ إِذَا سَمِعْتُمْ الصَّيْحَةَ بِالْقَوْمِ فَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِمْ، وَذَرُوهُمْ فِيمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كَأَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ مَنْ يَهْدِيهِمُ السَّبِيلَ ﴿وَقَضَيْتَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أَيْ تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ أَيْ وَقْتُ الصَّبَاحِ كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿وَمَاءَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَنْتَشِرُونَ﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيَّفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿١٨﴾ وَأَقْوُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿١٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَلَمِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢٢﴾

[مجيء أهل المدينة إلى الملائكة ظناً منهم أنهم رجال]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَجِيءِ قَوْمِ لُوطٍ لَمَّا عَلِمُوا بِأَضْيَافِهِ وَصَبَاحَةِ وَجُوهِهِمْ، وَأَنَّهُمْ جَاءُوا مُسْتَبْشِرِينَ بِهِمْ فَرَحِينَ ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيَّفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ وَأَقْوُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ - كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ هُودٍ - وَأَمَّا هُنَا فَتَقَدَّمَ ذِكْرُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ وَعُطِفَ بِذِكْرِ مَجِيءِ قَوْمِهِ وَمُحَاجَّاتِهِ لَهُمْ، وَلَكِنَّ الْوَاوَ لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا دَلَّ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِهِ، فَقَالُوا لَهُ مُجِيبِينَ: ﴿أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَلَمِينَ﴾ أَيْ أَوْ مَا نَهَيْتَكَ أَنْ تُضَيِّفَ أَحَدًا؟ فَأَرَشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ وَمَا خَلَقَ لَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْهُمْ مِنَ الْفُرُوجِ الْمُبَاحَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ إِضْحَاحُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. هَذَا كُلُّهُ وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُّ بِهِمْ، وَمَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ، وَمَاذَا

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٢١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٢٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَمْتٍ سَمِينٍ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَائِفِينَ ﴿٢٨﴾ فَأَنْفَقْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَامَامٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٣٠﴾ وَعَاشَتْهُمْ أَيْتَانَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٣١﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٣٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّصْحَ الْجَبِيلَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٣٧﴾ لَا تَتَمَدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٣٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٤٠﴾

يُصَبِّحُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْمُسْتَقَرِّ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أَقْسَمَ تَعَالَى بِحَيَاةِ نَبِيِّ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَفِي هَذَا تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ وَمَقَامٌ رَفِيعٌ وَجَاهٌ عَرِضٌ. قَالَ عَمْرُو بْنُ مَالِكٍ النُّكْرِيُّ عَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا ذَرَأَ وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا سَمِعْتُ اللَّهَ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يَقُولُ: وَحَيَاتِكَ وَعَمْرُكَ وَبَقَايِكَ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أَيْ فِي ضَلَالِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أَيْ يَلْعَبُونَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لَعْنَتُكَ ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قَالَ: يَتَرَدَّدُونَ. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٢٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَمْتٍ سَمِينٍ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّا



لِسَبِيلِ مُقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

[إِهْلَاكُ قَوْمِ لُوطَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾ وَهِيَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ الصَّوْتِ الْقَاصِفِ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَهُوَ طُلُوعُهَا، وَذَلِكَ مَعَ قَلْبِ بِلَادِهِمْ وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَإِزْسَالِ حِجَارَةِ السَّجِيلِ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى السَّجِيلِ فِي هُوْدٍ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُتَوَسِّعِينَ﴾ أَيْ إِنَّ آثَارَ هَذِهِ النَّصَمِ الظَّاهِرَةِ عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ لِمَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ وَتَوَسَّعَ بَعَيْنَ بَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلْمُتَوَسِّعِينَ﴾ قَالَ: الْمُتَفَرِّسِينَ<sup>(١)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ: لِلنَّاطِرِينَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: لِلْمُعْتَبِرِينَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: لِلْمُتَوَسِّعِينَ. لِلْمُتَأَمِّلِينَ.

[قُرْبَةُ سُدُومَ عَلَى الطَّرِيقِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّمَا لِسَبِيلِ مُقِيمٍ﴾ أَيْ وَإِنَّ قُرْبَةَ سُدُومَ الَّتِي أَصَابَهَا مَا أَصَابَهَا مِنَ الْقَلْبِ الصُّورِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ وَالْقَدْفِ بِالْحِجَارَةِ، حَتَّى صَارَتْ بَحِيرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً بِطَرِيقِ مَهَبِ مَسَالِكِهِ مُسْتَبْرَءَةً إِلَى الْيَوْمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا لِلْمُؤْمِنِينَ مِثْلَ خِيَارٍ﴾ وَبِالْأَيْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿[الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ إِنَّ الَّذِي صَنَعْنَا بِقَوْمِ لُوطٍ مِنْ الْإِهْلَاكِ وَالْإِنجَاثِ لُوطًا وَأَهْلَهُ لِدَلَالَةٍ وَاصِحَةٍ جَلِيلَةٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ.

﴿وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمُ الْآيَةَ ظَالِمًا لِّبَنِيهِ﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَآيَارِ مِثِينَ ﴿٧٨﴾

[إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْآيَةِ: قَوْمِ شُعَيْبَ]

أَصْحَابُ الْآيَةِ هُمْ قَوْمُ شُعَيْبَ، قَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: الْآيَةُ الشَّجَرُ الْمُتَلَتَّفُ<sup>(٤)</sup>. وَكَانَ ظُلْمُهُمْ بِشَرِكِهِمْ بِاللَّهِ وَقَطْعُهُمُ الطَّرِيقَ، وَنَقْصُهُمُ الْبُكْبَالَ وَالْمِيزَانَ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ بِالصَّيْحَةِ وَالرَّجْفَةِ وَعَذَابِ يَوْمِ الظَّلِيلَةِ، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنْ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَهُمْ - فِي الزَّمَانِ - ، وَمُسَامِتِينَ لَهُمْ فِي الْمَكَانِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا لِيَآيَارِ مِثِينَ﴾ أَيْ طَرِيقِ مِثِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ: طَرِيقِ ظَاهِرٍ<sup>(٥)</sup>. وَلِهَذَا لَمَّا أُنْذِرَ شُعَيْبٌ قَوْمَهُ قَالَ فِي نَذَارَتِهِ إِنِّي أَهْمُ ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾

[هود: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ وَآيَاتُهُمْ ءَاتَيْنَا فَكَانُوا

عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَتَحَوَّنَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْتًا ءَامِينَ ﴿٨٢﴾

فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

[إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْحِجْرِ، وَهُمْ ثَمُودَ]

أَصْحَابُ الْحِجْرِ هُمْ ثَمُودُ الَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا نَبِيَّهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، وَلِهَذَا أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ تَكْذِيبُ الْمُرْسَلِينَ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنَا هُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ صَالِحٌ كَالنَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لَهُمْ بِدْعَاءِ صَالِحٍ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءَ، وَكَانَتْ تَسْرَحُ فِي بِلَادِهِمْ لَهَا شِرْبٌ وَلَهُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ، فَلَمَّا عَنَّا وَعَقَرُوهَا قَالَ لَهُمْ: ﴿تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ ﴿وَكَانُوا يَتَحَوَّنَ مِنَ الْجِبَالِ يُوْتًا ءَامِينَ﴾ أَيْ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ وَلَا احْتِيَاجٍ إِلَيْهَا، بَلْ أَشْرًا وَطَرًا وَعَبَثًا، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ مِنْ صَنِيعِهِمْ فِي بُيُوتِهِمْ بِوَادِي الْحِجْرِ الَّذِي مَرَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ، فَقَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ ذَابْتَهُ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْقَوْمِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَبَاكُوا خَشْيَةً أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْحِينَ﴾ أَيْ وَقْتُ الصَّبَاحِ مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ مَا كَانُوا يَسْتَغْلُونَهُ مِنْ زُرُوعِهِمْ وَثَمَارِهِمُ الَّتِي ضَنُّوا بِمَائِهَا عَنِ النَّاقَةِ، حَتَّى عَقَرُوهَا، لِئَلَّا تُضَيِّقَ عَلَيْهِمْ فِي الْيَوَاءِ، فَمَا دَفَعَتْ عَنْهُمْ تِلْكَ الْأَمْوَالُ وَلَا نَفَعَتْهُمْ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ فَاصِّحٌ فَاصِّحٌ الْجَمِيلُ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ

الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

[خُلِقَتِ الدُّنْيَا لِمَصْلَحَةٍ مَا، ثُمَّ تَقُومُ السَّاعَةُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ﴾ أَيْ بِالْعَدْلِ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾... الْآيَةُ [النجم: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٣٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

(١) الطبري: ١٢٠/١٧ (٢) الطبري: ١٢١/١٧ (٣) الطبري:

١٢١/١٧ (٤) الطبري: ١٢٥/١٧ (٥) الطبري: ١٢٥/١٧

(٦) أحمد: ٩١/٢

وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ وَعُمَرُ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالْبَسْمَلَةُ هِيَ الْآيَةُ السَّابِعَةُ، وَقَدْ خَصَّصَ اللَّهُ بِهَا<sup>(٢)</sup>. وَبِهِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَيْرٍ وَابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُجَاهِدٌ<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ أوردَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَهُنَا حَدِيثَيْنِ: (أَحَدُهُمَا): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ: مَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أَصْلِي فَذَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: «مَا مَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟» فَقُلْتُ: كُنْتُ أَصْلِي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] أَلَا أَعْلَمُكُمْ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟» فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْرَجَ فَذَكَرْتُ فَقَالَ: «الْحَسَنُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» هِيَ السَّعُ الثَّمَانِي وَالْقُرْآنُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ (الثَّانِي): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّعُ الثَّمَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»<sup>(٤)</sup>. فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ الْفَاتِحَةَ السَّعُ الثَّمَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ. وَلَكِنْ لَا يُنَافِي وَصَفَ غَيْرَهَا مِنَ السَّعِ الطَّوْلِ بِذَلِكَ، لِمَا فِيهَا مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، كَمَا لَا يُنَافِي وَصَفَ الْقُرْآنِ بِكَمَالِهِ بِذَلِكَ أَيْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ رَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّدًا مَثَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣] فَهُوَ مَثَانِي مِنْ وَجْهِ وَمُتَشَدِّدٌ مِنْ وَجْهِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١] أَيْ إِسْغَنِ بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ.

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قَالَ: نَهَى الرَّجُلَ أَنْ يَتَمَنَّى مَا لِصَاحِبِهِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١] هُمْ الْأَغْنِيَاءُ<sup>(٦)</sup>. وَقُلْ إِنَّ أَوَّلَ النَّذِيرِ الْمُبِينِ<sup>(٧)</sup> كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ<sup>(٨)</sup> الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ<sup>(٩)</sup> فَوَرِّكَ لَنَسَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ<sup>(١٠)</sup> عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(١١)</sup>.

[الرَّسُولُ نَذِيرٌ مُبِينٌ]

يَأْمُرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ

خَلَقْنَكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>(١٢)</sup> فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] ثُمَّ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا كَانَتْهُ لَا مَحَالَةَ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالصَّفْحِ الْجَمِيلِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَذَاهُمْ لَهُ وَتَكْذِيبِهِمْ مَا جَاءَهُمْ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩] وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَفَتَادَةٌ وَغَيْرُهُمَا: كَانَ هَذَا قَبْلَ الْقِتَالِ. وَهُوَ كَمَا قَالَا، فَإِنَّ هَذِهِ مَكِّيَّةٌ وَالْقِتَالُ إِنَّمَا شَرَعَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ وَأَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِقَامَةِ السَّاعَةِ، فَإِنَّهُ الْخَلَّاقُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ خَلْقُ شَيْءٍ، أَلْعَلِيمُ بِمَا تَمَرَّقَ مِنَ الْأَجْسَادِ وَتَفَرَّقَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(١٣)</sup> إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ<sup>(١٤)</sup> فَسَبِّحْ لِلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يس: ٨١-٨٣].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾<sup>(١٥)</sup> لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ<sup>(١٦)</sup>

[الْأَمْتَانِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَمْرَ بِالتَّرْكِيزِ عَلَى دَعْوَتِهِ] يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: كَمَا آتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فَلَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الدُّنْيَا، وَزِينَتِهَا، وَمَا مَتَّعْنَا بِهِ أَهْلَهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ لِتَفْتِنَهُمْ فِيهِ فَلَا تَغْطِطُهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ، وَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ حَزَنًا عَلَيْهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ وَمُخَالَفَتِهِمْ دِينَكَ ﴿وَلْخَفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ابْتَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي السَّعِ الثَّمَانِي مَا هِيَ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ: هِيَ السَّعُ الطَّوَالُ، يَعْتَوْنَ: الْبَقَرَةَ، وَالْأَعْرَافَ، وَيُونُسَ، نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. وَقَالَ سَعِيدٌ: بَيَّنَّ فِيهِنَّ الْفَرَايِضَ وَالْحُدُودَ وَالْقِصَصَ وَالْأَحْكَامَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيَّنَّ الْأَمْثَالَ وَالْخَبَرَ وَالْعِبَرَ<sup>(١٧)</sup>.

(وَالْقَوْلُ الثَّانِي): أَنَّهَا الْفَاتِحَةُ، وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ.

(١) الطبري: ١٣٠/١٧ - ١٣٢ (٢) الطبري: ١٣٣/١٧ (٣)

الطبري: ١٣٥/١٧ (٤) فتح الباري: ٢٣٢/٨ (٥) الطبري:

١٤١/١٧ العوفي ضعيف (٦) الطبري: ١٤١/١٧

قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ قَوْلُوا لِأَسْمَعَ، قَالُوا: نَقُولُ: كَاهِنٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِكَاهِنٍ. قَالُوا: فَتَقُولُ: مَجْنُونٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ. قَالُوا: فَتَقُولُ: شَاعِرٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِشَاعِرٍ. قَالُوا: فَتَقُولُ: سَاحِرٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، قَالُوا: فَمَاذَا نَقُولُ؟ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، فَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا إِلَّا عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنْ أَقْرَبَ الْقَوْلِ أَنْ تَقُولُوا: هُوَ سَاحِرٌ. فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ بِذَلِكَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْفِرْعَانَ عِضِينَ﴾ ﴿أَصْنَاةً﴾ ﴿فَوَرَيْكَ لَسْتَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ قَالُوا [ذَلِكَ] لِرَسُولِ اللَّهِ <sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَنِ الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوَرَيْكَ لَسْتَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ: يَسْأَلُ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ عَنْ خَلْقَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَمَاذَا أَجَابُوا الْمُرْسَلِينَ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَوَرَيْكَ لَسْتَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] قَالَ: لَا يَسْأَلُهُمْ هَلْ عَمِلْتُمْ كَذَا؟ لِأَنَّهُ أَعْلَمَ بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ <sup>(٥)</sup>.

﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْزِلهُ﴾ ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ <sup>(٦)</sup>.

### [الْأَمْرُ بِالصَّدْعِ بِالْحَقِّ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِإِبْلَاحِ مَا بَعَثَهُ بِهِ وَيَنْفَاضِهِ وَالصَّدْعِ بِهِ، وَهُوَ مُوَاجَهَةُ الْمُشْرِكِينَ بِهِ. كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ﴿أَيَّ أَمْرِهِ﴾ <sup>(٧)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: (افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْجَهْرُ بِالْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ <sup>(٨)</sup>. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: مَا

الْمُيْتِ ﴿الْبَيِّنُ النَّذَارَةُ، تَذِيرٌ لِلنَّاسِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، أَنْ يَحْلَلَ بِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ كَمَا حَلَّ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكْذِبَةِ لِرُسُلِهَا، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْإِنْتِقَامِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَسَ بَعِيَّتِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْتَجَاءَ النَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذَلُّجُوا وَأَنْظَلُّوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَجَبُّوا، وَكَذَبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَحَهُمُ الْجَنَسُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلٌ مِنْ أَطْلَاعِنِي وَاتَّبَعِ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلٌ مِنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ» <sup>(٩)</sup>.

### [تَفْسِيرُ الْمُفْتَسِمِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الْمُفْتَسِمِينَ﴾ أَيِ الْمُتَحَالِفِينَ، أَيْ تَحَالَفُوا عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَكْذِيبِهِمْ وَأَذَاهُمْ، فَكَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمٍ صَالِحٍ إِنَّهُمْ قَالُوا ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ ... الآية [النمل: ٤٩]، أَيْ نَقْتُلُهُمْ لَيْلًا، قَالَ مُجَاهِدٌ: تَقَاسَمُوا وَتَحَالَفُوا ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثَ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] ﴿أَوَلَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ... الآية [إبراهيم: ٤٤] ﴿أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩] فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَكْذِبُونَ شَيْءًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَقْسَمُوا عَلَيْهِ فَمُسُوا مُفْتَسِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْفِرْعَانَ عِضِينَ﴾ ﴿أَيَّ جَزَاءٍ كُتِبَهُمُ الْمُنْزَلَةَ عَلَيْهِمْ فَأَمَنُوا يَبْغِضُ وَكَفَرُوا يَبْغِضُ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿جَعَلُوا الْفِرْعَانَ عِضِينَ﴾ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ جَزَاءُهُ أَجْرَاءُ فَأَمَنُوا يَبْغِضُهُ وَكَفَرُوا يَبْغِضُهُ <sup>(١٠)</sup>. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُفْتَسِمِينَ قُرَيْشٌ، وَبِالْقُرْآنِ هُوَ هَذَا الْقُرْآنُ. وَمَعْنَى جَعَلَهُ عِضِينَ هُوَ مَا قَالَهُ عَطَاءٌ: قَالَ بَعْضُهُمْ: سَاحِرٌ. وَقَالُوا: مَجْنُونٌ. وَقَالَ: كَاهِنٌ. فَذَلِكَ الْعِضِينَ. وَكَذَا رَوَى عَنِ الضَّحَّاكِ وَغَيْرِهِ.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِيهِمْ، وَقَدْ حَضَرَ الْمَوْسِمَ فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ هَذَا الْمَوْسِمَ، وَإِنَّ وَفُودَ الْعَرَبِ سَتَقْدُمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبِكُمْ هَذَا، فَأَجْمَعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَيَكْذِبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَبَرِّدْ قَوْلَكُمْ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَقَالُوا: وَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ قُلْ وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُولُ بِهِ،

(١) فتح الباري: ١٣/٢٦٤ ومسلم: ٤/١٧٨٨ (٢) فتح الباري: ٨/٢٣٣ (٣) ابن هشام: ١/٢٨٨ روى محمد بن إسحاق هذه الرواية عن محمد بن أبي محمد وهو مجهول كما مر. لكن تابعه أيوب السخيتاني عند البيهقي ٢/١٩٨ والحاكم ٢/٥٠٦ وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي وهو كما قالا (٤) الطبري: ١٧/١٥٠ (٥) الطبري: ١٧/١٥٠ (٦) الطبري: ١٧/١٥١ (٧) الطبري: ١٧/١٥١

زَالَ النَّبِيُّ ﷺ مُسْتَحْفِيًا حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾<sup>(١)</sup> فَخَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ.

[الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَضَمَانِ كِفَايَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٢)</sup> إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ أَيُّ بَلَّغَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] وَلَا تَحْفَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَافٍكَ إِيَّاهُمْ وَحَافِظُكَ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٣٥].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ عَظَمَاءُ الْمُسْتَهْزِئِينَ خَمْسَةً نَفَرًا، وَكَانُوا دَوِيَّ أَشْنَانٍ وَشَرَفٍ فِي قَوْمِهِمْ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى بْنِ قُصَيٍّ: الْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ أَبُو زَمْعَةَ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا بَلَّغْنِي قَدْ دَعَا عَلَيْهِ لَمَّا كَانَ يُلْعَنُ مِنْ أَذَاهُ وَاسْتِهْزَائِهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْمِ بَصَرَهُ، وَأَنْكِحْهُ وَلَدَهُ». وَمِنْ بَنِي زُهْرَةَ: الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَمُوتَ بْنِ وَهَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ. وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ: الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِ بْنِ مَخْزُومٍ. وَمِنْ بَنِي سَهْمٍ ابْنِ عَمْرِو ابْنِ هُضَيْصِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ: الْعَاصُ بْنُ وَائِلِ بْنِ هِشَامِ ابْنِ سَعِيدِ بْنِ سَعْدٍ. وَمِنْ خِرَازَةَ: الْحَارِثُ بْنُ الطَّلَاطِلَةِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ عَمْرِو بْنِ مَلْكَانَ، فَلَمَّا تَمَادَا فِي الشَّرِّ وَكَثُرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْإِسْتِهْزَاءَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٣)</sup> إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ<sup>(٤)</sup> الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ عَنْ عُرْوَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ(\*) فَقَامَ وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنْبِهِ، فَمَرَّ بِهِ الْأَسْوَدُ [ابْنُ الْمُطَّلِبِ] فَرَمَى فِي وَجْهِهِ بِوَرْقَةٍ خَضْرَاءَ فَعَمِيَ. وَمَرَّ بِهِ الْأَسْوَدُ [بْنُ عَبْدِ يَمُوتَ] فَأَشَارَ إِلَى بَطْنِهِ، فَاسْتَسْقَى بَطْنَهُ فَمَاتَ مِنْهُ [حَبْنًا]. وَمَرَّ بِهِ الْوَلِيدُ ابْنُ الْمُغِيرَةِ، فَأَشَارَ إِلَى أَثَرِ جُرْحٍ بِأَسْفَلِ كَعْبِ رِجْلِهِ، وَكَانَ أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِسِتَتَيْنِ، وَهُوَ يَجْرُ إِزَارَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ خِرَازَةَ يَرِيضُ نَبْلًا لَهُ، فَتَعَلَّقَ سَهْمٌ مِنْ نَبْلِهِ بِإِزَارِهِ فَخَدَشَ رِجْلَهُ ذَلِكَ الْخَدَشُ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، فَانْتَقَضَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦٧

سُورَةُ الْحَجَرِ

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ<sup>(١)</sup> فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ<sup>(٢)</sup> عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٣)</sup> فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ<sup>(٤)</sup> إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ<sup>(٥)</sup> الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ<sup>(٦)</sup> وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ<sup>(٧)</sup> فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ<sup>(٨)</sup> وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ<sup>(٩)</sup>

## سُورَةُ الْحَجَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>(١٠)</sup> يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ<sup>(١١)</sup> خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>(١٢)</sup> خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ<sup>(١٣)</sup> وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ<sup>(١٤)</sup> وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ<sup>(١٥)</sup>

بِهِ فَقَتَلَهُ. وَمَرَّ بِهِ الْعَاصُ بْنُ وَائِلَ، فَأَشَارَ إِلَى أَحْمَصِ قَدَمِهِ فَخَرَجَ عَلَى حِمَارٍ لَهُ يُرِيدُ الطَّائِفَ، فَرَبَصَ عَلَى شِبْرَقَةٍ فَدَخَلَتْ فِي أَحْمَصِ قَدَمِهِ فَقَتَلَتْهُ. وَمَرَّ بِهِ الْحَارِثُ بْنُ الطَّلَاطِلَةِ فَأَشَارَ إِلَى رَأْسِهِ فَاثْمَخَطَ فَيَحَا فَقَتَلَتْهُ<sup>(١٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ مَعْبُودًا آخَرَ.

[التَّشْجِيعُ عَلَى تَحْمِلِ الْمَشَاقِّ، وَالْأَمْرُ بِالتَّزَامِ التَّسْبِيحِ وَالْعِبَادَةِ حَتَّى الْمَوْتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾<sup>(١٧)</sup> فَسَبِّحْ

(١) الطبري: ١٥٢/١٧ وعند الطبري موسى بن عبيدة عن أخيه عبدالله بن عبيدة قال: مازال النبي ﷺ لا أبو عبيدة عن عبدالله ابن مسعود ومع هذا إسناد ضعيف لإرساله وموسى بن عبيدة ضعيف والمثنى شيخ الطبري مجهول الحال. (\*) كذا في النسخ والصواب: وهم يطوفون، انظر: السيرة (١/٤١٠) (٢) ابن هشام: ٤٠٩/١، ٤١٠

## تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّحْلِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)

[الْإِنذَارُ بِقُرْبِ السَّاعَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَدُنُوبَهَا مُعَبَّرًا بِصِيغَةِ الْمَاضِي الدَّالِّ عَلَى التَّحَقُّقِ وَالْوُقُوعِ لَا مَحَالَةَ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]. وَقَالَ: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقِصْرِ﴾ [القمر: ١]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أَي قُرْبَ مَا تَبَاعَدَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢) سَتَعْجِلُوكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤].

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ مِنَ الْمَغْرِبِ مِثْلُ الثُّرَيَّا، فَمَا تَرَأَى تَرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فِيهَا: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيَقْبِلُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: نَعَمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْكُ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّانِيَةُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَةُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ الرَّجُلَيْنِ لَيَنْشُرَانِ الثُّوبَ فَمَا يَطْوِيَانِهِ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُدُّ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلُبُ نَافَتَهُ فَمَا يَشْرِبُهُ أَبَدًا - قَالَ - وَيَسْتَعْجِلُ النَّاسُ» (٣) ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ شُرَكَاهُمْ بِهِ غَيْرُهُ، وَعِبَادَتِهِمْ مَعَهُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ عَنْهُمْ كِبِيرًا، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُكَذِّبُونَ بِالسَّاعَةِ فَقَالَ: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا

(١) أحمد: ٥/٢٨٦ (٢) فتح الباري: ٨/٢٣٥ (٣) الطبري: ١٧/١٦٠ (٤) فتح الباري: ٣/١٣٧ (٥) فتح الباري: ٢/٦٨٤

(٦) الحاكم: ٤/٥٣٩ وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

يَحْمَدُ رَبِّكَ وَكَنَ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أَي وَإِنَّا لَنَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ، أَنَّكَ يَحْضُلُ لَكَ مِنْ أَذَاهُمْ لَكَ ضِيقُ صَدْرٍ وَانْقِبَاضُ، فَلَا يَهْدِيكَ ذَلِكَ وَلَا يَنْتِيكَ عَنْ إِبْلَاغِكَ رَسُولَةَ اللَّهِ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، فَاسْتَعِزَّ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَعِبَادَتِهِ، الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكَنَ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ نَعِيمِ بْنِ هَمَارٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَا تَعْجَزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفَكَ آخِرَهُ» (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ سَالِمٌ: أَلَمُوتُ (٢). وَسَالِمٌ هَذَا هُوَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، كَمَا رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ «وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» قَالَ: أَلَمُوتُ (٣). وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ امْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ وَقَدْ مَاتَ، قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أبا السَّائِبِ، فَشَهِدْتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟» فَقُلْتُ: يَا أَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ؟ فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ» (٤). وَيُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ كَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا وَاجِبَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا دَامَ عَقْلُهُ ثَابِتًا، فَيُصَلِّي بِحَسَبِ حَالِهِ.

كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ» (٥). وَيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى تَحْطِئَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمَلَايِدَةِ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَقِينِ الْمَعْرِفَةُ، فَمَتَى وَصَلَ أَحَدُهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ عَنْهُمْ. وَهَذَا كُفْرٌ وَضَلَالٌ وَجَهْلٌ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا هُمْ وَأَصْحَابُهُمْ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ وَأَعْرِفُهُمْ بِحَقُوقِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ التَّعْظِيمِ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا أَعْبَدَ وَأَكْثَرَ النَّاسِ عِبَادَةً وَمُوَظَبَةً عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْيَقِينِ هَهُنَا أَلَمُوتُ، كَمَا قَدْ مَنَاهُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْهِدَايَةِ وَعَلَيْهِ الْإِسْتِعَانَةُ وَالتَّوَكُّلُ، وَهُوَ الْمُسْئُولُ أَنْ يَتَوَقَّفَنَا عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ وَأَحْسَنِهَا، فَإِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ. أَخْرَجُ تَفْسِيرَ سُورَةِ النَّحْلِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

[يُرْسِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ بِالْوَحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالْوَحِيدِ﴾ أَيِ الْوَحْيِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وَقَالَ: ﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وَقَالَ: ﴿يَلْفِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَافِ﴾ [١٥] يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر: ١٦، ١٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَن أُنْذِرُوا﴾ أَيْ لِيُنْذِرُوا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أَيْ فَاتَّقُوا عُقُوبَتِي لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَعَبَدَ غَيْرِي.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ تُطْفَئَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾

[اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْإِنْسَانَ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ خَلْقِهِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَهُوَ السَّمَوَاتُ، وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ وَهُوَ الْأَرْضُ بِمَا حَوَتْ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ بِالْحَقِّ لَا لِلْعَبَثِ بَلْ ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١] ثُمَّ نَرَاهُ نَفْسُهُ عَنْ شَرِيكَ مَنْ عَبْدَ مَعَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ بَنَاهُ عَلَىٰ خَلْقِ جِنْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ تُطْفَئَةٍ أَيْ مَهْبِئَةٍ ضَعِيفَةٍ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ وَدَرَجَ إِذَا هُوَ يُخَاصِمُ رَبَّهُ تَعَالَىٰ وَيُكَذِّبُهُ، وَيُحَارِبُ رُسُلَهُ، وَهُوَ إِنَّمَا خُلِقَ لِيَكُونَ عَبْدًا لَا ضِدًّا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ وَعَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا [الفرقان: ٥٤، ٥٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُطْفَئَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْنِي الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٢٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٧-٧٩] وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ بَشْرِ بْنِ جَحَاشٍ قَالَ: بَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بَرْدِكَ

وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَيَدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُومَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ!؟» (١).

﴿وَاللَّعْنَةُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا

تَأْكُلُونَ﴾ [٥] وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴿٧﴾

إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٨﴾

[الْأَنْعَامُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَنِعْمَةٌ مِنْهُ]

يَمُنُّ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالغَنَمُ، كَمَا فَصَّلَهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَى ثَمَانِيَةِ أَزْوَاجٍ، وَبِمَا جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ، مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا يَلْبَسُونَ وَيَقْتَرِشُونَ، وَمِنْ أَلْبَانِهَا يَشْرَبُونَ وَيَأْكُلُونَ مِنْ أَوْلَادِهَا، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ وَهُوَ الزَّيْنَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وَهُوَ وَقْتُ رُجُوعِهَا عَشِيًّا مِنَ الْمَرْعَى، فَإِنَّهَا تَكُونُ أَمَدَهُ خَوَاصِرَ وَأَعْظَمُهُ ضُرُوعًا وَأَعْلَاهُ أَسْنِمَةٌ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أَيْ غُدُوَّةً حِينَ تَبْعُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وَهِيَ الْأَحْمَالُ الثَّقِيلَةُ الَّتِي تَعْجِزُونَ عَنْ نَقْلِهَا وَحَمْلِهَا ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ وَذَلِكَ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْعَزْوِ، وَالتَّجَارَةِ، وَمَا جَرَىٰ مَجْرَىٰ ذَلِكَ، تَسْتَعْمِلُونَهَا فِي أَنْوَاعِ الْإِسْتِعْمَالِ مِنْ رُكُوبٍ وَتَحْمِيلِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّذِكْرِ شُفُوكُمْ وَمِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَعَلَيْهَا وَكَلَى الْفَلَكَ تَحْمِلُونَ [المؤمنون: ٢١، ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِرَبْكُمَا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَلِتَلْبَسُوا عَلَيْهَا حَامَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَكَلَى الْفَلَكَ تَحْمِلُونَ ﴿٨٨﴾ وَتُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ [غافر: ٧٩-٨١] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا بَعْدَ تَعْدَادِ هَذِهِ النِّعَمِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ رَبُّكُمْ الَّذِي قَبِضَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَنْعَامَ وَسَخَّرَهَا لَكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عِمَلًا آيِدِيًا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [يس: ٧٩-٨١] وَقَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ﴿٩٣﴾ وَإِنَّا إِلَٰهٌ رَبَّنَا لَمُسْتَلْبُونَ [الزخرف: ١٢-١٤]



أَجْمَعِينَ ﴿هود: ١١٨، ١١٩﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

[الْمَطَرُ وَفَوَائِدُهُ وَبَيَانُ أَنَّهُ آيَةٌ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالذَّوَابِّ شَرَعَ فِي ذِكْرِ نِعَمَتِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ، وَهُوَ الْعُلُو، مِمَّا لَهُمْ فِيهِ بُلْعَةٌ وَمَتَاعٌ لَهُمْ وَلَا نِعَامِهِمْ، فَقَالَ: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أَيُّ جَعَلَهُ عَذْبًا زَلَالًا يَسُوعُ لَكُمْ شَرَابُهُ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِلْحًا أَسْجَا ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أَيُّ وَأَخْرَجَ لَكُمْ مِنْهُ شَجَرًا تَرْعُونَ فِيهِ أَنْعَامَكُمْ. كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أَيُّ تَرْعُونَ<sup>(١)</sup>. وَمِنْهُ: الْإِبِلُ السَّائِمَةُ، وَالسَّوْمُ: الرِّعْيُ.

وقوله: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أَيُّ يُخْرِجُهَا مِنَ الْأَرْضِ بِهَذَا الْمَاءِ الْوَاحِدِ، عَلَى اخْتِلَافِ صُنُوفِهَا وَطُعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا وَرَوَائِحِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيُّ دَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧﴾﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿٨﴾﴾

[آيَاتٌ فِي تَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَفِيمَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ]

بُنِيَ تَعَالَى عِبَادَةُ عَلَى آيَاتِهِ الْعِظَامِ وَمِنْهُ الْجِسَامُ فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بِتَغَاقُبَانِ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ بِدَوْرَانِ، وَالنَّجْمُ الْقَوَابِ وَالسَّيَّارَاتِ، فِي أَرْجَاءِ السَّمَوَاتِ، نُورًا وَضِيَاءً لِيُهْتَدَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ، وَكُلُّ مِنْهَا يَسِيرُ فِي فَلَكِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ، يَسِيرُ بِحَرَكَةٍ مُقَدَّرَةٍ لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا يَنْقُصُ عَنْهَا، وَالْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ

سُورَةُ النُّحْلِ

٢٦٩

سُورَةُ النُّحْلِ

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَنبِتَ بِكُمْ وَنَهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٩﴾ وَعَلَّمَتِ بِالْجَمِّ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٢﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَأَجْزِمَنَّ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْأَسْطِطْرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَعْلَهُمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَتَسْهِيلِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْثِ يَغْشَى أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَيُّ لِدَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ وَيَفْهَمُونَ حُجَّتَهُ.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا﴾ لَمَّا بَنَى تَعَالَى عَلَى مَعَالِمِ السَّمَوَاتِ تَبَّهَ عَلَى مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ، وَالْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَعَادِينِ، وَالنَّبَاتَاتِ وَالْجَمَادَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْخَوَاصِّ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أَيُّ آيَةً لِلَّهِ وَنِعْمَةً فَيَشْكُرُونَهَا.



﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا  
وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ  
وَلِتَسْبَحُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤) وَالْقَى فِي  
الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ تُبِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارٌ وَسُبُلٌ لَعَلَّكُمْ  
تَهْتَدُونَ﴾ (٥) وَعَلَّمْنَا وَابْنَجِيمَ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ  
لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٧) وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا  
إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨)

﴿إِبَاتٌ فِي الْبَحَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالسُّبُلِ وَالنَّحُومِ﴾  
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ الْمُتَلَاطِمَ الْأَمْوَاجِ،  
وَيَمُنُّ عَلَى عِبَادِهِ بِتَذْلِيلِهِ لَهُمْ وَتَيْسِيرِهِمْ لِلرُّكُوبِ فِيهِ،  
وَجَعَلِهِ السَّمَكِ وَالْحَيْثَانَ فِيهِ، وَإِحْلَالِهِ لِعِبَادِهِ لَحْمَهَا حَيْثَا  
وَمَيِّتَهَا فِي الْحِلِّ وَالْإِحْرَامِ، وَمَا يَخْلُقُهُ فِيهِ مِنَ اللَّائِيءِ  
وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ، وَتَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ لِحِمْلِ الشُّفَنِ الَّتِي تَمْخُرُهُ  
أَيُّ تَشْقُهُ. وَقِيلَ: تَمْخُرُ الرِّيَّاحُ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ. وَقِيلَ:  
تَمْخُرُهُ بِجَوْجُجِهَا - وَهُوَ صَدْرُهَا الْمُسْنَمُ - الَّذِي أَرَشَدَ  
الْعِبَادَ إِلَى صُنْعَتِهَا، وَهَذَا هُمْ إِلَى ذَلِكَ إِزْنًا عَنْ أَبِيهِمْ نُوحٍ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَكِبَ الشُّفْنَ، وَلَهُ كَانَ تَعْلِيمُ  
صُنْعَتِهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا النَّاسُ عَنْهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ  
جِيلٍ، يَسِيرُونَ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَمِنْ  
إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ، لِيَجْلِبَ مَا هُنَاكَ إِلَى مَا هُنَا، وَمَا هُنَا إِلَى  
مَا هُنَاكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِتَسْبَحُوا مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ نِعْمَةٍ وَإِحْسَانَةٍ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا أَلْقَى فِيهَا مِنَ الرِّوَاسِي  
الشَّامِخَاتِ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ، لِتَقَرَّ الْأَرْضُ وَلَا تُبِيدَ -  
أَيُّ تَضْطَرِبَ - بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَلَا يَهْنَأُ لَهُمْ عَيْشٌ  
بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢].  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْهَارٌ وَسُبُلٌ﴾ أَيُّ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ  
مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، يَبْجُعُ فِي مَوْضِعٍ، وَهُوَ  
رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقَفَارَ،  
وَيَخْرِقُ الْجِبَالَ وَالْأَكَامَ، فَيَصِلُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سُخِّرَ  
لِأَهْلِهِ، وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَجَنُوبًا  
وَسَمَالًا. وَشَرْقًا وَغَرْبًا، مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ، وَأَوْدِيَةٍ  
تَجْرِي حِينًا وَتَقْطَعُ فِي وَفْتٍ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ، وَقَوِيٍّ  
السَّيْرِ وَبُطْنَةٍ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا أَلْقَى فِيهَا مِنَ الرِّوَاسِي  
الشَّامِخَاتِ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ، لِتَقَرَّ الْأَرْضُ وَلَا تُبِيدَ -  
أَيُّ تَضْطَرِبَ - بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَلَا يَهْنَأُ لَهُمْ عَيْشٌ  
بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢].  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْهَارٌ وَسُبُلٌ﴾ أَيُّ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ  
مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، يَبْجُعُ فِي مَوْضِعٍ، وَهُوَ  
رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقَفَارَ،  
وَيَخْرِقُ الْجِبَالَ وَالْأَكَامَ، فَيَصِلُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سُخِّرَ  
لِأَهْلِهِ، وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَجَنُوبًا  
وَسَمَالًا. وَشَرْقًا وَغَرْبًا، مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ، وَأَوْدِيَةٍ  
تَجْرِي حِينًا وَتَقْطَعُ فِي وَفْتٍ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ، وَقَوِيٍّ  
السَّيْرِ وَبُطْنَةٍ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا أَلْقَى فِيهَا مِنَ الرِّوَاسِي  
الشَّامِخَاتِ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ، لِتَقَرَّ الْأَرْضُ وَلَا تُبِيدَ -  
أَيُّ تَضْطَرِبَ - بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَلَا يَهْنَأُ لَهُمْ عَيْشٌ  
بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢].  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْهَارٌ وَسُبُلٌ﴾ أَيُّ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ  
مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، يَبْجُعُ فِي مَوْضِعٍ، وَهُوَ  
رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقَفَارَ،  
وَيَخْرِقُ الْجِبَالَ وَالْأَكَامَ، فَيَصِلُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سُخِّرَ  
لِأَهْلِهِ، وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَجَنُوبًا  
وَسَمَالًا. وَشَرْقًا وَغَرْبًا، مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ، وَأَوْدِيَةٍ  
تَجْرِي حِينًا وَتَقْطَعُ فِي وَفْتٍ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ، وَقَوِيٍّ  
السَّيْرِ وَبُطْنَةٍ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا أَلْقَى فِيهَا مِنَ الرِّوَاسِي  
الشَّامِخَاتِ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ، لِتَقَرَّ الْأَرْضُ وَلَا تُبِيدَ -  
أَيُّ تَضْطَرِبَ - بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَلَا يَهْنَأُ لَهُمْ عَيْشٌ  
بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢].  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْهَارٌ وَسُبُلٌ﴾ أَيُّ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ  
مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، يَبْجُعُ فِي مَوْضِعٍ، وَهُوَ  
رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقَفَارَ،  
وَيَخْرِقُ الْجِبَالَ وَالْأَكَامَ، فَيَصِلُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سُخِّرَ  
لِأَهْلِهِ، وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَجَنُوبًا  
وَسَمَالًا. وَشَرْقًا وَغَرْبًا، مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ، وَأَوْدِيَةٍ  
تَجْرِي حِينًا وَتَقْطَعُ فِي وَفْتٍ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ، وَقَوِيٍّ  
السَّيْرِ وَبُطْنَةٍ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا أَلْقَى فِيهَا مِنَ الرِّوَاسِي  
الشَّامِخَاتِ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ، لِتَقَرَّ الْأَرْضُ وَلَا تُبِيدَ -  
أَيُّ تَضْطَرِبَ - بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَلَا يَهْنَأُ لَهُمْ عَيْشٌ  
بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢].  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْهَارٌ وَسُبُلٌ﴾ أَيُّ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ  
مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، يَبْجُعُ فِي مَوْضِعٍ، وَهُوَ  
رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقَفَارَ،  
وَيَخْرِقُ الْجِبَالَ وَالْأَكَامَ، فَيَصِلُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سُخِّرَ  
لِأَهْلِهِ، وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَجَنُوبًا  
وَسَمَالًا. وَشَرْقًا وَغَرْبًا، مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ، وَأَوْدِيَةٍ  
تَجْرِي حِينًا وَتَقْطَعُ فِي وَفْتٍ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ، وَقَوِيٍّ  
السَّيْرِ وَبُطْنَةٍ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا أَلْقَى فِيهَا مِنَ الرِّوَاسِي  
الشَّامِخَاتِ، وَالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ، لِتَقَرَّ الْأَرْضُ وَلَا تُبِيدَ -  
أَيُّ تَضْطَرِبَ - بِمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَلَا يَهْنَأُ لَهُمْ عَيْشٌ  
بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسُنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢].  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْهَارٌ وَسُبُلٌ﴾ أَيُّ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا تَجْرِي مِنْ  
مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، يَبْجُعُ فِي مَوْضِعٍ، وَهُوَ  
رِزْقٌ لِأَهْلِ مَوْضِعٍ آخَرَ، فَيَقْطَعُ الْبِقَاعَ وَالْبَرَارِيَّ وَالْقَفَارَ،  
وَيَخْرِقُ الْجِبَالَ وَالْأَكَامَ، فَيَصِلُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي سُخِّرَ  
لِأَهْلِهِ، وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَجَنُوبًا  
وَسَمَالًا. وَشَرْقًا وَغَرْبًا، مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ، وَأَوْدِيَةٍ  
تَجْرِي حِينًا وَتَقْطَعُ فِي وَفْتٍ، وَمَا بَيْنَ نَبْعٍ وَجَمْعٍ، وَقَوِيٍّ  
السَّيْرِ وَبُطْنَةٍ بِحَسَبِ مَا أَرَادَ وَقَدَّرَ وَسَخَّرَ وَيَسَّرَ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا

الْمَلِكِ الْمَلِكِ الْمَلِكِ

٢٧٠

سُورَةُ النُّحْلِ

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخَذُّ بِهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشُّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَشْؤَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنَ وَفِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

عَنْدَ هَلِهِ نَفْعٌ أَوْ ثَوَابٌ أَوْ جَزَاءٌ؟ إِنَّمَا يُرْجَى ذَلِكَ مِنَ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

﴿إِنَّهُمْ إِلَهُ وَحْدَ قَالَتِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فَلَوْهُمْ مُبَكَّرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ لَا حَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٨﴾

[لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ تَتَكَرَّرُ قُلُوبُهُمْ ذَلِكَ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ مُتَعَبِّينَ مِنْ ذَلِكَ ﴿لَجَعَلَ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَحْدًا إِنَّ هَذَا لَفِئَةٌ غَبَابٌ﴾ [ص: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيْ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ مَعَ انْكَارِ قُلُوبِهِمْ لِتَوْحِيدِهِ كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿لَا حَرَمَ﴾ أَيْ حَقًّا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾

[إِعْرَاضُ الْكُفَّارِ عَنِ الْوَحْيِ وَمُضَاعَفَةُ عِقَابِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُوَلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ لَمْ يُنْزَلْ شَيْئًا، إِنَّمَا هَذَا الَّذِي يُتْلَى عَلَيْنَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، أَيْ مَا خُودَ مِنْ كُتُبِ الْمُتَقَدِّمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] أَيْ يَقْرَأُونَ عَلَى الرَّسُولِ وَيَقُولُونَ أَقْوَالًا مُتَضَادَّةٌ مُخْتَلَفَةٌ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الاسراء: ٤٨] وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ فَهَمَّا قَالَ أَخْطَأَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: سَاجِرٌ، وَشَاعِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَمَجْنُونٌ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ أَمْرُهُمْ إِلَى مَا اخْتَلَفَ لَهُمْ شَيْئُهُمْ الْوَحِيدُ الْمُسَمَّى بِالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ لَمَّا ﴿فَكَرَّرَ وَفَدَّرَ﴾ ﴿٢٦﴾ فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ [المدثر: ١٨-٢٤] أَيْ يُنْقَلُ وَيُحْكَى، فَتَقَرَّفُوا عَنْ قَوْلِهِ وَرَأَيْهِ

- قَسَّاهُمُ اللَّهُ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَيْ إِنَّمَا قَدَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَيُؤَافِقُونَهُمْ، أَيْ يَصِيرُ عَلَيْهِمْ خَطِيئَةُ ضَلَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَخَطِيئَةُ إِغْوَانِهِمْ لِغَيْرِهِمْ، وَاقْتِدَاءِ أَوْلِيائِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلِيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَنْمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣] وَهَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَنَّهَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) مسلم: ٢٠٦٠/٤ (٢) الطبري: ١٩١/١٧ العوفي ضعيف.

[الطارق: ١٠] فَإِذَا تَوَجَّهْتَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَالَةُ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ، وَسَكَتُوا عَنِ الْإِعْتِذَارِ حِينَ لَا فِرَارَ ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وَهُمْ السَّادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمُخْبِرُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَقُولُونَ حَيْثُ: ﴿إِنَّ الْآخِرَىٰ الْيَوْمَ وَالْأَوَّلَىٰ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ الْفَضِيحَةُ وَالْعَذَابُ مُحِيطٌ الْيَوْمَ بِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٨) فَأَدْخَلُوا أَبُوبَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٩﴾

[أحوال الكافرين عند وفاتهم وبعدها]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ اخْتِصَارِهِمْ وَمَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمُ الْخَبِيثَةِ ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ أَيْ أَظْهَرُوا السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ وَالْإِقْبَادَ قَائِلِينَ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كَمَا يَقُولُونَ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿وَاللَّهُ رِئَسًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَقُولُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] قَالَ اللَّهُ مُكْذِبًا لَهُمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٧٨) فَأَدْخَلُوا أَبُوبَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿أَيُّ بَسَّ الْقَبِيلِ وَالْمَقَامِ وَالْمَكَانِ مِنْ دَارِ هَوَانٍ لِمَنْ كَانَ مُتَكَبِّرًا عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَاتَّبَعَ رُسُلِهِ، وَهُمْ يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ مِنْ يَوْمٍ مَمَاتِهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَيَنَالُ أَجْسَادُهُمْ فِي قُبُورِهَا مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُلِّكَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ وَخُلِدَتْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [لا يَفْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا] [فاطر: ٣٦] كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٨٠) جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨١)

[العنكبوت: ١٣] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَحْمِلُونَ أَنْفَالَهُمْ: ذُنُوبَهُمْ وَذُنُوبَ مَنْ أَطَاعَهُمْ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ أَطَاعَتُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ شَيْئًا<sup>(١)</sup>.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفَافَ اللَّهُ بِنُيْنِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٨٢) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَىٰ الْيَوْمَ وَالْأَوَّلَىٰ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾

[بَيَانُ مَا فَعَلَهُ السَّابِقُونَ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قَالَ: هُوَ التَّمَرُّدُ الَّذِي بَنَى الصَّرْحَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلَىٰ هُوَ يُخْتَصَّرُ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَلِ لِإِطْطَالِ مَا صَنَعَهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَأَشْرَكُوا فِي عِبَادَتِهِ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كِبَارًا﴾ [نوح: ٢٢] أَيْ اخْتَلَاوْا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ وَأَمَالُوهُمْ إِلَى شُرَكَائِهِمْ بِكُلِّ سِيلَةٍ، كَمَا يَقُولُ لَهُمْ أَتَبَاغُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿بَلَىٰ مَكْرُؤًا لَيْلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾... آيَاتُهُ [سبا: ٣٣].

وقوله: ﴿فَأَفَافَ اللَّهُ بِنُيْنِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أَيْ إِحْجَتُهُ مِنْ أَصْلِهِ وَأَبْطَلَ عَمَلَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرَوْنَ يَلِيَهُمْ وَيَأْتِي الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْرِضُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْصَرِ﴾ [الحشر: ٢]، وَقَالَ اللَّهُ هَهُنَا: ﴿فَأَفَافَ اللَّهُ بِنُيْنِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتْنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٨٢) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴿أَيُّ يُظْهِرُ فَضَائِحَهُمْ، وَمَا كَانَتْ تُجْنِيهِ صَمَائِرُهُمْ فَيَجْعَلُهُ عَلَانِيَةً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّائِرَةُ﴾ [الطارق: ٩] أَيْ تُظْهِرُ وَتُسْتَهَرُ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ»<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا هَؤُلَاءِ، يُظْهِرُ لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ مِنَ الْمَكْرِ، وَيُخْزِيهِمُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ وَيَقُولُ لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَقَرَّمًا لَهُمْ وَمُؤْنَحًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ تُحَارِبُونَ وَتُعَادُونَ فِي سَبِيلِهِمْ، أَيْنَ هُمْ عَنْ نَصْرِكُمْ وَخَلَاصِكُمْ هَهُنَا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾

(١) الطبري: ١٩٠/١٧ (٢) الطبري: ١٩٣/١٧ العوفي ضعيف. (٣) فتح الباري: ٥٧٨/١٠ ومسلم: ١٣٦٠/٣

[قَوْلُ الْمُتَّقِينَ فِي الْوَحْيِ وَجَزَاؤُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ عِنْدَ الْوَفَاةِ وَبَعْدَهَا]

هَذَا خَبَرٌ عَنِ السُّعَدَاءِ بِخِلَافِ مَا أُخْبِرَ بِهِ عَنِ الْأَشْقِيَاءِ، فَإِنَّ أُولَئِكَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ﴾ قَالُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الْجَوَابِ: لَمْ يُنْزَلْ شَيْئًا، إِنَّمَا هَذَا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَهَؤُلَاءِ قَالُوا: ﴿حَيًّا﴾، أَيْ أُنْزِلَ خَيْرًا، أَيْ رَحْمَةً وَبَرَكَاتٍ لِمَنْ اتَّبَعَهُ وَآمَنَ بِهِ. ثُمَّ أُخْبِرَ عَمَّا وَعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ فِيمَا أُنْزِلُهُ عَلَى رُسُلِهِ فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ... الْآيَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] أَيْ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ أُخْبِرَ بِأَنَّ دَارَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ أَيْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْجَزَاءُ فِيهَا أَتَمُّ مِنَ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَاتُ اللَّهُ خَيْرٌ﴾ الْآيَةُ [القصص: ٨٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْزَّكَّاءِ﴾ [آل عمران: ٩٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الاعلى: ١٧] وَقَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] ثُمَّ وَصَفَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَقَالَ: ﴿وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ بَدَلٌ مِنْ «دَارِ الْمُتَّقِينَ» أَيْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ جَنَّاتٌ عَدْنٌ، أَيْ مَقَامٌ يَدْخُلُونَهَا ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ بَيْنَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِالْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شَرَابِهِمْ، فَلَا يَسْتَهِي أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَمْطَرَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنْ مِنْهُمْ لَمَنْ يَقُولُ: أَمْطَرْنَا كَوَاعِبَ أَثْرَابًا، فَيَكُونُ ذَلِكَ» ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَاهُ وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ، ثُمَّ أُخْبِرَ تَعَالَى عَنْ حَالِهِمْ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ أَنَّهُمْ طَيِّبُونَ، أَيْ مُخْلِصُونَ مِنَ الشُّرْكِ وَالذَّنْسِ وَكُلِّ سُوءٍ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَتُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ الْمَلِكَةِ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿يَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى

الْمَلَائِكَةُ الْمُسَلِّمَاتُ

٢٧١

سُورَةُ النُّحْلِ

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرًا الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

أَنْفُسَكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلَا مِنْ غَوْفٍ رَحِيمٍ [فصلت: ٣٠-٣٢] وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي قَبْضِ رُوحِ الْمُؤْمِنِ وَرُوحِ الْكَافِرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

[مَعْنَى تَأْخُرِ الْكَافِرِينَ عَنِ الْإِيمَانِ انْتِظَارُهُمْ لِلْعَذَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُهْدِدًا لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى تَمَادِيهِمْ فِي الْبَاطِلِ وَاعْتَزَارِهِمْ بِالدُّنْيَا: هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ. قَالَهُ قَتَادَةُ<sup>(١)</sup>. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ



اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ لَيْسَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٠﴾﴾ [الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ، وَفِيهِ حِكْمَةٌ، وَهُوَ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُسْرِكِينَ أَنَّهُمْ حَلَفُوا فَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَيِ اجْتَهَدُوا فِي الْحَلْفِ، وَغَلَطُوا الْأَيْمَانَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ أَيِ اسْتَبَعَدُوا ذَلِكَ، وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ فِي إِنْخَارِهِمْ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَحَلَفُوا عَلَى نَقِيضِهِ، فَقَالَ تَعَالَى مُكَذِّبًا لَهُمْ وَرَادًّا عَلَيْهِمْ: ﴿بَلَى﴾ أَيِ بَلَى سَيَكُونُ ذَلِكَ ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أَيِ لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيِ فَلْيَجْهَلْهُمْ يُخَالِفُونَ الرُّسُلَ وَيَقْعُونَ فِي الْكُفْرِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي الْمَعَادِ وَقِيَامِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ النَّادِ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أَيِ لِلنَّاسِ ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أَيِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿لَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَلِمُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾ [النجم: ٣١] ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ أَيِ فِي أَيْمَانِهِمْ وَأَقْسَامِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ، وَلِهَذَا يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً، وَنَقُولُ لَهُمُ الرِّبَانِيَّةُ: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ - وَالْمَعَادُ مِنْ ذَلِكَ: إِذَا أَرَادَ كَوْنَهُ فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَيَكُونُ كَمَا يَشَاءُ - كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القدر: ٥٥] وَقَالَ: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَعْتَمِدُكُمْ إِلَّا كَفَقَسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [القمان: ٢٨] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَيِ أَنْ نَأْمُرَ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ.

أَيِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَخْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ فِيَمَا يَأْمُرُ بِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ، لِأَنَّهُ الْوَاحِدُ الْفَهَّارُ الْعَظِيمُ الَّذِي فَهَرُ سُلْطَانُهُ وَجَبْرُوتُهُ وَعِزَّتُهُ كُلُّ شَيْءٍ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُوتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

### [جَزَاءُ الْمُهَاجِرِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَزَائِهِ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِهِ اتِّبَاعًا مَرْضَاتِهِ، الَّذِينَ فَارَقُوا الدَّارَ، وَالْإِخْوَانَ وَالْحُلَانَ، رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ نَزُولِهَا فِي مُهَاجِرَةِ الْحَبَشَةِ الَّذِينَ اشْتَدَّ أذى قَوْمِهِمْ لَهُمْ بِمَكَّةَ، حَتَّى خَرَجُوا مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَمِنْ أَشْرَافِهِمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ رُقَيْةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجَعَفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّ الرُّسُولِ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ فِي جَمَاعَةٍ قَرِيبٍ مِنْ ثَمَانِينَ مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ صِدِّيقٍ وَصِدِّيقَةٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَقَدْ فَعَلَ - فَوَعَدَهُمْ تَعَالَى بِالْمُجَازَاةِ الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ: أَلْمَدِينَةُ<sup>(١)</sup>. وَقِيلَ: أَلَرِّزْقُ الطَّيِّبُ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ<sup>(٢)</sup>. وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، فَإِنَّهُمْ تَرَكُوا مَسَاجِدَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِنْ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُمْ مَكَّنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ، وَحَكَّمَهُمْ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ، وَصَارُوا أَمْرَاءَ حُكَّامًا، وَكُلُّ مِنْهُمْ لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، وَأَخْبَرَ أَنَّ ثَوَابَهُ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ أَيِ مِمَّا أُعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ: ﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أَيِ مِمَّا أُعْطَيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَيِ لَوْ كَانَ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْهَجْرَةِ مَعَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا ادَّخَرَ اللَّهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ. ثُمَّ وَصَفَهُمْ تَعَالَى فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أَيِ صَبَرُوا عَلَى الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِمْ، مُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

[مَا أُرْسِلَ رَسُولٌ إِلَّا مِنَ الْبَشَرِ]

قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ

(١) الطبري: ٢٠٥/١٧، (٢) الطبري: ٢٠٦/١٧

الحِجَابُ

٢٧٢

سُورَةُ النُّحْلِ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَنَلُوا أَهْلَ  
الَّذِ كَرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ  
الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ  
﴿٤٦﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ  
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ  
فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٨﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ  
رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ  
يَنْفَخُوا فِيهِ لُطْلُفًا مِنْ أَلْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَهُوَ دَاخِرُونَ  
﴿٥٠﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ  
وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥١﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ  
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٢﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا إِلَهَيْنِ  
أَتَيْنِ إِنْ مَاهُوَ إِلَهُهُ وَحْدًا فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٤﴾ وَمَا يَكُمُ مِنْ  
نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ  
إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ  
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ فَمَا هُمْ  
بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٨﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾  
[كَيْفَ يَأْمَنُ الْمُجْرِمُونَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَإِنظَارِهِ الْعُصَاةَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ  
السَّيِّئَاتِ وَيَدْعُونَ إِلَيْهَا، وَيَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دُعَائِهِمْ  
إِيَّاهُمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَيْهَا، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ  
الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ مِنْ  
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ مَجِيئَهُ إِلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ مَنْ فِي  
السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١١﴾﴾ أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي  
السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿١٦﴾  
[الملك: ١٦، ١٧] وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيلِهِمْ﴾ أَيْ فِي  
تَقْلِيلِهِمْ فِي الْمَعَاشِ وَاشْتِغَالِهِمْ بِهَا فِي أَسْفَارِهِمْ وَنَحْوِهَا

رَسُولًا، أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ ذَلِكَ أَوْ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ وَقَالُوا: اللَّهُ  
أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَكَاذِبٌ لِلنَّاسِ  
عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الْآيَةُ  
[يونس: ٢]، وَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ  
إِلَيْهِمْ فَتَنَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي أَهْلَ  
الْكِتَابِ الْمَاضِيَةِ: أَبَشَرًا كَانَتْ الرُّسُلُ إِلَيْهِمْ أَمْ مَلَائِكَةً؟ فَإِنْ  
كَانُوا مَلَائِكَةً أَنْكَرْتُمْ، وَإِنْ كَانُوا بَشَرًا فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ  
مُحَمَّدٌ ﷺ رَسُولًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا  
رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْفَرْقِ﴾ [يوسف: ١٠٩] لَيْسُوا مِنْ  
أَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا قُلْتُمْ <sup>(١)</sup>. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الذِّكْرِ أَهْلَ الْكِتَابِ <sup>(٢)</sup>.

وَالْعَرَضُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ أَخْبَرَتْ بِأَنَّ الرُّسُلَ  
الْمَاضِيَيْنِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ - ﷺ - كَانُوا بَشَرًا، كَمَا هُوَ بَشَرٌ كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٤٣﴾ وَمَا  
مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا  
رَسُولًا [الإسراء: ٩٣، ٩٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ  
مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهُمْ لِيَآكُلُوا الطَّعَامَ وَيَكْسِبُونَ فِي  
الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا  
لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨] وَقَالَ:  
﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الحاقف: ٩] وَقَالَ تَعَالَى:  
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] ثُمَّ أَرَسَدَ  
اللَّهُ تَعَالَى مِنْ شَكِّ فِي كَوْنِ الرُّسُلِ كَانُوا بَشَرًا إِلَى سُؤَالِ  
أَصْحَابِ الْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ سَلَفُوا: هَلْ  
كَانَ أَنْبِيَآؤُهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً؟

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَهُمْ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالْحُجَجِ  
وَالدَّلَائِلِ ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وَهِيَ الْكِتَابُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ  
وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ <sup>(٣)</sup>. وَالزُّبُرُ جَمْعُ زَبُورٍ. تَقُولُ الْعَرَبُ:  
زَبُرْتُ الْكِتَابَ إِذَا كَتَبْتُهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ  
فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ  
بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْتَ الْأَرْضُ بِرِثَتَا عَبْدَايَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]  
﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ مِنْ رَبِّهِمْ لِعِلْمِكَ بِمَعْنَى مَا  
أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَحَرْصِكَ عَلَيْهِ وَاتِّبَاعِكَ لَهُ، وَلِعِلْمِنَا بِأَنَّكَ  
أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، فَتَفَضَّلَ لَهُمْ مَا أَجْمَلَ وَتُبَيَّنَ  
لَهُمْ مَا أَشْكَلَ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ أَيْ يَنْظُرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ  
فَيَهْتَدُونَ، فَيَقُودُونَ بِالنَّجَاةِ فِي الدَّارَيْنِ.

(١) الطبري: ٢٠٨/١٧ الضحاک عن ابن عباس منقطع (٢)  
الطبري: ٢٠٨/١٧ (٣) الطبري: ٢١١/١٧

مِنَ الْأَشْجَالِ الْمُلْهِيَةِ. قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿تَقْلِبُهُمْ﴾ أَيَّ أَشْفَارِهِمْ<sup>(١)</sup>، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقَابِلُونَ﴾ (٧) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيَّ لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ كَانُوا عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أَيَّ أَوْ يَأْخُذْهُمْ اللَّهُ فِي حَالِ خَوْفِهِمْ مِنْ أَخْذِهِ لَهُمْ، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَبْلَغَ وَأَشَدَّ، فَإِنَّ حُصُولَ مَا يَتَوَقَّعُ مَعَ الْخَوْفِ شَدِيدٌ، وَلِهَذَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يَقُولُ: إِنْ شِئْتُ أَخَذْتُهُ عَلَىٰ أَثَرِ مَوْتِ صَاحِبِهِ وَتَخَوُّفِهِ بِذَلِكَ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٣)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن رَّيَكُم لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيَّ حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ، كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَىٰ أَدَىٰ سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَزُرُّهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»<sup>(٤)</sup> وَفِيهِمَا: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾<sup>(٥)</sup> [هود: ١٠٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قُرْبَةٍ أَتَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

﴿أَوَّلَهُ يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَفَتَنُوهَا ظُلْمُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٩) بِحَافُونَ رَبِّهِمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ وَيَتَعَلَّوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (١٠).

[سُجُودٌ كُلُّ شَيْءٍ لِلَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ الَّذِي خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَدَانَتْ لَهُ الْأَشْيَاءُ وَالْمَخْلُوقَاتُ بِأَسْرَها: جَمَادَاتُهَا وَحَيَوَانَاتُهَا، وَمُكَلَّفُوهَا مِنَ الْإِنْسِي وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ مَا لَهُ ظِلٌّ يَتَفَتَنُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَائِلِ، أَيُّ بُكْرَةً وَعَشِيًّا فَإِنَّهُ سَاجِدٌ بِظِلِّهِ لِلَّهِ تَعَالَى. قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا زَالَتْ الشَّمْسُ سَجَدَ كُلُّ شَيْءٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أَيُّ صَاغِرُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: سُجُودٌ كُلُّ شَيْءٍ قِيُوءٌ<sup>(٨)</sup>. وَذَكَرَ الْجَبَالُ، قَالَ: سُجُودُهَا قِيُوءُهَا. وَقَالَ أَبُو غَالِبٍ الشَّيْبَانِيُّ: أَمْوَاجُ الْبَحْرِ صَلَاتُهُ. وَنَزَّلَهُمْ مِثْلَهُ مَنْ يَغْفِلُ إِذْ أَسْنَدَ السُّجُودَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ كَمَا قَالَ:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمْلَهُم بِالْغَدْرِ وَالْأَنْصَالِ﴾ (١١). [الرعد: ١٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيُّ تَسْجُدُ لِلَّهِ أَيُّ غَيْرِ مُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴿بِحَافُونَ رَبِّهِمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ﴾ أَيُّ يَسْجُدُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ مِنَ الرَّبِّ - جَلَّ جَلَالُهُ - ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أَيُّ مُتَابِعِينَ عَلَى طَاعَتِهِ تَعَالَى وَامْتِنَالِ أَوْامِرِهِ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلنَّهْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾ (١٢) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَلْفُونَ﴾ (١٣) وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْمَلُ فَعِنَ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْزِعُونَ﴾ (١٤) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَتْهُمْ فَمَتَّعُوا فَسُوفَ تَعْلَمُونَ﴾ (١٦) [اللَّهُ وَحْدَهُ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَرَبُّهُ ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَمَيْمُونُ ابْنُ مِهْرَانَ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيُّ دَائِمًا<sup>(٩)</sup>.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: أَيُّ وَاجِبًا<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ خَالِصًا لَهُ، أَيُّ لَهُ الْعِبَادَةُ وَحْدَهُ مِمَّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ يَسْبُوتُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] هَذَا عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ، أَيُّ ارْهَبُوا أَنْ تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا وَأَخْلَصُوا لِي الطَّاعَةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١٣] ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَالِكُ النَّفْعِ وَالضَّرِّ، وَأَنَّ مَا بِالْعِبَادِ مِنْ رِزْقٍ وَنِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَنَضْرٍ فَمِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْزِعُونَ﴾ أَيُّ لِيَعْلَمِكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ، فَإِنَّكُمْ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ تُلْجَأُونَ إِلَيْهِ، وَتَسْأَلُونَهُ وَتُلْجَحُونَ فِي الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مُسْتَعِثِينَ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ صَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا تَجَعَلُوا إِلَى اللَّهِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وَقَالَ

(١) الطبري: ٢١٣/١٧ (٢) الطبري: ٢١٤/١٧ (٣) الطبري: ٢١٥/١٧ (٤) فتح الباري: ٣٧٢/١٣ ومسلم: ٢١٦٠/٤ (٥) فتح الباري: ٢٠٥/٨ ومسلم: ١٩٩٧/٤ (٦) الطبري: ١٧/٢١٧ (٧) الطبري: ٢١٧/١٧ (٨) الطبري: ٢١٧/١٧ (٩) الطبري: ٢٢٢/١٧ (١٠) الطبري: ٢٢٣/١٧



الْبُرْجِ الرَّحْمَنِ

٢٧٣

سُورَةُ النِّبَاتِ

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ<sup>(٥٦)</sup> لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ<sup>(٥٦)</sup> قِيلَ: اللَّامُ هُنَا لَامُ  
الْعَاقِبَةِ. وَقِيلَ: لَامُ التَّحْلِيلِ، بِمَعْنَى قِيضِنَا لَهُمْ ذَلِكَ  
لِيَكْفُرُوا أَوْ يَشْكُرُوا وَيَجْحَدُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ الْمُشَدِيدُ  
إِلَيْهِمُ النَّعَمَ، الْكَاشِفُ عَنْهُمْ النَّقَمَ، ثُمَّ نَوَعَدُهُمْ قَائِلًا  
﴿فَتَسْعَوْا﴾ أَيِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ وَتَمَتَّعُوا بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ قَلِيلًا  
﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيِ عَاقِبَةُ ذَلِكَ.

﴿وَجَعَلُوا لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَالَهُ لَسْتُمْ عَنْ  
كُنْتُمْ تَقَرُّونَ<sup>(٥٦)</sup> وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا  
يَشْتَهُونَ<sup>(٥٧)</sup> وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ  
كَلِيمٌ<sup>(٥٨)</sup> يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُونٍ  
أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ<sup>(٥٩)</sup> لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ<sup>(٦٠)</sup>

[مِنْ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ النَّذْرُ لِلْآلِهَةِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ]  
يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ قَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ  
غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَجَعَلُوا  
لِلْأَوْثَانِ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فَقَالُوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِ  
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ  
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا  
يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أَيْ جَعَلُوا لِآلِهَتِهِمْ نَصِيبًا مَعَ اللَّهِ  
وَفَضَّلُوهَا عَلَىٰ جَانِبِهِ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ  
لِبَسَائِلِهِمْ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَاتَّفَكُوهُ، وَلِيَقْبَلَهُمْ عَلَيْهِ،  
وَلِيَجَازِيَهُمْ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَقَالَ: ﴿تَاللَّهِ لَسْتُمْ عَنْ  
عَمَّا كُنْتُمْ تَقَرُّونَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا  
الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا، وَجَعَلُوهَا بَنَاتٍ لِلَّهِ  
فَعَبَدُوهَا مَعَهُ، فَأَخْطَأُوا خَطَأً كَبِيرًا فِي كُلِّ مَقَامٍ مِنْ هَذِهِ  
الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ، فَتَسَبَّوْا إِلَيْهِ تَعَالَىٰ أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَلَا وَلَدَ  
لَهُ. ثُمَّ أَعْطَوْهُ أَحْسَنَ الْقِسْمَيْنِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَهُوَ الْبَنَاتُ.  
وَهُمْ لَا يَرْضَوْنَهَا لِأَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَلَهُ  
الْأُنْثَىٰ<sup>(٦١)</sup> إِنَّكَ إِذَا قَسَمْتَ بِهِنَّ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

## [نُفُورُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْبَنَاتِ]

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أَيِ كَثِيبًا مِنْ  
الْهَمِّ ﴿وَهُوَ كَلِيمٌ﴾ سَاكِتٌ مِنْ شِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحُزَنِ،  
﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ﴾ أَيِ يَكْرَهُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ  
بِهِ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أَيِ إِنْ أَبْقَاهَا أَبْقَاهَا  
مُهَانَةً لَا يُوْرُثُهَا وَلَا يَبْعَثِي بِهَا، وَيُفَضِّلُ أَوْلَادَهُ الذُّكُورَ  
عَلَيْهَا ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أَيِ يَبْذُلُهَا، وَهُوَ أَنْ يَذْفِنَهَا فِيهِ  
حَيَّةً، كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَمْ مَنْ يَكْرَهُونَهُ هَذِهِ  
الْكِرَاهَةَ وَيَأْتِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْهُ يَجْعَلُونَهُ لِلَّهِ؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا  
يَحْكُمُونَ﴾ أَيِ يَسِّرَ مَا قَالُوا، وَيَسِّرَ مَا قَسَمُوا، وَيَسِّرَ مَا  
تَسَبَّوْا إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ  
لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَلِيمٌ﴾  
[الزخرف: ١٧]. وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ  
السَّوْءِ﴾ أَيِ النَّقْصِ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾  
أَيِ الْكَمَالُ الْمَطْلُوعُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ﴿وَهُوَ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

هُنَا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ  
يَشْكُرُونَ<sup>(٥٦)</sup> لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قِيلَ: اللَّامُ هُنَا لَامُ  
الْعَاقِبَةِ. وَقِيلَ: لَامُ التَّحْلِيلِ، بِمَعْنَى قِيضِنَا لَهُمْ ذَلِكَ  
لِيَكْفُرُوا أَوْ يَشْكُرُوا وَيَجْحَدُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ الْمُشَدِيدُ  
إِلَيْهِمُ النَّعَمَ، الْكَاشِفُ عَنْهُمْ النَّقَمَ، ثُمَّ نَوَعَدُهُمْ قَائِلًا  
﴿فَتَسْعَوْا﴾ أَيِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ وَتَمَتَّعُوا بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ قَلِيلًا  
﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيِ عَاقِبَةُ ذَلِكَ.

﴿وَجَعَلُوا لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَالَهُ لَسْتُمْ عَنْ  
كُنْتُمْ تَقَرُّونَ<sup>(٥٦)</sup> وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا  
يَشْتَهُونَ<sup>(٥٧)</sup> وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ  
كَلِيمٌ<sup>(٥٨)</sup> يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُونٍ  
أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ<sup>(٥٩)</sup> لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ<sup>(٦٠)</sup>

[مِنْ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ النَّذْرُ لِلْآلِهَةِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ]  
يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ قَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ  
غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَجَعَلُوا  
لِلْأَوْثَانِ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فَقَالُوا: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِ  
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ  
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا  
يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أَيْ جَعَلُوا لِآلِهَتِهِمْ نَصِيبًا مَعَ اللَّهِ  
وَفَضَّلُوهَا عَلَىٰ جَانِبِهِ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ  
لِبَسَائِلِهِمْ عَنْ ذَلِكَ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَاتَّفَكُوهُ، وَلِيَقْبَلَهُمْ عَلَيْهِ،  
وَلِيَجَازِيَهُمْ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَقَالَ: ﴿تَاللَّهِ لَسْتُمْ عَنْ  
عَمَّا كُنْتُمْ تَقَرُّونَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا  
الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا، وَجَعَلُوهَا بَنَاتٍ لِلَّهِ  
فَعَبَدُوهَا مَعَهُ، فَأَخْطَأُوا خَطَأً كَبِيرًا فِي كُلِّ مَقَامٍ مِنْ هَذِهِ  
الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ، فَتَسَبَّوْا إِلَيْهِ تَعَالَىٰ أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَلَا وَلَدَ  
لَهُ. ثُمَّ أَعْطَوْهُ أَحْسَنَ الْقِسْمَيْنِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَهُوَ الْبَنَاتُ.  
وَهُمْ لَا يَرْضَوْنَهَا لِأَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَلَهُ  
الْأُنْثَىٰ<sup>(٦١)</sup> إِنَّكَ إِذَا قَسَمْتَ بِهِنَّ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ﴾ أَيِ عَنْ قَوْلِهِمْ  
وَإِفْكِهِمْ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمَ يَقُولُونَ<sup>(٦١)</sup> وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّمِ  
لَكَ ذُنُوبٌ<sup>(٦٢)</sup> أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ<sup>(٦٣)</sup> مَا لَكَ كَيْفَ  
تَحْكُمُونَ﴾. [الصافات: ١٥١-١٥٤] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾  
أَيِ يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ وَيَأْتِفُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَنَاتِ  
الَّتِي تَسُبُّوهَا إِلَى اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوءًا كَبِيرًا.

جَرَمَ ﴿١٧﴾ أَيُّ حَقًّا لَا بُدَّ مِنْهُ ﴿١٨﴾ أَنَّهُ لَهُمُ النَّارُ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١٩﴾ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٢٠﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: مَنَسِيُونَ فِيهَا مُضَيَّعُونَ <sup>(١)</sup>. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]. وَعَنْ قَتَادَةَ أَيْضًا: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أَيُّ مُعْجَلُونَ

إِلَى النَّارِ مِنَ الْفَرَطِ <sup>(٢)</sup>. وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْوُرْدِ، وَلَا مُنَافَاةَ لِأَنَّهُمْ يُعَجَّلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ وَيُسَوَّنُونَ فِيهَا أَيُّ يُخْلَدُونَ.

﴿ثُمَّ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَزَنْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ <sup>(٣)</sup> وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٥﴾

[التَّعْرِي بِمَنْ سَبَقَ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ رُسُلًا فَكَذَّبَتْ الرُّسُلَ، فَلَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُسُوءَ، فَلَا يَهْدِيكَ تَكْذِيبُ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ تَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُمْ مَا فَعَلُوهُ. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾ أَيُّ هُمْ تَحْتَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَالشَّيْطَانُ وَلِيُّهُمْ، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ خَلَاصًا، وَلَا صَرِيحَ لَهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

[الْقَصْدُ مِنْ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: إِنَّهُ إِنَّمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَالْقُرْآنُ فَاصِلٌ بَيْنَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ ﴿وَهُدًى﴾ أَيُّ لِلْقُلُوبِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ أَيُّ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وَكَمَا جَعَلَ سُبْحَانَهُ الْقُرْآنَ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ الْمَيِّتَةِ بِكُفْرِهَا، كَذَلِكَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَيُّ يَفْهَمُونَ الْكَلَامَ وَمَعْنَاهُ.

﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبَرَةٌ لَشِقَاكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِيرٍ لَبَأًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِبِينَ﴾ <sup>(٦)</sup> وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَنْعَابِ

(١) الطبري: ٢٣١/١٧ إسناده ضعيف محمد بن جابر اليمامي الحنفي وضعفه الجمهور وقال ابن حجر: صدوق ذهب كتبه فساء حفظه وغلط كثيرا وعمى فصار يلقن (تقريب) قال الإمام أحمد: لا يحدث عنه إلا شر منه [العلل ١/١١٧]. (٢) الطبري: ١٧/١٧

٢٣٣ (٣) الطبري: ١٧/٢٣٤

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ <sup>(٧)</sup> وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَصِفَ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبِ أَنَّ لَهُمُ الْفُسْطَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٨﴾

[لَا يُؤَاخِذُ بِالْمَعَاصِي فَوْرًا]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ، أَيُّ لَا أَهْلَكَ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَبَعًا لِإِهْلَاكِ بَنِي آدَمَ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ، وَيُنْظِرُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، أَيُّ لَا يَعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، إِذْ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لَمَا أَبْقَى أَحَدًا. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: سَمِعَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَجُلًا وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، قَالَ: فَالْتَمَسْتُ إِلَيْهِ. فَقَالَ: بَلَى وَاللَّهِ! حَتَّى إِنَّ الْخَبَارَى لَتَمُوتُ فِي وَكْرِهَا بِظُلْمِ الظَّالِمِ <sup>(١)</sup>.

[نِسْبَةُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى اللَّهِ مَا يَكْرَهُونَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أَيُّ مِنَ الْبَنَاتِ، وَمِنْ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ هُمْ عِبِيدُهُ، وَهُمْ يَأْتِفُونَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَحَدِهِمْ شَرِيكَ لَهُ فِي مَالِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَصِفَ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبِ أَنَّ لَهُمُ الْفُسْطَى﴾ إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ، مَعَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ ثَمَّ مَعَادٌ فَبِهِ أَيْضًا لَهُمُ الْحُسْنَى، وَإِخْبَارٌ عَنْ قِيلٍ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْكُمْ كَفُورًا﴾ <sup>(٢)</sup> وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ﴿هُود: ٩، ١٠﴾ وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُمُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنِيتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِعَائِدَتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مریم: ٧٧] وَقَالَ إِخْبَارًا عَنْ أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ أَنَّهُ ﴿دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ <sup>(٣)</sup> وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] فَجَمَعَ هَؤُلَاءِ بَيْنَ عَمَلِ الشُّوءِ وَتَمَنِّي الْبَاطِلِ بِأَنْ يُجَارَوْا عَلَى ذَلِكَ حُسْنًا، وَهَذَا مُسْتَحِيلٌ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي تَمَنِّيهِمْ ذَلِكَ: ﴿لَا

لَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

بَعْقُلُونَ ﴿٦٧﴾

[الْعِبْرَةُ وَالنَّعْمَةُ فِي الْأَنْعَامِ وَثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿لَعِبْرَةً﴾ أَيُّ لَآيَةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى حِكْمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلَطْفِهِ ﴿تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أَفَرَدَهَا هَهُنَا عَوْدًا عَلَى مَعْنَى النَّعْمِ، أَوِ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْحَيَوَانِ، فَإِنَّ الْأَنْعَامَ حَيَوَانَاتٌ أَيُّ تُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطْنِ هَذَا الْحَيَوَانِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، وَيَجُوزُ هَذَا وَهَذَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا لَذِكْرُ اللَّهِ﴾ [عس: ١١، ١٢] وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرُهُ بِمِ يَتَجِجُ الْمُرْسِلُونَ﴾ [فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ] [النمل: ٣٥، ٣٦] أَيُّ الْمَالِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْثٍ وَدَمْرٍ بَنَّا خَالِصًا﴾ أَيُّ يَتَخَلَّصُ الدَّمُ بَيَاضُهُ وَطَعْمُهُ وَحَلَاوَتُهُ، مِنْ بَيْنِ قَرْثٍ وَدَمٍّ - فِي بَاطِنِ الْحَيَوَانِ - فَيَسْرِي كُلُّ إِلَى مَوْطِنِهِ، [فَإِذَا] نَضَجَ الْغَدَاءُ فِي مَعْدَتِهِ، [تَصْرَفَ] مِنْهُ دَمٌ إِلَى الْعُرُوفِ، وَلَبَنٌ إِلَى الضَّرْعِ، وَبَوْلٌ إِلَى الْمَثَانَةِ، وَرَوْثٌ إِلَى الْمَخْرَجِ، وَكُلٌّ مِنْهَا لَا يَشُوبُ الْآخَرَ، وَلَا يُمَارِجُهُ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنْهُ وَلَا يَتَغَيَّرُ بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَنَّا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِبِينَ﴾ أَيُّ لَا يَغْصُ بِهِ أَحَدٌ، وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّبَنَ وَآلَهُ تَعَالَى جَعَلَهُ شَرَابًا لِلنَّاسِ سَائِغًا نَتَّى بِذِكْرِ مَا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَشْرَبَةِ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ، وَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنَ النَّبِيذِ الْمُسْكِرِ قَبْلَ تَحْرِيمِهِ، وَلِهَذَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكْرًا﴾ دَلٌّ عَلَى إِحَابَتِهِ شَرْعًا قَبْلَ تَحْرِيمِهِ، وَدَلٌّ عَلَى التَّشْوِيقِ بَيْنَ الْمُسْكِرِ الْمُتَّخَذِ مِنَ النَّخْلِ وَالْمُتَّخَذِ مِنَ الْعِنَبِ، وَكَذَا حُكْمُ سَائِرِ الْأَشْرَبَةِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالذَّرَّةِ وَالْعَسَلِ، كَمَا جَاءَتْ السُّنَّةُ بِتَفْصِيلِ ذَلِكَ.

كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ السَّكْرُ مَا حَرَّمَ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا أُجِلَّ مِنْ ثَمَرَتَيْهِمَا<sup>(١)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ: السَّكْرُ حَرَامُهُ، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ حَلَالُهُ<sup>(٢)</sup>. يَعْنِي مَا يَسَّرَ مِنْهُمَا مِنْ ثَمَرٍ وَزَيْبٍ، وَمَا عَمِلَ مِنْهُمَا مِنْ طَلَاءٍ وَهُوَ اللَّبْسُ وَحَلٌّ وَنَبِيذٌ، حَلَالٌ يُشْرَبُ قَبْلَ أَنْ يَشْتَدَّ، كَمَا وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ نَاسَبَ ذِكْرُ الْعَقْلِ هَهُنَا، فَإِنَّهُ أَشْرَفُ مَا فِي

الْمُزَكَّاتِ وَالْحَجَّاتِ

٢٧٤

سُورَةُ النِّحْلِ

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُسْقِيَهُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْثٍ وَدَمْرٍ بَنَّا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِبِينَ ﴿٦٩﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٠﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْإِزْدِلَ الْعُمُرَ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٤﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتُ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٥﴾

الْإِنْسَانِ، وَلِهَذَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَشْرَبَةَ الْمُسْكِرَةَ صِبَاغَةً لِعُيُونِهَا<sup>(٣)</sup>، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا حَبَّتَ مِنْ تَحِيْلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يَأْكُلُوا] مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ.

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٢﴾

[وَفِي النَّحْلِ وَعَسَلِهَا نِعْمَةٌ وَعِبْرَةٌ]

الْمُرَادُ بِالْأَوْحَى هُنَا الْإِلْهَامُ وَالْهَدَايَةُ، وَالْإِرْشَادُ لِلنَّحْلِ أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا تَأْوِي إِلَيْهَا، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

(١) الطبري: ١٧/٢٤١ (٢) الطبري: ١٧/٢٤٢ (٣) الطبري:

الْبَخَارِيُّ كَانَ يُعْجِبُهُ الْحَلَوَاءُ وَالْعَسَلُ<sup>(٥)</sup>. هَذَا لَفْظُ الْبَخَارِيِّ. وَفِي صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشَّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِجْهِمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيْتٍ بَنَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ»<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» أَيُّ إِنَّ فِي إِلَهَامِ اللَّهِ لِهَذِهِ الدَّوَابِّ الضَّعِيفَةِ الْخَلْقَةَ إِلَى السَّلُوكِ فِي هَذِهِ الْمَهَامَةِ، وَالاجْتِنَاءِ مِنْ سَائِرِ الثَّمَارِ، ثُمَّ جَمْعُهَا لِلشَّمْعِ وَالْعَسَلِ، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الْأَشْيَاءِ، لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمَقْدَرِهَا وَمُسَخِّرِهَا وَمُيَسِّرِهَا، فَيَسْتَدِلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ الْقَادِرُ، الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْكَرِيمُ الرَّحِيمُ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْرِكْ إِلَى أَزَلٍ الْعُمَرُ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾<sup>(٧)</sup>

[وَفِي أَطْوَارِ عُمُرِ الْإِنْسَانِ عِبْرَةٌ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَصَرُّفِهِ فِي عِبَادِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَوَفَّاهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتْرُكُهُ حَتَّى يُذَرِّكَهُ الْهَرَمُ، وَهُوَ الضَّعْفُ فِي الْخِلْقَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً»... [الآية [الروم: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: «لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا» أَيُّ بَعْدَ مَا كَانَ عَالِمًا أَصْبَحَ لَا يُدْرِي شَيْئًا مِنَ الْقَنَدِ وَالْخَرْفِ، وَلِهَذَا رَوَى الْبَخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَأُرْذِلُ الْعُمَرَ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةَ الدَّجَالِ وَفِتْنَةَ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى فِي مُعَلَّقَتِهِ الْمَشْهُورَةِ.

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ

ثَمَانِينَ عَامًا - لَا أَبَا لَكَ - يَسْأَمُ

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مَنْ نُصِبَ

ثَمَنُهُ وَمَنْ تُخْطِئُهُ يُعَمَّرُ فَيَهْرَمُ

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كُفِّرُوا بِرَائِي

رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَمَلِهِمُ اللَّهُ

يُجَادِلُونَ﴾<sup>(٩)</sup>

(١) يتعلق بما قبله أي كما وردت السنة بذلك (٢) الطبري: ١٧/

٢٤٩ (٣) الطبري: ١٧/٢٤٩ (٤) فتح الباري: ١٠/١٧٨

ومسلم: ٤/١٧٣٦ (٥) فتح الباري: ١٠/٨١ ومسلم: ٢/

١١٠١ (٦) فتح الباري: ١٠/١٤٣ (٧) فتح الباري: ٨/٢٣٩

يَعْرِشُونَ، ثُمَّ هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ فِي تَسْدِيسِهَا وَرَصِّهَا بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي بَيْنِهَا خَلَلٌ، ثُمَّ أَدْنَى لَهَا تَعَالَى إِذْنَا قَدَرْنَا تَسْخِيرِيًّا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَنْ تَسْلُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مُذَلَّلَةً لَهَا، أَيُّ مُسَهَّلَةً عَلَيْهَا، حَيْثُ شَاءَتْ مِنْ هَذَا الْجَوِّ الْعَظِيمِ، وَالْبَرَارِي الشَّاسِعَةِ، وَالْأَوْدِيَةِ وَالْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ، ثُمَّ تَعَوَّدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَى بَيْنِهَا لَا تَجِدُ عَنْهُ يُمْنَةً وَلَا يُسْرَةً، بَلْ إِلَى بَيْنِهَا وَمَا لَهَا فِيهِ مِنْ فِرَاحٍ وَعَسَلٍ، فَتَنَبِّي الشَّمْعَ مِنْ أَجْنَحَتَيْهَا وَتَقِي الْعَسَلَ مِنْ فِيهَا، وَتَبِيضُ الْفِرَاحَ مِنْ ذُبُرِهَا، ثُمَّ تُصْبِحُ إِلَى مَرَاعِيهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: «فَأَسْلَمَكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا» أَيُّ مُطِيعَةً<sup>(١)</sup>. فَجَعَلَاهُ حَالًا مِنَ السَّالِكَةِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَهُوَ كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَنَبَّاهَا رُكُوبَهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ» [يس: ٧٢]<sup>(٢)</sup> قَالَ: أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَنْقُلُونَ النُّحْلَ بِنُيُوتِهِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَهُوَ يَضْحَكُهُمْ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ هُوَ الْأَظْهَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ حَالٌ مِنَ الطَّرِيقِ، أَيُّ فَاسْلُكِيهَا مُذَلَّلَةً لَكَ، نَصَرَ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: كِلَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «تَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ» مَا بَيْنَ أَبْيَضَ، وَأَصْفَرَ، وَأَحْمَرَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْوَانِ الْحَسَنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاعِيهَا وَمَأْكُلِهَا مِنْهَا. وَقَوْلُهُ: «فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ» أَيُّ فِي الْعَسَلِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، أَيُّ مِنْ أَدْوَاءٍ تَعْرِضُ لَهُمْ. قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الطَّبِّ النَّبَوِيِّ: لَوْ قَالَ: فِيهِ الشَّفَاءُ لِلنَّاسِ، لَكَانَ دَوَاءً لِكُلِّ دَاءٍ، وَلَكِنْ قَالَ: «فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ»، أَيُّ يَضْلُجُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ أَدْوَاءٍ بَارِدَةٍ، فَإِنَّهُ حَارٌّ وَالشَّيْءُ يُدَاوِي بِضِدِّهِ.

رَوَى الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ عَلِيِّ بْنِ دَاوُدَ النَّاجِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَجْحِي اسْتَطْلَقَ بَطْنَهُ، فَقَالَ: «إِسْقِهِ عَسَلًا» فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ، سَقَيْتُهُ عَسَلًا، فَمَا زَادَهُ إِلَّا اسْتَطْلَاقًا، قَالَ: «إِذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا» فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ، مَا زَادَهُ إِلَّا اسْتَطْلَاقًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، إِذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا» فَذَهَبَ فَسَقَاهُ عَسَلًا فَبَرِيءَ<sup>(٤)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ

[وفي أمور معاش الإنسان آية ونعمة]

يَبْنِي تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ جَهَنَّمَ وَكُفْرَهُمْ فِيمَا زَعَمُوهُ لِلَّهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا عِبِيدٌ لَهُ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيهِمْ فِي حَجَّهِمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. فَقَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: أَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ أَنْ تُسَآوُوا عِبِيدَكُمْ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ، فَكَيْفَ يَرْضَى هُوَ تَعَالَى بِمُسَاوَاةِ عِبِيدٍ لَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالْعَظِيمِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَذَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَحْفَاؤُنَهُمْ كَخَيْفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾... الْآيَةُ [الروم: ٢٨]. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَقُولُ: لَمْ يَكُونُوا لِيُشْرِكُوا عِبِيدَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ عِبِيدِي مَعِيَ فِي سُلْطَانِي، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وَقَالَ فِي الرُّوَايَةِ الْآخَرَى عَنْهُ: فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِي مَا لَا تَرْضَوْنَ لَأَنْفُسِكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّهُمْ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا، فَجَحَدُوا نِعْمَتَهُ، وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ. وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ... وَاقْنَعْ بِرِزْقِكَ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الرَّحْمَنَ فَضَّلَ بَعْضَ عِبَادِهِ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ بَلَاءً يَنْتَلِي بِهِ كَلَامًا، فَيَنْتَلِي مَنْ بَسَطَ لَهُ كَيْفَ شُكْرُهُ لِلَّهِ وَأَدَاؤُهُ الْحَقَّ الَّذِي افْتَرَضَ عَلَيْهِ فِيمَا رَزَقَهُ وَخَوَّلَهُ؟ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالطَّيْلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

[وَمِنْ النِّعَمِ وَالْآيَاتِ الْأَزْوَاجُ وَالْأَوْلَادُ وَالْأَحْفَادُ]

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَةً عَلَى عِبِيدِهِ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِهِمْ وَشَكْلِهِمْ، وَلَوْ جَعَلَ الْأَزْوَاجَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ مَا حَصَلَ الْإِثْلَافُ وَالْمَوَدَّةُ وَالرَّحْمَةُ، وَلَكِنْ مِنْ رَحْمَتِهِ خَلَقَ مِنْ بَنِي آدَمَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَجَعَلَ الْإِنَاثَ أَزْوَاجًا لِلذُّكُورِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الْأَزْوَاجِ الْبَيْنِينَ وَالْحَفَةَ وَهُمْ أَوْلَادُ الْبَيْنِينَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٤)</sup>. قَالَ شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿بَيْنٌ وَحَفَةٌ﴾ وَهُمْ الْوَلَدُ وَوَلَدُ الْوَلَدِ<sup>(٥)</sup>. وَقِيلَ: الْخَدْمُ وَالْأَعْوَانُ. وَقِيلَ:

الْمَرْأَةُ وَالْغُلَامُ

٢٧٥

سُورَةُ النِّحْلِ

وَبَعْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٢﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَرِ رِزْقِ الْحَسَنَةِ فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٥﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرْوِ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

الْأَحْتَانُ. وَقِيلَ: الْأَضْهَارُ. قُلْتُ: فَمَنْ جَعَلَ؟ وَحَفَةً؟ مُتَعَلِّقًا بِأَزْوَاجِكُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْأَوْلَادَ، وَأَوْلَادُ الْأَوْلَادِ، وَالْأَضْهَارُ - لِأَنَّهُمْ أَزْوَاجُ الْبَنَاتِ - أَوْ: أَوْلَادُ الرُّوَجَةِ. كَمَا قَالَ الشَّعْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ، فَإِنَّهُمْ غَالِيًا يَكُونُونَ تَحْتَ أَزْفِ الرَّجُلِ وَفِي حِجْرِهِ وَفِي خِدْمَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أَيُّ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ الْمُنْعَمِ غَيْرُهُ: ﴿أَفَبِالطَّيْلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وَهُمْ الْأَنْدَادُ وَالْأَصْنَافُ ﴿وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أَيُّ يَسْتُرُونَ نِعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَيُضْفِئُونَهَا إِلَى غَيْرِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُمْتَنًا عَلَيْهِ: أَلَمْ أَزُوجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرَبُّعٌ؟»<sup>(٥)</sup>.

(١) الطبري: ٢٥٢/١٧ (٢) ابن أبي حاتم (١٢٥٨٣) ٧/٢٢٩١

مرسل منقطع (٣) الطبري: ٢٥٦/١٧ (٤) الطبري: ١٧/٢٥٧

٢٥٧ (٥) مسلم: ٢٢٧٩/٤

يَسْتَوِي ﴿مَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ﴾ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴿أَيُّ بِالْقِسْطِ، فَمَقَالُهُ حَقٌّ وَفَعَالُهُ مُسْتَقِيمَةٌ﴾ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ مَثَلٌ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَجٍّ أَلْبَصِرَ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

[الغَيْبُ لِلَّهِ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ فِي عِلْمِهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِصَاصِهِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ، فَلَا أَطْلَاعَ لِأَحَدٍ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُ تَعَالَى عَلَى مَا يَشَاءُ، وَفِي قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ، وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَحْدَةً كَلَجَ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] أَيْ فَيَكُونُ مَا يُرِيدُ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَجٍّ أَلْبَصِرَ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحِيدٍ﴾ [القمان: ٢٨].

[وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفْئِدَةُ]

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مِثْلَهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَرْزُقُهُمُ السَّمْعَ الَّذِي بِهِ يَدْرِكُونَ الْأَصْوَاتَ، وَالْأَبْصَارَ الَّتِي بِهَا يُحْسِنُونَ الْمُرْتَبَاتِ، وَالْأَفْئِدَةَ، وَهِيَ: الْعُقُولُ الَّتِي مَرْكَزُهَا الْقَلْبُ عَلَى الصَّحِيحِ. وَقِيلَ: الدِّمَاغُ. وَالْعَقْلُ بِهِ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ضَارِّهَا وَنَافِعِهَا، وَهَذِهِ الْقُوَى وَالْحَوَاسُّ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى التَّدْرِيجِ قَلِيلًا قَلِيلًا، كُلَّمَا كَثُرَ زَيْدٌ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعَقْلِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ. وَإِنَّمَا جَعَلَ تَعَالَى هَذِهِ فِي الْإِنْسَانِ لِيَتِمَّكَنَ بِهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَى، فَيَسْتَعِينُ بِكُلِّ جَارِحَةٍ وَغَضْوٍ وَقُوَّةٍ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَاهُ.

كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) فَلَا تَضَرُّوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

[النَّكِيرُ عَلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى إِجْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ الْمُتَضَلُّ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أَيْ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِنْزَالِ مَطَرٍ، وَلَا إِنْبَاتِ زَرْعٍ وَلَا شَجَرٍ، وَلَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ لَوْ أَرَادُوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَضَرُّوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أَيْ لَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَشْبَاهًا وَأَمْثَالًا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: إِنَّهُ يَعْلَمُ وَيَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنْتُمْ بِجَهْلِكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رَزْقِنَا مَنًى رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْهَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

[مَثَلٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ أَوْ لِلْوَنِّ وَالْحَقِّ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ <sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ <sup>(٢)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ <sup>(٣)</sup>. فَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مَثَلُ الْكَافِرِ، وَالْمَرْزُوقُ الرِّزْقُ الْحَسَنُ، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هُوَ الْمُؤْمِنُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: هُوَ مَثَلُ مَضْرُوبٍ لِلْوَنِّ وَلِلْحَقِّ تَعَالَى، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا <sup>(٤)</sup>! وَلَمَّا كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرًا وَاضِحًا بَيَّنَّا لَا يَجْهَلُهُ إِلَّا كُلُّ غَيْبٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦)

[مَثَلٌ آخَرُ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهَذَا أَيْضًا الْمُرَادُ بِهِ الْوَنُّ وَالْحَقُّ تَعَالَى. يَعْنِي أَنَّ الْوَنَّ أَبْكَمُ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَنْطَلِقُ بِخَيْرٍ وَلَا بِشَيْءٍ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَا مَقَالَ وَلَا فَعَالَ، وَهُوَ مَعَ هَذَا كُلُّ أَيْ عِيَالٍ وَكُلْفَةٌ عَلَى مَوْلَاهُ ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ﴾ أَيْ يَبْعَثُهُ ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وَلَا يَنْجَحُ مَسْعَاهُ ﴿هَلْ

(١) الطبري: ٢٦١/١٧ العوفي ضعيف (٢) الطبري: ٢٦١/١٧

(٣) الطبري: ٢٦٣/١٧ (٤) الطبري: ٢٦٣/١٧

سُورَةُ النَّحْلِ

٢٧٦

الْمَلَكُ الْمَلِكُ

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوَمِتْعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَمُوتُ كُفْرُوهَا وَكَثُرُهُمْ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْنُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوهُمْ دُونَكَ فَاَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَ ذَلِكَ السَّلَامِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

[الْبُيُوتُ وَالْأَنْثَا وَالثِيَابُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ]

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَمَامَ نِعَمِهِ عَلَى عِبْدِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي هِيَ سَكَنٌ لَهُمْ، يَأْوُونَ إِلَيْهَا، وَيَسْتَرُونَ بِهَا، وَيَسْتَعْنُونَ بِهَا بِسَائِرِ وُجُوهِ الْإِنْتِفَاعِ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَيْضًا مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا أَيْ مِنَ الْأَدَمِ، يَسْتَخِفُّونَ حَمَلَهَا فِي أَسْفَارِهِمْ لِيَضْرِبُوهَا لَهُمْ فِي إِقَامَتِهِمْ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أَيْ النِّعَمِ ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أَيْ الْإِبِلِ ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أَيْ الْمَعْزِ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْأَنْعَامِ ﴿أَثْنَاوَمِتْعًا﴾ أَيْ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أَثْنَاوَمِتْعًا وَهُوَ الْمَالُ. وَقِيلَ: الْمَتَاعُ. وَقِيلَ: الثِّيَابُ. وَالصَّحِيحُ أَعْمٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ فَإِنَّهُ يَتَّخَذُ مِنَ الْأَنْثَا الْبُسْطُ وَالثِّيَابُ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَيَتَّخَذُ مَالًا وَبَحَارَةً، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَنْثَا: الْمَتَاعُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ

اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَاتُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنْ دَعَانِي لِأَجِيبْتُهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»<sup>(٢)</sup>. فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْلَصَ الطَّاعَةَ صَارَتْ أَفْعَالُهُ كُلُّهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُبْصِرُ إِلَّا لِلَّهِ، أَيْ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ، وَلَا يَبْطِشُ وَلَا يَمْشِي إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي بَعْضِ رَوَايَةِ الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ الصَّحِيحِ بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»: «فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»<sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَكَرَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [الملك: ٢٣، ٢٤].

[وَفِي تَسْخِيرِ الطَّيْرِ فِي جَوْ السَّمَاءِ آيَةٌ]

ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى النَّظَرِ إِلَى الطَّيْرِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَيْفَ جَعَلَهُ يَطِيرُ بِنَجَاحَيْنِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي جَوْ السَّمَاءِ، مَا يُمَسِّكُهُ هُنَاكَ إِلَّا اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى، الَّتِي جَعَلَ فِيهَا قُوَى تَفْعَلُ ذَلِكَ، وَسَخَّرَ الْهَوَاءَ يَحْمِلُهَا وَيُسَيِّرُ الطَّيْرَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُلْكِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ قُوفَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْفُضُنَّ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩] وَقَالَ هُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوَمِتْعًا إِلَى حِينٍ﴾ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَكْفُرُونَهَا وَكَثُرُهُمْ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

(١) فتح الباري: ٣٤٨/١١ (٢) فتح الباري: ٣٥٣/١١ (٣)

الطبري: ٢٦٨/١٧

سورة النحل

٢٧٧

سورة النحل

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَادَنَّهُمْ عَذَابًا فَوْقَ  
 الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٤﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ  
 أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى  
 هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى  
 وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ  
 وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ  
 وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾  
 وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ  
 بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ  
 اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ  
 غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا  
 بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ  
 اللَّهُ بِهِ وَلِيَّيْنِ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُتِبَ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٨٨﴾  
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ  
 يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْنُنَ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾

يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ الذِّينِ أَشْرَكُوا  
 ﴿الْعَذَابُ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أَيَّ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً.  
 ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أَيَّ لَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ بَلْ يَأْخُذُهُمْ سَرِيعًا  
 مِنَ الْمَوْقِفِ بِلَا حِسَابٍ، فَإِنَّهُ إِذَا جِيءَ بِجَهَنَّمَ تَقَادُ سَبْعِينَ  
 أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، فَيُسْرِفُ عُتْقُ  
 مِنْهَا عَلَى الْخَلَائِقِ، وَتَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَمُتِي أَحَدٌ إِلَّا جَثَا  
 لِرُكْبَتَيْهِ، فَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، الَّذِي جَعَلَ  
 مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ. وَبِكَذَا وَبِكَذَا، وَتَذَكَّرُ أَصْنَافًا مِنَ النَّاسِ،  
 كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ تَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، وَتَلْتَقِطُهُمْ مِنْ  
 الْمَوْقِفِ كَمَا يَلْتَقِطُ الطَّائِرُ الْحَبَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا  
 رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ يَبِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَفَرِيرًا ﴿٨٧﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا  
 مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٨٨﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا  
 وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢-١٤] وَقَالَ تَعَالَى:  
 ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا

وَسَعِيدٌ بْنُ جَبْرِ وَالْحَسَنُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ  
 وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أَيَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى  
 وَوَقْتُ مَعْلُومٍ.

[الظَّلَالُ وَالْجِبَالُ وَسَرَائِلُ الثُّوبِ، وَالْحَدِيدُ أَيْضًا مِنْ  
 نِعَمِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ:  
 يُعْنِي الشَّجَرَ <sup>(١)</sup>. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أَيَّ  
 حُصُونًا وَمَعَاقِلَ كَمَا ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾  
 وَهِيَ الثِّيَابُ مِنَ الْقُطْنِ وَالْكُتَّانِ وَالصُّوفِ ﴿وَسَرِيلَ تَقِيكُمْ  
 بَأْسَكُمْ﴾ كَالدَّرُوعِ مِنَ الْحَدِيدِ الْمُصَفَّحِ وَالزَّرْدِ وَغَيْرِ  
 ذَلِكَ، كَذَلِكَ يَمُرُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ أَيَّ هَكَذَا يَجْعَلُ لَكُمْ  
 مَا تَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى أَمْرِكُمْ وَمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، لِيَكُونَ عَوْنًا  
 لَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ (لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ) هَكَذَا فَسَّرَهُ  
 الْجُمْهُورُ، وَقَرَّءُوهُ بِكَسْرِ اللَّامِ مِنْ «سَلِمْتُمْ» أَيَّ مِنْ  
 الْإِسْلَامِ.

[مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيَّ بَعْدَ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ وَهَذَا الْإِمْتِنَانِ،  
 فَلَا عَلَيْكَ مِنْهُمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ وَقَدْ أَذِنَتْهُ إِلَيْهِمْ  
 ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أَيَّ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
 هُوَ الْمُسْدِي إِلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَهُوَ الْمُتَقَضِّلُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَمَعَ  
 هَذَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَيُسَيِّدُونَ النَّصْرَ  
 وَالرِّزْقَ إِلَى غَيْرِهِ ﴿وَكَذَّبَهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا  
 وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ  
 عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا  
 رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ  
 الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ  
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْكَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
 زَادَنَّهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

[حَالُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحَشْرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ شَأْنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ فِي الدَّارِ  
 الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا، وَهُوَ نَبِيُّهَا، يَشْهَدُ  
 عَلَيْهَا بِمَا أَجَانَتْهُ فِيمَا بَلَّغَهَا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ  
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيَّ فِي الْإِعْتِدَارِ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بَطْلَانَهُ  
 وَكَذِبَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ  
 فَيَعْتَرِضُونَ﴾ [المسرات: ٣٦، ٣٥] فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا هُمْ



وَيَتَّبِعُونَ هُمْ مِنْهُ أَيْضًا ﴿وَلَنْ يَهْدِيَهُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْمَعُونَ﴾  
[الأنعام: ٢٦] وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَقَاوُتِ الْكُفَّارِ فِي عَذَابِهِمْ  
كَمَا يَتَقَاوُتُ الْمُؤْمِنُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهِمْ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ  
شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى  
وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

[كُلُّ نَبِيٍّ يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]  
يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿وَيَوْمَ  
نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا  
عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي أُمَّتَكَ، أَيْ أَذْكَرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهَوْلَهُ، وَمَا  
مَنْحَكَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ، وَهَذِهِ  
الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ  
قَرَأَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَدْرَ سُورَةِ النَّسَاءِ، فَلَمَّا وَصَلَ  
إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ  
عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
«حَسْبُكَ» فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَانْتَفَتَ فَإِذَا  
عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ<sup>(١)</sup>.

[الْقُرْآنُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ]  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قَالَ  
ابْنُ مَسْعُودٍ: قَدْ بَيَّنَّ لَنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ كُلُّ عِلْمٍ وَكُلُّ  
شَيْءٍ<sup>(٢)</sup>. فَإِنَّ الْقُرْآنَ اشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ مِنْ خَبَرٍ مَا  
سَبَقَ وَعِلْمٍ مَا سَيَأْتِي، وَكُلِّ حَلَالٍ وَحَرَامٍ، وَمَا النَّاسُ إِلَيْهِ  
مُحْتَاجُونَ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُمْ وَدِينِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ  
﴿وَهُدًى﴾ أَيْ لِلْقُلُوبِ ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وَقَالَ  
الْأَوْزَاعِيُّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أَيْ:  
بِالسُّنَّةِ<sup>(٣)</sup>. وَوَجْهُ أَفْضَلُ قَوْلُهُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مَعَ  
قَوْلِهِ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أَنَّ الْمُرَادَ - وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ - إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ  
عَلَيْكَ سَائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ إِلَيْكَ أُرْسِلَ  
إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّكَ الْمُرْسِلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] ﴿فَوَرَبِّكَ  
لَنَسْتَلْهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ٩٢، ٩٣]

مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمْ أَنْتَارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا  
هُمْ يُصْرَفُونَ﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْصَةٌ فَبَهْتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ  
رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

[تَبَرَّأَ إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ أَوْجَحَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا]  
ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَبَرِّي إِلَهُتِهِمْ مِنْهُمْ أَوْجَحَ مَا يَكُونُونَ  
إِلَيْهَا فَقَالَ: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أَيْ الَّذِينَ  
كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ  
كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلَقُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيْ  
قَالَتْ لَهُمُ الْإِلَهَةُ: كَذَبْتُمْ مَا نَحْنُ أَمْزَانُكُمْ بِعِبَادَتِنَا، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَسْأَلْ وَمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ  
لَهُ إِنْ يَكُنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعْوَاهُمْ غَافِلُونَ﴾ وَإِذَا خِصِرَ النَّاسُ  
كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦٥] وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَتَقَدُّوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾  
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]  
وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ... الْآيَةُ [النكبت: ٢٥]. وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾... الْآيَةُ [القصص: ٦٤]،  
وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

[يَسْتَسْلِمُ الْجَمِيعُ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ  
وَعِكْرَمَةُ: ذَلُّوا وَاسْتَسْلِمُوا يَوْمَئِذٍ<sup>(١)</sup>. أَيْ اسْتَسْلِمُوا لِلَّهِ  
جَمِيعُهُمْ، فَلَا أَحَدٌ إِلَّا سَامِعٌ مُطِيعٌ، وَكَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اسْمِعْ  
يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أَيْ مَا أَسْمَعُهُمْ وَمَا  
أَبْصَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا  
رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا... الْآيَةُ  
[السجدة: ١٢]، وَقَالَ: ﴿وَعَنْتَ أَلْوَجْهَهُ لِلْجَنَّةِ الْقَبُولِ﴾ [طه: ١١١]  
أَيْ خَضَعْتَ وَذَلَلْتَ وَاسْتَكَنْتَ وَأَنَابْتَ وَاسْتَسْلَمْتَ.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ ذَهَبَ وَاضْمَحَلَّ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ أَفْتِرَاءً عَلَى  
اللَّهِ، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ وَلَا مُعِينَ وَلَا مُجِيرَ.

[الرِّبَاةُ فِي عَذَابِ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْكُفَّارِ]  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
رَدْنَهُمْ عَذَابًا﴾... الْآيَةُ، أَيْ عَذَابًا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَذَابًا  
عَلَى صُدْهِمُ النَّاسِ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ  
يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أَيْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِهِ

(١) الطبري: ٢٧٦/١٧ (٢) فتح الباري: ٩٩/٨ (٣) الطبري:

٢٦٩/١٧ (٤) الدر المنثور: ١٥٨/٥

عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْنَاءَ بَيْتِهِ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ، فَكَشَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَجْلِسُ؟» فَقَالَ: بَلَى، قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَقْبِلَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُهُ إِذْ شَخَصَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَنَظَرَ سَاعَةً إِلَى السَّمَاءِ، فَأَخَذَ يَضَعُ بَصَرَهُ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى يَمِينِهِ فِي الْأَرْضِ، فَتَحَرَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ جَلِيسِهِ عُثْمَانَ إِلَى حَيْثُ وَضَعَ بَصَرَهُ، فَأَخَذَ يَنْعُضُ رَأْسَهُ كَأَنَّهُ يَسْتَفْقَهُ مَا يَقَالُ لَهُ، وَابْنُ مَطْعُونٍ يَنْظُرُ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ وَاسْتَفْقَهُ مَا يَقَالُ لَهُ، شَخَصَ بَصَرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا شَخَصَ

أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَتْبَعَهُ بَصَرُهُ حَتَّى تَوَارَى إِلَى السَّمَاءِ، فَأَقْبَلَ إِلَى عُثْمَانَ بِجَلْسِيَّتِهِ الْأُولَى، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَا كُنْتَ أَجَالِسُكَ مَا رَأَيْتُكَ تَفْعَلُ كَفَعْلِكَ الْعِدَاءَةَ، فَقَالَ: «وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ؟» قَالَ: رَأَيْتُكَ شَخَصَ بَصَرُكَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ وَضَعْتَهُ حَيْثُ وَضَعْتَهُ عَلَى يَمِينِكَ، فَتَحَرَّفْتَ إِلَيْهِ وَتَرَكْتَنِي، فَأَخَذْتَ تَنْعُضُ رَأْسَكَ كَأَنَّا تَسْتَفْقُهُ شَيْئًا يَقَالُ لَكَ، قَالَ: «وَقَطِنْتُ لِذَلِكَ؟» فَقَالَ عُثْمَانُ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَأْنِي رَسُولُ اللَّهِ أَتَقَا وَأَنْتَ جَالِسٌ» قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» الْآيَةَ، قَالَ عُثْمَانُ: فَذَلِكَ حِينَ اسْتَمَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي وَأَحْبَبْتُ مُحَمَّدًا ﷺ<sup>(١)</sup>. إِسْنَادٌ جَيِّدٌ مُتَّصِلٌ حَسَنٌ، قَدْ بَيَّنَّ فِيهِ السَّمَاعُ الْمُتَّصِلُ.

«وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ عَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلِكَيْتَنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»

### [الْأَمْرُ بِإِيْقَاءِ الْعَهْدِ]

هَذَا مِمَّا يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَهُوَ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْمَوَائِقِ وَالْمَحَافِظَةِ عَلَى الْأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» وَلَا تَعَارِضُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ»... الْآيَةَ

«يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبُ» [المائدة: ١٠٩] وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا أُنْصِرْ» أَيُّ إِنْ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْقُرْآنِ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا، وَمُعِيدُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَسَائِلُكَ عَنْ أَدَاءِ مَا فَرَضَ عَلَيْكَ. هَذَا أَحَدُ الْأَقْوَالِ، وَهُوَ مُتَّجِهٌ حَسَنٌ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

### [الْأَمْرُ بِالْإِنْصَافِ وَالْإِحْسَانِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ عِبَادَهُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ الْقِسْطُ وَالْمُؤَاوَاةُ، وَيَنْذِرُ إِلَى الْإِحْسَانِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلِإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ» وَلِإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَقَوْلُهُ: «وَحَرِّزُوا سِنَتَهُ سِنَتَهُ مِنْهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» [النحل: ١٢٦] وَقَالَ: «وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» [المائدة: ٤٥] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى شَرْعِيَّةِ الْعَدْلِ وَالنَّزْدِ إِلَى الْفَضْلِ.

### [الْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ]

وَقَوْلُهُ: «وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى» أَيُّ يَأْمُرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، كَمَا قَالَ: «وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا». [الإسراء: ٢٦] وَقَوْلُهُ: «وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» قَالُوا وَاجِشْ: الْمُحَرَّمَاتُ. وَالْمُنْكَرَاتُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا مِنْ فَاعِلِهَا، وَلِهَذَا قَالَ فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» [الأعراف: ٣٣] وَأَمَّا الْبَغْيُ فَهُوَ الْعُدُوَانُ عَلَى النَّاسِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَذْخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: «يَعِظُكُمْ» أَيُّ يَأْمُرُكُمْ بِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ». وَقَالَ الشَّعْبِيُّ عَنْ شُعْبَةَ بْنِ شَكْلٍ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنْ أَجْمَعَ آيَةُ فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ النَّحْلِ «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» الْآيَةَ<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

[وَإِقِيعَةُ عَيْنِ لِعُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وَقَدْ وَرَدَ فِي نَزْوِلِهَا حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ

(١) أبو داود: ٢٠٨/٥ (٢) الطبري: ٢٨٠/١٧ (٣) أحمد:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧٨

سُورَةُ النُّحْلِ

وَلَا تَنۡخِذُوا۟ اٰیٰتِنَاۤمۡ دَخَلَاۤیۡنَکُمۡ فَنَزِلۡنَاۤیۡنَکُمۡۤ اَعۡتٰیۡتُهَا  
وَتَذَوُّوۡا السُّوۡءَ بِمَا صَدَدۡتُمۡ عَنۡ سَبۡیِلِ اللّٰهِ وَلَکُمۡ عَذَابٌ  
عَظِیۡمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُوا۟ بِعَهۡدِ اللّٰهِ ثَمَنًا قَلِیۡلًاۤ اِنَّمَا عِنۡدَ اللّٰهِ  
هُوَ خَیۡرٌ لَّکُمۡ اِنْ کُنۡتُمۡ تَعۡلَمُوۡنَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنۡدَکُمۡ یَنۡفَدُ  
وَمَا عِنۡدَ اللّٰهِ بَاقٍ وَلَنَجۡزِیۡنَ الَّذِیۡنَ صَبَرُوۡاۤ اَجۡرَهُمۡ بِاَحۡسَنِ  
مَا کَانُوۡا یَعۡمَلُوۡنَ ﴿٩٦﴾ مِّنۡ عَمَلٍ صَلَحَ مَّا مِنۡ ذَکَرٍ  
اَوْ اُنۡثٰی وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَلَنُحۡیِیَنَّهٗ حَیٰوَةً طَیِّبَةً وَلَنَجۡزِیَنَّهُمۡ  
اَجۡرَهُمۡ بِاَحۡسَنِ مَا کَانُوۡا یَعۡمَلُوۡنَ ﴿٩٧﴾ فَاِذَا قَرَأْتَ الْقُرۡءَانَ  
فَاسۡتَعِذۡ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّیۡطٰنِ الرَّجِیۡمِ ﴿٩٨﴾ اِنَّهُۥ لَیۡسَ لَهُۥ سُلۡطٰنٌ  
عَلٰی الَّذِیۡنَ ءَامَنُوۡا وَعَلٰی رَبِّهِمۡ یَتَوَكَّلُوۡنَ ﴿٩٩﴾ اِنَّمَا  
سُلۡطٰنُهُۥ عَلٰی الَّذِیۡنَ یَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَالَّذِیۡنَ هُمۡ بِہٖ مُشۡرِکُوۡنَ  
﴿١٠٠﴾ وَاِذَا بَدَلۡنَاۤ اٰیَةً مَّکٰتِبَ ءَایَةٍ وَّاللّٰهُ اَعۡلَمُ  
بِمَا یُرِیۡلُ قَالُوۡا اِنَّمَا اَنْتَ مُفۡتَرٍ لَّکُمۡۤ اٰیٰتٌ لَّا یَعۡلَمُوۡنَ  
﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوۡحُ الْقُدُسِ مِنۡ رَبِّکَ بِالْحَقِّ لِیُنۡثِثَ  
الَّذِیۡنَ ءَامَنُوۡا وَهُدًی وَّبُشۡرٰی لِّلۡمُسۡلِمِیۡنَ ﴿١٠٢﴾

كَانَ قَدْ نَهَى عَنِ الْعَدْرِ وَالْحَالَةِ هَذِهِ، فَلَأَن يَنْهَى عَنْهُ مَعَ التَّمَكُّنِ وَالْقُدْرَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى.

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا يَحَالِفُونَ الْحُلَفَاءَ فَيَجِدُونَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَعَزَّ، فَيَنْقُضُونَ حِلْفَ هَؤُلَاءِ وَيَحَالِفُونَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ وَأَعَزَّ، فَهُمْ عَنْ ذَلِكَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ نَحْوَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَبُوءُكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي بِالْكَثَرَةِ<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّى بِأَمْرِهِ إِتْيَاكُمْ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ﴿وَلَيَكُنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَفِضِلُ مَنْ يَشَاءُ

[البقرة: ٢٢٤]، وَبَيَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ آيَاتِنَا﴾ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا آيَاتِنَا﴾ [المائدة: ٨٩] أَيْ لَا تَتَرَكُوهَا بَلَا كَفَّارَةً، وَبَيَّنَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَخْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا - وَفِي رَوَايَةٍ - وَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي»<sup>(٣)</sup>: لَا تَعَارِضُ بَيْنَ هَذَا كُلِّهِ وَلَا بَيْنَ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ هَهُنَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَيْمَانَ الْمُرَادُ بِهَا الدَّخِيلَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيعِ، لَا الْأَيْمَانَ الَّتِي هِيَ وَارِدَةٌ عَلَى حَتٍّ أَوْ مَنَعٍ، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: يَعْنِي الْحِلْفَ، أَيْ حِلْفَ الْجَاهِلِيَّةِ<sup>(٤)</sup>. وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»<sup>(٥)</sup> وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٦)</sup>. وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَخْتَاجُ مَعَهُ إِلَى الْحِلْفِ الَّذِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَهُ، فَإِنَّ فِي التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ كِفَايَةً عَمَّا كَانُوا فِيهِ.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: حَالَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي دُورِنَا<sup>(٧)</sup>. فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ أَخَى بَيْنَهُمْ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهِ، حَتَّى نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ نَقَضَ الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَالشَّيْخُ: هَذِهِ امْرَأَةٌ خَرَفَاءُ كَانَتْ بِمَكَّةَ كُلَّمَا غَزَلَتْ شَيْئًا نَقَضَتْهُ بَعْدَ إِبْرَامِهِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: هَذَا مَثَلٌ لِمَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِهِ<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ أَرْجَحُ وَأَظْهَرُ سِوَاهُ كَانَ بِمَكَّةَ امْرَأَةً تَنْقُضُ غَزْلَهَا أَمْ لَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْكَا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْمُ مُضَدَّرٍ، نَقَضَتْ غَزْلَهَا أَنْكَانَا أَيْ أَنْقَاضًا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا عَنْ خَبَرٍ كَانَ، أَيْ لَا تَكُونُوا أَنْكَانَا جَمْعُ نَكَيْتٍ مِنْ نَاكِتٍ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿تَنَخِذُوا آيَاتِنَا دَخَلَا بَيْنَكُمْ﴾ أَيْ خَدِيعَةً وَمَكْرًا، ﴿أَنْ تَكُونُوا أُمَّةً هِيَ أَرْثَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أَيْ تَحْلِفُونَ لِلنَّاسِ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ لِيَطْمَئِنُّوا إِلَيْكُمْ، فَإِذَا أَمَكْتُمْكُمُ الْعَدُوَّ بِهِمْ غَدَرْتُمْ، فَتَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ لِيُنَبِّهَ بِالْأَذْنَى عَلَى الْأَعْلَى، إِذَا

(١) فتح الباري: ١١/٥٢٥ ومسلم: ٣/١٢٦٩ (٢) الطبري: ٢٨٢/١٧ (٣) أحمد: ٤/٨٣ (٤) مسلم: ٤/١٩٦١ (٥) فتح الباري: ٤/٥٥٢ ومسلم: ٤/١٩٦٠ (٦) الطبري: ١٧/٢٨٥ (٧) الطبري: ١٧/٢٨٥ (٨) الدر المنثور: ٥/١٦٣ (٩) الطبري: ١٧/٢٨٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧٩

سُورَةُ النِّحْلِ

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٤﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإيمَانِ وَلَكِن مِّن شَرٍّ أَكْثَرُ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثَمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٩﴾

وَيُكَلِّمُهُ بَعْضُ الشَّيْءِ، وَذَلِكَ كَانَ أَعْجَبِي اللَّسَانِ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الشَّيْءَ الْيَسِيرَ بِقَدْرِ مَا يَرُدُّ جَوَابَ الْخِطَابِ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ، فَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَأَا عَلَيْهِمْ فِي افْتِرَائِهِمْ ذَلِكَ ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أَيِ الْقُرْآنِ. أَيِ فَكَيْفَ يَتَعَلَّمُ مَنْ جَاءَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فِي فَصَاحَتِهِ وَبِلَاغَتِهِ وَمَعَانِيهِ الثَّامَّةِ الشَّامِلَةِ الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ مِنْ مَعَانِي كُلِّ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى نَبِيٍّ أُرْسِلَ، كَيْفَ يَتَعَلَّمُ مِنْ رَجُلٍ أَعْجَبِي؟ لَا يَقُولُ هَذَا مَنْ لَهُ أَذْنَى مُشْكَةٍ مِنَ الْعَقْلِ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُ قَبْلَ بَمَكَّةَ، وَكَانَ اسْمُهُ بِلَعَامٍ، وَكَانَ أَعْجَبِي اللَّسَانِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرَوْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِ، فَقَالُوا: إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِلَعَامٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾

(١) الطبري: ٢٩٤/١٧ (٢) الطبري: ٢٩٤/١٧ (٣) الطبري:

٢٩٧/١٧ (٤) الطبري: ٢٩٧/١٧

ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الْإِسْتِعَادَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التَّلَاوَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَكَلَّمُونَ﴾. قَالَ الثَّوْرِيُّ: لَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ أَنْ يُوقِعَهُمْ فِي ذَنْبٍ لَا يَتُوبُونَ مِنْهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَاهُ لَا حُجَّةَ لَهُ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ آخَرُونَ: كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يُطِيعُونَهُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: اتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أَيِ أَشْرَكُوهُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْذِبُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٧﴾

[رَفِي الْمُشْرِكِينَ الرَّسُولُ بِالْإِفْتِرَاءِ لِنَسْخِ بَعْضِ الْآيَاتِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَعْفِ عَقُولِ الْمُشْرِكِينَ وَقِلَّةِ بَيِّنَاتِهِمْ وَإِقْبَانِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُمْ الْإِيمَانَ وَقَدْ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا تَغْيِيرَ الْأَحْكَامِ نَاسِخَهَا بِمَنْسُوخِهَا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أَيِ كَذَّابٌ، وَإِنَّمَا هُوَ الرَّبُّ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿بَدَأْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً﴾ أَيِ رَفَعْنَاهَا وَأَثَبْنَا غَيْرَهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ فَتَاةٌ: هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الْآيَةُ<sup>(٤)</sup> [البقرة: ١٠٦]. فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أَيِ جِبْرِيلُ ﴿مِنَ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أَيِ بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَيُصَدِّقُوا بِمَا أَنْزَلَ أَوَّلًا وَثَانِيًا، وَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أَيِ وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَبِشَارَةً لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [نِسْبَةُ الْمُشْرِكِينَ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ إِلَى بَشَرٍ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ وَالْبُهْتِ: أَنَّ مُحَمَّدًا إِنَّمَا يَعْلَمُهُ هَذَا الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ بَشَرٌ، وَيُثَبِّتُونَ إِلَى رَجُلٍ أَعْجَبِي كَأَنَّ بَيْنَ أَطْهَرِهِمْ غَلَامٌ لِيُغْضِي بَطُونَ قُرَيْشٍ، وَكَانَ بَيِّنًا عَمَّا يُبَيِّعُ عِنْدَ الصَّفَا، وَرَبَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ إِلَيْهِ

الَّذِي يُلْقُونَ إِلَيْهِ أَعْنَجِيَّ وَهَذَا لِسانُ عَرُوثٍ مُبِيدٍ ﴿١٠٤﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَذَابِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٥﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ، وَتَعَاوَلَ عَمَّا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ قَصْدٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَهَذَا الْجِنْسُ مِنَ النَّاسِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِآيَاتِهِ وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولَهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُوجَعٌ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ رَسُولَهُ ﷺ لَيْسَ بِمُفْتَرٍ وَلَا كَذَّابٍ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ﷺ شِرَارُ الْخَلْقِ، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ مِنَ الْكُفَرَةِ وَالْمُلْحِدِينَ الْمَعْرُوفِينَ بِالْكَذِبِ عِنْدَ النَّاسِ، وَالرُّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ أَصْدَقَ النَّاسِ وَأَبْرَهُمْ وَأَكْمَلَهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا وَإِيمَانًا وَإِقَانًا، مَعْرُوفًا بِالصِّدْقِ فِي قَوْمِهِ، لَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِحَيْثُ لَا يَدْعَى بَيْنَهُمْ إِلَّا بِالْأَمِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ هِرَقْلُ مَلِكَ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الَّتِي سَأَلَهَا مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِيهَا قَالَ لَهُ: هَلْ كُتِّمَ تَتَهُمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ هِرَقْلُ: فَمَا كَانَ لِيَدَّعِ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَذْهَبَ فَيُكْذَّبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ ﴿١١٠﴾

[قَهَرُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ عَلَى الْمُرْتَدِّ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ عَلَى الْكُفْرِ] أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالتَّبَصُّرِ، وَشَرَحَ صَدْرُهُ بِالْكُفْرِ وَاطْمَأَنَّ بِهِ: أَنَّهُ قَدْ غَضَبَ عَلَيْهِ لِعِلْمِهِمْ بِالْإِيمَانِ ثُمَّ عُدُولِهِمْ عَنْهُ، وَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، فَأَقْدَمُوا عَلَى مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّدَّةِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَلَمْ يَهْدِ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَيَتَّبِعْهُمْ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ، فَطَبَعَ عَلَى

قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَلَا يَتَفَعَّلُونَ بِهَا، وَلَا أَعْنَتْ عَنْهُمْ شَيْئًا فَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُّ بِهِمْ ﴿لَا جَرَمَ﴾ أَنَّى لَا بُدَّ وَلَا عَجَبَ أَنَّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِمَّنْ كَفَرَ بِلِسَانِهِ وَوَافَقَ الْمُشْرِكِينَ بِلَفْظِهِ مُكْرَهَا لِمَا نَالَهُ مِنْ ضَرْبٍ وَأَذَى، وَقَلْبُهُ يَأْبَى مَا يَقُولُ، وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.

### [سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

وَقَدْ رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ حِينَ عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مُكْرَهَا، وَجَاءَ مُعْتَذِرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ الشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ وَأَبُو مَالِكٍ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَعَذَّبُوهُ حَتَّى قَارَبَهُمْ فِي بَعْضِ مَا أَرَادُوا فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ بِأَبْسَطِ مِنْ ذَلِكَ، وَفِيهِ: أَنَّهُ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ إِلَيْهِمْ بِخَيْرٍ؟ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تَرَكْتُ حَتَّى سَبَبْتُكَ وَذَكَرْتُ إِلَيْهِمْ بِخَيْرٍ، قَالَ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، فَقَالَ: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ» وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾<sup>(٤)</sup>. وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمُكَرَّهَ عَلَى الْكُفْرِ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُوَالِيَ إِنْقَاءَ لِمُهْجَتِهِ. وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْبَى، كَمَا كَانَ بِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَهُمْ يَقْعِلُونَ بِهِ الْأَفَاعِيلَ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَضَعُوا الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَيَأْمُرُونَهُ بِالشَّرِّكِ بِاللَّهِ فَيَأْبَى عَلَيْهِمْ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدُ، أَحَدُ. وَيَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمْتُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَطُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - . وَكَذَلِكَ حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ

(١) الطبري: ٢٩٨/١٧ إسناده ضعيف فيه مسلم بن كيسان الملائي الأعمور أبو عبدالله الكوفي ضعيف الحديث (٢) الطبري: ٣٠٤/١٧ العوفي ضعيف (٣) الطبري: ٣٠٤/١٧ (٤) الطبري: ٣٠٤/١٧ والحاكم: ٣٥٧/٢ (٥) النسائي في الكبرى: ٢٠٩/٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٨٠

سُورَةُ النُّحْلِ

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١١) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٢) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا أَنْعُمَ اللَّهِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (١١٣) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنِيزِ وَمَا أَهْلَ لَحْنٍ اللَّهُ بِهِ فَمَن اضْطَرَّ غَيْرَ بِبَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٤) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّبُحَةُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَّنْفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ (١١٥) مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٦) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

بِالْهِجْرَةِ فَتَرَكُوا بِلَادَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ وَغُفْرَانِهِ، وَانْتَظَمُوا فِي سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَاهَدُوا مَعَهُمُ الْكَافِرِينَ، وَصَبَرُوا، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْ بَعْدِهَا، أَيُّ تِلْكَ الْفِعْلَةِ - وَهِيَ الْإِجَابَةُ إِلَى الْفِتْنَةِ - لَعَفُورٌ لَهُمْ رَحِيمٌ بِهِمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أَيُّ تُحَاجُّ عَنْ نَفْسِهَا ﴿لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاجُّ عَنْهَا لَا أَبٌ وَلَا ابْنٌ وَلَا أَخٌ وَلَا زَوْجَةٌ﴾ وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ ﴿أَيُّ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ أَيُّ لَا يُقْصَصُ مِنْ ثَوَابِ الْخَيْرِ، وَلَا يُزَادُ عَلَى ثَوَابِ الشَّرِّ، وَلَا يُظْلَمُونَ قَلِيلًا.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١١) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٢)

الْأَنْصَارِيُّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسْلِمَةُ الْكَذَّابُ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَسْمَعُ. فَلَمْ يَزَلْ يَقْطَعُهُ إِزَابًا وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. وَالْأَفْضَلُ وَالْأَوْلَى أَنْ يَتَّبِعَ الْمُسْلِمُ عَلَى دِينِهِ وَلَوْ أَفْضَى إِلَى قَتْلِهِ، كَمَا ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُدَافَةَ السَّهْمِيِّ أَحَدِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ أَسْرَتْهُ الرُّومُ، فَجَاءُوا بِهِ إِلَى مَلِكِهِمْ فَقَالَ لَهُ: تَنْصَرُّ وَأَنَا أُشْرِكُكَ فِي مُلْكِي وَأَرْوُجُكَ ابْنَتِي، فَقَالَ لَهُ: لَوْ أُعْطِيتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ وَجَمِيعَ مَا تَمْلِكُهُ الْعَرَبُ عَلَى أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ طَرَفَةَ عَيْنٍ مَا فَعَلْتُ. فَقَالَ: إِذَا أَفْطَلْتُكَ، فَقَالَ: أَنْتَ وَذَلِكَ، قَالَ: فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ، وَأَمَرَ الرُّمَاءَ فَرَمَوْهُ قَرِيبًا مِنْ يَدَيْهِ وَرَجُلَيْهِ وَهُوَ يَعْزُضُ عَلَيْهِ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ فَيَأْبَى، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأَنْزَلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِقَدْرِ. وَفِي رَوَايَةٍ يَقْتَرُوهُ مِنْ نَحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، وَجَاءَ بِأَسِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَلْقَاهُ وَهُوَ يَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ عِظَامٌ تَلَوُّحٌ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ فَأَبَى، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَى فِيهَا، فَرُفِعَ فِي الْبُكْرَةِ لِيُلْقَى فِيهَا، فَبَكَى فَطَوَّعَ فِيهِ وَدَعَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا بَكَيْتُ لِأَنْ نَفْسِي إِنَّمَا هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ تُلْقَى فِي هَذِهِ الْقَدْرِ السَّاعَةِ فِي اللَّهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بَعْدُ كُلُّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِي نَفْسٌ تَعَذِّبُ هَذَا الْعَذَابَ فِي اللَّهِ. وَفِي بَعْضِ الرُّوَايَاتِ أَنَّهُ سَجَنَهُ وَمَتَّعَ مِنْهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ أَيَّامًا، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ بِخَمْرِ وَلَحْمٍ خَنْزِيرٍ فَلَمْ يَقْرَبْهُ، ثُمَّ اسْتَدْعَاهُ فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْكُلَ؟ فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ حُلَّ لِي، وَلَكِنْ لَمْ أَكُنْ لِأَشْمِتِكَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: فَقَبِّلْ رَأْسِي وَأَنَا أَطْلِقُكَ، فَقَالَ: وَتُطْلِقُ مَعِيَ جَمِيعَ أَسَارِي الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَبِّلْ رَأْسَهُ فَأَطْلَقَهُ وَأَطْلَقَ مَعَهُ جَمِيعَ أَسَارِي الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقْبِلَ رَأْسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُدَافَةَ، وَأَنَا أَبْدَأُ، فَقَامَ فَقَبِّلَ رَأْسَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا<sup>(٢)</sup>.

﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّنَا لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٣) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١٤)

[يُعْفِرُ لِلْمُكْرِهِ إِذْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ بَعْدَ الْإِكْرَاهِ]

هُوَ لَا يَصْنَعُ آخَرَ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مَهَانِينَ فِي قَوَاهِمِهِمْ فَوَافَقُوهُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَمَكَّتَهُمُ الْخَلَاصُ

(١) أسد الغابة: ١٠٤٩ (٢) ذكر الحافظ هذه القصة في الإصابة (ت: ٤٦٤١) مختصراً وعزاه للبيهقي. وضعه الألباني في الإرواء: ٢٥١٥.

## [مَثَلٌ لِمَكَّةَ]

هَذَا مَثَلٌ أُرِيدَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً مُسْتَقَرَّةً وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهَا، وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِنًا لَا يَخَافُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِن تَبِيعَ أَهْلُ مَكَّةَ نَخَافُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُبْجَى إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [الفصل: ٥٧] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أَيُّ هَيْئًا سَهْلًا ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أَيُّ جَحَدَتْ آيَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا وَأَعْظَمَهَا بِغَنَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا بَعْتِ اللَّهِ كُفْرًا وَآخَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسِكُ الْفَرَارُ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩] وَلِهَذَا بَدَلَهُمُ اللَّهُ بِحَالِهِمُ الْأَوَّلِينَ خِلَافَهُمَا، فَقَالَ: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أَيُّ أَلْبَسَهَا وَأَذَاقَهَا الْجُوعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَذَلِكَ لَمَّا اسْتَعَصَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبَعٍ يُوشِفُ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ، فَأَكَلُوا الْعِلَازِ وَهُوَ وَبَرُّ الْبَعِيرِ يُخْلَطُ بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بَدَلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ حِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَطْوَتِهِ وَسَرَايَاهُ وَجُبُوشِهِ، وَجَعَلَ كُلُّ مَا لَهُمْ فِي دِمَارٍ وَسَفَالٍ حَتَّى فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَذَلِكَ بِسَبَبِ صَنِيعِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ فِيهِمْ مِنْهُمْ، وَآمَنَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ... الْآيَةُ [آل عمران: ١٦٤]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [نُور: ١٠، ١١]. الْآيَةُ [الطلاق: ١٠، ١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢، ١٥١] وَكَمَا أَنَّهُ انْعَكَسَ عَلَى الْكَافِرِينَ حَالَهُمْ فَخَافُوا بَعْدَ الْأَمْنِ، وَجَاعُوا بَعْدَ الرِّغْدِ، فَبَدَّلَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، وَرَزَقَهُمْ بَعْدَ الْعَيْلَةِ، وَجَعَلَهُمْ أَمْرَاءَ النَّاسِ وَحُكَّامَهُمْ وَسَادَتَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَأَيَّمَتَهُمْ. وَهَذَا الَّذِي قُلْنَا مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَثَلَ ضَرْبٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ: قَالَهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١)</sup>. وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ. وَحَكَاهُ مَالِكٌ عَنِ

الرُّهْرِيِّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ<sup>(٢)</sup>.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [١٤] إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَيْعٍ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ أَضْطُرَّ عَزَرَ بَاغٍ وَلَا عَاذَ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ [١٥] وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ [١٦] مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [١٧]

[الْأَمْرُ بِأَكْلِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ وَبِالشُّكْرِ وَبَيَانِ الْحَرَامِ] يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَكْلِ رِزْقِهِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ، وَبِشُكْرِهِ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضِّلُ بِهِ ابْتِدَاءً، الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴿وَمَا أَهْلُ لَيْعٍ اللَّهُ بِهِ﴾ أَيُّ ذَبَحَ عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ، وَمَعَ هَذَا ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ﴾ إِلَيْهِ أَيْ احْتِاجَ مِنْ غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا عُذْوَانٍ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ عَنْ إِعَادَتِهِ. وَاللَّهُ الْحَمْدُ. ثُمَّ نَهَى تَعَالَى عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَلَّلُوا وَحَرَّمُوا بِمُحَرَّدٍ مَا وَصَفُوهُ، وَأَضْطَلَّحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ بِأَرَائِهِمْ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ، وَالْوَصِيلَةِ، وَالْحَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا كَانَ شَرْعًا لَهُمْ ابْتِدَاعُهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ مَنْ ابْتَدَعَ بِدَعَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ، أَوْ حَلَّلَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ، أَوْ حَرَّمَ شَيْئًا مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ بِمُحَرَّدٍ رَأْيِهِ وَشَهْوَاهُ، وَ«مَا» فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، أَيُّ وَلَا تَقُولُوا الْكَذِبَ لِيُوصَفَ أَلْسِنَتُكُمْ، ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَمَتَاعٌ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، كَمَا قَالَ: ﴿تُعَذِّبُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [١٦] مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ



[يونس: ٦٩، ٧٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨١

سُورَةُ النُّحْلِ

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْعَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ  
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾  
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِنِعْمَةِ آجِبْتَهُ وَهَدَانَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ  
﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ  
﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ  
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ  
اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا  
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ  
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُمْ بِالْقِيَمَةِ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ رَبِّكَ  
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾  
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ  
لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ  
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾  
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أُمَّةٌ﴾ أَيُّ أُمَّةٍ وَحْدَهُ، وَقَوْلُهُ:  
﴿شَاكِرًا لِنِعْمِهِ﴾ أَيُّ قَانِتًا بِشُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٢٧] أَيُّ قَامَ بِجَمِيعِ  
مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿آجِبْتَهُ﴾ أَيُّ اخْتَارَهُ وَأَصْطَفَاهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ  
ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]  
ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا  
شَرِيكَ لَهُ عَلَى شَرْعٍ مَرْضِيٍّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا  
حَسَنَةً﴾ أَيُّ جَمَعْنَا لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنْ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ  
الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ فِي إِكْمَالِ حَيَاتِهِ الطَّيِّبَةِ ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ  
الصَّالِحِينَ﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا  
حَسَنَةً﴾ أَيُّ لِسَانِ صِدْقٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ  
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أَيُّ وَمِنْ كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَصِحَّةِ تَوْحِيدِهِ  
وَطَرِيقِهِ: أَنَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ بِاخْتِمِ الرُّسُلِ وَسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ ﴿أَنْ  
اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كَقَوْلِهِ فِي

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ  
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا  
الشُّوْعَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ  
بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[تَحْرِيمُ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ عَلَى الْيَهُودِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنَا الْيَمِينَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ  
الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَإِنَّمَا أَرْحَصَ فِيهِ عِنْدَ  
الضَّرُورَةِ - وَفِي ذَلِكَ تَوْسِيعَةٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا  
النُّسْرَى وَلَا يُرِيدُ بِهَا الْعُسْرَى - ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا  
كَانَ حَرَمَهُ عَلَى الْيَهُودِ فِي شَرِيعَتِهِمْ قَبْلُ أَنْ يَنْسَحَهَا، وَمَا  
كَانُوا فِيهِ مِنَ الْأَصَارِ وَالنَّضِيقِ وَالْأَغْلَالِ وَالْحَرَجِ، فَقَالَ:  
﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ فِي سُورَةِ  
الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي  
ظُفْرٍ وَبَيْنَ الْإِقْرِ وَالْإِقْرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا  
حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿اصْلَوْهُنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٦]  
وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أَيُّ فِيمَا ضَمَّيْنَا عَلَيْهِمْ  
﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيُّ فَاسْتَحَفُّوا ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ:  
﴿فَيُظْلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَتٌ أُحْلَتْ لَهُمْ  
وَبَصَدَّتْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى  
تَكَرُّمًا وَامْتِنَانًا فِي حَقِّ الْعَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ  
إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْعَ  
بِجَهْلَةٍ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ  
﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أَيُّ أَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ  
- مِنَ الْمَعَاصِي، وَأَقْبَلُوا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ  
مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَيُّ تِلْكَ الْفِعْلَةِ وَالزَّلَّةِ ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾  
شَاكِرًا لِنِعْمَةِ آجِبْتَهُ وَهَدَانَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي  
الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ  
اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٢﴾

[ذِكْرُ خَلِيلِ اللَّهِ]

يَمْدَحُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَخَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامَ الْهُنَفَاءِ  
وَوَالِدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُبْرِئُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ  
وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾  
فَأَمَّا الْأُمَّةُ: فَهُوَ الْإِمَامُ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ. وَالْقَانِتُ: هُوَ  
الْخَاشِعُ الْمُطِيعُ. وَالْحَنِيفُ: الْمُتَنَحِرُ قَصْدًا عَنِ الشَّرِكِ

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٦)

[الْأَمْرُ بِالذِّعْوَةِ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ]  
يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا رَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ بِالْحُكْمَةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهُوَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ أَيُّ بِمَا فِيهِ مِنَ الزَّوَاجِرِ وَالْوَقَائِعِ بِالنَّاسِ<sup>(٤)</sup>. ذَكَرَهُمْ بِهَا لِيَحْذَرُوا بِأَسَنِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَيُّ مَنْ أحتاج مِنْهُمْ إِلَى مُنَاطَرَةٍ وَجَدَالٍ فَلْيَكُنْ بِالْوَجْهِ الْحَسَنِ بِرَفْقٍ وَلِينٍ وَحُسْنِ خِطَابٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾ [الآيَةُ الْعَنْكَبُوت: ٤٦]. فَأَمَرَهُ تَعَالَى بِلِينِ الْجَانِبِ كَمَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ أَعْلَمُ بِتَذْكَرٍ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الآيَةُ، أَيُّ قَدْ عَلِمَ الشَّقِيَّ مِنْهُمْ وَالسَّعِيدَ، وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَفَرَعَ مِنْهُ، فَأَدْعُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَى مَنْ ضَلَّ مِنْهُمْ حَسْرَاتٍ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ، عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ] ﴿وَلَكِ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الْقَصَص: ٥٦]. ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٧) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٨) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٩)

[الْأَمْرُ بِالْمُسَاوَاةِ فِي الْقِصَاصِ فِي الْفِصَاصِ]  
يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ وَالْمُمَاتِلَةِ فِي اسْتِيفَاءِ الْحَقِّ، كَمَا رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إِنَّ أَخَذَ مِنْكُمْ رَجُلٌ شَيْئًا فَخَذُوا مِنْهُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٦)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانُوا قَدْ أَمَرُوا بِالصَّفْحِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، فَأَسْلَمَ

الْأَنْعَامُ: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَكْرِّمًا عَلَى الْيَهُودِ.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٧)  
[جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الْيَهُودِ]

لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ يَوْمًا مِنَ الْأُسْبُوعِ يَجْمَعُ النَّاسَ فِيهِ لِلْعِبَادَةِ، فَشَرَعَ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، لِأَنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَى فَقَدَلُوا عَنْهُ، وَاخْتَارُوا السَّبْتَ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقْ فِيهِ الرَّبُّ شَيْئًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي كَمُلَ خَلْقُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَلْزَمَهُمْ تَعَالَى بِهِ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ، وَوَصَّاهُمْ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَأَنْ يُحَافِظُوا عَلَيْهِ، مَعَ أَمْرِ إِيَّاهُمْ بِمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بَعَثَهُ، وَأَخْذِهِ مَوَاقِفَهُمْ وَعُهُودَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: اتَّبِعُوهُ وَتَرَكُوا الْجُمُعَةَ<sup>(١)</sup> ثُمَّ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ حَوَّلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَتْرِكْ شَرِيعَةَ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا نَسَخَ مِنْ بَعْضِ أَحْكَامِهَا، وَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُحَافِظًا عَلَى السَّبْتِ حَتَّى رُفِعَ، وَإِنَّ النَّصَارَى بَعْدَهُ فِي زَمَنِ قُسْطَنْطِينِ، هُمُ الَّذِينَ تَحَوَّلُوا إِلَى يَوْمِ الْأَحَدِ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى الصَّلَاةِ شَرْقًا عَنِ الصَّخْرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَذَا اللَّهُ لَهُ، فَالْأَنَسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ: الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»<sup>(٢)</sup>. لَفْظُ الْبُخَارِيِّ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَصْلُ اللَّهِ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بَنَا. فَهَذَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(١) الطبري: ٣٢٠/١٧ (٢) فتح الباري: ٥٢٦/١١ ومسلم:

٥٨٦/٢ مسلم: (٣) ٥٨٦/٢ (٤) الطبري: ٣٢١/١٧ (٥)

عبد الرزاق: ٣٦١/٢ (٦) الطبري: ٥٢٤/١٧ ٥٢٥

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ ٢٨٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ لَا نَخْذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَهُمْ أَحْسَنُ لِنَفْسِهِمْ وَأَنْ أَسَا تُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَبِيرًا ﴿٧﴾

في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلاميذ<sup>(٣)</sup>. ورؤى الإمام أحمد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى تقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى تقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر<sup>(٤)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

[بيان الإسراء]

يُجَدُّ تَعَالَى نَفْسُهُ، وَيَعْظُمُ شَأْنُهُ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، بِعَنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أَيَّ فِي

رَجَالٍ ذُوو مَنَعَةٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَذِنَ اللَّهُ لَنَا لَأَنْتَصَرْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْكِلَابِ. فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ، ثُمَّ نَسِخَ ذَلِكَ بِالْجِهَادِ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تَأْكِيدٌ لِلأَمْرِ بِالصَّبْرِ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِعَانَتِهِ، وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أَيُّ عَمَّ ﴿بِمَا يَمْكُرُونَ﴾ أَيُّ مِمَّا يُجَاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي عَدَاوَتِكَ وَإِيضَالِ الشَّرِّ إِلَيْكَ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَتَاصِرُكَ، وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظْهِرُكَ وَمُظْفِرُكَ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أَيُّ مَعَهُمْ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ وَمَعُونَتِهِ وَهُدْيِهِ وَسَعْيِهِ، وَهَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَىٰ مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] وَقَوْلُهُ لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلصَّادِقِ وَهُمَا فِي الْغَارِ: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»<sup>(٢)</sup>. وَأَمَّا الْمَعِيَّةُ الْعَامَّةُ فَبِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِلْمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] وَكََمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا...﴾ [الآية: يونس: ٦١]، وَمَعْنَى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أَيُّ تَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أَيُّ فَعَلُوا الطَّاعَاتِ، فَهَؤُلَاءِ اللَّهُ يَحْفَظُهُمْ وَيَكْلُؤُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ وَيُظْفِرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَمُخَالِفِيهِمْ.

أَجَزُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّحْلِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا.

## تفسير سورة الإسراء وهي مكية

[فصل سورة الإسراء]

(١) الطبري: ٣٢٤/١٧ (٢) فتح الباري: ١١/٧ (٣) فتح الباري: ٦٥٥/٨ (٤) أحمد: ٦/١٨٩

رَوَى الْإِمَامُ الْحَافِظُ الْمُتَّقِنُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌّ إِلَى النَّبْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ، فَإِذَا وَرَفْهًا كَأَذَانِ الْفَيْلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقَلَالِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا.

قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَقَدْ فَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى، قَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَارْجِعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: أَيُّ رَبِّ خَفَّفَ عَنْ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى وَيَحْطُ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَلَيْتَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنَّ عَمَلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا، وَمَنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنَّ عَمَلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ، فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ،

جُنْحَ اللَّيْلِ ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وَهُوَ مُسْجِدُ مَكَّةَ ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وَهُوَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ الَّذِي بِبَيْلَاءَ مَعْدِنِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا جُمِعُوا لَهُ هُنَا كُلُّهُمْ، فَأَمَّهُمْ فِي مَحَلَّتِهِمْ وَدَارِهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ، وَالرَّئِيسُ الْمُقَدَّمُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أَيُّ فِي الزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ ﴿لِرَبِّهِ﴾ أَيُّ مُحَمَّدًا ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا﴾ أَيُّ الْعِظَامِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّي الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨] وَسَنَدُّكَ مِنْ ذَلِكَ مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنْهُ ﷺ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَيُّ السَّمِيعِ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، مُصَدِّقُهُمْ وَمُكَذِّبُهُمْ، الْبَصِيرُ بِهِمْ فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

### ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَرَادَةِ فِي الْإِسْرَاءِ

رَوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُنِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ ذَابَةٌ أَيْبُضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَعْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُتَهَيَّ طَرَفِهِ، فَزَكَيْتُهُ فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَزَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبُطُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمَرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ. قَالَ: ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ فَرَحَبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ.

فَإِنَّ أَمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَقُلْتُ: [لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ<sup>(١)</sup>] وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ بِهَذَا السِّيَاقِ<sup>(٢)</sup>».

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ مُسْرَجًا مُلْجَمًا لِرُكْبَةٍ، فَاسْتَضَعَبَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا؟ فَوَاللَّهِ مَا رَكِبَكَ قَطُّ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ قَالَ: فَارْفَضَ عَرَفًا، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ غَرِيبٌ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ يَحْمِشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ<sup>(٤)</sup>» وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٥)</sup> وَرَوَى أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَتَمَّا يَصْلِي فِي قَبْرِهِ<sup>(٦)</sup>». وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٧)</sup>.

#### رَوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ مَالِكَ بْنَ صَعْصَعَةَ حَدَّثَهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِهِ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الْحَظِيمِ - وَرَبَّمَا قَالَ قَتَادَةُ: فِي الْحَجَرِ - مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: الْاَوْسَطُ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ، قَالَ: فَأَتَانِي فَقَدْ - سَمِعْتُ قَتَادَةَ يَقُولُ: فَشَقَّ - مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ» وَقَالَ قَتَادَةُ: فَقُلْتُ: لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنِبِي: مَا يَعْني؟ قَالَ: مِنْ ثَغْرَةٍ نَحَرَهُ إِلَى شِعْرَتِهِ، وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مِنْ قَصْرَتِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ قَالَ: «فَاسْتُخْرِجَ قَلْبِي - قَالَ: - فَأَتَيْتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِبِمَانًا وَحِكْمَةً فَعَسَلَ قَلْبِي ثُمَّ حَشَيْتُهُ، ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَعْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَيْبُضٌ» قَالَ: فَقَالَ الْجَارُودُ: هُوَ الْبُرَاقُ يَا أَبَا حَمْرَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ يَبْعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ قَالَ: «فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَتَى بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمِ الْمَجِيءُ جَاءَ - قَالَ: - فَفُتِحَ لَنَا فَلَمَّا خَلَصْتُ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْإِبْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ [الْحَدِيثُ يَنْحُو مَا سَبَقَ، وَفِيهِ: فِي ذِكْرِ مُوسَى عَلَيْهِ

السَّلَامُ] - قَالَ: - فَلَمَّا تَجَاوَزْتُهُ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بَعَثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْحِجَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرَ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي. قَالَ: ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوْ قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمِ الْمَجِيءُ جَاءَ، قَالَ: فَفُتِحَ لَنَا، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْإِبْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ - قَالَ: - ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى فَإِذَا نَبَقُهَا مِثْلُ قِلَافٍ هَجَرَ، وَإِذَا وَرْفُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفَيْلَةِ، فَقَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنتَهَى، قَالَ: وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْحِجَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالْتَيْلُ وَالْفُرَاتُ» قَالَ: ثُمَّ رُفِعَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ.

قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَّثَنَا الْحَسَنُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ رَأَى الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: «ثُمَّ أَتَيْتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمِرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ - قَالَ: - فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ قَالَ: هَذِهِ الْفِطْرَةُ أَنْتَ عَلَيْهَا وَأَمَّتَكَ - قَالَ: - ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَاةُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلُّ يَوْمٍ - قَالَ: - فَزَلَلْتُ حَتَّى أَتَيْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً كُلُّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أَمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا - قَالَ: - فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتُ؟ قُلْتُ: بِأَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلُّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أَمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَرْبَعِينَ صَلَاةً كُلُّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَرَ، فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتُ؟ قُلْتُ: بِثَلَاثِينَ صَلَاةً، قَالَ: إِنَّ أَمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ ثَلَاثِينَ

(١) أحمد: ١٤٨/٣ (٢) مسلم: ١٤٥/١ (٣) الترمذي:

٣١٣١ (٤) أحمد: ٢٢٤/٣ (٥) أبو داود: ٤٨٧٨ (٦)

أحمد: ١٢٠/٣ (٧) مسلم: ٢٣٧٥

شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَالِهِ بَكَى، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ. قَالَ: «ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرَحَبًا يَا نَبِيَّ الصَّالِحِ وَالْإِنِّ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ». قَالَ الرَّهْرِيُّ: فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولَانِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ».

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ مُوسَى: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، قُلْتُ: قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ، فَغَشِيَهَا الْوَرَانُ لَا أَذْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أَذْجَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللَّوْلُؤِ، وَإِذَا ثُرَابُهَا الْمِسْكُ وهذا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ، وَرَوَاهُ فِي ذِكْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي الْحَجِّ، وَفِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ طُرُقٍ أُخْرَى عَنْ يُونُسَ بِهِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْهُ نَحْوُهُ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَسَأَلْتُهُ، قَالَ: وَمَا كُنْتُ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَى رَبَّهُ؟ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ سَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «قَدْ رَأَيْتُهُ نَوْرًا، أَنَّى أَرَاهُ؟! هَكَذَا قَدْ وَفَّعَ فِي رَوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدُ<sup>(٤)</sup>. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟!؟» وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ

صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخْرَى، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتُ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِعِشْرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنْ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ عِشْرِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسٍ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمِ أُمِرْتُ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسٍ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ: إِنْ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ لِخَمْسٍ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ - قَالَ: - قُلْتُ: قَدْ سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأَسْلَمُ، فَفَعَذْتُ فَتَادَى مُنَادٍ: قَدْ أَمَضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَفْتُ عَنْ عِبَادِي<sup>(١)</sup>. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِنَحْوِهِ<sup>(٢)</sup>.

### رواية أنس عن أبي ذر

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَرَجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَفَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَعُهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ جِبْرِيلُ لِحَاظِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَعِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَالَ: أُرْسِلْ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلُونَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرَحَبًا يَا نَبِيَّ الصَّالِحِ وَالْإِنِّ الصَّالِحِ - قَالَ: - قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ

(١) أحمد: ٢٠٨/٤ (٢) فتح الباري: ٣٤٨/٦ ومسلم: ١/

١٥١ (٣) فتح الباري: ٥٤٧/١ ٥٧٦/٣ ٤٣١/٦ ومسلم:

١٤٨/١ (٤) أحمد: ١٤٧/٥ (٥) مسلم: ١٦١/١

أَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبِّكَ؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُ فَقَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا»<sup>(١)</sup>.

روايته جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، فَطَفَّفْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرُقٍ<sup>(٣)</sup> وَعِنْدَ النَّبْهَوِيِّ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: فَتَجَهَّزَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا: هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنَا أَشْهَدُ لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: فَتَصَدَّقْ بِأَن يَأْتِيَ الشَّامَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَرْجِعْ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُضْهِقَ؟ قَالَ: نَعَمْ أَنَا أَصَدِّقُهُ بِأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ، أَصَدِّقُهُ بِخَيْرِ السَّمَاءِ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فِيهَا سَمِيَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّدِيقُ<sup>(٤)</sup>.

روايته عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، دَخَلَ الْجَنَّةَ فَسَمِعَ فِي جَانِبِهَا وَخْشًا<sup>(٥)</sup> فَقَالَ: «يَا جَبْرِيلُ مَا هَذَا؟» قَالَ: «هَذَا بِلَالُ الْمُؤَدَّنِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ جَاءَ إِلَى النَّاسِ: «قَدْ أَفْلَحَ بِلَالٌ، رَأَيْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا» قَالَ: فَلَقِيَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَحَبَّبَ بِهِ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، قَالَ: «وَهُوَ رَجُلٌ آدَمُ طَوِيلٌ، سَبَطَ شَعْرُهُ مَعَ أَذُنَيْهِ أَوْ فَوْقَهُمَا» فَقَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا مُوسَى»، قَالَ: فَمَضَى فَلَقِيَهُ شَيْخٌ جَلِيلٌ مَتَّهَبٌ فَحَبَّبَ بِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَكُلُّهُمْ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، قَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمَ» - قَالَ - وَنَظَرَ فِي النَّارِ فَإِذَا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْجِنْفَ، قَالَ: «مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ» وَرَأَى رَجُلًا أَحْمَرَ أَرْزَقَ جِدًّا قَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا عَاقِرُ النَّاقَةِ» قَالَ: فَلَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، قَامَ يُصَلِّي فَإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يُصَلُّونَ مَعَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ جِيءَ بِقَدَحَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنْ الْيَمِينِ وَالْآخَرُ عَنْ الشَّمَالِ، فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ عَسَلٌ، فَأَخَذَ اللَّبَنَ فَشَرِبَ مِنْهُ، فَقَالَ الَّذِي كَانَ مَعَهُ

الْقَدَحُ: «أَصَبْتُ الْفَطْرَةَ»<sup>(٦)</sup> إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخْرَجْوه.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ وَبِعِلَاقَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَبِعِيرِهِمْ، فَقَالَ نَاسٌ: نَحْنُ لَا نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا بِمَا يَقُولُ، فَارْتَدُّوا كُفَّارًا، فَضَرَبَ اللَّهُ رِقَابَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزُّقُومِ، هَانُوا تَمَرًا وَزُبْدًا فَتَزَقَّمُوا، وَرَأَى الدَّجَالَ فِي صُورَتِهِ زُورِيًا عَيْنٍ، لَيْسَ بِزُورِيًا مَنَامٍ، وَعِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ، وَسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدَّجَالِ فَقَالَ: «رَأَيْتُهُ فَيَلَمَانِيَا أَفَمَرَّ هِجَانًا، إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ ذُرِّيٌّ، كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ، وَرَأَيْتُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ [شَابًا] أَبْيَضَ، جَعَدَ الرَّأْسَ حَدِيدَ الْبَصْرِ، وَمُبْطَنَ الْخَلْقِ، وَرَأَيْتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْحَمَ آدَمَ، كَثِيرَ الشَّعْرِ، شَدِيدَ الْخَلْقِ، وَنَظَرْتُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى إِرْبٍ مِنْهُ إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنِّي، حَتَّى كَأَنَّهُ صَاحِبُكُمْ، قَالَ جَبْرِيلُ: سَلِّمْ عَلَى أَبِيكَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ» وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي زَيْدٍ ثَابِتِ بْنِ [يَزِيدٍ] عَنْ هِلَالٍ - وَهُوَ ابْنُ [حَبَّابٍ] - بِهِ<sup>(٧)</sup>، وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى النَّبْهَوِيُّ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عَمٍّ نَبِيكُمُ ﷺ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ رَجُلًا طَوَالًا جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَوْءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمُرَةِ وَالْبَيَاضِ سَبَطَ الرَّأْسَ» وَأَرَى مَالِكًا خَازِنَ جَهَنَّمَ وَالدَّجَالَ فِي آيَاتِ أَرَاهُنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ، قَالَ: «فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيضَةٍ مِنْ لِقَائِي»<sup>(٨)</sup> فَكَانَ قَتَادَةُ يُفَسِّرُهَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَدْ لَقِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ «وَجَعَلَنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ» [السجدة: ٢٣] قَالَ: جَعَلَ اللَّهُ مُوسَى هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ<sup>(٩)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ، وَأَخْرَجَاهُ عَنْ قَتَادَةَ مُخْتَصَرًا<sup>(١٠)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَأُصْبِحْتُ بِمَكَّةَ

(١) مسلم: ١٦١/١ (٢) أحمد: ٣٧٧/٣ (٣) البخاري: ٤٧١٠، ومسلم: ١٧٠ (٤) دلائل النبوة: ٣٥٩/٢ (\*) كذا في

النسخ والظاهر كما في رواية لأحمد: وَجَسَا (٥) أحمد: ١/

٢٥٧ (٦) أحمد: ٣٧٤/١ والنسائي في الكبرى: ١١٤٨٤ (٧)

دلائل النبوة: ٣٨٦/٢ (٨) البخاري: ٣٢٣٩، ومسلم: ١٦٥

إِنْ أَخَذَتْ عَنِّي صَلَّيْتُ خَلْفَ الصَّخْرَةِ، فَكَانَتْ الْقُدْسُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّةَ، وَلَكِنْ أَصْلِي حَيْثُ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَدَّمْ إِلَى الْقِبْلَةِ فَصَلِّ، ثُمَّ جَاءَ فَبَسَطَ رِداءَهُ وَكَسَسَ الْكُنَاسَةَ فِي رِداءِهِ، وَكَسَسَ النَّاسُ<sup>(١)</sup>. فَلَمْ يُعْظَمِ الصَّخْرَةَ تَعْظِيمًا يُصَلِّي وَراءَهَا وَهِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ، كَمَا أَشَارَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَهَا حَتَّى جَعَلُوهَا قِبْلَتَهُمْ، وَلَكِنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ فَهُدِيَ إِلَى الْحَقِّ، وَلِهَذَا لَمَّا أَشَارَ بِذَلِكَ، قَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ: ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّةَ. وَلَا أَهَانَهَا إِهَانَةَ النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا قَدْ جَعَلُوهَا مَزْبَلَةً مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا قِبْلَةُ الْيَهُودِ، وَلَكِنْ أَمَاطَ عَنْهَا الْأَذَى وَكَسَسَ عَنْهَا الْكُنَاسَةَ بِرِداءِهِ.

رواية أبي هريرة رضي الله عنه

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حِينَ أُسْرِيَ بِي، لَقِيتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَتَعْتَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ حَبِيبُهُ قَالَ: - مُضْطَرِبٌ رَجُلُ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءَ، قَالَ: وَلَقِيتُ عِيسَى - فَتَعْتَهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ - رُبْعُهُ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ - يَعْنِي حَمَامًا، قَالَ: - وَلَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ، قَالَ: وَأُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الْآخَرِ خَمْرٌ، قِيلَ لِي: خُذْ أَتَهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُ، فَقِيلَ لِي: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ - أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ - أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ»<sup>(٢)</sup> وَأَخْرَجَاهُ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحَجَرِ وَفُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِثُ [كُرْبًا] مَا كُرِثُ مِثْلَهُ قَطُّ، فَزَعَمَهُ اللَّهُ إِلَيَّ. أَنْظُرْ إِلَيْهِ، مَا سَأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي، وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ شَبْهًا بِهِ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمَ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَقْرَبُ النَّاسِ شَبْهًا بِهِ

فَطَعْتُ وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِي» فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ»، قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ» قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَلَمْ يَرِ أَنْ يُكَذِّبُهُ مَخَافَهُ أَنْ يَجْعَدَهُ الْحَدِيثُ إِنْ دَعَا قَوْمُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ أَتَحَدُّثُهُمْ بِمَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤْيٍ، قَالَ: فَاَنْفَضْتُ إِلَيْهِ الْمَجَالِسَ وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدَّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ» فَقَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ». قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفَّقٍ وَمِنْ بَيْنٍ وَاضِعٍ يَدُهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ - زَعَمَ قَالُوا-: وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَعْتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَا زِلْتُ أَنْتَعْتُ حَتَّى التَّبَسَّ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ - قَالَ: - فَجِئْتُ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عَقِيلٍ - أَوْ عَقَالٍ - فَتَعْتَهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ» قَالَ: وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتُ لَمْ أَحْفَظْهُ قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ فِيهِ»<sup>(١)</sup>. وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ<sup>(٢)</sup>.

رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَانْتَهَى إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَنَّى وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُصْعَدُ بِهِ حَتَّى يُقْبَضَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، حَتَّى يُقْبَضَ مِنْهَا ﴿إِذْ يَعْنِي السِّدْرَةَ مَا يَعْنِي﴾ [النجم: ١٦] قَالَ: غَشِيَهَا فَرَأَشٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَأَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغَفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا الْمُفْحِمَاتِ، يَعْنِي الْكِبَارِثَ.

ورواه مسلم في صحيحه.

رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ بِالْحِجَابِيَّةِ، فَذَكَرَ فَتَحَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ قَالَ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فَحَدَّثَنِي أَبُو سَيَانَ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ أَدَمَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِكَعْبٍ: أَيْنَ تَرَى أَنْ أَصْلِي؟ فَقَالَ:

(١) أحمد: ٣٠٩/١ (٢) النسائي في الكبرى: ١١٢٨٥ ودلائل النبوة: ٣٦٣/٢ (٣) أحمد: ٣٨/١ (٤) فتح الباري: ٤٩٣/٦ ومسلم: ١٥٤/١



الصَّلَوَاتِ خَمْسِينَ، ثُمَّ خَفَّفَهَا إِلَى خَمْسٍ رَحْمَةً مِنْهُ وَلُطْفًا بِعِبَادِهِ، وَفِي هَذَا اعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ بِشَرَفِ الصَّلَاةِ وَعَظَمَتِهَا.

ثُمَّ هَبَطَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَهَبَطَ مَعَهُ الْأَنْبِيَاءُ فَصَلَّى بِهِمْ فِيهِ لَمَّا حَانَتِ الصَّلَاةُ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا الصُّبْحُ مِنْ يَوْمَيْدٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُزْعَمُ أَنَّهُ أَمَّهُمْ فِي السَّمَاءِ، وَالَّذِي تَطَاهَرَتْ بِهِ الرُّوَايَاتُ أَنَّهُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِهَا أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ دُخُولِهِ إِلَيْهِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ لَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْهُمْ جِبْرِيلُ وَاحِدًا وَاحِدًا، وَهُوَ يُخْبِرُهُ بِهِمْ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلًا مَطْلُوبًا إِلَى الْجَنَابِ الْعُلَوِيِّ لِيُفَرِّصَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ مَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ لَمَّا فَرَّغَ مِنَ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ، اجْتَمَعَ بِهِ هُوَ وَإِخْوَانُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ ثُمَّ أَظْهَرَ شَرْفَهُ وَفَضْلَهُ عَلَيْهِمْ بِتَقْدِيمِهِ فِي الْإِمَامَةِ، وَذَلِكَ عَنْ إِشَارَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ فِي ذَلِكَ.

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَكَرِبَ الْبُرَاقَ وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ بِغَلَسٍ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ، وَأَمَّا عَرْضُ الْآيَةِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَنِ وَالْعَسَلِ، أَوِ اللَّبَنِ وَالْخَمْرِ، أَوِ اللَّبَنِ وَالْمَاءِ أَوِ الْجَمِيعِ فَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَجَاءَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَهُنَا وَهَهُنَا، لِأَنَّهُ كَالضَّيَافَةِ لِلْقَادِمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّهُ أُسْرِيَ بِدَنِيَّةٍ وَرُوحِهِ يَقْظَةُ لَا مَنَامًا، وَالذَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَبِّحْنَ الذِّكْرَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا خَوْلَةً﴾ فَالتَّسْبِيحُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، فَلَوْ كَانَ مَنَامًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كِبِيرُ شَيْءٍ، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَغْطَا، وَلَمَّا بَادَرَتْ كُفَارُ قُرَيْشٍ إِلَى تَكْذِيبِهِ، وَلَمَّا ارْتَدَّتْ جَمَاعَةٌ مِنْ مَنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَبْدَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، وَقَدْ قَالَ [تَعَالَى]: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنِ أَرِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ، وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ هِيَ شَجَرَةُ الرُّقُومِ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَعَنَ

صَاحِبُكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ، فَلَمَّا فَرَعْتُ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ! هَذَا مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ، [فَسَلَّمَ عَلَيْهِ] فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ<sup>(٢)</sup>.

رَوَايَةُ عَائِشَةَ أُمُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، أَصْبَحَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِذَلِكَ فَارْتَدَّ نَاسٌ مِنْ كَانُوا آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَوْا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يُزْعَمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَيْنَ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: فَتَصَدَّقْهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أَصَدَّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدَوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سَمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ<sup>(٣)</sup>.

[رَمَانَ الْإِسْرَاءِ وَأَنَّهُ كَانَ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ يَقْظَةُ لَا مَنَامًا] قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ: كَانَ الْإِسْرَاءُ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِسَنَةِ<sup>(٤)</sup> وَكَذَا قَالَ عُرْوَةُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: بِسَنَةِ عَشْرِ شَهْرًا<sup>(٦)</sup>. وَالْحَقُّ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُسْرِيَ بِهِ يَقْظَةُ لَا مَنَامًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَاكِبًا الْبُرَاقَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، رَطَطَ الدَّابَّةَ عِنْدَ الْبَابِ وَدَخَلَهُ، فَصَلَّى فِي فَيْلَتِهِ تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ أَتَى بِالْمِعْرَاجِ - وَهُوَ كَالسَّلَامِ ذُو دَرَجٍ يَرْقَى فِيهَا - فَصَعِدَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَى بَقِيَّةِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، فَتَلَقَّاهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، وَسَلَّمُوا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ، حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى الْكَلِيمِ فِي السَّادِسَةِ، وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي السَّابِعَةِ، ثُمَّ جَاوَزَ مَنَازِلَهُمَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمَا وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ - حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُسْتَوًى يُسَمَّى فِيهِ صَرِيفُ الْأَقْلَامِ - أَيْ أَقْلَامُ الْقَدَرِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ - وَرَأَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى وَعَشِيَّتَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَظَمَةُ عَظِيمَةٍ مِنْ قَرَاشٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَأَلْوَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ وَعَشِيَّتُهَا الْمَلَائِكَةُ، وَرَأَى هُنَاكَ جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ وَلَهُ سِتْمَائَةٌ جَنَاحَ وَرَأَى رُفْقًا أَخْضَرَ قَدْ سَدَّ الْأَفَقَ، وَرَأَى الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ، وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ بَانِي الْكَعْبَةِ الْأَرْضِيَّةِ مُسْنِدَ ظَهْرِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ الْكَعْبَةُ السَّمَاوِيَّةُ يَدْخُلُهَا كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَفَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ هُنَاكَ

(١) مسلم: ١٥٦/١ عن زهير بن حرب. (٢) دلائل النبوة: ٢/

٣٦٠ (٣) دلائل النبوة: ٢/٣٥٥ (٤) دلائل النبوة: ٢/٣٥٤

(٥) القرطبي: ٢١٠/١٠ (٦) فتح الباري: ٨/٢٥٠

فَائِدَةٌ: قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْخَطَّابِ عُمَرُ بْنُ دَحْيَةَ فِي كِتَابِهِ (التَّنْوِيرُ فِي مَوْلِدِ السَّرَاجِ الْمُنِيرِ) وَقَدْ ذَكَرَ حَدِيثَ الْإِسْرَاءِ مِنْ طَرِيقِ أَنَسٍ وَتَكَلَّمَ عَلَيْهِ فَأَجَادَ وَأَفَادَ، ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الرِّوَايَاتُ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَلِيِّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي ذَرٍّ، وَمَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَشَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، وَأَبِي ابْنِ كَعْبٍ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قُرْطٍ، وَأَبِي حَبَةَ وَأَبِي لَيْلَى الْأَنْصَارِيِّينَ. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو وَجَابِرٌ وَحُدَيْفَةُ وَبُرَيْدَةُ، وَأَبِي أَيُّوبَ وَأَبِي أَمَامَةَ، وَسَمُرَةَ بْنُ جُنْدُبٍ وَأَبِي الْحَمْرَاءِ، وَصُهَيْبُ الرُّومِيُّ وَأُمُّ هَانِيَةَ، وَعَائِشَةُ وَأَسْمَاءُ ابْنَتِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، مِنْهُمْ مَنْ سَأَفَهُ بِطَوِيلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اخْتَصَرَهُ عَلَى مَا وَقَعَ فِي الْمَسَانِيدِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ رِوَايَةً بَعْضُهُمْ عَلَى شَرْطِ الصَّحَّةِ، فَحَدِيثُ الْإِسْرَاءِ أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ الزَّادِيُّ وَالْمُلْحِدُونَ ﴿يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِبَالًا ۖ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

[ذِكْرُ مُوسَى وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَةَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَسْرَى بِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَطَفَ بِذِكْرِ مُوسَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِمِهِ أَيْضًا، فَإِنَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَفْرُقُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا مِنَ اللَّهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَيَبَيِّنُ ذِكْرَ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الْإِسْرَاءِ ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أَيْ الْكِتَابَ ﴿هُدًى﴾ أَيْ هَادِيًا ﴿لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾ أَيْ لَيْتَلَا يَتَّخِذُوا ﴿مِنْ دُونِي وَكِبَالًا﴾ أَيْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَلَا مَعْبُودًا دُونِي، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تَقْدِيرُهُ: «بِأُذُنِي مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ» فِيهِ تَهْنِيجٌ وَتَنْبِيهُ عَلَى الْإِمْنَةِ، أَيْ بِأُذُنِي سَلَالَةٍ مِنْ نَجَاتِنَا فَحَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، تَسْبِيحًا بِأَيْدِيكُمْ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فَادْكُرُوا أَنَّكُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ

[النجم: ١٧] وَالْبَصَرُ مِنَ آلَاتِ الذَّاتِ لَا الرُّوحَ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ حُمِلَ عَلَى الْبَرَاقِ وَهُوَ ذَابَةٌ بَيَضَاءُ بَرَأَقَةٍ لَهَا لَمَعَانٌ، وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا لِلْبَدَنِ لَا لِلرُّوحِ، لِأَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ فِي حَرَكَتِهَا إِلَى مَرْكَبٍ تَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(فَائِدَةٌ حَسَنَةٌ جَلِيلَةٌ)

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِ «دَلَائِلِ الثَّبُوتِ» مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَرَ الْوَاقِدِيِّ<sup>(١)</sup>: حَدَّثَنِي مَالِكُ ابْنُ أَبِي الرَّجَالِ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْطِيِّ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَحْيَةَ بْنَ خَلِيفَةَ إِلَى قَيْصَرَ... فَذَكَرَ وُورِدَهُ عَلَيْهِ وَقُدُومُهُ إِلَيْهِ، وَفِي السِّيَاقِ دَلَالَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى وَفُورِ عَقْلِ هِرْقَلٍ، ثُمَّ اسْتَدْعَى مَنْ بِالسَّامِ مِنَ التَّجَارِ، فَجِئَ بِأَبِي سُفْيَانَ صَخْرَ بْنَ حَرْبٍ وَأَصْحَابِهِ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي رَوَاهَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ. وَجَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ يَجْهَدُ أَنْ يَحَقِّقَ أَمْرَهُ وَيُصْغِرَهُ عِنْدَهُ. قَالَ فِي هَذَا السِّيَاقِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ: وَاللَّهِ مَا مَنَعَنِي مِنْ أَنْ أَقُولَ عَلَيْهِ قَوْلًا أَسْقِطُهُ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَكْذِبَ عِنْدَهُ كَذِبَةً بِأَخْذِهَا عَلَيَّ وَلَا يَصْدُقَنِي فِي شَيْءٍ - قَالَ: - حَتَّى ذَكَرْتُ قَوْلَهُ لَيْلَةً أُسْرِيَ بِهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَلَا أَخْبِرُكَ خَبْرًا تَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ كَذَبَ؟ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنَّهُ يَزْعُمُ لَنَا أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ أَرْضِنَا، أَرْضِ الْحَرَمِ، فِي لَيْلَةٍ فَجَاءَ مَسْجِدَكُمْ هَذَا مَسْجِدَ إِبِلِيَاءَ، وَرَجَعَ إِلَيْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَبْلَ الصَّبَاحِ: قَالَ، وَبِطَرِيقِ إِبِلِيَاءَ عِنْدَ رَأْسِ قَيْصَرَ، فَقَالَ بِطَرِيقِ إِبِلِيَاءَ: قَدْ عَلِمْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ قَيْصَرٌ وَقَالَ: وَمَا عَلِمْتُ بِهَذَا؟ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ لَا أَنَامُ لَيْلَةً حَتَّى أُغْلِقَ أَبْوَابَ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا كَانَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ أَغْلَقْتُ الْأَبْوَابَ كُلَّهَا غَيْرَ بَابٍ وَاحِدٍ عَلَيْنِي، فَاسْتَعْنْتُ عَلَيْهِ بِعَمَّالِي وَمَنْ يَحْضُرُنِي كُلَّهُمْ مُعَالَجَةً، فَعَلَبْنَا فَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نُحَرِّكَه كَأَنَّمَا نَزَاوُلُ بِهِ جَبَلًا، فَدَعَوْتُ إِلَيْهِ التَّجَارِعَةَ، فَطَرَوْا إِلَيْهِ فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الْبَابَ سَقَطَ عَلَيْهِ النَّجَافُ وَالْثُبَّانُ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُحَرِّكَهُ حَتَّى نَضْبِجَ فَنَنْظُرَ مِنْ أَيْنَ أَتَى. قَالَ: فَرَجَعْتُ وَتَرَكْتُ الْبَابَيْنِ مَفْتُوحَيْنِ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَيْهِمَا، فَإِذَا الْحَجَرُ الَّذِي فِي زَاوِيَةِ الْمَسْجِدِ مَقْنُوبٌ، وَإِذَا فِيهِ أَثَرٌ مَرَبُطِ الدَّابَّةِ، قَالَ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: مَا حُسْنُ هَذَا الْبَابِ اللَّيْلَةَ إِلَّا عَلَى نَبِيِّ، وَقَدْ صَلَّى اللَّيْلَةَ فِي مَسْجِدِنَا... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

(١) محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي متروك مع سعة علمه (تقريب) إسناده مرسل ضعيف جدًا.

يَا رَسُولِي إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ. وَقَدْ وَدَدْتُ فِي هَذَا آثَارَ كَثِيرَةٍ إِسْرَائِيلِيَّةٍ لَمْ أَرْ تَطْوِيلَ

الْكِتَابِ بِذِكْرِهَا، لِأَنَّ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤْصَّوْعٌ، مِنْ وَضْعِ بَعْضِ زَنَاذِقِهِمْ، وَمِنْهَا مَا قَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا، وَنَحْنُ فِي غَنِيَّةٍ عَنْهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَفِيمَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ غَنِيَّةٌ عَمَّا سِوَاهُ مِنْ بَقِيَّةِ الْكُتُبِ قَبْلَهُ، وَلَمْ يُخَوِّجْنَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ إِلَيْهِمْ. وَقَدْ أَخْبَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمَّا طَعَنُوا وَغَوَّا، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عُدُوَّهُمْ فَاسْتَبَاحَ بَيْضَتَهُمْ، وَسَلَّكَ خِلَالَ بَيُونَتِهِمْ، وَأَذَلَّهُمْ وَفَهَرَهُمْ جَزَاءً وَفَاقًا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَمَرَّدُوا وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ: ظَهَرَ بُخْتَنَصَرُ عَلَى الشَّامِ، فَخَرَّبَ بَيْتَ الْمُقَدِّسِ وَقَتَلَهُمْ، ثُمَّ أَتَى دِمَشْقَ فَوَجَدَ بِهَا دَمًا يَغْلِي عَلَى كِبَا، فَسَأَلَهُمْ، مَا هَذَا الدَّمُ؟ فَقَالُوا: أَدْرَكْنَا أَبَانَا عَلَى هَذَا، وَكُلَّمَا ظَهَرَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ظَهَرَ، قَالَ: فَقَتَلَ عَلَى ذَلِكَ الدَّمِ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَسَكَنَ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا صَحِيحٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَهَذَا هُوَ الْمُشْهُورُ، وَأَنَّهُ قَتَلَ أَشْرَافَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ يَحْفَظُ التَّوْرَةَ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا أَسْرَى مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ، وَجَرَتْ أُمُورٌ وَكَوَانٍ يَطُولُ ذِكْرُهَا، وَلَوْ وَجَدْنَا مَا هُوَ صَحِيحٌ أَوْ مَا يَقَارِبُهُ لَجَارَ كِتَابَتُهُ وَرِوَايَتُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أَيَّ فَعَلْنَاهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦].

[الْإِفْسَادُ الثَّانِي]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أَيِ الْكُرَّةِ الْآخِرَةِ، أَيِ إِذَا أَفْسَدْتُمْ الْكُرَّةَ الثَّانِيَةَ وَجَاءَ أَغْدَاؤُكُمْ ﴿لِيَسْتَوْا وَجُوهَكُمْ﴾ أَيِ يَهْنُوكُمْ وَيَفْهَرُوكُمْ ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أَيِ بَيْتِ الْمُقَدِّسِ ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيِ فِي النَّبِيِّ جَاسُوا فِيهَا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴿وَلِيَسْتَرْوُوا﴾ أَيِ يُدْمَرُوا وَيُخْرَبُوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أَيِ مَا ظَهَرُوا عَلَيْهِ ﴿تَنْبِيْرًا﴾ عَنِ رَكْبِكَ أَنْ يَزِمَكَ<sup>(٢)</sup> أَيِ فَيَضْرِبَهُمْ عَنْكُمْ ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا﴾ أَيِ مَتَى عُدْتُمْ إِلَى الْإِفْسَادِ ﴿عَدْنَا﴾ إِلَى الْإِدَالَةِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا نَدَّخِرُهُ

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ قَضَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ، أَيِ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَيَعْلُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، أَيِ يَتَجَبَّرُونَ وَيَطْعُونُ وَيَفْجَرُونَ عَلَى النَّاسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُفْصِلِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] أَيِ تَقَدَّمْنَا إِلَيْهِ، وَأَخْبَرْنَاهُ بِذَلِكَ، وَأَعْلَمْنَاهُ بِهِ.

[الْإِفْسَادُ الْأَوَّلُ مِنَ الْيَهُودِ وَجَزَاؤُهُمْ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أَيِ أَوَّلَى الْإِفْسَادَيْنِ ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أَيِ سَلَطْنَا عَلَيْكُمْ جُنْدًا مِنْ خَلْقِنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ؛ أَيِ قُوَّةٍ وَعُدَّةٍ وَسُلْطَنَةٍ شَدِيدَةٍ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، أَيِ تَمَلَّكُوا بِلَادَكُمْ وَسَلَّكُوا خِلَالَ بَيُونَتِكُمْ، أَيِ بَيْنَتِهَا وَسَوَاطِهَا، وَانْصَرَفُوا ذَاهِبِينَ وَجَائِزِينَ لَا يَخَافُونَ أَحَدًا وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي هَؤُلَاءِ الْمُسْلَطِينَ عَلَيْهِمْ مَنْ هُمْ؟

(١) أحمد: ١١٧/٣ (٢) مسلم: ٢٠٩٥/٤ وتحفة الأحادي: ٥٣٦/٥ والنسائي في الكبرى: ٢٠٢/٤ (٣) فتح الباري: ٦/٤٢٨ (٤) الطبري: ٣٦٩/١٧

سورة الإسراء

٢٨٣

سورة الإسراء

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عُنَادًا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْثَّرْدِ دُعَاةً، بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا لَيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَنْ حَاوَلَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَبْعُهُ فِي عَفْوِهِ وَفُجِرَ لَهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَأَتَمَّتْ هُدَىٰ لِّنَفْسِهِ ۖ مِن صُلٍّ فَنَاصِلٌ عَلَيْهَا وَلَا نُزُرُ وَإِرْدَ وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا فِيهَا فَتْسُقُوا فَبِهَا فَتَحْنَا عَلَيْهَا الْقَوْلَ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَلِهَٰذَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أَيُّ مُسْتَقَرًّا وَمَحْصَرًا وَسَجْنًا لَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿حَصِيرًا﴾ أَيُّ سِجْنًا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُحْصَرُونَ فِيهَا<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: فِرَاشًا وَمِهَادًا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ عَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَٰذَا الْحَيَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ، يَأْخُذُونَ مِنْهُمْ الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ<sup>(٤)</sup>.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

[مَدْحُ الْقُرْآنِ]

يَمْدَحُ تَعَالَى كِتَابَهُ الْعَزِيزِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ الْقُرْآنُ بِأَنَّهُ يَهْدِي لِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَوْضَحِ السَّبِيلِ، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِهِ ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ عَلَى مُقْتَضَاهُ، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا أَيُّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. [الانشقاق: ٢٤]

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْثَّرْدِ دُعَاةً بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾

[عَجَلَةُ الْإِنْسَانِ وَدُعَاؤُهُ عَلَى نَفْسِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ وَدُعَايِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ ﴿بِالْثَّرْدِ﴾ أَيُّ بِالْمَوْتِ أَوِ الْهَلَاكِ وَالْذَمَارِ، وَاللَّغْنَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلَوْ اسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ لَهْلَكَ بِدُعَايِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾.. الْآيَةُ، وَكَذَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، أَنْ تَوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً إِبْجَابَةً يَسْتَجِيبُ فِيهَا»<sup>(٦)</sup>. وَإِنَّمَا يَحْمِلُ ابْنُ آدَمَ عَلَى ذَلِكَ قَلْقُهُ وَعَجَلَتُهُ، وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ وَقَدْ ذَكَرَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَابْنُ عَبَّاسٍ هُنَا قِصَّةَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ هَمَّ بِالنُّهُوضِ قَائِمًا قَبْلَ أَنْ تَصِلَ الرُّوحُ إِلَى رِجْلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ جَاءَتْهُ التَّفَحُّةُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى دِمَاعِهِ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ. فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى عَيْنَيْهِ فَتَحَهُمَا، فَلَمَّا سَرَتْ إِلَى أَعْضَائِهِ وَجَسَدِهِ، جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيُعْجِبُهُ، فَهَمَّ

بِالنُّهُوضِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى رِجْلَيْهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، وَقَالَ: يَا رَبَّ عَجِّلْ قَبْلَ اللَّيْلِ<sup>(٧)</sup>.

﴿وَجَعَلْنَا لَيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَنْ حَاوَلَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾

[الَلَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ آيَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ الْعِظَامِ]

يَمْتَنُّ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ بِآيَاتِهِ الْعِظَامِ، فَمِنْهَا مُحَاَلَفَتُهُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِيَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ، وَيَبْتَشِرُوا فِي النَّهَارِ لِلْمَعَاشِ وَالصَّنَائِعِ، وَالْأَعْمَالِ وَالْأَسْفَارِ، وَلِيَعْلَمُوا عَدَدَ الْأَيَّامِ وَالْجُمُعِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، وَيَعْرِفُوا مُضَيَّ الْأَجَالِ

(١) الطبري: ٣٩٠/١٧ (٢) الطبري: ٣٩٠/١٧ (٣) الطبري: ٣٩٠/١٧ (٤) الطبري: ٣٨٩/١٧ (٥) الطبري: ٣٩٤، ٣٩٣ (٦) مسلم: ٢٣٠٤/٤ (٧) الطبري: ٣٩٤، ٣٩٤ أثر سلمان الفارسي صحيح وأما اثر ابن عباس ضعيف منقطع، والضحاك لم يسمع من ابن عباس وبشر بن عماره الخثعمي ضعيف.

لَيْلًا وَنَهَارًا، كَذَلِكَ خَلَقَهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعُهُ فِي عُرْفِهِ وَنُخْرِجْ لَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ

حَسِيبًا ﴿١٤﴾

[مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابُ أَعْمَالِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ الزَّمَانِ وَذِكْرِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعُهُ فِي عُرْفِهِ﴾ وَطَلْعُهُ هُوَ مَا طَارَ عَنْهُ مِنْ عَمَلِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَيُزْمَرُ بِهِ وَجُجَارَى عَلَيْهِ<sup>(٤)</sup>. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨، ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ﴿٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨] وَقَالَ: ﴿وَرَأَىٰ عَلَيْكُمْ كِتَابَ الْغُطُوبِ﴾ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَتِيبٍ﴾ ﴿١١﴾ يَتْلُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] وَقَالَ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجَزَّ بِهِ... الْآيَةُ [النساء: ١٢٣] وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ عَمَلَ ابْنِ آدَمَ مَحْفُوظٌ عَلَيْهِ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، صَبَاحًا وَمَسَاءً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُخْرِجْ لَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أَيُّ نَجْمَعُ لَهُ عَمَلَهُ كُلَّهُ فِي كِتَابٍ يُعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِمَّا بِبَيِّنَةٍ إِنْ كَانَ سَعِيدًا، أَوْ بِشِمَالِهِ إِنْ كَانَ شَقِيًّا، ﴿مَنشُورًا﴾ أَيُّ مَفْتُوحًا يَقْرُؤُهُ هُوَ وَغَيْرُهُ، فِيهِ جَمِيعُ عَمَلِهِ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ ﴿يَلْقَاهُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ﴿٣٢﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَادِيرُهُ﴾ [القيامة: ١٣-١٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أَيُّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُظْلَمْ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكَ إِلَّا مَا عَمِلْتَ، لِأَنَّكَ ذَكَرْتَ جَمِيعَ مَا كَانَ مِنْكَ، وَلَا يَنْسَى أَحَدٌ شَيْئًا مِمَّا كَانَ مِنْهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَقْرَأُ كِتَابَهُ مِنْ كَاتِبٍ وَأُمِّيٍّ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَلْعُهُ فِي عُرْفِهِ﴾ إِذْ ذَكَرَ الْعُنُقَ لِأَنَّهُ غُضُوٌّ مِنَ الْأَعْضَاءِ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْجَسَدِ، وَمَنْ أُلْزِمَ شَيْءٌ فِيهِ فَلَا مَجِيدَ لَهُ عَنْهُ. وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَلْعُهُ فِي عُرْفِهِ﴾ قَالَ: عَمَلُهُ. ﴿وَنُخْرِجْ لَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ قَالَ: نُخْرِجُ ذَلِكَ الْعَمَلَ ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾: قَالَ مَعْمَرٌ، وَتَلَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ:

(١) الطبري: ٣٩٦/١٧ (٢) الطبري: ٣٩٦/١٧ (٣) الطبري:

٣٩٧/١٧ (٤) الطبري: ٣٩٨/١٧، ٤٠٠،

الْمَضْرُوبَةُ لِلذُّيُونِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْإِجَارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ فِي مَعَاشِكُمْ وَأَسْفَارِكُمْ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّسِينِ وَالْحِسَابِ﴾ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الزَّمَانُ كُلُّهُ نَسْفًا وَاحِدًا وَأُسْلُوبًا مُتَسَاوِيًا لَمَا عُرِفَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْآيِلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضَبَإٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الْآيِلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الفصل: ٧١-٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْآيِلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أُخِلَّتِ الْآيِلُ وَالنَّهَارُ﴾ وَقَالَ: ﴿يَكُونُ الْآيِلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى الْآيِلِ وَسَحَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَكِّي آلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ الْآيِلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ الْآيِلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨] ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ آيَةً، أَيُّ عِلَامَةً يُعْرَفُ بِهَا، وَهِيَ الظَّلَامُ وَظُهُورُ الْقَمَرِ فِيهِ، وَلِلنَّهَارِ عِلَامَةٌ وَهِيَ الثُّورُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ النَّبِيزَةِ فِيهِ، وَفَاوَتْ بَيْنَ نُورِ الْقَمَرِ وَضِيَاءِ الشَّمْسِ لِيُعْرَفَ هَذَا مِنْ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّسِينِ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنْبَغِي لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٥، ٦٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾... الْآيَةُ [البقرة: ١٨٩].

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ الْآيِلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قَالَ: ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَشَدَفُ النَّهَارِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: الشَّمْسُ آيَةُ النَّهَارِ وَالْقَمَرُ آيَةُ اللَّيْلِ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ الْآيِلِ﴾ قَالَ: السَّوَادُ الَّذِي فِي الْقَمَرِ، وَكَذَلِكَ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَجَعَلْنَا الْآيِلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قَالَ:

فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَحَمَّاءُكُمْ التَّذَكُّرُ فَذَوْقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾  
[فاطر: ٣٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
لَا يَدْخُلُ أَحَدًا النَّارَ إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُولِ إِلَيْهِ.

[مَسْأَلَةٌ مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَوْلَادِ الصَّغَارِ]

بَقِيَ هُنَا مَسْأَلَةٌ قَدْ اخْتَلَفَ الْأُئِمَّةُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى  
فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهِيَ الْوُلْدَانُ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ صِبَاغٌ  
وَأَبَاؤُهُمْ كُفَّارٌ: مَاذَا حُكْمُهُمْ؟ وَكَذَا الْمَجْنُونُ وَالْأَصَمُّ  
وَالشَّيْخُ الْخَرِفُ وَمَنْ مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ وَلَمْ تَبْلُغْ دَعْوَتُهُ؟ وَقَدْ  
وَرَدَ فِي شَأْنِهِمْ أَحَادِيثُ أَنَا أَذْكُرُهَا لَكَ بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

فَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ: عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ. رَوَى الْإِمَامُ

أَحْمَدُ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا،

وَرَجُلٌ أَحْمَقٌ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فِتْرَةٍ، فَأَمَّا

الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا

الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصُّبْيَانُ يَحْذِفُونِي

بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَغْقِلُ

شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ

رَسُولٌ. فَيَأْخُذُ مَوَاقِفَهُمْ لِيُطِيعُنَهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا

النَّارَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ

بَرْدًا وَسَلَامًا». وَبِالْإِسْنَادِ عَنْ قَتَادَةَ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي

رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: «فَمَنْ

دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ

إِلَيْهَا»<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ عَنْ مُعَاذِ بْنِ

هِشَامٍ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الْإِعْتِقَادِ وَقَالَ: هَذَا

إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ هَمَّامٍ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ... فَذَكَرَهُ مَوْفُوفًا، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:

فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا»<sup>(٤)</sup>.

وَكَذَا رَوَاهُ مَعْمَرٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي

هُرَيْرَةَ مَوْفُوفًا<sup>(٥)</sup>.

الْحَدِيثُ الثَّانِي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ

اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُرَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَاؤُهُ يَهُودَانِيَهُ

أَوْ يُنَصِّرَانِيَهُ أَوْ يُمَجَّسَانِيَهُ، كَمَا تُنْتِجُ الْبَيْهَمَةُ بِهَيْمَةً جَمْعَاءَ،

هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» وَفِي رَوَايَةٍ قَالُوا: يَارَسُولَ

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَبَيْنَ أَيْمَانِهِ فَبِذَلِكَ﴾ [ق: ١٧] يَا ابْنَ آدَمَ بُسِطَتْ لَكَ

صَحِيفَتُكَ، وَكُلُّ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ: أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِكَ

وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِكَ، فَأَمَّا الَّذِي عَنْ يَمِينِكَ فَيَحْفَظُ

حَسَنَاتِكَ، وَأَمَّا الَّذِي عَنْ شِمَالِكَ فَيَحْفَظُ سَيِّئَاتِكَ، فَاعْمَلْ

مَا شِئْتَ، أَقْلِيلٌ أَوْ أَكْثَرُ، حَتَّى إِذَا مِتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ

فَجُعِلَتْ فِي عُنُقِكَ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ، حَتَّى تَخْرُجَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

كِتَابًا تَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾... الْآيَةُ، فَقَدْ عَدَلَ -

وَالله - مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ<sup>(١)</sup>. هَذَا مِنْ أَحْسَنِ كَلَامِ

الْحَسَنِ، رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلَنَاسٍ يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا

زُرَّ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾<sup>(٢)</sup>

[لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ اهْتَدَى وَاتَّبَعَ الْحَقَّ، وَافْتَتَى أَتَرَ

النُّبُوَّةَ، فَإِنَّمَا يُحْصِلُ عَاقِبَةَ ذَلِكَ الْحَمِيدَةَ لِنَفْسِهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ

أَيُّ عَنِ الْحَقِّ، وَزَاغَ عَنِ سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَإِنَّمَا يَجْنِي عَلَى

نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يَعُودُ وَيَأْتِ ذَلِكَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا زُرَّ وَازِرَةٌ

وَزَرَ أُخْرَى﴾ أَيُّ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ، وَلَا يَجْنِي جَانٍ إِلَّا

عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَنفَعُ مِثْقَلَةَ إِثْمٍ إِلَى حِمْلِهَا لَا

يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: ١٨] وَلَا مُنَافَاةٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ:

﴿وَلِيَحْمِلُوا أُنْفُسَهُمْ وَأَثْقَالَ مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [النكبت: ١٣] وَقَوْلِهِ:

﴿وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النمل: ٢٥] فَإِنَّ

الدُّعَاةَ عَلَيْهِمْ إِثْمٌ ضَلَالَتِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا آخِرُ سَبَبٍ مَا

أَضَلُّوا مَنْ أَضَلُّوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَوْزَارِ أُولَئِكَ، وَلَا

[يَحْمِلُوا] عَنْهُمْ شَيْئًا، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ وَكَذَا

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

[لَا عَذَابَ إِلَّا بَعْدَ بُعْثَةِ الرُّسُولِ]

إِخْبَارٌ عَنْ عَدْلِهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ

قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِإِرْسَالِ الرُّسُولِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿كَلَّمَآ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَلَّمَهُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾<sup>(٣)</sup> قَالُوا بَلَّ قَدْ

جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَلَّمْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَشَاءَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

كَبِيرٍ [الملك: ٨، ٩] وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَيَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ

جَهَنَّمَ رُجْمًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَّتْ أُبُوبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ

يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَّ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

[الزمر: ٧١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُذَكِّرُ

(١) الطبري: ١٧/٤٠٠ (٢) أحمد: ٤/٢٤ (٣) الطبراني: ١/

٢٨٧ (٤) الطبري: ١٧/٤٠٣ (٥) القرطبي: ١٠/٣٣٢

## [قِرَاءَاتُ قَوْلِهِ "أَمَرْنَا" وَمَعَانِيهِ]

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهَا، فَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمَرْنَا مُتَرَفِّعِينَ فَفَسَّسُوا فِيهَا أَمْرًا قَدَرِيًّا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتْلَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤] فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، قَالُوا: مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَخَّرَهُمْ إِلَى فِعْلِ الْفَوَاحِشِ، فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَاتِ فَعَمَلُوا الْفَوَاحِشَ، فَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ، رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَيْضًا <sup>(٢)</sup>. قَالَ عَلِيُّ بْنُ طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿أَمَرْنَا مُتَرَفِّعِينَ فَفَسَّسُوا فِيهَا﴾ يَقُولُ: سَلَطْنَا أَسْرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ آكِلِينَ مَجْرِمِينَ﴾ الْآيَةُ <sup>(٣)</sup> [الأنعام: ١٢٣]. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ <sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتَرَفِّعِينَ فَفَسَّسُوا فِيهَا﴾ يَقُولُ: أَكْثَرْنَا عَذَابَهُمْ <sup>(٥)</sup>، وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَالصَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ <sup>(٦)</sup>. وَعَنْ مَالِكٍ، عَنْ الزُّهْرِيِّ ﴿أَمَرْنَا مُتَرَفِّعِينَ﴾ أَكْثَرْنَا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِبْكَ بِذُنُوبٍ عِمَادٍ

خَبِيرًا بِصِيرٍ﴾ <sup>(٧)</sup>

[تَهْدِيدٌ لِقُرَيْشٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، بِأَنَّهُ قَدْ أَهْلَكَ أُمَّمًا مِنَ الْمُكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْقُرُونَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَى الْإِسْلَامِ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ <sup>(٨)</sup>. وَمَعْنَاهُ أَنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُكْذِبُونَ لَسْتُمْ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ وَقَدْ كَذَبْتُمْ أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَأَكْرَمَ الْخَلَائِقِ، فَعُقُوبَتُكُمْ أَوْلَى وَأَحْرَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَفَىٰ رِبْكَ بِذُنُوبٍ عِمَادٍ خَبِيرًا بِصِيرٍ﴾ أَيُّ هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ: خَيْرُهَا وَشَرُّهَا لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ سُبْحَانَهُ

## [كَرَاهَةُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ]

وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَحْتَاجُ إِلَى دَلَائِلَ صَحِيحَةٍ جَيِّدَةٍ وَقَدْ يَتَكَلَّمُ فِيهَا مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ عَنِ الشَّارِعِ، كَرِهَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْكَلَامَ فِيهَا، رَوَى ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ وَمُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ <sup>(٩)</sup>، وَأَخْرَجَ ابْنُ جِبَانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ: سَمِعْتُ أَبَا رَجَاءَ الْعُطَارِدِيَّ، سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُوَاتِنًا - أَوْ مُقَارِبًا - مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي الْوُلْدَانِ وَالْقَدَرِ» قَالَ ابْنُ جِبَانَ: يَعْنِي أَطْفَالَ الْمُشْرِكِينَ <sup>(١٠)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرِ الْبَرَّاءُ مِنْ طَرِيقِ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ بِهِ ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مُوَفَّقًا <sup>(١١)</sup>.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتَرَفِّعِينَ فَفَسَّسُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ <sup>(١٢)</sup>

(١) البخاري: ١٣٨٥، ومسلم: ٢٦٥٨ (٢) أحمد: ٣٢٦/٢ والمجمع: ٢١٩/٧ (٣) مسلم: ٢٨٦٥ (٤) البخاري: ٧٠٤٧ (٥) المعجم الكبير: ٢٤٤/٧ والمجمع: ٢١٩/٧ (٦) أحمد: ٥٨/٥ وفتح الباري: ٢٤٦/٣ (٧) أحمد: ٧٣/٥ (٨) ابن حبان: ٢٥٦/٨ (٩) كشف الاستار: ٣٥/٣ (١٠) الطبري: ٤٠٣/١٧ (١١) الطبري: ٤٠٣/١٧ (١٢) الطبري: ٤٠٤/١٧ (١٣) الطبري: ٤٠٤/١٧ (١٤) الطبري: ١/١٧ (١٥) الطبري: ٤٠٤/١٧ (١٦) المجمع: ٣١٨/٦

وَتَعَالَى .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

[جَزَاءً مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ يَحْصُلُ لَهُ، بَلْ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ وَمَا يَشَاءُ، وَهَذِهِ مُقَدِّمَةٌ لِإِطْلَاقِ مَا سِوَاهَا مِنَ الْآيَاتِ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿يَصْلَاهَا﴾ أَيُّ يَدْخُلُهَا حَتَّى تَعْمُرَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ﴿مَذْمُومًا﴾ أَيُّ فِي حَالِ كَوْنِهِ مَذْمُومًا عَلَى سُوءِ تَصَرُّفِهِ وَصَنِيعِهِ، إِذِ اخْتَارَ الْفَاقِي عَلَى الْبَاقِي ﴿مَدْحُورًا﴾ مُبْعَدًا مَقْصِبًا ذَلِيلًا مُهَانًا .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أَيُّ أَرَادَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ وَالشُّرُورِ ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أَيُّ طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِهِ وَهُوَ مُتَابِعَةُ الرَّسُولِ ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أَيُّ قَلْبُهُ مُؤْمِنٌ، أَيُّ مُصَدِّقٌ بِالثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ .

﴿كَلَّا تُمَدِّدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠) أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ أَيُّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ: الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا وَالَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ نُمَدِّدُهُمْ فِيهَا فِيهِ ﴿وَمِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أَيُّ هُوَ الْمُتَصَرَّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ، فَيُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، فَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعَيَّرَ لِمَا أَرَادَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أَيُّ لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ، وَلَا يَرُدُّهُ رَادٌّ. قَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أَيُّ مَنُوعًا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: أَيُّ مَمْنُوعًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا، فَمِنْهُمْ الْعَنِيِّ وَالْفَقِيرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا، وَمَنْ يُعَمَّرُ حَتَّى يَبْقَى شَيْخًا كَبِيرًا، وَبَيْنَ ذَلِكَ ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أَيُّ وَلِتَنَافَوْهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَكَاتِ فِي جَهَنَّمَ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَنِيعِمِهَا وَسُرُورِهَا،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٤

سُورَةُ الْاِنشَارِ

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا تُمَدِّدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ وَذِكْرُكَ أَكْلَمُ يَمَافِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَنْذِرْ نَذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمَذِيرَينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

ثُمَّ أَهْلُ الدَّرَكَاتِ يَتَفَاوَتُونَ فِي مَا هُمْ فِيهِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ يَتَفَاوَتُونَ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَوْنَ أَهْلَ عُلِيِّينَ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ»<sup>(٢)</sup> وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ .

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (٢٢)

[لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ أَحَدًا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَالْمُرَادُ الْمُكَلَّفُونَ مِنَ الْأُمَّةِ، لَا تَجْعَلْ أَيُّهَا الْمُكَلَّفُ فِي عِبَادَتِكَ رَبِّكَ لَهُ شَرِيكًا ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ أَيُّ عَلَى إِشْرَاكِكَ بِهِ ﴿مَدْحُورًا﴾ لِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لَا يَنْصُرُكَ بَلْ يَكْلُكُ إِلَى الَّذِي عَبَدْتَ مَعَهُ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ لَكَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، لِأَنَّ مَالِكَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

(١) الطبري: ١٧/٤١٠ (٢) فتح الباري: ٦/٣٨٦ ومسلم: ٤/



رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَذْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»<sup>(٧)</sup>.

(حَدِيثُ آخَرَ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ رَجُلٍ أَذْرَكَ أَحَدَ أَبَوَيْهِ أَوْ كِلَيْهِمَا [عِنْدَ الْكَبِيرِ، وَلَمْ يُدْخِلِ الْجَنَّةَ]»<sup>(٨)</sup> صَحِيحٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ، سِوَى مُسْلِمٍ<sup>(٩)</sup>.

(حَدِيثُ آخَرَ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السُّلَمِيِّ أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَدْتُ الْغَزَا وَجِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ فَقَالَ: «فَهَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: نَعَمْ قَالَ: «فَالزَّمْنُهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رَجُلَيْهَا» ثُمَّ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ الثَّلَاثَةَ فِي مَقَاعِدَ شَيْءٍ، كَمَثَلِ هَذَا الْقَوْلِ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةٍ<sup>(١١)</sup>.

(حَدِيثُ آخَرَ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّمِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأَقْرَبِ فَأَلْأَقْرَبِ»<sup>(١٢)</sup>. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيَّاشٍ بِهِ<sup>(١٣)</sup>.

(حَدِيثُ آخَرَ) رَوَى أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي يَرْبُوعَ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يُكَلِّمُ النَّاسَ يَقُولُ: «يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا، أُمْلَكَ وَأَبَاكَ، وَأَخْتِكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَذْنَاكَ أَذْنَاكَ»<sup>(١٤)</sup>.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَادِقِينَ فَإِنَّهُ كَانَ

لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾

[غُفْرَانُ زَلَّةِ الْوَلَدِ فِي حَقِّ وَالِدَيْهِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى اللَّهِ]

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ مِنْهُ الْبَادِرَةُ إِلَى أَبَوَيْهِ، وَفِي نَبِيِّهِ وَقَلْبِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ بِهِ، وَفِي رِوَايَةٍ: لَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ بِذَلِكَ<sup>(١٥)</sup>. فَقَالَ: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ

لَهُ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدِّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ [أَوْشَكَ] اللَّهُ لَهُ بِالْعَنَى، إِمَّا [بِمَوْتٍ عَاجِلٍ] وَإِمَّا غَنَى [عَاجِلٍ]»<sup>(١٦)</sup> رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(١٧)</sup>.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾<sup>(٢٣)</sup> وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ أَرْحَمِهِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

[الْأَمْرُ بِالنَّوْحِيدِ وَالْإِحْسَانِ بِالْوَالِدَيْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ هَهُنَا بِمَعْنَى الْأَمْرِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَقَضَى﴾ يَغْنَى وَضَى<sup>(٢٤)</sup>. وَكَذَا قَرَأَ أَبُو بَنٍ كَعْبٌ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاجِمٍ: (وَوَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)<sup>(٢٥)</sup> وَلِهَذَا قَرَنَ بِعِبَادَتِهِ بِرِ الْوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيْ وَأَمَرَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْهَبِيرِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا أَيْ لَا تُسْمِعُهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا، حَتَّى وَلَا التَّأْفِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ﴾ وَلَا نَهْرَهُمَا﴾ أَيْ وَلَا يَصْدُرُ مِنْكَ إِلَيْهِمَا فِعْلٌ قَبِيحٌ، كَمَا قَالَ عَطَاءُ ابْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا نَهْرَهُمَا﴾ أَيْ لَا تَنْقُضْ يَدَكَ عَلَيْهِمَا<sup>(٢٦)</sup>. وَلَمَّا نَهَا عَنْ الْقَوْلِ الْقَبِيحِ وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ، أَمَرَهُ بِالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَالْفِعْلِ الْحَسَنِ، فَقَالَ: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أَيْ لَبَّنَا طَبِيبًا حَسَنًا بِتَأْدِبٍ وَتَوْفِيرٍ وَتَعْظِيمٍ ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ أَرْحَمِهِ﴾ أَيْ تَوَاضَعْ لَهُمَا بِفِعْلِكَ ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أَيْ فِي كِبَرِهِمَا وَعِنْدَ وَفَاتِهِمَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ﴾... الْآيَةُ [التوبة: ١١٣]<sup>(٢٧)</sup>.

وَقَدْ جَاءَ فِي بَرِّ الْوَالِدَيْنِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ مِنْ طَرُقٍ عَنْ أَنَسٍ وَغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ [لَمَّا] صَعِدَ الْمَبْرُ ثُمَّ قَالَ: «آمِينَ آمِينَ آمِينَ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَلَامَ أَمْنْتُمْ؟ قَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرٌ رَمَضَانَ، ثُمَّ خَرَجَ فَلَمْ يُعْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ:

(١) أحمد: ٤٠٧/١ (٢) أبو داود: ٢٩٦/٢ وتحفة الأحوذى: ٦١٧/٦ (٣) الطبري: ٤١٤/١٧ (٤) الطبري: ١٧/٤١٣ (٥) الطبري: ٤١٧/١٧ (٦) الطبري: ٤٢١/١٧ (٧) تحفة الأحوذى: ٥٥٠/٥ (٨) أحمد: ٣٤٦/٢ (٩) مسلم: ١٩٧٨/٤ (١٠) أحمد: ٤٢٩/٣ (١١) النسائي: ٦/١١ وابن ماجه: ٩٣٠/٢ (١٢) أحمد: ١٣٢/٤ (١٣) ابن ماجه: ١٢٠٧/٢ (١٤) أحمد: ٦٤/٤ (١٥) الطبري: ١٧/٤٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٥

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

وَمَا تُعْرِضُ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ تَنْزِفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحْشًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي أَقْتُلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيُسْرِ وَلَا يَأْتِيَ هِيَ أَحْسَنَ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْكُوكٌ ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْوَاقِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَنْتَشِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

تَكُونُوا صَالِحِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: لِلْمُطِيعِينَ أَهْلَ الصَّلَاةِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ شُعْبَةُ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ قَالَ: الَّذِينَ يُصِيبُونَ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُونَ، وَيُصِيبُونَ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُونَ <sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ: هُمْ الرَّاجِعُونَ إِلَى الْخَيْرِ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ فِي الْآيَةِ: هُوَ الَّذِي إِذَا ذَكَرَ ذُنُوبَهُ فِي الْخَلَاءِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهَا، وَوَافَقَهُ مُجَاهِدٌ فِي ذَلِكَ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَوَّلَىٰ فِي ذَلِكَ قَوْلٌ مَنْ قَالَ: هُوَ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، الرَّجَاعُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، مِمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ إِلَى مَا يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ <sup>(٥)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ الصَّوَابُ، لِأَنَّ الْأَوَّابَ مُسْتَقٌّ مِنَ الْأَوْبِ، وَهُوَ الرُّجُوعُ، يُقَالُ: أَبَّ فَلَانَ إِذَا رَجَعَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا إِلَيْنَا يَأْتِبُهُمُ﴾ [الغاشية: ٢٥] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ قَالَ: «أَيُّوبُ تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» <sup>(٦)</sup>.

﴿وَعَاتٍ ذَا الْفُرْقَيْنِ حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضُ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٨﴾

[الْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالنَّهْيُ عَنِ التَّبْذِيرِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى بِرِ الْوَالِدَيْنِ، عَطَفَ بِذِكْرِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَمَّا وَأَبَاكَ، ثُمَّ أَذْنَاكَ أَذْنَاكَ» وَفِي رِوَايَةٍ: «ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ» <sup>(٧)</sup>، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَبِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» <sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لَمَّا أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ، نَهَى عَنِ الْإِسْرَافِ فِيهِ، بَلْ يَكُونُ وَسْطًا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الْآيَةُ [الفرقان: ٦٧] ثُمَّ قَالَ مُتَرَاً عَنِ التَّبْذِيرِ وَالسَّرْفِ: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ أَيَّ أَشْبَاهَهُمْ فِي ذَلِكَ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: التَّبْذِيرُ الْإِنْفَاقُ فِي غَيْرِ حَقٍّ <sup>(٩)</sup>، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ <sup>(١٠)</sup>، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَوْ أَنْفَقَ إِنْسَانٌ مَالَهُ كُلَّهُ فِي الْحَقِّ لَمْ يَكُنْ مُبْذِرًا، وَلَوْ أَنْفَقَ مَدًّا فِي غَيْرِ حَقٍّ كَانَ مُبْذِرًا <sup>(١١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: التَّبْذِيرُ التَّفَقُّهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي غَيْرِ الْحَقِّ وَالْفَسَادِ <sup>(١٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ، وَذُو أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَحَاضِرَةٍ، فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ أَنْفَقُ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ إِنْ كَانَ، فَإِنَّهَا طَهْرَةٌ تَطْهَرُكَ، وَتَصِلُ أَقْرَبَاءَكَ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ وَالْجَارِ وَالْمُسْكِينِ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقِلُّ لِي، قَالَ: ﴿وَعَاتٍ ذَا الْفُرْقَيْنِ حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ فَقَالَ: حَسْبِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذَا أَدَيْتَ الزَّكَاةَ إِلَى رَسُولِكَ فَقَدْ بَرَّتَ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، إِذَا أَدَيْتَهَا إِلَى رَسُولِي فَقَدْ بَرَّتَ مِنْهَا، وَلَكَ أَجْرُهَا، وَإِثْمُهَا

(١) الطبري: ٤٢٢/١٧ (٢) الطبري: ٤٢٣/١٧ (٣) الطبري: ٤٢٤/١٧، ٤٢٥، (٤) الطبري: ٤٢٤/١٧ (٥) الطبري: ١٧/٢٦٦ (٦) فتح الباري: ٧٢٤/٣ (٧) أحمد: ٢٢٦/٢ (٨) مسلم: ١٩٨٢/٤ (٩) الطبري: ٤٢٨/١٧ (١٠) الطبري: ١٧/٤٢٩ (١١) الطبري: ٤٢٩/١٧ (١٢) الطبري: ٤٢٩/١٧

عَلَى مَنْ بَدَّلَهَا»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْمَلَكَيْنِ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أَيْ فِي التَّبْدِيلِ وَالسَّفْهِ وَتَرْكِ طَاعَةِ اللَّهِ وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أَيْ جَحُودًا، لِأَنَّهُ أَنْكَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِطَاعَتِهِ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَّا نَرَضَ عَنْهُمْ اتَّخَذَهُمْ مِنْ رِبِّكَ﴾ الْآيَةُ، أَيْ إِذَا سَأَلَكَ أَقَارِبُكَ وَمَنْ أَمْرُكَ بِإِعْطَائِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ، وَأَعْرَضْتَ عَنْهُمْ لِفَقْدِ التَّفَقُّهِ ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَنسُورًا﴾ أَيْ عُدْهُمْ وَعَدًا بِسَهْوَةٍ وَلِينٍ: إِذَا جَاءَ رِزْقُ اللَّهِ فَسَنُصْلِحْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، هَكَذَا فَسَّرَ قَوْلَهُ: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَنسُورًا﴾ بِالْوَعْدِ - مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدٌ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾<sup>(٣)</sup> إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا<sup>(٤)</sup>

#### [الْإِقْبَادُ فِي الْإِنْفَاقِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِالْإِقْبَادِ فِي الْعُنُسِ، ذَامًا لِلْبُخْلِ، نَاهِيًا عَنِ السَّرْفِ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ أَيْ لَا تَكُنْ بِخَيْلًا مَنُوعًا، لَا تُعْطِي أَحَدًا شَيْئًا، كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعْنَتُ اللَّهِ - ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أَيْ نَسَبُوهُ إِلَى الْبُخْلِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أَيْ وَلَا تُسْرِفْ فِي الْإِنْفَاقِ، فَتُعْطِيَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، وَتُخْرِجَ أَكْثَرَ مِنْ دَخْلِكَ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا، وَهَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنُّشْرِ، أَيْ فَتَقْعُدَ إِنْ بَخِلْتَ مَلُومًا، يَلُومُكَ النَّاسُ وَيَذْمُونَكَ وَيَسْتَفْتُونَ عَنْكَ. وَمَتَى بَسَطْتَ يَدَكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، قَعَدْتَ بِأَمْرٍ تَنْفَقُهُ، فَتَكُونُ كَالْحَسِيرِ، وَهُوَ الدَّابَّةُ الَّتِي عَجَزَتْ عَنِ السَّيْرِ فَوَقَفَتْ ضَعْفًا وَعَجْزًا، فَإِنَّهَا تُسَمَّى الْحَسِيرَ، وَهُوَ مَاخُودٌ مِنَ الْكَلَالِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَاتَّجَعَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾<sup>(٥)</sup>

ثُمَّ اتَّجَعَ الْبَصَرُ كَرَيْنًا يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ أَيْ كَلِيلٌ عَنْ أَنْ يَرَى عَيْبًا، هَكَذَا فَسَّرَ هَذِهِ الْآيَةَ - بِأَنَّ الْمُرَادَ هُنَا الْبُخْلُ وَالسَّرْفُ - ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مِثْلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمِثْلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تُدْبِيهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا

الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبْعَتَ - أَوْ: وَقَرَتْ - عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَغْمُؤَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَرَقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مِنْهَا مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوسِّعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ»<sup>(٧)</sup> هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي الزَّكَاةِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيقِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي مُرَّةٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُسْكِنًا تَلْفًا».

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»<sup>(٨)</sup>. وَفِي حَدِيثِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو [مَرْفُوعًا: «إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَجَلُّوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُطَيْعَةِ فَقَطَّعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَّرُوا»<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إِخْبَارًا أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الرِّزَاقُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَيُغْنِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أَيْ خَبِيرًا بَصِيرًا بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى وَيَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ، وَقَدْ يَكُونُ الْغِنَى فِي حَقِّ بَعْضِ النَّاسِ اسْتِزْجَارًا، وَالْفَقْرُ عُقُوبَةً، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ هَذَا وَهَذَا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّى إِمْلئُوا مِنْ رِزْقِهِمْ وَإِذَا كُنْ أَنْفُسُكُمْ

كَانَ خَطَايَا كَبِيرًا﴾<sup>(١٠)</sup>

#### [النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدِ بِوَلَدِهِ، لِأَنَّهُ نَهَى عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ كَمَا أَوْصَى الْأَبَاءَ بِالْأَوْلَادِ فِي الْوِثَاقِ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُورَثُونَ النِّبَاتِ، بَلْ كَانَ أَحَدُهُمْ رَبُّمَا قَتَلَ ابْنَتَهُ لَثَلَا تَكْثُرَ عَيْلَتُهُ، فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّى إِمْلئُوا مِنْ رِزْقِهِمْ فَإِنْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَكُمْ أَوْلَدُكُمْ﴾ وَلِهَذَا قَدَّمَ الْإِهْتِمَامَ بِرِزْقِهِمْ فَقَالَ: ﴿تَحْنُ رِزْقُهُمْ وَإِذَا كُنْ أَنْفُسُكُمْ كَانَتْ خَطَايَا كَبِيرًا﴾<sup>(١١)</sup> وَفِي الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَئُوا مِنْ رِزْقِهِمْ فَإِنْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَكُمْ أَوْلَدُكُمْ﴾<sup>(١٢)</sup>

(١) أحمد: ١٣٦/٣ (٢) الطبري: ٤٣١/١٧، ٤٣٢ (٣)

الطبري: ٤٣٤/١٧، ٤٣٥ (٤) فتح الباري: ٣٥٨/٣، ومسلم:

٧٠٨/٢ (٥) مسلم: ٢٠٠١/٤ (٦) أحمد: ١٥٩/٢

السَّن: «الزَّوَالُ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ أَهْوَنُ مِنْ قَتْلِ مُسْلِمٍ»<sup>(٤)</sup>.  
 وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا» أَيُّ سُلْطَانَةً عَلَى الْقَاتِلِ، فَإِنَّهُ بِالْخِيَارِ فِيهِ إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ قَوْدًا، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ عَلَى الدِّيَةِ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ مَجَانًا، كَمَا ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ، وَقَدْ أَخَذَ الْإِمَامُ الْحَبَرُ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَلَايَةَ مُعَاوِيَةَ: السُّلْطَانَةَ [وَأَنَّهُ سَمِيُّكَ، لِأَنَّهُ كَانَ وَلِيَّ عُثْمَانَ، وَقَدْ قُتِلَ مَظْلُومًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ تَمَكَّنَ مُعَاوِيَةُ وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَاسْتَنْبَطَهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَهَذَا مِنَ الْأَمْرِ الْعَجَبِ.

وَقَوْلُهُ: «فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ» قَالُوا: مَعْنَاهُ: فَلَا يُسْرِفُ الْوَلِيُّ فِي قَتْلِ الْقَاتِلِ بِأَنْ يُمَثِّلَ بِهِ، أَوْ يَقْتَصِرَ مِنْ غَيْرِ الْقَاتِلِ. وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُ كَانَ مَضُورًا» أَيُّ إِنْ الْوَلِيَّ مَضُورٌ عَلَى الْقَاتِلِ شَرْعًا وَغَالِيًا وَقَدَرًا.

«وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَشْهُورٌ» (٢٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَرَبُّوهُ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٢٥)

[الْأَمْرُ بِالتَّصَرُّفِ الْحَسَنِ فِي مَالِ الْيَتِيمِ وَبِالْكَيْلِ الْأَوْفَى وَالْوَزْنَ الْمُسْتَقِيمِ]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» أَيُّ لَا تَتَصَرَّفُوا فِي مَالِ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْخَيْرِطَةِ «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أَجِبُ لَكَ مَا أَحْبَبْتُ لِنَفْسِي: لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ الْيَتِيمِ»<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ» أَيُّ الَّذِي تُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ النَّاسَ وَالْعُقُودَ الَّتِي تُعَامِلُونَهُمْ بِهَا، فَإِنَّ الْعَهْدَ وَالْعَقْدَ كُلُّهُمَا يُسْأَلُ صَاحِبُهُ عَنْهُ «إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَشْهُورٌ» أَيُّ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ» أَيُّ مِنْ غَيْرِ تَطْفِيفٍ وَلَا تَبَخُّسٍ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ «وَرَبُّوهُ بِالْقِسْطِ» قُرِئَ بِضَمِّ الْقَافِ وَكَسْرِهَا، كَالْفِرْطَاسِ، وَهُوَ الْمِيزَانُ. وَقَوْلُهُ: «الْمُسْتَقِيمُ» أَيُّ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ وَلَا

«تَحَنُّنٌ تَزِدُّكُمْ وَإِسَافُهُمْ» [الآية: ١٥١]. وَقَوْلُهُ «إِنْ قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطَئًا كَبِيرًا» أَيُّ! ذَنْبًا عَظِيمًا، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (كَانَ خَطَأً كَبِيرًا) وَهُوَ بِمَعْنَاهُ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاً وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»<sup>(١)</sup>.

«وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» (٣٦)  
 [الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الزُّنَا وَأَسْبَابِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ الزُّنَا وَعَنْ مُقَارَبَتِهِ وَمُخَالَطَةِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ: «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً» أَيُّ ذَنْبًا عَظِيمًا «وَسَاءَ سَبِيلًا» أَيُّ وَبِئْسَ طَرِيقًا وَمَسْلَكًا.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ: أَنَّ فَتًى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذْنٌ لِي بِالزُّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَرَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: «أُذْنُهُ» فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، فَقَالَ «اجْلِسْ» فَجَلَسَ، فَقَالَ: «أَنْجِبْهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفْتَجِبْهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَوَالَاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفْتَجِبْهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ»، قَالَ: «أَفْتَجِبْهُ لِخَالَاتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ»، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَأَخْصِنْ فَرْجَهُ» قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَقِ إِلَى شَيْءٍ<sup>(٢)</sup>.

«وَلَا تَقْنَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَنْ يَحْرِمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ

مَضُورًا» (٣٧)

[الْتِهْي عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِيَةُ الْمُحْصَنُ، وَالتَّارِكُ لِذِيهِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»<sup>(٣)</sup>. وَفِي

(١) فتح الباري: ١٣/٨

(٢) أحمد: ٢٥٦/٥ (٣) فتح الباري: ٢٠٩/١٢ ومسلم: ٣/

١٣٠٢ (٤) تحفة الأحوذى: ٢٥٦/٤ والنسائي: ٨٢/٧ وابن

ماجه: ٨٧٤/٢ (٥) مسلم: ١٤٥٨/٣

سورة الإسراء

٢٨٦

سورة الإسراء

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا  
 ءَاخَرَ فَنُلْقِيَ فِي جَهَنَّمَ مَوْلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٦﴾ أَفَاصْفَدُكُمْ رَبُّكُمْ  
 بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنشَاءً لِّكُمْ لِقُولٍ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٧﴾  
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٨﴾  
 قُلْ لَوْ كُنَّا مَعَهُ إِلهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْوَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا  
 ﴿٣٩﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٠﴾ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ  
 السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ  
 لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ  
 الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حُجَابًا  
 مَّسْتُورًا ﴿٤٢﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ  
 وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا  
 ﴿٤٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ بِجُورٍ  
 إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٤﴾ أَنْظِرْ  
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٥﴾  
 وَقَالُوا أَأَذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَوْ نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٦﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أَيُّ بِنَائِكَ وَفَخَرِكَ  
 وَإِعْجَابِكَ بِنَفْسِكَ، بَلْ قَدْ يُجَارَىٰ فَاعِلٌ ذَلِكَ بِنَفِيضِ  
 قَصْدِهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ  
 كَانَ قَبْلَكُمْ، وَعَلَيْهِ بُرْدَانٌ يَتَخَتَّرُ فِيهِمَا، إِذْ خَسِفَ بِهِ  
 الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>. وَكَذَلِكَ  
 أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ،  
 وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَسَفَ بِهِ وَبَدَّاهُ الْأَرْضَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أَمَّا مَنْ  
 قَرَأَ: (سَيِّئَةً)، أَيُّ فَاحِشَةٍ، فَمَعْنَاهُ عِنْدَهُ: كُلُّ هَذَا - الَّذِي  
 نُهِنَا عَنْهُ - مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لِي﴾ إِلَىٰ  
 هُنَا فَهُوَ سَيِّئَةٌ مُوَآخَذٌ عَلَيْهَا، مَكْرُوهًا عِنْدَ اللَّهِ لَا يُجِبُهُ وَلَا

اضْطِرَابٌ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أَيُّ لَكُمْ فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ،  
 وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَيُّ مَالًا وَمُتَقَلَّبًا فِي آخِرَتِكُمْ،  
 قَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَيُّ خَيْرٍ  
 ثَوَابًا وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً<sup>(٢)</sup>. وَابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ  
 الْمَوَالِي إِنَّكُمْ وَلَيْسَتْ أُمُورُنَّ، بِهِمَا هَلَكَ النَّاسُ قَبْلَكُمْ: هَذَا  
 الْوَكِيلُ، وَهَذَا الْمِيمِزَانُ.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ  
 أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾

[لَا تَكَلِّمُوا إِلَّا بِالْعِلْمِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَا  
 تَقُلْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ: لَا تَرْمِ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ  
 عِلْمٌ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: يَغْنِي شَهَادَةُ  
 الزُّورِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا تَقُلْ: رَأَيْتُ، وَلَمْ تَرَ،  
 وَسَمِعْتُ، وَلَمْ تَسْمَعْ، وَعِلِمْتُ، وَلَمْ تَعْلَمْ، فَإِنَّ اللَّهَ  
 تَعَالَىٰ سَأَلَكَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ<sup>(٦)</sup>. وَمَضْمُونُ مَا ذَكَرُوهُ أَنَّ  
 اللَّهَ تَعَالَىٰ نَهَىٰ عَنِ الْقَوْلِ بِلَا عِلْمٍ بَلْ بِالظَّنِّ الَّذِي هُوَ  
 التَّوَهُُّمُ وَالْخَيَالُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَخْبَرْنَا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ  
 إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وَفِي الْحَدِيثِ:  
 «إِنَّا كُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»<sup>(٧)</sup>. وَفِي سُنَنِ  
 أَبِي دَاوُدَ: «يُسْأَلُ مَطِئَةُ الرَّجُلِ: رَعُمُوا»<sup>(٨)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ  
 الْآخِرِ: «إِنْ أَفْرَى الْفَرَى أَنْ يَرَى الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ  
 تَرَيَا»<sup>(٩)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ تَحَلَّمَ خُلْمًا كُلَّفَ يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَيْسَ بِفَاعِلٍ»<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أَيُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنَ السَّمْعِ  
 وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادِ ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أَيُّ سَيَسْأَلُ الْعَبْدَ عَنْهَا  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَسُئِلَ عَنْهُ وَعَمَّا عَمِلَ فِيهَا. وَيَصِحُّ اسْتِعْمَالُ  
 «أُولَئِكَ» مَكَانَ «تِلْكَ».

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخَرَّقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ  
 الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

[دَمٌ مَشْيُهُ التَّخَتُّرُ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ التَّجَبُّرِ وَالتَّخَتُّرِ فِي الْمَشْيَةِ  
 ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَيُّ مُتَبَخِّرًا مُتَمَايِلًا مَشْيَ  
 الْجَبَّارِينَ ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخَرَّقَ الْأَرْضَ﴾ أَيُّ لَنْ تَقْطَعَ الْأَرْضَ  
 بِمَشْيِكَ. قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَاسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ يَقُولُ رُؤْبَةُ بْنُ  
 الْعَجَّاجِ:

وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ خَاوِي [الْمُخْتَرَقِ]

(١) الطبري: ٤٤٦/١٧ (٢) الطبري: ٤٤٦/١٧ (٣) الطبري:  
 ٤٤٧/١٧ (٤) الطبري: ٤٤٧/١٧ (٥) الطبري: ٤٤٦/١٧  
 (٦) فتح الباري: ١٠٦/٩ (٧) أبو داود: ٢٥٤/٥ (٨) فتح  
 الباري: ٤٤٦/١٢ (٩) فتح الباري: ٤٤٦/١٢ (١٠) مسلم:  
 ١٦٥٤/٣

وَالْمَوَاعِظُ، فَيَنْزِرُوا عَمَّا فِيهِ مِنَ الشَّرِّ وَالظُّلْمِ وَالْإِلَافِكِ ﴿١٧﴾ وَمَا يَرْيَدُهُمْ ﴿١٨﴾ أَيِ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ ﴿١٩﴾ إِلَّا نُفُورًا ﴿٢٠﴾ أَيِ عَنِ الْحَقِّ وَبَعْدًا مِنْهُ.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا نُنْفَخُوا إِلَى دُخَانٍ الْمَرْيَةِ﴾

سَبِيلًا ﴿٢١﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الرَّاعِمِينَ أَنَّ اللَّهَ شَرِيكًا مِنْ خَلْقِهِ - الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ لِيُقَرَّبَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى - لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ، وَأَنَّ مَعَهُ آلِهَةٌ تُعْبَدُ لِيُقَرَّبَ إِلَيْهِ وَتَشْفَعَ لَدَيْهِ، لَكَانَ أُولَئِكَ الْمُعْبُدُونَ يَعْبُدُونَهُ وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَعِينُونَ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَالْقُرْبَةَ، فَأَعْبُدُوهُ أَنْتُمْ وَخُذْهُ كَمَا يَعْبُدُهُ مَنْ تَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ، وَلَا حَاجَةَ لَكُمْ إِلَى مُعْبُودٍ يَكُونُ وَاسِطَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ ذَلِكَ وَلَا يَرْضَاهُ، بَلْ يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَقَدْ نَهَى عَنْ ذَلِكَ عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، ثُمَّ نَزَّ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ وَقَدَّسَهَا فَقَالَ: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُعْتَدُونَ الظَّالِمُونَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أَيِ تَعَالَا كَبِيرًا، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

﴿سُبْحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غُفُورًا﴾

﴿كُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ اللَّهَ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: تُقَدِّسُهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَيِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَتُزَيِّنُهُ وَتُعَظِّمُهُ وَتُسَبِّحُهُ وَتُكَبِّرُهُ، عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، وَتَشْهَدُ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ

تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْقَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿٢٣﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٢٤﴾ [مريم: ٩٠، ٩١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أَيِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أَيِ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، لِأَنَّهَا بِخِلَافِ لُغَانِكُمْ، وَهَذَا عَامٌّ فِي الْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ

يَرْضَاهُ. وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: ﴿سَبِّحُوهُ﴾ عَلَى الْإِضَافَةِ فَمَعْنَاهُ عَنْهُ: كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَصَّ رَبُّكَ الْأَوَّلَ تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَاهًا﴾ إِلَى هُنَا فَسَبِّحُوهُ أَيِ فَصَبِّحُوهُ مَكْرُوهٌ عِنْدَ اللَّهِ. هَكَذَا وَجَّهَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ ﴿٢٥﴾

[كُلُّ مَا سَبَقَ وَحْيٌ وَحِكْمَةٌ]

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكَ بِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَنَهَيْتَاكَ عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ، مِمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ لِتَأْمُرَ بِهِ النَّاسَ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أَيِ تَلُومُكَ نَفْسُكَ وَتَلُومُكَ اللَّهُ وَالْخَلْقُ ﴿مَدْحُورًا﴾ أَيِ مُبْعَدًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: مَطْرُودًا<sup>(١)</sup>. وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْخِطَابِ الْأُمَّةُ بِوَاسِطَةِ الرُّسُولِ ﷺ، فَإِنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، مَعْصُومٌ.

﴿أَفَاصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَكَةِ ابْنَتًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿٢٦﴾

[الرَّدُّ عَلَى الرَّاعِمِينَ أَنَّ الْمَلَكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ الرَّاعِمِينَ - عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ -: أَنَّ الْمَلَكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، فَجَعَلُوا الْمَلَكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا، ثُمَّ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ فَأَخْطَأُوا فِي كُلِّ مِنَ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثِ خَطَأً عَظِيمًا، فَقَالَ تَعَالَى مُكَبِّرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَفَاصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ﴾ أَيِ خَصَصَكُمْ بِالذِّكْرِ ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَكَةِ ابْنَتًا﴾ أَيِ وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ عَلَى زَعْمِكُمُ الْبَنَاتِ، ثُمَّ شَدَّدَ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أَيِ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا، ثُمَّ جَعَلَكُمْ وَلَدَهُ الْإِنَاثَ الَّتِي تَأْتُونَ أَنْ يَكُنَّ لَكُمْ، وَرَبَّمَا قَتَلْتُمُوهُنَّ بِالْوَادِ، فَتِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٢٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٢٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْقَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٢٩﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٣٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٣١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٣٢﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٣٣﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ أَيِ صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ

كَمِيمُونَ وَمَشْهُومٌ بِمَعْنَى يَافِسٌ وَشَائِمٌ، لِأَنَّهُ مِنْ يَمَنَّهُمْ وَشَائِمُهُمْ. وَقِيلَ: مَسْتَوْرًا عَنِ الْأَبْصَارِ فَلَا تَرَاهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حِجَابٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهُدَى، وَمَالَ إِلَى تَرْجِيحِهِ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿تَبَتَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ﴾ جَاءَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَبِيلٍ وَلَهَا وَلَوْثَةٌ، وَفِي يَدَيْهَا فِهْرٌ وَهِيَ تَقُولُ: مَذْمَمًا أَتَيْنَا - أَوْ أَبَيْنَا - (قَالَ أَبُو مُوسَى: الشُّكُّ مَبْنِيٌّ). وَدِينَهُ فَلَتَيْنَا، وَأَمْرُهُ عَصَيْنَا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ وَأَبُو بَكْرٍ إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ أَقْبَلْتُ هَذِهِ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ، فَقَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي» وَقَرَأَ قُرْآنًا اعْتَصَمَ بِهِ مِنْهَا: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا» قَالَ: فَجَاءَتْ حَتَّى قَامَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ تَرَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، بَلَّغْنِي أَنْ صَاحِبَكَ هَجَانِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا وَرَبِّ هَذَا النَّبِيِّ مَا هَجَاكِ، قَالَ: فَانصَرَفَتْ وَهِيَ تَقُولُ: لَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنِّي بِنْتُ سَيِّدِهَا<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً» وَهِيَ جَمْعُ كِتَابٍ الَّذِي يَغْشَى الْقَلْبَ «أَنْ يَفْقَهُوه» أَيْ لَيْلًا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ «وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا» وَهُوَ الثَّقُلُ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ سَمَاعًا يَفْقَهُهُمْ وَيَهْتَدُونَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ» أَيْ إِذَا وَحَّدْتَ اللَّهَ فِي بِلَاوَتِكَ، وَقُلْتَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ «وَلَوْ» أَيْ أَذْبَرُوا رَاجِعِينَ «عَلَى أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا» وَنُفُورٌ جَمْعٌ نَافِرٍ، كَقُعُودٍ جَمْعٌ قَاعِدٍ، وَتَجُوزُ أَنْ يَكُونَ

وَالنَّبَاتَاتِ، وَهَذَا أَشْهُرُ الْقَوْلَيْنِ، كَمَا تَبَتَّ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ [مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى قَوْمٍ وَهُمْ وَقُوفٌ عَلَى دَوَابِّ لَهُمْ وَرَوَاجِلُ، فَقَالَ لَهُمْ: «ارْكَبُوهَا سَالِمَةً وَدَعُوهَا سَالِمَةً، وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيٍّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطَّرْقِ وَالْأَسْوَاقِ، فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا، وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ مِنْهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَفِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ الضَّفَدَعِ. وَقَالَ: نَقِيفُهَا تَسْبِيحٌ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا» أَيْ إِنَّهُمْ لَا يَعْاجِلُ مَنْ عَصَاهُ بِالْعُقُوبَةِ، بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ، فَإِنْ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ أَخَذَهُ أَخَذَ عَزِيزٌ مُتَتَدِرٌ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِينَ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ»<sup>(٤)</sup>. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَنَ وَهِيَ ظَلَمَةٌ»... الْآيَةُ [هود: ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَكَاكِبٌ مِنْ قَرِينَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ»... الْآيَةُ [الحج: ٤٨]، وَقَالَ: «فَكَانَ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ»... الْآيَتَيْنِ [الحج: ٤٥، ٤٦]، وَمَنْ أَقْلَعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ عِصْيَانٍ، وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ وَتَابَ إِلَيْهِ، تَابَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ فَعَسَى أَنْ يَلْفِظَ مِنْهُ نَارَةً» [النساء: ١١٠]، وَقَالَ هُتَنَّا: «إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا» كَمَا قَالَ فِي آخِرِ فَاطِرٍ: «إِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَرُولا وَلَئِنْ زُلْزَلَا لَإِنْ أَمْسَكْنَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ» إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا إِلَى أَنْ قَالَ: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ

[الآيات: ٤١-٤٥].

«وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا»<sup>(٥)</sup> وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا<sup>(٦)</sup>

### [الْحِجَابُ عَلَى قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَإِذَا قَرَأْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْقُرْآنَ، جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا مَسْتُورًا. قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: هُوَ الْأَكِنَّةُ عَلَى قُلُوبِهِمْ<sup>(٥)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُوكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ» أَيْ مَانِعٌ حَائِلٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْنَا مِمَّا تَقُولُ شَيْءٌ. وَقَوْلُهُ: «حِجَابًا مَسْتُورًا» بِمَعْنَى سَانِرٍ

(١) فتح الباري: ٦/٦٧٩ (٢) أحمد: ٤٣٩/٣ إسناده ضعيف وانفرد بهذا المتن زيان عن سهل وهذا الحديث ضعيف لا سيما في سنده ابن لهيعة لكن أخرجه أحمد ٤٤٠/٣ والدارمي (٢٦٧١) والطبراني ٣٠/١٩٣ وابن حبان ٥٦١٩ والحاكم ٤٤٤/١، ٣/١٠٠ من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن سهل بن معاذ عن أنس رضي الله عنه دون قوله "مركوبة خير..." وصححه الحاكم والذهبي. (٣) لم أجده في النسائي الصغير والكبرى بهذا اللفظ وقد صحَّ النهي عن قتل الضفدع أخرجه أبو داود (٥٢٦٩، ٣٨٧١) والنسائي (٤٣٦٠) أحمد ٤٥٣/٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع، وأخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٣٧١٦) وابن عدي في الكامل وغيرهما من طريق المسيب بن واضح عن عبد الله بن عمرو، والمسيب يخطي كثيرا (٤) فتح الباري: ٨/٢٠٥ ومسلم: ٤/١٩٩٧ (٥) الطبري: ٤٥٧/١٧ (٦) مسند أبي يعلى: ١/٥٣ حسن بشواهد

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِدُّكَ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَضْحَكُونَ إِلَيْكَ رِءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قَدْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِن الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرَحِّمَكُمْ أَوْ يُعَذِّبْكُمْ أَوْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا وَجَمَعَتْهُمْ الطَّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ مَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثُمَّ انْصَرَفُوا حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّلَاثَةُ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مَجْلِسَهُ فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا فَجَمَعَتْهُمْ الطَّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تَبْرَحْ حَتَّى نَتَعَاهَدَ لَا نَعُودُ، فَتَعَاهَدُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ تَفَرَّقُوا، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْسَنُ بَنَ شَرِيقٍ أَخَذَ عَصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: يَا أَبَا نَعْلَبَةَ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أَعْرِفُهَا وَأَعْرِفُ مَا يُرَادُ بِهَا، وَسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا عَرَفْتُ مَعْنَاهَا وَلَا مَا يُرَادُ بِهَا، قَالَ الْأَخْسَنُ: وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتُ بِهِ. قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ مَا رَأَيْتُكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟

(١) كما في الطبري: من "صاف القائد جنده" وفي الأصل:

صافها. (٢) الطبري: ٤٥٨/١٧

مَصْدَرًا مِنْ غَيْرِ الْفِعْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ...﴾ [آلِة: غافر: ٤٥]. قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرْتَ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ...﴾ [آلِة: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَنْكَرَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ، وَكَبُرَتْ عَلَيْهِمْ، فَصَافَهَا<sup>(١)</sup> إِبْلِيسُ وَجُنُودَهُ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُضْمِيَهَا وَيُعْلِيَهَا وَيَنْصُرَهَا وَيُظْهِرَهَا عَلَى مَنْ نَاوَاهَا، إِنَّهَا كَلِمَةٌ مِنْ خَاصَمٍ بِهَا فَلَجَ، وَمَنْ قَاتَلَ بِهَا نَصَرَ، إِنَّمَا يَعْرِفُهَا أَهْلُ هَذِهِ الْجَرِيرَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، الَّتِي يَقْطَعُهَا الرَّكَّابُ فِي لَيَالٍ قَلِيلَةٍ، وَيَبْسُرُ الدَّهْرُ فِي فِتَامٍ مِنَ النَّاسِ، لَا يَعْرِفُونَهَا وَلَا يَقْرُونَ بِهَا<sup>(٢)</sup>.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

#### [تَنَاجِي قُرَيْشٍ بَعْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِمَا يَتَنَاجَى بِهِ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ جِئُوا يَسْتَمِعُونَ قِرَاءَتَهُ ﷺ سِرًّا مِنْ قَوْمِهِمْ، بِمَا قَالُوا مِنْ أَنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ، مِنَ السَّحْرِ - عَلَى الْمَشْهُورِ - أَوْ مِنَ السَّحْرِ وَهُوَ الرُّثَّةُ، أَيْ إِنْ تَتَّبِعُونَ - إِنْ اتَّبَعْتُمْ مُحَمَّدًا - إِلَّا بَشَرًا يَأْكُلُ.

وَفِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا هَهُنَا أَنَّهُ مَسْحُورٌ، لَهُ رَيْيُ يَأْتِيهِ بِمَا اسْتَمَعُوهُ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي يَنْلُوهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: شَاعِرٌ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كَاهِنٌ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: مَجْنُونٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: سَاحِرٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أَيْ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ وَلَا يَجِدُونَ إِلَيْهِ مَخْلَصًا، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنُ شِهَابِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَأَبَا جَهْلٍ بْنَ هِشَامٍ وَالْأَخْسَنُ بْنُ شَرِيقِ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَهَبِ الثَّقَفِيِّ، حَلِيفَ نَبِيِّ زُهْرَةَ، خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْتَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ، فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا يَسْتَمِعُ فِيهِ، وَكُلٌّ لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، حَتَّى إِذَا جَمَعَتْهُمْ الطَّرِيقُ تَلَاوَمُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تَعُودُوا فَلَوْ رَأَيْتُمْ بَعْضَ سُفْهَانِكُمْ لَاَوْقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا، حَتَّى إِذَا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَّةُ، عَادَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَجْلِسِهِ فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ،



أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٤٩﴾ أَيُّ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، ثُمَّ صِرْتُمْ بَشَرًا تَتَشِيرُونَ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَلَوْ صِرْتُمْ إِلَى أَيِّ حَالٍ ﴿٥٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عِلَيْهِ ﴿٥١﴾ الْآيَةُ [الروم: ٢٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيَنْفِضُونُ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: يُحَرِّكُونَهَا اسْتِهْزَاءً<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَاهُ هُوَ الَّذِي تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا، لِأَنَّ الْإِنْفَاصَ هُوَ التَّحَرُّكُ مِنَ أَسْفَلٍ إِلَى أَعْلَى، أَوْ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلظَّلِيمِ - وَهُوَ وَلَدُ النُّعَامَةِ - نَعْصُ، لِأَنَّهُ إِذَا مَشَى عَجِلَ بِمَشْيِهِ وَحَرَّكَ رَأْسَهُ، وَيُقَالُ: نَعَصْتُ سِنَهُ، إِذَا تَحَرَّكَتْ وَازْتَفَعَتْ مِنْ [مَتَّبِعِهَا].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَقُولُوكَ مَتَّى هُوَ﴾ إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِالِاسْتِيعَادِ مِنْهُمْ لَوْ قَرِعَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَّى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أَيُّ احْذَرُوا ذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَرِيبٌ إِلَيْكُمْ سَيَأْتِيكُمْ لَا مَحَالَةَ، فَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أَيُّ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أَيُّ إِذَا أَمَرَكُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمُرُنَا إِلَّا وَجِدَةً كَلَجٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾ [٣٣] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات: ١٣، ١٤] أَيُّ إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ بِانْتِهَارٍ، فَإِذَا النَّاسُ قَدْ خَرَجُوا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ إِلَى ظَاهِرِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أَيُّ تَقُومُونَ كُلُّكُمْ إِجَابَةً لِأَمْرِهِ وَطَاعَةً لِأَرَادَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَطَّوُّونَ﴾ أَيُّ يَوْمَ تَقُومُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ ﴿إِنْ لَيْتُمْ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رُبُّهَا لَمْ يَلْتَمُوا إِلَّا عَذَابَ اللَّهِ خَوْفًا﴾ [النازعات: ٤٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفْخُ فِي الْأُصُورِ وَتَحْشُرُ الْمُتَجَمِّينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [٥٥] يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٥٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْ لَهُمْ طَرِيقَةٌ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا [طه: ١٠٢-١٠٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ

قَالَ: مَاذَا سَمِعْتُ؟ قَالَ: تَنَارَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ: أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطُوا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَافَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسِي رَهَانٍ، قَالُوا: مِمَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَتَى نَذْرُكَ هَذِهِ، وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْسَنُ وَتَرَكَهُ<sup>(١)</sup>.

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُنَا أَوْنَا لَمْعُوتُونَ خَلَقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُوكَ مَتَّى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

[الرَّدُّ عَلَى مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُسْتَبْعِدِينَ وَقَوْلُهُ الْمَعَادِ، الْقَائِلِينَ اسْتِفْهَامَ انْكَارٍ مِنْهُمْ لِلذِّكْرِ: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفُنَا﴾ أَيُّ تَرَابًا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَبَارًا<sup>(٢)</sup> ﴿إِذَا كُنَّا لَمْعُوتُونَ خَلَقًا جَدِيدًا﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَمَا بَلَيْنَا وَصِرْنَا عَدَمًا لَا نُذَكَّرُ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ: ﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمْعُوتُونَ فِي الْخَافَةِ﴾ ﴿٤٩﴾ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَجْرَةً ﴿٥٠﴾ قَالُوا يَلَاكَ إِذَا كَرَّةٌ خَامِرَةٌ [النازعات: ١٠-١٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلَقَهُ﴾ الْآيَتَيْنِ [يسن: ٨، ٧]، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجِيبَهُمْ فَقَالَ: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾. إِذْ هُمَا أَشَدُّ امْتِنَاعًا مِنَ الْعِظَامِ وَالرُّفَاتِ ﴿أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيجٍ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: هُوَ الْمَوْتُ. وَرَوَى عَطِيَّةُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: لَوْ كُنْتُمْ مَوْتَى لَأَحْيَيْتُكُمْ<sup>(٣)</sup>.

وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو صَالِحٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّكُمْ لَوْ قَرَضْتُمْ أَنْكُمْ لَوْ صِرْتُمْ إِلَى الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَيَاةِ، لِأَحْيَاكُمْ اللَّهُ إِذَا شَاءَ، فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يَعْنِي السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ. وَفِي رِوَايَةٍ: مَا شِئْتُمْ فَكُونُوا، فَسَيُعِيدُكُمْ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِكُمْ.

(١) ابن هشام: ٣٣٧/١ (٢) الطبري: ٤٦٤/١٧ (٣) الطبري: ٤٦٣/١٧ (٤) الطبري: ٤٦٣/١٧ (٥) الطبري: ٤٦٧/١٧

الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ [الروم: ٥٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْمَادِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٧﴾﴾

[لِتَتَكَلَّمُوا بِالْعِبَادَةِ بِالْحُسْنِ وَالْأَدَبِ]

يَا مُرُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي مَخَاطِبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ الْكَلَامَ الْأَحْسَنَ وَالْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ، فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ، وَأَخْرَجَ الْكَلَامَ إِلَى الْفَعَالِ، وَأَوْقَعَ الشَّرَّ وَالْمُخَاصِمَةَ وَالْمُقَاتَلَةَ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِأَدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ حِينِ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِأَدَمَ، وَعَدَاوَتُهُ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ، وَلِهَذَا نَهَى أَنْ يُشِيرَ الرَّجُلُ إِلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِحِدِيدَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، أَيْ قُرْبَمَا أَصَابَتْهُ بِهَا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزِعَ فِي يَدِهِ، فَيَقْعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»<sup>(١)</sup> أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ<sup>(٢)</sup>.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَسَاءَ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٨﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَوَعَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٩﴾﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ: أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمْ الْهِدَايَةَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ﴿إِنْ يَسَاءَ يَرْحَمَكُمُ﴾ بِأَنْ يُؤَفِّقَكُمْ لِطَاعَتِهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ﴿أَوْ إِنْ يَسَاءَ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ - يَا مُحَمَّدٌ - ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أَيُّ إِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ نَذِيرًا، فَمَنْ أَطَاعَكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاكَ دَخَلَ النَّارَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ بِمَرَاتِبِهِمْ فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

[تَفْضِيلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ]

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»<sup>(٣)</sup>. فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ هُوَ التَّفْضِيلُ بِمَجَرَّدِ

التَّسْهِيِّ وَالْعَصِيَّةِ، لَا بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ، فَإِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى شَيْءٍ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الرُّسُلَ أَفْضَلُ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ أُولَى الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَفْضَلُهُمْ، وَهُمْ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وَفِي الشُّورَى قَوْلُهُ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقْبِلُوا إِلَيْهِ وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] وَلَا خِلَافَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَفْضَلُهُمْ، ثُمَّ بَعْدَهُ إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ مُوسَى ثُمَّ عِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَقَدْ بَسَطْنَاهُ بَدَلًا لِيْلِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَاللَّهُ الْمُتَوْفَّقُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَعَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] تَنْبِيْهُ عَلَى فَضْلِهِ وَشَرَفِهِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خُفِّ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِهِ فَتُسْرَجُ، فَكَانَ يَقْرَأُهُ قَبْلَ أَنْ يُسْرَعَ» يَعْنِي الْقُرْآنَ<sup>(٤)</sup>.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

[إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ لَا تَقْدِرُ عَلَى النِّفْعِ وَالضَّرْرِ بَلْ تَطْلُبُ الْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا غَيْرَ اللَّهِ ﴿ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ فَارْعُبُوا إِلَيْهِمْ (ف) إِنَّهُمْ ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾ أَيُّ بِالْكُلِّيَّةِ ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أَيُّ بِأَنْ يُحَوِّلُوهُ إِلَى غَيْرِكُمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ﴾... الْآيَةِ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الشَّرِكِ يَقُولُونَ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَالْمَسِيحَ وَعَزِيرًا، وَهُمْ الَّذِينَ يَدْعُونَ، يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ وَالْمَسِيحَ وَعَزِيرًا<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الْآيَةِ، رَوَى

(١) أحمد: ٣١٧/٢ (٢) فتح الباري: ٢٦/١٣ ومسلم: ٤/ ٢٠٢٠ (٣) فتح الباري: ٥١٩/٦ ومسلم: ١٨٤٤/٤ (٤) فتح الباري: ٥٢٢/٦ (٥) الطبري: ٤٧١/١٧ العوفي معروف بالضعف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٨

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ  
وَأَنَّا نَمُودُ النَّافَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ  
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا  
جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ  
فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾  
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ  
قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي  
كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتِنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا خَاصَّةَ  
ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا لَقِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَأَتَتْ  
جَهَنَّمَ جَزَاءً وَكَوْجَرَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزَزَ مِنْهُمُ ابْنُ  
مَرْيَمَ يَصُوتُكَ وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكِ وَرَجُلًاكَ وَشَارِكُهُمْ  
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا  
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى  
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفَلَكَ  
فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

نَسْتَأْذِنُ بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا  
هَلَكُوا، كَمَا أَهْلَكْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ. قَالَ: «لَا،  
بَلِ اسْتَأْنِ بِهِمْ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ  
بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ»... الْآيَةُ [الإسراء: ٥٩]  
(٤). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرٍ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ  
لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أُذْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصِّفَا ذَهَبًا وَنُؤْمِنُ  
بِكَ. قَالَ: «وَتَعْمَلُونَ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَدَعَا، فَاتَاهُ  
جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: إِنَّ  
شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ  
عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَا أَعَذَّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ  
لَهُمْ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَقَالَ: «بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ

الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ الْأَعْمَشِ، عَنْ  
إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: «أُرْسِلُكَ الَّذِينَ  
يَدْعُونَكَ يَتَّبِعُونَكَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ» قَالَ: نَاسٌ مِنَ الْجِنِّ  
كَانُوا يَعْبُدُونَ فَاسْتَلَمُوا، وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ  
الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَاسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَّكَ  
هَؤُلَاءُ بِدِينِهِمْ» (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ» لَا تَتِمُّ  
الْعِبَادَةُ إِلَّا بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَبِالْخَوْفِ يَنْكَفُ عَنِ  
الْمُنَافِي، وَبِالرَّجَاءِ يَكْثُرُ مِنَ الطَّاعَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ  
عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» أَيُّ يَنْبَغِي أَنْ يُحَذَرَ مِنْهُ وَيَخَافَ مِنْ  
وُقُوعِهِ وَحُصُولِهِ، عِنَادًا بِاللَّهِ مِنْهُ.

«وَإِنْ مِنْ قَرْنٍ إِلَّا تَحْتَهُ مَهِلِكُهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ  
مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا» ﴿٥٩﴾  
[تَهْلِكُ أَوْ تُعَذِّبُ قَرَى الْكَفَّارِ كُلُّهَا قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ]  
هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ قَدْ حَتَمَ وَقَضَى بِمَا  
عِنْدَهُ فِي اللُّوحِ الْمَحْضُوطِ: أَنَّهُ مَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا سَيَهْلِكُهَا بَأْنُ  
يُبِيدُ أَهْلَهَا جَمِيعَهُمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ «عَذَابًا شَدِيدًا» إِمَّا يَقْتُلُ أَوْ  
ابْتِلَاءً بِمَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ  
وَحُطَايَاهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ: «وَمَا  
ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» [هود: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى:  
«فَذَاقَتْ وَكَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسرًا» وَقَالَ: «وَكَايْنِ تَنْ قَرْنٍ  
عَنْتَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ» الْآيَاتِ [الطلاق: ٧-٩].

«وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَأَنَّا  
نَمُودُ النَّافَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا» ﴿٥٩﴾  
[سَبَبُ عَدَمِ إِرْسَالِ الْآيَاتِ]

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: يَا مُحَمَّدُ!  
إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءُ فَمِنْهُمْ مَنْ سَخَّرْتَ لَهُ الرِّيحَ،  
وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُخْبِي الْمَوْتَى، فَإِنْ سَرَّكَ أَنْ نُؤْمِنَ بِكَ  
وَنُصَدِّقَكَ، فَادْعُ رَبَّكَ أَنْ يَكُونَ لَنَا الصِّفَا ذَهَبًا، فَأَوْحَى  
اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ الَّذِي قَالُوا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ نَفْعَلَ  
الَّذِي قَالُوا، فَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا نَزَلَ الْعَذَابُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ  
نُزُولِ الْآيَةِ مُنَاطَرَةٌ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ نَسْتَأْذِنَ بِقَوْمِكَ اسْتَأْنَيْتَ  
بِهِمْ. قَالَ: «يَا رَبِّ اسْتَأْنِ بِهِمْ» (٣). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ  
جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمَا (٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا،  
وَأَنْ يُنَحِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ فَيَزْرَعُوا، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ شِئْتَ أَنْ

(١) فتح الباري: ٢٤٩/٨، ٢٥٠ (٢) الطبري: ٤٧٧/١٧ (٣)  
الطبري: ٤٧٧/١٧ (٤) أحمد: ٢٥٨/١ (٥) النسائي في  
الكبرى: ٣٨٠/٦ والطبري: ٤٧٦/١٧

وَالرَّحْمَةِ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رُسُلٌ إِلَّا نَحْنُ بِمَا نَحْنُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَوِّفُ النَّاسَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَغْتَبِرُونَ وَيَذْكُرُونَ وَيَرْجِعُونَ، ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْكُوفَةَ رُجِفَتْ عَلَى عَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ رَبَّكُمْ يَسْتَعِيبُكُمْ فَأَعِيبُوهُ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى: أَنَّ الْمَدِينَةَ زُلْزِلَتْ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّاتٍ، فَقَالَ عُمَرُ: أَحْدَثْتُمْ، وَاللَّهِ لَئِنْ عَادَتْ لَأَفْعَلَنَّ وَلَا فَعَلَنَّ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ، وَإِنِّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْرَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتَغْفَارِهِ - ثُمَّ قَالَ: - يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزَيِّي عَبْدُهُ أَوْ تَزَيِّي أُمَّتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَّيْتُمْ كَثِيرًا»<sup>(٤)</sup>.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُعْنًا كَبِيرًا﴾<sup>(٥)</sup>

[إِحَاطَةُ اللَّهِ بِالنَّاسِ وَجَعْلُهُ رُيَا النَّبِيِّ فِتْنَةً لَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُحَرِّضًا عَلَى إِبْلَاجِ رِسَالَتِهِ وَمُخْبِرًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتِ قَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ. [وَأَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعُرْوَةُ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أَيْ عَصَمَكَ مِنْهُمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾... الْآيَةَ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قَالَ: هِيَ رُيَا عَيْنِ أَرِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شَجَرَةُ الرَّقُومِ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَغَيْرُهُمَا<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٨)</sup>.

وَهَكَذَا فَسَّرَ ذَلِكَ بِلَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالْحَسَنُ، وَمَسْرُوقٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَقَتَادَةُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٩)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّسَتْ أَحَادِيثُ الْإِسْرَاءِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ مُسْتَفْصَاةً، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَتَقَدَّمَ أَنَّ نَاسًا رَجَعُوا عَنْ دِينِهِمْ بَعْدَ مَا كَانُوا عَلَى الْحَقِّ، لِأَنَّهُ لَمْ تَحْمِلْ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ ذَلِكَ، فَكَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ،

وَجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا لِآخِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أَيْ اخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فَهِيَ شَجَرَةُ الرَّقُومِ، لَمَّا أَخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ رَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَرَأَى شَجَرَةَ الرَّقُومِ فَكَذَّبُوا بِذَلِكَ، حَتَّى قَالَ أَبُو جَهْلٍ عَلَيْهِ لَعْنَتُ اللَّهِ: هَاتُوا لَنَا ثَمَرًا وَزُبْدًا، وَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْ هَذَا بِهِذَا، وَيَقُولُ: تَرَفَّقُوا، فَلَا تَعْلَمُ الرَّقُومُ غَيْرَ هَذَا. حَكَى ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَأَبُو مَالِكٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَكُلُّ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ، فَسَّرَهُ كَذَلِكَ بِشَجَرَةِ الرَّقُومِ<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُفُوهُمْ﴾ أَيْ الْكُفَّارَ بِالْوَعِيدِ وَالْعَذَابِ وَالتَّكَالِ ﴿فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُعْنًا كَبِيرًا﴾ أَيْ تَمَادِيًا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَذَلِكَ مِنْ خِذْلَانِ اللَّهِ لَهُمْ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾<sup>(١١)</sup> قَالَ آدَمُ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى لَيْثٍ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْسَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا<sup>(١٢)</sup>

[قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، وَأَنَّهَا عِدَاوَةٌ قَدِيمَةٌ مُنْذُ خَلَقَ آدَمَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ فَانْحَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِقَارًا لَهُ ﴿قَالَ عَاسِجٌ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وَقَالَ أَيْضًا: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يَقُولُ لِلرَّبِّ جِرَاءَةً وَكُفْرًا وَالرَّبُّ يَحْلُمُ وَيُنْظِرُ ﴿قَالَ آدَمُ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى﴾ الْآيَةِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَا شَتَوِيلَيْنِ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا حَتَوَيْنِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَا ضِلَّيْنَهُ<sup>(١١)</sup>. وَكُلُّهَا مُتَّفَاقَةٌ، وَالْمَعْنَى: أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي شَرَفْتَهُ وَعَظَّمْتَهُ عَلَيَّ، لَئِنْ أَنْظَرْتَنِي لِأَضِلَّنْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ بَعَلَ مِنْهُمْ فَاتَّ جَهَنَّمَ جَرَادًا ثُمَّ تَفَافَرُوا﴾<sup>(١٣)</sup> وَأَسْتَفَزَزَ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بَصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ

(١) أحمد: ٢٤٢/١ (٢) الطبري: ٤٧٨/١٧ (٣) ابن أبي شيبه: ٤٧٣/٢ (٤) فتح الباري: ٦١٥/٢ ومسلم: ٦١٨/٢ (٥) الطبري: ٤٧٩/١٧، ٤٨٠ (٦) فتح الباري: ٢٥٠/٨ (٧) أحمد: ٢٢١/١ وعبد الرزاق: ٣٨٠/٢ (٨) الطبري: ٤٨١/١٧ (٩) الطبري: ٤٨٠/١٧، ٤٨١، ٤٨٢ (١٠) الطبري: ٤٨٤/١٧، ٤٨٥، ٤٨٦ (١١) الطبري: ٤٨٩/١٧



سورة الإسراء

٢٨٩

سورة الإسراء

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ﴿٢٨٩﴾ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٢٩٠﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا ﴿٢٩١﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عُذْرًا ﴿٢٩٢﴾ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفُ الْأُولَى قَرَّعَهُمْ نَزَقَاتُ السَّمَاءِ فَوَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٢٩٣﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسْمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنًا ﴿٢٩٤﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٩٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِفَتْرَى عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا اتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٢٩٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبْسِنَاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٢٩٧﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٢٩٨﴾

## [بَيَانُ شَرَفِ الْإِنْسَانِ وَكَرَمِهِ]

[و] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَشْرِيفِهِ لِتَنِي آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ إِيَّاهُمْ فِي خَلْقِهِ لَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ وَأَكْمَلِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أَيْ يَمْشِي قَائِمًا مُتَّصِبًا عَلَى رِجْلَيْهِ، وَيَأْكُلُ يَدَيْهِ - وَغَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ وَيَأْكُلُ بِفَمِهِ - وَجَعَلَ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَفَوَادًا يَفْقَهُ بِذَلِكَ كُلَّهُ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَيَعْرِفُ مَنَافِعَهَا وَخَوَاصَّهَا، وَمَضَارَّهَا فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَمَحَلَّتْهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ أَيْ عَلَى الدَّوَابِّ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْخَيْلِ وَالْبَعَالِ ﴿وَوَفَّقَهُمْ مِنَ الطَّبِئَةِ﴾ أَيْ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ، وَلَحُومٍ وَأَلْبَانٍ، مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الطَّعُومِ وَالْأَلْوَانِ الْمُشْتَهَاةِ اللَّذِيذَةِ، وَالْمَنَاطِرِ الْحَسَنَةِ، وَالْمَلَأَسِ الرَّفِيعَةِ مِنْ سَائِرِ

مَسَكِّمِ الضَّرِّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ﴿٢٨٩﴾ أَيْ ذَهَبَ عَنْ قُلُوبِكُمْ كُلِّ مَا تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أَيْ نَسِيتُمْ مَا عَرَفْتُمْ مِنْ تَوْحِيدِهِ فِي الْبَحْرِ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ دُعَائِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أَيْ سَجِيئَةً هَذَا، يُنْسِي النِّعَمَ وَيَجْحَدُهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا﴾ ﴿٢٩١﴾

[أَلَا يَأْتِي عَذَابُ اللَّهِ فِي الْبَرِّ؟!]

يَقُولُ تَعَالَى: أَفَحَسِبْتُمْ بِخُرُوجِكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَمِنْتُمْ مِنْ انْتِقَامِهِ وَعَذَابِهِ؟! ﴿أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي فِيهِ حِجَارَةٌ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ <sup>(١)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكُمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [نعمه: ٢٤] وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ [القمر: ٣٤، ٣٥] وَقَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُورٍ﴾ [هود: ٨٢] وَقَالَ: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿٢٩١﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ [الملك: ١٦، ١٧] وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا﴾ أَيْ نَاصِرًا يَرُدُّ ذَلِكَ عَنْكُمْ، وَيُقِذِّكُمْ مِنْهُ.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيْعًا﴾ ﴿٢٩٢﴾

[وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِي الْبَحْرِ...]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُعْرِضُونَ عَنَّا بَعْدَ مَا اعْتَرَفُوا بِتَوْحِيدِنَا فِي الْبَحْرِ وَخَرَجُوا إِلَى الْبَرِّ ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ فِي الْبَحْرِ مَرَّةً ثَانِيَةً ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أَيْ يَفْصِلُ الصَّوَارِي وَيُغْرِقُ الْمَرَائِبَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: الْقَاصِفُ رِيحُ الْبَحَارِ الَّتِي تَكْسِرُ الْمَرَائِبَ وَتُغْرِقُهَا <sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أَيْ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَإِعْرَاضِكُمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيْعًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَصِيرًا <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَصِيرًا ثَائِرًا أَيْ يَأْخُذُ بِثَائِرِكُمْ بَعْدَكُمْ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَلَا نَخَافُ أَحَدًا يَتَّبِعُنَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ <sup>(٥)</sup>.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَفَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّبِئَةِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٢٩٣﴾

(١) الطبري: ١٧/٤٩٨ عن قتادة. (٢) الطبري: ١٧/٥٠٠

(٣) الطبري: ١٧/٥٠٠ (٤) الطبري: ١٧/٥٠٠ (٥) الطبري:

الأنواع، عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَأَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا مِمَّا يَصْنَعُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ، وَيَجْلِبُهُ إِلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ مِنْ أَطْفَارِ الْأَقَالِيمِ وَالنَّوَاجِي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أَيُّ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَقَدْ اسْتَدِلَّ بِهِذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ جِنْسِ الْبَشَرِ عَلَى جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسْمِيهِ،

فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ﴾ كِتَابُهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فِتْيَلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ

فِي هَذِهِ أَعْمَى فَبِهِ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

[كُلُّ أَحَدٍ يُدْعَى بِإِسْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: أَنَّهُ يُحَاسِبُ كُلَّ أُمَّةٍ بِإِسْمِهِمْ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ. فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَيُّ بَنِيهِمْ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هَذَا أَكْبَرُ شَرَفٍ لِأَصْحَابِ الْحَدِيثِ لِأَنَّ إِمَامَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ بِكِتَابِهِمُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ مِنَ التَّشْرِيعِ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَرَوَى عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: بِكِتَابِهِمْ. فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ هَذَا وَأَنْ يَكُونَ أَرَادَ مَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ أَيُّ بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَرْجَحُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُحْرَمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾... الْآيَةُ [الكهف: ٤٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَانِبَهُ كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعُو إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ بُرْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩] وَهَذَا لَا يَنَافِي أَنْ يُجَاءَ بِالنَّبِيِّ إِذَا حَكَمَ اللَّهُ بَيْنَ أُمَّتِهِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِهِ بِأَعْمَالِهَا، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ هَهُنَا بِالْإِمَامِ هُوَ كِتَابُ الْأَعْمَالِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسْمِيهِ، فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ﴾ كِتَابُهُمْ أَيُّ مِنْ فَرْحَتِهِ وَشُرُورِهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، يَفْرَحُهُ وَيُحِبُّ فِرَاقَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسْمِيهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسَمَائِلِهِ﴾... الْآيَاتِ [الحاقة: ١٩-٢٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فِتْيَلًا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْفَتِيلَ هُوَ الْخِيطُ الْمُسْتَطِيلُ فِي شِقِّ النَّوَاةِ. وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَارُ حَدِيثًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمْ﴾ قَالَ: «يُدْعَى أَحَدُهُمْ فَيُعْطَى كِتَابُهُ بِسْمِيهِ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ، وَيَبْيَضُّ وَجْهُهُ، وَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ يَنَالُهَا، فَيَنْطَلِقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيَرُونَهُ مِنْ بَعِيدٍ، فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اثْنَا بِهِذَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي هَذَا. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ: أَبَشِّرُوا، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَسْوَدُ وَجْهُهُ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جِسْمِهِ، وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا، أَوْ مِنْ شَرِّ هَذَا، اللَّهُمَّ لَا تَأْتِنَا بِهِ، فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اخْزَوْ، فَيَقُولُ: أَبْعَدَكُمْ اللَّهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا»<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ الْآيَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ «وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَيُّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أَعْمَى أَيُّ عَنْ حُجَّةِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَيَسَّاتِرِهِ «فَبِهِ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى» أَيُّ كَذَلِكَ يَكُونُ «وَأَضَلُّ سَبِيلًا» أَيُّ وَأَضَلُّ مِنْهُ، كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا. عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ<sup>(٤)</sup>.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَيْرًا﴾ ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

[سِدَّةُ عَقُوبَةِ النَّبِيِّ لَوْ رَكَنَ شَيْنًا قَلِيلًا إِلَى الْكُفَّارِ فِي

مُطَالَبَتِهِمْ بِتَغْيِيرِ بَعْضِ الْوَحْيِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَأْيِيدِهِ رَسُولَهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، وَتَشْيِيهِ وَعِصْمَتِهِ، وَسَلَامَتِهِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ، وَكَفَيْدِ الْفَجَّارِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَوَلَّى أَمْرَهُ وَنَصْرَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَكْفُلُهُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ وَلِيُّهُ وَحَافِظُهُ، وَنَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَمُظَفِّرُهُ، وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَى مَنْ عَادَاهُ وَخَالَفَهُ، وَنَاوَاهُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْخَرُونَكَ مِنْ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٦﴾ سَنَةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِنَشْتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

نَزَلَتْ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ، لَمَّا هَمُّوا بِإِخْرَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، فَتَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِهِذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ

(١) الطبري: ٥٠٢/١٧ (٢) الطبري: ٥٠٣، ٥٠٢/١٧ (٣) موارد الظلمات: ٢٥٨٨ وصحيح ابن حبان: ٧٣٤٩ وسنن الترمذي: ٣١٣٦ (٤) الطبري: ٥٠٤، ٥٠٥/١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩٠

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا  
وَإِذَا لَا يَلِيكَ شَيْءٌ خَلَفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ  
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَمَن  
الْصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ  
قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ  
نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ  
أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ  
لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ  
إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ  
وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا نَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا  
أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَمَّنَا بَعِثْنَا فِيهِ نِفُسًا  
﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَى  
سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي  
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن سَأَلْتُمُ النَّاسَ  
بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَهٗ عَلَيْكَ وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ  
﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قَالَ: تَشْهَدُهُ  
مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ ﴿٦﴾. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي  
هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فَضْلُ صَلَاةِ  
الْجُمُعَةِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ، خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً،  
وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ»  
يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَقْرَأُوا إِنَّ شَيْئًا: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ  
الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿٧﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ  
النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ  
مَشْهُودًا﴾ قَالَ: «تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ» ﴿٨﴾.

(١) الطبري: ٥١٤/١٧ (٢) الطبري: ٥١٥/١٧ (٣) الطبري:  
٥١٥/١٧ (٤) الطبري: ٥١٦، ٥١٥/١٧ (٥) الطبراني ١٧/  
٥١٨ وفيه رجل لم يسم وآخر ضعيف لكن أصل القصة مخرج في  
الصحيحين وغيرهما. (٦) الطبري: ٥٢٠/١٧ (٧) فتح  
الباري: ٢٥١/٨ (٨) أحمد: ٤٧٤/٢

أَخْرَجُوهُ لَمَّا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا بَسِيرًا، وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُ  
لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هَجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ - بَعْدَ مَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ  
لَهُ - إِلَّا سَنَةٌ وَبَضْفٌ، حَتَّى جَمَعَهُمُ اللَّهُ وَإِيَّاهُ بِبَدْرٍ عَلَى غَيْرِ  
مِيعَادٍ، فَأَمَكَّهُ مِنْهُمْ، وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، فَقَتَلَ  
أَشْرَافَهُمْ وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ  
أَرْسَلْنَا... الْآيَةَ، أُنِيَ هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا  
بِرُسُلِنَا، وَأَذَوْهُمْ - بِخُرُوجِ الرُّسُولِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ -  
يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ - وَلَوْلَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ  
وَسَلَّمَ رَسُولُ الرَّحْمَةِ، لَجَاءَهُمْ مِنَ النَّقْمِ فِي الدُّنْيَا مَا لَا  
قِيلَ لِأَحَدٍ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ  
لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾... الْآيَةَ [الأنفال: ٣٣].

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ  
قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ  
عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

## [الْأَمْرُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ أَمْرًا لَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ  
الْمَكْتُوبَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾.  
وَقَالَ هُشَيْمٌ عَنْ مُغِيرَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:  
دُلُوكُهَا: زَوَالُهَا <sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ <sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ  
مَالِكٌ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو  
بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيُّ وَمُجَاهِدٌ. وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو  
جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَقَتَادَةُ <sup>(٤)</sup>. وَمِمَّا اسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ ابْنُ  
جَرِيرٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: دَعَوْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ  
شَاءَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَطَعِمُوا عِنْدِي، ثُمَّ خَرَجُوا حِينَ زَالَتْ  
الشَّمْسُ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «اُخْرُجْ يَا أَبَا بَكْرٍ فَهَذَا  
حِينَ ذَلَكْتَ الشَّمْسُ» <sup>(٥)</sup> فَعَلَى هَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ دَخَلَ  
فِيهَا أَوْقَاتُ الصَّلَاةِ الْخَمْسُ: فَمِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ  
إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ - وَهُوَ: ظِلَامُهُ، وَقِيلَ: غُرُوبُ الشَّمْسِ -  
أُجِدَ مِنْهُ الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ وَالْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ، وَقَوْلُهُ:  
﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الْفَجْرِ. وَقَدْ ثَبَتَ السُّنَّةُ عَنْ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَوَاتُرًا: مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ بِتَفَاصِيلِ هَذِهِ  
الْأَوْقَاتِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ، مِمَّا تَلَقَّوْهُ خَلْفًا  
عَنْ سَلَفٍ، وَقَرَنَّا بَعْدَ قَرْنٍ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوَاضِعِهِ. وَ  
لِلَّهِ الْحَمْدُ.

## [اجْتِمَاعُ الْمَلَائِكَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ]

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ



وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةٍ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١)</sup>. وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يَصَلُّونَ»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يَجْمَعُ الْحَرَسَانِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَيَصْعَدُ هُوَ لَاءٌ وَتُقِيمُ هُوَ لَاءٌ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ<sup>(٤)</sup>.

### [الْأَمْرُ بِالتَّهَجُّدِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ أَمَرَ لَهُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ؟ قَالَ: «صَلَاةُ اللَّيْلِ»<sup>(٥)</sup>. وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَاتِ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّ التَّهَجُّدَ مَا كَانَ بَعْدَ نَوْمٍ. قَالَهُ عُلُقَمَةُ وَالْأَسْوَدُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٦)</sup>. وَهُوَ الْمَعْرُوفُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، وَكَذَلِكَ ثَبَتَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَتَهَجَّدُ بَعْدَ نَوْمِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٧)</sup> وَعَائِشَةَ<sup>(٨)</sup> وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. كَمَا هُوَ مُبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هُوَ مَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ<sup>(٩)</sup> وَيُحْمَلُ عَلَى مَا كَانَ بَعْدَ النَّوْمِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ إِنَّمَا جُعِلَ قِيَامُ اللَّيْلِ فِي حَقِّهِ نَافِلَةً عَلَى الْخُصُوصِ، لِأَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَغَيْرُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِنَّمَا يَكْفُرُ عَنْهُ صَلَوَاتُهُ النَّوَافِلُ الذُّنُوبَ الَّتِي عَلَيْهِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ<sup>(١٠)</sup>. وَهُوَ فِي الْمُسْنَدِ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ أَيُّ إِفْعَلْ هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكَ بِهِ لِتُقِيمَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُكَ فِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: ذَلِكَ هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَقُومُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلشَّفَاعَةِ لِلنَّاسِ، لِإِثْرِيحِهِمْ رَبُّهُمْ مِنْ عَظِيمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ<sup>(١٢)</sup>.

عَنْ حَدِيثِهِ قَالَ: يُجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمْ

(١) تحفة الأحوذني: ٥٦٩/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٨١/٦ وابن ماجه: ٢٢٠/١ (٢) فتح الباري: ٤١/٢ ومسلم: ١/٤٣٩ (٣) الطبري: ٥٢١/١٧ (٤) الطبري: ٥٢١/١٧ (٥) مسلم: ٨٢١/٢ (٦) الطبري: ٥٢٤/١٧ (٧) فتح الباري: ٨/٨٣ (٨) فتح الباري: ٣٩/٣ (٩) الطبري: ٥٢٤/١٧ (١٠) الطبري: ٥٢٥/١٧ (١١) أحمد: ٢٥٥/٥ (١٢) الطبري: ٥٢٦/١٧ (١٣) الطبري: ٥٢٦/١٧ (١٤) الطبري: ٥٢٨/١٧ (١٥) الطبري: ٥٢٧/١٧ (١٦) الطبري: ٥٢٨/١٧ (١٧) مسلم: ١٨٢/١

فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِإِيدِهِ وَفَتَحَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَطُّ،

وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ. فَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ

رَسُولُ اللَّهِ، اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

صَاحِبُ الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا تَلِيْقُ إِلَّا لَهُ، وَ إِذَا أَدْنَى اللَّهُ تَعَالَى فِي الشَّفَاعَةِ لِلْعَصَاةِ، شَفَعَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ، وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيُشْفَعُ هُوَ فِي خَلَائِقَ لَا يَعْلَمُ عَذَابُهُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ مِثْلَهُ وَلَا يُسَاوِيهِ فِي ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ بَسْطْتُ ذَلِكَ مُسْتَفْصًى فِي آخِرِ كِتَابِ «السِّيَرَةِ» فِي بَابِ الْخَصَائِصِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَلِنَذْكُرِ الْآنَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانَ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ يَصْبِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [جُنًا]، كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشفَعْ، يَا فُلَانُ اشفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَذَلِكَ يَوْمٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا<sup>(٢)</sup>.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَتَذْنُو حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ، فَيَنْتَمِا هُم كَذَلِكَ اسْتَعَاثُوا بِآدَمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيُشْفَعُ بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَمْنِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلَقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَوْمِذُ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا<sup>(٣)</sup>». وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الزَّكَاةِ. وَزَادَ: «فَيَوْمِذُ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ»<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: ثُمَّ يَأْذُنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الشَّفَاعَةِ فَيَقُومُ رُوحُ الْقُدُسِ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يَقُومُ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ يَقُومُ عِيسَى أَوْ مُوسَى، قَالَ أَبُو الزَّعْرَاءِ: لَا أَدْرِي أَيُّهُمَا، قَالَ: ثُمَّ يَقُومُ نَبِيُّكُمْ ﷺ رَابِعًا فَيُشْفَعُ لَا يُشْفَعُ أَحَدٌ بَعْدَهُ أَكْثَرَ مِمَّا شَفَعَ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا»<sup>(٥)</sup>.

### حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلَحْمٍ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذَّرَاعَ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَهَشَّ مِنْهَا تَهَشَّةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُم الدَّاعِيَ، وَيَتَقَدَّهْمُ الْبَصَرُ، وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِمَّا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْتَظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ،

(١) الطبراني في الطول: ٣٦ (٢) فتح الباري: ٢٥١/٨ (٣)

الطبري: ٥٢٩/١٧ (٤) فتح الباري: ٣٩٦/٣ (٥) مسند

الطيالسي: ٥١ والنسائي في الكبرى: ١١٢٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩١

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتُفْجِرُ الْأَنْهَارَ خِلَافَ جَبَلٍ ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى نُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ إِلَى قَوْمِهِ﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ... الآية [الحديد: ٢٥].

[وَعِيدٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ]

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ... الآية، تهديدٌ وَعِيدٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ، وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَزَهَقَ بَاطِلُهُمْ أَيْ إِضْمَحَلَّ وَهَلَكَ. فَإِنَّ الْبَاطِلَ لَا ثَبَاتَ لَهُ مَعَ الْحَقِّ وَلَا بَقَاءَ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: دَخَلَ

(١) أحمد: ٤٣٥/٢ (٢) البخاري: ٤٧١٢ ومسلم: ٨٩٤ (٣) أحمد: ٢٢٣/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٥٧٤/٨ إسناده ضعيف فيه قابوس بن أبي طيبان - قال ابن حجر: فيه لين (تقريب) قال ابن حبان: كان رديء الحفظ ينفرد عن أبيه بما لا أصل له [المجروحين ٢/٢١٥] وهذا الحديث يرويه عن أبيه (٥) الطبري: ٥٣٣/١٧ (٦) أحمد: ٢٢٣/١ (٧) الطبري: ٥٣٤/١٧ (٨) الطبري: ٥٣٦/١٧ (٩) الطبري: ٥٣٦/١٧

تَأَخَّرَ، فَاسْتَفْعَ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغْنَا؟ فَأَقُومُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي، فَيَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلِّ نَعْطَهُ، وَاشْفَعْ تَشْفَعْ، فَارْفَعْ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمِّتِي يَا رَبِّ، أُمِّتِي يَا رَبِّ، أُمِّتِي يَا رَبِّ، فَيَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنْ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُضْرَى<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ ﴿٨٧﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨٨﴾

[الْأَمْرُ بِالْهَجْرَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ ثُمَّ أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾<sup>(٣)</sup> وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ كُفَّارَ أَهْلِ مَكَّةَ لَمَّا اسْتَمَرُّوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يَطْرُدُوهُ أَوْ يُؤْيِسُوهُ. فَأَرَادَ اللَّهُ فَقَالَ أَهْلُ مَكَّةَ؛ أَمْرُهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ... الآية<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يَعْنِي الْمَدِينَةَ ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يَعْنِي مَكَّةَ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ<sup>(٧)</sup>.

وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهَا: وَعَدَهُ رَبُّهُ لِيَنْزِعَ عَنْ مَلِكَ فَارِسَ وَعِزَّ فَارِسَ وَلِيَجْعَلَنَّهُ لَهُ، وَمَلِكَ الرُّومِ وَعِزَّ الرُّومِ وَلِيَجْعَلَنَّهُ لَهُ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ فِيهَا: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ عَلِمَ أَنَّ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيرًا لِكِتَابِ اللَّهِ، وَلِحُدُودِ اللَّهِ، وَلِفَرَائِضِ اللَّهِ، وَلِلْقَامَةِ دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ جَعَلَهُ بَيْنَ أَظْهُرِ عِبَادِهِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَأَغَارَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَكُلَّ شَيْدُهُمْ ضَعِيفُهُمْ<sup>(٩)</sup>. فَلَا بُدَّ مَعَ الْحَقِّ مِنْ قَهْرٍ لِمَنْ عَادَاهُ وَنَاوَاهُ، وَلِهَذَا يَقُولُ

يُرِيدُ، ﴿أَعْرَضَ﴾ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَنَكَا بِعَاجِلِهِ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: بَعْدَ عَنَّا<sup>(١)</sup>. قُلْتُ: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّوهُ مَرًّا كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ صَرْفِ مَسْئَرِهِ﴾ [يونس: ١٢] وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] وَبِأَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ - وَهُوَ الْمَصَائِبُ، وَالْحَوَادِثُ وَالتَّوَاتِبُ - ﴿كَانَ يَتُوسَّأُ﴾ أَيْ قَطَعَ أَنْ يُعُودَ، يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا﴾<sup>(٢)</sup> وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا<sup>(٣)</sup> إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ<sup>(٤)</sup>﴾ [هود: ٩-١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلَىٰ نَاجِيَّتِهِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَلَىٰ جِدَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: عَلَىٰ نَيْتِهِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: دِينِهِ<sup>(٨)</sup>. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى وَهَذِهِ الْآيَةُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَعْدٌ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ لَازِمُونَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ﴾... الْآيَةُ [هود: ١٢١]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلِهِ. فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أَيْ مِنَّا وَمِنْكُمْ، وَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ فَإِنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>(٩)</sup> [ذِكْرُ الرُّوحِ]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُمِّيشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَىٰ عَصِيْبٍ، إِذْ مَرَّ الْيَهُودُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُمْ إِلَيْهِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلَنَّكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُوهُ. فَقَالُوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَفُتِمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾... الْآيَةُ. وَهَذَا السِّيَاقُ يَقْتَضِي فِيمَا يَظْهَرُ بِأَدْيِ الرَّأْيِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَدَنِيَّةٌ، وَأَنَّهُ نَزَلَتْ حِينَ سَأَلَهُ الْيَهُودُ

النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُونَ وَثَلَاثُمِائَةً نُصِبَ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا. جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ»<sup>(١٠)</sup>.

﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾<sup>(١١)</sup>

[الْقُرْآنُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، إِنَّهُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: يَذْهَبُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ أَمْرَاضٍ مِنْ شَكٍّ وَنِفَاقٍ وَشِرْكٍ وَزَنَجٍ وَمَثَلٍ، فَالْقُرْآنُ يَشْفِي مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُوَ أَيْضًا رَحْمَةٌ يَحْصُلُ فِيهَا الْإِيمَانُ وَالْحِكْمَةُ وَطَلَبُ الْخَيْرِ وَالرَّغْنَةُ فِيهِ، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ شِفَاءً فِي حَقِّهِ وَرَحْمَةً، وَأَمَّا الْكَافِرُ الظَّالِمُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، فَلَا يَزِيدُهُ سَمَاعُهُ الْقُرْآنَ إِلَّا بُعْدًا وَكُفْرًا، وَالْآفَةُ مِنَ الْكَافِرِ لَا مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَرَحْمَةٌ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُّونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصل: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَنَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾<sup>(١٢)</sup> وَأَمَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ<sup>(١٣)</sup> [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ. قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إِذَا سَمِعَهُ الْمُؤْمِنُ انْتَفَعَ بِهِ وَحَفِظَهُ وَوَعَاهُ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا أَيْ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَلَا يَحْفَظُهُ وَلَا يَعِيبُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ هَذَا الْقُرْآنَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَإِذَا أَمَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَاكَ بَاجِلُهُ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ﴾<sup>(١٤)</sup> قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلِهِ. فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ

سَبِيلًا<sup>(١٥)</sup>

[عَادَةُ الْإِنْسَانِ فِي حَالَتِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَقْصِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ - إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي حَالَتِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَالٍ وَعَاقِبَةٍ وَفَتْحٍ وَرِزْقٍ وَنَصْرِ، وَنَالَ مَا

(١) فتح الباري: ٢٥٢/٨ (٢) الطبري: ٥٣٩/١٧ (٣)

الطبري: ٥٤١/١٧ (٤) الطبري: ٥٤١/١٧ (٥) الطبري:

٥٤١/١٧ (٦) الطبري: ٥٤١/١٧

الرُّوحَ هِيَ أَصْلُ النَّفْسِ وَمَادَّتُهَا، وَالنَّفْسُ مُرَكَّبَةٌ مِنْهَا وَمِنْ اتِّصَالِهَا بِالْبَدَنِ، فَهِيَ هِيَ مِنْ وَجْهِ لَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قُلْتُ: وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي مَا هِيَ الرُّوحُ وَأَحْكَامُهَا، وَصَنَّفُوا فِي ذَلِكَ كُتُبًا، وَمِنْ أَحْسَنِ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ مَنْدَه فِي كِتَابِ سَمْعَانَا، فِي الرُّوحِ.

﴿وَلَيْنِ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدَ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكَيْلًا﴾ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيْنِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

[لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِالْقُرْآنِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ وَفَضْلَهُ الْعَظِيمَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَطْرُقُ النَّاسَ رِيحٌ حَمْرَاءُ، يَعْنِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ قَبْلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى فِي مُصْحَفٍ رَجُلٌ وَلَا فِي قَلْبِهِ آيَةٌ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﴿وَلَيْنِ شَيْئًا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾<sup>(٤)</sup>... الآية.

[الَّتِي تَحْدِثُ بِالْقُرْآنِ]

ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى شَرَفِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ كُلُّهُمْ وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ مَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ لَمَا أَطَافُوا ذَلِكَ وَلَمَا اسْتَطَاعُوهُ، وَلَوْ تَعَاوَنُوا وَتَسَاعَدُوا وَتَنَافَرُوا فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا يُسْتَطَاعُ، وَكَيْفَ يُشَبِّهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ كَلَامَ الْخَالِقِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مِثَالَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾... الآية، أَيُّ بَيِّنَاتٍ لَهُمُ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ، وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْحَقَّ وَشَرَحْنَاهُ وَبَسَطْنَاهُ، وَمَعَ هَذَا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أَيُّ جُحُودًا لِلْحَقِّ وَرَدًّا لِلصَّوَابِ.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْفَعَنَا مِنْ الْأَرْضِ بَلْوَاعًا﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا

عَنْ ذَلِكَ بِالْمَدِينَةِ، مَعَ أَنَّ السُّورَةَ كُلَّهَا مَكِّيَّةٌ. وَقَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا بِأَنَّهُ قَدْ تَكُونُ نَزَلَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً، كَمَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ قَبْلَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِأَنْ يُبَيِّنَهُمْ عَمَّا سَأَلُوهُ بِالْآيَةِ الْمُتَقَدِّمِ إِنْزَالُهَا عَلَيْهِ، وَهِيَ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرُّوحِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، فَقَالُوا: تَزْعُمُ أَنَّا لَمْ نَوْتَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا، وَقَدْ أُوتِينَا التَّوْرَةَ وَهِيَ الْحِكْمَةُ ﴿وَمَنْ يُوْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَمِعُ أَبْحَرٍ...﴾ الآية [لقمان: ٢٧]، قَالَ: «مَا أُوتِيتُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتَجَاكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَهُوَ كَثِيرٌ طَيِّبٌ، وَهُوَ فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ»<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَخْبِرْنَا عَنِ الرُّوحِ وَكَيْفَ تُعَذِّبُ الرُّوحَ الَّتِي فِي الْجَسَدِ؟ وَإِنَّمَا الرُّوحُ مِنَ اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ نَزَلَ عَلَيْهِ فِيهِ شَيْءٌ، فَلَمْ يَجِرْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ أَعْلَمٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فَأَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالُوا: مَنْ جَاءَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «جَاءَنِي بِهِ جِبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»، فَقَالُوا لَهُ: وَاللَّهِ مَا قَالَهُ لَكَ إِلَّا عَدُوْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ﴾ [البقرة: ٩٧]<sup>(٢)</sup>.

[الرُّوحُ وَالنَّفْسُ]

ذَكَرَ السَّهْلِيُّ الْخِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي أَنَّ الرُّوحَ هِيَ النَّفْسُ أَوْ غَيْرُهَا، وَقَرَّرَ: أَنَّهَا ذَاتُ لَطِيفَةٍ كَالْهَوَاءِ، سَارِيَّةٌ فِي الْجَسَدِ كَسَرِيَّانِ الْمَاءِ فِي عُزُوقِ الشَّجَرِ، وَقَرَّرَ: أَنَّ الرُّوحَ الَّتِي يَنْفُخُهَا الْمَلَكُ فِي الْجَنِينِ هِيَ النَّفْسُ بِشَرِطِ اتِّصَالِهَا بِالْبَدَنِ وَاتِّسَابِهَا بِسَبَبِهِ صِفَاتٍ مَدَحٍ أَوْ ذَمٍّ، فَهِيَ إِمَّا نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ أَوْ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ، كَمَا أَنَّ أَلْمَاءَ هُوَ حَيَاةُ الشَّجَرِ ثُمَّ يَكْسِبُ بِسَبَبِ اخْتِلَاطِهِ مَعَهَا اسْمًا خَاصًّا، فَإِذَا انْصَلَّ بِالْعَيْنَةِ وَعُصِرَ مِنْهَا صَارَ مَاءٌ مُصْطَرًّا أَوْ خَمْرًا، وَلَا يُقَالُ لَهُ مَاءٌ حَيِّثُذِ، إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، وَكَذَا لَا يُقَالُ لِلنَّفْسِ: رُوحٌ، إِلَّا عَلَى هَذَا النُّحُو، وَكَذَا لَا يُقَالُ لِلرُّوحِ: نَفْسٌ، إِلَّا بِإِغْتِيَارٍ مَا تَوَوَّلُ إِلَيْهِ. فَحَاصِلُ مَا نَقُولُ: إِنَّ

(١) الطبري: ٥٤٢/١٧ (٢) الطبري: ٥٤٣/١٧ (٣) الروض الأنف: ٦٢/٢ (٤) الطبري: ٥٤٦/١٧

ضعيف

وَيَسْأَلُكُمْ أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! فَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ مِنَّا مَا عَرَضْنَا عَلَيْكَ فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَضْيَقَ مِنَّا بِلَادًا، وَلَا أَقْلَ مَالًا، وَلَا أَشَدَّ عِشًا مِنَّا، فَاسْأَلْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي بَعَثَكَ بِمَا بَعَثَكَ بِهِ، فَلْيَسِّرْ عَنَّا هَذِهِ الْجِبَالَ الَّتِي قَدْ ضَيَّقَتْ عَلَيْنَا، وَلْيَسِّطْ لَنَا بِلَادَنَا، وَلْيَفْجُرْ فِيهَا أَنْهَارًا كَأَنْهَارِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَلْيَبْعَثْ لَنَا مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، وَلْيَكُنْ فِيْمَنْ يَبْعَثْ لَنَا مِنْهُمْ قُصِيُّ بْنُ كِلَابٍ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخًا صَدُوقًا، فَتَسْأَلُهُمْ عَمَّا تَقُولُ حَقٌّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ؟ فَإِنْ صَنَعْتَ مَا سَأَلْنَاكَ وَصَدَّقُوكَ صَدَقْنَاكَ، وَعَرَفْنَا بِهِ مَنَزَلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بِهِذَا بُعِثْتُ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، فَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنْ تَقَبَّلُوهُ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرَدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

قَالُوا: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَنَا هَذَا فَخُذْ لِنَفْسِكَ، فَسَلْ رَبَّكَ أَنْ يَبْعَثَ لَنَا مَلَكًا يُصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ وَيُرَاجِعُنَا عَنْكَ، وَتَسْأَلُهُ فَيَجْعَلَ لَكَ جَنَاتٍ، وَكُنُوزًا، وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَيُعِينِكَ بِهَا عَمَّا نَرَاكَ تَبْتَغِي، فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ وَتَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا تَلْتَمِسُهُ، حَتَّى تَعْرِفَ فَضْلَ مَنَزَلَتِكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا كَمَا تَزْعُمُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنَا بِفَاعِلٍ، مَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهِذَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِشِيرًا وَنَذِيرًا، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرَدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

قَالُوا: فَاسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ أَنْ رَبَّكَ إِنْ شَاءَ فَعَلَ ذَلِكَ، فَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِكُمْ ذَلِكَ» فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! أَمَا عَلِمَ رَبُّكَ، أَنَّا سَنَجْلِسُ مَعَكَ، وَنَسْأَلُكَ عَمَّا سَأَلْنَاكَ عَنْهُ، وَنَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلُبُ، فَيَقْدُمُ إِلَيْكَ وَيعَلِّمُكَ مَا تَرَاغِبُنَا بِهِ، وَيُخْبِرُكَ مَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَا إِذَا لَمْ نَقْبَلْ مِنْكَ مَا جِئْتَنَا بِهِ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْلَمُكَ هَذَا رَجُلٌ بِالْيَمَامَةِ يُقَالُ لَهُ: الرَّحْمَنُ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِالرَّحْمَنِ أَبَدًا، فَقَدْ أَغَدَرْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، أَمَا وَاللَّهِ لَا تَتْرُكُكَ وَمَا فَعَلْتَ بِنَا، حَتَّى نُهْلِكَ أَوْ نُهْلِكَكَ. وَقَالَ قَائِلُهُمْ: نَحْنُ

نَفَجِرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِيٍّ أَوْ تَرْفَعِ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قَدْ سَبَحَانَ رَبِّي هَذَا كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾

[طَلَبُ قُرَيْشِ آيَاتِ مُعِينَةٍ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ قَدِيمٌ مُنْذُ بَضْعِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ، وَأَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَرَجُلًا مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وَأَبَا الْبُخْتَرِيِّ أَخَا بَنِي أَسَدٍ، وَالْأَسْوَدَ بْنَ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدٍ، وَزَمْعَةَ بْنَ الْأَسْوَدِ، وَالزُّوَيْدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ، وَأَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ، وَالْعَاصِمَ بْنَ وَائِلٍ وَنِسْبَهَا وَمُسْبَهَا ابْنَيْ الْحَجَّاجِ السَّهْمِيِّينَ، اجْتَمَعُوا - أَوْ: مَنْ اجْتَمَعَ مِنْهُمْ - بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ عِنْدَ ظَهْرِ الْكُعْبَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ابْعَثُوا إِلَى مُحَمَّدٍ فَكَلِّمُوهُ وَخَاصِمُوهُ حَتَّى تُعْذِرُوا فِيهِ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ أَنْ أَشْرَافَ قَوْمِكَ قَدِ اجْتَمَعُوا لَكَ لِيَكَلِّمُوكَ، فَجَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيعًا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لَهُمْ فِي أَمْرِهِ بَدَاءً، وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَرِيصًا يُحِبُّ رُشْدَهُمْ وَيَعِزُّ عَلَيْهِ عَثَّتُهُمْ، حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا قَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ لِنُعْذِرَ فِيكَ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مَا أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ، لَقَدْ شَتَمْتَ الْآبَاءَ، وَعَبْتَ الدِّينَ، وَسَفَهْتَ الْأَحْلَامَ، وَشَتَمْتَ الْأَلِهَةَ وَفَرَقْتَ الْجَمَاعَةَ، فَمَا بَقِيَ مِنْ فِسْحٍ إِلَّا وَقَدْ جِئْتَهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ. فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا جِئْتَ بِهِذَا الْحَدِيثَ تَطْلُبُ بِهِ مَا لَا جَمْعَنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تَطْلُبُ الشَّرَفَ فِينَا سَوْذَنَّاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مُلْكًا مَلَكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ بِمَا يَأْتِيكَ رِيًّا تَرَاهُ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ - وَكَانُوا يُسْمُونُ التَّابِعَ مِنَ الْجِنِّ الرَّجِي - فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ، بَدَلْنَا أَمْوَالَنَا فِي طَلَبِ الطُّبِّ حَتَّى نُبْرِّكَ مِنْهُ أَوْ نُعْذَرَ فِيكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ، وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرَدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي

تَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَهِيَ بَنَاتُ اللَّهِ. وَقَالَ قَائِلُهُمْ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا.

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ، وَقَامَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِهِ عَائِشَةَ ابْنَةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمْ تَقْبَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ لِأَنْفُسِهِمْ أُمُورًا لِيَعْرِفُوا بِهَا مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ، فَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ مَا تُخَوِّفُهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، فَوَاللَّهِ لَا أُوْمِنُ بِكَ أَبَدًا حَتَّى تَتَّخِذَ إِلَى السَّمَاءِ سُلْمًا، ثُمَّ تَرْقَى فِيهِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى تَأْتِيَهَا وَتَأْتِيَ مَعَكَ بِصَحِيفَةٍ مَشْهُورَةٍ، وَمَعَكَ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ أَنَّكَ كَمَا تَقُولُ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَطَنَنْتُ أَنِّي لَا أَصْدُقُكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ حَزِينًا أَسَفًا لِمَا فَاتَهُ مِمَّا كَانَ طَمَعَ فِيهِ مِنْ قَوْمِهِ حِينَ دَعَا، وَلَمَّا رَأَى مِنْ مَبَاعِدَتِهِمْ إِيَّاهُ<sup>(١)</sup>.

[سَبَبُ رَدِّ طَلِبَاتِ الْمُشْرِكِينَ]

وَهَذَا الْمَجْلِسُ الَّذِي اجْتَمَعَ هُوَ لَا إِلَهَ لَهُ، لَوْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ ذَلِكَ اسْتِزْشَادًا لِأَجِيْبُوا إِلَيْهِ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَطْلُبُونَ ذَلِكَ كُفْرًا وَعِنَادًا [لَهُ] فَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْنَاهُمْ مَا سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا عَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا لَا أَعَذَّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ فَقَالَ: «بَلْ تَفْتَحْ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ»<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا نَمُودُ الْآفَاقَ مَبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا» [الإسراء: ٥٩]. وَقَالَ تَعَالَى: «وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا»<sup>(٣)</sup> أَوْ يُفْتَحْ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ حِجَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا»<sup>(٤)</sup> أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا»<sup>(٥)</sup> تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا»<sup>(٦)</sup> بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا» [الفرقان: ٧-١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «حَتَّى تَنْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلُوعًا» أَلْيَسَ بَعْضُ الْأَعْيُنِ الْجَارِيَةِ، سَأَلُوهُ أَنْ يُجَرِّيَ لَهُمْ عَيْنًا مَعِينًا فِي أَرْضِ

الْحِجَازِ هَهُنَا وَهَهُنَا وَذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَسِيرٌ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَهُ، وَلَا جَائِبُهُمْ إِلَى جَمِيعِ مَا سَأَلُوا وَطَلَبُوا، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الْأَبْصَارَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ»<sup>(١)</sup> وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [يونس: ٩٦، ٩٧] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّا زُلْنَا إِلَى آلِهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَلَكَّمْهُمُ الْتَوَكُّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا»... [الأنعام: ١١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَوْ شَقِطَ السَّمَاءُ كَمَا رَضِمَتْ» أَيْ أَنَّكَ وَعَدْتَنَا أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَنْشَقُّ فِيهِ السَّمَاءُ، وَتَبْهِي وَتُبْلِي أَطْرَافَهَا، فَجَعَلْتَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَأَسْقَطَهَا كِسْفًا: أَيْ قَطْعًا كَقَوْلِهِمْ: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ»... [الأنفال: ٣٢]، وَكَذَلِكَ سَأَلَ قَوْمٌ شُعَيْبَ مِنْهُمْ فَقَالُوا: «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»... [الشعراء: ١٨٧] فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ يَوْمَ الظَّلَّةِ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ، وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَسَأَلَ إِنْظَارَهُمْ وَتَأْجِيلَهُمْ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَضْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ وَقَعَ؛ فَإِنْ مِنْ هَؤُلَاءِ - الَّذِينَ ذَكَرُوا - مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ حَتَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ الَّذِي تَبَعَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ، أَسْلَمَ إِسْلَامًا تَامًا وَأَنَابَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرِّيَّتِي» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هُوَ الذَّهَبُ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَلِكَ هُوَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ)<sup>(٤)</sup> «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ» أَيْ تَصْعَدُ فِي سَلَمٍ وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْكَ «وَلَكِنْ نُؤْمِنُ لِرَبِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُ» قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ مَكْتُوبٌ فِيهِ، إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ صَحِيفَةٌ: هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لِفُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ تُصْبِحُ مَوْضُوعَةً عِنْدَ رَأْسِهِ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» أَيْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ، أَنْ يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ سُلْطَانِيهِ وَمُلْكُوِيهِ، بَلْ هُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ، إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ إِلَى مَا سَأَلْتُمْ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُجِبْكُمْ، وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ إِلَيْكُمْ أَبْلُغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَقَدْ

(١) الطبري: ٥٥٧/١٧ إسناده ضعيف شيخ من أهل مصر مجهول (٢) أحمد: ٢٤٢/١ (٣) الطبري: ٥٥٣/١٧ (٤) الطبري: ٥٥٣/١٧ (٥) الطبري: ٥٥٤/١٧

سورة الإسراء

٢٩٢

سورة الإسراء

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبَكَمَا وَصَمًا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَائِدِنَا وَقَالُوا إِيَّا ذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْتَاءَ نَالِ الْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوِ اسْتَأْذَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا تُمْسِكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَتَلَبِثْ بِئْسَ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مُثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

بِالْبَيِّنِ ﴿١٠٥﴾ ثُمَّ لَقَعْنَا مِنْهُ الْوَيْلَ ﴿[الحاقة: ٤٤-٤٦]﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أَيُّ عَلِيمًا بِهِمْ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِنْعَامَ وَالْإِحْسَانَ وَالْهُدَايَةَ، وَمِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الشَّقَاءَ وَالْإِضْلَالَ وَالْإِزَاقَةَ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبَكَمَا وَصَمًا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿٩٧﴾

[الْهُدَايَةُ وَالْإِضْلَالُ بِإِذْنِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَصَرُّفِهِ فِي خَلْقِهِ وَتَفْوَذِ حُكْمِهِ، وَأَنَّهُ لَا مَعْقَبَ لَهُ: بِأَنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ يَهْدُونَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الكهف: ١٧].

[جَزَاءُ أَهْلِ الضَّلَالِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ

فَعَلْتَ ذَلِكَ، وَأَمَرْتُمْ، فِيمَا سَأَلْتُمْ، إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَرَيْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ [إِيَاءَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْإِيمَانِ لِكُونَ الرَّسُولِ بَشَرًا، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ﴾ أَيُّ أَكْثَرُهُمْ ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ وَيَتَابِعُوا الرَّسُلَ إِلَّا اسْتَعْجَابُهُمْ مِنْ بَعَثَةِ الْبَشَرِ رَسُولًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنُبَيِّرِ الْبَاطِلَ أَمْثَلًا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْلِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا... الْآيَةُ [التغابن: ٦]﴾. وَقَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَكُوهُ: ﴿تَوَيْنَ لِبَشَرَيْنِ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وَكَذَلِكَ قَالَتِ الْأُمَمُ لِرُسُلِهِمْ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَتِ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا عَلَى لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ يَبْعَثُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ مِنْ جَنْسِهِمْ، لِيَفْقَهُوا عَنْهُ وَيَفْهَمُوا مِنْهُ، لَتَمَكِّنَهُمْ مِنْ مُحَاطَتِهِ وَمُكَالَمَتِهِ، وَلَوْ بَعَثَ إِلَى الْبَشَرِ رَسُولًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ لَمَا اسْتَطَاعُوا مُوَاجَهَتَهُ، وَلَا الْأَخَذَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُؤْمِنُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَكُونُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ فَادَّكُرُوا أَذْكُرْتُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أَيُّ كَمَا أَنْتُمْ فِيهَا ﴿لَنَرَيْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا﴾ أَيُّ مِنْ جَنْسِهِمْ. وَلَمَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ بَشَرًا بَعَثْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ، لُطْفًا وَرَحْمَةً.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٩٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّ ﷺ إِلَى الْحُجَّةِ عَلَى قَوْمِهِ فِي صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ: إِنَّهُ شَاهِدٌ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ، عَالِمٌ بِمَا جِئْتُمْ بِهِ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَأَنْتَقَمَ مِنِّي أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿٩٦﴾ لَأَمَدْنَا مِنْهُ



الظَّالِمُونَ ﴿١٠٤﴾ أَي بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿١٠٣﴾ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٠٢﴾ إِلَّا تَمَادَيْتُمْ فِي بَاطِلِهِمْ وَضَلَّاهُمْ.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ

الْإِنْسَانِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠١﴾

[الْإِنْسَانُ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ لَوْ أَنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَمْلِكُونَ التَّصَرُّفَ فِي خَزَائِنِ اللَّهِ ﴿لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: أَيِ الْفَقْرِ <sup>(٤)</sup>. خَشْيَةَ أَنْ تَذْهَبُوهَا، مَعَ أَنَّهَا لَا تَفْرُغُ وَلَا تَنْقُذُ أَبَدًا، لِأَنَّ هَذَا مِنْ طَبَاعِكُمْ وَسَجَايَاكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: أَيِ بَخِيلًا مَنُوعًا <sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَالِ فَإِذَا لَا يُوَفُّونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] أَيِ لَوْ أَنَّ لَهُمْ نَصِيبًا فِي مَالِكِ اللَّهِ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا شَيْئًا وَلَا مَقْدَارَ نَقِيرٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَصِفُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ، إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَهَدَاهُ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَرَاعَ وَالْهَلَعَ صِفَةٌ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ <sup>(٦)</sup> إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا <sup>(٧)</sup> وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا <sup>(٨)</sup> إِلَّا النَّصِلِينَ [المعارج: ١٩-٢٢] وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْغَزِيرِ، وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى كَرَمِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَمِينِهِ» <sup>(٩)</sup>.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنَى إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ <sup>(١٠)</sup> قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَسْحُورًا <sup>(١١)</sup> فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا <sup>(١٢)</sup> وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ جِئْنَا بِكَ لَافِيًا﴾ <sup>(١٣)</sup>

[تِسْعُ آيَاتٍ لِمُوسَى]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ مُوسَى بِتِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَهِيَ الدَّلَائِلُ الْقَاطِعَةُ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ، فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، عَمَّنْ أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَهِيَ: الْعَصَا وَالْيَدُ وَالسِّنِينَ وَالْبَحْرُ وَالطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالْدَّمُ آيَاتٌ

يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ؟ قَالَ: «الَّذِي أَمْسَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمَشِّبَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ» <sup>(١)</sup>. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَمِيًّا﴾ أَيِ لَا يُبْصِرُونَ، ﴿وَبُكْمًا﴾ يَعْنِي لَا يَنْطَفِقُونَ، ﴿وَضُمًّا﴾ لَا يَسْمَعُونَ، وَهَذَا يَكُونُ فِي حَالِ دُونَ حَالٍ، جَزَاءً لَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بُكْمًا وَعَمِيًّا وَضُمًّا عَنِ الْحَقِّ، فَجُوزُوا فِي مَحْشَرِهِمْ بِذَلِكَ أَحْوَجَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿مَا وَلَهُمْ﴾ أَيِ مُتَقَلِّبُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ ﴿جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَكَتَتْ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: طَلَبَتْ. ﴿وَزِدْنَهُمْ سَعِيرًا﴾ أَيِ لَهَبًا وَوَهَجًا وَجَمْرًا، كَمَا قَالَ: ﴿فَذَرُونَا فَلَنْ نَرِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَهَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْتًا أَهْوَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ <sup>(٤)</sup> ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا﴾ <sup>(٥)</sup>

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ بِهِ مِنَ الْبُعْثِ عَلَى الْعَمَى، وَالْبُكْمِ، وَالضَّمِّ جَزَاءُهم الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ، لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أَيِ بِأَدِلَّتِنَا وَحُجَّتِنَا، وَاسْتَبَعَدُوا وَفُوعَ الْبُعْثِ ﴿وَقَالُوا أَهَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْتًا﴾ أَيِ بِأَلِيَّةِ نَجْرَةٍ ﴿أَهْوَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أَيِ بَعْدَ مَا صِرْنَا إِلَيْهِ: مِنَ الْبَلَى وَالْهَلَاكِ وَالْتَفَرُّقِ وَالذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ، نَعَادُ مَرَّةً ثَانِيَةً؟ فَاحْتَجَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَنَهَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَقُدْرَتُهُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ أَشْهَلُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يَفْعَلْ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْفَوْقَ﴾ [الأحقاف: ٣٣] الْآيَةِ، وَقَالَ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ <sup>(٦)</sup> إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿إِلَى آخِرِ السُّورَةِ﴾ [يس: ٨١-٨٣]. وَقَالَ لَهُنَا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أَيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُ أَبْدَانَهُمْ وَيُنْشِئُهُمْ نَشَاءً أُخْرَى كَمَا بَدَأَهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيِ جَعَلَ لِإِعَادَتِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَجَلًا مَضْرُوبًا وَمُدَّةً مُقَدَّرَةً لَا بُدَّ مِنْ انْقِضَائِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَبَى

(١) أحمد: ١٦٧/٣ (٢) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٤/

٢١٦١ (٣) الطبري: ٥٦١/١٧ (٤) الطبري: ٥٦٣/١٧ (٥)

الطبري: ٥٦٣/١٧ (٦) فتح الباري: ٢٠٢/٨ ومسلم: ٦٩١/٢

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٢٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾  
 وَفَرَّغْنَا فَرْقَنَهُ لِنُقَرِّاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْتٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٦﴾  
 قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُدْأَىٰ  
 عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ  
 وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ  
 خُشُوعًا ﴿١٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ  
 الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ  
 بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٢٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ  
 لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَهْلٌ مِنَ الدَّلِّ وَكَبِيرٌ مُكْبَرٌ ﴿٢١﴾

## سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾  
 قِيمًا لِنُذِرَ بِأَسَاسٍ شَدِيدًا آمِنًا لِدُنْهَ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ  
 يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكْنِينٍ  
 فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

يَفْتَحُ مَكَّةَ، مَعَ أَنَّ [هَذِهِ] السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ،  
 وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ هُمُ الَّذِينَ أَخْرَجَ الرَّسُولَ مِنْهَا،  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ  
 لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾... [الآيتين: [الإسراء: ٧٦، ٧٧]، وَلِهَذَا  
 أَوْرَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ مَكَّةَ، فَدَخَلَهَا عَنَتَهُ - عَلَى أَشْهُرِ الْقَوْلَيْنِ  
 - وَفَهَرُ أَهْلِهَا ثُمَّ أَطْلَقَهُمْ حِلْمًا وَكَرَمًا، كَمَا أَوْرَثَ اللَّهُ  
 الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَشَارِقَ  
 الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَأَوْرَثَهُمْ بِلَادَ فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُمْ  
 وَزُرُوعَهُمْ، وَتِمَارَهُمْ وَكُنُوزَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا  
 بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي  
 إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أَيْ  
 جَمِيعَكُمْ أَنْتُمْ وَعَدُوُّكُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ  
 وَالضَّحَّاكُ: ﴿لَفِيفًا﴾ أَيْ: جَمِيعًا<sup>(٧)</sup>.

مُفَصَّلَاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هِيَ  
 الْيَدُ، وَالْعَصَا، وَالْخَمْسُ فِي الْأَعْرَافِ، وَالطَّمْسَةُ  
 وَالْحَجَرُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ  
 وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ: هِيَ يَدُهُ وَعَصَاهُ وَالسِّنِينَ وَتَقْصُ الثَّمَرَاتِ  
 وَالطُّوْقَانِ، وَالْجِرَادُ، وَالْقَمْلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالْدَّمُ<sup>(٣)</sup>.  
 ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] أَيْ وَمَعَ  
 هَذِهِ الْآيَاتِ وَمُشَاهَدَتِهِمْ لَهَا، كَفَرُوا بِهَا ﴿وَجَحَدُوا بِهَا  
 وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وَمَا نَجَعَتْ فِيهِمْ: فَكَذَلِكَ لَوْ  
 أَجَبْنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَأَلُوا مِنْكَ مَا سَأَلُوا، وَقَالُوا: ﴿لَنْ  
 نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلُوعًا﴾ إِلَى آخِرِهَا  
 [الإسراء: ٩٠-٩٤]، لَمَا اسْتَجَابُوا وَلَا آمَنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ  
 اللَّهُ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى - وَقَدْ شَاهَدَ مِنْهُ مَا شَاهَدَ  
 مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ -: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قِيلَ:  
 بِمَعْنَى سَاحِرٍ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

فَهَذِهِ الْآيَاتُ التَّسْعُ الَّتِي ذَكَرَهَا هَؤُلَاءِ الْأَيُّمَةُ هِيَ  
 الْمُرَادَةُ هَهُنَا، وَهِيَ الْمَعْنِيَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ  
 فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبُ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ  
 إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فِي سِتْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾  
 [النمل: ١١، ١٢] فَذَكَرَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: أَلْعَصَا وَالْيَدَ، وَبَيَّنَّ  
 الْآيَاتِ الْبَاقِيَاتِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَفَصَّلَهَا. وَقَدْ أُوتِيَ  
 مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ آيَاتٌ أُخْرَى كَثِيرَةً، مِنْهَا ضَرْبُ الْحَجَرِ  
 بِالْعَصَا وَخُرُوجُ الْمَاءِ مِنْهُ، وَمِنْهَا تَطْلِيلُهُمْ بِالْعَمَامِ، وَإِنْزَالُ  
 الْمَنَّاءِ وَالسَّلْوَى، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا أُوتِيَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ  
 مُفَارَقَتِهِمْ بِلَادَ مِصْرَ، وَلَكِنْ ذَكَرَ هَهُنَا التَّسْعُ الْآيَاتِ الَّتِي  
 شَاهَدَهَا فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَكَانَتْ حُجَّةً  
 عَلَيْهِمْ، فَخَالَفُوهَا وَعَانَدُوهَا كُفْرًا وَجُحُودًا.

وَلِهَذَا قَالَ مُوسَىٰ لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا  
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ أَيْ حُجَجًا وَأَدِلَّةً عَلَى صِدْقِ  
 مَا جِئْتُكَ بِهِ ﴿وَلَئِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّشْبُورًا﴾ أَيْ هَالِكًا،  
 قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَلْعُونًا<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ  
 أَيْضًا هُوَ وَالضَّحَّاكُ ﴿مُشْبُورًا﴾ أَيْ مَغْلُوبًا<sup>(٦)</sup>. وَالْهَالِكُ -  
 كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ - يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ.

[إِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ يُخْلِيَهُمْ مِنْهَا  
 وَيُزِيلَهُمْ عَنْهَا. ﴿فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾<sup>(٧)</sup> وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ  
 لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ وَفِي هَذَا بَشَارَةٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ

(١) الطبري: ١٧/٥٦٤ (٢) الطبري: ١٧/٥٦٥ (٣) الطبري:

١٧/٥٦٥، ٥٦٦ (٤) الطبري: ١٧/٥٧١ (٥) الطبري: ١٧/٥٧٣

٥٧٠ (٦) الطبري: ١٧/٥٧٠ (٧) الطبري: ١٧/٥٧٢، ٥٧٣

الْكِتَابُ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ أَيُّ تَعْظِيمًا وَتَوْفِيرًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْلِفُ الْمِعَادَ الَّذِي وَعَدَهُمْ، عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ، عَنْ بَعْتِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَكُونُونَ﴾ أَيُّ خُضُوعًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِيمَانًا وَتَضَعِيقًا بِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أَيُّ إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا، كَمَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ أَهْنَدُوا رَأْدَهُمْ هَدَىٰ وَعَٰلَتُهُمْ يَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَحْزَنُونَ﴾ عَطْفٌ صِفَةٌ عَلَى صِفَةٍ لَا عَطْفُ السُّجُودِ عَلَى السُّجُودِ.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٠٦﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا﴾ ﴿١٠٧﴾ [لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ صِفَةَ الرَّحْمَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الْمُنَاعِينَ مِنْ تَسْمِيَّتِهِ بِالرَّحْمَنِ ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أَيُّ لَا فَرْقَ بَيْنَ دُعَائِكُمْ لَهُ بِاسْمِ اللَّهِ أَوْ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ، فَإِنَّهُ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَىٰ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الْآيَةُ [الحشر: ٢٢-٢٤]، وَقَدْ رَوَى مَكْحُولٌ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ» فَقَالَ: إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا وَهُوَ يَدْعُو اثْنَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. وَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ (٣).

[الْأَمْرُ بِالْقِرَاءَةِ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمُخَافَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾... الْآيَةُ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا﴾ قَالَ: كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ، قَالَ: فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٥﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَرَفَعَهُ لِنِقْمِهِ عَلَى الَّذِينَ اتَّبَعُوا عَلَىٰ مَكَّتَ﴾ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ [نَزَلَ بِالْحَقِّ مُتَفَرِّقًا]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ، أَنَّهُ بِالْحَقِّ نَزَلَ، أَيُّ مُتَضَمِّنًا لِلْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ يُعَلِّمُهُ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦] أَيُّ مُتَضَمِّنًا عِلْمَ اللَّهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أَيُّ: وَنَزَلَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مَحْفُوظًا مَحْرُوسًا لَمْ يَسُبْ بَعْضُهُ، وَلَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نُقِصَ مِنْهُ، بَلْ وَصَلَ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ، فَإِنَّهُ نَزَلَ بِهِ شَدِيدُ الْقُوَى، الْأَمِينُ الْمَكِينُ، الْمَطْلُوعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا يَا مُحَمَّدُ﴾ ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مُبَشِّرًا لِمَنْ أَطَاعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَذِيرًا لِمَنْ عَصَاكَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَوْلَانَا فَرَفَعَهُ﴾ أَمَّا قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ فَمَعْنَاهُ فَضَلَّنَاهُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ مُتَفَرِّقًا مُتَجَمًّا عَلَى الْوَقَائِعِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، قَالَهُ عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (١). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّهُ قَرَأَ: (فَرَفَعَنَاهُ) بِالشَّدِيدِ، أَيُّ أَنْزَلْنَاهُ آيَةً آيَةً مُبَيَّنًا وَمُفَسِّرًا (٢). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِنِقْمِهِ عَلَى الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أَيُّ لِنُبْلَاغِهِ النَّاسَ وَتَلْوَاهُ عَلَيْهِمْ، أَيُّ عَلَى مَكَّتَ﴾ أَيُّ مَهَلٍ ﴿وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ أَيُّ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلَّذِينَ أَنْزَلَ سَجْدًا﴾ ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ﴿١٠٨﴾ وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ يَكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿١٠٩﴾ [الْقُرْآنُ حَقٌّ يَعْتَرَفُ بِهِ السَّابِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أَيُّ سَوَاءٌ أَمْتُمْ بِهِ أَمْ لَا، فَهُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَنُوءَ بِذِكْرِهِ فِي سَالِفِ الْأَرْمَانِ، فِي كُتُبِهِ الْمُتَرْتِلَةِ عَلَى رُسُلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيُّ مِنْ صَالِحِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِكِتَابِهِمْ، وَيَقِيمُونَهُ، وَلَمْ يَبْدُلُوهُ وَلَا حَرَّفُوهُ. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿يَخِرُّونَ لِلَّذِينَ أَنْزَلَ سَجْدًا﴾ جَمْعٌ ذَقْنٍ وَهُوَ أَسْفَلُ الْوُجْهِ ﴿سُجَّدًا﴾ أَيُّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ: مِنْ جَعَلِهِ إِيَّاهُمْ أَهْلًا إِنْ أَدْرَكُوا هَذَا الرَّسُولَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذَا

(١) الطبري: ٥٧٤/١٧ (٢) الطبري: ٥٧٤/١٧ (٣) الطبري: ٥٨٠/١٧ هذا مرسل منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩٤

سُورَةُ الْكَهْفِ

يَصَلَاكَ ﴿١﴾ أَيُّ بِقِرَاءَتِكَ فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ  
 ﴿٢﴾ وَلَا تُخَافُ يَهَا عَنْ أَصْحَابِكَ - فَلَا تَسْمِعُهُمُ الْقُرْآنُ -  
 حَتَّى يَأْخُذُوهُ عَنْكَ ﴿٣﴾ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٤﴾ أَخْرَجَاهُ فِي  
 الصُّبْحَيْنِ ﴿٥﴾. وَكَذَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،  
 وَزَادَ: فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ سَقَطَ ذَلِكَ، يَفْعَلُ أَيُّ ذَلِكَ  
 شَاءَ ﴿٦﴾.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ  
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَهَرَ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ يُصَلِّي، تَفَرَّقُوا عَنْهُ  
 وَأَبَوْا أَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ مَا يَتْلُو وَهُوَ يُصَلِّي، اسْتَرَقَ السَّمْعَ  
 دُونَهُمْ فَرَقًا مِنْهُمْ، فَإِذَا رَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَسْمَعُ  
 ذَهَبَ، خَشْيَةً أَذَاهُمْ فَلَمْ يَسْمَعْ، فَإِنْ خَفَضَ صَوْتَهُ ﷺ لَمْ  
 يَسْمَعْ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ مِنْ قِرَاءَتِهِ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا  
 تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فَيَتَفَرَّقُوا عَنْكَ ﴿٧﴾ وَلَا تُخَافُ يَهَا. فَلَا يَسْمَعُ  
 مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ يَسْتَرِقُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَلَعَلَّهُ يَرْغِي  
 إِلَى بَعْضِ مَا يَسْمَعُ فَيَنْتَفِعُ بِهِ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿٨﴾  
 وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ  
 الْآيَةُ فِي الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ ﴿٩﴾. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿وَلَا  
 تُخَافُ يَهَا مِنْ أَسْمَعَ أَذْنَيْهِ﴾ ﴿١٠﴾.

## [بَيَانُ التَّوْحِيدِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ  
 تَعَالَى لَيْفِهِ الْكَرِيمَةِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، نَزَرَهُ نَفْسُهُ عَنْ  
 الْفَقَائِصِ فَقَالَ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ  
 شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ  
 وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١١﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ  
 الدَّلِيلِ أَيُّ لَيْسَ بِذَلِيلٍ فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ أَوْ وَزِيرٌ  
 أَوْ مُشِيرٌ، بَلْ هُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،  
 وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا بِمَشِيئَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ  
 فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ لَمْ يَخَالِفْ أَحَدًا وَلَمْ  
 يَنْتَبِغْ نَصْرَ أَحَدٍ ﴿١٢﴾ وَكَوْنُهُ تَكْبِيرًا ﴿١٣﴾ أَيُّ عَظَمُهُ وَأَجَلُهُ عَمَّا يَقُولُ  
 الظَّالِمُونَ الْمُتَعَدُّونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْقُرْطُبِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ  
 ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا﴾... الْآيَةِ، قَالَ: إِنَّ  
 الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَقَالَتِ الْعَرَبُ:  
 لَيْبِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكٌ.  
 وَقَالَ الصَّابِيُّونَ وَالْمَجُوسُ: لَوْلَا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَدَلَّ. فَأَنْزَلَ

اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ  
 شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدَّلِيلِ وَكَوْنُهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿١٤﴾.  
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سُبْحَانَ. وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

## سُورَةُ الْكَهْفِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

(ذَكَرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا وَالْعَشْرِ الْآيَاتِ مِنْ أَوَّلِهَا  
 وَآخِرِهَا وَأَنْهَا عِصْمَةٌ مِنَ الدَّلَالِ)

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْبَرَاءِ يَقُولُ: قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ  
 وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ، فَجَعَلَتْ تَفْرُ، فَظَنَرُ فَإِذَا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ  
 قَدْ غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَقْرَأْ فَلَانُ، فَإِنَّهَا  
 السَّيْكَةُ تَنْزِلُ عِنْدَ الْقُرْآنِ، أَوْ تَنْزَلُ لِلْقُرْآنِ» ﴿١٥﴾ أَخْرَجَاهُ فِي

(١) أحمد: ٢٣/١ (٢) فتح الباري: ٢٥٧/٨ ومسلم: ١/٣٢٩  
 (٣) الطبري: ٥٨٤/١٧ (٤) الطبري: ٥٨٥/١٧ (٥)  
 الطبري: ٥٨٧/١٧ (٦) الطبري: ٥٨٩/١٧ (٧) الطبري:  
 ٥٩٠/١٧ (٨) الطبري: ٥٩٠/١٧ (٩) أحمد: ٢٨١/٤

يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِينَ صَدَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أَيِ ثَوْبَةٍ عِنْدَ اللَّهِ جَمِيلَةٍ ﴿مَكْنُوتِينَ فِيهِ﴾ فِي ثَوَابِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ خَالِدِينَ فِيهِ ﴿أَبَدًا﴾ دَائِمًا لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا انْقِصَاءَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ: نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ <sup>(٦)</sup>. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيِ بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَاتَّقَنَوْهُ ﴿وَلَا لِأَبَائِهِمْ﴾ أَيِ لِأَسْلَافِهِمْ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ هَذَا تَبَشُّعٌ لِمَقَالَتِهِمْ وَاسْتِعْظَامٌ لِإِفْكِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أَيِ لَيْسَ لَهَا مُسْتَنَدٌ سِوَى قَوْلِهِمْ، وَلَا دَلِيلٌ لَهُمْ عَلَيْهَا إِلَّا كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

### [سَبَبُ نُزُولِ السُّورَةِ]

وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ قَدِيمٌ عَلَيْنَا مِنْهُ بَضْعٌ وَارْبَعِينَ سَنَةً عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَعَثَ فَرِيضُ النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَى أَحْبَارِ يَهُودَ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالُوا لَهُمْ: سَلُّوهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ، وَصِفُوا لَهُمْ صِفَتَهُ وَأَخْبِرُوهُمْ بِقَوْلِهِ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَعِنْدَهُمْ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا الْمَدِينَةَ فَسَأَلُوا أَحْبَارَ الْيَهُودِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوصَفُوا لَهُمْ أَمْرَهُ وَبَعْضَ قَوْلِهِ، وَقَالَا: إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا، قَالَ: فَقَالُوا لَهُمْ: سَلُّوهُ عَنْ ثَلَاثِ نَأْمُرْكُمْ بِهِ، فَإِنْ أَخْبَرْتُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَإِلَّا فَرَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ [فَرُوا] فِيهِ رَأْيُكُمْ: سَلُّوهُ عَنْ فِتْنَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ، مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ؟ فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجِيبٌ. وَسَلُّوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مَا كَانَ بُؤَهُ؟ وَسَلُّوهُ عَنِ الرُّوحِ مَا هُوَ؟ فَإِنْ أَخْبَرْتُمْ بِذَلِكَ فَهُوَ نَبِيٌّ فَاتَّبِعُوهُ، وَإِنْ لَمْ يُخْبِرْكُمْ فَإِنَّهُ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَأَ لَكُمْ،

الصَّحِيحِينَ <sup>(١)</sup>. وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ يَتْلُوهَا هُوَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ» <sup>(٢)</sup> رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَلَفِظُ التِّرْمِذِيِّ: «مَنْ حَفِظَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ» وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ <sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ» ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ <sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ الْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنِ الْحَاكِمِ، ثُمَّ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا نَزَلَتْ، كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» <sup>(٥)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ <sup>(١)</sup> قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا <sup>(٢)</sup> مَكْنُوتِينَ فِيهِ أَبَدًا <sup>(٣)</sup> وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا <sup>(٤)</sup> مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا <sup>(٥)</sup>

### [أُنْزِلَ الْقُرْآنُ بُشِيرًا وَنَذِيرًا]

قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ أَنَّهُ تَعَالَى يَحْمَدُ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ عِنْدَ قَوَائِحِ الْأُمُورِ وَخَوَاتِيمِهَا، فَإِنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْزَالِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: فَإِنَّهُ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، إِذْ أَخْرَجَهُمْ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، حَيْثُ جَعَلَهُ كِتَابًا مُسْتَقِيمًا لَا اغْوَجَاجَ فِيهِ وَلَا زَنْجَ، بَلْ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَاضِحًا بَيِّنًا، جَلِيلًا نَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ، بُشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ أَيِ لَمْ يَجْعَلْ فِيهِ اغْوَجَاجًا وَلَا زَنْجًا وَلَا مِيلًا، بَلْ جَعَلَهُ مُعْتَدِلًا مُسْتَقِيمًا وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قِيمًا﴾ أَيِ مُسْتَقِيمًا ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾ أَيِ لِمَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ: لِيُنْذِرَهُ بَأْسًا شَدِيدًا، عُقُوبَةً عَاجِلَةً فِي الدُّنْيَا وَآجَلَةً فِي الْآخِرَةِ ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أَيِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِي لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدًا، وَلَا

(١) فتح الباري: ٧١٩/٦ ومسلم: ٥٤٨/١ (٢) أحمد: ٥/١٩٦ (٣) مسلم: ٥٥٥/١ وأبو داود: ٤٩٧/٤ والنسائي في الكبرى: ٢٣٦/٦ وتحفة الأحوذى: ١٩٥/٨ (٤) الحاكم: ٢/٣٦٨ (٥) البيهقي: ٢٤٩/٣ (٦) الطبري: ٩٥/١٧

أَبُو مَسْلَمَةَ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظِيرٌ مَادَا تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ»<sup>(١)</sup>. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِزَوَالِهَا وَفَنَائِهَا، وَفَرَاغِهَا، وَانْقِضَائِهَا، وَذَهَابِهَا وَخَرَابِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: «وَلِنَا لَجَعَلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا»<sup>(٢)</sup> أَيْ: وَلِنَا لِمُصِيرِهَا بَعْدَ الزَّيْنَةِ إِلَى الْخَرَابِ وَاللِّدْمَارِ، فَتَجْعَلُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهَا هَالِكًا صَعِيدًا جُرُزًا لَا يَنْبُتُ وَلَا يُنْتَفِعُ بِهِ.

كَمَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلِنَا لَجَعَلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا» يَقُولُ: يَهْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَيَبِيدُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: صَعِيدًا جُرُزًا بَلَقَعًا<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: الصَّعِيدُ الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَجَرٌ وَلَا نَبَاتٌ<sup>(٥)</sup>. «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا»<sup>(٦)</sup> إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رِسَدًا<sup>(٧)</sup>. فَضَرَبَتْ عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا<sup>(٨)</sup> ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا<sup>(٩)</sup>.

### [قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَالْإِخْتِصَارِ، ثُمَّ بَسْطُهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ: «أَمْ حَسِبْتَ» يَعْنِي يَا مُحَمَّدُ «أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» أَيْ لَيْسَ أَمْرُهُمْ عَجَبًا فِي قُدْرَتِنَا وَسُلْطَانِنَا، فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ - عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ - أَعْجَبَ مِنْ أَخْبَارِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» يَقُولُ: قَدْ كَانَ مِنْ آيَاتِنَا مَا هُوَ أَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ

فَأَقْبَلَ النَّصْرُ وَعُقْبَةُ حَتَّى قَدِمَا عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَضْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، قَدْ أَمَرْنَا أَخْبَارَ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أُمُورٍ... فَأَخْبَرُوهُمْ بِهَا، فَجَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنَا، فَسَأَلُوهُ عَمَّا أَمَرُوهُمْ بِهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخْبِرْكُمْ غَدًا عَمَّا سَأَلْتُمْ عَنْهُ» وَلَمْ يَسْتَسْنِ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ، وَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لَا يُحَدِّثُ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ وَحَيًّا، وَلَا يَأْتِيهِ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَرْجَفَ أَهْلُ مَكَّةَ وَقَالُوا: وَعَدَنَا مُحَمَّدٌ غَدًا، وَالْيَوْمَ خَمْسَ عَشْرَةَ قَدْ أَصْبَحْنَا فِيهَا، لَا يُخْبِرُنَا بِشَيْءٍ عَمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ، وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَثَ الْوَحْيِ عَنْهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ، ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فِيهَا مُعَاتَبَتُهُ إِنَاءً عَلَى حُزْنِهِ عَلَيْهِمْ، وَخَبَرٌ مَّا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ الْفِتْيَةِ وَالرَّجُلِ الطَّوَّافِ، وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ... الْآيَةُ»<sup>(١١)</sup>.

«فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى عَاقِبَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا»<sup>(١٢)</sup> إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا<sup>(١٣)</sup> وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا<sup>(١٤)</sup> [لَا تَأْسَفُ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي حُزْنِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِتَرْكِهِمُ الْإِيْمَانَ وَبُعْدِهِمْ عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ» [فاطر: ٨] وَقَالَ: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» [النحل: ١٢٧] وَقَالَ: «لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [الشعراء: ٣] بَاخِعٌ أَيْ: مُهْلِكٌ نَفْسَكَ بِحُزْنِكَ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى عَاقِبَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ» يَعْنِي الْقُرْآنَ «أَسَفًا» يَقُولُ: لَا تُهْلِكْ نَفْسَكَ أَسَفًا. قَالَ قَتَادَةُ: قَاتِلٌ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: جَزَعًا<sup>(١٦)</sup>. وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ، أَيْ لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ، بَلْ أَلْبِغْهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ، فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، [فَلَا] تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ.

### [الدُّنْيَا دَارُ الْإِبْتِلَاءِ]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارًا فَانِيَةً مَرْيُتَةً بَرِيَّةً زَائِلَةً، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا دَارَ اخْتِبَارٍ لَا دَارَ قَرَارٍ، فَقَالَ: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» قَالَ

(١) وفي الأصل وقع: قال: الروح بدل قوله: قل. الطبري: ١٧/

٥٩٢ إسناده ضعيف لجهالة شيخ من أهل مصر (٢) الطبري:

١٧/٥٩٨، (٣) الطبري: ١٧/٥٩٨ (٤) أحمد: ٢٢/٣

(٥) الطبري: ١٧/٥٩٩ (٦) الطبري: ١٧/٥٩٩ (٧) الطبري:

١٧/٦٠٠ (٨) الطبري: ١٧/٦٠١

الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا يَقُولُ: الَّذِي آتَيْنَاكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ وَالْكِتَابِ أَفْضَلُ مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: مَا أَظْهَرَتْ مِنْ حُجَجِي عَلَى الْعِبَادِ أَعْجَبَ مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ<sup>(٢)</sup>. وَأَمَّا الْكَهْفُ فَهُوَ الْغَارُ فِي الْجَبَلِ، وَهُوَ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ الْمَذْكُورُونَ، وَأَمَّا الرَّقِيمُ فَقَالَ الْعُوفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ وَادٍ قَرِيبٌ مِنْ أَيْلَةٍ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَطِيَّةُ الْعُوفِيِّ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَمَّا الْكَهْفُ فَهُوَ غَارٌ فِي الْوَادِي<sup>(٤)</sup>. وَالرَّقِيمُ اسْمُ الْوَادِي. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الرَّقِيمُ كَانَ بُيُوتَهُمْ. وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْوَادِي الَّذِي فِيهِ كَهْفُهُمْ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَالرَّقِيمُ»: كَانَ يَزْعُمُ كَعْبٌ أَنَّهَا الْقَرْيَةُ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّقِيمُ الْجَبَلُ الَّذِي فِيهِ الْكَهْفُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الرَّقِيمُ لَوْحٌ مِنْ حِجَارَةٍ كَتَبُوا فِيهِ قِصَصَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، ثُمَّ وَضَعُوهُ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «إِذَا أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أُولَئِكَ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ قَرُّوا بِدِينِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، لِقَلَّ يَفْتِنُوهُمْ عَنْهُ، فَهَرَبُوا مِنْهُمْ، فَلَجَأُوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَسْتَخْفُوا عَنْ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا حِينَ دَخَلُوا سَائِلِينَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ: «رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» أَيُّ هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً تَرْحَمْنَا بِهَا وَتَسْتُرْنَا عَنْ قَوْمِنَا «وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» أَيُّ وَقَدِّرْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا هَذَا رَشَدًا أَيُّ اجْعَلْ عَاقِبَتَنَا رَشَدًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «وَمَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا»<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا» أَيُّ أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حِينَ دَخَلُوا إِلَى الْكَهْفِ فَنَامُوا سِنِينَ كَثِيرَةً، «ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ» أَيُّ مِنْ رَفَعْتِهِمْ تِلْكَ، وَخَرَجَ أَحَدُهُمْ بِدِرَاهِمٍ مَعَهُ لِيَسْتَرِيَ لَهُمْ بِهَا طَعَامًا يَأْكُلُونَهُ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: «ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْفِرَاقِينَ» أَيُّ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهِمْ «أَخْصَنَ لِمَا كَانُوا أَمَدًا» قِيلَ: عَدَدًا، وَقِيلَ: غَايَةً، فَإِنَّ الْأَمَدَ الْغَايَةَ، كَقَوْلِهِ:

السَّنَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوًا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اغْتَرَفْنَاهُمُ وَمَا يُغْنَوْنَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّاهُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾

[إِيمَانُهُمْ بِاللَّهِ وَاعْتِزَالُهُمُ الْقَوْمَ]

مِنْ هَهُنَا شَرَعَ فِي بَسْطِ الْقِصَّةِ وَشَرْحِهَا، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ فِتْيَةٌ وَهُمْ الشَّبَابُ، وَهُمْ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ وَأَهْدَى لِلْسَبِيلِ مِنَ الشُّيُخِ الَّذِينَ قَدْ عَتَوْا وَانْعَمَسُوا فِي دِينِ الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ شَبَابًا، وَأَمَّا الْمَشَايخُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَعَامَّتُهُمْ بَقَا عَلَى دِينِهِمْ وَلَمْ يُسَلِّمْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ. وَهَكَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْيَةً شَبَابًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَلَغْنِي أَنَّهُ كَانَ فِي آذَانِ بَعْضِهِمُ الْقِرْطَةُ يَعْنِي الْحَلَقَ. فَالْتَمَهُمُ اللَّهُ رُشْدَهُمْ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ، فَامْتَوَا بِرَبِّهِمْ أَيُّ اغْتَرَفُوا لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَشَهِدُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ «وَرَزَقْنَاهُمْ هُدًى».

إِسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْآيَةِ كَالْبَخَارِيِّ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَفَاضُلِهِ وَأَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ<sup>(٩)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَرَزَقْنَاهُمْ هُدًى» كَمَا قَالَ: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَكَثَّفْنَا لَهُمْ قَوْلَهُمْ» [محمد: ١٧] وَقَالَ: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادْنَاهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يُسْتَبِشِرُونَ» [التوبة: ١٢٤] وَقَالَ: «لِيَزَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ» [الفتح: ٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ لَمَا اعْتَنَى أَحْبَارُ الْيَهُودِ بِحِفْظِ خَبَرِهِمْ وَأَمْرِهِمْ لِمُبَايَنَتِهِمْ لَهُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ قُرَيْشًا بَعَثُوا إِلَى أَحْبَارِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَشْيَاءَ، يَمْتَحِنُونَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِمْ أَنَّ يَسْأَلُوهُ عَنْ خَبَرِ هَؤُلَاءِ، وَعَنْ خَبَرِ ذِي الْقُرَيْنِ، وَعَنْ

سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوَلَى عَلَى الْأَمَدِ  
«تَحَنَّنْ نَفْسُ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ  
وَرَزَقْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٧﴾ وَبَطَّلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ

(١) الطبري: ٦٠١/١٧ (٢) الطبري: ٦٠١/١٧ (٣) الطبري: ٦٠٢/١٧ (٤) الطبري: ٦٠٢/١٧ (٥) الطبري: ٦٠٢/١٧ (٦) ابن جريج مدلس لم يسمع من ابن عباس والسند إليه ضعيف فيه الحسين بن داود المصيصي ضعيف كان يلقن شيخه حجاج بن محمد (تقريب) (٧) الطبري: ١٧/٦٠٣ (٨) أحمد: ١٤٧/٦ (٩) فتح الباري: ٦٠/١

الرُّوحَ، فَذَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مَحْفُوظٌ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنَّهُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَصَبَرْنَا هُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ، وَمُقَارَفَةٍ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالسَّعَادَةِ وَالنَّعْمَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَتْبَاءِ مُلُوكِ الرُّومِ وَسَادَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ خَرَجُوا يَوْمًا فِي بَعْضِ أَعيَادِ قَوْمِهِمْ، وَكَانَ لَهُمْ مُجْتَمَعٌ فِي السَّيَةِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي ظَاهِرِ الْبَلَدِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالطَّوَاغِيتَ، وَيَذْبَحُونَ لَهَا، وَكَانَ لَهُمْ مَلِكٌ جَبَّارٌ غَنِيْدٌ يُقَالُ لَهُ: دَقْيَانُوسُ. وَكَانَ يَأْمُرُ النَّاسَ بِذَلِكَ وَيَحْتُمُّ عَلَيْهِمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّاسُ لِمُجْتَمَعِهِمْ ذَلِكَ، وَخَرَجَ هَؤُلَاءِ الْفَتَنَةِ مَعَ آبَائِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، وَنَظَرُوا إِلَى مَا يَصْنَعُ قَوْمُهُمْ بَعَيْنَ بَصِيرَتِهِمْ، عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي يَصْنَعُهُ قَوْمُهُمْ مِنَ السُّجُودِ لِأَصْنَامِهِمْ وَالذَّبْحِ لَهَا، لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَجَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَخَلَّصُ مِنْ قَوْمِهِ، وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ، وَيَتَبَرَّرُ عَنْهُمْ نَاجِيَةً، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ جَلَسَ مِنْهُمْ وَحْدَهُ أَحَدُهُمْ، جَلَسَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ، فَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهَا عِنْدَهُ، وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمَا، وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، وَجَاءَ الْآخَرُ، وَجَاءَ الْآخَرُ، وَلَا يَعْرِفُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ الْآخَرَ، وَإِنَّمَا جَمَعَهُمْ هُنَاكَ الَّذِي جَمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ.

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَغْلِيْقًا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَكَرَّ مِنْهَا اخْتَلَفَ»<sup>(١)</sup>. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَالتَّاسِ يَقُولُونَ: الْجَنَسِيَّةُ عِلَّةُ الصَّمِّ. وَالْغَرَضُ أَنَّهُ جَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَكْتُمُ مَا هُوَ عَلَيْهِ عَنْ أَصْحَابِهِ خَوْفًا مِنْهُمْ، وَلَا يَذَرِي أَنَّهُمْ مِنْهُ حَتَّى قَالَ أَحَدُهُمْ: تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ يَا قَوْمِ إِنَّهُ مَا أَخْرَجَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَأَفْرَدَكُمْ عَنْهُمْ إِلَّا شَيْءٌ، فَلْيُظْهِرْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا بِأَمْرِهِ، فَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَأِنِّي وَاللَّهِ رَأَيْتُ مَا قَوْمِي عَلَيْهِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ: السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا. وَقَالَ

الْآخَرُ: وَأَنَا وَاللَّهُ وَقَعَ لِي كَذَلِكَ، وَقَالَ الْآخَرُ كَذَلِكَ، حَتَّى تَوَافَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَصَارُوا يَدًا وَاحِدَةً، وَإِخْوَانٌ صَدِيقٌ، فَاتَّخَذُوا لَهُمْ مَعْبَدًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فِيهِ، فَعَرَفَ بِهِمْ قَوْمُهُمْ فَوَسَّوْا بِأَمْرِهِمْ إِلَى مَلِكِهِمْ فَاسْتَحْضَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ بِالْحَقِّ وَدَعَوْهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ يَقُولُهُ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ وَلَنْ لِنَقِي التَّائِيدَ أَيْ لَا يَقَعُ مِنَّا هَذَا أَبَدًا، لَأَنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَكُنَّا بِاطِلًا، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أَيْ بِاطِلًا وَهَيْئَانَا ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أَيْ هَلَا أَقَامُوا عَلَى صِحَّةٍ مَا دَهَبُوا إِلَيْهِ دَلِيلًا وَاضِحًا صَحِيحًا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يَقُولُونَ: بَلْ هُمْ ظَالِمُونَ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ، فَيُقَالُ: إِنَّ مَلِكَهُمْ لَمَّا دَعَوْهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَلْبَى عَلَيْهِمْ وَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ، وَأَمَرَ بِتَرْعِ لِبَاسِهِمْ عَنْهُمْ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ قَوْمِهِمْ، وَأَجْلَهُمْ لِيَنْظُرُوا فِي أَمْرِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ هَذَا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِي تِلْكَ النَّظَرَةِ تَوَصَّلُوا إِلَى الْهَرَبِ مِنْهُ وَالْفَرَارِ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَ وَقُوعِ الْفِتَنِ فِي النَّاسِ أَنْ يَمُرَّ الْعَبْدُ مِنْهُمْ خَوْفًا عَلَى دِينِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَا لَاحِدِكُمْ غَمًّا يَنْتَبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَمُرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»<sup>(٢)</sup>. فَبَيْنَ هَذِهِ الْحَالِ تَشْرَعُ الْعُرْلَةُ عَنِ النَّاسِ وَلَا تَشْرَعُ فِيمَا عَدَاهَا، لِمَا يَقُوتُ بِهَا مِنْ تَرْكِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجَمْعِ، فَلَمَّا وَقَعَ عَزْمُهُمْ عَلَى الذَّهَابِ وَالْهَرَبِ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَاخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَعَزَّلْنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أَيْ: وَإِذْ فَارَقْتُمُوهُمْ وَخَالَفْتُمُوهُمْ بِأَذْيَانِكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ، فَفَارِقُوهُمْ أَيْضًا بِأَذْيَانِكُمْ، ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ يَنْسُطْ عَلَيْكُمْ رَحْمَةً يَنْشُرْكُمْ بِهَا مِنْ قَوْمِكُمْ ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ﴿مَرْفَقًا﴾ أَيْ أَمْرًا تَرْتَفِقُونَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا هُرَابًا إِلَى الْكَهْفِ فَأَوُوا إِلَيْهِ، فَفَقَدَهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ

(١) فتح الباري: ٤٢٦/٦ (٢) مسلم: ٢٠٣١/٤ (٣) فتح الباري: ٨٧/١



سُورَةُ الْكَهْفِ

٢٩٥

سُورَةُ الْكَهْفِ

وَإِذِ اعْتَرَسَتْهُمُ اللَّيْلُ مِمَّا اعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ فَاوُوا إِلَى الْكَهْفِ  
يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا ﴿١٦﴾  
وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ  
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ  
مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ عَآيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ بِهَا الْقَوْمَ الصَّالِحِينَ وَمَنْ  
يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً ظَالِمًا  
وَهُمْ رُفُودٌ وَقَلْبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ  
بَسِطٌ ذِرَاعَاهُ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ  
فِرَارًا وَلَمُلَمْتُ مِنْهُمْ رُجْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ  
لِتَسَاءُلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا  
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا  
أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى  
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَسْأَلْهُمْ وَلَا يَشْعُرَنَّ  
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ  
أَوْ يَعْذِيبُكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ وَتَطْلُبُهُمُ الْمَلِكُ، فَيَقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَطْفَرْ بِهِمْ،  
وَعَمَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَبَرُهُمْ كَمَا فَعَلَ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَصَاحِبِهِ  
الصَّدِيقِ حِينَ لَجَا إِلَى غَارِ ثَوْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ  
قُرَيْشٍ فِي الطَّلَبِ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ مَعَ أَنَّهُمْ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ،  
وَعِنْدَهَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ رَأَى جَزَعَ الصَّدِيقِ فِي قَوْلِهِ: يَا  
رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى مَوْضِعِ قَدَمِيهِ لَأَبْصَرَنَا،  
فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِأَتَيْنِ اللَّهَ ثَالِثَهُمَا؟» <sup>(١)</sup>. وَقَدْ  
قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا ثَالِثِ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ  
لَصَحْبِيهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزِلْ اللَّهُ سَكِينَتَهُ  
عَلَيْهِ وَآيَتُهُمْ بِحُجُورٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ  
كَفَرُوا السَّغْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيظُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فَقِصَّةُ هَذَا الْغَارِ أَشْرَفُ وَأَجَلُّ  
وَأَعْظَمُ وَأَعَجَبُ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ  
وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ  
عَآيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ بِهَا الْقَوْمَ الصَّالِحِينَ وَمَنْ  
يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ  
وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ ﴿١٧﴾

## [مَوْقِعُ الْكَهْفِ]

وَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَابَ هَذَا الْكَهْفِ كَانَ مِنْ نَحْوِ  
الشِّمَالِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا دَخَلَتْهُ عِنْدَ  
طُلُوعِهَا تَرَاوَرَّ عَنْهُ ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أَيْ يَتَقَلَّصُ الْفَيْءُ يَمِينَهُ،  
كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَفَتَاةُ: ﴿تَرَاوَرَّ﴾ أَيْ  
تَمِيلُ <sup>(٢)</sup>. وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلَّمَا ارْتَفَعَتْ فِي الْأَفْقِ تَقَلَّصَ  
شُعَاعُهَا بِارْتِفَاعِهَا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ عِنْدَ الزَّوَالِ فِي  
مِثْلِ ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ  
الشِّمَالِ﴾ أَيْ تَدْخُلُ إِلَى غَارِهِمْ مِنْ شِمَالِ بَابِهِ، وَهُوَ مِنْ  
نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ، فَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا، وَهَذَا بَيْنَ لَمَنِ  
تَأَمَّلَهُ وَكَانَ لَهُ عِلْمٌ بِمَعْرِفَةِ الْهَيْئَةِ وَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ  
وَالْكَوَاكِبِ. وَيَبَآئُهُ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ بَابُ الْغَارِ مِنْ نَاحِيَةِ  
الْمَشْرِقِ لَمَا دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الْغُرُوبِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ  
نَاحِيَةِ الْقِبْلَةِ لَمَا دَخَلَ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الطُّلُوعِ وَلَا عِنْدَ  
الْغُرُوبِ، وَلَا تَرَاوَرَّ الْفَيْءُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَلَوْ كَانَ مِنْ  
جِهَةِ الْغَرْبِ لَمَا دَخَلَتْهُ وَقْتُ الطُّلُوعِ بَلْ بَعْدَ الزَّوَالِ، وَلَمْ  
تَرَلْ فِيهِ إِلَى الْغُرُوبِ، فَتَعَيَّنَ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.  
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَفَتَاةُ: تَقْرِضُهُمْ تَتَرَكُّهُمْ <sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَأَرَادَ مِنَّا فَهْمَهُ وَتَدَبُّرَهُ، وَلَمْ  
يُخْبِرْنَا بِمَكَانِ هَذَا الْكَهْفِ فِي أَيِّ الْبِلَادِ مِنَ الْأَرْضِ، إِذْ  
لَا فَايِدَةَ لَنَا فِيهِ وَلَا قَصْدَ شَرْعِيٍّ، وَلَوْ كَانَ لَنَا فِيهِ مَضْلَحَةٌ  
دِينِيَّةٌ لَأَرْسَلْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ إِلَيْهِ، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَا  
تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ  
أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ» <sup>(٤)</sup>. فَأَعْلَمْنَا تَعَالَى بِصِفَتِهِ، وَلَمْ يُعْلَمْنَا  
بِمَكَانِهِ، فَقَالَ: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾  
قَالَ مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: تَمِيلُ ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا  
غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أَيْ فِي مَتَسَعٍ  
مِنْهُ دَاخِلًا بِحَيْثُ لَا تُصِيبُهُمْ، إِذْ لَوْ أَصَابَتْهُمْ لَأُخْرِقَتْ  
أَبْدَانُهُمْ وَيَتَابَعُهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ <sup>(٥)</sup>. ﴿ذَلِكَ مِنْ عَآيَاتِ اللَّهِ﴾  
حَيْثُ أَرْسَلْنَاهُمْ تَعَالَى إِلَى هَذَا الْغَارِ الَّذِي جَعَلْنَاهُمْ فِيهِ  
أَحْيَاءَ، وَالشَّمْسُ وَالرِّيحُ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِيهِ لَيَتَقَى أَبْدَانُهُمْ،

(١) فتح الباري: ١١/٧ (٢) الطبري: ١٧/٦٢٠ (٣) الطبري:

١٧/٦٢٢، ٦٢١ (٤) عبد الرزاق: ١١/١٢٥ (٥) الطبري:

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾... الآية، أَيُّ هُوَ الَّذِي أَرْشَدَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ إِلَى الْهِدَايَةِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

﴿وَتَحَسَّبُ أُنْقَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ وَيُنْفِلُهمُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ (١٨)

مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (١٩)

[اسْتَيْقَظَهُمْ وَبَعَثَهُمْ أَحَدَهُمْ لِشْرَاءِ الطَّعَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْقَدْنَاهُمْ بَعَثْنَاهُمْ صَحِيحَةً أَبَدَانُهُمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَأَبْشَارُهُمْ، لَمْ يَقْدِرُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَهَيَاتِهِمْ شَيْئًا وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَتِسْعَ سِنِينَ، وَلِهَذَا تَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴿كَمْ لَيْسَتْ﴾ أَيُّ كَمْ رَقَدْتُمْ؟ ﴿قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لِأَنَّهُ كَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى الْكَهْفِ فِي أَوَّلِ نَهَارٍ، وَاسْتَيْقَظَهُمْ كَانَ فِي آخِرِ نَهَارٍ، وَلِهَذَا اسْتَذَرَكُوا فَقَالُوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ﴾ أَيُّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَمْرِكُمْ، وَكَأَنَّهُ حَصَلَ لَهُمْ نَوْعٌ تَرَدَّدَ فِي كَثْرَةِ نَوْمِهِمْ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الْأَهَمِّ فِي أَمْرِهِمْ إِذْ ذَاكَ، وَهُوَ اخْتِجَاجُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَقَالُوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ أَيُّ فَصَّيْتُكُمْ هَذِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ اسْتَضَحَبُوا مَعَهُمْ دَرَاهِمَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا، فَصَدَّقُوا مِنْهَا وَبَقِيَ مِنْهَا، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أَيُّ مَدِينَتِكُمْ الَّتِي خَرَجْتُمْ مِنْهَا، وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ لِلْعَهْدِ ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أَيُّ أَطْيَبُ طَعَامًا. كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢٧] وَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الاعلى: ١٤] وَمِنَ الزَّكَاةِ الَّتِي تُطَيَّبُ الْمَالُ وَتُطَهَّرُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَلْتَظِفْ﴾ أَيُّ فِي خُرُوجِهِ وَذَهَابِهِ وَسَرَائِهِ وَإِيَابِهِ، يَقُولُونَ: وَلْيَتَخَفْ كُلُّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أَيُّ وَلَا يُعْلِمَنَّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ (٢٠) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴿أَيُّ إِنْ عَلِمُوا بِمَكَانِكُمْ﴾ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ يَغْنَوْنَ أَصْحَابَ دَقْيَانُوسَ، يَخَافُونَ مِنْهُمْ أَنْ

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾... الآية، أَيُّ هُوَ الَّذِي أَرْشَدَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ إِلَى الْهِدَايَةِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

﴿وَتَحَسَّبُ أُنْقَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ وَيُنْفِلُهمُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ (١٨)

[رُفُودُهُمْ فِي الْكَهْفِ]

ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ عَلَى آذَانِهِمْ بِالنَّوْمِ، لَمْ تَنْطَبِقْ أَعْيُنُهُمْ لِئَلَّا يُسْرِعَ إِلَيْهَا الْبَلَى، فَإِذَا بَقِيََتْ ظَاهِرَةٌ لِلْهَوَاءِ كَانَ أَبْقَى لَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحَسَّبُ أُنْقَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الذُّبِّ أَنَّهُ يَنَامُ فَيُطْبِقُ عَيْنًا وَيَفْتَحُ عَيْنًا، ثُمَّ يَفْتَحُ هَذِهِ وَيُطْبِقُ هَذِهِ وَهُوَ رَاقِدٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنْفِلُهمُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ لَمْ يُقْلَبُوا لَأَكَلَتْهُمْ الْأَرْضُ<sup>(١)</sup>. قَوْلُهُ: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: الْوَصِيدُ: الْفِتَاءُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِالْبَابِ<sup>(٣)</sup>. وَقِيلَ: بِالصَّعِيدِ وَهُوَ التُّرَابُ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ بِالْفِتَاءِ وَهُوَ الْبَابُ، وَمِنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ﴾ أَيُّ مُطَبَّقَةٌ مُغْلَقَةٌ، وَيُقَالُ: وَصِيدٌ وَأَصِيدٌ. رَبَضَ كَلْبُهُمْ عَلَى الْبَابِ كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْكِلَابِ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَخْرُسُ عَلَيْهِمُ الْبَابُ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا مِنْ سَجِيئَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ حَيْثُ يَرِبُضُ بِبَابِهِمْ، كَأَنَّهُ يَخْرُسُهُمْ، وَكَانَ جُلُوسُهُ خَارِجَ الْبَابِ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ - كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ - وَلَا صُورَةٌ وَلَا جُنُبٌ وَلَا كَافِرٌ. كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْحَسَنِ. وَشَمَلَتْ كَلْبُهُمْ بَرَكَتُهُمْ فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَهَذَا فَايِدَةُ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ، فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبَرٌ وَشَأْنٌ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ كَلْبٌ صَيِّدٌ لِأَحَدِهِمْ، وَهُوَ الْأَشْبَةُ، وَقِيلَ: كَلْبٌ طَبَاخُ الْمَلِكِ، وَقَدْ كَانَ وَاقِفُهُمْ عَلَى الدِّينِ [فَصَحْبُهُ] كَلْبُهُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوِ اطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ أَيُّ إِنَّهُ تَعَالَى أَلْقَى عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرٌ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ، لِمَا أَلْبَسُوا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالذُّعْرِ، لِئَلَّا يَدْنُو مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَا تَمَسَّهُمْ يَدٌ لَامِسٍ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَتَنْقُضِي رُقْدَتَهُمُ الَّتِي

(١) الطبري: ١٧/٦٢٠ (٢) الطبري: ١٧/٦٢٤، ٦٢٥ (٣)

الطبري: ١٧/٦٢٥ (٤) الطبري: ١٧/٦٢٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩٦

سُورَةُ الْكَهْفِ

وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِجَعَلْنَا آتٍ وَعَدَ اللَّهِ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَٰذَا رُسُلًا وَلِيُثَبِّتُ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴿٢٤﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثَبِّتُوهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرُ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْتَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٦﴾

أَعْلَمَهُمْ بِذَٰلِكَ فَأَمَّا مَعَهُ إِلَى الْكَهْفِ - مَلِكُ الْبَلَدِ وَأَهْلُهَا - حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالَ لَهُمْ: دَعُونِي حَتَّى أَتَقَدَّمَكُمْ فِي الدُّخُولِ لِأَعْلِمَ أَصْحَابِي فَدَخَلَ، فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ ذَهَبَ فِيهِ، وَأَخْفَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَبْرَهُمْ، وَيُقَالُ بَلْ دَخَلُوا عَلَيْهِمْ وَرَأَوْهُمْ، وَسَلَّمْ عَلَيْهِمْ الْمَلِكُ وَاعْتَنَقَهُمْ، وَكَانَ مُسْلِمًا فِيمَا قِيلَ، وَاسْمُهُ يَنْدُوسُ، فَفَرَحُوا بِهِ وَأَنْشَدُوا بِالْكَلامِ، ثُمَّ وَدَّعُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، وَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَتَوَقَّاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ كَمَا أَوْقَدْنَا لَهُمْ وَأَيُّظَنَّا لَهُمْ بِهَيْبَتِهِمْ، أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمْ أَهْلَ ذَٰلِكَ الزَّمَانِ ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ أَيُّ فِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ، فَمِنْ مُثَبِّتِ لَهَا وَمِنْ مُنْكَرٍ، فَجَعَلَ اللَّهُ طُهُورَهُمْ عَلَى أَصْحَابِ الْكَهْفِ

يَطْلَعُوا عَلَى مَكَانِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ يُعَذِّبُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِلَى أَنْ يُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمْ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، أَوْ يَمُوتُوا. وَإِنْ وَافَقْتُمُوهُمْ عَلَى الْعُودِ فِي الدِّينِ، فَلَا فَلَاحَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَٰذَا قَالَ: ﴿وَلَنْ تَنْصِلُوهُمْ إِذَا أَبْكَدَا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِجَعَلْنَا آتٍ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ﴿٢١﴾

[عُثُورُ أَهْلِ الْبَلَدِ عَلَيْهِمْ وَبَنَؤُهُمْ تَذْكَارًا عَلَى الْكَهْفِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمْ النَّاسَ ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ حَصَلَ لِأَهْلِ ذَٰلِكَ الزَّمَانِ شَكٌّ فِي الْبُعْثِ وَفِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: كَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ قَدْ قَالُوا: تُبْعَثُ الْأَرْوَاحُ وَلَا تُبْعَثُ الْأَجْسَادُ، فَبَعَثَ اللَّهُ أَهْلَ الْكَهْفِ حُجَّةً وَدَلَالَةً وَآيَةً عَلَى ذَٰلِكَ<sup>(١)</sup>. وَذَكَرُوا: أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي شَرَاءِ شَيْءٍ لَهُمْ لِيَأْكُلُوهُ، تَنَكَّرَ وَخَرَجَ بِمِشْيِ فِي غَيْرِ الْجَادَّةِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَكَرُوا أَنَّ اسْمَهَا دُقُوسُ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِهَا، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ تَبَدَّلُوا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَأُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ، وَتَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا، فَجَعَلَ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا، وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا: لَا خَوَاصَّهَا وَلَا عَوَامَّهَا، فَجَعَلَ يَتَحَيَّرُ فِي نَفْسِهِ وَيَقُولُ: لَعَلَّ بِي جُنُونًا أَوْ مَسًّا أَوْ أَنَا حَالِمٌ، وَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا بِي شَيْءٌ مِنْ ذَٰلِكَ، وَإِنْ عَهْدِي بِهِذِهِ الْبَلَدَةِ عَشِيَّةَ أُمْسٍ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصَّفَةِ. ثُمَّ قَالَ: إِنْ تَعْجِلَ الْخُرُوجُ مِنْ هَهُنَا لِأَوْلَىٰ لِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ الثَّقَفَةِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَهُ بِهَا طَعَامًا، فَلَمَّا رَأَاهُ ذَٰلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا، فَدَفَعَهَا إِلَى جَارِهِ، وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَقُولُونَ: لَعَلَّ هَٰذَا وَجَدَ كَثْرًا، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْرِهِ وَمِنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ الثَّقَفَةُ؟ لَعَلَّهُ وَجَدَهَا مِنْ كَثْرٍ، وَمَنْ أَنْتَ؟ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدَةِ، وَعَهْدِي بِهَا عَشِيَّةَ أُمْسٍ وَفِيهَا دُقْيَانُوسُ، فَتَسْبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ، فَحَمَلُوهُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهِمْ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَأْنِهِ وَخَبَرَهُ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِي حَالِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ، فَلَمَّا

(١) تاريخ الطبري: ٩/٢ (٢) تاريخ الطبري: ٩/٢

هَيَّا، فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ كِبِيرٌ فَإِنَّهُ  
﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أَيُّ فَإِنَّهُمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ  
بِذَلِكَ إِلَّا مَا يَقُولُونَهُ، مِنْ تَلَقُّاءِ أَنْفُسِهِمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ، أَيُّ  
مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَى كَلَامٍ مَعْصُومٍ، وَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ  
بِالْحَقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرْتَبَةَ فِيهِ، فَهُوَ الْمُقَدَّمُ الْحَاقِمُ  
عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَقْوَالِ.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدًّا﴾ (٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ  
وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا  
رَشَدًا (٤)

[الاستِثْنَاءُ عِنْدَ الْعَزْمِ عَلَى فِعْلٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ]

هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْأَدَبِ  
فِيمَا إِذَا عَزَمَ عَلَى شَيْءٍ لِيَفْعَلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَنْ يَرُدَّ ذَلِكَ  
إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَامُ الْغُيُوبِ الَّذِي يَعْلَمُ مَا كَانَ  
وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، كَمَا ثَبَتَ فِي  
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:  
«قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: لَا طُوفَانَ اللَّيْلَةِ عَلَى

سَبْعِينَ امْرَأَةً - وَفِي رِوَايَةٍ: سَبْعِينَ امْرَأَةً، وَفِي رِوَايَةٍ: مِائَةً  
امْرَأَةً - تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،  
فَقِيلَ لَهُ: - وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ لَهُ الْمَلِكُ - : قُلْ: إِنْ شَاءَ  
اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ، فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً  
نِصْفَ إِنْسَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ  
قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَخْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ» وَفِي  
رِوَايَةٍ: «وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ» (٥). وَقَدْ  
تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْلِ  
النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ: «عَدَّا  
أُجِيبُكُمْ» فَتَأَخَّرَ الْوُحْيُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا (٦). وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ  
بَطُولِهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، فَأَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ إِذَا نَسِيتَ  
الِاسْتِثْنَاءَ، فَاسْتَشْنِ عِنْدَ ذِكْرِكَ لَهُ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ  
الْبَصْرِيُّ (٧). وَقَالَ هُشَيْمٌ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ فِي الرَّجُلِ يَخْلِفُ، قَالَ: لَهُ أَنْ يَسْتَشْنِيَّ وَلَوْ إِلَى  
سَنَةٍ، وَكَانَ يَقُولُ: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فِي ذَلِكَ.

(١) فتح الباري: ١/ ٦٣٤ (٢) البداية والنهاية: ٨٨/ ٧ (٣)  
الطبري: ١٧/ ٦٤٢ (٤) الطبري: ١٧/ ٦٤٢ (٥) فتح الباري:  
٤١/ ٦ ومسلم: ٣/ ١٢٧٥ (٦) الطبري: ١٧/ ٥٩٢ (٧)  
الطبري: ١٧/ ٦٤٥

حُجَّةَ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ ﴿فَقَالُوا أَتَبَاؤُنَا عَلَيْهِمْ بُنَيْنًا رَنَّهُمْ أَغْلَمُ بِهِمْ﴾  
أَيُّ سُدُّوا عَلَيْهِمْ بَابَ كَهْفِهِمْ، وَذَرَوْهُمْ عَلَى حَالِهِمْ ﴿قَالَ  
الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ الَّذِينَ قَالُوا  
ذَلِكَ هُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ وَالنَّفُودِ، وَلَكِنْ هَلْ هُمْ  
مَحْمُودُونَ أَمْ لَا؟ فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ  
الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ  
مَسَاجِدَ يُحْذَرُ مَا فَعَلُوا» (١). وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا وَجَدَ قَبْرَ دَانِيَالٍ فِي  
رَمَانِهِ بِالْعِرَاقِ، أَمَرَ أَنْ يُحْفَى عَنِ النَّاسِ، وَأَنْ تُدْفَنَ تِلْكَ  
الرُّفْعَةُ الَّتِي وَجَدُوهَا عَنْهُ (٢). فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَلَاحِمِ  
وغيرها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبُهُمْ وَيَقُولُ سَادِسُهُمْ  
كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُ سَبْعُهُ وَثَامَتُهُمْ كَذِبُهُمْ قُلْ رَبِّي  
أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرًا  
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٣)  
[عَدْدُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي عِدَّةِ  
أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فَحَكَى ثَلَاثَةً أَقْوَالٍ، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا  
قَائِلَ بِرَافِعٍ، وَلَمَّا ضَعَفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَجْمًا  
بِالْغَيْبِ﴾ أَيُّ قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ، كَمَنْ يَرْمِي إِلَى مَكَانٍ لَا  
يَعْرِفُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُصِيبُ وَإِنْ أَصَابَ فَبِلَا قُصْدٍ. ثُمَّ  
حَكَى الثَّلَاثَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَوْ قَرَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَثَامَتُهُمْ  
كَذِبُهُمْ﴾ فَذَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ  
الْأَمْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ  
الْأَخْسَنَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ لَا  
اِحْتِيَاجَ إِلَى الْخَوْصِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ بِلَا عِلْمٍ، لَكِنْ إِذَا  
أُطْلِعْنَا عَلَى أَمْرِ قُلْنَا بِهِ وَإِلَّا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أَيُّ مِنَ النَّاسِ. قَالَ  
قَتَادَةُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ الَّذِي اسْتَشْنَى اللَّهُ عَزَّ  
وَجَلَّ، كَانُوا سَبْعَةً (٣). وَكَذَا رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءِ  
الْخُرَّاسَانِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَنَا مِمَّنْ اسْتَشْنَى اللَّهُ عَزَّ  
وَجَلَّ، وَيَقُولُ: عَدَّتُهُمْ سَبْعَةٌ (٤). وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قَالَ: أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ كَانُوا  
سَبْعَةً. فَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُمْ كَانُوا  
سَبْعَةً. وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا قَدْ مَتَّاهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرًا﴾ أَيُّ سَهْلًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩٧

سُورَةُ الْكَهْفِ

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَنَى  
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدِ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ  
أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ  
شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُهَا  
وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ  
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ  
لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ  
مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ  
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَأَصْرَبَ  
لَهُمْ مَثَلًا لَرَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا  
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ تَانَتَا كُلُّهُمَا وَلَمْ  
تَطْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ  
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

عبد الله: (وقالوا: وليثوا)، يعني: أنه قاله الناس<sup>(٤)</sup>.  
وهكذا قال مطرف بن عبد الله<sup>(٥)</sup>. وفي هذا الذي رُغمه  
فتأده نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب: أنهم ليثوا  
ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله  
قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَأَزْدَادُوا سَعًا﴾ والظاهر من  
الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم وهذا اختيار  
ابن جرير رحمه الله، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي أنه بصير بهم سميع  
لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح،  
كانه قيل: ما أبصره وأسمعه<sup>(٦)</sup>. وتأويل الكلام: ما أبصر

قيل للأعمش: سمعته عن مجاهد؟ فقال: حَدَّثَنِي بِهِ لَيْثُ  
ابْنُ أَبِي سَلِيمٍ يَرَى ذَهَبَ كَسَائِيٍّ هَذَا<sup>(١)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ أَنَّهُ يَسْتَنْتِي وَلَوْ بَعْدَ سَنَةٍ، أَيْ إِذَا نَسِيَ أَنْ يَقُولَ فِي  
حَلْفِهِ أَوْ فِي كَلَامِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ وَلَوْ بَعْدَ سَنَةٍ، فَالْسُّنَةُ  
لَهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ، لِيَكُونَ آيَةً بِسُنَّةِ الْإِسْتِثْنَاءِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ  
بَعْدَ الْجَنَاحِ - قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَنَصَّ عَلَى  
ذَلِكَ<sup>(٢)</sup> - لَا أَنْ يَكُونَ رَافِعًا لِحِنْثِ الْيَمِينِ وَمُسْقِطًا  
لِلْكَفَّارَةِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ  
الصَّحِيحُ، وَهُوَ الْأَلْيُّ بِحَمَلِ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ.

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ  
لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾<sup>(٣)</sup> إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكَرَ رَبُّكَ  
إِذَا نَسِيتَ﴾ أَنْ تَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلْ عَسَى  
أَنْ يَهْدِيَ رَبِّي لِقَرَبٍ مِنْ هَذَا شَيْئًا﴾ أَيْ إِذَا سُئِلْتَ عَنْ شَيْءٍ  
لَا تَعْلَمُهُ، فَاسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ، وَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُوقِفَكَ  
لِلصَّوَابِ وَالرُّشْدِ فِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلْيُثْوَا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ وَأَزْدَادُوا سَعًا<sup>(٥)</sup> قُلِ  
اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيثُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ  
وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ  
أَحَدًا<sup>(٦)</sup>.

### [مُدَّة قِيَامِهِمْ فِي الْكَهْفِ]

هَذَا خَيْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِمِقْدَارِ مَا لَيْثُ  
أَصْحَابُ الْكَهْفِ فِي كَهْفِهِمْ مُنْذُ أَرْقَدُوهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُمُ اللَّهُ  
وَأَعَثَّرَ عَلَيْهِمْ أَهْلَ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَأَنَّهُ كَانَ مِقْدَارُهُ ثَلَاثِ مِائَةِ  
سَنَةٍ تَزِيدُ تِسْعَ سِنِينَ بِالْهَلَالِيَّةِ، وَهِيَ الثَّلَاثُمِائَةُ سَنَةً  
بِالْشَّمْسِيَّةِ، فَإِنَّ تَقَاوُتَ مَا بَيْنَ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ بِالْقَمَرِيَّةِ إِلَى  
الشَّمْسِيَّةِ ثَلَاثُ سِنِينَ، فَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ الثَّلَاثِمِائَةِ: ﴿وَأَزْدَادُوا  
سَعًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيثُوا﴾ أَيْ إِذَا سُئِلْتَ عَنْ  
لَيْثِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمٌ فِي ذَلِكَ، وَتَوَقَّفَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى،  
فَلَا تَتَقَدَّمْ فِيهِ بِشَيْءٍ، بَلْ قُلْ فِي مِثْلِ هَذَا ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا  
لِيثُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ  
وَمَنْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَهَذَا الَّذِي قُلْنَا، عَلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ  
مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ كَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيُثْوَا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ  
سِنِينَ﴾ الْآيَةِ، هَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ رَدَّهُ اللَّهُ  
تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيثُوا﴾ قَالَ: وَفِي قِرَاءَةِ

(١) الطبري: ٦٤٥/١٧ تبين من هذا أن الأعمش دلّس حيث  
سمعه من ليث بن أبي سليم وهو مختلط ولم يتميز حديثه فترك  
(تقريب) الطبري: ٦٤٦/١٧ (٣) الطبراني في الأوسط:  
٤٥٤٥/٧ ضعيف إسناده فيه عبدالعزيز بن حصين وهو ضعيف (٤)  
الطبري: ٦٤٧/١٧ (٥) الطبري: ٦٤٨/١٧ (٦) الطبري:  
٦٥٠/١٧

صَحِيحِهِ عَنْ سَعْدٍ هُوَ ابْنُ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرُّونَ عَلَيْنَا قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هَذِلٍ وَبِلَالٍ، وَرَجُلَانِ نَسِيتُ اسْمَيْهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ دُونَ الْبُخَارِيِّ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلَا تُجَاوِزُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ<sup>(٦)</sup>. يَغْنِي تَطَلُّبُ بَدَلَهُمْ أَصْحَابَ الشَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ، ﴿وَلَا تُطْعِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَيُّ شُغْلٍ عَنِ الدِّينِ وَعِبَادَةِ رَبِّهِ بِالدُّنْيَا، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ أَيُّ أَغْمَالِهِ وَأَفْعَالِهِ سَفَهًا وَفَرِيطًا وَضَيَاعًا، وَلَا تَكُنْ مُطِيعًا وَلَا مُجِبًّا لِطَرِيقَتِهِ، وَلَا تَغْبِطُهُ بِمَا هُوَ فِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَمْدَدْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَفَعَ رَبُّكَ رِيكَ حَيْرٍ وَابَقَى﴾ [١٣١].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُوا بِعِبَائِهِمْ كَلِمَةٍ يَشَوِي الْأُجُوهَ يُسَكِّسُ الشَّرَابَ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ وَجَزَاءٌ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ رَبِّكُمْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أَيُّ أَرَصَدْنَا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وَهُمْ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أَيُّ سُوْرَهَا.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قَالَ: حَاطَ مِنْ نَارٍ<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَسْتَعِثُوا بِعِبَائِهِمْ كَلِمَةٍ يَشَوِي الْأُجُوهَ﴾ الْآيَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلْمَهْلُ: أَلْمَاءُ الْعَلِيطِ مِثْلُ دُرْدِيِّ الرَّيْبِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ كَالدَّمَ وَالْقَيْحِ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي انْتَهَى حَرُّهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ كُلُّ شَيْءٍ أُذِيبَ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ:

اللَّهُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَأَسْمَعُهُ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ. ثُمَّ رَوَى عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فَلَا أَحَدَ أَبْصُرُ مِنَ اللَّهِ وَلَا أَسْمَعُ<sup>(١١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أَيُّ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَيْسَ لَهُ وَزِيرٌ، وَلَا نَصِيرٌ، وَلَا شَرِيكٌ، وَلَا مُشِيرٌ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ.

﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [٧] وَأَبْصِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ [٧]

[الْأَمْرُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَبِالصَّبْرِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَإِبْلَاغِهِ إِلَى النَّاسِ: ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أَيُّ لَا مُغَيِّرَ لَهَا وَلَا مُحَرِّفَ وَلَا مُؤَوِّلَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قَالَ: مَلْجَأٌ<sup>(١٢)</sup>. وَعَنْ قَتَادَةَ: وَلِيًّا وَلَا مَوْلَى<sup>(١٣)</sup>. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَقُولُ: إِنْ أَتَيْتَ يَا مُحَمَّدُ لَمْ تَتَلَّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَكَ مِنْ اللَّهِ<sup>(١٤)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٤٧] وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَارٍ﴾ [الفصل: ٨٥] أَيُّ سَائِلِكَ عَمَّا فُرِضَ عَلَيْكَ مِنْ إِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَبْصِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيُّ اجْلِسْ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيَهْتَلِلُونَهُ، وَيَحْمَدُونَهُ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَيُكَبِّرُونَهُ، وَيَسْأَلُونَهُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، مِنْ عِبَادِ اللَّهِ سَوَاءً كَانُوا فُقَرَاءَ أَوْ أَغْنِيَاءَ، أَوْ أَقْوِيَاءَ أَوْ ضَعَفَاءَ. يُقَالُ: إِنَّهَا تَرَلَّتْ فِي أَشْرَافِ فُرَيْشٍ حِينَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْلِسَ مَعَهُمْ وَحْدَهُ، وَلَا يُجَالِسُهُمْ بِضَعَفَاءَ أَصْحَابِهِ، كِبَالٍ وَعَمَارٍ وَصُهَبٍ وَخَبَابٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَلِيُفَرِّدَ أَوَّلِيكَ بِمَجْلِسٍ عَلَى جِدَةٍ، فَتَهَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ... الْآيَةُ [الأنعام: ٥٢]، وَأَمْرُهُ أَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ فِي الْجُلُوسِ مَعَ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَأَبْصِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الْآيَةُ، وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي

(١) الطبري: ١٧/٦٥٠ (٢) الطبري: ١٧/٦٥١ (٣) الطبري: ١٧/٦٥١ (٤) الطبري: ١٧/٦٥١ (٥) مسلم: ٤/١٨٧٨ (٦) الطبري: ١٨/٦ (٧) الطبري: ١٨/١١ (٨) الطبري: ١٨/١٨ (٩) الطبري: ١٨/١٣ (١٠) الطبري: ١٨/١٢

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ، وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ  
أَبَدًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي  
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٥٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ  
أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا  
﴿٥٧﴾ لَيْكَأَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٥٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ  
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا  
أَقْلَ مِنْكَ مَا لَا وَدَّادَ ﴿٥٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤَيِّنَ خَيْرًا مِنْ  
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا  
زَلَقًا ﴿٦٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَا وَهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٦١﴾  
وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلَبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا نَفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ  
عَلَىٰ عُرُوشِهِمْ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٦٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ  
فِتْنَةٌ يَصْرُوهُ، مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٦٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ  
لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٦٤﴾ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ  
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا ﴿٦٥﴾

﴿وَيَلْبِسُونَ ثِيَابًا حُمْرًا مِنْ سُندُسٍ وَاسْتَرْقُوا﴾ فَالْسُّنْدُسُ لِبَاسٌ  
رِفَاعٌ رِفَاقٌ كَالْقَمِصَانِ وَمَا جَرَىٰ مَجْرَاهَا. وَأَمَّا الْإِسْتَرْقُ  
فَغَلِيطُ الدِّيَابِجِ وَفِيهِ بَرِيقٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الْإِتِّكَاءُ قِيلَ:  
الْاضْطِجَاعُ، وَقِيلَ: التَّرْتُّعُ فِي الْجُلُوسِ، وَهُوَ أَشْبَهُ  
بِالْمُرَادِ هُنَا، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «أَمَّا أَنَا فَلَا أَكُلُ  
مُتَّكِئًا» <sup>(٤)</sup>. وَالْأَرَائِكُ جَمْعُ أَرِيكَةٍ، وَهِيَ السَّرِيرُ تَحْتَ  
الْحِجَلَةِ، وَالْحِجَلَةُ كَمَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ فِي زَمَانِنَا هَذَا  
بِالْبَاشِخَانَاةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: هِيَ  
الْحِجَالُ، قَالَ مَعْمَرٌ وَقَالَ غَيْرُهُ: السَّرِيرُ فِي الْحِجَالِ <sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْمَ الْأَوَابُ وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أَيُّ نِعْمَتِ الْحِجَّةِ  
ثَوَابًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا، أَيُّ حَسَنَتْ مَنَازِلًا  
وَمَقِيلًا وَمُقَامًا، كَمَا قَالَ فِي النَّارِ: ﴿يُسَكُّ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ

أَذَابُ ابْنِ مَسْعُودٍ شَيْئًا مِنَ الذَّهَبِ فِي أَخْذُودٍ، فَلَمَّا انْمَاعَ  
وَأَزِيدَ، قَالَ: هَذَا أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْمَهْلِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ:  
مَاءٌ جَهَنَّمَ أَسْوَدُ وَهِيَ سَوْدَاءُ وَأَهْلُهَا سُودٌ <sup>(٢)</sup>. وَهَذِهِ  
الْأَقْوَالُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا يَنْبَغِي الْآخَرُ، فَإِنَّ الْمَهْلَ يَجْمَعُ  
هَذِهِ الْأَوْصَافَ الرَّدِيلَةَ كُلَّهَا، فَهُوَ أَسْوَدُ مُتَيْنِ غَلِيظٌ حَارٌّ،  
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَسْقَى الْوُجُوهَ﴾ أَيُّ مِنْ حَرِّهِ. إِذَا أَرَادَ الْكَافِرُ  
أَنْ يَشْرِبَهُ، وَقَرَّبَهُ مِنْ وَجْهِهِ سَوَاءٌ حَتَّى تَسْقُطَ جِلْدُهُ وَجْهِهِ  
فِيهِ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِذَا جَاعَ أَهْلُ النَّارِ اشْتَعَاثُوا،  
فَأَغِيثُوا بِشَجَرَةِ الرَّقُومِ فَيَأْكُلُونَ مِنْهَا، فَاجْتَنَّتْ جُلُودُ  
وُجُوهِهِمْ، فَلَوْ أَنَّ مَرًّا بِهِمْ يَعْرِفُهُمْ، لَعَرَفَ جُلُودُ  
وُجُوهِهِمْ فِيهَا، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْعَطَشُ فَيَسْتَعِينُونَ،  
فَيَبْعَاثُونَ بِمَاءٍ كَالْمَهْلِ وَهُوَ الَّذِي قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ، فَإِذَا أَذْنُوهُ  
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ اسْتَوَى مِنْ حَرِّهِ لِحُومِ وَجُوهِهِمْ الَّتِي قَدْ  
سَقَطَتْ عَنْهَا الْجُلُودُ <sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَضْفِهِ هَذَا  
الشَّرَابَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الدَّمِيمَةِ الْفَيْحِيَّةِ: ﴿يُسَكُّ الشَّرَابُ﴾  
أَيُّ يَسُكُّ هَذَا الشَّرَابُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى:  
﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى:  
﴿تَشْقَى مِنَ عَيْنِ عَائِنَةٍ﴾ [الغاشية: ٥] أَيُّ حَارَّةً، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَيَبِّسُ حَمِيمٌ وَإِنِّي﴾ [الرحمن: ٤٤] ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾  
أَيُّ وَسَاءَتِ النَّارُ مَنَازِلًا وَمَقِيلًا وَمُجْتَمَعًا وَمَوْضِعًا  
لِلزَّرِيقِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا  
وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الدَّيْنَ أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ  
أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿٦٦﴾ أُولَئِكَ هُمُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسْوَدَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبِسُونَ ثِيَابًا حُمْرًا مِنْ سُندُسٍ  
وَاسْتَرْقُوا مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يَوْمَ الثَّوَابِ وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٦٧﴾  
[جَزَاءُ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ، ثَنَّى بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ الَّذِينَ  
آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ، وَعَمِلُوا بِمَا  
أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَلَهُمْ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾  
وَالْعَدْنُ: الْإِقَامَةُ ﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيُّ مِنْ تَحْتِ  
غُرْفِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ، قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِي﴾... [الزخرف: ٥١] ﴿يُحَلَّلُونَ﴾ أَيُّ مِنَ الْحِلْيَةِ  
﴿فِيهَا مِنْ أَسْوَدَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وَقَالَ فِي الْمَكَانِ الْآخَرِ: ﴿رَتُلُوْا  
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] وَصَلَّاهُ هُنَا فَقَالَ:

(١) الطبري: ١٣/١٨ (٢) الطبري: ١٣/١٨ (٣) الطبري: ١٤/١٨  
(٤) تحفة الأحوذ: ٥٥٧/٥ (٥) الطبري: ٢٣/٦٣.

تَتَلَفُ، وَذَلِكَ لِقَلَّةِ عَقْلِهِ، وَضَعْفِ بَقِيَّتِهِ بِالله، وَإِعْجَابِهِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَكُفْرِهِ بِالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أَي كَائِنَتُهُ ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أَي وَلَيْنَ كَانَ مَعَادٌ وَرَجَعْتُ وَمَرَدُّ إِلَى الله لِيَكُونَنَّ لِي هُنَاكَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا الْخَطِّ عِنْدَ رَبِّي، وَلَوْلَا كَرَامَتِي عَلَيْهِ مَا أَعْطَانِي هَذَا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْىٰ﴾ [نصفت: ٥٠] وَقَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [مریم: ٧٧] أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ تَأْتِي عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ. وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا فِي الْعَاصِ بْنِ وَايِلَ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَبِهِ الثَّقَةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ ﴿٣٧﴾ لَيْكُنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أَشْرُكَ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٣٩﴾ فَسَيِّئَ رَبِّيَ أَنْ يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاوًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ ﴿٤١﴾

### [جَوَابُ الْمُؤْمِنِ الْفَقِيرِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَجَابَهُ بِهِ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ، وَاعْظَا لَهُ وَزَاجِرًا عَمَّا هُوَ فِيهِ، مِنَ الْكُفْرِ بِالله وَالْإِعْتِرَافِ: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ الْآيَةِ، وَهَذَا إِنكَارٌ وَتَعْظِيمٌ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ جُحُودِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَهُ، وَابْتِدَاءُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ وَهُوَ آدَمُ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾... الْآيَةِ [البقرة: ٢٨]، أَي كَيْفَ تَجْحَدُونَ رَبَّكُمْ وَدَلَالَتُهُ عَلَيْكُمْ ظَاهِرَةٌ جَلِيلَةٌ، كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُهَا مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مَعْدُومًا، ثُمَّ وُجِدَ، وَلَيْسَ وَجُودُهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا مُسْتَبَدًّا إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، لِأَنَّهُ بِمَنَابِتِهِ، فَعُلِمَ إِسْنَادُ إِيجَادِهِ إِلَى خَالِقِهِ، وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ الْمُؤْمِنُ: ﴿لَيْكُنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ أَي لَكِنْ أَنَا لَا أَقُولُ بِمَقَالَتِكَ، بَلْ اعْتَرَفْتُ لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ﴿وَلَا أَشْرُكَ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أَي بَلْ هُوَ اللهُ الْمَعْبُودُ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

مُرْتَفَقًا﴾ وَهَكَذَا قَابِلٌ بَيْنَهُمَا فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] ثُمَّ ذَكَرَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَبِيبَةً وَسَلَامًا﴾ ﴿٥٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا زَوْجَيْنِ جَمِلَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أُعْتَابٍ وَحِفَّتَيْنِ بِثَلْجٍ لَاحِلًا بَيْنَهُمَا رِزْقًا﴾ ﴿٣٦﴾ كُلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ نَظِلْمَ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ ﴿٣٧﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ﴿٣٨﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٩﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٤٠﴾

### [مَثَلُ الْمُشْرِكِ الْغَنِيِّ وَالْمُسْلِمِ الْفَقِيرِ]

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهُ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ مُجَالَسَةِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَافْتَخَرُوا عَلَيْهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ، فَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا بِرَجُلَيْنِ جَعَلَ اللهُ لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ، أَي بُسْتَانَيْنِ مِنْ أُعْتَابٍ، مَحْضُوقَتَيْنِ بِالْخَيْلِ، الْمُحْدَقَةُ فِي جَنَابَتَيْهَا، وَفِي خِلْفَيْهَا الزَّرُّوعُ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالزَّرُّوعِ مُثْمَرٌ مُقْبِلٌ فِي غَايَةِ الْجُودَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كُلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلَهُمَا﴾ أَي أَخْرَجَتْ ثَمَرَهَا ﴿وَلَمْ نَظِلْمَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أَي وَلَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا ﴿وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ أَي وَالْأَنْهَارُ مُتَفَرِّقَةٌ فِيهِمَا هَهُنَا وَهَهُنَا ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ الْمَالُ، وَقِيلَ: الثَّمَارُ، وَهُوَ أَظْهَرُ هَهُنَا، وَيُؤَيِّدُهُ الْفَوَاضِلُ الْآخَرَى: (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) بِضَمِّ الثَّاءِ وَتَشْكِينِ الْمِيمِ، فَيَكُونُ جَمْعُ ثَمَرَةٍ كَخَشْبَةٍ وَخُشْبٍ. وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿ثَمَرٌ﴾ بَفَتْحِ الثَّاءِ وَالْمِيمِ<sup>(١)</sup>. ﴿فَقَالَ﴾ أَي صَاحِبُ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ: ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أَي يُجَادِلُهُ، وَبِخَاصِمُهُ يَفْتَخِرُ عَلَيْهِ، وَيَتَرَأَسُ: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أَي أَكْثَرُ خَدَمًا وَحَشَمًا وَلَدًا، قَالَ قَتَادَةُ: تِلْكَ - وَالله - أَمْنِيَّةُ الْفَاجِرِ، كَثْرَةُ الْمَالِ وَعِزَّةُ النَّفَرِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أَي يَكْفُرُهُ وَتَمَرُّدُهُ وَتَكْبَرُهُ وَتَجَبُّرُهُ وَإِنكَارِ الْمَعَادِ ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وَذَلِكَ إِعْتِرَافًا مِنْهُ لِمَا رَأَى فِيهَا مِنَ الزَّرُّوعِ وَالثَّمَارِ وَالْأَشْجَارِ، وَالْأَنْهَارِ الْمُطَّرَّدَةِ فِي جَوَائِبِهَا وَأَرْجَائِهَا، ظَنَّ أَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَقْرُغُ وَلَا تَهْلِكُ وَلَا



أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ ﴿٤٣﴾ أَيْ عَشِيرَةٌ أَوْ وَلَدٌ، كَمَا افْتَحَرَ بِهِمْ وَاسْتَعَزَّ ﴿يَصْرُوفُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿٤٤﴾ هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴿إِخْتَلَفَ الْقُرَاءُ هَهُنَا فَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾﴾ هُنَاكَ ﴿أَيَّ فِي ذَلِكَ الْمُوَطِّنَ الَّذِي حَلَّ بِهِ عَذَابُ اللَّهِ، فَلَا مُنْقِذَ لَهُ مِنْهُ، وَيَتَّبِدَى يَقُولُهُ: ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وَيَتَّبِدَى يَقُولُهُ: ﴿هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي قِرَاءَةِ ﴿الْوَلِيَّةُ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ فَتَحَ الْوَاوَ مِنَ الْوَلَايَةِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى هُنَاكَ: الْمَوَالَاةُ لِلَّهِ، أَيْ هُنَاكَ كُلُّ أَحَدٍ [مِنْ] مُؤْمِنٍ أَوْ كَافِرٍ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُوَالَايِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ إِذَا وَقَعَ الْعَذَابُ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤] وَكَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿حَقٌّ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْشُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ نَبِيُّ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ هَآكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١] وَمِنْهُمْ مَنْ كَسَرَ الْوَاوَ مِنَ الْوَلَايَةِ، أَيْ هُنَاكَ الْحُكْمُ لِلَّهِ الْحَقِّ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ (الْحَقِّ) عَلَى أَنَّهُ نَعَتْ لِلْوَلَايَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَيْبَرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَضَ الْقَافَ عَلَى أَنَّهُ نَعَتْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ الْآيَةِ [الأنعام: ٦٢] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا﴾ أَيْ جَزَاءً ﴿وَحَيْرٌ عَقْبًا﴾ أَيْ الْأَعْمَالُ الَّتِي تَكُونُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، نَوَابُهَا خَيْرٌ، وَعَاقِبَتُهَا حَيْرٌ حَمِيدَةٌ رَشِيدَةٌ، كُلُّهَا خَيْرٌ. ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ نَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ﴿٤٦﴾

### [مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ﴾ ﴿يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ﴾ مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا فِي زَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَانْقِضَائِهَا ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أَيْ مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ، فَشَبَّ وَحَسَنَ، وَعَلَاهُ الزَّرُّورُ وَالنُّورُ وَالنُّضْرَةُ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يَابِسًا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ أَيْ تُفَرِّقُهُ وَتَطْرَحُهُ

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَكْنَا أَفَلًا مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ هَذَا تَحْضِيضٌ وَحَثٌّ عَلَى ذَلِكَ، أَيْ هَلَّا إِذَا أَعْجَبَتْكَ حِينَ دَخَلْتَهَا وَظَنَرْتَ إِلَيْهَا، حَمِدْتَ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ وَأَعْطَاكَ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ مَا لَمْ يُعْطِهِ غَيْرُكَ، وَقُلْتَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِنْ حَالِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ، فَلْيَقُلْ: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وَهَذَا مَأْخُودٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَثْرٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أَيْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أَيْ عَلَى جَنَّتِكَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي ظَنَنْتَ أَنَّهَا لَا تَبِيدُ وَلَا تَفْنَى ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ (٢) وَمَالِكٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ: أَيْ عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ. وَالطَّاهِرُ أَنَّهُ مَطَرٌ عَظِيمٌ مُزْعِجٌ يُبَلِّغُ زَرْعَهَا وَأَشْجَارَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَصَبَّحَ صَعِيدًا رَلَقًا﴾ أَيْ بَلَقًا ثَرَابًا أَمْلَسَ، لَا يُبْنَى فِيهِ قَدَمٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَالْجُرْزِ الَّذِي لَا يُبْنَى شَيْئًا (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ أَيْ غَائِرًا فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ ضِدُّ النَّابِغِ الَّذِي يُطْلَبُ وَجْهَ الْأَرْضِ، فَالْغَائِرُ يُطْلَبُ أَسْفَلَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوَاكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَلْتَمِسُ لَكُمْ مَعِينٌ﴾ [الملك: ٣٠] أَيْ جَارٍ وَسَائِحٍ، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا﴾ وَالْغَوْرُ مُضَدَّرٌ بِمَعْنَى غَائِرٍ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتُنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٦﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوفُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿٤٧﴾ هُنَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عَقْبًا

### [النتيجة السبئية للكفر]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بِأَمْوَالِهِ، أَوْ بِثَمَارِهِ عَلَى الْقَوْلِ الْآخِرِ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ وَقَعَ بِهَذَا الْكَافِرِ مَا كَانَ يَحْذَرُ، مِمَّا خَوَّفَهُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ إِرسَالِ الْحُسْبَانِ عَلَى جَنَّتِهِ الَّتِي اغْتَرَّ بِهَا وَالْهَتَّةَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَفَقَ فِيهَا﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: يَصْفُقُ كَفَّيْهِ مُتَأَسِّفًا مَتَلَهِّفًا عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي أَذْهَبَهَا عَلَيْهَا ﴿وَيَقُولُ يَلَيْتُنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي

(١) فتح الباري: ١١/٢١٧ ومسلم: ٤/٢٠٧٦ (٢) الطبري:

٢٥/٢٥ (٣) الطبري: ١٨/٢٦ (٤) الطبري: ١٨/٢٧

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

٢٩٩

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّامِلِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾  
 أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ وَهَذِهِ الْحَالِ، وَكَثِيرًا مَا  
 يَضْرِبُ اللَّهُ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِهَذَا الْمَثَلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى  
 فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْغُرْبَانِ﴾  
 أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا  
 أَلْوَنُهُ ... الآية [يونس: ٢٤]، وَقَالَ فِي الزُّمَرِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ  
 السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا  
 أَلْوَنُهُ ... الآية [الزمر: ٢١]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ:  
 ﴿أَعْمَلُوا إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ  
 فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَذَلِكِ غَيْثٌ أَجَبَ الْكَافَرُ بِنَافِهِ ...  
 الآية [الحديد: ٢٠] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الدُّنْيَا حُلُوءٌ  
 خَضِرَةٌ»<sup>(١)</sup>.

[عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كَقَوْلِهِ:  
 ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ  
 الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ ... الآية [آل عمران: ١٤] وَقَالَ  
 تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ  
 عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أَيِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالتَّفَرُّغِ لِعِبَادَتِهِ،  
 خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ اشْتِغَالِكُمْ بِهِمْ، وَالْجَمْعُ لَهُمْ، وَالشَّفَقَةُ  
 الْمُقَرَّبَةُ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ  
 رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ  
 السَّلَفِ: «وَالْبَقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ» الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ<sup>(٢)</sup>.  
 وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:  
 «وَالْبَقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ» سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ  
 إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ  
 ابْنُ عَفَّانَ عَنْ «وَالْبَقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ» مَا هِيَ؟ فَقَالَ:  
 هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ،  
 وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، رَوَاهُ الْإِمَامُ  
 أَحْمَدُ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَوْلَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ  
 اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَخْ بَخْ لِحَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا  
 إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ  
 الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيُحْتَسِبُ بِهِ الْوَلَدُ - وَقَالَ: - بَخْ بَخْ لِحَمْسٍ  
 مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسْتَقِيمًا بِهِمْ دَخَلَ الْجَنَّةَ. يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ  
 الْآخِرِ، وَبِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ،

وَبِالْحِسَابِ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ:  
 «وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ» قَالَ: هِيَ ذِكْرُ اللَّهِ، قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا  
 اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَبَارَكَ اللَّهُ،  
 وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى  
 رَسُولِ اللَّهِ، وَالصَّبَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْحَجِّ، وَالصَّدَقَةِ،  
 وَالْعَتَقِ، وَالْجِهَادِ، وَالصَّلَةِ، وَجَمِيعِ أَعْمَالِ الْحَسَنَاتِ.  
 وَهُنَّ الْبَقَايَاتُ الصَّالِحَاتُ الَّتِي تَبْقَى لِأَهْلِهَا فِي الْجَنَّةِ مَا  
 دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ  
 عَبَّاسٍ: هِيَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ  
 ابْنُ أَسْلَمَ: هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا<sup>(٨)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ  
 جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) مسلم: ٢٠٩٨/٤ (٢) الطبري: ٣٢/١٨ (٣) الطبري: ٣٣/١٨  
 (٤) أحمد: ٧١/١ (٥) أحمد: ٢٣٧/٤ (٦) الطبري: ٣٥/١٨ (٧) الطبري: ٣٥/١٨  
 ضعفاء (٨) الطبري: ٣٥/١٨

أَنَّ هَذَا كَائِنٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ﴾ أَيْ كِتَابَ الْأَعْمَالِ الَّذِي فِيهِ الْجَلِيلُ وَالْحَقِيرُ، وَالْقَتِيلُ وَالْقَطْمِيرُ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ ﴿فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أَيْ مِنْ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَأَفْعَالِهِمُ الْفَاسِدَةِ ﴿وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ يَا حَسْرَتَنَا وَوَيْلَنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِي أَعْمَارِنَا ﴿مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أَيْ لَا يَتْرُكُ ذَنْبًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا وَلَا عَمَلًا وَإِنْ صَغُرَ ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أَيْ ضَبَطَهَا وَحَفِظَهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أَيْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْخَسِرًا﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كِبَارُهُمْ﴾ [الطارق: ٩] أَيْ تَظْهَرُ الْمَحَبَاتُ وَالضَّمَائِرُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرِفُ بِهِ»<sup>(٣)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَفِي لَفْظٍ: «يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِثْنَاءِ بَقْدَرِ غَدْرَتِهِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَظِلُّ رُبُّكَ أَحَدًا﴾ أَيْ فَيَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي أَعْمَالِهِمْ جَمِيعًا، وَلَا يَظِلُّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ بَلْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَرْحَمُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِقُدْرَتِهِ وَحُكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَيَمْلَأُ النَّارَ مِنَ الْكُفَّارِ وَأَصْحَابِ الْمَعَاصِي، ثُمَّ يُنْجِي أَصْحَابَ الْمَعَاصِي وَيُخَلِّدُ فِيهَا الْكَافِرِينَ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ الْآيَةُ [النساء: ٤٠]، وَقَالَ ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿حَسْبِيَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَقِيلٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ سَمِعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَاشْتَرَيْتُ بَعِيرًا ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي، فَسِرْتُ عَلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الشَّامَ، فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَسٍ، فَقُلْتُ لِلْبَوَّابِ: قُلْ لَهُ: جَابِرٌ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ: ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ نَعَمْ، فَخَرَجَ يَطَّأُ

﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٧] وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُبُّكَ أَحَدًا ﴿٩﴾

[أَهَمُّ أَهْوَالِ السَّاعَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنْ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [النبي: ١٠٩] أَيْ تَذْهَبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَتَزُولُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَازِمَةً وَهِيَ تَمُورُ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وَقَالَ: ﴿وَسَتَلَوْنَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ تَذْهَبُ الْجِبَالُ، وَتَسَاوَى الْمِهَادُ، وَتَبْقَى الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا ﴿أَي سَطْحًا مُسْتَوِيًا لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا أَمْتًا، أَيْ لَا وَادِي وَلَا جَبَلٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أَيْ بَادِيَةً ظَاهِرَةً لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ، وَلَا مَكَانٌ يُوَارِي أَحَدًا، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ضَاخُونَ لِرَبِّهِمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لَا حَجَرٌ فِيهَا وَلَا عَيَابَةٌ<sup>(١)</sup>. قَالَ قَتَادَةُ: لَا بِنَاءَ وَلَا شَجَرٍ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أَيْ وَجَمَعْنَاهُمْ، الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ، فَلَمْ تَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحَدًا لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٨﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ نَعْلَمُ﴾ [الروافعة: ٥٠، ٤٩] وَقَالَ: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَسْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ صَفًّا وَاحِدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ يَقُومُونَ صُفُوفًا صُفُوفًا، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هَذَا تَشْرِيعٌ لِلْمُنْكَرِينَ لِلْمَعَادِ، وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُحَاطِبًا لَهُمْ: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ أَيْ مَا كَانَ ظَنُّكُمْ أَنَّ هَذَا وَاقِعٌ بِكُمْ، وَلَا

(١) الطبري: ٣٦/١٨ (٢) الطبري: ٣٦/١٨ (٣) أحمد: ٣/

١٤٢ (٤) فتح الباري: ٣٥٤/١٢ ومسلم: ٣/٣٦١

الْحَاجَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَوَسَّم بِأَفْعَالِ الْمَلَائِكَةِ وَتَسَبَّهَ بِهِمْ وَتَعَبَّدَ وَتَنَسَّكَ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي خَطَابِهِمْ وَعَصَى بِالْمُخَالَفَةِ، وَبَنَى تَعَالَى هَهُنَا عَلَى أَنَّهُ ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أَيَّ عَلَى أَنَّهُ خَلِقَ مِنْ نَارٍ، كَمَا قَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: مَا كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ طَرَفَةً عَيْنٍ قَطُّ، وَإِنَّهُ لِأَصْلُ الْجِنِّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَصْلُ الْبَشَرِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْهُ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أَيَّ فَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْفَسْقَ هُوَ الْخُرُوجُ، يُقَالُ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا، وَفَسَقَتِ الْفَارَةُ مِنْ جُحْرِهَا إِذَا خَرَجَتْ مِنْهُ لِلْعَيْثِ وَالْفَسَادِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُفْرَعًا وَمُؤَيِّدًا لِمَنْ اتَّبَعَهُ وَأَطَاعَهُ: ﴿أَفَنَتَّخِذُهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾... الْآيَةُ، أَيَّ بَدَلًا عَنِّي، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَتَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ وَهَذَا الْمَقَامُ كَقَوْلِهِ بَعْدَ ذِكْرِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا وَصَعِيرِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ فِي سُورَةِ يَس: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمَجْرُومُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩-٦٢].

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

[إِلَهُهُ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَشْهَدُوا خَلْقَ شَيْءٍ حَتَّى أَنْفُسَهُمْ] يَقُولُ تَعَالَى: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي عَيْدٌ أَمْثَالُكُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، وَلَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا كَانُوا إِذْ ذَاكَ مَوْجُودِينَ، يَقُولُ تَعَالَى: أَنَا الْمُسْتَقْبَلُ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَمُدَبِّرُهَا وَمُقَدِّرُهَا وَخَدِي، لَيْسَ مَعِيَ فِي ذَلِكَ شَرِيكٌ، وَلَا وَزِيرٌ وَلَا مُشِيرٌ، وَلَا نَظِيرٌ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْقٍ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٦] وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ<sup>(٢)</sup>... الْآيَةُ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قَالَ مَالِكٌ: أَعْوَانًا. «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ رَزَعْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا<sup>(٣)</sup>» وَرَمَا الْمَجْرُومُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ

نُوبَهُ فَأَعْتَنَنِي وَاعْتَنَيْتُهُ، فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَّغْنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقِصَاصِ، فَخَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ أَوْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَحْشُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِبَادَ - عُرَاءَ غُرْلًا بُهُمَا» قُلْتُ: وَمَا بُهُمَا؟ قَالَ: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُتَادِيهِمْ بِصُورٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدِّيَانُ، لَا يَتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقِصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَقٌّ حَتَّى أَقِصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةِ» قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّمَا ثَأْنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حُفَاةَ غُرَاءَ غُرْلًا بُهُمَا؟ قَالَ: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»<sup>(٤)</sup>.

وَعَنْ شُعْبَةَ عَنِ الْعَوَّامِ بْنِ مَرْجَمٍ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْجَمَاءَ لَتَقْتَصَّ مِنَ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٥)</sup> رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَلَهُ شَوَاهِدٌ مِنْ وَجْهِهِ أُخَرِ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أَفَنَتَّخِذُهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

[قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهًا بَنِي آدَمَ عَلَى عِدْوَةِ إِبْلِيسَ لَهُمْ وَلَا يَبْهَمُ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمُفْرَعًا لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْهُمْ وَخَالَفَ خَالِقَهُ وَمَوْلَاهُ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُ وَابْتَدَأَهُ، وَبِالْطَّافَةِ رَزَقَهُ وَغَذَاهُ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ وَالَى إِبْلِيسَ وَعَادَى اللَّهَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَيُّ لِحْجَمِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أَيُّ سُجُودٍ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ وَتَعْظِيمٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (١٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أَيُّ خَانَهُ أَصْلُهُ، فَإِنَّهُ خَلِقَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَأَصْلُ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نُورٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»<sup>(٦)</sup>. فَعِنْدَ الْحَاجَةِ نَضَحَ كُلُّ وَغَاءٍ بِمَا فِيهِ، وَخَانَهُ الطَّبَعُ عِنْدَ

(١) أحمد: ٤٩٥/٣ (٢) زوائد المسند ١/١٢ (٣) مسلم: ٤/٢٢٩٤ (٤) الطبري: ١٨/٥٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٠

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٣﴾ وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٤﴾ وَمَنْ رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَعَلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا وَمَا نُنْذِرُهُمْ أَهْوَاءًا ﴿٥٥﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٦﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْعَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ﴿٥٧﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَنَّمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٨﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتِلْغَ بِمَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٠﴾

عَنْهَا، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ

الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٣﴾﴾

[تَصْرِيفُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ وَوَضَحْنَا لَهُمُ الْأُمُورَ وَفَضَّلْنَاهَا كَيْلًا يَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ وَيَخْرُجُوا عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، وَمَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْفُرْقَانِ، الْإِنْسَانُ كَثِيرُ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ الْمُعَارِضَةِ لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، إِلَّا مَنْ هَدَى اللَّهُ وَبَصَّرَهُ لَطَرِيقِ النَّجَاةِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَفَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ: «أَلَا تُصَلِّينَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلِّ يَضْرِبُ فِجْذَهُ وَيَقُولُ: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ

مُؤَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٤﴾﴾

[عَجَزُ الشُّرَكَاءِ عَنِ الْجَوَابِ وَحُضُورُ الْمُجْرِمِينَ النَّارِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُخَاطَبُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ تَقْرِيعًا لَهُمْ وَتَوْبِيخًا: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَتَىٰ فِي دَارِ الدُّنْيَا ادْعُوهُمْ الْيَوْمَ يَنْقُذُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَجَعْتُمْ مَنَا حَوْلَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] وَقَوْلُهُ: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾... الْآيَةُ [القصص: ٦٤]، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ... الْآيَتِينَ [الأحاف: ٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مَهْلِكًا <sup>(١)</sup>.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا وَصُولَ لَهُمْ إِلَى آلِهَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ يَفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا فِي الْآخِرَةِ، فَلَا خَلَاصَ لِأَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخِرِ، بَلْ بَيْنَهُمَا مَهْلِكٌ وَهَوْلٌ عَظِيمٌ وَأَمْرٌ كَبِيرٌ. وَأَمَّا إِنْ جُعِلَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عَائِدًا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: إِنَّهُ يَفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ بِهِ <sup>(٢)</sup>. فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ﴾ [الروم: ١٤] وَقَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتَزِلُوا يَوْمَئِذٍ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [يس: ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أَيَّ أَنَّهُمْ لَمَّا عَائِنُوا جَهَنَّمَ حِينَ جِيءَ بِهَا تَقَادُ سَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ تَحَقَّقُوا لَا مَحَالَةَ أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحُزَنِ لَهُمْ، فَإِنْ تَوَقَّعَ الْعَذَابُ وَالْخَوْفُ مِنْهُ قَبْلَ وَقُوعِهِ، عَذَابٌ نَاجِزٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أَيَّ لَيْسَ لَهُمْ طَرِيقٌ يَغْدِلُ بِهِمْ

جَدَلًا ﴿١﴾ أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٢).

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّلِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا عَائِي وَابْنِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُولًا ﴿٥٦﴾

[بَيَانُ تَمَرُّدِ الْكُفَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَرُّدِ الْكُفْرَةِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَ مِنَ الْآيَاتِ وَالِدَلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ، وَأَنَّهُ مَا مَنَعَهُمْ مِنْ اتِّبَاعِ ذَلِكَ إِلَّا طُلُبُهُمْ أَنْ يُشَاهِدُوا الْعَذَابَ الَّذِي وَعَدُوا بِهِ عِيَانًا، كَمَا قَالَ أُولَئِكَ لِنَبِيِّهِمْ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِفَا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وَآخَرُونَ قَالُوا: ﴿اأْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَطِطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اأْتِنَا بِعَذَابِ الْيَوْمِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿١﴾ لَوْ مَا تَأْتِنَا بِالْمَلَكِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ مِنْ غُشْيَانِهِمْ بِالْعَذَابِ وَأَخْلِيهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أَيْ يَرَوْنَهُ عِيَانًا مُوَاجِهَةً وَمُقَابِلَةً، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَيْ قَبْلَ الْعَذَابِ مُبَشِّرِينَ مِنْ صَدَقَتِهِمْ وَأَمِنْ بِهِمْ، وَمُنذِرِينَ لِمَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ يُجَادِلُونَ ﴿بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أَيْ لِيُضْعِفُوا بِهِ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلِ لَهُمْ ﴿وَاتَّخَذُوا عَائِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُولًا﴾ أَيْ اتَّخَذُوا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ وَخَوَارِقَ الْعَادَاتِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا الرُّسُلَ وَمَا أُنذِرُوهُمْ وَخَوَّفُوهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿هُزُولًا﴾ أَيْ سَخِرُوا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَشَدُّ التَّكْذِيبِ.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ﴿٧٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابُ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّاتَةِ﴾ [فاطر: ٤٥] وَقَالَ: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لَمَا طَامَعُوا وَجَعَلْنَا لِمَنْ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٥٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠١

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْنَيْتَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْكُتُوبَ وَمَا أُنْشِئُهَا إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٧﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٨﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٩﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِن مَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧١﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٣﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٤﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٧﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا رَكِيَةً بَعِيرٍ نَقِيسٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ثَكْرًا ﴿٧٨﴾

[أَظْلَمُ النَّاسِ مَنْ أَعْرَضَ بَعْدَ التَّذْكِيرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَأَيُّ عِبَادِ اللَّهِ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا، أَيْ تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يُضِغْ لَهَا وَلَا أَلْقَى إِلَيْهَا بَالًا، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ﴾ أَيْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَالْأَفْعَالِ الْفَاسِدَةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ ﴿أَكِنَّةً﴾ أَيْ أَغْطِيَةً وَغِشَاوَةً ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أَيْ لِئَلَّا يَفْهَمُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْبَيَانَ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أَيْ صَمَمًا مَغْنُونًا عَنِ الرَّشَادِ ﴿وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أَيْ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ غَفُورٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابُ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنَ الذَّاتَةِ﴾ [فاطر: ٤٥] وَقَالَ: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

[الرعد: ١٣] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ شَتَّى، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ، وَرَبَّمَا هَدَى بَعْضَهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرِّشَادِ، وَمَنْ اسْتَمَرَ مِنْهُمْ فَلَهُ يَوْمٌ يَنْتِيبُ فِيهِ الْوَلِيدُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ أَيُّ لَيْسَ لَهُمْ عَنْهُ مَحِيصٌ وَلَا مَجِيدٌ وَلَا مَعْدِلٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتِلْكَ الْأَفْرُتِ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أَيُّ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾ أَيُّ جَعَلْنَاهُ إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَوَقْتُ مُعَيَّنٍ، لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، أَيُّ وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، إِحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ رَسُولٍ وَأَعْظَمَ نَبِيٍّ، وَلَسْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ، فَخَافُوا عَذَابِي وَتَذَرِي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنَةٍ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَتِلْعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ ١٨ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ ١٩ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنَةٍ ءَانِنَا غَدَاةً لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾ ٢٠ ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾ ٢١ ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ ٢٢ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَالِيتَهُ رَحْمَةً مِنْ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ ٢٣

### [قِصَّةُ مُوسَى وَالْخَضِرِ]

سَبَبُ قَوْلِ مُوسَى لِفَتْنَةٍ وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، هَذَا الْكَلَامُ: أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ بِمَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ مُوسَى، فَأَحَبَّ الرَّحِيلَ إِلَيْهِ، وَقَالَ لِفَتْنَةٍ ذَلِكَ: ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أَيُّ لَا أَزَالُ سَائِراً ﴿حَتَّى أَتِلْعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أَيُّ أَمْضِيَ حُقُباً، أَيُّ وَلَوْ أَنِّي أُسِيرُ حُقُباً مِنَ الزَّمَانِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ أَنَّ الْحُقُبَ فِي لُغَةِ قَيْسِ سَنَةٌ <sup>(١)</sup>. ثُمَّ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: أَلْحُقُبُ ثَمَانُونَ سَنَةً <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سَبْعُونَ خَرِيفاً <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ قَالَ: دَهراً <sup>(٤)</sup>، وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ مِثْلَ ذَلِكَ <sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أَمَرَ بِحَمْلِ حُوتٍ مَمْلُوحٍ مَعَهُ، وَقِيلَ لَهُ: مَتَى فَقَدْتَ الْحُوتَ، فَهُوَ ثَمَّةٌ، فَسَارَا حَتَّى بَلَغَا مَجْمَعَ

الْبَحْرَيْنِ، وَهُنَاكَ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا: «عَيْنُ الْحَيَاةِ»، فَنَامَا هُنَاكَ، وَأَصَابَ الْحُوتُ مِنْ رَشَاشِ ذَلِكَ الْمَاءِ، فَاضْطَرَبَ وَكَانَ فِي مِكَتَلٍ مَعَ يُوشَعٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَطَفَرَ مِنَ الْمِكَتَلِ إِلَى الْبَحْرِ، فَاسْتَقْبَلَ يُوشَعُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَقَطَ الْحُوتُ فِي الْبَحْرِ فَجَعَلَ يَسِيرُ فِي الْمَاءِ، وَالْمَاءُ لَهُ مِثْلُ الطَّاقِ لَا يَلْتَيِّمُ بَعْدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ أَيُّ مِثْلُ السَّرَبِ فِي الْأَرْضِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَارَ أَثَرُهُ كَأَنَّهُ حَجَرٌ <sup>(٦)</sup>. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - حِينَ ذَكَرَ حَدِيثَ ذَلِكَ - : «مَا انْجَابَ مَاءٌ مُنْذُ كَانَ النَّاسُ [غَيْرُهُ] ثَبَتَ [مَكَانَ الْحُوتِ الَّذِي فِيهِ، فَانْجَابَ كَالْكُوَّةِ حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ مُوسَى، فَرَأَى مَسْلَكَهُ، فَقَالَ: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ]» <sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أَيُّ الْمَكَانَ الَّذِي نَسِيَا الْحُوتَ فِيهِ، وَنُسِبَ النَّسْيَانُ إِلَيْهِمَا، وَإِنْ كَانَ يُوشَعُ هُوَ الَّذِي نَسِيَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَجَنَّ مِنْهُمَا الذُّلُوفُ وَالْمَرِيَّاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وَلِئِمَّا يَخْرُجُ مِنَ الْمَالِحِ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، فَلَمَّا ذَهَبَا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي نَسِيَاهُ فِيهِ بِمَرَحَلَةٍ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿لِفَتْنَةٍ ءَانِنَا غَدَاةً لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ أَيُّ الَّذِي جَاوَزَا فِيهِ الْمَكَانَ ﴿نَصَباً﴾ يَعْنِي تَعَباً ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أَيُّ طَرِيقَهُ ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾ ٢١ ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أَيُّ هَذَا هُوَ الَّذِي نَطْلُبُ ﴿فَارْتَدَّا﴾ أَيُّ رَجَعَا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا﴾ أَيُّ طَرِيقَهُمَا ﴿قَصَصاً﴾ أَيُّ يَفْصَحَانِ آثَارَ مَسِيرِهِمَا وَيَقْفُوَانِ أَثَرَهُمَا ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَالِيتَهُ رَحْمَةً مِنْ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ وَهَذَا هُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنْ نَوَقَا الْبِكَايَةَ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى صَاحِبُ الْخَضِرِ

(١) الطبري: ٥٦/١٨ (٢) الطبري: ٥٦/١٨ (٣) الطبري: ٥٦/١٨ (٤) الطبري: ٥٧/١٨ (٥) الطبري: ٥٧/١٨ (٦) الطبري: ٥٨/١٨ ابن جريج مدلس ولم يصرح وأيضاً فيه الحسين بن داود المصيصي كما تقدم (٧) الطبري (٢٣١٩٥) فيه تدليس ابن إسحاق والسند إليه ضعيف محمد بن حميد وشيخه سلمة بن الفضل ضعيفان.

عُثْرًا - قَالَ: - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - : فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، قَالَ: وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَتَقَرَّى فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ تَقَرَّتَيْنِ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ، ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَيَسْتَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْعِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿أَفَلَيْتَ نَفْسًا زَكِيًّا يَغَيِّرُ نَفْسَ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۖ﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ قَالَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْبِحْني قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذَابًا ۖ﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أُنِيَ أَهْلُ قَرْيَةٍ اسْتَلْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ - أَيَّ مَائِلًا - فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَفَعِلْنَا﴾ فَقَالَ مُوسَى: قَوْمُ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعَمُونَا وَلَمْ يُضَيِّقُونَا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنَيْتُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَوَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقْصُرَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهِمَا» قَالَ سَجِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا) وَكَانَ يَقْرَأُ: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ) ١١.

ثُمَّ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ نَحْوَهُ، وَفِيهِ: فَخَرَجَ مُوسَى وَمَعَهُ فَتَاهُ يُوسُفُ بْنُ نُونٍ وَمَعَهُمَا الْحُوتُ، حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَتَزَلَّا عِنْدَهَا، قَالَ: فَوَضَعَ مُوسَى رَأْسَهُ فَتَامَ، قَالَ: وَفِي أَصْلِ الصَّخْرَةِ عَيْنٌ يُقَالُ لَهَا الْحَيَاءُ لَا يُصِيبُ مِنْ مَائِهَا شَيْءٌ إِلَّا حَيِيَ فَأَصَابَ الْحُوتُ مِنْ مَاءِ تِلْكَ الْعَيْنِ، فَتَحَرَّكَ وَانْسَلَّ مِنَ الْمِكْتَلِ فَدَخَلَ الْبَحْرَ، فَلَمَّا اسْتَبَقَطَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿إِنَّا غَدَاءُ نَا﴾ قَالَ: وَسَاقَ الْحَدِيثَ، وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَعَمَسَ مِنْقَارُهُ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى: مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِقْدَارٌ مَا عَمَسَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْقَارُهُ... وَذَكَرَ تَمَامَهُ بِنَحْوِهِ ١٢.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۖ﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ۖ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ

عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حَدَّثَنَا أَبِي بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيئًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَزِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنْ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ بِمِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا قَعَدْتَ الْحُوتُ فَهُوَ ثَمَّ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ بِمِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوسُفُ بْنُ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَتَامًا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ. فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جَرِيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَبَقَطَ، نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَأَنْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتُهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِيدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿إِنَّا غَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَاذْنَدَا عَلَى عَائِلَاهُمَا قَصَصًا﴾ قَالَ: فَارْجِعَا يَقْصِصَانِ آثَرَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًى بِنُوبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ! فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَمْنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ. فَقَالَ مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿فَإِنْ أَتْبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فَأَنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَقْبَحَا إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنْ أَلْوِاجِ السَّفِينَةِ بِالْقُدُومِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَعَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي



أَمْرًا ﴿٦٦﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٦٧﴾

[لِقَاءُ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ وَمُصَاحَبَتُهُ إِنَاءً]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِيلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الْعَالِمِ وَهُوَ الْخَضِرُ، الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِعِلْمٍ لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ مُوسَى، كَمَا أَنَّهُ أُعْطِيَ مُوسَى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُعْطِهِ الْخَضِرُ ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ سُؤَالَ تَلَطُّفٍ لَا عَلَى وَجْهِ الْإِلْزَامِ وَالْإِجْبَارِ، وَهَكَذَا يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ سُؤَالَ الْمُتَعَلِّمِ مِنَ الْعَالِمِ. وَقَوْلُهُ: «أَتَيْتُكَ» أَيُّ أَصْحَابِكَ وَأَرَأَيْتُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا» أَيُّ مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ شَيْئًا أَسْتَرَشِدُ بِهِ فِي أَمْرِي مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ، فَعِنْدَهَا «قَالَ» الْخَضِرُ لِمُوسَى: «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» أَيُّ إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى مُصَاحَبَتِي لِمَا تَرَى مِنِّي مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ، لِأَنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ، فَكُلُّ مِمَّا مُكَلِّفٌ بِأُمُورٍ مِنَ اللَّهِ دُونَ صَاحِبِهِ، وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِي «وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا» فَإِنَّا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتُنْكِرُ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مَعْدُورٌ فِيهِ، وَلَكِنْ مَا أَطْلَعْتَ عَلَى حُكْمِيهِ وَمَصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي أَطْلَعْتُ أَنَا عَلَيْهَا دُونَكَ «قَالَ» أَيُّ مُوسَى: «سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا» أَيُّ عَلَى مَا أَرَى مِنْ أُمُورِكَ «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» أَيُّ وَلَا أُخَالِفُكَ فِي شَيْءٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ شَارَطَهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ» أَيُّ ابْتِدَاءً «حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» أَيُّ حَتَّى أَبْذُوكَ أَنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ﴿٦٨﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي

عَسْرًا ﴿٧٠﴾

[قِصَّةُ خَرَقِ السَّفِينَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى وَصَاحِبِهِ وَهُوَ الْخَضِرُ، أَنَّهُمَا انْطَلَقَا لِمَا تَوَافَقَا وَاصْطَحَبَا، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ أَنْكَرَهُ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ بِسُرْجِهِ وَبَيَّانِهِ، فَرَكِبَا فِي السَّفِينَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ كَيْفَ رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ، وَأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْخَضِرَ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ تَوَلٍّ، يَعْنِي بِغَيْرِ أَجْرَةٍ، تَكْرَمَةً لِلْخَضِرِ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فِي الْبَحْرِ وَلَجَجَتْ، أَيُّ دَخَلَتْ

سُورَةُ الْكَهْفِ ٣٠٢

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٧١﴾ قَالَ إِنِ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصْخِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٢﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا نَآيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٣﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا وُضِعَ الْمِيزَانُ لَتَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٤﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٥﴾ وَأَمَّا الْفُلُ فَمَا كَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٧٦﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانُوا ﴿٧٧﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٩﴾

اللَّحْجَةِ، فَاثَمَ الْخَضِرُ فَخَرَقَهَا، وَاسْتَخْرَجَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَحِهَا ثُمَّ رَفَعَهَا، فَلَمْ يَمْلِكْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسَهُ أَنْ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِ: «أَخَرَقْنَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا» وَهَذِهِ اللَّامُ لَامُ الْعَاقِبَةِ لَا لَامُ التَّعْلِيلِ.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مُنْكَرًا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: عَجَبًا<sup>(٢)</sup>. فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُ الْخَضِرُ مُذْكَرًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الشَّرْطِ: «أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» يَعْنِي وَهَذَا الصَّنِيعُ فَعَلْتُهُ قَضَاءً، وَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي اشْتَرَطْتُ مَعَكَ أَنْ لَا تُنْكِرَ عَلَيَّ فِيهَا، لِأَنَّكَ لَمْ تُحِطْ بِهَا خَبْرًا وَلَهَا دَخَلٌ هُوَ مَصْلَحَةٌ، وَلَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ «قَالَ» أَيُّ مُوسَى: «لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا» أَيُّ لَا تُضَيِّقْ عَلَيَّ وَلَا تُشَدِّدْ عَلَيَّ، وَلِهَذَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا»<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبري: ٧٢/١٨ (٢) الطبري: ٧٢/١٨ (٣) فتح الباري:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَفَيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤) ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦)

### [قِصَّةُ قَتْلِ الْغُلَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ أَيُّ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿حَتَّى إِذَا لَفَيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَامَانِ فِي قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَى، وَأَنَّهُ عَمِدَ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَكَانَ أَحْسَنَهُمْ وَأَجْمَلَهُمْ وَأَصْوَاهُمْ فَقَتَلَهُ، فَلَمَّا شَاهَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا، أَنْكَرَهُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ، وَبَادَرَ فَقَالَ: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أَيُّ صَغِيرَةً لَمْ تَعْمَلِ الْجَنَّتْ وَلَا عَمِلْتَ إِنَّمَا بَعْدُ، فَقَتَلْتَهُ؟ ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أَيُّ بِغَيْرِ مُسْتَنَدٍ لِقَتْلِهِ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أَيُّ ظَاهِرِ النُّكَارَةِ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فَأَكَّدَ أَيْضًا فِي التَّنْكَارِ بِالشَّرْطِ الْأَوَّلِ، فَلِهَذَا قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أَيُّ إِنْ اعْتَرَضْتُ عَلَيْكَ شَيْءٌ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ﴿فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أَيُّ أَعْذَرْتُ إِلَيَّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا فَدَعَا لَهُ، بَدَأَ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَا بُصْرَ الْعَجَبِ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا»<sup>(١)</sup> [منقولة].

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْبَاَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنَيْتُكَ بِأَوْبِلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨)

### [قِصَّةُ إِقَامَةِ الْجِدَارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمَا إِنَّهُمَا ﴿فَانْطَلَقَا﴾ بَعْدَ الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ ﴿حَتَّى إِذَا أَنْبَاَ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ: أَنَّهَا الْأَيْلَةُ<sup>(٢)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ: «حَتَّى إِذَا أَنْبَاَ أَهْلَ قَرْيَةٍ لِتَامًا»<sup>(٣)</sup> أَيُّ بِخَلَاءٍ ﴿اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ إِسْنَادُ الْإِرَادَةِ هُنَا إِلَى الْجِدَارِ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ فِي الْمُحَدَّثَاتِ بِمَعْنَى الْمَبِيلِ، وَالْإِنْقِضَاضُ هُوَ السَّقُوطُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أَيُّ فَرَدَّهُ إِلَى حَالَةِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَدَّهُ بِيَدَيْهِ وَدَعَمَهُ حَتَّى رَدَّ مِثْلَهُ، وَهَذَا خَارِقٌ،

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَهُ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَيُّ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُضَيِّقُونَا، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَعْمَلَ لَهُمْ مَجَانًا ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أَيُّ لِأَنَّكَ شَرَطْتَ عِنْدَ قَتْلِ الْغُلَامِ: أَنَّكَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، فَهُوَ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴿سَأْنَيْتُكَ بِأَوْبِلٍ﴾ أَيُّ بِتَفْسِيرٍ ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩)

### [تَأْوِيلُ خَرَقِ السَّفِينَةِ]

هَذَا تَفْسِيرُ مَا أَشْكَلَ أَمْرُهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا كَانَ أَنْكَرَ ظَاهِرُهُ، وَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى حِكْمَةٍ بَاطِنَةٍ، فَقَالَ: إِنَّ السَّفِينَةَ إِنَّمَا خَرَقَتْهَا لِأَعِيبَهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلِكٍ مِنَ الظَّالِمَةِ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صَالِحَةٍ أَوْ جَدَّةٍ ﴿غَصْبًا﴾ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا لِأَرَدُّهُ عَنْهَا [بِعِيبِهَا]، فَيَنْتَفِعَ بِهَا أَصْحَابُهَا الْمَسَاكِينُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ يَنْتَفِعُونَ بِهِ غَيْرَهَا. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُمْ أَتَيْنَا.

﴿وَأَمَّا الْفُلَّةُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَهْمًا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ

رُحْمًا﴾ (٨١)

### [تَأْوِيلُ قَتْلِ الْغُلَامِ]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طَبْعَ يَوْمٍ طَبْعَ كَافِرًا» رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٤)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أَيُّ يَحْمِلُهُمَا حُبَّهُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ عَلَى الْكُفْرِ، قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ فَرِحَ بِهِ أَبَوَاهُ حِينَ وُلِدَ، وَحَزِنَا عَلَيْهِ حِينَ قُتِلَ، وَلَوْ بَقِيَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهُمَا، فَلَيَرِضَ أَمْرُهُ بِقَضَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَكْرَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ قَضَائِهِ فِيمَا يُحِبُّ<sup>(٥)</sup>. وَصَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ»<sup>(٦)</sup> وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَهْمًا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨١) أَيُّ وَلَدًا أَرْكَى مِنْ هَذَا، وَهُمَا أَرْحَمُ بِهِ مِنْهُ.

(١) الطبري: ٧٧/١٨ إسناده ضعيف للتدليس أبي إسحاق السبيعي (٢) الطبري: ٧٨/١٨ (٣) أحمد: ١١٩/٥ (٤) الطبري: ٨٥/١٨ (٥) الطبري: ٨٦/١٨ (٦) أحمد: ١١٧/٣

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ <sup>(١)</sup>.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

[تَأْوِيلُ إِقَامَةِ الْجِدَارِ بِغَيْرِ أُجْرَةٍ]

فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلَاقِ الْقُرْآنَةِ عَلَى الْمَدِينَةِ، لِأَنَّهُ قَالَ أَوَّلًا: ﴿حَقٌّ إِذَا أَنَا أَهْلُ قَرْيَةٍ﴾ وَقَالَ هُنَا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] بِعَيْنِي مَكَّةَ وَالطَّائِفَ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ هَذَا الْجِدَارَ إِنَّمَا أَصْلَحْتُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا. قَالَ عِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: وَكَانَ تَحْتَهُ مَالٌ مَّدْفُونٌ لَهُمَا <sup>(٢)</sup>. وَهُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جُرَيْجٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يُحْفَظُ فِي دُرِّيَّتِهِ وَتَشْمَلُ بَرَكَةُ عِبَادَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِشَفَاعَتِهِ فِيهِمْ، وَرَفَعَ دَرَجَتِهِمْ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، لِنَقَرِ عَيْنَهُ بِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَوَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: حَفِظًا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمَا صِلَاحًا <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ هُنَا أَسْنَدُ الْإِرَادَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ بُلُوغَهُمَا الْحُلُمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ، وَقَالَ فِي الْعُلَامِ: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُمْ زَكَوَةً﴾ وَقَالَ فِي السَّفِينَةِ: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[هَلْ كَانَ الْخَضِرُ نَبِيًّا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي فَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِمَنْ ذَكَرْنَا مِنْ أَصْحَابِ السَّفِينَةِ، وَوَالِدِي الْغُلَامِ، وَوَلَدِي الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي، أَيْ لِكَيْنِي أَمَرْتُ بِهِ وَوَقَفْتُ عَلَيْهِ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِمَنْ قَالَ بِنبُوءَةِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

[وَجْهٌ تَسْمِيَةِ الْخَضِرِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ

النَّبِيِّ ﷺ فِي الْخَضِرِ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ خَضِرًا لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى قُرُوءَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَرُ مِنْ تَحْتِهِ خَضِرَاءُ» <sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ <sup>(٥)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ أَيْضًا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ هَمَّامٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى قُرُوءَةٍ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَرُ مِنْ تَحْتِهِ خَضِرَاءُ» <sup>(٦)</sup>. وَالْمُرَادُ بِالْقُرُوءَةِ هُنَا الْحَشِيشُ الْيَاسِيُّ وَهُوَ الْهَشِيمُ مِنَ النَّبَاتِ. قَالَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ <sup>(٧)</sup>. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ وَجْهُ الْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أَيْ هَذَا تَفْسِيرُ مَا ضَعُفَ بِهِ دَرْعًا، وَلَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أَخْبِرَكَ بِهِ ابْتِدَاءً، وَلَمَّا أَنَّ فَسَّرَهُ لَهُ وَيَتَنَّهُ وَوَضَّحَهُ وَأَزَالَ الْمُشْكَلَ قَالَ: [﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ﴾] وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الْإِشْكَالُ قَوْلًا ثَقِيلًا، فَقَالَ: ﴿سَأَتِينُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، فَقَابَلَ الْأَثْقَلَ بِالْأَثْقَلِ، وَالْأَخْفَ بِالْأَخْفِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وَهُوَ الصُّعُودُ إِلَى أَعْلَاهُ ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ يَقْبَا﴾ وَهُوَ أَشَقُّ مِنْ ذَلِكَ، فَقَابَلَ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ لَفْظًا وَمَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا بَالُ فَتَى مُوسَى ذِكْرٍ فِي أَوَّلِ الْقِصَّةِ ثُمَّ لَمْ يُذَكَّرْ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالسِّيَاقِ إِنَّمَا هُوَ قِصَّةُ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ وَذِكْرُ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا، وَفَتَى مُوسَى مَعَهُ تَبَعٌ، وَقَدْ صُرِّحَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا أَنَّهُ يُوشِعُ بْنُ نُونٍ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَلِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَسَأَلْتَهُ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ فَلَمْ يَسْأَلُوا عَلَيْكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَابًا

[قِصَّةُ ذِي الْقُرْنَيْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿يَا مُحَمَّدُ﴾ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ ﴿أَيُّ عَنْ خَبْرِهِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ بَعَثَ كُفَّارٌ مَكَّةَ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَ مِنْهُمْ مَا يَمْتَحِنُونَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ فِي الْأَرْضِ، وَعَنْ فِتْنَةٍ لَا يُدْرَى مَا صَنَعُوا، وَعَنْ الرُّوحِ، فَتَزَلَّتْ سُورَةُ الْكَهْفِ.

[كَانَ ذُو الْقُرْنَيْنِ صَاحِبَ سُلْطَةٍ كَبِيرَةٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ أَعْطَيْنَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا

(١) الطبري: ٨٧، ٨٦/١٨ (٢) الطبري: ٩٠/١٨ (٣)

الطبري: ٩٠/١٨ (٤) أحمد: ٣١٢/٢ (٥) أحمد: ٣١٨/٢

(٦) فتح الباري: ٤٩٩/٦ (٧) أحمد: ٣١٨/٢

مُمْكِنًا فِيهِ مِنْ جَمِيعِ مَا يُؤْتَى الْمُلُوكُ مِنَ التَّمَكِينِ وَالْجُنُودِ  
وَالْآلِ الْخَرْبِ وَالْحَضَارَاتِ، وَلِهَذَا مَلَكَ الْمَشَارِقَ  
وَالْمَغَارِبَ مِنَ الْأَرْضِ، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ، وَخَضَعَتْ لَهُ  
مُلُوكُ الْعِبَادِ، وَخَدَمَتْهُ الْأُمَمُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وَلِهَذَا  
ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ، لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنَيِ  
الشَّمْسِ مَشْرِقَهَا وَمَغْرِبَهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنبِئْتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ  
سَبِيًّا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكرَمَةُ  
وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي عِلْمًا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ  
قَتَادَةُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنبِئْتَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾ قَالَ: مَنَازِلُ  
الْأَرْضِ وَأَعْلَامُهَا<sup>(٢)</sup>.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّ بَلْقِيسَ: ﴿وَأَوْبَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾  
[النمل: ٢٣] أَيْ مِمَّا يُؤْتَى مِثْلَهَا مِنَ الْمُلُوكِ، وَهَكَذَا دُو  
الْقَرْنَيْنِ، يَسِّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَسْبَابَ، أَيْ الطَّرِيقَ وَالْوَسَائِلَ إِلَى  
فَتْحِ الْأَقَالِيمِ وَالرَّسَائِقِ وَالْبِلَادِ وَالْأَرَاضِي، وَكَسِرِ  
الْأَعْدَاءِ، وَكَبَّتْ مُلُوكُ الْأَرْضِ، وَإِذْ لَالِ أَهْلُ الشَّرِكِ، قَدْ  
أُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ سَبِيًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَأَنبِئَ سَبِيًّا﴾<sup>(٣)</sup> حَقٌّ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ  
حِمَّةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ  
فِيهِمْ حُسْنًا<sup>(٤)</sup> قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ  
فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا<sup>(٥)</sup> وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَى

كَأَنَّهُا تَغْرُبُ فِيهِ، وَهِيَ لَا تُفَارِقُ الْفُلْكَ الرَّابِعَ الَّذِي هِيَ  
مُثَبَّتَةٌ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ، وَالْحِمَّةُ مُشْتَقَّةٌ عَلَى إِحْدَى الْقَرَاءَتَيْنِ  
مِنَ الْحِمَاةِ وَهُوَ الطَّيْنُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا  
مِّن صَلَاسِطٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] أَيْ طِينٍ أَمْلَسَ،  
وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ أَيْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ، ذَكَرُوا  
أَنَّهَا كَانَتْ أُمَّةً عَظِيمَةً مِنْ بَنِي آدَمَ. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ  
إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ مَعْنَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
مَكَّنَهُ مِنْهُمْ، وَحَكَّمَهُ فِيهِمْ، وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، وَخَيْرَهُ إِنْ شَاءَ  
قَتَلَ وَسَبَى، وَإِنْ شَاءَ مَنَّ أَوْ قَدَّى، فَفَرَفَ عَذْلُهُ وَإِيمَانُهُ  
فِيمَا أَبْدَاهُ عَذْلُهُ وَبَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أَيْ اسْتَمَرَّ  
عَلَى كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ بِرَبِّهِ ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ:

(١) البداية والنهاية: ١٠٦/٢ والطبري: ٩٥، ٩٤/١٨ (٢)  
الابتداء والنهاية: ١٠٦/٢ والطبري: ٩٥، ٩٤/١٨ (٣) الطبري:  
٩٩/١٨ (٤) الطبري: ٩٥/١٨ (٥) الطبري: ٩٥/١٨ (٦)  
الطبري: ٩٩/١٨

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّ بَلْقِيسَ: ﴿وَأَوْبَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾  
[النمل: ٢٣] أَيْ مِمَّا يُؤْتَى مِثْلَهَا مِنَ الْمُلُوكِ، وَهَكَذَا دُو  
الْقَرْنَيْنِ، يَسِّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَسْبَابَ، أَيْ الطَّرِيقَ وَالْوَسَائِلَ إِلَى  
فَتْحِ الْأَقَالِيمِ وَالرَّسَائِقِ وَالْبِلَادِ وَالْأَرَاضِي، وَكَسِرِ  
الْأَعْدَاءِ، وَكَبَّتْ مُلُوكُ الْأَرْضِ، وَإِذْ لَالِ أَهْلُ الشَّرِكِ، قَدْ  
أُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ سَبِيًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَأَنبِئَ سَبِيًّا﴾<sup>(٣)</sup> حَقٌّ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ  
حِمَّةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ  
فِيهِمْ حُسْنًا<sup>(٤)</sup> قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ  
فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا<sup>(٥)</sup> وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَى

وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُسِّرُ

[ذَهَابُهُ وَبُلُوغُهُ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَأَنبِئَ سَبِيًّا﴾ يَعْنِي بِالسَّبَبِ الْمَثْرُوبِ<sup>(٣)</sup>.  
وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَأَنبِئَ سَبِيًّا﴾ مَنَزِلًا وَطَرِيقًا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ  
وَالْمَغْرِبِ<sup>(٤)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿سَبِيًّا﴾ قَالَ:  
طَرِيقًا فِي الْأَرْضِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيْ أَتْبَعَ مَنَازِلَ الْأَرْضِ  
وَمَعَالِمَهَا<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَقٌّ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أَيْ فَسَلَكَ طَرِيقًا  
حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْصَى مَا يُسَلِّكُ فِيهِ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ نَاجِيَةِ  
الْمَغْرِبِ وَهُوَ مَغْرِبُ الْأَرْضِ، وَأَمَّا الْوُضُوءُ إِلَى مَغْرِبِ  
الشَّمْسِ مِنَ السَّمَاءِ فَمَتَعَدَّرُ، وَمَا يَذْكُرُهُ أَصْحَابُ الْفِيضِ  
وَالْأَخْبَارِ مِنْ أَنَّهُ سَارَ فِي الْأَرْضِ مُدَّةً، وَالشَّمْسُ تَغْرُبُ  
مِنْ وَرَائِهِ، فَسَيِّءٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَأَكْثَرُ ذَلِكَ مِنْ خُرَافَاتِ  
أَهْلِ الْكِتَابِ وَاخْتِلَافِ زَنَادِقَتِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَدَهَا  
تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حِمَّةٍ﴾ أَيْ رَأَى الشَّمْسُ فِي مَنَظَرِهِ تَغْرُبُ فِي  
الْبَحْرِ الْمُحِيطِ، وَهَذَا شَأْنٌ كُلٌّ مِنْ انْتَهَى إِلَى سَاحِلِهِ يَرَاهَا

السَّدِّينِ وَهُمَا جَبَلَانِ مُتَنَاوِحَانِ بَيْنَهُمَا ثَغْرَةٌ يُخْرُجُ مِنْهَا  
يَأْجُوجٌ وَمَأْجُوجٌ عَلَى بِلَادِ الثُّرُكِيِّ فَيَعِيشُونَ فِيهَا فَسَادًا  
وَيُهْلِكُونَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَيَأْجُوجٌ وَمَأْجُوجٌ مِنْ شَلَالَةٍ  
آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
يَقُولُ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: ابْعَثْ  
بَعَثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ  
تَسْعِمَائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ،  
فَجَيْتَذٌ يَشِيبُ الصَّغِيرَ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا.  
فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ، مَا كَانَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَرْتَاهُ:  
يَأْجُوجٌ وَمَأْجُوجٌ»<sup>(٥)</sup>.

﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أَيُّ  
لَا اسْتِعْجَامَ كَلَامِهِمْ وَبُعْدِهِمْ عَنِ النَّاسِ ﴿قَالُوا يَذَّا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ  
يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قَالَ ابْنُ  
جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَجْرًا<sup>(٦)</sup> عَظِيمًا، يُعْطَى  
أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا لَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ مَا لَا يُعْطُونَهُ إِلَّا هُ  
يَجْعَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. فَقَالَ ذُو الْقَرْيَتَيْنِ بِعِفَّةٍ وَدِيَانَةٍ  
وَصَلَاحٍ وَقَصْدٍ لِلْخَيْرِ: ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أَيُّ إِنَّ اللَّيْ  
أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْتِمَكِينِ خَيْرٌ لِي مِنَ اللَّيْ  
تَجْمَعُونَهُ، كَمَا قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَا لِي  
فَمَا آتَيْنِيهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ﴾... آيَةُ [النمل: ٣٦]،  
وَهَكَذَا قَالَ ذُو الْقَرْيَتَيْنِ: الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي تَبْدُلُونَهُ  
وَلَكِنْ سَاعِدُونِي بِقُوَّةٍ، أَيُّ بِعَمَلِكُمْ وَآلَاتِ الْبِنَاءِ ﴿أَجْعَلْ  
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾<sup>(٧)</sup> عَاتَوْي زَيْرَ الْحَلِيدِ وَالزُّبَيْرُ جَمْعُ زُبَيْرَةٍ،  
وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنْهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٨)</sup>. وَهِيَ  
كَالْبَيْتَةِ، يُقَالُ: كُلُّ لَبَنَةٍ زَنْةٌ قِنْطَارٍ بِالدَّمَشَقِيِّ أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهِ  
﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الضَّعِيفِينَ﴾ أَيُّ وَضَعَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ  
الْأَسَاسِ حَتَّى إِذَا حَادَى بِهِ رُؤُوسَ الْجَبَلَيْنِ طُولًا وَعَرْضًا.  
-وَاخْتَلَفُوا فِي مِسَاحَةِ عَرْضِهِ وَطُولِهِ عَلَى أَقْوَالٍ - قَالَ  
أَنفُوحًا أَيُّ أَجَّجَ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى صَارَ كُلُّهُ نَارًا ﴿قَالَ عَاتَوْي  
أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ  
وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: هُوَ النَّحَاسُ زَادَ بَعْضُهُمْ

بِالْقَتْلِ<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ رَدُّ إِلَيْ رَبِّي، فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ أَيُّ  
شَدِيدًا بَلِيغًا وَجِيمًا أَلِيمًا، وَفِي هَذَا إِنْثَابُ الْمَعَادِ  
وَالْجَزَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ أَيُّ اتَّبَعَنَا عَلَى مَا نَدْعُوهُ  
إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَلَهُمْ جَزَاءُ الْخَيْرِ﴾ أَيُّ  
فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَسَقُولُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِنَا  
يُسْرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْرُوفًا<sup>(١٠)</sup>.

﴿ثُمَّ أُنْعِمَ سُبُحًا﴾<sup>(١١)</sup> حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ  
لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا<sup>(١٢)</sup> كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ  
خُبْرًا<sup>(١٣)</sup>

### [دَهَابُهُ إِلَى جَهَةِ الْمَشْرِقِ]

يَقُولُ تَعَالَى ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا فَسَارَ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ  
إِلَى مَطْلَعِهَا، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِأُمَّةٍ فَهَرَّمَهُمْ وَعَلَبَهُمْ وَدَعَاهُمْ  
إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ أَطَاعُوهُ وَإِلَّا أَذَلَّهُمْ وَأَرْغَمَ آتَانَهُمْ  
وَاسْتَبَاحَ أَمْوَالَهُمْ وَأَتَمَّتَعَتْهُمْ، وَاسْتَخَذَمَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَا  
تَسْتَعِينُ بِهِ جُبُوشُهُ عَلَى قِتَالِ الْإِقْلِيمِ الْمُتَاجِمِ لَهُمْ، وَلَمَّا  
انْتَهَى إِلَى مَطْلِعِ الشَّمْسِ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ﴾ أَيُّ أُمَّةٍ ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾  
أَيُّ لَيْسَ لَهُمْ بِنَاءٌ يُكِنُّهُمْ، وَلَا أَشْجَارٌ تُظِلُّهُمْ وَتُسْتَرْهُمْ مِنْ  
حَرِّ الشَّمْسِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ بِأَرْضٍ لَا تَثْبُتُ لَهُمْ شَيْئًا فَهُمْ  
إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ دَخَلُوا فِي أَسْرَابٍ، حَتَّى إِذَا زَالَتْ  
الشَّمْسُ خَرَجُوا إِلَى حُرُوبِهِمْ وَمَعَابِشِهِمْ<sup>(١٤)</sup>. وَقَوْلُهُ:  
﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ:  
عَلِمَا أَيُّ نَحْنُ مُطَّلِعُونَ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ جَنَّتِهِ  
لَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْءٌ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أُمَمُهُمْ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ  
الْأَرْضُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي  
السَّمَاءِ﴾<sup>(١٥)</sup> [آل عمران: ٥١].

﴿ثُمَّ أُنْعِمَ سُبُحًا﴾<sup>(١٦)</sup> حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّادِّينِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا  
لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا<sup>(١٧)</sup> قَالُوا يَذَّا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ  
مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ  
سَدًّا<sup>(١٨)</sup> قَالَ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ  
رَدْمًا<sup>(١٩)</sup> عَاتَوْي زَيْرَ الْحَلِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الضَّعِيفِينَ قَالَ أَنْفُوحًا  
حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ عَاتَوْي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا<sup>(٢٠)</sup>

### [دَهَابُهُ إِلَى أَرْضِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَبِنَاؤُهُ السَّدَّ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقَرْيَتَيْنِ: ﴿ثُمَّ أُنْعِمَ سُبُحًا﴾ أَيُّ  
ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا مِنْ مَسَارِقِ الْأَرْضِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ

(١) الطبري: ٩٨/١٨ (٢) الطبري: ٩٩/١٨ (٣) الطبري: ١٠٠/١٨ (٤) الطبري: ١٠١/١٨ (٥) فتح الباري: ٢٩٥/٨  
ومسلم: ٢٠١/١ (٦) الطبري: ١١٢/١٨ إسناده ضعيف لتدليس  
ابن جريج وفيه أيضًا الحسين بن داود المصيصي (٧) الطبري: ١١٤/١٨

الْمُذَابِ

٣٠٤

سُورَةُ الْكَافِرِينَ

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْلَمُ مَا جَعَلْتُمْ لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ رَاجِعًا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

الْآيَةُ (لِالْأَنْبِيَاءِ: ٩٦، ٩٧).

وَقَوْلُهُ: ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وَالصُّورُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: قُرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ، وَالَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ بِطَوِيلِهِ، وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ<sup>(٥)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَطِيَّةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٦)</sup> وَأَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقُرْنُ، وَحَتَّى جَبَهَتْهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ؟» قَالُوا: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَشَبْنَا اللَّهَ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ

الْمُذَابِ<sup>(١)</sup> وَتُسْتَشْهَدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَمَّ عَيْنَ الْقَاطِرِ﴾ [سبأ: ١٢] وَلِهَذَا يُشَبَّهُ بِالْبُرْدِ الْمُحْبَرِ. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقَبْ﴾ (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ [صَارَ السَّدُّ مَانِعًا وَسَوْفَ يَذُكُّ قُرْبَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، أَنَّهُمْ مَا قَدَرُوا عَلَى أَنْ يَصْعَدُوا مِنْ فَوْقِ هَذَا السَّدِّ وَلَا قَدَرُوا عَلَى نَقْبِهِ مِنْ أَسْفَلِهِ، وَلَمَّا كَانَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ أَشْهَلُ مِنْ نَقْبِهِ قَابِلٌ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ فَقَالَ: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَمْ نَقَبْ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبِهِ وَلَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: اسْتَقْبَطَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ مُحَمَّرٌ وَجْهَهُ وَهُوَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَيُلِّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمُ مِنْ رَدَمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا» وَحَلَّقَ [بِاصْبَغِيهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا] قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتُهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»<sup>(٢)</sup> هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ اتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى إِخْرَاجِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أَيُّ لَمَّا بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أَيُّ بِالنَّاسِ حَيْثُ جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ حَائِلًا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَيْثِ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادِ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أَيُّ إِذَا اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أَيُّ سَاوَاهُ بِالْأَرْضِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: نَاقَةٌ دَكَّاءٌ إِذَا كَانَ ظَهْرُهَا مُسْتَوِيًا لَا سِتَامَ لَهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَلِيلِ جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أَيُّ مُسَاوِيًا لِلْأَرْضِ.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أَيُّ كَانَتْ لَا مَحَالَةَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أَيُّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ، أَيُّ يَوْمَ يَذُكُّ هَذَا السَّدُّ، وَيَخْرُجُ هَؤُلَاءِ فَيَمُوجُونَ فِي النَّاسِ، وَيُفْسِدُونَ عَلَى النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ، وَيَتَلَقَّوْنَ أَشْيَاءَهُمْ، وَهَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قَالَ: ذَلِكَ حِينَ يَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا كُلُّهُ قَبْلَ الْقِيَامَةِ وَبَعْدَ الدَّجَالِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿حَقَّقَ إِذَا فُحِصَتْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾

(١) الطبري: ١١٦/١٨، ١١٧ والدر المشور: ٤٦٠/٥ (٢) أحمد: ٤٢٨/٦ (٣) فتح الباري: ٤٤٠/٦ ومسلم: ٢٢٠٨/٤ (٤) الدر المشور: ٤٥٤/٤ (٥) تحفة الأحوذى: ١١٦/٩ (٦) الطبري: ١٢٢/١٨ إسناداه ضعيف لضعف عطية إلا أنه تابع عليه أبو صالح عند أبي يعلى (١٠٨٤) وابن حبان (٨٢٣) والحاكم ٤/٥٥٩ وابن أبي الدنيا في "الأهوال" (٤٩) أنظر موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا ١٥٤/٦ وورد ابن كثير عنه في البداية ١٧١/١ وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧٩)

تَوَكَّلْنَا»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَمَعْتَهُمْ جَمَاعًا﴾ أَيْ أَحْضَرْنَا الْجَمِيعَ لِلْحِسَابِ ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَجَمُوعُونَ إِلَى مِقْدَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾. ﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنْجِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِ أَوْلِيَاءِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ﴿٥٧﴾

### [عَرَّضُ جَهَنَّمَ عَلَى الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ، أَيْ يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا لِيُرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أُنْبَغَ فِي تَعْجِيلِ لَهُمُ وَالْحُزْنَ لَهُمْ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تَقَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ»<sup>(٢)</sup> ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أَيْ تَغَافَلُوا وَتَعَامَوْا وَتَصَامَمُوا عَنْ قَبُولِ الْهُدَى وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ، كَمَا قَالَ: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصَ لَهُ سِتْرًا فَهُوَ لَمْ يَرِن» [الزخرف: ٣٦] وَقَالَ هُنَا: «وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا» أَيْ لَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنْجِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِ أَوْلِيَاءِ﴾ أَيْ إِعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَصْلُحُ لَهُمْ ذَلِكَ وَيَنْتَفِعُونَ بِهِ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢] وَلِهَذَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَزَلًا. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا﴾ ﴿١٠١﴾

### [الْأَخْسَرُونَ أَعْمَالًا وَجَزَاؤُهُمْ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمْرِو عَنْ مُضْعَبٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي يَغْنِي سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أَهْمُ الْحُرُورِيَّةِ؟ قَالَ: لَا، هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، أَمَّا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ. وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالْحَيَّةِ وَقَالُوا: لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ. وَالْحُرُورِيَّةُ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، فَكَانَ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ<sup>(٤)</sup> وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هُمُ الْحُرُورِيَّةُ،

وَمَعْنَى هَذَا عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تَشْمَلُ الْحُرُورِيَّةَ كَمَا تَشْمَلُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَغَيْرَهُمْ، لَا إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي هَؤُلَاءِ - عَلَى الْخُصُوصِ - وَلَا هَؤُلَاءِ، بَلْ هِيَ أَعَمُّ مِنْ هَذَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ قَبْلَ خُطَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَقَبْلَ وُجُودِ الْخَوَارِجِ بِالْكَلْبَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ عَدَّ اللَّهُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِيهَا، وَأَنَّ عَمَلَهُ مَقْبُولٌ، وَهُوَ مُخْطِئٌ، وَعَمَلُهُ مَرْدُودٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجُودُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ﴿٢﴾ صَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢-٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرًا يَفِيعَةً يَخَسُّهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ سَنًا﴾ [النور: ٣٩] وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أَيْ نُخَبِّرُكُمْ ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُمْ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ عَمِلُوا أَعْمَالًا بِاطِلَّةٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةٍ مَشْرُوعَةٍ مَرْضِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أَيْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَأَنَّهُمْ مَقْبُولُونَ مَحْبُوبُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أَيْ جَحَدُوا آيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَبَرَاهِينَهُ الَّتِي أَقَامَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَصَدَّقَ رُسُلَهُ، وَكَذَّبُوا بِالْآدَارِ الْآخِرَةِ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ أَيْ لَا نَقِيلُ مَوَازِينَهُمْ، لِأَنَّهَا خَالِيَةٌ عَنِ الْحَبِيرِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ - وَقَالَ: - إِقْرَءُوا إِنَّ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾». وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا﴾ أَيْ إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهَذَا الْجَزَاءِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَاتَّخَاذِهِمْ آيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ هُزُولًا، إِشْتَهَرُوا بِهِمْ وَكَذَّبُوهُمْ أَشَدَّ التَّكْدِيبِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ ﴿١٠٨﴾

### [جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ]

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ السَّعْدَاءِ وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ

(١) تحفة الأحوذى: ١١٧/٧ (٢) مسلم: ٢١٨٤/٤ (٣) فتح الباري: ٢٧٨/٨ (٤) الطبري: ١٢٧/١٨ (٥) فتح الباري: ٨/٢٧٩ ومسلم: ٢١٤٧/٤

نَعِيمِ الدُّنْيَا وَأُولَئِهَا وَآخِرُهَا فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ، كَحَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فِي خِلَالِ الْأَرْضِ كُلِّهَا.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَمَّا ۖ﴾  
**[مُحَمَّدٌ ﷺ بَشَرٌ وَرَسُولٌ وَالِلَّهِ وَاحِدٌ]**

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿قُلْ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمُسْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِرِسَالَتِكَ إِلَيْهِمْ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فَمَنْ زَعَمَ أَنِّي كَاذِبٌ فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْمَاضِي عَمَّا سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَخَبَرِ ذِي الْقُرْنَيْنِ مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ - لَوْلَا مَا أَطْلَعَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا أَخْبَرْتُكُمْ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ ﴿إِلَهُ وَحْدَهُ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أَيُّ ثَوَابِهِ وَجَزَاءِ الصَّالِحِ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أَيُّ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرْعِ اللَّهِ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَمَّا﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ، صَوَابًا عَلَىٰ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ الشُّرُكُ الْأَصْغَرُ» قَالُوا: وَمَا الشُّرُكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَاءَوْنَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَهُمْ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»<sup>(٥)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ أَبِي فَصَالَةَ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ اللَّهُ أَحَدًا، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرُكِ»<sup>(٦)</sup>. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٧)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْكَهْفِ.

وَرَسُولِهِ، وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ، أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ الْفِرْدَوْسِ. وَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: الْفِرْدَوْسُ شَرَّةُ الْجَنَّةِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا عَنْ سُمَرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ، وَأَوْسَطُهَا وَأَحْسَنُهَا».

وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ. رَوَى ذَلِكَ كُلُّهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(٣)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزَلًا﴾ أَيُّ ضِيقًا، فَإِنَّ النُّزْلَ الضِّيقُ. وَقَوْلُهُ: ﴿خَلِيلَيْنِ فِيهَا﴾ أَيُّ مُتَقَرِّبَيْنِ سَاكِنَيْنِ فِيهَا، لَا يَطْعَمُونَ عَنْهَا أَبَدًا ﴿لَا يَتَعَوَّنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ أَيُّ لَا يَخْتَارُونَ عَنْهَا غَيْرَهَا، وَلَا يُجِبُونَ سِوَاهَا.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَتَعَوَّنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ تَنْبِيهُ عَلَى رَغْبَتِهِمْ فِيهَا وَحُبِّهِمْ لَهَا، مَعَ أَنَّهُ قَدْ يَتَوَهَّمُ فِيمَنْ هُوَ مُقِيمٌ فِي الْمَكَانِ دَائِمًا أَنَّهُ قَدْ يَسَامُهُ أَوْ يَمْلَهُ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا الدَّوَامِ وَالْخُلُودِ السَّرْمَدِيِّ لَا يَخْتَارُونَ عَنْ مَقَامِهِمْ ذَلِكَ مُتَحَوِّلًا وَلَا انْتِقَالًا، وَلَا طَعَنًا، وَلَا رَحْلَةً، وَلَا بَدَلًا.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِذَ

كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝١٠٩﴾

**[لَا تَفْذَلْ كَلِمَاتُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ]**

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَوْ كَانَ مَاءُ الْبَحْرِ مِدَادًا لِلْقَلَمِ الَّذِي يَكْتُبُ بِهِ كَلِمَاتُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ وَأَيَّاتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ، لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ كِتَابَةُ ذَلِكَ ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أَيُّ بِمِثْلِ الْبَحْرِ آخَرَ، ثُمَّ آخَرُ وَهَلُمَّ جَرًّا، بِحُورٍ تَمُدُّهُ وَيَكْتُبُ بِهَا، لَمَا نَفِذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [القسمان: ٢٧] وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: إِنَّ مَثَلَ عِلْمِ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ كَقَطْرَةٍ مِنْ مَاءِ الْبُحُورِ كُلِّهَا، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ ذَلِكَ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾ يَقُولُ: لَوْ كَانَتْ تِلْكَ الْبُحُورُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَالشَّجَرُ كُلُّهُ أَقْلَامٌ لَانْكَسَرَتْ الْأَقْلَامُ، وَفِي مَاءِ الْبَحْرِ، وَبَقِيَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ قَائِمَةً لَا يَفْنِيهَا شَيْءٌ، لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْدِرَ قَدْرَهُ، وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُثْنِي نَفْسَهُ، إِنَّ رَبَّنَا كَمَا يَقُولُ وَفَوْقَ مَا نَقُولُ، إِنَّ مَثَلَ

(١) الطبري: ١٣٠/١٨ (٢) الطبري: ١٣٠/١٨ (٣) الطبري:

١٣٤/١٨ (٤) فتح الباري: ٤١٥/١٣ (٥) أحمد: ٤٢٨/٥

(٦) أحمد: ٢١٥/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٥٩٩/٨ وابن ماجه:

١٤٠٦/٢



## سُورَةُ مَرْيَمَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

وَقَدْ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ <sup>(١)</sup>، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَّةِ الْهَجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ مِنْ مَكَّةَ: أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ <sup>(٢)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيِّصَ <sup>(١)</sup> ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَّرِيَّا <sup>(٢)</sup>﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا <sup>(٣)</sup> قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا <sup>(٤)</sup> وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا <sup>(٥)</sup> يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَمَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا <sup>(٦)</sup> يَزَكِّرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا <sup>(٧)</sup> قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا <sup>(٨)</sup> قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا <sup>(٩)</sup> قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا <sup>(١٠)</sup> فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا <sup>(١١)</sup>

[قِصَّةُ زَكَّرِيَّا وَدُعَاؤُهُ لِلْوَلَدِ]

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أَيُّ هَذَا ذِكْرُ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ زَكَّرِيَّا، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ: (ذَكَرَ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَّرِيَّا) <sup>(٣)</sup> وَزَكَّرِيَّا بُمْدٌ وَيُقْصَرُ، قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ، وَكَانَ نَبِيًّا عَظِيمًا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ فِي النَّجَّارَةِ <sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا﴾ إِنَّمَا أَخْفَاهُ لِأَنَّهُ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْقَلْبَ الْتَقِيَّ وَيَسْمَعُ الصَّوْتَ الْخَفِيَّ <sup>(٥)</sup>. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أَيُّ ضَعْفَتْ وَخَارَتِ الْقُوَى ﴿وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، أَيُّ اضْطَرَمَّ الْمَشِيبُ فِي السَّوَادِ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا: الْإِخْبَارُ عَنِ الضَّعْفِ وَالْكِبَرِ وَدَلَالَتُهُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أَيُّ وَلَمْ أَعْهَدْ مِنْكَ إِلَّا الْجَابَةَ فِي الدُّعَاءِ، وَلَمْ تُرَدِّبْنِي قَطُّ فِيمَا سَأَلْتُكَ وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أَرَادَ بِالْمَوَالِيَ الْعَصَبَةَ <sup>(٦)</sup>. وَوَجْهُ خَوْفِهِ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَبْصُرَفُوا مِنْ بَعْدِهِ فِي النَّاسِ تَصَرُّفًا سَبًّا، فَسَأَلَ اللَّهَ وَلَدًا، يَكُونُ نَبِيًّا مِنْ بَعْدِهِ لِيَسُوسَهُمْ بِنُبُوَّتِهِ وَمَا يُوحَى إِلَيْهِ، فَأَجِيبَ فِي ذَلِكَ، لَا أَنَّهُ خَشِيَ مِنْ وَرَائِهِمْ لَهُ مَالَهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ أَعْظَمُ مَنْزِلَةً وَأَجَلُ قَدَرًا مِنْ أَنْ يُشْفَقَ عَلَى مَالِهِ إِلَى مَا هَذَا حَدُّهُ، وَأَنْ يَأْتَفَ مِنْ وَرَائِهِ عَصَبَاتِهِ لَهُ، وَيَسْأَلَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لِيُحَوِّزَ مِيرَاثَهُ دُونَهُمْ. هَذَا وَجْهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿كَهَيِّصَ <sup>(١)</sup> ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَّرِيَّا <sup>(٢)</sup>﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا <sup>(٣)</sup> قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا <sup>(٤)</sup> وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا <sup>(٥)</sup> يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَمَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا <sup>(٦)</sup> يَزَكِّرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا <sup>(٧)</sup> قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا <sup>(٨)</sup> قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا <sup>(٩)</sup> قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا <sup>(١٠)</sup> فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا <sup>(١١)</sup>

(الْثَّانِي) أَنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ، بَلْ كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدَيْهِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَجْمَعُ مَالًا، وَلَا سِيمَا الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَزْهَدَ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا.

(الْثَّلَاثُ) أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا نُورُثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ» <sup>(٧)</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ: «نَحْنُ مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورُثُ» <sup>(٨)</sup>. وَعَلَى هَذَا فَتَعَيَّنَ حَمْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا <sup>(٥)</sup> يَرِثُنِي﴾ عَلَى مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَرِثْ مِنْ أَمَالِ يَعْقُوبَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] أَيُّ فِي النُّبُوَّةِ، إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْمَالِ لَمَّا خَصَّهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ بِذَلِكَ، وَلَمَّا كَانَ فِي الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ كَبِيرُ فَايِدَةٍ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ الْمُسْتَقَرِّ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ

(١) ابن هشام: ٣٥٧/١ (٢) أحمد: ١: ٢٠١، ٤٦١ (٣) القرطبي: ٧٥/١١ (٤) مسلم: ١٨٤٧/٤ (٥) الطبري: ١٨/١٤٢ (٦) الطبري: ١٨/١٤٤ (٧) فتح الباري: ٦/٢٢٧ ومسلم: ٣/١٣٨٣ (٨) تحفة الأحمدي: ٥/٣٣٤

وَمِنْ زَوْجَتِكَ هَذِهِ، لَا مِنْ غَيْرِهَا، ﴿هَيْنَ﴾ أَيَّ يَسِيرٍ سَهْلٍ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيَ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ ① ﴿خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ②

### [عَلَامَةُ الْحَمْلِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيَ ءَايَةً﴾ أَيَّ عَلَامَةٍ وَدَلِيلًا عَلَى وُجُودِ مَا وَعَدْتَنِي، لِيَسْتَقَرَّ نَفْسِي وَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي بِمَا وَعَدْتَنِي، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُخْرِجُ الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّطَمَئِنَّ قَلْبِي...﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠] ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ أَيَّ عَلَامَتِكَ ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أَيَّ أَنْ تَحْسِبَ لِسَانَكَ عَنِ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَأَنْتَ صَاحِبُ سَوِيٍّ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَوَهْبٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أُعْتِقِلَ لِسَانُهُ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ ③. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَانَ يَقْرَأُ وَيُسَبِّحُ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُكَلِّمَ قَوْمَهُ إِلَّا إِشَارَةً ④.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أَيَّ مُتَتَابِعَاتٍ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ عَنْهُ وَعَنِ الْجُمْهُورِ أَصَحُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيَ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَذَكَرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعِيِّ وَالْإِنْبَاءِ﴾ [آل عمران: ٤١] وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ وَأَيَّامِهَا إِلَّا رَمْرًا، أَيَّ إِشَارَةً، وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أَيَّ الَّذِي بُشِّرَ فِيهِ بِالْوَلَدِ ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أَيَّ أَشَارَ إِشَارَةً خَفِيَّةً سَرِيعةً ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أَيَّ مُوَافَقَةً لَهُ فِيمَا أُمِرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ زِيَادَةً عَلَى أَعْمَالِهِ، شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُ. قَالَ

وَالْمَلِكُ أَنَّ الْوَلَدَ يَرِثُ أَبَاهُ، فَلَوْلَا أَنَّهَا وَرَاثَةٌ خَاصَّةٌ لَمَا أَخْبَرَ بِهَا، وَكُلُّ هَذَا يُقَرَّرُهُ وَثَبْتُهُ مَا صَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نَوْرُثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ» ①.

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالٍ يَعْقُوبُ﴾ كَانَ وَرَاثَتُهُ عَلَمًا، وَكَانَ زَكَرِيَّا مِنْ ذُرِّيَّةِ يَعْقُوبَ ②. وَقَالَ هُشَيْمٌ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالٍ يَعْقُوبُ﴾ قَالَ: يَكُونُ نَبِيًّا كَمَا كَانَتْ أَبَاؤُهُ أَنْبِيَاءَ ③. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أَيَّ مَرْضِيًّا عِنْدَكَ وَعِنْدَ خَلْقِكَ، تُحِبُّهُ وَتُحِبُّهُ إِلَى خَلْقِكَ فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ.

﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ

### سَمِيًّا﴾ ④

### [قَبُولُ دُعَائِهِ]

هَذَا الْكَلَامُ يَنْصَبُّ مَحْذُوفًا، وَهُوَ أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ فِي دُعَائِهِ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ⑤ فَتَادَتِ الْمَلَكُوتُ وَهُوَ قَائِمٌ بِصَلَاتِهِ فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِحَيٍّ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَتِهِ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحْصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران: ٣٨، ٣٩] وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ: أَيَّ لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ قَبْلَهُ بِهَذَا الْإِسْمِ ⑥. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَجَمَهُ اللَّهُ.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ⑦ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑧

### [الْتَعَجُّبُ بَعْدَ قَبُولِ الدُّعَاءِ]

هَذَا تَعَجُّبٌ مِنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ وَبُشِّرَ بِالْوَلَدِ، فَفَرِحَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَسَأَلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَا يُوَلَّدُ لَهُ، وَالْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْهُ الْوَلَدُ، مَعَ أَنَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ عَاقِرًا لَمْ تَلِدْ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهَا، مَعَ كِبَرِهَا، وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَعَتَا، أَيَّ: عَسَا عَظُمَتْهُ وَنَحَلَ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ لِفَاحٌ وَلَا جِمَاعٌ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْعُودِ إِذَا يَبَسَ: عَتَا يَعْتُو عِتِيًّا وَغُتُوًّا، وَعَسَا يَعْسُو عُسُوًّا وَعَسِيًّا.

### [جَوَابُ الْمَلِكِ]

﴿قَالَ﴾ أَيَّ الْمَلِكِ مُجِيبًا لِّزَكَرِيَّا عَمَّا اسْتَعْجَلَ مِنْهُ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أَيَّ إِيجَادُ الْوَلَدِ مِنْكَ

(١) تحفة الأحوذى: ٢٣٤/٥ (٢) الطبري: ١٤٦/١٨ (٣)

الطبري: ١٤٦/١٨ (٤) الطبري: ١٤٨/١٨ (٥) الطبري:

١٥٢/١٨ (٦) الطبري: ١٥٢/١٨

مُجَاهِدٌ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ أَشَارَ<sup>(١)</sup>. وَبِهِ قَالَ وَهَبٌ وَفَتَادَةُ<sup>(٢)</sup>.

﴿يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًا<sup>(٣)</sup> وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا<sup>(٤)</sup> وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا<sup>(٥)</sup> وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا<sup>(٦)</sup>﴾

### [وِلَادَةُ الْغُلَامِ وَأَوْصَافُهُ]

وَهَذَا أَيْضًا تَصَمَّنٌ مَحذُوفًا، تَقْدِيرُهُ: أَنَّهُ وُجِدَ هَذَا الْغُلَامُ الْمُبَشَّرُ بِهِ وَهُوَ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْكِتَابَ، وَهُوَ التَّوَارَةُ الَّتِي كَانُوا يَتَدَارَسُونَهَا بَيْنَهُمْ، وَيَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ، وَقَدْ كَانَ سِتُّهُ إِذْ ذَاكَ صَغِيرًا، فَلِهَذَا تَوَّه بِذِكْرِهِ وَبِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدَيْهِ فَقَالَ: ﴿يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ﴾ أَيْ تَعْلَمُ الْكِتَابَ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أَيْ بِجِدِّ وَجُرْصٍ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أَيْ الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ، وَالْجِدَّ وَالْعَزَمَ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْإِكْبَابَ عَلَيْهِ، وَالْاجْتِهَادَ فِيهِ وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ يَقُولُ: وَرَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَفَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَزَادَ: لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُنَا، وَزَادَ فَتَادَةُ: رَحِمَ اللَّهُ بِهَا زَكْرِيَّا<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ وَتَعَطُّفًا مِّنْ رَبِّهِ عَلَيْهِ<sup>(٥)</sup>. وَالظَّاهِرُ مِّنَ السِّيَاقِ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿وَحَنَانًا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أَيْ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ وَحَنَانًا وَزَكَاةً، أَيْ وَجَعَلْنَاهُ ذَا حَنَانٍ وَزَكَاةٍ، فَالْحَنَانُ هُوَ الْمَحَبَّةُ فِي شَفَقَةٍ وَمِثْلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَزَكَاةً﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿وَحَنَانًا﴾ فَالزَّكَاةُ الطَّهَارَةُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْأَثَامِ وَالذُّنُوبِ. وَقَالَ فَتَادَةُ: الزَّكَاةُ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ الزَّكِيُّ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَزَكَاةً﴾ قَالَ: بَرَكَةً، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ طَهْرًا، فَلَمْ يَهَمْ بِذَنْبٍ<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَاعَتَهُ لِرَبِّهِ، وَأَنَّهُ خَلَقَهُ ذَا رَحْمَةٍ وَزَكَاةٍ وَتَقَى، عَطَفَ بِذِكْرِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ وَبَرِّهِ بِهِمَا، وَمُجَانِبَتِهِ عُقُوبَهُمَا قَوْلًا وَفِعْلًا، أَمْرًا وَنَهْيًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ جَزَاءً لَهُ عَلَى

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٣٦

سُورَةُ مَرْيَمَ

يَبْحَثُ خِذَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا<sup>(٣)</sup> وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا<sup>(٤)</sup> وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا<sup>(٥)</sup> وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا<sup>(٦)</sup> وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا<sup>(٧)</sup> فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا<sup>(٨)</sup> قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا<sup>(٩)</sup> قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا<sup>(١٠)</sup> قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِيَّ بِشَرٍّ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا<sup>(١١)</sup> قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا<sup>(١٢)</sup> فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا<sup>(١٣)</sup> فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا<sup>(١٤)</sup> فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا<sup>(١٥)</sup> وَهَزَىٰ إِلَيْكِ جِذْعَ النَّخْلَةِ فُسْقِطَ عَلَيْهِ رُطْبًا جَبِيًّا<sup>(١٦)</sup>

ذَلِكَ ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أَيْ لَهُ الْأَمَانُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ. وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: أَوْحَشُ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُولَدُ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَايِنَهُمْ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ عَظِيمٍ، قَالَ: فَأَكْرَمَ اللَّهُ فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَّا فَخَصَّهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مَنْصُورٍ الْمُرُوزِيِّ عَنْ صَدَقَةَ بْنِ الْفَضْلِ عَنْهُ

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا<sup>(٧)</sup> فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا<sup>(٨)</sup> قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا<sup>(٩)</sup> قَالَ

(١) الطبري: ١٥٣/١٨ (٢) الطبري: ١٥٤/١٨ (٣) الطبري:

١٥٦/١٨ (٤) الطبري: ١٥٦/١٨ (٥) الطبري: ١٥٦/١٨

(٦) الطبري: ١٥٩/١٨ (٧) الطبري: ١٥٩/١٨ (٨) الطبري:

١٥٩/١٨ والدر المنثور: ٤٨٦/٥

وَتَوَارَتْ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أَيَّ عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ تَامٍ كَامِلٍ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ، وَابْنُ جُرَيْجٍ، وَوَهْبُ بْنُ مُنْبِهِ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يَعْنِي جِبْرِائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(٢)</sup>. ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفْسًا﴾ أَيَّ لَمَّا تَبَدَّى لَهَا الْمَلَكُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ، وَهِيَ فِي مَكَانٍ مُتَفَرِّدٍ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْمِهَا حِجَابٌ، خَافَتْهُ وَطَنَّتْ أَنَّهُ يُرِيدُهَا عَلَى نَفْسِهَا، فَقَالَتْ: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفْسًا﴾ أَيَّ إِنْ كُنْتُ تَخَافُ اللَّهَ -تَذَكُّرًا لَهُ بِاللَّهِ-، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي الدَّفْعِ، أَنْ يَكُونَ بِالْأَسْهَلِ فَلَا أَسْهَلِ، فَخَوْفُهُ أَوْلَى بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَاصِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو وَائِلٍ - وَذَكَرَ قِصَّةَ مَرْيَمَ، فَقَالَ -: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ذُو نَهْيَةٍ حِينَ قَالَتْ: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفْسًا﴾ ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ أَيَّ فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ مُجِيبًا لَهَا، وَمُرِيًا لَمَّا حَصَلَ عِنْدَهَا؛ مِنَ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهَا: لَسْتُ بِمِمَّا تَظُنِّينَ، وَلَكِنِّي رَسُولُ رَبِّكَ، أَيَّ بَعَثَنِي اللَّهُ إِلَيْكَ<sup>(٣)</sup>. وَيُقَالُ: إِنَّهَا لَمَّا ذَكَرَتْ الرَّحْمَنَ انْتَفَضَ جِبْرِيلُ فَرَقًا وَعَادَ إِلَى هَيْئَتِهِ وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لِتَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ﴿٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ؟ أَيَّ عَلَى أَيِّ صِفَةٍ يُوجَدُ هَذَا الْغُلَامُ مِنِّي؟ وَلَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ، وَلَا يَتَصَوَّرُ مِنِّي الْفُجُورُ، وَلِهَذَا قَالَتْ: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ وَالْبَغِيُّ هِيَ الرَّاغِبَةُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ نَهْيٌ عَنْ مَهْرِ الْبَغِيِّ<sup>(٤)</sup>. ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ﴾ أَيَّ فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ مُجِيبًا لَهَا عَمَّا سَأَلَتْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَالَ: إِنَّهُ سَيُوجَدُ مِنْكَ غُلَامًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بَعْلٌ، وَلَا يُوجَدُ مِنْكَ فَاحِشَةٌ، فَإِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أَيَّ دَلَالَةً وَعَلَامَةً لِلنَّاسِ عَلَى قُدْرَةِ بَارئِهِمْ وَخَالِقِهِمْ الَّذِي نَوَّعَ فِي خَلْقِهِمْ، فَخَلَقَ أَبَاهُمْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ الذَّرِيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى إِلَّا عِيسَى، فَإِنَّهُ أُوْجَدَ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، فَكَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ،

إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَتْ أَمْرًا مُقَضًيًا ﴿١١﴾

### [قِصَّةُ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ زَكْرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ أُوْجَدَ مِنْهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ وَعَقْمٍ زَوْجِيَّةٍ وَلَدًا زَكِيًّا طَاهِرًا مُبَارَكًا، عَطَفَ بِذِكْرِ قِصَّةِ مَرْيَمَ فِي إِبْجَادِهِ وَلَدَهَا عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَإِنَّ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ مُنَاسَبَةٌ وَمُشَابَهَةٌ، وَلِهَذَا ذَكَرَهُمَا فِي آلِ عِمْرَانَ وَهَهُنَا، وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ يَقْرُنُ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ لِقَرَابٍ مَا بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى، لِيَذُلَّ عِبَادَةُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ، فَقَالَ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وَهِيَ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ مِنْ سُلَالَةِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَكَانَتْ مِنْ بَيْتِ طَاهِرٍ طَيِّبٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قِصَّةَ وَلَادَةِ أُمِّهَا لَهَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَأَنَّهَا نَذَرَتْهَا مُحَرَّرَةً، أَيَّ تَخْلِيْمَ مَسْجِدَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَكَانُوا يَتَقَرَّبُونَ بِذَلِكَ ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وَنَسَأَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نِسَاءً عَظِيمَةً، فَكَانَتْ إِحْدَى الْعَابِدَاتِ النَّاسِكَاتِ، الْمَشْهُورَاتِ بِالْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ، وَالتَّبَتُّلِ وَالذُّوْبِ، وَكَانَتْ فِي كِفَالَةِ زَوْجِ أُمِّهَا [وَقِيلَ: خَالَتُهَا] زَكْرِيَّا نَبِيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ ذَاكَ، وَعَظِيمِهِمُ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ، وَرَأَى لَهَا زَكْرِيَّا مِنَ الْكِرَامَاتِ الْهَائِلَةِ مَا بَهَّرَهُ ﴿لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِجْلًا قَالَ يَتِمُّنَ أَنَّ لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُرِزُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ شَيْءٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فَذَكَرَ: أَنَّهُ كَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا ثَمَرَ الشَّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَثَمَرَ الصَّيْفِ فِي الشَّتَاءِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، أَنْ يُوجَدَ مِنْهَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدَ الرُّسُلِ أُولِي الْعِزِّمِ الْحَسَنَةِ الْعِظَامِ ﴿أَنْبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أَيَّ اعْتَزَلَتْهُمْ وَتَنَحَّتْ عَنْهُمْ، وَذَهَبَتْ إِلَى شَرْفِيِّ الْمَسْجِدِ الْمُقَدَّسِ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنِّي لَأَعْلَمُ خَلْقَ اللَّهِ لِأَيِّ شَيْءٍ اتَّخَذَتْ النَّصَارَى الْمَشْرِقَ قِبْلَةً لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنْبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ وَاتَّخَذُوا مِيلَادَ عِيسَى قِبْلَةً<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أَيَّ اسْتَشْرَتْ مِنْهُمْ

(١) الطبري: ١٦٢/١٨ (٢) الطبري: ١٦٣/١٨ (٣) الطبري:

١٦٤/١٨ (٤) أحمد: ٢٣٥/١

فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أَيُّ وَنَجْعُلُ هَذَا الْغَلَامَ رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ: نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْجِيدِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ بِكِ يَكْتُمُ مِنَّا اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أَيُّ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ فِي مَهْدِهِ وَكُهْلَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ جَبْرِيلَ لِمَرْيَمَ، يُخْبِرُهَا أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مُقَدَّرٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أَيُّ إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَزَمَ عَلَى هَذَا فَلَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ<sup>(١)</sup>.

﴿فَحَمَلَتْهَا فَاتَّبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٦) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلْتَنِي مِثْلَ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا (٢٧)

#### [اِسْتِفْرَارُ الْحَمْلِ ثُمَّ الْوِلَادَةُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ أَنَّهَا لَمَّا قَالَ لَهَا جَبْرِيلُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى مَا قَالَ، أَنَّهَا اسْتَسَلَمَتْ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، فَذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ أَنَّ الْمَلَكَ وَهُوَ جَبْرِائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ نَفَخَ فِي جَنْبِ دِرْعِهَا، فَفَزَلَتْ النَّفْخَةُ حَتَّى وَلَجَتْ فِي الْفَرْجِ فَحَمَلَتْ بِالْوَلَدِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا حَمَلَتْ بِهِ وَمَلَأَتْ قُلُوبَهَا وَرَجَعَتْ، اسْتَمْسَكَ عَنْهَا الدَّمُ، وَأَصَابَهَا مَا يُصِيبُ الْحَامِلَ عَلَى الْوَلَدِ، مِنَ الْوَصَبِ وَالنَّوْخِ وَتَغْيِيرِ اللَّوْنِ، حَتَّى فَطَرَ لِسَانَهَا، فَمَا دَخَلَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ مَا دَخَلَ عَلَى آلِ زَكَرِيَّا، وَشَاعَ الْحَدِيثُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: إِنَّمَا صَاحِبُهَا يُوسُفُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا فِي الْكَنِيسَةِ غَيْرُهُ، وَتَوَارَتْ مِنَ النَّاسِ وَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَلَا يَرَاهَا أَحَدٌ وَلَا تَرَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ﴾ أَيُّ فَاضْطَرَّهَا وَأَلْجَأَهَا الطَّلُقَ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ شَرَفِيٍّ مَحْرَابُهَا الَّذِي تُصَلِّي فِيهِ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: ذَهَبَتْ هَارِيَّةً، فَلَمَّا كَانَتْ بَيْنَ الشَّامِ وَبِلَادِ مِصْرَ ضَرَبَهَا الطَّلُقُ<sup>(٣)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ وَهْبٍ: كَانَ ذَلِكَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ فِي قَرْيَةٍ هُنَاكَ يُقَالُ لَهَا: بَيْتُ لَحْمٍ<sup>(٤)</sup>. قُلْتُ: وَفِي أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ مِنْ رِوَايَةٍ

النِّسَائِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٥)</sup>، وَالْبَيْهَقِيِّ عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ ذَلِكَ بَيْتُ لَحْمٍ<sup>(٦)</sup>. فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَلَا يَشْكُ فِيهِ النَّصَارَى أَنَّهُ بَيْتُ لَحْمٍ، وَقَدْ تَلَقَّاهُ النَّاسُ، وَقَدْ وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ إِنْ صَحَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهَا: ﴿قَالَتْ يَلْتَنِي مِثْلَ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَنِّي الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتَبْتَلَى وَتُتَمَحَّنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ، وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرِهَا، وَبَعْدَ مَا كَانَتْ عَنْدهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً تُصْبِحُ عَنْدهُمْ فِيمَا يَطْنُونَ غَايِرَةً زَانِيَةً، فَقَالَتْ: ﴿يَلْتَنِي مِثْلَ قَبْلِ هَذَا﴾ أَيُّ قَبْلَ هَذَا الْحَالِ، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ أَيُّ لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ أَيُّ شَيْئًا لَا يُعْرَفُ وَلَا يُذَكَّرُ، وَلَا يُدْرَى مَنْ أَنَا.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢٨) وَهَرَيَ إِلَيْكِ بِجِئِجِ النَّخْلَةِ سَنُقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَبِيًّا (٢٩) فَكَلَى وَأَشْرَى وَقَرَى عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٣٠)

#### [مَا قِيلَ لَهَا بَعْدَ الْوِلَادَةِ]

قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (مَنْ تَحْتَهَا) بِمَعْنَى الَّذِي تَحْتَهَا، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ عَلَى أَنَّهُ حَرْفُ جَرٍّ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ الْعَوْفِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ جَبْرِيلُ<sup>(٨)</sup>. وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عِيسَى حَتَّى أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَعَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ: إِنَّهُ الْمَلَكُ جَبْرِائِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ<sup>(٩)</sup>. أَيُّ نَادَاهَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قَالَ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ ابْنُهَا. وَهُوَ إِحْدَى الرَّوَائِيْنِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّهُ ابْنُهَا، قَالَ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَلَمَّا شَارَتْ

(١) الطبري: ١٦٥/١٨ (٢) الطبري: ١٦١/١٨ (٣) الطبري:

١٧٠/١٨ (٤) الطبري: ١٧٠/١٨ (٥) النسائي في الكبرى:

٢٢١/١ (٦) دلائل النبوة: ٣٥٥/٢ (٧) الطبري: ١٧٢/١٨

(٨) الطبري: ١٧٣/١٨ (٩) الطبري: ١٧٣/١٨

إِلَيْهِ؟<sup>(١)</sup> وَاخْتَارَهُ ابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ أَيُّ نَادَاهَا قَائِلًا لَا تَحْزَنِي ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحِيَّكَ سَرِيًّا﴾ قَالَ سُبَيْانُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحِيَّكَ سَرِيًّا﴾ قَالَ: الْجَدُولُ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: السَّرِيُّ النَّهْرُ<sup>(٣)</sup>. وَبِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ: نَهْرٌ تُشْرِبُ مِنْهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ النَّهْرُ بِالشَّرْيَانِيَّةِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: السَّرِيُّ: النَّهْرُ الصَّغِيرُ بِالنَّبْطِيَّةِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: الْمُرَادُ بِالسَّرِيِّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ، وَهُوَ إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ عَنْ قَتَادَةَ، وَقَوْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ. وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَهَرَوَى إِلَيْكَ يَجِدُكَ الْخَلَّةُ﴾ أَيُّ وَخِذِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ الْخَلَّةِ. فَامْتَنَنَّ عَلَيْهَا بِأَنَّهُ جَعَلَ عِنْدَهَا طَعَامًا وَشَرَابًا فَقَالَ: ﴿سَتُحْفَظُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَيًّا﴾<sup>(٧)</sup> فَكُلِي وَاشْرَبِي وَفَرِي عَيْنًا أَيُّ طِيبِي نَفْسًا، وَلِهَذَا قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ: مَا مِنْ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلنَّفْسَاءِ مِنَ الثَّمَرِ وَالرُّطْبِ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أَيُّ مَهْمَا رَأَيْتَ مِنْ أَحَدٍ ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا الْقَوْلِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، لَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقَوْلُ اللَّفْظِيُّ لِئَلَّا يُتَافَى ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قَالَ: صَمَمْتُ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ<sup>(١٠)</sup>. وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا صَامُوا فِي شَرِيعَتِهِمْ يُحْرَمُ عَلَيْهِمُ الطَّعَامُ وَالْكَلَامُ. نَصَّ عَلَى ذَلِكَ السُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: لَمَّا قَالَ عَيْسَى لِمَرْيَمَ: ﴿لَا تَحْزَنِي﴾ قَالَتْ: وَكَيْفَ لَا أُحْزَنُ وَأَنْتَ مَعِيَ! لَا ذَاتُ زَوْجٍ وَلَا مَمْلُوكَةٌ، أَيُّ شَيْءٍ غُذِرِي عِنْدَ النَّاسِ؟ ﴿بَلَيَّتَنِي مِثْلَ قَبْلٍ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ قَالَ لَهَا عَيْسَى: أَنَا أَكْثَمُكَ الْكَلَامَ ﴿فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قَالَ: هَذَا كُلُّهُ مِنْ كَلَامِ عَيْسَى لِأُمِّهِ. وَكَذَا قَالَ وَهَبٌ.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً﴾ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا<sup>(١٢)</sup> يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا<sup>(١٣)</sup> فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا<sup>(١٤)</sup> قَالَ

سُورَةُ مَرْيَمَ ٣٠٧

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَفَرِي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا<sup>(١٥)</sup> فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا<sup>(١٦)</sup> يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا<sup>(١٧)</sup> فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا<sup>(١٨)</sup> قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا<sup>(١٩)</sup> وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا<sup>(٢٠)</sup> وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا<sup>(٢١)</sup> وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا<sup>(٢٢)</sup> ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ<sup>(٢٣)</sup> مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ<sup>(٢٤)</sup> وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ<sup>(٢٥)</sup> فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ<sup>(٢٦)</sup> أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ<sup>(٢٧)</sup>

إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا<sup>(٢٨)</sup> وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا<sup>(٢٩)</sup> وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا<sup>(٣٠)</sup> وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا<sup>(٣١)</sup>

[مَرْيَمُ مَعَ الْمَسِيحِ أَمَامَ الْقَوْمِ وَنَكِيرُهُمْ عَلَيْهَا وَرَدُّ الْمَسِيحِ عَلَيْهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ حِينَ أُمِرَتْ أَنْ تَصُومَ يَوْمَهَا ذَلِكَ، وَأَنْ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ، فَإِنَّهَا سَتُكَلِّمُ أَمْرَهَا وَيُقَامُ بِحُجَّتِهَا، فَسَلِّمَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَسَلِمَتْ لِقَضَائِهِ، فَأَخَذَتْ وَلَدَهَا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، فَلَمَّا رَأَوْهَا كَذَلِكَ أَعْظَمُوا أَمْرَهَا وَاسْتَنْكَرُوهُ جِدًّا، وَ﴿قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ

(١) الطبري: ١٧٥/١٨ (٢) الطبري: ١٧٦/١٨ (٣) الطبري:

١٧٦/١٨ (٤) الطبري: ١٧٦/١٨ (٥) الطبري: ١٧٦/١٨

(٦) الطبري: ١٧٩/١٨ (٧) الطبري: ١٨٣، ١٨٢/١٨ (٨)

الطبري: ١٨٣، ١٨٢/١٨ (٩) الطبري: ١٨٣/١٨ والقرطبي:

مَا قَالُوا، كَانَ يَرْتَضِعُ لَدَيْهِ، فَتَرَاعَ النَّذْيَ مِنْ فَمِهِ، وَاتَّكَأَ عَلَى جَنْبِهِ الْأَيْسَرِ وَقَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَمْرُو بْنُ قَيْسٍ وَالثَّوْرِيُّ: وَجَعَلَنِي مُعَلِّمًا لِلْخَيْرِ<sup>(٥)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: نَفَاعًا<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ وَهْبِ ابْنِ الْوُرْدِ مَوْلَى بَنِي مَخْزُومٍ قَالَ: لَقِيَ عَالِمٌ عَالِمًا هُوَ فَوْقَهُ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ مَا الَّذِي أَعْلَمُ مِنْ عَمَلِي؟ قَالَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّهُ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ إِلَى عِبَادِهِ. وَقَدْ أَجْمَعَ(\*) الْمُفَقَّهَاءُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وَقِيلَ: مَا بَرَكْتُهُ؟ قَالَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ أَيْنَمَا كَانَ<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قَالَ: أَخْبَرَهُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَمُوتَ، مَا أَثْبَتَهَا لِأَهْلِ الْقَدْرِ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْ﴾ أَيْ وَأَمْرَنِي بِبِرِّ وَالِدَتِي، ذَكَرَهُ بَعْدَ طَاعَةِ اللَّهِ رَبِّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَاءَهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وَقَالَ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [القمان: ١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَبِرٍّ وَالِدَتِي، فَأَشَقَىٰ بِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ إِبْنَاتٌ مِنْهُ لِعِبَادَتِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، يَحْيَى وَيَمُوتُ، وَيُبْعَثُ كَسَائِرِ الْخَلَائِقِ، وَلَكِنْ لَهُ السَّلَامَةُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَشَقُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

جَنِبَ شَيْئًا فَرِيًّا، أَيْ أَمْرًا عَظِيمًا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبِيدُ بْنُ وَحِيدٍ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ نَوْفِ الْبِكَالِيِّ قَالَ: وَخَرَجَ قَوْمُهَا فِي طَلَبِهَا، قَالَ: وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نُبُوَّةٍ وَشَرَفٍ، فَلَمْ يُحْسُوا مِنْهَا شَيْئًا، فَلَقُوا رَاعِيًا بَقَرٍ فَقَالُوا: رَأَيْتَ فَنَاءَ كَذَا وَكَذَا نَعْتُهَا؟ قَالَ: لَا وَلَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ مِنْ بَقَرِي مَا لَمْ أَرَهُ مِنْهَا قَطُّ، قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُهَا اللَّيْلَةَ تَسْجُدُ نَحْوَ هَذَا الْوَادِي.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَبَادٍ: وَأَحْفَظُ عَنْ سَيَّارٍ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ نُورًا سَاطِعًا، فَتَوَجَّهْتُ حَيْثُ قَالَ لَهُمْ، فَاسْتَقْبَلْتُهُمْ مَرِيَمَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ فَعَدْتُ وَحَمَلْتُ ابْنَهَا فِي حَجْرِهَا، فَجَاوَرُوا حَتَّى قَامُوا عَلَيْهَا ﴿قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جَنِبَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أَمْرًا عَظِيمًا ﴿يَتَأَخَذُ هَرُونَ﴾ أَيْ يَا شَيْبَةَ هَارُونَ فِي الْعِبَادَةِ ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ أَيْ أَنْتَ مِنْ بَيْتِ طَيِّبٍ طَاهِرٍ مَعْرُوفٍ بِالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ وَالزَّهَادَةِ، فَكَيْفَ صَدَرَ هَذَا مِنْكَ؟ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالسُّدِّيُّ: قِيلَ لَهَا: ﴿يَتَأَخَذُ هَرُونَ﴾ أَيْ أَخِي مُوسَى، وَكَانَتْ مِنْ نَسْلِهِ كَمَا يُقَالُ لِلنَّمِيمِيِّ: يَا أَخَا تَيْمِمْ، وَلِلْمُضَرِّي يَا أَخَا مُضَرٍّ<sup>(٢)</sup>. وَقِيلَ: نُسِبَتْ إِلَى رَجُلٍ صَالِحٍ كَانَ فِيهِمْ اسْمُهُ هَارُونَ، فَكَانَتْ تَقَاسِمُ بِهِ فِي الزَّهَادَةِ وَالْعِبَادَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أَيْ إِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَرَبَوْا فِي أَمْرِهَا وَاسْتَنْكَرُوا قَصَصَتِهَا، وَقَالُوا لَهَا مَا قَالُوا مُعْرِضِينَ بِقَدْفِهَا وَرَمِيهَا بِالْفِرْيَةِ، وَقَدْ كَانَتْ يَوْمَهَا ذَلِكَ صَائِمَةً صَامِتَةً، فَأَحَالَتْ الْكَلَامَ عَلَيْهِ، وَأَشَارَتْ لَهُمْ إِلَى خِطَابِهِ وَكَلَامِهِ، فَقَالُوا مُتَهَكِّمِينَ بِهَا ظَانِينَ أَنَّهَا تَزِدُّرِي بِهِمْ وَتَلْعَبُ بِهِمْ ﴿كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ قَالَتْ: كَلَّمُوهُ، فَقَالُوا: عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الدَّاهِيَةِ تَأْمُرُنَا أَنْ نُكَلِّمَ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟<sup>(٣)</sup> وَقَالَ السُّدِّيُّ لَمَّا أَشَارَتْ إِلَيْهِ غَضِبُوا، وَقَالُوا: لَسْخَرِيَّتُهَا بِنَا - حَتَّى تَأْمُرَنَا أَنْ نُكَلِّمَ هَذَا الصَّبِيَّ - أَشَدُّ عَلَيْنَا مِنْ زَنَاها ﴿قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟﴾<sup>(٤)</sup> أَيْ مَنْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي مَهْدِهِ فِي حَالِ صِبَاهٍ وَصِغَرِهِ، كَيْفَ يَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ نَزَّ جَنَابَ رَبِّهِ تَعَالَى، وَبَرَّاهُ عَنِ الْوَلَدِ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْعِبُودِيَّةَ لِرَبِّهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تَبَرُّتُهُ لِأُمِّهِ مِمَّا نُسِبَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ. قَالَ نَوْفُ الْبِكَالِيِّ: لَمَّا قَالُوا لِأُمِّهِ

(١) الطبري: ١٨٥/١٨ (٢) الطبري: ١٨٧/١٨ (٣) الدر المنثور: ٥٠٨/٥ (٤) الطبري: ١٨٩/١٨ (٥) الطبري: ١٨/١٨٩ (٦) الطبري: ١٩١/١٨ (\*) قوله سابقاً "أعلن من عملي" وهنا: "أجمع". كذا وقع عندنا أما في المطبوع من الطبري: فعنده: علمي... واجتمع (٧) الطبري: ١٩١/١٨ (٨) القرطبي: ١٠٣/١١

الَّذِي أَرْشَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ  
عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ  
وَالْخَلَفِ.

وقوله: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديد  
ووعيد شديد لمن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَافْتَرَى، وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ  
وَلَدًا، وَلَكِنْ أَنْظَرَهُمْ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَجَلَهُمْ،  
جَلْمًا وَثِقَةً بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ الَّذِي لَا يُعْجَلُ عَلَى مَنْ  
عَصَاهُ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ اللَّهَ لَكُمْلِي لِلطَّالِمِ  
حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ  
أَخَذَ رَبِّي إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَى وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾  
[هود: ١٠٢] (٢). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ، مِنْ اللَّهِ، إِنْهُمْ  
يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» (٣) وَقَدْ قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قُرْبَى أَمَلَيْتُ هَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ لَمَّا أَخَذَتْهَا  
وَلَّى الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ  
غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ  
الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا  
مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ  
الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا  
اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ  
عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحُ  
مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا  
كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» (٤).

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ  
مُبِينٍ﴾ (٥) وَأَلْزَمَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا  
يُؤْمِنُونَ (٦) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧)  
[إِنْذَارُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنَّهُمْ  
يَكُونُونَ أَسْمَعَ شَيْءٍ وَأَبْصَرُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى  
إِذِ الْمُرْسَلُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا  
وَسَمِعْنَا... الْآيَةَ [السجدة: ١٢]، أَيُّ يَقُولُونَ ذَلِكَ حِينَ  
لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ هَذَا قَبْلَ مُعَايِنَةِ

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٨) مَا  
كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَنْجِدَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَصَحَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ  
فَيَكُونُ (٩) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (١٠)  
فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ  
(١١)

[عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَلَيْسَ بَوْلَدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ:  
﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْ خَبَرِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
(قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) أَيُّ يَخْتَلِفُ الْمُبْتَطِلُونَ  
وَالْمُحِقُّونَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَكَفَرَ بِهِ، وَلِهَذَا قَرَأَ الْأَكْثَرُونَ:  
(قَوْلُ الْحَقِّ) بِرَفْعِ قَوْلٍ، وَقَرَأَ غَاصِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ  
﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَ: (ذَلِكَ عِيسَى  
ابْنُ مَرْيَمَ قَالَ الْحَقُّ) (١٢). وَالرَّفْعُ أَظْهَرُ إِعْرَابًا، وَيَشْهَدُ لَهُ  
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]  
وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى: أَنَّهُ خَلَقَهُ عَبْدًا نَبِيًّا نَزَّهَ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ  
فَقَالَ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَنْجِدَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ أَيُّ عَمَّا يَقُولُ  
هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلوًّا كَبِيرًا ﴿إِذَا فَصَحَ  
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَيُّ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ  
فَيَصِيرُ كَمَا يَشَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ  
كَكَتِلَ آدَمُ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٣) الْحَقُّ مِنْ  
رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

[أَمَرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوْحِيدِ ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ  
بَعْدَهُ]

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾  
أَيُّ وَمِمَّا أَمَرَ بِهِ عِيسَى قَوْمَهُ وَهُوَ فِي مَهَلِهِ أَنْ أَخْبَرَهُمْ إِذْ  
ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ، فَقَالَ: ﴿فَاعْبُدُوهُ  
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ عَنِ اللَّهِ  
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، أَيُّ قَوْمٍ، مَنْ اتَّبَعَهُ رَشَدٌ وَهُدًى، وَمَنْ  
خَالَفَهُ ضَلَّ وَغَوَى. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أَيُّ  
اختلف أقوال أهل الكتاب في عِيسَى بَعْدَ بَيَانِ أَمْرِهِ  
وَوُضُوحِ حَالِهِ، وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى  
مَرْيَمَ وَرُوحُ مِنْهُ، فَصَمَّمَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَهُمْ جُمْهُورُ  
الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ - عَلَى أَنَّهُ وَلَدٌ زَنِيَّةٍ، وَقَالُوا:  
كَلَامُهُ هَذَا سِحْرٌ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: إِنَّمَا تَكَلَّمَ اللَّهُ.  
وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ ابْنُ اللَّهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.  
وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الْحَقِّ

(١) الطبري: ١٨/١٩٤ (٢) فتح الباري: ٨/٢٠٥ ومسلم: ٤/١٩٩٧ (٣) فتح الباري: ١٠/٥٢٧ ومسلم: ٤/٢١٦٠ (٤) فتح  
الباري: ٦/٥٤٦ ومسلم: ١/٥٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٨

سُورَةُ مَرْيَمَ

وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَأْتِ بِ إِيَّيَ قَدْ جَاءَ مِنْ مِ الْإِلَهِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَأْتِ بِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَأْتِ بِ إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ الْهِتَى يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعِزَّنِي لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا آعَزَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾

ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حَزْمِ بْنِ أَبِي حَزْمٍ الْقَطْعِيِّ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ صَاحِبِ الْكُوفَةِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى خَلْقِهِ - جِبْرِ خَلْقَهُمْ - الْمَوْتَ، فَجَعَلَ مَصِيرَهُمْ إِلَيْهِ، وَقَالَ فِيمَا أُنْزِلَ فِي كِتَابِهِ الصَّادِقِ الَّذِي حَفِظَهُ بِعِلْمِهِ وَأَشْهَدَ مَا يَكُنْهُ عَلَى حِفْظِهِ: إِنَّهُ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ<sup>(١)</sup>.

﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَأْتِ بِ إِيَّيَ قَدْ جَاءَ مِنْ مِ الْإِلَهِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَأْتِ بِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَأْتِ بِ إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

الْعَذَابِ لَكَانَ نَافِعًا لَهُمْ وَمُنْقِذًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿اتَّبِعْ بَيْنَ وَأَبْصِرْ﴾ أَيَّ مَا أَسْمَعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أَيَّ فِي الدُّنْيَا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيَّ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ، فَحَيْثُ يُطْلَبُ مِنْهُمْ الْهُدَى لَا يَهْتَدُونَ وَيَكُونُونَ مُطِيعِينَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أَيَّ أَنذَرِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَيَّ فُصِّلَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَصَارَ كُلُّ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مُخْلَدًا فِيهِ، ﴿وَهُمْ﴾ أَيَّ الْيَوْمَ ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عَمَّا أُنْذِرُوا بِهِ، يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالتَّوَدَّاعِ ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيَّ لَا يَصْدُقُونَ بِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، يُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَسْرَتُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَسْرَتُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُدْبَحُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَأَشَارَ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَهْلُ الدُّنْيَا فِي غَفْلَةٍ الدُّنْيَا»<sup>(٢)</sup> هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَقَدْ خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا<sup>(٣)</sup> وَلَفْظُهُمَا قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَّةِ ذِكْرَهَا، قَالَ: فَلَيْسَ نَفْسٌ إِلَّا وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى بَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ وَبَيْتٍ فِي النَّارِ، وَهُوَ يَوْمَ الْحَسْرَةِ، فَيَرَى أَهْلُ النَّارِ النَّبْتَ الَّذِي لَكَانَ قَدْ أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ لَوْ آمَنُوا، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَوْ آمَنْتُمْ وَعَمِلْتُمْ صَالِحًا، كَانَ لَكُمْ هَذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ فِي الْجَنَّةِ [فَتَأْخُذُهُمُ الْحَسْرَةُ، قَالَ: وَيَرَى أَهْلُ الْجَنَّةِ النَّبْتَ الَّذِي فِي النَّارِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ مَنَّ عَلَيْكُمْ... (٣) وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ يَهْلِكُونَ وَيَبْقَى هُوَ تَعَالَى وَتَقْدَسُ، وَلَا أَحَدٌ يَدْعِي مُلْكًا وَلَا تَصَرُّفًا، بَلْ هُوَ الْوَارِثُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ الْبَاقِي بَعْدَهُمْ الْحَاكِمُ فِيهِمْ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. رَوَى

(١) أحمد: ٩/٣ (٢) فتح الباري: ٢٨٢/٨ ومسلم: ٤/٢١٨٨ (٣) الطبري: ٣٤٤/٨ (٤) ابن أبي حاتم: ٢٤١٠/٧

## [وَعَظَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَذَكِّرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(١)</sup> وَاتْلُ عَلَى قَوْمِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَادْكُرْ لَهُمْ مَا كَانَ مِنْ خَيْرِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ. الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَيَدْعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّتِهِ، وَقَدْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا مَعَ أَبِيهِ، كَيْفَ نَهَا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ فَقَالَ: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا؟ أَيْ لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَنْقُذُكَ مِنْ ضَرَرٍ﴾<sup>(٢)</sup> يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾<sup>(٣)</sup> يَقُولُ: وَإِنْ كُنْتُ مِنْ صُلْبِكَ وَتَرَانِي أَصْغَرَ مِنْكَ لِأَنِّي وَلَدُكَ، فَاعْلَمْ أَنِّي قَدْ أَطْلَعْتُ مِنَ الْعِلْمِ مِنَ اللَّهِ عَلَى مَا لَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ، وَ لَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ وَلَا جَاءَكَ﴾<sup>(٤)</sup> فَأَنْبَغِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾<sup>(٥)</sup> أَيْ طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا مُوصِلًا إِلَى نَبْلِ الْمَطْلُوبِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْمَرْهُوبِ. ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾<sup>(٦)</sup> أَيْ لَا تُطِيعْ فِي عِبَادَتِكَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ، فَإِنَّهُ هُوَ الدَّاعِي إِلَى ذَلِكَ وَالرَّاضِي بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَتَبَيِّ أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] وَقَالَ: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْنَا لِنَرْثَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾<sup>(٧)</sup> أَيْ مُخَالَفًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، فَطَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ، فَلَا تَتَّبِعْهُ تَصِرْ مِثْلَهُ ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾<sup>(٨)</sup> أَيْ عَلَى شِرْكِكَ، وَعِصْيَانِكَ لِمَا أَمَرُكَ بِهِ ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾<sup>(٩)</sup> يَعْنِي فَلَا يَكُونُ لَكَ مَوْلَى وَلَا نَاصِرًا وَلَا مُغِيثًا إِلَّا إِبْلِيسُ، وَلَيْسَ إِلَهٌ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلِ اتَّبَاعُكَ لَهُ مُوجِبٌ لِحَاطَةِ الْعَذَابِ بِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثَالِثًا لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْلَاهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرِهُمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْحَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مِيلًا﴾<sup>(١٠)</sup> قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رِيقٌ إِنَّهُ كَانَتْ بِي حَقِيًّا﴾<sup>(١١)</sup> وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾<sup>(١٢)</sup>

## [جَوَابُ وَالِدِ إِبْرَاهِيمَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ لَوْلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرِهُمُ﴾<sup>(١٣)</sup> يَعْنِي إِنْ كُنْتُ لَا تُرِيدُ عِبَادَتَهَا وَلَا تَرْضَاهَا، فَأَنْتَ عَنْ سَبِّهَا وَسْتُمُوهَا وَعَيْبِهَا، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَنْتَهَ عَنْ ذَلِكَ اقْتَصَصْتُ مِنْكَ

وَسَتَمُتَكَ وَسَبَبْتُكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَأَرْحَمَنَّكَ﴾<sup>(١٤)</sup>. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّدْيِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَهْجُرَنِي مِيلًا﴾<sup>(١٦)</sup> قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: يَعْنِي ذَهْرًا<sup>(١٧)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: زَمَانًا طَوِيلًا<sup>(١٨)</sup>. وَقَالَ الشَّدْيِيُّ ﴿وَأَهْجُرَنِي مِيلًا﴾<sup>(١٩)</sup> قَالَ: أَبَدًا<sup>(٢٠)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَهْجُرَنِي مِيلًا﴾<sup>(٢١)</sup> قَالَ: سَوِيًّا سَالِمًا قَبْلَ أَنْ تُصِيبَكَ مِنِّي عُقُوبَةٌ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْجَدَلِيُّ، وَمَالِكٌ وَغَيْرُهُمْ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ.

## [جَوَابُ خَلِيلِ اللَّهِ]

فَعِنْدَهَا قَالَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾<sup>(٢٢)</sup> كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾<sup>(٢٣)</sup> وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] وَمَعْنَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾<sup>(٢٤)</sup> يَعْنِي أَمَا أَنَا فَلَا يَذَلُّكَ مِنِّي مَكْرُوهٌ وَلَا أَدَى، وَذَلِكَ لِحُرْمَةِ الْأُبُوءَةِ ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رِيقٌ﴾<sup>(٢٥)</sup> وَلَكِنْ سَأَسْأَلُ اللَّهَ فِيكَ أَنْ يَهْدِيكَ وَيَغْفِرَ ذَنْبَكَ ﴿إِنَّهُ كَانَتْ بِي حَقِيًّا﴾<sup>(٢٦)</sup> قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: لَطِيفًا<sup>(٢٧)</sup>. أَيْ فِيَّ، أَنْ هَدَانِي لِعِبَادَتِهِ وَإِلِخْلَاصِ لَهُ.

وَقَالَ الشَّدْيِيُّ: الْحَقِيُّ الَّذِي يَهْتَمُّ بِأَمْرِهِ، وَقَدْ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لِأَبِيهِ مَدَّةَ طَوِيلَةٍ وَبَعْدَ أَنْ هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ، وَبَنَى الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَبَعْدَ أَنْ وُلِدَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] وَقَدْ اسْتَغْفَرَ الْمُسْلِمُونَ لِقَرَابَاتِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ اقْتِدَاءً بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي ذَلِكَ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾<sup>(٢٨)</sup> إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(٢٩)</sup> الْآيَةِ [المتحنة: ٤]، يَعْنِي إِلَّا فِي هَذَا الْقَوْلِ، فَلَا تَتَأَسَّوْا بِهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَفْلَحَ عَنْ ذَلِكَ وَرَجَعَ

(١) الطبري: ٢٠٥/١٨ (٢) الطبري: ٢٠٦، ٢٠٥/١٨ (٣)

الطبري: ٢٠٥/١٨ (٤) الطبري: ٢٠٦/١٨ (٥) الطبري: ٢٠٧/١٨

الحِجَابُ الْمَرْفُوعُ

٣٠٩

سُورَةُ مَرْيَمَ

وَنَدَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَمْنِيِّ وَفَرَّغَتْهُ نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا آخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٢﴾ وَادَّكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَكَانَ بِأَمْرِ أَهْلِهِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٤﴾ وَادَّكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٥﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ ءَابَتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٦٥﴾ وَنَدَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَمْنِيِّ وَفَرَّغَتْهُ نَبِيًّا ﴿٦٦﴾ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا آخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٦٧﴾﴾

[ذِكْرُ مُوسَى وَهَارُونَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ وَأَنْتَى عَلَيْهِ، عَطَفَ بِذِكْرِ الْكَلِيمِ، فَقَالَ: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ (مُخْلَصًا)﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفْعٍ، عَنْ أَبِي لُبَابَةَ قَالَ: قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: يَا رُوحَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا عَنْ الْمُخْلَصِ لِلَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي يَفْعَلُ لِلَّهِ لَا يُجِبُّ أَنْ يَحْمَدَهُ النَّاسُ. وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِفَتْحِهَا بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ مُضْطَقًّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَصْطَلَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ الْوُضْعَيْنِ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْكِبَارِ أُولِي الْعِزِّ الْخَمْسَةِ، وَهُمْ: نُوحٌ

عَنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالْزَيْتِ ءَامِنًا أَنْ يَسْتَقْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَا كَانِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ [التوبة: ١١٣، ١١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: أَجَبْتِكُمْ وَأَتَبَرَّأُ مِنْكُمْ وَمِنْ إِلَهَيْكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَادْعُوا رَبِّي﴾ أَيُّ: وَأَعْبُدْ رَبِّي وَخُذْ لَاشْرِيكَ لَهُ ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وَعَسَىٰ هَذِهِ مُوجِبَةٌ لَا مَحَالَةَ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

﴿فَلَمَّا أَغْرَضَهُمْ وَمَا يَحْدَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٦٨﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾

[وَهَبُ اللَّهِ لِبَرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَلَمَّا اغْتَرَلَ الْخَلِيلُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ فِي اللَّهِ، أَبْدَلَهُ اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَوَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ - يَعْنِي ابْنَهُ وَابْنَ إِسْحَاقَ - كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ وَقَالَ: ﴿وَمِنْ ذَٰلِكَ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ﴾ وَلَا خِلَافَ أَنَّ إِسْحَاقَ وَالِدَ يَعْقُوبَ، وَهُوَ نَصُّ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مَا تُعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَاتَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وَلِهَذَا إِنَّمَا ذَكَرَ هَهُنَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، أَنِّي جَعَلْنَا لَهُ نَسْلًا وَعَقِبًا أَنْبِيَاءَ، أَقَرَّ اللَّهُ بِهِمْ عَيْنَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَلا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ نَبِيٌّ فِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ، لَمَا افْتَصَرَ عَلَيْهِ وَلَذِكْرٌ وَلَهُدَا يَوْشَعَ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ أَيْضًا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ حِينَ سُئِلَ عَنْ خَيْرِ النَّاسِ، فَقَالَ: «يُوشَعَ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ يَعْقُوبَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إِسْحَاقَ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

وَفِي اللَّفْظِ الْآخَرِ: «إِنَّ الْكَرِيمَ بْنَ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ يُوشَعَ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الشَّاءَ الْحَسَنَ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّمَا قَالَ: ﴿عَلِيًّا﴾ لِأَنَّ جَمِيعَ الْمَلِكِ وَالْأَدْيَانِ يُثْنُونَ عَلَيْهِمْ وَيَمْدَحُونَهُمْ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح الباري: ٢١٢/٨ (٢) فتح الباري: ٢١٢/٨ (٣) الطبري: ٢٠٨/١٨ (٤) الطبري: ٢٠٨/١٨

أَتْنَى عَلَى أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ زَوْجِ ابْنَتِهِ زَيْنَبَ، فَقَالَ: «حَدَّثَنِي فَصَّدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي»<sup>(٣)</sup>. وَلَمَّا تَوَفَّى النَّبِيُّ ﷺ قَالَ الْخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَّةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنِي أَنْجِزْ لَهُ، فَجَاءَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطِيتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» يَعْنِي مِلءَ كَفِّهِ، فَلَمَّا جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَمَرَ الصِّدِّيقُ جَابِرًا فَعَرَفَ بِدَيْهِ مِنَ الْمَالِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بَعْدَهُ، فَإِذَا هُوَ خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ فَأَعْطَاهُ مِثْلَيْهَا مَعَهَا<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» فِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى شَرَفِ إِسْمَاعِيلَ عَلَى أَخِيهِ إِسْحَاقَ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا وُصِفَ بِالنُّبُوَّةِ فَقَطْ، وَإِسْمَاعِيلُ وُصِفَ بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ»... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ<sup>(٥)</sup>. فَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا. وَقَوْلُهُ: «وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا» هَذَا أَيْضًا مِنَ الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ وَالصِّفَةِ الْحَمِيدَةِ، وَالْخَلَّةِ السَّيِّدَةِ، حَيْثُ كَانَ مُتَابِرًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَمْرًا بِهَا لِأَهْلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا»... الْآيَةُ [طه: ١٣٢]، وَقَالَ: «يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوًّا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَصْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» [التحریم: ٦] أَيْ مُرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْتَهُوهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا تَدْعُوهُمْ هَمَلًا، فَتَأْتِيهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَقْبَضَ أَمْرَاتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَجِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَقْبَضَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِ الْمَاءَ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٦)</sup>.

«وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِيمًا كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا» ﴿٥٦﴾ وَرَفَعَنَّهُ مَكَانًا

عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

وإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ أَجْمَعِينَ.

وَقَوْلُهُ: «وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ» أَيِ الْجَبَلِ ﴿الْأَيْمَنِ﴾ مِنْ مُوسَى حِينَ ذَهَبَ يَتَّبِعِي مِنْ تِلْكَ النَّارِ جَذْوَةً قَرَأَهَا تَلُوحٌ، فَقَصَّدَهَا فَوَجَدَهَا فِي جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ مِنْهُ، غَرْبِيَّةً، عِنْدَ شَاطِئِ الْوَادِي، فَكَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَادَاهُ وَقَرَّبَهُ فَنَاجَاهُ. وَقَوْلُهُ: «وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا» أَيْ وَأَجَبْنَا سُؤَالَهِ وَشَفَاعَتُهُ فِي أَخِيهِ، فَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» [القصص: ٣٤] وَقَالَ: «قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى» وَقَالَ: «فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ» ﴿٣٥﴾ وَلَمْ يَكُنْ دُئِبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّالِفِ: مَا شَفَعَ أَحَدٌ فِي أَحَدٍ شَفَاعَةً فِي الدُّنْيَا أَعْظَمَ مِنْ شَفَاعَةِ مُوسَى فِي هَارُونَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا».

«وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» ﴿٥٥﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا

﴿٥٥﴾

[ذِكْرُ إِسْمَاعِيلَ]

هَذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَهُوَ وَالِدُ عَرَبِ الْحِجَازِ كُلِّهِمْ بِأَنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: لَمْ يَعِدْ رَبَّهُ عِدَّةً إِلَّا أَنْجَزَهَا<sup>(١)</sup>. يَعْنِي مَا اتَّزَمَ عِبَادَةً قَطْ بِتَنْدِيرٍ إِلَّا قَامَ بِهَا وَوَفَّاهَا حَقَّهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا قِيلَ لَهُ: «صَادِقَ الْوَعْدِ» لِأَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ: «سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ» [الصفات: ١٠٢] فَصَدَّقَ فِي ذَلِكَ، فَصَدَّقُ الْوَعْدِ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، كَمَا أَنَّ خُلُقَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ» ﴿١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» [الصف: ٣، ٢] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»<sup>(٢)</sup>. وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ، كَانَ التَّلَبُّسُ بِضِدِّهَا مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا أَتْنَى اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ إِسْمَاعِيلَ بِصِدْقِ الْوَعْدِ، وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَادِقَ الْوَعْدِ أَيْضًا، لَا يَعِدُ أَحَدًا شَيْئًا إِلَّا وَفَّى لَهُ بِهِ، وَقَدْ

(١) الطبري: ٢١١/١٨ (٢) البخاري: ٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩،

٦٠٩٥ (٣) فتح الباري: ٣٨٠/٥ (٤) فتح الباري: ٥٥٤/٤

(٥) مسلم: ١٧٨٢/٤ (٦) أبو داود: ٧٣/٢ وابن ماجه: ١/

وَمِمَّا يُؤْتِيهِ أَنْ الْمُرَادُ بِهِذِهِ الْآيَةِ جُنُسُ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَكَ حُجَّتًا مِّنْهُمَا عَلَيْهِمُ ۝٨٣﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَكَرْنَا يُحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ كُلًّا مِّن الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ مُّقْتَدَةً﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ فَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ

كَانُوا لَا مَحَالَةَ، وَقَوْلُهُ هَهُنَا: ﴿مَائِيًا﴾ أَيُّ الْعِبَادُ صَائِرُونَ إِلَيْهِ وَسَيَأْتُونَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿مَائِيًا﴾ بِمَعْنَى آتِيَا، لِأَنَّ كُلَّ مَا آتَاكَ فَقَدْ أَتَيْتُهُ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: أَتَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ سَنَةً، وَأَتَيْتُ عَلَى خَمْسِينَ سَنَةً، كِلَاهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أَيُّ هَذِهِ الْجَنَّاتُ لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ سَاقِطٌ تَافَهُ، لَا مَعْنَى لَهُ، كَمَا قَدْ بُوْجِدَ فِي الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ إِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (١٥) إِلَّا فَيْلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: ٢٦، ٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾ أَيُّ فِي مِثْلِ وَقْتِ الْبُكْرَاتِ وَوَقْتِ الْعَشِيَّاتِ، لَا أَنَّ هُنَاكَ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَلَكِنَّهُمْ فِي أَوْقَاتِ تَتَعَاقَبُ، يَعْرِفُونَ مُضِيِّهَا بِأَصْوَاءِ وَأَنْوَارٍ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ رِزْقِي تَلَجُّ الْجَنَّةِ، صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، أَيْتُهُمْ وَأَمْسَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مِخٌّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، فُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًا» (٧). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٨).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهَرٍ يَبَاقُ الْجَنَّةُ فِي قَبِّهِ خَضِرَاءُ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًا». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾ قَالَ: مُقَادِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أَيُّ هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَصَفْنَا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ، هِيَ الَّتِي نُورِثُهَا عِبَادَنَا الْمُتَّقِينَ، وَهُمْ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْكَاطِمُونَ الْغَيْظَ، وَالْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) إِلَى أَنْ قَالَ:

(١) الطبري: ٢١٦/١٨ (٢) الطبري: ٢١٦/١٨ (٣) الطبري: ٢١٨/١٨

(٤) الطبري: ٢١٨/١٨ (٥) الطبري: ٢١٨/١٨

(٦) ابن ماجه: ١٤٢٠/٢ (٧) أحمد: ٣١٦/٢ (٨) فتح الباري: ٣٦٧/٦

ومسلم: ٤/٢١٨٠

إِفْرَاطُهُنَّ: إِضَاعَتُهُنَّ عَنْ وَقْتِهِنَّ (١). وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيدَ: أَنَّ عَمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَرَأَ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩] ثُمَّ قَالَ: لَمْ تَكُنْ إِضَاعَتُهُمْ تَرْكُهَا وَلَكِنْ أَضَاعُوا الْوَقْتَ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ أَيُّ خُسْرَانًا (٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: شَرًّا (٤). وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبْعِيِّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ قَالَ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدُ الْفَقْرِ، حَيْثُ الطَّعْمُ (٥). وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ زِيَادٍ عَنْ أَبِي عِيَّاضٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ قَالَ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَيُّ إِلَّا مَنْ رَجَعَ عَنْ إِضَاعَةِ الصَّلَوَاتِ وَاتَّبَاعِ الشَّهْوَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ وَيُحَسِّنُ عَاقِبَتَهُ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ» (٦). وَلِهَذَا لَا يُنْقَضُ هَؤُلَاءِ التَّائِبُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا شَيْئًا، وَلَا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ قَبْلَهَا، فَيُنْقَضَ لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبٌ هَدَرًا وَتَرِكَ نَسِيًا، وَذَهَبٌ مَحَانًا مِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ وَجِلْمِ الْحَلِيمِ، وَهَذَا الْإِسْتِثْنَاءُ هَهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَائِيًا﴾ (١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا (٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٣) [صِفَةُ جَنَّاتِ التَّائِبِينَ الصَّادِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: الْجَنَّاتُ الَّتِي يَدْخُلُهَا التَّائِبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ هِيَ جَنَّاتُ عَدْنٍ، أَيُّ إِقَامَةٍ، الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، أَيُّ هِيَ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَا رَأَوْهُ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَائِيًا﴾ تَأْكِيدٌ لِحُصُولِ ذَلِكَ وَثُبُوتِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَا يُبَدِّلُهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أَيُّ

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (٦٤) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [المؤمنون: ١-١١].

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (٦٥)

[لَا تَنْتَزِلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَجِبْرَائِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» قَالَ: فَتَرَكْتُ: «وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» (١) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. أَنْفَرَدُ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ قُرَوَاهُ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ (٢). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: اخْتَبَسَ جِبْرَائِيلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَحْزَنَ، فَاتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ «وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» الْآيَةُ (٣).

وَقَوْلُهُ: «لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا» قِيلَ: الْمُرَادُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا: أَمْرُ الدُّنْيَا، وَمَا خَلْفَنَا: أَمْرُ الْآخِرَةِ، «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» مَا بَيْنَ التَّفَحُّتَيْنِ، هَذَا قَوْلُ أَبِي الْعَالِيَةِ وَعِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُمَا، وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ (٤). وَقِيلَ: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا» مَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الْآخِرَةِ «وَمَا خَلْفَنَا» أَيْ مَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ» أَيْ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيُزَوَّى نَحْوُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَالثَّوْرِيِّ (٥). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ أَيْضًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» قَالَ مُجَاهِدٌ مَعْنَاهُ مَا نَسِيَكَ رَبُّكَ (٦). وَقَوْلُهُ: «رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أَيْ خَالِقُ ذَلِكَ وَمُتَبَرِّهُ وَالْحَاكِمُ فِيهِ وَالْمُتَصَرِّفُ الَّذِي لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ «فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ» هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَلْ تَعْلَمُ لِلرَّبِّ مِثْلًا أَوْ شَيْئًا (٧). وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ (٨). وَقَالَ عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَيْسَ أَحَدٌ يَسْمَى الرَّحْمَنَ غَيْرَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ اسْمُهُ (٩).

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا﴾ (٦٦) أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (٦٧) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ (٦٨)

[تَعْجَبُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَالرَّدُّ عَلَى

الْبَرَاءَةِ الْخَالِصَةِ

٣١٠

سُورَةُ مَرْيَمَ

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مَنَعَكُمْ إِلَّا مَا رِزْقُهُمْ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا نُنْفِثُ عَلَيْهِمُ الْيَتْسَابِينَتِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِءْيَا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَعْفُ جُودًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْتُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

هَذَا التَّعَجُّبُ

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ وَيَسْتَعِجِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: «وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّمَا لَنُحْيِي خَلْقَ جَدِيدٍ» [الرعد: ٥] وَقَالَ: «أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ تُطْفٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٣﴾ لَنَا مِثْلًا وَنَبِيٌّ خَلَقْنَاهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٤﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٧، ٧٨] وَقَالَ هُنَا: «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ يَسْتَدِلُّ تَعَالَىٰ بِالْبِدَاءِ عَلَى الْإِعَادَةِ، يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَىٰ قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا، أَفَلَا يُعِيدُهُ وَقَدْ صَارَ شَيْئًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ

(١) أحمد: ٢٣١/١ (٢) فتح الباري: ٢٨٢/٨ (٣) الطبري: ٢٢٢/١٨ (٤) الطبري: ٢٢٤/١٨ (٥) الطبري: ٢٢٤/١٨ والقرطبي: ١٢٩/١١ (٦) الطبري: ٢٢٥/١٨ (٧) الطبري: ٢٢٦/١٨ (٨) الطبري: ٢٢٦/١٨ (٩) القرطبي: ١٣٠/١١

وَجَابِرٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.  
وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أُمِّ مَيْسَرٍ امْرَأَةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ  
قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ فَقَالَ: «لَا  
يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَّةَ» قَالَتْ حَفْصَةُ: أَلَيْسَ  
اللَّهُ يَقُولُ: «وَلَنْ يَنْكَرَهُ إِلَّا وَارِدُهَا؟» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
«ثُمَّ نَجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا» الْآيَةَ<sup>(٦)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ  
حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ  
ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ، تَمَسَّهُ النَّارُ إِلَّا تَحَلَّهَ الْقَسَمُ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: «وَلَنْ  
يَنْكَرَهُ إِلَّا وَارِدُهَا» قَالَ: وَرُودُ الْمُسْلِمِينَ الْمُرُورُ عَلَى  
الْجِسْرِ بَيْنَ ظَهْرَانِيهَا، وَوُرُودُ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْخُلُوهَا.  
وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ مُرَّةَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: «كَانَ عَلَى  
رَبِّكَ حَتَمًا مَقْضِيًّا» قَالَ: قَسَمًا وَاجِبًا<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ:  
«حَتَمًا». قَالَ: فَضَاءٌ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ نَجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا» أَيِ إِذَا مَرَّ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ  
عَلَى النَّارِ وَسَقَطَ فِيهَا مَنْ سَقَطَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعَصَاةِ ذَوِي  
الْمَعَاصِي بِحَسَبِهِمْ، نَجَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِنْهَا  
بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَخَرَّجَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَسُرَعَتْهُمْ بِقَدْرِ  
أَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُسْفَعُونَ فِي أَصْحَابِ  
الْكِبَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيُسْفَعُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ  
فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَكَلَتْهُمْ النَّارُ، إِلَّا دَارَاتِ وَجُوهُهُمْ  
وَهِيَ مَوَاضِعُ السُّجُودِ، وَإِخْرَاجُهُمْ إِلَيْهَا مِنَ النَّارِ بِحَسَبِ  
مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَيُخْرِجُونَ أَوَّلًا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ  
مُتَّقَالٌ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، ثُمَّ  
الَّذِي يَلِيهِ، حَتَّى يُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى  
مُتَّقَالٍ ذَرَّةً مِنْ إِيمَانٍ، ثُمَّ يُخْرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ يَوْمًا  
مِنَ الدَّهْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، وَلَا  
يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ. كَمَا وَرَدَتْ  
بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ

أَهْوَتْ عَلَيْهِ [الروم: ٢٧] وَفِي الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ  
تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَكْذِبَنِي، وَأَذَانِي  
ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِنَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ:  
لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ  
آخِرِهِ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: إِنْ لِي وَلَكَا، وَأَنَا الْأَحَدُ  
الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ [لِي] كُفُوءًا  
أَحَدًا»<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ» أَقْسَمَ الرَّبُّ  
تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَحْشُرَهُمْ جَمِيعًا  
وَشَيَاطِينَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ «ثُمَّ لَنَحْضُرَنَّهُمْ  
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا» قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي قُعُودًا  
كَقَوْلِهِ: «وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَانِبَهُ»<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ  
جِثًّا: يَعْنِي قِيَامًا. وَرَوَى عَنْ مُرَّةَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ.  
وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ» يَعْنِي مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ. قَالَهُ  
مُجَاهِدٌ<sup>(١٣)</sup>. «أَتَيْهِمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا» قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ  
عَلِيِّ بْنِ الْأَقْمَرِ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:  
يُحْبَسُ الْأَوَّلُ عَلَى الْآخِرِ حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتِ الْعِدَّةُ أَتَاهُمْ  
جَمِيعًا، ثُمَّ بَدَأَ بِالْكَابِرِ فَأَلْكَابِرَ جُرْمًا، وَهُوَ قَوْلُهُ: «ثُمَّ  
لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَتَيْهِمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا»<sup>(١٤)</sup>.

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «حَقَّ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ  
أُخْرِيهِمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ  
النَّارِ» إِلَى قَوْلِهِ «يَمَّا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» [الأعراف: ٣٨]  
وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا» ثُمَّ هَهُنَا لِعَطْفِ  
النَّخْبَةِ عَلَى الْخَبَرِ. وَالْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنَ  
الْعِبَادِ أَنْ يَضَلَّىٰ بِنَارِ جَهَنَّمَ وَيَخْلُدَ فِيهَا، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ  
تَضَعِيفَ الْعَذَابِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ «قَالَ لِكُلِّ  
ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ» [الأعراف: ٣٨].

«وَلَنْ يَنْكَرَهُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتَمًا مَّقْضِيًّا»<sup>(١٥)</sup> ثُمَّ نَجِي

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا<sup>(١٦)</sup>

[كُلٌّ يَرْدُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ ثُمَّ يَنْجُو الْمُتَّقُونَ]

رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ: قَوْلُهُ: «وَلَنْ يَنْكَرَهُ إِلَّا  
وَارِدُهَا» قَالَ: الصِّرَاطُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ مِثْلُ حَدِّ السِّنْفِ، فَتَمُرُّ  
الطَّبَقَةُ الْأُولَىٰ كَالْبَرْقِ، وَالثَّانِيَةُ كَالرَّيْحِ، وَالثَّالِثَةُ كَأَجُودِ  
الْخَيْلِ، وَالرَّابِعَةُ كَأَجُودِ الْهَائِمِ. ثُمَّ يَمُرُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ  
يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ<sup>(١٧)</sup>. وَلِهَذَا شَوَاهِدُ فِي الصَّحِيحَيْنِ  
وغيرهما مِنْ رِوَايَةِ أَنَسٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ،

(١) أحمد: ٣٥٠/٢ (٢) الطبري: ٢٢٧/١٨ (٣) الطبري: ٢٢٨/١٨ (٤) الدر المنثور: ٥٣٣/٥ (٥) الطبري: ٢٣٢/١٨  
فيه تدليس أبي إسحاق السبيعي لكن صحيح لشواهد (٦) أحمد: ٣٦٢/٦ (٧) فتح الباري: ١٤٢/٣ ومسلم: ٢٠٢٨/٤ (٨) الطبري: ٢٣٧/١٨ (٩) الطبري: ٢٣٧/١٨ (١٠) الطبري: ٢٣٧/١٨



يُوعِدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا  
وَأَضَعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾

[يَهْلُ الْمُتَمَرِّدُ وَلَا يَهْلُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ  
الْمُدْعِينَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَأَنْتُمْ عَلَى بَاطِلٍ: ﴿مَنْ كَانَ فِي  
الضَّلَالَةِ﴾ أَيِّ مَنَا وَمِنْكُمْ ﴿فَلْيَدِّدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أَيِّ فَأَمَلُهُ  
الرَّحْمَنُ فِيمَا هُوَ فِيهِ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ وَيَنْقُضِي أَجَلَهُ ﴿حَتَّى إِذَا  
رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يُصِيبُهُ ﴿وَلِمَا السَّاعَةَ﴾ بَغْتَةً تَأْتِيهِ  
﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَعَفُ جُنْدًا﴾ فِي  
مُقَابَلَةِ مَا اخْتَجُّوا بِهِ مِنْ خَيْرِيَةِ الْمَقَامِ وَحُسْنِ النَّدَى. وَهَذِهِ  
مُبَاهَلَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى فِيمَا هُمْ  
فِيهِ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى مُبَاهَلَةَ الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَبَاتُلْنَا الَّذِينَ  
هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّعُوا بِالْمَوْتِ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦٢] أَيِّ ادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى  
الْمُطِيطِ مَنَا، أَوْ مِنْكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تَدْعُونَ أَنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ،  
فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ الدُّعَاءُ، فَتَكَلُّوا عَنْ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ  
ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [مبسوطاً]، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَكَمَا ذَكَرَ  
تَعَالَى الْمُبَاهَلَةَ مَعَ النَّصَارَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ حِينَ  
صَمَّمُوا عَلَى الْكُفْرِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الطُّغْيَانِ وَالْعُلُوِّ فِي  
دَعْوَاهُمْ: أَنْ عِيسَى وَلَدُ اللَّهِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ  
عَلَى عُبودِيَّةِ عِيسَى، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ كَادَمَ، قَالَ تَعَالَى بَعْدَ  
ذَلِكَ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ فَقُلْ نَقَالُوا  
نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكَ وَسَاءَلْنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ  
نَبْتَهِلُ فَتَجَعَلَ لَتَمَتْ لِلَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]  
فَتَكَلُّوا أَيْضاً عَنْ ذَلِكَ.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدُوا هُدًى وَالْبَاقِيَتِ الصَّالِحَتِ خَيْرٌ عِنْدَ  
رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ﴿٧٦﴾

[يُرَادُ فِي هِدَايَةِ الْمُهْتَدِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى إِمْدَادَ مَنْ هُوَ فِي الضَّلَالَةِ فِيمَا هُوَ فِيهِ  
وَرَبَادَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، أَخْبَرَ بِزِيَادَةِ الْمُهْتَدِينَ هُدًى، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ  
زَادَهُ هُدًى﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٢٤، ١٢٥]. وَقَوْلُهُ:  
﴿وَالْبَاقِيَتِ الصَّالِحَتِ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا،

تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ (١).  
﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ أَيْنِسَتْ بَنَاتُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَوَّ  
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٦) وَكَذَلِكَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنِهِمْ  
أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَبًّا

[إِفْتِخَارُ الْكُفَّارِ عَلَى حُسْنِ حَظِّهِمْ مِنَ الدُّنْيَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ حِينَ تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ  
ظَاهِرَةً الدَّلَالَةِ، بَيِّنَةً الْحُجَّةِ، وَاضِحَةً الْبُرْهَانِ: أَنَّهُمْ  
يَصُدُّونَ وَيُعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا  
مُفْتَخِرِينَ عَلَيْهِمْ وَمُخْتَجِبِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ  
الْبَاطِلِ بِأَنَّهُمْ ﴿خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أَيِّ أَحْسَنَ مَنَازِلَ،  
وَأَرْفَعَ دُورًا وَأَحْسَنَ نَدِيًّا، وَهُوَ مُجْتَمَعُ الرِّجَالِ لِلْحَدِيثِ،  
أَيِّ نَادِيهِمْ أَغْمَرُ وَأَكْثَرُ وَارِدًا وَطَارِقًا. يَعْنُونَ فَكَيْفَ نَكُونُ  
وَنَحْنُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ، عَلَى بَاطِلٍ، وَأَوَّلِيكَ الَّذِينَ هُمْ  
مُخْتَفُونَ مُسْتَبْرُونَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بَيْنَ أَبِي الْأَرْقَمِ وَنَحْوِهَا  
مِنَ الدُّوَرِ، عَلَى الْحَقِّ؟! كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ:  
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾  
[الأحقاف: ١١] وَقَالَ قَوْمُ نُوحٍ: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ  
الْأَوْدُلُونَ﴾ [الشعرا: ١١١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا  
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ  
بِأَعْلَمَ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَى  
شُبُهَتِهِمْ ﴿وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أَيِّ وَكَمْ مِنْ أُمَّةٍ وَقَرْنٍ  
مِنَ الْمُكْذِبِينَ قَدْ أَهْلَكْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَبًّا﴾  
أَيِّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَمْوَالًا وَمَنَاطِرَ وَأَشْكَالًا  
وَأَمِيَّةً. قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي ظِيَّانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿خَيْرٌ  
مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قَالَ: الْمَقَامُ: الْمَنْزِلُ، وَالنَّدَى:  
الْمَجْلِسُ، وَالْأَثْنُ: الْمَتَاعُ، وَالرَّبِّيُّ: الْمَنْظَرُ (٢). وَقَالَ  
الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْمَقَامُ: الْمَسْكَنُ وَالنَّدَى:  
الْمَجْلِسُ، وَالنِّعْمَةُ وَالنَّهْجَةُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا. وَهُوَ كَمَا قَالَ  
اللَّهُ لِقَوْمِ فِرْعَوْنَ حِينَ أَهْلَكْتَهُمْ وَقَصَّ شَأْنَهُمْ فِي الْقُرْآنِ:  
﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جِثَّتٍ وُعْيُونٍ﴾ (٣) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ  
[الدخان: ٢٥، ٢٦] فَالْمَقَامُ: الْمَسْكَنُ وَالنَّعِيمُ، وَالنَّدَى:  
الْمَجْلِسُ وَالْمَجْمَعُ الَّذِي كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ. وَقَالَ تَعَالَى  
فِيمَا قَصَّ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْرِ قَوْمِ لُوطٍ: ﴿وَأَنَّا نُورِكُ فِي  
كَادِيكُمْ الْمُسْكِرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وَالْعَرَبُ تُسَمِّي  
الْمَجْلِسَ النَّادِي (٤).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَدِّدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا

(١) فتح الباري: ٤٨/١٣ (٢) الطبري: ٢٤١، ٢٣٩/١٨ (٣)

الطبري: ٢٣٩/١٨

الْمُرْسَلِينَ

٣١١

سُورَةُ مَرْيَمَ

أَفْرَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِنَبِيِّنَا وَقَالَ لَا وَتَبْتَ مَا لَا وُلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَزِيلُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَخْسِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَلَاقُ الْأَرْضُ وَخِزْلُ الْجِبَالِ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

لَهُمْ عَذَابٌ

[يَكْفُرُ آلِهَةُ الْمُشْرِكِينَ بِعِبَادَتِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لِيَكُونَ لَهُمْ تِلْكَ الْأَلِهَةُ عِزًّا ﴿٩٢﴾ يَعْتَزُونَ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُونَهَا، ثُمَّ أُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَلَا يَكُونُ مَا ظَنُّوا فَقَالَ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أَيَّ بِخِلَافٍ مَا ظَنُّوا فِيهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيَّ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿٩٤﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أَيَّ بِخِلَافٍ مَا رَجَّوْا مِنْهُمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قَالَ:

وَلَا يَرَادُ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِهَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ﴿خَبِرَ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أَيْ جَزَاءً ﴿وَخَبِرَ مَرَدًّا﴾ أَيْ عَاقِبَةً وَمَرَدًّا عَلَى صَاحِبِهَا.

﴿أَفْرَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِنَبِيِّنَا وَقَالَ لَا وَتَبْتَ مَا لَا وُلَدًا﴾ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَزِيلُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ [الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنَّهُ يُعْطَى فِي الْآخِرَةِ مَا لَا وُلَدًا]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَاثِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتْقَاضًا مِنْهُ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تَبْعَثَ. قَالَ: فَإِنِّي إِذَا مِتُّ ثُمَّ بَعِثْتُ، جِئْتَنِي وَلِيَّ ثُمَّ مَالَ وَوُلَدٌ فَأَعْطَيْتُكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَفْرَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِنَبِيِّنَا وَقَالَ لَا وَتَبْتَ مَا لَا وُلَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾<sup>(١)</sup> أَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ وَغَيْرُهُمَا وَفِي لَفْظِ الْبُخَارِيِّ: كُنْتُ قَيْنًا بِمَكَّةَ فَعَمِلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَاثِلٍ سِنْفًا، فَجِئْتُ أَتْقَاضًا فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ: ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قَالَ: مُوَيْثًا<sup>(٢)</sup>.

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ إِنْكَارٌ عَلَى هَذَا الْقَائِلِ ﴿لَا وَتَبْتَ مَا لَا وُلَدًا﴾ بِغَيْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَيْ أَعْلِمَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ حَتَّى تَأْتِيَ وَحَلَفَ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أَمْ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ سَيُؤْتِيهِ ذَلِكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ: أَنَّهُ الْمُؤَيَّثُ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا﴾ هِيَ حَرْفُ رَدِّ لِمَا قَبْلَهَا، وَتَأْكِيدٌ لِمَا بَعْدَهَا ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أَيْ مِنْ طَلَبِهِ ذَلِكَ، وَحُكْمِهِ لِنَفْسِهِ بِمَا يَتَمَنَّا، وَكُفْرِهِ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أَيْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ وَكُفْرِهِ بِاللَّهِ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَنَزِيلُهُ مَا يَقُولُ﴾ أَيْ مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ، نَسْلَبُهُ مِنْهُ عَكْسًا مَا قَالَ: إِنَّهُ يُؤْتَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَا لَا وُلَدًا، زِيَادَةً عَلَى الَّذِي لَهُ فِي الدُّنْيَا، بَلْ فِي الْآخِرَةِ يُسْلَبُ مِنْهُ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أَيْ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ

(١) أحمد: ١١١/٥ (٢) فتح الباري: ٣٧٢/٤ ومسلم: ٤/٢١٥٣ (٣) فتح الباري: ٣٧٢/٤ (٤) الطبري: ١٨/٢٥١

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ الْمَلَابِيِّ عَنْ ابْنِ مَرْزُوقٍ **﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** قَالَ: يَسْتَقْبِلُ الْمُؤْمِنُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ قَبْرِهِ أَحْسَنَ صُورَةٍ رَأَاهَا وَأَطْيَبَهَا رِيحًا، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: لَا، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ قَدْ طَيَّبَ رِيحَكَ وَحَسَّنَ وَجْهَكَ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، وَهَكَذَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَ الْعَمَلِ طَيِّبُهُ، فَطَالَمَا رَكِبْتُكَ فِي الدُّنْيَا فَهَلُمَّ ارْكَبْنِي فَيَرْكَبُهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: **﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾**. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ **﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** قَالَ: رُكْبَانًا <sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: **﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَفْدًا﴾** أَيُّ عِطَاشًا **﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ﴾** أَيُّ لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ كَمَا يَشْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: **﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾** <sup>(٨)</sup> وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ <sup>(٩)</sup> [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]. وَقَوْلُهُ: **﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾**. هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى لَكِنْ مَنْ اخْتَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا، وَهُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْقِيَامُ بِحَقِّهَا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: **﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾** قَالَ: الْعَهْدُ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَلَا يَرْجُو إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ <sup>(٨)</sup>.

**﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾** <sup>(١٠)</sup> لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا <sup>(١١)</sup> تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا <sup>(١٢)</sup> أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا <sup>(١٣)</sup> وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا <sup>(١٤)</sup> إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا <sup>(١٥)</sup> لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا <sup>(١٦)</sup> وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا <sup>(١٧)</sup> **﴿النَّكِيرُ الشَّدِيدُ عَلَى نَسَبِ الْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ﴾**

لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ عُبودِيَّةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذَكَرَ خَلْقَهُ مِنْ مَرِيَمَ بِلَا أَبٍ، شَرَعَ فِي مَقَامِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّاهُ عَنْ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا، فَقَالَ: **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾** <sup>(١٠)</sup> لَقَدْ جِئْتُمْ أَيُّ فِي قَوْلِكُمْ هَذَا **﴿شَيْئًا إِذَا﴾** قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ: أَيُّ عَظِيمًا. وَيُقَالُ **﴿إِذَا﴾** بِكَسْرِ

الْخُصَمَاءِ الْأَشْدَاءِ فِي الْخُصُومَةِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ **﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾** قَالَ: أَغْدَاءٌ <sup>(١)</sup>.

[تَسْلُطُ الشَّيَاطِينُ عَلَى الْكَافِرِينَ]

وَقَوْلُهُ: **﴿إِنَّمَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَهُمَ آثًا﴾** قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَوَهُمُهُمْ إِغْوَاءًا <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْهُ: تَحَرَّضُهُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَزْعُمُهُمْ إِزْعَاجًا إِلَى مَعَاصِي اللَّهِ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَمْ يَسْلُطْنَا لَهُ لِمَ فَرِينُ﴾** [الزخرف: ٣٦] <sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: **﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾** أَيُّ لَا تَعْجَلْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي وُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ **﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾** أَيُّ إِنَّمَا نُوَخِّرُهُمْ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ مَضْبُوطٍ، وَهُمْ صَائِرُونَ لَا مَحَالَةَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَنَكَالِهِ. وَقَالَ: **﴿وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفِلًا غَنًا بِعَمَلِ الظَّالِمِينَ﴾** ... آيَاتِهِ [إبراهيم: ٤٢] **﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رُؤُوسًا﴾** [الطارق: ١٧] **﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِسْمًا﴾** [آل عمران: ١٧٨] **﴿لِنُعَذِّبَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾** [لقمان: ٢٤] **﴿قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنِ مَصِيبُكُمْ إِلَى النَّارِ﴾** [إبراهيم: ٣٠] وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا: السِّنِينَ وَالشُّهُورَ وَالْأَيَّامَ وَالسَّاعَاتِ.

**﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾** <sup>(١٨)</sup> وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَفْدًا <sup>(١٩)</sup> لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا <sup>(٢٠)</sup>

[حَالُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ خَافُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، وَاتَّبَعُوا رُسُلَهُ وَصَدَّقُوهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ، وَأَطَاعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ، وَانْتَهَوْا عَمَّا عَنْهُ زَجَرُوهُمْ، أَنَّهُ يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفْدًا إِلَيْهِ، وَالْوَفْدُ هُمُ الْقَادِمُونَ رُكْبَانًا، وَمِنْهُ الْوُفُودُ، وَرُكُوبُهُمْ عَلَى نَجَابٍ مِنْ نُورٍ مِنْ مَرَائِبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَهُمْ قَادِمُونَ عَلَى خَيْرٍ مَوْفُودٍ إِلَيْهِ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَأَمَّا الْمُجْرِمُونَ الْمُكَذَّبُونَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالَفُونَ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَسَاقُونَ عُنْفًا إِلَى النَّارِ **﴿وَرَدًا﴾** عِطَاشًا. قَالَهُ عَطَاءٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ <sup>(٦)</sup>. وَهَهَا يُقَالُ: **﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾**.

(١) الطبري: ٢٥٠/١٨ (٢) الطبري: ٢٥١/١٨ (٣) الدر المنثور: ٥٣٨/٥ (٤) الطبري: ٢٥٢/١٨ (٥) الطبري: ١٨/٢٥٢ (٦) الطبري: ٢٥٣/١٨ والدر المنثور: ٥٤١/٥ (٧) الطبري: ٣٨٠/٨ (٨) الطبري: ٢٥٧/١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 ٣١٢  
 إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ  
 الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ  
 الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم  
 مِّن قَوْمٍ هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ مَّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾  
 سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً  
 لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّن خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾  
 الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي  
 الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِن يُجْهَرُوا بِأَقْوَلٍ  
 فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ  
 الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ أَنَارًا  
 فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ  
 أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنَّهُا يُودَى بِمُوسَى ﴿١١﴾  
 إِنِّي أَنَارُكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

قَدْ عَلِمَ عَدَدُهُمْ - مُنْذُ خَلَقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - ذَكَرَهُمْ  
 وَأَنَّثَاهُمْ، صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ، «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 فَرْدًا» أَي لَا نَاصِرَ لَهُ وَلَا مُجِيرَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ  
 لَهُ، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلُمُ  
 مُتَقَالِ ذَرَّةً، وَلَا يَظْلُمُ أَحَدًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ  
 وُدًّا﴾ ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ  
 بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَوْمٍ هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ  
 مَّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

[يُجْعَلُ حُبُّ الصَّالِحِينَ فِي الْقُلُوبِ]  
 يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَغْرِسُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ  
 الصَّالِحَاتِ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الَّتِي تُرْضِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ

الْهُمَزَةَ وَفَتْحَهَا، وَمَعَ مَدِّهَا أَيْضًا ثَلَاثُ لُغَاتٍ أَشْهَرُهَا  
 الْأُولَى وَقَوْلُهُ: ﴿تَكَادُ السَّمَكَةُ يَفْطَرَنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ  
 وَتَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا﴾ ﴿٩٦﴾ أَنَّ دَعْوَا الرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٦﴾ أَيَّ بَكَادُ يَكُونُ  
 ذَلِكَ، عِنْدَ سَمَاعِهِمْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ مِنْ فَجَرَةِ بَنِي آدَمَ إِعْظَامًا  
 لِلرَّبِّ وَاجْتِلَالًا، لِأَنَّهُمْ مَخْلُوقَاتٌ وَمُؤَسَّسَاتٌ عَلَى  
 تَوْحِيدِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ  
 لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا كُفَّاءَ لَهُ، بَلْ هُوَ  
 الْأَحَدُ الصَّمَدُ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَكَادُ  
 السَّمَكَةُ يَفْطَرَنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا﴾ أَنَّ  
 دَعْوَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٦﴾ قَالَ: إِنَّ الشَّرْكَ فَرَعَتْ مِنْهُ السَّمَوَاتُ  
 وَالْأَرْضُ، وَالْجِبَالُ، وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، وَكَادَتْ  
 أَنْ تَزُولَ مِنْهُ لِعَظَمَةِ اللَّهِ - وَكَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشَّرْكِ إِحْسَانُ  
 الْمُشْرِكِ، كَذَلِكَ تَرْجُو أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ ذُنُوبَ الْمُؤَحِّدِينَ -  
 وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقِنَا مَوْتَاكُم شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا  
 اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فَقَالُوا: يَا  
 رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ قَالَهَا فِي صَحَّتِهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ أَوْجَبُ  
 وَأَوْجَبُ». ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ جِئَ بِالسَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِينَ، وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَمَا تَحْتُهُنَّ، فَوَضَعْنِ فِي  
 كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوَضَعْتَ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ  
 الْأُخْرَى لَرَجَحَتْ بِهِنَّ» هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ <sup>(١)</sup>. وَيَشْهَدُ لَهُ  
 حَدِيثُ الْبِطَاقَةِ <sup>(٢)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿تَكَادُ السَّمَكَةُ يَفْطَرَنَ مِنْهُ﴾ أَيَّ  
 يَسْتَقْفِنُ فَوْقًا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ  
 أَسْلَمَ: «وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ»، أَيَّ غَضَبًا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَخْرُ  
 الْجِبَالُ هَذَا»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ  
 جُبَيْرٍ: هَذَا يَنْكَسِرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ مُتَتَابِعَاتٍ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:  
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سَمِعِهِ، مِنْ  
 اللَّهِ. إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ وَيَجْعَلُ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَذْفَعُ  
 عَنْهُمْ وَيَرْزُقُهُمْ» <sup>(٣)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَفِي لَفْظٍ:  
 «إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ» <sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ:  
 «وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَخْذَلَ وَلَدًا» أَيَّ لَا يَضْلِعُ لَهُ وَلَا يَلِيقُ  
 بِهِ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لِأَنَّهُ لَا كُفَّاءَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّ جَمِيعَ  
 الْخَلَائِقِ عِبِيدُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ <sup>(٥)</sup> لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٨﴾ أَيَّ

(١) الطبري: ٢٥٨/١٨ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٩٥/٧ أحمد ٢/٢١٣  
 وصححه الألباني (١٣٥) أحمد: ٤٠٥/٤ (٤) فتح  
 الباري: ٥٢٧/١٠ ومسلم: ٢١٦٠/٤

## سُورَةُ طه وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ ١ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرٌ ٣ لِمَن يَخْشَى ٤ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْاَلَى ٥ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٦ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٧ وَإِن يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٨ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ٩ ﴿٨﴾

[الْقُرْآنُ تَذَكُّرٌ وَتَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ قَالَ جُوبَيْرٌ عَنِ الضَّحَّاكِ: لَمَّا أُنزِلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ قَامَ بِهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا أُنزِلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ إِلَّا لِتَشْقَى، فَأُنزِلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿طه﴾ ١ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا تَذَكُّرٌ ٣ لِمَن يَخْشَى ٤ ﴿٧﴾ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَهُ الْمُبْطِلُونَ، بَلْ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا كَثِيرًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» (٨).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ هِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاقْرَأْ مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] وَكَانُوا يُعَلِّقُونَ الْحَبَالَ بِضُؤْرِهِمْ فِي الصَّلَاةِ (٩). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ لَا وَاللَّهِ مَا جَعَلَهُ شَقَاءً، وَلَكِنْ جَعَلَهُ رَحْمَةً وَنُورًا وَدَلِيلًا إِلَى الْجَنَّةِ (١٠). ﴿إِلَّا تَذَكُّرٌ ٣ لِمَن يَخْشَى ٤﴾ إِنَّ اللَّهَ أُنزِلَ كِتَابَهُ وَبَعَثَ رَسُولَهُ رَحْمَةً رَجِمَ بِهَا عِبَادَهُ لِيَتَذَكَّرَ ذَاكِرٌ، وَيَسْتَفْعَ رَجُلٌ بِمَا سَمِعَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَهُوَ ذِكْرٌ أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ حَلَالُهُ وَحَرَامُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْاَلَى﴾ أَيْ هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَكَ يَا مُحَمَّدٌ هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ الْقَادِرِ عَلَى مَا يَشَاءُ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ

لِمَتَابَعَتِهَا الشَّرِيعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ - يَغْرَسُ لَهُمْ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَحَبَّةً وَمُودَةً، وَهَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدٌ عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أَحْبُّ فُلَانًا فَأَجِبْهُ، قَالَ: فَيَجِبُهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبُوهُ، قَالَ: فَيَجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ» (١). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ نَحْوَهُ (٢).

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلُ: إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَجِبْهُ، فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يُنْزَلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا﴾ (٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٤).

[نُزُلُ الْقُرْآنِ لِلتَّبَشِيرِ وَالْإِنذَارِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أَيْ يَا مُحَمَّدُ وَهُوَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُسِينُ الْفَصِيحُ الْكَامِلُ ﴿لِيُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ، الْمُصْذِقِينَ لِرَسُولِهِ، وَتُنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لَذًا، أَيْ عِوَجًا عَنِ الْحَقِّ مَا لِيَلِينَ إِلَى الْبَاطِلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَذَّبُوا بِرُسُلِهِ﴾ هَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٌ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا. أَيْ هَلْ تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَعَكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي صَوْتًا (٥). وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هَلْ تَرَى عَيْنًا أَوْ تَسْمَعُ صَوْتًا (٦). وَالرَّكْزُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ هُوَ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ.

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ مَرْيَمَ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَيَتْلُوهُ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَفْسِيرَ سُورَةِ طه وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

(١) أحمد: ٤١٣/٢، ٥١٤ (٢) فتح الباري: ٤٧٦/١، ٤٧٦/١ (٣) عبد الرزاق: ٤٥٠/١٠ (٤) مسلم: ١٠٣١/٤ (٥) الطبري: ٢٦٥/١٨ (٦) وتحفة الأحوذ: ٦٠٨/٨ (٧) القرطبي: ١٦٧/١١ (٨) فتح الباري: ١٩٧/١ (٩) الطبري: ٧١٩/٢ (١٠) الطبري: ٢٦٩/١٨ (١١) الطبري: ٢٦٩/١٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ

٣١٣

سُورَةُ طه

وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تَلَكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْجُجْ بَصِيصًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ؎ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِزُرِّيكَ مِنْ ؎ إِنِّي أَنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰزُونَ أُخَى ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ ؎ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ سَجَّكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْرُكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَاصِرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّاعَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾

وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَرٌّ وَلَا شَيْءٌ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا، أُنِيَ ظَهَرَتْ لَهُ نَارٌ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ الَّذِي هُنَاكَ عَنْ يَمِينِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ لِيُشِرُّهُمْ: ﴿إِنِّي عَاسْتُ نَارًا لَعَلِّي ؎ إِلَيْكُمْ مِنْهَا بَقِيصٌ﴾ أَيُّ شِهَابٍ مِنْ نَارٍ. وَفِي آيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾: [القصص: ٢٩] وَهِيَ الْجَمْرُ الَّذِي مَعَهُ لَهَبٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ دَلَّ عَلَى وُجُودِ الْبَرْدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَقِيصٍ﴾ دَلَّ عَلَى وُجُودِ الظَّلَامِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَجِدَ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أَيُّ مَنْ يَهْدِيهِ الطَّرِيقَ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَأَهَّأَ عَنِ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْأَعْوَرِ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ أَجِدَ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قَالَ: مَنْ يَهْدِيهِ إِلَى الطَّرِيقِ، وَكَانُوا شَاتِينَ وَصَلُوا الطَّرِيقَ، فَلَمَّا رَأَى النَّارَ قَالَ: إِنَّ لَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَهْدِيَنِي إِلَى الطَّرِيقِ أَتَيْتُكُمْ بِنَارٍ تُوقِدُونَ بِهَا<sup>(٣)</sup>.

بِإِنْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى فِي ارْتِفَاعِهَا وَلَطَافَتِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿الْحَزَنُ عَلَى الْفَرَشِ اسْتَوَى﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ أَيْضًا، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ الْأَسْلَمَ فِي ذَلِكَ طَرِيقَةَ السَّلَفِ: إِمْرَارُ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْتِيلٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ مُلْكُهُ، وَفِي قَبْضَتِهِ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَإِرَادَتِهِ وَحُكْمِهِ، وَهُوَ خَالِقُ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ وَإِلَهُهُ، لَا إِلَهَ سِوَاهُ وَلَا رَبَّ غَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: أَيُّ مَا تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِغَةِ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أَيُّ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦] قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قَالَ: السِّرُّ مَا أَسْرَهُ ابْنُ آدَمَ فِي نَفْسِهِ ﴿وَأَخْفَى﴾ مَا أَخْفَى عَلَى ابْنِ آدَمَ مِمَّا هُوَ فَاعِلُهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَهُ، فَاللهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَعَلِمَهُ فِيمَا مَضَى مِنْ ذَلِكَ وَمَا بَقِيَ عِلْمٌ وَاحِدٌ، وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ فِي ذَلِكَ عِنْدَهُ كَتَفَسٍ وَاجِدَةٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْصِيكُمْ إِلَّا كَفَتْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] <sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أَيُّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، هُوَ: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ؎ عَاسْتُ نَارًا لَعَلِّي ؎ إِلَيْكُمْ مِنْهَا بَقِيصٌ أَوْ أَجِدَ عَلَى النَّارِ

هُدًى ﴿١٣﴾

[حَدِيثُ رِسَالَةِ مُوسَى]

مِنْ هُنَا شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ الْوَحْيِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمُهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَهْرِهِ فِي رِعَايَةِ الْعَنَمِ، وَسَارَ بِأَهْلِهِ قِيلَ: قَاصِدًا بِلَادَ مِصْرَ بَعْدَ مَا طَالَتْ الْعُنْيَةُ عَنْهَا أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ، وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ، فَأَصْلَ الطَّرِيقِ وَكَانَتْ لَيْلَةً شَاتِيَةً، وَنَزَلَ مَثَرًا بَيْنَ شِعَابٍ، وَجِبَالٍ فِي بَرْدٍ وَشِتَاءٍ، وَسَحَابٍ وَظَلَامٍ وَضَبَابٍ، وَجَعَلَ يَقْدَحُ بِزَنْدٍ مَعَهُ لِيُورِيَ نَارًا كَمَا جَرَتْ لَهُ الْعَادَةُ بِهِ، فَجَعَلَ لَا يَقْدَحُ شَيْئًا

(١) الطبري: ٢٧١/١٨ (٢) الطبري: ٢٧٢/١٨ (٣) الطبري:

السَّاعَةِ ءَالِيَةً ﴿١١﴾ أَيَّ قَائِمَةٍ لَا مَحَالَةَ وَكَائِنْتَ لَا بُدَّ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهَا: (أَكَادُ أَخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي) <sup>(٥)</sup> . يَقُولُ: لِأَنَّهَا لَا تَخْفَى مِنْ نَفْسِ اللَّهِ أَبَدًا <sup>(٦)</sup> . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ يَقُولُ: لَا أَطْلُعُ عَلَيْهَا أَحَدًا غَيْرِي <sup>(٧)</sup> . وَقَالَ: ﴿نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَعْنَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] أَيُّ ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ أَيُّ أَيْمِنُهَا لَا مَحَالَةَ لِأَجْزَى كُلِّ غَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ <sup>(٨)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ <sup>(٩)</sup> [الزلزلة: ٧، ٨] ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ٥٢] وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا...﴾

الْآيَةِ، الْمُرَادُ بِهَذَا الْخُطَابِ أَحَادُ الْمُكَلِّفِينَ . أَيُّ لَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ مَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَلَاذِهِ فِي دُنْيَاهُ، وَعَصَى مَوْلَاهُ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ﴿فَرَدَى﴾ أَيُّ تَهْلِكَ وَتَعْطَبُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١] .

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسِكُ﴾ <sup>(١٠)</sup> قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْوَكُوْا عَلَيْهَا وَأَهْشَ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَتَارِبٌ أُخْرَى <sup>(١١)</sup> قَالَ الْفَتْهَى يَمْسُكُ <sup>(١٢)</sup> فَالْقَنَاهَا فَإِذَا هِيَ حِيَّةٌ تَسْعَى <sup>(١٣)</sup> قَالَ حُذَاهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى <sup>(١٤)</sup>

[قَلْبُ عَصَا مُوسَى حِيَّةٌ]

هَذَا بُرْهَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمُعْجَزَةٌ عَظِيمَةٌ، وَخَرَقَ لِلْعَادَةِ بَاهِرٌ دَالٌّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ هَذَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ . وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسِكُ﴾ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِيْنَسَ لَهُ . وَقِيلَ: وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيرِ، أَيُّ أَمَّا هَذِهِ الَّتِي فِي يَمِينِكَ عَصَاكَ الَّتِي تَعْرِفُهَا، فَتَسْرِى مَا نَصْنَعُ بِهَا الْآنَ .

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْسِكُ﴾ اسْتَفْهَامُ تَقْرِيرٍ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْوَكُوْا عَلَيْهَا﴾ أَيُّ أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي حَالِ الْمَشْيِ

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى﴾ <sup>(١٥)</sup> إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى <sup>(١٦)</sup> وَأَنَا أَخَفَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى <sup>(١٧)</sup> إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي <sup>(١٨)</sup> إِنَّ السَّاعَةَ ءَالِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى <sup>(١٩)</sup> فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى <sup>(٢٠)</sup>

[أَوَّلُ الْوَحْيِ إِلَى مُوسَى]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أَيُّ النَّارِ، وَافْتَرَبَ مِنْهَا نُودِيَ يَمْوَسَى . وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْفَغْغَةِ الْمَبْرُكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أَنَّ يَمْوَسَى إِفْتِ أَنَا اللَّهُ . وَقَالَ هَهُنَا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أَيُّ الَّذِي يُكَلِّمُكَ وَيَخَاطِبُكَ ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو ذَرٍّ وَأَبُو أَيُّوبَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: كَانَتْ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ ذِكِّي، وَقِيلَ: إِنَّمَا أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا لِلْبَعْثَةِ <sup>(٢١)</sup> .

وَقَوْلُهُ: ﴿طُوًى﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ اسْمُ الْوَادِي <sup>(٢٢)</sup> . وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ عَطْفُ بَيَانٍ، وَقِيلَ: عِبَارَةٌ عَنْ الْأَمْرِ بِالْوُطْءِ بِقَدَمَيْهِ . وَقِيلَ: لِأَنَّهُ قُدْسٌ مَرَّتَيْنِ، وَطُوًى لَهُ الْبَرَكَةُ وَكُرِّرَتْ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ . وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَا أَخَفَرْتُكَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أَيُّ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ مِنَ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَانِهِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: يَا مُوسَى أَتَذَرِي لِمَ خَصَّصْتُكَ بِالْتَكْلِيمِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: لِأَنِّي لَمْ يَتَوَاضَعْ إِلَيَّ أَحَدٌ تَوَاضَعَكَ . وَقَوْلُهُ: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ أَيُّ اسْتَمِعَ الْآنَ مَا أَقُولُ لَكَ وَأَوْحِيهِ إِلَيْكَ ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هَذَا أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ أَنْ يَعْلَمُوا: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أَيُّ وَحْدَنِي، وَفَمَ بَعَادَتِي مِنْ غَيْرِ شَرِيكِ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ صَلِّ لِتَذْكُرَنِي وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ عِنْدَ ذِكْرِكَ لِي، وَيَتَشَهَّدُ لِهَذَا الثَّانِي مَا رَوَى الْإِسْلَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَفَعْتَ أَحَدَكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ، أَوْ غَفَلَ عَنْهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾» <sup>(٢٣)</sup> . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا، فَكُفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كُفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ» <sup>(٢٤)</sup> . وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ

(١) الطبري: ٢٧٨/١٨ (٢) الطبري: ٢٨١/١٨ (٣) أحمد: ٨٤/٣ (٤) فتح الباري: ٨٤/٢ ومسلم: ٤٧٧/١ (٥) فتح القدير: ٣٦١/٣ الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٦) الدر المنثور: ٥٦٣/٥ (٧) الطبري: ٢٨٥/١٨

لَقِيَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٤)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِرَبِّكَ مِنْ ءَابِتَيْنَا الْكُزْبَى﴾.

[أَمَرَ مُوسَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ لِلْبَلَاغِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَذْهَبْ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أَيُّ إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ الَّذِي خَرَجْتَ قَارًا مِنْهُ وَهَارِبًا، فَأَذْهَبْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُرُهُ فَلْيُحْسِنِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا يُعَذِّبْهُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ طَغَى وَبَغَى، وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَسِيَ الرَّبَّ الْأَعْلَى.

[دُعَاءُ مُوسَى]

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي<sup>(٥)</sup> وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ هَذَا سُؤَالٌ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَسِيمٍ، بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَمِ مَلِكٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ، وَأَجْبَرَهُمْ وَأَسَدَّهُمْ كُفْرًا، وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا، وَأَعْمَرَهُمْ مُلْكًا، وَأَطْعَمَهُمْ وَأَبْلَغَهُمْ تَمَرُّدًا، بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ، وَلَا يَعْلَمُ لِرِعَايَاهُ إِلَهًا غَيْرَهُ، هَذَا وَقَدْ مَكَثَ مُوسَى فِي دَارِهِ مُدَّةً - وَلَيْدًا - عِنْدَهُمْ فِي حِجْرِ فِرْعَوْنَ عَلَى فِرَاشِهِ، ثُمَّ قَتَلَ مِنْهُمْ نَفْسًا فَخَافَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا بَعَثَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ نَذِيرًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي<sup>(٥)</sup> وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أَيُّ إِنَّ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عَوْنِي وَنَصِيرِي وَعَظْمِي وَظَهِيرِي، وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي<sup>(٦)</sup> يَقْهَوْا قَوْلِي﴾ وَذَلِكَ لِمَا كَانَ أَصَابَهُ، مِنَ اللَّغْنِ جِئِنْ غَرَضَ عَلَيْهِ الثَّمَرَةُ وَالْجُمْرَةُ، فَأَخَذَ الْجُمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، وَمَا سَأَلَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكُلْيَةِ، بَلْ بِحَيْثُ يَزُولُ الْعَيْ، وَيَحْصُلُ لَهُمْ فَهْمٌ مَا يُرِيدُ مِنْهُ، وَهُوَ قَدْرُ الْحَاجَةِ، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ، وَلِهَذَا بَقِيََتْ بَقِيَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بُيُوتُ<sup>(٧)</sup>﴾ [الزخرف: ٥٢] أَيُّ يُفْصَحُ بِالْكَلَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي<sup>(٨)</sup> هَرُونَ أَخِي﴾ وَهَذَا أَيْضًا سُؤَالٌ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَمْرِ خَارِجِيٍّ عَنْهُ،

﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى عَنِي﴾ أَيُّ أَهْزُ بِهَا الشَّجَرَةَ لِيَسْقَاطَ وَرَقُهَا لِيَرَعَاهُ عَنِي. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ: الْهَشُّ أَنْ يَضَعَ الرَّجُلُ الْمِحْجَنَ فِي الْعُضَنِ ثُمَّ يُحَرِّكُهُ حَتَّى يَسْقُطَ وَرَقُهُ وَتَمْرُهُ وَلَا يَكْسِرُ الْعُودَ، فَهَذَا الْهَشُّ. وَلَا يَخِيطُ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾ أَيُّ مَصَالِحُ وَمَنَافِعُ وَحَاجَاتُ أُخْرَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَقَدْ تَكَلَّفَ بَعْضُهُمْ لِدُرِّ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَنَارِبِ الَّتِي أُبْهِمَتْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَتَمَّا يَمُوسَى<sup>(١٠)</sup>﴾ أَيُّ هَذِهِ الْعَصَا الَّتِي فِي يَدِكَ يَا مُوسَى: أَلْقَهَا. ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أَيُّ صَارَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةً عَظِيمَةً تُعْبَأُ طَوِيلًا يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً سَرِيعَةً، فَإِذَا هِيَ تَهْتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ، وَهُوَ أَشْرَعُ الْحَيَّاتِ حَرَكَةً، وَلَكِنَّهُ صَغِيرٌ، فَهَذِهِ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ وَفِي غَايَةِ سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ، ﴿تَسْعَى﴾ أَيُّ تَمْشِي وَتَنْضَطِرِبُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أَيُّ إِلَى حَالِهَا الَّتِي تَعْرِفُ قَبْلَ ذَلِكَ.

﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ غَايَةً

أُخْرَى<sup>(١١)</sup> لِرَبِّكَ مِنْ ءَابِتَيْنَا الْكُزْبَى<sup>(١٢)</sup>﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى<sup>(١٣)</sup> قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي<sup>(١٤)</sup> وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي<sup>(١٥)</sup> وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ بَيْنَ لِسَانِي<sup>(١٦)</sup> يَقْهَوْا قَوْلِي<sup>(١٧)</sup> وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي<sup>(١٨)</sup> هَرُونَ أَخِي<sup>(١٩)</sup> أَشَدُّ بِهِ. أَزْرَى<sup>(٢٠)</sup> وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي<sup>(٢١)</sup> كَى سَحَبِكَ كَيْبَرًا<sup>(٢٢)</sup> وَتَذَكَّرَكَ كَيْبَرًا<sup>(٢٣)</sup> إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا<sup>(٢٤)</sup>.

[إِبْيَضَّتْ يَدُ مُوسَى مِنْ غَيْرِ سُوءٍ]

وَهَذَا بُرْهَانٌ ثَانٍ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهَهُنَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ وَقَالَ فِي مَكَانٍ آخَرَ: ﴿وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ كَفَكَ تَحْتَ عَضْدِكَ<sup>(٢٥)</sup>. وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا، تَخْرُجُ تَلَالُؤًا كَأَنَّهَا فَلَقَّةٌ قَمَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَخْرُجُ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَيُّ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَدَى وَمِنْ غَيْرِ شَيْنٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٢٦)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَخْرَجَهَا وَاللَّهُ كَأَنَّهَا مُضْبَاخٌ، فَعَلِمَ مُوسَى أَنَّهُ قَدْ

(١) الدر المنثور: ٥٦٤/٥ (٢) الطبري: ٢٩٧/١٨ (٣)

الطبري: ٢٩٨، ٢٩٧/١٨ (٤) الطبري: ٢٩٨/١٨



(١) الدر المنثور: ٥٦٧/٥ (٢) القرطبي: ١٨٦/١٤ (٣)  
الطبري: ٣٠٣/١٨ (٤) فتح القدير: ٣٦٧/٣

عَبَّاسٍ: لَا تَضَعُهَا، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمَا لَا يَقْتَرَانِ فِي ذِكْرِ اللَّهِ، بَلْ يَذْكُرَانِ اللَّهَ فِي حَالِ مُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ، لِيَكُونَ ذِكْرُ اللَّهِ عَوْنًا لَهُمَا عَلَيْهِ، وَقُوَّةً لَهُمَا وَسُلْطَانًا كَاسِرًا لَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أَي تَمَرَّدَ وَعَتَا وَتَجَبَّرَ [تَجَهَّرَ] عَلَى اللَّهِ وَعَصَاهُ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالْإِسْتِكْبَارِ وَمُوسَى صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ، وَمَعَ هَذَا أَمَرَ أَنْ لَا يُخَاطَبَ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمَلَاطِفَةِ وَاللِّينِ فَدَعَا لَهُمَا لَمْ يَكُنْ بِكَلَامٍ رَفِيقٍ لِّينٍ سَهْلٍ [قَرِيبٍ] رَفِيقٍ، لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ وَأَبْلَغَ وَأَنْجَعَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْذِرْ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُمُ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أَي لَعَلَّهُ يَرْجِعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَكَةِ، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أَي يُوجِدُ طَاعَةً مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] فَالَّذِي ذَكَرَ: الرَّجُوعُ عَنِ الْمُحْذُورِ، وَالْخَشْيَةُ: تَحْصِيلُ الطَّاعَةِ.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأَنبَأَهُمَا قَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنْ أَتَىٰ هَذَا (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)

[خَوْفُ مُوسَى مِنْ فِرْعَوْنَ وَتَثْبِيتُ اللَّهِ إِيَّاهُ]

يَقُولُ تَعَالَى إِجَابًا عَنْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: أَنَّهُمَا قَالَا مُسْتَجِيرِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى شَاكِلِينَ إِلَيْهِ: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ يَعْنِيَانِ: أَنْ يَبْدُرَ إِلَيْهِمَا بِعُقُوبَةٍ أَوْ بِعَنْدِي عَلَيْهِمَا، فَيَعَارِفُهُمَا وَهُمَا لَا يَسْتَحِقَّانِ مِنْهُ ذَلِكَ. وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَوْ أَنَّ يَطْغَى: يَعْتَدِي (٥). ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أَي لَا تَخَافَا مِنْهُ، فَإِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ كَلَامَكُمَا وَكَلَامَهُ، وَأَرَىٰ مَكَانَكُمَا وَمَكَانَهُ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ، وَاعْلَمَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي، فَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَنْتَقِسُ وَلَا يَبْطِشُ إِلَّا بِإِذْنِي وَبَعْدَ أَمْرِي، وَأَنَا مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي.

(١) الطبري: ٣١١/١٨ (٢) عبد الرزاق: ١٧/٣ (٣) فتح الباري: ٢٨٨/٨ ومسلم: ٢٠٤٣، ٢٠٤٤ (٤) الطبري: ١٨/٣١٢ (٥) الدر المنثور: ٥٨٠/٥

﴿هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكَمْ وَهُمْ لَمْ يَصْبُحُوا﴾ [القصص: ١٢] تَعْنِي هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ أَهْلِكَ عَلَىٰ مَنْ يُرْضِعُهُ لَكَمْ بِالْأَجْرَةِ، فَذَهَبَتْ بِهِ وَهُمْ مَعَهَا إِلَىٰ أُمِّهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ تَذْيِيلَهَا، فَقَبِلَهُ فَفَرَحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَاسْتَأْجَرُوهَا عَلَىٰ إِزْصَاعِهِ فَتَالَهَا بِسَبَبِهِ سَعَادَةٌ وَرَفْعَةٌ وَرَاحَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَجْزَلُ. وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أَي عَلَيْكَ ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا يَغْنِي الْفُطْيُ﴾ ﴿فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَدْرِ﴾ وَهُوَ مَا حَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ عَزَمِ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ قَتْلِهِ، فَفَرَّ مِنْهُمْ هَارِبًا حَتَّىٰ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ: ﴿لَا تَخَفْ تَجُوتُ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

﴿فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِسُ﴾ (٤٩) وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي (٥٠) أَذْهَبَ أَتَتْ وَأَخُوكَ بِإِيتَانِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي (٥١) أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٥٢) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٥٣)

[إِصْطِفَاءُ مُوسَى وَأَمْرُهُ بِالذَّهَابِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَدَعْوَتِهِ بِاللِّينِ وَالرَّفْقِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ لَبِثَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ فَارًا مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلِيَّتِهِ، يُزْعَىٰ عَلَىٰ صَهْرِهِ حَتَّىٰ انْتَهَتْ الْمُدَّةُ وَانْقَضَى الْأَجَلُ، ثُمَّ جَاءَ مُوَافَقًا لِقَدَرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُوَ الْمُسَيِّرُ عِبَادَهُ وَخَلَقَهُ فِيمَا يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِسُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَي عَلَىٰ مُوَعِدٍ (١). وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِسُ﴾ قَالَ: عَلَىٰ قَدَرِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ (٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أَيِ اصْطَفَيْتُكَ وَاجْتَبَيْتُكَ رَسُولًا لِنَفْسِي أَي كَمَا أُرِيدُ وَأَشَاءُ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ تَفْسِيرِهَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «النَّفْيُ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ الَّذِي أَشَقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ آدَمُ: وَأَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَأَصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَوَجَدْتَهُ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» أَخْرَجَاهُ (٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَذْهَبَ أَتَتْ وَأَخُوكَ بِإِيتَانِي﴾ أَي بِحُجَجِي وَبِرَاهِنِي وَمُعْجَزَاتِي ﴿وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا تُبْطِئَا (٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنْ ابْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٥

سُورَةُ طه

قَالَ عَلِمَهَا عِنْد رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥١﴾  
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ  
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٢﴾ كُلُوا  
 وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٣﴾  
 خَلَقْنَاهُمْ فِيهَا نَعِيدُهُمْ وَإِنَّا نَخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٤﴾ وَلَقَدْ  
 أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنَّا كَاشِفَاتُ الْعُقُبِ عَنْ  
 مَنَازِلِنَا نَمَرُّ بِهَا غِيَابًا ﴿٥٥﴾ فَلَمَّا أَتَيْنَاكَ سِحْرًا مِّنْهُ  
 فَأَجْعَلْ يَمِينًا وَبَاقِيَةً مِّنْ مَّوْعِدٍ لَّا تُخْلِفُهُ غَنٌّ وَلَا ذَنْبٌ مِّمَّا  
 كَانَا سَوِيًّا ﴿٥٦﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْتَةِ وَأَنَّ مُجِشِرَ النَّاسِ ضَحِيٌّ  
 ﴿٥٧﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٥٨﴾ قَالَ لَهُم  
 مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ  
 وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٥٩﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا  
 النَّجْوَى ﴿٦٠﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَحَرٌ مِّنْ رَبِّكَ يُبْدِي الْأَشْيَاءَ  
 مِمَّنْ لَّا بَالُ بِهَا ﴿٦١﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٢﴾

[وَعَظُّ مُوسَى أَمَامَ فِرْعَوْنَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أَيِ بَدَلَةٍ وَمُعْجَزَةٍ  
 مِّن رَّبِّكَ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْمُدَّتْ﴾ أَيِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ  
 إِنِ اتَّبَعْتَ الْهُدَى، وَلِهَٰذَا لَمَّا كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى  
 هِرْقَلٍ عَظِيمِ الرُّومِ كِتَابًا كَانَ أَوَّلُهُ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
 الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرْقَلٍ عَظِيمِ الرُّومِ،  
 سَلَامٌ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَذْعُوكُ بِدَعَايَةِ  
 الْإِسْلَامِ، فَأَسْلِمُ تَسْلِمًا، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»<sup>(١)</sup>. وَلِهَٰذَا  
 قَالَ مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِفِرْعَوْنَ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ  
 اتَّبَعَ الْمُدَّتْ﴾ ﴿٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ  
 وَتَوَلَّى أَيِ قَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْنَا مِنَ الْوَحْيِ  
 الْمَعْصُوم: أَنَّ الْعَذَابَ مُتَمَحِّضٌ لِّمَن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ  
 وَتَوَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٢٧﴾ وَآثَرَ  
 الْحَبْرَةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٢٨﴾ فَإِنَّ الْحَجِيمَ هِيَ الدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩]  
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنذَرْتُكَ نَارًا تَلْقَى ﴿٤٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿٤٥﴾  
 الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤-١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا صَدَقَ  
 وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] أَيِ كَذَّبَ  
 بِقَلْبِهِ، وَتَوَلَّى بِفِعْلِهِ.

﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿٨﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ  
 ثُمَّ هَدَى ﴿٩﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿١٠﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْد رَبِّي

فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥١﴾

[الْحِوَارُ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى مُنْكَرًا  
 وَجُودَ الصَّانِعِ الْخَالِقِ إِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبِّهِ وَمَلِيكِهِ، قَالَ  
 ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ أَيِ الَّذِي بَعَثَكَ وَأَرْسَلَكَ مَنْ هُوَ؟  
 فَإِنِّي لَا أَعْرِفُهُ وَمَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي  
 أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ: يَقُولُ خَلَقَ لِكُلِّ شَيْءٍ زَوْجَهُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ  
 الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَعَلَ الْإِنْسَانَ إِنْسَانًا، وَالْحِمَارَ  
 حِمَارًا، وَالشَّاةَ شَاةً. وَقَالَ لَيْثُ ابْنُ أَبِي سَلِيمٍ عَنْ  
 مُجَاهِدٍ: أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ  
 مُجَاهِدٍ: سَوَّى خَلْقَ كُلِّ دَابَّةٍ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي  
 قَوْلِهِ: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ قَالَ: أَعْطَى كُلَّ ذِي  
 خَلْقٍ مَا يُضِلُّهُ مِنْ خَلْقِهِ<sup>(٣)</sup>. وَلَمْ يَجْعَلْ لِلْإِنْسَانِ مِنْ خَلْقِ  
 الدَّابَّةِ، وَلَا لِلدَّابَّةِ مِنْ خَلْقِ الْكَلْبِ، وَلَا لِلْكََلْبِ مِنْ خَلْقِ  
 الشَّاةِ، وَأَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ النِّكَاحِ، وَهِيَ كُلُّ

شَيْءٍ عَلَى ذَلِكَ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا يُشَبُّ شَيْئًا مِنْ أَفْعَالِهِ فِي  
 الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالنِّكَاحِ. وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: أَعْطَى  
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾  
 [الأعلى: ٣] أَيِ قَدَّرَ قَدْرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، أَيِ كَتَبَ  
 الْأَعْمَالَ وَالْأَجَالَ وَالْأَرْزَاقَ، ثُمَّ الْخَلَائِقَ مَا شُونَ عَلَى  
 ذَلِكَ لَا يَجِدُونَ عَنْهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ.  
 يَقُولُ: رَبُّنَا الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَقَدَّرَ الْقَدْرَ وَجَبَلَ الْخَلِيقَةَ  
 عَلَى مَا أَرَادَ.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أَصَحُّ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ  
 أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَخْبَرَهُ مُوسَى بِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ الَّذِي  
 خَلَقَ وَرَزَقَ، وَقَدَّرَ فَهَدَى، سَرَعَ يَحْتَجُّ بِالْقُرُونِ الْأُولَى،  
 أَيِ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ، أَيِ فَمَا بَالُهُمْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ  
 كَذَلِكَ، لَمْ يَعْبُدُوا رَبَّكَ بَلْ عَبَدُوا غَيْرَهُ؟ فَقَالَ لَهُ مُوسَى فِي

(١) فتح الباري: ٤٢/١ (٢) الطبري: ٣١٦/١٨ (٣) القرطبي: ٢٠٤/١١

[أَرِيٰ فِرْعَوْنَ كُلَّ الْآيَاتِ وَلَمْ يُؤْمِنْ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجُجُ وَالْآيَاتُ وَالذَّلَالَاتُ، وَعَايِنَ ذَلِكَ وَأَبْصَرَهُ، فَكَذَّبَ بِهَا وَأَبَاهَا كُفْرًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾... الآية [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٥٧﴾ فَلَبَّيْكَ يَسْحِرُ مِثْلَهُ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضَحَى ﴿٥٩﴾

[وَصَفَ فِرْعَوْنَ آيَاتِ مُوسَى بِالسَّحْرِ وَمَكْرُهُ وَتَدْبِيرُهُ فِي الْمُعَارَضَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى حِينَ أَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى، وَهِيَ الْإِقَاءُ عَصَاهُ فَصَارَتْ نُعْبَانًا عَظِيمًا، وَنَزَعَ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ جَنَاحِهِ فَخَرَجَتْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ. فَقَالَ: هَذَا سِحْرٌ جِئْتُ بِهِ لِنَسْحَرَنَّا وَنَسْتَوِلِّي بِهِ عَلَى النَّاسِ فَيُتَبِعُونَا، وَتُكَاثِرُنَا بِهِمْ، وَلَا يَتِمُّ هَذَا مَعَكَ، فَإِنَّ عِنْدَنَا سِحْرًا مِثْلَ سِحْرِكَ، فَلَا يَغُرُّكَ مَا أَنْتَ فِيهِ، ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أَيَّ يَوْمًا نَجْتَمِعُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِيهِ، فَمُعَارِضُ مَا جِئْتُ بِهِ بِمَا عِنْدَنَا مِنَ السَّحْرِ فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ عِيدِهِمْ [وَنُورُوزِهِمْ] وَتَفَرُّغِهِمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَاجْتِمَاعِ جَمِيعِهِمْ، لِيُشَاهِدَ النَّاسُ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى مَا يَشَاءُ وَمُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَبُطْلَانِ مُعَارَضَةِ السَّحْرِ لِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ النَّبَوِيَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ﴾ أَيَّ جَمِيعَهُمْ ﴿ضَحَى﴾ أَيَّ ضَحْوَةٍ مِنَ النَّهَارِ، لِيَكُونَ أَظْهَرُ وَأَجْلَى وَأَبْيَنَ وَأَوْضَحَ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ، كُلُّ أَمْرِهِمْ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لَيْسَ فِيهِ خُفَاءٌ وَلَا تَرْوِيجٌ، وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ: لَيْلًا، وَلَكِنْ نَهَارًا ضَحَى. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ يَوْمُ الزَّيْنَةِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الشَّيْخُ وَقْتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: كَانَ يَوْمُ عِيدِهِمْ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ يَوْمُ سُوقِهِمْ. وَلَا مُتَافَاةَ. (قُلْتُ): وَفِي مِثْلِهِ أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿مَكَانًا سَوِيًّا﴾ مُسْتَوٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَا فِيهِ، لَا يَكُونُ [صَوْبٌ] وَلَا شَيْءٌ يَتَغَيَّبُ

جَوَابَ ذَلِكَ: هُمْ وَ إِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ فَإِنَّ عِلْمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَضْبُوطٌ عَلَيْهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِعَمَلِهِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ وَكِتَابُ [الْأَعْمَالِ] ﴿لَا يَصُدُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أَيُّ لَا يَشُدُّ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَقْوَتُهُ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ، وَلَا يَنْسَى شَيْئًا، يَصِفُ عِلْمُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ، وَأَنَّهُ لَا يَنْسَى شَيْئًا، تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، فَإِنَّ عِلْمَ الْمَخْلُوقِ يَحْتَرِيهِ نُقْصَانَانِ: أَحَدُهُمَا عَدَمُ الْإِحَاطَةِ بِالشَّيْءِ، وَالْآخَرُ نِسْيَانُهُ بَعْدَ عِلْمِهِ، فَتَزَهُ نَفْسُهُ عَنْ ذَلِكَ.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٥٢﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَانِ ﴿٥٣﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاهُمْ وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٥٥﴾

[تَتِمَّةُ جَوَابِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ]

هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ مُوسَى فِيَمَا وَصَفَ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ سَأَلَهُ فِرْعَوْنَ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿الَّذِي أَطْعَمَنِي كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ ثُمَّ هَدَيْتَنِي ثُمَّ اغْتَرَضَ الْكَلَامَ بَيْنَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا) وَفِي قِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ ﴿مَهْدًا﴾ أَيُّ قَرَارًا تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا، وَتَقُومُونَ وَتَتَأَمُّونَ عَلَيْهَا، وَتُسَافِرُونَ عَلَى ظَهْرِهَا ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أَيُّ جَعَلَ لَكُمْ طُرُقًا تَمْشُونَ فِي مَنَاكِجِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١] ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ أَيُّ مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ، وَمِنْ حَامِضٍ وَحُلُوٍّ وَمِنْ وَسَائِرِ الْأَنْوَاعِ ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أَيُّ: شَيْءٍ لُطْعَامِكُمْ وَفَاكِهَتِكُمْ، وَشَيْءٍ لِأَنْعَامِكُمْ لِأَقْوَانِهَا خَضِرًا وَيَبَسًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أَيُّ لِدَلَالَاتٍ وَحُجَجًا وَبَرَاهِينٍ ﴿لِأُولِي الْأَلْبَانِ﴾ أَيُّ لِدَوِيِّ الْعُقُولِ السَّالِمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاهُمْ وَمِنْهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أَيُّ مِنْ الْأَرْضِ مَبْدُؤُهُمْ، فَإِنَّ أَبَائَهُمْ أَدَمَ مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ، وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ أَيُّ وَإِلَيْهَا يُصِيرُونَ إِذَا مَتُّوا وَبَلِيَّتُهُمْ، وَمِنْهَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾

[الأعراف: ٢٥].

بَعْضُ ذَلِكَ عَنْ بَعْضٍ، مُسْتَوْحِينَ يَرَى <sup>(١)</sup>.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى <sup>(١٠)</sup>﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى <sup>(١١)</sup> فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا التَّجْوَى <sup>(١٢)</sup> قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمُ الْمُثُلَى <sup>(١٣)</sup> فَأَتَوْهُمُ كَيْدَهُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى <sup>(١٤)</sup>﴾

[اجتماع الفريقين ودعوة موسى للسحرة]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ لَمَّا تَوَاعَدَ هُوَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى وَقْتٍ وَمَكَانٍ مَّعْلُومَيْنِ تَوَلَّى، أَيَّ شَرِّعٍ فِي جَمْعِ السَّحَرَةِ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِهِ، كُلُّ مَنْ يَنْسِبُ إِلَى السَّحْرِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَقَدْ كَانَ السَّحْرُ فِيهِمْ كَثِيرًا نَافِقًا جِدًّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾

[يونس: ٧٩]

﴿ثُمَّ أَتَى <sup>(١٠)</sup>﴾ أَيَّ اجْتَمَعَ النَّاسُ ﴿لِيَقِفَ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الزَّيْنَةِ، وَجَلَسَ فِرْعَوْنُ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ، وَاضْطَفَّ لَهُ أَكَابِرُ ذَوَلَيْهِ، وَوَقَفَتِ الرِّعَايَا يَمَنَةً وَبَسْرَةً، وَأَقْبَلَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَوَكِّفًا عَلَى عَصَاهُ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ، وَوَقَفَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ صُفُوفًا، وَهُوَ يُحَرِّضُهُمْ وَيَحْتُمُّهُمْ وَيُرْعِبُهُمْ فِي إِجَادَةِ عَمَلِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيَتَمَتَّعُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَعْذُهُمْ وَيُسَيِّمُهُمْ، يَقُولُونَ: ﴿أَيُّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ <sup>(١١)</sup>﴾ قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ إِذَا لِينُ الْمُغْرِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢] قَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أَيَّ لَا تُحِيلُوا لِلنَّاسِ بِأَعْمَالِكُمْ إِجَادَ أَشْيَاءَ لَا حَقَائِقَ لَهَا، وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ، وَلَيْسَتْ مَخْلُوقَةٌ، فَتَكُونُونَ قَدْ كَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أَيَّ يَهْلِكُكُمْ بِعُقُوبَةٍ هَالِكًا لَا بَقِيَّةَ لَهُ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى <sup>(١٢)</sup>﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ تَشَاجَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَقَائِلُ يَقُولُ: لَيْسَ هَذَا بِكَلَامِ سَاحِرٍ، إِنَّمَا هَذَا كَلَامُ نَبِيِّ. وَقَائِلُ يَقُولُ: بَلْ هُوَ سَاحِرٌ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَسْرُوا التَّجْوَى﴾ أَيَّ تَنَاجَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ (قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ) وَهَذِهِ لُغَةٌ لِبَعْضِ الْعَرَبِ، جَاءَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ عَلَى إِعْرَابِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرَيْنِ﴾ وَهَذِهِ اللَّغَةُ الْمَشْهُورَةُ، وَقَدْ تَوَسَّعَ النُّحَاةُ فِي الْجَوَابِ عَنِ الْقِرَاءَةِ الْأُولَى بِمَا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ. وَالْغَرَضُ أَنَّ السَّحَرَةَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَأَخَاهُ - يَعْنُونَ

الْبَنِي إِسْرَافِيلَ

٣١٦

سُورَةُ طه

قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى <sup>(١٥)</sup> قَالَ بَلْ الْقَوَا إِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى <sup>(١٦)</sup> فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى <sup>(١٧)</sup> قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى <sup>(١٨)</sup> وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ نَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى <sup>(١٩)</sup> فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْدًا قَالُوا أَمَّا رَبِّ هَارُونُ وَمُوسَى <sup>(٢٠)</sup> قَالَ أَمَنْتُمْ لِقَوْلِي أَنْ أَدْنَى لَكُمْ أَنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَا قِطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلْبَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى <sup>(٢١)</sup> قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا <sup>(٢٢)</sup> إِنَّمَا آمَنَ بِنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى <sup>(٢٣)</sup> إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ بِحُجْرَمًا فَإِنْ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى <sup>(٢٤)</sup> وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى <sup>(٢٥)</sup> جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى <sup>(٢٦)</sup>

مُوسَى وَهَارُونُ - سَاحِرَانِ غَالِمَانِ، خَبِيرَانِ بِصَنَاعَةِ السَّحْرِ، يُرِيدَانِ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يُغْلِبَاكُمْ وَقَوْمَكُمْ وَيَسْتَوْثِلَا عَلَى النَّاسِ، وَتَتَّبِعُهُمَا الْعَامَّةُ، وَيَقَاتِلَا فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، فَيَنْصُرَا عَلَيْهِ، وَيُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمُ الْمُثُلَى﴾ أَيَّ وَيَسْتَبِدَّ بِهِذِهِ الطَّرِيقَةُ وَهِيَ السَّحْرُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُعْظَمِينَ بِسَبِيلِهَا، لَهُمْ أَمْوَالٌ وَأَزْوَاقٌ عَلَيْهَا، يَقُولُونَ: إِذَا غَلَبَ هَذَا أَهْلَكَكُمْ وَأَخْرَجَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَقَرَّدَا بِذَلِكَ وَتَمَحَّضَتْ لَهُمَا الرِّيَاسَةُ بِهَا دُونَكُمْ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: بِطَرَفَيْكُمُ الْمُثُلَى بِالَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ﴿فَأَتَوْهُمُ كَيْدَهُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا﴾ أَيَّ اجْتَمَعُوا كُلُّكُمْ صَفًّا وَاحِدًا، وَأَلْقَوْا مَا فِي أَيْدِيكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً لِيَتَبَهَرُوا الْأَبْصَارَ، وَتَعْلَمُوا هَذَا وَأَخَاهُ ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ أَيَّ مَنَّا وَمِنَهُ، أَمَّا نَحْنُ، فَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا الْمَلِكُ الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ، وَأَمَّا هُوَ فَيَنَالُ الرِّيَاسَةَ الْعَظِيمَةَ.

## [عَدَدُ السَّحَرَةِ]

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ السَّحَرَةُ سَبْعِينَ رَجُلًا، أَضْبَحُوا سَحَرَةً، وَأَمْسُوا شُهَدَاءَ<sup>(٢)</sup>. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ قَالَ: لَمَّا خَرَّ السَّحَرَةُ سَجْدًا، رُفِعَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهَا<sup>(٣)</sup>. قَالَ: وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَوْلُهُ: «فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَجْدًا» قَالَ: رَأَوْا مَنَازِلَهُمْ تَبَيَّنَ لَهُمْ وَهُمْ فِي سُجُودِهِمْ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَرَّةَ<sup>(٤)</sup>.

«قَالَ أَمْنَمْتُ لَمْ قَدِلْ أَنْ عَادَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُطِيعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى»<sup>(٥)</sup> قَالُوا لَنْ نُؤْذِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَنبِيتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْصِ مَا أَنْتَ قَاصٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحِكْمَةَ الدُّنْيَا»<sup>(٦)</sup> إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى»<sup>(٧)</sup>

## [تَقَلُّبُ فِرْعَوْنَ عَلَى السَّحَرَةِ وَتَهْلِيدُهُ وَجَوَابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَعِنَادِهِ وَبَغْيِهِ وَمُكَابَرَتِهِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، جِئْنَا بِمَا رَأَى مَا رَأَى مِنَ الْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ وَالْآيَةِ الْعَظِيمَةِ، وَرَأَى الَّذِينَ قَدْ اسْتَنْصَرُوا بِهِمْ قَدْ آمَنُوا بِحُضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَغَلِبَ كُلُّ الْغَلَبِ، شَرَعَ فِي الْمُكَابَرَةِ وَالْبَهْتِ، وَعَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّحَرَةِ، فَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ وَقَالَ: «آمَنَنْتُمْ لَكُمْ» أَيْ صَدَقْتُمُوهُ «قَبْلَ أَنْ عَادَنَ لَكُمْ» أَيْ مَا أَمَرْتُمْ بِذَلِكَ وَافْتَتُمُ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ - قَوْلًا يَعْلَمُ هُوَ وَالسَّحَرَةُ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ أَنَّهُ بَهْتٌ وَكَذِبٌ - : «إِنَّهُ لَكَيْدُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» أَيْ أَنْتُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمْ السِّحْرَ عَنْ مُوسَى، وَاتَّفَقْتُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُ عَلَيَّ وَعَلَى رَعِيَّتِي لِنُظْهِرُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَةِ: «إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» [الأعراف: ١٢٣]، ثُمَّ أَخَذَ يَتَهَدَّدُهُمْ فَقَالَ: «فَلَا تُطِيعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ» أَيْ لَأَجْعَلَنَّكُمْ مُثَلَّةً، وَلَا أَفْقُلَنَّكُمْ وَلَا شَهَرَنَّكُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى» أَيْ أَنْتُمْ تَقُولُونَ:

«قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى»<sup>(٦)</sup> قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِئْتُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ بِخُلٍّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّمَا تَسْعَى<sup>(٧)</sup> فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى<sup>(٨)</sup> قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى<sup>(٩)</sup> وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ لَتَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحَرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى<sup>(١٠)</sup> فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى<sup>(١١)</sup>

## [الْمُعَارَضَةُ وَغَلَبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحَرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السَّحَرَةِ حِينَ تَوَافَقُوا هُمُ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى: «إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ» أَيْ أَنْتَ أَوَّلًا «وَأِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى»<sup>(٦)</sup> قَالَ بَلْ أَلْقُوا» أَيْ أَنْتُمْ أَوَّلًا لِنَرَى مَاذَا تَصْنَعُونَ مِنَ السِّحْرِ، وَلِيُظْهِرَ لِلنَّاسِ جَلِيلَتُهُ أَمْرِهِمْ «فَإِذَا جِئْتُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ بِخُلٍّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّمَا تَسْعَى» وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى أَنَّهُمْ لَمَّا أَلْقُوا «وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ» [الشعراء: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: «سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ» وَقَالَ هَهُنَا: «فَإِذَا جِئْتُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ بِخُلٍّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّمَا تَسْعَى» وَكَانُوا جَمًّا غَفِيرًا وَجَمْعًا كَثِيرًا، فَأَلْقَى كُلُّ مِنْهُمْ عَصَا وَحَبْلًا، حَتَّى صَارَ الْوَادِي مَلَأَنَ حَيَاتٍ يَرَكِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَقَوْلُهُ: «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى» أَيْ خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُفْتَنُوا بِسِحْرِهِمْ وَيَعْتَرُوا بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ أَنْ «أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ» يَعْنِي عَصَاكَ، فَإِذَا هِيَ «لَتَلْقَفَ مَا صَنَعُوا» وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ بَيْنَنَا عَظِيمًا هَائِلًا ذَا قَوَائِمٍ وَعُنْتِي وَرَأْسٍ وَأَضْرَاسٍ، فَجَعَلَتْ تَتَّبِعُ تِلْكَ الْجِبَالَ وَالْعِصْيَى، حَتَّى لَمْ تُبْقِ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا تَلَفَّتُهُ وَابْتَلَعَتْهُ، وَالسَّحَرَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى ذَلِكَ عِبَانًا جَهْرَةً نَهَارًا ضُحُوَّةً، فَقَامَتِ الْمُعْجِزَةُ وَاتَّضَحَ الْبُرْهَانُ، وَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ السِّحْرُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحَرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى» فَلَمَّا عَايَنَ السَّحَرَةُ ذَلِكَ وَشَاهَدُوهُ، وَلَهُمْ خَبْرَةٌ بِقُوَّةِ السِّحْرِ وَطَرَفِهِ وَوُجُوهِهِ، عَلِمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مُوسَى لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ وَالْجِبِلِّ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا إِلَّا الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَقَعُوا سَجْدًا لِلَّهِ، وَقَالُوا: «آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ»<sup>(٧)</sup> رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ<sup>(٨)</sup> وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدُ بْنُ عَمِيرٍ: كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ سَحَرَةً، وَفِي آخِرِ النَّهَارِ شُهَدَاءَ بَرَّةً<sup>(٩)</sup>.

(١) الطبري: ٣٤٠/١٨ ٣٦/١٣ (٢) ابن أبي حاتم: ٧/

٢٤٢٨ (٣) ابن أبي حاتم ٢٤٢٨/٧ (٤) الطبري: ٣٣٤/١٨

(٥) الطبري: ٣٤/١٣

جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَفْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦] وَقَالَ: ﴿وَيَنْجِبُهَا الْأَتَقَى﴾ [الأنبياء: ١١-١٣] وَقَالَ الْكَلْبِيُّ (٧) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأنبياء: ١١-١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَادَا يَمُوتُ يَمُوتُ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧] وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ أَنَاسٌ تُصِيبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ فَيُتَمِّتُهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا، أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ، فَجِئَ بِهِمْ صَبَائِرُ صَبَائِرَ، فَبُثُوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَقْبِضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَتَّبِعُونَ نَبَاتَ الْجَنَّةِ تَكُونُ فِي حَوِيلِ السَّيْلِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ بِالْبَادِيَةِ (٣). وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِهِ الصَّحِيحِ (٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أَيِ وَمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ يَوْمَ الْمَعَادِ مُؤْمِنًا الْقَلْبُ قَدْ صَدَّقَ ضَمِيرُهُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أَيِ الْجَنَّةِ ذَاتُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ، وَالْعُرْفِ الْأَمْنَاتِ، وَالْمَسَاكِينِ الطَّيِّبَاتِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ، وَالْعَرْشُ فَوْقَهَا، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ» (٥). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٦).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ فَوْقَهُمْ، كَمَا تَرَوْنَ الْكُوكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ - قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ: - «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ» (٧). وَفِي الشُّنَنِ: «وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَمِنْهُمْ وَأَنْعَمًا» (٨). وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ﴾ أَيِ إِقَامَةٍ، وَهِيَ بَدَلٌ مِنْ «الدَّرَجَتِ الْعُلَى» ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيِ مَا كَثُرَ أَبَدًا ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أَيِ طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنْ

إِنِّي وَقَوِي عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ مَعَ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَلَى الْهُدَى، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَكُونُ لَهُ الْعَذَابُ وَيَبْقَى فِيهِ، فَلَمَّا صَالَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُمْ، هَانَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أَيِ لَنْ نَخْتَارَكَ عَلَى مَا حَصَلَ لَنَا مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ، وَالَّذِي فَطَرَنَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْبَيِّنَاتِ، يَعْنُونَ لَا نَخْتَارَكَ عَلَى فَاطِرِنَا وَخَالِقِنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا مِنَ الْعَدَمِ، الْمُتَبَدِّي خَلَقَنَا مِنَ الطِّينِ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَا أَنْتَ، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أَيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ، وَمَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ بِذِكِّ، ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَيِ إِنَّمَا لَكَ تَسَلُّطٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَهِيَ دَارُ الزَّوَالِ، وَنَحْنُ قَدْ رَغَبْنَا فِي دَارِ الْقَرَارِ ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا﴾ أَيِ مَا كَانَ مِنَّا مِنَ الْآثَامِ، خُصُوصًا ﴿مَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ لِيَتَعَارَضَ بِهِ آيَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمُعْجَزَةُ نَبِيِّهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قَالَ: أَخَذَ فِرْعَوْنُ أَرْبَعِينَ غُلَامًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَمَرَ أَنْ يُعَلِّمُوا السِّحْرَ بِالْقَرِّ [مَا]، وَقَالَ: عَلِّمُوهُمْ تَعْلِيمًا لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَهُمْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى، وَهُمْ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَمَّا رَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ (١). وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْلَمَ (٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَيِ خَيْرٌ لَنَا مِنْكَ ﴿وَأَبْقَى﴾ أَيِ أَزْدَدُ نَوَابًا وَمِمَّا كُنْتَ وَعَدْتَنَا وَمَتَّيَّنًا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - صَمَّمَ عَلَى ذَلِكَ، وَفَعَلَهُ بِهِمْ رَحْمَةً لَهُمْ مِنَ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: أَضْبَحُوا سَحْرَةَ وَأَمْسُوا شُهَدَاءَ.

﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحِيمًا فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٣) وَمَنْ يَأْتِيهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَتُ الْعُلَى (٤) جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٥)

تَزَكَّى (٦)

[وَعَظُ السَّحْرَةِ أَمَامَ فِرْعَوْنَ]

الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ مَا وَعَظَ بِهِ السَّحْرَةَ لِفِرْعَوْنَ، يُحَذِّرُونَهُ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ الدَّائِمِ السَّرْمَدِيِّ، وَيُرْعَبُونَهُ فِي تَوَابِهِ الْأَبَدِيِّ الْمُحَلِّدِ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحِيمًا﴾ أَيِ يَلْقَى اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ مُجْرِمٌ ﴿فَإِنَّ لَهُ

(١) الدر المنثور: ٥٨٧/٥ (٢) الطبري: ٣٤١/١٨ (٣) أحمد: ١١/٣ (٤) مسلم: ١٧٢/١، ١٧٣ (٥) أحمد: ٥/٣١٦ (٦) تحفة الأحوذى: ٢٣٨/٧ (٧) فتح الباري: ٣٦٨/٦ ومسلم: ٢١٧٧/٤ (٨) أبو داود: ٢٨٧/٤ وتحفة الأحوذى: ١٤١/١٠ وابن ماجه: ٣٧/١

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا  
 فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ  
 بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ  
 وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أُنْجِيتُكَ مِنْ عَذَابِكُمْ وَوَعَدْنَاكَ  
 جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾ كَلُوا  
 مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي  
 وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ  
 وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ  
 قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ  
 رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ  
 السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ  
 يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ  
 الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ  
 مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا  
 أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

تَطْعَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ  
 هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

[تَذَكِيرُ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ الْعِظَامَ وَمِثْنَهُ  
 الْجِسَامَ، حَيْثُ أَنْجَاهُمْ مِنْ عَذَابِهِمْ فِرْعَوْنَ، وَأَقْرَأَ أَغْنِيَهُمْ  
 مِنْهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى جُنْدِهِ، قَدْ عَرَفُوا فِي صَبِيحَةِ  
 وَاحِدَةٍ، لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَعْرِفْنَا عَالِ فِرْعَوْنَ  
 وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا  
 قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَجَدَ الْيَهُودَ تَصُومُ عَاشُورَاءَ،  
 فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي أَظْفَرَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى عَلَى  
 فِرْعَوْنَ، فَقَالَ: «لَنْحُنَّ أَوَّلَى بِمُوسَى فَصُومُوهُ»<sup>(١)</sup> رَوَاهُ  
 مُسْلِمٌ أَيْضًا فِي صَحِيحِهِ<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى وَاعَدَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَءِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ  
 فِرْعَوْنَ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ

الدَّنَسِ وَالْخَبِيثِ وَالشُّرْكِ، وَعَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.  
 وَاتَّبَعَ الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَطَلَبَ.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي  
 الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ.  
 فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾  
 [خُرُوجُ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ مِصْرَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَمَى  
 فِرْعَوْنَ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ يُسْرِى بِهِمْ فِي اللَّيْلِ،  
 وَيَذْهَبَ بِهِمْ مِنْ قِبْضَةِ فِرْعَوْنَ، وَقَدْ بَسَطَ اللَّهُ هَذَا الْمَقَامَ  
 فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمَّا خَرَجَ  
 بِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَصْبَحُوا وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِمِصْرَ لَا دَاعٍ وَلَا  
 مُجِيبٍ، فَغَضِبَ فِرْعَوْنَ غَضَبًا شَدِيدًا، وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ  
 حَاشِرِينَ، أَيَّ مَنْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْجُنْدَ مِنْ بُلْدَانِهِ وَرَسَائِقِهِ،  
 يَقُولُ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَرِذْمَةُ قَبِيلُونَ﴾ وَأَمَرَهُمْ لَنَا لَعَابُطُونَ [الشعراء:  
 ٥٤، ٥٥]، ثُمَّ لَمَّا جُمِعَ جُنْدُهُ وَاسْتَوْسَقَ لَهُ جَيْشُهُ، سَاقَ  
 فِي طَلَبِهِمْ ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَّبِعِينَ﴾ أَيَّ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ  
 ﴿فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانِ﴾ أَيَّ نَظَرَ كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ  
 ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي  
 سَيَهْدِينِ [الشعراء: ٦١، ٦٢] وَوَقَفَ مُوسَى بِبَنِي إِسْرَءِيلَ:

الْبَحْرُ أَمَامَهُمْ، وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللَّهُ  
 إِلَيْهِ: أَنْ أَصْرَبَ ﴿لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ فَضْرَبَ الْبَحْرَ  
 بَعْضَاءَ، وَقَالَ: انْفُلِقْ عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ، ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ  
 كَأَطْوَدٍ الْعَظِيمِ﴾ أَيَّ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ الرِّيحَ  
 عَلَى أَرْضِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ حَتَّى صَارَ يَبَسًا كَوَجْهِ الْأَرْضِ،  
 فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾  
 أَيَّ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ يَعْنِي مِنَ الْبَحْرِ أَنْ يَغْرُقَ  
 قَوْمَكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ  
 الْيَمِّ﴾ أَيَّ الْبَحْرِ ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أَيَّ الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ  
 وَمَشْهُورٌ، وَهَذَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَمْرِ الْمَعْرُوفِ الْمَشْهُورِ، كَمَا  
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمَوْفِقَةُ آمَنَ﴾ فَتَسَنَّا مَا عَشَى [النجم:

٥٤، ٥٣]

وَكَمَا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ فِرْعَوْنُ فَسَلَكَ بِهِمْ فِي الْيَمِّ فَأَصْلَحَهُمْ، وَمَا  
 هَدَاهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ، كَذَلِكَ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أُنْجِيتُكَ مِنْ عَذَابِكُمْ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ  
 وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى﴾ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا

(١) فتح الباري: ٢٨٨/٨ (٢) مسلم: ١/٩٩٥



الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣١٨

سُورَةُ طه

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا آلِهَةً خُورِقُوا لَهُ فَنَادُوا هَذَا إِلَهُكُمْ  
وَاللهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا  
يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ  
يَقُومُوا إِنَّمَا أَنتُم مِّمَّنْ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مَّا تَشْتَكُونَ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا  
أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ  
﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونَ مَأْمَنُكَ إِذْ أَرَيْنَهُمْ ضَلُّوهُمُ ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُونَ  
أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَومُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي  
إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ  
قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ  
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ  
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ  
فَآذِ هَبْ فَاثْبُتْ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ  
مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ  
عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ  
إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ ﴿٩٨﴾ إِنَّ  
هَؤُلَاءِ مَتَدَّ مَا هُمْ فِيهِ وَظَلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ وَوَاعَدَهُ رَبُّهُ  
ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَنْبَأَهَا [لَهُ] عَشْرًا فَتَمَّتْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، أُنِي  
يَصُومُهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، فَسَارَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَادِرًا إِلَى  
الطُّورِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ، وَلِهَذَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصْحَابُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿١٠٠﴾ قَالَ هُمْ  
أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتَرَى ﴿١٠١﴾ أُنِي قَادِمُونَ يَنْزِلُونَ قَرِيبًا مِنَ الطُّورِ ﴿١٠٢﴾ وَوَعِدْتُ  
إِلَيْكَ رَبِّ لِرَضَى ﴿١٠٣﴾ أُنِي لِنَزَادَ عَنِّي رَضًا ﴿١٠٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا  
قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿١٠٥﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُوسَى بِمَا  
كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْحَدَثِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ  
الَّذِي عَمِلَهُ لَهُمْ ذَلِكَ السَّامِرِيُّ.

وَكَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْأَلْوَحَ الْمُتَضَمِّنَةَ  
لِلتَّوْرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ  
شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَفْوً وَآمَرَ قَوْمَكَ

تَعَالَى عَلَيْهِ، وَسَأَلَ فِيهِ الرُّوْيَةَ، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ هُنَاكَ،  
وَفِي غُضُونِ ذَلِكَ عَبْدُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ كَمَا يَقُضُهُ اللَّهُ  
تَعَالَى قَرِيبًا، وَأَمَّا الْمَنْ وَالسَّلَوَى فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى  
ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهَا، فَالْمَنْ حَلَوَى كَانَتْ تَنْزِلُ  
عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ، وَالسَّلَوَى طَائِرٌ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ. فَيَأْخُذُونَ  
مِنْ كُلِّ قَدَرِ الْحَاجَةِ إِلَى الْعِدِّ، لُطْفًا مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً بِهِمْ  
وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا  
رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أُنِي كُلُّوا مِنْ هَذَا  
الرِّزْقِ الَّذِي رَزَقْنَاكُمْ، وَلَا تَطْغَوْا فِي رِزْقِي فَتَأْخُذْهُ مِنْ  
غَيْرِ حَاجَةٍ، وَتَخَالِفُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾  
أُنِي أَغْضَبُ عَلَيْكُمْ ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ قَالَ  
عَلَيْ بَنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أُنِي  
قَدْ شَقِيْتُ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيَّ الْفَقَارِ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أُنِي كُلُّ  
مَنْ تَابَ إِلَيَّ، ثُبْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُنِي ذَنْبُ كَانَ، حَتَّى إِنَّهُ تَعَالَى  
تَابَ عَلَى مَنْ عَبْدَ الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿تَابَ﴾ أُنِي رَجَعَ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شِرْكٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ  
أَوْ نِفَاقٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّنَ﴾ أُنِي بِقَلْبِهِ. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾  
أُنِي بِجَوَارِحِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي  
طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أُنِي ثُمَّ لَمْ يَسْكُكْ <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ  
﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ أُنِي لَزِمَ الْإِسْلَامَ حَتَّى يَمُوتَ. وَ﴿ثُمَّ﴾ هَهُنَا  
لِتَرْتِيبِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَوَاصُوا بِالنُّصَرِ وَوَاصُوا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

﴿وَمَا أَصْحَابُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿١٠٠﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ  
أَتَرَى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿١٠١﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ  
بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿١٠٢﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا  
قَالَ يَقُومُوا أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَظُنَّ عَلَيْكُمْ الْعَهْدَ  
أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿١٠٣﴾  
قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمُ  
فَقَدَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَتَى السَّامِرِيُّ ﴿١٠٤﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُمُ  
خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿١٠٥﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا  
يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿١٠٦﴾

[ذَهَابُ مُوسَى إِلَى مَوْعِدِ اللَّهِ وَوُقُوعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي  
عِبَادَةِ الْعِجْلِ]

لَمَّا سَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ  
فِرْعَوْنَ ﴿فَاتَّوَا عَلَى قَوْمٍ يَكْفُرُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى

يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهِمَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ [الأعراف: ١٤٥] أَيَّ عَاقِبَةِ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِي الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِي.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيسَفًا﴾ أَيَّ بَعْدَ مَا أَخْبَرَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، فِي غَايَةِ الْغَضَبِ وَالْحَتِّ عَلَيْهِمْ - هُوَ فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْإِعْتِنَاءِ بِأَمْرِهِمْ، وَتَسَلَّمَ التَّوَرَةَ الَّتِي فِيهَا شَرِيعَتُهُمْ، وَفِيهَا شَرَفٌ لَهُمْ، وَهُمْ قَوْمٌ قَدْ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، مَا يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ لَهُ لُبٌّ وَحَزَمٌ - يُظَلَّانَ مَا هُمْ فِيهِ وَسَخَافَةٌ عَقُولُهُمْ وَأَذْهَانُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: رَجَعَ إِلَيْهِمْ ﴿غَضْبَنَ أَيسَفًا﴾ وَالْأَيْسَفُ شِدَّةُ الْغَضَبِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿غَضْبَنَ أَيسَفًا﴾ أَيَّ جَزَعًا <sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أَسَفًا حَزِينًا عَلَى مَا صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ <sup>(٢)</sup>. ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أَيَّ أَمَا وَعَدْتُمْ عَلَى لِسَانِي كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحُسْنِ الْعَاقِبَةِ، كَمَا شَاهَدْتُمْ مِنْ نُصْرَتِي إِيَّاكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ وَإِظْهَارِكُمْ عَلَيْهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَيَادِي اللَّهِ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أَيَّ فِي أَنْتِظَارِ مَا وَعَدَكُمْ اللَّهُ، وَبَيَّانِ مَا سَلَفَ مِنْ نِعَمِهِ وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ، ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَمْ هَهُنَا بِمَعْنَى بَلْ، وَهِيَ لِلْإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ وَعُدُولِ إِلَى الثَّانِي، كَأَنَّهُ يَقُولُ: بَلْ أَرَدْتُمْ بِصَنِيعِكُمْ هَذَا أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مُوعِدِي، ﴿قَالُوا﴾ أَيَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي جَوَابِ مَا أَنْبَهُمُ مُوسَى وَقَرَعَهُمْ ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ أَيَّ عَنْ قُدْرَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا، ثُمَّ شَرَعُوا يَعْتَذِرُونَ بِالْعُدْرِ الْبَارِدِ، يُخْبِرُونَهُ عَنْ تَوَرُّعِهِمْ عَمَّا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ حُلِيِّ الْقَبْطِ الَّذِي كَانُوا قَدْ اسْتَعَارَوْهُ مِنْهُمْ، حِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ، ﴿فَقَدَفْنَاهَا﴾ أَيَّ أَلْقَيْنَاهَا عَنَّا.

وَفِي رِوَايَةِ السُّدِّيِّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا أَرَادَ هَارُونُ أَنْ يَجْتَمِعَ الْحُلِيِّ كُلُّهُ فِي تِلْكَ الْخَفِيرَةِ، وَيَجْعَلَ حَجَرًا وَاحِدًا، حَتَّى إِذَا رَجَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَأَى فِيهِ مَا يَشَاءُ، ثُمَّ جَاءَ ذَلِكَ السَّامِرِيُّ فَأَلْقَى عَلَيْهَا تِلْكَ الْقَبْضَةَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ، وَسَأَلَ مِنْ هَارُونُ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ فِي دَعْوَتِهِ، فَدَعَا لَهُ هَارُونُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا يُرِيدُ. فَأُجِيبَ لَهُ، فَقَالَ السَّامِرِيُّ عِنْدَ ذَلِكَ: أَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ عِجْلًا، فَكَانَ عِجْلًا لَهُ خَوَارٌ - أَيَّ صَوْتٌ - اسْتِذْرَاجًا، وَإِمَهَالًا وَمِوَحْنَةً وَاخْتِيَارًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَذَلِكَ أَتَى السَّامِرِيُّ <sup>(٣٧)</sup>﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُمْ خَوَارٌ <sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ قَالَ: فَعَكَفُوا عَلَيْهِ وَاحْبُوهُ حُبًّا لَمْ يُحِبُّوا شَيْئًا قَطُّ يَعْنِي مِثْلَهُ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿فَنَسِيَ﴾ أَيَّ تَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ يَعْنِي السَّامِرِيُّ <sup>(٤)</sup>. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ، وَبَيَّانًا لِفَضِيحَتِهِمْ، وَسَخَافَةَ عَقُولِهِمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيَّ الْعِجْلُ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُمْ إِذَا سَأَلُوهُ وَلَا إِذَا خَاطَبُوهُ، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أَيَّ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا فِي أُخْرَاهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ خَوَارُهُ إِلَّا أَنْ يَدْخُلَ الرِّيحُ فِي دُبُرِهِ، فَيَخْرُجُ مِنْ فِيهِ فَيَسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ <sup>(٥)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الثُّنُونِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّ هَذَا الْعِجْلَ اسْمُهُ بُهْمُوتٌ <sup>(٦)</sup>. وَحَاصِلُ مَا اعْتَدَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنْ زِينَةِ الْقَبْطِ، فَأَلْقَوْهَا عَنْهُمْ وَعَبَدُوا الْعِجْلَ، فَتَوَرَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَفَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَأَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَنْ دَمِ الْبُعُوضِ إِذَا أَصَابَ الثُّوبَ، يَعْنِي هَلْ يُصَلِّي فِيهِ أَمْ لَا؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: انْظُرُوا إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ، قَتَلُوا ابْنَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ، يَعْنِي الْحُسَيْنَ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ عَنْ دَمِ الْبُعُوضَةِ <sup>(٧)</sup>.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ <sup>(١٤٦)</sup>﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى <sup>(١٤٧)</sup>﴾

[نَهَى هَارُونُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَإِضْرَارِهِمْ عَلَيْهَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا كَانَ مِنْ نَهْيِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، وَإِخْبَارِهِ إِيَّاهُمْ: أَنَّمَا هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ الْفَعَّالُ لَمَّا يُرِيدُ ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ أَيَّ فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَاتْرَكُوا مَا أَنْهَأَكُمْ عَنْهُ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أَيَّ لَا نَتْرُكُ عِبَادَتَهُ حَتَّى نَسْمَعَ

(١) الطبري: ٣٥٠/١٨ (٢) الطبري: ٣٥٠/١٨ (٣) النسائي في الكبرى: ٣٩٦/٦ (٤) تاريخ الطبري: ٤٢٢/١ والطبري: ٣٥٠/١٨ إسناده ضعيف فيه تدليس ابن إسحاق ولم يصرح (٥) تاريخ الطبري: ٤٢٥، ٤٢٤/١ (٦) النسائي في الكبرى: ٦/٣٩٦ (٧) فتح الباري: ٤٤٠/١٠

إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ اسْمُهُ: مُوسَى بْنُ طَفَرَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ مِنْ قَوِيَّةٍ سَامَرًا<sup>(٤)</sup>. ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أَيَّ رَأَيْتُ جَبْرِيلَ حِينَ جَاءَ لِهَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أَيَّ مِنْ أَثَرِ فِرْعَوْنِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَوْ أَكْثَرِهِمْ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قَالَ: مِنْ تَحْتِ حَافِرِ فِرْسِ جَبْرِيلَ<sup>(٥)</sup>. قَالَ: وَالْقَبْضَةُ يِلُّ الْكَفِّ، وَالْقَبْضَةُ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: نَبَذَ السَّامِرِيُّ، أَيَّ أَلْقَى مَا كَانَ فِي يَدِهِ عَلَى حِلْيَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَانْسَبَكَ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا - خَفِيفُ الرِّيحِ فِيهِ فَهُوَ خُورَاهُ<sup>(٦)</sup> - وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أَيَّ أَلْقَيْتُهَا مَعَ مَنْ أَلْقَى ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أَيَّ حَسَنَتْهُ وَأَعْجَبَهَا إِذْ ذَاكَ.

#### [عِقَابُ السَّامِرِيِّ وَتَحْرِيقُ الْعِجَلِ]

﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أَيَّ كَمَا أَخَذْتَ وَمَسِسْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ أَخْذُهُ، وَمَسَّهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَعُقُوبَتُكَ فِي الدُّنْيَا ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أَيَّ لَا تَمَسُّ النَّاسَ وَلَا يَمْسُونَكَ ﴿وَلَنْ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أَيَّ لَا مَحِيدَ لَكَ عَنْهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قَالَ: عُقُوبَةُ لَهُمْ، وَبَقَايَاهُمْ الْيَوْمَ يَقُولُونَ: لَا مِسَاسَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَأَبُو نَهْشَبٍ: لَنْ تَغِيْبَ عَنْهُ<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ أَيَّ مَعْبُودِكَ ﴿الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أَيَّ أَقَمْتَ عَلَى عِبَادَتِهِ، يَغْنِي الْعِجَلُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يَقُولُ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَيْسَ هَذَا إِلَهُكُمْ، إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا تَتَّبِعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ عَبْدٌ لَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ، أَيَّ هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، ﴿فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ ذَرَّةً﴾ [سبا: ٣] ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي

كَلَامٍ مُوسَى فِيهِ، وَخَالَفُوا هَارُونَ فِي ذَلِكَ وَحَارَبُوهُ وَكَادُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ.

﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ٩٢ ﴿أَلَا تَتَّبِعْتِ أَفْعَصْتِ أَمْرِي﴾ ٩٣ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفُقْ بِقَوْلِي﴾ ٩٤

[مَا حَصَلَ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ بَعْدَ مَا رَجَعَ مُوسَى] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَرَأَى مَا قَدْ حَدَثَ فِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، فَامْتَلَأَ عِنْدَ ذَلِكَ غَضَبًا، وَأَلْقَى مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ الْأَلْوَاحِ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ قَدَمْنَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بَسْطَ ذَلِكَ، وَذَكَرْنَا هُنَاكَ حَدِيثَ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمَعَانِيَةِ»<sup>(١)</sup>. وَشَرَعَ يَلُمُ أَخَاهُ هَارُونَ، فَقَالَ: ﴿مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ٩٢ ﴿أَلَا تَتَّبِعْتِ﴾ أَيَّ فَتُخْبِرَنِي بِهَذَا الْأَمْرِ أَوَّلَ مَا وَقَعَ ﴿أَفْعَصْتِ أَمْرِي﴾ أَيَّ فِيمَا كُنْتَ قَدِمْتَ إِلَيْكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ تَرَفَّقَ لَهُ بِذِكْرِ الْأُمِّ مَعَ أَنَّهُ شَقِيقُهُ لِأَبُوئِهِ، لِأَنَّ ذِكْرَ الْأُمِّ هُنَا أَرَقُّ وَأَبْلَغُ فِي الْحُثِّ وَالْعُطْفِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ ٩٣ الْآيَةِ، هَذَا اعْتِدَارٌ مِنْ هَارُونَ عِنْدَ مُوسَى فِي سَبَبِ تَأْخِرِهِ عَنْهُ حَيْثُ لَمْ يَلْحَقْهُ فَيُخْبِرُهُ بِمَا كَانَ مِنْ هَذَا الْخَطْبِ الْجَسِيمِ، قَالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إِنْ أَتَيْتُكَ فَأَخْبِرَكَ بِهَذَا، فَتَقُولَ لِي لِمَ تَرَكْتَهُمْ وَخَدَهُمْ وَفَرَّقْتَ بَيْنَهُمْ ﴿وَلَمْ تَرْفُقْ بِقَوْلِي﴾ أَيَّ وَمَا رَاعَيْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ حَيْثُ اسْتَخْلَفْتُكَ فِيهِمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ هَارُونَ هَائِبًا مُطِيعًا لَهُ<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمُرِي﴾ ٩٥ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ ٩٦ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ٩٧ ﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ٩٨ ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ٩٩

#### [كَيْفَ نَحَتَ السَّامِرِيُّ الْعِجَلَ؟]

يَقُولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْسَّامِرِيِّ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ وَمَا الَّذِي عَرَضَ لَكَ حَتَّى فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ السَّامِرِيُّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ «بَاجِرْمَا»، وَكَانَ مِنْ قَوْمِ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ، وَكَانَ حُبَّ عِبَادَةِ الْبَقَرِ فِي نَفْسِهِ، وَكَانَ قَدْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ مَعَ بَنِي

(١) أحمد: ٢٧١/١ (٢) الطبري: ٣٥٩/١٨ (٣) تاريخ الطبري: ٤٢٤/١ (٤) الطبري: ٣٦٣/١٨ (٥) الطبري: ١٨/٣٦٢ (٦) الطبري: ٣٦٢/١٨ (٧) الطبري: ٣٦٤/١٨

٣١٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٢٠﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٢٢﴾ يَخْفَتُونَ مِنْهُمْ إِنْ لَبِثُوا إِلَّا عَشْرًا ﴿٢٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْ لَهُمْ طَرِيقَةٌ إِنْ لَبِثُوا إِلَّا يَوْمًا ﴿٢٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٢٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٢٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلٌ وَلَا شَاوٍ وَلَا أَمْتًا ﴿٢٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ أَعْوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿٢٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿٢٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ. عِلْمًا ﴿٣٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿٣٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿٣٣﴾

رواية أبي هريرة أنه قرأ عظيم، الدائرة منه بقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرائيلي عليه السلام<sup>(٢)</sup>. وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التئم القرن، وحتى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يا رسول الله، كيف تقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»<sup>(٣)</sup>. وقوله: «ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا» قيل: معناه: زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال «يتخفتون بينهم» قال ابن عباس: يتسارون بينهم<sup>(٤)</sup>. أي يقول بعضهم لبعض: «إن لبثنا إلا عسرًا» أي في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلًا عشرة أيام أو نحوها، قال الله تعالى: «نحن أعلم بما يقولون» أي في حال تواجهم بينهم «إذ يقول أمثلهم طريقة» أي العاقل الكامل فيهم «إن لبثنا إلا يومًا» أي يقصر مدة الدنيا في أنفسهم

ظلمت الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتب مبين<sup>(٥)</sup> [الأنعام: ٥٩]، «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها وستودعها كل في كتب مبين» [هود: ٦] والآيات في هذا كثيرة جدًا.

كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذِكْرًا ﴿١٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٢٠﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٢١﴾

[القرآن ذكر الله الجامع وبيان عقوبة من أعرض عنه] يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجبلية والأمير الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت، من غير زيادة ولا نقص، هذا «وقد آتيناك من لدنا» أي من عندنا «ذكرًا» وهو القرآن العظيم الذي «لا يأتيه البطل من بين يديه ولا من خلفه» تنزيل من حكيم حميد: [فصلت: ٤٢] الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ كتابًا مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفضل بين الناس منه.

ولهذا قال تعالى: «من أعرض عنه» أي كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء السبيل، ولهذا قال: «من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا» أي إنما، كما قال تعالى: «ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده» [هود: ١٧] وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: «لا يذكرهم به» ومن بلغ [الأنعام: ١٩] فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه، ضلّ وسقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: «من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا» خالدين فيه «أي لا مخرج لهم عنه ولا انفكاك» وساء لهم يوم القيامة حملًا أي ينس الحبل حملهم.

«يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا» يتخفتون بينهم «إن لبثنا إلا عسرًا» نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثنا إلا يومًا ﴿٣٣﴾

[نفض الصور ويوم القيامة]

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: «قرن ينفخ فيه»<sup>(١)</sup>. وقد جاء في حديث الصور من

(١) تحفة الأحوذى: ١١٦/٩ (٢) الطبراني في الطوال: ٣٦

(٣) تحفة الأحوذى: ١١٧/٩ (٤) الطبري: ٣٧١/١٨

إِلَى الدَّاعِ ﴿الْقمر: ٨﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَكَتَتْ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ: ﴿فَلَا سَمْعَ إِلَّا هَمْسًا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُعْنِي وَطْءُ الْأَقْدَامِ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَلَا سَمْعَ إِلَّا هَمْسًا﴾ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ<sup>(٥)</sup>. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالضَّحَّاكِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿فَلَا سَمْعَ إِلَّا هَمْسًا﴾ الْحَدِيثُ وَسِرُّهُ، وَوَطْءُ الْأَقْدَامِ.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ

قَوْلًا﴾<sup>(٦)</sup> يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ.

عَلَّمَ<sup>(٧)</sup> وَنَعَتِ الْوُجُوهَ لِلْحَيِّ الْقَبُورِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ

ظُلْمًا<sup>(٨)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَافُ ظُلْمًا

وَلَا هَضْمًا<sup>(٩)</sup>

[الشَّفَاعَةُ وَالْجَزَاءُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَيُّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَا نَنْفَعُ

الشَّفَعَةَ﴾ أَيُّ عِنْدَهُ ﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾

كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا

مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضِيَ﴾ [النجم: ٢٦] وَقَالَ:

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

[الأنبياء: ٢٨] وَقَالَ: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَى

لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وَقَالَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَاشِرُ صَفًّا لَا

يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]. وَفِي

الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ

آدَمَ، وَأَكْرَمُ الْخَلَائِقِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ: «اتَّبِعْ

تَحْتَ الْعَرْشِ، وَأَخِرُ اللَّهِ سَاجِدًا، وَيَفْتَحْ عَلَيَّ بِمَحَامِدٍ لَا

أُحْصِيهَا الْآنَ، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ أَنْ يَدْعُنِي، ثُمَّ يَقُولُ: يَا

مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ، فَيَحْدُثُ

لِي حَدًّا، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُوذُ<sup>(١٠)</sup> فَذَكَرَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ،

صَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ. وَفِي

الْحَدِيثِ أَيْضًا: «يَقُولُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ

(١) الطبري: ٣٧٢/١٨ والدر المنثور: ٥٩٨/٥ و٥٩٩ (٢)

الطبري: ٣٧٤/١٨ (٣) الطبري: ٣٧٤/١٨ (٤) الطبري:

٣٧٥/١٨ (٥) الطبري: ٣٧٥/١٨ (٦) فتح الباري: ٢٤٧/٨

ومسلم: ١٨٤/١

يَوْمَ الْمَعَادِ، لِأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَإِنْ تَكَرَّرَتْ أَوْ قَانَتْهَا وَتَعَاقَبَتْ لَيَالِيهَا وَأَيَّامُهَا وَسَاعَاتُهَا، كَانَتْهَا يَوْمٌ وَاحِدًا، وَلِهَذَا يَسْتَقْصِرُ الْكَافِرُونَ مَدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ غَرَضُهُمْ فِي ذَلِكَ ذَرْءَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لِقَصْرِ الْمَدَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَلَكِنَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾... الْآيَةُ [فاطر: ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾<sup>(١١)</sup> قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا الْعَالَمِينَ<sup>(١٢)</sup> قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ<sup>(١٣)</sup> [المؤمنون: ١١٢-١١٤] أَيْ إِنَّمَا كَانُوا لَبِثْتُمْ فِيهَا قَلِيلًا، لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لَا تَزِنُ الْبَاقِي عَلَى الْفَانِي، وَلَكِنْ تَصَرَّفْتُمْ فَاسْأَلْتُمْ التَّصَرُّفَ، قَدَّمْتُمْ الْحَاضِرَ الْفَانِي عَلَى الدَّائِمِ الْبَاقِي.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا<sup>(١٤)</sup> فَيَذَرُهَا قَاعًا

صَفْصَفًا<sup>(١٥)</sup> لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا<sup>(١٦)</sup> يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ

الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا سَمْعَ إِلَّا

هَمْسًا<sup>(١٧)</sup>

[تَنْسِفُ الْجِبَالَ وَتَصِيرُ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أَيُّ هَلْ تَبْقَى يَوْمَ

الْقِيَامَةِ أَوْ تَزُولُ؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أَيُّ يَذْهِبُهَا عَنْ

أَمَاكِنِهَا وَيَمْحَقُهَا وَيُسِيرُهَا تَسِيرًا ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أَيُّ الْأَرْضِ

﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أَيُّ بِسَاطًا وَاحِدًا، وَالْقَاعُ هُوَ الْمُسْتَوِي

مِنَ الْأَرْضِ، وَالصَّفْصَفُ تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى ذَلِكَ، وَقِيلَ: الَّذِي

لَا نَبَاتَ فِيهِ، وَالْأَوَّلُ أَوَّلِي، وَإِنْ كَانَ الْآخِرُ مُرَادًا أَيْضًا

بِالْإِزْمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أَيُّ لَا

تَرَى فِي الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ وَادِيًا وَلَا رَابِيَةً وَلَا مَكَانًا مُنْخَفِضًا

وَلَا مُرْتَفِعًا، كَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ،

وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ

السَّلَفِ<sup>(١٨)</sup>.

[يَسْعَى النَّاسُ لَصَوْتِ الدَّاعِي]

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أَيُّ يَوْمَ يَرَوْنَ هَذِهِ

الْأَحْوَالَ وَالْأَهْوَالَ يَسْتَجِيبُونَ مُسَارِعِينَ إِلَى الدَّاعِي

حَيْثُمَا أَمَرُوا بِأَدْرُوهُ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ

أَنْفَعَ لَهُمْ وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿أَتَمَعْتُمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] وَقَالَ: ﴿مُهْطِعِينَ

سُورَةُ طه

٣٢٠

سُورَةُ طه

فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٥﴾ فَقُلْنَا يَنْدَادُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا تُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٦﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٧﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٨﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادُمْ هَلْ أَتَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَآبِلٍ ﴿١١٩﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ لَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢١﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ تِلْكَ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٣﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٤﴾

وَالْفَوَاحِشَ ﴿١٢٥﴾ أَوْ يُحْدِثْ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٢٦﴾ وَهُوَ إِبْجَادُ الطَّاعَةِ وَفِعْلُ الْقُرْبَاتِ ﴿١٢٧﴾ فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ ﴿١٢٨﴾ أَيْ تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ حَقٌّ وَوَعْدُهُ حَقٌّ، وَوَعِيدُهُ حَقٌّ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ حَقٌّ، وَوَعْدُهُ تَعَالَى: أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَحَدًا قَبْلَ الْإِنْذَارِ وَبَعْنَةُ الرُّسُلِ، وَالْإِعْذَارِ إِلَى خَلْقِهِ لِئَلَّا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ.

[أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ عِنْدَ النَّزُولِ دُونَ

الِاسْتِعْجَالِ لِقِرَاءَتِهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ: ﴿لَا تُخْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٢﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٣﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٤﴾ [القيامة: ١٦-١٩] وَتَبَّتْ فِي

فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ: أَخْرَجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِصْفٌ مِثْقَالٍ مِنْ إِيْمَانٍ، أَخْرَجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَرُونَ ذَرَّةً، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ... الْحَدِيثُ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَيْ يُحِيطُ عِلْمًا بِالْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ عِلْمًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَسَى الْأُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: خَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَسَلَمَتْ الْخَلَائِقُ لِجَبَارِهَا الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، الْقَيُّومُ الَّذِي لَا يَنَامُ <sup>(٢)</sup>. وَهُوَ قِيَمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يُدَبِّرُهُ وَيَحْفَظُهُ، فَهُوَ الْكَامِلُ فِي نَفْسِهِ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، لَا قِيَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي كُلَّ حَقٍّ إِلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يُفْتَنَ لِلشَّاءِ الْجَمَاءِ مِنَ الشَّاءِ الْقُرْآنِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يُجَاوِزُنِي الْيَوْمَ ظُلْمٌ ظَالِمٌ» وَفِي الصَّحِيحِ: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» <sup>(٣)</sup>، وَالْخَبِيَّةُ كُلُّ الْخَبِيَّةِ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ بِهِ مُشْرِكٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَافِ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لَمَّا ذَكَرَ الظَّالِمِينَ وَوَعِيدَهُمْ، نَتَى بِالْمُتَّقِينَ وَحُكْمِهِمْ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يَظْلَمُونَ وَلَا يُهْضَمُونَ، أَيْ لَا يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يُنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ <sup>(٤)</sup>. فَالظُّلْمُ الزِّيَادَةُ، بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ غَيْرُهُ، وَالْهَضْمُ النِّقْصُ.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١٢٥﴾ فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٢٦﴾

[أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيَتَّبِعِيَ النَّاسُ وَيَتَذَكَّرُوا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَاقِعًا لَا مَحَالَ، أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ فَصِيحٍ لَا لُبْسَ فِيهِ وَلَا عَيٍّْ ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ يَتَرَكُونَ الْمَآئِمَ وَالْمَحَارِمَ

(١) فتح الباري: ٤٨١/١٣ (٢) الطبري: ٣٧٨، ٣٧٧/١٨ (٣)

مسلم: ١٩٩٦/٤ (٤) الطبري: ٣٨٠، ٣٧٩/١٨

فِي طَلَبِ رِزْقِكَ، فَإِنَّكَ هَهُنَا فِي عَيْشٍ رَعِيدٍ هَبْنِي بِلَا كُفْلَةٍ وَلَا مَشَقَّةٍ ﴿١١٦﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٧﴾ إِنَّمَا قَرْنَ بَيْنَ الْجُوعِ وَالْعُرْيِ، لِأَنَّ الْجُوعَ ذُلُّ الْبَاطِنِ، وَالْعُرْيُ ذُلُّ الظَّاهِرِ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ وَهَذَانِ أَيْضًا مُتَقَابِلَانِ، فَالظَّمَأُ حَرُّ الْبَاطِنِ وَهُوَ الْعَطَشُ، وَالضْحَى حَرُّ الظَّاهِرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادَمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ﴾ ﴿١١٨﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ ذَلَا هُمَا يَغُرُورُ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ﴾ [الأعراف: ٢١] وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ عَهْدَ إِلَىٰ آدَمَ وَزَوْجِهِ أَن يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ الثَّمَارِ وَلَا يَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ الْمُعَيَّنَةَ فِي الْجَنَّةِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِمَا إِبْلِيسُ حَتَّىٰ أَكَلَا مِنْهَا. وَكَانَتْ شَجَرَةُ الْخُلْدِ، يَعْنِي النَّبِيَّ مَنْ أَكَلَ مِنْهَا خَلَدَ وَدَامَ مَكْنُهُ. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ شَجَرَةِ الْخُلْدِ، فَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّبَالِسِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّابِطُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا، وَهِيَ شَجَرَةُ الْخُلْدِ»<sup>(٥)</sup> وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طَوَالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَا مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَىٰ عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الْجَنَّةِ، فَأَخَذَتْ شَعْرُهُ شَجَرَةً فَتَارَعَهَا، فَتَادَاهُ الرَّحْمَنُ: يَا آدَمُ مَنِي تَبَرُّ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ: يَا رَبِّ لَا، وَلَكِنْ اسْتَحْيَاءٌ، أَرَأَيْتَ إِنْ ثُبْتُ وَرَجَعْتُ أَعَانِدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ»<sup>(٧)</sup>. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وَهَذَا مُنْقَطِعٌ بَيْنَ الْحَسَنِ وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ، فَلَمْ يَسْمَعْهُ مِنْهُ، وَفِي رَفْعِهِ نَظَرٌ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَطَافَا بِحِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] قَالَ مُجَاهِدٌ: يَرْقَعَانِ كَهَيْئَةِ الثَّوْبِ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَلَبَّ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ

الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَالِجُ مِنَ الْوُحْيِ شِدَّةً، فَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٩)</sup> يَعْنِي أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ جَبْرِيلُ بِالْوُحْيِ، كُلَّمَا قَالَ جَبْرِيلُ آيَةً قَالَهَا مَعَهُ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَىٰ حِفْظِ الْقُرْآنِ، فَأَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مَا هُوَ الْأَسْهَلُ وَالْأَخَفُ فِي حَقِّهِ لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿[القيامة: ١٦، ١٧] أَيْ أَن نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ، ثُمَّ تَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْسِيَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْمِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿[القيامة: ١٨، ١٩] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَعْجَلَ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أَيْ بَلْ أَنْصِتْ، فَإِذَا قَرَعَ الْمَلِكُ مِنْ قِرَائَتِهِ عَلَيْكَ فَاقْرَأْهُ بَعْدَهُ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أَيْ زِدْنِي مِنْكَ عِلْمًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَمْ يَزَلْ ﷺ فِي زِيَادَةٍ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ ﴿١٢٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١٢٣﴾ فَلَمَّا يَتَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١٢٤﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١٢٥﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١٢٦﴾ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادَمُ هَلْ أَذُكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ﴿١٢٧﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَافَا بِحِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢٨﴾ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَلَبَّ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٩﴾

### [قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ لِأَنَّهُ عَهْدَ إِلَيْهِ فَتَسَيَّ<sup>(١٠)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: تَرَكَ<sup>(١٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَىٰ تَشْرِيفَ آدَمَ، وَتَكْرِيمَهُ وَمَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَفِي الْأَعْرَافِ وَفِي الْحَجَرِ وَالْكَهْفِ، وَسَيَأْتِي فِي آخِرِ سُورَةِ ﴿ص﴾ يَذْكُرُ تَعَالَىٰ فِيهَا خَلْقَ آدَمَ وَأَمْرَهُ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا، وَيُبَيِّنُ عِدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِبَنِي آدَمَ وَلِإِبْهَمٍ قَدِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أَيْ امْتَنَعَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿فَلَمَّا يَتَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرِزْوَجِكَ﴾ يَعْنِي حَوَاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ أَيْ إِثَّاكَ أَنْ [يَسْعَى] فِي إِخْرَاجِكَ مِنْهَا فَتَتَعَبَ وَتَغْنَى وَتَشْقَى

(١) فتح الباري: ٣٩/١ (٢) الطبري: ٣٨٣/١٨ (٣) الطبري:

٣٨٣/١٨ (٤) الطبري: ٣٨٣/١٨ (٥) مسند الطيالسي: ٣٣٢

تقدم حكمه (٦) أحمد: ٤٥٥/٢ (٧) الطبري: ٣٥٤/١٢ (٨)

الطبري: ٣٨٨/١٨

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشَقَيْتَهُمْ. قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى، أَنْتَ الَّذِي اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرِ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي - أَوْ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى<sup>(١)</sup> وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ فِي الصَّحِيحِينَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْمَسَانِيدِ<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالَ أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ (١٢٦)

[إِنْزَالَ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ وَوَعْدَ الْخَيْرِ لِمَنْ اهْتَدَى وَالشَّرَّ لِمَنْ بَغَى]

يَقُولُ تَعَالَى لِآدَمَ وَحَوَاءَ وَإِبْلِيسَ: أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا، أَيُّ مِنَ الْجَنَّةِ كُلُّكُمْ، وَقَدْ بَسَطْنَا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قَالَ: آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ، وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالْبَيَّانُ<sup>(٣)</sup> ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ<sup>(٤)</sup> ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أَيُّ خَالَفَ أَمْرِي وَمَا أُنْزِلَتْهُ عَلَى رَسُولِي، أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ، وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هُدَاهُ ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أَيُّ ضَنْكًا فِي الدُّنْيَا، فَلَا طُمَآنِينَةَ لَهُ وَلَا انْتِشَاحَ لِصَدْرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ، وَلَبَسَ مَا شَاءَ، وَأَكَلَ مَا شَاءَ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ، فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى فَهُوَ فِي قَلْبِي وَخَيْرَةٍ وَشَكٍّ، فَلَا يَزَالُ فِي رِيبَةٍ يَرَدُّدًا، فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ: لَا حُجَّةَ لَهُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: عُمِّي عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمًى وَكُفًّا وَصُمًّا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ﴾... الْآيَةُ [الْإِسْرَاءُ: ٩٧]، وَلِهَذَا يَقُولُ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ أَيُّ لَمَّا أَعْرَضْتَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَعَامَلْتَهَا مُعَامَلَةً مَنْ لَمْ يَذْكُرْهَا بَعْدَ بَلَاغِهَا إِلَيْكَ، تَنَاسَيْتَهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢١

سُورَةُ طه

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى أَمْتِ غَائِبَةٍ أَوْ رُجَاءٍ مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسَتِهِمْ فِيهِ وَرَزَقَ رَبُّكَ خَيْرًا وَأَبْقَى﴾ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْرِجَ﴾ (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (١٣٥)

وَأَعْرَضَتْ عَنْهَا وَأَغْفَلَتْهَا، كَذَلِكَ الْيَوْمَ نَعَامِلُكَ مُعَامَلَةً مَنْ يَنْسَاكَ ﴿فَالْيَوْمَ تَنْسَهُنَّ كَمَا سُئِلُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الْأَعْرَافُ: ٥١] فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. فَأَمَّا نِسْيَانُ لَفْظِ الْقُرْآنِ مَعَ فَهْمِ مَعْنَاهُ وَالْقِيَامُ بِمُقْتَضَاهُ، فَلَيْسَ دَاجِلًا فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْخَاصِّ، وَإِنْ كَانَ مُتَوَعَّدًا عَلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِالنُّهْيِ الْأَكِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ فِي ذَلِكَ.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ

وَأَبْقَى﴾ (١٢٧)

[الْعَذَابُ الشَّدِيدُ لِلْمُسْرِفِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَهَكَذَا نَجَازِي الْمُسْرِفِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

(١) فتح الباري: ٢٨٨/٨ (٢) فتح الباري: ٥٠٨/٦ و٥١٣/١١ ومسلم: ٢٠٤٢/٤ و٢٠٤٣ وأحمد: ٢٨٧/٢ و٣١٤ (٣) الطبري: ٥٤٩/١ (٤) الطبري: ٣٨٩/١٨ (٥) الطبري: ١٨/٣٩٥، ٣٩٤



وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ آتَانِيَ اللَّيْلُ فَسَبَّحَ» أَيُّ مِنْ سَاعَاتِهِ فَتَهَجَّدَ بِهِ، وَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ «وَأَطْرَافِ النَّهَارِ» فِي مُقَابَلَةِ آتَاءِ اللَّيْلِ «لَعَلَّكَ تَرْضَى» كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» [الضحى: ٥] وَفِي الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أَعْطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»<sup>(٥)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَ كُمُوهُ: فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يَبَيِّضْ وَجُوهَنَا وَيُنْقِلِ مَوَازِينَنَا وَيَرْخِزْخِرْنَا عَنِ النَّارِ وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ، فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ خَيْرًا مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ»<sup>(٦)</sup>.

«وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَتْ بِهِ» أَرْوَجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَرَزَقَ رَبُّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَى<sup>(٧)</sup> وَأَمَرَ أَهْلَكَ بِالضُّلُوعِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْتَكْثِرْ رِزْقًا تَحْتَ رِزْقِكَ وَالْعِيقَةُ لِلْفُقَرَاءِ<sup>(٨)</sup>.

[لَا تَنْظُرْ إِلَى مُتَعَةِ الْأَغْنِيَاءِ وَاصْبِرْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ] يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: لَا تَنْظُرْ إِلَى مَا هُوَ لَا الْمُتَرَفُّونَ وَأَشْبَاهُهُمْ وَنَظَرَاؤُهُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ، فَإِنَّمَا هُوَ زَهْرَةٌ زَائِلَةٌ وَنِعْمَةٌ حَائِلَةٌ، لِنَحْتَبِرَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِي الشَّاكُورُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «أَرْوَجًا مِنْهُمْ»، يَعْنِي الْأَغْنِيَاءَ<sup>(٩)</sup>. فَقَدْ آتَاكَ خَيْرًا مِمَّا آتَاهُمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»<sup>(١٠)</sup> لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ... الْآيَةُ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وَكَذَلِكَ مَا آذَرَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ فِي الْآخِرَةِ، أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» [الضحى: ٥] وَلِهَذَا قَالَ: «وَرَزَقَ رَبُّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَى»

الْآخِرَةَ أَشَقُّ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ [الرعد: ٣٤] وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَقَدْ آتَاكَ الْآخِرَةَ أَشَدَّ وَأَبْقَى» أَيُّ أَشَدَّ أَلَمًا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَأَدْوَمَ عَلَيْهِمْ، فَهُمْ مُخَلَّدُونَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِنِينَ: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»<sup>(١١)</sup>.

«أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ»<sup>(١٢)</sup> وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى<sup>(١٣)</sup> فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى<sup>(١٤)</sup>.

[فِي إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ عِبْرَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ] يَقُولُ تَعَالَى: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ لَأُولِي الْأَبْصَارِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ، كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ قَبْلَهُمْ، فَبَادُوا فَلَيْسَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ، كَمَا يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ مِنْ دِيَارِهِمُ الْخَالِيَةِ الَّتِي خَلَقُوهُمْ فِيهَا، يَمْشُونَ فِيهَا»<sup>(١٥)</sup> إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ أَيُّ الْعُقُولِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَلْبَابِ الْمُسْتَقِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» [الحج: ٤٦] وَقَالَ فِي سُورَةِ آلِمِ السَّجْدَةِ: «أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ»... الْآيَةُ [السجدة: ٢٦]... ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى» أَيُّ لَوْلَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ: أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ. وَالْأَجَلُ الْمُسَمًّى الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لَأُولِي الْأَبْصَارِ إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ: لِحَاجَتِهِمُ الْعَذَابَ بَعْتَهُ.

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَبِإِدَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ] وَلِهَذَا قَالَ لِنَبِيِّهِ مُسَلِّيًا لَهُ: «فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ» أَيُّ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» يَعْنِي صَلَاةَ الْفَجْرِ «وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(١٦)</sup>.

(١) مسلم: ١١٣١/٢ (٢) فتح الباري: ٤٠/٢ ومسلم: ١/٤٣٩ (٣) أحمد: ١٣٦/٤ (٤) مسلم: ٤٤٠/١ (٥) فتح الباري: ٤٢٣/١١ (٦) أحمد: ٣٣٢/٤ (٧) الطبري: ١٧/١٤١

وَرَوَى أَيْضًا عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ. وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ يَنْتَهَى، جَمَعَ لَهُ أَمْرُهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْقَوِيِّ» أَيْ وَحُسْنُ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّا فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ، وَأَنَا أُتِينَا بِرُطْبٍ مِنْ رُطْبِ ابْنِ طَابٍ، فَأَوَّلْتُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالرَّفْعَةَ، وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ»<sup>(٨)</sup>.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (٢٣) ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِيَ﴾ (٢٤) ﴿قُلْ كُلٌّ مَرْيُوسٌ فَتَرْصُدُوا فَتَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الْأَصْطِرَاطِ السُّوْيِ وَمَنْ أَهْدَى﴾ (٢٥)

[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ آيَةٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا﴾ أَيْ هَلَّا يَأْتِينَا مُحَمَّدٌ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ، أَيْ بِعَلَامَةٍ دَالَّةٍ عَلَى صِدْقِهِ فِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ اللَّهُ، وَهُوَ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، وَلَمْ يُدَارِسْ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ، بِمَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْمُنْقَدِّمَةُ الصَّحِيحَةُ مِنْهَا، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُهَيِّجٌ عَلَيْهَا، يُصَدِّقُ الصَّحِيحَ، وَيُبَيِّنُ خَطَأَ الْمَكْذُوبِ فِيهَا وَعَلَيْهَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١) ﴿أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحِيمٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١، ٥٠] وَفِي

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَمَّا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْمَشْرُوبَةِ الَّتِي كَانَ قَدْ اغْتَرَلَ فِيهَا نِسَاءَهُ حِينَ أَلَى مِنْهُمْ، فَرَأَهُ مُتَوَسِّدًا مُضْطَجِعًا عَلَى رُمَالٍ حَصِيرٍ، وَلَيْسَ فِي الْبَيْتِ إِلَّا صُبْرَةٌ مِنْ قَرْطٍ وَأَهْبَةٌ مَعْلَقَةٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَا عُمَرَ بِالْبُكَاءِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَبْكُكَ يَا عُمَرُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كِسْرَى وَفَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ؟ فَقَالَ: «أَوْ فِي شُكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَلْتَ لَهُمْ طِبْيَانَهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup> فَكَانَ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، إِذَا حَصَلَتْ لَهُ يُنْفِقُهَا هَكَذَا وَهَكَذَا فِي عِبَادِ اللَّهِ، وَلَمْ يَدَّخِرْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا لَعَدٍ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ، مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا» قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بَرَكَاتُ الْأَرْضِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: «زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» يَعْنِي زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: «لِفَتْنِهِمْ فِيهِ» لِيَتَّبِعَهُمْ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أَيْ اسْتَقْبِلْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَاصْبِرْ أَنْتَ عَلَى فِعْلِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦]. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَبِيتُ عِنْدَهُ أَنَا وَبِرْقًا، وَكَانَ لَهُ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي فِيهَا، فَرُبَّمَا لَمْ يَقُمْ، فَتَقُولُ: لَا يَقُومُ اللَّيْلَةُ كَمَا كَانَ يَقُومُ، وَكَانَ إِذَا اسْتَقْبَلَ أَقَامَ يَعْنِي أَهْلَهُ، وَقَالَ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يَعْنِي إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ أَتَاكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (١) وَرِزْقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [الطلاق: ٣، ٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ (٥١) - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ (٥٨) [الذاريات: ٥٦-٥٨] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾. وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرِّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلَأُ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسَدُ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسَدُ فَقْرَكَ»<sup>(٦)</sup>.

(١) فتح الباري: ١٣٧/٥ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٤٤٢/٧ (٣) الطبري: ٤٠٤/١٨ (٤) الطبري: ٤٠٥/١٨ (٥) الطبري: ٤٠٦/١٨ إسناده ضعيف فيه هشام بن سعد أبو عباد المغربي قال الإمام أحمد ليس هو محكم الحديث. قال ابن سعد: كان كثير الحديث يستضعف وكان مشيعا [العلل/٢/٤٥٥]. (٦) تحفة الأحوذى: ١٦٦/٧ وابن ماجه: ١٣٧٦/٢ (٧) ابن ماجه: ٥١، ٥٠ / ١٣٧٥ (٨) مسلم: ١٧٧٩/٤.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ ٣٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾  
 مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ  
 يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا  
 هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ  
 بُصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ  
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ  
 أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ بِنَايَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ  
 ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ  
 ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ  
 الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا  
 لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ  
 الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾  
 لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

قَالَ: بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ، وَمَرْيَمُ، وَطُحْ، وَالْأَنْبِيَاءُ، هُنَّ  
 مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ  
 مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾  
 لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ  
 مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ بُصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ  
 الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا  
 أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ بِنَايَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ  
 ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

[السَّاعَةُ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا]  
 هَذَا نَبِيٌّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَفْتِرَابِ السَّاعَةِ وَدُنُوحِهَا،

الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا  
 وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ  
 الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ  
 تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١). وَإِنَّمَا ذَكَرَ هُنَا أَعْظَمَ الْآيَاتِ الَّتِي  
 أُعْطِيَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَإِلَّا فَلَهُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ  
 مَا لَا يَحُدُّ وَلَا يُحْصِرُ، كَمَا هُوَ مُودَعٌ فِي كُتُبِهِ وَمُقَرَّرٌ فِي  
 مَوَاضِعِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا  
 رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا أَتَى لَوْ أَنَا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ  
 الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَتُنْزَلَ  
 عَلَيْهِمْ هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ، لَكَانُوا قَالُوا: «رَبَّنَا لَوْلَا  
 أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا قَبْلَ أَنْ تُهْلِكَنَا حَتَّى نُؤْمِنَ بِهِ وَنَتَّبِعَهُ  
 كَمَا قَالَ: «فَتَنْبِغْ عَيْنُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ وَتَحْزَنَ» يَبِينُ  
 تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ مُتَعَتِّتُونَ مُعَانِدُونَ لَا يُؤْمِنُونَ  
 «وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [يونس: ٩٧]  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَلْيَتَّبِعُوهُ  
 وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» - إِلَى قَوْلِهِ - «يَمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ»  
 [الأنعام: ١٥٥-١٥٧] وَقَالَ: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ  
 جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِدْحَى الْأُمَمِ»... [الآيَةُ [فاطر: ٤٢]  
 وَقَالَ: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ  
 لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا»... [الآيَتَيْنِ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠]، ثُمَّ قَالَ  
 تَعَالَى: «قُلْ أَتَى يَا مُحَمَّدُ، لِمَنْ كَذَبَكَ وَخَالَفَكَ وَاسْتَمَرَّ  
 عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ «كُلُّ مُرْتَضٍ» أَتَى مِنَّا وَمِنْكُمْ  
 «فَرَضُوا» أَتَى فَانْتَظَرُوا «فَسَتَعْلَمُونَ» مَنْ أَصْحَبَ الصَّرِيطِ  
 السَّوِيَّ «أَيِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ» وَمَنْ أَهْتَدَى «إِلَى الْحَقِّ  
 وَسَبِيلِ الرَّشَادِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ  
 حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا» [الفرقان: ٤٢] وَقَالَ:  
 «سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكَذَّابِ الْآثِرِ» [القمر: ٢٦].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ طه، وَ اللَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ، وَيَتْلُوهُ إِنْ  
 شَاءَ اللَّهُ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَ اللَّهِ الْحَمْدُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -  
 وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ]

(١) فتح الباري: ٦١٩/٨ ومسلم: ١٣٤/١ (٢) فتح الباري:

٢٨٩/٤

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ

نَاقَةَ صَالِحٍ وَآيَاتِ مُوسَى وَعِيسَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾<sup>(١)</sup> الْآيَةُ [الإسراء: ٥٩]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ مَا آتَيْنَا قَرِيْبَةً مِنَ الْقُرَى الَّتِي بَعَثَ فِيهِمُ الرُّسُلَ، آيَةً عَلَى يَدَيِّ نَبِيِّهَا فَأَمَنُوا بِهَا، بَلْ كَذَّبُوا، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذَلِكَ، أَفَهُؤُلَاءِ يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ لَوْ رَأَوْهَا دُونَ أَوْلَئِكَ؟ كَلَّا، بَلْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧] هَذَا كُلُّهُ - وَقَدْ شَاهَدُوا - مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ وَالِدَّلَائِلِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى يَدَيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا هُوَ أَظْهَرُ وَأَجْلَى، وَأَبْهَرُ وَأَقْطَعُ وَأَقَهَرُ، مِمَّا شُوهِدَ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَلْدِينَ﴾<sup>(٤)</sup> ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَجْنَحْنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾<sup>(٥)</sup> [لَمْ يَكُنِ الرُّسُلُ إِلَّا بَشَرًا]

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ بَعْثَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: جَمِيعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا، كَانُوا رِجَالًا مِنَ الْبَشَرِ، لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَمَّنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمَمِ، لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَقَالُوا: ﴿أَبَشَرٌ نَحْنُ وَأَنْبِيَاؤُهُمْ﴾ [التغابن: ٦] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَسْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: اسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ مِنَ الْأُمَمِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَسَائِرِ الطَّوَائِفِ: هَلْ كَانَ الرُّسُلُ الَّذِينَ أَتَوْهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً؟ وَإِنَّمَا كَانُوا بَشَرًا، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتِمَكَّنُونُ مِنْ تَنَاقُلِ الْبَلَاغِ مِنْهُمْ وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أَيُّ: بَلْ قَدْ كَانُوا أَجْسَادًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ

وَأَنَّ النَّاسَ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا، أَيْ لَا يَعْمَلُونَ لَهَا وَلَا يَسْتَعِدُّونَ مِنْ أَجْلِهَا. وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ قَالَ: «فِي الدُّنْيَا»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوْهُ﴾ [النحل: ١] وَقَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَاشْتَقَّ الْقَمَرُ﴾<sup>(٢)</sup> وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا... الْآيَةُ [القمر: ١، ٢].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يُصْعِقُونَ إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَالْخُطَابَ مَعَ قُرَيْشٍ وَمَنْ شَابَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، فَقَالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ﴾ أَيُّ جَدِيدٍ أَنْزَلَهُ ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا لَكُمْ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَمَّا بِيَدِيهِمْ وَقَدْ خَرَفُوهُ وَبَدَّلُوهُ، وَزَادُوا فِيهِ وَتَقَصُّوا مِنْهُ، وَكِتَابُكُمْ أَحَدُ الْكُتُبِ بِاللَّهِ تَقَرُّوْهُ مَحْضًا لَمْ يُسَبِّ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِنَحْوِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاسْأَلُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيُّ قَائِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ خُفْيَةً ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يَعْنُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَسْتَعِدُّونَ كَوْنَهُ نَبِيًّا لِأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ، فَكَيْفَ اخْتَصَّ بِالْوَحْيِ دُونَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أَيُّ أَتَيْتُمُوهُ فَتَكُونُونَ كَمَنْ يَأْتِي السِّحْرَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سِحْرٌ، فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَمَّا افْتَرَوْهُ وَاخْتَلَفُوهُ مِنَ الْكُذِبِ: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ الَّذِي يَعْلَمُ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى خَبَرِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ - الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ، إِلَّا الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيُّ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمْ، وَالْعَلِيمُ بِأَحْوَالِكُمْ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ.

[قَوْلُ الْكُفَّارِ فِي الْقُرْآنِ وَالرُّسُولِ، وَطَلَبُهُمُ الْآيَاتِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلْ افْتَرَاهُ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ وَالْحَادِيهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ فِيمَا يَصِفُونَ بِهِ الْقُرْآنَ، وَخَيْرَتَهُمْ فِيهِ، وَضَلَالَتَهُمْ عَنْهُ، فَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ سِحْرًا، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ شِعْرًا، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ مُفْتَرًى، كَمَا قَالَ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ صَرُّوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨] وَقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَأْنِسْنَا إِنَّا بِكُمْ لَبِظُونَ﴾ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ... يَعْنُونَ

سورة الأنبياء

٣٣٣

سورة الأنبياء

وَيَعِشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ [الفرقان: ٢٠] أَي: قَدْ كَانُوا بَشَرًا مِنْ  
الْبَشَرِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ مِثْلَ النَّاسِ، وَيَدْخُلُونَ الْأَسْوَاقَ  
لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارٍّ لَهُمْ، وَلَا نَاقِصٍ  
مِنْهُمْ شَيْئًا، كَمَا تَوَهَّمَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَالِ هَذَا  
الرَّسُولِ يَأْكُلُ الظَّعْمَةَ وَيَعِشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ  
مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [٧] أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْهِ كَفَرٌ أَوْ تَكُونُ  
لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا... [الفرقان: ٨، ٧].  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا، بَلْ كَانُوا  
يَعِشُونَ ثُمَّ يَمُوتُونَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾  
[الأنبياء: ٣٤] وَخَاصَّتْهُمْ: أَنَّهُمْ يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ  
وَجَلَّ، تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ عَنْ اللَّهِ بِمَا يَحْكُمُهُ فِي خَلْقِهِ  
مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾  
أَي: الَّذِي وَعَدَهُمْ رَبُّهُمْ لِيُهْلِكَنَ الظَّالِمِينَ، صَدَقَهُمُ اللَّهُ  
وَعْدَهُ وَفَعَلَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَجْمَعْنَهُمْ وَمَنْ نَسْأَلُ أَي: أَيْ:  
أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أَي: الْمُكَذِّبِينَ  
بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [١٠] وَكَمْ  
قَصَصًا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ [١١]  
فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ [١٢] لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى  
مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [١٣] قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ كُنَّا  
ظَالِمِينَ [١٤] فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَانَهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا  
خَمِيدِينَ [١٥]

## [فَضْلُ الْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مِنْهَا عَلَى شَرَفِ الْقُرْآنِ وَمُحَرِّضًا لَهُمْ عَلَى  
مَعْرِفَةِ قَدَرِهِ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ: شَرَفُكُمْ<sup>(١)</sup>. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: هَذِهِ النُّعْمَةُ،  
وَتَتَلَقَّوْنَهَا بِالْقَبُولِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ  
وَسَوْفَ تَشْكُرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

## [كَيْفَ أَهْلَكَ الظَّالِمُونَ؟]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَمْ قَصَصًا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هَذِهِ صِغَةُ  
تَكْثِيرٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾  
[الإسراء: ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْنٍ أَهْلَكْنَاهَا  
وَهُكَ ظَالِمَةٌ فِيهِ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾... [الآية: الحج: ٤٥].  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أَي: أُمَّةً  
أُخْرَى بَعْدَهُمْ ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسٍ﴾ أَي: يَتَّقِنَا أَنَّ الْعَذَابَ  
وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ كَمَا وَعَدَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾

أَي: يَقْرُونَ هَارِبِينَ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ  
وَمَسْكَنِكُمْ﴾ هَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ [قَدَرًا]، أَي: قِيلَ لَهُمْ [قَدَرًا]:  
لَا تَرْكُضُوا هَارِبِينَ مِنْ نَزُولِ الْعَذَابِ، وَارْجِعُوا إِلَى مَا  
كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ النُّعْمَةِ وَالشُّرُورِ وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَسَاكِينِ الطَّيِّبَةِ.  
قَالَ قَتَادَةُ: اسْتَهْزَاءٌ بِهِمْ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَي: عَمَّا كُنْتُمْ  
فِيهِ مِنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ، ﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾  
اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ  
دَعْوَانَهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ أَي: مَا زَالَتْ تِلْكَ  
الْمَقَالَةُ، وَهِيَ الْإِعْتِرَافُ بِالظُّلْمِ، هَجِيرَاهُمْ حَتَّى  
حَصَدْنَاهُمْ حَصْدًا، وَخَمَدَتْ حَرَكَاتُهُمْ وَأَصْوَاتُهُمْ خُمُودًا.  
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيَعِينَا﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ  
نَنْجِدَ لَهُمْ لَأَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ [١٧] بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ  
عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْيَوْمَ مِمَّا نَصِفُونَ [١٨] وَلَهُ  
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا

يَسْتَحِيرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ ﴿٢٠﴾

### [خَلَقَ الْكَوْنُ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، أَيُّ: بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَلَيْهِمْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١] وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا وَلَا لَعِبًا، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ يَعْنِي مِنْ عِنْدِنَا، يَقُولُ: وَمَا خَلَقْنَا جَنَّةً، وَلَا نَارًا وَلَا مَوْتًا، وَلَا بَعَثًا وَلَا حِسَابًا<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ<sup>(٢)</sup> وَالسُّدِّيُّ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَمُغِيرَةُ بْنُ مُفَسَّمٍ: أَيُّ: مَا كُنَّا فَاعِلِينَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿إِنْ﴾ فَهُوَ إِنكَارٌ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أَيُّ: نُبَيِّنُ الْحَقَّ فَيُذْهِبُ الْبَاطِلَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَيَذَمُّهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أَيُّ: ذَاهِبٌ مُضْمَجِلٌ ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ﴾ أَيُّ: أَهْلِهَا الْقَائِلُونَ: لِلَّهِ وَلَدٌ ﴿وَمَا نَصِفُونَ﴾ أَيُّ: تَقُولُونَ وَتَفْتَرُونَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ غُيُوبِيَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ، وَدَأْبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، فَقَالَ: [كُلُّ شَيْءٍ مِلْكٌ لِلَّهِ وَعَبْدٌ لَهُ]

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أَيُّ: لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْمِلُهُ إِلَهُهُ جِيعًا﴾ [المائدة: ١٧٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾ أَيُّ: لَا يَتَعَبُونَ وَلَا يَمَلُونَ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ فَهُمْ دَائِبُونَ فِي الْعَمَلِ لَيْلًا وَنَهَارًا، مُطِيعُونَ قَصْدًا وَعَمَلًا، قَادِرُونَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]

﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ يَسْتَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

### [الَرَّدُ عَلَى الْأَلْهَةِ الْكَاذِبَةِ]

يُنْكَرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا فَقَالَ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ﴾ أَيُّ: أَهْمُ يُحْبُونَ

الْمَوْتَى وَيُنْشِرُونَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، أَيُّ: لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ جَعَلُوها لله نِدًا وَعَبَدُوها مَعَهُ؟ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْوُجُودِ إِلَهَةٌ غَيْرُهُ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَقَالَ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ﴾ أَيُّ: فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أَيُّ: عَمَّا يَقُولُونَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّاهُ عَنِ الَّذِي يَفْتَرُونَ وَيَأْفِكُونَ عُلوًّا كَبِيرًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ يَسْتَلُونَ﴾ أَيُّ: هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يَغْتَرِضُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلَطْفِهِ، ﴿وَهُمْ يَسْتَلُونَ﴾ أَيُّ: وَهُمْ سَائِلٌ خَلْقَهُ عَمَّا يَعْمَلُونَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهُمْ أَجْمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُمَيِّتُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَنَى وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أَيُّ: دَلِيلَكُمْ عَلَى مَا تَقُولُونَ. هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَنَى، يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ يَعْنِي الْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ عَلَى خِلَافِ مَا تَقُولُونَهُ وَتَزْعُمُونَ، فَكُلُّ كِتَابٍ أُنْزِلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ، نَاطِقٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ لَا تَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْفِطْرَةُ

(١) الطبري: ٤٢١/١٨ (٢) الطبري: ٤٢٠/١٨ (٣) الدر المنثور: ٦٢٠/٥

سورة الأنبياء

٣٢٤

سورة الأنبياء

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٥٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْزُقَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتْ رَتْقًا فَفَنَّتُنِيهِمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٦١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْكًَا مُحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ ﴿٦٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٦٣﴾ وَجَعَلْنَا الْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَثَاينَ مَتَّ فَمِنْهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٦٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٦٥﴾

[آيات الله في السموات والأرض والليل والنهار] يقول تعالى منها على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لإلهيته، العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَنَّتُنِيهِمَا﴾ أي: كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض، متلاصقاً متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعا، والأرض سبعا، وفصل بين السماء والأرض بالهواء، فأطرت السماء وأثبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئا فشيئا عيانا، وذلك كله دليل على وجود الصانع القاعل المختار القادر على ما يشاء. فففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

شاهدة بذلك أيضا، والمُشركون لا بُرهان لهم، وحججهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْزُقَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ومن يقل منهم إني إله من دونه، فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴿الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ وَبَيَانُ أَعْمَالِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ﴾

يقول تعالى رادا على من زعم أن له تعالى وتقدس ولذا من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ فَقَالَ: ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولا وفعلًا ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْزُقَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ﴾ ومن يقل منهم إني إله من دونه، أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله أي: مع الله ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١] وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَ لِحُبَطٍ عَمَّكَ وَلَنْتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَنَّتُنِيهِمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ وجعلنا في الأرض رواسي أن تُمِيدَ بِهِمْ وجعلنا فيها فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْكًَا مُحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلكٍ يَسْبَحُونَ ﴿

وَأَقْلِمَ إِلَى إِقْلِيمٍ، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ فِي الْأَرْضِ يَكُونُ الْجَبَلُ حَائِلًا بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَهَذِهِ الْبِلَادِ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ فُجُوءَ - ثَغْرَةَ - لِيَسْلُكَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ هَهُنَا إِلَى هَهُنَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أَي: عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ كَالْقَبَّةِ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] وَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا [الشمس: ٥]﴾ فَأَنَّهُ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿ق: ٦﴾ وَالْبَنَاءُ هُوَ نَصْبُ الْقَبَّةِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»<sup>(٤)</sup> أَي: [خَمْسٍ] دَعَائِمٍ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخِيَامِ، كَمَا تَعَهَّدَهُ الْعَرَبُ. ﴿مَحْفُوظًا﴾ أَي: عَالِيًا مَحْرُوسًا أَنْ يَنَالَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَرْفُوعًا<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ عَنِ عَذَابٍ مُعَسَّوْنَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَايُنَ مِنْ عَذَابٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] أَي: لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ الْإِتْسَاعِ الْعَظِيمِ وَالِارْتِفَاعِ الْبَاهِرِ، وَمَا زَيَّنَّتْ بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّوَابِغِ وَالسَّيَّارَاتِ فِي لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي تَقْطَعُ الْفَلَكَ بِكَامِلِهِ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَتَسِيرُ غَايَةً لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا اللَّهُ الَّذِي قَدَّرَهَا وَسَخَّرَهَا وَسَيَّرَهَا. ثُمَّ قَالَ مُبَيَّنًا عَلَى بَعْضِ آيَاتِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَي: هَذَا فِي ظُلَامِهِ وَشُكُوبِهِ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ وَأَنْبِسِهِ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ أُخْرَى، وَعَكْسُهُ الْأَخْرَى ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] هَذِهِ لَهَا نُورٌ يَخْصُصُهَا، وَفَلَكَ يَذَاتِهِ، وَزَمَانٌ عَلَى جَدْوٍ، وَحَرَكَهٌ وَسَيْرٌ خَاصٌّ، وَهَذَا بِنُورٍ آخَرَ، وَفَلَكَ آخَرَ، وَسَيْرٍ آخَرَ، وَتَقْدِيرٍ آخَرَ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أَي: يَدُورُونَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَدُورُونَ كَمَا يَدُورُ الْمُعْزَلُ فِي الْفَلَكَ<sup>(٦)</sup> كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ لَخَالِدُونَ﴾<sup>(٧)</sup> كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَاؤُكُمْ بِالْأَشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اللَّيْلُ كَانَ قَبْلَ أَوِ النَّهَارِ؟ فَقَالَ: أَرَأَيْتُمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حِينَ كَانَتَا رَتْقًا هَلْ كَانَ بَيْنَهُمَا إِلَّا ظُلْمَةٌ؟ ذَلِكَ لِيَتَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّيْلَ قَبْلَ النَّهَارِ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾. قَالَ: أَذْهَبَ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ فَاسْأَلْهُ، ثُمَّ تَعَالَى فَأَخْبِرَنِي بِمَا قَالَ لَكَ، قَالَ: فَذَهَبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلَهُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَعَمْ كَانَتِ السَّمَوَاتُ رَتْقًا لَا تُمْطِرُ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ رَتْقًا لَا تُنْبِتُ، فَلَمَّا خَلَقَ لِلْأَرْضِ أَهْلًا فَتَقَّ هَذِهِ بِالْمَطَرِ، وَفَتَقَ هَذِهِ بِالنَّبَاتِ، فَارْجَعَ الرَّجُلُ إِلَى ابْنِ عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: الْآنَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَدْ أُوتِيَ فِي الْقُرْآنِ عِلْمًا، صَدَقَ، هَكَذَا كَانَتْ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: قَدْ كُنْتُ أَقُولُ مَا يُعْجِبُنِي جِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، فَالْآنَ عَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ أُوتِيَ فِي الْقُرْآنِ عِلْمًا<sup>(٩)</sup>.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: بَلْ كَانَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ مُلتَزِمَتَيْنِ، فَلَمَّا رُفِعَ السَّمَاءُ وَأُبْرَزَ مِنْهَا الْأَرْضُ، كَانَ ذَلِكَ فَتَقَهُمَا الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَفَتَادَةُ: كَانَتَا جَمِيعًا فَفُصِّلَ بَيْنَهُمَا بِهَذَا الْهَوَاءِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أَي: أَضَلَّ كُلَّ الْأَحْيَاءِ مِنْهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَفَرَّتْ عَيْنِي، فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ» قَالَ: قُلْتُ: أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا عَمِلْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ قَالَ: «أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»<sup>(١٠)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحَيْنِ إِلَّا أَنَّ أَبَا مِيْمُونَةَ مِنْ رِجَالِ السُّنَنِ وَاسْمُهُ سُلَيْمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ يُصَحِّحُ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أَي: جِبَالًا أَرَسَى الْأَرْضَ بِهَا وَقَرَّرَهَا وَثَقَّلَهَا لِئَلَّا تَمِيدَ بِالنَّاسِ، أَي: تَضْطَرِبَ وَتَسْتَحَرِّكَ، فَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ قَرَارٌ عَلَيْهَا، لِأَنَّهَا غَامِرَةٌ فِي الْمَاءِ إِلَّا مِقْدَارَ الرَّبْعِ. فَإِنَّهُ بَادٍ لِلْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ لِيُشَاهِدَ أَهْلُهَا السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْحِكَمِ وَالِدَّلَالَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أَي: لِئَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أَي: ثَغْرًا فِي الْجِبَالِ، يَسْلُكُونَ فِيهَا طُرُقًا مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ،

(١) الطبري: ٤٣٣/١٨ (٢) ابن أبي حاتم: ٢٤٥٠/٨ (٣)

أحمد: ٢٩٥/٢، ٣٢٣، ٣٢٤ (٤) فتح الباري: ٦٤/١ (٥)

الطبري: ٤٣٦/١٨ (٦) الطبري: ٥٢١، ٥٢٠/٢٠



[لَيْسَ لِأَحَدٍ الْخُلُودُ فِي الدُّنْيَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ أَجْرًا: يَا مُحَمَّدُ الْخُلْدُ﴾ أي: في الدنيا بل ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَلَا يَنْتَ﴾ أي: يَا مُحَمَّدُ ﴿فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ أي: يُؤْمَلُونَ أَنْ يَعِيشُوا بِعَدْلِكَ، لَا يَكُونُ هَذَا، بَلْ كُلٌّ إِلَى الْفَنَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ أُنْشِدَ وَاسْتَشْهَدَ بِهِذَيْنِ الْبَيِّنَتَيْنِ:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أُمْتُ

فَنَلَّكَ سَبِيلَ لَشْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ

فَقُلْ لِلَّذِي يَنْبَغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى

تَهَيَّأَ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدْ وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَلَوُّكُمْ بِالْثَرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً﴾ أي: نَخْبَرُكُمْ بِالْمَصَائِبِ تَارَةً وَبِالنَّعْمِ أُخْرَى، فَتَنْظُرُ مَنْ يَشْكُرُ وَمَنْ يَكْفُرُ، وَمَنْ يَصْبِرُ وَمَنْ يَقْنَطُ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَلَوُّكُمْ﴾ يَقُولُ: تَبْتَلِيكُمْ ﴿بِالْثَرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً﴾ بِالشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَالصَّحَّةِ وَالسَّقَمِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرَ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَالطَّاعَةَ وَالْمَعْصِيَةَ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تَرْتَجِعُونَ﴾ أي: فَتُجَارِزُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَخَذُوا مِنْكَ إِلَّا هُزُوءًا هَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُوا﴾ ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ عَائِلِي سَأُورِيكُمْ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

[اسْتَهْزَأَ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي كُفَّارَ قُرَيْشٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَشْبَاهِهِ ﴿أَنْ يَخَذُوا مِنْكَ إِلَّا هُزُوءًا﴾ أي: يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ وَيَنْقُصُونَكَ، يَقُولُونَ: ﴿هَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يَعْنُونَ هَٰذَا الَّذِي يَسُبُّ آلِهَتَكُمْ وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَكُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُوا﴾ أي: وَهُمْ كَافِرُونَ بِاللَّهِ. وَمَعَ هَٰذَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَخْذُوا مِنْكَ إِلَّا هُزُوءًا هَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ ﴿٥١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٢٥

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَخَذُوا مِنْكَ إِلَّا هُزُوءًا هَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُوا ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْفُرُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَتَّابُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعَاهَا قَوْلًا وَعَابَاءً هُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ جَوَلًا﴾ أي: فِي الْأُمُورِ. وَالْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ هُهْنَا: أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالرُّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَقَعَ فِي النَّفْسِ سُرْعَةُ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ وَاسْتَعْجَلَتْ ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾. لِأَنَّهُ تَعَالَى يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، يُؤْجَلُ ثُمَّ يُعْجَلُ، وَيُنْظَرُ ثُمَّ لَا يُؤَخَّرُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: يَقُومِي وَحُكْمِي وَافْتِدَارِي عَلَى مَنْ عَصَانِي ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ

النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ

بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾

يَعْنِي غَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾<sup>(١)</sup> أَي: لَا يَعْتَرِفُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْ آيَاتِهِ وَآلَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا؟﴾ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارٌ وَتَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ، أَي: أَلَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ وَتَكْلُفُهُمْ غَيْرَنَا؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهَّمُوا، وَلَا كَمَا زَعَمُوا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي اسْتَدَّوْا إِلَيْهَا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا بِصَحْبُونَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا بِصَحْبُونَ﴾ أَي: يُجَارُونَ<sup>(٢)</sup>.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾<sup>(٣)</sup> قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمْرُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ<sup>(٤)</sup> وَلَكِنْ مَسْتَهْمُ نَفْحَةٍ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَقَوْلُوكَ بَيِّنَاتٌ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ<sup>(٥)</sup> وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِنْفَالِ حَكْمٌ مِنْ حَزَلٍ أَلَيْسَ بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِبِينَ<sup>(٦)</sup>

[إِنْجَادُ الْمُشْرِكِينَ لِطُولِ اسْتِمْتَاعِهِمْ بِالْدُّنْيَا وَبَيَانُ الْحَقِّ لَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّمَا غَرَّهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ، أَنَّهُمْ مَتَّعُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعَّمُوا، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِيمَا هُمْ فِيهِ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، ثُمَّ قَالَ وَاعْظَاهُمْ لَهُمْ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْنِي بِذَلِكَ ظُهُورُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ<sup>(٧)</sup>. وَالْمَعْنَى: أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَإِهْلَاكِهِ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ، وَالْقُرَى الظَّالِمَةَ، وَإِنجَائِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

يَعْنِي بَلْ هُمْ الْمَغْلُوبُونَ الْأَسْفَلُونَ الْأَخْسَرُونَ الْأَرْدَلُونَ. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أَي: إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ مَا أُنذَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا عَمَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، وَلَكِنْ لَا يُجِدِي هَذَا عَمَّنْ أَعْمَى اللَّهُ

[اسْتِعْجَالُ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضًا بِوُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ تَكْذِيبًا وَجُحُودًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِعْجَادًا، فَقَالَ: ﴿وَقُولُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أَي: لَوْ تَبَيَّنُوا أَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ لَمَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ. وَلَوْ يَعْلَمُونَ حِينَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وَقَالَ: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ وَتَعَثَّى وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فَالْعَذَابُ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ أَي: لَا نَاصِرَ لَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْضَةٌ﴾ أَي: تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْضَةً أَي: فَجَاءَةً، ﴿فَتَبْتَهُمْ﴾ أَي: تَذَعَّرُهُمْ، فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهَا حَائِرِينَ وَلَا يَذَرُونَ مَا يَصْنَعُونَ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أَي: لَيْسَ لَهُمْ حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أَي: وَلَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ سَاعَةً وَاحِدَةً.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَكَافَ بِاللَّيْلِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾<sup>(٨)</sup> قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ<sup>(٩)</sup> أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا؟ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا بِصَحْبُونَ<sup>(١٠)</sup>

[الْعِبْرَةُ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرُسُولِهِ [صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ] عَمَّا آذَاهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَكَافَ بِاللَّيْلِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يَعْنِي مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَعْبِدُونَ وَوُقُوعُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمُ نَصْرًا وَلَا مِدَدَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْعَامِ﴾ [الأنعام: ٣٤] ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَى عِبِيدِهِ فِي حِفْظِهِ لَهُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَكَوْلَاهُ بِهِ وَجَرَّاسَتِهِ لَهُمْ بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢] أَي: بِذَلِكَ الرَّحْمَنِ،

(١) الطبري: ٤٤٨/١٨ إسناده ضعيف كما تقدم حال العوفي وعائلته. (٢) الطبري: ٩٤/١

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

الْأَنْبِيَاءِ

٣٢٦

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ بَنُو لَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ أَلْسَعَةِ مِشْفُوفَاتٍ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

[إِنْزَالُ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ]

قَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا، وَبَيْنَ كِتَابَيْهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْكِتَابَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: التَّوْرَةُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: التَّوْرَةُ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا، وَمَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ<sup>(٢)</sup>. وَجَامِعُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالنَّعْيِ وَالرَّشَادِ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَعَلَى مَا يَحْصُلُ نُورًا فِي الْقُلُوبِ وَهِدَايَةً وَخَوْفًا وَإِنَابَةً وَخَشْيَةً،

(١) فتح الباري: ٥٤٧/١٣ ومسلم: ٢٠٧٢/٤ (٢) أحمد: ٦/٢٨٠ والترمذي: ٣١٦٥ إسناده ضعيف عند أحمد له إسنادهان في أحدهما أبو نوح قراد له أفراد وهذا منها. والثاني ضعيف لإيهام بعض رواية ولا يقطعه قال الدار قطني في 'غرائب مالك' "ليس بمحفوظ" (٣) الطبري: ٤٥٣/١٨ (٤) الطبري: ٤٥٣/١٨

بَصِيرَتُهُ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ مَسْتَهْزِئَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ بَنُو لَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَي: وَلَكِنْ مَسَ هَؤُلَاءِ الْمَكْدِبِينَ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لِيَعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْتُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أَي: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْعَدْلَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. الْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مِيزَانٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا جُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الْأَعْمَالِ الْمَوْزُونَةِ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَقَالَ لَقْمَانُ: ﴿يَبْنِيْ إِنَّمَا إِنْ تَكُ وَثِقَالُ حَبَةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَسْبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكَيْنِ يَكْذِبُونِي وَيَحْوَنُونِي وَيَعْصُونِي، وَأَضْرِبُهُمْ وَأَسْتَمْتُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْسَبُ مَا خَاوَنُكَ وَعَصَاكَ وَكَذَّبُكَ، وَعَقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدَرِ ذُنُوبِهِمْ، كَانَ كَفَافًا لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ، كَانَ فَضْلًا لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ، اقْتَصَصَ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ الَّذِي بَقِيَ بَعْدَكَ» فَجَلَلَ الرَّجُلُ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَهْتَفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا لَهُ لَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾» فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَجْدُ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ فِرَاقِ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي عِبِيدَهُ - إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ أَلْسَعَةِ مِشْفُوفَاتٍ ﴿٤٩﴾

سورة الأنبياء

٢٢٧

سورة الأنبياء

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الْفَرَقَانِ وَضِيَاءٌ وَذَكَرَا لِلنَّاسِ لِقَاءَ رَبِّهِمْ أَذِيًا﴾. تَذِيرًا لَهُمْ وَعِظَةً، ثُمَّ وَصَفَهُمْ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ حَتَّى الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٢٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] ﴿وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفَوفُونَ﴾ أَيْ: خَائِفُونَ وَجُلُونَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يَغْنِي الْقُرْآنُ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أَيْ: أَتُفَكِّرُونَهُ وَهُوَ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالظُّهْرِ؟

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ عِلْمِينَ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿قَالَ لَوْ جِدْنَا آبَاءَنَا لَمَا عَدَدِينَا﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِبَلَىٍّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ ﴿قَالَ بَلْ رَزَقَكُمُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٥١﴾

[قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ آتَاهُ رُشْدَهُ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أَيْ: مِنْ صِغَرِهِ أَلْهَمَهُ الْحَقَّ وَالْحُجَّةَ عَلَى قَوْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبِكَذَا حُجَجْنَا آبَاءَهُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣] وَالْمَقْصُودُ هَهُنَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ آتَى إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ، أَيْ: مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ عِلْمِينَ﴾ أَيْ: وَكَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هَذَا هُوَ الرُّشْدُ الَّذِي أُوتِيَهُ مِنْ صِغَرِهِ: الْإِنْكَارُ عَلَى قَوْمِهِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أَيْ: مُعْتَكِفُونَ عَلَىٰ عِبَادَتِهَا. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَادَةً﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ سِوَى صَنِيعِ آبَائِهِمُ الضَّلَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ: الْكَلَامُ مَعَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ اخْتَجَجْتُمْ بِصَنِيعِهِمْ كَالْكَلَامِ مَعَكُمْ، فَأَنْتُمْ وَهُمْ فِي ضَلَالٍ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، فَلَمَّا سَفَهَ أَخْلَامَهُمْ وَضَلَّلَ آبَاءَهُمْ وَاحْتَفَرِ إِلَهُهُمْ ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِبَلَىٍّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ يَقُولُونَ: هَذَا الْكَلَامُ الصَّادِرُ عَنْكَ، تَقُولُهُ لِأَعْبَا أَمْ مُحَقِّقًا فِيهِ، فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ بِهِ قَبْلَكَ ﴿قَالَ بَلْ رَزَقَكُمُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ أَيْ: رَبُّكُمُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا حَوَتْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي

ابْتَدَأَ خَلْقَهُنَّ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيْ: وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِبِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ فَجَعَلَهُمْ جُدَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٥﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٧﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٥٨﴾

[كَسْرُ الْخَلِيلِ الْأَصْنَامِ]

ثُمَّ أَقْسَمَ الْخَلِيلُ قَسَمًا أَسْمَعَهُ بَعْضُ قَوْمِهِ: لَيَكِيدَنَّ أَصْنَامَهُمْ أَيْ: لَيَحْرِصَنَّ عَلَىٰ آذَانِهِمْ وَتَكْسِيرِهِمْ بَعْدَ أَنْ يُولُوا مُدْرِبِينَ، أَيْ: إِلَىٰ عِيدِهِمْ، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا خَرَجَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ إِلَىٰ عِيدِهِمْ مَرُّوا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَلَا تَخْرُجُ مَعَنَا؟ قَالَ: إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَدْ كَانَ

بِالْأَمْسِ قَالَ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ فَسَمِعَهُ نَاسٌ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَحَكَمَهُمْ جُذَاءً﴾ أَي: حُطَّامًا كَسَرَهَا كُلَّهَا، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ يَعْنِي إِلَّا الصَّنَمَ الْكَبِيرَ عِنْدَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلِيهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذَكَرُوا أَنَّهُ وَضَعَ الْقُدُومَ فِي يَدِ كَبِيرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَتَقَدُّونَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَارَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْفَ أَنْ تُعْبَدَ مَعَهُ هَذِهِ الْأَصْنَامُ الصَّغَارُ فَكَسَرَهَا ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: حِينَ رَجَعُوا وَشَاهَدُوا مَا فَعَلَهُ الْخَلِيلُ بِأَصْنَامِهِمْ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ الدَّالِّ عَلَى عَدَمِ إِلَهِيَّتِهَا، وَعَلَى سَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: فِي صَنِيعِهِ هَذَا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ أَي: قَالَ مَنْ سَمِعَهُ - يَخْلِفُ إِنَّهُ لَيَكِيدُهُمْ -: ﴿سَمِعْنَا فَتَى﴾ أَي: شَابًّا، ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا فَأَنَّى يَدْعُ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أَي: عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي الْمَلَأِ الْأَكْبَرِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَكْبَرُ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُبَيِّنَ فِي هَذَا الْمَحْفِلِ الْعَظِيمِ كَثْرَةَ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةَ عَقْلِهِمْ فِي عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ، الَّتِي لَا تَنْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا ضَرْأً، وَلَا تَمْلِكُ لَهَا نَصْرًا، فَكَيْفَ يُطَلَّبُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؟ ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (١٧) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا. يَعْنِي الَّذِي تَرَكَهُ - لَمْ يَكْسِرْهُ - ﴿فَتَكَلَّمُوا بِهِمْ﴾ كَانُوا يَنْطِقُونَ. وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُبَادِرُوا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ فَيَعْتَرِفُوا أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ، وَأَنَّ هَذَا لَا يَصْدُرُ عَنْ هَذَا الصَّنَمِ لِأَنَّهُ جَمَادٌ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكْذِبْ غَيْرَ ثَلَاثٍ: نِثْنَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، قَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ - قَالَ: - وَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ فِي أَرْضِ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ وَمَعَهُ سَارَةٌ، إِذْ نَزَلَ مِنْزَلًا، فَأَتَى الْجَبَّارَ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ هَهُنَا رَجُلٌ بِأَرْضِكَ مَعَهُ امْرَأَةٌ أَحْسَنُ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ؟ قَالَ: هِيَ أُخْتِي. قَالَ: فَادْهَبْ فَأَرْسِلْ بِهَا إِلَيَّ، فَانْطَلَقَ إِلَى سَارَةٍ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ قَدْ سَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبْنِي عِنْدَهُ، فَإِنَّكَ أُخْتِي فِي كِتَابِ اللَّهِ،

وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، فَانْطَلَقَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ فَرَأَاهَا أَهْوَى إِلَيْهَا فَتَنَاولَهَا فَأَخَذَ أَخْذًا شَدِيدًا، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتْ لَهُ فَأَرْسَلَ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا فَتَنَاولَهَا، فَأَخَذَ بِمِثْلِهَا أَوْ أَشَدَّ، فَفَعَلَ ذَلِكَ الثَّلَاثَةَ فَأَخَذَ، فَذَكَرَ مِثْلَ الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ فَلَا أَضْرُكَ، فَدَعَتْ لَهُ فَأَرْسَلَ، ثُمَّ دَعَا أَذْنَى حُجَّابِهِ فَقَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، وَلَكِنَّكَ أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ، أَخْرَجَهَا وَأَعْطَاهَا هَاجِرَ. فَأَخْرَجَتْ وَأَعْطَيْتْ هَاجِرَ، فَأَقْبَلَتْ، فَلَمَّا أَحَسَّ إِبْرَاهِيمُ بِمَجِيئِهَا انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَالَ: مَهْمٌ. قَالَتْ: كَفَى اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ الْفَاجِرِ، وَأَخَذَنِي هَاجِرَ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ (١).

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٨) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (١٩) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٢٠) أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٢١)

[اعتراف القوم بعجز الألهة ووعظ إبراهيم]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لَهُمْ مَا قَالَ: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي: بِالْمَلَامَةِ فِي عَدَمِ اخْتِرَازِهِمْ وَجَرَّاسَتِهِمْ لِآلِهَتِهِمْ، ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَي: فِي تَرْكِكُمْ لَهَا مُهْمَلَةً لَا حَافِظَ عِنْدَهَا ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أَي: ثُمَّ أَطْرَفُوا فِي الْأَرْضِ فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. قَالَ فَتَادَةُ: أَدْرَكَتِ الْقَوْمَ خَيْرُهُ سَوْءٌ، فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾. وَقَالَ الشَّيْخُ: ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أَي: فِي الْفِتْنَةِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَي: فِي الرَّأْيِ، وَقَوْلُ فَتَادَةَ أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ خَيْرَةً وَعَجْزًا، وَلِهَذَا قَالُوا لَهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فَكَيْفَ تَقُولُ لَنَا سَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَنْطِقُ؟ فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لِمَا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أَي: إِذَا كَانَتْ لَا تَنْطِقُ، وَهِيَ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، فَلِمَ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ ﴿أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

سورة الأنبياء

٣٢٨

سورة الأنبياء

وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ  
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا  
عَبِيدِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَوْ طَاءَ آيُنُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ  
الْقَرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ  
فَاسِقِينَ ﴿٧٣﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ  
﴿٧٤﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ  
وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٥﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ  
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ  
أَجْمَعِينَ ﴿٧٦﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ  
نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٧﴾  
فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّ آيَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا  
مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٨﴾  
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ  
فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٩﴾ وَسَلَيْمَانَ الَّتِي بِهَا عَاصِفٌ يَجْرِي بِأَمْرِهِ  
إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَانَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨٠﴾

فَكَادَهُمُ اللَّهُ وَتَجَاهُ مِنَ النَّارِ، فَعَلُّوا هُنَالِكَ.

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلَوْ طَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَانَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٢﴾  
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ ﴿٧٣﴾  
وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ  
وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِبِيدِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ طَاءَ  
آيُنُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ  
الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا  
إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾

[هجرة خليل الله إلى الشام ومعه لوط]

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار  
قَوْمِهِ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُهَاجِرًا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ،  
إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قَالَ عَطَاءٌ

(١) القرطبي: ٣٠٣/١١ (٢) الطبري: ٤٦٥/١٨ (٣) فتح

الباري: ٧٧/٨ (٤) الطبري: ٤٦٦/١٨ (٥) الطبري: ١٨/

٤٦٥، ٤٦٦ (٦) الطبري: ٤٦٧/١٨ (٧) الطبري: ٤٦٧/١٨

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾ أَي: أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ  
وَالْكُفْرِ الْعَلِيظِ الَّذِي لَا يَرُوجُ إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ ظَالِمٍ فَاجِرٍ.  
فَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَالزَّمَهُمْ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ ... الْآيَةُ  
[الأنعام: ٨٣].

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا يَنَازَرُ  
كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ  
الْأَخْسَرِينَ ﴿٨٤﴾

[إلقاء إبراهيم في النار وتصرف الله فيها]

لَمَّا دَحَضَتْ حُجَّتُهُمْ وَبَانَ عَجْزُهُمْ وَظَهَرَ الْحَقُّ وَانْدَفَعَ  
الْبَاطِلُ عَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاءِ مُلْكِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ  
وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا  
جِدًّا، قَالَ السُّدِّيُّ: حَتَّى إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمْرَضُ فَتَنْذِرُ إِنْ  
عُوفِيَتْ أَنْ تَحْمِلَ حَطَبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي  
جُوفَةِ مِنَ الْأَرْضِ وَأَصْرَمُوهَا نَارًا، فَكَانَ لَهَا شَرٌّ عَظِيمٌ  
وَلَهَبٌ مُرْتَفِعٌ لَمْ تَوْقَدْ نَارٌ قَطُّ مِثْلَهَا، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ فِي كِفَّةِ الْمُنْجِنِيِّ بِإِشَارَةِ رَجُلٍ مِنْ أَغْرَابِ فَارِسَ  
مِنَ الْأَكْرَادِ<sup>(١)</sup>. - قَالَ شُعَيْبُ النَّجَّيِّي، اسْمُهُ هَيْزَلٌ -  
فَحَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،  
فَلَمَّا أَلْقَوْهُ قَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ<sup>(٢)</sup>. كَمَا رَوَاهُ  
الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ،  
قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمَا  
السَّلَامُ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ  
فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:  
١٧٣].<sup>(٣)</sup>

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ - وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا -  
قَالَ: لَمَّا أُلْقِيَ إِبْرَاهِيمُ، جَعَلَ خَازِنُ الْمَطَرِ يَقُولُ: مَتَى  
أُومَرُ بِالْمَطَرِ فَأَرْسِلُهُ؟ قَالَ: فَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ أَسْرَعَ مِنْ أَمْرِهِ،  
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَنَادِي كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾  
قَالَ: لَمْ يَبْقَ نَارٌ فِي الْأَرْضِ إِلَّا طُمِئَتْ<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ  
قَالَ: ﴿وَسَلَّمْنَا﴾ لَأَدَّى إِبْرَاهِيمَ بَرْدَهَا<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يَأْتِ يَوْمُئِذٍ دَابَّةٌ إِلَّا أَطْفَأَتْ عَنْهُ النَّارَ،  
إِلَّا الْوَزْغَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَتْلِهِ، وَسَمَّاهُ  
فُؤَيْسِقًا<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾  
أَي: الْمَغْلُوبِينَ الْأَسْفَلِينَ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ كَيْدًا،

سورة الأنبياء

٣٢٩

سورة الأنبياء

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ، وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَمِنَ الْغَيْبِ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَوِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ، وَزَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَكِّرُونَ فِي الْخَيْرِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرِهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾

فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَكَانُوا يَتَصَدَّقُونَ لِأَدَاءِهِ وَيَتَوَاصُونَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ عَلَىٰ خِلَافِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أَيُّ: وَنَجَّيْنَاهُ وَخَلَصْنَاهُ مُتَّصِرًا مِنَ الْقَوْمِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَأَعْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿أَيُّ: أَهْلَكْنَاهُمْ اللَّهُ بِعَاقِبَةٍ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدٌ، كَمَا دَعَا عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ﴾

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ يُسَبِّحُ وَأَطِيرُ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَصْفَةَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ

وَمُجَاهِدٌ: عَطِيَّةٌ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ <sup>(٢)</sup> وَالْحَكَمُ بْنُ [عَتِيَّة] <sup>(٣)</sup>: النَّافِلَةُ وَلَدُ الْوَلَدِ، يَعْنِي أَنَّ يَغْوُونَ وَلَدُ إِسْحَاقَ، كَمَا قَالَ: ﴿فَبَسَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: سَأَلَ وَاحِدًا، فَقَالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فَأَعْطَاهُ اللَّهُ إِسْحَاقَ وَزَادَهُ يَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أَيُّ: الْجَمِيعَ أَهْلَ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً﴾ أَيُّ: يُقْتَدَى بِهِمْ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أَيُّ: يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ بِأَذِينِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ﴿وَكَانُوا لَنَا عَسِيدِينَ﴾ أَيُّ: فَاعِلِينَ لِمَا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ.

[ذِكْرُ لُوطٍ]

ثُمَّ عَطَفَ بِذِكْرِ لُوطٍ، وَهُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ. كَانَ قَدْ آمَنَ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّبَعَهُ وَهَاجَرَ مَعَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَمَنَّاهُ لَمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] فَأَتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا وَبَعَثَهُ إِلَىٰ سُدُومَ وَأَعْمَالِهَا، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَصَّ خَبْرَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَاسِقُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَفَسَقُوا﴾ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَأَعْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٧٧﴾

[ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِجَابَتِهِ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ دَعَا عَلَىٰ قَوْمِهِ لَمَّا كَذَّبُوهُ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَبِرُ﴾ [القمر: ١٠] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿١١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَفْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أَيُّ: مِنَ الشَّدَةِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْأَذَى، فَإِنَّهُ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

حَفِظَ (١٧)

[ذِكْرُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَمَا أُوتِيََا مِنَ الْآيَاتِ وَذِكْرُ قِصَّةِ

نَفْسِ الْغَنَمِ فِي الزَّرْعِ]

قَالَ [أَبُو] إِسْحَاقُ عَنْ مَرْثَةٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: كَانَ ذَلِكَ الْحَرْثُ كَرْمًا قَدْ تَذَلَّتْ عَنَاقِيدُهُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ شُرَيْحُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّفْسُ الزَّرْعِيُّ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ شُرَيْحٌ وَالزَّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ: النَّفْسُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللَّيْلِ<sup>(٤)</sup>. زَادَ قَتَادَةُ: وَالْهَمْلُ بِالنَّهَارِ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قَالَ: كَرْمٌ قَدْ أَنْبَتَتْ عَنَاقِيدُهُ فَأَفْسَدَتْهُ، قَالَ: فَقَضَى دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لِصَاحِبِ الْكَرْمِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: غَيْرَ هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: تَدْفَعُ الْكَرْمَ إِلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ فَيَقْتُومُ عَلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، وَتَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْكَرْمِ فَيَصِيبُ مِنْهَا حَتَّى إِذَا كَانَ الْكَرْمُ كَمَا كَانَ، دَفَعْتَ الْكَرْمَ إِلَى صَاحِبِهِ، وَدَفَعْتَ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِهَا، فَلَيْكَ قَوْلُهُ: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ﴾<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَآ إِنْسَانًا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَنَّ إِيسَى بْنَ مُعَاوِيَةَ لَمَّا اسْتَفْضَى أَنَاهُ الْحَسَنُ فَبَكَى، فَقَالَ: مَا يَبْكِيكَ؟ قَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ بَلَّغْنِي أَنَّ الْقَضَاءَ رَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَهُوَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ مَالَ بِهِ الْهَوَى، فَهُوَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ، فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ فِيمَا قَصَّ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَالْأَنْبِيَاءُ حُكْمًا يَرُدُّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ عَنْ قَوْلِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكَلَّمَآ لِحَكِيمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ فَأَتْنِي اللَّهُ عَلَى سُلَيْمَانَ وَلَمْ يَدَمْ دَاوُدَ، ثُمَّ قَالَ - يَعْنِي الْحَسَنُ -: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ عَلَى الْحُكَّامِ ثَلَاثًا: لَا يَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَلَا يَتَّبِعُوا فِيهِ الْهَوَى، وَلَا يَخْشَوْنَ فِيهِ أَحَدًا، ثُمَّ ثَلَاثًا: ﴿يَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُونَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِحَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤]<sup>(٨)</sup>.

قُلْتُ: أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَكُلُّهُمْ مَعْصُومُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ فَقَدْ تَبَتَّ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»<sup>(٩)</sup>. فَلِهَذَا الْحَدِيثُ يَرُدُّ نَصًّا مَا تَوَهَّمَهُ "إِيَّاسٌ" مِنْ أَنَّ الْقَاضِي إِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِي السَّنَنِ: «الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ: قَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، وَقَاضِيَانِ فِي النَّارِ: رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى جَهْلِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِخِلَافِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ»<sup>(١٠)</sup>.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ لَهُمَا، إِذْ جَاءَ الذُّبُّ فَأَخَذَ أَحَدَ الْابْنَيْنِ فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ، فَقَضَى بِهِ لِلْكَبَرَى، فَخَرَجَتَا فَدَعَاَهُمَا سُلَيْمَانُ فَقَالَ: هَاتُوا السَّكِينِ أَشَقُّهُ بَيْنَكُمَا؟ فَقَالَتِ الصَّغْرَى: يَرَحُّمَكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا لَا تَشَقُّهُ، فَقَضَى بِهِ لِلصَّغْرَى»<sup>(١١)</sup>. وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا<sup>(١٢)</sup>، وَبَوَّبَ عَلَيْهِ النَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ الْقَضَاءِ<sup>(١٣)</sup>: [بَابُ الْحَاكِمِ يُوْهِمُ خِلَافَ الْحُكْمِ لِيَسْتَغْلِمَ الْحَقَّ].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ...﴾ وَالْآيَةُ، وَذَلِكَ لَطِيفِ صَوْنِهِ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الزَّبُورِ، وَكَانَ إِذَا تَرْتَمَّ بِهِ تَقَفَ الطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ فَتَحَاوَبُهُ، وَتَرَدَّدَ عَلَيْهِ الْجِبَالُ تَأْوِيًا، وَلِهَذَا لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَهُوَ يَتْلُو الْقُرْآنَ مِنَ اللَّيْلِ وَكَانَ لَهُ صَوْتُ طَيِّبٌ جَدًّا، فَوَقَّفَ وَاسْتَمَعَ لِقِرَائَتِهِ، وَقَالَ: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لَحَبْرَتُهُ لَكَ تَحْيِيرًا<sup>(١٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَّنَا صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ

(١) الطبري: ٤٧٤/١٨ إسناده ضعيف أبو إسحاق مدلس ولم يصرح بالسماع (٢) الطبري: ٤٧٥/١٨ (٣) الطبري: ١٨/٤٧٧، ٤٧٨ (٤) الطبري: ٤٧٨، ٤٧٧/١٨ (٥) الطبري: ١٨/٤٧٧ (٦) الطبري: ٤٧٥/١٨ حكمه كسابقه (٧) الطبري: ١٨/٤٧٥ ضعيف كما مر. (٨) تهذيب تاريخ دمشق: ١٨٤/٣ وابن أبي حاتم: ٢٤٥٨/٨ (٩) البخاري: ٧٣٥٢ (فتح الباري: ١٣/٣١٨) (١٠) أبوداود: ٣٥٧٣ في كتاب القضاء القاضي يخطيء وصححه الألباني (١١) أحمد: ٣٢٢/٢ (١٢) البخاري: ٦٧٦٩ ومسلم: ١٧٢٠ (١٣) النسائي في الكبرى: ٩٥٨ (١٤) فتح الباري: ٧١١/٨



وَمَنَّا زِلْ مُرْصِيَّةً، فَأَبْتَلِي فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ، ثُمَّ ابْتَلِي فِي جَسَدِهِ، وَأَفْرَدَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَلَدِ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَخُونُ عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَتِهِ كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ، وَيُقَالُ: إِنَّهَا احْتَاَجَتْ، فَصَارَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ»<sup>(١)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «يَبْتَلِي الرَّجُلَ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَافَةٌ زِيدَ فِي بَلَاءِهِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَايَةً فِي الصَّبْرِ. وَبِهِ يَضْرِبُ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ مَيْسَرَةَ: لَمَّا ابْتَلَى اللَّهُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَهَابِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ، وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ لَهُ، أَحْسَنَ الذِّكْرَ، ثُمَّ قَالَ: أَحْمَدُكَ رَبُّ الْأَرْبَابِ، الَّذِي أَحْسَنْتَ إِلَيَّ، أَعْطَيْتَنِي الْمَالَ وَالْوَلَدَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ قَلْبِي شُعْبَةٌ إِلَّا قَدْ دَخَلَهُ ذَلِكَ، فَأَخَذْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنِّي، وَفَرَعْتُ قَلْبِي، فَلَيْسَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَيْءٌ، لَوْ يَعْلَمُ عَدُوِّي إِبْلِيسُ بِالَّذِي صَنَعْتَ حَسَنَنِي. قَالَ: فَلَقِيَ إِبْلِيسُ مِنْ ذَلِكَ مُنْكَرًا. قَالَ: وَقَالَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ أَعْطَيْتَنِي الْمَالَ وَالْوَلَدَ، فَلَمْ يَقُمْ عَلَى بَابِي أَحَدٌ يَشْكُونِي لظُلْمِ ظَلَمْتُهُ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، وَأَنْتَ كَانَ يُوطَأُ لِي الْفِرَاشُ فَأَتْرَكْتُهَا، وَأَقُولُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ، إِنَّكَ لَمْ تُخْلِقِي لَوَطْءِ الْفِرَاشِ. مَا تَرَكْتُ ذَلِكَ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهِكَ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا عَافَى اللَّهُ أَيُّوبَ أَطْمَرَ عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ مِنْهُ بِيَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي ثَوْبِهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ أَمَا تَشْعُرُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَشْعُرُ مِنْ رَحْمَتِكَ». أَضْلُهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَسَبَّأْنِي فِي مَوْضِعٍ آخَرَ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَأَتَيْنَهُ أَهْلُهُ وَمِثْلُهُمْ مَعَهُمْ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: رُدُّوا عَلَيْهِ بِأَعْيَانِهِمْ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى مِثْلَهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٍ، وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ، إِنَّ أَهْلَكَ لَكَ فِي الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ أَتَيْنَاكَ بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ تَرَكْنَاهُمْ لَكَ فِي الْجَنَّةِ وَعَوَضْنَاكَ مِثْلَهُمْ. قَالَ:

بِأَسْكَمَ\* يَعْنِي صَنَعَةَ الدَّرُوعِ. قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّمَا كَانَتْ الدَّرُوعُ قَبْلَهُ صَفَائِحَ: وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَرَدَهَا حَلَقًا<sup>(٨)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَالنَّاسُ لَهُ الْخَلِيدُ»<sup>(٩)</sup> أَنْ أَقْمَلَ سَيِّغَتِ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ\* [سبأ: ١٠، ١١] أَيْ: لَا تُوسِّعُ الْحَلَقَةُ فَتَقْلِقُ الْمُسْمَارَةَ وَلَا تَغْلِظُ الْمُسْمَارَ فَتَقْدُ الْحَلَقَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: «لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ\*» يَعْنِي فِي الْقِتَالِ «فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ\*» أَيْ: نِعِمَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، لِمَا أَلْهَمَ بِهِ عَبْدَهُ دَاوُدَ، فَعَلِمَهُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكَ؟

[سُلْطَنُهُ سُلَيْمَانُ لَا مِثَالَ لَهَا]

وَقَوْلُهُ: «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً\*» أَيْ: وَسَخَرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ الْعَاصِفَةَ\* تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا\* يَعْنِي أَرْضَ الشَّامِ «وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ» وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بَسَاطٌ مِنْ خَشَبٍ يُوضَعُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ وَالْحَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالْخِيَامِ وَالْجُنْدِ ثُمَّ يَأْمُرُ الرِّيحَ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَتَدْخُلُ تَحْتَهُ ثُمَّ تَحْمِلُهُ وَتَرْفَعُهُ وَتَسِيرُ بِهِ، وَتُظِلُّهُ الطَّيْرُ تَقِيهِ الْحَرَّ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَنْزِلُ وَتُوضَعُ آيَاتُهُ وَحُسْمُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُكَّةً حَيْثُ أَصَابَ\*» [ص: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: «عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ\*» [سبأ: ١٢].

وَقَوْلُهُ: «وَمِنْ الشَّيْطَانِ مَنْ يَعْصُونَكَ لَمْ\*» أَيْ: فِي الْمَاءِ يَسْتَخْرِجُونَ اللَّالِئَ وَالْجَوَاهِرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، «وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ\*» أَيْ: غَيْرَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ<sup>(١٠)</sup> وَمَا خَرِيعَ مُفْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ\*» [ص: ٣٧، ٣٨]. وَقَوْلُهُ: «وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ\*» أَيْ: يَحْرُسُهُ اللَّهُ أَنْ يَنَالَهُ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ بِسُوءٍ، بَلْ كُلُّ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ، لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الدُّنُوِّ إِلَيْهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، بَلْ هُوَ يَحْكُمُ فِيهِمْ، إِنْ شَاءَ أَطْلَقَ، وَإِنْ شَاءَ حَبَسَ مِنْهُمْ مَنْ يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَمَا خَرِيعَ مُفْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ\*».

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أِنِّي مَسِيئٌ ضَلَّيْتُ وَأَنْتَ أَزْكَمُ الرَّحِيمُ﴾ (٢١) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعَدْنَاهُ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

[ذِكْرُ أَيُّوبَ]

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأَوْلَادٌ كَثِيرَةٌ

(١) الطبري: ١٨/٤٨٠. (٢) الطبراني: ٢٤/٢٤٥، ٢٤٦ (٣) أحمد: ١/١٨٠ (٤) حلية الأولياء: ٥/٢٣٩ (٥) ابن أبي حاتم: ٨/٢٤٦ (٦) الطبري: ١٨/٥٠٦، ٥٠٧ (٧) الطبري: ١٨/٥٠٦، ٥٠٧ (٨) الطبري: ١٨/٥٠٦، ٥٠٧

يُؤْنَسَ فَأَبَوْا أَنْ يُلْقَوْهُ، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا فَأَبَوْا، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١] أَيْ: وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ، فَقَامَ يُؤْنَسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ، ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ - فِيمَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ - حُوتًا يَشُقُّ الْبَحَارَ حَتَّى جَاءَ فَالْتَقَمَ يُؤْنَسَ حِينَ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا تَأْكُلْ لَهُ لَحْمًا وَلَا تَهْنِمَ لَهُ عَظْمًا، فَإِنَّ يُؤْنَسَ لَيْسَ لَكَ رِزْقًا وَإِنَّمَا بَطْنُكَ يَكُونُ لَهُ سِجْنًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ بِغَنَى الْحُوتِ صَحَبَتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ بِهَذِهِ النِّسْبَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضًى﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: لِقَوْمِهِ<sup>(١)</sup>: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: نَضِيقَ عَلَيْهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ. يُرْوَى نَحْوُ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٢)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَاسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَيْنَاهُ اللَّهُ لَا يُلْكَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مِمَّا آتَيْنَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ظَلُمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ وَظَلُمَةُ الْبَحْرِ وَظَلُمَةُ اللَّيْلِ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رُويَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ سَالِمُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ: ظَلُمَةُ حُوتٍ فِي بَطْنِ حُوتٍ آخَرَ فِي ظَلُمَةِ الْبَحْرِ<sup>(٥)</sup>. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُمَا: وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ الْحُوتُ فِي الْبَحَارِ يَشُقُّهَا حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ، فَسَمِعَ يُؤْنَسُ تَسْبِيحَ الْحَصَى فِي قَرَارِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَهَنَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ عَوْفُ الْأَعْرَابِيِّ: لَمَّا صَارَ يُؤْنَسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، ثُمَّ حَرَكَ رَجُلِيهِ، فَلَمَّا تَحَرَّكَتْ سَجَدَ مَكَانَهُ، ثُمَّ نَادَى يَا رَبِّ، اتَّخَذْتُ لَكَ مَسْجِدًا فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَلْعَنهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَنَّاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أَيْ: أَخْرَجْنَاهُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ وَتِلْكَ الظُّلُمَاتِ ﴿وَكَذَلِكَ نُشِجِي

لَا، بَلْ أَتْرَكْنَاهُمْ لِي فِي الْجَنَّةِ، فَتَرَكُوا لَهُ فِي الْجَنَّةِ وَعَوَّضَ مِثْلَهُمْ فِي الدُّنْيَا. قَوْلُهُ: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أَيْ: فَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِهِ ﴿وَذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: وَجَعَلْنَاهُ فِي ذَلِكَ قُدُورَةً لِكُلِّ أَهْلِ الْبَلَاءِ إِنَّمَا فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيْنَا، وَلِنُتَأَسَّوْا بِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَقْدُورَاتِ اللَّهِ وَابْتِلَائِهِ لِعِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ.

﴿وَلِيَسْمِعَ وَلِيُنْذِرَ وَذَا الْكِفْلِ وَذَا الْصُدَيْرِ﴾<sup>(٨)</sup>

وَأَخْلَنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ<sup>(٩)</sup>

[ذِكْرُ إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذِي الْكِفْلِ]

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَالْمُرَادُ بِهِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، وَكَذَا إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمَّا ذُو الْكِفْلِ، فَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَا قَرُنَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَهُوَ نَبِيٌّ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا، وَكَانَ مَلِكًا عَادِلًا، وَحَكَمًا مُقْسِطًا. وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ<sup>(١٠)</sup>. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضًى فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١١)</sup> فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَنَّاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١٢)</sup>

[ذِكْرُ يُؤْنَسَ]

هَذِهِ الْقِصَّةُ مَذْكُورَةٌ هَا هُنَا وَفِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ وَفِي سُورَةِ ﴿ت﴾، وَذَلِكَ أَنَّ يُؤْنَسَ بْنُ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةِ نِينَوَى، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَتَمَادَرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ، وَوَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ ثَلَاثَ، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذَلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْذِبُ، خَرَجُوا إِلَى الصَّخْرَاءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيِهِمْ، وَفَرَقُوا بَيْنَ الْأُمَهَاتِ وَأَوْلَادِهَا، ثُمَّ تَصَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجَارُوا إِلَيْهِ، وَرَعَتِ الْإِبِلُ وَفُضِّلَتْهَا، وَحَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا، وَنَعَتِ الْغَنَمُ وَسَخَّلَهَا، فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَمَعْنَا لِإِمْعَنَآهَا إِلَّا قَوْمَ يُؤْنَسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وَأَمَّا يُؤْنَسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَكَرَبَ مَعَ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ فَلَجَجَتْ بِهِمْ، وَخَافُوا أَنْ يُعْرِقُوا فَاقْتَرَعُوا عَلَى رَجُلٍ يُلْقَوْنَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَحَفَّقُونَ مِنْهُ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى

(١) الطبري: ٥٠٧/١٨ (٢) الطبري: ٥١١/١٨ (٣) الطبري:

٥١٤/٥١٥ (٤) القرطبي: ٣٣٣/١١ (٥) الطبري: ١٨/

٥١٧، ٥١٦ (٦) الطبري: ٥١٧/١٨ (٧) ابن أبي شيبة: ١١/

٥٤١ و ٥٧٨/١٣ (٨) الطبري: ٥١٨/١٨

سُورَةَ مَرْيَمَ، وَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ أَيْضًا، وَهَهُنَا أَخْصَرُ مِنْهَا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أَيْ: خَفِيَّةٌ عَنْ قَوْمِهِ ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أَيْ: لَا وَلَدَ لِي وَلَا وَارِثَ يَقُومُ بَعْدِي فِي النَّاسِ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دُعَاءٌ وَتَنَاءٌ مُنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾ أَيْ: إِمْرَأَتَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَتْ عَاقِرًا لَا تَلِدُ فَوَلَدَتْ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرُونَ فِي الْخَبَرَاتِ﴾ أَيْ: فِي عَمَلِ الْقُرْبَاتِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ: رَغَبًا فِيمَا عِنْدَنَا، وَرَهَبًا مِمَّا عِنْدَنَا<sup>(٥)</sup>. ﴿وَكَانُوا لَنَا خُشُوعِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ مُصْـَٔدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُؤْمِنِينَ حَقًّا<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: خَافِينَ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ أَبُو سِتَّانٍ: الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا. وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا: ﴿خُشُوعِينَ﴾ أَيْ: مُتَوَاضِعِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: ﴿خُشُوعِينَ﴾ أَيْ: مُتَذَلِّلِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٩)</sup>. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ.

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَفَخَّخْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجِنَا

وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا عَلِيَّةً لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>(١١)</sup>

[ذِكْرُ عِيسَى وَمَرْيَمَ الصَّديقَةِ]

هَكَذَا يَذْكُرُ تَعَالَى قِصَّةَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ زَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَيَذْكُرُ أَوَّلًا قِصَّةَ زَكَرِيَّا ثُمَّ يَتْبَعُهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ، لِأَنَّ تِلْكَ مَرْبُوطَةٌ بِهِذِهِ، فَإِنَّهَا إِيجَادٌ وَلَدٌ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ، وَمِنْ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ عَاقِرٍ لَمْ تَكُنْ تَلِدُ فِي حَالِ شَبَابِهَا، ثُمَّ يَذْكُرُ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَهِيَ أَعْجَبُ، فَإِنَّهَا إِيجَادٌ وَلَدٌ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ، هَكَذَا وَقَعَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَفِي سُورَةِ مَرْيَمَ، وَهَهُنَا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا﴾ يَعْنِي مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَفَخَّخْنَا فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا﴾ [التَّحْرِيمُ: ١٢].

الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: إِذَا كَانُوا فِي الشَّدَائِدِ وَدَعَوْنَا مُبِينِينَ لِنَبِّنَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا دَعَوْا بِهَذَا الدُّعَاءِ فِي حَالِ الْبَلَاءِ، فَقَدْ جَاءَ التَّرْغِيبُ فِي الدُّعَاءِ بِهِ عَنْ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ ابْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَمَلَأَ عَيْنِيهِ مِنِّي ثُمَّ لَمْ يَزِدْ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَأَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ حَدَّثَ فِي الْإِسْلَامِ شَيْءٌ - مَرَّتَيْنِ؟ - قَالَ: لَا، وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: لَا، إِلَّا أَنِّي مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ أَنِفًا فِي الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلَأَ عَيْنِيهِ مِنِّي، ثُمَّ لَمْ يَزِدْ عَلَيَّ السَّلَامَ، قَالَ: فَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى عُثْمَانَ فَدَعَاهُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَكُونَ رَدَدْتَ عَلَى أَحِيكَ السَّلَامَ؟ قَالَ: مَا فَعَلْتُ، قَالَ سَعْدٌ: قُلْتُ: بَلَى، حَتَّى حَلَفَ وَحَلَفْتُ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ ذَكَرَ فَقَالَ: بَلَى، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، إِنَّكَ مَرَرْتَ بِي أَنِفًا وَأَنَا أُحَدِّثُ نَفْسِي بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَا وَاللَّهِ مَا ذَكَرْتُهَا قَطُّ إِلَّا تَغَشَّى بَصْرِي وَقَلْبِي غِشَاوَةٌ، قَالَ سَعْدٌ: فَأَنَا أَتُبُّكَ بِهَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ لَنَا: أَوَّلَ دَعْوَةٍ... ثُمَّ جَاءَ أَغْرَابِي فَشَغَلَهُ حَتَّى قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاتَّبَعْتُهُ، فَلَمَّا أَشْفَقْتُ أَنْ يَسْبِقَنِي إِلَى مَنْزِلِهِ صَرَبْتُ بِقَدَمِي الْأَرْضَ، فَاتَّخَذْتُ إِلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟ أَبُو إِسْحَاقَ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَمَهْ» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ إِلَّا أَنَّكَ ذَكَرْتَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ. ثُمَّ جَاءَ هَذَا الْأَغْرَابِي فَشَغَلَكَ، قَالَ: «نَعَمْ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ دَعَا بِدُعَاءِ يُوسُفَ، اسْتَجِيبَ لَهُ». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: يُرِيدُ بِهِ ﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾<sup>(٤)</sup> فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرُونَ فِي الْخَبَرَاتِ وَيَدْعُونَكَ رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خُشُوعِينَ﴾<sup>(٥)</sup>

[ذِكْرُ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا حِينَ طَلَبَ أَنْ يَهَبَهُ اللَّهُ وَلَدًا يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ

(١) أحمد: ١٧٠/١ (٢) تحفة الأحوذى: ٤٧٩/٩ والنسائي في الكبرى: ١٦٨/٦ مختصرًا (٣) الحاكم: ٥٨٤/٢ (٤) الطبري: ٥٢٠/١٨ (٥) تفسير الثوري: ٢٠٤ (٦) الطبري: ١٦/٢ (٧) الطبري: ١٦/٢ (٨) الطبري: ١٦/٢ (٩) الكشاف: ١٣٣/٣ والبعوي: ٢٦٧/٣ وابن أبي شيبه: ٥٨٠/١٣

سورة الأنبياء

٣٣٠

سورة الأنبياء

وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَفَخَفْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا  
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ  
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾  
وَقَطِّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجْعُوتٌ ﴿٩٣﴾  
فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ  
لِسَعِيدٍ. وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾ وَحَرَّمْ عَلَى قَرِينَةٍ  
أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ  
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾  
وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا يُنَادُونَ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا  
ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ  
اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ  
هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾  
لَهُمْ فِيهَا زَوْجُهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ أَوَّلَتِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾

وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
يُنَادُونَ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾  
[لَا يَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا مَنْ هَلَكَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرِينَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:  
وَجَبَّ، يَعْنِي قَدْ قَدَّرَ أَنَّ أَهْلَ كُلِّ قَرِينَةٍ أَهْلَكُوا أَنَّهُمْ لَا  
يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. هَكَذَا صَرَّحَ بِهِ ابْنُ  
عَبَّاسٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٣).

[ذَكَرُوا يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قَدْ قَدَّمْنَا:  
أَنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَلْ هُمْ مِنْ نَسْلِ نُوحٍ  
أَيْضًا مِنْ أَوْلَادِ يَافَثَ، أَيْ: أَبِي الثَّرَكِ، وَالثَّرَكُ شِرْذِمَةٌ  
مِنْهُمْ، ثَرَكُوا مِنْ وَرَاءِ السَّدِّ الَّذِي بَنَاهُ دُو الْقَرْنَيْنِ، وَقَالَ:  
﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: دَلَالَةً  
عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ،  
وَ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]  
وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَلِنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٩٢﴾  
وَقَطِّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجْعُوتٌ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ  
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ. وَإِنَّا لَهُ  
كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾

[النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ  
وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذِهِ  
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يَقُولُ: دِينُكُمْ دِينٌ وَاحِدٌ (١). وَقَالَ  
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَقْنُونَ وَمَا  
يَأْتُونَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَيْ:  
سُنَّتُكُمْ سُنَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ إِنَّ وَاسْمَهَا،  
وَ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خَبَرٌ إِنَّ، أَيْ: هَذِهِ شَرِيعَتُكُمْ الَّتِي يَبْنِي لَكُمْ  
وَوَضَّحَتْ لَكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نَصَبَ عَلَى  
الْحَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ كَمَا قَالَ:  
﴿يَا أَيُّهَا أَرْسَلْ كَلَامًا مِنَ الطَّبِيبِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ - إِلَى قَوْلِهِ -  
﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  
ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ» (٢).  
يَعْنِي أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ لَا شَرِيكَ لَهُ بِشَرَائِعَ  
مُتَّوَعَةٍ لِرُسُلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً  
وَمِنْهَا جَاءَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَطِّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: اخْتَلَفَتْ الْأُمَمُ  
عَلَى رُسُلِهَا، فَمِنْ بَيْنِ مُصَدِّقٍ لَهُمْ وَمُكَذِّبٍ، وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿كُلُّ إِلَهِنَا رَجْعُوتٌ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجَازِي كُلُّ  
بِحَسَبِ عَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أَيْ: قَلْبُهُ مُصَدِّقٌ،  
وَعَمَلُهُ عَمَلًا صَالِحًا ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا  
لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] أَيْ: لَا يُكْفَرُ  
سَعِيدُهُ، وَهُوَ عَمَلُهُ، بَلْ يُشْكِرُ، فَلَا يُظْلَمُ مُتَقَالَ ذَرَّةً، وَلِهَذَا  
قَالَ: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ﴾ أَيْ: يُكْتَبُ جَمِيعُ عَمَلِهِ فَلَا  
يَضِيعُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.

﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ حَتَّى إِذَا  
فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾

(١) الطبري: ٥٢٣/١٨ (٢) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٣) البغوي: ٢٦٨/٣ والطبري: ٥٢٥/١٨ والرازي: ١٩١/٢٢

حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمُجٍ يَمُوجٍ فِي بَعْضٍ ﴿٩٩﴾... الآية [الكهف: ٩٨، ٩٩] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿حَقًّا إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] أَيْ: يُسْرِعُونَ فِي الْمَشْيِ إِلَى الْفَسَادِ. وَالْحَدَبُ: هُوَ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ وَالثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١)</sup>. وَهَذِهِ صِفَتُهُمْ فِي حَالِ خُرُوجِهِمْ، كَأَنَّ السَّمْعَ مُشَاهِدٌ لِدَلِكِ ﴿وَلَا يَنْتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر: ١٤] هَذَا إِنْجَارُ عَالِمٍ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عُيَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدٍ قَالَ: رَأَى ابْنُ عَبَّاسٍ صَبِيحَانَا يَنْزُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَلْعَبُونَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَكَذَا يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ خُرُوجِهِمْ فِي أَحَادِيثَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الشَّيْخَةِ النَّبَوِيَّةِ.

(فَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فَيَنْشُونَ النَّاسَ، وَيَنْحَارُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَذَائِبِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ، وَيَشْرَبُونَ مَيَّاءَ الْأَرْضِ، حَتَّى إِنْ بَعْضُهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهْرِ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّى يَثْرَكُوهُ يَابِسًا، حَتَّى إِنْ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهْرِ يَقُولُ: قَدْ كَانَ هَهُنَا مَاءٌ مَرَّةً، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ، قَالَ قَائِلُهُمْ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَعْنَا مِنْهُمْ، بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يَهْرُ أَحَدُهُمْ حَرَّتَهُ، ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ مُخْضَبَةً دَمًا لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ، فَيَبْنِي هُمْ عَلَى ذَلِكَ، بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُودًا فِي أَغْنَاقِهِمْ كَتَغَفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَغْنَاقِهِ، فَيَضْبِحُونَ مَوْتًا، لَا يَسْمَعُ لَهُمْ جِسْرٌ، يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرُ مَا فَعَلَ هَذَا الْعُدُو؟ قَالَ: فَيَنْجَرِدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ، قَدْ أَوْطَنَهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتًا، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيَنَادِي: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَلَا أَتَشْرَوْنَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَذَائِبِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَيَسْرَحُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَمَا يَكُونُ لَهُمْ رَعْيٌ إِلَّا لِحُومِهِمْ، فَتَشْكُرُ عَنْهُمْ كَأَحْسَنِ مَا شَكَرْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطٌّ<sup>(٣)</sup>، وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ<sup>(٤)</sup>.

(الْحَدِيثُ الثَّانِي) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ النَّوَّاسِ

ابْنُ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ عَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّحْلِ، [فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِنَا، فَسَأَلْنَاهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ الْعَدَاةَ فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّحْلِ] فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفِي عَلَيْكُمْ. فَإِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَكُلُّ امْرِئٍ حَاجِبُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِنَّهُ شَابٌّ جَعْدٌ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ خَلَّةً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاتَ يَمِينًا وَشِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ اتَّبِعُوا» - قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ؟ - قَالَ: «أَرَبُوعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٌ، وَيَوْمٌ كَشْهَرٌ، يَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَاكَ الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ كَسَنَةٌ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؟ قَالَ: «لَا، أَفَدُّوْا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْعَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ» قَالَ: «فَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَذْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَيَمْطُرُ، وَالْأَرْضَ فَيَنْثَبُثُ، وَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، وَهِيَ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ ذُرَى، وَأَمَدُهُ خَوَاصِرُ، وَأَسْبَعُهُ ضُرُوعًا، وَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَذْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَتَّبِعُهُ أَمْوَالُهُمْ فَيَضْبِحُونَ مُمَحْلِلِينَ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ، فَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِبِ النَّحْلُ - قَالَ: - وَيَأْمُرُ بِرَجُلٍ فَيَقْتُلُ، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَةً الْغَرَضُ، ثُمَّ يَذْعُوهُ فَيَقْبِلُ إِلَيْهِ، يَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ، فَيَبْنِي هُمْ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيٍّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى أَجْنِحَتِهِ مَلَكَيْنِ، فَيَتَّبِعُهُ فَيَذْرُكُهُ فَيَقْتُلُهُ عِنْدَ بَابٍ لِدُ الشَّرْقِيِّ - قَالَ: - فَيَبْنِي هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا مِنْ عِبَادِي لَا يَدَانِ لَكَ بِقَتَالِهِمْ، فَحَرَّرْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فَيَرْغَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَعْفًا فِي رِقَابِهِمْ، فَيَضْبِحُونَ

(١) الطبري: ٥٣٢/١٨ (٢) الطبري: ٥٢٨/١٨ (٣) أحمد:

٧٧/٣ (٤) ابن ماجه: ١٣٦٣/٢



[الْمُشْرِكُونَ وَالْإِنْسَانُ وَمَنْ يَتَّبِعْ أَهْلَهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطَبًا لِأَهْلِ مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ: وَفُودُهَا. <sup>(١)</sup> يَعْنِي كَقَوْلِهِ: ﴿وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] وَفِي رَوَايَةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يَعْنِي حَطَبُ جَهَنَّمَ، بِالزُّنْجِيَّةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: حَطَبُهَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أَيُّ: مَا يُرْمَى بِهِ فِيهَا <sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ أَيُّ: دَاخِلُونَ ﴿لَوْ كُنْتُمْ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا﴾ يَعْنِي لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً صَحِيحَةً، لَمَا وَرَدُوا النَّارَ وَمَا دَخَلُوهَا ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَيُّ: الْعَالِبِدُونَ وَمَعْبُودَاتُهُمْ كُلُّهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَشِهْقٌ﴾ وَالزَّوْجُ خُرُوجُ أَنْفَاسِهِمْ، وَالشَّهْقُ وَلُوجُ أَنْفَاسِهِمْ ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

[ذِكْرُ حَالِ السَّعْدَاءِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: الرَّحْمَةُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: السَّعَادَةُ ﴿أُولَئِكَ عِنْدَ مُبْعَدُونَ﴾ <sup>(٤)</sup>. لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَهْلَ النَّارِ وَعَذَابَهُمْ بِسَبَبِ شَرِكِهِمْ بِاللَّهِ، عَطَفَ بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ، وَأَسْلَفُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَى ذِكْرُكَ﴾ [يونس: ٢٦] وَقَالَ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] فَكَمَا أَحْسَنُوا الْعَمَلُ فِي الدُّنْيَا، أَحْسَنَ اللَّهُ مَا بِهِمْ وَتَوَابَهُمْ، وَنَجَّاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَحَصَلَ لَهُمْ جَزِيلُ الثَّوَابِ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ عِنْدَ مُبْعَدُونَ﴾ <sup>(٥)</sup> لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا أَيُّ: حَرِيقَهَا فِي الْأَجْسَادِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ فَسَلَّمَهُمْ مِنَ الْمَحْذُورِ وَالْمَرْهُوبِ، وَحَصَلَ لَهُمْ الْمَطْلُوبُ وَالْمَعْبُودُ. يُقَالُ: نَزَلَتْ اسْتِثْنَاءً مِنَ الْمَعْبُودِينَ، وَخَرَجَ مِنْهُمْ غَزِيرٌ وَالْمَسِيحُ، كَمَا قَالَ حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَعْمُورُ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ وَعُثْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ

لَهَا وَرِدُونَ﴾ ثُمَّ اسْتَشْنَى فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ فَيُقَالُ: هُمْ الْمَلَائِكَةُ وَعِيسَى، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَابْنُ جُرَيْجٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ: وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي يَوْمًا مَعَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ، وَفِي الْمَسْجِدِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَفْحَمَهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ السَّهْمِيُّ حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزُّبَيْرِ: وَاللَّهِ مَا قَامَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لِابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنَّمَا وَلَا قَعْدَ، وَقَدْ زَعَمَ مُحَمَّدٌ أَنَا وَمَا يُعْبَدُ مِنَ الْهَيْتَةِ هَذِهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَخَصَمْتُهُ، فَسَلُّوا مُحَمَّدًا: كُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عِبَدَهُ؟ فَفُتِحَ نَعْبُ الْمَلَائِكَةِ، وَالْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَالنَّصَارَى تَعْبُدُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ! فَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَرَأَوْا أَنَّهُ قَدْ احْتَجَّ وَخَاصَمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَهُوَ مَعَ مَنْ عِبَدَهُ، إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عِنْدَ مُبْعَدُونَ﴾ <sup>(٦)</sup> لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أَيُّ: عِيسَى وَعُزَيْرٌ وَمَنْ عَبَدُوا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ الَّذِينَ مَضَوْا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، فَاتَّخَذَهُمْ مَنْ يَعْبُدُهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ، أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ. وَنَزَلَ فِيمَا يَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَأَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩] وَنَزَلَ فِيمَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِ عِيسَى وَأَنَّهُ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ،

(١) القرطبي: ٣٤٣/١١ (٢) الطبري: ٥٣٦/١٨ (٣) الطبري:

٥٣٦/١٨ (٤) الطبري: ٥٤١/١٨

وَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنْ حُجَّتِهِ وَخُصُومَتِهِ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا ءَأَلْهَمْنَا خَيْرَ أَمْرٍ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَلَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكَ مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَعَالِمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُكَ بِهَا [الزخرف: ٥٧-٦١] أَيْ: مَا وَضَعْتَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ إِخْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِزْزَاءِ الْأَسْقَامِ، فَكَفَى بِهِ دَلِيلًا عَلَى عِلْمِ السَّاعَةِ، يَقُولُ: ﴿فَلَا تَمْتَرُكَ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦١). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الزَّبْعَرِيِّ، خَطَأٌ كَبِيرٌ، لِأَنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا نَزَلَتْ خِطَابًا لِأَهْلِ مَكَّةَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ الَّتِي هِيَ جَمَادٌ لَا تَعْقِلُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ تَقْرِيبًا وَتَوْبِيخًا لِعِبَادِيهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فَكَيْفَ يُورَدُ عَلَى هَذَا، الْمَسِيحُ وَعَزِيزٌ وَنَحْوُهُمَا مِمَّنْ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَمْ يَرْضَ بِعِبَادَةٍ مِنْ عِبَدِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمَوْتُ. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ يَحْيَى بْنِ رَبِيعَةَ عَنْ عَطَاءٍ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ: بِالْفَزَعِ الْأَكْبَرِ التَّفْخَةُ فِي الصُّورِ. قَالَهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (٦٢). وَأَبُو سَيَانَ سَعِيدُ بْنُ سِنَانٍ الشَّيْبَانِيُّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَلَقَيْنَهُ الْمَلَكُةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي يَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُةُ، تُبَشِّرُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَيْ: فَأَمَلُوا مَا يَسُرُّكُمْ.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٦٣)

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾

[الْأَرْضُ يَرْثُهَا الصَّالِحُونَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا حَتَمَهُ وَقَضَاهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَوَرَاثَةِ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِ الْآَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وَقَالَ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ [غافر: ٥١] وَقَالَ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٦٣)

[نَطْوِي السَّمَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا كَائِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ» انفرد به الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٣). وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَيَّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ الْمُرَادُ بِالسِّجْلِ الْكِتَابُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: السِّجْلُ: مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالصُّحُفِ،

(١) ابن هشام: ٣٨٤/١ (٢) الطبري: ٥٤٢/١٨ (٣) فتح الباري: ٤٠٤/١٣ (٤) الطبري: ٥٤٣/١٨ (٥) الطبري: ١٨/٥٤٣ (٦) الطبري: ٥٤٣/١٨ (٧) أحمد: ٢٣٥/١ (٨) فتح الباري: ٢٩٢/٨ ومسلم: ٢١٩٤/٤



الله ﷻ، فَجَاءَ حُذَيْفَةُ إِلَى سَلْمَانَ، فَقَالَ سَلْمَانُ: يَا حُذَيْفَةُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [كَانَ يَغْضَبُ فَيَقُولُ... وَيَرْضَى فَيَقُولُ. لَقَدْ عَلِمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ] حَاطَبٌ فَقَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتُهُ [سَبَّةً] فِي غَضَبِي، أَوْ لَعْنَتُهُ لَعْنَةً، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبَ كَمَا تَغْضَبُونَ، إِنَّمَا بَعَثَنِي اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَاجْعَلْهَا صَلَاةً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يُونُسَ عَنْ زَائِدَةَ<sup>(٨)</sup>.

فَإِنْ قِيلَ: فَأَيُّ رَحْمَةٍ حَصَلَتْ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ؟ فَالْجَوَابُ مَا رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» قَالَ: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، كُتِبَ لَهُ الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، عُوفِيَ مِمَّا أَصَابَ الْأَمَمَ مِنَ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ<sup>(٩)</sup>.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١١﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَنْعٌ لَّكُمْ حِينَئِذٍ قُلْ رَبِّ أَعْمَكُم بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٣﴾﴾ مَا تَصِفُونَ ﴿١٤﴾﴾

### [خُلَاصَةُ الْوَحْيِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ: «إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» أَيُّ مُتَّبِعُونَ عَلَى ذَلِكَ، مُسْتَسْلِمُونَ مُتَقَادُونَ لَهُ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيُّ: تَرَكُوا مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أَيُّ: أَعْلَمْتُكُمْ أَنِّي حَرَبٌ لَكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ حَرَبٌ لِي، بَرِيءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بَرَاءٌ مِنِّي، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وَقَالَ: ﴿وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَةً فَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ سَوَاءٌ﴾ [الأنفال: ٥٨] أَيُّ: لِيَكُنْ عِلْمُكُمْ وَعِلْمُهُمْ بِنَبَذِ الْعُهُودِ عَلَى السَّوَاءِ،

[النور: ٥٥] وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا مَسْطُورٌ فِي الْكِتَابِ الشَّرْعِيِّ وَالْقُدْرِيَّةِ وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾. قَالَ الْأَعْمَشُ: سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فَقَالَ: الزَّبُورُ: التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الزَّبُورُ الْكِتَابُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: الزَّبُورُ: الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى دَاوُدَ، وَالذِّكْرُ: التَّوْرَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الزَّبُورُ: الْكِتَابُ بَعْدَ الذِّكْرِ، وَالذِّكْرُ: أُمُّ الْكِتَابِ عِنْدَ اللَّهِ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: هُوَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنْتَ آتَاكِ يَرُثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ» قَالَ: أَرْضُ الْجَنَّةِ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالشَّعْبِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ وَأَبُو صَالِحٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالثَّوْرِيُّ<sup>(٥)</sup> رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ فِي هَذَا لَبَلَاغٌ لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾ أَيُّ: إِنْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَتْهُ عَلَى عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لَبَلَاغٌ﴾: لَمَنْفَعَةٌ وَكَفَايَةٌ ﴿لِقَوْمٍ عَصِيْبٍ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ عَبَدُوا اللَّهَ بِمَا شَرَعَهُ وَأَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ، وَاتَّبَعُوا طَاعَةَ اللَّهِ عَلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَشَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ.

### [مُحَمَّدٌ ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ]

وَقَوْلُهُ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ أَيُّ: أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لَهُمْ كُلُّهُمْ، فَمَنْ قَبِلَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ وَشَكَرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ، سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ رَدَّهَا وَجَحَدَهَا خَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْفَرَارَ ﴿[إبراهيم: ٢٨، ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْقُرْآنِ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَشَارَةٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُمْ عَلَىٰهَا عَمًى أُولَٰئِكَ يَنذَرُوكَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ: حَدَّثَنَا مَرْوَانُ الْقُرَازِيُّ عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ ابْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَدْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً». إِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي قُرَّةٍ الْكِنْدِيُّ قَالَ: كَانَ حُذَيْفَةُ بِالْمَدَائِنِ فَكَانَ يَذْكُرُ أَشْيَاءَ قَالَهَا رَسُولُ

(١) الطبري: ٥٤٧/١٨ (٢) الطبري: ٥٤٧/١٨ (٣) الطبري:

٥٤٧/١٨ (٤) الطبري: ٥٤٩/١٨ (٥) الطبري: ١٨/

٥٥٠، ٥٥٩ (٦) مسلم: ٢٠٠٦/٤ (٧) أحمد: ٤٣٧/٥ (٨)

أبو داود: ٤٥٠/٥ (٩) الطبري: ٥٥٢/١٨ إسناده ضعيف فيه راو

لم يسم والمسدودي اختلط

وَمَكَدًا هَهُنَا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ ءَادَنْتُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أَي: أَعْلَمْتُكُمْ بِرِءَايَتِي مِنْكُمْ وَبِرِءَايَتِكُمْ مِنِّي، لِيُعْلِمَنِي بِذَلِكَ.

[لَا يَعْلَمُ وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعِدُونَ﴾ أَي: هُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لِي بِقُرْبِهِ وَلَا بِبُعْدِهِ ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ مِنْ أَلْفَوْفٍ وَيَعْلَمُ مَا تُكْسِفُونَ﴾ أَي: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعَهُ، وَيَعْلَمُ مَا يُظْهِرُهُ الْعِبَادُ وَمَا يُسْرُونَ، يَعْلَمُ الظُّوَاهِرَ وَالضَّمَائِرَ، وَيَعْلَمُ السَّرَّ وَأَخْفَى، وَيَعْلَمُ مَا الْعِبَادُ غَامِلُونَ فِي أَجْهَارِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ الْقَلِيلِ وَالْجَلِيلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَدْرِي لَعَلَّكُمْ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَي: وَمَا أَدْرِي لَعَلَّ هَٰذَا فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَعَلَّ تَأْخِيرَ ذَٰلِكَ عَنْكُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى <sup>(١)</sup>. وَحَكَاهُ عَوْنٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قَالَ رَبِّ آمَنَّا بِالْحَقِّ﴾ أَي: أَفْصَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ. قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ ذَٰلِكَ <sup>(٢)</sup>. وَعَنْ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا شَهِدَ قِتَالًا قَالَ: ﴿رَبِّ آمَنَّا بِالْحَقِّ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ﴾ أَي: عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ مِنَ الْكُذِبِ وَيَتَوَعَّدُونَ فِي مَقَامَاتِ التَّكْذِيبِ وَالْإِلْفِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيْكُمْ فِي ذَٰلِكَ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ [وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّا نَدَّهْلَ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

[أَهْوَالُ السَّاعَةِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا عِبَادَهُ يَتَّقُواهُ وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَزَلْزَلِهَا وَأَحْوَالِهَا، كَمَا قَالَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣٣٢

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا نَدَّهْلَ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ وَنُنقِرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّتِ الْأَرْضُ لَٰلِجَالًا فَذُكًّا ذَكَهُ وَجْدَةً ﴿٢﴾ فَيَوْمَذِيقُ الْوَاقِعَةِ ﴿٣﴾ الْآيَةُ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَسُتِ الْجِبَالُ سُتًا...﴾ [الواقعة: ٤، ٥]، فَقَالَ قَائِلُونَ: هَٰذِهِ الزَّلْزَلَةُ كَانَتْ فِي آخِرِ عُمُرِ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ أَحْوَالِ السَّاعَةِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ عَلْقَمَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قَالَ: قَبْلَ السَّاعَةِ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَٰلِكَ هُوَ وَفَزَعٌ وَزِلْزَالٌ وَتَلْبَلُّلٌ، كَائِنَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ بَعْدَ الْقِيَامِ مِنَ الْقُبُورِ، وَاخْتَارَ ذَٰلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَاجْتَنَبُوا بِأَحَادِيثَ:

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي بَعْضِ أَشْفَارِهِ، وَقَدْ تَقَاوَتْ بَيْنَ

(١) الطبري: ٥٥٤/١٨ (٢) ابن أبي حاتم (١٣٧٦٦) إسناده ضعيف وذكر ابن أبي حاتم بدون سند (٣) الطبري: ٥٥٧/١٨

حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دَرَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أَرَاهُ قَالَ: - تِسْعُمِائَةِ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعُونَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَتَشَبَّهُ الْوَلِيدُ «وَتَرَى النَّاسَ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وَجُوهُهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ تِسْعُمِائَةِ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعُونَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السُّودَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ<sup>(٦)</sup>. وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ<sup>(٧)</sup>.

وَالْأَحَادِيثُ فِي أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْأَنْارِ كَثِيرَةٌ جِدًّا لَهَا مَوْضِعٌ آخَرُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أَيُّ: أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَحَطَبٌ جَلِيلٌ، وَطَارِقٌ مُفْطِعٌ، وَحَادِثٌ هَائِلٌ، وَكَائِنٌ عَجِيبٌ، وَالزَّلْزَالُ هُوَ مَا يَحْصُلُ لِلنُّفُوسِ مِنَ الرُّعْبِ وَالْفَزَعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰئِلًا ابْتِلَى الْأُمُورُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَوَدُّهَا﴾ هَذَا مِنْ بَابِ ضَمِيرِ الشَّانِ، وَلِهَذَا قَالَ مُفَسِّرًا لَهُ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أَيُّ: فَتَسْتَغْلُ لِهَوْلِ مَا تَرَى عَنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهَا، وَالتِّي هِيَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ، تَذْهَشُ عَنْهُ فِي حَالِ إِرْضَاعِهَا لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مُرْضِع. وَقَالَ: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أَيُّ: عَنْ رَضِيعِهَا قَبْلَ فِطَامِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ أَيُّ: قَبْلَ تَمَامِهِ لِشِدَّةِ الْهَوْلِ «وَتَرَى النَّاسَ سُكْرَى» وَفَرَى

أَصْحَابِهِ السَّيْرِ، رَفَعَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ صَوْتَهُ. ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يَوْمَ تَوَدُّهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ فَلَمَّا سَمِعَ أَصْحَابُهُ بِذَلِكَ حَثُوا الْمَطْيَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ عِنْدَ قَوْلِ يَقُولُهُ، فَلَمَّا دَنَا حَوْلَهُ قَالَ: «أَتَذَرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَاكَ؟ ذَاكَ يَوْمٌ يُنَادَى آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقُولُ: يَا آدَمُ ابْعَثْ بَعَثَكَ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةِ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ» قَالَ: فَأَبْلَسَ أَصْحَابُهُ حَتَّى مَا أَوْضَحُوا بِضَاحِكَةٍ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: «أَبْشِرُوا وَاعْمَلُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنْكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ، مَا كَانَتْ مَعَ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا كَثَرَتْ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ» قَالَ: فَسَرَى عَنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّائِيَّةِ»<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٢)</sup>.

(طَرِيقٌ أُخْرَى) لِهَذَا الْحَدِيثِ. رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - «وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» قَالَ: نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَقَالَ: «أَتَذَرُونَ أَيُّ يَوْمٍ ذَاكَ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: - ذَلِكَ يَوْمٌ يَقُولُ اللَّهُ لِآدَمَ: ابْعَثْ بَعَثُ النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثُ النَّارِ؟ قَالَ: تِسْعُمِائَةِ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ» فَأَنْشَأَ الْمُسْلِمُونَ يَكُونُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَارِبُوا وَسَدُّوا، فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوءَةً قَطُّ إِلَّا كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهَا جَاهِلِيَّةٌ، قَالَ: فَيُؤْخَذُ الْعَدَدُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنْ تَمَّتْ، وَإِلَّا كَمَلَتْ مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ، وَمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْأُمَمِ إِلَّا كَمَثَلِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّائِيَّةِ، أَوْ كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ» ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرُوا ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرُوا ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرُوا - ثُمَّ قَالَ: وَلَا أُدْرِي أَقَالَ الثَّلَاثِينَ أَمْ لَا<sup>(٣)</sup> - . وَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ<sup>(٤)</sup>. ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا: هَذَا

(١) أحمد: ٤٣٥/٤ (٢) تحفة الأحوذى: ١٢/٩ والنسائي في الكبرى: ٤١٠/٦ (٣) تحفة الأحوذى: ٩/٩ إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جُدعان وله شواهد كما ذكر المؤلف بعده (٤) أحمد: ٤٣٢/٤ (٥) فتح الباري: ٢٩٥/٨ (٦) فتح الباري: ٤٤٠/٦ (٧) مسلم: ٢٠١/١ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٠٩

وَالْأَجْسَادِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَمَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أَيُّ: أَصْلُ بَرِيئِهِ لَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أَيُّ: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ.

### [تَطَوُّرُ النُّطْفَةِ وَالْجَنِينَ فِي الرَّحِمِ]

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتِ النُّطْفَةُ فِي رَحِمِ الْمَرْأَةِ، مَكَثَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَذَلِكَ، يُضَافُ إِلَيْهِ مَا يَجْتَمِعُ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَتَغَلَّبُ عَلَقَةُ حَمَرَاءَ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَتَمُكُّ كَذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تَسْتَحِيلُ فَتَصِيرُ مُضْغَةً: قِطْعَةً مِنْ لَحْمٍ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَحْطِيطَ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي التَّشْكِيلِ وَالتَّحْطِيطِ فَيُصَوِّرُ مِنْهَا رَأْسَ وَبِدَانَ وَصَدْرَ وَبَطْنَ وَفَخِذَيْنِ وَرِجْلَيْنِ وَسَائِرَ الْأَعْضَاءِ، فَتَارَةً تُسْقِطُهَا الْمَرْأَةُ قَبْلَ التَّشْكِيلِ وَالتَّحْطِيطِ، وَتَارَةً تُلْقِيهَا وَقَدْ صَارَتْ ذَاتَ شَكْلٍ وَتَحْطِيطَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أَيُّ: كَمَا تَشَاهِدُونَهَا ﴿لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقِيرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَّا أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أَيُّ: وَتَارَةً تَسْتَوِّرُ فِي الرَّحِمِ لَا تُلْقِيهَا الْمَرْأَةُ وَلَا تُسْقِطُهَا، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قَالَ: هُوَ السَّقَطُ مَخْلُوقٌ وَغَيْرُ مَخْلُوقٍ. فَإِذَا مَضَى عَلَيْهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا وَهِيَ مُضْغَةٌ، أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكًا إِلَيْهَا فَفَتَحَ فِيهَا الرُّوحَ وَسَوَّاهَا كَمَا يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنٍ وَفُتُوحٍ، وَذَكَرَ وَأُنْثَى، وَكَتَبَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ.

كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيَوْمِرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَفْتَحُ فِيهِ الرُّوحَ»<sup>(١)</sup>.

### [تَطَوُّرُ الْإِنْسَانِ مِنَ الطُّفُولَةِ إِلَى الشَّبَابِ]

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أَيُّ: ضَعِيفًا فِي بَدَنِهِ وَسَمِعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَوَاسِيهِ وَبَطْنِهِ وَعَقْلِهِ، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللَّهُ الْقُوَّةَ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيُلْطَفُ بِهِ وَيُحَنَّنُ عَلَيْهِ وَالِدَيْهِ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لِنَبْلُغَنَّ أَشْدَّكُمْ﴾ أَيُّ:

(سَكْرَى) أَيُّ: مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ صَارُوا فِيهِ، قَدْ دَهَشَتْ عُقُولُهُمْ، وَغَابَتْ أَذْهَانُهُمْ، فَمَنْ رَأَاهُمْ حَسِبَ أَنَّهُمْ سُكَارَى ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾<sup>(٢)</sup> كَيْبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ<sup>(٣)</sup>.

### [إِذْ مَتَّبَعِيَ الشَّيْطَانُ]

يَقُولُ تَعَالَى ذِمًّا لِمَنْ كَذَبَ بِالْبَعْثِ وَأَنْكَرَ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى إِخْيَاءِ الْمَوْتَى، مُعْرِضًا عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، مَتَّبِعًا فِي قَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِ وَكُفْرِهِ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْحَقِّ، الْمُتَّبِعِينَ لِلْبَاطِلِ، يَتَرَكُونَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَيَتَّبِعُونَ أَقْوَالَ رُؤُوسِ الضَّلَالَةِ الدَّعَاةِ إِلَى الْبِدْعِ بِالْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي شَأْنِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَيُّ: عِلْمٍ صَحِيحٍ ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾<sup>(٤)</sup> كَيْبَ عَلَيْهِ ﴿قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: الشَّيْطَانُ<sup>(٥)</sup>﴾. يَعْنِي كَيْبَ عَلَيْهِ كِتَابَةُ قَدْرِيَّةٍ ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ أَيُّ: اتَّبَعَهُ وَقَلَّدَهُ ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أَيُّ: يُضِلُّهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَهْدِيهِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ، وَهُوَ الْحَارُّ الْمُؤْلِمُ الْمُفْلِقُ الْمُرْعِجُ، وَقَدْ قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي النَّصْرِ بْنِ الْحَارِثِ<sup>(٦)</sup>، وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ<sup>(٧)</sup>.

﴿يَتَابَهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقِيرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغَنَّ أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدِّدُ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾<sup>(٨)</sup> ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(٩)</sup> وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ<sup>(١٠)</sup>.

### [دَلَالَةُ الْبَعْثِ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالنَّبَاتِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْمُخَالَفَ لِلْبَعْثِ الْمُنْكَرَ لِلْمَعَادِ، ذَكَرَ تَعَالَى الدَّلِيلَ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِمَا يُشَاهَدُ مِنْ بَدَنِهِ لِلْخَلْقِ فَقَالَ: ﴿يَتَابَهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أَيُّ: فِي شَكٍّ ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وَهُوَ الْمَعَادُ، وَفِيَامِ الْأَرْوَاحِ

(١) المحرر الوجيز: ١٠٧/٤ (٢) الدر المنثور: ٨/٦ (٣)

الطبري: ٥٦٦/١٨ (٤) فتح الباري: ٤١٨/٦ ومسلم: ٤/

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٣

سُورَةُ الْحَجِّ

ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِيُفِي الدُّنْيَا خِزْيًا وَنَذِيْقُهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقِلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ ﴿١٥﴾

اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

[بَيَانُ حَالِ رُؤَسَاءِ الْمُتَّبِعِينَ وَالضَّالِّينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالِ الضَّالِّينَ الْجَهَالِ الْمُتَّبِعِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ذَكَرَ فِي هَذِهِ حَالِ الدُّعَاةِ إِلَى الضَّلَالِ مِنْ رُؤُوسِ الْكُفْرِ وَالْبِدْعِ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أَيُّ: بِلَا عَقْلِ صَحِيحٍ، وَلَا ثَقُلٍ صَحِيحٍ صَرِيحٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالْهَوَى. وَقَوْلُهُ: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: مُسْتَكْبِرٌ عَنِ الْحَقِّ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ أَيُّ: لَا وِيَّ عُنْفٍ وَهِيَ رَقَبَتُهُ، يَعْنِي يُعْرِضُ عَمَّا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَيُثْنِي رَقَبَتَهُ اسْتِكْبَارًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي مَوْصٍ إِذْ أَرْسَلْتَهُ إِلَى رَعَوْنَ يَسُطِّرْنَ سُيُوفَهُمْ﴾ قَتُولُ يَرْكِبُهُ. . . . الْآيَةُ [الذاريات: ٣٨،

يَتَكَامَلُ الْقُوَى وَتَتَزَايَدُ، وَيَصِلُ إِلَى عُنْفَوَانِ الشَّبَابِ وَحُسْنِ الْمَظْهَرِ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْفِكُ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقُوَاهُ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرْذُ لَنَا أَزْدِلَ الْمُمْرِ﴾ وَهُوَ الشَّيْخُورَةُ وَالْهَرَمُ، وَضَعْفُ الْقُوَى وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، وَتَنَاقُصُ الْأَحْوَالِ مِنَ الْخَرَفِ وَضَعْفِ الْفِكْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

[مِثَالُ آخِرٍ لِلْبَعْثِ مِنَ النَّبَاتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَدَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هَذَا دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْهَامِدَةَ، وَهِيَ الْمُفْجَلَةُ الَّتِي لَا يَبْنُثُ فِيهَا شَيْءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: غَبْرَاءُ مُتَهَشِّمَةٌ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَيِّتَةٌ ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾ أَيُّ: فَإِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمَطَرَ ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أَيُّ: تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ، وَحَيَّتْ بَعْدَ مَوْتِهَا، ﴿وَرَبَتْ﴾ أَيُّ: ارْتَفَعَتْ لِمَا سَكَنَ فِيهَا الثَّرَى، ثُمَّ أَنْبَتَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْفُتُونِ مِنْ ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وَأَشْنَابِ النَّبَاتِ، فِي اخْتِلَافِ الْأَوَانِهَا وَطُعُومِهَا، وَرَوَائِحِهَا، وَأَشْكَالِهَا وَمَنَافِعِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ﴾ أَيُّ: حُسْنِ الْمَنْظَرِ، طَيِّبِ الرِّيحِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ﴾ أَيُّ: الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، الْقَعَالُ لِمَا يَشَاءُ ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أَيُّ: كَمَا أَحْيَا الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ وَأَنْبَتَ مِنْهَا هَذِهِ الْأَنْوَاعَ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أَيُّ: كَائِنَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا مِرْيَةَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أَيُّ: يُعِيدُهُمْ بَعْدَ مَا صَارُوا فِي قُبُورِهِمْ رَمَمًا وَيُوجِدُهُمْ بَعْدَ الْعَدَمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ

فَرَسُهُ مَهْرًا حَسَنًا وَوَلَدَتْ إِمْرَأَتُهُ غُلَامًا رَضِي بِهِ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَقَالَ: مَا أَصَبْتُ مُنْذُ كُنْتُ عَلَى دِينِي هَذَا إِلَّا خَيْرًا، ﴿وَلِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ وَالْفِتْنَةُ: الْبَلَاءُ، أَيْ: وَإِنْ أَصَابَهُ وَجَعَ الْمَدِينَةِ، وَوَلَدَتْ إِمْرَأَتُهُ جَارِيَةً، وَتَأَخَّرَتْ عَنْهُ الصَّدَقَةُ، أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَصَبْتُ مُنْذُ كُنْتُ عَلَى دِينِكَ هَذَا إِلَّا شَرًّا، وَذَلِكَ الْفِتْنَةُ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا ذَكَرَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أَيْ: إِرْتَدَّ كَافِرًا<sup>(٥)</sup>.

وقوله: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيْ: فَلَا هُوَ حَصَلَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى شَيْءٍ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَقَدْ كَفَّرَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ فِيهَا فِي غَايَةِ الشَّقَاءِ وَالْإِهَانَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ: هَذِهِ هِيَ الْخَسَارَةُ الْعَظِيمَةُ وَالصَّفَقَةُ الْخَاسِرَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، يَسْتَعِثُّ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُهَا وَيَسْتَرْزُقُهَا، وَهِيَ لَا تَنْفَعُهُ وَلَا تَنْصُرُهُ ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أَيْ: ضَرُّهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ فِيهَا، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَضَرُّهُ مُحَقَّقٌ مُتَيْقِنٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْوَلَنَ<sup>(٦)</sup>. يَعْنِي يَسْئَلُ هَذَا الَّذِي دَعَاهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَوْلَى، يَعْنِي وَلِيًّا وَنَاصِرًا ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ وَهُوَ الْمُخَالِطُ وَالْمُعَاشِرُ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْعُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾<sup>(٧)</sup>

### [جَزَاءُ الصَّالِحِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ أَهْلَ الصَّلَاةِ الْأَشْقِيَاءَ عَطَفَ بِذِكْرِ الْأَبْرَارِ السُّعْدَاءِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَقُولُ بِهِمْ وَصَدَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ، فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ، وَتَرَكُوا الْمُتَنَكَّرَاتِ، فَأَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ سُكْنَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَضَلَّ أَوْلِيكَ، وَهَدَى هَؤُلَاءِ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

٣٩ [وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُتَنَفِّقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥] وَقَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أَيْ: تُمِيلُهُ عَنْهُمْ اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نُنَالُ عَلَيْهِ مَائِلُنَا وَلَنْ مُسْتَكْبِرًا﴾... الْآيَةُ [لقمان: ٧].

وقوله: ﴿يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا الْمُعَانِدِينَ، أَوْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا أَنَّ هَذَا الْفَاعِلَ لِهَذَا، إِنَّمَا جَبَلْنَاهُ عَلَى هَذَا الْخُلُقِ الدَّنِيِّ لِنَجْعَلَهُ مِمَّنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وَهُوَ الْإِهَانَةُ وَالذُّلُّ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ لَقَاهُ اللَّهُ الْمَذَلَّةَ فِي الدُّنْيَا، وَعَاقِبَهُ فِيهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهَا أَكْبَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾<sup>(٨)</sup> ذَلِكَ يَمَا قَدَمَتْ بِذَلِكَ أَيْ: يُقَالُ لَهُ هَذَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾<sup>(٩)</sup> ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ<sup>(١٠)</sup> ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ<sup>(١١)</sup> إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ [الدخان: ٤٧-٥٠].

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ. وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ. خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾<sup>(١٢)</sup> يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ<sup>(١٣)</sup> يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ<sup>(١٤)</sup>

### [مَعْنَى الْعِبَادَةِ عَلَى حَرْفٍ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ عَلَى شَكٍّ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُمْ: عَلَى طَرَفٍ، وَمِنْهُ حَرْفُ الْجَبَلِ أَيْ: طَرَفُهُ، أَيْ: دَخَلَ فِي الدِّينِ عَلَى طَرَفٍ، فَإِنْ وُجِدَ مَا يُجِبُّهُ اسْتَقَرَّ، وَإِلَّا انْشَمَرَ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَقْدُمُ الْمَدِينَةَ، فَإِنْ وَلَدَتْ إِمْرَأَتُهُ غُلَامًا وَنَتِجَتْ خَيْلُهُ قَالَ: هَذَا دِينَ صَالِحٍ، وَإِنْ لَمْ تَلِدْ إِمْرَأَتُهُ وَلَمْ تَنْتِجْ خَيْلُهُ قَالَ: هَذَا دِينَ سَوْءٍ<sup>(١٦)</sup>.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ [وَهِيَ أَرْضُ وَيْبَةِ] فَإِنْ صَحَّ بِهَا جِسْمُهُ وَنَتِجَتْ

(١) الطبري: ٥٧٦/١٨ (٢) فتح الباري: ٢٩٦/٨ (٣)

الطبري: ٥٧٥/١٨ حكم العوفي مرارًا (٤) الطبري: ١٨/

٥٧٦ (٥) الطبري: ٥٧٦/١٨ (٦) الطبري: ٥٧٩/١٨

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُكُمْ مَا يَعْظُمُ ۝١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يُبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ۝١٦﴾

[لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ مَهْمَا غَاظَ عَدُوَّهُ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أَيُّ: بِحَبْلِ إِلَى السَّمَاءِ ﴿أَيُّ: سَمَاءٍ بَيْنَهُ﴾ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴿يَقُولُ: ثُمَّ لِيَحْتَقِقْ بِهِ﴾ (١). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءٌ وَأَبُو الْجُوزَاءِ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ (٢). فَالْمَعْنَى مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ، فَلْيَذْهَبْ فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ، إِنْ كَانَ ذَلِكَ غَائِظُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ لَا مَحَالَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [الآيَةُ: غافر: ٥١] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبُ كَيْدُكُمْ مَا يَعْظُمُ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْني مِنْ شَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ (٣). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: فَلْيَنْظُرْ هَلْ يَشْفِي ذَلِكَ مَا يَجِدُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْعِظْظِ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَيُّ: وَاضِحَاتٍ فِي لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا، حُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أَيُّ: يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحُكْمُ النَّامَةُ وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ فِي ذَلِكَ ﴿لَا يَسْتَلِ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] أَمَّا هُوَ فَلِحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَقَهْرِهِ وَعَظَمَتِهِ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝١٧﴾

[إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَ الْفِرَقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَذْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالصَّابِقِينَ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ التَّعْرِيفَ بِهِمْ وَاجْتِلَافَ النَّاسِ فِيهِمْ، وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا فَعَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ تَعَالَى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ، فَيَدْخُلُ مَنْ آمَنَ بِهِ الْحِجَّةَ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ النَّارَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِهِمْ، حَفِيطٌ لِأَقْوَالِهِمْ، عَلِيمٌ بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تُكِنُّ ضُمَامُهُمْ.

سُورَةُ الْحَجِّ

٣٣٤

سُورَةُ الْحَجِّ

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يُبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ۝١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٨﴾ هَذَا خَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْشِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَكِّمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٨﴾

[كُلُّ شَيْءٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ يَسْجُدُ لِعَظَمَتِهِ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَسُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظُلُفَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] وَقَالَ هُتَنَّا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ، وَالْحَيَوَانَاتِ فِي جَمِيعِ الْجِهَاتِ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

(١) الطبري: ٥٨١/١٨ (٢) الطبري: ٥٨٠-٥٨٣ (٣) الرازي: ١٥/١٣

﴿وَقَوْلُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُومُ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ عَلَى التَّنْصِصِ، لِأَنَّهَا قَدْ عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا تَسْجُدُ لِخَالِقِهَا وَأَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ مُسَخَّرَةٌ ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾... الآية. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَذَرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، ثُمَّ تَسْتَأْمِرُ فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ»<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَأَيْتُنِي اللَّيْلَةَ وَأَنَا نَائِمٌ، كَأَنِّي أَصْلَى خَلْفَ شَجَرَةٍ فَسَجَدْتُ، فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقُولُ: اَللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْتُ عَنِّي بِهَا وَزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ دُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَجْدَةَ ثُمَّ سَجَدَ، فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أَيُّ: الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ اتِّخَاذِ ظُهُورِ الدَّوَابِّ مَنَابِرَ، «فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ رَاكِبِهَا»<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: يَسْجُدُ لِلَّهِ طَوْعًا مُخْتَارًا مُتَعَبِّدًا بِذَلِكَ «وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ» أَيُّ: مِمَّنْ امْتَنَعَ وَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ «وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ اغْتَرَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَكَ، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أَمَرِ ابْنَ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ، فَلَهُ النَّجَّةُ، وَأَمَرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ، فَلِيَ النَّارُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَقَّةِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفُضِّلْتَ سُورَةَ الْحَجِّ عَلَى سَائِرِ الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْنِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ بِهِمَا فَلَا يَقْرَأُهُمَا» وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ<sup>(٥)</sup>.

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي الْمَرَايِلِ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ رَجِمَهُ اللَّهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ عَلَى سَائِرِ الْقُرْآنِ بِسَجْدَتَيْنِ». ثُمَّ قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَقَدْ أُسْنِدَ هَذَا، يَعْنِي مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ وَلَا يَصِحُّ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى

(١) فتح الباري: ٣٤٢/٦ ومسلم: ١٣٨/١ (٢) تحفة الأحوذى: ١٨١/٣ وابن ماجه: ٣٣٤/١ وابن حبان: ١٩١/٤ (٣) أحمد: ٤٤١/٣ (٤) مسلم: ٨٧/١ (٥) الترمذي: ٥٧٨ (٦) أبو داود في المراسيل: ٧٨ (٧) البيهقي: ٣١٧/٢ (٨) أبو داود: ١٤٠١ وابن ماجه: ١٠٧٥ (٩) فتح الباري: ٢٩٧/٨ ومسلم: ٢٣٢٣/٤ (١٠) فتح الباري: ٢٩٧/٨



## [جَزَاءُ الْكَفَّارِ]

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أَي: فَصُلَّتْ لَهُمْ مُقَطَّعَاتٌ مِّن النَّارِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مِّنْ نَّحَاسٍ، وَهُوَ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ حَرَارَةً إِذَا حُمِيَ<sup>(١)</sup>. ﴿يُصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾<sup>(٢)</sup> يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ أَي: إِذَا صَبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصْبُ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَيَنْفُذُ الْجُمُحِمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّرِيِّ قَالَ: يَأْتِيهِ الْمَلَكُ يَحْمِلُ الْإِنَاءَ يَكْلِبَتَيْنِ مِّنْ حَرَارَتِهِ، فَإِذَا أَذْنَاهُ مِنْ وَجْهِهِ تَكَرَّهَهُ، قَالَ: فَيَرْفَعُ وَمَقْمَعَةً مَعَهُ فَيَضْرِبُ بِهَا رَأْسَهُ فَيَفْرَغُ دِمَاعَهُ، ثُمَّ يَفْرَغُ الْإِنَاءَ مِنْ دِمَاعِهِ فَيَصِلُ إِلَى جَوْفِهِ مِنْ دِمَاعِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّنْ حديدٍ﴾ قَالَ: يَضْرَبُونَ بِهَا، فَيَقْعُ كُلُّ عُضْوٍ عَلَى حِيَالِهِ فَيَدْعُونَ بِالْثُبُورِ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: النَّارُ سَوْدَاءٌ مُظْلِمَةٌ، لَا يَصِيءُ لَهَا وَلَا جَمْرُهَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] وَمَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّهُمْ يَهَانُونَ بِالْعَذَابِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يُحْكَمُ فِيهَا مِنْ أَكْوَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلَا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ<sup>(٧)</sup> وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ<sup>(٨)</sup>.

## [جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ]

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الثَّيَابِ مِنَ النَّارِ، ذَكَرَ حَالِ

## سُورَةُ الْحَجِّ

٣٣٥

## سُورَةُ الْحَجِّ

وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ<sup>(٩)</sup> إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْكَرِيمِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعِكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَادِ يُظْلَمِ نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ الْيَمِّ<sup>(١٠)</sup> وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِشَيْءٍ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ<sup>(١١)</sup> وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ<sup>(١٢)</sup> لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ آلَا تَعْلَمُ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ<sup>(١٣)</sup> ثُمَّ لَيَقْبِضُوا أَنْفُسَهُمْ وَلَيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ<sup>(١٤)</sup> ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ حَزِينٌ<sup>(١٥)</sup> عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ آلَا تَعْلَمُ إِلَّا مَا بَيَّنَّا عَلَيْكُمْ فَأَحْتَسِبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ<sup>(١٦)</sup>

أَهْلُ الْجَنَّةِ نَسَأَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَّمَهُ [أَنْ يَدْخُلَنَا الْجَنَّةَ] فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: تَتَخَرَّقُ فِي أَكْثَانِهَا وَأَرْجَائِهَا وَجَوَانِهَا وَتَحْتَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا، يَصْرَفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا ﴿يُحْكَمُ فِيهَا﴾ مِنْ الْحِلْيَةِ ﴿مِنْ أَكْوَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلَا﴾ أَي: فِي أَيْدِيهِمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُنْتَقَى عَلَيْهِ: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضوءُ»<sup>(١٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فِي مُقَابَلَةِ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي فَصَّلَتْ لَهُمْ، لِبَاسٌ هُوَ لَا مِنْ الْحَرِيرِ إِسْتَبْرَقِهِ وَشُدْسِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُصْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوفٌ أُصَافِرُ مِنْ فَضْهِ وَسَكَنَهُمْ رُءُوسُهُمْ سَرَابٌ طَهُورٌ﴾<sup>(١٨)</sup> إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرِّ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكَ مَشْكُورًا وَفِي الصَّحِيحِ: «لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ

(١) الطبري: ٥٩٠/١٨ (٢) الطبري: ٥٩١/١٨ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٠١/٧ (٤) الدر المنثور: ٢١/٦ (٥) الطبري: ٥٩٣/١٨ (٦) مسلم: ٢١٩/١

وَلَا الدِّيَارِ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مَنْ لَبَسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي  
الْآخِرَةِ<sup>(١)</sup>. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: مَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْحَرِيرَ  
فِي الْآخِرَةِ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ  
فِيهَا حَرِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾  
كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَادْخُلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا  
سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ  
بَابٍ﴾<sup>(٣)</sup> سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ غَفَى الدَّارِ [الرعد: ٢٣،  
٢٤] وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمْ فِيهَا سُلُوكًا  
سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] فَهَدُوا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَسْمَعُونَ  
فِيهِ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَبًّ وَسَلَامًا﴾  
لَا كَمَا يُهَانُ أَهْلُ النَّارِ بِالْكَلَامِ الَّذِي يُوبِخُونَ بِهِ وَيَقْرَعُونَ  
بِهِ، يُقَالُ لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُدُوا  
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيُّ: إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَحْمَدُونَ فِيهِ  
رَبَّهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَأَنْعَمَ بِهِ وَأَسَدَاهُ إِلَيْهِمْ، كَمَا  
جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّهُمْ يُلْهِمُونَ التَّشْبِيحَ  
وَالْتَحْمِيدَ كَمَا يُلْهِمُونَ النَّفْسَ»<sup>(٤)</sup> وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ  
فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنِ.  
وَقِيلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقِيلَ: الْأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ ﴿وَهُدُوا  
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيُّ: الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا. وَكُلُّ  
هَذَا لَا يَنَافِي مَا ذَكَرْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ  
بِالْكَافِرِ يُلَاقِهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٥)</sup>  
[الْوَعِيدُ لِمَنْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ  
الْحَرَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْكَافِرِ فِي صَدِّهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ  
إِتْيَانِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَقَضَاءِ مَنَاسِكِهِمْ فِيهِ، وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ  
أَوْلِيَاؤُهُ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَائِهِ﴾<sup>(٦)</sup> إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ<sup>(٧)</sup> الْآيَةُ  
[الأنفال: ٣٤]، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مَدِينَةٌ، كَمَا  
قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ  
قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ وَالْمَسْجِدِ  
الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]  
وَقَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَيُّ: وَمِنْ صِفَتِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ أَنَّهُمْ  
يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أَيُّ: وَيَصُدُّونَ

صِفَتِهِمْ: أَنَّهُمْ تَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ.

[مَسْأَلَةُ إِحْبَارِ بُيُوتِ مَكَّةَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾  
أَيُّ: يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْوُضُوءِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،  
وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ شَرْعًا سَوَاءً، لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْمُقِيمِ فِيهِ  
وَالنَّائِي عَنْهُ الْبُعِيدِ الدَّارِ مِنْهُ ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾  
وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِوَاءُ النَّاسِ فِي رِبَاعِ مَكَّةَ وَسُكْنَاهَا. كَمَا قَالَ  
عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ  
فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قَالَ: يَنْزِلُ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ فِي الْمَسْجِدِ  
الْحَرَامِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ  
وَالْبَادِ﴾ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ فِيهِ سَوَاءً فِي الْمَنَازِلِ، وَكَذَا قَالَ  
أَبُو صَالِحٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَابِطٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ  
أَسْلَمَ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ: سَوَاءً فِيهِ  
أَهْلُهُ وَغَيْرُ أَهْلِهِ. وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ هِيَ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا  
الشَّافِعِيُّ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ بِمَسْجِدِ الْحَيْفِ، وَأَخْمَدُ بْنُ  
حَنْبَلٍ حَاضِرٌ أَيْضًا، فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنَّ رِبَاعَ  
مَكَّةَ تَمْلُكٌ وَتَوَرُّثٌ وَتَوْجَرٌ، وَاحْتَجَّ بِحَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ  
قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَنْزِلُ غَدَا فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟  
فَقَالَ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ» ثُمَّ قَالَ: «لَا يَرِثُ  
الْكَاْفِرُ الْمُسْلِمَ، وَلَا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ». وَهَذَا الْحَدِيثُ  
مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٩)</sup>. وَبِمَا ثَبَتَ أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ  
اشْتَرَى مِنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ دَارًا بِمَكَّةَ، فَجَعَلَهَا سِجْنًا،  
بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَبِهِ قَالَ طَاوُسٌ وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ.

وَذَهَبَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ إِلَى أَنَّهَا لَا تَوَرُّثٌ وَلَا  
تَوْجَرٌ، وَهُوَ مَذْهَبُ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَنَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ  
وَعَطَاءٌ، وَاحْتَجَّ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ بِمَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ  
عَلْقَمَةَ بْنِ نَضْلَةَ قَالَ: تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ  
وَعُمَرُ، وَمَا تُدْعَى رِبَاعُ مَكَّةَ إِلَّا السَّوَائِبِ، مَنْ احْتَاجَ  
سَكَنَ، وَمَنْ اسْتَغْنَى أَسْكَنَ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾

أَيُّ: يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْوُضُوءِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،

وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ شَرْعًا سَوَاءً، لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْمُقِيمِ فِيهِ

وَالنَّائِي عَنْهُ الْبُعِيدِ الدَّارِ مِنْهُ ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾

وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِوَاءُ النَّاسِ فِي رِبَاعِ مَكَّةَ وَسُكْنَاهَا. كَمَا قَالَ

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ

فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قَالَ: يَنْزِلُ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ فِي الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ

وَالْبَادِ﴾ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ فِيهِ سَوَاءً فِي الْمَنَازِلِ، وَكَذَا قَالَ

أَبُو صَالِحٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَابِطٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ

أَسْلَمَ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ: سَوَاءً فِيهِ

أَهْلُهُ وَغَيْرُ أَهْلِهِ. وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ هِيَ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا

الشَّافِعِيُّ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ بِمَسْجِدِ الْحَيْفِ، وَأَخْمَدُ بْنُ

حَنْبَلٍ حَاضِرٌ أَيْضًا، فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى أَنَّ رِبَاعَ

مَكَّةَ تَمْلُكٌ وَتَوَرُّثٌ وَتَوْجَرٌ، وَاحْتَجَّ بِحَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ

قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَنْزِلُ غَدَا فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟

فَقَالَ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ» ثُمَّ قَالَ: «لَا يَرِثُ

الْكَاْفِرُ الْمُسْلِمَ، وَلَا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ». وَهَذَا الْحَدِيثُ

مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٩)</sup>. وَبِمَا ثَبَتَ أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ

اشْتَرَى مِنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ دَارًا بِمَكَّةَ، فَجَعَلَهَا سِجْنًا،

بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَبِهِ قَالَ طَاوُسٌ وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ.

وَذَهَبَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ إِلَى أَنَّهَا لَا تَوَرُّثٌ وَلَا

تَوْجَرٌ، وَهُوَ مَذْهَبُ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَنَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ

وَعَطَاءٌ، وَاحْتَجَّ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ بِمَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ

عَلْقَمَةَ بْنِ نَضْلَةَ قَالَ: تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ

وَعُمَرُ، وَمَا تُدْعَى رِبَاعُ مَكَّةَ إِلَّا السَّوَائِبِ، مَنْ احْتَاجَ

سَكَنَ، وَمَنْ اسْتَغْنَى أَسْكَنَ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ

(١) مسلم: ١٦٤٢/٣ و١٦٣٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٥/

٤٦٥ (٣) مسلم: ٤/٢١٨٠، ٢١٨١ (٤) الطبري: ١٨/٥٩٦

(٥) البخاري: ٦٧٦٤ ومسلم: ١٦١٤ (٦) ابن ماجه: ٣١٠٧

رَفَعَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: سَمِعْتُ الْخَادِمَ ظَلَمَ فَمَا فَوْقَهُ.

وَقَالَ حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ

يُظْلَمُ» قَالَ: الْمُحْكِرُ بِمَكَّةَ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ

ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمُ»

قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ

مَعَ رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُمَا مُهَاجِرٌ، وَالْآخَرُ مِنَ الْأَنْصَارِ،

فَافْتَحَرُوا فِي الْأَنْسَابِ فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَسٍ فَقَتَلَ

الْأَنْصَارِيَّ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ،

فَنَزَلَتْ فِيهِ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمُ» يَغْنِي مَنْ لَجَأَ

إِلَى الْحَرَمِ بِالْحَادِ، يَغْنِي بِمَثَلِ عَنِ الْإِسْلَامِ. وَهَذِهِ الْأَثَارُ

وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْإِلْحَادِ، وَلَكِنْ هُوَ أَعْمُ

مِنْ ذَلِكَ، بَلْ فِيهَا تَنْبِيهُ عَلَى مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْهَا، وَلِهَذَا لَمَّا

هَمَّ أَصْحَابُ الْفِيلِ عَلَى تَخْرِيْبِ الْبَيْتِ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ

طَيْرًا أَبَابِيلَ «تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ» فَعَمَلَهُمْ كَعَصْفِ

مَأْكُولٍ [الفيل: ٤، ٥] أَيْ: دَمَرَهُمْ وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا

لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ، وَلِلذَلِكَ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ

اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بَيْنَدَاءَ

مِنَ الْأَرْضِ خَسِفَ بِأَوَّلِهِمْ وَأَخِرِهِمْ»... الْحَدِيثُ (٨).

«وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا

وَلَهْرَ بَنِيَّ لِلظَّالِمِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ» وَإِذْنٌ فِي

النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ

فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٧﴾

[بِنَاءُ الْكُفَّةِ وَالتَّائِيْنِ بِالْحَجِّ]

هَذَا فِيهِ تَفْرِيعٌ وَتَوْحِيحٌ لِمَنْ عَبْدَ غَيْرِ اللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مِنْ

قُرَيْشٍ فِي الْبَقْعَةِ الَّتِي أُسِّسَتْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ

وَعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَوَّأَ إِبْرَاهِيمَ

مَكَانَ الْبَيْتِ، أَيْ: أَرَشَدَهُ إِلَيْهِ وَسَلَّمَهُ لَهُ وَأَذِنَ لَهُ فِي بِنَائِهِ.

وَاسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِّمَّنْ قَالَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ

مَنْ بَنَى الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْنِ قَبْلَهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي

الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْ مَسْجِدِ

وُضِعَ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيْ؟

(١) الدر المنثور: ٦٣٣/٤ (٢) الدارقطني: ٣٠٠/٢ (٣)

الطبري: ٦٠١/١٨ (٤) الطبري: ٦٠٠/١٨ (٥) الطبري:

٦٠٠/١٨ (٦) الطبري: ٦٠١/١٨ (٧) أحمد: ٤٢٨/١ (٨)

فتح الباري: ٣٩٧/٤

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: لَا يَحِلُّ بَيْعُ دُورٍ مَكَّةَ وَلَا

كِرَاؤُهَا. وَقَالَ أَيْضًا عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ: كَانَ عَطَاءٌ يَنْهَى عَنِ

الْكِرَاءِ فِي الْحَرَمِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَنْهَى

عَنْ تَبَوُّبِ دُورٍ مَكَّةَ لِأَن يَنْزَلَ الْحَاجُّ فِي عَرَصَاتِهَا، فَكَانَ

أَوَّلُ مَنْ بَوَّبَ دَارَهُ سَهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ

الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَنْظِرْنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. إِنِّي

كُنْتُ امْرَأًا تَاجِرًا، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَّخِذَ بَابَيْنِ يَحْسِبَانِ لِي

ظَهْرِي، قَالَ: فَלَكَ ذَلِكَ إِذَا. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ

مُجَاهِدٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ لَا تَتَّخِذُوا

لِدُورِكُمْ أَبْوَابًا، لِيَنْزَلَ الْبَادِي حَيْثُ يَشَاءُ (١). قَالَ: وَأَخْبَرَنَا

مَعْمَرٌ عَنْ سَمْعٍ عَطَاءٍ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: «سَوَاءَ أَلْعَلِّفَ فِيهِ

وَالْبَادِ» قَالَ: يَنْزِلُونَ حَيْثُ شَاءُوا. وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ

عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مَوْفُوفًا: مَنْ أَكَلَ كِرَاءَ بَيْتٍ مَكَّةَ، أَكَلَ

نَارًا (٢).

وَتَوَسَّطَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ [فِيمَا نَقَلَهُ صَالِحُ ابْنُهُ] فَقَالَ:

تَمَلَّكَ وَتَوَرَّثَ، وَلَا تُؤَخَّرُ جَمْعًا بَيْنَ الْأَدِلَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْوَعِيدُ لِمَنْ أَرَادَ الْإِلْحَادَ فِي الْحَرَمِ]

وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمُ نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ

الْأَلِيمِ» قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: الْبَاءُ هَهُنَا

زَائِدَةٌ، كَقَوْلِهِ: «ثَبُتُ بِالذَّهْنِ» [المؤمنون: ٢٠] أَيْ: ثَبُتُ

الذَّهْنَ. وَكَذَا قَوْلُهُ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ» تَقْدِيرُهُ

الْإِلْحَادُ، أَيْ: يَهْمُ فِيهِ بِأَمْرِ فَظِيحٍ مِنَ الْمَعَاصِي الْكِبَارِ.

وَقَوْلُهُ: «يُظْلَمُ» أَيْ: عَامِدًا قَاصِدًا أَنَّهُ ظَلَمَ لَيْسَ بِمَتَّوِّلٍ.

كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ التَّعَمُّدُ (٣).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «يُظْلَمُ»

يُشْرِكُ (٤). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «يُظْلَمُ» هُوَ أَنْ

تَسْتَحِلَّ مِنَ الْحَرَمِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ إِسَاءَةٍ أَوْ قَتْلٍ،

فَتَظْلَمُ مَنْ لَا يَظْلِمُكَ، وَتَقْتُلُ مَنْ لَا يَقْتُلُكَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ

فَقَدْ وَجَبَ لَهُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «يُظْلَمُ»

يَعْمَلُ فِيهِ عَمَلًا سَيِّئًا. وَهَذَا مِنْ خُصُوصِيَّةِ الْحَرَمِ أَنَّهُ

يُعَاقَبُ الْبَادِي فِيهِ الشَّرُّ، إِذَا كَانَ عَازِمًا عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ

يُوقِعْهُ، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ

بِعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظْلَمُ»

قَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمُ وَهُوَ بَعْدَ أَتَيْنِ،

لَأَذَاقَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٦). وَرَوَاهُ أَحْمَدُ (٧). قُلْتُ:

هَذَا الْإِسْنَادُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، وَوَفَّقَهُ أَشْبَهُ مِنْ

قَالَ: «بَيِّتَ الْمُقَدَّسِ». قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا... الْآيَتِينَ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكْبِتِينَ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ» [البقرة: ١٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى هُنَا: «أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» أَيُّ: ابْنِهِ عَلَى اسْمِي وَحْدِي «وَطَهَّرَ بَيْتِي» قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ: مِنْ الشُّرِكِ<sup>(٢)</sup>. «لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ» أَيُّ: اجْعَلْهُ خَالِصًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَالطَّائِفُ بِهِ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ أَخَصُّ الْعِبَادَاتِ عِنْدَ الْبَيْتِ، فَإِنَّهُ لَا يُفْعَلُ بِمُقَرَّبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ سِوَاهَا «وَالْقَائِمِينَ» أَيُّ: فِي الصَّلَاةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ» فَقَرَنَ الطَّوَافَ بِالصَّلَاةِ لِأَنَّهُمَا لَا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُتَخَصِّصِينَ بِالْبَيْتِ، فَالطَّوَافُ عِنْدَهُ وَالصَّلَاةُ إِلَيْهِ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ، إِلَّا مَا اسْتَشْنَيْ مِنَ الصَّلَاةِ عِنْدَ اسْتِثْنَاءِ الْقِبْلَةِ، وَفِي الْحَرْبِ، وَفِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ» أَيُّ: نَادِ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الْحَجِّ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَمَرْنَاكَ بِبَنَائِهِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَبْلَغُ النَّاسَ وَصُوتِي لَا يَنْفَعُهُمْ؟ فَقَالَ: نَادِ وَعَلَيْنَا الْبَلَاغُ، فَقَامَ عَلَى مَقَامِهِ، وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ قَدْ اتَّخَذَ بَيْتًا فَحُجُّوهُ، فَيُقَالُ: إِنَّ الْجِبَالَ تَوَاضَعَتْ حَتَّى بَلَغَ الصَّوْتُ أَرْجَاءَ الْأَرْضِ، وَاسْمَعْ مَنْ فِي الْأَرْحَامِ وَالْأَصْلَابِ، وَأَجَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ سَمْعَهُ مِنْ حَجَرٍ وَمَدَرٍ وَشَجَرٍ، وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهُ يُحُجُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. وَهَذَا مَضْمُونُ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ<sup>(٣)</sup> وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. أوردَها ابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مَطْوَلَةً.

وَقَوْلُهُ: «يَأْتُونَكَ رِجَالًا وَنَعْلًا كُلِّ صَّامِرٍ» الْآيَةَ، قَدْ يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْحَجَّ مَا شِئًا لِمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنَ الْحَجِّ رَاكِبًا، لِأَنَّهُ قَدَّمَهُمْ فِي الذِّكْرِ، فَدَلَّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِهِمْ، وَقُوَّةِ هِمَمِهِمْ وَشِدَّةِ عَزْمِهِمْ، وَقَالَ وَكَيْعٌ عَنْ أَبِي الْعَمَيْسِ، عَنْ أَبِي حَلْحَلَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا أَسَاءَ عَلَيَّ شَيْءٌ إِلَّا أَنِّي وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ حَاجِبُتُ مَا شِئًا، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: «يَأْتُونَكَ رِجَالًا»<sup>(٤)</sup>. وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ: أَنَّ

الْحَجَّ رَاكِبًا أَفْضَلُ، إِفْدَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ حَجَّ رَاكِبًا مَعَ كَمَالِ قُوَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْلُهُ: «يَأْتُونَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ يَعْنِي طَرِيقٍ، كَمَا قَالَ: «وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا» [الأنبياء: ٣١] وَقَوْلُهُ: «عَمِيقٍ» أَيُّ: بَعِيدٍ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَالشُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَمَقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَالتَّوْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٥)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ قَالَ فِي دُعَائِهِ: «فَجَعَلْتُ أَفْدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» [إبراهيم: ٣٧] فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَهُوَ يَحِنُّ إِلَى رُؤْيَةِ الْكَعْبَةِ وَالطَّوَافِ، فَالنَّاسُ يَقْصِدُونَهَا مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَفْطَارِ.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَطَعَمُوا الْبَاقِيَ﴾<sup>(٦)</sup> ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٧﴾

### [فِي الْحَجِّ مَنَافِعُ الدَّارَيْنِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» قَالَ: مَنَافِعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا مَنَافِعُ الْآخِرَةِ فِرِضَاؤُ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا فَمَا يُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِعِ الْبَدَنِ، وَالذَّبَائِحِ وَالتَّجَارَاتِ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّهَا مَنَافِعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ<sup>(٩)</sup>. كَقَوْلِهِ: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ» [البقرة: ١٩٨]. وَقَوْلُهُ: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» قَالَ شُعْبَةُ وَهَشِيمٌ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ: أَيَّامُ الْعَشْرِ<sup>(١٠)</sup>. وَعَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ بِصِغَةِ الْجَزْمِ بِهِ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى مِثْلَهُ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَعَطَاءٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنِ، وَالضَّحَّاكَ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيِّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيِّ<sup>(١٢)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ» قَالُوا: وَلَا الْجِهَادَ فِي

(١) فتح الباري: ٦/٤٦٩ ومسلم: ١/٣٧٠ (٢) الطبري: ١٨/٦٠٤ (٣) الطبري: ١٨/٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧ (٤) الدر المنثور: ٦/٣٥ (٥) الطبري: ١٨/٦٠٨ (٦) الطبري: ١٨/٦٠٩ (٧) الطبري: ١٨/٦٠٩ (٨) فتح الباري: ٢/٥٣١ والطبري: ٤/٢٠٨ (٩) فتح الباري: ٢/٥٣١ (١٠) الطبري: ١٨/٦١٠ والرازي: ٢٣/٢٦

الْحَجَّ؟ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فَإِنْ آخِرَ الْمَنَاسِكِ الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ<sup>(١)</sup>.

قُلْتُ: وَهَكَذَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى مَنَى يَوْمَ النَّحْرِ بَدَأَ بِرَبِي الْجَمْرَةِ، فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ، ثُمَّ نَحَرَ هَدْيَهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ، ثُمَّ أَفَاضَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِهِمْ بِالْبَيْتِ الطَّوْفِ إِلَّا أَنَّهُ حُفَّتْ عَنِ الْمَرْأَةِ الْحَائِضُ<sup>(١٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ، لِأَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنْ كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ أَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَيْتِ حِينَ قَصَرَتْ بِهِمُ التَّمَقُّةُ، وَلِهَذَا طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ وَآخِرَ: أَنَّ الْحِجَرَ مِنَ الْبَيْتِ، وَلَمْ يَسْلَمْ الرُّكْنَيْنِ الشَّامِيَيْنِ لِأَنَّهُمَا لَمْ يَتِمَّا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ الْعَتِيقَةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ عَنِ الْحَسَنِ الْبُضْرِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قَالَ: لِأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ<sup>(١٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ<sup>(١٧)</sup>. وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ، لِأَنَّهُ أُعْتِقَ يَوْمَ الْغُرَقِ زَمَانَ نُوحٍ. وَقَالَ خُصَيْفٌ: إِنَّمَا سُمِّيَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ لِأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ قَطُّ.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ فَهُوَ حَرٌّ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ: وَأَحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ حُفَّتْ لَلَّهِ عَيْرٌ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطَ فُتُورٌ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣١﴾﴾

[الْأَجْرُ عَلَى اجْتِنَابِ الْمَعَاصِي]

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ فِي آدَاءِ الْمَنَاسِكِ وَمَا يَلْقَى عَلَيْهَا مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ﴾ أَيُّ: وَمَنْ يَجْتَنِبْ مَعَاصِيَهُ، وَمَحَارِمَهُ

سَبِيلَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ يَخْرُجُ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ»<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثَرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ»<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ يَخْرُجَانِ إِلَى السُّوقِ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ فَيُكَبِّرَانِ وَيُكَبِّرُ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِمَا<sup>(١٣)</sup>.

وَهَذَا الْعَشْرُ مُشْتَمِلٌ عَلَى يَوْمِ عَرَفَةَ الَّذِي ثَبَتَ [فِي] صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ، فَقَالَ: «أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ»<sup>(١٤)</sup>. وَيَشْتَمِلُ عَلَى يَوْمِ النَّحْرِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ: أَنَّهُ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يَعْنِي الْإِبِلَ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمَ، كَمَا فَضَّلَهَا تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿تَكْنِيَةً أَرْوَجُ﴾ آيَةَ [الأنعام: ١٤٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ﴾ كَمَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَحَرَ هَدْيَهُ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ فَتَطْبَخُ، فَأَكَلَ مِنْ لَحْمِهَا وَحَسَا مِنْ مَرَقِهَا<sup>(١٥)</sup>.

قَالَ هُشَيْمٌ عَنْ خُصَيْنٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قَالَ: هِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]<sup>(١٦)</sup>. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْبَاسِ الْفَقِيرَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: هُوَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَيْهِ الْبُؤْسُ، وَهُوَ الْفَقِيرُ الْمُتَعَفِّفُ<sup>(١٧)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الَّذِي لَا يَسْطُرُ يَدُهُ<sup>(١٨)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَشَهُؤَهُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ وَضْعُ الْإِحْرَامِ، مِنْ حَلَقِ الرَّأْسِ، وَلُبْسِ الثِّيَابِ، وَقَصْرِ الْأَظْفَارِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ<sup>(١٩)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ عَنْهُ<sup>(٢٠)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ<sup>(٢١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا نُدُورَهُمْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي نَحْرًا مَا نَذَرَ مِنْ أَمْرِ الْبُذْنِ<sup>(٢٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الطَّوْفَ الْوَاجِبَ يَوْمَ النَّحْرِ<sup>(٢٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَتَقْرَأُ سُورَةَ

(١) فتح الباري: ٥٣٠/٢ (٢) أحمد: ٧٥/٢ (٣) البخاري: العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق. (٤) مسلم: ٢/ ٨١٩ (٥) أحمد: ٣١٤/١ (٦) الطبري: ٦١١/١٨ (٧) الطبري: ٦١٢/١٨ (٨) الطبري: ٦١٢/١٨ (٩) الطبري: ٦١٣/١٨ (١٠) الطبري: ٦١٠/١٨ (١١) الطبري: ٦٤٣/٤ (١٢) الطبري: ٦١٤/١٨ (١٣) الدر المنثور: ٦٤٣/٤ (١٤) ابن أبي حاتم: ٢٤٩٠/٨ (١٥) فتح الباري: ٦٨٤/٣ (١٦) ومسلم: ٩٦٣/٢ (١٧) القرطبي: ٥٢/٢ (١٨) الطبري: ٦١٥/١٨

وَيَكُونُ ارْتِكَابُهَا عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أَي: فَلَهُ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَتَوَابٌ جَزِيلٌ، فَكَمَا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ثَوَابٌ كَثِيرٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ، كَذَلِكَ عَلَى تَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ.

[حِلَّةُ الْأَنْعَامِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أَي: أَحَلَّلْنَا لَكُمْ جَمِيعَ الْأَنْعَامِ ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَهِيمَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أَي: مِنْ تَحْرِيمِ النَّمِيَّةِ وَاللِّمِّ وَلَحْمِ الْجَنْزِيرِ ﴿وَمَا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْحَقَةُ﴾... آيَةٌ [المائدة: ٣] قَالَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَحَكَاهُ عَنْ قَتَادَةَ<sup>(١)</sup>.

[الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الشُّرْكِ وَالْكَذِبِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ مِنْ هُنَا لِيَبَيِّنَ الْجَنَسَ، أَي: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ، وَقُرِنَ الشُّرْكَ بِاللَّهِ بِقَوْلِ الزُّورِ. كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وَمِنْهُ شَهَادَةُ الزُّورِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَايِرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَغُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ». فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ خُرَيْمِ بْنِ قَاتِكِ الْأَسَدِيِّ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِمًا فَقَالَ: «عَدِلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ﴾ أَي: مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مُنْحَرِفِينَ عَنِ الْبَاطِلِ قَصْدًا إِلَى الْحَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ ثُمَّ ضَرَبَ لِلْمُشْرِكِ مَثَلًا فِي ضَلَالِهِ وَهَلَاكِهِ وَبُعْدهِ عَنِ الْهُدَى، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَي: سَقَطَ مِنْهَا ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطُّيُورُ﴾ أَي: تَقَطَّعَهُ الطُّيُورُ فِي الْهَوَاءِ ﴿أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ أَي: بَعِيدٍ مُهْلِكٍ لِمَنْ هَوَى فِيهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا تَوَفَّتْهُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ وَصَعِدُوا بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَلَا

تُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بَلْ تُطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا مِنْ هُنَاكَ». ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ. وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ مَثَلًا آخَرَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتُنُوا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾... الْآيَةَ [الأنعام: ٧١].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾<sup>(٥)</sup> لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ<sup>(٦)</sup> ﴿بَيِّنَاتٍ الْأَصْحَابِيُّ وَتَفْسِيرُ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾

يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرُ اللَّهِ﴾ أَي: أَمْرُهُ ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُ الْهُدَايَا وَالْبُذُنِ، كَمَا قَالَ الْحَكَمُ عَنْ مِقْسَمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:

(١) الطبري: ٦١٨/١٨ (٢) فتح الباري: ٤١٩/١٠ ومسلم: ٩١/١ (٣) أحمد: ٣٢١/٤ (٤) أحمد: ٢٨٧/٤

الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٥﴾  
[النَّاسُ مَشْرُوعٌ فِي جَمِيعِ مَلَلِ الْعَالَمِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ذِنَحِ الْمَنَاسِكِ وَإِرَاقَةُ الدَّمَاءِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَشْرُوعًا فِي جَمِيعِ الْمَلَلِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسْكَةً» قَالَ: عِيدًا. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: ذِبْحًا. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ فِي قَوْلِهِ: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسْكَةً» إِنَّهَا مَكَّةُ، لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِأُمَّةٍ قَطُّ مَسْكَةً غَيْرَهَا<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَفْرَنَيْنِ، فَسَمَى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صَفَاحِهِمَا<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا» أَيُّ: مَعْبُودُكُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُ الْأَنْبِيَاءِ، وَنَسَخَ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَالْجَمِيعُ يَذْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء: ٢٥] وَلِهَذَا قَالَ: «فَلَهُ أَسْلِمُوا» أَيُّ: أَخْلَصُوا وَاسْتَسْلِمُوا لِحُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ «وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» قَالَ مُجَاهِدٌ: الْمُطْمَئِنِّينَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ «وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» قَالَ: الْمُطْمَئِنِّينَ الرَّاغِبِينَ بِقَضَاءِ اللَّهِ الْمُسْتَسْلِمِينَ لَهُ<sup>(٤)</sup>. وَأَحْسَنُ بِمَا يُفَسِّرُ بِمَا بَعْدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: «الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» أَيُّ: خَافَتْ مِنْهُ قُلُوبُهُمْ «وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ» أَيُّ: مِنَ الْمَصَائِبِ. «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ» أَيُّ: الْمُؤَدِّينَ حَقَّ اللَّهِ فِيهَا أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» أَيُّ: وَيُنْفِقُونَ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ طَيِّبِ الرِّزْقِ عَلَى أَهْلِيهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ، وَفُقَرَائِهِمْ وَمَحَاوِجِهِمْ، وَيُحْسِنُونَ إِلَى الْخَلْقِ

تَعْظِيمُهَا اسْتِسْمَانُهَا وَاسْتِحْسَانُهَا<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلٍ: كُنَّا نُسَمُّ الْأَضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَمُّونَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٦)</sup>.

وَفِي سَنَنِ ابْنِ مَاجَهَ عَنْ أَبِي رَافِعٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحَّى بِكَبْشَيْنِ عَظِيمَيْنِ سَمِيئَيْنِ أَفْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مُوجُوعَيْنِ<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ جَابِرٍ: ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَفْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مُوجُوعَيْنِ<sup>(٨)</sup>. وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَسْتَشْرِفَ الْعَيْنَ وَالْأُذُنَ، وَأَنْ لَا نُضْحِيَ بِمُقَابَلَةٍ وَلَا مُدَابَرَةٍ، وَلَا شَرْقَاءَ، وَلَا خَرْقَاءَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(٩)</sup>.

وَأَمَّا الْمُقَابَلَةُ: فَهِيَ الَّتِي قُطِعَ مُقَدَّمُ أُذُنِهَا. وَالْمُدَابَرَةُ: مِنْ مُؤَخَّرِ أُذُنِهَا. وَالشَّرْقَاءُ: هِيَ الَّتِي قُطِعَتْ أُذُنُهَا طَوْلًا، قَالَ الشَّافِعِيُّ وَالْأَصْمَعِيُّ. وَأَمَّا الْخَرْقَاءُ: فَهِيَ الَّتِي خَرَقَتْ السَّمَةُ أُذُنُهَا خَرْقًا مَدُورًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَعَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِيِّ: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوْرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرَجَاءُ الْبَيِّنُ [ظَلْعُهَا]، وَالْكَبِيرَةُ الَّتِي لَا تُنْقِي». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(١٠)</sup>.

### [مَنَافِعُ الْبَدَنِ]

وَقَوْلُهُ: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ» أَيُّ: لَكُمْ فِي الْبَدَنِ مَنَافِعٌ مِنْ لَبَنِهَا، وَصُوفِهَا، وَأَوْبَارِهَا، وَأَشْعَارِهَا، وَرُكُوبِهَا «إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى». قَالَ مِقْسَمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى» قَالَ: مَا لَمْ نُسَمِّ بَدَنًا<sup>(١١)</sup>. وَقِيلَ: لَهُ أَنْ يَنْتَفِعَ وَإِنْ كَانَتْ هَذِيًا، إِذَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً قَالَ: «ارْكَبْهَا» قَالَ: إِنَّهَا بَدَنَةٌ. قَالَ: «ارْكَبْهَا وَيَحْكُ» فِي الثَّانِيَةِ أَوْ الثَّالِثَةِ<sup>(١٢)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا»<sup>(١٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ يَحْلَاهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» أَيُّ: مَحَلُّ الْهَدْيِ وَانْتِهَاؤُهُ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَهُوَ الْكَعْبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «هَذِيًا بَلَغَ الْكَعْبَةَ» [المائدة: ٩٥] وَقَالَ: «وَالْهَدْيُ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ» [الفتح: ٢٥].

«وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَسْكَةً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» فَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ

(١) الطبري: ١٨/٦٢١ (٢) فتح الباري: ١٠/١١ (٣) أحمد: ٨/٦ وتفرده كذا قال المؤلف في جامع المسانيد والسنن: ١٤/٢١ (٤) أبو داود: ٣/٢٣١ وابن ماجه: ٢/١٠٤٣ (٥) أحمد: ١٠٨/١ وأبو داود: ٣/٢٣٧ وتحفة الأحوذى: ٥/٨٢ والنسائي: ٧/٢١٧ وابن ماجه: ٢/١٠٥٠ (٦) أحمد: ٤/٢٨٤ وأبو داود: ٢٨٠٢ والترمذي: ١٤٩٧ والنسائي: ٧/٢١٥ وابن ماجه: ٣١٤٤ (٧) الطبري: ١٨/٦٢٣ (٨) فتح الباري: ٥/٤٥٠ ومسلم: ٢/٩٦٠ (٩) مسلم: ٢/٩٦١ (١٠) الدر المنثور: ٦/٤٨ (١١) فتح الباري: ١٠/٢٥٠ ومسلم: ٣/١٥٥٦ (١٢) الطبري: ١٨/٦٢٨ (١٣) تفسير الثوري: ٢١٣

وَهُوَ قَائِمٌ فِي مِصْلَاهُ، فَلَذَبَحَهُ بِنَفْسِهِ بِالْمُدْيَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعًا: مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالتَّوْحِيدِ وَشَهِدَ لِي بِالْبَلَاغِ» ثُمَّ يُؤْتِي بِالْآخِرِ فَيَذْبَحُهُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ» فَيُطْعِمُهُمَا جَمِيعًا الْمَسَاكِينَ وَيَأْكُلُ هُوَ وَأَهْلُهُ مِنْهُمَا. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٦)</sup>.

وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ» قَالَ: قِيَامًا عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ، مَعْقُولَةٌ يَدُهَا الْيُسْرَى، يَقُولُ: بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَنَاخَ بَدَنَتَهُ وَهُوَ يَتَحَرَّهَا فَقَالَ: إِنْغَنَّا قِيَامًا مُقَيَّدَةً، سُنَّةُ أَبِي الْقَاسِمِ عليه السلام<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا وَجَّعَتْ جُنُوبًا» قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: يَعْني سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ<sup>(٨)</sup>. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمٍ: فَإِذَا وَجَّعَتْ جُنُوبَهَا، يَعْني مَاتَتْ<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ مُرَادُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنَ الْبَدَنَةِ إِذَا نَجَرَتْ حَتَّى تَمُوتَ وَتَبْرَدَ حَرَكَتُهَا. وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ: «لَا تُعْجَلُوا النُّفُوسَ أَنْ تَرْهَقَ»<sup>(١٠)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ

ذَلِكَ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلْيُجَدِّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِخْ ذَيْبَتَهُ»<sup>(١١)</sup>. وَعَنْ أَبِي وَقِيدٍ اللَّثَّيْيِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا قُطِعَ مِنَ الْبَهِيمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ، فَهُوَ مَيْتَةٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ<sup>(١٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَنَاعَ وَالْمَعْتَرَ» أَمْرٌ بِإِبَاحَةِ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «الْقَنَاعُ» أَلْمُسْتَعْنِي بِمَا أُعْطِيَتْهُ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، «وَالْمَعْتَرُ» الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَكَ وَيُلِمُّ

مَعَ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ، وَهَذِهِ بِخِلَافِ صِفَاتِ الْمُتَنَافِقِينَ، فَإِنَّهُمْ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ.

«وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعْتِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَّعَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَنَاعَ وَالْمَعْتَرَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾» [الْأَمْرُ بِنَحْرِ الْبُدَنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْبُدَنِ وَجَعَلَهَا مِنْ شَعَائِرِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ جَعَلَهَا يُهْدَى إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ، بَلْ هِيَ أَفْضَلُ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «لَا تَحْلُوا شَعْتِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيذَ وَلَا مَا يَيْنَ الْيَتِّ الْحَرَامِ»... الْآيَةُ [الْمَائِدَةُ: ٢] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، قَالَ عَطَاءٌ فِي قَوْلِهِ: «وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِرِ اللَّهِ» قَالَ: الْبَقَرَةُ وَالْبَعِيرُ<sup>(١٣)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَإِنَّمَا الْبُدْنُ مِنَ الْإِبِلِ<sup>(١٤)</sup>. وَفِي قَوْلٍ: يُطْلَقُ عَلَى الْبَقَرَةِ أَيْضًا: ثُمَّ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ تُجَزَّى عَنْ سَبْعَةٍ كَمَا ثَبَتَ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَغَيْرِهِ، قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الْأَصْحَايِ الْبُدَنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ<sup>(١٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ» أَيُّ: ثَوَابٌ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ» وَعَنْ الْمُطَّلِبِ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْطَبٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِيدَ الْأَضْحَى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَيْتُ بِكَبْشٍ فَلَذَبَحَهُ، فَقَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُصْخَرْ مِنْ أُمَّتِي». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ [أَبِي عِيَّاشٍ] عَنْ جَابِرٍ قَالَ: ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَقَالَ حِينَ وَجَّهَهُمَا: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ» ثُمَّ سَمَى اللَّهَ وَكَبَّرَ وَذَبَحَ<sup>(١٧)</sup>. وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِي رَافِعٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا ضَحَّى اشْتَرَى كَبْشَيْنِ سَمِينَيْنِ أَقْرَبَيْنِ أَمْلَحَيْنِ، فَإِذَا صَلَّى وَخَطَبَ النَّاسَ، أَتَى بِأَحَدِهِمَا

(١) الطبري: ٦٣٠/١٨ (٢) ابن أبي شيبة: الجزء المفقود/ ٣٦٧ (٣) مسلم: ٨٨٢/٢ (٤) أحمد: ٣٥٦/٣ وأبو داود: ٣/ ٢٣٠ وتحفة الأحوذى: ١١٣/٥ (٥) أبو داود: ٣/ ٢٣١، ٢٣٠ (٦) أحمد: ٨/٦ وابن ماجه: ١٠٤٤، ١٠٤٣/٢ (٧) البخاري: ١٧١٣ (٨) الطبري: ٦٣٥/١٨ (٩) الطبري: ٦٣٥/١٨ (١٠) البيهقي: ٢٧٨/٩ (١١) مسلم: ١٥٤٨/٣ (١٢) أحمد: ٥/ ٥١٨ وأبو داود: ٢٧٧/٣ وتحفة الأحوذى: ٥٥/٥



لِتَذْكُرُوهُ عِنْدَ ذَنْبِهَا، فَإِنَّهَ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ لَا يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنْ لُحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ وَقَدْ كَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ إِذَا ذَبَحُوهَا لِإِلَهِتِهِمْ وَضَعُوا عَلَيْهَا مِنْ لُحُومِ قَرَابِينِهِمْ، وَنَضَحُوا عَلَيْهَا مِنْ دِمَائِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَائُهَا﴾. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْضَحُونَ النَّبِيَّ بِلُحُومِ الْإِبِلِ وَدِمَائِهَا، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَتَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَنْضَحَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ: يَتَقَبَّلُ ذَلِكَ وَيَجْزِي عَلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورَتِكُمْ وَلَا إِلَى أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ﴾ أَيُّ: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَخَّرَ لَكُمْ الْبُذْنَ ﴿لِتُكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أَيُّ: لِنِعْظُمُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ لِدِينِهِ وَشَرَعَهُ مَا يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَنَهَاكُمْ عَنْ فِعْلٍ مَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيُّ: وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ الْمُحْسِنِينَ أَيُّ: فِي عَمَلِهِمْ، أَلْقَائِيهِمْ بِحُدُودِ اللَّهِ الْمُتَّبِعِينَ مَا شَرَعَ لَهُمْ، أَلْمُصْذِقِينَ الرَّسُولَ فِيمَا أَلْبَعُثَهُمْ وَجَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(مَسْأَلَةٌ) الْأُضْحِيَّةُ سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ، وَتَكْفِي وَاحِدَةً مِنْهَا عَنْ جَمِيعِ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ يُضَحِّي. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُضَحِّي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، فَيَأْكُلُونَ وَيُطْعَمُونَ حَتَّى تَبَاهِيَ النَّاسُ، فَصَارَ كَمَا تَرَى. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ مَاجَةٍ<sup>(٣)</sup>. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هِشَامٍ يُضَحِّي بِالشَّاةِ الْوَاحِدَةِ عَنْ جَمِيعِ أَهْلِهِ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٤)</sup>. وَأَمَّا مِقْدَارُ سِنٍّ الْأُضْحِيَّةِ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَبْعُسَ عَلَيْكُمْ،

بِكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنَ اللَّحْمِ وَلَا يَسْأَلُ»<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْقَانِيعُ: أَلْمَتَعَفُّفُ، وَالْمُعْتَرُ السَّائِلُ<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَمُجَاهِدٍ فِي رَوَايَةٍ عَنْهُ<sup>(٨)</sup>. وَقِيلَ: بِالْعَكْسِ. وَقَدْ احْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْأُضْحِيَّةَ تُجْزَأُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: فَثُلُثٌ لِصَاحِبِهَا يَأْكُلُهُ مِنْهَا. وَثُلُثٌ يَهْدِيهِ لِأَصْحَابِهِ، وَثُلُثٌ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ. لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَالِغِ وَالْمُعْتَرِ﴾<sup>(٩)</sup> وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلنَّاسِ: «إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ادِّخَارِ لُحُومِ الْأَصْحَاجِي فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَكُلُوا وَادِّخَرُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ»<sup>(١٠)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ: «فَكُلُوا وَادِّخَرُوا وَتَصَدَّقُوا»<sup>(١١)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ: «فَكُلُوا وَأَطِيعُوا وَتَصَدَّقُوا»<sup>(١٢)</sup>. وَأَمَّا الْجُلُودُ فَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ الثُّعْمَانِ فِي حَدِيثِ الْأَصْحَاجِي: «فَكُلُوا وَتَصَدَّقُوا، وَاسْتَمْتِعُوا بِجُلُودِهَا، وَلَا تَبِيعُوهَا»<sup>(١٣)</sup>.

(مَسْأَلَةٌ) عَنِ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا تَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَتَخَرَّ، فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ التُّشْكِ فِي شَيْءٍ». أَخْرَجَاهُ<sup>(١٤)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: وَأَنْ لَا تَذْبَحُوا حَتَّى يَذْبَحَ الْإِمَامُ. وَشُرِعَ الذَّبْحُ يَوْمَ النُّحْرِ وَثَلَاثَةَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَهُ، لِحَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ جِبَانَ<sup>(١٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ هَذَا: ﴿سَخَرْنَا لَكُمْ﴾ أَيُّ: ذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ، أَيُّ: جَعَلْنَاهَا مُقَادَّةً لَكُمْ خَاضِعَةً، إِنْ شِئْتُمْ رَكِبْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ حَلَبْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَبَحْتُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» [يس: ٧١-٧٣] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٧١﴾

[الْمَقْصُودُ مِنَ الْأُضْحِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ إِخْلَاصُ الْعَبْدِ وَتَقْوَاهُ] يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا شَرَعَ لَكُمْ تَحَرُّ هَذِهِ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا

(١) الطبري: ٦٣٦/١٨ (٢) الطبري: ٦٣٦/١٨ (٣) الطبري: ٦٣٧، ٦٣٦/١٨ (٤) الطبري: ٦٣٧، ٦٣٦/١٨ (٥) النسائي: ٢٣٤/٧ (٦) النسائي: ٧/١٧٠ (٧) فتح الباري: ٢٩/١١ (٨) أحمد: ١٥/٤ (٩) فتح الباري: ٥٢٦/٢ ومسلم: ١٥٥٣/٣ وقوله بعده: وأن لا تذبحوا... قال الدكتور إبراهيم البنا: لم يقع لنا هذا في صحيح مسلم. (١٠) أحمد: ٨٢/٤ (١١) مسلم: ١٩٨٧/٤ (١٢) تحفة الأحوذى: ٩٦/٥ (١٣) أبو داود: ٩٠/٥ وابن ماجه: ٢/١٠٥١ (١٤) فتح الباري: ٢١٣/١٣

فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الصَّانِ»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾<sup>(٢٨)</sup>

[بِشَارَةِ الدَّفَاعِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنِ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ، شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَثِدَ الْفُجَّارِ، وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلُوهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْعَهْدِ إِذْ عَاهَدُوا لَكُمْ وَيَحْسَبُوا أَنَّهُم مُّجْرِبُونَ إِيَّانَا فَاحْذَرُوهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الزمر: ٢٦] وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [الطلاق: ٣] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أَيُّ: لَا يُحِبُّ مَنْ عَاهَدَهُ مِنْ اتِّصَفَ بِهِذَا، وَهُوَ الْخِيَانَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَائِقِ لَا يَبْقَى بِمَا قَالَ، وَالْكَفُورُ: الْجَحْدُ لِلنَّعْمِ، فَلَا يُعْتَرَفُ بِهَا.

﴿أُوذِّنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ ظِلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٢٩)</sup> الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ يُدْرِكُ الْهَافِينَ ﴿٣٠﴾

[الْإِذْنُ بِالْقِتَالِ، وَهِيَ أَوَّلُ آيَةِ الْجِهَادِ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ حِينَ أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ كَابَنُ عَبَّاسٍ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَرَبِيعُ بْنُ أَسْلَمَ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَفَتَاةٌ وَغَيْرُهُمْ: هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أُخْرِجُوا نَبِيَّكُمْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ لِيَهْلِكُنَّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أُوذِّنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ ظِلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ. وَزَادَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أَيُّ: هُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ نَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، وَلَكِنْ هُوَ يُرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُمْ فِي طَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الْكُفْرَانَ فَغَرِّبُوا لِقَاءَ الْوَقَائِفِ فَإِذَا مَنَّا بَعْدَ وَلَمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ

﴿٣١﴾ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٣١)</sup> الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ يُدْرِكُ الْهَافِينَ ﴿٣٢﴾

وَلَكِنْ لِنَبِّأُكَ بِبَعْضِ مَا يَتَّبِعُونَ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا أَعْمَلْتُمْ سَبِيحَتَهُمْ وَيُصَلِّحُ إِلَهُكُمْ<sup>(٦)</sup> وَيَذَلُّهُمْ لِقَتَّةٍ عَرَفَهَا لَمْ [محمد: ٤-٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشَفِّ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾<sup>(٧)</sup> وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَتَوْبُ اللَّهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [التوبة: ١٤، ١٥] وَقَالَ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَعْبَادَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وَقَدْ فَعَلَ<sup>(٨)</sup>. وَإِنَّمَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْجِهَادَ فِي الْوَقْتِ الْأَلْتِي بِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا بِمَكَّةَ كَانُوا الْمُشْرِكُونَ أَكْثَرَ عَدَدًا، فَلَوْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ أَقَلُّ مِنَ الْعُسْرِ بِقِتَالِ

(١) مسلم: ١٥٥٥/٣ (٢) الطبري: ٦٤٣/١٨ العوفي ضعيف (٣) الطبري: ٦٤٤، ٦٤٣/١٨ والدر المشور: ٥٧/٦ (٤) أحمد: ٢١٦/١ (٥) تحفة الأحوذى: ١٥/٩ والنسائي في الكبرى: ٤١١/٦ (٦) الطبري: ٦٤٣/١٨

لِأَهْلِ الْكِتَابِ وَلِأَهْلِ الْإِسْلَامِ بِالطَّرِيقِ<sup>(٦)</sup>. وَأَمَّا الْمَسَاجِدُ فَبِهَا لِلْمُسْلِمِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فَقَدْ قِيلَ: الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ عَائِدٌ إِلَى الْمَسَاجِدِ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ الْمَذْكُورَاتِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْجَمِيعُ، يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الصَّوَابُ: لَهْدَمْتُ صَوَامِعَ الرُّهْبَانِ، وَبِيعَ النَّصَارَى، وَصَلَوَاتُ الْيَهُودِ - وَهِيَ كَنَائِسُهُمْ - وَمَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمُسْتَعْمَلُ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هَذَا تَرَقُّ مِنَ الْأَقَلِّ إِلَى الْأَكْثَرِ إِلَى أَنْ انْتَهَى إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَهِيَ أَكْثَرُ عِمَارًا وَأَكْثَرُ عِبَادًا وَهُمْ ذَوُو الْقَصْدِ الصَّحِيحِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِنَصْرِنَ اللَّهُ مِنْ بَصْرَةٍ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَنَالُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُنِيبَتْ أَقْدَامُكُمْ<sup>(٨)</sup>﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالْصَّلَ أَعْمَلُهُمْ [محمد: ٨٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ، فَيَقْوِيهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا، وَبِعِزَّتِهِ لَا يَهْزُهُ قَاهِرٌ وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ نَاصِرَهُ فَهُوَ الْمَنْصُورُ وَعَدُوُّهُ هُوَ الْمَقْهُورُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا لِلرَّسُولِينَ<sup>(٩)</sup>﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ<sup>(١٠)</sup> وَلَنْ جُنَدَنَا لَهُمُ الْفَالِقُونَ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة: ٢١].

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ<sup>(١١)</sup>﴾ [وَأَجِبَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ تَمَكِينِهِمْ مِنَ الْحُكْمِ]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَمَانَ، قَالَ: قِيلَ: نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فَأُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ قُلْنَا: رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ مَكَّنَا فِي الْأَرْضِ، فَأَقَمْنَا الصَّلَاةَ وَآتَيْنَا الزَّكَاةَ، وَأَمَرْنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْنَا عَنِ

الْبَاقِينَ لَشَقِّ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ يَثْرِبَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَكَانُوا نَبَأًا وَثَمَانِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَمِيلُ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، يَتَّبِعُونَ أَهْلَ مَتَى، لِيَأْتِيَ مِنِّي فَنَقْتُلَهُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُوَمِّرْ بِهَذَا»<sup>(١٢)</sup>. فَلَمَّا بَغَى الْمُشْرِكُونَ وَأَخْرَجُوا النَّبِيَّ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ، وَشَرَّدُوا أَصْحَابَهُ شَذَرَ مَذَرَ، فَذَهَبَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ إِلَى الْحَبَشَةِ وَأَخْرُورَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا اسْتَقَرُّوا بِالْمَدِينَةِ وَوَأَفَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَقَامُوا بِنَصْرِهِ وَصَارَتْ لَهُمْ دَارُ إِسْلَامٍ وَمَعْقَلًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ، شَرَعَ اللَّهُ جِهَادَ الْأَعْدَاءِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْدِينَ يَفْتَلَتُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَلَنْ اللَّهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ<sup>(١٣)</sup>﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَخْرَجُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ، يَعْنِي مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ<sup>(١٤)</sup>. ﴿إِلَّا أَتَ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أَيُّ: مَا كَانَ لَهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ إِسَاءَةٌ، وَلَا كَانَ لَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنَّهُمْ وَحَدُّوا اللَّهَ وَعَبَدُوهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُقْطِعٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَأَمَّا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ الذُّنُوبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَيُّ: لَوْلَا أَنَّهُ يَدْفَعُ يَقُومُ عَنْ قَوْمٍ، وَيَكْفُ شُرُورَ أَنَاسٍ عَنْ غَيْرِهِمْ بِمَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ، لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَا هَلَكَ الْقَوِيُّ الْقَوِي الضَّعِيفُ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَهِيَ الْمَعَابِدُ الصَّغَارُ لِلرُّهْبَانِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَعَابِدُ الصَّابِئِينَ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: صَوَامِعُ الْمَجُوسِ. وَقَالَ مُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانَ: هِيَ الْبُيُوتُ الَّتِي عَلَى الطَّرِيقِ ﴿وَبِيعَ﴾ وَهِيَ أَوْسَعُ مِنْهَا، وَأَكْثَرُ عَابِدِينَ فِيهَا، وَهِيَ لِلنَّصَارَى أَيْضًا، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ صَخْرٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَخَصِيفٌ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١٦)</sup>. وَحَكَى ابْنُ جُبَيْرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ: أَنَّهَا كَنَائِسُ الْيَهُودِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَصَلَّوْتُ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الصَّلَوَاتُ: الْكَنَائِسُ<sup>(١٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: إِنَّهَا كَنَائِسُ الْيَهُودِ، وَهُمْ يُسَمُّونَهَا: صَلَوَاتٍ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَغَيْرُهُ: الصَّلَوَاتُ: مَعَابِدُ الصَّابِئِينَ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: الصَّلَوَاتُ: مَسَاجِدُ

(١) دلائل النبوة للأصبهاني: ٢٦٥ (٢) الطبري: ٦٤٣/١٨

(٣) الطبري: ٦٤٧/١٨ والدر المنثور: ٥٩/٦، ٦٠، والرازي: ٣/

٣٦ (٤) الطبري: ٦٤٨/١٨ (٥) الطبري: ٦٤٩/١٨ حكم

العوفي تقدم (٦) الطبري: ٦٥٠/١٨ (٧) الطبري: ٦٥٠/١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٨

وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا إِلَى الصَّيْرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

الصَّحَّاحُ: سُوفَهَا<sup>(٤)</sup>. أَي: قَدْ خَرَبْتَ مَنَازِلَهَا وَتَعَطَّلَتْ حَوَاضِرُهَا وَبِئْسَ مُعْطَلٌ<sup>(٥)</sup> أَي: لَا يُسْتَقَى مِنْهَا، وَلَا يَرُدُّهَا أَحَدٌ بَعْدَ كَثْرَةِ وَارِدِيهَا وَالْأَزْدَحَامِ عَلَيْهَا وَفَصَّرَ مَشِيدٌ<sup>(٦)</sup> قَالَ عِكْرَمَةُ: يَغْنِي الْمُبْيَضُّ بِالْجَصِّ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي الْمَلِيحِ وَالصَّحَّاحُ نَحْوُ ذَلِكَ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ آخِرُونَ: هُوَ الْمُنِيفُ الْمُرْتَفِعُ. وَقَالَ آخِرُونَ: الْمَشِيدُ: الْمَنِيْعُ الْحَصِينُ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَحْمِ أَهْلُهُ شِدَّةَ بَنَائِهِ، وَلَا ارْتِفَاعَهُ، وَلَا إِحْكَامَهُ، وَلَا حَصَانَتَهُ عَنْ حُلُولِ بَأْسِ اللَّهِ بِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَقْلَرُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: بِأَبْدَانِهِمْ

الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. فَهِيَ لِي وَلَا أَصْحَابِي<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقَالَ الصَّبَّاحُ بْنُ سَوَادَةَ الْكِنْدِيُّ: سَمِعْتُ عَمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ الْآيَةُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى الْوَالِي وَحْدَهُ، وَلَكِنَّهَا عَلَى الْوَالِي وَالْمَوْلَى عَلَيْهِ، أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِمَا لَكُمْ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلِكُمْ، وَمَا لِلْوَالِي عَلَيْكُمْ مِنْهُ؟ إِنْ لَكُمْ عَلَى الْوَالِي مِنْ ذَلِكُمْ: أَنْ يُؤَاخِذَكُمْ بِحَقِّكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، وَأَنْ يَأْخُذَ لِيَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَأَنْ يَهْدِيَكُمْ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ مَا اسْتَطَاعَ، وَإِنْ عَلَيْكُمْ مِنْ ذَلِكَ الطَّاعَةُ غَيْرَ الْمَبْزُورَةِ وَلَا الْمُسْتَكْرَهَ بِهَا، وَلَا الْمُخَالَفَ سِرَّهَا عَلَانِيَتَهَا. وَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ مَا صَنَعُوا<sup>(١٠)</sup>.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٢﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٣﴾ فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ حَاطِبَةُ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٤﴾ أَقْلَرُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٥﴾

### [عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ - إِلَى أَنْ قَالَ - ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى﴾ أَي: مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَي: أَنْظَرْتُهُمْ وَأَخْرَجْتُهُمْ، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَي: فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقِبَتِي لَهُمْ؟! وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَقْلُتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَكْبَرُ شَيْدٍ﴾<sup>(١١)</sup> [يوسف: ١٠٢]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ مِنَ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَي: كَمَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أَي: مُكَذِّبَةٌ لِرُسُلِهَا ﴿فَهِيَ حَاطِبَةُ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ قَالَ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٤٩٦/٨، ٢٤٩٧/٨ (٢) ابن أبي حاتم: ٨/٢٤٩٨ (٣) فتح الباري: ٢٠٥/٨، ومسلم: ١٩٩٧/٤ (٤) الطبري: ٦٥٣/١٨ (٥) الطبري: ٦٥٤/١٨، ٦٥٥/١٨ (٦) الطبري: ٦٥٥/١٨، والبغوي: ٢٩١/٣



الْقَلِيلِ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْفَرَزِيُّ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَرَزَقٌ كَرِيمٌ﴾ فَهُوَ الْجَنَّةُ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يُبْطِلُونَ النَّاسَ عَنْ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ <sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ: مُبْطِلِينَ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُعَاجِرِينَ مُرَاعِمِينَ <sup>(٤)</sup>. «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ» وَهِيَ النَّارُ الْحَارَّةُ الْمُوجَعَةُ، الشَّدِيدُ عَذَابُهَا وَنَكَالُهَا، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ» [النحل: ٨٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُجَعِّلُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ <sup>(٥)</sup> لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْفَاسِقَةُ قُلُوبُهُمْ وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ <sup>(٦)</sup> وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ <sup>(٧)</sup>.

«يُدْخِلُ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّةِ الرُّسُلِ وَيُطَالِ اللَّهُ ذَلِكَ» قَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ هَهُنَا قِصَّةَ الْغُرَانِي، وَمَا كَانَ مِنْ رُجُوعٍ كَثِيرٍ مِنَ الْمُهَاجِرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَشَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَدْ أَسْلَمُوا، وَلَكِنَّهَا مِنْ طُرُقِ كُلِّهَا مُرْسَلَةٌ، وَلَمْ أَرَهَا مُسْتَدَةً مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ، فَيُبْطِلُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ [وُحِّدَكُمْ آيَاتِهِ] <sup>(٨)</sup>. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» يَقُولُ: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ <sup>(٩)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «إِذَا تَمَنَّى» يَعْنِي إِذَا قَالَ <sup>(١٠)</sup>. وَيُقَالُ: أُمْنِيَّتُهُ قِرَاءَتُهُ «إِلَّا أَمَانِي» يَقُولُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ. قَالَ الْبَغَوِيُّ وَكَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا: مَعْنَى قَوْلِهِ: «تَمَنَّى» أَيُّ: تَلَا. وَقَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ «أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» أَيُّ: فِي تِلَاوَتِهِ <sup>(١١)</sup>.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: «إِذَا تَمَنَّى» إِذَا تَلَا <sup>(١٢)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهَ بِتَأْوِيلِ الْكَلَامِ <sup>(١٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: «فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ» حَقِيقَةُ النَّسْخِ لَعْنَةُ الْإِلْزَالَةِ وَالرَّفْعِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ: فَيُبْطِلُ اللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ <sup>(١٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» أَيُّ:

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَخْلَعُ بِكُمْ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ <sup>(١٥)</sup> وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ <sup>(١٦)</sup> وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ <sup>(١٧)</sup> لِيَدْخِلَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَنِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ <sup>(١٨)</sup> ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ آيَاتُ اللَّهِ لَعَفْوٌ غَفُورٌ <sup>(١٩)</sup> ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُرْسِلُ الْبَلَّ فِي النَّهَارِ وَيُورِلُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ <sup>(٢٠)</sup> ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَيُّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَيُّ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ <sup>(٢١)</sup> أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ <sup>(٢٢)</sup> لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ <sup>(٢٣)</sup>

بِمَا يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ وَالْحَوَادِثِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيُّ: فِي تَقْدِيرِهِ وَخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أَيُّ: شَكٌّ وَشِرْكٌ وَكُفْرٌ وَنِفَاقٌ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» هُمُ الْمُتَافِقُونَ، «وَالْفَاسِقَةُ قُلُوبُهُمْ» هُمُ الْمُشْرِكُونَ <sup>(٢٤)</sup>.

﴿وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أَيُّ: فِي ضَلَالٍ وَمُخَالَفَةٍ وَعِنَادٍ بَعِيدٍ، أَيُّ: مِنَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ «وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ» أَيُّ: وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ النَّافِعَ الَّذِي يُقَرِّفُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنَّ مَا أُوحِيَائِهِ إِلَيْكَ هُوَ

(١) الدر المنثور: ٦٣/٦ (٢) الطبري: ١٨/٦٦٢ (٣) الدر المنثور: ٦٤/٦ (٤) الدر المنثور: ٦٤/٦ (٥) فتح الباري: ٨/٢٩٢ (٦) الطبري: ١٨/٦٦٧ (٧) الطبري: ١٨/٦٦٧ (٨) البغوي: ٣/٢٩٣ (٩) الطبري: ١٨/٦٦٨ (١٠) الطبري: ١٨/٦٦٨ (١١) الطبري: ١٨/٦٦٨ (١٢) الطبري: ١٨/٦٦٩

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [عافر: ٦٠] أي: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قِيلُوا أَنَّهُمْ لَا يَرْزُقُهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [٥٨] لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصَرَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [٦٠] [الْأَجْرُ الْعَظِيمُ لِمَنْ هَاجَرَ لِلَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَطَلَبًا لِمَا عِنْدَهُ، وَتَرَكَ الْأَوْطَانَ وَالْأَهْلِيْنَ وَالْحُلَانَ، وَفَارَقَ بِلَادَهُ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَنُصْرَةِ لِدِينِ اللَّهِ ﴿ثُمَّ قِيلُوا﴾ أي: أي: فِي الْجِهَادِ، ﴿أَوْ مَا تَوَلَّوْا﴾ أي: حَتَّى أَنَّهُمْ أَي: مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، عَلَى فُرُشِهِمْ، فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالنَّشَاءِ الْجَمِيلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: لِيُجَرِّبَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ مَا تَقَرَّبَ أَغْنِيَهُمْ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [٥٨] لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴿أَي: الْجَنَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرَرِينَ﴾ [٥٨] فَرُوحٌ وَرَحْمَةٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ الرَّاحَةُ وَالرِّزْقُ وَجَنَّةُ النَّعِيمِ، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لِيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أي: بِمَنْ مُهَاجِرٌ وَيُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِهِ وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ لَهُمُ الذُّنُوبَ، وَيُكَفِّرُهَا عَنْهُمْ بِهَجْرَتِهِمْ إِلَيْهِ وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ.

فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ، فَإِنَّهُ حَيٌّ عِنْدَ رَبِّهِ يُرْزَقُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ، وَأَمَّا مَنْ تَوَفَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ، فَقَدْ تَصَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَعَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِجْرَاءَ الرِّزْقِ عَلَيْهِ وَعَظِيمِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ

الْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ، وَحَفِظَهُ وَحَرَسَهُ أَنْ يَخْتَلِطَ بِهِ غَيْرُهُ بَلْ هُوَ كِتَابٌ حَكِيمٌ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: بُصْدَقُوا وَبِتَقَادُّوا لَهُ ﴿فَتُحِبَّتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تَخَضَّعُوا وَتَذَلُّوا لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَيُوقِّفُهُمْ لِمُخَالَفَةِ الْبَاطِلِ وَاجْتِنَابِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُوصِلِ إِلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّاتِ، وَيُزَحِّرُهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالذَّرَكَاتِ.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [٥٥] الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَعْصِمُ بَيْنَهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَئِكَ لَهُمْ الْعَذَابُ مُهِيتٌ ﴿٥٦﴾

[لَا يَزَالُ الْكُفَّارُ فِي الشُّكِّ وَالتَّرَدُّدِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ فِي مِرْيَةٍ، أَي: فِي شُكٍّ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ (١). ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: فَجَاءَةً (٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿بَغْتَةً﴾ بَعَثَ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغَرَّتِهِمْ وَنَعْمَتِهِمْ، فَلَا تَعْتَرُوا بِاللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَ أَبُو بَرْقٍ كَعْبٌ: هُوَ يَوْمٌ بَدْرٌ، قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، لَا لَيْلَ لَهُ (٣). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ (٤). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَعْصِمُ بَيْنَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَلَأْتُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَى مَا عَلِمُوا، وَتَوَافَقَ قُلُوبُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ أَي: لَهُمُ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَبِيدُ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَي: كَفَرَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْحَقِّ وَجَحَدُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا بِهِ وَخَالَفُوا الرُّسُلَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِهِمْ ﴿فَاُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ مُهِيتٌ﴾ أَي: فِي مُقَابَلَةِ اسْتِكْبَارِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

(١) الطبري: ١٨/٦٧٠ (٢) الطبري: ١١/٣٦٠ (٣) البغوي:

٢٩٥/٣ (٤) البغوي: ٢٩٥/٣

شَرْحِيلَ بْنِ السَّمْطِ قَالَ: طَالَ رَبَاطُنَا وَإِقَامَتُنَا عَلَى حِصْنِ  
بَارِضِ الرُّومِ، فَمَرَّ بِي سَلْمَانٌ، يُعْنِي الْفَارِسِيُّ، رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ  
مُرَابِطًا أَجَرَى اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَجْرِ، وَأُجِرِيَ عَلَيْهِ  
الرَّزْقُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَتَانَيْنِ، وَافْرَوْا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَالَّذِينَ  
هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ  
رِزْقًا حَسَنًا وَأَنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ (٥٨) لِيَدْخُلَنَّهُمْ  
مُدْخَلًا بِرِضْوَنِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ» (١).

وَرَوَى أَيْضًا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَحْدَمٍ الْحَوْلَانِيِّ أَنَّهُ  
حَضَرَ فَضَالَهَ بَنُ عُبَيْدٍ فِي الْبَحْرِ مَعَ جَنَازَتَيْنِ أَحَدُهُمَا  
أُصِيبَ بِمِنْجَنِيٍّ، وَالْآخَرُ تُوفِّيَ، فَجَلَسَ فَضَالَهَ بَنُ عُبَيْدٍ  
عِنْدَ قَبْرِ الْمُتَوَفَّى فَقِيلَ لَهُ: تَرَكْتَ الشَّهيدَ فَلَمْ تَجْلِسْ عِنْدَهُ؟  
فَقَالَ: مَا أَبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ:  
﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا  
لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾... الْآيَتَيْنِ. فَمَا تَبْتَعِي أَيُّهَا  
الْعَبْدُ إِذَا أَدْخَلْتَ مُدْخَلًا تَرْضَاهُ، وَرَزَقْتَ رِزْقًا حَسَنًا، وَاللَّهُ  
مَا أَبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ...﴾  
الْآيَةَ، ذَكَرَ مَقَابِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَابْنُ جُرَيْجٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي سَرِيَّةٍ  
مِنَ الصَّحَابَةِ لَقُوا جَمْعًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي شَهْرِ مُحَرَّمٍ،  
فَنَاصِدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ لَيْلًا يُقَاتِلُوهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَأَبَى  
الْمُشْرِكُونَ إِلَّا قِتَالَهُمْ، وَبَعَوْا عَلَيْهِمْ، فَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ  
فَنَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (٣).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ  
فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ  
وَأَنَّ مَا يَنْدَعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ  
الْكَبِيرُ (١٢)

كَمَا فِي الشِّتَاءِ، وَتَارَةً يَطُولُ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ كَمَا فِي  
الصَّيْفِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أَي: سَمِيعٌ بِأَقْوَالِ  
عِبَادِهِ. بَصِيرٌ بِهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي أَحْوَالِهِمْ  
وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَتَاتِهِمْ، وَلَمَّا بَيَّنَّ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي  
الْوُجُودِ، الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ قَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ  
اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أَي: الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْتَبِعِي الْعِبَادَةُ إِلَّا  
لَهُ، لِأَنَّهُ ذُو السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ  
يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَبِيرٌ إِلَيْهِ، ذَلِيلٌ لَدَيْهِ ﴿وَأَنَّ مَا  
يَنْدَعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أَي: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ  
وَالْأَوْثَانِ، وَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى فَهُوَ بَاطِلٌ، لِأَنَّهُ لَا  
يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ  
الْكَبِيرُ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وَقَالَ:

[خَالِقُ الدُّنْيَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا هُوَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مِنْهَا عَلَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ  
بِمَا يَشَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ  
شَاءَ وَتَنَزَّعِ الْمَلِكِ مَنْ شَاءَ وَتُحَرِّمْ مَنْ شَاءَ وَتُذِلِّ مَنْ شَاءَ  
يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٣) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ  
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ  
وَتَرَفُّدُ مَنْ شَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿آل عمران: ٢٦، ٢٧﴾ وَمَعْنَى  
إِبْلَاجِهِ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَالنَّهَارَ فِي اللَّيْلِ إِدْخَالَهُ مِنْ هَذَا فِي  
هَذَا وَمِنْ هَذَا فِي هَذَا، فَتَارَةً يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٥٠٣/٨ (٢) الطبري: ١٨٢/٩ (٣)  
الطبري: ٦٧٥/١٨



مُتَيْنٌ ﴿٦١﴾. [يونس: ٦١]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: مُلْكُهُ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ عَبْدٌ لَدَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: مِنْ حَيَوَانٍ وَجَمَادٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أَي: مِنْ إِحْسَانِهِ وَقَضِيئِهِ وَامْتِنَانِهِ ﴿وَالْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أَي: بِتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ، أَي: فِي الْبَحْرِ الْعَجَاجِ وَتَلَاطِمِ الْأَمْوَاجِ تَجَرَّى الْفَلَكَ بِأَهْلِهَا بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَرَفِقٍ وَتَوَدُّةٍ، فَيَحْمِلُونُ فِيهَا مَا شَاءُوا مِنْ تَجَارِيرَ وَبَضَائِعَ وَمَنَافِعَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَقَطْرٍ إِلَى قَطْرٍ، وَيَأْتُونَ بِمَا عِنْدَ أَوْلَيْكَ إِلَى هَؤُلَاءِ، كَمَا ذَهَبُوا بِمَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ إِلَى أَوْلَيْكَ مِمَّا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَيَطْلُبُونَهُ وَيُرِيدُونَهُ ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أَي: لَوْ شَاءَ لَأَذِنَ لِلسَّمَاءِ فَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ فَهَلَكَتْ مَنْ فِيهَا، وَلَكِنْ مِنْ لَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أَي: مَعَ ظُلْمِهِمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿كَقَوْلِهِ:﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[البقرة: ٢٨]. وَقَوْلُهُ:﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ إِلَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِئِدِ ﴿[الجاثية: ٢٦]. وَقَوْلُهُ:﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَاكَ وَآلِحِينَ أَنْتَ تَنَزَّلُ ﴿[غافر: ١١] وَمَعْنَى الْكَلَامِ: كَيْفَ تَجْعَلُونَ اللَّهَ أَنْدَادًا وَتَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ وَهُوَ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّصَرُّفِ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أَي: خَلَقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا يُذَكَّرُ، فَأَوْجَدَكُمْ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أَي: جَحُودٌ.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩﴾

﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ فُكِّلُ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، لِأَنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، الْعَلِيُّ الَّذِي لَا أَعْلَى مِنْهُ، الْكَبِيرُ الَّذِي لَا أَكْبَرَ مِنْهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿٧﴾ لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُو الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٠﴾

[آيات على قُدْرَةِ اللَّهِ]

وهذا أيضًا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمِ سُلْطَانِهِ، فَإِنَّهُ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُبِيرُ سَحَابًا فَيَمْطُرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا، وَهِيَ هَامِدَةٌ يَابِسَةٌ سُودَاءُ مُمَجَّلَةٌ ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَتْ وَرَبَّتْ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أَلْفَاءُ هَهُنَا لِلتَّغْيِيبِ - وَتَغْيِيبُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَزَخْنَا النُّفُوءَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْعَكَةً﴾... الْآيَةُ [المؤمنون: ١٤] - وَقَدْ تَبَتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ بَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا<sup>(١)</sup>. وَمَعَ هَذَا هُوَ مُعْتَبَرٌ بِالْفَاءِ، وَهَكَذَا هَهُنَا قَالَ: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أَي: خَضْرَاءَ بَعْدَ [يُبْسِهَا] وَمُحُولِهَا. وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْحِجَازِ أَنَّهَا تُصْبِحُ عَقِبَ الْمَطَرِ خَضْرَاءَ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أَي: عَلِيمٌ بِمَا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا وَأَجْزَائِهَا مِنَ الْحَبِّ وَإِنْ صَغُرَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَيُوصِلُ إِلَى كُلِّ مِنْهُ فَيَسْقِيهِ مِنَ الْمَاءِ فَيُنبِتُهُ بِهِ، كَمَا قَالَ لُقْمَانُ: ﴿يَتَقَى إِلَهًا إِنْ تَكُ وَثَقَالَ حَبْرٌ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وَقَالَ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَالَ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا فِي كِتَابِ الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ

[لِكُلِّ قَوْمٍ مِّنْسَكٌ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ مِّنْسَكَ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْني لِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ مِّنْسَكًا. قَالَ: وَأَصْلُ الْمُنْسَكِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَغْتَاذُهُ الْإِنْسَانُ وَيَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ إِمَّا لِيُخَيَّرَ أَوْ سُرٍّ. قَالَ: وَلِهَذَا سُمِّيَتْ مَناسِكَ الْحَجِّ بِذَلِكَ لِتَرَدُّادِ النَّاسِ إِلَيْهَا وَعُكُوفِهِمْ عَلَيْهَا<sup>(١)</sup>. فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ - مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ لِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ جَعَلْنَا مَنْسَكًا - فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ أَيُّ: هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ. وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا جَعَلًا قَدَرِيًّا كَمَا قَالَ: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا﴾ [البقرة: ١٤٨] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿هُمْ نَاسِكُونَ﴾ أَيُّ: فَاعْلَوْهُ، فَالضَّمِيرُ هَهُنَا عَائِدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ مَناسِكَ وَطَرَائِقُ، أَيُّ: هَؤُلَاءِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ هَذَا عَنْ قَدْرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ، فَلَا تَتَأَثَّرُ بِمَنَازِعَتِهِمْ لَكَ وَلَا يَصْرِفُكَ ذَلِكَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلَكٌ هَدًى مُّسْتَقِيمٌ﴾ أَيُّ: طَرِيقٍ وَاضِحٍ مُّسْتَقِيمٍ مُّوَصِّلٍ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مَّآلِكَ اللَّهُ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ [القصص: ٨٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ جَدَلْتُمْ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوا فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. [يونس: ٤١] وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ تَعْمَلُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الاحقاف: ٨] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ...﴾ [الشورى: ١٥].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٧٠] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عِلْمُ الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا، وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ

سُورَةُ الْحَجِّ

٣٤١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاستَمْعُوا لَهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧١﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٢﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ تَدْعُونَ اللَّهَ سَمِعَ بِصِيرٍ ﴿٧٣﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٥﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٦﴾

## سُورَةُ الطُّهْرِ

أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ<sup>(٢)</sup>. وَفِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ، الْقَلَمُ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [٧١] وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُرُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَبْأَيْتُمْكُمْ بَشَرَ مِنْ دَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ النَّصِيرُ ﴿٧٢﴾ [عِبَادَةُ الْمُشْرِكِينَ غَيْرَ اللَّهِ وَشِدَّةُ إِنْكَارِهِمْ]

(١) الطبري: ١٨/٦٧٨، ٦٧٩ (٢) مسلم: ٤/٢٠٤٤ (٣) أبو داود: ٥/٧٦ وتحفة الأحوذى: ٩/٢٣٢

## عَلَى آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا جَهِلُوا وَكَفَرُوا وَعَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا، يَغْنِي حُجَّةً وَبُرْهَانًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَلْعَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أَيْ: وَلَا عِلْمَ لَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا وَاتْتَفَكَوْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ تَلَقَّوهُ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَسْلَفِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ، وَأَصْلُهُ مِمَّا سَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ وَزَيَّنَهُ لَهُمْ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أَيْ: مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللَّهِ فِيمَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا تَتَلَوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أَيْ: وَإِذَا ذُكِرَتْ لَهُمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَالْحُجَجُ وَالِدَلَالِيلُ الْوَاضِحَاتُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ رُسُلَهُ الْكَرَامَ حَقٌّ وَصِدْقٌ ﴿يَكَاذِبُونَ يَبْأَدِرُونَ الَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أَيْ: يَكَاذِبُونَ يُبَادِرُونَ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِالِدَلَالِيلِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَيَسْطُوبُونَ إِلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴿قُلْ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ ﴿أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ: النَّارُ وَعَذَابُهَا وَتَكَالُهَا أَشَدُّ وَأَشَقُّ، وَأَظْمَ وَأَعْظَمُ، مِمَّا تَخَوَّفُونَ بِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ عَلَى صَنِيعِكُمْ هَذَا أَعْظَمُ مِمَّا تَتَّالُونَ مِنْهُمْ إِنْ نِلْتُمْ بِزَعْمِكُمْ وَإِرَادَتِكُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ: وَيَسُّ النَّارِ مَقِيلًا وَمَمْرَلًا وَمَرَجَعًا وَمَوْثَلًا وَمُقَامًا ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِيعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّلَابِ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا فَكَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ

عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

## [بَيَانُ حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَحَمَاقَةِ عَابِدِيهَا]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا عَلَى حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَسَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ﴾ أَيْ: لِمَا يَعْبُدُهُ الْجَاهِلُونَ بِاللَّهِ الْمُشْرِكُونَ بِهِ ﴿فَاستَجِيعُوا لَهُ﴾ أَيْ: أَنْصَبُوا وَتَفَهَّمُوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أَيْ: لَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ

الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عَلَى أَنْ يَقْدِرُوا عَلَى خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ مَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا قَالَ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ خَلَقَ [خَلَقًا] كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا مِثْلَ خَلْقِي ذَرَّةً أَوْ ذُبَابَةً أَوْ حَبَّةً»<sup>(١)</sup>. وَأَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ مِنْ طَرِيقِ عُمَارَةَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ﴾ أَيْ: هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ، بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ: عَاجِزُونَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ وَالْإِنْتِصَارِ مِنْهُ لَوْ سَلَبَهَا شَيْئًا مِنَ الَّذِي عَلَيْهَا مِنَ الطَّيِّبِ، ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ لَمَّا قَدَّرَتْ عَلَى ذَلِكَ، هَذَا وَالدُّبَابُ مِنْ أَوْسَعِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَأَحَقِّهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ضَعُفَ الطَّلَابِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «الطَّلَابُ الصَّغِيرُ، وَالْمَطْلُوبُ الذُّبَابُ»<sup>(٣)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَهُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: الطَّلَابُ الْعَابِدُ، وَالْمَطْلُوبُ الصَّغِيرُ<sup>(٤)</sup>. ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا فَكَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أَيْ: مَا عَرَفُوا قَدْرَ اللَّهِ وَعَظَمَتَهُ حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ هَذِهِ النَّبِيِّ لَا تَقَارِمُ الذُّبَابُ لِضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أَيْ: هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي يَقْدِرُهُ وَقُوَّتُهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿إِنْ بَطُلَ رَيْكَ لِشَيْءٍ﴾ إِنَّهُ هُوَ يَبْدَأُ وَيُعِيدُ [البروج: ١٢، ١٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أَيْ: قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَتَهَرَّهَ وَغَلَبَهُ، فَلَا يَمَانَعُ وَلَا يَغَالِبُ لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْكَ الْمَلَائِكَةُ رُسُلًا وَمِنْكَ النَّاسُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

## [اخْتِيَارُ اللَّهِ رُسُلًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَرُسُلًا

مِنَ النَّاسِ]

يُخَيِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَخْتَارُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا فِيمَا يَشَاءُ مِنْ

(١) أحمد: ٣٩١/٢ (٢) فتح الباري: ٥٣٧/١٣ ومسلم: ٣/ ١٦٧١ (٣) الطبري: ٦٨٥/١٨ (٤) البغوي: ٢٩٨/٣ عن الضحاك.

وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفَةِ السَّمْحَةِ»<sup>(٣)</sup>.  
وَقَالَ ﷺ لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى حِينَ بَعَثَهُمَا أَمِيرَيْنِ إِلَى  
الْيَمَنِ: «بَشْرًا وَلَا تُنْفَرَا، وَبَسْرًا وَلَا تُعَسِّرَا»<sup>(٤)</sup>.  
وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:  
«وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» يَعْنِي مِنْ ضَيْقٍ<sup>(٥)</sup>.  
وَقَوْلُهُ: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: نَصَبَ  
عَلَى تَقْدِيرِ «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» أَيُّ: مِنْ  
ضَيْقٍ بَلٍّ وَسَعَهُ عَلَيْكُمْ كَمِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: وَيَحْتَمِلُ  
أَنَّهُ مَنصُوبٌ عَلَى تَقْدِيرِ: الزُّمُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ<sup>(٦)</sup>.  
(قُلْتُ): وَهَذَا الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَقَوْلِهِ: «قُلْ إِنِّي

هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا»...  
الْآيَةِ [الأنعام: ١٦١]، وَقَوْلُهُ: «هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ  
قَبْلُ وَفِي هَذَا» قَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ ابْنِ  
جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «هُوَ سَمَنُكُمُ  
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» قَالَ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ  
مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ  
وَقَتَادَةُ<sup>(٨)</sup>.

قَالَ مُجَاهِدٌ: اللَّهُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ فِي الْكُتُبِ  
الْمُتَقَدِّمَةِ وَفِي الذِّكْرِ، «وَفِي هَذَا» يَعْنِي الْقُرْآنَ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا  
قَالَ غَيْرُهُ. لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: «هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ  
فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» ثُمَّ حَثَّهُمْ وَأَغْرَاهُمْ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ  
الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، بِأَنَّهُ مِلَّةُ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ  
الْخَلِيلِ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأَمَّةِ بِمَا نَوَّهَ بِهِ مِنْ  
ذِكْرِهَا وَالتَّنَائِي عَلَيْهَا فِي سَائِلِفِ الدَّهْرِ وَقَلْدِيمِ الزَّمَانِ فِي  
كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ يُثْنَى عَلَى الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، فَقَالَ: «هُوَ  
سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» أَيُّ: مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ «وَفِي  
هَذَا» وَقَدْ قَالَ السَّائِي عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: عَنْ الْحَارِثِ  
الْأَشْعَرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا بِدَعْوَى  
الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ مِنْ جُنَا جَهَنَّمَ» قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ  
اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى،  
فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللَّهِ الَّتِي دَعَاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمُونَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ

شَرِّهِ وَقَدَرِهِ، وَمِنْ النَّاسِ لِلْبَلَاغِ رِسَالَتِي» [إِنِ اللَّهُ سَمِعَ  
بَصِيرٌ] أَيُّ: سَمِعَ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، بَصِيرٌ بِهِمْ، عَلَيْهِمْ بِمَنْ  
يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ  
رِسَالَتَهُ» [الأنعام: ١٢٤] وَقَوْلُهُ: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا  
خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» أَيُّ: يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُ بِرُسُلِهِ  
فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ، كَمَا  
قَالَ: «عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا» [الجن: ٢٦]  
إِلَى قَوْلِهِ «وَأَخَصَّنِي كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» فَهُوَ شَبَّانُهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ،  
شَهِيدٌ عَلَى مَا يُقَالُ لَهُمْ، حَافِظٌ لَهُمْ، نَاصِرٌ لِحُجَّتِهِمْ «يَتَأْتِيهَا  
الرَّسُولُ بِلِقَاءِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغَتْ  
رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»... الْآيَةِ [المائدة: ٦٧].  
«يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ  
وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ﴿٧٧﴾ وَجَهْدُوا فِي اللَّهِ  
حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ  
مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا  
لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا  
الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فِئَعَمُ الْمَوْلَى  
وَيَعْرِ الْأَنْصِيرُ ﴿٧٨﴾

### [الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ وَالْجِهَادِ]

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «فُضِّلَتْ سُورَةُ الْحَجِّ  
بِسَجْدَتَيْنِ، فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يَقْرَأَهُمَا»<sup>(١)</sup>. قَوْلُهُ:  
«وَجَهْدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» أَيُّ: بِأَمْوَالِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ  
وَأَنْفُسِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِلِهِ» [آل  
عمران: ١٠٢]. وَقَوْلُهُ: «هُوَ أَحَبُّكُمْ» أَيُّ: يَا هَذِهِ الْأُمَّةُ،  
اللَّهُ اضْطَفَّاكُمْ وَاخْتَارَكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَفَضَّلَكُمْ  
وَشَرَّفَكُمْ وَخَصَّكُمْ بِأَكْرَمِ رَسُولٍ وَأَكْمَلِ شَرْعٍ «وَمَا جَعَلَ  
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» أَيُّ: مَا كَلَّفَكُمْ مَا لَا تُطِيقُونَ، وَمَا  
أَلَزَمَكُمْ بِشَيْءٍ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا  
وَمَخْرَجًا، فَالصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ  
الشَّهَادَتَيْنِ تَجِبُ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ تَقْصُرُ إِلَى  
اثْنَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ يُصَلِّيَهَا بَعْضُ الْأَيَّامَةِ رَكْعَةً، كَمَا وَرَدَ  
بِهِ الْحَدِيثُ<sup>(٢)</sup>. وَتُصَلَّى رَجُلًا وَرَجُلَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ  
وَعَبْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا، وَكَذَا فِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ إِلَى الْقِبْلَةِ  
وَعَبْرَهَا، وَالْقِيَامُ فِيهَا يَسْقُطُ لِعُذْرِ الْمَرَضِ، فَيُصَلِّيَهَا  
الْمَرِيضُ جَالِسًا، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ  
مِنْ الرُّخْصِ وَالتَّخْفِيفَاتِ فِي سَائِرِ الْفَرَائِضِ وَالْوُاجِبَاتِ،

(١) الحاكم: ٢٢١/١ (٢) أبو داود: ٣٨/٢ (٣) أحمد: ٥/٢٦٦  
(٤) فتح الباري: ٦٥٧/٧ (٥) الطبري: ٦٨٩/١٨ (٦)  
الطبري: ٦٩١/١٨ (٧) الطبري: ٦٩١/١٨ (٨) الطبري:  
١٠١/١٢ (٩) القرطبي: ٦٩٢، ٦٩١/١٨

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

٣٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾  
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ  
فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ خَفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى  
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾  
فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ  
لَأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ  
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ  
الْأَرْضَ دُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ  
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْطَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ  
خَلَقْنَا النُّفُثَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا  
الْمُضْغَةَ عِظًا لَمَّا فَكَّسْنَا الْعِظَ لَمَّا فَرَّغْنَا عَنْ بَنَائِهِ خَلَقًا  
آخِرًا فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ  
لَمَسِيُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ  
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِلِينَ ﴿١٧﴾

أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «خَاشِعُونَ» خَائِفُونَ سَاكِنُونَ <sup>(٢)</sup>.  
وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالزُّهْرِيِّ <sup>(٣)</sup>. وَعَنْ  
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْخُشُوعُ خُشُوعُ  
الْقَلْبِ <sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ <sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ  
الْبَصْرِيُّ: كَانَ خُشُوعُهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ، فَغَضُّوا بِذَلِكَ  
أَبْصَارَهُمْ وَخَفَضُوا الْجَنَاحَ. وَالْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ إِنَّمَا  
يَحْضُلُ لِمَنْ فَرَّغَ قَلْبُهُ لَهَا وَاشْتَغَلَ بِهَا عَمَّا عَدَاهَا وَآثَرَهَا  
عَلَى غَيْرِهَا، وَجَبِيذٌ تَكُونُ رَاحَةً لَهُ وَقُرَّةٌ عَيْنٍ، كَمَا قَالَ  
النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ  
عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «حُبَّ إِلَيَّ الطَّيِّبُ  
وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» <sup>(٦)</sup>.  
وَقَوْلُهُ: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» أَيُّ: عَنِ

اللَّهُ <sup>(١)</sup>. قَوْلُهُ: «إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» أَيُّ: قَوْلُهُ: «إِنَّمَا جَعَلْنَاكُمْ هَكَذَا أُمَّةً وَسَطًا عُدُولًا  
خِيَارًا مَشْهُودًا بَعْدَ لَيْتِكُمْ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ، لِتَكُونُوا يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ «شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» لِأَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ مُعْتَرِفَةٌ يَوْمَئِذٍ  
بِسَيَادَتِهَا وَفَضْلِهَا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ سِوَاهَا، فَلِهَذَا تُقْبَلُ  
شَهَادَتُهُمْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغْتُهُمْ رَسُولًا  
رَبِّهِمْ، وَالرُّسُلُ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّهُ بَلَّغَهَا ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: «فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» أَيُّ: قَابِلُوا هَذِهِ  
النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ بِالْقِيَامِ بِشُكْرِهَا فَأَدُّوا حَقَّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي  
أَدَاءِ مَا افْتَرَضَ وَطَاعَةِ مَا أَوْجَبَ وَتَرْكِ مَا حَرَّمَ، وَمِنْ أَمَمٍ  
ذَلِكَ إِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِتْيَانُ الزَّكَاةِ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِ  
اللَّهُ بِمَا أَوْجَبَ لِلْفَقِيرِ عَلَى الْغَنِيِّ مِنْ إِخْرَاجِ جُزْءٍ نَزَرٍ مِنْ  
مَالِهِ فِي السَّنَةِ لِلضُّعَفَاءِ وَالْمَحَاوِجِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ  
وَتَفْصِيلُهُ فِي آيَةِ الزَّكَاةِ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ. وَقَوْلُهُ: «وَاعْتَصِمُوا  
بِاللَّهِ» أَيُّ: اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ وَاسْتَعِينُوا بِهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ  
وَتَأَيَّدُوا بِهِ «هُوَ مَوْلَاكُمْ» أَيُّ: حَافِظُكُمْ وَنَاصِرُكُمْ  
وَمُظَفِّرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ «فَنِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ» يَعْنِي  
نِعَمَ الْوَلِيِّ وَنِعَمَ النَّاصِرِ مِنَ الْأَعْدَاءِ.

وَهَذَا آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجِّ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا  
مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ. وَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى  
عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ  
هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ  
هُمْ لِفُرُوحِهِمْ خَفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ  
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ  
الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ  
عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ  
يَرِثُونَ الْأَرْضَ دُونَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

[الْفَلَاحُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَذِكْرُ صِفَاتِهِمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» أَيُّ: قَدْ فَازُوا  
وَسَعَدُوا وَحَصَلُوا عَلَى الْفَلَاحِ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَصِفُونَ  
بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ

(١) النسائي في الكبرى: ٤١٢/٦ وأحمد ١٣٠/٤ (٢) الطبري:

٩/١٩ (٣) الطبري: ٩٠٨/١٩ (٤) الطبري: ٩/١٩ (٥)

الطبري: ٩/١٩ (٦) أحمد: ١٩٩/٣ والنسائي: ٦٢، ٦١/٧

الصَّحِيحِينَ<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: عَلَى مَوَاقِيَّتِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ افْتَتَحَ اللَّهُ ذِكْرَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ بِالصَّلَاةِ وَاخْتَمَمَهَا بِالصَّلَاةِ فَدَلَّ عَلَى أَفْضَلِيَّتِهَا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ تَحْضُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمْ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»<sup>(٥)</sup>. وَلَمَّا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِالْقِيَامِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ وَالْأَفْعَالِ الرَّشِيدَةِ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾<sup>(٦)</sup> الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَنْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِنْ مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾»<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ اللَّيْثِ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ يَرِثُونَ مَنَازِلَ الْكُفَّارِ لِأَنَّهُمْ خُلِقُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَمَّا قَامَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا وَجِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَتَرَكَ أُولَئِكَ مَا أُمِرُوا بِهِ مِمَّا خُلِقُوا لَهُ، أَحْرَزَ هَؤُلَاءِ نَصِيبَ أُولَئِكَ، لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ بَلْ أَبْلَغَ مِنْ هَذَا أَيْضًا، وَهُوَ مَا تَبَّتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى»<sup>(٩)</sup>. وَفِي لَفْظٍ لَهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيُقَالُ: هَذَا فِكَائِكَ مِنَ النَّارِ، فَاسْتَخْلَفَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَبَا بُرْدَةَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ قَالَ: فَحَلَفَ لَهُ<sup>(١٠)</sup>. قُلْتُ: وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ

الْبَاطِلِ، وَهُوَ يَشْمَلُ الشُّرَكَ وَالْمَعَاصِي، وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] قَالَ قَتَادَةُ: أَنَاهُمْ وَاللَّهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا وَقَدَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ<sup>(١١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكُوعِ قَانِعُونَ﴾ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالرَّكَاةِ هَهُنَا: زَكَاةُ الْأَمْوَالِ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَإِنَّمَا فُرِضَتِ الزَّكَاةُ بِالْمَدِينَةِ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فُرِضَتْ بِالْمَدِينَةِ إِنَّمَا هِيَ ذَاتُ النَّصَبِ وَالْمَقَادِيرِ الْخَاصَّةِ، وَإِلَّا فَالظَّاهِرُ أَنَّ أَصْلَ الزَّكَاةِ كَانَ وَاجِبًا بِمَكَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ: ﴿وَعَاثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنَّ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالرَّكَاةِ هَهُنَا زَكَاةُ النَّفْسِ مِنَ الشُّرَكَ وَالنَّسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهُ﴾<sup>(١٢)</sup> وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهُ. وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنَّ يَكُونَ كِلَا الْأَمْرَيْنِ مُرَادًا، وَهُوَ زَكَاةُ النَّفْسِ وَزَكَاةُ الْأَمْوَالِ، فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ زَكَاةِ النَّفْسِ، وَالْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي [يَتَعَاطَى] هَذَا وَهَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾<sup>(١٣)</sup> إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ<sup>(١٤)</sup> فَمَنْ أَتَبَعَى وَكَذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ<sup>(١٥)</sup> أَيُّ: وَالَّذِينَ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ فَلَا يَتَعَمَّوْنَ فِيمَا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ زِنَا وَلِوَاطِ، لَا يَقْرُبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُمْ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِيِّ، وَمَنْ تَعَاطَى مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾<sup>(١٦)</sup> فَمَنْ أَتَبَعَى وَكَذَلِكَ أَيُّ: غَيْرَ الْأَزْوَاجِ وَالْإِمَاءِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أَيُّ: الْمُعْتَدُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَصَاهِدِهِمْ رَعُونَ﴾ أَيُّ: إِذَا أَوْثِقُوا لَمْ يَخُونُوا بَلْ يُؤَدُّونَهَا إِلَى أَهْلِهَا، وَإِذَا عَاهَدُوا أَوْ عَاقَدُوا أَوْفُوا بِذَلِكَ لَا كَصِفَاتِ الْمُتَافِقِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آيَةُ الْمُتَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَوْثِقَ خَانَ»<sup>(١٧)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَيُّ: يُوَظِّفُونَ عَلَيْهَا فِي مَوَاقِيَّتِهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الْصَّلَاةُ عَلَى وَفْقِهَا». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرِّ الْوَالِدَيْنِ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أَخْرَجَاهُ فِي

(١) الزهد لابن المبارك: ٥٥ (٢) فتح الباري: ١٠/٥٢٢ (٣) فتح الباري: ١٠/٤١٤ ومسلم: ٨٩/١ (٤) الدر المنثور: ٦/٨٩ (٥) ابن ماجه: ١٠١/٢ (٦) فتح الباري: ١٣/٤١٥ (٧) ابن ماجه: ٢/١٤٥٣ (٨) مسلم: ٤/٢١٢٠ (٩) مسلم: ٤/٢١١٩

عِبَادَنَا مَنْ كَانَ نَفِيًّا ﴿٦٣﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَتِلْكَ أَلْفَتَةُ الَّتِي أَوْرَثْنَاهُمَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿٦١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٦٦﴾﴾

[آية الله في تطوُّر خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنَ التُّرَابِ ثُمَّ مِنَ

النُّطْفَةِ إِلَى مَا بَعْدَهَا]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّمَا سُمِّيَ آدَمُ طِينًا لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتُلَّ آدَمُ مِنَ الطِّينِ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى وَأَقْرَبُ إِلَى السِّيَاقِ، فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِقَ مِنْ طِينٍ لَارِبٍ، وَهُوَ الصَّلْصَالُ مِنَ الْحَمَلِ الْمَسْنُونِ، وَذَلِكَ مَخْلُوقٌ مِنَ التُّرَابِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قُبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»<sup>(٣)</sup> وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ نَحْوَهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى جِنْسِ الْإِنْسَانِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٦١﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٦٢﴾﴾ [السجدة: ٨، ٧].

أَيُّ: ضَعِيفٌ، كَمَا قَالَ: «أَلَّا تَخْلُقُكَ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٦٢﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ» يَعْنِي الرَّحِمُ مُعَدٌّ لِذَلِكَ مَهِيًّا لَهُ ﴿إِنَّ قَدَرٌ مَعْلُومٌ ﴿٦٣﴾ فَقَدْ رَأَيْنَا الْفَلْدِينَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

أَيُّ: مُدَّةٌ مَعْلُومَةٌ وَأَجَلٌ مُعَيَّنٌ، حَتَّى اسْتَحْكَمَ وَتَنَقَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَصِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أَيُّ: ثُمَّ صَيَّرْنَا النُّطْفَةَ، وَهِيَ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ وَهُوَ ظَهْرُهُ، وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ وَهِيَ عِظَامُ صَدْرِهَا مَا بَيْنَ التَّرْقُوعَةِ إِلَى الثُّدُوعِ، فَصَارَتْ عَلَقَةً حَمْرَاءَ عَلَى شَكْلِ الْعَلَقَةِ مُسْتَطِيلَةً. قَالَ عِكْرَمَةُ: وَهِيَ دَمٌ ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وَهِيَ قِطْعَةٌ كَالْبَضْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَحْطِيطٌ ﴿فَخَلَقْنَا

الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ يَعْنِي شَكْلَنَا هَذِهِ ذَاتَ رَأْسٍ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ بِعِظَامِهَا وَعَصَبِهَا وَعُرْوَقِهَا.

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ أَيُّ: وَجَعَلْنَا عَلَى ذَلِكَ مَا يَسْتُرُهُ وَيَشُدُّهُ وَيُؤَيِّدُهُ ﴿ثُمَّ أُنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أَيُّ: ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ فَتَحَرَّكَ وَصَارَ خَلْقًا آخَرَ ذَا سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَإِدْرَاكٍ وَحَرَكَةٍ وَاضْطِرَابٍ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثُمَّ أُنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يَعْنِي نَفْلَهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ إِلَى أَنْ خَرَجَ طِفْلًا ثُمَّ نَسَاءً صَغِيرًا، ثُمَّ اخْتَلَمَ ثُمَّ صَارَ شَابًا، ثُمَّ كَهْلًا ثُمَّ شَيْخًا ثُمَّ هَرِمًا<sup>(٥)</sup>. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»<sup>(٦)</sup>. أَخْرَجَاهُ<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يَعْنِي حِينَ ذَكَرَ قُدْرَتَهُ وَلُطْفَهُ فِي خَلْقِ هَذِهِ النُّطْفَةِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَشَكْلِهَا إِلَى شَكْلِهَا حَتَّى تَصَوَّرَتْ إِلَى مَا صَارَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْسَانِ السَّوِيِّ الْكَامِلِ الْخَلْقِيِّ، قَالَ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يَعْنِي بَعْدَ هَذِهِ النِّشَاءَةِ الْأُولَى مِنَ الْعَدَمِ تَصِيرُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَبْعَثُونَ﴾ يَعْنِي النِّشَاءَةَ الْآخِرَةَ ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْمَعَادِ، وَيَقَامُ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ، فَيَحَاسِبُ الْخَلَائِقَ، وَيُؤَفِّي كُلَّ غَامِلٍ عَمَلَهُ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ

(١) الطبري: ١٥/١٩ (٢) الطبري: ١٤/١٩ (٣) أحمد: ٤/

٤٠٠ (٤) أبو داود: ٦٧/٥ وتحفة الأحوذ: ٢٩٠/٨ (٥)

الطبري: ١٨/١٩ العوفي معروف بالضعف (٦) أحمد: ١/

٣٨٢ (٧) فتح الباري: ٤١٨/٦ ومسلم: ٢٠٣٦/٤

غَفِيلِينَ ﴿١٧﴾

[أَيُّهُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ الْإِنْسَانِ، عَطَفَ بِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ السَّعَى، وَكَثِيرًا مَا يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَعَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥٧] وَهَكَذَا فِي أَوَّلِ آيَةِ السَّجْدَةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا صَبِيحَةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ. فِي أَوَّلِهَا: خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ يَبْدَأُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، وَفِيهَا أَمْرُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَغْنِي السَّمَوَاتِ السَّبْعَ <sup>(١)</sup>. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُسِجَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ﴾ أَيُّ: وَنَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَتَيْنَاكُمْ كَثْمٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَهُوَ شَبَّاحُهُ لَا يَحْجُبُ عَنْهُ سَمَاءُ سَمَاءٍ وَلَا أَرْضُ أَرْضًا، وَلَا جَبَلٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي وَغَرِهِ، وَلَا بَحْرٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي قَعْرِهِ، يَعْلَمُ عَدَدَ مَا فِي الْجِبَالِ وَالتَّلَالِ وَالرَّمَالِ وَالْبَحَارِ وَالْقَفَارِ وَالْأَشْجَارِ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ طَلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقْدَرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغَ لِلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرَ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٢٢﴾

[آيَاتُهُ فِي الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْعَامِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عِبِيدِهِ الَّتِي لَا تَعُدُّ وَلَا تُحْصَى فِي أَنْزَالِهِ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ﴿بِقَدَرٍ﴾ أَيُّ: بِحَسَبِ الْحَاجَةِ لَا كَثِيرًا فَيَفْسِدُ الْأَرْضُ وَالْعُمَرَانُ، وَلَا قَلِيلًا فَلَا يَكْفِي الزَّرُوعَ وَالثَّمَارَ، بَلْ بِقَدَرٍ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنَ السَّقْيِ وَالشَّرْبِ

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

٣٤٣

الْمُؤْمِنُونَ

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقْدَرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغَ لِلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرَ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوُّوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا آبَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ فِيهِ جَنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفَالِكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا لَهُ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَئِزٍّ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

وَالْإِنْتِفَاعَ بِهِ، حَتَّى إِنْ الْأَرْضِي الَّتِي تَحْتَاجُ مَاءً كَثِيرًا لِرِزْقِهَا وَلَا تَحْتَمِلُ دُمُتُهَا أَنْزَالَ الْمَطَرِ عَلَيْهَا، يَسُوقُ إِلَيْهَا الْمَاءَ مِنْ بِلَادٍ أُخْرَى كَمَا فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَيُقَالُ لَهَا: الْأَرْضُ الْجُرُزُ، يَسُوقُ اللَّهُ إِلَيْهَا مَاءَ النَّيْلِ مَعَهُ طِينٌ أَحْمَرُ، يَجْتَرِفُهُ مِنْ بِلَادٍ الْحَشَةِ فِي زَمَانٍ أَمْطَارِهَا، فَيَأْتِي الْمَاءُ يَحْمِلُ طِينًا أَحْمَرَ فَيَسْقِي أَرْضَ مِصْرَ، وَيَقَرُّ الطِّينُ عَلَى أَرْضِهِمْ لِيَزْدَرِعُوا فِيهِ، لِأَنَّ أَرْضَهُمْ سَبَاحٌ يَغْلُبُ عَلَيْهَا الرَّمَالُ فَسُبْحَانُ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ الرَّحِيمِ الْغَفُورِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: جَعَلْنَا الْمَاءَ إِذَا نَزَلَ مِنَ السَّحَابِ يَخْلُدُ فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ قَابِلِيَّةً لَهُ تَشْرِبُهُ وَيَتَغَدَّى بِهِ مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقْدَرُونَ﴾ أَيُّ: لَوْ شِئْنَا أَنْ لَا تُمَطَّرَ لَفَعَلْنَا. وَلَوْ شِئْنَا لَصَرَفْنَاهُ عَنْكُمْ إِلَى السَّيَاخِ وَالْبَرَارِيِّ وَالْقِفَارِ لَفَعَلْنَا. وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ أَجَا جَا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ لِشَرْبِ



تَحْمَلُونَ ﴿٧﴾ [النحل: ٧] يَذْكُرُ تَعَالَى مَا جَعَلَ لِيَخْلُقَهُ فِي الْإِنْعَامِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا الْخَارِجَةِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ لَحْمَانِهَا وَيَلْبَسُونَ مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا، وَيَرْكَبُونَ ظُهُورَهَا، وَيَحْمِلُونَهَا الْأَحْمَالُ الثَّقَالِ إِلَى الْبِلَادِ الثَّانِيَةِ عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْمِلُ أَوْتَاقُكُمُ إِلَى بِلَادٍ أُمَرَأَتُهَا بِأَيْدِيكُمْ لَا يَمْسِكُهُنَّ الْمَسْكِ إِلَّا إِسْجُوتُ الْأَنْفُسِ إِيَّائِكُمْ لِذَٰلِكَ تُحِبُّونَ﴾ [النحل: ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلَاتٍ لَّا يَبْغِي بَيْنَهُمْ لَهَا فَتًى فَهُمْ عَلَىٰ مَلَكُوتٍ مُّبِينٍ﴾ [النحل: ٧] وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٨﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِنَنٌ وَشَارِبٌ أَوْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ [يس: ٧١-٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مَآ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٠﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعَىٰ جِنَّةً فَنَرِيصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٢﴾

[قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُ إِلَىٰ قَوْمِهِ لِيُنذِرَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَبَأْسُ الشَّدِيدِ، وَانْتِقَامَهُ مِنْ أَسْرَكَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ﴿فَقَالَ يَتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٠﴾ أَيْ: أَلَا تَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ فِي إِشْرَاكِكُمْ بِهِ؟ فَقَالَ الْمَلَأُ وَهُمْ السَّادَةُ وَالْأَكَابِرُ مِنْهُمْ ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْثُونَ: يَتَرَفَّعُ عَلَيْكُمْ، وَيَتَعَاطَمُ بِدَعْوَى التَّبَوُّةِ، وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، فَكَيْفَ أَوْحِي إِلَيْهِ دُونَكُمْ؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ ﴿١١﴾ أَيْ: لَوْ أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ نَبِيًّا لَبَعَثَ مَلَكَ مِنْ عِنْدِهِ وَلَمْ يَكُنْ بَشَرًا ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾، أَيْ: يَبْعَثُ الْبَشَرَ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ، يَعْثُونَ بِهَٰذَا أَشْلَافَهُمْ وَأَجْدَادَهُمْ فِي الدُّهُورِ الْمَاضِيَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعَىٰ جِنَّةً﴾ أَيْ: مَخْجُونٌ فِيمَا يَزْعُمُهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ وَاخْتَصَّه مِنْ بَيْنِكُمْ بِالْوَحْيِ ﴿فَنَرِيصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أَيْ: اسْتَظَرُّوا بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ، وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ مُدَّةً حَتَّى تَسْتَرْيَحُوا مِنْهُ.

﴿قَالَ رَبِّ اصْرِفْ مِنِّي كَذِبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا فَكَارِ التَّنُورِ فَاسْلُكْ

وَلَا يَسْقِي لَفَعَلْنَا. وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ لَا يَنْزِلُ فِي الْأَرْضِ بَلْ يَنْجَرُ عَلَىٰ وَجْهِهَا لَفَعَلْنَا. وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ، إِذَا نَزَلَ فِيهَا، يَغُورُ إِلَىٰ مَدَى لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِ وَلَا تَتَّقُونَ بِهِ لَفَعَلْنَا. وَلَكِنْ يُلْطِفُهُ وَرَحْمَتِهِ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ الْمَاءَ مِنَ السَّحَابِ عَذْبًا فُرَاتًا زَلَالًا، فَيَسْكِنُهُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْلُكُهُ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ، فَيَفْتَحُ الْعُيُونُ وَالْأَنْهَارَ، وَيَسْقِي بِهِ الزَّرْعَ وَالشَّارَ، وَتَشْرَبُونَ مِنْهُ وَدَوَابُّكُمْ وَأَنْعَامُكُمْ، وَتَغْتَسِلُونَ مِنْهُ وَتَنْتَهَرُونَ وَتَنْتَهَلُونَ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يَعْنِي فَأَخْرَجْنَا لَكُمْ بِمَا أُنْزِلْنَا مِنَ السَّمَاءِ جَنَّاتٍ أَيْ: بَسَاتِينِ وَحَدَائِقٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ أَيْ: ذَاتَ مَنْظَرٍ حَسَنِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مِن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أَيْ: فِيهَا نَجِيلٌ وَأَعْنَابٌ، وَهَٰذَا مَا كَانَ يَأْلِفُ أَهْلُ الْحِجَازِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الشَّيْءِ وَبَيْنَ نَظِيرِهِ، وَكَذَٰلِكَ فِي حَقِّ كُلِّ أَهْلٍ إِقْلِيمٍ عِنْدَهُمْ مِنَ الثَّمَارِ مِنْ رَغْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، مَا يَعْجَزُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوْكٌ كَثِيرٌ﴾ أَيْ: مِنْ جَمِيعِ الثَّمَارِ، كَمَا قَالَ: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّجِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كَأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى شَيْءٍ مُّقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ، تَنْظُرُونَ إِلَى حُسْنِهِ وَنَضِجِهِ وَمِنْهُ تَأْكُلُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يَعْنِي الزَّيْتُونَ، وَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا يُسَمَّى طُورًا إِذَا كَانَ فِيهِ شَجَرٌ، فَإِنْ غُرِيَ عَنْهَا سُمِّيَ جَبَلًا لَا طُورًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَطُورُ سَيْنَاءَ هُوَ طُورُ سَيْنِينَ، وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا حَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي فِيهَا شَجَرُ الزَّيْتُونِ. وَقَوْلُهُ: ﴿تُنْبِتُ بِالذَّهْنِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ، وَتَقْدِيرُهُ تُنْبِتُ الذَّهْنَ كَمَا فِي قَوْلِ الْعَرَبِ: أَلْقَى فُلَانٌ بِيَدِهِ، أَيْ: يَدَهُ، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَضْمُنُ الْفِعْلَ، فَتَقْدِيرُهُ تَخْرُجُ بِالذَّهْنِ أَوْ تَأْتِي بِالذَّهْنِ، وَلِهَٰذَا قَالَ: ﴿وَصَنِيعٌ﴾ أَيْ: أَدَمٌ. قَالَه فِتَادَةُ<sup>(١)</sup>. ﴿لِّلَّذِينَ﴾ أَيْ: فِيهَا مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنَ الذَّهْنِ وَالْإِصْطِبَاحِ.

وَرَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي مُسْنَدِهِ وَتَفْسِيرِهِ عَنْ عَمْرِو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اسْتَبْدِمُوا بِالزَّيْتِ وَأَدْهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةِ مَبَارَكَةٍ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلَاكِ

(١) الدر المنثور: ٩٥/٦ (٢) المنتخب لعبد بن حميد: ١٣

والترمذي: ١٨٥١ وابن ماجه: ٣٣١٩

سورة المؤمنون

سورة المؤمنون

٣٤٤

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّشَنَا  
 مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ  
 الْمُنزِلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا  
 مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ عِبُدُوا  
 اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَتَوْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا  
 تَشْرَبُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٤٤﴾  
 أَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ رُتَابًا وَعِظْنَا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٤٥﴾  
 هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا توعَدُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكَايُنَا  
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ  
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبِّ  
 انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٥٠﴾  
 فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِشَاءَ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ  
 الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٥٢﴾

عَبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَتَوْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا  
 إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٤٣﴾  
 وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٤٤﴾ أَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا  
 مِتُمْ وَكُنْتُمْ رُتَابًا وَعِظْنَا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٤٥﴾ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا  
 توعَدُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكَايُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ  
 بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ  
 بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ  
 لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٥٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِشَاءَ  
 فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

[قِصَّةُ عَادٍ أَوْ ثَمُودَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ قُرُونًا آخَرِينَ، قِيلَ:  
 الْمُرَادُ بِهِمْ عَادٌ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَخْلَفِينَ بَعْدَهُمْ، وَقِيلَ:  
 الْمُرَادُ بِهِؤُلَاءِ ثَمُودُ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾  
 وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ  
 اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَأَبَوْا مِنْ اتِّبَاعِهِ

فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ  
 مِنْهُمْ وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِذَا  
 اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّشَنَا مِنَ الْقَوْمِ  
 الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ  
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ دَعَا رَبَّهُ لِيَسْتَنْصِرَهُ  
 عَلَى قَوْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى:  
 ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانصُرْ﴾ [القمr: ١٠] وَقَالَ هُنَا:  
 ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِصُنْعَةِ  
 السَّفِينَةِ وَإِحْكَامِهَا وَإِقْنَانِهَا، وَأَنْ يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ  
 زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، أَيْ: ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ كُلِّ صَنْفٍ مِنَ  
 الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتَاتِ وَالشَّجَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَنْ يَحْمِلَ فِيهَا  
 أَهْلَهُ ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ  
 الْقَوْلُ مِنَ اللَّهِ بِالْهَلَاكِ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهِ  
 كَانِبِهِ وَزَوْجَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أَيْ:  
 عِنْدَ مُعَابَاةِ إِزْثَالِ الْمَطَرِ الْعَظِيمِ لَا تَأْخُذُكَ رَافَةُ بِقَوْمِكَ  
 وَشَفَقَةُ عَلَيْهِمْ، وَطَمَعٌ فِي تَأْخِيرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ، فَإِنِّي قَدْ  
 قَضَيْتُ أَنَّهُمْ مُعْرِضُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ،  
 وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ هُودٍ بِمَا يُغْنِي عَنْ  
 إِعَادَةِ ذَلِكَ هُنَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى  
 الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّشَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كَمَا قَالَ:  
 ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ  
 ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي  
 سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَمْ مُقْرِنِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا لَمُغْلِبُونَ ﴿٣٩﴾  
 [الزخرف: ١٢-١٤] وَقَدْ امْتَثَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا، كَمَا  
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُزْنُهَا﴾  
 [هود: ٤١] فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ابْتِدَاءِ سَيْرِهِ وَعِنْدَ انْتِهَائِهِ،  
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أَيْ: إِنَّ فِي هَذَا الصَّنِيعِ وَهُوَ  
 إِنْجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِهْلَاكُ الْكَافِرِينَ لآيَاتٍ أَيْ: لِحُجَجًا  
 وَدَلَالَاتٍ وَاضِحَاتٍ عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنْ  
 اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ تَعَالَى فَاعِلٌ لِمَا يَشَاءُ وَقَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
 عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أَيْ:  
 لِمُخْتَبَرِينَ لِلْعِبَادَةِ بِإِزْسَالِ الْمُرْسَلِينَ.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيَكُونَنَّ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، وَاسْتَنْكَفُوا عَنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ بَشَرٍ،  
وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الْيَقِيَمَةِ وَأَنْكَرُوا الْمَعَادَ الْجَنَانِيَّ  
وَقَالُوا: ﴿أَعِدُّكُمْ أَكْثَرُ إِنَّا وَشَمُوكُمْ ذُرِّيًّا وَعِظْلًا أَنْكُمْ  
تُخْرَجُونَ﴾ (٢٥) هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعِدُونَ أَي: بعيد بعيد ذلك  
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أَي: فيما جاءكم به  
مِنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ، وَالْإِخْبَارِ بِالْمَعَادِ ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُمْ  
بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٦) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ أَي: اسْتَفْتَحْ  
عَلَيْهِمُ الرُّسُولَ وَاسْتَنْصِرْ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأَجَابَ دُعَاءَهُ ﴿قَالَ  
عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْحَبَنَّ نَدِيمٌ﴾ أَي: بِمُخَالَفَتِكَ وَعِنَادِكَ فِيمَا  
جِئْتَهُمْ بِهِ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أَي: وَكَانُوا يَسْتَحِقُّونَ  
ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ  
صَيْحَةٌ مَعَ الرِّيحِ الصَّرَصِرِ الْعَاصِفِ الْقَوِيِّ الْبَارِدَةِ ﴿تُذَمِّرُ  
كُلَّ شَيْءٍ يَأْتِرُ رَبِّهَا فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنَهُمْ﴾  
[الاحقاف: ٢٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً﴾ أَي: صَرَعَى  
هَلَكَى كُفَّاءَ السَّيْلِ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْحَقِيرُ النَّافِةُ الْهَالِكُ  
الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كَقَوْلِهِ:  
﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أَي:  
بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، فَلْيَحْذَرِ السَّامِعُونَ  
أَنْ يَكْذِبُوا رَسُولَهُمْ.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (٢٧) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا  
وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ (٢٨) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا  
كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا  
يُؤْمِنُونَ (٢٩)

## [ذِكْرُ الْأُمَمِ الْأُخْرَى]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أَي:  
أُمَّمًا وَخَلَائِقَ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِرُونَ﴾ يَعْنِي  
بَلْ يُؤْخَذُونَ عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَ لَهُمْ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ  
الْمَحْضُوطِ، وَعَلَيْهِ قَبْلَ كَوْنِهِمْ أُمَّةٌ بَعْدَ أُمَّةٍ، وَقُرْنَا بَعْدَ  
قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَخَلَقْنَا بَعْدَ سَلَفٍ، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا  
تَتْرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا<sup>(١)</sup>. وَهَذَا  
كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ أَعْبُدُوا  
اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الزَّلَّاتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ  
عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا  
كَذَّبُوهُ﴾ يَعْنِي جُمْهُورُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿يَحْزَنُوا عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أَي:

أَهْلَكْنَاهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾  
[الاسراء: ١٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أَي: أَخْبَارًا  
وَأَحَادِيثَ لِلنَّاسِ كَقَوْلِهِ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْقَمَةً كُلِّ  
مُعَرِّفٍ﴾ [سباء: ١٩].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠) إِلَى  
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٣١) فَقَالُوا أَنْتَوْنِ  
بَشَرَيْنِ مِثْلَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدَدُونَ (٣٢) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ  
الْمُهْلَكِينَ (٣٣) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣٤)  
[قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخَاهُ  
هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الدَّامِغَاتِ  
وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ اسْتَكْبَرُوا عَنْ  
اتِّبَاعِهِمَا وَالْإِقْبَادِ لِأَمْرِهِمَا لِكُفْرِهِمَا بِبَشَرَيْنِ، كَمَا أَنْكَرَتِ  
الْأُمَّمُ الْمَاضِيَةُ بِغَتَّةِ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ، تَسَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ

وَأَقْرَبَ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْعُوفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَوَيْتَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَالَ: الْمَعِينُ: الْمَاءُ الْجَارِي، وَهُوَ النَّهْرُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبِّي خَتَمَكَ سِرِّيًّا﴾ [مريم: ٢٤] وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ هُوَ بَيْتُ الْمَقْدَسِ، فَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هُوَ الْأَظْهَرُ، لِأَنَّهُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَالْقُرْآنُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَهَذَا أَوْلَى مَا يُفَسِّرُ بِهِ، ثُمَّ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، ثُمَّ الْأَثَارُ.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) وَإِنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ أُمَّةٌ وَجِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ذُرًّا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غُرْبَتِهِمْ حَتَّى جَاءَ (٥٤) أَحْسَنُونَ أَمَّا يُذِهِرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ (٥٥) شَاخٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)

### [الْأَمْرُ بِأَكْلِ الْحَلَالِ وَبِالْعَمَلِ الصَّالِحِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَجْمَعِينَ بِالْأَكْلِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْقِيَامِ بِالصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَلَالَ عَوْنٌ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَقَامَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِهَذَا أَتَمَّ الْقِيَامِ، وَجَمَعُوا بَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ قَوْلًا وَعَمَلًا وَدَلَالَةً وَنُصْحًا، فَجَزَّاهُمْ اللَّهُ عَنْ الْعِبَادِ خَيْرًا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يَعْنِي: الْحَلَالَ. وَفِي الصَّحِيحِ: «وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَى الْعَنَمَ» قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارٍ لَأَهْلٍ مَكَّةَ» (١). وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ» (٢). وَقَدْ بَيَّنَّ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ» فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

(١) الدر المنثور: ١٠٠/٦ إسناده منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٢) الطبري: ٥٣٧، ٥٣٦/٥ (٣) الطبري: ١٩/٣٨ (٤) الطبري: ٣٩/١٩ (٥) الطبري: ٣٨/١٩ (٦) الطبري: ٣٩/١٩ (٧) الطبري: ٣٧/١٩ (٨) القرطبي: ١٢/١٢٦ (٩) الدر المنثور: ١٠٠/٦ (١٠) البخاري: ٢٢٦٢ وابن ماجه: ٧٢٧/٢ (١١) فتح الباري: ٣٥٥/٤

فَأَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ، وَأَعْرَفَهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَجْمَعِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَةُ، فِيهَا أَحْكَامُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا قَصَمَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَالْقَبْطَ وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ لَمْ يَهْلِكْ أُمَّةٌ بِعَامَّةٍ بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٥٠)

وَمَعِينٍ (٥٠)

### [ذِكْرُ عِيسَى وَمَرْيَمَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّهُ جَعَلَهُمَا آيَةً لِلنَّاسِ، أَيُّ: حُجَّةً قَاطِعَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ، فَإِنَّهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَلَا أُمٍّ، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذِكْرِ بِلَا أَثْنَى، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أَثْنَى بِلَا ذَكْرٍ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ النَّاسِ مِنْ ذَكْرٍ وَأَثْنَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوَيْتَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّبْوَةُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِيهِ النَّبَاتُ (١). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ (٢).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يَقُولُ: ذَاتُ خِصْبٍ ﴿وَمَعِينٍ﴾ يَعْنِي مَاءً ظَاهِرًا (٣). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ (٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: رَبْوَةٌ مُسْتَوِيَةٌ (٥). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ اسْتَوَى الْمَاءُ فِيهَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الْمَاءُ الْجَارِي (٦).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَبِّبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوَيْتَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَالَ: هِيَ دِمَشْقُ (٧). قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَالْحَسَنِ وَزَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ وَخَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ نَحْوُ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَالَ: أَنَّهُارُ دِمَشْقُ (٨). وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَأَوَيْتَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ قَالَ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ جِئْنَ أَوِيَا إِلَى غُوطَةِ دِمَشْقَ وَمَا حَوْلَهَا (٩). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَالَ: هِيَ الرَّمْلَةُ مِنْ فِلَسْطِينَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤٦

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٠﴾  
 أُولَئِكَ يَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُلْفُ  
 نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَطْلُقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿١٢﴾  
 بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا  
 عَمِلُونَ ﴿١٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُونَ ﴿١٤﴾  
 لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لِكُم مَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿١٥﴾ قَدْ كُنْتَ آيَتِي  
 تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ  
 بِهِ سَعِمَ آتَهُمْ جُرُونَ ﴿١٧﴾ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ  
 آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿١٩﴾  
 أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ  
 كَارِهُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ  
 وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ  
 ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ سَأَلْتَهُمْ خَرْجًا فَأَخْرَجَ رِبَاكَ حَيْرٌ  
 وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٣﴾  
 وَإِنَّا لَنَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّا لَنَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا  
 آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٢٨﴾ أُولَئِكَ يَسْرِعُونَ فِي  
 الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴿٢٩﴾

[صِفَاتُ أَهْلِ الْخَيْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾  
 أَي: هُمْ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ مُشْفِقُونَ  
 مِنَ اللَّهِ خَائِفُونَ مِنْهُ وَجُلُونَ مِنْ مَكْرِهِ بِهِمْ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ  
 الْبَصْرِيُّ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَةً، وَإِنَّ الْكَافِرَ  
 جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا<sup>(١)</sup>. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أَي:  
 يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ الْكُوفِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ  
 مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا  
 أَتَقَنَّتْ أَنَّ مَا كَانَ، فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، وَمَا  
 شَرَعَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِنْ كَانَ أَمْرًا فَمِمَّا يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَإِنْ كَانَ

[البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ: الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ،  
 وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ  
 بِالْحَرَامِ، يُمْدِدُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، فَأَنَّى  
 يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

[دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ التَّوْحِيدُ وَالْوَعْدُ لِلَّذِينَ  
 تَفَرَّقُوا]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّةٌ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: دِينُكُمْ يَا  
 مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينٌ وَاحِدٌ وَمِلَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى  
 عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَّا رُبُّكُمْ  
 فَاقْنُون﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ  
 قَوْلَهُ: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ. وَقَوْلُهُ:  
 ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ذُرًّا﴾ أَي: الْأُسْمُ الَّذِينَ بُعِثَتْ إِلَيْهِمْ  
 الْأَنْبِيَاءُ ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ﴾ أَي: يَفْرَحُونَ بِمَا هُمْ  
 فِيهِ مِنَ الصَّلَاحِ لِأَنَّهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ، وَلِهَذَا قَالَ  
 مُهْتَدِدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ أَي: فِي غَيْبِهِمْ  
 وَضَلَالِهِمْ ﴿حَتَّىٰ جِئَ﴾ أَي: إِلَى جَبِينِ جَبِينِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ،  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رُبُّنَا﴾ [الطارق: ١٧]  
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا وَيَلْهَمُ الْأَمَلُ  
 فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ شَايِعٌ لَهُمْ  
 فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ يَعْنِي: أَيُّظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمَعْرُورُونَ أَنَّ  
 مَا نُعْطِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِكِرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا وَمَعْرِتِهِمْ  
 عِنْدَنَا؟ كَلَّا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ  
 أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] لَقَدْ  
 أَخْطَأُوا فِي ذَلِكَ وَخَابَ رَجَاؤُهُمْ، بَلْ إِنَّمَا نَفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ  
 اسْتِزْدَارًا وَإِنظَارًا وَإِمْلَاءً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كَمَا  
 قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ أَمْرَهُمْ وَلَا أَوْلَدَهُمْ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ  
 لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [التوبة: ٥٥]. وَقَالَ  
 تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِسْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]  
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَذَرِي وَنَ كَذَّبَ بِهَذَا الْخَبِيثِ سَتَذِجُهُمْ مِنْ  
 حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ... [الأنعام: ٤٤، ٤٥]. وَقَالَ:  
 ﴿ذَرِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَبِيدًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى:  
 ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ  
 وَعَمِلَ صَالِحًا...﴾ [الأنعام: ٣٧]. وَالْآيَاتُ فِي هَذَا  
 كَثِيرَةٌ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يَشْكُرُونَ

(١) مسلم: ٧٠٣/١ وتحفة الأحوذى: ٣٣٥/٨ وأحمد: ٣٢٨/٢

(٢) الطبري: ٤٥/١٩

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ أَصْلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ قَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَهُمْ أَصْلٌ﴾ أَيْ: سَيِّئَةٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ يَغْنِي الشَّرْكَ ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ قَالَ: لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا<sup>(٤)</sup>. كَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿وَلَهُمْ أَصْلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ أَيْ: قَدْ كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ أَعْمَالٌ سَيِّئَةٌ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ لَا مَحَالَةَ، لِيَحَقَّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ. وَرَوَى نَحْوُ هَذَا عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ وَالسُّدِّيِّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ<sup>(٦)</sup>. وَهُوَ ظَاهِرٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «قَوِّ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ يَغْنِي حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ مُتْرَفِيهِمْ - وَهُمْ السُّعْدَاءُ الْمُتَعَمُّونَ فِي الدُّنْيَا - عَذَابُ اللَّهِ وَبَاسُهُ وَنِقْمَتُهُ بِهِمْ ﴿إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ أَيْ: يَصْرَحُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَدَرَىٰ وَلَكِنَّ بَيْنَهُمْ الْيَمِينَ وَمِنْهَا مَقَادِيرُ الْفِتَنِ ۖ وَإِنْ لَدَيْنَا نَزَرٌ ۖ وَحِيلًا﴾ الْآيَةُ [المزمل: ١١، ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَرَّ أَهْلُكُمَا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ قَبْلِ قَدَرٍ فَنَادَا وَلَاتْ حِينَ مَنَاسٍ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَخْشَوُا الْيَوْمَ إِنَّا كَرَّ أَهْلُكُمَا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ قَبْلِ قَدَرٍ فَنَادَا وَلَاتْ حِينَ مَنَاسٍ﴾ أَيْ: لَا يَجِيرُكُمْ أَحَدٌ مِمَّا حَلَّ بِكُمْ سَوَاءٌ جَارَتْكُمْ أَوْ سَكَنْتُمْ، لَا مُجِيدٌ وَلَا مُنَاصٌّ وَلَا وَزَرَ، لَزِمَ الْأَمْرُ وَوَجِبَ الْعَذَابُ، ثُمَّ ذَكَرَ أَكْبَرَ ذُنُوبِهِمْ فَقَالَ: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَفْئِكُمْ نَكَصُونَ﴾ أَيْ: إِذَا دُعِيتُمْ أَبِيتُمْ وَإِنْ طُلِبْتُمْ امْتَنَعْتُمْ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا فَلَا تَحْكُمُ لَهُ أَلَمِي الْأَكْبَرِ﴾ [غافر: ١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَ تَهْجُرُونَ﴾ أَيْ: بِالْبَيْتِ، يَفْتَخِرُونَ بِهِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَلَيْسُوا بِهِمْ، كَمَا قَالَ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى: أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يُحَدِّثُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا كُرِهَ

نَهْيًا فَهُوَ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَهُوَ حَقٌّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ: لَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، بَلْ يُوحِدُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَحَدًا صَمَدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفَّاءَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أَيْ: يُعْطُونَ الْعَطَاءَ وَهُمْ خَائِفُونَ وَجُلُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ لِحُوفِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَصَرُوا فِي الْقِيَامِ بِشَرِطِ الْإِعْطَاءِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِشْفَاقِ وَالِاخْتِيَاظِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «لَا، يَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتَ الصَّادِقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِنَحْوِهِ. وَقَالَ: «لَا، يَا بِنْتَ الصَّادِقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾»<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَلْقَىٰ وَهَرُ لَا يَظْلُمُونَ﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَصْلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ لَا تَخْشَوُا الْيَوْمَ إِنَّا كَرَّ أَهْلُكُمَا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ قَبْلِ قَدَرٍ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَفْئِكُمْ نَكَصُونَ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمَرَ تَهْجُرُونَ﴾

[بَيَانُ عَدْلِ اللَّهِ وَتَقَلُّبَاتِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ فِي شَرْعِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، أَيْ: إِلَّا مَا تُطِيقُ حَمْلُهُ وَالْقِيَامَ بِهِ، وَأَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحَاسِبُهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ لَا يَضِغُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَلْقَىٰ وَهَرُ لَا يَظْلُمُونَ﴾ يَغْنِي: كِتَابُ الْأَعْمَالِ، وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿أَيْ: لَا يَخْشَوْنَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا، وَأَمَّا السَّيِّئَاتُ فَيَعْمَوْنَ وَيَضْفَعْنَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا لِإِعْبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَىٰ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ﴾ أَيْ: فِي غَفْلَةٍ وَضَلَالَةٍ ﴿مِنْ هَذَا﴾، أَيْ: الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ.

(١) أحمد: ١٥٩/٦ (٢) تحفة الأحوذى: ١٩/٩ (٣) الطبري: ٤٦، ٤٥/١٩ (٤) الدر المنثور: ١٠٧/٦ (٥) الطبري: ٤٩/١٩ والقرطبي: ١٣٤/١٢ (٦) الطبري: ٥٠/١٩ (٧) أحمد: ٣٨٢/١

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

٣٤٧

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لِلْجُوفِ فِي طَعْنِهِمْ  
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ  
وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ  
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبَسِّسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ  
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ  
وَالَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ  
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ  
الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا  
لْمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَرَبُّنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا  
إِلَّا أَسْطِيرٌ أَوْ لَافِتٌ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ  
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾  
قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾  
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوتُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِيرُ  
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ  
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

الْمُشْرِكِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّهُ يَقُولُ الْقُرْآنَ، أَيُّ: افْتَرَاهُ مِنْ  
عِنْدِهِ، أَوْ إِنْ بِهِ جُنُونًا لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّ  
قُلُوبَهُمْ لَا تُؤْمِنُ بِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَطْلَانًا مَا يَقُولُونَهُ فِي  
الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ مَا لَا يُطَاقُ وَلَا يُدَافَعُ،  
وَقَدْ تَحَدَّاهُمْ وَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ فَمَا  
اسْتَطَاعُوا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَبَدَ الْأَبَدِينَ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ  
جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوهُم بِالْحَقِّ كَذِبًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ  
جُمْلَةً حَالِيَةً أَيُّ: فِي حَالِ كَرَاهِيَةِ أَكْثَرِهِمْ لِلْحَقِّ، وَيَحْتَمِلُ  
أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً مُسْتَأْنَفَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الْحَقُّ لَا يَتَّبِعُ الْهَوَى]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ  
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالشَّيْخُ:  
الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (٥). وَالْمُرَادُ لَوْ أَجَابَهُمُ اللَّهُ إِلَى مَا

السَّمَرِ حِينَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا  
تَهْجُرُونَ﴾. فَقَالَ: مُسْتَكْبِرِينَ بِالنَّبِيِّ، يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُهُ  
سَامِرًا قَالَ: كَانُوا يَتَكَبَّرُونَ وَيَسْمُرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْمُرُونَهُ.  
وَيَهْجُرُونَهُ (١).

﴿أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَمْ لَمْ  
يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا (٢) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ  
بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوهُم بِالْحَقِّ كَذِبًا (٣) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ  
لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنْتُمْ بِأَعْيُنِكُمْ  
عَنِ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٤) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا فَخَرَّا رِجْلَ خَيْرٍ وَهُوَ  
خَيْرُ الْزَّوْجَيْنِ (٥) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٦) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا  
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّتُنَّهُمْ ﴿٧﴾ وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ  
وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لِلْجُوفِ فِي طَعْنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٨﴾

[الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَذَمُّهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَدَمِ تَقَبُّهِمْ  
لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَدْبِيرِهِ لَهُ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ  
خُصُّوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ عَلَى رَسُولٍ أَكْمَلَ  
مِنْهُ وَلَا أَشْرَفَ، لَا سِيَّمَا آبَاؤُهُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ  
حَيْثُ لَمْ يَلْبِغُهُمْ كِتَابٌ وَلَا أَتَاهُمْ نَذِيرٌ، فَكَانَ اللَّائِقُ  
بِهَؤُلَاءِ أَنْ يُقَابِلُوا النُّعْمَةَ الَّتِي أَسَدَّاهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقُبُولِهَا  
وَالْقِيَامِ بِشُكْرِهَا وَتَقَبُّلِهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا آتَاءَ اللَّيْلِ  
وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، كَمَا فَعَلَهُ النَّجَبَاءُ مِنْهُمْ وَمَنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ  
الرُّسُولَ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَفَلَمْ يَذَرُوا  
الْقَوْلَ﴾ إِذَا وَاللَّهُ يَجِدُونَ فِي الْقُرْآنِ زَاجِرًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ لَوْ  
تَدَبَّرَهُ الْقَوْمُ وَعَقَلُوهُ، وَلَكِنَّهُمْ أَخَذُوا بِمَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَهَلَكُوا  
عِنْدَ ذَلِكَ (١). ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿أَمْ  
لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا﴾ أَيُّ: أَفَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ  
مُحَمَّدًا وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَصِبَانَتَهُ الَّتِي نَشَأَ بِهَا فِيهِمْ أَيُّ:  
أَفْتَقِدُونَ عَلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ وَالْمُبَاهَاةِ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ جَعْفَرُ  
ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ: أَتُهَا  
الْمَلِكُ، إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ  
وَأَمَانَتَهُ (٢). وَهَكَذَا قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ لِنَائِبِ كِسْرَى  
حِينَ بَارَزَهُمْ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ  
لِمَلِكِ الرُّومِ هِرَقْلَ حِينَ سَأَلَهُ وَأَصْحَابَهُ عَنْ صِفَاتِ  
النَّبِيِّ ﷺ وَنَسَبِهِ وَصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ، وَكَانُوا بَعْدَ كُفَّارًا لَمْ  
يُسْلِمُوا، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُمَكِّنْهُمْ إِلَّا الصَّدَقَ فَاعْتَرَفُوا  
بِذَلِكَ (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يَحْكِي قَوْلَ

(١) النسائي في الكبرى: ٤١٢/٦ (٢) الدر المنثور: ١١٠/٦

(٣) ابن هشام: ٣٥٧/١ (٤) فتح الباري: ٤٢/١ (٥) الطبري: ٥٧/١٩

١٤٠/١٢

لي إن وردت بكم رياضا مغشبة وحياضا رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضا أغشب من هذه، وحياضا هي أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لتتبعته، وقالت طائفة: قد رضىنا بهذا نقيم عليه<sup>(٣)</sup>.

### [ذكر أحوال الكفار]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ لَهُمْ سُنُبًا مِّنْ ضُرٍّ لَّيْجُوا إِذَا زَاغَ عَنْهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكُنَّا مَا بِهِمْ مِّنْ ضُرٍّ لَّجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غَلْظِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ بِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ عَنْهُمْ الضَّرَّ وَأَفْهَمَهُمُ الْقُرْآنَ لَمَا اتَّقَوْا لَهُ وَلَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ نَبِيًّا خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ قُوفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ بِنَارٍ وَلَا نَكْذِبُ يَأْتِيهِمْ رِيحًا وَكَفُّوا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٧٦)﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمَا عَنْهُ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فَهَذَا مِنْ بَابِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَكُونُ وَلَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا فِيهِ ﴿لَوْ﴾ فَهُوَ مِمَّا لَا يَكُونُ أَبَدًا.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاؤُا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ (٧٧)﴾ وَهُوَ الَّذِي أَشْتَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩)﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾ بَلْ قَالُوا وَمِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١)﴾ قَالُوا أَإِذَا مَاتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أَي: إِنْتَلَيْنَاهُمْ بِالْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ ﴿فَمَا اسْتَكَاؤُا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ﴾ أَي: فَمَا رَدُّهُمْ ذَلِكَ عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى غِيهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿فَمَا اسْتَكَاؤُا﴾، أَي: مَا

فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَوَى، وَشَرَعَ الْأُمُورَ عَلَى وَفَى ذَلِكَ ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أَي: لِفَسَادِ أَهْوَائِهِمْ وَاخْتِلَافِهَا، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ لَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَهْمُ بِقِسْمَتِي رَحْمَتِي عَلَيْكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ الْآيَةُ [الأسراء: ١٠٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] فَفِي هَذَا كُلِّهِ تَبَيَّنَ عَجْزُ الْعِبَادِ وَاخْتِلَافُ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَشَرِعُوهُ وَقَدَرُوهُ، وَتَبْدِيرُهُ لِحَقِّقِهِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلِ الْبَشَرُ لَكَاذِبُونَ﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

[النَّبِيُّ لَا يَسْأَلُ أَجْرًا وَيَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ: أَجْرًا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: جُعْلًا<sup>(٢)</sup>. ﴿فَخَرَجَ عَلَى رِجْلٍ خَيْرٍ﴾ أَي: أَنْتَ لَا تَسْأَلُهُمْ أَجْرَةً وَلَا جُعْلًا وَلَا شَيْئًا عَلَى دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْهُدَى، بَلْ أَنْتَ فِي ذَلِكَ تَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ جَزِيلَ ثَوَابِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبا: ٤٧] وَقَالَ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] وَقَالَ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَفْقَهُوا أَمْرًا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٠)﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ لِنَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنَنَّ لَهُمْ سُنُبًا مِّنْ ضُرٍّ لَّيْجُوا إِذَا زَاغَ عَنْهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكُنَّا مَا بِهِمْ مِّنْ ضُرٍّ لَّجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غَلْظِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ بِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ عَنْهُمْ الضَّرَّ وَأَفْهَمَهُمُ الْقُرْآنَ لَمَا اتَّقَوْا لَهُ وَلَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ نَبِيًّا خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ قُوفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ بِنَارٍ وَلَا نَكْذِبُ يَأْتِيهِمْ رِيحًا وَكَفُّوا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٧٦)﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمَا عَنْهُ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فَهَذَا مِنْ بَابِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَكُونُ وَلَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا فِيهِ ﴿لَوْ﴾ فَهُوَ مِمَّا لَا يَكُونُ أَبَدًا.

(١) الطبري: ٥٨/١٩ (٢) الدر المنثور: ١١٠/٦ (٣) أحمد: ٢٦٧/١ إسناده ضعيف لضيف علي بن زيد بن جعدان ويوسف بن مهران لين الحديث لم يرو عنه إلا ابن جعدان [تقريب]



[اسْتِيعَادُ الْمُشْرِكِينَ الْبُعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ]

ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ مُتَجَرِّي الْبُعْثِ الَّذِينَ أَشْبَهُوا مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكْذِبِينَ: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨٤) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿يَعْنِي يَسْتَبْعِدُونَ وَفُوعَ ذَلِكَ بَعْدَ صِرْوَرَتِهِمْ إِلَى الْبَلَى﴾، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿يَعْنُونَ: الْإِعَادَةُ مُحَالٌ، إِنَّمَا يُخْبِرُ بِهَا مَنْ تَلَقَّاهَا عَنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ وَاخْتِلَافِهِمْ، وَهَذَا الْإِنْكَارُ وَالتَّكْذِيبُ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا تَحَرَّةً﴾ (٨٥) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرِهَ خَاسِرَةٌ ﴿٨٦﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٨٧﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات: ١١-١٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٨٨) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعَظَمَ وَهِيَ زَيْبٌ ﴿٨٩﴾ قُلْ يُبَيِّهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ... [الآيات ليس: ٧٧-٧٩].

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٠) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٩١﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٩٢﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِذُ ﴿٩٣﴾ قُلْ مَنْ مِنْ بَيْنِهِ مَلَكُوتٌ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْجِزُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٩٥﴾ بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٦﴾

[إِقْرَارُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ وَالْإِزَامِهِمْ بِذَلِكَ بِتَوْحِيدِ الْأَلُوْهِةِ]

يَقْرُرُ تَعَالَى وَخَدَانِيَّتَهُ وَاسْتِفْلَالَهُ بِالْخَلْقِ وَالنَّصْرِفِ وَالْمُلْكِ لِتُرْشِدَ إِلَى أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ الْمُعْتَرِفِينَ لَهُ بِالرَّبُّوبِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ أَشْرَكُوا مَعَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ مَعَهُ مَعَ اغْتِرَافِهِمْ أَنَّ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، وَلَا يَسْتَبْدُونَ بِشَيْءٍ، بَلْ اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَقْرَبُونَهُ إِلَهِي زُلْفَى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فَقَالَ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أَيْ: مَنْ مَالِكُهَا الَّذِي خَلَقَهَا وَمَنْ فِيهَا مِنْ

خَشَعُوا ﴿وَمَا يَنْصَرُّونَ﴾ أَيْ: مَا دَعَوْا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾... [الأنعام: ٤٣] وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَشُدُّكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ، فَقَدْ أَكَلْنَا الْعُلْهَزَ - يَعْنِي الْوَبَرَ وَالْدَمَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاوُوا﴾... [الآية، وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(١)</sup>]. وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا عَلَى قُرَيْشٍ حِينَ اسْتَعْصَمُوا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ يَسْبِعُ كَسْبِعُ يُوسُفَ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ أَيْ: حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَجَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَعَثَتْهُ، فَأَخَذَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أُبْلِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَأَبْسُوا مِنْ كُلِّ رَاحَةٍ، وَانْقَطَعَتْ أَمَالُهُمْ وَرَجَاؤُهُمْ.

[التَّذْكِيرُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ]

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، وَهِيَ الْعُقُولُ وَالْفُهُومُ الَّتِي يُدْرِكُونَ بِهَا الْأَشْيَاءَ وَيَعْتَبِرُونَ بِمَا فِي الْكَوْنِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ لِمَا يَشَاءُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَلَا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أَيْ: مَا أَقَلَّ شُكْرَكُمْ لِمَا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ فِي بَرِّيَّةِ الْخَلِيقَةِ وَدَرْيَةِ لَهُمْ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، فَلَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، وَلَا ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى، وَلَا جَلِيلًا وَلَا خَفِيرًا، إِلَّا أَعَادَهُ كَمَا بَدَأَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَيْ: يُحْيِي الرَّمَمَ وَيُؤْيِي الْأَمَمَ، ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيْ: وَعَنْ أَمْرِهِ تَسْخِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَتِيئًا، يَتَعَقَّبَانِ لَا يَفْتَرَانِ وَلَا يَفْتَرِقَانِ بِزَمَانٍ غَيْرِهِمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾... [الآية [يس: ٣٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: أَفَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تَذَكَّرُكُمْ عَلَى الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الَّذِي قَدْ فَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَعَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَخَضَعَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ.

(١) النسائي في الكبرى: ٤١٣/٦ (٢) فتح الباري: ٤٣٥/٨  
ومسلم: ٢١٥٦/٤

﴿مَّا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَوْلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصُورُونَ﴾ (٢١) عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَعَلَنَ عَمَّا

وَقَوْلُهُ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أَي: سَيَعْتَرِفُونَ أَنَّ السَّيِّدَ

يُشْرِكُونَ ﴿٩٦﴾

[لَا شَرِيكَ لِلَّهِ]

يُنَزَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَوْ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْعِبَادَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: لَوْ قُدِّرَ تَعَدُّدُ الْإِلَهِ لَانْفَرَدَ كُلُّ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقَ. فَمَا كَانَ يَنْتَظِمُ الْوُجُودَ - وَالْمُشَاهَدَةَ أَنَّ الْوُجُودَ مُنْتَظِمٌ مُتَّسِقٌ كُلُّ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مُرْتَبِطٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ - ثُمَّ: لَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ يَطْلُبُ قَهْرَ الْآخَرِ وَخِلَافَهُ، فَيَعْلُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْمُتَكَلِّمُونَ ذَكَرُوا هَذَا الْمَعْنَى، وَعَبَّرُوا عَنْهُ بِذِلِيلِ التَّمَانُعِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ فُرِضَ صَانِعَانِ فَصَاعِدًا فَأَرَادَ وَاحِدٌ تَحْرِيكَ جِسْمٍ وَالْآخَرُ أَرَادَ سَكُونَهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ مُرَادُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَانَا عَاجِزَيْنِ، وَالْوَاجِبُ لَا يَكُونُ عَاجِزًا وَيَمْتَنِعُ اجْتِمَاعُ مُرَادَيْهِمَا لِلتَّضَادِّ، وَمَا جَاءَ هَذَا الْمُحَالُ إِلَّا مِنْ فَرْضِ التَّعَدُّدِ، فَيَكُونُ مُحَالًا. فَأَمَّا إِنْ حَصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، كَانَ الْغَالِبُ هُوَ الْوَاجِبُ وَالْآخَرُ الْمَغْلُوبُ مُمَكِّنًا، لِأَنَّهُ لَا يَلِيْقُ بِصِفَةِ الْوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ مَقْهُورًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ فِي دَعْوَاهُمْ الْوَلَدَ أَوْ الشَّرِيكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يَعْلَمُ مَا يَغِيبُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ ﴿فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى وَعَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا رَبِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٨﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْيَا مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٩﴾ أَدْفَعْ بِأَلْيِ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَكْلَمُ مِمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٠١﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٠٢﴾

[أَلْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ عِنْدَ حُلُولِ النَّقْمِ وَبِالدَّفْعِ الْحَسَنِ]

وَبِالتَّعَوُّذِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُو بِهِذَا الدُّعَاءَ عِنْدَ حُلُولِ النَّقْمِ ﴿رَبِّ إِمَّا رَبِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إِنْ عَاقَبْتَهُمْ وَأَنَا شَهِدُ ذَلِكَ، فَلَا تَجْعَلْنِي فِيهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ: «وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَقَّئِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُقْتُونٍ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ

تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْيَا مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ أي: لَوْ شِئْنَا لَأَرَيْنَاكَ مَا نُحِلُّ بِهِمْ مِنَ النَّقْمِ وَالْبَلَاءِ وَالْمِحَنِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا لَهُ إِلَى التَّرْيَاقِ النَّافِعِ فِي مُخَالَطَةِ النَّاسِ وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ يُسِيءُ إِلَيْهِ، لِيَسْتَحْلِبَ خَاطِرُهُ فَتَعُوذَ عِدَاوَتُهُ صَدَاقَةً وَبُغْضُهُ مَحَبَّةً، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْيِ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْيِ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿١٠٣﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا... الْآيَةِ، أي: وَمَا يُلْهِمُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ أَوْ هَذِهِ الْخَصْلَةَ أَوْ الصِّفَةَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: عَلَى أَدَى النَّاسِ فَعَامِلُوهُمْ بِالْجَوِيلِ مَعَ إِسْدَائِهِمْ إِلَيْهِمُ الْقَبِيحَ ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] أي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَعِذَّ مِنَ الشَّيَاطِينِ لِأَنَّهُمْ لَا تَنْفَعُ مَعَهُمُ الْحِيلُ وَلَا يَتَّقَادُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا عِنْدَ الْإِسْتِعَاذَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي: فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي، وَلِهَذَا أَمَرَ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ، وَذَلِكَ لِطَرْدِ الشَّيْطَانِ عِنْدَ الْأَكْلِ وَالْجِمَاعِ وَالذَّنْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ، وَلِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ وَمِنَ الْغَرَقِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ يَتَحَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ»<sup>(٣)</sup>.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿١٠٤﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٥﴾

[تَمَنِّي الْكُفَّارِ عِنْدَ الْإِحْضَارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُحْضَرِّ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ أَوْ الْمُفْرِطِينَ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِيهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ، وَسُؤَالُهُمُ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُصْلِحَ مَا كَانَ أَفْسَدَهُ فِي مُدَّةِ حَيَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿١٠٦﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا

(١) أحمد: ٢٤٣/٥ وتحفة الأحوذى: ١٠٨/٩ (٢) أبو داود:

٤٩٠/١ (٣) أبو داود: ١٩٤/٢

رَفَعْنَاكُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ أَحَدُكُمْ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ شَاءُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَعَلْنَا مِنْ شُعْمَاءَ فَبَتَّغَمُوا لَنَا أَوْ نُرْدُ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّخِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَفُتُوا عَلَى النَّارِ لَقَالُوا بَلَيَّتْنَا نَرُّوْا وَلَا نَكْذِبُ يَأْتِيَتْ رَبَّنَا إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوتُ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنِي وَأَمَّيْتَنَا أَكُتِّبَ فَاغْتَرَفْنَا يَدُونَا فَعَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الزمر: ١١] وَالْآيَةُ بَعْدَهَا. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ فَلَا يُجَابُونَ عِنْدَ الْإِحْضَارِ وَيَوْمَ الشُّورِ وَوَقْتُ الْعَرْضِ عَلَى الْجَبَّارِ، وَحِينَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ وَهُمْ فِي غَمَرَاتٍ عَذَابِ الْجَحِيمِ.

وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كَلَّا حَرْفُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، أَيُّ لَا نَحْبِيهَ إِلَى مَا طَلَبَ وَلَا نَقْبَلُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أَيُّ: سُؤَالُهُ الرَّجُوعَ لِيَعْمَلَ صَالِحًا هُوَ كَلَامٌ مِنْهُ وَقَوْلُ، لَا عَمَلٌ مَعَهُ، وَلَوْ رُدَّ لَمَّا عَمِلَ صَالِحًا وَلَكَانَ يَكْذِبُ فِي مَقَالَتِهِ هَذِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] قَالَ قَتَادَةُ: وَاللَّهُ مَا تَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ إِلَى أَهْلِ وَلَا إِلَى عَشِيرَةٍ، وَلَا بَأَنْ يَجْمَعَ الدُّنْيَا وَيَقْضِيَ الشَّهَوَاتِ، وَلَكِنْ تَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ فَيَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَرَجِمَ اللَّهُ امْرَأً عَمِلَ فِيهَا يَتَمَنَّى الْكَافِرُ إِذَا رَأَى الْعَذَابَ إِلَى النَّارِ.

## [الْبَرْزَخُ وَعَذَابُهُ]

﴿وَمِنْ ذَرَارِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَغَيْرُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ذَرَارِهِمْ﴾ يَعْنِي أَمَامَهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْبَرْزَخُ الْحَاجِزُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَالَ

مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: الْبَرْزَخُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِيَشُوَ مَعَ أَهْلِ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَلَا مَعَ أَهْلِ الْآخِرَةِ يُجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَقَالَ أَبُو صَخْرٍ: الْبَرْزَخُ الْمَقَابِرُ لَا هُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا هُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَهُمْ مُقِيمُونَ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ<sup>(١)</sup>. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ذَرَارِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُؤُلَاءِ الْمُحْتَضِرِينَ مِنَ الظُّلْمَةِ بِعَذَابِ الْبَرْزَخِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ذَرَارِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ذَرَارِهِمْ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أَيُّ: يَسْتَمِرُّ بِهِ الْعَذَابُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا» أَيُّ: فِي الْأَرْضِ<sup>(٢)</sup>.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِسُونَ<sup>(٣)</sup> وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ<sup>(٤)</sup> تَلَفَحَ

(١) الدر المنثور: ١١٦/٦ (٢) تحفة الأحوذى: ١٨٣/٤

### الخُرُوجُ مِنْهَا

هَذَا تَفْرِيعٌ مِنَ اللَّهِ وَتَوْبِيخٌ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْعُظَائِمِ الَّتِي أَوْفَقَتْهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِي تُنْذِرُ عَلَيْهِمْ فُكْرَهُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ أي: قَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ، وَأَزَلْتُ شُبُهَاتَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ حُجَّةٌ تَدُلُّونَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى يَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الاسراء: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّمَآ أَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ سَالَمٌ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَسُحْقًا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١] وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: قَدْ قَامَتْ عَلَيْنَا الْحُجَّةُ، وَلَكِنْ كُنَّا أَشَقَى مِنْ أَنْ نَقَادَ لَهَا وَنَتَّبِعَهَا، فَصَلَّلْنَا عَنْهَا وَلَمْ نُزِفْهَا. ثُمَّ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَذَابْنَا فَلَنَا ظَلْمُومٌ﴾ أي: أَرُدُّنَا إِلَى الدُّنْيَا، فَإِنْ عَذَابْنَا إِلَى مَا سَلَفَ مِنَّا فَنَحْنُ ظَالِمُونَ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعُقُوبَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢] أي: لَا سَبِيلَ إِلَى الْخُرُوجِ لِأَنْتُمْ كُنتُمْ تُشْرِكُونَ بِاللَّهِ إِذَا وَحَدَهُ الْمُؤْمِنُونَ.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ (١٧) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنَ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاخْرِجْنَا مِنْهَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٨) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَتَوْكُمْ أَسْوَكَمُ ذِكْرَى وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحِكُونَ (١٩) إِنْ جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَلَيْسَ لَهُمُ الْفَارُوقُ (٢٠)

### [جَوَابُ اللَّهِ وَرَدُّهُ عَلَى الْكُفَّارِ]

هَذَا جَوَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكُفَّارِ إِذَا سَأَلُوا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ وَالرَّجْعَةَ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ. يَقُولُ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أي: أَمْكُثُوا فِيهَا صَاحِرِينَ مُهَانِينَ أَذْلَاءَ ﴿وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ أي: لَا تَعُودُوا إِلَى سُؤَالِكُمْ هَذَا، فَإِنَّهُ لَا جَوَابَ لَكُمْ عِنْدِي. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ قَالَ: هَذَا قَوْلُ الرَّحْمَنِ جِئْنَا انْقَطَعَ كَلَامُهُمْ مِنْهُ (٢١). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: إِنَّ أَهْلَ جَهَنَّمَ يَدْعُونَ مَا لَيْكَ فَلَا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّكُمْ تَكِيدُونَ﴾ قَالَ: هَانَتْ دَعْوَتُهُمْ وَاللَّهُ عَلَى "مَا لَيْكَ" وَرَبِّ

وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٢)

### [التَّفْخِخُ فِي الصُّورِ وَوزْنُ الْأَعْمَالِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا تَفَخَّخَ فِي الصُّورِ تَفَخَّخَ الشُّورُ، وَقَامَ النَّاسُ مِنَ الْقُبُورِ ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ أي: لَا تَنْفَعُ [الْأَنْسَابُ] يَوْمَئِذٍ وَلَا يَرَى وَالِدٌ لَوْلَدِهِ وَلَا يُلَوِّي عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ [يُصْرُوهُمْ] [المعارج: ١٠، ١١] أي: لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ، وَهُوَ يُبْصِرُهُ، وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْزَارِ مَا قَدْ أَثْقَلَ ظَهْرَهُ، وَهُوَ كَانَ أَعَزَّ النَّاسِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مَا اتَّفَقَتْ إِلَيْهِ وَلَا حَمَلَ عَنْهُ وَزْنَ جَنَاحٍ بَعُوضَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُعَرَّفُ الْكُفْرُ مِنَ الْإِيمَانِ وَآيُهُ وَأَيُّهُ (٢٢) وَصَلَّيْهِ وَبَيْنَهُ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ: أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ مَظْلِمَةٌ فَلْيُجِئْ فَلْيَأْخُذْ حَقَّهُ - قَالَ: فَيَفْرَحُ الْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْحَقُّ عَلَى وَالِدِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ زَوْجَتِهِ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا، وَمُضَادًّا ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٢٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (٢٤). ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الَّذِينَ فَازُوا فَتَجَوَّا مِنَ النَّارِ وَأَدْخَلُوا الْجَنَّةَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أُولَئِكَ الَّذِينَ فَازُوا بِمَا طَلَبُوا، وَنَجَوْا مِنْ شَرِّ مَا مِنْهُ هَرَبُوا ﴿وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثَقُلَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: خَابُوا وَهَلَكُوا وَبَاءُوا بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي: مَا يَكُونُونَ فِيهَا دَائِمُونَ مُقِيمُونَ فَلَا يَنْطَعُونَ ﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَفَتَّحُوا وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْشِفُونَ عَنْ وَجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ... الْآيَةُ [الأنبياء: ٣٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي عَابِسُونَ (٢٥).

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِي تُنْذِرُ عَلَيْهِمْ فُكْرَهُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ (٢٦) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (٢٧) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَذَابْنَا فَلَنَا ظَلْمُومٌ (٢٨)

[تَوْبِيخُ أَهْلِ النَّارِ وَاعْتِرَافُهُمْ بِشِقْوَتِهِمْ وَظَلْمِهِمْ]

(١) الطبري: ٧٢/١٩ (٢) الدر المنثور: ٤١٨/٦ (٣) الطبري: ٧٤/١٩ (٤) الطبري: ٧٩/١٩ مَرَّ حَكْمُهُ مَرَارًا

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ صَفْوَانَ، عَنْ أَنْفَعِ بْنِ عَبْدِ الْكَلَامِيِّ: أَنَّهُ سَمِعَهُ يَخْطُبُ النَّاسَ، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ كَمْ لَيْسْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ - قَالَ: - لَيْعَمَ مَا أَتَجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ: رَحِمْتِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، كَمْ لَيْسْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَيَقُولُ: بِئْسَ مَا أَتَجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ: نَارِي وَسَخْطِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ»<sup>(١)</sup>.

[إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقِ الْعِبَادَ عَبَثًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا؟ أَيْ: أَفَطَنْتُمْ أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ عَبَثًا بِلَا قَصْدٍ وَلَا إِزَادَةٍ مِنْكُمْ وَلَا حِكْمَةٍ لَنَا، وَقِيلَ: لِلْعَبَثِ، أَيْ: لِتَلْعَبُوا وَتَعْبُوا كَمَا خُلِقْتِ الْبَهَائِمُ لَا ثَوَابَ لَهَا وَلَا عِقَابَ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ لِلْعِبَادَةِ وَإِقَامَةِ أَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ «وَأَنْتُمْ إِنَّمَا لَا تُرْجَعُونَ» أَيْ: لَا تَعُودُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ بُرِّكَ سُدًى» [القيامة: ٣٦] يَعْنِي هَمَلًا. وَقَوْلُهُ: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» أَيْ: تَقَدَّسَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا عَبَثًا، فَإِنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُتَزَعُّ عَنْ ذَلِكَ «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ» فَذَكَرَ الْعَرْشَ لِأَنَّهُ سَقَفُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ أَيْ: حَسَنُ الْمَنْظَرِ بَهِيُّ الشَّكْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَ«أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ» [الشعراء: ٤٧].

«وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» [١٧] وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» [١٨]

[الشُّرْكُ ظُلْمٌ عَظِيمٌ لَا فَلَاحَ لِصَاحِبِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَنْ أَشْرَكَ بِهِ غَيْرَهُ وَعَبَدَ مَعَهُ سِوَاهُ، وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ «لَا بُرْهَانَ لَهُ» أَيْ: لَا دَلِيلَ لَهُ عَلَى قَوْلِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ» وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُعَرَّضَةٌ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» أَيْ: اللَّهُ يُحَاسِبُهُ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَ «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» أَيْ: لَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،

مَالِكٍ، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: «رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ» [١٩] رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ» قَالَ: فَيَسْكُتُ عَنْهُمْ قَدَرُ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: «أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون» قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا نَبَسَ الْقَوْمُ بَعْدَهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَا هُوَ إِلَّا الزَّفِيرُ وَالشَّهْقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، قَالَ: فَشَبَّهَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِأَصْوَاتِ الْحَوِيرِ، أَوَّلَهَا زَفِيرٌ وَآخِرُهَا شَهْقٌ<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلِيَائِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» [٢٠] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِرَاجًا أَيْ: فَسَجَرْتُمْ مِنْهُمْ فِي دُعَائِهِمْ إِنِّي وَتَضَرَّعْتُمْ إِلَيَّ «حَقِّقْ أَسْوَكَمُ ذِكْرِي» أَيْ: حَمَلَكُمْ بُغْضُهُمْ عَلَى أَنْ نَسِيتُمْ مُعَامَلَتِي «وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَمُّكُونَ» أَيْ: مِنْ صَنِيعِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَضَمُّكُونَ» [٢١] وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ» [المطففين: ٢٩، ٣٠] أَيْ: يَلْمِزُونَهُمْ اسْتِهْزَاءً.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا جَارَى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الصَّالِحِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا» أَيْ: عَلَى أَذَانِكُمْ لَهُمْ وَاسْتَهْزَائِكُمْ بِهِمْ «أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ» جَعَلْتُهُمْ هُمُ الْفَائِزِينَ بِالسَّعَادَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ.

«قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ» قَالُوا لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ» [٢٢] قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» [٢٣] أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِنَّمَا لَا تُرْجَعُونَ» [٢٤] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ» [٢٥]

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى مَا أَصَاغُوهُ فِي عُمرِهِمُ الْقَصِيرِ فِي الدُّنْيَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَحُدَّةٍ، وَلَوْ صَبَرُوا فِي مُدَّةِ الدُّنْيَا الْقَصِيرَةِ لَفَارُوا كَمَا فَارَ أَوْلِيَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ «قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ» أَيْ: كَمْ كَانَتْ إِقَامَتُكُمْ فِي الدُّنْيَا «قَالُوا لَيْسَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ» أَيْ: الْحَاسِبِينَ. «قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا» أَيْ: مُدَّةٌ يَسِيرَةٌ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ «لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أَيْ: لَمَا أَتَرْتُمْ الْفَنَاءَ عَلَى الْبَاقِي، وَلَكَمَا تَصَرَّفْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ هَذَا التَّصَرُّفَ السَّيِّئَ، وَلَا اسْتَحَقَقْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَخَطَهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، فَلَوْ أَنْتُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ لَفَرْتُمْ كَمَا فَارُوا.

لَا فَلَاحَ لَهُمْ وَلَا نَجَاةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>  
هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى هَذَا الدُّعَاءِ، فَالْغُفْرُ إِذَا  
أُطْلِقَ: مَعْنَاهُ: مَحْوُ الذَّنْبِ وَسُتْرُهُ عَنِ النَّاسِ، وَالرَّحْمَةُ  
مَعْنَاهَا: أَنْ يُسَدِّدَهُ وَيُوفِّقَهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ.  
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ.

## تفسير سورة النور وهي مدنيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَسِّرُ لَعَلَّكُمْ تَذَكُّرُونَ﴾<sup>(١)</sup>  
الرَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ  
فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ  
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>

[أَهَمِّيَّةُ سُورَةِ النُّورِ]

يَقُولُ تَعَالَى: هَذِهِ ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ فِيهِ تَنْبِيْهُ عَلَى الْإِغْتِنَاءِ  
بِهَا وَلَا يَبْقَى مَا عَذَاهَا؛ (فَرَضْنَاهَا) قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ:  
أَيُّ: بَيَّنَّا الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْحُدُودَ<sup>(١)</sup>.  
وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَمَنْ قَرَأَ: ﴿فَرَضْنَاهَا﴾ يَقُولُ: فَرَضْنَاهَا  
عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ<sup>(٢)</sup>. ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَسِّرُ﴾ أَيُّ:  
مُفَسِّرَاتٍ وَاضِحَاتٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

[بَيَانُ حَدِّ الزَّانِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ  
جَلْدَةٍ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا حُكْمُ الزَّانِي فِي الْحَدِّ، وَفِيهِ  
تَفْصِيلٌ، فَإِنَّ الزَّانِي لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ بَكْرًا، وَهُوَ الَّذِي  
لَمْ يَتَزَوَّجْ. أَوْ مُحْصَنًا، وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ  
صَحِيحٍ، وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ بَكْرًا لَمْ  
يَتَزَوَّجْ، فَإِنَّ حَدَّ مِائَةِ جَلْدَةٍ كَمَا فِي الْآيَةِ، وَيَزَادُ عَلَى ذَلِكَ  
أَنْ يُعَرِّبَ عَامًّا عَنْ بَلِيدٍ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي  
هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ: فِي الْأَعْرَابِيِّينَ الَّذِينَ أَتَى  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ ابْنِي هَذَا  
كَانَ عَسِيفًا - يَعْنِي أَجِيرًا - عَلَى هَذَا، فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ،  
فَأَفْتَدَيْتُ ابْنِي مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ، فَسَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ  
فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلَى ابْنِي جَلْدَ مِائَةٍ وَتَغْرِيبَ عَامٍ، وَأَنَّ عَلَى  
امْرَأَةِ هَذَا الرَّجْمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي  
بِيَدِهِ! لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، الْوَلِيدَةُ وَالْعَتَمُ رَدٌّ

سُورَةُ النُّورِ

الْمَدَنِيَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَسِّرُ لَعَلَّكُمْ تَذَكُّرُونَ  
﴿١﴾ الرَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ  
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ  
عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup> الرَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ  
مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمُ ذَلِكَ عَلَى  
الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ  
فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(٤)</sup> إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
رَّحِيمٌ﴾<sup>(٥)</sup> وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ  
فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾<sup>(٦)</sup>  
وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾<sup>(٧)</sup> وَيَذَرُوا  
عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ  
﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾<sup>(٩)</sup>  
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(١٠)</sup>

عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدٌ مِائَةٌ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاعْدُ يَا أُنَيْسُ  
- لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ - إِلَى امْرَأَةٍ هَذَا، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ  
فَارْجُمَهَا فَغَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَارْجُمَهَا<sup>(١١)</sup>.

فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى تَغْرِيبِ الزَّانِي مَعَ جَلْدِ مِائَةٍ إِذَا كَانَ  
بَكْرًا لَمْ يَتَزَوَّجْ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مُحْصَنًا، وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ  
فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ، وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ، فَإِنَّهُ يُرْجَمُ. كَمَا  
رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ أَنَّ عُمَرَ [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قَامَ فَحَمِدَ اللَّهَ  
وَأَثْنَى عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ فِيمَا  
أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَرَجَمَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ  
يَقُولَ قَائِلٌ: لَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيُضِلُّوا بِتَرْكِ  
فَرِيضَةٍ قَدْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، فَالْرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ

(١) الطبري: ٨٩/١٩ والدر المنثور: ١٢٤/٦ (٢) فتح الباري:

٣٠١/٨ (٣) فتح الباري: ٣٥٥/٥ ومسلم: ١٣٢٤/٣

وَقَالَ فَتَادَةٌ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ نِكَاحَ الْبَغَايَا<sup>(١)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَحْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] وَقَوْلُهُ: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَحْدَانٍ﴾... الْآيَةُ [المائدة: ٥].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَةٍ يَقَالُ لَهَا: أُمُّ مَهْزُولٍ، كَانَتْ تُسَافِحُ وَتُشْتَرِطُ لَهُ أَنْ تُتَفَقَّ عَلَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْ ذَكَرَ لَهُ أَمْرَهَا قَالَ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودَ إِلَّا مِثْلَهُ». وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَوْ يَأْتُوا بَارِعَةً شَهَادَةً فَاحْلُوهُنَّ فَمِنْ بَيْنَيْنِ جَلْدَةٍ وَلَا نَقْبُوهَا أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [١] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٢]

[بَيَانُ حَدِّ الْقَذْفِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا بَيَانُ حُكْمِ جَلْدِ الْقَازِفِ لِلْمُحْصَنَةِ، وَهِيَ الْحُرَّةُ الْبَالِغَةُ الْعَافِيَةُ، فَإِذَا كَانَ الْمَقْدُوفُ رَجُلًا فَكَذَلِكَ يُجْلَدُ قَازِفُهُ أَيْضًا، فَإِنْ أَقَامَ الْقَازِفُ بَيِّنَةً عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ ذَرَأَ عَنْهُ الْحَدَّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَوْ يَأْتُوا بَارِعَةً شَهَادَةً فَاحْلُوهُنَّ فَمِنْ بَيْنَيْنِ جَلْدَةٍ وَلَا نَقْبُوهَا أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فَأَوْجَبَ عَلَى الْقَازِفِ - إِذَا لَمْ يُقِمِ الْبَيِّنَةَ عَلَى صِحَّةِ مَا قَال - ثَلَاثَةُ أَحْكَامٍ، (أَحَدُهَا): أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً. (الثَّانِي): أَنَّهُ تُرَدُّ شَهَادَتُهُ أَبَدًا. (الثَّلَاثُ): أَنْ يَكُونَ قَاسِمًا لَيْسَ بِعَدْلٍ لَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدَ النَّاسِ.

[بَيَانُ تَوْبَةِ الْقَازِفِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ

رَنَى، إِذَا أَحْصَنَ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ الْحَبْلُ أَوْ الْإِغْتِرَافُ<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ<sup>(٢)</sup> مُطَوَّلًا، وَهَذِهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ فِيهَا مَقْصُودُنَا هُنَا<sup>(٣)</sup>.

[لَا تَكُنْ لَدَيْكُمْ رَافَةٌ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَافَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: فِي حُكْمِ اللَّهِ، أَيُّ: لَا تَرْحَمُوهُمَا وَتَرْفُؤُوا بِهِمَا فِي شَرَعِ اللَّهِ، وَلَيْسَ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ الرَّافَةُ الطَّبِيعِيَّةُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَدِّ، وَإِنَّمَا هِيَ الرَّافَةُ الَّتِي تَحْمِلُ الْحَاكِمَ عَلَى تَرْكِ الْحَدِّ فَلَا يَجُوزُ [لَهُ] ذَلِكَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَافَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قَالَ: إِقَامَةُ الْحُدُودِ إِذَا رُفِعَتْ إِلَى السُّلْطَانِ فَتَقَامُ وَلَا تُعْطَلُ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «تَعَاثَوْا الْحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، فَمَا بَلَّغْنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَيُّ: فَافْعَلُوا ذَلِكَ، وَأَقِيمُوا الْحُدُودَ عَلَى مَنْ رَنَى، وَشَدُّوا عَلَيْهِ الضَّرْبَ وَلَكِنْ لَيْسَ مُبَرِّحًا لِيَرْتَدِعَ هُوَ وَمَنْ يَصْنَعُ مِثْلَهُ، بِذَلِكَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْمُسْنَدِ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَا ذَنْبَ الشَّاةِ وَأَنَا أَرْحَمُهَا. فَقَالَ: «وَلَكَ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ»<sup>(٥)</sup>.

[أَقِيمُوا الْحَدَّ بِحَضْرَةِ النَّاسِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا فِيهِ تَنْكِيلٌ لِلزَّانِئِينَ، إِذَا جُلِدَا بِحَضْرَةِ النَّاسِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ أَبْلَغَ فِي زَجْرِهِمَا وَأَنْجَحَ فِي رَدْعِهِمَا، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَفَضِيحَةً، إِذَا كَانَ النَّاسُ حُضُورًا. قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: عَلَانِيَةً.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١]

هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ الزَّانِيَّ لَا يَطَأُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً، أَيُّ: لَا يُطَاوِعُهُ عَلَى مُرَادِهِ مِنَ الزَّنَا إِلَّا زَانِيَةً عَاصِيَةً، أَوْ مُشْرَكَةً لَا تَرَى حُرْمَةَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ «وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ» أَيُّ: عَاصٍ بِزَنَاهُ «أَوْ مُشْرِكٌ» لَا يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ: تَعَاطِيهِ وَالتَّزْوُجَ بِالْبَغَايَا، أَوْ تَزْوِيجَ الْعَقَائِفِ بِالرِّجَالِ الْفُجَّارِ.

(١) الموطأ: ٨٢٣/٢ (\*) ٦٨٣٠ ومن طريق مالك عند البخاري ٢٤٦٢ وغيره، ولم ترد من طريق مالك عند مسلم ١٦٩١، وانظر الموطأ: ٨٢٣/٢ (٢) فتح الباري: ١٤٨/١٣ ومسلم: ٣/ ١٣١٧ (٣) البغوي: ٣٢١/٣ (٤) أبو داود: ٥٤٠/٤ (٥) أحمد: ٣٤/٥ (٦) الدر المنثور: ١٢٧/٦ (٧) أحمد: ١٥٨ والنسائي في الكبرى: ٤١٥/٦ (٨) أبو داود: ٥٤٣/٢



وَلَشَقَّ عَلَيْكُمْ كَثِيرٌ مِنْ أُمُورِكُمْ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ أَيْ: عَلَى عِبَادِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْحَلْفِ وَالْإِيمَانِ الْمُغْلَظَةِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا يَشْرَعُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَفِيمَا يَنْهَى عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِمُقْتَضَى الْعَمَلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَذَكَرَ سَبَبَ نَزُولِهَا، وَفِيمَنْ نَزَلَتْ فِيهِ مِنَ الصَّاحِبَةِ.

### [سَبَبُ نَزُولِ آيَةِ اللَّعَانِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَلَا يَدْخُلُوهُنَّ لَعْنَةُ اللَّهِ لَعْنَةُ اللَّهِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْأَنْصَارِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَهَكَذَا أُنْزِلَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَلْمُهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ غَيُورٌ، وَاللَّهِ مَا تَزَوَّجَ امْرَأَةً قَطُّ إِلَّا بِكُرٍّ، وَمَا طَلَّقَ امْرَأَةً لَهُ قَطُّ، فَاجْتَرَأَ رَجُلٌ مِنَّا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا مِنْ شِدَّةِ غَيْرَتِهِ. فَقَالَ سَعْدُ: وَاللَّهِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ وَأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، وَلَكِنِّي قَدْ تَعَجَّبْتُ أَنِّي لَوْ وَجَدْتُ لَكَاعًا قَدْ فَخَّحَهَا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ لِي أَنْ أَهْبِجَهُ وَلَا أُحْرِكُهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَوَاللَّهِ لَا آتِي بِهِمْ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ - قَالَ: فَمَا لَبِثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ هَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ - وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَبَّ عَلَيْهِمْ - فَجَاءَ مِنْ أَرْضِهِ عِشَاءً، فَوَجَدَ عِنْدَ أَهْلِهِ رَجُلًا، فَرَأَى بَعْثِيهِ وَسَمِعَ بِأَذْنِيهِ فَلَمْ يُهْبِجْهُ حَتَّى أَصْبَحَ، فَعَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي جِئْتُ عَلَى أَهْلِي عِشَاءً فَوَجَدْتُ عِنْدَهَا رَجُلًا، فَرَأَيْتُ بَعْثِي وَسَمِعْتُ بِأَذْنِي، فَكَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا جَاءَ بِهِ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأَنْصَارُ وَقَالُوا: قَدْ ابْتَلَيْنَا بِمَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، الْآنَ يَضْرِبُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَلَالَ بْنُ أُمَيَّةَ وَيَبْطِلُ شَهَادَتُهُ فِي النَّاسِ، فَقَالَ هَلَالٌ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِي مِنْهَا مَخْرَجًا. وَقَالَ هَلَالٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنِّي قَدْ أَرَى مَا اشْتَدَّ عَلَيْكَ مِمَّا جِئْتُ بِهِ، وَاللَّهِ يَغْلَمُ أَنِّي لَصَادِقٌ. فَوَاللَّهِ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَأْمُرَ بِضَرْبِهِ إِذْ أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ الْوَحْيُ، وَكَانَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ عَرَفُوا ذَلِكَ فِي تَرَبُّدِ وَجْهِهِ - يَعْنِي فَأَمْسَكُوا عَنْهُ - حَتَّى قَرَعَ مِنَ الْوَحْيِ، فَتَنَزَّلَتْ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾

اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿هَذَا إِلَّا شِئْنَاءُ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَتَيْنِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ - أَمَّا الْجُلْدُ فَقَدْ ذَهَبَ وَانْقَضَى، سِوَاءَ تَابٍ أَوْ أَصْرٍ، وَلَا حُكْمَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَا خِلَافٍ، فَإِذَا تَابَ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، وَارْتَفَعَ عَنْهُ حُكْمُ الْفِسْقِ، نَصَّ عَلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ - سَيِّدُ التَّابِعِينَ - وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ أَيْضًا<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ وَالصَّحَّاحُ: لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ وَإِنْ تَابَ، إِلَّا أَنْ يَغْتَرِفَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ قَالَ الْبُهْتَانُ، فَحِينَئِذٍ تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ<sup>(٢)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦) وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذَرُوهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

### [بَيَانُ اللَّعَانِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا فَرَجٌ لِلْأَزْوَاجِ وَزِيَادَةٌ مَخْرَجٍ إِذَا قَذَفَ أَحَدُهُمْ زَوْجَتَهُ، وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ أَنْ يَلَاغِنَهَا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَنْ يُحْضِرَهَا إِلَى الْإِمَامِ فَيَدْعِي عَلَيْهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ، فَيَحْلِفُ الْحَاكِمُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ فِي مُقَابَلَةِ أَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ ﴿إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيْ: فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزُّنَا ﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ، بَانَتْ مِنْهُ بِنَفْسِ هَذَا اللَّعَانِ وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ أَبَدًا، وَيُعْطِيهَا مَهْرَهَا، وَيَتَوَّجَعُ عَلَيْهَا حَدُّ الزُّنَا، وَلَا يُدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ إِلَّا أَنْ تُلَاعِنَ فَتَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، أَيْ: فِيمَا رَمَاهَا بِهِ ﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَيَذَرُوهَا الْعَذَابَ﴾ يَعْنِي الْحَدَّ ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٨) وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَخَصَّهَا بِالْغَضَبِ، كَمَا أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَتَجَسَّمُ فَضِيحَةً أَهْلِيهِ وَزَمَنِيهَا بِالزُّنَا إِلَّا وَهُوَ صَادِقٌ مُعْذَرٌ، وَهِيَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْخَامِسَةُ فِي حَقِّهَا أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ الْحَقَّ ثُمَّ يَحِيدُ عَنْهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى رَأْفَتَهُ بِحَلْفِهِ وَلُطْفَهُ بِهِمْ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَكُونُ بِهِمْ مِنَ الضِّيقِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أَيْ: لَحَرِّجْتُمْ

(١) الطبري: ١٠٥/١٩ (٢) الطبري: ١٠٨، ١٠٣، ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥١

سُورَةُ النُّورِ

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ تَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ تَوَلَّى جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ بِاللَّسَنِ لَمْ يَقُولُوا بِالْفَوَاحِشِ حَتَّى يُؤْمِرُ بِهِ أَعْلَمُ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَشَرٌ نَّحْنُ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١﴾

## [حَدِيثُ الْإِفْكِ]

هَذِهِ الْعَشْرُ الْآيَاتُ كُلُّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ رَمَاهَا أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْبُهَنَانِ مِنَ الْمُتَافِقِينَ بِمَا قَالُوهُ مِنَ الْكُذْبِ الْبَحْتِ وَالْفَرِيَةِ الَّتِي غَارَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهَا وَلَيْسَ بِهِ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهَا صِيَانَةَ لِعَرْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أَيُّ: جَمَاعَةٌ مِّنْكُمْ يَعْنِي مَا هُوَ وَاحِدٌ وَلَا ائْتَانِ بَلْ جَمَاعَةٌ، فَكَانَ الْمُقَدَّمُ فِي هَذِهِ اللَّعْنَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ابْنُ سُلُوكِ رَأْسِ الْمُتَافِقِينَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، حَتَّى دَخَلَ ذَلِكَ فِي أَذْهَانِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فَتَكَلَّمُوا بِهِ، وَجَوَزَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرِ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَسَيِّاقُ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ

فَشْهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ... الْآيَةِ، فَسَرَّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أُبَيِّنُ يَا هَلَالُ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا». فَقَالَ هَلَالُ: قَدْ كُنْتُ أَرْجُو ذَلِكَ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْسِلُوا إِلَيْهَا» فَأَرْسَلُوا إِلَيْهَا فَجَاءَتْ، فَتَلَاها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمَا، فَذَكَرَهُمَا وَأَخْبَرَهُمَا أَنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، فَقَالَ هَلَالُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَتْ: كَذَبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عُنَا بَيْنَهُمَا» فَقِيلَ لِهَلَالٍ: اشْهَدْ، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ قِيلَ لَهُ: يَا هَلَالُ اتَّقِ اللَّهَ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُوجِبَةُ الَّتِي تُوجِبُ عَلَيْكَ الْعَذَابَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يُعَذِّبُنِي اللَّهُ عَلَيْهَا كَمَا لَمْ يُجْلِدْنِي عَلَيْهَا، فَشَهِدَ فِي الْخَامِسَةِ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. ثُمَّ قِيلَ لِلْمَرَأَةِ: اشْهَدِي أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، وَقِيلَ لَهَا عِنْدَ الْخَامِسَةِ: اتَّقِي اللَّهَ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُوجِبَةَ الَّتِي تُوجِبُ عَلَيْكَ الْعَذَابَ، فَتَلَكَّاتُ سَاعَةً وَهَمَّتْ بِالْإِعْتِرَافِ، ثُمَّ قَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَفْضَحُ قَوْلِي، فَشَهِدَتْ فِي الْخَامِسَةِ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَفَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وَقَضَى أَنْ لَا يُدْعَى وَلَدُهَا لِأَبٍ، وَلَا يُرْمَى وَلَدُهَا، وَمَنْ رَمَاهَا أَوْ رَمَى وَلَدُهَا فَعَلَيْهِ الْحُدُ، وَقَضَى أَنْ لَا يَبْتَئَ لَهَا عَلَيْهِ وَلَا قُوَّةَ لَهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَفْتَرِقَا مِنْ غَيْرِ طَلَاقٍ وَلَا مَتَوَلَّى عَنْهَا، وَقَالَ: «إِنْ جَاءَتْ بِهِ أَصْنِيبُ [أَرْسِيح] حَمَشَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِهَلَالٍ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقُ جَعَدًا جُمَالِيًا خَدَلَجَ السَّاقَيْنِ، سَابِغَ الْأَلْبَتَيْنِ، فَهُوَ لِلَّذِي رُمِيَ بِهِ». فَجَاءَتْ بِهِ أَوْرَقُ جَعَدًا جُمَالِيًا خَدَلَجَ السَّاقَيْنِ سَابِغَ الْأَلْبَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلَا الْإِيمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ». قَالَ عِكْرِمَةُ: فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرَ، وَكَانَ يُدْعَى لِأُمِّهِ وَلَا يُدْعَى لِأَبٍ <sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ <sup>(٢)</sup> نَحْوَهُ. مُخْتَصَرًا.

وَلِهَذَا الْحَدِيثِ شَوَاهِدٌ كَثِيرَةٌ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا مِنْ وُجُوهِ كَثِيرَةٍ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُهَا شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُبَيِّضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْإِلَافِ، وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يُرِيْنِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَسْلَمُ ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تَبْكُمُ؟» فَذَلِكَ الَّذِي يُرِيْنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَهَا نَفْثْتُ، وَخَرَجْتُ مَعِيَ أُمُّ مَسْطَحٍ، قَبْلَ الْمَنَاصِعِ - وَهُوَ مُتَبَرِّزُنَا - وَلَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُتُفَ قَرِيبًا مِنْ بَيْتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي التَّنَزُّوِ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكُنَّا نَتَأَذَى بِالْكُتُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا فِي بَيْتِنَا، فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مَسْطَحٍ، وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُحْمٍ بْنِ الْمُطَّلِبِ ابْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرٍ بْنِ عَامِرٍ خَالَهَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، وَابْنُهَا مَسْطَحٌ بْنُ أَثَنَاءَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَابْنَةُ أَبِي رُحْمٍ أُمُّ مَسْطَحٍ قَبْلَ بَيْتِي حِينَ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرْتُ أُمُّ مَسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعَسَ مَسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَمَا قُلْتَ، تَسْبِيحُ رَجُلًا شَهِدَ بَذْرًا؟ قَالَتْ: أَيْ: هُنَا، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَاذَا قَالَ؟ قَالَتْ: فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِلَافِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تَبْكُمُ؟» فَقُلْتُ لَهُ: أَنَا ذُنُ لِي أَنْ آتَى أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَقَنَّ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ لِمَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهِ؟ فَقَالَتْ: أَيْ بَنِيَّةٌ هَوْنِي عَلَيْكَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرَنَ عَلَيْهَا. قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَا، فَكَيْفَ تَلِكِ اللَّيْلَةُ حَتَّى أَصْبَحْتُ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَجِلُ بَنُومَ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْنِي، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلَبْتُ الْوُحْيَ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ، فَقَالَ أُسَامَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ [هُم] أَهْلُكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُصَيِّبِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءَ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصُدِّقُكَ الْخَبَرُ. قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ: «أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يُرِيْبُكَ

الْمُسَيِّبِ وَغُرُوهُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَعَلَقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ وَغَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِلَافِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلُّهُمْ قَدْ حَدَّثَنِي بِطَائِفَةٍ مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ وَأَثْبَتَ لَهُ افْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، ذَكَرُوا: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَفْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيُّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَأَفْرَعَ بَيْنَنَا فِي غُرُوهَ غَرَاهَا، فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، وَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَلِكَ بَعْدَمَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَنَزُنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غُرُوهِ تَلَكَّ وَقَفَّلَ وَدَنُونَا مِنَ الْمَدِينَةِ، أَذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ فَقُمْتُ حِينَ أَذَنَ بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ وَأَقْبَلُ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، قَالَتْ: وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خُفَافًا [لَمْ يُهْلَهُنَّ] وَلَمْ يَشْهِنَّ اللَّحْمَ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَةَ الْهُودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَتَبِعْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذُّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَادَّلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَانِي، وَقَدْ كَانَ رَأَانِي قَبْلَ [أَنْ يُضْرَبَ عَلَيَّ] الْحِجَابُ، فَاسْتَيْقِظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَحَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَاللَّهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ [حَتَّى] أَنَاخَ رَاخَلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَارْكَبَتْهَا، فَأَنْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظُّهَيْرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبَرُهُ

كثيراً من القرآن: والله لقد عرفتُ، أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتُم به، ولئن قلتُ لكم: إني بريئة والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفْتُ بأمرٍ والله يعلم أني منه بريئة لتصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا فَصَحُونَ﴾ قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَأَضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَبِيزٌ أَنِّي بَرِيَّةٌ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُبْرِئِي بِرَأْيِي، وَلَكِنْ وَاللَّهُ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُثَلِّي، وَلَسْأَنِي كَانَ أَحَقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُثَلِّي، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبْرِئُنِي اللَّهُ بِهَا. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [مِنْ] مَجْلِسِهِ وَلَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ النَّبِيِّ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ عِنْدَ الْوُحْيِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ، وَهُوَ فِي [الْيَوْمِ الشَّاتِ] مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «أُبَشِّرِي يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَأَكَ» قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: فُؤِمِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهُ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلَّهَا، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ [هَذِهِ الْآيَاتِ] فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحَ بْنِ أَنَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقَرَهُ: وَاللَّهُ لَا أَنْفَقُ عَلَيْهِ شَيْئاً أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِي أَوْلَا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهُ إِنِّي لِأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحَ التَّفَقُّةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهُ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، وَاللَّهُ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَرَعِ. وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا،

مِنْ عَائِشَةَ؟» فَقَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِضُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السَّنَّ، تَتَأَمَّرُ عَنْ عَجِيزٍ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنَ فَتَأْكُلُهُ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعَذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعِدُّنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِيَ» فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَنَا أَعِزُّكُمْ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا بِأَمْرِكَ، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ اخْتَمَلَتْهُ الْحُمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ: لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلْهُ وَلَا تَقْدِرْ عَلَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ! لَعَمْرُ اللَّهِ لَقَتَلْتَهُ، فَإِنَّكَ مُتَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُتَافِقِ، فَتَنَازَرِ الْحَبَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتُلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمُنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، وَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: وَبَكَيتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَزُقُّ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِيَوْمٍ، وَأَبَوَايَ يَطْنَانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كِبْدِي، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي اسْتَأْذَنْتُ عَلَيَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِيَ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحِي إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشْهَدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتُ بَرِيَّةً فَسِيرْتُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتُ أَلَمْتُ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ ثُمَّ تُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَحِبَّ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: وَاللَّهُ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ لِأُمِّي أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: وَاللَّهُ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: فَقُلْتُ - وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السَّنَّ لَا أَقْرَأُ

خَيْرٌ ﴿١﴾ أَيْ: قَاسُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْأُخْرَى. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّاسِي بِقَوْلِ أَبِي أَيُّوبَ خَالِدِ بْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ وَأَمْرَاتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارَ: أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ خَالِدَ بْنَ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَتْ لَهُ أَمْرَاتُهُ أُمُّ أَيُّوبَ: يَا أَبَا أَيُّوبَ أَمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ وَذَلِكَ الْكُذِبُ، أَكُتِبَ فَاعْلَمْ ذَلِكَ يَا أُمُّ أَيُّوبَ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ. قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ قَالَ فِي الْفَاحِشَةِ مَا قَالَ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ وَذَلِكَ حَسَنٌ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ قَالُوا مَا قَالُوا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ... الْآيَةَ، أَيْ: كَمَا قَالَ أَبُو أَيُّوبَ وَصَاحِبَتُهُ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ إِنْخَ أَيْ: هَلَّا ظَنُّوا الْخَيْرَ فَإِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلُهُ وَأَوَّلَى بِهِ. هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَاطِنِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا﴾ أَيْ: بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ: كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِيَّةً، وَذَلِكَ أَنَّ مَجِيءَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَاكِبَةً جَهْرَةً عَلَى رَاحِلَةٍ صَفْوَانِ بْنِ الْمُعَطَّلِ فِي وَقْتِ الظَّهيرةِ، وَالْجَنَشِ بِكَمَالِهِ يَشَاهِدُونَ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِيهِ رِيَّةٌ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا جَهْرَةً وَلَا كَانَا يَقْدَمَانِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، بَلْ كَانَ يَكُونُ هَذَا لَوْ قُدِّرَ خُفْيَةً مَسْتُورًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ مِمَّا رَمَوْا بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْكُذِبُ الْبَحْثُ، وَالْقَوْلُ الزُّورُ، وَالزُّرْعُونَةُ الْفَاحِشَةُ الْفَاجِرَةُ، وَالصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا﴾ أَيْ: هَلَّا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلَى مَا قَالُوهُ ﴿بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ﴾ يَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أَيْ: فِي حُكْمِ اللَّهِ كَاذِبُونَ فَاجِرُونَ.

﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَكْتُمْ فِي مَا

(١) أحمد: ١٩٤/١ (٢) فتح الباري: ٣٠٦/٨ ومسلم: ٤/٢١٢٩ (٣) ابن هشام: ٣٠٩/٣ (٤) فتح الباري: ٣٤٠/٨ (٥) الطبري: ١٢٩/١٩ إسناده ضعيف فيه بعض رجال بني النجار! وتدليس محمد بن إسحاق وقد نعنن ولم يصرح.

فَهَلَكْتُ فِيهِمْ هَلَكٌ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: فَهَذَا مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ<sup>(٣)</sup> كَذَلِكَ. قَالَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَزْمِ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ عَمْرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ. بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أَيْ: بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتِ وَالْإِفْتِرَاءِ ﴿عُصْبَةٌ﴾ أَيْ: جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ أَيْ: يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: لِسَانُ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا، وَرَفْعَةٌ مَنَازِلَ فِي الْآخِرَةِ، وَإِظْهَارُ شَرَفٍ لَهُمْ بِاعْتِنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بِعَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حَيْثُ أُنْزِلَ اللَّهُ بَرَاءَتَهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ...﴾ الْآيَةَ [فصلت: ٤٢]، وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعَنْهَا وَهِيَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ، قَالَ لَهَا: أَبْشِرِي فَإِنَّكَ رَوْحَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يُجِبُكَ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ بِكَرًّا غَيْرِكَ، وَنَزَلَتْ بَرَاءَتُكَ مِنْ السَّمَاءِ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ يَتَّبِعُ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أَيْ: لِكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَرَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْفَاحِشَةِ نَصِيبَ عَظِيمٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَالَّذِي قَوْلُكَ كِبَرُ مِنْهُمْ﴾ قِيلَ: ابْتَدَأَ بِهِ. وَقِيلَ: الَّذِي كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ وَيُدْبِعُهُ وَيُسَيِّعُهُ ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوفَ قَبَّحَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَعَنَهُ.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾

[تَأْدِيبُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِشَاعَةِ الْإِفْكِ]

هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جِئْنَا أَفَاضَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِ الْإِفْكِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا﴾ يَعْنِي هَلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْكَلَامَ الَّذِي رُمِيتَ بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ

أَفَضَّسْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبَعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ يَعُظِّكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ [التَّأْدِيبُ مَرَّةً أُخْرَى]

هَذَا تَأْدِيبٌ آخَرَ بَعْدَ الْأَوَّلِ الْأَمْرِ بِظَنِّ الْخَيْرِ، أَيُّ: إِذَا ذَكَرَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْقَوْلِ فِي شَأْنِ الْخَيْرَةِ [فَأَوْلًا] يَنْبَغِي الظَّنُّ بِهِمْ خَيْرًا، وَأَنْ لَا يُشْعِرَ نَفْسَهُ سِوَى ذَلِكَ، ثُمَّ إِنْ عَلِقَ بِنَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ - وَسُوءَةٌ أَوْ خِيَالًا - فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ» أخرجاه في الصحيحين<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أَيُّ: مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَفَوَّهَ بِهَذَا الْكَلَامِ وَلَا نَذْكُرَهُ لِأَحَدٍ ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ أَيُّ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يُقَالَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى زُوجَةٍ رَسُولِهِ وَحَلِيلَةِ حَلِيلِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعُظِّكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أَيُّ: يَنْهَاكُمُ اللَّهُ مَتَوَعَّدًا أَنْ يَقَعَ مِنْكُمْ مَا يُشَبِّهُ هَذَا أَبَدًا أَيُّ: فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَشَرْعِهِ، وَتُعَظِّمُونَ رَسُولَهُ ﷺ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُصَفًى بِالْكَفْرِ فَلَهُ حُكْمٌ آخَرُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أَيُّ: يَوْضَحُ لَكُمْ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْحُكْمَ الْقُدْرِيَّةَ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ: عَلِيمٌ بِمَا يُضِلُّعُ عِبَادَهُ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَقُدْرِهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَتِجَ الْفَاحِشَةُ فِي الذِّكْرِ﴾ أَمَّاوَاهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ [تَأْدِيبٌ مِنْ بُحْبُ إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ]

هَذَا تَأْدِيبٌ ثَالِثٌ لِمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، فَقَامَ بِذَهْنِهِ شَيْءٌ مِنْهُ وَتَكَلَّمَ بِهِ فَلَا يَكْثُرُ مِنْهُ وَلَا يُشِيعُهُ

[فَضَّلَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْإِفْكِ بِتَوْفِيقٍ لِلتَّوْبَةِ لَهُمْ] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَيُّهَا الْخَائِضُونَ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ بِأَنْ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ وَإِنَّا بَتَّكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَعَقَّا عَنْكُمْ لِيِيمَانِكُمْ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿لَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضَّسْتُمْ فِيهِ﴾ مِنْ قَضِيَّةِ الْإِفْكِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿وَهَذَا فِيمَنْ عِنْدَهُ إِيْمَانٌ رَزَقَهُ اللَّهُ بِسَبَبِهِ التَّوْبَةَ إِلَيْهِ، كَيْسَطُحٌ وَحَسَانٌ وَحَمَنَةٌ بِنْتُ جَحْشٍ أُخْتُ زَيْنَبَ بِنْتُ جَحْشٍ، فَأَمَّا مَنْ خَاصَ فِيهِ مِنَ الْمُتَفَاعِلِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ وَأَصْرَابِهِ، فَلَيْسَ أُولَئِكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عَنْدهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يُعَادِلُ هَذَا وَلَا مَا يُعَارِضُهُ. وَهَكَذَا شَأْنٌ مَا يَرِدُ مِنَ التَّوْبَةِ عَلَى فِعْلٍ مُعَيَّنٍ يَكُونُ مُطْلَقًا مَشْرُوطًا بِعَدَمِ التَّوْبَةِ، أَوْ مَا يُقَابِلُهُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُوزَانُهُ أَوْ يُرْجَحُ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ: أَيُّ: يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ<sup>(٥)</sup>. يَقُولُ هَذَا: سَمِعْتُهُ مِنْ فُلَانٍ، وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَذَا، وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ تَقْرُؤُهَا كَذَلِكَ<sup>(٦)</sup>. وَتَقُولُ: هُوَ مِنْ وَلَقِيَ اللِّسَانَ: يَغْنِي الْكَذِبَ الَّذِي يَسْتَوِرُ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: وَلَقِيَ فُلَانٌ فِي السَّيْرِ إِذَا اسْتَمَرَ فِيهِ، وَالْقِرَاءَةُ الْأُولَى أَشْهَرُ وَعَلَيْهَا الْجُمْهُورُ، وَلَكِنْ الثَّانِيَّةُ مَرْوِيَّةٌ عَنْ أَمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أَيُّ: تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أَيُّ: تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ فِي شَأْنِ أَمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَتَحْسَبُونَ ذَلِكَ يَسِيرًا سَهْلًا وَلَوْ لَمْ تَكُنْ زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ لَمَا كَانَ هَيِّنًا، فَكَيْفَ وَهِيَ زَوْجَةُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ؟ فَعَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يُقَالَ فِي زَوْجَةِ رَسُولِهِ مَا قِيلَ! فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعَارِ لِهَذَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَقْدُرُ عَلَى زَوْجَةِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ذَلِكَ - حَاشَا وَكَلَّا - وَلَكِنَّا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا فِي سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَزَوْجَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ

(١) الطبري: ١٣٢/١٩ (٢) فتح الباري: ٣٤٠/٨ (٣) فتح الباري: ٣١٤/١١ ومسلم: ٢٢٩٠/٤ (٤) فتح الباري: ١١/٥٥٧ ومسلم: ١١٦/١ و١١٧

وَيُذِيعُهُ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ: يَخْتَارُونَ ظُهُورَ الْكَلَامِ عَنْهُمْ بِالْقَبِيحِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: بِالْحَدِّ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: فَرُدُّوا الْأُمُورَ إِلَيْهِ تَرَشَّدُوا. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُؤَدُّوا عِبَادَ اللَّهِ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مِنْ طَلَبِ عَوْرَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ»<sup>(١)</sup>.  
 ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>  
 يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ<sup>(٣)</sup>  
 [التَّذْكِيرُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ]  
 يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ: لَوْلَا هَذَا لَكَانَ أَمْرٌ آخَرُ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى رَءُوفٌ بِعِبَادِهِ رَحِيمٌ بِهِمْ، فَتَابَ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَطَهَّرَ مَنْ طَهَّرَ مِنْهُمْ بِالْحَدِّ الَّذِي أَقِيمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ يَعْنِي طَرَائِقَهُ وَمَسَالِكَهُ وَمَا يَأْمُرُ بِهِ ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هَذَا تَنْفِيرٌ وَتَحْذِيرٌ مِنْ ذَلِكَ بِإَفْصَحِ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغِهَا وَأَوْجَزِهَا وَأَحْسَنِهَا، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿خُطُوبَاتُ الشَّيْطَانِ﴾ عَمَلُهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: نَزَاعَاتِهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كُلُّ مَعْصِيَةٍ فِيهِ مِنْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: التَّدْوِيرُ فِي الْمَعَاصِي مِنْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ<sup>(٦)</sup>.  
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أَيُّ: لَوْلَا هُوَ يَزَكِّي مَنْ يَشَاءُ التَّوْبَةَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ وَيُزَكِّي النُّفُوسَ مِنْ شُرُكَيْهَا، وَفُجُورِهَا وَذُنُوبِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ أَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ - كُلٌّ بِحَسَبِهِ - لَمَّا حَصَلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةٌ وَلَا خَيْرًا ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ: مِنْ خَلْقِهِ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُزِيدُ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَالْعَيِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أَيُّ: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ الْهُدَى وَالضَّلَالَ.

وَيُذِيعُهُ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ: يَخْتَارُونَ ظُهُورَ الْكَلَامِ عَنْهُمْ بِالْقَبِيحِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: بِالْحَدِّ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: فَرُدُّوا الْأُمُورَ إِلَيْهِ تَرَشَّدُوا. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُؤَدُّوا عِبَادَ اللَّهِ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مِنْ طَلَبِ عَوْرَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ»<sup>(١)</sup>.  
 ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>  
 يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ<sup>(٣)</sup>

[التَّذْكِيرُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ]  
 يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ: لَوْلَا هَذَا لَكَانَ أَمْرٌ آخَرُ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى رَءُوفٌ بِعِبَادِهِ رَحِيمٌ بِهِمْ، فَتَابَ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَطَهَّرَ مَنْ طَهَّرَ مِنْهُمْ بِالْحَدِّ الَّذِي أَقِيمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ يَعْنِي طَرَائِقَهُ وَمَسَالِكَهُ وَمَا يَأْمُرُ بِهِ ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هَذَا تَنْفِيرٌ وَتَحْذِيرٌ مِنْ ذَلِكَ بِإَفْصَحِ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغِهَا وَأَوْجَزِهَا وَأَحْسَنِهَا، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿خُطُوبَاتُ الشَّيْطَانِ﴾ عَمَلُهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: نَزَاعَاتِهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كُلُّ مَعْصِيَةٍ فِيهِ مِنْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: التَّدْوِيرُ فِي الْمَعَاصِي مِنْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ<sup>(٦)</sup>.  
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أَيُّ: لَوْلَا هُوَ يَزَكِّي مَنْ يَشَاءُ التَّوْبَةَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ وَيُزَكِّي النُّفُوسَ مِنْ شُرُكَيْهَا، وَفُجُورِهَا وَذُنُوبِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ أَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ - كُلٌّ بِحَسَبِهِ - لَمَّا حَصَلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةٌ وَلَا خَيْرًا ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ: مِنْ خَلْقِهِ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُزِيدُ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَالْعَيِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أَيُّ: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ الْهُدَى وَالضَّلَالَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أَيُّ: لَوْلَا هُوَ يَزَكِّي مَنْ يَشَاءُ التَّوْبَةَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ وَيُزَكِّي النُّفُوسَ مِنْ شُرُكَيْهَا، وَفُجُورِهَا وَذُنُوبِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ أَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ - كُلٌّ بِحَسَبِهِ - لَمَّا حَصَلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةٌ وَلَا خَيْرًا ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ: مِنْ خَلْقِهِ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُزِيدُ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَالْعَيِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أَيُّ: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ الْهُدَى وَالضَّلَالَ.

﴿وَلَا يَأْتِي أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ

يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٧)</sup>

[حَثًا لِأُولَى الْفَضْلِ عَلَى الْعَطَاءِ وَالسَّمَاحِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِي﴾ مِنَ الْآيَةِ، وَهِيَ: الْحَلْفُ، أَيُّ: لَا يَخْلِفُ ﴿أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ: الطَّوْلِ وَالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أَيُّ: الْجَدَّةِ ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: لَا تَخْلِفُوا أَنْ لَا تَصَلُّوا قَرَابَاتِكُمُ الْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ. وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّرَفُّقِ وَالْعُطْفِ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمُوا وَلِيَصْفَحُوا﴾ أَيُّ: عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَذَى. وَهَذَا مِنْ حِلْمِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جِئَ حَلْفَ أَنْ لَا يَتَّقَعَ مِسْطَحَ بْنِ أَثَاةٍ بِنَافِعَةٍ بَعْدَ مَا قَالَ فِي غَائِثَةٍ مَا قَالَ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ، فَلَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِرَأَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ غَائِثَةٍ، وَطَابَتِ النُّفُوسُ الْمُؤْمِنَةُ

(١) أحمد: ٢٧٩/٥ (٢) الطبري: ٣٠١/٣ (٣) الدر المنثور:

٤٠٤/١ (٤) الطبري: ٣٠١/٣

الله؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّهُمْ يَعْصِي الْمُشْرِكِينَ إِذْ رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَهْلُ الصَّلَاةِ قَالُوا: تَعَالَوْا حَتَّى نَجْعَدَ فَيَجْعَدُونَ، فَيُخْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَشْهَدُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْزِنِي مِنَ الظُّلُمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: لَا أَجِيزُ عَلَيْكَ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ عَلَيْكَ شُهُودًا، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطَلِقِي فَتَنْطَلِقِ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ: بَعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَرْنَ كُنْتُ أَنَا ضِلٌّ» وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿دِينَهُمْ﴾ أَيُّ: حِسَابُهُمْ وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ: دِينُهُمْ أَيُّ: حِسَابُهُمْ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْقَائِمُ﴾ أَيُّ: وَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَحِسَابُهُ هُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾<sup>(٦)</sup>

[عَائِشَةُ طَيِّبَةٌ لِأَنَّهَا لِأَطْيَبِ الْبَشَرِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْخَبِيثَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ الْقَوْلِ. وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ - قَالَ: - وَنَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ

وَاسْتَفْرَتْ، وَتَابَ اللَّهُ عَلَى مَنْ كَانَ تَكَلَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ، وَأُقِيمَ الْحَدُّ عَلَى مَنْ أُقِيمَ عَلَيْهِ، شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ - يُعْطِفُ الصَّدِيقَ عَلَى قَرِيبِهِ وَسَيِّبِهِ وَهُوَ مُسَطَّحٌ بِنُ اثْنَاتِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ ابْنُ خَالَةِ الصَّدِيقِ، وَكَانَ مِسْكِينًا لَا مَالَ لَهُ إِلَّا مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ وَلَّى وَلَقَّةً تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا وَضُرِبَ الْحَدُّ عَلَيْهَا، وَكَانَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعْرُوفًا بِالْمَعْرُوفِ، لَهُ الْفَضْلُ وَالْأَيَادِي عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟... الْآيَةُ: فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا تَغْفِرُ عَنِ الْمُنْدِبِ إِلَيْكَ تَغْفِرُ لَكَ، وَكَمَا تَضْمَحُضُ تَضْمَحُضُ عَنْكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الصَّدِيقُ: بَلَى وَاللَّهِ إِنَّا نَحِبُ - يَا رَبَّنَا - أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُسَطَّحٍ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنَ التَّفَقُّعِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا - فِي مُقَابَلَةٍ مَا كَانَ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْفَعُهُ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا - فَلِهَذَا كَانَ الصَّدِيقُ هُوَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ بَنِيهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٧)</sup> يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٨)</sup> يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْقَائِمُ<sup>(٩)</sup>

[الْوَعِيدُ عَلَى رَمَى الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ] هَذَا وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، فَأَمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ أُولَى بِالذُّخُولِ فِي هَذَا مِنْ كُلِّ مُحْصَنَةٍ، وَلَا سِيَّمَا الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ التَّزْوِلِ، وَهِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فَاطِمَةً عَلَى أَنَّ مِنْ سَبَبِهَا بَعْدَ هَذَا وَرَمَاهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ بَعْدَ هَذَا الَّذِي ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ لِأَنَّهُ مُعَايِدٌ لِلْقُرْآنِ. وَكَذَا الْحُكْمُ فِي جَمِيعِ أَمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ... الْآيَةُ، كَقَوْلِهِ﴾<sup>(١٠)</sup> إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... الْآيَةُ [الأحزاب: ٥٧]. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هَذَا فِي عَائِشَةَ وَمَنْ صَنَعَ مِثْلَ هَذَا أَيْضًا الْيَوْمَ فِي الْمُسْلِمَاتِ فَلَهُ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَكِنْ عَائِشَةُ كَانَتْ أُمًّا فِي ذَلِكَ<sup>(١١)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ» قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ

(١) الطبري: ١٩ / ١٣٩ (٢) فتح الباري: ٥ / ٤٦٢ ومسلم: ١ /

٩٢ (٣) الدر المنثور: ٧ / ٣١٩ والطبري: ٨ / ٣٧٣ (٤) مسلم:

٢٩٦٩ (٥) الطبري: ١٩ / ١٤١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥٣

سُورَةُ النُّورِ

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

فَلْيَنْصَرَفْ. فَقَالَ عُمَرُ: لَنَأْتِيَنِي عَلَى هَذَا بَيْتِهِ وَإِلَّا أَوْجَعْتُكَ ضَرْبًا، فَذَهَبَ إِلَى مَلَا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَذَكَرَ لَهُمْ مَا قَالَ عُمَرُ: فَقَالُوا: لَا يَشْهَدُ لَكَ إِلَّا أَضْغَرُنَا، فَقَامَ مَعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فَأَخْبَرَ عُمَرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ <sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَوْ غَيْرِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَأْذَنَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ» فَقَالَ سَعْدٌ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، وَلَمْ يُسْمِعِ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى سَلَّمَ ثَلَاثًا، وَرَدَّ عَلَيْهِ سَعْدٌ ثَلَاثًا وَلَمْ يُسْمِعْهُ، فَارْجَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا سَلَّمْتَ تَسْلِيمَةً إِلَّا وَهِيَ بِأُذُنِي، وَلَقَدْ رَدَدْتَ عَلَيْكَ وَلَمْ أَشْمِعْكَ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَسْتَكْثِرَ مِنْ سَلَامِكَ وَمِنْ الْبَرَكَةِ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ الْبَيْتَ فَقَرَّبَ إِلَيْهِ رَبِيًّا فَأَكَلَ نَبِيٌّ

وَأَهْلُ الْإِنْفِكِ <sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيِّ وَالْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبُضْرِيِّ وَحَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ <sup>(٢)</sup>. وَوَجَّهَهُ بِأَنَّ الْكَلَامَ الْقَبِيحَ أَوَّلَى بِأَهْلِ الْقُبْحِ مِنَ النَّاسِ، وَالْكَلَامَ الطَّيِّبَ أَوَّلَى بِالطَّيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ، فَمَا نَسَبَهُ أَهْلُ التَّفَاقِ إِلَى عَائِشَةَ هُمْ أَوَّلَى بِهِ، وَهِيَ أَوَّلَى بِالْبَرَاءَةِ وَالتَّزَاهَةِ مِنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْخَيْثَابُ مِنَ النِّسَاءِ لِلْخَيْثِ مِنَ الرِّجَالِ. وَالْخَيْثُونُ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَيْثَابِ مِنَ النِّسَاءِ، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ <sup>(٣)</sup>. وَهَذَا أَيْضًا يَرْجِعُ إِلَى مَا قَالَهُ أَوْلَيْكَ بِاللَّازِمِ، أَيُّ: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَائِشَةَ زَوْجَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَهِيَ طَيِّبَةٌ لِأَنَّهُ أَطْيَبُ مِنْ كُلِّ طَيِّبٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَلَوْ كَانَتْ خَيْثَةً لَمَا صَلَحَتْ لَهُ لَا شَرْعًا وَلَا قَدَرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيُّ: هُمْ بَعْدَاءُ عَمَّا يَقُولُهُ أَهْلُ الْإِنْفِكِ وَالْعُدْوَانِ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أَيُّ: بِسَبَبِ مَا قِيلَ فِيهِمْ مِنَ الْكَذِبِ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: عِنْدَ اللَّهِ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ، وَفِيهِ وَعَدٌ بِأَنْ تَكُونَ زَوْجَةً رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى سَتَأْتُوا﴾ وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

### [الاستئذان وأداب الدخول في البيوت]

هَذِهِ آدَابُ شَرِيعَةٍ، أَدَبُ اللَّهِ بِهَا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَذَلِكَ فِي [الاستئذان]. أَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا، أَيُّ: يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ، وَتُسَلِّمُوا بَعْدَهُ، وَيَتَّبِعِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَإِنْ أَذِنَ لَهُ وَإِلَّا انْصَرَفَ. كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا مُوسَى جِئَ اسْتَأْذَنَ عَلَى عُمَرَ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لَهُ انْصَرَفَ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ يَسْتَأْذِنُ؟ ائْذِنُوا لَهُ، فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ قَدْ ذَهَبَ، فَلَمَّا جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ: مَا رَجَعْتُ؟ قَالَ: إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لِي، وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لَهُ

(١) الطبري: ١٤٢/١٩ والدر المنثور: ١٦٧/٦ (٢) الطبري:

١٤٣/١٩ (٣) الطبري: ١٤٤/١٩ (٤) فتح الباري:

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَخْبَرَنِي ابْنُ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا مِنْ امْرَأَةٍ أَكْرَهَ إِلَيَّ أَنْ أَرَى عُرْيَتَهَا مِنْ ذَاتِ مُحَرَّمٍ، قَالَ: وَكَانَ يُشَدُّ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ: سَمِعْتُ هُزَيْلَ بْنَ شُرْحَبِيلَ الْأَوْدِيَّ الْأَعْمَى أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: عَلَيْكُمُ الْإِذْنُ عَلَى أُمَّهَاتِكُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَيْسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: لَا. وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى عَدَمِ الْوُجُوبِ، وَإِلَّا فَلَا أَوْلَى أَنْ يُعْلِمَهَا بِدُخُولِهِ وَلَا يُفَاجِئَهَا بِهِ، لِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَيْئَةٍ لَا تُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا عَلَيَّهَا. وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَبْرِ عَنْ ابْنِ أَخِي زَيْنَبٍ - امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - عَنْ زَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إِلَى الْبَابِ تَتَحَنَّنَ وَتَرْقُ كَرَاهَةً أَنْ يَهْجُمَ مِنَّا عَلَى أَمْرِ يَكْرَهُهُ<sup>(٨)</sup>. إسناده صحيح.

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا لَقِيَ صَاحِبَةً لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: حَيَّتْ صَبَاحًا وَحَيَّتْ مَسَاءً، وَكَانَ ذَلِكَ تَحِيَّةَ الْقَوْمِ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَنْطَلِقُ إِلَى صَاحِبِهِ فَلَا يَسْتَأْذِنُ حَتَّى يَقْتَحِمَ وَيَقُولُ: قَدْ دَخَلْتُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَيَسْئَلُ ذَلِكَ عَلَى الرَّجُلِ، وَلَعَلَّهُ يَكُونُ مَعَ أَهْلِهِ فَعَيَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي سِتْرِ وَعَفَى، وَجَعَلَهُ نِقْبًا نَزَاهًا مِنَ الدَّنَسِ وَالْقَذَرِ وَالذَّرَنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾... الآية<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُقَاتِلٌ، حَسَنٌ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يَعْنِي الْإِسْتِئْذَانُ خَيْرٌ لَكُمْ بِمَعْنَى هُوَ خَيْرٌ مِنَ الطَّرْفَيْنِ: لِلْمُسْتَأْذِنِ وَلِلْأَهْلِ الْبَيْتِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ النَّصْرِ فِي مَلِكِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، فَإِنْ شَاءَ أَذِنَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْذُنْ، ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ

اللَّهُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «أَكَلْ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ يَتَّبِعِي لِلْمُسْتَأْذِنِ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ أَنْ لَا يَقِفَ تَلْقَاءَ الْبَابِ بِوَجْهِهِ، وَلَكِنْ لِيَكُنِ الْبَابُ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ يَسَارِهِ لِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسَيْرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تَلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْبَتِهِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ، وَيَقُولُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ» وَذَلِكَ أَنَّ الدَّوْرَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سُتُورٌ. فَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٢)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَخَذَفْتُهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأَتْ عَيْنَهُ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ»<sup>(٣)</sup>. وَأَخْرَجَ الْجَمَاعَةُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي دِينٍ كَانَ عَلَى أَبِي فَدَقَّقْتُ الْبَابَ، فَقَالَ: «مَنْ ذَا؟» فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: «أَنَا أَنَا» كَأَنَّهُ كَرِهَهُ<sup>(٤)</sup>.

وَإِنَّمَا كَرِهَ ذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ لَا يُعْرَفُ صَاحِبُهَا حَتَّى يُفَصِّحَ بِاسْمِهِ أَوْ كُنْيَتِهِ الَّتِي هُوَ مَشْهُورٌ بِهَا، وَإِلَّا فَكُلُّ أَحَدٍ يُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَا، فَلَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنَ الْإِسْتِئْذَانِ الَّذِي هُوَ الْإِسْتِئْذَانُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي الْآيَةِ، وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْإِسْتِئْذَانُ: الْإِسْتِئْذَانُ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٥)</sup>.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ كَلْدَةَ بِنِ الْحَنْبَلِ أَنَّ صَفْوَانَ ابْنَ أُمَيَّةَ بَعَثَهُ فِي الْفَتْحِ بَلِيًّا وَجَدَايَةً وَ[صَغَابِيَسَ] وَالنَّبِيَّ ﷺ بِأَعْلَى الْوَادِي، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ أَسَلِّمْ وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ، فَقَالَ [النَّبِيُّ] ﷺ: «ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلْ؟» وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أَسَلَّمَ صَفْوَانُ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: سَمِعْتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رِيَّاحٍ يُخْبِرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: ثَلَاثُ آيَاتٍ جَعَلَهُنَّ النَّاسُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْنَكُمْ﴾ قَالَ: وَيَقُولُونَ: إِنَّ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَعْظَمُهُمْ بَيْتًا. قَالَ: وَالْإِذْنُ كُلُّهُ قَدْ جَعَلَهُ النَّاسُ. قَالَ: قُلْتُ: أَسْتَأْذِنُ عَلَى أَخَوَاتِي أَيْتَامَ فِي جُجْرِي مَعِي فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ لِيُرْخِّصَ لِي فَأَبَى، فَقَالَ: تُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَاسْتَأْذِنُ. قَالَ: فَارْجِعْهُ أَيْضًا. فَقَالَ: أَتُحِبُّ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْتَأْذِنُ.

(١) أحمد: ١٣٨/٣ (٢) أبو داود: ٣٧٤/٥ (٣) فتح الباري:

٢٥٣/١٢ ومسلم: ١٦٩٩/٣ (٤) فتح الباري: ٣٧/١١

ومسلم: ١٦٩٧/٣ وأبو داود: ٣٧٤/٥ وتحفة الأحوذى: ٧/

٤٩١ والنسائي في الكبرى: ٩٠/٦ وابن ماجه: ١٢٢٢/٢ (٥)

الطبري: ١٤٦/١٩ إسناده ضعيف لأجل العوفي (٦) أحمد: ٣/

٤١٤ (٧) أبو داود: ٣٦٨/٥ وتحفة الأحوذى: ٤٩٠/٧

والنسائي في الكبرى: ٨٧/٦ (٨) الطبري: ١٤٨/١٩ (٩) الدر

المشور: ١٧٦/٦

اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴿٣٠﴾ أَي: إِذَا رَدُّوكُمْ مِنَ الْبَابِ قَبْلَ الْإِذْنِ أَوْ بَعْدَهُ ﴿فَاتَّجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أَي: رُجُوعُكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَ بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ: لَقَدْ طَلَبْتُ عُمَرَى كُلَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَمَا أَدْرَكْتُهَا: أَنْ أَسْتَأْذِنَ عَلَى بَعْضِ إِخْوَانِي فَيَقُولَ لِي: ارْجِعْ. فَارْجِعْ وَأَنَا مُعْتَبِتٌ [لِقَوْلِهِ] ﴿وَلَنْ يَقِيلَ لَكُمْ اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَلَنْ يَقِيلَ لَكُمْ اتَّجِعُوا فَاتَّجِعُوا﴾... الْآيَةَ أَي: لَا تَقِفُوا عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾... الْآيَةَ، هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَحْصَى مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا تَقْتَضِي جَوَازَ الدُّخُولِ إِلَى الْبُيُوتِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ إِذَا كَانَ لَهُ مَتَاعٌ فِيهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ، كَالْبَيْتِ الْمَعْدُ لِلضَّيْفِ، إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَفَى. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ ثُمَّ نَسَخَ وَاسْتَنْتَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ<sup>(٢)</sup> وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

[الْأَمْرُ بِبَعْضِ الْبَصْرِ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَنْظُرُوا إِلَّا إِلَى مَا أَبَاحَ لَهُمْ النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَأَنْ [يَعْضُوا] أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ، فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصَرُ عَلَى مُحَرَّمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهُ سَرِيعًا، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ نَظَرَةِ الْفَجَاءَةِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي<sup>(٤)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرَفَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَنْبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَدَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الْعَبَّاسِيُّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اكْفُلُوا لِي سِتًّا، أَكْفُلُ لَكُمْ

بِالْحَيَّةِ: إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبُ، وَإِذَا اتَّخَمَ فَلَا يَخُنُ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفُ، وَغَضُّوا أَبْصَارَهُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَهُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ»<sup>(٦)</sup>. وَلَمَّا كَانَ النَّظَرُ دَاعِيَةً إِلَى فَسَادِ الْقَلْبِ أَمَرَ اللَّهُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ كَمَا أَمَرَ بِحِفْظِ الْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ بَوَاعِثُ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وَحِفْظُ الْفُرُوجِ تَارَةٌ يَكُونُ بِمَنْعِهِ مِنَ الزَّنا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْروجهِم حَافِظُونَ﴾ وَتَارَةٌ يَكُونُ بِحِفْظِهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَالسُّنَنِ: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»<sup>(٧)</sup>. ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ أَي: أَطْهَرُ لِقُلُوبِهِمْ وَأَنْقَى لِدِينِهِمْ، كَمَا قِيلَ: مَنْ حَفِظَ بَصَرَهُ أَوْرَثَهُ اللَّهُ نُورًا فِي بَصِيرَتِهِ، وَيُرَوَّى: فِي قَلْبِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَطُّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرَنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزَنَا اللَّسَانَ النَّطْقُ، وَزَنَا الْأُذُنَيْنِ الْإِسْتِمَاعُ، وَزَنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَزَنَا الرَّجْلَيْنِ الْخُطَى، وَالنَّفْسُ تَمْتَلِي وَتَسْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيلًا<sup>(٨)</sup>، وَمُسْلِمٌ مُسْنَدًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ يَنْخُو مَا تَقَدَّمَ<sup>(٩)</sup>. وَقد قَالَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَوُونَ أَنْ يُحَدِّثَ الرَّجُلُ نَظَرَهُ إِلَى الْأَمْرَدِ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ عَيْنٍ بَاكِئَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَيْنًا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، وَعَيْنًا سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنًا يَخْرُجُ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١٠)</sup>.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضَضْنَ مِنْ أَنْصَارِهِنَّ وَحَفِظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا

(١) الطبري: ١٥٠/١٩ (٢) الطبري: ١٥٣/١٩ (٣) مسلم: ١٦٩٩/٣ (٤) فتح الباري: ١٣٤/٥ (٥) تاريخ الخطيب: ٧/٣٩٢ والطبراني في المعجم الكبير ٣١٤/٨ وابن حبان في المجروحين: ٢٠٤/٢ إسناده ضعيف فيه ابن جبير قال ابن حبان لا يحل الاحتجاج به [المجروحين] (٦) أحمد: ٣/٥ وأبو داود: ٣٠٤/٤ والترمذي: ٥٣/٨ والنسائي في الكبرى: ٣١٣/٥ وابن ماجه: ٦١٨/١ (٧) فتح الباري: ٢٨/١١ (٨) مسلم: ٤/٢٠٤٧ (٩) الفردوس للدليمي: ٢٥٦/٣ والدر المنثور: ١٧٨/٦ إسناده وإياه فيه عمر بن محمد بن صهبان وهو منكر الحديث اتفق الأئمة على تضعيفه.

يُذِيكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ  
وَلَا يُذِيكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ  
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي  
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ إِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ  
التَّيْبِعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطُفْلِ الذَّكَرِ لَمْ  
يُظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ  
مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ  
تُقْلِحُونَ ﴿٣١﴾

### [أَحْكَامُ الْحِجَابِ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَغَيْرِهِ مِنْهُ  
لَأَزْوَاجِهِنَّ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَمَيِّزٌ لَهُنَّ عَنْ صِفَةِ نِسَاءِ  
الْجَاهِلِيَّةِ وَفِعَالِ الْمُشْرَكَاتِ، وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ  
مَا ذَكَرَهُ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ قَالَ: بَلَّغْنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ جَابِرَ  
ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ حَدَّثَ أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ مُرَيْدَةَ كَانَتْ  
فِي مَحَلٍّ لَهَا فِي بَنِي حَارِثَةَ، فَجَعَلَ النِّسَاءُ يَدْخُلْنَ عَلَيْهَا  
غَيْرَ مُتَأَذَّرَاتٍ فَيَبْدُو مَا فِي أَرْجُلِهِنَّ مِنَ الْخَلَاخِلِ وَتَبْدُو  
صُدُورَهُنَّ وَذَوَائِبَهُنَّ. فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: مَا أَفْبَحَ هَذَا! فَانْزَلِ  
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ الْآيَةَ (١).  
فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾...  
أَيُّ: عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ.  
وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى جَوَازِ نَظَرِهِنَّ إِلَى  
الْأَجَانِبِ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِحُرَابِهِمْ يَوْمَ  
الْعِيدِ فِي الْمَسْجِدِ وَعَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ وَرَائِهِ  
وَهُوَ يَسْتُرُهَا مِنْهُمْ حَتَّى مَلَتْ وَرَجَعَتْ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: عَنِ  
الْفَوَاجِشِ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كُلُّ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقُرْآنِ يُذَكَّرُ  
فِيهَا حِفْظُ الْفُرُوجِ فَهُوَ مِنَ الرِّثَاءِ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَيَحْفَظْنَ  
فُرُوجَهُنَّ﴾ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ (٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُذِيكُ  
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أَيُّ: لَا يُظْهِرُهُنَّ شَيْئًا مِنَ الزَّيْنَةِ  
لِلْأَجَانِبِ إِلَّا مَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ:  
كَالرِّدَاءِ وَالثِّيَابِ (٤). يَعْنِي عَلَى مَا كَانَ يَتَعَانَاهُ نِسَاءُ الْعَرَبِ  
مِنَ الْمُفْتَنَةِ الَّتِي تُجَلِّلُ ثِيَابَهَا وَمَا يَبْدُو مِنْ أَسْفَالِ الثِّيَابِ.  
فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِيهِ، لِأَنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ، وَنَظِيرُهُ  
فِي زِيِّ النِّسَاءِ مَا يَظْهَرُ مِنْ إِزَارِهَا وَمَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ.  
وَقَالَ يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ الْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ وَأَبُو الْجَوَازِ

وَأَبِرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَغَيْرُهُمْ (٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ يَعْنِي  
الْمَقَانِعَ يُعْمَلُ لَهَا صِنْفَاتٌ ضَارِبَاتٌ عَلَى صُدُورِهِنَّ لِتُؤَارِيَ  
مَا تَحْتَهَا مِنْ صُدْرِهَا وَتَرَائِبِهَا لِتُخَالِفْنَ شِعَارَ نِسَاءِ أَهْلِ  
الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ، بَلْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ  
تَمُرُّ بَيْنَ الرِّجَالِ مُسْفِحَةً بِصُدْرِهَا لَا يُؤَارِيهِ شَيْءٌ، وَرُبَّمَا  
أَظْهَرَتْ عُنُقَهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا وَأَقْرَطَةَ آذَانِهَا، فَأَمَرَ اللَّهُ  
الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْتِزْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَأَحْوَالِهِنَّ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ الْمُؤْمِنَاتِ  
يَذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَسِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنُ أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذَنُ﴾ وَقَالَ  
فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾  
وَالْخُمُرُ جَمْعُ خِمَارٍ وَهُوَ مَا يُخَمَّرُ بِهِ أَيُّ: يُعْطَى بِهِ  
الرَّأْسُ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا النَّاسُ الْمَقَانِعَ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وَلْيَشُدُّدْنَ ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَى  
جُيُوبِهِنَّ﴾ يَعْنِي عَلَى التَّحَرِّ وَالصُّدْرِ فَلَا يَرَى مِنْهُ شَيْءٌ (٦).  
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: يَرْحُمُ  
اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأَوَّلِ لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ  
عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا (٧). وَرَوَى أَيْضًا  
عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَقُولُ:  
لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أَخَذَنَ  
أُزْرَهُنَّ فَشَقَّقَتْهُنَّ مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بِهَا (٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُذِيكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ  
أَزْوَاجِهِنَّ﴾ (أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ  
أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي  
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي  
كُلِّ هَؤُلَاءِ مَحَارِمٍ لِلْمَرْأَةِ يُجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِمْ بَزِيَّتِهَا  
وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَبَرُّجٍ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ الْمُنْذِرِ: عَنْ عِكْرَمَةَ فِي  
هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا يُذِيكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ  
أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ حَتَّى فَرَعَ مِنْهَا وَقَالَ: لَمْ يُذَكِّرِ الْعَمَّ  
وَلَا الْخَالَ لِأَنَّهُمَا يُنْعَتَانِ لِأَبْنَائِهِمَا، وَلَا تَضَعُ خِمَارَهَا عِنْدَ  
الْعَمِّ وَالْخَالِ (٩). فَأَمَّا الزَّوْجُ فَإِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ أَجْلِ  
فَتَنَصْنَعُ لَهُ بِمَا لَا يَكُونُ بِحَضْرَةِ غَيْرِهِ.

(١) الدر المنثور: ١٧٩/٦ هذا من بلاغات مقاتل ولم يدرك جابر  
بن عبدالله رضي الله عنه (٢) البخاري: ٤٥٤ وغيره. (٣)  
الطبري: ١٥٤/١٩ (٤) الطبري: ١٥٦/١٩ (٥) الطبري: ١٩/  
١٥٦ (٦) الدر المنثور: ١٨٢/٦ (٧) فتح الباري: ٣٤٧/٨  
(٨) فتح الباري: ٣٤٧/٨ (٩) ابن أبي شيبه: ٣٣٨/٤

## [آداب مَشْيِ الْمَرْأَةِ فِي الطَّرِيقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾... الآية، كَانَتْ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَفِي رِجْلِهَا خَلْخَالٌ صَامِتٌ لَا يُعْلَمُ صَوْتُهُ، ضَرَبَتْ بِرِجْلِهَا الْأَرْضَ، فَيَسْمَعُ الرِّجَالُ طِينَتَهُ. فَهِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ زِينَتِهَا مَسْتُورًا فَتَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ لِنَظَرِهَا مَا هُوَ خَفِيٌّ، دَخَلَ فِي هَذَا النَّهْيِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾... إِلَى آخِرِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ [أَيْضًا] أَنَّهَا تُنْهَى عَنِ التَّعَطُّرِ وَالتَّطْيِبِ عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنْ بَيْتِهَا فَيَسْمَعُ الرِّجَالُ طِبْعَهَا، فَقَدْ رَوَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ: عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ عَيْنٍ رَايَتِهَا، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا» يَعْنِي رَايَتِهَا. قَالَ: وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَهَذَا حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٧)</sup> رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٨)</sup>.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّهُمْ يُنْهَوْنَ عَنِ الْمَشْيِ فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّبَرُّجِ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَقَدْ اخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ: «اسْتَأْجِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ». فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْصُقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنْ تَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقَ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَيُّ: افْعَلُوا مَا أَمَرَكُم بِهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَاتَّقُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ، فَإِنَّ الْفَلَاحَ كُلَّ الْفَلَاحِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَتَرَكُوا مَا نَهَى عَنْهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَعَانُ.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَتَمَنَ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣١) وَلَيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ نِسَاءَهُنَّ﴾ يَعْنِي تَطَهَّرْ بِزِينَتِهَا أَيْضًا لِلنِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ دُونَ نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ لِكَلَّا تَصِفَهُنَّ لِرِجَالِهِنَّ. وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَشَدُّ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَمْنَعُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ، وَأَمَّا الْمُسْلِمَةُ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فَتَنْزِجُهُ عَنْهُ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُبَايِرِ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ [فَتَنْعَتَهَا] لِزُوجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تَطَهَّرَ زِينَتَهَا لَهَا، وَإِنْ كَانَتْ مُشْرِكَةً لِأَنَّهَا أَمْتُهَا<sup>(٢)</sup>. وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ النَّسَبِ عِزٍّ أَوْ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ يَعْنِي كَالْأَجْرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَكْفَاءٍ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي عُقُولِهِمْ وَلَهُ وَ[خَوَاتِنُهُ]، وَلَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ وَلَا يَشْهَوْنَهُنَّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الْمُعْقَلُ الَّذِي لَا شَهْوَةَ لَهُ<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ عِكْرَمَةُ: هُوَ الْمُخَنَّثُ الَّذِي لَا يَقُومُ ذَكَرُهُ. وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ مُخَنَّثًا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً يَقُولُ: إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلْتُ بِأَرْبَعٍ، وَإِذَا أَذْبَرَتْ أَذْبَرْتُ بِثَمَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هَهُنَا، لَا يَدْخُلُنَّ عَلَيْكُمْ» فَأَخْرَجَهُ، فَكَانَ بِالْبَيْدَاءِ يَدْخُلُ كُلَّ يَوْمٍ جُمُعَةً لَيْسْتَطِيعَ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ الطِّفْلِ الذَّيْفِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ يَعْنِي لِصِغَرِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ أَحْوَالَ النِّسَاءِ وَعَوْرَاتِهِنَّ، مِنْ كَلَامِهِنَّ الرَّخِيمِ وَتَعَطُّفِهِنَّ فِي الْمَشْيَةِ وَحَرَكَاتِهِنَّ وَسَكَتَاتِهِنَّ، فَإِذَا كَانَ الطِّفْلُ صَغِيرًا لَا يَفْهَمُ ذَلِكَ، فَلَا بَأْسَ بِدُخُولِهِ عَلَى النِّسَاءِ، فَأَمَّا إِنْ كَانَ مُرَاهِقًا، أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ، بِحَيْثُ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَيُدْرِيهِ وَيَفْرُقُ بَيْنَ الشَّوَاهِدِ وَالْحُسَنَاءِ، فَلَا يُمْكِنُ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَاكُمُ وَالِدُ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمَوَ؟ قَالَ: «الْحَمَوُ الْمَوْتُ»<sup>(٦)</sup>.

(١) فتح الباري: ٢٥٠/٩ (٢) الطبري: ١٦٠/١٩ (٣) الدر المنثور: ١٨٣/٦ (٤) الطبري: ١٦١/١٩ (٥) مسلم: ٤/١٧١٥، ١٧١٦ وأحمد: ١٥٢/٦ وأبو داود: ٢٢٤/٥ والنسائي في الكبرى: ٣٩٥/٥ (٦) فتح الباري: ٢٤٢/٥ ومسلم: ١٧١١/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٧٠/٨ (٨) أبو داود: ٤٠٠/٤ والنسائي: ١٥٣/٨ (٩) أبو داود: ٤٢٢/٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٥٤

سُورَةُ النُّورِ

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾  
وَلِيسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ  
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ  
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا  
تُكْرِهُوا أَفِينَتَكُمْ عَلَىٰ الْإِغَاءِ ۚ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَنُوعِ عَرْضِ الْحَيَوةِ  
الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ  
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا  
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۖ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ ۖ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ  
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ  
لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ  
نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ  
لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ۖ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ  
وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾

وَلَطْفُهُ أَنْ يَرِزْقَهُ مَا فِيهِ كَفَايَةً لَهَا وَلَهُ.

[الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَافِ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النِّكَاحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ لَا يَجِدُ تَزْوِيجًا: بِالتَّعَفُّفِ عَنِ الْحَرَامِ كَمَا قَالَ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ...»  
الْحَدِيثُ (٧). وَهَذِهِ الْآيَةُ مُطْلَقَةٌ، وَالتِّي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ أَحْصَى مِنْهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأَنْ تَصْرِبُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٥] أَي: صَبْرُكُمْ عَنْ تَزْوِيجِ الْإِمَاءِ خَيْرٌ لَّكُمْ، لِأَنَّ

لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِينَكُمْ عَلَىٰ الْإِغَاءِ ۚ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَنُوعِ عَرْضِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

[الْأَمْرُ بِالنِّكَاحِ]

إِسْتَمَلْتُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُرِيمَاتِ الْمُبِينَةَ عَلَى جُمْلٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالْأَوَامِرِ الْمُبْرَمَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾... إِلَى آخِرِهِ، هَذَا أَمْرٌ بِالتَّزْوِيجِ. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ (١). وَقَدْ جَاءَ فِي الشُّنَنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَزَوَّجُوا تَوَالِدُوا تَنَاسَلُوا، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢).

الْأَيَامَى جُمْعُ أَيْمٍ، وَيُقَالُ ذَلِكَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي لَا زَوْجَةَ لَهُ، سَوَاءً كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ ثُمَّ فَارَقَ أَوْ لَمْ يَتَزَوَّجْ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا. حَكَاهُ الْجَوْهَرِيُّ عَنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، يُقَالُ: رَجُلٌ أَيْمٌ وَامْرَأَةٌ أَيْمٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾... الْآيَةُ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: رَغِبَهُمُ اللَّهُ فِي التَّزْوِيجِ، وَأَمَرَ بِهِ الْأَخْرَارَ وَالْعَبِيدَ، وَوَعَدَهُمْ عَلَيْهِ الْغِنَى، فَقَالَ: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٣).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: ائْتِمِسُوا الْغِنَى فِي النِّكَاحِ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٤). وَذَكَرَ الْبَغَوِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ نُجَيْدٍ (٥). وَعَنِ اللَّيْثِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجَلَانَ، عَنْ سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمُ: النَّكَاحُ يُرِيدُ الْعَفَافَ، وَالْمُكَاتِبُ يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالْعَاذِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ». رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٦).

وَقَدْ زَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِ إِلَّا إِزَارَهُ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى خَاتَمٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَمَعَ هَذَا فَرَّوْجَهُ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، وَجَعَلَ صَدَاقَهَا عَلَيْهِ أَنْ يُعْلَمَهَا مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ. وَالْمَعْهُودُ مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى

(١) فتح الباري: ١٤/٩ ومسلم: ١٠١٩/٢ (٢) لم نثر على هذا اللفظ، وإنما رواه أبو داود والنسائي بلفظ قريب من هذا (٣) الطبري: ١٦٦/١٩ (٤) الطبري: ١٦٦/١٩ (٥) البغوي: ٣/٣٤٢ (٦) أحمد: ٢٥١/٢ وتحفة الأحوذى: ٢٩٦/٥ والنسائي: ٦١/٦ وابن ماجه: ٨٤١/٢ (٧) فتح الباري: ١٤/٩

كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أُمَةٌ أَرْسَلَهَا تَرْيًّا، وَجَعَلَ عَلَيْهَا ضَرِيَّةً يَأْخُذُهَا مِنْهَا كُلُّ وَفَتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ، وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ، فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سُلُولٍ، فَإِنَّهُ كَانَ لَهُ إِمَاءٌ، فَكَانَ يُكْرِهُهُنَّ عَلَى الْبِغَاءِ طَلَبًا لِخَرَاجِهِنَّ، وَرَغْبَةً فِي أَوْلَادِهِنَّ وَرِيَّاسَةً مِنْهُ - فِيمَا يَزَعُمُ - .

ذَكَرَ الْأَثَارُ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عُمَرُو بْنُ عَبْدِ الْخَالِقِ الْبَزَّازُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: كَانَتْ جَارِيَّةُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سُلُولٍ، يُقَالُ لَهَا: مُعَاذَةُ يُكْرِهُهَا عَلَى الزَّانَا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ...﴾ آيَةِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ فِي هَذِهِ آيَةِ. قَالَ: نَزَلَتْ فِي أُمَةٍ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سُلُولٍ يُقَالُ لَهَا: مُسْبِكَةٌ، كَانَ يُكْرِهُهَا عَلَى الْفُجُورِ، وَكَانَتْ لَا بَأْسَ بِهَا فَتَاتِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ آيَةَ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَنْ يُكْرِهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى النَّسَائِيُّ نَحْوَهُ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: بَلَغَنِي - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذِهِ آيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ كَانَا يُكْرِهَانِ امْتِنِينَ لِهَمَّا إِحْدَاهُمَا اسْمُهَا مُسْبِكَةٌ وَكَانَتْ [لِلْأَنْصَارِيِّ]، وَكَانَتْ أُمِيمَةً أُمَّ مُسْبِكَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي: وَكَانَتْ مُعَاذَةُ وَأَرَوَى بَيْتَكَ الْمُنْتَرِلَةَ، فَآتَتْ مُسْبِكَةَ وَأُمَهَا الشَّيْبَةَ فَذَكَرَتَا ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ يَعْنِي الزَّانَا<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا نَحْصُكُ﴾ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ فَلَا مَقْهُومَ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَنْتَعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَي: مِنْ خَرَاجِهِنَّ وَمُتَوَرِّجِهِنَّ وَأَوْلَادِهِنَّ، وَقَدْ نَهَى

الْوَلَدَ يَجِيءُ رَقِيقًا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَيْسَتْ غُفَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يَرَى الْمَرْأَةَ فَكَأَنَّهُ يَشْتَهِي، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ فَلْيَذْهَبْ إِلَيْهَا وَلْيَفْضَحْ حَاجَتَهُ مِنْهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ امْرَأَةٌ فَلْيَنْظُرْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى يُعْنِيَهُ اللَّهُ.

[الْأَمْرُ بِمُكَاتَبَةِ الْعَبِيدِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكَذِبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فُكَايَتُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلشَّادَةِ إِذَا طَلَبَ عِبِيدَهُمْ مِنْهُمْ الْكِتَابَةَ أَنْ يَكَايَتُوهُمْ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ حِيلَةٌ وَكَسْبٌ يُؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الْمَالِ الَّذِي شَارَطَهُ عَلَى آدَائِهِ.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ رَوْحٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَوَاجِبُ عَلَيَّ إِذَا عَلِمْتُ لَهُ مَالًا أَنْ أَكَاتِيَهُ، قَالَ: مَا أَرَاهُ إِلَّا وَاجِبًا. وَقَالَ عُمَرُو بْنُ دِينَارٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَتَأْتُرُهُ عَنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: لَا، ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَنَّ مُوسَى بْنَ أَنَسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ سِيرِينَ سَأَلَ أَنَسَا الْمُكَاتِبَةَ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ فَأَتَى، فَانْطَلَقَ إِلَى عُمَرَ [ابْنِ الْخَطَّابِ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: كَاتِيَهُ، فَأَتَى فَضَرَبَهُ بِالْأُذُنِّ، وَيَتَلَوُّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فُكَايَتُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فَكَاتَبَهُ. هَكَذَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيلًا<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: أَوَاجِبُ عَلَيَّ إِذَا عَلِمْتُ لَهُ مَالًا أَنْ أَكَاتِيَهُ؟ قَالَ: مَا أَرَاهُ إِلَّا وَاجِبًا<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ سِيرِينَ أَرَادَ أَنْ يَكَاتِيَهُ، فَتَلَكَّا عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَتُكَاتِبْتَهُ. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَانَةٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: صِدْقًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَالًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حِيلَةٌ وَكَسْبًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَاثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾. هُوَ النَّصِيبُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الزَّكَاةِ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ وَأَبِيهِ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبَّانَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَاثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ قَالَ: حَثَّ النَّاسَ عَلَيْهِ - مَوْلَاهُ وَغَيْرُهُ - وَكَذَا قَالَ بُرَيْدَةُ بْنُ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيُّ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعِينُوا فِي الرِّقَابِ.

[الْتِهَانِي عَنْ إِكْرَاهِ الْإِمَاءِ عَلَى الزَّانَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ...﴾ آيَةِ،

(١) فتح الباري: ٢١٩/٥ (٢) عبد الرزاق: ٣٧١/٨ (٣)

الطبري: ١٦٧/١٩ (٤) الطبري: ١٧٣/١٩ والبغوي: ٣٤٣/٣

(٥) كشف الاستار: ٦١/٣ موضوع فيه محمد بن الحجاج أبو

عمرو اللخمي قال الهشيمي وهو كذاب [مجمع الزوائد ٨٣/٧] قال

الذهبي: قال أبو حاتم والدارقطني: كذاب [ديوان الضعفاء

والمترولين ٣٦٤٢ ميزان الاعتدال ٥٠٩/٣ المغني في الضعفاء

٥٦٥/٢] ومحمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح وأيضًا من

مرسلات الزهري. (٦) الطبري: ١٧٤/١٩ (٧) النسائي في

الكبرى: ٤١٩/٦ مسلم ٣٠٢٩/٢٦ (٨) الدر المنثور: ١٩٣/٦

(أَحَدُهُمَا): أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّ: مِثْلُ هَذَا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - (١): كَمِشْكَاةٍ.

(وَالثَّانِي): أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ تَقْدِيرُهُ: مِثْلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ كَمِشْكَاةٍ، فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَمَا يَتَلَقَّاهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَطَابِقِ لِمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيمَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَتَوَلَّاهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧] فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ فِي صِفَاتِهِ فِي نَفْسِهِ

بِالْقِنْدِيلِ مِنَ الرَّجَاجِ الشَّافِيفِ الْجَوْهَرِيِّ، وَمَا يَسْتَهْدِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالشَّرْعِ بِالرَّيِّبِ الْجَبْدِ الصَّافِي الْمُسْرِقِ الْمُعْتَدِلِ الَّذِي لَا كَدْرَ فِيهِ وَلَا انْجِرَافَ، فَقَوْلُهُ: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ قَالَ

ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ ابْنُ كَعْبٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هُوَ مَوْضِعُ الْقِنْدِيلِ مِنَ الْقِنْدِيلِ (١٠). هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وَهُوَ الذُّبَابَةُ الَّتِي تُضِيءُ. وَقِيلَ: الْمِشْكَاةُ كُوَّةٌ فِي النَّيْتِ، وَهُوَ مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ فَسَمَّى اللَّهُ طَاعَتَهُ نُورًا ثُمَّ سَمَّاها أَنْوَاعًا سَتَى، قَالَ أَبُو ابْنِ

كَعْبٍ: الْمِصْبَاحُ النُّورُ - وَهُوَ الْقُرْآنُ - وَالْإِيمَانُ الَّذِي فِي صَدْرِهِ (١١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ السَّرَاجُ «الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ

أَيُّ: هَذَا الصُّوءُ مُسْرِقٌ فِي زُجَاجَةٍ صَافِيَةٍ. وَقَالَ أَبُو بِنُ كَعْبٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: وَهِيَ نَظِيرُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ (١٢). «الزُّجَاجَةُ

كُلُّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ» قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِضَمِّ الدَّالِ مِنْ غَيْرِ هَمْزَةٍ مِنَ الدَّرِّ أَيُّ: كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ مِنْ دُرٍّ. وَقَرَأَ آخَرُونَ: (دُرِّيٌّ)

و(دُرِّيٌّ) يَكْشُرُ الدَّالَ وَضَمَّهَا مَعَ الْهَمْزَةِ مِنَ الدَّرِّ وَهُوَ الدَّفْعُ. وَذَلِكَ أَنَّ النَّجْمَ إِذَا رُمِيَ بِهِ يَكُونُ أَشَدَّ اسْتِنَارَةً مِنْ

سَائِرِ الْأَحْوَالِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي مَا لَا يَعْرِفُ مِنَ الْكَوَاكِبِ: دَرَارِي. قَالَ أَبُو بِنُ كَعْبٍ: كَوْكَبٌ مُضِيءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ:

مُضِيءٌ مُبِينٌ ضَخْمٌ «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ» أَيُّ: يُسْتَمَدُّ مِنْ زَيْتِ زَيْتُونٍ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ «زَيْتُونٌ» بَدَلٌ أَوْ عَطْفٌ بَيَانٍ

«لَا شَرْقِيَّةً وَلَا غَرْبِيَّةً» أَيُّ: لَيْسَتْ فِي شَرْقِيٍّ بَقْعَتِهَا فَلَا تَصِلُ إِلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ وَلَا فِي غَرْبِيَّتِهَا فَيَقْلُصُ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَسْبِ الْحَبَامِ وَمَهْرِ الْبَغِيِّ وَحُلُولِ الْكَاهِنِ (١). وَفِي رِوَايَةٍ: «مَهْرُ الْبَغِيِّ حَيْثُ، وَكَسْبُ الْحَبَامِ حَيْثُ، وَتَمَنُّ الْكَلْبِ حَيْثُ» (٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَمَنْ يَكْرِهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ: لَهْنٌ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ جَابِرٍ (٣). وَقَالَ ابْنُ أَبِي

طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِئْتَمَهُنَّ عَلَى مَنْ أَكْرَهُهُنَّ (٤). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءُ

الْحُرَّاسَانِيُّ وَالْأَعْمَشُ وَقَتَادَةُ (٥).

وَلَمَّا فَصَّلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَّهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ يَعْني الْقُرْآنَ، فِيهِ

آيَاتٌ وَاضِحَاتٌ مُفَسَّرَاتٌ «وَمِثْلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ» أَيُّ: خَبَرًا عَنِ الْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ وَمَا حَلَّ بِهِمْ فِي مَخَالَفَتِهِمْ

أَوَامِرَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزحرف: ٥٦]. «وَمَوْعِظَةً» أَيُّ: زَاجِرًا عَنِ

ارْتِكَابِ الْمَنَائِمِ وَالْمَحَارِمِ «لِلْمُتَّقِينَ» أَيُّ: لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَهُ.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

مُبْرَكَةٍ زَيْتُونٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَضَرِبْتُ

اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦)

[مِثْلُ نُورِ اللَّهِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» يَقُولُ: هَادِي أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (٧).

قَوْلُهُ: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِيهِمَا نُجُومَهُمَا وَشَمْسَهُمَا وَقَمَرَهُمَا (٨).

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» فَبُورِهِ أَضَاءَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا

قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيُّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ». أَلْحَدِيثُ (٩). وَعَنِ ابْنِ

مَسْعُودٍ قَالَ: إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نُورُ الْعَرْشِ مِنْ نُورٍ وَجْهِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مِثْلُ نُورِهِ» فِي هَذَا الضَّمِيرِ قَوْلَانِ

(١) مسلم: ١١٩٨/٣ (٢) مسلم: ١١٩٩/٣ (٣) النسائي في

الكبرى: ٤١٩/٦ (٤) الطبري: ١٧٥/١٩ (٥) الطبري: ١٩/

١٧٦، ١٧٥ والدر المنثور: ١٩٥/٦ (٦) الطبري: ١٧٧/١٩

(٧) الطبري: ١٧٧/١٩ (٨) فتح الباري: ٥/٣ ومسلم: ١/

٥٣٢ (٩) الطبري: ١٧٩/١٩ (١٠) الطبري: ١٨٠/١٩ و١٨٣

(١١) الطبري: ١٨١/١٩ (١٢) الطبري: ١٧٨/١٩



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النُّورِ

٣٥٥

رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَحْرٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ  
 الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا أَبْصَرَ ﴿٣٧﴾  
 لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَزِدُّ  
 مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسَابًا  
 بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَنَنًا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا  
 وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾  
 أَوْ كَظَلَمْتَ فِي بَحْرِ لَيْلِي يَعْشُهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن  
 فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكِدْهُ لَمْ  
 يَكْدِرْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ  
 اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ ۖ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ  
 عِلْمٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مَلَكُ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ  
 سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ  
 خِلَالِهِ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ  
 وَيَصْرِفُهُ ۖ عَنْ مَن يَشَاءُ ۚ يَكَادُ سُنْبُرُ بَرَقِهِ يَدَّهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾

يَالْقُدُّوْ وَالْأَصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَحْرٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ  
 وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ  
 وَالْأَبْصَرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ  
 وَاللَّهُ يَزِدُّ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

[فَضَائِلُ الْمَسَاجِدِ وَأَدَابُهَا وَفَضَائِلُ الْمُتَعَاهِدِينَ لَهَا]

لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلَ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَمَا فِيهِ مِنَ  
 الْهُدَى وَالْعِلْمِ: بِالْمُضْبَاحِ فِي الرُّجَاجَةِ الصَّافِيَةِ الْمُتَوَقِّدِ  
 مِنْ زَيْتٍ طَيِّبٍ، وَذَلِكَ كَالْقُنْدِيلِ، ذَكَرَ مَحَلَّهَا، وَهِيَ  
 الْمَسَاجِدُ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَرْضِ،  
 وَهِيَ بَيُوتُهُ الَّتِي يُعْبَدُ فِيهَا وَيُوَحَّدُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتِ أَيْنَ  
 اللَّهُ أَوْ تُرْفَعُ﴾ أَيُّ: أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعَاهِدِهَا وَتَطْهِيرِهَا مِنْ

عَنْهَا الْقَيْءُ قَبْلَ الْغُرُوبِ بَلْ هِيَ فِي مَكَانٍ وَسَطٍ تَفْرَعُهُ  
 الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ، فَيَجِيءُ زَيْتُهَا صَافِيًا  
 مُّعْتَدِلًا مُّشْرِقًا.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿زَيْتُونَهُ  
 لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قَالَ: هِيَ شَجَرَةٌ بِالصَّخْرَاءِ لَا يُظْلَمُهَا  
 شَجَرٌ وَلَا جَبَلٌ وَلَا كَهْفٌ وَلَا يُوَارِيهَا شَيْءٌ وَهُوَ أَجْوَدُ  
 لَزَيْتِهَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا  
 غَرْبِيَّةَ﴾ قَالَ: لَيْسَتْ بِشَرْقِيَّةٍ لَا تُصِيبُهَا الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ،  
 وَلَا غَرْبِيَّةٍ لَا تُصِيبُهَا الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ، وَلَكِنَّهَا شَرْقِيَّةٌ  
 وَغَرْبِيَّةٌ تُصِيبُهَا إِذَا طَلَعَتْ وَإِذَا غَرَبَتْ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿زَيْتُونَهُ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا  
 غَرْبِيَّةَ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ قَالَ: هُوَ أَجْوَدُ الزَّيْتِ، قَالَ: إِذَا  
 طَلَعَتِ الشَّمْسُ أَصَابَتْهَا مِنْ صَوْبِ الْمَشْرِقِ، فَإِذَا أَخَذَتْ  
 فِي الْغُرُوبِ أَصَابَتْهَا الشَّمْسُ، فَالْشَّمْسُ تُصِيبُهَا بِالْغَدَاةِ  
 وَالْعِشِيِّ، فَيَنكَلُ لَا تُعَدُّ شَرْقِيَّةً وَلَا غَرْبِيَّةً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قَالَ  
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَعْنِي لِيُضِئَ إِشْرَاقَ الزَّيْتِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ  
 عَبَّاسٍ يَعْنِي بِذَلِكَ إِيْمَانُ الْعَبْدِ وَعَمَلُهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي  
 قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قَالَ: نُورُ النَّارِ وَنُورُ الزَّيْتِ  
 حِينَ اجْتَمَعَا أَضَاءً وَلَا يُضِيءُ وَاحِدٌ بِغَيْرِ صَاحِبِهِ كَذَلِكَ  
 نُورُ الْقُرْآنِ وَنُورُ الْإِيْمَانِ حِينَ اجْتَمَعَا، فَلَا يَكُونُ وَاحِدٌ  
 مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أَيُّ: يُرْشِدُ  
 اللَّهُ إِلَى هِدَايَتِهِ مَن يَخْتَارُهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي  
 رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: سَمِعْتُ رَسُولَ  
 اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ  
 أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ  
 اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ] ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ  
 عَلَى عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
 عَلِيمٌ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى هَذَا مَثَلًا لِنُورِ هَذِهِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ  
 خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
 عَلِيمٌ﴾ أَيُّ: هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ  
 الْإِضْلَالَ.

﴿فِي بُيُوتِ أَيْنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

(١) ابن أبي حاتم: ٢٦٠٠/٨ إسناده ضعيف فيه سماك بن حرب  
 وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة كما مرَّ (٢) الطبري: ١٩/  
 ١٨٦ (٣) الطبري: ١٨٣/١٩ (٤) الطبري: ١٨٢/١٩ تقدم  
 حكم العوفي مرَّات (٥) الدر المنثور: ٢٠٢/٦ (٦) أحمد: ٢/  
 ١٧٦

غَرِيبٌ<sup>(١١)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ الْكِنْدِيِّ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ فَطَرْتُ، فَإِذَا عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: أَهَبْ فَأَتَيْتَنِي بِهِذَيْنِ فَجِئْتُهُ بِهِمَا فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالَا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ. قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، نَزَعَانِ أَصَوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(١٢)</sup>. وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: سَمِعَ عُمَرَ صَوْتَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: أَنْدِرِي أَيْنَ أَنْتِ؟. وَهَذَا أَيْضًا صَحِيحٌ<sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَحْمَرُّ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّ جُمُعَةٍ. إِسْنَادُهُ حَسَنٌ لَا بَأْسَ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ<sup>(١٤)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعَشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وَضُوءَهُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ. فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمَهُ. وَلَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظِرَ الصَّلَاةَ»<sup>(١٥)</sup>. وَفِي الشُّنَنِ: «بَشِّرِ الْمَسَائِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ، بِالنُّورِ النَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١٦)</sup>. وَيُسْتَحَبُّ لِمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ أَنْ يَبْدَأَ بِرَجُلِهِ الْيُمْنَى، وَأَنْ يَقُولَ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ [عَمْرٍو] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَيُوجِّهُ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». قَالَ: فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ

الدُّنْسُ وَاللَّعْنُ وَالْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ الَّتِي لَا تَلِيقُ فِيهَا. كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ قَالَ: نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ اللَّعْنِ فِيهَا<sup>(١٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ وَالصَّحَّاحُ وَنَافِعُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنُ أَبِي حَتْمَةَ وَسُفْيَانُ ابْنُ حُسَيْنٍ وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُفَسِّرِينَ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَاحْتِرَامِهَا وَتَوْقِيرِهَا وَتَطْيِيبِهَا وَتَبْخِيرِهَا، وَذَلِكَ لَهُ مَحَلٌّ مُفْرَدٌ يُذَكَّرُ فِيهِ، وَقَدْ كَتَبْتُ فِي ذَلِكَ جُرْءًا عَلَى حِدَةٍ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَنَحْنُ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى نَذْكُرُ هَاهُنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ: فَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَتَّبِعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١٨)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُذَكَّرُ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»<sup>(١٩)</sup>. وَلِلنَّسَائِيِّ مِثْلُهُ<sup>(٢٠)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَاءَ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ وَأَنْ تُنْظَفَ وَتُطَيَّبَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا النَّسَائِيَّ<sup>(٢١)</sup>. وَلَا أَحْمَدُ وَأَبِي دَاوُدَ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ نَحْوَهُ<sup>(٢٢)</sup>. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ عُمَرُ: ابْنُ لِلنَّاسِ مَا يَكُنْهُمْ، وَإِنَّا كَأَنْ تَحْمَرُّ أَوْ تُصْفَرُ فَتَفْتِنَ النَّاسَ<sup>(٢٣)</sup>.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: [لَتُزَخَرْفَتْهَا] كَمَا زَخَرْفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى<sup>(٢٤)</sup>. وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَبْهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا التِّرْمِذِيَّ<sup>(٢٥)</sup>. وَعَنْ بُرَيْدَةَ أَنَّ رَجُلًا أُنْشِدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا وَجَدْتُ، إِنَّمَا بُنِيتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيتَ لَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢٦)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرَبَعَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَسْتَنْدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا: لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ

(١) الطبري: ١٩١/١٩ (٢) فتح الباري: ٦٤٨/١ ومسلم: ١/٣٧٨ (٣) ابن ماجه: ٢٤٣/١ (٤) النسائي: ٣١/٢ (٥) أحمد: ٢٧٩/٦ وتحفة الأحوذى: ٢٠٦/٣ وابن ماجه: ١/٢٥٠ (٦) أحمد: ١٧/٥ وأبو داود: ٣١٥/١ (٧) فتح الباري: ٦٤٢/١ (٨) أبو داود: ٣١٠/١ (٩) أحمد: ١٣٤/٣ وأبو داود: ٣١١/١ والنسائي: ٣٢/٢ وابن ماجه: ٢٤٤/١ (١٠) مسلم: ٣٩٧/١ (١١) تحفة الأحوذى: ٥٥٠/٤ (١٢) فتح الباري: ٦٦٧/١ (١٣) تحفة الأشراف: ٤/٨ (١٤) مسند أبي يعلى: ١٧٠/١ (١٥) البخاري: ٦٤٧ ومسلم: ٦٤٩ (١٦) أبو داود: ٥٦١ والترمذي: ٢٢٣

مِنِّي سَائِرِ الْيَوْمِ»<sup>(١)</sup>.  
 وَرَوَى مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ أَوْ أَبِي أُسَيْدٍ قَالَ:  
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ:  
 اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ  
 إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْهُمَا عَنْ  
 النَّبِيِّ ﷺ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَسْلَمْ عَلَى  
 النَّبِيِّ ﷺ. وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا  
 خَرَجَ فَلْيَسْلَمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنَ  
 الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ  
 حِبَّانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا<sup>(٤)</sup>.  
 وَقَوْلُهُ: «وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمُهُ» أَيُّ: إِسْمُ اللَّهِ. كَقَوْلِهِ:  
 «يَبْنِي مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» [الأعراف: ٣١]  
 وَقَوْلِهِ: «وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ  
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» [الأعراف: ٢٩] وَقَوْلِهِ: «وَأَنَّ الْمَسْجِدَ  
 لِلَّهِ... أَلَايَةَ [الجن: ١٨]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَذْكُرُ فِيهَا  
 اسْمُهُ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَغْنِي فِيهَا بَيْتُهُ كِتَابُهُ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ  
 تَعَالَى: «سُيِّحَ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» أَيُّ: فِي الْبُكْرَاتِ  
 وَالْعِشْيَاءِ. «وَالْآصَالِ» جَمْعُ أَصِيلٍ وَهُوَ آخِرُ النَّهَارِ.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «رِجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهِ بَحْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»  
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا لَّهُمْ فِيهِ أَمْوَالٌ وَلَا  
 أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ... أَلَايَةَ [المنافقون: ٩]. وَقَوْلُهُ  
 تَعَالَى: «يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ  
 فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ»... أَلَايَةَ [الجمعة: ٩].  
 يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَشْغَلُهُمُ الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا وَرِيشَتُهَا وَمَلَأْدُ  
 بَيْعِهَا وَرَبِيعِهَا عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمُ الَّذِي هُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ،  
 وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ وَأَنْفَعُ مِمَّا  
 بَأْيَدِيهِمْ، لِأَنَّ مَا عِنْدَهُمْ يَفْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ، وَلِهَذَا قَالَ  
 تَعَالَى: «لَا لَّهُمْ فِيهِ بَحْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَادَ الصَّلَاةِ وَإِلَاءِ  
 الزَّكَاةِ» أَيُّ: يُقَدِّمُونَ طَاعَتَهُ وَمُرَادَهُ وَمَحَبَّتَهُ عَلَى مُرَادِهِمْ  
 وَمَحَبَّتِهِمْ.

وَرَوَى سَالِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ  
 كَانَ فِي السُّوقِ فَأَقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَأَغْلَقُوا حَوَائِثَهُمْ  
 وَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: فِيهِمْ نَزَلَتْ: «رِجَالٌ لَا  
 لَّهُمْ فِيهِ بَحْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ  
 جَرِيرٍ<sup>(٦)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «لَا لَّهُمْ فِيهِ  
 بَحْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» [المنافقون: ٩] يَقُولُ: عَنْ  
 الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانَ وَالرَّبِيعُ بْنُ  
 أَنَسٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَنِ الصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ. وَقَالَ مُقَاتِلُ  
 ابْنُ حَبَّانَ: لَا لَّهُمْ فِيهِ ذَلِكَ عَنْ حُضُورِ الصَّلَاةِ وَأَنْ  
 يُقِيمُوهَا كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَأَنْ يُحَافِظُوا عَلَى مَوَاقِيتِهَا وَمَا  
 اسْتَحَقَّ لَهُمْ اللَّهُ فِيهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَحَافُونَ يَوْمًا نَتَقَلَّبُ فِيهِ  
 الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَتَقَلَّبُ فِيهِ  
 الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ، أَيُّ: مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَعَظَمَةِ الْأَهْوَالِ،  
 كَقَوْلِهِ: «وَأَذِذْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ... أَلَايَةَ [غافر: ١٨].

وَقَوْلُهُ: «إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ»  
 [إبراهيم: ٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكَّاتٍ  
 وَبَيْنًا وَأَسِيرًا» (٨) إِنَّمَا يُطْعِمُكَ لَوَجْهِهِ اللَّهُ لَا يُزِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا  
 شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا (١٠) وَفَوَيْتُكَ اللَّهُ شَرَّ  
 ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَرُسُلَهُ (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا  
 [الإنسان: ٨-١٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا: «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ  
 مَا عَمِلُوا» أَيُّ: هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ يَتَّقِلُ حَسَنَاتِهِمْ وَيَتَجَاوَزُ  
 عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ. وَقَوْلُهُ: «وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» أَيُّ: يَقْبَلُ  
 مِنْهُمْ الْحَسَنَ وَيُضَاعِفُهُ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ لَا  
 يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ»... أَلَايَةَ [النساء: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى:  
 «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا»... أَلَايَةَ  
 [الأنعام: ١٦٠]، وَقَالَ: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا  
 حَسَنًا... أَلَايَةَ [البقرة: ٢٤٥]، وَقَالَ: «وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ  
 يَشَاءُ» وَقَالَ هُنَا: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلُهُمْ كِرَابٍ يَقْبَعُوهُ يُحْسِبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا  
 إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ فَوَقَفَهُ جَسَابًا وَاللَّهُ  
 سَرِيعُ الْحِسَابِ» (١٢) أَوْ كَطَلَمَتٍ فِي بَحْرٍ لَيْحِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ  
 قَوِيهِ. مَوْجٌ مِنْ قَوِيهِ. سَحَابٌ طَلَمَتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ  
 بَدَنَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (١٣)

### [مَثَلَانِ لِنَوْعِي الْكُفَّارِ]

هَذَانِ مَثَلَانِ ضَرَبَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَوْعِي الْكُفَّارِ كَمَا

(١) كَذَا عَزَاهُ إِلَى الْبُخَارِيِّ وَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ: ٣١٨/٢ (٢)  
 مسلم: ٤٩٤/١ (٣) النسائي: ٥٣/٢ (٤) ابن ماجه: ٢٥٤/١  
 وابن خزيمة: ٢٣١/١ وابن حبان: ٢٤٦/٣، ٢٤٧ (٥) الطبري:  
 ١٩١/١٩ (٦) ابن أبي حاتم: ٢٦٠٧/٨ إسناده ضعيف فيه عمرو  
 بن دينار البصري الأعور ضعيف [تقريب] (٧) الطبري: ١٩٣/١٩

أَيَّنْ يَذْهَبُ، بَلْ كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِلْجَاهِلِ: أَيَّنْ تَذْهَبُ؟ قَالَ: مَعَهُمْ، قِيلَ: فَإِلَى أَيَّنْ يَذْهَبُونَ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي.

وَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظَلَمْتُ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خُمُسَةِ مِنَ الظُّلْمِ فَكَلَامُهُ ظُلْمَةٌ، وَعَمَلُهُ ظُلْمَةٌ، وَمَذْخَلُهُ ظُلْمَةٌ، وَمَخْرَجُهُ ظُلْمَةٌ، وَمَصِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الظُّلُمَاتِ إِلَى النَّارِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الشَّدِيدِي وَالرَّبِيعِيُّ بْنُ أَنَسٍ نَحْوَ ذَلِكَ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] أَيُّ: مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَهُوَ هَالِكٌ جَاهِلٌ، حَائِلٌ، بَازٍ، كَافِرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَمْ يَهْدِ اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَنْ يَجْعَلَ فِي قُلُوبِنَا نُورًا، وَعَنْ أَيْمَانِنَا نُورًا، وَعَنْ شِمَائِلِنَا نُورًا، وَأَنْ يُعْظِمَ لَنَا نُورًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَفَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [٤١] وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ<sup>(٢)</sup>.

[كُلُّ يُسَبِّحُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَهُ الْمُلْكُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيُّ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسَانِي وَالْجَانِّ وَالْحَيَوَانِ حَتَّى الْجَمَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾... الآية، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ طَيْرَانِهَا تُسَبِّحُ رَبَّهَا وَتَعْبُدُهُ بِتَسْبِيحِ أَلْهَمَهَا وَأَرْشَدَهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا هِيَ فَاعِلَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أَيُّ: كُلُّ قَدْ أَرْشَدَهُ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَمَسَلِكِهِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الْإِلَهِ الْمُعْبُودُ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ<sup>(٣)</sup> وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ<sup>(٤)</sup> أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾... آيَةُ [النجم: ٣١]. فَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ.

ضَرَبَ لِلْمُتَأَفِّقِينَ فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ مَثَلَيْنِ: نَارِيًا وَمَائِيًا، وَكَمَا ضَرَبَ لِمَا يَقَرُّ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ فِي سُورَةِ الرُّعْدِ مَثَلَيْنِ: مَائِيًا وَنَارِيًا، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعِهِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنْ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ، فَهُوَ لِلْكَفَّارِ الدُّعَاةِ إِلَى كُفْرِهِمُ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ، وَلَيْسُوا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى شَيْءٍ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى فِي الْقِيَعَانِ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ كَانَهُ بَحْرًا طَامًا، وَالْقِيَعَةُ: جَمْعُ قَاعٍ كَجَارٍ وَجِرَةٍ، وَالْقَاعُ أَيْضًا وَاحِدُ الْقِيَعَانِ، كَمَا يُقَالُ: جَارٌ وَجِرَانٌ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْمُتَسَيِّعَةُ الْمُتَبَسِّطَةُ وَفِيهِ يَكُونُ السَّرَابُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ يَصْفِ النَّهَارِ، وَأَمَّا الْآلُ فَإِنَّمَا يَكُونُ أَوَّلَ النَّهَارِ يُرَى كَأَنَّهُ مَاءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا رَأَى السَّرَابَ مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَاءِ يَحْسَبُهُ مَاءً، فَصَدَهُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ شَيْئًا، فَإِذَا وَافَى اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحَاسِبُهُ عَلَيْهَا، وَتَوَقَّشَ عَلَى أَفْعَالِهِ، لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا بِالْكُلِّيَّةِ قَدْ قُبِلَ، إِنَّمَا لَعَدِمَ الْإِخْلَاصَ أَوْ لَعَدِمَ سُلُوكَ الشَّرْعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَرِئْنَا بِكَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْهَةً مَنُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وَهَكَذَا رَوَى عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَتَفَادَهُ وَغَيْرِ وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرًا ابْنَ اللَّهِ. فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ، مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ عَطِشْنَا فَاشْقِنَا، فَيُقَالُ: أَلَا تَرَوْنَ؟ فَمَثَلُ لَهُمُ النَّارُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحِطُّ بِبَعْضِهَا بَعْضًا، فَيُطْلِقُونَ فَيَتَهافتُونَ فِيهَا<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا الْمَثَلُ مِثَالٌ لِذَوِي الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ، فَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَهْلِ الْبَسِيطِ وَهُمْ الطَّمَّاطُ الْأَغْتَامُ الْمُقْلِدُونَ لِأَيِّمَةِ الْكُفْرِ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، فَمَثَلُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَطُلُمِبٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ﴿لُجِّيٍّ﴾ هُوَ الْعَمِيقُ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَابُّ طُلُمِبٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُونُ لَوْ يَكْدُ رِبْهًا<sup>(٣)</sup> أَيُّ: لَمْ يُقَارَبْ رُؤْيَاهَا مِنْ شِدَّةِ الظُّلَامِ، فَهَذَا مِثْلُ قَلْبِ الْكَافِرِ الْجَاهِلِ الْبَسِيطِ، الْمُقْلِدِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ حَالَ مَنْ يَقُودُهُ، وَلَا يَدْرِي

(١) الطبري: ١٩٦/١٩ (٢) فتح الباري: ٤٣١/١٣ ومسلم:

١٦٨/١ (٣) الطبري: ١٩٨/١٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٥٦

سُورَةُ النُّورِ

يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾  
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ

وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ

ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ جَاءُوا أَلَمْ يَخَافُوا

أَن يَحْجِفَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَسُولُهُ؟ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن

يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ أَمْرَهُمْ لِيُخْرِجَن قُل

لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ لِّمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

وَعَلَيْهِ ﴿٥٤﴾ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٥﴾ أَيْ: لَدَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

[قُدْرَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِ الدَّوَابِّ]

يَذْكُرُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ الثَّامَّةَ وَسُلْطَانَهُ الْعَظِيمَ فِي خَلْقِهِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا مِنْ مَّاءٍ وَاحِدٍ ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كَالْحَيَّةِ وَمَا شَاكَلَهَا، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كَالْأَنْعَامِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ،

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَزَيُّ الْأَوْدَكِ يُخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي

الْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾

[التَّنبِيهُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ بِخَلْقِ السَّحَابِ وَمَا يَتَّبِعُهُ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَوِّقُ السَّحَابَ بِقُدْرَتِهِ أَوَّلَ مَا يُنْشِئُهَا وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، وَهُوَ الْإِرْجَاءُ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أَيْ: يَجْمَعُهُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أَيْ: مُتَرَاكِمًا، أَيْ: يَرْكُبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ﴿فَزَيُّ الْأَوْدَكِ﴾ أَيْ: الْمَطَرُ ﴿يُخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أَيْ: (مِنْ خِلَالِهِ). وَكَذَا قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ (١).

قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ: يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُثِيرَةَ فَتُثَمُّ الْأَرْضُ فَمَا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ النَّاشِئَةَ فَتُنْشِئُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمُؤَلِّفَةَ فَتَوَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ اللَّوَافِحَ فَتُلْقِحُ السَّحَابَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ رَجَمَهُمَا اللَّهُ (٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ قَالَ بَعْضُ النُّحَاةِ ﴿مِنْ﴾ الْأَوَّلَى لِابْتِدَاءِ الْعَايَةِ، وَالثَّانِيَةِ لِلتَّبَعِضِ، وَالثَّلَاثَةِ لِيَبَانِ الْجَنَسِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلٍ مِّنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ مَعْنَاهُ:

أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالَ بَرَدٍ يُنَزِّلُ اللَّهُ مِنْهَا الْبَرَدَ. وَأَمَّا مَن جَعَلَ الْجِبَالَ هَهُنَا كِتَابَةً عَنِ السَّحَابِ، فَإِنَّ ﴿مِنْ﴾ الثَّانِيَةَ عِنْدَ

هَذَا لِابْتِدَاءِ الْعَايَةِ أَيْضًا، لِكُنْهَآ بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلَى، وَاللَّهُ

أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أَيْ:

بِمَا يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَوْعِي الْمَطَرِ وَالْبَرَدِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ رَحْمَةً لَهُمْ ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾

أَيْ: يُؤَخِّرُ عَنْهُمْ الْعَيْثَ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أَيْ: بِالْبَرَدِ نِقْمَةً عَلَى مَن يَشَاءُ لِمَا فِيهِ مِنْ تَثَرِ

ثِمَارِهِمْ وَإِتْلَافِ زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّن يَشَاءُ رَحْمَةً بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَرِ﴾ أَيْ: يَكَادُ ضَوْؤُهُ بَرْقِهِ مِنْ شِدَّتِهِ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ إِذَا اتَّبَعَتْهُ وَتَرَاةَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَيْ: يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا فَيَأْخُذُ مِنْ طَوْلِ هَذَا فِي قِصَرِ هَذَا حَتَّى يَعْدِلَا، ثُمَّ يَأْخُذُ

مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا، وَاللَّهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ

تَعَالَى: ﴿أَوَىٰ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾ الْآيَةُ، يَغْنِي لَا يَخْرُجُ أَمْرُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُلُوبِ مَرَضٌ لَّا زَمَ لَهَا أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهَا شَكٌّ فِي الدِّينِ، أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَجُورَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحُكْمِ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كُفْرٌ مَخْضُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مِنْهُمْ وَمَا هُوَ مُنْظِرٌ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الصَّفَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ أَوَلَّيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ: بَلْ هُمُ الظَّالِمُونَ الْفَاجِرُونَ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ مُبْرَأَانِ مِمَّا يَنْظُنُونَ وَيَتَوَهَّمُونَ مِنَ الْحَيْفِ وَالْجَوْرِ، تَعَالَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَ دِينًا سِوَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أَيُّ: سَمِعْنَا وَطَاعَةً. وَلِهَذَا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِالْفَلَاحِ، وَهُوَ بَيْتُ الْمَطْلُوبِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْمُرْهُوبِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوَلَّيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عِبَادَةَ بَنِ الصَّامِتِ، وَكَانَ عَقِيًّا بَدْرِيًّا أَحَدَ نَقَبَاءِ الْأَنْصَارِ، أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِابْنِ أَخِيهِ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ: أَلَا أَنْبِئُكَ بِمَاذَا عَلَيْكَ وَمَاذَا لَكَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشِطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَهُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُقِيمَ لِسَانَكَ بِالْعَدْلِ، وَأَنْ لَا تُتَنَازَعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَكَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ بَوَاحًا، فَمَا أُمِرْتَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ يُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ، فَاتَّبِعْ كِتَابَ اللَّهِ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ قَالَ: لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا فِي جَمَاعَةٍ، وَالنَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْخَلِيفَةِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ عَامَةً، قَالَ: وَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ: عُرُوهُ الْإِسْلَامَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَالطَّاعَةُ لِمَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٢)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ وَالْأَثَارُ فِي وَجُوبِ الطَّاعَةِ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَلِلْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَئِمَّةِ إِذَا أَمَرُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ فِي هَذَا الْمَكَانِ.

(١) ابن أبي حاتم: ٢٦٢٣/٨ إسناده ضعيف قتادة يدللس ويرسل ولم يذكر الوساطة بينه وبين عبادة بن الصامت. (٢) ابن أبي حاتم: ٢٦٢٣/٨، ٢٦٢٤.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ: بِقُدْرَتِهِ، لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦)

يُقَرَّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الْحُكْمِ وَالْحِكْمِ وَالْأَمْثَالِ اللَّبِيَّةَ الْمُحْكَمَةَ كَثِيرًا جَدًّا، وَأَنَّهُ يُرْشِدُ إِلَى تَقْهِمِهَا وَتَعَمُّلِهَا أُولَى الْأَلْبَابِ وَالْبَصَائِرِ وَالنَّهْيِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَكَّفُونَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَهِى عَنْ ذَلِكَ وَمَا أَوَّلَيْكَ يَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ (٤٩) أَوَىٰ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أَوَّلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَوَّلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)

### [حَبْلِ الْمُنَافِقِينَ وَحَالِ الْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ خِلَافَ مَا يَبْطِنُونَ، يَقُولُونَ قَوْلًا بِالْإِسْتِثْمِ ﴿ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَكَّفُونَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَهِى عَنْ ذَلِكَ﴾ أَيُّ: يُخَالِفُونَ أَقْوَالَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَوَّلَئِكَ يَا الْمُؤْمِنِينَ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾... الْآيَةُ. أَيُّ: إِذَا طُلِبُوا إِلَى اتِّبَاعِ الْهُدَى فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ﴾ أَيُّ: وَإِذَا كَانَتْ الْحُكُومَةُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ جَاؤُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مُذْعِبِينَ﴾ وَإِذَا كَانَتْ الْحُكُومَةُ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَدَعَا إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَأَحَبَّ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِيُرَوجَ بِاطِلَةٍ تَمَّ، فَإِذْ عَانَتْهُ أَوَّلًا لَمْ يَكُنْ عَنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ، بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِهَوَاهُ، وَلِهَذَا لَمَّا خَالَفَ الْحَقُّ قَصْدَهُ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيُّ: فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ، ﴿وَيُحْسِنِ اللَّهُ﴾ فِيمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ ﴿وَيَتَّقَهُ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ قَارَؤُوا بِكُلِّ خَيْرٍ وَأَمِنُوا مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَأَقِمْوهُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لِيَنْزِلَ عَلَيْهِمْ لَقِيبٌ﴾ قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ التَّفَاقُقِ الَّذِينَ كَانُوا يَخْلِفُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ: لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ بِالْخُرُوجِ فِي الْغَزْوِ لَيَخْرُجُنَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا تَقْسِمُوا﴾ أَيُّ: لَا تَخْلِفُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ طَاعَتُكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً، أَيُّ: قَدْ عَلِمَ طَاعَتُكُمْ أَنَّمَا هِيَ قَوْلٌ لَا فِعْلَ مَعَهُ، وَكُلَّمَا حَلَفْتُمْ كَذَبْتُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِزُطُوتِ عَنَتِهِمْ﴾ ... الْآيَةُ [النوبة: ٩٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ حَتًّا﴾ ... الْآيَةُ [المجادلة: ١٦]، فَهُمْ مِنْ سَجِيَّتِهِمُ الْكُذْبِ حَتَّى فِيمَا يَخْتَارُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُوكِ الْأَدْنَى ثُمَّ لَا يَصُرُونَ﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أَيُّ: اتَّبِعُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ قَوْلَا﴾ أَيُّ: تَتَوَلَّوْا عَنْهُ وَتَتَرَكُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أَيُّ: إِتْلَاغُ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أَيُّ: بِقَبُولِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَالْقِيَامَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ... الْآيَةُ [الشورى: ٥٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿[الغاشية: ٢١، ٢٢].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيُّ: فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ، ﴿وَيُحْسِنِ اللَّهُ﴾ فِيمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ ﴿وَيَتَّقَهُ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ قَارَؤُوا بِكُلِّ خَيْرٍ وَأَمِنُوا مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَأَقِمْوهُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لِيَنْزِلَ عَلَيْهِمْ لَقِيبٌ﴾ قُلْ لَا تَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ التَّفَاقُقِ الَّذِينَ كَانُوا يَخْلِفُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ: لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ بِالْخُرُوجِ فِي الْغَزْوِ لَيَخْرُجُنَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا تَقْسِمُوا﴾ أَيُّ: لَا تَخْلِفُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ طَاعَتُكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً، أَيُّ: قَدْ عَلِمَ طَاعَتُكُمْ أَنَّمَا هِيَ قَوْلٌ لَا فِعْلَ مَعَهُ، وَكُلَّمَا حَلَفْتُمْ كَذَبْتُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِزُطُوتِ عَنَتِهِمْ﴾ ... الْآيَةُ [النوبة: ٩٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ حَتًّا﴾ ... الْآيَةُ [المجادلة: ١٦]، فَهُمْ مِنْ سَجِيَّتِهِمُ الْكُذْبِ حَتَّى فِيمَا يَخْتَارُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُوكِ الْأَدْنَى ثُمَّ لَا يَصُرُونَ﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أَيُّ: اتَّبِعُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ قَوْلَا﴾ أَيُّ: تَتَوَلَّوْا عَنْهُ وَتَتَرَكُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أَيُّ: إِتْلَاغُ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أَيُّ: بِقَبُولِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَالْقِيَامَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ... الْآيَةُ [الشورى: ٥٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿[الغاشية: ٢١، ٢٢].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ

الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

[وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِخْلَافِ]

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ، أَيُّ: أَيْمَةَ النَّاسِ وَالْوَلَاةَ عَلَيْهِمْ، وَبِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ، وَتَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادَةُ. وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ، وَقَدْ فَعَلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِثْنُ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَمُتْ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ] حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَخَبَرَ وَالْبَحْرَيْنِ وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَرْضَ الْيَمَنِ بِكَمَالِهَا، وَأَخَذَ الْجَزِيرَةَ مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ، وَمِنْ بَعْضِ أَطْرَافِ الشَّامِ، وَهَادَاهُ هِرَقْلُ مَلِكِ الرُّومِ وَصَاحِبُ بَصْرَةَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَهُوَ الْمَقْرُوسُ، وَمُلُوكُ عُمَانَ وَالنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ الَّذِي تَمَلَّكَ بَعْدَ أَصْحَمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَكْرَمَهُ. ثُمَّ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنْ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا... الآية، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ وَإِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سِرًّا، وَهُمْ خَائِفُونَ لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ حَتَّىٰ أُمِرُوا بَعْدَ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَدَّمُوا فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ، فَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُنْسُونَ فِي السَّلَاحِ وَيُضَيِّحُونَ فِي السَّلَاحِ، فَغَبَرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الصَّحَابَةِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَدَ الدَّهْرَ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا؟ أَمَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ عَنَّا السَّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ تَصْبِرُوا إِلَّا بَسِيرًا حَتَّىٰ يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبًا لَيْسَتْ فِيهِ حَبِيدَةٌ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٢)</sup>. فَأَظْهَرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ عَلَىٰ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَأَمِنُوا وَوَضَعُوا السَّلَاحَ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَبَضَ نَبِيَّهَ ﷺ، فَكَانُوا كَذَلِكَ آمِنِينَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ حَتَّىٰ وَقَعُوا فِيهَا وَقَعُوا فِيهِ، فَأَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ فَاتَّخَذُوا الْحَجْرَةَ وَالشَّرْطَ وَغَيَّرُوا فَعَيَّرَ بِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: خِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَقٌّ فِي كِتَابِ اللَّهِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ.

وَقَالَ الْبِرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَنَحْنُ فِي خَوْفٍ شَدِيدٍ<sup>(٣)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [الأعراف: ١٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ أَنْ تُنَمَّنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ﴾... الآية [القصص: ٦٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾... الآية، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِإِدْعِي بْنِ حَاتِمٍ جِينٍ وَفَدَّ عَلَيْهِ: «أَتَعْرِفُ الْحِجْرَةَ؟» قَالَ: لَمْ أَعْرِفْهَا، وَلَكِنْ قَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَيُئْمِنَنَّ اللَّهُ هَذَا

الْكَرَامَةِ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ خَلِيفَتُهُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ، فَلَمْ شَعَتْ مَا وَهَىٰ بَعْدَ مَوْتِهِ ﷺ، وَأَطْلَدَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ وَمَهَّدَهَا، وَبَعَثَ الْجِيُوشَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَىٰ بِلَادِ فَارِسَ صُحْبَةَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَفَتَحُوا طَرَفًا مِنْهَا، وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنْ أَهْلِهَا. وَجَيْشًا آخَرَ صُحْبَةَ أَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَىٰ أَرْضِ الشَّامِ، وَثَالِثًا صُحْبَةَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَىٰ بِلَادِ مِصْرَ، فَفَتَحَ اللَّهُ لِلْجَيْشِ الشَّامِيِّ فِي أَيَّامِهِ بُصْرَىٰ وَدِمَشْقَ وَمَخَالِفَهُمَا مِنْ بِلَادِ حُورَانَ وَمَا وَالَاهَا، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاخْتَارَ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ.

وَمَنْ عَلَىٰ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِأَنَّ أَلْهَمَ الصَّدِيقُ أَنْ يَسْتَخْلِفَ عُمَرَ الْفَارُوقَ، فَقَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ قِيَامًا تَامًا، لَمْ يَدْرِ الْفُلُكُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَىٰ مِثْلِهِ فِي قُوَّةِ سِيرَتِهِ وَكَمَالِ عُدْلِهِ. وَتَمَّ فِي أَيَّامِهِ فَتْحُ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ بِكَمَالِهَا وَدِيَارِ مِصْرَ إِلَىٰ آخِرِهَا، وَأَكْثَرَ إِفْلِيمِ فَارِسَ. وَكَسَرَ كِسْرَىٰ وَأَهَانَهُ غَايَةَ الْهَوَانِ وَتَقَهَّرَ إِلَىٰ أَقْصَىٰ مَمْلَكَتِهِ، وَقَصَّرَ قِصْرَ، وَانْتَرَعَ يَدَهُ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ، وَانْحَدَرَ إِلَىٰ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَأَنْفَقَ أَمْوَالَهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ وَعَدَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَمُّ سَلَامٍ وَأَرْكَىٰ صَلَاقًا.

ثُمَّ لَمَّا كَانَتْ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ امْتَدَّتْ الْمَمَالِكُ الْإِسْلَامِيَّةُ إِلَىٰ أَقْصَىٰ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَفُتِحَتْ بِلَادُ الْمَغْرِبِ إِلَىٰ أَقْصَىٰ مَا هُنَالِكَ الْأَنْدَلُسُ وَقُبْرُصَ، وَبِلَادُ الْفُتُورَانِ، وَبِلَادُ سَبْتَةَ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ الْمُحِيطَ، وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ إِلَىٰ أَقْصَىٰ بِلَادِ الصِّينِ، وَقُتِلَ كِسْرَىٰ وَبَادَ مُلْكُهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَفُتِحَتْ مَدَائِنُ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ، وَالْأَهْوَاُ. وَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الثُّرَكِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جِدًّا، وَخَذَلَ اللَّهُ مَلِكَهُمُ الْأَعْظَمَ خَاقَانَ، وَجُبِيَ الْخَرَاجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِلَىٰ خُصْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ بِبَرَكَتِهِ تِلَاوَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ وَجَمْعِهِ الْأُمَّةَ عَلَىٰ حِفْظِ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ، فَزَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زَوَىٰ لِي مِنْهَا»<sup>(١)</sup>. فَهَا نَحْنُ نَتَقَلَّبُ فِيهَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَسَأَلَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِهِ وَرَسُولَهُ، وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ

(١) مسلم: ٢٢١٥/٤ (٢) الطبري: ٢٠٩/١٩ (٣) الدر المنثور: ٢١٥/٦





كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُحْكَمَةً وَلَمْ تُنسخْ بِشَيْءٍ وَكَانَ عَمَلُ النَّاسِ بِهَا قَلِيلًا جِدًّا، أَنْكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا أَكْثَرُ النَّاسِ: آيَةُ الْإِذْنِ، وَإِنِّي لَأَمُرُّ جَارِيَتِي هَذِهِ تَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ. قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَأْمُرُ بِهِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ: سَأَلْتُ الشَّعْبِيَّ: «لَيْسَتْ لَكُمْ مَلَكَتٌ أَيْمَنُكُمْ؟» قَالَ: لَمْ تُنسخْ. قُلْتُ: فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَعْمَلُونَ بِهَا. فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يَعْنِي إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ إِنَّمَا كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْعُورَاتِ الثَّلَاثِ، إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا عَلَى كُلِّ حَالٍ، يَعْنِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَجَانِبِهِمْ وَإِلَى الْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُ الرَّجُلُ عَلَى أَمْرَاتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثِ.

[لَا جُنَاحَ عَلَى الْعَجَائِزِ إِنْ لَمْ يَحْتَجِجْنَ]

وَقَوْلُهُ: «وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ» قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيبٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: هُنَّ اللَّوَاتِي انْقَطَعَ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ وَيَسْنَنَ مِنَ الْوَلَدِ «الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا» أَيْ: لَمْ يَبْقَ لَهُنَّ تَشَوُّفٌ إِلَى التَّرَوُّجِ «فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ» أَيْ: لَيْسَ عَلَيْهَا مِنَ الْحَجَرِ فِي التَّسَرُّكِ كَمَا عَلَى غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ<sup>(٣)</sup>.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضَنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ»... الْآيَةُ، فَنُسخَ وَاسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ «وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا»... الْآيَةُ<sup>(٤)</sup>. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: «فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ» قَالَ: الْجَلْبَابُ أَوْ الرِّدَاءُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي الشَّعْبَاءِ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالزُّهْرِيَّ وَالْأَوْزَاعِيَّ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٦)</sup>.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي الْآيَةِ: «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ» يَقُولُ: لَا يَتَبَرَّجْنَ بِوَضْعِ الْجَلْبَابِ لِيَرَى مَا عَلَيْهِنَّ مِنَ الزَّيْنَةِ.

قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «أَوَلَيْكَ سِرِّمَهُمُ اللَّهُ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا تَحْسَبَنَّ» أَيْ: لَا تَظُنَّ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ «الَّذِينَ كَفَرُوا» أَيْ: خَالِفُوكَ وَكَذَّبُوكَ «مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» أَيْ: لَا يُعْجِزُونَ اللَّهَ، بَلِ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ وَسَيُعَذِّبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا أُوْنَهُمْ» أَيْ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ «الَّتَارَ وَلَيْسَ الْمُصِرُّ» أَيْ: يَسُنَّ الْمَالَ مَالُ الْكَافِرِينَ، وَيَسُنَّ الْقَرَارَ وَيَسُنَّ الْمَهَادَ.

«يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوكَ عَلَيْكُمْ فَوَقُوكَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ<sup>(٥٨)</sup>» وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ<sup>(٥٩)</sup> وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ<sup>(٦٠)</sup> [أَوْقَاتُ اسْتِثْنَانِ الْمَمْلُوكِينَ وَالصَّغَارِ]

هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ اشْتَمَلَتْ عَلَى اسْتِثْنَانِ الْأَقَارِبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فَهُوَ اسْتِثْنَانُ الْأَجَانِبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُمْ خَدَمُهُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَطْفَالُهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: الْأَوَّلُ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا ذَاكَ يَكُونُونَ نِيَامًا فِي فُرُشِهِمْ «وَبَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ» أَيْ: فِي وَقْتِ الْقِيْلُولَةِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَضَعُ ثِيَابَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ مَعَ أَهْلِهِ «وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ» لِأَنَّهُ وَقْتُ النَّوْمِ، فَيُؤَمِّرُ الْخَدَمَ وَالْأَطْفَالَ أَنْ لَا يَهْجُمُوا عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ لِمَا يُخْشَى مِنْ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: «ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ» أَيْ: إِذَا دَخَلُوا فِي حَالٍ غَيْرِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي تَمَكُّبِكُمْ إِيَّاهُمْ [مِنْ ذَلِكَ] وَلَا عَلَيْهِمْ إِنْ رَأَوْا شَيْئًا فِي غَيْرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ. لِأَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهَجُومِ، وَلِأَنَّهُمْ طَوَّفُوا عَلَيْكُمْ أَيْ: فِي الْخِدْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَيُعْتَمَرُ فِي الطَّوَافِينَ مَا لَا يُعْتَمَرُ فِي غَيْرِهِمْ. وَلَمَّا

(١) أبو داود: ٣٧٧/٥ (٢) الطبري: ٢١٣/١٩ (٣) الدر

المشور: ٢٢٢/٦ والطبري: ٢١٦/١٩ (٤) أبو داود: ٣٦١/٤

(٥) الطبري: ٢١٧/١٩ (٦) الطبري: ٢١٨، ٢١٧/١٩

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أَي: وَتَرَكْنَ وَضَعَهُنَّ لِثِيَابَهُنَّ - وَإِنْ كَانَ جَائِزًا - خَيْرٌ وَأَفْضَلُ لَّهُنَّ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِكُهُمْ أَوْ صَدِيقُهُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

[الْأَكْلُ مِنْ بُيُوتِ الْأَقْرَبَاءِ]

الْمُرَادُ هَا هُنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ الْأَعْمَى لِأَنَّهُ لَا يَرَى الطَّعَامَ وَمَا فِيهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، قَرِيبًا سَبَقَهُ غَيْرُهُ إِلَى ذَلِكَ. وَلَا مَعَ الْأَعْرَجِ، لِأَنَّهُ لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْجُلُوسِ فَيَقْتَاتُ عَلَيْهِ جَلِيسُهُ. وَالْمَرِيضُ لَا يَسْتَوْفِي مِنَ الطَّعَامِ كَغَيْرِهِ. فَكَرِهُوا أَنْ يُؤَاكِلُوهُمْ لِئَلَّا يَظْلِمُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، رُخْصَةً فِي ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُقَسِّمٍ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: كَانُوا قَبْلَ الْبُعْثَةِ يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ هَؤُلَاءِ تَقْدَرًا وَتَعَزُّزًا، وَلِئَلَّا يَتَفَضَّلُوا عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾... الْآيَةَ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِالْأَعْمَى أَوْ بِالْأَعْرَجِ أَوْ بِالْمَرِيضِ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ بَيْتِ أُخْتِهِ أَوْ بَيْتِ عَمَّتِهِ أَوْ بَيْتِ خَالَتِهِ، فَكَانَ الزَّمَنُ يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَلِكَ يَقُولُونَ: إِنَّمَا يَذْهَبُونَ بَنَّا إِلَى بُيُوتِ غَيْرِهِمْ، فَتَرَكْتَ هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً لَهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ الرَّجُلُ يَدْخُلُ بَيْتَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ ابْنِهِ، فَتَنْجِفُهُ الْمَرْأَةُ بِسَيِّءٍ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَا يَأْكُلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ رَبَّ الْبَيْتِ لَيْسَ تَمَّ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾... الْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا وَهُوَ مَعْلُومٌ لِيُعْطَفَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فِي اللَّفْظِ، وَلِإِسْوَاءِ بِهِ مَا بَعْدَهُ فِي الْحُكْمِ، وَتَضَمَّنَ هَذَا بُيُوتَ الْأَبْنَاءِ لِأَنَّهُ لَمْ يُنَصَّ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِهِذَا مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ صَدِيقُهُمْ﴾ أَي: بُيُوتِ أَصْدِقَائِكُمْ وَأَصْحَابِكُمْ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي الْأَكْلِ مِنْهَا إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ وَلَا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَذَلِكَ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَتَايَأُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قَالَ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَانَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَالطَّعَامُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِمَّا أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ، فَكَفَّ النَّاسَ عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ صَدِيقُهُمْ﴾ وَكَانُوا أَيْضًا يَأْنِفُونَ وَيَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ الطَّعَامَ وَحْدَهُ حَتَّى يَكُونَ مَعَهُ غَيْرُهُ، فَوُخِّصَ اللَّهُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يَرَى أَحَدَهُمْ أَنَّ مَخْرَآةَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ وَحْدَهُ - فِي الْجَاهِلِيَّةِ - حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَسُوقُ الذَّوْدَ الْحِفْلَ وَهُوَ جَائِعٌ حَتَّى يَجِدَ مَنْ يُؤَاكِلُهُ وَيُسَارِبُهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ

(١) الدر المنثور: ٢٢٣/٦ والطبري: ٢٢١/١٩ (٢) الطبري: ٢١٩/١٩ (٣) عبد الرزاق: ٦٤/٣ (٤) أحمد: ٢/٢٧٩، ٢٠٤، ٢١٤، وابن ماجه: ٧٦٩/٢ (٥) كشف الأستار: ٣/٦٢، ٦١ (٦) الطبري: ٢٢٤/١٩

أَشْتَاتًا<sup>(١)</sup>. فَهَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ وَخَدَّهُ وَمَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِنْ كَانَ الْأَكْلُ مَعَ الْجَمَاعَةِ أَبْرَكَ وَأَفْضَلَ.

كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ. قَالَ: «لَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ، اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ» وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَاجَهَ أَيْضًا عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُوا جَمِيعًا، وَلَا تَفَرَّقُوا، فَإِنَّ الْبَرَكَهَ مَعَ الْجَمَاعَةِ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» قَالَ سَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ: يَعْني فَلْيَسَلِّمُوا بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةً طَيِّبَةً، قَالَ: مَا رَأَيْتُهُ إِلَّا يُوجِبُهُ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَأَخْبَرَنِي زَيْدٌ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ بَيْتَهُ فَلْيَسَلِّمْ<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَإِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ<sup>(٦)</sup>. فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْمَرُ بِذَلِكَ، وَحَدَّثَنَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَرُدُّ عَلَيْهِ<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالشَّرَائِعِ الْمُتَقَنَةِ الْمُتَّبِعَةِ، نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى أَنَّهُ يُبَيِّنُ لِعِبَادِهِ الْآيَاتِ بَيَانًا شَافِيًا لِيَتَذَكَّرُواهَا وَيَتَعَقَّلُواهَا، لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(١٦)</sup>

[أَلَا سَتِذْنَانِ عِنْدَ الْإِنصِرَافِ إِذَا مَا كَانُوا عَلَى أَمْرٍ

جَامِعٍ]

وَهَذَا أَيْضًا أَدَبٌ أَرْشَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، فَكَمَا أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِذْنَانِ عِنْدَ الدُّخُولِ، كَذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِالِاسْتِذْنَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥٩

سُورَةُ النُّورِ

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ

أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ تَرجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بَقَدِيرٍ ﴿٢﴾

عِنْدَ الْإِنصِرَافِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا فِي أَمْرٍ جَامِعٍ مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةِ جُمُعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ، أَوْ اجْتِمَاعٍ فِي مَشُورَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ وَالْحَالَةَ هَذِهِ إِلَّا بَعْدَ اسْتِذْنَائِهِ وَمُشَاوَرَتِهِ وَإِنْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِذَا اسْتَأْذَنَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ إِنْ شَاءَ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ»<sup>(١)</sup> الْآيَةَ. وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيَسَلِّمْ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيَسَلِّمْ، فَلْيَسَبِّ الْأُولَى بِأَحَقِّ مِنَ الْآخِرَةِ»<sup>(٨)</sup>. وَهَكَذَا

(١) الطبري: ٢٢٤/١٩ (٢) أحمد: ٥٠١/٣ وأبو داود: ٣٧٦٤ وابن ماجه: ٣٢٨٦ (٣) ابن ماجه: ٣٢٨٧ وقال البوصيري في الزوائد: ٧٧/٣ (٤) البغوي: ٣٥٨/٣ والطبري: ٢٢٦/١٩ (٥) الطبري: ٢٢٥/١٩ (٦) عبد الرزاق: ٦٦/٣ (٧) الدر المنثور: ٢٢٨/٦ (٨) أبو داود: ٣٨٦/٥

كَائِنًا مَنْ كَانَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(١)</sup> أَي: فَلْيَحْذَرْ وَلْيَخَشْ مَنْ خَالَفَ شَرِيعَةَ الرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا. «أَنْ يُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ» أَي: فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ بَدْعَةٍ «أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أَي: فِي الدُّنْيَا

بِقَتْلِ أَوْ حَدٍّ أَوْ حَسَبٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ، يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَعْلِينَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قَالَ - فَذَلِكَ مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ، أَنَا أَخِذْتُ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَعْلَبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا» أَخْرَجَاهُ<sup>(٨)</sup>.

«أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»<sup>(٩)</sup> [يَعْلَمُ اللَّهُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ عَالِمٌ بِمَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ فِي سِرِّهِمْ وَجَهْرِهِمْ، فَقَالَ: «قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» وَقَدْ لِلتَّحْقِيقِ، كَمَا قَالَ قَبْلَهَا: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوَادًا» وَقَالَ تَعَالَى: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ»...

الآيَةُ [الاحزاب: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ...»<sup>(١٠)</sup> [المجادلة: ١]، وَقَالَ: «قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَبَايِعَتِ اللَّهَ يَجْحَدُونَ» [الأنعام: ٣٣] وَقَالَ: «قَدْ رَأَى قَلْبُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ...»<sup>(١١)</sup> [البقرة: ١٤٤]، فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا تَحْقِيقُ الْفِعْلِ بِقَدْ، كَقَوْلِ الْمُؤَذِّنِ تَحْقِيقًا وَثُبُوتًا: قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» أَي: هُوَ عَالِمٌ بِهِ مُشَاهِدٌ لَهُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» إِلَى قَوْلِهِ: «إِنَّهُ هُوَ السَّيِّعُ الْغَلِيظُ» [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠] وَقَوْلُهُ: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(١٢)</sup>. «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوَادًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»<sup>(١٣)</sup>

[بَيَانُ الْأَدَبِ فِي مُحَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ]

قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانُوا يَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَهَاجَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ إِعْظَامًا لِنَبِيِّهِ ﷺ، قَالَ: فَقُولُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُهَابَ نَبِيُّهُ ﷺ، وَأَنْ يُجَلَّ وَأَنْ يُعْظَمَ وَأَنْ يُسَوَّدَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُقَاتِلٌ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» يَقُولُ: لَا تُسَمِّوهُ إِذَا دَعَوْتُمُوهُ: يَا مُحَمَّدُ، وَلَا تَقُولُوا يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، وَلَكِنْ شَرَفُوهُ فَقُولُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَعْنَى فِي «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» أَي: لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ دُعَاءَهُ عَلَى غَيْرِهِ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ، فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُسْتَجَابٌ فَاحْذَرُوا أَنْ يَدْعُو عَلَيْكُمْ فَتَهْلِكُوا. حَكَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَعَطِيَّةِ الْعُوفِيِّ<sup>(٥)</sup>، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوَادًا» قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: هُمْ الْمُنَافِقُونَ كَانُوا يَنْقُلُ عَلَيْهِمُ الْحَدِيثَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَيَعْنِي بِالْحَدِيثِ الْخُطْبَةَ، فَيَلُودُونَ بِبَعْضِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ لَا يَصْلُحُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ مَا يَأْخُذُ فِي الْخُطْبَةِ، وَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ أَشَارَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَأْذَنُ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ، لِأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ بَطَلَتْ جُمُعَتُهُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الشُّدِّي: كَانُوا إِذَا كَانُوا مَعَهُ فِي جَمَاعَةٍ لَا ذَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ حَتَّى يَنْغَيَّبُوا عَنْهُ فَلَا يَرَاهُمْ.

[الْتِهَامُ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ]

وَقَوْلُهُ: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ» أَي: عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَبِيلُهُ وَمِنْهَاجُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَسُنَّتُهُ وَشَرِيعَتُهُ، فَتُورَنُ الْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ بِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، فَمَا وَافَقَ ذَلِكَ قُبُلًا، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى قَائِلِهِ وَقَاعِلِهِ

(١) تحفة الأحوذى: ٤٨٥/٧ والنسائي في الكبرى: ١٠٠/٦

(٢) الدر المنثور: ٢٣٠/٦ إسناده ضعيف منقطع كما مر (٣) الطبري: ٢٣٠/١٩ (٤) الطبري: ٢٣٠/١٩ (٥) الطبري: ٢٣٠/١٩

(٦) الدر المنثور: ٢٣١/٦ (٧) فتح الباري: ٤/٤١٦ ومسلم: ١٣٤٣/٣ (٨) أحمد: ٣١٢/٢ ومسلم: ٢٢٨٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦٠

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ  
وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا  
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ  
أَفْرَبَةٍ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَ ظِلْمًا وَزُورًا  
﴿٣﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى  
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ  
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُوًّا رَحِيمًا ﴿٥﴾ وَقَالُوا  
مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ  
لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٦﴾ أَوْ يُنَزِّلُ  
إِلَيْنَا كِتَابًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ  
الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا لَرَجُلٍ مَسْحُورًا ﴿٧﴾ انْظُرْ  
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ  
سَبِيلًا ﴿٨﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ  
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ فُصُورًا ﴿٩﴾ بَلْ  
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

يَتَذَرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيَسِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ  
الصَّالِحَاتِ ﴿١١﴾ الْآيَةُ [الكهف: ٢، ١]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿تَبَارَكَ  
وَهُوَ تَفَاعُلٌ مِنَ الْبَرَكَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ الثَّابِتَةِ الدَّائِمَةِ﴾ الَّذِي نَزَلَ  
الْفُرْقَانُ ﴿١٢﴾ نَزَلَ فِعْلٌ مِنَ التَّكْرَرِ وَالتَّكثُّرِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْكِتَابُ  
الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ لِأَنَّ  
الْكِتَابَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَالْقُرْآنُ نَزَلَ  
مُنْجَمًا مُفْرَقًا مُفْضَلًا آيَاتٍ بَعْدَ آيَاتٍ، وَأَحْكَامًا بَعْدَ  
أَحْكَامٍ، وَسُورًا بَعْدَ سُورٍ، وَهَذَا أَشَدُّ وَأَبْلَغُ وَأَشَدُّ اعْتِنَاءً  
بِمَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ فِي أُنْتَاءِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿وَقَالَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ  
بِهِ قُودَكُمْ وَنُكَلِّتَهُ تَزْيِيلًا﴾ وَلَا يَأْتِيكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جُنُودُكَ  
بِالْحَقِّ وَاحْسَنَ تَقْوِيرًا ﴿١٣﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣] وَلِهَذَا سَمَّاهُ هَهُنَا  
الْفُرْقَانُ لِأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ،  
وَالْعَفَى وَالرَّشَادِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ هَذِهِ صِفَةٌ مَذْحٍ وَتَنَاءٍ لِأَنَّهُ أَضَافَهُ  
إِلَى عُبودِيَّتِهِ، كَمَا وَصَفَهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ أَحْوَالِهِ وَهِيَ لَيْلَةُ

عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ  
مِنْ شَيْءٍ دَرَقٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا  
أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٤﴾ [يونس: ٦١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ  
قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أَيْ: هُوَ شَهِيدٌ  
عَلَى عِبَادِهِ بِمَا هُمْ فَاعِلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَقَالَ تَعَالَى:  
﴿أَلَا حِينَ يَسْتَشْعُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُيْرَتُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾  
[هود: ٥٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ  
بِهِ...﴾ [الزمر: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَآخِلٍ فِي  
الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي  
كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦٠] وَقَالَ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا  
يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِزْقِهِ  
إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَابٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي  
كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا  
كَثِيرَةٌ جَدًّا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَيْ: وَيَوْمَ يَرْجِعُ الْخَلَائِقُ  
إِلَى اللَّهِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَيْ:  
يُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ جَلِيلٍ وَخَفِيرٍ وَصَغِيرٍ  
وَكَبِيرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا كَانَتْ يَدَايِهِ عَمَلًا﴾  
[القيامة: ١٣] وَقَالَ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ  
بِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَلِّتُنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا  
كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾  
[الكهف: ٤٩] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ  
بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
وَسَأَلُهُ التَّامَّ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الثُّورِ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ [وَهِيَ] مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾  
الَّذِي لَمْ يَكُنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْلُقْ وَكَلَّا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ  
شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿١﴾

[تَبَارَكَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى حَامِدًا لِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ عَلَى مَا نَزَّلَهُ عَلَى  
رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ  
لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِوَجًا﴾ ﴿٢﴾ فِيمَا

الْإِسْرَاءَ، فَقَالَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا وَكَمَا وَصَفَهُ بِذَلِكَ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَاتَّعَدَ لِمَا قَامَ عِنْدَ اللَّهِ بِدَعْوِهِ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لَيْلًا﴾ [الجن: ١٩] وَكَذَلِكَ وَصَفَهُ عِنْدَ انْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ وَنَزُولِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أَيُّ: إِنَّمَا خَصَّهُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُفْصَلِ الْعَظِيمِ الْمُبِينِ الْمُحْكَمِ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] الَّذِي جَعَلَهُ فُرْقَانًا عَظِيمًا [إِنَّمَا خَصَّهُ بِهِ] لِيَخْصَهُ بِالرَّسَالَةِ إِلَى مَنْ يَسْتَظِلُّ بِالْخَضِرَاءِ وَيَسْتَقْبِلُ عَلَى الْغُبَرَاءِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ: «إِنِّي أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» فَذَكَرَ مِنْهُنَّ أَنَّهُ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(٢)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ مِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾... الْآيَةُ [الأعراف: ١٥٨]، أَيُّ: الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَلَمْ يَخُذْ وَلَكِنَّا وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَنَزَّلَهُ نَفْسَهُ عَنِ الْوَلَدِ وَعَنَ الشَّرِيكِ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أَيُّ: كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ مَرْبُوبٌ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَنْذِيرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا بُرْهَانًا﴾<sup>(٣)</sup> ثُورًا ﴿بَيِّنَاتٍ سَفَاهَةٍ الْمُشْرِكِينَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ الْخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْمَالِكِ لِأَرْزَمَةِ الْأُمُورِ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَمَعَ هَذَا عَبْدُوا مَعَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ جَنَاحٍ بَعُوضَةٍ، بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ، لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لِعِبَادِيهِمْ؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا بُرْهَانًا﴾ أَيُّ: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ مَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ الَّذِي يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا

كَفَّيْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالصَّرِّ﴾ [الفرق: ٥٠] وَقَوْلِهِ: ﴿فَالَمَّا هِيَ زَجْرًا وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] ﴿فَالَمَّا هِيَ زَجْرًا وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩] ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، فَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَا تَتَّبِعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ، وَلَا عَدِيلَ وَلَا بَدِيلَ وَلَا نَدِيدَ، وَلَا وَزِيرَ وَلَا نَظِيرَ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾<sup>(٤)</sup> وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا<sup>(٥)</sup> قُلْ أُنْزِلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا<sup>(٦)</sup> [أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الْقُرْآنِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ سَخَافَةِ عُقُولِ الْجَهْلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ أَيُّ: كَذِبٌ ﴿افْتَرَاهُ﴾ يَعْنُونَ النَّبِيَّ ﷺ ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أَيُّ: وَاسْتَعَانَ عَلَى جَمْعِهِمْ بِقَوْمٍ آخَرِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أَيُّ: فَقَدْ افْتَرَوْا هُمْ قَوْلًا بَاطِلًا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَيَعْرِفُونَ كَذِبَ أَنْفُسِهِمْ فِيمَا زَعَمُوهُ ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ يَعْنُونَ كُتِبَ الْأَوَّلِينَ أَيُّ: اسْتَسْخَهَا ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: تُقْرَأُ عَلَيْهِ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَيُّ: فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، وَهَذَا الْكَلَامُ لِسَخَافَتِهِ وَكَذِبِهِ وَبَهْتِهِ مِنْهُمْ كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ بَطْلَانَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِالتَّوَاتُرِ وَبِالضَّرُورَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ يُعَانِي شَيْئًا مِنَ الْكِتَابَةِ لَا فِي أَوَّلِ عُمُرِهِ وَلَا فِي آخِرِهِ، وَقَدْ نَشَأَ بَيْنَ أَطْهَرِهِمْ مِنْ أَوَّلِ مَوْلِدِهِ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَهُمْ يَعْرِفُونَ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ وَصِدْقَهُ وَنَزَاهَتَهُ وَبِرَّهُ وَأَمَانَتَهُ، وَبُعْدَهُ عَنِ الْكُذِبِ وَالْفُجُورِ، وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي صِغَرِهِ وَإِلَى أَنْ بُعِثَ: الْأَمِينِ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِدْقِهِ وَبِرِّهِ، فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ نَصَبُوا لَهُ الْعِدَاوَةَ وَرَمَوْهُ بِهِذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ بَرَاءَتَهُ مِنْهَا،

## مَصِيرُهُمْ

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ وَعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لِلْحَقِّ بِلا حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا تَعَلَّلُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ يَعْنُونَ كَمَا نَأْكُلُهُ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَمَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿وَيَتَّبِعُ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أَيْ: يَتَرَدَّدُ فِيهَا وَإِلَيْهَا، طَلَبًا لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يَقُولُونَ: هَلَّا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَكُونُ لَهُ شَاهِدًا عَلَى صِدْقِ مَا يَدَّعِيهِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] وَكَذَلِكَ قَالَ هُوَلَاءُ عَلَى السَّوَاءِ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْنَا كِتَابٌ﴾ أَيْ: عَلِمَ كَثِيرٌ يُتَّفِقُ مِنْهُ ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أَيْ: تَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ، وَهَذَا كُلُّهُ سَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي تَرْكِ ذَلِكَ وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ أَيْ: جَاءُوا بِمَا يَقْدِفُونَكَ بِهِ وَيَكْذِبُونَ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: سَاحِرٌ، مَسْحُورٌ، مَجْنُونٌ، كَذَّابٌ، شَاعِرٌ، وَكُلُّهَا أَقْوَالٌ بَاطِلَةٌ، كُلُّ أَحَدٍ مِمَّنْ لَهُ أَدْنَى فَهْمٍ وَعَقْلٍ يَعْرِفُ كَذِبَهُمْ وَافْتِرَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَضَلُّوا﴾ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الْهُدَى، فَإِنَّهُ ضَالٌّ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَمَنْهَجُهُ مُتَّحِدٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا نَبِيَّهُ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ لَأَتَاهُ خَيْرًا مِمَّا يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا وَأَفْضَلَ وَأَحْسَنَ، فَقَالَ: ﴿بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾... الْآيَةُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: يُعْنِي فِي الدُّنْيَا، قَالَ: وَقُرَيْشٌ يُسَمُّونَ كُلَّ بَيْتٍ مِنْ حِجَابَةِ قُصْرَا كَبِيرًا كَانَ أَوْ صَغِيرًا<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَقُولُ هُوَلَاءُ هَكَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا لَا أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ ذَلِكَ تَبْصُرًا وَاشْتِرَاقًا بَلْ تَكْذِيبُهُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى قَوْلِ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أَيْ: أَرَضَدْنَا ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أَيْ: عَذَابًا أَلِيمًا حَارًّا، لَا يُطَاقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ أَيْ: جَهَنَّمُ ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾

وَحَارًّا فِيمَا يَقْدُفُونَهُ بِهِ، فَتَارَةً مِنْ إِفْكِهِمْ يَقُولُونَ: سَاحِرٌ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: شَاعِرٌ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: مَجْنُونٌ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: كَذَّابٌ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِ مَا عَانَدُوا هَهُنَا وَافْتَرَوْا: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الْآيَةُ، أَيْ: أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْمُسْتَعِيلَ عَلَى أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِخْبَارًا حَقًّا صِدْقًا مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ فِي الْخَارِجِ مَاضِيًا وَمُسْتَقْبَلًا ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أَيْ: اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ السَّرَائِرَ كَعِلْمِهِ بِالظَّاهِرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا غُفُورًا رَجِيمًا﴾ دُعَاءٌ لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَإِخْبَارٌ لَهُمْ بِأَنَّ رَحْمَتَهُ وَاسِعَةٌ، وَأَنَّ حِلْمَهُ عَظِيمٌ مَعَ أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، فَهُوَ لَئِنْ مَعَ كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَفُجُورِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَقَوْلِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ مَا قَالُوا يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْهُدَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّفْسَيْنِ وَالْمُؤْمِنَتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَنْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكُفْرِ وَالْجُودِ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَّبِعُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيًّا وَزَفِيرًا﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

[أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الرَّسُولِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ وَبَيَانُ



الْبَيْتُ الْخَامِسُ

٣٦١

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَلْفُتُمْ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهْقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿١٦﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْطِ ﴿١٧﴾ [الملك: ٨، ٧] أَيْ: يَكَادُ يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ غَيْطِهَا عَلَى مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَتَنْزَوِي وَتَنْقَبُضُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَيَقُولُ لَهَا الرَّحْمَنُ: مَا لَكَ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ يَسْتَجِيرُ مِنِّي، فَيَقُولُ: أَرْسِلُوا عَبْدِي. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا كَانَ هَذَا الظَّنُّ بِكَ، فَيَقُولُ: فَمَا كَانَ ظَنُّكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْ تَسْعَنِي رَحْمَتُكَ، فَيَقُولُ: أَرْسِلُوا عَبْدِي. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَتَشْهَقُ إِلَيْهِ النَّارُ شَهْقَةً الْبُعْلَةِ إِلَى الشَّعِيرِ، وَتَرْفُرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا خَافَ <sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَبْدِ بْنِ عَمِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا﴾ قَالَ: إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَرْفُرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا خَرَّ لَوَجْهِهِ تَرْتَعِدُ فَرَائِضُهُ، حَتَّى إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيَجْتُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَيَقُولُ: رَبِّ لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي <sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا أَلْفُتُمْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ﴾ قَالَ فَتَادَةُ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: مِثْلُ الرَّجُلِ فِي الرُّمَحِ، أَيْ مِنْ ضَيْقِهِ <sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قَالَ أَبُو صَالِحٍ: يَعْني مُكْتَبِينَ ﴿دَعُوا هَٰؤُلَاءِ ثُبُورًا﴾ أَيْ: بِالْوَيْلِ وَالْحَسْرَةِ وَالْخَبِيَّةِ ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾... الْآيَةُ.

﴿قُلْ أَذَلِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَلِيدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾

[النَّارُ خَيْرٌ أَمْ الْجَنَّةُ]

يَقُولُ تَعَالَى: يَا مُحَمَّدُ هَذَا الَّذِي وَصَفْنَاهُ لَكَ مِنْ حَالِ [أُولَٰئِكَ] الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ، فَتَلْقَاهُمْ بِوَجْهِهِمْ عُبُوسٍ وَتَغِيْطٌ وَزَفِيرٌ، وَيُلْقُونَ فِيهَا أَمَاكِينَهَا [الضِّيْقَ] مُقَرَّنِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حَرَآكًا وَلَا اسْتِنصَارًا وَلَا فِكَآكًا مِمَّا هُمْ فِيهِ، أَهَذَا خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَهَا اللَّهُ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ، الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُمْ وَجَعَلَهَا لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا عَلَى مَا أَطَاعُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَجَعَلَ مَالَهُمْ إِلَيْهَا ﴿هُمُ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ مِنَ الْمَلَادِ مِنْ مَآكِلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَسَاكِينٍ، وَمَرَآكِبٍ وَمَنَاظِرٍ،

وَعَبِيرٌ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ أَبَدًا دَائِمًا سَرْمَدًا بِلَا انْقِطَاعٍ وَلَا زَوَالٍ وَلَا انْقِصَاءٍ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا، وَهَذَا مِنْ وَعْدِ اللَّهِ، الَّذِي تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَأَحْسَنَ بِهِ إِلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أَيْ: لَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ وَأَنْ يَكُونَ كَمَا حَكَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أَيْ: وَعْدًا وَاجِبًا <sup>(٤)</sup>.

وَهَذَا الْمَقَامُ فِي هَذِهِ الشُّورَةِ مِنْ ذِكْرِ النَّارِ، ثُمَّ التَّنْبِيْهُ عَلَى حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النُّصْرَةِ وَالْجُبُورِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَذَلِكُمْ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ سَجَرَةُ الزُّرُّومِ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ طَلْعُهَا

(١) الطبري: ٣٧٠/٩ (٢) عبد الرزاق: ٦٧/٣ (٣) الدر المنثور: ٢٤٠/٦ (٤) الزهد لابن المبارك في الزوائد: ٨٦ (٥) الطبري: ٢٤٧/١٩

كَانَهُ زُؤُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿١٥﴾ فَاتَّبَعَهُمْ لَآكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ تَوْنُ مِنْهَا  
الْبُطُونِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حِمِيمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ  
لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا أَفْوَءَ أَبَاءَهُمْ صَالِينَ ﴿١٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ  
يُتْرَعُونَ ﴿[الصافات: ٦٢-٧٠]﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ  
أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٧﴾﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ  
مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ  
وَعِبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ  
بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ  
نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾  
[تَبْرِي إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَفْرِيعِ الْكُفَّارِ  
فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ،  
فَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ  
مُجَاهِدٌ: هُوَ عِيسَىٰ وَعَزِيرٌ وَالْمَلَائِكَةُ<sup>(١)</sup>. ﴿فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ  
أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ...﴾ الْآيَةُ أَيْ: فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ  
لِلْمَعْبُودِينَ: أَأَنْتُمْ دَعَوْتُمْ هَؤُلَاءِ إِلَىٰ عِبَادَتِكُمْ مِنْ دُونِي، أَمْ  
هُمْ عَبَدُوكُمْ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ؟ كَمَا  
قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ  
لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَىٰ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ  
لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي  
نَفْسِي وَلَا أَفْهَمَ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٧﴾﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ  
إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴿[المائدة: ١١٦، ١١٧]﴾، وَلِهَذَا قَالَ

تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّا يُجِيبُ بِهِ الْمَعْبُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿قَالُوا  
سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ قَرَأَ  
الْأَكْثَرُونَ بِفَتْحِ النُّونِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿نَتَّخِذُ مِنْ دُونِكَ مِنْ  
أَوْلِيَاءَ﴾ أَيْ: لَيْسَ لِلْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ أَنْ يَعْبُدُوا أَحَدًا سِوَاكَ لَا  
نَحْنُ وَلَا هُمْ، فَحَنُّ مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ، بَلْ هُمْ فَعَلُوا  
ذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَمْرِنَا وَلَا رِضَانَا، وَنَحْنُ  
بُرَاءٌ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ  
جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُؤَلَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾﴾ قَالُوا  
سُبْحَانَكَ... الْآيَةُ، وَقَرَأَ آخَرُونَ: (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ  
نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ) أَيْ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَنَا  
فَإِنَّا عِبِيدُكَ فَكَرَأَ إِلَيْكَ، وَهِيَ قَرِيبَةُ الْمَعْنَىٰ مِنَ الْأُولَىٰ.  
﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ﴾ أَيْ: طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ حَتَّىٰ  
نَسُوا الذِّكْرَ، أَيْ: نَسُوا مَا أَنْزَلْتَهُ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ

(١) الطبري: ٢٤٧/١٩ (٢) الطبري: ٢٤٨/١٩ (٣) الطبري: ٢٤٨/١٩

بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ حَالِ اخْتِصَارِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَسْرُونَ بِالْخَيْرَاتِ، وَحُصُولِ الْمَسَرَّاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا أَلْتَّائِينَ فَآلُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا نَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ بِالْمَعْنَةِ إِلَيْنَا كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١) تَعْنُ أَوْلِيَاؤَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٢) نَزَّلَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ [فصلت: ٣٠-٣٢]. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِينَ: أَخْرِجِي أَتَيْتِ النَّفْسَ الطَّيِّبَةَ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ إِنَّ كُنْتَ تَعْمُرِيهِ، اخْرُجِي إِلَى رُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ» (٣).

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمَا، وَلَا مَنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ: يَوْمَ الْمَمَاتِ وَيَوْمَ الْمَعَادِ، تَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْكَافِرِينَ، فَتُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّحْمَةِ وَالرَّضْوَانِ، وَتُخْبِرُ الْكَافِرِينَ بِالْخَبِيَةِ وَالْخُسْرَانِ، فَلَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وَيَقُولُونَ جَهَنَّمَ جَهَنَّمَ أَيُّ: وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِينَ: حَرَامٌ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ الْفَلَاحُ الْيَوْمَ. وَأَصْلُ الْحَجَرِ: الْمَنْعُ. وَمِنْهُ يُقَالُ: حَجَرَ الْقَاضِي عَلَى فُلَانٍ إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ، إِمَّا لِفُلْسٍ أَوْ سَفَهٍ أَوْ صِغَرٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْحَجَرُ عِنْدَ النَّبِيِّ الْحَرَامَ، لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الطَّوْفَ أَنْ يَطُوفُوا فِيهِ، وَإِنَّمَا يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْعَقْلِ: حَجَرٌ. لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ عَنِ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيْقُ. وَالْعَرَضُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ. هَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَالْحَسَنَ وَالضَّحَّاكَ وَقَتَادَةَ وَعَطِيَّةَ الْعَوْفِيَّ وَعَطَاءَ الْخُرَاسَانِيَّ وَخُصَيْفٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٤).

وَقَدْ حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ: ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْمُشْرِكِينَ (٥) ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أَيُّ: يَتَوَدَّدُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا نَزَلَ بِأَحَدِهِمْ نَازِلَةٌ أَوْ شَيْءٌ يَقُولُ: ﴿جَهَنَّمَ جَهَنَّمَ﴾ وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَا خِذَ وَجْهَهُ، وَلَكِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السِّيَاقِ بَعِيدٌ لَا سِمًا وَقَدْ نَصَّ

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ صَابِرُونَ﴾ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ: لَوْ شِئْتُ أَنْ أَجْعَلَ الدُّنْيَا مَعَ رُسُلِي فَلَا يُخَالِفُونَ، لَفَعَلْتُ، وَلَكِنِّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَتْلِيَ الْعِبَادَ بِهِمْ وَأَتْلِيَكُمْ بِهِمْ (١). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ جِمَارٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُتَبِّلُكَ» (٢). وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ عَبْدًا رَسُولًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا (٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا نَازِلًا نَزَّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ رَأَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جَهَنَّمَ جَهَنَّمَ وَفَقِيمًا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَعَجَلْنَاهُ هَبَاةً نَسْفَةً (٢) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٣)

#### [بَيَانُ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ﴾ فَتَرَاهُمْ عِينًا فَيُخْبِرُونَا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ تَأْتِي بِلَهُنَّ وَالْمَلَائِكَةِ فَيَلَا﴾ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَوْ رَأَىٰ رَبَّنَا﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَلَكِنَّهُمْ لَفُتِنُوا...﴾ (الأنعام: ١١١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ جَهَنَّمَ جَهَنَّمَ﴾ أَيُّ: هُمْ لَا يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ فِي يَوْمٍ خَيْرٍ لَهُمْ، بَلْ يَوْمَ يَرَوْنَهُمْ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ، وَذَلِكَ بِصَدْقٍ عَلَى وَقْتِ الْإِخْصَارِ حِينَ تُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالنَّارِ، وَالْغَضَبِ مِنَ الْجَبَّارِ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ، أَخْرِجِي أَتَيْتِ النَّفْسَ الْخَبِيثَةَ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، أَخْرِجِي إِلَى سَمُومٍ وَخَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، فَتَأْتِي الْخُرُوجَ وَتَتَفَرَّقُ فِي الْبَدَنِ فَيَصْرَبُونَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ...﴾ (الأنفال: ٥٠)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أَيُّ: بِالضَّرْبِ «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ» (الأنعام: ٩٣) وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وَهَذَا

(١) الطبري: ٣٧٧/١٩ (٢) مسلم: ٢٨٦٥ (٣) أحمد: ٢/

٢٣١ (٤) مسلم: ٢٢٠٢/٤ (٥) الطبري: ٢٥٦/١٩ والمحرم

الوجيز: ٢٠٦/٤ (٦) الطبري: ٢٥٤/١٩

الْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ...﴾  
الْآيَةِ، هَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ حِينَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَى مَا  
عَمِلُوهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُوْلَاءِ  
الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا مُنْجَاةٌ لَهُمْ شَيْءٌ،  
وَذَلِكَ لِأَنَّهَا فَقَدَتِ الشَّرْطَ الشَّرْعِيَّ إِنَّمَا الْإِخْلَاصَ فِيهَا وَإِنَّمَا  
الْمُتَابَعَةَ لِشَرْعِ اللَّهِ. فَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ خَالِصًا وَعَلَى  
الشَّرِيعَةِ الْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ بَاطِلٌ، فَأَعْمَالُ الْكُفَّارِ لَا تَخْلُو مِنْ  
وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ، وَكَذَلِكَ تَجْمَعُهُمَا مَعًا فَتَكُونُ أَبَعَدَ مِنَ الْقَبُولِ  
حَيِّثُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ  
فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ قَالَ سُفْيَانُ  
الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْحَارِثِ، عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ قَالَ: شُعَاعُ الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَ  
الْكُوَّةُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا رَوَى مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ عَنْ عَلِيٍّ وَرَوَى  
مِثْلَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ  
وَالسُّدِّيَّ وَالضَّحَّاكَ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ  
الْبَصْرِيُّ: هُوَ الشُّعَاعُ فِي كُوَّةِ أَحَدِهِمْ، وَلَوْ ذَهَبَ بَقِيعُ  
عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْأَحْوَسِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ  
عَنِ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ: ﴿هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ قَالَ: الْهَبَاءُ [رَهْجُ]  
الدَّوَابِّ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى مِثْلَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَالضَّحَّاكَ.  
وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْلَمَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ قَالَ: أَمَا رَأَيْتَ  
يَبْسُ السَّجَرِ إِذَا ذَرَتْهُ الرِّيحُ؟ فَهُوَ ذَلِكَ الْوَرَقُ<sup>(٥)</sup>. وَعَنْ  
يَعْلَى بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: وَإِنَّ الْهَبَاءَ الرَّمَادُ إِذَا ذَرَتْهُ الرِّيحُ،  
وَحَاصِلُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ التَّشْبِيهُ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ الْكُفَّارِ تَكُونُ  
كَالشَّيْءِ النَّافِئِ الْحَقِيرِ الْمُتَفَرِّقِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ صَاحِبُهُ مِنْهُ  
عَلَى شَيْءٍ بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِثْلَ الذُّبَابِ كَفَرُوا  
بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٌ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ...﴾ الْآيَةُ  
[إبراهيم: ١٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَبْطُلُوا  
صَدَقْتِكُمْ بِالْحَقِّ وَلَا زَيْدٍ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ  
مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِفِغْمَةٍ يُفْسِدُهَا الظُّلُمَاتُ مَاءٌ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ لَمْ  
يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

[مُسْتَقَرُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا

سُورَةُ الْفُرْقَانِ ٣٦٢

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكَةُ  
أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا  
(١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَ ذَلِكَ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ  
حِجْرًا مَحْجُورًا (٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ  
هَبَاءً مَنْثُورًا (٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا  
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٤) وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ  
تَنْزِيلًا (٥) الْمَلَكُ يَوْمَ ذَلِكَ الْخَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى  
الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٦) وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ  
يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٧) يَوْمَئِذٍ لَتَنِي لَمْ أَخَذْ  
فَلَا نَاحِيَةً (٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي  
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٩) وَقَالَ الرَّسُولُ  
يَرَبِّ إِنِّي قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (١٠) وَكَذَلِكَ  
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا  
وَنَصِيرًا (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً  
وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (١٢)

وَأَحْسَنُ مَقِيلًا أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ  
وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ [الحشر: ٢٠]  
وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ  
وَالْعُرُوفَاتِ الْأَمَنَاتِ، فَهُمْ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ حَسَنٍ الْمُنْظَرِ طَيِّبِ  
الْمَقَامِ [حُكَايَا] فِيهَا حُسْنٌ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا  
[الفرقان: ٧٦] وَأَهْلُ النَّارِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَكَاتِ  
السَّافِلَاتِ، وَالْحَسَرَاتِ الْمُتَتَابِعَاتِ، وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ  
وَالْعُقُوبَاتِ [إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا] [الفرقان: ٦٦]  
أَي: يَسُ الْمَنْزِلُ مُنْظَرًا، وَيَسُ الْمَقِيلُ مَقَامًا، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾  
أَي: بِمَا عَمِلُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَبَّلَةِ نَالُوا مَا نَالُوا،  
وَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، بِخِلَافِ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُمْ لَيْسَ

(١) هذا إسناد ضعيف فيه تدليس أبي إسحاق وحارث بن عبدالله  
الأعور صاحب علي كذبه الشعبي في رأيه ورُوي بالرفض في حديثه  
ضعف [تقريب] (٢) الطبري: ٢٥٧/١٩، (٣) الطبري:

٢٥٨/١٩ (٤) انظر ما سبق (٥) الطبري: ٢٥٨/١٩

الْمُؤْمِنُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾... [الآية: ١٠٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ بَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَدَمِ الظَّالِمِ الَّذِي فَارَقَ طَرِيقَ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، وَسَلَكَ طَرِيقًا أُخْرَىٰ غَيْرَ سَبِيلِ الرَّسُولِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَدِمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ، وَعَصَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ حَسْرَةً وَأَسَفًا. وَسَوَاءٌ كَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا فِي غَفَبَةٍ بَيْنَ أَبِي مُعَيْطٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ، فَإِنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ ظَالِمٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الآيتين: الأحزاب: ٦٦، ٦٧]، فَكُلُّ ظَالِمٍ يَنْدَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَايَةَ النَّدَمِ، وَيَعْصُ عَلَىٰ يَدَيْهِ قَانِلًا: ﴿بَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ ﴿يَوَلَّىٰ لَيَتَىٰ لَوْ أَخَذَ فَلَانًا حَلِيلًا﴾ يَعْنِي مَنْ صَرَفَهُ عَنِ الْهُدَىٰ وَعَدَلَ بِهِ إِلَىٰ طَرِيقِ الضَّلَالِ مِنْ دُعَاةِ الضَّلَالَةِ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أَمَةٌ بُنِيَ خَلْفٌ أَوْ أُخُوهُ أُبَيٌّ بُنِيَ خَلْفٌ أَوْ غَيْرُهُمَا، ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أَيُّ: بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَاذِبُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ حَدُولًا﴾ أَيُّ: يَحْدُلُهُ عَنِ الْحَقِّ وَيَضْرِفُهُ عَنْهُ، وَيَسْتَعْمِلُهُ فِي الْبَاطِلِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا

وَنَصِيرًا ﴿١٠٤﴾

[الرَّسُولُ يَشْكُو مُحَالِفِيهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ رَسُولِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ [صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ] أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُصْغُونَ لِلْقُرْآنِ وَلَا يَسْتَمِعُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ﴾... [الآية: فصلت: ٢٦]، فَكَانُوا إِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ أَكْثَرُوا اللَّغَطَ وَالْكَلامَ فِي غَيْرِهِ حَتَّىٰ لَا يَسْمَعُوهُ. فَهَذَا مِنْ هِجْرَانِهِ. وَتَرَكُ عِلْمَهُ وَحِفْظَهُ أَيْضًا مِنْ هِجْرَانِهِ. وَتَرَكُ تَدْبِيرَهُ وَنَفْهَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَتَرَكُ تَصْدِيقَهُ مِنْ هِجْرَانِهِ. وَتَرَكُ الْعَمَلِ بِهِ وَامْتِثَالَ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ

لَهُمْ عَمَلٌ وَاحِدٌ يَقْتَضِي دُخُولَ الْجَنَّةِ لَهُمْ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، فَتَبَّ تَعَالَى بِحَالِ السَّعْدَاءِ عَلَىٰ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ، وَأَنَّهُ لَا خَيْرَ عَنْدهُمْ بِالْكَلْبَةِ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَقْرَعُ اللَّهُ مِنَ الْجِسَابِ نِصْفَ النَّهَارِ، فَيَقِيلُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: إِنِّي لَا أَعْرِفُ السَّاعَةَ الَّتِي يَدْخُلُ فِيهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ ارْتِفَاعِ الضُّحَى الْأَكْبَرِ إِذَا انْقَلَبَ النَّاسُ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ لِلْقِيُولَةِ، فَيُنْصَرَفُ أَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، وَأَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ فَكَانَتْ قِيلَوْلُهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَأَطْعَمُوا كَبِدَ حَوْثٍ فَأَشْبَعَهُمْ كُلَّهُمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالنَّعَمِ وَرُزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾ [الملك: ٢٥] أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ بَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿١٠٦﴾ يَوَلَّىٰ لَيَتَىٰ لَوْ أَخَذَ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿١٠٧﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَدُولًا ﴿١٠٨﴾

[أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتَمَنَّى الظَّالِمِ اتِّخَاذَ سَبِيلِ الرَّسُولِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ، فَمِنْهَا انْتِفَاقُ السَّمَاءِ وَتَفْطُرُهَا، وَانْفِرَاجُهَا بِالْعَمَامِ، وَهُوَ ظُلُّ الثَّورِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَبْهَرُ الْأَبْصَارَ، وَنَزُولُ مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ يَوْمَئِذٍ فَيَحْبِطُونَ بِالْخَلَائِقِ فِي مَقَامِ الْمُحْشَرِّ، ثُمَّ يَجِيءُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِفَضْلِ الْقَضَاءِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾... [الآية: (١) البقرة: ٢١٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الآية: ١٠٨] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْوِي السَّمَوَاتِ بِمِيمِنِهِ، وَيَأْخُذُ الْأَرْضِينَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟» (٢) وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أَيُّ: شَدِيدًا صَعْبًا، لِأَنَّهُ يَوْمٌ عَذَلٍ وَقَضَاءٍ فَضْلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [١] عَلَى الْكَافِرِينَ عَذْرٌ يَسِيرٌ [الطور: ١٠، ٩] فَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَأَمَّا

(١) الطبري: ٢٦٠/١٩ (٢) فتح الباري: ٣٧٩/١١ ومسلم:

رَوَّاجِرِهِ مِنْ هَجْرَائِهِ. وَالْعَدُولُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ شَيْءٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ غِنَاءٍ أَوْ لَهَرٍ أَوْ كَلَامٍ أَوْ طَرِيقَةٍ مَأْخُودَةٍ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ هَجْرَائِهِ. فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْكَرِيمَ الْمَنَّانَ الْقَادِرَ عَلَى مَا يَشَاءُ، أَنْ يُخَالِصَنَا مِمَّا يُسْخِطُهُ، وَيَسْتَعْمِلَنَا فِيمَا يُرْضِيهِ مِنْ حِفْظِ كِتَابِهِ وَفَهْمِهِ، وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَّابٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾

أَيُّ: كَمَا حَصَلَ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي قَوْمِكَ مِنَ الَّذِينَ هَجَرُوا الْقُرْآنَ، كَذَلِكَ كَانَ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ، يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ...﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أَيُّ: لِمَنْ اتَّبَعَ رَسُولُهُ وَأَمَّنْ بِكِتَابِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ هَادِيَهُ وَنَاصِرُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ لِقَلَّ يَهْتَدِي أَحَدٌ بِهِ، وَلِتَغْلِبَ طَرِيقَتُهُمْ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾... الآية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) [الْحِكْمَةُ فِي انْزَالِ الْقُرْآنِ مُتَفَرِّقًا وَالرَّدُّ عَلَى الْكُفَّارِ وَبَيَانُ سُوءِ مَصِيرِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كَثْرَةِ اغْتِرَاضِ الْكُفَّارِ وَتَعَتُّبِهِمْ وَكَلَامِهِمْ فِيمَا لَا يَغْنِيهِمْ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أَيُّ: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي أَوْحِيَ إِلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَمَا نَزَلَتْ الْكُتُبُ قَبْلَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَالْتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنَّمَا نَزَلَ مُنْجَمًا فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْخَوَادِثِ، وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ لِيُثَبِّتَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ فُتُوحَهُ﴾... [الأنعام: ١٠٦]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قَالَ فَتَادَهُ: بَيَّنَّاهُ تَبْيِينًا. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: وَفَسَّرْنَاهُ تَفْسِيرًا (١).

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أَيُّ: بِحُجَّةٍ وَشَبْهَةٍ ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزِلْهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُنَّا تُبْرَاتِنِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرًا سَوِيًّا أَكَلْتُمْ يَكُوتًا وَابْرَأْتُمْ هَابِلًا كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا بُشِعَ بِكَ إِلَّا هُزُوا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنَّا صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣)

وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أَيُّ: وَلَا يَقُولُونَ قَوْلًا يُعَارِضُونَ بِهِ الْحَقَّ، إِلَّا أَجَبْنَاهُمْ بِمَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَأَبَيْنُ وَأَوْضَحُ وَأَفْصَحُ مِنْ مَقَالَتِهِمْ.

وَرَوَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً (١). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ فُتُوحَهُ﴾ لِقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّي وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا [الأنعام: ١٠٦].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ سُوءِ حَالِ الْكُفَّارِ فِي مَعَادِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحَشَرِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ فِي أَسْوَأِ الْحَالَاتِ وَأَقْبَحِ الصِّفَاتِ: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «إِنَّ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ، قَادِرٌ أَنْ

يُمْشِيهِ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا<sup>(٢)</sup> فَقُلْنَا أَهْبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمَرْنَهُمْ نَدْمِيرًا<sup>(٣)</sup> وَقَوْمٌ نُوْجَ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا<sup>(٤)</sup> وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا<sup>(٥)</sup> وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا<sup>(٦)</sup> وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ النَّوْءِ أَكَلَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا<sup>(٧)</sup>﴾

[تخويف مشركي قريش]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَن كَذَبَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ وَمَنْ خَالَفَهُ، وَمُحَذِّرُهُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ مِمَّا أَحَلَّهُ بِالْأَمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْذُوبِينَ لِرُسُلِهِ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ مُوسَى [عَلَيْهِ السَّلَام] وَأَنَّهُ بَعَثَهُ وَجَعَلَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا، أَي: نَبِيًّا مَوَازِرًا وَمُؤَيَّدًا وَنَاصِرًا، فَكَذَّبَهُمَا فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ: ف «دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهُا» [محمد: ١٠] وكذلك فَعَلَ بِقَوْمِ نُوحٍ كَذَبُوا رَسُولَهُ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَام، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ رَسُولٍ وَرَسُولٍ، وَلَوْ فَضِضَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهِمْ كُلَّ رَسُولٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَوْمٌ نُوْجَ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ» وَلَمْ يُبْعَثْ إِلَيْهِمْ إِلَّا نُوحٌ فَقَطْ، وَقَدْ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَحْذَرُهُمْ فِقْمَهُ «وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» [هود: ٤٠] وَلِهَذَا أَغْرَقَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَمْ يَبْرُكْ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ سِوَى أَصْحَابِ السَّفِينَةِ فَقَطْ «وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً» أَي: عِبْرَةً يَعْتَبِرُونَ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارَةِ<sup>(٨)</sup> لِنَجْلِيَنَّ لَكَ نَذْرَةَ وَنَعِيَّا أَذْنَ وَعِيَةً» [الحاقة: ١١، ١٢] أَي: وَأَبْقَيْنَا لَكُم مِّنَ السَّفِينِ مَا تَرْكَبُونَ فِي لُجَجِ الْبَحَارِ لِتَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ [فِي] إِنْجَائِكُمْ مِنَ الْغَرَقِ، وَجَعَلِكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ مِّنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ أَمْرَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ» قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى فَصْلَيْهِمَا فِي غَيْرِ مَا سُورَةٍ، كَسُورَةِ الْأَعْرَافِ، بِمَا أَغْنَى عَنِ الْإِعَادَةِ. وَأَمَّا أَصْحَابُ الرَّسِّ، فَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمْ أَهْلُ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى ثَمُودَ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي بُكَيْرٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ: الرَّسُّ يَبْرُ رَسُوا

فِيهَا نَبِيَّهُمْ، أَي: دَفَنُوهُ بِهَا<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا» أَي: وَأَمَّا - [بَيْنَ] أَصْعَافٍ مِّنْ ذِكْرِ أَهْلِكُنَا هُمْ - كَثِيرَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ» أَي: بَيَّنَّا لَهُمُ الْحُجَجَ وَوَضَحْنَا لَهُمُ الْأَدِلَّةَ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: وَأَرْحَنَّا الْأَعْدَارَ عَنْهُمْ<sup>(٤)</sup>. «وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا» أَي: أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ» [الإسراء: ١٧] وَالْقَرْنُ هُوَ الْأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، كَقَوْلِهِ: «ثُمَّ أَفْشَانَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا بَاخِرِينَ» [المؤمنون: ٤٢] وَحَدَّهُ بَعْضُهُمْ بِمِائَةِ وَعِشْرِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: بِمِائَةٍ. وَقِيلَ: بِثَمَانِينَ، وَقِيلَ: أَرْبَعِينَ، وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْقَرْنَ هُوَ الْأُمَّةُ الْمُتَعَاَصِرُونَ فِي الزَّمَنِ الْوَاحِدِ، وَإِذَا ذَهَبُوا وَخَلَفَهُمْ جِيلٌ فَهُوَ قَرْنٌ آخَرٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»... الْحَدِيثُ<sup>(٥)</sup>. «وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ النَّوْءِ» يَعْنِي قَرْيَةَ قَوْمِ لُوطٍ، وَهِيَ سَدُومُ وَمَعَامَلَتْهَا الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ بِالْقَلْبِ وَبِالْمَطَرِ مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي مِنْ سَجِيلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ» [الشعراء: ١٧٣] وَقَالَ: «وَلَنُرَكِّبُ لَكُمُورًا عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ<sup>(٦)</sup> وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَا تَنهَا لِسَبِيلِ مُقِيمٍ» [الحجر: ٧٦] وَقَالَ: «وَلَا تَنهَا لِيَأْمُرِ مُبِينٍ» [الحجر: ٧٩] وَلِهَذَا قَالَ: «أَكَلَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا» أَي: فَيَعْتَبِرُوا بِمَا حَلَّ بِأَهْلِهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالرُّسُولِ وَبِمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللَّهِ «بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا» يَعْنِي الْمَارِّينَ بِهَا مِنَ الْكُفَّارِ لَا يَعْتَبِرُونَ لَأَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا، أَي: مَعَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ

رَسُولًا<sup>(١)</sup> إِنْ كَادَ لَيُبْسِطُنَا عَنْ إِلَهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا

عَلَيْهَا وَسَوَفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَن أَضَلَّ سَبِيلًا<sup>(٢)</sup>

أَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا<sup>(٣)</sup> أَمْ

تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا<sup>(٤)</sup>﴾

(١) أحمد: ٢٢٩/٣ (٢) الطبري: ٢٦٩/١٩ (٣) البغوي: ٣/

٣٦٩ والقرطبي: ٣٢/١٣ (٤) الطبري: ٢٧٢/١٩ (٥) فتح

الباري: ٣٠٦/٥ ومسلم: ١٩٦٣/٤ لا يوجد في الصحيحين

'خير القرون' بل فيهما 'خيركم' أو خير الناس.

## [استهزاء الكافرين بالرَّسُولِ ﷺ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ اسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالرَّسُولِ ﷺ إِذَا رَأَوْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَدُّوكَ إِلَّا هُزُوًا﴾... الآية، يَتَوَنُّونَ بِالْغَيْبِ وَالنَّقْصِ. وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَخَدُّوكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أَيُّ: عَلَى سَبِيلِ التَّنْقِصِ وَالْإِزْدِرَاءِ فَقَبَّحَهُمُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾... الآية [الأنعام: ١٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ يَتَوَنُّونَ أَنَّهُ كَادَ يَتَضَيِّعُهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ لَوْلَا أَنْ صَبَرُوا وَتَجَلَّدُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾... الآية.

## [اتَّخَذَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ إِلَهًا وَكُونَهُمْ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مَتَّبِعْهُ أَنْ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَالضَّلَالَ، فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أَيُّ: مَهْمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ شَيْءٍ وَرَأَاهُ حَسَنًا فِي هَوَى نَفْسِهِ كَانَ دِينَهُ وَمَذْهَبَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَمْ يَكُنْ سُوًى عَلَيْهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾... الآية [فاطر: ٨]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَعْْبُدُ الْحَجَرَ الْأَبْيَضَ زَمَانًا، فَإِذَا رَأَى غَيْرَهُ أَحْسَنَ مِنْهُ عَبْدَ الثَّانِي وَتَرَكَ الْأَوَّلَ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾... الآية، أَيُّ: هُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ، فَإِنَّ يَلْكَ تَفْعُلُ مَا خُلِقْتَ لَهُ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ وَيُسْرِكُونَ بِهِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِزْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> ثُمَّ قَبَضَتْهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا<sup>(٣)</sup> وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا<sup>(٤)</sup>

## [الدَّلَائِلُ عَلَى وُجُودِ الْبَارِي وَسَعَةِ قُدْرَتِهِ]

مِنْ هَهُنَا شَرَعَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمُتَضَادَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَأَبُو مَالِكٍ

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا<sup>(٥)</sup> أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا<sup>(٦)</sup> ثُمَّ قَبَضَتْهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا<sup>(٧)</sup> وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا<sup>(٨)</sup> وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا<sup>(٩)</sup> لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْسَاءً كَثِيرًا<sup>(١٠)</sup> وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآيَاتِ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا<sup>(١١)</sup> وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا<sup>(١٢)</sup> فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا<sup>(١٣)</sup> وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا<sup>(١٤)</sup> وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا<sup>(١٥)</sup> وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا<sup>(١٦)</sup>

وَمَسْرُوقٌ وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالتَّخَمِيُّ وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ [وَالسُّدِّيُّ] وَغَيْرُهُمْ: هُوَ مَا بَيَّنَّ طُلُوعَ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ<sup>(١)</sup>. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أَيُّ: دَائِمًا لَا يَزُولُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَهَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا...﴾ الآيات [القصاص: ٧١-٧٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أَيُّ: لَوْلَا أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ عَلَيْهِ لَمَّا عُرِفَ، فَإِنَّ الضُّدَّ لَا يَعْرِفُ إِلَّا بِضِدِّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: دَلِيلًا تَتْلُوهُ وَتَتَّبَعُهُ حَتَّى تَأْتِيَ عَلَيْهِ كُلُّهُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَبَضَتْهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أَيُّ: أَلْظَلَّ. ﴿يَسِيرًا﴾ أَيُّ: سَهْلًا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَبْضًا خَفِيًّا حَتَّى لَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ ظِلٌّ إِلَّا تَحْتَ سَقْفٍ أَوْ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَقَدْ أَظْلَمَتِ الشَّمْسُ مَا قَوْفَهُ. وَقَالَ أَيُّوبُ بْنُ

(١) الدر المنثور: ٢٦٠/٦ (٢) الطبري: ٢٧٥/١٩ والقرطبي:

(٣) الدر المنثور: ٢٦٢/٦



مَوْسَى فِي الْآيَةِ: ﴿فَبَصَّ يَسِيرًا﴾ قَلِيلًا قَلِيلًا<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَّ لِيَأْسًا﴾ أَيُّ: يَلْبَسُ الْوُجُودَ وَيَغْشَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَيُّ لَ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١].

وَالْتَوَمَّ سُبَاتًا أَيُّ: قَاطِعًا لِلْحَرَكَةِ لِرَاحَةِ الْأُبْدَانِ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ وَالْجَوَارِحَ تَكِلُ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَةِ فِي الْإِنْتِشَارِ بِالنَّهَارِ فِي الْمَعَاشِ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَسَكَنَ، سَكَنَتِ الْحَرَكَاتُ فَاسْتَرَحَّتْ، فَحَصَلَ التَّوَمُّ الَّذِي فِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ وَالرُّوحُ مَعًا ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أَيُّ: يَنْشِيرُ النَّاسُ فِيهِ لِمَعَاشِهِمْ وَمَكَاسِيهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾... [الآيَةُ: [الفصل: ٧٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿لِنُخْئِي بِهِ بِلَدَةً مَيِّتًا وَنُخْئِيَهُم مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى يُرْسِلُ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ، أَيُّ: بِمَجِيءِ السَّحَابِ بَعْدَهَا، وَالرِّيحُ أَنْوَاعٌ فِي صِفَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّشْخِيرِ، فَمِنْهَا مَا يُبَشِّرُ السَّحَابَ، وَمِنْهَا مَا يَحْمِلُهُ، وَمِنْهَا مَا يَسُوقُهُ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ مُبَشِّرًا، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ يَشُمُّ الْأَرْضَ، وَمِنْهَا مَا يَلْقَحُ السَّحَابَ لِيُمْطَرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أَيُّ: آلَهُ يُنْظَرُ بِهَا كَالسَّحُورِ وَالْوُفُودِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَنَوَّضُ مِنْ بُرٍّ بَضَاعَةٍ، وَهِيَ بُرٌّ يُلْقَى فِيهَا التَّنُّ وَلُحُومُ الْكِلَابِ؟ فَقَالَ: «إِنَّ الْمَاءَ طَهُورٌ لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ». رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنُخْئِي بِهِ بِلَدَةً مَيِّتًا﴾ أَيُّ: أَرْضًا قَدْ طَالَ انْتِظَارُهَا لِلْعَيْثِ، فَهِيَ هَامِدَةٌ لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ فَلَمَّا جَاءَهَا الْحَيَاءُ عَاشَتْ وَانْكَسَتْ رُبَاهَا أَنْوَاعُ الْأَزْهَابِ وَالْأَلْوَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ﴾... [الآيَةُ: [فصلت: ٣٩].

وَأُنَاسِي كَثِيرًا أَيُّ: وَلَيْسَرَبَ مِنْهُ الْحَيَوَانُ مِنْ أَنْعَامٍ وَأُنَاسِيٍّ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ غَايَةً الْحَاجَةُ لِشَرْبِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَنِمَارِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْعَيْثَ مِنْ بَعْدِ

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَعَتْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا نَحْجُورًا﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) الدر المنثور: ٢٦٢/٦ (٢) مسند الشافعي: ٢١/١ وأحمد: ٣١/٣ وأبو داود: ٥٣/١ وتحفة الأحوذني: ٢٠٣/١ والنسائي: ١٧٤/١ (٣) الطبري: ٢٨٠/١٩ (٤) الطبري: ٢٨٠/١٩ (٥) مسلم: ٨٣/١

[عُمُومُ رِسَالَتِهِ ﷺ وَتَنْبِيْهِ عَلَيْهِ وَذِكْرُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنَّا خَصَصْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْبَعْثَةِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَأَمَرْنَاكَ أَنْ تَبْلُغَهُمُ الْقُرْآنَ ﴿لَا تُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَخْيَارِ فَأَلِئْنَا مَوْعِدَهُ﴾ [هود: ١٧] ﴿لَنُذِِرَ أَمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧] ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»، وَفِيهِمَا: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَطْغِ الْكَافِرِينَ وَبَعَثْنَاهُمْ بِهِ﴾ يَغْنِي الْقُرْآنُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ<sup>(٢)</sup>. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهِدُوا الْكَافِرَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾ [التوبة: ٧٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أَيُّ: خَلَقَ الْمَاءَيْنِ: الْحُلُوَّ وَالْمِلْحَ. فَالْحُلُوُّ كَالْأَنْهَارِ وَالْمَيْوَاتِ وَالْآبَارِ، وَهَذَا هُوَ الْبَحْرُ الْحُلُوُّ الْعَذْبُ الْفُرَاتُ الزَّلَالُ. قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَهَذَا الْمَعْنَى لَا شَكَّ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ بَحْرٌ سَائِكٌ وَهُوَ عَذْبٌ فُرَاتٌ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا أَخْبَرَ بِالْوُقُوعِ لِنَبِيَّةِ الْعِبَادَةِ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ لِيَشْكُرُوهُ، فَالْبَحْرُ الْعَذْبُ هُوَ هَذَا السَّارِخُ بَيْنَ النَّاسِ، فَرَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ خَلْقِهِ لِاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ أَنْهَارًا وَعُيُونًا فِي كُلِّ أَرْضٍ، بِحَسَبِ حَاجَتِهِمْ وَكَفَايَتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَرْضِيهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أَيُّ: مَالِحٌ مَرُّ رُغَاقٌ لَا يُسْتَسَاعُ، وَذَلِكَ كَالْبَحَارِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ: الْبَحْرُ الْمُحِيطُ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ مِنَ الرُّقَاقِ، وَبَحْرُ الْقَلْزَمِ، وَبَحْرُ الْيَمَنِ، وَبَحْرُ الْبَصْرَةِ، وَبَحْرُ فَارِسَ، وَبَحْرُ الصَّبِينِ وَالْهِنْدِ، وَبَحْرُ الرُّومِ، وَبَحْرُ الْخَزَرِ، وَمَا شَاكَلَهَا وَشَابَهَا مِنَ الْبَحَارِ السَّائِكَةِ الَّتِي لَا تَحْرِي، وَلَكِنْ تَمُوجُ وَتَضْطَرِبُ وَتَلْتَظُمُ فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ وَشِدَّةِ الرِّيَّاحِ، وَمِنْهَا مَا فِيهِ مَدٌّ وَجَزَرٌ، فَفِي أَوَّلِ كُلِّ شَهْرِ يَحْضُلُ مِنْهَا مَدٌّ وَفَيْضٌ، فَإِذَا شَرَعَ الشَّهْرُ فِي النِّقْصَانِ جَزَرَتْ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى غَايَتِهَا الْأُولَى، فَإِذَا اسْتَهْلَ الْهَلَالُ مِنَ الشَّهْرِ الْآخِرِ شَرَعَتْ فِي الْمَدِّ إِلَى اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ، ثُمَّ تَشْرُعُ فِي النِّقْصِ،

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ وَأَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

فَأَجْرِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَهُوَ ذُو الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ - الْعَادَّةُ بِذَلِكَ، فَكُلُّ هَذِهِ الْبَحَارِ السَّائِكَةِ، خَلَقَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِحَةً لئَلَّا يَحْضُلَ بِسَبَبِهَا تَنُّنُ الْهَوَاءِ، فَيَقْشُدُ الْوُجُودُ بِذَلِكَ، وَلئَلَّا تَجْوَى الْأَرْضُ بِمَا يَمُوتُ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانِ، وَلَمَّا كَانَ مَاؤُهَا [مَالِحًا]: كَانَ هَوَاؤُهَا صَاحِبًا وَمَيْتَتُهَا طَيِّبَةً. وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ: أَتَنَوَّضُ بِهِ؟ فَقَالَ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ». رَوَاهُ الْأَيْمَةُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا﴾ أَيُّ: بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ ﴿بَرْزًا﴾ أَيُّ: حَاجِزًا وَهُوَ الْبَيْسُ مِنَ الْأَرْضِ، ﴿وَحِجْرًا تَحْجُرًا﴾ أَيُّ: مَا نَعَا مِنْ أَنْ يَصِلَ

(١) مسلم: ٣٧٠/١، وفتح الباري: ٦٣٤/١ (٢) الطبري: ١٩/٢٨١ (٣) الموطأ: ٢٢/١، ومسند الشافعي: ٢٣/١، وأحمد: ٢/٣٦١، وأبو داود: ٦٤/١، وتحفة الأحوذى: ٢٢٤/١، والنسائي: ٥٠/١، وابن ماجه: ١٣٦/١

## [الرَّسُولُ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي: بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ، مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَنَذِيرًا بِبَيْتِ يَدِي عَذَابٍ شَدِيدٍ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَي: عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا الْإِنْذَارِ مِنْ أَجْرٍ أَطْلُبُهَا مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨] ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أَي: طَرِيقًا وَمَسْلَكًا وَمَنْهَجًا يَقْتَدِي فِيهَا بِمَا حِثَّتْ بِهِ.

## [أَمْرُ الرَّسُولِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَذِكْرُ بَعْضِ صِفَاتِهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أَي: فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا كُنْ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا، الَّذِي ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] الدَّائِمُ الْبَاقِي السَّرْمَدِيُّ الْأَبَدِيُّ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ أَجْعَلْهُ دُخْرَكَ وَمَلْجَأَكَ، وَهُوَ الَّذِي يُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيُفْرَعُ إِلَيْهِ، فَإِنَّه كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظْفِرُكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الرَّسُولَ بِبَعْثٍ مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعِصُوكَ مِنْ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أَي: اقْرَأْ بَيْنَ حَمْدِهِ وَتَسْبِيحِهِ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ»<sup>(١)</sup>. أَي: أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ وَالتَّوَكُّلَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أَي: يَعْلَمُهُ النَّاسُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ وَلَا يَعُزُّبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الْآيَةُ. أَي: هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ، الَّذِي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَالْأَرْضَ فِي السَّبْعِ فِي سُفُولِهَا وَكَثَافَتِهَا ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَى﴾ أَي:

أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾<sup>(٢)</sup> يَتَهَيَّأُ بَرْنَجٌ لَا يَبْعِيَانِ<sup>(٣)</sup> فَإِنِّي أَعْلَمُ رَيْكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا...﴾ الْآيَةُ، أَي: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ فَسَوَّاهُ وَعَدَّلَهُ، وَجَعَلَهُ كَامِلَ الْخَلْقَةِ ذَكَرًا وَأُنْثَى، كَمَا يَشَاءُ، فَجَعَلَهُمُ نَسَبًا وَصِهْرًا فَهُوَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ وَلَدٌ نَسِيبٌ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُ فَيَصِيرُ صِهْرًا، ثُمَّ يَصِيرُ لَهُ أَصْهَارٌ وَأَخْتَانٌ وَقَرَابَاتٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾<sup>(٤)</sup> وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا<sup>(٥)</sup> قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا<sup>(٦)</sup> وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا<sup>(٧)</sup> الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَى الرَّحْمَنُ فَسَدَّ بِهِ خَيْرًا<sup>(٨)</sup> وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدَ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا<sup>(٩)</sup>

## [جَهَالَةُ الْمُشْرِكِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَمْلِكُ لَهُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، بَلَا دَلِيلَ قَادَهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا حُجَّةَ أَذْنُهُمْ إِلَيْهِ بَلْ بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالنَّشْهِي وَالْأَهْوَاءِ، فَهُمْ يُؤَالُونَهُمْ وَيَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِمْ، وَيَعَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أَي: عَوْنًا فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ حِزْبِ اللَّهِ، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ بَصُورُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] أَي: آلِهَتُهُمْ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَصْرًا، وَهَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ لِلْأَصْنَامِ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ يَقَاتِلُونَ عَنْهُمْ، وَيَذُبُّونَ عَنْ حَوَازِيئِهِمْ، وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ قَالَ: يُظَاهِرُ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَيُعِينُهُ.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، وَيَقْضِي الْحَقَّ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْغُرِيِّ الرَّحْمَنُ فَتَنَلَّ بِهِ خَبِيرًا﴾ أَي: اسْتَعْلِمَ عَنْهُ مَنْ هُوَ خَبِيرٌ بِهِ عَالِمٌ بِهِ، فَاتَّبَعَهُ وَاقْتَدَىٰ بِهِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَلَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِبْطَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، فَمَا قَالَهُ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ الصِّدْقُ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُحْكَمُ الَّذِي إِذَا تَنَازَعَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ وَجَبَ رَدُّ بِرَآئِهِمْ إِلَيْهِ، فَمَا وَافَقَ أَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى قَائِلِهِ وَفَاعِلِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ الْآيَةُ [النساء: ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَي: صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَنَلَّ بِهِ خَبِيرًا﴾.

[ذَمُّ الْمُشْرِكِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، وَكَانُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنَ، كَمَا أَنْكَرُوا ذَلِكَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِكِتَابٍ: «اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَقَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. <sup>(١)</sup> وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الاسراء: ١١٠] أَيْ: هُوَ اللَّهُ وَهُوَ الرَّحْمَنُ وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَيْ: لَا نَعْرِفُهُ وَلَا نَقْرُبُهُ﴾ ﴿اسْجُدُوا لِمَا تَأْمُرُنَا؟ أَيْ: لِمَجْرَدِ قَوْلِكَ﴾ ﴿وَزَادَهُمْ نِفُورًا﴾ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَتَفَرَّدُونَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَيَسْجُدُونَ لَهُ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ السَّجْدَةَ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ مَشْرُوعُ السُّجُودِ عِنْدَهَا لِقَارِئِهَا وَمُسْتَمِعِهَا، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (١١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن

يَذَكِّرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

[بَيَانُ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُمَجِّدًا نَفْسَهُ وَمُعْظِماً عَلَى جَمِيلٍ مَا خَلَقَ  
فِي السَّمَوَاتِ مِنَ الْبُرُوجِ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْعِظَامُ فِي قَوْلِ  
مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي صَالِحٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ<sup>(٢)</sup>.  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَيْنَا السَّمَاءَ الذُّنْبَا بِصَاصٍ﴾... الْآيَةُ  
[الملك: ٥]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ  
بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَهِيَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ الَّتِي هِيَ  
كَالسَّرَاجِ فِي الْوُجُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا  
وَهَاجًا﴾ [النبا: ١٣] ﴿وَقَمَرًا مَنِيرًا﴾ أَيُّ: مُشْرِقًا مُضِيئًا بِنُورِ  
آخَرٍ مِنْ غَيْرِ نُورِ الشَّمْسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ  
الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ وَقَالَ مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ، أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ  
طِبَاقًا﴾ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾  
[نوح: ١٥، ١٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ أَلْتَلَّ وَالنَّهَارَ  
خِلْفَةً﴾ أَيُّ: يَخْلُفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، يَتَعَابَقَانِ لَا  
يَفْتَرَانِ، إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ ذَلِكَ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾...  
الْآيَةُ [إبراهيم: ٣٣]، وَقَالَ: ﴿يَغْشَى أَلْتَلَّ النَّهَارَ بَطْلُهُ  
حَيْثُنَا﴾... الْآيَةُ [الأعراف: ٥٤]، وَقَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ  
يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾... الْآيَةُ [يس: ٤٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾<sup>(١)</sup>  
 أَيُّ: جَعَلَهُمَا يَتَعَابَانِ تَوْقِيتًا لِعِبَادَةِ عِبَادِهِ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ،  
 فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي اللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ فِي النَّهَارِ، وَمَنْ فَاتَهُ  
 عَمَلٌ فِي النَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ فِي اللَّيْلِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ  
 الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ  
 النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ  
 مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿خَلْفَةً﴾ أَيُّ: مُخْتَلِفِينَ، أَيُّ: هَذَا بِسَوَادِهِ  
 وَهَذَا بِضْيَائِهِ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ١٦ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ ١٧ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّهُ كَانَ غَرَامًا﴾ ١٨ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ١٩ ﴿وَالَّذِينَ

(١) أحمد: ٢٦٨/٣ (٢) الطبري: ٢٨٩/١٩ والبغوي: ٣/٣٧٤ (٣) مسلم: ٢١١٣/٤ (٤) الطبري: ٢٩١، ٢٩٠/١٩

إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا

﴿٧٧﴾

### [بَيَانُ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ]

هَذِهِ صِفَاتُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أَيُّ: بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ مِنْ غَيْرِ جَبَرِيَّةٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الْآيَةُ [الْإِسْرَاءُ: ٣٧]، فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ يَمْشُونَ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْبَارٍ وَلَا مَرَحٍ، وَلَا أَشْرٍ وَلَا بَطَرٍ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ كَالْمَرْضَى تَضَعًا وَرَبَاءً، فَقَدْ كَانَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ﷺ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحُطُ مِنْ صَبَبٍ، وَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ تَطْوِي لَهُ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْهَوْنِ هُنَا السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأَتُوهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ مِنْهَا فَضَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتَمُّوا»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أَيُّ: إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمُ الْجَاهِلُ بِالْقَوْلِ السَّيِّئِ لَمْ يَقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ، بَلْ يَغْفَوْنَ وَيَضْفَحُونَ وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَرْبِدُهُ شِدَّةُ الْجَاهِلِ عَلَيْهِ إِلَّا جَلَمًا، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ...﴾ الْآيَةُ [الْقَصَصُ: ٥٥]. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ مُقَرَّرٍ الْمُرِّيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَسَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ الْمُسَبُّوبُ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِنْ مَلَكَ بَيْنَكُمَا يَدُبُّ عَنْكَ، كُلَّمَا شَتَمَكَ هَذَا قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قُلْتَ لَهُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا، بَلْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ». إِنْ سَادَهُ حَسَنٌ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَيْلَهُمْ خَيْرٌ لَيْلٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ لِزِينَتِهِمْ سَجْدًا وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أَيُّ: فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَوْ قِيلَ لِمَنْ أَيْلَ مَا يَهْجُمُونَ﴾ [وَبِالْأَخْيَارِ هُمْ يَسْتَفْتُونَ] [الذَّارِيَاتُ: ١٧، ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿تَسْجُدُونَ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾... الْآيَةُ [السَّجْدَةُ: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَلِيلٌ مِمَّا بَدَّلَ سَاجِدًا وَقَالِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾... الْآيَةُ [الزَّمَرُ: ٩]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أَيُّ: مُلَازِمًا دَائِمًا.

وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

٣٦٦

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخْرِجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قَرَةً أَعْيِنَّا وَاجْعَلْ لَنَا لِلْمُنْفِقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا سَكِينَةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

### سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

كُلُّ شَيْءٍ يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ وَيَزُولُ عَنْهُ، فَلَيْسَ بِغَرَامٍ، وَإِنَّمَا الْغَرَامُ الْمُلَازِمُ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ سُليْمَانُ التَّيْمِيُّ<sup>(٤)</sup>: «إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا» أَيُّ: بِئْسَ الْمَنْزِلُ مَنْظَرًا، وَبِئْسَ الْمَقِيلُ مَقَامًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا...﴾ الْآيَةُ، أَيُّ: لَبِسُوا بِمُبْدَرِينَ فِي انْفَاقِهِمْ، فَيَضْرِبُونَ فَوْقَ الْحَاجَةِ، وَلَا بَخْلَاءَ عَلَى أَهْلِيهِمْ فَيَقْصُرُونَ فِي حَقِّهِمْ فَلَا يَكْفُونَهُمْ، بَلْ عَذَلًا خِيَارًا، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا، لَا هَذَا وَلَا هَذَا، «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ...﴾ الْآيَةُ [الْإِسْرَاءُ: ٢٩].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾<sup>(٥)</sup> يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا<sup>(٦)</sup> إِلَّا مَنْ

(١) فتح الباري: ٤٥٣/٢ (٢) أحمد: ٤٤٥/٥ (٣) الطبري:

٢٩٧/١٩ (٤) عبد الرزاق: ٧٢/٣

تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُوبُ إِلَى اللَّهِ مَكَابًا ﴿٧٢﴾

[مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ اجْتَنَابُ الشَّرِّ وَالْقَتْلِ وَالزِّنَا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ الآية<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَدِّثُ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تَخْبِرُنَا أَنْ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً، فَتَرَكْتَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ الآية، وَنَزَلَتْ: ﴿قُلْ يَكْفِيكَمُ الْإِيمَانُ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية<sup>(٤)</sup> [الزمر: ٥٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: «أَثَامًا»: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: «يَلْقَى أَثَامًا» أَوْدِيَّةٌ فِي جَهَنَّمَ يُعَذَّبُ فِيهَا الزُّنَاةُ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: «يَلْقَى أَثَامًا» جَزَاءً. وَهَذَا أَشْبَهُ بِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَبِهَذَا فَسَّرَهُ بِمَا بَعْدَهُ مُبْدَلًا مِنْهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيُّ: يُكْرَّرُ عَلَيْهِ وَيُعْلَظُ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَانًا أَيُّ: حَقِيرًا ذَلِيلًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أَيُّ: جَزَاؤُهُ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ مَا ذَكَرَ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُتُوبُ عَلَيْهِ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ وَبَيْنَ آيَةِ النَّسَاءِ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا...﴾ الآية [النساء: ٩٣]، فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مَدَنِيَّةً إِلَّا أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ، فَتَحْمَلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ لِأَنَّ هَذِهِ مُقْبَدَةٌ بِالتَّوْبَةِ، ثُمَّ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ الآية [النساء: ١١٦]. وَقَدْ ثَبَّتَ الشُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِصِحَّةِ تَوْبَةِ

الْقَاتِلِ، كَمَا ذَكَرَ مُقَرَّرًا مِنْ قِصَّةِ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ رَجُلٍ ثُمَّ تَابَ، فَقَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ. وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَى الْجَنَّةِ، يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُولُ: نَحُوا عَنْهُ كِبَارُ ذُنُوبِهِ وَسَلُّوهُ عَنْ صِغَارِهَا، قَالَ: فَيَقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا، كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَيَقَالُ: فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَهُنَا» قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ<sup>(٧)</sup>. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي جَابِرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ مَكْحُولًا يُحَدِّثُ قَالَ: جَاءَ شَيْخٌ كَبِيرٌ هَرَمٌ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ غَدَرَ وَفَجَرَ وَلَمْ يَدْعُ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً إِلَّا افْطَلَهَا بِبَيْمِينِهِ، لَوْ قُسِمَتْ حَظِيَّتُهُ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَوْبَقْنَهُمْ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَأَسْلَمْتَ؟» فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرٌ لَكَ مَا كُنْتَ كَذَلِكَ، وَمُبَدِّلٌ سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ فَقَالَ: «وَوَغَدَرَاتِكَ وَفَجَرَاتِكَ» قَوْلِي الرَّجُلُ يَهْلُلُ وَيُكَبِّرُ<sup>(٩)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحْضِرًا عَنْ عُمُومِ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا، كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُوبُ إِلَى اللَّهِ مَكَابًا﴾ أَيُّ: فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...﴾ الآية [النساء: ١١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ...﴾ الآية [التوبة: ١٠٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَكْفِيكَمُ الْإِيمَانُ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ

(١) أحمد: ٣٨٠/١ (٢) النسائي في الكبرى: ٤٢٠/٦ (٣)

فتح الباري: ١١٦/١٢ ومسلم: ٩١، ٩٠/١ (٤) الطبري: ٩/

٤١٤ (٥) الطبري: ٣٠٨/١٩ (٦) الطبري: ٣٠٨/١٩ (٧)

أحمد: ١٧٠/٥ (٨) مسلم: ١٧٧/١ (٩) الدر المنثور: ٦/

٢٨١ وأحمد: ٣٨٥/٤ ومجمع الزوائد: ٣٢/١

اللَّهُ... الآية [الزمر: ٥٣]، أي: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا بِاللَّغوِ مَرُّوا كِرَامًا ٧٢﴾  
وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا  
وَعَمِيَانًا ٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَذَرِّبْنَا  
فِرَّةً أَعْيَبْ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْفِكَرٍ إِمَامًا ٧٤﴾

[بَعْضُ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ]

وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ  
الزُّورَ، وَهُوَ الْكَذِبُ وَالْفِسْقُ وَالْكُفْرُ وَاللَّغوُ وَالْبَاطِلُ،  
وَقَالَ عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ: هِيَ مَجَالِسُ الشُّوءِ وَالْخَنَا. وَقِيلَ:  
الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أَيُّ: شَهَادَةِ  
الزُّورِ، وَهِيَ الْكَذِبُ مُتَعَمِّدًا عَلَى غَيْرِهِ، كَمَا فِي  
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا  
أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَايِرِ؟» ثَلَاثًا، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.  
قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَغُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مَتَكِّيًا، فَجَلَسَ  
فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ  
يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ<sup>(١)</sup>. وَالْأَطْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ  
الْمُرَادَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أَيُّ: لَا يَحْضُرُونَهُ، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أَيُّ: لَا يَحْضُرُونَ  
الزُّورَ، وَإِذَا اتَّفَقَ مُرُورُهُمْ بِهِ مَرُّوا وَلَمْ يَنْدَسُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ،  
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ  
يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعَمِيَانًا﴾ وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ  
﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتِ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ  
إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] بِخِلَافِ الْكَافِرِ،  
فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ وَلَا يَتَغَيَّرُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ  
بَلْ يَبْقَى مُسْتَمِرًّا عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجَهْلِهِ وَضَلَالِهِ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ  
زَادَهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ لَا يَشْعُرُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ  
زَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] فَقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَخِرُّوا  
عَلَيْهَا صُمًّا وَعَمِيَانًا﴾ أَيُّ: بِخِلَافِ الْكَافِرِ الَّذِي إِذَا سَمِعَ  
آيَاتِ اللَّهِ فَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ، فَيَسْتَمِرُّ عَلَى حَالِهِ- كَأَنَّ لَمْ  
يَسْمَعْهَا- أَصَمُّ أَعْمَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا  
وَذَرِّبْنَا فِرَّةً أَعْيَبْ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ يَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ  
مِنْ أَضْلَابِهِمْ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمْ مَنْ يُطِيعُهُ وَيَعْبُدُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

لَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنُونَ مَنْ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَتَقَرَّ بِهِ  
أَعْيَبُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ: جَلَسْنَا إِلَى  
الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسودِ يَوْمًا، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ  
الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ [رَأَتْ] رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَوَدِدْنَا أَنَا رَأَيْنَا مَا  
رَأَيْتَ وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ، فَاسْتَنْصَبَ الْمُقَدَّادُ، فَجَعَلْتُ  
أَعْجَبُ لِأَنَّهُ مَا قَالَ إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا يَحْمِلُ  
الرَّجُلَ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيْبَهُ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَذْهَبُ لَوْ  
شَهِدَهُ كَيْفَ يَكُونُ فِيهِ وَاللَّهِ لَقَدْ حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقْوَامَ  
أَكْبَهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاجِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ  
يُصَدِّقُوهُ، أَوْ لَا تَحْمَدُونَ اللَّهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ  
لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ قَدْ كُفِّتُمْ  
الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ؟ لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى [أَشَدِّ] حَالٍ  
بَعَثَ عَلَيْهَا نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي فِتْرَةٍ [مِنْ] جَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرُونَ  
أَنْ دِينًا أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفِرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ  
الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ  
لَيَرَى وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ قُلُوبَهُ  
لِلْإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ  
يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّمَا آتَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ  
يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَذَرِّبْنَا فِرَّةً أَعْيَبْ﴾.

وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ<sup>(٣)</sup>.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْفِكَرٍ إِمَامًا﴾ قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَالسَّديُّ وَفَتَادَةُ وَالرَّيِّعُ بْنُ أَنَسٍ: أَيْمَنَةٌ  
يُقْتَدَى بِهَا فِي الْخَيْرِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُمْ: هَذِهِ مُهْتَدِينَ دُعَاةً  
إِلَى الْخَيْرِ، فَأَحْبُوا أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُمْ مُتَّصِلَةً بِعِبَادَةِ  
أَوْلَادِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ مُتَّعِدًّا إِلَى غَيْرِهِمْ  
بِالتَّقِي، وَذَلِكَ أَكْثَرُ ثَوَابًا، وَأَحْسَنُ مَأْبَا، وَلِهَذَا ثَبِتَ فِي  
صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ  
ثَلَاثٍ: وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ  
صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ»<sup>(٥)</sup>.

﴿أُولَئِكَ يَجْزِيكَ الْفُرْقَةُ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقُونَ فِيهَا نَجَاتَهُ  
وَسَلَامًا ٧٥﴾ حَلِيلِيكَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦﴾ قُلْ مَا

(١) فتح الباري: ٣٠٩/٥ ومسلم: ٩١/١ (٢) الطبري: ١٩/

٣١٨ (٣) أحمد: ٢/٦ (٤) الطبري: ٣١٩/١٩ (٥) مسلم:

يَعْبُؤُا بِكَ رَبِّي لَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ  
لِرَامَا ﴿٧٧﴾

[جَزَاءُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ وَالْوَعْدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَوْصَافِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا ذَكَرَ مِنْ  
الْصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْجَلِيلَةِ، قَالَ بَعْدَ  
ذَلِكَ كُلِّهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾ أَيُّ: الْمُتَصِفُونَ بِهِ ذِهِ ﴿يُجْزَوْنَ﴾  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿الْفَرْقَةَ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ  
وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ  
لِارْتِفَاعِهَا ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أَيُّ: عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ ﴿وَيُلْقَوْنَ﴾  
فِيهَا أَيُّ: فِي الْجَنَّةِ ﴿حَبَّةً وَسَلَامًا﴾ أَيُّ: يُبْتَدَرُونَ فِيهَا  
بِالْحَبَّةِ وَالْإِكْرَامِ، وَيُلْقَوْنَ التَّوْقِيرَ وَالِاخْتِرَامَ، فَلَهُمُ السَّلَامُ  
وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ  
بَابٍ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾  
[الرعد: ٢٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: مُقِيمِينَ لَا  
يُطْعَمُونَ وَلَا يَحُولُونَ، وَلَا يَمُوتُونَ وَلَا يَزُولُونَ عَنْهَا، وَلَا  
يَبْعُونَ عَنْهَا حَوْلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنَفَى  
الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ...﴾ الْآيَةُ  
[هود: ١٠٨]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أَيُّ:  
حَسُنَتْ مَنَظَرًا وَطَابَتْ مَقِيلًا وَمَنَزَلًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ  
مَا يَعْبُؤُا بِكَ رَبِّي﴾ أَيُّ: لَا يَبَالِي وَلَا يَكْتَرِثُ بِكُمْ إِذَا لَمْ  
تَعْبُدُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ وَيُوحِّدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ  
بُكْرَةً وَأَصِيلًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿فَسَوْفَ  
يَكُونُ لِرَامَا﴾ أَيُّ: فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْلِيدُكُمْ لِرَامَا لَكُمْ،  
يَعْنِي مُقْتَضِيًا لِعَذَابِكُمْ وَهَلَاكِكُمْ وَدَمَارِكُمْ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، كَمَا فَسَّرَهُ بِذَلِكَ  
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَأَبِيُّ بَنْ كَعْبٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ  
وَمُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ وَفَتَاةُ السُّدِّيِّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ  
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَامَا﴾ أَيُّ: يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ<sup>(٢)</sup>. وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦٧

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ  
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ شَأْنُنَا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ  
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ  
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا  
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ  
كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ  
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ  
أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُنِي لِسَانِي فَأَرْسِلْ  
إِلَيَّ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ  
كَلَّا فَادْهَبْ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَا فِرْعَوْنَ  
فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ  
﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾  
وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ  
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

(وَوَقَعَ فِي تَفْسِيرِ مَالِكِ الْمَرْوِيِّ عَنْهُ، تَسْمِيَّتُهَا: سُورَةُ  
الْجَامِعَةِ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ  
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ شَأْنُنَا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ  
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ  
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا  
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ  
كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ  
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ  
أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُنِي لِسَانِي فَأَرْسِلْ  
إِلَيَّ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ  
كَلَّا فَادْهَبْ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَا فِرْعَوْنَ  
فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ  
﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾  
وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾



شَاءَ اللَّهُ

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أَيُّ: هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْمُبِينِ، أَيُّ: الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ مُتَمَلِّئٌ مَلِكًا﴾ أَيُّ: مِمَّا تَحْرِصُ وَتَحْزَنُ عَلَيْهِمْ ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي عَدَمِ إِيْمَانٍ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨] كَقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ مُتَمَلِّئٌ مَلِكًا﴾ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا [الكهف: ٦]. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةٌ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمْ: ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ مُتَمَلِّئٌ مَلِكًا﴾ أَيُّ: قَاتِلٌ نَفْسِكَ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَنَادَى ثُلَاثًا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَصِيعَةً﴾ أَيُّ: لَوْ نَشَاءُ لَأَنْزَلْنَا آيَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ قَهْرًا، وَلَكِنْ لَا نَفْعُ ذَلِكَ لَنَا لَا نُرِيدُ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْإِيْمَانِ الْإِخْتِيَارِيَّ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جِئِمًا أَفَأَنْتَ تُكْذِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ [هود: ١١٨]، فَتَمَذَّ قَدْرُهُ، وَمَضَتْ حُكْمَتُهُ، وَقَامَتْ حُجَّتُهُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُذَمَّنًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥] أَيُّ: كُلَّمَا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ أَعْرَضَ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ...﴾ [الأنبياء: ٤٤]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْتَبَاهٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٦] أَيُّ: فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ، فَسَيَعْلَمُونَ بَيِّنًا هَذَا التَّكْذِيبَ بَعْدَ حِينٍ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْفَلِتُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى عَلَى عَظَمَةِ سُلْطَانِهِ وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَشَأْنِهِ، الَّذِينَ اجْتَرَأُوا عَلَى مُخَالَفَةِ رَسُولِهِ وَتَكْذِيبِ كِتَابِهِ، وَهُوَ

الْقَاهِرُ الْعَظِيمُ الْقَادِرُ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَأَنْتَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَحَيَوَانٍ. قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ رَجُلٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ: النَّاسُ مِنْ تَبَاتِ الْأَرْضِ فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَهُوَ كَرِيمٌ، وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ لَيْسٌ<sup>(٢)</sup>. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أَيُّ: دَلَالَةً عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ، الَّذِي بَسَطَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بِنَاءَ السَّمَاءِ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ، بَلْ كَذَّبُوا بِهِ وَبَرَّسُوهُ وَكُتِبَ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، وَارْتَكَبُوا نَهْيَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يَكُونَ لَكَ مِنَ الْغَيْرِ﴾ أَيُّ: الَّذِي عَزَّ كُلُّ شَيْءٍ وَقَهْرُهُ وَعَلَيْهِ الرَّجِيمُ أَيُّ: بِخَلْقِهِ، فَلَا يُعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ، ثُمَّ يَأْخُذُهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَابْنُ إِسْحَاقَ: الْغَيْرُ فِي يَفْتَمُوهُ وَإِنْصَارَهُ مِمَّنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَعَبَدَ غَيْرَهُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الرَّجِيمُ بِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُنِي لِيَاسِي فَارْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ دُونُ أَخِي أَنْ يَخْلُقْ﴾ يَقْتُلُونَ ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبْ بِإِيتَانَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمْعِنُونَ﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قَالَ أَلَّا تَرَى أَنَّ قَوْمَكَ بِئْسَ وَقِدَاً وَبَشَرٌ خِلَافِي سِينَ ﴿وَقُلْتُ فَفَعَلْتُ الْيَقِينَ فَفَعَلْتُ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفَظْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَلَكَ نِعْمَةٌ تَنْهَا عَلَى أَنْ عِدَّتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾

[بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَمَرَ بِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَكَلِيمُهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ نَادَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ، وَكَلَّمَهُ وَنَاجَاهُ، وَأَرْسَلَهُ وَاصْطَفَاهُ، وَأَمْرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِيئِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُنِي لِيَاسِي فَارْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ دُونُ أَخِي أَنْ يَخْلُقْ﴾ هَذِهِ أَعْدَاؤُ سَأَلَ اللَّهُ إِزَاحَتَهَا عَنْهُ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي

(١) الطبري: ٣٣٠/١٩ والدر المنثور: ٣٦٠/٦ (٢) الدر المنثور: ٢٨٩/٦ (٣) الطبري: ٣٠٤/٢٣ و٢٦٠/٣ و٥١١/٥

صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَزِيحُ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَوْنَيْتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٢٥-٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ عَلَى ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ أي: بسبب قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك كقولهِ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلْنَا لَكُمَا شَظْفَقًا﴾ [القصص: ٣٥] أي: بُرْهَانًا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْزِلَ وَإِنْ أَتَيْتُمَا الْعَلِيلِينَ﴾، ﴿فَآذِهِمَا بِأَيِّتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ كقولهِ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] أي: إِنِّي مَعَكُمْ بِحِفْظِي وَكَلاَّتِي وَنَضْرِي وَتَأْيِيدِي ﴿فَأَنبَأَ فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كقولهِ في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي: كُلُّ مَنَّا أُرْسِلَ إِلَيْكَ ﴿أَنْ أُرْسِلَ مَعَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [طه: ١٧] أي: أَطْلِفَهُمْ مِنْ إِسَارِكَ وَقَبَضَتِكَ وَقَهْرِكَ وَتَعْدِيدِكَ، فَإِنَّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ وَجَزْبُهُ الْمُخْلِصُونَ، وَهُمْ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى ذَلِكَ أَعْرَضَ فِرْعَوْنُ عَمَّا هُنَالِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بَعِينَ الْإِذْرَاءِ وَالْعُمْصِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرُبُّكَ فِيْنَا وَلِيدًا...﴾ الآية، أي: أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِيْنَا وَفِي بَيْتِنَا وَعَلَى فِرَاشِنَا، [وَعَدَيْنَاهُ] وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّةً مِنَ السِّنِينَ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا قَابَلْتَ ذَلِكَ الْإِحْسَانَ بِتِلْكَ الْفِعْلَةِ: أَنْ قَتَلْتَ مِنَّا رَجُلًا، وَجَحَدْتَ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الْجَاحِدِينَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدٍ بَنِ أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ <sup>(١)</sup>. ﴿قَالَ فَعَلَّاهُ إِذَا﴾ أي: فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ أي: قَبْلَ أَنْ يُوْحَى إِلَيَّ، وَيُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِالرَّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: انْفَصَلَ الْحَالُ الْأَوَّلُ وَجَاءَ أَمْرٌ آخَرُ، فَقَدْ أُرْسَلَنِي اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ أَطَعْتَهُ سَلِمْتَ، وَإِنْ خَالَفْتَهُ عَطِيتَ، ثُمَّ قَالَ مُوسَى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَى أَنْ عَبَدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: وَمَا أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَرَبَّيْتَنِي مُقَابِلَ مَا أَسَأْتُ إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فَجَعَلْتَهُمْ عِبِيدًا وَخَدَمًا تُصَرِّفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَشَاقِّ رَعِيَّتِكَ، أَفِيْفِي إِحْسَانِكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَأْتُ إِلَى مَجْمُوعِهِمْ، أي: لَيْسَ مَا ذَكَرْتَهُ شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَعَلْتَ بِهِمْ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ﴾ ﴿قَالَ

٣٦٨

سورة الشعراء

الجزء الثامن

قَالَ فَعَلَّاهُ إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿٢٣﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَى أَنْ عَبَدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٣١﴾ لَنْ آتُخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٥﴾ وَنَزَعُ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَعْثِرْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٩﴾ يَا ثَوَكُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٤٠﴾ فَجَمَعَ لِسِحْرِهِ لَمِيقَتَ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٤١﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٤٢﴾

رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَتَمَرُّدِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجُحُودِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٥] وَكَانُوا يَجْحَدُونَ الصَّانِعَ جَلَّ وَعَلَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَهُمْ سِوَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ: وَمَنْ هَذَا الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ غَيْرِي؟ هَكَذَا فَسَّرَهُ عُلَمَاءُ السَّلَفِ وَأَيُّمَةُ الْخَلْفِ، حَتَّى قَالَ السُّدِّيُّ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] وَمَنْ زَعَمَ مِنْ أَهْلِ الْمُنْطِقِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ هَذَا

سورة الشعراء

٣٦٩

سورة الشعراء

لَعَلَّنَا نَنْجِي السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ  
قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرَانِ كَمَا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ  
وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرِبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْوَامًا أَنْتُمْ مُلْقُونَ  
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا لِعَزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ  
الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ  
﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٤٦﴾ فَأَلْقَاهُ امْتَارِبِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾  
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ أَمْسِكْهُمْ لَعَلَّكَ أَذْنٌ لَكَ مِنْهُمْ  
لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَانَ أَيِّدِكُمْ  
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَابَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا  
إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا  
أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ  
مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ  
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَاظِمُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ  
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾  
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

الْصَّادِقِينَ ﴿٦١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ  
بِضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ يُرِيدُ  
أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَعَادَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ  
وَأَنَّهُ وَابِعَتْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٦٦﴾ يَا تَوَكُّ بِعِثْلِ سَحَابٍ  
عَلِيمٍ ﴿٦٧﴾

لَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى فِرْعَوْنَ بِالْبَيَانِ وَالْعَقْلِ، عَدَلَ إِلَى  
أَنْ يَقْفِرَ مُوسَى بِيَدِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ هَذَا  
الْمَقَامِ مَقَالٌ، فَقَالَ: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنْ  
الْمُسْتَمِينِ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ  
مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ أَيْ: بِبُرْهَانٍ قَاطِعٍ وَاضِحٍ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ  
مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿أَيْ: ظَاهِرٌ  
وَاضِحٌ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ وَالْعِظَمَةِ، ذَاتُ قَوَائِمٍ،  
وَقَدْ كَبِيرٌ، وَشَكْلُ هَائِلٍ مُزْعِجٍ﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴿أَيْ: مِنْ جَبِيهِ  
﴿فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ أَيْ: تَتَلَأَلُ كَقِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَرِ،  
فَبَادَرَ فِرْعَوْنَ بِشَقَاوَتِهِ إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ  
حَوْلَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: فَاضِلٌ بَارِعٌ فِي

سُؤَالٍ عَنِ الْمَاهِيَةِ فَقَدْ غَلَطَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُفَرِّجًا بِالصَّانِعِ  
حَتَّى يَسْأَلَ عَنِ الْمَاهِيَةِ، بَلْ كَانَ جَاحِدًا لَهُ بِالْكَلْفَةِ فِيمَا  
يُظْهَرُ، وَإِنْ كَانَتْ الْحُجَجُ وَالْبُرَاهِينُ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ، فَعِنْدَ  
ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿قَالَ رَبُّ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيْ: خَالِقُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ  
وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ، وَإِلَهُهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ  
الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا، الْعَالَمَ الْعُلُويَّ وَمَا فِيهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ  
الْقَوَائِمِ وَالسِّيَّارَاتِ النَّبَرَاتِ، وَالْعَالَمَ السُّفْلِيَّ وَمَا فِيهِ مِنْ  
بِحَارٍ وَقَفَارٍ وَجِبَالٍ وَأَشْجَارٍ وَحَيَوَانَاتٍ وَنَبَاتٍ وَثِمَارٍ، وَمَا  
بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْهَوَاءِ وَالطَّيْرِ، وَمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ الْجَوْ،  
الْجَمِيعُ عِبْدٌ لَهُ خَاضِعُونَ ذَلِيلُونَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أَيْ:  
إِنْ كَانَتْ لَكُمْ قُلُوبٌ مُوقِنَةٌ وَأَبْصَارٌ نَافِذَةٌ، فَعِنْدَ ذَلِكَ التَّفَتُّ  
فِرْعَوْنَ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ مِنْ مَلَكِهِ وَرُؤَسَاءِ ذَوَلِهِ قَائِلًا لَهُمْ -  
عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ وَالِاسْتَهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُوسَى فِيمَا قَالَه  
-: ﴿أَلَا تَسْتَعِينُونَ﴾ أَيْ: أَلَا تَعْبُجُونَ [مِمَّا يَقُولُ] هَذَا فِي  
رُغْمِهِ: أَلَا لَكُمْ إِلَهًا غَيْرِي؟! فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ  
آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: خَالِقُكُمْ وَخَالِقُ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ -  
الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ فِرْعَوْنَ وَزَمَانِهِ - ﴿قَالَ﴾ أَيْ فِرْعَوْنَ  
لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُ  
عَقْلٌ فِي دَعْوَاهُ: أَلَا تَمُ رَبَّنَا غَيْرِي. ﴿قَالَ﴾: أَيْ: مُوسَى  
لِأُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْعَزَ إِلَيْهِمْ فِرْعَوْنَ مَا أَوْعَزَ مِنَ الشُّبُهَةِ،  
فَأَجَابَ مُوسَى بِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ  
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَشْرِقَ مَشْرِقًا تَطْلُعُ مِنْهُ  
الْكَوَاكِبُ، وَالْمَغْرِبَ مَغْرِبًا تَغْرُبُ فِيهِ الْكَوَاكِبُ: ثَوَابِتُهَا  
وَسَيَّارَاتُهَا، مَعَ هَذَا النِّظَامِ الَّذِي سَخَّرَهَا فِيهِ وَقَدَّرَهَا، فَإِنْ  
كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ صَادِقًا، فَلْيَعْكِسِ  
الْأَمْرَ وَلْيَجْعَلِ الْمَشْرِقَ مَغْرِبًا وَالْمَغْرِبَ مَشْرِقًا، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى عَنْ: ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ  
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَنُحِيتُ قَالَ أَنَا أُخِي. وَأُفِيتُ  
قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ  
الْمَغْرِبِ...﴾ الْآيَةُ [البقرة: ٢٥٨]. وَلِهَذَا لَمَّا غَلِبَ فِرْعَوْنَ  
وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ، عَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَقُوَّتِهِ  
وَسُلْطَانِهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ وَنَافِذٌ فِي مُوسَى، عَلَيْهِ  
السَّلَامُ، فَقَالَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ:

﴿قَالَ لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُومِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ قَالَ أَوَلَوْ  
جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٦٩﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

عَلَى دِينِ مَلِكِهِمْ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ أَي: إِلَى مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ، وَقَدْ ضَرَبُوا لَهُ وَطَاقًا، وَجَمَعَ خَدَمَهُ وَحَشَمَهُ [وَأَمْرَاءَهُ] وَوُزَرَآءَهُ وَرُؤُسَاءَ دَوْلَتِهِ، وَجُنُودَ مَمْلَكَتِهِ، فَقَامَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ إِنْ غَلِبُوا، أَي: هَذَا الَّذِي جَمَعْتَنَا مِنْ أَجْلِهِ، فَقَالُوا: ﴿أَيَّنَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ١١ قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ إِذَا لِمَنِ الْمَقَرَّةُ ﴿أَي: وَأَخْصَرُ مِمَّا تَطْلُبُونَ: أَجْعَلْكُمْ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدِي، وَجُلَسَائِي، فَعَادُوا إِلَى مُقَامِ الْمُنَاطَرَةِ ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى إِلَيْنَا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ١٢ قَالَ بَلْ أَقْتَرُ ﴿وَقَدْ اخْتَصَرَ هَذَا هَهُنَا، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ١٣ فَأَلْفَوْا جِهَالَهُمْ وَعِصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةٌ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿وَهَذَا كَمَا تَقُولُ الْجَهْلَةُ مِنَ الْعَوَامِ إِذَا فَعَلُوا شَيْئًا: هَذَا بِثَوَابِ فَلَانٍ. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَنَّهُمْ: ﴿سَكَّرُوا أَصْنَتَ النَّاسِ وَأَسْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]. وَقَالَ فِي سُورَةِ طه: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ بِخُلِّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّى تَسْمَعُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٦-٦٩] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أَي: تَخْتَطِفُهُ وَتَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ بُعْعَةٍ وَتَبْتَلِعُهُ فَلَمْ تَدْعُ مِنْهُ شَيْئًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢] فَكَانَ هَذَا أَمْرًا عَظِيمًا جِدًّا، وَبُزْهَانًا قَاطِعًا لِلْعُدْرِ، وَحُجَّةً دَامِغَةً، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي اسْتَنْصَرَ بِهِمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَغْلِبُوا، غَلِبُوا وَخَضَعُوا، وَأَمَّنُوا بِمُوسَى فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، وَسَجَدُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي أَرْسَلَ مُوسَى وَهَارُونَ بِالْحَقِّ وَبِالْمُعْجَزَةِ الْبَاهِرَةِ، فَعَلِبَ فِرْعَوْنَ غَلَبًا لَمْ يُشَاهِدِ الْعَالَمُ مِثْلَهُ، وَكَانَ وَقِحًا جَرِيئًا، عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَعَدَلَ إِلَى الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ وَدَعَا إِلَى الْبَاطِلِ، فَسَرَعَ بِتَهْدِيدِهِمْ وَيَتَوَعَّدُهُمْ وَيَقُولُ: ﴿إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وَقَالَ: ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَيِّتَةِ... الْآيَةِ.

﴿قَالَ أَمْسَرُ لَمْ يَدْرِكْ أَنْ يَدَّ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْ تَعْمَلُونَ لَأَقْطِعَنَّ إِلَيْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا أُصْلَبَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٤ قَالُوا لَا ضَرَّ لَنَا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْبُولُونَ ﴿١٥﴾ إِنْ نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبَّنَا خَطِيئَتَنَا إِنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾

السَّحَرِ، فَرَوَّجَ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنَ أَنَّ هَذَا مِنْ قِبَلِ السَّحَرِ لَا مِنْ قِبَلِ الْمُعْجَزَةِ، ثُمَّ هَيَّجَهُمْ وَحَرَّضَهُمْ عَلَى مُخَالَفَتِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ، فَقَالَ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنَجِّحَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ... الْآيَةِ، أَي: أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ بِقُلُوبِ النَّاسِ مَعَهُ بِسَبَبِ هَذَا، فَيَكْثُرَ أَغْوَانُهُ وَأَنْصَارُهُ وَأَتَابَعُهُ، وَيَغْلِبَكُمْ عَلَى دَوْلَتِكُمْ، فَيَأْخُذَ الْبِلَادَ مِنْكُمْ، فَاشِيرُوا عَلَيَّ فِيهِ مَاذَا أَصْنَعُ بِهِ؟﴾ ١٧ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الدَّلَائِلِ حَشِيرَ ١٨ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ١٩ أَي: أَخْرَهُ وَأَخَاهُ حَتَّى تَجْمَعَ لَهُ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِكَ وَأَقَالِيمِ دَوْلَتِكَ كُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ يُقَابِلُونَهُ، وَيَأْتُونَ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ، فَتَغْلِبَهُ أَنْتَ، وَتَكُونَ لَكَ النُّصْرَةُ وَالتَّائِيدُ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ. وَكَانَ هَذَا مِنْ تَسْخِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي ذَلِكَ؛ لِيَجْمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتُظْهَرَ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَّتُهُ وَبَرَاهِينُهُ عَلَى النَّاسِ فِي النَّهَارِ جَهْرَةً.

﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيَقْدَتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ ٢٠ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٢١﴾ لَمَّا نَبَغَ السَّحَرَةُ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيَّنَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ إِذَا لِمَنِ الْمَقَرَّةُ ﴿٢٤﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَلْفَوْا جِهَالَهُمْ وَعِصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةٌ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ ٢٨ قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْغَالِبِينَ ﴿٢٩﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٣٠﴾

[بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسَّحَرَةُ]

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمُنَاطَرَةَ الْفَعْلِيَّةَ بَيْنَ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْقَبِطِ، فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ طه، وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَبِطَ أَرَادُوا أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَهَذَا شَأْنُ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ مَا تَوَاجَهَا وَتَقَابَلَا إِلَّا غَلَبَهُ الْإِيمَانُ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ... الْآيَةِ [الإسراء: ٨١]، وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ وَقَدْ جَمَعُوهُمْ مِنْ أَقَالِيمِ بِلَادِ مِصْرَ، وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ أَشْحَرُ النَّاسِ وَأَضْعَفُهُمْ وَأَشَدَّهُمْ تَخِيلًا فِي ذَلِكَ، وَكَانَ السَّحَرَةُ جَمْعًا كَثِيرًا وَجَمًّا غَفِيرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ. وَاجْتَهَدَ النَّاسُ فِي الْاجْتِمَاعِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ: ﴿لَمَّا نَبَغَ السَّحَرَةُ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ وَلَمْ يَقُولُوا نَبَغَ الْحَقُّ، سِوَاءَ كَانَ مِنَ السَّحَرَةِ أَوْ مِنْ مُوسَى، بَلِ الرَّعِيَّةُ

## [بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ]

نَهَدْنَهُمْ فَلَمْ يَنْفَعْ ذَلِكَ فِيهِمْ، وَتَوَعَّدْنَهُمْ فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ كُشِفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حِجَابُ الْكُفْرِ، وَظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ بِعِلْمِهِمْ مَا جَهِلَ قَوْمُهُمْ مِنْ: أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَا يَضْدُرُّ عَنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَيْدَهُ بِهِ، وَجَعَلَهُ لَهُ حُجَّةً وَدَلَالَةً عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَأَمَنْتُمْ لِمَ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أَي: كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي فِيمَا فَعَلْتُمْ، وَلَا تَفْتَأُوا عَلَيَّ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ آذَنْتُ لَكُمْ فَعَلْتُمْ، وَإِنْ مَنَعْتُكُمْ امْتَنَعْتُمْ فَإِنِّي أَنَا الْحَاكِمُ الْمُطَاعُ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكَمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وَهَذِهِ مُكَابَرَةٌ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بَطْلَانَهَا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا بِمُوسَى قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرُهُمُ الَّذِي أَفَادَهُمْ صِنَاعَةَ السِّحْرِ؟ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ.

ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصَّلْبِ فَقَالُوا: ﴿لَا صَبْرَ﴾ أَي: لَا حَرَجَ، وَلَا يَضُرُّنَا ذَلِكَ، وَلَا نُبَالِي بِهِ ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أَي: الْمَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا فَعَلْتَ بِنَا، وَسَجِزْنَا عَلَى ذَلِكَ أَنْتَ الْجَزَاءُ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾ أَي: مَا قَارَفْنَا مِنْ الذُّنُوبِ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: بِسَبَبِ أَنَّا بَادَرْنَا قَوْمَنَا مِنَ الْفُطُوحِ إِلَى الْإِيْمَانِ - فَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ -.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكَ مُتَّبِعُونَ﴾ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَلَيْسَ لَنَا لَعَاطُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِلُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُونُورٍ وَمَقَارٍ كَثِيرٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (٥٩)

## [خُرُوجُ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ مِصْرَ]

لَمَّا طَالَ مَقَامُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبِلَادِ مِصْرَ، وَأَقَامَ بِهَا حُجَجَ اللَّهِ وَبَرَاهِينَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَكَابِرُونَ وَيُعَانِدُونَ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ، وَأَنْ يَمْضِيَ بِهِمْ حَيْثُ يُؤْمَرُ، فَفَعَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، خَرَجَ بِهِمْ بَعْدَ مَا اسْتَعَارُوا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ حُلِيًّا كَثِيرًا، وَكَانَ خُرُوجُهُ بِهِمْ فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَقَدْ طُلُوعَ الْقَمَرِ، وَذَكَرَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كُفِيَ الْقَمَرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ (١).

## [بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ]

٣٧٠

## سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرَكُونَ (١١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (١٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (١٣) وَأَزْلَفْنَا نَوْمَ الْأَخْرِينَ (١٤) وَأَجْعَلْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (١٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ (١٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِزٌ الرَّحِيمُ (١٨) وَأَتْلَوْا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (١٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٢٠) قَالُوا نَعْبُدُ آبَاءَنَا مَا فَنظُلُّ لَهَا عَتِدِينَ (٢١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٢٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٢٣) قَالُوا بَلَى وَجِبَاءٌ أَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٢٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٢٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ (٢٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ الْآرَبِ الْعَالَمِينَ (٢٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٢٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٢٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٣٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٣١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٣٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّي بِالصَّبْرِ (٣٣)

فَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ عَنْ قَبْرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَدَلَّتهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَيْهِ، فَاحْتَمَلَ تَابُوتَهُ مَعَهُمْ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَوْصَى بِذَلِكَ: إِذَا خَرَجَ بَنُو إِسْرَءِيلَ أَنْ يَحْمِلُوهُ مَعَهُمْ (٢). فَلَمَّا أَضْبَحُوا وَلَيْسَ فِي نَادِيهِمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، غَاطَ ذَلِكَ فِرْعَوْنُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الدَّمَارِ، فَأَرْسَلَ سَرِيعًا فِي بِلَادِهِ حَاشِرِينَ، أَي: مَنْ يَحْشُرُ الْجُنْدَ وَيَجْمَعُهُ كَالْقَبَاءِ وَالْحُجَابِ، وَنَادَى فِيهِمْ: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (١١) بِعَنِي بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٢) لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (١٣) لَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ (١٤) وَلَيْسَ لَنَا لَعَاطُونَ (١٥) كُلٌّ وَقَدْ يَصِلُ مِنْهُمْ إِلَيْنَا مَا يَغِيطُنَا (١٦) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِلُونَ (١٧) نَحْنُ كُلٌّ وَقَدْ نَحْذَرُ مِنْ غَائِلَتِهِمْ، وَقَرَأَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ: (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِلُونَ) أَي: مُسْتَعْدُونَ بِالسَّلَاحِ. وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ،

وَجُنُودُهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ، فَضْرَبَهُ وَقَالَ: انْفَلِقْ بِإِذْنِ اللَّهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾<sup>(١)</sup> أَي: كَالْجَبَلِ الْكَبِيرِ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمْ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: هُوَ الْفُجَّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ صَارَ الْبَحْرُ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا لِكُلِّ سَبِيلٍ طَرِيقٌ<sup>(٣)</sup>. وَزَادَ السُّدِّيُّ: وَصَارَ فِيهِ طَاقَاتٌ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَقَامَ الْمَاءُ عَلَى حَيْلِهِ كَالْحَيَّطَانِ<sup>(٤)</sup>. وَبَعَثَ اللَّهُ الرِّيحَ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ، فَصَارَ يَبَسًا كَوَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمْرِبُ لَّهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]. وَقَالَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ﴾<sup>(٥)</sup> أَي: هُنَالِكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ: ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ أَي: قَرَّبْنَا مِنَ الْبَحْرِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، وَأَذْنَبْنَا لَهُمْ إِلَيْهِ<sup>(٦)</sup>. ﴿وَأَجْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(٧)</sup> ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ<sup>(٨)</sup> أَي: أَتَجَبْنَا مُوسَى وَنَبِيَّ إِسْرَائِيلَ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، فَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا هَلَكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أَي: فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالنُّصَرِ وَالتَّأْيِيدِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، لَدَلَالَةٍ وَحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ وَحُكْمَةٍ بِالْعَلَّةِ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٩)</sup> وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ<sup>(١٠)</sup> تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ بَنَاءَ إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(١١)</sup> إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ<sup>(١٢)</sup> قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكُمُوهَا<sup>(١٣)</sup> قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ<sup>(١٤)</sup> أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ<sup>(١٥)</sup> قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ<sup>(١٦)</sup> قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ<sup>(١٧)</sup> أُنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ<sup>(١٨)</sup> فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ<sup>(١٩)</sup> [وَعَظَّمَ خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رَدِّ الشَّرِكِ]

هَذَا إِجْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِمَامِ الْحَقَائِدِ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتْلُوهُ عَلَى أُمَّتِهِ لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي الْإِخْلَاصِ وَالتَّوَكُّلِ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَخُذْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالتَّبَرُّيَ مِنْ

وَأَيَّدَ خَضِرَاءَهُمْ، فَجُوزِي فِي نَفْسِهِ وَجُنُودُهُ بِمَا أَرَادَ لَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾<sup>(٢٠)</sup> وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ<sup>(٢١)</sup> أَي: فَخَرَجُوا مِنْ هَذَا النَّعِيمِ إِلَى الْجَحِيمِ، وَتَرَكُوا تِلْكَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ وَالْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ وَالْأَمْوَالَ وَالْأَزْزَاقَ، وَالْمُلُوكَ وَالْحِجَةَ الْوَافِرَ، فِي الدُّنْيَا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾<sup>(٢٢)</sup> كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا آلِي بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾<sup>(٢٣)</sup> ... الْآيَةُ [الأعراف: ١٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَتَمَنَّاهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ﴾<sup>(٢٤)</sup> ... الْآيَتَيْنِ [الفصل: ٦٠، ٦١].

﴿فَأَتَيْنَاهُمُ مُّشْرِيقَ﴾<sup>(٢٥)</sup> فَلَمَّا تَرَوْا الْجَنَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ<sup>(٢٦)</sup> قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ<sup>(٢٧)</sup> فَأَوْرَثْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ<sup>(٢٨)</sup> وَأَرْسَلْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ<sup>(٢٩)</sup> وَأَجْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ<sup>(٣٠)</sup> ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ<sup>(٣١)</sup> إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ<sup>(٣٢)</sup> وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ<sup>(٣٣)</sup> [مُطَارَدَةُ فِرْعَوْنَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِعْرَافُهُ وَإِعْرَاقُ قَوْمِهِ]

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ فِرْعَوْنَ خَرَجَ فِي مَحْفِلٍ عَظِيمٍ وَجَمْعٍ كَبِيرٍ - هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي زَمَانِهِ: أُولِي الْحُلِّ وَالْعَقْدِ، وَالذُّوُلِ، مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْكَبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْجُنُودِ، ﴿فَأَتَيْنَاهُمُ مُّشْرِيقَ﴾<sup>(٣٤)</sup> أَي: وَصَلُوا إِلَيْهِمْ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَهُوَ طُلُوعُهَا، ﴿فَلَمَّا تَرَوْا الْجَنَانَ﴾<sup>(٣٥)</sup> أَي: رَأَى كُلُّ مَنْ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾<sup>(٣٦)</sup> وَذَلِكَ أَنَّهُمْ انْتَهَى بِهِمُ السَّيْرُ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ، وَهُوَ بَحْرُ الْفُلْزَمِ، فَصَارَ أَمَامَهُمُ الْبَحْرُ وَقَدْ أَدْرَكَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾<sup>(٣٧)</sup> قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ<sup>(٣٨)</sup> أَي: لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ شَيْءٌ مِمَّا تَخْذَرُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أُسِيرَ هَهُنَا بِكُمْ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ، وَكَانَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَقْدَمَةِ، وَمَعَهُ يُوْسَعُ بْنُ نُونٍ، وَمُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّاقَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ وَقَفُوا لَا يَذَرُونَ مَا يَصْنَعُونَ، وَجَعَلَ يُوْسَعُ بْنُ نُونٍ أَوْ مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ، يَقُولُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَهُنَا أَمْرُكَ رَبُّكَ أَنْ تَسِيرَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَأَقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ

(١) الطبري: ٣٥٨/١٩ (٢) الدر المنثور: ٢٩٩/٦ (٣)

الطبري: ٣٥٧/١٩ (٤) الطبري: ٣٥٩/١٩

سورة الشعراء

٣٧١

سورة الشعراء

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِي إِنِّي أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَرْزُقْ الْجَنَّةَ الْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبَرَزْتَ الْحَجِّمَ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَيْفَ كُتِبَ فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُودُ بَلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ دُسِّبَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقٍ جَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَنْتَقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

الْأَرْضَ، وَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ عَذْبًا زَلَالًا يُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أَسْنَدَ الْمَرَضَ إِلَى نَفْسِهِ، وَإِنْ كَانَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ، وَلَكِنْ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ أَدْبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِلْمُصَلِّي أَنْ يَقُولَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [الفاتحة: ٧، ٦]، فَاسْنَدَ الْإِنْعَامَ وَالْهُدَايَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْغَضَبُ خِلَافُ فَاعِلُهُ أَدْبًا، وَأَسْنَدَ الضَّلَالَةَ إِلَى الْعَبِيدِ، كَمَا قَالَتْ الْجَنُّ: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، وَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿وَلِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أَيْ: إِذَا وَقَعْتُ فِي مَرَضٍ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدُرُ عَلَى شِفَائِي أَحَدٌ غَيْرُهُ بِمَا يَقْدُرُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِ. ﴿وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِي﴾ أَيْ: هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ لَا يَقْدُرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَيْ لَا يَقْدُرُ عَلَى غُفْرَانِ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا هُوَ، وَمَنْ يَغْفِرُ

الشِّرْكَ وَأَهْلِيهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَتَى إِبْرَاهِيمَ رُسُدَهُ مِنْ قَبْلِ أَيْ: مِنْ صِغَرِهِ إِلَى كِبَرِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ وَقْتِ نَشَأٍ وَشَبٍّ أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقْوِيهِ، مَا تَعْبُدُونَ؟ أَيْ: مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ؟﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكُمُوهَا أَيْ: مُقِيمِينَ عَلَى عِبَادَتِهَا وَدُعَائِهَا ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَصْرُونَ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يَعْنِي اعْتَرَفُوا بِأَنْ أَصْنَامَهُمْ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا رَأَوْا آبَاءَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أَشْتَرُ وَبَاطِلٌ أَلْفَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَلَهُمْ عَذَابٌ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ أَيْ: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ شَيْئًا وَلَهَا تَأْتِيرُ، فَلْتَخْلُصْ إِلَيَّ بِالْمَسَاءَةِ، فَإِنِّي عَدُوٌّ لَهَا لَا أَبَالِي بِهَا وَلَا أَفْكُرُ فِيهَا، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾... الآية [يونس: ٧١]، وَقَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ، فَكَيْدُوِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [هود: ٥٤-٥٦] وَهَكَذَا تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ مِنَ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾... الآية [الأنعام: ٨١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى تَوَدُّوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [المتحنة: ٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيُّهِ وَقْوِيهِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ﴿١٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الزخرف: ٢٦-٢٨] يَعْنِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ﴿٧٩﴾ وَلِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِ﴾ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٨٢﴾

[ذِكْرُهُ كَرَمَ اللَّهِ وَلَطْفُهُ بِهِ]

يَعْنِي لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أَيْ: هُوَ الْخَالِقُ الَّذِي قَدَّرَ قَدْرًا، وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، فَكُلُّ يَجْرِي عَلَى مَا قَدَّرَ لَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أَيْ: هُوَ خَالِقِي وَرَازِقِي بِمَا سَخَّرَ وَيَسَّرَ مِنَ الْأَسْبَابِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، فَسَاقِ الْمُرْنِ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ وَأَحْيَا بِهِ

الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لَائِي إِنَّكَ كَانِ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ وَمَنْ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

[دُعَاءُ الْحَلِيلِ لِنَفْسِهِ وَأَبِيهِ]

وَهَذَا سُؤَالٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ يُؤْتِيَهُ رَبُّهُ حُكْمًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ الْعِلْمُ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أَيُّ: اجْعَلْنِي مَعَ الصَّالِحِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ الْإِحْضَارِ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى» قَالَهَا ثَلَاثًا<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أَيُّ: وَاجْعَلْ لِي ذِكْرًا جَمِيلًا بَعْدِي، أَذْكَرُ بِهِ وَيُقْتَدَى بِي فِي الْخَيْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٨) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٨٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [الصفات: ١٠٨-١١٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أَيُّ: أَنْعِمْ عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا بِبَقَاءِ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ بَعْدِي، وَفِي الْآخِرَةِ بِأَنْ تَجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَغْفِرْ لَائِي﴾... الْآيَةِ. كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] وَهَذَا مِمَّا رَجَعَ عَنْهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ اسْتَغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وَقَدْ قَطَعَ [الله] تَعَالَى الْإِلْحَاقَ فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كُنْتَ لَكُمْ أَسْوَأَ حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَمْلَأُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المتحنة: ٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أَيُّ: أَجْزِنِي مِنَ الْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَوْمَ يَبْعَثُ الْخَلَائِقُ أَوْلَهُمْ وَآخِرَهُمْ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْهُ هَذِهِ الْآيَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ رَأَى أَبَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ الْعَبْرَةُ وَالْفَتْرَةُ»<sup>(٣)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنَّكَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ»<sup>(٤)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ. وَفِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ وَلِلْفُظِّ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَرَزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَرَزَ فَتْرَةٌ وَغَيْرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا

أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أُخْزِيَ مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، انْظُرْ تَحْتَ رِجْلِكَ، فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِ الْكُبْرَى<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أَيُّ: لَا يَبْقَى الْمَرْءُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَالُهُ وَلَوْ افْتَدَى بِجُلَّةِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَا بَنُونَ أَيُّ: وَلَوْ افْتَدَى بِمَنْ عَلَى الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالْتِبَرُ مِنَ الشَّرِّكَ وَأَهْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أَيُّ: سَالِمٍ مِنَ الدَّنَسِ وَالشَّرِّكَ. قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: الْقَلْبُ السَّلِيمُ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: الْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الْقَلْبُ الصَّحِيحُ<sup>(٨)</sup>. وَهُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، لِأَنَّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مَرِيضٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ: هُوَ الْقَلْبُ السَّالِمُ مِنَ الْبِدْعَةِ، الْمُطْمَئِنُّ إِلَى السُّنَّةِ.

﴿وَأَرْزَلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَنِينَ﴾ (٩٠) وَوَرِثَ الْجَنَّةَ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْزِلُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِفُهُمْ أَوْ يَنْصُرُهُمْ ﴿٩٣﴾ فَكَيْفَ يُبَايِعُهَا هُمْ وَالْغَاوِينَ ﴿٩٤﴾ وَخَدُّوا لَيْلَى أَمْعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُخْرِفُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَرِيقٍ حَرِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتُخَرَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

[الْمُتَّقُونَ وَالْغَاوُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجِدَالُ الْغَاوِينَ

وَحَسْرَتُهُمْ]

﴿وَأَرْزَلَتْ الْجَنَّةُ﴾ أَيُّ: قُرِئَتْ وَأَذْنِيَتْ مِنْ أَهْلِهَا مُزْحَفَةً مُرِيَّةً لِتَاظِيرِهَا، وَهُمْ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ رَغِبُوا فِيهَا عَلَى مَا فِي الدُّنْيَا، وَعَمِلُوا لَهَا فِي الدُّنْيَا ﴿وَوَرِثَ الْجَنَّةَ لِلْغَاوِينَ﴾ أَيُّ:

(١) البغوي: ٣٩٠/٣ (٢) فتح الباري: ٧٤٣/٧ (٣) فتح الباري: ٣٥٧/٨ (٤) فتح الباري: ٣٥٧/٨ (٥) فتح الباري: ٤٤٥/٦ (٦) النسائي في الكبرى: ٤٢٢/٦ (٧) الطبري: ١٩/٣٦٦ (٨) البغوي: ٣٩٠/٣



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٣٧٢

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ إِن أَنَا إِلَّا أَنْزِيرُ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٩﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٠﴾ قَالَ رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَبُونَ ﴿١١١﴾ فَأَفْلَحَ بَنِي وَيثَ هُمْ فَتَحَاوَنَجِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ فَأَنْجَيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٣﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٦﴾ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٩﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿١٢٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٢﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٤﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿١٢٥﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٦﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَعْيُنٍ وَبَيْنَ وَجْهِتِ وَعَيْونَ ﴿١٢٧﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعُظْتُ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٢٩﴾

[ذَكَرُ نُوْحٍ وَوَعُظُهُ لِقَوْمِهِ وَجَوَابُهُمْ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَا عِدَّتِ الْأَضْنَامُ وَالْأَنْدَادُ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ تَاهِبًا عَنْ ذَلِكَ وَمَحْذَرًا مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، فَكَذَّبَهُ قَوْمُهُ، فَاسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِعَالِ الْخَبِيثَةِ فِي عِبَادَتِهِمْ أَضْنَامَهُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبَهُمْ لَهُ مَنْزِلَةً تَكْذِيبُهُمْ جَمِيعَ الرُّسُلِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٨﴾ إِنِّي رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، أَمِينَ فِيمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، أَلْبَعُثُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَا أَزِيدُ فِيهَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهَا ﴿١٠٩﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿١١٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ... الْآيَةِ. أَيْ: لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَى نُصْحِي لَكُمْ، بَلْ أَدْخِرُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﴿١١١﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿١١٢﴾

أُظْهِرْتُ وَكُشِفَ عَنْهَا، وَبَدَتْ مِنْهَا عُنُقٌ فَزَفَرْتُ زَفْرَةً بَلَعْتُ مِنْهَا الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ. وَقِيلَ لِأَهْلِهَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا: ﴿إِن مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٠٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْبَصِرُونَ﴾ أَيْ: لَيْسَتْ الْأِلَٰهَةُ الَّتِي عِبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، مِنْ تِلْكَ الْأَضْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، تُغْنِي عَنْكُمْ الْيَوْمَ شَيْئًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْ أَنْفُسِهَا، فَإِنَّكُمْ وَإِيَّاهَا الْيَوْمَ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَائِلُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْني فُلَهُمُورُوا فِيهَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: كَبُّوا فِيهَا، وَالْكَافُ مُكْرَرَةٌ، كَمَا يُقَالُ: صُرِّصِرَ، وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ أَلْقَى بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ: مِنَ الْكُفَّارِ وَقَادَتِهِمُ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلَى الشُّرْكِ ﴿وَيُحَدِّثُ إِلَيْهِمْ أَجْمَعُونَ﴾ أَيْ: أَلْقُوا فِيهَا عَنْ آخِرِهِمْ ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ تَالَهُ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ أَيْ: يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَلَيْنَا نَصِيصًا مِنَ النَّارِ؟ وَيَقُولُونَ وَقَدْ عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ: ﴿تَالَهُ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ نَجْعَلُ أَمْرَكُمْ مُطَاعًا كَمَا يُطَاعُ أَمْرُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَبَدْنَاكُمْ مَعَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيْ: مَا دَعَانَا إِلَى ذَلِكَ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ كَمَا يَقُولُونَ: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَعْمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وَكَذَا قَالُوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ أَيْ: قَرِيبٍ.

﴿فَلَوْ أَن لَّا كَرَّةً فَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَمَتَّنُونَ أَنَّهُمْ يَرُدُّونَ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ - فِيمَا يَزْعُمُونَ - وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَى دَارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ تَخَاضُعِ أَهْلِ النَّارِ فِي سُورَةِ (ص) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضَعُ أَهْلُ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: إِنْ فِي مَحَاجَةِ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ وَإِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْحِيدِ لَآيَةٌ، أَيْ: لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيلَةٌ عَلَى أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿١١٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾ فَاقْنُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ ﴿١١٢﴾

وَالْأَزْوَاجَ الَّتِي حُمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، أُنْجِبْنَاهَا نَوْحًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ كُلُّهُمْ، وَأَعْرَفْنَا مَنْ كَفَرَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ كُلُّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٣﴾

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ وَمَا أَسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجَرٍ إِنْ آجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْمَلَأَيْنِ ﴿١١٦﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَابَةً تَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١١٨﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ وَاتَّقُوا الذِّلَّ الَّذِي أُمِّدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ أُمِّدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ﴿١٢١﴾ وَحَنَّتْ وَعُيُونُ ﴿١٢٢﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٣﴾

[وَعَظَّ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ عَادٍ]

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ عَادًا، وَكَانَ قَوْمُهُ يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، وَهِيَ جِبَالُ الرَّمْلِ قَرِيبًا مِنْ حَضْرَمَوْتِ، مُتَاخِضَةً بِلَادَ الْيَمَنِ، وَكَانَ زَمَانُهُمْ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ مِنْ قُوَّةِ التَّرْكِيبِ وَالْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ الشَّدِيدِ، وَالطُّوْلِ الْمُدِيدِ، وَالْأَرْزَاقِ الدَّارَةِ، وَالْأُمُورِ وَالْجَنَاتِ وَالْأَنْهَارِ، وَالْأَنْبَاءِ وَالزُّرُوعِ وَالنَّمَارِ، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ مَعَهُ، فَبَعَثَ اللَّهُ هُودًا إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ رَسُولًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَحَذَّرَهُمْ بِقَمَّتِهِ وَعَذَابِهِ فِي مُخَالَفَتِهِ وَبَطْشِهِ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَابَةً تَصْنَعُونَ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الرِّيعِ بِمَا حَاصِلُهُ: أَنَّهُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ عِنْدَ جَوَادِّ الطَّرِيقِ الْمَشْهُورَةِ، يَنْتَوِنَ هُنَاكَ بُيُوتًا مُحْكَمًا هَائِلًا بَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَابَةً﴾ أَيُّ: مَعْلَمًا بِنَاءً مَشْهُورًا ﴿تَصْنَعُونَ﴾ أَيُّ: وَإِنَّمَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَبَا لَا لِلْإِحْتِيَاجِ إِلَيْهِ بَلْ لِمَجَرَّدِ اللَّعِبِ وَاللَّهُوِ وَإِظْهَارِ الْقُوَّةِ، وَلِهَذَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ تَضْيِيعٌ لِلزَّمَانِ وَإِنْعَابٌ لِلْأُبْدَانِ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَاشْتِغَالٌ بِمَا لَا يُجْدِي فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَالْمَصَانِعُ: الْبُرُوجُ الْمُشِيدَةُ وَالْبُيُوتُ الْمُخْلَدُ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أَيُّ: لِكَيْ

فَقَدْ وَضَحَ لَكُمْ وَبَانَ صِدْقِي وَنُصْحِي وَأَمَانَتِي فِيمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ وَاسْتَمَنَّتِي عَلَيْهِ.

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٤﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٥﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٧﴾

يَقُولُونَ: لَا نُؤْمِنُ لَكَ، وَلَا نَتَّبِعُكَ وَنَتَّأَسَى فِي ذَلِكَ بِهِؤَلَاءِ الْأَرَاذِلِ، الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ وَصَدَقُوكَ وَهُمْ أَزَادِلُنَا، وَلِهَذَا ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ قَالَ وَمَا عَلِمَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٤﴾ أَيُّ: وَأَيُّ شَيْءٍ يَلْزَمُنِي مِنْ اتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ لِي؟ وَلَوْ كَانُوا عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كَانُوا عَلَيْهِ، لَا يَلْزَمُنِي التَّنْقِيبُ عَنْهُمْ وَالتَّبَحُّثُ وَالْفَحْصُ، إِنَّمَا عَلَيَّ أَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ تَصَدِيقَهُمْ إِيَّايَ، وَأَكِلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ كَانَهُمْ سَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنْهُ وَيَتَابِعُوهُ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَقَالَ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ﴿١١٧﴾ أَيُّ: إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا، فَمَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَنِي وَصَدَّقَنِي كَانَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، سَوَاءٌ كَانَ شَرِيفًا أَوْ وَضِيعًا، أَوْ جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا.

﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَسْتَوْحَ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَرِئَ كَذِبُونَ ﴿١١٨﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَبِحَنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَافْتَحْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٣﴾

[تَهْدِيدُ الْقَوْمِ وَدُعَاءُ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَيْهِمْ وَإِهْلَاكُهُمْ]

لَمَّا طَالَ مَقَامُ نَبِيِّ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجَهَارًا، وَكُلَّمَا كَرَّرَ عَلَيْهِمْ الدَّعْوَةَ صَمَّمُوا عَلَى الْكُفْرِ الْغُلِظِ وَالْإِمْتِنَاعِ الشَّدِيدِ، وَقَالُوا فِي الْآخِرِ: ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَسْتَوْحَ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أَيُّ: لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ مِنْ دَعْوَتِكَ إِنَّمَا إِلَى دِينِكَ، ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أَيُّ: لَتَرْجُمَنَّكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا عَلَيْهِمْ دَعْوَةً اسْتَجَابَ اللَّهُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنْ قَرِئَ كَذِبُونَ﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا... الْآيَةِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [القمر: ١٠-١٢]. وَقَالَ هُنَا: ﴿فَافْتَحْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾ وَالْمَشْحُونُ هُوَ الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتِعةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٣٧٣

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٠﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَالَتُنْفُونَ ﴿٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَعْلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ أَتَتَرَكُونَ فِي مَا ههنا عَمَلَكُمْ ﴿٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٤٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا قَرَرِينَ ﴿٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَبِغِ لَنَا آيَةً ﴿٥٤﴾ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٧﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿٥٨﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٠﴾

تَقِيمُوا فِيهَا أَبَدًا، وَذَلِكَ لَيْسَ بِحَاصِلٍ لَكُمْ بَلْ زَائِلٌ عَنْكُمْ، كَمَا زَالَ عَنْكُمْ كَانَ قَبْلَكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ﴾ أَيُّ: يَصِفُهُمْ بِالْقُوَّةِ وَالْغَلْظَةِ وَالْجَبَرُوتِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أَيُّ: اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَطِيعُوا رَسُولَكُمْ.

ثُمَّ شَرَعَ يَذْكُرُهُمْ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيِّنَ ﴿٣٨﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿٣٩﴾ إِنَّ أَخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤٠﴾ إِنَّ كَذَبْتُمْ وَخَالَفْتُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ بِالْتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ، فَمَا نَفَعَ فِيهِمْ.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَزَّتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَعِظِينَ﴾ ﴿٤١﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٠﴾

[جَوَابُ قَوْمِ هُودٍ وَعَذَابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَوْمِ هُودٍ لَهُ بَعْدَ مَا حَذَرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، وَرَغَّبَهُمْ وَرَهَّبَهُمْ، وَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقَّ وَوَضَّحَهُ: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَزَّتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَعِظِينَ﴾ أَيُّ: لَا نَرْجِعُ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣] وَهَكَذَا الْأَمْرُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦] الْآيَةَ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ) يَفْتَحُ الْحَاءِ وَتَسْكِينِ اللَّامِ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَعَلَقَمَةُ وَمُجَاهِدٍ: يَعْنُونَ مَا هَذَا الَّذِي جِئْنَا بِهِ إِلَّا أَخْلَاقُ الْأَوَّلِينَ<sup>(١)</sup> كَمَا قَالَ الْمُسْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ: ﴿وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ كَتَبْنَاهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٠] وَقَالَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿١﴾ وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٥٤] وَقَالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]

وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بِضَمِّ الْحَاءِ وَاللَّامِ، يَعْنُونَ دِينَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ دِينُ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَنَحْنُ تَائِعُونَ لَهُمْ سَالِكُونَ

وَرَأَاهُمْ، نَعِيشُ كَمَا عَاشُوا، وَتَمُوتُ كَمَا مَاتُوا، وَلَا بَعَثَ وَلَا مَعَادَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أَيُّ: اسْتَمَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِ نَبِيِّ اللَّهِ هُودٍ وَمُخَالَفَتِهِ وَعِنَادِهِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَقَدْ بَيَّنَّ سَبَبَ إِهْلَاكِهِمْ بِمَا هُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَةً، [الحاقة: ٦] أَيُّ: رِيحًا شَدِيدَةً الْهَبُوبِ، ذَاتَ بَرْدٍ شَدِيدٍ جِدًّا، فَكَانَ سَبَبَ إِهْلَاكِهِمْ مِنْ جِنْسِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَعْتَى شَيْءٍ وَأَجْبَرَهُ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَعْتَى مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِمَّا ذَاتَ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧، ٦] وَهُمْ عَادُ الْأُولَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا﴾ [النجم: ٥٠] وَهُمْ مِنْ نَسْلِ إِرَمَ بْنِ سَامٍ بْنِ نُوحٍ ﴿ذَاتَ الْعِمَادِ﴾ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْعَمَدَ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ إِرَمَ مَدِينَةً، فَإِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ مِنْ كَلَامِ

(١) الطبري: ٣٧٨/١٩ العوفي وعائلته تقدم حكمهم مرارًا

كُفَّ وَوَهَبَ، وَلَيْسَ لَدَيْكَ أَضْلُ أَصِيلٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلَيْ لَمْ يَخْلُقْ مِنْهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨] أي: لَمْ يَخْلُقْ مِنْهُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ فِي قُورِيهِمْ وَشِدْدَتِهِمْ وَجَبَرُوتِهِمْ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَدِينَةً لَقَالَ: أَلَيْ لَمْ يَبْنِ مِنْهَا فِي الْبِلَادِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأُولَئِكَ يَبْرِجُ صَرَصِرٌ﴾ [الحاقة: ٦] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حُسُومًا﴾ أي: كَامِلَةً ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ حَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٧] أي: يَقْوَأُوا أَبْدَانًا يَلَا رُؤُوسَ، وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَقْتُلِعُهُ وَتَرْفَعُهُ فِي الْهَوَاءِ، ثُمَّ تَنْكِسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، فَتَشْدُخُ دِمَاعَهُ وَتَكْسِرُ رَأْسَهُ وَتُلْقِيهِ، كَأَنَّهُمْ أَعْجَارُ نَحْلٍ مُنْقَعِرٍ، وَقَدْ كَانُوا تَحْصَنُوا فِي الْجِبَالِ وَالْكُهُوفِ وَالْمَغَارَاتِ، وَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْصَافِهِمْ، فَلَمْ يُعْنِ عَنْهُمْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْئًا ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ... الْآيَةُ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنْ لَكُمْ رُسُلٌ آمِينَ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْتَلِكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴿ذِكْرُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودُ﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ ثَمُودَ، وَكَانُوا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَةَ الْحِجْرِ - الَّتِي بَيْنَ وَادِي الْقَرْيَةِ وَبِلَادِ الشَّامِ - وَمَسَاكِنُهُمْ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ الْأَحَادِيثَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مُرُورِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ حِينَ أَرَادَ غَزْوَ الشَّامِ، فَوَصَلَ إِلَى تَبُوكَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَتَأَهَّبَ لَذَلِكَ<sup>(١)</sup>. وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ وَقَبْلَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَدَعَاهُمْ نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يُطِيعُوهُ فِيمَا بَلَغَهُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي بِدَعْوَتِهِمْ أَجْرًا مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا يُطْلَبُ ثَوَابُ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ آلَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ:

﴿أَنْتُمْ كُونُوا فِي مَا هَهْنَأَ عَامِنِينَ﴾ (١٤٦) فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ

فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)

[تَذَكِيرُهُمْ بِأَحْوَالِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ]

يَقُولُ لَهُمْ وَاعْظَا لَهُمْ، وَمُحَذَّرُهُمْ يَقَمُ اللَّهُ أَنْ تَحُلَّ بِهِمْ، وَتَذَكَّرًا بِأَنْعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ الدَّارَةِ وَجَعَلَهُمْ فِي أَمْنٍ مِنَ الْمَحْذُورَاتِ، وَأَنْبَتَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ، وَفَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعُيُونِ الْجَارِيَاتِ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الزُّرُوعِ وَالشَّمَرَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْتَعَّ وَبَلَغَ، فَهُوَ هَضِيمٌ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ يَقُولُ: مُعْشِبَةٌ. وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو - وَقَدْ أَدْرَكَ الصَّحَابَةَ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قَالَ: إِذَا رَطَبَ وَاشْتَرَحَى. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، ثُمَّ قَالَ: وَرَوَى عَنْ أَبِي صَالِحٍ نَحْوُ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي حَادِقِينَ<sup>(٣)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: شَرِهِينَ أَشْرِينَ، وَهُوَ اخْتِيَارُ مُجَاهِدٍ وَجَمَاعَةٍ<sup>(٤)</sup>. وَلَا مُتَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَنْحِتُونَ تِلْكَ الْبُيُوتَ الْمُنْحَوْتَةَ فِي الْجِبَالِ أَشْرًا وَبَطْرًا وَعَبَثًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى سُكْنَاهَا، وَكَانُوا حَادِقِينَ مُتَقِينِينَ لِنَحْتِهَا وَنَقْشِهَا، كَمَا هُوَ الْمَشَاهِدُ مِنْ حَالِهِمْ لِمَنْ رَأَى مَنَازِلَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي: أَقْبِلُوا عَلَى مَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ لَتَعْبُدُوهُ وَتُوحِّدُوهُ وَتَسْبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ يَعْنِي رُؤُسَاءَهُمْ وَكُتُبَاءَهُمْ، الدَّعَاةَ لَهُمْ إِلَى الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ وَمُخَالَفَةَ الْحَقِّ.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٢) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٣) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَمْلُوءٍ (١٥٤) وَلَا تَسْهَوْا يَوْمَ قِيَامِكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٥) فَمَقَرُّهَا فَأَصْبَحُوا نَارِينَ (١٥٦) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٨)

(١) فتح الباري: ٧/٧٣١ (٢) الطبري: ١٩/٣٨٠ (٣) الطبري: ١٩/٣٨٢ (٤) الطبري: ١٩/٣٨٣

الْمُرْسَلِينَ

٣٧٤

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالُوا لَيْن لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٩﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٠﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٦﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ نَجِيكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ أَتُوفُونَ الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٣﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٤﴾

حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانُوا يَسْكُنُونَ سُدُومَ وَأَعْمَالَهَا الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ بِهَا، وَجَعَلَ مَكَانَهَا بَحِيرَةً مُتْنَةً خَبِيثَةً، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ بِبِلَادِ الْعُورِ بِنَاجِيَةِ مُتَاجِمَةِ لِحْجَالِ النَّبْتِ الْمُقَدَّسِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ بِلَادِ الْكُرْكِ وَالشُّوتْبِكِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ يُطِيعُوا رَسُولَهُمُ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَارْتِكَابِ مَا كَانُوا قَدْ ابْتَدَعُوهُ فِي الْعَالَمِ مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَى فِعْلِهِ، مِنْ إِيْتَانِ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالُوا لَيْن لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٩﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٠﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ

[جَوَابُ ثُمُودَ وَطَلَبُهُمُ الْآيَةَ وَمَحِيَّتُهُمُ الْعَذَابَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ثُمُودَ فِي جَوَابِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَفَتَادَةٌ: يَغْنُونُ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالُوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يَعْني فَكَيْفَ أُؤَجِّبُ إِلَيْكَ دُونِنَا؟ كَمَا قَالُوا فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ﴾ ﴿١٥٠﴾ سَمِعْتُمُونَ عَدَا مِنْ الْكُذَّابِ الْآثِيرُ ﴿[القمر: ٢٥، ٢٦]﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ افْتَرَحُوا عَلَيْهِ آيَةً يَأْتِيهِمْ بِهَا لِيَعْلَمُوا صِدْقَهُ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ، وَقَدْ اجْتَمَعَ مَلُؤُهُمْ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمُ الْآنَ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةَ عَشْرَاءَ وَأَشَارُوا إِلَى صَخْرَةٍ عِنْدَهُمْ - مِنْ صِفَتِهَا كَذَا وَكَذَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللَّهِ صَالِحٌ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ لِمَنْ أَجَابَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا لِيُؤْمِنَ بِهِ [وَلِيَصْدَقَهُ] وَلِيَتَّبِعْنَهُ، فَأَعْطَاهُ ذَلِكَ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّى، ثُمَّ دَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ، فَانْفَطَرَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ - الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا - عَنْ نَاقَةِ عَشْرَاءَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي وَصَفُوهَا، فَاَمَنَّ بَعْضُهُمْ وَكَفَرَ أَكْثَرُهُمْ ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَآ شَرِبْ وَلَكُزْ شَرِبْ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ يَعْني تَرُدُّ مَاءَكُمْ يَوْمًا، وَيَوْمًا تَرُدُّونَهُ أَنْتُمْ ﴿وَلَا تَسْهَوْهَا يَسْهَوْ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ فَحَذَّرَهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ إِنْ أَصَابُوهَا بِسُوءٍ، فَمَكَتِ النَّاقَةُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ، تَرُدُّ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الْوَرَقَ وَالْمَرْعَى - وَيَتَّبِعُونَ بِلَبِّهَا يَحْلِبُونَ مِنْهَا مَا يَكْفِيهِمْ شُرْبًا وَرِيًّا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ وَحَضَرَ شَقَاؤُهُمْ، تَمَثَّلُوا عَلَى قَتْلِهَا وَعَقَرُوهَا ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿وَهُوَ أَنَّ أَرْضَهُمْ زُلْزَلَتْ زَلْزَالًا شَدِيدًا، وَجَاءَتْهُمْ صَبْحَةٌ عَظِيمَةٌ افْتَلَعَتْ الْقُلُوبَ مِنْ مَحَالِّهَا، وَأَتَاهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، وَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾

[ذِكْرُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعْوَتُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَارَ وَهُوَ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَعَثَهُ إِلَى أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ فِي

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٧٥

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ یُّومَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ یُّومٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِیْ ذَٰلِكَ لَآیَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِیلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِیِّ مُبِینٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِی زُبُرِ الْأُولِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ یَكُنْ لَهُمْ آیَةٌ أَنْ یَعْلَمَهُ عُلَمَآؤُ بَنِی إِسْرَءِیلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِینَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهٖ مُّؤْمِنِینَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكَ نَحْنُ فِی قُلُوبِ الْمُجْرِمِینَ ﴿٢٠٠﴾ لَا یُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ یَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِیمَ ﴿٢٠١﴾ فَبِأَنۡبَیَّتِهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا یَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فِیَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَعِدَّآءُ بِنَا یَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرِیتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُم سِنِینَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا یُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

النُّكَّةِ، فَظَنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ غَيْرُ أَهْلِ مَدِينٍ، فَرَعِمَ أَنَّ شُعْبَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أُمْتَيْنِ، وَمِنْهُم مِّن قَالَ: ثَلَاثَ أُمَمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَصْحَبُ لَيْكَةِ﴾ قَوْمُ شُعْبَانَ. وَقَالَ إِسْحَاقُ ابْنُ بِشْرِ: وَقَالَ غَيْرُ جَوْبِرٍ<sup>(١)</sup>: أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَمَدِينِ هُمَا وَاحِدٌ<sup>(٢)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالصَّحِیحُ: أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَصُفُّوا فِي كُلِّ مَقَامٍ بِشَيْءٍ، وَلِهَذَا وَعِظَ هَؤُلَاءِ وَأَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، كَمَا فِي قِصَّةِ مَدِينٍ سَوَاءٍ بِسَوَاءٍ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ وَرَبُّوْا بِالْفَنَاطِيسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٧٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٧٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٧٤﴾

(١) كذا عندنا، وفي نسخة د/ البنا: وقال إسحاق بن بشر: وقال غير جوير. وهو أقرب لاستقامة العبارة (٢) الطبري: ١٩/ ٣٩٠

الْمُنذِرِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّ فِیْ ذَٰلِكَ لَآیَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ ﴿١٧٣﴾

[تَكْبِيرُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِعْلِ قَوْمِهِ، وَجَوَابُهُمْ وَعَذَابُهُمْ]

لَمَّا نَهَاھُمْ نَبِیُّ اللَّهِ عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ، وَغَشْيَانِهِمُ الذُّكُورَ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِيْتَانِ نِسَائِهِمُ اللَّاتِي خَلَقَهُنَّ اللَّهُ لَهُمْ، مَا كَانَ جَوَابُهُمْ لَهُ إِلَّا أَنْ قَالُوا: ﴿لَیِّنَ لَّمْ تَنْتَهِ بِلُوطٍ﴾ أَيْ: عَمَّا جِئْنَا بِهِ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أَيْ: نَتْفِیکَ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ یَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا یَزِدُّعُونَ عَمَّا هُمْ فِیهِ، وَأَنَّهُمْ مُّسْتَمِرُّونَ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ، تَبَرَّأَ مِنْهُمْ وَقَالَ: ﴿إِنِّی لَعَلَّکُمْ مِنَ الْفَالِینَ﴾ أَيْ: الْمُبْغِضِینَ، لَا أَحِبُّهُ وَلَا أَرْضِی بِهِ، وَإِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ، ثُمَّ دَعَا اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿رَبِّیَّ نَحْنِی وَأَهْلِی مِمَّا یَعْمَلُونَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَنَجَّیْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أَيْ: كُلَّهُمْ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِی الْغَدِینَ﴾ وَهِيَ امْرَأَتُهُ، وَكَانَتْ عَجُوزًا سَوَّاءَ بَقِیتِ، فَهَلَكَتْ مَعَ مَنْ بَقِیَ مِنْ قَوْمِهَا، وَذَٰلِكَ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِی سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهُودٍ، وَكَذَا فِی الْحَجَرِ حِینَ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ یُسْرِیَ بِأَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ، وَأَنَّهُمْ لَا یَلْتَفِتُونَ إِذَا سَمِعُوا الصَّیْحَةَ حِینَ تَنْزُلُ عَلَى قَوْمِهِ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَاسْتَمَرُّوا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أُولَئِكَ الْعَذَابَ الَّذِی عَمَّ جَمِیعَهُمْ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّیلٍ مَنْصُودٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِینَ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَھُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعْبَانُ آلَا نَنْفَرُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنِّی لَكُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ ﴿١٧٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَنْتُمْ لَعَلَّکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِی إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِینَ ﴿١٧٤﴾ [شُعْبَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ یُعِظُ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ]

هَؤُلَاءِ - بَعْثِ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ - هُمْ أَهْلُ مَدِينٍ عَلَى الصَّحِیحِ وَكَانَ نَبِیُّ اللَّهِ شُعْبَانُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا لَمْ یَقُلْ هَهُنَا أَخُوهُمْ شُعْبَانُ لِأَنَّهُمْ نُسِبُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَيْكَةِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ. وَقِيلَ: شَجَرٌ مُّثَقٌ كَالْعِصَةِ كَانُوا یَعْبُدُونَهَا، فَلِهَذَا لَمَّا قَالَ: كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِینَ لَمْ یَقُلْ: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعْبَانُ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعْبَانُ﴾ فَقَطَّعَ نَسَبَ الْأَخُوَّةِ بَيْنَهُمْ لِلْمَعْنَى الَّذِی نُسِبُوا إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ أَحَاهُمْ نَسَبًا. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَمْ یَقْطُنْ لِهَؤُلُو

## [الْأَمْرُ بِإِيْفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ]

يَأْمُرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِيْفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَبَيْنَهُمَا عَنْ التَّطْفِيفِ فِيهِمَا، فَقَالَ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أَي: إِذَا دَفَعْتُمْ لِلنَّاسِ فَكَمَلُوا الْكَيْلَ لَهُمْ، وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْلَ فَتَقْطَعُوهُ نَاقِصًا، وَتَأْخُذُوهُ - إِذَا كَانَ لَكُمْ - تَامًا وَافِيًا، وَلَكِنْ خُذُوا كَمَا تُعْطُونَ، وَأَعْطُوا كَمَا تَأْخُذُونَ ﴿وَرِزْقُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وَالْقِسْطُ هُوَ: الْمِيزَانُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أَي: لَا تَنْقُصُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يَعْنِي قَطَعَ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَتَقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ يُخَوِّفُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَشْلَمَ: ﴿وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ يَقُولُ: خُلِقَ الْأَوَّلِينَ. وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ (١) [يس: ٦٢].

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (٢) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٣) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٤) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانَ عَذَابٌ يَوْمِ عَظِيمٍ (٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٨)

[جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ وَتَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ وَمَحِيطُهُمُ الْعَذَابَ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَوَابِ قَوْمِهِ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَجَابَتْ بِهِ ثُمُودَ لِرَسُولِهَا - تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ - حَيْثُ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يَعْنُونَ مِنَ الْمُسَحْوَرِينَ كَمَا تَقَدَّمَ ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَي: تَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ فِيمَا تَقُولُهُ، لَا أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ إِلَيْنَا ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. قَالَ الضَّحَّاكُ: جَائِيًا مِنَ السَّمَاءِ. (٢) وَقَالَ: فَتَأْخُذُ: قَطْعًا مِنَ السَّمَاءِ (٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ. وَهَذَا شَبِيهٌ بِمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ فِيمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْفُجَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ إِلَى أَنْ قَالُوا: ﴿أَوْ سَنُقْطِعُ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كَيْفًا أَوْ تَأْتِي بِلَهٍُّ وَالْمَلَكَةِ قِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢] وَقَوْلُهُ:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَاصْطُرْ عَلَيْنَا مِثْلَ آبٍ مِمَّا تَسْقِي السَّيِّدَةَ﴾ (١) الْآيَةُ [الأنفال: ٣٢]. وَهَكَذَا قَالَ هُوَلَاءِ الْكُفَّارُ الْجَهْلَةُ: ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ (٢) الْآيَةُ، ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَسْتَحْقِقُونَ ذَلِكَ جَزَاءَكُمْ بِهِ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَكُمْ، وَهَكَذَا وَقَعَ بِهِمْ جَزَاءٌ - كَمَا سَأَلُوا - جَزَاءً وَفَاقًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ إِنَّهُمْ كَانَ عَذَابٌ يَوْمِ عَظِيمٍ. وَهَذَا مِنْ جِنْسٍ مَا سَأَلُوهُ مِنْ إِسْقَاطِ الْكَيْسِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ شَبَّاهُ وَتَعَالَى جَعَلَ عُقُوبَتَهُمْ أَنْ أَصَابَهُمْ حَرٌّ عَظِيمٌ مُدَّةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، لَا يَكْنُتُهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَيْهِمْ سَحَابَةٌ أَظْلَمَتْهُمْ، فَجَعَلُوا يَنْطَلِقُونَ إِلَيْهَا يَسْتَظِلُّونَ بِظِلِّهَا مِنَ الْحَرِّ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ تَحْتَهَا، أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَرًّا مِنْ نَارٍ وَلَهَبًا وَوَهَجًا عَظِيمًا، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ أَزْهَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانَ عَذَابٌ يَوْمِ عَظِيمٍ﴾.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى صِفَةَ إِهْلَاكِهِمْ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ، كُلُّ مَوْطِنٍ بِصِفَةٍ تَنَاسَبَتْ ذَلِكَ السِّيَاقُ فِيهِ الْأَعْرَافَ ذَكَرَ أَنََّّهُمْ أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِئِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَنُخْرِجَكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قُرَيْشًا أَوْ لَنَعُودَ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] فَأَرْجَفُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَهُ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ، وَفِي سُورَةِ هُودٍ قَالَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ﴾ (٣) وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اسْتَهْزَؤُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالْإِزْدِرَاءِ، فَتَنَاسَبَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ صَيْحَةٌ تُشَكِّبُهُمْ، فَقَالَ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ﴾ الْآيَةُ (٤). وَهَهُنَا قَالُوا: ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ (٥) الْآيَةُ، عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ، فَتَنَاسَبَ أَنْ يُحَقِّقَ عَلَيْهِمْ مَا اسْتَبَعَدُوا وَفُوعَهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ إِنَّهُمْ كَانَ عَذَابٌ يَوْمِ عَظِيمٍ.

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ يَزِيدَ الْبَاهِلِيِّ، سَأَلْتُ ابْنَ

(١) الطبري: ٣٩٢/١٩ (٢) الطبري: ٣٩٣/١٩ (٣) الطبري: ٤٨٥/٢٢ (\*) كذا ورد في النسخة، وهي آية الحجر: ٨٣ تتعلق بقوم لوط عليه السلام (\*) وأما التي تتعلق بقوم شعيب المشار إليها فهي: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ الْآيَةُ ٩٤.

عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾...  
الْآيَةِ، قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَعْدَةً وَحَرًّا شَدِيدًا، فَأَخَذَ  
بِأَنفُسِهِمْ [فَدَخَلُوا الْبُيُوتَ فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَجْوَابُ الْبُيُوتِ  
فَأَخَذَ بِأَنفُسِهِمْ] فَخَرَجُوا مِنَ الْبُيُوتِ هَرَابًا إِلَى الْبَرِّيَّةِ،  
فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَحَابَةً فَأَطْلَقَتْهُمْ مِنَ الشَّمْسِ، فَوَجَدُوا لَهَا  
بَرْدًا وَلَذَّةً، فَتَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا  
أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَارًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَذَلِكَ عَذَابٌ يَوْمَ  
الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ<sup>(١)</sup>. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ  
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أَي: الْعَزِيزُ فِي  
نِقَامِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ، الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.  
﴿وَلَهُ لِنَزِيلِ رَبِّكَ آيَاتٍ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿عَلَى قَلْبِكَ  
لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٥٥﴾  
[الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ  
وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَي: الْقُرْآنُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ  
فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ  
مُحْدِثٍ...﴾ الْآيَةِ ﴿لِنَزِيلِ رَبِّكَ آيَاتٍ﴾ أَي: أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ  
وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ  
ابْنُ كَعْبٍ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعُوفِيُّ وَالسَّدُّيُّ وَالضَّحَّاكُ  
وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ. قَالَ  
الزُّهْرِيُّ: وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ  
نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]  
﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ  
وَالنَّقْصِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَي: لِتُنذِرَ بِهِ بِأَسَنِ اللَّهِ  
وَنِفْمَتِهِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ  
لَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أَي: هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي  
أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ، أَنْزَلْنَاهُ [بِلِسَانِكَ] الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ الْكَامِلِ  
الشَّامِلِ، لِيَكُونَ بَيِّنًا وَاضِحًا ظَاهِرًا، قَاطِعًا لِلْعُدْرِ، مُقِيمًا  
لِلْحُجَّةِ دَلِيلًا إِلَى الْمَحْجَةِ.  
﴿وَإِنَّهُمْ لَنَبِي رُبُّهُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَوْلَى يَكُنْ لَهُمْ ءَالَهُ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُنَا بَيِّنَ  
إِسْرَائِيلَ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا  
كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ شِدَّةِ كُفْرِ قُرَيْشٍ وَعِنَادِهِمْ لِهَذَا  
الْقُرْآنِ: أَنَّهُ لَوْ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَعَاجِمِ مِمَّنْ لَا يَذَرِي  
مِنَ الْعَرَبِيَّةِ كَلِمَةً وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ بَيِّنَاتِهِ وَفَصَاحَتِهِ لَا  
يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾  
فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ  
الْأُخْرَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ  
يَعْرَجُونَ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَيْصُرُنَا...﴾ الْآيَةِ  
[الحجر: ١٥، ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ  
الْمَلَكُوكَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَلَائِكَةُ...﴾ الْآيَةِ [الأنعام: ١١١]، وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾  
الْآيَةِ [يونس: ٩٦].

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى  
يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾  
فَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿أَفِيعَادُنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أَفَسَوَّيْتَ إِنْ  
مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ  
مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أَي: هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي  
أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ، أَنْزَلْنَاهُ [بِلِسَانِكَ] الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ الْكَامِلِ  
الشَّامِلِ، لِيَكُونَ بَيِّنًا وَاضِحًا ظَاهِرًا، قَاطِعًا لِلْعُدْرِ، مُقِيمًا  
لِلْحُجَّةِ دَلِيلًا إِلَى الْمَحْجَةِ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَبِي رُبُّهُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَوْلَى يَكُنْ لَهُمْ ءَالَهُ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُنَا بَيِّنَ  
إِسْرَائِيلَ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا  
كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾

[ذِكْرُ الْقُرْآنِ مُوجُودٌ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِنَّ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ وَالتَّنْوِيهِ بِهِ لَمَوْجُودٌ

(١) الطبري: ٣٩٤/١٩. يزيد الباهلي لا يُذَرَّى مِنْ هُو. (٢)  
الطبري: ٣٩٦/١٩



ذَكَرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

[الْمُكَذِّبُونَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ]

يَقُولُ تَعَالَى: كَذَلِكَ سَلَكْنَا التَّكْذِيبَ وَالْكَفَرَ وَالْجُحُودَ وَالْعِنَادَ، أَيُّ: أَدْخَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. أَيُّ: بِالْحَقِّ ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَيُّ: حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أَيُّ: عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢١٠﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿أَيُّ: يَتَمَنُونَ حِينَ يُشَاهِدُونَ الْعَذَابَ أَنْ لَوْ أَنُظِّرُوا قَلِيلًا لَنَعْمَلُوا - فِي رُغْمِهِمْ - بِطَاعَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فَكُلَّ ظَالِمٍ وَفَاجِرٍ إِذَا شَاهَدَ عِقُوبَتَهُ نَدِمَ نَدَمًا شَدِيدًا، هَذَا فِرْعَوْنُ لَمَّا دَعَا عَلَيْهِ الْكَلِيمُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩] فَأَثَرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي فِرْعَوْنَ، فَمَا آمَنَ حَتَّى رَأَى الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّثُوا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَعَدَلْنَا بِمُنْظَرِئِهِمْ﴾ إِنَّكَارَ عَلَيْهِمْ وَتَهْلِيدَ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ تَكْذِيبًا وَاسْتِنْعَادًا: ﴿أَفَنُتْنِي بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَنَعْلَمُكَ بِالْعَذَابِ﴾ الْآيَاتِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَنُتْنِي بِمَنْعَتِهِمْ سِتِينَ﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ﴾ أَيُّ: لَوْ أَخَّرْنَاهُمْ وَأَنْظَرْنَاهُمْ وَأَمَلْنَا لَهُمْ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ وَحِينًا مِنَ الزَّمَانِ وَإِنْ طَالَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ أَيُّ شَيْءٍ يُجْلِي عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ؟ ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَى لَوْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِيشَةً أَوْ ضَلَالَةً﴾ [النازعات: ٤٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْسِيٍّ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ﴾.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُعَمَّسُ فِي النَّارِ عَمْسَةً ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا

سُورَةُ الشَّعَرِ

٣٧٦

سُورَةُ الشَّعَرِ

مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ وَذَكَرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرْبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَى مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ نَزَّلَ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُنْفِقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

## سُورَةُ النَّازِعَاتِ

كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيُصْبَغُ فِي الْحَجَّةِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ أَيُّ: مَا كَانَ شَيْئًا كَانَ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَذَلِهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِغْذَارِ إِلَيْهِمْ، وَالْإِنْذَارَ لَهُمْ، وَبِعْنَةِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، وَبِقَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ﴿٢٠٨﴾ وَذَكَرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمْنَاهَا رَسُولًا يُخَالِطُهُمْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

[نَزَلَ بِالْقُرْآنِ جَبْرِيلُ لَا الشَّيْطَانُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ: أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللَّهِ ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: أَحَدُهَا أَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ، أَيُّ: لَيْسَ هُوَ مِنْ بُعِيْهِمْ وَلَا مِنْ طَلَبَتِهِمْ، لِأَنَّ مِنْ سَجَايَاهُمْ الْفَسَادَ وَإِضْلَالَ الْعِبَادِ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُورُّ وَهْدَى وَبُرْهَانٌ عَظِيمٌ، فَبَيَّنَهُ وَبَيَّنَ الشَّيَاطِينُ مُنَافَاةَ عَظِيمَةٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أَيُّ: وَلَوْ اتَّبَعَى لَهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خُسْفًا مُّصَدِّعًا مِنْ حَشَايَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْ اتَّبَعَى لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ وَتَأْيِيدَهُ، لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ يَمْعَزِلُونَ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَالَ نُزُولِهِ، لِأَنَّ السَّمَاءَ مِلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا، فِي مَدَّةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِمَاعِ حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنْهُ لِكَلَّا يَشَبَّهَ الْأَمْرُ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَحِفْظِهِ لِشَرْعِهِ، وَتَأْيِيدِهِ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجَنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلْسَمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ أَكَلَنَ يَحِدُّ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَكَتُوبٌ مِنَ الْمَعْدِيَّينِ﴾ (١١) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٢﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٥﴾ الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لِّمَنْ يَشَاءُ وَيُنْزِلُ فِي السُّجُودِ ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٧﴾

[الْأَمْرُ بِإِنذَارِ الْأَقْرَبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ عَذَّبَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ، أَيُّ: الْأَذْنَبِينَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْلُصُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا إِيمَانُهُ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَأَمْرُهُ أَنْ يُلَيِّنَ جَانِبَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ عَصَاهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَانَتْ أَمْرًا كَانَ فَلْيَبْرَأْ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي

بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وَهَذِهِ النَّدَارَةُ الْخَاصَّةُ لَا تَنَافِي أَلْعَامَةُ بَلْ هِيَ قَوْلٌ مِنْ أَجْزَائِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن يُشِيرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [طه: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، [الأنعام: ١٩] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلَنَّا مَوْعِدَهُ﴾ [هود: ١٧]. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ» (١). وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَلَنَذْكُرُ بَعْضًا مِنْهَا:

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ الصَّفَا، فَصَعِدَ عَلَيْهِ ثُمَّ نَادَى: «يَا صَبَاحَاهُ» فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ بَيْنَ رَجُلٍ يَجِيءُ إِلَيْهِ وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا يَسْفَحُ هَذَا الْجَبَلَ تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، صَدَقْتُمُونِي؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَمَا دَعَوْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟! وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] (٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ (٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ ابْنَةُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ» (٤) انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ قَبِيصَةَ بِنِ مَخَارِقٍ وَزُهَيْرِ بِنِ عَمْرِو، قَالَا: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ

(١) مسلم: ١٣٤/١ (٢) أحمد: ٣٠٧/١ (٣) فتح الباري: ٦٠٩/٨ ومسلم: ١٩٣/١ وتحفة الأحوذى: ٢٩٦/٩ والنسائي في الكبرى: ٥٢٦/٦ (٤) أحمد: ١٨٧/٦ (٥) مسلم: ١/١٩٢

لَهُمْ رَغَبَةٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُونَ عَلَى مَنْ يُشَاكِلُهُمْ وَيُشَابِهُهُمْ مِنَ الْكُفَّانِ الْكَذِبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ﴾ أَي: أَخْبَرْتُكُمْ ﴿عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ أَي: كَذُوبٍ فِي قَوْلِهِ وَهُوَ الْأَفَّاكُ ﴿أَثِيمٍ﴾ وَهُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ. فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْكُفَّانِ، وَمَا جَرَىٰ مَجْرَاهُمْ مِنَ الْكَذِبَةِ الْفَسَقَةِ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينُ أَيْضًا كَذِبَةٌ فَسَقَةٌ ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أَي: يَسْتَرْفِقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ، ثُمَّ يُلْقُونَهَا إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ، فَيَحْدِثُونَ بِهَا فَيُضَدِّقُهَا النَّاسُ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ فِي تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ، كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ. كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلَ نَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْكُفَّانِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ لَيُسَوِّبُنِي» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ، يَخْطِفُهَا الْجَنِيُّ فَيَقْرِفُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْفَةِ الدَّجَاجِ، فَيَخْطِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُا سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا [لِلَّذِي قَالَ]: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْفِقُوا السَّمْعِ، وَمُسْتَرْفِقُوا السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ شُعْبَانٌ بِيَدَيْهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ، فَيَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؟ كَذَا وَكَذَا؟ فَيُضَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ» تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَضِمَةً مِنْ جَبَلٍ [فَعَلًا] أَعْلَاهَا [حَجَرًا]، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ، وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَرَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ فَذَهَبَ يَرْبُأُ أَهْلَهُ [يُخْشَى] أَنْ يَسْفِكُوهُ، فَجَعَلَ يُنَادِي وَيَهْتِفُ: يَا صَبَاحَا»<sup>(٣)</sup> وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، فَإِنَّهُ مُؤَيَّدُكَ وَحَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ، وَمُظْفِرُكَ وَمُعْلِي كَلِمَتِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أَي: هُوَ مُعْتَنٍ بِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يَعْنِي إِلَى الصَّلَاةِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: يَرَى قِيَامَهُ وَرُكُوعَهُ وَسُجُودَهُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إِذَا صَلَّيْتَ وَحَدَّكَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أَي: مِنْ فَرَاشِكَ أَوْ مَجْلِسِكَ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ﴾ قَائِمًا وَجَالِسًا وَعَلَىٰ خَالَاتِكَ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَقَبَّلْكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ وَتَقَبَّلْكَ فِي السَّجْدَيْنِ قَالَ: فِي الصَّلَاةِ - يَرَاكَ وَحَدَّكَ وَيَرَاكَ فِي الْجُمُعِ<sup>(٩)</sup> - وَهَذَا قَوْلُ عِكْرَمَةَ وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ<sup>(١٠)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَي: السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُنْ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾... الْآيَةُ [يونس: ٦١].

﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْفِلُونَ﴾

[الرَّدُّ عَلَىٰ أَفْتِرَاءِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُحَاطًا لِمَنْ زَعَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ لَيْسَ بِحَقٍّ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ افْتَعَلَهُ مِنْ تَلَفَاءِ نَفْسِهِ، أَوْ أَنَّهُ أَتَاهُ بِهِ رَيْبٌ مِنَ الْجَانِّ، فَتَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَنَابَ رَسُولِهِ عَنْ قَوْلِهِمْ وَأَفْتِرَائِهِمْ، وَبَنَىٰ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ تَنْزِيلُهُ وَوَحْيُهُ، نَزَلَ بِهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ أَمِينٌ عَظِيمٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قِبَلِ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَيْسَ

(١) أحمد: ٦٠/٥ (٢) مسلم: ١٩٣/١ والنسائي في الكبرى:

٤٢٣/٦ القرطبي: ١٤٤/١٣ (٤) الطبري: ٤١٢/١٩

(٥) الدر المنثور: ٣٣٠/٦ (٦) عبد الرزاق: ٧٧/٣ (٧) الدر

المنثور: ٣٣١/٦ (٨) الطبري: ٤١٣/١٩ (٩) فتح الباري:

٥٤٥/١٣ (١٠) فتح الباري: ٣٩٨/٨

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قَالَ: «أَنْتُمْ» ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قَالَ: «أَنْتُمْ» ﴿وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾ قَالَ: «أَنْتُمْ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ<sup>(٩)</sup>. وَلَكِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ شُعَرَاءِ الْأَنْصَارِ؟ [فِي] ذَلِكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يَتَقَدَّمَ إِلَّا مُرْسَلَاتٌ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلَكِنَّ هَذَا الْاِسْتِثْنَاءَ يَدْخُلُ فِيهِ شُعَرَاءُ الْأَنْصَارِ وَغَيْرُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ فِيهِ مَنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا مِنْ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ بِدَمِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ، ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ وَرَجَعَ وَأَقْلَعَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا فِي مُقَابَلَةٍ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ. فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، وَامْتَدَحَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ فِي مُقَابَلَةٍ مَا كَانَ يَذُمُّهُ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ جِئْتُ أَسْلَمَ:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي

رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ

إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَدُوِّ

جِي وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

وَكَذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، كَانَ

مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهِ وَأَكْثَرُهُمْ لَهُ

هَجْوًا، فَلَمَّا أَسْلَمَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يَمْدَحُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا كَانَ يَهْجُوهُ،

وَيَتَوَلَّاهُ بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ عَادَاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾ قَالَ ابْنُ

عَبَّاسٍ: يَزِيدُونَ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ بِهِ

الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١٠)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١١)</sup>.

وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ

لِحَسَّانَ: «اهْجُهُمْ» - أَوْ قَالَ - «هَاجِهِمْ وَجَبْرِيلُ

مَعَكَ»<sup>(١٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ

قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشُّعَرَاءِ مَا

أَنْزَلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيِّفِهِ

الْمَلَأَتْكَ تَحَدَّثُ فِي الْعَنَانِ - وَالْعَنَانُ: الْعَمَامُ - بِالْأَمْرِ [يَكُونُ] فِي الْأَرْضِ، فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ، فَتَقْرُأُهَا فِي أَذُنِ الْكَاهِنِ، كَمَا تَقْرَأُ الْقَارُورَةُ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةً كِذْبَةً»<sup>(١٣)</sup>.

[أَلَزِدُّ عَلَى قَوْلِهِمْ فِي الشَّيِّءِ ﷻ إِنَّهُ شَاعِرٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوَنُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ

أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْكُفَّارَ يَتَّبِعُهُمْ ضُلَالُ

الْإِنْسِ وَالْجِنِّ<sup>(١٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ

وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرُهُمَا<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ:

كَانَ الشُّعَرَاءُ يَتَهَاجِيَانِ فَيَتَنَصَّرُ لِهَذَا فِقَامَ مِنَ النَّاسِ،

وَلِهَذَا فِقَامَ مِنَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ

الْفَاوَنُ﴾<sup>(١٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قَالَ

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي كُلِّ لَعْوٍ

يَخْوضُونَ<sup>(١٧)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي كُلِّ فَنٍّ

مِنَ الْكَلَامِ<sup>(١٨)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ<sup>(١٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:

كَانَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ أَحَدُهُمَا مِنَ الْأَنْصَارِ،

وَالْآخَرُ مِنْ قَوْمِ آخَرِينَ، وَإِنَّهُمَا تَهَاوَيَا، فَكَانَ مَعَ كُلِّ

وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَوَاةٌ مِنْ قَوْمِيهِ، وَهُمُ الشُّفَهَاءُ، فَقَالَ اللَّهُ

تَعَالَى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوَنُ﴾<sup>(٢٠)</sup> أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ

وَادٍ يَهِيمُونَ<sup>(٢١)</sup> وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ<sup>(٢٢)</sup>.

وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ هَذَا

الْقُرْآنَ لَيْسَ بِكَاهِنٍ وَلَا بِشَاعِرٍ، لِأَنَّ حَالَهُ مُتَابِعٌ لِحَالِهِمْ

مِنْ وَجْهِ ظَاهِرَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا

يَنْبَغِي لَهُ؛ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] وَقَالَ

تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾<sup>(٢٣)</sup> وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا

تُؤْمِنُونَ<sup>(٢٤)</sup> وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ<sup>(٢٥)</sup> نَزَلَ مِنْ رَبِّ

الْعَالَمِينَ [الحاقة: ٤٠-٤٣]

### [اِسْتِثْنَاءُ شُعَرَاءِ الْإِسْلَامِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ

إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُسَيْطٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ

سَالِمِ الْبَرَادِ مَوْلَى تَوَيْمِ الدَّارِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ

يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوَنُ﴾ جَاءَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ

وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ يَتَكَبَّرُونَ، قَالُوا:

قَدْ عَلِمَ اللَّهُ جِئْتُ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ أَنَا شُعَرَاءُ، فَتَلَا النَّبِيُّ:

(١) البخاري: ٣٢٨٨ (٢) الطبري: ٤١٦/١٩ (٣) الطبري:

٤١٥/١٩ (٤) الدر المنثور: ٣٢٣/٦ (٥) الطبري:

٤١٧/١٩ (٦) الدر المنثور: ٣٣٤/٦ (٧) الطبري: ٤٢٠/١٩

(٨) الطبري: ٤١٦/١٩ (٩) الطبري: ٤٢٠/١٩ (١٠)

الطبري: ٤٢٠/١٩ (١١) الطبري: ٤٢٠/١٩ (١٢) فتح

الباري: ٣٥١/٦

سُورَةُ النَّمْلِ

٣٧٧

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى  
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ  
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ  
أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ  
وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْفُرْقَانَ مِنْ  
لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِغَاتٍ  
مِنْهَا يُخْبِرُ أَوْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَهَابٍ مُسَيَّرٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا  
جَاءَهَا نُورٌ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْسُحُ بِهِ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاكَ  
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِكًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُحُ بِالْأَخْفِ  
إِنِّي لَا يُخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ  
سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ  
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ  
﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: في الدنيا والآخرة  
﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ أي: ليس يخسر أنفسهم  
وأموالهم سواهم من أهل المحسر. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ  
لَتَلْقَى الْفُرْقَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: ﴿وَأَنَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ  
[قَالَ قَتَادَةُ:] [لَتَلْقَى] أي: لتأخذ ﴿الْفُرْقَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ  
عَلِيمٍ﴾ أي: مِنْ عِنْدِ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، أي: حَكِيمٍ فِي أَمْرِهِ  
وَنَهْيِهِ، عَلِيمٍ بِالْأُمُورِ: جَلِيلُهَا وَخَفِيَّهَا، فَخَبَرَهُ هُوَ الصَّدُوقُ  
الْمُحْضُ، وَحُكْمُهُ هُوَ الْعَدْلُ الثَّامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَمَتَّ كَلِمَتَكَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِغَاتٍ مِنْهَا يُخْبِرُ أَوْ أُنَبِّئُكُمْ  
بِشَهَابٍ مُسَيَّرٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي  
النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْسُحُ بِهِ أَنَا اللَّهُ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِكًا  
وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُحُ بِالْأَخْفِ إِنِّي لَا يُخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ

وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ  
النَّبْلِ» (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾،  
كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ [آيَةُ  
[غافر: ٥٢]]، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّا كُنْمْ  
وَالظُّلْمُ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢).

قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دَعَامَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ يَعْنِي مِنَ الشُّعْرَاءِ وَغَيْرِهِمْ، أَخِرُ تَفْسِيرٍ  
سُورَةِ الشُّعْرَاءِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّملِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى  
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ  
يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ  
يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ  
الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْفُرْقَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾  
[الْقُرْآنُ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ نَذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ  
فِي أَوَائِلِ السُّورِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ﴾ أي:  
هَذِهِ آيَاتُ ﴿الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: بَيِّنٌ وَاضِحٌ ﴿هُدًى  
وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إِنَّمَا تَحْصُلُ الْهُدَايَةُ وَالْبِشْرَةُ مِنَ  
الْقُرْآنِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، وَأَقَامَ  
الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَأَقْبَنَ بِالْإِيمَانِ  
الْآخِرَةَ، وَابْتَعَثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ:  
خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ  
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَبُشْرَى وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذِنِهِمْ  
وَقَرٌ... آيَةُ [فصلت: ٤٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ

الْمُتَّقِينَ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مریم: ٩٧]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى  
هَهُنَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يُكَذِّبُونَ بِهَا  
وَيَسْتَعِيدُونَ وَقُوعَهَا ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي:  
حَسَّنَّا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، وَمَدَدْنَا لَهُمْ فِي غِيهِمْ فَهُمْ يَتَّبِعُونَ فِي  
ضَلَالِهِمْ، وَكَانَ هَذَا جَزَاءً عَلَى مَا كَذَّبُوا مِنَ الدَّارِ  
الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ  
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾... آيَةُ [الأنعام: ١١٠].

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٣٧٨

سُورَةُ النَّمْلِ

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا  
وَقَالَ أَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئُهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ  
وَأُوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ  
لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُرْعَوْنَ ﴿١٧﴾  
حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَعَّا عَلَىٰ وَادٍ التَّمَلُّ قَالَتِ نَمْلَةٌ يَبْنَئُهَا التَّمَلُّ ادْخُلُوا  
مَسْكَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ  
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ  
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا  
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾  
وَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ  
الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ لَا عَذِيبَةَ، عَذَابٌ شَدِيدٌ أَوَّلًا أَذْبَحَتْهُ  
أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَنٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ  
أَحْطَطُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّاقِينَ ﴿٢٢﴾

الْمُخْتَارُ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَمَّا أَلْقَىٰ مُوسَىٰ تِلْكَ  
الْعَصَا مِنْ يَدِهِ انْقَلَبَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ هَائِلَةٌ فِي غَايَةِ  
الْكِبَرِ وَسُرْعَةِ الْحَرَكَةِ - مَعَ ذَلِكَ -، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَيَّرَ كَأَنَّهُ جَانٌّ وَالْجَانُّ ضَرْبٌ مِنَ الْحَيَّاتِ،  
أَسْرَعُهُ حَرَكَةً، وَأَكْثَرُهُ اضْطِرَابًا. فَلَمَّا غَايَنَ مُوسَىٰ ذَلِكَ:  
﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أَيُّ: لَمْ يَلْتَفِتْ مِنْ شِدَّةِ قَرْيِهِ ﴿يَمُوسَىٰ  
لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدُنِيَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أَيُّ: لَا تَخَفْ مِمَّا تَرَى،  
فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْطَفِيكَ رَسُولًا وَأَجْعَلَكَ نَبِيًّا وَجِيهًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي  
غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ وَفِيهِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِلنَّبِيِّ،  
وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَىٰ عَمَلٍ سَيِّئٍ ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهُ وَرَجَعَ  
وَتَابَ وَأَتَابَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّي  
لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾... آيَاتُهُ

(١) الطبري: ٤٢٨/١٩ (٢) الطبري: ٤٢٨/١٩ (٣) الطبري:

٤٢٩/١٩ والمحرم الوجيز: ٢٥٠/٤ والدر المنثور: ٣٤١/٦

ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي  
جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَصْبَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ  
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ  
مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ  
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾

[قِصَّةُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَصِيرُ فِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُذَكِّرًا لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ  
مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَيْفَ اضْطَفَاهُ اللَّهُ وَكَلَّمَهُ وَنَاجَاهُ  
وَأَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاهِرَةِ،  
وَابْتَعَثَهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ، فَجَحَدُوا بِهِ وَكَفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا  
عَنِ اتِّبَاعِهِ وَالْإِقْبَادِ لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِيهِ  
أَيُّ: اذْكُرْ حِينَ سَارَ مُوسَىٰ بِأَهْلِهِ فَاضْلُ الطَّرِيقِ، وَذَلِكَ  
فِي لَيْلٍ وَظُلَامٍ، فَاتَسَّ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا، أَيُّ: رَأَى  
نَارًا تَأْجُجُ وَتَضْطَرُّمُ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: ﴿إِنِّي مَأْسَتْ نَارًا سَتَأْتِيكُمْ  
مِنْهَا بَخِيرٌ﴾ أَيُّ: عَنِ الطَّرِيقِ ﴿أَوْ مَا يَكُمُ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ  
تَصْطَلُونَ﴾ أَيُّ: تَسْتَدْفِئُونَ بِهِ، وَكَانَ كَمَا قَالَ، فَإِنَّهُ رَجَعَ  
مِنْهَا بِخَبِيرٍ عَظِيمٍ، وَاقْتَسَمَ مِنْهَا نُورًا عَظِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنَ النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَيُّ:  
فَلَمَّا أَتَاهَا وَرَأَى مَظْطَرًا هَائِلًا عَظِيمًا حَيْثُ انْتَهَى إِلَيْهَا  
وَالنَّارُ تَضْطَرُّمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ لَا تَزْدَادُ النَّارُ إِلَّا تَوَقُّدًا،  
وَلَا تَزْدَادُ الشَّجَرَةُ إِلَّا خَضْرًاءَ وَنَضْرَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا  
نُورُهَا مُتَّصِلٌ بِعَنَانِ السَّمَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: لَمْ  
تَكُنْ نَارًا، وَإِنَّمَا كَانَتْ نُورًا يَتَوَهَّجُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ  
عَبَّاسٍ: نُورٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(١)</sup>. فَوَقَّفَ مُوسَىٰ مُتَعَجِّبًا مِمَّا  
رَأَى فَ﴿نُورِي أَنْ يُورِكَ مِنَ النَّارِ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:  
تَقْدَسُ<sup>(٢)</sup>. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ. قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ، وَعِكْرَمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ<sup>(٣)</sup>.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الَّذِي يَفْعَلُ مَا  
يَشَاءُ، وَلَا يُشَبَّهُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ  
مِنْ مَصْنُوعَاتِهِ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمُبَابِئُ لِجَمِيعِ  
الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا يَكْتَنِفُهُ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، بَلْ هُوَ  
الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الْمُنَزَّهُ عَنْ مُمَاثِلَةِ الْمُخْدَنَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسُوءُ يَتَنَصَّحُ بِهِ إِنَّا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَعْلَمُهُ  
أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبُهُ وَيُنَاصِحُهُ هُوَ رَبُّهُ اللَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي عَزَّ كُلَّ  
شَيْءٍ وَفَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ  
يُلْقِيَ عَصَاهُ مِنْ يَدِهِ لِيُظْهِرَ لَهُ ذِكْرًا وَاضِحًا عَلَىٰ أَنَّهُ الْفَاعِلُ

إِذْ كُرِّ دَاوُدَ وَسَلِيمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَتَرْتَبِيَهُ جُنُودَهُ  
وَمُرُورَهُ عَلَى وَادِي النَّمْلِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدَيْهِ وَنَبِيَّيْهِ: دَاوُدَ وَابْنِهِ  
سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مِنَ النِّعَمِ الْجَزِيلَةِ وَالْمَوَاهِبِ  
الْجَلِيلَةِ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، وَمَا جَمَعَ لَهُمَا بَيْنَ سَعَادَةِ  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمُلْكِ وَالتَّمْكِينِ الثَّامِّ فِي الدُّنْيَا، وَالنُّبُوَّةِ  
وَالرَّسَالَةِ فِي الدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ  
وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ  
الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أَيُّ: فِي الْمُلْكِ  
وَالنُّبُوَّةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ وَرَاثَةَ الْمَالِ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ  
يُخْصَرْ سُلَيْمَانُ وَحْدَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَوْلَادِ دَاوُدَ، فَإِنَّهُ قَدْ  
كَانَ لِدَاوُدَ بَنَاتٌ أُمَّرَأَةٌ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ وَرَاثَةَ الْمُلْكِ  
وَالنُّبُوَّةِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا تُورَثُ أُمُورُهُمْ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ،  
مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ: «يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عَلَمًا مَطُوقَ  
الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» أَيُّ: أَخْبَرَ سُلَيْمَانَ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ  
فِيمَا وَهَبَهُ لَهُ مِنَ الْمُلْكِ الثَّامِّ وَالتَّمْكِينِ الْعَظِيمِ، حَتَّى إِنَّهُ  
سَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالطَّيْرَ، وَكَانَ يَعْرِفُ لَعَنَ الطَّيْرِ  
وَالْحَيَوَانَ أَيْضًا، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ - فِيمَا  
عِلْمُنَاهُ مِمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ - فَاللَّهُ سُبحَانَهُ كَانَ قَدْ  
أَفْهَمَ سُلَيْمَانَ مَا يَتَخَاطَبُ بِهِ الطُّيُورُ فِي الْهَوَاءِ، وَمَا تَنْطِقُ  
بِهِ الْحَيَوَانَاتُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَّمْنَا  
مَطُوقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» أَيُّ: مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ  
﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أَيُّ: الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ لِلَّهِ عَلَيْنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ  
وَالطَّيْرِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ، يَعْنِي رَكِبَ فِيهِمْ فِي أَبْهَةِ وَعَظَمَةِ كِبَرِهِ فِي  
الْإِنْسِ: وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَلُونَهُ، وَالْجِنُّ: وَهُمْ بَعْدَهُمْ فِي  
الْمَنْزِلَةِ، وَالطَّيْرُ وَمَنْزِلَتُهَا فَوْقَ رَأْسِهِ، فَإِنْ كَانَ حَرًّا أَظْلَمَتْهُ  
مِنْهُ بِاجْتِنَحِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿فَهُمْ يُورِثُونَ﴾ أَيُّ: يَكْفُ أَوْلَهُمْ  
عَلَى آخِرِهِمْ لِئَلَّا يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ عَنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هِيَ مَرَّتَبَتُهُ لَهُ.  
قَالَ مُجَاهِدٌ: جُعِلَ عَلَى كُلِّ صَنْفٍ وَرَعَةٌ يَرُدُّونَ أَوْلَاهَا  
عَلَى أَخْرَاهَا لِئَلَّا يَتَقَدَّمُوا فِي الْمَسِيرِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ

[النساء: ١١٠]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَبِّكَ تَخْرُجُ يَبْقَظَةً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ هَذِهِ آيَةٌ  
أُخْرَى وَدَلِيلٌ بَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِدْقِ  
مَنْ جَعَلَ لَهُ مُعْجَزَةً، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ  
يَدَهُ فِي جَبِّ دِرْعِهِ، فَإِذَا أَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا خَرَجَتْ بَيْضَاءَ  
سَاطِطَةً كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ قَمَرٍ لَهَا لَمَعَانٌ تَلَأُلُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي يَتِجَ يَدَيْكَ﴾ أَيُّ: هَاتَانِ يَتَانِ مِنْ تِسْعِ  
آيَاتِ أُوَيْدِكَ بِهِنَّ وَأَجْعَلُهُنَّ بُرْهَانًا لَكَ ﴿إِلَّا رِغْوَنَ وَفَوَومَهُ إِنَّمَا  
كَأَنَّهُ قَوْمًا فَيَقِينُ﴾.

وهذه هي الآياتُ الشَّعْبُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ  
آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ هُنَاكَ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ مَائِنَا مُبْصَرَةً﴾ أَيُّ: بَيِّنَةً وَاضِحَةً  
ظَاهِرَةً ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَأَرَادُوا مُعَارَضَتَهُ  
بِسِحْرِهِمْ، فَغَلَبُوا وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ ﴿وَحَمَدُوا بِهَا﴾ فِي  
ظَاهِرِ أَمْرِهِمْ ﴿وَأَسْتَفَقْنَا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَيُّ: عَلِمُوا فِي أَنْفُسِهِمْ  
أَنَّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَكِنْ جَحَدُوا وَعَانَدُوا وَكَابَرُوا وَهَـ  
﴿ظَلَمُوا وَعُلُوا﴾ أَيُّ: ظَلَمُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ سَجِيَّةً مَلْعُونَةً، وَعَلُوا  
أَيُّ: اسْتِكْبَارًا عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَانْظُرْ  
كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أَيُّ: انْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ فِي إِهْلَاكِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وَإِعْرَاقِهِمْ عَنْ  
آخِرِهِمْ فِي صَبِيحَةِ وَاحِدَةٍ. وَفَحْوَى الْخُطَابِ يَقُولُ:  
اخْذَرُوا أَيُّهَا الْمُكْذِبُونَ لِمُحَمَّدٍ، الْجَاحِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ  
رَبِّهِ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْأُخْرَى، فَإِنَّ  
مُحَمَّدًا ﷺ أَشْرَفَ وَأَعْظَمَ مِنْ مُوسَى، وَبُرْهَانُهُ أَدْلُ وَأَقْوَى  
مِنْ بُرْهَانِ مُوسَى بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الدَّلَائِلِ الْمُقْتَرِنَةِ بِوُجُودِهِ  
فِي نَفْسِهِ وَشَمَائِلِهِ، وَمَا سَبَقَهُ مِنَ الْبَشَارَاتِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ،  
وَأَخِذِ الْمَوَائِقَ لَهُ، عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى  
كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ  
عِلْمًا مَطُوقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ  
الْمُبِينُ (٦) وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ  
يُورِثُونَ (٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ  
أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَتَعَوَّنُونَ (٨)  
فَنَبَسَ صَاحِبُهَا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي  
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَادِيكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي

اليوم<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَلَّىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أي: حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجِيُوشِ وَالْجُنُودِ عَلَى وَادِ النَّمْلِ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْكُلُهَا النَّعْلُ أَذْخَلُوا سَبْكَكُمْ لَا يَحْطِمُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فَفَهِمَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهَا ﴿فَنَسَرَ صَاحِبًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أَي: أَلْهَمَنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ مِنْ تَعْلِيمِي مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ. وَعَلَىٰ وَالِدَتِي بِالسَّلَامِ لَكَ، وَالْإِيمَانِ بِكَ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أَي: عَمَلًا تُجِبُّهُ وَتَرْضَاهُ ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أَي: إِذَا تَوَفَّيْتَنِي فَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ، وَالرَّوِيقِ الْأَعْلَىٰ مِنْ أَوْلِيَائِكَ.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاسِيينَ﴾ ﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ

سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾

[غِيَابُ الْهَدُودِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ: كَانَ الْهَدُودُ مَهْدِيَسًا يَدُلُّ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَاءِ إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ فَلَاةٌ طَلَبَهُ، فَظَرَّ لَهُ الْمَاءُ فِي تُحُومِ الْأَرْضِ، كَمَا يَرَى الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ الظَّاهِرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَيَعْرِفُ كَمْ مَسَاحَةِ بُعْدِهِ مِنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا دَلَّهُمْ عَلَيْهِ، أَمَرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْجَانَ فَحَقَرُوا لَهُ ذَلِكَ الْمَكَانَ حَتَّى يَسْتَنْبِطَ الْمَاءَ مِنْ قَرَارِهِ، فَتَزَلَّ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمًا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ لِيَرَى الْهَدُودَ فَلَمْ يَرَهُ ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاسِيينَ﴾.

حَدَّثَ يَوْمًا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ بِنَحْوِ هَذَا، وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ يُقَالُ لَهُ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ لَهُ: قِفْ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ غُلِبْتَ الْيَوْمَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: إِنَّكَ تُخْبِرُ عَنِ الْهَدُودِ أَنَّهُ يَرَى الْمَاءَ فِي تُحُومِ الْأَرْضِ، وَإِنَّ الصَّبِيَّ لَيَضَعُ لَهُ الْحَبَّةَ فِي الْفَخِّ وَيَخْتُو عَلَى الْفَخِّ تَرَابًا، فَيَجِيءُ الْهَدُودُ لِيَأْخُذَهَا فَيَقَعُ فِي الْفَخِّ فَيَصِيدُهُ الصَّبِيُّ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، لَوْلَا أَنْ يَذْهَبَ هَذَا فَيَقُولَ رَدَدْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ لَمَّا أَجَبْتُهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: وَيَحْكُ، إِنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْقَدَرُ عَمِيَ الْبَصَرُ وَذَهَبَ

سورة النمل

٣٧٩

سورة النمل

إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٥﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ أَذْهَبَ بِكَتَبِي هَذَا فَأَلْفِقْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَتْ يَأْيَا الْمَلُوءِ إِنِّي أَلْقِي إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴿٢٨﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٩﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَتْ يَأْيَا الْمَلُوءِ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرَ حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣١﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَأَنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٤﴾

الْحَذَرُ، فَقَالَ لَهُ نَافِعُ: وَاللَّهِ لَا أَجَادِلُكَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَبَدًا<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ ابْنِ مَهْزَلٍ بْنِ عَمْرِو عَنْ سَعِيدِ بْنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني تَنْفَ رَيْشِهِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ: تَنْفَ رَيْشِهِ وَتَشْمِيسُهُ<sup>(٤)</sup>.

وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّهُ تَنْفَ رَيْشِهِ وَتَرْكُهُ مُلْقَى يَأْكُلُهُ الدَّرُّ وَالنَّمْلُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ يَعْني قَتَلَهُ

﴿أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ بِمَعْنَى بَيِّنٍ وَاضِحٍ. وَقَالَ سُفْيَانُ ابْنُ عُيَيْنَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ: لَمَّا قَدِمَ الْهَدُودُ قَالَتْ لَهُ الطَّيْرُ: مَا خَلَفَكَ؟ فَقَدْ نَذَرَ سُلَيْمَانُ دَمَكَ، فَقَالَ: هَلِ اسْتَشَيْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: ﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ قَالَ: نَجَوْتُ إِذَا.

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ

(١) الطبري: ١٩/٥٠٠، ٥٠١ (٢) القرطبي: ١٣/١٧٧، ١٧٨

(٣) الطبري: ١٩/٤٤٣ (٤) الطبري: ١٩/٤٤٣



جَبِيرَ وَقَتَادَةَ وَغَيْرَ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تَعْلُونَ﴾ أَي: يَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ الْعِبَادُ وَمَا يُعْلِنُونَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ يَسْكُرُ مِنْ أَسَرِّ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآيَاتِنَا وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أَي: هُوَ الْمَدْعُو: اللَّهُ، وَهُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَلَمَّا كَانَ الْهُدُودُ دَاعِيًا إِلَى الْحَيَرِ، وَعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَالسُّجُودَ لَهُ نَهَى عَنْ قَلْبِهِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: التَّمَلَّةُ وَالتَّلْحَةُ وَالْهُدُودُ وَالصُّرْدُ. وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾<sup>(٥)</sup> أَذْهَبَ يَكْتَبِي هَذَا قَائِلُهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ<sup>(٦)</sup> قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْآمِلُوا إِلَيْكَ إِلَهُكَ كَيْتُ كَرِيمٌ<sup>(٧)</sup> إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ<sup>(٨)</sup> أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ<sup>(٩)</sup> [كِتَابُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى بَلْقَيْسَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قِيلِ سُلَيْمَانَ لِلْهُدُودِ حِينَ أَخْبَرَهُ عَنْ أَهْلِ سَبَأٍ وَمَلَائِكِهِمْ: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَي: أَصَدَقْتَ فِي إِخْبَارِكَ هَذَا؟ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ؟ فِي مَقَالَتِكَ لِتَتَخَلَّصَ مِنَ الْوَعِيدِ الَّذِي أَوْعَدْتُكَ؟ أَذْهَبَ يَكْتَبِي هَذَا قَائِلُهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ<sup>(٦)</sup> وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَتَبَ كِتَابًا إِلَى بَلْقَيْسَ وَقَوْمِهَا. وَأَعْطَاهُ ذَلِكَ الْهُدُودُ فَحَمَلَهُ. قِيلَ: فِي جَنَاحِهِ كَمَا هِيَ عَادَةُ الطَّيْرِ. وَقِيلَ: بِمَنْقَارِهِ. وَذَهَبَ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَجَاءَ إِلَى قَصْرِ بَلْقَيْسَ إِلَى الْخَلْوَةِ الَّتِي كَانَتْ تَخْلِي فِيهَا بَنُفْسَهَا، فَأَلْقَاهُ إِلَيْهَا مِنْ كُوَّةِ هُنَالِكَ بَيْنَ يَدَيْهَا، ثُمَّ تَوَلَّى نَاحِيَةَ أَدْبَا وَرِيَاسَةٍ، فَتَحَيَّرَتْ مِمَّا رَأَتْ، وَهَالَهَا ذَلِكَ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَى الْكِتَابِ فَأَخَذَتْهُ فَفَتَحَتْ خَتْمَهُ وَقَرَأَتْهُ، فَإِذَا فِيهِ: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾<sup>(١٠)</sup> أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ<sup>(١١)</sup> فَجَمَعَتْ عِنْدَ ذَلِكَ

سَبَأَ بَنِي يَفِينٍ<sup>(١٢)</sup> إِلَى وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَكُّهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ<sup>(١٣)</sup> وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ<sup>(١٤)</sup> أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تَعْلُونَ<sup>(١٥)</sup> اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ<sup>(١٦)</sup>

[الْهُدُودُ بَيْنَ يَدَيِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَإِخْبَارُهُ عَنْ سَبَأٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَمَكَتْ﴾ الْهُدُودُ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أَي: غَابَ زَمَانًا يَسِيرًا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ: ﴿أَحْطَطُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أَي: أَطْلَعْتُ عَلَى مَا لَمْ تَطْلُعْ عَلَيْهِ أَنْتَ وَلَا جُنُودُكَ ﴿وَمِنْكَ مِنْ سَبَأٍ بَنِي يَفِينٍ﴾ أَي: بِخَبَرِ صَدِيقِ حَقٍّ يَفِينٍ، وَسَبَأٍ، هُمْ: جَمِيرٌ وَهُمْ مُلُوكُ الْبَحْنِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَكُّهُمْ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبُضَرِيُّ: وَهِيَ بَلْقَيْسُ بِنْتُ شَرَاذِيلَ مَلِكَةُ سَبَأٍ<sup>(١٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَي: مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ الْمُتَمَكِّنُ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يَعْنِي سَرِيرٌ - تَجْلِسُ عَلَيْهِ - عَظِيمٌ هَائِلٌ مُزَخَرَفٌ بِالذَّهَبِ وَأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ وَاللَّائِلِ. قَالَ عُلَمَاءُ التَّارِيخِ: وَكَانَ هَذَا السَّرِيرُ فِي قَصْرِ عَظِيمٍ مُشِيدٍ رَفِيعِ الْبِنَاءِ مُحْكَمٍ، وَكَانَ فِيهِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ طَاقَةً مِنْ مَشْرِقِهِ وَمِثْلُهَا مِنْ مَغْرِبِهِ، قَدْ وَضِعَ بِنَاؤُهُ عَلَى أَنْ تَدْخُلَ الشَّمْسُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ طَاقَةٍ، وَتَغْرُبَ مِنْ مِقَابِلَتِهَا فَيَسْجُدُونَ لَهَا صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَي: عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ مَعْنَاهُ ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(١٨)</sup> أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ أَي: لَا يَعْرِفُونَ سَبِيلَ الْحَقِّ الَّتِي هِيَ إِخْلَاصُ السُّجُودِ لِلَّهِ وَحْدَهُ دُونَ مَا خَلَقَ مِنَ الْكُؤَاكِبِ وَغَيْرِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْلَمُ كُلَّ خَبِيْثَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ<sup>(١٩)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ

(١) الدر المنثور: ٣٥١/٦ (٢) الدر المنثور: ٣٥٢/٦ (٣)

الطبري: ٤٤٥/١٩ وعبد الرزاق: ٨١/٣ والدر المنثور: ٣٥٢/٦

(٤) أحمد: ٣٣٢/١ وأبو داود: ٤١٨/٥ وابن ماجه: ١٠٧٤/٢

عن ابن عباس

سورة النمل

٣٨٠

سورة النمل

أَمْرًا هَا وَوُزَرَآهَا وَكُبرَاءَ دَوْلَتِهَا وَمَمْلَكَتِهَا، ثُمَّ قَالَتْ لَهُمْ: ﴿يَتَأْتِيَا الْمَلُوكُ إِلَيَّ أَتَى إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، تَعْنِي بِكَرَمِهِ مَا رَأَتْهُ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ: كَوْنُ طَائِرٍ أَتَى بِهِ قَائِلُهَا إِلَيْهَا، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَدْبًا، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ قَرَأَتْهُ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣٢) أَلَا تَتْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿فَعَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ لَا قِيلَ لَهُمْ بِهِ، وَهَذَا الْكِتَابُ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْوَجَازَةِ وَالْفَصَاحَةِ، فَإِنَّهُ حَصَلَ الْمَعْنَى بِأَيْسَرِ عِبَارَةٍ وَأَحْسَنِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتْلُوا عَلَيَّ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ: لَا تَجْبُرُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٣). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: لَا تَمْتَنِعُوا وَلَا تَتَكَبَّرُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٤).

﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَا الْمَلُوكُ أَتُونِي فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾ (٣٥) قَالُوا نَحْنُ أَوَّلُوا قُوَّةً وَأَوَّلُوا بَأْسَ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٦) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٧) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ يَمُورُ بِرَجْعِ الْمُرْسَلُونَ (٣٨) [مُشَاوَرَةٌ بَلْقِيسَ مَعَ مَلِكِهَا]

لَمَّا قَرَأَتْ عَلَيْهِمْ كِتَابَ سُلَيْمَانَ، اسْتَشَارَتْهُمْ فِي أَمْرِهَا وَمَا قَدْ نَزَلَ بِهَا، وَلِهَذَا قَالَتْ: ﴿يَتَأْتِيَا الْمَلُوكُ أَتُونِي فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾ أَيُّ: حَتَّى تَحْضُرُونَ وَتُشِيرُونَ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوَّلُوا قُوَّةً وَأَوَّلُوا بَأْسَ شَدِيدٍ﴾ أَيُّ: مَثُوا إِلَيْهَا بِعَدِيدِهِمْ وَعُدُوهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، ثُمَّ قَوَّضُوا إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرَ فَقَالُوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أَيُّ: نَحْنُ لَيْسَ لَنَا عَاقِفَةٌ وَلَا بِنَا بَأْسٌ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَقْصُدِيهِ وَتُحَارِبِيهِ، فَمَا لَنَا عَاقِفَةٌ عَنْهُ. وَبَعْدَ هَذَا فَالْأَمْرُ إِلَيْكَ مَرِي فِينَا رَأْيُكَ نَمْتَبِّلُهُ وَنُطِيعُهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَتْ بَلْقِيسُ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٧). ثُمَّ عَدَلْتُ إِلَى الْمُصَالِحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ وَالْمُسَالَمَةِ وَالْمُخَادَعَةِ وَالْمُصَانَعَةِ، فَقَالَتْ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ يَمُورُ بِرَجْعِ الْمُرْسَلُونَ﴾ أَيُّ: سَأَبْعَثُ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ تَلِيكَ بِمِثْلِهِ، وَأَنْظُرُ مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَعَلَّهُ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنَّا وَيَكْفُفَ عَنَّا، أَوْ يَضْرِبُ عَلَيْنَا خَرَجًا نَحْمِلُهُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ، وَنَلْتَزِمُ لَهُ بِذَلِكَ وَنَبْتَزُّكَ فَقَالَتْ وَنَحَارِبُكَ. قَالَ قَتَادَةُ: رَجَحَهَا اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهَا مَا كَانَ أَغْلَلَهَا فِي إِسْلَامِهَا وَشِرْكِهَا، عَلِمْتُ

أَنَّ الْهَدِيَّةَ تَقَعُ مَوْفِعًا مِنَ النَّاسِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: قَالَتْ لِقَوْمِهَا: إِنْ قَبِلَ الْهَدِيَّةَ فَهُوَ مَلِكٌ فَقَاتِلُوهُ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا فَهُوَ نَبِيٌّ فَاتَّبِعُوهُ (٤).

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَاءَ آتَنِى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (٣٩) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخَبِيرٍ لَا يَخُودُ لَا قِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا آذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٤٠) [الْهَدِيَّةُ وَجَوَابُ سُلَيْمَانَ]

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهَا بَعَثَتْ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرٍ وَلَا آلَى وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَا جَاءُوا بِهِ بِالْكَلِيَّةِ، وَلَا اعْتَنَى بِهِ، بَلْ أَعْرَضَ عَنْهُ. وَقَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ﴾ أَيُّ: أَتَصَابِعُونَنِي بِمَالٍ لِأَتُرْكِكُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ وَمُلْكِكُمْ؟! ﴿فَمَاءَ آتَنِى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا

(١) الدر المنثور: ٣٥٤/٦ (٢) الطبري: ٤٥٣/١٩ (٣) الطبري: ٤٥٥/١٩ (٤) الطبري: ٤٥٥/١٩

الْجَنِّ. قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَكَانَ كَأَنَّهُ جَبَلٌ<sup>(٢)</sup>. ﴿أَنَا عَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ<sup>(٣)</sup>.

وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: كَانَ يَجْلِسُ لِلنَّاسِ لِلْقَضَاءِ وَالْحُكُومَاتِ وَلِلطَّعَامِ، مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ ﴿وَلَيْقَ عَلَيْهِ لَقَوَى أَمِينٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ: قَوِيٌّ عَلَى حَمْلِهِ أَمِينٌ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْجَوْهَرِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ<sup>(٤)</sup>. وَمِنْ هَهُنَا يَظْهَرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ أَرَادَ بِإِخْضَارِ هَذَا السَّرِيرِ إِظْهَارَ عَظَمَةِ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمُلْكِ، وَمَا سَخَّرَ لَهُ مِنَ الْجُنُودِ، الَّذِي لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَلِيَتَّخِذَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَى بُبُوْتِهِ عِنْدَ بَلْقَيْسَ وَقَوْمِهَا، لِأَنَّ هَذَا خَارِقٌ عَظِيمٌ أَنْ يَأْتِيَ بِعَرْشِهَا كَمَا هُوَ مِنْ يَدِهَا قَبْلَ أَنْ يَفْدُمُوا عَلَيْهِ. هَذَا، وَقَدْ حَبَّبَتْهُ بِالْأَغْلَاقِ وَالْأَقْفَالِ وَالْحَفَظَةِ! فَلَمَّا قَالَ سُلَيْمَانُ: أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهُوَ أَصَفُّ كَاتِبِ سُلَيْمَانَ، وَكَذَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ أَنَّهُ أَصَفُّ بَنِي بَرَخِيَاءَ. وَكَانَ صِدِّيقًا يَعْلَمُ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ مُؤْمِنًا مِنَ الْإِنْسِ وَاسْمُهُ أَصَفُّ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَا عَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أَيُّ: اذْفَعُ بَصْرَكَ وَانْظُرْ مَدَّ بَصْرِكَ، مِمَّا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ لَا يَكِلُ بَصْرَكَ إِلَّا وَهُوَ حَاضِرٌ عِنْدَكَ، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ، وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى. قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَ: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ<sup>(٦)</sup>. فَلَمَّا عَايَنَ سُلَيْمَانَ وَمَلُؤُهُ ذَلِكَ، وَرَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أَيُّ: هَذَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ ﴿لِيَبْلُغُنِي﴾ أَيُّ: لِيُخَبِّرَنِي ﴿أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكُفِّرْ لِنَفْسِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [نصفت: ٤٦] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَتَهَدُّونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ وَعِبَادَتِهِمْ ﴿كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدْهُ أَحَدٌ، فَإِنَّ عَظَمَتَهُ لَيْسَتْ مُفْتَقِرَةً إِلَى أَحَدٍ، وَهَذَا كَمَا

عَاتَنَكُمْ أَيُّ: الَّذِي أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَالْجُنُودِ خَيْرٌ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿بَلْ أَنْتُمْ يَهْتَكِرُونَ﴾ أَيُّ: أَنْتُمْ الَّذِينَ تَتَفَادُونَ لِلْهَدَايَا وَالتَّحْفِ، وَأَمَّا أَنَا، فَلَا أَقْبِلُ مِنْكُمْ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوِ السَّيْفَ.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: بِهَدْيَتِهِمْ ﴿فَلَنَأْيِسَّنَهُمْ يَجُودُ لَا قَيْلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أَيُّ: لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِهِمْ ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذَلَّةً﴾ أَيُّ: وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ بِلَدَتِهِمْ أَذَلَّةً ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ أَيُّ: مُهَانُونَ مَذْخُورُونَ. فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهَا رُسُلُهَا بِهَدْيَتِهَا، وَبِمَا قَالَ سُلَيْمَانُ، سَمِعَتْ، وَأَطَاعَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا، وَأَقْبَلَتْ تَسِيرُ إِلَيْهِ فِي جُنُودِهَا خَاضِعَةً ذَلِيلَةً، مُعْظَمَةً لِسُلَيْمَانَ نَاوِيَةً مُتَابِعَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمَّا تَحَقَّقَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدُومَهُمْ عَلَيْهِ، وَوَفُودَهُمْ إِلَيْهِ فَرِحَ بِذَلِكَ وَسَرَّهُ.

﴿قَالَ يَتَانِيَا أَلَمْ لَوْ أَتَيْتُمَا بِعَرْشِيَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ قَالَ عَفْرِتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا عَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَرَأَيْ عَلَيْهِ لَقَوَى أَمِينٌ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا عَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُغُنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكُفِّرْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٦﴾

[إِخْضَارُ عَرْشِ بَلْقَيْسَ فِي لَحْظَةٍ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ قَالَ: فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهَا الرُّسُلُ بِمَا قَالَ سُلَيْمَانُ، قَالَتْ: قَدْ وَاللَّهِ عَرَفْتُ مَا هَذَا بِمُلْكِ، وَمَا لَنَا بِهِ مِنْ طَاقَةٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِمُكَابَرَتِهِ شَيْئًا، وَرَبَعْتُ إِلَيْهِ: إِنِّي قَادِمَةٌ عَلَيْكَ بِمُلُوكِ قَوْمِي لِأَنْظُرَ مَا أَمْرُكَ وَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ دِينِكَ، ثُمَّ أَمَرَتْ بِسَرِيرِ مُلْكِهَا الَّذِي كَانَتْ تَجْلِسُ عَلَيْهِ. وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ مُفَصَّصٍ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ وَاللُّؤْلُؤِ، فَجَعَلَ فِي سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، ثُمَّ أَقْفَلَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ، ثُمَّ قَالَتْ لِمَنْ خَلَفْتُ عَلَى سُلْطَانِهَا: اخْتِظْ بِمَا قَبْلَكَ وَسَرِيرَ مُلْكِي، فَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَلَا يَرِيْتَهُ أَحَدٌ حَتَّى آتِيكَ. ثُمَّ شَخَصَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ، تَحْتَ يَدَيَّ كُلِّ قَيْلٍ مِنْهُمْ أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ، فَجَعَلَ سُلَيْمَانُ يَبْعَثُ الْجِنَّ يَأْتُونَهُ بِمَسِيرِهَا وَمُتَهَاهَا كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ حَتَّى إِذَا دَنَتْ جَمَعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مِمَّنْ تَحْتَ يَدِهِ فَقَالَ: ﴿يَتَانِيَا أَلَمْ لَوْ أَتَيْتُمَا بِعَرْشِيَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿قَالَ عَفْرِتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ: مَارِدٌ مِنْ

(١) الطبري: ٥٢٠/٩ (٢) الدر المنثور: ٣٥٩/٦ (٣) البغوي: ٤٢٠/٣ (٤) البغوي: ٤٢٠/٣ (٥) البغوي: ٣/٤٢٠ (٦) الطبري: ٤٦٦/١٩

الْبُرْجَانِ

٣٨١

سُورَةُ النَّمْلِ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آلَ سَيْئَةٍ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَاعْتَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَقَاسُمُوكَ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا مَكْرَانًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَادَ مَرَاتِلَهُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ طَافَ الْأَرْضُ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلَحِشَّةَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلِهِمْ لَبِئْسَ مَا كَانَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَهِيَ كَانَتْ قَدْ صَدَّهَا أَيَّ مَنَعَهَا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَذَهُ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ وَحَسَنٌ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا (٥٠). ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى سُلَيْمَانَ أَوْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَقْدِيرُهُ: وَمَنَعَهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيَّ: صَدَّهَا عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

(قُلْتُ): وَيُؤَيِّدُ قَوْلَ مُجَاهِدٍ أَنَّهَا إِنَّمَا أَظْهَرَتْ الْإِسْلَامَ بَعْدَ دُخُولِهَا إِلَى الصَّرْحِ كَمَا سَبَّأَتِي. وَقَوْلُهُ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبَسَتْهُ لُجَّةً وَكَتَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ الشَّيَاطِينَ فَنَبَّوْا لَهَا قَصْرًا عَظِيمًا مِنْ قَوَارِيرٍ، أَيَّ: مِنْ رُجَاجٍ، وَأَجْرَى تَحْتَهُ الْمَاءَ، فَالَّذِي لَا يَعْرِفُ أَمْرَهُ يَحْسَبُ أَنَّهُ مَاءٌ،

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوَيْنَا الْغُلَمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُهُ سُلَيْمَانُ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدٍ ابْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ - أَيَّ: قَالَ سُلَيْمَانُ: ﴿وَأَوَيْنَا الْغُلَمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾

قَالَ مُوسَى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنُوكُمْ حِينَئِذٍ﴾ [إبراهيم: ٨] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبَ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» (١).

﴿قَالَ تَكْرُؤًا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوَيْنَا الْغُلَمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَبَسَتْهُ لُجَّةً وَكَتَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُعَمَّرٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) [اخْتِيارُ بَلْقَيْس]

لَمَّا جِيءَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَرْشِ بَلْقَيْسَ قَبْلَ قُدُومِهَا أَمَرَ بِهِ أَنْ يُعْمَرَ بَعْضُ صِفَاتِهِ لِيُخْتَبَرَ مَعْرِفَتُهَا وَتَبَاتُهَا عِنْدَ رُؤْيَيْهِ هَلْ تُقَدِّمُ عَلَى أَنَّهُ عَرْشُهَا، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ بِعَرْشِهَا فَقَالَ: ﴿تَكْرُؤًا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَعَ مِنْهُ فُصُوصُهُ وَمَرَّافَتُهُ (٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَمَرَ بِهِ فَغَيَّرَ مَا كَانَ فِيهِ أَحْمَرَ جُعِلَ أَصْفَرٌ، وَمَا كَانَ أَصْفَرًا جُعِلَ أَحْمَرَ، وَمَا كَانَ أَحْمَرَ جُعِلَ أَصْفَرًا. غَيَّرَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَالِهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: زَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا. وَقَالَ قَتَادَةُ: جُعِلَ أَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ، وَمُقَدَّمُهُ مُؤَخَّرُهُ، وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا (٣). ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ أَيَّ: غَرَضٌ عَلَيْهَا عَرْشُهَا وَقَدْ غَيَّرَ وَكُتِرَ وَزِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ مِنْهُ، فَكَانَ فِيهَا ثَبَاتٌ وَعَقْلٌ، وَلَهَا لُبٌّ وَدَهَاءٌ وَحَزْمٌ، فَلَمْ تُقَدِّمْ عَلَى أَنَّهُ هُوَ؛ لِئَعْدَ مَسَافَتِهِ عَنْهَا، وَلَا أَنَّهُ غَيْرُهُ لِمَا رَأَتْ مِنْ آثارِهِ وَصِفَاتِهِ - وَإِنْ غَيَّرَ وَبَدَّلَ وَكُتِرَ - فَقَالَتْ: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أَيَّ: يُشَبِّهُهُ وَيُقَارِبُهُ. وَهَذَا غَايَةُ فِي الذِّكَاةِ وَالْحَزْمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوَيْنَا الْغُلَمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُهُ سُلَيْمَانُ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدٍ ابْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ - أَيَّ: قَالَ سُلَيْمَانُ: ﴿وَأَوَيْنَا الْغُلَمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾

(١) مسلم: ١٩٩٤/٤ (٢) الطبري: ٤٦٩/١٩ (٣) الطبري: ٤٦٩/١٩ (٤) الطبري: ٤٧١/١٩ (٥) الطبري: ٤٧٢/١٩

وَلَكِنَّ الرُّجَاجَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَاشِيِّ وَبَيْنَهُ.

[قَالَ: إِنَّهُ صَرَحَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرِ]

أَصْلُ الصَّرْحِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الْقَضْرُ، وَكُلُّ بِنَاءٍ مُرْتَفِعٍ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَالَ لِيُوزِيْرِهِ هَامَانَ: ﴿أَبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَتْلُعَ الْأَسْبَاطَ﴾... الآية [غافر: ٣٦]. وَالصَّرْحُ: قَضْرٌ فِي الْأَمْنِ عَالِيِ الْبِنَاءِ، وَالْمُمَرَّدُ: الْمُنْبِيُّ بِنَاءً مُحْكَمًا أَمْلَسَ مِنْ قَوَارِيرٍ أَي: رُجَاجٍ، وَتَمْرِيدُ الْبِنَاءِ: تَمْلِيسُهُ. وَمَارِدٌ: حِصْنٌ بِدُومَةِ الْجَنْدَلِ. وَالْعَرْضُ: أَنْ سَلِمَ مَنْ عَلَيْهِ السَّلَامُ اتَّخَذَ قَضْرًا عَظِيمًا مُنِيفًا مِنْ رُجَاجٍ لِهَذِهِ الْمَلِكَةِ؛ لِيُرِيَهَا عَظَمَةَ سُلْطَانِهِ وَتَمَكُّنِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا آتَاهُ اللَّهُ وَجَلَّالَهُ مَا هُوَ فِيهِ وَتَبَصَّرَتْ فِي أَمْرِهِ، انْقَادَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَرَفَتْ أَنَّهُ نَبِيُّ كَرِيمٍ، وَمَلِكٌ عَظِيمٌ، وَأَسْلَمَتْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَتْ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أَي: بِمَا سَلَفَ مِنْ كُفْرِهَا وَشِرْكِهَا، وَعِبَادَتِهَا وَقَوْمِهَا لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: مُتَابِعَةً لِدِينِ سُلَيْمَانَ فِي عِبَادَتِهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ يَنْقُورُ لِمَ تَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَبَعُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٦٢﴾ [بَيْنَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ثَمُودَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا مَعَ نَبِيِّهَا صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ<sup>(١)</sup>. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُغْفِرُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمْلِكُونَ أَنْ صَالِحًا تُرْسِلَ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

﴿قَالَ يَنْقُورُ لِمَ تَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أَي: لِمَ تَدْعُونَ بِحُضُورِ الْعَذَابِ وَلَا تَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ رَحْمَتَهُ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ أَي: مَا رَأَيْنَا عَلَى وَجْهِكَ وَوُجُوهَ مَنْ اتَّبَعَكَ خَيْرًا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ - لِشَقَائِهِمْ - كَانَ لَا يُصِيبُ

أَحَدًا مِنْهُمْ سُوءٌ إِلَّا قَالَ: هَذَا مِنْ قِبَلِ صَالِحٍ وَأَصْحَابِهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: تَشَاءُمُوا بِهِمْ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾... الآية [الأعراف: ١٣١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُنَا حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُنَا سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩] أَي: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَسَّيَّرَنَّ مَنَا عَذَابَ إِلَهٍ﴾ ﴿٣٨﴾ قَالُوا طَبَعُكُمْ مَعَكُمْ﴾... الآية [يس: ١٨، ١٩]، وَقَالَ هُوَلَاءِ: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَبَعُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَي: اللَّهُ يُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: تُتْلُونَ بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ<sup>(٣)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أَي: تُسْتَدْرَجُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرَهُمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾ فَبَيْنَمَا هُمْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ أَتَاهُمْ قَوْمٌ لَاقِيَهُمْ لَقَوْهُمْ يُعَلِّمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَخْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُرُونَ ﴿٤٣﴾ [مَكْرَ طَائِفَةِ الْمُفْسِدِينَ وَمَصِيرَ قَوْمِ ثَمُودَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طَافَةِ ثَمُودَ وَرُؤُوسِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا دُعَاةَ قَوْمِهِمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالْكَفْرِ وَتَكْذِيبِ صَالِحٍ، وَآلَ بِهِمْ الْحَالِ إِلَى أَنَّهُمْ عَقَرُوا النَّاقَةَ وَهَمُّوا بِقَتْلِ صَالِحٍ أَيْضًا، بِأَنَّهُمْ يَبْتِئُونَهُ فِي أَهْلِهِ لِيَلَّا يَفْقُتْلُوهُ غِيْلَةً، ثُمَّ يَقُولُوا لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَقْرَبِيهِ: إِنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَإِنَّهُمْ لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَشَاهِدُوا ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أَي: مَدِينَةُ ثَمُودَ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أَي: تِسْعَةُ نَفَرٍ ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وَإِنَّمَا غَلَبَ هُوَلَاءِ عَلَى أَمْرِ ثَمُودَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كِبَرَاءَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَلَاءِ هُمُ الَّذِينَ عَقَرُوا النَّاقَةَ<sup>(٤)</sup>. أَي: الَّذِينَ صَدَرَ ذَلِكَ عَنْ رَأْيِهِمْ وَمَشُورَتِهِمْ

(١) الطبري: ٤٧٥/١٩ (٢) الدر المنثور: ٣٦٩/٦ (٣) الدر المنثور: ٣٦٩/٦ (٤) الطبري: ٤٧٧/١٩ حكم العوفي مَرَّ

سورة النمل

٣٨٢

سورة النمل

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطٍ مِّن قَرِيبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَدِيرِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرُ مَآيَشِرِكُوتٍ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُلُقِيقًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا ذَكَّرُوتُ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ تُشَارِكُ يَدَيَّ رَحْمَتِهِ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

﴿تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَظَاهِرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرِيبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِهُرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَدِيرِ ﴿٥٩﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٦٠﴾

[ذَكِّرْ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِقَمَّةِ اللَّهِ بِهِمْ فِي فِعْلِهِمُ الْفَاحِشَةَ الَّتِي لَمْ يَسْفِهْهُمْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِّن بَنِي آدَمَ، وَهِيَ إِثْنَانِ الدُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَذَلِكَ فَاحِشَةٌ عَظِيمَةٌ اسْتَعْنَى الرَّجَالُ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ فَقَالَ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أَي: يَرَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ ﴿أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَظَاهِرُونَ﴾ أَي: لَا

قَبَحُهُمُ اللَّهُ وَلَعَنَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَادَاؤًا صَالِحًا فَمَطَايَ مَقَرًّا﴾ [القمر: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَنْبَأْتُ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢].

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَنْبَأَنَا [يَحْيَى] بْنُ رَبِيعَةَ الصَّنَعَانِيُّ: سَمِعْتُ عَطَاءَ - هُوَ: ابْنُ أَبِي رَبَاحٍ - يَقُولُ: ﴿وَكَانَ فِي الدَّيْبَةِ سَمْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ قَالَ: كَانُوا يَقْرِضُونَ الدَّرَاهِمَ <sup>(١)</sup>. يَعْنِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهَا، وَكَانَتْهُمْ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِهَا عَدَدًا كَمَا كَانَ الْعَرَبُ يَتَعَامَلُونَ. وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ: قَطَعَ الذَّهَبُ وَالْوَرِقُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَالْعَرَضُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةَ الْفَسَقَةَ كَانُوا مِنْ صِفَاتِهِمُ الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ، بِكُلِّ طَرِيقٍ يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا، فَمِنْهَا مَا ذَكَرَهُ هَؤُلَاءِ الْأَيُّمَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا نَقَاسُوا بِاللَّهِ لَنَنْبِتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أَي: تَحَالَفُوا وَتَبَايَعُوا عَلَى قَتْلِ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ لَقِيهِ لَيْلًا غِيْلَةً، فَكَادَهُمُ اللَّهُ وَجَعَلَ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ، قَالَ مُجَاهِدٌ: تَقَاسَمُوا وَتَحَالَفُوا عَلَى هَلَاكِهِ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ حَتَّى هَلَكُوا وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ <sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ، قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: ﴿تَسْمَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ قَالُوا: زَعَمَ صَالِحٌ أَنَّهُ يُفْرَغُ مِنَّا إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَحَنُ نَفْرُغُ مِنْهُ وَأَهْلُهُ قَبْلَ ثَلَاثِ، وَكَانَ لِصَالِحٍ مَسْجِدٌ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ شَيْبٍ هُنَاكَ، يُصَلِّي فِيهِ، فَخَرَجُوا إِلَى كَهْفٍ - أَي: غَارٍ هُنَاكَ - لَيْلًا فَقَالُوا: إِذَا جَاءَ يُصَلِّي قَتَلْنَاهُ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِذَا فَرَعْنَا مِنْهُ إِلَى أَهْلِهِ، فَفَرَعْنَا مِنْهُمْ. فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَخْرَةً مِنَ الْهَضْبِ حِيَالَهُمْ، فَخَشُوا أَنْ تَشْدَحَهُمْ فَتَبَادَرُوا، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ وَهُمْ فِي ذَلِكَ الْغَارِ، فَلَا يَدْرِي قَوْمُهُمْ أَيْنَ هُمْ، وَلَا يَدْرُونَ مَا فَعَلَ بِقَوْمِهِمْ، فَغَدَبَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ هُنَا، وَهَؤُلَاءِ هُنَا، وَأَنْجَى اللَّهُ صَالِحًا وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ أَي: فَارِعَةٌ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ﴿بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وَأَجْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ

(١) عبد الرزاق: ٨٣/٣ يحيى بن ربيعة ذكره ابن أبي حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً (٢) الطبري: ٤٧٨/١٩

فَلَنُفَنِّئَهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَى، فَلَأَنْبِيَاءَ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخِرَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُ أُخْرَى.

### [بَعْضُ أدِلَّةِ التَّوْحِيدِ]

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى بَيِّنٌ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ دُونَ غَيْرِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ أَيُّ: خَلَقَ تِلْكَ السَّمَوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَصَفَائِهَا، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّيِّرَةِ وَالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ وَالْأَفلاكِ الدَّائِرَةِ. وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي اسْتِقَالِهَا وَكُنَافَتِهَا، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَطْوَادِ، وَالسُّهُولِ وَالْأَوْعَارِ، وَالْفَيَافِي وَالْفُقَارِ، وَالزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ، وَالثَّمَارِ وَالْبَحَارِ، وَالْحَيَوَانَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَصْنَافِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أَيُّ: جَعَلَهُ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أَيُّ: بَسَاتِينَ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أَيُّ: مَنْظَرٍ حَسَنٍ وَشَكْلِ بَهِيٍّ ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أَيُّ: لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَى إنبات أشجارها. وَإِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُسْتَقْبِلُ بِذَلِكَ، الْمُتَفَرِّدُ بِهِ، دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْأَنْدَادِ كَمَا يَعْتَرِفُ بِهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أَيُّ: هُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْفَاعِلُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ هُمْ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفَرَّدَ بِالْعِبَادَةِ مَنْ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَهُهُ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أَيُّ: أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ يُعْبَدُونَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ وَلِكُلِّ ذِي لُبٍّ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ بِهِ أَيْضًا أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ؟!

ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أَيُّ: يَجْعَلُونَ لِلَّهِ عِدْلًا وَنَظِيرًا.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِرًا إِيَّاهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿١٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أَيُّ: قَارَةً سَاكِئَةً ثَابِتَةً لَا تَمِيدُ وَلَا تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا وَلَا تَرْجُفُ بِهِمْ؛ فَإِنَّهَا لَوْ

تَعْرِفُونَ شَيْئًا لَا طَبْعًا وَلَا شَرْعًا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْثَى بَطْهَرُونَ﴾ أَيُّ: يَتَحَرَّجُونَ مِنْ فِعْلِ مَا تَفْعَلُونَهُ، وَمِنْ إِفْرَارِكُمْ عَلَى صَنِيعِكُمْ، فَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَضِلُّونَ لِمَجَاوَرَتِكُمْ فِي بِلَادِكُمْ، فَعَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ، فَدَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْيَنَتُهُمْ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا مِمَّا قَدَرْنَاهَا مِنْ الْغَنِيِّتِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ رِذَاءً لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَعَلَى طَرِيقَتِهِمْ، فِي رِضَاهَا بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ، فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَى ضِلَالَتِهِمْ لُوطٍ؛ لِيَأْتُوا إِلَيْهِمْ - لَا أَنَّهَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْفَوَاحِشَ؛ تَكْرِمَةً لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، لَا كَرَامَةً لَهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أَيُّ: حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْصُودٍ، مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمُ الْإِنْدَارُ، فَخَالَفُوا الرُّسُولَ، وَكَذَّبُوهُ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ عَالَمٌ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٦٧﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِيَّاهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿١٦٨﴾

### [الْأَمْرُ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى رُسُلِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيُّ: عَلَى نِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، وَعَلَى مَا انْتَصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْعُلَى وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَأَنْ يُسَلِّمَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ وَاخْتَارَهُمْ، وَهُمْ رُسُلُهُ وَأَنْبِيَائُهُ الْكَرَامُ، عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، هَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرُهُ: إِنَّ الْمُرَادَ بِعِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى: هُمْ الْأَنْبِيَاءُ. قَالَ: وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٦٩﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٠﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧١﴾ [الصفات: ١٨٠-١٨٢]. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا. وَلَا مُنَافَاةَ؛

كَانَتْ كَذَلِكَ لَمَا طَابَ عَلَيْهَا الْعِيشُ وَالْحَيَاةُ - بَلْ جَعَلَهَا مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ مِهَادًا بَسَاطًا نَابِتَةً لَا تَنْتَزِلُ وَلَا تَنْتَحَرُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر: ٦٤].

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جَعَلَ فِيهَا الْأَنْهَارَ الْعَذْبَةَ الطَّيِّبَةَ، شَقَّهَا فِي خِلَالِهَا وَصَرَفَهَا فِيهَا مَا بَيْنَ أَنْهَارٍ كِنَارٍ وَصِغَارٍ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَسَبَّرَهَا شَرْقًا وَغَرْبًا، وَجَنُوبًا وَشِمَالًا، بِحَسَبِ مَصَالِحِ عِبَادِهِ فِي أَقَالِيهِمْ وَأَقْطَارِهِمْ - حَيْثُ ذَرَأَهُمْ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَسَبَّرَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جِبَالًا شَامِخَةً تُرْسِي الْأَرْضَ وَتُثَبِّتُهَا؛ لِئَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جَعَلَ بَيْنَ الْمَيَاهِ الْعَذْبَةِ وَالْمَالِحَةِ حَاجِزًا، أي: مَا يَمْنَعُهَا مِنَ الْإِخْتِلَاطِ؛ لِئَلَّا يَفْسُدَ هَذَا بِهِذَا، وَهَذَا بِهِذَا، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ تَقْتَضِي بَقَاءَ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى صِفَتِهِ الْمَقْصُودَةِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْبَحْرَ الْحُلُوَّ هُوَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ الْجَارِيَةُ بَيْنَ النَّاسِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا: أَنْ تَكُونَ عَذْبَةً زَلَالًا تَسْقِي الْحَيَوَانَ وَالنبَاتَ وَالشَّجَرَ مِنْهَا. وَالْبَحَارُ الْمَالِحَةُ هِيَ الْمُحِيطَةُ بِالْأَرْجَاءِ وَالْأَقْطَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ مَاؤُهَا مِلْحًا أَجَاجًا؛ لِئَلَّا يَفْسُدَ الْهَوَاءُ بِرِيحِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: فَعَلَ هَذَا، أَوْ يُعْبَدُ؟ - عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ صَحِيحٌ - ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فِي عِبَادَتِهِمْ غَبْرَةٌ.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ ﴿٧٧﴾

يُنَبِّئُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الْمُدْعُوُّ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، الْمُرْجُوُّ عِنْدَ التَّوَارِيحِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاءَهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النمل: ٥٣]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: مَنْ هُوَ الَّذِي لَا يَلْجَأُ الْمُضْطَرُّ إِلَّا إِلَيْهِ، وَالَّذِي لَا يَكْشِفُ ضُرَّ الْمُضْطَرُّوْرِينَ سِوَاهُ؟ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَلْهَجِيمٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا مَا تَدْعُو؟ قَالَ: «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَخُذْهُ الَّذِي إِنْ مَسَّكَ ضُرٌّ، فَدَعَوْتُهُ، كَشَفَ عَنْكَ، وَالَّذِي

إِنْ أَضْلَلْتَ بِأَرْضٍ قَفَرٍ، فَدَعَوْتُهُ، رَدَّ عَلَيْكَ، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَتْكَ سَنَةٌ، فَدَعَوْتُهُ، أَتَيْتَ لَكَ». قَالَ: قُلْتُ: أَوْصِنِي. قَالَ: «لَا تَسْبَنَّ أَحَدًا، وَلَا تَرْهَدَنَّ فِي الْمَعْرُوفِ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَأَنْتَ مُتَبَسِّطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِعَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِنْاءٍ الْمُسْتَقِيِّ، وَاتَّزَرَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ؛ فَإِنْ أَتَيْتَ فَالِى الْكُعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ؛ فَإِنْ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ»<sup>(١)</sup>.

### [قِصَّةُ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

وَذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحَسَنِ أُمِّ أَحْمَدَ الْعِجْلِيَّةِ قَالَتْ: هَزَمَ الْكُفَّارُ يَوْمًا الْمُسْلِمِينَ فِي غَزَاةٍ، فَوَقَّفَ جَوَادٌ جَدِّ بَصَاحِيهِ، وَكَانَ مِنْ ذَوِي الْيَسَارِ وَمِنْ الصُّلَحَاءِ، فَقَالَ لِلْجَوَادِ: مَا لَكَ؟ وَتِلْكَ! إِنَّمَا كُنْتُ أُعِدُّكَ لِمِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ؟ فَقَالَ لَهُ الْجَوَادُ: وَمَا لِي لَا أَقْصُرُ وَأَنْتَ تَكُلُّ الْعُلُوفَةَ إِلَى السُّوَاسِ فَيُظِلُّمُونَنِي، وَلَا يُطْعِمُونَنِي إِلَّا الْقَلِيلَ!! فَقَالَ: لَكَ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ أَنِّي لَا أَغْلِقُكَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ إِلَّا فِي حِجْرِي، فَجَرَى الْجَوَادُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَنَجَّى صَاحِبَهُ، وَكَانَ لَا يَعْلِفُهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا فِي حِجْرِهِ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَجَعَلُوا يَقْصِدُونَهُ؛ لِيَسْمَعُوا مِنْهُ ذَلِكَ، وَبَلَغَ مِلْكُ الرُّومِ أَمْرُهُ، فَقَالَ: مَا تَضَامُ بِلَدَّةٍ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ فِيهَا. وَاحْتَالَ لِيُحْصِلَهُ فِي بَلَدِيهِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلًا مِنَ الْمُرْتَدِّينَ عِنْدَهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ، أَظْهَرَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ فِي الْإِسْلَامِ وَقَوِّمِهِ حَتَّى اسْتَوْتَقَ، ثُمَّ خَرَجَا يَوْمًا يَمَسِينِيَانِ عَلَى جَنْبِ السَّاحِلِ، وَقَدْ وَاغَدَ شَخْصًا آخَرَ مِنْ جِهَةِ مِلْكِ الرُّومِ؛ لِيَتَسَاعَدَا عَلَى أَسْرِهِ، فَلَمَّا اكْتَفَاهُ لِيَأْخُذَاهُ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: اَللَّهُمَّ! إِنَّهُ إِنَّمَا خَدَعَنِي بِكَ، فَالْكُنْهُمَا بِمَا شِئْتَ. قَالَ: فَخَرَجَ سَبْعَانِ [إِلَيْهِمَا] فَأَخَذَاهُمَا، وَرَجَعَ الرَّجُلُ سَالِمًا<sup>(٢)</sup>.

### [بَيَانُ خِلَافَةِ الْأَرْضِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: يُخْلِفُ قَرْنًا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ، وَخَلَفًا لِسَلَفٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ مُؤْكِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

(١) أحمد: ٦٤/٥ (٢) تاريخ دمشق: ٤٨٩/١٩ المخطوط ٧٤/٩ ط. دار أحياء التراث العربي.



بَعْضِ دَرَجَاتٍ ﴿١٦٥﴾ [الأنعام: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] أَيْ: قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا فَلَّمْنَا تَقْرِيرَهُ، وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أَيْ: أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَقَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ، وَلَوْ شَاءَ لَأَوْجَدَهُمْ كُلَّهُمْ فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَعْضُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ، بَلْ لَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ، كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ بَعْضُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ، وَلَكِنْ لَا يُمِيتُ أَحَدًا حَتَّى تَكُونَ وَفَاةُ الْجَمِيعِ فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ، فَكَانَتْ نَصِيبُ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ، وَنَصِيبُ عَلَيْهِمْ مَعَايِشُهُمْ وَأَكْسَابُهُمْ، وَيَنْصَرُّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَلَكِنْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَقُدْرَتُهُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يُكَيِّرُهُمْ غَايَةَ الْكَثْرَةِ، وَيَذَرُهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَيَجْعَلُهُمْ قُرُونًا بَعْدَ قُرُونٍ، وَأَمَّا بَعْدَ أَمَمٍ، حَتَّى يَنْقُضِيَ الْأَجَلَ، وَتَفْرُغَ الْبَرِيَّةُ، كَمَا قَدَرُ ذَلِكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَمَا أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، ثُمَّ يَقِيمُ الْقِيَامَةَ، وَيُؤْفِي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُمِيتُ الْمُنْظَرُ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَدِيرٍ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَدَدِ هَذَا [يُعْبَدُ] - وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَمَرِّدُ بِفِعْلِ ذَلِكَ وَخِذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؟ [فَلَيْسَ مَا نَذْكُرُونَ]﴾ أَيْ: مَا أَقَلَّ تَذَكُّرُهُمْ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشَرِّ بَيْتٍ بِدَى رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٦٦] يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أَيْ: بِمَا خَلَقَ مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ الرَّسْمَ وَالتَّحْمِيمَ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾... [الأنعام: ٩٧].

﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشَرِّ بَيْتٍ بِدَى رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ: بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ الَّذِي فِيهِ مَطَرٌ يُنِيتُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُتَجِدِّينَ الْأَرِزِينَ الْقَاطِنِينَ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ﴿أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَسَاؤُا بُرْهَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٦٧] أَيْ: هُوَ الَّذِي يَقْدِرُهُ وَسُلْطَانُهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنْ يَشَاءْ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [١٦٧]

إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعْدُ [البروج: ١٢، ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: بِمَا يَنْزِلُ مِنْ مَطَرِ السَّمَاءِ، وَيُنْتِثُ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّمْلَ ذَاتِ الرَّجْلِ﴾ [١٦٨] وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّنْعِ [الطارق: ١١، ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبا: ٢٠] فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا، فَيَسْلُكُهُ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ مِنْهَا أَنْوَاعَ الزُّرُوعِ وَالنَّمَارِ وَالْأَرَاهِيرِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ أَلْوَانِ شَتَّى ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَتَمَنَّكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [طه: ٥٤]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَدِيرٍ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ: بَعْدَ هَذَا [يُعْبَدُ]؟ ﴿قُلْ هَسَاؤُا بُرْهَانِكُمْ﴾ عَلَى صِحَّةِ مَا تَدْعُوهُ مِنْ عِبَادَةِ إِلَهَةٍ أُخْرَى [إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] فِي ذَلِكَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ وَلَا بُرْهَانَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا

يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿قُلْ لَا يَمَعُرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكِّ

مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١١٦﴾

[عَالِمُ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ - مُعْلِمًا لِجَمِيعِ الْخَلْقِ: إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ أَيْ: لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾... الآية [الأنعام: ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [لقمان: ٣٤]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أَيْ: وَمَا يَشْعُرُ الْخَلَائِقُ السَّاكِنُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنُفِثَنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَنَفَةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أَيْ: نَقُلْ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَقَوْلُهُ: (بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنْهَا) أَيْ: انْتَهَى عِلْمُهُمْ، وَعَجَزَ عَنْ مَعْرِفَةِ وَقْتِهَا، وَقَرَأَ آخِرُونَ: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ أَيْ: تَسَاوَى عِلْمُهُمْ فِي ذَلِكَ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ لِمُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِجِبْرِيلَ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»<sup>(١)</sup>. أَيْ: تَسَاوَى فِي الْعَجْزِ عَنْ دَرَكِ ذَلِكَ، عِلْمُ الْمَسْئُولِ وَالسَّائِلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنْهَا﴾ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ، وَالْمُرَادُ: الْكَافِرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ جُعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨] أَيْ: الْكَافِرُونَ مِنْكُمْ. وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنْهَا﴾ أَيْ: شَاكُونَ فِي وُجُودِهَا وَوُقُوعِهَا ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أَيْ: فِي عِمَائَةٍ وَجَهْلٍ كَبِيرٍ فِي أَمْرِهَا وَشَأْنِهَا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لِلْمَرْجُومِ﴾ ﴿١١٧﴾

لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ ﴿١١٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا

يَمْكُرُونَ ﴿١٢٠﴾

[اسْتِعَادَ الْبُعْثَ وَالرَّدَّ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُنْكَرِي الْبُعْثِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ اسْتَعَادُوا إِعَادَةَ الْأَجْسَادِ بَعْدَ صَيُورِهَا عِظَامًا وَرُقَاتًا وَتُرَابًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: مَا زِلْنَا نَسْمَعُ بِهَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا، وَلَا نَرَى لَهُ حَقِيقَةً وَلَا وُقُوعًا، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يَغْنُونُ مَا هَذَا الْوَعْدُ بِإِعَادَةِ الْأَبْدَانِ ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: أَخَذَهُ قَوْمٌ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَتْلَقَاهُ بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ، وَلَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَمَّا ظَنُّوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَعَدَمِ الْمَعَادِ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ: لِهَؤُلَاءِ: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيْ: الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ وَبِمَا جَاءُوا بِهِمْ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَغَيْرِهِ، كَيْفَ حَلَّتْ بِهِمْ نِقْمَةُ اللَّهِ وَعَذَابُهُ وَنَكَالُهُ، وَنَجَّى اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ رَسُولَهُ الْكَرِيمَ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَصِدْقِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَلَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ وَتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أَيْ: فِي كَيْدِكَ، وَرَدَّ مَا جِئْتَ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ مُؤَيِّدُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُظْهِرُ دِينِكَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَعَانَدَهُ، فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي سُؤْلِهِمْ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَاسْتِعَادِهِمْ وَوُقُوعِ ذَلِكَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ! ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنْ يَكُونَ قُرْبٌ أَوْ أَنْ يَقْرُبَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ

(١) مسلم: ٣٦/١ (٢) الطبري: ٤٩٢/١٩ (٣) الطبري: ١٩/

٤٩٢ والدر المنثور: ٣٧٥/٦

تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤] وَإِنَّمَا دَخَلْتَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى: عَجَلَ لَكُمْ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدَفَ لَكُمْ﴾: عَجَلَ لَكُمْ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أَيُّ: فِي إِسْبَاغِهِ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِمَ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَيُّ: يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ﴿سَوَاءٌ مِنْكَ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿يَعْلَمُ الْسِّرَّ وَالْخَفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ يَا بَنِيَّاهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ وَمَا شَاهَدُوهُ - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَغْنِي: وَمَا مِنْ شَيْءٍ<sup>(٢)</sup> ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ: هُدَى لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَرَحْمَةً لَهُمْ فِي الْعَمَلِيَّاتِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَحْكُمُ﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴿أَيُّ: فِي اتِّقَائِهِ﴾ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ.

### [الْأَمْرُ بِالتَّوَكُّلِ فِي الْبَلَاغِ]

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ: فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ، وَبَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّكَ ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أَيُّ: أَنْتَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَإِنْ خَالَفَكَ مَنْ خَالَفَكَ مِمَّنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ﴾ أَيُّ: لَا تَسْمَعُهُمْ شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ، فَكَذَلِكَ هُوَ لَا عَلَى قُلُوبِهِمْ غِشَاوَةً، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرُ الْكُفْرِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ﴾ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ<sup>(٣)</sup> وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ

تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤] وَإِنَّمَا دَخَلْتَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى: عَجَلَ لَكُمْ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدَفَ لَكُمْ﴾: عَجَلَ لَكُمْ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أَيُّ: فِي إِسْبَاغِهِ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِمَ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَيُّ: يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ﴿سَوَاءٌ مِنْكَ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿يَعْلَمُ الْسِّرَّ وَالْخَفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ يَا بَنِيَّاهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥].

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ وَمَا شَاهَدُوهُ - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَغْنِي: وَمَا مِنْ شَيْءٍ<sup>(٢)</sup> ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْضِي عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ<sup>(٥)</sup> إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَحْكُمُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ<sup>(٦)</sup> فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ<sup>(٧)</sup> إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ<sup>(٨)</sup> وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ<sup>(٩)</sup>

[الْقُرْآنُ يَقْضِي أَكْثَرَ اخْتِلَافِ بَنِي إِسْرَءِيلَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ وَالْقُرْآنِ: أَنَّهُ يَقْضِي عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي عِيسَى وَتَبَائِهِمْ فِيهِ، فَالْيَهُودُ افْتَرَوْا، وَالنَّصَارَى غَلَّوْا، فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْوَسْطِ الْحَقِّ الْعَدْلِ: إِنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ الْكَرَامَ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]،

تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكَ مَنْ هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ - أَلَسْمَعُ وَالْبَصَرُ التَّافِعُ فِي الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةُ - الْخَاضِعُ لِلَّهِ وَلَمَّا جَاءَ عَنْهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿٨٣﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٤﴾

### [خُرُوجُ دَابَّةِ الْأَرْضِ]

هَذِهِ الدَّابَّةُ تَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ وَتَرْكِبِهِمْ أَوْامِرَ اللَّهِ وَتَبْدِيلِهِمُ الدِّينَ الْحَقَّ. يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ، قِيلَ: مِنْ مَكَّةَ، وَقِيلَ: مِنْ غَيْرِهَا، كَمَا سَبَّأَتِي تَفْصِيلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَتُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَيُرْوَى عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تُكَلِّمُهُمْ كَلَامًا، أَيُّ: تُخَاطِبُهُمْ مُخَاطَبَةً<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذِكْرِ الدَّابَّةِ أَحَادِيثٌ وَأَثَارٌ كَثِيرَةٌ، فَلْنَذْكُرْ مِنْهَا مَا تيسَّرَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ أَمْرَ السَّاعَةِ، فَقَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالْذُّحَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالذُّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسَفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسَفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسَفٌ بِحَزْرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ، تَبَيَّتْ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاثُوا، وَتَقْبِلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا»<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ الشُّنَنِ عَنْ حُذَيْفَةَ مَرْفُوعًا. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْهُ مَوْقُوفًا<sup>(٤)</sup>. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(حَدِيثُ آخَرَ) رَوَى مُسْلِمٌ بْنُ الْحَجَّاجِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أُنْسُهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبِهَا فَلَا أُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا»<sup>(٥)</sup>.

(حَدِيثُ آخَرَ) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَيِّئًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذُّحَانُ، وَالذُّجَالُ، وَالدَّابَّةُ، وَخَاصَّةً أَحَدِكُمْ، وَأَمْرَ الْعَامَةِ». تَفَرَّدَ بِهِ<sup>(٦)</sup>.

(حَدِيثُ آخَرَ) رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَخْرُجُ دَابَّةُ الْأَرْضِ وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَتَخْطُمُ أُنْفَ الْكَافِرِ بِالْعَصَا، وَتُجْلِي وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْخَاتَمِ، حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى الْجَوَانِ يُعْرِفُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ وَصَفَ الدَّابَّةَ فَقَالَ: رَأْسُهَا رَأْسُ ثَوْرٍ، وَعَيْنُهَا عَيْنُ خَنْزِيرٍ وَأُذُنُهَا أُذُنُ فِيلٍ، وَفَرْجُهَا قَرْنُ آيَلٍ، وَغَنَظُهَا غَنَظُ نَعَامَةٍ، وَصَدْرُهَا صَدْرُ أَسَدٍ، وَلَوْنُهَا لَوْنُ نَمْرٍ، وَخَاصِرَتُهَا خَاصِرَةُ هِرٍّ، وَذَنْبُهَا ذَنْبُ كَبْشٍ، وَقَوَائِمُهَا قَوَائِمُ بَعِيرٍ، بَيْنَ كُلِّ مَفْصَلَيْنِ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا، تَخْرُجُ مَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ، فَلَا يَبْقَى مُؤْمِنٌ إِلَّا نَكَتَتْ فِي وَجْهِهِ بِعَصَا مُوسَى نُكْتَةً بَيْضَاءَ، فَتَفْشُو تِلْكَ النُّكْتَةُ حَتَّى يَبْيَضَ لَهَا وَجْهُهُ، وَلَا يَبْقَى كَافِرٌ إِلَّا نَكَتَتْ فِي وَجْهِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ بِخَاتَمِ سُلَيْمَانَ، فَتَفْشُو تِلْكَ النُّكْتَةُ حَتَّى يَسْوَدَ بِهَا وَجْهُهُ، حَتَّى إِنَّ النَّاسَ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَسْوَاقِ: بِكُمْ ذَا يَا مُؤْمِنٌ؟ بِكُمْ ذَا يَا كَافِرٌ؟ وَحَتَّى إِذَا أَهْلُ الْبَيْتِ يَجْلِسُونَ عَلَى مَائِدَتِهِمْ فَيَعْرِفُونَ مُؤْمِنَهُمْ مِنْ كَافِرِهِمْ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمُ الدَّابَّةُ: يَا فَلَانُ! أَبَشِرْ؛ أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيَا فَلَانُ! أَنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾<sup>(٨)</sup>.

﴿وَيَوْمَ نَخْتَرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يَكُذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوقِنُونَ﴾<sup>(٩)</sup> حَتَّى إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مَبِصَرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

### [حَشَرُ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَحَشْرِ الظَّالِمِينَ مِنْ

(١) الطبري: ٥٠٠/١٩ (٢) أحمد: ٦/٤ (٣) مسلم: ٤/٢٢٢٥ وأبو داود: ٤٩١/٤ وتحفة الأحوذى: ٤١٣/٦ والنسائي في الكبرى: ٤٥٦/٦ وابن ماجه: ١٣٤١/٢ (٤) مسلم: ٤/٢٢٢٧ (٥) مسلم: ٤/٢٢٦٠ (٦) مسلم: ٤/٢٢٦٧ (٧) مسند الطيالسي: ٣٣٤ إسناده ضعيف فيه علي بن زيد بن جُدعان تقدم حكمه (٨) البغوي: ٤٢٩/٣ ابن أبي حاتم (١٦٥٩٧) ٩/٢٩٢٤ إسناده ضعيف ابن جريج ثقة مدلس ولم يصرح انظر (تقريب ٤٦٩٥) وأيضاً الحسين بن يحيى لم أجد فيه جرحاً ولا تعديلاً.

الْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ إِلَى يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِيَسْأَلَهُمْ عَمَّا فَعَلُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا، وَتَضْغِيرًا وَتَحْقِيرًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَرَجًا﴾ أَي: مِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَفَرَجٍ فَوْجًا أَي: جَمَاعَةً ﴿مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الثُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ يُورَعُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يُذَفَعُونَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: يُسَافُونَ<sup>(٢)</sup>.

﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَهُمْ﴾ وَوَقَفُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَقَامِ الْمُسَاءَلَةِ ﴿قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا أَنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَي: فَيَسْأَلُونَ عَنْ اعْتِقَادِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، فَلَمَّا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَٰحٌ﴾ [٣١] وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى [القيامة: ٣١، ٣٢] فَحِينَئِذٍ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُدْرٌ يَعْتَذِرُونَ بِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [٥] وَلَا يُؤْنَسُ لَهُمْ فَعْتَذِرُونَ... الآية [المسرات: ٣٥، ٣٦]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أَي: بُهَتُوا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ظَلَمَةً لِنَفْسِهِمْ، وَقَدْ رَدُّوا إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الَّتِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ، وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، وَشَأْنِهِ الرَّفِيعِ الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ وَالْإِنْفِيقَادُ لِأَوَامِرِهِ وَتَضْيِيقُ أَنْبِيَائِهِ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا مَجِيدَ عَنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِهِمْ فِيهِ﴾ أَي: فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ لِيَسْكُنَ حَرَكَاتُهُمْ بِسَبَبِهِ وَتَهْدَأَ أَنْفُسُهُمْ، وَيَسْتَرِيحُوا مِنْ نَصَبِ التَّعَبِ فِي نَهَارِهِمْ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أَي: مُبِيرًا مُشْرِقًا، فَيَسْبَبُ ذَلِكَ يَبْصُرُونَ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَكَاسِبِ وَالْأَسْفَارِ وَالتَّجَارَاتِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ شُؤْنِهِمُ الَّتِي يَخْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَمٍّ دَخِيرٌ﴾ [٨٧] وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبًا جَامِدَةً وَهِيَ نَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرَجٍ يَوْمَئِذٍ أَمِثُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالْسَيِّئَةِ فَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ

الْمُؤْمِنُونَ ٣٨٥ سُورَةُ النَّمْلِ  
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرَجٍ يَوْمَئِذٍ أَمِثُونَ ﴿٨٧﴾  
وَمَنْ جَاءَ بِالْسَيِّئَةِ فَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ  
إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعِيدَ رَبُّ هَذِهِ  
الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي  
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ  
لِلَّهِ سَيَرُّكُمْ أَيْلَهُ فَعَرَفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾

### سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُو عَلَيْهِمْ  
مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ  
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ  
طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ  
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا  
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾

[أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَزَاءِ الْحَسَنَةِ وَالْسَيِّئَةِ فِيهِ]  
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ يَوْمِ نَفْخَةِ الْفَرْعِ فِي الصُّورِ، وَهُوَ  
كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «فَرَقٌ يُنْفَخُ فِيهِ». وَفِي حَدِيثِ  
الصُّورِ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ هُوَ الَّذِي يَنْفَخُ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى،  
فَيَنْفَخُ فِيهِ أَوَّلًا نَفْخَةً الْفَرْعِ وَيُطَوِّلُهَا، وَذَلِكَ فِي آخِرِ عُمُرِ  
الدُّنْيَا حِينَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شِرَارِ النَّاسِ مِنَ الْأَحْيَاءِ،  
فَيَفْزَعُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ  
اللَّهُ﴾، وَهُمْ الشُّهَدَاءُ، فَإِنَّهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ<sup>(٣)</sup>.  
رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ بْنُ الْحَجَّاجِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي  
تُحَدِّثُ أَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ،  
أَوْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهُمَا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا

(١) الطبري: ٥٠١/١٩ (٢) الطبري: ٤٣٨/١٩ (٣) الطبراني  
في الطوال: ٣٦

فِيهِ بَعْدَ مَا تَثَبُّتِ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا وَأَمَّا كَيْفِهَا، فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ طَارَتْ الْأَرْوَاحُ: تَتَوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ نُورًا، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ ظُلْمَةً، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَنَرْجِعَنَّ كُلَّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا. فَتَجِيءُ الْأَرْوَاحُ إِلَى أَجْسَادِهَا فَتَدْبُ فِيهَا كَمَا يَدْبُ الشَّمُ فِي اللَّدِيغِ، ثُمَّ يَقُومُونَ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ مِنْ قُبُورِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» [المعارج: ٤٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» أَيُّ: تَرَاهَا كَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ أَيُّ: تَزُولُ عَنْ أَمَاكِينِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا» ① وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ② [الطور: ١٠، ٩]. وَقَالَ تَعَالَى: «وَسَتَلَوُكُمُ عَنِ الْجِبَالِ فَقَدْ بَسَفَهَا رَبِّي سَفَا» ③ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ④ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ⑤ [طه: ١٠٥-١٠٧]. وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» [الكهف: ٤٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ» أَيُّ: يَفْعَلُ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ «الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ» أَيُّ: أَنْفَنَ كُلَّ مَا خَلَقَ، وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا أَوْدَعَ، «إِنَّهُمْ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» أَيُّ: هُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَسَيَجْازِيهِمْ عَلَيْهِ أَمَّ الْجَزَاءِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا» قَالَ قَتَادَةُ: بِالْإِخْلَاصِ ③. وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى فِي الْمَوْضِعِ الْآخِرِ أَنَّ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا «وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ» كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ» [الأنبياء: ١٠٣]. وَقَالَ تَعَالَى: «أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ» [فصلت: ٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى: «وَهُمْ فِي الْفِرْدَوْسِ ءَامِنُونَ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْفَ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ» أَيُّ: مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُسِيئًا لَا حَسَنَةَ لَهُ، أَوْ قَدْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، كُلٌّ بِحَسَبِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «هَلْ يُجْزَوُكُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

«إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَدْوَةُ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَمْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» ④ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ⑤ فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ

أَحَدَتِ أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلْتُ: إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا، يُخَرَّبُ النَّبِيُّ، وَيَكُونُ وَيَكُونُ - ثُمَّ قَالَ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمِّي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بَنِ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَيْدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ» قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يَنْكُرُونَ مُنْكَرًا، فَيَمَثَلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا - قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ: الطَّلُّ، نُعْمَانُ الشَّائِكُ - فَتَبْنِي مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ: هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ» وَفَقُوهَرُ ① لَهُمْ سَمْعُولُونَ ② [الصافات: ٢٤] ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرَجُوا بَعَثَ النَّارَ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمَائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ «يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» [المزمل: ١٧] وَذَلِكَ يَوْمٌ «يُكْشَفُ عَنْ سَائِي» ③ [القلم: ٤٢].

وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا». اللَّيْتُ: هُوَ صَفْحَةُ الْعُنُقِ، أَيُّ: أَمَالُ عُنُقِهِ، لِيَسْتَمِعَهُ مِنَ السَّمَاءِ جِدًّا، فَهَذِهِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ وَهُوَ الْمَوْتُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِزَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُوَ النُّشُورُ مِنَ الْقُبُورِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَكُلُّ أَتَوَّهٍ دَخِرِينَ» ④ فَرَىءَ بِالْمَدِّ وَبِعَبْرِهِ عَلَى الْفِعْلِ، وَكُلٌّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَ«دَخِرِينَ» أَيُّ: ضَاغِرِينَ مُطْبِعِينَ، لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنْ أَمْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ» [الأنبياء: ٥٢]. وَقَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» [الروم: ٢٥] وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ ⑤ أَنَّهُ فِي النَّفْخَةِ الثَّلَاثَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ فَتَوْضَعُ فِي نُقُبٍ فِي الصُّورِ، ثُمَّ يُنْفَخُ إِسْرَافِيلُ

(١) مسلم: ٢٢٥٨/٤ (٢) الطبراني في الطوال: ٣٦ (٣) الطبراني: ٥٠٨/١٩

الْمُنذِرِينَ ﴿١٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنِ الظُّلْمِ وَأَمَّا رَبُّكَ بِغَفِلٍ  
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

[الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالِدَعْوَةُ بِالْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ وَأَمْرًا لَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿إِنَّمَا  
أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلْ  
شَيْءًا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ  
دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي  
يَتَوَفَّكُمُ﴾ [يونس: ١٠٤] وَإِصَافَةُ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَى الْبَلَدَةِ عَلَى  
سَبِيلِ التَّشْرِيفِ لَهَا وَالْإِعْتِنَاءِ بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَلَدِ﴾ [١] أَلَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ  
وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش: ٤، ٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي  
حَرَّمَهَا﴾ أَي: الَّذِي إِتِمَّا صَارَتْ حَرَامًا شَرْعًا وَقَدَرًا،  
بِتَحْرِيمِهِ لَهَا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ  
حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ  
اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْقَرُ صَيْدُهُ، وَلَا  
يُلْقَطُ لِقَطْعَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا» الْحَدِيثُ  
بِتَمَامِهِ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَالْحَسَانِ وَالْمُسَانِيدِ مِنْ  
طُرُقٍ جَمَاعَةٍ تَقْيِيدُ الْقَطْعِ<sup>(٢)</sup>. كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ  
كِتَابِ الْأَحْكَامِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ كُلْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ  
عَلَى الْخَاصِّ، أَي: هُوَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ  
وَمَلِكُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾  
أَي: الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُتَقَادِينَ لِأَمْرِ الْمُطِيعِينَ لَهُ.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ أَي: عَلَى النَّاسِ أُنَبِّئُهُمْ بِآيَةِ  
كَفَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾  
[آل عمران: ٥٨] وَكَفَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى  
وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ... الْآيَةُ [القصص: ٣]، أَي: أَنَا مُبَلِّغٌ  
وَمُنذِرٌ، ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا  
أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَي: لِي أَسْوَءُ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ،  
وَقَامُوا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ آدَاءِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ، وَخَلَصُوا مِنْ  
عُقُوبَتِهِمْ. وَجَسَابُ أُمَمِهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا  
أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنِ الظُّلْمِ﴾ فَعَرَفُونَهَا<sup>(٣)</sup> أَي: اللَّهُ الْحَمْدُ  
الَّذِي لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَالْإِنْذَارُ

إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَكَ إِلَهِي فَعَرَفُونَهَا﴾ كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَكَ إِلَهِي فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ  
لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَي: بَلْ هُوَ  
شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ  
تَعَالَى أَنَّهُ كَانَ يُنْشِدُ هَذَيْنِ الْبَيِّنَتَيْنِ - إِمَّا لَهُ وَإِمَّا لِغَيْرِهِ -:  
إِذَا مَا خَلَقْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ  
خَلَوْتُ، وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ  
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً  
وَلَا أَنَّ مَا بَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ  
أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّمْلِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَصَصِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ مُعْلِكِ بْنِ  
قَالَ: أَتَيْتَا عَبْدَ اللَّهِ فَسَأَلْنَاهُ أَنْ يَرْفَأَ عَلَيْنَا ﴿طَسَدَ﴾ الْمَائَتَيْنِ،  
فَقَالَ: مَا هِيَ مَعِيَ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمَنْ أَخَذَهَا مِنْ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ، خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ، قَالَ: فَأَتَيْنَا خَبَّابَ بْنَ الْأَرْتِّ  
فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٣)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَدَ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ  
مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي  
الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ  
وَيَسْتَحْيِي بَنِيَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى  
الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ  
الْوَارِثِينَ ﴿٤﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ  
وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٥﴾

[نَبَأُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنُ وَمَا أَرَادَ اللَّهُ لِقَوْمِهِمَا]  
قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَقَوْلُهُ:

(١) فتح الباري: ٥٦/٤ (٢) مسلم: ٩٨٦/٢ وأبو داود: ٢/٥١٨ والنسائي: ٢٠٣/٥ وابن ماجه: ١٠٣٨/٢ وأحمد: ٢٥٣/١  
(٣) أحمد: ٤١٩/١ إسناده ضعيف فيه معديكر الهمداني لم يرو عنه إلا أبو إسحاق السبيعي ترجمه البخاري في التاريخ الكبير وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ولم يذكره فيه جرحاً ولا تعديلاً وذكره ابن حبان في الثقات ولم يؤثر توثيقه عن غيره وأبو إسحاق مدلس مختلط.

خَافَتْ الْفِطْرُ أَنْ يَفْتَى بَنُو إِسْرَائِيلَ، قِيلَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: إِنَّهُ يُوشِكُ - إِنْ اسْتَمَرَّ هَذَا الْحَالُ - أَنْ يَمُوتَ شُبُوحُهُمْ، وَعِلْمَانُهُمْ يُقْتَلُونَ. وَنِسَاؤُهُمْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ [يَقْمَنَ] بِمَا تَقُومُ بِهِ رِجَالُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ - فَيُخَلِّصَ إِلَيْنَا ذَلِكَ، فَأَمَرَ بِقَتْلِ الْوُلْدَانِ عَامًا وَتَرْكِهِمْ عَامًا، فَوُلِدَ هَارُونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّنَةِ الَّتِي يَتَرَكُونَ فِيهَا الْوُلْدَانِ، وَوُلِدَ مُوسَى فِي السَّنَةِ الَّتِي يَقْتُلُونَ فِيهَا الْوُلْدَانِ، وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ نَاسٌ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ، وَقَوَائِلُ يَذُرْنَ عَلَى النَّسَاءِ، فَمَنْ رَأَيْتَهَا قَدْ حَمَلَتْ أَحْصُوا اسْمَهَا، فَإِذَا كَانَ وَقْتُ وَلَادَتِهَا لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا نِسَاءُ الْفِطْرِ، فَإِنْ وَلَدَتْ الْمَرْأَةُ جَارِيَةً تَرَكْنَهَا وَذَهَبْنَ، وَإِنْ وَلَدَتْ غُلَامًا دَخَلَ أُولَئِكَ الذَّبَّاحُونَ، بِأَيْدِيهِمُ الشُّقَارُ الْمُرْهَقَةُ فَفَتَنُوهُ وَمَضَوْا. فَجَبَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

فَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهَا مَخَايِلُ الْحَمْلِ كَغَيْرِهَا، وَلَمْ تَقْطُنْ لَهَا الدَّيَّاتُ، وَلَكِنْ لَمَّا وَضَعَتْهُ ذَكَرًا ضَاقَتْ بِهِ ذَرْعًا، وَخَافَتْ عَلَيْهِ خَوْفًا شَدِيدًا، وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا زَائِدًا، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ، فَالَسَّعِيدُ مَنْ أَحَبَّهُ طَبْعًا وَشَرْعًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩].

[مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَارِ فِرْعَوْنَ]

فَلَمَّا ضَاقَتْ بِهِ ذَرْعًا، أَلْهِمَتْ فِي سِرِّهَا، وَأُلْقِيَتْ فِي خَلْدِهَا، وَنُفِثَ فِي رُوعِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمِيهِ فِي الْبَيْتِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٧] فَالْتَفَطَهُ، أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنِ وَخَوْدُهُمَا كَانُوا خَطِيئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أَمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَّ لَا نَفْسَلُوهُ عَيْنِي أَنْ يَفْعَنَّا أَوْ نَسْخِذَهُمُ وَلَكَّا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾ [إِبْرَاهِيمُ التَّنْبِيْهِ إِلَى أُمِّ مُوسَى]

ذَكَرُوا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَكْثَرَ مِنْ قَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،

﴿تِلْكَ﴾ أَيُّ: هَذِهِ ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أَيُّ: الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الْكَاشِفِ عَنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ، وَعِلْمٍ مَا قَدْ كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَحْنُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾... الْآيَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أَيُّ: نَذْكُرُ لَكَ الْأَمْرَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ كَأَنَّكَ تَشَاهِدُ وَكَأَنَّكَ حَاضِرٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَطَعَى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ أَيُّ: أَضْغَاةً قَدْ صَرَفَ كُلَّ صِنْفٍ فِيْمَا يُرِيدُ مِنْ أُمُورِ دَوْلَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَضِيعُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يَغْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ خِيَارَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، هَذَا وَقَدْ سَلَطَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ، وَيَكْدُهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي أَشْعَالِهِ وَأَشْعَالِ رَعِيَّتِهِ، وَيَقْتُلُ مَعَ هَذَا أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ؛ إِهَانَةً لَهُمْ وَاحْتِقَارًا، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ الْعُلَامُ الَّذِي كَانَ قَدْ تَخَوَّفَ هُوَ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ مِنْهُ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ غُلَامٌ، يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِ وَذَهَابِ دَوْلَتِهِ عَلَى يَدَيْهِ. فَاخْتَرَزَ فِرْعَوْنَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرِهِ؛ لِأَنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرُئِيَ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِيعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَحْذَرُونَ﴾ وَقَدْ فَعَلَ تَعَالَى ذَلِكَ بِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَاعُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] أَرَادَ فِرْعَوْنَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ أَنْ يَنْجُو مِنْ مُوسَى، فَمَا نَفَعَهُ ذَلِكَ مَعَ قُدْرَةِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالِفُ أَمْرُهُ الْقُدْرَتِي وَلَا يُغْلِبُ، بَلْ نَفَذَ حُكْمَهُ، وَجَرَى قَلَمُهُ فِي الْقَدَمِ بِأَنْ يَكُونَ هَلَاكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدَيْهِ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمِيهِ فِي الْبَيْتِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فَالْتَفَطَهُ، أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنِ وَخَوْدُهُمَا كَانُوا خَطِيئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أَمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَّ لَا نَفْسَلُوهُ عَيْنِي أَنْ يَفْعَنَّا أَوْ نَسْخِذَهُمُ وَلَكَّا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾

[إِبْرَاهِيمُ التَّنْبِيْهِ إِلَى أُمِّ مُوسَى]

ذَكَرُوا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَكْثَرَ مِنْ قَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ،



الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٨٦

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلًا وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ ۚ فَلَنَلْقَاهُ ۖ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلًا وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٧﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾ فَوَادُّ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِعًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ ۖ فَصْبِرِي ۖ بَصُرْتُ بِهِ ۖ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ ﴿١١﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ۖ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾

وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ ۖ فَصْبِرِي ۖ أَي: أَمَرْتُ ابْنَتَهَا وَكَانَتْ كَبِيرَةً نَعِيَ مَا يُقَالُ لَهَا، فَقَالَتْ لَهَا: ۖ فَصْبِرِي ۖ أَي: اتَّبِعِي أَمْرَهُ، وَخُذِي خَيْرَهُ، وَتَطْلُبِي شَأْنَهُ مِنْ نَوَاجِي الْبَلَدِ، فَخَرَجَتْ لِذَلِكَ ۖ فَصَبَرَتْ بِهِ ۖ عَنْ جُنُبٍ ۖ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَنْ جَانِبٍ. (٢) وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَصُرْتُ بِهِ ۖ عَنْ جُنُبٍ: عَنْ بَعْدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: جَعَلْتُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَانَهَا لَا تَرِيدُهُ. (٣)

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَارِ فِرْعَوْنَ وَأَحْبَبَتْهُ امْرَأَةُ الْمَلِكِ وَاسْتَطْلَقَتْهُ مِنْهُ، عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ الَّتِي فِي دَارِهِمْ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجُوا بِهِ إِلَى السُّوقِ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ امْرَأَةً تَضْلُجُ لِرِضَاعَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ بِأَيْدِيهِمْ عَرَفَتْهُ، وَلَمْ تَظْهَرْ ذَلِكَ وَلَمْ يَشْعُرُوا بِهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ۖ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ۖ أَي: تَحْرِيمًا قَدْرِيًّا، وَذَلِكَ لِكَرَامَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَصِيَانَتِهِ

بِعَلِّيَّهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ۖ فَالْقَطْعَةُ ۖ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ الْآيَةُ، قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: اللَّامُ هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ، لَا لَامُ التَّعْلِيلِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِالْقَطْعِ ذَلِكَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ ظَاهِرَ اللَّفْظِ يَقْتَضِي مَا قَالُوهُ، وَلَكِنْ إِذَا نُظِرَ إِلَىٰ مَعْنَى السِّيَاقِ، فَإِنَّهُ تَبَقَّى اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَيَّضَهُمْ لِاتِّقَاطِهِ لِيَجْعَلَهُ عَدُوًّا لَهُمْ وَحَزَنًا فَيَكُونُ أَبْلَغَ فِي إِبْطَالِ حَذَرِهِمْ مِنْهُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ۖ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلًا وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۖ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ۖ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ۖ... الْآيَةُ، يَعْنِي أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا رَأَاهُ هَمَّ بِقَتْلِهِ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَشَرَعَتْ امْرَأَتُهُ أَسِيَّةُ بِنْتُ مُزَاجِمٍ تَخَاصُمَ عَنْهُ وَتَذُبُّ دُونَهُ وَتُحِبُّهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: ۖ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ۖ فَقَالَ فِرْعَوْنُ: أَمَا لَكَ فَتَعَمَّ، وَأَمَّا لِي فَلَا، فَكَانَ كَذَلِكَ، وَهَذَا اللَّهُ بِسَبَبِهِ وَأَهْلَكَهُ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ. وَقَوْلُهُ: ۖ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ۖ وَقَدْ حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ، وَهَذَا اللَّهُ بِهِ وَأَسْكَنَهَا الْجَنَّةَ بِسَبَبِهِ. وَقَوْلُهُ: ۖ أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا ۖ أَي: أَرَادَتْ أَنْ تَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَتَتَّبِعَاهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ۖ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ أَي: لَا يَذَرُونَ مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْهُ بِالِاتِّقَاطِ مِنْهُ إِيَّاهُ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ.

ۖ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِعًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ ۖ فَصْبِرِي ۖ فَصَبَرَتْ بِهِ ۖ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ ﴿١١﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ۖ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾

[شِدَّةُ حَزْنِ أُمِّ مُوسَىٰ وَرَجُوعُهُ إِلَيْهَا]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ فُؤَادِ أُمِّ مُوسَىٰ حِينَ ذَهَبَ وَلَدُهَا فِي الْبَحْرِ أَنَّهُ أَصْبَحَ فَارِعًا، أَي: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ مُوسَى. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١)</sup>. ۖ إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ ۖ أَي: إِنْ كَادَتْ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِهَا وَحُزْنِهَا وَأَسْفَافِهَا لَتُظْهَرْ أَنَّهُ ذَهَبَ لَهَا وَلَدٌ، وَتُخْبِرُ بِحَالِهَا لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ ثَبَّتَهَا وَصَبَّرَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ۖ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾

(١) الطبري: ٥٢٩/١٩ (٢) الطبري: ٥٣٢/١٩ (٣) الطبري: ٥٣٢/١٩

الْمُرْسَلِينَ

٣٨٧

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَاسْتَوَىٰ ءَايَتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ يُعْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصْرَهٗ يَأْتِيكَ بِسَبْعَةِ رُحَلٍ قَالَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ لِتَنُفِّسِنَا يَوْمًا يَا لَمْسَ إِتْرِبِيدٍ أَنْ تَكُونَ جَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا نَرِيدُ أَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّكَ أَلَمَلَا بِأَعْمُرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

[قَتَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِّنَ الْقَبِيلِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مَبْدَأَ أَمْرِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ، آتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا. قَالَ مُجَاهِدٌ: بِغَيْبِ النَّبُوَّةِ <sup>(١)</sup> وَكَذَٰلِكَ يُعْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَىٰ سَبَبَ وَصُولِهِ إِلَى مَا كَانَ تَعَالَىٰ قَدَرَهُ لَهُ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالتَّكْلِيمِ فِي قَضِيَّةٍ قَتَلَهُ فِيهَا الْقَبِيلِيُّ الَّذِي كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى بِلَادِ مَدْيَنَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا» قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ

لَهُ أَنْ يَرْتَضِعَ غَيْرَ نَدِيٍّ أُمِّهِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ ذَٰلِكَ سَبَبًا إِلَى رُجُوعِهِ إِلَى أُمِّهِ لِتَرْضِعَهُ، وَهِيَ أَمِنَةٌ بَعْدَ مَا كَانَتْ خَائِفَةً، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ [أُخْتَهُ] حَاثِرِينَ فِيمَنْ يَرْضِعُهُ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا قَالَتْ ذَٰلِكَ، أَخَذَوْهَا وَشَكُّوا فِي أَمْرِهَا، وَقَالُوا لَهَا: وَمَا يُدْرِيكَ بِنُصِيحِهِمْ لَهُ وَشَفَقَتِهِمْ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ لَهُمْ: نُصَحُّهُمْ لَهُ وَشَفَقْتُهُمْ عَلَيْهِ: رَغَبْتُهُمْ فِي سُرُورِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءُ مَنْفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوهَا.

فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَٰلِكَ وَخَلَصَتْ مِنْ أَذَاهُمْ، ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَتَرِلِهِمْ فَدَخَلُوا بِهِ عَلَى أُمِّهِ فَأَعْطَتْهُ نَدِيَّهَا فَالْتَقَمَتْهُ، فَفَرَحُوا بِذَٰلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى امْرَأَةِ الْمَلِكِ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَىٰ وَأَحْسَنْتَ إِلَيْهَا وَأَعْطَتْهَا عَطَاءَ جَزِيلًا، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ لِكُونِهِ وَافِقٌ نَدِيَّهَا، ثُمَّ سَأَلَتْهَا أَسِيَّةُ أَنْ تُقِيمَ عِنْدَهَا فَتَرْضِعَهُ، فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنْ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْمَقَامِ عِنْدِكَ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ أُزْضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ، فَأَجَابَتْهَا امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى ذَٰلِكَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا التَّقَفَّةَ وَالصَّلَاتِ وَالْكَسَاوِي، وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ، فَرَجَعَتْ أُمُّ مُوسَىٰ بِوَلَدِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَدْ أَبْدَلَهَا اللَّهُ بَعْدَ خَوْفِهَا أَمْنًا فِي عِزٍّ وَجَاهٍ، وَرِزْقٍ دَارٍ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الشَّدَةِ وَالْفَرَجِ إِلَّا الْقَلِيلُ: يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ أَوْ نَحْوُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَسُبْحَانَ مَنْ بِيَدِهِ الْأُمُورُ، مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، الَّذِي يَجْعَلُ لِمَنْ اتَّقَاهُ بَعْدَ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَبَعْدَ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا، وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى: «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آثِمِهِ كَمَا تَقَرَّرَ عَيْتُهَا» أَيُّ: بِهِ «وَلَا تَخَزَنَ» أَيُّ: عَلَيْهِ «وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ» أَيُّ: فِيمَا وَعَدَهَا مِنْ رَدِّهِ إِلَيْهَا وَجَعْلِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَحِينَئِذٍ تَحَقَّقَتْ بَرْدُهُ إِلَيْهَا أَنَّهُ كَانَتْ مِنْهُ رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَعَامَلَتْهُ فِي تَرْبِيَّتِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ طَبْعًا وَشَرْعًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أَيُّ: حَكَمَ اللَّهُ فِي أَعْمَالِهِ وَعَوَاقِبِهَا الْمَحْمُودَةِ الَّتِي هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَرُبَّمَا يَقَعُ الْأَمْرُ كَرِيحًا إِلَى النُّفُوسِ وَعَاقِبَتُهُ مَحْمُودَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ» [البقرة: ٢١٦] وَقَالَ تَعَالَى: «فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» [النساء: ١٩].

«وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَايَتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ يُعْزِي

سورة القصص

٣٨٨

سورة القصص

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ عَلَىٰ يَدِ عُنُوكَ لِبَجَزٍ بَلَا آجَرًا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَ هُوَ قَضَىٰ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبْتَائِبُ اسْتَعِجْرِي إِنَّكِ خَيْرٌ مِنَ اسْتَعِجَرَتِ الْقَوَى الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمْلِكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرِنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لِذَلِكَ.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْشِي عَلَى الْغَلَاءِ بِأَتَمَرُونَ يَكُ لِقَتْلُوكَ فَآخُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢٢﴾  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ وَصَفَهُ بِالرَّجُولِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ، فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِ الدِّينِ بَعُثُوا وَرَاءَهُ، فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ لَهُ: يَا مُوسَى: ﴿إِنَّكَ الْمَلَأُ بِأَتَمَرُونَ بِكَ﴾: أَيُّ: يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ ﴿لِقَتْلُوكَ فَآخُجْ﴾: أَيُّ: مِنَ الْبَلَدِ ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

(١) الطبري: ٥٣٨/١٩ إسناده ضعيف ابن جريج مدلس ولم يصرح بالسماع والسند إليه ضعيف فيه الحسين بن داود المصيصي الذي كان يلقي شيخه الحجاج مَرَّ ذَكَرَهُ (٢) الطبري: ٥٣٨/١٩ إسناده ضعيف ابن جريج مدلس ولم يصرح بالسماع والسند إليه ضعيف فيه الحسين بن داود المصيصي الذي كان يلقي شيخه الحجاج مَرَّ ذَكَرَهُ قَبْلُ (٣) الطبري: ٥٣٩/١٩ (٤) الطبري: ٥٣٩/١٩، ٥٤٠ (٥) الطبري: ٥٤٠/١٩

عَطَاءَ الْخُرَّاسَانِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَذَلِكَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ الْمُثَنِّكِيرِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ ذَلِكَ يَصِفُ النَّهَارَ <sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾: أَيُّ: يَتَضَارَبَانِ وَيَتَنَازَعَانِ هَذَا مِنْ شَعْبِهِ. أَيُّ: إِسْرَائِيلِيٌّ ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾: أَيُّ: قِبْطِيٌّ <sup>(٣)</sup>. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ <sup>(٤)</sup>: فَاسْتَعَاثَ الْإِسْرَائِيلِيُّ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوَجَدَ مُوسَى فُرْصَةً، وَهِيَ غَفْلَةُ النَّاسِ، فَعَمَدَ إِلَى الْقِبْطِيِّ ﴿فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَوَكَّرَهُ﴾: أَيُّ: طَعَنَهُ بِجُمُوعِ كَفِّهِ <sup>(٥)</sup>. ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾: أَيُّ: كَانَ فِيهَا حَقُّهُ، فَمَاتَ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَمَمْتَ عَلَيَّ أَيُّ: بِمَا جَعَلْتَ لِي مِنَ الْجَاءِ وَالْعَزِّ وَالتَّعَمَّةِ ﴿فَلَنْ أَكُونُ ظَهِيرًا﴾: أَيُّ: مُعِينًا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾: أَيُّ: الْكَافِرِينَ بِكَ، الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِكَ.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالْأَزَى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْشِي أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ

النَّاصِحِينَ ﴿٢٧﴾

[فَشَوْ سِرَّ الْقَتْلِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَتَلَ ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ أَنَّهُ أَصْبَحَ ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾: أَيُّ: مِنْ مَعْرِةِ مَا فَعَلَ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: أَيُّ: يَتَلَقَّصُ وَيَتَوَقَّعُ مَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَمَرَّ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، فَإِذَا ذَلِكَ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ عَلَى ذَلِكَ الْقِبْطِيِّ يُقَاتِلُ آخَرَ، فَلَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ مُوسَى اسْتَصْرَحَهُ عَلَى الْآخَرِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾: أَيُّ: ظَاهِرُ الْغَوَايَةِ كَثِيرُ الشَّرِّ، ثُمَّ عَزَمَ مُوسَى عَلَى الْبَطْشِ بِذَلِكَ الْقِبْطِيِّ، فَاعْتَمَدَ الْإِسْرَائِيلِيُّ لِحَزْرِهِ وَضَعْفِهِ وَذَلِيلَتِهِ أَنَّ مُوسَى إِنَّمَا يُرِيدُ قَضَاءَهُ لَمَّا سَمِعَهُ يَقُولُ ذَلِكَ، فَقَالَ يَذْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿يَمْشِي أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ إِلَّا هُوَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا سَمِعَهَا ذَلِكَ الْقِبْطِيُّ لَقَفَهَا مِنْ فَمِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ وَأَلْفَاها عِنْدَهُ، فَعَلِمَ فِرْعَوْنُ بِذَلِكَ، فَاسْتَدَّ حَقَّهُ، وَعَزَمَ عَلَى قَتْلِ مُوسَى، فَطَلَبُوهُ فَبَعُثُوا وَرَاءَهُ لِيُحْضِرُوهُ

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ  
وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا  
سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرِّعَاءَ وَأَوْبَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا  
ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ  
فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

[مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَدْيَنَ وَسَقَىٰهُ أَغْنَامَ امْرَأَتَيْنِ]  
لَمَّا أَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِمَا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَدَوَّلَتْهُ فِي  
أَمْرِهِ، خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَخَدَهُ، وَلَمْ يَأْلَفْ ذَلِكَ قَبْلَهُ بَلْ كَانَ  
فِي رِفَاهِيَّةٍ وَنَعْمَةٍ وَرِيَاسَةٍ ﴿خَرَجَ مِنْهَا حَافِيًا يَدْفُقُ﴾ أَيُّ:  
يَتَلَفَّتُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: مِنْ فِرْعَوْنَ  
وَمَلِكِهِ، فَذَكَرُوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا عَلَى  
فَرْسٍ، فَأَرْشَدَهُ إِلَى الطَّرِيقِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿وَلَمَّا نَوَّجَهُ بِلِقَاءِ  
مَدْيَنَ﴾ أَيُّ: أَخَذَ طَرِيقًا سَالِكًا مَهْيَعًا، فَرِحَ بِذَلِكَ ﴿قَالَ  
عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: الطَّرِيقِ الْأَقْوَمَ،  
فَفَعَلَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ وَهَدَاهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ، فَجَعَلَهُ هَادِيًا مَهْدِيًا ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أَيُّ:  
لَمَّا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ وَوَرَدَ مَاءَهَا، وَكَانَ لَهَا بِئْرٌ يَرُدُّ رِعَاءَ  
الشَّاءِ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أَيُّ: جَمَاعَةٌ  
يَسْقُونَ، ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أَيُّ:  
تُكْفِكِفَانِ غَنَمَهُمَا أَنْ تَرُدَّ مَعَ غَنَمِ أَوْلَيْكَ الرِّعَاءَ؛ لِئَلَّا  
يُؤْذِنَا ﴿\*)﴾، فَلَمَّا رَأَاهُمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَقَّ لَهُمَا  
وَرَجَحَهُمَا ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ أَيُّ: مَا خَبَرُكُمَا لَا تَرِدَانِ مَعَ  
هَؤُلَاءِ؟ ﴿قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرِّعَاءَ﴾ أَيُّ: لَا يَحْضُلُ  
لَنَا سَقَىٰ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ هَؤُلَاءِ ﴿وَأَوْبَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أَيُّ:  
فَهَذَا الْحَالُ الْمُلْجِئُ لَنَا إِلَى مَا تَرَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ  
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
وَابْنُ مَسْعُودٍ وَالسُّدِّيُّ: جَلَسَ تَحْتَ شَجَرَةٍ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَطَاءُ  
ابْنُ السَّائِبِ لَمَّا قَالَ مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ  
خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أَسْمَعَ الْمَرْأَةَ <sup>(٢)</sup>.

﴿لِقَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ  
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ  
قَالَ لَا تَحْضُرْ بَهَوَاتٍ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا  
يَتَأْتِيَّ اسْتَجْرَةً إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ  
إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي كُنُيَ

جِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ  
عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ  
بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

[مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ يَدَيْ وَالِدِ الْمَرَأَتَيْنِ وَنِكَاحُ  
مُوسَى بِإِحْدَاهُمَا عَلَى أَجْرَةٍ رَغِي الْغَنَمِ]  
لَمَّا رَجَعَتِ الْمَرَأَتَانِ سَرِيعًا بِالْغَنَمِ إِلَى أَبِيهِمَا، أَتَا  
حَالَهُمَا بِسَبَبِ مَجِيئِهِمَا سَرِيعًا، فَسَأَلَهُمَا عَنْ خَبَرِهِمَا،  
فَقَصَصْنَا عَلَيْهِ مَا فَعَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَعَثَ إِحْدَاهُمَا  
إِلَيْهِ؛ لِتَدْعُوهُ إِلَى أَبِيهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِقَاءَهُ إِحْدَاهُمَا  
تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أَيُّ: مَشَى الْحَرَائِرِ. كَمَا رُوِيَ عَنْ  
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كَانَتْ مُسْتَجِرَةً  
بِكُنْزِ دُرْعَةٍ <sup>(٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ  
قَالَ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ  
قَائِلَةً بِتُوبِهَا عَلَى وَجْهِهَا - لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ مِنَ النِّسَاءِ -  
وَلَا جَةَ خَرَجَةٍ <sup>(٤)</sup>. هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ:  
السَّلْفَعُ مِنَ الرِّجَالِ: الْجَسُورُ، وَمِنْ النِّسَاءِ: [الْجَرِيَّةُ]  
السَّيْلُطَةُ، وَمِنْ الثُّوقِ: الشَّدِيدَةُ. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ  
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وَهَذَا تَأْدُبٌ فِي الْعِبَارَةِ لَمْ  
تَطْلُبْهُ طَلَبًا مُطْلَقًا؛ لِئَلَّا يُؤْهِمَ رَبِيَّةً، بَلْ قَالَتْ: إِنَّ أَبِي  
يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا، يَعْنِي: لِيُثَبِّتَكَ وَيُكَافِئَكَ  
عَلَى سَقَاكِ لِغَنَمِنَا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أَيُّ:  
ذَكَرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَمَا جَرَى لَهُ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي خَرَجَ  
مِنْ أَجْلِهِ مِنْ بَلَدِهِ ﴿قَالَ لَا تَحْضُرْ بَهَوَاتٍ مِنَ الْقَوْمِ  
الظَّالِمِينَ﴾ يَقُولُ: طِبَّ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا، فَقَدْ خَرَجْتَ مِنْ  
مَمْلَكَتِهِمْ، فَلَا حُكْمَ لَهُمْ فِي بِلَادِنَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَهَوَاتٍ  
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَتَأْتِيَّ اسْتَجْرَةً إِنَّ خَيْرَ  
مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى﴾ أَيُّ: قَالَتْ إِحْدَى ابْنَتَي هَذَا الرَّجُلِ.  
قِيلَ: هِيَ الَّتِي ذَهَبَتْ وَرَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَتْ  
لِأُخِيهَا: ﴿يَتَأْتِيَّ اسْتَجْرَةً﴾ أَيُّ: لِرِغْبَةِ هَذِهِ الْغَنَمِ. قَالَ عُمَرُ  
وَابْنُ عَبَّاسٍ وَشُرَيْحُ الْقَاضِي وَأَبُو مَالِكٍ وَقَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ

(\*) كذا عندنا في النسخ: يُؤذِنَا، والأصل أن يكون: تُؤذِنَا  
برجوع الضمير إلى المرأتين (١) الطبري: ٥٥٦/١٩ (٢)  
الطبري: ٥٥٧/١٩ (٣) الطبري: ٥٥٨/١٩ (٤) الطبري:  
٥٥٩/١٩

الْبَقْعَةِ

٣٨٩

سُورَةُ الْقَصَصِ

﴿١٦﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَالْيَسَعَ وَادْعُوا إِلَهُكُمْ رَبَّهُمْ فَأَنذَرَهُمْ نَارَهُمْ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلِي مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا خَفَ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿١٨﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٠﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢١﴾ قَالَ سَنُنَصِّرُكَ يَا أَخِي إِنَّهُ لَمِنَّا فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَالْيَسَعَ وَادْعُوا إِلَهُكُمْ رَبَّهُمْ فَأَنذَرَهُمْ نَارَهُمْ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلِي مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا خَفَ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٢٢﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٤﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٥﴾ قَالَ سَنُنَصِّرُكَ يَا أَخِي إِنَّهُ لَمِنَّا فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَالْيَسَعَ وَادْعُوا إِلَهُكُمْ رَبَّهُمْ فَأَنذَرَهُمْ نَارَهُمْ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلِي مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا خَفَ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٢٦﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾

أَذْرِي حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى خَبَرِ الْعَرَبِ فَأَسْأَلُهُ، فَقَدِمْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: قَضَى أَكْثَرُهُمَا وَأَطْيَبُهُمَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِذَا قَالَ فَعَلَ. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤).

﴿١٦﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَالْيَسَعَ وَادْعُوا إِلَهُكُمْ رَبَّهُمْ فَأَنذَرَهُمْ نَارَهُمْ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلِي مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا خَفَ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿١٨﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٩﴾

(١) الطبري: ٥٦٢/١٩-٥٦٤ (٢) ابن أبي شيبه: ٥٧٤/١٤ (المستدرک) (٣٣٧٣) فيه مدلسان سفيان الثوري وأبو إسحاق السبيعي ولم يصرحا بالسماع وأبو عبيدة لا يصح سماعه من أبيه على الراجح كما قال ابن حجر في التقریب (٣) أحمد: ٤٩٣/٣ والنسائي: ١٨٥/٤ (٤) فتح الباري: ٣٤٢/٥

إِسْحَاقَ وَغَيْرَ وَاحِدٍ: لَمَّا قَالَتْ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينَ﴾ قَالَ لَهَا أَبُو هَاشِمٍ: وَمَا عَلِمْتُكَ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ لَهُ: إِنَّهُ رَفَعَ الصَّخْرَةَ الَّتِي لَا يُطِيقُ حَمْلَهَا إِلَّا عَشْرَةُ رِجَالٍ، وَإِنِّي لَمَّا جِئْتُ مَعَهُ تَقَدَّمْتُ أَمَامَهُ فَقَالَ لِي: كُونِي مِنْ وَرَائِي، فَإِذَا اخْتَلَفَ عَلَيَّ الطَّرِيقُ فَأَخِذِي لِي بِحَصَاةٍ، أَعْلَمُ بِهَا كَيْفَ الطَّرِيقُ لِأَهْتَدِيَ إِلَيْهِ (١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - قَالَ: أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةً: أَبُو بَكْرٍ حِينَ تَفْرَسَ فِي عَمْرٍ، وَصَاحِبُ يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿أَكْزِرِي مَتَوْنَهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وَصَاحِبَةُ مُوسَى حِينَ قَالَتْ: ﴿يَتَابَعَتِ اسْتَجْرَةً إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينَ﴾ (٢).

قَالَ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتُكَلِّمَكَ لِخُدَى ابْنَتِي هَتَيْنِ﴾ أَيُّ: طَلَبَ إِلَيْهِ هَذَا الرَّجُلُ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ أَنْ يَرْعَى غَنَمَهُ وَيُزَوِّجَهُ إِخْدَى ابْنَتَيْهِ هَاتَيْنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمْنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أَيُّ: عَلَى أَنْ تَرْعَى غَنَمِي ثَمَانِي سِنِينَ، فَإِنْ تَبَرَّعْتَ بِزِيَادَةِ سَنَتَيْنِ فَهُوَ إِلَيْكَ، وَإِلَّا فَمِنِ الثَّمَانِ كِفَايَةً ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيُّ: لَا أَشَاقُكَ وَلَا أُوَادِّكَ وَلَا أُمَارِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يَقُولُ: إِنَّ مُوسَى قَالَ لِصِهره: الْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتُ مِنْ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَى ثَمَانِ سِنِينَ، فَإِنْ أَتَمَمْتُ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِي، فَإِنَّا مَتَى فَعَلْتُ أَفْلَهُمَا فَقَدْ بَرَأْتُ مِنَ الْعَهْدِ، وَخَرَجْتُ مِنَ الشَّرْطِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ﴾ أَيُّ: فَلَا خَرَجَ عَلَيَّ، مَعَ أَنَّ الْكَامِلَ وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا لَكِنَّهُ فَاضِلٌ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى بِدَلِيلٍ مِنْ خَارِجٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَمْرَةَ بِنِ عَمْرِو الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ كَثِيرَ الصِّيَامِ، وَسَأَلَهُ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ: «إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَافْطِرْ» (٣). مَعَ أَنَّ فَعَلَ الصِّيَامِ رَاجِعٌ مِنْ ذَلِيلٍ آخَرَ، هَذَا، وَقَدْ ذَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِثْمًا فَعَلَ أَكْمَلَ الْأَجَلَيْنِ وَأَتَمَّهُمَا.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْحَبِيرَةِ: أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَىٰ مُوسَى؟ فَقُلْتُ: لَا

مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ  
بَرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا  
فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

[رُجُوعُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ مِصْرَ وَتَكْرِيمُهُ بِالرَّسَالَةِ  
وَالْمُعْجَزَاتِ فِي الطَّرِيقِ]

قَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَبْلُهَا أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
قَضَىٰ أَمْرَ الْأَجَلَيْنِ وَأَوْفَاهُمَا وَأَبْرَهَمَ وَأَكْمَلَهُمَا وَأَبْقَاهُمَا،  
وَقَدْ اسْتَفَادَ هَذَا أَيْضًا مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى:  
﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ أَيُّ: الْأَكْمَلَ مِنْهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قَالُوا: كَانَ مُوسَىٰ قَدْ اشْتَقَّ إِلَىٰ  
بِلَادِهِ وَأَهْلِهِ، فَعَزَمَ عَلَىٰ زِيَارَتِهِمْ فِي خَفِيَّةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ  
وَقَوْمِهِ، فَتَحَمَّلَ بِأَهْلِهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْغَنَمِ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ  
صَهْبُهُ، فَسَلَكَ بِهِمْ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ مُظْلِمَةٍ بَارِدَةٍ، فَتَنَزَّلَ  
مَنْزِلًا، فَجَعَلَ كُلَّمَا أَوْرَىٰ زَنْدَهُ لَا يُضِيءُ شَيْئًا، فَتَعَجَّبَ مِنْ  
ذَلِكَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ﴿عَاسَكَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أَيُّ:  
رَأَىٰ نَارًا تُضِيءُ عَلَىٰ بَعْدٍ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ  
نَارًا﴾ أَيُّ: حَتَّىٰ أَذْهَبَ إِلَيْهَا ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾  
وَذَلِكَ لِأَنَّهُ [كَانَ] قَدْ أَضَلَّ الطَّرِيقَ ﴿أَوْ جَذَوْهُ مِنَ  
النَّارِ﴾ أَيُّ: قَطَعُوهُ مِنْهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أَيُّ:  
تَسْتَدْفِنُونَ بِهَا مِنَ الْبُرْدِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا  
ثُودَىٰ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْتَنِ﴾ أَيُّ: مِنْ جَانِبِ الْوَادِي مِمَّا  
يَلِي الْجَبَلَ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ﴾ فَهَذَا مِمَّا  
يُرِيدُ إِلَىٰ أَنَّ مُوسَىٰ قَصَدَ النَّارَ إِلَىٰ جِهَةِ الْقِبْلَةِ، وَالْجَبَلُ  
الْغَرْبِيُّ عَنْ يَمِينِهِ، وَالنَّارُ وَجَدَهَا تَضَطَّرُّ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ  
فِي لِحْفِ الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِي، فَوَقَّفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا،  
فَتَادَاهُ رَبُّهُ ﴿مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْتَنِ فِي الْفَجَةِ الْمَبْرُكَةِ مِنْ  
الشَّجَرَةِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَن يَسْمُوحَ﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ  
أَيُّ: الَّذِي يُخَاطِبُكَ وَيُكَلِّمُكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الْفَعْلُ  
لِمَا يَشَاءُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ  
عَنْ مُمَثَّلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ  
سُبْحَانَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ﴾ أَيُّ: الَّتِي فِي يَدِكَ كَمَا قَرَّرَهُ  
عَلَىٰ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيسَينَ يَسْمُوحُ﴾  
قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا

مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿طه: ١٨﴾ وَالْمَعْنَىٰ أَمَّا هَذِهِ عَصَاكَ الَّتِي  
تَعْرِفُهَا ﴿أَلْفَهَا﴾ ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِجَّةٌ سَعِينَ﴾ ﴿طه: ٢٠﴾  
فَعَرَفَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِي يُكَلِّمُهُ وَيُخَاطِبُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ  
لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ. كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ طه،  
وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أَيُّ: تَضْطَرِبُ ﴿كَأَنَّهُ جَانٌّ  
وَلَّىٰ مُذِرًا﴾ أَيُّ: فِي حَرَكَتِهَا السَّرِيعَةِ مَعَ عَظَمِ خَلْقَتِهَا  
وَقَوَائِمِهَا، وَاسْتَسَاعَ فِيمَا وَاضْطَلَكَ أَنْبَاطُهَا وَأَضْرَاسُهَا،  
بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا، تَتَحَدَّرُ فِي فِيهَا تَتَفَعَّفُ  
كَأَنَّهُا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿وَلَّىٰ مُذِرًا وَلَّىٰ يَعْقَبُ﴾ أَيُّ:  
وَلَمْ يَكُنْ يَلْتَفِتْ؛ لِأَنَّهُ طَمَعَ الْبَشَرِيَّةَ يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا قَالَ  
اللَّهُ لَهُ: ﴿يَسْمُوحُ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ رَجَعَ  
فَوَقَّفَ فِي مَقَامِهِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَسْأَلُكَ بِدَعَا  
جِبِّكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَيُّ: إِذَا أَدْخَلْتَ بِدَكَ فِي  
جِبِّ دِرْعِكَ ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا، فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَلَالُأً كَأَنَّهُا قِطْعَةٌ  
قَمَرٍ فِي لَمَعَانِ الْبَرْقِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَيُّ: مِنْ  
غَيْرِ بَرَصٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قَالَ  
مُجَاهِدٌ: مِنَ الْفَزَعِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مِنَ الرُّعْبِ<sup>(١)</sup>. وَهُوَ أَنَّهُ  
أَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضْمَ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ مِنَ  
الرَّهْبِ؛ وَهُوَ يَدُهُ. فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ  
الْخَوْفِ، وَرُبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدُ ذَلِكَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِقْدَاءِ  
فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ فُؤَادِهِ، فَإِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ أَوْ يَخَفُ،  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَلِكَ بَرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي الْفَاءُ  
الْعَصَا وَجَعَلَهَا حِجَّةً تَسْعَى، وَإِذْخَالَ يَدَهُ فِي جَبِيهِ فَتَخْرُجُ  
بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَىٰ قُدْرَةِ  
الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصَحَّةِ نُبُوَّةٍ مِنْ جَرَىٰ هَذَا الْخَارِقِ عَلَىٰ  
يَدَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أَيُّ: وَقَوْمِهِ  
مِنْ الرُّؤَسَاءِ وَالْكِبَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أَيُّ:  
خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، مُحَالِفِينَ لِأَمْرِهِ وَدِينِهِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣) وَأَخَى  
هَكَوْثٌ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي  
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ  
لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَعْصِلُونَ إِلَيْكُمْ بِإِيتَانِنَا أُنْمَا وَمَنْ أَنْعَمْنَا

الْعَلِيلُونَ ﴿٣٥﴾

[سُؤَالَ مُوسَى مُؤَاوَزَتَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ وَقَبُولَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ]

لَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ الَّذِي إِنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ فِرَارًا مِنْهُ وَخَوْفًا مِنْ سَطَوْتِهِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا يَغْنِي ذَلِكَ الْفُتَيْيُ ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أَيْ: إِذَا رَأَوْنِي ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي لِسَانِهِ لُغَةً بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاولَ تِلْكَ الْحِجْمَةَ حِينَ خُيِّرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الثَّمَرَةِ أَوْ الدُّرَّةِ، فَأَخَذَ الْحِجْمَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَمْلَلْتُ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ يَفْقَهُهَا قَوْلِي ﴿٣٦﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٣٧﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٨﴾ أَشَدُّ بِهِ أَرَوِي ﴿٣٩﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿طه: ٣٧-٣٩﴾ أَيْ: يُؤْنِسُنِي فِيمَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْقِيَامُ بِأَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ إِلَى هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أَيْ: وَزِيرًا وَمُعِينًا وَمُقَوِّيًا لِأَمْرِي، يُصَدِّقُنِي فِيمَا أَقُولُهُ وَأُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّ خَيْرَ الْإِثْنَيْنِ أَنْجَعُ فِي النَّفُوسِ مِنْ خَيْرِ الْوَاحِدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكْذِبُونِ﴾.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أَيْ: يَبَيِّنُ لَهُمْ عَنِّي مَا أَكَلَّمُهُمْ بِهِ، فَإِنَّهُ يَنْهَمُ عَنِّي مَا لَا يَنْهَمُونَ<sup>(١)</sup>. فَلَمَّا سَأَلَ ذَلِكَ مُوسَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أَيْ: سَنَقْوِي أَمْرَكَ، وَنُعِزُّ جَانِبَكَ بِأَخِيكَ الَّذِي سَأَلْتَ لَهُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَعَكَ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَدْ أَوْتَيْنَا سُورَةَ الْبُرُوجِ﴾ [طه: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَهْلًا هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنِّي عَلَى أَخِيهِ مِنْ مُوسَى عَلَى هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُ سَمِعَ فِيهِ حَتَّى جَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا مَعَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ مُوسَى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أَيْ: حُجَّةً قَاهِرَةً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِتَابِعَاتِنَا﴾ أَيْ: لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى أَدَاكُمَا بِسَبَبِ إِبْلَاجِكُمَا آيَاتِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَكَمُ الرُّسُولُ بِلَغَا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَاللَّهُ يَصْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وَقَالَ تَعَالَى:

الْمُؤْمِنُونَ

٣٩٠

سُورَةُ الْقَصَصِ

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا يَهْدِي مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيكُمُ الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْلِكُنِ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطْعَمُ الْإِلَٰهَ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْلَمَ ظِلْمُهُمْ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُ إِلَى الْكَاثِرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] أَيْ: وَكَفَى بِاللَّهِ نَاصِرًا وَمُعِينًا وَمُؤَدِّيًا، وَلِهَذَا أَخْبَرَهُمَا أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمَا وَلَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنشَأْ وَمَنِ اتَّبَعَكَ الْعَلِيلُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [غافر: ٥١].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا يَهْدِي مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

[مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيَّنَّ يَدَيَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَجِيءِ مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ وَعَرُضِهِ مَا آتَاهُمَا اللَّهُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ،

إِلَيْهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ [الشعراء: ٢٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَوْفِدَ لِي يَهْنَكُنْ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِي مُوسَى﴾ يَغْنِي أَمْرَ وَزِيرِهِ هَامَانَ وَمُدَبِّرَ رَعِيَّتِهِ وَمُشِيرَ دَوْلَتِهِ أَنْ يُوقِدَ لَهُ عَلَى الطَّيْنِ، يَغْنِي: يَتَّخِذَ لَهُ أَجْرًا لِبِنَاءِ الصَّرْحِ وَهُوَ الْقَصْرُ الْمُثْنِفُ الرَفِيعُ الْعَالِي، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْنَكُنْ ابْنِي لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَتْلُعَ﴾ ٢٨ ﴿الْأَسْبَبُ ٢٩﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لَأَطْلُعُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سَوَّاهُ عَلَيْهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَبَّدَ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿[غافر: ٣٦-٣٧]﴾ وَذَلِكَ لِأَن فِرْعَوْنَ بَنَى هَذَا الصَّرْحَ الَّذِي لَمْ يَرِ فِي الدُّنْيَا بِنَاءً أَعْلَى مِنْهُ، إِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يَظْهَرَ لِرَعِيَّتِهِ تَكْذِيبَ مُوسَى فِيمَا زَعَمَهُ مِنْ دَعْوَى إِلَهٍ غَيْرِ فِرْعَوْنَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنِّي لَأَطْلُعُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ أَيْ: فِي قَوْلِهِ: إِنَّ نَمَ رَبًّا غَيْرِي، لَا أَنَّهُ كَذَّبَهُ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَغْتَرَفُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ جَلَّ وَعَلَا، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟﴾ [الشعراء: ٢٣] وَقَالَ: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِكِبَرِ الْحَقِّ وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِيَّانَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أَيْ: طَعَوْا وَتَجَبَّرُوا، وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا قِيَامَةَ وَلَا مَعَادَ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ٣٠ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرْصَادٍ﴾ [الفجر: ١٣، ١٤] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَسَدَنَّهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أَيْ: أَعْرِقْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ٣١ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً كَذُتُونَ إِلَى الْكَارِ ﴿أَيْ: لِمَنْ سَلَكَ وَرَاءَهُمْ وَأَخَذَ بِطَرِيقَتِهِمْ فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَتَعْطِيلِ الصَّانِعِ﴾ وَيَوْمَ الْقِسْمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿أَيْ: فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا مُوْضُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أَيْ: وَسَرَعَ اللَّهُ لَعْنَتَهُمْ وَلَعْنَةُ مَلِكِهِمْ فِرْعَوْنَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّبِعِينَ لِرُسُلِهِ، كَمَا أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مَلْعُونُونَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتَّبَاعِهِمْ كَذَلِكَ ﴿وَيَوْمَ الْقِسْمَةِ هُمْ

وَالدَّلَالَةُ الْقَاهِرَةُ عَلَى صِدْفِهِمَا فِيمَا أَخْبَرَا بِهِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ، فَلَمَّا عَابَنَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ ذَلِكَ، وَشَاهَدُوهُ، وَتَحَقَّقُوهُ، وَاتَّقَنُوا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، عَدَلُوا بِكُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ إِلَى الْعِنَادِ وَالْمُبَاهَاةِ، وَذَلِكَ لِطُغْيَانِهِمْ وَتَكْبَرِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ فَقَالُوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ﴾ أَيْ: مُفْتَعَلٌ مَصْنُوعٌ، وَأَرَادُوا مُعَارَضَتَهُ بِالْحِيلَةِ وَالْجَاهِ فَمَا صَدَعَ مَعَهُمْ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا سَجَعْنَا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ يَعْنُونَ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْ آبَائِنَا عَلَى هَذَا الدِّينِ، وَلَمْ نَرِ النَّاسَ إِلَّا يُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ يَغْنِي مِنِّي وَمِنْكُمْ، وَسَيَفْصِلُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ أَيْ: مِنَ النُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ وَالتَّائِيْدِ ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيْ: الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْفِدَ لِي يَهْنَكُنْ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لَأَطْلُعُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ ٢٨ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِكِبَرِ الْحَقِّ وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِيَّانَا لَا يُرْجَعُونَ ٢٩ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَسَدَنَّهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٣٠ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً كَذُتُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِسْمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ٣١ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِسْمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٣٢ [استكبار فِرْعَوْنَ وَمَصِيرُهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَطُغْيَانِهِ وَافْتِرَائِهِ فِي دَعْوَاهُ إِلَى الْإِلَهِيَّةِ لِنَفْسِهِ الْقَبِيحَةِ، لَعْنَةُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾... الْآيَةُ [الزخرف: ٥٤] - وَذَلِكَ لِأَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِعْزَافِ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ بِقَلَّةِ عَقُولِهِمْ وَسَخَافَةِ أَذْهَانِهِمْ - وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ٣٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ٣٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ كَذَابًا آخِرًا وَالْأُولَى ٣٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى [النازعات: ٢٣-٢٦] يَغْنِي أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ، وَنَادَى فِيهِمْ بِصُورِهِ الْعَالِي مُصْرَحًا لَهُمْ بِذَلِكَ، فَأَجَابُوهُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَلِهَذَا انْتَقَمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ، فَجَعَلَهُ عِبْرَةً لغيرِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحَتَّى إِنَّهُ وَاجَهَ مُوسَى الْكَلِيمَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿لَيْنَ أَخَذْتَ



وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَاطُولَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرَ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَابَتَنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ يَمَاقِدَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ ءَابَتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ مِّن قَبْلُ فَاتُوا بِكُتُبٍ مِّن عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنِيعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾

فَوَيْلٌ لَّكَ مِنَ الْقَوْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلنَّجَاتِ ﴿٥٠﴾ ... الآية [هود: ٤٩]، وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ [هود: ١٠٠] وَقَالَ هُنَا بَعْدَ مَا أَخْبَرَ عَنْ قِصَّةِ مُوسَى مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا: وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ إِبْحَاءِ اللَّهِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمِهِ لَهُ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يَعْني مَا كُنْتُ يَا مُحَمَّدُ بِجَانِبِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي هِيَ شَرْقِيَّةٌ عَلَى شَاطِئِ الْوَادِي ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لِذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَيْكَ ذَلِكَ، لِيَكُونَ حُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُرُونٍ قَدْ تَطَاوَلَ عَهْدُهَا، وَنَسُوا حُجَجَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَابَتَنَا﴾ أَيُّ: وَمَا كُنْتُ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا حِينَ أَخْبَرْتُ عَنْ نَبِيِّهَا شُعَيْبٍ، وَمَا قَالَ لِقَوْمِهِ

مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٥١﴾ قَالَ قَادَةُ: وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعَنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ زَيْدُ الْمَرْفُودِ﴾ (١)

[هود: ٩٩].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ [يَاسِينَ: ٢٣] يَبَيِّنُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ، عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ، مِنْ أَنْزَالِ التَّوْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ يَعْني أَنَّهُ بَعْدَ أَنْزَالِ التَّوْرَةِ لَمْ يُعَذِّبْ أُمَّةً بِعَامَّةٍ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمِن قَبْلِهِ وَالْمُؤْتَفِكَةُ﴾ فَخَصَّوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَاتَّخَذَهُمْ رَايَةً ﴿[الحاقة: ٩، ١٠] وَقَوْلُهُ: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أَيُّ: مِنَ الْعَمَى وَالْغَيِّ، وَهُدًى إِلَى الْحَقِّ وَرَحْمَةً، أَيُّ: إِرْشَادًا إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيُّ: لَعَلَّ النَّاسَ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَتَّقُونَ سَبِيحَهُ.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَاطُولَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرَ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَابَتَنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ يَمَاقِدَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ ءَابَتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

[التَّسْنِيهِ عَلَى بُرْهَانِ نُّبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى بُرْهَانِ نُّبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَ بِالْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ خَبْرًا كَانَ سَامِعُهُ شَاهِدًا وَرَاءَهُ؛ لِمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ، نَسَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ مَرْتَمٍ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَحَ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ مَرْتَمٍ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ... الْآيَةُ، أَيُّ: وَمَا كُنْتُ حَاضِرًا لِذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَوْحَاهُ إِلَيْكَ، وَهَكَذَا لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ نُوحٍ وَقَوْمِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ إِنْجَاءِ اللَّهِ لَهُ وَإِعْرَاقِ قَوْمِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا

وَمَا رَدُّوْا عَلَيْهِ. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أَي: وَلَكِنْ نَحْنُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى النَّاسِ رُسُلًا. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَا﴾: مُوسَى. وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَشْبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] ثُمَّ أَخْبَرَ هَهُنَا بِصِغَةِ أُخْرَى أَحْصَى مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ النَّدَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَرَيْنَهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَي: مَا كُنْتُ مُشَاهِدًا لشيءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَأَخْبَرَكَ بِهِ رَحْمَةً مِنْهُ بِكَ وَبِالْعِبَادِ وَبِإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ لِنُذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. أَي: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا... الْآيَةُ، أَي: وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ؛ لِنُقَسِمَ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةَ، وَلِنَقْطَعَ عُذْرَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ، فَيَحْتَجُّوا بِأَتْنَهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ وَلَا نَذِيرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهِ إِنْزَالَ كِتَابِهِ الْمُبَارَكِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتَلِ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ... الْآيَةُ [المائدة: ١٩]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ فَاتَوَّأُ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُ صَادِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٌ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

### [تَعَنُّتُ الْكُفَّارِ وَجَوَّابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَوْ عَذَّبَهُمْ قَبْلَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لَاحْتَجُّوا بِأَتْنَهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ: أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَالْكَفْرِ وَالْجَهْلِ وَالْإِلْحَادِ: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى... الْآيَةُ، يَعْنُونَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مِنْ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ، مِثْلُ: الْأَعْصَا وَالْيَدِ وَالطُّوفَانِ، وَالْجُرَادِ، وَالْقُمَّلِ، وَالضَّفَادِعِ وَالْدَّمَ، وَتَقْصِصِ الزُّرُوعِ وَالشَّمَارِ - مِمَّا يُصْبِقُ عَلَى أَغْدَاءِ اللَّهِ - وَكَفَلَقِ الْبَحْرِ وَتَطْلِيلِ الْعَمَامِ وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحُجَجِ الْقَاهِرَةِ، الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حُجَّةً وَبُرْهَانًا لَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَيْهِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْجَعْ فِي فِرْعَوْنَ وَمَلَيْهِ، بَلْ كَفَرُوا بِمُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ، كَمَا قَالُوا لَهُمَا: ﴿أَجْعَلْنَا لِنَفْسِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَآبِيئَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكَزِبَةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] وَقَالَ تَعَالَى:

وَمَا رَدُّوْا عَلَيْهِ. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أَي: وَلَكِنْ نَحْنُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى النَّاسِ رُسُلًا. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْتَا﴾: مُوسَى. وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَشْبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] ثُمَّ أَخْبَرَ هَهُنَا بِصِغَةِ أُخْرَى أَحْصَى مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ النَّدَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: ١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَرَيْنَهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَي: مَا كُنْتُ مُشَاهِدًا لشيءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَأَخْبَرَكَ بِهِ رَحْمَةً مِنْهُ بِكَ وَبِالْعِبَادِ وَبِإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ لِنُذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. أَي: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا... الْآيَةُ، أَي: وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ؛ لِنُقَسِمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَلِنَقْطَعَ عُذْرَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ، فَيَحْتَجُّوا بِأَتْنَهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ وَلَا نَذِيرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهِ إِنْزَالَ كِتَابِهِ الْمُبَارَكِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتَلِ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ... الْآيَةُ [المائدة: ١٩]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ فَاتَوَّأُ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُ صَادِقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٌ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨].

[لَا يُؤْمِنُ الْمُتَمَرِّدُونَ بِالْمُعْجَزَاتِ]

وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: أَوْ لَمْ يَكْفُرِ الْبَشَرُ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أَيْ: تَعَاوَنَا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ أَيْ: بِكُلِّ مِنْهُمَا كَافِرُونَ، وَلِشِدَّةِ التَّلَازُمِ وَالتَّصَاحُبِ وَالْمُقَارَبَةِ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ، دَلَّ ذِكْرُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ.

[الْإِفْرَاءُ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالسَّحَرِ] قَالَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ: أَمَرَتِ الْيَهُودُ قُرَيْشًا أَنْ يَقُولُوا لِمُحَمَّدٍ ﷺ ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ: (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا) قَالَ: يَعْنِي مُوسَى وَهَارُونَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ ﴿تَظَاهَرَا﴾ أَيْ: تَعَاوَنَا وَتَنَاصَرَا وَصَدَّقَ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ<sup>(١)</sup>. وَبِهَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو رَزِينٍ فِي قَوْلِهِ: (سَاحِرَانِ) يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا قَوْلٌ جِدُّ قَوِيٌّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[جَوَابُ الْإِفْرَاءِ]

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنُونَ التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ<sup>(٣)</sup>؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿قُلْ فَاتَّوَا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْبِئَهُ﴾ وَكَثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ بَيْنَ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿وَهَذَا كِتَابُنَا أَنْزَلْنَاهُ مَبَازَكٌ﴾ وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ الْآيَةِ [الأنعام: ٩١، ٩٢، ١٥٤]، وَقَالَ: ﴿وَهَذَا كِتَابُنَا أَنْزَلْنَاهُ مَبَازَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥] وَقَالَتِ الْجِنُّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَافِلٍ: هَذَا التَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى. وَقَدْ عَلِمَ بِالضَّرُورَةِ لِذَوِي الْأَلْبَابِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُنَزِّلْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فِيمَا أَنْزَلَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَعَدِّدَةِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ أَكْمَلُ وَلَا أَشْمَلُ وَلَا أَفْضَحُ وَلَا أَعْظَمُ وَلَا أَشْرَفُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْعَظَمَةِ: الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آسَلُمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا

وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤] وَالْإِنْجِيلُ إِنَّمَا أَنْزَلَ مُتَمَمًّا لِلتَّوْرَةِ، وَمُجَلًّا لِبَعْضِ مَا حَرَّمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَاتَّوَا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْبِئَهُ﴾ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَيْ: فِيمَا تُدَافِعُونَ بِهِ الْحَقَّ وَتُعَارِضُونَ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ.

[ضَلَالٌ مِنَ اتَّبِعْ هَوَاهُ]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أَيْ: فَإِنْ لَمْ يُجِيبُوكَ عَمَّا قُلْتَ لَهُمْ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيْ: بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أَيْ: بِغَيْرِ حُجَّةٍ مَأْخُودَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: فَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: بَيَّنَّا لَهُمُ الْقَوْلَ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُ تَعَالَى: أَخْبِرْهُمْ كَيْفَ صَنَعَ بِمَنْ مَضَى، وَكَيْفَ هُوَ صَانِعٌ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾<sup>(٦)</sup> قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمْ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا<sup>(٧)</sup>.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٦﴾ أَوَّلِيكَ يُؤْمِنُ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَدَقُوا وَبَدَّرُوا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِيهِ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٨﴾

[الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْعُلَمَاءِ الْأُولِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْفِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لَلَّذِقَانِ سُجَّدًا ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الاسراء: ١٠٧، ١٠٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً

(١) الطبري: ٥٨٨/١٩ (٢) الطبري: ٥٨٩/١٩ (٣) الطبري:

٥٨٩/١٩ (٤) الطبري: ٥٩٣/١٩ (٥) ابن أبي حاتم: ٩/

٢٩٨٧ (٦) الطبري: ٥٩٣/١٩ (٧) الطبري: ٥٩٤/١٩

الْكَلَامَ الْقَبِيحَ، وَلَا يَصُدُّرُ عَنْهُمْ إِلَّا كَلَامٌ طَيِّبٌ، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَتَّبِعِ الْجَاهِلِينَ﴾ أَيُّ: لَا تُرِيدُ طَرِيقَ الْجَاهِلِينَ وَلَا نُحِبُّهَا.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) وَقَالُوا إِنَّ نَتِيجَ الْمُدَى مَعَكَ تَخْطَفُ مِنْ أَنْصَا أَوْلَمَ تُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا أَمَانًا يَجِيءُ إِلَيْهِ تَمَرُّثُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

[يَهْدِي اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ! لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أَيُّ: لَيْسَ إِلَيْكَ ذَلِكَ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحُكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَهَذِهِ الْآيَةُ أَحْصَتْ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أَيُّ: هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ كَانَ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَقُومُ فِي صَفِّهِ، وَيُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا طَبْعِيًّا لَا شَرْعِيًّا، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَحَانَ أَجَلُهُ، دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ وَالذُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ. فَسَبَقَ الْقَدْرُ فِيهِ، وَاخْطَفَ مِنْ يَدِهِ، فَاسْتَمَرَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَلِلَّهِ الْحُكْمَةُ الثَّامَّةُ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، وَهُوَ الْمُسَيَّبُ بْنُ حَزْنٍ الْمَخْزُومِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلَ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَمَّ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! أَتَرْغُبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزُضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ لَهُ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى كَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ

لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِي قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]. قَالَ سَعِيدُ ابْنُ جُبَيْرٍ: نَزَلَتْ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ بَعَثَهُمُ النَّجَاشِيُّ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ وَالْفَرَاقِ الْحَكِيمِ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَجَعَلُوا يَبْكُونَ وَأَسْلَمُوا، وَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ الْآخَرَى (١): ﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَكُنَّ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٦) وَإِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا أَمَانًا بِمَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ يَعْنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ كُنَّا مُسْلِمِينَ، أَيُّ: مُؤَحِّدِينَ مُخْلِصِينَ لِلَّهِ مُسْتَجِيبِينَ لَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أَيُّ: هَؤُلَاءِ الْمُتَصَفُّونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ ثُمَّ الثَّانِي [يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِإِيمَانِهِمْ بِالرَّسُولِ الْأَوَّلِ ثُمَّ الثَّانِي]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أَيُّ: عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ، فَإِنَّ تَجَشُّمَ مِثْلِ هَذَا شَدِيدٌ عَلَى النَّفْسِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِِي، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ آدَى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ فَأَدَبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا» (٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنِّي لَتَحْتَ رَا حِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَقَالَ قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا، وَقَالَ فِيمَا قَالَ: «مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَلَهُ أَجْرُهُ، وَلَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا» (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ أَيُّ: لَا يُقَابِلُونَ السَّيِّئَ بِمِثْلِهِ، وَلَكِنْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أَيُّ: وَمِنَ الَّذِي رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْحَلَالِ يُنْفِقُونَ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ فِي التَّقَاتِ الْوَاجِبَةِ لِأَهْلِيهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ، وَالرَّكَاتِ الْمَفْرُوضَةِ، وَالْمُسْتَحَبَّةِ مِنَ الطَّوَعَاتِ، وَصَدَقَاتِ الثَّقَلِ وَالْقُرْبَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أَيُّ: لَا يُخَالِطُونَ أَهْلَهُ وَلَا يُعَاشِرُونَهُمْ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٨٢] ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَتَّبِعِ الْجَاهِلِينَ﴾ أَيُّ: إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمْ سَفِيفَةً وَكَلَّمَهُمْ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمُ الْجَوَابُ عَنْهُ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنْ

(١) ابن أبي حاتم: ٢٩٨٨/٩ (٢) فتح الباري: ٢٢٩/١ (٣)

أحمد: ٢٥٩/٥

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١١٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿١١١﴾ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١١٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١١٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١١٤﴾ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١١٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغُفِرَ إِنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿١١٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١١٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١١٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُوفُ الْأُولَى وَالْآخِرَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢٠﴾

تَعَالَى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَرِثَةُ﴾ أي: رَجَعَتْ خَرَابًا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَذْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُهْلِكُ أَحَدًا ظَالِمًا لَهُ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُ مَنْ أَهْلَكَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكُ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ وَهِيَ مَكَّةُ ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، الْمُبْعُوثُ مِنْ أُمَّ الْفَرَى رَسُولٌ إِلَى جَمِيعِ الْفَرَى مِنْ عَرَبٍ وَأَعْجَامٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنُنَزِّلَ أُمَّ الْفَرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وَقَالَ: ﴿لَا تُذَكِّرُ بِهِ وَمَنْ يَلْعَنُ﴾ [الأنعام: ١٩] وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وَتَمَامُ الدَّلِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفِرَ مِنْ قَرَبِهِ إِلَّا نَحْنُ

مَا لَمْ أَتِهِ عَنْكَ﴾. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾ [التوبة: ١١٣] وَأَنْزَلَ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ (٢).

[عَذْرُ أَهْلِ مَكَّةَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ]

وقوله تعالى: ﴿وقالوا إن نبيج الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ يقول تعالى مخبرًا عن اغتيال بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إن نبيج الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي: نخشى إن اتبعنا ما جئ به من الهدى، ونخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يفصدونا بالأذى والمخاربة، ويتخطفونا أينما كنا، قال الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿أولم تumen لهم حرماً آمناً﴾ يعني: هذا الذي اغتدروا به كذب وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد آمين، وحرّم معظم آمين منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابوا الحق؟! وقوله تعالى: ﴿يجئ إليه ثمرت كل شيء﴾ أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائيف وغيره، وكذلك المناجر والأمنعة ﴿زرقا من لثنا﴾ أي: من عيّننا ﴿ولكن أكثهم لا يعلمون﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

﴿وَمَنْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَرَبٍ بَطَرْت مِعِشَتَهَا فَيَلَك مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُشَكِّنْ مِنْ بَدِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَرِثَةُ﴾ (٣) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكُ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكُ الْفَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا

ظَالِمُونَ ﴿١١٩﴾

[التعريضُ بِإِهْلَاكِ الْفَرَى وَأَنَّهَا تُهْلِكُ بَعْدَ إِقَامَةِ

الْحُجَّةِ]

يقول تعالى مَرَضًا بِأَهْلِ مَكَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَرَبٍ بَطَرْت مِعِشَتَهَا﴾ أي: طَعَتْ وَأَشْرَتْ وَكَفَرَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَلَك مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُشَكِّنْ مِنْ بَدِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: دَثَرَتْ وَبَارَتْهُمْ فَلَا تُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ. وقوله

الدَّرَجَاتِ، وَذَٰكَ فِي الدَّرَكَاتِ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْهُنَةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١٧) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِنَّاكَ يَتَّبِعُونَ ﴿١٨﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢١﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَوَّىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٢٢﴾

[تَبَرُّوْا الْمُشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهِمْ كُلَّ عَنِ الْآخِرِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُورِثُ بِهِ الْكُفَّارَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. يَعْنِي أَتَيْنَ الْأَلِهَةَ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟ وَهَٰذَا عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يَعْنِي: الشَّيَاطِينَ وَالْمَرَدَّةَ وَالِدُّعَاةَ إِلَى الْكُفْرِ ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِنَّاكَ يَتَّبِعُونَ﴾ فَشَهِدُوا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَغْوَوْهُمْ فَاتَّبَعُوهُمْ، ثُمَّ تَبَرَّأُوا مِنْ عِبَادَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٢١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: ٨١، ٨٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٢٢) وَإِذَا خِبرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿[الاحقاف: ٦٥، ٦٥] وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾... الْآيَةُ [العنكبوت: ٢٥]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا

مُهْلِكُهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الْآيَةُ [الاسراء: ٥٨]، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَهِّلَكَ كُلَّ قَرْيَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فَجَعَلَ تَعَالَى بَعَثَةَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْقُرَى؛ لِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى أُمَّهَا وَأَصْلُهَا الَّتِي تَرْجِعُ إِلَيْهَا. وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»<sup>(١)</sup>. وَلِهَٰذَا خُتِمَ بِهِ النُّبُوَّةُ وَالرَّسَالَةُ، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ، بَلْ شَرَعُهُ بَاقٍ بَقَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿وَمَا أَوْسَعُ مِن شَيْءٍ فَتَنَحَّيَ الْحَيَوُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢٣) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَافِيهِ كَمَن مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوُ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٢٤﴾

[الدُّنْيَا فَانِيَةٌ لَا يَسْتَوِي صَاحِبُهَا وَصَاحِبُ الْآخِرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ حَقَارَةِ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الزِينَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَالزُّهْرَةِ الْفَانِيَةِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْئَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [الحل: ٩٦] وَقَالَ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْآبَرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وَقَالَ: ﴿وَمَا الْحَيَوُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوُ الدُّنْيَا﴾ (٢٥) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿[الأعلى: ١٦، ١٧] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهُ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْسُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي اللَّيْمِ، فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيُّ: أَفَلَا يَعْقِلُ مَنْ يُقَدِّمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَافِيهِ كَمَن مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوُ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ يَقُولُ: أَفَمَن هُوَ مُؤْمِنٌ مُّصَدِّقٌ بِمَا وَعَدَهُ اللَّهُ عَلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَا مَحَالَةَ، كَمَن هُوَ كَافِرٌ مُّكَذِّبٌ بِإِلْقَاءِ اللَّهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَهُوَ مُنْتَعٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيَّامًا قَلِيلًا ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: مِنَ الْمُعَذِّبِينَ. ثُمَّ قَدْ قِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي أَبِي جَهْلٍ. وَقِيلَ: فِي حَمْرَةٍ وَعَلِيٍّ وَأَبِي جَهْلٍ<sup>(٣)</sup>. وَكِلَاهُمَا عَنْ مُجَاهِدٍ<sup>(٤)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا عَامَّةٌ، وَهَٰذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِ حِينَ أَشْرَفَ عَلَى صَاحِبِهِ وَهُوَ فِي

(١) مسلم: ٣٧٠/١ (٢) أحمد: ٢٣٠/٤ (٣) الطبري: ١٩/

٦٠٥، ٦٠٤ (٤) الطبري: ١٩/٦٠٥، ٦٠٤

سورة القصص

٣٩٤

سورة القصص

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الِئْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ  
مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَصِيرَةٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾  
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى  
يَوْمِ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ لَيْلٌ تُسْكِنُكُمْ  
فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الِئْلَ  
وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ  
﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنتُمْ  
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا  
هَآؤُلَا بَرِّهْنَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنْ قَدَرُونَ كَاتٍ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى فَبَعَثَ  
عَلَيْهِمْ ؑ وَعَآئِنَهُ مِنْ الْكُؤُرِ مَا أَنْ مَفَاتِحَهُ، لَنُؤَا بِأَلْعَصْبَةِ  
أُولَى الْقُؤُوْءِ إِذْ قَالْ لَهُ، قُؤُمُهُ، لَا تَفْرَحْ إِنْ أَلَّهِ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ  
﴿٧٦﴾ وَآبَغْ فِيمَا أَتَلَاكُ أَلَّهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ  
نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَآحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ أَلَّهِ إِلَيْكَ  
وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِنْ أَلَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَنَقَطَتْ  
بِهِمُ الْأَنْسَابُ ﴿١٦٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَا هُمْ بِخَوَّجِينَ مِنَ النَّارِ﴾  
[البقرة: ١٦٦، ١٦٧] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أَيُّ:  
لِيُخْلِصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، كَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ  
الدُّنْيَا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أَيُّ: وَتَيَقَّنُوا  
أَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى النَّارِ لَا مَحَالَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أَيُّ: قَدُّوْا حِينَ عَآيَنُوا  
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، وَهَذَا  
كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ  
فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَوَّاءَ الْمَجْرُمُونَ  
النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾  
[الكهف: ٥٢، ٥٣].

[مَوْفِقُهُمْ عَنِ الرَّسُولِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ النَّدَاءُ  
الْأَوَّلُ عَنْ سُؤَالِ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا فِيهِ إِبْثَاتُ النَّبَاتِ، مَاذَا  
كَانَ جَوَابُكُمْ لِلْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ، وَكَيْفَ كَانَ حَالُكُمْ مَعَهُمْ؟  
وَهَذَا كَمَا يُسْأَلُ الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَمَا  
دِينُكَ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا  
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي،  
وَلِهَذَا لَا جَوَابَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَ السُّكُوتِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ  
فِي هَذِهِ أَعْمَى، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلَّ سَبِيلًا،  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا  
يَسْتَأْذِنُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ <sup>(١)</sup>. فَهُمْ  
لَا يَسْتَأْذِنُونَ بِالْأَنْسَابِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ نَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ  
صَلِحَاتٍ﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾  
أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَعَسَىٰ﴾ مِنَ اللَّهِ مُوجِبَةٌ، فَإِنَّ هَذَا وَاقِعٌ  
بِفَضْلِ اللَّهِ وَمِثْنِهِ لَا مَحَالَةَ.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ  
اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ  
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأَوَّلِ  
وَالْآخِرِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٠﴾

[اللَّهُ مُتَّفَرِّدٌ بِالْخَلْقِ وَالْعِلْمِ بِالضَّمَائِرِ وَالْإِخْتِيَارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُتَّفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالْإِخْتِيَارِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ  
فِي ذَلِكَ مُتَانِعٌ وَلَا مُعَقَّبٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا  
يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أَيُّ: مَا يَشَاءُ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ  
لَمْ يَكُنْ، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا خَيْرُهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ، وَمَرَجَعُهَا

إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نَفْيٌ عَلَى أَصَحِّ  
الْقَوْلَيْنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا الْمُؤْمِنَاتِ إِذَا قَضَىٰ  
اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾  
[الأحزاب: ٣٦].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا  
يُعْلِنُونَ﴾ أَيُّ: يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ الضَّمَائِرُ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ  
السَّرَائِرُ، كَمَا يَعْلَمُ مَا تُبْدِيهِ الظُّوَاهِرُ مِنْ سَائِرِ الْخَلَائِقِ  
﴿سِوَاةٍ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ  
بِالْئِلِ وَسَائِرٍ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ: هُوَ الْمُتَّفَرِّدُ بِالْإِلَهِيَّةِ، فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، كَمَا  
لَا رَبَّ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ سِوَاهُ ﴿لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأَوَّلِ  
وَالْآخِرِ﴾ أَيُّ: فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ بِعَدْلِهِ  
وَحِكْمَتِهِ ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أَيُّ: الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لَهُ لِقَهْرِهِ  
وَعَلْبَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ:

جَمِيعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣)

[اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ وَدَلَائِلُ تَوْحِيدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْتَهَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذَيْنِ لَا قِيَامَ لَهُمَا يَدُونَهُمَا وَيَبِينُ أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ اللَّيْلُ دَائِمًا عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَأَصْرَ ذَلِكَ بِهِمْ، وَلَسَيَمُنُّهُ النَّفْسُ وَأَنْحَصَرَتْ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أي: تُبْصِرُونَ بِهِ وَتَسْتَأْنِسُونَ بِسَبِيهِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ النَّهَارَ سَرْمَدًا، أي: دَائِمًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَأَصْرَ ذَلِكَ بِهِمْ، وَلَتَعَبَّتِ الْأَبْدَانُ، وَكَثُرَتْ مِنَ كَثَرَةِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِكُمْ وَأَشْغَالِكُمْ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﴿أَيُّ بِكُمْ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خَلَقَ هَذَا وَهَذَا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: فِي اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: فِي النَّهَارِ بِالْأَسْفَارِ وَالتَّرَحُّالِ، وَالْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالتَّنْصِيرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تَشْكُرُونَ اللَّهَ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ بِاللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ بِالنَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤) وَزَعَمْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعِلْמוْا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥)

[التَّوْبِيخُ وَالزَّجْرُ لِلْمُشْرِكِينَ]

وَهَذَا أَيْضًا نِدَاءٌ ثَانٍ عَلَى سَبِيلِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ لِمَنْ عَبَدَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، يُنَادِيهِمُ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فَيَقُولُ: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي:

الْبَرَاءَةُ مِنَ الْكُفْرِ

٣٩٥

سُورَةُ الْقَصَصِ

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ فَدَاهَلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كَالْفُرُونَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا كُنَّا لَمِثْلَ مَا أُوتِيَ قُفْرُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ كُتُوبُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ بِسُطِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَاذِبُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤)

فِي دَارِ الدُّنْيَا ﴿وَزَعَمْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي رَسُولًا<sup>(١)</sup> ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: عَلَى صِحَّةِ مَا ادَّعَيْتُمُوهُ مِنْ أَنَّ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴿فَعِلْموْا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَلَمْ يَنْطِقُوا [وَلَا] يُحِيرُوا جَوَابًا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْقُصُوهُمْ.

﴿إِنْ قُفْرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوِيٍّ مُؤَيَّنٍ فَعِنَى عَلَيْهِمْ وَأَعْيَنَهُ مِنْ الْكُفُورِ مَا إِنْ مَفَاحِشُهُ لَنُؤَى بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمْ قَوْمُهُ لَا تَفْعَلُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ﴾ (٧٧)

[ذِكْرُ قَارُونَ وَوَعْظُ قَوْمِهِ لَهُ]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿إِنْ قُفْرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوِيٍّ مُؤَيَّنٍ﴾ قَالَ: كَانَ ابْنُ عَمِّهِ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ



أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ لِعَلِّمِهِ بِأَنِّي أَسْتَحِقُّهُ وَلِمَحَبَّتِهِ لِي، فَتَقْدِيرُهُ: إِنَّمَا أُعْطِيْتُهُ لِعَلِّمِ اللَّهِ فِيَّ أَنِّي أَهْلٌ لَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ ضُرًّا دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوْلَتْهُ نِعْمَةٌ يَتَنَا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] أي: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ بِي، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأَةٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠] أي: هَذَا أَسْتَحِقُّهُ.

وَقَدْ أَجَادَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِمَامَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قَالَ: لَوْلَا رِضَا اللَّهِ عَنِّي وَمَعْرِفَتُهُ بِفَضْلِي مَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ، وَقَرَأَ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾... الْآيَةَ<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا يَقُولُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ إِذَا رَأَى مِنْ وَسَّعِ اللَّهُ عَلَيْهِ: لَوْلَا أَنْ يَسْتَحِقَّ ذَلِكَ لِمَا أُعْطِيَ.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْ رَوْنُ إِتْمَ لَدُو حَظِّ عَظِيمٍ﴾<sup>(٧)</sup>  
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٨)</sup>

### «خُرُوجُ قَارُونَ فِي الزَّيْنَةِ وَتَغْلِيْقُ الْقَوْمِ عَلَيْهِ»

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى قَوْمِهِ فِي زَيْنَةٍ عَظِيمَةٍ، وَتَجَمَّلَ بِبَاهِرٍ، مِنْ مَرَائِبَ وَمَلَابِسَ عَلَيْهِ وَعَلَى خَدَمِهِ وَحَشَمِهِ، فَلَمَّا رَأَهُ مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَبْغِي إِلَى زَخَارِفِهَا وَزِينَتِهَا، تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ كَانَ لَهُمْ مِثْلُ الَّذِي أُعْطِيَ قَالُوا: ﴿بَلِّغْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْ رَوْنُ إِتْمَ لَدُو حَظِّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذُو حَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ النَّافِعَ قَالُوا لَهُمْ: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: جَزَاءُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَوْنَ. كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾» [السجدة: ١٧]<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: وَلَا يُلْقَى

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ تَوْقَلٍ وَسَمَّاكَ بْنُ حَرْبٍ وَقَتَادَةُ وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُهُمْ: أَنَّهُ كَانَ ابْنُ عَمِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(١٠)</sup>. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هُوَ قَارُونُ بْنُ يَصْهَرَ بْنِ قَاهَتْ، وَمُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ قَاهَتْ<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ مِنَ الْكُفَرِ﴾ أَي: الْأَمْوَالِ ﴿مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ لِنُفُوسِ الْغُلَامِ أُولَى الْقُلُوبِ﴾ أَي: لِيَتَقَبَّلَ جَمْلُهَا الْفِتَامُ مِنَ النَّاسِ، لِكَثْرَتِهَا. قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ حَيْثَمَةَ: كَانَتْ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ قَارُونَ مِنْ جُلُودٍ، كُلُّ مِفْتَاحٍ مِثْلُ الْإِصْبَعِ، كُلُّ مِفْتَاحٍ عَلَى خِزَانَةٍ عَلَى جِدَّتِهِ، فَإِذَا رَكِبَ حُمَلَتْ عَلَى سِتْنَيْنِ بَغْلًا أَعْرَ مَحْجَلًا<sup>(١٢)</sup>. وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أَي: وَعَظَمَهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ صَالِحُو قَوْمِهِ، فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ النَّصْحِ وَالْإِرشَادِ: لَا تَفْرَحْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ، يَغْنُون: لَا تَبْطُرْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْمَالِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: الْمَرَحِينَ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: الْأَشْرِينَ الْبَطْرِينَ الَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ<sup>(١٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أَي: اسْتَغْمِلْ مَا وَهَبَكَ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ الْجَزِيلِ، وَالنَّعْمَةِ الطَّائِلَةِ فِي طَاعَةِ رَبِّكَ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ، الَّتِي يَحْضُلُ لَكَ بِهَا الثَّوَابُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أَي: مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَتَاجِرِ، فَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلَا تُهْلِكْ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزُورِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَاتِّبِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أَي: أَحْسِنْ إِلَى خَلْقِهِ، كَمَا أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْكَ ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: لَا تَكُنْ هِمَّتَكَ بِمَا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تُفْسِدَ بِهِ فِي الْأَرْضِ، وَنُسِيءَ إِلَى خَلْقِ اللَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾<sup>(١٥)</sup>

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَارُونَ لِقَوْمِهِ جِئَن نَصَحُوهُ، وَأَرَادُوهُ إِلَى الْخَيْرِ ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أَي: لَا أَقْتَفِرُ إِلَى مَا تَقُولُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا

(١) الطبري: ١٩/٦١٦ (٢) الطبري: ١٩/٦١٥ (٣) الطبري:

١٩/٦١٧ (٤) الطبري: ١٩/٦٢٢ (٥) الطبري: ١٩/٦٢٣

(٦) الطبري: ١٩/٦٢٦ (٧) فتح الباري: ٨/٣٧٥

يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ»<sup>(٥)</sup>. ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا﴾ أي: لَوْلَا لَطْفُ اللَّهِ بَنَا وَإِحْسَانُهُ إِلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا كَمَا خَسَفَ بِهِ، لِأَنَّا وَدَدْنَا أَنْ نَكُونَ مِثْلَهُ ﴿وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ يَعْنُونَ أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا، وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ عِنْدَ اللَّهِ، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ هَهُنَا: «وَيَكَاذِبُ» فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ «وَيْلُكَ اْعْلَمُ أَنَّ» وَلَكِنْ خُفِّفَ، فَقِيلَ: «وَيْلُكَ» وَدَلَّ فَتَحُ «أَنَّ» عَلَى حَذْفِ «اعْلَمُ». وَقِيلَ: مَعْنَاهَا «وَيَكَاذِبُ»، أَيْ: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ»، قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهَا «وَيَكَاذِبُ» فَفَضَّلَهَا وَجَعَلَ حَرْفَ وَيٍّ لِلتَّعَجُّبِ أَوْ لِلتَّشْبِيهِ، وَكَأَنَّ بِمَعْنَى «أَظُنُّ وَأُحْسِبُ».

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٨٢)</sup> مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ حِزٌّ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٨٣)</sup>

[نَعْمُ الْآخِرَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَنَعِيمَهَا الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، جَعَلَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ أَيْ: تَرَفُّعًا عَلَى خَلْقِ اللَّهِ وَتَعَاطُفًا عَلَيْهِمْ وَتَجَبُّرًا بِهِمْ وَلَا فَسَادًا فِيهِمْ، كَمَا قَالَ عِكْرَمَةُ: «الْعُلُوُّ: التَّجَبُّرُ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: «لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ» تَعَاطُفًا وَتَجَبُّرًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عَمَلًا بِالْمَعَاصِي<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ مِنْ شِرَاكٍ نَعْلُهُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ مِنْ شِرَاكٍ نَعْلٍ صَاحِبِهِ، فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا أَرَادَ بِذَلِكَ الْفَخْرَ وَالتَّطَوُّلَ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَذْمُومٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ أَوْجِي إِلَيَّ أَنْ

الْجَنَّةُ إِلَّا الصَّابِرُونَ»<sup>(٤)</sup>. كَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَلَا يُفْلِحُ هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا الصَّابِرُونَ عَنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، الرَّاعِبُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَكَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مَقْطُوعًا مِنْ كَلَامِ أُولَئِكَ، وَجَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِخْبَارِهِ بِذَلِكَ<sup>(٥)</sup>.

﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الثَّنَائِينَ﴾<sup>(٨٤)</sup> وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ<sup>(٨٥)</sup>

[خَسَفَ قَارُونُ فِي الْأَرْضِ مَعَ دَارِهِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اخْتِيَالَ قَارُونَ فِي زِينَتِهِ وَفَخْرَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَبَغْيِهِ عَلَيْهِمْ عَقَّبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَالِمٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خَسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَهُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ أَحْضَرَيْنِ يَخْتَالُ فِيهِمَا، أَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ، فَإِنَّهُ لَيَتَجَلَجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٤)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الثَّنَائِينَ﴾ أَيْ: مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ، وَلَا جَمْعُهُ، وَلَا خِدْمَتُهُ وَحَشْمُهُ، وَلَا دَفْعُوا عَنْهُ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ وَنَكَالَهُ، وَلَا كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَصِرًا لِنَفْسِهِ، فَلَا نَاصِرَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ.

[اتَّعَاطَى الْقَوْمُ بِخَسْفِهِ]

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أَيْ: الَّذِينَ لَمَّا رَأَوْهُ فِي زِينَتِهِ قَالُوا: «يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أَوْفَرَ قَدْرُونَ إِنَّمَا لَدُوْهُ حَظٌّ عَظِيمٌ» فَلَمَّا خَسِفَ بِهِ أَصْبَحُوا يَقُولُونَ: ﴿وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْمَالُ بِدَالٍ عَلَى رِضَا اللَّهِ عَنْ صَاحِبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَصِيقُ وَيُوسِعُ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ النَّامَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَهَذَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا

(١) ابن أبي حاتم: ٣٠١٦/٩ (٢) الطبري: ٦٢٩/١٩ (٣) فتح الباري: ٢٦٩/١٠ (٤) أحمد: ٤٠/٣ (٥) أحمد: ٣٨٧/١  
إسناده ضعيف لضعف الصباح بن محمد البجلي قال الحافظ بن حجر: ضعيف (تقريب) (٦) الطبري: ٦٣٧/١٩ (٧) الطبري: ٦٣٧/١٩  
إسناده ضعيف الحسين بن داود المصيصي ضعيف تقدم (٨) الطبري: ٦٣٨/١٩ إسناده ضعيف فيه أشعث بن سعيد البصري أبو الربيع السمان ضعيف وأبو سلمان الأعرج عن علي رضي الله عنه مرسل.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي  
أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتُ  
تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ  
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ مَائِتٍ  
اللَّهُ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا  
هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

## سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا  
يَفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ  
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ  
السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا  
لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ لَابَةً وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ  
جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

## [الْأَمْرُ بِالْبَلَاغِ وَالتَّوْحِيدِ]

تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ  
عَلَى أَحَدٍ<sup>(١)</sup>. وَأَمَّا إِذَا أَحَبَّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ التَّجَمُّلِ، فَهَذَا  
لَا بَأْسَ بِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي  
أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ رِدَائِي حَسَنًا وَتَعْلِي حَسَنَةً، أَفَمِنَ الْكِبَرِ  
ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «لَا، إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾  
أَيُّ: ثَوَابِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةِ الْعَبْدِ، فَكَيْفَ وَاللَّهُ يُضَاعِفُهُ  
أَضَاعَافًا كَثِيرَةً، وَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ جَاءَ  
بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾  
كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ  
وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾  
[النمل: ٩٠]. وَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ  
مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَنْ  
يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا  
لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ مَائِتٍ اللَّهُ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ  
وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ  
إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ  
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

ابْنُ عَبَّاسٍ تَارَةً أُخْرَى قَوْلُهُ: ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ بِالْمَوْتِ،  
وَتَارَةً بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَتَارَةً بِالْحِجَّةِ الَّتِي  
هِيَ جَزَاؤُهُ وَمَصِيرُهُ، عَلَى أَذَاءِ رَسُولِ اللَّهِ وَإِبْلَاغِهَا إِلَى  
الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَلِأَنَّهُ أَكْمَلَ خَلْقِ اللَّهِ وَأَفْصَحَ  
خَلْقِ اللَّهِ وَأَشْرَفَ خَلْقِ اللَّهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي  
ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ: قُلْ لِمَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ  
قَوْمِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ قُلْ: رَبِّي  
أَعْلَمُ بِالْهُدَى مِنْكُمْ وَمَنِي، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ لَهُ  
عَاقِبَةُ الدَّارِ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لِنَبِيِّهِ نِعْمَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَيْهِ  
وَعَلَى الْعِبَادِ إِذْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ: ﴿وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِبَلَاغِ  
الرَّسَالَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ، وَمُخْبِرًا لَهُ بِأَنَّهُ سَيَرُدُّهُ  
إِلَى مَعَادٍ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَيَسْأَلُهُ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ مِنْ أَعْبَاءِ  
النَّبُوءَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ  
إِلَى مَعَادٍ﴾ أَيُّ: افْتَرَضَ عَلَيْكَ أَدَاءَهُ إِلَى النَّاسِ  
﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أَيُّ: إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَسْأَلُكَ عَنْ ذَلِكَ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ  
الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ  
الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] وَقَالَ: ﴿وَوَحَّاءَ  
بِالْبَيِّنَاتِ وَالشَّهَادَاتِ﴾ [الزمر: ٦٩].

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قَالَ: إِلَى مَكَّةَ<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ  
فِي تَفْسِيرِ سَنَنِهِ<sup>(٤)</sup>، وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أَيُّ: لَرَأْدُكَ إِلَى مَكَّةَ  
كَمَا أَخْرَجَكَ مِنْهَا<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُجَاهِدٍ  
فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إِلَى مَوْلِدِكَ بِمَكَّةَ<sup>(٧)</sup>. وَفَسَّرَ

(١) مسلم: ٢١٩٩/٤ (٢) مسلم: ٩٣/١ (٣) فتح الباري: ٨/٣٦٩  
(٤) النسائي في الكبرى: ٤٢٥/٦ (٥) الطبري: ١٩/٦٤١  
(٦) الطبري: ١٩/٦٤١ (٧) الطبري: ١٩/٦٤١

سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَمُرُّوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] إِسْتِفْهَامُ إِنكَارٍ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ، يَبْتَلِي الرَّجُلَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَافَةٌ زِيدَ لَهُ فِي الْبَلَاءِ»<sup>(٢)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وَمِثْلُهَا فِي «سُورَةِ بَرَاءَةِ» [الآيَةُ: ١٦]. وَقَالَ فِي «الْبَقَرَةِ»: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا يَنْصُرُ اللَّهُ قَرِيبٌ﴾ [الآيَةُ: ٢١٤] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ أَيِ: الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ مِمَّنْ هُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ وَدَعْوَاهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ. وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الشَّيْخَةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا نَعْلَمُ﴾ إِلَّا لِنَرَى، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّؤْيَا إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْجُودِ، وَالْعِلْمُ أَعَمُّ مِنَ الرُّؤْيَا، فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْدُومِ وَالْمَوْجُودِ.

[الْمُسِيئُونَ لَا يَقُوتُونَ اللَّهَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيِ: لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِيمَانِ أَنَّهُمْ يَتَخَلَّصُونَ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَالْإِمْتِحَانِ، فَإِنْ مِنْ وَرَائِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْ هَذَا وَأَظْمَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا؟ أَيِ: يَقُوتُونَا﴾ «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» أَيِ: بِشَسِّ مَا يَظُنُّونَ. ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ رَبًّا وَهُوَ السَّعِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(٣)</sup> وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ<sup>(٤)</sup> وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٥)</sup>

إِلَيْكَ أَلِكْتُبُ أَيِ: مَا كُنْتُ تَطُنُّ قَبْلَ إِنْزَالِ الْوَحْيِ إِلَيْكَ أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَيْكَ، وَلَكِنْ «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» أَيِ: إِنَّمَا أُنْزِلَ الْوَحْيُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ رَحْمَتِهِ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِسَبِّكَ، فَإِذَا مَنَحَكَ بِهَذِهِ النُّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ «فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا» أَيِ: مُعِينًا «لِلْكَافِرِينَ»، وَلَكِنْ فَارْقَهُمْ وَتَابِذْهُمْ وَخَالَفَهُمْ «وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مِلَّةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ» أَيِ: لَا تَتَأَثَّرْ لِمُخَالَفَتِهِمْ لَكَ وَصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِكَ، لَا تَلْوِي عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُبَالِهْ، فَإِنَّ اللَّهَ مُغْلٍ كَلِمَتَكَ، وَمُؤَيِّدُ دِينِكَ، وَمُظْهِرُ مَا أَرْسَلَكَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَذْيَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ» أَيِ: إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيِ: لَا تَلِيقُ الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ، وَلَا تَتَّبِعِي الْإِلَهِيَّةَ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إِيحَارٌ بِأَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي، الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الَّذِي تَمُوتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾<sup>(٦)</sup> وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] فَجَبَّرَ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ هَهُنَا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أَيِ: إِلَّا إِيَّاهُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ لَيْدٌ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أَيِ: الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ، وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ «وَلِإِيَّاهُ تُرْجَعُونَ» أَيِ: يَوْمَ مَعَادِكُمْ، فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَصَصِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَم﴾<sup>(١)</sup> أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَمُرُّوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

[إِخْتِبَارُ النَّاسِ حَتَّى يُعْرَفَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ]

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، فَقَدْ تَدَخَّلَ فِي أَوَّلِ

(١) فتح الباري: ١٨٣/٧ (٢) الترمذي: ٣٢٩٨ وأحمد: ١/

## [يُحَقِّقُ اللَّهُ رَجَاءَ الصَّالِحِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: فِي الدَّارِ  
الْآخِرَةِ، وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ وَرَجَا مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ  
الْجَزِيلِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُحَقِّقُ لَهُ رَجَاءَهُ، وَيُوفِّيهِ عَمَلَهُ كَامِلًا  
مُوفِّرًا، فَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ بَصِيرٌ  
بِكُلِّ الْكَائِنَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ  
فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ  
جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا  
فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦] أي: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ  
نَفْعُ عَمَلِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ،  
وَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي  
مُلْكِهِ شَيْئًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ  
لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ مَعَ  
غِنَاهُ عَنِ الْخَلَائِقِ جَمِيعِهِمْ، وَمَعَ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ بِهِمْ،  
يُجَازِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ،  
وَهُوَ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ  
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَيَقْبَلُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ،  
وَيُثِيبُ عَلَيْهَا الْوَاحِدَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَعِمَائَةِ ضِعْفٍ،  
وَيَجْزِي عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا  
وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَقَالَ هُنَا:  
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ  
أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ  
بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ  
تَعْمَلُونَ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي

الصَّالِحِينَ ﴿٩٠﴾

## [الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ بَعْدَ  
الْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِتَوْحِيدِهِ، فَإِنَّ الْوَالِدَيْنِ هُمَا سَبَبُ  
وُجُودِ الْإِنْسَانِ، وَلَهُمَا عَلَيْهِ غَايَةُ الْإِحْسَانِ، قَالُوا لِدُ  
بِالْإِنْفَاقِ، وَالْوَالِدَةُ بِالشَّفَاقِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ  
رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ  
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ  
لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وَخَفِضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ  
وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] وَمَعَ

الْبَرِّ وَالْإِحْسَانِ

٣٩٧

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ  
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ  
بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ  
فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ  
﴿٩٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ  
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ  
إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ  
﴿٩٤﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ  
﴿٩٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا  
وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ  
شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنَّا لَا  
مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ  
﴿٩٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ  
إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٨﴾

هَذِهِ الْوَصِيَّةُ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا فِي مُقَابَلَةِ  
إِحْسَانِهِمَا الْمُتَقَدِّمِ، قَالَ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ  
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: وَإِنْ حَرَصَا عَلَيْكَ أَنْ  
تَتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا إِذَا كَانَا مُشْرِكَيْنِ، فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُمَا، فَلَا  
تُطِعْهُمَا فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ مَرْجِعَكُمْ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاجْزِيكَ  
بِإِحْسَانِكَ إِلَيْهِمَا وَصَبْرِكَ عَلَى دِينِكَ، وَأَخْشُرُكَ مَعَ  
الصَّالِحِينَ لَا فِي زُمَرَةٍ وَالْيَدِيكَ - وَإِنْ كُنْتُ أَقْرَبَ النَّاسِ  
إِلَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا - فَإِنَّ الْمَرْءَ إِنَّمَا يُخْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ  
أَحَبَّ أَيُّ: حُبًّا دِينِيًّا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ عَنْ سَعْدٍ قَالَ:  
نَزَلَتْ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ، فَذَكَرَ قِصَّتَهُ وَقَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ:  
أَلَيْسَ اللَّهُ قَدْ أَمَرَكَ بِالْبِرِّ؟ وَاللَّهُ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا، وَلَا أَشْرَبُ  
شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تَخْفَرُ. قَالَ: فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ  
يُطْعِمُوها شَجَرُوا فَاهَا، فَنَزَلَتْ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا  
وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾...

الآية<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ أَيْضًا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ<sup>(٣)</sup>﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ<sup>(٤)</sup>﴾

[عَادَاتُ الْمُنَافِقِينَ وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي الْإِخْتِيَارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ صِفَاتِ قَوْمٍ مِّنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِالنَّبِيِّينَ، وَلَمْ يَنْبُتْ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ مَخْشَاةٌ وَفَتْحَةٌ فِي الدُّنْيَا اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْني: فِتْنَتُهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، إِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١١، ١٢] ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أَي: وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ قَرِيبٌ مِّن رَّبِّكَ يَا مُحَمَّدٌ، وَفَتْحٌ وَمَغَانِمٌ، لَيَقُولُنَّ هَؤُلَاءِ لَكُمْ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَي: إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَبْتَصُونَ بِكُم فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْخِرُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ هَهُنَا: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا- فِي قُلُوبِهِمْ وَمَا نَجَّيْتُهُ صَمَايِرُهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لَكُمْ الْمُوَافَقَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أَي: وَلَيُخْتَبِرَنَّ اللَّهُ النَّاسَ بِالضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ، لِيَتِمَّزَّ هَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ: مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ فِي الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ، [وَأَوْ] مَنْ إِنَّمَا يُطِيعُهُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَتَبْلُغُنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّاهِدِينَ وَتَبْلُغُوا أَعْبَادَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَتَعَةِ أَحَدِ الْبَنِي كَانَ

فِيهَا مَا كَانَ مِنَ الْإِخْتِيَارِ وَالْإِمْتِحَانِ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾... الْآيَةُ [آل عمران: ١٧٩].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ<sup>(٦)</sup>﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلُنَّ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ<sup>(٧)</sup>﴾

[جُرْأَةُ الْكُفَّارِ فِي تَحْمِيلِ خَطَايَا الْآخَرِينَ بِشَرْطِ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفَّارٍ قُرِشٍ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الْهُدَى: ازْجِعُوا عَنْ دِينِكُمْ إِلَى دِينِنَا، وَاتَّبِعُوا سَبِيلَنَا: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ أَي: أَثَامَكُمْ، إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَثَامٌ فِي ذَلِكَ: عَلَيْنَا وَفِي رِقَابِنَا. كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: أَفْعَلْ هَذَا وَخَطِئْتُكَ فِي رَقَبَتِي، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَي: فِيمَا قَالُوهُ إِنَّهُمْ يَحْتَمِلُونَ عَنْ أَوْلِيكَ خَطَايَاهُمْ، فَإِنَّهُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وَزَرَ أَحَدٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِهْلَاهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا<sup>(٨)</sup>﴾ يَبْصُرُونَهُمْ [المعارج: ١٠، ١١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إِنْخِبَارٌ عَنِ الدَّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ: أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْزَارَ أَنْفُسِهِمْ وَأَوْزَارَ آخَرٍ بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مِنَ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِ أَوْلِيكَ شَيْئًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾... الْآيَةُ [النمل: ٢٥]، وَفِي الصَّحِيحِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ أَثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَثَامِهِمْ شَيْئًا». وَفِي الصَّحِيحِ: «مَا قُتِلَ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَسْتَلُنَّ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَمَّا كَانُوا

(١) تحفة الأحوذى: ٤٨/٩ (٢) أحمد: ١٨١/١ ومسلم: ٤/

١٨٧٧ وأبو داود: ١٧٧/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦

(٣) الطبري: ١٣/٢٠ (٤) مسلم: ٢٠٦/٤

فَأَنبِئْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذْ هَمَزَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنشَأَ بِمَعْجِرَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢١) وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ... الآية [يونس: ٩٦، ٩٧]، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَيُظْهِرُكُمْ وَيَنْصُرُكُمْ وَيُؤَيِّدُكُمْ، وَيَذِلُّ عَدُوَّكُمْ وَيَكْنُتُهُمْ، وَيَجْعَلُهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بُعِثَ نُوحٌ وَهُوَ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَبِثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِّينَ عَامًا حَتَّى كَثُرَ النَّاسُ وَفَشُوا<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ أي: الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ مُفَصَّلًا فِي سُورَةِ هُودٍ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: وَجَعَلْنَا تِلْكَ السَّفِينَةَ بَاقِيَةً: إِمَّا عَيْنَهَا، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّهَا بَقِيَتْ إِلَى أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ، أَوْ نَوْعَهَا جَعَلَهُ

بَقَرَةٌ ﴿أَي: يَكْذِبُونَ وَيَخْتَلِفُونَ مِنَ الْهُتَانِ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَهُنَا حَدِيثًا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَغَ مَا أُرْسِلَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْزِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَجُوزُنِي الْيَوْمَ ظُلْمٌ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فَيَقُولُ: أَيْنَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ؟ فَيَأْتِي بِنَبْعَةٍ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيُشْخَصُ النَّاسُ إِلَيْهَا أَبْصَارُهُمْ، حَتَّى يَقُومَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ عِزٌّ وَجَلٌّ، ثُمَّ يَأْمُرُ الْمُنَادِي فَيُنَادِي: مَنْ كَانَتْ لَهُ بِيَاعَةٌ أَوْ ظَلَامَةٌ عِنْدَ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ فَهَلُمَّ، فَيَقْبُلُونَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا قِيَامًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ، فَيَقُولُ الرَّحْمَنُ: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: كَيْفَ نَقْضِي عَنْهُ؟ فَيَقُولُ: خُذُوا لَهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِ. فَلَا يَزَالُونَ يَأْخُذُونَ مِنْهَا حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهَا حَسَنَةٌ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ الظَّلَامَاتِ، فَيَقُولُ: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: لَمْ يَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ، فَيَقُولُ: خُذُوا مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَاحْمِلُوهَا عَلَيْهِ» ثُمَّ نَزَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوُجْهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، وَأَخَذَ مِنْ عَرَضِ هَذَا، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا لَمْ تَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٢٤) فَأَنبِئْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٥﴾

[ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ]

هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، يُخَبِّرُهُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجَهَارًا، وَمَعَ هَذَا مَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضًا عَنْهُ وَتَكْذِيبًا لَهُ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَا نَجَّعَ فِيهِمُ الْبَلَاغُ وَالْإِنذَارُ، فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ! لَا تَأْسَفْ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَبْدِئُ الْأُمُورَ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

(١) فتح الباري: ٤١٩/٦ (٢) الدر المنثور: ٢٧٢/٥ (٣) مسلم: ١٩٩٧/٤

لِلنَّاسِ تَذِكْرَةٌ لِّبَعْمِهِ عَلَى الْخَلْقِ كَيْفَ أَنْجَاهُمْ مِنَ الطُّوفَانِ<sup>(١)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّ لَهْمَ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَالِكِ الْمَسْحُونِ<sup>(٢)</sup>﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَاسِهِ مَا يَرْكَبُونَ<sup>(٣)</sup> إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَتَّعْنَا إِلَى حِينٍ<sup>(٤)</sup>﴾ [يس: ٤١-٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ<sup>(٥)</sup>﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَنُبَيِّهَا أَذً وَصِيَةً<sup>(٦)</sup> [الحاقة: ١١، ١٢] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَأَنبِئْتُهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ<sup>(٧)</sup>﴾ [العنكبوت: ١٥] وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّنْذِيرِ مِنَ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ الذُّنْبَانَ بِمَصْيُحٍ وَجَعَلْنَاهُ رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ<sup>(٨)</sup>﴾ [الملك: ٥] أَيْ: وَجَعَلْنَا نَوْعَهَا رُجُومًا فَإِنَّ الَّتِي يُرْمَى بِهَا لَيْسَتْ هِيَ رِزْقًا لِلسَّمَاءِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ<sup>(٩)</sup>﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَارِزٍ مُكِينٍ<sup>(١٠)</sup> [المؤمنون: ١٢، ١٣] وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ.

﴿وإِبراهيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْفِقُوا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ<sup>(١١)</sup>﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِندَ اللَّهِ الزَّرْكَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ<sup>(١٢)</sup> وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمُورٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ<sup>(١٣)</sup>﴾

وَعَظُ إِبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ [

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبراهيمَ إِمَامَ الْخُلَفَاءِ، أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْإِخْلَاصَ لَهُ فِي التَّقْوَى، وَطَلَبَ الرِّزْقَ مِنْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَوَجَّهَ فِي الشُّكْرِ، فَإِنَّهُ الْمَشْكُورُ عَلَى النِّعَمِ لَا مُسَدِّدٍ لَهَا غَيْرُهُ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْفِقُوا<sup>(١٤)</sup>﴾ أَيْ: أَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ وَالْخَوْفَ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ<sup>(١٥)</sup>﴾ أَيْ: إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ حَصَلَ لَكُمْ الْخَيْرُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَانْدَفَعَ عَنْكُمْ الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا لَا تَنْصُرُ وَلَا تَنْفَعُ، وَإِنَّمَا اخْتَلَقْتُمْ أَنْتُمْ لَهَا أَسمَاءَ فَسَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً، وَإِنَّمَا هِيَ مَخْلُوقَةٌ مِثْلَكُمْ، هَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١٦)</sup>. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ. وَرَوَى الْوَالِيبِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا<sup>(١٧)</sup>﴾ أَيْ: تَنْحِتُونَهَا أَصْنَامًا<sup>(١٨)</sup>. وَهِيَ لَا تَمْلِكُ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِندَ اللَّهِ الزَّرْكَ<sup>(١٩)</sup> وَهَذَا أَلْبَغُ فِي الْحَضَرِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ<sup>(٢٠)</sup>﴾ [الفاتحة: ٥] ﴿رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ<sup>(٢١)</sup>﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(٢٢)</sup>﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ<sup>(٢٣)</sup>﴾ وَمَا أَشَدَّ بُعْجَازِي فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ<sup>(٢٤)</sup>﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ<sup>(٢٥)</sup>﴾

#### [أَدِلَّةُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَرْسَدَهُمْ إِلَى إِيثَابِ الْمَعَادِ الَّذِي يُبْكِرُونَهُ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَهُهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، ثُمَّ وَجَدُوا وَصَارُوا أَنَاسًا سَامِعِينَ مُبْصِرِينَ، فَالَّذِي بَدَأَ هَذَا قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، ثُمَّ أَرْسَدَهُمْ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِمَا فِي الْآفَاقِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُسَاهِدَةِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الْأَشْيَاءِ: السَّمَوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّبَرَةِ

(١) الدر المنثور: ٢٧٣/٥ (٢) الطبري: ١٨/٢٠ العوفي: تقدم

حكمه مرارًا (٣) الطبري: ١٩/٢٠



فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضٌ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿فَمَا مَن لَّهُ لُوطٌ﴾ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَآتَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُّكُمْ لَأَن تُؤْتُوا الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَأَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَامَ عَلَيْهِمُ الْبُرْهَانُ وَتَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، فَعَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِمْ وَقُوَّةِ مُلْكِهِمْ ﴿قَالُوا إِنَّمَا لَمْ يَبْنُوا فَأَقْتُلُوهُ فِي الْحَجَرِ﴾ قَالُوا لَهُ بِهِ كَيْدًا فَعَلَّيْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿الصفات: ٩٧، ٩٨﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَسَدُوا فِي جَمْعِ أَحْطَابٍ عَظِيمَةٍ مُدَّةَ طَوِيلَةٍ، وَحَوَّطُوا حَوْلَهَا، ثُمَّ أَضْرَمُوا فِيهَا النَّارَ، فَارْتَفَعَ لَهَا لَهَبٌ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، وَلَمْ تَوْقَدْ نَارٌ قَطُّ أَكْبَرُ مِنْهَا، ثُمَّ قَدَّمُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَكَتَفُوهُ وَالْقُوَّةَ فِي كَيْفِهِ الْيُسْتَجَنَّبُ، ثُمَّ قَدَّمُوا فِيهَا، فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَخَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا بَعْدَ مَا مَكَتَ فِيهَا أَيَّامًا، وَلِهَذَا وَأَمَّا لَيْسَ اللَّهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا، فَإِنَّهُ بَدَّلَ نَفْسَهُ لِلرَّحْمَنِ، وَجَسَدَهُ لِلنَّبَرَانِ، وَسَخَا بَوْلَهُ لِلْقُرْبَانِ، وَجَعَلَ مَالَهُ لِلضَّيْفَانِ، وَلِهَذَا اجْتَمَعَ عَلَى مَحَبَّتِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَدْيَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أَيُّ: سَلَّمَهُ مِنْهَا

النُّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهَا مِنْ مِهَادٍ وَجِبَالٍ، وَأَوْدِيَةٍ، وَبَرَازِيٍّ وَقَفَارٍ، وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ، وَثِمَارٍ وَبَحَارٍ، كُلُّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى خُدُوعِهَا فِي أَنْفُسِهَا، وَعَلَى وُجُودِ صَانِعِهَا الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُونُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أَيُّ: هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ مَهْمَا فَعَلَ فَعَدْلٌ؛ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ»<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أَيُّ: تُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، فَكُلُّ شَيْءٍ خَائِفٌ مِنْهُ، فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَأَتِ اللَّهُ وَلِقَائِهِ أَيُّ: يَجِدُونَهَا وَكَفَرُوا بِالْمَعَادِ ﴿أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ رَحْمَتِي﴾ أَيُّ: لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ: مُوجَعٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضٌ يَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

[وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ آيَةً فِي النَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ وَدَفْعِهِمُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، أَنَّهُمْ مَا كَانَ لَهُمْ جَوَابٌ بَعْدَ مَقَالَةِ إِبْرَاهِيمَ هَذِهِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْهُدَى وَالْبَيَانِ

يَأْنْ جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

[وَعَظَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ]

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَقُولُ لِقَوْمِهِ مُفْرَعًا لَهُمْ وَمُؤَبِّحًا عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ لِلْأَوْثَانِ: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ هَذِهِ لِتَجْتَمِعُوا عَلَى عِبَادَتِهَا فِي الدُّنْيَا صَدَاقَةً وَأَلْفَةً مِنْكُمْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يَنْعَكِسُ هَذَا الْحَالُ، فَتَبْقَى هَذِهِ الصَّدَاقَةُ وَالْمَوَدَّةُ بَعْضًا وَشَتَانًا ثُمَّ ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَي: تَتَجَاحَدُونَ مَا كَانَ بَيْنَكُمْ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿أَي: يَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْمُنْبُوعِينَ، وَالْمُنْبُوعُونَ الْأَتْبَاعَ﴾ ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أَخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْأَخْلَآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ...﴾ الآية. أَي: وَمَصِيرُهُمْ وَمَرْجِعُهُمْ بَعْدَ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُكُمْ، وَلَا مُنْقِذٍ يُقْذِكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُخَالِفُ ذَلِكَ.

﴿فَمَنْ لَّمْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ إِجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

[إِيمَانُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَجْرَتُهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ آمَنَ لَهُ لُوطٌ، يُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ. يَقُولُونَ: هُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ أَرْزَرٍ، يَغْنِي وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ سِوَاهُ، وَسَارَةُ امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، لَكِنْ يُقَالُ: كَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ مَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْجَبَّارِ فَسَأَلَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ سَارَةَ مَا هِيَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: أُخْتِي. ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَكَ: إِنَّكَ أُخْتِي فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، فَأَنْتِ أُخْتِي فِي الدِّينِ. وَكَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ زَوْجَانِ عَلَى الْإِسْلَامِ غَيْرِي وَغَيْرِكَ، فَإِنْ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ آمَنَ بِهِ مِنْ

قَوْمِهِ، وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، ثُمَّ أُرْسِلَ فِي حَيَاةِ الْخَلِيلِ إِلَى أَهْلِ «سُدُومَ» وَإِفْلِيمِهَا<sup>(١)</sup>. وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا سَيَأْتِي.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْكَ رَبِّي﴾ يَحْتَمِلُ عَوْدَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ﴾ عَلَى لُوطٍ؛ لِأَنَّهُ هُوَ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ. [قَالَ] ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: وَهُوَ الْمَكْنِيُّ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ لَّمْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ﴾ أَي: مِنْ قَوْمِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ اخْتَارَ الْمُهَاجَرَةَ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ؛ ابْتِغَاءَ إِظْهَارِ الدِّينِ وَالْتِمَاسٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَي: لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ الْقُدْرَةِ وَالشَّرْعِيَّةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هَاجَرَ جَمِيعًا مِنْ «كُوثَى» - وَهِيَ مِنْ سَوَادِ الْكُوفَةِ - إِلَى الشَّامِ. قَالَ: وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّهَا سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةِ يَنْحَارُ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى مُهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ، لَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ إِلَّا شِرَارُ أَهْلِهَا، فَتَلْفِظُهُمْ أَرْضُهُمْ، تَقْدَرُهُمْ نَفْسُ الرَّحْمَنِ، تَحْشَرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، فَتَيَّبَتْ مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا، وَتَقَبَّلَتْ مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَتَأْكُلُ مِمَّنْ تَخْلَفُ مِنْهُمْ. وَفِي رَوَايَةٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةِ، فَخِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ أَلَزَمَهُمْ مُهَاجِرُ إِبْرَاهِيمَ. وَقَدْ أَشْنَدَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ هَذَا الْحَدِيثَ مُطَوَّلًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

[مَا وَهَبَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ، وَمَا جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا أَغْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وَلَا جَمْعًا ذِيًّا [مریم: ٤٩] أَي: أَنَّهُ لَمَّا فَارَقَ قَوْمَهُ، أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ نَبِيٍّ، وَوُلِدَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ نَبِيٌّ فِي حَيَاةِ جَدِّهِ، وَكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] أَي: زِيَادَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَرَّزْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أَي: يُوَلِّدُ لِهَذَا الْوَلَدِ وَلَدًا فِي حَيَاتِهِمَا، تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ هَذِهِ خِلْعَةُ سَنِيَّةٍ عَظِيمَةٍ مَعَ اتِّخَاذِ اللَّهِ إِيَّاهُ خَلِيلًا، وَجَعَلَهُ لِلنَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٠٠

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا  
 أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾  
 قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ  
 وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا  
 أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَوَّاهُمْ وَضَافَك بِهِمْ ذُرْعًا  
 وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَ  
 كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ  
 هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ  
 ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ  
 ﴿٣٥﴾ وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوهُمْ أَعْبُدُوا  
 اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ  
 ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي  
 دَارِهِمْ جثثين ﴿٣٧﴾ وَعَادَا وَثُمُودًا وَقَدْ بَيَّنَّا  
 لَكُم مِّنْ مِّنْكَزِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ  
 أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُم عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

لَا يَلِيْقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ فِي مَجَالِسِهِمُ الَّتِي  
 يَجْتَمِعُونَ، فِيهَا، لَا يُكْبِرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ شَيْئًا مِنْ  
 ذَلِكَ، فَمِنْ قَائِلٍ: كَانُوا يَأْتُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْمَلَأِ،  
 قَالَهُ مُجَاهِدٌ<sup>(٢)</sup>. وَمِنْ قَائِلٍ: كَانُوا يَتَضَارَطُونَ  
 وَيَتَضَاكُونَ. قَالَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَالْقَاسِمُ<sup>(٣)</sup>.  
 وَمِنْ قَائِلٍ: كَانُوا يَتَاطَحُونَ بَيْنَ الْكِبَاشِ وَيَتَاقِرُونَ بَيْنَ  
 الدُّبُوكِ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَصُدُّ عَنْهُمْ وَكَانُوا شَرًّا مِنْ ذَلِكَ.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا  
 أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَهَذَا مِنْ  
 كُفْرِهِمْ وَاسْتَهْزَائِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَلِهَذَا اسْتَنْصَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ  
 اللَّهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ  
 هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا

إِمَامًا: أَنْ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، فَلَمْ يُوجَدْ نَبِيٌّ  
 بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ، فَجَمِيعُ أَنْبِيَاءِ  
 بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ سُلَالَةِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ،  
 حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، فَقَامَ فِي مَلِكِهِمْ مُبَشِّرًا  
 بِالنَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرْشِيِّ الْهَاشِمِيِّ خَاتَمِ الرُّسُلِ عَلَى  
 الْإِطْلَاقِ، وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، الَّذِي  
 اضْطَفَّاهُ اللَّهُ مِنْ صَمِيمِ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ  
 ابْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَلَمْ يُوجَدْ نَبِيٌّ مِنْ سُلَالَةِ  
 إِسْمَاعِيلَ سِوَاهُ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَتَيْنَهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ  
 الصَّالِحِينَ﴾ أَيُّ: جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا الْمُؤْصُولَةِ  
 بِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ، فَكَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا الرِّزْقُ الْوَاسِعُ الْهَيِّ،  
 وَالْمَنْزِلُ الرَّحْبُ، وَالْمُورِدُ الْعَذْبُ، وَالزَّوْجَةُ الْحَسَنَةُ  
 الصَّالِحَةُ، وَالنِّسَاءُ الْجَمِيلُ، وَالذَّكْرُ الْحَسَنُ، وَكُلُّ أَحَدٍ  
 يُحِبُّهُ وَيَتَوَلَّاهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ  
 وَغَيْرُهُمْ: مَعَ الْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ<sup>(١)</sup>. كَمَا  
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] أَيُّ: قَامَ  
 بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ بِهِ وَكَمَّلَ طَاعَةَ رَبِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
 ﴿وَأَتَيْنَهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ﴾  
 وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمُّهُ قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَهُ  
 يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ  
 الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا  
 سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّكُمْ لَأَنْتَوْنَ  
 الرِّجَالُ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا  
 كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ  
 كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ  
 الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

[وَعَظُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ]  
 يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ أَذْكَرَ  
 عَلَى قَوْمِهِ شَوْءَ ضَنِيعِهِمْ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ قَبِيحِ  
 الْأَعْمَالِ فِي إِيْتَابِهِمُ الذَّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَلَمْ يَسْفَهُمْ  
 إِلَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَهُمْ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا  
 يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ، وَيَخْلِفُونَ وَيَقْطَعُونَ  
 السَّبِيلَ، أَيُّ: يَقِفُونَ فِي طَرِيقِ النَّاسِ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْخُذُونَ  
 أَمْوَالَهُمْ ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ أَيُّ: يَفْعَلُونَ مَا

(١) الطبري: ٢٠/٢٧، ٢٨ (٢) الطبري: ٢٠/٢٩ والبغوي: ٣/

٤٦٦ (٣) الطبري: ٢٠/٣٠

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

٤٠١

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى  
بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ  
(٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِنَبِيِّهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا  
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ  
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ  
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) مَثَلُ الَّذِينَ  
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ  
اتَّخَذَتْ بِعْتَابٍ وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِثَتْ الْعَنْكَبُوتُ  
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ  
دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ  
الْأَمْثَلُ نُصَرِّفُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ  
(٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) أَتُلُّ مَا وَحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ  
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ  
وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَسْجِجَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ  
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا  
بِهِمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ  
وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ  
عَلَيْكَ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا  
يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ  
يَعْقِلُونَ (٣٥)

[اسْتِنَصَارُ لُوطٍ وَمَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ إِلَى  
لُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ]

لَمَّا اسْتَنْصَرَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ،  
بَعَثَ اللَّهُ لِنُصْرَتِهِ مَلَائِكَةً فَمَرُّوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
فِي هَيْئَةٍ أَضْيَافٍ، فَجَاءَهُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ، فَلَمَّا رَأَى  
إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ، نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ  
خِيفَةً، فَشَرَعُوا يُؤَانِسُونَهُ وَيُشِيرُونَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ مِنْ  
امْرَأَتِهِ سَارَةَ، وَكَانَتْ حَاضِرَةً، فَتَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ  
بَيَّانُهُ فِي سُورَةِ «هُودٍ» وَ«الْحَجَرِ» فَلَمَّا جَاءَتْ إِبْرَاهِيمَ  
بِالْبُشْرَى وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، أَخَذَ  
يُدَافِعُ لَعَلَّهُمْ يُنْظَرُونَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَلَمَّا قَالُوا: إِنَّا  
مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ  
أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَسْجِجَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ  
الْغَابِرِينَ﴾ أَيُّ: مِنَ الْهَالِكِينَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ ثَمَالِيَهُمْ عَلَى  
كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَدَنْبِهِمْ، ثُمَّ سَارُوا مِنْ عِنْدِهِ فَدَخَلُوا عَلَى  
لُوطٍ فِي صُورَةِ شَبَابٍ حَسَنٍ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ كَذَلِكَ ﴿سَيَّءَ بِهِمْ  
وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ أَيُّ: اغْتَمَّ بِأَمْرِهِمْ إِنَّهُ هُوَ أَضَافَهُمْ خَافَ  
عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَإِنْ لَمْ يُضْفِئْهُمْ خَشِيَ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ، وَلَمْ  
يَعْلَمْ بِأَمْرِهِمْ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِمَةِ ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ  
إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٣٣) إِنَّا  
مُنْزِلُونَ عَلَيْكَ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا  
يَفْسُقُونَ ﴿وَذَلِكَ أَنَّ جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ افْتَلَعَ قُرَاهِمَ مِنْ  
قَرَارِ الْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَلَبَهَا  
عَلَيْهِمْ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ  
مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ، وَجَعَلَ اللَّهُ  
مَكَانَهَا بَحِيرَةً خَبِثَةً مُتَبَتَّةً، وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ،  
وَهُمْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْمَعَادِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أَيُّ: وَاضِحَةً ﴿لِقَوْمٍ  
يَعْقِلُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنُكَفِّرَنَّ لَشُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْهِحِينَ﴾ (٣٧)

وَبِالْبَيِّنَاتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْفَوِرْ أَغْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا  
الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ  
فَاتَّخَذْنَاهُمُ الرِّجْصَةَ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُنْجَمِينَ (٣٧)  
[ذِكْرُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّهُ  
أَنْذَرَ قَوْمَهُ أَهْلَ مَدِينٍ، فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ  
لَهُ، وَأَنْ يَخَافُوا بِأَسَنِ اللَّهِ وَيَقِمْتَهُ وَسَطَوْتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
فَقَالَ: ﴿يَنْفَوِرْ أَغْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قَالَ ابْنُ  
جَرِيرٍ: قَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: وَاحْشَوْا الْيَوْمَ الْآخِرَ<sup>(١)</sup>.  
وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾

[الأحزاب: ٢١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نَهَاهُمْ عَنِ  
الْعَيْثِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، وَهُوَ السَّغْيُ فِيهَا وَالتَّبَغْيُ عَلَى

أَهْلِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّقُونَ الْمَكِيَالَ وَالْمِيزَانَ، وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى النَّاسِ، هَذَا مَعَ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِرَجْفَةٍ عَظِيمَةٍ زَلَزَلَتْ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ، وَصَبَحَ أَخْرَجَتِ الْقُلُوبُ مِنْ حَنَاجِرِهَا، وَعَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ الَّذِي أَزْهَقَ الْأَرْوَاحَ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا، إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ، وَقَدْ تَقَدَّمتْ قِصَّتُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ «الْأَعْرَافِ» وَ«هُودٍ» وَ«الشُّعَرَاءِ». وَقَوْلُهُ: «فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ» قَالَ قَتَادَةُ: مَتِينِينَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: قَدْ أُلْقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَعْصِمِينَ﴾ (٣٨) ﴿وَقُدْرَتُ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَزَتْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِكِينَ﴾ (٣٩) ﴿فَلَمَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٠)

[ذِكْرُ مَا تَمَّ بِهِ إِهْلَاكُ أَقْوَامٍ كَذَبُوا رُسُلَهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ كَيْفَ أَبَادَهُمْ وَتَنَوَّعَ فِي عَذَابِهِمْ، وَأَخَذَهُمْ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ، فَعَادُ قَوْمٌ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَخْقَافَ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ بِلَادِ الْيَمَنِ، وَثَمُودُ قَوْمٌ صَالِحٌ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ قَرِيبًا مِنْ وَادِي الْقُرَى، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَسَاكِنَهُمَا جَيِّدًا، وَتَمُرُّ عَلَيْهَا كَثِيرًا، وَقَارُونُ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ الْجَبَلِيَّةِ وَمَفَاتِيحُ الْكُنُوزِ الثَّقِيلَةِ، وَفِرْعَوْنُ مَلِكٌ مُضَرٌّ فِي زَمَانِ مُوسَى وَوَزِيرُهُ هَامَانَ الْفُطَيَّانِ الْكَافِرَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ ﴿فَلَمَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيُّ: كَانَتْ عُقُوبَتُهُ بِمَا يَنَاسِيهِ ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَهُمْ عَادٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ فَجَاءَهُمْ رِيحٌ صَرْصَرٌ بَارِدَةٌ شَدِيدَةُ الْبَرْدِ، عَاتِيَةُ الْهُبوبِ جَدًّا، تَحْمِلُ عَلَيْهِمْ حَصَبَاءَ الْأَرْضِ فَتَلْقِيهَا عَلَيْهِمْ، وَتَقْتُلُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَرْفَعُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَنْكُشُهُ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدُحُهُ، فَيَبْقَى بَدَنًا بِلَا رَأْسٍ، كَأَنَّهُمْ أَعْمَارُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ ثَمُودُ، قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَظَهَرَتْ لَهُمُ الدَّلَالَةُ مِنْ تِلْكَ النَّاقَةِ الَّتِي انْفَلَقَتْ عَنْهَا الصَّخْرَةُ مِثْلَ مَا

سَأَلُوا سِوَاءَ بَسَوءٍ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى طُعْيَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَتَهَدَّدُوا نَبِيَّ اللَّهِ صَالِحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِأَنْ يُخْرِجُوهُمْ وَيَرْجُمُوهُمْ، فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَخْرَجَتْ الْأَصْوَاتَ مِنْهُمْ وَالْحَرَكَاتِ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وَهُوَ قَارُونُ الَّذِي طَعَنَ وَبَغَى وَعَتَا، وَعَصَى الرَّبَّ الْأَعْلَى، وَمَشَى فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، وَفَرِحَ وَمَرَحَ وَتَاهَ بِنَفْسِهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ، وَاخْتَالَ فِي مَشِيَّتِهِ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وَهُوَ فِرْعَوْنُ وَوَزِيرُهُ هَامَانُ وَجُنُودُهُمَا عَنْ آخِرِهِمْ أَغْرَقُوا فِي صَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ أَيُّ: فِيمَا فَعَلَ بِهِمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ جَزَاءً وَفَاقًا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ.

﴿مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْعَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤٢) ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣)

[تَمْثِيلُ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ]

هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ إِلَهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ يَرْجُونَ نَصْرَهُمْ وَرِزْقَهُمْ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ فِي ضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ، فَلَيْسَ فِي أَيْدِي هَؤُلَاءِ مِنْ إِلَهَتِهِمْ إِلَّا كَمَنْ يَتَمَسَّكُ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، فَإِنَّهُ لَا يُجِدِي عَنْهُ شَيْئًا، فَلَوْ عَلِمُوا هَذَا الْحَالَ لَمَّا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ قَلْبُهُ لِلَّهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُحْسِنُ الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرْعِ، فَإِنَّهُ تَمَسَّكُ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا؛ لِقُوَّتِهَا وَثَبَاتِهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ عَدَّ غَيْرَهُ وَأَشْرَكَ بِهِ، إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَيَعْلَمُ مَا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ، وَسَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أَيُّ: وَمَا يَفْهَمُهَا وَيَتَدَبَّرُهَا إِلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ الْمُتَضَلِّعُونَ مِنْهُ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

٤٠٢

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤١)  
 وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَلَّذِينَ أَيْنَهُمُ الْكِتَابُ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٢) وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَزَّتْكَ رِجَالُكَ الْمُبْطِلُونَ (٤٣) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٤) وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٥) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٤٦) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٤٧)

وَاللَّهُمَّ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤١)

[مُجَادِلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ]

الْمَعْنَى: أَنْ مَنْ أَرَادَ الْأَسْتِصَارَ مِنْهُمْ فِي الدِّينِ، فَيُجَادِلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ لِيَكُونَ أَنْجَعُ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ (النحل: ١٢٥)، وَقَالَ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤) وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أَيْ: حَادُوا عَنْ وَجْهِ الْحَقِّ، وَعَمُوا عَنْ وَاضِحِ الْمَحَجَّةِ، وَعَانَدُوا وَكَابَرُوا، فَحَبِطَتْ يَتَقَلُّ مِنَ الْجِدَالِ إِلَى الْجِلَادِ وَتَقَاتَلُونَ بِمَا يَمْنَعُهُمْ وَيَرُدُّعُهُمْ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] قَالَ جَابِرٌ: أَمَرْنَا مَنْ خَالَفَ كِتَابَ

مَرَّةً قَالَ: مَا مَرَزْتُ بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنْتَنِي؛ لِأَنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَيْلٌكَ الْأَمْتَلُ تَضَرُّبُهَا لِلثَّائِتِ وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْعَكْلُمُونَ﴾ (١).

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) أَتَى مَا أَوْجَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْبَى الصَّلَاةِ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٣)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، بِغَيْبِ لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَاللَّعِبِ ﴿لِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [طه: ١٥] ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ اسْتَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيُخْرِجَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: لَدَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى الْمُتَعَزِّدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّذْيِيرِ وَالْإِلَهِيَّةِ.

[الْأَمْرُ بِالْبَلَاغِ وَالتَّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ قِرَاءَتُهُ وَإِبْلَاغُهُ لِلنَّاسِ ﴿وَأَقْبَى الصَّلَاةِ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بِغَيْبِ أَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عَلَى تَرْكِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ. أَيْ: مُوَاطَأَتُهَا تَحْمِلُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فَلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ سَيِّئُهُمَا مَا يَقُولُ» (٢).

وَتَشْتَمِلُ الصَّلَاةُ أَيْضًا عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ الْأَكْبَرُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أَيْ: أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أَيْ: يَعْلَمُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قَالَ: إِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا ثَلَاثُ خِصَالٍ، فَكُلُّ صَلَاةٍ لَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ فَلَيْسَتْ بِصَلَاةٍ: الْإِخْلَاصُ، وَالْخَشْيَةُ، وَذِكْرُ اللَّهِ، فَإِلَّا إِخْلَاصٌ بِأَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالْخَشْيَةُ نَهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَذِكْرُ اللَّهِ: الْقُرْآنُ بِأَمْرِهِ وَنَهَاهُ. وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ الْأَنْصَارِيُّ: إِذَا كُنْتَ فِي صَلَاةٍ، فَأَنْتَ فِي مَعْرُوفٍ، وَقَدْ حَبَزَتْكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالَّذِي أَنْتَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾

اللَّهُ أَنْ نَضْرِبَهُ بِالسِّنِّيفِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. يَعْنِي: إِذَا أَخْبَرُوا بِمَا لَا نَعْلَمُ صِدْقَهُ وَلَا كَذِبَهُ، فَهَذَا لَا نَقْدِمُ عَلَى تَكْذِيبِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ حَقًّا، وَلَا تُصَدِّقُهُ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا، وَلَكِنْ نُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانًا مُجْمَلًا مُعَلَّقًا عَلَى شَرْطٍ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُتَرَلًّا، لَا مُبْدَلًا وَلَا مُؤَوَّلًا.

رَوَى الْبُخَارِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيَفْسُرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» وَهَذَا الْحَدِيثُ تَقَرَّرَ بِهِ الْبُخَارِيُّ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمْ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدُثُ تَقَرُّوْنَهُ مَحْضًا لَمْ يَشِبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا [كِتَابَ اللَّهِ] وَغَيَّرُوا وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِيَسْتُرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَلَا يَنْهَأُكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ يُحَدِّثُ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ بِالْمَدِينَةِ، وَذَكَرَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ مِنْ أَصْدَقِ هَؤُلَاءِ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَإِنْ كُنَّا مَعَ ذَلِكَ لَنَبْلُو عَلَيْهِ الْكُذْبَ<sup>(٣)</sup>.

(قُلْتُ): مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقَعُ مِنْهُ الْكُذْبُ لُغَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ؛ لِأَنَّهُ يُحَدِّثُ عَنْ ضُحَفٍ يُحْسِنُ بِهَا الظَّنَّ، وَفِيهَا أَشْيَاءٌ مَوْضُوعَةٌ وَمَكْذُوبَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي مِلَّتِهِمْ حِفَاطٌ مُتَقِنُونَ كَهَذِهِ الْأُمَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ وَقُرْبُ الْعَهْدِ، وَضَعَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ مَنَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمًا بِذَلِكَ كُلِّ بِحْسَبِهِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَلَا تَزِيدُ عَلَيْهِمْ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وَمَا كُنْتَ تَسْتَلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُهُ بِسْمِئِكَ إِذَا لَازِمَتِ الْمُبْطِلُونَ<sup>(٥)</sup> بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوْفُوا أَعْلَمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ<sup>(٦)</sup>﴾

[كُونُ هَذَا الْقُرْآنُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَالِدَّلِيلُ عَلَيْهِ] قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا أُنْزِلْنَا الْكِتَابَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الرُّسُلِ، كَذَلِكَ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْكِتَابَ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ وَمُنَاسِبَةٌ وَارْتِبَاظُهُ جَيِّدٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ أَخَذُوهُ فَتَلَوْهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ مِنْ أَخْبَارِهِمُ الْعُلَمَاءُ الْأَذْكِيَاءُ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَأَشْبَاهِهِمَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يَعْنِي: الْعَرَبُ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ «وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ» أَيُّ: مَا يُكْذِبُ بِهَا وَيَجْحَدُ حَقَّهَا إِلَّا مَنْ يَسْتُرُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُعْطِي ضَوْءَ الشَّمْسِ بِالْوَصَائِلِ وَهَيْهَاتَ!

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْتَلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُهُ بِسْمِئِكَ﴾ أَيُّ: قَدْ لَبِثْتَ فِي قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَ بِهَذَا الْقُرْآنِ عُمَرًا لَا تَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا تُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ وَغَيْرِهِمْ يَعْرِفُ أَنَّكَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ، وَهَكَذَا صِفَتُهُ فِي الْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَقْبَعُونَ أَلْسِنُوهَا النَّحْيَ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَنُورِهِمُ بِالْمَعْرُوفِ وَبَيْنَهُمْ عَنِ الشُّكْرِ...﴾ [الآيَةُ: [الأعراف: ١٥٧]، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ، وَلَا يَخْطُ سَطْرًا وَلَا حَرْفًا بِيَدِهِ، بَلْ كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَكْتُبُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْوَحْيَ وَالرَّسَائِلَ إِلَى الْأَقْلَامِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا لَازِمَتِ الْمُبْطِلُونَ﴾ أَيُّ: لَوْ كُنْتَ تُحْسِنُهَا لَازِمَتِ بَعْضُ الْجَهْلَةِ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ: إِنَّمَا تَعْلَمُ هَذَا مِنْ كُتُبٍ قَبْلَهُ مَأْثُورَةٍ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ «وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ ثَمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» [الفرقان: ٥] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُنْزِلَهُ إِلَيَّ يَعْلَمُ النَّبِيُّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الآيَةُ: [الفرقان: ٦] وَقَالَ هُنَا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوْفُوا أَعْلَمَ﴾ أَيُّ: هَذَا الْقُرْآنُ آيَاتٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ: أَمْرًا وَنَهْيًا وَخَبْرًا، يَحْفَظُهُ الْعُلَمَاءُ، يَسْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حِفْظًا وَتِلَاوَةً وَتَفْسِيرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسْرَ الْفُرَّانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ

(١) فتح الباري: ٢٠/٨ (٢) البخاري: ٧٣٦٣ (٣) فتح الباري: ٣٤٥/١٣ (٤) الطبري: ٥٠/٢٠

يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ [الكهف: ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا كَثْرَةَ جَهْلِهِمْ وَسَخَافَةَ عَقْلِهِمْ حَيْثُ طَلَبُوا آيَاتِ تَذْلِيلِهِمْ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيمَا جَاءَهُمْ، وَقَدْ جَاءَهُمْ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مُعْجَزَةٍ؛ إِذْ عَجَزَتِ الْفُصَحَاءُ وَالْبُلَغَاءُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بَلْ عَنْ مُعَارَضَةِ عَشْرِ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ، بَلْ عَنْ مُعَارَضَةِ سُورَةٍ مِنْهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ آي: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا قَبْلَهُمْ، وَنَبَأٌ مَا بَعْدَهُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَهُمْ، وَأَنْتَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ، وَلَمْ تُخَالِطْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَجِئْتَهُمْ بِأَخْبَارٍ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى بَيْنَ الصَّوَابِ وَمِمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَبِالْحَقِّ الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ الْجَلِيِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَأْتِيَهِمُ الْبَيِّنُ الْمُبِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِيَانَا بَيِّنَاتٌ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: ١٣٣].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ النَّبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْي، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٤)</sup>. أَخْرَجَاهُ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَرَحِيمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ آي: ﴿إِنَّمَا لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَإِزَاحَةِ اللَّبَاطِلِ، وَذِكْرَى بِمَا فِيهِ حُلُولُ الثَّقَمَاتِ وَنَزُولُ الْعِقَابِ بِالْمُكَذِّبِينَ وَالْعَاصِينَ: لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِدًا﴾ آي: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَوَعْلَمَ مَا أَقُولُ لَكُمْ مِنْ إِبْخَارِي عَنْهُ بِأَنَّهُ أَرْسَلَنِي، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَآتَنَمَ مِنِّي، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (١) لَآتَنَمَ مِنْهُ بِالْمِثْلِ (٢) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٣) فَمَا سَكَرَ مِنْ لَمَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] وَإِنَّمَا أَنَا صَادِقٌ

(١) فتح الباري: ٦١٩/٨ (٢) مسلم: ٢١٩٧/٤ (٣) أحمد: ١٥٥/٤

(٤) ضعيف فيه حجاج بن محمد المصيصي الأعرور (٤)

أحمد: ٣٤١/٢ (٥) فتح الباري: ٦١٩/٨ ومسلم: ١٣٤/١

مُذَكِّرٍ ﴿[القمر: ١٧] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ النَّبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْي، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا»<sup>(١)</sup>. وَفِي حَدِيثِ عِيَّاصِ بْنِ حِمَارٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلِ بِكَ، وَمُنْزَلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا»<sup>(٢)</sup>. آي: ﴿لَوْ غَسَلَ الْمَاءُ الْمَحَلَّ الْمَكْتُوبَ فِيهِ لَمَّا اخْتَبِجَ إِلَى ذَلِكَ الْمَحَلِّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أَحْرَقَتْهُ النَّارُ»<sup>(٣)</sup>. وَلِأَنَّهُ مُحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، مُسَرَّرٌ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، مُهَيِّمٌ عَلَى الْقُلُوبِ، مُعْجَزٌ لَفْظًا وَمَعْنَى، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: أَنَا جَلِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَجْعَلُ يَتَابِعِينَ إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ آي: مَا يُكَذِّبُ بِهَا وَيَبْخَسُ حَقَّهَا وَيَرُدُّهَا إِلَّا الظَّالِمُونَ، آي: الْمُعْتَدُونَ الْمُكَابِرُونَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَجِدُونَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٧)

### [طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ وَجَوَابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَعْتِبِهِمْ وَطَلَبِهِمْ آيَاتٍ - يَغْنُون - تُرْشِدُهُمْ إِلَى أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ كَمَا أَتَى صَالِحٌ بِتَابِعِهِ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ آي: إِنَّمَا أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّكُمْ تَهْتَدُونَ لَأَجَابَكُمْ إِلَى سُؤَالِكُمْ؛ لِأَنَّ هَذَا سَهْلٌ عَلَيْهِ، بَسِيرٌ لَدَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْكُمْ أَنَّكُمْ إِنَّمَا قَصَدْتُمُ التَّعْنُتَ وَالْإِمْتِحَانَ، فَلَا يُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا نُوحًا الْآفَاقَةَ مَبْصُرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ آي: إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا لَكُمْ بَيْنَ النَّدَارَةِ، فَعَلَيْ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ رِسَالَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَ﴿مَنْ



الْمُشْرِكِينَ

٤٠٣

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَتَعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُخْرَجُونَ مِنْ تَحْتِهَا إِلَى نَهْرٍ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

عَلَيْهِ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ، وَلِهَذَا أَيْدِي بِالْمُعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَالِدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، سَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَيَقَالُ لَهُمْ عَلَىٰ مَا صَنَعُوا فِي تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ، كَذَّبُوا بِرُسُلِ اللَّهِ مَعَ قِيَامِ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ، وَءَامَنُوا بِالطَّوْغِيبِ وَالْأَوْثَانِ بِلَا دَلِيلٍ، فَسَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

[اِسْتَعْجَالُ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتَعْجَالِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ، وَيَأْسَ اللَّهُ أَنْ يَحُلَّ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا مِثْرًا مِنَ الْمَسَكَةِ أَوْ امْنِنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أَي: لَوْلَا مَا حَتَمَ اللَّهُ مِنْ تَأْخِيرِ الْعَذَابِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَرِيبًا سَرِيعًا كَمَا اسْتَعْجَلُوهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ أَي: فَجَاءَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَئِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أَي: يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ...﴾ [الأنبياء: ٣٩]، فَالنَّارُ تَغْشَاهُمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْعَذَابِ الْحَسِيِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تَهْدِيدٌ وَتَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ، وَهَذَا عَذَابٌ مَعْنَوِيٌّ عَلَى النَّفْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [١٨] إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [القمر: ٤٨، ٤٩] وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [٣٢] هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُ بِهَا تُكَذَّبُونَ ﴿٧﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا

فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الطور: ١٣-١٦].

﴿يَتَعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُخْرَجُونَ مِنْ تَحْتِهَا إِلَىٰ نَهْرٍ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

[الْأَمْرُ بِالْهَجْرَةِ وَالْوَعْدُ عَلَيْهَا بِالرِّزْقِ وَالْجَزَاءِ الْحَسَنِ] هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْهَجْرَةِ مِنَ الْبَلَدِ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَىٰ إِقَامَةِ الدِّينِ إِلَىٰ أَرْضِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ حَيْثُ يُمْكِنُ إِقَامَةُ الدِّينِ، بَأَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ وَيَعْبُدُوهُ كَمَا أَمَرَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَتَعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ وَلِهَذَا لَمَّا ضَافَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مَقَامَهُمْ بِهَا، خَرَجُوا مُهَاجِرِينَ إِلَىٰ أَرْضِ الْحَبَشَةِ؛ لِتَأْمُنُوا عَلَى دِينِهِمْ هُنَاكَ، فَوَجَدُوا خَيْرَ

الْمُتْرَلِينَ هُنَاكَ: أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَأَوَاهُمْ وَأَيَّدَهُمْ بِنَصْرِهِ، وَجَعَلَهُمْ شُيُومًا بِيَلَادِهِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالصَّحَابَةُ الْبَاقُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَتَرَبَّطُ الْمُطَهَّرَةُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ: أَيْنَمَا كُنْتُمْ يَذَرِكُكُمْ الْمَوْتُ، فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَحَيْثُ أَمَرَكُمْ اللَّهُ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ، ثُمَّ إِلَى اللَّهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَ، فَمَنْ كَانَ مُطِيعًا لَهُ جَازَاهُ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ، وَوَفَّاهُ أَتَمَّ الثَّوَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيُّ: لَنُسَكِّنَنَّهُمْ مَنَازِلَ عَالِيَةً فِي الْجَنَّةِ تُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ مَاءٍ وَخَمْرٍ وَعَسَلٍ وَلَبَنٍ، يُصْرَفُونَهَا وَيُجْرُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: مَا كَانَتْ فِيهَا أَبَدًا لَا يَبْعُثُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿يَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ نِعْمَتْ هَذِهِ الْغُرَفُ أَجْرًا عَلَى أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَيُّ: عَلَى دِينِهِمْ. وَهَاجَرُوا إِلَى اللَّهِ وَنَابَذُوا الْأَعْدَاءَ، وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْأَقْرَبَاءَ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَرَجَاءَ مَا عِنْدَهُ وَتَضَدِيقِ مَوْعُودِهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ [أَبِي مُعَاوِيَةَ] الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ أَبَا مَالِكٍ الْأَشْعَرِيَّ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُ: أَنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَرَى ظَاهِرَهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنَهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَطَابَ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ، وَقَامَ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ<sup>(١)</sup>. ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فِي أَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ تَعَالَى أَنَّ الرِّزْقَ لَا يَخْتَصُّ بِشَيْءٍ، بَلْ رَزَقُهُ تَعَالَى عَامٌ لِيَخْلُقَهُ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا، بَلْ كَانَتْ أَرْزَاقُ الْمُهَاجِرِينَ حَيْثُ هَاجَرُوا أَكْثَرَ وَأَوْسَعَ وَأَطْيَبَ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ صَارُوا حُكَّامَ الْبِلَادِ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أَيُّ: لَا تَطِيقُ جَمْعَهُ وَتَحْصِيلَهُ وَلَا تَدْخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أَيُّ: اللَّهُ يَقْبِضُ لَهَا رِزْقَهَا عَلَى ضَعْفِهَا وَيُسِّرُهُ عَلَيْهَا، فَيَبْعَثُ إِلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَصْلِحُهُ حَتَّى الذَّرِّ فِي قَرَارِ الْأَرْضِ، وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ وَالْحَيْتَانِ فِي الْمَاءِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَإِلهَى الْحَيَوانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَدْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فُسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً آمِنًا وَيَخْطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْئِدًا لِبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَةٍ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْعَمَ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْعَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيُّ: السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَاتِهِمْ.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَاهُ بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

[أَدِلَّةُ التَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرَّرًا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْمُسْتَقِيلُ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَتَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ وَمُقَدِّرُ أَجَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهَا، وَاخْتِلَافِ أَرْزَاقِهِمْ فَتَقَاوَتْ بَيْنَهُمْ: فَمِنْهُمْ

(١) الطبراني: ٣٠١/٣ مسند أحمد ٣/٥ أبو معانق لم يشبه سماعه من أبي مالك الأشعري

[كُفِّرْ قُرَيْشٌ مَعَ مَا خُصُّوا بِنِعْمَةِ الْحَرَمِ حَوْلَهُمْ!] يَقُولُ تَعَالَى مُنْتَنًا عَلَى قُرَيْشٍ فِيمَا أَحَلَّهُمْ مِنْ حَرَمِهِ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، فَهُمْ فِي أَمْنٍ عَظِيمٍ، وَالْأَعْرَابُ حَوْلَهُ يُنَهَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُكَفِّرَ قُرَيْشٌ ۖ لِيُفِيَهُمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: ١-٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا لَبِطِل يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أَيْ: أَفَكَانَ شُكْرُهُمْ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ أَشْرَكُوا بِهِ وَعَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وَكَفَرُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ وَعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ؟ فَكَانَ اللَّاتِي بِهُمْ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَأَنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ، وَتَصَدِيقَ الرَّسُولِ وَتَعْظِيمَهُ وَتَوْفِيرَهُ، فَكَذَّبُوهُ وَقَاتَلُوهُ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، وَلِهَذَا سَلَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مَا كَانَ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَقُتِلَ مِنْ قَتْلٍ مِنْهُمْ بِذَرٍ، ثُمَّ صَارَتِ الدَّوْلَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مَكَّةَ، وَأَرْعَمَ آتَا فَهْمَهُمْ وَأَذَلَّ رِقَابَهُمْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَشَدَّ عُقُوبَةً وَمِمَّنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ. وَمَنْ قَالَ: سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَهَكَذَا لَا أَحَدَ أَشَدَّ عُقُوبَةً وَمِمَّنْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ، فَلَاوَلَّ مُتَمَرِّ، وَالثَّانِي مُكَذِّبٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يَعْنِي الرَّسُولَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ وَأَتَابَعَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ أَيْ: لَنُبَصِّرَنَّهُمْ سُبُلًا، أَيْ: طُرُقًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبَّاسِ الْهَمْدَانِيِّ أَبِي أَحْمَدَ - مِنْ أَهْلِ عَمَّا - فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قَالَ: الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ. قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ: فَحَدَّثْتُ بِهِ أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ، فَأَعْجَبَهُ وَقَالَ: لَيْسَ يَنْبَغِي لِمَنْ أُلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ حَتَّى يَسْمَعَهُ فِي الْأَثَرِ، فَإِذَا سَمِعَهُ فِي الْأَثَرِ عَمِلَ بِهِ، وَحَمِدَ اللَّهَ حَتَّى وَافَقَ مَا فِي قَلْبِهِ<sup>(١)</sup>.

الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يَصْلُحُ كُلًّا مِنْهُمْ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَنَى وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ الْمُسْتَقْبَلُ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ، الْمُتَّفَرِّدُ بِتَدْبِيرِهَا، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلِمَ يُعْبَدُ غَيْرُهُ؟ وَلِمَ يُتَوَكَّلُ عَلَى غَيْرِهِ؟ فَكَمَا أَنَّهُ الْوَاحِدُ فِي مُلْكِهِ فَلْيَكُنِ الْوَاحِدُ فِي عِبَادَتِهِ، وَكَثِيرًا مَا يَقَرَّرُ تَعَالَى مَقَامَ الْإِلَهِيَّةِ بِالْإِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ. وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَّتِهِمْ: لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَلَيْتَ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلَاكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتُمْ وَلِيَسْمَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَقَارَةِ الدُّنْيَا وَزَوَالِهَا وَانْقِضَائِهَا، وَأَنَّهَا لَا دَوَامَ لَهَا، وَغَايَةُ مَا فِيهَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴿وَلَيْتَ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أَيْ: الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الْحَقُّ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْقِضَاءَ، بَلْ هِيَ مُسْتَمِرَّةٌ أَبَدَ الْأَبَادِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: لَأَثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ عِنْدَ الْإِضْطِرَارِ يَدْعُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهَلَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ دَائِمًا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلَاكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ...﴾ الْآيَةُ [الإسراء: ٦٧]، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. [قَدْ ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ هَهُنَا قِصَّةَ إِسْلَامِ عِكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ تَقْدِيمَ تَخْرِيجِهَا] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتُمْ وَلِيَسْمَعُوا﴾ هَذِهِ اللَّامُ يُسَمِّيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِ وَعُلَمَاءِ الْأَصُولِ: «لَامُ الْعَاقِبَةِ» لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ ذَلِكَ. وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَتَقْيِضِهِ إِيَّاهُمْ لِذَلِكَ فَهِيَ لَامُ التَّغْلِيلِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا تَقْرِيرَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرًا﴾ [القصاص: ٨].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا رِثُوا وَخِطَفَ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَلَا لَبِطِل يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، لَيْسَ الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ<sup>(١)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعُنُكُوتِ. وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير سورة الروم وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَلَمِ﴾ ١ غَلَبَ الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ ٣ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥ بَصُرَ اللَّهُ بَصُرًا مِنْ يَسَاءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٧ يَعْلَمُونَ ظَهَرَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ٨

[التَّبَسُّؤُ بِغَلَبَةِ الرُّومِ]

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ حِينَ غَلَبَ سَابُورُ مَلِكُ الْفَرَسِ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمَا وَالَاهَا مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَأَقَاصِي بِلَادِ الرُّومِ. وَأَضْطَرَّ هِرْقُلُ مَلِكِ الرُّومِ حَتَّى أَلْجَأَهُ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَحَاصَرَهُ فِيهَا مَدَّةً طَوِيلَةً، ثُمَّ عَادَتِ الدَّوْلَةُ لِهِرْقُلَ كَمَا سَيَأْتِي. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْعَلَمِ﴾ ١ غَلَبَ الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ٣ قَالَ: غَلَبَتْ. قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُجِبُونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ، لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ أَوْتَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُجِبُونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ» فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ، فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَا لَكُمْ كَذَا وَكَذَا، فَجَعَلَ أَجَلًا خَمْسَ سِنِينَ، فَلَمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «أَلَا جَعَلْنَاهَا إِلَى دُونَ - أَرَاهُ قَالَ: الْعَشْرِ -» قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَلْبَضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ، ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدَ. قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الْعَلَمِ﴾ ١ غَلَبَ الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ ٣ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥ بَصُرَ اللَّهُ بَصُرًا مِنْ يَسَاءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦

وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَهُ. وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٧ يَعْلَمُونَ ظَهَرَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ٨ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ٩ أَوَلَمْ يَدَّبَّرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ يُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٠ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَفْزَأُوا الشُّوَأَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ١١ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٢ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ١٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا إِشْرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ١٤ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ١٥ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٦

الرَّحِيمُ [الروم: ١-٥] هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٣)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ): رَوَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ نُبَارِ بْنِ مُكْرَمٍ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الْعَلَمِ﴾ ١ غَلَبَ الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ ٣ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤ فَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَاهِرِينَ لِلرُّومِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُجِبُونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥ بَصُرَ اللَّهُ بَصُرًا مِنْ يَسَاءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسٍ، لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ، وَلَا إِيْمَانٍ بِغَيْثٍ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ يَبْصِحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ: ﴿الْعَلَمِ﴾ ١ غَلَبَ الرُّومُ ٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ

(١) ابن أبي حاتم (١٧٤٥٦) ٩/٣٠٨٥ (٢) أحمد: ١/٢٧٦

(٣) تحفة الأحوذى: ٩/٥١ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٢٦

السَّلامَ، وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَضُوا مِنْهُ، فَصَلُّوا إِلَى الْمَشْرِقِ، وَاعْتَاضُوا عَنِ السَّبْتِ بِالْأَحَدِ، وَعَبَدُوا الصَّلِيبَ وَأَحَلُّوا الْخَنَزِيرَ، وَاتَّخَذُوا أَعْيَادًا أَخَذَتْهَا كَعِيدُ الصَّلِيبِ وَالْقُدَّاسِ وَالْغَطَّاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْبُتُوعِثِ [وَالشَّعَائِنِ]، وَجَعَلُوا لَهُ الْبَابَ، وَهُوَ كَبِيرُهُمْ، ثُمَّ الْبَتَارِكَةُ، ثُمَّ الْمَطَارِنَةُ، ثُمَّ الْأَسَافِقَةُ وَالْقَسَاقِسَةُ، ثُمَّ السَّمَاسَةُ، وَابْتَدَعُوا الرُّهْبَانِيَّةَ، وَبَنَى لَهُمُ الْمَلِكُ الْكُنَائِسَ وَالْمَعَابِدَ، وَأَسَّسَ الْمَدِينَةَ الْمُنْسُوبَةَ إِلَيْهِ وَهِيَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، يُقَالُ: إِنَّهُ بَنَى فِي أَيَّامِهِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ كَنِيسَةٍ، وَبَنَى بَيْتَ لَحْمٍ بِثَلَاثِ مَحَارِبٍ، وَبَنَتْ أُمُّهُ الْقُقَامَةَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَلِكِيَّةُ، يَعْنُونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ.

ثُمَّ حَدَّثَ بَعْدَهُمُ الْيَعْقُوبِيَّةُ، أَتْبَاعُ يَعْقُوبَ الْإِسْكَافِ، ثُمَّ النُّسْطُورِيَّةُ أَصْحَابُ نُسْطُورَا، وَهُمْ فِرْقٌ وَطَوَائِفُ كَثِيرَةٌ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُمْ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»<sup>(٢)</sup>. وَالْعَرَضُ: أَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى النُّصَارِيَّةِ، كُلَّمَا هَلَكَ قَيْصَرٌ خَلَفَهُ آخَرٌ بَعْدَهُ حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ هِرْقُلُ، وَكَانَ مِنْ عَقْلَاءِ الرِّجَالِ، وَمِنْ أَحْزَمِ الْمُلُوكِ وَأَذْهَاهُمْ، وَأَبْعَدِهِمْ غُورًا، وَأَقْصَاهُمْ رَأْيًا، فَتَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ فِي رِيَاسَةٍ عَظِيمَةٍ وَأَهْلَةً [كَبِيرَةً]، فَنَازَاهُ كِسْرَى مَلِكُ الْفَرَسِ وَمَلِكُ الْبِلَادِ كَالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَالرِّيَّ وَجَمِيعِ بِلَادِ الْعَجَمِ، وَهُوَ سَابُورُ ذُو الْأَكْتَانِ، وَكَانَتْ مَمْلَكَتُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَمْلَكَةِ قَيْصَرَ، وَلَهُ رِيَاسَةُ الْعَجَمِ، وَحِمَاةُ الْفَرَسِ، وَكَانُوا مَجُوسًا يَعْبُدُونَ النَّارَ.

### [كَيْفَ غَلَبَ قَيْصَرُ عَلَى كِسْرَى؟]

وَعَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ إِلَيْهِ نُوَابَهُ وَجَّسَهُ فَقَاتَلُوهُ. وَالْمَشْهُورُ أَنَّ كِسْرَى غَزَاهُ بِنَفْسِهِ فِي بِلَادِهِ، فَقَهَرَهُ وَكَسَرَهُ وَقَصَرَهُ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُ سِوَى مَدِينَةِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَحَاصَرَهُ بِهَا مَدَّةً طَوِيلَةً، حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ النُّصَارَى تُعْظِمُهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا، وَلَمْ يَقْدِرْ كِسْرَى عَلَى فَتْحِ الْبَلَدِ، وَلَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ لِحَصَانَتِهَا؛ لِأَنَّهُ نَصَفَهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْبَرِّ، وَنَصَفَهَا الْآخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَحْرِ، فَكَانَتْ تَأْتِيهِمُ الْمِيرَةُ وَالْمَدَدُ مِنْ هُنَاكَ، فَلَمَّا طَالَ الْأَمْرُ، دَبَّرَ قَيْصَرٌ مَكِيدَةً، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ خَدِيعَةً، فَطَلَبَ مِنْ كِسْرَى أَنْ يُفْلِعَ عَنْ بِلَادِهِ عَلَى مَالٍ يُصَالِحُهُ عَلَيْهِ، وَيَشْتَرِطَ عَلَيْهِ مَا شَاءَ، فَأَجَابَهُ إِلَى

سَكَيْلُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ: فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، رَزَعَمَ صَاحِبُكُمْ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ قَارِسَ فِي بَضْعِ سِنِينَ، أَفَلَا تَرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ، فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ، وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانِ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ: كَمْ نَجْعَلُ - الْبَضْعُ: ثَلَاثُ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ -؟ فَسَمَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ. قَالَ: فَسَمُّوا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، قَالَ: فَمَضَتْ سِتُّ السِّنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا، فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى قَارِسَ قَالَ: فَعَاقَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَتَهُ سِتَّ سِنِينَ، قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ قَالَ: فَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ. هَكَذَا سَاقَهُ التِّرْمِذِيُّ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١)</sup>.

### [مَنْ هُمُ الرُّومُ؟]

وَلْتَنكِكُمُ عَلَى كَلِمَاتِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ: فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَأَمَّا الرُّومُ فَهُمْ مِنْ سُلَالَةِ الْعَبِصِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَمِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيُقَالُ لَهُمْ: بَنُو الْأَصْفَرِ، وَكَانُوا عَلَى دِينِ الْيُونَانِ، وَالْيُونَانُ مِنْ سُلَالَةِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ أَبْنَاءُ عَمِّ التُّرْكِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْكُوكِبَ السَّيَّارَةَ السَّبْعَةَ، وَيُقَالُ لَهَا: الْمُتَحِيرَةُ، وَيُصَلُّونَ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وَهُمْ الَّذِينَ أَسَّسُوا دِمَشْقَ، وَبَنَوْا مَعْبَدَهَا، وَفِيهِ مَحَارِبٌ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ، فَكَانَ الرُّومُ عَلَى دِينِهِمْ إِلَى بَعْدِ مَبْعَثِ الْمَسِيحِ بِنَحْوِ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ مِنْ مَلِكِ الشَّامِ مَعَ الْجَزِيرَةِ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ قَيْصَرٌ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي دِينِ النُّصَارَى مِنَ الْمُلُوكِ قُسْطَنْطِينُ بْنُ قُسْطُسَ وَأُمُّهُ مَرْيَمُ الْهَلَلِيَّةُ [الشَّدَقَاتِيَّةُ] مِنْ أَرْضِ حِرَّانَ، كَانَتْ قَدْ تَنَصَّرَتْ قَبْلَهُ، فَدَعَّاهُ إِلَى دِينِهَا، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِيلَسُوفًا فَتَابَعَهَا - يُقَالُ: تَقَبَّاهُ - وَاجْتَمَعَتْ بِهِ النُّصَارَى وَتَنَاطَرُوا فِي زَمَانِهِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَرْيُوسَ، وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا مُتَشِيرًا مُتَشَتَّتًا لَا يُنْضِطُّ، إِلَّا أَنَّهُ اتَّفَقَ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ ثَلَاثِمِائَةً وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَسْقَفًا، فَوَضَعُوا لِقُسْطَنْطِينِ الْعَقِيدَةَ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْأَمَانَةَ الْكُبْرَى، وَإِنَّمَا هِيَ الْخِيَانَةُ الْحَقِيرَةُ، وَوَضَعُوا لَهُ الْقَوَائِنَ يَعْنُونَ كُتُبَ الْأَحْكَامِ مِنْ تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَغَيْرُوا دِينَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ

عَنْدَ النَّصَارَى، وَبَقِيَ كِسْرَى وَجُيُوشُهُ حَائِرِينَ لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَصْنَعُونَ، لَمْ يَحْصِلُوا عَلَى بِلَادِ قَيْصَرٍ، وَبِلَادِهِمْ قَدْ خَرَّبَتْهَا الرُّومُ، وَأَخَذُوا حَوَاصِلَهُمْ، وَسَبَّوْا ذُرَارِيَهُمْ، وَنِسَاءَهُمْ، فَكَانَ هَذَا مِنْ غَلَبِ الرُّومِ لِفَارِسَ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ تِسْعِ سِنِينَ مِنْ غَلَبِ فَارِسَ لِلرُّومِ، وَكَانَتْ الْوَفْعَةُ الْكَائِنَةُ بَيْنَ فَارِسَ وَالرُّومِ حِينَ غَلَبَتْ الرُّومُ بَيْنَ أَذْرَعَاتٍ وَبُصْرَى عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَغَيْرُهُمَا، وَهِيَ طَرْفُ بِلَادِ الشَّامِ مِمَّا يَلِي بِلَادَ الْحِجَازِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ ذَلِكَ فِي الْعَجْرِيَّةِ، وَهِيَ أَقْرَبُ بِلَادِ الرُّومِ مِنْ فَارِسَ، فَاللهُ أَغْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أَيُّ مِنْ قَبْلُ ذَلِكَ وَمِنْ بَعْدِهِ، فَبَيَّنَ عَلَى الضَّمِّ لَمَّا قُطِعَ الْمُضَافُ - وَهُوَ قَوْلُهُ قَبْلُ - عَنِ الْإِصَافَةِ وَتَوَبَّتْ ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بِتَصَرُّفِ اللَّهِ أَيُّ لِلرُّومِ أَصْحَابِ قَيْصَرٍ مَلِكِ الشَّامِ عَلَى فَارِسَ أَصْحَابِ كِسْرَى، وَهُمْ الْمَجْرُسُ، وَكَانَتْ نُصْرَةُ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ يَوْمَ وَفْعَةِ بَدْرٍ فِي قَوْلِ طَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، كَابْنِ عَبَّاسٍ وَالثَّوْرِيِّ وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِهِمْ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الثَّرِمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، ظَهَرَتْ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ فَفَرَحُوا بِهِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بِتَصَرُّفِ اللَّهِ بِتَصَرُّفٍ مِنْ يَسَاءٍ وَهُوَ الْعَكِيزُ الرَّحِيمُ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الزُّبَيْرِ الْكِلَابِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ غَلَبَةَ فَارِسَ الرُّومَ، ثُمَّ رَأَيْتُ غَلَبَةَ الرُّومِ فَارِسَ، ثُمَّ رَأَيْتُ غَلَبَةَ الْمُسْلِمِينَ فَارِسَ وَالرُّومَ، كُلُّ ذَلِكَ فِي خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَكِيزُ﴾ أَيُّ: فِي انْتِصَارِهِ وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ! مِنْ أَنَّا سَنَنْصُرُ الرُّومَ عَلَى فَارِسَ وَعَدَ مِنَ اللَّهِ حَقٌّ، وَخَبَرٌ صِدْقٌ لَا يَخْلُفُ، وَلَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِ وَوُقُوعِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ جَرَتْ سُنَّتُهُ أَنَّ يَنْصُرَ أَقْرَبَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُتَقَاتِلَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ، وَيَجْعَلُ لَهَا الْعَاقِبَةَ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

ذَلِكَ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَمْوَالًا عَظِيمَةً لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرٍ وَأَقْمِشَةٍ وَجَوَارٍ وَخُدَّامٍ وَأَصْنَافٍ كَثِيرَةٍ، فَطَاوَعَهُ قَيْصَرٌ وَأَوْهَمَهُ أَنَّ عِنْدَهُ جَمِيعَ مَا طَلَبَ، وَاسْتَقْلَ عَقْلُهُ لَمَّا طَلَبَ مِنْهُ مَا طَلَبَ، وَلَوْ اجْتَمَعَ هُوَ وَإِيَّاهُ لَعَجَزَتْ قُدْرَتُهُمَا عَنْ جَمْعِ عُسْرِهِ، وَسَأَلَ كِسْرَى أَنْ يُمْكِنَهُ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ وَأَقَالِيمِ مَمْلَكَتِهِ؛ لِيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ مِنْ ذَخَائِرِهِ وَحَوَاصِلِهِ وَدَفَائِنِهِ، فَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ، فَلَمَّا عَزَمَ قَيْصَرٌ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَدِينَةِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَجَمَعَ أَهْلَ مِلَّتِهِ وَقَالَ: إِنِّي خَارِجٌ فِي أَمْرٍ قَدْ أُرِمْتُهُ فِي جُنْدٍ قَدْ عَيَّنْتُهُ مِنْ جَيْشِي، فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَيْكُمْ قَبْلَ الْخَوْلِ، فَأَنَا مَلِكُكُمْ، وَإِنْ لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ قَبْلَهَا، فَأَنْتُمْ بِالْخِيَارِ: إِنْ شِئْتُمْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى بَيْعَتِي، وَإِنْ شِئْتُمْ وَلَيْتُمْ عَلَيْكُمْ غَيْرِي، فَأَجَابُوهُ بِأَنَّكَ مَلِكُنَا مَا دُمْتَ حَيًّا، وَلَوْ غَبَتْ عَشْرَةُ أَغْوَامٍ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خَرَجَ جَرِيدَةً فِي جَيْشٍ مُتَوَسِّطٍ هَذَا، وَكِسْرَى مُحِيطٌ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَنْتَظِرُهُ لِيَرْجِعَ، فَرَكِبَ قَيْصَرٌ مِنْ فُورِهِ وَسَارَ مُسْرِعًا حَتَّى انْتَهَى إِلَى بِلَادِ فَارِسَ، فَعَاثَ فِي بِلَادِهِمْ قَتْلًا لِرِجَالِهَا وَمَنْ بِهَا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ أَوَّلًا فَأَوَّلًا، وَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلْ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَدَائِنِ وَهِيَ كُرْسِي مَمْلَكَةِ كِسْرَى، فَقَتَلَ مَنْ بِهَا وَأَخَذَ جَمِيعَ حَوَاصِلِهِ وَأَمْوَالِهِ، وَأَسْرَ نِسَاءَهُ وَحَرَبِمَهُ، وَحَلَقَ رَأْسَ وَلَدِهِ وَرَكَّبَهُ عَلَى جِمَارِهِ، وَبَعَثَ مَعَهُ مِنَ الْأَسَاوِرَةِ مِنْ قَوْمِهِ فِي غَايَةِ الْهَوَانِ وَالذَّلَّةِ، وَكَتَبَ إِلَى كِسْرَى يَقُولُ: هَذَا مَا طَلَبْتَ فَخُذْهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ كِسْرَى أَخَذَهُ مِنَ الْعَمِّ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَاسْتَدَّ حَنْفَهُ عَلَى الْبَلَدِ، فَجَدَّ فِي حِصَارِهَا بِكُلِّ مُمْكِنٍ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا عَجَزَ رَكِبَ لِيَأْخُذَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ مِنْ مَخَاضَةِ جَيْحُونَ الَّتِي لَا سَبِيلَ لِقَيْصَرٍ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَّا مِنْهَا، فَلَمَّا عَلِمَ قَيْصَرٌ بِذَلِكَ، اخْتَالَ بِحِيلَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا، وَهُوَ أَنَّهُ أَرْصَدَ جُنْدَهُ وَحَوَاصِلَهُ الَّتِي مَعَهُ عِنْدَ فَمِ الْمَخَاضَةِ، وَرَكِبَ فِي بَعْضِ الْجَيْشِ، وَأَمَرَ بِأَحْمَالٍ مِنَ التَّنِّ وَالْبَعْرِ وَالرَّوْثِ، فَحُمِلَتْ مَعَهُ، وَسَارَ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ يَوْمٍ فِي الْمَاءِ مُضْعِدًا، ثُمَّ أَمَرَ بِإِلْقَاءِ تِلْكَ الْأَحْمَالِ فِي النَّهْرِ، فَلَمَّا مَرَّتْ بِكِسْرَى وَجُنْدِهِ ظَنَّ أَنَّهُمْ قَدْ حَاضُوا مِنْ هُنَالِكَ، فَرَكِبُوا فِي طَلَبِهِمْ فَشَعَرَتْ الْمَخَاضَةُ عَنِ الْفُرْسِ، وَقَدِمَ قَيْصَرٌ فَأَمَرَهُمُ بِالنُّهُوضِ وَالْخَوْضِ، فَحَاضُوا وَأَسْرَعُوا السَّيْرَ، فَقَاتُوا كِسْرَى وَجُنُودَهُ، وَدَخَلُوا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَكَانَ ذَلِكَ يَوْمًا مَشْهُودًا

أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، وَمَا أُوتِيتُمْ مِغْشَارَ مَا أُوتُوا، وَمُكِّنُوا فِي الدُّنْيَا تَمْكِينًا لَمْ تَبْلُغُوا إِلَيْهِ، وَعَمَرُوا فِيهَا أَعْمَارًا طَوَالًا، فَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِنْكُمْ، وَاسْتَغْلَوْهَا أَكْثَرَ مِنْ اسْتِغْلَالِكُمْ، وَمَعَ هَذَا فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَفَرَحُوا بِمَا أُوتُوا، أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ، وَلَا حَالَتْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَأْسِ اللَّهِ، وَلَا دَفَعُوا عَنْهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ فِيمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيُّ: وَإِنَّمَا أُوتُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاسْتَهْزَؤُوا بِهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْمُتَقَدِّمَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ اسْتَوَى السُّؤَالُ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلُوبٌ أَفْسَدْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَنْزَاعَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَلَعَنَّا أَنْفُسَنَا يَوْمَ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩] وَقِيلَ: بَلِ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ اسْتَوَى السُّؤَالُ﴾ [الروم: ١٠] أَيُّ: كَانَتِ السُّؤَالُ عَاقِبَتُهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ. هَذَا تَوْجِيهِ ابْنِ جَرِيرٍ. وَتَقْلَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ (٢). وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُمَا وَعَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مَرْجَمٍ، وَهُوَ الظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَذَّوِّذُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْسِ السَّاعَةُ الْمُجْرِمُونَ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِذُ الْيَقْرُونَ (٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُحْبَرُونَ (٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٦)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَسْجُدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُكُمْ﴾ أَيُّ: كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى بَدَآئِهِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْسِ الْمُجْرِمُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَبْسُ الْمُجْرِمُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَنْتَضِحُ الْمُجْرِمُونَ، وَفِي

الْأَنْبَاءِ لَا يَسْلَمُونَ﴾ أَيُّ: بِحُكْمِ اللَّهِ فِي كُوفِهِ، وَأَفْعَالِهِ الْمُحْكَمَةِ الْجَارِيَةِ، عَلَى وَفْقِ الْعُدْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أَيُّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ إِلَّا بِالدُّنْيَا وَكَاسِبِهَا وَشُؤْنِهَا وَمَا فِيهَا، فَهُمْ حَذَاقٌ أَذْكِيَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا وَوُجُوهٍ مَكَاسِبِهَا، وَهُمْ غَافِلُونَ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَمَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَأَنَّهُمْ أَحَدُهُمْ مُغْفَلٌ، لَا ذَهْنَ لَهُ وَلَا فِكْرَةَ. قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: وَاللَّهُ لَيَبْلُغُ مِنْ أَحَدِهِمْ بِدُنْيَاهُ أَنْ يَقْلِبَ الدَّرْهَمَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيُخْرِجَكَ بِوَزْنِهِ وَمَا يُحْسِنُ أَنْ يُصَلِّيَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ يَعْنِي: الْكُفَّارَ يَعْرِفُونَ عُمَرَانَ الدُّنْيَا، وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَالٌ (١).

﴿وَلَمْ يَفْكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (٢) أَوَّلُهُ يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ وَمَا عَمَرُوهَا وَمَا تَنَزَّلَتْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣) ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ اسْتَوَى السُّؤَالُ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (٤)

### [دَلَالَةُ التَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَّبِعًا عَلَى التَّفَكُّرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّلَالَةَ عَلَى وُجُودِهِ وَأَنْفِرَادِهِ بِخَلْقِهَا، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، فَقَالَ: ﴿وَلَمْ يَفْكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يَعْنِي بِهِ النَّظَرَ وَالتَّنَبُّرَ وَالتَّامُّلَ لِخَلْقِ اللَّهِ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَيَعْلَمُوا أَنَّهَا مَا خُلِقَتْ سُدًى وَلَا بَاطِلًا، بَلْ بِالْحَقِّ، وَأَنَّهَا مُؤَجَّلَةٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ثُمَّ نَبِّهَهُمْ عَلَى صَدَقِ رُسُلِهِ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ عَنْهُ، بِمَا أَيْدَهُمْ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَالْدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَنَجَاةِ مَنْ صَدَّقَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: بِأَفْهَائِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَنَظَرِهِمْ وَسَمَاعِ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أَيُّ: كَانَتِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَّةُ وَالْقُرُونُ السَّالِفَةُ أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً أَتَاهَا الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَكْثَرُ

سُورَةُ الرُّومِ

٤٠٦

سُورَةُ الرُّومِ

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ  
فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسَوْنَ  
وَحِينَ تَصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ  
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تَخْرُجُونَ  
﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ  
تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ  
أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً  
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ السِّنِّكَمِ وَالْوَنُكُمِ إِنَّ  
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنْأَمُكُمْ بِاللَّيْلِ  
وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ  
لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ  
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ  
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

تَعَالَى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبِآيَةِ لَمْ  
الْأَرْضَ الَّتِي تَحْيَا أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾  
إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْنُونَ﴾ [يس: ٣٣، ٣٤] وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَبَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ  
وَرَبَّتْ وَانْبَسَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَأَرْسَلَ اللَّهُ  
يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ  
الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ  
سَحَابًا يَقُولَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الاعراف: ٥٧]  
وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تَخْرُجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ  
تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا  
لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ  
لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ ﴿٢١﴾

رواية: يَكْتَتِبُ الْمُجْرِمُونَ<sup>(١)</sup>. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ  
شُفَعَاؤُ﴾ أَي: مَا شَفَعَتْ فِيهِمُ الْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا  
مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَفَرُوا بِهِمْ وَخَانُوهُمْ أَخَوَجَ مَا كَانُوا  
إِلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَقُونَ﴾  
قَالَ قَتَادَةُ: هِيَ وَاللَّهُ الْفِرْقَةُ الَّتِي لَا اجْتِمَاعَ بَعْدَهَا<sup>(٢)</sup>. يَعْنِي  
أَنَّهُ إِذَا رُفِعَ هَذَا إِلَى عِلِّيِّينَ، وَخُفِضَ هَذَا إِلَى أَسْفَلِ  
سَافِلِينَ، فَذَٰلِكَ آخِرُ الْعَهْدِ بَيْنَهُمَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾  
قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَنْعُمُونَ<sup>(٣)</sup>.

﴿فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسَوْنَ وَحِينَ تَصْبِحُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ  
الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ  
تَخْرُجُونَ﴾ ﴿١٩﴾

## [الْأَمْرُ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ]

هَذَا تَسْبِيحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ  
إِلَى تَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْمُتَعَابِقَةِ الدَّالَّةِ  
عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ: عِنْدَ الْمَسَاءِ، وَهُوَ إِقْبَالُ  
اللَّيْلِ بِظُلَامِهِ، وَعِنْدَ الصُّبْحِ، وَهُوَ إِسْفَارُ النَّهَارِ [عَنْ]  
ضِيَائِهِ. ثُمَّ اعْتَزَضَ بِحَمْدِهِ مُنَاسِبَةً لِلتَّسْبِيحِ وَهُوَ التَّحْمِيدُ،  
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: هُوَ  
الْمَحْمُودُ عَلَى مَا خَلَقَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ فَالْعِشَاءُ هُوَ شِدَّةُ الظُّلَامِ،  
وَالْإِظْهَارُ: قُوَّةُ الضِّيَاءِ، فَسُبْحَانُ خَالِقِ هَذَا وَهَذَا، فَالْقِي  
الْإِضْبَاحِ، وَجَاعِلِ اللَّيْلِ سَكَنًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّهَارِ  
إِذَا جَلَّاهَا﴾ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤، ٣] وَقَالَ تَعَالَى:  
﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ﴿١٧﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ١، ٢] وَقَالَ تَعَالَى:  
﴿وَالصُّبْحِ﴾ ﴿١٨﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١، ٢] وَالْآيَاتُ فِي  
هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ  
الْحَيِّ﴾ هُوَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ  
الْمُتَعَابِلَةِ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَابِعَةُ الْكَرِيمَةُ كُلُّهَا مِنْ هَذَا  
النَّمَطِ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ فِيهَا خَلْقَهُ الْأَشْيَاءِ وَأَصْدَادَهَا؛ لِيَذِلَّ  
خَلْقُهُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، فَمِنْ ذَٰلِكَ إِخْرَاجُ النَّبَاتِ مِنَ  
الْحَبِّ، وَالْحَبِّ مِنَ النَّبَاتِ، وَالنَّبِضِ مِنَ الدَّجَاجِ  
وَالدَّجَاجِ مِنَ النَّبِضِ، وَالْإِنْسَانِ مِنَ النُّطْفَةِ وَالنُّطْفَةِ مِنَ  
الْإِنْسَانِ، وَالْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ وَالْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَقَوْلُهُ

(١) الطبري: ٨٠/٢٠ (٢) الطبري: ٨١/٢٠ (٣) الطبري:



## [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

وَلَدٌ، أَوْ مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ فِي الْإِنْفَاقِ، أَوْ لِإِلَافَةٍ بَيْنَهُمَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ الْإِنسَانِ مِنَ الْمَاءِ﴾  
وَالْوَلَدُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: خَلْقَ السَّمَوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا، وَشُفُوفِ أَجْرَامِهَا، وَزَهَارَةِ كَوَاكِبِهَا وَتُجُومِهَا الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وَخَلْقَ الْأَرْضِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكثافتِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأَوْدِيَةٍ وَبِحَارٍ، وَفَنَاجٍ وَحَيَوَانٍ وَأَشْجَارٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَلْقَ الْإِنسَانِ مِنَ الْمَاءِ﴾ يَعْنِي اللُّغَاتِ، فَهَؤُلَاءِ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَهَؤُلَاءِ تَتَرَّ لَهُمْ لُغَةٌ أُخْرَى، وَهَؤُلَاءِ كُرُجٌ، وَهَؤُلَاءِ رُومٌ، وَهَؤُلَاءِ فِرْنَجٌ، وَهَؤُلَاءِ بَرَبْرٌ، وَهَؤُلَاءِ تَكُرُورٌ، وَهَؤُلَاءِ حَبَشَةٌ، وَهَؤُلَاءِ هُنُودٌ، وَهَؤُلَاءِ عَجَمٌ، وَهَؤُلَاءِ صَفَالِيَّةٌ، وَهَؤُلَاءِ خَزَرٌ، وَهَؤُلَاءِ أَرَمُنٌ، وَهَؤُلَاءِ أَكْرَادٌ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ اخْتِلَافِ لُغَاتِ بَنِي آدَمَ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ، وَهِيَ: حُلَاهُمْ، فَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ، بَلْ أَهْلُ الدُّنْيَا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كُلُّ لَهُ عَيْنَانِ وَحَاجِبَانِ وَأَنْفٌ وَجَبِينِ وَقَمٌّ وَخَدَّانِ، وَلَيْسَ يُشْبِهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ الْآخَرَ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُفَارِقَهُ بِشَيْءٍ مِنَ السَّمْتِ أَوْ الْهَيْئَةِ أَوْ الْكَلَامِ ظَاهِرًا كَانَ أَوْ خَفِيًّا يَظْهَرُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ، كُلُّ وَجْهِ مِنْهُمْ أَسْلُوبٌ بِذَاتِهِ وَهَيْئَةٌ لَا تُشْبِهُ أُخْرَى، وَلَوْ تَوَافَقَ جَمَاعَةٌ فِي صِفَةٍ مِنْ جَمَالٍ أَوْ قُبْحٍ لَا بُدَّ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَ الْآخَرِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: وَمِنْ آيَاتِ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ صِفَةِ النَّوْمِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِيهِ تَحْصُلُ الرَّاحَةُ وَسُكُونُ الْحَرَكَةِ وَذَهَابُ الْكَلَالِ وَالتَّعَبِ. وَجَعَلَ لَكُمْ الْإِنْتِشَارَ وَالسَّعْيَ فِي الْأَسْبَابِ، وَالْأَشْفَارَ فِي النَّهَارِ، وَهَذَا ضِدُّ النَّوْمِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَي: يَعُونَ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرْسِلُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، أَنَّهُ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ نَنْشَرُهُمْ﴾ فَأَصْلُكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ تَصَوَّرَ فَكَانَ عِلْقَةً ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا، شَكْلُهُ عَلَى شَكْلِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ كَسَا اللَّهُ تِلْكَ الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَإِذَا هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ صَغِيرًا ضَعِيفَ الْقُوَى وَالْحَرَكَةِ، ثُمَّ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُهُ تَكَامَلَتْ قُوَاهُ وَحَرَكَاتُهُ حَتَّى آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ صَارَ بَيْنِي الْمَدَانِ وَالْحُصُونِ، وَيُسَافِرُ فِي أَقْطَارِ الْأَقَالِيمِ، وَيَرْكَبُ مَتَنَ الْبُحُورِ، وَيَدُورُ أَقْطَارَ الْأَرْضِ، وَيَتَكَسَّبُ وَيَجْمَعُ الْأُمُومَالَ، وَلَهُ فِكْرَةٌ وَغُورٌ وَدَهَاءٌ وَمَكْرٌ، وَرَأْيٌ وَعِلْمٌ، وَاتِّسَاعٌ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كُلِّ بِحَسَبِهِ، فَسَبْحَانَ مَنْ أَقْدَرَهُمْ وَسَيَّرَهُمْ وَسَخَّرَهُمْ وَصَرَفَهُمْ فِي فُنُونِ الْمَعَاشِ وَالْمَكَايِبِ، وَفَارَتْ بَيْنَهُمْ فِي الْعُلُومِ وَالْفِكْرِ، وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أَي: خَلَقَ لَكُمْ مِنْ جِنْسِكُمْ إِنَاثًا يَكُونُ لَكُمْ أَزْوَاجًا ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ حَوَاءَ، خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ آدَمَ مِنْ ضِلْعِهِ الْأَفْصَرِ الْأَيْسَرِ، وَلَوْ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ بَنِي آدَمَ كُلَّهُمْ ذُكُورًا وَجَعَلَ إِنَاثَهُمْ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ إِنَاثًا مِنْ جَانٍ أَوْ حَيَوَانٍ، لَمَا حَصَلَ هَذَا الْإِتِلَافُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَزْوَاجِ، بَلْ كَانَتْ تَحْصُلُ نَفَرَةٌ لَوْ كَانَتْ الْأَزْوَاجُ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ، ثُمَّ مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بِبَنِي آدَمَ أَنْ جَعَلَ أَزْوَاجَهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ مَوَدَّةً وَهِيَ الْمَحَبَّةُ، وَرَحْمَةً وَهِيَ الرَّافَةُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُمَسِّكُ الْمَرْأَةَ إِنَّمَا لِمَحَبَّتِهِ لَهَا أَوْ لِرَحْمَتِهِ بِهَا، بِأَنْ يَكُونَ لَهَا مِنْهُ

(١) أحمد: ٤٠٦، ٤٠١/٤ (٢) أبو داود: ٦٧/٥ وتحفة

الأحوذى: ٢٩٠/٨

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْتِكُمْ فَإِنْ نَفَرْتُمْ مِنْهُ سِوَاكُمْ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَ هُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَالَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ مُبِينٍ إِلَيْهِ وَاقْفُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حَزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٢﴾

عَلَيْهِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْإِعَادَةُ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنَ الْبُدْءِ، وَالْبُدْءُ عَلَيْهِ هَيْئَةً<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَغَيْرُهُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». إِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى: ١١] وَقَالَ قَتَادَةُ: مِثْلُهُ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ غَيْرُهُ.

مَاءً فَيُخَيِّ بِه الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: «وَمِنْ آيَاتِهِ» الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ أَنَّهُ «يُرِيكُمْ الْآيَاتِ خَوْفًا وَطَمَعًا» أَيْ: تَارَةً تَخَافُونَ مِمَّا يَخْلُقُ بَعْدَهُ مِنْ أَمْطَارٍ مُّزْجِجَةٍ وَصَوَاعِقَ مُنْثَلِقَةٍ، وَتَارَةً تَرْجُونَ وَمِيضَهُ وَمَا يَأْتِي بَعْدَهُ مِنَ الْمَطَرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخَيِّ بِه الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أَيْ: بَعْدَ مَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ، فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ «أَهْرَزَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ» [الحج: ٥٠] وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى الْمَعَادِ وَتِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَتُسْكِ السَّمَاءُ أَنْ تَنْفَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ» [الحج: ٦٥] وَقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ يُسْكِفُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَرَوْهَا» [فاطر: ٤١]. وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْيَمِينِ يَقُولُ: [لَا] وَالَّذِي تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ، أَيْ هِيَ قَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ، بِأَمْرِهِ لَهَا وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهَا، ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَدَّلَتْ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، وَخَرَجَتِ الْأَمْوَاتُ مِنْ قُبُورِهَا أَحْيَاءَ بِأَمْرِهِ تَعَالَى وَدَعَائِهِ إِيَّاهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» أَيْ: مِنَ الْأَرْضِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا» [الاسراء: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٥٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالْأَسْهَرَةِ» [النازعات: ١٣، ١٤] وَقَالَ تَعَالَى: «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَبْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ» [يس: ٥٣].

«وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٧﴾» يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أَيْ: مُلْكُهُ وَغَيْبُهُ «كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ» أَيْ: خَاضِعُونَ خَاشِعُونَ طَوْعًا وَكَرْهًا.

#### [إِعَادَةُ الْخَلْقِ أَهْوَنُ]

وَقَوْلُهُ: «وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ» قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: أَيْسَرُ

(١) الطبري: ٩٢/٢٠ (٢) الطبري: ٩٢/٢٠ (٣) الطبري:

٩٢/٢٠ (٤) فتح الباري: ٦١١/٨

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ  
وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ ﴿٣٢﴾  
[الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَسَدُّ وَجْهِكَ وَاسْتِمْرَارٌ عَلَى الدِّينِ الَّذِي  
شَرَعَهُ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْخَفِيَّةِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي هَدَاكَ اللَّهُ لَهَا  
وَكَمَّلَهَا لَكَ غَايَةَ الْكَمَالِ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَا زِمَ فِطْرَتِكَ  
السَّالِمَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ  
عَلَى مَعْرِفَةِ وَتَوْحِيدِهِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾  
[الأعراف: ١٧٢]. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي  
حُفَاءً، فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ»<sup>(١)</sup>. وَسَنَذَكُرُ فِي  
الْأَحَادِيثِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ طَرَأَ  
عَلَى بَعْضِهِمُ الْأَذْيَانُ الْفَاسِدَةُ كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ  
وَالْمَجُوسِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُدَبِّلُ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ:  
مَعْنَاهُ: لَا يُبَدِّلُوا خَلْقَ اللَّهِ فَتَغَيَّرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي  
فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا، فَيَكُونُ خَبْرًا بِمَعْنَى الطَّلَبِ، كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وَهُوَ مَعْنَى  
حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ خَبَرٌ عَلَى بَابِهِ، وَمَعْنَاهُ  
أَنَّهُ تَعَالَى سَاوَى بَيْنَ خَلْقِهِ كُلِّهِمْ فِي الْفِطْرَةِ عَلَى الْجِلَّةِ  
الْمُسْتَقِيمَةِ، لَا يُولَدُ أَحَدٌ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تَفَاوَتْ بَيْنَ  
النَّاسِ فِي ذَلِكَ. وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَإِبْرَاهِيمُ التَّحَوُّيُّ  
وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ  
زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يُدَبِّلُ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: لِدِينِ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>.  
وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿لَا يُدَبِّلُ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾: لِدِينِ اللَّهِ،  
(خَلْقِ الْأَوَّلِينَ): دِينِ الْأَوَّلِينَ، الدِّينَ وَالْفِطْرَةَ: الْإِسْلَامُ.  
ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ  
مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِيَّةٌ أَوْ نَصْرَانِيَّةٌ أَوْ  
مَجَسَّسَانِيَّةٌ، كَمَا تَنْتُجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءُ، هَلْ تُحْسِنُونَ  
فِيهَا مِنْ جَدْعَاءُ؟» ثُمَّ يَقُولُ: «فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَيْنِي فَطَرَ النَّاسَ  
عَلَيْهَا لَا يُدَبِّلُ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي الْقَيْمُ» وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ  
أَيْضًا<sup>(٣)</sup>.

﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَذَا لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ  
شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ  
أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ  
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا  
لَهُمْ مِنْ تَنْصِيرٍ ﴿٣٩﴾﴾

[مَثَلٌ يَدُلُّ عَلَى التَّوْحِيدِ]

هَذَا مَثَلٌ صَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ  
غَيْرُهُ، الْجَاعِلِينَ لَهُ شُرَكَاءَ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُعْتَرِفُونَ أَنَّ  
شُرَكَاءَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِبِيدٌ لَهُ، مُلْكٌ لَهُ، كَمَا كَانُوا  
[فِي تَلْبِيَّتِهِمْ] يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ  
لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ  
أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ: تَشْهَدُونَهُ وَتَقْهَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴿هَذَا لَكُمْ مِنْ  
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾  
أَيُّ [أ] يَرْضَى أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ شَرِيكًا لَهُ فِي مَالِهِ فَهُوَ  
وَهُوَ فِيهِ عَلَى السَّوَاءِ ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيُّ:  
تَخَافُونَ أَنْ يُقَاسِمُوكُمُ الْأَمْوَالَ؟ قَالَ أَبُو مِجَلَزٍ: إِنَّ  
مَمْلُوكَكَ لَا تَخَافُ أَنْ يُقَاسِمَكَ مَالَكَ، وَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ،  
كَذَلِكَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ<sup>(١)</sup>. وَالْمَعْنَى: إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِفُ مِنْ  
ذَلِكَ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْأَنْدَادَ مِنْ خَلْقِهِ؟

رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ يُلَبِّي أَهْلُ  
الشُّرُكِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ  
لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا لَكُمْ مِنْ مَا  
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ  
تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وَلَمَّا كَانَ التَّنْبِيهُ بِهَذَا  
الْمَثَلِ عَلَى بَرَاءَةِ تَعَالَى وَزَوَاهِيهِ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى  
وَالْآخِرَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا عَبَدُوا غَيْرَهُ  
سَفَهًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجَهْلًا ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيُّ:  
الْمُشْرِكُونَ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيُّ: فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَنْدَادَ بِغَيْرِ عِلْمٍ  
﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أَيُّ فَلَا أَحَدَ يَهْدِيهِمْ إِذَا كَتَبَ  
اللَّهُ ضَلَالَتَهُمْ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ تَنْصِيرٍ﴾ أَيُّ: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ  
قُدْرَةِ اللَّهِ مُنْقِذٌ وَلَا مُجِيرٌ وَلَا مُجِدِّ لَهُمْ عَنْهُ، لِأَنَّهُ مَا شَاءَ  
كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

﴿فَافْتَرَوْا لَهُ دِينًا خَبِثًا فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَيْنِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا  
لَا يُدَبِّلُ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي الْقَيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَأَتَقَوْهُ وَأَقْبَلُوا الصَّلَاةَ

(١) الطبري: ٩٦/٢٠ (٢) الطبراني: ٢٠/١٢ قال الهيثمي في  
المجمع ٢٢٣/٣ وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف (٣) مسلم:  
٢١٩٧/٤ (٤) الطبري: ٩٩/٢٠ (٥) فتح الباري: ٣٧٢/٨  
و٥١٢/١١ ومسلم: ٢٠٤٧/٤، ٢٠٤٨

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي أَلْهَمَ أَلْفَيْمٌ﴾ أَي: التَّمَشُّكُ بِالشَّرِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ السَّالِمَةِ هُوَ الَّذِي أَلْهَمَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: فَلِهَذَا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، فَهُمْ عَنْهُ نَاقِبُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَقُصُّ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يَصُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾... الْآيَةُ [الأنعام: ١١٦]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُبِينٌ إِلَيْهِ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جُرَيْجٍ: أَي: رَاجِعِينَ إِلَيْهِ <sup>(١)</sup>. «وَأَتَقُوهُ» أَي: خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ، «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» وَهِيَ الطَّاعَةُ الْعَظِيمَةُ، «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أَي: بَلْ كُونُوا مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الْعِبَادَةَ، لَا يُرِيدُونَ بِهَا سِوَاهُ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: مَرَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فَقَالَ: مَا قِيَامُ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالَ مُعَاذٌ: ثَلَاثٌ، وَهُنَّ الْمُنْجِيَاتُ: الْإِحْلَاصُ، وَهِيَ الْفِطْرَةُ «فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَى فَطَرَ النَّاسِ عَلَيْهِ»، وَالصَّلَاةُ، وَهِيَ الْمِلَّةُ، وَالطَّاعَةُ، وَهِيَ: الْعِصْمَةُ، فَقَالَ عُمَرُ: صَدَقْتَ <sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ جَزِئٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أَي: لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَدْ فَرَقُوا دِينَهُمْ أَي: بَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ، وَأَمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (فَارَقُوا دِينَهُمْ)، أَي: تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَعَبْدَةَ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ مِمَّا عَدَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾... الْآيَةُ [الأنعام: ١٥٩]، فَأَهْلُ الْأَدْيَانِ قَبْلَنَا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى آرَاءٍ [وَمِلَلٍ] بَاطِلَةٍ، وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تَزْعُمُ أَنَّهَا عَلَى شَيْءٍ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَيْضًا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى نَحْلِ كُلِّهَا ضَلَالَةً إِلَّا وَاحِدَةً وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، الْمُتَمَسِّكُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأُيُومَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ، كَمَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ: أَنَّهُ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ مِنْهُمْ فَقَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» <sup>(٣)</sup>.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ

وَلِإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَتَابَ ذَا الْقُرْنَىٰ حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رَبِّ لَئِنْ رَأَوْا أَمْوَالَ النَّاسِ فَلَا يَرَوُا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

[تَقَلَّبَ الْإِنْسَانُ مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الشِّرْكِ وَمِنَ الْفَرَحِ إِلَى الْيَأْسِ حَسَبَ الظُّرُوفِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ النَّاسِ أَنََّّهُمْ فِي حَالِ الْأَضْطِرَارِ يَدْعُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ إِذَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ إِذَا قَرِيبٌ مِنْهُمْ فِي حَالَةِ الْأَخْيَارِ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ، وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ هِيَ لَامُ الْعَاقِبَةِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَلَامُ التَّغْلِيلِ عِنْدَ آخَرِينَ، وَلَكِنَّهَا تَغْلِيلٌ لِتَقْيِيزِ اللَّهِ لَهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَاللَّهِ! لَوْ تَوَعَّدَنِي حَارِسُ دَرْبٍ

(١) الطبري: ١٠٠/٢٠ (٢) الطبري: ٩٨/٢٠ إسناده ضعيف شيخ الطبري محمد بن حميد الرازي ضعيف جداً وفي سند آخر أبو قلابه عن عمر ومعاذ مرسل. (٣) الحاكم: ١٢٩/١

النَّاسُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِمَّا أَهْدَى لَهُمْ، فَهَذَا لَا تَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ. بِهَذَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالشَّعْبِيُّ<sup>(٢)</sup>. [وَقَوْلُهُ تَعَالَى]: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ دُكُونٍ تَرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغُفُونَ﴾ أَي: الَّذِينَ يُضَاعَفُ اللَّهُ لَهُمُ التَّوَابُ وَالْجَزَاءُ. كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «وَمَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِعَدَلٍ ثَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، فَيَرِيهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يَرِي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلُهُ حَتَّى تَصِيرَ الثَّمَرَةُ أَعْظَمَ مِنْ أُحُدٍ»<sup>(٣)</sup>.

### [الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْإِمَامَةُ وَالْإِحْيَاءُ بِيَدِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أَي: هُوَ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ، يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ بطنِ أُمِّهِ غُرْبَانًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ وَلَا قُوَّةَ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ جَمِيعَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ وَالرِّيَاسَ وَاللِّبَاسَ وَالنَّالَ وَالْمَالِ، وَالْأَمْلَاقَ وَالْمَكَاسِبَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أَي: بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أَي: الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿مَنْ يَقُولُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَي: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَامَةِ، ثُمَّ يَبْعَثُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَي: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاطَمَ وَجَلَّ وَعَزَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُسَاوٍ أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ، بَلِ هُوَ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾<sup>(١)</sup> قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ<sup>(٢)</sup>

### [آثَارُ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ: الْمُرَادُ بِالْبَرِّ هَهُنَا: الْفَيَافِي، وَبِالْبَحْرِ: الْأَمْصَارُ وَالْقُرَى<sup>(٤)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ: الْبَحْرُ: الْأَمْصَارُ وَالْقُرَى، مَا كَانَ مِنْهَا عَلَى جَانِبِ نَهْرٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ

(١) مسلم: ٢٢٩٥/٤ (٢) الطبري: ١٠٥، ١٠٤/٢٠ (٣) مسلم: ٧٠٢/٢ (٤) الطبري: ١٠٨/٢٠ (٥) الطبري: ٢٠/١٠٨

لَخِفْتُ مِنْهُ، فَكَيْفَ وَالْمُتَوَعَّدُ هَهُنَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أَي: حُجَّةً ﴿يَهْوَى بِكُمْ﴾ أَي: يَنْطِقُ ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ وَهَذَا اسْتِنْفَاهُمْ إِنْكَارٍ، أَي: لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِلَّا مِنْ عَصَمَةِ اللَّهِ وَوَقْفِهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَطِرَ وَقَالَ: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] أَي: يَفْرَحُ فِي نَفْسِهِ وَيَفْخَرُ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَنَطَ وَآسَى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ بِالْكُلِّيَّةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] أَي: صَبَرُوا فِي الصَّرَاءِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي الرِّخَاءِ. كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَي: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ بِحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ، فَيُوسِّعُ عَلَى قَوْمٍ وَيُضَيِّقُ عَلَى آخَرِينَ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَإِنَّ ذَا الْفَرْقِ حَقٌّ وَالْمُسْكِينُ وَإِنَّ السَّيْلَ ذَلِكَ حَرٌّ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ رَبِّكَ لَبِئْسَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ دُكُونٍ تَرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغُفُونَ<sup>(٣)</sup> اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>(٤)</sup>

### [الْأَمْرُ بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَمَا وَرَدَ فِي رَبِّهَا الْهَدْيَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِإِعْطَاءِ ﴿ذِي الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أَي: مِنَ الْبَرِّ وَالصَّلَةِ ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وَهُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ يَنْفِقُ عَلَيْهِ، أَوْ لَهُ شَيْءٌ لَا يَقُومُ بِكَفَالَتِهِ ﴿وَإِنَّ السَّيْلَ﴾ وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُحْتَاجُ إِلَى نَفَقَةٍ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهِ، ﴿ذَلِكَ حَرٌّ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أَي: النَّظَرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ رَبِّكَ لَبِئْسَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَي: مَنْ أُعْطِيَ عَطِيَّةً يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

٤٠٩

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ  
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٣﴾ فَأَقْرَجَ وَجْهَهُ لِلَّذِينَ الْفَيْسِمِ مِنْ  
قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٤﴾ مَنْ  
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ بِمَعْدُونَ ﴿٤٥﴾  
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ  
الْكَافِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَنْ آيَنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَةً وَلِيَذِقَ  
مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُشْرِى سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ  
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ  
خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ  
﴿٤٩﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ  
﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ  
مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَلْمُونٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴿٤٣﴾ أَي: مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿٤٤﴾ كَانَ  
أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٥﴾ أَي: فَانْظُرُوا مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ تَكْذِيبِ  
الرُّسُلِ وَكُفْرِ النِّعَمِ.

﴿٤٦﴾ فَأَقْرَجَ وَجْهَهُ لِلَّذِينَ الْفَيْسِمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ  
يَوْمَ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٧﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا  
فَلَا نَفْسَ لَهُمْ بِمَعْدُونَ ﴿٤٨﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ  
فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِسْتِقَامَةِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمُرًا عِبَادَهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ فِي  
طَاعَتِهِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ: ﴿فَأَقْرَجَ وَجْهَهُ لِلَّذِينَ الْفَيْسِمِ  
مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا  
أَرَادَ كَوْنَهُ فَلَا رَادَّ لَهُ ﴿يَوْمَ يُصَدِّعُونَ﴾ أَي: يَفْقَرُونَ،  
فَقَرِيقٌ فِي الْحِجَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ

آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ بِالْبَرِّ هُوَ: الْبَرُّ الْمَعْرُوفُ، وَبِالْبَحْرِ هُوَ:  
الْبَحْرُ الْمَعْرُوفُ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ رَفِيعٍ: ﴿طَهَّرَ الْفَسَادَ﴾  
يَعْنِي: انْقِطَاعَ الْمَطَرِ عَنِ الْبَرِّ يَغْتَبُهُ الْقَحْطُ، وَعَنِ الْبَحْرِ  
تَغْمَى دَوَابُّهُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ  
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ قَيْسٍ  
الْأَعْرَجِ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿طَهَّرَ الْفَسَادَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قَالَ:  
فَسَادَ الْبَرِّ: قَتْلُ ابْنِ آدَمَ، وَفَسَادُ الْبَحْرِ: أَخْذُ السَّفِينَةِ غَضَبًا.  
و[عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ] مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طَهَّرَ الْفَسَادَ﴾  
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴿٤٣﴾: بِأَنْ الْقَصْرَ فِي  
الزُّرُوعِ وَالنَّمَارِ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَنْ  
عَصَى اللَّهَ فِي الْأَرْضِ فَقَدْ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ صَلَاحَ  
الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِالطَّاعَةِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي  
رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: «لَحْدُ يَقَامُ فِي الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَى أَهْلِهَا مِنْ  
أَنْ يُنْظَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»<sup>(١)</sup>. وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ  
الْحُدُودَ إِذَا أُقِيمَتْ انْكَفَى النَّاسُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ  
عَنْ تَعَاطِيِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَإِذَا تَرَكْتَ الْمَعَاصِيَ كَانَ سَبَبًا فِي  
حُصُولِ الْبَرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَلِهَذَا إِذَا نَزَلَ  
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَحْكُمُ بِهِدِهِ  
الشَّرِيعَةَ الْمُطَهَّرَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ: مِنْ قَتْلِ الْخَنَازِيرِ وَكُسْرِ  
الصَّلِيبِ، وَوَضْعِ الْجُزْيَةِ، وَهُوَ تَرْكُهَا، فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا  
الْإِسْلَامَ أَوْ السِّيْفَ، فَإِذَا أَهْلَكَ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الدُّجَالَ  
وَأَتْبَاعَهُ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، قَبِلَ لِلْأَرْضِ: أَخْرَجِي  
بَرَكَاتِكَ، فَيَأْكُلُ مِنَ الرِّمَانَةِ الْفَتَامُ مِنَ النَّاسِ وَيَسْتَظِلُّونَ  
بِقِظْفِهَا، وَيَكْفِي لِبَنِ اللَّفْحَةِ الْجَمَاعَةَ مِنَ النَّاسِ، وَمَا ذَاكَ  
إِلَّا بِبَرَكََةِ تَفْهِيمِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكُلَّمَا أُقِيمَ الْعَدْلُ كَثُرَتْ  
الْبَرَكَاتُ وَالْخَيْرُ. وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ: «الْفَاجِرَ إِذَا  
مَاتَ تَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِي قُحْدَمٍ قَالَ: وَجَدَ  
رَجُلٌ فِي زَمَانِ زِيَادٍ أَوْ ابْنِ زِيَادٍ ضُرَّةً فِيهَا حَبٌّ - يَعْنِي:  
مِنْ بَرٍّ - أَمْثَالُ النَّوَى، مَكْتُوبٌ فِيهَا: هَذَا نَبَتْ فِي زَمَانٍ  
كَانَ يُعْمَلُ فِيهِ بِالْعَدْلِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ  
الَّذِي عَمِلُوا...﴾ الْآيَةُ، أَي: لِيَتَلَبَّسَهُمْ بِتَقْصِ الْأَمْوَالِ  
وَالْأَنْفُسِ وَالنَّمَرَاتِ؛ اخْتِيَارًا مِنْهُمْ لَهُمْ، وَمُجَازَاةً عَلَى  
صَنِيعِهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَي: عَنْ الْمَعَاصِي، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالْكَسِيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾  
[الاعراف: ١٦٨] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

(١) النسائي: ٧٥/٨ إسناده ضعيف فيه جرير بن يزيد وهو ضعيف  
كما في التقريب ولم أجده في سنن أبي داود (٢) البخاري:

٦٥١٢ (٣) أحمد: ٢٩٦/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٠

سُورَةُ الرُّومِ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَّاهُ مُصَفَّرًا لَّا تَلُوتُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ الْوَقْفَى وَلَا تَسْمَعُ الْكَلِمَ الْوَقْفَى إِذَا أَوَّلُوا مَذْبُوحِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْدَارُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَنَّتْهُمْ عِبَادَتِي لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفَكُونَ ﴿٦٠﴾

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُفْثِرُ سَحَابًا﴾ إِمَّا مِنَ الْبَحْرِ كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ، أَوْ مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَيُّ: يَمْدُهُ فَيَكْثُرُهُ وَيَنْشِئُهُ، وَيَجْعَلُ مِنَ الْقَلِيلِ كَثِيرًا، يُنْشِئُ سَحَابَةً تَرَى فِي رَأْيِ الْعَيْنِ مِثْلَ الثَّرَسِ، ثُمَّ يَبْسُطُهَا حَتَّى تَمَلَأَ أَرْجَاءَ الْأَفْقِ، وَتَارَةً يَأْتِي السَّحَابُ مِنَ نَحْوِ الْبَحْرِ ثِقَالًا مَمْلُوءَةً [مَاءً]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا بَقِيَ سَقْنَتُهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وَكَذَلِكَ قَالَ هَهُنَا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُفْثِرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كَسَفًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ، وَمَطَرُ الْوَرَأَقِ وَقَتَادَةُ: بَعْنِي قِطْعًا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: مُتْرَاكِمًا، كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَسْوَدَ مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ، تَرَاهُ مَذْلُومًا ثَقِيلًا قَرِيبًا مِنْ

كُفْرٍ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٦﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٤٧﴾ أَيُّ: يُجَازِيهِمْ مُجَازَاةَ الْفَضْلِ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْكَافِرِينَ﴾ وَمَعَ هَذَا هُوَ الْعَادِلُ فِيهِمْ الَّذِي لَا يَجُورُ.

﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرًا وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفَالِكُ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٤٨] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَنُوا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

[مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الرَّيَّاحِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَةً عَلَى خَلْقِهِ فِي إِزْسَالِ الرِّيحِ مُبَشِّرَاتٍ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ بِمَجِيءِ الْغَيْثِ عَقِبَهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيُّ: الْمَطَرِ الَّذِي يُنْزِلُهُ فَيُحْيِي بِهِ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ ﴿وَلِيَجْزِيَ الْفَالِكُ بِأَمْرِهِ﴾ أَيُّ: فِي الْبَحْرِ وَإِنَّمَا سَيَّرَهَا بِالرِّيحِ ﴿وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيُّ: فِي التَّجَارَاتِ وَالْمَعَايِشِ وَالسَّيْرِ مِنْ إِفْلِيمٍ إِلَى إِفْلِيمٍ، وَفَطِيرٍ إِلَى فَطِيرٍ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ: تَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَآمَنُوا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ وَإِنْ كَذَّبَهُ كَثِيرٌ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنَ النَّاسِ، فَقَدْ كَذَّبَتْ الرُّسُلُ الْمُتَقَدِّمُونَ مَعَ مَا جَاءُوا أُمَمَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ. وَلَكِنْ أَنْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ كَذِبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ، وَأَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ: هُوَ حَقٌّ أَوْجِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ؛ تَكْرُمًا وَتَفَضُّلاً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الْرَحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُفْثِرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ، مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَجَائِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَّاهُ مُصَفَّرًا لَّا تَلُوتُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

[إِحْيَاءُ الْأَرْضِ دَلِيلُ الْبَعْثِ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى كَيْفَ يَخْلُقُ السَّحَابَ الَّذِي يُنْزِلُ مِنْهُ الْمَاءَ،

الْأَحْيَاءِ إِذَا شَاءَ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ،  
وَلَيْسَ ذَلِكَ لَأَحَدٍ سِوَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَشْعُمُ إِلَّا  
مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَيُّ: خَاضِعُونَ مُسْتَجِيبُونَ  
مُطِيعُونَ، فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَيَتَّبِعُونَهُ، وَهَذَا  
حَالُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَوَّلُ مَثَلُ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾  
[الأنعام: ٣٦] وَقَدْ اسْتَدَلَّتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ عَلَى تَوْهِيمِ عَبْدِ اللَّهِ  
ابْنِ عُمَرَ فِي رَوَاتِهِ مُحَاطَةَ النَّبِيِّ ﷺ الْقَتْلَى الَّذِينَ أَلْفُوا  
فِي قَلْبٍ بَدْرٍ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَمُعَاتَبَتِهِ إِيَّاهُمْ وَتَقْرِيعَهُ لَهُمْ،  
حَتَّى قَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تُخَاطَبُ مِنْ قَوْمٍ قَدْ  
جِئُوا؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ - لِمَا  
أَقُولُ - مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ»<sup>(١)</sup>. وَتَأَوَّلَتْ عَائِشَةُ عَلَى  
أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ  
حَقٌّ»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَحْيَاهُمُ اللَّهُ لَهُ حَتَّى سَمِعُوا مَقَالَتَهُ؛  
تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَنِقْمَةً<sup>(٣)</sup>.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِيفٍ قُوَّةً  
ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ  
الْقَدِيرُ﴾<sup>(٤)</sup>

### [ذَكَرَ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ الْمُخْتَلِفَةِ]

يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى تَغْيَلِ الْإِنْسَانِ فِي أَطْوَارِ الْخَلْقِ خَالًا  
بَعْدَ حَالٍ، فَأَصْلُهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلَاقَةٍ ثُمَّ مِنْ  
مُضْغَةٍ، ثُمَّ يَصِيرُ عِظَامًا، ثُمَّ تُكْسَى الْعِظَامُ لَحْمًا، وَيُنْفَخُ  
فِيهِ الرُّوحُ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ضَعِيفًا نَحِيفًا وَاهِنًا  
الْقَوَى، ثُمَّ يَشِبُّ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَكُونَ صَغِيرًا، ثُمَّ حَدَثًا  
ثُمَّ مُرَاهِقًا شَابًا. وَهُوَ الْقُوَّةُ بَعْدَ الضَّعْفِ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي  
النَّقْصِ، فَيَكْتَهِلُ ثُمَّ يَشِيخُ ثُمَّ يَهْرَمُ، وَهُوَ الضَّعْفُ بَعْدَ  
الْقُوَّةِ، فَتَضَعُفُ الِهْمَةُ وَالْحَرَكَةُ وَالْبَطْشُ، وَتَشِيْبُ اللَّمَّةُ،  
وَتَتَغَيَّرُ الصِّفَاتُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ  
جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ: يَفْعَلُ مَا  
يَشَاءُ، وَيَتَصَرَّفُ فِي عِبِيدِهِ بِمَا يُرِيدُ ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ  
كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾<sup>(٥)</sup> وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ

الْأَرْضِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أَيُّ:  
فَتَرَى الْمَطَرُ وَهُوَ الْقَطَرُ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ السَّحَابِ  
﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ أَيُّ:  
لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ يَفْرَحُونَ بِزُورِهِ عَلَيْهِمْ وَوُضُوعِهِ إِلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى: ﴿إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ  
لَمَلْسِكُمْ﴾ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَصَابَهُمْ  
هَذَا الْمَطَرُ، كَانُوا قَانِطِينَ أَرْلِينَ مِنْ نَزُولِ الْمَطَرِ إِلَيْهِمْ قَبْلَ  
ذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ، جَاءَهُمْ عَلَى فَاقَةٍ، فَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْفَعًا  
عَظِيمًا، وَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُمْ كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ قَبْلَ  
نَزُولِهِ، وَمِنْ قَبْلِهِ أَيْضًا قَدْ فَاتَ عِنْدَهُمْ نَزُولُهُ وَقَتًا بَعْدَ  
وَقْتٍ، فَتَرَقَّبُوهُ فِي إِبَائِهِ، فَتَأَخَّرَ، ثُمَّ مَضَتْ مُدَّةٌ فَتَرَقَّبُوهُ  
فَتَأَخَّرَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَغْتَةً بَعْدَ الْإِيَّاسِ مِنْهُ وَالْقُنُوطِ، فَبَعْدَ مَا  
كَانَتْ أَرْضُهُمْ مُفْشَعَةً هَامِدَةً، أَضْبَحَتْ وَقَدْ اهْتَزَّتْ  
وَرَبَّتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهِيحٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿فَانْظُرْ إِلَى ءَاتِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي الْمَطَرُ ﴿كَفَيْتُ  
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ثُمَّ نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَادِ بَعْدَ  
مَوْتِهَا وَتَعْرِيفِهَا وَتَمَرُّقِهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُنِجَى  
الْمَوْتَى﴾ أَيُّ: إِنَّ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ لَقَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ  
﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا  
فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ يَكْفُرُونَ ﴿يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ  
أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يَابِسَةً عَلَى الزَّرْعِ الَّذِي زَرَعُوهُ وَنَبَتَ وَشَبَّ  
وَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا، أَيُّ: قَدْ أَضْفَرَ وَشَرَعَ  
فِي الْفَسَادِ ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَيُّ: بَعْدَ هَذَا الْحَالِ،  
﴿يَكْفُرُونَ﴾ أَيُّ: يَجْحَدُونَ مَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ. كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿بَلْ نَحْنُ مُجْرِمُونَ﴾  
[الواقعة: ٦٣-٦٧].

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا  
مُذْرِبِينَ﴾<sup>(٦)</sup> وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُنَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ  
يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٧)</sup>

### [الْكَفَّارُ أَمْوَاتٌ، صُمٌّ وَعُمِّيٌّ]

يَقُولُ تَعَالَى: كَمَا أَنَّكَ لَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تُسْمِعَ  
الْأَمْوَاتَ فِي أَجْدَائِهَا، وَلَا تُبَلِّغَ كَلَامَكَ الصُّمَّ الَّذِينَ لَا  
يَسْمَعُونَ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُدْبِرُونَ عَنْكَ، كَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى  
هَدَايَةِ الْعُمِّيَّانِ عَنِ الْحَقِّ وَرَدِّهِمْ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ  
إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ يُسْمِعُ الْأَمْوَاتَ أَصْوَاتَ

(١) فتح الباري: ٣٥١/٧ (٢) فتح الباري: ٣٥١/٧ (٣) فتح  
الباري: ٣٥١/٧



لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيَّ يَوْمَ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعَذِّرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٩﴾

### [جَهَالَةُ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَبِالدُّنْيَا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَكُونُ مِنْهُمْ جَهْلٌ عَظِيمٌ أَيْضًا، فَمِنْهُ إِفْسَادُهُمْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ عَدَمَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْهُمْ لَمْ يَنْظُرُوا حَتَّى يُعْذَرَ إِلَيْهِمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيَّ يَوْمَ الْبَعْثِ ﴿٥٩﴾ أَيْ: فَيَرُدُّ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ الْعُلَمَاءُ، فِي الْآخِرَةِ كَمَا أَقَامُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ لَهُمْ حِينَ يَحْلِفُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ ﴿٥٩﴾ أَيْ: فِي كِتَابِ الْأَعْمَالِ ﴿إِلَيَّ يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ ﴿٥٩﴾ أَيْ: مِنْ يَوْمِ خُلِقْتُمْ إِلَى أَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعَذِّرَتُهُمْ﴾ أَيْ: اِعْتِذَارُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أَيْ: وَلَا هُمْ يُرْجَعُونَ إِلَى الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَسَّهَتْهُمُ بِلَايَةِ لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَشَاءَ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخْفَنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

### [ضَرْبُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ وَعَدَمُ اعْتِبَارِ الْكُفَّارِ بِهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أَيْ: قَدْ بَيَّنَّا لَهُمُ الْحَقَّ، وَوَضَّحْنَاهُ لَهُمْ، وَصَرَّبْنَا لَهُمْ فِيهِ الْأَمْثَالَ؛ لِيَسْتَبِينُوا الْحَقَّ؛ وَيَتَّبِعُوهُ ﴿وَلَكِنْ جَسَّهَتْهُمُ بِلَايَةِ لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَشَاءَ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أَيْ: لَوْ رَأَوْا أَيْ آيَةً كَانَتْ، سَوَاءٌ كَانَتْ بِافْتِرَاحِهِمْ أَوْ غَيْرِهِ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا سِحْرٌ وَبَاطِلٌ، كَمَا قَالُوا فِي انْتِفَاقِ الْقَمَرِ وَنَحْوِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦-٩٧] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٦٠﴾ أَيْ: اصْبِرْ عَلَى مُخَالَفَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنْ نَصْرِهِ إِيَّاكَ عَلَيْهِمْ وَجَعَلِهِ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنْ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَسْتَخْفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٥٩﴾ أَيْ: بَلِ اثْبُتْ عَلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، وَلَا تَعْدِلْ عَنْهُ، وَلَيْسَ فِيَمَا سِوَاهُ هُدًى يَتَّبِعُ، بَلِ الْحَقُّ كُلُّهُ مُنْهَصِرٌ فِيهِ.

[مَا رَوَى فِي فَضْلِ هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ وَاسْتِحْبَابِ

### قِرَاءَتِهَا فِي الْفَجْرِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ فَقَرَأَ فِيهَا الرُّومَ فَأَوْهَمَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ يَلْسُنُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ: أَنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ»<sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ، وَمَتْنٌ حَسَنٌ، وَفِيهِ سِرٌّ عَجِيبٌ، وَنَبَأٌ غَرِيبٌ، وَهُوَ أَنَّهُ ﷺ تَأَثَّرَ بِنُقْصَانِ وُضُوءِ مَنْ اتَّيَمَّ بِهِ، فَذَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ صَلَاةَ الْمَأْمُومِ مُتَعَلِّقَةٌ بِصَلَاةِ الْإِمَامِ.

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرُّومِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ لُقْمَانَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرُ﴾ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَامَّةُ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِصَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ هَذَا الْقُرْآنَ هُدًى وَشِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ، فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ بِحُدُودِهَا وَأَوْقَاتِهَا، وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ نَوَافِلِ رَاتِيَّةٍ وَغَيْرِ رَاتِيَّةٍ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ إِلَى مُسْتَحَقِّهَا، وَوَصَلُّوا أَرْحَامَهُمْ وَقَرَابَاتِهِمْ، وَاتَّقَوْا بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَرَعَبُوا إِلَى اللَّهِ فِي ثَوَابِ ذَلِكَ لَمْ يَرَاوُوا بِهِ، وَلَا أَرَادُوا جَزَاءً مِنَ النَّاسِ وَلَا شُكُورًا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى

سُورَةُ الْقَمَانِ ٤١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً  
لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ  
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ  
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ  
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ  
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ نُنَزَّلُ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَٰكِن مُّسْتَكْبِرًا  
كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَافٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾  
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾  
خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَقَالَتْ فِي الْأَرْضِ رَاسِيًا أَن تَعْبُدَ  
يَكُمُ رَبَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا  
مِن كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوْهُ مَاذَا  
خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ  
فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾  
[ذِكْرُ مَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنِ]

هَذَا ذِكْرُ مَالِ الْأَبْرَارِ مِنَ السُّعَدَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ،  
الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ، وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ  
الصَّالِحَةَ التَّائِبَةَ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أَيُّ يَتَنَعَّمُونَ  
فِيهَا بِأَنْوَاعِ الْمَلَادِ وَالْمَسَارِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ  
وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاجِنِ وَالْمَرَاجِبِ، وَالنِّسَاءِ وَالنَّصْرَةِ  
وَالسَّمَاعِ، الَّذِي لَمْ يَخْطُرْ بِبَالٍ أَحَدٍ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ  
مُقِيمُونَ دَائِمًا لَا يَطْعَمُونَ دَائِمًا، وَلَا يَبْعَثُونَ عَنْهَا جَوْلًا.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أَيُّ: هَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ؛  
لِأَنَّهُ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ؛ لِأَنَّهُ الْكَرِيمُ  
الْمُتَّانُ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴿وَهُوَ

مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أَيُّ عَلَى بَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ وَمَنْهَجٍ وَاضِحٍ جَلِيلٍ  
﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ  
عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٦﴾ وَإِذْ نُنَزَّلُ عَلَيْهِ  
ءَايَاتُنَا وَلَٰكِن مُّسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَافٌ فَبَشِّرْهُ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٧﴾

[مِنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْإِسْتِغَالِ بِلَهْوِ الْحَدِيثِ وَالْإِعْرَاضِ  
عَنْ آيَاتِ اللَّهِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالِ السُّعَدَاءِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ  
بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَنَفَّعُونَ بِسَمَاعِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ  
أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا مَّتَافِي نَفْسُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ  
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ...  
الْآيَةُ [الزمر: ٢٣]. عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ  
أَعْرَضُوا عَنِ الْإِنْفَاعِ بِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى  
اسْتِمَاعِ الْمَزَامِيرِ وَالْغِنَاءِ، بِالْأَلْحَانِ وَالْآلِ الطَّرَبِ، كَمَا  
قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ  
الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قَالَ: هُوَ وَاللَّهُ الْغِنَاءُ <sup>(١)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ  
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وَاللَّهُ، لَعَلَّهُ لَا يَنْفِقُ فِيهِ مَالًا،  
وَلَكِنْ شِرَاؤُهُ: اسْتِحْبَابُهُ. بِحَسَبِ الْمَرْءِ مِنَ الضَّلَالَةِ أَنْ  
يَخْتَارَ حَدِيثَ الْبَاطِلِ عَلَى حَدِيثِ الْحَقِّ، وَمَا يَضُرُّ عَلَى مَا  
يَنْفَعُ <sup>(٢)</sup>. وَقِيلَ: أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾  
اشْتِرَاءَ الْمُعْتَبَاتِ مِنَ الْحَوَارِيِّ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ كُلُّ  
كَلَامٍ يَصُدُّ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ سَبِيلِهِ <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُضِلَّ  
عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَصْنَعُ هَذَا لِلتَّخَالُفِ لِلْإِسْلَامِ  
وَأَهْلِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ:  
وَيَتَّخِذُ سَبِيلَ اللَّهِ هُزُوًا يَسْتَهْزِئُ بِهَا <sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أَيُّ: كَمَا اسْتَهَانُوا  
بِآيَاتِ اللَّهِ وَسَبِيلِهِ أَهْنُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَذَابِ الدَّائِمِ  
الْمُسْتَمِرِّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نُنَزَّلُ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَٰكِن  
مُّسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَافٌ﴾ أَيُّ هَذَا الْمُقْبِلُ  
عَلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالطَّرَبِ إِذَا ثَلِثَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ  
وَلَّى عَنْهَا، وَأَعْرَضَ وَادْبَرَ وَتَصَامَمَ، وَمَا بِهِ مِنْ صَمَمٍ،  
كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا؛ لِأَنَّهُ يَتَأَدَّى بِسَمَاعِهَا؛ إِذْ لَا انْتِفَاعَ لَهُ بِهَا  
وَلَا أَرْبَ لَهُ فِيهَا، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ،  
يُؤْلِمُهُ، كَمَا تَأْلَمَ بِسَمَاعِ كِتَابِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ.

(١) الطبري: ١٢٧/٢٠ (٢) الطبري: ١٢٧/٢٠ (٣) الطبري:  
١٣٠/٢٠ (٤) الطبري: ١٣١/٢٠

### [ذُكِرَ لُقْمَانُ]

اِخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي لُقْمَانَ: هَلْ كَانَ نَبِيًّا أَوْ عَبْدًا صَالِحًا مِنْ غَيْرِ نَبْوَةٍ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، الْأَكْثَرُونَ عَلَى الثَّانِي. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ الْأَشْعَثِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ لُقْمَانُ عَبْدًا حَبَشِيًّا نَجَارًا<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: مَا انْتَهَى إِلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِ لُقْمَانَ؟ قَالَ: كَانَ فَصِيرًا أَفْطَسَ الْأَنْفَ مِنَ الثُّوبَةِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: كَانَ لُقْمَانُ مِنْ سُودَانَ مِصْرَ، ذَا مَشَافِرَ، أَعْطَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، وَمَنَعَهُ الثُّبُوءَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حُرْمَلَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ أَسْوَدٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ لَهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: لَا تَحْزَنْ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ أَسْوَدُ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَخِيرِ النَّاسِ ثَلَاثَةَ مِنْ السُّودَانِ: يَلَالُ، وَمِهْجَعُ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَلُقْمَانُ الْحَكِيمُ، كَانَ أَسْوَدَ نَوِيًّا ذَا مَشَافِرَ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ خَالِدِ الرَّبِيعِيِّ قَالَ: كَانَ لُقْمَانُ عَبْدًا حَبَشِيًّا نَجَارًا، فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: ادْبَحْ لَنَا هَذِهِ الشَّاةَ. فَذَبَحَهَا، قَالَ: أَخْرِجْ أَطْيَبَ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا. فَأَخْرَجَ اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ، ثُمَّ مَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: ادْبَحْ لَنَا هَذِهِ الشَّاةَ. فَذَبَحَهَا، قَالَ: أَخْرِجْ أَخْبَثَ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا. فَأَخْرَجَ اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ، فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: أَمَرْتُكَ أَنْ تُخْرِجَ أَطْيَبَ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا، فَأَخْرَجْتَهُمَا، وَأَمَرْتُكَ أَنْ تُخْرِجَ أَخْبَثَ مُضْغَتَيْنِ فِيهَا، فَأَخْرَجْتَهُمَا؟ فَقَالَ لُقْمَانُ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ أَطْيَبُ مِنْهُمَا إِذَا طَابَا، وَلَا أَخْبَثَ مِنْهُمَا إِذَا خَبَا<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ شُعْبَةُ عَنْ الْحَكَمِ، عَنْ مُجَاهِدٍ: كَانَ لُقْمَانُ عَبْدًا صَالِحًا، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ» أَيِ: الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالتَّعْيِيرَ «أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ» أَيِ: أَمَرْنَاهُ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ وَمَنَحَهُ وَوَهَبَهُ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي خَصَّصَهُ بِهِ

الْعَزِيزُ الَّذِي فَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَدَانَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ «الْحَكِيمُ» فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، الَّذِي جَعَلَ الْقُرْآنَ هُدًى لِلْمُؤْمِنِينَ «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى»... الْآيَةُ [فصلت: ٤٤]. وَقَوْلُهُ: «وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» [الإسراء: ٨٢].

«خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْفَ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

### [أَدْلَةُ التَّوْحِيدِ]

يُبَيِّنُ شِبْحَانَهُ بِهَذَا قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ تَعَالَى: «خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ» قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: لَيْسَ لَهَا عَمَدٌ مَرِيئَةٌ وَلَا غَيْرُ مَرِيئَةٍ<sup>(١)</sup>. «وَأَلْفَ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ» يَعْنِي: الْجِبَالَ أَرَسَتْ الْأَرْضَ وَثَقَّلَتْهَا؛ لِثَلَا تَضْطَرِبَ بِأَهْلِهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» أَيِ: لِثَلَا تَمِيدَ بِكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أَيِ: وَذَرَأَ فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانَاتِ مِمَّا لَا يَعْلَمُ عَدَدَ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا إِلَّا الَّذِي خَلَقَهَا، وَلَمَّا قَرَّرَ شِبْحَانَهُ أَنَّهُ الْخَالِقُ، ثَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ الرَّازِقُ بِقَوْلِهِ: «وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» أَيِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِنَ النَّبَاتِ كَرِيمٍ، أَيِ: حَسَنِ الْمُنْظَرِ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: وَالنَّاسُ أَيْضًا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَهُوَ كَرِيمٌ، وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ لَيْئِمٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «هَذَا خَلْقُ اللَّهِ» أَيِ: هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا صَادِرٌ عَنْ فِعْلِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ، وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» أَيِ: مِمَّا تَعْبُدُونَ وَتَدْعُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ «بَلِ الظَّالِمُونَ» يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ «فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أَيِ: جَهْلٍ وَعَمًى «مُبِينٍ» أَيِ: وَاضِحٍ ظَاهِرٍ لَا خَفَاءَ بِهِ.

«وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَلِإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» ﴿١٢﴾

(١) الطبري: ١٣٢/٢٠ (٢) الطبري: ١٣٥/٢٠ إسناده ضعيف فيه أشعث بن سوار وابن وكيع ضعيفان وسفيان الثوري مدلس ولم يصرح بالسماع (٣) ابن أبي حاتم ٣٠٩٧/٩ والدر المنثور: ٥/ ٣١٠ (٤) الطبري: ١٣٥/٢٠ (٥) الطبري: ١٣٥/٢٠ (٦) الطبري: ١٣٥/٢٠ إسناده ضعيف لكن الرواية صحيحة بطريق عبدالله بن أحمد بن حنبل قال حدثنا أبي حدثنا وكيع وهذا إسناده صحيح انظر زوائد الزهد لعبد الله بن أحمد بن حنبل. (٧) الطبري: ١٣٤/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٢

سُورَةُ لُقْمَانَ

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٥﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ يَبْنَىٰ إِنَّمَا تَنْكُرُ مَقَالِحَهُ مِنْ خَرَدٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٧﴾ يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٨﴾ وَلَا تُصْعِقْ دَلَّكَ النَّاسُ وَلَا تَمْسِكْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٩﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿٢٠﴾

عَمَّنْ سِوَاهُ مِنْ أُنْبَاءٍ جَنَسِهِ وَأَهْلٍ زَمَانِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ وَتَوَابُهُ عَلَى الشَّاكِرِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَهْدِيهِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أَيُّ: غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ لَا يَتَضَرَّرُ بِذَلِكَ وَلَوْ كَفَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٥﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

[وَصِيَّةٌ لِقَمَانٍ لِابْنِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ وَصِيَّةٍ لِقَمَانٍ لَوْلَدِهِ، وَهُوَ لِقَمَانُ بْنُ عَنَفَاءَ بْنِ سَدُونٍ، وَاسْمُ ابْنِهِ ثَارَانُ فِي قَوْلِ حَكَاةِ السُّهَيْلِيِّ. وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ، وَأَنَّهُ آتَاهُ الْحِكْمَةَ، وَهُوَ يُوصِي وَلَدَهُ الَّذِي هُوَ أَشْفَقَ النَّاسَ عَلَيْهِ وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يَمْنَحَهُ أَفْضَلَ مَا يَعْرِفُ، وَلِهَذَا أَوْصَاهُ أَوَّلًا بِأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ مُحَدِّثًا لَهُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أَيُّ: هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] سَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ: ﴿يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>» وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ. ثُمَّ قَرَنَ بِوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ الْبِرَّ بِالْوَالِدَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وَكَثِيرًا مَا يَقْرُنُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ، وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَشَقَّةٌ وَهْنُ الْوَلَدِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: جَهْدًا عَلَى جَهْدٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أَيُّ: تَرْبِيَّتُهُ وَإِزْوَاعُهُ بَعْدَ وَضْعِهِ فِي عَامَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾... الْآيَةُ

[البقرة: ٢٣٣]، وَمِنْ هَهُنَا اسْتَبْطَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأُيُمَةِ أَنَّ أَقَلَّ مَدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾،

وَأِنَّمَا يَذْكُرُ تَعَالَى تَرْبِيَّةَ الْوَالِدَةِ وَتَعَبَهَا وَمَشَقَّتَهَا فِي سَهَرِهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، لِيُذَكِّرَ الْوَلَدَ بِإِحْسَانِهَا الْمُتَقَدِّمِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِيمَا كَمَا رَبَّنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أَيُّ: فَإِنِّي سَأَجْزِيكَ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ جَزَاءٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أَيُّ: إِنْ حَرَصَا عَلَيْكَ كُلَّ الْحَرْصِ عَلَى أَنْ تَتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا، فَلَا تَقْبَلْ مِنْهُمَا ذَلِكَ، وَلَا يَمْنَعَكَ ذَلِكَ مِنْ أَنْ تُصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا، أَيُّ: مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يَعْنِي: الْمُؤْمِنِينَ، ﴿ثُمَّ

(١) فتح الباري: ٣٧٢/٨ (٢) الطبري: ١٣٧/٢٠ (٣) الطبري: ١٣٧/٢٠

الْأَرْضِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ: لَطِيفُ الْعِلْمِ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ وَإِنْ دَقَّتْ وَلَطَفَتْ وَتَضَاعَتْ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بِدَيْبِ السَّلِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿يَبْنِي أَمِيرُ الصَّلَاةِ﴾ أَيُّ: بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا وَأَوْقَاتِهَا ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أَيُّ: بِحَسَبِ طَاقَتِكَ وَجُهْدِكَ ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ عِلْمٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ النَّاسِ أَدَى، فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أَيُّ: إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى أَدَى النَّاسِ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يَقُولُ: لَا تُعْرِضْ بِوَجْهِكَ عَنِ النَّاسِ إِذَا كَلَّمْتَهُمْ أَوْ كَلَّمُوكَ اخْتِقَارًا مِنْكَ لَهُمْ، وَاسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ أَلِنْ جَانِبَكَ وَابْسُطْ وَجْهَكَ إِلَيْهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «وَلَوْ أَنَّ تَلْقَى أَحَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُبْسُطٌ، وَإِيَّاكَ وَاسْتِبَالَ الْإِزَارِ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَالْمَخِيلَةُ لَا يُجِبُّهَا اللَّهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَيُّ: خِيَلَاءَ مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَنِدًا، لَا تَفْعَلْ ذَلِكَ يُبْغِضُكَ اللَّهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أَيُّ: مُخْتَالٍ مُعْجَبٍ فِي نَفْسِهِ، فَخُورٍ أَيُّ: عَلَى غَيْرِهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخَرَّقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجَِالَ طُولًا﴾ [الأنعام: ٣٧] وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ.

### [الْأَمْرُ بِالْإِقْتِصَادِ فِي الْمَشْيِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أَيُّ: امْشِ مُقْتَصِدًا مَشْيًا لَيْسَ بِالطَّبِيعِ الْمُبْتَدِئِ، وَلَا بِالسَّرِيعِ الْمُمْرِطِ، بَلْ عَدَلًا وَسَطًا بَيْنَ بَيْنَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أَيُّ: لَا تُبَالِغْ فِي الْكَلَامِ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَايْدَةَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ، أَيُّ: غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعِهِ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا الشَّيْءُ فِي هَذَا بِالْحَمِيرِ، يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ وَدَمَهُ غَايَةَ الدَّمِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوَرِ، الْعَانِدُ فِي هَبْنِهِ

إِلَى مَرَجْعِكُمْ فَأَنْبِئِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» رَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي كِتَابِ الْعِشْرَةِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: أَنْزَلْتُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَنْ جَهْدَكَ عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾... الْآيَةَ، قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا بَرًّا بِأُمِّي، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ قَالَتْ: يَا سَعْدُ! مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكَ قَدْ أَحْدَثْتَ؟ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذَا أَوْ لَا أَكُلْ وَلَا أَشْرَبُ حَتَّى أَمُوتَ فَتَعْبِرَ بِي! فَيَقَالَ: يَا قَاتِلَ أُمِّهِ، فَقُلْتُ: لَا تَفْعَلِي يَا أُمُّهُ، فَإِنِّي لَا أَدْعُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ. فَمَكَنْتُ يَوْمًا وَلَيْلَةً لَمْ تَأْكُلْ، فَأَصْبَحْتُ قَدْ جَهَدْتُ، فَمَكَنْتُ يَوْمًا آخَرَ وَلَيْلَةً لَمْ تَأْكُلْ، فَأَصْبَحْتُ قَدْ جَهَدْتُ، فَمَكَنْتُ يَوْمًا وَلَيْلَةً أُخْرَى لَا تَأْكُلْ، فَأَصْبَحْتُ قَدْ اشْتَدَّ جَهْدُهَا، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ: يَا أُمُّهُ! تَعْلَمِينَ - وَاللَّهِ - لَوْ كَانَتْ لَكَ مِائَةُ نَفْسٍ فَخَرَجْتَ نَفْسًا نَفْسًا مَا تَرَكْتُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ، فَإِنْ شِئْتَ فَكُلِي، وَإِنْ شِئْتَ لَا تَأْكُلِي، فَأَكَلْتُ<sup>(١)</sup>.

﴿يَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(١٦)</sup> يَبْنِي أَمِيرُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ<sup>(١٧)</sup> وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ<sup>(١٨)</sup> وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ

### الْحَمِيرِ<sup>(١٩)</sup>

هَذِهِ وَصَايَا نَافِعَةٌ قَدْ حَكَاهَا اللَّهُ شُبْحَانَهُ عَنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ، لِيُمَثِّلَهَا النَّاسُ وَيَتَّقُوا بِهَا، فَقَالَ: ﴿يَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أَيُّ: إِنْ الْمَظْلَمَةُ أَوْ الْحَقِيقَةُ لَوْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ [مِنْ] خَرْدَلٍ، وَجَوَزَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿إِنَّهَا﴾ ضَمِيرُ الشَّانِ وَالْقِصَّةِ، وَجَوَزَ عَلَى هَذَا رَفَعُ مِثْقَالٍ. وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾: أَيُّ: أَحْضَرَهَا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ، وَجَارَى عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾... الْآيَةُ [الأنبياء: ٤٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾<sup>(٢٠)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: ٨، ٧] وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الذَّرَّةُ مُحْصَنَةً مُحَجَّبَةً فِي دَاخِلِ صَخْرَةٍ صَمَاءٍ، أَوْ غَايَةِ ذَاهِبَةٍ فِي أَرْجَاءِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِهَا؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَلَا يَغُزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمُوتِ وَلَا فِي

(١) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة: ٢/٢١٦ أسباب النزول للواحدي (٦٧٠) وإسناده حسن (٢) أبو داود: ٤/٣٤٥



يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عِقْبَةُ الْأُمُورِ﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصُّدُورِ ﴿٢٢﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ أَيُّ: أَخْلَصَ لَهُ الْعَمَلُ وَانْقَادَ لِأَمْرِهِ وَاتَّبَعَ شَرْعَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أَيُّ: فِي عَمَلِهِ بِاتِّبَاعِ مَا بِهِ أَمْرٌ، وَتَرْكِ مَا عَنْهُ رُجْرٌ ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أَيُّ: فَقَدْ أَخَذَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ مَتِينًا أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُ ﴿وَإِلَى اللَّهِ عِقْبَةُ الْأُمُورِ﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ أَيُّ: لَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدٌ فِي كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَإِنَّ قَدَرَ اللَّهِ نَافِذٌ فِيهِمْ، وَإِلَى اللَّهِ مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا، أَيُّ: فَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أَيُّ: نُلْجِئُهُمْ ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أَيُّ: فَطِيعَ صَعْبٍ [يَشْقٍ] عَلَى النَّفْسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

[اعتراف المشركين بأن الله هو الخالق]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ: إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ شُرَكَاءَ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا خَلَقَ لَهُ وَمِلْكُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيُّ: إِذْ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ بِاعْتِرَافِكُمْ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ هُوَ خَلَقَهُ وَمِلْكُهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أَيُّ: الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَبِيرٌ إِلَيْهِ، الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَهُوَ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى مَا خَلَقَ وَشَرَعَ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ

سَبْعَةُ آبْحَرٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٥﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسَ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٦﴾

[كَلِمَاتُ اللَّهِ لَا تُحْصَى وَلَا تَنْفَدُ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَجَلَالِهِ، وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، وَكَلِمَاتِهِ الثَّمَّةِ الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ، وَلَا أَطْلَاعٌ لِشَرِّ عَلَىٰ كُنْهَاتِهَا وَإِحْصَانِهَا، كَمَا قَالَ سَيِّدُ الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ: ﴿لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ﴾<sup>(١)</sup>. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحَرٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ أَيُّ: وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ أَشْجَارِ الْأَرْضِ جُعِلَتْ أَقْلَامًا، وَجُعِلَ الْبَحْرُ مِدَادًا، وَأَمَدُهُ سَبْعَةُ آبْحَرٍ مَعَهُ، فَكُنِيتَ بِهَا كَلِمَاتُ اللَّهِ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَلَالِهِ لَتَكَسَّرَتِ الْأَقْلَامُ، وَنَفِدَ مَاءُ الْبَحْرِ، وَلَوْ جَاءَ أَمْثَالُهَا [مِدَادًا]، وَإِنَّمَا ذُكِرَتِ السَّبْعَةُ عَلَى وَجْهِ الْمَبَالِغَةِ، وَلَمْ يَزِدِ الْحَضَرُ، وَلَا أَنَّ ثَمَّ سَبْعَةَ آبْحَرٍ مَوْجُودَةٌ مُحِيطَةٌ بِالْعَالَمِ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ تَلَفَّاهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا تُصَدِّقُ وَلَا تُكَذِّبُ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِمِثْلِهِ مِدَادًا﴾ [الكهف: ١٠٩] فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿بِمِثْلِهِ﴾: آخَرُ فَقَطْ، بَلْ بِمِثْلِهِ ثُمَّ بِمِثْلِهِ، ثُمَّ بِمِثْلِهِ ثُمَّ هَلُمَّ جَرًّا؛ لِأَنَّهُ لَا حَصْرَ لِآيَاتِ اللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ: عَزِيزٌ قَدْ عَزَّ كُلُّ شَيْءٍ وَفَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، فَلَا مَانِعَ لِمَا أَرَادَ، وَلَا مُحَالِفَ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَجَمِيعِ شُؤْنِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسَ وَاحِدَةً﴾ أَيُّ: مَا خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ وَيَبْعَثُهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ بِالنَّسَبِ إِلَى قُدْرَتِهِ إِلَّا كَنِسَبَةِ خَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، الْجَمِيعُ هَبْنِ عَلَيْهِ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] أَيُّ: لَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ، لَا يَخْتِاجُ إِلَى تَكَرُّرِهِ وَتَوَكِيدِهِ ﴿فَلَمَّا هِيَ نَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [٢٧] فَإِذَا هُمْ بِالنَّاسِ هَرَّةٍ [النَّازِعَاتِ: ١٣، ١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أَيُّ: كَمَا هُوَ سَمِيعٌ لِأَقْوَالِهِمْ،





عَنْ سَيِّدِهِ، وَلَا يَهْتَمُّ أَحَدٌ [بِهِمْ] غَيْرُهُ، وَلَا يَحْزَنُ لِحُزْنِهِ، وَلَا أَحَدٌ يَرْحَمُهُ، كُلُّ مُنْفِقٍ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يُؤْخَذُ إِنْسَانٌ عَنْ إِنْسَانٍ، كُلُّ يَهُمَّةٍ هُمَّةٌ، وَيَبْكِي عَوْلهُ، وَيَحْمِلُ وَزْرَهُ، وَلَا يَحْمِلُ وَزْرَهُ مَعَهُ غَيْرُهُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٤)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٥)</sup>

### [عَالِمُ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ]

هَذِهِ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهَا، فَلَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ إِعْلَامِهِ تَعَالَى بِهَا، فَعِلْمُ وَقْتِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ﴿لَا يَحِيطُ بِلُوقَاهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَكَذَلِكَ أَنْزَلَ الْغَيْثَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ بِهِ عِلْمَتُهُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ وَمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَكَذَلِكَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِمَّا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَهُ تَعَالَى سِوَاهُ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ بِكَوْنِهِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، أَوْ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا، عِلْمُ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَكَذَا لَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا فِي دُنْيَاهَا وَأُخْرَاهَا ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فِي بَلَدِهَا أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَيِّ بِلَادِ اللَّهِ كَانَ، لَا عِلْمَ لِأَحَدٍ بِذَلِكَ، وَهَذِهِ شَبِيهَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾... [الآية: ٥٩: الأُنعام] وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِتَسْمِيَةِ هَذِهِ الْخَمْسِ مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»<sup>(٥)</sup>. هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُحَرِّجُوهُ.

(حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ) وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾»

(١) الطبري: ١٥٧/٢٠ (٢) الطبري: ١٥٧/٢٠ (٣) الطبري: ١٥٩/٢٠ (٤) ما وجدت في تفسير ابن أبي حاتم المطبوع وهذا من قول وهب بن منبه اليماني وهو ثقة (٥) أحمد: ٣٥٣/٥

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أَي: كَالْجِبَالِ وَالْعَمَامِ ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ﴾... [الأنبياء: ٦٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْتُمُ إِلَى الْبَرِّ فَيَسْأَلُهُمْ مُقَنْصِدُهُمْ قَالُوا مُجَاهِدٌ: أَيُّ كَافِرٍ، كَأَنَّهُ فَسَّرَ الْمُقَنْصِدَ هَهُنَا بِالْبَجَاجِدِ<sup>(١)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغْتُمُ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَحْصُرُ بَيْنَانَا إِلَّا كُلُّ خَسَارٍ كُفُورٍ﴾ فَالْخِتَارُ هُوَ الْعُدَاؤُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ<sup>(٢)</sup>. وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَا عَاهَدَ نَقَضَ عَهْدَهُ، وَالْخِزْرُ أَتَمَّ الْعُدْرَ وَأَبْلَغُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿كَفُورٍ﴾ أَي: جَحُودٍ لِلنِّعَمِ لَا يَشْكُرُهَا، بَلْ يَتَنَاسَاهَا وَلَا يَذْكُرُهَا.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ انْقِعَارًا رَبِّكُمْ أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَجْزِي وَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾<sup>(٣)</sup> [الأنعام: ١٠١]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا لِلنَّاسِ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَأَمْرًا لَهُمْ بِتَقْوَاهُ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَالْخَشْيَةِ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ ﴿لَا يَجْزِي وَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أَي: لَوْ أَرَادَ أَنْ يَفْدِيَهُ بِنَفْسِهِ لَمَّا قُبِلَ مِنْهُ. وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ لَوْ أَرَادَ فِدَاءَ وَالِدِهِ بِنَفْسِهِ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ. ثُمَّ عَادَ بِالْمَوْعِظَةِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أَي: لَا تُلْهِيَنَّكُمْ بِالطَّمَأِينَةِ فِيهَا عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يَعْنِي الشُّبْطَانُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ<sup>(٣)</sup>. فَإِنَّهُ يَغُرُّ ابْنَ آدَمَ وَيَعِدُّهُ وَيَمْنِيهِ وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ كَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾

[النساء: ١٢٠] قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِهِ: قَالَ عَزِيزٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمَّا رَأَيْتُ بَلَاءَ قَوْمِي اسْتَدَّ حُزْنِي، وَكَثُرَ هَمِّي، وَأَرْقُ نَوْمِي، فَتَضَرَّعْتُ إِلَى رَبِّي وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ، فَأَنَا فِي ذَلِكَ التَّضَرُّعِ أَبْكِي، إِذْ أَتَانِي الْمَلَكُ، فَقُلْتُ لَهُ: خَبِّرْنِي هَلْ تَسْفَعُ أَرْوَاحَ الصَّادِقِينَ لِلظَّالِمَةِ أَوْ الْآبَاءَ لِابْنَائِهِمْ؟ قَالَ: إِنَّ الْقِيَامَةَ فِيهَا فَضْلُ الْقَضَاءِ، وَمُلْكُ ظَاهِرٍ لَيْسَ فِيهِ رُحْصَةٌ، لَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ، وَلَا يُؤْخَذُ فِيهِ وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلَا وَلَدٌ عَنْ وَالِدِهِ، وَلَا أَخٌ عَنْ أُخِيهِ، وَلَا عَبْدٌ

تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ<sup>(١)</sup>. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في كتاب الاستسقاء في صحيحه<sup>(٢)</sup>. ورواه في التفسير من وجه آخر: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ» ثُمَّ قَرَأَ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرَكَّبُ اللَّغِيثُ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ»<sup>(٣)</sup>. انفرد به أيضا.

(حديث أبي هريرة) رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْغَيْبِ الْآخِرِ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأَحَدُّكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَ الْحَفَاةُ الْعَرَاءُ رُؤُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرَكَّبُ اللَّغِيثُ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ»... الْآيَةِ، ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ فَقَالَ: «رُدُّوهُ عَلَيَّ» فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جَبْرِيْلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ، وَمُسْلِمٌ مِنْ طَرَفٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَذَكَرْنَا ثُمَّ حَدِيثَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ بِطَوْلِهِ، وَهُوَ مِنْ أَفْرَادِ مُسْلِمٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» قَالَ قَتَادَةُ: أَشْيَاءُ اسْتَأَثَرَ اللَّهُ بِهِنَّ، فَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِنَّ مَلَكًا مَقْرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» فَلَا يَدْرِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ فِي أَيِّ سَنَةٍ، أَوْ فِي أَيِّ شَهْرٍ، أَوْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ «وَيُرَكَّبُ اللَّغِيثُ» فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى يَنْزِلُ اللَّغِيثُ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا «وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ» فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا فِي الْأَرْحَامِ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَحْمَرٌ أَوْ أَسْوَدٌ، وَمَا هُوَ «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا» أَخْيَرٌ أَمْ شَرٌّ، وَلَا تَدْرِي يَا ابْنَ آدَمَ! مَتَى تَمُوتُ، لَعَلَّكَ الْغَيْثُ غَدًا، لَعَلَّكَ

الْمُصَابُ غَدًا. «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» أَي: لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَدْرِي أَيْنَ مَضْجَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ، أَيْ فِي بَحْرٍ أَمْ بَرٍّ أَوْ سَهْلٍ أَوْ جَبَلٍ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً»<sup>(٧)</sup>. رَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ فِي مُسْنَدِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِيتَةَ عَبْدٍ بِأَرْضٍ إِلَّا جَعَلَ لَهُ فِيهَا حَاجَةً»<sup>(٨)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ لُقْمَانَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

## تفسير سورة الم السجدة وهي مكية

### [فصل سورة الم السجدة]

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْجُمُعَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: ﴿الْعَمَّ تَنْزِيلُ السَّجْدَةِ وَهَذَا آيٌ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾<sup>(٩)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ: ﴿الْعَمَّ تَنْزِيلُ السَّجْدَةِ، وَتَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدُو إِلَهُكَ﴾<sup>(١١)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٢)</sup> أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنشِدْ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِنْ تَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ<sup>(١٣)</sup>

### [الْقُرْآنُ كِتَابُ اللَّهِ لَا شَكَّ فِيهِ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا. وَقَوْلُهُ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي: لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُسْرِكِينَ «أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ» بَلْ يَقُولُونَ: ﴿أَفَرَبَّهُ﴾ أَي: اخْتَلَفَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنشِدْ قَوْمًا مَّا أَنْتُمْ مِنْ تَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» أَي: يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ.

(١) أحمد: ٢٤/٢ فتح الباري: ٦٠٩/٢ (٣) فتح الباري: ٣٧٣/٨ (٤) فتح الباري: ٣٧٣/٨ (٥) فتح الباري: ١٤٠/١ (٦) الطبري: ٣٩/١ (٧) الحاكم: ٤٢/١ (٨) الطبراني: ١٧٨/١ (٩) فتح الباري: ٤٣٨/٢ (١٠) مسلم: ٥٩٩/٢ (١١) أحمد: ٣٤٠/٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٥

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارْتِبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
 ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا  
 مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ  
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ  
 ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا  
 تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ  
 إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ  
 عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ  
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ  
 نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ  
 مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا  
 مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي  
 خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوقَفُكُمْ  
 مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

[تَطْوِيرُهُ خَلْقُ الْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ الَّذِي أَحْسَنَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ  
 وَأَتَقَنَهَا وَأَحْكَمَهَا. وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿الَّذِي  
 أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ قَالَ: أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ كَأَنَّهُ  
 جَعَلَهُ مِنَ الْمَقْدَمِ وَالْمُؤَخَّرِ، ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَقَالَ  
 تَعَالَى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ يَعْنِي: خَلَقَ أَبَا الْبَشَرِ  
 آدَمَ مِنْ طِينٍ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أَيُّ:  
 يَتَنَاسَلُونَ كَذَلِكَ مِنْ نُطْفَةٍ: تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صُلْبِ الرَّجُلِ  
 وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يَعْنِي آدَمَ لَمَّا خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ،  
 خَلَقَهُ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ  
 وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يَعْنِي: الْعُقُولَ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ:  
 بِهَذِهِ الْقُوَى الَّتِي رَزَقَكُمُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَالْسَّعِيدُ مَنْ  
 اسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ  
 رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتُوقَفُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ  
 اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا  
 تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١﴾ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي  
 يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ  
 وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾

[اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ لِلْكَوْنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقٌ لِلْأَشْيَاءِ فَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
 وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، وَقَدْ  
 تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾  
 أَيُّ: بَلْ هُوَ الْمَالِكُ لِأَرْمَةِ الْأُمُورِ، الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ،  
 الْمُدَبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا وَلِيَّ لِيُخْلِفَهُ  
 سِوَاهُ، وَلَا شَفِيعَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يَعْنِي:  
 أَيُّهَا الْعَابِدُونَ غَيْرُهُ الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى مَنْ عَدَاهُ، تَعَالَى  
 وَتَقَدَّسَ وَتَزَهَّدَ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَظِيرٌ أَوْ شَرِيكٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ نَدِيدٌ  
 أَوْ عَدِيلٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ  
 يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أَيُّ: يَنْزِلُ أَمْرُهُ مِنْ أَعْلَى السَّمَوَاتِ إِلَى أَقْصَى  
 تَحْتِ الْأَرْضِ السَّابِغَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ  
 سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾... الْآيَةُ  
 [الطلاق: ١٢]، وَتَرْفَعُ الْأَعْمَالُ إِلَى دِيْوَانِهَا فَوْقَ سَمَاءِ  
 الدُّنْيَا وَمَسَافَةِ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ،  
 وَسُمُكُ السَّمَاءِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ  
 وَالضَّحَّاكُ: التَّرْوُلُ مِنَ الْمَلِكِ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ،  
 وَضَعُوهُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَلَكِنَّهُ يَقْطَعُهَا فِي طَرْفَةِ  
 عَيْنٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ  
 مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيُّ: الْمُدَبِّرُ لِهَذِهِ  
 الْأُمُورِ، الَّذِي هُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ  
 جَلِيلُهَا وَحَقِيرُهَا، وَصَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، هُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ  
 عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَفَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، وَدَانَتْ لَهُ الْعِبَادُ وَالرَّقَابُ،  
 الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ عَزِيزٌ فِي رَحْمَتِهِ رَحِيمٌ فِي  
 عِزَّتِهِ. وَهَذَا هُوَ الْكَمَالُ، الْعِزَّةُ مَعَ الرَّحْمَةِ وَالرَّحْمَةُ مَعَ  
 الْعِزَّةِ، فَهُوَ رَحِيمٌ بِلَا ذُلٍّ.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ  
 جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ  
 مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا  
 تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١١﴾

إِلَّا رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

[الْرُّدُّ عَلَى اسْتِعَادِ الْبُعْثِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِعَادِهِمُ الْمَعَادَ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَوَدَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: تَمَزَقَتْ أَجْسَامُنَا وَتَفَرَّقَتْ فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَذَهَبَتْ ﴿أَمْثَلًا لَفِي خَلْقِ جَدِيدٍ﴾ أَي: أَيْنَا لَنَعُودَ بَعْدَ تِلْكَ الْحَالِ؟ يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعِيدٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى [قُدْرَتِهِمْ] الْعَاجِزَةِ، لَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الَّذِي بَدَأَهُمْ وَخَلَقَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، الَّذِي إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ﴾ الظَّاهِرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ شَخْصٌ مُعَيَّنٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، كَمَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ سُمِّيَ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ بِعِزْرَائِيلَ وَهُوَ الْمَشْهُورُ. قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَلَهُ أَغْوَانٌ <sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَغْوَانَهُ يَنْتَرِعُونَ الْأَرْوَاحَ مِنْ سَائِرِ الْجَنَدِ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلُقُومَ تَنَاولَهَا مَلَكَ الْمَوْتِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: حُوتَ لَهُ الْأَرْضُ فَجُعِلَتْ مِثْلَ الطَّسْتِ يَتَنَاولُ مِنْهَا مَتَى يَشَاءُ <sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَّا رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أَي: يَوْمَ مَعَادِكُمْ وَيَقَامِكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ لِحِزَانِكُمْ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

[بَيَانُ حَالِ الْمُشْرِكِينَ السَّيِّئِ]

يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَالَهُمْ حِينَ عَايَنُوا الْبُعْثَ، وَقَامُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ نَاكِسِي رُءُوسِهِمْ، أَي: مِنَ الْحَيَاءِ وَالْخَجَلِ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أَي: نَحْنُ الْآنَ نَسْمَعُ قَوْلَكَ، وَنُطِيعُ أَمْرَكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَنْتَعِبُ يَوْمَ وَلَيْتُمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] وَكَذَلِكَ يَعُودُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ إِذَا دَخَلُوا النَّارَ يَقُولُهُمْ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وَهَكَذَا هُوَ لَا يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِعَاقِبَتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ نَتَجَا فَنُجِيبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مَن قَرَّةٌ أَعْيُنَ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَمْلُوكِ﴾ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ أَي: إِلَى دَارِ الدُّنْيَا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أَي: قَدْ أَبْقَيْنَا وَتَحَقَّقْنَا فِيهَا أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ، وَلِقَاءُكَ حَقٌّ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ تَعَالَى مِنْهُمْ أَنَّهُ لَوْ أَعَادَهُمْ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا لَكَانُوا كَمَا كَانُوا فِيهَا كُفَّارًا يُكَذِّبُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَيُخَالِفُونَ رُسُلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا...﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ٢٨]. وَقَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: مِنَ الصَّنَفَيْنِ فَدَارُهُمُ النَّارُ لَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهَا، وَلَا مَحِصَ لَهُمْ مِنْهَا، نَعُودُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ النَّامَةِ مِنْ ذَلِكَ، ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَي: يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِكُمْ بِهِ،

وَأَسْتَبْعِدْكُمْ وَفُوعُهُ، وَتَنَاسِيَكُمْ لَهُ؛ إِذْ عَامَلْتُمُوهُ مُعَامَلَةً مِّنْ هُوَ نَاسٍ لَهُ، ﴿إِنَّا نَسِيَكُمْ﴾ أَيُّ: سَنُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةً النَّاسِي؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَنْسَى شَيْئًا وَلَا يَضِلُّ عَنْهُ شَيْءٌ، بَلْ مِّنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ نَسَنُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [البجائية: ٣٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿٢٤﴾ إِلَّا حِمِيمًا وَغَسَّاقًا إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٢٤-٣٠].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ نَسَجَانِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

### [حَالُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَجَزَاؤُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يُصَدِّقُ بِهَا ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أَيُّ: اسْتَمْعُوا لَهَا، وَأَطَاعُوهَا قَوْلًا وَفِعْلًا، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيُّ: عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالْإِنْفِيَادِ لَهَا كَمَا يَفْعَلُهُ الْجَهْلَةُ مِنَ الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿نَسَجَانِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: قِيَامَ اللَّيْلِ وَتَرْكَ النَّوْمِ وَالْإِضْطِجَاعَ عَلَى الْفُرَشِ الْوُطِيئَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَسَجَانِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: قِيَامَ اللَّيْلِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ فِي جَمَاعَةٍ، وَصَلَاةُ الْغَدَاةِ فِي جَمَاعَةٍ. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَيُّ: خَوْفًا مِنْ وَبَالِ عِقَابِهِ، وَطَمَعًا فِي جَزَائِهِ ثَوَابِهِ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ فِعْلِ الْقُرْبَاتِ الْإِزْمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، وَمُقَدِّمِ هَؤُلَاءِ وَسَيِّدُهُمْ وَفَخَرُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحَتْ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يَدْخُلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ

الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ - ثُمَّ قَالَ: - أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ - ثُمَّ قَرَأَ: - ﴿نَسَجَانِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُفْلُهُ؟ قُلْتُ: بَلَى، يَا نَبِيَّ اللَّهِ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فَقَالَ: «تَكَلَّمَ أَمُوكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَا خَرِجَهُمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» <sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِمْ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ <sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾... الْآيَةِ، أَيُّ: فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ عَظَمَةَ مَا أُخْفِيَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ وَاللَّذَاتِ الَّتِي لَمْ يَطْلُعْ عَلَى مِثْلِهَا أَحَدٌ - لَمَّا أَخْفَا أَعْمَالَهُمْ كَذَلِكَ أُخْفِيَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ - جَزَاءً وَفَقَا، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أُخْفِيَ قَوْمَ عَمَلِهِمْ، فَأُخْفِيَ اللَّهُ لَهُمْ مَا لَمْ تَرَوْا عَيْنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾... الْآيَةِ، وَذَكَرَ تَحْتَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ <sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ <sup>(٥)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، دُخْرًا مِنْ بَلَاءٍ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ» <sup>(٦)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْئَسُ، لَا

(١) الطبري: ١٨٠/٢٠ (٢) أحمد: ٢٣١/٥ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٦٢/٧ والنسائي في الكبرى: ٤٢٨/٦ وابن ماجه: ١٣١٤/٢ (٤) فتح الباري: ٣٧٥/٨ (٥) مسلم: ٢١٧٤/٤ وتحفة الأحوذى: ٥٦/٩ (٦) فتح الباري: ٣٧٥/٨

تَبْلَى ثِيَابَهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ، فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١)</sup>.

﴿أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٩﴾ وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢١﴾

[لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْفَاسِقُ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ عَدْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنَّهُ لَا يُسَاوِي فِي حُكْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِآيَاتِهِ مُتَّبِعًا لِرُسُلِهِ، بِمَنْ كَانَ فَاسِقًا أَوْ خَارِجًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، مُكَذِّبًا رُسُلَ اللَّهِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا هُمْ بِبَالٍ بِكُمْ﴾ [الجاثية: ٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾... [الآية: الحشر: ٢٠]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ أَي: عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعُثْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ<sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا فَصَّلَ حُكْمَهُمْ فَقَالَ: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: صَدَقَتْ قُلُوبُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهَا وَهِيَ الصَّالِحَاتُ ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أَي: الَّتِي فِيهَا الْمَسَاكِينُ وَالذُّورُ وَالْعُرْفُ الْعَالِيَةُ ﴿نُزُلًا﴾ أَي: ضِيَافَةً وَكَرَامَةً ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا أَي: خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ [فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا] كَقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾... [الآية: الحج: ٢٢]. قَالَ الْفَضْلِيُّ بْنُ عِيَّاضٍ: وَاللَّهُ! إِنَّ الْأَيْدِيَ لَمُوتَقَةٌ، وَإِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَبَّدَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَبَ لَيَرْفَعُهُمْ، وَالْمَلَائِكَةُ تَقْمَعُهُمْ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أَي: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ، تَفْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ

الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُعْنَى بِالْعَذَابِ الْأَذَىٰ مَصَائِبُ الدُّنْيَا وَأَشْقَامُهَا وَأَفَاتِهَا، وَمَا يَحُلُّ بِأَهْلِهَا مِمَّا يَنْتَلِي اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ لِيَتُوبُوا إِلَيْهِ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى مُثْلَهُ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَالْحَسَنِ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَالضَّحَّاكِ، وَعَلْقَمَةَ، وَعَطِيَّةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَعَبْدَ الْكَرِيمِ الْجَزْرِيَّ، وَخُصَنَفٍ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أَي: لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَهُ اللَّهُ بِآيَاتِهِ وَبَيَّنَّهَا لَهُ وَوَضَّحَهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَهَا وَجَحَدَهَا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَتَنَاسَاهَا كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا. قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّا كُنَّا وَالْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ فَقَدْ اغْتَرَّ أَكْبَرَ الْغُرَّةِ، وَأَعْوَرَ أَشَدَّ الْعَوْرِ، وَعَظَمَ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾

(١) الطبري: ١٨٦/٢٠ ومسلم: ٢١٨١/٤ (٢) الطبري: ٢٠/٢٠

١٨٨ (٣) الطبري: ١٨٩/٢٠ (٤) الطبري: ١٨٩/٢٠، ١٩٠

أَي: سَأْتِقُمْ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِتِقَامِ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾

وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ

بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

[كِتَابُ مُوسَى وَإِمَامَةُ بَنِي إِسْرَءِيلَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ

السَّلَامُ: أَنَّهُ آتَاهُ الْكِتَابَ، وَهُوَ التَّوْرَةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ قَالَ فَتَادَةُ: يَعْنِي بِهِ لَيْلَةُ

الْإِسْرَاءِ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ الرَّيَاحِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي

ابْنُ عَمِّ نَبِيكُم، يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ ﷺ: «أَرَيْتَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ رَجُلًا أَدَمَ

طَوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رَجَالِ شَوْءَةٍ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا

مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبَطَ الرَّأْسِ، وَرَأَيْتُ

مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالْذِّجَالِ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ: ﴿فَلَا

تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ أَنَّهُ قَدْ رَأَى مُوسَى، وَلَقِيَ مُوسَى

لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أَيِ الْكِتَابِ الَّذِي آتَيْنَاهُ

﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَخْذُلُوا

مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أَيُّ لَمَّا كَانُوا صَابِرِينَ عَلَى

أَوْامِرِ اللَّهِ، وَتَرَكُوا زَوَاجِرَهُ، وَتَضَدَّقُوا رُسُلِهِ وَاتَّبَاعَهُمْ فِيمَا

جَاؤُوهُمْ بِهِ، كَانَ مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ إِلَى الْحَقِّ بِأَمْرِ اللَّهِ،

وَيَذْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ، ثُمَّ لَمَّا بَدَّلُوا وَحَرَّفُوا وَأَوَّلُوا، سَلَبُوا ذَلِكَ الْمَقَامَ،

وَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَلَا

عَمَلًا صَالِحًا وَلَا اعْتِقَادًا صَاحِبِحًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

[﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾] قَالَ فَتَادَةُ

وَسُفْيَانُ: لَمَّا صَبَرُوا عَنِ الدُّنْيَا. وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ

صَالِحٍ. قَالَ سُفْيَانُ: هَكَذَا كَانَ هَؤُلَاءِ، وَلَا يَتَّبِعِي لِلرَّجُلِ

أَنْ يَكُونَ إِمَامًا يُفْتَنَى بِهِ حَتَّى يَتَحَامَى عَنِ الدُّنْيَا. وَلِهَذَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

وَوَضَعْنَاهُمْ مِنْ الْطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ وَأَيَّدْنَاهُمْ بِبَنَاتٍ

مِنْ الْأَمْثَرِ﴾... الْآيَةُ [الْبَقَرَةُ: ١٧، ١٦]. كَمَا قَالَ هُنَا:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَيُّ مِنَ الْأَعْتَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَقْلَرُونَ يَمْشُونَ فِي

مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا

نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ

أَنعَمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

[خُذُوا الْعِبْرَةَ بِالْمَاضِيْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ بِالرُّسُلِ مَا

أَهْلَكَ اللَّهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ،

وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنْ قَوِيمِ السُّبُلِ، فَلَمْ

يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ

تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَمْشُونَ فِي

مَسْكِنِهِمْ﴾ أَيُّ: هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبُونَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِ أُولَئِكَ

الْمُكْذِبِينَ، فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا

وَيَعْمُرُهَا، ذَهَبُوا مِنْهَا ﴿كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٩٥] كَمَا

قَالَ: ﴿فَبَلَكَ يَبُوتَهُمْ خَاوِيَةً يَمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]

وَقَالَ: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مَعْطَلَةٌ وَفَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٥٣﴾ أَفَلَمْ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَلَكِنْ نَعَى الْقُلُوبُ الْأَلْبَى فِي

الْصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ﴾ أَيُّ إِنَّ فِي ذَهَابِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ وَدِمَارِهِمْ وَمَا حَلَّ

بِهِمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وَنَجَاةٍ مَنْ آمَنَ بِهِمْ، لآيَاتٍ

وَعِبْرًا وَمَوَاعِظَ وَدَلَائِلَ مُنَاطِرَةً ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أَيُّ:

أَخْبَارَ مَنْ تَقَدَّمَ كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُمْ.

[إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بِالْمَاءِ دَلِيلُ الْبَعْثِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ

الْجُرُزِ﴾ يَبِينُ تَعَالَى لُطْفَهُ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ فِي إِسْرَائِلِهِ

الْمَاءِ إِمَامًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ السَّيْحِ، وَهُوَ مَا تَحْمِلُهُ

الْأَنْهَارُ، وَيَتَحَدَّرُ مِنَ الْجِبَالِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُحْتَاجَةِ إِلَيْهِ

فِي أَوْقَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وَهِيَ

الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا

صَعِيدًا جُرًّا﴾ [الكهف: ٨] أَيُّ: يَسَا لَا تُنْبِتُ شَيْئًا، وَلِهَذَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ

فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنعَمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ كَمَا

(١) الطبري: ١٩٣/٢٠ (٢) الطبري: ١٩٤/٢٠

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا... الآية [عبس: ٢٤، ٢٥]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْظَرُونَ ﴿٢٧﴾

[اسْتَعْجَالُ الْكُفَّارِ لِلْعَذَابِ وَجَوَابُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتَعْجَالِ الْكُفَّارِ وَفُوعِ بَأْسِ اللَّهِ بِهِمْ، وَحُلُولِ غَضَبِهِ وَيَقَمَّتِهِ عَلَيْهِمْ، اسْتِعْجَالًا وَتَكْذِيبًا وَعِنَادًا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي: متى تَنْصُرُ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدٌ؟ كَمَا تَزْعُمُ أَنَّ لَكَ وَقْتًا نَدَالُ عَلَيْنَا وَيُتَّقِمُ لَكَ مِثًا، فَمَتَى يَكُونُ هَذَا؟ مَا تَرَكَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ إِلَّا مُخْتَفِينَ خَائِفِينَ ذَلِيلِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إِذَا حُلَّ بِكُمْ بَأْسُ اللَّهِ وَسَخَطَهُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَى ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالنَّبِيِّ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ... [عافر: ٨٣-٨٥]. وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ فَتْحُ مَكَّةَ فَقَدْ أَبْعَدَ الشُّجْعَةَ، وَأَخْطَأَ فَأَفْحَشَ، فَإِنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ قَدْ قَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِسْلَامَ الطُّلُقَاءِ، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنَ الْقُبُورِ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ فَتْحُ مَكَّةَ لَمَا قَبِلَ إِسْلَامُهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْفَتْحُ الَّذِي هُوَ الْقَضَاءُ وَالْفُضْلُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا... الآية [الشعراء: ١١٨]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ... الآية [سبأ: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتَحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْظَرُونَ﴾ أي أَعْرِضْ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَبَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ... الآية [الأنعام: ١٠٦]، وَانظُرْ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، وَسَيَنْصُرُكَ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، إِنَّهُ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ مُنْظَرُونَ﴾ أي: أَنْتَ مُنْتَظَرٌ وَهُمْ مُنْظَرُونَ وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ الدَّوَائِرُ ﴿أَمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٨

سُورَةُ الْاِنْشَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ الَّذِينَ أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّ الْمُؤْمِنُونَ [الطور: ٣٠] وَسَتَرَى أَنْتَ عَاقِبَةَ صَبْرِكَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى آدَاءِ رَسُولِ اللَّهِ: فِي نُصْرَتِكَ وَتَأْيِيدِكَ، وَسَيَجِدُونَ غِيبَ مَا يَنْتَظِرُونَهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِ اللَّهِ لَهُمْ، وَحُلُولِ عَذَابِهِ بِهِمْ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ السَّجْدَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

## تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحِي إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

[الْأَمْرُ بِالصُّمُودِ فِي وَجْهِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، مَتَّبِعًا



وَحْيِ اللَّهِ، وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ

هَذَا تَنْبِيْهُ بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَأْمُرُ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ بِهَذَا، فَلَأَنْ يَأْتِيَ مَنْ دُونَهُ بِذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى. وَقَدْ قَالَ طَلْحُ بْنُ حَبِيبٍ: التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَأَنْ تَتْرَكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، مَخَافَةَ عَذَابِ اللَّهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أَيُّ لَا تَسْمَعْ مِنْهُمْ وَلَا تَسْتَشِيرْهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيُّ فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ أَوَامِرَهُ وَتَطِيعَهُ، فَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيُّ: مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أَيُّ: فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، أَيُّ: فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَحْوَالِكَ ﴿وَكُنْ مِنَ الْوَكِيلَا﴾ أَيُّ: وَكْفَى بِهِ وَكِيلًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَطْلَهُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾<sup>(١)</sup> أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَعَلَوْكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا<sup>(٢)</sup>

[إِبْطَالُ التَّبْنِي]

يَقُولُ تَعَالَى مُوطَّأً قَبْلَ الْمُقْصُودِ الْمُعْتَوِيَّ أَمْرًا مَعْرُوفًا حَسَنًا، وَهُوَ أَنَّهُ كَمَا لَا يَكُونُ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ فِي جَوْفِهِ وَلَا تَصِيرُ زَوْجَتُهُ الَّتِي يُظَاهِرُ مِنْهَا يَقُولُهُ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي أَمَّا لَهُ، كَذَلِكَ لَا يَصِيرُ الدَّعِيُّ وَلَدًا لِلرَّجُلِ إِذَا تَبَنَّاهُ فَدَعَاهُ ابْنًا لَهُ، فَقَالَ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَطْلَهُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ﴾... [الآيَةُ [المجادلة: ٢]]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْصُودُ بِالْقَبْلِ، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ تَبَنَّاهُ قَبْلَ النَّبُوَّةِ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقْطَعَ هَذَا الْإِلْحَاقَ وَهَذِهِ الشُّبُهَةَ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَنْثَاءِ الشُّورَةِ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

[الأحزاب: ٤٠] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يَعْنِي: تَبَنَيْتُمْ لَهُمْ قَوْلٌ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ابْنًا حَقِيقًا، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ صُلْبِ رَجُلٍ آخَرَ، فَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبَوَانِ كَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلْبَشَرِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أَيُّ: الْعَدْلَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أَيُّ: الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنٌ: حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ عَنْ قَابُوسٍ يَعْنِي ابْنَ أَبِي ظَلْيَانَ، قَالَ: إِنَّ أَبَاهُ حَدَّثَنِي قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ مَا عَنِ بَذَلِكَ؟ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا يُصَلِّي فَخَطَرَ خَطَرَةً، فَقَالَ الْمُتَأَفِّقُونَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ مَعَهُ: أَلَا تَرَوْنَ لَهُ قَلْبَيْنِ: قَلْبًا مَعَكُمْ وَقَلْبًا مَعَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ زُهَيْرٍ بِهِ<sup>(٣)</sup>.

[يُنْسَبُ الْمُتَنَبَّى إِلَى أَبِيهِ الْحَقِيقِيِّ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هَذَا أَمْرٌ نَاسِخٌ لِمَا كَانَ فِي الْبَيِّنَاتِ الْإِسْلَامِ مِنْ جَوَازِ ادِّعَاءِ الْأَبْنَاءِ الْأَجَانِبِ وَهُمْ الْأَدْعِيَاءُ، فَأَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَدِّ نَسَبِهِمْ إِلَى آبَائِهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ وَالْبَرُّ. رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: إِنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾<sup>(٤)</sup> وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ كَانُوا يُعَامِلُونَهُمْ مُعَامَلَةَ الْأَبْنَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ فِي الْخُلُوةِ بِالْمَحَارِمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ شَهِيلٍ امْرَأَةُ أَبِي حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا كُنَّا نَدْعُو سَالِمًا ابْنًا، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ مَا أَنْزَلَ، وَإِنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيَّ وَإِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِ أَبِي حُدَيْفَةَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَقَالَ ﷺ: «أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ»...

(١) أحمد: ٢٦٧/١ قابوس بن أبي ظبيان تقدم حكمه (٢) تحفة الأحوذى: ٥٨/٩ (٣) الطبري: ٢٠/٢٠٤ (٤) فتح الباري: ٣٧٧/٨ (٥) مسلم: ١٨٨٤/٤ وتحفة الأحوذى: ٧٢/٩ والنسائي: ٤٢٩/٦

الْحَدِيثُ<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا لَمَّا نُسِخَ هَذَا الْحُكْمُ أَبَاحَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى زَوْجَةَ الدَّعِيِّ، وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ مُطَّلَقَةَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَكِنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] اخْتِزَارًا عَنْ زَوْجَةِ الدَّعِيِّ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الصُّلْبِ، فَأَمَّا الْإِبْنُ مِنَ الرِّضَاعَةِ فَمَنْزِلُ مَنْزِلَةِ ابْنِ الصُّلْبِ شَرْعًا يَقُولُهُ ﷺ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «حَرَّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»<sup>(٢)</sup>. فَأَمَّا دَعْوَةُ الْغَيْرِ ابْنًا عَلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ وَالتَّحْيِيكِ، فَلَيْسَ مِمَّا نَهَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا التَّرْمِذِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلِيْمَةَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى [حُمُرَاتٍ] لَنَا مِنْ جَمْعٍ، فَجَعَلَ يُلْطَحُ أَفْخَاذَنَا وَيَقُولُ: «[أَبْنَيْ] لَا تَزْمُوا الْحُمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ»<sup>(٣)</sup>. قَالَ أَبُو [عُبَيْدٍ] وَغَيْرُهُ: «[أَبْنَيْ] تَضْيِغُ بَنِي. وَهَذَا ظَاهِرُ الدَّلَالَةِ، فَإِنَّ هَذَا كَانَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ سَنَةَ عَشْرٍ.

وَقَوْلُهُ: «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ» فِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ قُتِلَ فِي يَوْمِ مُؤْتَةَ سَنَةِ ثَمَانٍ، وَأَيْضًا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بَنِي»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَلْيَخَوَّعْكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلِيَكُمْ﴾ أَمَرَ تَعَالَى بِرَدِّ أَنْسَابِ الْأَدْعِيَاءِ إِلَى آبَائِهِمْ إِنْ عَرَفُوا، فَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوا فَهُمْ إِخْوَانُهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيهِمْ، أَيْ عَوَضًا عَمَّا فَاتَهُمْ مِنَ النَّسَبِ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ عَامَ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ وَبَعَثَهُمْ ابْنَهُ حَمْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَنَادِي، يَاعَمَّ، يَاعَمَّ! فَأَخَذَهَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دُونَكِ ابْنَةُ عَمِّكِ، فَاحْتَمَلَتْهَا، فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي أَبِيهِمْ يَخْفُلُهَا، فَكُلُّ أَدْلَى بِحُجَّةٍ. فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي. وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي، وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْنِي، يَعْنِي: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَيَتِهَا وَقَالَ: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ». وَقَالَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ». وَقَالَ

لِجَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَشْبَهَتْ خَلْفِي وَخُلْفِي». وَقَالَ لَزَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»<sup>(٦)</sup>. فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَحْسَنِهَا أَنَّهُ ﷺ حَكَمَ بِالْحَقِّ، وَأَرْضَى كُلًّا مِنَ الْمُتَنَازِعِينَ. وَقَالَ لَزَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا». كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَخَوَّعْكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوْلِيَكُمْ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أَيُّ: إِذَا نَسَبْتُمْ بَعْضَهُمْ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فِي الْحَقِيقَةِ خَطَأً بَعْدَ الْأَجْتِهَادِ وَاسْتِفْرَاقِ الْوُسْعِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَضَعَ الْحَرَجَ فِي الْخَطَأِ وَرَفَعَ إِثْمَهُ، كَمَا أُرْسِدَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ أَنْ يَقُولُوا: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» [البقرة: ٢٨٦] وَكَبِتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ فَعَلْتُ»<sup>(٧)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»<sup>(٨)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ [وَمَا] يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ»<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَيُّ: وَإِنَّمَا الْإِثْمُ عَلَى مَنْ تَعَمَّدَ الْبَاطِلَ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْنَتِكُمْ... الْآيَةِ [المائدة: ٨٩].

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ مَعَهُ الْكِتَابَ، فَكَانَ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، ثُمَّ قَالَ قَدْ كُنَّا نَقْرَأُ: (وَلَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَإِنَّهُ كُفِّرَ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ). وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ، فَقُولُوا: عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» وَرُبَّمَا قَالَ مَعْمَرٌ: «كَمَا أُطْرِيَ

(١) مسلم: ١٠٧٦/٢ (٢) فتح الباري: ٣٩٢/٨ ومسلم: ٢/ ١٠٦٩ (٣) أحمد: ٢٣٤/١ وأبو داود: ٤٨٠/٢ والنسائي: ٥/ ٢٧١ وابن ماجه: ١٠٠٧/٢ (٤) مسلم: ١٦٩٣/٣ (٥) أبو داود: ٢٤٧/٥ وتحفة الأحوذى: ١٢٠/٨ (٦) فتح الباري: ٧/ ٥٧٠ (٧) مسلم: ١١٦/١ (٨) فتح الباري: ٣٣٠/١٣ (٩) تحفة الأحوذى: ٦٥٩/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٩

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

وَلِإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَأَمْثَلُهُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾  
 لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾  
 يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودُهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾  
 إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾  
 وَلِإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾  
 وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آفَاطِرِهَا ثُمَّ سَلِيتُمْ سِلَاطَهُمُ الْغَسَنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا لَيْسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ أَنْ يُبَاشِرُوا أَنْ يَدْبُرُوا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمواخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يربث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمته، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>. وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَهُ أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث، وبقي النضر والبر والصلة والإحسان والوصية. وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مُقَدَّرٌ مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يُبدل ولا يُغيّر. قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة بالإجماع.

التصاري ابن مريم<sup>(١)</sup>. ورواه في الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كُفِر: الطعن في النسب، والتياحه على الميت، والاستيقاء بالنجوم»<sup>(٢)</sup>.

﴿الَّتِي أُولَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْوَجُهُمْ أَهْلَهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَهُ أُولِيَاكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾<sup>(٣)</sup>

[ولاية النبي ﷺ وأموته أزواجه للمؤمنين]  
 قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مُدْمَمًا على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»<sup>(٤)</sup>. وفي الصحيح أيضًا أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله! والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا، يا عمر! حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال: يا رسول الله! والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي. فقال ﷺ: «الآن يا عمر»<sup>(٥)</sup>. ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿الَّتِي أُولَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.

وروى البخاري عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿الَّتِي أُولَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فأياها مؤمن ترك مالا فليتره عصبته من كانوا، وإن ترك دينًا أو ضياعًا فليأتني فأنا مولاه» تفرّد به البخاري ورواه أيضًا في الاستقراض<sup>(٥)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْوَجُهُمْ أَهْلَهُمْ﴾ أي: في الحرمة والأخترام، والتوقير والإكرام والأعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا يتشتر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار،

(١) أحمد: ٤٧/١ (٢) مسلم: ٩٣٤ وأحمد: ٣٤٢/٥ (٣) فتح الباري: ٧٥/١ (٤) فتح الباري: ٥٣٢/١١ (٥) فتح الباري: ٣٧٦/٨ ٧٥/٥ (٦) البخاري: ٢٢٩٢ و٥٨٠ و٦٧٤٧

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودُ  
فَارِسْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
بَصِيرًا﴾ (٩) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ  
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَطَظُنُّوا بِاللَّهِ الظُّنُونَ ﴿١٠﴾  
[ذِكْرُ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ نِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ  
الْمُؤْمِنِينَ فِي صَرْفِهِ أَعْدَاءَهُمْ وَهَزْمِهِ إِيَّاهُمْ عَامَ تَأَلَّبُوا عَلَيْهِمْ  
وَتَحَزَّبُوا، وَذَلِكَ عَامَ الْحَنْدِ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالِ سَنَةِ  
خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ عَلَى الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ. وَقَالَ مُوسَى  
ابْنُ عُقْبَةَ وَغَيْرُهُ: كَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ (٣). وَكَانَ سَبَبُ قُدُومِ  
الْأَحْزَابِ أَنْ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ كَانُوا  
قَدْ أَجْلَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ، مِنْهُمْ  
سَلَامٌ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ وَسَلَامٌ بْنُ مِشْكَمٍ وَكَانَتْهُ بَنُو الرَّبِيعِ،  
خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ فَاجْتَمَعُوا بِأَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَأَلْبَسُوهُمْ عَلَى  
حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَوَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمُ النَّصْرَ وَالْإِعَانَةَ،  
فَأَجَابُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ  
فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ أَيْضًا، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَحَابِيشِهَا وَمَنْ  
تَابَعَهَا، وَقَاتِلَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَعَلَى  
غَطَفَانَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ بَدْرِ، وَالْحَمِيعُ قَرِيبٌ مِنْ عَشْرَةِ  
آلَافٍ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَسِيرِهِمْ، أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ  
بِحَفْرِ الْحَنْدِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ، وَذَلِكَ بِإِشَارَةِ  
سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ  
وَاجْتَهَدُوا، وَنَقَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ وَحَفَرًا،  
وَكَانَ فِي حَفَرِهِ ذَلِكَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ وَدَلَائِلُ وَأَصْحَاتٌ. وَجَاءَ  
الْمُشْرِكُونَ فَتَزَلُّوا شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ قَرِيبًا مِنْ أَحَدٍ، وَتَزَلَّتْ  
طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَعَالِي أَرْضِ الْمَدِينَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ  
جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ، وَقِيلَ:  
سَبْعُمِائَةٍ، فَاسْتَدُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ وَوُجُوهُهُمْ إِلَى نَحْوِ  
الْعُدُوِّ، وَالْحَنْدُ حَفِيرٌ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ يَحْجُبُ  
الْحَيَالَةُ وَالرَّجَالَةُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِمْ، وَجَعَلَ النِّسَاءُ وَالذَّرَارِيُّ  
فِي أَطَامِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ  
لَهُمْ حِصْنٌ شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ، وَلَهُمْ عَهْدٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَدِمَّتُهُ،

وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَنْسَحُهِ إِلَى مَا هُوَ جَارٍ فِي قَدَرِهِ الْأَزَلِيِّ  
وَقَضَائِهِ الْقَدَرِيِّ الشَّرْعِيِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى  
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) لِيَسْتَلَّ الصَّادِقِينَ  
عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

[الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ أُولَى الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ وَبَقِيَّةِ  
الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ فِي إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ  
تَعَالَى، وَإِبْلَاجِ رِسَالَتِهِ وَالتَّعَاوُنِ وَالتَّضَامُنِ وَالْإِتِّفَاقِ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ  
كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ  
بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا  
قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] فَهَذَا  
الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أَخَذَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ إِرْسَالِهِمْ، وَكَذَلِكَ هَذَا،  
وَنَصَّ مِنْ بَيْنِهِمْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةِ وَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ، وَهُوَ  
مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذِكْرِهِمْ  
أَيْضًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ  
مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ  
وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]  
فَذَكَرَ الطَّرَفَيْنِ، وَالْوَسْطَ: الْفَاتِحَ، وَالْخَاتِمَ، وَمَنْ بَيْنَهُمَا  
عَلَى التَّرْتِيبِ، فَهَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الَّتِي أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ  
بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ  
وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فَبَدَأَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ  
بِالْخَاتِمِ؛ لِشَرَفِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَبَّيْهُمْ بِحَسَبِ  
وُجُودِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمِيثَاقُ الْغَلِيظُ: الْعَهْدُ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَسْتَلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ قَالَ  
مُجَاهِدٌ: الْمُبْلَغِينَ الْمُؤَدِّينَ عَنِ الرُّسُلِ (٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَيْ: مِنْ أَمِيمِهِمْ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيْ:  
مُوجِعًا. فَتَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ،  
وَنَصَحُوا الْأُمَّمَ، وَأَفْصَحُوا لَهُمْ عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ  
الْجَلِيِّ الَّذِي لَا لَبْسَ فِيهِ، وَلَا شَكَّ، وَلَا امْتِرَاءَ، وَإِنْ  
كَذَّبَهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنَ الْجَهْلَةِ وَالْمُعَانِدِينَ وَالْمَارِقِينَ  
وَالْقَاسِطِينَ، فَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ هُوَ الْحَقُّ، وَمَنْ خَالَفَهُمْ  
فَهُوَ عَلَى الضَّلَالِ. كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ  
رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]

(١) الطبري: ٢١٣/٢٠ (٢) الطبري: ٢١٤/٢٠ (٣) فتح  
الباري: ٤٥٣/٧

سَهْمًا فِي كَيْدِ قَوْسِي وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «وَلَا تَدْعَرْهُمْ عَلَيَّ»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، قَالَ: فَرَجَعْتُ كَأَنَّمَا أُمْسِي فِي حِمَامٍ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَصَابَنِي الْبُرْدُ حِينَ فَرَعْتُ وَفُرْتُ، فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَلْبَسَنِي مِنْ فَضْلِ عِبَادَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى الصُّبْحِ، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أَي: الْأَحْزَابُ ﴿وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ﴾ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أَي: مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ ﴿وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ظَنَّ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الدَّائِرَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَفْعَلُ ذَلِكَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ظَنْ، وَنَجَمَ التَّفَاقُّ، حَتَّى قَالَ مُعْتَبٌ بْنُ قُشَيْرٍ أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ: كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَفَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْعَاظِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ ظُنُونٌ مُخْتَلِفَةٌ، ظَنَّ الْمُتَافِقُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ يُسْتَأْصَلُونَ، وَأَيَقَنَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا وَعَدَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقٌّ، وَأَنَّهُ سَيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُ، فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، قُولُوا: اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رُوعَاتِنَا» قَالَ: فَضَرَبَ وَجْهَهُ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ، فَهَرَمَهُمُ بِالرِّيحِ. وَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِي عَامِرٍ الْعَقَدِيِّ.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾<sup>(٤)</sup> وَإِذْ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا<sup>(٥)</sup> وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَتَّأَمَّلُ يَتَرَبَّأَى لَمْ يَمُقَّ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَسَيُخَذُّنَ فَسِيقٌ مِنْهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنْ يَبُوتْنَا عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا<sup>(٦)</sup>

وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَمَانِيَةِ مِقَاتِلٍ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ حُبَيْبُ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْهَمُ حَتَّى نَقَضُوا الْعَهْدَ وَمَالَؤُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَظُمَ الْحَطْبُ، وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ، وَصَاقَ الْحَالُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ وَمَكَّنُوا مُحَاصِرِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَصْلُونَ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ، إِلَّا أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَدِيٍّ وَدَّ الْعَامِرِيَّ وَكَانَ مِنَ الْفُرْسَانِ الشُّجْعَانِ الْمَشْهُورِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، رَكِبَ وَمَعَهُ فَوَارِسٌ، فَاقْتَحَمُوا الْخَنْدَقَ وَخَلَّصُوا إِلَى نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَدَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ، فَيَقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَبْزُرْ أَحَدٌ، فَأَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً، ثُمَّ قَتَلَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ عَلَامَةً عَلَى النَّصْرِ.

ثُمَّ أَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْأَحْزَابِ رِيحًا شَدِيدَةً انْهُوَبَ قُوَّةً حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ خِيَمَةٌ وَلَا شَيْءٌ، وَلَا تَوَقَّدَ لَهُمْ نَارٌ وَلَا يَقَرُّ لَهُمْ قَرَارٌ، حَتَّى ارْتَحَلُوا خَائِبِينَ خَاسِرِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهِيَ الصَّبَا، وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الْآخَرُ: «نَصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادًا بِالْدُّبُورِ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُخَوِّدُوا لَكُمْ رُوحَهُ﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ زَلَزَلَتْهُمْ وَأَلْقَتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ، فَكَانَ رَئِيسُ كُلِّ قَبِيلَةٍ يَقُولُ: يَا بَنِي فَلَانِ! إِلَيَّ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ: النَّجَاءُ، النَّجَاءُ؛ لِمَا أَلْقَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ.

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: لَوْ أَذْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟! لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ فِي لَيْلَةٍ ذَاتِ رِيحٍ شَدِيدَةٍ وَقَرَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَكُونُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَلَمْ يُجِبْهُ مِمَّا أَحَدٌ، ثُمَّ الثَّانِيَّةُ، ثُمَّ الثَّالِثَةُ مِثْلَهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «يَا حُذَيْفَةُ! قُمْ فَأَتِنَا بِخَبَرِ مِنَ الْقَوْمِ». فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ فَقَالَ: «اإِنِّي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَدْعَرْهُمْ عَلَيَّ». قَالَ: فَمَضَيْتُ كَأَنَّمَا أُمْسِي فِي حِمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَإِذَا أَبُو سُفْيَانٌ يُصَلِّي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ

(١) فتح الباري: ٦٠٤/٢ (٢) مسلم: ١٤١٤/٣ (٣) ابن هشام: ٥٢٢/١ (٤) الطبري: ٢٠/٢٢١

[إِبِلَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَاقِفَ الْمُنَافِقِينَ]

فِي وَقْعَةِ الْأَحْزَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ذَلِكَ الْحَالِ حِينَ نَزَلَتْ الْأَحْزَابُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَالْمُسْلِمُونَ مُحْصَرُونَ فِي غَايَةِ الْجَهْدِ وَالضِّيقِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، أَنَّهُمْ ابْتُلُوا وَاخْتَبِرُوا وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا، فَحِينَئِذٍ ظَهَرَ النِّقَاطُ، وَتَكَلَّمَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَتَجَمَّ نِفَاقُهُ، وَالَّذِي فِي قَلْبِهِ شُبْهَةٌ أَوْ حَسَكَةٌ ضَعَفَ حَالُهُ فَتَنَسَّ بِمَا يَجِدُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي نَفْسِهِ لِيُضْعِفَ إِيْمَانَهُ وَشِدَّةَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ ضَيْقِ الْحَالِ، وَقَوْمٌ آخَرُونَ قَالُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْكُلُ بَيْتُ رَبِّ﴾ نَعْنِي: الْمَدِينَةَ. كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «أُرِيتَ فِي الْمَنَامِ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، أَرْضَ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ، فَذَهَبَ وَهَلِيَ أَنَّهَا هَجْرٌ، فَإِذَا هِيَ يَثْرِبُ»<sup>(١)</sup>. وَفِي لَفْظٍ: الْمَدِينَةُ. وَيُقَالُ: إِنَّمَا كَانَ أَصْلُ تَسْمِيَّتِهَا يَثْرِبُ بِرَجُلٍ نَزَلَهَا مِنَ الْعَمَالِيْقِ يُقَالُ لَهُ: يَثْرِبُ بْنُ عَبْدِ بْنِ مَهْلَإِيلَ بْنِ عَوْصِ بْنِ عَمْلَاقِ بْنِ لَؤِذِ بْنِ إِدْرِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. قَالَهُ الشَّيْخِيُّ. قَالَ: وَرَوَى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ لَهَا فِي التَّوْرَةِ أَحَدَ عَشَرَ اسْمًا: الْمَدِينَةُ، وَطَابَةُ، وَطَيْبَةُ، وَالْمُسْكِينَةُ، وَالْجَابِرَةُ، وَالْمَحَبَّةُ، وَالْمُحَبُّوَّةُ، وَالْقَاصِمَةُ، وَالْمُجَبُّورَةُ، وَالْعُذْرَاءُ، وَالْمَرْحُومَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أَيُّ: هَهُنَا يَعْنُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَقَامِ الْمُرَابَاطَةِ ﴿فَارْجِعُوا﴾ أَيُّ: إِلَى بَيْوتِكُمْ وَمَنَازِلِكُمْ ﴿وَسَتَنَزِلُنَّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُمْ بَنُو حَارِثَةَ قَالُوا: بَيُّوتُنَا نَخَافُ عَلَيْهَا السَّرَاقَ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ الْقَائِلَ لِذَلِكَ هُوَ أَوْسُ بْنُ قُطَيْبٍ<sup>(٣)</sup>. نَعْنِي: اعْتَذَرُوا فِي الرَّجُوعِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ بِأَنَّهَا عَوْرَةٌ أَيُّ: لَيْسَ دُونَهَا مَا يَحْجُبُهَا مِنَ الْعَدُوِّ، فَهُمْ يَخْشَوْنَ عَلَيْهَا مِنْهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أَيُّ: لَيْسَتْ كَمَا يَزْعُمُونَ ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاقًا﴾ أَيُّ: هَرَبًا مِنَ الرَّخْفِ.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَلُوا الْقِسْفَةَ لَأَنُوهَا وَمَا تَلَثَّوْا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ أَلَدْبَرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قُلْ

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

٤٢٠

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْظُونَ إِلَيْكَ تَدْوِيرًا عَيْنِهِمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوِ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا

مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوِ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا بَيُّوتُنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاقًا﴾ أَنَّهُمْ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْمَدِينَةِ وَقَطَّرَ مِنْ أَقْطَارِهَا، ثُمَّ سَبَلُوا الْفِتْنَةَ، وَهِيَ الدُّخُولُ فِي الْكُفْرِ لَكَفَرُوا سَرِيعًا، وَهُمْ لَا يُحَافِظُونَ عَلَى الْإِيمَانِ وَلَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مَعَ أَذْنَى خَوْفٍ وَفَرَقٍ، هَكَذَا فَسَّرَهَا قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا دَمٌ لَهُمْ فِي غَايَةِ الدَّمِّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْخَوْفِ أَنَّ ﴿لَا يُؤَلَّفُوا الْأَدْبَارَ﴾ وَلَا يَفِرُّونَ مِنَ الرَّخْفِ ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أَيُّ: وَإِنَّ اللَّهَ سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ فِرَارَهُمْ ذَلِكَ لَا يُؤَخِّرُ أَجَالَهُمْ وَلَا

(١) فتح الباري: ٤٣٩/١٢ (٢) الطبري: ٢٢٦/٢٠ تقدم مرارا حكم العوفي (٣) الطبري: ٢٢٥/٢٠ (٤) الطبري: ٢٢٧/٢٠

مِنْهُمْ، وَأَنَّ لَهُمْ عَوْدَةً إِلَيْهِمْ ﴿وَلِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْتْ فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَلُوكَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أَيُّ: وَيَوْدُونَ إِذَا جَاءَتِ الْأَحْزَابُ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ حَاضِرِينَ مَعَكُمْ فِي الْمَدِينَةِ، بَلْ فِي الْبَادِيَةِ، يَسْأَلُونَ عَنْ أَخْبَارِكُمْ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيُّ: وَلَوْ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَمَا قَاتَلُوا مَعَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا، لِكثْرَةِ جُبْنِهِمْ وَذِلَّتِهِمْ وَضَعْفِ يَقِينِهِمْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَالَمُ بِهِمْ.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿١١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٢﴾

### [الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَضَلَّ كَثِيرٌ فِي التَّأْسِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَلِهَذَا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ بِالتَّأْسِي بِالنَّبِيِّ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ وَمُضَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ، وَانْتِظَارِهِ الْقَرَجَ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِلَّذِينَ تَقَلَّبُوا وَتَضَجَّرُوا وَتَرَلَزَلُوا وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أَيُّ: هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِسَمَائِلِهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

### [مَوْفَقُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَحْزَابِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصْذِقِينَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ وَجَعَلَهُ الْعَاقِبَةُ حَاصِلَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ: يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِينَ الْبَاسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] ﴿١٣﴾ أَيُّ: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْإِيتِلَاءِ

يُطَوِّلُ أَعْمَارَهُمْ، بَلْ رَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَعْجِيلِ أَخْذِهِمْ غَرَّةً، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيُّ: بَعْدَ هَرَبِكُمْ وَفِرَارِكُمْ ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: يَمْنَعُكُمْ ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أَيُّ: لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مُجِيرٌ وَلَا مُغِيثٌ.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٤﴾ أَشْجَعَةً عَلَيْهِمْ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ أَشْجَعَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ لِغَيْرِهِمْ عَنْ شُهُودِ الْحَرْبِ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ أَيُّ: أَصْحَابِهِمْ وَعَشَرَاتِهِمْ وَخُلَطَائِهِمْ: ﴿هَلُمْ إِلَيْنَا﴾ أَيُّ: إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الظَّلَالِ وَالضَّمَارِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٦﴾ أَشْجَعَةً عَلَيْهِمْ أَيُّ: بُخْلَاءَ بِالْمَوَدَّةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿أَشْجَعَةً عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: فِي الْغَنَائِمِ، ﴿إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أَيُّ: مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَجَزَعِهِ، وَهَكَذَا خَوْفُ هَؤُلَاءِ الْجُنُبَاءِ مِنَ الْقِتَالِ ﴿إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ﴾ أَيُّ: إِذَا كَانَ الْأَمْنُ تَكَلَّمُوا كَلَامًا بَلِيغًا فَصِيحًا عَالِيًا، وَادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةِ فِي الشَّجَاعَةِ وَالتَّجَدَّةِ، وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿سَلَفُكُمْ﴾ أَيُّ: اسْتَفْلَكُكُمْ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا عِنْدَ الْغَنِيمَةِ فَأَشْجُ قَوْمٌ وَأَسْوَاهُ مُقَاسِمَةٌ: أَعْطُونَا، أَعْطُونَا، قَدْ شَهِدْنَا مَعَكُمْ. وَأَمَّا عِنْدَ الْبَاسِ فَاجْتَبَى قَوْمٌ وَأَخَذَهُ لِلْحَقِّ<sup>(٢)</sup>. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشْجَعَةً عَلَى الْخَيْرِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سَبِيلًا﴾ أَيُّ: سَهَلًا هَيِّنًا عِنْدَهُ.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْتْ فِي الْأَحْزَابِ يَسْتَلُوكَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٧﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِهِمُ الْقَبِيحَةِ فِي الْجُبْنِ وَالْخَوَرِ وَالْخَوْفِ ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾، بَلْ هُمْ قَرِيبٌ

(١) الطبري: ٢٣٢/٢٠ (٢) الطبري: ٢٣٢/٢٠ (٣) الطبري: ٢٣٦/٢٠

فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَبَا عَمْرٍو! أَيْنَ؟ وَهَذَا لِرِيحِ الْحَنَةِ، إِنِّي أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ. قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بَضْعٌ وَتَمَانُونَ بَيْنَ صُرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرَّبِيعُ ابْنَةُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ، قَالَ: فَتَرَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ قَالَ: فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ، وَفِي أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ قَالَ: قَامَ مُعَاوِيَةُ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ». وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ يَعْني: عَهْدُهُ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ قَالَ: يَوْمًا فِيهِ الْقِتَالُ فَيَصْدُقُ فِيهِ اللَّقَاءُ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ يَعْني: مَوْتُهُ عَلَى الصَّدْقِ وَالْوَفَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَبْدُلْ تَبْدِيلًا<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَحْبُهُ: نَذْرُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ أَيُّ: وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَهُمْ وَبَدَلُوا الْوَفَاءَ بِالْعَدْرِ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَمَا نَقَضُوهُ كَفَعَلَ الْمُتَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ يَبُوتًا عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدَّبْرَ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْخَوْفِ وَالزَّلْزَالِ لِيَجْزِيَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، فَظَهَرَ أَمْرُ هَذَا بِالْفِعْلِ، وَأَمْرُ هَذَا بِالْفِعْلِ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ، وَلَكِنْ لَا يُعَذِّبُ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ فِيهِمْ حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْهُمْ، كَمَا

وَالْإِخْتِبَارِ وَالْإِمْتِحَانِ الَّذِي يَغُفُّهُ النَّصْرُ الْقَرِيبُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ دَلِيلٌ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَقُوَّتِهِ بِالنَّسَبَةِ إِلَى النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ، كَمَا قَالَ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ: إِنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَقَدْ قَرَرْنَا ذَلِكَ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أَيُّ: ذَلِكَ الْحَالُ وَالضِّيقُ وَالشَّدَّةُ ﴿إِلَّا إِيمَانًا بِاللَّهِ﴾ وَتَسْلِيمًا أَيُّ: انْقِيَادًا لِأَمْرِهِ وَطَاعَةً لِرَسُولِهِ ﷺ.

﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾<sup>(٩)</sup> لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ عَقُوبًا رَحِيمًا<sup>(١٠)</sup>.

[مَدْحُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَوْفِقِهِمْ وَإِرْجَاءُ أَمْرِ الْمُتَافِقِينَ] لَمَّا ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْمُتَافِقِينَ أَنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ لَا يُؤْلُونَ الْأَذْهَارَ، وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَصَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَجَلُهُ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: عَهْدُهُ وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ<sup>(١١)</sup>. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ أَيُّ: وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَلَا نَقَضُوهُ، وَلَا بَدَلُوهُ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: لَمَّا نَسَخْنَا الْمُصْحَفَ فَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُهَا، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾<sup>(١٢)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَرَى هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَنَسٍ بْنِ النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾...

الْآيَةُ<sup>(١٤)</sup>. انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ وَلَهُ شَوَاهِدٌ مِنْ طُرُقٍ أُخَر. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سُمِّيَتْ بِهِ - لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ فَسَقَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [غَيْبَتْ] عَنْهُ، لَئِنْ أَرَانِي اللَّهَ تَعَالَى مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَيْنَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَا أَصْنَعُ. قَالَ:

(١) فتح الباري: ٣٧٧/٨ (٢) فتح الباري: ٣٧٧/٨ (٣) أحمد: ١٨٨/٥ وتحفة الأحوذى: ٥٢٠/٨ والنسائي في الكبرى:

٤٣٠/٦ (٤) فتح الباري: ٣٧٧/٨ (٥) أحمد: ١٩٤/٣ (٦)

مسلم: ١٥١٢/٣ وتحفة الأحوذى: ٦٠/٩ والنسائي في الكبرى:

٤٣٠/٦ (٧) الطبري: ٢٣٨/٢٠ فيه إسحاق بن يحيى بن طلحة

التميمي وهو ضعيف كما في التقريب (٨) الطبري: ٢٣٩/٢٠



سُورَةُ الْاَحْزَابِ

٤٢١

سُورَةُ الْاَحْزَابِ

مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَدَرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَعَلَّائِنِ أَمْتِعْكُمْ وَأَسْرِحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنَ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضْلَعْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

وَحْدَهُ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْأَحْزَابِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ مَنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْنَهُمْ وَزَلِّزْلَهُمْ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» إِيَّاهُ إِلَى وَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، وَهَكَذَا وَقَعَ بَعْدَهَا لَمْ يَغْزُهُمُ الْمُشْرِكُونَ، بَلْ غَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي بِلَادِهِمْ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا»<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا» أَيُّ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ رَدَّهُمْ خَائِبِينَ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا، وَأَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَصَدَّقَ

قَالَ تَعَالَى: «وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ» [محمد: ٣١] فَهَذَا عِلْمٌ بِالشَّيْءِ بَعْدَ كَوْنِهِ، وَإِنْ كَانَ الْعِلْمُ السَّابِقُ حَاصِلًا بِهِ قَبْلَ وُجُودِهِ، وَكَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ» [آل عمران: ١٧٩]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ» أَيُّ: بِصَبْرِهِمْ عَلَىٰ مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَبِقِيَامِهِمْ بِهِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهِ «وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ» وَهُمْ التَّافِضُونَ لِعَهْدِ اللَّهِ، الْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِهِ، فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، وَلَكِنْ هُمْ تَحْتَ مَسَبِّهِ فِي الدُّنْيَا، إِنْ شَاءَ اسْتَمَرَّ بِهِمْ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا حَتَّىٰ يُلْقَوْهُ فَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَرْسَدَهُمْ إِلَى الزُّرُوعِ عَنِ النِّفَاقِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ الْفُسُوقِ وَالْعُصْيَانِ، وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَتُهُ وَرَأْفَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِخَلْقِهِ فِيهِ الْعَالِيَةِ لِعَظَمَةِ قَال: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا».

«وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا» ﴿٢٥﴾

[رَدَّ اللَّهُ الْأَحْزَابَ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَحْزَابِ لَمَّا أَجْلَاهُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ بِمَا أُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ وَالْجُنُودِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، لَكَانَتْ هَذِهِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ الَّتِي أُرْسِلَتْهَا عَلَى عَادٍ، وَلَكِنْ قَالَ تَعَالَى: «وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ» [الأنفال: ٣٣]، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ هَوَاءَ فَرَّقَ شَمْلَهُمْ كَمَا كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْهَوَى، وَهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ قِبَالِ شَتَّى، أَحْزَابٍ وَأَزَاءٍ، فَتَأَسَّبَ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْهَوَاءَ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَهُمْ، وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بِغَيْظِهِمْ وَحَقِيقِهِمْ، وَلَمْ يَأْلُوا خَيْرًا لَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالْمَغْنَمِ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ بِمَا تَحَمَّلُوهُ مِنَ الْأَثَامِ فِي مِبَارَزَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْعُدَاوَةِ وَهَمَّهُمْ بِقِتْلِهِ وَاسْتِصْصَالِ جَنَّتِهِ. وَمَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ وَصَدَّقَ هَمَّهُ بِفِعْلِهِ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَفَاعِلِهِ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» أَيُّ: لَمْ يَخْتِاجُوا إِلَى مُتَارَلَتِهِمْ وَمُبَارَزَتِهِمْ حَتَّى يُجْلُوهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ، بَلْ كَفَى اللَّهُ وَحْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ

(١) فتح الباري: ٤٦٩/٧ ومسلم: ٢٠٨٩/٣ (٢) فتح الباري:

٤٦٩/٧ ومسلم: ١٣٦٣/٣ (٣) أحمد: ١٦٢/٤ (٤) فتح

الباري: ٤٦٧/٧

وَعَدُهُ، وَنَصَرَ رَسُولَهُ وَعَبْدَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبِهِمْ وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ فَرِيقًا تَقْتُلُوكَ وَتَأْمُرُوكَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأُورَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهُا وَكَاتَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

### [ذِكْرُ غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ]

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ - لَمَّا قَدِمَتْ جُنُودُ الْأَحْزَابِ وَنَزَلُوا عَلَى الْمَدِينَةِ - نَقَضُوا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَهْدِ، وَكَانَ ذَلِكَ بِسِفَارَةِ حَيٍّ بْنِ أَخْطَبِ النَّضْرِيِّ - لَعَنَهُ اللَّهُ - دَخَلَ حِصْنَهُمْ، وَلَمْ يَزَلْ يَسِيدُهُمْ كَعَبِ بْنِ أَسَدٍ حَتَّى نَقَضَ الْعَهْدَ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ: وَيْحَكَ قَدْ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ، أَتَيْتُكَ بِقُرَيْشٍ وَأَحَابِيشِهَا، وَغَطَفَانَ وَأَتْبَاعِهَا، وَلَا يَزَالُونَ هَهُنَا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُ كَعَبٌ: بَلْ وَاللَّهِ أَتَيْتَنِي بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَيْحَكَ يَا حَيٍّ! إِنَّكَ مَشْهُومٌ، فَلَدَعْنَا مِنْكَ، فَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ فِي الدَّرُوزَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّى أَجَابَهُ، وَاشْتَرَطَ لَهُ حَيٍّ إِنْ ذَهَبَ الْأَحْزَابُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُمْ فِي الْحِصْنِ، فَيَكُونُ لَهُ أَسْوَتْهُمْ، فَلَمَّا نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ، وَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، سَاءَهُ وَشَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ جَدًّا، فَلَمَّا أَيْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَصَرَهُ وَكَتَبَ الْأَعْدَاءَ وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ بِأَخْسَرِ صَفْقَةٍ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا، وَوَضَعَ النَّاسُ السَّلَاحَ، فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْتَسِلُ مِنْ وَغَاءِ تِلْكَ الْمُرَابَطَةِ فِي بَيْتٍ أَمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إِذْ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ عَلَى بَعْلَةٍ عَلَيْهَا قُطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ، فَقَالَ: أَوْضَعْتَ السَّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ». قَالَ: لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا، وَهَذَا الْآنَ رُجُوعِي مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَضَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَفِي رِوَايَةٍ، فَقَالَ لَهُ: عَذِيرُكَ مِنْ مُقَاتِلِ، أَوْضَعْتُمُ السَّلَاحَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: لَكِنَّا لَمْ نَضَعْ أَسْلِحَتَنَا بَعْدَ إِنْهَضِ إِلَى هَؤُلَاءِ. قَالَ ﷺ: «أَيْنَ؟». قَالَ: بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أُرْزَلَ عَلَيْهِمْ.

فَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فُورِهِ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَتْ عَلَى أُمِّيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَذَلِكَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَقَالَ ﷺ: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا

فِي بَنِي قُرَيْظَةَ». فَسَارَ النَّاسُ فَأَذَرَكْتَهُمُ الصَّلَاةُ فِي الطَّرِيقِ، فَصَلَّى بَعْضُهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَقَالُوا: لَمْ يَرُدْ مِنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِلَّا تَعْجِيلَ الْمَسِيرِ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا نُصَلِّيْهَا إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَلَمْ يُعَفَّ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَنَبِعَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَعْطَى الرَّايَةَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ نَارَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعَشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ، نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ سَيِّدِ الْأَوْسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ [يُحْسِنُ] إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، كَمَا فَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سُلُوكٍ فِي مَوَالِيهِ بَنِي قَيْنِقَاعَ، حِينَ اسْتَطْلَقَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَظَنُّ هَؤُلَاءِ أَنَّ سَعْدًا سَيَفْعَلُ فِيهِمْ كَمَا فَعَلَ ابْنُ أُبَيٍّ فِي أَوْلِيكِهِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ فِي أَكْحَلِهِ أَيَّامَ الْخَنْدَقِ، فَكَوَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَكْحَلِهِ، وَأَنْزَلَهُ فِي قُبَّةٍ فِي الْمَسْجِدِ؛ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ. وَقَالَ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا دَعَا بِهِ: الْهُمَّ إِنْ كُنْتُ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبٍ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقَيْتَ لَهَا، وَإِنْ كُنْتُ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَأَفْجَرُهَا، وَلَا تُبْنِي حَتَّى تَقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ. فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى دُعَاءَهُ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِمْ أَنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ بِاخْتِيَارِهِمْ؛ طَلَبًا مِنْ تَلَقُّاءِ أَنْفُسِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ؛ لِيَحْكُمَ فِيهِمْ، فَلَمَّا أَقْبَلَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وَطِنُوا لَهُ عَلَيْهِ، جَعَلَ الْأَوْسُ يُلَوِّدُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ: يَا سَعْدُ! إِنَّهُمْ مَوَالِيكَ فَأَحْسِنْ فِيهِمْ، وَتُرَقِّقُونَهُ عَلَيْهِمْ، وَتُعْطُونَهُ، وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ. فَعَرَفُوا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَقْبِلِهِمْ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْخِيْمَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَيَّ سَيِّدُكُمْ». فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، فَأَنْزَلُوهُ؛ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاخْتِيَارًا لَهُ فِي مَحَلٍّ وَلَآئِيهِ؛ لِيَكُونَ أَنْفَذَ لِحُكْمِهِ فِيهِمْ، فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَؤُلَاءِ - وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ - قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ، فَأَحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ». فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَحُكْمِي نَافِذٌ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ». قَالَ: وَعَلَى مَنْ فِي هَذِهِ الْخِيْمَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَعَلَى مَنْ هَهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُعْرِضٌ

تَطْلُوهُمَا» قِيلَ: خَيْرٌ. وَقِيلَ: مَكَّةُ. رَوَاهُ مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ. وَقِيلَ: فَارِسٌ وَالرُّومُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادًا ﴿وَكَاتَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾<sup>(٦)</sup>.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لَأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِزْقَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْعَنَ وَأَسْرَحَنَ سَرَحًا جَمِيلًا﴾<sup>(٧)</sup> وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكَ أَجْرًا عَظِيمًا<sup>(٨)</sup>

### [تخيير أزواج النبي ﷺ]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنْ يُخَيَّرَ نِسَاءَهُ بَيْنَ أَنْ يُفَارِقَهُنَّ فَيَذِهَبْنَ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ يَحْصُلُ لَهُنَّ عِنْدَهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَرِزْقُهَا، وَبَيْنَ الصَّبْرِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ ضَيْقِ الْحَالِ، وَلَهُنَّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ، فَاخْتَرَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ، فَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ؛ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَهَا حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُخَيَّرَ أَزْوَاجَهُ، قَالَتْ: فَبَدَأَ بِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لِكَ أَمْرًا، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعِجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ» وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيْ لَمْ يَكُونَا بِأَمْرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لَأَزْوَاجِكَ﴾ إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ، فَقُلْتُ لَهُ: فَبَيْنَ أَيْ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيْ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُعَلَّقًا وَزَادَ: قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ<sup>(١٠)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: خَيْرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاخْتَرَنَاهُ، فَلَمْ يَعْلَمْهَا عَلَيْنَا شَيْئًا<sup>(٩)</sup>. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالنَّاسُ بِبَابِهِ جُلُوسٌ، وَالنَّبِيُّ ﷺ

يُوجِّهُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ إِجْلَالًا وَإِكْرَامًا وَإِعْظَامًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ». فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسَبَّى ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سِنَعِ أَرْفَعَةٍ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ». ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأَخَادِيدِ فَخُدَّتْ فِي الْأَرْضِ، وَجِيءَ بِهِمْ مُكْتَبِينَ، فَضَرَبَ أَغْنَاقَهُمْ، وَكَانُوا مَا بَيْنَ السَّعِيمَةِ إِلَى الثَّمَانِيَةِ، وَسَبَى مَنْ لَمْ يُنَبِّثْ مِنْهُمْ مَعَ النِّسَاءِ وَأَمْوَالِهِمْ<sup>(١١)</sup>. وَهَذَا كُلُّهُ مُقَرَّرٌ مُفْصَّلٌ بِأَدِلَّتِهِ وَأَحَادِيثِهِ وَبَسْطِهِ فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ الَّذِي أَفْرَدْنَاهُ مُوجَزًا وَبَسِيطًا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَهُوهُمْ﴾ أَيْ: عَاوَنُوا الْأَحْزَابَ وَسَاعَدُوهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي بَنِي قُرَيْظَةَ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَعْضِ أَصْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ قَدْ نَزَلَ آبَاؤُهُمُ الْحِجَارَ قَدِيمًا؛ طَمَعًا فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي الثُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] فَعَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ صِبَايِهِمْ﴾ يَعْنِي: حُصُونَهُمْ. كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ السَّلَفِ<sup>(١٢)</sup>. ﴿وَقَفَّ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ﴾ وَهُوَ الْخَوْفُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَالُؤُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ، وَأَخَافُوا الْمُسْلِمِينَ وَرَأَوْا قَتْلَهُمْ؛ لِيَجْزُوا فِي الدُّنْيَا، فَانْعَكَسَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ، وَانْقَلَبَ إِلَيْهِمُ الْقَالُ، انْتَشَرَ الْمُشْرِكُونَ فَفَارَزُوا بِصَفْقَةِ الْمَغْبُورِينَ، فَكَمَا رَأَوْا الْعِزَّ ذُلُّوا، وَأَرَادُوا اسْتِئْصَالَ الْمُسْلِمِينَ فَاسْتَوْصَلُوا، وَأَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ شَقَاوَةُ الْآخِرَةِ، فَصَارَتْ الْجُمْلَةُ أَنَّ هَلِيهِ هِيَ الصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فَالَّذِينَ قَتَلُوا هُمُ الْمُقَاتِلَةُ، وَالْأَسْرَاءُ هُمُ [الْأَصَاغِرُ] وَالنِّسَاءُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ قَالَ: عُرِضْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ، فَشَكُّوا فِيَّ، فَأَمَرَ بِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْظُرُوا هَلْ أَتَبْتُ بَعْدَ، فَنَظَرُونِي فَلَمْ يَجِدُونِي أَتَبْتُ، فَخَلَّى عَنِّي وَالْحَقَنِي بِالسَّبِي<sup>(١٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا عَنْ عَطِيَّةَ بِنَحْوِهِ<sup>(١٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَرَكَاتِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أَيْ: جَعَلَهَا لَكُمْ مِنْ قَتْلِكُمْ لَهُمْ ﴿وَأَرْضًا لَمْ

(١) الطبري: ٢٤٧/٢٠ (٢) الطبري: ٢٤٩/٢٠ (٣) أحمد: ٣٨٣/٤ (٤) أبو داود: ٥٦١/٤ وتحفة الأحوذني: ٢٠٧/٥ والنسائي في الكبرى: ١٨٥/٥ وابن ماجه: ٨٤٩/٢ (٥) النسائي في الكبرى: ١٨٥/٥ (٦) الطبري: ٢٥٠/٢٠ (٧) فتح الباري: ٣٧٩/٨ (٨) فتح الباري: ٣٨٠/٨ (٩) أحمد: ١١٠٤/٢ (١٠) فتح الباري: ٢٨٠/٩ ومسلم: ١١٠٤/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢٢

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لِحَافَةً لِرَسُولِهِ، وَتَعْمَلْ صَالِحًا تُوَفَّقَهَا  
 أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَنْسَاءُ النَّبِيُّ  
 لِسِتْنِ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ  
 فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ  
 فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ  
 الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا  
 يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ  
 تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْتُ مَا تُبَلِّغُنَّ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ  
 آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾  
 إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ  
 وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ  
 وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ  
 وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْمُفْطِرِينَ  
 فَرُوحَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا  
 وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَهِيَ التَّشْوَرُ وَسُوءُ الْخُلُقِ (٤).  
 وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهُوَ شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْضِي الْوُقُوعَ  
 تَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ  
 أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وَتَقُولُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ  
 أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْشُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] ﴿قُلْ إِنْ كَانَ  
 لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ  
 يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ  
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] فَلَمَّا كَانَتْ مَحَلَّتُهُنَّ رَفِيعَةً  
 نَاسَبَ أَنْ يَجْعَلَ الذَّنْبَ لَوْ وَقَعَ مِنْهُنَّ مُعْظَا؛ صِيَانَةً  
 لِحَبَابِهِنَّ وَحِجَابِهِنَّ الرَّفِيعِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَأْتِ  
 مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قَالَ  
 مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾  
 قَالَ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَعَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ

جَالِسٍ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
 فَاسْتَأْذَنَ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، ثُمَّ أَدْنَى لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُمَا، فَدَخَلَا وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ وَحَوْلَهُ نِسَاؤُهُ، وَهُوَ ﷺ  
 سَاكِتٌ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا كَلِمَتَيْنِ النَّبِيُّ ﷺ لَعَلَّهُ  
 يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ رَأَيْتَ  
 ابْنَهُ زَيْدٍ - امْرَأَةً عُمَرَ - سَأَلْتَنِي النَّفَقَةَ إِنَّمَا فُوجِئْتُ عَنْقَهَا،  
 فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَقَالَ: «هُنَّ حَوْلِي  
 يَسْأَلُنَنِي النَّفَقَةَ». فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عَائِشَةَ  
 لِيَضْرِبَهَا، وَقَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى حَفْصَةَ كِلَاهُمَا  
 يَقُولَانِ: تَسْأَلَانِ النَّبِيَّ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، فَهَاهُمَا رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَ: وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذَا  
 الْمَجْلِسِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخِيَارَ،  
 فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: «إِنِّي أَذْكُرُ لِكَ أَمْرًا مَا  
 أَحِبُّ أَنْ تَعَجَّلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ» قَالَتْ: وَمَا  
 هُوَ؟ قَالَتْ: فَقَلَّا عَلَيْهَا: «يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ ﷺ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ الْآيَةَ.  
 قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَفِيكَ أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيْ؟ بَلْ  
 اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تَذْكُرَ لَامْرَأَةٍ مِنْ  
 نِسَائِكَ مَا اخْتَرْتُ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْثُبْنِي  
 مُعْتَفًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُسَرًّا، لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ  
 عَمَّا اخْتَرْتُ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا» (١). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ دُونَ  
 الْبُخَارِيِّ، فَرواهُ هُوَ وَالنَّسَائِيُّ (٢).

قَالَ عِكْرِمَةُ: وَكَانَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ: خَمْسٌ مِنْ  
 قُرَيْشٍ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ وَأُمُّ حَبِيبَةَ وَسُودَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ  
 اللَّهُ عَنْهُنَّ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ ﷺ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْبٍ النَّضْرِيَّةُ،  
 وَمَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْأَهْلَائِيَّةُ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ  
 الْأَسَدِيَّةُ، وَجُؤَيْرَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْمُصْطَلِقِيَّةُ، رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ أَجْمَعِينَ (٣).

﴿يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا  
 الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ  
 مِنْكُنَّ لِحَافَةً لِرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا تُوَفَّقَهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا  
 رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٢﴾

[نِسَاءُ النَّبِيِّ لِسُنِّ كَعَامَةِ النِّسَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى وَاعْظَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ اللَّاتِي اخْتَرَنَ اللَّهُ  
 وَرَسُولُهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ، وَأَسْتَقَرَّ أَمْرُهُنَّ تَحْتَ رَسُولِ  
 اللَّهِ ﷺ فَنَاسَبَ أَنْ يُخْبِرَهُنَّ بِحُكْمِهِنَّ وَتَخْصِيصِهِنَّ دُونَ  
 سَائِرِ النِّسَاءِ بِأَنَّ مَنْ يَأْتِ مِنْهُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ. قَالَ ابْنُ

(١) أحمد: ٣٢٨/٣ (٢) مسلم: ١١٠٤/٢ والنسائي: ٥/

٣٨٣ (٣) الطبري: ٢٥٢/٢٠ (٤) البغوي: ٥٢٧/٣

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: «وَلَا تَبْرَحْ تَبْرُجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى» وَالتَّبْرُجُ: أَنَّهَا تُلْتَمِى الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا وَلَا تُشَدُّ<sup>(٦)</sup> فَيُورِي فَلَا يَدْهَاهُ وَقُرْطُهَا وَعُثْمُهَا، وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا، وَذَلِكَ التَّبْرُجُ، ثُمَّ عَمَّتْ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّبْرُجِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» نَهَاَهُنَّ أَوَّلًا عَنِ الشَّرِّ، ثُمَّ أَمَرَهُنَّ بِالْخَيْرِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ «وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ.

### [أَرْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» نَصٌّ فِي دُخُولِ أَرْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ هَهُنَا؛ لِأَنَّهُنَّ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَسَبَبُ النُّزُولِ دَاخِلٌ فِيهِ قَوْلًا وَاحِدًا، إِنَّمَا وَحْدَهُ عَلَى قَوْلٍ، أَوْ مَعَ غَيْرِهِ عَلَى الصَّحِيحِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّهُ كَانَ يُنَادِي فِي السُّوقِ: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» نَزَلَتْ فِي نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ» قَالَ: نَزَلَتْ فِي نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: مَنْ شَاءَ بَاهَلْتُهُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ<sup>(٨)</sup>. [فَهُنَّ] سَبَبُ النُّزُولِ دُونَ غَيْرِهِنَّ، [لَكِنْ يَدْخُلُ فِيهِ غَيْرُهُنَّ عَلَى سَبِيلِ التَّوَسُّعِ وَالْعُمُومِ].

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ قَالَتْ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرِ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَأَدْخَلَهَا مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٩)</sup>.

مُجَاهِدٌ مِثْلُهُ «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» أَيُّ: سَهْلًا هَيِّنًا، ثُمَّ ذَكَرَ عَذْلَهُ وَفَضْلَهُ فِي قَوْلِهِ: «وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» أَيُّ: يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْتَجِبْ «تَوْبَهَا أَمْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا» أَيُّ: فِي الْجَنَّةِ فَإِنَّهُنَّ فِي مَنَازِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، فَوْقَ مَنَازِلِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ.

«نِسَاءَ الَّذِينَ لَسْنَتْ كَالْحَمْرِ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا»<sup>(١٠)</sup> وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا»<sup>(١١)</sup> وَادَّكَّرْنَا مَا يَتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا<sup>(١٢)</sup>.

### [الْأَمْرُ بِآدَابِ تَكُونُ أُمَمَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا أَسُوءًا]

هَذِهِ آدَابُ أَمْرٍ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنِسَاءَ الْأُمَّةِ تَبَعُ لَهُنَّ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُنَّ إِذَا اتَّقَيْنَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَمَرَهُنَّ، فَإِنَّهُ لَا يُشَبِّهُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا يُلْحَقُهُنَّ فِي الْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ» قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بِذَلِكَ: تَرْقِيقَ الْكَلَامِ إِذَا خَاطَبُنَ الرِّجَالَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» أَيُّ: دَغَلَ «وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا» قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا مَعْرُوفًا فِي الْخَيْرِ<sup>(١٣)</sup>. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّهَا تُخَاطَبُ الْأَجَانِبَ بِكَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيمٌ، أَيُّ: لَا تُخَاطَبُ الْمَرْأَةُ الْأَجَانِبَ كَمَا تُخَاطَبُ رُؤُوسُهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» أَيُّ: الزَّمَنَ بُيُوتَكُنَّ فَلَا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ، وَمِنْ الْحَوَائِجِ الشَّرْعِيَّةِ الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ بِسَرَطِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ ثَعْلَاتٌ»<sup>(١٤)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ: «وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ»<sup>(١٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى» قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَخْرُجُ تَمَشِي بَيْنَ يَدَيِ الرِّجَالِ، فَذَلِكَ تَبَرُّجُ الْجَاهِلِيَّةِ<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: «وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى» يَقُولُ: إِذَا خَرَجْتُنَّ مِنْ بُيُوتِكُنَّ - وَكَانَتْ لَهُنَّ مِثْيَةٌ وَتَكْسَرُ وَتَعْنُجُ - فَهِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ<sup>(١٧)</sup>.

(١) الطبري: ٢٥٨/٢٠ (٢) أبو داود: ٣٨١/١ (٣) أبو داود:

٣٨٢/١ (٤) الدر المنثور: ٦٠٢/٦ (٥) الطبري: ٢٥٩/٢٠

(٦) الدر المنثور: ٦٠٢/٦ (٧) الطبري: ٢٦٧/٢٠ (٨)

أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر. الدر المنثور: ٣٧٦/٥

(٩) الطبري: ٢٦١/٢٠ ومسلم: ٢٠٨١



فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَتِ وَاللَّكِينِ اللَّهُ كَثِيرًا وَاللَّكِينِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٥﴾

### [بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا لَنَا لَا نَذْكُرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجَالُ؟ قَالَتْ: فَلَمْ يُرْغَبِي مِنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَّا وَبَدَأُوهُ عَلَى الْمُبَرِّ، قَالَتْ: وَأَنَا أَسْرُحُ شَعْرِي، فَلَقَفْتُ شَعْرِي ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَتِي حُجْرَةِ بَيْتِي، فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عِنْدَ الْمُبَرِّ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup>.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ غَيْرُ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَحْصَى مِنْهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِسْلَامُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»<sup>(٣)</sup>. فَيَسْلُبُهُ الْإِيمَانُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كُفْرُهُ بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَحْصَى مِنْهُ. كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُحَارِيِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَنِينِ وَالْقَنِينَتِ﴾ أَلْقَنُوتُ هُوَ الطَّاعَةُ فِي سُكُونٍ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِينٌ أَعَانَهُ أَتْلِي سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَنِتُونٌ﴾ [الروم: ٢٦]، «يَمْرُؤٌ أَقْنَى لِرَبِّكَ وَأَسْجُودِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ» [آل عمران: ٤٣]، «وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينَتَيْنِ» [البقرة: ٢٣٨] فَالْإِسْلَامُ بَعْدَهُ مَرْتَبَةٌ يَرْتَقِي إِلَيْهَا وَهُوَ الْإِيمَانُ، ثُمَّ أَلْقَنُوتُ نَاشِئٌ عَنْهُمَا ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هَذَا فِي الْأَقْوَالِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ خَصْلَةٌ مَحْمُودَةٌ، وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ تُجَرَّبْ عَلَيْهِ كَذِبُهُ لَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي الْإِسْلَامِ، وَهُوَ عَلَامَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّ الْكَذِبَ أَمَارَةٌ عَلَى النِّفَاقِ، وَمَنْ صَدَقَ نَجَا: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ

وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»<sup>(٤)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ جِدًّا. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هَذِهِ سَجِيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَهِيَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّ الْمَقْدَرُ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ وَتَلَقَّى ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ. وَإِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى، أَيْ أَصْعَبُهُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ، ثُمَّ مَا بَعْدَهُ أَسهَلُ مِنْهُ، وَهُوَ صِدْقُ السَّجِيَّةِ وَبَيَانُهَا ﴿وَالْحَاشِيِينَ وَالْحَاشِيَتِ﴾ الْخُشُوعُ: السُّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ، وَالشُّوْدَةُ وَالْوَقَارُ، وَالتَّوَاضُّعُ. وَالْحَامِلُ عَلَيْهِ: الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمُرَاقَبَتُهُ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «أَعْبُدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»<sup>(٥)</sup>. ﴿وَالْمُصْطَفِينَ وَالْمُصْطَفَاتِ﴾ الصَّدَقَةُ هِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ الْمَحَاجِبِ الضُّعْفَاءِ الَّذِينَ لَا كَسْبَ لَهُمْ وَلَا كَاسِبَ، يُعْطَوْنَ مِنْ فُضُولِ الْأَمْوَالِ؛ طَاعَةً لِلَّهِ وَإِحْسَانًا إِلَى خَلْقِهِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - ذَكَرَ مِنْهُمْ - وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ بِيَمِينِهِ»<sup>(٦)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»<sup>(٧)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي الْحَثِّ عَلَيْهَا كَثِيرَةٌ جِدًّا، لَهُ مَوْضِعٌ بِذَاتِهِ. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ: «وَالصَّوْمُ زَكَاةُ الْبَدَنِ»<sup>(٨)</sup>. أَيْ: يُزَكِّيهِ وَيُطَهِّرُهُ وَيَنْقِيهِ مِنَ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ طَبْعًا وَشَرْعًا، كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ دَخَلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾<sup>(٩)</sup>. وَلَمَّا كَانَ الصَّوْمُ مِنْ أَكْبَرِ الْعُيُونِ عَلَى كَسْرِ الشُّهُوَةِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِامْعَشَرَ الشَّبَابِ! مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»<sup>(١٠)</sup>.

نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بَعْدَهُ: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أَيْ: عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَنَائِمِ إِلَّا عَنِ الْمُبَاحِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾<sup>(١١)</sup> إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ<sup>(١٢)</sup> فَمِنْ أَتَيْنِ رَدَّكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) أحمد: ٣٠٥/٦ (٢) النسائي في الكبرى: ٤٣١/٦ والطبري: ٢٧٠/٢٠ (٣) فتح الباري: ٣٣/١٠ ومسلم: ١/٧٧ (٤) مسلم: ٢٠١٣/٤ (٥) فتح الباري: ١٤٠/١ (٦) فتح الباري: ١٦٨/٢ ومسلم: ٧١٥/٢ (٧) تحفة الأحوذى: ٣/٢٣٧ (٨) ابن ماجه: ٥٥٥/١ (٩) روى ابن أبي حاتم نحوه والدر المشور: ٣٨٠/٥ (١٠) فتح الباري: ١٤/٩

الْعَادُونَ ﴿[المعارج: ٢٩-٣١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّكِرَاتِ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَقْبَضَ الرَّجُلُ أَمْرَاتَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلِّيًا رَكَعَتَيْنِ [كُنِيًا] تِلْكَ اللَّيْلَةُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ». وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِمِثْلِهِ <sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَأَتَى عَلَى جُمَدَانَ فَقَالَ: «هَذَا جُمَدَانُ، سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ؟ قَالَ ﷺ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ» ثُمَّ قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ». قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ» قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: «وَالْمُقَصِّرِينَ» تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ <sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ دُونَ آخِرِهِ <sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ خَبَرٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ كُلِّهِمْ أَيْ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ أَيْ: هَيَأَ لَهُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ لِذُنُوبِهِمْ وَأَجْرًا عَظِيمًا، وَهُوَ الْجَنَّةُ.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾

[بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: إِنَّ جُلَيْبِيًّا كَانَ امْرَأَةً يَدْخُلُ عَلَى النِّسَاءِ يَمُرُّ بِهِنَّ وَيُلَاعِبُهُنَّ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: لَا تَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ جُلَيْبِيًّا؛ فَإِنَّهُ إِنْ دَخَلَ عَلَيْكُنَّ لَا فَعْلَنَ وَلَا فَعْلَنَ. [قَالَ]: وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَيْمٌ لَمْ يَزُوجْهَا حَتَّى يَعْلَمَ هَلْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهَا حَاجَةٌ أَمْ لَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: «زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ». قَالَ: نَعَمْ وَكَرَامَةً يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَنِعْمَةً عَيْنٍ، فَقَالَ ﷺ: «إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي». قَالَ: فَلِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «لِجُلَيْبِيٍّ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَشَاوَرُ أُمَّهَا. فَأَتَى أُمَّهَا، فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكَ! فَقَالَتْ: نَعَمْ وَنِعْمَةً عَيْنٍ. فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ إِنَّمَا يَخْطُبُهَا لِجُلَيْبِيٍّ. فَقَالَتْ: أَجُلَيْبِيٍّ [إِنِّيهِ]؟

بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ

٤٢٣

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تُخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ الْكِى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَزْوَاجِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيُخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَانُوا بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

أَجَلْبِيبُ [إِنِّيهِ]؟ لَا لَعَمْرُ اللَّهِ لَا نَزُوجُهُ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ لِيَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيُخْبِرَهُ بِمَا قَالَتْ أُمُّهَا، قَالَتْ الْجَارِيَّةُ: مَنْ خَطْبَنِي إِلَيْكُمْ؟ فَأَخْبَرْتُهَا أُمَّهَا، قَالَتْ: أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ؟ اذْفَعُونِي إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يُضَيِّعَنِي. فَاَنْطَلَقَ أَبُوهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: شَأْنُكِ بِهَا، فَزَوَّجَهَا جُلَيْبِيًّا، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ لَهُ، فَلَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «هَلْ تَقْفِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» قَالُوا: نَقْفِدُ فَلَانًا وَنَقْفِدُ فَلَانًا، قَالَ ﷺ: «انْظُرُوا هَلْ تَقْفِدُونَ مِنْ أَحَدٍ» قَالُوا: لَا. قَالَ ﷺ: «لَكُنِّي أَفْقَدُ جُلَيْبِيًّا». قَالَ ﷺ: «فَاطَبُؤُهُ فِي الْقَتْلِ» فَطَلَبُوهُ، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَعْدٍ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَا هُوَ ذَا إِلَى جَنْبِ سَعْدٍ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «قَتَلَ

(١) أبو داود: ٧٤/٢ والنسائي في الكبرى: ٤٣٣/٦ وابن ماجه: ٤٢٣/١ (٢) أحمد: ٤١١/٢ (٣) مسلم: ٩٤٦/٢



بِالْعُنَى مِنَ الرَّقِّ، وَكَانَ سَيِّدًا كَبِيرَ الشَّانِ جَلِيلَ الْقَدْرِ حَبِيبًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: الْحُبُّ، وَيُقَالُ لِابْنِهِ أَسَامَةَ: الْحُبُّ ابْنُ الْحُبِّ. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ إِلَّا أَمَرَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ عَاشَ بَعْدَهُ لَأَسْتَحْلَفَهُ. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ<sup>(٥)</sup>.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ زَوَّجَهُ بِابْنَةِ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشِ الْأَسَدِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَأُمُّهَا أُمِّمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَصْدَقُهَا عَشْرَةَ دَنَائِرٍ وَسِتِّينَ دِرْهَمًا، وَخِمَارًا وَمِلْحَفَةً وَدِرْعًا، وَخَمْسِينَ مِدًا مِنْ طَعَامٍ وَعَشْرَةَ أَمْدَادٍ مِنْ تَمَرٍ. قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: فَمَكَثَتْ عِنْدَهُ قَرِيبًا مِنْ سِتَّةٍ أَوْ فَوْقَهَا، ثُمَّ وَقَعَ بَيْنَهُمَا، فَجَاءَ زَيْدٌ يَشْكُوهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ». قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ». وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: لَوْ كَتَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ شَيْئًا مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى لَكُنْتُ: «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ»<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا» الْوَطَرُ هُوَ الْحَاجَةُ وَالْأَرْبُ، أَيُّ: لَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا وَفَارَقَهَا زَوَّجْنَاهَا، وَكَانَ الَّذِي وَلِيَ تَزْوِيجَهَا مِنْهُ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَعْنَى: أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا بِلَا وَلِيٍّ وَلَا عَقْدٍ وَلَا مَهْرٍ وَلَا شُهُودٍ مِنَ الْبَشَرِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ: «اذْهَبْ فَادْكُرْهَا عَلَيَّ». فَانْطَلَقَ حَتَّى آتَاهَا وَهِيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتَهَا عَظُمْتُ فِي صَدْرِي - حَتَّى مَا أَشْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا وَأَقُولَ - أَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَهَا. فَوَلَّيْتُهَا طَهْرِي وَنَكَصْتُ عَلَى عَقْبِي، وَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ! أَبْشِرِي أُرْسَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُكِ. قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَائِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهَا بَغِيرَ إِذْنٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا جِئْنَا دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَطَعَمَنَا عَلَيْهَا الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ، فَخَرَجَ

سَبْعَةً وَقَتْلُوهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ وَضَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى سَاعِدَيْهِ وَحَفَرَ لَهُ، مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدُ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ وَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ - وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ غَسَلَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ ثَابِتٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيْمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا. وَحَدَّثَ إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ ثَابِتًا: هَلْ تَعْلَمُ مَا دَعَا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: قَالَ: «اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا [الْخَيْرَ] صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا». وَكَذَا كَانَ، فَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيْمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا. هَكَذَا أَوْرَدَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِطَوِيلِهِ<sup>(١)</sup>. وَأَخْرَجَ مِنْهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ فِي الْفَضَائِلِ قِصَّةَ قَتْلِهِ<sup>(٢)</sup>. وَذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي الْإِسْتِيعَابِ أَنَّ الْجَارِيَةَ لَمَّا قَالَتْ فِي خِدْرِهَا: أَتُرَدُّونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرُهُ؟ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»<sup>(٣)</sup>.

وَعَنْ طَاوُسٍ قَالَ: إِنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ فَتَنَاهَا، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»<sup>(٤)</sup>. فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا حَكَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَشِيءً فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مُحَافَظَتُهُ، وَلَا اخْتِيَارَ لِأَحَدٍ هَهُنَا، وَلَا رَأْيٍ وَلَا قَوْلٍ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا» [النساء: ٦٥] وَلِهَذَا شَدَّدَ فِي خِلَافِ ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [النور: ٦٣].

«وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحِ أَعْدَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٦٧﴾»

[عَتَابُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي قِصَّةِ زَيْدٍ وَزَيْنَبَ وَتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا بَعْدَ الطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ لِإِبْطَالِ التَّبَنِّيِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِمَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَيُّ: بِالإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ: «وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» أَيُّ:

(١) أحمد: ٤٢٢/٤ (٢) مسلم: ٢٤٨٢ والنسائي في الكبرى:

٨٢٤٦ (٣) الاستيعاب: ٢٥٩/١ (٤) عبد الرزاق: ٤٣٣/٢

(٥) أحمد: ٢٨١، ٢٢٧/٦ (٦) الطبري: ٢٧٤/٢٠

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾<sup>(١)</sup> أَي: فِيمَا أَحَلَّ لَهُ وَأَمَرَهُ بِهِ مِنْ تَزْوِيجِ زَيْنَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتِي طَلَّقَهَا دَعِيَّةُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: هَذَا حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرْهُمْ بِشَيْءٍ وَعَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ تَوَهَّمَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَقْصًا فِي تَزْوِيجِهِ امْرَأَةَ زَيْدٍ مَوْلَاهُ وَدَعِيَّةِ الَّذِي كَانَ قَدْ تَبَنَاهُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أَي: وَكَانَ أَمْرُهُ الَّذِي يُقَدَّرُهُ كَانِتًا لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعًا، لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا مَعْدِلَ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسْبًا﴾<sup>(٢)</sup> مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا<sup>(٣)</sup>

[مَدْحُ الْمُبْلَغِينَ لِرِسَالَاتِ اللَّهِ]

يَمْدَحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أَي: إِلَى خَلْقِهِ وَيُؤَدُّونَهَا بِأَمَانَاتِهَا ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أَي: يَخَافُونَهُ، وَلَا يَخَافُونَ أَحَدًا سِوَاهُ، فَلَا تَمْنَعُهُمْ سَطْوَةُ أَحَدٍ عَنْ إِبْلَاجِ رِسَالَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسْبًا﴾ أَي: وَكَفَى بِاللَّهِ نَاصِرًا وَمُعِينًا، وَسَيِّدَ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ - بَلْ وَفِي كُلِّ مَقَامٍ - مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ قَامَ بِإِدَاءِ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاجِهَا إِلَى أَهْلِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ بَنِي آدَمَ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى كَلِمَتَهُ وَدِينَهُ وَسَرْعَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَذْيَانِ وَالشَّرَائِعِ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ النَّبِيُّ - قَبْلَهُ - إِنَّمَا يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَأَمَّا هُوَ ﷺ فَإِنَّهُ بُعِثَ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ عَرَبِهِمْ وَعَجَبِهِمْ ﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَيْهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ثُمَّ وَرِثَ مَقَامَ الْبَلَاغِ عَنْهُ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَانَ أَعْلَى مَنْ قَامَ بِهَا بَعْدَهُ أَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بَلَّغُوا عَنْهُ كَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَحَضْرِهِ وَسَفَرِهِ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ ثُمَّ وَرِثَهُ كُلُّ خَلْفٍ عَنْ سَلَفِهِمْ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا، فَيُتَوَرَّهَمُ بِتَقْدِيدِ الْمُهْتَدُونَ، وَعَلَى مَنْهَجِهِمْ يَسْلُكُ الْمُؤَفَّقُونَ، فَتَسْأَلُ اللَّهُ الْكَرِيمَ الْمَنَّانَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ خَلْفِهِمْ.

النَّاسُ وَبَقِيَ رَجَالٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ بَعْدَ الطَّعَامِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاتَّبَعْتُهُ، فَجَعَلَ يَتَّبِعُ حُجَرَ نِسَائِهِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَيَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟ فَمَا أَذْرِي أَنَا أَخْبَرْتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ خَرَجُوا أَوْ أُخْبِرَ، فَاَنْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ فَدَهَبْتُ أَدْخُلُ مَعَهُ، فَالْقَى السُّرَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَنَزَلَ الْحِجَابُ، وَوُعِظَ الْقَوْمُ بِمَا أُعْطُوا بِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> الْآيَةُ كُلُّهَا [الأحزاب: ٥٣]. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup>.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ رَجَمَهُ اللَّهُ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَقُولُ: زَوَّجَكُنْ أَهَالِيكَ زَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ النُّورِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ قَالَ: تَفَاخَرَتْ زَيْنَبُ وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَتْ زَيْنَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَا الَّتِي نَزَلَ تَزْوِيجِي مِنَ السَّمَاءِ. وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَا الَّتِي نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ. فَاعْتَرَفَتْ لَهَا زَيْنَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أَي: إِنَّمَا أَبَحْنَا لَكَ تَزْوِيجَهَا، وَفَعَلْنَا ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَبْقَى حَرَجٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَزْوِيجِ مُطْلَقَاتِ الْأَدْعِيَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ قَبْلَ النَّبُوَّةِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَلَمَّا قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ النِّسْبَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَنْبَاءَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا بِوُقُوعِ تَزْوِيجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] لِيُحْتَرَزَ مِنَ الْإِبْنِ الدَّعِيِّ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أَي: وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي وَقَعَ قَدْ قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَحَتَّمَهُ وَهُوَ كَانِتٌ لَا مَحَالَةَ: كَانَتْ زَيْنَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي عِلْمِ اللَّهِ سَتَصِيرُ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ

خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾<sup>(٥)</sup>

(١) أحمد: ١٩٥/٣ ومسلم: ١٤٢٨ والنسائي: ٧٩/٦ (٢) فتح الباري: ٤١٥/١٣ (٣) الطبري: ١١٨/١٩

[الرَّسُولُ لَيْسَ أَبَا أَحَدٍ مِّنَ الرَّجَالِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنَ رِّجَالِكُمْ﴾ نَهَى أَنْ يُقَالَ بَعْدَ هَذَا: زَيْدٌ بَنُ مُحَمَّدٍ، أَيْ: لَمْ يَكُنْ أَبَاهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَبَنَاهُ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَعِشْ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرَ حَتَّى بَلَغَ الْحُلُمَ، فَإِنَّهُ ﷺ وَلِدَ لَهُ الْقَاسِمُ وَالطَّبِيبُ وَالطَّاهِرُ مِنْ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَمَاتُوا صِبَاً وَوُلِدَ لَهُ ﷺ إِبْرَاهِيمُ مِنْ مَارِيَةَ الْفُطَيْيَّةِ، فَمَاتَ أَيْضاً رَضِيعاً، وَكَانَ لَهُ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ أَرْبَعُ بَنَاتٍ: زَيْنَبُ وَرُقَيَّةٌ وَأُمُّ كُلثُومٍ وَفَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ، فَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ ﷺ ثَلَاثٌ، وَتَأَخَّرَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَتَّى أُصِيبَتْ بِهِ ﷺ، ثُمَّ مَاتَتْ بَعْدَهُ لَيْسَتْ أَشْهُرُ.

[هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ]

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا إِلَّا لَبْنَةً وَاحِدَةً، فَجِئْتُ أَنْ فَأَتَمَّمْتُ تِلْكَ اللَّبْنَةَ»<sup>(١)</sup> انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بَيْتًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبَيْتَانِ وَيَقُولُونَ: أَلَا وَضَعْتَ هَهُنَا لَبْنَةً فَيَمُّ بَيْتَانِكَ. - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: - فَكُنْتُ أَنَا اللَّبْنَةُ»<sup>(٣)</sup> أَخْرَجَاهُ<sup>(٤)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٦)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ وَاحِدَةٍ، فَجِئْتُ أَنَا فَأَتَمَّمْتُ تِلْكَ اللَّبْنَةَ»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ لِي أَسْمَاءٌ: أَنَا مُحَمَّدٌ،

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَإِذَا كَانَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ فَلَا رَسُولَ بَعْدَهُ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى؛ لِأَنَّ مَقَامَ الرِّسَالَةِ أَخْصَصُ مِنْ مَقَامِ النَّبُوءَةِ، فَإِنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَا يَنْعَكُسُ، وَبِذَلِكَ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي إِبْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلَهَا، وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ لَمْ يَضَعْهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتَانِ وَيُعْجِبُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ: لَوْ تَمَّ مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبْنَةِ، فَأَنَا فِي النَّبِيِّينَ مَوْضِعُ تِلْكَ اللَّبْنَةِ»<sup>(٩)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٠)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّبُوءَةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ». قَالَ: فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «وَلَكِنْ الْمُبَشِّرَاتُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «رُؤْيَا الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النَّبُوءَةِ»<sup>(١١)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(١٢)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا

(١) أحمد: ١٣٦/٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٨١/١٠ (٣)

أحمد: ٢٦٧/٣ (٤) تحفة الأحوذى: ٥٥١/٦ والترمذي:

٢٢٧٢ (٥) مسند الطيالسي: ٢٤٧ (٦) فتح الباري: ٦٤٥/٦

ومسلم: ١٧٩١/٤ وتحفة الأحوذى: ١٥٨/٨ (٧) أحمد: ٣/

٩ (٨) مسلم: ١٧٩١/٤ (٩) أحمد: ٣١٢/٢ (١٠)

البخاري: ٣٥٣٥ ومسلم: ١٧٩٠/٤ (١١) مسلم: ٣٧١/١

(١٢) تحفة الأحوذى: ١٦٠/٥ وابن ماجه: ١٨٨/١ (١٣)

أحمد: ٩/٣ (١٤) مسلم: ١٧٩١/٤

وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ تَعَالَى بِي الْكُفْرَ،  
وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ  
الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>.  
وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَرَسُولُهُ ﷺ فِي  
السُّنَنِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْهُ: أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ  
ادَّعَى هَذَا الْمَقَامَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَذَّابٌ وَأَفَّاكٌ دَجَالٌ ضَالٌّ  
مُضِلٌّ، وَلَوْ تَخَرَّقَ وَشَعَبَدَ وَآتَى بِأَنْوَاعِ السَّحَرِ وَالطَّلَاسِيمِ  
وَالنِّيرِ نَجِيَّاتٍ فَكُلُّهَا مُحَالٌ وَضَلَالٌ عِنْدَ أُولَى الْأَلْبَابِ. كَمَا  
أَجْرَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى يَدِ الْأَسْوَدِ الْعَنَسِيِّ بِالْيَمَنِ،  
وَمُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ بِالْيَمَامَةِ مِنَ الْأَحْوَالِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَقْوَالِ  
الْبَارِدَةِ، مَا عَلِمَ كُلُّ ذِي لُبٍّ وَفَهْمٍ وَحِجَى أَنَّهُمَا كَاذِبَانِ  
ضَالَّانِ لَعَنَهُمَا اللَّهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُدَّعٍ لَذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
حَتَّى يُخْتَمُوا بِالْمَسِيحِ الدَّجَالِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ  
الْكُذَّابِينَ يَخْلُقُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَهُ مِنَ الْأُمُورِ مَا يَشْهَدُ الْعُلَمَاءُ  
وَالْمُؤْمِنُونَ بِكَذِبِ مَنْ جَاءَ بِهَا. وَهَذَا مِنْ تَمَامِ لُطْفِ اللَّهِ  
تَعَالَى بِخَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ بِضُرُورَةِ الْوَاقِعِ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ  
وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْإِتِّفَاقِ، أَوْ لِمَا لَهُمْ  
فِيهِ مِنَ الْمَقَاصِدِ إِلَى غَيْرِهِ. وَيَكُونُ فِي غَايَةِ الْإِفْكَ  
وَالْفُجُورِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «هَذَا  
أُتِّمُّكُمْ عَنْ مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيْطَانُ<sup>(٣)</sup> نَزَلَ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ...»  
الْآيَةُ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْأَنْبِيَاءِ  
عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّهُمْ فِي غَايَةِ الْبِرِّ وَالصَّدْقِ  
وَالرُّشْدِ وَالْإِسْتِقَامَةِ وَالْعَدْلِ، فِيمَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ  
وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ، مَعَ مَا يُؤَيِّدُونَ بِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ  
لِلْعَادَاتِ، وَالْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَاتِ،  
فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا مُسْتَمِرًّا مَا دَامَتِ  
الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا<sup>(١)</sup> وَسِعَوْهُ بِكُورَةٍ  
وَاصِلًا<sup>(٢)</sup> هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ  
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا<sup>(٣)</sup> تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ  
يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا<sup>(٤)</sup>﴾

#### [فَضِيلَةُ كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِمْ لِرَبِّهِمْ  
تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَصُنُوفِ الْيَمَنِ،  
لِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَجَمِيلِ الْمَأَبِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسَيْرٍ قَالَ: جَاءَ  
أَعْرَابِيَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ!  
أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ ﷺ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ».  
وَقَالَ الْآخَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ  
عَلَيْنَا، فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ ﷺ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ  
رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةٍ  
الْفَضْلُ الثَّانِي، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا  
مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ إِلَّا رَأَوْهُ حَسْرَةً يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ»<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا»: إِنَّ اللَّهَ

(١) أحمد: ٨٠/٤ (٢) فتح الباري: ٥٠٩/٨ ومسلم: ٤/

١٨٢٨ (٣) أحمد: ١٩٠/٤ (٤) تحفة الأحوذى: ٦٢١/٦

وابن ماجه: ١٢٤٦/٢ (٥) أحمد: ٢٢٤/٢

[غافر: ٧-٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَيْ بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ بِكُمْ وَثَنَائِهِ عَلَيْكُمْ وَدُعَاءِ مَلَائِكَتِهِ لَكُمْ، يُخْرِجُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ هَدَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي جَهِلَهُ غَيْرُهُمْ، وَبَصَّرَهُمُ الطَّرِيقَ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ وَحَادَ عَنْهُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ الْبِدْعَةِ وَأَتَّبَاعِهِمْ مِنَ الطَّغَامِ، وَأَمَّا رَحْمَتُهُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ فَامْتَنَهُمْ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ بِتَلْقُؤِهِمْ بِالْبَشَارَةِ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَصَبَّ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَتْ أُمُّ الْقَوْمِ خَشِيتُ عَلَى وَلَدِهَا أَنْ يُوطَأَ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَتَقُولُ: ابْنِي، ابْنِي، وَسَعَتْ فَأَخَذَتْهُ، فَقَالَ الْقَوْمُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا كَانَتْ هَذِهِ لِيُلْقِي ابْنَهَا فِي النَّارِ، قَالَ: فَحَفَظَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «وَلَا [اللَّهُ لَا يُلْقِي حَبِيبَهُ فِي النَّارِ]»<sup>(٣)</sup>. إِشَادُهُ عَلَى شَرِطِ الصَّحِيحَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْكُتُبِ السَّنَةِ. وَلَكِنْ فِي صَحِيحِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّنِيِّ قَدْ أَخَذَتْ صَبِيًا لَهَا، فَأَلَصَّقَتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟». قَالُوا: لَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَوْلَا! اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - ﴿يَحْيِيهِمْ﴾ أَيْ: مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أَيْ: يَوْمَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] وَزَعَمَ قَتَادَةُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ يُحْيِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ يَوْمَ يَلْقَوْنَ اللَّهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ<sup>(٥)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَيَحْيَاهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَمَا جِئُوا بِدَعْوَتِهِمْ أَنْ لَنُحْمَدَ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

تَعَالَى لَمْ يَفْرَضْ عَلَى عِبَادِهِ فَرِيضَةً إِلَّا جَعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا، ثُمَّ عَذَرَ أَهْلَهَا فِي حَالِ الْعَذْرِ غَيْرِ الذِّكْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يُنْتَهَى إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْزُرْ أَحَدًا فِي تَرْكِهِ إِلَّا مَعْلُوبًا عَلَى تَرْكِهِ، فَقَالَ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيمًا وَفَعُولًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَفِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَالْغَنَى وَالْفَقْرِ، وَالسَّقَمِ وَالصَّحَةِ، وَالسَّرِّ وَالْعِلَاقَةِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَيُجْزَى بَكْرًا وَأَصِيلًا﴾ فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ صَلَّى عَلَيْكُمْ هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ<sup>(١)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ وَالْآيَاتُ وَالْأَثَارُ فِي الْحَثِّ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْحَثُّ عَلَى الْإِكْتِفَارِ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ صَنَّفَ النَّاسُ فِي الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِآثَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَالنِّسَائِيِّ وَالْمُعَمَّرِيِّ وَغَيْرِهِمَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَيُجْزَى بَكْرًا وَأَصِيلًا﴾ أَيْ: عِنْدَ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَيُحَنِّ اللَّهُ حِينَ تُمُوتُ وَمِنْ تَحْيَايُكَ﴾<sup>(٢)</sup> وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ [الروم: ١٧، ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ هَذَا تَهَيَّجُ إِلَى الذِّكْرِ، أَيْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرُكُمْ فَاذْكُرُوهُ أَنْتُمْ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزُكِّيَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ [البقرة: ١٥١، ١٥٢] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَا ذَكَرْتُهُ فِي مَلَا خَيْرٍ مِنْهُ». وَالصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ثَنَاءٌ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ. حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الرَّحْمَةُ. وَقَدْ يُقَالُ: لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا الصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَمَعْنَى الدُّعَاءِ لِلنَّاسِ وَالِاسْتِغْفَارِ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾<sup>(٥)</sup> رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ<sup>(٦)</sup> وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ<sup>(٧)</sup>... الْآيَةُ

(١) الطبري: ٢٨٠/٢٠ (٢) البخاري: التفسير، الأحزاب، باب ١٠ (٣) أحمد: ١٠٤/٣ (٤) فتح الباري: ٤٤٠/١٠ (٥) الطبري: ٢٨٠/٢٠

عَظِيمَةً مِّنَ الْهَلَكَةِ، وَأَجْعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ،  
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، مُؤْتِينَ مَّا مَوْحِينَ  
مُخْلِصِينَ مُصَدِّقِينَ لِّمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلِي، أَلِهِمُّهُمُ التَّسْبِيحُ  
وَالْتَحْمِيدُ، وَالتَّنَاءُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّوْحِيدُ، فِي مَسَاجِدِهِمْ  
وَمَجَالِسِهِمْ وَمَضَاجِعِهِمْ، وَمُنْقَلِبِهِمْ وَمَثَوَاهُمْ يُصَلُّونَ لِي  
قِيَامًا وَقُعُودًا، وَيَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صُفُوفًا وَرُحُوفًا،  
وَيَخْرُجُونَ مِنْ دِيَارِهِمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي الْوُفَا، يُطَهَّرُونَ  
الْوُجُوهَ وَالْأُطْرَافَ، وَيَشْدُونَ الثِّيَابَ فِي الْأَنْصَافِ،  
قُرْبَانُهُمْ دِمَاؤُهُمْ، وَأَنَاجِلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، رُهْبَانُ بِاللَّيْلِ،  
لُيُوثُ بِالنَّهَارِ، وَأَجْعَلَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ السَّابِقِينَ  
وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ، أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ يَهْدُونَ  
بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَأَعِزُّ مَنْ نَصَرَهُمْ، وَأَوْثَرُ مَنْ دَعَا  
لَهُمْ، وَأَجْعَلَ دَائِرَةَ الشُّؤْ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، أَوْ بَعَى  
عَلَيْهِمْ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَرِعَ شَيْئًا مِّمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، أَجْعَلُهُمْ  
وَرَثَةً لِّبَنِيهِمْ، وَالِدَاعِيَةَ إِلَى رَبِّهِمْ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ،  
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ،  
وَيُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ، أَخْنَمُ بِهِمُ الْخَيْرَ الَّذِي بَدَأَهُ بِأَوَّلِهِمْ،  
ذَلِكَ فَضْلِي أَوْتِيهِ مَنْ أَشَاءُ، وَأَنَا ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ<sup>(٣)</sup>.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَا﴾ أَيُّ: اللَّهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا  
إِلَهَ غَيْرُهُ وَعَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى  
هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] كَقَوْلِهِ: ﴿لَتَكُونُوا شُحَدَاءَ عَلَى  
النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وَقَوْلُهُ  
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمُشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيُّ: بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِجَزِيلِ  
الثَّوَابِ، وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ مِنْ وَبِيلِ الْعِقَابِ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ  
عَظَمَتُهُ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أَيُّ: دَاعِيًا لِلخَلْقِ إِلَى  
عِبَادَةِ رَبِّهِمْ عَنْ أَمْرِهِ لَكَ بِذَلِكَ ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أَيُّ:  
وَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ فِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا  
وَأَضَاءِهَا؛ لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا  
يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَدْنَهُمْ﴾ أَيُّ: لَا تُطْعِمُهُمْ وَتَسْمَعُ  
مِنْهُمْ فِي الَّذِي يَقُولُونَهُ: ﴿وَدَعَّ أَدْنَهُمْ﴾ أَيُّ: أَضْفَحَ  
وَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ، وَكُلَّ أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ فِيهِ كِفَايَةً  
لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يَعْنِي: الْجَنَّةَ وَمَا  
فِيهَا مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَأْسِ وَالْمَسَاكِينِ،  
وَالْمَنَاجِحِ وَالْمَلَادِ وَالْمَنَاطِرِ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ  
سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

﴿يَكُنَّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وَدَاعِيًا  
إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَنَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَأْنُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ  
فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا يُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَدْنَهُمْ  
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

#### [صِفَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ  
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقُلْتُ:  
أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوَرَاةِ، قَالَ: أَجَلُ  
وَاللَّهُ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوَرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ (بِأَيُّهَا  
النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ،  
أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ، لَسْتَ بِقَطْ وَلَا  
غَلِيظَ، وَلَا سَخَابَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ  
بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى  
يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَنْفَحَ  
بِهَا أَغْنِيَا عُمَيَّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا)<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ  
الْبُخَارِيُّ فِي النَّبِيِّ وَالْتَفْسِيرِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُثَنَّى: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى نَبِيِّ مِنْ  
أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ شُعْبَاءُ: أَنْ قُمْ فِي قَوْمِكَ بَنِي  
إِسْرَائِيلَ فَإِنِّي مُنْطِقٌ لِّسَانِكَ بِوَحْيٍ وَأَبْعَثْ أُمَيَّا مِنْ الْأُمِّيِّينَ،  
أَبْعَثْ لَيْسَ بِقَطْ وَلَا غَلِيظَ، وَلَا سَخَابَ فِي الْأَسْوَاقِ، لَوْ  
يَمُرُّ إِلَى جَنْبِ سِرَاجٍ لَمْ يُطْفِئْهُ مِنْ سَكِينَتِهِ، وَلَوْ يَمْشِي عَلَى  
الْقَصَبِ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، أَبْعَثْ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لَا  
يَقُولُ الْخَنَا، أَفْتَحْ بِهِ أَغْنِيَا كُمْهَا وَأَذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا،  
أَسَدُّهُ لِكُلِّ أَمْرٍ جَمِيلٍ، وَأَهَبْ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ، وَأَجْعَلْ  
السَّكِينَةَ لِيَأْسَهُ، وَالْبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالْحِكْمَةَ  
مَنْطِقَهُ، وَالصَّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْعَفْوَ وَالْمَعْرُوفَ  
خُلُقَهُ، وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالْهَدَى إِمَامَتَهُ،  
وَالْإِسْلَامَ مِلَّتَهُ، وَأَحْمَدَ اسْمَهُ، أَهْدِي بِهِ بَعْدَ الضَّلَالِ،  
وَأَعْلَمْ بِهِ بَعْدَ الْجَهَالَةِ، وَأَرْفَعْ بِهِ بَعْدَ الْخَمَالَةِ، وَأَعْرِفْ بِهِ  
بَعْدَ النُّكْرَةِ، وَأَكْثِرْ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ، وَأَغْنِي بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ،  
وَأَجْمَعْ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ، وَأُولِّفْ بِهِ بَيْنَ أُمَّمٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَقُلُوبٍ  
مُخْتَلِفَةٍ، وَأَهْوَاءٍ مُتَشَتِّتَةٍ، وَأَسْتَقْبِدْ بِهِ فِقَامًا مِنَ النَّاسِ

(١) أحمد: ١٧٤/٢ (٢) فتح الباري: ٤٠٢/٤، ٤٤٩/٨ (٣) ابن أبي حاتم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَخَّرُوهُنَّ سَرَكَامًا جَمِيلًا﴾<sup>(١)</sup>

[الْمُتَمَتُّعَةُ وَعَدَمُ الْإِعْتِدَادِ لِلْمُطَلَّاقَةِ قَبْلَ الْمُسَيِّسِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا إِطْلَاقُ النِّكَاحِ عَلَى الْعَقْدِ وَحْدَهُ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَصْرَحُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا، وَفِيهَا دَلَالَةٌ لِإِبَاحَةِ طَلَاقِ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ الْعَالِبِ؛ إِذْ لَا فَرْقَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْكَافِيَّةِ فِي ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ إِلَّا إِذَا تَقَدَّمَ نِكَاحٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فَعَقِبَ النِّكَاحَ بِالطَّلَاقِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ وَلَا يَقَعُ قَبْلَهُ<sup>(٢)</sup>.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: إِذَا قَالَ: كُلُّ امْرَأَةٍ أَتَزَوَّجُهَا فَهِيَ طَالِقٌ، قَالَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الْآيَةُ<sup>(٣)</sup>. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيْضًا قَالَ: إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّلَاقَ بَعْدَ النِّكَاحِ. وَقَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِذَلِكَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا طَلَاقَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهٍ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَهُوَ أَحْسَنُ شَيْءٍ رَوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى ابْنُ مَاجَهٍ عَنْ عَلِيٍّ وَالْمُسَوِّدِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا طَلَاقَ قَبْلَ نِكَاحٍ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ هَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا طَلَّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا لَا عَدْوَ عَلَيْهَا، فَتَذْهَبُ فَتَزَوِّجُ فِي فَوْرِهَا مِنْ شَاءَتْ، وَلَا يُسْتَنْتَى مِنْ هَذَا إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، فَإِنَّهَا تَعُدُّ مِنْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا - بِإِلْجَمَاعٍ أَيْضًا -.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَخَّرُوهُنَّ سَرَكَامًا جَمِيلًا﴾ الْمَتَمَتَّةُ هُنَا أَعْمٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ نِصْفَ الصَّدَاقِ الْمُسَمَّى أَوْ الْمَتَمَتَّةُ

الْخَاصَّةُ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ سُمِّيَ لَهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَكُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوُسْعِ قَدْ رُدُّوهُنَّ عَلَى الْفَقْرِ قَدْ رُدُّوهُنَّ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَ أُمَيَّةَ بِنْتَ سَرَّاجِيلَ، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ ﷺ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَكَأَنَّهُا كَرِهَتْ ذَلِكَ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا وَيَكْسُوَهَا ثَوْبَيْنِ رَازِقَيْنِ<sup>(٦)</sup>. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنْ كَانَ سُمِّيَ لَهَا صَدَاقًا فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النِّصْفُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سُمِّيَ لَهَا صَدَاقًا أَمْتَعَهَا عَلَى قَدْرِ عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَهُوَ السَّرَّاحُ الْجَمِيلُ<sup>(٧)</sup>.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَهْلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ الْجُورَ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَصَّيَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾<sup>(٨)</sup>

[بَيَانُ النَّسَاءِ اللَّاتِي أُخْلِلْنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا نَبِيَّهَ ﷺ بَأَنَّهُ قَدْ أَحْلَلَ لَهُ مِنَ النَّسَاءِ أَزْوَاجَهُ اللَّاتِي أُعْطَاهُنَّ مَهْرَهُنَّ، وَهِيَ الْأُجُورُ هُنَا، كَمَا قَالَه مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٩)</sup>. وَقَدْ كَانَ مَهْرُهُ لِنِسَائِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً [وَنَشَأَ]، وَهُوَ نِصْفُ أُوقِيَّةٍ، فَالْجَمْعُ خَمْسُمِائَةٍ دِرْهَمٍ إِلَّا أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ، فَإِنَّهُ أَمَهَرَهَا عَنْهُ النَّجَاشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَرْبَعَمِائَةَ دِينَارًا، وَإِلَّا صَفِيَّةَ بِنْتُ حُيَيٍّ فَإِنَّهُ اضْطَفَّاهَا مِنْ سَبِي خَبِيرٍ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَجَعَلَ عَنْقَهَا صَدَاقَهَا، وَكَذَلِكَ جُوزِيَتْهُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْمُصْطَلِقِيَّةُ أَدَّى عَنْهَا كِتَابَتَهَا إِلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ بْنِ شِمَاسٍ وَتَزَوَّجَهَا -

(١) الطبري: ٢٨٣/٢٠ (٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم: الدر المنثور: ٣٩٢/٥ (٣) أحمد: ٢٠٧/٢ وأبو داود: ٦٤٠/٢ وتحفة الأحوذني: ٣٥٥/٤ وابن ماجه: ٦٦٠/١ (٤) ابن ماجه: ٦٦٠/١ فتح الباري: ٢٦٩/٩ (٦) الطبري: ٢٨٣/٢٠ (٧) الطبري: ٢٨٤/٢٠

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾<sup>(١)</sup> أَيْ: وَأَبَاحَ لَكَ التَّسَرُّيَ مِمَّا أَخَذْتَ مِنَ الْعَمَانِ، وَقَدْ مَلَكَ صِفِيَّةٌ وَجُوبِرَةُ فَأَعْتَقَهُمَا وَتَزَوَّجَهُمَا، وَمَلَكَ رِيحَانَةُ بِنْتُ شَمْعُونِ النَّصْرِيَّةِ، وَمَارِيَةُ الْقُبَيْطِيَّةُ أُمُّ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَتَا مِنَ السَّرَّارِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَوَاتِ عَمَكَ وَنَوَاتِ عَمَتِكَ وَنَوَاتِ خَالَكَ وَنَوَاتِ خَنَلِكَ﴾... الْآيَةُ. هَذَا عَدْلٌ وَسَطٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّقْرِيطِ، فَإِنَّ النَّصَارَى لَا يَتَزَوَّجُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا سَبْعَةُ أَجْدَادٍ فَصَاعِدًا، وَالْيَهُودُ يَتَزَوَّجُونَ أَحَدَهُمْ بِنْتُ أَخِيهِ وَبِنْتُ أُخْتِهِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ الطَّاهِرَةُ بِهَذَا إِفْرَاطِ النَّصَارَى، فَأَبَاحَ بِنْتُ الْعَمِّ وَالْعَمَّةِ، وَبِنْتُ الْخَالِ وَالْخَالَةِ، وَتَحْرِيمَ مَا فَرَطَتْ فِيهِ الْيَهُودُ مِنْ إِبَاحَةِ بِنْتِ الْأَخِ وَالْأُخْتِ، وَهَذَا شَنِيعٌ فَطِيعٌ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَنَوَاتِ عَمَكَ وَنَوَاتِ عَمَتِكَ وَنَوَاتِ خَالَكَ وَنَوَاتِ خَنَلِكَ﴾ فَوَحَّدَ لَفْظَ الذَّكَرِ لِشَرْفِهِ، وَجَمَعَ الْإِنَاثَ لِنَقِصِهِنَّ كَقَوْلِهِ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وَلَهُ نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ.

عَنْ أُمِّ هَانِيٍّ قَالَتْ: خَطَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ فَعَذَّرَنِي، ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ آلِيكَ ؕ آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَوَاتِ عَمِكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾، قَالَتْ: فَلَمْ أَكُنْ أَجِلُّ لَهُ، وَلَمْ أَكُنْ مِمَّنْ هَاجَرَ مَعَهُ، كُنْتُ مِنَ الطُّلُقَاءِ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ وَقَالَ الضَّحَّاكُ: قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (وَاللَّاتِي هَاجَرَ مَعَكَ)<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْرَأَةٌ مُّؤْمِنَةٌ إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ﴾... الْآيَةُ، أَيْ: وَيَجِلُّ لَكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ الْمَرْأَةُ الْمُؤْمِنَةُ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ مَهْرٍ إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَوَالَى فِيهَا شَرْطَانِ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ، فَقَامَتْ قِيَامًا طَوِيلًا، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! زَوَّجْنِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُضِدُّقُهَا إِلَيَّ؟».

فَقَالَ: مَا عِنْدِي إِلَّا إِزَارِي هَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسَتْ لَا إِزَارَ لَكَ، فَالْتَمِسْ شَيْئًا». فَقَالَ: لَا أَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ: «الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ». فَالْتَمَسَ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ سُورَةٌ كَذَا وَسُورَةٌ كَذَا - السُّورَةُ يُسَمِّيَهَا - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»<sup>(٣)</sup>. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: الَّتِي وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَغَارُ مِنَ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَقُولُ: أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟ فَلَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تُرْجَى مَن نَفَسَاءُ مِنْهُنَّ وَتُتَوَى إِلَيْكَ مَن نَفَسَاءُ وَمَن ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١] قُلْتُ: مَا أَرَى رَبِّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ<sup>(٦)</sup>.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ! قَالَ: لَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةٌ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَهُ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٧)</sup>. عَنْ يُونُسَ بْنِ بَكِيرٍ، أَيْ أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ وَاحِدَةً مِّمَّنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَهُ، وَإِنْ [كَانَ] ذَلِكَ مُبَاحًا لَهُ وَمَخْصُوصًا بِهِ؛ لِأَنَّهُ مَرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أَيْ: إِنْ اخْتَارَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنَ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ عِكْرَمَةُ: أَيْ: لَا تَحِلُّ الْمُؤْمِنَةُ لِغَيْرِكَ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ لَمْ تَحِلَّ لَهُ حَتَّى يُعْطِيَهَا شَيْئًا<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُمَا<sup>(٩)</sup>. أَيْ: إِنَّهَا إِذَا فَوَّضَتْ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا إِلَى رَجُلٍ، فَإِنَّهُ مَتَى دَخَلَ بِهَا وَجَبَ عَلَيْهِ لَهَا مَهْرٌ مِثْلُهَا، كَمَا حَكَّمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي [بِرْزَعٍ] بِنْتُ وَاشِقٍ لَمَّا فَوَّضَتْ، فَحَكَّمَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَدَاقٍ مِثْلُهَا لَمَّا تُؤْتِي عَنْهَا زَوْجَهَا، وَالْمَوْتُ وَالِدُخُولِ سَوَاءٌ فِي تَقْرِيرِ الْمَهْرِ وَتُبُوتِ مَهْرِ الْمِثْلِ فِي الْمُفَوَّضَةِ لِغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَّا

(١) الترمذي: ٣٢١٤ وقال الألباني ضعيف جدًا غير أن لأصل الحديث بعض الشواهد الحسنة في طبقات ابن سعد كما قال الشيخ عبد الرزاق المهدي (٢) الطبري: ٢٨٥/٢٠ (٣) أحمد: ٣٣٦/٥ (٤) فتح الباري: ٩٧/٩ ومسلم: ١٠٤٠/٢ (٥) البيهقي: ٥٥/٧ (٦) فتح الباري: ٣٨٥/٨ (٧) الطبري: ٢٠/٢٨٨ (٨) الدر المنثور: ٦٣١/٦ (٩) الطبري: ٢٠/٢٨٧



سورة الاحزاب

٤٢٥

سورة الاحزاب

﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَعْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمِمَّنْ أُنْعِمْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِمَّنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهَا إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ عَرِيفًا ﴿٥٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبِذٍ مِنْهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْشَرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلَ لَتَمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا أَسِيًّا أَوْ أَخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلْمَوْضِعَةِ شَيْءٌ وَلَوْ دَخَلَ بِهَا؛ لِأَنَّهُ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ صَدَاقٍ وَلَا وَلِيِّ، وَلَا شُهُودٍ، كَمَا فِي قِصَّةِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ: لَيْسَ لِامْرَأَةٍ تَهَبُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ بِغَيْرِ وَلِيِّ وَلَا مَهْرٍ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قَالَ أَبُو بَنِي كَنْبٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أَيُّ مِنْ حَضْرِهِمْ فِي أَرْبَعِ نِسْوَةٍ حَرَائِرٍ (٢). وَمَا سَأَلُوا مِنَ الْإِمَاءِ، وَاشْتِرَاطِ الْوَلِيِّ وَالْمَهْرِ وَالشُّهُودِ عَلَيْهِمْ. وَهُمْ الْأُمَّةُ وَقَدْ رَحَصْنَا لَكَ فِي ذَلِكَ، فَلَمْ نُوَجِّبْ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْهُ ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَعْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمِمَّنْ أُنْعِمْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (٥١) [تَخْيِيرُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَبُولِ الْوَاهِبَةِ نَفْسَهَا أَوْ رَدِّهَا عَلَى قَوْلٍ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَغْيِرُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: أَلَا تَسْتَحْيِي الْمَرْأَةَ أَنْ تَعْرِضَ نَفْسَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَعْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ...﴾ (٣) أَلَايَةً، قَالَتْ: إِنِّي أَرَى رَبَّكَ يُسَارِعُ لَكَ فِي هَؤُلَاءِ (٤). وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَاهُ أَيْضًا (٥). فَذَلِكَ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿تَرْجِي﴾ أَيُّ: تُؤَخِّرُ ﴿مِنَ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أَيُّ: مِنَ الْوَاهِبَاتِ ﴿وَتَعْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أَيُّ: مَن شِئْتَ قَبِلْتَهَا وَمَن شِئْتَ رَدَدْتَهَا، وَمَن رَدَدْتَهَا فَأَنْتَ فِيهَا أَيْضًا بِالْخِيَارِ بَعْدَ ذَلِكَ، إِنْ شِئْتَ عُدْتَ فِيهَا فَأَوَيْتَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمِمَّنْ أُنْعِمْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

[الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ] وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ...﴾ أَلَايَةً، أَيُّ: مِنْ أَزْوَاجِكَ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرَكَ الْقِسْمَ لَهُنَّ، فَتَقْدِّمَ مَنْ شِئْتَ وَتُؤَخِّرَ مَنْ شِئْتَ، وَتَجَامِعَ مَنْ شِئْتَ وَتَتْرَكَ مَنْ شِئْتَ، هَكَذَا يُرَوَى عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَأَبِي رَزِينٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدٍ بَنِي أَسْلَمَ وَغَيْرِهِمْ، وَمَعَ هَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْسِمُ لَهُنَّ، وَلِهَذَا ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُفْهَمَاءِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْقِسْمُ وَاجِبًا عَلَيْهِ ﷺ، وَاحْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي الْيَوْمِ الْمَرْأَةَ مَتَى بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَعْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمِمَّنْ أُنْعِمْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فَقُلْتُ لَهَا: مَا كُنْتَ تَقُولِينَ؟ فَقَالَتْ: كُنْتُ أَقُولُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أُؤَيِّرَ عَلَيْكَ أَحَدًا (٦). فَهَذَا الْحَدِيثُ عَنْهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ عَدَمَ [وُجُوبِ] الْقِسْمِ، وَحَدِيثُهَا الْأَوَّلُ يَقْتَضِي أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَاهِبَاتِ، وَمِنْ هَهُنَا اخْتَارَ ابْنُ

(١) الطبري: ٢٨٦/٢٠ (٢) الطبري: ٢٩٠/٢٠ (٣) أحمد:

١٥٨/٦ (٤) فتح الباري: ٣٨٥/٨ (٥) فتح الباري: ٣٨٥/٨

جَرِيرَ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْوَاهِبَاتِ وَفِي النَّسَاءِ اللَّائِي عِنْدَهُ أَنَّهُ مُخَيَّرَ فِيهِنَّ إِنْ شَاءَ قَسَمَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسِمَ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَفِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَتَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْرُجَ وَرِضَتُكُ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أَيُّ: إِذَا عَلِمْنَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكَ الْحَرَجَ فِي الْقَسَمِ، فَإِنْ شِئْتَ قَسَمْتَ، وَإِنْ شِئْتَ لَمْ تَقْسِمَ، لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي أَيِّ ذَلِكَ فَعَلْتَ، ثُمَّ مَعَ هَذَا أَنَّ تَقْسِيمَ لَهُنَّ اخْتِيَارًا مِنْكَ، لَا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْوُجُوبِ، فَرَحْنُ بِذَلِكَ وَاسْتَبَشَّرْنَ بِهِ، وَحَمَلْنَ جَمِيلَكَ فِي ذَلِكَ، وَاعْتَرَفْنَ بِمِيتِكَ عَلَيْهِنَّ فِي قِسْمَتِكَ لَهُنَّ وَتَسْوِيتِكَ بَيْنَهُنَّ وَإِنْصَافِكَ لَهُنَّ وَعَدْلِكَ فِيهِنَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الْمَثَلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ مِمَّا لَا يُمَكِّنُ دَعْوَهُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تُلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ، وَزَادَ أَبُو دَاوُدَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «فَلَا تُلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ». يَعْنِي: الْقَلْبَ<sup>(٣)</sup>. وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَرِجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ، وَلِهَذَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أَيُّ: بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ ﴿حَلِيمًا﴾ أَيُّ: يَحْلُمُ وَيَغْفِرُ. ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أُولَئِكَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا﴾<sup>(٤)</sup>.

[مُجَارَاةُ الْأَزْوَاجِ عَلَى اخْتِيَارِهِنَّ ضُحْبَةُ الرَّسُولِ]  
ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ كَابِنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكَ وَقَتَادَةَ وَابْنَ زَيْدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٥)</sup>: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ مُجَارَاةً لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَرِضًا عَنْهُنَّ عَلَى حُسْنِ صَنِيعِهِنَّ فِي اخْتِيَارِهِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ لَمَّا خَيَّرَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ، فَلَمَّا اخْتَرْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَزَاؤُهُنَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَصَرَهُ عَلَيْهِنَّ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بغيرِهِنَّ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِنَّ أَزْوَاجًا غَيْرَهُنَّ، وَلَوْ أَعْجَبَهُ حُسْنُهُنَّ إِلَّا الْإِمَاءَ وَالسَّرَارِيَ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِيهِنَّ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى رَفَعَ عَنْهُ الْحَرَجَ فِي ذَلِكَ وَنَسَخَ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَبَاحَ لَهُ التَّزْوُجَ، وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَزَوُّجٌ لِيَكُونَ الْيَمَّةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِنَّ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ النَّسَاءَ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِمَا<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى الْآيَةِ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ أَيُّ: مِنْ بَعْدِ مَا ذَكَرْنَا لَكَ مِنْ صِفَةِ النَّسَاءِ اللَّائِي أَحَلَّلْنَا لَكَ مِنْ نِسَائِكَ، اللَّائِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَبَنَاتِ الْعَمِّ وَالْعَمَّاتِ وَالْخَالَ وَالْخَالَاتِ وَالْوَاهِبَةِ وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ النَّسَاءِ فَلَا يَحِلُّ لَكَ، وَهَذَا مَا رَوَى عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَمُجَاهِدٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِمَا.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْنَافِ النَّسَاءِ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أُولَئِكَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ فَأَحَلَّ اللَّهُ فِتْيَانَكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ، وَحَرَّمَ كُلَّ ذَاتِ دِينٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾... الْآيَةُ<sup>(٨)</sup> [المائدة: ٥].

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِيمَنْ ذُكِرَ مِنْ أَصْنَافِ النَّسَاءِ، وَفِي النَّسَاءِ اللَّوَاتِي فِي عِصْمَتِهِ وَكُنَّ تِسْعًا. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَيِّدٌ، وَلَعَلَّهُ مُرَادٌ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ رَوَى عَنْهُ هَذَا وَهَذَا، وَلَا مُنَافَاةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أُولَئِكَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ فَنَهَاهُ عَنِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِنَّ - إِنْ طَلَّقَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ<sup>(٩)</sup> - وَاسْتَبْدَالَ غَيْرَهَا بِهَا، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ.

﴿يَتَأْتِيَ اللَّيْلَ عَامِنًا وَلَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْتَضِينَ لِجَدِثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُوْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجِلَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِلُ مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ

(١) الطبري: ٣٠٤/٢٠ (٢) أحمد: ١٤٤/٦ (٣) أبو داود: ٢/٦٠١

وتحفة الأحوذى: ٢٩٤/٤ والنسائي: ٦٣/٧ وابن ماجه: ٦٣٣/١

(٤) الطبري: ٢٩٧/٢٠ (٥) أحمد: ٤١/٦

(٦) تحفة الأحوذى: ٧٨/٩ والنسائي: ٥٦/٦ (٧) تحفة

الأحوذى: ٧٧/٩ (\*) كذا في الأصل، وفي بعض النسخ

الأخرى: فنهاه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن

واستبدال غيرها بها

أَدْعُوهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: «ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ». وَبَقِيَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَنْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» قَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ! فَتَقَرَّى حُجْرَ نِسَائِهِ كُلَّهُنَّ يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَمَا أَذْرِي أَخْبَرْتُهُ أَمْ أَخْبَرُ أَنْ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أَشْكُفَةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَالْأُخْرَى خَارِجَةً، أَرَخَى السُّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ<sup>(٧)</sup>. انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة سوى النسائي: في اليوم والليلة<sup>(٨)</sup>.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ حُظْرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بغير إذن، كما كانوا قَبْلَ ذَلِكَ يَصْنَعُونَ فِي بُيُوتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَابْتِدَاءَ الْإِسْلَامِ، حَتَّى غَارَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ مِنْ إِكْرَامِهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ. وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النَّسَاءِ» الْحَدِيثُ<sup>(٩)</sup>. ثُمَّ اسْتَيْثَى مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَفَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: أَيْ غَيْرَ مُتَحَيِّنِينَ نَضِجَهُ وَاسْتَوَاءَ<sup>(١٠)</sup>. أَيْ: لَا تَرْفُتُوا الطَّعَامَ إِذَا طُبِخَ حَتَّى إِذَا قَارَبَ الْإِسْتَوَاءَ تَعَرَّضْتُمْ لِلدُّخُولِ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَذْمُهُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ التَّطِيلِ وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ الضَّيْفَنَ، وَقَدْ صَنَّفَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي ذَلِكَ كِتَابًا فِي ذَمِّ الطُّفِيلَيْنِ، وَذَكَرَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ أَشْيَاءَ يَطُولُ إِيرَادُهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَلَانْشِرُوا﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا

وَقُلُوبُهُنَّ وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوه فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

### [آداب الدُّخُولِ فِي بُيُوتِ النَّبِيِّ وَالْأَمْرِ بِالْحِجَابِ]

هَذِهِ آيَةُ الْحِجَابِ وَفِيهَا أَحْكَامٌ وَآدَابٌ شَرْعِيَّةٌ، وَهِيَ مِمَّا وَافَقَ تَنْزِيلُهَا قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَافَقْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي ثَلَاثٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى﴾. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ نِسَاءً يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ حَجَبْتَهُنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ. وَقُلْتُ لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا تَمَالَّانَ عَلَيْهِ فِي الْغَيْرَةِ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ﴾ [التَّحْرِيمُ: ٥] فَتَرَلْتُ كَذَلِكَ<sup>(١١)</sup>.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ ذُكِرَ أُسَارَى بَذَرٍ وَهِيَ قَصِيَّةٌ رَابِعَةٌ<sup>(١٢)</sup>.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ<sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، دَعَا الْقَوْمَ فَطَعِمُوا، ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَإِذَا هُوَ يَتَهَيَّأُ لِلْفَيْحَامِ فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ، قَامَ مِنْ قَامٍ وَقَعَدَ ثَلَاثَةً نَفَرًا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ، فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَأَنْطَلَقُوا، فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ أَنْطَلَقُوا فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبَتْ أَدْخُلُ فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَلَانْشِرُوا﴾ الْآيَةُ<sup>(١٤)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ<sup>(١٥)</sup>، وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(١٦)</sup>.

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَنَى النَّبِيُّ ﷺ بِرَبِيبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِخُبْرٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا

(١) فتح الباري: ٦٠١/١ ومسلم: ١٨٦٥/٤ (٢) مسلم: ٤/

١٨٦٥ (٣) فتح الباري: ٣٨٧/٨ (٤) فتح الباري: ٣٨٧/٨

(٥) فتح الباري: ٢٤/١١ (٦) مسلم: ١٠٥٠/٢ والنسائي في

الكبرى: ٤٣٥/٦ (٧) فتح الباري: ٣٨٨/٨ (٨) النسائي في

الكبرى: ٧٥/٦ (٩) مسلم: ١٧١١/٤ (١٠) الطبري: ٢٠/

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيِءَآبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَسْنَءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَسْنَءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ وَآتَقِينَ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٥٥)

[مَنْ لَا تَحْتَجِبُ الْمَرْءَةُ مِنْهُ مِنَ الْأَقَارِبِ]

لَمَّا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النِّسَاءَ بِالْحِجَابِ مِنَ الْأَجَانِبِ، بَيَّنَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَقَارِبَ لَا يَجِبُ الْإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ، كَمَا اسْتَنْتَاهُمْ فِي سُورَةِ النُّورِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَبْرِكُ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ أَوْ التَّابِعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْأَلْيَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الذَّكَاءِ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١] وَفِيهَا زِيَادَاتٌ عَلَى هَذِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ وَعِكْرَمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيِءَآبَائِهِنَّ... أَلْيَةِ...﴾ قُلْتُ: مَا شَأْنُ الْعَمِّ وَالْخَالَ لَمْ يَذْكُرَا؟ قَالَ: لِأَنَّهُمَا يَنْتَعِنَانِهَا لِأَبْنَائِهِمَا، وَكَرِهَا أَنْ تَضَعَ خِمَارَهَا عِنْدَ خَالَهَا وَعَمِّهَا<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ عَدَمَ الْإِحْتِجَابِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ يَعْنِي بِهِ أَرْقَاءَهُنَّ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الْإِمَاءَ فَقَطْ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَآتَقِينَ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أَيُّ: وَاحْتَشَيْتُهُ فِي الْخَلْوَةِ وَالْعَلَانِيَةِ، فَإِنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَرَاقِبِنِ الرَّقِيبِ.

﴿إِنَّ اللّٰهَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦)

[الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: صَلَاةُ اللَّهِ تَعَالَى: تَنَاوُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ: الدُّعَاءُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُصَلُّونَ يَبْرُكُونَ<sup>(٥)</sup>. هَكَذَا عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُمَا، وَقَالَ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ: وَرَوَى عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالُوا: صَلَاةُ الرَّبِّ الرَّحْمَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الْأَسْتِغْفَارُ<sup>(٦)</sup>.

دَعَا أَحَدَكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجِبْ غُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا مُسْتَفْسِدِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أَيُّ كَمَا وَقَعَ لِأُولَئِكَ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ اسْتَرْسَلُوا بِهِمُ الْحَدِيثَ، وَنَسُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ بُؤَى النَّبِيِّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ﴾ وَقِيلَ: الْمَرَادُ إِنَّ دُخُولَكُمْ مَنْزِلَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ كَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِ وَيَتَأَذَّى بِهِ، وَلَكِنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حَيَايِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾ أَيُّ وَلِهَذَا نَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ وَزَجَرَكُمْ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أَيُّ: وَكَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنِ الدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ، كَذَلِكَ لَا تَنْظُرُوا إِلَيْهِنَّ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدِكُمْ حَاجَةٌ يُرِيدُ تَنَاوُلَهَا مِنْهُنَّ، فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ وَلَا يَسْأَلُهُنَّ حَاجَةً إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

[النَّهْيُ عَنْ إِذْنَاءِ الرُّسُولِ وَبَيَانُ حُرْمَةِ أَرْوَاجِهِ عَلَى

الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُذْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَرْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُذْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ هَمَّ أَنْ يَتَزَوَّجَ بَعْضُ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَهُ، قَالَ رَجُلٌ لِسُبْحَانَ: أَهْيَ عَائِشَةُ؟ قَالَ: قَدْ ذَكَرُوا ذَلِكَ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْلَمَ<sup>(٣)</sup>. وَذَكَرَ بِسَنَدِهِ عَنِ السُّدِّيِّ: أَنَّ الَّذِي عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ طَلْحَةُ بْنُ [عُبَيْدٍ] اللَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى نَزَلَ التَّنْبِيهُ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ قَاطِبَةً عَلَى: أَنَّ مَنْ تَوَفَّى عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَرْوَاجِهِ؛ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى غَيْرِهِ تَزَوُّجُهَا مِنْ بَعْدِهِ، لِأَنَّهُنَّ أَرْوَاجُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ - كَمَا تَقَدَّمَ -.

وَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ، وَشَدَّدَ فِيهِ وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أَيُّ مَهْمَا نَكِنُهُ صَمَائِرُكُمْ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

(١) مسلم: ١٠٥٣/٢ (٢) الدر المنثور: ٦٤٣/٦ (٣)

الطبري: ٣١٦/٢٠ (٤) الطبري: ٣١٨/٢٠ تقدم حكمه (٥)

فتح الباري: ٣٩٢/٨ (٦) تحفة الأحوذى: ٦١٠/٢



وَجَلَّ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، قُلْتُ: بَلَى<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٦)</sup>.

(طَرِيقٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِهِ الْبُشْرُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَصْبَحْتَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِكَ الْبُشْرُ، قَالَ: «أَجَلْ، أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا»<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَفِي الْبَابِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَعَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، وَعَمَّارٍ، وَأَبِي طَلْحَةَ، وَأَنْسٍ، وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ<sup>(٨)</sup>.

### [وُجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ كُلَّمَا ذُكِرَ]

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عَنْدهُ ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ» وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: «فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»<sup>(٩)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ<sup>(١٠)</sup>. (حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ

[وُجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ الدُّعَاءِ] وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ خُرَيْمَةَ وَابْنُ جَبَانَ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُعْجِدِ اللَّهَ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَلْ هَذَا» ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِيْغِيهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالنَّشَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدَ مَا شَاءَ»<sup>(١١)</sup>.

### [فَضْلُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ]

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَوَجَّهَ نَحْوَ صَدَقَتِهِ، فَدَخَلَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَخَرَّ سَاجِدًا، فَأَطَالَ السُّجُودَ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ قَبِضَ نَفْسَهُ فِيهَا، فَذَنُوتُ مِنْهُ ثُمَّ جَلَسْتُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» قُلْتُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ. قَالَ: «مَا شَأْنُكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سَجَدْتُ سَجْدَةً خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - قَبِضَ نَفْسَكَ فِيهَا. فَقَالَ: «إِنَّ جَبْرِيلَ أَتَانِي فَبَشَّرَنِي أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ. فَسَجَدْتُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - - شُكْرًا»<sup>(١٢)</sup>. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً<sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثَلَاثًا اللَّيْلِ، قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ» قَالَ أَبِي: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ قَالَ: «مَا شِئْتُ» قُلْتُ: الرَّبُّعُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتُ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: فَالْخُمْسُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتُ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: فَالْثُلُثَيْنِ؟ قَالَ: «مَا شِئْتُ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: «إِذَنْ تُكْفَى هَمَّكَ، وَيَعْفَرَ لَكَ ذَنْبُكَ» ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ [صَحِيحٌ]<sup>(١٤)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالشُّرُورُ يُرَى فِي وَجْهِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا لَنَرَى الشُّرُورَ فِي وَجْهِكَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ أَتَانِي الْمَلَكُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَمَا يُرْضِيكَ أَنَّ رَبَّكَ عَزَّ

والطبري: ٣٢١/٢٠ (١) أحمد: ١٨/٦ وأبو داود: ١٦٢/٢ وتحفة الأحوذى: ٤٥٠/٩ والنسائي: ٤٤/٣ وابن خزيمة: ١/٣٥١ وابن حبان: ٣٠٨/٣ (٢) أحمد: ١٩١/١ وهو حسن لغیره كما في تحقيق المسند (٣) الترمذی ٤٨٤ (٤) تحفة الأحوذى: ٧/١٥٢ فيه عبدالله بن محمد بن عقيل وثقه بعضهم وضعفه الأكثرون قال ابن حجر: صدوق في حديثه لين ويقال تغير بآخره [تقريب] وعنه سفيان الثوري وهو مدلس لم يصرح. (٥) أحمد: ٣٠/٤ (٦) النسائي: ٤٤/٣ (١٢٨٤) إسناده ضعيف فيه سليمان مولى الحسن بن علي لم يوثقه غير ابن حبان وله شواهد بها يرتقي إلى درجة الحسن. (٧) أحمد: ٢٩/٤ فيه إسحاق بن كعب بن عجرة، قال الحافظ في التقريب: مجهول الحال، والحديث أخرجه النسائي والحاكم والطبراني وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي وجووده المؤلف (٨) مسلم: ٣٠٦/١ وأبو داود: ١٨٤/٢ وتحفة الأحوذى: ٦٠٨/٢ والنسائي: ٥٠/٣ (٩) أحمد: ٢٠١/١ (١٠) تحفة الأحوذى: ٥٣١/٩

مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ» وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»<sup>(٧)</sup>.

وَمِنْ ذَلِكَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْجَنَازَةِ، فَإِنَّ السُّنَّةَ أَنْ يُقْرَأَ فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي الثَّلَاثَةِ يَدْعُو لِلْمَيِّتِ، وَفِي الرَّابِعَةِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ.

رَوَى الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حُثَيْبٍ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ السُّنَّةَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ أَنْ يُكَبِّرَ الْإِمَامُ، ثُمَّ يَقْرَأُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ بَعْدَ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى سِرًّا فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيُخْلِصُ الدُّعَاءَ لِلْجَنَازَةِ، وَفِي التَّكْبِيرَاتِ لَا يَقْرَأُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، ثُمَّ يُسَلِّمُ سِرًّا فِي نَفْسِهِ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ نَفْسِهِ أَنَّهُ قَالَ مِنَ السُّنَّةِ... فَذَكَرَهُ<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا مِنَ الصَّحَابِيِّ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ عَلَى الصَّحِيحِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ خَتَمُ الدُّعَاءِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: الدُّعَاءُ مُوقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ مُعَاذُ بْنُ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي قُرَّةَ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ عُمَرَ مَرْفُوعًا<sup>(١١)</sup>.

وَمِنْ أَكْثَرِ ذَلِكَ دُعَاءُ الْقُنُوتِ، لِمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ جِبَّانَ وَالْحَاكِمُ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوُتْرِ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أُعْطِيتَ، وَفِي شَرِّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُفْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعْزُ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ». وَزَادَ النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ بَعْدَ هَذَا

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ثُمَّ أَسْلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَذْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ فَلَمْ يَدْخُلَاهُ الْجَنَّةَ» ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ خَطِئَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ<sup>(٢)</sup>.

### [الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي ذَلِكَ]

فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ كُلَّمَا ذُكِرَ وَهُوَ مَذْهَبٌ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ الطَّحَاوِيُّ وَالْحَلِيمِيُّ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ تَجِبُ الصَّلَاةُ فِي الْمَجْلِسِ مَرَّةً وَاحِدَةً. ثُمَّ لَا تَجِبُ فِي بَقِيَّةِ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، بَلْ تُسْتَحَبُّ. كَمَا رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ بَرَةٌ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»<sup>(٣)</sup>.

### [مَوَاقِعُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ]

قَدْ وَرَدَ الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَمِمَّنْ بَعْدَ النَّدَاءِ لِلصَّلَاةِ لِلْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذَّنًا فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْرَلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ»<sup>(٤)</sup>. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْزِلْهُ الْمَقْعَدَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي». وَهَذَا إِسْنَادٌ لَا بَأْسَ بِهِ وَلَمْ يُخْرِجُوهُ<sup>(٦)</sup>.

### [أَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ]

وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ شَفَاعَةَ مُحَمَّدٍ الْكُبْرَى، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ الْعُلْيَا، وَأَعْطِهِ سُؤْلَهُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، كَمَا آتَيْتَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ» إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ صَحِيحٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ لِلْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى

(١) تحفة الأحوذى: ١٥٣/٩ (٢) ابن ماجه: ٩٠٨ (٣) الترمذي: ٣٣٨٠ (٤) أحمد: ١٦٨/٢ (٥) مسلم: ٢٨٨/١ وأبو داود: ٣٥٩/١ وتحفة الأحوذى: ٨٣/١ والنسائي: ٢٥/٢ (٦) مسند أحمد: ١٠٨/٤ إسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة وهو ضعيف لاختلاطه، ووفاء الحضرمي مقبول (تقريب) (٧) أحمد: ٦/٢٨٢ فيه ليث بن أبي سليم صدوق اختلف جدًا ولم يتميز حديثه فترك، ويغني عنه حديث مسلم ٧١٣ (٨) مسند الشافعي: ٢١٠ (٩) النسائي: ٧٥/٤ (١٠) تحفة الأحوذى: ٦١٠/٢ (١١) تخريج الكشاف لابن حجر: ص ١٣٧

«وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ»<sup>(١)</sup>.

وَعَلَى الْمَرَّةِ مِثْلَ ذَلِكَ. إِسْنَادٌ جَيِّدٌ حَسَنٌ قَوِيٌّ.  
وَقَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: لَا يَجُوزُ إِفْرَادُ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ  
بِالصَّلَاةِ، لِأَنَّ هَذَا قَدْ صَارَ شِعَارًا لِلْأَنْبِيَاءِ إِذَا ذُكِرُوا، فَلَا  
يُلْحَقُ بِهِمْ غَيْرُهُمْ، فَلَا يُقَالُ: «قَالَ أَبُو بَكْرٍ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ». أَوْ «قَالَ عَلِيٌّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ». وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى  
صَحِيحًا، كَمَا لَا يُقَالُ: «قَالَ مُحَمَّدٌ عَزَّ وَجَلَّ»، وَإِنْ كَانَ  
عَزِيْرًا جَلِيلًا، لِأَنَّ هَذَا مِنْ شِعَارِ ذِكْرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - .  
وَحَمَلُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ عَلَى الدُّعَاءِ  
لَهُمْ. وَلِهَذَا لَمْ يَثْبُتْ شِعَارًا لِأَبِي أَوْفَى، وَلَا لِجَابِرٍ  
وَأَمْرَأَتِهِ. وَهَذَا مَسْلُكٌ حَسَنٌ.

وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو زَكَرِيَّا النَّوَوِيُّ فِي كِتَابِ الْأَذْكَارِ:  
«وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ كَرَاهَةً تَنْزِيهِ،  
لِأَنَّهُ شِعَارُ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَقَدْ نَهَيْتُمْ عَنْ شِعَارِهِمْ، وَالْمَكْرُوهُ:  
هُوَ مَا وَرَدَ فِيهِ نَهْيٌ مَقْصُودٌ. وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ بَرْقَانَ قَالَ:  
كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَنَا سَأَلْتُ  
مِنَ النَّاسِ قَدْ التَّمَسُّوا الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَإِنَّ نَاسًا مِنْ  
الْفُصَّاحِ قَدْ أَخَذُوا فِي الصَّلَاةِ عَلَى خُلَفَائِهِمْ وَأَمْرَائِهِمْ  
عِذْلَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا فَمَرُّهُمْ  
أَنْ تَكُونَ صَلَاتُهُمْ عَلَى النَّبِيِّينَ وَدُعَاؤُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً،  
وَيَدْعُوا مَا سِوَى ذَلِكَ». أَثَرٌ حَسَنٌ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ  
لَهُمْ عَذَابًا مُهِمًا﴾<sup>(٢)</sup> وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا  
مَا كَتَبَ سُبُوحًا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مِثْلُهَا ﴿٥٨﴾

[مَنْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَهُوَ مُلْعُونٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]  
يَقُولُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا مَنْ آذَاهُ بِمُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ  
وَارْتِكَابِ زَوَاجِرِهِ، وَإِضْرَارِهِ عَلَى ذَلِكَ، وَإِبْدَاءِ رَسُولِهِ  
بِعَيْبٍ أَوْ بِنَقْصٍ - عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - قَالَ عِكْرِمَةُ فِي  
قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نَزَلَتْ فِي  
الْمُصَوِّرِينَ<sup>(٣)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ،

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الْإِكْتِنَارُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ يَوْمَ  
الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَوْسِ بْنِ  
أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِنْ  
أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُضِيَ،  
وَفِيهِ النُّفُخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ،  
فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ  
تُعَرِّضُ عَلَيْكَ صَلَاتَنَا وَقَدْ أَرَمْتَ؟ - يَعْنِي وَقَدْ بَلَيْتَ -  
قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ  
الْأَنْبِيَاءِ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ جَبَانَ وَالدَّارَقُطْنِيُّ  
وَالنَّوَوِيُّ فِي الْأَذْكَارِ<sup>(٥)</sup>. وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ يَقُولُ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَأْكُلِ النَّارُ جَسَدَ مَنْ كَلَّمَهُ رُوحُ  
الْقُدُّسِ» مُرْسَلٌ حَسَنٌ.

[تَبْلِغُ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ ﷺ عَنْ أَيِّ مَكَانٍ مِنْ أُمَّتِهِ]  
عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَأْتِي كُلَّ  
غَدَاةٍ فَيُزُورُ قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ وَيُصَلِّي عَلَيْهِ، وَيَصْنَعُ مِنْ ذَلِكَ مَا  
اسْتُهْرَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: مَا  
يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: أَحَبُّ السَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.  
فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: هَلْ لَكَ أَنْ أُحَدِّثَكَ حَدِيثًا عَنْ  
أَبِي؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: أَخْبِرْنِي أَبِي  
عَنْ جَدِّي أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا قُبْرِي  
عِيدًا، وَلَا تَجْعَلُوا بَيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا  
حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَسَتَبْلُغُنِي صَلَاتُكُمْ وَسَلَامُكُمْ». فِي إِسْنَادِهِ  
رَجُلٌ مَبْهَمٌ لَمْ يَسْمَ. وَقَدْ رَوَى مِنْ وَجْهِ آخَرٍ مُرْسَلًا.

وَقَدْ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَتَنَابَّ الْقَبْرَ فَقَالَ: يَا  
هَذَا، مَا أَنْتَ وَرَجُلٌ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْهُ إِلَّا سَوَاءٌ، أَيِ:  
الْجَمِيعِ يَبْلُغُهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ  
الْدِّينِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ  
ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ، يُبْلَغُونِي عَنْ  
أُمَّتِي السَّلَامَ»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْقَاضِي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِذَا قَدِمْتُمْ فَطُوفُوا بِالْبَيْتِ سَبْعًا،  
وَصَلُّوا عِنْدَ الْمَقَامِ رُتَعَتَيْنِ، ثُمَّ اثْبُتُوا الصَّفَا فَقُومُوا عَلَيْهِ مِنْ  
حَيْثُ تَرَوْنَ الْبَيْتَ، فَكَبِّرُوا سَبْعَ تَكْبِيرَاتٍ، تَكْبِيرًا بَيْنَ حَمْدِ  
اللَّهِ وَتَنَاءٍ عَلَيْهِ وَصَلَاةٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَمَسْأَلَةٍ لِنَفْسِكَ،

(١) أحمد: ١/١٩٩ وأبو داود: ١٣٣/٢ وتحفة الأحوذ: ٢/

٥٦٢ والنسائي: ٣/٢٤٨ وابن ماجه: ١/٣٧٢ وابن خزيمة: ٢/

١٥١ وابن حبان: ٢/١٤٨ والحاكم: ٣/١٧٢ (٢) أحمد: ٤/

٨ (٣) أبو داود: ١/٦٣٥ والنسائي: ٣/٩١ وابن ماجه: ١/

٥٢٤ وابن خزيمة: ٣/١١٨ وابن حبان: ٢/١٣٢ والنووي: ٩٧

(٤) مسند أحمد: ١/٤٤١ (٥) الطبري: ٢٠/٣٢٢



الْمَاءِ الْيُسْجَىٰ

٤٢٧

سُورَةُ الْاِحْزَابِ

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ  
لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ  
لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٢٧﴾ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا  
﴿٢٨﴾ يَوْمَ نُفَلِّبُ وَجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ  
وَأَطَعْنَا الرُّسُلَ ﴿٢٩﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا  
فَاضْلَمُونَا السَّبِيلَ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ  
وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ  
ءَاذَىٰ مُوسَىٰ فِرْعَاوُ اللَّهِ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا ﴿٣٢﴾  
يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٣٣﴾ يُصْلِحْ  
لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمِنَ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٣٤﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا  
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٣٥﴾ لَيُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ  
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ  
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣٦﴾

## [الْأَمْرُ بِالْحِجَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -  
تَسْلِيمًا أَنْ يَأْمُرَ النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ - خَاصَّةً أَزْوَاجَهُ وَبَنَاتِهِ  
لشَرَفِهِنَّ - بِأَنْ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ، لِيَتَمَيَّزْنَ عَنْ  
سِمَاتِ نِسَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَسِمَاتِ الْإِمَاءِ. وَالْجِلْبَابُ: هُوَ  
الرِّدَاءُ فَوْقَ الْخِمَارِ، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَعَبِيدَةُ وَقَتَادَةُ،  
وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَعَطَاءُ  
الْخُرَّاسَانِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْإِزَارِ الْيَوْمَ. قَالَ  
الْجَوْهَرِيُّ: الْجِلْبَابُ؛ الْمِلْحَفَةُ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَمَرَ اللَّهُ نِسَاءَ  
الْمُؤْمِنِينَ إِذَا خَرَجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ فِي حَاجَةٍ، أَنْ يُعْطِينَ  
وُجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِنَّ بِالْجِلْبَابِ وَيُدْنِينَ عَيْنَا  
وَاحِدَةً<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: سَأَلْتُ عُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيَّ

(١) فتح الباري: ٤٣٧/٨ ومسلم: ١٧٦٢/٤ (٢) الطبري:

٣٢٣/٢٠ العوفي ضعيف كما مر مرارًا (٣) أبو داود: ١٩٢/٥

(٤) تحفة الأحوذى: ٦٣/٦ (٥) الطبري: ٣٢٤/٢٠

يَسْأَلُكَ النَّاسُ وَأَنَا الدَّهْرُ أَفَلْبُ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ<sup>(١)</sup>. وَمَعْنَى  
هَذَا: أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يَقُولُونَ: يَا حَيَّةَ الدَّهْرُ! فَعَلَّ بِنَا  
كَذَا وَكَذَا، فَيَسْتَدُونَ أَفْعَالَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الدَّهْرِ وَيَسْتَوْنَهُ،  
وَأِنَّمَا الْفَاعِلُ لِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَهِيَ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ  
يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ طَعَنُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ  
فِي تَرْوِيحِهِ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُجَيِّ بْنِ أَخْطَبٍ<sup>(٢)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ  
الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ آذَاهُ بِشَيْءٍ. وَمَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَى اللَّهَ  
كَمَا أَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.

## [الْوَعْدُ لِلْمُفْتَرِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا  
اِكْتَسَبُوا﴾ أَيَّ يَسْبُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بِرَاءٍ مِنْهُ، لَمْ يَعْمَلُوهُ  
وَلَمْ يَفْعَلُوهُ ﴿فَقَدْ اِحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا كُنْتُمْ﴾ وَهَذَا هُوَ الْبُهْتُ  
الْكَبِيرُ أَنْ يُحْكَى أَوْ يُقَالَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، مَا لَمْ  
يَفْعَلُوهُ، عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّقْصِصِ لَهُمْ، وَمِنْ أَكْثَرِ مَنْ  
يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَعْدِ الْكُفْرَةُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ الرَّافِضَةُ  
الَّذِينَ يَنْتَقِصُونَ الصَّحَابَةَ وَيَعْبُونَهُمْ بِمَا قَدْ بَرَّاهُمُ اللَّهُ مِنْهُ،  
وَيَصِفُونَهُمْ بِنَقِصٍ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ  
أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَدَحَهُمْ،  
وَهَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ الْأَغْيَاءُ يَسْبُونَهُمْ وَيَنْتَقِصُونَهُمْ وَيَذْكُرُونَ  
عَنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ، وَلَا فَعَلُوهُ أَبَدًا، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ  
[مَنْكُوسُوا] الْقُلُوبِ: يَذْمُونَ الْمَمْدُوحِينَ وَيَمْدَحُونَ  
الْمَذْمُومِينَ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!  
مَا الْغَيْبَةُ؟ قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ  
كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ  
اِغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ  
التِّرْمِذِيُّ ثُمَّ قَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>.

﴿يَتَأْتِيهِمُ النَّبِيُّ قُلُوبًا لَازِلَةً﴾ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ  
مِنْ جِلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَاللَّهُ غَفُورًا  
رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَيْنَ لَمْ يَلْنِهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ  
وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا  
فَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدَاوُاْ وَقَتْلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾  
سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

عَلِمَهَا إِلَى الَّذِي يُقِيمُهَا لَكِنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَسَمِعَ الْكُفْرُ﴾ [القمر: ١] وَقَالَ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] وَقَالَ: ﴿أَلَمْ أَمُرَ اللَّهَ فَلَا تَسْعَ جُلُودُهُ﴾ [النحل: ١].

[لَعَنُ الْكُفَّارَ وَخُلُودُهُمْ فِي النَّارِ وَحَسَرَتُهُمْ]

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ﴾ أَيْ: أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أَيْ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أَيْ: مَا كَثُرَ مُسْتَبْرِينَ فَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَهُمْ عَنْهَا ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أَيْ: وَلَيْسَ لَهُمْ مُعِيَتْ وَلَا مُعِينٌ يُقْدِّهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أَيْ: يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَتُزَلَّى وَجُوهُهُمْ عَلَى جَهَنَّمَ، يَقُولُونَ وَهُمْ كَذَلِكَ يَتَمَنُونَ: أَنْ لَوْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِمَّنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَطَاعَ الرَّسُولَ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي حَالِ الْعَرَصَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَعْصَى الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿يَوْمَ لَيْتَنِي لَوْ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿زَيْبًا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] وَهَكَذَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالَتِهِمْ هَذِهِ أَنَّهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا اللَّهَ وَأَطَاعُوا الرَّسُولَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾. وَقَالَ طَاوُسٌ: ﴿سَادَتَنَا﴾ يَعْنِي الْأَشْرَافَ، ﴿وَكِبَرَاءَنَا﴾ يَعْنِي الْعُلَمَاءَ. ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أَيْ: يَكْفُرُهُمْ وَإِعْوَانَتِهِمْ إِنَّا نَا.

وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ أَبِي رَافِعٍ فِي تَسْمِيَةِ مَنْ شَهِدَ مَعَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْحَجَّاجُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ غَزِيَّةَ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقُولُ عِنْدَ اللَّقَاءِ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا لِرَبَّنَا إِذَا لَقِينَاهُ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّهِمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾<sup>(٥)</sup>.

عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَذَرِكُ عَلَيْهِنَ مِنْ جُلُودِهِنَّ؟﴾ فَغَطَّى وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ وَأَبْرَزَ عَيْنَهُ الْيُسْرَى<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَمُرُّوا فَلَا يُمَوِّدُنَ﴾ أَيْ: إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ عَرَفْنَا أَنَّهُمْ حَرَائِرُ، لَسْنَا بِإِمَاءٍ وَلَا عَوَاهِرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَيْ: لِمَا سَلَفَ فِي أَبْيَامِ الْجَاهِلِيَّةِ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِذَلِكَ.

[الْتَنِيهِ وَالتَّهْدِيدُ لِلْمُنَافِقِينَ الْأَشْرَارِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْمُنَافِقِينَ وَهُمْ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ وَيُخْفُونَ الْكُفْرَ ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قَالَ عِكْرَمَةُ وَغَيْرُهُ: هُمُ الرُّنَاءُ هَهُنَا<sup>(٢)</sup>. ﴿وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ يَقُولُونَ جَاءَ الْأَعْدَاءُ وَجَاءَتِ الْحُرُوبُ. وَهُوَ كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ. لَيْتَن لَمْ يَتَّبِعُوا عَنْ ذَلِكَ وَبَرَّجُوا إِلَى الْحَقِّ ﴿لَعَنَ رَبُّكَ بِهِمْ﴾. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ: لَنَسَلَطْنَاكَ عَلَيْهِمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَنَحَرَّشْنَاكَ بِهِمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَنُعَلِّمَنَّكَ بِهِمْ ﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِزُونَكَ فِيهَا﴾ أَيْ: فِي الْمَدِينَةِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿مَلْعُونِينَ﴾ حَالُ مِنْهُمْ فِي مَدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ مَدَّةً قَرِيبَةً، مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ ﴿أَيْنَمَا يُوَفُّوهُ﴾ أَيْ: وَجِدُوا ﴿أُحْذَرُوا﴾ لِذَلِيلِهِمْ وَقَلْبَتِهِمْ ﴿وَفُتِلُوا فَتَقِيلُوا﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ، إِذَا تَمَرَّدُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ، أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يُسَلِّطُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقْهَرُونَهُمْ ﴿وَلَنْ يَصِدَّ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أَيْ: وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُعَيَّرُ.

﴿يَسْأَلُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ فَلْإِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّهِمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾

[لَا يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِالسَّاعَةِ وَإِنْ سَأَلَهُ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَرْشَدَهُ أَنْ يَرُدَّ عَلِمَهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ وَهَذِهِ مَدِينِيَّةٌ، فَاسْتَمَرَّ الْحَالُ فِي رَدِّ

(١) الطبري: ٣٢٥/٢٠ (٢) الطبري: ٣٢٦/٢٠ (٣) الطبري:

٣٢٨/٢٠ (٤) الطبري: ٣٢٨/٢٠ (٥) المعجم الكبير

للطبراني: ٢٢٣/٣

[أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّقْوَى وَالصَّدْقِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَأَنْ يَعْبُدُوهُ عِبَادَةً مِنْ كَأَنَّهُ يَرَاهُ وَأَنْ يَقُولُوا ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أَيْ: مُسْتَقِيمًا لَا اِعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ. وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَتَابَهُمْ عَلَيْهِ: بِأَنْ يُصْلِحَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ - أَيْ: يُوقِفَهُمْ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ - وَأَنْ يُغْفِرَ لَهُمْ الذُّنُوبَ الْمَاضِيَةَ. وَمَا قَدْ بَقِيَ مِنْهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يُلْهِمُهُمُ التَّوْبَةَ مِنْهَا ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ يُجَارِ مِنْ نَارِ الْحَجِيمِ وَيَصِيرُ إِلَى النِّعَمِ الْمُقِيمِ.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧١)

لِعَذَابِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٢)

[حَمْلُ الْإِنْسَانِ الْأَمَانَةَ]

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَغْنِي بِالْأَمَانَةِ الطَّاعَةَ. وَعَرَضَهَا عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يَرْضَاهَا عَلَى آدَمَ فَلَمْ يُطِئْنَهَا، فَقَالَ لِآدَمَ: إِنِّي قَدْ عَرَضْتُ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَلَمْ يُطِئْنَهَا، فَهَلْ أَنْتَ آخِذٌ بِمَا فِيهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ! وَمَا فِيهَا؟ قَالَ: إِنَّ أَحْسَنَتْ جُرَيْتٍ، وَإِنْ أَسَأَتْ غَوَيْتِ. فَأَخَذَهَا آدَمُ فَتَحَمَّلَهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧١). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَمَانَةُ: الْفَرَائِضُ، عَرَضَهَا اللَّهُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ. إِنْ أَدَوْهَا أَتَابَهُمْ وَإِنْ ضَيَعُوهَا عَذَّبَهُمْ فَكَرَهُوا ذَلِكَ، وَأَشْفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَلَكِنْ تَعْظِيمًا لِلدِّينِ اللَّهُ أَنْ لَا يَقُومُوا بِهَا، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ فَقَبِلَهَا بِمَا فِيهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يَعْنِي غَرًّا بِأَمْرِ اللَّهِ (٧٢).

وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّ الْأَمَانَةَ هِيَ الْفَرَائِضُ (٧١). وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ الطَّاعَةُ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الضُّحَى عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: مِنَ الْأَمَانَةِ أَنَّ الْمَرْأَةَ أُؤْتِمِنَتْ عَلَى فَرْجِهَا (٧٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: الْأَمَانَةُ: الدِّينُ

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبًا﴾ (٦٩)

[اِفْتِرَاءُ الْيَهُودِ عَلَى مُوسَى]

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا حَيًّا سَيِّئًا لَا يَرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءَ مِنْهُ، فَأَذَاهُ مَنْ أَذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَنْسَتَرُ هَذَا التَّسْتَرُ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ فِي جِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا أُذْرَةٌ، وَإِمَّا آفَةٌ. وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَّغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الْحَجَرَ عَدَا بِتَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: تَوْبِي حَجَرٌ، تَوْبِي حَجَرٌ! حَتَّى انْتَهَى إِلَى مِثْلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ غُرْبَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَبْرَاهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الْحَجَرُ، فَأَخَذَ تَوْبَهُ فَلَبَسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْضَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنْ بِالْحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا - قَالَ: - فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبًا﴾ (٦٩). وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَفْرَادِ الْبُخَارِيِّ دُونَ مُسْلِمٍ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - أَيْ: ابْنِ مَسْعُودٍ - قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ قَسَمًا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ! أَمَا لِأَخِيرِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمَا قُلْتُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ: «رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا، فَصَبَرَ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٧٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبًا﴾ أَيْ: لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَاهَةٌ عِنْدَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ عِنْدَ اللَّهِ (٧٣). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ وَجَاهَتِهِ الْعَظِيمَةِ عِنْدَ اللَّهِ: أَنَّهُ شَفَعَ فِي أَخِيهِ هَارُونَ أَنْ يُرْسِلَهُ اللَّهُ مَعَهُ فَأَجَابَ اللَّهُ سَوْأَهُ فَقَالَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ﴾ (٧٤).

يُنَاكَ [مريم: ٥٣].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧١) يُصْلِحَ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٢)

(١) فتح الباري: ٥٠٢/٦ (٢) أحمد: ٣٨٠/١ ولبخاري: ٣٤٠٥ ومسلم: ١٠٦٢ (٣) البغوي: ٥٤٥/٣ (٤) الطبري: ٣٣٨/٢٠ العوفي تقدم حكمه مرارًا (٥) الطبري: ٣٣٧/٢٠ (٦) الطبري: ٣٣٧/٢٠ (٧) الطبري: ٣٣٨/٢٠

بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ ﴿وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾.  
أخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْزَابِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي  
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ  
مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ  
الْعَفُورُ﴾ ﴿١﴾

[الْحَمْدُ وَعِلْمُ الْغَيْبِ لِلَّهِ فَقَطْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ لَهُ الْحَمْدَ الْمَطْلَقَ فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ، الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ، الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلِ  
وَالْآخِرِ وَلَهُ الْمُحْكُمُ وَلِلَّهِ تَرْجُعُونَ﴾ [الفصل: ٧٠] وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى هَهُنَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي  
الْأَرْضِ﴾ أَي: الْجَمِيعُ مِنْكَ وَعَبِيدُهُ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ  
وَفَهْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا لَنَا لَآخِرَةٌ وَالْأَوَّلُ﴾ [الليل: ١٣]،  
ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ فَهُوَ الْمَعْبُودُ  
أَبَدًا، الْمَحْمُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أَي: فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ  
وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿الْخَبِيرُ﴾ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ وَلَا  
يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ. وَقَالَ مَالِكٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ: خَبِيرٌ بِخَلْقِهِ،  
حَكِيمٌ بِأَمْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ  
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أَي: يَعْلَمُ عَدَدَ الْقَطْرِ النَّازِلِ فِي أَجْزَاءِ  
الْأَرْضِ، وَالْحَبَّ الْمُبْدُورَ، وَالْكَامِينَ فِيهَا، وَيَعْلَمُ مَا  
يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ عَدَدَهُ وَكَيْفِيَّتَهُ وَصِفَاتِهِ ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ  
السَّمَاءِ﴾ أَي: مِنْ قَطْرِ وَرْزِقٍ ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أَي: مِنَ  
الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾ أَي:  
الرَّحِيمُ بَعْدَادِهِ، فَلَا يُعَاجِلُ عُصَاتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ، الْعَفُورُ عَنْ

وَالْفَرَائِضِ وَالْحُدُودِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ  
قَالَ: الْأَمَانَةُ ثَلَاثَةٌ: الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالْإِغْتِسَالُ مِنَ  
الْجَنَابَةِ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا تَنَافِي بَيْنَهَا، بَلْ هِيَ مُتَّفِقَةٌ وَرَاجِعَةٌ  
إِلَى أَنَّهَا: التَّكْلِيفُ، وَقَبُولُ الْأَوَامِرِ وَالتَّوَاهِي بِشَرْطِهَا،  
وَهُوَ أَنَّهُ إِنْ قَامَ بِذَلِكَ أُتِيبَ وَإِنْ تَرَكَهَا عُوقِبَ، فَقَبِلَهَا  
الْإِنْسَانُ عَلَى ضَعْفِهِ وَجَهْلِهِ وَظُلْمِهِ، إِلَّا مَنْ وَفَّقَ اللهُ، وَبِاللهِ  
الْمُسْتَعَانُ.

وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْأَمَانَةِ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ  
عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ  
حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا: أَنَّ  
الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ  
فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ. ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ  
الْأَمَانَةِ فَقَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتَقْبُضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ،  
فَيَظُلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ كَجَمْرِ دَخَرْتِهِ عَلَى رِجْلِكَ،  
تَرَاهُ مُتَنَبِّرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ - قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ حَصَى فَدَخَرَجَهُ  
عَلَى رِجْلِهِ قَالَ -: فَيُضِضُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لَا يَكَادُ أَحَدٌ  
يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا،  
حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجَلَدُهُ وَأَطْرَفُهُ وَأَعْقَلُهُ وَمَا فِي قَلْبِهِ  
حَبَّةٌ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ  
بَايَعْتُ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا لِيَرُدَّنِي عَلَيَّ دِينَهُ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ  
يَهُودِيًّا لِيَرُدَّنِي عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَمَا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ مِنْكُمْ  
إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا<sup>(٢)</sup>. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ  
الْأَعْمَشِ بِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ  
عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا  
عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ،  
وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ طُعْمَةٍ»<sup>(٤)</sup>.

### [نَتِيجَةُ حَمْلِ الْأَمَانَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُتَفَقِّهِينَ وَالْمُتَفَقِّهَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ  
وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أَي: إِنَّمَا حُمِلَ بَنِي آدَمَ الْأَمَانَةُ وَهِيَ:  
التَّكْلِيفُ، لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُتَفَقِّهِينَ مِنْهُمْ وَالْمُتَفَقِّهَاتِ، وَهُمْ  
الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيْمَانَ خَوْفًا مِنْ أَهْلِهِ وَيُطِيطُونَ الْكُفْرَ مُتَابِعَةً  
لِأَهْلِهِ ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ وَبَاطَنُواهُمْ  
عَلَى الشَّرْكِ بِاللهِ، وَمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ  
وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَي: وَلِيَرَحِمَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) الطبري: ٢٠/٣٢٩ (٢) أحمد: ٥/٣٨٣ فيه ابن لهيعة (٣)  
فتح الباري: ١١/٣٤١ ومسلم: ١/١٢٦ (٤) أحمد: ٢/١٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ  
فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ  
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ  
الرَّحِيمُ الْعَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ  
قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ  
ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ  
وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ مَغْفِرُونَ وَرِزْقُ  
كَرِيمٍ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَئِكَ  
هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ  
الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ  
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ  
نَّبَتْكُمُ إِذَا مَرَّ فَتَمَّ كُلُّ مَسْرَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ هَذِهِ حِكْمَةٌ أُخْرَى مَعْطُوفَةٌ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا، وَهِيَ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الرُّسُلِ: إِذَا شَاهَدُوا قِيَامَ السَّاعَةِ وَمُجَازَاةَ الْأَبْرَارِ وَالنُّجَّارِ، بِالَّذِي كَانُوا قَدْ عَلِمُوهُ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا، رَأَوْهُ حَيِّثُ عَيْنِ الْيَقِينِ، وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ أَيْضًا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣] يُقَالُ أَيْضًا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ الْعَزِيزُ: هُوَ: الْمُنِيعُ الْجَنَابُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ، بَلْ قَدْ فَهَرُ كُلُّ شَيْءٍ وَعَلَبُهُ، ﴿الْحَمِيدُ﴾ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ جَلَّ وَعَلَا.

ذُنُوبِ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ، الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمَ عَذَابٌ  
الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا  
أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣١﴾  
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ  
عَذَابٌ مِّن رَّجَرٍ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ  
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ

الحَمِيدُ ﴿٦﴾

[إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لِّيُجْزَى كُلُّ حَسَبٍ عَمَلِهِ]

هَذِهِ إِحْدَى الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي لَا رَابِعَ لَهُنَّ مِمَّا أَمَرَ  
 اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُفَسِّمَ بِرَبِّهِ الْعَظِيمِ عَلَى وُفُوعِ  
 الْمَعَادِ، لَمَّا أَنْكَرَهُ مِنْ أَنْكَرِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِزَادِ:  
 فَأِخْذَاهُنَّ فِي سُورَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى:  
 ﴿يَسْتَعِذُّوكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أُنشَأُ بِمُعْجِزَيْنِ﴾  
 [يونس: ٥٣] وَالثَّانِيَةُ هَذِهِ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾  
 قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَأَتَيْنَكُمُ، وَالثَّلَاثَةُ فِي سُورَةِ التَّغَابُنِ، وَهِيَ  
 قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ  
 لَتُنَبِّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] فَقَالَ تَعَالَى:  
 ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَأَتَيْنَكُمُ﴾ ثُمَّ وَصَفَهُ بِمَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ وَيُفَرِّدُهُ،  
 فَقَالَ: ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا  
 فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ  
 مُبِينٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَفَادَةُ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لَا يَغِيبُ  
 عَنْهُ<sup>(١)</sup>. أَي: الْجَمِيعُ مُنْدَرِجٌ تَحْتَ عِلْمِهِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ  
 شَيْءٌ، فَالْعِظَامُ وَإِنْ تَلَاسَتْ وَتَفَرَّقَتْ وَتَمَرَّقَتْ، فَهُوَ عَالِمٌ  
 أَتَيْنَ ذَهَبَتْ، وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ، ثُمَّ يُعِيدُهَا كَمَا بَدَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ،  
 فَإِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ثُمَّ بَيَّنَّ حِكْمَتَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ  
 وَفِيَامِ السَّاعَةِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ أَثْلَاجَهُمْ مَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا﴾ ① وَالَّذِينَ سَعَوْا  
 فِي الْإِلَيْنَا مُعْجِزِينَ ﴿أَي: سَعَوْا فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى  
 وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ، ﴿وَأَثْلَاجَهُمْ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَرٍ أَلِيمٍ﴾ أَي:  
 لِيُنْعِمَ السَّعْدَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيُعَذِّبَ الْأَشْقِيَاءَ مِنَ  
 الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ  
 وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]  
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 الْكَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ لَيَجْعَلَنَّ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢٩

سُورَةُ سَبَأٍ

أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ  
 فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ  
 وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنًا خَفِيفٌ بِهِمْ  
 الْأَرْضُ أَوْ تُسْقَطُ عَلَيْهِمْ كَسَفَاءِ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا  
 يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَن أَعْمَلَ  
 سَبْعَ نَجَاتٍ وَفَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَلَاحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ  
 بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَسَلِّمْنَا مِنَ الرِّيحِ غُدُوهاً شَهْرًا وَوَحْشًا شَهْرًا  
 وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ  
 رَبِّهِ وَمَن يَرْغَبْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرٍ فَإِنَّهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾  
 يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ  
 وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ  
 الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ  
 إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خِرَ تَيْبَتِ الْجُنُ  
 أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

الله، عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَعْثِ الْأَجْسَادِ وَوُقُوعِ  
 الْمَعَادِ، لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا  
 وَاتِّسَاعِهَا، وَهَذِهِ الْأَرْضِينَ فِي انْخِفَاضِهَا، وَأَطْوَالَهَا  
 وَأَعْرَاضِهَا: إِنَّهُ لَقَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ وَنَشْرِ الرِّمِيمِ مِنَ  
 الْعِظَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى﴾ [يس: ٨١] وَقَالَ  
 تَعَالَى: ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ  
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا  
 لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَن أَعْمَلَ سَبْعَ نَجَاتٍ وَفَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَلَاحًا  
 إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

[بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى دَاوُدَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ  
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِمَّا آتَاهُ مِنَ الْفَضْلِ الْمُبِينِ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِفْتُمْ كُلَّ  
 مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَعِنَى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ  
 جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾  
 أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ  
 شَأْنًا خَفِيفٌ بِهِمْ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقَطُ عَلَيْهِمْ كَمَا فِي السَّمَاءِ إِنَّ  
 فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾  
 [إِنْكَارُ الْكُفَّارِ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَالرُّدَّ عَلَيْهِمْ]

هَذَا إِنْخَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ اسْتِعَادِ الْكُفْرَةِ  
 الْمُتَلَحِّجِينَ قِيَامَ السَّاعَةِ، وَاسْتِهْزَائِهِم بِالرَّسُولِ ﷺ فِي  
 إِنْخَارِهِ بِذَلِكَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ  
 إِذَا مُرِفْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾ أَيُّ: تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ فِي الْأَرْضِ  
 وَذَهَبَتْ فِيهَا كُلُّ مَذْهَبٍ وَتَمَرَّقَتْ كُلُّ مُمَرِّقٍ ﴿إِنَّكُمْ﴾ أَيُّ:  
 بَعْدَ هَذَا الْحَالِ ﴿لَعِنَى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أَيُّ: تَعُودُونَ أَحْيَاءَ  
 تُرْزَقُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهُوَ فِي هَذَا الْإِنْخَارِ لَا يَخْلُو أَمْرُهُ مِنْ  
 قِسْمَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ تَعَمَّدَ الْإِفْتِرَاءَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ  
 قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ، لَكِنْ لُبَسَ عَلَيْهِ كَمَا  
 يُلْبَسُ عَلَى الْمَعْتُوهِ وَالْمَجْنُونِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَفَتَرَى عَلَى  
 اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَادًّا عَلَيْهِمْ ﴿بَلِ  
 الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أَيُّ: لَيْسَ  
 الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَلَا كَمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، بَلِ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ  
 الصَّادِقُ الْبَارُ الرَّاشِدُ، الَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ، وَهُمْ الْكَذِبَةُ  
 الْجَهْلَةُ الْأَغْيَاءُ ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ أَيُّ: الْكُفْرِ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى  
 عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ مِنَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ  
 قَالَ تَعَالَى مُثَبِّتًا لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا  
 خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ: حَيْثُمَا تَوَجَّهُوا وَذَهَبُوا،  
 فَالسَّمَاءُ مُظِلَّةٌ عَلَيْهِمْ، وَالْأَرْضُ تَحْتَهُمْ، كَمَا قَالَ عَزَّ  
 وَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءُ بَنِينَهَا بَاسِيَةً وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا  
 فَيْعَمَّ الْمُسْهِدُونَ ﴿[الذاريات: ٤٧، ٤٨].﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ شَأْنًا خَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقَطُ  
 عَلَيْهِمْ كَسَفَاءِ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: لَوْ شِئْنَا لَفَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ  
 بِظُلْمِهِمْ وَقُدْرَتِنَا عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ نَوَخَرُ ذَلِكَ لِجَلْمِنَا وَعَفْوِنَا،  
 ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ قَالَ مَعْمَرٌ عَنْ  
 قَتَادَةَ: ﴿مُنِيبٍ﴾ تَائِبٌ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ سُفْيَانُ عَنْ قَتَادَةَ: الْمُنِيبُ  
 الْمُقْبِلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى <sup>(٢)</sup>. أَيُّ: إِنَّ فِي النَّظَرِ إِلَى خَلْقِ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِدَلَالَةٍ لِّكُلِّ عَبْدٍ فَطِنٍ لِيَبِيبَ رَجَاعًا إِلَى

(١) عبد الرزاق: ١٢٦/٣ (٢) الطبري: ٣٥٦/٢٠

## [فَضَّلَ اللَّهُ عَلَى سُلَيْمَانَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى دَاوُدَ، عَطَفَ بِذِكْرِ مَا أَعْطَى ابْنَهُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ لَهُ: تَحْوِيلُ بِسَاطِهِ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانَ يَغْدُو عَلَى بِسَاطِهِ مِنْ دِمَشْقَ، فَيَنْزِلُ بِإِصْطِخَرٍ يَتَغَدَّى بِهَا، وَيَذْهَبُ رَاحَتًا مِنْ إِصْطِخَرٍ فَيَبِيتُ بِكَابِلٍ<sup>(٧)</sup>. وَبَيْنَ دِمَشْقَ وَإِصْطِخَرٍ شَهْرٌ كَامِلٌ لِلْمُسْرِعِ، وَبَيْنَ إِصْطِخَرٍ وَكَابِلٍ شَهْرٌ كَامِلٌ لِلْمُسْرِعِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: الْقِطْرُ: النَّحْسُ<sup>(٨)</sup>. قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَتْ بِالْيَمَنِ<sup>(٩)</sup>. فَكُلُّ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ مِمَّا أُخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَلْجَنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أَيْ: وَسَخَرْنَا لَهُ الْجِنَّ يَعْمَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ. أَيْ: بِقُدْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ لَهُمْ بِمَشِيئَتِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْبَنَائَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أَيْ: وَمَنْ يَعْدِلْ وَيَخْرُجْ مِنْهُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وَهُوَ الْحَرِيقُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَكُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمْثِيلٍ﴾ أَمَّا الْمَحَارِبُ فَهِيَ الْبَنَاءُ الْحَسَنُ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَيْءٍ فِي الْمَسْكَنِ وَصَدْرُهُ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هِيَ الْمَسَاكِينُ<sup>(١٠)</sup>. وَأَمَّا التَّمْثِيلُ، فَقَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: التَّمْثِيلُ: الصُّورُ<sup>(١١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَفَانٍ كَلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ الْجَوَابُ جَمْعُ جَابِيَةٍ، وَهِيَ الْحَوْضُ الَّذِي يُجْبَى فِيهِ الْمَاءُ. وَالْقُدُورُ الرَّاسِيَاتُ: أَيْ: الثَّابِتَاتُ فِي أَمَاكِنِهَا، لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَتَحَوَّلُ عَنْ أَمَاكِنِهَا لِعِظَمِهَا، كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمَا<sup>(١٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أَيْ: وَقُلْنَا لَهُمْ: اْعْمَلُوا شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا. وَشُكْرًا مُضَدَّرٌ

النُّبُوَّةُ وَالْمُلْكُ الْمُتَمَكِّنُ، وَالْجُودُ ذَوِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدُ، وَمَا أَعْطَاهُ وَمَنَحَهُ مِنَ الصُّوتِ الْعَظِيمِ، الَّذِي كَانَ إِذَا سَجَّ بِهِ تُسَجَّ مَعَهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَّاتُ، الصُّمُّ الشَّامِخَاتُ، وَتَقَفَ لَهُ الطُّيُورُ السَّارِحَاتُ: وَالْعَادِيَّاتُ، وَالرَّائِحَاتُ، وَتَجَاوَبُهُ بِأَنْوَاعِ اللُّغَاتِ. وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ صَوْتَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ، فَوَقَفَ فَاسْتَمَعَ لِقِرَائَتِهِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ التَّهْدِي: مَا سَمِعْتُ صَوْتَ صَنْجٍ وَلَا بَرْبَطٍ وَلَا وَتْرٍ أَحْسَنَ مِنْ صَوْتِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١٤)</sup>. وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوتِيَ﴾ أَيْ: سَبَّحِي، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١٥)</sup>. وَالتَّأْوِيبُ فِي اللُّغَةِ هُوَ التَّرْجِيعُ، فَأُمِرَتْ الْجِبَالُ وَالطُّيُورُ أَنْ تَرْجِعَ مَعَهُ بِأَصْوَاتِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْخَبِيرُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَالْأَعْمَشُ وَغَيْرُهُمْ: كَانَ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُدْخِلَهُ نَارًا وَلَا يَضْرِبُهُ بِمِطْرَقَةٍ، بَلْ كَانَ يَقْتُلُهُ بِيَدِهِ مِثْلَ الْخَبِيطِ<sup>(١٦)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ﴾ وَهِيَ الدُّرُوعُ. قَالَ قَتَادَةُ: وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَهَا مِنَ الْحَلْقِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ صَفَائِحَ<sup>(١٧)</sup>. ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَعْلِيمِهِ صَنْعَةَ الدُّرُوعِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ لَا تَدِقُّ الْمِسْمَارَ فَيَقْلَقُ فِي الْحَلْقَةِ، وَلَا تُغَاطُّهُ فَيَقْصِمُهَا وَاجْعَلْهُ بِقَدْرِ<sup>(١٨)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: السَّرْدُ حَلْقُ الْحَدِيدِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُقَالُ: دَرَعٌ مَسْرُودَةٌ إِذَا كَانَتْ مَسْمُورَةً الْحَلْقِ، وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا

دَاوُدُ أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغَ تُبَّعَ  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أَيْ: فِي الَّذِي أَعْطَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النِّعَمِ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيْ: مُرَاقِبٌ لَكُمْ بَصِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ أَلْجَنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾<sup>(١٩)</sup> يَعْمَلُونَ لَكُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ تَحْرِيْبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحَفَانٍ كَلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِي الشَّاكِرِينَ ﴿٢٠﴾

(١) مسلم: ٥٤٦/١ (٢) فضائل القرآن لأبي عبيد: ص ٧٩

(٣) الطبري: ٣٥٧/٢٠ (٤) الطبري: ٣٥٩/٢٠ (٥) الطبري:

٣٥٩/٢٠ (٦) الطبري: ٣٦١/٢٠ (٧) الطبري: ٣٦٢/٢٠ (٨)

الطبري: ٣٦٤، ٣٦٣/٢٠ (٩) الطبري: ٣٦٣/٢٠ (١٠)

الطبري: ٣٦٥/٢٠ (١١) الطبري: ٣٦٦/٢٠ (١٢) الطبري:

٣٦٧/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٠

سُورَةُ سَبَأٍ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ  
كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ  
(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ  
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خُمُودٍ وَأُتِلْ وَشَىءٌ مِّنْ سِدرٍ قَلِيلٍ  
(١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ (١٧)  
وَجَعَلْنَاهُمْ فِيهَا أَسْيَرًا سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)  
فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ  
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ  
شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا  
فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ  
إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ دُونِ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ  
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي  
الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢)

أَكْلِ خُمُودٍ وَأُتِلْ وَشَىءٌ مِّنْ سِدرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا  
كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ (١٧)  
[كُفْرَانٌ سَبَأٌ وَعَذَابُهُمْ]

كَانَتْ سَبَأٌ مَّلُوكُ الْيَمَنِ وَأَهْلُهَا، وَكَانَتْ التَّبَاعَةُ مِنْهُمْ  
وَبَلْقِيسُ صَاحِبَةُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ  
جُمْلَتِهِمْ، وَكَانُوا فِي نِعْمَةٍ وَغِنًى فِي بِلَادِهِمْ وَعَاشِيَهُمْ  
وَأَتَّسَاعَ أَرْزَاقِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَبَنَارِهِمْ، وَبَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ  
وَتَعَالَى إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَيَشْكُرُوهُ  
بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَكَانُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ  
أَعْرَضُوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ، فَعُوقِبُوا بِإِرْسَالِ السَّيْلِ وَالتَّقْرِيقِ فِي  
الْبِلَادِ أَيْدِي سَبَأٍ، شَدَرَ مَذَرٌ. كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى  
تَفْصِيلُهُ وَبَيَانُهُ قَرِيبًا، وَبِهِ الثَّقَةُ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ فَرَوَةَ بْنِ مُسَيْكٍ الْغَطَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ

مِنْ غَيْرِ الْفِعْلِ، أَوْ أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فِيهِ  
دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ يَكُونُ بِالْفِعْلِ كَمَا يَكُونُ بِالْقَوْلِ  
وَالنِّيَّةِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفَادَتْكُمْ النُّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً

يَدِي وَلِسَانِي وَالصَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا  
قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ [الْحُلَيْلِيُّ]: الصَّلَاةُ شُكْرٌ،  
وَالصِّيَامُ شُكْرٌ، وَكُلُّ خَيْرٍ تَعْمَلُهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شُكْرٌ،  
وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ الْحَمْدُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ (١). وَفِي  
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ الصَّلَاةِ  
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ: كَانَ يَتَامُ يَصِفُ اللَّيْلَ، وَيَقُومُ  
ثُلُثَهُ، وَيَتَامُ سُدُسَهُ. وَأَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ  
دَاوُدَ: كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا. وَلَا يَبْرُ إِذَا لَأَقَى» (٢).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ فَضِيلٍ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:  
«اعْمَلُوا مَالِ دَاوُدَ شُكْرًا» قَالَ دَاوُدُ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَشْكُرُكَ  
وَالشُّكْرُ نِعْمَةٌ مِنْكَ؟ قَالَ: «الآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ  
النُّعْمَةَ مِنِّي» (٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ»  
إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ.

«فَلَمَّا فَصَبْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دُفِنَ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ  
تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ  
مَا لِيَشُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ» (٤)

[وَفَاةُ سُلَيْمَانَ]

يَذْكُرُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ مَوْتِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَيْفَ  
عَمِيَ اللَّهُ مَوْتُهُ عَلَى الْجَانِّ الْمُسَخَّرِينَ لَهُ فِي الْأَعْمَالِ  
الشَّاقَّةِ، فَإِنَّهُ مَكَتَ مَتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ، وَهِيَ مِسْنَأَتُهُ، كَمَا  
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَفَتَادَةُ  
وغير واحد (٤)، مُدَّةً طَوِيلَةً نَحْوًا مِنْ سَنَةٍ، فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دَابَّةُ  
الْأَرْضِ، وَهِيَ الْأَرْضُ، ضَعُفَتْ وَسَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ،  
وَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ. وَتَبَيَّنَتْ - الْجِنَّ  
وَالْإِنْسَ أَيْضًا - أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ كَمَا كَانُوا  
يَتَوَهَّمُونَ وَيُوهَمُونَ النَّاسَ ذَلِكَ. وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:  
«مَا دُفِنَ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ  
تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لِيَشُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ»  
يَقُولُ: تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكْذِبُونَهُمْ.

«لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا  
مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ» (١٥)  
فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ

(١) الطبري: ٣٦٩/٢٠ (٢) فتح الباري: ٥٢٥/٦ ومسلم: ٢/

٨١٦ (٣) الدر المنثور: ٦٨٠/٦ (٤) الطبري: ٣٧٠/٢٠



عَنْهُ:

إِنَّمَا سَأَلْتِ فَأِنَّا مَعْشَرَ نَجِيبٍ

الْأَزْدُ يُنْسَبُتْنَا وَالْمَاءُ غَسَّانٌ

وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «وُلِدَ لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْعَرَبِ» أَيُّ: كَانَ مِنْ نَسْلِهِ هَؤُلَاءِ الْعَشْرَةُ الَّذِينَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَصُولُ الْقَبَائِلِ مِنْ عَرَبِ الْيَمَنِ، لَا أَنَّهُمْ وَلِدُوا مِنْ ضَلْبِهِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ الْأَبَوَانِ وَالثَّلَاثَةُ، وَالْأَقْلُ وَالْأَكْثَرُ، كَمَا هُوَ مَقَرَّرٌ مُبَيَّنٌ فِي مَوَاضِعِهِ مِنْ كُتُبِ النَّسَبِ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «فَتَيَّامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ» أَيُّ: بَعْدَ مَا أُرْسِلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ سَبَلُ الْعَرَمِ، مِنْهُمْ مَنْ أَقَامَ بِبِلَادِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَزَحَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا.

[سَدُّ مَارَبٍ وَسَبَلُ الْعَرَمِ]

وَكَانَ مِنْ أَمْرِ السَّدِّ أَنَّهُ كَانَ الْمَاءُ يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْنِ جَبَلَيْنِ، وَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَيْضًا سُيُولُ أَمْطَارِهِمْ وَأَوْدِيَّتِهِمْ، فَعَمِدَ مُلُوكُهُمُ الْأَقَادِمُ، فَبَنَوْا بَيْنَهُمَا سَدًّا عَظِيمًا مُحْكَمًا، حَتَّى ارْتَفَعَ الْمَاءُ وَحَكِيمٌ عَلَى حَافَاتِ ذَيْنِكَ الْجَبَلَيْنِ، فَعَرَسُوا الْأَشْجَارَ وَاشْتَعَلُوا الثَّمَارَ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْحُسْنِ، كَمَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ - مِنْهُمْ قَتَادَةُ -: أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَمْشِي تَحْتَ الْأَشْجَارِ، وَعَلَى رَأْسِهَا مِكَتَلٌ أَوْ زَنْبِيلٌ وَهُوَ الَّذِي تُخْتَرَفُ فِيهِ الثَّمَارُ، فَيَسْقِطُ مِنَ الْأَشْجَارِ فِي ذَلِكَ مَا يَمْلُؤُهُ مِنْ غَيْرٍ أَنْ يُحْتَاجَ إِلَى كُلْفَةٍ، وَلَا قَطَافٍ لِكَثْرَتِهِ وَنُضْجِهِ وَاسْتَوَائِهِ<sup>(٤)</sup>. وَكَانَ هَذَا السَّدُّ بِمَارَبٍ. بَلَدُهُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ ثَلَاثَ مَرَاجِلَ، وَيَعْرِفُ بِسَدِّ مَارَبٍ، وَذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِبِلَادِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الذُّبَابِ وَلَا الْبُعُوضِ وَلَا الْبَرَاعِثِ، وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْهَوَامِّ، وَذَلِكَ لِاعْتِدَالِ الْهَوَاءِ وَصِحَّةِ الْمَزَاجِ، وَعِنَايَةِ اللَّهِ بِهِمْ لِيُؤَحِّدُوهُ وَيَعْبُدُوهُ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسُلَّمٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أَيُّ: مِنْ نَاحِيَّتَيِ الْجَبَلَيْنِ، وَالْبَلَدَةُ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمَ بَلَدَهُ طَيْبَةً وَرَبُّهُ غَفُورٌ﴾ أَيُّ: غَفُورٌ لَكُمْ إِنْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْرِضْهُمْ﴾ أَيُّ: عَنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ

عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي عَنْ سَبَبِ مَا هُوَ: أَرْضٌ أَمْ امْرَأَةٌ؟ قَالَ ﷺ: «لَيْسَ بِأَرْضٍ وَلَا امْرَأَةٍ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ وَلِدَ لَهُ عَشْرَةٌ مِنَ الْوَلَدِ، فَيَتَيَّامَنُ سِتَّةً وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةً، فَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءَمُوا: فَلَحْمٌ، وَجَذَامٌ، وَعَامِلَةٌ، وَعَسَّانٌ، وَأَمَّا الَّذِينَ تَيَّامَنُوا: فَكِنْدَةٌ وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَالْأَزْدُ، وَمَذْحِجٌ وَجَمِيزٌ وَأَنْمَارٌ» فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أَنْمَارٌ؟ قَالَ ﷺ: «الَّذِينَ مِنْهُمْ خَنَعَمٌ وَبَجِيلَةٌ»<sup>(١)</sup> وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ بِإِسْطِ مِنْ هَذَا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٢)</sup>.

قَالَ عُلَمَاءُ النَّسَبِ - مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ -: إِسْمُ سَبَبٍ عَبْدٌ شَمْسٍ بْنُ يَشْجُبَ بْنِ يَغْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ سَبَبًا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَبَّ فِي الْعَرَبِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: الرَّائِشُ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَنَمَ فِي الْعَرَوِ، فَأَعْطَى قَوْمُهُ فَسْمِي الرَّائِشِ، وَالْعَرَبُ تُسَمَّى الْمَالِ رَيْشًا وَرِيَاشًا. وَاخْتَلَفُوا فِي قَحْطَانَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ (أَحَدُهَا) أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ إِرَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ، وَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ اتِّصَالِ نَسَبِهِ بِهِ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ. (وَالثَّانِي) أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ عَابِرَ، وَهُوَ هُوْدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي كَيْفِيَّةِ اتِّصَالِ نَسَبِهِ بِهِ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ أَيْضًا. (وَالثَّلَاثُ) أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ اتِّصَالِ نَسَبِهِ بِهِ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ أَيْضًا. وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ مُسْتَفْصًى الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ النَّمِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى «الْإِنْبَاءَ عَلَى ذِكْرِ أَصُولِ الْقَبَائِلِ الرَّوَّاءِ».

وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «كَانَ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ» يَعْنِي الْعَرَبَ الْعَرَابِيَّةَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ سُلَالَةِ سَامَ بْنِ نُوحٍ، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّلَاثِ كَانَ مِنْ سُلَالَةِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَيْسَ هَذَا بِالْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَكِنْ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِنَقَرَ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ، فَقَالَ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَائَكُمْ كَانُوا رَامِيًا»<sup>(٣)</sup>. فَاسْلَمَ قَبِيلَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - وَالْأَنْصَارُ أَوْسُهَا وَخَزَرَجُهَا مِنْ عَسَّانَ، مِنْ عَرَبِ الْيَمَنِ مِنْ سَبَبٍ - نَزَلُوا بِبَثْرَبَ لَمَّا تَفَرَّقَتْ سَبَبٌ فِي الْبِلَادِ، حِينَ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ سَبَلُ الْعَرَمِ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِالشَّامِ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ: عَسَّانُ بِمَاءٍ نَزَلُوا عَلَيْهِ قِيلَ: بِالْيَمَنِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُسَلَّلِ، كَمَا قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ

(١) الطبري: ٢٠/٣٧٥ (٢) تحفة الأحوزي: ٨٨/٩ (٣) فتح الباري: ٦/٦٢١ (٤) الطبري: ٢٠/٣٧٦

أَيُّ: عَاقِبَتَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَلَا يُعَاقَبُ إِلَّا الْكُفُورُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ لَا يُعَاقَبُ بِمِثْلِ فِعْلِهِ إِلَّا الْكُفُورُ.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَإِيَّامًا ءَامِنِينَ﴾<sup>(٦)</sup> فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ<sup>(٧)</sup>

[تِجَارَةٌ سَبَا وَذَهَابُهَا]

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِنَى وَالْعَيْشِ الْهَيِّ الرِّغْدِ، وَالْبِلَادِ الرَّخِيَّةِ، وَالْأَمَاكِنِ الْآمِنَةِ، وَالْقُرَى الْمُتَوَاصِلَةِ الْمُتَقَارِبَةِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، مَعَ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَزُرُوعِهَا وَثِمَارِهَا، بِحَيْثُ إِنَّ مُسَافِرَهُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حِمْلِ زَادٍ وَلَا مَاءٍ، بَلْ حَيْثُ نَزَلَ وَجَدَ مَاءً وَثَمَرًا، وَيَقِيلُ فِي قَرْيَةٍ وَيَبِيتُ فِي أُخْرَى، بِمُقَدَّارٍ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَيْرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي قُرَى الشَّامِ، يَعْنُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ فِي قُرَى ظَاهِرَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ<sup>(٨)</sup>.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ<sup>(٩)</sup>. ﴿قُرَى ظَاهِرَةً﴾ أَيُّ: بَيِّنَةً وَاضِحَةً يَعْرِفُهَا الْمُسَافِرُونَ يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أَيُّ: جَعَلْنَاهَا بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْمُسَافِرُونَ إِلَيْهِ ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَإِيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أَيُّ: الْأَمْنُ حَاصِلٌ لَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وَقَرَأَ آخَرُونَ: (بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا) وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بَطَرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَأَحْبَبُوا مَقَاوِرَ وَمَهَامَةَ يَحْتَاجُونَ فِي قَطْعِهَا إِلَى الزَّادِ وَالرَّوَاجِلِ، وَالسَّيْرِ فِي الْحُرُورِ وَالْمَخَافِ، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ﴾ أَيُّ: جَعَلْنَاهُمْ حَدِيثًا لِلنَّاسِ وَسَمَرًا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ مِنْ خَبَرِهِمْ، وَكَيْفَ مَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ وَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ

(١) الطبري: ٣٨٠، ٣٧٨/٢٠ (٢) الطبري: ٣٨١/٢٠ (٣)

الطبري: ٣٨١/٢٠ (٤) الطبري: ٣٨٣، ٣٨٢/٢٠ (٥)

البغوي: ٥٥٥/٣ (٦) الطبري: ٣٨٧، ٣٨٦/٢٠ (٧) الطبري:

وَشَكَرَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَدَّلُوا إِلَى عِبَادَةِ الشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ الْهَهُدُ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾<sup>(١٠)</sup> إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكَهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرِشٌ عَظِيمٌ<sup>(١١)</sup> وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَتَمَلَّهْمُ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ<sup>(١٢)</sup>. [النمل: ٢٢، ٢٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الْمُرَادُ بِالْعَرِمِ الْوِيَاءُ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْأِسْمِ إِلَى صِفَتِهِ مِثْلُ مَسْجِدِ الْجَامِعِ وَسَعِيدُ كُرْزٍ، حَكَى ذَلِكَ الشَّيْخِيُّ. وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَرَادَ عُقُوبَتَهُمْ بِإِرْسَالِ الْعَرِمِ عَلَيْهِمْ، بَعَثَ عَلَى السَّدِّ ذَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ يُقَالُ لَهَا: الْجُرْدُ، نَقَبَتُهُ<sup>(١٣)</sup>. قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: وَقَدْ كَانُوا يَجِدُونَ فِي كُنُوبِهِمْ أَنَّ سَبَبَ خَرَابِ هَذَا السَّدِّ هُوَ الْجُرْدُ، فَكَانُوا يَرْصُدُونَ عِنْدَهُ السَّنَائِيرَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ، فَلَمَّا جَاءَ الْقُدْرُ غَلَبَتْ الْقَارُ السَّنَائِيرُ، وَوَلَجَتْ إِلَى السَّدِّ فَنَقَبَتُهُ فَانْهَارَ عَلَيْهِمْ<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: الْجُرْدُ هُوَ الْحِلْدُ، نَقَبَتْ أَسَافِلُهُ حَتَّى إِذَا ضَعُفَ وَوَهَى، وَجَاءَتْ أَيَّامُ السُّيُولِ صَدَمَ الْمَاءُ الْبِنَاءَ فَسَقَطَ، فَانْسَابَ الْمَاءُ فِي أَسْفَلِ الْوَادِي، وَخَرَّبَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَبْنِيَةِ وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ<sup>(١٥)</sup>. وَنَضَبَ الْمَاءُ عَنِ الْأَشْجَارِ الَّتِي فِي الْجَبَلَيْنِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، فَيَسْتَبِقُ وَتَحَطَّمَتْ وَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَشْجَارُ الْمُثْمِرَةُ الْأَيُّمَةُ النَّضِرَةُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَبَلَّلْنَاهُمْ بِمَجْنِيِّ ذَوَاتِهِ أَكُلِ خَمَلٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: وَهُوَ الْأَرَاكُ وَأَكْلُهُ: الْبَرِيرُ<sup>(١٦)</sup>. ﴿وَأَنَّا﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الطَّرْفَاءُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ شَجَرٌ يُشَبِّهُ الطَّرْفَاءَ، وَقِيلَ: هُوَ السَّمُرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَشَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لَمَّا كَانَ أَجُودُ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْمُتَبَدِّلِ بِهَا هُوَ السَّدْرُ قَالَ: ﴿وَشَقَى مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فَهَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَبْيِثِ الْجَنَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْدَ الثَّمَارِ النَّضِيجَةِ، وَالْمَنَاطِرِ الْحَسَنَةِ، وَالظَّلَالِ الْعَمِيقَةِ، وَالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الْأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسَّدْرِ ذِي الشُّوْكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ تُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَيُّ: مِنْ حُجَّةٍ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ لِيُظْهَرَ أَمْرُ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِالْآخِرَةِ وَبِقِيَامِهَا وَالْحِسَابِ فِيهَا وَالْجَزَاءِ، فَيُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أَيُّ: وَمَعَ حِفْظِهِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ، وَبِحِفْظِهِ وَكَلاَمِهِ سَلِمَ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ.

﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٠) وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَهُ حَقُّهُ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢١﴾

### [عَجَزُ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ]

يَبَيِّنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَا تَنْظِيرَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ هُوَ الْمُسْتَقِيلُ بِالْأَمْرِ وَخَدُّهُ، مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ وَلَا مُتَارِعٍ وَلَا مُعَارِضٍ، فَقَالَ: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْإِلَهِاتِ الَّتِي عِبُدَتْ مِنْ دُونِهِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أَيُّ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا اسْتِغْلَالًا وَلَا عَلَى سَبِيلِ الشَّرْكََةِ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أَيُّ: وَلَيْسَ لِلَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ مِنْ ظَهِيرٍ يُسْتَظْهَرُ بِهِ فِي الْأُمُورِ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فُقَرَاءٌ إِلَيْهِ عَبِيدٌ لَدَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَ لَهُ﴾ أَيُّ: لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ لَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ تَعَالَى فِي شَيْءٍ، إِلَّا بَعْدَ إِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي

وَالْأَلْفَةِ وَالْعِشْرِ الْهَنْيءِ، تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ هَهُنَا وَهَهُنَا، وَلِهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ فِي الْقَوْمِ إِذَا تَفَرَّقُوا: تَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَا وَأَيْدِي سَبَا، وَتَفَرَّقُوا شَذَر مَذَر.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَيُّ: إِنَّ فِي هَذَا الَّذِي حَلَّ بِهِؤُلَاءِ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ وَتَبْدِيلِ النِّعْمَةِ وَتَحْوِيلِ الْعَاقِبَةِ، عُقُوبَةً عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْآثَامِ لِعِبْرَةٍ وَدَلَالَةٍ لِكُلِّ عَبْدٍ صَبَّارٍ عَلَى الْمَصَائِبِ شَكُورٍ عَلَى النِّعَمِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ ابْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ، يُؤْجِرُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِيهِ أَمْرَاتِهِ»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»<sup>(٢)</sup>. وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ تَعَالَى لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»<sup>(٣)</sup>. وَعَنْ قَتَادَةَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قَالَ: كَانَ مُطَرِّفٌ يَقُولُ: نِعَمَ الْعَبْدُ الصَّبَّارُ الشَّكُورُ الَّذِي إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ<sup>(٤)</sup>.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُمْ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢٢﴾

### [تَصْدِيقُ إِبْلِيسَ ظَنَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ سَبَا وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي اتِّبَاعِهِمُ الْهَوَى وَالشَّيْطَانَ، أَخْبَرَ عَنْهُمْ وَعَنْ أُمَّتَالِهِمْ مِمَّنِ اتَّبَعَ إِبْلِيسَ وَالْهَوَى وَخَالَفَ الرِّشَادَ وَالْهُدَى، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُهُ<sup>(٥)</sup>: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ حِينَ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِأَدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخْلُتَ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] وَقَالَ: ﴿ثُمَّ لَأَقْتُلَنَّكُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾

(١) أحمد: ١٧٣/١ (٢) النسائي في الكبرى: ٢٦٣/٦ (٣)

فتح الباري: ١٠٧/١٠ (٤) مسلم: ١٩٩٢/٤ (٥) الطبري:

الْبَارِئُ الْكَافِرُ

٤٣١

سُورَةُ سَبَأٍ

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْفِكُمُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِرَ بِهَذَا الْفَرْعِ وَلَا بَالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَو تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾

إِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ ذُوْنَ مُسْلِمٍ (٣) مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ (٤). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٣﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

[لَا شَرِيكَ لِّلَّهِ فِي أَمْرِ مَا]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُقَرَّرًا تَقَرُّدُهُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَإِنْفَرَادَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ أَيْضًا، فَكَمَا كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ لَا يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ - أَيْ بِمَا يُنْزَلُ مِنَ الْمَطَرِ وَيُنْبِتُ مِنَ الزَّرْعِ - إِلَّا اللَّهُ، فَكَذَلِكَ فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(١) فتح الباري: ٢٤٨/٨ ومسلم: ١٨٥/١ (٢) الطبري: ٢٠/٣٩٦ (٣) فتح الباري: ٣٩٨/٨ (٤) أبو داود: ٢٨٨/٤ وتحفة الأحوذى: ٩٠/٩ وابن ماجه: ٦٩/١

الصَّاحِحِينَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَكْبَرُ شَفِيعٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنَّهُ حِينَ يَقُومُ الْمَقَامَ الْمُحْمُودَ، لِيَشْفَعَ فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، أَنْ يَأْتِيَ رَبُّهُمْ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ قَالَ: «فَأَسْجُدْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي، وَيَفْتَحْ عَلَيَّ بِمَحَامِدٍ لَا أَحْصِيهَا الْآنَ، ثُمَّ يَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ تُسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَىٰ، وَاشْفَعْ تُشْفَعَ» (١) الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مَقَامٌ رَفِيعٌ فِي الْعِظَمَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ فَسَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ كَلَامَهُ، أُرْعِدُوا مِنَ الْهَيْبَةِ حَتَّىٰ يَلْحَقُهُمْ مِثْلُ الْغَشْيِ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَسْرُوقٌ وَغَيْرُهُمَا (٢). ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ: زَالَ الْفَزَعُ عَنْهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ، وَالشَّعْبِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ يَقُولُ: خَلَّىٰ عَنْ قُلُوبِهِمْ. وَقَرَأَ بَعْضُ السَّلَفِ، وَجَاءَ مَرْفُوعًا: (إِذَا فُزِعَ) بِالْفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ وَبَزَجُ إِلَى الْأَوَّلِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُ بِذَلِكَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِلَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - لِمَنْ تَحْتَهُمْ - حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَىٰ أَهْلِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ أَيْ: أَخْبَرُوا بِمَا قَالَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا، وَنَسَرَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةً فَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

شَيْءٍ، الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَقَدَّسَ عَمَّا يَقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.  
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

### [بَعَثُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً]

يَقُولُ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي: إِلَّا إِلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْمُكَافِلِينَ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَي: تُبَشِّرُ مَنْ أَطَاعَكَ بِالنَّجَةِ، وَتُنذِرُ مَنْ عَصَاكَ بِالنَّارِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَإِن تُلَاحِظْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خَافُوا أَنْ يُسْأَلُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ يَعْنِي إِلَى النَّاسِ عَامَّةً. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَطْوَعُهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٣)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصْرَتٌ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(٤)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُبْعَثُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ» قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْجِنَّ وَالْإِنْسَ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: يَعْنِي الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ، وَالْكُلَّ صَحِيحٌ.

هَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ أَيِ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ مُبْطِلٌ، وَالْآخِرُ مُحِيقٌ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ وَنَحْنُ عَلَى الْهُدَى أَوْ عَلَى الضَّلَالِ، بَلْ وَاحِدٌ مِّنَّا مُصِيبٌ، وَنَحْنُ قَدْ أَقَمْنَا الْبُرْهَانَ عَلَى التَّوْحِيدِ قَدْ عَلِيَ بُطْلَانُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَأْتُوا بِلَاكُم لَعَلَّ هَٰذِهِ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ قَالَ ذَلِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْمُشْرِكِينَ: وَاللَّهِ مَا نَحْنُ وَإِنَّا كُمْ عَلَى أَمْرِ وَاحِدٍ، إِنَّ أَحَدَ الْقَرِيبَيْنِ لَمُهْتَدٍ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ: مَعْنَاهَا إِنَّا نَحْنُ لَعَلَى هَذِهِ وَإِنَّكُمْ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا تُفْلِحُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا شُئِلَ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مَعْنَاهُ التَّيَرِي مِنْهُمْ، أَي: لَسْتُمْ مِّنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْكُمْ، بَلْ نَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى تَوْحِيدِهِ وَإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ، فَإِنْ أَجَبْتُمْ فَأَنْتُمْ مِّنَّا وَنَحْنُ مِنْكُمْ، وَإِنْ كَذَبْتُمْ فَنَحْنُ بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ بُرَاءٌ مِنَّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكاغرون: ١-٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، أَي: يَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَتَسْتَعْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ لِمَنِ الْعِزَّةُ وَالنُّصْرَةُ وَالسَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْعِدُ بَنَفَرُوكَ﴾ (١) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (٢) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤-١٦] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الْفَاسِقُ الْعَلِيمُ﴾ أَي: الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْفَعْتُمْ بِهِ شِرْكَاءَ﴾ أَي أَرُونِي هَذِهِ الْآلِهَةَ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَصَيَّرْتُمُوهَا لَهُ عِدْلًا ﴿كَلَّا﴾ أَي: لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ، وَلَا نَدِيدٌ، وَلَا شَرِيكٌ، وَلَا عَدِيلٌ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ أَي: الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَي: ذُو الْعِزَّةِ الَّذِي قَدْ فَهَرَ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ وَعَلَبَتْ كُلَّ

(١) الطبري: ٤٠١/٢٠ (٢) الطبري: ٤٠١/٢٠ (٣) الطبري:

٤٠٥/٢٠ (٤) فتح الباري: ٥١٩/١ ومسلم: ٣٧٠/١ (٥)

أحمد: ١٤٥/٥

[سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ وَقْتِ الْقِيَامَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي اسْتِيعَادِهِمْ قِيَامَ السَّاعَةِ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾... [الشورى: ١٨]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعْرِضُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ﴾ أَيْ: لَكُمْ مِيعَادٌ مُؤَجَّلٌ مَعْدُودٌ مُحَرَّرٌ، لَا يُزَادُ وَلَا يُنْقُصُ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا يُؤَخَّرُ سَاعَةً وَلَا يُقَدَّمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [يونس: ١٠٤] يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ النَّفْسُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَسَمِيعٌ [هود: ١٠٤، ١٠٥]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [٣١] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرِينَ [٣٢] وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْآلِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَغْنَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٣٣]

[إِتِّفَاقُ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا عَلَى انْكَارِ الْحَقِّ وَمُشَاجَرَتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَادِي الْكُفَّارِ فِي طُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا، وَمُخْبِرًا عَنْ مَوَاقِفِهِمُ الدَّلِيلَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَالِ تَخَاضُعِهِمْ وَتَحَاجُّجِهِمْ. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لَهُمْ وَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْهُمْ هُمْ قَادَتُهُمْ وَسَادَتُهُمْ﴾ [٣٢] لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ [٣١] أَيْ: لَوْلَا أَنْتُمْ تَصُدُّونَا لَكُنَّا آتِبِعَا الرُّسُلِ وَأَمَّا بِمَا جَاءُونَا بِهِ، فَقَالَ لَهُمُ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَهُمْ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: ﴿أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ أَيْ: نَحْنُ مَا فَعَلْنَا بِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنْتُمْ دَعَوَانَاكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَا مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، وَخَالَفْتُمُ الْأَوَّلَةَ وَالْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَ

الْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَ ٤٣٢  
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرِينَ [٣٢] وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْآلِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَغْنَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٣٣] وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [٣٤] وَقَالُوا أَنْتُمْ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ [٣٥] قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [٣٦] وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ لِّصَٰغِفٍ يَعْمَلُونَ وَأَهُمْ فِي الْغُرُفَةِ آمِنُونَ [٣٧] وَالَّذِينَ سَعَوْنَ فِي عَابَتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ [٣٨] قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ [٣٩]

الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ، لِشَهَوَتِكُمْ وَاخْتِيَارِكُمْ لِدَلِّكَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرِينَ﴾ [٣٢] وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْآلِيلِ وَالنَّهَارِ [٣٢] أَيْ: بَلْ كُنْتُمْ تَمْكُرُونَ بِنَا لَيْلًا وَنَهَارًا وَتَغْرُونَنَا وَتُمْنُونَنَا وَتُخْبِرُونَنَا أَنَّا عَلَى هُدًى وَأَنَا عَلَى شَيْءٍ، فَإِذَا جَمِيعُ ذَلِكَ بَاطِلٌ وَكَذِبٌ وَمِثْنٌ. قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿بَلْ مَكْرُ الْآلِيلِ وَالنَّهَارِ﴾ يَقُولُ: بَلْ مَكْرُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: مَكْرُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ<sup>(٢)</sup>. [إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا] أَيْ: نُنْظَرُ إِلَيْهِ وَنُحَاوِلُهُ مَعَهُ، وَنُتَقِيمُ لَنَا شُبُهَاتِهَا وَأَشْيَاءَ مِنَ الْمُحَالِ نُضِلُّونَهَا بِهَا [وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ] أَيْ: الْجَمِيعُ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَتْبَاعِ كُلُّ نَذَمٍ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ [وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلَّ فِي أَغْنَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا] وَهِيَ السَّلَاسِلُ الَّتِي تَجْمَعُ أَيْدِيَهُمْ مَعَ أَغْنَائِهِمْ [هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] أَيْ: إِنَّمَا نَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ: كُلُّ

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ أَي: افْتَحَرُوا بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ وَاعْتِنَائِهِ بِهِمْ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ لِيُعْطِيَهُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُعَذِّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَنَبِينَ ﴿٥٦﴾ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦، ٥٥] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تُصِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهَدَاءَ ﴿١٣﴾ وَوَهَّدْتُ لَهُ تَہْبِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنَّهُ أُزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّمَا كَانَ لَابِتًا كَعِندَا سَاطِرِمْ مَعُودًا ﴿١٦﴾ [المدثر: ١١-١٧] وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ صَاحِبِ تَيْبِكَ الْجَنَّتَيْنِ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ وَتَمَرٍ وَوَلَدٍ، ثُمَّ لَمْ يُعْنِ عَنْهُ شَيْئًا، بَلْ سَلِبَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا: ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَي: يُعْطِي الْمَالَ لِمَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، فَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعْنِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحُكْمَةُ النَّامَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ الدَّامِغَةُ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ أَي: لَيْسَتْ هَذِهِ دَلِيلًا عَلَى مَحَبَّتِنَا لَكُمْ وَلَا اِغْتِنَانًا بِكُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٤)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَي: إِنَّمَا يُقَرَّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى: الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَي: تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرَةٍ أَشْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ أَي: فِي مَنَازِلِ الْجَنَّةِ الْعَالِيَةِ آمِنُونَ: مِنْ كُلِّ بَأْسٍ، وَخَوْفٍ، وَأَذَى، وَمِنْ كُلِّ شَرٍّ يُحْذَرُ مِنْهُ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ

بِحَسْبِهِ لِلْقَادَةِ عَذَابٌ بِحَسْبِهِمْ، وَلِلْأَتْبَاعِ بِحَسْبِهِمْ ﴿قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا سَبَقَ إِلَيْهَا أَهْلُهَا تَلَقَّاهُمْ لَهَيْهَا، ثُمَّ لَفَحَتْهُمْ لَفْحَةً فَلَمْ يَبْقَ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَى الْغُرُفِ»<sup>(١)</sup>. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٤٠﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْتَ بِشَيْءٍ فَهْوٌ يُخَفِّفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [تَكْذِيبُ الْمُتَرَفِّعِينَ بِالرُّسُلِ وَاعْتِرَازُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ وَأَمِيرًا لَهُ بِالنَّاسِ بِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ، وَمُخْبِرَهُ بِأَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي قَرْيَةٍ إِلَّا كَذَّبُوه مُتْرَفُوهَا وَاتَّبَعُوهُ ضَعْفًا وَهُمْ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «أَتُؤْمِنُ لَكَ وَأَتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ» [الشعراء: ١١١] «وَمَا زِلْنَاكَ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الْأَرَايِ» [هود: ٢٧] وَقَالَ الْكُبَرَاءُ مِنْ قَوْمٍ صَالِحٍ: «لِلَّذِينَ أَنْتَضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ أَنْتَ صَالِحًا تُرْسِلُ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أَي: نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وَهُمْ أُولُوا النِّعْمَةِ وَالْحُسْمَةِ، وَالزُّرُوعُ وَالرِّيَاسَةُ. قَالَ قَتَادَةُ: هُمْ جَبَّارِيَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وَرُؤُوسُهُمْ فِي الشَّرِّ<sup>(٢)</sup>. ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أَي: لَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَتَّبِعُهُ. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُتَرَفِّعِينَ الْمُكَذِّبِينَ:

(١) الحلية: ٣٦٣/٤ إسناده ضعيف المعجم الأوسط للطبراني (٩٣٦٥، ٢٧٨) فيه محمد بن سليمان الأصهباني قال الهيثمي في المجمع ٣٨٩/١٠ وفيه محمد بن سليمان الأصهباني وهو ضعيف" (٢) الطبري: ٤٠٩/٢٠ (٣) أحمد: ٥٣٩/٢ (٤) مسلم: ١٩٨٧/٤ وابن ماجه: ١٣٨٨/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٣

سُورَةُ سَبَأٍ

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمَاعَتُهُمْ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَا إِلَهَ إِلَّا كَرُّ كَانُوا  
 يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا  
 يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَوْ لَا إِلَهٌ إِلَّا  
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ  
 النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نَتَلَى عَلَيْهِمْ ءِتَيْنَا يَدَنَا  
 قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ  
 وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا  
 جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْخَرْتُمِينَ ﴿٤٣﴾ وَمَاءَ لَيْسَهُمْ مِنْ كُتُبٍ  
 يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ بَلَدًا مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ  
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا لَيْسَ لَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِيَّ  
 فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ  
 تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ شَيْءٍ وَفَرَدَيْ ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ  
 مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾  
 قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى  
 كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعَرَفًا تَرَى ظُهُورَهَا مِنْ  
 بَطُونِهَا، وَبَطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: لِمَنْ هِيَ؟  
 قَالَ ﷺ: «لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ  
 الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي: يَسْعَوْنَ فِي  
 الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ وَالتَّصَدِيقِ بِآيَاتِهِ ﴿قَالُوا لَيْتَكُمُ  
 فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: جَمِيعُهُمْ مُجْرِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ فِيهَا  
 بِحَسَبِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ  
 عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: بِحَسَبِ مَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ  
 الْحِكْمَةِ، يَسْطُرُ عَلَى هَذَا مِنَ الْمَالِ كَثِيرًا، وَيَضِيقُ عَلَى  
 هَذَا، وَيَقْتُرُ عَلَى هَذَا رِزْقَهُ جِدًّا. وَلَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ  
 مَا لَا يُدْرِكُهَا غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا  
 بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَهُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾  
 [الاسراء: ٢١] أي: كَمَا هُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي الدُّنْيَا: هَذَا فَخِيرٌ  
 مُدْقِعٌ، وَهَذَا غَنِيٌّ مُوسِعٌ عَلَيْهِ، فَكَذَلِكَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ:  
 هَذَا فِي الْعُرْفَاتِ فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، وَهَذَا فِي الْعَمَرَاتِ  
 فِي أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ. وَأَطْيَبَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا كَمَا  
 قَالَ ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرَزَقَ كَفَافًا، وَقَتَّعَهُ اللَّهُ بِمَا  
 آتَاهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي:  
 مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَأَبَاحَهُ لَكُمْ، فَهُوَ  
 يُخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْبَدَلِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَزَاءِ  
 وَالتَّوَابِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْفَقُوا،  
 أَنْفَقُوا عَلَيْكُمْ»<sup>(٣)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَلَكَئِينَ يُصْبِحَانِ كُلَّ يَوْمٍ  
 يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ:  
 اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْفَقُوا  
 بِلَالًا! وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَاحًا»<sup>(٥)</sup>.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمَاعَتُهُمْ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَا إِلَهَ إِلَّا كَرُّ كَانُوا  
 يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ  
 الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَوْ لَا إِلَهٌ إِلَّا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ  
 نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا  
 تَكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾

[بِرَأَاةِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ عَابِدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُقَرَّرُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ  
 الْخَلَائِقِ، فَيَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانُوا الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ

أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِهِمْ، لِيُقَرَّبُوهُمْ إِلَى  
 اللَّهِ زُلْفَى، فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَهْلُوا لَا إِلَهَ إِلَّا كَرُّ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾  
 أي: أَنْتُمْ أَمَرْتُمْ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَتِكُمْ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ  
 الْفُرْقَانِ: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا  
 السَّبِيلَ﴾ وَكَمَا يَقُولُ لِيَعْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ءَأَنْتَ  
 قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُنِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا  
 يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] وَهَكَذَا  
 تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: تَعَالَيْتَ وَتَقَدَّسْتَ عَنْ أَنْ  
 يَكُونَ مَعَكَ إِلَهٌ ﴿أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي: نَحْنُ عِبِيدُكَ،

(١) ابن أبي شيبة: ٤٣٧/٨ فيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفي  
 وهو ضعيف لكن الحديث حسن لشواهد وفيها حديث أبي مالك  
 الأشعري عند أحمد ٣٤٣/٥ وحديث عبد الله بن عمرو عند  
 الحاكم ٨٠/١. (٢) مسلم: ٧٣٠/٢ (٣) مسلم: ٦٩١/١

(٤) مسلم: ٧٠٠/١ (٥) الطبراني: ١٩١/١٠ عند الطبراني من  
 حديث ابن مسعود فيه قيس بن الربيع ضعفه وعند الطبراني الكبير  
 وأبي يعلى في مسنده وأبي نعيم في الحلية من حديث بلال في ابن  
 زبالة وهو ضعيف.



إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعَدَّةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [الأحقاف: ٢٦]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] أَيْ: وَمَا دَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَلَا رَدَّهُ، بَلْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَذَّبُوا رَسُولًا فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَيْ: فَكَيفَ كَانَ عِقَابِي وَنَكَالِي وَأَنْتَصَارِي لِرُسُلِي. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

[طريق الفضل فيما رموا به النبي ﷺ من الجحون] يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ! لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الرَّاعِمِينَ أَنَّكَ مَجْنُونٌ: ﴿إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَمَرُكُمْ بِوَاحِدَةٍ وَهِيَ: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أَيْ: تَقُومُوا قِيَامًا خَالِصًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ غَيْرِ هَوًى وَلَا عَصِيَّةٍ، فَيَسْأَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا هَلْ بِمُحَمَّدٍ مِنْ جُنُونٍ. فَيَنْصَحُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيْ: يَنْظُرُ الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَسْأَلُ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ عَنْ شَأْنِهِ إِنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ، وَتَتَفَكَّرُ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ هَذَا مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ ابْنُ كَعْبٍ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصُّفَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهُ! فَاجْتَمَعْتَ إِلَيَّ فَرِيضٌ، فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ ﷺ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَّ لَكَ أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يُدَىٰ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾<sup>(٤)</sup> وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

وَتَبَّرَ إِلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ زَيَّنُوا لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأَصْلُوهُمْ ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧، ١١٨] قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أَيْ: لَا يَقَعُ لَكُمْ نَفْعٌ وَمِمَّنْ كُنْتُمْ تَرْجُونَ نَفْعَهُ الْيَوْمَ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي ادَّخَرْتُمْ عِبَادَتَهَا لِشِدَائِدِكُمْ وَكُرْبِكُمْ، الْيَوْمَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا ﴿وَقَوْلُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمْ أَنبَاءٌ يَنْتَبِهُوا قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولًا فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

### [أقوال الكفار في الأنبياء والرؤد عليهم]

يُخْبِرُ اللَّهُ عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يَسْتَحْقُونَ مِنْهُ الْعُقُوبَةَ وَالْأَلِيمَ مِنَ الْعَذَابِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ يَبْتَاطِ بِسَمْعِهَا غَضَةً طَرِيَّةً مِنْ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ﴾ يَعْنُونَ أَنَّ دِينَ آبَائِهِمْ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ عَنْدهُمْ بَاطِلٌ، عَلَيْهِمْ وَعَلَى آبَائِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ﴾ يَعْنُونَ الْقُرْآنَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أَيْ: مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى الْعَرَبِ مِنْ كِتَابٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ وَمَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقَدْ كَانُوا يَوَدُّونَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ: لَوْ جَاءَنَا نَذِيرٌ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْ غَيْرِنَا، فَلَمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كَذَّبُوهُ وَجَحَدُوهُ وَعَانَدُوهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: مِنْ الْأُمَمِ ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَيْ: مِنَ الْقُوَّةِ فِي الدُّنْيَا<sup>(١)</sup>. وَكَذَلِكَ قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٢)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي مَا

(١) الطبري: ٤١٦/٢٠ (٢) الطبري: ٤١٦/٢٠، ٤١٧، ٤١٨ (٣)

الطبري: ٤١٨/٢٠ (٤) فتح الباري: ٤٠٠/٨

[الشعرا: ٢١٤].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧) ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) ﴿قُلْ إِنْ ضَلَّكُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥٠)

[لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا عَلَى الْبَلَاغِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أَيُّ: لَا أُرِيدُ مِنْكُمْ جُعْلًا وَلَا عَطَاءً عَلَىٰ آدَاءِ رِسَالَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكُمْ وَتُضْجِي إِيَّاكُمْ وَأَمْرُكُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ ﴿إِنْ أَجَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا أَطْلُبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيُّ: عَلِيمٌ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ إِنْجَارِي عَنْهُ بِإِزَالِهِ إِيَّايَ إِلَيْكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] أَيُّ: يُرْسِلُ الْمَلَكَ إِلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهُوَ عَلَامُ الْغُيُوبِ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أَيُّ: جَاءَ الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ وَالشَّرْعُ الْعَظِيمُ، وَذَهَبَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ وَاضْمَحَلَّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَوَجَدَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ مَنْصُوبَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ، جَعَلَ يَطْعُنُ الصَّنَمَ مِنْهَا بِسِيَةِ قَوْسِهِ وَيَقْرَأُ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الأنبياء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَحَدَّثَهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ (١).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَّكُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ أَيُّ: الْخَيْرُ كُلُّهُ مِنْ [عِنْدِ اللَّهِ]، وَفِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْوَحْيِ وَالْحَقُّ الْمُبِينُ؛ فِيهِ الْهُدَى وَالْبَيَانُ وَالرَّشَادُ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سُئِلَ عَنْ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ فِي الْمَوْضِعِ: أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بِرِيئَانٍ مِنْهُ (٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩) ﴿قُلْ إِنْ ضَلَّكُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١) ﴿وَقَالُوا أَمْنَابِهِ وَاتَّقِ لَهُمُ التَّنَاوُشَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْأَغْيَابِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (٥٤)

سُورَةُ سَبَأٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ كَرِيسًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَتْنًى وَتِلْكَ رُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَتَّخِذُ النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَزِرُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ (٣)

أَيُّ: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ، وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ هَاهُنَا حَدِيثَ أَبِي مُوسَى الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا مُجِيبًا» (٣).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١) ﴿وَقَالُوا أَمْنَابِهِ وَاتَّقِ لَهُمُ التَّنَاوُشَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْأَغْيَابِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (٥٤)

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَلَوْ تَرَىٰ يَا مُحَمَّدُ، إِذْ فَرَغَ هَؤُلَاءِ الْمُكَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا قُوَّةَ أَيُّ فَلَا مَفْرَ لَهُمْ وَلَا وَزَرَ

(١) فتح الباري: ٢٥٢/٨ ومسلم: ١٤٠٩/٣ وتحفة الأحوذى: ٥٧٣/٨ والنسائي في الكبرى: ٤٨٣/٦ (٢) أبو داود: ٥٨٩/٢ (٢١١٦) مسند أحمد ٤٤٧/١ ابن حبان (٤١٠١) ليست فيه علة دون تدليس قتادة (٣) النسائي في الكبرى: ٤٣٨/٦ وفتح الباري: ١٥٧/٩ ومسلم: ٢٠٧٦/٤

وَالصَّحِیحُ أَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، فَإِنَّهُ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا طَلَبُوهُ فِي الْآخِرَةِ فَمُنِعُوا مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا قَوْلَ بِأَسْبَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: كَمَا جَرَى لِلْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذَّبَةِ بِالرُّسُلِ لَمَّا جَاءَهُمْ بِأَسْمِ اللَّهِ تَمَنُّوا أَنْ لَوْ آمَنُوا فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْمًا قَالُوا ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَمَ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْمًا سَكَتَ اللَّهُ أَلْقَى قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ. [غافر: ٨٥] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُذِيبٍ﴾ أَيْ: كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ، فَلِهَذَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ الْإِيْمَانُ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ، قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّا كُنْمْ وَالشَّكُّ وَالرَّيْبَةُ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى شَكٍّ بُعِثَ عَلَيْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى يَقِينٍ بُعِثَ عَلَيْهِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبَأٍ، وَاللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤَفَّقُ لِلصَّوَابِ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولُوعَاجِمَةٍ مَتْنٌ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ بَزِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[ذِكْرُ قُدْرَةِ اللَّهِ]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ لَا أَذْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى أَتَانِي أَغْرَابِيَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بَيْتٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَنَا فَطَرْتُهَا أَيْ بَدَأْتُهَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيُّضًا: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الصَّحَّاحُ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ: خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَاعِلِ

لَهُمْ وَلَا مَلْجَأَ﴾ وَأُخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أَيْ: لَمْ يُمَكِّنُوا أَنْ يُنْعَمُوا فِي الْهَرَبِ، بَلْ أُخَذُوا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ. قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: حِينَ خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ<sup>(٤)</sup>. ﴿وَقَالُوا ءَمَنَّا بِهِ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ: ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُتَجَرِّمُونَ نَاكَشُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَهُمُ النَّشْأَةَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ: وَكَيْفَ لَهُمْ تَعَاطِي الْإِيْمَانِ وَقَدْ بَعُدُوا عَنْ مَحَلِّ قَبُولِهِ مِنْهُمْ، وَصَارُوا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ لَا دَارُ الْإِيْتِلَاءِ، فَلَوْ كَانُوا آمَنُوا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ ذَلِكَ نَافِعَهُمْ وَلَكِنْ بَعْدَ مَصِيرِهِمْ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى قَبُولِ الْإِيْمَانِ، كَمَا لَا سَبِيلَ إِلَى حُصُولِ الشَّيْءِ لِمَنْ يَتَنَاوَلُهُ مِنْ بَعِيدٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَإِنَّ لَهُمُ النَّشْأَةَ﴾ قَالَ: النَّشْأُوعَ لِدَلِكِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: النَّشْأُوعَ: تَنَاوَلُهُمُ الْإِيْمَانُ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَقَدْ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ الدُّنْيَا. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: أَمَّا إِنَّهُمْ طَلَبُوا الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ لَا يُتَالُ، تَعَاطَوْا الْإِيْمَانُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: كَيْفَ يَحْصُلُ لَهُمُ الْإِيْمَانُ فِي الْآخِرَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قَالَ: بِالظَّنِّ، (قُلْتُ): كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّمَا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] فَتَارَةً يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: كَاهِنٌ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: سَاحِرٌ، وَتَارَةً يَقُولُونَ: مَجْنُونٌ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْبُعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْمَعَادِ وَيَقُولُونَ: ﴿إِنْ نَطُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَنَبِّئِينَ﴾ [الجن: ٣٢] قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ: يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ لَا بُعْثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ وَالصَّحَّاحُ وَغَيْرُهُمَا: يَعْنِي الْإِيْمَانُ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿رَجِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وَهِيَ التَّوْبَةُ<sup>(٨)</sup>. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَزَهْرَةٍ وَأَهْلٍ<sup>(٩)</sup>. وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ ابْنِ عُمرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَالرَّبِيعِ ابْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ الْبُخَارِيِّ وَجَمَاعَةٍ،

(١) الطبري: ٤٢٣/٢٠ (٢) الدر المنثور: ٧١٤/٦ (٣) الطبري: ٤٢٩/٢٠ (٤) الطبري: ٤٣٠/٢٠ (٥) الدر المنثور: ٧١٥/٦ (٦) الطبري: ٤٣١/٢٠ (٧) الدر المنثور: ٣/٧ (٨) الدر المنثور: ٣/٧ رواه أبو عبيد في فضائله (٣٤٥) والبيهقي في الشعب (١٦٨٢) فيه سفيان الثوري وهو مدلس ولم يصح إبراهيم بن مهاجر ضعيف يعتبر به انظر [تحرير تقريب التهذيب] (٩) الدر المنثور: ٣/٧

الجزء الثاني والعشرون

६३०

سُورَةُ فَطٰرٍ

وَأَن يَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَع الْأُمُورُ  
**(٤)** يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا  
لَا تَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ **(٥)** إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاخْذُوا  
عُدُوًّا وَإِنَّمَا عُدُوٌّ حَزْبُهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ **(٦)** الَّذِينَ  
كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ  
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ **(٧)** أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا  
فَإِنَّمَا إِلَهُ الْبَشَرِ مُبْتَلٍ **(٨)** وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ  
الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فَيُسْقِيهِ إِلَى بَلَدٍ مَّيْتٍ فَأُحْيِيَنَاهُ ۖ الْأَرْضُ بَعْدَ  
مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْبُشُورُ **(٩)** مَن كَانَ يَرْذُئِ الْغَرَّةَ فَلِلَّهِ الْغَرَّةُ جَمِيعًا  
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ  
يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْورُ  
**(١٠)** وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا  
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ  
وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ **(١١)**

[دَلِيلُ التَّوْحِيدِ]

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ عَلَى تَوْحِيدِهِ فِي إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ، كَمَا أَنَّهُ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، فَكَذَلِكَ فَلْيَمُزِّدْ بِالْعِبَادَةِ وَلَا يُشْرِكْ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْتَانِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّابِ تُؤَفِّكُونَ﴾ أَيُّ: فَكُنْتَ تُؤَفِّكُونَ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ، وَوَضُوحَ هَذَا الْبُرْهَانِ، وَأَنْتُمْ بَعْدَ هَذَا تَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْتَانِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١)  
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ  
يَا اللَّهَ الْعَزِيزُ (٢) إِنَّ السَّاطِنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا  
حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٣)

(١) فتح الباري: ٣٦١/٦ (٢) الدر المشثور: ٤/٧ (٣) أحمد:  
٢٥٠/٤ (٤) فتح الباري: ٣٧٨/٢، ١٣٧/١، ٥٢١ ومسلم:  
٤١٥، ٤١٤/١ (٥) مسلم: ٣٤٧/١

الْمَلِكَةِ سُلَامًا أَي: بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ ﴿أُولَئِكَ أَجْنَحُ﴾ أَي: يَطِيرُونَ بِهَا لِيَلْبِغُوا مَا أُمِرُوا بِهِ سَرِيعًا ﴿مَتَى وَتِلْكَ وَرُبَّ﴾  
 أَي: مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي  
 الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ  
 الْإِسْرَاءِ وَلَهُ سِتْمَاةٌ جَنَاحَ، بَيْنَ كُلِّ جَنَاحَيْنِ كَمَا بَيْنَ  
 الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ <sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَرِيدُ فِي  
 الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَرِيدُ فِي  
 الْأَجْنَحَةِ وَخَلْقَهَا مَا يَشَاءُ <sup>(٢)</sup>.

ج اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا تُؤْسِكْ لَهُا وَمَا يُؤْسِكْ فَلَا  
مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾  
[لَا تُؤْسِكْ لِرَحْمَةِ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعَ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَرَادٍ مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: اكْتُبْ لِي بِمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِدَاعِي الْمَغِيرَةَ فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اَللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» وَسَمِعْتُهُ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَعَنْ وَأَدِ الْبَنَاتِ، وَعَقُوقِ الْأُمَّهَاتِ، وَمَنَعَ وَهَاتِ<sup>(٣)</sup>. وَأَخْرَجَاهُ مِنْ طَرَفِ<sup>(٤)</sup>. وَتَبَتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اَللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اَللَّهُمَّ أَهْلَ النَّاءِ وَالْمَحْدِ! أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُنَّا لَكَ عَبْدُ، اَللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»<sup>(٥)</sup> وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] وَلَهَا نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ.

﴿يَبَايَأُ النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ يَرْفُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْفِقُوا﴾

تَوْفَكُور

[التَّسْلِيَةُ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِ وَالنَّبِيَةِ عَلَى الْمَعَادِ]  
يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ! هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ وَيُخَالِفُونَكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، فَلَكَ فِيمَنْ سَلَفَ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ أَسُوءَ، فَإِنَّهُمْ كَذَبَكَ جَاؤُوا قَوْمَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَمَرُوهُمْ بِالتَّوْحِيدِ فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ ﴿وَالِإِلَهِ اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورُ﴾ أَيُّ: وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أَيُّ: الْمَعَادَ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ ﴿فَلَا تَعْرِضْكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالنَّبِيَّةِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَاتَّبَاعِ رُسُلِهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، فَلَا تَتَلَهَّوْا عَنْ ذَلِكَ الْبَاقِي بِهَذِهِ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وَهُوَ الشَّيْطَانُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا<sup>(١)</sup>: أَيُّ: لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ وَيَضُرِّفَنَّكُمْ عَنْ اتِّبَاعِ رُسُلِ اللَّهِ وَتَصْدِيقِ كَلِمَاتِهِ، فَإِنَّهُ غَرَارٌ كَذَابٌ أَفَّاكٌ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالْآيَةِ الَّتِي فِي آخِرِ لَقْمَانَ ﴿فَلَا تَعْرِضْكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِابْنِ آدَمَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أَيُّ: هُوَ مُبَارِزٌ لَكُمْ بِالْعَدَاوَةِ فَعَادُوهُ أَنْتُمْ أَشَدُّ الْعَدَاوَةِ، وَخَالِفُوهُ وَكَذَّبُوهُ فِيمَا يَغُرُّكُمْ بِهِ ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَقْضُدُ أَنْ يُضِلَّكُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا مَعَهُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ، فَهَذَا هُوَ الْعَدُوُّ الْمُبِينُ نَسَأَلُ اللَّهَ الْقَوِيَّ الْعَزِيزُ أَنْ يَجْعَلَنَا أَعْدَاءَ الشَّيْطَانِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَ كِتَابِ اللَّهِ، وَالْإِفْتَاءَ بِطَرِيقِ رَسُولِهِ، إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ بِلَاطِقِ الْأَبْصَارِ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٧﴾ أَقَمْنِ زَيْنَ لَمْ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

### [جَزَاءُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْمَعَادِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ اتِّبَاعَ إِبْلِيسَ مَصِيرُهُمْ إِلَى السَّعِيرِ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ: أَنَّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ وَعَصَوْا الرَّحْمَنَ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أَيُّ: لِمَا كَانَ

مِنْهُمْ مِنْ ذَنْبٍ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ عَلَى مَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقَمْنِ زَيْنَ لَمْ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا﴾ يَعْنِي كَالْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا سَيِّئَةً، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْتَقِدُونَ وَيَحْسُبُونَ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أَيُّ: أَقَمْنِ كَانَ هَكَذَا قَدْ أَضَلَّهُ اللَّهُ أَلَمْ يَكُنْ فِيهِ حِيلَةٌ؟ لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ: بِقَدَرِهِ كَانَ ذَلِكَ ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ أَيُّ: لَا تَأْسَفْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ فِي قَدَرِهِ، إِنَّمَا يُضِلُّ مَنْ يُضِلُّ وَيَهْدِي مَنْ يَهْدِي، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ وَالْعِلْمِ التَّامِّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِي سَحَابًا فَسَفَنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُقْصِرُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

### [دَلِيلُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

كَثِيرًا مَا يَسْتَدِلُّ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِأَحْيَائِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا - كَمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَجِّ - يُبَيِّنُهُ عِبَادَهُ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِهَذَا عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ مَيِّتَةً هَامِدَةً لَا تَبَاتُ فِيهَا، فَإِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهَا السَّحَابُ تَحْمِلُ الْمَاءَ وَأَنْزَلَهُ عَلَيْهَا ﴿أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥] كَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْثَهَا وَشُورَهَا، أُنْزِلَ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مَطَرًا يَعُمُّ الْأَرْضَ جَمِيعًا، وَتَبَّتْ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا تَبَّتْ الْحَبَّةُ فِي الْأَرْضِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبُ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يَرْكَبُ»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ وَفِي حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ ﷺ: «يَا أَبَا رَزِينٍ! أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي قَوْمِكَ مُمَجَّلًا، ثُمَّ مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ ﷺ: «فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى»<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبري: ٤٣٨/٢٠ (٢) مسلم: ٢٢٧١/٤ (٣) أحمد: ٤/١٢ فيه وكيع بن عدس مجهول الحال

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ رُدَّ كَلَامُهُ عَلَى عَمَلِهِ، فَكَانَ أَوَّلَى بِهِ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: هُمُ الْمُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ<sup>(٧)</sup>. يَعْنِي يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ يُوْهِمُونَ أَنَّهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ بُعْضَاءُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾ أَيْ: يَفْسُدُ وَيَبْطُلُ وَيَطْهَرُ زَيْفُهُمْ عَنْ قَرِيبٍ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَاللَّهَى، فَإِنَّهُ مَا أَسْرَ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى صَفْحَاتٍ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتٍ لِسَانِهِ، وَمَا أَسْرَ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ تَعَالَى رِدَاءَهَا، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرٌ وَإِنْ شَرًّا فَفَشَرٌ، فَالْمُرَائِي لَا يَرُوجُ أَمْرُهُ وَيَسْتَمِرُّ إِلَّا عَلَى غَيْبٍ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَمَرِّسُونَ فَلَا يَرُوجُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، بَلْ يَنْكَشِفُ لَهُمْ عَنْ قَرِيبٍ. وَعَالِمُ الْغَيْبِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ حَافِيَةٌ.

[اللَّهُ خَالِقٌ وَعَلَامٌ لِلْغُيُوبِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أَيْ: ابْتَدَأَ خَلَقَ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أَيْ: ذَكَرًا وَأُنْثَى، لُطْفًا مِنْهُ وَرَحْمَةً أَنْ جَعَلَ لَكُمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِكُمْ لِيَسْكُنُوا إِلَيْهَا. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أَيْ: هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَظُنُّهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَافِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى [الرعد: ٨، ٩].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ شَيْءٌ وَلَا يَخْفَى مِنْ عِزِّهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أَيْ: مَا يُعْطَى بَعْضُ النُّطْفِ مِنَ الْعُمَرِ الطَّوِيلِ يَعْلَمُهُ وَهُوَ عِنْدَهُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ﴿وَلَا يَخْفَى مِنْ عِزِّهِ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْجَنَسِ لَا عَلَى الْعِنِ، لِأَنَّ

[مَنْ يُرِدِ الْعِزَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْزِجْ الْعَزِيزُ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أَيْ: مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلْيَلْزَمْ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكُفْرَانَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَبْتُغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥] وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَفِيعِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أَيْ: فَلْيَتَعَزَّزْ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٢)</sup>.

[الْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ يَرْفَعُ إِلَى اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يَعْنِي الذِّكْرُ وَالْتِلَاوَةُ وَالِدُعَاءُ. قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْمُخَارِقِ بْنِ سُلَيْمٍ قَالَ: قَالَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : إِذَا حَدَّثْنَاكُمْ بِحَدِيثٍ أَتَيْنَاكُمْ بِتَصْدِيقِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إِذَا قَالَ: شُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ، أَخَذَهُنَّ مَلَكٌ فَجَعَلَهُنَّ تَحْتَ جَنَاحِهِ ثُمَّ صَعِدَ بِهِنَّ إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يَمُرُّ بِهِنَّ عَلَى جَمْعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا اسْتَغْفَرُوا لِقَائِلِهِنَّ حَتَّى يَجِيءَ بِهِنَّ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾<sup>(٣)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَهْلِيلِهِ، يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ لَهُنَّ دَوِيُّ كَدَرِي النَّحْلِ، يَذْكُرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ بِهِ»<sup>(٤)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى، يُصْعَدُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ أَدَاءُ الْقَرِيبَةِ، فَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى فِي أَدَاءِ فَرَائِضِهِ حَمَلَ عَمَلَهُ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى يَصْعَدُ بِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ

(١) الطبري: ٤٤٣/٢٠ (٢) الطبري: ٤٤٤/٢٠ (٣) الطبري: ٤٤٤/٢٠ (٤) إسناؤه ضعيف فيه مخارق بن سليمان الشيباني وابنه مجهولا الحال (٥) أحمد: ٢٦٨/٤ (٥) ابن ماجه: ٢/١٢٥٢ (٦) الطبري: ٤٤٥/٢٠ (٧) الطبري: ٤٤٧/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٦

وَمَا يَسْتَوِي

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا  
 مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ  
 حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ  
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ  
 النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي  
 لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ  
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ  
 تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا يَسْمَعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ  
 وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ  
 ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ  
 الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾  
 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ  
 تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانُوا ذَاقِرِي  
 إِيْمَانٍ نَذِيرٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
 وَمِنْ تَرَكٍ فَاِتِّمَاءُ تَرَكَ لِنَفْسِهِ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

الشُّنُ الْكِبَارُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَالِحَةً زُعَافًا مُرَّةً، وَلِهَذَا قَالَ:  
 ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مُرٌّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ  
 تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يَعْنِي السَّمَكُ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً  
 تَلْبَسُونَهَا﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الذُّلُوزُ  
 وَالْمَرْجَاتُ﴾ ﴿١٢﴾ وَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٢، ٢٣]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ﴾ أي:  
 تَمَحْرُهُ وَتَشْفُهُ بِحُزُومِهَا وَهُوَ مُقَدَّمُهَا الْمُسَمَّى الَّذِي يُشْبِهُ  
 جَوْجُو الطَّيْرِ وَهُوَ صَدْرُهُ، وَقَالَ مَجَاهِدٌ: تَمَحْرُ الرِّيحِ  
 الشُّنُّ وَلَا يَمَحْرُ الرِّيحُ مِنَ الشُّنِّ إِلَّا الْعِظَامُ وَقَوْلُهُ جَلَّ  
 وَعَلَا: ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: بِأَسْفَارِكُمْ بِالتَّجَارَةِ مِنْ قُطْرِ  
 إِلَى قُطْرٍ وَإِفْلِيمٍ إِلَى إِفْلِيمٍ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي:  
 تَشْكُرُونَ رَبَّكُمْ عَلَى تَسْخِيرِهِ لَكُمْ هَذَا الْخَلْقَ الْعَظِيمَ، وَهُوَ

الطَّوِيلُ الْعُمَرُ فِي الْكِتَابِ وَفِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَنْقُصُ مِنْ  
 عُمُرِهِ. وَرَوَى مِنْ طَرِيقِ الْعُوفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ  
 عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يَقُولُ: لَيْسَ أَحَدٌ  
 قَضَيْتُ لَهُ بِطُولُ الْعُمَرِ وَالْحَيَاةِ إِلَّا وَهُوَ بَالِغٌ مَا قَدَّرْتُ لَهُ  
 مِنَ الْعُمَرِ، وَقَدْ قَضَيْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَإِنَّمَا يَنْتَهِي إِلَى الْكِتَابِ  
 الَّذِي قَدَّرْتُ لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ قَدَّرْتُ لَهُ أَنَّهُ قَصِيرُ  
 الْعُمَرِ وَالْحَيَاةِ بِبَالِغِ الْعُمَرِ، وَلَكِنْ يَنْتَهِي إِلَى الْكِتَابِ الَّذِي  
 كَتَبْتُ لَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي  
 كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يَقُولُ: كُلُّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ  
 عِنْدَهُ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مَرْجَحٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ مَعْنَاهُ ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أَي: مَا  
 يُكْتَبُ مِنَ الْأَجَلِ ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ وَهُوَ ذَهَابُهُ قَلِيلًا  
 قَلِيلًا، أَلْجَمِيعُ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى سَنَةٌ بَعْدَ سَنَةٍ، وَشَهْرًا  
 بَعْدَ شَهْرٍ، وَجُمُعَةً بَعْدَ جُمُعَةٍ، وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَسَاعَةً بَعْدَ  
 سَاعَةٍ، أَلْجَمِيعُ مَكْتُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ. نَقَلَهُ ابْنُ  
 جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مَالِكٍ<sup>(٢)</sup>، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّدْيِيُّ وَعَطَاءُ  
 الْخِرَاسَانِيُّ.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ أَنَسٍ  
 ابْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
 يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ  
 فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ<sup>(٤)</sup>.  
 وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سَهْلٌ  
 عَلَيْهِ يَسِيرٌ، لَدَيْهِ عِلْمُهُ بِذَلِكَ وَبِتَفْصِيلِهِ فِي جَمِيعِ  
 مَخْلُوقَاتِهِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ شَامِلٌ لِلْجَمِيعِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ  
 مِنْهَا.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ  
 أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا  
 وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾  
 [مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءِ  
 الْمُخْتَلِفَةِ. خَلَقَ الْبَحْرَيْنِ: الْعَذْبَ الزَّلَالَ، وَهُوَ هَذِهِ  
 الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ كِبَارٍ وَصَغَارٍ بِحَسَبِ  
 الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فِي الْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ وَالْعُمَرَانِ وَالْبَرَارِي  
 وَالْقِفَارِ. وَهِيَ عَذْبَةٌ سَائِغٌ شَرَابُهَا لِمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ ﴿وَهَذَا  
 مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مُرٌّ وَهُوَ الْبَحْرُ السَّاكِنُ الَّذِي تَسِيرُ فِيهِ

(١) الطبري: ٤٤٧/٢٠ إسناده ضعيف العوفي ضعيف والضحاك  
 لم يسمع من ابن عباس (٢) الطبري: ٤٤٧/٢٠ (٣) النسائي  
 في الكبرى: ٤٣٨/٦ (٤) فتح الباري: ٥٥٣/٤ ومسلم: ٤/٤  
 ١٩٨٢ وأبو داود: ٣٢١/٢

بُنَيْتَكَ مِثْلَ خَبِيرٍ ﴿١٣﴾ أَيُّ: وَلَا يُخْبِرُكَ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَالَهَا  
وَمَا تَصِيرُ إِلَيْهِ مِثْلَ خَبِيرٍ بِهَا. قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي نَفْسَهُ تَبَارَكَ  
وَتَعَالَى، فَإِنَّهُ أَخْبِرَ بِالْوَاقِعِ لَا مُحَالَةٍ (١).

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتَهُ الْفَقْرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ  
الْحَمِيدُ﴾ (١٤) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَمَا ذَلِكَ  
عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٦﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ  
جَمِيلَةٍ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ  
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ  
لِنَفْسِهِ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾

[النَّاسُ مُقْتَرُونَ إِلَى اللَّهِ وَكُلٌّ يَحْمِلُ أَوْزَارَهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِغَنَائِهِ عَمَّا سِوَاهُ، وَبِافْتِقَارِ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَيْهِ  
كُلِّهَا وَتَذَلُّلِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتَهُ  
الْفَقْرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ: هُمْ مُخْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ  
الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ، وَهُوَ تَعَالَى الْعَنِيُّ عَنْهُمْ بِالذَّاتِ،  
وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أَيُّ: هُوَ  
الْمُتَفَرِّدُ بِالْعَنَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ  
مَا يَفْعَلُهُ وَيَقُولُهُ وَيَقْدِرُهُ وَشَرَعُهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ  
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أَيُّ: لَوْ شَاءَ لَأَذْهَبَكُمْ أَيُّهَا  
النَّاسُ؛ وَأَتَى بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ، وَمَا هَذَا عَلَيْهِ بِصَعْبٍ وَلَا  
مُتَعَبٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وَزَرَ أُخْرَىٰ أَيُّ: يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلَةٍ﴾ أَيُّ: وَإِنْ تَدْعُ نَفْسٌ  
مُثْقَلَةٌ بِأَوْزَارِهَا إِلَىٰ أَنْ تُسَاعِدَ عَلَىٰ حَمْلِ مَا عَلَيْهَا مِنْ  
الْأَوْزَارِ أَوْ بَعْضِهِ ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾  
أَيُّ: وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا إِلَيْهَا، حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ أَبَاها أَوْ ابْنَهَا،  
كُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ وَحَالِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ  
بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا نَبْغِظُ بِمَا جِئْتُ بِهِ أَوْلِيَا  
الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى، الْخَائِفُونَ مِنْ رَبِّهِمْ، الْفَاعِلُونَ مَا أَمَرَهُمْ  
بِهِ ﴿وَمَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ﴾ أَيُّ: وَمَنْ عَمِلَ  
صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَيُّ:  
وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَسَيَجْزِي  
كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

الْبَحْرِ، تَتَصَرَّفُونَ فِيهِ كَيْفَ شِئْتُمْ، وَتَذْهَبُونَ أَيْنَ أَرَدْتُمْ،  
وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنْهُ، بَلْ بِقُدْرَتِهِ قَدْ سَحَّرَ لَكُمْ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، الْجَمِيعِ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.  
﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ  
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ  
رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ  
فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا  
اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ  
خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

[إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ]

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي تَسْخِيرِهِ  
اللَّيْلَ بِظُلَامِهِ، وَالنَّهَارَ بِضِيَائِهِ، وَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فَيَزِيدُهُ  
فِي قِصَرِ هَذَا فَيَعْتَدِلَانِ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا، فَيَطُولُ  
هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا، ثُمَّ يَتَفَارَضَانِ صَيْفًا وَشِتَاءً ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ  
وَالْقَمَرَ﴾ أَيُّ: وَالتَّجُومَ السَّيَّارَاتِ، وَالتَّوَابِتِ - الثَّاقِبَاتِ  
بِأَضْوَائِهِنَّ أَجْرَامَ السَّمَوَاتِ - الْجَمِيعِ يَسِيرُونَ بِمِقْدَارٍ  
[مُعَيَّنٍ] وَعَلَىٰ مِنْهَا جَمْعٌ مُقَدَّرٌ، تَقْدِيرًا مِنْ عَزِيزٍ عَلِيمٍ  
﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ  
رَبُّكُمْ﴾ أَيُّ: الَّذِي فَعَلَ هَذَا هُوَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا إِلَهَ  
غَيْرُهُ ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ  
الَّتِي هِيَ عَلَى صُورَةٍ مِمَّنْ تَزْعُمُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ  
﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا، وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ، وَعَطَاءٌ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ،  
وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: الْفِطْمِيرُ، هُوَ: اللَّفَافَةُ الَّتِي  
تَكُونُ عَلَى نَوَآةِ الثَّمَرَةِ (١). أَيُّ: لَا يَمْلِكُونَ مِنَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا بِمِقْدَارِ هَذَا الْفِطْمِيرِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ يَعْنِي  
الْآلِهَةَ الَّتِي تَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَسْمَعُ دَعَاءَكُمْ، لِأَنَّهَا  
جَمَادٌ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أَيُّ:  
لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا تَطْلُبُونَ مِنْهَا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ  
بِشِرْكِكُمْ﴾ أَيُّ: يَنْتَرُونَ مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ  
أَسْلَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا  
بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ  
دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ  
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا

(١) الطبري: ٤٥٣/٢٠ (٢) الطبري: ٥٥٤/٢٠



سورة الفاتحة

٤٣٧

سورة الفاتحة

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٥﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٨﴾ وَمِمَّنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ الَّذِينَ لَا يُعْلَمُونَ مَخْلَفًا أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٣٠﴾ لِيُؤْتِيَهُمُ اجْزَاءَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣١﴾

تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الآية [النحل: ٣٦]. والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْمُعْجَزَاتُ الْبَاهِرَاتُ وَالْأَدِلَّةُ الْقَاطِعَاتُ﴾ وبالنزير ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤهم به، فأخذتهم أي: بالعقاب والتكاليف فكيف كانت نكير أي: فكيف رأيت إنكارهم عليهم عظيمًا شديدًا بليغًا، والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ﴿٢٨﴾ وَمِمَّنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ الَّذِينَ لَا يُعْلَمُونَ مَخْلَفًا أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٩﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٥﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٧﴾

[لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ]

يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وتوَن كثير، وكما لا تستوي الظلمات والنور، ولا الظل والحور، كذلك لا تستوي الأحياء والأموات، وهذا مثل ضربته الله للمؤمنين وهم الأحياء وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال عز وجل: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤] فالْمُؤْمِنُ بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيّه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسّموم والحميم، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والإنقياد لها. ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لا ينتفع الأموات، بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل مَن يشاء ويهدي مَن يشاء، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلقت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذير، وأراح عنهم العجل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وكما قال

## [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَّبِعًا عَلَى كَمَالٍ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُنْتَوَعَةِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنَ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يُزِيلُهُ مِنَ السَّمَاءِ، يُخْرِجُ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا مِنْ أَصْفَرٍ وَأَحْمَرٍ وَأَخْضَرَ وَأَبْيَضَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْوَانِ الثَّمَارِ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ مِنْ تَنَوُّعِ أَلْوَانِهَا وَطُغُومِهَا وَرَوَائِحِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجُنُودٌ مِمَّنْ أَعْتَبَ وَزَرَعَ وَخَلَقَ صَنَائِدَ وَغَيْرَ صَنَائِدَ يَسْعَى أَمَّا وَاحِدٌ وَتَفْصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أَيْ: وَخَلَقَ الْجِبَالَ كَذَلِكَ مُخْتَلِفَةً الْأَلْوَانِ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ أَيْضًا مِنْ بِيضٍ وَحُمْرٍ، وَفِي بَعْضِهَا طَرَائِقُ وَهِيَ الْجُدُدُ جَمْعُ جَدَّةٍ، مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ أَيْضًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْجُدُدُ: الطَّرَائِقُ. وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسَّيِّدِي، وَمِنْهَا غَرَابِيبُ سُودٍ. قَالَ عِكْرَمَةُ: الْغَرَابِيبُ: الْجِبَالُ الطُّوَالُ السُّودُ. وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَقَتَادَةُ<sup>(١)</sup>: وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَرَبُ إِذَا وَصَفُوا الْأَسْوَدَ بِكَثْرَةِ السَّوَادِ قَالُوا: أَسْوَدٌ غَرِيبٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أَيْ: كَذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْدَّوَابِّ، وَهُوَ كُلُّ مَا دَبَّ عَلَى الْقَوَائِمِ، ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾، مِنْ بَابِ عَطَفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ كَذَلِكَ هِيَ مُخْتَلِفَةٌ أَيْضًا، فَالنَّاسُ مِنْهُمْ بَرَبْرٌ وَخَبُوشٌ وَطَمَاطِمٌ فِي غَايَةِ السَّوَادِ، وَصَفَالِيَّةٌ وَرُومٌ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ، وَالْعَرَبُ بَيْنَ ذَلِكَ وَالْهُنُودُ دُونَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَأَخْلَفَ أَسْنِيَكُمْ وَأَلْوَنَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ وَكَذَلِكَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ حَتَّى فِي الْجِنْسِ الْوَاحِدِ، بَلِ النَّوعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مُخْتَلِفٌ الْأَلْوَانِ، بَلِ الْحَيَوَانُ الْوَاحِدُ يَكُونُ أَتْلَقَ، فِيهِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ وَهَذَا اللَّوْنِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ الْمُؤَصِّفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، الْمُنْعَوَتِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى،

كُلَّمَا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ: كَانَتْ الْحَشْيَةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قَالَ: الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(٢)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْعَالِمُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَأَحَلَّ حَلَالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، وَحَفِظَ وَصِيَّتَهُ، وَأَيَقَنَ أَنَّهُ مُلَاقِيهِ وَمُحَاسَبُ بِعَمَلِهِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْحَشْيَةُ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَكَ وَمَعْنِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ، وَرَغِبَ فِيَمَا رَغِبَ اللَّهُ فِيهِ، وَزَهَدَ فِيَمَا سَخَطَ اللَّهُ فِيهِ، ثُمَّ تَلَا الْحَسَنُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي حَيَّانٍ التَّيْمِيِّ عَنْ رَجُلٍ قَالَ: كَانَ يُقَالُ: الْعُلَمَاءُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ بِاللَّهِ، عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَعَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللَّهِ، فَالْعَالِمُ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِ اللَّهِ: الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى وَيَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ. وَالْعَالِمُ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ: الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ وَلَا يَعْلَمُ الْحُدُودَ وَلَا الْفَرَائِضَ. وَالْعَالِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ الْعَالِمُ بِاللَّهِ: الَّذِي يَعْلَمُ الْحُدُودَ وَالْفَرَائِضَ وَلَا يَخْشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ بَحْرَةَ لَّنْ تَكُونُ﴾<sup>(٤)</sup> لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ<sup>(٥)</sup>

## [الْمُسْلِمُونَ هُمْ تُجَارُ الْآخِرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَهُ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَوْقَاتِ الْمَشْرُوعَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿يَرْجُونَ بَحْرَةَ لَّنْ تَكُونُ﴾ أَيْ: يَرْجُونَ ثَوَابًا عِنْدَ اللَّهِ لَا بُدَّ مِنْ حُصُولِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيْ: لِيُؤْفِقَهُمْ ثَوَابَ مَا عَمِلُوهُ وَيُضَاعِفَهُ لَهُمْ بِزِيَادَاتٍ لَمْ تَحْطُرْ لَهُمْ ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ أَيْ: لِذُنُوبِهِمْ ﴿شَكُورٌ﴾ لِلْقَلِيلِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

(١) الطبري: ٤٦١/٢٠ (٢) الطبري: ٤٦٢/٢٠ (٣) فيه ابن لهيعة والسند إليه لم يذكر

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣١﴾  
[الْقُرْآنُ كِتَابُ اللَّهِ الْحَقُّ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ يُصَدِّقُهَا - كَمَا شَهِدَتْ هِيَ لَهُ بِالتَّوْبَةِ، وَأَنَّهُ مُنزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ - ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أَيُّ: هُوَ خَبِيرٌ بِهِمْ بَصِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مَا يُفْضِلُهُ بِهِ عَلَى مَنْ سِوَاهُ، وَلِهَذَا فَضَّلَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ، وَفَضَّلَ النَّبِيِّينَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ، وَجَعَلَ مَنْزِلَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوْقَ جَمِيعِهِمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ لَهُ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٣٢﴾  
[وَرِثَةُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ثُمَّ جَعَلْنَا الْقَائِمِينَ بِالْكِتَابِ الْعَظِيمِ الْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ، ثُمَّ قَسَمَهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ: فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وَهُوَ الْمُفْرَطُ فِي فِعْلِ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ الْمُتَرَكِّبِ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وَهُوَ الْمُؤَدِّي لِلْوَاجِبَاتِ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ، وَقَدْ يَتْرُكُ بَعْضُ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَيَفْعَلُ بَعْضَ الْمَكْرُوهَاتِ، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ﴾ وَهُوَ الْفَاعِلُ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضِ الْمُبَاحَاتِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قَالَ: هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَرَثَتُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ، فَظَالِمُهُمْ يُفْضِرُ لَهُ، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسِبُ حِسَابًا بَسِيرًا، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «سَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْمُقْتَصِدُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ وَأَصْحَابُ الْأَعْرَافِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ لَهُ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتْ عَدَنُ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

وَكَذَا رَوَى عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْمُصْطَفَيْنَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عِوَجٍ وَتَقْصِيرٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا مِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْوَارِثِينَ لِلْكِتَابِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ أَيْضًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

### [فَضْلُ الْعُلَمَاءِ]

وَالْعُلَمَاءُ أَغْبَطُ النَّاسِ بِهَذِهِ النُّعْمَةِ، وَأَوَّلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ، فَإِنَّهُمْ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَيْسِ ابْنِ كَثِيرٍ قَالَ: قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ بِدِمَشْقَ، فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكَ أَيُّ أَخِي؟ قَالَ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا

(١) الطبري: ٢٠/٤٦٥ (٢) الطبراني: ١١/١٨٩ إسناده ضعيف جدًا: فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو وضاع [مجمع الروايات ١٠/٣٧٨]

وَاللُّغُوبُ كُلُّ مَنْهُمَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَبِ. وَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِتَقْيِ هَذَا وَهَذَا عَنْهُمْ: أَنَّهُمْ لَا تَعَبَ عَلَى أَبْدَانِهِمْ وَلَا أَرْوَاحِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُدَيُّونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْعِبَادَةِ فِي الدُّنْيَا، فَسَقَطَ عَنْهُمْ التَّكْلِيفُ بِدُخُولِهَا، وَصَارُوا فِي رَاحَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣١) وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَهَاءَ كُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٢)

[أجزاء الكفار وحالهم في جهنم]

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَالَ السُّعْدَاءِ، شَرَعَ فِي بَيَانِ مَا لِلْأَشْقِيَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] وَتَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ» (٣٧). وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَادَا بِكُلِّك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَتَكُونُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فَهُمْ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ يَرَوْنَ مَوْتَهُمْ رَاحَةً لَهُمْ، وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُتَعَمِّدِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٣٦) لَا يَمُتُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُلْسُونَ [الزخرف: ٧٤، ٧٥] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلَّمَا حَبَتِ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الاسراء: ٩٧] ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أَيُّ: هَذَا جَزَاءُ كُلِّ مَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ وَكَذَّبَ الْحَقَّ.

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ أَيُّ: يُنَادُونَ فِيهَا يَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَصْوَاتِهِمْ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

الْحَدِيثُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهَا عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْجِنَّاتِ فِي الْمَاءِ، وَفَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ» (١). وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ (٢).

﴿جَنَّتْ عَذَنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَطْعَمَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ. لَا يَسْتَأْ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْ فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ الْمُتَزَّلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَاوَاهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ، أَيُّ: جَنَّاتُ الْإِقَامَةِ يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَقُدُومِهِمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يُحَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ كَمَا تَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَبْلُغُ الْحِلَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ» (٣). ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وَلِهَذَا كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَأَبَاحَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَتَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ» (٤) وَقَالَ: «هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ» (٥).

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وَهُوَ الْخَوْفُ مِنَ الْمُحْدَوِرِ، أَرَاخَهُ عَنَّا وَأَرَاخَنَا مِمَّا كُنَّا نَتَخَوَّفُهُ وَنَحْذَرُهُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُهُ: غَفَرَ لَهُمْ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَشَكَرَ لَهُمُ الْبَسِيرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ ﴿الَّذِي أَطْعَمَنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يَقُولُونَ: الَّذِي أَطْعَمَنَا هَذِهِ الْمَثَلَةَ وَهَذَا الْمَقَامَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ، لَمْ تَكُنْ أَعْمَالُنَا تُسَاوِي ذَلِكَ، كَمَا تَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» (٦). ﴿لَا يَسْتَأْ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْ فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أَيُّ: لَا يَسْتَأْ فِيهَا عَنَاءٌ وَلَا إِغْيَاءٌ. وَالنَّصَبُ

(١) أحمد: ١٩٦/٥ إسناده ضعيف أبو داود ٢٢٣ ترمذي ٢٦٨٢ وقال: وليس إسناده عندي بم متصل فيه داود بن جميل وشيخه كثير بن قيس ضعيفان (٢) أبو داود: ١٥٧/٤ وتحفة الأحوذى: ٧/ ٤٥٠ وابن ماجه: ٨١/١ (٣) مسلم: ٢١٩/١ (٤) فتح الباري: ٢٩٦/١٠ (٥) فتح الباري: ٢٩٦/١٠ (٦) فتح الباري: ١٣٢/١٠ (٧) مسلم: ١٧٢/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٩

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا  
يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ  
كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ  
أَمْ أُنْزِلَتْ إِلَيْهِمْ كِتَابٌ فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مَتَى بَلَّغَ اللَّهُ الظَّالِمِينَ  
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ الْأَعْرُورَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ  
إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٣٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ  
جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ  
مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَوَنُّورًا ﴿٣٩﴾ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ  
وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَّتَ  
الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا  
﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ  
قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ  
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَادِرًا ﴿٤١﴾

يَقُضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٣٦﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿[الزخرف: ٧٧، ٧٨]﴾ أَيْ: لَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ  
الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ فَأَبَيْتُمْ وَخَالَفْتُمْ، وَقَالَ تَعَالَى:  
﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الأنعام: ١٥] وَقَالَ تَبَارَكَ  
وَتَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَلْفَيْ نَفْسٍ جَاءَتْهُنَّ أَهْلًا يَنْتَحِبْنَ لَهُنَّ أَلْفٌ يَأْتِيَهُنَّ اللَّهُ بِزُكْرٍ عَظِيمٍ﴾  
قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَشَأْهُ إِلَّا  
فِي سَكَنٍ لَيْلٍ أَوْ بَازٍ كَذِبٍ ﴿[الملك: ٨، ٩]﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَرُونَا أَتَقْبَلُونَ  
الظَّالِمِينَ مِنْ نَصْرِ﴾ أَيْ: فَذَرُونَا عَذَابَ النَّارِ جَزَاءً عَلَى  
مُخَالَفَتِكُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ فِي مَدَّةِ أَعْمَالِكُمْ، فَمَا لَكُمْ الْيَوْمَ نَاصِرٌ  
يُنْقِذُكُمْ مِمَّا أَنتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْكَفَالِ وَالْأَغْلَالِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
الصُّدُورِ﴾ ﴿٣٧﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ

- (١) أحمد: ٢٧٥/٢ (٢) فتح الباري: ٢٤٣/١١ (٣) الطبري:  
٤٧٨/٢٠ (٤) أحمد: ٤١٧/٢ وتحفة الأشراف: ٤٧٢/٩ (٥)  
الرمذي: ٣٥٥٠ وابن ماجه: ٤٢٣٦ (٦) البغوي: ٥٧٣/٣  
(٧) الطبري: ٤٧٨/٢٠ (٨) الدر المنثور: ٣٢/٧

نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٣٦﴾ أَيْ: يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ  
إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ عَمَلِهِمُ الْأَوَّلِ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ جَلَّ  
جَلَّالَهُ أَنَّهُ لَوْ رَدَّهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ،  
وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، فَلِهَذَا لَا يُجِيبُهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾  
[الشورى: ٤٤]، ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ  
وَأِنْ يَشْرِكْ بِهِ تَقُولُوا﴾ [غافر: ١٢] أَيْ: لَا يُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ  
لَأَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ، وَلَوْ رُدُّدْتُمْ لَعُدْتُمْ إِلَى مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ،  
وَلِذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مِمَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ  
وَحَاءَكُمْ أَلْتَذِيرُ﴾ أَيْ: أَوْ مَا عَشْنُمْ فِي الدُّنْيَا أَعْمَارًا لَوْ  
كُنْتُمْ مِمَّنْ يَنْتَفِعُ بِالْحَقِّ لَا تَنْفَعْتُمْ بِهِ فِي مَدَّةِ عُمْرِكُمْ؟

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ  
النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عَدِيدِ أَحْيَاءٍ  
حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً، لَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ،  
لَقَدْ أَعْدَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ» (١). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْخَارِجِيُّ  
فِي كِتَابِ الرَّاقِي مِنْ صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْدَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى  
أَمْرٍ أَحَرَ عُمْرُهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً» (٢). وَرَوَى ابْنُ  
جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَمَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْدَرَ إِلَيْهِ فِي  
الْعُمْرِ» (٣). وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتَّسَائِيُّ فِي  
الرَّاقِي (٤).

وَلَمَّا كَانَ هَذَا هُوَ الْعُمْرُ الَّذِي يُعْذِرُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عِبَادِهِ  
بِهِ وَيُزِيحُ بِهِ عَنْهُمْ الْعِلَلَ، كَانَ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَعْمَارِ هَذِهِ  
الْأُمَمِ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السَّتِّينَ  
إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقْلَهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ». وَهَكَذَا رَوَاهُ  
التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ جَمِيعًا فِي كِتَابِ الزُّهْدِ (٥)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَاءَكُمْ أَلْتَذِيرُ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعِكْرَمَةَ وَأَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
وَقَتَادَةَ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَعْنِي الشَّيْبَ (٦). وَقَالَ  
السُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بَنَ أَسْلَمَ: يَعْنِي بِهِ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ، وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ الذُّرِّ الْأَوَّلِ» (٧)  
[النجم: ٥٦]. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عَنْ قَتَادَةَ فِيمَا رَوَاهُ شَيْبَانُ  
عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: اخْتَجَّ عَلَيْهِمُ بِالْعُمْرِ وَالرُّسُلِ (٨). وَهَذَا  
اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَادَّأَ يَمَكُّكَ

أَيُّ: لَا يَقْدِرُ عَلَى دَوَامِهِمَا وَإِبْقَائِهِمَا إِلَّا هُوَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حَلِيمٌ غَفُورٌ أَيُّ: يَرَى عِبَادَهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَعْصُونَهُ، وَهُوَ يَحْلُمُ فَيُؤَخِّرُ، وَيُنْظِرُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يَعَجَلُ، وَيَسْتُرُ آخِرِينَ وَيَغْفِرُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿١٦١﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِلْ سُنَّتُ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِلْ سُنَّتُ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ﴿١٦٢﴾

[تَمَّتِ الْكُفَارِ مَجِيءَ نَذِيرٍ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ كَفَرُوا بِهِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ، أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ قَبْلَ إِزْسَالِ الرُّسُولِ إِلَيْهِمْ: ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾، أَيُّ: مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ. قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾ ﴿١٦١﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَى وَرَحْمَةً فَنَ أَظْلَمُ مِنْ كَذِّبٍ يَكَايِبُ اللَّهَ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿١٦٢﴾ لَوْ أَنَّا عِدْنَا كِدًّا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٦٣﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿١٦٤﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٥٦-١٧٠]. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَا أُنْزِلَ مَعَهُ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أَيُّ: مَا أَزْدَادُوا إِلَّا كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أَيُّ: وَمَكْرُوا بِالنَّاسِ فِي صَدِّهِمْ إِيَّاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أَيُّ: وَمَا يَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ إِلَّا عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنِي عُثُوبَةَ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ ﴿وَلَن يَحْدِلْ إِسْنَةُ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أَيُّ: لَا تَغْيَرُ وَلَا تُبْدِلُ، بَلْ هِيَ جَارِيَةٌ كَذَلِكَ فِي كُلِّ مُكَذِّبٍ ﴿وَلَن يَحْدِلْ إِسْنَتُ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أَيُّ: وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُمْ﴾ [الرعد: ١١]. وَلَا يَكْشِفُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُحَوِّلُهُ عَنْهُمْ أَحَدٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿١٦٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ السَّرَائِرُ وَمَا تَطْوِي عَلَيْهِ الصَّمَائِرُ، وَسَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: يَخْلُقُ قَوْمًا لِآخِرِينَ قَبْلَهُمْ وَجِيلًا لِجِيلٍ قَبْلَهُمْ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أَيُّ: فَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ دُونَ غَيْرِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أَيُّ: كُلَّمَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ أَبْغَضَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلَّمَا اسْتَمَرُّوا فِيهِ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ كُلَّمَا طَالَ عُمْرُ أَحَدِهِمْ وَحَسَنَ عَمَلُهُ، إِرْفَعَتْ دَرَجَتُهُ وَمَنْزَلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَزَادَ أَجْرُهُ، وَأَحْبَبَهُ خَالِفُهُ وَتَارِيَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿١٦٦﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسَيِّفُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّكُمْ كَانُمْ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿١٦٧﴾

[الْتَنْبِيهِ عَلَى عَجْزِ الشُّرَكَاءِ وَقُدْرَةِ اللَّهِ الْعَالِيَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِرُسُولِهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أَيُّ: لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قُطْمِيرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أَيُّ: أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ كِتَابًا بِمَا يَقُولُونَ مِنَ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أَيُّ: بَلْ إِنَّمَا اتَّبَعُوا فِي ذَلِكَ أَهْوَاءَهُمْ وَأَرَآءَهُمْ وَأَمَانِيَهُمُ الَّتِي تَمَنُّوْهَا لِأَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ غُرُورٌ وَبَاطِلٌ وَزُورٌ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بِهَا تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَنْ أَمْرِهِ، وَمَا جَعَلَ فِيهِمَا مِنَ الْقُوَّةِ الْمَاسِكَةِ لَهُمَا، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَيِّفُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أَيُّ: أَنْ تَضْطَرِبَا عَنْ أَمَانِكُمَا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

٤٤٠

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعِقِهِمْ أَغْلًا فَلَا فَهِيَ إِلَى آلَافِاقٍ فَهُمْ مَقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ١١ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخِرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٣

فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿١﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾  
[الرَّسُولُ بُعِثَ مُنْذِرًا]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. «وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» أَي: الْمُحْكَمُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ «إِنَّكَ» أَي: يَا مُحَمَّدُ! «لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «أَي: عَلَى مَنَهِجٍ وَدِينٍ قَوِيمٍ وَشَرَعَ مُسْتَقِيمٍ» «تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» أَي: هَذَا الصِّرَاطُ وَالْمَنَهِجُ وَالَّذِي جِئْتُ بِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ الرَّحِيمِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ» يَعْنِي بِهِمُ الْعَرَبَ، فَإِنَّهُ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ. وَذَكَرَهُمْ وَخَذَهُمْ لَا يَنْفِي مِنْ عَذَابِهِمْ، كَمَا أَنَّ ذِكْرَ بَعْضِ الْأَفْرَادِ لَا يَنْفِي الْعُمُومَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ فِي عُمُومِ بَعْثِهِ ﷺ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «قُلْ يَكْفِئُهَا النَّاسُ

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

[ذَكَرَ النَّتَائِجَ السَّيِّئَةَ لِتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ! لِهَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ، كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا، فَخَلَّتْ مِنْهُمْ مَنَازِلُهُمْ، وَشَلِبُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ بَعْدَ كَمَالِ الْقُوَّةِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ، وَكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، فَمَا أَغْنَى ذَلِكَ شَيْئًا، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَ كُونَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا﴾ أَي: عَلِيمٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ قَدِيرٌ عَلَى مَجْمُوعِهَا.

[حِكْمَةُ تَأْجِيلِ الْمُؤَاخَذَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» أَي: لَوْ أَخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لِأَهْلَكَ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَمَا يَمْلِكُونَهُ مِنْ دَوَابٍّ وَأَرْزَاقٍ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» أَي: لَمَّا سَفَّاهُمُ الْمَطَرُ فَمَاتَتْ جَمِيعُ الدَّوَابِّ، «وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» أَي: وَلَكِنْ يُنْظَرُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَحَاسِبُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَيُؤْفِقِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، فَيَجَازِي بِالْثَوَابِ أَهْلَ الطَّاعَةِ وَبِالْعِقَابِ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا». أَخْرَجُ تَفْسِيرَ سُورَةِ فَاطِرٍ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ يَسَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَس ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ

أَسْلَمَ: جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا السَّدَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، فَهُمْ لَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ، وَقَرَأَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ثُمَّ قَالَ: مَنْ مَنَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَسْتَطِيعُ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَيْنَ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا لَفَعَلْتُ وَلَا فَعَلْتُ، فَأَنْزَلْتَ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَغْلَاقًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ قَالَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ: هَذَا مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: أَيْنَ هُوَ؟ أَيْنَ هُوَ؟ لَا يَبْصُرُهُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَوْءَ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ: فَقَدْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةَ فَمَا يُعِيدُ فِيهِمُ الْإِنذَارَ وَلَا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُهَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَكَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧، ٩٨] ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنذَارِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الذِّكْرَ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ﴿وَخِصَى الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ﴾ أَيُّ: حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُ ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَفْوٍ﴾ أَيُّ: لِدُنُوبِهِ ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أَيُّ: كَثِيرٍ وَاسِعٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [المالك: ١٢] ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ وَأَنَّا نَمُوتُ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْيِي قَلْبَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ، الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ بِالضَّلَالَةِ فَهَدِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَمْوَاتَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ يَتَنَبَّأُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَلَّمُوا﴾ أَيُّ: مِنَ الْأَعْمَالِ، ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ أَيُّ: نَكُتُبُ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي بَاشَرُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَارَهُمُ الَّتِي أَتَرَوْهَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَخَجَزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا: إِنَّ خَيْرًا فَخِيرٌ وَإِنْ شَرًّا فَسَرٌّ، كَقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ شَيْئًا حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ

إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَقَدْ وَجَبَ الْعَذَابُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَتَمَ عَلَيْهِمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِاللَّهِ وَلَا يُصَدِّقُونَ رَسُولَهُ<sup>(١١)</sup>.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَغْلَاقًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوْءَ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخِصَى الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِعَفْوٍ وَاجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُ وَنَكُتُبُ مَا قَلَّمُوا وَءَاذَنَاهُمْ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)﴾

### [حَالٌ مِنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ الْمَحْمُومَ عَلَيْهِمُ بِالشَّقَاءِ نِسْبَتَهُمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى الْهَدَى كَنِسْبَةِ مَنْ جُعِلَ فِي غُيْبَةٍ غُلٌّ، فَجَمَعَ يَدِيهِ مَعَ غُيْبِهِ تَحْتَ ذَقْنِهِ، فَارْتَفَعَ رَأْسُهُ فَضَارَ مُقْمَحًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ وَالْمُقْمَحُ هُوَ الرَّافِعُ رَأْسَهُ. كَمَا قَالَتْ أُمُّ زَرْعٍ فِي كَلَامِهَا: وَأَشْرَبُ فَاتَّقَمَحُ<sup>(٢)</sup>. أَيْ أَشْرَبُ فَارْوَى، وَارْفَعُ رَأْسِي تَهْنِئَةً وَتَرَوِيًا. وَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْغُلِّ فِي الْعُنَى عَنْ ذِكْرِ الْيَدَيْنِ وَإِنْ كَانَا مُرَادَتَيْنِ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَغْلَاقًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ قَالَ: هُوَ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ أَيْدِيَهُمْ مُوثَقَةٌ إِلَى أَغْنَاقِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْطُوبَهَا بِخَيْرٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ قَالَ: [زافعو] رُؤُوسِهِمْ، وَأَيْدِيَهُمْ مَوْضُوعَةٌ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ<sup>(٤)</sup>. فَهُمْ مَغْلُولُونَ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: عَنْ الْحَقِّ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: عَنْ الْحَقِّ فَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي الضَّلَالَاتِ<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أَيُّ: أَغْشَيْنَا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْحَقِّ ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ أَيُّ: لَا يَنْتَفِعُونَ بِخَيْرٍ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ مِنَ الْعُشَا، وَهُوَ دَاءٌ فِي الْعَيْنِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ

(١) الطبري: ٤٩٢/٢٠ (٢) البخاري: ٥١٨٩ ومسلم: ٢٤٤٨

(٣) الطبري: ٤٩٤/٢٠ (٤) الطبري: ٤٩٤/٢٠ (٥) الطبري:

٤٩٥/٢٠ (٦) الطبري: ٤٩٥/٢٠ (٧) الطبري: ٤٩٦/٢٠

(٨) الطبري: ٤٩٥/٢٠ (٩) الطبري: ٤٩٥/٢٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤١

سُورَةُ يَس

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣﴾  
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتَيْنَ فَكَذَّبُوهُمَا فَعُزِّزْنَا لِكَافِرَاتِهَا فَأَنزَلْنَا  
 إِلَيْكُم مَّرْسَلًا ﴿٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ  
 الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا كَذِبُونَ ﴿٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ رَبَّنَا  
 إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلْغَ الْمُبِينِ ﴿٧﴾  
 قَالُوا إِنَّا نَطِّيرُ أَنْبَاءَكُمْ لِنِ لَمْ تَنْتَهُوا لِرَحْمَتِكُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ  
 مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨﴾ قَالُوا طَرِكْكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ  
 بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ ﴿٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ  
 يَسْعَى قَالَ يَنْفِقُونَ أَنْفِقُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ  
 لَا يَسْتَكْبِرُ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَمَالِي لَا أُعْبِدُ إِلَّا  
 فِطْرَتِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴿١٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ  
 يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا  
 يُنْقِذُونِ ﴿١٣﴾ إِنْ إِذَا لِي ضَلَالٌ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ إِنْ أَمِنْتُ  
 بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿١٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي  
 يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٧﴾

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ثَابِتٍ قَالَ: مَشَيْتُ مَعَ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُ فَأَسْرَعْتُ الْمَشْيَ فَأَخَذَ بِيَدِي فَمَشَيْنَا رُوَيْدًا، فَلَمَّا  
 قَضَيْنَا الصَّلَاةَ قَالَ أَنَسُ: مَشَيْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فَأَسْرَعْتُ  
 الْمَشْيَ فَقَالَ: يَا أَنَسُ! أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ الْأَنْبَاءَ تُكْتَبُ؟<sup>(١)</sup>  
 وَهَذَا الْقَوْلُ لَا تُنَافِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَوَّلِ، بَلْ فِي هَذَا تَنْبِيهُ  
 وَدَلَالَةٌ عَلَى ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْأُخْرَى، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ  
 هَذِهِ الْأَنْبَاءُ تُكْتَبُ، فَلَا تُكْتَبُ تِلْكَ الَّتِي فِيهَا قُدُوءٌ بِهِمْ مِنْ  
 خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ:  
 وَجَمِيعِ الْكَاتِبَاتِ مَكْتُوبٍ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ، مَضْبُوطٍ فِي

بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي  
 الْإِسْلَامِ شَيْئًا سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ  
 بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ  
 جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِيهِ قِصَّةُ مُجْتَابِي  
 النَّمَارِ الْمُضَرِّيِّ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ  
 عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ، ثُمَّ تَلَا  
 هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَكُتِبَ مَا قُلْتُمْ﴾ وَأَنذَرَهُمْ وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ  
 مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ<sup>(٢)</sup>.

وَهَكَذَا الْحَدِيثُ الْآخَرُ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي  
 هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ  
 ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ عِلْمٍ يُتَّبَعُ بِهِ، أَوْ  
 وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ»<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ  
 سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ  
 مُجَاهِدًا يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى  
 وَكُتِبَ مَا قُلْتُمْ﴾ وَأَنذَرَهُمْ قَالَ: مَا أَوْرِثُوا مِنَ الصَّلَاةِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ وَغَيْرُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ «مَا قُلْتُمْ»  
 أَعْمَالُهُمْ «وَأَنذَرَهُمْ» قَالَ: خُطَاهُمْ بِأَرْجُلِهِمْ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا  
 قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ «وَأَنذَرَهُمْ» يَعْنِي خُطَاهُمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ  
 قَتَادَةُ: لَوْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُغْفِلًا شَيْئًا مِنْ شَأْنِكَ يَا ابْنَ  
 آدَمَ، أَغْفَلَ مَا تُعْفَى الرِّيحُ مِنَ هَذِهِ الْأَثَارِ<sup>(٦)</sup>. وَلَكِنْ  
 أَحْصَى عَلَى ابْنِ آدَمَ أَثَرَهُ وَعَمَلَهُ كُلَّهُ، حَتَّى أَحْصَى هَذَا  
 الْأَثَرَ فِيمَا هُوَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، فَمِنْ  
 اسْتِطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُكْتَبَ أَثَرُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَلْيَفْعَلْ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
 عَنْهُمَا، قَالَ: خَلَبَ الْيَقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ  
 أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ  
 لَهُمْ: «إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟»  
 قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «يَا بَنِي  
 سَلَمَةَ! دِيَارَكُمْ تُكْتَبُ أَثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبُ أَثَارُكُمْ»<sup>(٧)</sup>.  
 وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِهِ<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُمَا، قَالَ: تُوُفِّيَ رَجُلٌ فِي الْمَدِينَةِ فَصَلَّى عَلَيْهِ  
 النَّبِيُّ ﷺ. وَقَالَ: «يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ»، فَقَالَ  
 رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ: وَلِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
 «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا تُوُفِّيَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ، قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى  
 مُنْقَطِعِ أَثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ»<sup>(٩)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(١٠)</sup>.

(١) مسلم: ٧٠٤/٢ (٢) مسلم: ٧٠٦/٢ (٣) مسلم: ٣/١٢٥٥  
 (٤) الطبري: ٤٩٧/٢٠ (٥) الطبري: ٤٩٩/٢٠ (٦)  
 الطبري: ٤٩٩/٢٠ (٧) أحمد: ٣٣٢/٣ (٨) مسلم: ١/٤٦٢  
 (٩) أحمد: ١٧٧/٢ (١٠) النسائي: ٧/٤ وابن ماجه:  
 ٥١٥/١ (١١) الطبري: ٤٩٨/٢٠ إسناده ضعيف شيخ الطبراني  
 ابن حميد أقرب إلى الترك منه إلى الضعف

وَأَنْتُمْ بَشَرٌ نَحْنُ بَشَرٌ، فَلِمَ لَا أَوْحِي إِلَيْنَا مِثْلَكُمْ، وَلَوْ كُنْتُمْ رُسُلًا لَكُنْتُمْ مَلَائِكَةً. وَهَذِهِ شُبُهَةٌ كَثِيرٌ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكْذِبَةِ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] أَيْ: اسْتَعْجَبُوا مِنْ ذَلِكَ وَانْكُرُوهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا نَرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا قَالُوا يَا سُلْطَانُ مُمِيسٍ﴾ [ابراهيم: ١٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَّا أَطْعَمْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِذْكَرُوا لَكُمْ خَيْرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الاسراء: ٩٤] وَلِهَذَا قَالَ هُوَلَاءُ: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا كَذِبُونَ﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ أَيْ: أَجَابَتْهُمْ رُسُلُهُمُ الثَّلَاثَةُ قَائِلِينَ: اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ رُسُلَهُ إِلَيْكُمْ، وَلَوْ كُنَّا كَذِبَةً عَلَيْهِ لَا تَنْتَقِمَ مِنَّا أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ رَبَّنَا وَنَبْصُرُنَا عَلَيْكُمْ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَنِيَّ وَيَنْتَقِمُ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ يَقُولُونَ: إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسِلْنَا بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِذَا أَطْعَمْتُمْ كَانَتْ لَكُمْ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ لَمْ تُجِيبُوا فَسَتَعْلَمُونَ غَيْبَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالُوا طَيَّرْنَا بِكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴿١٣﴾

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أَيْ: لَمْ نَرِ عَلَىٰ وَجْهِكُمْ خَيْرًا فِي عَيْنِنَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَقُولُونَ: إِنْ أَصَابَنَا شَرٌّ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِكُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُونَ: لَمْ يَدْخُلْ مِثْلُكُمْ إِلَىٰ قَرْيَةٍ إِلَّا عَذَّبَ أَهْلَهُ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: بِالْحِجَارَةِ<sup>(٥)</sup>.

(١) الطبري: ٤٩٩/٢٠ (٢) الطبري: ٥٠٠/٢٠ إسناده ضعيف لوجه: الأول- هو من بلاغات ابن إسحاق وهو مدلس الثاني - والسند إليه ضعيف فيه سلمة بن الفضل ومحمد بن حميد ضعيفان (٣) الطبري: ٥٠٠/٢٠ (٤) الطبري: ٥٠٢/٢٠ (٥) الطبري: ٥٠٢/٢٠

لَوْحٍ مَّخْفُوظٍ، وَالْإِمَامُ الْمُيَسَّرُ هَهُنَا هُوَ أُمُّ الْكِتَابِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنْثَىٰ بِإِمْعَانٍ﴾ [الاسراء: ٧١] أَيْ: بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمُ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهُدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرِيدُ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ إِذْ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَغَزَّيْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا كَذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾

[قِصَّةُ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ مَعَ الرُّسُلِ، وَهِيَ تُفِيدُ إِهْلَاكَ الْمُكْذِبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَاضْرِبْ يَا مُحَمَّدٌ لِقَوْمِكَ الَّذِينَ كَذَّبُواكَ ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِيمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَكَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ ابْنِ مُثَنَّى: إِنَّهَا مَدِينَةُ أَنْطَاكِيَّةَ وَكَانَ بِهَا مَلِكٌ يُقَالُ لَهُ: أَنْطَاكِيحُسُ بْنُ أَنْطَاكِيحُسَ بْنِ أَنْطَاكِيحُسَ وَكَانَ يَغْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ ثَلَاثَةً مِنَ الرُّسُلِ، وَهُمْ صَادِقٌ وَصَدُوقٌ وَسَلَوٌ، فَكَذَّبَهُمْ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ بَرِيدَةَ بِنِ الْحَصْبِيِّ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَالزُّهْرِيَّ: أَنَّهَا أَنْطَاكِيَّةُ<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ الْأَيِّمَةِ كَوْنَهَا أَنْطَاكِيَّةَ، بِمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ تَمَامِ الْقِصَّةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أَيْ: بَادَرُوهُمَا بِالتَّكْذِيبِ ﴿فَغَزَّيْنَا بِثَالِثٍ﴾ أَيْ: قَوَّيْنَاهُمَا وَشَدَّدْنَا أَرْزَهُمَا بِرَسُولٍ ثَالِثٍ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ وَهْبِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ شُعَيْبِ الْجُبَايِّيِّ قَالَ: كَانَ اسْمُ الرُّسُلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ شَمْعُونُ وَيُوحَنَّا، وَاسْمُ الثَّالِثِ بُولُصَ، وَالْقَرْيَةُ أَنْطَاكِيَّةُ ﴿فَقَالُوا﴾ أَيْ: لِأَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ أَيْ: مِنْ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ، يَا مُرُكُّمُ بَعَادَتِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: وَزَعَمَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ أَنَّهُمْ كَانُوا رُسُلَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ أَهْلِ أَنْطَاكِيَّةَ ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أَيْ: فَكَيْفَ أَوْحِي إِلَيْكُمْ

﴿إِنْ يَرُدِّنِ الرِّجْمُ بَصِيرَ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُفْقِدُونَ﴾ أَي: هَذِهِ الْأَلِهَةُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْئًا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ أَرَادَنِي بِشُؤٍ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَمْلِكُ دَفْعَ ذَلِكَ وَلَا مَنَعَهُ، وَلَا يُقْدِرُونَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ ﴿إِنِّي إِذَا لَمِى صَلَائِي مُبِينٌ﴾ أَي: إِنْ اتَّخَذْتُهَا إِلَهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِيْمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَكَعْبٍ وَوَهْبٍ: يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أَي: فَاسْمَعُوا قَوْلِي <sup>(٣)</sup>. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خَطَابُهُ لِلرُّسُلِ يَقُولُهُ: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أَي: الَّذِي أَرْسَلْتُمْ ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أَي: فَاشْهَدُوا لِي بِذَلِكَ عِنْدَهُ. وَقَدْ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فَقَالَ: وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ خَاطَبَ بِذَلِكَ الرُّسُلَ، وَقَالَ لَهُمْ: اسْمَعُوا قَوْلِي لِتَشْهَدُوا لِي بِمَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّي: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ، وَاتَّبَعْتُكُمْ. وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي حَكَاهُ عَنْ هَؤُلَاءِ أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِيْمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَكَعْبٍ وَوَهْبٍ: فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ، وَبَوَّأَ عَلَيْهِ وَبَنَى رَجُلٌ وَاحِدٌ فَقَتَلُوهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَحَدٌ يَمْنَعُ عَنْهُ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: جَعَلُوا يَرْجُمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ وَهُوَ يَقُولُ: اَللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، فَلَمَّ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَفْعَصُوهُ، وَهُوَ يَقُولُ كَذَلِكَ، فَقَتَلُوهُ رَجَمَهُ اللَّهُ <sup>(٥)</sup>.

﴿فَقِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ بَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ <sup>(٦)</sup> بِمَا عَفَرَ لِي رِجِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ <sup>(٧)</sup> وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ <sup>(٨)</sup> إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ <sup>(٩)</sup>

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُمْ وَطِئُوهُ بِأَرْجُلِهِمْ حَتَّى خَرَجَ قُضْبُهُ مِنْ دُبُرِهِ، وَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فَدَخَلَهَا فَهُوَ يُرْزَقُ فِيهَا، قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُ سُقْمَ الدُّنْيَا وَحُزْنَهَا وَنَصَبَهَا <sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قِيلَ لِحَبِيبِ النَّجَّارِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قُتِلَ فَوَجَبَتْ لَهُ، فَلَمَّا رَأَى الثَّوَابَ ﴿قَالَ

﴿وَلَيْسَ لَكُمْ مِنَّا عَذَابٌ إِلَهٌ﴾ أَي: عُقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ، فَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ: ﴿طَلِبْكُمْ مَعَكُمْ﴾ أَي: مَرُودٌ عَلَيْكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطْفِرُوا يَمْوِسْنَ وَمِنْ مَعَهُمْ آلَا إِنَّمَا يَطْلُرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] وَقَالَ قَوْمٌ صَالِحٌ: ﴿طَلِبْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَلِبْكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ بِفَقْهٍ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ﴾ أَي: مِنْ أَجْلِ أَنَّا ذَكَّرْنَاكُمْ وَأَمَرْنَاكُمْ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، فَابْتَلَيْنَا بِهِذَا الْكَلَامَ وَتَوَعَّدْتُمُونَا وَتَهَدَّدْتُمُونَا، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَي: إِنْ ذَكَّرْنَاكُمْ بِاللَّهِ تَطَيَّرْتُمْ بِنَا، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ <sup>(١)</sup>.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِرُونَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ <sup>(٢)</sup> اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَوْا أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ <sup>(٣)</sup> وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ <sup>(٤)</sup> أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يَرِدُنِ الرِّجْمُ بَصِيرَ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُفْقِدُونَ <sup>(٥)</sup> إِنِّي إِذَا لَمِى صَلَائِي مُبِينٌ <sup>(٦)</sup> إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ <sup>(٧)</sup>

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِيْمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَكَعْبٍ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: إِنَّ أَهْلَ الْقُرْيَةِ هُمَا يَقْتُلُ رُسُلَهُمْ، فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، أَي: لِيَنْصُرَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ، قَالُوا: وَهُوَ حَبِيبٌ، وَكَانَ يَعْمَلُ الْحَرِيرَ، وَهُوَ الْحَبَالُ، وَكَانَ رَجُلًا سَقِيمًا قَدْ أَسْرَعَ فِيهِ الْجُدَامُ. وَكَانَ كَثِيرَ الصَّدَقَةِ يَتَصَدَّقُ بِنِصْفِ كِسْفِهِ، مُسْتَقِيمَ الْفِطْرَةِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ شَيْبٌ بْنُ يَشْرِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: اسْمُ صَاحِبِ لَيْسَ حَبِيبِ النَّجَّارِ، فَقَتَلَهُ قَوْمُهُ. ﴿قَالَ يَنْفِرُونَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ يَحْضُرُ قَوْمَهُ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ اتَّوَّهُمُ ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَوْا أَجْرًا﴾ أَي: عَلَى إِبْلَاجِ الرِّسَالَةِ، وَهُمْ مُّهْتَدُونَ فِيْمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدِّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أَي: وَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّذِي خَلَقَنِي وَخَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ﴾ أَي: يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيَجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ﴿أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ اسْتَفْتَاهُمْ إِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ وَتَفْرِيعٍ

(١) الطبري: ٥٠٤/٢٠ وهذا أيضًا من بلاغات ابن إسحاق انظر ما قبله (٢) الطبري: ٥٠٤/٢٠ (٣) الطبري: ٥٠٧/٢٠ (٤) الطبري: ٥٠٨/٢٠ انظر حكم ما تقدم من بلاغات ابن إسحاق (٥) الطبري: ٥٠١/٢٠ (٦) الطبري: ٥٠٨/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٢

سُورَةُ يَسٍ

﴿١﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خِسْفٌ ﴿٣﴾ يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٥﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٧﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا يَنْبُتُ وَاعْتَبِرْ وَفِرْعَوْنَ فِيهَا مِنَ الْعِیُونَ ﴿٨﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ الْيَلَّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿١١﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿١٣﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلَّ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١٤﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ أَيْسَرَ عَلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ ﴿١﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خِسْفٌ ﴿٢﴾ فَأَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ الْمَلِكَ، وَأَهْلَكَ أَهْلَ أَنْطَاكِيَّةَ، فَبَادُوا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ ﴿٣﴾. وَقِيلَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أَيُّ: وَمَا كُنَّا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى الْأُمَمِ إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ، بَلْ تَبَعَتْ عَلَيْهِمْ عَذَابًا يُدْمِرُهُمْ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: مِنْ رِسَالَةٍ أُخْرَى إِلَيْهِمْ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ ﴿٤﴾. قَالَ قَتَادَةُ: فَلَا وَاللَّهِ مَا عَاتَبَ اللَّهُ قَوْمَهُ بِعَدَقَتِهِ ﴿٥﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ

بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١﴾. قَالَ قَتَادَةُ: لَا تُلْقَى الْمُؤْمِنُ إِلَّا نَاصِحًا لَا تَلْقَاهُ غَاشًا. لَمَّا عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٣﴾ تَمَنَّى [عَلَى] اللَّهُ أَنْ يَعْلِمَ قَوْمَهُ بِمَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ وَمَا هَجَمَ عَلَيْهِ ﴿٤﴾. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَصَحَ قَوْمَهُ فِي حَيَاتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَقَوْمُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٦﴾ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ عَنْ أَبِي مَجْلَزٍ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بِإِيمَانِي بِرَبِّي وَتَصْدِيقِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾. وَمَقْصُودُهُ: أَنَّهُمْ لَوْ أَطْلَعُوا عَلَى مَا حَصَلَ لِي مِنْ هَذَا الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، لَفَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ فَرَجَمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ، فَلَقَدْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ يَعْنِي ابْنَ عُمَيْرٍ قَالَ: قَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ التَّفَقُّيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ابْتَغْنِي إِلَى قَوْمِي أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَفْتُلُوكَ». فَقَالَ: لَوْ وَجَدُونِي نَائِمًا مَا أَتَيْتُوْنِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْطَلِقْ» فَانْطَلَقَ، فَمَرَّ عَلَى اللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ: لِأَصْبَحَنَّكَ عَدَا بِمَا يَسُوءُوكَ، فَغَضِبَتْ نَفِيفٌ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ نَفِيفٍ! إِنَّ اللَّاتَ لَا آتَ، وَإِنَّ الْعُزَّى لَا عُرَى، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا، يَا مَعْشَرَ الْأَخْلَافِ! إِنَّ الْعُزَّى لَا عُرَى، وَإِنَّ اللَّاتَ لَا آتَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا، قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَرَمَاهُ رَجُلٌ فَأَصَابَ أَحْمَحَلَهُ فَفَتَلَهُ، فَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «هَذَا مِثْلُهُ كَمِثْلِ صَاحِبِ يَسَ» ﴿قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٧﴾. ﴿١﴾

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُ غَضَبًا مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَقَتَلُوا وَلِيَّهُ، وَيَذْكُرُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ وَمَا اخْتِاجَ فِي إِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى إِنْزَالِ جُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ، بَلْ الْأَمْرُ كَانَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ [عَنْهُ] أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أَيُّ: مَا كَانَتْ نَاهُمْ بِالْجُمُوعِ،

(١) الطبري: ٥٠٩/٢٠ (٢) الطبري: ٥٠٩/٢٠ (٣) الطبري (٢٩١٧٨) ليست فيه علة سوى تدليس الثوري وهو مدلس ولم يصرح (٤) الحاكم: ٦١٥/٣ مرسل ضعيف وأيضا فيه ابن لهيعة وعند ابن أبي حاتم (١٨٠٤٧) فيه محمد بن جابر وهو ضعيف كما تقدم (٥) الطبري: ٥١٠/٢٠ إسناده ضعيف لإبهام رجلين بين ابن مسعود وابن إسحاق والسند إلى ابن إسحاق لم يثبت فيه ضعيفان سلمة بن الفضل ومحمد بن حميد كما تقدم قريبا (٦) الطبري: ٥١٠/٢٠

يَقْتَالِ الْمُشْرِكِينَ، ذَكَرُوهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣].

فَعَلَى هَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ هَذِهِ الْقُرْيَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْقُرْآنِ قُرْيَةٌ أُخْرَى غَيْرُ أَنْطَاكِيَّةَ، كَمَا أُطْلِقَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَيْضًا. أَوْ تَكُونُ أَنْطَاكِيَّةُ - إِنْ كَانَ لَفْظُهَا مَحْفُوظًا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ - مَدِينَةً أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ الْمَشْهُورَةِ الْمَعْرُوفَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّهَا أَهْلِكَتْ، لَا فِي الْوَلَاةِ النَّصْرَانِيَّةِ وَلَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٢١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٢٢) [يَا حَسْرَةَ عَلَى الْمُكْذِبِينَ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ أَيُّ: يَا وَيْلَ الْعِبَادِ (٢٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ أَيُّ: يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَلَى مَا ضَيَعَتْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَفَرُطَتْ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَفِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ: (يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ) (٢٤). وَمَعْنَى هَذَا: يَا حَسْرَتُهُمْ وَتَذَامُتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا عَابَتْهُمُ الْعَذَابُ، كَيْفَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ وَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا الْمُكْذِبُونَ مِنْهُمْ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيُّ: يَكْذِبُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، وَيَجْحَدُونَ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

### [الرَّدُّ عَلَى عَقِيدَةِ النَّاسُخِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أَيُّ: أَلَمْ يَتَّعِظُوا بِمَنْ أَهْلَكَ اللَّهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ، كَيْفَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا كَرَّةٌ وَلَا رَجْعَةٌ، وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ كَثِيرٌ مِنْ جَهْلَتِهِمْ وَفَجَرَتِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الباقية: ٢٣] وَهُمْ الْقَائِلُونَ بِاللُّدُورِ مِنَ الدُّهْرِيَّةِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ جَهْلًا مِنْهُمْ: أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى الدُّنْيَا، كَمَا كَانُوا فِيهَا، فَرَدَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ بِاطْلَاهُمْ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٢٦) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٢٧) [يَا حَسْرَةَ عَلَى الْمُكْذِبِينَ]

خَمْدُونَ<sup>(١)</sup> قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، لِأَنَّ الرِّسَالَةَ لَا تُسَمَّى جُنْدًا<sup>(٢)</sup>. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ. بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي بَابَ بَلَدِهِمْ، ثُمَّ صَاحَ بِهِمْ صَاحَةً وَاحِدَةً، فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ يَبْقَ بِهِمْ رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي جَسَدِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ هَذِهِ الْقُرْيَةَ هِيَ أَنْطَاكِيَّةُ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ كَانُوا رُسُلًا مِنْ عِنْدِ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَذْكُرْ عَنْ وَاحِدٍ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْمُفَسِّرِينَ غَيْرُهُ، وَفِي ذَلِكَ نَظَرٌ مِنْ وَجْهِهِ:

(أَحَدُهَا): أَنَّ ظَاهِرَ الْقِصَّةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا رُسُلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا مِنْ جِهَةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ إِلَى أَنْ قَالُوا ﴿رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا لِكَلِّمْهُمْ لِمُرْسَلِينَ﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْكَلِمَةَ الْبَرَّةَ<sup>(٣)</sup> وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْخَوَارِئِينَ لَقَالُوا عِبَارَةً تَنَاسُبُ أَنَّهُمْ مِنْ عِنْدِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، ثُمَّ لَوْ كَانُوا رُسُلَ الْمَسِيحِ لَمَا قَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾<sup>(٤)</sup> [إبراهيم: ١٠].

(الثَّانِي): أَنَّ أَهْلَ أَنْطَاكِيَّةِ آمَنُوا بِرُسُلِ الْمَسِيحِ إِلَيْهِمْ، وَكَانُوا أَوَّلَ مَدِينَةٍ آمَنَتْ بِالْمَسِيحِ، وَلِهَذَا كَانَتْ عِنْدَ النَّصَارَى إِحْدَى الْمَدَائِنِ الْأَرْبَعَةِ اللَّاتِي فِيهِنَّ تَبَارَكُهُ، وَهُنَّ: الْقُدْسُ لِأَنَّهَا بَلَدُ الْمَسِيحِ. وَأَنْطَاكِيَّةُ لِأَنَّهَا أَوَّلُ بَلَدَةٍ آمَنَتْ بِالْمَسِيحِ عَنْ آخِرِ أَهْلِهَا. وَالْإِسْكََنْدَرِيَّةُ، لِأَنَّ فِيهَا اضْطَلَحُوا عَلَى اتِّخَاذِ التَّبَارِكَةِ وَالْمَطَارِنَةِ وَالْأَسَافِقَةِ وَالْقَسَاسِيسَةِ وَالشَّهَامِسَةِ وَالرَّهَابِينَ. ثُمَّ رُومِيَّةُ لِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينِ الَّذِي نَصَرَ دِينَهُمْ وَأَوْطَدَهُ، وَلَمَّا ابْتَنَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ نَقَلُوا الْبَتْرَكَ مِنْ رُومِيَّةَ إِلَيْهَا. كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ ذَكَرِ تَوَارِيخِهِمْ، كَسَعِيدِ بْنِ بَطْرِيْقٍ - وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ - فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ أَنْطَاكِيَّةَ أَوَّلُ مَدِينَةٍ آمَنَتْ، فَأَهْلُ هَذِهِ الْقُرْيَةِ، ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِصَاحَةٍ وَاحِدَةٍ أَحْمَدَتْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(الثَّالِثُ): أَنَّ قِصَّةَ أَنْطَاكِيَّةِ مَعَ الْخَوَارِئِينَ أَصْحَابِ الْمَسِيحِ بَعْدَ نُزُولِ الثَّوْرَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ إِنْزَالِهِ الثَّوْرَةِ لَمْ يُهْلِكْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ عَنْ آخِرِهِمْ بِعَذَابٍ يَبْتَعُهُ عَلَيْهِمْ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ ذَلِكَ

(١) الطبري: ٥١٠/٢٠ (٢) الطبري: ٥١١/٢٠ (\*) كذا ورد في النسخ وآية يس تبدأ من "ما أنتم إلا بشر" التي يشير إليها (٣) الطبري: ٥١٢/٢٠ (٤) الطبري: ٥١٢/٢٠

﴿وَمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: مِنْ مَخْلُوقَاتِ شَيْءٍ لَا يَعْرِفُونَهَا، كَمَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَأَيُّهُ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُنْطَلِمُونَ﴾<sup>(٢٧)</sup> وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ<sup>(٢٨)</sup> وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوَنِ الْفَارِجِ<sup>(٢٩)</sup> لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ<sup>(٣٠)</sup>

[وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنْ الدَّلَالَةِ لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْعَظِيمَةِ، خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، هَذَا بِظِلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ، وَجَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ يَجِيءُ هَذَا فَيَذْهَبُ هَذَا، وَيَذْهَبُ هَذَا فَيَجِيءُ هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حِينًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا: ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نَضْرِمُهُ مِنْهُ، فَيَذْهَبُ فَيَقْبَلُ اللَّيْلُ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُنْطَلِمُونَ﴾ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هُنَا، وَأَذْبَرَ النَّهَارَ مِنْ هُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمَ» هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قَوْلَانِ، (أَحَدُهُمَا): أَنَّ الْمُرَادَ مُسْتَقَرَّهَا الْمَكَانِيَّ، وَهُوَ تَحْتَ الْعَرْشِ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ، وَهِيَ أَيْنَمَا كَانَتْ، فَهِيَ تَحْتَ الْعَرْشِ هِيَ وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، لِأَنَّهُ سَقْفُهَا، وَلَيْسَ بَكْرَةٍ كَمَا يَزْعُمُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ الْهَيْئَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ قَبَّةٌ، ذَاتُ قَوَائِمٍ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ مِمَّا يَلِي رُؤُوسَ النَّاسِ، فَالشَّمْسُ إِذَا كَانَتْ فِي قَبَّةِ الْفَلَكَ وَقَتَ الظُّهْيَةِ، تَكُونُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَى الْعَرْشِ، فَإِذَا اسْتَدَارَتْ فِي فَلَكِهَا الرَّابِعِ إِلَى مُقَابَلَةِ هَذَا الْمَقَامِ وَهُوَ وَقْتُ نِصْفِ اللَّيْلِ، صَارَتْ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ إِلَى الْعَرْشِ، فَجَبِيذُ تَسْجُدٍ وَتَسْتَأْدُنُ فِي الطُّلُوعِ كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ ﷺ: «يَا

الْقُرُونِ أَنتُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ». وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: وَإِنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ سَتُحْضَرُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كُلَّهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا، وَمَعْنَى هَذَا كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لَوْفَتْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

﴿وَأَيُّهُ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾<sup>(٣١)</sup> وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ<sup>(٣٢)</sup> لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ<sup>(٣٣)</sup> سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٣٤)</sup>

[ثُبُوتُ الصَّانِعِ لِلْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمُ﴾ أي: دَلَالَةٌ لَهُمْ عَلَى وَجُودِ الصَّانِعِ وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى ﴿الْأَرْضُ الَّتِي أَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: إِذَا كَانَتْ مَتْنَةً هَامِدَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِنَ النَّبَاتِ، فَإِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا الْمَاءَ، اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: جَعَلْنَاهُ رِزْقًا لَهُمْ وَلِنَاعِمِهِمْ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي: جَعَلْنَا فِيهَا أَنْهَارًا سَارِحَةً فِي أَمْكِنَةٍ يَخْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾. لَمَّا أَمْتَنَ عَلَى خَلْقِهِ بِإِبْجَادِ الزُّرُوعِ لَهُمْ، عَطَفَ بِذِكْرِ الثَّمَارِ وَتَنَوُّعِهَا وَأَصْنَافِهَا.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وَمَا ذَاكَ كُلُّهُ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ لَا بِسَعْيِهِمْ وَلَا كَدِّهِمْ وَلَا بِحَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: فَهَلَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ - بَلْ جَزَمَ بِهِ، وَلَمْ يَحْكُ غَيْرُهُ إِلَّا اخْتِمَالًا - أَنَّ «مَا» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بِمَعْنَى «الَّذِي» تَقْدِيرُهُ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أي: غَرَسُوهُ وَنَبَّطُوهُ، قَالَ: وَهِيَ كَذَلِكَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ). ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي: مِنْ زُرُوعٍ وَثَمَارٍ وَنَبَاتٍ ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فَجَعَلَهُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى

تَقْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢] فَجَعَلَ الشَّمْسُ لَهَا ضَوْءً يَخْضِبُهَا،  
وَالْقَمَرَ لَهُ نُورٌ يَخْضِبُهُ، وَفَاوَتْ بَيْنَ سَبْعِ هَذِهِ وَهَذَا،  
فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْرُبُ فِي آخِرِهِ عَلَى ضَوْءٍ وَاحِدٍ،  
وَلَكِنْ تَتَقَلَّبُ فِي مَطَالِعِهَا وَمَغَارِبِهَا صَبْغًا وَشِبْغًا، يَطُولُ  
بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ، ثُمَّ يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ  
النَّهَارُ، وَجَعَلَ سُلْطَانُهَا بِالنَّهَارِ فِيهِ كَوْكَبُ نَهَارِيٍّ، وَأَمَّا  
القَمَرُ فَقَدَرَهُ مَنَازِلَ يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ ضَبْغًا قَلِيلَ  
النُّورِ، ثُمَّ يَزْدَادُ نُورًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ وَيَزِيدُ نُورَهُ، ثُمَّ  
كُلَّمَا ارْتَفَعَ ازْدَادَ ضِيَاءً وَإِنْ كَانَ مُقْتَسِمًا مِنَ الشَّمْسِ، حَتَّى  
يَتَكَمَّلَ نُورُهُ فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ  
إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ حَتَّى يَصِيرَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَهُوَ أَضَلُّ الْعَذَقِ<sup>(١)</sup>. وَالْعَرْبُ  
تُسَمَّى كُلُّ ثَلَاثِ لَيَالٍ مِنَ الشَّهْرِ بِاسْمِ بِاعْتِبَارِ الْقَمَرِ،  
فَيُسَمُّونَ الثَّلَاثَ الْأَوَّلَ «عُرْزًا»، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا [نُقِلَ]  
وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا «تُسَعٌ»، لِأَنَّ أَخْرَاهُنَّ الثَّاسِعَةَ، وَاللَّوَاتِي  
بَعْدَهَا «عَشْرًا»، لِأَنَّ أُولَاهُنَّ الْعَاشِرَةَ، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا  
«الْبَيْضُ»، لِأَنَّ ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهِنَّ إِلَى آخِرِهِنَّ، وَاللَّوَاتِي  
بَعْدَهُنَّ «دُرْعًا»، جَمْعُ دُرْعَاءَ، لِأَنَّ أُولَاهُنَّ أَسْوَدُ، لِتَأْخِرِ  
الْقَمَرِ فِي أُولَاهُنَّ مِنْهُ، وَمِنْهُ الشَّاءُ الدَّرْعَاءُ وَهِيَ الَّتِي رَأْسُهَا  
أَسْوَدُ، وَبَعْدَهُنَّ ثَلَاثُ «ظُلُمٍ»، ثُمَّ ثَلَاثُ «حَنَادُسٍ»،  
وَالثَّلَاثُ «ذَادِيٌّ»، وَثَلَاثُ «مَحَاقٍ»، لِإِنْمَحَاقِ الْقَمَرِ  
[أَوْ آخِرِ الشَّهْرِ فِيهِ]. وَكَانَ أَبُو [عَبْدِ اللَّهِ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُنَكِّرُ  
التُّسَعُ وَالْعَشْرَ. كَذَا قَالَ فِي كِتَابِ غَرِيبِ الْمُصْطَفِ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ بِبَلْعَى لَهَا أَنْ تَدْرِكَ  
الْقَمَرَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لِكُلِّ مِنْهُمَا حَدٌّ لَا يَبْغُوهُ وَلَا يَقْصُرُ  
دُونَهُ، إِذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا ذَهَبَ هَذَا، وَإِذَا ذَهَبَ سُلْطَانُ  
هَذَا، جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ  
وَجَلَّ: ﴿لَا الشَّمْسُ بِبَلْعَى لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ يَعْنِي أَنَّ لِكُلِّ  
مِنْهُمَا سُلْطَانًا، فَلَا يَبْغِي لِلشَّمْسِ أَنْ تَطْلُعَ بِاللَّيْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَلَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يَقُولُ: لَا يَبْغِي  
إِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَنْ يَكُونَ لَيْلٌ آخَرُ، حَتَّى يَكُونَ النَّهَارُ،  
فَسُلْطَانُ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ، وَسُلْطَانُ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ. وَقَالَ  
الصَّحَّاحُ: لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا حَتَّى يَجِيءَ النَّهَارُ مِنْ

أَبَا ذَرٍّ! أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ  
أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ: «فَإِنِّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ،  
فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ  
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾»<sup>(١)</sup>.

وَأَيْضًا رَوَى الْحَمِيدِي [وَبطريقه البخاري] عَنْ أَبِي ذَرٍّ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ  
وَتَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا؟﴾ قَالَ ﷺ:  
«مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ»<sup>(٢)</sup>.

(وَالْقَوْلُ الثَّانِي): أَنَّ الْمُرَادَ بِمُسْتَقَرِّهَا هُوَ مُنْتَهَى سَبِيلِهَا  
وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَبْطُلُ سَبِيلُهَا وَتَسْكُنُ حَرَكَتُهَا وَتَكْوَرُ،  
وَيَنْتَهِي هَذَا الْعَالَمُ إِلَى غَايَتِهِ، وَهَذَا هُوَ مُسْتَقَرُّهَا الزَّمَانِيُّ.  
قَالَ قَتَادَةُ: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا؟﴾ أَيُّ: لِيُوفِّيَهَا وَلِأَجْلِ لَا  
تَعْدُوهُ<sup>(٣)</sup>. وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّهَا لَا تَرَاوُ تَتَقَلَّبُ فِي مَطَالِعِهَا  
الصَّفِيَّةِ إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَتَقَلَّبُ فِي مَطَالِعِ الشِّتَاءِ  
إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا، يُزَوَّى هَذَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (وَالشَّمْسُ  
تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا) أَيُّ: لَا قَرَارَ لَهَا وَلَا سَكُونَ، بَلْ هِيَ  
سَائِرَةٌ لَيْلًا وَنَهَارًا، لَا تَقْفُ وَلَا تَقْفُ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ  
وَتَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٢٣]  
أَيُّ: لَا يَفْتَرَانِ وَلَا يَقِفَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ  
الْعَزِيزِ﴾ أَيُّ: الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ «الْعَلِيمِ» بِجَمِيعِ  
الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ، وَقَدْ قَدَّرَ ذَلِكَ وَوَقَّعَهُ عَلَى مَنَوَالٍ لَا  
اِخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَعَاكُسَ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ  
وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ  
الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] وَهَكَذَا خَتَمَ آيَةَ «حَمِّ السَّجْدَةِ» بِقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ أَيُّ:  
جَعَلَنَاهُ يَسِيرَ سَبِيلًا آخَرَ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ، كَمَا  
أَنَّ الشَّمْسَ يُعْرَفُ بِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:  
﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوْقِفَتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ﴾  
[البقرة: ١٨٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً

وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾...  
الآيَةُ [يونس: ٥]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ  
عَاقِبَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَبَنَّوْا فَضْلًا  
مِنْ رَبِّكُم وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا

(١) فتح الباري: ٤٠٢/٨ (٢) فتح الباري: ٤٠٢/٨ (٣) الطبري: ٥١٧/٢٠ (٤) الطبري: ٥١٨/٢٠ (٥) الطبري: ٥٢٠/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٣

سُورَةُ يَس

وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا لَوْلَا إِنَّا مِنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالِیَوْمَ لَا نُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني الذين في السفن ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مُنِيتَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أي: مِمَّا أَصَابَهُمْ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: ولكن بِرَحْمَتِنَا نَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَنُسَلِّمُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إِلَىٰ وَقْتٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾

(١) الطبري: ٥٢٠/٢٠ (٢) الطبري: ٥١٩/٢٠ (٣) الطبري: ٥٢٠/٢٠ (٤) الطبري: ٥٢٢/٢٠ (٥) الطبري: ٥٢٢/٢٠ (٦) الطبري: ٥٢٣، ٥٢٢/٢٠ (٧) الطبري: ٥٢٤/٢٠ (٨) الطبري: ٥٢٣/٢٠ (٩) الطبري: ٥٢٤-٥٢٢/٢٠

هَهُنَا، وَأَوَّمًا بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَا الْبَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يَطْلُبَانِ حَيْثُيْن، يَنْسَلِخُ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ <sup>(٢)</sup>. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا: أَنَّهُ لَا فِتْرَةَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، بَلْ كُلُّ مِنْهُمَا يَغُفُّ الْآخَرَ بِلا مُهْلَةٍ وَلَا تَرَاخٍ، لِأَنَّهُمَا مُسْحَرَانِ ذَاتَيْنِ يَتَطَلَّبَانِ طَلَبًا حَيْثُيًّا.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يَعْنِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، كُلُّهُمْ يَسْبَحُونَ أَيُّ: يَدُورُونَ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ <sup>(٣)</sup>. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: فِي فَلَكَةٍ كَفَلَكَةِ الْمَغْرُلِ.

﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

[وَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ حَمْلُهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَدَلَالَةٌ لَهُمْ أَيْضًا عَلَى قُدْرَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِيَحْمِلَ السُّفْنَ، فَمِنْ ذَلِكَ - بَلْ أَوَّلُهُ - سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الَّتِي أَنْجَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا يَمَنَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَيْرُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أَيُّ: آبَاءَهُمْ ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ أَيُّ: فِي السَّفِينَةِ الْمَمْلُوءَةِ مِنَ الْأُمِّيَّةِ وَالْحَيَوَانَاتِ، الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْمَشْحُونُ: الْمَوْقَرُ <sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ <sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: وَهِيَ سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ <sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي بِذَلِكَ الْإِبِلَ، فَإِنَّهَا سُفُنُ الْبَرِّ يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا وَيَرْكَبُونَهَا <sup>(٧)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَتَذَرُونَ مَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قُلْنَا: لَا، قَالَ: هِيَ السُّفُنُ، جُعِلَتْ مِنْ بَعْدِ سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مِثْلِهَا <sup>(٨)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ وَأَبُو صَالِحٍ، وَالسُّدِّيُّ أَيْضًا، الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أَيُّ السُّفُنِ <sup>(٩)</sup>.



## [بَيَانُ ضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَادِي الْمُشْرِكِينَ فِي عَيْبِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَعَدَمِ اكْتِرَائِهِمْ بِذُنُوبِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوا، وَمَا يَسْتَقْبِلُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مِنَ الذُّنُوبِ. وَقَالَ غَيْرُهُ بِالْعَكْسِ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أَيْ: لَعَلَّ اللَّهَ بِاتِّقَائِكُمْ ذَلِكَ، يَرْحَمَكُمْ وَيُؤْمِنُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: أَنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَ إِلَى ذَلِكَ بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ، وَاتَّعَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: عَلَى التَّوْحِيدِ وَصِدْقِ الرُّسُلِ ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أَيْ: لَا يَتَأَمَّلُونَهَا وَلَا يَقْبَلُونَهَا وَلَا يَتَّبِعُونَ بِهَا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ أَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أَيْ: وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَارِبِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ: عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْفُقَرَاءِ، أَيْ: قَالُوا لِمَنْ أَمَرَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ - مُحَاجِّينَ لَهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ - : ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُمُونَا بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ، لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَاهُمْ وَلَأَطْعَمَهُمْ مِنْ رِزْقِهِ، فَتَحْنُ نَوَافِقُ مَشِيبَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ: فِي أَمْرِكُمْ لَنَا بِذَلِكَ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)

## [اِسْتِعَاذُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْبُعْثِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ اسْتِعَاذِ الْكُفَرَةِ لِقِيَامِ السَّاعَةِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أَيْ: مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً، وَهَذِهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - نَفْخَةُ الْفَرْعِ، يَنْفُخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةَ الْفَرْعِ، وَالنَّاسُ فِي أَسْرَاقِهِمْ وَمَعَاشِيهِمْ يَخْتَصِمُونَ وَيَتَسَاجِرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِسْرَافِيلَ فَتَفَخَّخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً يُطَوِّلُهَا وَيَمُدُّهَا، فَلَا يَنْتَقِي أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا - وَهِيَ صَفْحَةُ الْعُتْقِ - يَسْمَعُ الصَّوْتِ مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُسَاقُ الْمَوْجُودُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَحْشَرِ الْقِيَامَةِ بِالنَّارِ تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أَيْ: عَلَى مَا يَمْلِكُونَهُ، الْأَمْرُ أَمَّهُمْ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ هُنَا آثَارُ وَاحِدَاتٍ ذَكَرْنَاهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ هَذَا نَفْخَةُ الصُّعْقِ الَّتِي تَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ كُلُّهُمْ مَا عَدَا الْحَيَّ الْقَيُّومَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْبُعْثِ.

﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْلُكُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَوَلَّلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدَاتٍ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تَفْطَنُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

## [نَفْخَةُ الْبُعْثِ]

هَذِهِ هِيَ النَّفْخَةُ الثَّلَاثَةُ، وَهِيَ نَفْخَةُ الْبُعْثِ وَالشُّورِ لِلْقِيَامِ مِنَ الْأَجْدَاثِ وَالْقُبُورِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْلُكُونَ﴾ وَالسَّلَاقُ هُوَ الْمَشْيُ السَّرِيعُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نَفْسٍ يُوقِظُونَ﴾ [المعارج: ٤٣] ﴿قَالُوا يَوَلَّلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدَاتٍ﴾ يَعْنُونَ قُبُورَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ مِنْهَا، فَلَمَّا عَلِمُوا مَا كَذَّبُوا بِهِ فِي مَحْشَرِهِمْ ﴿قَالُوا يَوَلَّلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدَاتٍ﴾ وَهَذَا لَا يَنْفِي عَذَابَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ، لِأَنَّهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَىٰ مَا بَعْدَهُ فِي الشَّدَةِ كَالرُّقَادِ. قَالَ أَبِي بُرٍّ كَتَبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: يَنَامُونَ نَوْمَةً قَبْلَ الْبُعْثِ (١). قَالَ قَتَادَةُ: وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، فَلِذَلِكَ يَقُولُونَ ﴿مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَرْقَدَاتٍ﴾ (٢). فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ أَجَابَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ - قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ -: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّمَا يُجِيبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ. وَلَا مُتَافَاةَ إِذِ الْجَمْعُ مُمَكِّنٌ، وَاللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات: ١٤، ١٣] وَقَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْحِ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قِيْلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] أَيْ: إِنَّمَا نَأْمُرُهُمْ أَمْرًا وَاحِدًا، فَإِذَا الْجَمِيعُ مُحْضَرُونَ ﴿فَالْيَوْمَ لَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٤

سُورَةُ يَس

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ  
فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِينُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ  
مَائِدُعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ  
أَتَيْنَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا  
تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي  
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا  
أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ  
﴿٦٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ  
عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَنُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا  
الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ  
عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾  
وَمَنْ تَعَمَّرَ نَكْسَنَاهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾  
وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّرْعَ وَمَا بَدَّيْنَاهُ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِقَوْمٍ مُبِينٍ  
﴿٦٩﴾ لِنُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

يَفْقَرُونَ ﴿[الروم: ١٤]﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴿[الروم: ٤٣]﴾ أَيْ:  
يَصِيرُونَ صَدْعَيْنِ فِرْقَتَيْنِ ﴿أَخْشَرُوا الْيَتِيمَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا  
يَعْدُونَ﴾ ﴿٧١﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَنِيمِ ﴿[الصفات: ٢٢، ٢٣]﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا  
الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ هَذَا تَقْرِيعٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى  
لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ، الَّذِينَ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ وَهُوَ عَدُوٌّ لَهُمْ  
مُبِينٌ، وَعَصَوْا الرَّحْمَنَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ، وَلِهَذَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَيْ: قَدْ  
أَمَرْتُكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِعِصْيَانِ الشَّيْطَانِ، وَأَمَرْتُكُمْ  
بِعِبَادَتِي، وَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، فَسَلَكْتُمْ غَيْرَ ذَلِكَ  
وَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:  
﴿وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ الْخَلْقُ  
الْكَثِيرُ. قَالَه مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ.

(١) الطبري: ٥٣٥/٢٠ (٢) الطبري: ٥٣٨/٢٠ (٣) الطبري:

٥٤٠، ٥٣٩/٢٠

تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أَيْ: مِنْ عَمَلِهَا ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا  
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي  
ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِينُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا  
يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾

[بَيَانُ عَيْشِ أَهْلِ الْجَنَّةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا ارْتَحَلُوا  
مِنَ الْعَرَصَاتِ، فَتَزَلُّوا فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ، أَنَّهُمْ فِي  
شُغْلٍ عَنْ غَيْرِهِمْ، بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ وَالْفُوزِ  
الْعَظِيمِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ:  
﴿فِي شُغْلٍ﴾ عَمَّا فِيهِ أَهْلُ النَّارِ مِنَ الْعَذَابِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ:  
﴿فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ أَيْ: فِي نِيعِمٍ مُعْجِبُونَ، أَيْ: بِهِ <sup>(١)</sup>.  
وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:  
﴿فَكِهِونَ﴾ أَيْ: فَرِحُونَ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ:  
وَحَلَالُهُمْ، ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ أَيْ: فِي ظِلَالِ الْأَشْجَارِ <sup>(٢)</sup>.  
﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِينُونَ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ  
وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَخُصَيْفٌ:  
﴿الْأَرَائِكُ﴾ هِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:  
﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أَيْ: مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهَا ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾  
أَيْ: مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَلَادِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ قَالَ ابْنُ  
جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفْسَهُ سَلَامٌ عَلَى  
أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،  
كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَجِئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الاحزاب: ٤٤].

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّنَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي  
آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وَإِنْ  
أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا  
أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

[مَكَانُ الْكُفَّارِ بِالْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَجْرُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُؤُولُ إِلَيْهِ حَالُ الْكُفَّارِ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ مِنْ أَمْرِ لَهُمْ أَنْ يَمْتَارُوا بِمَعْنَى يَتَمَيَّزُونَ عَنْ  
الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاقِفِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا  
ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ  
[يونس: ٢٨] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَئِذٍ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: أَمَا كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ فِي مَخَالِفَةِ رَبِّكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَدُولِكُمْ إِلَى اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ.  
﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٧) أَصْلُهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٨﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾  
يُقَالُ لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ بَرَزَتْ الْحَجِيمُ لَهُمْ تَقْرِيبًا وَتَوْبِيخًا: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَي: هَذِهِ الَّتِي حَدَرْتُمْ الرُّسُلَ، فَكَذَّبْتُمُوهُمْ ﴿أَصْلُهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ (٢٢) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٢٣﴾ أَفَسِحَرُ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٤﴾ [الطور: ١٣-١٥].

[الْحَتَمَ عَلَى أَفْوَاهِ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هَذَا حَالُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يُنْكِرُونَ مَا اجْتَرَمُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَيُخْلِفُونَ: مَا فَعَلُوهُ، فَيُخْتِمُ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَيَسْتَنْطِقُ جَوَارِحَهُمْ بِمَا عَمِلَتْ.  
رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَضَجَّكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «أَتَنْدَرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ: «مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: رَبِّ! أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: لَا أَجِيزُ عَلَيْكَ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهَدَا، فَيُخْتِمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِيقِي فَتَنْطِقِي بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ» وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (١).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَهْلَكْنَاهُمْ (٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي لَعَيَّرْنَا خَلْقَهُمْ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: لَجَعَلْنَاهُمْ حِجَارَةً. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: لَأَعَدَّاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ (٣). وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ أَي: إِلَى أَمَامٍ ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ إِلَى وَرَاءَ، بَلْ يُلْزَمُونَ حَالًا وَاحِدًا، لَا يَتَقَدَّمُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ.

﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤) وَمَا عَلَّمْتَهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٥﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ كُلَّمَا طَالَ عُمْرُهُ، رُدَّ إِلَى الضَّعْفِ بَعْدَ الْقُوَّةِ، وَالْعَجْزِ بَعْدَ النَّشَاطِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مُوسَى، هُوَ الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يُدْعَى الْمُؤْمِنُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُغْرَضُ عَلَيْهِ رَبُّهُ عَمَلَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَيُعْتَرَفُ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيُّ رَبِّ! عَمِلْتُ عَمِلْتُ عَمِلْتُ، قَالَ: فَيَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ ذُنُوبَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنْهَا، قَالَ: فَمَا عَلَى الْأَرْضِ خَلِيقَةٌ تَرَى مِنْ تِلْكَ الذُّنُوبِ شَيْئًا، وَتَبْدُو حَسَنَاتُهُ، فَوَدَّ أَنَّ النَّاسَ

(١) مسلم: ٢٢٨٠/٤ والنسائي في الكبرى: ٥٠٨/٦ (٢) الطبري: ٥٤٤/٢٠ (٣) الطبري: ٥٤٥/٢٠ (٤) الطبري: ٥٤٧/٢٠ (٥) الطبري: ٥٤٧/٢٠ (٦) الطبري: ٥٤٧/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٥

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا  
مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾  
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا  
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ  
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ  
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا  
بَنِينَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا  
مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مِنْ حَيٍّ الْعِظَمِ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾  
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾  
الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأَ  
مِنْهُ تُوفًى دُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾  
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾  
فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

## سُورَةُ الصَّافَّاتِ

الصَّحَاكُ: يَغْنَى عَاقِلًا (٣). ﴿وَيَحْيَى الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾  
أَي: هُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَحُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا  
مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا  
مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾  
[الْأَنْعَامُ آيَةٌ وَنِعْمَةٌ]

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ الَّتِي  
سَخَّرَهَا لَهُمْ ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مُطِيقُونَ،  
أَي: جَعَلَهُمْ يَفْهَرُونَهَا وَهِيَ ذَلِيلَةٌ لَهُمْ، لَا تَمْتَنِعُ مِنْهُمْ، بَلْ  
لَوْ جَاءَ صَغِيرٌ إِلَى بَعِيرٍ لِأَخَاخِهِ، وَلَوْ شَاءَ لَأَقَامَهُ وَسَاقَهُ،  
وَذَاكَ ذَلِيلٌ مُتَقَادٌ مَعَهُ، وَكَذَا لَوْ كَانَ الْقِطَارُ مِائَةً بَعِيرٍ أَوْ  
أَكْثَرَ، لَسَارَ الْجَمِيعُ بِسِيرِ الصَّغِيرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمِنْهَا  
رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أَي: مِنْهَا مَا يَرْكَبُونَ فِي الْأَسْفَارِ،  
وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِ الْأَنْقَالَ إِلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَقْطَارِ ﴿وَمِنْهَا

(١) دلائل النبوة: ١٨١/٥ (٢) الطبري: ٥٥٠/٢٠ (٣) الطبري: ٥٥٠/٢٠

وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ  
قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ  
الْعَلِيمُ الْغَفِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ  
يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعَمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾  
[الحج: ٥] وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الْإِخْبَارُ عَنْ هَذِهِ  
الدَّارِ بِأَنَّهَا دَارُ زَوَالٍ وَانْتِقَالٍ، لَا دَارُ دَوَامٍ وَاسْتِقْرَارٍ،  
وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أَي: يَتَفَكَّرُونَ  
بِعُقُولِهِمْ فِي ابْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ، ثُمَّ صَبْرُورَتِهِمْ إِلَى سِرِّ الشَّيْبَةِ،  
ثُمَّ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ خَلَقُوا لِدَارٍ أُخْرَى لَا زَوَالٍ  
لَهَا وَلَا انْتِقَالٍ مِنْهَا، وَلَا مَجِيدَ عَنْهَا، وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ.  
[إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُعَلِّمْ رَسُولَهُ الشُّعْرَ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾  
يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ مَا عَلَّمَهُ الشُّعْرَ  
﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أَي: مَا هُوَ فِي طَبْعِهِ، فَلَا يُحْسِنُهُ وَلَا  
يُجِبُّهُ وَلَا تَقْضِيهِ جِبِلَّتُهُ، وَلِهَذَا وَرَدَّ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَحْفَظُ  
بَيْتًا عَلَى وَرَنٍ مُنْتَظِمٍ، بَلْ إِنْ أَنْشَدَهُ رَحَفَهُ، أَوْ لَمْ يَتِمَّهُ.  
وَرَوَى التَّبَهُّفِيُّ فِي الدَّلَائِلِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ  
لِلْعَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسٍ السَّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ الْقَائِلُ:  
أَنْعَمُ نَهْيٍ وَنَهَبَ الْعَبْدَ بَيْنَ الْأَفْرَعِ وَعَيْنَتِهِ  
فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ «عَيْنَتِهِ وَالْأَفْرَعِ»، فَقَالَ ﷺ: «الْكُلُّ  
سَوَاءٌ» يَعْنِي فِي الْمَعْنَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ (١).  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّمَهُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الَّذِي ﴿لَا  
يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾  
[فصلت: ٤٢] وَلَيْسَ هُوَ بِشُعْرٍ، كَمَا زَعَمَهُ طَائِفَةٌ مِنْ جَهْلَةٍ  
كُفَّارٍ قُرَيْشِيٍّ، وَلَا كَهَانَةٍ، وَلَا مُتَنَعِّلٍ، وَلَا سِحْرِ يُؤَثَّرُ، كَمَا  
تَنَوَّعَتْ فِيهِ أَقْوَالُ الضُّلَّالِ وَآرَاءُ الْجُهَالِ، وَقَدْ كَانَتْ  
سَجِيَّتُهُ ﷺ تَأْتِي صِنَاعَةَ الشُّعْرِ طَبْعًا وَشُرْعًا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أَي: مَا هَذَا الَّذِي عَلَّمْنَاهُ  
﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أَي: بَيِّنٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ  
وَتَدَبَّرَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أَي:  
لِيُنذِرَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُبِينُ كُلَّ حَيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،  
كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تُذَكِّرُ بِهِ وَمَنْ يَلِكُ﴾ [الأنعام: ١٩] وَقَالَ جَلَّ  
وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾  
[هود: ١٧] وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِنَذَارَتِهِ مَنْ هُوَ حَيٌّ الْقَلْبُ مُسْتَبِيرٌ  
الْبَصِيرَةُ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: حَيُّ الْقَلْبِ حَيُّ الْبَصَرِ (٢). وَقَالَ

عَلَيْهِمُ ﴿٧٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ  
مِنَهُ تُوقَدُونَ ﴿٧٧﴾

[إِنْكَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَالرَّدُّ عَلَى ذَلِكَ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ:  
جَاءَ أَبِي بَنٍ خَلْفَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي  
يَدِهِ عَظْمٌ رَّيِيْمٌ، وَهُوَ يَفْتُهُ وَيَذْرُوهُ فِي الْهَوَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ:  
يَا مُحَمَّدُ! أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ،  
يُمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ» وَنَزَلَتْ  
هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ لَيْسَ ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ  
نُطْفَةٍ﴾ إِلَى آخِرِهَا (٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ الْعَاصِ بْنَ وَائِلٍ أَخَذَ  
عَظْمًا مِنَ الطُّحَاءِ فَفَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:  
أُحْيِيهِ اللَّهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ،  
يُمِيتُكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ» قَالَ: وَنَزَلَتْ  
الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ لَيْسَ. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ  
جُبَيْرٍ (٤).

وَهَذِهِ الْآيَاتُ سَوَاءٌ كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَنٍ خَلْفَ أَوْ  
الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ أَوْ فِيهِمَا، فَيَبِي عَامَّةً فِي كُلِّ مَنْ أَنْكَرَ  
الْبَعْثَ. وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ  
الْإِنْسَانُ﴾ لِلْجَنَسِ، يَعْمُ كُلُّ مُنْكَرٍ لِلْبَعْثِ «أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ  
نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ» أَيُّ: أَوَلَمْ يَسْتَدِلَّ مَنْ أَنْكَرَ  
الْبَعْثَ بِالْبَدْءِ عَلَى الْإِعَادَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ  
سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، فَخَلَقَهُ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَهِينٍ،  
كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي  
قَرَارٍ مُّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِنْ قَدَرِ مَعْلُومٌ [المرسلات: ٢٠-٢٢] وَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الذهر: ٢] أَيُّ:  
مِنْ نُطْفَةٍ مِنْ أَخْلَاطٍ مُتَفَرِّقَةٍ، فَالَّذِي خَلَقَهُ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ  
الضَّعِيفَةِ، أَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى إِعَادَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ بَشْرِ بْنِ جَحَاشٍ  
قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا  
أَصْبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ!  
أَتَنِي تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ  
وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَبَيْدٌ،

يَأْكُلُونَ﴾ إِذَا شَاؤُوا نَحَرُوا وَاجْتَرَرُوا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أَيُّ:  
مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى جِوْنٍ  
﴿وَمَشَارِبٌ﴾ أَيُّ: مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَوْبَالِهَا - لِمَنْ يَبْدَأُ -  
وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿أَفَلَا يَسْكُرُونَ﴾ أَيُّ أَفَلَا يُوَحِّدُونَ خَالِقَ ذَلِكَ  
وَمُسْخِرَهُ، وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرُهُ؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ  
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ مُنْصَرُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ  
مَا يُشْرِكُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

[الْهَيْئَةُ الْمُشْرِكِينَ لَا تَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمُ الْإِلْدَادَ  
الْهَيْئَةَ مَعَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ بِذَلِكَ أَنْ تَنْصُرَهُمْ تِلْكَ الْآلِهَةُ وَتَرْزُقَهُمْ  
وَتَقْرُبَهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ  
نَصْرَهُمْ﴾ أَيُّ: لَا تَقْدِرُ الْآلِهَةُ عَلَى نَصْرِ عَابِدِيهَا، بَلْ هِيَ  
أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقْلُ وَأَحْقَرُ وَأَذْحَرُ، بَلْ لَا تَقْدِرُ عَلَى  
الْإِسْتِنصَارِ لِنَفْسِهَا، وَلَا الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ،  
لِأَنَّهَا جَمَادٌ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَعْقِلُ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ مُنْصَرُونَ﴾ قَالَ  
مُجَاهِدٌ: يَعْنِي عِنْدَ الْحِسَابِ (١). يُرِيدُ: أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ  
مُحْشُورَةٌ مَجْمُوعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مُحْضَرَةٌ عِنْدَ حِسَابِ  
عَابِدِيهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي حُزْنِهِمْ، وَأَدْلَى عَلَيْهِمْ فِي  
إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾  
يَعْنِي الْآلِهَةَ ﴿وَهُمْ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ مُنْصَرُونَ﴾ وَالْمُشْرِكُونَ يَغْضَبُونَ  
لِلْآلِهَةِ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ لَا تَسُوقُ إِلَيْهِمْ خَيْرًا، وَلَا تَدْفَعُ  
عَنْهُمْ شَرًّا، إِنَّمَا هِيَ أَضْنَامٌ (٢). وَهَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ  
الْبَصْرِيُّ. وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ  
اللَّهُ تَعَالَى.

[تَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ أَيُّ: تَكْذِيبُهُمْ لَكَ  
وَكُفْرُهُمْ بِاللَّهِ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُشْرِكُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: نَحْنُ  
نَعْلَمُ جَمِيعَ مَا هُمْ فِيهِ، وَسَنَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ وَنُعَامِلُهُمْ عَلَى  
ذَلِكَ، يَوْمَ لَا يَفْقِدُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا، وَلَا  
صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، بَلْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ جَمِيعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ  
قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

مُّبِينٌ﴾ ﴿٧٦﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعَظْمَ وَهِيَ  
رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ

(١) الطبري: ٥٥٢/٢٠ (٢) أيضًا الطبري: ٢٩٢٣٩ (٣)

الطبري: ٥٥٤/٢٠ (٤) الطبري: ٥٥٤/٢٠

وَالْعَفَارِ، يَبْتُثُ فِي أَرْضِ الْحِجَارِ، فَيَأْتِي مَنْ أَرَادَ قَدْحَ نَارٍ وَلَيْسَ مَعَهُ زَنَادٌ، فَيَأْخُذُ مِنْهُ عُودَيْنِ أَخْضَرَيْنِ، وَيَقْدَحُ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ، فَتَقُولُ النَّارُ مِنْ بَيْنَهُمَا، كَالزَّنَادِ سَوَاءٌ. وَرَوَى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَفِي الْمَثَلِ: لِكُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ. وَقَالَ الْحُكَمَاءُ: فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ إِلَّا [الْعُنَابَ].

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهَا بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسَيَحْنُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا مَنِهَا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالنَّوَابِتِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَرِمَالٍ، وَبَحَارٍ وَقَفَارٍ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَمُرْشِدًا إِلَى الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهَا بَلَى﴾. مِثْلُ الْبَشَرِ، فَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:

وَهَذِهِ آيَةُ الْكُرَيْمَةِ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ يَمِينًا يُجِئُ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُنَا: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. أَنَّى إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّرٍ أَوْ تَأْكِيدٍ:

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا

يَقُولُ لَهُ: كُنْ - قَوْلُهُ - فَيَكُونُ  
وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَكُلُّكُمْ فَاقِرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ، إِنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَلِنَّمَا أَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ»<sup>(٥)</sup>.

فَجَمَعْتُ وَمَنْعْتُ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتُ: أَتَصَدَّقُ. وَأَنْتَ أَوَّانُ الصَّدَقَةِ؟<sup>(١)</sup> وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. أَي: اسْتَبْعَدَ إِعَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى - ذِي الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - لِلْأَجْسَامِ وَالْعِظَامِ الرَّمِيمَةِ، وَنَسِيَ نَفْسَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ: فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا اسْتَبْعَدَهُ وَأَنْكَرَهُ وَجَعَدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. أَنَّى: يَعْلَمُ الْعِظَامَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا، أَيْنَ ذَهَبَتْ، وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ وَتَمَزَّقَتْ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَبِيعٍ قَالَ: قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرِو لِحُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَلَا تُحَدِّثُنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَلَمَّا أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزَلًا، ثُمَّ أَوقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلْتُ لَحْمِي، وَخَلَصْتُ إِلَى عَظْمِي فَامْتَحِشْتُ، فَخَلُّوْهَا فِدْقُوهَا فَذَرُوهَا فِي النَّيْمِ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ» فَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرِو: وَأَنَا سَمِعْتُهُ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ، وَكَانَ نَبَأًا<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِالْفَاطِظِ كَثِيرَةٍ مِنْهَا أَنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ أَنْ يُحَرِّقُوهُ ثُمَّ يَسْحَقُوهُ ثُمَّ يَذَرُوهُ نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ، وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ رَائِحٍ، أَنَّى: كَثِيرَ الْهَوَاءِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْبَحْرَ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: مُحَافَتُكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَمَا تَلَاوَاهُ أَنْ غَفَرَ لَهُ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ﴾. أَي: الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ هَذَا الشَّجَرِ مِنْ مَاءٍ، حَتَّى صَارَ خَضِرًا نَضِيرًا ذَا ثَمَرٍ وَنَبْعٍ، ثُمَّ إِعَادَهُ إِلَى أَنْ صَارَ حَطَبًا يَابِسًا تَوْقَدُ بِهِ النَّارُ، كَذَلِكَ هُوَ فَقَالَ لِمَا يَشَاءُ، قَادِرٌ عَلَى مَا يُرِيدُ لَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ. قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ﴾ يَقُولُ: الَّذِي أَخْرَجَ هَذِهِ النَّارَ مِنْ هَذَا الشَّجَرِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَهُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ شَجَرُ الْمَرْخِ

(١) أحمد: ٢١٠/٤ (٢) ابن ماجه: ٩٠٣/٢ (٣) أحمد: ٥/

٣٩٥ (٤) فتح الباري: ٥٩٤/٦ ومسلم: ٢١١٠/٤ (٥)

أحمد: ١٥٤/٥

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

٤٤٦

الْمَلَأْنَا السَّمَاءَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝ (١) فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ۝ (٢) فَالَّتِي لَيْتَ ذِكْرًا ۝ (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِنَوَافِلٍ الْكَوَاكِبِ ۝ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ (٨) دُحُورًا وَمِنْ عَذَابٍ وَاصِبٍ ۝ (٩) لَا مَنْ خِطَفَ الْخِطْفَةَ فَالْيَعْبَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۝ (١٠) فَاسْتَفْنِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ۝ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ (١٥) أَوَدَامِنَّا وَكَانُوا أَبَا عَظْمًا أَوَدَامَلْعَبُونُ ۝ (١٦) أَوَدَامَاوْنَا الْأَوَّلُونَ ۝ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۝ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝ (١٩) وَقَالُوا ابْنُوا لَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۝ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ (٢١) أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَوْرَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحَكِيمِ ۝ (٢٣) وَفَقُوهُمْ إِنَّمَا مَسْئُولُونَ ۝ (٢٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝ (١) فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا ۝ (٢) فَالَّتِي لَيْتَ ذِكْرًا ۝ (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝ (٥)

[تَشْهَدُ الْمَلَائِكَةُ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِ]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «وَالصَّفَّاتِ صَفًّا» وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ «فَالزَّجْرَتِ زَجْرًا» هِيَ الْمَلَائِكَةُ «فَالَّتِي لَيْتَ ذِكْرًا» هِيَ الْمَلَائِكَةُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمَسْرُوقٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ<sup>(٦)</sup>. قَالَ قَتَادَةُ: الْمَلَائِكَةُ صُفُوفٌ فِي السَّمَاءِ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى مُسْلِمٌ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ» أَيُّ: تَزْيِينِهِ وَتَقْدِيرِهِ مِنْ الشَّيْءِ، لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ الَّذِي يَدِيهِ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْعِبَادُ يَوْمَ الْمَعَادِ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «قُلْ مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» [المؤمنون: ٨٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «تَبَرَّكَ الَّذِي يَدِيهِ الْمُلْكُ» [الملك: ١] فَالْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى، كَرَحْمَةِ وَرَحْمَتٍ، وَرَهْبَةٍ وَرَهْبَتٍ، وَجَبَرٍ وَجَبَرَتٍ. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُلْكَ هُوَ عَالَمُ الْأَجْسَادِ، وَالْمَلَكُوتُ هُوَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ. وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَدِيثَةٍ - وَهُوَ ابْنُ الْيَمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُتِمَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتُ لَيْلَةٍ، فَقَرَأَ السَّبْعَ الطُّوَالَ فِي سَبْعِ رَكَعَاتٍ، وَكَانَ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ، وَالْكَبِيرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ» وَكَانَ رُكُوعُهُ مِثْلَ قِيَامِهِ، وَسُجُودُهُ مِثْلَ رُكُوعِهِ، فَانْصَرَفَ وَقَدْ كَادَتْ تَنْكَبِرُ رِجَالِي<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُتِمَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَامَ، فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ لَا يَمُرُّ بِآيَةٍ رَحْمَةً إِلَّا وَقَفَ وَسَالَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ وَتَعَوَّدَ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ يَقْدِرُ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكَبِيرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ» ثُمَّ سَجَدَ يَقْدِرُ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآلِ عِمْرَانَ ثُمَّ قَرَأَ سُورَةَ سُورَةَ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الْمَشَائِلِ» وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ يَسَّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ]

رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنَا بِالتَّخْفِيفِ وَيُؤْمِنُنَا بِالصَّافَّاتِ<sup>(٤)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ النَّسَائِيُّ.

(١) أحمد: ٣٩٦/٥ (٢) أبو داود: ٥٤٤/١ (٣) شمائل الترمذي: ١٦٤ والنسائي: ٢٢٣/٢ (٤) النسائي: ٩٥/٢ (٥) الطبري: ٧/٢١ (٦) القرطبي: ٦٢، ٦١/١٥ (٧) الطبري: ٧/٢١

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَ لَنَا تَرَابُهَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قُلْنَا: وَكَيْفَ تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ قَالَ ﷺ: «يُثْمُونَ الصُّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الشُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَالَّذِينَ تَرَجُّرَ» أَنَّهَا تَزْجُرُ السَّحَابَ «فَالَّذِينَ تَرَجُّرَ» قَالَ الشُّدِّيُّ: الْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بِالْكِتَابِ وَالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ.

### [الْمَعْبُودُ الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۚ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» هَذَا هُوَ الْمُفَسِّمُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ «وَمَا بَيْنَهُمَا» أَيُّ: مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ «وَرَبُّ الْمَشْرِقِ» أَيُّ: هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْخَلْقِ بِسَخِيخِهِ بِمَا فِيهِ مِنْ كَوَاكِبَ قَوَائِمَ وَسَيَّارَاتٍ تَبْدُو مِنَ الْمَشْرِقِ وَتَغْرُبُ مِنَ الْمَغْرِبِ. وَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْمَشَارِقِ عَنِ الْمَغَارِبِ لِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «فَلَا أَقِمْ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَائِدُونَ» [المعارج: ٤٠] وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ» [الرحمن: ١٧] يَعْني فِي الشَّمْسِ وَالصُّبْحِ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ.

«إِنَّا رَبَّنَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِرَبِّنَا الْكَوْكَبِ ۖ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۖ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمَا الْأَعْلَى وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۖ إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ نَاقِبٌ ۖ»

### [تَرْزِينُ السَّمَاءِ وَحِفْظُهَا مِنَ اللَّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ رَزَّيْنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِلنَّاطِرِينَ إِلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ «بِرَبِّنَا الْكَوْكَبِ» قُرِئَ بِالْإِضَافَةِ وَبِالْبَدَلِ وَكَلاهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَالْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ وَالثَّوَابِتُ يَتَقَبَّضُ ضَوْؤُهَا جُزْمَ السَّمَاءِ الشَّافِ فَتُضِيءُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَلَقَدْ رَزَّيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ» [الملك: ٥] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِقَاتٍ لِلنَّاطِرِينَ ۖ وَحِفْظًا لَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۖ» إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُيِّنٌ

[الحجر: ١٦-١٨] فَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: «وَحِفْظًا» تَقْدِيرُهُ: وَحِفْظُنَاهَا حِفْظًا «مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ» يَعْني الْمُمْرَدُ الْعَاتِي، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ أَنَاهُ شَهَابٌ نَاقِبٌ فَأَحْرَقَهُ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَّاهُ: «لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمَا الْأَعْلَى» أَيُّ: لَيْلًا يَصْلُحُوا إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَهِيَ السَّمَوَاتُ وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِذَا تَكَلَّمُوا بِمَا يُوحِيهِ اللَّهُ تَعَالَى مِمَّا يَقُولُهُ مِنْ شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي أوردناها عِنْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» [سبا: ٢٣] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَيَقْدِفُونَ» أَيُّ: يُرْمُونَ «مِنْ كُلِّ جَانِبٍ» أَيُّ: مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَقْضُدُونَ السَّمَاءَ مِنْهَا «دُخُورًا» أَيُّ: رَجْمًا يُدْخِرُونَ بِهِ وَيُزْجِرُونَ، وَيُثْمِنُونَ مِنَ الْوُضُولِ إِلَى ذَلِكَ، وَيُزْجِمُونَ «وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ» أَيُّ: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، لَهُمْ عَذَابٌ دَائِمٌ مُوجِعٌ مُسْتَمِرٌّ، كَمَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: «وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ» وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ» أَيُّ: إِلَّا مَنْ اخْتِطَفَ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْخُطْفَةَ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ يَسْمَعُهَا مِنَ السَّمَاءِ فَيُلْقِيهَا إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ، وَيُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ، قُرْبَمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرَبَّمَا أَلْقَاهَا - يَقْدِرُ اللَّهُ تَعَالَى - قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الشَّهَابُ فَيَحْرِقُهُ، فَيَذْهَبُ بِهَا الْآخِرُ إِلَى الْكَاهِنِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ. وَلِهَذَا قَالَ: «إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ نَاقِبٌ» أَيُّ: مُسْتَنِيرٌ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ لِلشَّيَاطِينِ مَقَاعِدُ فِي السَّمَاءِ. قَالَ: فَكَانُوا يَسْمَعُونَ الْوَحْيَ، قَالَ: وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا تَجْرِي، وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ لَا تُرْمَى، قَالَ: فَإِذَا سَمِعُوا الْوَحْيَ نَزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ، فَرَاوُوا فِي الْكَلِمَةِ تَسْعًا. قَالَ: فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ الشَّيْطَانُ إِذَا قَصَدَ مَقْعَدَهُ جَاءَهُ شَهَابٌ فَلَمْ يُخْطِئْهُ حَتَّى يُحْرِقَهُ، قَالَ: فَشَكُّوا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ حَدَثَ، قَالَ: فَبَعَثَ جُنُودَهُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْنِ نَحْلَةً - قَالَ وَكَيْعٌ: يَعْني بَطْنَ نَحْلَةٍ - قَالَ: فَرَجَعُوا إِلَى إِبْلِيسَ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الَّذِي حَدَّثَ<sup>(٣)</sup>.

(١) مسلم: ٣٧١/١ (٢) مسلم: ٢٢٣/١ وأبو داود: ٤٣١/١

والنسائي: ٩٢/٢ وابن ماجه: ٣١٧/١ (٣) الطبري: ١٢/٢١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٧

سُورَةُ الصَّافَاتِ

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٥٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٥٨﴾ قَالُوا بَلْ تَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِعِينَ ﴿٦٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٦١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٦٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٦٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٦٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لِلَّهِ تَارِكُونَ ﴿٦٦﴾ لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٦٧﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٦٩﴾ وَمَا تَجَزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٧٢﴾ فَوَكَرَهُ اللَّهُ مَكْرُمُونَ ﴿٧٣﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٧٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٧٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٧٦﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٧٧﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴿٧٨﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٧٩﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٨٠﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٨٢﴾

عَزَّ وَجَلَّ، يَدْعُوهُمْ دَعْوَةً وَاحِدَةً أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْأَرْضِ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ﴿٧٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

تُكَذِّبُونَ ﴿٧١﴾ ﴿تَحْسَبُوا الدِّينَ ظُلْمًا وَأَرْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَعْدَوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْحِجْمِ ﴿٧٣﴾ وَفَقَّهَرُوا بِهِمْ مَسْئُولُونَ ﴿٧٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٧٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٧٦﴾

[أَهْوَالِ يَوْمِ الدِّينِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِيلِ الْكَفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ، وَيَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، فَإِذَا عَايَنُوا أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ نَدِمُوا كُلَّ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ فَقُولُ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُؤْمِنُونَ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ هَذَا مِنَّا وَكُنَّا رَأًبًا وَصَلَمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ مَا بَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾

[ثُبُوتُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَسَلْ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِلْبُعْثِ، أَيُّهُمَا أَشَدُّ خَلْقًا، هُمْ أَمْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ؟ وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَمْ مَنْ عَدَدْنَا) فَإِنَّهُمْ يَقْرَأُونَ أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْهُمْ<sup>(١)</sup>. وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِمَ يَتَكَبَّرُونَ الْبُعْثُ؟ وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرُوا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ شَيْءٍ ضَعِيفٍ فَقَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ الْحَيْدُ الَّذِي يَلْتَزِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعِكْرِمَةُ: هُوَ اللَّزَجُ الْحَيْدُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الَّذِي يَلْتَزِقُ بِالْيَدِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أَيُّ: بَلْ عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِلْبُعْثِ، وَأَنْتَ مُوقِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ، وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَجْسَامِ بَعْدَ فَنَائِهَا، وَهُمْ بِخِلَافِ أَمْرِكَ مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ: يَسْخَرُونَ مِمَّا تَقُولُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ قَتَادَةُ: عَجِبَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَسَخَّرَ ضَلَّالُ بَنِي آدَمَ<sup>(٣)</sup>.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أَيُّ: دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى ذَلِكَ ﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَسْتَهْزِئُونَ<sup>(٤)</sup>. ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ: إِن هَذَا الَّذِي جِئْتُ بِهِ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿هَذَا مِنَّا وَكُنَّا رَأًبًا وَصَلَمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أَوْ مَا بَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُونَ بِهِ﴾ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أَيُّ: قُلْ لَهُمْ: يَا مُحَمَّدُ! نَعَمْ تُعْثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَمَا تَصِيرُونَ تَرَابًا وَعِظَامًا ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أَيُّ: حَقِيرُونَ تَحْتَ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلُّ أُنُوهٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ثُمَّ قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أَيُّ: فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ مِنَ اللَّهِ

(١) الطبري: ١٩/٢١ (٢) القرطبي: ٦٩/١٥ والطبري: ٢١/

٢٢ (٣) الطبري: ٢٣/٢١ (٤) الطبري: ٢٤/٢١

تُكَذِّبُونَ ﴿٢٧﴾ وَهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ أَنْ تُمَيِّزَ الْكُفَّارَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَوْقِفِ فِي مَحْشَرِهِمْ وَمَنْشَرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قَالَ الثُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَعْنِي بِأَزْوَاجِهِمْ: أَشْبَاهَهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالشَّذِيُّ وَأَبُو صَالِحٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ شَرِيكَ عَنْ سِمَاكٍ عَنِ الثُّعْمَانِ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قَالَ: أَشْبَاهَهُمْ. قَالَ: يَجِيءُ أَصْحَابُ الرِّبَا مَعَ أَصْحَابِ الرِّبَا، وَأَصْحَابُ الْخَمْرِ مَعَ أَصْحَابِ الْخَمْرِ. وَرَوَى مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ قُرَاءَتُهُمْ ﴿وَمَا كَانُوا يَبْغُدُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ: أَيُّ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ تُخْشَرُ مَعَهُمْ فِي أَمَاكِينِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْدَوْهُمْ إِلَيْنَا صِرَاطَ الْحَبِيمِ﴾ أَيُّ: أَرْشَدُوهُمْ إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُوحِهِمْ غَيًّا وَيَكْمَأُ رُسْمًا مَا وَبَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الاسراء: ٩٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَفُّهُمْ لِيَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أَيُّ: وَقَفُّهُمْ حَتَّى يُسْأَلُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَحْبَسُوهُمْ إِنَّهُمْ مُحَاسَبُونَ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْمُبَارَكِ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ زَائِدَةَ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الرَّجُلُ: جُلُوسَاؤُهُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أَيُّ: كَمَا زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ جَمِيعٌ مُتَنَصِّرُونَ ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ﴾ أَيُّ: مُتَقَادُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يُخَالِفُونَهُ وَلَا يُجَادُونَ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تَقُولُ الْقَادَةُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لِلْإِتْبَاعِ: مَا الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ، بَلْ كَانَتْ قُلُوبُكُمْ مُنْكَرَةً لِلْإِيمَانِ، قَابِلَةً لِلْكَفْرِ وَالْعُضْيَانِ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَيُّ: مِنْ حُجَّةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوَانَاكُمْ إِلَيْهِ ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ﴾ أَيُّ: بَلْ كَانَ فِيكُمْ طُغْيَانٌ وَمَجَاوَزَةٌ لِلْحَقِّ، فَلهَذَا اسْتَجَبْنَا لَنَا، وَتَرَكْنَا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَأَقَامُوا لَكُمْ الْحُجَجَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءُوكُمْ بِهِ، فَخَالَفْتُمُوهُمْ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ فَأَعَوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ ﴿يَقُولُ الْكَبِيرَاءُ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ: حَقَّتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ اللَّهِ: إِنَّا مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ لِيُعَذَّبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فَأَعَوَيْنَاكُمْ أَيُّ: دَعَوَانَاكُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِينَ﴾ أَيُّ: فَدَعَوَانَاكُمْ إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَاسْتَجَبْنَا لَنَا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ يَوْمَئِذٍ فِي

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعَوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ ﴿٣٢﴾ فَالْيَوْمَ يَوْمَئِذٍ فِي الْمُسْتَضْعَفِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ يَفْتَنُنَا ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

وَرَوَى مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ قُرَاءَتُهُمْ ﴿وَمَا كَانُوا يَبْغُدُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ: أَيُّ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ تُخْشَرُ مَعَهُمْ فِي أَمَاكِينِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْدَوْهُمْ إِلَيْنَا صِرَاطَ الْحَبِيمِ﴾ أَيُّ: أَرْشَدُوهُمْ إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُوحِهِمْ غَيًّا وَيَكْمَأُ رُسْمًا مَا وَبَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الاسراء: ٩٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَفُّهُمْ لِيَنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أَيُّ: وَقَفُّهُمْ حَتَّى يُسْأَلُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَحْبَسُوهُمْ إِنَّهُمْ مُحَاسَبُونَ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْمُبَارَكِ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ زَائِدَةَ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الرَّجُلُ: جُلُوسَاؤُهُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أَيُّ: كَمَا زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ جَمِيعٌ مُتَنَصِّرُونَ ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ﴾ أَيُّ: مُتَقَادُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يُخَالِفُونَهُ وَلَا يُجَادُونَ عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعَوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ ﴿٣٢﴾ فَالْيَوْمَ يَوْمَئِذٍ فِي الْمُسْتَضْعَفِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ يَفْتَنُنَا ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

[تَخَاصُّمُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ يَتَلَاوَمُونَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، كَمَا يَتَخَاصَّمُونَ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ ﴿فَيَقُولُ الضَّعِيفُ لِلَّذِينَ

(١) الطبري: ٢٧/٢١ (٢) الطبري: ٢٨، ٢٧/٢١ (٣) الطبري:

٣٢/٢١ إسناده لا يصح الضحّاك لم يسمع من ابن عباس (٤)

الطبري: ٣٢/٢١

الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٧﴾ أَي: الْجَمِيعُ فِي النَّارِ كُلِّ بِحَسَبِهِ ﴿٣٨﴾ إِنَّكَ كَذَلِكَ تَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا ﴿٤٠﴾ أَي: فِي الدَّارِ الدُّنْيَا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤١﴾ أَي: يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَقُولُوا كَمَا يَقُولُهَا الْمُؤْمِنُونَ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمِيزْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّْي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» <sup>(١)</sup>. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ - وَذَكَرَ قَوْمًا اسْتَكْبَرُوا - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ أَي: أَنْحَنُ نَتْرُكُ عِبَادَةَ إِلَهَيْنَا وَإِلَهَةَ آبَائِنَا عَنْ قَوْلِ هَذَا الشَّاعِرِ الْمَجْنُونِ، يَعْتَوُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَ بِالْحَقِّ فِي جَمِيعِ شُرْعَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ الْإِخْبَارِ وَالطَّلَبِ ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَي: صَدَقَهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوا عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَالْمَنَاجِجِ السَّيِّدَةِ، وَأَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شُرْعِهِ وَأَمْرِهِ كَمَا أَخْبَرُوا ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ... الْآيَةُ [فصلت: ٤٣].

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ ﴿٤٢﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٤﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤٥﴾ فَوَكَهَهُمْ مَكْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٧﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٨﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَايُنٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٩﴾ بَيْضَاءَ لَدَوٍّ لَسَّارِينَ ﴿٥٠﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٥٢﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٥٣﴾ [جزء المشرّكين وعباد الله المخلصين]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا لِلنَّاسِ: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ عِبَادَهُ الْمُخْلَصِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّصْرُ لِلَّهِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿العصر: ٣-١﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ثُمَّ رَدَّدَتْهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿التين: ٤-٦﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنفَكُوا إِلَّا ءَارِدَهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ ءَاتَقُوا وَنَذَرُ الطَّالِبِينَ فِيهَا جَنَّاتٍ [مریم: ٧١، ٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهيناً﴾ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْآلِينَ ﴿المدثر: ٣٨، ٣٩﴾ وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ

(١) ابن أبي حاتم: ٨١٧١، مسلم مختصراً: ٥٢/١ (٢) الطبري: ٣٥/٢١ (٣) القرطبي: ٧٧/١٥ (٤) الطبري: ٢١/٣٨ (٥) الطبري: ٤٠/٢١ (٦) ابن أبي حاتم: ٨١٧٧٠، القرطبي: ٧٩/١٥

سورة الصفات

٤٤٨

سورة الصفات

يَقُولُ أَتَيْتُكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥١﴾ أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَهَذَا  
لِمَدِينُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَطْلَعُ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ  
الْحَجِيمِ ﴿٥٤﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي  
لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٦﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَسِيئِينَ ﴿٥٧﴾ إِلَّا مَوَلَاتِنَا  
الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفَوْرِ الْعَظِيمِ ﴿٥٩﴾  
لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ  
الزَّقُومِ ﴿٦١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ  
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ ﴿٦٣﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ  
﴿٦٤﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا لَافِتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ  
عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيمِ ﴿٦٧﴾  
إِنَّهُمْ الْفَوَاءُ أَبَاءُ هَؤُلَاءِ أَلَيْسَ لَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ هِرْعُونَ ﴿٦٨﴾  
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ  
مُنذِرِينَ ﴿٧٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧١﴾  
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَلِ  
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٣﴾ وَنَحْنُ أَهْلُهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

بَشَرٍ ﴿٥١﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٢﴾ وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ الرَّجُلُ الْمُشْرِكُ يَكُونُ لَهُ  
صَاحِبٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا ﴿٥٣﴾ ﴿يَقُولُ أَتَيْتُكَ لِمَنِ  
الْمُصَدِّقِينَ﴾ أَيُّ: أَأَنْتَ تُصَدِّقُ بِالْبُعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْحِسَابِ  
وَالْجَزَاءِ؟! يَعْنِي يَقُولُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَجُّبِ وَالتَّكْذِيبِ  
وَالْإِسْتِعَادِ وَالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ ﴿٥٤﴾ أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَهَذَا  
لِمَدِينُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَطْلَعُ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ  
الْحَجِيمِ ﴿٥٧﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ  
مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٩﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَسِيئِينَ ﴿٦٠﴾ إِلَّا مَوَلَاتِنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ  
بِمُعَذَّبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفَوْرِ الْعَظِيمِ ﴿٦٢﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ  
الْعَامِلُونَ ﴿٦٣﴾

الصفّات. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ﴾ أَيُّ:  
عَفِيفَاتٌ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى غَيْرِ أَرْوَاحِهِمْ. كَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ  
وغيرهم<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿عَيْنٌ﴾ أَيُّ: حِسَانُ  
الْأَعْيُنِ. وَقِيلَ: ضِحَامُ الْأَعْيُنِ وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ،  
وَهِيَ النَّجْلَاءُ الْعَيْنَاءُ، فَوَصَفَ عِيُونَهُنَّ بِالْحُسْنِ وَالْعِفَّةِ،  
وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ عَيْنٌ﴾ وَقَوْلُهُ  
جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ وَصَفَهُنَّ بِتَرَافَةِ الْأَبْدَانِ  
بِأَحْسَنِ الْأَلْوَانِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ يَقُولُ: اللُّوْلُو  
الْمَكُونُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ الْحَسَنُ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ يَعْنِي مَحْضُونَ لَمْ  
تَمْسَسْهُ الْأَيْدِي. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْبَيْضُ فِي عَشْوِهِ مَكُونٌ. وَقَالَ  
سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ يَعْنِي بَطْنُ الْبَيْضِ. وَقَالَ  
عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: هُوَ السَّحَاءُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ قَشْرَتِهِ الْعُلْيَا  
وَلُبِّابِ الْبَيْضَةِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ يَقُولُ:  
بَيَاضُ الْبَيْضِ حِينَ نُرْعَ قَشْرَتُهُ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ لِقَوْلِهِ:  
﴿مَّكَوْنٌ﴾ قَالَ: وَالْقَشْرَةُ الْعُلْيَا يَمْسُهَا جَنَاحُ الطَّيْرِ، وَالْعُشُّ،  
وَتَنَالُهَا الْأَيْدِي بِخِلَافِ دَاخِلِهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي  
قَرِينٌ ﴿٥٢﴾ يَقُولُ أَتَيْتُكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٣﴾ أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا  
أَهَذَا لِمَدِينُونَ ﴿٥٤﴾ قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَطْلَعُ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ  
الْحَجِيمِ ﴿٥٦﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ  
مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٨﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَسِيئِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَوَلَاتِنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ  
بِمُعَذَّبِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفَوْرِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ  
الْعَامِلُونَ ﴿٦٢﴾

[اجْتِمَاعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَحِوَارِ أَحَدِهِمْ مَعَ صَاحِبِهِ الْمُشْرِكِ  
فِي الدُّنْيَا وَهُوَ يُعَذَّبُ فِي جَهَنَّمَ... وَشُكْرُهُ نِعْمَةُ اللَّهِ  
تَعَالَى]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ  
يَتَسَاءَلُونَ أَيُّ عَنْ أَحْوَالِهِمْ، وَكَيْفَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا، وَمَاذَا  
كَانُوا يُعَانُونَ فِيهَا؟ وَذَلِكَ مِنْ حَدِيثِهِمْ عَلَى شَرَاهِمِهِمْ  
وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي تَنَادُّمِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَهُمْ  
جُلُوسٌ عَلَى السَّرْرِ، وَالْخَدَمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَسْعَوْنَ وَيَجِيئُونَ  
بِكُلِّ خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ،  
مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ

(١) الطبري: ٤٢، ٤١/٢١ (٢) الطبري: ٤٣/٢١ (٣)  
الطبري: ٤٥/٢١ العوفي مع عائلته من الضعفاء كما ذكرنا  
مراراً (٤) الطبري: ٤٧/٢١ (٥) الطبري: ٤٧/٢١

فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ كَأَنَّهُ شَهَابٌ يَنْقُذُ<sup>(٢)</sup>. «قَالَ تَالَهُ إِنْ كِدْتَ لَتُرِينَ<sup>(٣)</sup>» يَقُولُ الْمُؤْمِنُ مُحَاطًا لِلْكَافِرِ: وَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتَهْلِكُنِي لَوْ أَطَعْتُكَ «وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» أَي: وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيَّ لَكُنْتُ مِثْلَكَ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ حَيْثُ أَنْتَ، مُحْضَرٌ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ، وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيَّ وَرَحِمَنِي؛ فَهَدَانِي لِلْإِيمَانِ وَأَرْشَدَنِي إِلَى تَوْحِيدِهِ «وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ» [الأعراف: ٤٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَفَمَا تَحْنُ بِمَيِّتِينَ»<sup>(٤)</sup> إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا تَحْنُ بِمُعْدِيَيْنِ هَذَا مِنْ كَلَامِ الْمُؤْمِنِ مُعْطِيًا نَفْسَهُ لِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْخُلْدِ فِي الْحَيَّةِ، وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ بِلَا مَوْتٍ فِيهَا وَلَا عَذَابٍ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ». وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ فَإِنَّ الْمَوْتَ يَقْطَعُهُ فَقَالُوا: «أَفَمَا تَحْنُ بِمَيِّتِينَ»<sup>(٥)</sup> إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا تَحْنُ بِمُعْدِيَيْنِ قِيلَ: لَا، قَالُوا: «إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ»<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: «لِيُمِثِّلَ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَالِمُونَ» وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُوَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ لِيُمِثِّلَ هَذَا النَّعِيمَ وَهَذَا الْقَوْرُ فليَعْمَلِ الْعَالِمُونَ فِي الدُّنْيَا، لِيَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ<sup>(٧)</sup>.

### [قِصَّةُ إِسْرَائِيلِيِّينَ]

وَقَدْ ذَكَرُوا قِصَّةَ رَجُلَيْنِ كَانَا شَرِيكَيْنِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ تَدَخَّلَ فِي ضَمْنِ عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، رَوَى أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ فُرَاتِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْبَهْرَانِيِّ فِي قَوْلِهِ: «إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ» قَالَ: إِنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا شَرِيكَيْنِ فَاجْتَمَعَ لَهُمَا ثَمَانِيَةُ آلَافٍ دِينَارٍ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا لَهُ حِرْفَةٌ وَالْآخَرُ لَيْسَ لَهُ حِرْفَةٌ، فَقَالَ الَّذِي لَهُ حِرْفَةٌ لِلْآخَرِ: لَيْسَ عِنْدَكَ حِرْفَةٌ، مَا أَرَانِي إِلَّا مُفَارِقَكَ وَمُقَاسِمَكَ فَقَاسَمَهُ وَفَارَقَهُ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ اشْتَرَى دَارًا بِأَلْفٍ دِينَارٍ كَانَتْ لِمَلِكٍ مَاتَ، فَدَعَا صَاحِبَهُ فَأَرَاهُ فَقَالَ: كَيْفَ تَرَى هَذِهِ الدَّارَ ابْتِغَتْهَا بِأَلْفٍ دِينَارٍ؟ قَالَ مَا أَحْسَنَهَا! فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: أَلَلَّهُمَّ إِنَّ صَاحِبِي هَذَا ابْتَنَعَ هَذِهِ الدَّارَ بِأَلْفٍ دِينَارٍ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ دَارًا مِنْ دُورِ الْحَيَّةِ فَتَصَدَّقْ بِأَلْفٍ دِينَارٍ، ثُمَّ مَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَمُوتَ، ثُمَّ إِنَّهُ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ بِأَلْفٍ دِينَارٍ فَدَعَاهُ وَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَلَمَّا أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ بِأَلْفٍ دِينَارٍ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: يَا رَبِّ! إِنَّ صَاحِبِي تَزَوَّجَ امْرَأَةً بِأَلْفٍ دِينَارٍ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ امْرَأَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فَتَصَدَّقْ

بِأَلْفٍ دِينَارٍ، ثُمَّ إِنَّهُ مَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَمُوتَ، ثُمَّ اشْتَرَى بُسْتَانَيْنِ بِأَلْفِي دِينَارٍ، ثُمَّ دَعَاهُ فَأَرَاهُ فَقَالَ: إِنِّي ابْتِغْتُ هَذَيْنِ الْبُسْتَانَيْنِ بِأَلْفِي دِينَارٍ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: يَا رَبِّ! إِنَّ صَاحِبِي قَدْ اشْتَرَى بُسْتَانَيْنِ بِأَلْفِي دِينَارٍ وَأَنَا أَسْأَلُكَ بُسْتَانَيْنِ فِي الْحَيَّةِ فَتَصَدَّقْ بِأَلْفِي دِينَارٍ، ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ أَنَاهُمَا فَتَوَفَّاهُمَا ثُمَّ انْطَلَقَ بِهَذَا الْمُتَصَدِّقِ فَأَدْخَلَهُ دَارًا تُعْجِبُهُ، وَإِذَا بِامْرَأَةٍ تَطْلُعُ بُضِيٍّ مَا تَحْتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، ثُمَّ أَدْخَلَهُ بُسْتَانَيْنِ وَشَيْئًا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: مَا أَشْبَهَ هَذَا بِرَجُلٍ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَإِنَّهُ ذَاكَ، وَلَكَ هَذَا الْمَنْزِلُ وَالْبُسْتَانَانِ وَالْمَرْأَةُ، قَالَ: فَإِنَّهُ كَانَ لِي صَاحِبٌ «يَقُولُ أَيْتَكَ لَيْنَ الْمُصْدِقِينَ» قِيلَ لَهُ: فَإِنَّهُ فِي الْجَحِيمِ. قَالَ: «هَلْ أَشْهُ مُطْلَعُونَ» فَاطْلَعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: «تَالَهُ إِنْ كِدْتَ لَتُرِينَ<sup>(٨)</sup>» وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ<sup>(٩)</sup>. [الآيات].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا يَقْوِي قِرَاءَةَ مَنْ قَرَأَ (أَيْتَكَ لَمِنْ الْمُصْدِقِينَ)، بِالتَّشْدِيدِ. وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَذَكَرَ الْقِصَّةَ بِطَوَّلِهَا وَفِيهَا: كَانَ شَرِيكَانِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَحَدُهُمَا مُؤْمِنٌ وَالْآخَرُ كَافِرٌ - إِلَى أَنْ اجْتَمَعَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ (أَيُّ الْكَافِرِ) - مَا صَنَعْتَ فِي مَا لَكَ قَالَ: أَقْرَضْتُهُ قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: الْمَلِيءُ الْوَفِيِّ قَالَ: مَنْ؟ قَالَ: اللَّهُ رَبِّي. قَالَ وَهُوَ مُصَافِحُهُ، فَانْتَرَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيْتَكَ لَمِنْ الْمُصْدِقِينَ»<sup>(١٠)</sup> لَمَّا مَنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا إِنَّمَا لَنَدِينُونَ. قَالَ الشَّدِيدُ مُحَاسِبُونَ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الْكَافِرُ وَتَرَكَهُ... إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ<sup>(١١)</sup>.

«أَذَلِكَ حَرٌّ تَرُلَا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقِيمِ»<sup>(١٢)</sup> إِنَّمَا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ<sup>(١٣)</sup> إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ<sup>(١٤)</sup> طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّجَائِبِ<sup>(١٥)</sup> فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا قَائِلُونَ مِنْهَا الْبَاطُونَ<sup>(١٦)</sup> ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوًّا مِنْ حِمِيمٍ<sup>(١٧)</sup> ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ<sup>(١٨)</sup> إِنَّهُمْ

(١) الطبري: ٤٨/٢١ (٢) الطبري: ٤٨/٢١ (٣) الدر المنثور: ٩٥/٧ (٤) الطبري: ٥٢/٢١ (٥) الطبري: ٤٥/٢١ إنسانه ضعيف فيه خفيف بن عبدالرحمن الجزري سيئ الحفظ وروى عنه عتاب بن بشير وقال الجوزجاني أحاديث عتاب عن خفيف منكراً [أحوال الرجال: ٦١] قال ابن عدي روى عن خفيف نسخة فيها أحاديث أنكرت [الكامل ٣٥٦/٥] (٦) ابن أبي حاتم: ١٨١٩١ وهذه الرواية يستتر بها المراد بأن الفارق الحقيقي بينهما هو: الإيمان وعدم الإيمان، لا الصدقة بمال فحسب. كما يظهر في الرواية المتقدمة. الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٩

سُورَةُ الصَّافَاتِ

وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمَ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِن مِنْ شَيْعِنَهُ إِلَّا جَزِيمٌ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكَاءَ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَرَّ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَى اللَّهِ إِلَهُ الْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ فَقَالَ لَا تَأْكُلُوا أَمْثَلَكُمْ وَلَا تَنْطَقُوا ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْتَفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجِجَمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَابِعُ أَعْمَلُ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾

أَلْفُوا إِسَاءَةً هُمْ صَالِينَ ﴿٦٢﴾ فَبَشَّرْنَاهُمْ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ ﴿٦٣﴾

[ذَكَرَ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ وَأَصْحَابَهَا]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَلْهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَنَاجِحٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَلَادِ خَيْرٌ ضِيافَةٍ وَعَطَاءٍ ﴿٦٢﴾ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٣﴾ أَيُّ: الَّتِي فِي جَهَنَّمَ. الْمُرَادُ بِذَلِكَ جِنْسُ شَجَرٍ يُقَالُ لَهُ: الزَّقُّومُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سِنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعٌ لِلْأَكْلَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] يَعْنِي الزَّيْتُونَةَ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الصَّالُونَ الْمُكْرَبُونَ﴾ ﴿٥١﴾ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ [الواقعة: ٥١، ٥٢] وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَتْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ فَافْتِنَ بِهَا أَهْلُ الصَّلَاةِ وَقَالُوا: صَاحِبُكُمْ يُبْنِيكُمْ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غَذِيَتْ مِنَ النَّارِ وَمِنْهَا خُلِقَتْ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قَالَ أَبُو جَهْلٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ -: إِنَّمَا الزَّقُّومُ: الشَّمْرُ وَالزَّبْدُ أَتْرَقُمُهُ <sup>(٢)</sup>. قُلْتُ: وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِنَّمَا أَخْبَرْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ اخْتِيَارًا نَخْتَبِرُ بِهِ النَّاسَ، مَنْ يُصَدِّقُ مِنْهُمْ مِمَّنْ يَكْذِبُ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّمْيَا الَّتِي أَرْتِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُعِينًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أَيُّ: أَصْلُ مَنَبْهَافٍ فِي قَرَارِ النَّارِ ﴿طُلُعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تَبَشِيرٌ لَهَا وَتَكْرِيبٌ لِذِكْرِهَا. وَإِنَّمَا شَبَّهَهَا بِرُءُوسِ الشَّيَاطِينِ ﴿وَأَنَّ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ، لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي النَّفُوسِ أَنَّ الشَّيَاطِينَ قَبِيحَةُ الْمَنْظَرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبَعْتُمْ لَكُمْ مِنْهَا فَاتِلُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾. ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَبْشَعُ مِنْهَا وَلَا أَقْبَحُ مِنْ مَظْهَرِهَا، مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّعْمِ وَالرَّيْحِ وَالطَّبْعِ، فَإِنَّهُمْ لَيُضْطَرُّونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا، لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ إِلَّا إِيَّاهَا وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ﴿١﴾ لَا يَسُونُ وَلَا يُعْنِي مِنْ جُوعٍ [الغاشية: ٦، ٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِمَّنْ حَمِيمٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي شُرْبَ الْحَمِيمِ عَلَى الزَّقُّومِ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ فِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: شَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ: مَرَجًا مِنْ حَمِيمٍ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ غُبَرَةُ: يَعْنِي يُمَرِّجُ لَهُمْ

الْحَمِيمُ بِصَدِيدٍ وَعَسَاقٍ، مِمَّا يَسِيلُ مِنْ فُرُوجِهِمْ وَعُيُونِهِمْ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: إِذَا جَاعَ أَهْلُ النَّارِ اسْتَعَاثُوا بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ فَأَكَلُوا مِنْهَا، فَاخْتَلَسَتْ جُلُودُ وَجُوهِهِمْ، فَلَوْ أَنَّ مَرَأَةً مِنْهُمْ يَعْرِفُهُمْ لَعَرَفَهُمْ بِوُجُوهِهِمْ فِيهَا، ثُمَّ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْعَطَشُ فَيَسْتَعِينُونَ فَيَعَاثُونَ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ - وَهُوَ الَّذِي قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ - فَإِذَا أَذْنُوهُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ اشْتَوَى مِنْ حَرِّهِ لَحُومُ وَجُوهِهِمُ الَّتِي قَدْ سَقَطَتْ عَنْهَا الْجُلُودُ وَيُضْهَرُّ مَا فِي بُطُونِهِمْ، فَيَمْشُونَ تَسِيلَ أَمْعَاؤُهُمْ وَتَسْقَاطُ جُلُودُهُمْ، ثُمَّ يُضْرَبُونَ بِمَقَامِعٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَسْقُطُ كُلُّ غُضُو عَلَى حِيَالِهِ يَذْعُو بِالشُّبُورِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أَيُّ: ثُمَّ إِنَّ مَرَدَّهُمْ بَعْدَ هَذَا الْفُضْلِ إِلَى نَارٍ تَتَأَجَّجُ، وَجَحِيمٌ تَتَوَقَّدُ، وَسَعِيرٌ تَتَوَهَّجُ، فَتَارَةٌ فِي هَذَا، وَتَارَةٌ فِي هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

(١) الطبري: ٥٢/٢١ (٢) الطبري: ٥٣/٢١ (٣) الطبري: ٥٥/٢١

(٤) الطبري: ٥٢/٢١

﴿بَطْرُونٌ بَيْنًا وَبَيْنَ حِمِيرٍ ۚ إِنَّ﴾ [الرحمن: ٤٤] هَكَذَا تَلَا قَتَادَةُ هَذِهِ الْآيَةَ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ<sup>(١)</sup>. وَهُوَ تَفْسِيرٌ حَسَنٌ قَوِيٌّ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لِأَلَى الْجَحِيمِ) وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَنْتَصِفُ النَّهَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> [الفرقان: ٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَفْلَحُوا ۖ إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ فَاتَّبَعُوهُمْ فِيهَا بِمُحَرِّدٍ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَمُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: شَبِيهَةٌ بِالْمَهْزُولَةِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَسْتَفْهَمُونَ.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَلْبُهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(٤)</sup> وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾<sup>(٥)</sup> إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ فِيهِمْ مُنْذِرِينَ يُنْذِرُونَ بِأَسْ اللَّهِ وَحُدُودِهِمْ سَطَوْتَهُ وَنَقَمَتَهُ يَمُنُّ كَفَرٍ بِهِ وَعَبْدٌ غَيْرُهُ. وَأَنَّهُمْ تَمَادَوْا عَلَىٰ مُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ فَأَهْلَكَ الْمُكْذِبِينَ وَدَمَرَهُمْ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ وَنَصَرَهُمْ وَطَفَّرَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾<sup>(٦)</sup> إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلَعِنَ الْمُجْرِبُونَ﴾<sup>(٧)</sup> وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ ﴿٩﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ [ذِكْرُ نُوْحٍ وَقَوْمِهِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ الْأَوَّلِينَ أَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ، شَرَعَ يَبَيِّنُ ذَلِكَ مُفَصَّلًا، فَذَكَرَ نُوْحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ؛ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ تَكْذِيبُهُمْ، وَكُلَّمَا دَعَاهُمْ أَزْدَادُوا نَفَرَةً ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. فَغَضِبَ اللَّهُ تَعَالَى لِغَضَبِهِ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلَعِنَ الْمُجْرِبُونَ﴾<sup>(١٥)</sup> أَيُّ: فَلَعِنَ الْمُجْرِبُونَ لَهُ ﴿وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وَهُوَ

التَّكْذِيبُ وَالْأَذَى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: لَمْ تَبَقْ إِلَّا ذُرِّيَّةُ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ قَالَ: النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(١٧)</sup>.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرَّ الْبَاقِينَ﴾ قَالَ: سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ<sup>(١٨)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَحَامٌ أَبُو الْحَبَشِ، وَيَافِثٌ أَبُو الرُّومِ»<sup>(١٩)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(٢٠)</sup>. وَالْمُرَادُ بِالرُّومِ هَهُنَا، هُمُ الرُّومُ الْأَوَّلُ وَهُمْ الْيُونَانُ الْمُتَسَبِّبُونَ إِلَى رُومِيٍّ بْنِ لَيْطِيٍّ بْنِ يُونَانَ بْنِ يَافِثِ بْنِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يُذَكَّرُ بِخَيْرٍ<sup>(٢١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي لِسَانَ صِدْقٍ لِلْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ<sup>(٢٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّيْءَ الْحَسَنَ فِي الْآخِرِينَ<sup>(٢٣)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: السَّلَامُ وَالشَّيْءَ الْحَسَنَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مُفَسِّرٌ لِمَا أَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ الْجَوِيلِ وَالشَّيْءَ الْحَسَنَ: أَنَّهُ سَلَّمَ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الطَّوَائِفِ وَالْأُمَمِ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٢٤)</sup> أَيُّ: هَكَذَا نَجْزِي مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَادِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَجْعَلُ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ يُذَكِّرُ بِهِ بَعْدَهُ بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢٥)</sup> أَيُّ: الْمُصَدِّقِينَ الْمُؤَحِّدِينَ الْمُؤَقِّينَ ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ﴾<sup>(٢٦)</sup> أَيُّ: أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَمْ تَبَقْ مِنْهُمْ عَيْنٌ تَطْرُقُ، وَلَا ذِكْرٌ [لَهُمْ]، وَلَا عَيْنٌ، وَلَا أَثَرٌ، وَلَا يُعْرَفُونَ إِلَّا بِهَذِهِ الصِّفَةِ الْقَيِّحَةِ.

﴿وَإِنَّمِنْ شِعْبِهِمْ لَابْرَاهِيمَ﴾<sup>(٢٧)</sup> إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٩﴾ إِنِّي أَفْكَارٌ إِلَهُةَ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٣٠﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾

(١) الطبري: ٥٦/٢١ (٢) الطبري: ٥٦/٢١ (٣) الطبري: ٥٧/٢١ (٤) الطبري: ٥٩/٢١ (٥) الطبري: ٥٩/٢١ (٦) تحفة الأحوذني: ٣٦٥/٥ والطبري: ٥٩/٢١ إسناده ضعيف فيه تدلس الحسن البصري وكان يرسل كثيرا ويدلس كما في التقريب (٧) أحمد: ٩/٥ (٨) تحفة الأحوذني: ٩٨/٩ (٩) الطبري: ٦٠/٢١ (١٠) الطبري: ٦٠/٢١ (١١) الطبري: ٦٠/٢١

## [قصة إبراهيم وقومه]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿وَإِذْ مِنْ شَيْعِهِ لِلْإِبْرَاهِيمِ﴾ يَقُولُ: مِنْ أَهْلِ دِينِهِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسُنَّتِهِ <sup>(٢)</sup>. ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْني شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ <sup>(٣)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَوْفٍ قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: مَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ؟ قَالَ: يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ: سَلِيمٌ مِنَ الشِّرْكِ <sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عُرْوَةُ: لَا يَكُونُ لَعْنًا <sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أُنْكَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَيْتُكَ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ <sup>(٧)</sup> فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ قَتَادَةُ: يَعْني مَا ظَنُّكُمْ أَنَّهُ فَاعِلٌ بِكُمْ إِذَا لَا قِيَمَتُمُوهُ وَقَدْ عَبْدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ <sup>(٨)</sup>.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ <sup>(٩)</sup> فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ <sup>(١٠)</sup> فَقَوْلُوا عَنْهُ مُدْرِيْنَ <sup>(١١)</sup> قَرَأَ إِلَّا إِلَهُ الْإِبْرَاهِيمِ فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ <sup>(١٢)</sup> مَا لَكُمْ لَا تَنْطُقُونَ <sup>(١٣)</sup> قَرَأَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ <sup>(١٤)</sup> فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ <sup>(١٥)</sup> قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ <sup>(١٦)</sup> وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ <sup>(١٧)</sup> قَالُوا إِنَّا لَنُؤْمِنُ بِبَنَاتِنَا قَالَتْهُنَّ فِي الْجَبْرِ <sup>(١٨)</sup> فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ <sup>(١٩)</sup>

إِنَّمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْمِهِ ذَلِكَ، لِيَقِيَمَ فِي الْبَلَدِ إِذَا ذَهَبُوا إِلَى عِيْدِهِمْ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَرَفَ خُرُوجَهُمْ إِلَى عِيْدِهِمْ فَأَحَبَّ أَنْ يَخْتَلِيَ بِالْهَيْمِ لِيَكْسِرَهَا، فَقَالَ لَهُمْ كَلَامًا هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَهَمُّوا مِنْهُ أَنَّهُ سَقِيمٌ عَلَى مُقْتَضَى مَا يَحْتَقِرُونَهُ ﴿فَنَظَرُوا عَنْهُ مُدْرِيْنَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ: نَظَرَ فِي النُّجُومِ <sup>(٢٠)</sup>. يَعْني قَتَادَةُ: أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ مُتَفَكِّرًا فِيمَا يُلْهِيهِمْ بِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أَيُّ ضَعِيفٌ. فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَهُنَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَيْرَ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ: يُشْتَبِنُ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدَهُمْ هَذَا﴾ وَقَوْلُهُ فِي سَارَةِ: «هِيَ أُخْتِي» فَهُوَ حَدِيثٌ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحَاحِ وَالسُّنَنِ مِنْ طُرُقٍ <sup>(٢١)</sup>. وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْكُذْبِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يُذَمُّ فَاعِلُهُ، حَاشَا وَكَلَّا وَلَمَّا، وَإِنَّمَا أَطْلَقَ الْكُذْبَ عَلَى

هَذَا تَجَوُّزًا، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمَعَارِيضِ فِي الْكَلَامِ لِمَقْصِدٍ شَرْعِيٍّ دِينِيٍّ. قِيلَ: أَرَادَ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أَيُّ: مَرِيضُ الْقَلْبِ مِنْ عِبَادَتِكُمْ الْأَوْتَانِ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: خَرَجَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عِيْدِهِمْ فَأَرَادُوهُ عَلَى الْخُرُوجِ فَاضْطَجَعَ عَلَى ظَهْرِهِ، وَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وَجَعَلَ يَنْظُرُ فِي السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَرَجُوا، أَقْبَلَ إِلَى الْهَيْمِ فَكَسَرَهَا <sup>(٢٢)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَوْلُوا عَنْهُ مُدْرِيْنَ﴾ إِلَى عِيْدِهِمْ ﴿قَرَأَ إِلَّا إِلَهُ الْإِبْرَاهِيمِ﴾ أَيُّ: ذَهَبَ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا خَرَجُوا فِي سُرْعَةٍ وَاخْتِفَاءٍ ﴿فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا بَيْنَ أَيْدِيهَا طَعَامًا قُرْبَانًا لِتَبَارَكَ لَهُمْ فِيهِ. فَلَمَّا نَظَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الطَّعَامِ قَالَ: ﴿لَا تَأْكُلُونَ﴾ <sup>(٢٣)</sup> مَا لَكُمْ لَا تَنْطُقُونَ؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَرَأَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ مَالَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالْجَوْهَرِيُّ: فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ <sup>(٢٤)</sup>. وَإِنَّمَا ضَرَبَهُمْ بِالْيَمِينِ، لِأَنَّهَا أَشَدُّ وَأَكْثَى، وَلِهَذَا تَرَكَّهُمْ جَذَاًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيُّ: يُسْرِعُونَ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ هَهُنَا مُحْتَضَرَةٌ، وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ مُبْسُوطَةٌ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَجَعُوا مَا عَرَفُوا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنْ فَعَلٍ ذَلِكَ، حَتَّى كَشَفُوا وَاسْتَعْلَمُوا، فَعَرَفُوا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ. فَلَمَّا جَاءُوا لِيُعَايِنُوهُ أَخَذَ فِي تَأْيِيهِمْ وَغَيْرِهِمْ فَقَالَ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ﴾ أَيُّ: أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا أَنْتُمْ تَحْمِلُونَهَا وَتَحْمِلُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مَا مُصَدِّرَةٌ فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى الَّذِي تَقْدِيرُهُ: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَالَّذِي تَعْمَلُونَهُ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ مُتْلَاذِمٌ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ «أَفْعَالِ الْعِبَادِ» عَنْ حَذِيفَةَ رَضِيَ

(١) الطبري: ٦١/٢١ (٢) الطبري: ٦١/٢١ (٣) القرطبي: ٩١/١٥ (٤) القرطبي: ٩١/١٥ (٥) الطبري: ٦٢/٢١ (٦) الطبري: ٦٢/٢١ (٧) الطبري: ٦٣/٢١ (٨) الدر المنثور: ٧/١٠٠ (٩) فتح الباري: ٤٤٧/٦ مسلم: ٤/١٨٤٠ وأبو داود: ٢/٦٥٩ وتحفة الأحوذ: ٥/٩ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٤٠ (١٠) الطبري: ٦٣/٢١ (١١) الطبري: ٦٧/٢١



اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصُنْعَتَهُ» [وَتَلَا بِفَضْلِهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ]: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ عَدَلُوا إِلَى أَخِيهِ بِالْيَدِ وَالْقَهْرِ فَقَالُوا: «أَبْنَا لَمْ بَيِّنَّا قَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ» وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ وَأَظْهَرَهُ عَلَيْهِمْ وَأَعْلَى حُجَّتِهِ وَنَصَرَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَارْأَوْا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ».

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبِّحِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَسَّرْنَاهُ بِنُحْلٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَتِمُّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَابَتِ أَعْيُنُ مَا تَوَمَّرُ سَجْدَتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَدَيَّنَتْ أَنْ يَتَابَرَهِيْمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَتَدَيَّنَتْ يَدْنِي عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

[هَجَرَةُ إِبْرَاهِيمَ وَابْتِلَاؤُهُ بِذَبْحِ إِسْمَاعِيلَ وَنِعْمُ اللَّهُ عَلَيْهِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ بَعْدَ مَا نَصَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَوْمِهِ وَأَيْسَرَ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بَعْدَ مَا شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، هَاجَرَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ وَقَالَ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَبِّحِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ يَعْني أَوْلَادًا مُطِيعِينَ عِوَضًا مِنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الَّذِينَ فَارَقَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَبَسَّرْنَاهُ بِنُحْلٍ حَلِيمٍ﴾ وَهَذَا الْغُلَامُ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ وَلَدٍ بَشَّرَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، بَلْ فِي نَصِّ كِتَابِهِمْ: أَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَدَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِتًّا وَتَمَانُونَ سَنَةً، وَوُلِدَ إِسْحَاقَ وَعُمَرُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تِسْعَ وَتِسْعُونَ سَنَةً، وَعِنْدَهُمْ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ وَجِيدَهُ، وَفِي نُسَخَةٍ أُخْرَى: بِكَرِهِ - فَأَقْحَمُوا هَهُنَا كَذِبًا وَبُهْتَانًا - «إِسْحَاقَ»، وَلَا يَجُوزُ هَذَا لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِنَصِّ كِتَابِهِمْ، وَإِنَّمَا أَقْحَمُوا إِسْحَاقَ لِأَنَّهُ أَبُوهُمْ، وَإِسْمَاعِيلُ أَبُو الْعَرَبِ، فَحَسَدُوهُمْ، فَزَادُوا ذَلِكَ وَحَرَّفُوا «وَجِيدَكَ»

٤٥٠  
سُورَةُ الصَّافَاتِ  
﴿١٠٦﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٧﴾ وَتَدَيَّنَتْ أَنْ يَتَابَرَهِيْمُ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَايَلْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنْ أَلْيَسَ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ الْقَوْمُ: «أَلَا نَنْتَهُونَ» أَلَمْ نَعْلَمْ بَعْلًا وَتَدَّرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٤﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٥﴾

بِمَعْنَى الَّذِي لَيْسَ عِنْدَكَ غَيْرُهُ، فَإِنْ إِسْمَاعِيلُ كَانَ ذَهَبَ بِهِ وَيَأْمُرُهُ إِلَى مَكَّةَ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ وَتَحْرِيفٌ بَاطِلٌ فَإِنَّهُ لَا يَقَالُ: وَجِيدَكَ إِلَّا لِمَنْ لَيْسَ لَهُ غَيْرُهُ، وَأَيْضًا فَإِنَّ أَوَّلَ وَلَدٍ لَهُ مَعَزَةٌ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ، فَالْأَمْرُ بِذَبْحِهِ أَبْلَغُ فِي الْإِبْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ أَي: كَبُرَ وَتَرَعَرَغَ وَصَارَ يَذْهَبُ مَعَ أَبِيهِ وَيَمْشِي مَعَهُ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَذْهَبُ فِي كُلِّ وَفْتٍ يَتَقَدَّمُ وَلَدَهُ وَأُمُّ وَلَدِهِ بِلَادٍ «فَارَانَ» وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِهِمَا. وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَرْكَبُ عَلَى الْبُرَاقِ سَرِيعًا إِلَى هُنَاكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرِهِمْ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ بِمَعْنَى شَبَّ وَارْتَجَلَ وَأَطَاقَ مَا يَقْعُلُهُ أَبُوهُ مِنَ السَّعْيِ

وَالْعَمَلُ<sup>(١)</sup> ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عَمْرٍو: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَخَوِي، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾<sup>(٢)</sup>. وَإِنَّمَا أَعْلَمَ ابْنَهُ بِذَلِكَ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ، وَلِيُخْتَبِرَ صَبْرَهُ وَجَلَدَهُ وَعَزَمَهُ فِي صَعْرِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ أَبِيهِ ﴿قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أَي: أَمُضْ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ مِنْ ذَبْحِي ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَي: سَأَصْبِرُ وَأُحْسِبُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَصَدَقَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِيمَا وَعَدَ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾<sup>(٣)</sup> وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا<sup>(٤)</sup> [مریم: ٥٤، ٥٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ﴾ أَي: فَلَمَّا تَشَهَّدَا وَذَكَرَا اللَّهَ تَعَالَى: إِبْرَاهِيمُ عَلَى الذَّبْحِ وَالْوَلَدُ [عَلَى] شَهَادَةِ الْمُؤْتِ. وَقِيلَ: أَسْلَمَا يَعْنِي اسْتَسْلَمَا وَانْقَادَا: إِبْرَاهِيمُ امْتَثَلَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِسْمَاعِيلُ طَاعَةَ اللَّهَ وَلِأَبِيهِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ إِسْحَاقَ<sup>(٥)</sup> وَغَيْرُهُمْ. وَمَعْنَى ﴿وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ﴾ أَي: صَرَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ لِيَذْبَحَهُ مِنْ قَفَاهُ، وَلَا يُشَاهِدُ وَجْهَهُ عِنْدَ ذَبْحِهِ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: ﴿وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ﴾ أَكْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا أَمَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْمَنَاسِكِ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى، فَسَابَقَهُ فَسَبَقَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ حَتَّى ذَهَبَ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الْوُسْطَى فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ، وَتَمَّ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَعَلَى إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَمِصَّ أَيْبُضَ فَقَالَ: يَا أَبَتِ إِنَّهُ لَيْسَ لِي ثَوْبٌ تُكَمِّئُنِي فِيهِ غَيْرُهُ فَاخْلَعُهُ حَتَّى تُكَمِّئُنِي فِيهِ، فَعَالَجَهُ لِيَخْلَعَهُ فَوَدِيَ مِنْ خَلْفِهِ: ﴿أَنْ يَكْتَابِرَهُمَا﴾<sup>(٧)</sup> قَدْ صَدَقَتِ الرَّؤْيَا<sup>(٨)</sup> فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ فَإِذَا بِكَشٍ أَيْبُضَ أَقْرَنَ أَغْيَرَ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَقَدْ رَأَيْنَا [تَنْتَبِعَ] ذَلِكَ الضَّرْبَ مِنَ الْكِبَاشِ<sup>(٩)</sup>. وَذَكَرَ هِشَامُ الْحَدِيثَ فِي الْمَنَاسِكِ بِطَوْلِهِ.

وَلَذَلِكَ لِلذَّبْحِ. وَذَكَرَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّهُ أَمَرَ السَّكِينِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَلَمْ تَقْطَعْ شَيْئًا، بَلْ حَالَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ صَفْحَةٌ مِنْ نُحَاسٍ، وَتَوَدَّى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿قَدْ صَدَقَتِ الرَّؤْيَا﴾<sup>(١٠)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أَي: هَكَذَا نُصَرِّفُ عَمَّنْ أَطَاعَنَا الْمَكَارَةَ وَالشَّدَائِدَ، وَنَجْعَلُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾<sup>(١١)</sup> وَبَرِّزَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ<sup>(١٢)</sup> إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا<sup>(١٣)</sup> [الطلاق: ٢، ٣]. وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةِ وَالْفَصَّةَ جَمَاعَةً مِنْ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ عَلَى صِحَّةِ النُّسخِ قَبْلَ التَّمَكُّنِ مِنَ الْفِعْلِ، خِلَافًا لِطَائِفَةٍ مِنَ الْمُعْتَرِلَةِ، وَالدَّلَالَةُ مِنْ هَذِهِ ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَبْحَ وَلَدِهِ، ثُمَّ نَسَخَهُ عَنْهُ وَصَرَفَهُ إِلَى الْفِدَاءِ، وَإِنَّمَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ شَرْعِهِ أَوَّلًا إِثَابَةُ الْخَلِيلِ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى ذَبْحِ وَلَدِهِ وَعَزْمِهِ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَذَا لَوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أَي: الْإِخْتِيَارُ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ حَيْثُ أَمَرَ بِذَبْحِ وَلَدِهِ فَسَارَعَ إِلَى ذَلِكَ مُسْتَسْلِمًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، مُتَقَادًا لِطَاعَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَدَّعَيْنَاهُ يَذْنِعَ عَظِيمًا﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْشُ قَدْ رُعِيَ فِي الْجَنَّةِ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا<sup>(١٤)</sup>. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفِيَّةِ بِنْتِ شَيْبَةَ قَالَتْ: أَخْبَرْتَنِي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ - وَلَدَتْ عَامَةً أَهْلِي دَارِنَا - أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَالَتْ مَرَّةً: إِنِّهَا سَأَلْتُ عُثْمَانَ لِمَ دَعَاكَ النَّبِيُّ ﷺ؟ - قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَرْنِي الْكَبْشِ حِينَ دَخَلْتُ الْبَيْتَ، فَسَبَيْتُ أَنْ أَمَرَكَ أَنْ تُخَمَّرَهُمَا فَخَمَّرَهُمَا، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغُلُ الْمُصَلِّيَّ» قَالَ سُفْيَانُ: لَمْ يَزَلْ قَرْنَا الْكَبْشِ مُعْلَقَيْنِ فِي الْبَيْتِ حَتَّى اخْتَرَقَ الْبَيْتَ فَاخْتَرَقَا<sup>(١٥)</sup>. وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ عَلَى أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّ قُرَيْشًا تَوَارَثُوا قَرْنِي الْكَبْشِ الَّذِي قَدَى بِهِ إِبْرَاهِيمُ خَلْفًا عَنْ

(١) الطبري: ٧٣، ٧٢/٢١ (٢) الطبري: ٧٥/٢١ (٣) الطبري: ٧٧/٢١ (٤) الطبري: ٧٨، ٧٧/٢١ (٥) أحمد: ١/ ٢٩٧ (٦) الطبري: ٧٤/٢١ (٧) الطبري: ٩٠/٢١ (٨) أحمد: ٦٨/٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَدَّعَيْنَاهُ أَنْ يَكْتَابِرَهُمَا﴾<sup>(١٦)</sup> قَدْ صَدَقَتِ الرَّؤْيَا<sup>(١٧)</sup> أَي: قَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنْ رُؤْيَاكَ وَبِإِضْجَاعِكَ

سَلَفٍ، وَجِيلاً بَعْدَ جِيلٍ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[ذَكَرَ الْأَثَارَ الْوَارِدَةَ بِأَنَّ الذَّبِيحَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَقْطُوعُ بِهِ]

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَيُوشَفُ بْنُ مِهْرَانَ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْمَقْدِيُّ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَزَعَمَتِ الْيَهُودُ أَنَّهُ إِسْحَاقُ وَكَذَبَتِ الْيَهُودُ<sup>(٢)</sup>. عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: الذَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ يُوشَفُ بْنُ مِهْرَانَ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ رَأَيْتُ قُرْنِي الْكَبْشِ فِي الْكَعْبَةِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ دِينَارٍ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ لَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الَّذِي أُمِرَ بِذَبْحِهِ مِنْ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(٧)</sup>. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْفَرَزِّيَّ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِهِ مِنْ ابْنَيْهِ: إِسْمَاعِيلُ، وَإِنَّا لَنَجِدُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جِئَ فَرَعَ مِنْ قِصَّةِ الْمَذْبُوحِ مِنْ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾ [هود: ٧١] يَقُولُ بَابْنٍ وَابْنُ ابْنٍ، فَلَمْ يَكُنْ لِأَمْرِهِ بِذَبْحِ إِسْحَاقَ وَلَهُ فِيهِ مِنَ الْمُؤَعَّدِ بِمَا وَعَدَهُ، وَمَا الَّذِي أُمِرَ بِذَبْحِهِ إِلَّا إِسْمَاعِيلُ<sup>(٨)</sup>. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ كَثِيرًا<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ سَفْيَانَ بْنِ فَرْوَةَ الْأَسْلَمِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْفَرَزِّيَّ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ خَلِيفَةٌ - إِذْ كَانَ مَعَهُ بِالشَّامِ - فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا كُنْتُ أَنْظُرُ فِيهِ، وَإِنِّي لَأَرَاهُ كَمَا قُلْتُ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى رَجُلٍ كَانَ عِنْدَهُ بِالشَّامِ، كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ يَرَى أَنَّهُ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: وَأَنَا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيُّ ابْنَيْ إِبْرَاهِيمَ أُمِرَ بِذَبْحِهِ؟ فَقَالَ: إِسْمَاعِيلُ وَاللَّهُ! يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ يَهُودَ لَتَعْلَمَنَّ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ عَلَى أَنْ يَكُونَ

أَبَاكُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ، وَالْفَضْلُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ لِيَصْبِرَ لِمَا أُمِرَ بِهِ، فَهُمْ يَحْسُدُونَ ذَلِكَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِسْحَاقُ لِكُونَ إِسْحَاقَ أَبَاهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّهُمَا كَانَ، وَكُلُّ قَدْ كَانَ طَاهِرًا طَيِّبًا مُطِيعًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ بْنُ حَبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ سَأَلْتُ أَبِي عَنِ الذَّبِيحِ؟ هَلْ هُوَ إِسْمَاعِيلُ أَوْ إِسْحَاقُ؟ فَقَالَ: إِسْمَاعِيلُ. ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: الصَّحِيحُ أَنَّ الذَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قَالَ: وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي الطَّفِيلِ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَالشَّعْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْفَرَزِّيَّ وَأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وَأَبِي صَالِحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: الذَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ الْبُغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: وَإِلَيْهِ ذَهَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالسُّدِّيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْفَرَزِّيَّ وَالْكَلْبِيُّ<sup>(١٣)</sup>. وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَحَكَاهُ أَيْضًا عَنْ أَبِي عُمَرَ بْنِ الْعَلَاءِ.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الصَّنَابِيحِيِّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَذَكَرُوا الذَّبِيحَ: إِسْمَاعِيلُ أَوْ إِسْحَاقُ؟ فَقَالَ: عَلَى الْخَيْرِ سَقَطْنَاهُ، كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! عُذُّ عَلِيٍّ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَا ابْنَ الدَّبِيحِينَ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَمَا الذَّبِيحَانِ؟ فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا أُمِرَ بِحَقْرِ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ أَنْ يَسْهَلَ اللَّهُ لَهُ أَمْرًا عَلَيْهِ، لِيَذْبَحَنَّ أَحَدَ وَلَدَيْهِ، قَالَ: فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ أَحْوَالُهُ وَقَالُوا: افِدِ ابْنَكَ بِمَاتِهِ مِنَ الْإِلَالِ فَفَدَاهُ بِمَاتِهِ مِنَ الْإِلَالِ، وَالثَّانِي: إِسْمَاعِيلُ<sup>(١٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لَمَّا تَقَدَّمَ الْبَشَارَةُ بِالذَّبِيحِ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ عَطَفَ بِذِكْرِ الْبَشَارَةِ

(١) الطبري: ٨٣/٢١ (٢) الطبري: ٨٣/٢١ (٣) الطبري: ٨٢/٢١ (٤) الطبري: ٨٤/٢١ (٥) الطبري: ٨٤/٢١ (٦) الطبري: ٨٤/٢١ (٧) الطبري: ٨٥/٢١ (٨) الطبري: ٨٥/٢١ (٩) الطبري: ٨٥/٢١ (١٠) الطبري: ٨٥/٢١ (١١) الزهد لعبد الله ابن أحمد: ٨٠ (١٢) الطبري: ٨٤-٨٢/٢١ (١٣) البغوي: ٣٢/٤ (١٤) الطبري (٢٩٥٩٧) إسناده ضعيف لوجه فيه عبدالله بن سعد بن فروة ضعيف وعمر بن عبدالرحيم الخطابي وعبدالله بن محمد العتيبي وأبوهم مجاهيل.

الضَّحَّاكُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مُنْبِهٍ: هُوَ إِلْيَاسُ بْنُ [يَاسِينَ] ابْنِ فِنْحَاصِ بْنِ الْعِزَّارِ بْنِ هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ<sup>(٤)</sup>. بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ حَزَقِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَكَانُوا قَدْ عَبَدُوا صَنَمًا يُقَالُ لَهُ: بَعْلٌ فَدَعَاَهُمُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَنَهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَكَانَ قَدْ آمَنَ بِهِ مَلِكُهُمْ ثُمَّ ارْتَدَّ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَدَعَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَحَسَّ عَنْهُمْ الْقَطَرُ ثَلَاثَ سِنِينَ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَكْشِفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَعَوْدُهُ الْإِيمَانُ بِهِ، إِنْ هُمْ أَصَابَهُمُ الْمَطَرُ، فَدَعَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ فَجَاءَهُمُ الْغَيْثُ، فَاسْتَمَرُّوا عَلَى أَحْبَبَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى يَدَيْهِ الْيَسَعَ بْنُ أَخْطُوبٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَمَرَ إِلْيَاسُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مَكَانٍ كَذَا

وَكَذَا، فَهَمَّمَا جَاءَهُ فَلْيَرْكَبْهُ وَلَا يَهِنُ، فَجَاءَهُ فَرَسٌ مِنْ نَارٍ فَرَكِبَ، وَأَلْبَسَهُ اللَّهُ تَعَالَى الثَّوْرَ وَكَسَاهُ الرِّيشَ، وَكَانَ يُطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ مَلَكًا إِنْشِيًا سَمَويًا أَرْضِيًا. هَكَذَا حَكَاهُ وَهَبُ بْنُ مُنْبِهٍ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهِ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ لَا تَنْفُوتُمْ ﴿أَيُّ: أَلَا تَخَافُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرُهُ﴾ ﴿أَنْدَعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقَيْنِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَالشَّيْثِيُّ: بَعْلًا يَعْنِي رَبًّا<sup>(٥)</sup>. قَالَ عِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: وَهِيَ لُغَةُ أَهْلِ الْيَمَنِ<sup>(٦)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: وَهِيَ لُغَةُ أَزْدَ شُؤْءَ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ: هُوَ اسْمُ صَنَمٍ كَانَ يَعْبُدُهُ أَهْلُ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: بَعْلَبُكُ غَرْبِي دِمَشْقُ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ صَنَمٌ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْدَعُونَ بَعْلًا﴾ أَيُّ: أَنْتَعِبُدُونَ صَنَمًا ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقَيْنِ﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿أَيُّ: هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوا فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أَيُّ: لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿وَلَا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ أَيُّ: الْمُؤَحِّدِينَ مِنْهُمْ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ

بِأَخِيهِ إِسْحَاقَ، وَقَدْ ذُكِرَتْ فِي سُورَتَيْ هُودٍ وَالْجُحْرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَبْنَآ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ أَيْ سَيَصِيرُ مِنْهُ نَبِيٌّ صَالِحٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرْكَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قِيلَ يَتُوجُ آدَمُ الْمُلْكَ مِنَّا وَتُرَكَّبَتْ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ وَمَنْ مَعَكُمْ وَأُمُّهُمْ سَتِمْنَهُمْ ثُمَّ بَمَسْهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَصَرَفْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿وَأَيَّدْنَاهُمَا بِالْكِتَابِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿وَتَرْكَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَّمُوا عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿[ذِكْرُ مُوسَى وَهَارُونَ]

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالنَّجَاةِ بِمَنْ آمَنَ مَعَهُمَا، مِنْ قَهْرِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَمَا كَانَ يَعْتَمِدُ فِي حَقِّهِمْ - مِنَ الْإِسَاءَةِ الْعَظِيمَةِ - مِنْ قَتْلِ الْأَنْبَاءِ وَاسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ وَاسْتِعْمَالِهِمْ فِي أَحْسَرِ الْأَشْيَاءِ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ نَصَرَهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَقْرَأَ أَعْيُنَهُمْ مِنْهُمْ، فَعَلَّبُوهُمْ وَأَخَذُوا أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَا كَانُوا جَمَعُوهُ طُولَ حَيَاتِهِمْ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الْوَاضِحَ الْجَلِيلِي الْمُسْتَبِينِ، وَهُوَ التَّوْرَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيكَةً﴾ [الأنبياء: ٤٨] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هَهُنَا: ﴿وَأَيَّدْنَاهُمَا بِالْكِتَابِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أَيُّ: فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ﴿وَتَرْكَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أَيُّ: أَبْقَيْنَا لَهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ذِكْرًا جَمِيلًا وَنَاءً حَسَنًا، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَلَّمُوا عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلِإِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ لَا تَنْفُوتُمْ ﴿أَنْدَعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقَيْنِ﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿فَكَذَّبُوا فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿وَتَرْكَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَّمُوا عَلَى إِلِ يَاسِينَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

### [ذِكْرُ إِلْيَاسَ]

قَالَ قَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: يُقَالُ: إِلْيَاسُ هُوَ إِدْرِيسُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِلْيَاسُ هُوَ إِدْرِيسُ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ

(١) الطبري: ٩٥/٢١ (٢) القرطبي: ١١٥/١٥ فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس مختلط كما مر (٣) الطبري: ٩٧/٢١ (٤) الطبري: ٩٧/٢١ (٥) الطبري: ٩٦/٢١ (٦) الطبري: ٢١/٩٦ (٧) الدر المنثور: ١١٩/٧ (٨) الطبري: ٩٧/٢١ رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ضعيفة وهو يروي عن أبيه الموضوعات كما قال الحاكم في المذلل إلى الصحيح (٩) الطبري: ٩٧/٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥١

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

فَكَذَّبُوهُ فَأَنهَمُ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٣٧﴾ لِأَعْبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٣٨﴾  
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْلِيسَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ  
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٢﴾ وَإِنْ لَوْطَا  
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُ وَاهِلَةٌ أَجْمَعٌ ﴿١٤٤﴾ إِلَّا عَجُورًا  
فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَإِنَّا لَنُفَرِّقُهُمْ  
مُصْبِحِينَ ﴿١٤٧﴾ وَيَأْتِلُّ أَفَلًا تَعْقِلُونَ ﴿١٤٨﴾ وَإِنْ يُوَسَّسْ لِمَنْ  
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٩﴾ إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ أَفَلِكِ الْمَشْهُونِ ﴿١٥٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ  
مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٥١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٥٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ  
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٥٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٥٤﴾  
فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٥٥﴾ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً  
مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٥٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٥٧﴾  
فَعَامَنُوا فَتَعَنَّاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٥٨﴾ فَاسْتَفْتِهِم أَلِرَّيْكَ الْبَنَاتُ  
وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٥٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْسَانًا وَهُمْ  
شَاهِدُونَ ﴿١٦٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ أَفْكَهَمَ لِقَوْلُونَ ﴿١٦١﴾ وَلَدَ  
اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٦٢﴾ أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَىٰ الْبَنِينَ ﴿١٦٣﴾

الْبَحْرِ، لِيَخْفَ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَىٰ نَبِيِّ اللَّهِ  
يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَهُمْ يَضْحَكُونَ بِهِ  
أَنْ يُلْقَىٰ مِنْ بَيْنِهِمْ، فَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ لِيُلْقَىٰ نَفْسُهُ وَهُمْ يَأْبُونَ  
عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ حُوتًا مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ أَنْ  
يَشُقَّ الْحَارَ وَأَنْ يَلْتَقِمَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَا يَهْشِمُ لَهُ  
لَحْمًا، وَلَا يَكْسِرُ لَهُ عَظْمًا، فَجَاءَ ذَلِكَ الْحُوتُ، وَأَلْقَى  
يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسَهُ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَذَهَبَ بِهِ فَطَافَ بِهِ  
الْبَحَارُ كُلَّهَا. وَلَمَّا اسْتَقَرَّ يُوسُفُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ حَسِبَ أَنَّهُ  
قَدْ مَاتَ ثُمَّ حَرَّكَ رَأْسَهُ وَرَجُلَيْهِ وَأَطْرَافَهُ، فَإِذَا هُوَ حَيٌّ،  
فَقَامَ فَصَلَّىٰ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ دُعَائِهِ: يَا  
رَبِّ! اتَّخَذْتُ لَكَ مَسْجِدًا فِي مَوْضِعٍ لَمْ يَلْعُغْ أَحَدٌ مِنَ  
النَّاسِ، وَاخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ مَا لَبِثَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فَقِيلَ:  
ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: سَبْعَةٌ. قَالَهُ جَعْفَرُ الصَّادِقُ

(١) فتح الباري: ١٩٣/٤ ومسلم: ١٨٤٦/٤ (٢) الطبري:

١٠٦/٢١

مُنْقَطِعٌ مِنْ مُثَبِّبٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾  
أَيُّ: ثَنَاءً جَمِيلًا ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْلِيسَ﴾ كَمَا يُقَالُ فِي  
إِسْمَاعِيلَ: إِسْمَاعِيلُ، وَهِيَ لُغَةٌ بَنِي أَسَدٍ، وَيُقَالُ: مِيكَالُ،  
وَمِيكَائِيلُ وَمِيكَائِينُ، وَإِبْرَاهِيمُ وَإِبْرَاهَامُ، وَإِسْرَائِيلُ  
وإِسْرَائِيلِينَ، وَطُورُ سَيْنَاءَ وَطُورُ سَيْنِينَ، وَهُوَ مَوْضِعٌ وَاحِدٌ،  
وَكُلُّ هَذَا سَائِعٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ، وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ.

﴿وَإِنْ لَوْطَا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٤٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُ وَاهِلَةٌ أَجْمَعٌ ﴿١٤٤﴾ إِلَّا  
عَجُورًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَإِنَّا لَنُفَرِّقُهُمْ  
مُصْبِحِينَ ﴿١٤٧﴾ وَيَأْتِلُّ أَفَلًا تَعْقِلُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴿١٣٨﴾

[ذَكَرَ إِهْلَاكَ قَوْمِ لُوطَ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ بَعَثَهُ  
إِلَىٰ قَوْمِهِ فَكَذَّبُوهُ، فَجَاءَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ هُوَ  
وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَتُهُ، فَإِنَّمَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا،  
فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُثُوبَاتِ، وَجَعَلَ  
مَحَلَّتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بَحِيرَةً مُثْنَةً قَبِيحَةً الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ  
وَالرَّيْحِ، وَجَعَلَهَا بِسَبِيلِ مُقِيمٍ يَمُرُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ لَيْلًا  
وَنَهَارًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنُفَرِّقُهُمْ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾  
وَيَأْتِلُّ أَفَلًا تَعْقِلُونَ ﴿١٤٨﴾ أَيُّ: أَفَلًا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ كَيْفَ دَمَرَ اللَّهُ  
عَلَيْهِمْ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا.

﴿وَإِنْ يُوَسَّسْ لِمَنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ أَفَلِكِ الْمَشْهُونِ ﴿١٥٠﴾  
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٥١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٥٢﴾ فَلَوْلَا  
أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٥٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٥٤﴾  
﴿فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ﴿١٥٥﴾ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ  
يَقْطِينٍ ﴿١٥٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٥٧﴾ فَعَامَنُوا  
فَتَعَنَّاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٥٨﴾ ﴿١٣٨﴾

[ذَكَرَ قِصَّةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]

قَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي سُورَةِ  
الْأَنْبِيَاءِ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا  
يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى» <sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى: ﴿إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ أَفَلِكِ الْمَشْهُونِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ الْمُؤَفَّرُ، أَيُّ: الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتِغَةِ ﴿فَسَاهَمَ﴾  
أَيُّ: قَارَعَ. <sup>(٢)</sup> ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أَيُّ الْمَغْلُوبِينَ، وَذَلِكَ  
أَنَّ السَّفِينَةَ تَلْعَبَتْ بِهَا الْأَمْوَاجُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَشْرَفُوا عَلَى  
الْغَرَقِ، فَسَاهَمُوا عَلَىٰ مَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ يُلْقَىٰ فِي

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَوَهْبُ ابْنِ مُنْبِيهِ وَهَلَالُ بْنُ يَسَافٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاوُسٍ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ قَالُوا كُلُّهُمْ: **الْيَقِطِيُّ هُوَ الْقَرْعُ**<sup>(٧)</sup>. وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ فِي الْقَرْعِ فَوَائِدَ، مِنْهَا: سُرْعَةُ نَبَاتِهِ وَتَطْيِيلُ وَرَقِهِ لِكِبَرِهِ وَنُعُومَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَفْرُبُهَا الذُّبَابُ، وَجَوْدَةُ تَغْذِيَةِ ثَمَرِهِ، وَأَنَّهُ يُؤْكَلُ نَبَاتًا وَمَطْبُوحًا بِلَبِّهِ وَقَشْرِهِ أَيْضًا، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُحِبُّ الذُّبَابَ وَيَتَّبِعُهُ مِنْ نَوَاجِي الصَّحْفَةِ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى يَاقَةَ أُنْثَىٰ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ كَانَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَوَّلًا أُمِرَ بِالْعُدُودِ إِلَيْهِمْ، بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْحُوتِ، فَصَدَّقُوهُ كُلُّهُمْ وَآمَنُوا بِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قَالَ مَكْحُولٌ: كَانُوا مِائَةً أَلْفٍ وَعَشْرَةَ أَلْفٍ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَقُولُ فِي ذَلِكَ: مَعْنَاهُ إِلَى الْمِائَةِ الْأَلْفِ أَوْ كَانُوا يَزِيدُونَ عِنْدَكُمْ. يَقُولُ<sup>(٩)</sup>: كَذَلِكَ كَانُوا عِنْدَكُمْ<sup>(٩)</sup>. [هَكَذَا] سَلَكَ ابْنُ جَرِيرٍ هَهُنَا مَا سَلَكَهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا فُرِقَ مِنْهُمْ بِمَنْشُورٍ أَلْفَافٍ﴾ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً [النساء: ٧٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [هود: ٩٨] الْمُرَادُ لَيْسَ أَنْقَصَ مِنْ ذَلِكَ بَلْ أَزِيدَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَأْمَنُوا﴾ أَيُّ: فَأَمَنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يُؤْنَسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمِيعُهُمْ ﴿فَتَمَنَّاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أَيُّ: إِلَى وَقْتِ أَجَالِهِمْ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنَتْ فَفَعَلَهَا إِيْمَانًا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. [يونس: ٩٨]

﴿فَأَسْتَفْهِمُ أَرْبَابَ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبُشُورُ﴾<sup>(١٠)</sup> أَمْ خَلَقْنَا

الْمَلَائِكَةَ إِنْسَانًا وَهُمْ شَاهِدُونَ<sup>(١١)</sup> أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ فِيكِهِمْ

لَيَقُولُونَ<sup>(١٢)</sup> وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ<sup>(١٣)</sup> أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقِيلَ: أَرْبَعِينَ يَوْمًا. قَالَ أَبُو مَالِكٍ<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَنِ الشَّعْبِيِّ: اِلْتَقَمَهُ ضُحَى وَلَفَظَهُ عَشِيَّةً، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَ مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾<sup>(١٥)</sup> لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِكَّ يَوْمَ يُنْعَثُونَ قَالَ: لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ الْعَمَلِ فِي الرَّخَاءِ. قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَوَهْبُ بْنُ مُنْبِيهِ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١٦)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١٧)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي سَنَدُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِنْ صَحَّ الْحَبَرُ، وَفِي حَدِيثٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَّةِ»<sup>(١٨)</sup>.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ ﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانَ مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾ هُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١٩)</sup> فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَنَّبْنَاهُ مِنْ أَلْعَمِ وَكَذَلِكَ تُشْجَى الْمُؤْمِنِينَ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨] قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ<sup>(٢٠)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَلَا أَعْلَمُ أَنَسًا إِلَّا يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ يُوسُفَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ بَدَأَ لَهُ أَنْ يَدْعُو بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَقْبَلَتِ الدَّعْوَةُ تَحُفُّ بِالْعَرْشِ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ! هَذَا صَوْتُ ضَعِيفٍ مَعْرُوفٍ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ غَرِيبَةٍ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَمَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: يَا رَبِّ! وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي يُوسُفُ، قَالُوا: عَبْدُكَ يُوسُفُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَرْفَعُ لَهُ عَمَلٌ مُقْبَلٌ وَدَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ؟ قَالُوا: يَا رَبِّ! أَوْ لَا تَرْحَمَ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِي الرَّخَاءِ فَتَنْجِيهِ فِي الْبَلَاءِ، قَالَ: بَلَى، فَأَمَرَ الْحُوتَ فَطَرَحَهُ بِالْعَرَاءِ»<sup>(٢١)</sup>.

زَادَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: طَرِحَ بِالْعَرَاءِ وَأَثْبَتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ الْيَقِطِيَّةَ، قُلْنَا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! وَمَا الْيَقِطِيَّةُ؟ قَالَ: شَجَرَةُ الدُّبَابِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهِيَ اللَّهُ لَهُ أُرُوتُهُ وَخَشْيَتُهُ تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ - أَوْ قَالَ: هَشَاشِ الْأَرْضِ - قَالَ: فَتَفْشَحُ عَلَيْهِ قُتْرُوبِهِ مِنْ لَبَنِهَا كُلَّ عَشِيَّةٍ وَبُكْرَةٍ حَتَّى نَبَتْ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أَيُّ: أَلْقَيْنَاهُ ﴿وَالْعَرَاءَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُهُ: هُوَ الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ بِهَا نَبْتُ وَلَا بِنَاءٌ ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أَيُّ: ضَعِيفُ الْبَدَنِ. ﴿وَأَثْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقِطِينَ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ

(١) الطبري: ١١١/٢١ (٢) الطبري: ١٠٩، ١٠٨/٢١ (٣)

الطبري: ١٠٨/٢١ (٤) أحمد: ٣٠٧/١ (٥) الطبري: ٢١/

١١٠ (٦) الطبري: ١٠٩/٢١ [إسناده ضعيف فيه أبو صخر حميد

بن زياد بن أبي المخارق المدني ضعيف (٧) الطبري: ٢١/

١١٤، ١١٣ (٨) والدر المنثور: ١٣٠، ١٣١/٧ (٩) البخاري: ٢٠٩٢

(\*) والقاتل ابن جرير رحمه الله (٩) الطبري: ١١٦/٢١

الْبَسِينِ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَنّٰوْا بِكَيْسِكُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

[الرَّدُّ عَلَى مَنْ يُنْبِئُ اللَّهَ الْوَلَدَ وَيَجْعَلُ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٍ لَهُ] يَقُولُ تَعَالَى مُكْرِمًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَعْلِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَسْتَهْجُونَ أَيُّ مِنَ الذُّكُورِ، أَيُّ: يُوَدُّونَ لِأَنْفُسِهِمُ الْحَبِيدَ ﴿١٥٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿النحل: ٥٨﴾ أَيُّ: يَسُوؤُهُ ذَلِكَ، وَلَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ إِلَّا الْبَنِينَ، يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: فَكَيْفَ نَسَبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْقِسْمَ الَّذِي لَا يَخْتَارُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَفْتَيْنَهُمْ﴾ أَيُّ: سَلَّمَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ﴿الزَّيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْأَنكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ﴾ ﴿١٦٠﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ صَبْرِي ﴿النجم: ٢١، ٢٢﴾. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أَيُّ: كَيْفَ حَكَمُوا عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ إِنَاثٌ وَمَا شَاهَدُوا خَلْقَهُمْ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخِيبٌ﴾ سَخِيبٌ مُّشْتَبِهٌ وَيَسْتَلُونَ ﴿الرحرف: ١٩﴾ أَيُّ: يُسْأَلُونَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكِهِمْ﴾ أَيُّ: مِنْ كَذِبِهِمْ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿١٦٠﴾ وَلَدَ اللَّهُ ﴿أَيُّ: صَدَرَ مِنْهُ الْوَلَدُ﴾ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي الْمَلَائِكَةِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ فِي غَايَةِ الْكُفْرِ وَالْكَذِبِ.

فَأَوَّلًا، جَعَلُوهُمْ بَنَاتٍ لِلَّهِ - فَجَعَلُوا اللَّهَ وَلَدًا تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ الْوَلَدَ أُنْثَى - ثُمَّ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ. وَكُلٌّ مِنْهَا كَافٍ فِي الشَّخْلِيدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُكْرِمًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَسِينِ﴾ أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَخْتَارَ الْبَنَاتِ دُونَ الْبَنِينَ؟ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّقُوا مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَّا نَكْثُ لَلْقَوْلِ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الاسراء: ٤٠] وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيُّ: مَا لَكُمْ عَقُولٌ تَنْدَبِرُونَ بِهَا مَا تَقُولُونَ؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ؟ أَيُّ: حُجَّةٌ عَلَى مَا تَقُولُونَهُ ﴿فَأَنّٰوْا بِكَيْسِكُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ أَيُّ: هَآئِثَا بُرْهَانًا عَلَى ذَلِكَ يَكُونُ مُسْتَبَدًّا إِلَى كِتَابٍ مُنْزَلٍ مِنَ السَّمَاءِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنَّهُ اتَّخَذَ مَا تَقُولُونَهُ، فَإِنَّ مَا تَقُولُونَهُ لَا يُمْكِنُ اسْتِنَادُهُ إِلَى عَقْلٍ، بَلْ لَا

سُورَةُ الصّٰفٰتِ ٤٥٢  
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَنّٰوْا بِكَيْسِكُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِحُ الْحَجِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مَتَىٰ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفِرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْنٌ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكُفِّرُوا بِيَّ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفْمُنَا لِإِيعَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنُفِّلْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِدَّةً يَأْتِي سَعْجَلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِطِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾  
سُورَةُ الصّٰفٰتِ ٤٥٢

يُجَوِّزُهُ الْعَقْلُ بِالْكَلِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَنْ أُمَّهَاتُهُنَّ؟ قَالُوا: بَنَاتُ سُرَوَاتِ الْجَنِّ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ نَسَبُوا إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أَيُّ: إِنْ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمُحْضَرُونَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ لِكَذِبِهِمْ فِي ذَلِكَ وَافْتِرَائِهِمْ، وَقَوْلِهِمُ الْبَاطِلَ بِلَا عِلْمٍ، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أَيُّ: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَعَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الظَّالِمُونَ الْمُلْحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ اسْتِنَاءٌ مُنْقَطِعٌ وَهُوَ مِنْ مُنْبِتٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عَائِدًا إِلَى النَّاسِ جَمِيعِهِمْ، ثُمَّ اسْتَشْنَى مِنْهُمْ

الْمُخْلِصِينَ وَهُمْ الْمُتَّبِعُونَ لِلْحَقِّ الْمُنَزَّلِ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ.

﴿فَلَا تَكُومُوا كَمَا كُومُوا عَلَىٰ عِثْرِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٦١) مَا أَشْرَ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَمِيعِ (١٦٣) وَمَا يَمَّا إِلَّا لَمْ يَمَأْمْ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّا عِدْنَا وَكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٦٩) فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)

[لَا يُؤْمِنُ بِكَلَامِ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ أَضَلُّ مِنْهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿فَلَا تَكُومُوا كَمَا كُومُوا﴾ (١٦١) مَا أَشْرَ عَلَيْهِ يَفْتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَمِيعِ ﴿أَيُّ: إِنَّمَا يَنْقَادُ لِمَقَالَتِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْعِبَادَةِ الْبَاطِلَةِ مِنْ هُوَ أَضَلُّ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذُرِيَ لِلنَّارِ﴾ ﴿لَمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَاقٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي يَنْقَادُ لِبِدَنِ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَكُومُوا كَمَا كُومُوا عَلَىٰ عِثْرِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٦١) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ﴿[الذاريات: ٩، ٨] أَيُّ: إِنَّمَا يَضِلُّ بِهِ مَنْ هُوَ مَا فُوكٌ وَمُضْطَلٌّ.

[مَقَامُ الْمَلَائِكَةِ وَتَسْبِيحُهُمْ صُفُوفًا]

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُتَرَجِّمًا لِلْمَلَائِكَةِ مِمَّا نَسَبُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِمْ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ: أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ: ﴿وَمَا يَمَّا إِلَّا لَمْ يَمَأْمْ مَعْلُومٌ﴾ أَيُّ: لَهُ مَوْضِعٌ مَخْصُوصٌ فِي السَّمَوَاتِ وَمَقَامَاتِ الْعِبَادَاتِ لَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿وَمَا يَمَّا إِلَّا لَمْ يَمَأْمْ مَعْلُومٌ﴾ قَالَ: كَانَ مَسْرُوقٌ يَزُورُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا مَوْضِعٌ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ» فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَمَّا إِلَّا لَمْ يَمَأْمْ مَعْلُومٌ﴾ (١).

عَنِ ابْنِ [مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قَالَ: إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ لَسَّمَاءَ مَا فِيهَا مَوْضِعٌ شَيْءٍ إِلَّا عَلَيْهِ جَبْهَةٌ مَلَكٌ أَوْ قَدَمَاءُ، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَمَا يَمَّا إِلَّا لَمْ يَمَأْمْ مَعْلُومٌ﴾ (٢). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ أَيُّ: نَقَفَ صُفُوفًا فِي الطَّاعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ [الصافات: ١] وَقَالَ أَبُو نَضْرَةَ: كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ اسْتَقْبَلَ النَّاسَ بِوَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ، اسْتَوُوا قِيَامًا، يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِكُمْ هَذِي الْمَلَائِكَةَ، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾

تَأَخَّرَ يَا فَلَانُ، تَقَدَّمَ يَا فَلَانُ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ فَيَكْبُرُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ (٣). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا، وَتُرِبُهَا طَهْرًا» (٤). الْحَدِيثُ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ﴾ أَيُّ: نَضَطَّفُ فَتُسَبِّحُ الرَّبَّ وَنَمَجِّدُهُ وَنُقَدِّسُهُ، وَنُزِّنُهُ عَنِ النَّقَائِصِ، فَتَحْنُ عِبِيدَ لَهُ، فَقَرَاءُ إِلَيْهِ، خَاصِعُونَ لَدَيْهِ.

[تَمَنَّى قُرَيْشٍ لَوْ كَانَ عِنْدَهَا ذِكْرٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ (١٦٧) لَوْ أَنَّا عِدْنَا وَكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿أَيُّ: قَدْ كَانُوا يَتَمَنُّونَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ مَنْ يُذَكِّرُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْقُرُونِ الْأُولَى، وَيَأْتِيَهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِبْدَىٰ الْأُثْمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْأَنْكِبَتُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (١٦٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْأَنْكِبَتَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْلَاهُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا سَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَدَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ هَاهُنَا: ﴿فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وَعِيدُ أَكِيدُ وَتَهْدِيدُ شَدِيدٌ عَلَى كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ ﷺ.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٦) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٦٧) وَإِنَّا جُنَدًا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٦٨) فَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٦٩) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٠) أَفَعَدَّيْنَا لِلْمَصْرِفِينَ (١٧١) فَإِذَا زُلْزِلَتْ سَحَابُهُمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٢) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٣) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٤)

[الْوَعْدُ بِالنَّصْرِ وَالْأَمْرُ بِالتَّوَلَّىٰ عَنْ قُرَيْشٍ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٦) أَيُّ: تَقَدَّمَ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْعَاقِبَةَ

(١) الطبري: ١٢٧/٢١ [إسناده ضعيف الحسين بن الفرج الخياط أبو علي متروك وقال ابن معين: يسرق الحديث [ديوان الضعفاء للذهبي: ١٠٠٧] ثم إنه من معلقات الطبري (٢) الطبري: ٢١/ ١٢٧ (٣) الطبري: ١٢٨/٢١ هذا من مراسيل أبي نضرة (٤) مسلم: ٣٧١/١



رَبِّ الْعَرْفِ ﴿١٧١﴾ أَي: ذِي الْعِرَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أَي: عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ الْمُفْتَرِينَ ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أَي: سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ فِي رَبِّهِمْ وَصِحَّتِهِ وَحَقَّقِيهِ ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَمَّا كَانَ التَّسْبِيحُ يَتَضَمَّنُ التَّنْزِيهَ مِنَ النَّقْصِ، قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَرْفِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٣﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٤﴾ وَقَالَ سَعِيدُ ابْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا سَلَّمْتُمْ عَلَيَّ، فَسَلِّمُوا عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْمُرْسَلِينَ». هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ <sup>(١)</sup>. وَرَوَى أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكْتُمَلَ بِالْمَكِّيَّاتِ الْأَوْفَى مِنَ الْأَجْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَكُنْ آخِرَ كَلَامِهِ فِي مَجْلِسِهِ ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَرْفِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٧٥﴾ وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي كَفَّارَةِ الْمَجْلِسِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». وَقَدْ أَفْرَدَتْ لَهَا جُزْءًا عَلَى حِدَةٍ. أَخْرَجَ تَفْسِيرِ سُورَةِ الصَّافَاتِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

## سُورَةُ ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِهِمْ ﴿٢﴾ كَرَاهَلِكًا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادُوا ذَلَّتْ جِنَّ مَنَاصِ ﴿٣﴾ أَمَّا الْكُلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أَي: وَالْقُرْآنُ الْمُسْتَجَلُّ عَلَى مَا فِيهِ ذِكْرٌ لِلْعِبَادِ، وَنَفْعٌ لَهُمْ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ. قَالَ الضَّحَّاكُ فِي

لِلرُّسُلِ وَأَتَّبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَكْفِلَنَّكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١] وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ نُصْرَتِهِمْ عَلَى قَوْمِهِمْ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ، كَيْفَ أَهْلَكَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَنْ جُدْنَا لَهُمُ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿نُؤَلِّهِمْ عَنْهُمْ حَتَّى يَبِينَ﴾ أَي: أَصْبِرْ عَلَى آذَانِهِمْ لَكَ، وَانْتَظِرْ إِلَى وَقْتِ مُوجَلِّ، فَإِنَّا سَنَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ وَالظَّفَرَ، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أَي: أَنْظِرْهُمْ وَارْتَقِبْ مَاذَا يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ بِمُخَالَفَتِكَ وَتَكْذِيبِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعْدِ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَعِدَانَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أَي: هُمْ إِنَّمَا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ لِتَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْضَبُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَيُعْجِلُ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ، وَمَعَ هَذَا أَيْضًا كَانُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ وَالْعُقُوبَةَ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِوِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أَي: إِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِمَحَلَّتِهِمْ فَيُسْئِلُ ذَلِكَ النَّوْمُ يَوْمَهُمْ بِإِهْلَاقِهِمْ وَدَمَارِهِمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِوِمْ﴾ يَعْنِي بِدَارِهِمْ ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أَي: فَيُسْئِلُ مَا يُصْبِحُونَ، أَي: يَسْئِلُ الصَّبَاحُ صَبَاحَهُمْ. وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبِيرًا، فَلَمَّا خَرَجُوا بِقُؤُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ وَرَأَوْا الْجَيْشَ رَجَعُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ وَاللَّهُ مُحَمَّدٌ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَبِيرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ» <sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى يَبِينَ﴾ ﴿١٧٩﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَرْفِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَّمْ عَلَى

الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

يُنَزِّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَفْسَهُ وَيُقَدِّسُهَا وَيُبْرِئُهَا عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُكْذِبُونَ الْمُعْتَدُونَ، تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوًّا كَبِيرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ

(١) فتح الباري: ١٠٧/٢ ومسلم: ١٠٤٣/٢ (٢) الطبري: ١٣٤/٢١ هذا من مراسيل قتادة (٣) البغوي: ٤٦/٤ إسناده ضعيف فيه الأصم بن نباتة قال ابن حجر: متروك رمى بالرفض [تقريب ٦١٢] قال النسائي متروك الحديث وقال الدار قطني منكر الحديث [الضعفاء والمتروكين ٦٤] وأيضا الضعفاء للدار قطني [١١٨]

سُورَةُ ص

٤٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴿٢﴾  
 كَرَاهِلِكُنَّ مِنْ قَبْلِهِمْ مَن قَرْنٍ فَنَادَ وَأُولَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَنَجَّوْا  
 أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾  
 أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقْنَا لَمَلًا  
 مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾  
 مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْلَاقٌ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَّلَ  
 عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَذَابِ  
 ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ  
 مِثْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾  
 جُئِدْ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ  
 نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ  
 لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ  
 فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِحْرَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا  
 مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قُلُوبَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

هُم فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ  
 رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مِثْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا  
 فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُئِدْ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنْ  
 الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

[تَعَجَّبَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَعَجُّبِهِمْ مِنْ بَغْيَةِ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَكَانَ  
 لِلنَّاسِ عِجَابٌ أَن أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَن أَنْذِرِ النَّاسَ وَنُفِثَ  
 إِلَيْهِمْ عِجَابٌ أَن لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا  
 لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿وَنَجَّوْا  
 جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أَيُّ: بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ  
 كَذَّابٌ﴾ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أَيُّ: أَرْعَمَ أَنَّ الْمَعْبُودَ  
 وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟ أَتَكْفُرُ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ - فَجَبَّهُمُ اللَّهُ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ  
 كِتَابٌ فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أَيْ تَذَكُّرُكُمْ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ  
 قَتَادَةُ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُمَا وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ وَابْنُ عُيَيْنَةَ،  
 وَأَبُو حُصَيْنٍ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذِي  
 الشَّرَفِ، أَيْ: ذِي الشَّانِ وَالْمَكَانَةِ<sup>(٣)</sup>. وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ  
 الْقَوْلَيْنِ فَإِنَّهُ كِتَابٌ شَرِيفٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى التَّذَكُّرِ وَالْإِعْذَارِ  
 وَالْإِنْدَارِ - جَوَابٌ هَذَا الْقِسْمِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا  
 كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ [ص: ١٤] وَقَالَ قَتَادَةُ: جَوَابُهُ  
 ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي﴾<sup>(٤)</sup> وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي﴾  
 أَيْ: إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لَذِكْرًا لِمَنْ يَتَذَكَّرُ، وَعِبرَةً لِمَنْ  
 يَتَعَبَّرُ، وَإِنَّمَا لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ الْكَافِرُونَ لِأَنَّهُمْ ﴿فِي عِزِّهِمْ﴾ أَيْ:  
 اسْتِكْبَارٌ عَنْهُ وَحِمِيَّةٌ ﴿وَشِقَاقِي﴾ أَيْ: وَمُخَالَفَةٌ لَهُ وَمُعَانَدَةٌ  
 وَمُفَارَقَةٌ - ثُمَّ خَوَّفَهُمْ مَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ قَبْلَهُمْ  
 بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِلرُّسُلِ، وَتَكْذِيبِهِمُ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْ  
 السَّمَاءِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أَيْ:  
 مِنْ أُمَّةٍ مُكَذِّبَةٍ ﴿فَنَادَوْا﴾ أَيْ: جِئْنَا بِهَذَا الْعَذَابِ اسْتَعَاثُوا  
 وَجَارُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُجِدِّ عَنْهُمْ شَيْئًا، كَمَا  
 قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾  
 [الأنبياء: ١٢] أَيْ: يَهْرَبُونَ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ  
 فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ  
 التَّيْمِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ قَوْلِ  
 اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قَالَ: لَيْسَ  
 بِحِينَ نِدَاءٍ، وَلَا نَزْوٍ وَلَا فِرَارٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ فِي  
 قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يَقُولُ: نَادَاوُا بِالتَّوْحِيدِ  
 حِينَ تَوَلَّيْتُ الدُّنْيَا عَنْهُمْ، وَاسْتَنَاصُوا لِلتَّوْبَةِ حِينَ تَوَلَّيْتُ  
 الدُّنْيَا عَنْهُمْ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ أَرَادُوا التَّوْبَةَ  
 فِي غَيْرِ حِينَ النَّدَاءِ - وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ  
 مَنَاصٍ﴾ لَيْسَ بِحِينَ فِرَارٍ وَلَا إِجَابَةٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ  
 وَتَعَالَى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْحِينُ حِينَ فِرَارٍ وَلَا  
 ذَهَابٍ، وَاللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤْتَقُ لِلصَّوَابِ.

﴿وَنَجَّوْا أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾  
 أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقْنَا لَمَلًا مِنْهُمْ أَنِ  
 امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي  
 الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْلَاقٌ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ

(١) الطبري: ١٤٠/٢١ (٢) الطبري: ١٤٠/٢١ (٣) الطبري:

١٤٠، ١٣٩/٢١ (٤) الطبري: ١٤٠/٢١ (٥) الطبري: ٢١/

١٤١ (٦) الدر المنثور: ١٤٥/٧

تَعَالَى - وَتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشَّرِكِ بِاللَّهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَلَقَّوْا عَنْ آبَائِهِمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمَّا دَعَاهُمْ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى خَلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِفْرَادِ الْإِلَهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، أَغْضَبُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا وَقَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَجَدًّا إِنَّ هَذَا لَنُفْيٌ مَجَابٌ ⑤﴾ وَأُطْلِقَ اللَّامُ مِنْهُمْ وَهُمْ سَادَتْهُمْ وَقَادَتْهُمْ، وَرَوَّسَاؤُهُمْ وَكَبَرَاؤُهُمْ قَائِلِينَ: ﴿انْشُرُوا أَيْ: اسْتَمِرُّوا عَلَى دِينِكُمْ وَاصْبِرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ وَلَا تَسْتَجِيبُوا لِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَنُفْيٌ يَرَادُ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: إِنَّ هَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ التَّوْحِيدِ، لَشَيْءٍ يُرِيدُ بِهِ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ وَالْإِسْتِعْلَاءَ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْكُمْ أَتْبَاعٌ، وَلَسْنَا نَجِيبُهُ إِلَيْهِ ①﴾.

[ذَكَرُ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ]

رَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا مَرَضَ أَبُو طَالِبٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِيهِمْ أَبُو جَهْلٌ، فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَشْتُمُ إِلَهَتَنَا وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ، وَيَقُولُ وَيَقُولُ، فَلَوْ بَعَثْتَ إِلَيْهِ فَتَهَيَّئَتْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ الْبَيْتَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدَرٌ مَجْلِسٍ رَجُلٍ، قَالَ: فَخَشِيَ أَبُو جَهْلٌ لَعْنَةُ اللَّهِ إِنْ جَلَسَ إِلَى جَنْبِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَكُونَ أَرْقَ لَهُ عَلَيْهِ، فَوَتَّبَعَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، وَلَمْ يَجِدْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسًا قُرْبَ عَمِّهِ، فَجَلَسَ عِنْدَ الْبَابِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: أَيُّ ابْنِ أَخِي! مَا بَالُ قَوْمِكَ يَشْكُونَكَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَشْتُمُ إِلَهَتَهُمْ وَتَقُولُ وَتَقُولُ؟ قَالَ: وَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الْقَوْلِ. وَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمُّ! إِنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَقُولُونَهَا تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُوَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْحَزَرِيُّ» فَفَزِعُوا لِكَلِمَتِهِ وَلِقَوْلِهِ، فَقَالَ الْقَوْمُ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ: نَعَمْ وَأَبِيكَ عَشْرًا، فَقَالُوا: وَمَا هِيَ؟ وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَأَيُّ كَلِمَةٍ هِيَ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ ﷺ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فَقَامُوا فَرَعِينَ يَنْفَضُونَ ثِيَابَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَجَدًّا إِنَّ هَذَا لَنُفْيٌ مَجَابٌ ⑤﴾ قَالَ: وَنَزَلَتْ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿بَلْ لَمَّا يَدْعُوا عَابَدَ﴾ لَفْظُ أَبِي كُرَيْبٍ ②. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ نَحْوَهُ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ ③. وَقَوْلُهُمْ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَلَمَةِ الْأُخْرَى﴾ أَيْ: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ التَّوْحِيدِ، فِي الْأَلَمَةِ الْأُخْرَى.

قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿مَا سَمِعْنَا

بِهَذَا فِي الْأَلَمَةِ الْأُخْرَى﴾ بِغْنَى النَّصْرَانِيَّةِ، قَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ حَقًّا لَأَخْبَرْتَنَا بِهِ النَّصَارَى ④. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خَيْالٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: كَذِبٌ ⑤. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَخَرُّصٌ ⑥. وَقَوْلُهُمْ: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ بِغْنَى أَنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَ تَخْصِيصَهُ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ كُلِّهِمْ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الرَّحْف: ٣١] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَيعَشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَعَدْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الرَّحْف: ٣٤] وَلِهَذَا لَمَّا قَالُوا هَذَا الَّذِي دَلَّ عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عَقْلِهِمْ، فِي اسْتِعَادِهِمْ إِنْزَالَ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ مِنْ بَيْنِهِمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَمَّا يَدْعُوا عَابَدَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا لِأَنَّهُمْ مَا ذَاقُوا إِلَى حِينٍ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَنَفَمَتُهُ، سَبَعَلْمُونَ غِبَّ مَا قَالُوا، وَمَا كَذَّبُوا بِهِ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ، الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ، الَّذِي يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِلُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَخْتِمُ عَلَى قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ، فَلَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، وَإِنَّ الْعِبَادَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، وَلَيْسَ إِلَيْهِمْ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْمُلْكِ وَلَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قُطْمِيرٍ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُكَبِّرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أَيْ: الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ، الْوَهَّابُ الَّذِي يُعْطِي مَا يُرِيدُ لِمَنْ يُرِيدُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ هُمْ تَوَسَّيْتُ مِنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ⑤﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ⑥ فَوَيْلٌ مَنَ ءَامَنَ بِهِمْ وَهُمْ مَنَ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ⑦ [النِّسَاء: ٥٣-٥٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

(١) الطبري: ١٥٢/٢١ (٢) الطبري: ١٤٩/٢١ ليست فيه علة دون عنعنة الأعمش وضعف إسناده الألباني انظر سنن الترمذي ط. مكتبة المعارف (٣) أحمد: ١/٣٦٢ والنسائي في الكبرى: ٤٤٢/٦ وتحفة الأحودي: ٩٩/٩ (٤) الطبري: ١٥٢/٢١ العوفي مع عائلته ضعفاء (٥) الطبري: ١٥٥/٢١ (٦) الطبري: ١٥٤/٢١

قَتَرُوا ﴿١٠٠﴾ [الإسراء: ١٠٠] وَذَلِكَ بَعْدَ الْحِكَايَةِ عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ  
أَتَكْرُوا بِعَقَّةِ الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ ﷺ، وَكَمَا أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ  
قَوْمٍ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالُوا: ﴿لَقَدْ لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ  
يَبِينًا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ ﴿١٠١﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآثِرِ ﴿١٠٢﴾  
[القمر: ٢٥، ٢٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَوْهُا  
فِي الْأَنْسَابِ﴾ أَي: إِنْ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلْيُضْعِدُوا فِي الْأَسْبَابِ.  
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ بْنُ جُبَيْرٍ  
وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ: يَعْني طُرُقَ السَّمَاءِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ رَحِمَهُ  
اللَّهُ تَعَالَى: فَلْيُضْعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِغَةِ <sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَاكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾  
أَي: هَؤُلَاءِ الْجُنْدُ الْمُكَذَّبُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ،  
سَيَهْرَمُونَ وَيَعْلَبُونَ وَيَكْتَبُونَ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ  
الْأَحْزَابِ الْمُكَذَّبِينَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿أَمْ  
يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ ﴿١٠٣﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿١٠٤﴾ كَانَ  
ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿١٠٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ ﴿١٠٦﴾  
[القمر: ٤٤-٤٦].

﴿كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ يَوْمَ تَوَجَّ وَعَادَ وَفَرَعُونَ ذُو الْأَوْدَادِ﴾ ﴿١٠٧﴾ وَتَمُودُ وَقَوْمُ  
لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٠٨﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ  
الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٠٩﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا  
مِنْ قُوَّةٍ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١١١﴾  
[التَّذْكِيرُ بِمَنْ أَهْلِكَ مِنَ الْأَقْوَامِ السَّائِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا حَلَّ  
بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالنَّقَمَاتِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ  
وَتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ  
فَصْلُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي أَمَاكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ  
الْأَحْزَابُ﴾ أَي: كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا  
وَأَوْلَادًا، فَمَا دَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا  
جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ  
الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ فَجَعَلَ عَلَيْهِ إِهْلَاكِهِمْ هُوَ تَكْذِيبُهُمْ  
بِالرُّسُلِ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْحَذَرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ  
قُوَّةٍ﴾ قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَي: لَيْسَ لَهَا مَثْنَوِيَّةٌ <sup>(٣)</sup>  
أَي: مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ  
أَسْرَاطُهَا، أَي: فَقَدْ افْتَرَبَتْ وَدَنَتْ وَأَرَفَتْ، وَهَذِهِ الصَّيْحَةُ  
هِيَ نَفْخَةُ الْفَرْعِ الَّتِي يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ أَنْ يُطَوِّلَهَا،

٤٥٤  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
أَصْرِعْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١﴾  
إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿٢﴾ وَالطَّيْرَ  
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٣﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ  
وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ﴿٤﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا  
الْمِحْرَابَ ﴿٥﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ  
خَصَمَانِ بَعْنَى بَعْضَانِ عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ  
وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٦﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِجْمَةً  
وَلِيَ نِجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ﴿٧﴾ قَالَ  
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ إِلَى تِعَاجِهِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ الْخُطَلَاءِ لَيَبْنِي  
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ  
مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ  
﴿٨﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَكَابٍ  
﴿٩﴾ يَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ  
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سَاوَأُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿١٠﴾

فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فَرَعَ، إِلَّا  
مَنْ اسْتَشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ  
الْحِسَابِ﴾ هَذَا إِنْتِكَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي  
دُعَائِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ، فَإِنَّ «الْقِطْنَ» هُوَ  
الْكِتَابُ. وَقِيلَ: هُوَ الْحِطُّ وَالتَّصِيبُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ:  
سَأَلُوا تَعْجِيلَ الْعَذَابِ <sup>(٤)</sup>. زَادَ قَتَادَةُ: كَمَا قَالُوا: ﴿اللَّهُمَّ  
إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِسَارَةً مِنَ  
السَّمَاءِ أَوْ أَتُونَا بِعَذَابِ الْبَرِّ﴾ [الأنفال: ٣٤] <sup>(٥)</sup> وَقِيلَ:  
سَأَلُوا تَعْجِيلَ نَصِيهِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً، لِيَلْقُوا  
ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا خَرَجَ هَذَا مِنْهُمْ مَخْرَجَ الْأَسْتِيعَادِ  
وَالْتَكْذِيبِ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: سَأَلُوا تَعْجِيلَ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ

(١) الطبري: ١٥٦/٢١ (٢) الطبري: ١٥٧/٢١ (٣) عبد  
الرزاق: ١٦١/٣ (٤) الطبري: ١٦٤/٢١ (٥) الدر المنثور: ٧/١٤٨  
الطبري: ١٦٤/٢١

فِيَا مُهَنْ وَرُكُوعُهُنَّ وَسُجُودُهُنَّ وَجُلُوسُهُنَّ سَوَاءً، قَرِيبٌ بَعْضُهُنَّ مِنْ بَعْضٍ، فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ يَقُولُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيَّنَّ اللَّوْحَيْنِ مَا عَرَفْتُ صَلَاةَ الضَّحَى إِلَّا الْآنَ: ﴿يُسَبِّحُنَّ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وَكُنْتُ أَقُولُ: أَيْنَ صَلَاةُ الْإِشْرَاقِ؟ وَكَانَ بَعْدُ يَقُولُ: صَلَاةُ الْإِشْرَاقِ<sup>(٧)</sup>.

وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ﴾ أَيُّ: مَحْبُوسَةٌ فِي الْهَوَاءِ ﴿كُلُّ لَهٍ أَوَّابٌ﴾ أَيُّ: مُطِيعٌ يُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَابْنِ زَيْدٍ: ﴿كُلُّ لَهٍ أَوَّابٌ﴾ أَيُّ: مُطِيعٌ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أَيُّ: جَعَلْنَا لَهُ مُلْكًا كَامِلًا مِنْ جَمِيعِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ، قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: كَانَ أَشَدَّ أَهْلَ الدُّنْيَا سُلْطَانًا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَايَنَهُ الْحَكَمَةُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْفَهْمَ وَالْعَقْلَ وَالْفِطْنَةَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كِتَابَ اللَّهِ وَاتِّبَاعَ مَا فِيهِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿الْحَكَمَةُ﴾ النُّبُوَّةُ<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾ قَالَ شُرَيْحُ الْقَاضِي وَالشَّعْبِيُّ: فَصَّلَ الْخُطَابَ: الشُّهُودَ وَالْأَيْمَانَ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: شَاهِدَانِ عَلَى الْمُدَّعِي، أَوْ يَمِينُ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، هُوَ فَصَّلَ الْخُطَابَ<sup>(١١)</sup> الَّذِي فَصَّلَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ، أَوْ قَالَ الْمُؤْمِنُونَ وَالصَّالِحُونَ، وَهُوَ قَضَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَكَذَا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: هُوَ إِصَابَةُ الْقَضَاءِ وَفَهْمُ ذَلِكَ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: هُوَ الْفَضْلُ فِي الْكَلَامِ وَفِي الْحُكْمِ. وَهَذَا يُشْمَلُ هَذَا كُلُّهُ، وَهُوَ الْمُرَادُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١٣)</sup>.

﴿وَهَلْ أُنْتَكَبُوا الْحَصَمَ إِذْ سَوَّرُوا الْحَرَابَ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا نَخَفُ حَصَمَانِ بَعْنٍ بَعْضًا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ إِنَّ هَذَا آخِي لَمْ يَسَّعْ وَسَعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٍ وَجِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ إِسْوَالُ نَجْمَتِكَ إِلَى نَجْمَتِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ

مِنَ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ فِي الدُّنْيَا<sup>(١٤)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَدِّ، وَعَلَيْهِ يَدُورُ كَلَامُ الضَّحَّاكِ وَإِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ<sup>(١٥)</sup>. وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِهْزَاءِ وَالِاسْتِعَاذِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ أَمْرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ، وَمُبَشِّرًا لَهُ عَلَى صَبْرِهِ بِالْعَاقِبَةِ وَالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ.

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْعُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَهٍ أَوَّابٌ﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَعَايَنَهُ الْحَكَمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾

### [ذِكْرُ دَاوُدَ]

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ ذَا أَيْدٍ، وَالْأَيْدُ: الْقُوَّةُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: الْأَيْدُ الْقُوَّةُ<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَيْدُ: الْقُوَّةُ فِي الطَّاعَةِ<sup>(١٧)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: أُعْطِيَ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُوَّةً فِي الْعِبَادَةِ وَفَقَهَا فِي الْإِسْلَامِ<sup>(١٨)</sup>. وَقَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَقُومُ ثَلَاثَ اللَّيْلِ، وَيَصُومُ يَصْفُ الدَّهْرَ. وَهَذَا ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَتَامُ يَصْفُ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَتَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى، وَأَنَّهُ كَانَ أَوَّابًا»<sup>(١٩)</sup> وَهُوَ الرَّجَاعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَشُؤُونِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أَيُّ أَنَّهُ تَعَالَى سَخَرْنَا الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ عِنْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ وَآخِرِ النَّهَارِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سَبَأَ: ١٠] وَكَذَلِكَ كَانَتِ الطَّيْرُ تُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ وَتُرْجَعُ بِتَرْجِيْعِهِ، إِذَا مَرَّ بِهِ الطَّيْرُ وَهُوَ سَابِحٌ فِي الْهَوَاءِ، فَسَمِعَهُ وَهُوَ يَتَرْتَمُ بِقِرَاءَةِ الرُّبُورِ، لَا يَسْتَطِيعُ الدَّهَابُ، بَلْ يَقِفُ فِي الْهَوَاءِ وَيُسَبِّحُ مَعَهُ، وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ الشَّامِخَاتُ تُرْجَعُ مَعَهُ وَتُسَبِّحُ تَبَعًا لَهُ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ تَوْفَلٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ لَا يُصَلِّي الضُّحَى، فَأَدَخَلْتُهُ عَلَى أُمِّ هَانِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقُلْتُ: أَخْبِرِي هَذَا مَا أَخْبَرْتَنِي بِهِ، فَقَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فِي بَيْتِي، ثُمَّ أَمَرَ بِمَاءٍ صُبَّ فِي قَضْعَةٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِقُبُوبٍ فَأَخَذَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَاعْتَسَلَ ثُمَّ رَشَّ نَاحِيَةَ الْبَيْتِ، فَصَلَّى ثَمَانِ رَكَعَاتٍ، وَذَلِكَ مِنَ الضُّحَى،

(١) الطبري: ١٦٥/٢١ (٢) الطبري: ١٩٥/٢١ (٣) الطبري:

١٦٧، ١٦٦/٢١ (٤) الطبري: ١٦٦/٢١ (٥) الطبري: ٢١/

١٦٧ (٦) فتح الباري: ٢٠/٣ ومسلم: ٨١٦/٢ (٧) الطبري:

١٦٩/٢١ إسناده الطبري ضعيف مداره على أيوب بن صفوان

البصري وهو مجهول وصلاة الإشراف ثابتة من الأحاديث

الصحيحة (٨) الطبري: ١٦٩/٢١ (٩) الطبري: ١٧١/٢١

(١٠) الطبري: ١٧٣/٢١ (١١) الطبري: ١٧٣/٢١ (١٢)

الطبري: ١٧٢/٢١ (١٣) الطبري: ١٧٣/٢١

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلُهُمْ أَفْتَدَى﴾ [الأنعام: ٩٠] فَكَانَ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمِنْ أَمْرِ نَبِيِّكُمْ ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ، فَسَجَدَهَا دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿ص﴾، فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ، وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ آخَرِ قَرَأَهَا، فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ تَشَرَّنَ النَّاسُ لِلْسُّجُودِ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةٌ نَبِيٍّ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَرَنْتُمْ» فَتَزَلَّ وَسَجَدَ<sup>(٦)</sup>. وَتَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحَيْنِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَفًا وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ﴾ أَي: وَإِنَّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَقُرْبَةً يَقْرُبُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا، وَحُسْنَ مَرْجِعٍ، وَهُوَ الدَّرَجَاتُ الْعَالِيَةُ فِي الْجَنَّةِ، لِتَوْبَتِهِ وَعَدْلِهِ التَّامِّ فِي مُلْكِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «الْمُسْطُوبُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يُقْسِطُونَ فِي أَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ»<sup>(٧)</sup>.

﴿يَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ لَئِذَا خَلَا بِالنَّاسِ يَلْحَقُوا تَتَّبِعَ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

### [الْوَصِيَّةُ لِلْحُكَّامِ وَالسَّلَاطِينِ]

هَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرُؤُلَاةِ الْأُمُورِ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ الْمُتَزَلِّ مِنْ عِنْدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يَغْدِلُوا عَنْهُ فَيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ تَوَعَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَتَنَاسَى يَوْمَ الْحِسَابِ، بِالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَبِي زُرْعَةَ - وَكَانَ قَدْ قَرَأَ الْكِتَابَ - أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ لَهُ: أَيُّحَاسَبُ الْخَلِيفَةُ، فَإِنَّكَ قَدْ قَرَأْتَ الْكِتَابَ الْأَوَّلَ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَفَقِهْتَ؟ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ فِي أَمَانِ اللَّهِ، قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ أَوْ دَاوُدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمَعَ لَهُ النَّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ

الْخُلَطَاءُ لِيُنِّي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَفًا وَحُسْنَ

### مَنَابِ

### [قِصَّةُ الْخُضَمَيْنِ]

قَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَا هُنَا قِصَّةَ أَكْثَرِهَا مَاخُودٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِيهَا عَنِ الْمُعْصُومِ حَدِيثٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، وَلَكِنْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ حَدِيثًا لَا يَصِحُّ سَنَدُهُ لِأَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَيَزِيدُ وَإِنْ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ - لَكِنَّهُ ضَعِيفُ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْأَيْمَةِ، فَأَلْوَلَى أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَى مُجَرَّدِ ثَلَاثَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَأَنْ يَرُدَّ عِلْمُهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ - وَمَا تَضَمَّنَ فَهُوَ حَقٌّ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَزَعْنَاهُ مِنْهُمْ﴾ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ كَانَ فِي مَحَرَابِهِ وَهُوَ أَشْرَفُ مَكَانٍ فِي دَارِهِ، وَكَانَ قَدْ أَمَرَ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا بِشَخْصَيْنِ قَدْ تَسَوَّرَا عَلَيْهِ الْمَحَرَابَ، أَيِ اخْتِطَاطًا بِهِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنَيْهِمَا وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْخُطَابِ﴾ أَي: غَلَّبَنِي. يُقَالُ: عَزَّ يَعْزُزُ إِذَا فَهَرَ وَغَلَبَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَي: اخْتَبَرْنَاهُ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أَي: سَاجِدًا ﴿وَأَنَابَ﴾. ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أَي: مَا كَانَ مِنْهُ مِمَّا يُقَالُ فِيهِ: إِنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَبَبَاتُ الْمُفْرَبِينَ.

### [سَجْدَةُ ص]

سَجْدَةُ ﴿ص﴾ لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، بَلْ هِيَ سَجْدَةُ شُكْرِ، وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: السَّجْدَةُ فِي ﴿ص﴾ لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْجُدُ فِيهَا<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى النَّسَائِيُّ أَيْضًا عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ آيَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ فِي ﴿ص﴾ وَقَالَ: «سَجَدَهَا دَاوُدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَوْبَةً، وَنَسَجَدُهَا شُكْرًا» تَفَرَّدَ بِرِوَايَتِهِ النَّسَائِيُّ<sup>(٤)</sup>. وَرَجَالَ إِسْنَادِهِ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا أَيْضًا عَنْ الْعَوَّامِ قَالَ: سَأَلْتُ مُجَاهِدًا عَنْ سَجْدَةِ ﴿ص﴾ فَقَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مِنْ أَيْنَ سَجَدْتَ؟ فَقَالَ: أَوْ مَا تَقْرَأُ:

(١) الطبري: ١٨١/٢١ (٢) أحمد: ٣٥٩/١ (٣) فتح الباري: ٦٤٣/٢ وأبو داود: ١٢٣/٢ وتحفة الأحوذى: ١٧٦/٣ والنسائي في الكبرى: ٣٤٢/٦ (٤) النسائي: ١٥٩/٢ (٥) فتح الباري: ٨/٤٠٥ (٦) أبو داود: ١٤١٠ (٧) مسلم: ١٤٥٨/٣

سورة ص

٤٥٥

سورة ص

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ  
﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَرْزُلُهُ إِلَيْكَ مَبْرُكٌ لِيَذْبُغَ عَنْكَ إِلَهَهُ وَلِيَسْتَذْكُرَ أُولُو  
الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ  
﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّفِيْنَتُ الْجَيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي  
أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾  
رُدُّوهُا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا  
سُلَيْمَانَ وَالْأَمِينَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ  
لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِبْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾  
فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِ وَرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَأَنبَأَ الْوَهَّابِ ﴿٣٦﴾  
كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِ ﴿٣٧﴾ وَءَاخِرِينَ مَقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا  
عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزَقْفٌ وَحُسْنٌ  
مُنَاقِبٍ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا الْوَبَّ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ  
يُصِيبُ وَعْدًا ﴿٤١﴾ أَرْكُضُ بِرَجُلِكَ هَذَا مُعَسِّلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

يَالْعِشِيِّ الصَّفِيْنَتُ الْجَيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ  
رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهُا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ  
وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

[ذِكْرُ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ وَهَبَ لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ - أَيَّ نَبِيٍّ،  
كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أَيُّ: فِي النُّبُوَّةِ -  
وَالْأَقْدَقُ كَانَ لَهُ بَنُونَ غَيْرُهُ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ عِنْدَهُ مِائَةُ أَمْرَأَةٍ  
حَرَائِرُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثَنَاءٌ عَلَى  
سُلَيْمَانَ بِأَنَّهُ كَثِيرُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّفِيْنَتُ الْجَيَادُ﴾ أَيُّ:  
إِذْ عَرَضَ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَالِ مُمْلَكِيَّةِ  
وَسُلْطَانِيَّةِ، الْخَيْلِ الصَّافِنَاتِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهِيَ الَّتِي تَقِفُ  
عَلَى ثَلَاثٍ وَطَرَفِ حَافِرِ الرَّابِعَةِ، وَالْجَيَادُ: السَّرَاعُ ﴿٣٣﴾.

تَعَالَى: ﴿يَذْكُرُوا أَنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ  
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ... الْآيَةُ.

وَقَالَ عِكْرَمَةُ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾  
هَذَا مِنَ الْمَقْدَمِ وَالْمَوْخَرِ: لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ  
بِمَا نَسُوا <sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا تَرَكُوا  
أَنْ يَعْمَلُوا لِيَوْمِ الْحِسَابِ <sup>(٢)</sup>.  
وَهَذَا الْقَوْلُ أَمْشَى عَلَى ظَاهِرِ الْآيَةِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ  
وَتَعَالَى الْمُؤَفِّقُ لِلصَّوَابِ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَرْزُلُهُ  
إِلَيْكَ مَبْرُكٌ لِيَذْبُغَ عَنْكَ إِلَهَهُ وَلِيَسْتَذْكُرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

[الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الدُّنْيَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا خَلَقَ الْخَلْقَ عَتَا، وَإِنَّمَا خَلَقَهُمْ  
لِيَعْبُدُوهُ وَيُوحِّدُوهُ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ فَيُنِيبُ الْمُطِيعَ  
وَيُعَذِّبُ الْكَافِرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ  
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ: الَّذِينَ لَا  
يَرَوْنَ بَعَثًا وَلَا مَعَادًا، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ هَذِهِ الدَّارَ فَقَطْ ﴿فَوَيْلٌ  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أَيُّ: وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنُشُورِهِمْ  
مِنَ النَّارِ الْمُعَذِّبَةِ لَهُمْ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَذْلِهِ  
وَجُحْمِيَّةٍ لَا يَسَاوِي بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ  
يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أَيُّ: لَا نَفْعُ ذَلِكَ، وَلَا يَسْتَوُونَ  
عِنْدَ اللَّهِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى يَثَابُ  
فِيهَا هَذَا الْمُطِيعُ وَيُعَاقَبُ فِيهَا هَذَا الْفَاجِرُ، وَهَذَا الْإِرْشَادُ  
يَدُلُّ عَلَى الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْفِطْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ  
مِنْ مَعَادٍ وَجَزَاءٍ، فَإِنَّا نَرَى الظَّالِمَ الْبَاطِلَ يُزَادُ مَا لَهُ وَوَلَدُهُ  
وَنَعِيمُهُ وَيَمُوتُ كَذَلِكَ، وَنَرَى الْمُطِيعَ الْمَظْلُومَ يَمُوتُ  
بِكَمِّهِ، فَلَا بُدَّ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْعَادِلِ الَّذِي لَا  
يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، مِنْ إِنْصَافٍ هَذَا مِنْ هَذَا، وَإِذَا لَمْ يَقَعْ  
هَذَا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَتَعَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَى لِهَذَا الْجَزَاءِ  
وَالْمُوَاسَاةِ. وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ يُرْشِدُ إِلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ  
وَالْمَأْخِذِ الْعُقُولِيَّةِ الصَّرِيحَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ أَرْزُلُهُ إِلَيْكَ  
مَبْرُكٌ لِيَذْبُغَ عَنْكَ إِلَهَهُ وَلِيَسْتَذْكُرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيُّ: ذَوُو الْعُقُولِ،  
وَهِيَ الْأَلْبَابُ جَمْعُ لُبٍّ، وَهُوَ الْعَقْلُ.

﴿وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٢٩﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ

(١) الطبري: ١٨٩/٢١ (٢) الطبري: ١٨٩/٢١ (٣) الطبري:

١٩٣، ١٩٢/٢١

تَعَالَى بِسَبَبِ أَنَّهُ اشْتَغَلَ بِهَا حَتَّى خَرَجَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، وَلِهَذَا خَرَجَ عَنْهَا اللَّهُ تَعَالَى عَوَضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا، وَهُوَ الرِّيحُ النَّبِيَّ ﴿يَجْرِي بِأَمْرِهِ رِيحًا حَيْثُ أَصَابَ﴾: غَدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ، فَهَذَا أَسْرَعُ وَخَيْرٌ مِنَ الْخَيْلِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ وَأَبِي الدَّهْمَاءِ - وَكَانَا يُكْثِرَانِ السَّفَرَ نَحْوَ الْبَيْتِ - قَالَا: أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ لَنَا الْبُدِيُّ: أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَ: «إِنَّكَ لَا تَدَعُ شَيْئًا اتَّقَاءَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَعْطَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهُ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (٢٦) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢٧﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِيحًا حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٨﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاسٍ ﴿٢٩﴾ وَالْخَرِيزَ مَقْرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٠﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣١﴾ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفًا وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٣٢﴾

### [إِبْلَاءُ سُلَيْمَانَ ثُمَّ التَّقْضِيلُ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ أَي: اخْتَبَرْنَاهُ﴾ ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ (\*) ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أَي: بَعْدَ هَذَا الْإِخْتِبَارِ أَنَابَ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَدَعَا وَطَلَبَ مِنْهُ الْمَغْفِرَةَ، وَطَلَبَ حُكْمًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ بَعْدَهُ. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، أَي: إِنَّهُ سَأَلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُلْكًا لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلُهُ، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ، وَبِذَلِكَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنْ طَرَفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عَفْرِيًّا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمَكَّنَنِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا، وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ

وَكَذًا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ - أَوْ خَيْبَرَ - وَفِي سَهْوَتِهَا سِتْرٌ، فَهَبَّتِ الرِّيحُ، فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ، عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَعِبَ. فَقَالَ ﷺ: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟» قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بَنَاتِي. وَرَأَى بَنَتَهُنَّ فَرَسًا لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِفَاعٍ، فَقَالَ ﷺ: «مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ؟» قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَرَسٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟» قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: جَنَاحَانِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟» قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَمَّا سَمِعْتَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَتْ لَهُ خَيْلٌ لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَصَحَّحْتُ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ اشْتَغَلَ بِعَرْضِهَا حَتَّى فَاتَ وَقْتُ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَالَّذِي يُقْطَعُ بِهِ أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْهَا عَمْدًا بَلْ نِسْيَانًا، كَمَا شَغَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى صَلَّاهَا بَعْدَ الْغُرُوبِ، وَذَلِكَ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، مِنْ ذَلِكَ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا كِدْتُ أَصْلِي الْعَصْرَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا» فَقَالَ: فَتَمَنَّا إِلَى بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ لِلصَّلَاةِ، وَتَوَضَّأْنَا لَهَا، فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ<sup>(٢)</sup>. ﴿رَدُّهَا عَلَى فَطْفِقٍ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَغْنَقِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: قَالَ: لَا، وَاللَّهُ لَا تَشْغَلِينِي عَنْ عِبَادَةِ رَبِّي آخِرَ مَا عَلَيْكَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَعَفِّرَتْ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ضَرَبَ أَغْنَاقَهَا وَعَرَاقِيهَا بِالسُّبُوفِ<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: جَعَلَ يَمَسُّحُ أَغْزَافَ الْخَيْلِ وَعَرَاقِيهَا حُبًّا لَهَا<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ: لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُعَذِّبْ حَيَوَانًا بِالْعُرْقَبَةِ، وَهَؤُلَاءِ مَالًا مِنْ مَالِهِ بَلَا سَبَبٍ سِوَى أَنَّهُ اشْتَغَلَ عَنْ صَلَاتِهِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا، وَلَا ذَنْبَ لَهَا<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا الَّذِي رَجَّحَ بِهِ ابْنُ جَرِيرٍ، فِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي شَرْعِهِمْ جَوَازٌ وَمِثْلُ هَذَا، وَلَا سِيَّمًا إِذَا كَانَ غَضَبًا لِلَّهِ

(١) أبو داود: ٢٢٧/٥ (٢) فتح الباري: ٨٢/٢ ومسلم: ١/٤٣٨

(٣) الطبري: ١٩٥/٢١ (٤) الطبري: ١٩٥/٢١ (٥) الطبري: ١٩٦/٢١

(٦) الطبري: ١٩٦/٢١ (٧) أحمد: ٥/٧٨

(\*) لَمْ يَبَيِّنِ اللَّهُ تَعَالَى حَقِيقَةَ هَذَا الْجَسَدِ الَّذِي أَلْقَاهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ، فَتَحَنَّنْ نُوْمِنُ أَنَّ اللَّهَ اخْتَبَرَهُ بِإِلْقَاءِ الْجَسَدِ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَلَا نَعْرِفُ مَا هُوَ؟ وَكُلُّ مَا قِيلَ حَوْلَهُ، فَهُوَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، لَا نَعْرِفُ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



بَعْدَمَا اسْتَشَارَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ: تَوَاضِعْ، فَاخْتَارَ الْمُنْزِلَةَ الْأُولَى لِأَنَّهَا أَرْفَعُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَعْلَى مَنْزِلَةً فِي الْمَعَادِ، وَإِنْ كَانَتِ الْمُنْزِلَةُ الثَّانِيَّةُ، وَهِيَ النُّبُوَّةُ مَعَ الْمُلْكِ، عَظِيمَةً أَيْضًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الدُّنْيَا، بَيَّنَّ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ ذُو حِطِّ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْضًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَکُفْرًا وَحُكْمًا مَبَک﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (١) اذْكُرْ بِرَحْمَتِكَ هَذَا مُسْتَسْلِمٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٢) وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمَنْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْأُولَى الْأَلْبَنِي (٣) وَخَذَ بِيَدِكَ صِفْعَةً فَأَصْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنَتُ إِلَّا وَوَعَدْتَهُ صَابِرًا يَعْمُ الْفَسَدَ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤)

### [اذْكُرْ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ]

يَذْكُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ وَرَسُولُهُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَا كَانَ ابْتِلَاءُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الضَّرِّ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي جَسَدِهِ مَعْرُورٌ إِلَّا بَرَّةٌ سَلِيمًا سِوَى قَلْبِهِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مَرَضِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ، غَيْرَ أَنَّ زَوْجَتَهُ حَفِظَتْ وَدَّةً لِيِيمَانِهَا بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، فَكَانَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ بِالْأَجْرَةِ وَتُطْعِمُهُ وَتَخْدُمُهُ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي مَالٍ جَزِيلٍ وَأَوْلَادٍ وَسَعَةٍ طَائِلَةٍ فِي الدُّنْيَا، فَسَلَبَ جَمِيعَ ذَلِكَ، حَتَّى آَلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ أُلْقِيَ عَلَى مَرْبَلَةٍ مِنْ مَرَابِلِ الْبَلَدَةِ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا، وَرَفَضَهُ الْقُرْبُ وَالْبَعِيدُ، سِوَى زَوْجَتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ لَا تَفَارِقُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَّا بِسَبَبِ خِدْمَةِ النَّاسِ، ثُمَّ تَعَوَّدَ إِلَيْهِ قَرِيبًا، فَلَمَّا طَالَ الْمُطَالُ، وَاشْتَدَّ الْحَالُ، وَانْتَهَى الْقُدْرُ، وَتَمَّ الْأَجَلُ الْمُقَدَّرُ، تَضَرَّعَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ وَإِلَى الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣) وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَالَ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قِيلَ: يُنْصَبُ فِي بَدَنِي، وَعَذَابٌ فِي مَالِي وَوَلَدِي، فَعِنْدَ ذَلِكَ اشْتَجَابَ لَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقَامِهِ وَأَنْ يَرْكُضَ الْأَرْضَ بِرَجْلِهِ، فَفَعَلَ فَاتَّبَعَ اللَّهُ تَعَالَى عَيْنًا، وَأَمْرُهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهَا فَأَذْهَبَتْ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي بَدَنِهِ

أَفْقَرَ لِي وَهَبَ لِي مُلْكًا لَا يَلْبِغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ قَالَ رَوْحٌ: فَرَدَّهُ خَاسِيًا (١). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (٢). وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ - ثُمَّ قَالَ: - أَلْعَنَكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ» ثَلَاثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ قَالَ ﷺ: «إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنَكَ بِلَعْنَةِ اللَّهِ الثَّامَةَ، فَلَمْ يَتَأَخَّرْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَخْذَهُ، وَاللَّهِ لَوْ لَا دَعْوَةُ أَحْيَنَّا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوتَفًا، يَلْعَبُ بِهِ صَبِيَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» (٣).

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُكْبَةً حَيْثُ أَصَابَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ. لَمَّا عَقَرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْخَيْلَ غَضَبًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَوَّضَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَأَسْرَعُ، الرِّيحَ الَّتِي عُذُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ (٤).

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أَيُّ: حَيْثُ أَرَادَ مِنْ الْبِلَادِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ أَيُّ: مِنْهُمْ مَا هُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْأَبْنِيَةِ الْهَائِلَةِ، مِنْ: مُحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ - إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ. وَطَائِفَةٌ غَوَاصُونَ فِي الْبَحَارِ، يَسْتَخْرِجُونَ مَا فِيهَا مِنَ اللَّالِئِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَشْيَاءِ الثَّمِينَةِ الَّتِي لَا تَوْجَدُ إِلَّا فِيهَا (وَبِأَخْرَجَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) أَيُّ: مُؤْتَوْفُونَ فِي الْأَغْلَالِ وَالْأَكْبَالِ، مِمَّنْ قَدْ تَمَرَّدَ وَعَصَى، وَامْتَنَعَ مِنَ الْعَمَلِ وَأَبَى، أَوْ قَدْ أَسَاءَ فِي صَنِيعِهِ وَاعْتَدَى.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي أُعْطَيْنَاكَ مِنَ الْمُلْكِ الثَّامِ وَالسُّلْطَانِ الْكَامِلِ كَمَا سَأَلْتُنَا: فَأَعْطِ مَنْ شِئْتَ وَاحْرُمْ مَنْ شِئْتَ، لَا حِسَابَ عَلَيْكَ، أَيُّ: مَهْمَا فَعَلْتَ فَهُوَ جَائِزٌ لَكَ، أَحْكَمُ بِمَا شِئْتَ فَهُوَ صَوَابٌ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خِيرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا - وَهُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ قَاسِمٌ يَقْسِمُ بَيْنَ النَّاسِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ - وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مُلْكًا يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ بِلَا حِسَابٍ وَلَا جُنَاحِ: اخْتَارَ الْمُنْزِلَةَ الْأُولَى

(١) فتح الباري: ١/٦٦٠ (٢) مسلم: ١/٣٨٤ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٤٣ (٣) مسلم: ١/٣٨٥ (٤) الطبري: ٢١/٢٠١

الْمَاءِ الْيَسِيرِ

٤٥٦

سُورَةُ ص

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤١﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٢﴾ وَادْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٤﴾ وَإِلَيْهِمْ عِندَنَا لُحْنُ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٥﴾ وَادْكُرْ إسماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٦﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِن لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَتَابٍ ﴿٤٧﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّنْفُتْحَةٍ لَّهُمُ الْأُبُوبُ ﴿٤٨﴾ مُتَكِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَكَهْتَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٤٩﴾ وَعِندَهُمْ قُضِرَتْ الْأَرْبَابُ ﴿٥٠﴾ هَذَا مَا تَدْعُونَ لِيَوْمٍ هَاسِبٍ ﴿٥١﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٢﴾ هَذَا وَإِلَى الطَّغْيَانِ لَشَرِّ مَتَابٍ ﴿٥٣﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنسِفُ الْهَادُ ﴿٥٤﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٥﴾ وَآخِرُ مَنْ شَكَّلَهُ أَزْوَاجٌ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَوْحٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ إِلَيْهِمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٧﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَأْفِسَنَّ الْقُرْأُ ﴿٥٨﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٥٩﴾

تَعَالَى لَهُ بِأَعْيَانِهِمْ، وَزَادَهُمْ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أَيُّ: بِهِ عَلَى صَبْرِهِ وَتَبَاتِيهِ وَإِنَابَتِهِ وَتَوَاضُعِهِ وَاسْتِكَانَتِهِ وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ أَيُّ: لِدَوَى الْعُقُولِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ الْفَرْجُ وَالْمَخْرَجُ وَالرَّاحَةُ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قَدْ غَضِبَ عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَجَدَ عَلَيْهَا فِي أَمْرِ فَعَلْتُهُ، وَخَلَفَ إِنْ شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لَيَضْرِبَتْهَا مِائَةً جَلْدَةً، فَلَمَّا شَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَافَاهُ مَا كَانَ جَزَاؤُهَا مَعَ هَذِهِ الْخِدْمَةِ النَّاتِمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ أَنْ تُقَابَلَ بِالضَّرْبِ، فَأَفْتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَأْخُذَ ضِغْثًا وَهُوَ الشُّمْرَاخُ فِيهِ مِائَةُ قَضِيبٍ، فَيَضْرِبُهَا بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، وَقَدْ بَرَّتْ يَمِينُهُ، وَخَرَجَ مِنْ جَنَّتِهِ، وَوَقَى بِنَذْرِهِ، وَهَذَا مِنَ الْفَرْجِ وَالْمَخْرَجِ لِمَنْ اتَّقَى

مِنَ الْأَذَى، ثُمَّ أَمَرَهُ فَضَرَبَ الْأَرْضَ فِي مَكَانٍ آخَرَ فَأَنْبَعَ لَهُ عَيْنًا أُخْرَى وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهَا فَأَذْهَبَتْ جَمِيعَ مَا كَانَ فِي بَاطِنِهِ مِنَ السُّوءِ، وَتَكَامَلَتِ الْعَاقِبَةُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَنِيمٍ جَمِيعًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْتَ بِهِ بَلَاءُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ كَانَا مِنْ أَخْصَى إِخْوَانِهِ بِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيُروْحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرَحِمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَضِيرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَا أَذْهَبُ مَا تَقُولُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرًا عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ تَعَالَى، فَأَرْجِعْ إِلَى بَيْتِي فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً أَنْ يَذْكُرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا فِي حَقٍّ، قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَاهَا أَسْكَنَتْ أَمْرَهُ يَدِيهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ يَوْمٌ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ «اَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» فَاسْتَبَاطَتْهُ [فَنَلَقَتْهُ] تَنْظُرُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَهُوَ عَلَى أَحْسَنِ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: أَيُّ تَبَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا الْمُتَبَلَّى، فَوَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَنْدَرَانِ: أَنْدَرٌ لِلْقَمَحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى سَحَابَتَيْنِ فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمَحِ، أَفْرَعَتْ فِيهِ الدَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَعَتْ الْأُخْرَى فِي أَنْدَرِ الشَّعِيرِ حَتَّى فَاضٌ هَذَا لَفْظُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ غُرْبَانَا خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخْتُو فِي نَوْبِهِ، فَكَادَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا أَيُّوبُ! أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيَنَّكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: بَلَى يَا رَبَّ! وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ». انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَحْيَاهُمُ اللَّهُ

(١) الطبري: ٢١١/٢١ (٢) البخاري: ٢٧٩، ٣٣٩١، ٧٤٩٣

(٣) الطبري: ٢١٢/٢١

الطَّرْفِ أَرْبَابٌ ﴿٥٧﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٩﴾

### [بَيَانُ مَابِ السُّعْدَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ السُّعْدَاءِ أَنَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لِحْسَنَ مَآبٍ، وَهُوَ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ. ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَسَنَ عَدْنٍ﴾ أَي: جَنَّتْ إِقَامَةٌ مُنْتَمِعَةٌ لَّهُمُ الْآلُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ هَهُنَا بِمَعْنَى الْإِضَافَةِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مُنْتَمِعَةٌ لَهُمْ أَبَوَاهُ، أَي: إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ لَهُمْ أَبَوَاهُ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مُكِّنِينَ فِيهَا﴾ قِيلَ: مُتَرَبِّعِينَ عَلَى سُرُرٍ تَحْتَ الْحِجَابِ ﴿يَعْمُونَ فِيهَا بِفِكَهَمٍ كَثِيرَةٍ﴾ أَي: مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، وَأَخْصَرَ كَمَا أَرَادُوا ﴿وَسَرَّابٍ﴾ أَي: مِنْ أَيْ أَنْوَاعِهِ شَاؤُوا أَتَتْهُمْ بِهِ الْخُدَامُ ﴿يَأْكُوبُ وَآبَارِقُ وَكُلٌّ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨] ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ طَّرْفٍ﴾ أَي: عَنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِمْ فَلَا يَلْتَقِشْنَ إِلَى غَيْرِ بُعُولَتِهِنَّ ﴿أَرْبَابٌ﴾ أَي: مُتَسَاوِيَاتٍ فِي السَّنِّ وَالْعُمُرِ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَالسُّدِّيُّ <sup>(٦)</sup>. ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ صِفَةِ الْجَنَّةِ، هِيَ الَّتِي وَعَدَهَا لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ، الَّتِي يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ نُشُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ مِنَ النَّارِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ الْجَنَّةِ أَنَّهُ لَا فَرَاغَ لَهَا وَلَا زَوَالٍ وَلَا انْقِضَاءَ وَلَا انْتِهَاءَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَا: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مُجْدُوفٍ﴾ [هود: ١٠٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أَي: غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٢٥] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا.

﴿هَذَا وَارِثُ الطَّالِقِينَ لَشَرِّ مَنَآبٍ﴾ جَهَنَّمَ يَسْلُوكَهَا فَيَسُ الْهَذَا ﴿٥٨﴾ هَذَا فَلْيَدْرُؤُوهُ جَمِيعًا وَنَسَاقًا ﴿٥٩﴾ وَاعْتَرَفَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُتَفَحِّمٌ مَعَكُمْ لَا مَرَحًا يَوْمَ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرَحًا يَكُورُ أَنتُمْ قَدْ مَسَّمُوهُ لَنَا فَيَسُ الْفَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ

(١) الطبري: ٢١٥/٢١ (٢) الطبري: ٢١٨/٢١ (٣) الطبري:

٢١٨/٢١ (٤) الطبري: ٢١٧/٢١ (٥) الطبري: ٢٢٠/٢١

(٦) الطبري: ٢٢٣/٢١

اللَّهُ تَعَالَى وَأَتَابَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أَتَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَمَدَحَهُ بِأَنَّهُ ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أَي: رَجَاعٌ مُنِيبٌ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وَبِرِزْقِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [الطلاق: ٢، ٣].

﴿وَذَكَرَ عِندَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٦١﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٦٢﴾ وَذَكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٦٣﴾ هَذَا ذَكَرَ

### [ذِكْرُ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فَصَائِلِ عِبَادِهِ الْمُرْسَلِينَ وَأَنْبِيَائِهِ الْعَابِدِينَ: ﴿وَذَكَرَ عِندَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يَعْني بِذَلِكَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْعِلْمَ النَّافِعَ وَالْقُوَّةَ فِي الْعِبَادَةِ وَالْبَصِيرَةَ النَّافِذَةَ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ يَقُولُ: أُولَى الْقُوَّةِ وَالْعِبَادَةِ ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يَقُولُ: الْفِقْهُ فِي الدِّينِ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أَعْطُوا قُوَّةَ فِي الْعِبَادَةِ وَبَصَرًا فِي الدِّينِ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَي: جَعَلْنَاهُمْ يَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ غَيْرُهَا <sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ: ذَكَرَهُمْ لِلْآخِرَةِ وَعَمَلُهُمْ لَهَا <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: نَزَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الدُّنْيَا وَذَكَرَهَا، وَأَخْلَصَهُمْ بِحُبِّ الْآخِرَةِ وَذَكَرَهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا يَذْكُرُونَ النَّاسَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَالْعَمَلَ لَهَا <sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أَي: لَمِنَ الْمُخْتَارِينَ الْمُجْتَنِبِينَ الْأَخْيَارِ، فَهَمَّ أَحْيَارٌ مُخْتَارُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذَكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قِصَصِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ مُسْتَقْصَاةً فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا ذَكَرَ﴾ أَي: هَذَا فَضَّلَ فِيهِ ذِكْرُ لِمَنْ يَذْكُرُ. قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْني الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ <sup>(٥)</sup>.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَنَآبٍ﴾ جَنَّتْ عَدْنٌ مُنْتَمِعَةٌ لَّهُمُ الْآزَبُ ﴿٥٩﴾ مُكِّنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَمٍ كَثِيرَةٍ وَسَرَّابٍ ﴿٥٩﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ

لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا  
كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ  
الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾  
[بَيَانُ مَالِ الْأَشْقِيَاءِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَالَ السَّعْدَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ حَالِ  
الْأَشْقِيَاءِ وَمَرَّجَعِهِمْ وَمَا بِهِمْ فِي دَارِ مَعَادِهِمْ وَحَسَابِهِمْ فَقَالَ  
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا وَابْتَ لِلظَّالِمِينَ﴾ وَهُمْ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ  
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الْمُخَالِفُونَ لِرُسُلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ  
﴿لَشَرِّ مَتَابٍ﴾ أَيُّ: لِسُوءِ مُتَقَلِّبٍ وَمُرْجِعٍ. ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ  
جَلَّ وَعَلَا: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أَيُّ: يَدْخُلُونَهَا فَتَعْمُرُهَا مِنْ  
جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ ﴿فَيَسَّ الْهَادِ﴾ هَذَا فَلْيَدْرِوْهُ حَيْثُ وَعَسَاقُ  
أَمَّا الْحَمِيمُ فَهُوَ الْحَارُّ الَّذِي قَدْ انْتَهَى حَرُّهُ، وَأَمَّا الْعَسَاقُ  
فَهُوَ صِدْهُ وَهُوَ الْبَارِدُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهِ  
الْمَوْلِمُ.

وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أَيُّ:  
وَأَشْيَاءٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ: الشَّيْءُ وَصِدْهُ يُعَاقِبُونَ بِهَا. وَقَالَ  
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾  
الْأَوَانُ مِنَ الْعَذَابِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: كَالزَّمْهَرِيرِ وَالسَّمُومِ،  
وَشَرْبِ الْحَمِيمِ وَأَكْلِ الزُّقُومِ، وَالصُّعُودِ وَالْهَوِيِّ، إِلَى غَيْرِ  
ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمُتَضَادَّةِ، وَالْجَمِيعِ مِمَّا  
يُعَذِّبُونَ بِهِ، وَيُهَانُونَ بِسَبَبِهِ.

### [تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُتَقَبِّحٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ  
إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ قَبْلِ أَهْلِ  
النَّارِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ  
لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، يَعْنِي بَدَلَ السَّلَامِ يَتَلَاعَنُونَ  
وَيَتَكَادِبُونَ وَيَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَتَقُولُ الطَّائِفَةُ الَّتِي  
تَدْخُلُ قَبْلَ الْأُخْرَى إِذَا أَقْبَلَتْ الَّتِي بَعْدَهَا مَعَ الْخَزَنَةِ مِنْ  
الرَّبَّانِيَّةِ: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُتَقَبِّحٌ﴾ أَيُّ: دَاخِلٌ ﴿مَعَكُمْ لَا مَرْجَا  
بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أَيُّ: لَا تُنْهَمُ مِنْ أَهْلِ جَهَنَّمَ ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ  
لَا مَرْجَا بِكُمْ﴾ أَيُّ: يَقُولُ لَهُمُ الدَّاخِلُونَ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا  
بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا﴾ أَيُّ: أَنْتُمْ دَعَوْتُمُونَا إِلَى مَا أَفْضَى بِنَا  
إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ ﴿فَيَسَّ الْفَرَارُ﴾ أَيُّ: فَيَسَّ الْمَنْزِلُ  
وَالْمُسْتَقَرُّ وَالْمَصِيرُ ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا  
فِي النَّارِ﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُ لِأَوْلَانِهِمْ رَبَّنَا  
هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا فَخَانَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ  
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمَ أَهْلِ  
النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾  
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَنُوعًا  
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى  
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ  
لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ  
 مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ  
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ  
يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ  
 مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ  
 ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ  
الَّذِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ  
الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ  
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا إِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٣﴾

لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أَيُّ: لِكُلِّ مِنْكُمْ عَذَابٌ بِحَسَبِهِ  
﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ أَخَذْنَاهُمْ  
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ الْكُفَّارِ فِي  
النَّارِ، أَنَّهُمْ يَفْقِدُونَ رِجَالًا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى  
الضَّلَالَةِ - وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ فِي زَعْمِهِمْ - قَالُوا: مَا لَنَا لَا  
نَرَاهُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا قَوْلُ أَبِي جَهْلٍ  
يَقُولُ: مَا لِي لَا أَرَىٰ بِلَالًا وَعَمَارًا وَصَهْبِيًّا، وَقُلَانَا  
وَقُلَانَا<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا ضَرْبُ مَثَلٍ، وَإِلَّا فَكُلُّ الْكُفَّارِ هَذَا  
حَالُهُمْ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ، فَلَمَّا دَخَلَ  
الْكُفَّارُ النَّارَ افْتَقَدُوهُمْ فَلَمْ يَجِدُوهُمْ، فَقَالُوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ  
رِجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ أَخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَيُّ: فِي الدَّارِ  
الدُّنْيَا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ يُسَلِّتُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُحَالِ،  
يَقُولُونَ: أَوْ لَعَلَّهُمْ مَعَنَا فِي جَهَنَّمَ، وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَ بَصَرُنَا  
عَلَيْهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ،

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقْوَلُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ  
مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ  
﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ  
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا  
لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ  
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ  
فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ  
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا  
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾  
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ  
وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ  
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

[قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]

هَذِهِ الْقِصَّةُ ذَكَرَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ،  
وَفِي أَوَّلِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَفِي سُورَةِ الْحَجْرِ، وَسُبْحَانَ،  
الْكَهْفِ وَهَؤُنَا، وَهِيَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ  
الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ  
بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ، وَتَقْدَمُ إِلَيْهِمْ بِالْأَمْرِ  
مَتَى فَرَعَ مِنْ خَلْقِهِ وَتَسْوِيَّتِهِ فَلْيَسْجُدُوا لَهُ - إِكْرَامًا وَإِعْظَامًا  
وَاخْتِيَارًا وَامْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ -، فَامْتَثَلَ الْمَلَائِكَةُ  
كُلُّهُمْ ذَلِكَ سِوَى إِبْلِيسَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ جِنْسًا. كَانَ مِنْ  
الْجِنِّ فَخَانَهُ طَبْعُهُ وَجِلَّتْهُ أَحْوَاجُ مَا كَانَ إِلَيْهِ، فَاسْتَنَكَفَ  
عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ وَخَاصَمَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، وَادَّعَى أَنَّهُ  
خَيْرٌ مِنْ آدَمَ، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ طِينٍ،  
وَالثَّأْرُ خَيْرٌ مِنَ الطَّيْنِ - فِي رَعْمِهِ، وَقَدْ أَخْطَأَ فِي ذَلِكَ -  
وَخَالَفَ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى وَكَفَرَ بِذَلِكَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ  
وَأَرْغَمَ أَثْقُهُ، وَطَرَدَهُ عَنْ بَابِ رَحْمَتِهِ، وَمَحَلَّ أُنْسِهِ،  
وَحَضْرَةَ قُدْسِهِ، وَسَمَّاهُ إِبْلِيسَ إِعْلَامًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أُلْسِنَ مِنْ

وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ مُؤَذَّنُونَ﴾ إِنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿إِلَىٰ قَوْلِهِ: «أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أَيْ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ وَلَعَنَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، لِحَقٍّ، لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٥) رَبُّ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿١٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾  
أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْيُنِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٩﴾  
إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْتُمْ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ ﴿

[رِسَالَةُ الرَّسُولِ ﷺ نَبَأٌ عَظِيمٌ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْكَفَّارِ بِاللَّهِ،  
 الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ لَسْتُ  
 كَمَا تَزْعُمُونَ ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أَيُّ: هُوَ  
 وَحْدَهُ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَلَبَهُ ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا  
 بَيْنَهُمَا﴾ أَيُّ هُوَ مَالِكٌ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمُتَصَرِّفٌ فِيهِ ﴿الْعَزِيزُ  
 الْغَفَّارُ﴾ أَيُّ: غَفَّارٌ مَعَ عَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾  
 أَيُّ: خَبَرٌ عَظِيمٌ وَشَأْنٌ بَلِغٌ، وَهُوَ إِسْرَآءُ اللَّهِ تَعَالَى إِنِّائِي  
 إِلَيْكُمْ ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أَيُّ: غَافِلُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾  
 أَي: لَوْلَا الْوَحْيُ مِنْ أَيْنَ كُنْتُ أَدْرِي بِاخْتِلَافِ الْمَلَأِ  
 الْأَعْلَى؟ يَعْنِي فِي شَأْنِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَامْتِنَاعِ  
 إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُودِ لَهُ، وَمُحَاجَّاتِهِ رَبَّهُ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِ.  
 وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمۡ سَجَدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبٰٔيسَ مَا مَعَكَ أَن سَجَدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیْدَیَّ اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنْ عَلَآءٍ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّثْلِهِ خَلَقَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنهَا فَإِنَّكَ رَچِمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنۢ عَلَیْكَ لَعْنَتِي إِلَى یَوْمِ الدِّینِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلَى یَوْمِ یُعْصُوۡنَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِیۡنَ ﴿٨٠﴾ إِلَى یَوْمِ الْوَقْعِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِبُهُمۡ جَمْعِیۡنَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُحْصِیۡنَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِیۡنَ ﴿٨٥﴾﴾

عَنْهُمَا. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَخْرَابِ فَأَلْنَا مَوْعِدَهُمْ﴾ [هود: ١٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أَيُّ: خَبَرُهُ وَصِدْقُهُ ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أَيُّ: عَنْ قَرِيبٍ. قَالَ قَتَادَةُ: بَعْدَ الْمَوْتِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَا مُتَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ فَقَدْ دَخَلَ فِي حُكْمِ الْقِيَامَةِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ ص، وَ اللَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الزَّمَرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ الزَّمَرِ]

رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يُنْطِرَ، وَيُنْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ، وَكَانَ ﷺ يَقْرَأُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالزَّمَرَ<sup>(١)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَسَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)

### [الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالرَّدُّ عَلَى الشِّرْكِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ تَنْزِيلَ هَذَا الْكِتَابِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ - مِنْ عِنْدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ لَتَنِزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (٦) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٧) بِلِسَانٍ عَرِيفٍ مُبِينٍ (٨) [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَمْ لَكُنْتُ عَزِيزٌ (٩) لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ

الرَّحْمَةِ، وَأَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مَذْمُومًا مَذْهُورًا إِلَى الْأَرْضِ، فَسَأَلَ اللَّهُ النَّظْرَةَ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَأَنْظَرَهُ الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يُعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ. فَلَمَّا آمَنَ الْهَلَاكُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَمَرَّدَ وَطَغَى.

وَقَالَ: ﴿فَعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٠) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (١١) كَمَا قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ يَوْمَ الْفَيْصَةِ لِأَحْسِنَ ذَرِيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الاسراء: ٦٢] وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُشْتَبَهُونَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الاسراء: ٦٥].

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ (١٢) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ بَعَدَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (١٣) قَرَأَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مُجَاهِدٌ: بِرَفْعِ الْحَقِّ الْأَوَّلِ، وَفَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ بِأَنَّ مَعْنَاهُ: أَنَا الْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: الْحَقُّ مِنِّي وَأَقُولُ الْحَقَّ<sup>(١٤)</sup>. وَقَرَأَ آخَرُونَ بِتَضْيِيقِهِمَا. قَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ قَسَمُ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ<sup>(١٥)</sup>.

(قُلْتُ): وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ ذُوْقُورًا﴾ [الاسراء: ٦٣].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ (١٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٧) وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨)

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا النُّصْحِ، أَجْرًا تُعْطَوْنِيهِ مِنْ غَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ أَيُّ: وَمَا أُرِيدُ عَلَى مَا أُرْسَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَلَا أَتَّبِعِي زِيَادَةَ عَلَيْهِ، بَلْ مَا أُمِرْتُ بِهِ أَدِّيتُهُ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهِ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، وَلِنَّمَا أَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ الْأَعْمَشِ وَمَنْصُورٍ عَنْ أَبِي الصُّحَى عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: أَتَيْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ. فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ أَخْرَجَاهُ<sup>(١٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ

(١) الطبري: ٢٤٢/٢١ (٢) الطبري: ٢٤٢/٢١ (٣) فتح الباري: ٤٠٩/٨ ومسلم: ٢/٢١٥٥ (٤) النسائي في الكبرى: ٤٤٤/٦

الْخَلَائِقِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، وَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿يَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَنِي﴾<sup>(١)</sup> قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿سبأ: ٤٠، ٤١﴾ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أَيُّ: لَا يُرِيدُ إِلَى الْهِدَايَةِ مَنْ قَصَدَهُ الْكَذِبُ وَالْإِفْرَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَلْبُهُ كَافِرٌ بِآيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ كَمَا يُزْعِمُهُ جَهْلَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَالْمُعَانِدُونَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي الْعَزِيرِ وَعِيسَى، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ: لَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا يُزْعَمُونَ، وَهَذَا شَرْطٌ لَا يَلْزَمُ وَقُوعُهُ وَلَا جَوَازُهُ، بَلْ هُوَ مُحَالٌ، وَإِنَّمَا قَصَدَ تَجْهِيلُهُمْ فِيَمَا ادَّعَوْهُ وَزَعَمُوهُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] كُلُّ هَذَا مِنْ بَابِ الشَّرْطِ، وَيَجُوزُ تَعْلِيلُ الشَّرْطِ عَلَى الْمُسْتَحِيلِ لِمَقْصِدِ الْمُتَكَلِّمِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَكَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أَيُّ: تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، فَإِنَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ عَبْدٌ لَدَيْهِ، فَفِيهِ إِلَهِي، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، الَّذِي قَدْ فَهَرُ الْأَشْيَاءَ فَذَانَتْ لَهُ وَذَلِكَ وَخَصَّصَتْ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عَلَوهَا كَبِيرًا.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾<sup>(٢)</sup> خَلَقَكَ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةً أَرْوَجَ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَضَرُّعُونَ ﴿١﴾

[الاستشهاد عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَأَنَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ الْمُتَصَرِّفِ فِيهِ، يَقْلِبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ

مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَا هُنَا: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أَيُّ: الْمُنِيعِ الْجَنَابِ ﴿الْحَكِيمِ﴾ أَيُّ: فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أَيُّ: فَاعْبُدِ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَادْعُ الْخَلْقَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَعْلِمُهُمْ أَنَّهُ لَا تَضَلُّحُ الْعِبَادَةِ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ وَلَا عَدِيلٌ وَلَا نَدِيدٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أَيُّ: لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا أَخْلَصَ فِيهِ الْعَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عِبَادِ الْأَصْنَامِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى أَصْنَامِ اتَّخَذُوهَا عَلَى صُورِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي رُغْبِهِمْ، فَعَبَدُوا تِلْكَ الصُّورَ تَنْزِيلًا لِذَلِكَ مَنَزَلَةِ عِبَادَتِهِمْ الْمَلَائِكَةَ، لِيَسْمَعُوا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَصْرِهِمْ وَرِزْقِهِمْ وَمَا يُتَوَبُّهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، فَأَمَّا الْأَعَادُ فَكَانُوا جَاحِلِينَ لَهُ كَافِرِينَ بِهِ. قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَابْنِ زَيْدٍ: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أَيُّ: لِيَسْمَعُوا لَنَا وَيَقْرَبُونَا عِنْدَهُ مَنَزَلَةً<sup>(٣)</sup>. وَلِهَذَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيتِهِمْ إِذَا حَجُّوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ: لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. وَهَذِهِ الشُّبُهَةُ هِيَ الَّتِي اعْتَمَدَهَا الْمُشْرِكُونَ قَدِيمَ الدَّهْرِ وَحَدِيثَهُ، وَجَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - بِرَدِّهَا وَالتَّهْنِي عَنَهَا، وَالدَّعْوَةُ إِلَى إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ هَذَا شَيْءٌ اخْتَرَعَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ فِيهِ وَلَا رَضِيَ بِهِ، بَلْ أَبْغَضَهُ وَنَهَى عَنْهُ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٧] وَأَخْبَرَ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي فِي السَّمَوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَغَيْرِهِمْ، كُلُّهُمْ عِبِيدٌ خَاصُّونَ لِلَّهِ، لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنْ ارْتَضَى، وَلَيْسُوا عِنْدَهُ كَالْأَمْوَاءِ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ، يَشْفَعُونَ عَنْدهُمْ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فِيمَا أَحَبَّ الْمُلُوكُ وَأَبْوَهُ ﴿فَلَا تَضَرُّوهُمُ بِاللَّهِ الْأَمْثَالُ﴾ [النحل: ٧٤] تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عَلَوهَا كَبِيرًا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَيُّ: سَيَفْصِلُ بَيْنَ

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآتَىٰ تُصْرُفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

❖ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمِنْ هُوَ قَلِيلٌ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ أَوَّلَ مَا يَخْذُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ بِعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفُسَافِ لَكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ❖ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾

[يَغْضَبُ اللَّهُ مِنَ الْكُفْرِ وَيَرْضَى مِنَ الشُّكْرِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وفي صحيح مسلم: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أُولَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا» (٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أَي: لَا يُجِبُهُ وَلَا

عَلَى الْإِثْلِ ﴿٨﴾ أَي: سَخَّرَهُمَا يَجْرَبَانِ مُتَعَايِنَيْنِ لَا يَفْتَرَانِ، كُلُّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَيْثِيًّا، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُعْشَىٰ الْإِثْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثِيًّا﴾ [الأعراف: ٥٤] هَذَا مَعْنَى مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِهِمْ (١). وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ يَنْقُضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَلَا هُوَ الْغَفُورُ﴾ أَي: مَعَ عِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ هُوَ غَفَّارٌ لِمَنْ عَصَاهُ ثُمَّ تَابَ أَوْ أَنَابَ إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أَي: خَلَقَكُمْ مَعَ اخْتِلَافٍ أَجْنَاسِيكُمْ وَأَصْنَافِكُمْ، وَالْأَنْثَى وَالْأُنثَى مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وَهِيَ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أَي: خَلَقَ لَكُمْ مِنْ ظُهُورِ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ: مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أَي: قَدَّرَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يَكُونُ أَحَدُكُمْ أَوَّلًا نُطْقَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً، ثُمَّ يَخْلُقُ فَيَكُونُ لَحْمًا وَعَظْمًا وَعَصَبًا وَعُرُوقًا، وَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ فَيَصِيرُ خَلْقًا آخَرَ ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يَعْنِي فِي ظُلْمَةِ الرَّجَمِ وَظُلْمَةِ الْمَشِيمَةِ - الَّتِي هِيَ كَالْغُشَاوَةِ وَالْوِقَايَةِ عَلَى الْوَلَدِ - وَظُلْمَةِ الْبُطْنِ. كَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَأَبُو مَالِكٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ (٢). وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَخَلَقَكُمْ وَخَلَقَ آبَاءَكُمْ هُوَ الرَّبُّ، لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ فِي جَمِيعِ ذَٰلِكَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَي: الَّذِي لَا تَتَّبِعِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَآتَىٰ تُصْرُفُونَ﴾ أَي: فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ أَيْنَ يَذْهَبُ بِعُقُولِكُمْ؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ



يَأْمُرُ بِهِ ﴿وَلِإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أَيُّ: يُجِبُهُ لَكُمْ وَيَزِدُّكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أَيُّ: لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، بَلْ كُلُّ مُطَالِبٍ بِأَمْرِ نَفْسِهِ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ: فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

[مِنْ كُفْرِ الْإِنْسَانِ: ذِكْرُهُ اللَّهُ فِي الشَّدَّةِ، وَالشَّرْكَ بِهِ بَعْدَ الْفَرْجِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أَيُّ: عِنْدَ الْحَاجَةِ يَتَضَرَّعُ وَيَسْتَغِيثُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا خَفَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الاسراء: ٦٧] وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ الرَّفَاحَةِ يَنْسَىٰ ذَلِكَ الدُّعَاءَ وَالتَّضَرُّعَ كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا إِنِجِبَةَ آوْ قَاعِدًا أَوْ قَابِئًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَاكًا ثُمَّ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسْمُورًا﴾ [يونس: ١٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ اللَّهُ أَتَذَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ الْعَاقِبَةِ يُشْرِكُ بِاللَّهِ وَيَجْعَلُ لَهُ أَتَذَادًا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أَيُّ: قُلْ لِمَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَمَسْلَكَهُ: تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا، وَهُوَ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَمَتَّعْتُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَظَرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [القصص: ٣٤].

﴿أَمِنْ هُوَ فَنِتَّ عَائَةَ الْبَلِّ سَاجِدًا وَقَابِئًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

[لَا يَسْتَوِي الْمُطِيعُ وَالْعَاصِي]

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: أَمِنْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَجَعَلَ لَهُ أَتَذَادًا لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِذَا دُعا إِلَيْهِمْ بِسُجُودِ اللَّهِ كَمَا دُعا آلُ عِمْرَانَ ١١٣﴾ وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا: ﴿أَمِنْ هُوَ فَنِتَّ عَائَةَ الْبَلِّ سَاجِدًا وَقَابِئًا﴾ أَيُّ: خَاشِعٌ فِي حَالِ سُجُودِهِ وَفِي حَالِ قِيَامِهِ. وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الْقَائِنُ: الْمُطِيعُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

الْبَلَاءُ الْبَلَاءُ

٤٦٠

سُورَةُ الزَّحَر

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ الْمُمِينَ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبادُوا فَانْقُبُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغْيَاتِ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أَهْلُ الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مَالَهُمْ هُمْ عَرَفُوا مِنْ فَوْقِهَا عَرَفَ مَبْنِئَهُ جَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

وَالْحَسَنُ وَالشَّدِيدُ وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿عَائَةَ الْبَلِّ﴾ جَوْفُ اللَّيْلِ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ عِبَادَتِهِ خَائِفٌ رَاجٍ، وَلَا بُدَّ فِي الْعِبَادَةِ مِنْ هَذَا وَهَذَا، وَأَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ فِي مُدَّةِ الْحَيَاةِ هُوَ الْغَالِبُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ فَلْيَكُنِ الرَّجَاءُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» فَقَالَ: أَرْجُو وَأَخَافُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي يَرْجُو، وَأَمَنَّهُ الَّذِي يَخَافُهُ»<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالسَّائِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ وَابْنُ مَاجَةٍ مِنْ حَدِيثِ سَيَّارِ بْنِ حَاتِمٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ بِهِ.

(١) القرطبي: ٢٣٩/١٥ (٢) القرطبي: ٢٣٩/١٥ (٣) مسند عبد بن حميد: ٤٠٤

وَقَالَ التَّوْمِيذِيُّ غَرِيبٌ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِحَاجَةِ آتِيَةٍ فِي لَيْلَةٍ كُتِبَ لَهُ قُتُوبٌ لَيْلَةٍ» وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مِمَّنْ جَعَلَ اللَّهُ أُنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ؟! ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَعْلَمُ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا مَنْ لَهُ لُبٌّ وَهُوَ الْعَقْلُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا رِزْقَكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿لَئِنْ أُمِرْتُ لَأَكُونُ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالْهَجْرَةِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِمْرَارِ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَقْوَاهُ: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا رِزْقَكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أَيُّ: لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: فَهَاجِرُوا فِيهَا وَجَاهِدُوا وَاعْتَرَلُوا الْأَوْثَانَ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: لَيْسَ يُوزَنُ لَهُمْ وَلَا يُكَالُ لَهُمْ، إِنَّمَا يَعْرِفُ لَهُمْ غَرَفًا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا أُمِرْتُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهَا نَارُ الْهَيْجَةِ﴾ قُلْ اللَّهُ يَخَافُ إِلَهُهُمُ

[التَّخَوُّفُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا شَرْطٌ وَمَعْنَاهُ التَّعْرِضُ بِغَيْرِهِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ فَاغْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ وَهَذَا أَيْضًا تَهْدِيدٌ وَتَبَرُّ مِنْهُمْ ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا الْخَاسِرُونَ كُلُّ الْخُسْرَانِ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَمَةِ﴾ أَيُّ تَفَارَقُوا فَلَا الْبَقَاءَ لَهُمْ أَبَدًا، وَسَوَاءٌ ذَهَبَ أَهْلُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ ذَهَبُوا هُمْ إِلَى النَّارِ، أَوْ أَنَّ الْجَمِيعَ أَسْكِنُوا النَّارَ، وَلَكِنْ لَا اجْتِمَاعَ لَهُمْ وَلَا سُورَ ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أَيُّ: هَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ، ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُمْ فِي النَّارِ فَقَالَ: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهَا نَارُ الْهَيْجَةِ﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وَكَذَلِكَ تَعْرِى الظَّالِمِينَ [الأعراف: ٤١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَشْنَعُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥]

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يُخَوِّفُ خَبَرَ هَذَا الْكَائِنِ لَا مَحَالَةَ، لِيُخَوِّفَ بِهِ عِبَادَهُ، لِيَتَزَجَّرُوا عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا رِزْقَكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿لَئِنْ أُمِرْتُ لَأَكُونُ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾

[الْبَشَارَةُ لِلصَّالِحِينَ]

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ نَزَلَتْ فِي زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ وَأَبِي ذَرٍّ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا شَامِلَةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ اجْتَنَبَ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ، وَأَنَابَ إِلَى عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَيُبَشِّرُ عِبَادَهُ﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أَيُّ: يَفْهَمُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ آتَاهُ التَّوْرَةَ: ﴿فَخُذْهَا يَقْوَاهُ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أَيُّ: الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، هُمُ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيُّ: دَوُّو الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْفِطْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ.

﴿وَأَمِنْ حَقِّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْفِقُ مِنْ فِي النَّارِ﴾ لَكِنْ

(١) تحفة الأحوذى: ٥٧/٧ والنسائي في الكبرى: ٢٦٢/٦ وابن ماجه: ١٤٢٣/٢ (٢) الطبري: ٢٦٩/٢١ (٣) الطبري: ٢١/٢١ (٤) الطبري: ٢٧٤/٢١ إسناده ضعيف جدًا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه يروي الموضوعات

الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّهُمْ هُمْ عَرَفُوا مِنْ فَوْقَهَا عَرَفُ مَبْنِيَّةٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى: أَفَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنَّهُ شَقِيٌّ قَدِيرٌ تَقْدِيرُهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ؟ أَيْ: لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عِبَادِهِ السَّعْدَاءِ أَنَّ لَهُمْ عُرُفًا فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْقُصُورُ أَيْ الشَّاهِقَةُ ﴿٢١﴾ مِنْ فَوْقَهَا عَرَفُ مَبْنِيَّةٍ ﴿٢٢﴾ طِبَاقٌ فَوْقَ طِبَاقٍ، مَبْنِيَّاتٌ مُحْكَمَاتٌ مُزَخْرَفَاتٌ عَالِيَاتٌ. رَوَى عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرُفًا يُرَى بِطُونُهَا مِنْ ظَهْرِهَا، وَظُهُورُهَا مِنْ بَطُونِهَا» فَقَالَ أَغْرَابِيُّ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْعُرْفَةِ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ» قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ الثُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاسٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الَّذِي فِي الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ أَوْ الْغَرْبِيِّ»<sup>(٢)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٣)</sup>. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ فِي الْجَنَّةِ أَهْلَ الْعُرْفِ، كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الدَّرَجَاتِ الْغَارِبِ فِي الْأَفْقِ الطَّالِعِ، فِي تَفَاضُلِ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أُولَئِكَ النَّبِيُّونَ؟ فَقَالَ ﷺ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! وَأَقْوَامٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الرَّسُلَ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ: تُسَلِّكُ الْأَنْهَارُ بَيْنَ خِلَالِ ذَلِكَ، كَمَا يَشَاوُونَ وَأَيْنَ ارَّادُوا ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَعَدَّ وَعَدَهُ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ فَإِذَا أُنْزِلَ الْمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ كَمَنْ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يَصْرِفُهُ تَعَالَى فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ كَمَا بَشَاءَ، وَيُنْبِئُهُ غُبُونًا مَا بَيْنَ صِغَارٍ وَكِبَارٍ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَسَلَكُكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ: أَنَّ كُلَّ مَاءٍ فِي الْأَرْضِ فَاضِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَصْلُهُ مِنَ الثَّلَجِ، يَعْنِي أَنَّ الثَّلَجَ يَتَرَاكُمُ عَلَى الْجِبَالِ فَيَسْكُنُ فِي قَرَارِهَا، فَتَنْبُعُ الْعُيُونُ مِنْ أَسْفَلِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مَخْلُوقًا آوْنَةً﴾ أَيْ: ثُمَّ يُخْرِجُ بِالْمَاءِ النَّارِلَ مِنَ السَّمَاءِ وَالتَّابِعَ مِنَ الْأَرْضِ ﴿زَرْعًا مَخْلُوقًا آوْنَةً﴾ أَيْ: أَشْكَالُهُ وَطُوعُومُهُ وَرَوَائِحُهُ وَمَنَافِعُهُ ﴿ثُمَّ يَهْبِطُ﴾ أَيْ: بَعْدَ نِزَارَتِهِ وَشَبَابِهِ يَكْتَهِلُ ﴿فَتَرْبَهُ مُضْمَرًا﴾ قَدْ خَالَطَهُ النَّيْسُ ﴿ثُمَّ

شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِلْفَلْسَفَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾

[مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَصْلَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ كَمَا قَالَ عَزَّ

(١) أحمد: ١٥٥/١ (٢) تحفة الأحوذى: ٢٣١/٧ (٣) أحمد: ٣٤٠/٥ (٤) فتح الباري: ٤٢٤/١١ ومسلم: ٤/ ٢١٧٧ (٥) أحمد: ٣٣٩/٢ (٦) تحفة الأحوذى: ٢٧٢/٧ (٧) الدر المنثور: ٢١٩/٧

وَاحِدٍ، فَهَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَتَارَةً تَكُونُ بِذِكْرِ الشَّيْءِ وَضِدِهِ، كَذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ الْكَافِرِينَ، وَكَصِفَةِ الْجَنَّةِ ثُمَّ صِفَةِ النَّارِ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا، فَهَذَا مِنَ الْمَثَانِي كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفطار: ١٣، ١٤] وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿٨﴾﴾ [المطففين: ٧-١٨] هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ الْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَاقِبٍ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّافِعِينَ لَشَرَّ مَنَاقِبٍ ﴿٩﴾﴾ [ص: ٤٩-٥٥] وَنَحْوُ هَذَا مِنَ السِّيَاقَاتِ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْمَثَانِي، أَيْ: فِي مَعْنَيْنِ اثْنَيْنِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ السِّيَاقُ كُلُّهُ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَهُوَ الْمُتَشَابِهُ. وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧] ذَلِكَ مَعْنَى آخَرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَفْسَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَيْ: هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ، عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ، الْمُتَهَمِّينِ الْعَزِيزِ الْعَقَّارِ، لِمَا يَفْهَمُونَ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ: تَفْسَعُ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤْمَلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِعِغْرِهِمْ مِنَ الْفُجَّارِ مِنْ وَجْهِهِ (أَحَدُهَا): أَنَّ سَمَاعَ هَؤُلَاءِ هُوَ تِلَاوَةُ آيَاتِهِ، وَسَمَاعَ أَوْلَيْكَ نِعَمَاتُ الْآيَاتِ مِنْ أَصْوَاتِ الْقِنَاتِ (الثَّانِي): أَنَّهُمْ إِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُوا سَجْدًا وَبُكْيًا، بِأَدَبٍ وَخَشْيَةٍ وَرَجَاءٍ وَمَحَبَّةٍ وَفَهْمٍ وَعِلْمٍ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَمْ يَرُوحُوا عَنْ دِينِهِمْ وَمَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْهَانًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣] أَيْ: لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ سَمَاعِهَا مُتَشَاغِلِينَ لَاهِينَ عَنْهَا، بَلْ مُضْغِينَ إِلَيْهَا، فَاهْوِينَ بِصَبْرٍ مَعَانِيهَا، فَلِهَذَا إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِهَا، وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهَا عَنْ صَبْرٍ لَا عَنْ جَهْلِ وَمَتَابَعَةٍ لِعِغْرِهِمْ.

يَجْعَلُهُ حُطْمًا ﴿٤١﴾ أَيُّ: ثُمَّ يَعُودُ يَابِسًا يَتَحَطَّمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ أَيُّ: الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ بِهَذَا فَيَعْتَبِرُونَ إِلَى أَنَّ الدُّنْيَا هَكَذَا تَكُونُ خَضِرَةً نَضِرَةً حَسَنَاءَ، ثُمَّ تَعُودُ عَجُوزًا شَوْهَاءَ، وَالشَّابُّ يَعُودُ شَيْخًا هَرِمًا كَبِيرًا ضَعِيفًا، وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلُّهُ الْمَوْتُ، فَالسَّعِيدُ مَنْ كَانَ حَالُهُ بَعْدَهُ إِلَى خَيْرٍ، وَكَثِيرًا مَا يَضْرِبُ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمَا يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ، وَيَنْبُتُ بِهِ زُرْعًا وَثِمَارًا، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ حُطْمًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

[لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْحَقِّ وَأَهْلُ الضَّلَالِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أَي: هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ هُوَ قَاسِي الْقَلْبَ بَعِيدٌ مِنَ الْحَقِّ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ لِّفِتْسِيَةٍ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَي: فَلَا تَلِينُ عِنْدَ ذِكْرِهِ، وَلَا تَخْشَعُ وَلَا تَعْبِي وَلَا تَقْهَمُ ﴿أَوَّلَيْكَ فِي صَلَاتِ مُبِينٍ﴾.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ  
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ  
ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ

ہادی ۲۳

[وَصَفُ الْقُرْآن]

هَذَا مَدْحٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكِتَابِهِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الْمُنَزَّلِ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُتَشَابِهًا مَثَانِي <sup>(١)</sup>. وَقَالَ فَتَاةٌ: الْآيَةُ تُشَبِّهِ الْآيَةَ وَالْحَرْفُ يُشَبِّهِ الْحَرْفَ <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: مَثَانِي: تَرْبِيدُ الْقَوْلِ لِيَفْهَمُوا عَنْ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ: ثَنَى اللَّهُ فِيهِ الْقَضَاءُ. زَادَ الْحَسَنُ: تَكُونُ السُّورَةُ فِيهَا آيَةٌ، وَفِي السُّورَةِ الْأُخْرَى آيَةٌ تُشَبِّهُهَا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَثَانِي﴾ قَالَ: الْقُرْآنُ يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُرَدُّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: وَيُرْوَى عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ أَنَّ سِيَاقَاتِ الْقُرْآنِ تَارَةً تَكُونُ فِي مَعْنَى

(١) الطبري: ٢٧٩/٢١ (٢) الطبري: ٢٧٩/٢١ (٣) الطبري:

لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، أَعْظَمُ مِمَّا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَرِيبًا ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٥﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِحُكْمِ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ مِثْتُ وَاثِمٍ مَسِينٍ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّمُونَ ﴿٢٨﴾

[مَثَلُ الشَّرِكِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أَيُّ: بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِيهِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ فَإِنَّ الْمَثَلَ يَقْرُبُ الْمَعْنَى إِلَى الْأَذْهَانِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيُّ: تَعَلَّمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَرِيبًا ذِي عِوَجٍ﴾ أَيُّ: هُوَ قُرْآنٌ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ وَلَا لُجْسَ، بَلْ هُوَ بَيِّنٌ وَوَضُوحٌ وَبُرْهَانٌ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَلِكَ، وَأَنْزَلَهُ بِذَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٥﴾ أَيُّ: يَحْذَرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ﴾ أَيُّ: يَتَنَازَعُونَ فِي ذَلِكَ الْعَبْدِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُمْ «وَرَجُلًا سَلَمًا» أَيُّ: سَالِمًا «لِرَجُلٍ» أَيُّ: خَالِصًا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ «هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا» أَيُّ: لَا يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا. كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُشْرِكُ الَّذِي يَعْبُدُ إِلَهَةً مَعَ اللَّهِ، وَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَأَيُّنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هَذِهِ الْآيَةُ ضُرِبَتْ مَثَلًا لِلْمُشْرِكِ وَالْمُخْلِصِ<sup>(١)</sup>. وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ ظَاهِرًا بَيِّنًا جَلِيلًا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَيُّ: عَلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: فَلِهَذَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ.

[مَوْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفُرُشُ وَاحْتِصَامُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مِثْتُ وَاثِمٍ مَسِينٍ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَشْهَدَ بِهَا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(الثَّالِثُ): أَنَّهُمْ يَلْزُمُونَ الْأَدَبَ عِنْدَ سَمَاعِهَا، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تِلَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَتَشَعَّرُ جُلُودُهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ مَعَ قُلُوبِهِمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ. وَلَمْ يَكُونُوا يَتَصَارَحُونَ وَلَا يَتَكَلَّفُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، بَلْ عِنْدَهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ وَالسُّكُونِ وَالْأَدَبِ وَالْخَشْيَةِ مَا لَا يَلْحَقُهُمْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا فَازُوا بِالْمَدْحِ مِنَ الرَّبِّ الْأَعْلَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ قَالَ: تَلَا قِتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَشَعَّرَ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» قَالَ: هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، نَعْتُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَن تَتَشَعَّرَ جُلُودُهُمْ وَتَبْكِي أَعْيُنُهُمْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وَلَمْ يَنْعَتُهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ وَالْعَشْيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبَدْعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ عِبَادِهِ أَيُّ هَذِهِ صِفَةٌ مِنْ هَذِهِ اللَّهُ، وَمَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَالْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

[مَالُ الْمَكْذِبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وَيُفْرَقُ فَيُقَالُ لَهُ وَلَا مِثْلَهِ مِنَ الظَّالِمِينَ: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كَمَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ؟! كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ مِجْأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَتَّبِعِ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وَاسْتَفْتَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَحَدِ الْقُسَمَيْنِ عَنِ الْآخِرِ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَالْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَعْنِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْذَبَةَ لِلرُّسُلِ، أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ، وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: بِمَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْكَتَالِ وَتَشْفِي الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، فَلْيَحْذَرِ الْمُحَاطَبُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَالَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ

سورة الزمر

٤٦٢

سورة الزمر

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۖ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ﴾ (٣٢) **وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۚ** (٣٣) **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۚ** (٣٤) **لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ** (٣٥) **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۚ** (٣٦) **وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۚ** (٣٧) **وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ۖ اللَّهُ ۖ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۚ** (٣٨) **قُلْ يَتَقَوَّمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ** (٣٩) **مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۚ** (٤٠)

عِنْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ حَتَّى تَحَقَّقَ النَّاسُ مَوْتُهُ، مَعَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وَمَعْنَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّكُمْ سَتَقُولُونَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ لَا مَحَالَةَ، وَسَتَجْتَمِعُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَخْتَصِمُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالشَّرْكِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، وَيَفْتَحُ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْحُ الْعَلِيمُ، فَيُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُؤَحِّدِينَ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاحِلِينَ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ. ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ - وَإِنْ كَانَ سَبَاقُهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَذِكْرُ الْخُصُومَةِ بَيْنَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ - فَإِنَّهَا شَامِلَةٌ لِّكُلِّ الْمُتَنَازِعِينَ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ تُعَادُ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَكْرَرُ عَلَيْنَا الْخُصُومَةُ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الْأَمْرَ إِذَا لَشَدِيدٌ. (١) وَكَمَا رَوَى أَحْمَدُ عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَيْضًا - قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ مِثٌّ وَلَهُمْ مِثٌّ ۚ﴾ (٣٢) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ! أَتَكْرَرُ عَلَيْنَا مَا كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا مَعَ خَوَاصِّ الذُّنُوبِ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ» لِيَكْرَرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى يُوَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ، قَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ إِنْ الْأَمْرَ لَشَدِيدٌ. (٢) وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. (٣) وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يَقُولُ: بِخَاصِمِ الصَّادِقِ الْكَاذِبِ، وَالْمُظْلُومِ الظَّالِمِ، وَالْمُهْتَدِيَ الضَّالَّ، وَالضَّعِيفَ الْمُسْتَكْبِرَ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَنْدَه فِي كِتَابِ الرُّوحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: يَخْتَصِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تَخْتَصِمَ الرُّوحُ مَعَ الْجَسَدِ، فَتَقُولُ الرُّوحُ لِلْجَسَدِ: أَنْتَ فَعَلْتَ وَيَقُولُ الْجَسَدُ لِلرُّوحِ: أَنْتِ أَمَرْتِ وَأَنْتِ سَوَّلْتِ، فَيَنْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا فَيَقُولُ لَهُمَا: إِنَّ مِثْلَكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ مُقْعَدٍ بَصِيرٍ وَالْآخَرُ ضَرِيرٍ، دَخَلَا بُسْتَانًا فَقَالَ الْمُقْعَدُ لِلضَّرِيرِ: إِنِّي أَرَى هَهُنَا ثِمَارًا، وَلَكِنْ لَا أَصِلُ إِلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ الضَّرِيرُ: إِزْكِنِي فَنَأْتِيَاهَا. فَرَكِبَهُ

فَنَأْتِيَاهَا، فَأَيُّهُمَا الْمُتَعَدِّي؟ فَيَقُولَانِ: كِلَاهُمَا، فَيَقُولُ لَهُمَا الْمَلَكُ: فَإِنَّكُمَا قَدْ حَكَمْتُمَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمَا. يَغْنِي أَنَّ الْجَسَدَ لِلرُّوحِ كَالْمُطَيِّهِ وَهُوَ رَاكِبُهُ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا نَعْلَمُ فِي أَيِّ شَيْءٍ نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ: قُلْنَا: مَنْ نُخَاصِمُ؟ لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ خُصُومَةٌ فَمَنْ نُخَاصِمُ؟ حَتَّى وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هَذَا الَّذِي وَعَدَنَا رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ نَخْتَصِمُ فِيهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ. (٤)

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۖ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ﴾ (٣٢) **وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۚ** (٣٣) **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۚ** (٣٤)

(١) الدر المنثور: ٦١٤/٥ (٢) أحمد: ١٦٤/١ (٣) تحفة الأحوذى: ٢٨٩/٩ (٤) النسائي في الكبرى: ١١٤٤٧ إسناده ضعيف فيه جعفر بن أبي مغيرة ليس بالقوي عن سعيد بن جبير كما قال ابن منده

(عِبَادَهُ) يُعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يَخْفِي مَنْ عَبْدَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ يُخَوِّفُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَيَتَوَعَّدُونَهُ بِأَصْنَامِهِمْ وَالْهَيْهَاتُمْ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، جَهْلًا مِنْهُمْ وَضَلَالًا، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ أَيْ: مَنِعَ الْجَنَابِ، لَا يُضَامُ مَنْ اسْتَدَّ إِلَى جَنَابِهِ وَلَجَأَ إِلَى بَابِهِ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا أَعَزَّ مِنْهُ، وَلَا أَشَدَّ انْتِقَامًا مِنْهُ، مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَأَشْرَكَ وَعَانَدَ رَسُولَهُ ﷺ.

[اعتراف المشركين بتوحيد الله في خلق الكون وإفراؤهم بعجز الهتهم]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَمِمَّا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِي﴾ [الزمر: ٣٨] أَيْ: لَا تَسْتَطِيعُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَهُنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «إِحْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، إِحْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ، جَفَّتِ الصُّحُفُ وَرَفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَاعْمَلْ لِلَّهِ بِالشُّكْرِ فِي الْيَقِينِ. وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكُرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» (٤). ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أَيْ: اللَّهُ كَافِيٌّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿كَمَا قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ قَالَ [لَهُ] قَوْمُهُ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ (٥) مِنْ دُونِهِ. فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ (٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ

رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٩﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ [جَزَاءُ الْكَافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ وَالصَّادِقِينَ الْمُصْذِقِينَ]

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَاطًا بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ وَجَعَلُوا مَعَهُ إِلَهَةً أُخْرَى، وَادَّعَوْا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَجَعَلُوا اللَّهَ وَلَدًا - تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوقًا كَبِيرًا - وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَنَنْظِرُهُمْ ثُمَّ نَكْتُبُ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُمْ﴾ (١) وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴿٢﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ طَرَفَيْ الْبَاطِلِ، كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ رَسُولَ اللَّهِ - قَالُوا الْبَاطِلُ وَرَدُّوا الْحَقَّ - وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ مُتَوَعَّدًا لَهُمْ: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وَهُمْ الْجَاحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ. ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (٣) قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَابْنُ زَيْدٍ: الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ (١). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُسْلِمُونَ (٢). ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: اتَّقُوا الشُّرَكَ (٣) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٣٨) قُلْ يَنْفَعُكُمْ أَعْمَالُكُمْ عَلَى مَا كُنْتُمْ فِيهَا عَمِلُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِ بِعَدَابٍ يُخْزِيهِ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَدَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٤٠)

[الله كافٍ لعبده]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وَفَرَأَ بَعْضُهُمْ:

(١) الطبري: ٢٨٩/٢١ والقرطبي: ٢٥٦/١٥ (٢) الطبري:

٢٩٠/٢١ (٣) الطبري: ٢٩٢/٢١ (٤) أحمد: ٣٠٧/١

سُورَةُ الزُّمَرِ

٤٦٣

سُورَةُ الزُّمَرِ

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ نَوَا لَا يَمْلِكُونَ شَيْعًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُتْدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَّلَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

عَاجِذٌ يَبَاصِيتُهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿هود: ٥٤-٥٦﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ أَيُّ: عَلَى طَرِيقَتِكُمْ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾ أَيُّ: عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ: سَتَعْلَمُونَ غَيْبَ ذَلِكَ وَوَبَّالَهُ ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّثِيرٌ أَيُّ: دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ، لَا مَجِيدَ عَنْهُ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَعَادَنَا اللَّهُ مِنْهَا.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ: لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِتُنْذِرَهُمْ بِهِ ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ أَيُّ: فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ إِلَىٰ نَفْسِهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَّالَ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَيُّ: بِمُكَلِّ أَمْ يَهْتَدُوا ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿هود: ١٢﴾، ﴿فَلِنَا عَلَىٰكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾. [الرعد: ٤٠]

[اللَّهُ الَّذِي يُمِيتُ وَيُحْيِي]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْوُجُودِ بِمَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ الْوَفَاةَ الْكُبْرَى - بِمَا يُرْسِلُ مِنَ الْحَفَظَةِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَهَا مِنَ الْأَبْدَانِ - وَالْوَفَاةَ الصَّغْرَىٰ عِنْدَ الْمَنَامِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَهُوَ الْفَاضِلُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿[الأنعام: ٦٠، ٦١] فَذَكَرَ الْوَفَاتَيْنِ: الصَّغْرَىٰ ثُمَّ الْكُبْرَى، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَكَرَ الْكُبْرَى ثُمَّ الصَّغْرَى، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا تَجْتَمِعُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَنذُوحٍ وَغَيْرُهُ. وَفِي صَحِيحِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَوَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاحِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»<sup>(١)</sup>. «فِيْمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ» الَّتِي قَدْ مَاتَتْ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى. قَالَ السُّدِّيُّ: إِلَىٰ بَقِيَّةِ أَجْلِهَا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يُمِمْسِكَ أَنْفُسَ الْأَمْوَاتِ وَيُرْسِلُ أَنْفُسَ الْأَحْيَاءِ، وَلَا يَغْلُطُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ نَوَا لَا يَمْلِكُونَ شَيْعًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ

(١) فتح الباري: ١٣٠/١١ ومسلم: ٢٠٨٤/٤ (٢) الطبري:



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦٤

سُورَةُ الزَّمَرِ

وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ  
نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فَتْنَةٌ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ  
عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا  
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا  
وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ  
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾  
﴿قُلْ بِعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن  
رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ  
﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ  
الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ  
إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ  
بَغْتَةً وَتَأْتُم لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي  
عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جُنُبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾

مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴿٥٧﴾

[لَا شَفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَاشْمِزَّازُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ  
ذِكْرِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ]

يَقُولُ تَعَالَى دَامًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ شَفَعَاءَ مِنْ دُونِ  
اللَّهِ، وَهُمْ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ  
أَنفُسِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ حَدَاهُمْ عَلَى ذَٰلِكَ، وَهِيَ لَا  
تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ، بَلْ وَلَيْسَ لَهَا عَقْلٌ تَعْقِلُ بِهِ، وَلَا  
سَمْعٌ تَسْمَعُ بِهِ، وَلَا بَصَرٌ تَبْصُرُ بِهِ، بَلْ هِيَ جَمَادَاتٌ أَسْوَأُ  
حَالًا مِنَ الْحَيَوَانِ بِكَبِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ  
لِهَٰؤُلَاءِ الرَّاعِمِينَ: أَنَّ مَا اتَّخَذُوهُ شَفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ  
تَعَالَى. أَخْبِرْهُمْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَنْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا لِمَن  
ارْتَضَاهُ وَأَذِنَ لَهُ، فَمَرْجِعُهَا كُلُّهَا إِلَيْهِ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ  
عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. [البقرة: ٢٥٥] ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَٰلِكَ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ  
تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ بَيْنَكُمْ بِعَدْلِهِ وَيَجْزِي  
كُلًّا بِعَمَلِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى دَامًا لِلْمُشْرِكِينَ أَيْضًا: ﴿وَإِذَا  
ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أَيُّ إِذَا قِيلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ  
﴿أَشْمَازَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ:  
﴿أَشْمَازَتْ﴾ انْقَبَضَتْ <sup>(١)</sup> كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا  
قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] أَيُّ: عَنِ  
الْمُتَابَعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهَا، فَقُلُوبُهُمْ لَا تَقْبَلُ الْخَيْرَ، وَمَنْ لَمْ  
يَقْبَلِ الْخَيْرَ يَقْبَلِ الشَّرَّ، وَلِذَٰلِكَ قَالَ تَبَارَكَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا  
ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ - قَالَهُ  
مُجَاهِدٌ - ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ أَيُّ: يَفْرَحُونَ وَيُسْرُونَ.  
﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ  
تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ وَلَوْ أَنَّ  
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ  
سِوَةِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا  
يَحْسِبُونَ ﴿٤٩﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا

بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٠﴾

[تَفْوِيضُ أَمْرِ هَٰؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى اللَّهِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ مَا ذَكَرَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا ذَكَرَ،  
مِنَ الْمَدْمَةِ لَهُمْ فِي حُبِّهِمُ الشَّرَّكَ، وَتَفَرِّتِهِمْ عَنِ التَّوْحِيدِ:  
﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾  
أَيُّ: ادْعُ أَنتَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَفَطَرَهَا، أَيُّ: جَعَلَهَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ

[لَا تُقْبَلُ فِدْيَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَهُمْ

الزمر

٤٦٥

سورة الزمر

أَوْ يَقُولُ لَوَ أَنَّهُ اللَّهُ هَدَنِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُنْفِقِينَ ﴿٥٧﴾  
 أَوْ يَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوَ أَنِّي كُنتَ فَاكُونَ  
 مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا  
 وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ  
 تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلْيَسَ فِي  
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا  
 بِمَقَارِنِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ الشَّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ  
 خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ  
 هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدْهُنَّ أَمْ  
 أَعْبُدُ اللَّهَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ  
 أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ  
 فَاَعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ  
 وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ  
 مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿لَا تَفْعَلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
 الْفَاحِشِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ  
 نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبِغْ  
 الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ  
 عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ  
 مَن هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤُوبِهِمُ  
 الْمُجْرِمُونَ ﴿[الفصل: ٧٦-٧٨]﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ  
 أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥] وَقَوْلُهُ  
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ  
 وَيَقْدِرُ﴾ أَي: يُوسِّعُهُ عَلَى قَوْمٍ وَيُضَيِّقُهُ عَلَى آخَرِينَ ﴿إِنَّ فِي  
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَي: لِعِبَرًا وَحُجَجًا.

﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَي أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ  
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٧٠﴾  
 وَإِنِّي لَأَكِيدُ إِلَيْكُمْ رَحْمَةً وَأَسْلِمُ لَكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ

الْمُشْرِكُونَ ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أَي: وَلَوْ  
 أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ وَضِعْفَهُ مَعَهُ ﴿لَأَقْدَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ  
 الْعَذَابِ﴾ أَي: الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَ  
 هَذَا لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ الْفِدَاءُ، وَلَوْ كَانَ مِثْلُ الْأَرْضِ ذَهَبًا، كَمَا  
 قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا  
 يَحْسِبُونَ﴾ أَي: وَظَهَرَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِهِمْ  
 مَا لَمْ يَكُنْ فِي بَالِهِمْ وَلَا فِي حِسَابِهِمْ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا  
 كَسَبُوا﴾ أَي: وَظَهَرَ لَهُمْ جَزَاءُ مَا اكْتَسَبُوا فِي الدَّارِ  
 الدُّنْيَا مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتَمِ ﴿وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ  
 يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَي: وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا كَانُوا  
 يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَحْمًا إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا  
 أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنِّي أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧١﴾ قَدْ  
 قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٢﴾  
 فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ  
 سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٧٣﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ  
 يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
 يُؤْمِنُونَ ﴿٧٤﴾

[تَقْلُبُ الْإِنْسَانُ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ الضَّرِّ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ فِي خَالَ  
 الضَّرَاءِ يَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيُتَيْبُ إِلَيْهِ وَيَدْعُوهُ، وَإِذَا  
 حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ بَعَى وَطَغَى وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾  
 أَي: لِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ اسْتِحْقَاقِي لَهُ، وَلَوْ لَا أَنِّي عِنْدَ  
 اللَّهِ خِصِيصٌ لَمَا حَوَّلَنِي هَذَا. قَالَ قَتَادَةُ: ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾  
 عِنْدِي: عَلَى خَيْرٍ عِنْدِي<sup>(١)</sup>. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هِيَ  
 فِتْنَةٌ﴾ أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ، بَلْ إِنَّمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ  
 بِهِذِهِ النِّعْمَةِ لِتَحْتَبِرَهُ فِيمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ، أَيُطِيعُ أَمْ يَعْصِي؟ مَعَ  
 عِلْمِنَا الْمُتَقَدِّمِ بِذَلِكَ، فَهِيَ فِتْنَةٌ، أَي: اخْتِبَارٌ ﴿وَلَكِنِّي  
 أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَلِهَذَا يَقُولُونَ مَا يَقُولُونَ وَيَدْعُونَ مَا  
 يَدْعُونَ ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: قَدْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ  
 وَزَعَمَ هَذَا الزَّعَمَ وَادَّعَى هَذِهِ الدَّعْوَى، كَثِيرٌ مِمَّنْ سَلَفَ  
 مِنَ الْأُمَمِ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَي: فَمَا صَحَّ  
 قَوْلُهُمْ وَلَا مَنَعَهُمْ جَمْعُهُمْ وَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿فَأَصَابَهُمْ  
 سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أَي: مِنَ  
 الْمُخَاطَبِينَ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أَي: كَمَا أَصَابَ  
 أُولَٰئِكَ ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا

لَا تُصْرُوكَ ۚ ۝٥٤ وَأَسْمِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِهَيِّئْ لِي مِنْ شَيْءٍ فَتَرْكَبُ فِي جُنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ لِمِنَ السَّخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ مِنْ رَبِّكَ فَكْذَبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٥٩

[الدعوة إلى التوبة قبل أن يأتي العذاب]

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] ونزل: ﴿قُلْ يَعْبادي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي<sup>(١)</sup>. والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾... الآية [الفرقان: ٧٠].

وقال الإمام أحمد عن عمرو بن عبسة قال: «جاء رجل إلى النبي - ﷺ -، شيخ كبير يدعهم على عصا له، فقال: يا رسول الله! إن لي غدرات وفجرات، فهل يغفر لي؟ فقال: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله. فقال: «قد غفر لك غدراتك وفجراتك»<sup>(٢)</sup>. فترد به أحمد.

وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه عمل غير صالح» وسمعتهم ﷺ يقول: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالى، إنه هو الغفور الرحيم»<sup>(٣)</sup>. ورواه أبو داود والترمذي<sup>(٤)</sup>. فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة. ولا يقنط عبد من رحمة الله

وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي حَقِّ الْمُتَابِعِينَ: ﴿إِنَّ الْمُتَابِعِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [٥٧] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦] وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْهَوْا عَنَّا يَقُولُوا لَيَسَّيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابَ أَلِيمًا﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ يَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤] وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠] قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: أَنْظَرُوا إِلَى هَذَا الْكُرْمِ وَالْجُودِ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ. وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثُ الَّذِي قَتَلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا، ثُمَّ نَدِمَ وَسَأَلَ عَابِدًا مِنْ عِبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ وَأَكْمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ ثُمَّ أَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى قَرْيَةٍ يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهَا فَقَصَدَهَا فَأَتَاهَا الْمَوْتُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيِّمَا كَانَ أَقْرَبَ فَهُوَ مِنْهَا، فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا بِشِيرٍ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وَذَكَرَ: أَنَّهُ نَأَى بِصَدْرِهِ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ الْبَلْدَةَ الْخَيْرَةَ أَنْ تَقْتَرِبَ، وَأَمَرَ تِلْكَ الْبَلْدَةَ أَنْ تَتَبَاعَدَ<sup>(٥)</sup>. هَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ وَقَدْ كَتَبْنَاهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِلَفْظِهِ.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَعْبادي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾... إلى

(١) فتح الباري: ٤١١/٨ ومسلم: ١١٣/١ وأبو داود: ١٦٦/٤ والنسائي في الكبرى: ٤٤٦ (٢) أحمد: ٣٨٥/٤ وهو صحيح بشواهده (٣) أحمد: ٤٥٤/٦ (٤) أبو داود: ٢٨٥/٤ وتحفة الأحوذ: ١١١/٩ (٥) فتح الباري: ٥٩١/٦

أَخْرِجِ الْآيَةَ، قَالَ: قَدْ دَعَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَغْفِرَتِهِ مَنْ رَزَعَهُ أَنْ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ، وَمَنْ رَزَعَهُ أَنْ الْمَسِيحَ هُوَ ابْنُ اللَّهِ، وَمَنْ رَزَعَهُ أَنْ عَزِيْزًا ابْنُ اللَّهِ، وَمَنْ رَزَعَهُ أَنْ اللَّهُ فَفِيْرٌ، وَمَنْ رَزَعَهُ أَنْ يَدَ اللَّهِ مَغْلُوْلَةٌ، وَمَنْ رَزَعَهُ أَنْ اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُوْلَاءَ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُوٌّ رَحِيْمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] ثُمَّ دَعَا إِلَى التَّوْبَةِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ قَوْلًا مِنْ هَؤُلَاءِ، مَنْ قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَقُ﴾ [النازعات: ٢٤] وَقَالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: مَنْ آتَى عِبَادَ اللَّهِ مِنَ التَّوْبَةِ بَعْدَ هَذَا فَقَدْ جَحَدَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ لَا يَقْدِرُ الْعَبْدُ أَنْ يَتُوبَ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ شَتِيْرٍ بْنِ شَكْلٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَإِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وَإِنَّ أَكْثَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَرْجًا فِي سُورَةِ الزُّمَرِ ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا آلَ الَّذِينَ آسَرْتُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وَإِنَّ أَشَدَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَفْوِيْضًا ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [الطلاق: ٢، ٣] فَقَالَ لَهُ مَسْرُوقٌ: صَدَقْتَ<sup>(٢)</sup>.

### [ذِكْرُ أَحَادِيثَ فِيهَا نَفْيُ الْقُتُوبِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَخْطَأْتُكُمْ حَتَّى تَمَلَّأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيَّنَّ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى لَعَفَرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِيَدِهِ! لَوْ لَمْ تُحْطُوا لَجَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»<sup>(٣)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ جِئَ حَضْرَتُهُ الْوَفَاةُ: قَدْ كُنْتُ كَنَمْتُ مِنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ لَا أَنْتُمْ تَذُنُّونَ لَخَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْمًا يُذْنِبُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ» هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: إِنَّ إِبْلِيسَ - عَلَيْهِ لَعَائِنُ اللَّهِ - قَالَ: يَا رَبِّ! إِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ أَجْلِ آدَمَ، وَإِنِّي لَا أَسْتَطِيعُهُ إِلَّا

يَسْلُطَانِكَ. قَالَ: فَأَنْتَ مُسَلِّطٌ، قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: لَا يُوَلِّدُ لَهُ وَلَدٌ إِلَّا وَلَدٌ لَكَ مِثْلُهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: أَجْعَلُ صُدُورَهُمْ مَسَاكِينَ لَكُمْ، وَتَجْرُونَ مِنْهُمْ مَجْرَى الدَّمِ. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: ﴿وَأَتْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكِ وَرِجَالِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾<sup>(٥)</sup>. فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ! قَدْ سَلَّطْتُهُ عَلَيَّ، وَإِنِّي لَا أُمْتِنِعُ إِلَّا بِكَ. قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لَا يُوَلِّدُ لَكَ وَلَدٌ إِلَّا وَلَدٌ لَكَ وَكُلُّتَ بِهِ مَنْ يَحْفَظُهُ مِنْ قُرْآنِ الشَّوْرِ. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: الْحَسَنَةُ عَشْرٌ أَوْ أَرْبَعٌ، وَالسَّيِّئَةُ وَاحِدَةٌ أَوْ أَمُحُوْهَا. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مَا كَانَ الرُّوحُ فِي الْجَسَدِ. قَالَ: يَا رَبِّ! زِدْنِي. قَالَ: ﴿يَتَّبِعَادِي الَّذِينَ آسَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُوُّ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٦)</sup>.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي حَدِيثِهِ قَالَ: وَكُنَّا نَقُولُ: مَا اللَّهُ بِقَابِلٍ مِمَّنْ افْتَنَيْنَ صَرَفًا وَلَا عَذْلًا وَلَا تَوْبَةً، عَرَفُوا اللَّهَ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ لِبَلَاءٍ أَصَابَهُمْ. قَالَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ. قَالَ: فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - الْمَدِينَةَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ وَفِي قَوْلِنَا وَقَوْلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آسَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُوُّ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٧)</sup> وَأَيُّبُوا إِلَيَّ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ<sup>(٨)</sup> وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَعْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ<sup>(٩)</sup> قَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: فَكُنْتُهَا بِيَدِي فِي صَحِيْفَةٍ، بَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامِ بْنِ الْعَاصِ قَالَ: فَقَالَ هِشَامُ: لَمَّا أَتَيْتَنِي جَعَلْتُ أَقْرُؤُهَا بِذِي طُوى أَصْعَدُ بِهَا فِيهِ وَأَصَوْتُ وَلَا أَفْهَمُهَا، حَتَّى قُلْتُ: اللَّهُمَّ أَفْهَمْنِيهَا. قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِي أَنَّهَا إِنَّمَا أَنْزَلَتْ فِينَا، وَفِيمَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا، وَيُقَالُ فِينَا. قَالَ: فَارْجَعْتُ إِلَى بَعِيرِي فَجَلَسْتُ عَلَيْهِ، فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - بِالْمَدِينَةِ<sup>(١٠)</sup>.

(١) أخرجه ابن جرير وابن المنذر، الدر المنثور: ٦٢١/٥ (٢) الطبراني: ١٤٢/٩ (٣) أحمد: ٢٣٨/٣ إسناده ضعيف فيه أخشن السدوسي هو مجهول ذكره البخاري وابن أبي حاتم ولم يذكر في جرعا ولا تعديلا (٤) أحمد: ٤١٤/٥ ومسلم: ٤/ ٢١٠٥ وتحفة الأحوذني: ٢٢٣/٩ (٥) الطبري: ٣١٦/٢١ هذا مرسل (٦) ابن أبي حاتم ١٨٤٠٤ مقطوع صحيح (٧) السيرة لابن هشام ٤٧٢/٢ سند صحيح

الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَمُوتَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١١﴾ وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارِنِهِمْ لَا يَسْمَعُ السَّوْءَ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾  
[عَاقِبَةُ الْكَاذِبِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَاقِبَةُ الْمُتَّقِينَ]

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ تَسَوَّدَ فِيهِ وُجُوهُ وَتَبَيَّضَ فِيهِ وُجُوهُ، تَسَوَّدَ وَجُوهُ أَهْلِ الْفَرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ، وَتَبَيَّضَ وَجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: فِي دَعْوَاهُمْ لَهُ شَرِيكًا وَلَوْلَا ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ أي: يَكْذِبُهُمْ وَافْتِرَائِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَمُوتَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أَلَسْتُ جَهَنَّمَ كَافِيَةً لَهُمْ سِجْنًا وَمَوْئِلًا، لَهُمْ فِيهَا الْخِزْيُ وَالْهَوَانُ بِسَبَبِ تَكْبُرِهِمْ وَتَجَبُّرِهِمْ وَإِبَائِهِمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِلْحَقِّ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارِنِهِمْ﴾ أي: بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ عِنْدَ اللَّهِ ﴿لَا يَسْمَعُ السَّوْءَ﴾ أي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ، بَلْ هُمْ آمِنُونَ مِنْ كُلِّ فَرْعٍ، مُرْخَضُونَ عَنْ كُلِّ شَرٍّ، نَائِلُونَ كُلَّ خَيْرٍ.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ إِنَّمَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَلَيْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ السَّائِرِينَ ﴿١٧﴾

[اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ، وَالْإِشْرَاقُ بِهِ يُحِيطُ الْعَمَلُ]

يُخَبِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَرَبُّهَا وَمَمْلِكُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، وَكُلُّ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَفَهْرِهِ وَكَلَاءَتِهِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَقَالِيدُ هِيَ الْمَفَاتِيحُ بِالْفَارِسِيَّةِ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الشَّيْخُ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ<sup>(٥)</sup>. وَالْمَعْنَى عَلَى كِلَا الْقَوْلَيْنِ أَنَّ أَرْزَمَةَ الْأُمُور بِيَدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ﴾ أي: حُجِّجِهِ

ثُمَّ اسْتَحَثَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ فَقَالَ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾... الآية، أي: ارجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَسْلِمُوا لَهُ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴿أَيُّ: بَادِرُوا بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ حُلُولِ النَّقْمَةِ﴾ وَأَتَّعِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رِزْقِكُمْ ﴿وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ وَلَا تَشْعُرُونَ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَحَسَّرُ الْمُجْرِمُ الْمُفْطَرُّ فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَيُودُّ لَوْ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ أي: إِنَّمَا كَانَ عَمَلِي فِي الدُّنْيَا عَمَلٌ سَاجِرٌ مُسْتَهْزِئٌ غَيْرُ مُوفٍ مُصَدِّقٍ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرِهًا فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: تَوَدُّ لَوْ أُعِيدَتْ إِلَى الدُّنْيَا لِتُحْسِنَ الْعَمَلَ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا الْعِبَادُ قَائِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَقُولُوهُ، وَعَمَلُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهُ، وَقَالَ تَعَالَى: - ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ - [فاطر: ١٤]: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّكَ اللَّهُ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرِهًا فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي! فَتَكُونُ عَلَيْهِ حَسْرَةً» قَالَ: «وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ: لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي؛ قَالَ: فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>. وَلَمَّا تَمَتَّى أَهْلُ الْجَزَائِمِ الْعُودَ إِلَى الدُّنْيَا وَتَحَسَّرُوا عَلَى تَصَدِيقِ آيَاتِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قَدْ جَاءَكَ أَنَّهَا الْعَبْدُ النَّادِمُ - عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ - آيَاتِي فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، وَقَامَتْ حُجُجِي عَلَيْكَ، فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ عَنْ اتِّبَاعِهَا، وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِهَا الْجَاهِلِينَ لَهَا.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾

(١) الطبري: ٣١٦/٢١ (٢) أحمد: ٥١٢/٢ (٣) النسائي في الكبرى: ٤٤٧/٦ (٤) الدرر المنتورة: ٢٤٣/٧ والطبري: ٢١/٣٢١ (٥) الطبري: ٣٢١/٢١

سُورَةُ الزُّمَرِ

٤٦٦

سُورَةُ الزُّمَرِ

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوُوبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْنِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَّيْتُمُوهَا أَلَمْ تُكْرِهُوا ۖ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوُوبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٢٣﴾

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ...﴾ الآية (٤). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَٰذَا الْمَوْضِعِ مِنْ صَحِيحِهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا (٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟» (٦). تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَٰذَا الْوَجْهِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ (٧). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضِينَ عَلَى أَصْبُعٍ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ:

وَبَرَاهِيْنِهِ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ذَكَرُوا فِي سَبَبِ نَزُولِهَا مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَبَعْدُوا مَعَهُ إِلَهَهُ، فَتَزَلَّتْ: ﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٨) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ (٩). وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَيْ: أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَخُذْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَنْتَ وَمَنْ اتَّبَعَكَ وَصَدَقَكَ.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٠)

[مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أَيْ: مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ حِينَ عَبْدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَا عَظُمُوهُ حَقَّ تَعَظُّمِهِ (١١). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَوْ قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَا كَذَّبُوا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هُمُ الْكَفَّارُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. فَمَنْ آمَنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَقَدْ قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِذَٰلِكَ فَلَمْ يَقْدِرِ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (١٢).

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَالطَّرِيقُ فِيهَا وَفِي أَمْثَالِهَا: مَذْهَبُ السَّلَفِ وَهُوَ: إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْثِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ. رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ خَبَرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى أَصْبُعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى أَصْبُعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى أَصْبُعٍ، وَالْمَاءَ وَالنَّارَ عَلَى أَصْبُعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أَصْبُعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَصَحَّحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبَرِ، ثُمَّ قَرَأَ

(١) انظر الطبري: تفسير سورة الكافرون (٢) الطبري: (٢١)

٣٢١ (٣) الطبري: ٣٢١/٢١ (٤) فتح الباري: ٨/١٢٤

(٥) فتح الباري: ١٣/٤٠٤ وأحمد: ١/٤٢٩ ومسلم: ٤/٢١٤٧

وتحفة الأحوذى ٩/١١٢، ١١٣ والنسائي في الكبرى ٦/٤٤٦

(٦) فتح الباري: ٨/٤١٣ (٧) مسلم: ٤/٢١٤٨

أَنَا الْمَلِكُ». تَفَرَّدَ بِهِ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّكَ تَقُولُ: السَّاعَةُ تَقُومُ إِلَى كَذَا وَكَذَا، قَالَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَحْدَثُكُمْ شَيْئًا، إِنَّمَا قُلْتُ: سَتَرُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ أَمْرًا عَظِيمًا. ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ فِيهِمْ أَرْبَعِينَ - لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً - فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَأَنَّهُ عُرُوهُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ، فَيُظْهِرُ فِيهِلْكُهُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَلْبِثُ النَّاسُ بَعْدَهُ سِنِينَ سَبْعًا، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قُبِضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْ عَلَيْهِ» قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرِوفاً، وَلَا يُتَكَبَّرُونَ مُتَكَبِّرًا، قَالَ: فَيَمْتَلِئُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِبُونَ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَيَعْبُدُونَهَا، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارَةٌ أَرْزَأُفُهُمْ، حَسَنَ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَهُ، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُلُوطُ حَوْضَهُ فَيَصْعَقُ، ثُمَّ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا صَعِقَ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى - أَوْ يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ الظَّلُّ شَكَّ نَعْمَانَ - فَتَنْتَبِثُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يَقَالُ: أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ «وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ» قَالَ: ثُمَّ يَقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: فَيَقَالُ: كَمْ؟ فَيَقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، فَيَوْمِئِذٍ تُبْعَثُ الْوِلْدَانُ شَبَابًا، وَيَوْمِئِذٍ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ<sup>(٢)</sup>. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ التَّخْتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

أَنَا الْمَلِكُ». تَفَرَّدَ بِهِ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمُنْبَرِ: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، يُحَرِّكُهَا يَقْبِلُ بِهَا وَيُذْبِرُ: «يَمَجِّدُ الرَّبَّ نَفْسُهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ» فَارْجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمُنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا لِيَخْرُجَ بِهِ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٣)</sup>.

«وَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» وَأُتْرِفَتْ الْأَرْضُ بِثَوْرِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَفُصِّىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ<sup>(٤)</sup> وَوَقِيتَ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ<sup>(٥)</sup>.

#### [النفخ في الصور والقضاء والجزاء]

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالزَّلَازِلِ الْهَائِلَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» هَذِهِ النَّفْخَةُ هِيَ الثَّانِيَّةُ، وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعِقِ، وَهِيَ الَّتِي يَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ مِنْ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، كَمَا جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ مُفسِّرًا فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ: ثُمَّ يُقْبَضُ أَرْوَاحُ الْبَاقِينَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ مَنْ يَمُوتُ مَلِكُ الْمَوْتِ، وَيَتَفَرَّدُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا، وَهُوَ الْبَاقِي آخِرًا بِالْذِّمَّةِ وَالْبَقَاءِ، وَيَقُولُ: «لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ» [غافر: ١٦] ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَجِيبُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ يَقُولُ: «لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ» أَنَا الَّذِي كُنْتُ وَحْدِي، وَقَدْ فَهَرْتُ كُلَّ شَيْءٍ، وَحَكَمْتُ بِالْقَنَاءِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ يُخْبِي أَوَّلَ مَنْ يُخْبِي إِسْرَافِيلُ، وَيَأْمُرُهُ أَنْ يَنْفُخَ بِالصُّورِ مَرَّةً أُخْرَى، وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» أَيُّ: أَحْيَاءٌ بَعْدَمَا كَانُوا عِظَامًا وَرَفَاتًا، صَارُوا أَحْيَاءً يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا هِيَ رَجَرَةٌ وَاحِدَةٌ<sup>(٦)</sup>» فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات: ١٣، ١٤]. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا قِيلًا<sup>(٧)</sup>» [الإسراء: ٥٢] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا

(١) فتح الباري: ٤٠٤/١٣ (٢) أحمد: ٧٢/٢ (٣) النسائي في الكبرى: ٤٠٠/٤ وابن ماجه: ١٤٢٩/٢ (٤) أحمد: ٢/١٦٦ (٥) مسلم: ٢٢٥٨/٤

إِلَّا عَجِبْتَ ذَنْبِهِ، فِيهِ يُرْكَبُ الْخَلْقُ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْأَرْضَ بِوَرْدِهَا﴾  
أَيُّ: أَضَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا تَجَلَّى الْحَقُّ جَلًّا وَعَلَا  
لِلْخَلَائِقِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: كِتَابُ  
الْأَعْمَالِ<sup>(٢)</sup>. ﴿وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ  
تَعَالَى عَنْهُمَا: يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا رَسُولَاتِ  
اللَّهِ إِلَيْهِمْ<sup>(٣)</sup>. ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ أَيُّ: الشَّهَادَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ  
الْحَفَظَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَوُضِعَ يَتْلُوهُمْ  
بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ: بِالْعَدْلِ ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ  
كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا  
حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ  
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً قَدْ ضَلَعْتُهَا فَلَا تُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا وَإِنْ  
كَانَتْ عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوُضِعَتْ كُلُّ  
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أَيُّ: مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا  
يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ  
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ  
آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ  
كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٤)</sup> قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ  
خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَوَٰى الْمَكْرِبِينَ<sup>(٥)</sup>  
[يُسَاقُ الْكُفَّارُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ كَيْفَ يُسَاقُونَ إِلَى  
النَّارِ، وَإِنَّمَا يُسَاقُونَ سَوْقًا عَنِيفًا، بِزَجَرٍ وَنَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ،  
كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾  
[الطور: ١٣] أَيْ يُدْفَعُونَ إِلَيْهَا دَفْعًا، [هَٰذَا] وَهُمْ عِطَاشٌ  
ظَمَاءٌ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿يَوْمَ تُحْشَرُ  
الْمُتَّقِينَ إِلَى الْآخِرِينَ وَفَدًا﴾<sup>(٦)</sup> وَتَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرَدًا  
[مریم: ٨٥، ٨٦] وَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ ضَمٌّ وَبُكْمٌ وَعُغْمٌ،  
مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴿وَتُحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ  
وُجُوهِهِمْ عُمَاً وَبُكَاً وَصُمًّا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ  
سَعِيرًا﴾ [الاسراء: ٩٧]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾  
أَيُّ: بِمَجَرَّدِ وُضُولِهِمْ إِلَيْهَا فَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُهَا سَرِيعًا،  
لِتُعَجَّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَتُهَا مِنَ الزَّبَانِيَةِ الَّذِينَ  
هُمْ غِلَظُ الْأَخْلَاقِ، شِدَادُ الْقُوَى، عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْرِيعِ

وَالتَّوْبِخِ وَالتَّنْكِيلِ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أَيُّ: مِنْ  
جَنَسِكُمْ تَتَمَكَّنُونَ مِنْ مُحَاطَبَتِهِمْ وَالْأَخِذِ عَنْهُمْ ﴿يَتْلُونَ  
عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ: يُقِيمُونَ عَلَيْكُمْ الْحُجَجَ  
وَالْبَرَاهِينَ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا دَعَوْكُمْ إِلَيْهِ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ  
هَٰذَا﴾ أَيُّ: وَيُحَذِّرُونَكُمْ مِنْ شَرِّ هَٰذَا الْيَوْمِ، يَقُولُ الْكُفَّارُ  
لَهُمْ: ﴿بَلَىٰ﴾ أَيُّ: قَدْ جَاءُونَا وَأَنْذَرُونَا وَأَقَامُوا عَلَيْنَا  
الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى  
الْكَافِرِينَ﴾ أَيُّ: وَلَكِنْ كَذَبْنَاهُمْ وَخَالَفْنَاهُمْ لِمَا سَبَقَ لَنَا مِنَ  
الشُّقُوعِ الَّتِي كُنَّا نَسْتَحِقُّهَا حَيْثُ عَدَلْنَا عَنْ الْحَقِّ إِلَى  
الْبَاطِلِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى:  
﴿كُلَّمَا أَلِيقَا فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُنَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾<sup>(٧)</sup> قَالُوا بَلَىٰ قَدْ  
جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ  
كَبِيرٍ﴾<sup>(٨)</sup> وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ  
أَيُّ: رَجَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ وَالنَّدَامَةِ ﴿فَاعْرِضْهُمْ بِذَلِيلٍ  
فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١] أَيُّ: بُعِدَا لَهُمْ  
وَحَسَارًا.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ  
خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: كُلُّ مَنْ رَأَاهُمْ وَعَلِمَ خَالَهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ  
بِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعَذَابِ، وَلِهَذَا لَمْ يُسْنَدْ هَٰذَا الْقَوْلُ إِلَى  
قَائِلٍ مُّعَيَّنٍ، بَلْ أُلْطِقَهُ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْكُونَ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ  
بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مَا هُمْ فِيهِ بِمَا حَكَمَ الْعَدْلُ الْخَيْرُ عَلَيْهِمْ  
بِهِ. وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ  
خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: مَا كَثُرَ فِيهَا لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا، وَلَا  
زَوَالَ لَكُمْ عَنْهَا ﴿فَبِئْسَ مَوَٰى الْمَكْرِبِينَ﴾ أَيُّ: فَبِئْسَ  
الْمَصِيرُ وَبِئْسَ الْمَقِيلُ لَكُمْ، بِسَبَبِ تَكْبَرِكُمْ فِي الدُّنْيَا،  
وَبِإِبَائِكُمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ فَهُوَ الَّذِي صَيَّرَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ فِيهِ،  
فَبِئْسَ الْحَالُ وَبِئْسَ الْمَالُ.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا  
وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ  
فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾<sup>(٩)</sup> وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ  
وَأَوْفَاَنَا الْأَرْضَ نَنْبَرُؤُا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ  
الْعَامِلِينَ<sup>(١٠)</sup>

[يُذْهَبُ بِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ]

وَهَٰذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ السَّعْدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ يُسَاقُونَ  
(١) فتح الباري: ٤١٤/٨ (٢) الطبري: ٣٣٥/٢١ (٣)  
الطبري: ٣٣٦/٢١



عَلَى النَّجَائِبِ وَفَذَا إِلَى الْجَنَّةِ ﴿زُمَرًا﴾ أَيُّ: جَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ: الْمُقَرَّبُونَ ثُمَّ الْأَبْرَارُ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، كُلُّ طَائِفَةٍ مَعَ مَنْ يُنَاسِبُهُمُ: الْأَنْبِيَاءُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالصَّادِقُونَ مَعَ أَشْكَالِهِمْ، وَالشَّهَدَاءُ مَعَ أَضْرَابِهِمْ، وَالْعُلَمَاءُ مَعَ أَفْرَانِهِمْ، وَكُلُّ صِنْفٍ مَعَ صِنْفٍ، كُلُّ زُمَرَةٍ تُنَاسِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهَا﴾ أَيُّ: وَصَلُوا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ بَعْدَ مُجَاوَزَةِ الصَّرَاطِ، حُسِبُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَانْقَصَّ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَتَقَوُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا انْتَهَوْا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ تَشَاوَرُوا فِيمَنْ يَسْتَأْذِنُ لَهُمْ فِي الدُّخُولِ، فَيَقْصِدُونَ آدَمَ، ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، ثُمَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْعَلِينَ، كَمَا فَعَلُوا فِي الْعَرَصَاتِ عِنْدَ اسْتِشْفَاعِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَأْتِي لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، لِيُظَهَّرَ شَرَفُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup> وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْتَحَ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ - قَالَ: - فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمَرَةٍ تَلْجُ الْجَنَّةَ، صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ فِيهَا، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا، آيَتُهُمْ وَأَمْسَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مِثْلُ سَاقِيهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، فُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا»<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمَرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى ضَوْءِ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتَفِيلُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ،

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَوُتِّحَتْ

أَبْوَابُهَا﴾ وَآوُ الثَّمَانِيَةِ، وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ

(١) مسلم: ١٨٨/١ (٢) مسلم: ١٨٨/١ (٣) أحمد: ٣/ ١٣٦

(٤) مسلم: ١٨٨/١ (٥) أحمد: ٣١٦/٢ (٦) فتح

الباري: ٣٦٧/٦ (٧) مسند أبي يعلى: ١٠/ ٤٧٠

(٨) فتح الباري: ٤١٧/٤ (٩) فتح

الباري: ٤١٣/١١ (١٠) مسند الباري: ١٩٧/١ (١١) فتح الباري: ٤١٤

مسلم: ١٩٨/١

وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ الزُّمَرِ فَتَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ١ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣ مَا يُجَدِّلُ فِي عَائِنَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَدِ ٤ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ٦ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٧

- وفي رواية: - مؤمنة<sup>(٧)</sup> وقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَلِيلِينَ﴾ أي: ما كُتِبَ فيها أبداً، لا ينعون عنها جولا ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ أي: يقول المؤمنون إذا عابنوا في الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم، والتعظيم المقيم، والمملك الكبير يقولون عند ذلك: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا ﴿رَبَّنَا وَعَيْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ الذي أَلْهَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ

(١) أحمد: ٢٦٨/٢ (٢) فتح الباري: ١٣٣/٤ ومسلم: ٧١١ (٣) فتح الباري: ٣٧٨/٦ ومسلم: ٨٠٨/٢ (٤) مسلم: ٢٠٩/١ (٥) فتح الباري: ٢٤٧/٨ ومسلم: ١٨٤/١ (٦) مسلم: ٢٢٧٨/٤ (٧) فتح الباري: ٣٨٥/١١

ثَمَانِيَةً، فَقَدْ أَبْعَدَ الثُّجَعَةَ، وَأَغْرَقَ فِي النَّزْعِ، وَإِنَّمَا يُسْتَفَادُ كَوْنُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةً مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ:

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَتَقَّقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ ضُرُورَةٍ دُعِيَ مِنْ أَيِّهَا دُعِيَ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلُّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ بِنَحْوِهِ<sup>(٢)</sup>. وَفِيهِمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، بَابٌ مِنْهَا يُسَمَّى الرِّيَّانَ، لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ»<sup>(٣)</sup>. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيَبْلُغُ - أَوْ يَسْبِغُ - الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فَتِيحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»<sup>(٤)</sup>.

[ذَكَرَ سَعَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ - نَسَّالَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهَا]

وفي الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ: «فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا مُحَمَّدُ! ادْخُلْ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي الْأَبْوَابِ الْأُخْرَى، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَضْرَاعَيْنِ مِنْ مَضَارِيعِ الْجَنَّةِ - مَا بَيْنَ عِضَادَتَيْ الْبَابِ - لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ - أَوْ هَجَرَ وَمَكَّةَ - وَفِي رِوَايَةٍ - مَكَّةَ وَبُضْرَى»<sup>(٥)</sup> وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عَرْوَانَ أَنَّهُ خَطَبَهُمْ خُطْبَةً فَقَالَ فِيهَا: وَلَقَدْ ذَكَرْنَا أَنْ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَضَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَطِيطٍ مِنَ الرَّحَامِ<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خُزْنُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أَي: طَابَتْ أَعْمَالُكُمْ وَأَقْوَالُكُمْ، وَطَابَ سَعْيُكُمْ وَطَابَ جَزَاؤُكُمْ، كَمَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُنَادَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ

- أَوْ قَالَ: الْحَوَامِيمُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مِسْعَرٌ بُنْ كِدَامَ: كَانَ يُقَالُ لَهُنَّ: الْعَرَائِسُ<sup>(٥)</sup>. رَوَى ذَلِكَ كُلُّهُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ أَبُو عَبْدِ الْقَاسِمِ بُنْ سَلَامَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى حُمَيْدُ بُنْ زَنْجُوْبَةٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ انْطَلَقَ يَرْتَادُ لِأَهْلِهِ مَنْزِلًا، فَمَرَّ بِأَثَرِ غَيْثٍ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ فِيهِ وَتَوَجَّعَتْ مِنْهُ، إِذْ هَبَطَ عَلَى رَوْضَاتٍ دُمَيَّاتٍ فَقَالَ: عَجِبْتُ مِنَ الْغَيْثِ الْأَوَّلِ، فَهَذَا أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ. فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ مَثَلَ الْغَيْثِ الْأَوَّلِ مَثَلُ عَظَمِ الْقُرْآنِ، وَإِنَّ مَثَلَ هَؤُلَاءِ الرِّوَضَاتِ الدَّمِيَّاتِ، مَثَلُ آلِ حِمٍّ فِي الْقُرْآنِ. أَوْزَدَهُ الْبَغَوِيُّ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا وَقَعَتْ فِي آلِ حِمٍّ فَقَدْ وَقَعَتْ فِي رَوْضَاتٍ أَتَانَتْ فِيهِنَّ<sup>(٨)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْوَحْدِ﴾<sup>(٩)</sup>

الْصَّبْرِ ﴿١٠﴾

أَمَّا الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ سَمِعٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ بُيِّنْتُمُ اللَّيْلَةَ فَقُولُوا: حَمْدٌ لَا يُنْصَرُونَ»<sup>(٩)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أَيْ: تَنْزِيلُ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ مِنَ اللَّهِ ذِي الْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ، فَلَا يُرَامُ جَنَابُهُ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الدَّرُّ وَإِنْ تَكَافَتْ جَبَابُهُ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أَيْ: يَغْفِرُ مَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أَيْ: لِمَنْ تَمَرَّدَ وَطَعَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَعَنَّا عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَعَى، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(١٠)</sup> وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْأَلِيمُ<sup>(١١)</sup> [الحجر: ٤٩، ٥٠] يَثْرُنُ هَذَيْنِ الْوُصْفَيْنِ كَثِيرًا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَنْبَوُا مِنْ آلِ حِمٍّ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلَيْنِ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَأَبُو صَالِحٍ وَفَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: أَيْ: أَرْضُ الْجَنَّةِ<sup>(١٢)</sup>. فَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿نَنْبَوُا مِنْ آلِ حِمٍّ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أَيْ: أَيْنَ شِئْنَا حَلَلْنَا، فَنِعَمَ الْأَجْرُ أَجْرُنَا عَلَى عَمَلِنَا. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِدُ اللَّوْلُؤِ، وَإِذَا تَرَائِبُ الْمِسْكِ»<sup>(١٣)</sup>.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٤)</sup> لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنَّهُ نَزَلَ كُلًّا فِي الْمَحَلِّ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَيُصْلِحُ لَهُ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجُورُ، أَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ مُخْدِقُونَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ الْمَجِيدِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيَمْجُدُونَهُ وَيُعْظِمُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيَنْزِهُونَهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْجَوْرِ، وَقَدْ فَصَّلَ الْقَضِيَّةَ، وَقَضَى الْأَمْرَ، وَحَكَمَ بِالْعَدْلِ. وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿بِالْحَقِّ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: نَطَقَ الْكُونُ أَجْمَعُهُ - نَاطِقُهُ وَبَهِيمُهُ - اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، بِالْحَمْدِ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا لَمْ يُسَيِّدِ الْقَوْلَ إِلَى قَائِلٍ، بَلْ أَطْلَقَهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ شَهِدَتْ لَهُ بِالْحَمْدِ. قَالَ فَتَادَةُ: اِفْتَتَحَ الْخَلْقُ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وَاخْتَتَمَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٥)</sup>.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ آلِ حِمٍّ]

قَدْ كَرِهَ بَعْضُ السَّلَفِ مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بُنْ سَبْرِينَ أَنْ يُقَالَ: الْحَوَامِيمُ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: آلُ حِمٍّ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بُنْ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آلُ حِمٍّ دِيْبَاُ الْقُرْآنِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا وَلُبَابُ الْقُرْآنِ آلُ حِمٍّ

(١) القرطبي: ٢٨٧/١٥ (٢) فتح الباري: ٥٤٧/١ ومسلم: ١/١٤٨ (٣) الطبري: ٣٤٤/٢١ (٤) الدر المنثور: ٢٦٨/٧ (٥) القرطبي: ٢٨٨/١٥ (٦) فضائل القرآن: ١٣٧، ١٣٨ (٧) البغوي: ٩٠/٤ (٨) البغوي: ٩٠/٤ (٩) أبو داود: ٧٤/٣ وتحفة الأحوذى: ٣٢٩/٥

الْقُرْآنَ، لِيَبْقَى الْعَبْدُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي السَّعَةَ وَالْعُنَى<sup>(١)</sup>. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى عِبَادِهِ، الْمُتَطَوِّلُ عَلَيْهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمُنَنِ وَالْإِنْعَامِ، الَّتِي لَا يُطِيقُونَ الْقِيَامَ بِشُكْرِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا ﴿وَلَنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾... الْآيَةُ [إبراهيم: ٣٤]. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيُّ لَا تُظَاهَرُ لَهُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أَيُّ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَى، فَيَجَازِي كُلَّ غَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ﴿مَا يُجَدِلُ فِي عَايَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْخِلَهُمْ فِي الْخَلْقِ فَالْخُذُّهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

[مِنْ صِفَاتِ الْكُفَّارِ الْجِدَالُ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَبَيَانُ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: مَا يَدْفَعُ الْحَقُّ وَيُجَادِلُ فِيهِ بَعْدَ الْبَيَانِ وَظُهُورِ الْبُرْهَانِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ الْجَاذِلُونَ لآيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ﴿فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْإِلْدَادِ﴾ أَيُّ فِي أَمْوَالِهَا وَنَعِيمِهَا وَزَهْرَتِهَا، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا يَغْزِرُكَ تَقْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلْدَادِ﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَادَنَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّسَ الْإِهَادُ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَمِيعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، بِأَنَّهُ لَهُ أَسْوَةٌ فِيمَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ قَدْ كَذَّبَهُمْ أُمَمُهُمْ وَخَالَفُوهُمْ وَمَا آمَنَ بِهِمْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَقَالَ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَنْهَى عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَيُّ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أَيُّ حَرَّصُوا عَلَى قَتْلِهِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ رَسُولَهُ ﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْخِلَهُمْ فِي الْخَلْقِ﴾ أَيُّ مَا حَلُّوا بِالشَّبَهَةِ لِيَرُدُّوا الْحَقَّ الْوَاضِحَ الْجَلِيِّ.

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ أَيُّ أَهْلَكْتَهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا مِنْ هَذِهِ الْأَثَامِ وَالذُّنُوبِ الْعِظَامِ ﴿فَكَفَّ كَانَ عِقَابُ﴾ أَيُّ فَكَفَّفَ بَلْعَكَ عَذَابِي لَهُمْ وَنَكَالِي بِهِمْ؟ قَدْ كَانَ

شَدِيدًا مُوجِعًا مُؤْلِمًا. قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ شَدِيدًا وَاللَّهُ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أَيُّ كَمَا حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْأَمَمِ السَّالِفَةِ كَذَلِكَ حَقَّتْ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُواكَ وَخَالَفُوكَ يَا مُحَمَّدُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى، لِأَنَّ مَنْ كَذَّبَكَ فَلَا وَتُوقَ لَهُ بِتَصْدِيقِ غَيْرِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَفِيهِمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقَى السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿

[حَمَلَةُ الْعَرْشِ يَحْمَدُونَ اللَّهَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ الْأَرْبَعَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكُرُوبِيِّينَ بِأَنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أَيُّ يَقْرَأُونَ بَيْنَ التَّسْبِيحِ الدَّالَّ عَلَى نَفْيِ النَّقَائِصِ وَالْتَّحْمِيدِ الْمُفْتَضِّي لِلْإِثْبَاتِ صِفَاتِ الْمَدْحِ ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَيُّ خَاشِعُونَ لَهُ أَذْلَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنَّهُمْ يُسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيُّ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ مِمَّنْ آمَنُوا بِالْغَيْبِ فَقَبِضَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ أَنْ يَدْعُوا لِلْمُؤْمِنِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا مِنْ سَجَايَا الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانُوا يُؤْمِنُونَ عَلَى دَعَاءِ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «إِذَا دَعَا الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِهِ»<sup>(٣)</sup>. قَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثَمَانِيَّةٌ: أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى جَلَمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَأَرْبَعَةٌ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ إِذَا اسْتَغْفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أَيُّ رَحِمْتَك تَسَعُ ذُنُوبَهُمْ وَخَطَايَاهُمْ وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ

(١) الطبري: ٣٥١/٢١ (٢) الطبري: ٣٥٣/٢١ (٣) مسلم: ٤/

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦٨

سُورَةُ الْغَافِرِ

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَتْنَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِدُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوُفُّوْا فَلْيُحْكَمْ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

## [نَدَامَةُ الْكَافِرِ بَعْدَ دُخُولِ النَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ يُنَادُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ النَّيرانِ يَتَلَطَّطُونَ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا بَاشَرُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ، فَمَقَّتُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْغَضُوهَا غَايَةَ الْبُغْضِ بِسَبَبِ مَا أَسْلَفُوا مِنْ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ دُخُولِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَأَخْبَرْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ إِخْبَارًا عَالِيًا نَادَوْهُمْ نِدَاءً بِأَنَّ مَقَّتَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي الدُّنْيَا جِنِّ كَانِ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ الْإِيمَانُ فَكَفَرُوا أَشَدَّ مِنْ مَقْتِكُمْ - أَيُّهَا الْمُعَذَّبُونَ - أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ. قَالَ فَتَادَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يَقُولُ: لَمَقْتُ اللَّهُ أَهْلَ الضَّلَالَةِ جِنِّ عُرِضَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ فِي الدُّنْيَا فَتَرَكُوهُ وَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوهُ أَكْبَرُ

وَسَكَتَانِهِمْ ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ (١). أَيُّ فَاصْفَحَ عَنِ الْمُسِيئِينَ إِذَا تَابُوا وَاتَّبَعُوا وَأَقْلَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ، وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أَيُّ وَرَحِزْهُمْ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ، وَهُوَ الْعَذَابُ الْمُوجِعُ الْأَلِيمُ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أَيُّ اجْمَعْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ لِتَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْيُنُهُمْ بِالْاجْتِمَاعِ فِي مَنَازِلَ مُتَجَاوِرَةٍ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أَيُّ سَاوَيْنَا بَيْنَ الْكُلِّ فِي الْمَنْزِلَةِ لِتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَمَا نَقَصْنَا الْعَالِيَّ حَتَّى يُسَاوِيَ الدَّانِي بَلْ رَفَعْنَا نَاقِصَ الْعَمَلِ فَسَاوَيْنَاهُ بِكَبِيرِ الْعَمَلِ تَفْضُلًا مِمَّا وَمِنَهُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ سَأَلَ عَنْ أَبِيهِ وَابْنِهِ وَأَخِيهِ أَيْنَ هُمْ؟ فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا طَبَقَتِكَ فِي الْعَمَلِ فَيَقُولُ: إِنِّي إِنَّمَا عَمِلْتُ لِي وَلَهُمْ. فَيَلْحَقُونَ بِهِ فِي الدَّرَجَةِ، ثُمَّ تَلَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ (٢). قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ: أَنْصَحُ عِبَادَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَلَائِكَةُ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ... الْآيَةَ، وَأَعَشُرْ عِبَادَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الشَّيَاطِينِ﴾ (٣). وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُعَالَبُ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ مِنْ شَرْعِكَ وَقَدْرِكَ ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أَيُّ فَعَلْهَا أَوْ وَبَالَهَا يَمَنْ وَقَعَتْ مِنْهُ ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أَيُّ لَطَفْتَ بِهِ وَنَجَّيْتَهُ مِنَ الْعُقُوبَةِ ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَتْنَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِدُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوُفُّوْا فَلْيُحْكَمْ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

(١) البغوي: ٩٣/٤ (٢) الطبري: ٣٥٧/٢١ (٣) القرطبي:

مِمَّا مَقْتُوا أَنْفُسَهُمْ جِئْنَا عَذَابَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَدُرُّ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ الْهُمْدَانِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَتَيْنَا نَسْتَجِيبَ وَأُحْيِيَّتَنَا أَتَلْتَمِيزُ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِنَّهُ رَاجِعٌ﴾<sup>(٣)</sup> [البقرة: ٢٨] وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَأَبُو مَالِكٍ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِئَةٌ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ: أَنَّ الْكُفَّارَ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ وَهُمْ وَفُوقَ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فَلَا يَجَافُونَ، ثُمَّ إِذَا رَأَوْا النَّارَ وَعَايَنُوهَا، وَوَفُوقَهَا عَلَيْهِمْ، وَنَظَرُوا إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ سَأَلُوا الرَّجْعَةَ أَشَدَّ مِمَّا سَأَلُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَلَا يَجَافُونَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْوُفُوءِ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكُذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٥)</sup> بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

[الأنعام: ٢٧، ٢٨] فَإِذَا دَخَلُوا النَّارَ وَذَاقُوا مَسَهَا وَحَسِسُوهَا وَمَقَامِعَهَا وَأَعْلَالَهَا كَانَ سُؤَالُهُمْ لِلرَّجْعَةِ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ أَوَّلَ نَعْمَتِكُمْ مَا يَنْذَكُرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَهَاجَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾<sup>(٦)</sup> قَالَ أَخَشُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨] وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَلَطَّفُوا فِي السُّؤَالِ وَقَلَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ كَلَامِهِمْ مُقَدِّمَةً وَهِيَ قَوْلُهُمْ: ﴿رَبَّنَا أَتَيْنَا نَسْتَجِيبَ وَأُحْيِيَّتَنَا أَتَلْتَمِيزُ﴾ أَيْ قُدْرَتِكَ عَظِيمَةً، فَإِنَّكَ أَحْيَيْتَنَا بَعْدَ مَا كُنَّا أَمْوَاتًا ثُمَّ أَمَتْنَا ثُمَّ أَحْيَيْتَنَا، فَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى مَا تَشَاءُ، وَقَدْ اغْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا، وَإِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِنَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أَيْ فَهَلْ أَنْتَ مُجِيبُنَا إِلَى أَنْ تُعِيدَنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ لِتَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، فَإِنَّ عُدْنَا إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ فَإِنَّا ظَالِمُونَ، فَأُجِيبُوا أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى عَوْدَتِكُمْ وَمَرْجِعِكُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، ثُمَّ عَلَّلَ الْمُنْعَ مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّ

(١) الطبري: ٣٥٩/٢١ (٢) الطبري: ٣٥٩/٢١ (٣) الطبري: ٣٦٠/٢١ (٤) الطبري: ٣٦٠/٢١ (٥) أحمد: ٤/٤ (٦) مسلم: ٤١٦/١ وأبو داود ١٧٣/٢ والنسائي ٧٨/٣، ٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦٩

الْأَنْعَامِ

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ  
 اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ  
 لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعَ  
 يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾  
 وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ  
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي  
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ  
 كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ  
 بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ  
 كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ  
 قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا  
 وَسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَقَرُونَ  
 فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ  
 عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَوْثَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا  
 نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾

أَيُّ الْمُتَكَبِّرُونَ؟<sup>(٣)</sup>. وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا  
 قَبَضَ أَرْوَاحَ جَمِيعِ خَلْقِهِ فَلَمْ يَبْقَ سِوَاهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ  
 حِينَئِذٍ يَقُولُ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يُجِيبُ  
 نَفْسَهُ قَائِلًا: ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾<sup>(٤)</sup>. أَيُّ الَّذِي هُوَ وَحْدَهُ  
 قَدْ فَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ وَعَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى  
 كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾  
 يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَذْلِهِ فِي حُكْمِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ  
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَلَا مِنْ شَرٍّ بَلْ يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ  
 أَمْثَالِهَا وَبِالسَّيِّئَةِ وَاحِدَةً، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا  
 ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ  
 اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ  
 قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ  
 بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا» - إِلَى أَنْ قَالَ - يَا عِبَادِي إِنَّمَا

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا  
 اللَّهُ، وَلَا تَعْبُدْ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ  
 الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ  
 الْكَافِرُونَ<sup>(١)</sup>.

﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ  
 مِنْ عِبَادِهِ. لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٧﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ  
 مِنْهُمْ شَيْءٌ. لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٨﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى  
 كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ  
 الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

[وَحْيِي اللَّهِ لِيُنْذِرَ عِبَادِهِ يَوْمَ التَّلَاقِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَارْتِفَاعِ عَرْشِهِ  
 الْعَظِيمِ الْعَالِيِّ عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ كَالشَّفَقِ لَهَا، كَمَا قَالَ  
 تَعَالَى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿١٧﴾ تَرْجِعُ الْمَلَكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ  
 فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤، ٣]، وَسَيَأْتِي  
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ مَسَافَةٌ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ إِلَى  
 الْأَرْضِ السَّابِعَةِ فِي قَوْلِ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ،  
 وَهُوَ الْأَرْجَحُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّ الْعَرْشَ  
 مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ، اتَّسَاعُ مَا بَيْنَ قُطْرَيْهِ مَسِيرَةُ خَمْسِينَ أَلْفَ  
 سَنَةٍ. وَارْتِفَاعُهُ عَنِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ مَسِيرَةُ خَمْسِينَ أَلْفَ  
 سَنَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ  
 عِبَادِهِ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ  
 عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾  
 [النحل: ٢]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ لِنُزُلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ نَزَلَ بِهِ  
 الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٨﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ -  
 ١٩٤] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قَالَ عَلِيُّ  
 ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَوْمَ التَّلَاقِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ  
 يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَدَّرَ اللَّهُ مِنْهُ عِبَادَهُ<sup>(٢)</sup>. وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَامِلٍ  
 سَيَلَفَى مَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ  
 شَيْءٌ﴾ أَيُّ ظَاهِرُونَ بِأَدُونِ كُلِّهِمْ لَا شَيْءَ يُخْفِيهِمْ وَلَا يَظْلِمُهُمْ  
 وَلَا يَسْتُرُهُمْ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ  
 شَيْءٌ﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ فِي عِلْمِهِ عَلَى السَّوَاءِ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ  
 وَتَعَالَى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي  
 حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ تَعَالَى يَطْوِي  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِيَدِهِ ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا  
 الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَيُّ مُلُوكِ الْأَرْضِ؟ أَيُّ الْجَبَّارُونَ؟

(١) مسلم: ٤١٥/١ (٢) الطبري: ٢١/٣٦٤ (٣) الطبري: ٢١/

٣٢٧ (٤) الطبراني في الطوال: ص ٢٧٠

الضُّدُورِ مِنَ الضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿حَابِئَةَ  
الْأَعْيُنِ﴾ هُوَ الْعَمَزُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: رَأَيْتُ وَلَمْ يَرَ. أَوْ لَمْ  
أَرَ. وَقَدْ رَأَى<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى  
عَنْهُمَا: يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَيْنِ فِي نَظَرِهَا: هَلْ تُرِيدُ  
الْحَيَاةَ أَمْ لَا<sup>(٥)</sup>؟ وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تُخْفِي  
الضُّدُورُ﴾ يَعْلَمُ إِذَا أَنْتَ فَدَرْتُ عَلَيْهَا هَلْ تُزَيِّي بِهَا أَمْ  
لَا<sup>(٧)</sup>؟ وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَمَا تُخْفِي الضُّدُورُ﴾ أَيُّ مِنَ  
الْمُوسُوسَةِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ يَحْكُمُ  
بِالْعَدْلِ. قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْزِيَ  
بِالْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ وَبِالسيِّئَةِ السيِّئَةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ  
الْبَصِيرُ﴾<sup>(٨)</sup>. وَهَذَا الَّذِي فَسَّرَ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا هَذِهِ الْآيَةَ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَجْزِي الَّذِينَ اسْتُوا  
بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١]. وَقَوْلُهُ جَلَّ  
وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ  
وَالْأَنْدَادِ ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ أَيُّ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا  
يَحْكُمُونَ شَيْئًا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَيُّ سَمِيعٌ  
لِقَوْلِهِ خَلْقِهِ، بَصِيرٌ بِهِمْ، فَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ  
يَشَاءُ وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا  
مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَلْحَمَهُمُ  
اللَّهُ دُونَهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ﴾<sup>(٩)</sup> ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ  
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَلْحَمَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ

شَدِيدٌ الْعِقَابِ<sup>(١٠)</sup>

### [عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ السَّيِّئَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بِرِسَالَتِكَ  
يَا مُحَمَّدٌ ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ  
قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا  
أَشَدَّ مِنْ هَؤُلَاءِ قُوَّةً ﴿وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ أَثَرُوا فِي

هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا عَلَيْكُمْ ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ  
خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا  
يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ<sup>(١١)</sup>.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيُّ  
يَحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ كَمَا يَحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً كَمَا قَالَ  
جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً﴾  
[لقمان: ٢٨] وَقَالَ جَلَّ جَلَّالَهُ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ  
بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمَةً مَا  
لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾<sup>(١٢)</sup> يَعْلَمُ حَابِئَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا  
تُخْفِي الضُّدُورُ<sup>(١٣)</sup> وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ  
لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ<sup>(١٤)</sup>

### [الْإِنذَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَضَاءُ اللَّهِ فِيهِ]

يَوْمَ الْأَرْفَةِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ  
لِافْتِرَاقِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَرْفَتِ الْأَرْفَةُ﴾<sup>(١٥)</sup> لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ  
اللَّهِ كَاشِفَةٌ [النجم: ٥٨، ٥٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَقْرَبَتْ  
السَّاعَةَ وَاشْتَقَّ الْفَسْرُ﴾ [القمر: ١] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَقْرَبَتْ  
لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وَقَالَ: ﴿أَنَّهُ أَثَرُ اللَّهِ فَلَا  
تَسْتَعْلِجُوهُ﴾ [النحل: ١] وَقَالَ جَلَّ جَلَّالَهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً  
سَيَّتَتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الْآيَةُ [الملك: ٢٧]. وَقَوْلُهُ  
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمَةً﴾ قَالَ  
قَتَادَةُ: وَقَفَّتِ الْقُلُوبُ فِي الْحَنَاجِرِ مِنَ الْخَوْفِ، فَلَا تَخْرُجُ  
وَلَا تَعُودُ إِلَى أَمَاكِنِهَا<sup>(١٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ  
وَاحِدٍ، وَمَعْنَى ﴿كَظِيمَةً﴾ أَيُّ سَاكِنِينَ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا  
بِإِذْنِهِ ﴿يَوْمَ يَوْمِ أَرْوَحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ  
الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿كَظِيمَةً﴾  
أَيُّ بَاكِينَ<sup>(١٧)</sup>. وَقَوْلُهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ  
حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أَيُّ لَيْسَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسُهُمْ  
بِالشَّرِكِ بِاللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ مِنْهُمْ يَنْفَعُهُمْ وَلَا شَفِيعَ يَشْفَعُ فِيهِمْ،  
بَلْ قَدْ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿يَعْلَمُ حَابِئَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الضُّدُورُ﴾ يُخْبِرُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ  
عِلْمِهِ النَّامِ الْمُحِيطِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ جَلِيلِهَا وَخَفِيرِهَا،  
صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، دَقِيقِهَا وَلَطِيفِهَا لِيَحْذَرَ النَّاسُ عِلْمَهُ فِيهِمْ  
فَيَسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ الْحَيَاءِ وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تَقْوَاهُ،  
وَيَرِيقُوهُ مُرَاقَبَةً مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ الْعَيْنِ  
الْحَاشِيَةَ وَإِنْ أَبْذَتْ أَمَانَةً، وَيَعْلَمُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ حَبَايَا

(١) مسلم: ١٩٩٤/٤ (٢) الطبري: ٣٦٨/٢١ (٣) الدر  
المنثور: ٢٨١/٧ (٤) القرطبي: ٣٠٣/١٥ (٥) الطبري: ٢١/  
٣٦٩ (٦) الطبري: ٣٧٠/٢١ (٧) الطبري: ٣٦٩/٢١ (٨)  
الطبري: ٣٦٩/٢١



﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي بالبُرْهَانِ القاطع الدالِّ على أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ ﴿فَالَوْ أَقْتَلُوا ابْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ مِنْ فِرْعَوْنَ يَقْتُلْ ذُكُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. أَمَّا الْأَوَّلُ فَكَانَ لِأَجْلِ الْإِحْتِرَازِ مِنْ وُجُودِ مُوسَى أَوْ لِإِذْلَالِ هَذَا الشَّعْبِ وَقَلِيلِ عَدُوِّهِمْ أَوْ لِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ. وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي فَلِقِلْعَةِ الثَّانِيَةِ: [لِلْهَانَةِ] هَذَا الشَّعْبِ، وَلَكِنِّي يَسْأَلُونَ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أُذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا أَمْرٌ بَعْدَ أَمْرٍ<sup>(١)</sup>. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي وَمَا مَكْرُهُمْ وَقَصْدُهُمْ الَّذِي هُوَ تَقْلِيلُ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - لئَلَّا يَنْصُرُوا عَلَيْهِمْ - إِلَّا ذَاهِبٌ وَهَالِكٌ فِي ضَلَالٍ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وَهَذَا عَزَمَ مِنْ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى قَتْلِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيْ قَالَ لِقَوْمِهِ: دَعُونِي حَتَّى أَقْتُلَ لَكُمْ هَذَا ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أَيْ لَا أَبَالِي بِهِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْجَحْدِ وَالتَّجْهَرِ<sup>(\*)</sup> وَالْعِنَادِ، وَقَوْلُهُ قَبْحَهُ اللهُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يَعْنِي مُوسَى. يَخْشَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُضِلَّ مُوسَى النَّاسَ وَيُغَيِّرَ رُسُومَهُمْ وَعَادَاتِهِمْ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ: صَارَ فِرْعَوْنُ مُذَكَّرًا! يَعْنِي وَاعْظَا يُشْفِقُ عَلَى النَّاسِ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ! وَقَرَأَ الْأَكْثَرُونَ: (أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) وَقَرَأَ الْآخَرُونَ: ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (يُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) بِالضَّمِّ ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أَيْ لَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: اسْتَجَرْتُ بِاللَّهِ وَعُذْتُ بِهِ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ أَمْثَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أَيْ عَنِ الْحَقِّ مُجْرِمٍ ﴿لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ

الْأَرْضِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمَعَالِمِ، وَالذِّبَارَاتِ مَا لَا يَثْدُرُ هَوْلَاءُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحاف: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أَيْ مَعَ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالْبَاسِ الشَّدِيدِ أَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَهِيَ كُفْرُهُمْ بِرُسُلِهِمْ ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أَيْ وَمَا دَفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ أَحَدٌ وَلَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ، وَلَا وَقَاهُمْ وَاقٍ، ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّةَ أَخْذِهِ إِيَّاهُمْ وَذُنُوبَهُمُ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا وَاجْتَرَمُوهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالذِّلَالِ الْوَاضِحَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ ﴿فَكَفَرُوا﴾ أَيْ مَعَ هَذَا الْبَيِّنَاتِ وَالْبُرْهَانِ كَفَرُوا وَجَحَدُوا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ﴾ تَعَالَى أَيْ أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ دُو قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَبَطْشٍ شَدِيدٍ ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ عِقَابُهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ وَجِيعٌ، أَعَادَنَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ٢٣ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَدَنَ وَقَدَّرْتُ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ٢٤ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ٢٥ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ٢٦ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ ٢٧

### [فَصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّمًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَمُبَشِّرًا لَهُ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالْثَّوْرَةَ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا جَرَى لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ. وَالذِّلَالِ الْوَاضِحَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وَالسُّلْطَانُ هُوَ الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ وَهُوَ مَلِكُ الْقُفْطِ بِالذِّبَارِ الْمِصْرِيَّةِ ﴿وَهَدَنَ﴾ وَهُوَ وَزِيرُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ ﴿وَقَدَّرْتُ﴾ وَكَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَالًا وَتِجَارَةً ﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ أَيْ كَذَّبُوهُ وَجَعَلُوهُ سَاحِرًا مَجْنُونًا، مُمَوِّهًا، كَذَّابًا فِي أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ﴾ ٥١ اتَّوَصَوْا بِمَنْ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴿[الذاريات: ٥٢، ٥٣]

(١) الطبري: ٣٧٣/٢١ (\*) كذا وجدنا في جميع النسخ المطبوعة الحاضرة: التجهر، ولم نجد له أمثالا في اللغة. والجهرية نوع من الثياب وجههم واد بفارس وقرية هناك (اللسان وتاج العروس)

عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ، وَنَذَرُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾<sup>(٢)</sup> يَقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾<sup>(٣)</sup>

[تَأْيِيدُ مُوسَى بِرَجُلٍ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَخِطَابُ هَذَا الرَّجُلِ]

المشهور أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ كَانَ قِطِيًّا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ. قَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ ابْنُ عَمِّ فِرْعَوْنَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ الَّذِي نَجَا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ [جُرَيْجٍ] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ سِوَى هَذَا الرَّجُلِ وَامْرَأَةٍ فِرْعَوْنِ، وَالَّذِي قَالَ: ﴿يَمُوسَى إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ﴾ [القصص: ٢٠] رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ عَنْ قَوْمِهِ الْقَبِيضَ فَلَمْ يُظْهِرْ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ حِينَ قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ فَأَخَذَتْ الرَّجُلَ غَضَبُهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَأَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ<sup>(٦)</sup>. وَلَا أَغْطِمُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ -عِنْدَ فِرْعَوْنَ- وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أَللَّهُمَّ إِلَّا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُسْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّيُ يَفْنَاءَ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ غُفْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَوَى تَوْبَةً فِي غُنْفِهِ فَخَنَقَهُ خَنَقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ انفرد بِهِ الْبُخَارِيُّ<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيِ كَيْفَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا لِكُفْرِهِ يَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ أَقَامَ لَكُمْ الْبُرْهَانَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ؟ ثُمَّ تَنَزَّلَ مَعَهُمْ فِي الْمُخَاطَبَةِ فَقَالَ: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ

الْمُزَكَّاتُ وَالزَّكَاةُ

٤٧٠

سُورَةُ غَافِرٍ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾<sup>(٨)</sup> وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾<sup>(٩)</sup> وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾<sup>(١٠)</sup> يَقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾<sup>(١١)</sup> وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾<sup>(١٢)</sup> مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾<sup>(١٣)</sup> وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾<sup>(١٤)</sup> يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدْيَنَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾<sup>(١٥)</sup>

يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ بِغْنِي إِذَا لَمْ يَظْهَرْ لَكُمْ صِحَّتُهُ مَا جَاءَكُمْ بِهِ فَمِنْ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ الثَّامِّ وَالْحَزْمِ أَنْ تَتْرُكُوهُ وَنَفْسَهُ فَلَا تُؤَدُّهُ، فَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَيِّجَارِيزِهِ عَلَى كَذِبِهِ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ يَكُنْ صَادِقًا وَقَدْ آذَيْنْتُمُوهُ يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، فَإِنَّهُ يَتَوَعَّدُكُمْ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمِنْ الْجَائِزِ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا فَيَتَّبِعِي عَلَى هَذَا أَنْ لَا تَتَعَرَّضُوا لَهُ، بَلِ انْتَرِكُوهُ وَقَوْمُهُ يَدْعُوهُمْ وَيَتَّبِعُونَهُ. وَهَكَذَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الْمَوَادَعَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾<sup>(١٦)</sup> أَنْ آذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾<sup>(١٧)</sup> وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي مَسْلُطٌ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(١٨)</sup> وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾<sup>(١٩)</sup> وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّوا

(١) النسائي في الكبرى: ١٨٨/٥ (٢) الطبري: ٣٧٥/٢١ (٣) القرطبي: ٣٠٦/١٥ (٤) تحفة الأحوذى: ٣٩٥/٦ (٥) فتح الباري: ٤١٦/٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٤٧١

سُورَةُ الْاِنْفِصَالِ

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِيَ صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثَرٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَوْنَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

مِنْ إِمَامٍ يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٍ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ<sup>(١)</sup>. وَاللَّهُ شَبَّاحُهُ وَتَعَالَى الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ.

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ

الْأَحْزَابِ﴾ ﴿٣٥﴾ مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٦﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٧﴾ يَوْمَ تُولَدُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ مِنْ هَادٍ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٤٠﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ

[الدخان: ١٧-٢١] وَهَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِفِرْعَوْنَ أَنْ يَرْكُوعًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عِبَادَ اللَّهِ، وَلَا يَمْسُوهُ بِسُوءٍ وَيَصِلُوا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ فِي تَرْكِ أَدْبَتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ الْفَرِيقِ﴾ إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي - فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ، فَلَا تُؤْذُونِي وَتَتَرَكُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، وَعَلَى هَذَا وَقَعَتِ الْهُدْنَةُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَكَانَ فَتْحًا مَبْنِيًّا.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ أَيْ لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ: كَاذِبًا - كَمَا تَزْعُمُونَ - لَكَانَ أَمْرُهُ بَيْنًا يَطْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَكَانَتْ تَكُونُ فِي غَايَةِ الْإِخْتِلَافِ وَالْإِضْطِرَابِ، وَهَذَا نَرَى أَمْرَهُ سَدِيدًا وَمَنْهَجُهُ مُسْتَقِيمًا، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْكَذَّابِينَ لَمَا هَدَاهُ اللَّهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا تَرُونَ مِنْ انْتِظَامِ أَمْرِهِ وَفِعْلِهِ، ثُمَّ قَالَ الْمُؤْمِنُ مُحَذِّرًا قَوْمَهُ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَنْهُمْ وَخُلُوفَ نِقْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ أَلَمُكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْمُلْكِ وَالظُّهُورِ فِي الْأَرْضِ بِالْكَلِمَةِ الثَّانِيَةِ وَالْحِجَاةِ الْعَرِيضِ فَرَاغُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَضَدِيقِ رَسُولِهِ ﷺ وَاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللَّهِ إِنْ كَذَبْتُمْ رَسُولَهُ ﴿فَمَنْ يَصْرِفْنَا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أَيْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ هَذِهِ الْجُبُودُ وَهَذِهِ الْعَسَاكِرُ وَلَا تَرُدُّ عَنَّا شَيْئًا مِنْ بَاسِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنَا بِسُوءٍ. قَالَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ -رَادًا عَلَى مَا أَشَارَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ، الَّذِي كَانَ أَحَقَّ بِالْمُلْكِ مِنْ فِرْعَوْنَ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أَيْ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ لِنَفْسِي وَقَدْ كَذَبَ فِرْعَوْنُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّقُ صِدْقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَمْعًا دُونَهَا وَاسْتَبَقْنَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَغُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] فَقَوْلُهُ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كَذَبَ فِيهِ وَافْتَرَى وَخَانَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ وَرَعِيَّتَهُ فَغَشَّهُمْ، وَمَا نَصَحَهُمْ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أَيْ وَمَا أَدْعُوكُمْ إِلَّا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرُّشْدِ. وَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ قَدْ أَطَاعُوهُ وَاتَّبَعُوهُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] وَقَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩] وَفِي الْحَدِيثِ: ﴿مَا

أَسْنَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا  
وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سَوَّاهُ عَلَيْهِمْ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ  
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

[استهزاء فرعون برَبِّ موسى]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَعُتُوهُ وَتَمَرُّدِهِ وَافْتِرَائِهِ  
فِي تَكْذِيبِهِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ أَمَرَ وَزِيرَهُ  
هَامَانَ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ صَرْحًا، وَهُوَ الْقَصْرُ الْعَالِي الْمُنِيفُ  
الشَّاهِقُ، وَكَانَ اتِّخَاذُهُ مِنَ الْأَجْرِ الْمَضْرُوبِ مِنَ الطَّيْرِ  
الْمُسَوِّيِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْفِدَ لِي بِهَمْدَنَ عَلَى الطَّيْرِ  
فَأَجْعَلَ فِي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨] وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلِّي أَتْلُعَ  
الْأَسْنَبَ﴾ ﴿٣٧﴾ أَسْنَبَ السَّمَوَاتِ... الآية. قَالَ سَعِيدُ بْنُ  
جُبَيْرٍ وَأَبُو صَالِحٍ: أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ<sup>(١)</sup>. وَقِيلَ: طُرُقُ  
السَّمَوَاتِ ﴿فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾  
وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِ وَتَمَرُّدِهِ أَنَّهُ كَذَّبَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ فِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
﴿وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سَوَّاهُ عَلَيْهِمْ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَيُّ  
[بِصْنَعِهِ] هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُوْهِمَ بِهِ الرَّعِيَّةَ أَنَّهُ يَعْمَلُ شَيْئًا  
يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى تَكْذِيبِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلِهَذَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ يَعْني: إِلَّا فِي خَسَارٍ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ  
الرَّشَادِ﴾ يَقَوْمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ  
هِيَ دَارُ الْفَكَارِ ﴿٣٨﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ  
عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَنَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ  
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِعَثَرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾

[مواصلة خطاب مؤمن آل فرعون]

يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ لِقَوْمِهِ مِمَّنْ تَمَرَّدَ وَطَعَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا  
وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ  
سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لَا كَمَا كَذَّبَ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا  
أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ثُمَّ زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا الَّتِي قَدْ  
آثَرُوهَا عَلَى الْآخِرَةِ وَصَدَّتْهُمْ عَنِ التَّصَدِيقِ بِرَسُولِ اللَّهِ  
مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ: ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا هَذِهِ  
الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ﴾ أَيُّ: قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ فَإِنَّهُ عَنْ قَرِيبٍ تَذْهَبُ  
وَتُضْمَحِلُّ ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفَكَارِ﴾ أَيُّ: الدَّارُ الَّتِي

مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ حَذَرَ قَوْمَهُ بِأَسْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ﴾  
أَيُّ: الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ  
وَتَمُودَ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكْذِبَةِ كَيْفَ حَلَّ  
بِهِمْ بِأَسْرِ اللَّهِ وَمَا رَدَّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ، وَلَا صَدَّهُ عَنْهُمْ صَادٌّ ﴿وَمَا  
اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِمْ  
وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ، فَأَنْقَذَ فِيهِمْ قُدْرَهُ ثُمَّ  
قَالَ: ﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مَدْرِينِ﴾ أَيُّ ذَاهِبِينَ  
هَارِبِينَ ﴿كَلَّا لَا وَدَّكَ اللَّهُ﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ  
[القيامة: ١١، ١٢] وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ  
عَاصِرٍ﴾ أَيُّ: لَا مَانِعٍ يَمْنَعُكُمْ مِنْ بِأَسْرِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ ﴿وَمَنْ  
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أَيُّ: مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ  
غَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ  
بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ مِصْرَ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ  
قَبْلِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ يُوسُفُ عَلَيْهِ  
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ غَزِيرَ أَهْلٍ مِصْرَ، وَكَانَ رَسُولًا يَدْعُو  
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِالْقِسْطِ فَمَا أَطَاعُوهُ تِلْكَ الطَّاعَةَ إِلَّا  
بِمَجْرَدِ الْوَرَارَةِ وَالْجَاهِ الدُّنْيَوِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا  
رَلْتُمْ فِي شَأْنِكُمْ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَاكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ  
اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أَيُّ: يَسْتَشْمُ قُلْتُمْ طَامِعِينَ: ﴿لَنْ  
يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وَذَلِكَ لِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ  
﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ﴾ أَيُّ: كَحَالِكُمْ  
هَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ يُضِلُّهُ اللَّهُ لِإِسْرَافِهِ فِي أَفْعَالِهِ وَارْتِيَابِ  
قَلْبِهِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ  
سُلْطَانٍ أَنْتَهُمْ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيُجَادِلُونَ  
الْحُجَجَ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَحُجَّةٍ مَعَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ  
وَجَلَّ يَمُتُّ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْمَمْتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيُّ وَالْمُؤْمِنُونَ  
أَيْضًا يُنْغَضُونَ مَنْ تَكُونُ هَذِهِ صِفَتُهُ فَإِنْ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ  
صِفَتُهُ يَطْعُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَعْرِفُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعْرُوفًا، وَلَا  
يُنْكِرُ مُنْكَرًا وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْعُ اللَّهُ  
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَرٍ﴾ أَيُّ: عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿جَبَّارٌ﴾  
قَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ وَقَتَادَةُ: آيَةُ الْجَبَّارَةِ الْقَتْلُ بِغَيْرِ  
الْحَقِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي صِرْمًا لَعَلِّي أَتْلُعَ﴾ ﴿٣٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٢

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

وَيَقَوْمَ مَا لِيَ ادْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴿٤٢﴾ لَاجِرَمَ أَمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَآتَى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَابَّبُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

﴿وَأَتَى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله عز وجل: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به، ونهيتمكم عنه، ونصحتكم، ووضعت لكم، وتذكرونها وتندمونها حيث لا ينفع الندم ﴿وأفؤض أمرتي إلى الله﴾ أي: وأتوكّل على الله واستعنيته وأقاطعكم وأباعدكم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الضلال، وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وأما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة.

[ثبوت عذاب القبر]

﴿وَحَاقَ بِإِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو الغرق في النّيم ثم

لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْتِقَالَ، مِنْهَا وَلَا ظَنَنْ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا، بَلْ إِمَّا نَعِيمٌ، وَإِمَّا جَحِيمٌ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: واحدة مثلها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَنَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يُقَدَّرُ بِجَزَاءٍ، بَلْ يُبَيِّئُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ثَوَابًا كَثِيرًا لَا انْقِضَاءَ لَهُ وَلَا نَفَادَ. وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْتِقُ لِلصَّوَابِ.

﴿وَيَقَوْمَ مَا لِيَ ادْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَآتَى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

[نَهَايَةُ الْخُطَابِ وَمَصِيرُ الْفَرِيقَيْنِ]

يَقُولُ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ: مَا بَالِي ادْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَتَصْدِيقُ رَسُولِهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ ﴿وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ أَي: عَلَى جَهْلٍ بِلَا دَلِيلٍ ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ﴾ أَي هو في عزّته وكبريائه يَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ ﴿لَا جَرَمَ أَمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ يَقُولُ: حَقًّا. قَالَ الشَّدْيُ وَابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حَقًّا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ لَا كَذِبَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يَقُولُ: بَلَى، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونِي إِلَيْهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: الْوُثْنُ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْني الْوُثْنُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ. وَقَالَ الشَّدْيُ: لَا يُجِيبُ دَاعِيَهُ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿[الاحقاف: ٦٥،]﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ:

فِي قُبُورِكُمْ، فَارْتَأَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّمَا يُفْتَنُ يَهُودُ»  
قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَلَيْسَ لِيَالِي ثُمَّ قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «أَلَا إِنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ». وَقَالَتْ عَائِشَةُ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ يَسْتَعِيدُ مِنْ  
عَذَابِ الْقَبْرِ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى عَذَابِ الْأَرْوَاحِ فِي  
النَّبْرُخِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَّصِلَ فِي الْأَجْسَادِ فِي  
قُبُورِهَا، فَلَمَّا أُوحِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ بِخُصُوصِهِ  
اسْتَعَاذَ مِنْهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ. وَأَحَادِيثُ عَذَابِ  
الْقَبْرِ كَثِيرَةٌ جَدًّا.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عُذُوا وَعَشِيَ﴾ صَبَاحًا  
وَمَسَاءً مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، يُقَالُ لَهُمْ: يَا آلَ فِرْعَوْنَ، هَذِهِ  
مَنَازِلُكُمْ؛ تَوْبِيخًا وَنِقْمَةً وَصَغَارًا لَهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ:  
هُمْ فِيهَا الْيَوْمَ يُعَذِّدُ بِهِمْ، وَيُرَاحُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.  
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وَأَلَّ  
فِرْعَوْنَ كَاللَّيْلِ الْمُسَوِّمَةِ يَخْطِطُونَ الْحِجَارَةَ وَالشَّجَرَ وَلَا  
يَعْقِلُونَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا  
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ  
عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ  
أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ،  
فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ». <sup>(٥)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٦)</sup>.

﴿وَإِذْ يَتَحَفَّظُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا  
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنَوْنَ عَنَّْا تَبِعًا مِنَ النَّارِ﴾<sup>(٧)</sup>  
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ  
الْبَاسِ<sup>(٨)</sup> وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ  
يُخَفَّفْ عَنَّْا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ<sup>(٩)</sup> قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ  
رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَتُوا إِلَّا الْكَافِرِينَ

إِلَّا فِي ضَلَالٍ<sup>(١٠)</sup>

[تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَحَاجٍّ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ وَتَخَاصُمِهِمْ  
وَفِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِنْ جُمْلَتِهِمْ، فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ وَهُمْ الْأَتْبَاعُ  
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وَهُمْ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَالْكِبَرَاءُ<sup>(١١)</sup> إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

الْقُلَّةُ مِنْهُ إِلَى الْجَحِيمِ، فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تُعْرَضُ عَلَى النَّارِ  
صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ  
اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَجْسَادُهُمْ فِي النَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أَيْ  
أَشَدَّهُ أَلَمًا وَأَعْظَمَهُ نَكَالًا. وَهَذِهِ الْآيَةُ أَضَلُّ كَبِيرٍ فِي  
اسْتِذْلَالِ أَهْلِ الشُّنَّةِ عَلَى عَذَابِ النَّبْرُخِ فِي الْقُبُورِ، وَهِيَ  
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

وَلَكِنْ هُنَا سُؤَالٌ وَهُوَ أَنَّهُ لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ،  
وَقَدْ اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ فِي النَّبْرُخِ، وَقَدْ رَوَى  
الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ يَهُودِيَّةً كَانَتْ  
تَعْدِمُهَا، فَلَا تَصْنَعُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَيْهَا شَيْئًا مِنْ  
الْمَعْرُوفِ إِلَّا قَالَتْ لَهَا الْيَهُودِيَّةُ: وَقَالِكِ اللَّهُ عَذَابِ الْقَبْرِ،  
قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ فَقُلْتُ:  
يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِلْقَبْرِ عَذَابٌ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ ﷺ:  
«لَا، مَنْ زَعَمَ ذَلِكَ؟». قَالَتْ: هَذِهِ الْيَهُودِيَّةُ لَا أَصْنَعُ إِلَيْهَا  
شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ إِلَّا قَالَتْ: وَقَالِكِ اللَّهُ عَذَابِ الْقَبْرِ.  
قَالَ ﷺ: «كَذَبَتْ يَهُودُ، وَهُمْ عَلَى اللَّهِ أَكْذَبُ، لَا عَذَابَ  
دُونَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ». ثُمَّ مَكَثَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُكِّثَ  
فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ نِصْفَ النَّهَارِ مُشْتَمِلًا بِنُؤْيِهِ مُحَمَّرَةً عَيْنَاهُ  
وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ «الْقَبْرُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، أَيُّهَا  
النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَصَحَّيْتُمْ قَلِيلًا،  
أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَإِنَّ عَذَابَ  
الْقَبْرِ حَقٌّ»<sup>(١٢)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ  
وَمُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، فَيُقَالُ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ  
كَوْنِ الْآيَةِ مَكِّيَّةً وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى عَذَابِ النَّبْرُخِ؟  
وَالْجَوَابُ أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى عَرْضِ الْأَرْوَاحِ عَلَى النَّارِ  
غُدُوًّا وَعَشِيًّا فِي النَّبْرُخِ، وَلَيْسَ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى اتِّصَالِ  
تَأْلِمِهَا بِأَجْسَادِهَا فِي الْقُبُورِ، إِذْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُخْتَصًّا  
بِالرُّوحِ، فَأَمَّا حُصُولُ ذَلِكَ لِلْجَسَدِ فِي النَّبْرُخِ وَتَأْلِمُهُ بِسَبَبِهِ  
فَلَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ إِلَّا الشُّنَّةُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَرْصِيَّةِ الْآتِي  
ذِكْرُهَا.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى عَذَابِ الْكُفَّارِ  
فِي النَّبْرُخِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُعَذَّبَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِه  
بِذَنْبٍ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ  
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا  
وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ وَهِيَ تَقُولُ: أَشَعَرْتِ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ

(١) أحمد: ٨١/٦ (٢) أحمد: ٢٤٨/٦ (٣) مسلم: ٤١٠/١

(٤) الطبري: ٣٩٦/٢١ (٥) أحمد: ١١٣/٢ (٦) فتح الباري:

٢٨٦/٣ ومسلم: ٢١٩٩/٤

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

٤٧٣

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَقَّ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّى قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

مَنْصُورُونَ فِيهَا<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَنَارَاهُ وَكَذَّبَهُ وَعَادَاهُ، فَجَعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا وَدِينَهُ هُوَ الظَّاهِرُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَأَمَرَهُ بِالْهَجْرَةِ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِي قَوْمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَجَعَلَ لَهُ فِيهَا أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا، ثُمَّ مَنَحَهُ أَكْثَافَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ فَنَصَرَهُ عَلَيْهِمْ وَخَدَّلَهُمْ وَقَتَلَ صَنَادِيدَهُمْ، وَأَسَرَ سَرَاتَهُمْ، فَاسْتَأْفَهُمْ مَقْرَرِينَ فِي الْأَصْفَادِ، ثُمَّ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِأَخْذِهِ الْفَدَاءِ مِنْهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةٍ قَرِيبَةٍ فَتَحَ عَلَيْهِ مَكَّةَ، فَفَرَّقَتْ عَيْنُهُ بَيْلَدَهُ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْمُحَرَّمُ الْحَرَامُ الْمَشْرُوفُ الْمُعَظَّمُ، فَأَثَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَفَتَحَ لَهُ الْيَمْنَ، وَدَانَتْ لَهُ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ بِكَامِلِهَا، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ لِمَا لَهُ عِنْدَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ الْعَظِيمَةِ، فَأَقَامَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَصْحَابَهُ خُلَفَاءَ بَعْدَهُ، فَبَلَّغُوا عَنْهُ دِينَ اللَّهِ عَزَّ

تَعَالَى أَيُّ: أَطَعْنَاكُمْ فِيمَا دَعَوْتُمُونَا إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنَوُونَ عَنَّْا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ أَيُّ: قِسْطًا تَتَحَمَّلُونَهُ عَنَّْا ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أَيُّ: لَا تَتَحَمَّلْ عَنْكُمْ شَيْئًا كَفَىٰ بِنَا مَا عِنْدَنَا وَمَا حُمِّلْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أَيُّ: فَقَسَمَ بَيْنَنَا الْعَذَابَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ مَنَّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّْا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ مِنْهُمْ، وَلَا يَسْتَمِيعُ لِدُعَائِهِمْ، بَلْ قَدْ قَالَ: ﴿اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سَأَلُوا الْخَزَنَةَ وَهُمْ كَالسَّجَّانِينَ لِأَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْعُوا لَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ الْكَافِرِينَ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ لَهُمُ الْخَزَنَةُ رَادِّينَ عَلَيْهِمْ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ: أَوْ مَا قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجُجُ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ أَيُّ: أَنْتُمْ لَا أَنْفُسَكُمْ، فَتَحْنُ لَا نَدْعُو لَكُمْ، وَلَا نَسْمَعُ مِنْكُمْ، وَلَا نُوَدِّ خَلَاصَكُمْ، وَنَحْنُ مِنْكُمْ بُرَاءٌ. ثُمَّ نُخَبِّرُكُمْ: أَنَّهُ سَوَاءٌ دَعَوْتُمْ أَوْ لَمْ تَدْعُوا لَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ وَلَا يُخَفِّفُ عَنْكُمْ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أَيُّ: إِلَّا فِي ذَهَابٍ وَلَا [يُتَقَبَّلُ] وَلَا يُسْتَجَابُ.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ [نُصْرَةُ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: لَمْ يَبْعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولًا قَطُّ إِلَى قَوْمٍ فَيُثْلُوهُ أَوْ قَوْمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْحَقِّ فَيُثْلُونَ فَيَذْهَبَ ذَلِكَ الْقَرْنُ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ فَيَطْلُبُ بِدِمَائِهِمْ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، قَالَ فَكَانَتْ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ يُثْلُونَ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٤

سُورَةُ غَافِرٍ

إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٥٧﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَلْسِنَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرٌ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَن تَوَفَّوْكُمْ كَذَلِكَ يُوَفِّكُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُتَابِعُونَ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٥٩﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْكِتَابُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾

يَحَاصِلُ لَهُمْ، بَلِ الْحَقُّ هُوَ الْمَرْفُوعُ وَقَوْلُهُمْ وَقَضَاهُمْ هُوَ الْمَوْضُوعُ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أَيُّ: مِنْ حَالٍ مِثْلِ هَؤُلَاءِ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَوْ مِنْ شَرِّ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ.

﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

[الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا عَلَى أَنَّهُ يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَهُمَا أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ بَدَأَةً وَإِعَادَةً، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى

وَجَلٍّ، وَدَعَوْا عِبَادَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى اللَّهِ جَلٍّ وَعَلَا، وَفَتَحُوا الْبِلَادَ وَالرَّسَائِقَ، وَالْأَقَالِيمَ، وَالْمَدَائِنَ، وَالْقُرَى، وَالْقُلُوبَ، حَتَّى انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. ثُمَّ لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا مُنْصُورًا ظَاهِرًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ النُّصْرَةُ أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ وَأَجَلَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَشْهَادُ: الْمَلَائِكَةُ (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وَقَرَأَ آخَرُونَ: (يَوْمَ) بِالرَّفْعِ كَأَنَّهُ فَسَّرَهُ بِهِ (وَيَوْمَ) يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ (٢) وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ﴿مَعَذَرَتُهُمْ﴾ أَيُّ: لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ عَذْرٌ وَلَا فِدْيَةٌ ﴿وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ﴾ أَيُّ: الْإِبْعَادُ وَالطَّرْدُ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وَهِيَ النَّارُ. قَالَهُ السُّدِّيُّ.

[الإشارة إلى نجاح الرسول والمؤمنين بميثل موسى وبني إسرائيل]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ وَهُوَ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالنُّورِ ﴿وَأَوْثَقْنَا بِتِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ أَيُّ: جَعَلْنَا لَهُمُ الْعَاقِبَةَ وَأَوْثَقْنَا لَهُمْ بِلَادَ فِرْعَوْنَ وَأَمْوَالَهُ وَخَوَاصِلَهُ وَأَرْضَهُ بِمَا صَبَرُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاتَّبَعَ رَسُولُهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أَوْثَقُوهُ وَهُوَ التَّوْرَةُ: ﴿هَذِي وَكَذِي لِأَوَّلِي الْأَلْبَابِ﴾ وَهِيَ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ السَّليمة. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أَيُّ: يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أَيُّ: وَعْدَانَا أَنَا سَتُعَلِّي كَلِمَتَكَ وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنِ اتَّبَعَكَ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ، وَهَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ هَذَا تَهْنِئَةٌ لِلْأُمَّةِ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ ﴿وَسَيَجْزِي بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَمَى﴾ أَيُّ: فِي أَوَاخِرِ النَّهَارِ وَأَوَائِلِ اللَّيْلِ ﴿وَالْإِكْرَ﴾ وَهِيَ أَوَائِلُ النَّهَارِ وَأَوَاخِرُ اللَّيْلِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي عَائِسَتِ اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَنَ أَنَّهُمْ﴾ أَيُّ يَدْفَعُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَيُرْدُونَ الْحُجَجَ الصَّحِيحَةَ بِالشَّبهِ الْفَاسِدةِ بِلا بُرْهَانٍ وَلَا حُجَّةٍ مِنَ اللَّهِ ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْقِيوهُ﴾ أَيُّ: مَا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَاخْتِقَارِ لِمَنْ جَاءَهُمْ بِهِ، وَلَيْسَ مَا يُؤْمِنُونَهُ مِنْ إِحْمَادِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الْبَاطِلِ

(١) الطبري: ٤٠٢/٢١ (\*) قوله: بالرفع أي بتنوين الرفع هذا، ولم نجد في كتب القراءة الميسرة. والله أعلم.



وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ». ثُمَّ قَرَأَ: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ»<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَصْحَابُ السَّنَنِ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي» أَي: عَنْ دُعَائِي وَتَوْحِيدِي «سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» أَي: صَاغِرِينَ حَقِيرِينَ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولَسْ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ، عُصَاةَ أَهْلِ النَّارِ»<sup>(٥)</sup>.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾<sup>(١١)</sup> إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٣﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْمَدُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

[آيَاتُ اللَّهِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُثَمِّنًا عَلَى خَلْقِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ الَّذِي يَسْكُنُونَ فِيهِ وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِ تَرُدُّدِهِمْ فِي الْمَعَاشِ بِالنَّهَارِ، وَجَعَلَ النَّهَارَ مُبْصِرًا أَي: مُضِيئًا لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ بِالْأَشْفَارِ وَقَطَعَ الْأَفْطَارَ وَالتَّمَكُّنَ مِنَ الصَّنَاعَاتِ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أَي: لَا يَتُومُونَ بِشُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ،

ذَلِكَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِيَعْنِي بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْمَوْتُ بَلَاءً لَكُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وَقَالَ هُنَا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَلِهَذَا لَا يَتَذَكَّرُونَ هَذِهِ الْحُجَّةَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَهَا، كَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ يَغْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَيُنْكِرُونَ الْمَعَادَ اسْتِيعَادًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا، وَقَدْ اغْتَرَفُوا بِمَا هُوَ أَوْلَى مِنْهَا أَنْكُرُوا ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ لَا يُبْصِرُونَ شَيْئًا وَالَّذِي يَرَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ، بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ الْأَنْبَارُ وَالْكُفْرَةُ الْفُجَارُ﴾ [فِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ] أَي: مَا أَقَلَّ مَا يَتَذَكَّرُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أَي: لَكَائِتَةٌ وَوَاقِعَةٌ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي: لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا بَلْ يُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾<sup>(١١)</sup>  
[الْأَمْرُ بِاللَّدْعَاءِ]

هَذَا مِنْ فَضْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَرَمِهِ أَنَّهُ نَذَبَ عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ، وَتَكَمَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، كَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: يَا مَنْ أَحَبَّ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤَالَهُ، وَيَا مَنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرُكَ يَا رَبِّ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّاعِرُ:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه

وَبُنِيَ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ  
وَقَالَ قَتَادَةُ: قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ: أُعْطِيتَ هَذِهِ الْأُمَّةُ ثَلَاثًا لَمْ تُعْطَهُنَّ أُمَّةٌ قَبْلَهَا [إِلَّا] نَبِيٌّ كَانَ إِذَا أَرْسَلَ اللَّهُ نَبِيًّا قَالَ لَهُ: أَنْتَ شَاهِدٌ عَلَى أُمَّتِكَ، وَ[جَعَلَكُمْ] شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: لَيْسَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: اذْغُمِّي أَسْتَجِبْ لَكَ، وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(١)</sup>.

(١) القرطبي: ٣٢٧/١٥ (٢) أحمد: ٢٧١/٤ (٣) تحفة الأحوذى: ٣٠٨/٨ والنسائي في الكبرى: ٤٠٥/٦ وابن ماجه: ١٢٥٨/٢ والطبري: ٤٠٧، ٤٠٦/٢١ (٤) أبو داود: ١٦١/٢ وتحفة الأحوذى: ١٢١/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٥٠/٦ (٥) أحمد: ١٧٩/٢

الْبُرْجِ الْخَازِنِ

٤٧٥

سُورَةُ الْغَافِرِ

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ امْسَى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا فَضَّيْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْطَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُن نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا تُزَيِّنُكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ فَإِنَّمَا تَزَعُمُونَ ﴿٧٧﴾

وَالنَّسَائِي<sup>(٢)</sup>.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ امْسَى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا فَضَّيْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

[النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ وَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالذَّلِيلُ عَلَيْهِ] يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَى أَنْ يُعْبَدَ أَحَدٌ سِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْنَانِ، وَقَدْ بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ سِوَاهُ فِي قَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿فَأَنْ تُوَفَّقُونَ﴾ أَيْ: فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ شَيْئًا، بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ مَنْحُوْتَةٌ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيْ: كَمَا ضَلَّ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ كَذَلِكَ أَفَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ بِلاَ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى. وَجَحَدُوا حُجَجَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرًا﴾ أَيْ: جَعَلَهَا لَكُمْ مُسْتَقَرًّا بِسَاطًا مِهَادًا تَعِيشُونَ عَلَيْهَا، وَتَنْصَرِفُونَ فِيهَا، وَتَمُتُونَ فِي مَنَازِلِهَا، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ؛ لَيْلًا نَمِيدَ بِكُمْ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أَيْ: سَقَفًا لِلْعَالَمِ مَحْظُوطًا ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أَيْ: فَخَلَقَكُمْ فِي أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ، وَمَنْحَكُمُ أَكْمَلَ الصُّورِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أَيْ: مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ فِي الدُّنْيَا، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَالِقُ الدَّارِ وَالسَّكَّانِ وَالْأَرْزَاقِ، فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿بَنَانِهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: فَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلُّهُمْ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ: هُوَ الْحَيُّ أَرْزَا وَأَبَدًا لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، وَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ: لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ ﴿فَكَادَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ مِنَ الْيَدِ﴾ أَيْ: مُوَحِّدِينَ لَهُ مُقَرِّبِينَ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النُّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ». قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَهْلُ بِهِنَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ

(١) أحمد: ٤/٤ (٢) مسلم: ٤١٥، ٤١٦ وأبو داود: ٢/

١٧٤، ١٧٣ والنسائي: ٣/٦٩، ٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٦

سُورَةُ الْاِنْفِصَارِ

وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ  
وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ  
بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَفُتِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ  
هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٦﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ  
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَكُمْ فِيهَا  
مَنْفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى  
الْفُلْكِ تَحْمَلُونُ ﴿٧٨﴾ وَثَرِيكُمْ أَيْتِيهِ فَأَيَّ آيَاتِ  
اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ  
كَانَ عِقْبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِمَّنْ وَأَشَدَّ  
قُوَّةً وَأَشَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ  
﴿٨٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ نَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ  
مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا  
رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ  
مُشْرِكِينَ ﴿٨٢﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلَتْ  
اللَّهُ أَلَنِي قَدْ خَلَلْتُ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوسٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ  
لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوعًا ﴿٧٦﴾ أَنَّى: هُوَ الَّذِي  
يُقَلِّبُكُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلِّهَا، وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَنْ  
أَمْرِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ ﴿٧٧﴾ وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَّى مِنْ  
قَبْلِ ﴿٧٨﴾ أَنَّى: مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوجَدَ وَيَخْرُجَ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ، بَلْ  
تُسْقِطُهُ أُمُّهُ سُقْطًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتُوفَّى صَغِيرًا وَشَابًا وَكَهْلًا  
قَبْلَ الشَّيْخُوخَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي  
الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَبْلَغُ مُسَمًّى﴾. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا:  
﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجْلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:  
تَتَذَكَّرُونَ الْبُعْثَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُمَيِّتُ وَيُمِيتُ﴾  
أَيُّ: هُوَ الْمُتَقَرِّدُ بِذَلِكَ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ  
﴿فَإِذَا فَتَحَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَنَّى لَا يَخَالَفُ وَلَا  
يُمَانَعُ، بَلْ مَا شَاءَ كَانَ لَا مَحَالَةَ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَصْرِفُوهُنَّ  
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ  
يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ إِذِ الْأَغْلَظُ فِي أَغْتَفِهِمْ وَالسَّلَسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٦﴾  
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا  
كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا بَلْ لَمْ نَكُنْ  
نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ ذَلِكَ بِمَا  
كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٨٠﴾  
أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَا يَخْرُجُونَ  
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨١﴾

[مَصِيرُ الْمُجَادِلِينَ الْمُكَذِّبِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَلَا تَعْجَبُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ  
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ كَيْفَ تُصْرِفُ  
عُقُولَهُمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ  
وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أَنَّى: مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنِ ﴿فَسَوْفَ  
يَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، مِنَ الرَّبِّ جَلَّ  
جَلَالُهُ لِهَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِ يَوْمِزَ الْمُكَذِّبِينَ﴾  
[المرسلات: ١٥]، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذِ الْأَغْلَظُ فِي أَغْتَفِهِمْ  
وَالسَّلَسِلُ﴾ أَنَّى: مُتَّصِلَةٌ بِالْأَغْلَظِ بِأَيْدِي الرِّبَابِيَّةِ يَسْحَبُونَهُمْ  
عَلَى وُجُوهِهِمْ، تَارَةً إِلَى الْحَمِيمِ وَتَارَةً إِلَى الْجَحِيمِ،  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُسْجَرُونَ﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ  
يُسْجَرُونَ ﴿كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ  
بِهَا الْكَافِرُونَ﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]  
وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ أَكْلِهِمُ الرِّقْمَ وَشَرِبِهِمُ الْحَمِيمِ: ﴿ثُمَّ

إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْحَمِيمِ﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاصْبِرْ الشَّمَالُ مَا  
أَصْبَحَ الشَّمَالُ﴾ ﴿٨١﴾ فِي سَمِيرٍ وَحَمِيمٍ ﴿٨٢﴾ وَظِلٌّ مِنْ مَجْمُورٍ ﴿٨٣﴾ لَا بَارِدَ  
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَ السَّالُونَ الْمُنْكَرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾  
لَا كُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا وَمَا الْبُطُونُ ﴿٨٧﴾ فَشَرُّوا عَلَيْهِ مِنْ  
النَّعِيمِ ﴿٨٨﴾ فَشَرُّوا شَرَّبَ الْحَمِيمِ ﴿٨٩﴾ هَذَا تَرْكُومٌ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٩٠﴾  
[الواقعة: ٤١-٥٦]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ سَجَرَتِ  
الرِّقْمِ ﴿٩١﴾ طَعَامُ الْآثِمِ ﴿٩٢﴾ كَأَمَلِهِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٩٣﴾  
كَغَلِ الْحَمِيمِ ﴿٩٤﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٩٥﴾ ثُمَّ صُبُّوا  
فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٩٦﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ  
الْكَرِيمُ ﴿٩٧﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]  
أَيُّ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّحْقِيرِ  
وَالْتَضْيِيعِ وَالتَّهْكُمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ  
قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٨٠﴾ أَيُّ قِيلَ  
لَهُمْ: أَيْنَ الْأَصْنَامُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ  
يَنْصُرُونَكُمْ الْيَوْمَ ﴿٨١﴾ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا أَيُّ: ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُونَا  
﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أَيُّ: جَحَدُوا عِبَادَتَهُمْ

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٦) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٧٧) وَبِرَبِّكُمْ ءَايَتِهِ فَآيَ ءَايَاتِ اللَّهِ تُشْكِرُونَ﴾ (٧٨)

[الْأَنْعَامُ أَيْضًا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْتَنًا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ، فَالْإِبِلُ تُرْكَبُ وَتُؤْكَلُ وَتُحَلَبُ، وَيُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَثْقَالُ فِي الْأَسْفَارِ وَالرَّحَالِ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ وَالْأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ. وَالْبَقَرُ تُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا، وَتُحَرْتُ عَلَيْهَا الْأَرْضُ. وَالْغَنَمُ تُؤْكَلُ وَيُشْرَبُ لَبَنُهَا وَالْجَمِيعُ تُحْرَأُ أَصْوَاهُهَا وَأَشْعَارُهَا وَأَوْبَارُهَا، فَيَتَّخِذُ مِنْهَا الْأَثَاثُ وَالثِّيَابُ وَالْأُمْنِيعَةُ كَمَا فَصَّلَ وَبَيَّنَ فِي أَمَاكِنَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَسُورَةِ النَّحْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلِذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ هَهُنَا ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٦) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبِرَبِّكُمْ ءَايَتِهِ﴾ أي: حُجَجُهُ وَبَرَاهِينُهُ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴿فَآيَ ءَايَاتِ اللَّهِ تُشْكِرُونَ﴾ أي: لَا تَقْدِرُونَ عَلَى انْكَارِ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِهِ إِلَّا أَنْ تُعَادِلُوا وَتُكَابِرُوا.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٨) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٧٩) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٠) فَلَمَّا يَكُ يَفْعَلُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ اللَّهُ أَلْيَ قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨١)

[الْعِبْرَةُ بِحَالِ مَنْ سَبَقَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ، وَمَاذَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ مَعَ شِدَّةِ قُوَّاهُمْ وَمَا أَثَّرُوهُ فِي الْأَرْضِ وَجَمَعُوهُ مِنَ الْأَمْوَالِ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَلَا رَدَّ عَنْهُمْ ذَرَّةً مِنْ بَأْسِ اللَّهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ بِالْبَيِّنَاتِ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَاتِ، لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِنَّ، وَلَا أَقْبَلُوا عَلَيْهِنَّ، وَاسْتَعْتَزُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فِي زَعْمِهِمْ عَمَّا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: قَالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْهُمْ لَنْ تُبْعَثَ.

كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿ثُمَّ لَوْ فَكَّنْهُمْ لَفَسَدُوا وَلَئِنْ لَمْ يَنْصَرُوا مِنْكُمْ لَافْتَدَوْا مِنْكُمْ لَوْلَا أَن يَقُولُوا إِنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ لَكُنْ أَقْبَرُ لَهُمْ﴾ (٩١) وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تَقُولُ لَهُمْ الْمَلَائِكَةُ: هَذَا الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ: جَزَاءٌ عَلَى فَرْحِكُمْ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَمْرَحِكُمْ وَأَسْرِكُمْ وَبَطْرِكُمْ ﴿أَدْخَلُوا أَبُوبَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فِئْسَ الْمَنْزِلُ وَالْمَقِيلُ الَّذِي فِيهِ الْهَوَانُ، وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ، لِمَنْ اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَاتَّبَعَ دَلَالِيهِ وَحُجَجِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَأَيَّ تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي يَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨)

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالْبِشَارَةِ بِالْفَتْحِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنْ النُّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى قَوْمِكَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنْ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿فَكَأَيَّ تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي يَعِدُهُمْ﴾ أي: فِي الدُّنْيَا. وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْ كِبَرَائِهِمْ وَعَظَمَائِهِمْ أَبِيدُوا فِي يَوْمٍ بَدْرٍ، ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي حَيَاتِهِ ﷺ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ تَوَفِّيكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ أي: فَنَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ فِي الْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسْلِيًا لَهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ سَوَاءٌ [الآية: ١٦٤] أَي: مِنْهُمْ مَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبْرَهُمْ وَقَصَصَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ، كَيْفَ كَذَّبُوهُمْ ثُمَّ كَانَتْ لِلرُّسُلِ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ ذَكَرَ بِأَضْعَافٍ أَضْعَافٍ، كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وَلَمْ يَكُنْ لِرَسُولٍ مِنْ الرُّسُلِ أَنْ يَأْتِيَ قَوْمَهُ بِخَارِقٍ لِلْعَادَاتِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَيَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وَهُوَ عَذَابُهُ وَتَكَالُهُ الْمُحِيطُ بِالْمُكَذِّبِينَ ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فَيُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ، وَيُهْلِكُ الْكَافِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

سُورَةُ فَصَّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كَتَبْتُ فَصَّلَتْ ۝٣  
 آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٤ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ  
 أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٥ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ  
 مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ  
 فَأَعْمَلْنَا عَمَلُومُ ۝٦ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ  
 أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۝٧  
 وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٨ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ  
 هُمْ كَافِرُونَ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ  
 أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝١٠ قُلْ أَيُّكُمْ لَكَ ذُو الْقُرْبَىٰ خَلَقَ  
 الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝١١  
 وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي  
 أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٢ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ  
 فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا فَاتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١٣

وَلَنْ نُعَذِّبَ ۝١. وَقَالَ السُّدِّيُّ: فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ  
 بِجَهَائِلَتِهِمْ ۝٢. فَأَتَاهُمْ مِنْ بَاسِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ  
 ﴿وَحَافٍ بِهِمْ﴾ أَيُّ: أَحَاطَ بِهِمْ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾  
 أَيُّ: يُكَذِّبُونَ وَيَسْتَبْعِدُونَ وَفُوعُهُ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا﴾ أَيُّ:  
 عَايَنُوا وَفُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا  
 بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أَيُّ: وَحَدُّوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَفَرُوا  
 بِالطَّاعُوتِ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا تُقَالُ الْعَثْرَاتُ، وَلَا تَنْفَعُ  
 الْمَعْذِرَةُ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ:  
 ﴿آمَنْتُ أَنَّمَا لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ  
 الْمُسْلِمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هَٰلِكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ  
 وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١] أَيُّ: فَلَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ  
 مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَجَابَ لِنَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
 دُعَاةً حِينَ قَالَ: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا  
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَلَمَّا  
 يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا سَنَّ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي  
 عِبَادِهِ﴾ أَيُّ: هَذَا حُكْمُ اللَّهِ فِي جَمِيعِ مَنْ تَابَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ  
 الْعَذَابِ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ  
 تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ» ۝٣. أَيُّ فَإِذَا غَرَّغَ،  
 وَبَلَغَتْ الرُّوحُ الْحَنْجَرَةَ، وَعَايَنَ الْمَلَكُ فَلَا تَوْبَةَ حِينَئِذٍ،  
 وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾  
 [آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُؤْمِنِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ].

تَفْسِيرُ سُورَةِ فَصَّلَتْ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كَتَبْتُ فَصَّلَتْ ۝٣  
 قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٤ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ  
 لَا يَسْمَعُونَ ۝٥ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي  
 آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُومُ ۝٦﴾  
 [صِفَةُ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالُ الْمُعْرِضِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بِعَنِي  
 الْقُرْآنُ مَنَزَّلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ  
 الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ٥٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُ

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

٤٧٨

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

فَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا  
 وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظٍ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ  
 الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَبْعَةً مِثْلَ صَبْعَةٍ  
 عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ  
 خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً  
 فَأَنَّا بِنَا أَرْسَلْنَا بِهِ كُفْرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي  
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ  
 الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ  
 ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَحْصَاتٍ لِيَذِيبَهُمْ  
 عَذَابَ الْخَرْبِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ  
 لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى  
 الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَبْعَةٌ الْعَذَابِ أَلْهَوْا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ  
 ﴿١٧﴾ وَنَحْنُ نَعْلَمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ  
 أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ هَاشِدٌ  
 عَلَيْهِمْ سَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَجَلُّوهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

بِسْمَةِ وَيَضْفِ فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ الصَّلَوَاتِ  
 الْخَمْسَ وَفَصَّلَ شُرُوطَهَا وَأَرْكَانَهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ  
 شَيْئًا فَشَيْئًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: غَيْرُ  
 مَقْطُوعٍ وَلَا مَحْبُوبٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُكَيِّدٍ فِيهِ أَبْدَا﴾  
 [الكهف: ٣] وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مُجْدُوفٍ﴾ [هود: ٨].

﴿قُلْ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمَكْذُوبِينَ﴾ بِأَلَدَى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَهَا  
 لَمْ أَدْعَا ذَلِكَ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ  
 فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِئَاسًا بَيْنَ  
 إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا  
 أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ

أَكِنَّةٍ أَيْ: فِي غُلْفٍ مُغَطَّاةٍ ﴿مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ فِي عَادَاتِنَا  
 وَقُرْ﴾ أَيْ: صَمَّمْ عَمَّا جِئْنَا بِهِ ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾  
 فَلَا يَصِلُ إِلَيْنَا شَيْءٌ مِمَّا نَقُولُهُ ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أَيْ:  
 اْعْمَلْ أَنْتَ عَلَى طَرِيقَتِكَ، وَنَحْنُ عَلَى طَرِيقَتِنَا لَا تَتَابَعُكَ.  
 ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ  
 فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا﴾ وَيُلَى لِلْمُشْرِكِينَ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ  
 الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٨﴾

[الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ  
 الْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ  
 وَاحِدٌ﴾ لَا كَمَا تَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَرْبَابِ  
 الْمُتَفَرِّقِينَ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أَيْ:  
 أَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ عَلَى مَنَاقِبِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ  
 الرُّسُلِ ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾ أَيْ لِسَالِفِ الذُّنُوبِ ﴿وَيُلَى لِلْمُشْرِكِينَ﴾  
 أَيْ: دَمَارٌ لَهُمْ وَهَلَاكٌ عَلَيْهِمْ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾  
 قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الَّذِينَ لَا  
 يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا  
 كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ  
 دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وَكَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ  
 مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَذَكَرَ اسْمُ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الاعلى: ١٤، ١٥]، وَقَوْلِهِ  
 عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن زَكَّاهَا﴾ [النازعات: ١٨] وَالْمُرَادُ  
 بِالزَّكَاةِ هَهُنَا طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَمِنْ أَهَمِّ  
 ذَلِكَ طَهَارَةُ النَّفْسِ مِنَ الشَّرِّكَ، وَزَكَاةُ الْمَالِ إِنَّمَا سُمِّيتْ  
 زَكَاةً لِأَنَّهَا تُطَهِّرُهُ مِنَ الْحَرَامِ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِيَزَادَتْهُ وَبَرَكَتُهُ،  
 وَكَثْرَةُ نَفْعِهِ وَتَوْفِيقًا إِلَى اسْتِعْمَالِهِ فِي الطَّاعَاتِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: يَمْنَعُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ. وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ  
 عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٣)</sup>. وَفِيهِ نَظَرٌ؛  
 لِأَنَّ إِيْجَابَ الزَّكَاةِ إِنَّمَا كَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ إِلَى  
 الْمَدِينَةِ، عَلَى مَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ اللَّهُمَّ  
 إِلَّا أَنْ يُقَالَ: لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ أَصْلُ الصَّدَقَةِ وَالزَّكَاةِ كَانَ  
 مَأْمُورًا بِهِ فِي ابْتِدَاءِ الْبُعْثَةِ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنذَرُوا  
 حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾. فَأَمَّا الزَّكَاةُ ذَاتُ النُّصْبِ وَالْمَقَادِيرِ  
 فَلِنَّمَا بَيَّنَّ أَمْرَهَا بِالْمَدِينَةِ، وَيَكُونُ هَذَا جَمْعًا بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ.  
 كَمَا أَنَّ أَصْلَ الصَّلَاةِ كَانَ وَاجِبًا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ  
 غُرُوبِهَا فِي ابْتِدَاءِ الْبُعْثَةِ، فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ

(١) الطبري: ٤٣٠/٢١ (٢) الطبري: ٤٣٠/٢١ (٣) الطبري: ٤٣١/٢١

سَمَاءٍ أَمَرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٧﴾

### [بَعْضُ تَفَاصِيلِ خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ]

هَذَا إِنكَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْفَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْمُقْتَدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ: ﴿قُلْ أَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أَيُّ: نَظَرَاءَ وَأَمْثَالًا تَعْبُدُونَهَا مَعَهُ ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْأَلَمِينَ﴾ أَيُّ: الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلُّهُمْ. وَهَذَا الْمَكَانُ فِيهِ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فَفَصَّلَ هُنَا مَا يَخْتَصُّ بِالْأَرْضِ مِمَّا اخْتَصَّ بِالسَّمَاءِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْأَرْضَ أَوَّلًا؛ لِأَنَّهَا كَأَسَاسٌ، وَالْأَصْلُ أَنْ يُبْدَأَ بِالْأَسَاسِ ثُمَّ بَعْدَهُ بِالشَّغْفِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾... الآية [البقرة: ٢٩]. فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهُنَّ ﴿٣٨﴾ وَأَغَطَّسَ لِبَلِّهَا وَأَخْرَجَ ضَعْفَهَا ﴿٣٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٤٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٤١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ مِمَّا لَكُمْ وَلَا تَعْلَمُونَ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ [دُحُوًّا] الْأَرْضِ كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، فَأَمَّا خَلْقُ الْأَرْضِ فَقَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ بِالنَّصِّ، وَبِهَذَا أَجَابَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِيمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ صَحِيحِهِ، فَإِنَّهُ رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنِّي لَأَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ، قَالَ: ﴿فَلَا أَسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ رِثَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فَقَدْ كَتَبُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠] فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَالَمِينَ﴾ فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ، قَالَ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] ﴿سَمِيمًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَلَا أَسَابَ بَيْنَهُمْ

يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فِي التَّفْخَةِ الْأُولَى، ثُمَّ نَفَّخَ فِي الصُّورِ ﴿فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فَلَا أَسَابَ بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ بَيْنَهُمْ، [ثُمَّ] فِي التَّفْخَةِ الْآخِرَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧]، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ رِثَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَيِّرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ، فَيَقُولُ الْمُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولَ: لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ فَيُخْتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُعْرَفُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا، وَعِنْدَهُ ﴿يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية [النساء: ٤٢]، وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ ثُمَّ دَحَى الْأَرْضَ، وَدَحَاهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالرَّمَالَ وَالْجَمَادَ وَالْأَكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فَخَلَقَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠] سَمَّى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ، أَيُّ: لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَزِدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ. فَلَا يَخْتَلِفَنَّ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ بَعْضُهُ: يَوْمُ الْوَاحِدِ وَيَوْمُ الْاِثْنَيْنِ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا﴾ أَيُّ: جَعَلَهَا مُبَارَكَةً قَابِلَةً لِلْخَيْرِ وَالْبَذَرِ وَالْغُرَاسِ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا، وَهُوَ مَا يَحْتَاجُ أَهْلُهَا إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَمَاجِنِ الَّتِي تُزْرَعُ وَتُغْرَسُ يَعْنِي يَوْمَ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَاءِ، فَهَمَّا مَعَ الْيَوْمَيْنِ السَّابِقَيْنِ أَرْبَعَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ أَيُّ: لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ لِيَعْلَمَهُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ جَعَلَ فِي كُلِّ أَرْضٍ مَا لَا يَضِلُّ فِي غَيْرِهَا وَمِنْهُ الْعُصْبُ بِالْيَمَنِ وَالسَّابُورِيُّ بِسَابُورٍ وَالطَّيْلِسَةُ بِالرِّيِّ <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَفَقَادَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ﴾ أَيُّ: لِمَنْ أَرَادَ السُّؤَالَ عَنْ ذَلِكَ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ ﴿وَقَدَّرَ

(١) فتح الباري: ٤١٨/٨ (٢) الطبري: ٤٣٦/٢١ (٣)

الطبري: ٤٣٨/٢١

فِيهَا أَقْوَمَتْ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْمُذَلِّينَ ﴿١٣﴾ أَيُّ: عَلَى وَفْقٍ [مُرَادٍ] مَنْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى رِزْقٍ أَوْ حَاجَةٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ مَا هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ <sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ يُشَبِّهُ مَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وَهُوَ بُخَارُ الْمَاءِ الْمُتَصَاعِدِ مِنْهُ حِينَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أَيُّ: اسْتَجَبْنَا لِأَمْرِي وَانْفَعِلَا لِإِعْلَاقِي طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكْرَهَتَيْنِ ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أَيُّ: بَلْ نَسْتَجِيبُ لَكَ مُطِيعِينَ بِمَا فِينَا مِمَّا تُرِيدُ خَلْقَهُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَمِيعًا مُطِيعِينَ لَكَ، ﴿فَقَضَيْنَاهُ سَعِ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أَيُّ: فَفَرَّغَ مِنْ تَسْوِيَّتِهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ أَيُّ: آخَرَيْنِ وَهُمَا يَوْمُ الْخَوَاسِ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أَيُّ: وَرَتَّبَ مَقَرًّا فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴿وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِضُبُوحٍ﴾ وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْمُنِيرَةُ الْمُشْرِقَةُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿وَجِفْظًا﴾ أَيُّ حَرَسًا مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ تَسْتَمِعَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أَيُّ: الْعَزِيزُ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَعَلَبَهُ وَفَقَرَهُ، الْعَلِيمُ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ وَسَكَتَاتِهِنَّ.

﴿فَإِنْ أَغْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا تَمَدُّوا إِلَّا اللَّهُ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَابٍ لِّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَحْنُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾

[تَنْبِيهٌُ لِلْمُكْدِّبِينَ وَتَذَكِيرٌ لَهُمْ بِقَضَاءِ عَادٍ وَثَمُودَ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكْدِّبِينَ بِمَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ إِنْ أَغْرَضْتُمْ عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنِّي أَنْذَرُكُمْ حُلُولَ نِقْمَةِ اللَّهِ بِكُمْ كَمَا حَلَّتْ بِالْأَمَمِ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُكْدِّبِينَ بِالْمُرْسَلِينَ ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أَيُّ: وَمَنْ شَاكَلَهُمَا مِمَّنْ فَعَلَ كَفَعْلِهِمَا إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ كَقَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرْ لَمَّا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١] أَيُّ: فِي الْفَرَى الْمُجَاوِرَةِ لِبِلَادِهِمْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ يَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَمُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، [وَرَأَوْا] مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النِّقَمِ، وَمَا أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ النِّعَمِ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا وَلَا صَدَّقُوا، بَلْ كَذَّبُوا وَجَحَدُوا وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أَيُّ: لَوْ أَرْسَلَ اللَّهُ رُسُلًا لَّكَانُوا مَلَائِكَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أَيُّ: أَيُّهَا الْبَشَرُ ﴿كَافِرُونَ﴾ أَيُّ: لَا تَتَّبِعُكُمْ وَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَيُّ: بَغَوْا وَعَتَوْا وَعَصَوْا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أَيُّ: مَنُوا بِشِدَّةِ تَرْكِيبِهِمْ وَقُوَّاهُمْ وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَمْتَنِعُونَ بِهَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أَيُّ: أَفَمَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَنْ يُبَارِزُونَ بِالْعَدَاوَةِ فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَرَكَّبَ فِيهَا قُوَّاهَا الْحَامِلَةَ لَهَا وَأَنْ يَطْشَهُ شَدِيدٌ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] فَبَارِزُوا الْجَبَّارَ بِالْعَدَاوَةِ وَجَحَدُوا بِآيَاتِهِ وَعَصَوْا رُسُلَهُ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: وَهِيَ شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ. وَقِيلَ: الْبَارِدَةُ. وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي لَهَا صَوْتُ وَالْحَقُّ أَنَّهَا مُتَّصِفَةٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ فَإِنَّهَا كَانَتْ رِيحًا شَدِيدَةً قُوَّتُهُ لَتَكُونَ عُقُوبَتُهُمْ مِنْ جَنَسٍ مَا اغْتَرَوْا بِهِ مِنْ قُوَّاهُمْ وَكَانَتْ بَارِدَةً شَدِيدَةً الْبُرْدِ جِدًّا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أَيُّ بَارِدَةٍ شَدِيدَةٍ وَكَانَتْ ذَاتَ صَوْتٍ مُرْجِجٍ، وَمِنْهُ سَمِيَ النَّهْرُ الْمَشْهُورُ بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ "صَرْصَرًا" لِقُوَّةِ صَوْتِ جَرِيهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَابٍ﴾ أَيُّ: مُتَتَابِعَاتٍ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مَّتَسَمِّرٍ﴾ [القمر: ١٩] أَيُّ: انْتَبَدَأُوا بِهَذَا الْعَذَابِ فِي يَوْمٍ نَحَسٍ عَلَيْهِمْ وَاسْتَمَرَّ بِهِمْ هَذَا النَّحْسُ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ حَتَّى أَبَادَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَاتَّصَلَ بِهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أَيُّ: أَشَدُّ خِزْيًا لَهُمْ ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أَيُّ فِي الْآخِرَةِ كَمَا لَمْ يُبْصِرُوا فِي الدُّنْيَا، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ يَقِيهِمُ الْعَذَابَ، وَبَدَرَأَ عَنْهُمْ التَّكَالَ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:



الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٤٧٩

وَاللَّهُ أَعْلَمُ

وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ بَصُرُوا فَأَلْتَارُ مَتَوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ \* وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا يَشَاءُ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنَى وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْآخِرَةِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلِلْنَا مِنَ الْغَنَى وَالْإِنْسِ لِنَعْلَمَ مَا نَحْنُ أَقْدَامُنَا لِكُونًا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

صَحِجْتُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ أَيِّ شَيْءٍ صَحِجْتُ؟ قَالَ ﷺ: «عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: أَيُّ رَبِّي، أَلَيْسَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تَطْلِمَنِي، قَالَ: بَلَى. فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أَقْبِلُ عَلَيْكَ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَوَلَيْسَ كَفَى بِكَ شَهِيدًا وَبِالْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ - قَالَ - : فَيَرُدُّ هَذَا الْكَلَامَ مِرَارًا - قَالَ - : فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكَ لَكُنْ وَسَحَقًا، عَنكَ كُنْتُ أَجَادِلُ» (١). رَوَاهُ هُوَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٢). وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتَّسَائِي (٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو مُوسَى: وَيُدْعَى الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ لِلْحِسَابِ فَعَرِضَ عَلَيْهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلَهُ، فَيَجْعَدُ وَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ كَتَبَ عَلَيَّ هَذَا الْمَلَكُ مَا لَمْ أَعْمَلْ. فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ: أَمَّا عَمِلْتَ كَذَا

﴿وَأَمَّا تَعْمُدُ فَهَدَيْتَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَالشَّيْطِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: بَيَّنَّا لَهُمْ (١). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: دَعَوْنَاهُمْ ﴿فَأَسْتَجَبُوا أَلَمَى عَلَى الْهَدَى﴾ أَيُّ: بَصَرْنَاهُمْ، وَبَيَّنَّا لَهُمْ وَوَضَحْنَا لَهُمْ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَقَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي جَعَلَهَا آيَةً وَعَلَامَةً عَلَى صِدْقِ نَبِيِّهِمْ ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَوْعَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ﴾ أَيُّ: بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَرَجْفَةً وَذُلًّا وَهَوَانًا وَعَذَابًا وَنَكَالًا ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيُّ: مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْجُمُودِ ﴿وَجَحَّتْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيُّ: مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَلَا نَالَهُمْ مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ، بَلْ نَجَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِتَقْوَاهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَإِنْ بَصُرُوا فَأَلْتَارُ مَتَوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٣٠﴾

[يَوْمَ الْحَشْرِ تَشْهَدُ أَعْضَاءُ الْمُجْرِمِينَ عَلَيْهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أَيُّ: أَذْكَرُ لَهُوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ يُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ يُوزَعُونَ أَيُّ: تَجْمَعُ الزَّبَانِيَةُ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدَا﴾ [مریم: ٨٦] أَيُّ: عَطَاشًا. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أَيُّ: وَقَفُّوا عَلَيْهَا ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: بِأَعْمَالِهِمْ مِمَّا قَدَّمُوهُ وَأَخَّرُوهُ لَا يُكْتَمُ مِنْهُ حَرْفٌ ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ: لَأَمْوَا أَعْضَاءَهُمْ وَجُلُودُهُمْ جِنِّ شَهِدُوا عَلَيْهِمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَجَابَتْهُمْ الْأَعْضَاءُ ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيُّ: فَهَوُ لَا يُخَالَفُ، وَلَا يُمَانَعُ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَحِجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَتَبَسَّمَ فَقَالَ ﷺ: «أَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ

(١) الطبري: ٤٤٨/٢١ (٢) الحاكم: ٦٠١/٤ (٣) الطبري:

٤٥٢/٢١ (٤) مسلم: ٢٢٨٠/٤ والنسائي في الكبرى: ٥٠٨/٦

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلَهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونَ مِنَ الْآسَفِينَ ﴿٢٩﴾

[قِرَاءَةُ الْمُشْرِكِينَ يُزَيِّنُونَ لَهُمْ سُوءَ الْأَعْمَالِ] يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَنَّ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ وَكَوْنِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ بِمَا قَبِضَ لَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ شِبَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿فَرَزَنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَيُّ: حَسَبُوا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فِي الْمَاضِي وَالْبَشِيَّةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، فَلَمْ يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا مُحْسِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُمْ سَيِّئًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ﴾ ﴿٣١﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [الرُحُوفُ: ٣٦، ٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أَيُّ: كَلِمَةُ الْعَذَابِ كَمَا حَقَّ عَلَى أُمِّهِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ فَعَلَ كَقَوْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أَيُّ: اسْتَوُوا هُمْ وَإِيَّاهُمْ فِي الْخَسَارِ وَالْدَّمَارِ.

[تَوَاصِي الْكُفَّارِ بِالْامْتِنَاعِ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَجَزَاءِ ذَلِكَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أَيُّ: تَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ لَا يُطِيعُوا لِلْقُرْآنِ، وَلَا يُنْقَادُوا لِأَمْرِهِ ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ أَيُّ: إِذَا ثَلِيَ لَا تَسْمَعُوا لَهُ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ يَعْنِي بِالْمُكَاةِ وَالصَّفِيرِ وَالتَّخْلِيصِ فِي الْمَنْطِقِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ - قُرَيْشٌ تَعْلَهُ. وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ عَيَّبُوا فِيهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا حَالٌ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِخِلَافِ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ثُمَّ قَالَ

فِي يَوْمٍ كَذَا فِي مَكَانٍ كَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ أَيُّ رَبِّ مَا عَمِلْتَهُ. قَالَ: فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ خُتِمَ عَلَى فِيهِ. قَالَ الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِنِّي لَا أَحْسِبُ أَوَّلَ مَا يَنْطِقُ مِنْهُ فَخِذُهُ الْيُمْنَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَعِزُّونَ أَنْ يَتَّهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أَيُّ: تَقُولُ لَهُمُ الْأَغْضَاءُ وَالْجُلُودُ حِينَ يَلُومُونَهَا عَلَى الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ مِنَّا الَّذِي كُنْتُمْ تَفْعَلُونَهُ، بَلْ كُنْتُمْ تَجَاهِرُونَ اللَّهَ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَلَا تَبَالُونَ مِنْهُ فِي زَعْمِكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَفْعَالِكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكَ؟ أَيُّ: هَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ، وَهُوَ اغْتِقَادُكُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ، هُوَ الَّذِي أَتْلَفَكُمْ وَأَرَدَاكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أَيُّ: فِي مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مُسْتَسِرًّا بِأَسْتَارِ الْكُعْبَةِ فَجَاءَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيٍّ وَخَتَنَاءُ ثَقَفِيَّانَ - أَوْ ثَقَفِي وَخَتَنَاءُ قُرَشِيَّانَ - كَثِيرٌ شَحْمٌ بَطُونُهُمْ، قَلِيلٌ فِيهِ قُلُوبُهُمْ فَكَلَّمُوا بِكَلَامٍ لَمْ أَسْمَعُهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا هَذَا، فَقَالَ الْآخَرُ: إِنَّا إِذَا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا سَمِعَهُ، وَإِذَا لَمْ نَرْفَعْهُ لَمْ يَسْمَعْهُ فَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا سَمِعَهُ كُلُّهُ - قَالَ - فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَعِزُّونَ أَنْ يَتَّهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ <sup>(١)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ <sup>(٢)</sup>. وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ أَيْضًا بِنَحْوِهِ <sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ <sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَلَنْ يَسْتَعِزُّوا بِمَا هُمْ مِنَ الْمُتَعَصِّينَ﴾ أَيُّ: سِوَاءَ عَلَيْهِمْ صَبَرُوا أَمْ لَمْ يَصْبِرُوا هُمْ فِي النَّارِ لَا مُجِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا، وَإِنْ طَلَبُوا أَنْ يُسْتَعْتَبُوا وَيَبْدُوا أَغْدَارًا فَمَا لَهُمْ أَغْدَارٌ وَلَا تُقَالُ لَهُمْ عَثْرَاتٌ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَسْتَعِزُّوا﴾ أَيُّ: يَسْأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا فَلَا جَوَابَ لَهُمْ قَالَ: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿٣٢﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ قَالَ أَخَشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ <sup>(٥)</sup> [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

﴿وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَزَنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

(١) أحمد: ٣٨١/١ (٢) تحفة الأحوذى: ١٢٣/٩ (٣)

أحمد: ٤٠٨/١ ومسلم: ٢١٤٢/٤ وتحفة الأحوذى: ١٢٤/٩

(٤) فتح الباري: ٤٢٥، ٤٢٤/٨ ومسلم: ٢١٤٢، ٢١٤١/٤ (٥)

الطبري: ٤٥٨/٢١

الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ تَعْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ تَزْلُمْنَ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُوحَضِّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾

تَقُولُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قَالَ: فَقَالُوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ مِنْ ذَنْبٍ فَقَالَ: لَقَدْ حَمَلْتُمُوهُ عَلَى غَيْرِ الْمَحْمُولِ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِلَهٍ غَيْرِهِ <sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ <sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمَ بِهِ قَالَ ﷺ: «قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَكْثَرَ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِطَرْفِ لِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: «هَذَا» <sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ <sup>(٨)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالتَّسَائِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ

(١) الطبري: ٤٦٢/٢١ (٢) الطبري: ٤٦٢/٢١ (٣) فتح الباري: ٤١٩/٦ (٤) الطبري: ٤٦٤/٢١ (٥) الطبري: ٢١/٢١ (٦) الطبري: ٤٦٥/٢١ (٧) أحمد: ٤١٣/٣ (٨) تحفة الأحادي: ٩١/٧ وابن ماجه: ١٣١٤/٢

عَزَّ وَجَلَّ مُتَّصِرًا لِلْقُرْآنِ وَمُتَمِّمًا مِمَّنْ عَادَاهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرَانِ ﴿فَلْيَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَي: فِي مُقَابَلَةِ مَا اعْتَمَدُوهُ فِي الْقُرْآنِ عِنْدَ سَمَاعِهِ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَي: بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ وَسَيِّئِ أَعْمَالِهِمْ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يُجْعَلُهُمَا نَحْتِ أَقْدَامَنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿قَالَ سُفْيَانُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَضِيٍّ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ قَالَ: إِبْلِيسُ وَابْنُ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَضِيٍّ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِبْلِيسُ يَدْعُو بِهِ كُلُّ صَاحِبٍ شِرْكَ، وَابْنُ آدَمَ يَدْعُو بِهِ كُلُّ صَاحِبٍ كِبِيرَةٍ، فَإِبْلِيسُ [هُوَ] الدَّاعِي إِلَى كُلِّ شَرٍّ مِنْ شِرْكَ فَمَا دُونَهُ وَابْنُ آدَمَ الْأَوَّلُ <sup>(٢)</sup>. كَمَا بَيَّنَّ فِي الْحَدِيثِ: «مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُمْ: ﴿يُجْعَلُهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا﴾ أَي: أَسْفَلَ مِنَّا فِي الْعَذَابِ لِيَكُونَا أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أَي: فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْأَعْرَافِ فِي سُؤَالِ الْأَتْبَاعِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعَذِّبَ قَادَتَهُمْ أَضْعَافَ عَذَابِهِمْ ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أَي: أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ بِحَسَبِ عَمَلِهِ وَإِفْسَادِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ تَعْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ تَزْلُمْنَ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٢٢﴾

[الْبَشَارَةُ لِلْمُوحِّدِينَ ذَوِي الْإِسْتِقَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أَي: أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لِلَّهِ وَعَمِلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُمْ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَمْرَانَ، قَالَ: قَرَأْتُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قَالَ: هُمْ الَّذِينَ لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا <sup>(٤)</sup>. ثُمَّ رَوَى مِنْ حَدِيثِ الْأَسْوَدِ ابْنِ هِلَالٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا

## [فَضْلُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ]

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> أَي: دَعَا عِبَادَ اللَّهِ إِلَيْهِ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَي: هُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ بِمَا يَقُولُهُ فَتَفَعَّلَ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ لَازِمٌ وَمُتَعَدٍّ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَأْتُونَهُ، بَلْ يَأْتُمِرُ بِالْخَيْرِ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ، وَيَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الْخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهَذِهِ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ دَعَا إِلَى الْخَيْرِ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَى النَّاسِ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ<sup>(٢)</sup>. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا الْمُؤَدِّثُونَ الصُّلَحَاءَ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «الْمُؤَدِّثُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَغْنَاءًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>. وَفِي السُّنَنِ مَرْفُوعًا: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ، وَالْمُؤَدِّثُ مُؤْتَمَنٌ، فَأَرْشَدَ اللَّهُ الْأَيِّمَةَ وَغَفَرَ لِلْمُؤَدِّثِينَ»<sup>(٤)</sup>. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْمُؤَدِّثِينَ وَفِي غَيْرِهِمْ، فَأَمَّا حَالُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْأَذَانُ مَشْرُوعًا بِالْكَلِمَةِ؛ لِأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ، وَالْأَذَانُ إِنَّمَا شُرِعَ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ حِينَ أَرَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَنَامِهِ فَقَصَّصَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَهُ أَنْ يُلْقِيَهُ عَلَى بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ أُنْذِيَ صَوْتًا، كَمَا هُوَ مُفَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ. فَالصَّحِيحُ: إِذَا أَتَاهَا عَامَّةٌ كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فَقَالَ: هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ، هَذَا وَلِيُّ اللَّهِ، هَذَا صَفْوَةُ اللَّهِ، هَذَا خَيْرُهُ اللَّهُ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، أَجَابَ اللَّهُ فِي دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ، وَقَالَ: إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا خَلِيفَةُ اللَّهِ<sup>(٥)</sup>.

## [الْحِكْمَةُ فِي الدَّعْوَةِ وَغَيْرَهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أَي: فَرَقٌ عَظِيمٌ بَيْنَ هَذِهِ وَهَذِهِ ﴿أَدْفَعْ بِالْيَدِ إِلَى الْحَسَنِ﴾ أَي: مَنْ

يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ ﷺ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ...» وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَرَزَلْ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَابْنُهُ: يُعْنِي عِنْدَ الْمَوْتِ قَائِلِينَ: ﴿أَلَا تَحْشَرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: أَي: مِمَّا تُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ<sup>(٣)</sup>. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ عَلَى مَا خَلَقْتُمُوهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا مِنْ وَلَدٍ وَأَهْلٍ وَمَالٍ أَوْ دِينٍ فَإِنَّا نَخْلُقُكُمْ فِيهِ ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فَيُبَشِّرُونَهُمْ بِذَهَابِ الشَّرِّ وَحُصُولِ الْخَيْرِ. وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ: اخْرُجِي أَيُّهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتَ تَعْمُرِينِي، اخْرُجِي إِلَى رُوحٍ وَرَبِّحَانِ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانِ»<sup>(٤)</sup>. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزَّلُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: يُبَشِّرُونَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ وَفِي قَبْرِهِ وَحِينَ يُنْعَثُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا، وَهُوَ حَسَنٌ جِدًّا، وَهُوَ الْوَاقِعُ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿نَحْنُ أَوَّلَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَي: تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ: نَحْنُ كُنَّا أَوَّلِيَاءَكُمْ أَي: قُرَنَاءَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نُسَدِّدُكُمْ وَنُوفِّقُكُمْ وَنَحْفَظُكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ نَكُونُ مَعَكُمْ فِي الْآخِرَةِ؛ نُؤْنِسُ مِنْكُمْ الْوَحْشَةَ فِي الْقُبُورِ وَعِنْدَ التَّمَحُّجَةِ فِي الصُّورِ وَنُؤَمِّنُكُمْ يَوْمَ الْبُعْثِ وَالنُّشُورِ، وَنُجَاوِزُ بِكُمْ الصَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَنُوصِّلُكُمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ﴾ أَي: فِي الْجَنَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ وَتَقْرُبُ بِهِ الْعُيُونُ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أَي: مَهْمَا طَلَبْتُمْ وَجَدْتُمْ وَحَضَرَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ كَمَا اخْتَرْتُمْ ﴿تَزَلَّازُ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أَي: ضِيَاةٌ وَعَطَاءٌ وَإِنْعَامٌ مِنْ غَفُورٍ لَذُنُوبِكُمْ، رَحِيمٍ بِكُمْ رُؤُوفٍ، حَيْثُ غَفَرَ وَسَرَّ وَرَحِمَ وَلَطَفَ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالْيَدِ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا أَلَدَى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظٍّ عَظِيمٌ وَإِنَّمَا يَرْتَعَنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(١) مسلم: ٦٥/١ (٢) الطبري: ٤٦٦/٢١ والقرطبي: ١/١٥

(٣) ٣٥٨ الطبري: ٤٦٧/٢١ (٤) أحمد: ٢٨٧/٤ (٥)

القرطبي: ١/٣٦٠ (٦) مسلم: ٢٩٠/١ (٧) أبو داود: ١/٣٥٦

وتحفة الأحوذى: ١/٦١٤ (٨) عبد الرزاق: ١٨٧/٢

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ  
 اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاها لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
 قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْكُمُونَ عَلَيْنَا أَفَنُ  
 يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ  
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ  
 وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَرِضٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ  
 خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ  
 لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾  
 وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءَعْجَمِيٌّ  
 وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَلِلَّذِينَ  
 لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ أُولَئِكَ  
 يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ  
 فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ  
 بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا  
 فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

## [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْهًا خَلْقَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَأَنَّهُ الَّذِي  
 لَا نَظِيرَ لَهُ، عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ﴿٤٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ  
 وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٤١﴾ أَنَّهُ خَلَقَ اللَّيْلَ بِظُلَامِهِ وَالنَّهَارَ  
 بِضِيَائِهِ - وَهُمَا مُعَاقِبَانِ لَا يَفْتَرَانِ - وَالشَّمْسُ نُورُهَا  
 وَإِشْرَاقُهَا، وَالْقَمَرُ وَضِيَاءُهُ وَتَقْدِيرُ مَنَازِلِهِ فِي فَلَكِهِ،  
 وَاخْتِلَافُ سِيرِهِ فِي سَمَائِهِ؛ لِيُعْرِفَ بِاخْتِلَافِ سِيرِهِ وَسِيرِ  
 الشَّمْسِ مَقَادِيرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْجُمُعِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ،  
 وَيَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ حُلُولُ الْحُقُوفِ وَأَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ  
 وَالْمُعَامَلَاتِ. ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أَحْسَنَ الْأَجْزَامِ  
 الْمُشَاهِدَةِ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ تَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُمَا  
 مَخْلُوقَانِ عَبْدَانِ مِنْ عِبِيدِهِ، تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ فَقَالَ:  
 ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ  
 إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ أَنَّى: وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ، فَمَا

أَسَاءَ إِلَيْكَ فَادْفَعُهُ عَنْكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ عُمَرُ  
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِيكَ بِعِثْلٍ أَنْ تُطِيعَ  
 اللَّهُ فِيهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ  
 وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وَهُوَ الصَّدِيقُ أَيُّ إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ  
 إِلَيْكَ قَادَتْهُ تِلْكَ الْحَسَنَةُ إِلَيْهِ إِلَى مُصَافَاةِكَ وَمَحَبَّتِكَ وَالْحُنُوِّ  
 عَلَيْكَ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ لَكَ حَمِيمٌ، أَيُّ: قَرِيبٌ إِلَيْكَ  
 مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَيْكَ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْكَ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا  
 يُقْلِلُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَيُّ: وَمَا يَقْبَلُ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ وَيَعْمَلُ  
 بِهَا إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ ﴿وَمَا  
 يُقْلِلُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ: ذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنَ  
 السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ  
 عِنْدَ الْغَضَبِ، وَالْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ،  
 فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَخَضَعَ لَهُمْ  
 عَدُوَّهُمْ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ  
 بِاللَّهِ﴾ أَيُّ: إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ  
 فَمَا شَيْطَانُ الْجَنِّ فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ إِذَا وَسَّوسَ إِلَّا  
 الْإِسْتِعَاذَةَ بِخَالِقِهِ الَّذِي سَلَطَهُ عَلَيْكَ، فَإِذَا اسْتَعِذْتَ بِاللَّهِ  
 وَالتَّجَأْتَ إِلَيْهِ كَفَّ عَنْكَ وَرَدَّ كَيْدَهُ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
 إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ  
 الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ قَدَّمْنَا  
 أَنَّ هَذَا الْمَقَامَ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ  
 عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ  
 الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّمَا يَزْعُمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ  
 إِنَّهُمْ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿[الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]﴾ وَفِي سُورَةِ  
 الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّنَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ  
 بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾  
 وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا  
 لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ  
 إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ  
 لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٧٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى  
 الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِينَ  
 لَمُنِعُوا الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

تَنْفَعُكُمْ عِبَادَتُكُمْ لَهُ مَعَ عِبَادَتِكُمْ لِعَبْدِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ أَيُّ: عَنْ إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يُشْرِكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي: الْمَلَائِكَةُ ﴿يَسْتَحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّبِيِّينَ﴾ أَيُّ: عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَةِ الْمُؤْتَى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أَيُّ: هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا، بَلْ هِيَ مَيِّتَةٌ ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أَيُّ: أَخْرَجَتْ مِنْ جَمِيعِ الْأَوَانِ الزَّرُوعَ وَالشَّجَارَ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَمَّنْ يُلْفَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)

مُرِيبٌ (٤٤)

[الْمُشْرِكُونَ وَأَثَرُ الدَّعْوَةِ فِيهِمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْقُرْآنَ وَفَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَإِحْكَامَهُ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ الْمُشْرِكُونَ نَبَهَ عَلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ بِهِ كُفْرٌ عِنَادٍ وَتَعَنَّتْ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ (١٨٨) فَقَرَأَتْ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩] وَكَذَلِكَ لَوْ أَنْزَلَ الْقُرْآنُ كُلَّهُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ لَقَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ ﴿لَوْ لَا فَصَّلَتْ آيَاتُهُ عَاجِمِي وَعَرَبِي﴾ أَيُّ: لَقَالُوا: هَلَّا أَنْزَلَ مُفَصَّلًا بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَلَا تَكْرُوهَا ذَلِكَ فَقَالُوا: أَعْجَمِي وَعَرَبِي أَيُّ: كَيْفَ يَنْزِلُ كَلَامٌ أَعْجَمِي عَلَى مُحَاطِبِ عَرَبِي لَا يَفْهَمُهُ؟ هَكَذَا رَوَى هَذَا الْمَعْنَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيَّ وَغَيْرَهُمْ (٥). ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أَيُّ: قُلْ: يَا مُحَمَّدُ هَذَا الْقُرْآنُ لِمَنْ آمَنَ بِهِ هُدًى لِقَلْبِهِ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالرَّيْبِ ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ أَيُّ: لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَنٌّ﴾ أَيُّ: لَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ النَّبَاتِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُرْقَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَمَّنْ يُلْفَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)

[عِقَابُ الْمُلْحِدِينَ وَوَصْفُ الْقُرْآنِ بِكَوْنِهِ مَضُونًا

مَخْرُوسًا مِنَ الْبَاطِلِ]

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِلَّا لِحَادُ وَضْعُ الْكَلَامِ عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهِ (١). وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ أَيُّ: أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِمَنْ يُلْحِدُ فِي آيَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَسَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ بِالْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُلْفَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَيُّ: أَيْسَرُ هَذَا وَهَذَا؟ لَا يَسْتَوِيَانِ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ تَهْدِيدًا لِلْكَافِرَةِ: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضُّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: وَعِيدٌ (٢). أَيُّ: مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، إِنَّهُ عَالِمٌ بِكُمْ وَيَصِيرُ بِأَعْمَالِكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قَالَ الضُّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ: وَهُوَ الْقُرْآنُ (٣). ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَةٌ عَزِيزٌ﴾ أَيُّ: مَتَّعُ الْجَنَابِ، لَا يُرَامُ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ بِمِثْلِهِ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أَيُّ: لَيْسَ لِلْبَاطِلِ إِلَيْهِ سَبِيلٌ، لِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أَيُّ: حَكِيمٍ

(١) الطبري: ٤٧٨/٢١ (٢) الطبري: ٤٧٨/٢١ (٣) الطبري: ٤٨٢/٢١

(٤) الطبري: ٤٨١/٢١ (٥) الطبري: ٤٨٢/٢١

سورة فصلت

٤٨٢

سورة فصلت

﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُى قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْمَعُ إِلَّا سِنِينَ مِنْ دَعَاؤِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوَسُ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّئِهِ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي عِنْدَهُ السَّاعَةِ فَاتِمَةٌ وَلِئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّىَ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ نَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَّا يَهْتَفُوا بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٍ ﴿٥٤﴾﴾

الجميع يعلموه لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا بِعِلْمِنَا﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال جلَّ عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ مِنْ ذَمِّهِمْ وَلَا يُفِضُ مِنْ عَمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١] وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُى﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ عَبْدْتُمُوهُمْ مَعِيَ ﴿قَالُوا ءَاذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينعفهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ﴾ أي: وظنَّ المشركون يوم القيامة وهذا

خساراً ﴿[الإسراء: ٨٢]﴾ ﴿أَوَلَيْكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: بَعِيدٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ<sup>(١)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ كَأَنَّ مَنْ يُخَاطِبُهُمْ يُنَادِيهِمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ لَا يَفْهَمُونَ مَا يَقُولُ<sup>(٢)</sup>. قُلْتُ: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقِي بِمَاءٍ لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَهُ وَنِدَاءَهُ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

[الْإِشَارَةُ إِلَى النَّاسِي بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ أَتَى: كُذِّبَ وَأُوذِيَ﴾ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُا الْعَزِيزِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى بِنَاقِيرِ الْحِسَابِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْدُوا مِنْ ذُرِيهِ مَوْثِقًا ﴿وَأَيُّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ أي: وَمَا كَانَ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ عَنْ بَصِيرَةٍ مِنْهُمْ لِمَا قَالُوا، بَلْ كَانُوا شَاكِينَ فِيمَا قَالُوهُ غَيْرَ مُحَقِّقِينَ لِشَيْءٍ كَانُوا فِيهِ. هَكَذَا وَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَهُوَ مُحْتَمِلٌ<sup>(٣)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُى قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ ﴿٤٨﴾﴾

[كُلُّ يُجَازَى حَسَبَ عَمَلِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لَا يَعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ وَلَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِذْ سَالَ الرَّسُولُ إِلَيْهِ.

[عِلْمُ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ]

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ كَمَا قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ سَيِّدُ الْبَشَرِ لِحَبْرَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ مِنْ سَادَاتِ الْمَلَائِكَةِ حِينَ سَأَلَهُ عَنِ السَّاعَةِ فَقَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»<sup>(٤)</sup>. وَكَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ [النازعات: ٤٤] وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَا يَحِيطُ بِوَقْعَتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي:

(١) الطبري: ٤٨٥/٢١ (٢) الطبري: ٤٨٤/٢١ (٣) الطبري:

٤٨٧/٢١ (٤) فتح الباري: ١/١٤٠

وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمَ يَكْفُرْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ ﴿٥٣﴾

[الْقُرْآنُ وَدَلَائِلُ صَدَقِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ أَيُّ: كَيْفَ تَرَوْنَ حَالَكُمْ عِنْدَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أَيُّ فِي كُفْرٍ وَعِنَادٍ وَمُشَاقَّةٍ لِلْحَقِّ وَمَسَلَكٍ بَعِيدٍ مِنَ الْهُدَىٰ ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿سَرِّبَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيُّ: سَنُظْهِرُ لَهُمْ دَلَالَاتِنَا وَحُجَجَنَا عَلَىٰ كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا مُّزَلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِدَلَائِلٍ خَارِجِيَّةٍ ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ مِنْ الْفُتُوحَاتِ وَظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْأَقَالِيمِ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: وَدَلَائِلُ فِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا: وَقَعَةُ بَدْرٍ وَفَتْحُ مَكَّةَ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْوَقَائِعِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِمْ، نَصَرَ اللَّهُ فِيهَا مُحَمَّدًا ﷺ وَصَحْبَهُ، وَخَذَلَ فِيهَا الْبَاطِلَ وَجِزْبَهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ مَا الْإِنْسَانُ مُرَكَّبٌ مِنْهُ، وَفِيهِ وَعَلَيْهِ مِنَ الْمَوَادِّ [وَالْأَخْلَاطِ] وَالْهَيْئَاتِ الْعَجِيبَةِ كَمَا هُوَ مُبْسُوطٌ فِي عِلْمِ التَّشْرِيحِ الدَّلَالُ عَلَى حِكْمَةِ الصَّانِعِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَذَلِكَ مَا هُوَ مُجْبُولٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمُبْتَائِنَةِ مِنْ حُسْنٍ وَقُبْحٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا هُوَ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ تَحْتَ الْأَقْدَارِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَجِيلُهُ وَحَدَرُهُ أَنْ يَجُوزَهَا وَلَا يَتَعَدَّهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمَ يَكْفُرْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيُّ: كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَىٰ أَفْعَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ صَادِقٌ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ كَمَا قَالَ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ... الْآيَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ: فِي شَكٍّ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ، وَلَا يَعْمَلُونَ لَهُ وَلَا يَحْذَرُونَ مِنْهُ، بَلْ هُوَ عَنْدهُمْ هَذَرٌ، لَا يَعْبَأُونَ بِهِ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَوَاقِعٌ لَا رَيْبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَقَرًّا أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ، وَإِقَامَةُ السَّاعَةِ لَدَيْهِ يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾ أَيُّ: الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَحْتَ قَهْرِهِ، وَفِي قَبْضَتِهِ،

بِمَعْنَى الْيَقِينِ ﴿مَا لَهُمْ مِّن مَّحِصٍ﴾ أَيُّ: لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ﴿٥٤﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُمُ الْخُسْرَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ آغْرَضْنَا بِحَابِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَدَّ دُعَاءَ عَرِيضٍ ﴿٥٦﴾

[تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ حِينَ تَصِيبُهُ السَّرَّاءُ بَعْدَ الضَّرَّاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى لَا يَمَلُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ رَبِّهِ بِالْخَيْرِ، وَهُوَ الْمَالُ وَصِحَّةُ الْجِسْمِ وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ، وَهُوَ الْبَلَاءُ أَوْ الْفَقْرُ ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أَيُّ: يَقَعُ فِي ذَهْنِهِ أَنَّهُ لَا يَنْهَيَا لَهُ بَعْدَ هَذَا خَيْرٌ ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أَيُّ: إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ وَرَزَقٌ بَعْدَ مَا كَانَ فِي شِدَّةٍ لِيَقُولَنَّ: هَذَا لِي، إِنِّي كُنْتُ أَسْتَحِقُّهُ عِنْدَ رَبِّي ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أَيُّ: يَكْفُرُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ، أَيُّ: لِأَجْلِ أَنَّهُ خَوَّلَ نِعْمَةً يَبْطُرُ وَيَتَخَرَّ وَيَكْفُرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾﴾ أَنْ رَّاهُ اسْتَفْهَىٰ ﴿[العلق: ١، ٢]﴾ وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُمُ الْخُسْرَىٰ﴾ أَيُّ: وَلَكِنْ كَانَ ثُمَّ مَعَادٌ فَلْيُحْسِنَنَّ إِلَيَّ رَبِّي كَمَا أَحْسَنَ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ، يَتِمَّنِي عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ إِسَاءَتِهِ الْعَمَلِ وَعَدَمِ الْيَقِينِ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يَنْهَدُ تَعَالَىٰ مَنْ كَانَ هَذَا عَمَلُهُ وَاعْتِقَادُهُ: بِالْعِقَابِ وَالتَّكَالُفِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ آغْرَضْنَا بِحَابِهِ﴾ أَيُّ: آغْرَضْنَا عَنْ الطَّاعَةِ وَاسْتِكْبَارِ عَنِ الْإِنْفِادِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكْبَهُ﴾ [الذاريات: ٣٩] ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أَيُّ: الشَّدَّةُ ﴿فَوَدَّ دُعَاءَ عَرِيضٍ﴾ أَيُّ: يُطِيلُ الْمَسْأَلَةَ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ، فَالْكَلَامُ الْعَرِيضُ: مَا طَالَ لَفْظُهُ وَقَلَّ مَعْنَاهُ، وَالْوَجِيزُ عَكْسُهُ، وَهُوَ مَا قَلَّ وَدَلَّ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾... الْآيَةِ [يونس: ١٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٦﴾ سَرِّبَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ



سُورَةُ الشُّورَى

٤٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ عَسَقَ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ  
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ  
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ  
 وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي  
 الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا  
 مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظُ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ  
 ۝ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ  
 حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْقَيْنِ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقَيْنِ فِي  
 السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ  
 مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝  
 أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ  
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ  
 إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝

## تفسير سورة الشورى وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَقَ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ  
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ  
 الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ  
 يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ  
 الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظُ  
 عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝﴾

[الوحي وعظمة الله]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ  
 وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ  
 الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ كَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ كَذَلِكَ أُنْزِلَ الْكُتُبُ  
 وَالصُّحُفُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ  
 أَيْ: فِي انْتِقَامِهِ﴾ الْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا  
 قَالَتْ: إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا  
 رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:  
 «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلُ صَلَاسَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ  
 فَيَقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَأْتِينِي الْمَلَكُ  
 رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأُعِي مَا يَقُولُ». قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهَا: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ،  
 فَيَقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينُهُ ﷺ لَيَقْصُدُ عَرَقًا<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي  
 الصَّحِيحَيْنِ وَلَفْظُهُ لِلْبُخَارِيِّ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَمْ  
 يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: الْجَمِيعُ عِبْدٌ لَهُ وَمَلَكٌ لَهُ  
 تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَضَرُّفِهِ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:  
 ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩] ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾  
 [سبأ: ٢٣] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَكَادُ  
 السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُمَا وَالضُّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَكَعْبُ الْأَخْبَارِ أَيُّ: فَرَقًا  
 مِنَ الْعَظْمَةِ<sup>(٣)</sup>. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ

لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ  
 حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا  
 رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] وَقَوْلُهُ جَلَّ  
 جَلَالُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إِغْلَامٌ بِذَلِكَ وَتَنْوِيهٌ  
 بِهِ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ  
 أَوْلِيَاءَ﴾ يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ ﴿اللَّهُ حَفِظُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: شَهِدَ  
 عَلَى أَعْمَالِهِمْ يُحْصِيهَا وَيُعْذِّبُهَا عَذَابًا، وَسَيَجْزِيهِمْ بِهَا أَوْفَرَ  
 الْجَزَاءِ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ  
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا  
 وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْقَيْنِ فِي الْجَنَّةِ وَفِرْقَيْنِ فِي السَّعِيرِ ۝  
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ  
 وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝﴾

(١) الموطأ: ٢٠٢/١ (٢) فتح الباري: ٢٥/١ ومسلم: ٤/١٨١٦ (٣) الطبري: ٥٠١/٢١

## [أَوْحِيَ الْقُرْآنَ لِلْإِنْسَانِ بِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أَي: وَاضْحًا جَلِيًّا بَيِّنًا ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وَهِيَ مَكَّةُ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَي: مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَسُمِّيتَ مَكَّةُ أُمَّ الْقُرَى؛ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ؛ لِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ مَذْكُورَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا، وَمِنْ أَوْجَزِ ذَلِكَ وَأَدْلَاهُ مَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْحُمْرَاءِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ فِي سُوقِ مَكَّةَ: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»<sup>(١)</sup>.

هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي: لَا شَكَّ فِي وُقُوعِهِ وَأَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ الْقَعَارِ﴾ [التغابن: ٩] أَي: يَغْبِثُ أَهْلَ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ، وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَمِيحٌ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥] رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: «أَتُنْذِرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟». قُلْنَا: لَا، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ ﷺ: لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا» ثُمَّ قَالَ ﷺ: لِلَّذِي فِي يَسَارِهِ: «هَذَا كِتَابٌ أَهْلِ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَلَا بَيِّنَةَ شَيْءٍ نَعْمَلُ إِنْ كَانَ هَذَا أَمْرٌ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ». ثُمَّ قَالَ ﷺ: بِيَدِهِ فَقَبَضَهَا ثُمَّ قَالَ: «فَرِّعْ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعِبَادِ - ثُمَّ قَالَ بِالْيَمْنَى فَنَبَذَ بِهَا، فَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ». وَنَبَذَ بِالْيُسْرَى

وَقَالَ: «فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»<sup>(٣)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ: إِنْ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يَعْجِي: يَزُورُونَهُ فَوْجُدُوهُ يَبْكِي، فَقَالُوا لَهُ: مَا يَبْكِيكَ؟ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ مِنْ شَارِبِكَ ثُمَّ أَقِرَّهُ حَتَّى تَلْقَانِي». قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبَضَ بِيَمِينِهِ قَبْضَةً وَأُخْرَى بَالِيَدِ الْأُخْرَى، قَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَهَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أَبَالِي». فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا<sup>(٥)</sup>. وَأَحَادِيثُ الْقَدَرِ فِي الصَّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ كَثِيرَةٌ جَدًّا؛ مِنْهَا حَدِيثٌ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَائِشَةَ وَجَمَاعَةً جَمَّةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: إِمَّا عَلَى الْهَدَايَةِ أَوْ عَلَى الضَّلَالَةِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى فَآوَتْ بَيْنَهُمْ، فَهَدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ، وَأَصَلَ مَنْ يَشَاءُ عَنْهُ، وَلَهُ الْحُكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّاهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمٌ﴾ ﴿١٧﴾

## [اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَاكِمُ الْخَالِقُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمُ إِلَهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمُخْبِرًا أَنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: هُوَ الْحَاكِمُ

(١) أحمد: ٣٠٥/٤ (٢) تحفة الأحادي: ٤٢٦/١٠ والنسائي في الكبرى: ٤٧٩/٢ وابن ماجه: ١٠٣٧/٢ (٣) أحمد: ٢/١٦٧ تحفة الأحادي: ٣٥٠/٦ والنسائي في الكبرى: ٦/٤٥٢ (٤) أحمد: ١٧٦/٤ (٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨٤

سُورَةُ الشُّورَى

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا  
وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ  
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾  
﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا  
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ  
وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ  
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا  
تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ  
سَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ  
أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾  
فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ  
وَقُلْ مَا مَنَعْتُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ مِنْ بَعْدِي وَأَمَرْتُ لَأَعَدِلَ  
بَيْنَكُمْ اللَّهُ بَيْنَ أَوْثِقِكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ  
لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿الأنبياء: ٢٥﴾. وَفِي الْحَدِيثِ:  
«نَحْنُ مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ»<sup>(١)</sup>. أَيْ:  
الْقَدَرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنْ  
اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ وَمَنَاهِجُهُمْ كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لِكُلِّ  
جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنَهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى  
هَهُنَا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أَيْ: وَصَّى اللَّهُ  
تَعَالَى جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْإِتِّفَافِ  
وَالْجَمَاعَةِ. وَنَهَايَهُمْ عَنِ الْإِفْرَاقِ وَالْإِخْتِلَافِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ  
وَجَلَّ: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أَيْ: سَقَّ  
عَلَيْهِمْ وَأَنْكَرُوا مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ مِنَ التَّوْحِيدِ. ثُمَّ  
قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ  
يُنِيبُ﴾ أَيْ هُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ الْهُدَايَةَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَيَكْتُبُ  
الصَّلَاةَ عَلَى مَنْ آتَرَهَا عَلَى طَرِيقِ الرُّشْدِ.

فِيهِ بِكِتَابِهِ وَسَنَّهُ نَبِيِّهِ ﷺ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي  
شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبِّي﴾  
أَيْ: الْحَاكِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَيْ:  
أَرْجِعُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَاطِرُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: خَالِقُهُمَا وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ  
أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أَيْ: مِنْ جَنَسِكُمْ وَشَكْلِكُمْ مِثَّةً عَلَيْكُمْ  
وَتَفَضُّلاً جَعَلَ مِنْ جَنَسِكُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿وَمِنْ الْأَنْعَامِ  
أَزْوَاجًا﴾ أَيْ وَخَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ. وَقَوْلُهُ  
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَذُرُكُمْ فِيهِ﴾ أَيْ: يَخْلُقُكُمْ فِيهِ أَيْ: فِي  
ذَلِكَ الْخَلْقِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَزَالُ يَذُرُّكُمْ فِيهِ ذُكُورًا  
وَإِنَاثًا خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِي وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَنَسَلًا بَعْدَ نَسْلِ  
مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أَيْ: لَيْسَ  
كَخَالِقِ الْأَزْوَاجِ كُلِّهَا شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا  
نَظِيرَ لَهُ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ وَحَاصِلُ  
ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ  
وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ: يُوسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ،  
وَلَهُ الْحُكْمُ وَالْعَدْلُ الثَّامُ ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا  
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا  
تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ  
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا  
جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ  
مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي  
شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾

[دين الرُّسُلِ وَاحِدٌ]

يَقُولُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ  
نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فَذَكَرَ أَوَّلَ الرُّسُلِ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ وَهُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآخِرُهُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ،  
ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ مِنْ أُولَى الْعُزْمِ [وَهُمْ] إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى  
وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ انْتِظَمَتْ ذِكْرُ الْخَمْسَةِ كَمَا  
اشْتَمَلَتْ آيَةُ الْأَحْزَابِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ  
أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى  
ابْنِ مَرْيَمَ﴾... [الآية: الاحزاب: ٧]. وَالَّذِينَ الَّذِينَ جَاءَتْ بِهِ  
الرُّسُلُ كُلُّهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ عَزَّ  
وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّمْ

## [وَجْهَ الْاِخْتِلَافِ]

وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا نَفَرَقُوا<sup>(١)</sup> إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: إِنَّمَا كَانَ مُخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيْهِمْ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ وَالْعِنَادُ وَالْمُسَافَقَةُ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْنَا لَأَجَلَ مُسْمَى﴾ أي: لَوْ لَا الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِإِنْظَارِ الْعِبَادِ بِإِقَامَةِ حِسَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ لَعَجَلَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا سَرِيعًا. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَلَيْدَ الَّذِينَ أُوْرُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يَعْني: الْجِيلَ الْمَتَأَخِّرَ بَعْدَ الْقُرُونِ الْأَوَّلِ الْمُكَذَّبَ لِلْحَقِّ ﴿لَفِي شَكِّ مِنْهُ مَرِيبٌ﴾ أي: لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، وَإِنَّمَا هُمْ مُقْلِدُونَ لِأَبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ، وَهُمْ فِي خَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَشَكِّ مَرِيبٍ وَشِقَاقٍ بَعِيدٍ.

﴿فَلِلَّذَلِكَ فَادَعُ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ<sup>(٢)</sup>﴾

اِسْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى عَشْرِ كَلِمَاتٍ مُسْتَقِلَّاتٍ كُلُّ مِنْهَا مُتَفَصِّلَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، حِكْمٌ بِرَأْسِهَا، قَالُوا: وَلَا نَظِيرَ لَهَا سِوَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ، فَإِنَّهَا أَيْضًا عَشْرَةُ فُصُولٍ كَهَذِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلِلَّذَلِكَ فَادَعُ﴾ أي: فَلِلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي وَصَّيْنَا بِهِ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَكَ، أَصْحَابَ الشَّرَافِ الْكِبَارِ الْمُتَّبَعَةِ كَأُولَى الْعِزِّ وَغَيْرِهِمْ فَادْعُ النَّاسَ إِلَيْهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: وَأَسْتَقِمْ أَنْتَ وَمَنْ اتَّبَعَكَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يَعْني: الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَكَذَّبُوا وَافْتَرَوْهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُلْ ءَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: صَدَقْتُ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: فِي الْحُكْمِ كَمَا أَمَرَنِي اللَّهُ، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هُوَ الْمَعْبُودُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَتَحْنُ نَقْرُ بِذَلِكَ اخْتِيَارًا، وَأَنْتُمْ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ اخْتِيَارًا، فَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي الْعَالَمِينَ طَوْعًا وَاجْتِبَارًا. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾ أي: نَحْنُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨٥

سُورَةُ الشُّورَى

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِشُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ أَشْرَعُوا لَهُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

بُرَاءٍ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أي: لَا خُصُومَةَ<sup>(٢)</sup>. قَالَ السُّدِّيُّ: وَذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ السَّيْفِ، وَهَذَا مُتَّبَعٌ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَآيَةُ السَّيْفِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦] وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: الْمَرْجِعُ وَالْمَأْتِ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِشُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ

بَعِيدٌ ﴿١٩﴾

[تَنْبِيْهُ لِمَنْ جَادَلَ فِي الدِّينِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾ أَيُّ يُجَادِلُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ لِيَصُدُّوهُمْ عَمَّا سَلَكَوهُ مِنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿مُجَنِّهَهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ: بَاطِلَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴿وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ﴾ أَيُّ: مِنْهُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ: جَادَلُوا الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ مَا اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ الْهُدَى وَطَمَعُوا أَنْ تَعُودَ الْجَاهِلِيَّةُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالُوا لَهُمْ: دِينُنَا خَيْرٌ مِنْ دِينِكُمْ وَنَبِيَّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ وَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَأَوَّلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ كَذَبُوا فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي: الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وَهُوَ الْعَدْلُ وَالْإِنصَافُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٣)</sup>. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَالسَّكَّةَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَاقِيمُوا الزِّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَغْوُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَذْرُؤُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فِيهِ تَرْغِيبٌ فِيهَا وَتَرْهِيْبٌ مِنْهَا وَتَرْهِيْدٌ فِي الدُّنْيَا، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْتَعْجِلْ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أَيُّ: يَقُولُونَ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ تَكْلِيفًا وَاسْتِغْنَاءًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أَيُّ: خَائِفُونَ وَجِلُونَ مِنْ وَفُوعِهَا ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أَيُّ: كَانَتْ لَا مَحَالَةَ، فَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لَهَا عَامِلُونَ مِنْ أَجْلِهَا. وَقَدْ رَوَى مِنْ طَرِيقٍ تَبْلُغُ دَرَجَةَ التَّوَاتُرِ فِي الصَّحَاحِ وَالْجِسَانِ وَالشُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ، وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ وَهُوَ فِي بَعْضِ أَشْفَارِهِ، فَتَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: «هَؤُلَاءِ»، فَقَالَ لَهُ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيَحِلُّ إِنَّهَا كَانَتْ»، فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ فَقَالَ: حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»<sup>(٤)</sup>. فَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»<sup>(٥)</sup> هَذَا مُتَوَاتِرٌ لَا مَحَالَةَ، وَالْغَرَضُ أَنَّهُ لَمْ يُجِبْهُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ بَلْ أَمَرَهُ بِالْإِسْتِعْدَادِ

لَهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِؤْنَ فِي السَّاعَةِ﴾ أَيُّ: يُجَادِلُونَ فِي وَجُودِهَا وَيَدْفَعُونَ وَفُوعَهَا ﴿لِي صَلِّ بَعِيدٌ﴾ أَيُّ: فِي جَهْلٍ بَيْنَ؛ لِأَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى إِخْبَاءِ الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ [رَزَقَ اللَّهُ وَعَطَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ فِي رِزْقِهِ إِنَّمَا عَنْ آخِرِهِمْ لَا يَنْسَى أَحَدًا مِنْهُمْ، سَوَاءً فِي رِزْقِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] وَلَهَا نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ، وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيُّ: يُوسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أَيُّ: لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ: عَمِلَ الْآخِرَةَ ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أَيُّ: نُفَوِّيه وَنُعِينَهُ عَلَى مَا هُوَ بِصَدْدِهِ، وَكَثُرَ نَمَاءُ وَنَجْزِيهِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَثْمَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أَيُّ: وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا سَعْيُهُ لِيَحْضُلَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لَهُ إِلَى الْآخِرَةِ هَمٌّ الْبَتَّةَ بِالْكَلِّيَّةِ: حَرَمَهُ اللَّهُ الْآخِرَةَ وَالْدُّنْيَا، إِنْ شَاءَ أَغْطَاهُ مِنْهَا وَإِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَحْضُلْ لَا هَذِهِ وَلَا هَذِهِ، وَفَازَ السَّاعِي بِهَذِهِ النَّيَّةِ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالذَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ هُنَا مُقَدِّمَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي فِي سُبْحَانَ وَهِيَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ

(١) الطبري: ٥١٩/٢١ (٢) الطبري: ٥١٩/٢١ (٣)

الطبري: ٥٢٠/٢١ (٤) فتح الباري: ٥٧٣/١٠ ومسلم: ٤/

٢٠٣٣ (٥) مسلم: ٢٠٣٤/٤

يَصْلَحُهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَمَلِكُمْ رُكُودًا وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا [الإسراء: ١٨-٢١].

وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي بَنِي كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّعَادَةِ وَالرَّفْعَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»<sup>(١)</sup>.

[تَشْرِيعُ الْعِبَادِ شَرْكَ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟ أَمْ لَا يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ اللَّهُ لَكَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ، بَلْ يَتَّبِعُونَ مَا شَرَعَ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ مِنْ تَحْرِيمٍ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَبَرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، وَتَحْلِيلِ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَالْقِمَارِ إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي كَانُوا قَدْ اخْتَرَعُوهَا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَالْعِبَادَاتِ الْبَاطِلَةِ [وَالْأَقْوَالِ] الْفَاسِدَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيْ بْنِ قَمْعَةَ يَجُرُّ قُضْبَهُ فِي النَّارِ»<sup>(٢)</sup>. لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ، وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ أَحَدَ مُلُوكِ خِزَاعَةَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، وَهُوَ الَّذِي حَمَلَ قُرَيْشًا عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ - لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَبَّحَهُ - وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بَيْنَهُمْ» أَي: لَعُوجِلُوا بِالْمَعْتُوبَةِ لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِنْظَارِ إِلَى يَوْمِ الْمَعَادِ «وَلَوْ أَنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أَي: شَدِيدٌ مُوجِعٌ فِي جَهَنَّمَ وَيُسَسِّ الْمَصِيرُ.

[فَرَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مِيدَانِ الْحَشْرِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا» أَي: فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ «وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ» أَي: الَّذِي يَخَافُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ، هَذَا حَالُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ - وَهُمْ فِي هَذَا الْخَوْفِ وَالْوَجَلِ - «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟ أَي: أَيْنَ مَنْ هُوَ فِي الْعَرَصَاتِ فِي الدَّلِّ وَالْهَوَانِ وَالْخَوْفِ الْمُحَقَّقِ عَلَيْهِ بِظُلْمِهِ، وَمَنْ هُوَ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ فِيمَا يَشَاءُ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَاسٍ وَمَسَاكِينٍ، وَمَنَاطِرٍ، وَمَنَاجِحٍ وَمَلَادٍ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا

أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» أَي: الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالنَّعْمَةُ التَّامَّةُ، السَّابِغَةُ الشَّامِلَةُ الْعَامَّةُ.

«ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كِبْرًا فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾»

[الْبَشَارَةُ بِنِعَمِ الْجَنَّةِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ، لِعِبَادِهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ «ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أَي: هَذَا حَاصِلُ لَهُمْ كَائِنَ لَا مَحَالَةَ بِبَشَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِهَؤُلَاءِ

## [اللَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ وَيَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ يَقْبُولُ تَوْبَتَهُمْ إِلَيْهِ إِذَا تَابُوا وَرَجَعُوا إِلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ كَرَمِهِ وَجَلَمِهِ أَنْ يَغْفُو وَيَضْفَحَ وَيَسْتُرَ وَيَغْفِرَ، وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ - حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ - مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَتْ رَاحِلَتُهُ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيَسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عِنْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَحْوَهُ<sup>(٢)</sup>.

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَخَافُ أَنْ يَقْتُلَهُ فِيهِ الْعُطَشُ»<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ هَمَامُ بْنُ الْحَارِثِ: سُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الرَّجُلِ يَفْجُرُ بِالْمَرْأَةِ ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، وَقَرَأَ: ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾... الْآيَةَ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَغْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أَيُّ: يَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَغْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ فِي الْمَاضِي ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ: هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا فَعَلْتُمْ وَصَنَعْتُمْ وَقُلْتُمْ، وَمَعَ هَذَا يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي يَسْتَجِيبُ لَهُمْ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ: يَسْتَجِيبُ لَهُمُ الدُّعَاءَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَصْحَابِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ<sup>(٥)</sup>. ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيُّ: يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ

الْمُشْرِكِينَ مِنْ كُفَّارٍ قُرَيْشٍ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَالنَّصْحِ لَكُمْ مَا لَا تُعْطُونِيهِ، وَإِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَكْفُوا شِرْكَكُمْ عَنِّي وَتَذَرُونِي أَبْلُغَ رِسَالَاتِ رَبِّي إِنْ لَمْ تَنْصُرُونِي فَلَا تُؤْذُونِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَلْمُودَةُ فِي الْفُرْقَيْنِ﴾ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجَلْتُ، إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصْلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ. انفرد به الْبُخَارِيُّ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَرَفَّ حَسَنَةً زِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أَيُّ: وَمَنْ يَعْمَلْ حَسَنَةً ﴿زِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أَيُّ: أَجْرًا وَثَوَابًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أَيُّ: يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَيُكْثِرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، فَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ وَيُضَاعِفُ فَيُسْكِرُ.

## [رَمَى النَّبِيُّ بِاخْتِلَاقِ الْقُرْآنِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَنَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أَيُّ: لَوْ افْتَرَيْتَ عَلَيْهِ كَذِبًا كَمَا يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أَيُّ: يَطْبَعُ عَلَى قَلْبِكَ وَ[يَسْلُبُكَ] مَا كَانَ آتَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ [لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ] ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآيَاتِ [فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ] [الحاقة: ٤٤-٤٧] أَيُّ: لَا نَقْتَمِنَا مِنْهُ أَشَدَّ الْإِنْتِقَامِ، وَمَا قَدَّرَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَحْجِزَ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيُحْيِي الْمَيِّتَ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أَيُّ: يُحَقِّقُهُ وَيُثَبِّتُهُ وَيُبَيِّنُهُ وَيُوضِّحُهُ بِكَلِمَاتِهِ، أَيُّ: يَحْجِزُهُ وَبَرَاهِينِهِ ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ: بِمَا تُكِنُّهُ الصُّمَائِرُ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ.

﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ. وَيَعْمُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٥] وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ [١٦] وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ [١٧] وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ أَلْفَيْتَ مِنْ بَعْدِ مَا فَتَقُطُوا وَيَشْرُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ [١٨]

(١) فتح الباري: ٤٢٦/٨ (٢) أحمد: ٢٢٩/١ (٣) مسلم:

٢١٠٤/٤ (٤) مسلم: ٢١٠٣/٤ (٥) عبد الرزاق: ١٩١/٣

(٦) الطبري: ٥٣٣/٢١ إسناده ضعيف، فيه شريك بن عبدالله

الكوفي سعي الحفظ وشيخه إبراهيم بن مهاجر ضعيف يعتبر به (٧)

الطبري: ٥٣٤/٢١

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ يَسَاءَ لِسُكُنِ الرِّيحِ  
فِيظَلِّلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ  
﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ  
يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنُدْعُ  
الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ  
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْنَثُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا  
عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ  
الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا  
وَأَصْلَحَ فَاجْزِهِ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ  
بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ  
يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ  
﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ بَدَةٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ  
لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ وَلَوَانِهِمْ وَلَعَانِهِمْ  
وَطِبَاعِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَأَنْوَاعِهِمْ، وَقَدْ فَرَّقَهُمْ فِي أَرْجَاءِ  
أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَهُوَ﴾ مَعَ هَذَا كُلِّهِ ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ  
إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ  
وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفِذُهُمُ  
الْبَصَرُ فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الْحَقِّ.

### [سَبَبُ الْمَصَائِبِ الْعِصْيَانُ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ  
أَيْدِيكُمْ﴾ أَيُّ: مَهْمَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنَ الْمَصَائِبِ  
فَاتِمَّا هِيَ عَنْ سَبَبَاتٍ تَقَدَّمَتْ لَكُمْ ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ أَيُّ:  
مِنَ السَّيِّئَاتِ فَلَا يُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا، بَلْ يَغْفُو عَنْهَا ﴿وَلَوْ  
يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ  
دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «وَالَّذِي نَفْسِي

[اللَّحْمِيَّ] فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَتَجِدُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ﴾ قَالَ: يَشْفَعُونَ فِي إِخْوَانِهِمْ ﴿وَيُرِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾  
قَالَ: يَشْفَعُونَ فِي إِخْوَانٍ إِخْوَانِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:  
﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَالَهُمْ مِنَ  
الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ذَكَرَ الْكَافِرِينَ وَمَالَهُمْ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ  
العَذَابِ الشَّدِيدِ الْمُوجِعِ الْمُؤْلِمِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَحِسَابِهِمْ.  
[الْحِكْمَةُ فِي عَدَمِ بَسْطِ الرِّزْقِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَا فِي  
الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: لَوْ أَعْطَاهُمْ فَوْقَ حَاجَتِهِمْ مِنَ الرِّزْقِ لَحَمَلَهُمْ  
ذَلِكَ عَلَى الْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ أَشْرًا  
وَبَطَرًا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنْ يُزِيلُ بُدْرَ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ يَعْلَمُ  
خَيْرُ صَيْرٍ﴾ أَيُّ: وَلَكِنْ يَزِيلُهُمْ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَخْتَارُهُ مِمَّا  
فِيهِ صَلَاحُهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ، فَيُغْنِي مَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى  
وَيُفْقِرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾  
أَيُّ مِنْ بَعْدِ إِيَاسِ النَّاسِ مِنْ نُزُولِ الْمَطَرِ يُزِيلُهُ عَلَيْهِمْ فِي  
وَقْتِ حَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَنْ كَانُوا مِنْ  
قَبْلِ أَنْ يُزِيلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُتْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩] وَقَوْلُهُ  
جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أَيُّ: يَعْمُ بِهَا الْوُجُودُ عَلَى  
أَهْلِ ذَلِكَ الْقَطْرِ وَيَلْكَ النَّاجِيَّةِ. قَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرَ لَنَا أَنَّ  
رَجُلًا قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَمِيرَ  
الْمُؤْمِنِينَ، فَحَطَّ الْمَطَرُ وَقَطَّ النَّاسُ. فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ: مُطِرْتُمْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا  
قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٢)</sup>. أَيُّ: هُوَ  
الْمُتَصَرِّفُ لِخَلْقِهِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ، وَهُوَ  
الْمَحْمُودُ الْعَاقِبَةُ فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَفْعَلُهُ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ فِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ  
عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا  
كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي  
الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

### [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ  
الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِيهِ الْقَاهِرِ ﴿خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ  
فِيهَا﴾ أَيُّ: دَرَأَ فِيهَا أَيُّ: فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَمِنْ  
كَاتِبَةٍ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَسَائِرَ

(١) الطبري: ٥٣٤/٢١ (٢) الطبري: ٥٣٧/٢١ إسناده مرسل  
قَتَادَةُ لَمْ يَدْرِكْ عُمَرَ.



مُنَاسِبٌ لِلأَوَّلِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ شَاءَ لَسَكَنَ الرِّيحَ فَوَقَفَتْ أَوْ لَقَوَاهُ فَشَرَدَتْ وَأَبْقَتْ وَهَلَكَتْ، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنَّهُ يُرْسِلُهُ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ، كَمَا يُرْسِلُ الْمَطَرَ بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ، وَلَوْ أَنْزَلَهُ كَثِيرًا جَدًّا لَهَدَمَ الْبُنْيَانَ، أَوْ قَلِيلًا لَمَّا أَتَبَتِ الزَّرْعَ وَالثَّمَارَ، حَتَّى إِنَّهُ يُرْسِلُ إِلَى مِثْلِ بِلَادِ مِصْرَ سَبْحًا مِنْ أَرْضٍ أُخْرَى غَيْرِهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مَطَرٍ، وَلَوْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ لَهَدَمَ بُنْيَانَهُمْ وَأَسْقَطَ جُذُرَانَهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ الَّذِينَ يَجِدُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ أَيُّ: لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْ بَاسِنَا وَنَقَمَتِنَا، فَإِنَّهُمْ مَقْهُورُونَ بِقُدْرَتِنَا.

﴿فَمَا أُوَيْدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنَعْتَجِ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٢) وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٥)

[صِفَاتٌ مَنْ يَسْتَحِقُّ مَا عِنْدَ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُحَقَّرًا لِشَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ وَالنَّعِيمِ الْفَنَائِيِّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا أُوَيْدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنَعْتَجِ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: مَهْمَا حَصَلَتْكُمْ وَجَمَعْتُمْ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ، فَإِنَّمَا هُوَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهِيَ دَارُ دُنْيَاةٍ فَإِنَّهَا زَائِلَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أَيُّ: وَتَوَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ بَاقٍ سَرْمَدِيٌّ، فَلَا تَقْدُمُوا الْفَنَائِيَّ عَلَى الْبَاقِي، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيُّ: لِلَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَرْكِ الْمَلَأَدِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أَيُّ: لِيُعِينَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي أَدَاءِ الْوُجُوبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أَيُّ: سَجَّيْتُهُمْ نَقْتَضِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ عَنِ النَّاسِ لَيْسَ سَجَّيْتُهُمُ الْإِنْتِقَامَ مِنَ النَّاسِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ قَطُّ إِلَّا أَنْ تُتْهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ (٥).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أَيُّ: اتَّبَعُوا

بِيَدِهِ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ، حَتَّى الشُّوْكَةَ يُشَاكُّهَا (١).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاوِيَةَ - هُوَ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ فِي جَسَدِهِ يُؤْذِيهِ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ» (٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يَكْفُرُهَا، ابْتَلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْحَزَنِ لِيَكْفُرَهَا» (٣).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٦) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَاكِدًا عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٧) أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٨) وَعَلَّمَ الَّذِينَ يَجِدُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ (٣٩)

[السُّفُنُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ وَسُلْطَانِهِ: تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِتَجَرِي فِيهِ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ، وَهِيَ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ أَيُّ: كَالْجِبَالِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالشَّدَايِدُ وَالضَّحَّاكُ. أَيُّ: هَذِهِ فِي الْبَحْرِ كَالْجِبَالِ فِي الْبَرِّ (٤). ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أَيُّ: الَّتِي تَسِيرُ فِي الْبَحْرِ بِالسُّفُنِ لَوْ شَاءَ لَسَكَنَتْهَا حَتَّى لَا تَتَحَرَّكَ السُّفُنُ، بَلْ تَبْقَى رَاكِدَةً لَا تَجِيءُ وَلَا تَذْهَبُ، بَلْ وَافِقَةً عَلَى ظَهْرِهِ أَيُّ: عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَيُّ: فِي الشَّدَايِدِ ﴿شَكُورٍ﴾ أَيُّ: إِنْ فِي تَسْخِيرِهِ الْبَحْرَ وَإِجْرَائِهِ فِي الْهَوَاءِ بِقَدْرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لِسِيرِهِمْ لَدَلَالَاتٍ عَلَى نِعَمِهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ لِكُلِّ صَبَّارٍ أَيُّ: فِي الشَّدَايِدِ شَكُورٌ فِي الرِّخَاءِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أَيُّ: وَلَوْ شَاءَ لَأَهْلَكَ الشُّفُنَ وَغَرَقَهَا بِذُنُوبِ أَهْلِهَا الَّذِينَ هُمْ رَاكِبُونَ فِيهَا ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أَيُّ: مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَلَوْ أَخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ كُلَّ مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ.

وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أَيُّ: لَوْ شَاءَ لَأَرْسَلَ الرِّيحَ قُوَّةً غَايَةً فَأَخَذَتِ الشُّفُنَ وَأَحَالَتْهَا عَنْ سَبْرِهَا الْمُسْتَقِيمِ فَصَرَفَتْهَا ذَاتَ الْيَوْمِينَ أَوْ ذَاتَ الشَّمَالِ أَبَقَةً لَا تَسِيرُ عَلَى طَرِيقٍ وَلَا إِلَى جِهَةٍ مُقْصِدٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ يَنْتَضِمُنْ هَلَاكَهَا، وَهُوَ

(١) أحمد: ٣٠٣/٢ (٢) أحمد: ٩٨/٤ (٣) أحمد: ١٥٧/٦

إسناده ضعيف فيه الليث بن أبي سليم وهو ضعيف لكن له شواهد

كما سبق (٤) الطبري: ٥٤١/٢١ (٥) فتح الباري: ٥٤١/١٠

تَعَالَى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ...﴾ [النحل: ١٢٦]، فَشَرَعَ الْعُدْلَ، وَهُوَ الْفَصَاصُ، وَنُذِبَ إِلَى الْفَضْلِ، وَهُوَ الْعَفْوُ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْجُرُوحُ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي: لَا يَضِيعُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ: «وَمَا زَادَ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: الْمُعْتَدِينَ وَهُوَ الْمُتَبَدِّئُ بِالسَّيِّئَةِ.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أَي: لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ فِي الْأَنْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أَي: إِنَّمَا الْحَرْجُ وَالْعَنْتُ ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَي: يَبْدُوُونَ النَّاسَ بِالظُّلْمِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الْمُسْتَبَانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِيءِ، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ»<sup>(٢)</sup>. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي: شَدِيدٌ مُوجِعٌ.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ، قَالَ: قَدِمْتُ [مِنْ] مَكَّةَ، فَإِذَا عَلَى الْخَنْدَقِ قَنْطَرَةٌ<sup>(\*)</sup>، فَأَخِذْتُ فَأَنْطَلِقُ بِهَا إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْمُهَلَّبِ، وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى الْبُصْرَةِ فَقَالَ: مَا حَاجَّتُكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: حَاجَّتِي إِنْ اسْتَطَعْتُ أَنْ تَكُونَ كَمَا كَانَ أَخُو بَنِي عَدِيٍّ، قَالَ: وَمَنْ أَخُو بَنِي عَدِيٍّ؟ قَالَ: الْعَلَاءُ ابْنُ زِيَادٍ، اسْتَعْمَلَ صَدِيقًا لَهُ مَرَّةً عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُ أَنْ لَا تَبِيتَ إِلَّا وَظَهْرُكَ خَفِيفٌ، وَبَطْنُكَ خَمِصٌ، وَكَفُّكَ نَقِيَّةٌ: مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ سَبِيلٌ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فَقَالَ مَرْوَانُ: صَدَقَ - وَاللَّهِ - وَنَصَحَ، ثُمَّ قَالَ: مَا حَاجَّتُكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: حَاجَّتِي أَنْ تُلْحِقَنِي بِأَهْلِي، قَالَ: نَعَمْ<sup>(٣)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، لَمَّا دَمَ الظُّلْمُ وَأَهْلُهُ وَشَرَعُ

رُسُلُهُ، وَأَطَاعُوا أَمْرَهُ، وَاجْتَنَبُوا زَجْرَهُ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وَهِيَ أَعْظَمُ الْعِبَادَاتِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أَي: لَا يُبْرِمُونَ أَمْرًا حَتَّى يَتَشَاوَرُوا فِيهِ؛ لِيَتَسَاعَدُوا بِأَرَائِهِمْ فِي مِثْلِ الْحُرُوبِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ...﴾ [الآيَةُ]، وَلِهَذَا كَانَ ﷺ يُشَاوِرُهُمْ فِي الْحُرُوبِ وَنَحْوِهَا؛ لِيُطِيبَ بِذَلِكَ قُلُوبَهُمْ، وَهَكَذَا لَمَّا حَضَرَتْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْوَفَاةَ حِينَ طُعِنَ جَعَلَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ شُورَى فِي سِتَّةِ نَفَرٍ، وَهُمْ عُمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَاجْتَمَعَ رَأْيُ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى تَقْدِيمِ عُمَانَ عَلَيْهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْنُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وَذَلِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِ اللَّهِ، الْأَقْرَبِ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ، فَلَا قَرَبَ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أَي: فِيهِمْ قُوَّةُ الْأَنْتِصَارِ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْهِمْ لَيْسُوا بِالْعَاجِزِينَ وَلَا الْأَذْلِينَ، بَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى الْأَنْتِقَامِ مِمَّنْ بَغَى عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانُوا مَعَ هَذَا إِذَا قَدَرُوا عَفْوًا، كَمَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿لَا تَنْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مُؤَاخَذَتِهِمْ وَمُقَابَلَتِهِمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ إِلَيْهِ، وَكَمَا عَفَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أُولَئِكَ النَّفَرِ الثَّمَانِينَ الَّذِينَ قَصَدُوهُ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَزَلُّوا مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ، فَلَمَّا قَدَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ عَلَيْهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَنْتِقَامِ، وَكَذَلِكَ عَفُوهُ ﷺ عَنْ غَوْرَثِ بْنِ الْحَارِثِ الَّذِي أَرَادَ الْفَتْكَ بِهِ حِينَ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَهُوَ نَائِمٌ فَاسْتَيْقَظَ ﷺ وَهُوَ فِي يَدِهِ مُضَلَّتًا، فَانْتَهَرَهُ فَوَضَعَهُ مِنْ يَدِهِ، وَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّيْفَ فِي يَدِهِ وَدَعَا أَصْحَابَهُ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرَ هَذَا الرَّجُلِ وَعَفَا عَنْهُ. وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿وَجَزَّوْا سِنِينَ سَنَيْنًا فَلَمَّا فَصَلَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup> وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ<sup>(٢)</sup> إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ<sup>(٣)</sup> وَلَكِنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَنْ عَزْمٍ الْأُمُورِ<sup>(٤)</sup>

[فَضِيلَةُ الْعَفْوِ وَخِيَارُ الْأَنْتِصَارِ مِنَ الظَّالِمِ]

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَزَّوْا سِنِينَ سَنَيْنًا فَلَمَّا فَصَلَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

(١) مسلم: ٢٠٠١/٤ (٢) مسلم: ٢٠٠٠/٤ (\*) كذا عندنا وفي مطبوع ابن أبي شيبه «المنظرة» وهي موضع الحرس على رأس الجبل (رقم ٣٥٤١٧) ويمكن الجمع بينها (٣) ابن أبي شيبه:

وَتَرَبُّهُمْ يَعْزُّونَ عَلَيْهِمْ خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ  
 مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ  
 خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ  
 فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا  
 لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ  
 مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا  
 فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا  
 أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّجْنَا بِهَا وَإِنْ نَضَاهُمْ سَيْئَةً  
 يَمُودُ فَمَدَدَتْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً  
 وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ نُرْجِيهِمْ ذَكَرًا وَنُنْثَا  
 وَنَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ  
 لِنَبِيِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ  
 رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس له خلاص .  
 ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا  
 لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا  
 فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا  
 الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّجْنَا بِهَا وَإِنْ نَضَاهُمْ سَيْئَةً يَمُودُ  
 أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

### [الْحَثُّ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا يَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ  
 وَالْأُمُورِ الْعَظَامِ الْهَائِلَةِ، حَذَّرَ مِنْهُ وَأَمَرَ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ،  
 فَقَالَ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ  
 اللَّهِ﴾ أي: إذا أَمَرَ بِكُونِهِ فَإِنَّهُ كَلَّمَجُ الْبَصَرِ يَكُونُ، وَلَيْسَ لَهُ  
 دَافِعٌ وَلَا مَانِعٌ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ  
 وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصنٌ تَحْتَصِّنُونَ  
 فِيهِ، وَلَا مَكَانٌ يَسْتُرُكُمْ، وَتَتَكَبَّرُونَ فِيهِ فَتَغِيَّبُونَ عَنْ بَصَرِهِ

الْقُصَاصِ، قَالَ نَادِبًا إِلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ: ﴿وَلَمْ يَنْصَرِفْ  
 وَغَفَرَ﴾ أي: صَبَرَ عَلَى الْأَذَى، وَسَتَرَ السَّيِّئَةَ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ  
 عَزِيزِ الْأُمُورِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يُعْنِي لِمَنْ حَقَّ الْأُمُورِ  
 الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، أَي: لِمَنْ الْأُمُورِ الْمُشْكُورَةِ، وَالْأَفْعَالِ  
 الْحَمِيدَةِ الَّتِي عَلَيْهَا ثَوَابٌ جَزِيلٌ، وَثَنَاءٌ جَمِيلٌ.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا  
 الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤٥﴾ وَتَرَبُّهُمْ يَعْزُّونَ  
 عَلَيْهِمْ خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ  
 أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ  
 يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٧﴾

### [حَالُ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ  
 وَلَا رَادَّ لَهُ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ فَلَا مُوجِدَ لَهُ، وَأَنَّهُ مَنْ  
 هَدَاهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، كَمَا قَالَ  
 عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ثُمَّ قَالَ  
 عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنِ الظَّالِمِينَ، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ: ﴿لَمَّا  
 رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَمَتُّوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا  
 ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا:  
 ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُ عَلَى النَّارِ فِقَالُوا يَلَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَلِّبُكَ بِكَائِتِ رَبَّنَا  
 وَنَكُونُ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا  
 لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]. وَقَوْلُهُ  
 عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَرَبُّهُمْ يَعْزُّونَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: عَلَى النَّارِ  
 ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ أَي: الَّذِي قَدْ اغْتَرَاهُمْ بِمَا أَسْلَفُوا مِنْ  
 عِصْيَانِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ:  
 يُعْنِي ذَلِيلٌ <sup>(١)</sup> أَي: يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا مُسَارِقَةً؛ خَوْفًا مِنْهَا،  
 وَالَّذِي يَحْذَرُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ  
 مِمَّا فِي نَفْسِهِمْ، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا﴾ أَي: يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِنَّ الْخَسِرِينَ﴾ أَي:  
 الْخَسَارَ الْأَكْبَرَ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَي:  
 ذَهَبَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ فَعُدُّوا لَدُنْهُمْ فِي دَارِ الْأَبَدِ وَخَسِرُوا  
 أَنْفُسَهُمْ، وَفُرِقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ  
 وَقَرَابَاتِهِمْ، فَخَسِرُوهُمْ ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾  
 أَي: دَائِمٌ سَرْمَدِيٌّ أَبَدِيٌّ لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا مَجِيدَ لَهُمْ  
 عَنْهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ  
 دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: يُنْقِذُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ يَعْلَمُهُ وَيَصْرِهٖ وَقُدْرَتُهُ، فَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ ﴿١١٠﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَنَّى لَمْ يَكُنْ لَهُ وَرَدٌّ ﴿١١١﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لِّلشَّامِخِ ﴿البقرة: ١٠، ١١﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠] أُنِّي: لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّطِرٍ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالَمَّا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ أُنِّي: إِنَّمَا كَلَّفْنَاكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحِجَّ بِهَا﴾ أُنِّي: إِذَا أَصَابَهُ رَحَاءٌ وَنِعْمَةٌ فَحِجَّ بِذَلِكَ ﴿وَلِنْ نُّضِيبَهُمْ﴾ يَعْنِي: النَّاسَ ﴿سَيِّئَةً﴾ أُنِّي: جَذَبَ وَنِقْمَةً وَبَلَاءً وَشِدَّةً ﴿فَإِنْ الْإِنْسَانُ كَفُورٌ﴾ أُنِّي: يَجْحَدُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ النِّعَمِ، وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا السَّاعَةَ الرَّاهِنَةَ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ أَشِيرَ وَبَطِرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مِحْنَةٌ يَيْسَ وَقَطَطَ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: وَلِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «لِأَنَّكُمْ تَكْثُرُنَ الشَّكَايَةَ وَتَكْفُرُنَ الْعَشِيرَ، لَوْ أَحْسَنْتِ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ تَرَكْتِ يَوْمًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»<sup>(١)</sup>. وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ النِّسَاءِ، إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَآلَهُمُ رُشْدُهُ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَالْمُؤْمِنُ كَمَا قَالَ ﷺ: «إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»<sup>(٢)</sup>.

وَالأُنثَى أُنِّي: هَذَا وَهَذَا. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كُمَحَمَّدٍ ﷺ<sup>(٣)</sup>: ﴿وَيَجْعَلُ مِنْ يَسَاءٍ عَقِيمًا﴾ أُنِّي: لَا يُولَدُ لَهُ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَيَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ<sup>(٤)</sup>. فَجَعَلَ النَّاسَ أَرْبَعَةً أَقْسَامٍ: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ الْبَنَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ الْبَنِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطِيهِ مِنَ التَّوَعَيْنِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُ هَذَا وَهَذَا فَيَجْعَلُهُ عَقِيمًا لَا نَسْلَ لَهُ، وَلَا وَلَدَ لَهُ. ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِ﴾ أُنِّي: يَمْنُ يَسْتَحِقُّ كُلَّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ ﴿قَدِيرٌ﴾ أُنِّي: عَلَى مَنْ يَسَاءُ مِنْ تَقَاوُتِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أُنِّي دَلَالَةٌ لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَتَقَدُّسِ، حَيْثُ خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ، قَادِمٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ لَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى، وَحَوَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ مَخْلُوقَةٌ

﴿لِللَّهِ الْمَلَكُوتُ وَالْأَرْضُ خَلْقٌ مَا يَسَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْنَا وَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلَيْهِ قَدِيرٌ﴾<sup>(٥)</sup>.

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لِكُھُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيھُمَا، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْنَا﴾ أُنِّي: يَرْزُقُهُ الْبَنَاتِ فَقَطُّ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: وَمِنْهُمْ لَوْطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ<sup>(٦)</sup>. ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أُنِّي يَرْزُقُهُ الْبَنِينَ فَقَطُّ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَأِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُولَدْ لَهُ أُنْثَى<sup>(٧)</sup>. ﴿أَوْ يَرْزُقُهُمْ ذُرَارًا وَإِنِئْنَا﴾ أُنِّي: يُعْطِي لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

وَالنَّسَاءَ<sup>(٨)</sup>.

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لِكُھُمَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيھُمَا، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْنَا﴾ أُنِّي: يَرْزُقُهُ الْبَنَاتِ فَقَطُّ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: وَمِنْهُمْ لَوْطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ<sup>(٦)</sup>. ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أُنِّي يَرْزُقُهُ الْبَنِينَ فَقَطُّ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: كَأِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُولَدْ لَهُ أُنْثَى<sup>(٧)</sup>. ﴿أَوْ يَرْزُقُهُمْ ذُرَارًا وَإِنِئْنَا﴾ أُنِّي: يُعْطِي لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ النَّاسِ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

(١) مسلم: ٨٦/١ (٢) مسلم: ٢٢٩٥/٤ (٣) البغوي: ٤/

١٣٢ (٤) البغوي: ١٣٢/٤ (٥) البغوي: ١٣٢/٤ (٦)

البغوي: ١٣٢/٤

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أَي: يَا مُحَمَّدٌ ﴿لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَهُوَ الْخُلُقُ الْقَوِيمُ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صِرَاطُ اللَّهِ﴾ أَي: شَرْعُهُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ اللَّهُ ﴿الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: رُفْعُهُمَا وَمَالَكُهُمَا وَالْمُنْتَصِرُ فِيهِمَا، وَالْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾ أَي: تَرْجِعُ الْأُمُورُ فَبِفَضْلِهَا وَتَحْكُمُ فِيهَا، شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِدُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا.

## تفسير سورة الزخرف وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَلَئِنْ فِي أَرِ الْكِتَابِ لَذِينَ لَعَلِّي حَكِيمٌ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑦ فَاهْلِكُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑧

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿حَمْدٌ﴾ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② أَي: الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الْمَعْنِي وَالْأَلْفَاظِ، لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي هِيَ أَفْضَحُ اللُّغَاتِ لِلتَّخاطُبِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أَي: أَنْزَلْنَاهُ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أَي: بِلُغَةِ الْعَرَبِ فَصِيحًا وَاضِحًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَي: تَفْهَمُونَهُ وَتَتَذَكَّرُونَهُ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَلِسَانِ عَرَفٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أَرِ الْكِتَابِ لَذِينَ لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ بَيْنَ شَرْفِهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى لِشَرْفِهِ وَتَعْظُمُهُ وَيُطِيعُهُ أَهْلُ الْأَرْضِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿فِي أَرِ الْكِتَابِ﴾ أَي: اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ<sup>(٣)</sup>. ﴿لَذِينَ﴾ أَي: عِنْدَنَا، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ<sup>(٤)</sup>. ﴿لَعَلِّي﴾ أَي: ذُو مَكَانَةٍ وَشَرَفٍ وَفَضْلِ.

(١) مسند الشهاب: ١٨٥/٢ لم أجده في صحيح ابن حبان بل روى البغوي في شرح السنة (٤١١١) عن ابن مسعود بنحوه لكنه منقطع زيد اليامي لم يسمع من ابن مسعود وله شاهد صحيح عن جابر بن عبد الله عند ابن ماجه (٢١٤٤) وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٠) وابن حبان (الموارد ١٠٨٤، ١٠٨٥) (٢) تحفة الأحوذى: ٣٦٠/٨ (٣) الرازي: ١٦٧/٢٧ (٤) البغوي: ٤/١٣٣

مِنْ ذَكَرَ بِلَا أَنتَى، وَسَائِرُ الْخَلْقِ سِوَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَكَرَ وَأَنْتَى. وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنتَى بِلَا ذَكَرٍ. فَتَمَّتِ الدَّلَالَةُ بِخَلْقِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فَهَذَا الْمَقَامُ فِي الْأَبَاءِ وَالْمَقَامُ الْأَوَّلُ فِي الْأَبْنَاءِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ، فَسُبْحَانَ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ. ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْهِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَنِ الْكَذِبِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ⑤ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ ⑥

### [بَيَانُ كَيْفِيَةِ الْوَحْيِ]

هَذِهِ مَقَامَاتُ الْوَحْيِ بِالنَّبِيَّةِ إِلَى جَنَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَارَةً يَقْدُفُ فِي رُوحِ النَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا لَا يَتِمَّارَى فِيهِ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ ابْنِ جَبَّانٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوحِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَجْلِبَ رُوحَهَا وَأَجْلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كَمَا كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّهُ سَأَلَ الرُّؤْيَا بَعْدَ التَّكْلِيمِ فَحُجِبَ عَنْهَا.

وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا»<sup>(٢)</sup>. كَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ، وَكَانَ قَدْ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَكِنَّ هَذَا فِي عَالَمِ الْبَرْزَخِ، وَالْآيَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كَمَا يُنْزِلُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ فَهُوَ عَلَىٰ عِلْمٍ خَيْرٍ حَكِيمٌ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ بِعَيْنِي: الْقُرْآنَ ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ أَي: عَلَى التَّقْصِيلِ الَّذِي شَرَعَ لَكَ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آعَادِنِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾... الْآيَةُ [فصلت: ٤٤].

قَالَ فَتَادَةُ<sup>(١)</sup>. ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيُّ: مُحْكَمٌ بَرِيءٌ مِنَ اللَّبْسِ وَالزَّيْغِ. وَهَذَا كُلُّهُ تَنْبِيهُ عَلَى شَرِّهِ وَفَضْلِهِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا لِقَوْمٍ كَرِيمٍ﴾ (٧١) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الواقعة: ٧٧-٨٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا لَذِكْرُ اللَّهِ﴾ (١١) فَتَنَ شَاءَ ذِكْرُ اللَّهِ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ (١٣) مُرَوَّعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ [عبس: ١١-١٦].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَضْرِبَ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ أَيُّ: أَنْتَحِسُونَ أَنْ نَضْفَحَ عَنْكُمُ فَلَا نَعُدُّبُكُمْ وَلَمْ تَفْعَلُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ؟ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَبُو الصَّالِحِ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ فَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَضْرِبَ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ رُفِعَ حِينَ رَدَّتْهُ أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَهَلَكُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَادَ بِعَائِدَتِهِ وَرَحْمَتِهِ فَكَّرَهُ عَلَيْهِمْ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ عَشْرِينَ سَنَةً أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُ فَتَادَةَ لَطِيفُ الْمَعْنَى جِدًّا، وَحَاصِلُهُ: أَنَّهُ يَقُولُ فِي مَعْنَاهُ: إِنَّهُ تَعَالَى مِنْ لَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ لَا يَتْرُكُ دُعَاءَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ وَإِلَى الذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَإِنْ كَانُوا مُسْرِفِينَ مُعْرِضِينَ عَنْهُ، بَلْ أَمَرَ بِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهِ مَنْ قُدِّرَ هِدَايَتُهُ، وَتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ كُتِبَ شَقَاؤُهُ.

[غافر: ٨٥]، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ﴾ [الزخرف: ٥٦] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿وَلَمَّا سَأَلَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٢) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (٣) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (٤) لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (٥) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُقِيمُونَ (٦)

[اعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ الْخَلْقِ وَمَزِيدُ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ] يَقُولُ تَعَالَى: وَلَمَّا سَأَلْتُ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ

(١) الطبري: ٥٦٧/٢١ (٢) الطبري: ٥٦٨، ٥٦٧/٢١ (٣) الطبري: ٥٦٨/٢١ (٤) الطبري: ٥٧١/٢١ (٥) الطبري: ٥٧١/٢١

[تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى تَكْذِيبِ قُرَيْشٍ]

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا مُسْلِمًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَأَمْرًا لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِمْ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أَيُّ: فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيُّ: يَكْذِبُونَهُ وَيَسْخَرُونَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أَيُّ: فَأَهْلَكْنَا الْمُكْذِبِينَ بِالرُّسُلِ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ بَطْشًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: سُنَّتُهُمْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ فَتَادَةُ: عُقُوبَتُهُمْ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: عِبرَتُهُمْ، أَيُّ: جَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُكْذِبِينَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾

أَتَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ الْبَنِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ  
بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٦﴾  
أَوْ مَن يُكْسُوهُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ وَجَعَلُوا  
الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَنِ إِنَّتَ آشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكُنَبُ  
سَهْدُهُمْ وَتُسْأَلُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ  
بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٩﴾

[الْتَكْبِيرُ عَلَى جَعْلِ الْمُشْرِكِينَ لِلَّهِ وَلَدًا]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا افْتَرَوْهُ وَكَذَّبُوهُ  
فِي جَعْلِهِمْ بَعْضَ الْأَنْعَامِ لَطَوَافِيهِمْ وَبَعْضَهَا لِلَّهِ تَعَالَى،  
كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ  
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ  
وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِضَاهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا  
فَمَا كُنَّا لِشُرَكَائِهِمْ فَلََّا يَصِلَ إِلَهُ اللَّهِ وَمَا كُنَّا  
لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَهُ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾  
[الأنعام: ١٣٦] وَكَذَلِكَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ قِسْمِي الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ  
أَحْسَهُمَا وَأَرَادَاهُمَا وَهُوَ الْبَنَاتُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْكُفْرُ  
الَّذِي لَهُ الْأُنثَى﴾ ﴿١٦﴾ يَلِك إِذَا قِسْمَةُ ضَرِيحٍ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]  
وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ  
الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا  
يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ الْبَنِينَ﴾ وَهَذَا إِنكَارٌ عَلَيْهِمْ غَايَةِ  
الْإِنْكَارِ. ثُمَّ ذَكَرَ تَمَامَ الْإِنْكَارِ، فَقَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَإِذَا  
بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ  
كَظِيمٌ﴾ أَي: إِذَا بُشِّرَ أَحَدٌ هَؤُلَاءِ بِمَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ مِنَ الْبَنَاتِ  
يَأْتِفُ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الْإِنْفَةِ، وَتَعْلُوهُ كَابَةً مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ  
بِهِ، وَيَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ حَجَلِهِ مِنْ ذَلِكَ، يَقُولُ تَبَارَكَ  
وَتَعَالَى: فَكَيْفَ تَأْنِفُونَ أَنْتُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتُنْسِبُونَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ  
وَجَلَّ؟! ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ مَن يُكْسُوهُ فِي الْحِلْيَةِ  
وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾ أَي: الْمَرْأَةُ نَاقِصَةٌ يَكْمُلُ نَقْصُهَا  
بِلِبْسِ الْحُلِيِّ مُنْذُ تَكُونُ طِفْلَةً، وَإِذَا خَاصَمَتْ فَلَا عِبَارَةَ  
لَهَا، بَلْ هِيَ عَاجِزَةٌ عَيْبَةٌ، أَوْ مَنْ يَكُونُ هَكَذَا يُنْسَبُ إِلَى  
جَنَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ؟ فَلَا أَنْتَى نَاقِصَةُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فِي  
الصُّورَةِ وَالْمَعْنَى، فَيَكْمُلُ نَقْصُ ظَاهِرِهَا وَصُورَتِهَا بِلِبْسِ  
الْحُلِيِّ وَمَا فِي مَعْنَاهُ لِيُجَبَّرَ مَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ. وَأَمَّا نَقْصُ  
مَعْنَاهَا فَإِنَّهَا ضَعِيفَةٌ عَاجِزَةٌ عَنِ الْإِنْتِصَارِ عِنْدَ الْإِنْتِصَارِ، لَا

بِاللَّهِ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ  
خَلَقْنَاهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أَي: لِيَعْتَرِفْنَ بِأَنَّ الْخَالِقَ لَذَلِكَ هُوَ  
اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ  
الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ  
مَهْدًا﴾ أَي: فِرَاشًا قَرَارًا ثَابِتَةً تَسِيرُونَ عَلَيْهَا، وَتَقُومُونَ  
وَتَنَامُونَ وَتَنْصَرِفُونَ، مَعَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ عَلَى تَبَارِ الْمَاءِ، لَكِنَّهُ  
أَرَسَاهَا بِالْجِبَالِ؛ لِئَلَّا تَمِيدَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ  
فِيهَا سُبُلًا﴾ أَي: طُرُقًا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ  
تَهْتَدُونَ﴾ أَي: فِي سَبِيلِكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَفُطِرَ إِلَى فُطُرٍ،  
وَإِفْلِيمٍ إِلَى إِفْلِيمٍ ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ أَي:  
بِحَسَبِ الْكِفَايَةِ لِرُزْوَاعِكُمْ وَبِمَارِكُمْ وَشُرْبِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ  
وَلِأَنْعَامِكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَأَشْرَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَبْنً﴾ أَي:  
أَرْضًا مَبْنَةً، فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ  
كُلِّ زَوْجٍ بَهْجٍ، ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ عَلَى إِحْيَاءِ  
الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَقَالَ: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾  
ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أَي: مِمَّا  
تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ مِنْ نَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَبِمَارٍ  
وَأَزَاهِيرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمِنْ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ  
أَجْنَاسِهَا وَأَصْنَافِهَا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَكَ﴾ أَي: السَّمَنِ  
﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أَي: ذَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا وَبَسَّرَهَا:  
لَأَكَلِكُمْ لَحُومَهَا وَشُرْبِكُمْ أَلْبَانَهَا وَرُكُوبِكُمْ ظُهُورَهَا، وَلِهَذَا  
قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِئَسْتَوَا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أَي: لِيَسْتَوُوا  
مُتَمَكِّنِينَ مُرْتَفِقِينَ ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أَي: عَلَى ظُهُورِ هَذَا  
الْجَنَسِ ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أَي: فِيمَا سَخَّرَ لَكُمْ ﴿إِذَا  
أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ  
مُقْرِنِينَ﴾ أَي: مُقَامِينَ، وَلَوْ لَا تَسَخِيرُ اللَّهِ لَنَا هَذَا مَا قَدَرْنَا  
عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ وَالسَّدِّيُّ  
وَابْنُ زَيْدٍ: مُقْرِنِينَ أَي: مُطِيقِينَ<sup>(١)</sup>. ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا لِمُتَقَلِّبُونَ﴾  
أَي: لِمَصَائِرُوعُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَمَاتِنَا وَإِلَيْهِ سَبِيلُنَا الْأَكْبَرُ، وَهَذَا  
مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ بِسَبِيلِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ الْآخِرَةِ، كَمَا نَبَّهَ بِالرَّادِ  
الدُّنْيَوِيِّ عَلَى الرَّادِ الْآخِرِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُذِّبُوا  
فَإِنَّ خَيْرَ الرَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] وَبِالْإِلْبَاسِ الدُّنْيَوِيِّ  
عَلَى الْآخِرِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ  
خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ أَمْ

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

٤٩١

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا  
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٣٢﴾  
﴿قُلْ أُولَوْ جِئْتُكُمْ بِآهْدَىٰ مِنْ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا  
إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ فَانظُرْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ  
إِنِّي بَرَاءٌ لِمَا تَعْبُدُونَ ﴿٣٥﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ  
﴿٣٦﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٧﴾ بَلْ  
مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٣٨﴾  
وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالُوا  
لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٤٠﴾ أَهْمُ  
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنَّهُمْ قَسَمْنَا بِنَبِيِّهِمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ  
بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَدُونَ ﴿٤١﴾ وَلَوْلَا  
أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ  
لِيُيَسِّرَ لَهُمُ السُّبُلَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَعَاجِرَ عَلَيْهِمْ يَظْهَرُونَ ﴿٤٢﴾

مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا  
آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ أُولَوْ  
جِئْتُكُمْ بِآهْدَىٰ مِنْ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ  
كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ فَانظُرْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

[بَيَانُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا حُجَّةَ لَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ  
بَلَا بُرْهَانَ وَلَا دَلِيلَ وَلَا حُجَّةَ ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾  
أَيُّ: مِنْ قَبْلِ شِرْكِهِمْ ﴿فَهُمْ بِهِ سَمَسِكُونَ﴾ أَيُّ: فِيمَا هُمْ  
فِيهِ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا  
عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٥]  
أَيُّ: لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا  
عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ أَيُّ: لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا  
هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرِكِ سِوَى تَقْلِيدِ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

عِبَادَةً لَهَا وَلَا هِمَّةَ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ وَقَدْ بُشِّرَ بِسَيِّئٍ:  
مَا هِيَ بِنِعْمِ الْوَلَدِ: نَضْرُهَا بِكَاءٍ، وَبُرْهَا سَرَفَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا أَلَتَاتٍ لِلَّذِينَ لَا يَدْرُونَ لَوْمَةً لَدُنْهُمْ﴾  
الْحَرَمَيْنِ إِنَّمَا: أَيُّ: اعْتَقَدُوا فِيهِمْ ذَلِكَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَعَالَى  
قَوْلَهُمْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ أَيُّ: شَاهَدُوهُ وَقَدْ  
خَلَقَهُمُ اللَّهُ إِنَّمَا ﴿سَكَّابُ سَهْدَتِهِمْ﴾ أَيُّ: بِذَلِكَ  
﴿وَيُسَلِّتُونَ﴾ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ  
وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أَيُّ: لَوْ أَرَادَ  
اللَّهُ لَحَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِ  
الْمَلَائِكَةِ الَّتِي هِيَ بَنَاتُ اللَّهِ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَهُوَ يُقَرِّرُنَا  
عَلَيْهِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْخَطَا:

(أَحَدُهَا): جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَدًا، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ  
عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

(الثَّانِي): دَعَاَهُمْ أَنَّهُ اضْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ،  
فَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّمَا.

(الثَّلَاثُ): عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا  
بُرْهَانٍ وَلَا إِذْنٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْأَرَاءِ  
وَالْأَهْوَاءِ، وَالتَّقْلِيدِ لِلْأَسْلَافِ وَالْكِبَرَاءِ وَالْأَبَاءِ، وَالْخَبْطِ  
فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ.

(الرَّابِعُ): إِحْتِجَاجُهُمْ بِتَقْدِيرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ قَدَرًا، وَقَدْ  
جَهَلُوا فِي هَذَا الْإِحْتِجَاجِ جَهْلًا كَبِيرًا، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ أَنْكَرَ  
ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ، فَإِنَّهُ مُنْذُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ  
الْكِتَابَ يَأْمُرُ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَنْهَى عَنْ عِبَادَةِ  
مَا سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا  
أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ  
وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا  
كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:  
﴿وَسَقَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ  
إِلَٰهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ  
بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حُجَّتَهُمْ هَذِهِ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيُّ:  
بِصِحَّةِ مَا قَالُوهُ وَاجْتَحَجُوا بِهِ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾  
[الأنعام: ١١٦] أَيُّ: يَكْذِبُونَ وَيَقْوِلُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي  
قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾  
يَغْنِي: مَا يَعْلَمُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى ذَلِكَ <sup>(١)</sup>.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكِنُونَ ﴿بَلْ قَالُوا  
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ وَكَذَلِكَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩٢

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

وَلْيُؤْيُبِهِمْ أَتُوبًا وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُتُكَّوْنَ ﴿٢٦﴾ وَزُخْرًا وَإِنْ كُنْ مِنْ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَفِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ نَاقَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسِفُ الْقَرِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَنْ يَفْعَلَكَ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتُكْفَرُوا بِالْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣١﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّمَا نُنَادِيهِمْ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْ يُمْتَنِعُ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُرْسِلُكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْكَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٣٩﴾

عَلَى أُمَّةٍ وَالْمُرَادُ بِهَا الدِّينُ هَهُنَا. وَفِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنعام: ٩٢]. وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَلِنَا عَلَى عَائِدِهِمْ﴾ أَي: وَرَأَاهُمْ ﴿مُهْتَدُونَ﴾ دَعَاؤُ مِنْهُمْ بِإِلَهِ دَلِيلٍ. ثُمَّ بَيَّنَّ جَلَّ وَعَلَا أَنَّ مَقَالَةَ هَؤُلَاءِ قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَيْهَا أَشْبَاهُهُمْ وَنَظَرَاؤُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْمَكْذِبَةِ لِلرُّسُلِ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ فَقَالُوا مِثْلَ مَقَالَتِهِمْ: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [أنعام: ١٠٦] بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا وَإِنَّا عَلَىٰ عَائِدِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ (\*) أَي: يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْكُمْ عِبَادَةً إِلَّا مَا آتَيْنَاهُمْ بِهِ كُفِرُوا﴾ أَي: وَلَوْ عَلِمُوا وَتَبَيَّنُوا صِحَّةَ مَا جِئْتُهُمْ بِهِ لَمَا انْقَادُوا لِذَلِكَ؛ لِسُوءِ قُضْدِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنقَضْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أَي: مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا فَضَّلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي قِصَصِهِمْ ﴿فَأَنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أَي: كَيْفَ بَادُوا وَهَلَكُوا وَكَيْفَ نَجَّى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (\*) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ. لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهَرَأَيْتُمْ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنْ هُنَّ قُتِلْنَا بَيْنَهُمْ مَبِيعَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْعِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْيِبَهُمْ سُفْقًا مِنْ فُضْفِةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلْيُؤْيُبِهِمْ أَتُوبًا وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُتُكَّوْنَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرًا وَإِنْ كُنْ مِنْ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

[إِعْلَانُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرَاءَةِ الشَّرِكِ وَأَهْلِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِمَامِ الْحَقِّ تَعَالَى وَوَالِدِ مَنْ بُعِثَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِي تَنَسَّبَ إِلَيْهِ قُرْشٌ فِي نَسَبِهَا وَمَذْهَبُهَا أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي عِبَادَتِهِمْ الْأَوْثَانِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (\*) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ.

أَي: هَذِهِ الْكَلِمَةُ وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَي: جَعَلَهَا دَائِمَةً فِي ذُرِّيَّتِي يَقْدِرِي بِهِ فِيهَا مَنْ هَذَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَي: إِلَيْهَا.

قَالَ عِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يَعْني: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَزَالُ فِي ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَقُولُهَا <sup>(١)</sup>. وَرَوَى نَحْوُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَلِمَةُ الْإِسْلَام <sup>(٢)</sup>. وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا قَالَهُ الْجَمَاعَةُ.

[اعْتِرَاضُ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى اللَّهِ فِي أَنْزَالِ الْقُرْآنِ وَجَوَابُهُ]

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يَعْني الْمُشْرِكِينَ

(\*) كَذَا الظاهر من نسخة المؤلف رحمه الله أنه أمر من قال، وقراءة حفص وابن عامر ﴿قَالَ﴾ بِالْألف على الخبر. والله أعلم (١) الطبري: ٥٨٩/٢١ والقرطبي: ٧٧/١٦ (٢) القرطبي: ٧٧/١٦

﴿وَأَنبَاءَهُمْ﴾ أَي: فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِي صَلَاتِهِمْ ﴿حَقٌّ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أَي: بَيَّنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّدَارَةَ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَاثِرُونَ﴾ أَي: كَاثَرُوهُ وَعَانَدُوهُ وَدَفَعُوا بِالصُّدُورِ وَالرَّاحِ كُفْرًا وَحَسَدًا وَنَعْيًا ﴿وَقَالُوا﴾ أَي: كَالْمُعْتَرِضِينَ عَلَى الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾

أَي: هَلَّا كَانَ أَنْزَالَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ فِي أَغْيَابِهِمُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ؟ يَعْتَوْنَ: مَكَّةَ وَالطَّائِفَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَعِكْرَمَةُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ، وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ وَعُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مُرَادَهُمْ رَجُلٌ كَبِيرٌ مِنْ أَيِّ الْبَلَدَيْنِ كَانَ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْإِعْزَازِ ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ مَرْدُودًا إِلَيْهِمْ، بَلْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُنْزِلُهَا إِلَّا عَلَى أَرْكَى الْخَلْقِ قَلْبًا وَنَفْسًا. وَأَشْرَفِهِمْ بَيْتًا، وَأَطْهَرِهِمْ أَضْلًا.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُبَيِّنًا أَنَّهُ قَدْ فَاءَتْ بَيْنَ خَلْقِهِ فِيمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْعُقُولِ وَالْفُهُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُرَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَقَالَ: ﴿تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الْآيَةِ. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: لِيَسْخَرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الْأَعْمَالِ؛ لِاحْتِيَاجِ هَذَا إِلَى هَذَا، وَهَذَا إِلَى هَذَا، قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ حَيْرٌ مِمَّا يَحْمَعُونَ﴾ أَي: رَحِمَهُ اللَّهُ بِخَلْقِهِ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

[لَيْسَ الْمَالُ مِنْ عَلَامَةِ الرِّضَا]

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: لَوْلَا أَن يَعْتَقِدَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْجَهْلَةَ أَنَّ إِعْطَاءَنَا الْمَالَ ذَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِنَا لِمَنْ أَعْطَيْنَاهُ فَيَجْتَمِعُوا عَلَى الْكُفْرِ لِأَجْلِ الْمَالِ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِهِمْ<sup>(٣)</sup>. ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِيَهُمْ سُفْهًا مِنْ فَضْلِهِ وَمَعَاجٍ﴾ أَي: سَلَالِمَ وَدُرَجًا مِنْ فَضْلِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٤)</sup> وَغَيْرُهُمْ. ﴿عَلَيْهَا يَطْهَرُونَ﴾ أَي: يَضْعَدُونَ ﴿وَلِيُؤْيِيَهُمْ أَتُونًا﴾ أَي: أَغْلَاقًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ ﴿وَسَرَّرًا عَلَيْهَا

(١) الطبري: ٥٩٢/٢١، (٢) الطبري: ٥٩٥/٢١ (٣) الطبري: ٥٩٧/٢١ (٤) الطبري: ٦٠٠/٢١ (٥) الطبري: ٦٠٢، ٦٠١/٢١ (٦) مسلم: ٢١٦٢/٤ (٧) الترمذي: ٦/٦١١ (٨) البيهقي: ١٣٨/٤ (٩) مسلم: ١١٣/٢ (١٠) مسلم: ١١٠/٢ (١١) فتح الباري: ٤٦٥/٩ ومسلم: ١٦٣٧/٣

صَيَّاهُمْ! هَذَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّدِيِّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١)</sup>.

[الْحُثُّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْقُرْآنِ]

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَاسْتَسْكِبْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيُّ: خُذْ بِالْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى قَلْبِكَ، فَإِنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُنْفِصِي إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُوَصِّلِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالْخَيْرِ الدَّائِمِ الْمُقِيمِ. ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: لَشَرَفٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالشَّدِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٢)</sup>. وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ شَرَفَ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ أَنْزَلَ بِلُغَتِهِمْ، فَهُمْ أَفْهَمُ النَّاسِ لَهُ، فَيَبْغِي أَنْ يَكُونُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بِهِ وَأَعْمَلَهُمْ بِمُقْتَضَاهُ، وَهَكَذَا كَانَ خِيَارَهُمْ وَصَفَوْهُمْ مِنَ الْخُلَاصِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ السَّائِقِينَ الْأَوَّلِينَ وَمَنْ شَاهَبَهُمْ وَتَابَعَهُمْ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أَيُّ: لَتَذَكِيرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ. وَتَخْصِيصُهُم بِالذِّكْرِ لَا يَنْبَغِي مِنْ سِوَاهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]. وَكَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، «وَسَوْفَ تُنْشَلُونَ» أَيُّ: عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ، وَكَيْفَ كُنْتُمْ فِي الْعَمَلِ بِهِ وَالْإِسْتِجَابَةِ لَهُ.

وَقَوْلُهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَسَلَّ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ» أَيُّ: جَمِيعُ الرُّسُلِ دَعَا إِلَى مَا دَعَوْتَ النَّاسَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَهَوْا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: «وَلَقَدْ بَشَّرْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْتَ أَعْبَدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» [النحل: ٣٦] قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَاسْأَلِ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ [مِنْ] رُسُلِنَا)<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا حَكَاهُ قَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالشَّدِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا كَأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَا تِلَاوَةً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ<sup>(٥)</sup> وَمَا يُرِيدُهُ مِنَ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ<sup>(٦)</sup> وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا السَّاحِرُ أَنْعَ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ

تُسْمِعُ الصَّمَّةَ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَتْ فِي صَلَاتِهِ مُبِيبٌ<sup>(٧)</sup> فَإِنَّمَا نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَقِيَمُونَ<sup>(٨)</sup> أَوْ تُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ<sup>(٩)</sup> فَاسْتَسْكِبْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ<sup>(١٠)</sup> وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْشَلُونَ<sup>(١١)</sup> وَنَسَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ<sup>(١٢)</sup>

[الشَّيْطَانُ قَرِينُ الْمُعْرِضِ عَنِ الرَّحْمَنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: «وَمَنْ يَعُشْ» أَيُّ يَتَعَامَى وَيَتَغَافَلُ وَيُعْرِضُ «عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ» وَالْعُشَا فِي الْعَيْنِ ضَعْفٌ بَصَرُهَا، وَالْمُرَادُ هَهُنَا عَشَا الْبَصِيرَةِ «فَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ»... الْآيَةُ [النساء: ١١٥]. وَكَقَوْلِهِ: «فَلَمَّا رَاغُوا أَرَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» [الصف: ٥]. وَكَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: «وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ»... الْآيَةُ [فصلت: ٢٥]. وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَهُنَا: «وَلَا يَنْفَعُهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ»<sup>(١٣)</sup> حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ أَيُّ: هَذَا الَّذِي تَغَافَلَ عَنْ الْهُدَىٰ فَقِيضَ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِ الْحَجِيمِ. فَإِذَا وَافَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَّبِعُهُمُ الشَّيْطَانُ الَّذِي وَكَّلَ بِهِ «قَالَ يَكَلِّتُ بَنِيَّ وَيَكَلِّتُ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْفَرِيقَيْنِ» وَفَرَأَ بَعْضُهُمْ: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا) يَغْنِي: الْقَرِينُ وَالْمُقَارِنُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» أَيُّ: لَا يَغْنِي عَنْكُمْ أَجْمَاعُكُمْ فِي النَّارِ وَاشْتِرَاكُكُمْ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

[لَا يَهْدِي مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ]

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّةَ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَتْ فِي صَلَاتِهِ مُبِيبٌ» أَيُّ: لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَلَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي ذَلِكَ.

[إِنْتِقَامُ اللَّهِ مِنْ أَعْدَاءِ الرَّسُولِ وَأَقِيعَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «فَإِنَّمَا نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَقِيَمُونَ» أَيُّ لَا بُدَّ أَنْ نَنْتَقِمَ مِنْهُمْ وَنُعَاقِبَهُمْ وَلَوْ ذَهَبَتْ أَنْتَ «أَوْ تُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ» أَيُّ: نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَىٰ هَذَا وَعَلَىٰ هَذَا، وَلَمْ يَقِيضِ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ حَتَّىٰ أَقَرَّ عَيْنَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَحَكَمَهُ فِي نَوَاصِيهِمْ، وَمَلَكَهُ مَا تَضَمَّنَتْهُ

(١) الطبري: ٦٠٩/٢١ (٢) الطبري: ٦١٠/٢١

(٣) الطبري: ٦١١/٢١ (٤) الطبري: ٦١٢/٢١

عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾

[آيَاتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَضَحِكَ آلُ فِرْعَوْنَ وَتَنَاقَشُهُمْ عَهْدَهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ اتَّبَعْتَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْقَادَةِ وَالْأَتْبَاعِ وَالرَّعَايَا مِنَ الْفِطْرِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيُنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَأَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُ آيَاتٍ عِظَامًا كَبِيدَةً وَعَصَاهُ، وَمَا أَرْسَلَ مَعَهُ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالْدَّمَ، وَمِنْ نَقْصِ الزَّرْعِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِهَا وَالْإِنْقِيَادِ لَهَا، وَكَذَّبُوهَا وَسَخَرُوا مِنْهَا وَضَحِكُوا مِنْ جَاءِهِمْ بِهَا ﴿وَمَا تُرِيدُ﴾ <sup>(١)</sup> مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَمَعَ هَذَا مَا رَجَعُوا عَنْ غِيهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَجَهْلِهِمْ وَخَبَالِهِمْ، وَكُلَّمَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ يَصْرِعُونَ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيَتَلَطَّطُونَ لَهُ فِي الْعِبَارَةِ يَقُولُهُمْ: «يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ» أَيِ: الْعَالِمِ. قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ <sup>(٢)</sup>. وَكَانَ عُلَمَاءُ زَمَانِهِمْ هُمُ السَّحَرَةُ. وَلَمْ يَكُنِ السَّحَرُ فِي زَمَانِهِمْ مَذْمُومًا عِنْدَهُمْ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْتِقَاصِ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ الْحَالِ حَالُ ضَرُورَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِ لَا تَنَاسُبُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْظِيمٌ فِي زَعْمِهِمْ، فَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَدْعُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْ كُتِفَ عَنْهُمْ هَذَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَنْكُثُونَ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَكُونُ أَدْعُ لَنَا رَبُّكَ يَمَّا عَاهَدَ عِنْدَكَ لِنَ كُفِّتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٣﴾ [الأعراف: ١٣٣-١٣٥].

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُورِ الْيَسَّى لِي مَلِكٌ مِصْرَ

وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ أَمَّا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٥﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٦﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٨﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا

٤٩٣

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبُّكَ يَمَّا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٦٠﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُورِ الْيَسَّى لِي مَلِكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٦٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٦٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٦٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٦٧﴾ وَقَالُوا يَا إِلَهَئُنَا حَبِطَ أَمُ هُوَ أَمْ مَضَى بَرُّهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٦٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٧٠﴾

لِلْآخِرِينَ ﴿٧١﴾

[خِطَابُ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ وَمُواخَذَةُ اللَّهِ إِيَّاهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَتَمَرُّدِهِ وَعُتُوِّهِ وَكُفْرِهِ وَعِنَادِهِ، أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ فَنَادَى فِيهِمْ مُتَبَجِّحًا مُفْتَحِرًا بِمُلْكِهِ مِصْرَ وَتَصْرِفِهِ فِيهَا: «الْيَسَّى لِي مَلِكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» قَالَ قَتَادَةُ: قَدْ كَانَتْ لَهُمْ جَنَاتٌ وَأَنْهَارُ مَاءٍ <sup>(٣)</sup>. «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» أَيِ: أَفَلَا تَرَوْنَ مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْعِظَمَةِ وَالْمُلْكِ. يَعْني: مُوسَى وَاتَّبَاعُهُ فَقَرَأَ ضَعْفَاءُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَحَبَّطْنَاكَ الْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٥].

وَقَوْلُهُ: «أَمَّا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ» قَالَ السُّدِّيُّ: يَقُولُ: بَلْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ <sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ بَعْضُ نَحْوَةِ الْبُصْرَةِ: إِنَّ «أُمَّ» هُنَا بِمَعْنَى:

(١) وقع في الأصل هنا: «وما تأنيهم» وهو خطأ. (٢) الطبري:

٦١٥/٢١ (٣) الطبري: ٦١٦/٢١ (٤) الطبري: ٦١٦/٢١

جُبَيْرٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِزْجَارٌ مِنْهُ لَهُ»، ثُمَّ تَلَا ﷻ: «فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ»<sup>(٧)</sup>. وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَذَكَرَ عَنْهُ مَوْتُ الْعَجَاةِ، فَقَالَ: تَخْفِيفٌ عَلَى الْمُؤْمِنِ وَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ»<sup>(٨)</sup> وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَجِدْتُ النِّقْمَةَ مَعَ الْعُقْلَةِ، يَعْنِي قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ».

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ» قَالَ أَبُو مِجْلَزٍ: «سَلَفًا»: لِمَثَلٍ مِنْ عَمَلٍ يَعْمَلُهُمْ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ هُوَ وَمُجَاهِدٌ: «وَمَثَلًا»: أَيُّ عِبْرَةٍ لِمَنْ بَعْدَهُمْ<sup>(١٠)</sup>. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَأُ.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾<sup>(٥٧)</sup>

وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ

خَصِمُونَ<sup>(٥٨)</sup> إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ اتَّعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي

إِسْرَءِيلَ<sup>(٥٩)</sup> وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ<sup>(٦٠)</sup>

وَأَنَّهُ لَعَلَّكُمْ لِسَاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّعَمُونَ هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ<sup>(٦١)</sup> وَلَا يَصْدَنْكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ<sup>(٦٢)</sup> وَلَمَّا

جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ

الَّذِي تَخَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا<sup>(٦٣)</sup> إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ

فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ<sup>(٦٤)</sup> فَاتَّخَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ آيَةِ<sup>(٦٥)</sup>

[اِسْتِخْفَافُ قُرَيْشٍ لِابْنِ مَرْيَمَ، وَدَرَجَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَعَتُّبِ قُرَيْشٍ فِي كُفْرِهِمْ

بَلْ<sup>(١)</sup>. وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا حَكَاهُ الْفَرَاءُ عَنْ بَعْضِ الْفَرَاءِ أَنَّهُ قَرَأَهَا: (أَمَّا أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ)<sup>(٢)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَلَوْ صَحَّتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ لَكَانَ مَعْنَاهَا صَحِيحًا وَاضِحًا، وَلَكِنَّهَا خِلَافُ قِرَاءَةِ الْأَمْصَارِ فَإِنَّهُمْ قَرَأُوا (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) عَلَى الْإِسْتِفْهَامِ<sup>(٣)</sup>. (قُلْتُ:) وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَإِنَّمَا يَعْنِي فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللَّهُ - بِذَلِكَ: أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ كَذَبَ فِي قَوْلِهِ هَذَا كَذِبًا بَيِّنًا وَاضِحًا، فَعَلَيْهِ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: «مَهِينٌ» كَمَا قَالَ سُفْيَانُ: حَقِيرٌ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي: لَا مَلِكَ لَهُ وَلَا سُلْطَانَ وَلَا مَالَ. «وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ» يَعْنِي: لَا يَكَادُ يُفْصِحُ عَنْ كَلَامِهِ، فَهُوَ عَمِيٌّ حَصِرٌ. وَقَوْلُهُ: «مَهِينٌ»: كَذِبٌ، بَلْ هُوَ الْمَهِينُ الْحَقِيرُ خِلَقَةً وَخُلُقًا وَدِينًا، وَمُوسَى هُوَ الشَّرِيفُ الصَّادِقُ الْبَارُ الرَّاشِدُ. وَقَوْلُهُ: «وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ» اِفْتِرَاءٌ أَيْضًا؛ فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَصَابَ لِسَانَهُ فِي حَالِ صَغَرِهِ شَيْءٌ مِنْ جَهَةِ تِلْكَ الْجُمْرَةِ، فَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَحُلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ؛ لِيَفْقَهُوا قَوْلَهُ، وَقَدْ اسْتَحْجَبَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: «قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى» [طه: ٣٦]، وَبِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَقِيَ شَيْءٌ لَمْ يَسْأَلْ إِزَالَتَهُ، كَمَا قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ. وَإِنَّمَا سَأَلَ زَوَالَ مَا يَخْصُلُ مَعَهُ الْإِبْلَاجُ وَالْإِفْهَامُ، فَالْأَشْيَاءُ الْخُلُقِيَّةُ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ لَا يُعَابُ بِهَا، وَلَا يُدْمُ عَلَيْهَا، وَفِرْعَوْنُ وَإِنْ كَانَ يَفْهَمُ وَلَهُ عَقْلٌ، فَهُوَ يَدْرِي هَذَا، وَإِنَّمَا أَرَادَ التَّرْوِيجَ عَلَى رَعِيَّتِهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا جَهْلَةً أَغْيَاءَ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ: «فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ» وَهِيَ مَا يُجْعَلُ فِي الْأَيْدِي مِنَ الْحُلِيِّ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٤)</sup>. «أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ» أَيُّ: يَكْتَبُونَهُ خِدْمَةً لَهُ، وَيَسْهَدُونَ بِتَصْدِيقِهِ، نَظَرَ إِلَى الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وَلَمْ يَفْهَمْ السَّرَّ الْمَعْنَوِي الَّذِي هُوَ أَظْهَرُ مِمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ لَوْ كَانَ يَفْهَمُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ» أَيُّ: اسْتَحَفَّ عُقُولَهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ، «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ءَاسَفُونَا» اِسْخَطُونَا<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْهُ: اِعْضَبُونَا، وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ

(١) الطبري: ٦١٨/٢١ (٢) الطبري: ٦١٨/٢١ (٣) الطبري: ٦١٨/٢١

(٤) الطبري: ٦١٨/٢١ (٥) الطبري: ٦٢٢/٢١

(٦) الطبري: ٦٢٢/٢١ والدر المنثور: ٣٨٣/٧ (٧) أحمد: ٤/

١٤٥ باختلاف يسير. (٨) الدر المنثور: ٣٨٤/٧ (٩)

القرطبي: ١٠٢/١٦ (١٠) الطبري: ٦٢٤/٢١ والقرطبي: ١٦/

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩٤

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

وَنَعْمُدُهُمُ الْغَنَاءَ وَالْجَدَلَ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ: يَضْحَكُونَ أَيُّ: أَعْجَبُوا بِذَلِكَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَجْزَعُونَ وَيَضْحَكُونَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: يُعْرِضُونَ<sup>(٣)</sup>.

وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ حَيْثُ قَالَ: وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِيمَا بَلَغَنِي، يَوْمًا مَعَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ، وَفِي الْمَجْلِسِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَفْحَمَهُ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّوكُمْ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠] الْآيَاتِ.

ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ التَّمِيمِيُّ حَتَّى جَلَسَ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ لَهُ: وَاللَّهِ مَا قَامَ النَّضْرُ ابْنُ الْحَارِثِ لِابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَمَا قَعَدَ، وَقَدْ زَعَمَ مُحَمَّدٌ أَنَا وَمَا نَعْبُدُ مِنَ إِلَهَتِنَا هَلْ هُوَ حَصَبُ جَهَنَّمَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ: أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَخَصَمْتُهُ، سَلُوا مُحَمَّدًا أَكُلَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عَبْدُهُ، فَتَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْيَهُودُ نَعْبُدُ عَزِيرًا، وَالنَّصَارَى نَعْبُدُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَرَأَوْا أَنَّهُ قَدْ احْتَجَّ وَخَاصَمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبْدُهُ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أَيُّ: عِيسَى وَعَزِيرٌ وَمَنْ عُبِدَ مَعَهُمَا مِنْ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، الَّذِينَ مَضَوْا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاتَّخَذَهُمْ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَنَزَلَ فِيمَا يُذَكِّرُ مِنْ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَأَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩] الْآيَاتِ، وَنَزَلَ فِيمَا يُذَكِّرُ مِنْ أَمْرِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنَّهُ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنْ حُجَّتِهِ وَخُصُومَتِهِ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أَيُّ: يَصِدُّونَ عَنْ أَمْرِكَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ. ثُمَّ ذَكَرَ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

فَقَالَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ ﴿وَإِنَّمَا لَعَلَّمُ لِّلْإِنْسَانِ مَا وَعَدُ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ الْآيَاتِ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَسْفَامِ فَكَفَىٰ بِهِ دَلِيلًا عَلَىٰ عِلْمِ السَّاعَةِ، يَقُولُ: ﴿فَلَا تَمْتَرْتُمْ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾﴾<sup>(٤)</sup>.

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ رِوَايَةِ الْعَوْفِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَوْلَهُ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قَالَ: يُعْنِي: قُرَيْشًا، لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّوكُمْ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]. فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: فَمَا ابْنُ مَرْيَمَ؟ قَالَ: «ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يُرِيدُ هَذَا إِلَّا أَنْ تَتَّخِذَهُ رَبًّا كَمَا اتَّخَذَتْ

(١) القرطبي: ١٠٣/١٦ (٢) الطبري: ٦٢٧/٢١ (٣)

القرطبي: ١٠٣/١٦ (٤) ابن هشام: ٣٩٦-٣٩٨

هَرِيرَةً وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَأَبِي مَالِكٍ وَعِكْرِمَةَ  
وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكَ وَغَيْرَهُمْ<sup>(٨)</sup>. وَقَدْ تَوَاتَرَتْ  
الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِزُورِ عِيسَى عَلَيْهِ  
السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِمَامًا عَادِلًا وَحَكَمًا مُقْسِطًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَمَرَّتْ بِهَا﴾ أَي: لَا تَشْكُوا فِيهَا  
أَنَّهَا وَاقِعَةٌ وَكَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ﴿وَأَتَّبِعُون﴾ أَي: فِيمَا أُخْبِرُكُمْ  
بِهِ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾<sup>(٩)</sup> وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ ﴿أَي: عَنِ  
اتِّبَاعِ الْحَقِّ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(١٠)</sup> وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ  
قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ أَي: بِالْبَيِّنَةِ ﴿وَلَا يُبَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ  
الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْني مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ  
لَا الدُّنْيَوِيَّةِ<sup>(١١)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَي: فِيمَا أَمَرُكُمْ بِهِ  
﴿وَالطَّاعُونَ﴾ فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ  
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَي: أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِيدُ لَهُ، فَقَرَأَ إِلَيْهِ،  
مُسْتَرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿هَذَا صِرَاطٌ  
مُسْتَقِيمٌ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ  
وَهُوَ عِبَادَةُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا وَحْدَهُ. وَقَوْلُهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:  
﴿فَاخْلَفَ الْأَخْرَابَ مِنْ بَنِيهِمْ﴾ أَي: اخْتَلَفَتْ الْفِرَقُ، وَصَارُوا  
شَيْعًا فِيهِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ الْحَقُّ،  
وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعي أَنَّهُ وَلَدُ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ اللَّهُ.  
تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلِيلٌ  
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلَيسَ﴾.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا  
يَشْعُرُونَ﴾<sup>(١٢)</sup> الْأَخْلَاقُ يَوْمِيَّةٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا  
الْمُنْفِقِينَ<sup>(١٣)</sup> يَتَّبِعُونَ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَشْرَ  
تَحْزَنُونَ<sup>(١٤)</sup> الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ<sup>(١٥)</sup> ادْخُلُوا  
الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ<sup>(١٦)</sup> يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ  
ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّاهِيَ الْأَنْفُسُ وَلَسَدُ الْأَعْيُنِ وَأَنْتُمْ  
فِيهَا خَالِدُونَ<sup>(١٧)</sup> وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ  
تَعْمَلُونَ<sup>(١٨)</sup> لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ<sup>(١٩)</sup>

النَّصَارَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَبًّا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا  
صَرَّيْتُكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾<sup>(٢٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ:  
يَقُولُونَ: آلِهَتُنَا خَيْرٌ مِنْهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ (وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا؟) يَعْثُونَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا صَرَّيْتُكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أَي:  
مِرَاءً، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَى الْآيَةِ؛ لِأَنَّهَا لَمَّا لَا  
يَعْقِلُ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ  
اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ثُمَّ هِيَ خِطَابٌ لِلرَّيْثِيِّ، وَهُمْ إِنَّمَا  
كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ  
الْمَسِيحَ حَتَّى يُورِدُوهُ. فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَقَالَتَهُمْ إِنَّمَا كَانَتْ جَدَلًا  
مِنْهُمْ لَيْسُوا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ  
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا  
أَوْرَثُوا الْجَدَلَ». ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا  
صَرَّيْتُكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾<sup>(٢١)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ  
وَابْنُ مَاجَهَ، وَابْنُ جَرِيرٍ ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ لَا  
نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِهِ<sup>(٢٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يَعْني:  
عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. مَا هُوَ إِلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ  
عَزَّ وَجَلَّ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْبَيِّنَةِ وَالرَّسَالَةِ ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي  
إِسْرَءِيلَ﴾ أَي: ذِلَالَةً وَحُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُدْرَتِنَا عَلَى مَا  
نَشَاءُ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ  
بَدَلَكُمْ﴾<sup>(٢٣)</sup> ﴿مَلِكًا فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَخْلَفُونَكُمْ  
فِيهَا<sup>(٢٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَتَادَةُ: يَخْلَفُ  
بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا يَخْلَفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا<sup>(٢٥)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ  
يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَغْمُرُونَ الْأَرْضَ بِدَلَكُمُ<sup>(٢٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ﴾ الصَّحِيحُ  
فِيهِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ نَزُولُهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ  
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ  
مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] أَي: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَامُ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا﴾ [النساء: ١٥٩]  
وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى الْقِرَاءَةُ الْأُخْرَى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ﴾  
أَي: أَمَارَةً وَدَلِيلًا عَلَى وَقُوعِ السَّاعَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَإِنَّهُ  
لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ﴾ أَي: آيَةً لِلْسَّاعَةِ: خُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(٢٧)</sup>. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي

(١) الطبري: ٢١/٦٢٥ العوفي ضعيف كما سبق (٢) أحمد: ٥/

٢٥٦ (٣) تحفة الأحوذى: ٩/١٣٠ وابن ماجه: ١/١٩

والطبري: ٢١/٦٢٩ (٤) الطبري: ٢١/٦٣١ (٥) الطبري:

٢١/٦٣٠ (٦) الطبري: ٢١/٦٣٠ (٧) الطبري: ٢١/٦٣٢

(٨) الطبري: ٢١/٦٣٢ والقرطبي: ١٦/١٠٦ (٩) الطبري:

٢١/٦٣٥

[تَأْتِي الْقِيَامَةُ بِعَظَّةٍ وَتَفْجَعُ الْعَادَاةُ بَيْنَ الْأَخْلَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى: هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ ﴿٧٤﴾ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٥﴾ أَيْ فَإِنَّهَا كَأَنَّهَا لَا مُحَالَةَ وَوَاقِعَةً، وَهَؤُلَاءِ غَافِلُونَ عَنْهَا غَيْرَ مُسْتَعِدِّينَ، فَإِذَا جَاءَتْ إِنَّمَا تَجِيءُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا، فَحِينَئِذٍ يَنْدَمُونَ كُلَّ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَيْ كُلُّ صَدَاقَةٍ وَصَحَابَةٍ لِغَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا تَتَّقِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِدَاوَةً، إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ؛ فَإِنَّهُ دَائِمٌ بِدَوَامِهِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

[بِشَارَةِ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَدُخُولِهِمُ الْجَنَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَعْبَادُ لَا حَاقَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ وَانْفَادَتْ لِشَرَعِ اللَّهِ جَوَارِحُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ. قَالَ الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ: إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ النَّاسَ جِئِينَ يُعْتَنُونَ، لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا فَرَجٌ، فَيُنَادِي مُنَادٍ ﴿يَعْبَادُ لَا حَاقَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فَيَرْجُوها النَّاسُ كُلُّهُمْ، قَالَ: فَيُنْبِئُهَا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قَالَ: فَيُنَاسُ النَّاسُ مِنْهَا غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup>. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أَيْ: نَظَرَاؤُكُمْ ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أَيْ: تَنْعَمُونَ وَتُسْعَدُونَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الرُّومِ. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أَيْ: زِيَادِي - آيَةِ الطَّعَامِ - ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وَهِيَ آيَةُ الشَّرَابِ أَيْ: مِنْ ذَهَبٍ لَا خَرَّاطِيمَ لَهَا وَلَا عُرَى (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ) وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ ﴿وَتَكْدُ الْأَعْيُنُ﴾ أَيْ: طَيِّبُ الطَّعَامِ وَالرِّيحِ وَحَسَنُ الْمَنْظَرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾ أَيْ: فِي الْجَنَّةِ ﴿تَخْلُدُونَ﴾ أَيْ: لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَلَا تَبْعُونَ عَنْهَا جَوْلًا.

٤٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾ لَا يَفْتَرِعُهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٨﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٨٠﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٨١﴾ أَمْ أَتَرْمَوْا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ ﴿٨٤﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٥﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوعَدُونَ ﴿٨٦﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٧﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَلِلَّهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٩٠﴾ وَقِيلَ لَهُ رَبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَوْمَنُونَ ﴿٩١﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٢﴾

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّفْضِيلِ وَالْإِمْتِنَانِ: ﴿وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْصَدْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: أَعْمَالُكُمْ الصَّالِحَةُ كَانَتْ سَبَبًا لِشُمُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا عَمَلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَكِنْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وَإِنَّمَا الدَّرَجَاتُ يُنَالُ تَقَوُّنُهَا بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أَيْ: مِنْ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أَيْ: مَهْمَا اخْتَرْتُمْ وَأَرَدْتُمْ. وَلَكَمَا ذَكَرَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ ذَكَرَ بَعْدَهُ الْفَاكِهَةَ؛ لِتَمِّمِ النِّعْمَةَ وَالْغِنَى، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ لَا يَفْتَرِعُهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٨﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٨٠﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٨١﴾ أَمْ أَتَرْمَوْا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٣﴾



## [عَاقِبَةُ الْأَشْقِيَاءِ السَّيِّئَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالِ السَّعْدَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ الْأَشْقِيَاءِ، فَقَالَ: **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** ﴿٧٥﴾ لَا يَفُتِّرُ عَنْهُمْ أَتَى: سَاعَةً وَاحِدَةً ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ أَيْ: آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ﴿وَمَا ظَنَنْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَإِزْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوا وَعَصَوْا فَجُوزُوا بِذَلِكَ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ﴾ وَهُوَ خَازِنُ النَّارِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَعْلَى، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ عَلَى الْمَنَبَرِ: ﴿وَنَادَا يَمْلِكُ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ <sup>(١)</sup> أَيْ: يَقْضِ أَرْوَاحَنَا فَيَرْيَحُنَا بِمَا نَحْنُ فِيهِ، فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَجَّجْنَا السَّمَاةَ﴾ <sup>(٢)</sup> الَّتِي يَصِلُ آثَارُ الْكُفْرِ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿[الاعلى: ١١-١٣] فَلَمَّا سَأَلُوا أَنْ يَمُوتُوا أَجَابَهُمْ مَالِكٌ: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكْنُوتٌ﴾ أَيْ: لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا وَلَا مَجِيدَ لَكُمْ عَنْهَا، ثُمَّ ذَكَرَ سَبَبَ شِقْوَتِهِمْ، وَهُوَ: مُخَالَفَتُهُمْ لِلْحَقِّ وَمُعَانَدَتُهُمْ لَهُ، فَقَالَ: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ: بَيِّنَاتٍ لَكُمْ وَوَصَّحْنَاهُ وَفَسَّرْنَاهُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ أَيْ: وَلَكِنْ كَانَتْ سَجَايَاكُمْ لَا تَقْبَلُهُ، وَلَا تَقْبَلُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا تَنْقَادُ لِلْبَاطِلِ وَتُعْظَمُهُ، وَتَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَتَأْبَاهُ وَتُبْغِضُ أَهْلَهُ. فَعُودُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِالْمَلَامَةِ، وَانْدِمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُكُمْ النَّدَامَةُ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ أَمَرْنَا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادُوا كَيْدَ شَرٍّ، فَكَذَّبْنَاهُمْ <sup>(٣)</sup>. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَحِيلُونَ فِي رَدِّ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ بِحِيلٍ وَمَكْرٍ يَسْلُكُونَهُ، فَكَادَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَدَّ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أَيْ: سِرَّهُمْ وَعَلَانِيَتَهُمْ ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أَيْ: نَحْنُ نَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَالْمَلَائِكَةُ أَيْضًا يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ سَبَّحَ بِحَمْدِ يَالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّا هَتَوَلَاءَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

[لَيْسَ لِلَّهِ وَلَدٌ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أَيْ: لَوْ فُرِضَ هَذَا لَعَدَّتُهُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنِّي عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِهِ، مُطِيعٌ لِجَمِيعِ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ، لَيْسَ عِنْدِي اسْتِكْبَارٌ وَلَا إِنَاءٌ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَلَوْ فُرِضَ هَذَا لَكَانَ هَذَا، وَلَكِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّهِ تَعَالَى وَالشَّرْطُ لَا يُلْزَمُ مِنْهُ الْوُقُوعُ وَلَا الْجَوَازُ أَيْضًا، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أَيْ: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، فَإِنَّهُ فَرَّدَ أَحَدَ صَمَدٌ، لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفْءَ لَهُ، فَلَا وَلَدَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا﴾ أَيْ: فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَيْ: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ وَمَالُهُمْ وَحَالُهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

[بَيَانُ تَفَرُّدِ الرَّبِّ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ أَيْ: هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ، يَعْبُدُهُ أَهْلُهُمَا، وَكُلُّهُمْ خَاضِعُونَ لَهُ، أَدْلَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] أَيْ: هُوَ الْمَدْعُوُّ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيْ: هُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُمَانَعَةٍ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْوَلَدِ وَتَبَارَكَ، أَيْ: اسْتَقَرَّ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ الْغُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ؛ لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمَالِكُ لِلْأَشْيَاءِ الَّذِي بِيَدِهِ أَرْمَةُ الْأُمُورِ نَقْضًا وَإِبْرَامًا.

وَالْمَغَارِبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.  
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الزُّخْرُفِ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ الدُّخَانِ]

وَفِي مُسْنَدِ الْبَزَّازِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي الطَّفِيلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِابْنِ صَيَّادٍ: «إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ خَبَأً، فَمَا هُوَ؟». وَخَبَأَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُورَةَ الدُّخَانِ فَقَالَ: هُوَ الدُّخُّ. فَقَالَ: «أَخْسَأُ مَا شَاءَ اللَّهُ [كَانَ]». ثُمَّ انْصَرَفَ<sup>(٥)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾

### [نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ، وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٥٨] وَقَدْ ذَكَرْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أَيُّ: مُعَلِّمِينَ النَّاسَ مَا يَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ شَرَعًا، لِنُقَوِّمَ حُجَّةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أَيُّ: فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، يُفَصَّلُ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى الْكِتَابَةِ أَمْرُ السَّنَةِ، وَمَا

(١) الطبري: ٦٥٦/٢١ (٢) فتح الباري: ٤٣١/٨ (٣) الطبري: ٦٥٦/٢١ (٤) الطبري: ٦٥٦/٢١ (٥) الطبراني: ٥/٨٨ والمعجم الأوسط (٣٨٧٥) كشف الاستار (٣٣٩٩) وقال البزار لم يرو هذا الحديث عن فرات القزاز -ثقة- إلا ابنه الحسن - ولا عن ابنه إلا ابنه زياد - قال أبو حاتم منكر الحديث أورده الهيثمي في المجموع ٤/٨ وقال: رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط وفيه زياد بن الحسن بن فرات ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان

﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أَيُّ: ﴿لَا يَحِيطُهَا لَوْحًا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ: فَيَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

### [نَفْيُ شَفَاعَةِ الْأَوْتَانِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ ﴿الشَّفَعَةَ﴾ أَيُّ: لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الشَّفَاعَةِ لَهُمْ ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ. أَيُّ: لَكِنْ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ عَلَى بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ، فَإِنَّهُ تَنَفَّعَ شَفَاعَتُهُ عِنْدَهُ بِإِذْنِهِ لَهُ.

### [إِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ]

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَلَّى يَوْفَكُونَ﴾ أَيُّ: وَلَكِنْ سَأَلْتُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ؟﴾ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ أَيُّ: هُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ جَمِيعِهَا، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ فِي غَايَةِ الْجَهْلِ وَالسَّفَاهَةِ وَسَخَافَةِ الْعَقْلِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَلَّى يَوْفَكُونَ؟﴾

### [شَكْوَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَى اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ: وَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ لَهُ -أَيُّ: شَكَأَ إِلَى رَبِّهِ شَكْوَاهُ- مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ، فَقَالَ: ﴿يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وَهَذَا الَّذِي قُلْتَاهُ هُوَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ، وَعَلَيْهِ فَسَّرَ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١)</sup>. قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي: ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ)<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قَالَ: يُؤْثِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ قَوْلُ نَبِيِّكُمْ ﷺ يَشْكُو قَوْمَهُ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أَيُّ: الْمُشْرِكِينَ ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أَيُّ: لَا تُجَاوِبُهُمْ بِمِثْلِ مَا يُخَاطِبُونَكَ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ، وَلَكِنْ تَأَلَّفْهُمْ وَاصْفَحْ عَنْهُمْ فِعْلًا وَقَوْلًا، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، وَلِهَذَا أَحَلَّ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا يَرُدُّ، وَأَعْلَى دِينَهُ وَكَلِمَتَهُ، وَشَرَعَ بَعْدَ ذَلِكَ الْجِهَادَ وَالْجِلَادَ، حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي الْمَشَارِقِ

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝٧ إِنَّ كُنُوزَ مَوْقِنِينَ ۝٨ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٩ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝١٠ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١١ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٢ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٣ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝١٤ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ۝١٥ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٦ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ۝١٧ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٨ أَنْ أَدَّوْا إِلَى عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٩

يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْأَجَالِ وَالْأَرْزَاقِ، وَمَا يَكُونُ فِيهَا إِلَى آخِرِهَا. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَأَبِي مَالِكٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ <sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: «حَكِيمٍ» أَيُّ: مُحْكَمٍ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: «أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا» أَيُّ: جَمِيعٍ مَا يَكُونُ وَيُقَدَّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا يُوجِبُهُ، فَبِأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ وَعِلْمِهِ «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» أَيُّ: إِلَى النَّاسِ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ كَانَتْ مَاسَةً إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» أَيُّ: الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُوَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا وَمَا فِيهِمَا «إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» أَيُّ: إِنْ كُنْتُمْ مُتَّحِقِينَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «قُلْ يَتَابِعُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ»... الآية [الأعراف: ١٥٨].

«بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ» فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ

[تَحْوِيفُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي تَأْتِي السَّمَاءُ بِالدُّخَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: بَلْ هُوَ لَاءِ الْمُشْرِكُونَ «فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ» أَيُّ: قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْبَقِيَّةُ، وَهُمْ يَشْكُونَ فِيهِ وَيَمْتَرُونَ وَلَا يُصَدِّقُونَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُهْدِدًا: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ» عَنْ مُسْرُوقٍ، قَالَ: دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، يَعْنِي: مَسْجِدَ الْكُوفَةِ عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ، فَإِذَا رَجُلٌ يَقْصُصُ عَلَى أَصْحَابِهِ: «يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ» تَذَرُونَ مَا ذَلِكَ الدُّخَانُ؟ ذَلِكَ دُخَانٌ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُتَفَقِّهِينَ وَأَبْصَارِهِمْ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ شِبْهُ الزُّكَامِ، قَالَ: فَأَتَيْنَا ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَذَكَّرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَكَانَ مُضْطَجِعًا، فَفَرَغَ قَعْقَعًا وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لَنَبِيِّكُمْ ﷺ: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» [ص: ٨٦] إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ. سَأَحْدِثُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، إِنَّ قُرَيْشًا

لَمَّا أَبْطَأَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَعْصَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنَّينَ كَسَنِي يُوشَعَ، فَأَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْمِثْنَةَ، وَجَعَلُوا يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا الدُّخَانَ <sup>(٢)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ» يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ اسْتَسْقِ اللَّهَ لِمُصْرٍ؛ فَإِنَّهَا قَدْ هَلَكَتْ، فَاسْتَسْقَى ﷺ لَهُمْ فَسَقُوا، فَتَزَلَّتْ «إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَيَكْشِفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَلَمَّا أَصَابَهُمُ الرَّفَاهِيَّةُ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» قَالَ: يَعْنِي: يَوْمَ بَدْرٍ <sup>(٣)</sup>. قَالَ

(١) الطبري: ٩/٢٢ (٢) مسلم: ٢١٥٥/٤ (٣) فتح الباري: ٤٣٤/٨

عَبَّاسٍ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: مَا نِمْتُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ. قُلْتُ: لِمَ؟ قَالَ: قَالُوا طَلَعَ الْكُوكُبُ ذُو اللَّذَنِّ، فَخَبِثَتْ أَنْ يَكُونَ الدُّخَانُ قَدْ طَرَقَ، فَمَا نِمْتُ حَتَّى أَصْبَحْتُ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَرَ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ... فَذَكَرَهُ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ خَبَرِ الْأَمَّةِ وَتَرْجُمَانِ الْقُرْآنِ. وَهَكَذَا قَوْلُ مَنْ وَافَقَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَجْمَعِينَ مَعَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ وَالْمَوْفُوقَةِ مِنَ الصَّحَاحِ وَالْحَسَنَانِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا فِيهِ مَقْنَعٌ، وَدَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى أَنَّ الدُّخَانَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُنْتَظَرَةِ، مَعَ أَنَّهُ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنْتَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ: بَيِّنٍ وَاضِحٍ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَعَلَى مَا فَسَّرَ بِهِ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ خَيَالٌ رَأَوْهُ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْجَهْدِ. وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أَيُّ يَتَغَشَّاهُمْ وَيَعْمَهُمْ، وَلَوْ كَانَ أَمْرًا خَيَالِيًّا يَخْصُ أَهْلَ مَكَّةَ الْمُشْرِكِينَ لَمَا قِيلَ فِيهِ: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ؛ تَقْرِيبًا وَتَوْبِيخًا، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۖ﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ يَهَا تُكَلِّبُونَ ﴿[الطور: ١٣، ١٤] أَوْ يَقُولُ بَغْضُهُمْ لِبَغْضِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ يَقُولُ الْكَافِرُونَ إِذَا عَانُوا عَذَابَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ، سَائِلِينَ رَفْعَهُ وَكَشْفَهُ عَنْهُمْ كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ وَفَعْنَا عَلَى النَّارِ فَعَالُوا يَكْلَبُنَا فَرْدٌ وَلَا تَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] وَكَذَا قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وَهَكَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّهْ بَنَجُونُ﴾ يَقُولُ: كَيْفَ لَهُمْ بِالتَّذَكُّرِ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَيْنَ الرِّسَالَةِ وَالتَّذَاذِرَةِ، وَمَعَ هَذَا تَوَلَّوْا عَنْهُ،

ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقَدْ مَضَى خَمْسَةٌ: الدُّخَانُ وَالرُّوْمُ وَالْقَمَرُ وَالْبَطْنَةُ وَاللِّزَامُ. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، وَهُوَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَالتَّسَائِي فِي تَفْسِيرَيْهِمَا، وَعِنْدَ ابْنِ جَرِيرٍ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ وَافَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى تَفْسِيرِ الْآيَةِ، بِهَذَا وَأَنَّ الدُّخَانَ مَضَى: جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ كُمَجَاهِدٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالضَّحَّاكَ وَعَطِيَّةَ الْعَوْفِيَّ<sup>(٣)</sup>. وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

### [القول الثاني في تفسير الدُّخَانِ]

قَالَ آخَرُونَ: لَمْ تَمْضِ الدُّخَانُ بَعْدُ، بَلْ هُوَ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَرِيحَةَ حَدِيقَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ السَّاعَةَ فَقَالَ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانُ، وَالدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالدَّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسَفٌ بِالشَّمْسِ، وَخَسَفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسَفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارًا تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ النَّاسَ - أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ - تَبِيتَ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقْبَلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا». تَفَرَّدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ<sup>(٤)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِابْنِ صَبَّادٍ: «إِنِّي خَبَأْتُ لَكَ خَبَاءً» قَالَ: هُوَ الدُّخُّ، قَالَ ﷺ: «اِخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ» قَالَ: وَخَبَأَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَأَنْتَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُنْتَظَرِ الْمُرْتَقِبِ، وَابْنُ صَبَّادٍ كَاشِفٌ عَلَى طَرِيقَةِ الْكُفَّانِ بِلِسَانِ الْجَانِّ، وَهُمْ [يَقْرَءُونَ] الْعِبَارَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: هُوَ الدُّخُّ، يَغْنِي: الدُّخَانُ. فَعِنْدَهَا عَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا دَأَتْهُ، وَأَنَّهَا شَيْطَانِيَّةٌ، فَقَالَ ﷺ: «اِخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ».

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ أَنْذَرَكُمْ ثَلَاثًا: الدُّخَانَ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ كَالزُّكْمَةِ، وَيَأْخُذُ الْكَافِرَ فَيَتَفَنِّخُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مَسْمَعٍ مِنْهُ، وَالثَّانِيَةَ: الدَّابَّةَ، وَالثَّالِثَةَ: الدَّجَالَ». وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ<sup>(٦)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَيَدْخُلُ فِي مَسَامِعِ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ حَتَّى يَكُونَ كَالرَّأْسِ الْحَنِيذِ، أَيُّ: الْمَشْوِيِّ عَلَى الرُّضْفِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: غَدُوْتُ عَلَى ابْنِ

(١) فتح الباري: ٤٣٤/٨ (٢) أحمد: ٣٨٠/١ وتحفة الأحوذى: ١٣٣/٩ والتسائي في الكبرى: ٤٥٥/٦ والطبري: ١٤٠، ١٣/٢٢ (٣) الطبري: ١٦/٢٢ (٤) مسلم: ٢٢٢٥/٤ (٥) فتح الباري: ٢٥٨/٣ ومسلم: ٢٢٤٠/٤ (٦) الطبري: ٣١٠٦٠

سورة الدخان

٤٩٧

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ وَإِنِّي عَذْتُ  
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٨﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لَوْلَا أَنْ رَّبَّهُ  
رَبُّهُ أَنْ هُوَ لَا يَفْعَلُ مَا تَكْفُرُونَ ﴿١٩﴾ فَاسْرِعْ بَعْدِي لَيْلًا إِنَّكُمْ  
مُتَّبِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢١﴾ كَمْ  
تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْمُونِ ﴿٢٢﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٣﴾ وَنَعْمَةٍ  
كَانُوا فِيهَا فَكَيْهَيْنِ ﴿٢٤﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَا بَكَتْ  
عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ  
بَجَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٧﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ  
كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى  
الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ وَآلَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٠﴾  
إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣١﴾ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا  
نَحْنُ بِمُشْرِرِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَتُوا بِآيَاتِنَا أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾ أَهَمْ  
خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾  
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ ﴿٣٥﴾  
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا لِأَلَّا يَحِقَّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

[قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَنَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ اخْتَرْنَا قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ قَوْمَ  
فِرْعَوْنَ، وَهُمْ فِئْتٌ مَضْرُوءَةٌ ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يَعْنِي:  
مُوسَى كَلِمَةً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾،  
كَفَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ  
جِئْنَاكَ بِإِقْبَالٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧].  
وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أَي: مَا مُؤْنٌ عَلَى مَا  
أُبَلِّغُكُمْوهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أَي: لَا  
تَسْتَكْبِرُوا عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ، وَالْإِنْفِيَادِ لِحُجَجِهِ، وَالْإِيمَانِ  
بِبِرَاهِينِهِ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي  
سَيَحْمِلُونَ جَهَنَّمَ دَاحِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ  
مُبِينٍ﴾ أَي: بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ وَاضِحَةٍ، وَهِيَ مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ  
تَعَالَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاطِعَاتِ. ﴿وَإِنِّي

وَمَا وَافَقُوهُ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَقَالُوا: ﴿مُعَذِّبٌ نَجُونٌ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ  
جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ وَأَنِّي لَهُ  
الذِّكْرُ... الآية [الفجر: ٢٣]، وَكَفَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ  
رَأَى إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذَ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا أَمَّا  
بَيْنَهُ وَأَنِّي لَهُمُ النَّاسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ  
[سبا: ٥١-٥٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾  
مَعْنَاهُ: أَنَّا لَوْ كَشَفْنَا عَنْكُمْ الْعَذَابَ وَرَجَعْنَاكُمْ إِلَى الدَّارِ  
الدُّنْيَا، لَعُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ  
يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وَكَفَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَلَوْ رَدُّوا  
لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

[تَفْسِيرُ الْبَطْشَةِ الْكُبْرَى]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى﴾ إِنَّا  
مُتَّبِعُونَ ﴿فَسَّرَ ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ بَدْرٍ﴾<sup>(١)</sup>.  
وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ وَمِنْ وَافَقَ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
عَلَى تَفْسِيرِهِ الدُّخَانُ بِمَا تَقَدَّمَ، وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ رِوَايَةِ الْعَوْفِيِّ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ أَبِي بِنٍ  
كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٣)</sup>. وَهُوَ مُحْتَمِلٌ. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ ذَلِكَ  
يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ يَوْمَ بَطْشَةِ أَبِيصَ. قَالَ ابْنُ  
جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:  
قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى يَوْمَ بَدْرٍ.  
وَأَنَا أَقُولُ: هِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَنْهُ، وَبِهِ  
يَقُولُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَعِكْرِمَةُ فِي أَصَحِّ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ،  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾  
﴿أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ  
﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾  
﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لَوْلَا أَنْ رَّبَّهُ رَبُّهُ أَنْ هُوَ لَا يَفْعَلُ مَا تَكْفُرُونَ﴾  
﴿فَاسْرِعْ بَعْدِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ  
مُغْرَقُونَ﴾ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْمُونِ﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ  
كَرِيمٍ﴾ ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكَيْهَيْنِ﴾ ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا  
آخَرِينَ﴾ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾  
﴿وَلَقَدْ بَجَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ  
كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى  
الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَأَلَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾

(١) الطبري: ٢٢/٢٢ (٢) الطبري: ٢٢/٢٢ قد عرفتم حكم  
رواية العوفي فيما مضى (٣) الطبري: ٢٣/٢٢

وَالْجَاهَاتِ وَالْحُكْمِ فِي الْبِلَادِ، فَسَلُّوا ذَلِكَ جَمِيعُهُ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، وَفَارُقُوا الدُّنْيَا، وَصَارُوا إِلَى جَهَنَّمَ وَبُسْنِ الْمَصِيرِ.

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أَيُّ: لَمْ تَكُنْ لَهُمْ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَصْعَدُ فِي أَبْوَابِ السَّمَاءِ، فَتَبْكِي عَلَى فَقْدِهِمْ، وَلَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِقَاعٌ عَبْدُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا فَقَدْتَهُمْ، فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا أَنْ لَا يُنْظَرُوا وَلَا يُؤَخَّرُوا؛ لِكُفْرِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ وَعُتُوهُمْ وَعِنَادِهِمْ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: أَتَى ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ، أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ فَهَلْ تَبْكِي السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَلَى أَحَدٍ؟ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَعَمْ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا وَلَهُ بَابٌ فِي السَّمَاءِ، مِنْهُ يَنْزِلُ رِزْقُهُ، وَفِيهِ يَصْعَدُ عَمَلُهُ، فَإِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فَأُغْلِقَ بَابُهُ مِنَ السَّمَاءِ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ وَيَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ، فَفَقَدَهُ، بَكَى عَلَيْهِ، وَإِذَا فَقَدَهُ مُصْلَاهُ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ يُصَلِّي فِيهَا وَيَذْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا بَكَتْ عَلَيْهِ، وَإِنْ قَوْمٌ فِرْعَوْنُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ آثَارٌ صَالِحَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ خَيْرٌ، فَلَمْ تَبْكْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نَحْوَ هَذَا<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾<sup>(٣)</sup> مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ تَعَالَى بِذَلِكَ حَيْثُ أَنْقَذَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ إِهَانَةٍ فِرْعَوْنَ وَإِذْلَالِهِ لَهُمْ، وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْأَعْمَالِ الْمُهِينَةِ الشَّاقَّةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا﴾ أَيُّ: مُسْتَكْبِرًا جَبَّارًا عَنِيدًا، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]. وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦].

﴿وَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أَيُّ: مُسْرِفٌ فِي أَمْرِهِ، سَخِيفُ الرَّأْيِ

عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكَ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَبُو صَالِحٍ: هُوَ الرَّجْمُ بِاللِّسَانِ وَهُوَ الشَّتْمُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: الرَّجْمُ بِالْحِجَارَةِ أَيُّ: أَعُوذُ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ مِنْ أَنْ تَصْلُوا إِلَيَّ بِسُوءٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ<sup>(٢)</sup> ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَنْزِلُونِ﴾ أَيُّ: فَلَا تَتَرَضَّضُوا لِي، وَدَعُوا الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مُسَالَمَةً إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَنَا. فَلَمَّا طَالَ مَقَامُهُ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَأَقَامَ حُجَجَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ... كُلُّ ذَلِكَ، وَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا كُفْرًا وَعِنَادًا، دَعَا رَبَّهُ عَلَيْهِمْ دَعْوَةً نَفَذَتْ فِيهِمْ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّنَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾<sup>(٣)</sup> قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا [يونس: ٨٨، ٨٩] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَخْرُجَ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَمْرِ فِرْعَوْنَ وَمُشَاوَرَتِهِ وَاسْتِئْذَانِهِ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَأَنزِلْ بَعَادِي لَيْلًا إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَنزِلْ بِعِبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ١٧٧].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ هَهُنَا: ﴿وَأَنزِلْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا جَاوَزَ هُوَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، أَرَادَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَهُ بَعْضَاهُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، لِيَصِيرَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ فَلَا يَصِلَ إِلَيْهِمْ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَتْرُكَهُ عَلَى حَالِهِ سَاكِنًا، وَيَسْرُهُ بِأَنَّهُمْ ﴿جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخَافُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَأَنزِلْ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كَهَيْئَتِهِ وَأَمْضِهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رَهْوًا﴾ طَرِيقًا يَبَسًا كَهَيْئَتِهِ. يَقُولُ: لَا تَأْمُرُهُ بِرُجْعٍ، انْزِلْهُ حَتَّى يَرْجِعَ آخِرُهُمْ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ، وَكَعْبُ الْأَخْبَارِ وَسِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٦)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَهِيَ الْبُسَاتِينُ﴾<sup>(٧)</sup> ﴿وَعُيُونٌ﴾<sup>(٨)</sup> وَزُرُوعٌ وَالْمُرَادُ بِهَا الْأَنْهَارُ وَالْآبَارُ وَمَقَامُ كَرِيمٍ وَهِيَ الْمَسَاكِينُ الْأَيُّقَةُ وَالْأَمَّاكِينُ الْحَسَنَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَمَقَامُ كَرِيمٍ﴾ الْمَتَابِرُ<sup>(٩)</sup>. ﴿وَتَعَمَّوْا كَانُوا فِيهَا فِكْهِينَ﴾ أَيُّ: عَيْشَةً كَانُوا يَتَفَكَّهُونَ فِيهَا، فَيَأْكُلُونَ مَا شَاءُوا وَيَلْبَسُونَ مَا أَحْبَبُوا، مَعَ الْأَمْوَالِ

(١) الطبري: ٢٦/٢٢ (٢) الطبري: ٢٧/٢٢ (٣) الدر

المشور: ٤١٠/٧ (٤) الطبري: ٣٠/٢٢ (٥) الطبري: ٣٠/٢٢

(٦) الطبري: ٣٢/٢٢ الطبري: ٣١٠٦٢ وإسناده حسن بالشواهد

(٧) الطبري: ٣٤/٢٢ (٨) الطبري: ٣٥/٢٢ تقدم حكم العوفي

عَلَى نَفْسِهِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ  
 عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿اخْتَرْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى  
 الْعَالَمِينَ﴾ عَلَى مَنْ هُمْ بَيْنَ ظَهْرِيهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: اخْتِيرُوا  
 عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِمْ ذَلِكَ، وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالَمًا.  
 وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَمُوسَى إني اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾  
 [الأعراف: ١٤٤] أَي: أَهْلَ زَمَانِهِ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ  
 لِمَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَاصْطَفَيْتُكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل  
 عمران: ٤٢] أَي: فِي زَمَانِهَا؛ فَإِنَّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِمَّا  
 أَفْضَلُ مِنْهَا أَوْ مُسَاوِيَةٌ لَهَا فِي الْفَضْلِ، وَكَذَا أَسِيَّةُ بِنْتُ  
 مُزَاجِمٍ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنُ، وَفَضْلٌ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَلَى  
 النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ:  
 ﴿وَالْيَنبُتُ مِنْ آلَيْكَ﴾ أَيِ الْحُجَّجِ وَالْبَرَاهِينِ وَخَوَارِقِ  
 الْعَادَاتِ ﴿مَا فِيهِ بَلَتْوَا مِيثَاقَ﴾ أَيِ اخْتِبَارِ ظَاهِرِ جَلِيلِي لِمَنْ  
 اهْتَدَى بِهِ.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ (٣٤) إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ  
 بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأَنُؤُا بِبَابِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهْمَ حَيَّرَ أَمْ قَوْمُ  
 نَبِيعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا بُحْرِينَ (٣٧)  
 [الرَّدُّ عَلَى مُنْكَرِي الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ  
 وَالْمَعَادَ، وَأَنَّهُ مَا تَمَّ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا حَيَاةَ بَعْدَ  
 الْمَمَاتِ وَلَا بَعْثَ وَلَا نُشُورَ، وَيَحْتَجُّونَ بِبَابِنَاهُمْ الْمَاضِينَ  
 الَّذِينَ ذَهَبُوا فَلَمْ يَرْجِعُوا، فَإِنْ كَانَ الْبَعْثُ حَقًّا ﴿فَأَنُؤُا  
 بِبَابِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ وَشُبْهَةٌ فَاسِدَةٌ،  
 فَإِنَّ الْمَعَادَ إِنَّمَا هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، بَلْ بَعْدَ  
 انْقِضَائِهَا وَذَهَابِهَا وَفَرَاغِهَا، يُعِيدُ اللَّهُ الْعَالَمِينَ خَلْقًا  
 جَدِيدًا، وَيَجْعَلُ الظَّالِمِينَ لِنَارِ جَهَنَّمَ وَقُودًا، يَوْمَ [تَكُونُونَ]  
 شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، ثُمَّ قَالَ  
 تَعَالَى مَهْدِدًا لَهُمْ وَمَتَّوعِدًا وَمُنْذِرًا لَهُمْ بِأَسْءَلِ الَّذِي لَا يَرُدُّ،  
 كَمَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنَظَائِرِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكَرِينَ  
 لِلْبَعْثِ كَقَوْمِ نَبِيعٍ، وَهُمْ سَبَأٌ، حَيْثُ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،  
 وَخَرَّبَ بِلَادَهُمْ، وَشَرَدَهُمْ فِي الْبِلَادِ، وَفَرَّقَهُمْ شَذَرَ مَذَرَ،  
 كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ سَبَأٍ - وَهِيَ مُصَدَّرَةٌ بِإِنْكَارِ  
 الْمُشْرِكِينَ لِلْمَعَادِ - وَكَذَلِكَ هَهُنَا شَبَّهَهُمْ بِأُولَئِكَ، وَقَدْ  
 كَانُوا عَرَبًا مِنْ قَحْطَانٍ، كَمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ عَرَبٌ مِنْ عَدْنَانَ،  
 وَقَدْ كَانَتْ جَمِيرٌ وَهُمْ سَبَأٌ كُلَّمَا مَلَكَ فِيهِمْ رَجُلٌ سَمَّوَهُ  
 نَبْعًا، كَمَا يُقَالُ: كِسْرَى، لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ، وَفَيْصَرَ لِمَنْ

مَلَكَ الرُّومَ، وَفِرْعَوْنَ لِمَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا، وَالنَّجَاشِيَّ  
 لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَعْلَامِ الْأَجْنَاسِ.  
 وَلَكِنْ اتَّفَقَ أَنَّ بَعْضَ تَبَاعِثِهِمْ خَرَجَ مِنَ الْيَمَنِ وَسَارَ فِي  
 الْبِلَادِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ، وَاشْتَدَّ مُلْكُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ  
 وَجَيْشُهُ، وَاتَّسَعَتْ مَمْلَكَتُهُ وَبِلَادُهُ وَكَثُرَتْ رَعَايَاها، وَهُوَ  
 الَّذِي مَصَّرَ الْحِجْرَةَ، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ مَرَّ بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ وَذَلِكَ فِي  
 أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَرَادَ قِتَالَ أَهْلِهَا فَمَانَعُوهُ وَقَاتَلُوهُ بِالنَّهَارِ،  
 وَجَعَلُوا يَفْرُونَهُ بِاللَّيْلِ، فَاسْتَحْيَا مِنْهُمْ، وَكَفَّ عَنْهُمْ،  
 وَاسْتَضَحَبَ مَعَهُ حَبْرَيْنِ مِنْ أَحْبَارِ يَهُودَ كَانَا قَدْ نَصَحَاهُ  
 وَأَخْبَرَاهُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَدَةِ، فَإِنَّهَا مُهَاجِرٌ نَبِيٌّ  
 يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَرَجَعَ عَنْهَا، وَأَخَذَهُمَا مَعَهُ إِلَى  
 بِلَادِ الْيَمَنِ، فَلَمَّا اجْتَارَ بِمَكَّةَ أَرَادَ هَذِمَ الْكَعْبَةَ فَهَبَاهُ عَنْ  
 ذَلِكَ أَيْضًا، وَأَخْبَرَاهُ بِعَظَمَةِ هَذَا الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ مِنْ بَنَاءِ  
 إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ  
 عَظِيمٌ عَلَى يَدَيِ ذَلِكَ النَّبِيِّ الْمُبْعُوثِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ،  
 فَعَظَّمَهَا وَطَافَ بِهَا وَكَسَاهَا الْمُلَاءَ وَالْوَصَائِلَ وَالْجَبَرِ، ثُمَّ

تَمْرُونَ ﴿٥٥﴾

[حَالُ الْمُشْرِكِينَ وَعَذَابُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُعَذِّبُ بِهِ الْكَافِرِينَ الْحَاجِدِينَ لِقَائِهِ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٥٦﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ وَالْأَثِيمُ أَيُّ: فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَهُوَ الْكَافِرُ، وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُ أَبُو جَهْلٍ، وَلَا شَكَّ فِي دُخُولِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِهِ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ كَانَ يَقْرَأُ رَجُلًا ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٥٦﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ فَقَالَ: طَعَامُ الْأَثِيمِ، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْ: (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْفَاجِرِ) (٣). أَيُّ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ مِنْ غَيْرِهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَلَوْ وَفَعَتْ قَطْرَةٌ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَاشَهُمْ (٤). وَقَدْ تَقَدَّمَ نَحْوُهُ مَرْفُوعًا، وَقَوْلُهُ: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قَالُوا: كَعَكْرِ الزَّيْتِ ﴿يَغْلَى فِي الْبَطْنِ﴾ ﴿كَعَلَى الْحَمِيرِ﴾ أَيُّ: مِنْ حَرَارَتِهَا وَرَدَائِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿خُدُّهُ﴾ أَيُّ: الْكَافِرُ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا قَالَ لِلزَّيْنَانِيَةِ: ﴿خُدُّهُ﴾ ابْتَدَرَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْتَلَوْهُ﴾ أَيُّ: سَوْفُهُ سَحَابًا وَدَفْعًا فِي ظَهْرِهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿خُدُّهُ فَاعْتَلَوْهُ﴾ أَيُّ: خُدُّهُ فَادْفَعُوهُ، ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أَيُّ: وَسَطِهَا ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٥٧﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠] وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَكَ يُصْرِئُهُ بِمِقْمَعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَتَنْفُخُ دِمَاقُهُ، ثُمَّ يُصَبُّ الْحَمِيمَ عَلَى رَأْسِهِ فَيَنْزِلُ فِي بَدَنِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي بَطْنِهِ مِنْ أَمْعَائِهِ حَتَّى تَمْرُقَ مِنْ كَفْيِهِ، أَعَادَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أَيُّ: قُولُوا لَهُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّهْكُمِ وَالتَّوْبِيخِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَيُّ: لَسْتُ بِعَزِيزٍ وَلَا كَرِيمٍ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿٥٨﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٥٩﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورَ﴾ [الطور: ١٣-١٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوتٍ ﴿٥٢﴾ يَلْسُونَ

كَرَّ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ وَدَعَا أَهْلَهَا إِلَى التَّهَوُّدِ مَعَهُ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ دِينَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فِيهِ - مَنْ يَكُونُ عَلَى الْهَدَايَةِ قَبْلَ بَعْثَةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَتَهَوَّدَ مَعَهُ عَامَّةُ أَهْلِ الْيَمَنِ. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَذْرِي تُبْعَ نَبِيًّا كَانَ، أَمْ غَيْرَ نَبِيٍّ» (١). وَرَوَى عَنْ تَمِيمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: قَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: لَا تَسُبُّوا تَبْعًا؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ سَبِّهِ (٢). وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ﴿٦٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [خُلِقَتِ الدُّنْيَا لِحِكْمَةٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَذَابِهِ وَتَنْزِيهِهِ نَفْسُهُ عَنِ اللَّعِبِ وَالْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿٧٣﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْهَاقُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، فَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ وَيُثَبِّتُ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَيُّ: يَجْمَعُهُمْ كُلُّهُمْ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ أَيُّ: لَا يَنْتَفِعُ قَرِيبٌ قَرِيبًا كَقَوْلِهِ سُحْنَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وَكَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَلَا يَسْتَلْ جِيمٌ حِيمًا يُصْرَوْنَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أَيُّ: لَا يَسْأَلُ أَخَا لَهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ عَيْنَانِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أَيُّ: لَا يَنْصُرُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ، وَلَا يَأْتِيهِ نَصْرُهُ مِنْ خَارِجٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ أَيُّ: لَا يَنْتَفِعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا رَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِخَلْقِهِ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أَيُّ: هُوَ عَزِيزٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٥٦﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلَى فِي الْبَطْنِ﴾ ﴿كَعَلَى الْحَمِيرِ﴾ ﴿خُدُّهُ فَاعْتَلَوْهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ

(١) البغوي: ١٥٤/٤ (٢) عبد الرزاق: ٢٠٩/٣ هذا من مراسيل عطاء (٣) الطبري: ٤٣/٢٢ (٤) الطبري: ٤٣/٢٢



أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرُمُوا أَبَدًا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اتَّقَى اللَّهَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، يَتَعَمُّ فِيهَا وَلَا يَبْأَسُ، وَيَحْيَا فِيهَا فَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»<sup>(٣)</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أَيُّ: مَعَ هَذَا النِّعَمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ، قَدْ وَقَّاهُمْ وَسَلَّمَهُمْ وَنَجَّاهُمْ وَزَحَّزَحَهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي ذَرَكَاتِ الْجَحِيمِ، فَحَصَلَ لَهُمُ الْمَطْلُوبُ، وَنَجَّاهُمْ مِنَ الْمَرْهُوبِ. وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَضَلَّا مَنِ رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا كَانَ هَذَا بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اغْمَلُوا وَسَدَّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَدْخُلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَسَّرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ سَهْلًا وَاضِحًا، بَيِّنًا جَلِيًّا ﴿بِلِسَانِكَ﴾ الَّذِي هُوَ أَفْصَحُ اللُّغَاتِ وَأَجْلَاهَا، وَأَخْلَاهَا وَأَعْلَاهَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيُّ: يَتَفَهَّمُونَ وَيَعْلَمُونَ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَعَ هَذَا الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَفَرَ وَخَالَفَ وَعَانَدَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُسْلِيًّا لَهُ وَوَاعِدًا لَهُ بِالنَّصْرِ، وَمُتَوَعَّدًا لِمَنْ كَذَبَهُ بِالْعَطَبِ وَالْهَلَاكِ: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أَيُّ: انتَظِرْ ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَابُونَ﴾ أَيُّ: فَسَيَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ النَّصْرَةُ وَالظَّفَرُ وَعِلْوُ الْكَلِمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّهَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ وَلِلْإِخْوَانِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَنْ اتَّبَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾... الآية [المجادلة: ٢١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾<sup>(٥)</sup> يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ النَّارِ [غافر: ٥١، ٥٢]. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الدَّخَانِ، وَ اللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

مِنْ سُنَدَيْنِ وَإِسْتَرْقَى مُتَقَبِّلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّا مَنِ رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَابُونَ ﴿٥٩﴾

[حَالُ الْمُتَّقِينَ وَنِعِيمُهُمْ فِي الْجَنَّةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ، وَلِهَذَا سُمِّيَ الْقُرْآنُ مَنَاقِبِي، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ: اللَّهُ فِي الدُّنْيَا ﴿فِي مَقَامٍ ءَامِينَ﴾ أَيُّ: فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ، قَدْ آمَنُوا فِيهَا مِنَ الْمَوْتِ وَالْخُرُوجِ، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ وَحَزَنِ وَجَزَعٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ، وَمِنْ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ، وَسَائِرِ الْآفَاتِ وَالْمَصَائِبِ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وَهَذَا فِي مُقَابَلَةِ مَا أَوْلَيْتَ فِيهِ مِنْ شَجَرَةِ الرُّقُومِ وَشَرْبِ الْحَمِيمِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ﴾ وَهُوَ: رَفِيعُ الْحَرِيرِ كَالْقَمِصَانِ وَنَحْوَهَا، ﴿وَإِسْتَرْقَى﴾ وَهُوَ مَا فِيهِ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ وَذَلِكَ كَالرِّيشِ، وَمَا يُلْبَسُ عَلَى أَعَالِي الْقَمَاشِ ﴿مُتَقَبِّلِينَ﴾ أَيُّ: عَلَى الشَّرْرِ. لَا يَجْلِسُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَظَهْرُهُ إِلَى غَيْرِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أَيُّ: هَذَا الْعَطَاءُ مَعَ مَا قَدْ مَنَحْنَاهُمْ مِنَ الزَّوْجَاتِ الْحَسَنَاتِ الْحُورِ الْعِينِ اللَّائِي ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِشْرَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٥٨-٦٠].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِينَ﴾ أَيُّ: مَهْمَا طَلَبُوا مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ أَحْضَرُ لَهُمْ، وَهُمْ آمِنُونَ مِنْ انْقِطَاعِهِ وَامْتِنَاعِهِ، بَلْ يَحْضُرُ إِلَيْهِمْ كُلُّمَا أَرَادُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ يُؤَكِّدُ النَّفْيَ فَإِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ أَبَدًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُورَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يَذْبَحُ، ثُمَّ يَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنَعَّمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ

(١) فتح الباري: ٢٨٢/٨ ومسلم: ٢١٨٨/٤ (٢) مسلم: ٤/

٢١٨٢ (٣) الطبراني (الأوسط): ٤٨٩٥ (٤) فتح الباري: ١١/

٣٠٠ ومسلم: ٢١٧٠/٤

## تفسير سورة الجاثية وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥﴾

[الْإِرْشَادُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ]

يُرِيدُ تَعَالَى خَلْقَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَنِعَمِهِ، وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَ بِهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَجْنَاسِ، وَالْأَنْوَاعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْجِنِّ، وَالْإِنْسِ، وَالْدَّوَابِّ، وَالطُّيُورِ، وَالْوُحُوشِ، وَالسِّنَاعِ، وَالْحَشَرَاتِ، وَمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمَتَوَعَّةِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي تَعَاقُبِهِمَا دَائِبِينَ لَا يَفْتَرَانِ، هَذَا بِظِلَالِهِ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ. وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ السَّحَابِ مِنَ الْمَطَرِ فِي وَفْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَسَمَاءَ رِزْقًا؛ لِأَنَّ بِهِ يَحْصُلُ الرِّزْقُ ﴿فَلَيْسَ بِهِ إِلَّا بَعْدَ مَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ أَيُّ: جَنُوبًا وَشِمَالًا وَدُبُورًا وَصَبَا، بَرِّيَّةً وَبَحْرِيَّةً، لَيْلِيَّةً وَنَهَارِيَّةً. وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْمَطَرِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِلْقَاحِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ غِذَاءٌ لِلْأَرْوَاحِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَقِيمٌ لَا يَنْتِجُ.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوَّلًا: ﴿لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثُمَّ ﴿يُوقِنُونَ﴾ ثُمَّ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ وَهُوَ تَرَقُّقٌ مِنْ حَالٍ شَرِيفٍ إِلَى مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَأَعْلَى، وَهَذِهِ الْآيَاتُ شَبِيهَةٌ بِآيَةِ الْبَقَرَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ٦ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧ سَمِعَ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلِّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُعِيرُ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَرُورًا أَوْ لَيْسَ بِهَرُورًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ٩ وَمِنْ رَأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ١ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧ سَمِعَ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلِّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُعِيرُ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَرُورًا أَوْ لَيْسَ بِهَرُورًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ٩ وَمِنْ رَأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ عَظِيمٌ ١٠ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ هُمُ عَذَابُ مَنْ رَجَزَ أَلِيمٌ ١١ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ١٣

عَظِيمٌ ١٠ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ هُمُ عَذَابُ مَنْ رَجَزَ أَلِيمٌ ١١

[صِفَاتُ الْأَفَّاكِ الْأَثِيمِ وَجَزَاؤُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ يَعْني الْقُرْآنَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ﴾ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴿أَيُّ: مُتَضَمِّنَةً الْحَقِّ مِنَ الْحَقِّ، فَإِذَا كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَلَا يَنْقَادُونَ لَهَا، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أَيُّ: أَفَّاكٌ فِي قَوْلِهِ كَذَابٌ حَلَّافٌ مَهِينٌ، أَثِيمٌ فِي فِعْلِهِ وَقَلْبُهُ كَافِرٌ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَمِعَ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلِّى عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: تُفَرِّغُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُعِيرُ أَيُّ: عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ﴿كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا أَيُّ: كَانَتْ مَا سَمِعَهَا﴾ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أَيُّ: فَأَخْبِرْهُ أَنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابًا أَلِيمًا مُوجِعًا ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَرُورًا أَوْ لَيْسَ بِهَرُورًا﴾ أَيُّ: إِذَا حَفِظَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَفَرَ بِهِ وَاتَّخَذَهُ سُخْرِيًا وَهَرُورًا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ أَيُّ: فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَهَانَ بِالْقُرْآنِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، وَلِهَذَا رَوَى

مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ فَسَّرَ الْعَذَابَ الْحَاصِلَ لَهُ يَوْمَ مَعَادِهِ فَقَالَ: «مِنْ رَأْيِهِمْ جَهَنَّمُ» أَيُّ: كُلُّ مَنْ انْتَصَفَ بِذَلِكَ سَيَصِيرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا» أَيُّ: لَا تَنْفَعُهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ «وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ» أَيُّ: وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْأَلِهَةُ الَّتِي عِبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «هَذَا هُدًى» يَعْنِي: الْقُرْآنَ «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابَت رَيْبُهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ بَعْزِ أَيْلَمٍ» وَهُوَ الْمُؤْلَمُ الْمُوجِعُ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِتَكْلُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

[فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ وَغَيْرِهِ آيَات]

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعْمَهُ عَلَى عِبِيدِهِ فِيمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْبَحْرِ ﴿لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ﴾ وَهِيَ السُّفُنُ ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ تَعَالَى. فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَ الْبَحْرَ بِحَمْلِهَا ﴿وَلِتَسَبِّحُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيُّ: فِي الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَايِبِ ﴿وَلِتَكْلُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ: عَلَى حُصُولِ الْمَنَافِعِ الْمَجْلُوبَةِ إِلَيْكُمْ مِنَ [الْأَقَالِيمِ] النَّاسِيَةِ وَالْآفَاقِ الْقَاصِيَةِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْكَوَاكِبِ، وَالْجِبَالِ، وَالْبِحَارِ، وَالْأَنْهَارِ، وَجَمِيعِ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ، أَيُّ: الْجَمِيعِ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: «جَمِيعًا مِنْهُ» أَيُّ: مِنْ عِنْدِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَمَا يَكُم مِّنْ يَّمَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ» [النحل: ٥٣] وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ، تَعَالَى: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ» كُلُّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ اللَّهِ. وَذَلِكَ الْأِسْمُ، فِيهِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ. فَذَلِكَ جَمِيعًا مِنْهُ. وَلَا يَنَازَعُهُ فِيهِ الْمُنَازِعُونَ، وَاسْتَيْقِنُوا: أَنَّهُ كَذَلِكَ<sup>(٢)</sup>. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْمُشْرِكِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ» أَيُّ: لِيُصْفَحُوا عَنْهُمْ وَيَتَحَمَّلُوا الْأَدَى مِنْهُمْ. وَكَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، أَمُرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى أَدَى الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالتَّأْلِيفِ لَهُمْ، ثُمَّ لَمَّا أَصْرُوا عَلَى الْعِنَادِ شَرَعَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْجِلَادَ وَالْجِهَادَ. هَكَذَا رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَدَّادَةَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ»: لَا يَنَالُونَ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أَيُّ: إِذَا صَفَحُوا عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ» أَيُّ: تَعُودُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتُعْرَضُونَ

(١) مسلم: ١٤٩١/٣ (٢) الطبري: ٦٥/٢٢ أنظروا حكم العوفي فيما تقدم (٣) الطبري: ٦٧، ٦٦/٢٢ (٤) الطبري:

سُورَةُ الْاِنشِارِ

٥٠١

سُورَةُ الْاِنشِارِ

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ  
وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا  
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَمْلِكُنَا  
إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا نُفِثَ  
عَلَيْهِمْ مِنْ يَدِنَا بَيِّنَاتٍ مَكَانَ حُجَّتِهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنِي آدَمَ  
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم مِمَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ يَوْمَ يَحْصُرُكُم بِمِصْرَافٍ يَوْمَ  
الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٣٠﴾  
وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ  
تَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ  
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٣﴾ وَأَمَّا  
الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا  
مُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ  
مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾

وَلَقَدْ عَلَّمَهُ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَئِنْ لَمْ تَنْفَسْ بِمَا  
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ  
وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى  
بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا  
تَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾

[لَا تَسْتَوِي حَيَاةُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَمَمَاتُهُمَا]

يَقُولُ تَعَالَى: لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ؛ كَمَا قَالَ  
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ  
الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى  
هَهُنَا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنِّي عَمِلُوهَا  
وَكَسَبُوهَا﴾ [أَن يُجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً  
تَحِيَّتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ] أَي: نُسَوِّيهِمْ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَي: سَاءَ مَا ظَنُّوا بِنَا وَبِعَدْلِنَا أَن نُسَوِّيَ  
بَيْنَ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَفِي هَذِهِ الدَّارِ.  
وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ مَسْرُوقٍ أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ قَامَ لَيْلَةً  
حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا

بِأَعْمَالِكُمْ عَلَيْهِ فَيَجْزِيكُمْ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ  
وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَزَكَّيْنَاهُمْ مِنْ  
الطِّيبِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [١١] وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا  
اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ  
يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ  
جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا  
يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ  
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ  
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٥﴾

[فَضَّلَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ وَاخْتَلَفَ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ]

يَذَكِّرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ: مِنْ إِزْوَاجِ  
الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ، وَإِزْوَاجِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَجَعْلِهِ الْمُلْكَ فِيهِمْ،  
وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ  
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَزَكَّيْنَاهُمْ مِنْ الطِّيبِ﴾ أَي: مِنَ الْمَاكِيلِ  
وَالْمَسَارِبِ ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أَي: فِي زَمَانِهِمْ  
﴿وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أَي: حُجَجًا وَبَرَاهِينٍ وَأَدِلَّةً  
فَاطِعَاتٍ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ  
بَعْدِ قِيَامِ الْحُجَّةِ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَعِيًا مِنْهُمْ عَلَى بَعْضِهِمْ  
بَعْضًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا  
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَي: سَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ.

[تَحْذِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ سُلُوكِ مَنَهِجِ بَنِي إِسْرَءِيلَ]

وَهَذَا فِيهِ تَحْذِيرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَسْلُكَ مَسْلَكَهُمْ، وَأَنْ  
تَقْصِدَ مَنَهِجَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى  
شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أَي: أَلْبِغْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ  
رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]  
وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ هَهُنَا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٨]  
إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ  
بَعْضٍ أَي: وَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا،  
فَإِنَّهُمْ لَا يَزِيدُونَهُمْ إِلَّا خَسَارًا وَدَمَارًا وَهَلَاكًا ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ  
الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَهُوَ تَعَالَى يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ،  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى  
الظُّلُمَاتِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي:  
الْقُرْآنَ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن يُجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً تَحِيَّتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٩]

الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ<sup>(٣)</sup>. قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَيْمَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ: كَانَتِ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا إِذَا أَصَابَهُمْ شِدَّةٌ، أَوْ بَلَاءٌ، أَوْ نَكْبَةٌ قَالُوا: يَا خَبِيَّةَ الدَّهْرِ. فَيُسْنِدُونَ تِلْكَ الْأَفْعَالَ إِلَى الدَّهْرِ وَيَسْبُونَهُ، وَإِنَّمَا فَاعِلُهَا هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، فَكَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَبُّوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ، فَلِهَذَا نَهَى عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ بِهَذَا الْأَعْتَابِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ الَّذِي يَعْنُونَهُ وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ تِلْكَ الْأَفْعَالَ؛ هَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِهِ، وَهُوَ الْمُرَادُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ غَلَطَ ابْنُ حَزْمٍ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُ مِنَ الظَّاهِرِيَّةِ فِي عَدِهِمُ الدَّهْرَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى؛ أَخَذًا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ أي: إِذَا اسْتَدَلَّ عَلَيْهِمْ، وَبَيِّنَ لَهُمُ الْحَقَّ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ بَعْدَ فَنَائِهَا وَتَفَرُّقِهَا ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أَحِبُّوهُمْ إِنْ كَانَ مَا تَقُولُونَهُ حَقًّا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ كَمَا تَشَاهِدُونَ ذَلِكَ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ﴾ كَيْفَ تَكْثُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمُونًا فَاعْبُدْكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: الَّذِي قَدَّرَ عَلَى الْإِعَادَةِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: إِنَّمَا يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعِيدُكُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَقُولُوا: ﴿اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِیَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [الفصل: ١٢، ١٣] ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لَا شَكَّ فِيهِ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فَلِهَذَا يُنْكِرُونَ الْمَعَادَ، وَيُسْتَبْعِدُونَ قِيَامَ الْأَجْسَادِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ [زمر: ٢١] ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧] أي: يَرَوْنَ وَقُوعَهُ بَعِيدًا، وَالْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ ذَلِكَ سَهْلًا قَرِيبًا.

السَّيِّئَاتِ أَنْ يَجْمَعَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَلَكَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِلْحَقِّ﴾ أي: بِالْعَدْلِ وَلِجَزَائِ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَلَفَ إِلَهُهُ هَوْنَةً﴾ أي: إِنَّمَا يَأْتَوِرُ بِهِوَاهُ، فَمَهْمَا رَأَاهُ حَسَنًا فَعَلَهُ وَمَهْمَا رَأَاهُ قَبِيحًا تَرَكَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: أَصْلَهُ اللَّهُ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ، أَوْ أَصْلَهُ اللَّهُ بَعْدَ بُلُوغِ الْعِلْمِ إِلَيْهِ وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ. وَالثَّانِي يَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ، وَلَا يَتَعَكَّسُ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً أَي: فَلَا يَسْمَعُ مَا يَنْفَعُهُ، وَلَا يَبْصُرُ شَيْئًا يَهْدِي بِهِ، وَلَا يَرَى حُجَّةً يَسْتَضِيءُ بِهَا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَمْ يَدْرِكْهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [١٩] وَإِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢٠] قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢١]

#### [مُعْتَقِدُ الْكَافِرِ وَحُجَّتُهُ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الدَّهْرِيَّةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَمَنْ وَاظَفَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي انْتِكَارِ الْمَعَادِ ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: مَا نَمُ إِلَّا هَذِهِ الدَّارُ، يَمُوتُ قَوْمٌ وَيَعِيشُ آخَرُونَ، وَمَا نَمُ مَعَادٌ وَلَا قِيَامَةٌ، وَهَذَا يَقُولُهُ مُشْرِكُو الْعَرَبِ الْمُتَكَبِّرُونَ لِلْمَعَادِ. وَتَقُولُهُ الْفَلَسَافَةُ الْإِلَهِيُونَ مِنْهُمْ، وَهُمْ يُنْكِرُونَ الْبَدَاءَ وَالرَّجْعَةَ، وَتَقُولُهُ الْفَلَسَافَةُ الدَّهْرِيَّةُ [الدَّوْرِيَّةُ] الْمُتَكَبِّرُونَ لِلصَّانِعِ، الْمُعْتَقِدُونَ أَنَّ فِي كُلِّ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ سَنَةٍ يَعُودُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ. وَرَعَمُوا أَنَّ هَذَا قَدْ تَكَرَّرَ مَرَّاتٍ لَا تَنْتَاهِي. فَكَابَرُوا [الْمُعْقُولِ]، وَكَذَّبُوا الْمُنْقُولَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يَتَوَهَّمُونَ وَيَتَخَيَّلُونَ، فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي أَخْرَجَهُ صَاحِبُ الصَّحِيحِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، يَبْدِي الْأَمْرَ، أَقْلُبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسْبُوا

(١) الطبراني: ٥٠/٢ (٢) فتح الباري: ٤٣٧/٨ ومسلم: ٤/ ١٧٦٢ وأبو داود: ٤٢٣/٥ والنسائي في الكبرى: ٤٥٧/٦ (٣) مسلم: ١٧٦٣/٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٢

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

وَبَدَّلَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٧﴾  
 وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا  
 لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا عَآيَاتِ اللَّهِ هُرُوءًا وَعَزَّاتُكُمْ  
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا قَالِ الْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴿٢٩﴾  
 فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَهُ  
 الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾

## سُورَةُ الْحَقِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَزِيلُ الْكَذِبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَخْلَقًا  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا يَالْحَقُّ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ  
 كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ  
 دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُوهُمَا مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ  
 أَتُنَادِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ  
 صَادِقِينَ ﴿٢﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ  
 لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٣﴾

نَسْنِسُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤﴾

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رُبُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ  
 ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَالُ  
 عَلَيْكَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ  
 وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَقُلُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ  
 بِمُسْتَغْنِينَ ﴿٢﴾ وَبَدَّلَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ  
 يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ  
 النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا عَآيَاتِ اللَّهِ هُرُوءًا  
 وَعَزَّاتُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا قَالِ الْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْمَعُونَ ﴿٥﴾  
 فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ  
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ  
 تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيْ: آمَنَتْ  
 قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمُ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةَ، وَهِيَ  
 الْخَالِصَةُ الْمُوَافَقَةُ لِلشَّرْعِ ﴿فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ﴾ وَهِيَ  
 الْجَنَّةُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلْجَنَّةِ:

﴿وَاللَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ  
 الْمُبْطِلُونَ﴾ وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ  
 مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطَاقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْنِسُ  
 مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

إِبْعَاضُ أَحْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحَاكِمُ  
 فِيهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ  
 السَّاعَةُ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وَهُمْ الْكَافِرُونَ  
 بِاللَّهِ الْجَا حِدُونَ بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رُسُلِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ  
 وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَوَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ أَيْ: عَلَى رُكَبِهَا  
 مِنَ الشَّدَةِ وَالْعَظَمَةِ، وَيُقَالُ: إِنْ هَذَا إِذَا جِيَءَ بِجَهَنَّمَ فَإِنَّهَا  
 تَزْفِرُ زَفْرَةً، لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا جَنَّا لِرُكْبَتَيْهِ، حَتَّى إِذَا هَبِ  
 الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي!  
 لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي. وَحَتَّى إِنْ عَيْسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
 وَالسَّلَامُ يَقُولُ: لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي، لَا أَسْأَلُكَ  
 مَرَبِّمَ النَّبِيِّ وَلَدَنِّي!

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ يَغْنِي: كِتَابُ  
 أَعْمَالِهَا، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالْأَقْبَانِ  
 وَالشُّهَدَاءُ﴾ [الزمر: ٧٠] وَلِهَذَا قَالَ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ  
 تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: تُجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرَهَا  
 وَشَرَّهَا، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَبْنُو الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾  
 بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ [القيامة: ١٣-  
 ١٥] وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطَاقُ عَلَيْكُمْ  
 بِالْحَقِّ﴾ أَيْ: يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا  
 نَقْصٍ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ  
 مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِنُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ  
 صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ  
 رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُنَّا  
 نَسْنِسُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ الْحَفِظَةَ أَنْ  
 تَكْتُبَ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْكُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا  
 وَغَيْرُهُ: تَكْتُبُ الْمَلَائِكَةُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ، ثُمَّ تَصْعَدُ بِهَا إِلَى  
 السَّمَاءِ، فَيَقْبَلُونُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ فِي دِيَارِ الْأَعْمَالِ عَلَى  
 مَا بَأْيَدِي الْكُتَّابَةِ، مِمَّا قَدْ أُبْرِزَ لَهُمْ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْضُوفِ فِي  
 كُلِّ لَيْلَةٍ قَدَرٍ، مِمَّا كَتَبَهُ اللَّهُ فِي الْقَدَمِ عَلَى الْعِبَادِ قَبْلَ أَنْ  
 يَخْلُقَهُمْ، فَلَا يَزِيدُ حَرْفًا وَلَا يَنْقُصُ حَرْفًا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا كُنَّا

أَنْتَ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ<sup>(١)</sup>. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ  
الَّذِينَ﴾ أَي: الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ  
كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنزلُ عَلَيْكَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أَي: يُقَالُ لَهُمْ  
ذَلِكَ، تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا: أَمَا قُرِئْتُ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ تَعَالَى  
فَاسْتَكْبَرْتُمْ عَنْ اتِّبَاعِهَا، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ سَمَاعِهَا ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا  
مُجْرِمِينَ﴾ فِي أَفْعَالِكُمْ مَعَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ مِنْ  
التَّكْذِيبِ؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَدَّ اللَّهُ حَقِّي وَالسَّاعَةَ لَا رَبَّ فِيهَا﴾  
أَي: إِذَا قَالَ لَكُمْ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ ﴿فَلْتُمْ مَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾  
أَي: لَا تَعْرِفُهَا ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أَي: إِنْ تَوَهَّمُوا وَقُوعَهَا  
إِلَّا تَوَهَّمًا أَي: مَرْجُوحًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِينَ﴾  
أَي: بِمُتَحَقِّقِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾  
أَي: وَظَهَرَ لَهُمْ عُقُوبَةُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أَي:  
أَحَاطَ بِهِمْ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَي: مِنَ الْعَذَابِ  
وَالنَّكَالِ ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ﴾ أَي: نُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ النَّاسِي  
لَكُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿كَأَنِّي سِيفٌ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَي: فَلَمْ تَعْمَلُوا  
لَهُ لِأَنْتُمْ لَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ ﴿وَمَا وَصَّيْنَا النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ  
نَصِيرَةٍ﴾. وَقَدْ بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ  
لِبَعْضِ الْعَبِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَمْ أُزَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمَكَ؟ أَلَمْ  
أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْزِيعٍ؟ فَيَقُولُ:  
بَلَى يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا.  
فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَسْأَلُكَ كَمَا نَسِيتَنِي<sup>(٢)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اخْتَدَتْهُمُ آيَاتُ اللَّهِ هُزُولًا﴾ أَي:  
إِنَّمَا جَارَيْنَاكُمْ هَذَا الْجَزَاءَ؛ لِأَنَّكُمْ اخْتَدَمْتُمْ حُجَجَ اللَّهِ  
عَلَيْكُمْ سُخْرِيًّا، تَسَخَّرُونَ وَتَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ﴿وَقَرْنَكُمْ الْحَيَاةَ  
الْأَدْنَى﴾ أَي: خَدَعْتُمْ، فَاطْمَأْنَنْتُمْ إِلَيْهَا فَاصْبَحْتُمْ مِنَ  
الْخَاسِرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا﴾  
أَي: مِنَ النَّارِ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَنْصَرُونَ﴾ أَي: لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ  
الْعُتْبَى، بَلْ يُعَذَّبُونَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عِتَابٍ، كَمَا تَدْخُلُ  
طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَذَابٍ وَلَا حِسَابٍ. ثُمَّ لَمَّا  
ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَهُ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، قَالَ: ﴿فَلِلَّهِ  
الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ أَي: الْمَالِكِ لِهَمَا وَمَا  
فِيهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا:  
﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي  
السُّلْطَانَ أَي: هُوَ الْعَظِيمُ الْمُمَجَّدُ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ  
لَدَيْهِ فَفَيَّرَ إِلَيْهِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «يَقُولُ اللَّهُ  
تَعَالَى: أَلْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكَبِيرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَارَعَنِي

## سُورَةُ الْأَحْقَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَا  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي  
مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْفِئُونَ كِبْرَهُ مِنْ قَبْلِ  
هَذَا أَوْ أَنْزَلَهُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣﴾ وَمَنْ أَضَلُّ  
مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ  
عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا

بِعَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٥﴾

[الْقُرْآنُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ وَالْكَوْنُ مَخْلُوقٌ لَهُ بِالْحَقِّ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ  
مُحَمَّدٍ ﷺ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ،  
وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةِ فِي الْأَقْوَالِ  
وَالْأَفْعَالِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا  
بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَي: لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ ﴿وَأَجَلٍ  
مُسَمًّى﴾ أَي: وَإِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مُضْرُوبَةٍ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ،  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ أَي:  
لَاهُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ كِتَابًا  
وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، وَهُمْ مُّعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَي:  
وَسَيَعْلَمُونَ غِيبَ ذَلِكَ.

[الْإِرْدُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أَي: لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ  
مَعَ اللَّهِ غَيْرُهُ ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ  
الْأَرْضِ﴾ أَي: أَرِشِدُونِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي اسْتَقَلُّوا بِخَلْقِهِ

(١) فتح الباري: ٤٦٠/٨ (٢) مسلم: ٢٢٧٩/٤ (٣) أبو داود: ٣٥٠/٤ (٤) مسلم: ٢٠٢٣/٤

سورة الأحقاف

٥٠٣

سورة الأحقاف

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ إِذْ يَبْنِي إِلَهُاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَ جَاءَ هَؤُلَاءِ بِسِحْرٍ مُّبِينٍ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ مَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْ فُكِّ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمَنْ قَبْلَهُ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شُرَكَاءُ لَهُمْ قَالُوا لَوْ رَأَيْنَا اللَّهَ ثُمَّ اسْتَغْنَيْنَا فَمَا خَوْفٌ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا نَكُنُ مِنَ الْمُتَعَبِينَ ﴿١٢﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أَيُّ: لَوْ كَذَبْتُ عَلَيْهِ وَزَعَمْتُ أَنَّهُ أَرْسَلَنِي وَلَيْسَ كَذَلِكَ لِعَاقِبَتِي أَشَدَّ الْعُقُوبَةِ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنَ أَهْلِ الْأَرْضِ: لَا أَنْتُمْ وَلَا غَيْرُكُمْ، أَنْ يُجِيرَنِي مِنْهُ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَذًا﴾ ﴿١١﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً. ﴿الجن: ٢٢، ٢٣﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿١٢﴾ لَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٣﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ ﴿المعارج: ٤٤-٤٧﴾ وَلِهَذَا قَالَ سُحْبَانَهُ وَتَعَالَى هُنَا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعْدٌ أَكِيدٌ، وَتَرْهيبٌ شَدِيدٌ.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تَرْغِيبٌ لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، أَيُّ: وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ إِنْ رَجَعْتُمْ وَتُبْتُمْ

مِنَ الْأَرْضِ ﴿أَمْ لَمْ يَشْرِكْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أَيُّ: وَلَا شَرِكَ لَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَاطِعٍ، إِنْ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ كُلُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ وَتُشْرِكُونَ بِهِ؟ مَنْ أَرَادَكُمْ إِلَى هَذَا؟ مَنْ دَعَاكُمْ إِلَيْهِ؟ أَهْوَىٰ أَمْرُكُمْ بِهِ؟ أَمْ هُوَ شَيْءٌ افْتَرَحْتُمُوهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتُنْفِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أَيُّ: هَاتُوا كِتَابًا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ ﴿أَوْ أَتَنْفَرُ مِنْتَ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى هَذَا الْمَسْئَلِ الَّذِي سَلَكْتُمُوهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ: لَا دَلِيلَ لَكُمْ لَا ثَقِيلًا وَلَا عَقِيلًا عَلَى ذَلِكَ. وَلِهَذَا قَرَأَ آخَرُونَ: (أَوْ أَتَرَىٰ مِنْ عِلْمٍ) أَيُّ: أَوْ عِلْمٌ صَحِيحٌ تُؤَيِّدُونَهُ عَنْ أَحَدٍ مِمَّنْ قَتَلْتُمْ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ أَتَنْفَرُ مِنْتَ عَلَيْهِ﴾. أَوْ أَحَدٌ يَأْثُرُ عِلْمًا<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أَيُّ: لَا أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَامًا، وَيَطْلُبُ مِنْهَا مَا لَا تَسْتَطِيعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ غَافِلَةٌ عَمَّا يَقُولُ، لَا تَسْمَعُ، وَلَا تَبْصُرُ، وَلَا تَبْطِشُ، لِأَنَّهَا جَمَادٌ حَجَارَةٌ صُمٌّ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقْدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيُكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨﴾ كُلًّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿مریم: ٨١، ٨٢﴾ أَيُّ: سَيُحَوِّثُونَهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِمْ. وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُ مِنَ دُونِ اللَّهِ أَثَرًا مُؤَدَّةً بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿العنكبوت: ٢٥﴾.

﴿وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ إِذْ يَبْنِي إِلَهُاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَ جَاءَ هَؤُلَاءِ بِسِحْرٍ مُّبِينٍ﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ [أَقْوَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ: أَنَّهُمْ إِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ بَيِّنَاتٌ أَيُّ فِي حَالِ بَيِّنَاتِهَا وَوُضُوحِهَا وَجَلَانِهَا يَقُولُونَ: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ: سِحْرٌ وَاضِحٌ، وَقَدْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا، وَضَلُّوا وَكَفَرُوا



انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْحَارِثِيُّ ذُوْنَ مُسْلِمٍ<sup>(٥)</sup>. وَفِي لَفْظٍ لَهُ: «مَا أَذْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يُفْعَلُ بِهِ»<sup>(٦)</sup>. وَفِي هَذَا وَآمَالِهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقْطَعُ لِمُعَيَّنٍ بِالْجَنَّةِ إِلَّا الَّذِي نَصَّ الشَّارِعُ عَلَى تَعْيِينِهِمْ، كَالْعَشْرَةِ وَابْنِ سَلَامٍ وَالْعُمَيْصَاءِ وَبِلَالٍ، وَسُرَاقَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ وَابْنِ جَابِرٍ، وَالْقُرَاءِ السَّبْعِينَ الَّذِينَ قُتِلُوا بِبُيُوتِ مَعُونَةَ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَجَعْفَرَ، وَابْنَ رَوَاحَةَ، وَمَا أَشْبَهَ هَؤُلَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَوْلُهُ: «إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُؤْتَى إِلَيَّ» أَيُّ: إِنَّمَا أَتَيْعَ مَا يُنْزِلُهُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ، «وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» أَيُّ: بَيْنَ النَّذَارَةِ، أَمْرِي ظَاهِرٌ لِكُلِّ ذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ. فَتَأْمَنُ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»<sup>(٧)</sup> وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ. فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافِدٌ<sup>(٨)</sup> وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَّلْنَا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ<sup>(٩)</sup> إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ<sup>(١٠)</sup> أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(١١)</sup>

[الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ الْحَقِّ وَمَوْفَقُ الْكُفَّارِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهُ] يَقُولُ تَعَالَى: «قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ» هَذَا الْقُرْآنُ «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ» أَيُّ: مَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ صَانِعُكُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ، قَدْ أَنْزَلَهُ عَلَيَّ لِأُبَلِّغُكُمْوهُ، وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ وَكُذِّبْتُمْوهُ. «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» أَيُّ: وَقَدْ شَهِدْتُ بِصِدْقِهِ وَصَحِّهِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبْلِي، بَشَّرْتُ بِهِ وَأَخْبَرْتُ بِمِثْلِ مَا أَخْبَرَ هَذَا الْقُرْآنُ بِهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «تَأْمَنُ» أَيُّ: هَذَا الَّذِي شَهِدَ بِصِدْقِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ لِمَعْرِفَتِهِ بِحَقِيقَتِهِ «وَاسْتَكْبَرْتُمْ» أَنْتُمْ عَنْ اتِّبَاعِهِ، وَقَالَ مَسْرُوقٌ: فَتَأْمَنُ هَذَا الشَّاهِدُ بِنَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ، وَكَفَرْتُمْ أَنْتُمْ بِنَبِيِّكُمْ وَكِتَابِكُمْ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»<sup>(١٢)</sup>. وَهَذَا الشَّاهِدُ اسْمُ جَنْسٍ يَعْمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعِوَرُهُ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ إِسْلَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

تَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ وَغَفَرَ وَرَحِمَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ: «وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَتْهَا فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا»<sup>(١٣)</sup> قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا غَفُورًا رَحِيمًا [الفرقان: ٥٠]. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ» أَيُّ: لَسْتُ بِأَوَّلِ رَسُولٍ طَرَقَ الْعَالَمَ، بَلْ جَاءَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِي، فَمَا أَنَا إِلَّا أَمْرٌ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، حَتَّى تَسْتَكْبِرُونِي [وَتَسْتَبْعِدُونِي] بِعِثَّتِي إِلَيْكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَبْلِي جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْأُمَمِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: نَزَلَ بَعْدَهَا «لِيُغَيِّرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» [الفتح: ٢٠]. وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: إِنَّهَا مَسْخُوحَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «لِيُغَيِّرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» قَالُوا: وَلَكَمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ: هَذَا قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ فَاعِلٌ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا هُوَ فَاعِلٌ بِنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» [الفتح: ٥]. هَكَذَا قَالَ، وَالَّذِي هُوَ ثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: هِنِيئًا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(١٤)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ، وَهِيَ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِهِمْ أَخْبَرَتْهُ، وَكَانَتْ بَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: طَارَ لَهُمْ فِي السُّكْنَى - حِينَ اقْتَرَعَتِ الْأَنْصَارُ عَلَى سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ - عُمَآنُ بْنُ مَطْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَاشْتَكَى عُمَآنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَنَا فَمَرَضْنَا، حَتَّى إِذَا تُوفِّيَ أَدْرَجْنَاهُ فِي أَنْوَابِهِ، فَدَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، شَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْرَمُهُ؟» فَقُلْتُ: لَا أَذْرِي بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ. وَاللَّهُ مَا أَذْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يُفْعَلُ بِي». قَالَتْ: وَاللَّهُ لَا أَرْكِي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا، وَأَخْبَرْتَنِي ذَلِكَ، فَمِثْتُ قَرَأْتُ لِعُمَآنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَيْنًا تَجْرِي، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ عَمَلُهُ»<sup>(١٥)</sup>.

(١) الطبري: ٩٩/٢٢ (٢) الطبري: ٩٩/٢٢، ١٠٠، ٩٩ (٣) فتح الباري: ٥١٦/٧ (٤) أحمد: ٤٣٦/٦ (٥) فتح الباري: ٧/٣١٠ (٦) فتح الباري: ١٣٧/٣ (٧) الطبري: ١٠٣/٢٢، ١٠٤

الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴿٣٠﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾  
أَيُّ فِيمَا يَسْتَقِيلُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٢﴾ عَلَى مَا خَلَفُوا ﴿٣٣﴾ أُولَئِكَ  
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ فِيهَا جَزَاءٌ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٤﴾ أَيُّ: الْأَعْمَالُ  
سَبَبٌ لِتَبِيلِ الرَّحْمَةِ لَهُمْ وَشُبُوعُهَا عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا  
وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ  
رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ  
أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ  
سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾  
[وصية الله بالوالدين]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى التَّوْحِيدَ لَهُ وَإِخْلَاصَ  
الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِقَامَةَ إِلَيْهِ، عَطَفَ بِالْوَصِيَّةِ بِالْوَالِدَيْنِ كَمَا هُوَ  
مَقْرُونٌ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَصِّ  
رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]،  
وَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى النَّبِيِّ  
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هَهُنَا:  
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أَيُّ: أَمْرُهُ بِالْإِحْسَانِ  
إِلَيْهِمَا وَالْحُنُوِّ عَلَيْهِمَا، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ  
سَعْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ لِسَعْدٍ: أَلَيْسَ قَدْ  
أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ، فَلَا أَكُلُ طَعَامًا، وَلَا أَشْرَبُ  
شَرَابًا حَتَّىٰ تَكْفُرَ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَاثْمَنَعْتُ مِنَ الطَّعَامِ  
وَالشَّرَابِ حَتَّىٰ جَعَلُوا يَفْتَحُونَ فَاها بِالْعَصَا، وَنَزَلَتْ هَذِهِ  
الْآيَةُ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ الْآيَةُ (٥). وَرَوَاهُ  
مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا ابْنَ مَاجَةَ (٦). ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾  
أَيُّ: قَاسَتْ بِسَبَبِهِ فِي حَالِ حَمْلِهِ مَشَقَّةَ وَتَعَبًا مِنْ [وَحَامِ]  
وَعَثْيَانٍ وَيَقِلُّ وَكُرْبٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَنَالُ الْحَوَامِلُ مِنَ  
التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا أَيُّ: بِمَشَقَّةٍ أَيْضًا مِنَ  
الطَّلْقِ وَشِدَّتِهِ ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

سَلَامَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا يُنَادَىٰ  
عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾  
[القصص: ٥٣]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنَادَىٰ  
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٣٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا  
لَمَفْعُولًا [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] وَعَنْ سَعْدٍ قَالَ: مَا سَمِعْتُ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ: إِنَّهُ  
مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:  
وَفِيهِ نَزَلَتْ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِنْهٖ﴾ (١).  
رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (٢). وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَعَكْرِمَةُ،  
وَيُوسُفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَهِيَالُ بْنُ يَسَافٍ،  
وَالسُّدِّيُّ، وَالثَّوْرِيُّ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَابْنُ زَيْدٍ أَنَّهُمْ  
كُلُّهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ  
خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أَيُّ: قَالُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُرْآنِ: لَوْ  
كَانَ الْقُرْآنُ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا هَؤُلَاءِ إِلَيْهِ، يَحْتَوُونَ بِلَا وَعَمَارًا  
وَصُحْبًا وَخَبَابًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَأَشْبَاهَهُمْ وَأَصْرَابَهُمْ مِنَ  
الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ عِنْدَ  
أَنْفُسِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَجَاهَةً، وَلَهُ بِهِمْ عِنَاةٌ.  
وَقَدْ غَلَطُوا فِي ذَلِكَ غَلَطًا فَاحِشًا، وَأَخْطَأُوا خَطَأً بَيِّنًا،  
كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا  
أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أَيُّ يَتَعَجَّبُونَ  
كَيْفَ اهْتَدَىٰ هَؤُلَاءِ دُونَنَا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا  
سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وَأَمَّا أَهْلُ الشُّبُهَةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَيَقُولُونَ فِي كُلِّ  
فِعْلٍ وَقَوْلٍ لَمْ يَبْثُ عَنْ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: هُوَ  
بِدْعَةٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا  
خَصْلَةً مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ إِلَّا وَقَدْ بَادَرُوا إِلَيْهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أَيُّ: بِالْقُرْآنِ  
﴿يَسْتَقِيلُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أَيُّ: كَذِبٌ قَدِيمٌ أَيُّ مَا ثَوَّرَ عَنِ  
النَّاسِ الْأَقْدَمِينَ، فَيَنْتَقِصُونَ الْقُرْآنَ وَأَهْلَهُ، وَهَذَا هُوَ الْكِبَرُ  
الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمُطُ النَّاسِ» (٤).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ وَهُوَ التَّوْرَةُ  
﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أَيُّ:  
لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أَيُّ: فَصِيحًا بَيِّنًا وَاضِحًا  
﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنْشِئَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أَيُّ: مُشْتَمِلٌ عَلَى  
النَّذَارَةِ لِلْكَافِرِينَ وَالْإِسَارَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ

(١) الطبري: ١٠٤/٢٢ (٢) فتح الباري: ١٦٠/٧ ومسلم: ٤/١٩٣٠ والنسائي في الكبرى: ٧٠/٥ (٣) الطبري: ١٠٤/٢٢ و١٠٥/١٠٥ والقرطبي: ١٨٨/١٦ (٤) مسلم: ٩٣/١ (٥) مسند الطيالسي: ٢٨ (٦) مسلم: ١٨٧٨/٤ وأبو داود: ١٧٧/٣ وتحفة الأحوذى: ٤٨/٩ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦

الْبَقَرَةُ

٥٠٤

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ  
 كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ  
 أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ  
 عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحَ لِي فِي  
 ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ  
 نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ  
 الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ  
 لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ أَنْتُمْ عَادِنِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ  
 قَبْلِي وَهُمْ لَا يَسْتَفِيدُونَ اللَّهَ وَبَلَغَ الْإِيمَانُ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ  
 مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ  
 الْقَوْلُ فِي أُمُورِهِمْ فَكَذَّبَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنَىٰ وَالْإِسْنِ إِنْتُمْ كَانُوا  
 خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ  
 لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَاهُتُمْ طَبَقَاتُكُمْ  
 فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْرَوْنَ عَذَابُ الْأَلْهَوْنَ  
 بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

وَعَقِبِي ﴿إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَهَذَا فِيهِ إِرْشَادٌ  
 لِمَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ أَنْ يُجَدِّدَ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ  
 وَجَلَّ، وَيَعَزِّمَ عَلَيْهَا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ  
 نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾  
 أَيُّ: هَؤُلَاءِ الْمُتَصِفُونَ بِمَا ذَكَرْنَا، الثَّابِتُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى  
 الْمُتَيَبِّونَ إِلَيْهِ، الْمُسْتَدْرِكُونَ مَا قَاتَ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِسْتِغْفَارِ،  
 هُمْ ﴿الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾  
 فَيَغْفِرُ لَهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، وَنَقَبِلُ مِنْهُمْ الْبَسِيرَ مِنَ  
 الْعَمَلِ.

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أَيُّ هُمْ فِي جُمْلَةِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ،  
 وَهَذَا حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا وَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ  
 وَأَنَابَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَّ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا  
 يُوعَدُونَ﴾.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر، الدر المنثور: ٩/٦ إسناده  
 ضعيف لتدليس ابن إسحاق ولم يصرح بالسماع (٢) البيهقي:

[أَسْتَبْطِطُ الْحُكْمَ عَلَى مَدَّةِ الْحَمْلِ: سِتَّةَ أَشْهُرٍ]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعَ الَّتِي فِي  
 لُقْمَانَ ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، وَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:  
 ﴿وَالْوِلْدَانُ بِضِعَانِ وَلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ  
 الرِّضَاعَةَ ﴿[البقرة: ٢٣٣]: عَلَى أَنَّ أَقْلَ مَدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةُ  
 أَشْهُرٍ، وَهُوَ اسْتِبْطَاطُ قُوَّتِي وَصَحِيحٌ، وَوَافِقُهُ عَلَيْهِ عُثْمَانُ  
 وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ  
 إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ [بَعْجَةٍ] بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجُهَنِيِّ قَالَ:  
 تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنَّا امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ، فَوَلَدَتْ لَهُ لِتَمَامِ سِتَّةِ  
 أَشْهُرٍ، فَانْطَلَقَ زَوْجُهَا إِلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَذَكَرَ  
 ذَلِكَ لَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا قَامَتْ لِيَتَلَبَّسَ ثِيَابَهَا بَكَتْ أُخْتُهَا  
 فَقَالَتْ: وَمَا يُبْكِيكِ؟ فَوَاللَّهِ مَا التَّبَسُّبُ بِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ  
 تَعَالَى غَيْرُهُ قَطُّ، فَخِضِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيَّ مَا شَاءَ،  
 فَلَمَّا أَتَى بِهَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمَرَ بِرَجُلَيْهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ  
 عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: وَلَدَتْ  
 تَمَامًا لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ  
 اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ  
 عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وَقَالَ:  
 ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فَلَمْ نَجِدْهُ بَقِيَ إِلَّا سِتَّةَ أَشْهُرٍ. قَالَ: فَقَالَ  
 عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ مَا فَطَنْتُ بِهَذَا، عَلِيٌّ بِالْمَرْأَةِ.  
 فَوَجَدُوهَا قَدْ فُرِغَ مِنْهَا قَالَ: فَقَالَ [بَعْجَةُ]: فَوَاللَّهِ مَا  
 الْغُرَابُ بِالْغُرَابِ، وَلَا الْبَيْضَةُ بِالْبَيْضَةِ بِأَشْبَهَ مِنْهُ بِأَبِيهِ، فَلَمَّا  
 رَأَاهُ أَبُوهُ قَالَ: ابْنِي وَاللَّهِ لَا أَشْكُ فِيهِ. قَالَ: وَابْتَلَاهُ اللَّهُ  
 تَعَالَى بِهَذِهِ الْفَرْحَةِ بِوَجْهِهِ: [فَرْحَةُ] الْآكِلَةِ، فَمَا زَالَتْ  
 تَأْكُلُهُ حَتَّى مَاتَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ <sup>(١)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ  
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ: إِذَا وَضَعَتِ الْمَرْأَةُ لِبْسَةَ أَشْهُرٍ  
 كَفَاهُ مِنَ الرِّضَاعِ أَحَدَ وَعِشْرُونَ شَهْرًا، وَإِذَا وَضَعَتْهُ لِبْسَةَ  
 أَشْهُرٍ كَفَاهُ مِنَ الرِّضَاعِ ثَلَاثَةَ وَعِشْرُونَ شَهْرًا، وَإِذَا وَضَعَتْهُ  
 لِبْسَةَ أَشْهُرٍ فَحَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَحَمْلُهُ  
 وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ <sup>(٢)</sup>. أَيُّ: قُوَّتِي وَسَبَّ  
 وَارْتَجَلَ. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أَيُّ: تَنَاهَى عَقْلُهُ، وَكَمَلَ  
 فَهْمُهُ وَجَلْمُهُ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَتَغَيَّرُ غَالِيًا عَمَّا يَكُونُ عَلَيْهِ  
 ابْنُ الْأَرْبَعِينَ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أَيُّ: أَلْهَمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ  
 نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾  
 أَيُّ: فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أَيُّ نَسْلِي

وَقَوْلُهُ: ﴿أَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أَي: أُبْعَثَ ﴿وَقَدْ خَلَّتِ  
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أَي: قَدْ مَضَى النَّاسُ فَلَمْ يَرَجَعْ مِنْهُمْ مُخِيرٌ  
﴿وَهُمَا يَسْتَعِثَّانِ اللَّهَ﴾ أَي: يَسْأَلَانِ اللَّهَ فِيهِ أَنْ يَهْدِيَهُ  
وَيَقُولَانِ لَوْلَايَهُمَا: ﴿وَتِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا  
إِلَّا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ  
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّ إِيَّاهُمْ  
كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أَي: دَخَلُوا فِي زُمْرَةِ أَشْبَاهِهِمْ وَأَضْرَابِهِمْ،  
مِنَ الْكَافِرِينَ الْخَاسِرِينَ أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.  
وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ ذَلِيلٌ عَلَى مَا  
ذَكَرْنَاهُ مِنْ: أَنَّهُ جِنْسٌ يَعْصِي كُلَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ. وَقَالَ  
الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هُوَ الْكَافِرُ الْفَاجِرُ الْعَاقُ لَوَالِدَيْهِ الْمَكْذُبُ  
بِالْبُعْثِ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾  
أَي لِكُلِّ عَذَابٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ ﴿وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا  
يُظْلَمُونَ﴾ أَي: لَا يُظْلِمُهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَمَا دُونَهَا. قَالَ  
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بَنِ أَسْلَمَ: دَرَجَاتُ النَّارِ تَذْهَبُ  
سِفَالًا، وَدَرَجَاتُ الْجَنَّةِ تَذْهَبُ غُلُوًّا<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:  
﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبَنِيكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا  
وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أَي: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيبًا وَتَوْبِيخًا، وَقَدْ  
تَوَرَّعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ  
كَثِيرٍ مِنْ طَبَيَاتِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ. وَنَزَّهَ عَنْهَا وَيَقُولُ:  
إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ كَالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ، وَبَخَّهِمْ  
وَقَرَّعَهُمْ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبَنِيكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾.  
وَقَالَ أَبُو مَجْلَرٍ: لَيَفْقِدَنَّ أَقْوَامٌ حَسَنَاتٍ كَانَتْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا  
فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبَنِيكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾. وَقَوْلُهُ عَزَّ  
وَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ  
يَغِيرُ الْخَوَّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فَجُوزُوا مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ، فَكَمَا  
مَتَّعُوا أَنْفُسَهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَتَعَاطَوْا الْفُسُوقَ  
وَالْمَعَاصِي، جَازَاهُمْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعَذَابِ الْهُونِ،  
وَهُوَ الْإِهَانَةُ وَالْخِزْيُ، وَالْأَلَامُ الْمَوْجِعَةُ وَالْحَسِرَاتُ  
الْمُتَبَايِعَةُ، وَالْمَنَازِلُ فِي الدَّرَكَاتِ الْمُفْطَعَةِ، أَجَارَنَا اللَّهُ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

﴿وَذَكَّرْنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُمُ بِالْأَحْقَافِ﴾ وَقَدْ خَلَّتِ النَّدَرُ مِنْ

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهُ أَفِي لَكُمَا أَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ  
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعِثَّانِ اللَّهَ وَتِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ حَقٌّ  
فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ  
الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنِّ إِيَّاهُمْ  
كَانُوا خَسِرِينَ﴾ ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا  
يُظْلَمُونَ﴾ ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طِبَنِيكُمْ فِي  
حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ  
تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ يَغِيرُ الْخَوَّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ ﴿ذِكْرُ الْأَوْلَادِ الْعَاقِينَ وَمَصِيرُهُمْ﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الدَّاعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ الْبَارِينَ بِهِمَا وَمَا  
لَهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْقُوزِ، وَالنَّجَاةِ، عَطَفَ بِحَالِ الْأَشْقِيَاءِ  
الْعَاقِينَ لِلْوَالِدَيْنِ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهُ أَفِي لَكُمَا﴾  
وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ قَالَ هَذَا، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي  
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَوْلُهُ ضَعِيفٌ  
مَرْدُودٌ، لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا  
أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ وَكَانَ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ  
زَمَانِهِ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهِلِكٍ قَالَ: كَانَ مَرْوَانُ  
عَلَى الْحِجَازِ، اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا، فَخَطَبَ وَجَعَلَ يَذْكُرُ زَيْدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ؛ لِكَيْ يَبَايَعَ لَهُ  
بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُمَا شَيْئًا، فَقَالَ: خُذُوهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهَا فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ  
﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهُ أَفِي لَكُمَا أَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ  
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ وَرَاءِ  
الْحِجَابِ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِينَا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنْ  
اللَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ عُذْرِي<sup>(١)</sup>.

(طريق أخرى) رَوَى النَّسَائِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ:  
لَمَّا بَايَعَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِابْنِهِ، قَالَ مَرْوَانُ: سُنَّةُ أَبِي  
بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سُنَّةُ هِرْقُلَ وَقَيْصَرَ. فَقَالَ مَرْوَانُ: هَذَا  
الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهُ أَفِي لَكُمَا﴾  
الْآيَةُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: كَذَبَ  
مَرْوَانُ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِهِ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَمِّيَ الَّذِي أَنْزَلَتْ  
فِيهِ لَسَمَّيْتُهُ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ أَبَا مَرْوَانَ وَمَرْوَانَ  
فِي صَلْبِهِ، فَمَرْوَانُ فَضَضَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح الباري: ٤٣٩/٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٤٥٨/٦

(٣) الطبري: ١١٨/٢٢ (٤) الطبري: ١١٩/٢٢

سورة الأحقاف

٥٥

سورة الأحقاف

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَفَكَّاهُ عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّمَا تَوَدُّنَا كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطَرٌّ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

[قِصَّةُ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَبَ مِنْ قَوْمِهِ ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وَهُوَ هُودٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ [وَالسَّلَامُ]، بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عَادِ الْأَوَّلَى وَكَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، جَمْعُ حَقْفٍ، وَهُوَ الْجَبَلُ مِنَ الرَّمْلِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: الْأَحْقَافُ: الْجَبَلُ وَالْعَارُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ذِكْرُ لَنَا أَنَّ عَادًا كَانُوا حَيًّا بِالْيَمَنِ، أَهْلُ رَمْلٍ، مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الشَّحْرُ <sup>(٢)</sup>. قَالَ ابْنُ مَاجَهٍ: بَابٌ إِذَا دَعَا فَلْيَدْعُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُرْحِمُنَا اللَّهُ وَأَخَا عَادٍ» <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يَعْنِي: وَقَدْ أُرْسِلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ حَوْلَ بِلَادِهِمْ فِي الْقُرَى مُرْسِلِينَ وَمُنْذِرِينَ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِيعَةً مِثْلَ صِيعَةِ عَادٍ وَنُوحٍ﴾ ﴿٢٧﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ أُرْسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ: قَالَ لَهُمْ هُوَذَا ذَلِكَ فَأَجَابَهُ قَوْمُهُ قَائِلِينَ: ﴿أَجِئْنَا لِنَتَفَكَّاهُ عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أَيُّ: لِنَصُدَّنَا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ اسْتَعْجَلُوا عَذَابَ اللَّهِ وَعُقُوبَتَهُ اسْتِعَادًا مِنْهُمْ وَفُوعَهُ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَحِقِّينَ لَتُعْجِلَ الْعَذَابَ، فَسَيُعْجَلُ ذَلِكَ بِكُمْ، وَأَمَّا أَنَا فَمِنْ شَأْنِي أَنِّي أَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أَيُّ لَا تَعْقِلُونَ وَلَا تَفْهَمُونَ.

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَبَ مِنْ قَوْمِهِ ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وَهُوَ هُودٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ [وَالسَّلَامُ]، بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عَادِ الْأَوَّلَى وَكَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، جَمْعُ حَقْفٍ، وَهُوَ الْجَبَلُ مِنَ الرَّمْلِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: الْأَحْقَافُ: الْجَبَلُ وَالْعَارُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ذِكْرُ لَنَا أَنَّ عَادًا كَانُوا حَيًّا بِالْيَمَنِ، أَهْلُ رَمْلٍ، مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الشَّحْرُ <sup>(٢)</sup>. قَالَ ابْنُ مَاجَهٍ: بَابٌ إِذَا دَعَا فَلْيَدْعُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُرْحِمُنَا اللَّهُ وَأَخَا عَادٍ» <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يَعْنِي: وَقَدْ أُرْسِلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ حَوْلَ بِلَادِهِمْ فِي الْقُرَى مُرْسِلِينَ وَمُنْذِرِينَ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِيعَةً مِثْلَ صِيعَةِ عَادٍ وَنُوحٍ﴾ ﴿٢٧﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ أُرْسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ: قَالَ لَهُمْ هُوَذَا ذَلِكَ فَأَجَابَهُ قَوْمُهُ قَائِلِينَ: ﴿أَجِئْنَا لِنَتَفَكَّاهُ عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أَيُّ: لِنَصُدَّنَا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ اسْتَعْجَلُوا عَذَابَ اللَّهِ وَعُقُوبَتَهُ اسْتِعَادًا مِنْهُمْ وَفُوعَهُ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَحِقِّينَ لَتُعْجِلَ الْعَذَابَ، فَسَيُعْجَلُ ذَلِكَ بِكُمْ، وَأَمَّا أَنَا فَمِنْ شَأْنِي أَنِّي أَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أَيُّ لَا تَعْقِلُونَ وَلَا تَفْهَمُونَ.

## [قِصَّةُ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَبَ مِنْ قَوْمِهِ ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وَهُوَ هُودٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ [وَالسَّلَامُ]، بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عَادِ الْأَوَّلَى وَكَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، جَمْعُ حَقْفٍ، وَهُوَ الْجَبَلُ مِنَ الرَّمْلِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: الْأَحْقَافُ: الْجَبَلُ وَالْعَارُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ذِكْرُ لَنَا أَنَّ عَادًا كَانُوا حَيًّا بِالْيَمَنِ، أَهْلُ رَمْلٍ، مُشْرِفِينَ عَلَى الْبَحْرِ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الشَّحْرُ <sup>(٢)</sup>. قَالَ ابْنُ مَاجَهٍ: بَابٌ إِذَا دَعَا فَلْيَدْعُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُرْحِمُنَا اللَّهُ وَأَخَا عَادٍ» <sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يَعْنِي: وَقَدْ أُرْسِلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ حَوْلَ بِلَادِهِمْ فِي الْقُرَى مُرْسِلِينَ وَمُنْذِرِينَ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صِيعَةً مِثْلَ صِيعَةِ عَادٍ وَنُوحٍ﴾ ﴿٢٧﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ أُرْسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ: قَالَ لَهُمْ هُوَذَا ذَلِكَ فَأَجَابَهُ قَوْمُهُ قَائِلِينَ: ﴿أَجِئْنَا لِنَتَفَكَّاهُ عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أَيُّ: لِنَصُدَّنَا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ اسْتَعْجَلُوا عَذَابَ اللَّهِ وَعُقُوبَتَهُ اسْتِعَادًا مِنْهُمْ وَفُوعَهُ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَحِقِّينَ لَتُعْجِلَ الْعَذَابَ، فَسَيُعْجَلُ ذَلِكَ بِكُمْ، وَأَمَّا أَنَا فَمِنْ شَأْنِي أَنِّي أَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أَيُّ لَا تَعْقِلُونَ وَلَا تَفْهَمُونَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيهِمْ﴾ أَيُّ: لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ مُسْتَقْبِلَهُمْ، اعْتَقَدُوا أَنَّهُ عَارِضٌ مُطَرٌّ، فَفَرُّوا وَاسْتَبَشَرُوا بِهِ، وَقَدْ كَانُوا مُمَجِّلِينَ مُحْتَاجِينَ إِلَى

الْمَطَرِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ: هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي قُلْتُمْ ﴿فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِنْ بِلَادِهِمْ وَمِمَّا مِنْ شَأْنِهِ الْخَرَابُ ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أَيُّ: بِإِذْنِ اللَّهِ لَهَا فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أَيُّ: كَالشَّيْءِ الْبَالِي وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أَيُّ: قَدْ بَادُوا كُلَّهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ تَبْقَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيُّ: هَذَا حُكْمُنَا فِيمَنْ كَذَبَ رُسُلَنَا، وَخَالَفَ أَمْرَنَا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَبْتَسِمُ وَقَالَتْ: كَانَ رَسُولُ

(١) الطبري: ١٢٥/٢٢ (٢) الطبري: ١٢٤/٢٢ (٣) ابن ماجه: ١٢٦٦/٢ فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس ولم يصرح بالسماع وضعفه الألباني [ضعيف الجامع وضعيف ابن ماجه]

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

٥٠٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٧﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْآلِمْ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ لَا يَجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُقْهُنَّ يُقْدِرْ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٢﴾

## سُورَةُ الْحَجِّ

فَيُصِيبُكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ مَكَّةَ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْأُمَمَ الْمَكْدَبَةَ بِالرُّسُلِ مِمَّا حَوْلَهَا كَعَادَ، وَكَانُوا بِالْأَحْقَافِ يَحْضَرُمُونَ عِنْدَ الْيَمَنِ. وَتَمُودَ وَكَانَتْ مَنَارِلُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّامِ. وَكَذَلِكَ سَيَأْتِيهِمْ أَهْلُ الْيَمَنِ. وَمَدْيَنَ وَكَانَتْ فِي طَرِيقِهِمْ وَمَمَرِّهِمْ إِلَى غَزَّةَ. وَكَذَلِكَ بُحَيْرَةُ قَوْمِ لُوطٍ كَانُوا يُدْرُونَ بِهَا أَيْضًا، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ أَيُّ: بَيَّنَّاها وَأَوْضَحْنَاهَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ مَكَّنَّا الْأُمَمَ السَّالِفَةَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ مِنْهَا مَا لَمْ نَعْطِكُمْ مِثْلَهُ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أَيُّ: وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَالتَّكَاثُلُ الَّذِي كَانُوا يُكْذِبُونَ بِهِ وَيَسْتَبْعِدُونَ وَقُوْعَهُ، أَيُّ: فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ،

اللَّهُ ﷻ إِذَا رَأَىٰ غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرَحُوا؛ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَتْ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَّةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عَذَّبَ قَوْمٌ بِالرَّيْحِ، وَقَدْ رَأَىٰ قَوْمٌ الْعَذَابَ وَقَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرٌ ﴿١﴾. وَأَخْرَجَاهُ ﴿٢﴾.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَىٰ نَاسِيًا فِي أَفْقٍ مِّنْ أَفَاقِ السَّمَاءِ تَرَكَ عَمَلَهُ وَإِنْ كَانَ فِي صَلَاتِهِ ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ» فَإِنْ كَشَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى حِمْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ أَطْمَرَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا» ﴿٣﴾.

وَقَالَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ». قَالَتْ: وَإِذَا تَخَلَّكَ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَادْبَرَ، فَإِذَا أَطْمَرَتْ سُرِّي عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَسَأَلَتْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ عَادَ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرٌ﴾» ﴿١﴾. وَقَدْ ذَكَرْنَا قِصَّةَ هَلَاكِ قَوْمِ عَادَ فِي سُورَتِي: الْأَعْرَافِ وَهُوَ بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا، وَ لِلَّهِ تَعَالَى الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢﴾ فَلَوْلَا نَصَرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ مَكَّنَّا الْأُمَمَ السَّالِفَةَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ مِنْهَا مَا لَمْ نَعْطِكُمْ مِثْلَهُ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أَيُّ: وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَالتَّكَاثُلُ الَّذِي كَانُوا يُكْذِبُونَ بِهِ وَيَسْتَبْعِدُونَ وَقُوْعَهُ، أَيُّ: فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ،

(١) أحمد: ٦٦/٦ (٢) فتح الباري: ٤٤١/٨ ومسلم: ٢/

٦١٦ (٣) أحمد: ١٩٠/٦ (٤) مسلم: ٦١٦/٢

فِي عِبَادَتِهِمْ لَهَا وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذْذِرِينَ﴾ (٢٩) قَالُوا يَقَوْمُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا آجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْجَهَنَّمَ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣١﴾

[قِصَّةُ اسْتِمَاعِ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الزُّبَيْرِ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قَالَ: بَنَخْلَةً، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّيُ الْجُمُعَةَ الْآخِرَةَ ﴿كَأَدَاؤُكُمْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لَيْدًا﴾ [الجن: ١٩] قَالَ شَيْئَانِ: أَلْبَدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَاللَّيْدِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْإِمَامُ الشَّيْخُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِهِ «دَلَالِيلُ النُّبُوَّةِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَلَا رَأَاهُمْ، انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقٍ عُكَاطٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا، وَانظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَاَنْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا، يَنْتَفِعُونَ مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَاَنْصَرَفَ أُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بَنَخْلَةً عَامِدًا إِلَى سُوقٍ عُكَاطٍ وَهُوَ يُصَلِّيُ بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالُوا: هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَنُفِذْنَا إِلَى قَوْمِهِمْ قَالُوا: يَا قَوْمُنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٢٠، ١] وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِنَحْوِهِ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ<sup>(٣)</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: هَبَطُوا

عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ يَطْنُ نَخْلَةً فَلَمَّا سَمِعُوهُ ﴿قَالُوا أَنصِتُوا﴾ قَالَ: صَدٌّ، وَكَانُوا تِسْعَةً أَحَدُهُمْ زَوْبَعَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذْذِرِينَ﴾ إِلَى ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٤)</sup>. فَهَذَا مَعَ الْأَوَّلِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقْتَضِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَشْعُرْ بِحُضُورِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، وَإِنَّمَا اسْتَمَعُوا قِرَاءَتَهُ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدُوا إِلَيْهِ أَرْسَالًا قَوْمًا بَعْدَ قَوْمٍ وَفَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذْذِرِينَ﴾ أَيُّ: رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَنْذَرُوهُمْ مَا سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيَسْفَفَنَّاهُ فِي الدِّينِ وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] وَقَدْ اشْتَدَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ فِي الْجِنِّ نَذْرٌ، وَلَيْسَ فِيهِمْ رَسُولٌ، وَلَا شَكٌّ أَنَّ الْجِنَّ لَمْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْهُمْ رَسُولًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٢]. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وَقَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَسَلَّالَتِهِ.

فَأَمَّا قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْأَنْعَامِ: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فَالْمُرَادُ هُنَا مَجْمُوعُ الْجِنِّسَيْنِ فَيَصْدُقُ عَلَى أَحَدِهِمَا. وَهُوَ الْإِنْسُ كَقَوْلِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أَيُّ أَحَدِهِمَا.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى فَسَّرَ إِندَارَ الْجِنِّ لِقَوْمِهِمْ فَقَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿قَالُوا يَقَوْمُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وَلَمْ يَذْكُرُوا عِيسَى؛ لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُنزِلَ عَلَيْهِ الْإِنْجِيلُ، فِيهِ مَوَاعِظُ وَتَرْفِيقَاتُ وَقَلِيلٌ مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْمُتَمِّمِ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَةِ،

(١) أحمد: ١٦٧/١ إسناده ضعيف عكرمة لم يسمع من ابن الزبير

(٢) أحمد: ٢٥٢/١ ودلائل النبوة: ٢٢٥/٢ (٣) البخاري:

٧٧٣، ٤٩٢١، ومسلم: ٣٣١/١ وتحفة الأحوذى: ١٦٨/٩

والنسائي في الكبرى: ٤٩٩/٦ (٤) الحاكم: ٥٥٦/٢

فَالْعُمْدَةُ هُوَ التَّوْرَةُ، فَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وَهَكَذَا قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ حِينَ أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقِصَّةِ نَزُولِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ: بَخِ بَخِ! هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَىٰ يَا لَيْتَنِي أَكُونُ فِيهِ جَدْعًا<sup>(١)</sup>. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّكَ يَدِيهِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أَيُّ: فِي الْإِغْتِقَادِ وَالْأَخْبَارِ ﴿وَالِكِ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ﴾ فِي الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَتَّى خَيْرٍ وَطَلَبٍ، فَخَبْرُهُ صِدْقٌ وَطَلَبُهُ عَدْلٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وَقَالَ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الص: ٩] فَالْهُدَىٰ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَدِينِ الْحَقِّ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهَكَذَا قَالَتِ الْجِنَّ: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فِي الْإِعْقَادَاتِ ﴿وَالِكِ طَرِيقَ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيُّ: فِي الْعَمَلِيَّاتِ ﴿تَقْوَمَاتٍ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾

### [أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ]

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أَيُّ: عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ لَهُمْ. وَأَوَّلُوا الْعَزْمَ هُمْ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ كُلُّهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، قَدْ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَسْمَائِهِمْ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ فِي آيَتَيْنِ مِنْ سُورَتَيْ الْأَحْزَابِ وَالشُّورَى. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أَيُّ: لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ حُلُولَ الْعُقُوبَةِ بِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَدَرَيْهِ وَالْكَافِرِينَ أُولَى النَّعَةِ وَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رَوِيًّا﴾ [الطارق: ١٧] ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ [النازعات: ٤٦] وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُعْشَرُهُمْ كَانَ لَرَّ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ... [الآيَةُ [يونس: ٤٥]]. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلِّغْ﴾ أَيُّ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ بَلَاغٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أَيُّ: لَا يُهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَحْقَافِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قِيلَ: إِنَّ (مِنْ) هُنَا زَائِدَةٌ، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ زِيَادَتَهَا فِي الْإِثْبَاتِ قَلِيلٌ، وَقِيلَ: إِنَّهَا عَلَى بَابِهَا لِلتَّبَعِضِ ﴿وَمُحَرِّمٌ مِنْ عَذَابٍ لَبِيفٍ﴾ أَيُّ وَيَقِيكُمْ مِنْ عَذَابِهِ الْأَلِيمِ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: بَلْ قُدْرَةُ اللَّهِ شَامِلَةٌ لَهُ وَمُحِيطَةٌ بِهِ ﴿وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أَيُّ: لَا يُجِيرُهُمْ مِنْهُ أَحَدٌ ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وَهَذَا مَقَامُ تَهْلِيدٍ وَتَرْهيبٍ، فَدَعَا قَوْمَهُمْ بِالْتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ، وَلِهَذَا نَجَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفُودًا وَفُودًا. وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَوَّلَ يَوْمٍ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

### [دَلِيلُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرُونَ لِلْبُعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُسْتَبْعِدُونَ لِقِيَامِ الْأَجْسَادِ يَوْمَ الْمَعَادِ ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي

(١) فتح الباري: ٣٠/١ بدون قوله: «بخ بخ»



## تفسير سورة القتال وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (٣)

[جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله ﴿وَصَدُّوا﴾ غيَّبَهُمْ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: أبْطَلَهَا وَأَذْهَبَهَا، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا ثَوَابًا وَلَا جَزَاءً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَلِمَاتُنَا إِلَى مَا نَمِيزُ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءًا مَنشُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمَنْتْ قُلُوبُهُمْ وَسَرَائِرُهُمْ، وَانْقَادَتْ لِشَرْعِ اللَّهِ جَوَارِحُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ ﴿وَعَمِلُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ عَطَفَ خَاصًّا عَلَى عَامٍّ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ شَرَطٌ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ بَعْدَ بَعْثِهِ ﷺ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جُمْلَةٌ مُعَرِّضَةٌ حَسَنَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَيُّ أَمْرِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شَأْنُهُمْ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: حَالَهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ. وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ: «يَهْدِيكُمُ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بِالْكُفِّ»<sup>(٤)</sup>. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي: إِنَّمَا أَبْطَلْنَا أَعْمَالَ الْكُفَّارِ. وَتَجَاوَزْنَا عَنْ سَيِّئَاتِ الْأَبْرَارِ، وَأَصْلَحْنَا شُؤْنَهُمْ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ، أَي: اخْتَارُوا الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ أَي: يَبَيِّنُ لَهُمْ مَالَ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي مَعَادِهِمْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِذَا مَتَّ بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٤) سَبَّحَهُمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُنِيبُ أَقْدَامَهُمْ (٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ (١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِذَا مَتَّ بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ (٤) سَبَّحَهُمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُنِيبُ أَقْدَامَهُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ (٩) فَأَحْطَ أَعْمَالُهُمْ (١٠) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا (١١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١٢)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ (٩) فَأَحْطَ أَعْمَالُهُمْ (١٠) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا (١١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١٢)

أَوْ الْفِدَاءِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُرْشِدًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يَعْتَمِدُونَهُ فِي حُرُوبِهِمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ﴾ أَي: إِذَا وَاجَهْتُمُوهُمْ فَاحْضُدُوهُمْ حَضْدًا بِالسُّيُوفِ ﴿حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ﴾ أَي: أَهْلَكْتُمُوهُمْ قَتْلًا ﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ الْأَسَارَى الَّذِينَ تَأْسِرُونَهُمْ، ثُمَّ أَنْتُمْ - بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ وَانْقِصَالِ الْمَعْرَكَةِ - مُخَيَّرُونَ فِي أَمْرِهِمْ، إِنْ شِئْتُمْ مَنَسْتُمْ عَلَيْهِمْ فَأَطْلَقْتُمْ أَسَارَهُمْ مَجَانًا، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادَيْتُمُوهُمْ بِمَالٍ تَأْخُذُونَهُ مِنْهُمْ وَتُسَارِطُونَهُمْ عَلَيْهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَاتَبَ

(١) الطبري: ١٥٢/٢٢ (٢) الطبري: ١٥٢/٢٢ (٣) الطبري:

١٥٢/٢٢ (٤) تحفة الأحوذى: ١١/٨

اللَّهُ ﷻ: «يُعْطَى الشَّهِيدُ سِتَّ خِصَالٍ: عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ تُكْفَرُ عَنْهُ كُلُّ خَطِيئَةٍ. وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ. وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ. وَيَأْمُنُ مِنَ الْفَرَقِ الْأَكْبَرِ. وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. وَتُحْلَى حُلَّةُ الْإِيمَانِ». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(١)</sup>.  
وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُسْفَعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٢)</sup>.  
وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضْلِ الشَّهِيدِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «سَيِّدِهِمْ» أَيُّ: إِلَى الْجَنَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا الصَّالِحِينَ يَجْعَلُهُمْ لَهُمْ رِزْقًا يُغْنِيهِمْ تَجْرِبُ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي حَنَّتِ النَّعِيمِ» [يونس: ٩]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ «وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ» أَيُّ: أَمْرُهُمْ وَحَالَهُمْ «وَيُعْطَاهُمُ الْجَنَّةَ عَرْشًا لَمْ يَكُنْ» أَيُّ: عَرَفَهُمْ بِهَا وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا. قَالَ مُجَاهِدٌ: يَهْتَدِي أَهْلُهَا إِلَى بُيُوتِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ، وَحَيْثُ قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهَا، لَا يَخْطِئُونَ، كَانَتْهُمْ سَاكِنُوهَا مُنْذُ خُلِقُوا، لَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهَا أَحَدًا<sup>(٣)</sup>. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسِبُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَنْقَاصُونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقِرُوا أُذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدَهُمْ يَمْنُرِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَهْدَى مِنْهُ يَمْنُرِلِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا»<sup>(٤)</sup>.

[أَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُكَيِّدْ أَقْدَامَكُمْ» كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَلَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُنِي» فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَيُكَيِّدْ أَقْدَامَكُمْ» كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ بَلَغَ ذَا سُلْطَانٍ حَاجَةً مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ إِبْلَاغَهَا، ثَبَّتَ اللَّهُ تَعَالَى قَدَمَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٥)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ عَكْسٌ تَنْبِيتُ الْأَقْدَامِ لِلْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ،

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْأَسَارَى يَوْمَئِذٍ - لِيَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْفِدَاءَ - وَالتَّقْلِيلِ مِنَ الْقَتْلِ يَوْمَئِذٍ فَقَالَ: «مَا كَانَتْ لِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْخَفَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [الأنفال: ٦٧، ٦٨].  
وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «حَقٌّ قَضَعُ لِمَرْبِئِ أَزْوَارَهَا» قَالَ مُجَاهِدٌ:

حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ<sup>(٦)</sup>. وَكَانَتْ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَالُ»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ قَالَ: إِنْ سَلِمَ بَنُ نَفِيلٍ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي [سَيِّئٌ] الْخَيْلِ، وَالْقَلْبِ السَّلَاحِ، وَوَضَعْتُ الْحَرْبَ أَزْوَارَهَا، وَقُلْتُ: لَا قِتَالَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، يَزِيغُ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبَ أَقْوَامٍ، فَيَقَاتِلُونَهُمْ وَيَزِيغُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، أَلَا إِنْ غَفَرَ دَارَ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ، وَالْخَيْلُ مَغْفُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٨)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنَمَرَ بِهِمْ» أَيُّ: هَذَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْتَمَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِعُقُوبَةٍ وَكَتَالٍ مِنْ عِنْدِهِ «وَلَكِنْ لَبَلَّوْا بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا» أَيُّ: وَلَكِنْ شَرَعَ لَكُمْ الْجِهَادَ وَقِتَالَ الْأَعْدَاءِ لِيُخَيِّرَكُمْ، وَيَبْلُغُوا أَخْبَارَكُمْ، كَمَا ذَكَرَ حِكْمَتَهُ فِي شَرْعِيَةِ الْجِهَادِ فِي سُورَتِي آلِ عِمْرَانَ وَبَرَاءَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ» [آل عمران: ١٤٢]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ: «فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَى خَدَّيْهِمْ وَيُؤْمِنُ<sup>(١٠)</sup> وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» [التوبة: ١٤، ١٥].

[فَضْلُ الشَّهَادَةِ]

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْقِتَالِ أَنْ يُقْتَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُغْنِيَ عَنْكُمُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْهُمْ» بَلْ يُكْثِرُهَا وَيُثَمِّبُهَا وَيُضَاعِفُهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ طَوَّلَ بَرَزَجِهِ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ كَثِيرِ بْنِ مَرْثَةَ، عَنْ قَيْسِ الْجُدَامِيِّ - رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ

(١) الطبري: ١٥٧/٢٢ (٢) أبو داود: ١١/٣ (٣) أحمد: ٤/

١٠٤ (٤) النسائي: ٢١٤/٦ والنسائي في الكبرى: ٢١٨/٥

(٥) أحمد: ٢٠٠/٤ (٦) أبو داود: ٢٥٢٢ (٧) الطبري: ٢٢/

١٦٠ (٨) البخاري: ٦٥٣٥ (٩) ضعيف ذكره الألباني في

سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٥٩٤) وقد ذكر الشيخ الألباني حديثا

آخر في الصحيحة (٩٠٤) وفيه: "ومن مشى مع أخيه في حاجة

حتى تنهيا له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام" وهذا يغني عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٨

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَنْعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٠﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١١﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَذِبًا لَيْسَ لَهُ سَوْءُ عَمَلٍ لَآتَبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٢﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْقِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿١٣﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ قَالَ إِنِيتُ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَزَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٥﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِدْجَاءُ تَهُمُ ذَكَرْنَهُمْ ﴿١٦﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٧﴾

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدُّنْيَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدُّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقُطَيْفَةِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ»<sup>(١)</sup>. أَي: فَلَا شَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَأَصْلُ أَعْمَلَهُمْ» أَي: أَحْبَطَهَا وَأَبْطَلَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» أَي: لَا يُرِيدُونَهُ وَلَا يُحِبُّونَهُ «فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ». «أَفَنَّا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا» ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَنْعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

[النَّارُ لِلْكَافِرِ وَالْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: «أَفَنَّا يَسِيرُوا» يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْمُكَذِّبِينَ لِرَسُولِهِ «فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» أَي: عَاقِبَتُهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، أَي: وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَالِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا». ثُمَّ قَالَ: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ» وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ أَبُو سُفْيَانٍ صَحْرُ بْنُ حَرْبٍ رَئِيسُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، حِينَ سَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَلَمْ يُجِبْ، وَقَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ هَلَكُوا. وَأَجَابَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ! بَلْ أَبْقَى اللَّهُ تَعَالَى لَكَ مَا يَسُوءُكَ، وَإِنَّ الَّذِينَ عَذَّبْتَ لِأَحْيَاءٍ. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانٍ: يَوْمَ يَوْمٍ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، أَمَّا إِنَّا كُنَّا سَتَجِدُونَ مِثْلَهُ لَمْ أَمُرْ بِهَا، وَلَمْ أَنَّهُ عَنْهَا، ثُمَّ ذَهَبَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ: أَعْلُ هُبْلُ أَعْلُ هُبْلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا نَقُولُ؟ قَالَ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ أَغْلَى وَأَجَلٌ». ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانٍ: لَنَا الْعُزَى وَلَا عُزَى لَكُمْ، فَقَالَ ﷺ: «أَلَا تُجِيبُوهُ؟» قَالُوا: وَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قُولُوا: «اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ»<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَنْعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ» أَي: فِي دُنْيَاهُمْ يَسْتَنْعُونَ بِهَا وَيَأْكُلُونَ مِنْهَا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ خَضَمًا وَقَضَمًا، وَلَيْسَ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي

الصَّحِيح: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَعْمَاءٍ»<sup>(٣)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ» أَي: يَوْمَ جَزَائِهِمْ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ» وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ فِي تَكْذِيبِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ سَيِّدُ الرُّسُلِ وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَهْلَكَ الْأُمَمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ قَبْلَهُ بِسَبَبِهِمْ، وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ هَؤُلَاءِ، فَمَاذَا ظَنُّ هَؤُلَاءِ أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ فَإِنَّ رَفَعَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا لِيَرْكَبَهُ وَجُودُ الرُّسُولِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يُوقَرُّ عَلَى الْكَافِرِينَ بِهِ فِي مَعَادِهِمْ «يَضَعُفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَظِيمُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ» [هود: ٢٠].

(١) فتح الباري: ٩٥/٦ وابن ماجه: ١٣٨٦/٢ (٢) فتح الباري: ١٨٨/٦ (٣) فتح الباري: ٤٤٦/٩

يُرْفُونَ ﴿الواقعة: ١٩﴾ ﴿بِضَلَّةِ لَذَوٍ لِلشَّرِيبِينَ﴾ [الصفات: ٤٦] وفي حديث مَرْفُوع: «لَمْ يَعْصِرْهَا الرَّجَالُ بِأَقْدَامِهِمْ» ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أي وهو في غَايَةِ الصَّفَاءِ وَحُسْنِ اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالرَّيْحِ. وفي حديث مَرْفُوع: «لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ»<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «فِي الْجَنَّةِ بَحْرُ اللَّبَنِ وَبَحْرُ الْمَاءِ وَبَحْرُ الْعَسَلِ وَبَحْرُ الْخَمْرِ، ثُمَّ تَشَقُّقُ الْأَنْهَارُ مِنْهَا بَعْدُ»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٨)</sup>. وَفِي الصَّحِيحِ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ تَعَالَى فَاسْأَلُوهُ لِنُفُودِ الْخَمْرِ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَجْرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فُكْهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أَي: مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ﴾ أَي: أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا مَنَزِلَتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ؟ لَيْسَ هَؤُلَاءِ كَهَؤُلَاءِ، وَلَيْسَ مَنْ هُوَ فِي الدَّرَجَاتِ كَمَنْ هُوَ فِي الدَّرَكَاتِ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أَي: حَارًّا شَدِيدَ الْحَرِّ لَا يُسْتَطَاعُ ﴿فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أَي: قَطَعَ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الْأَمْعَاءِ وَالْأَحْشَاءِ - عِيَادًا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ حَقًّا إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَاذَا قَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>(١٠)</sup> وَالَّذِينَ أَهْدَوْا رَادَّهُمْ هُدًى وَعَالَمُهُمْ يَقُونَهُمْ<sup>(١١)</sup> فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى هُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ<sup>(١٢)</sup> فَأَعْلَزَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ<sup>(١٣)</sup>

(١) وفي إسناده حش لا يدرى من هو؟ ولعله يكون حش بن المعتمر وهو مختلف فيه. (\*\*) في النسخة فأعدى الأعداء من عدا على الله. و المثبت من الطبري. (٢) الطبري: ١٦٥/٢٢ (٣) الطبري: ١٦٦/٢٢ (٤) الطبري: ١٦٧/٢٢ (٥) ضعيف جدًا كما قال الشيخ الألباني [ضعيف الترغيب والترهيب (٣١٨١)] (٦) روى هذا ومعنى ما قبله ابن المنذر عن سعيد بن جبير موقوفًا عليه، الدر المنثور: ٢٥/٦ (٧) أحمد: ٥/٥ (٨) تحفة الأحوذى: ٢٨٧/٧ (٩) فتح الباري: ١٤/٦

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَرَيْكَ أَلَيَّْ أَخْرَجَكَ﴾ أَي: الَّذِينَ أَخْرَجُوكَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْعَارِ وَأَتَاهُ فَالْتَمَتَ إِلَى مَكَّةَ وَقَالَ: «أَنْتَ أَحَبُّ بِلَادٍ لِلَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْتَ أَحَبُّ بِلَادٍ لِلَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْ لَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَخْرَجُونِي لَمْ أَخْرُجْ مِنْكَ»<sup>(١٤)</sup>. [فَأَعْتَى] الْأَعْدَاءِ مَنْ [عَنَا]<sup>(١٥)</sup> عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي حَرَمِهِ، أَوْ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، أَوْ قَتَلَ بِذُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرِيْبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبِكَ أَلَيَّْ أَخْرَجَكَ أَهْلَكَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ»<sup>(١٦)</sup>.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ. كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ. وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾<sup>(١٧)</sup> مَثَلُ الْجَنَّةِ أَلَيَّْ وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَغْيَرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرِ لَذَوٍ لِلشَّرِيبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ<sup>(١٨)</sup>

[لَا يَسْتَوِي عَابِدُ الْحَقِّ وَعَابِدُ الْهَوَى]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أَي: عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَدِينِهِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، وَبِمَا حَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ. وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَي: لَيْسَ هَذَا كَهَذَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ أُلْقُ كَمَنْ هُوَ أَصَمٌّ﴾ [الرعد: ١٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

[نَعْتُ الْجَنَّةَ بِأَنْهَارِهَا]

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ أَلَيَّْ وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أَي: نَعْتُهَا ﴿فِيهَا أَنْهَرُ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: بِعَنِي غَيْرَ مُتَغَيَّرٍ<sup>(١٩)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: غَيْرُ مُتَبَيِّنٍ<sup>(٢٠)</sup>. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَسِنَ الْمَاءُ إِذَا تَغَيَّرَ رِيحُهُ ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَغْيَرْ طَعْمُهُ﴾ أَي: بَلْ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ وَالْحَلَاوَةِ وَالذُّسُومَةِ، وَفِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ: «لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضُرُوعِ الْمَاشِيَةِ»<sup>(٢١)</sup>. ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرِ لَذَوٍ لِلشَّرِيبِينَ﴾ أَي: لَيْسَتْ كَرِيهَةِ الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ كَخَمْرِ الدُّنْيَا، بَلْ حَسَنَةُ الْمُنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ وَالْفِعْلِ ﴿لَا فِيهَا عَوَلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ﴾ [الصفات: ٤٧] ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٥٠٩

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿١٦﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿١٨﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَى آذَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢١﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَهُمْ ﴿٢٤﴾

أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي»<sup>(١)</sup>. وفي الصحيح أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»<sup>(٢)</sup>. وفي الصحيح أَنَّهُ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»<sup>(٣)</sup>.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُقَبَّلَكُمْ وَمُؤَخَّرَكُمْ» أي: يَعْلَمُ تَصَرُّفَكُمْ فِي نَهَارِكُمْ وَمُسْتَقَرَّكُمْ فِي لَيْلِكُمْ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَهُوَ الَّذِي يُوَفِّقُكُمْ بِالْيَلِّ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ» [الأنعام: ٦٠] وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ

[بَيَانُ حَالِ الْمُتَافِقِينَ وَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُتَافِقِينَ فِي بِلَادِهِمْ وَقَلَّةِ فَهَيْمِهِمْ، حَيْثُ كَانُوا يَجْلِسُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَسْتَمِعُونَ كَلَامَهُ فَلَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ «مَاذَا قَالَ عِيقًا» أي: السَّاعَةَ. لَا يَعْقِلُونَ مَا قَالَ وَلَا يَكْتَرِثُونَ لَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» أي: فَلَا فَهْمَ صَحِيحٍ وَلَا قَصْدَ صَحِيحٍ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى» أي: وَالَّذِينَ قَصَدُوا الْهُدَايَةَ وَتَقَهَّمُوا اللَّهَ تَعَالَى لَهَا، فَهَذَاهُمْ إِلَيْهَا وَتَبَتُّهُمْ عَلَيْهَا وَزَادَهُمْ مِنْهَا «وَمَنْهُمْ تَقَوَّيْنَاهُمْ» أي: أَلْهَمَهُمْ رُشْدَهُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَهَلْ يُنْظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً» أي: وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْهَا «فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» أي: أَمَارَاتُ اقْتِرَابِهَا كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولِ» [آزِفِ الْأَرْفَةِ] [النجم: ٥٦، ٥٧]، وَكَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: «أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ» [القمر: ١]، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «أَنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» [النحل: ١] وَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: «أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ» [الأنبياء: ١]، فَبِعِثَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؛ لِأَنَّهُ خَاتَمَ الرُّسُلِ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الدِّينَ، وَأَقَامَ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَى الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ بِأَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا، وَأَبَانَ عَنْ ذَلِكَ وَأَوْضَحَهُ بِمَا لَمْ يُوْتَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ بِأَضْبَعِي هَكَذَا بِالْوُسْطَى وَالتِّي تَلِيهَا: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ» أي: فَكَيْفَ لِلْكَافِرِينَ بِالتَّذَكُّرِ إِذَا جَاءَهُمُ الْقِيَامَةُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَوْمَئِذٍ يَنْدَكِرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى» [البلد: ٢٣]. «وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ» وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاسُوتُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [سبا: ٥٢]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هَذَا إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَتَأَنَّى كَوْنُهُ أَمْرًا يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَلِأُمَّتِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ»، وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي

(١) فتح الباري: ٥٦٠/٨ (٢) فتح الباري: ٢٠٠/١١ (٣) فتح الباري: ٤٧٣/١٣ (٤) فتح الباري: ١٠٤/١١

فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [هود: ٦٠].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ﴾<sup>(١)</sup>  
 فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ﴾<sup>(٢)</sup>

[حَالِ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ وَمَرِيضِ الْقَلْبِ عِنْدَ نُزُولِ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا شَرْعِيَّةَ الْجِهَادِ، فَلَمَّا فَرَضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَرَ بِهِ نَكَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: مُشْتَمَلَةً عَلَى حُكْمِ الْقِتَالِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: مِنْ فَرَعِهِمْ وَرُغْبِهِمْ وَجُبْنِهِمْ مِنْ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ، ثُمَّ قَالَ مُشْجَعًا لَهُمْ: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: وَكَانَ الْأَوَّلَى بِهِمْ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا أَيْ فِي الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جَدَّ الْحَالُ، وَخَضَرَ الْقِتَالُ ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي: أَخْلَصُوا لَهُ النَّيَّةَ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عَنِ الْجِهَادِ وَنَكَلْتُمْ عَنْهُ ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تَعُودُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ، تَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ وَتَقَطَّعُونَ الْأَرْحَامَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾

[محمد: ٢٣] وَهَذَا نَهْيٌ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ عُمُومًا، وَعَنْ قَطْعِ الْأَرْحَامِ خُصُوصًا، بَلْ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْأَقَارِبِ فِي الْمَقَالِ وَالْأَفْعَالِ وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ وَالْإِحْسَانُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ

طُرُقٍ عَدِيدَةٍ وَوُجُوهُ كَثِيرَةٍ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَعَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّجُمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: مَهْ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. ثُمَّ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِلَفْظٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ» ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أُخْرَى أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى عِقَابُهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ: مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ النِّسَاءُ فِي الْأَجَلِ وَالزِّيَادَةُ فِي الرِّزْقِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجْمَ مُعْلَقَةٌ بِالْعُرْسِ، وَلَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِيءِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»<sup>(٧)</sup>. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَوَضَّعَ الرَّجْمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا [حُجْنَةً كَحُجْنَةِ] الْمَغْزَلِ تَكَلَّمُ بِلِسَانٍ طَلِقٍ ذُلِقَ، فَتَقْطَعُ مَنْ قَطَعَهَا وَتَصِلُ مَنْ وَصَلَهَا»<sup>(٩)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّجْمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ

(١) فتح الباري: ٤٤٣/٨ (٢) فتح الباري: ٤٤٣/٨ (٣)

مسلم: ١٩٨٠/٤ (٤) أحمد: ٣٨/٥ (٥) أبو داود: ٢٠٨/٥

وتحفة الأحوذى: ٢١٣/٧ وابن ماجه: ١٤٠٨/٢ (٦) أحمد:

٢٧٩/٥ (٧) أحمد: ١٦٣/٢ (٨) فتح الباري: ٤٣٧/١٠

(٩) أحمد: ١٨٩/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٠

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمِهِمْ وَلِتَعْرِفَهُمْ فِي  
لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٤﴾ وَلَسَبَلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ  
الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّاهِرِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ  
لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٢٦﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا  
أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا نُوا  
وَهُمْ كَفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٢٨﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ  
وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَهٗ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا  
الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَوَمَّنَاوْا وَتَنَفَّيْتُمْ أَنْ تُجِزُوا  
وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ إِنْ سَأَلَكُمْ هَا فَيُحْفِظْكُمْ  
بَبْخُلَاوٍ وَيُخْرِجَ أَصْفَتَكُمْ ﴿٣١﴾ هَٰذَا نَتْلُوهُ لَكُمْ تَدْعُونَ  
لِنُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ  
فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ  
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٢﴾

وَأَسْتَخْرِجُهَا الْمَلَائِكَةُ بِالْعُنْفِ وَالْقَهْرِ وَالضَّرْبِ، كَمَا قَالَ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا  
الْمَلَائِكَةَ يُصْرِيُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠].  
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ  
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أَيُّ: بِالضَّرْبِ ﴿أَخْرِجُوا  
أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ  
غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] وَلِهَٰذَا  
قَالَ هَهُنَا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا  
رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَمَ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ  
أَصْفَتَهُمْ﴾ ﴿٣١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمِهِمْ وَلِتَعْرِفَهُمْ

(١) أحمد: ١٦٠/٢ (٢) أبو داود: ٢٣١/٥ وتحفة الأحوذى:  
٥١/٦ (٣) الطبري: ١٨٠/٢٢ إسناده ضعيف عروة عن عمر  
والنبي ﷺ مرسل وله شاهد ضعيف عند اللالكائي في أصول  
الاعتقاد (٧٧٢) عن سهل بن سعد وفيه مقدار بن داود الرعيني  
ضعيف الحديث.

وَصَلَّاهَا وَصَلَّتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّةً<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ  
وَالْتِّرْمِذِيُّ، وَهَٰذَا هُوَ الَّذِي يُرَوَّى بِسَلْسُلِ الْأَوَّلِيَّةِ، وَقَالَ  
الْتِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٢)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَٰذَا كَثِيرَةٌ  
جِدًّا.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ  
لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ  
اللَّهُ سَطَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا  
تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يُصْرِيُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ  
بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ  
أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾

[الْأَمْرُ بِتَذَكُّرِ الْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِتَذَكُّرِ الْقُرْآنِ وَتَفَهْمِهِ وَنَاهِيًا عَنِ  
الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ  
أَقْفَالُهَا﴾ أَيُّ: بَلْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا، فِيهِ مُطَبَّعَةٌ لَا  
يُخْلَصُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ مَعَانِيهِ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ  
عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا  
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ فَقَالَ شَابٌ مِنْ  
أَهْلِ الْيَمَنِ: بَلْ عَلَيْهَا أَقْفَالُهَا حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى يَفْتَحُهَا  
أَوْ يَفْرِجُهَا، فَمَا زَالَ الشَّابُّ فِي نَفْسِ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
حَتَّى وُلِّيَ، فَاسْتَعَانَ بِهِ<sup>(٣)</sup>.

[ذَمُّ الْأَرْتِدَادِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا  
تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أَيُّ: فَارْقُوا الْإِيمَانَ وَرَجِعُوا إِلَى  
الْكُفْرِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾  
أَيُّ: زَيَّنَ لَهُمْ ذَٰلِكَ وَحَسَّنَهُ ﴿وَأَمَلَّ لَهُمْ﴾ أَيُّ غَرَّهُمْ  
وَحَدَعَهُمْ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ  
سَطَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أَيُّ مَا لَوْ وَهُمْ وَنَاصِحُوهُمْ فِي  
الْبَاطِنِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَهَٰذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ  
مَا يُبْطِنُونَ. وَلِهَٰذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾  
أَيُّ: مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُخْفُونَ، اللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِهِ،  
كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْشِرُونَ﴾

[النساء: ٨١].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يُصْرِيُونَ  
وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ أَيُّ: كَيْفَ حَالُهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ  
لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ، وَتَعَاصَبِ الْأَرْوَاحِ فِي أَجْسَادِهِمْ

فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلِتَبْلُوكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ  
الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾  
[كَشَفُ سِرِّ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ أي: أَيْتَقَدُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَكْشِفُ أَمْرَهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ سَيُوضَحُ أَمْرُهُمْ وَيُجْلِيهِ حَتَّى يَهْمَهُمْ ذُووُ الْبَصَائِرِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ سُورَةَ بَرَاءَةٍ فِيهَا فَضَائِحُهُمْ، وَمَا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى نِفَاقِهِمْ، وَلِهَذَا كَانَتْ تُسَمَّى الْفَاضِحَةِ. وَالْأَضْعَانُ: جَمْعُ ضِعْنٍ وَهُوَ مَا فِي الثُّفُوسِ مِنَ الْحَسِدِ وَالْحَقْدِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَالْقَائِمِينَ بِنَصْرِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَكُمُ فَعْرَفَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: وَلَوْ نَشَاءُ يَا مُحَمَّدُ لَأَرَيْنَاكَ أَشْخَاصَهُمْ فَعَرَفْتَهُمْ عَيْنًا، وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ تَعَالَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ سِتْرًا مِنْهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَحَمَلًا لِلْأُمُورِ عَلَى ظَاهِرِ السَّلَامَةِ وَرَدًّا لِلْسَّرَائِرِ إِلَى عَالِمِهَا ﴿وَلِتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: فِيمَا يَبْدُو مِنْ كَلَامِهِمُ الدَّالِّ عَلَى مَقَاصِدِهِمْ، يَهْمُ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ أَى الْحِزْبَيْنِ هُوَ، بِمَعْنَى كَلَامِهِ وَقُحْوَاهُ، وَهُوَ الْمُرَادُّ مِنْ لَحْنِ الْقَوْلِ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ عَلَى صَفْحَاتٍ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِتَبْلُوكُمْ﴾ أي: لِنُخْبِرَنَّكُمْ بِالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ وَلَيْسَ فِي تَقْدِيمِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى - بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَنَّهُ سَيَكُونُ - شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ، فَالْمُرَادُّ حَتَّى نَعْلَمَ وَفُوعُهُ، وَلِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي مِثْلِ هَذَا: إِلَّا لِنَعْلَمَ أَيْ: لِنَرَى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرِيَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾

[إِحْبَاطُ عَمَلِ الْكُفَّارِ وَالْأَمْرُ بِمِلَاحِقَتِهِمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَخَالَفَ الرَّسُولَ وَشَاقَّهُ، وَارْتَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ

الْهُدَى أَنَّهُ لَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ وَيَخْسَرُهَا يَوْمَ مَعَادِهَا، وَسَيُحِطُّ اللَّهُ عَمَلَهُ فَلَا يُشِيبُهُ عَلَى سَالِفٍ مَا تَقَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ - الَّذِي عَقَبَهُ بِرَدِّهِ - مِثْقَالُ بَعْضَةٍ مِنْ خَيْرٍ، بَلْ يُحِطُّهُ وَيَمَحُّهُ بِالْكَلْبَةِ كَمَا أَنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ [مُحَمَّدٌ] بْنُ نَصْرِ الْمَرْوَزِيُّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ذَنْبٌ كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشَّرِّكَ عَمَلٌ فَتَرَلَّتْ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فَخَافُوا أَنْ يُبْطِلَ الذَّنْبُ الْعَمَلَ <sup>(١)</sup>. ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَشَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَرَى أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْحَسَنَاتِ إِلَّا مَقْبُولٌ حَتَّى تَرَلَّتْ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فَقُلْنَا: مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؟ فَقُلْنَا: الْكِبَائِرُ الْمُوجِبَاتُ وَالْفَوَاحِشُ حَتَّى تَرَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] فَلَمَّا تَرَلَّتْ كَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ، فَكُنَّا نَخَافُ عَلَى مَنْ أَصَابَ الْكِبَائِرُ وَالْفَوَاحِشُ، وَتَرْجُو لِمَنْ لَمْ يُصِبْهَا <sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الَّتِي هِيَ سَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْارْتِدَادِ الَّذِي هُوَ مُبْطِلٌ لِلْأَعْمَالِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: بِالرَّدِّ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ... الْآيَةُ [النساء: ١١٦]. ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ أي: لَا تَضَعُفُوا عَنِ الْأَعْدَاءِ ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أي: الْمُهَادَنَةِ، وَالْمُسَالَمَةِ، وَوَضَعَ الْقِتَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ، فِي حَالِ قُوَّتِكُمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ وَعَدُوَّتِكُمْ - وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: فِي حَالِ غُلُوبِكُمْ عَلَى عَدُوَّتِكُمْ - فَمَا إِذَا كَانَ الْكُفَّارُ فِيهِمْ قُوَّةٌ وَكَثْرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَأَى الْإِمَامُ فِي الْمُهَادَنَةِ، وَالْمُعَاهَدَةِ مَضْلَحَةً فَلَمْ أَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَدَّهُ كُفَّارٌ قُرَيْشٍ عَنْ مَكَّةَ وَدَعَا إِلَى الصُّلْحِ. وَوَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَشْرَ سِنِينَ؟ فَأَجَابَهُمْ ﷺ إِلَى ذَلِكَ.



سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ  
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾  
وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ  
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِيدَهُمْ مِنْهُمْ وَلِيُخْرِجَهُمُ الْغُلُوبَ  
وَالْأَرْضَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ  
جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ  
سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ  
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ  
بِاللَّهِ طَبْعُ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ  
شَهِيدًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَتَعَزَّزُوا بِثَوْبِهِ وَنُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

### تفسير سورة الفتح وهي مدنية

#### [فضل سورة الفتح]

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مغلل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راجلته فرجع فيها. قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته<sup>(٢)</sup>. أخرجاه من حديث شعبة به<sup>(٣)</sup>.

#### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فِيهِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ﴿وَلَنْ يَرْكَدَ أَعْمَلُكُمْ﴾ أَي: وَلَنْ يُحِطَّهَا وَيُطْلَهَا وَيَسْلُبَكُمْ إِيَّاهَا، بَلْ يُوفِّقُكُمْ ثَوَابَهَا، وَلَا يَنْقُصُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّمَا لِلْمُتَّقِينَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَان تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِي حَيْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَتَخَرَّجَ أَصْعَانُكُمْ ﴿٣٧﴾ هَاسَتْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُسْهِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

#### [بيان حقارة الدنيا والحث على الإنفاق]

يَقُولُ تَعَالَى تَحْقِيرًا لِأَمْرِ الدُّنْيَا وَتَهْوِينًا لِشَأْنِهَا ﴿إِنَّمَا لِلْمُتَّقِينَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ﴾ أَي: حَاصِلُهَا ذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَقَّوْا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ أَي: هُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ لَا يَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئًا، وَإِنَّمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ الصَّدَقَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مُوَسَّاءَ لِإِخْوَانِكُمُ الْفُقَرَاءِ، لِيُعَوِّدَ نَفْعَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، وَيَرْجِعَ ثَوَابُهُ إِلَيْكُمْ، ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِي حَيْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَتَخَرَّجَ أَصْعَانُكُمْ﴾ وَيُخْرِجُكُمْ تَبَخَّلُوا قَالَ فَتَادَهُ: قَدْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ فِي إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ إِخْرَاجَ الْأَصْعَانِ<sup>(١)</sup>. وَصَدَقَ فَتَادَهُ؛ فَإِنَّ الْمَالَ مَحْبُوبٌ، وَلَا يُصْرَفُ إِلَّا فِيمَا هُوَ أَحَبُّ إِلَى الشَّخْصِ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَاسَتْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُسْهِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ أَي: لَا يُجِبُّ إِلَى ذَلِكَ ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أَي: إِنَّمَا نَقَصَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَجْرِ وَإِنَّمَا يُعَوِّدُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أَي: عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَبِيرٌ إِلَيْهِ دَائِمًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أَي بِالذَّاتِ إِلَيْهِ، فَوَضَعَهُ بِالْغَنَى وَضَفَّ لَارِمَ لَهُ، وَوَضَفَّ الْخَلْقُ بِالْفَقْرِ وَضَفَّ لَارِمَ لَهُمْ لَا يَتَكُونُونَ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ أَي: عَنْ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ شَرْعِهِ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أَي: وَلَكِنْ يَكُونُونَ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ لَهُ وَلَا وَاِمْرِهِ. أَجَرَ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقِتَالِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## [سَبَبُ نُزُولِ سُورَةِ الْفَتْحِ]

نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ، حِينَ صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [لِیَقْضِي] عُمْرَتَهُ فِيهِ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَالُوا إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالْمُهَادَاةِ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَامَهُ هَذَا، ثُمَّ يَأْتِيَ مِنْ قَابِلٍ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ عَلَى تَكْرُوهٍ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَمَّا نَحَرَ هَذِهِ حَيْثُ أُحْصِرَ وَرَجَعَ أَتَزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ السُّورَةَ يَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِهِمْ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الصُّلْحَ فَتَحًا بِأَعْيَانٍ مَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَمَا آَلَ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، كَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّكُمْ تَعْدُونَ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَّةِ. وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كُنَّا نَعُدُّ الْفَتْحَ إِلَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَعْدُونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً. وَالْحُدَيْبِيَّةُ بَنُو فَتَرْحَانَهَا، فَلَمْ تَنْزُكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنَانَا فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ تَمَضَّمَصَّ وَدَعَا ثُمَّ صَبَّ فِيهَا فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرَتْ مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرَكَائِبًا<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَزِدْ عَلَيَّ، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: ثَكِلْتُكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلْحَحْتَ كَرَّرْتَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَزِدْ عَلَيَّ. قَالَ: فَكَيْفَ رَاحِلَتِي فَحَرَكْتُ بَعِيرِي، فَتَقَدَّمْتُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ، قَالَ: فَإِذَا أَنَا بِمَتَادٍ يَا عُمَرُ، قَالَ: فَوَجَعْتُ وَأَنَا أَطْنُ أَنَّهُ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَزَلَ عَلَيَّ الْبَارِحَةُ سُورَةُ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾<sup>(٣)</sup> لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ<sup>(٤)</sup>». وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ عَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ هَذَا إِسْنَادٌ مَدَنِيٌّ جَيِّدٌ لَمْ نَجِدْهُ إِلَّا عَنْهُمْ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ قَالَ: نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجِعُهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ أَتَزَلْتُ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ» ثُمَّ قَرَأَهَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: هِنَبًا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ اللَّهِ، [لَقَدْ] بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَفْعَلُ بِكَ، فَمَاذَا يَفْعَلُ بِنَا؟ فَتَرَكْتُ عَلَيْهِ ﷺ ﴿لِيَنْظُرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ - حَتَّى بَلَغَ - ﴿فَوَرَا عَظِيمًا﴾<sup>(٦)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ ﷺ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»<sup>(٨)</sup> أَخْرَجَاهُ وَبَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ<sup>(٩)</sup>. قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أَيُّ: بَيَّنَّا ظَاهِرًا، وَالْمُرَادُ بِهِ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَإِنَّهُ حَصَلَ بِسَبَبِهِ خَيْرٌ جَزِيلٌ، وَأَمِنَ النَّاسُ وَاجْتَمَعَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَتَكَلَّمَ الْمُؤْمِنُونَ مَعَ الْكَافِرِ، وَانْتَشَرَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْإِيمَانُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ ﷺ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، وَلَيْسَ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ - فِي ثَوَابِ الْأَعْمَالِ - لِعَيرِهِ: غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. وَهَذَا فِيهِ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ ﷺ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبِرِّ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي لَمْ يَنْتَلِهَا بَشَرٌ سِوَاهُ لَا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الْآخِرِينَ، وَهُوَ ﷺ أَكْمَلَ النَّبَشْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَسَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَلَمَّا كَانَ أَطْوَعَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى [لِللَّهِ] وَأَشَدَّهُمْ تَعْظِيمًا لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ قَالَ حِينَ بَرَكْتَ بِهِ النَّافَةُ: «حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ» ثُمَّ قَالَ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا يُعْظَمُونَ بِهِ حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا»<sup>(١٠)</sup>. فَلَمَّا أَطَاعَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ وَأَجَابَ إِلَى الصُّلْحِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾<sup>(١١)</sup> لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبَيَّنَّ تَعَمُّدَهُ عَلَيْكَ أَيُّ: فِي

(١) الطبري: ٢٠١/٢٢ (٢) فتح الباري: ٥٥٥/٧ (٣) أحمد: ٣١/٨ (٤) فتح الباري: ٦٧٥/٨ ونحفة الأحوذى: ١٤٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٦١/٦ (٥) أحمد: ١٩٧/٣ (٦) فتح الباري: ٥١٦/٧ ومسلم: ١٤١٣/٣ (٧) أحمد: ٥٥/٤ (٨) البخاري: ٤٨٣٦ ومسلم: ٢٨١٩ والترمذي: ٤١٢ والنسائي: ٣/٢١٩ وابن ماجه: ١٤١٩ (٩) فتح الباري: ٣٨٨/٥

بَلْ يَغْفِرُ وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ وَيَرْحَمُ وَيَشْكُرُ ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾... الْآيَةُ [آل عمران: ١٨٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ طَرَفَ السَّوءِ﴾ أَيْ: يَتَّهِمُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِي حُكْمِهِ وَيَظُنُّونَ بِالرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ يُقْتُلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ ذَاكِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أَيْ: أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُؤَكِّدًا لِفُذْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْأَعْدَاءِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَمِنَ الْكُفْرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُسِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ٨ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوهُ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠﴾

[صِفَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أَيْ: عَلَى الْخَلْقِ ﴿وَمُسِيرًا﴾ أَيْ: لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَنَذِيرًا﴾ أَيْ: لِلْكَافِرِينَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُ وَاحِدٍ: تُعَظِّمُوهُ ٣ ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ مِنَ التَّوَقُّيرِ وَهُوَ الْإِحْتِرَامُ وَالْإِجْلَالُ وَالْإِعْظَامُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أَيْ: تُسَبِّحُونَ اللَّهَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَيْ: أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ.

[بَيَعَةُ الرِّضْوَانِ]

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ تَشْرِيفًا لَهُ وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: هُوَ حَاضِرٌ مَعَهُمْ يَسْمَعُ أَقْوَالَهُمْ وَيَرَى مَكَانَهُمْ وَيَعْلَمُ صَمَائِرَهُمْ وَظَوَائِرَهُمْ فَهُوَ تَعَالَى هُوَ الْمُبَايِعُ بِوَاسِطَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْبِلُونَ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَيْ: بِمَا يَشْرَعُهُ لَكَ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ وَالَّذِينَ الْقَوِيمِ ﴿وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أَيْ: بِسَبَبِ خُصُوعِكَ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَرْفَعُكَ اللَّهُ وَيُنْصِرُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ﴿وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى﴾ ١١. وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا عَاقَبْتُ أَحَدًا عَصَى اللَّهَ تَعَالَى فِيكَ، بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِ.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ٤ ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ٥ ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ طَرَفَ السَّوءِ عَلَيْهِمْ ذَاكِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ٦ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ٧

[نُزُولُ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أَيْ: جَعَلَ الطَّمَأِينَةَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْوَقَارُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَانْقَادُوا لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ وَاسْتَقَرَّتْ رَأْسُهُمْ إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَا الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَى تَفَاضُلِ الْإِيْمَانِ فِي الْقُلُوبِ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَانتَصَرَ مِنَ الْكَافِرِينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: وَلَوْ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مَلَكًا وَاحِدًا لَأَبَادَ خَضِرَاءَهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْجِهَادَ وَالْقِتَالَ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَةِ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ٢ قَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جِئْنَ قَالُوا: هَيِّنَا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لَكَ فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ٢ أَيْ: مَا كَيْفَ فِيهَا أَبَدًا ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أَيْ: خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبَهُمْ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا،

(١) مسلم: ٢٠٠١/٤ (٢) فتح الباري: ٥١٦/٧ (٣) الطبري:

إِيَّاهَا وَغَلَطِي عَلَيْهَا، وَلَكِنِّي أَذْلَكُ عَلَى رَجُلٍ أَعَزَّ بِهَا مِنِّي عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نَبَعْتُهُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَشْرَافَ قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا النَّبِيِّ وَمُعْظَمًا لِحُرْمَتِهِ. فَخَرَجَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ إِلَى مَكَّةَ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ أَوْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ أَجَارَهُ حَتَّى بَلَغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْطَلَقَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظَمَاءَ قُرَيْشٍ، فَبَلَّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ، فَقَالُوا لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالنَّبِيِّ فَطُفْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَاحْتَسَبْتُهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَلَبَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ قُتِلَ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ: «لَا تَبْرَحْ حَتَّى تُنَاجِرَ الْقَوْمَ».

وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى النَّبِيعَةِ، فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: بَايَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَوْتِ، وَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَبَايِعَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعَنَا عَلَى أَنْ لَا نَفِرَ، فَبَايَعَ النَّاسُ، وَلَمْ يَتَخَلَفْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَهَا، إِلَّا الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ أَخُو بَنِي سَلِمْ، فَكَانَ جَابِرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا صِفًا يَاطِرُ نَاقِيَةً قَدْ صَبَأَ إِلَيْهَا يَسْتَرِبُّ بِهَا مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَاطِلًا<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَبَايَعَ النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَاجَةِ رَسُولِهِ» فَضَرَبَ بِأُخْدَى

سِكِّيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبِيرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ. وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ<sup>(٩)</sup>. [التوبة: ١١١].

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيزَتْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيُّ: ثَوَابًا جَزِيلًا. وَهَذِهِ النَّبِيعَةُ هِيَ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ، وَكَانَتْ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَمَرَةٍ بِالْحُدَيْبِيَّةِ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ قِيلَ: أَلْفًا وَثَلَاثُمِائَةٍ، وَقِيلَ: وَأَرْبَعُمِائَةٍ، وَقِيلَ: وَخَمْسُمِائَةٍ، وَالْأَوْسَطُ أَصَحُّ.

### ذَكَرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ

رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَلْفًا وَأَرْبَعُمِائَةٍ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>. وَأَخْرَجَاهُ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا يَوْمَئِذٍ أَلْفًا وَأَرْبَعُمِائَةٍ. وَوَضَعَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الْمَاءِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ حَتَّى رَوَّاهُ كُلُّهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا مُخْتَصَرٌ مِنْ سِيَاقٍ آخَرَ حِينَ ذَكَرَ قِصَّةَ عَطِيَّتِهِمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَاهُمْ سَهْمًا مِنْ كِتَابَتِهِ فَوَضَعُوهُ فِي بَثْرِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَجَاشَتْ بِالْمَاءِ حَتَّى كَفَتْهُمْ، فَقِيلَ لَجَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: كُنَّا أَلْفًا وَأَرْبَعُمِائَةٍ، وَلَوْ كُنَّا مِائَةً أَلْفٍ لَكُنَّا<sup>(٤)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: كَمْ كَانَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ؟ قَالَ: خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً، قُلْتُ: فَإِنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانُوا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً؟ قَالَ: رَجِمَهُ اللَّهُ، وَهُمْ، هُوَ حَدَّثَنِي أَنَّهُمْ كَانُوا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً<sup>(٦)</sup>. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: هَذِهِ الرِّوَايَةُ تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي الْقَدِيمِ يَقُولُ: خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً، ثُمَّ ذَكَرَ الْوَهْمَ فَقَالَ: أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً<sup>(٧)</sup>.

### ذَكَرُ سَبَبِ هَذِهِ النَّبِيعَةِ الْعَظِيمَةِ

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَّارٍ فِي السِّيَرَةِ: ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيُبَيِّتَهُ إِلَى مَكَّةَ، لِيُبَلِّغَ عَنْهُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مَا جَاءَ لَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ مِنْ بَنِي عَلِيٍّ بْنِ كَعْبٍ مَنْ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفْتُ قُرَيْشٌ عَدَاوَتِي

(١) فتح الباري: ٤٥١/٨ (٢) مسلم: ١٤٨٤/٣ (٣) فتح الباري: ٥٠٥/٧ ومسلم: ١٤٨٤/٣ (٤) فتح الباري: ٥٠٤/٧ (٥) فتح الباري: ٥٠٧/٧ ومسلم: ١٤٨٤/٣ (٦) فتح الباري: ٥٠٧/٧ (٧) دلائل النبوة: ٩٧/٤ (٨) ابن هشام: ٣/٣٣٠، ٣٢٩

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَدِمْنَا الْحُدَيْبِيَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لَا تَرْوِيهَا، فَقَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَبَاهَا يَعْنِي: الرِّكْبِيَّ، فِيمَا دَعَا وَإِمًا بَصَقَ فِيهَا فَجَاشَتْ، فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا إِلَى الْبَيْعَةِ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ، ثُمَّ بَايَعَ وَبَايَعَ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي وَسْطِ النَّاسِ قَالَ ﷺ: «بَايَعِي يَا سَلَمَةُ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ بَايَعْتُكَ فِي أَوَّلِ النَّاسِ. قَالَ ﷺ: «وَأَيْضًا». قَالَ وَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَزَلًا، فَأَعْطَانِي حَجَفَةً أَوْ دَرَقَةً، ثُمَّ بَايَعَ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ النَّاسِ، قَالَ ﷺ: «أَلَا تُبَايِعُ يَا سَلَمَةُ؟». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ بَايَعْتُكَ فِي أَوَّلِ النَّاسِ وَأَوْسَطِهِمْ. قَالَ ﷺ: «وَأَيْضًا». فَبَايَعْتُهُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا سَلَمَةُ، أَيْنَ حَجَفَتُكَ أَوْ دَرَقَتُكَ الَّتِي أَعْطَيْتُكَ؟». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقِينِي عَامِرٌ عَزَلًا فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّكَ كَالَّذِي قَالَ الْأَوَّلُ: اللَّهُمَّ أَنْجِنِي حَبِيبًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي».

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ رَاسَلُونَا فِي الصُّلْحِ حَتَّى مَشَى بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ فَاصْطَلَحْنَا. قَالَ: وَكُنْتُ حَادِمًا لِبُطْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْقِي فَرَسَهُ وَأَجْبَهُ<sup>(١)</sup> وَأَكُلْ مِنْ طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي -مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ- فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا فِي بَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجَرَةَ [فَكَسَحْتُ] شَوْكَهَا، ثُمَّ اصْطَلَجْتُ فِي أَصْلِهَا فِي ظِلِّهَا، فَأَتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنْ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقْعُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَبْغَضْتُهُمْ وَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى فَعَلَقُوا سِلَاحَهُمْ وَاصْطَلَجُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ قِيلَ ابْنُ رُثَيْمٍ. فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، فَشَدَدْتُ عَلَى

يَدِيهِ عَلَى الْأُخْرَى، فَكَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَيْرًا مِنْ أَيْدِيهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ نَافِعٍ قَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَشْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَرْسَلَ عَبْدَ اللَّهِ إِلَى فَرَسٍ لَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَأْتِي بِهِ، لِيُقَاتِلَ عَلَيْهِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ عِنْدَ الشَّجَرَةِ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَدْرِي بِذَلِكَ، فَبَايَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْفَرَسِ فَجَاءَ بِهِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْتَلِيمُ لِلْقِتَالِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَانْطَلَقَ فَذَهَبَ مَعَهُ حَتَّى بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ أَشْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا<sup>(٣)</sup>. ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ النَّاسَ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَفَرَّقُوا فِي ظِلَالِ الشَّجَرِ، فَإِذَا النَّاسُ مُحْدِقُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ - يَعْنِي عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: يَا عَبْدَ اللَّهِ، انْظُرْ مَا شَأْنُ النَّاسِ قَدْ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَهُمْ يُبَايِعُونَ فَبَايَعَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَخَرَجَ فَبَايَعَ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةً فَبَايَعْنَاهُ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخَذَ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ - وَهِيَ سَمُرَةٌ - وَقَالَ: بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَ، وَلَمْ تُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ وَالنَّبِيَّ ﷺ يُبَايِعُ النَّاسَ، وَأَنَا رَافِعٌ غَضًّا مِنْ أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ، وَنَحْنُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ: وَلَمْ تُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ. قَالَ يَزِيدُ: قُلْتُ: يَا أَبَا مَسْلَمَةَ، عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تُبَايِعُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا: عَنْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، ثُمَّ تَنَحَّيْتُ فَقَالَ ﷺ: «يَا سَلَمَةُ، أَلَا تُبَايِعُ؟». قُلْتُ: قَدْ بَايَعْتُ. قَالَ ﷺ: «أَقْبِلْ فَبَايِعْ». فَذَنُوتُ فَبَايَعْتُهُ، قُلْتُ: عَلَامَ بَايَعْتُهُ يَا سَلَمَةُ؟ قَالَ: عَلَى الْمَوْتِ<sup>(٨)</sup>. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبَادِ بْنِ تَمِيمٍ: أَنَّهُمْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ<sup>(١٠)</sup>.

(١) لم أجده في السنن الكبرى ولا في دلائل النبوة للبيهقي بل وجدت نحو هذا المعنى عند أبي داود ٢٧٢٦ والمزي في تهذيب الكمال ١٣٥/٤ عن ابن عمر وله طريق آخر صححه الحاكم والذهبي المستدرک مع التلخيص ٩٨/٣ وإسناده حسن. (٢) فتح الباري: ٥٢١/٧ (٣) فتح الباري: ٥٢١/٧ (٤) مسلم: ٣/١٤٨٣ (٥) مسلم: ١٤٨٥ (٦) فتح الباري: ١٣٦/٦ (٧) فتح الباري: ٢١١/١٣ (٨) مسلم: ١٤٨٦/٣ (٩) فتح الباري: ١٣٦ (١٠) أي أمشي إلى جنبه وفي رواية أحسّه وفي لفظ: أحلّ ظهره بالمحسّة - أفاده د/ البنا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٢

سُورَةُ الْفَتْحِ

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ  
فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ  
اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ  
مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ  
بِالْأَسْنَتِ هُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ  
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يُمَاتِعُكُمْ  
خَيْرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى  
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنْتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا  
وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا  
أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا  
رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى  
مَغَائِمٍ لِنَاخِذْهُمَا وَذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ بَرِيدُوكَ أَنْ يُبَدِّلُوا  
كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ  
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا أَحَدًا. قَالَتْ:  
بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَنْتَهُمَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهَا: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدَهَا﴾. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ قَالَ  
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَتَّبِعِي الَّذِينَ اتَّقُوا وَتَذَرِ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُنُثًا﴾»  
[مريم: ٧٢] رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١)</sup>. وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ قَالَ: إِنَّ عَبْدًا لِحَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ جَاءَ يَشْكُو حَاطِبًا  
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِيَدْخُلَنَّ حَاطِبُ النَّارَ. فَقَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «كَذَبْتَ لَا يَدْخُلُهَا فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا  
وَالْحُدَيْبِيَّةَ»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي النَّارِ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّ  
الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ

أُولَئِكَ الْأَرْبَعَةُ، وَهُمْ رُقُودٌ، فَأَخَذَتْ سِلَاحَهُمْ، وَجَعَلَتْهُ  
ضِعْفًا فِي يَدَيْ ثَمَّ قُلْتُ: وَالَّذِي كَرَّمُ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا  
يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلَّا ضَرْبَتْ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ قَالَ: ثُمَّ  
جِئْتُ بِهِمْ أَسْوَفُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَجَاءَ عَمِّي  
غَامِرُ بَرْجَلٍ مِنَ الْعَبِلَاتِ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزٌ، مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
يَقُودُهُ حَتَّى وَفَقْنَا بِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَبْعِينَ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ، فَظَنَرُ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «دَعُوهُمْ يَكُنْ  
لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَنِئَاهُ». فَعَمَّا عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنْزَلَ  
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَابَيْدَكُمْ عَنْهُمْ  
بِطَنٍ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٣)</sup>. . . . . الْآيَةُ  
[الفتح: ٢٣]، وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ نَحْوَهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ<sup>(٤)</sup>.

وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: كَانَ  
أَبِي وَمِنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا  
مِنْ قَابِلٍ حَاجِينَ فَخَفِي عَلَيْنَا مَكَانُهَا، فَإِنْ كَانَ بَيَّتَ لَكُمْ  
فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ الْحَمِيدِيُّ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ  
وَجَدْنَا رَجُلًا مِتًا يُقَالُ لَهُ الْجَدُّ ابْنُ قَيْسٍ مُخْتَبِئًا تَحْتَ إِبطِ  
بَعِيرِهِ<sup>(٦)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى الْحَمِيدِيُّ أَيْضًا عَنْ عَمْرٍو  
أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَلْفًا  
وَأَرْبَعِمِائَةً فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ  
الْيَوْمَ» قَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ كُنْتُ أَبْصُرُ لَأَرَيْتُكُمْ  
مَوْضِعَ الشَّجَرَةِ<sup>(٨)</sup>. قَالَ شَفِيانٌ: إِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي  
مَوْضِعِهَا. أَخْرَجَاهُ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ  
أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»<sup>(١٠)</sup>.

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ  
النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ يَصْعَدُ الشَّيْءَ نَيْبَةَ الْمُرَارِ فَإِنَّهُ يُحِطُّ  
عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ صَعِدَ خَيْلُ  
بَنِي الْخَزَرَجِ، ثُمَّ تَبَادَرَ النَّاسُ بَعْدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:  
«كُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ». فَقُلْنَا:  
تَعَالَى يَسْتَغْفِرُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: وَاللَّهِ، لَأَنْ أَجِدَ  
ضَالَّتِي أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ، فَإِذَا هُوَ  
رَجُلٌ يُنْشِدُ ضَالَةً. رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بِهِ<sup>(١١)</sup>.

وَعَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:  
أَخْبَرْتَنِي أُمُّ مُبَشَّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ  
حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

(١) دلائل النبوة: ١٣٨/٤ (٢) مسلم: ١٨٠٧ (٣) فتح  
الباري: ٥١٢/٧ ومسلم: ١٤٨٥/٣ (٤) مسند الحميدي: ٢/٢  
٥٣٧ (٥) مسلم: ١٤٨٣/٣ (٦) مسند الحميدي: ١٤٢/٢  
(٧) فتح الباري: ٥٠٧/٧ ومسلم: ١٤٨٤/٣ (٨) أحمد: ٣/٣  
٣٥٠ (٩) مسلم: ٢١٤٤/٤ ولم يوجد في المسند  
وزوائده (١٠) مسلم: ١٩٤٢/٤ (١١) مسلم: ١٩٤٢/٤

يَسْأَلُكَ وَيُغْذِبُكَ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١﴾ أَيْ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ وَخَضَعَ لَدَيْهِ.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْذَرُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غُزَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ، إِذْ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى خَيْبَرَ يَفْتَحُونَهَا: أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُمْ إِلَى الْمَغْنَمِ، وَقَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ وَقْتِ مُحَارَبَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ وَمُصَابَرَتِهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَأْذَنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، مُعَاقِبَةً لَهُمْ مِنْ جَنَسِ ذَنْبِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ بِمَغَانِمَ خَيْبَرَ وَخَدَّعَهُمْ، لَا يُسَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ الْمُتَخَلِّفِينَ، فَلَا يَبْقَعُ غَيْرُ ذَلِكَ شَرْعًا وَلَا قَدْرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَجُوزَيْرٌ: وَهُوَ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٣). ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ قَبْلَ سُؤْلِكُمْ الْخُرُوجَ مَعَهُمْ ﴿سَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْذَرُونَ﴾ أَيْ: أَنْ تَشْرِكَكُمْ فِي الْمَغَانِمِ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَلَكِنْ لَا فَهْمَ لَهُمْ.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ أَوْ يُبَدِّلُوا قُلُوبَهُمْ فَإِنْ ظُنُّوْا أَنَّ اللَّهَ جَارًا لَهُمْ فَاذْهَبُوا وَلَا عَلَى الْأَعْرَابِ أَنْ يُدْعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَهُمْ يُغْذَبُونَ﴾ (١٣) لَيْسَ عَلَى الْأَعْرَابِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَاجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَؤْخَذْ بِهِ عَذَابًا

أَلِيمًا ﴿١٤﴾

[الْإِخْبَارُ بِمَزِيدِ الْجِهَادِ وَأَنَّهُ يَكُونُ فُرْقَانًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ]

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَوْلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَيْهِمْ، الَّذِينَ هُمْ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ، عَلَى أَقْوَالٍ؛ (أَحَدُهَا): أَنَّهُمْ هَوَازِنٌ. رَوَاهُ شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَوْ

فَإِنَّمَا يَنْبَغُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسْأَلُكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٦﴾﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِتَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّتْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّتِ السَّوَّةَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٩﴾﴾

[الْعُذْرُ الْمَكْدُوبُ مِمَّنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَوَعِدَ اللَّهُ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِمَا يَعْتَذِرُ بِهِ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْمَقَامَ فِي أَهْلِيهِمْ وَشُعْلِهِمْ، وَتَرَكُوا الْمَسِيرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاعْتَذَرُوا بِشُغْلِهِمْ بِذَلِكَ وَسَأَلُوا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ، وَذَلِكَ قَوْلُ مِنْهُمْ لَا عَلَى سَبِيلِ الْأَعْتِقَادِ، بَلْ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ وَالْمُضَانَعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِآلِسَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ فِيكُمْ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِسَرَائِرِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ، وَإِنْ صَانَعْتُمُونَا وَتَأَفَّقْتُمُونَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِتَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أَيْ: لَمْ يَكُنْ تَخَلُّفُكُمْ تَخَلَّفَ مَعْدُورٍ وَلَا عَاصٍ، بَلْ تَخَلَّفَ نِفَاقٍ وَاعْتَقَدْتُمْ أَنَّهُمْ يُقْتَلُونَ، وَتُسْتَأْصَلُ شَأْفَتُهُمْ، وَتُسَبِّدُ خَضِرَاؤُهُمْ، وَلَا يَرْجِعُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّتِ السَّوَّةَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أَيْ: هَلَكَى. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (١). وَقَالَ قَتَادَةُ: فَاسِيدِينَ (٢). وَقِيلَ: هِيَ لُغَةُ عُمَانَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيْ: مَنْ لَمْ يُلْخِصِ الْعَمَلُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُعَذِّبُهُ فِي السَّعِيرِ، وَإِنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ مَا يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ. ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ

(١) الطبري: ٢٢/٢١٤ (٢) الطبري: ٢٢/٢١٤ (٣) الطبري:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٣

سُورَةُ الْفَتْحِ

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ  
نُقْلِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا  
وَلِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلٍ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ أَلَيْسَ  
عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ  
وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ  
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ  
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٩﴾ وَمَعَانِهِ  
كَثِيرَةٌ يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٢٠﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ  
مَعَانِهِ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ  
النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا  
مُسْتَقِيمًا ﴿٢١﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا  
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٢﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لَوْ لَوْ الْأَذْبُرُ لَكُمْ لَا يَجِدُوكَ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٣﴾ سُنَّةَ  
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٤﴾

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ طَارِقٍ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
قَالَ: انْطَلَقْتُ حَاجًّا، فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ فَقُلْتُ: مَا هَذَا  
الْمَسْجِدُ؟ قَالُوا: هَذِهِ الشَّجَرَةُ حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ، فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنِ الْمُسَيَّبِ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ  
سَعِيدٌ: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ  
الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ نَسِينَاهَا فَلَمْ  
نَقْدِرْ عَلَيْهَا. فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ  
يَعْلَمُوهَا وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ، فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ. (١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أَيُّ: مِنَ الصِّدْقِ  
وَالْوَفَاءِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وَهِيَ الطَّمَأْنِينَةُ  
عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿وَهُوَ مَا أَجْرَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

عِكْرَمَةً أَوْ جَمِيعًا<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ هُشَيْمٌ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ عَنْهُمَا<sup>(٢)</sup>.  
وَبِهِ يَقُولُ قَتَادَةُ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ<sup>(٣)</sup>. (الثَّانِي): تَقِيْفٌ. قَالَهُ  
الصَّحَّاحُ. (الثَّلَاثُ): بَنُو حَنِيفَةَ. قَالَهُ جُوَيْرٌ، وَرَوَاهُ  
مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى مِنْهُ عَنْ سَعِيدٍ  
وَعِكْرَمَةَ<sup>(٥)</sup>. (الرَّابِعُ): هُمْ أَهْلُ فَارَسَ. رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي  
طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَبِهِ يَقُولُ عَطَاءٌ  
وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ فِي إِحْدَى الرِّوَايَاتِ عَنْهُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ كَعْبُ  
الْأَخْبَارِ: هُمْ الرُّومُ<sup>(٧)</sup>. وَعَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى وَعَطَاءٍ  
وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ: هُمْ فَارَسُ وَالرُّومُ<sup>(٨)</sup>. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: هُمْ  
أَهْلُ الْأَوْتَانِ<sup>(٩)</sup>. وَعَنْهُ أَيْضًا: هُمْ رِجَالُ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ،  
وَلَمْ يَعْينَ فِرْقَةً. وَبِهِ يَقُولُ ابْنُ جُرَيْجٍ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ  
جُرَيْجٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نُقْلِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يَعْنِي: شَرَعَ لَكُمْ  
جِهَادَهُمْ وَقِتَالَهُمْ، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِمْ، وَلَكُمُ  
النُّصْرَةُ عَلَيْهِمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَيَدْخُلُونَ فِي دِينِكُمْ بِلَا قِتَالٍ، بَلْ  
بِاخْتِيَارٍ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ أَيُّ: تَسْتَجِيبُوا وَتَقْبَلُوا  
فِي الْجِهَادِ وَتَوَدُّوا الَّذِي عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا  
وَلِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْنِي: زَمَنَ الْحُدُوبِيَّةِ، حَيْثُ  
دُعِيتُمْ فَتَخَلَّفْتُمْ ﴿بِعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

[الْأَعْدَارُ الشَّرْعِيَّةُ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ مَعَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ]  
ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى الْأَعْدَارَ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ، فَمِنْهَا لَازِمٌ  
كَالْعَمَى وَالْعَرَجِ الْمُسْتَمِرِّ، وَعَارِضٌ كَالْمَرَضِ الَّذِي يَطْرَأُ  
أَيَّامًا ثُمَّ يَزُولُ، فَهُوَ فِي حَالٍ مَرَضِهِ مُلْحَقٌ بِذَوِي الْأَعْدَارِ  
اللَّازِمَةِ حَتَّى يَبْرَأَ. ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُرَعِّيًا فِي الْجِهَادِ  
وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أَيُّ: يَنْكُلُ عَنِ الْجِهَادِ، وَيُقْبِلُ  
عَلَى الْمَعَاشِ ﴿يُعَذِّبْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فِي الدُّنْيَا بِالْمَدَلَّةِ وَفِي  
الْآخِرَةِ بِالنَّارِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ  
فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾<sup>(١٠)</sup>  
وَمَعَانِهِ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

[الْبَشَارَةُ بِالرِّضَا وَالْمَغَانِمِ لِأَهْلِ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ]  
يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ رِضَا عَنْ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ عِدَّتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا  
أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ كَانَتْ سَمَرَةً بِأَرْضِ الْحُدُوبِيَّةِ،

(١) الطبري: ٢٢٠/٢٢ (٢) الطبري: ٢٢٠/٢٢ (٣) الطبري:

٢٢٠/٢٢ (٤) الطبري: ٢٢٠/٢٢ (٥) الطبري: ٢٢٠/٢٢

(٦) الطبري: ٢١٩/٢٢ والقرطبي: ٢٧٢/١٦ (٧) الطبري:

٢٢١/٢٢ (٨) الطبري: ٢١٩/٢٢ (٩) الدر المنثور: ٧/

٥٢٠ (١٠) فتح الباري: ٥١٢/٧



وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ  
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٤٤﴾ هُمُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ  
مَعَكُمْ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ، وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ  
لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ  
لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ شَاءَ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ  
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ  
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى  
وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٦﴾  
لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءُيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ  
الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ  
لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ  
فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٤٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ  
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٤٨﴾

اللهُ عَنْهُمَا: هِيَ خَيْرٌ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا، عَلَى قَوْلِهِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ  
وَجَلَّ: ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾: إِنَّهَا صَلُحَ الْحُدُيَّةِ. وَقَالَ  
الضَّحَّاكُ وَابْنُ إِسْحَاقَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ<sup>(٤)</sup>.  
وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَكَّةُ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ  
أَبِي لَيْلَى وَالْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ: هِيَ فَارِسُ وَالرُّومِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ  
مُجَاهِدٌ: هِيَ كُلُّ فَتْحٍ وَغَنِيمَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى  
أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:  
﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قَالَ: هَذِهِ  
الْفَتْوحُ الَّتِي تَفْتَحُ إِلَى الْيَوْمِ<sup>(٨)</sup>.

[لَوْ قَاتَلَ كُفَّارُ مَكَّةَ بِالْحُدُيَّةِ لَفَرُّوا وَلَمْ يَضْمُدُوا]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَرُ ثُمَّ لَا

عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الصُّلْحِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ، وَمَا حَصَلَ  
بِذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ الْعَامِّ الْمُسْتَمِرِّ الْمُتَّصِلِ بِفَتْحِ خَيْبَرَ وَفَتْحِ  
مَكَّةَ، ثُمَّ فَتْحِ سَائِرِ الْبِلَادِ وَالْأَقَالِيمِ عَلَيْهِمْ، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ  
مِنَ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالرَّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ. وَكَفَّ  
أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا  
مُسْتَقِيمًا﴾<sup>(١٠)</sup> وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا<sup>(١١)</sup> وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَرُ ثُمَّ  
لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا<sup>(١٢)</sup> شَنَّ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ  
قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا<sup>(١٣)</sup> وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ  
وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرًا<sup>(١٤)</sup>

### [الْبَشَارَةُ بِالْمَغَانِمِ الْكَثِيرَةِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ  
كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هِيَ جَمِيعُ الْمَغَانِمِ إِلَى الْيَوْمِ ﴿فَعَجَلْ  
لَكُمْ هَذِهِ﴾: يَعْنِي: فَتْحَ خَيْبَرَ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾: يَعْنِي: صَلُحَ  
الْحُدُيَّةِ<sup>(٢)</sup>. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾: أَيُّ: لَمْ يَنْكَلِكُمْ سُوءَ  
مِمَّا كَانُوا أَعْدَاؤُكُمْ أَضْمَرُوهُ لَكُمْ مِنَ الْمُحَارَبَةِ وَالْقِتَالِ،  
وَكَذَلِكَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ الَّذِينَ خَلَقْتُمُوهُمْ وَرَاءَ  
ظُهُورِكُمْ عَنْ عِبَالِكُمْ وَحَرِيمِكُمْ ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾  
أَيُّ: يَعْتَبِرُونَ بِذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ  
عَلَى سَائِرِ الْأَعْدَاءِ مَعَ قِلَّةِ عَدُوِّهِمْ، وَلِيَعْلَمُوا بِصَنِيعِ اللَّهِ  
هَذَا بِهِمْ أَنَّهُ الْعَالِمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَأَنَّ الْخَيْرَةَ فِيمَا  
يَخْتَارُهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ كَرِهُوا فِي الظَّاهِرِ، كَمَا قَالَ  
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾  
[البقرة: ٢١٦] ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَيُّ: بِسَبَبِ  
انْقِيَادِكُمْ لِأَمْرِهِ وَاتِّبَاعِكُمْ طَاعَتَهُ، وَمُوَافَقَتِكُمْ رَسُولَهُ ﷺ.

### [الْبَشَارَةُ بِجَمِيعِ الْفَتْوحَاتِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ  
اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أَيُّ: وَغَنِيمَةً أُخْرَى  
وَفَتْحًا آخَرَ مُعَيَّنًا لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَيْهَا، قَدْ يَسَّرَهَا اللَّهُ  
عَلَيْكُمْ وَأَحَاطَ بِهَا لَكُمْ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ لَهُ  
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ  
الْغَنِيمَةِ، مَا الْمُرَادُ بِهَا؟ فَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ

(١) الطبري: ٢٢/٢٣٠ (٢) الطبري: ٢٢/٢٣٠ ضعف العوفي  
مبين (٣) الطبري: ٢٢/٢٣٣ العوفي تقدم حكمه (٤) الطبري:  
٢٢/٢٣٣، ٢٣٤ (٥) الطبري: ٢٢/٢٣٤ (٦) الطبري: ٢٢/  
٢٣٣ (٧) الطبري: ٢٢/٢٣٣ (٨) عند الطبري بهذا الطريق  
قال: فارس والروم وعن مجاهد: فافتحوا حتى اليوم: ٢٢/٢٣٣

يَعِدُّونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٥﴾ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ مُبَشِّرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، بَأَنَّهُ لَوْ نَاجَزَهُمُ الْمُشْرِكُونَ لَنَصَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَهَزَهُمْ جَيْشُ الْكُفْرِ قَارًا مُدِيرًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، لِأَنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ. ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُئِلَ اللَّهُ أَلَيْ قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أَيْ: هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ وَعَادَتُهُ فِي خَلْقِهِ، مَا تَقَابَلِ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ فِي مَوْطِنٍ فَفُضِلَ، إِلَّا نَصَرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ عَلَى الْكُفْرِ، فَرَفَعَ الْحَقُّ وَوَضَعَ الْبَاطِلَ، كَمَا فَعَلَ تَعَالَى يَوْمَ بَدْرٍ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ: نَصَرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مَعَ قَلِيلٍ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعُدْدِهِمْ وَكَثَرَةِ الْمُشْرِكِينَ وَعُدْدِهِمْ.

[حِكْمَةُ اللَّهِ فِي كَيْفِ الْقِتَالِ]

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هَذَا امْتِنَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ كَفَّ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ شَوْءٌ، وَكَفَّ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بَلْ صَانَ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَأَوْجَدَ بَيْنَهُمْ ضَلْحًا فِيهِ خَيْرَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَعَاقِبَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ جَاؤُوا بِأَوْلِيكَ السَّبْعِينَ الْأَسَارَى، فَأَوْثَقُوهُمْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَظَنَرُ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَرْسَلُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَنِئَاءً». قَالَ وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ... الْآيَةَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحُدَيْبِيَّةِ هَبَطَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِالسَّلَاحِ، مِنْ قِبَلِ جَبَلِ التَّئِيمِ، يُرِيدُونَ غَرَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأَخَذُوا. قَالَ عَفَّانُ: فَعَنَّا عَنْهُمْ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا<sup>(٢)</sup>.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ

مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوكُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا

الْإِسْمَاءِ ﴿٢٦﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

[وَقَعَ صَلَاحُ الْحُدَيْبِيَّةِ، مَعَ كَوْنِ الْمُؤْمِنِينَ أَصْحَابِ الْحَقِّ وَالْعَلِيَّةِ، وَذِكْرُ مَصَالِحِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَمَنْ مَالَاهُمْ عَلَى نُصْرَتِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ: هُمُ الْكُفَّارُ دُونَ غَيْرِهِمْ ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَيْ: وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ﴾ أَيْ: وَصَدُّوا الْهَدْيَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَحَلِّهِ، وَهَذَا مِنْ بَعْضِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَكَانَ الْهَدْيُ سَعِينٌ بَدَنَةٌ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ﴾ أَيْ: بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ وَمَنْ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ، وَيُخْفِيهِ مِنْهُمْ خِيفَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، لَكُنَّا سَلْطَنَاتُكُمْ عَلَيْهِمْ فَفَقَتَلْتُمُوهُمْ وَأَبَدْتُمْ خَضِرَاءَهُمْ، وَلَكِنْ بَيْنَ أَفْئَاتِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَقْوَامٌ لَا تَعْرِفُونَهُمْ حَالَةَ الْقَتْلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوكُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ﴾ أَيْ: إِنْهُمْ وَغَرَامَةٌ ﴿بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ: يُؤَخِّرُ عُقُوبَتَهُمْ لِيُخْلَصَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَرْجِعَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أَيْ: لَوْ تَمَيَّزَ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ﴿لَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيْ: لَسَلْطَنَاتُكُمْ عَلَيْهِمْ فَفَقَتَلْتُمُوهُمْ قَتْلًا ذَرِيعًا.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ﴾ وَذَلِكَ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَأَبَوْا أَنْ يَكْتُبُوا: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ: ﴿فَأُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾.

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَلِمَةُ التَّقْوَى: الْإِخْلَاصُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَطَاءُ ابْنِ أَبِي رَبَاحٍ: هِيَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ

(١) أحمد: ١٢٢/٣ (٢) مسلم: ١٤٤٢/٣ وأبو داود: ١٣٧/٣

وتحفة الأحوذى: ١٤٩/٩ والنسائي في الكبرى: ٦٤٤/٦

(٣) الطبري: ٢٥٥/٢٢ (٤) الطبري: ٢٥٦/٢٢

يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ،  
عَنِ الْمُسَوَّرِ: «وَأَلَزَمَهُمْ كَلِمَةُ النَّفْثِيِّ» قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا  
اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

[وَهَذَا ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي قِصَّةِ الْحَدِيثِيَّةِ

وَقِصَّةِ الصَّلْحِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ رَجَمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الشُّرُوطِ  
عَنِ الْمُسَوَّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، يُصَدِّقُ كُلُّ  
وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ، قَالَا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
زَمَنَ الْحَدِيثِيَّةِ فِي بَضْعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا أَتَى  
ذَا الْحُلَيْفَةِ قَلَّدَ الْهَذِي وَأَشْعَرَهُ وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمَرَةَ، وَبَعَثَ  
عَيْنًا لَهُ مِنْ خُرَاعَةٍ، وَسَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ  
أَتَاهُ عَيْنُهُ فَقَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا وَقَدْ  
جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ وَمَانِعُوكَ.  
فَقَالَ ﷺ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرُونَ أَنْ نَمِيلَ عَلَى  
عِيَالِهِمْ وَذُرَارِيِّ هَؤُلَاءِ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنْ  
الْبَيْتِ؟». وَفِي لَفْظٍ: «[أ]تَرُونَ أَنْ نَمِيلَ عَلَى ذُرَارِي هَؤُلَاءِ  
الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ قَدْ قَطَعَ عُنُقًا مِنْ  
الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْزُونِينَ». وَفِي لَفْظٍ: «فَإِنْ  
فَعَدُوا فَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَجْهُودِينَ مَحْزُونِينَ، وَإِنْ نَجَّوْا يَكُنْ  
عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. أَمْ تَرَوْنَ أَنْ نُوِّمَ الْبَيْتَ فَمَنْ  
صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلَنَاهُ».

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ  
عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبًا، فَتَوَجَّهَ لَهُ  
فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلَنَاهُ، وَفِي لَفْظٍ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَلَمْ نَجِءْ  
لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ مِنْ حَالِ بَيْنِنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ قَاتَلَنَاهُ، فَقَالَ  
النَّبِيُّ ﷺ: «فَرُوحُوا إِذَنْ». وَفِي لَفْظٍ: «فَامْضُوا عَلَى اسْمِ  
اللَّهِ تَعَالَى». حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:  
«إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ  
الْيَمِينِ». فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتْرَةِ الْجَنْشِ  
فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ  
بِالنَّيَّةِ الَّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ  
النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَالْحَتْ، فَقَالُوا: خَلَّاتِ الْقُصُوءُ،  
خَلَّاتِ الْقُصُوءُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقُصُوءُ  
وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلْقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ - ثُمَّ  
قَالَ ﷺ: - «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةَ يُعْظَمُونَ

فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَعْطَيْنَهُمْ إِيَّاهَا». ثُمَّ زَجَرَهَا  
فَوَثَّتَ فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحَدِيثِيَّةِ عَلَى ثَمَدٍ  
قَلِيلِ الْمَاءِ يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يَلْبَثِ النَّاسُ حَتَّى  
نَزَحُوا، وَشَكَّيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشَ، فَاَنْتَزَعَ ﷺ مِنْ  
كِتَابَتِهِ سَهْمًا ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ  
لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُرَاعِيُّ فِي  
نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُرَاعَةٍ - وَكَانُوا عَيْنَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
مِنْ أَهْلِ تِهَامَةٍ - فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤْيٍ وَعَامِرَ بْنَ  
لُؤْيٍ نَزَلُوا [أَعْدَادًا] مِيَاهِ الْحَدِيثِيَّةِ، مَعَهُمُ الْعُودُ الْمَطَافِيلُ  
وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّا  
لَمْ نَجِءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ  
نَهَكْتَهُمُ الْحَرْبَ، وَأَضْرَبَتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتَهُمْ مُدَّةً  
وَيُخْلَوُا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُ، فَإِنْ شَاءُوا أَنْ  
يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمَعُوا، وَإِنْ  
هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى  
تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ لَيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ». قَالَ بُدَيْلٌ: سَأَبْلَعُهُمْ مَا  
تَقُولُ. فَاَنْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا فَقَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَا مِنْ عِنْدِ  
هَذَا الرَّجُلِ وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ  
عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سَفَهَاؤُهُمْ: لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ  
بَشِيءٌ. وَقَالَ ذُووُ الرَّاْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ.  
قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَهُ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ. فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمِ الْأَسْثَمِ  
بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَوَلَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا: بَلَى،  
قَالَ: فَهَلْ تَتَّهَمُونَنِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي  
اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عَكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَغُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي  
وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ  
عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةً رُشِدَ فَاَقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِيَهُ. قَالُوا:  
آتِيَهُ، فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يَكْلِمُ النَّبِيَّ ﷺ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ نَحْوًا  
مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلِ بْنِ وَرْقَاءَ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيُّ  
مُحَمَّدٍ، أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ [أَمْرًا] قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ  
بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَصْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكَ الْأُخْرَى  
فَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَشْوَابًا مِنَ النَّاسِ  
خَلِيقًا أَنْ يَقْرَؤُوا وَيَدْعُوكَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:  
امْضُصْ بَطْرَ اللَّابِ، أَنْحُنْ نَفْرًا وَنَدْعُهُ؟ قَالَ: مَنْ ذَا؟ قَالُوا  
أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدُ [كَانَتْ] لَكَ

عَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ سَهِّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ». قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا. فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: «اَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». فَقَالَ سُهَيْلُ ابْنُ عَمْرٍو: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اَكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ». فَقَالَ سُهَيْلُ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ النَّبِيِّ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ [النَّبِيُّ ﷺ]: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ». قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «وَاللَّهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةَ يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَعْظَمْتُهُمْ إِيَّاهَا». فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَى أَنْ تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّبِيِّ فَتُطَوَّفَ بِهِ». فَقَالَ سُهَيْلُ: وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَا أُجِدُّنَا ضُعْفَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكُتِبَ، فَقَالَ سُهَيْلُ: وَعَلَى أَنْ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِثْلُ رَجُلٍ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كَيْفَ يَرُدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُبُورِهِ قَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَطْهَرِ الْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ سُهَيْلُ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَنْ أَقْاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». قَالَ: فَوَاللَّهِ إِذَا لَا أَصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَاجِرْهُ لِي». قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِرٍّ ذَلِكَ لَكَ قَالَ: «بَلَى فَاَفْعَلْ». قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ مَكْرَزُ: بَلَى قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيُّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَرَدَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟ وَكَانَ قَدْ غَدَبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَاتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ ﷺ: «بَلَى» قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ ﷺ: «بَلَى» قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي» قُلْتُ: أَوَلَسْتَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي

عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لِأَجْنَبِكَ. قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَلَّمَا كَلَّمَهُ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ ﷺ، وَالْمُعِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السِّيفُ وَعَلَيْهِ الْمِعْفَرُ، وَكُلَّمَا أَهْوَى غُرُوهَ يَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السِّيفِ وَقَالَ: أَخْرُ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَفَرَعَ غُرُوهَ رَأْسِهِ وَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: الْمُعِيرَةُ ابْنُ شُعْبَةَ. قَالَ: أَيُّ غَدْرٍ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرِكَ؟ وَكَانَ الْمُعِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَجَبٌ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَاسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلْ، وَأَمَّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

ثُمَّ إِنَّ غُرُوهَ جَعَلَ يَرْمِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَيْنَيْهِ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنْحَمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتُلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحْدِثُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ ﷺ، فَارْجِعْ غُرُوهَ إِلَى أَصْحَابِهِ. فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ! وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ وَوَفَدْتُ عَلَى كِشْرَى وَقَيْصَرَ وَالتَّجَاشِي، وَاللَّهِ، إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنْحَمُ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتُلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحْدِثُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِهِ. فَقَالُوا: آتِيهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا فُلَانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعْظَمُونَ الْبُذُنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ». فَبَعِثَتْ وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يَلْتَوْنَ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَصْدُوا عَنِ النَّبِيِّ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُذْنَ قَدْ قُلِدْتُ وَأَشْعِرْتُ فَمَا أَرَى أَنْ يَصْدُوا عَنِ النَّبِيِّ. فَفَافَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: مَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، فَقَالَ: دَعُونِي آتِهِ. فَقَالُوا: آتِيهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَذَا مَكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ» فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَقَالَ مَعْمَرٌ: أَخْبَرَنِي أَبُو ب

وَاللَّهُ - صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ. فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ نَجَّانِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلَ أُمِّهِمْ مَسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ أَحَدٌ».

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سِيرَدُهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبُحَيْرِ قَالَ: وَتَلَّكَ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلٍ بْنُ سَهْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اغْتَرَضُوا لَهَا، فَفَتَلَوْهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ. فَأَرْسَلْتُ قُرَيْشُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَنَاسِيْدُهُ اللَّهُ وَالرَّحِمَ لَمَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ: فَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ﴾ - حَتَّى بَلَغَ - ﴿حِيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وَكَانَتْ حِمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ<sup>(١)</sup>. هَكَذَا سَاقَهُ الْبُخَارِيُّ هَهُنَا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ فِي التَّفْسِيرِ<sup>(٢)</sup>، وَفِي عُمَرَةَ الْحُدَيْبِيَّةِ<sup>(٣)</sup>، وَفِي الْحَجِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ<sup>(٤)</sup>. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ: أَتَيْتُ أَبَا وَائِلَ أَسْأَلُهُ، فَقَالَ: كُنَّا بِصَفَيْنَ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَعَمْ. فَقَالَ سَهْلٌ بْنُ حُنَيْفٍ: أَتَاهُمَا أَنْفُسُكُمْ، فَلَقَدْ رَأَيْنَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ - يَعْنِي: الصُّلْحَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُشْرِكِينَ - وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ أَلَيْسَ قِتَالُنَا فِي الْجَنَّةِ وَقِتَالُهُمْ فِي النَّارِ؟ فَقَالَ: «بَلَى». قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدِّيْنَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا؟ فَقَالَ ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا». فَارْجَعَ مُتَعِظًا، فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى جَاءَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا، فَتَزَلَّتْ

النَّبِيَّتُ وَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ ﷺ: «بَلَى أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟». قُلْتُ: لَا. قَالَ ﷺ: «فَإِنَّكَ أَتَيْهِ وَمُطُوفٌ بِهِ». قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدَدُونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّيْنَ فِي دِينِنَا إِذَا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ فَاسْتَمْسِكْ بِعِزِّهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ. قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي النَّبِيَّتُ وَتَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَإِنَّكَ تَأْتِيهِ وَتَطُوفُ بِهِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا. قَالَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «فُؤُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ اخْلِقُوا». قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ﷺ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ ﷺ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، قَالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بَذَنِكَ وَتَدْعُو خَالِقَكَ فَيُخْلِقَكَ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بَذَنَهُ، وَدَعَا خَالِقَهُ فَخَلَقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَانْحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَخْلُقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فَطَلَّقَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ أَمْرَاتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشَّرِكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ فَقَالُوا: الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَا ذَا الْحُلْفَةِ فَتَزَلُّوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمَرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فَلَانُ جَيْدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرَ فَقَالَ: أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَيْدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ مِنْهُ ثُمَّ جَرَّبْتُ. فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ فَمَا مَكْنَهُ مِنْهُ فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَ الْآخَرَ حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَاهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا دُغْرًا». فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قُتِلَ -

(١) فتح الباري: ١٨٨/٥ (٢) فتح الباري: ٤٥١/٨ (٣) فتح الباري: ٥١٨/٧ (٤) فتح الباري: ٦٣٤/٣

أَرْسَلَ رَسُولُهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَكَفَىٰ  
بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

[بَيَانُ صِدْقِ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ]

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَأَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ  
وَطَافَ بِالْبَيْتِ فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا  
سَارُوا عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمْ يَشْكُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا  
تَتَفَسَّرُ هَذَا الْعَامَ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قَضِيَّةِ الصُّلْحِ،  
وَرَجَعُوا عَامَهُمْ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِلٍ، وَقَعَ فِي  
نَفْسِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رِضْيُ اللَّهِ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، حَتَّى  
سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رِضْيَ اللَّهِ عَنْهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ  
فِيمَا قَالَ: أَفَلَمْ تَكُنْ تُخْبِرُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟  
قَالَ: «بَلَىٰ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ عَامَكَ هَذَا؟». قَالَ: لَا.  
قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ». وَبِهَذَا أَجَابَ  
الصَّدِيقُ رِضْيَ اللَّهِ عَنْهُ أَيْضًا حَذْوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا  
قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ  
لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هَذَا لِتَحْقِيقِ الْخَبَرِ  
وَتَوْكِيدِهِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْأَسْتِثْنَاءِ فِي شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ عَزَّ  
وَجَلَّ: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ دُخُولِكُمْ. وَقَوْلُهُ:  
﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ وَمِنْهُمْ  
مَنْ قَصَرَهُ، وَتَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:  
«رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ». قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟  
قَالَ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ». قَالُوا: وَالْمُقَصِّرِينَ يَا  
رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ». قَالُوا:  
وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «وَالْمُقَصِّرِينَ». فِي  
الثَّلَاثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا  
تَخَافُونَ﴾ أَثْبَتَ لَهُمُ الْأَمْنَ حَالِ الدُّخُولِ، وَنَفَىٰ عَنْهُمْ  
الْخَوْفَ حَالِ اسْتِقْرَارِهِمْ فِي الْبَلَدِ، لَا يَخَافُونَ مِنْ أَحَدٍ،  
وَهَذَا كَانَ فِي عُمُرَةِ الْقَضَاءِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ سَبْعٍ، فَإِنَّ  
النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ رَجَعَ إِلَى  
الْمَدِينَةِ. فَأَقَامَ بِهَا ذَا الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمَ، وَخَرَجَ فِي صَفَرٍ  
إِلَى خَيْبَرَ، فَفَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْضُهَا عَوْنًا وَبَعْضُهَا صُلْحًا،  
وَهِيَ إِقْلِيمٌ عَظِيمٌ كَثِيرُ النَّحْلِ وَالزُّرُوعِ، فَاسْتَخْدَمَ مِنْ فِيهَا

سُورَةُ الْفَتْحِ. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ  
وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ أُخَرَ عَنْ أَبِي وَائِلٍ سُفْيَانَ بْنِ  
سَلَمَةَ، عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ بِهِ، وَفِي بَعْضِ الْأَفَاطِلِ: يَا أَيُّهَا  
النَّاسُ! اتَّهَمُوا الرَّأْيَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَلَوْ  
أَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ أُرَدَّ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرُهُ لَرَدَدْتُهُ. وَفِي  
رَوَايَةٍ: فَتَرَكْتُ سُورَةَ الْفَتْحِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُمَرَ بْنَ  
الْخَطَّابِ رِضْيَ اللَّهِ عَنْهُ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رِضْيَ اللَّهِ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ  
فُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ وَفِيهِمْ سَهْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ  
النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيِّ رِضْيَ اللَّهِ عَنْهُ: «اكْتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ». فَقَالَ سَهْلٌ: لَا تَذِرِي مَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكْتُبِ [مَا نَعْرِفُ] بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ.  
فَقَالَ ﷺ: «اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ» قَالَ: لَوْ نَعْلَمُ  
أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا تَبْتَغَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ  
أَبِيكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ»  
وَاسْتَرْطَوْا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَا تَرُدُّهُ عَلَيْهِمْ،  
وَمَنْ جَاءَهُمْ مِنَّا رَدَدْنَاهُ عَلَيْنَا. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،  
أَنْتَ كُتِبَ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبَدَهُ  
اللَّهُ»<sup>(٤)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رِضْيَ اللَّهِ  
عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا خَرَجَتْ الْحُرُورِيَُّّةُ اعْتَرَلُوا فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ صَالِحُ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لِعَلِيِّ  
رِضْيَ اللَّهِ عَنْهُ: «اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ  
رَسُولُ اللَّهِ» قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاكَ،  
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمُحْ يَا عَلِيُّ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي  
رَسُولُكَ، أَمُحْ يَا عَلِيُّ وَاتَّكُبْ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ  
ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ». وَاللَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ وَقَدْ مَحَا  
نَفْسَهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَحْوُهُ ذَلِكَ يَمْحُوهُ مِنَ النَّبُوَّةِ، أَخْرَجَتْ مِنْ  
هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِنَحْوِهِ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى  
الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِضْيَ اللَّهِ عَنْهُمَا قَالَ: نَحَرَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ سَبْعِينَ بُدْنَةً فِيهَا جَمَلٌ لِأَبِي  
جَهْلٍ، فَلَمَّا صُدَّتْ عَنِ الْبَيْتِ حَنْتَ كَمَا تَحْنُ إِلَى  
أَوْلَادِهَا<sup>(٨)</sup>.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ فَعَلِمَ  
مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٧﴾ هُوَ الَّذِي

(١) فتح الباري: ٤٥١/٨ (٢) أحمد: ٢٦٨/٣ (٣) مسلم: ١٤١١/٣ (٤) أحمد: ٣٤٢/١ (٥) أبو داود: ٣١٧/٣ (٦) أحمد: ٣١٤/١ (٧) فتح الباري: ٣٩٠/٥ (٨) فتح الباري: ٦٥٦/٣ ومسلم: ٩٤٦/٢

وَيُذْهِلِ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ  
قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ  
فِي صُحُفٍ تُنْثَلَى عَلَى رَسُولِهِ  
بِأَنَّ خَبَرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ  
يَارَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ  
فَهَذَا مَجْمُوعٌ مِنْ رَوَايَاتٍ مُتَّفَقَةٍ.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ وَقَدْ وَهَّتَهُمْ حُمَى يَثْرِبَ وَلَقُوا مِنْهَا سُوءًا، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يُقَدِّمُ عَلَيْكُمْ قَوْمٌ قَدْ وَهَّتَهُمْ حُمَى يَثْرِبَ، وَلَقُوا مِنْهَا شَرًّا، وَجَلَسَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ النَّاحِيَةِ الَّتِي تَلِي الْحَجَرَ، فَأُطْلِعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى مَا قَالُوا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلْدَهُمْ، قَالَ: فَرَمَلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَمْشُوا بَيْنَ الرُّكْبَيْنِ حَيْثُ لَا يَرَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَلَمْ يَمْنَعْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمِلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِنْبَاءَ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَى قَدْ وَهَّتَهُمْ هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا وَكَذَا<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٣)</sup>.

وَفِي لَفْظٍ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ يَعْنِي: مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يُقَدِّمُ عَلَيْكُمْ وَقَدْ قَدْ وَهَّتَهُمْ حُمَى يَثْرِبَ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمِلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ، وَلَمْ يَمْنَعَهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَرْمِلُوا الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِنْبَاءَ عَلَيْهِمْ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَامِيهِ الَّذِي اسْتَأْمَنَ قَالَ: "ارْمُلُوا". لِيُرِيَ الْمُشْرِكِينَ قُوَّتَهُمُ وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ قَبْلِ فُعَيْقَعَانَ<sup>(٥)</sup>. وَأَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّمَا سَعَى النَّبِيُّ ﷺ بِالْبَيْتِ وَبِالْصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ قُوَّتَهُ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، فَحَالَ كُفَارٌ فَرِيضٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَتَحَرَ هَذِيهِ وَحَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحُدَيْبِيَّةِ وَقَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يَعْتَمِرَ الْعَامَ الْمُقْبِلَ، وَلَا يَحْمِلُ سِلَاحًا عَلَيْهِمْ إِلَّا سِيُوفًا، وَلَا يُقِيمُ بِهَا إِلَّا مَا أَحْبَبُوا. فَاعْتَمَرَ ﷺ مِنَ الْعَامِ

مِنَ الْيَهُودِ عَلَيْهَا عَلَى الشَّطْرِ، وَقَسَمَهَا بَيْنَ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَخَدَمِهِمْ، وَلَمْ يَشْهَدْهَا أَحَدٌ غَيْرُهُمْ إِلَّا الَّذِينَ قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُهُ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَغِبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: إِلَّا أَبَا دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خُرْشَةَ<sup>(١)</sup>. كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

فَلَمَّا كَانَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ خَرَجَ ﷺ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا هُوَ وَأَهْلُ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَأَحْرَمَ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ، قِيلَ: كَانَ سِتِينَ بَدَنَةً، فَلَبَّى وَسَارَ أَصْحَابُهُ يَلْبُونَ. فَلَمَّا كَانَ ﷺ قَرِيبًا مِنْ مَرِّ الظَّهْرَانِ بَعَثَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بِالْخَيْلِ وَالسَّلَاحِ أَمَامَهُ. فَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ رُعبًا شَدِيدًا، وَظَنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَغْزُوهُمْ، وَأَنَّهُ قَدْ نَكَثَ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مِنْ وَضْعِ الْقِتَالِ عَشْرَ سِنِينَ، فَذَهَبُوا فَأَخْبَرُوا أَهْلَ مَكَّةَ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ حَيْثُ يَنْظُرُ إِلَى أَنْصَابِ الْحَرَمِ، بَعَثَ السَّلَاحَ مِنَ الْقَيْسِيِّ وَالتَّبَلِ وَالرَّمَاكِ إِلَى بَطْنِ يَاحِجٍ، وَسَارَ إِلَى مَكَّةَ بِالسِّيُوفِ مُعَمَّدَةً فِي قُرْبِهَا كَمَا شَارَطَهُمْ عَلَيْهِ. فَلَمَّا كَانَ فِي أُنْثَاءِ الطَّرِيقِ بَعَثَ فَرِيضٌ مَكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا عَرَفْنَاكَ تَنْقُضُ الْعَهْدَ، فَقَالَ ﷺ: «وَمَا ذَلِكَ؟» قَالَ: دَخَلْتَ عَلَيْنَا بِالسَّلَاحِ وَالْقَيْسِيِّ وَالرَّمَاكِ. فَقَالَ ﷺ: «لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، وَقَدْ بَعَثْنَا بِهِ إِلَيْ يَاحِجٍ». فَقَالَ: بِهَذَا عَرَفْنَاكَ بِالْبَرِّ وَالْوَفَاءِ، وَخَرَجْتَ رُءُوسَ الْكُفَّارِ مِنْ مَكَّةَ؛ لئَلَّا يَنْظُرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غَيْظًا وَحَقًّا. وَأَمَّا بَقِيَّةُ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوُلْدَانِ، فَجَلَسُوا فِي الطَّرْفِ وَعَلَى الْبُيُوتِ يَنْظُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَدَخَلَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أَصْحَابُهُ يَلْبُونَ، وَالْهَدْيُ قَدْ بَعَثَهُ إِلَى ذِي طُوًى، وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ الْقُصْوَاءَ الَّتِي كَانَ رَاكِبَهَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الْأَنْصَارِيُّ أَخَذَ بِرِمَامٍ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُودُهَا وَهُوَ يَقُولُ:

بِاسْمِ الَّذِي لَا دِينَ إِلَّا دِينُهُ

بِاسْمِ الَّذِي مُحَمَّدٌ رَسُولُهُ

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ

الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ

(١) الطبري: ٢٥٩/٢٢ (٢) أحمد: ٢٩٤/١ (٣) فتح الباري:

٥٨١/٧ ومسلم: ٩٢٣/٢ (٤) فتح الباري: ٥٤٨/٣ (٥) فتح

الباري: ٥٨١/٧ (٦) فتح الباري: ٥٨١/٧

الْمُقْبِلِ فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالِحُهُمْ، فَلَمَّا أَنْ أَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا أَمَرُوهُ أَنْ يُخْرِجَ فَخَرَجَ ﷺ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أَيُّ: فَعَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْخَيْرَةِ وَالْمَصْلَحَةِ فِي صَرْفِكُمْ عَنْ مَكَّةَ وَدُخُولِكُمْ إِلَيْهَا عَامَكُمْ ذَلِكَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أَيُّ: قَبْلَ دُخُولِكُمْ الَّذِي وَعَدْتُمْ بِهِ فِي رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ فَتَحًا قَرِيبًا، وَهُوَ الصَّلْحُ الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

[الْبَشَارَةُ بِغَلَبَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْعَالَمِ]

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِنُصْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى عَدُوِّهِ، وَعَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أَيُّ: بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ تَسْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ: عِلْمٍ وَعَمَلٍ، فَالْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ الشَّرْعِيُّ مَقْبُولٌ، فَإِخْبَارَاتُهَا حَقٌّ وَإِنْشَاءَاتُهَا عَدْلٌ ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَيُّ: عَلَى أَهْلِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، مِنْ سَائِرِ الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ، وَمِلِّيِّينَ وَمُشْرِكِينَ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أَيُّ: أَنَّهُ رَسُولُهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ، وَاللَّهُ شَهِيدَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّرَ أَخْرَجَ سَطَطَهُ فَتَأَرَّرَهُ فَاسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُرْقَةٍ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾<sup>(٢)</sup>.

[صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ رَسُولُهُ حَقًّا بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ فَقَالَ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وَهَذَا مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، وَهُوَ مُسْتَمِلٌ عَلَى كُلِّ وَصْفٍ جَمِيلٍ، ثُمَّ نَتَى بِالنِّسَاءِ عَلَى أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ شَدِيدًا عَنِيفًا عَلَى الْكُفَّارِ، رَحِيمًا بَرًّا بِالْأَخْيَارِ، غَضُوبًا غَبُوشًا فِي وَجْهِ الْكَافِرِ ضَحُوكًا بِشُوشًا فِي وَجْهِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قِيلًاوَالَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وَقَالَ

سُورَةُ الْفَتْحَةِ ٥١٥  
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّرَ أَخْرَجَ سَطَطَهُ فَتَأَرَّرَهُ فَاسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُرْقَةٍ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا<sup>(١)</sup>

سُورَةُ الْحَجُرَاتِ  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْصِدُوا يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَانفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ<sup>(١)</sup> يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ<sup>(٢)</sup> إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ<sup>(٣)</sup> إِنَّ الَّذِينَ يَدَّؤُنْكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ<sup>(٤)</sup>

النَّبِيِّ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهَرِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا». وَشَبَّكَ ﷺ بَيْنَ أَصَابِعِهِ<sup>(٣)</sup>، كَلَّا الْحَدِيثَيْنِ فِي الصَّحِيحِ.

وَقَوْلُهُ شُبَّحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وَصَفَهُمْ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ وَكَثْرَةِ الصَّلَاةِ، وَهِيَ خَيْرُ الْأَعْمَالِ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْإِحْتِسَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَزِيلِ الثَّوَابِ، وَهُوَ الْحِجَّةُ الْمُسْتَمْلَةُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ سَعَةُ الرِّزْقِ عَلَيْهِمْ. وَرِضَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَوَّلِ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ

(١) فتح الباري: ٥٧١/٧ (٢) مسلم: ١٩٩٩/٤ (٣) فتح الباري: ١١٩/٥



مَنْ افْتَقَى أَثَرَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَهُوَ فِي حُكْمِهِمْ، وَلَهُمُ الْفَضْلُ وَالسَّبَقُ وَالْكَمَالُ الَّذِي لَا يُلْحَقُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلَ جَنَاتِ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُمْ، وَقَدْ فَعَلَ. رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَذْرَكَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»<sup>(٥)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحُجْرَاتِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحُجْرَاتِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَالْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَبِيحٌ عَلِيمٌ﴾ (١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣)

[النَّهْيُ عَنِ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْأَمْرُ بِتَعْظِيمِهِ وَالتَّأَدُّبِ مَعَهُ]

هَذِهِ آيَاتُ آدَبِ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ، فِيمَا يُعَامِلُونَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالْإِحْتِرَامِ، وَالتَّجَبُّلِ وَالْإِعْظَامِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيُّ: لَا تُسَارِعُوا فِي الْأَشْيَاءِ بَيْنَ يَدَيْهِ أَيْ قَبْلَهُ، بَلْ كُونُوا تَبَعًا لَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لَا تَقُولُوا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَاسًا كَانُوا يَقُولُونَ: لَوْ أُنْزِلَ فِي كَذَا وَكَذَا، لَوْ صَحَّ كَذَا، فَكَرِهَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ<sup>(٧)</sup>. وَتَقَدَّمَ فِيهِ «وَأَتَّقُوا اللَّهَ» أَيُّ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ شَبِيحٌ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ: لِأَقْوَالِكُمْ «عَلِيمٌ» بَيِّنَاتِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ

أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سِبَامُهُمْ فِي وَجْهِهِمْ يَعْنِي: السَّمْتُ الْحَسَنُ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي: الْخُشُوعُ وَالتَّوَاضُّعُ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ لِلْحَسَنَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ النَّاسِ.

وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبَدَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى صَفَحَاتٍ وَجْهِهِ وَقَلَّتَاتٍ لِسَانِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالْإِقْصَادَ، جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبَوَةِ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(١١)</sup>. فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُمْ وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُمْ فَكُلُّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ أَعْجَبُوهُ فِي سَمْتِهِمْ وَهَدْيِهِمْ. وَقَالَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَّغَنِي أَنَّ النَّصَارَى كَانُوا إِذَا رَأَوْا الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ فَتَحُوا الشَّامَ يَقُولُونَ: وَاللَّهِ لَهُمْ لَا خَيْرَ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ فِيمَا بَلَّغْنَا، وَصَدَّقُوا فِي ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُعْظَمَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَأَعْظَمُهَا وَأَفْضَلُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ نَوَّهَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذِكْرِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَدَاوِلَةِ، وَلِهَذَا قَالَ شَيْخَانُهُ وَتَعَالَى هَهُنَا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ﴾ ثُمَّ قَالَ: «وَمَثَلُهُ فِي الْإِنجِيلِ كَرَنْجٍ أَخْرَجَ شَطَطَهُ» أَيُّ: فِرَاحَهُ ﴿فَارَزَهُ﴾ أَيُّ شَدَّهُ ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أَيُّ شَبَّ وَطَالَ ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ. يُعْجِبُ الزَّرَّاعُ﴾ أَيُّ: فَكَذَلِكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْزَوْهُ وَأَيَّدُوهُ وَنَصَرُوهُ، فَهُمْ مَعَهُ كَالشَّطْءِ مَعَ الزَّرْعِ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾.

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ انْتَزَعَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ، بِتَكْفِيرِ الرَّاغِبِينَ الَّذِينَ يُغْضُونَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: لِأَنَّهُمْ يَغِيظُونَهُمْ وَمَنْ غَاظَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ. وَوَافَقَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ. وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضْلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالنَّهْيِ عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُمْ بِمَسَاوِيهِمْ كَثِيرَةٌ، وَيَكْفِيهِمْ ثَنَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ عَنْهُمْ: ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ أَيُّ: لِدُنُوبِهِمْ ﴿وَلَجَرًا عَظِيمًا﴾ أَيُّ: ثَوَابًا جَزِيلًا وَرِزْقًا كَرِيمًا. وَوَعَدَ اللَّهُ حَقَّ وَصِدْقٍ لَا يُخْلَفُ وَلَا يُبَدَّلُ، وَكُلُّ

(١) الطبري: ٢٦٣/٢٢ (٢) الطبري: ٢٦٣/٢٢ (٣) أحمد:

٢٩٦/١ (٤) أبو داود: ١٣٦/٥ (٥) مسلم: ١٩٦٧/٤ (٦)

الطبري: ٢٧٥/٢٢ (٧) الطبري: ٢٧٦/٢٢

الله ﷻ، مَا لَكَ؟ قَالَ: أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَجْهَرُ لَهُ بِالْقَوْلِ حَيْطَ عَمَلِي، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَوَا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكُنَّا نَرَاهُ يَمْسِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ كَانَ فِينَا بَعْضُ الْأَنْكِشَافِ، فَجَاءَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَقَدْ تَحَطَّ وَلَيْسَ كَفَنُهُ فَقَالَ: بِسْمَا نَعُودُونَ أَقْرَانَكُمْ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ نَهَى عَنِ الْجَهْرِ لَهُ بِالْقَوْلِ كَمَا يَجْهَرُ الرَّجُلُ لِمُخَاطَبِهِ مِمَّنْ عَدَاهُ، بَلْ يُخَاطَبُ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَتَعْظِيمٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ لِيُحِشِيَ عَمَلُكُمْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكُمُ الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [النور: ٦٣].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنْ تَحِطُّ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» أَيُّ إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ؛ خَشْيَةً أَنْ يَغْضَبَ مِنْ ذَلِكَ فَيَغْضَبُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِغْصِهِ، فَيَحِطُّ عَمَلُ مَنْ أَغْضَبَهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يُكْتَبُ لَهُ بِهَا الْجَنَّةُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَعَدَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ نَذَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى خَفَضِ الصَّوْتِ عِنْدَهُ وَحَثَّ عَلَى ذَلِكَ، وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ فَقَالَ: «إِنَّ الَّذِينَ يُغْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَى» أَيُّ: أَخْلَصَهَا لَهَا وَجَعَلَهَا أَهْلًا وَمَحَلًّا «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: كُتِبَ إِلَى عُمَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، رَجُلٌ لَا يَسْتَهْيِي الْمَعْصِيَةَ، وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَفْضَلَ، أَمْ رَجُلٌ يَسْتَهْيِي الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا؟ فَكَتَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَهْنُونَ الْمَعْصِيَةَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا «أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ».

«إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا

صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا أَذَبٌ ثَانٍ أَذَبَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ فَوْقَ صَوْتِهِ. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: كَادَ الْخَيْرَانِ أَنْ يَهْلِكَ، أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالْأَفْرِعِ بْنِ حَابِسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الْآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ، قَالَ نَافِعٌ: لَا أَحْفَظُ اسْمَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي، قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَأَرْتَعْتَ أَصْوَاتَهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحِطُّ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» قَالَ ابْنُ الرُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَمَا كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهَمَهُ. وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١)</sup>. انْفَرَدَ بِهِ دُونَ مُسْلِمٍ.

وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمْرُ الْقُعْقَاعِ ابْنِ مَعْبِدٍ، وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلْ أَمْرُ الْأَفْرِعِ بْنِ حَابِسٍ، الْحَدِيثُ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ هَهُنَا مُتَّفَرِّدًا بِهِ أَيْضًا. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ فِي بَيْتِهِ مُتَّكِنًا رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا سَأَلْتُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَيْطَ عَمَلُهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ مُوسَى: فَارْجِعْ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْآخِرَةَ بِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ فَقَالَ: «أَذْهَبَ إِلَيْهِ فَقُتِلَ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» - إِلَى قَوْلِهِ - «وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» وَكَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ رَفِيعَ الصَّوْتِ فَقَالَ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَيْطَ عَمَلِي، وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينًا فَقَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاذْطَلَقَ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَيْهِ فَقَالُوا لَهُ: تَفَقَّدَكَ رَسُولُ

(١) فتح الباري: ٤٥٤/٨ (٢) فتح الباري: ٤٥٧/٨ (٣) فتح

الباري: ٤٥٤/٨ (٤) أحمد: ١٣٧/٣ (٥) فتح الباري: ١١/

يَعْقِلُونَ ﴿٦﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ  
وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

[ذَمٌّ مَنْ يُنَادِي النَّبِيَّ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ]  
ثُمَّ إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَمَّ الَّذِينَ يُنَادُونَهُ مِنْ وَرَاءِ  
الْحُجُرَاتِ، وَهِيَ بَيْتٌ نِسَائِهِ، كَمَا يَصْنَعُ أَجْلَافُ  
الْأَعْرَابِ فَقَالَ: ﴿كُنْهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ثُمَّ أَرْشَدَ تَعَالَى إِلَى  
الْأَدَبِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أَيْ:  
لَكَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْخَيْرُ وَالْمُصْلَحَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.  
ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ  
رَّحِيمٌ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَفْرَعِ بْنِ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا أَوْرَدَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ  
الْأَفْرَعِ بْنِ حَابِسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ نَادَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ  
وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. وَفِي رِوَايَةٍ: يَا  
رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ حَمْدِي لَزَيْنٌ،  
وَلِإِنْ دُمِّي لَشَيْنٌ، فَقَالَ ﷺ: «ذَلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (١).

﴿يَنَادِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْهُمْ فَنَبِّئْهُ أَن تُصِيبُوا قَوْمًا  
بِجَهْلِهِمْ فَضُيْحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٢) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ  
اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ  
الْإِيمَنُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِعْصَابَ  
أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ (٣) فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ (٤)

[الْأَمْرُ بِالتَّثَبُّتِ إِنْ جَاءَ فَاسِقٌ مِّنْهُمْ]

يَأْمُرُ تَعَالَى بِالتَّثَبُّتِ فِي خَبَرِ الْفَاسِقِ لِيَحْتَاطَ لَهُ؛ لِثَلَا  
يُحْكَمَ بِقَوْلِهِ، فَيَكُونُ - فِي نَفْسِ الْأَمْرِ - كَاذِبًا أَوْ مُخْطِئًا،  
فَيَكُونُ الْحَاكِمُ بِقَوْلِهِ قَدْ ائْتَنَّى وَرَاءَهُ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَزَّ  
وَجَلَّ عَنْ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الْمُفْسِدِينَ، وَمِنْ هَاهُنَا امْتَنَعَ طَوَائِفُ  
مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَبُولِ رَوَايَةِ مَجْهُولِ الْحَالِ لِاحْتِمَالِ فُسْوَهِ  
فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَقَدْ رُوِيَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ قِصَّةُ  
مِنْ طَرَفٍ مِنْ أَحْسَنِهَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ  
رَوَايَةِ مَلِكِ بْنِ الْمُسْطَلِقِ، وَهُوَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ  
وَالِدُ جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.  
قَالَ الْحَارِثُ بْنُ ضِرَارٍ الْخُزَاعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمْتُ  
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ فَدَخَلْتُ فِيهِ وَأَقْرَرْتُ  
بِهِ. وَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاةِ فَأَقْرَرْتُ بِهَا وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ!  
أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَأَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَدِّاءِ الزَّكَاةِ فَمَنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٦

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ  
رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَنَادِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْهُمْ فَنَبِّئْهُ  
أَن يُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلِهِمْ فَضُيْحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾  
وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ  
الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِعْصَابَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ ﴿٧﴾  
فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ  
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ آفَسَتَا فَاصْطَلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا  
عَلَى الْأُخْرَىٰ فَغَلِبُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ  
تِ فَاصْطَلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ  
﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْطَلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ  
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَنَادِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاسْخَرَقَوْمٌ مِّنْ قَوْمِ  
عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا  
مِّنْهُمْ وَلَا نَلْمُزُوا أُنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِلَا أَلْقَابٍ بَشَرِ الْأَسْمِ  
الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَنِ وَمَنْ يُبَغْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ. وَتُرْسِلُ إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ،  
رَسُولًا إِبَّانَ كَذَا وَكَذَا (\*) لِيَأْتِيكَ بِمَا جَمَعْتُ مِنَ الزَّكَاةِ.

فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لَهُ، وَبَلَغَ  
الْإِبَّانَ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ، احْتَبَسَ  
عَلَيْهِ الرَّسُولُ لَمْ يَأْتِهِ، وَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ  
سَخَطُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، فَدَعَا بِسَرَوَاتٍ قَوْمِهِ فَقَالَ  
لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسِلُ إِلَيَّ  
رَسُولَهُ لِيَقْبُضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنَ الزَّكَاةِ وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ الْخُلْفُ، وَلَا أَرَى حَبْسَ رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ سَخَطِهِ،  
فَانْطَلَقُوا بِنَا نَائِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْبُضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ

(١) أحمد: ٤٨٨/٣ إسناد حسن. إن كان أبو سلمة بن  
عبد الرحمن سمع من الأفراع بن حابس وإلا فهو مرسل وله شاهد  
من حديث البراء الأبي بعده(\*) أي في موسم وقت كذا وكذا،  
وقوله: أراد رسول الله أي أراد من رسول الله، فهو على نزع  
الخاص

الرَّاشِدُونَ الَّذِينَ قَدْ آتَاهُمُ اللَّهُ رُشْدَهُمْ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رِفَاعَةَ الزُّرْقَانِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَى الْمُشْرِكُونَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَوْوُوا حَتَّى أَتِيَّ عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا فَقَالَ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ. اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النِّعَمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النِّعَمَ يَوْمَ الْعِيلَةِ وَالْأَمْنِ يَوْمَ الْخَوْفِ. اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَمِنْ شَرِّ مَا مَنَعْتَنَا. اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهِ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ. اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَائِنَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهُ الْحَقِّ»<sup>(٣)</sup> وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ<sup>(٤)</sup>. ثُمَّ قَالَ:

«فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً» أَيُّ هَذَا الْعَطَاءُ الَّذِي مَنْحَكُمُوهُ هُوَ فَضْلٌ مِنْهُ عَلَيْكُمْ وَنِعْمَةٌ مِنْ لَدُنْهُ «وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ» أَيُّ عِلِيمٍ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَايَةَ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشُرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

«إِنَّ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا إِلَيَّ تَبَعِي حَتَّى تَفِءَ إِلَيَّ أَمْرُ اللَّهِ فَإِنْ قَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»<sup>(٥)</sup> إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»<sup>(٦)</sup>

[الْأَمْرُ بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِقِتَالِ الْفِتْنَةِ الْبَاغِيَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ الْبَاغِيَتَيْنِ بَعْضُهُمْ

مِنَ الزَّكَاءِ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ فَرَّقَ - أَيُّ خَافَ - فَرَجَعَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ الْحَارِثَ قَدْ مَنَعَنِي الزَّكَاءَ وَأَرَادَ قَتْلِي، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبَعَثَ الْبُعْثَ إِلَى الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَتَى الْحَارِثَ بِأَصْحَابِهِ... حَتَّى إِذَا اسْتَقْبَلَ الْبُعْثَ وَفَصَلَ عَنِ الْمَدِينَةِ لَقِيَهُمُ الْحَارِثُ فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ بَعِثْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنِ عَقْبَةَ فَرَعَمَ أَنْتَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاءَ وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ: مَا رَأَيْتُهُ بَنَةً وَلَا أَتَانِي.

فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنَعْتَ الزَّكَاءَ وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟» قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ وَلَا أَتَانِي وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ اخْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ كَانَتْ سَخَطَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ. قَالَ: فَتَرَكْتَ الْحُجْرَاتِ «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا»<sup>(١)</sup> إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بَنِيًّا إِلَى قَوْلِهِ «حَكِيمٌ»<sup>(٢)</sup> وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالتَّبْرَانِيُّ<sup>(٣)</sup>.

### [حُكْمُ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ الْأُصْلَحُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» أَيُّ اغْلُمُوا أَنَّ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فَعَظُمُوهُ وَوَقُرُّهُ وَتَأَدَّبُوا مَعَهُ وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ وَأَشْفَقَ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ، وَرَأْيُهُ فِيكُمْ أَتَمُّ مِنْ رَأْيِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «الَّذِي أَوَّلَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ رَأْيَهُمْ سَخِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُرَاعَاةِ مَصَالِحِهِمْ فَقَالَ: «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنِعِمَّ» أَيُّ لَوْ أَطَاعَكُمْ فِي جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَهُ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى عَنَتِكُمْ وَحَرَجِكُمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «لَوْ أَتَّبَعْتُ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا» بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ» [المؤمنون: ٧١] وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ» أَيُّ حَبَبَهُ إِلَى نَفْسِكُمْ وَحَسَنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ.

### [الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ]

«وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ» أَيُّ وَبَغَضَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَهِيَ الذُّنُوبُ الْكِبَارُ وَالْعِصْيَانُ، وَهِيَ جَمِيعُ الْمَعَاصِي وَهَذَا تَدْرِيجٌ لِكَمَالِ النِّعْمَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ» أَيُّ الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ

(١) أحمد: ٢٧٩/٤ (٢) الطبراني: ٢٧٤/٢٢ وتسمية الوليد بن عقبة في هذه القصة وهم، لأن القصة وقعت بعد غزوة بني المصطلق قريباً. وكانت غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ٥٥ هـ أو سنة ٦ هـ بينما أسلم الوليد بن عقبة بعد الفتح أي في رمضان سنة ٨ هـ. (٣) أحمد: ٤٢٤/٣ (٤) النسائي في الكبرى: ١٥٦/٦

عَلَى بَعْضٍ: «وَأَنَّ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَنَتْهُمَا فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا» فَسَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مَعَ الْإِفْتِتَالِ، وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْمَعْصِيَةِ وَإِنْ عَظُمَتْ، لَا كَمَا يَقُولُهُ الْخَوَارِجُ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنَ الْمُعْتَرِلَةِ وَنَحْوِهِمْ، وَهَكَذَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ يَوْمًا، وَمَعَهُ عَلَى الْمُنْبَرِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مَرَّةً، وَإِلَى النَّاسِ أُخْرَى وَيَقُولُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»<sup>(١)</sup>. فَكَانَ كَمَا قَالَ ﷺ، أَصْلَحَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ بَيْنَ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ بَعْدَ الْحُرُوبِ الطَّوِيلَةِ، وَالْوَأَقِعَاتِ الْمُهَوَّلَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» أَي حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَسْمَعَ لِلْحَقِّ وَتُطِيعَهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا نَصْرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ ﷺ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَذَاكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَاصْلَحُوا بَيْنَ أَوْيَاكُمَا» يَعْنِي الْفِئَتَيْنِ الْمُتَقَاتِلَتَيْنِ «وَاتَّقُوا اللَّهَ» أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» وَهَذَا تَحْقِيقٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلرَّحْمَةِ لِمَنِ اتَّقَاهُ.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنَ نِسَاءِ قَوْمٍ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»<sup>(٣)</sup>

### [الْتِهَامُ مِنَ السُّخْرِيَّةِ وَالْإِحْتِقَارِ]

يَنْهَى تَعَالَى عَنِ السُّخْرِيَّةِ بِالنَّاسِ وَهُوَ اخْتِقَارُهُمْ وَالْإِسْتِهْزَاءُ بِهِمْ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَضُّ النَّاسِ - وَيُرْوَى - وَغَمَطُ النَّاسِ»<sup>(١)</sup>. وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ اخْتِقَارُهُمْ وَاسْتِغْثَارُهُمْ، وَهَذَا حَرَامٌ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمُخْتَقَرُ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ السَّاخِرِ مِنْهُ الْمُخْتَقِرُ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنَ نِسَاءِ قَوْمٍ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ» فَصَّ عَلَى نَهْيِ الرِّجَالِ، وَعَطَفَ بِنَهْيِ النِّسَاءِ. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» أَي لَا تَلْمِزُوا النَّاسَ. وَالْهَمَّازُ: اللَّمَّازُ مِنَ الرِّجَالِ مَذْمُومٌ مَلْعُونٌ، كَمَا

وَذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ كَانَ بَيْنَهُمَا قِتَالٌ بِالسَّعْفِ وَالنَّعَالِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ فَأَمَرَ بِالْصُّلْحِ بَيْنَهُمَا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: عِمْرَانُ، كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ تُدْعَى أُمُّ زَيْدٍ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ أَرَادَتْ أَنْ تَزُورَ أَهْلَهَا، فَحَبَسَهَا زَوْجُهَا وَجَعَلَهَا فِي عِلْيَةٍ لَهُ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا. وَإِنَّ الْمَرْأَةَ بَعَثَتْ إِلَى أَهْلِهَا، فَجَاءَ قَوْمُهَا وَأَنْزَلُوهَا لِيَنْطَلِقُوا بِهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ كَانَ قَدْ خَرَجَ، فَاسْتَعَانَ أَهْلُ الرَّجُلِ، فَجَاءَ بَنُو عَمِّهِ لِيُحَوِّلُوا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ أَهْلِهَا، فَتَدَافَعُوا وَاجْتَلَدُوا بِالنَّعَالِ فَتَزَلَّتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ وَقَاوُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» أَيِ اغْدِلُوا بَيْنَهُمَا - فِيمَا كَانَ أَصَابَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ - بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ لَوْلُؤٍ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا

(١) فتح الباري: ٣٦١/٥ (٢) فتح الباري: ١١٨/٥ (٣) الدر المنثور: ٥٦٠/٧ (٤) الطبري: ٢٩٤/٢٢ (٥) النسائي في الكبرى: ٥٩١٧ (٦) فتح الباري: ١١٦/٥ (٧) مسلم: ٤/٢٠٧٤ (٨) مسلم: ٢٠٩٤/٤ (٩) مسلم: ١٩٩٩/٤ (١٠) فتح الباري: ١١٩/٥ (١١) مسلم: ٩٣/١

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

٥١٧

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَعْلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَ كُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَّمْزَةً﴾ [الهزمية: ١] وَهَلْ هُمْزٌ بِالْفِعْلِ وَاللَّمْزُ بِالْقَوْلِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَازِ مَثَلًا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [القلم: ١١] أَيْ يَحْتَقِرُ النَّاسُ وَيَهْمِزُهُمْ طَافِيًا عَلَيْهِمْ وَيَمْشِي بَيْنَهُمْ بِاللَّيْمَةِ وَهِيَ اللَّمَزُ بِالْمَقَالِ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيْ لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانٍ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيْ لَا يَطْعُنُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أَيْ لَا تَدَاعُوا بِالْأَلْقَابِ، وَهِيَ الَّتِي يَسُوهُ الشَّخْصَ سَمَاعُهَا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي جَبْرِ عَنْ بَنِي الصَّحَّاحِ، قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ فِي بَنِي سَلِمْةَ ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قَالَ: قَدِيمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةِ، وَلَيْسَ فِينَا رَجُلٌ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، فَكَانَ إِذَا دَعَا وَاحِدًا مِنْهُمْ بِاسْمٍ مِنْ تِلْكَ الْأَسْمَاءِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا، فَتَزَلَّتْ: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أَيْ يَسْأَلُ الصِّفَةَ وَالْإِسْمَ الْفُسُوقَ، وَهُوَ التَّنَابُرُ بِالْأَلْقَابِ - كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَنَاعَتُونَ - بَعْدَ مَا دَخَلْتُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَعَقَلْتُمُوهُ ﴿وَمَنْ لَمْ يَبْذَعْ أَيْ مِنْ هَذَا﴾ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾

## [النَّهْيُ عَنِ الظَّنِّ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ، وَهُوَ التَّهَمُّ وَالنَّخُونُ لِلْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَالنَّاسِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، لِأَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ يَكُونُ إِثْمًا مَحْضًا، فَلْيَتَجَنَّبْ كَثِيرٌ مِنْهُ احْتِياطًا. وَرَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَمْرِكُ الْمُؤْمِنِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمِلًا<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»<sup>(٤)</sup> رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ<sup>(٥)</sup>.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا

تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَجُلْ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ<sup>(٦)</sup>. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أَيْ عَلَى بَعْضِكُمْ بَعْضًا وَالتَّجَسُّسُ غَالِبًا يُطْلَقُ فِي الشَّرِّ وَمِنْهُ الْجَسَّاسُ. وَأَمَّا التَّحَسُّسُ فَيَكُونُ غَالِبًا فِي الْخَيْرِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَكْفِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ كُلُّ مِنْهُمَا فِي الشَّرِّ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: التَّجَسُّسُ: الْبَحْثُ عَنِ الشَّيْءِ. وَالتَّحَسُّسُ: الْإِسْتِمَاعُ إِلَى حَدِيثِ الْقَوْمِ وَهُمْ لَهُ

(١) أحمد: ٤/٤٦٠ (٢) أبو داود: ٢٤٦/٥ (٣) أخرجه أحمد في الزهد، الدر المنثور: ٩٩/٦ (٤) الموطأ: ٩٠٧/٢ (٥) فتح الباري: ١٠/٤٩٩ (٦) مسلم: ٤/١٩٨٣ وتحفة الأحوزي: ٦٤/٦ (٧) فتح الباري: ١٠/٤٩٦

كَارَهُونَ أَوْ يَسْمَعُ عَلَى أَبْوَابِهِمْ، وَالتَّدَابُّرُ: الصَّرْمُ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَنْتَبِ بِمَعْشَرَ بَعْضًا﴾ فِيهِ نَهْيٌ عَنِ الْغِيْبَةِ، وَقَدْ فَسَّرَهَا الشَّارِعُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْغِيْبَةُ؟ قَالَ ﷺ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ ﷺ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْغِيْبَةِ الزُّجْرُ الْأَكِيدُ، وَلِهَذَا سَبَّهَهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَكْلِ اللَّحْمِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «يَجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ» أَيُّ كَمَا تَكْرَهُونَ هَذَا طَبْعًا فَاتَّكِرُوا ذَلِكَ شَرْعًا، فَإِنَّ عَقُوبَتَهُ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، وَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ عَنْهَا وَالتَّحْذِيرِ مِنْهَا كَمَا قَالَ ﷺ فِي الْعَايِدِ فِي هَيْبَتِهِ: «كَالْكَلْبِ يَبْقَى ثُمَّ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ» وَقَدْ قَالَ: «لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ»<sup>(٣)</sup> وَبَكَتْ فِي الصُّحَّاحِ وَالْحَسَنِ وَالْمَسَائِدِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعِزُّهُ وَدَمُهُ، حَسَبَ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْفَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنِ ابْنِ عَمٍّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ مَا عَزَا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ حَتَّى قَالَهَا أَرْبَعًا، فَلَمَّا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ قَالَ: «زَنَيْتَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «وَتَدْرِي مَا الزَّانِي؟» قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُ مِنْهَا حَرَامًا مَا يَأْتِي الرَّجُلُ مِنْ امْرَأَتِهِ حَلَالًا. قَالَ: «مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؟» قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَدْخَلْتَ ذَلِكَ مِنْكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَا كَمَا يَغِيبُ الْمِيلُ فِي الْمُكْحَلَةِ وَالرِّشَا فِي الْبُرِّ؟» قَالَ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَمَرَ بِرَجْمِهِ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلَيْنِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَلَمْ تَرِ إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ تَدْعُهُ نَفْسُهُ حَتَّى رَجِمَ رَجْمَ الْكَلْبِ، ثُمَّ سَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى مَرَّ بِجِيفَةِ حِمَارٍ فَقَالَ: «أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟ انْزِلَا فَكَلَا مِنْ جِيفَةِ هَذَا

الْحِمَارِ» قَالََا: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يُؤْكَلُ هَذَا؟ قَالَ ﷺ: «فَمَا نَلْتَمَا مِنْ أَحْيَكُمَا إِنَّمَا أَشَدُّ أَكْلًا مِنْهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّهُ الْآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْعَمُسُ فِيهَا»<sup>(٧)</sup>. إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَارْتَفَعَتْ رِيحٌ جَفِيفَةٌ مُشْتَبِهَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّذَرُونِ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ»<sup>(٨)</sup>.

### [طَرِيقَةُ تَوْبَةِ الْمُغْتَابِ وَالنَّمَامِ]

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ فَرَأَيْتُمْ فِي ذَلِكَ وَاحْشُوا مِنْهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ تَوَّابٌ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، رَحِيمٌ لِمَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ. قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: طَرِيقُ الْمُغْتَابِ لِلنَّاسِ فِي تَوْبَتِهِ أَنْ يُقْلَعَ عَنْ ذَلِكَ وَيَعْزَمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ. وَهَلْ يُشْتَرَطُ التَّدَمُّ عَلَى مَا فَاتَ؟ فِيهِ زِنَاعٌ، وَأَنْ يَتَحَلَّلَ مِنَ الَّذِي اغْتَابَهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَتَحَلَّلَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا أَعْلَمَهُ بِذَلِكَ رُبَّمَا تَأَدَّى أَشَدَّ مِمَّا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ بِمَا كَانَ مِنْهُ، فَطَرِيقُهُ إِذَا: أَنْ يُنْبِئَ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ فِي الْمَجَالِسِ الَّتِي كَانَ يَدْخُلُ فِيهَا، وَأَنْ يَرُدَّ عَنْهُ الْغِيْبَةُ بِحَسْبِهِ وَطَاقَتِهِ، لِيَتَكُونَ تِلْكَ بَيْتَكَ.

﴿يَتَابُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

### [كُلُّ النَّاسِ بَنُو آدَمَ وَحَوَاءَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِلنَّاسِ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَهُمَا آدَمُ وَحَوَاءُ، وَجَعَلَهُمْ شُعُوبًا وَهِيَ أَعَمُّ مِنَ الْقَبَائِلِ، وَبَعْدَ الْقَبَائِلِ مَرَاتِبُ أُخْرَى كَالْفَصَائِلِ، وَالْعَسَائِرِ، وَالْعَمَائِرِ، وَالْأَفْحَادِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالشُّعُوبِ بَطُونُ الْعَجَمِ، وَبِالْقَبَائِلِ بَطُونُ الْعَرَبِ، كَمَا أَنَّ الْأَشْبَاطَ بَطُونُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ لَحِصَتْ

(١) أبو داود: ١٩١/٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٦٣/٦ (٣) فتح الباري: ٢٧٨/٥ (٤) فتح الباري: ٦٧٠/٣ ومسلم: ١٣٠٦/٣ وتحفة الأحوذى: ٤٨١/٨ وأحمد: ٢٣٠/١ (٥) أبو داود: ١٩٥ (٦) تحفة الأحوذى: ٥٤/٦ (٧) مسند أبي يعلى: ٦/٥٢٤ إسناده ضعيف من أجل ابن عم أبي هريرة وهو عبد الرحمن الصامت وقال البخاري لا أراه محفوظا نصب الراية ٣٠٨/٣ - ٣٠٩ وضعفه الألباني [الإرواء ٢٣٥٤] (٨) أحمد: ٣٥١/٣

عِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظَّمَهَا بِأَبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيَّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ فَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ - ثُمَّ قَالَ ﷺ: - «أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ». هَكَذَا رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ عِلْمٍ بِكُمْ خَبِيرٌ بِأُمُورِكُمْ، فَهَيْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَفْضُلُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهَذِهِ الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْكُفَّاءَ فِي النِّكَاحِ لَا تُشْتَرَطُ وَلَا يُشْتَرَطُ سِوَى الدِّينِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ طُغِيَوا عَنْ رِسُولِهِمْ لَئِنْ يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَهَدُوا بِأُمُورِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦) يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَوْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُوتُوا عَلَى أَسْمِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُوتُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)

### [الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُسْلِمِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْأَعْرَابِ الَّذِينَ أَوَّلَ مَا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَتِمَّكِنِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ بَعْدُ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وَقَدْ اسْتَفِيدَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ أَخَصُّ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الشُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَيَكْدُلُ عَلَيْهِ حَدِيثُ

هَذَا فِي مُدْمَمَةِ مُفْرَدَةٍ جَمَعْتُهَا مِنْ كِتَابِ الْأَشْبَاءِ لِأَبِي عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ، وَمِنْ كِتَابِ «الْقَصْدِ وَالْأَمَمِ فِي مَعْرِفَةِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ» فَجَمِيعُ النَّاسِ فِي الشَّرَفِ بِالنَّسَبِ الطَّيِّبَةِ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ سَوَاءٌ، وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمُتَابَعَةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الْغِيْبَةِ وَاحْتِقَارِ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا، مُبَيِّنًا عَلَى تَسَاوِيهِمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أَيُّ لِيَحْصُلَ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمْ، كُلُّ يَرْجِعُ إِلَى قَبِيلَتِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ كَمَا يُقَالُ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَيْ مِنْ قَبِيلَةِ كَذَا وَكَذَا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: كَانَتْ جَمِيزٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَى مَخَالِيفِهَا، وَكَانَتْ عَرَبُ الْحِجَازِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى قَبَائِلِهَا.

### [الْكَرَمُ بِالتَّقْوَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ أَيُّ إِنَّمَا تَتَفَاضَلُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّقْوَى لَا بِالْأَحْسَابِ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سِئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ. قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ. قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا»<sup>(٢)</sup> وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي غَيْرِ مَوَاضِعٍ<sup>(٣)</sup> وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ<sup>(٤)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»<sup>(٥)</sup> وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٦)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: طَافَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ الْقُصُوءِ يَسْتَلِمُ الْأَرْكَانَ بِمِخْجَنِ فِي يَدِهِ، فَمَا وَجَدَ لَهَا مَنَاحًا فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى نَزَلَ ﷺ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ، فَخَرَجَ بِهَا إِلَى بَطْنِ الْمَسِيلِ فَأُيْنِحَتْ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَهُمْ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ

(١) الطبري: ٣١٢/٢٢ (٢) فتح الباري: ٢١٢/٨ (٣) فتح الباري: ٤٧٧/٦ و٤٨١ (٤) النسائي في الكبرى: ٣٦٧/٦ (٥) مسلم: ١٩٨٧/٤ (٦) ابن ماجه: ١٣٨٨/٢ (٧) المنتخب لعبد ابن حميد: ٧٩٣ إسناده ضعيف فيه موسى بن عبيدة عن عبدالله بن دينار وقال ابن حجر: ضعيف ولا سيما في عبدالله بن دينار [تقريب]



السَّمَاءِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَدْ لَمْ تَمُنُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ﴾ يَعْنِي الْأَعْرَابَ الَّذِينَ يَمُنُونَ بِإِسْلَامِهِمْ وَمُتَابِعِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قَدْ لَمْ تَمُنُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ﴾ فَإِنْ نَفَعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعَوِّدُ عَلَيْكُمْ وَلِلَّهِ الْمُنَّةُ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيْ فِي دَعْوَاكُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ يَوْمَ حُتَيْنَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْتَمَعَكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَعَانَاكُمْ اللَّهُ بِي؟» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرٌ<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَتْ بَنُو أَسَدٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَسْلَمْنَا وَقَاتَلْنَاكَ الْعَرَبُ وَلَمْ تُفَاتِلْنَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِيهِمْ قَلِيلٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ». وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَدْ لَمْ تَمُنُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٤)</sup>. ثُمَّ كَرَّرَ الْإِنْخَابَ بِعِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ وَبَصَرِهِ بِأَعْمَالِ الْمَخْلُوقَاتِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ ق وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

### [بَدَايَةُ الْمُفْصَلِ]

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ أَوَّلُ الْجُزْأِ الْمُفْصَلِ عَلَى الصَّحِيحِ، وَقِيلَ: مِنَ الْحُجُرَاتِ. وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ الْعَوَامُّ: إِنَّهُ مِنْ «عَمٍّ» فَلَا أَصْلَ لَهُ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْمُعْتَبَرِينَ -فِيمَا نَعْلَمُ-. إِذَا عَلِمَ هَذَا، فَإِذَا عَدَدَتْ ثَمَانِيًا وَأَرْبَعِينَ سُورَةً فَالْتَمَعْتُ بَعْدَهُنَّ سُورَةَ ق. بَيَانُهُ: ثَلَاثٌ: الْبَقَرَةُ وَأَلْ عِمْرَانُ وَالنِّسَاءُ. وَخَمْسٌ: الْمَائِدَةُ وَالْأَنْعَامُ وَالْأَعْرَافُ وَالْأَنْفَالُ وَبَرَاءَةُ.

جَبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ سَأَلَ عَنِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ عَنِ الْإِيمَانِ ثُمَّ عَنِ الْإِحْسَانِ، فَتَرَفَّى مِنَ الْأَعَمِّ إِلَى الْأَخْصَصِ ثُمَّ لِلْأَخْصَصِ مِنْهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا وَلَمْ يُعْطِ رَجُلًا مِنْهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعْطَيْتَ فَلَانًا وَفُلَانًا وَلَمْ تُعْطِ فَلَانًا شَيْئًا، وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ؟» حَتَّى أَعَادَهَا سَعْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَلَاثًا وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَوْ مُسْلِمٌ؟» ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأُعْطِي رَجُلًا وَأَدْعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ، فَلَمْ أَعْطِهِ شَيْئًا مَخَافَةَ أَنْ يُكْبُوا فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ»<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>. فَقَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُسْلِمِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ أَخْصَصَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ قَرَرْنَا ذَلِكَ بِإِدْلَالِهِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ. فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابَ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسُوا بِمُتَابِقِينَ وَإِنَّمَا هُمْ مُسْلِمُونَ لَمْ يُسْتَحْكَمْ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مَقَامًا أَعْلَى مِمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ فَأَدَّبُوا فِي ذَلِكَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَتَفَادَةً وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُؤُلَاءِ تَأْدِيبًا: ﴿قَدْ لَمْ تَمُنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيْ لَمْ تَصِلُوا إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بَعْدَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أَيْ لَا يَنْقُصْكُمْ مِنْ أَجُورِكُمْ شَيْئًا كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا آَلَتْهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الْكَمَلُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا أَيْ لَمْ يَشْكُوا وَلَا تَزَلُّوا بَلْ ثَبَّتُوا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ هِيَ التَّضَدُّيقُ الْمَحْضُ وَجَهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيْ وَبَدَّلُوا مُهْجَتَهُمْ وَنَفَاسَ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أَيْ فِي قَوْلِهِمْ إِذَا قَالُوا إِنْتُمْ مُؤْمِنُونَ، لَا كِبَغْضِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا الْكَلِمَةُ الظَّاهِرَةُ.

وَقَوْلُهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ أَمَلْتُمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أَيْ أَتَخَبَّرُونَهُ بِمَا فِي ضَمَائِرِكُمْ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِقْدَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

(١) أحمد: ١/ ١٧٦ (٢) فتح الباري: ١/ ٩٩ ومسلم: ١/ ١٣٢

(٣) فتح الباري: ٧/ ٦٤٤ (٤) النسائي في الكبرى: ١١٥١٩



وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿أَيُّ تَعَجُّبُوا مِنْ إِرْسَالِ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَشَرِ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِن كَانَ لِلنَّاسِ عِجَابٌ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أَيْ وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي تَعَجُّبِهِمْ أَيْضًا مِنَ الْمَعَادِ وَاسْتِعْجَادِهِمْ لَوْفُوعِهِ: ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا لِزَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أَيْ يَقُولُونَ: إِذَا مِنَّا وَبَلَيْنَا وَتَقَطَّعَتِ الْأَوْصَالُ مِنَّا وَصِرْنَا تَرَابًا، كَيْفَ يُمَكِّنُ الرَّجُوعَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْبُنْيَةِ وَالتَّرْكِيبِ؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أَيْ بَعِيدُ الْوُقُوعِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَغْتَفِدُونَ اسْتِحَالَتَهُ وَعَدَمَ امْتِكَانِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أَيْ مَا تَأْكُلُ مِنْ أَحْسَادِهِمْ فِي الْبَلَى نَعْلَمُ ذَلِكَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْنَا، أَيْنَ تَفَرَّقَتِ الْأَبْدَانُ وَأَيْنَ ذَهَبَتْ، وَإِلَى أَيْنَ صَارَتْ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَافِظٌ﴾ أَيْ حَافِظٌ لِذَلِكَ فَالْعِلْمُ شَامِلٌ وَالْكِتَابُ أَيْضًا فِيهِ كُلُّ الْأَشْيَاءِ مَضْبُوطَةٌ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أَيْ مَا تَأْكُلُ مِنْ لُحُومِهِمْ وَأَبْسَارِهِمْ، وَعِظَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَبَبَ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِعْجَادِهِمْ مَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ، فَقَالَ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أَيْ وَهَذَا حَالُ كُلِّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ، مَهْمَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بَاطِلٌ. وَالْمَرِيجُ: الْمُخْتَلِفُ الْمُضْطَرِبُّ الْمُنْتَبِسُ الْمُنْتَكِرُ جَلَالُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَئِكَ﴾ [الدَّارِيَات: ٨، ٩].

وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿أَيُّ تَعَجُّبُوا مِنْ إِرْسَالِ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَشَرِ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِن كَانَ لِلنَّاسِ عِجَابٌ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أَيْ وَلَيْسَ هَذَا بِعَجِيبٍ، فَإِنَّ اللَّهَ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي تَعَجُّبِهِمْ أَيْضًا مِنَ الْمَعَادِ وَاسْتِعْجَادِهِمْ لَوْفُوعِهِ: ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا لِزَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أَيْ يَقُولُونَ: إِذَا مِنَّا وَبَلَيْنَا وَتَقَطَّعَتِ الْأَوْصَالُ مِنَّا وَصِرْنَا تَرَابًا، كَيْفَ يُمَكِّنُ الرَّجُوعَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْبُنْيَةِ وَالتَّرْكِيبِ؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أَيْ بَعِيدُ الْوُقُوعِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَغْتَفِدُونَ اسْتِحَالَتَهُ وَعَدَمَ امْتِكَانِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أَيْ مَا تَأْكُلُ مِنْ أَحْسَادِهِمْ فِي الْبَلَى نَعْلَمُ ذَلِكَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْنَا، أَيْنَ تَفَرَّقَتِ الْأَبْدَانُ وَأَيْنَ ذَهَبَتْ، وَإِلَى أَيْنَ صَارَتْ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَافِظٌ﴾ أَيْ حَافِظٌ لِذَلِكَ فَالْعِلْمُ شَامِلٌ وَالْكِتَابُ أَيْضًا فِيهِ كُلُّ الْأَشْيَاءِ مَضْبُوطَةٌ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أَيْ مَا تَأْكُلُ مِنْ لُحُومِهِمْ وَأَبْسَارِهِمْ، وَعِظَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ بَيَّنَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَبَبَ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِعْجَادِهِمْ مَا لَيْسَ بِبَعِيدٍ، فَقَالَ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أَيْ وَهَذَا حَالُ كُلِّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ، مَهْمَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ بَاطِلٌ. وَالْمَرِيجُ: الْمُخْتَلِفُ الْمُضْطَرِبُّ الْمُنْتَبِسُ الْمُنْتَكِرُ جَلَالُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَئِكَ﴾ [الدَّارِيَات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ١ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسًا وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٢ تَبَصَّرَ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ ٣ وَزَلَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَلْبَسْنَا بِهِ جَنَّتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ٤ وَالنَّخْلَ بَاسِقَدٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ٥ رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ٦

﴿فَأَلْبَسْنَا بِهِ جَنَّتٍ﴾ أَيْ حَدَائِقَ مِنْ بَسَاتِينٍ وَنَحْوَهَا ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وَهُوَ الزَّرْعُ الَّذِي يُرَادُ لِحَبِّهِ وَادِّخَارِهِ ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَدٍ﴾ أَيْ طَوَالًا شَاهِقَاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ: الْبَاسِقَاتُ الطُّوَالُ<sup>(١)</sup>. ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أَيْ مَنْضُودٌ ﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ﴾ أَيْ لِلْخَلْقِ ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي كَانَتْ هَامِئَةً، فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، مِنْ أَزَاهِيرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا يُحَارُّ الطَّرْفُ فِي حُسْنِهَا، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا كَانَتْ لَا نَبَاتَ بِهَا فَأَصْبَحَتْ تَهْتَزُّ خَضِرَاءَ، فَهَذَا مِثَالٌ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَهَذَا الْمُشَاهَدُ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ بِالْحِسِّ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرَهُ الْجَا حِدُونَ لِلْبَعْثِ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ اللَّهَ آخِهَا

(١) الطبري: ٣٢٨/٢٢ (٢) الطبري: ٣٢٩/٢٢ (٣) الطبري:

٣٣٢/٢٢ (٤) الطبري: ٣٣٥/٢٢

الْأَنْعَامِ

٥١٩

سُورَةُ ق

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ مَا نُوَسِّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ  
 مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَبْلُغُ الْمَتْلَقَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ  
 ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ  
 الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنَفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ  
 يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ  
 كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ  
 ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عِيدٍ ﴿٢٣﴾ أَلْفِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ  
 عِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا  
 آخَرَ فَأَلْفَيْتُمْ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطِغْنَاهُ  
 وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ  
 إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَنَّازٍ لِلْعِيدِ ﴿٢٩﴾  
 يَوْمَ يَقُولُ لِرَبِّهِمْ هَلِ امْتَلَأْتُمْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ  
 الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ  
 ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ بِالْعِيبِ وَجَاءَهُ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا  
 بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ مَا نُوَسِّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ  
 حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَبْلُغُ الْمَتْلَقَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا  
 يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ  
 ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنَفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾  
 وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا  
 فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

[إِحَاطَتُهُ تَعَالَى وَحِفْظُهُ لِكُلِّ مَا عِنْدَ الْإِنْسَانِ]

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ خَالِقُهُ وَعِلْمُهُ  
 مُحِيطٌ بِجَمِيعِ أُمُورِهِ، حَتَّى إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا نُوَسِّسُ بِهِ  
 نَفْسُ نَبِيِّ آدَمَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَقَدْ بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأَمْتِي مَا  
 حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ  
 وَجَلَّ: «وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» يَعْنِي مَلَائِكَتُهُ تَعَالَى  
 اقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ، وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى

(١) فتح الباري: ٦١١/٨ (٢) فتح الباري: ٥٥٧/١١

لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فصلت: ٣٩].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَهَارُونُ  
 وَلُوطُ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ  
 وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ حَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾  
 [تَذَكِيرٌ قُرَيْشٍ بِهَلَاكِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُهْدِدًا لِكِفَارِ قُرَيْشٍ، بِمَا أَحَلَّهُ بِأَسْبَابِهِمْ  
 وَنُظَرَانِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمَكْذِبِينَ قَبْلَهُمْ، مِنَ النَّفَمَاتِ  
 وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الدُّنْيَا كَقَوْمِ نُوحٍ وَمَا عَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى  
 بِهِ مِنَ الْغَرَقِ الْعَامِّ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾،  
 وَقَدْ تَقَدَّمَ قِصَّتُهُمْ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ. ﴿وَتَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ  
 وَهَارُونُ وَلُوطُ﴾ وَهُمْ أُمَّتُهُ الَّذِينَ بُعِثَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ  
 سَدُومَ وَمُعَامَلَتِهَا مِنَ الْغَوَرِ، وَكَيْفَ خَسَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ  
 الْأَرْضَ، وَأَحَالَ أَرْضَهُمْ بَحِيرَةً مُنْتِنَةً حَبِيشَةً يَكْفُرُهُمْ  
 وَطُعْيَانِيَهُمْ وَمُخَالَفَتِهِمُ الْحَقَّ ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وَهُمْ قَوْمُ  
 شُعَيْبٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وَهُوَ الْيَمَانِيُّ،  
 وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ شَأْنِهِ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ مَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ  
 هُنَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أَيُّ كُلٍّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ وَهَؤُلَاءِ  
 الْقُرُونِ كَذَّبَ رُسُلَهُمْ، وَمَنْ كَذَّبَ رَسُولًا فَكَأَنَّمَا كَذَّبَ  
 جَمِيعَ الرُّسُلِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾  
 [الشعراء: ١٠٥]. وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَاحِدٌ، فَهُمْ فِي نَفْسِ  
 الْأَمْرِ لَوْ جَاءَهُمْ جَمِيعُ الرُّسُلِ كَذَّبُوهُمْ ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ أَيُّ  
 فَحَقَّ عَلَيْهِمْ مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى التَّكْذِيبِ مِنَ  
 الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، فَلْيَحْذَرِ الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَهُمْ مَا  
 أَصَابَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ كَمَا كَذَّبَ أُولَئِكَ.

[إِلِإِعَادَةُ أَسْهَلُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أَيُّ أَفَاعَجَزْنَا  
 ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ حَتَّى هُمْ فِي شَكٍّ مِنَ الْإِعَادَةِ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ  
 مِنْ خَلْقٍ حَدِيدٍ﴾ وَالْمَعْنَى: أَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ لَمْ يُعْجِزْنَا  
 وَالْإِعَادَةُ أَسْهَلُ مِنْهُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ  
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ أَهْوَاتٍ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وَقَالَ اللَّهُ  
 جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلْقُهُ قَالَ مَنْ يُعْنِي الْعِظَمُ  
 وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٨٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ  
 خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٨، ٧٩]. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ: «يَقُولُ  
 اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي.  
 وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ»<sup>(١)</sup>.

سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ أَيَّ كَشَفَتْ لَكَ عَنِ الْيَقِينِ الَّذِي كُنْتَ تَمْتَرِي فِيهِ ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أَيُّ هَذَا هُوَ الَّذِي كُنْتَ تَفِرُّ مِنْهُ، قَدْ جَاءَكَ فَلَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ، وَلَا فَكَاكَ وَلَا خَلَاصَ.

وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا نَعَشَاهُ الْمَوْتَ جَعَلَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٍ»<sup>(٤)</sup>. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قَوْلَانِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّ مَا هَهُنَا مَوْصُولَةٌ أَيْ الَّذِي كُنْتَ مِنْهُ ﴿تَحِيدُ﴾ بِمَعْنَى تَبْتَعِدُ وَتَسْتَأْى وَتَفِرُّ قَدْ حَلَّ بِكَ وَنَزَلَ بِسَاحَتِكَ (وَالْقَوْلُ الثَّانِي) أَنَّ مَا نَافِيَةٌ بِمَعْنَى: ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْفِرَارِ مِنْهُ وَلَا الْحَيْدَ عَنْهُ، وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ عَنْ سُمْرَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِثْلُ الَّذِي يَبْرُكُ مِنَ الْمَوْتِ مِثْلُ الثَّغْلَبِ تَطْلُبُهُ الْأَرْضُ بِدَيْنٍ، فَجَاءَ يَسْعَى حَتَّى إِذَا أُعْيِيَ وَأَشْهَرَ دَخَلَ جُحْرَهُ وَقَالَتْ لَهُ الْأَرْضُ: يَا ثَغْلَبُ، ذَنْبِي. فَخَرَجَ وَلَهُ خُصَاصٌ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى تَقَطَّعَتْ عَنْقُهُ وَمَاتَ»<sup>(٥)</sup>. وَمَضُمُونَ هَذَا الْمَثَلَ كَمَا لَا انْفِكَاكَ لَهُ وَلَا مَحِيدَ عَنِ الْأَرْضِ، كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ لَا مَحِيدَ لَهُ عَنِ الْمَوْتِ.

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حَدِيثِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَالْفَرْعِ وَالصَّعْقِ وَالْبُعْثِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ انْقَمَ الْقُرْنُ، وَحَتَّى جَهَنَّمُ، وَانْتَظَرُ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ ﷺ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» فَقَالَ الْقَوْمُ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ<sup>(٦)</sup>. «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ» أَيْ مَلَكٌ يَسْأَلُهُ إِلَى الْمُحْشَرِ وَمَلَكٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ<sup>(٧)</sup>. ثُمَّ رَوَى عَنْ يَحْيَى بْنِ زَافِعٍ مَوْلَى لَيْثِيْفٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ

عَلَيْهِ، فَإِنَّمَا فَرَّ لَيْثًا يَلْزَمَ حُلُولُ أَوْ اتِّحَادٌ وَهُمَا مَتَّفِعَانِ بِالْإِجْمَاعِ، تَعَالَى اللَّهُ وَتَقَدَّسَ، وَلَكِنَّ اللَّفْظَ لَا يَفْتَضِيهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْمُحْضَرِّ ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يَعْنِي مَلَائِكَتَهُ وَكَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فَالْمَلَائِكَةُ نَزَّلَتْ بِالذِّكْرِ وَهُوَ الْقُرْآنُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ، بِإِقْدَارِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. فَلَمَّا لَمَّ مِنَ الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَّقِينَ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَكْتُبَانِ عَمَلَ الْإِنْسَانِ.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَائِمِينَ﴾ أَيْ مُتَرَصِّدٌ ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أَيْ ابْنُ آدَمَ ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أَيْ مَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أَيْ إِلَّا وَلَهَا مَنْ يَرْفَعُهَا مُعِدٌّ لِدَلِكِ يَكْتُبُهَا لَا يَتْرُكُ كَلِمَةً وَلَا حَرَكَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرِنَ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] فَيَكْتُبُ الْمَلَكُ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ، هَلْ يَكْتُبُ الْمَلَكُ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ<sup>(١)</sup>. أَوْ إِنَّمَا يَكْتُبُ مَا فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ كَمَا هُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى قَوْلَيْنِ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْأُولَى، لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُرِّيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَطْنُ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَطْنُ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ». فَكَانَ عِلْقَمُهُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَتَّعْنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالسَّائِي وَابْنُ مَاجَهَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٣)</sup>. وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ.

[التَّذْكِيرُ بِسَكْرَةِ الْمَوْتِ وَنُفْخِ الصُّورِ وَمَا يَلِيهِ مِنْ

الْمُحْشَرِ]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: وَجَاءَتْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

(١) الطبري: ٣٤٥/٢٢ (٢) أحمد: ٤٦٩/٣ (٣) تحفة الأحوذى: ٦١٠/٦ وتحفة الأشراف: ٥٥٥/٢ وابن ماجه: ٢/١٣١٢ (٤) فتح الباري: ٣٦٩/١١ (٥) الطبراني: ٢٢٢/٧ إسناده ضعيف فيه معاذ بن محمد الهذلي لا يتابع على رفع حديثه وأيضاً الحسن البصري مدلس ولم يصرح وعنده: فجعل يسعى... حتى إذا أعبى وانتبر. (٦) تحفة الأحوذى: ١١٧/٧ (٧) الطبري: ٣٤٧/٢٢

قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَتَطْوِي عَلَيْهِمْ فَتَقْدِفُهُمْ فِي عَمَرَاتِ جَهَنَّمَ<sup>(٣)</sup>.

### [اِخْتِصَامُ الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ عِنْدَ اللَّهِ]

﴿قَالَ رَبُّهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَعَبْرُهُمْ: هُوَ الشَّيْطَانُ الَّذِي وَكَّلَ بِهِ<sup>(٤)</sup>. ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أَيْ يَقُولُ عَنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَدْ وَافَى الْقِيَامَةَ كَافِرًا يَتَبَرَّأُ مِنْهُ شَيْطَانُهُ فَيَقُولُ: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أَيْ مَا أَضَلَّتْهُ ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ بَلْ كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ ضَالًّا قَابِلًا لِلْبَاطِلِ مُعَانِدًا لِلْحَقِّ، كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَتُوبُونَ وَلَوْ مَوَّأَ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِ إِيَّكَ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ﴾ يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ لِلْإِنْسَانِ وَقَرِيبِهِ مِنَ الْجَنِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا يَخْتَصِمَانِ بَيْنَ يَدَيِ الْحَقِّ تَعَالَى، فَيَقُولُ الْإِنْسَانُ: يَا رَبَّ! هَذَا أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ عَنْ مَنَهِجِ الْحَقِّ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمَا: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ﴾ أَيْ عِنْدِي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ أَيْ قَدْ أَغْدَرْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، وَأَنْزَلْتُ الْكُتُبَ، وَقَامْتُ عَلَيْكُمْ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينَ ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يُعْنِي قَدْ قَضَيْتُ مَا أَنَا قَاضٍ<sup>(٥)</sup> ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أَيْ لَسْتُ أَعَذِّبُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ، وَلَكِنْ لَا أَعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ عِزَّ بَعِيدٍ ﴿هَذَا مَا تُوَدُّونَ لِكُلِّ آوَابٍ حَفِيطٍ﴾ مَنِ خَسِيَ الرَّحْمَنَ وَالْيَقِينَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّئِيٍّ ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمَ

الْفُلُودِ﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٢٥﴾

### [أَحْوَالُ جَهَنَّمَ وَالْجَنَّةِ وَأَهْلِهَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَلِ امْتَلَأْتَ؟

(١) الطبري: ٣٤٧/٢٢ (٢) الطبري: ٣٥٦/٢٢ (٣) أحمد: ٤٠/٣ إسناده ضعيف فيه عطية العوفي يخطيء كثيرا كان شعبيا مدلسا [تقريب] (٤) الطبري: ٣٥٧/٢٢ (٥) الطبري: ٢٢/٣٥٩

عَنْهُ يَخْطُبُ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَحَآتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فَقَالَ سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَشَهِيدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِمَا عَمِلَتْ<sup>(١)</sup>. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَفَنَّا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَصَرَّكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ الْخَطَابُ مَعَ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ - وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يَغْنِي مِنْ هَذَا الْيَوْمَ ﴿فَكَفَنَّا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَصَرَّكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أَيْ قَوِيٌّ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مُسْتَبْصِرًا حَتَّى الْكُفَّارَ فِي الدُّنْيَا، يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ، لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَا تَوَنَّا﴾ [مریم: ٢٨] وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ رَبُّنَا هَذَا مَا لَدَى عَيْنِدِ﴾ ﴿٢٦﴾ أَلِفًا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَيْنِدِ ﴿٢٧﴾ مَتَّاعٍ لِلْعَذَابِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٨﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٣٠﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿٣١﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٣٢﴾

### [شَهَادَةُ الْمَلِكِ وَأَمْرُ اللَّهِ بِالْقَاءِ الْكَافِرِ فِي جَهَنَّمَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمَلِكِ الْمُوَكَّلِ بِعَمَلِ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا فَعَلَ وَيَقُولُ: ﴿هَذَا مَا لَدَى عَيْنِدِ﴾ أَيْ مُعْتَدٌ مُحَضَّرٌ بِلاَ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْكُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْخَلِيقَةِ بِالْعَدْلِ فَيَقُولُ: ﴿أَلِفًا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَيْنِدِ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهَا مُحَاطَبَةٌ مَعَ السَّائِقِ وَالشَّهِيدِ، فَالسَّائِقُ أَخْضَرَهُ إِلَى عَرَصَةِ الْحِسَابِ، فَلَمَّا أَدَّى الشَّهِيدُ عَلَيْهِ أَمْرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَائِدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَبَشَّرَ الْمَصِيرَ: ﴿أَلِفًا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَيْنِدِ﴾ أَيْ كَثِيرُ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، عَيْنِدِ مُعَانِدٍ لِلْحَقِّ، مُعَارِضٍ لَهُ بِالْبَاطِلِ مَعَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ ﴿مَتَّاعٍ لِلْعَذَابِ﴾ أَيْ لَا يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ وَلَا بِرِّ فِيهِ، وَلَا صِلَةً، وَلَا صَدَقَةً ﴿مُعْتَدٍ﴾ أَيْ فِيمَا يُتَّقِيهِ وَيَصْرِفُهُ يَتَجَاوَزُ فِيهِ الْحَدَّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُعْتَدٍ فِي مَنَاطِقِهِ وَسَبْرِهِ وَأَمْرِهِ<sup>(٢)</sup>. ﴿مُرِيبٍ﴾ أَيْ شَاكٌ فِي أَمْرِهِ مُرِيبٌ لِمَنْ نَظَرَ فِي أَمْرِهِ ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أَيْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿فَأَلْفَيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَخْرُجُ عَنَّا مِنَ النَّارِ يَتَكَلَّمُ يَقُولُ: وَكُلْتُ الْيَوْمَ ثَلَاثَةً: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَيْنِدِ، وَمَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَمَنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٢٠

سُورَةُ الْقُلُوبِ

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي  
الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ  
لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا  
مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ  
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ  
وَادْبِرْ السُّجُودَ ﴿٤٠﴾ وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ  
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا  
نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَالْيَسَاءُ الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ نَسْفَعُ الْأَرْضَ  
عَنَّهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا أَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ  
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مِنَ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

## سُورَةُ الدَّلَازِئَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِبُ ذَرَأًا ﴿١﴾ فَالْحِمْلُ قَرَارًا ﴿٢﴾ فَالْجُرَيْتُ يَسْرًا ﴿٣﴾  
فَالْمُصْمِتُ آمِرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تَوْعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْبَلَدَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

مَلَائِكَةُ اللَّهِ ﴿٧﴾ وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقُلُوبِ﴾  
أَيُّ يَخْلُدُونَ فِي الْجَنَّةِ فَلَا يَمُوتُونَ أَبَدًا، وَلَا يَطْعَمُونَ أَبَدًا،  
وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا، وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ  
فِيهَا﴾ أَيُّ مَهْمًا اخْتَارُوا وَجَدُوا، مِنْ أَيُّ أَصْنَافِ الْمَلَادِ  
طَلَبُوا، أُخْضِرَ لَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ  
أَحْسَنُوا لُحُوفٌ زَوَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ  
صُهَيْبِ بْنِ سَيَانَ الرُّومِيِّ: أَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ  
الْكَرِيمِ ﴿٨﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ  
هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ  
أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَعَدَهَا أَنْ سَيَمْلُؤَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ  
أَجْمَعِينَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَمْرٍ يَمُرُّ بِهِ إِلَيْهَا وَيُلْقِي  
وَهِيَ تَقُولُ: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أَيُّ هَلْ بَقِيَ شَيْءٌ تَزِيدُونِي؟  
هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ. وَعَلَيْهِ تَذُلُّ الْأَحَادِيثُ:  
رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟  
حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ فِيهَا، فَيَنْزِي بِغَضَبِهَا إِلَى بَعْضِ  
وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ  
حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ فَيَسْكِنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي  
فُضُولِ الْجَنَّةِ» (١). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ، رَفَعَهُ - وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُوفِّقُهُ أَبُو سَفْيَانَ - «يَقَالُ لِجَهَنَّمِ  
هَلْ امْتَلَأَتْ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ  
وَتَعَالَى قَدَمَهُ عَلَيْهَا فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ» (٣).

(طَرِيقٌ أُخَرَى) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ  
فَقَالَتِ النَّارُ: أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ  
الْجَنَّةُ: مَالِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ. قَالَ  
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءٍ مِنْ  
عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ  
مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مَلُؤَهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا  
تَمْلِكُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فِيهَا فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَذَا لِكَ  
تَمْلِكُ وَتَنْزِي بِغَضَبِهَا إِلَى بَعْضِ، وَلَا يَطْلُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ  
مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا  
خَلْقًا آخَرَ» (٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرْزَلَتْ الْحَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ  
وَأَبُو مَالِكٍ وَالسُّدِّيُّ ﴿وَأَرْزَلَتْ﴾ أَدْنَيْتُ وَقُرْبْتُ مِنْ  
الْمُتَّقِينَ (٥) ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ لِأَنَّهُ  
وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ  
أَزَابٍ﴾ أَيُّ رَاجِعٍ تَائِبٍ مُقْبِلٍ ﴿حَافِظٌ﴾ أَيُّ يَحْفَظُ الْعَهْدَ فَلَا  
يَنْقُضُهُ وَلَا يَنْكُتُهُ، ﴿مَنْ حَتَّى الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ﴾ أَيُّ مَنْ خَافَ  
اللَّهُ فِي سِرِّهِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَقَوْلِهِ ﷺ:  
«وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» (٦). وَرَجَاءُ

يَقْبَلُ مُبِيبٌ أَيُّ وَلَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ  
سَلِيمٍ إِلَيْهِ خَاضِعٍ لَدَيْهِ ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أَيُّ الْجَنَّةِ ﴿يَسْلَمُ﴾ قَالَ  
قَتَادَةُ: سَلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ

(١) أحمد: ٢٣٤/٣ (٢) مسلم: ٢١٨٧/٤، ٢١٨٨ (٣) فتح  
الباري: ٤٦٠/٨ (٤) فتح الباري: ٤٦٠/٨ (٥) الطبري: ٢٢/٢٢  
٣٦٣ (٦) فتح الباري: ١٦٨/٢ (٧) الطبري: ٣٦٦/٢٢ (٨)  
مسلم: ١٦٣/١

النَّاسِ ﴿غافر: ٥٧﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَلْسِنَةً  
بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يَعْنِي  
الْمُكَذِّبِينَ أَصْبِرْ عَلَيْهِمْ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿وَسَبِّحْ  
يَحْمَدَ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وَكَانَتْ الصَّلَاةُ  
الْمَفْرُوضَةُ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ نَتْنَيْنِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ  
الْفَجْرِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فِي وَقْتِ الْعَصْرِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ كَانَ  
وَاجِبًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى أُمَّتِهِ حَوْلًا ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقِّ  
الْأُمَّةِ وَجُوبُهُ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ كُلَّهُ لَيْلَةَ  
الْإِسْرَاءِ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ، وَلَكِنْ مِنْهُمْ صَلَاةُ الصُّبْحِ  
وَالْعَصْرِ فَهُمَا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ. وَقَدْ رَوَى  
الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:  
كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَتَنَظَّرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ:  
«أَمَّا إِنَّكُمْ سَتُعَرَّضُونَ عَلَى رَبِّكُمْ فِتْرَتَهُ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا  
الْقَمَرَ لَا تُضَاوُونَ فِيهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى  
صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ثُمَّ قَرَأَ  
﴿وَسَبِّحْ يَحْمَدَ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾<sup>(١)</sup>  
وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَبَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلَ  
بِهِ<sup>(٢)</sup>.

### [الْأَمْرُ بِالتَّسْبِيحِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أَيْ فَصَلِّ لَهُ كَقَوْلِهِ:  
﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا  
مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ﴿وَأَذْكُرَ السُّجُودِ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ  
عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ التَّسْبِيحُ  
بَعْدَ الصَّلَاةِ<sup>(٣)</sup>. وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي  
هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ قُرَاءَةُ الْمُهَاجِرِينَ  
فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرَجَاتِ الْعُلَى  
وَالْعِجِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا:  
يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا  
تَتَصَدَّقُ، وَيُعْتَقُونَ وَلَا نُعْتَقُ. قَالَ ﷺ: «أَفَلَا أَعَلَّمَكُمُ شَيْئًا  
إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ

وَمَا يَنْتَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٦﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا  
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ يَحْمَدَ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٧﴾  
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَذْكُرِ النَّجْمِ ﴿٣٨﴾  
[تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ وَأَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ  
وَالصَّلَاةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ  
﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطَاشًا﴾ أَيْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً  
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى هَهُنَا: ﴿فَتَقَبَّلُوا فِي الْيَلَدِ هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ﴾ قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَثَرُوا فِيهَا<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ:  
فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ أَيْ سَارُوا فِيهَا يَتَغَوَّانَ الْأَرْزَاقَ وَالْمَتَاجِرَ  
وَالْمَكَاسِبَ أَكْثَرَ مِمَّا طَفَعْتُمْ بِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ﴾ أَيْ هَلْ مِنْ مَقَرٍّ كَانَ  
لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَهَلْ نَفَعَهُمْ مَا جَمَعُوهُ وَرَدَّ عَنْهُمْ  
عَذَابُ اللَّهِ إِذْ جَاءَهُمْ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَأَنْتُمْ أَيْضًا لَا مَقَرَّ  
لَكُمْ وَلَا مَجِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا مَحِيصَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:  
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾ أَيْ لَعِبْرَةً ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أَيْ  
لُبٌّ يَبْقَى بِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَقْلٌ ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ  
شَهِيدٌ﴾ أَيْ اسْتَمَعَ الْكَلَامَ فَوَعَاهُ وَتَعَقَّلَهُ بِعَقْلِهِ وَنَفَقَهُمُ  
بِلَبِّهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يَعْنِي لَا يَحْدُثُ نَفْسُهُ  
فِي هَذَا بِقَلْبٍ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْعَرَبُ تَقُولُ: أَلْقَى  
فُلَانٌ سَمْعَهُ إِذَا اسْتَمَعَ بِأُذُنَيْهِ، وَهُوَ شَاهِدٌ بِقَلْبٍ غَيْرِ  
غَائِبٍ<sup>(٦)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ  
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا  
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فِيهِ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ لِأَنَّ مَنْ  
قَدَّرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ قَادِرٌ  
عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْأُخْرَى. وَقَالَ  
قَتَادَةُ: قَالَتِ الْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ - خَلَقَ اللَّهُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ  
السَّابِعِ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَهُمْ يُسَمُّونَهُ يَوْمَ الرَّاحَةِ فَانْزَلَ  
اللَّهُ تَعَالَى تَكْلِيمَهُمْ فِيمَا قَالُوهُ وَتَأَوَّلُوهُ ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ  
لُغُوبٍ﴾<sup>(٨)</sup>. أَيْ مِنْ إِعْيَاءٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ، كَمَا قَالَ  
تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي  
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ  
الْمَوْتَى بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣] وَكَمَا قَالَ  
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ

(١) الطبري: ٣٧١/٢٢ (٢) الطبري: ٣٧٣/٢٢ (٣) الطبري:

٣٧٤/٢٢ (٤) الطبري: ٣٧٤/٢٢ (٥) الطبري: ٣٧٦/٢٢

(٦) أحمد: ٣٦٥/٤ (٧) فتح الباري: ٤٦٢/٨ ومسلم: ١/

٤٣٩ وأبو داود: ٩٧/٥ وتحفة الأحوذى: ٢٦٥/٧ والنسائي في

الكبرى: ٤٦٩/٦ وابن ماجه: ٦٣/١ (٨) الطبري: ٣٨١/٢٢



«أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ»<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أَيُّ تِلْكَ إِعَادَةُ سَهْلَةٍ عَلَيْنَا، يَسِيرَةٌ لَدَيْنَا كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كُلَّتْجَ بِالْبَصَرِ﴾. [القمر: ٥٠]

وَقَالَ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنِينَ وَاحِدِينَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. [لقمان: ٢٨]

[تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أَيُّ نَحْنُ عَلِمْنَا مُحِيطٌ بِمَا يَقُولُ لَكَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ التَّكْذِيبِ، فَلَا يَهُولُنَّكَ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾<sup>(٧)</sup> فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ<sup>(٨)</sup> وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ<sup>(٩)</sup> [الحجر: ٩٧-٩٩]. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أَيُّ وَلَسْتَ بِالَّذِي تُجَبِّرُ هَؤُلَاءِ عَلَى الْهُدَى، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا كُفِّتَ بِهِ. ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أَيُّ بَلِّغْ أَنْتَ رِسَالَةَ رَبِّكَ فَإِنَّمَا يَذَكِّرُ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ وَوَعِيدَهُ وَيَرْجُو وَعْدَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْتَمَسْنَا عَلَيْكَ الْبَلْغَ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾<sup>(١٠)</sup> لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ<sup>(١١)</sup> [الغاشية: ٢١، ٢٢] لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ<sup>(١٢)</sup>، [البقرة: ٢٧٢] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كَانَ قِتَادَةٌ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَخَافُ وَعِيدَكَ وَيَرْجُو مَوْعُودَكَ، يَا بَارِئُ يَا رَحِيمُ<sup>(١٣)</sup>.

أَجِرْ تَفْسِيرُ سُورَةِ ق وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَتِ ذُرَّوْا﴾<sup>(١)</sup> فَالْحَمِيْلَتِ وَقَرَّ<sup>(٢)</sup> فَالْخَارِيَتِ سِرَّوْا<sup>(٣)</sup> فَالْمُفْسِمَتِ أَمْرًا<sup>(٤)</sup> إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ<sup>(٥)</sup> وَإِنَّ الْآزِينَ لَوَاقِعٌ<sup>(٦)</sup> وَأَسْمَاءُ

إِلَّا مَنْ فَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلْتُمْ؟ تَسْبُحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ ذُبُرُ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ قَالَ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»<sup>(١١)</sup>.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذِّنْ الشُّجُورَ﴾ هُمَا الرِّكَعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ. وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَابْنِهِ الْحَسَنِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَبِهِ يَقُولُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ وَالتَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ.

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾<sup>(١٢)</sup> يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ<sup>(١٣)</sup> إِنَّمَا نَحْنُ نَحْيُ. وَنُبَيِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ<sup>(١٤)</sup> يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ<sup>(١٥)</sup> نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ<sup>(١٦)</sup>

[التَّذْكِيرُ بِفَضْلِ مَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْمِعْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أَنْ تَجْتَمِعُوا لِفَضْلِ الْقَضَاءِ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي التَّفَحُّةَ فِي الصُّورِ الَّتِي تَأْتِي بِالْحَقِّ الَّذِي كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ أَيُّ مِنْ الْأَجْدَاثِ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ نَحْيُ. وَنُبَيِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَإِلَيْهِ مَصِيرُ الْخَلَائِقِ كُلُّهُمْ، فَيَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَيَجْزِي وَإِنْ شَرًّا فَيُشْرُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْزِلُ مَطَرًا مِنَ السَّمَاءِ يَنْبُثُ بِهِ أَجْسَادَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا فِي قُبُورِهَا، كَمَا يَنْبُثُ الْحَبُّ فِي التُّرَى بِالنَّمَاءِ، فَإِذَا تَكَامَلَتْ الْأَجْسَادُ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَقَدْ أُوْدِعَتْ الْأَرْوَاحُ فِي ثُغْبٍ فِي الصُّورِ فَإِذَا نَفَخَ إِسْرَافِيلُ فِيهِ خَرَجَتْ الْأَرْوَاحُ تَتَوَهَّجُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَتَرْجِعَنَّ كُلُّ رُوحٍ إِلَى الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ، فَتَرْجِعُ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا، فَتَدْبُ فِيهِ كَمَا يَدْبُ السَّمُّ فِي اللَّدِيغِ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ فَيَقُومُونَ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ سِرَاعًا مُبَادِرِينَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ [القمر: ٨] وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) فتح الباري: ٣٧٨/٢ (٢) مسلم: ١٧٨٢/٤ (٣) القرطبي: ٢٩/١٧

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ  
٥٢١  
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفَّكُ عَنْهُ مَنَ أَفَكَ ﴿٩﴾ قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍوسَا هُوتَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٤﴾  
عَنِ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ صَعِدَ مِيزَابَ الْكُوفَةِ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا عَنْ شَيْءٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا أَنبَأْتُكُمْ بِذَلِكَ، فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُ الْكُوَّاءِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَذَّلُوا﴾ قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الرِّيحُ. قَالَ: ﴿فَالَّذِينَ تَبَذَّلُوا﴾ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: السَّحَابُ. قَالَ: ﴿فَالَّذِينَ تَبَذَّلُوا﴾ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: السُّفُنُ. قَالَ: ﴿فَالْمَقْسَمَاتُ أَمْرًا﴾ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْمَلَائِكَةُ<sup>(١)</sup>.  
وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجَارِيَاتُ يُسْرَا هِيَ النُّجُومُ تَجْرِي يُسْرًا فِي أَفلاكِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ تَرْتِيبًا مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ: فَالْزَبَاحُ فَوْقَهَا السَّحَابُ، وَالنُّجُومُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَالْمَقْسَمَاتُ أَمْرًا: الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ ذَلِكَ تَنْزِلُ بِأَوَامِرِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكُوفِيَّةِ، وَهَذَا قِسْمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى وَفُوعِ الْمَعَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أَيْ لَخَبَرٍ صَدَقَ ﴿وَلِإِنَّ الدِّينَ﴾ وَهُوَ الْحِسَابُ ﴿لَوْعٌ﴾ أَيْ لَكَائِنُ لَا مَحَالَةَ.

### [اِخْتِلَافُ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أَيْ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ لِلرَّسُولِ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ مُضْطَرِبٍ لَا يَلْتَمِمْ وَلَا يَجْتَمِعُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ مَا بَيْنَ مُصَدِّقِ الْقُرْآنِ وَمُكَذِّبٍ بِهِ<sup>(٢)</sup>. ﴿يُؤَفَّكُ عَنْهُ مَنَ أَفَكَ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَرُوجُ عَلَى مَنْ هُوَ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ إِنَّمَا يَنْقَادُ لَهُ وَيَصِلُ بِسَبَبِهِ، وَيُؤَفَّكُ عَنْهُ: مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ ضَالٌّ غَمَرٌ لَا فَهْمَ لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْكُرْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾<sup>(٣)</sup> مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَعِيلِينَ<sup>(٤)</sup> إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ [الصافات: ١٦١-١٦٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالسُّدِّيُّ: ﴿يُؤَفَّكُ عَنْهُ مَنَ أَفَكَ﴾ يَضِلُّ عَنْهُ مَنْ ضَلَّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: الْكَذَّابُونَ، قَالَ: وَهِيَ مِثْلُ الَّتِي فِي عَسَسَ ﴿قِيلَ الْإِنْسَنُ مَا أَفَرُّهُ﴾ [الآية: ١٧] وَالْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ

ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفَّكُ عَنْهُ مَنَ أَفَكَ ﴿٩﴾ قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍوسَا هُوتَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٤﴾

### [التأكيد على صدق وفُوعِ الْمَعَادِ وَالْحِسَابِ]

عَنِ امِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ صَعِدَ مِيزَابَ الْكُوفَةِ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا عَنْ شَيْءٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا أَنبَأْتُكُمْ بِذَلِكَ، فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُ الْكُوَّاءِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَذَّلُوا﴾ قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الرِّيحُ. قَالَ: ﴿فَالَّذِينَ تَبَذَّلُوا﴾ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: السَّحَابُ. قَالَ: ﴿فَالَّذِينَ تَبَذَّلُوا﴾ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: السُّفُنُ. قَالَ: ﴿فَالْمَقْسَمَاتُ أَمْرًا﴾ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْمَلَائِكَةُ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجَارِيَاتُ يُسْرَا هِيَ النُّجُومُ تَجْرِي يُسْرًا فِي أَفلاكِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ تَرْتِيبًا مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ: فَالْزَبَاحُ فَوْقَهَا السَّحَابُ، وَالنُّجُومُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَالْمَقْسَمَاتُ أَمْرًا: الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ ذَلِكَ تَنْزِلُ بِأَوَامِرِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْكُوفِيَّةِ، وَهَذَا قِسْمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى وَفُوعِ الْمَعَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أَيْ لَخَبَرٍ صَدَقَ ﴿وَلِإِنَّ الدِّينَ﴾ وَهُوَ الْحِسَابُ ﴿لَوْعٌ﴾ أَيْ لَكَائِنُ لَا مَحَالَةَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ذَاتِ الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ وَالِاسْتِوَاءِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبُو مَالِكٍ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ، وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالْمِنْهَالِيُّ بْنُ عَمْرٍو وَغَيْرُهُمَا: مِثْلُ تَجْعُدِ الْمَاءِ وَالرَّمْلِ وَالزَّرْعِ، إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ فَيَنْسُجُ بَعْضُهُ بَعْضًا طَرَائِقَ طَرَائِقَ، فَذَلِكَ الْحُبُكُ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ تَرْجِعُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْحُسْنُ وَالْبَهَاءُ، فَإِنَّهَا مِنْ حُسْنِهَا مُرْتَفَعَةٌ شَفَافَةٌ صَفِيفَةٌ شَدِيدَةُ الْبِنَاءِ مُتَّسِعَةٌ الْأَرْجَاءِ أُنِيفَةُ الْبَهَاءِ، مُكَلَّلَةٌ بِالنُّجُومِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، مُوشَّحَةٌ بِالسَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَاتِ.

(١) الطبري: ٣٨٩-٣٩٢/٢٢ وعبد الرزاق: ٢٤١/٣ (٢)

الطبري: ٣٩٦، ٣٩٥/٢٢ (٣) الطبري: ٣٩٦، ٣٩٧/٢٢ (٤)

عبد الرزاق: ٢٤٢/٤

يَقُولُونَ: لَا نُبْعَثُ. وَلَا يُوقِنُونَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿قِيلَ الْخَرَّصُونَ أَيُّ لَعْنِ الْمُرْتَابُونَ<sup>(٢)</sup>﴾. وَهَكَذَا كَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْخَرَّاصُونَ أَهْلُ الْغَرَّةِ وَالظُّنُونِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهَوْنَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُ وَاحِدٍ: فِي الْكُفْرِ وَالشُّكِّ غَافِلُونَ لَاهُونَ<sup>(٤)</sup>. ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا وَشُكًّا وَاسْتِعْجَادًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ﴿يُفْتَنُونَ يُعَذَّبُونَ<sup>(٥)</sup>﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ عَلَى النَّارِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ جَمَاعَةٌ آخَرُونَ كَمُجَاهِدٍ أَيْضًا وَعِكْرَمَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: ﴿يُفْتَنُونَ يُحْرَقُونَ﴾ دُوقُوا فَنَتَكَّرَ قَالَ مُجَاهِدٌ: حَرِيقَكُمْ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: عَذَابَكُمْ ﴿هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ سَتَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَضْعِيفًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ فَلَا يَنَامُونَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَقَلَّهُ، وَنَشِطُوا فَمَدُّوا إِلَى السَّحَرِ حَتَّى كَانَ الْاسْتِغْفَارُ بِسَحَرٍ<sup>(٨)</sup>.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَلَّ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنْ انْجَلَّ، فَلَمَّا رَأَيْتُ وَجْهَهُ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ رَجُلٍ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا سَمِعْتُهُ ﷺ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»<sup>(٩)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ عُرْفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا» فَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «لِمَنْ آلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ لِلَّهِ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامًا»<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْأَسْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يُصَلُّونَ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: قَامُوا اللَّيْلَ وَأَخْرَجُوا الْاسْتِغْفَارَ إِلَى الْأَسْحَارِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

يَقُولُونَ: لَا نُبْعَثُ. وَلَا يُوقِنُونَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿قِيلَ الْخَرَّصُونَ أَيُّ لَعْنِ الْمُرْتَابُونَ<sup>(٢)</sup>﴾. وَهَكَذَا كَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْخَرَّاصُونَ أَهْلُ الْغَرَّةِ وَالظُّنُونِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهَوْنَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُ وَاحِدٍ: فِي الْكُفْرِ وَالشُّكِّ غَافِلُونَ لَاهُونَ<sup>(٤)</sup>. ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ وَإِنَّمَا يَقُولُونَ هَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا وَشُكًّا وَاسْتِعْجَادًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ﴿يُفْتَنُونَ يُعَذَّبُونَ<sup>(٥)</sup>﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ كَمَا يُفْتَنُ الذَّهَبُ عَلَى النَّارِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ جَمَاعَةٌ آخَرُونَ كَمُجَاهِدٍ أَيْضًا وَعِكْرَمَةُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: ﴿يُفْتَنُونَ يُحْرَقُونَ﴾ دُوقُوا فَنَتَكَّرَ قَالَ مُجَاهِدٌ: حَرِيقَكُمْ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: عَذَابَكُمْ ﴿هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ سَتَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَحْقِيرًا وَتَضْعِيفًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّ النَّفِثِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ ١٥ أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِّنْ حَسِينٍ ١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ وَالْأَسْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨ وَفِي أَمْزِلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْخَارِئِ ١٩ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَعُدُّونَ ٢٢ قُورِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ٢٣

### [جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُتَّقِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ يَكُونُونَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ، بِخِلَافِ مَا أُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ، فَالْمُتَّقُونَ فِي حَالٍ كَوْنِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَالْعُيُونِ أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ، أَيُّ مِنَ النِّعَمِ وَالشَّرُورِ وَالْعِبْطَةِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا﴾ ١٦ ﴿حَسِينِينَ﴾ كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَّ إِحْسَانَهُمْ فِي الْعَمَلِ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّ «مَا» نَافِيَةٌ تَقْدِيرُهُ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ لَا يَهْجَعُونَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمْ تَكُنْ تَمْضِي

(١) الطبري: ٢٢/٤٠٠ (٢) الطبري: ٢٢/٣٩٩ (٣) الطبري: ٢٢/٤٠٠ (٤) الطبري: ٢٢/٤٠١ (٥) الطبري: ٢٢/٤٠٢ (٦) الطبري: ٢٢/٤٠٢ (٧) الطبري: ٢٢/٤٠٣ (٨) الطبري: ٢٢/٤٠٧ (٩) الطبري: ٢٢/٤٠٧ (١٠) الطبري: ٢٢/٤٠٨ (١١) الطبري: ٢٢/٤٠٨ (١٢) الطبري: ٢٢/٤٠٨ (١٣) الطبري: ٢٢/٤٠٩ (١٤) تحفة الأحوذ: ٧/١٨٧ (١٥) أحمد: ٢/١٧٣ إسناده ضعيف فيه ابن لهيعة لكن يشهد له حديث أبي مالك الأشعري عند أحمد ٥/٣٤٣ والطبراني في الكبير ٣/٣٤٢ وابن حبان (٥٠٩) وفيه ابن معان مجهول كما قال الدار قطني (١٦) الطبري: ٢٢/٤١٣

تَفَكَّرْ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ - وَلَيْتَ مَفَاصِلَهُ - لِلْعِبَادَةِ<sup>(٦)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُورِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ، وَهُوَ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، فَلَا تَشْكُوا فِيهِ كَمَا لَا تَشْكُونَ فِي نُطْقِكُمْ حِينَ تَنْطُقُونَ. وَكَانَ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا حَدَّثَ بِالشَّيْءِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ هُنَا.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ صَنِيفٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ<sup>(٨)</sup> فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ، فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ<sup>(٩)</sup> فَفَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ<sup>(١٠)</sup> فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِعَلَمٍ عَلَيْهِ<sup>(١١)</sup> فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانُهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتَ عَجُوزٌ عَقِيمٌ<sup>(١٢)</sup> قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ<sup>(١٣)</sup>

[حَدِيثُ صَنِيفٍ إِبْرَاهِيمَ]

هَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ هُودٍ وَالْجِنِّ أَيْضًا فَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ صَنِيفٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أَيْ الَّذِينَ أُرْسِدَ لَهُمُ الْكَرَامَةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ الرَّفْعُ أَقْوَى وَأَثْبِتُ مِنَ النَّصْبِ، فَرَدُّهُ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْلِيمِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَجْوَةٍ فَجِئُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] فَالْخَلِيلُ اخْتَارَ الْأَفْضَلَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَهُمْ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي صُورَةِ شُبَّانٍ حَسَنَانِ عَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ عَظِيمَةٌ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ أَيْ انْسَلَّ خُفْيَةً فِي سُرْعَةٍ ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أَيْ مِنْ خِيَارِ مَالِهِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] أَيْ مَشْوِيٍّ عَلَى

﴿وَالسَّنْبُوتِ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] فَإِنْ كَانَ الْإِسْتِغْفَارُ فِي صَلَاةٍ فَهُوَ أَحْسَنُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ. هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ. هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سَوْءُهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ يَعْقُوبَ أَنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ: ﴿سَوْءٌ أَسْتَغْفِرَ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قَالُوا: أَخْرَهُمْ إِلَى وَقْتِ السَّحْرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ لَمَّا وَصَفَهُم بِالصَّلَاةِ ثَنَّى بِوَصْفِهِمْ بِالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ وَالصَّلَةِ فَقَالَ: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أَيْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ قَدْ أَفْرَزُوهُ ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾. أَمَّا السَّائِلُ فَمَعْرُوفٌ وَهُوَ الَّذِي يَبْتَدِيءُ بِالسُّؤَالِ وَلَهُ حَقٌّ، وَأَمَّا الْمَحْرُومُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ: هُوَ الْمُحَارَفُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ سَهْمٌ<sup>(١٥)</sup>. يَعْنِي لَا سَهْمَ لَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ وَلَا كَسْبَ لَهُ وَلَا حِرْفَةً يَتَقَوَّى مِنْهَا. وَقَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هُوَ الْمُحَارَفُ الَّذِي لَا يَكَادُ يَتَبَسَّرُ لَهُ مَكْسَبُهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ: الْمَحْرُومُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا<sup>(١٦)</sup>.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالثَّمَرَةُ وَالثَّمَرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يَفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ»<sup>(١٧)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ أَسْنَدَهُ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ وَجْهِ آخَرَ<sup>(١٨)</sup>.

[آيَاتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَالنَّفْسِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أَيْ فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَقُدْرَتِهِ الْبَاهِرَةِ مِمَّا قَدْ ذَرَأَ فِيهَا مِنْ صُنُوفِ الثَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ، وَالْمُهَادِ وَالْجِبَالِ وَالْفِجَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبَحَارِ، وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَالْوَانِهِمْ وَمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالْقُوى، وَمَا بَيَّنَّهُمْ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْعُمُورِ وَالْفُهُومِ وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَمَا فِي تَرْكِيبِهِمْ مِنَ الْحِكْمِ فِي وَضْعِ كُلِّ غَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ، فِي الْمَحَلِّ الَّذِي هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَنْ

(١) فتح الباري: ٣٥/٣ ١٣٣/١١ ٤٧٣/١٣ ومسلم: ١/ ٥٢١-٥٢٣ وأبو داود: ٧٧/٢ ١٠١/٥ وتحفة الأحوذ: ٩/ ٤٧١ والنسائي في الكبرى: ٢٤/٤ وابن ماجه: ٤٣٥/١ (٢) الطبري: ٤١٤/٢٢ (٣) الطبري: ٤١٦/٢٢ (٤) النسائي: ٥/ ٨٥ فتح الباري: ٣٩٩/٣ ومسلم: ٧١٩/٢ (٦) القرطبي: ٤٠/١٧ (٧) الطبري: ٤٢/٢٢

الرَّضْفِ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ أَذْنَاهُ مِنْهُمْ ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾  
تَلَطَّفَ فِي الْعِبَارَةِ وَعَرَضَ حَسَنًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ انْظُمَتْ  
أَدَبَ الصَّافِيَةِ فَإِنَّهُ جَاءَ بِطَعَامٍ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ  
بِسُرْعَةِ، وَلَمْ يَمْتَنِّ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا فَقَالَ: نَأْتِيكُمْ بِطَعَامٍ؟ بَلْ  
جَاءَ بِهِ بِسُرْعَةٍ وَخَفَاءً، وَأَتَى بِأَفْضَلِ مَا وَجَدَ مِنْ مَالِهِ، وَهُوَ  
عَجَلٌ فَتَيَّ سَمِينٌ مَشْوِيٌّ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ - لَمْ يَضَعُهُ وَقَالَ:  
اِقْتَرِبُوا - بَلْ وَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ أَمْرًا يَشُقُّ  
عَلَى سَامِعِهِ بِصِغَةِ الْحَزْمِ، بَلْ قَالَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ عَلَى  
سَبِيلِ الْعَرَضِ وَالتَّلَطُّفِ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ الْيَوْمَ: إِنْ رَأَيْتَ  
أَنْ تَنْتَظِلَّ وَتُحْسِنَ وَتَصَدَّقَ فَافْعَلْ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هَذَا مُحَالٌ عَلَى مَا  
تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾  
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿٧٥﴾ وَأَمْرَانَهُمَا قَائِمَةٌ  
فَصَجَّكَ ﴿[هود: ٧٠، ٧١] أَيِ اسْتَبَشَّرَتْ بِهَلَاكِهِمْ لِتَمَرُّدِهِمْ  
وَعُتُوهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَعِنْدَ ذَلِكَ بَشَّرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ  
بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ قَالَتْ يَتُولَّى أَلَدُ وَأَنَا  
عَمُورٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا  
أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ  
حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿[هود: ٧٢، ٧٣] وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى  
هُنَا: ﴿وَيُبَشِّرُهُ بِعِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ قَالِيبَشَارَةُ لَهُ هِيَ بَشَارَةُ لَهَا.  
لِأَنَّ الْوَلَدَ مِنْهُمَا، فَكُلٌّ مِنْهُمَا بُشِّرَ بِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿فَأَقَلَّتْ أَمْرَانَهُ فِي صَرَرٍ﴾ أَيُّ فِي صَرَحَةٍ [وَعِظَةٍ] وَرَنَةٍ. قَالَهُ  
ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ،  
وَالضَّحَّاكُ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَالثَّوْرِيُّ، وَالسَّدُّيُّ <sup>(١)</sup>. وَهِيَ  
قَوْلُهَا: ﴿يَتُولَّى﴾ [هود: ٧٢]. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أَيُّ صَرَبَتْ  
يَدَيْهَا عَلَى جَبِينِهَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ سَابِطٍ <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَطَمَتْ، أَيُّ تَعَجَّبًا كَمَا تَتَعَجَّبُ  
النِّسَاءُ مِنَ الْأَمْرِ الْغَرِيبِ <sup>(٣)</sup>. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أَيُّ كَيْفَ  
أَلَدْتُ وَأَنَا عَمُورٌ وَقَدْ كُنْتُ فِي حَالِ الصَّبَا عَقِيمًا لَا أَحْبَلُ؟  
﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أَيُّ عَلَيْهِ بِمَا  
تَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْكِرَامَةِ حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ  
مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ  
لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا  
عِزًّا بَيْنَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَرَكَّابًا فِيهَا ءَابَةُ الَّذِينَ يُخَافُونَ الْعَذَابَ  
الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ  
مُتِينٍ ﴿٣٨﴾ فَنُفِخَ فِي بَرْكِيهِ وَقَالَ سِحْرٌ وَمُجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ  
فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ  
الْعَاقِمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرْنَا مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّامِيمِ ﴿٤٢﴾  
وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوَاعَنَ أَمْرَ رَبِّهِمْ  
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ  
وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا  
فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ  
فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْهُدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ  
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَقَرَأْ إِلَى اللَّهِ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾  
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

[شَأْنُ الْمَلَائِكَةِ إِهْلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْحُ وَجَاءَهُ الشَّرُّ يَجْدُفًا  
فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَسَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَكَاذِبُهُمْ أَغْرَضَ  
عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَايِمٌ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾  
وَقَالَ هُنَا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أَيُّ مَا شَأْنُكُمْ  
وَفِيمَ جِئْتُمْ؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ مُجْرِمِينَ﴾ يَغْنُونُ قَوْمٌ  
لُوطٍ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً﴾ أَيُّ مُعَلِّمَةً  
﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أَيُّ مُكْتَتَبَةً عِنْدَهُ بِأَسْمَائِهِمْ كُلَّ حَجَرٍ  
عَلَيْهِ اسْمٌ صَاحِبِهِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ: ﴿قَالَ إِنَّ  
فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَسَجَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا  
أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ [الآية: ٣٢] وَقَالَ تَعَالَى

(١) الطبري: ٤٢٦/٢٢ والقرطبي: ٤٦/١٧ (٢) الطبري: ٢٢/٢٢  
٤٢٨ (٣) الطبري: ٤٢٧/٢٢

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ  
مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ  
لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا  
عِزًّا بَيْنَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَرَكَّابًا فِيهَا ءَابَةُ الَّذِينَ يُخَافُونَ الْعَذَابَ

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

٥٢٣

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ<sup>(٥٢)</sup>  
 أَتَوَصَّوْنَهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ<sup>(٥٣)</sup> فَنُفِّلْنَاهُمْ فَمَا أَنْتَ  
 بِمَلُومٍ<sup>(٥٤)</sup> وَذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكْرَى لَنُفَعُ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٥٥)</sup> وَمَا  
 خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ<sup>(٥٦)</sup> مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ  
 وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا<sup>(٥٧)</sup> إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ<sup>(٥٨)</sup>  
 فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ<sup>(٥٩)</sup>  
 قَوْلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ<sup>(٦٠)</sup>

## سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ<sup>(١)</sup> وَكَتَبَ مَسْطُورٍ<sup>(٢)</sup> فِي رَقٍّ مَشْهُورٍ<sup>(٣)</sup> وَالْبَيْتِ  
 الْمَعْمُورِ<sup>(٤)</sup> وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ<sup>(٥)</sup> وَالْبَحْرَ الْمُسْجُورِ<sup>(٦)</sup> إِنَّ  
 عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ<sup>(٧)</sup> مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ<sup>(٨)</sup> يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ  
 مَوْرًا<sup>(٩)</sup> وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا<sup>(١٠)</sup> قَوْلِ يَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ  
 الَّذِينَ هُمْ فِي حُوزٍ يَلْعَبُونَ<sup>(١١)</sup> يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ  
 جَهَنَّمَ دَعَاً<sup>(١٢)</sup> هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ<sup>(١٣)</sup>

هَٰهُنَا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾<sup>(١٢)</sup> فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ  
 رَبِّهِمْ فَلَاخَذَتْهُمْ السَّيِّئَةُ وَهُمْ يَمْطُرُونَ ﴿وَذَلِكَ أَنَّهُمْ انْتَضَرُوا  
 الْعَذَابَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَجَاءَهُمْ فِي صَبِيحَةِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ بُكَرَةً  
 النَّهَارِ ﴿فَمَا اسْتَطَلَعُوا مِنْ فَيَافٍ﴾ أَيُّ مِنْ هَرَبٍ وَلَا تَهْوِضَ  
 ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ﴾ أَيُّ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ يَنْتَصِرُوا وَمِمَّا  
 هُمْ فِيهِ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ مِنْ قَبْلِ﴾ أَيُّ وَأَهْلَكُنَا  
 قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ هَٰؤُلَاءِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وَكُلُّ هَذِهِ  
 الْقِصَصُ قَدْ تَقَدَّمَتْ مُبَسَّوْطَةً فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ سُورِ  
 مُتَعَدِّدَةٍ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾<sup>(١٧)</sup> وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ  
 الْمَبْدُؤُونَ<sup>(١٨)</sup> وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ<sup>(١٩)</sup>  
 فَيَرَوْنَ إِلَى اللَّهِ عِوَاذَ لَكُمْ مِنْهُ تَذِيرٌ مِّنْهُ<sup>(٢٠)</sup> وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا  
 آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ<sup>(٢١)</sup>

هَٰهُنَا: ﴿فَلَاخَرَجْنَا مِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَهُمْ لُوطٌ وَأَهْلُ  
 بَيْتِهِ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ ﴿فَمَا وَحَدَّثْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَقَوْلُهُ  
 تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرْكَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَيُّ  
 جَعَلْنَاهَا عِبْرَةً بِمَا أُنْزِلْنَا بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَالنَّكَالِ،  
 وَجِحَارَةِ السَّجِيلِ. وَجَعَلْنَا مَحَلَّتَهُمْ بُحَيْرَةً مُّثْنَةً حَبِيبَةً، فَبَيَّ  
 ذَلِكَ عِبْرَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٢٨)</sup> فَنُفِّلْنَاهُ  
 وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ<sup>(٢٩)</sup> فَأَخَذَتْهُ وَخُودُهُ فَبَدَّوْهُ فِي آيَةٍ وَهُوَ  
 مُلِيمٌ<sup>(٣٠)</sup> وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ<sup>(٣١)</sup> مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ  
 أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ<sup>(٣٢)</sup> وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ  
 حِينٍ<sup>(٣٣)</sup> فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَمْطُرُونَ<sup>(٣٤)</sup>  
 فَمَا اسْتَطَلَعُوا مِنْ فَيَافٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ<sup>(٣٥)</sup> وَقَوْمٌ نُوْحٌ مِنْ قَبْلِ  
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ<sup>(٣٦)</sup>

[الْعَبْرُ مِنْ قِصَّةِ فِرْعَوْنَ وَعَادٍ وَثَمُودَ

وَقَوْمِ نُوحٍ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ  
 مُّبِينٍ﴾ أَيُّ بِدَلِيلٍ بَاهِرٍ وَحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ ﴿فَنُفِّلْنَاهُ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ  
 فَأَعْرَضَ فِرْعَوْنُ عَمَّا جَاءَهُ بِهِ مُوسَىٰ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ  
 اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا. كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنَّىٰ عِطْفِيهِ لِيُضِلَّ عَنْ  
 سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩] أَيُّ مُعْرِضٌ عَنِ الْحَقِّ مُسْتَكْبِرٌ ﴿وَقَالَ  
 سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أَيُّ لَا يَخْلُو أَمْرُكَ فِيمَا جِئْتَنِي بِهِ مِنْ أَنْ  
 تَكُونَ سَاحِرًا أَوْ مَجْنُونًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَاخَذَكُمُ  
 وَخُودُهُمْ فَسَدَّتْهُمْ﴾ أَيُّ أَلْقَيْنَاهُمْ ﴿فِي الْآلَمِ﴾ وَهُوَ الْبَحْرُ  
 ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أَيُّ وَهُوَ مَلُومٌ كَافِرٌ جَاحِدٌ فَاجِرٌ مُعَانِدٌ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أَيُّ  
 الْمُفْسِدَةِ الَّتِي لَا تُنْتِجُ شَيْئًا. قَالَ الضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ  
 وَغَيْرُهُمَا<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ﴾  
 أَيُّ مِمَّا تُفْسِدُهُ الرِّيحُ ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أَيُّ كَالشَّيْءِ  
 الْهَالِكِ الْبَالِي. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَغَيْرُهُ فِي قَوْلِهِ  
 تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قَالُوا: هِيَ  
 الْجَنُوبُ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ شُعْبَةَ عَنْ  
 الْحَكَمِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:  
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلِكْتُ عَادٌ  
 بِالذُّبُورِ»<sup>(٣)</sup>. ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كَقَوْلِهِ  
 تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ  
 فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧] وَهَكَذَا قَالَ

(١) الطبري: ٤٣٤/٢٢ (٢) الطبري: ٤٣٣/٢٢ (٣) فتح  
 الباري: ٦٠٤/٢ ومسلم: ٦١٧/٢

لِيَعْبُدُونَ ﴿٥١﴾ أَيَّ إِنَّمَا خَلَقْتُهُمْ لِأَمْرِهِمْ بِعِبَادَتِي لَا لِاخْتِيَا جِي إِلَيْهِمْ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَا لِيَعْبُدُونَ﴾ أَيَّ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا بِعِبَادَتِي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ (٥١) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)﴾ (٣) وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالسَّائِغِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٤)</sup>. وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْعِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَمَنْ أَطَاعَهُ جَزَاهُ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، وَمَنْ عَصَاهُ عَذَبَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ بَلْ هُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ. فَهُوَ خَالِفُهُمْ وَرَازِقُهُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ تَقَرَّعْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا صَدْرَكَ غَيًّا وَأَسَدَّ فَقْرَكَ، وَلَا تَفْعَلْ، مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسَدِّ فَقْرَكَ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أَيَّ نَصِيحًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَحْسَنِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أَيَّ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ الطُّورِ]

رَوَى مَالِكٌ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ [قَالَ]: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ<sup>(٧)</sup>. أَخْرَجَاهُ مِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: شَكُوْتُ إِلَى رَسُولِ

(١) الطبري: ٤٣٨/٢٢ (٢) الطبري: ٤٤٤/٢٢ (٣) أحمد: ٤١٨/١ (٤) أبو داود: ٢٩٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٢٦١/٨ والنسائي في الكبرى: ٤٦٩/٦ (٥) أحمد: ٣٥٨/٢ (٦) تحفة الأحوذى: ١٦٦/٧ وابن ماجه: ١٣٧٦/٢ (٧) الموطأ: ١/٧٨ فتح الباري: ٢٨٩/٢ ومسلم: ٣٣٨/١

[دَلَالِيلُ التَّوْحِيدِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ زَوْجَيْنِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيَّنًا عَلَى خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أَيَّ جَعَلْنَاهَا سَفْعًا مَحْفُوظًا رَفِيعًا ﴿بِأَيْدِي﴾ أَيَّ بِقُوَّةٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالتَّوْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>. ﴿وَلَنَا لِمُوسَى﴾ أَيَّ قَدْ وَسَّعْنَا أَرْجَاءَهَا فَرَفَعْنَاهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أَيَّ جَعَلْنَاهَا فِرَاشًا لِلْمَخْلُوقَاتِ ﴿فَنِعَمَ الْنَّهْدُونَ﴾ أَيَّ وَجَعَلْنَاهَا مَهْدًا لِأَهْلِهَا ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أَيَّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ أَزْوَاجَ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ وَلَيْلٍ وَنَهَارٍ، وَشَمْسٍ وَقَمَرٍ، وَبَرٍّ وَبَحْرٍ، وَضِيَاءٍ وَظِلَامٍ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ، وَمَوْتٍ وَحَيَاةٍ وَشَقَاءٍ وَسَعَادَةٍ، وَجَنَّةٍ وَنَارٍ، حَتَّى الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَيَّ لَتَعْلَمُوا أَنَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أَيَّ الْجَاوِ إِلَيْهِ وَاعْتَمِدُوا فِي أُمُورِكُمْ عَلَيْهِ ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿أَيَّ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ).

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنَّ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعَ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَحْسَنِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

[تَكْذِيبُ كُلِّ قَوْمٍ رَسُولَهُمْ عَلَى طَرِيقِ وَاحِدٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ: وَكَمَا قَالَ لَكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ قَالَ الْمُكَذَّبُونَ الْأَوَّلُونَ لِرُسُلِهِمْ: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنَّ﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أَيَّ أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أَيَّ لَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طَغَاءٌ تَسَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، فَقَالَ مُتَأَخِّرُهُمْ كَمَا قَالَ مُتَقَدِّمُهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ عَنْهُمْ﴾ أَيَّ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ يَعْنِي فَمَا نَلُومُكَ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيَّ إِنَّمَا تَنْتَفِعُ بِهَا الْقُلُوبُ الْمُؤْمِنَةُ.

[مَا كَانَ خَلْقُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِعِبَادَةِ اللَّهِ]

ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

سورة الطور

٥٢٤

أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا  
أَوْ لَا تَبْصِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾  
إِنَّ الْمُنَاقِبِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكَهَيْنَ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ  
وَوَقَّهْمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا  
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْصُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ  
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّ  
بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَلْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ  
رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَّا ذُنُوبُهُمْ فَبِكَهْمَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْتَرِعُونَ  
فِيهَا كَأَسَآلَا لَعُونَهَا وَلَا تَأْنِيَهُمْ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ  
لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ  
﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَلَّاهُ  
عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ  
نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ  
رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا جَاهِنٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ  
الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَاصِبِينَ ﴿٣١﴾

[الانباء: ٣٢] (٣) وَكَذَآ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ  
جُرَيْجٍ وَابْنُ زَيْدٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٤).  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ﴾ قَالَ الْجُمْهُورُ: هُوَ هَذَا  
الْبَحْرُ، وَالْمُرَادُ بِالْمَسْجُورِ أَنَّهُ يُوقَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا كَقَوْلِهِ:  
﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أَيُّ أَضْرِمْتُ فَتَصِيرُ نَارًا تَتَّجَجُ  
مُحِيطَةً بِأَهْلِ الْمَوْقِفِ. وَرَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ عَلِيٍّ  
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ (٥). وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبِهِ يَقُولُ سَعِيدُ  
بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبِيدِ بْنِ عَمِيرٍ وَغَيْرُهُمْ.  
وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿الْمَسْجُورُ﴾ الْمَمْلُوءُ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ  
وَوَجَّهَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ مُوقَدًا الْيَوْمَ. فَهُوَ مَمْلُوءٌ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ  
عَلَيْهِ أَيْ لَوَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿مَا

اللَّهُ إِلَهُي أَشْتَكِي فَقَالَ: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ  
رَاكِبَةٌ» فَطُفْتُ وَرَسُولُ اللَّهِ يُصَلِّي إِلَى جَنْبِ الْبَيْتِ يُقْرَأُ  
بِالطُّورِ وَكِتَابُ مَسْطُورٍ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورُ﴾ (١) وَكِتَابِ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ  
الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ  
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩)  
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا (١٠) قَوْلٌ يُوعِدُ الْمَكْذِبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي  
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يَدْخُلُونَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا (١٣) هَذِهِ  
النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا  
تُبْصِرُونَ (١٥) أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَبْصِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا  
تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

[قَسَمَ اللَّهُ عَلَى وَفُوعِ الْعَذَابِ]

يُقْسَمُ تَعَالَى بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ  
عَذَابَهُ وَاقِعٌ بِأَعْدَائِهِ، وَأَنَّهُ لَا دَافِعَ لَهُ عَنْهُمْ، فَالطُّورُ هُوَ  
الْجَبَلُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ أَشْجَارٌ مِثْلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ  
مُوسَى وَأَرْسَلَ مِنْهُ عِيسَى، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَجَرٌ لَا يُسَمَّى  
طُورًا، إِنَّمَا يُقَالُ لَهُ جَبَلٌ. ﴿وَكِتَابِ مَسْطُورٍ﴾ قِيلَ: هُوَ  
اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَقِيلَ: الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي تُقْرَأُ  
عَلَى النَّاسِ جَهَارًا وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ (٣) وَالْبَيْتِ  
الْمَعْمُورِ (٤) ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي  
حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ بَعْدَ مُجَاوَزَتِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: «ثُمَّ رُفِعَ  
بِي إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ  
أَلْفًا، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ» (٢) يَعْنِي يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ  
وَيَطُوفُونَ بِهِ كَمَا يَطُوفُ أَهْلُ الْأَرْضِ بِكَعْبَتِهِمْ، كَذَلِكَ ذَاكَ  
الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ هُوَ كَعْبَةُ أَهْلِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَلِهَذَا وَجَدَ  
إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُسْنِدًا ظَهَرَهُ إِلَى  
الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، لِأَنَّهُ بَانِي الْكَعْبَةِ الْأَرْضِيَّةِ، وَالْجِزَاءُ مِنْ  
جِنْسِ الْعَمَلِ، وَهُوَ بِجِوَالِ الْكَعْبَةِ، وَفِي كُلِّ سَمَاءٍ بَيْتٌ  
يَتَعَبَّدُ فِيهِ أَهْلُهَا، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا  
يُقَالُ لَهُ: بَيْتُ الْعِزَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ  
وَشُعْبَةُ وَأَبُو الْأَحْوَصِ عَنْ سِمَاكِ عَنْ خَالِدِ بْنِ عَرَفَةَ عَنْ  
عَلِيٍّ ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يَعْنِي السَّمَاءَ. قَالَ سُفْيَانُ: ثُمَّ تَلَا  
﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

(١) فتح الباري: ٤٦٨/٨ (٢) فتح الباري: ٣٤٩/٦ ومسلم:

١٥٠/١ (٣) الطبري: ٢٥٨، ٢٥٧/٢٢ (٤) الطبري: ٢٢/

٤٥٨ (٥) الطبري: ٤٥٨، ٢٢/٢٢



اللَّهُ مِنَ النَّعِيمِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَلَأْدُ مِنْ مَا كَلَّ وَمَشَارِبَ، وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِينَ وَمَرَائِبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أَيُّ وَقَدْ نَجَّاهُمْ مِنَ عَذَابِ النَّارِ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ بِذَاتِهَا عَلَى حَدِيثِهَا مَعَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهَا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ الَّتِي فِيهَا مِنَ الشُّرُورِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ١٩] كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] أَيُّ هَذَا بِذَاكَ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَإِحْسَانًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ حُصَيْنٍ

عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: السُّرُرُ فِي الْجِبَالِ، وَمَعْنَى ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ أَيُّ وَجُوهُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ كَقَوْلِهِ: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ﴿وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أَيُّ وَجَعَلْنَا لَهُمْ قَرِينَاتٍ صَالِحَاتٍ وَزَوَّجَاتٍ حَسَنَاتٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَرَوَّجْنَاهُمْ﴾ أُنْكَحْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُنَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّانِ يَوْمَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَمَا آتَاهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلٌّ آمِرٌ يَمَّا كَسَبَ رَهِيئًا﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَلَاحِهِمْ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿يَلْتَقُونَ فِيهَا كَأَسَا لَا لَعُوَ فِيهَا وَلَا تَأْسٍ﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلُفَاتُ لَهْمٍ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُهُمْ مَكُونٌ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلَانَا مُسْتَفِيقِينَ ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّوْمِ﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

[لُحُوقُ ذُرِّيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ فِي الْمَنْزِلَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَامْتِنَانِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ يُلْحِقُهُمْ بِآبَائِهِمْ فِي الْمَنْزِلَةِ، وَإِنْ لَمْ يَلْتَقُوا عَمَلُهُمْ، لِيَقَرَّ أَعْيُنُ الْأَبَاءِ بِالْإِبْنَاءِ عِنْدَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ بِأَنْ يَرْفَعَ النَّاقِصَ الْعَمَلِ بِكَامِلِ الْعَمَلِ، وَلَا يَنْقُصَ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ - لِلتَّسَاوِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَاكَ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الْحَقَّقْنَا يَوْمَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَمَا آتَاهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ رَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ، لِيَقَرَّ بِهِمْ

لَهُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿أَيُّ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ ذَلِكَ. رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدِ الْعَبْدِيِّ قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ يَعْصُ فِي الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَمَرَّ بِدَارِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَوَافَقَهُ قَائِمًا يَصَلِّي فَوْقَ يَسْمَعُ قِرَاءَتَهُ فَقَرَأَ ﴿وَالطُّورِ﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٧﴾ مَا لَمْ يَنْ دَافِعٍ قَالَ: قَسَمَ رَبِّي الْكَعْبَةِ حَقٌّ، فَتَنَزَّلَ عَنْ جِمَارِهِ وَاسْتَنَدَ إِلَى حَائِطٍ فَمَكَثَ مَلِيًّا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَمَكَثَ شَهْرًا يَعُوذُهُ النَّاسُ لَا يَدْرُونَ مَا مَرَضُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ <sup>(١)</sup>.

[وَصَفُفُ يَوْمِ الْعَذَابِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَتَفَادَةٌ: تَتَحَرَّكُ تَحْرِيكًا <sup>(٢)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ تَشَقُّقُهَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: تَدُورُ دَوْرًا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: اسْتَدَارَتْهَا وَتَحَرَّكَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ وَمَوْجُ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ <sup>(٣)</sup>. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّهُ التَّحَرُّكُ فِي اسْتِدَارَةٍ. وَتَبَيَّرُ الْجِبَالُ سِرًّا أَيُّ تَذَهَبُ فَتَصِيرُ هَبَاءً مُبْتَثًّا وَتُسْفَسُ نَسْفًا ﴿قَوْلٌ يَوْمِيٌّ لِلْمُكْذِبِينَ﴾ أَيُّ وَيَلُ لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَكَالِهِ بِهِمْ وَعِقَابِهِ لَهُمْ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أَيُّ هُمْ فِي الدُّنْيَا يَخْوِضُونَ فِي الْبَاطِلِ وَيَتَّخِذُونَ دِينَهُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ﴾ أَيُّ يُدْعَوْنَ وَيُسَافَرُونَ ﴿إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَفْعًا﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالثَّوْرِيُّ: يُدْعَوْنَ فِيهَا دَفْعًا <sup>(٤)</sup>. ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تُكْذِبُونَ﴾ أَيُّ تَقُولُ لَهُمُ الزَّبَانِيَّةُ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أَصْلُهَا أَيُّ إِذْخُلُوهَا دُخُولَ مَنْ تَعْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ سَوَاءٌ صَبَرْتُمْ عَلَى عَذَابِهَا وَنَكَالِهَا أَمْ لَمْ تَصْبِرُوا لَا مَجِيدَ لَكُمْ عَنْهَا، وَلَا خَلَاصَ لَكُمْ مِنْهَا ﴿إِنَّمَا يُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ أَحَدًا بَلْ يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَنَعِيمٍ﴾ فَكَهَيَّ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٠﴾

[وَصَفُفُ مَالِ السَّعْدَاءِ]

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ السَّعْدَاءِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَنَعِيمٍ﴾ وَذَلِكَ بِضِدِّ مَا أَوَّلَيْكَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿فَكَهَيَّ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَيُّ يَتَفَكَّهُونَ بِمَا آتَاهُمْ

(١) ذكره المؤلف في مسند عمر: ٢/٦٠٨ (٢) الطبري: ٢٢/٤٦٢ (٣) الطبري: ٢٢/٣٦٢ (٤) الطبري: ٢٢/٤٦٤ والدر المنثور: ٧/٣٦١

عَيْنُهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّانِ يَوْمَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَمَا لَكُنْهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ بِهِ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّانِ يَوْمَ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ قَالَ: هُمْ ذُرِّيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمُوتُونَ عَلَى الْإِيمَانِ، فَإِنْ كَانَتْ مَنَازِلُ آبَائِهِمْ أَرْفَعُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ أُلْحِقُوا بِآبَائِهِمْ، وَلَمْ يُنْقَضُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي عَمِلُوهَا شَيْئًا. وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: سَأَلْتُ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ وَلَدَيْنِ مَاتَا لَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمَا فِي النَّارِ» فَلَمَّا رَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِهَا قَالَ: «لَوْ رَأَيْتُ مَكَانَهُمَا لَبَغَضْتُهُمَا» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَوَلَدِي مِنْكَ؟ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ» قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي النَّارِ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ﴾... (الآية<sup>(٣)</sup>)، هَذَا فَضْلُهُ تَعَالَى عَلَى الْأَبْنَاءِ بِبَرَكَةِ عَمَلِ الْآبَاءِ، وَأَمَّا فَضْلُهُ عَلَى الْآبَاءِ بِبَرَكَةِ دُعَاءِ الْأَبْنَاءِ فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! أُنَى لِي هَلِيز؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ»<sup>(٤)</sup>. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ وَلَمْ يُخْرِجُوهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَكِنْ لَهُ شَاهِدٌ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»<sup>(٥)</sup>.

**[عَدَلَ اللَّهُ مَعَ أَهْلِ الذُّنُوبِ]**  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْفَضْلِ وَهُوَ رَفْعُ دَرَجَةِ الذَّرِّيَّةِ إِلَى مَنَزَلَةِ الْآبَاءِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ، أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْعَدْلِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا بِذَنْبٍ أَحَدٍ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ أَيُّ مُرْتَهَنٍ يَعْمَلُهُ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ذَنْبٌ غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ، سِوَاهُ كَانَ أَبَا أَوْ ابْنًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ<sup>(٦)</sup> فِي جَنَّتِ بَسَاءَلُونَ<sup>(٧)</sup> عَنِ الْمُعْجِرِينَ<sup>(٨)</sup> [المدر: ٣٨-٤١].

**[وَصَفَّ حَمْرُ الْجَنَّةِ وَنَعِيمُ أَهْلِهَا]**  
وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أَيُّ وَالْحَقَّقْنَاهُمْ بِفَوَاكِهٍ وَلُحُومٍ مِنْ أَنْوَاعٍ شَتَّى مِمَّا يُسْتَطَابُ

(١) تفسير الثوري: ٢٨٣ (٢) الطبري: ٤٦٧/٢٢ (٣) أحمد: ١٣٥/١ (٤) أحمد: ٥٠٩/٢ (٥) مسلم: ١٢٥٥/٣ (٦) الطبري: ٤٧٤/٢٢ (٧) الطبري: ٤٧٤

[تَبَرُّهُ الرُّسُولَ مِمَّا آتَاهُمْ بِهِ الْمُسْرُكُونَ، وَتَوَعَّدُهُمْ وَتَحْدِيهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا رَسُولُهُ ﷺ بِأَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ إِلَى عِبَادِهِ، وَأَنْ يَذْكُرَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَفَى عَنْهُ مَا يَرْمِيهِ بِهِ أَهْلُ الْبُهْتَانِ وَالْفُجُورِ، فَقَالَ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا كَاهِنٍ﴾ أَيِ لَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ بِكَاهِنٍ كَمَا تَقُولُهُ الْجَهْلَةُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، وَالكَاهِنُ الَّذِي يَأْتِيهِ الرَّئِيُّ مِنَ الْجَانِّ بِالْكَلِمَةِ يَتَلَقَّاهَا مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ ﴿وَلَا يَجُوزُ﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَخَطَّهَ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسْرِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ فِي الرُّسُولِ ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ أَيِ قَوَارِعِ الدَّهْرِ، وَالْمُنُونُ: الْمَوْتُ. يَقُولُونَ: نَنْتَظِرُهُ وَنَضْبِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَتُسْرِجَ مِنْهُ وَمِنْ شَأْنِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أَيِ انْتَظِرُوا فَإِنِّي مُنْتَظَرٌ مَعَكُمْ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: اخْتَبِسُوهُ فِي وَتَاقٍ وَتَرَبَّصُوا بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ: زُهَيْرٌ وَالتَّابِغَةُ إِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهِدًا﴾ أَيِ غُفُولُهُمْ تَأْمُرُهُمْ بِهَذَا الَّذِي يَقُولُونَهُ فَيَكُ مِنْ الْأَقَاوِيلِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا كَذِبٌ وَزُورٌ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أَيِ وَلَكِنْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ضَلَالٌ مُعَانِدُونَ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى مَا قَالُوهُ فَيَكُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ أَيِ اخْتَلَقَهُ وَافْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ يَعْتُونَ الْقُرْآنَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيِ كُفْرُهُمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أَيِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿تَقَوْلُهُ وَافْتَرَاهُ﴾ فَلْيَأْتُوا بِمِثْلٍ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا هُمْ وَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا جَاءُوا بِمِثْلِهِ، وَلَا بِعَسْرِ سُوْرٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَلَا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾<sup>(٢)</sup> أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ يَسْتَعِينُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعِينُهُمْ بِطَلْقٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَذَابُ فَمَا يَكْتُوبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

[أَسْأَلُهُ تَثْبِثُ التَّوْحِيدَ وَتَنْفِي حَيْلِ الْمُشْرِكِينَ]

هَذَا الْمَقَامُ فِي إِثْبَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أَيِ أَوْجَدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ أَمْ هُمُ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ؟ أَيِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، بَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾<sup>(٣)</sup> أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يُطِيرَ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيقٍ<sup>(٥)</sup>. وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِئَاءِ الْأَسَارَى، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا، فَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةٍ مَا حَمَلَهُ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيِ أَهْمُ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ وَهَذَا إِنكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَكِنْ عَدَمُ إِيقَانِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ﴾ أَيِ أَهْمُ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمُلْكِ وَيَبْدِئُهُمْ مَفَاتِيحُ الْخَزَائِنِ ﴿أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ﴾ أَيِ الْمُحَاسِبُونَ لِلْخَلَائِقِ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ الْقَعَالِ لِمَا يَرِيدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ يَسْتَعِينُونَ فِيهِ﴾ أَيِ مِرْقَاةً إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعِينُهُمْ بِطَلْقٍ مُبِينٍ﴾ أَيِ فَلْيَأْتِ الَّذِي يَسْتَمِيعُ لَهُمْ بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ، أَيِ وَلَيْسَ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى ذَلِكَ فَلْيَسْأَلُوا عَلَى شَيْءٍ وَلَا لَهُمْ دَلِيلٌ، ثُمَّ قَالَ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا نَسَبُوهُ

(١) الطبري: ٤٧٩/٢٢ إسناده ضعيف لتدليس محمد بن إسحاق ولم يصرح بالسماع (٢) فتح الباري: ٤٦٩/٨ (٣) فتح الباري: ٢٨٩/٢ و١٩٤/٦ و٣٧٥/٧ ومسلم: ٣٣٨/٣ و٣٣٩

إِلَيْهِ مِنَ الْبَنَاتِ وَجَعَلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَارْتَبَتْنَهُنَّ  
لِأَنفُسِهِنَّ الذُّكُورَ عَلَى الْإِنَاثِ، بَحِثْ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ  
بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، هَذَا وَقَدْ جَعَلُوا  
الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٍ لِلَّهِ وَعَبَدُوهُمْ مَعَ اللَّهِ فَقَالَ: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَتُ  
وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ  
أَجْرًا﴾ أَيْ أَجْرَةَ إِبْلَاجِكَ إِيَّاهُمْ رَسُولَ اللَّهِ، أَيْ لَسْتَ تَسْأَلُهُمْ  
عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا ﴿فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُمْقِلُونَ﴾ أَيْ فَهُمْ مِنْ أَدْنَى  
شَيْءٍ يَتَّبِعُونَ مِنْهُ وَيَتَّبِعُهُمْ وَيَسْقُ عَلَيْهِمْ ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ  
يَكْبُونَ﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ  
كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَمْ يُرِيدُ هَؤُلَاءِ يَقُولُهُمْ  
هَذَا فِي الرُّسُولِ وَفِي الَّذِينَ غُرُورَ النَّاسِ وَكَيَّدَ الرَّسُولُ  
وَأَصْحَابِهِ، فَكَيَّدَهُمْ إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَالَّذِينَ  
كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَهَذَا  
إِنْكَارٌ شَدِيدٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ  
الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ مَعَ اللَّهِ، ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَمَّا  
يَقُولُونَ وَيَقْتُرُونَ وَيُشْرِكُونَ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾  
﴿وَإِنْ بَرَوْا كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ فَذَرَهُمْ  
حَتَّى يَلْقَوْا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ  
شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ  
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ  
مُحَمَّدَ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

### سُورَةُ الْحَجَرِ

يَرْجِعُونَ ﴿السَّجْدَةُ: ٢١﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ  
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ تُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَتَبْلِيهِمْ فِيهَا  
بِالْمَصَائِبِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَيُتَّقُونَ، فَلَا يَفْهَمُونَ مَا يَرَادُ  
بِهِمْ، بَلْ إِذَا جُلِّيَ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ، عَادُوا إِلَى أَسْوَأَ مَا  
كَانُوا عَلَيْهِ، وَفِي الْأَثَرِ الْإِلَهِيِّ: كَمْ أَغْصَبَكَ وَلَا تُعَاقِبْنِي؟  
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عَبْدِي! كَمْ [أَعَاقَبْتُكَ] وَأَنْتَ لَا تَدْرِي؟

### [أَمْرُ الرَّسُولِ ﷺ بِالصَّبْرِ وَالتَّسْبِيحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أَيْ اصْبِرْ  
عَلَى آذَانِهِمْ وَلَا تُبَالِهِمْ فَإِنَّكَ بِمَرَأَى مِنَّا وَتَحْتَ كَلَاءَتِنَا وَاللَّهُ  
يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ  
تَقُومُ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: أَيْ إِلَى الصَّلَاةِ. سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ  
وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ<sup>(١)</sup>.  
وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: هَذَا  
فِي ابْتِدَاءِ الصَّلَاةِ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ أَبِي

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ  
لِلْمَحْسُوسِ ﴿وَإِنْ بَرَوْا كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أَيْ عَلَيْهِمْ  
يُعَذِّبُونَ بِهِ. لَمَّا صَدَّقُوا، وَلَمَّا أَيقَنُوا بَلْ يَقُولُونَ: هَذَا  
سَحَابٌ مَرْكُومٌ، أَيْ مُتَرَاكِمٌ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ  
فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا  
سُكْرَتُ أَبْصَرْنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مُسْتَخِرُونَ ﴿[الحجر: ١٤، ١٥].  
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أَيْ دَعَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿حَتَّى يَلْقَوْا  
يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ  
كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أَيْ لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا مَكْرُهُمُ الَّذِي  
اسْتَعْمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا، لَا يَجْزِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْئًا ﴿وَلَا  
هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ  
ذَلِكَ﴾ أَيْ قَبْلَ ذَلِكَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَلَنُدِيقَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ

سُورَةُ الطُّورِ

٥٢٦

الْمِيقَاتِ الْخَمْسَةِ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ  
عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾  
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَدَنَىٰ ﴿٨﴾  
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾  
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ  
نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ هَاجِنَةِ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾  
إِذِغْنِي السِّدْرَةَ مَا يَغْنَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ  
مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنُوءَ  
الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَذْكُرْ لَوْ أَن تَنبَأُ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمَهُ  
ضُرَيْكُ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ  
اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴿٢٣﴾  
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهَدَىٰ ﴿٢٤﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ  
الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٦﴾ وَكَمِ مِنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي  
شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٧﴾

تفسير سورة النجم  
وهي مكية

## [أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ  
فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ قَالَ: فَسَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَجَدَ مَنْ  
خَلْفَهُ، إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ ثُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ،  
فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ (١٢). وَقَدْ

- (١) أحمد: ٥٠/٣ وأبو داود: ٤٩٠/١ وتحفة الأحوذى: ٤٧/٢  
و ٥٠ والنسائي: ١٣٢/٢ وابن ماجه: ٢٦٤/١ و ٢٦٥ (٢)  
القرطبي: ٧٩/١٧ (٣) الطبري: ٤٨٨/٢٢ (٤) أحمد: ٥/٥  
٣١٣ (٥) فتح الباري: ٤٧/٣ وأبو داود: ٣٠٥/٥ وتحفة  
الأحوذى: ٣٥٩/٩ والنسائي في الكبرى: ٢١٥/٦ وابن ماجه:  
١٢٧٦/٢ (٦) القرطبي: ٧٨/١٧ (٧) تحفة الأحوذى: ٩/٩  
٣٩٢ والنسائي في الكبرى: ١٠٥/٦ (٨) الحاكم: ٥٣٦/١  
(٩) الطبري: ٣٧٩/٢٢ (١٠) فتح الباري: ٥٥/٣ ومسلم: ١/١  
٥٠١ (١١) مسلم: ٥٠١/١ (١٢) فتح الباري: ٤٨٠/٨

سَعِيدٌ وَغَيْرُهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ (١). وَقَالَ  
أَبُو الْجَوَزَاءِ: ﴿وَسَيَحْجِدُ بِكَ حَيْنَ يَقُومُ﴾ أَيُّ مِنْ نَوْمِكَ مِنْ  
فِرَاشِكَ (٢). وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٣). وَيَتَأَيَّدُ هَذَا الْقَوْلُ بِمَا  
رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَارَى مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ  
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ  
أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي -  
أَوْ قَالَ: ثُمَّ دَعَا - اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى،  
فَبِلَتْ صَلَاتُهُ» (٤). وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَأَهْلُ  
السُّنَنِ (٥). وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَسَيَحْجِدُ بِكَ  
رَبِّكَ حَيْنَ يَقُومُ﴾ قَالَ: مِنْ كُلِّ مَجْلِسٍ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي  
إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ ﴿وَسَيَحْجِدُ بِكَ حَيْنَ يَقُومُ﴾  
قَالَ: إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ قَالَ: سُبْحَانَكَ  
اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ (٦).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ جَلَسَ فِي  
مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ:  
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ،  
أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ  
ذَلِكَ». رَوَاهُ الثَّرِمِذِيُّ، وَهَذَا لَفْظُهُ وَالنَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ  
وَاللَّيْلَةِ. وَقَالَ الثَّرِمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٧). وَأَخْرَجَهُ  
الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، وَقَالَ: إِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ (٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أَيُّ اذْكُرْهُ وَاعْبُدْهُ  
بِالتَّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ  
فَتَسْجُدْ بِهِ نُافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾  
[الْإِسْرَاءُ: ٧٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَرَّ النَّجُورُ﴾ فِي حَدِيثٍ  
ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُمَا الرَّكْعَتَانِ اللَّتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ،  
فَإِنَّهُمَا مَشْرُوعَتَانِ عِنْدَ إِذْبَارِ النَّجُومِ أَيُّ عِنْدَ جُنُوحِهَا  
لِلْعَيُوبَةِ (٩). وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهَا قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّوَاتُلِ  
أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْهُ عَلَى رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ (١٠). وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ:  
«رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (١١).

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطُّورِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ. فَأَمْسَكَتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «اُكْتُبْ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا الْحَقُّ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ<sup>(٥)</sup>.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ٥ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ ٦ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ ٧  
ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١١﴾ أَفَتَمْنُونُ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٢﴾  
وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَ مَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾ إِذْ يَنْشَى الْمِدْرَةَ مَا يَفْعَلُ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى ﴿١٧﴾  
لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَابَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾

[مُعَلِّمُ الرُّسُولِ الْأَمِينُ هُوَ الرُّوحُ الْأَمِينُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ عَلَّمَهُ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى النَّاسِ ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير: ١٩-٢١] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أَيُّ ذُو قُوَّةٍ: قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سِوَيَّ»<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَوَى﴾ يَعْنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَهُ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ<sup>(٨)</sup>. ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ يَعْنِي جِبْرِيلُ اسْتَوَى فِي الْأُفُقِ الْأَعْلَى. قَالَهُ عِكْرَمَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. قَالَ عِكْرَمَةُ: وَالْأُفُقُ الْأَعْلَى الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ الصُّبْحُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ هُوَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ النَّهَارُ<sup>(١٠)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [أَيِ ابْنِ مَسْعُودٍ] أَنَّهُ قَالَ: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتْمَاءَةٌ جَنَاحُ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاولِ وَالذُّرِّ وَالْيَأْقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ<sup>(١١)</sup>. انْفَرَدَ بِهِ

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي مَوَاضِعَ، وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرُقٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ بِهِ<sup>(١٢)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ١ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ٢ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

الْهَوَىٰ﴾ ٣ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ٤ ﴿أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَىٰ أَنَّا الرَّسُولَ حَقٌّ وَمَا يَنْطِقُ

إِلَّا بِالْوَحْيِ]

قَالَ الشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُ: الْخَالِقُ يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِالْخَالِقِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: يَعْنِي بِالنَّجْمِ الثَّرَيَّا إِذَا سَقَطَ مَعَ الْفَجْرِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إِذَا رَمِيَ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا أَفْسِدُ بِمَوْفِعِ النُّجُومِ﴾ ٥٥ وَإِنَّهُ لَفَسَّرَ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٦٦﴾ إِنَّهُمْ لَفَرَّادٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿٨٠﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الشَّهَادَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ لَيْسَ بِضَالٍّ، وَهُوَ الْجَاهِلُ الَّذِي يَسْتَلِكُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ بَغْيٍ عِلْمَ، وَالْعَاوِي هُوَ الْعَالِمُ بِالْحَقِّ، الْعَادِلُ عَنْهُ قَضْدًا إِلَى غَيْرِهِ، فَتَزَهَّ اللَّهُ رَسُولُهُ وَشَرَعُهُ، عَنْ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ كَالنَّصَارَى وَطَرَائِقِ الْيَهُودِ، وَهِيَ: عِلْمُ الشَّيْءِ وَكَيْفَانُهُ، وَالْعَمَلُ بِخِلَافِهِ، بَلْ هُوَ صَلَاةُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ، فِي غَايَةِ الْإِسْقَامَةِ وَالْإِعْتِدَالِ وَالسَّدَادِ.

[رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أَيُّ مَا يَقُولُ قَوْلًا عَنْ هَوَىٰ وَغَرَضٍ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَقُولُ مَا أُمِرَ بِهِ يُبَلِّغُهُ إِلَى النَّاسِ كَامِلًا مَوْفُورًا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «[لَيْدُخْلَن] الْجَنَّةُ شَفَاعَةٌ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيٍّ مِثْلَ الْحَيِّينِ - أَوْ مِثْلَ أَحَدِ الْحَيِّينِ - رَبِيعَةً وَمُضَرَّ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ مَا رَبِيعَةٌ مِنْ مُضَرٍّ؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ»<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَهَنَنْتَنِي فَرُيشَ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ

(١) فتح الباري: ٢/٦٤١ و ٦٤٣ و ٧/٢٠٢ و ٣٤٨ و مسلم: ١/٤٠٥

أبو داود: ١٢٢/٢ والنسائي: ١٦٠/٢ (٢) الطبري: ٢٢/٤٩٥ (٣) أحمد: ٢٥٧/٥ (٤) أحمد: ١٦٢/٢ (٥) أبو

داود: ٦٠/٤ (٦) الطبري: ٢٢/٤٩٩ والقرطبي: ١٧/٨٥ (٧)

أبو داود: ٢٨٦/٢ والنسائي: ٩٩/٥ (٨) الطبري: ٢٢/٥٠١

(٩) القرطبي: ١٧/٨٨ (١٠) الطبري: ٢٢/٥٠١ (١١) أحمد: ٣٩٥/١

وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ قَالَ: أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿أَلَمْ يَحْذَرِكَ يَسْمَاءُ﴾ [الضحى: ٦] ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] <sup>(٦)</sup> وَقَالَ غَيْرُهُ: أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ الْجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا، وَعَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ.

[هَلْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ؟]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ <sup>(٧)</sup> أَفْتَنَدُونَهُ عَلَى مَا رَأَى ﷺ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قَالَ: رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ <sup>(٨)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ سِمَاكٌ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلَهُ <sup>(٩)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: إِنَّهُ رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ <sup>(١٠)</sup>.

وَقَالَ مَسْرُوقٌ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ: هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِشَيْءٍ فَقَفَّ لَهُ شَعْرِي، فَقُلْتُ: رُويَدًا، ثُمَّ قَرَأْتُ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ فَقَالَتْ: أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ، إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيلُ، مَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ، أَوْ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَ بِهِ، أَوْ يَعْلَمُ الْخَمْسَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ [لقمان: ٣٤] فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفُرْيَةَ، وَلَكِنَّهُ رَأَى جَبْرِيلَ، لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَمَرَّةً فِي أَجْيَادٍ وَلَهُ سِتْمِائَةٌ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الْأَفُقَ <sup>(١١)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» وَفِي رِوَايَةٍ: «رَأَيْتُ نُورًا» <sup>(١٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ <sup>(١٣)</sup> عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى <sup>(١٤)</sup> عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى <sup>(١٥)</sup> هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الثَّانِيَّةُ الَّتِي رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا جَبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي الْإِسْرَاءِ بِطُرُقِهَا وَالْفَاطِظَهَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ «سُبْحَانَ» بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ

أَحْمَدُ. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ جَبْرِيلَ أَنْ يَرَاهُ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: ادْعُ رَبَّكَ، فَدَعَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَطَلَعَ عَلَيْهِ سَوَادٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَجَعَلَ يَرْتَفِعُ وَيَنْتَشِرُ، فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ صَعِقَ فَاتَّاهُ فَنَعَّشَهُ، وَمَسَحَ الْبَرَقَ عَنْ شِدْقِهِ <sup>(١٦)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

[تَفْسِيرُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أَيْ فَاقْتَرَبَ جَبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ لَمَّا هَبَطَ عَلَيْهِ إِلَى الْأَرْضِ حَتَّى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَابَ قَوْسَيْنِ، أَيْ بِقَدَرِهِمَا إِذَا مَدَّا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ <sup>(١٧)</sup>. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ بُعْدُ مَا بَيْنَ وَتَرِ الْقَوْسِ إِلَى كَيْدِهِمَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الصَّيْغَةَ تُسْتَعْمَلُ فِي اللَّغَةِ لِإِثْبَاتِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ وَنَفْيِ مَا زَادَ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] أَيْ مَا هِيَ بِأَلْيَنَ مِنَ الْحِجَارَةِ، بَلْ هِيَ مِثْلُهَا أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهَا فِي الشَّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿يَخْتَوُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] أَيْ لَيْسُوا أَقَلَّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِائَةُ أَلْفٍ حَقِيقَةً أَوْ يَزِيدُونَ عَلَيْهَا. فَهَذَا تَحْقِيقٌ - لِلْمُخْبِرِ بِهِ - لَا شَكَّ وَلَا تَرَدُّدٌ، فَإِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ هَهُنَا، وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

وَهَذَا الَّذِي قُلْنَا مِنْ أَنَّ هَذَا الْمُقْتَرَبَ الدَّانِي الَّذِي صَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، هُوَ قَوْلُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي ذَرٍّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ <sup>(١٨)</sup>. كَمَا سَنُورِدُ أَحَادِيثَهُمْ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جَبْرِيلَ، لَهُ سِتْمِائَةٌ جَنَاحَ» <sup>(١٩)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ طَلْحِ بْنِ عَنَامٍ عَنْ زَائِدَةَ عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ زُرَّاءَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ <sup>(٢٠)</sup> فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى جَبْرِيلَ لَهُ سِتْمِائَةٌ جَنَاحَ <sup>(٢١)</sup>.

قَوْلُهُ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ مَعْنَاهُ: فَأَوْحَىٰ جَبْرِيلُ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَىٰ، أَوْ فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ مَا أَوْحَىٰ بِوَاسِطَةِ جَبْرِيلَ، وَكِلَا الْمُعْنَيْنِ صَحِيحٌ.

(١) أحمد: ٣٢٢/١ إسناده ضعيف فيه إدريس بن منبه ضعيف [تقريب ٣٣٤] قال الدار فطني متروك [ميزان الاعتدال ١/ ١٤٩] (٢) الطبري: ٥٠٣/٢٢ وعبدالرزاق: ٢٥٠/٣ (٣) الطبري: ٥٠٤/٢٢ (٤) الطبري: ٥٠٣/٢٢ (٥) فتح الباري: ٤٧٦/٨ (٦) القرطبي: ٥٢/١٧ (٧) مسلم: ١٥٨/١ (٨) الطبري: ٥٠٧/٢٢ (٩) الطبري: ٥٠٨/٢٢ (١٠) تحفة الاحوذى: ١٦٧/٩ (١١) مسلم: ١٦١/١

[غَشِيَانُ الْمَلَائِكَةِ وَالنُّورِ وَالْأَلْوَانِ السَّدْرَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَحَادِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّهُ غَشِيَتْهَا الْمَلَائِكَةُ مِثْلَ الْغُرَبَانِ، وَغَشِيَتْهَا نُورُ الرَّبِّ، وَغَشِيَتْهَا أَلْوَانٌ مَا أَدْرِي مَا هِيَ؟ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيَقْبَضُ مِنْهَا ﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قَالَ فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: وَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِهِ الْمُفْجَحَاتِ <sup>(٨)</sup>. انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ <sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا ذَهَبَ بَيْنَنَا وَلَا شِمَالًا <sup>(١٠)</sup>. ﴿وَمَا طَغَى﴾ مَا جَاوَزَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَهَذِهِ صِفَةُ عَظِيمَةٍ فِي الثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ فَإِنَّهُ مَا فَعَلَ إِلَّا مَا أُمِرَ بِهِ وَلَا سَأَلَ فَوْقَ مَا أُعْطِيَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٠] أَيْ الدَّلَالَةَ عَلَى قُدْرَتِنَا وَعَظَمَتِنَا، وَبِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اسْتَدَلَّ مَنْ ذَهَبَ مِنْ أَهْلِ الشُّبُهَةِ أَنَّ الرُّؤْيَا تِلْكَ اللَّيْلَةُ لَمْ تَنْفَعْ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ وَلَوْ كَانَ رَأَى رَبَّهُ لِأَخْبَرَ بِذَلِكَ وَلَقَالَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْآخَرَى <sup>(١١)</sup> أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى <sup>(١٢)</sup> تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى <sup>(١٣)</sup> إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أُنثَىٰ وَءَاثَاؤُهُنَّ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ <sup>(١٤)</sup> أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى <sup>(١٥)</sup> فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ <sup>(١٦)</sup> وَكَرَّ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَوْضَتِي <sup>(١٧)</sup>

[الرَّدُّ عَلَى عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ وَبَيَانِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُفْرَعًا لِلْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ

فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ وَلَهُ سِتْمَاءَةٌ جَنَاحٌ، يَنْتَثِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاقُوتُ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ» <sup>(١)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتْمَاءَةٌ جَنَاحٌ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنْ التَّهَاقُوتِ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ أَعْلَمُ <sup>(٢)</sup>. إِسْنَادُهُ حَسَنٌ أَيْضًا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ وَلَهُ سِتْمَاءَةٌ جَنَاحٌ» سَأَلْتُ عَاصِمًا عَنْ الْأَجْنَحَةِ فَأَبَى أَنْ يُخْبِرَنِي، قَالَ: فَأَخْبَرَنِي بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنَّ الْجَنَاحَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ <sup>(٣)</sup>. وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ. وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُضْرٍ مُعَلَّنٍ بِهِ الدَّرُّ» <sup>(٤)</sup>. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ أَيْضًا. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَامِرٍ قَالَ: أَتَى مَسْرُوقٌ عَائِشَةَ فَقَالَ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ! هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ! لَقَدْ فَتَّ شَعْرِي لِمَا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكُهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيَ حِجَابٍ﴾ [الشُّورَى: ٥١]. وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي عَدِ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ... الْآيَةِ [الْقَمَان: ٣٤]. وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ: ﴿يَتْلَاهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٦٧] وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ <sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُنْثَى الْيُسْبَىٰ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ جِبْرِيلُ» لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ، رَأَهُ مِنْهُيْطًا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ سَادًّا عَظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ <sup>(٦)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ بِهِ <sup>(٧)</sup>.

(١) أحمد: ١/٤٦٠ (٢) أحمد: ١/٣٩٥ (٣) أحمد: ١/٤٠٧ (٤) أحمد: ١/٤٠٧ (٥) أحمد: ٦/٤٩ (٦) أحمد: ٦/٢٤١ (٧) فتح الباري: ٨/٤٧٢ ومسلم: ١/٣٥٩ (٨) أحمد: ١/٤٢٢ (٩) مسلم: ١/١٥٧ (١٠) الطبري: ٢٢/٥٢١



إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِمَاءِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِذَا تُنتَصَرُ أَجْنَةً فِي بُطُونٍ أَمْهَتَكُمُ فَلَاتُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يَبْنِ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَا نَزَرُ وَإِلَآءَ نَحْنُ بِرَأْسِ خَلْقٍ رَّابِئٍ (٣٨) وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعِيهِ سَوَفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنْ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)

وَكَانَ سَدَنَّتْهَا وَحُجَابُهَا بَنِي مُعْتَبٍ (٧). (قُلْتُ): وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ، وَأَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ ابْنِ حَرْبٍ، فَهَدَمَاهَا وَجَعَلَا مَكَانَهَا مَسْجِدًا بِالطَّائِفِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ «مَنَاة» لِلأَوْسِ وَالخَزْرَجِ وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمُسَلَّلِ بِقُدَيْدٍ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهَا أَبَا سُفْيَانَ صَخْرَ ابْنِ حَرْبٍ فَهَدَمَهَا - وَيُقَالُ: عَلَيَّ بَنَ أَبِي طَالِبٍ - قَالَ: وَكَانَتْ ذُو الْخَلَصَةِ لِدَوْسٍ وَخَنَعَمَ وَبَجِيلَةَ، وَمَنْ كَانَ بِبِلَادِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بِتَالَةَ (٨). (قُلْتُ): وَكَانَ يُقَالُ لَهَا: «الْكَعْبَةُ الْيَمَانِيَّةُ»، وَلِلْكَعْبَةِ الَّتِي بِمَكَّةَ الْكَعْبَةُ الشَّامِيَّةُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَرِيرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّجَلِيَّ فَهَدَمَهَا،

وَالْأَنْدَادَ وَالْأَوْتَانَ، وَاتَّخَذُوا لَهَا النُّبُوتَ مُضَاهَاةً لِلْكَعْبَةِ الَّتِي بَنَاهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَكَانَتْ اللَّاتُ صَخْرَةً بَيْضَاءَ مَنْقُوشَةً وَعَلَيْهَا بَيْتٌ بِالطَّائِفِ، لَهُ أَسْتَارٌ وَسَدَنَةٌ وَحَوْلُهُ فَنَاءٌ مُعْظَمٌ عِنْدَ أَهْلِ الطَّائِفِ، وَهُمْ ثَقِيفٌ وَمَنْ تَابَعَهَا، يَفْتَخِرُونَ بِهَا عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ بَعْدَ قُرَيْشٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانُوا قَدْ اسْتَفَقُوا اسْمَهَا مِنْ اسْمِ اللَّهِ فَقَالُوا: اللَّاتُ، يَعْنُونَ مُؤَنَّثَةً مِنْهُ. تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلوًّا كَبِيرًا، وَخُكِّي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: أَنَّهُمْ قَرَأُوا (اللَّاتُ) بِتَشْدِيدِ التَّاءِ وَفَسَّرُوهُ بِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يَلْتُ لِلْحَجِيجِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ السُّوَيْقِ، فَلَمَّا مَاتَ عَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ فَعَبَدُوهُ (١). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿اللَّتْ وَالْعُزَّى﴾ قَالَ: كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلْتُ السُّوَيْقِ سَوِيقَ الْحَاجِّ (٢). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَا الْعُزَّى مِنْ الْعَزِيزِ، وَكَانَتْ شَجَرَةً عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَأَسْتَارٌ بِخَلَّةٍ، وَهِيَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ يُعْظَمُونَهَا (٣). كَمَا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ: لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَى لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ» (٤).

وَأَمَّا مَنَاةُ فَكَانَتْ بِالْمُسَلَّلِ عِنْدَ قُدَيْدٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ خُرَاعَةً وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يُعْظَمُونَهَا وَيُهْلُونَ مِنْهَا لِلْحَجِّ إِلَى الْكَعْبَةِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ نَحْوَهُ (٥). وَقَدْ كَانَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهَا طَوَائِفُ أُخَرُ تُعْظَمُهَا الْعَرَبُ كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ. غَيْرَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ هَذِهِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَشْهُرُ مِنْ غَيْرِهَا.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سُمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السُّمُرَاتِ وَهَدَمَ النَّبْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا» فَارْجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا أَبْصَرَتْهُ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَبَبَتْهَا أَمَعُوا فِي الْجَبَلِ وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى! يَا عُزَّى! فَأَتَاهَا خَالِدٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ غُرَيَانَةٌ نَاشِرَةً شَعْرَهَا تَحْتُو الثَّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَسَسَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «يَلْتُ الْعُزَّى!» (٦).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ اللَّاتُ لِثَقِيفٍ بِالطَّائِفِ،

(١) الطبري: ٥٢٣/٢٢ (٢) فتح الباري: ٤٧٨/٨ (٣) الطبري: ٥٢٣/٢٢ (٤) فتح الباري: ١٨٨/٦ (٥) فتح الباري: ٤٧٩/٨ (٦) النسائي في الكبرى: ٤٧٤/٦ (٧) ابن هشام: ٨٧/١ (٨) ابن هشام: ٨٧/١

### [لَا يَحْصُلُ الْخَيْرُ بِالْتَّمَنَى]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أَي لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَمَنَّى خَيْرًا حَصَلَ لَهُ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] مَا كُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُهْتَدٍ يَكُونُ كَمَا قَالَ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَدَّ شَيْئًا يَحْصُلُ لَهُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَنْظُرْ مَا يَتَمَنَّى، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا يَكْتَسِبُ لَهُ مِنْ أُمِّيَّتِهِ»<sup>(٢)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَحَدُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أَي إِنَّمَا الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ مَالِكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْمُتَصَرِّفِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

### [لَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَى﴾ كَقَوْلِهِ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» [البقرة: ٢٥٥] «وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ» [سبا: ٢٣] فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فَكَيْفَ تَرْجُونَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ شَفَاعَةَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ تَعَالَى لَمْ يَشْرَعْ عِبَادَتَهَا وَلَا أَدْنِ فِيهَا، بَلْ قَدْ نَهَى عَنْهَا عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِ رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ بِالْهَيِّ عَنِ ذَلِكَ جَمِيعَ كُتُبِهِ؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَتَّبِعُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْهَيْوَةَ الدُّنْيَا﴾<sup>(٣)</sup> ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعُلُوِّ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٢٤﴾

### [الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي رَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ

بَنَاتُ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْمِيَّتِهِمُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى، وَجَعَلِهِمْ لَهَا أَهْلًا بَنَاتُ اللَّهِ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخِطُكُتْ شَهَدَتْهُمْ وَشَكَّلُوا﴾ [الزخرف: ١٩] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَي لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ صَحِيحٌ يُصَدِّقُ مَا قَالُوهُ، بَلْ هُوَ كَذِبٌ وَزُورٌ

قَالَ: وَكَانَتْ [فَلَسْ] لَطِيءٌ وَمَنْ يَلِيهَا بِجَبَلٍ طَيِّءٍ مِنْ سَلْمَى وَأَجَا. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَهَدَمَهُ، وَأَصْطَفَى مِنْهُ سِتْفَيْنِ: الرَّسُوبَ وَالْمُخَذَّم، فَفَقَلَهُ إِيَّاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَهَمَّا سِتْفًا عَلِيٌّ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ لِحِمِيرَ وَأَهْلِ الْيَمَنِ بَيْتٌ بِصَنْعَاءَ يُقَالُ لَهُ: «وِيَامٌ» وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ بِهِ كُلُّ أَسْوَدَ، وَأَنَّ الْحَبْرَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَهَبَا مَعَ تَبَعٍ اسْتَخْرَجَاهُ وَقَتَلَاهُ وَهَدَمَا الْبَيْتَ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَتْ «رُضَاءُ» بَيْتًا لِبَنِي رِبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ سَعْدِ بْنِ زَيْدٍ مَنَاةُ ابْنِ تَمِيمٍ<sup>(١)</sup>. وَلَهَا يَقُولُ الْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رِبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ سَعْدِ بْنِ حِينَ هَدَمَهَا فِي الْإِسْلَامِ:

وَلَقَدْ شَدَدْتُ عَلَى رُضَاءَ شَدَّةً

فَتَرَكْتُهَا قَفْرًا بِقَاعِ أَسْمَحَا  
وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ «ذُو الْكَعْبَاتِ» لِيَكْرَ وَتَغْلِبَ ابْنِي وَائِلَ وَإِيَادَ «بِسَنَادٍ». وَلَهُ يَقُولُ أَعْشَى بْنُ قَيْسٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ:

بَيْنَ الْخَوَزَنَةِ وَالسَّيْدِ وَبَارِقِ

وَالْبَيْتِ ذُو الْكَعْبَاتِ مِنْ سَنَادٍ

[الرَّدُّ عَلَى مُعْتَقِدِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَذْكِيرِ الْأَنْدَادِ

وَتَأْنِيثِ الْمَلَائِكَةِ]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وَمَنْزُةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ ﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْإِنثَى» أَيِ أَتَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَتَجْعَلُونَ وَلَدَهُ أَثْنَى، وَتَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِكُمُ الذِّكْرَ، فَلَوْ أَفْتَسَمْتُمْ أَنْتُمْ وَمَخْلُوقٌ مِثْلُكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ لَكَانَتْ «قِسْمَةُ ضِرْيَ» أَيِ جَوْرًا بَاطِلَةً، فَكَيْفَ تُقَاسِمُونَ رَبَّكُمْ هَذِهِ الْقِسْمَةَ الَّتِي لَوْ كَانَتْ بَيْنَ مَخْلُوقَيْنِ كَانَتْ جَوْرًا وَسَفَهًا؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحْدَثُوهُ مِنَ الْكُذِبِ وَالْإِفْرَاءِ وَالْكُفْرِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَسْمِيَّتِهَا إِلَهَةً: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أُنْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْثَى وَآبَاؤُكُمْ﴾ أَيِ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِكُمْ ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَيِ مِنْ حُجَّةٍ ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أَيِ لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّهِمْ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ سَلَكَوا هَذَا الْمَسْلَكَ الْبَاطِلَ قَبْلَهُمْ، وَإِلَّا حَظَّ نَفْسِهِمْ فِي رِيَّاسَتِهِمْ وَتَعْظِيمِ آبَائِهِمُ الْأَقْدَمِينَ. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ أَيِ وَلَقَدْ أُرْسِلَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ بِالْحَقِّ الْمُنِيرِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ، وَمَعَ هَذَا مَا اتَّبَعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ وَلَا انْقَادُوا لَهُ.

(١) ابن هشام: ٨٩/١ (٢) أحمد: ٣٥٧/٢ إسناده ضعيف والحديث ضعفه الألباني في الضعيفة (٢٢٥٥)

قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّيْلِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزُّنَا، أَذْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ، وَرْنَا اللَّسَانَ النَّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَتَمَّى وَتُسْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدَّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذَبُهُ»<sup>(٣)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: رْنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظْرُ، وَرْنَا الشَّفَتَيْنِ التَّقِيلُ، وَرْنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَرْنَا الرَّجْلَيْنِ الْمَسِي، وَيُصَدَّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يَكْذَبُهُ، فَإِنْ تَقَدَّمَ بِفَرْجِهِ كَانَ زَانِيًا وَإِلَّا فَهُوَ اللَّيْلُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ<sup>(٦)</sup> وَالشَّعْبِيُّ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَافِعٍ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: ابْنُ لُبَابَةَ الطَّائِفِيُّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ قَالَ: الْقُبْلَةُ وَالْعُمْزَةُ وَالنَّظْرَةُ وَالْمُبَاشَرَةُ، فَإِذَا مَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ، وَهُوَ الزُّنَا<sup>(٧)</sup>.

#### [الترغيب في التوبة والنهي عن تركية النفس]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْعَفْوَ﴾ أَي رَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَمَغْفِرَتُهُ تَسَعُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، لِمَنْ تَابَ مِنْهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَيَّ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُوفُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ﴾ أَي هُوَ بَصِيرٌ بِكُمْ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ الَّتِي سَتُصَدَّرُ عَنْكُمْ، وَتَفْعُ مِنْكُمْ حِينَ أَنْشَأَ آبَاءَكُمْ آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ، وَاسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ ضُلْبِهِ أَمْثَالَ الذَّرِّ ثُمَّ قَسَمَهُمْ قَرِيقَيْنِ: قَرِيقًا لِلْحَيَّةِ وَقَرِيقًا لِلسَّعِيرِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَنْشَأَ آجَتَهُ فِي بَطْنٍ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ أَتَقَى<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي تَمْدَحُوهَا وَتَشْكُرُوهَا وَتَمُنُّوا بِأَعْمَالِكُمْ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ أَتَقَى﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُلْظَمُونَ فِتْنًا﴾ [النساء: ٤٩]. وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الْإِسْمِ، وَسَمِيتُ بَرَّةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا

وَأَفْتِرَاءً وَكُفْرًا شَنِيعٌ». «إِنْ يَلْبِغُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» أَي لَا يُجِدِّي شَيْئًا وَلَا يَقُومُ أَبَدًا مَقَامَ الْحَقِّ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»<sup>(٩)</sup>.

#### [الأمر بالإعراض عن أهل الباطل]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَيِ اعْرِضْ عَنِ الَّذِي اعْرِضَ عَنِ الْحَقِّ وَاهْجُرْهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ رُذِّ إِلَّا الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ أَيِ وَإِنَّمَا أَكْثَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ الدُّنْيَا، فَذَلِكَ هُوَ غَايَةُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ﴾ أَيِ طَلَبُ الدُّنْيَا وَالسَّعْيُ لَهَا هُوَ غَايَةُ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ. وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا»<sup>(١٠)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ أَيِ هُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْعَالَمِ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا، لَا فِي شَرْعِهِ وَلَا فِي قُدْرَتِهِ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾<sup>(١١)</sup> الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْعَفْوَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْشَأَ آجَتَهُ فِي بَطْنٍ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ أَتَقَى<sup>(١٢)</sup>.

[اللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، فَهُوَ يُجَازِي كُلًّا بِحَسَبِهِ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، الْحَاكِمُ فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ، وَخَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ أَيِ يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

#### [صِفَةُ الْمُحْسِنِينَ وَغُفْرَانُ اللَّيْلِ دُونَ الْكَبَائِرِ]

ثُمَّ فَسَّرَ الْمُحْسِنِينَ بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ، أَيِ لَا يَتَعَاطَوْنَ الْمُحَرَّمَاتِ الْكَبَائِرَ، وَإِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ بَعْضُ الصَّغَائِرِ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ وَيَسْتُرُ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنْ تَحْتَسِبُوا كَبَائِرَ مَا لَمْ تُنَبِّهْ عَنْهُ نَكُنْ فَرِحًا بِكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَكُمْ مُدْخَلٌ كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، لِأَنَّ اللَّيْلَ مِنَ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

(١) فتح الباري: ٤٤١/٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٤٧٦/٩ (٣)

أحمد: ٢٧٦/٢ (٤) فتح الباري: ٢٨/١١ ومسلم: ٢٠٤٦/٤

(٥) الطبري: ٥٣٧/٢٢ (٦) الطبري: ٥٣٧/٢٢ (٧) الطبري: ٥٣٧/٢٢

[بَيَانُ صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾<sup>(١)</sup> وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى<sup>(٢)</sup> قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالثَّوْرِيُّ: أَيْ بَلَغَ جَمِيعَ مَا أُمِرَ بِهِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿وَفَّى﴾ لِلَّهِ بِالْبَلَاغِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَفَّى﴾ مَا أُمِرَ بِهِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَفَّى﴾ طَاعَةَ اللَّهِ وَآدَى رِسَالَتَهُ إِلَى خَلْقِهِ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، وَهُوَ يَسْمَلُ الَّذِي قَبْلَهُ وَيَسْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبْلُغْ بِرَبِّهِمْ رُبُّهُ يَكَلِّبُ فَاتَمَهُنَّ﴾ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا<sup>(٦)</sup> [البقرة: ١٢٣] فَقَامَ بِجَمِيعِ الْأَوَامِرِ وَتَرَكَ جَمِيعَ النَّوَاهِي، وَبَلَغَ الرِّسَالَةَ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ، فَاسْتَحَقَّ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَنْتَبِخْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي ذَرٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ: «ابْنُ آدَمَ، ارْزُقْ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفَلَ أَجْرَهُ»<sup>(٧)</sup>.

[لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وَزْرَ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى يُبَيِّنُ مَا كَانَ أَوْحَاهُ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى فَقَالَ: ﴿أَلَا نَزَّ وَزَرَةٌ وَزَرٌ أَثَرًا﴾ أَيْ كُلُّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ نَفْسَهَا يَكْفُرُ أَوْ شَيْءٌ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا عَلَيْهَا وَزْرُهَا لَا يَحْمِلُهُ عَنْهَا أَحَدٌ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَدْعُ مُمْغِلَةً إِلَى جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨] «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» [النجم: ٣٩] أَيْ كَمَا لَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ وَزْرٌ غَيْرُهُ، كَذَلِكَ لَا يَحْضِلُ مِنَ الْأَجْرِ إِلَّا مَا كَسَبَ هُوَ لِنَفْسِهِ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: مِنْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ صَدَقَةٍ

تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبَيْتِ مِنْكُمْ» فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيْهَا؟ قَالَ: «سَمُوهَا زَنْبٌ»<sup>(٨)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ أَيْضًا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - مِرَارًا - إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيُثَلِّ: أَحْسِبْ فَلَانَا وَاللَّهِ حَسِيْبُهُ، وَلَا أَرْكِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ»<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(١٠)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُثْمَانَ فَأَتَى عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ قَالَ: فَجَعَلَ الْوُقْدَادُ ابْنُ الْأَسْوَدِ يَحْتُو فِي وَجْهِهِ التُّرَابَ وَيَقُولُ: أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا لَقِينَا الْمَدَاحِينَ أَنْ نَحْتُو فِي وَجْهِهِمْ التُّرَابَ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ<sup>(١٢)</sup>.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾<sup>(١٣)</sup> وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى<sup>(١٤)</sup> أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى<sup>(١٥)</sup> أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى<sup>(١٦)</sup> وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى<sup>(١٧)</sup> أَلَا نَزَّ وَزَرَةٌ وَزَرٌ أَثَرًا<sup>(١٨)</sup> وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى<sup>(١٩)</sup> وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يَرَى<sup>(٢٠)</sup> ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَ<sup>(٢١)</sup>

[الذِّمُّ لِمَنْ تَوَلَّى عَنِ الطَّاعَةِ وَبَخِلَ بِالْمَالِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِ] يَقُولُ تَعَالَى ذِمًّا لِمَنْ تَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّ﴾<sup>(٢٢)</sup> وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى<sup>(٢٣)</sup> [القيامة: ٣١، ٣٢] «وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَعْطَى قَلِيلًا ثُمَّ قَطَعَهُ<sup>(٢٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٢٥)</sup>. قَالَ عِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ: كَمَثَلِ الْقَوْمِ إِذَا كَانُوا يَحْفَرُونَ بَنَاءً، فَيَجِدُونَ فِي أَثْنَاءِ الْحَفْرِ صَخْرَةً تَمْنَعُهُمْ مِنْ تَمَامِ الْعَمَلِ فَيَقُولُونَ: «أَكْدَيْنَا»<sup>(٢٦)</sup> وَيَتْرَكُونَ الْعَمَلَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ أَيْ أَعِنْدَ هَذَا الَّذِي قَدْ أَمْسَكَ يَدَهُ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَقَطَعَ مَعْرُوفَهُ، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ أَنَّهُ سَيَفْقَدُ مَا فِي يَدِهِ حَتَّى قَدْ أَمْسَكَ عَنْ مَعْرُوفِهِ فَهُوَ يَرَى ذَلِكَ عَيْنَانَا؟ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ. وَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَنِ الصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْبِرِّ وَالصَّلَاةِ بِخُلَا وَشَحَا وَهَلَعًا، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنْفَقَ بِلَالٌ، وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِلَّا لَآ»<sup>(٢٧)</sup>. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

(١) مسلم: ١٦٨٧/٣ (٢) أحمد: ٤٦/٥ (٣) فتح الباري: ٣٢٤/٥ و٤٩١/١٠ و٥٦٧ و٢٢٩٦/٤ وأبو داود: ١٥٤/٥ وابن ماجه: ١٢٣٢/٢ (٤) أحمد: ٥/٦ (٥) مسلم: ٢٢٩٧/٤ وأبو داود: ١٥٣/٥ (٦) الطبري: ٥٤١/٢٢ (٧) الطبري: ٥٤٢/٢٢ (\*) كذا وقع في النسخ ولعله: أكدتنا بالناء إما بضمير الغائب أو بالمخاطب أو أصله أكدنا وانظر الطبري (٨) الطبراني: ١٩١/١٠ (٩) الطبري: ٥٤٤/٢٢ (١٠) الطبري: ٥٤٣/٢٢ (١١) الطبري: ٥٤٤/٢٢ (١٢) تحفة الأحوذى: ٥٨٥/٢

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَى﴾ أَيُّ: كَمَا خَلَقَ الْبَدَاءَةَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ، وَهِيَ النَّشَأُ الْآخِرَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ أَيُّ مَلِكٌ عِبَادَهُ الْمَالُ، وَجَعَلَهُ لَهُمْ قِيَةً مُؤَيِّمًا عِنْدَهُمْ، لَا يَخْتَانُونَ إِلَى بَيْعِهِ، فَهَذَا تَمَامُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَعَلَى هَذَا يَدُورُ كَلَامٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، مِنْهُمْ: أَبُو صَالِحٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُمَا<sup>(٥)</sup>. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَقْنَى﴾: مَوْلٍ، ﴿وَأَقْنَى﴾: أَخْدَمَ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ أَيْضًا: ﴿أَقْنَى﴾: أَعْطَى ﴿وَأَقْنَى﴾: رَضِيَ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّقَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ: هُوَ هَذَا النَّجْمُ الْوَقَادُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ: مِرْزَمُ الْجَوَازِءِ، كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَرَبِ يَعْبُدُونَهُ<sup>(٦)</sup>. ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وَهُمْ قَوْمٌ هُرِدُوا، وَيُقَالُ لَهُمْ: عَادُ بْنُ إِرَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِكَ بِعَادٍ﴾ إِذْ ذَاتَ الْعِمَادِ<sup>(٧)</sup> الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ فَكَانُوا مِنَ أَشَدِّ النَّاسِ أَقْوَاهُمْ وَأَعْتَاهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى رَسُولِهِ فَأَهْلَكَهُمْ اللَّهُ ﴿بِرِيحٍ صَوَّارٍ عَلِيَّةٍ﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَحْنِينًا آتَاكِ حُسُومًا<sup>(٨)</sup> [الحاقة: ٧] أَيُّ: مُتَابِعَةً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمُودًا فَإِنَّهُ﴾ أَيُّ: دَعَرَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدًا، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ: مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ ﴿إِنَّمَا كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَمَ﴾ أَيُّ أَشَدَّ تَمَرُّدًا مِنَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَمْوَى﴾ يَعْنِي: مَدَائِنَ لُوطٍ فَلَبَّاهُ عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَائِلَهَا، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَسَّنَهَا مَا عَشَّى﴾ يَعْنِي: مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَيْهِمْ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]، ﴿فِيَا آلَاءَ رَبِّكَ نَسْمَايَ﴾ أَيُّ: فِيهِ أَيُّ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ تَمْتَرِي؟ قَالَهُ قَتَادَةُ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿فِيَا آلَاءَ رَبِّكَ نَسْمَايَ﴾ يَا مُحَمَّدُ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾ أَرَفَتْ الْآرِفَةَ<sup>(١٠)</sup> لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ<sup>(١١)</sup> أَفَنَ هَذَا الْيَدِيثُ تَعَجُّونَ<sup>(١٢)</sup> وَتَضْحَكُونَ وَلَا

جَارِيَةً مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ عِلْمٌ يُتَتَّقُ بِهِ<sup>(١٣)</sup>. فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ مِنْ سَعْيِهِ وَكَدِّهِ وَعَمَلِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنْ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ»<sup>(١٤)</sup> وَالصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ كَالْوَقْفِ وَنَحْوِهِ هِيَ مِنْ آثارِ عَمَلِهِ وَوَقْفِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ﴾... الْآيَةُ [يس: ١٢]. وَالْعِلْمُ الَّذِي نَشَرَهُ فِي النَّاسِ فَاقْتَدَى بِهِ النَّاسُ بَعْدَهُ هُوَ أَيْضًا مِنْ سَعْيِهِ وَعَمَلِهِ، وَبُتِّتَ فِي الصَّحِيحِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ اتَّبَعَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»<sup>(١٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَكُمْ سَوْفَ يَرَى﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عِلِّيِّهِ النَّيِّبِ وَالنَّهْدَةِ فَيَنْتَشِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أَيُّ فَيُخَبِّرُكُمْ بِهِ وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾ أَيُّ الْأَوَّلَى.

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى<sup>(١٦)</sup> وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا<sup>(١٧)</sup> وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى<sup>(١٨)</sup> مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى<sup>(١٩)</sup> وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَى<sup>(٢٠)</sup> وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى<sup>(٢١)</sup> وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّقَى<sup>(٢٢)</sup> وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى<sup>(٢٣)</sup> وَتَمُودًا فَإِنَّهُ أَقْنَى<sup>(٢٤)</sup> وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَمَ<sup>(٢٥)</sup> وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَمْوَى<sup>(٢٦)</sup> فَمَسَّنَهَا مَا عَشَّى<sup>(٢٧)</sup> فِيَا آلَاءَ رَبِّكَ نَسْمَايَ<sup>(٢٨)</sup>

[بعضُ صِفَاتِ الرَّبِّ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْإِنْسَانَ كَمَا بَدَأَهُ، وَذَكَرَ بَعْضُ مَا فَعَلَهُ بِعِبَادِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ أَيُّ الْمَعَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ قَالَ: قَامَ فِينَا مَعَادُ بْنُ جَبَلٍ فَقَالَ: يَا بَنِي أَوْدٍ! إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ، تَعْلَمُونَ: أَنَّ الْمَعَادَ إِلَى اللَّهِ، إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ<sup>(٢٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أَيُّ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ الضَّحِكَ وَالْبُكَاءَ وَسَبَبَهُمَا، وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى<sup>(٣٠)</sup> كَقَوْلِهِ: ﴿أَحْسَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾<sup>(٣١)</sup> أَلَوْ بِكَ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى<sup>(٣٢)</sup> ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى<sup>(٣٣)</sup> جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى<sup>(٣٤)</sup> أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ الْمَوْتُ<sup>(٣٥)</sup>.

(١) مسلم: ١٢٥٥/٣ (٢) النسائي: ٢٤١/٧ (٣) مسلم: ٢٠٦٠ (٤) الحاكم: ٨٣/١ فيه سويد بن سعيد قال ابن حجر: صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه وأفحش فيه ابن معين القول [تقريب ٢٩٧٨] (٥) الطبري: ٢٢/٥٤٨ و٥٤٩ (٦) الطبري: ٥٥١/٢٢ (٧) الطبري: ٥٥٦/٢٢

بَنَكَونَ ﴿٦١﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦٢﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٣﴾  
 [الْإِنذَارُ وَالنَّبِيَّةُ وَالْأَمْرُ بِالسَّجْدَةِ وَالْخُضُوعِ]  
 هَذَا نَذِيرٌ ﴿٦٤﴾ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ ﴿مِنَ النَّذِيرِ الْأَوَّلِ﴾: أَي: مِنْ جَنْسِهِمْ أُرْسِلَ كَمَا أُرْسِلُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحاف: ٩]، ﴿أَرَفَتِ الْآرِزَةَ﴾: أَيِ اقْتَرَبَتِ الْقَرْيَةَ، وَهِيَ الْقِيَامَةُ ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾: أَي: لَا يَذْفَعُهَا إِذَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَحَدٌ، وَلَا يَطْلُعُ عَلَى عِلْمِهَا سِوَاهُ، وَالنَّذِيرُ الْحَذَرُ لِمَا يُعَايَنُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يُخْشَى وَفُوعُهُ فَيَمُنُّ أُنْذَرَهُمْ كَمَا قَالَ: إِنِّي ﴿نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ»<sup>(١)</sup>.  
 أَي: الَّذِي أَعْمَلَهُ شِدَّةٌ مَا عَايَنَ مِنَ الشَّرِّ عَنْ أَنْ يَلْبَسَ عَلَيْهِ شَيْئًا، بَلْ بَادَرَ إِلَى إِنْذَارِ قَوْمِهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَجَاءَهُمْ عُرْيَانًا مُسْرِعًا، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ: ﴿أَرَفَتِ الْآرِزَةَ﴾: أَي: اقْتَرَبَتِ الْقَرْيَةَ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الَّتِي بَعْدَهَا: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مِثْلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمِثْلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِطَنٍ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، حَتَّى أَنْصَحُوا خُبْرَتَهُمْ، وَإِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا، تُهْلِكُهَا»<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِمَاعِهِمُ الْقُرْآنَ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَتَلَاهِيهِمْ ﴿تَعْبُجُونَ﴾ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ مِنْهُ؛ اسْتِهْزَاءً وَشُحْرِيَّةً ﴿وَلَا يَبْكَونَ﴾ أَي: كَمَا يَفْعَلُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَرْبُّهُمْ خُشُوعًا﴾ [الاسراء: ١٠٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْغِنَاءُ: هِيَ يَمَانِيَّةٌ: اسْمُ لَنَا: عَنْ لَنَا، وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ<sup>(٣)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿سَيِّدُونَ﴾: مُعْرُضُونَ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعِبَادِهِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْعِبَادَةِ الْمَتَابِعَةِ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾: أَي: فَاحْضَعُوا لَهُ، وَأَخْلِصُوا، وَوَحَّدُوهُ. رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ<sup>(٥)</sup>. انْفَرَدَ بِهِ دُونَ مُسْلِمٍ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ سُورَةَ النَّجْمِ فَسَجَدَ وَسَجَدَ مَنْ عِنْدَهُ فَرَفَعَتْ رَأْسِي فَأَبَيْتُ أَنْ أَسْجُدَ، وَلَمْ يَكُنْ أَشْلَمَ

يَوْمَئِذٍ الْمُطَّلِبُ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَسْمَعُ أَحَدًا يَقْرُؤُهَا إِلَّا سَجَدَ مَعَهُ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الصَّلَاةِ<sup>(٧)</sup>.  
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّجْمِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

### تَفْسِيرُ سُورَةِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي وَاقِدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِقَافٍ وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ فِي الْأَضْحَى وَالْفَيْطْرِ وَكَانَ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَحَافِلِ الْكِبَارِ؛ لِاسْتِمَالِهَا عَلَى ذِكْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَبَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ وَالتَّوْحِيدِ وَإِثْبَاتِ التَّبَوَّاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْعَظِيمَةِ.

(١) فتح الباري: ١١/٣٢٣ (٢) أحمد: ٥/٣٣١ (٣) الطبري: ٥٥٩/٢٢ (٤) عبد الرزاق: ٣/٢٥٥ (٥) فتح الباري: ٨/٤٨٠ (٦) أحمد: ٦/٣٩٩ (٧) النسائي: ٢/١٦٠

فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ كَانَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ .

### ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ

رَوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَأَلَ أَهْلَ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً، فَأَنْشَقَ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ فَقَالَ: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شَقِيْنِ حَتَّى رَأَوْا جِرَاءَ بَيْنَهُمَا<sup>(٣)</sup>. وَأَخْرَجَاهُ أَيْضًا مِنْ طُرُقٍ.

رَوَايَةُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَارَ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ وَفِرْقَةٌ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، فَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ. فَقَالُوا: إِنْ كَانَ سَحَرَنَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ<sup>(٤)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَأَسْنَدُهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ<sup>(٥)</sup>.

رَوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا وَمُسْلِمٌ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾<sup>(٨)</sup> وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ [القمر: ١، ٢] قَالَ: قَدْ مَضَى ذَلِكَ، كَانَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ انْشَقَّ الْقَمَرُ حَتَّى رَأَوْا شِقَّتَيْهِ<sup>(٩)</sup>.

(رَوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾ قَالَ: وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، انْشَقَّ فَلِقَتَيْنِ، فَلِقَةٌ مِنْ دُونِ الْجَبَلِ وَلِقَةٌ مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»<sup>(١٠)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾<sup>(١)</sup> وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ<sup>(٢)</sup> وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ<sup>(٣)</sup> وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ<sup>(٤)</sup> حَكَمُهُ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الدُّرَّةَ<sup>(٥)</sup>

### [اِقْتِرَابُ السَّاعَةِ وَأَنْشِقَاقُ الْقَمَرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَفَرَاغِ الدُّنْيَا وَانْقِصَائِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾<sup>(٦)</sup> وَقَالَ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ. رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ، عَنْ أَنَسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ أَصْحَابَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، وَقَدْ كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا شَيْفٌ يَسِيرٌ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ» وَمَا نَرَى مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا يَسِيرًا<sup>(٧)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ يَعْضُدُ الَّذِي قَبْلَهُ وَيُقَسِّرُهُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَالشَّمْسُ عَلَى قُعَيْقِعَانَ بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَ: «مَا أَعْمَارُكُمْ فِي أَعْمَارٍ مَنْ مَضَى إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ فِيمَا مَضَى»<sup>(٨)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا». وَأَشَارَ بِأَصْبُعَيْهِ السَّبَابِ وَالْوُسْطَى<sup>(٩)</sup>. وَأَخْرَجَاهُ<sup>(١٠)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَهْبِ السَّوَائِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَلِهِ مِنْ هَذِهِ، إِنْ كَادَتْ لَتَسْقِيَنِي» وَجَمَعَ الْأَعْمَشُ بَيْنَ السَّبَابِ وَالْوُسْطَى<sup>(١١)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ قَالَ: قَدِمَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَسَأَلَهُ: مَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ بِهِ السَّاعَةَ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»<sup>(١٢)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَشَاهِدُ ذَلِكَ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ فِي أَسْمَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْهِ<sup>(١٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾ قَدْ كَانَ هَذَا فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ بِالْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ. وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ قَدْ وَقَعَ

(١) مجمع الزوائد: ٣١١/١٠ (٢) أحمد: ١١٥/٢ (٣) أحمد: ٣٣٨/٥ (٤) فتح الباري: ٣٥٥/١١ ومسلم: ٤/٢٢٦٨ (٥) أحمد: ٣٠٩/٤ (٦) أحمد: ٢٢٣/٣ (٧) فتح الباري: ٦٤١/٦ (٨) أحمد: ١٦٥/٣ وقوله: مرتين أي: قطعتين. (٩) مسلم: ٢١٥٩/٤ (١٠) فتح الباري: ٢٢١/٧ و٤٨٤/٨. ومسلم: ٢١٥٩/٤ (١١) أحمد: ٨١/٤ (١٢) دلائل النبوة: ٢٦٨/٢ (١٣) فتح الباري: ٤٨٤/٨ (١٤) فتح الباري: ٢٢١/٧، ومسلم: ٢١٥٩/٤ (١٥) الطبري: ٢٢/٥٦٩ (١٦) دلائل النبوة: ٢٦٧/٢

وَالْتَرْمِذِيُّ<sup>(١)</sup> وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٢)</sup>.

(رواية عبد الله بن مسعود) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِقَّتَيْنِ، حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْهَدُوا»<sup>(٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ أَيْضًا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ الْجَبَلَ مِنْ فَرْجِ الْقَمَرِ جِبْنَ انْشَقَّ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى رَأَيْتُ الْجَبَلَ مِنْ بَيْنِ فُرْجَتَي الْقَمَرِ<sup>(٦)</sup>.

[عِتَادُ الْمُشْرِكِينَ وَمَوْقِفُهُمُ السَّيِّئُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً﴾ أَيُّ: دَلِيلًا وَحُجَّةً وَبَرْهَانًا ﴿يُعْرَضُوا﴾ أَيُّ: لَا يَتَقَادُوا لَهُ، بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ وَيَتْرَكُونَهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ. وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِزٌّ أَيُّ: وَيَقُولُونَ: هَذَا الَّذِي شَاهَدْنَاهُ مِنَ الْحُجَجِ سِحْرٌ سَجَرْنَا بِهِ. وَمَعْنَى: «مُسْتَعِزٌّ». أَيُّ: ذَاهِبٌ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٧)</sup> وَغَيْرُهُمَا. أَيُّ: بَاطِلٌ مُّضْمَحِلٌّ لَا دَوَامَ لَهُ. ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيُّ: كَذَّبُوا بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُمْ، وَاتَّبَعُوا مَا أَمَرْتَهُمْ بِهِ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ وَسَخَافَةِ عَقْلِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَعِزٌّ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الْخَيْرَ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الْخَيْرِ، وَالشَّرُّ وَاقِعٌ بِأَهْلِ الشَّرِّ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مُسْتَعِزٌّ بِأَهْلِهِ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أَيُّ: مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ قِصَصِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعَذَابِ مِمَّا يَنْتَلِي عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أَيُّ: مَا فِيهِ وَاعِظَ لَهُمْ عَنِ الشُّرْكِ وَالْتِمَادِي عَلَى التَّكْذِيبِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ أَيُّ: فِي هِدَايَتِهِ تَعَالَى لِمَنْ هَدَاهُ، وَإِضْلَالِهِ لِمَنْ أَضَلَّهُ، ﴿فَمَا تَعْنِ الْأَنْذُرُ﴾ بَعْغِي: أَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي النَّذْرَ عَمَّنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ، فَمَنْ الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُكْمُ الْخَالِقُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ﴾ خُشْعًا أَبْصَرَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّثِيرٌ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾

سُورَةُ الْقَمَرِ ٥٢٩  
خُشْعًا أَبْصَرَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّثِيرٌ ﴿٧﴾  
مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَعْلُوبٌ فَانْتَصَرَ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِاعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كَفِرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَأَشْرًا مِّمَّا وَحَدَّا تَتَّبِعُونَ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَهْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ يَلِينَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ ﴿٢٥﴾ سَبَعَامُونَ غَدَا مَنِ الْكَذَابِ الْأَشَرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّافَةَ فَنَنَاهُ لَّهُمْ فَأَرْتَبَهُمْ وَاصْطَبَرِ ﴿٢٧﴾

[سوء أحوالهم يوم القيامة]

يَقُولُ تَعَالَى: فَقَوْلَ يَا مُحَمَّدٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا: هَذَا سِحْرٌ مُّسْتَعِزٌّ، أَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرَهُمْ ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ﴾ أَيُّ: إِلَى شَيْءٍ مُّتَّكِرٍ فَطِيعٍ، وَهُوَ مَوْقِفُ الْحِسَابِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ، بَلْ وَالزَّلَازِلِ وَالْأَهْوَالِ، ﴿خُشْعًا أَبْصَرَهُمْ﴾ أَيُّ: ذَلِيلَةً أَبْصَارُهُمْ، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وَهِيَ الْقُبُورُ، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّثِيرٌ﴾ أَيُّ: كَأَنَّهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ وَسُرْعَةِ سَيْرِهِمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِجَابَةً لِلدَّاعِي جَرَادٌ مُّثِيرٌ فِي الْأَفَاقِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أَيُّ مُسْرِعِينَ ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ لَا يُخَالِفُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أَيُّ يَوْمٌ

(١) مسلم: ٢١٥٩/٤، وتحفة الأحوذى: ١٧٥/٩ (٢) تحفة الأحوذى: ١٧٥/٩ (٣) أحمد: ٣٧٧/١ (٤) فتح الباري: ٨/٨٣ (٥) الطبري: ٥٧٠/٢٢ (٦) أحمد: ٤١٣/١ (٧) الطبري: ٥٧٠/٢٢ (٨) الطبري: ٥٧٢/٢٢ (٩) الدر المنثور: ٦٧٣/٧



يَرْكَبُونَ ﴿٤١﴾ [يس: ٤١، ٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَا طَعَا أَلَمَهُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْبَارَةِ﴾ ① لِجَعَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَفِيهَا أَذُنٌ وَعِصَةٌ [الحاقة: ١١، ١٢] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أَيْ: فَهَلْ مَنْ يَتَذَكَّرُ وَيَتَّعِظُ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: أَفْرَأَيْي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ②. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ③. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أَيْ: كَيْفَ كَانَ عَذَابِي لِمَنْ كَفَرَ بِي وَكَذَّبَ رُسُلِي، وَلَمْ يَتَّعِظْ بِمَا جَاءَتْ بِهِ نُذْرِي، وَكَيْفَ انْتَصَرْتُ لَهُمْ وَأَخَذْتُ لَهُمْ بِالْأَثَرِ. وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ④ أَيْ: سَهَّلْنَا لَفْظُهُ وَيَسَّرْنَا مَعْنَاهُ لِمَنْ أَرَادَهُ لِيَتَذَكَّرَ النَّاسُ، كَمَا قَالَ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبُوا عَنْكَ يَلَسَانِكَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبَعْنَا بِسَرَائِرِ الْأَنْفُسِ وَتُذَرِّ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مریم: ٩٧] وَقَوْلُهُ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أَيْ: فَهَلْ مِنْ مُتَذَكِّرٍ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ حِفْظَهُ وَمَعْنَاهُ؟ وَقَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ: فَهَلْ مِنْ مُنْزَجِرٍ عَنِ الْمَعَاصِي؟ ⑤

﴿كَذَّبْتَ عَادَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ⑥ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ⑦ تَرْمِجُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تَحُلُ مُنْقَعِرٍ ⑧ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ⑨ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑩ [قِصَّةُ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَادِ قَوْمِ هُودٍ: إِنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ أَيْضًا، كَمَا صَنَعَ قَوْمُ نُوحٍ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا وَهِيَ الْبَارِدَةُ الشَّدِيدَةُ الْبَرْدِ ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ أَيْ: عَلَيْهِمْ، قَالَهُ الصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَالشَّيْخُ ⑪ ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ عَلَيْهِمْ نَحْسُهُ وَدَمَارُهُ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ اتَّصَلَ فِيهِ عَذَابُهُمُ الدُّنْيَوِيُّ بِالْآخِرَوِيِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَرْمِجُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تَحُلُ مُنْقَعِرٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي أَحَدَهُمْ فَتَرْفَعُهُ حَتَّى تُغَيِّبُهُ عَنِ الْأَبْصَارِ، ثُمَّ تَنْكَسُهُ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ،

شَدِيدُ الْهَوْلِ عُبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ⑫ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ [المدثر: ٩، ١٠].

﴿كَذَّبَتْ قَالَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا بَحْتُونُ وَازْدَجَرُوا ⑬ فَدَعَا رَبَّهُ. أَلَمْ يَأْتِ مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ⑭﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ⑮ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرِدَ ⑯ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ دُوسِرٍ ⑰ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ⑱ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑲ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ⑳ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ㉑ [قِصَّةُ قَوْمِ نُوحٍ، وَالْعِبْرَةُ بِهَا وَبِقِصَصِ الْأَقْوَامِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قَبْلَ قَوْلِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿قَوْمٌ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أَيْ صَرَّحُوا لَهُ بِالْكَذِبِ وَاتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ ﴿وَقَالُوا بَحْتُونُ وَازْدَجَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَازْدَجَرُوا﴾ أَيْ: اسْتَطِيرَ جُنُونًا ①. وَقِيلَ: ﴿وَازْدَجَرُوا﴾ أَيْ: انْتَهَرُوهُ وَزَجَرُوهُ وَتَوَاعَدُوهُ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتَحِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ ②. وَهَذَا مُتَوَجِّهٌ حَسَنٌ. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ. أَلَمْ يَأْتِ مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ أَيْ: إِنِّي ضَعِيفٌ عَنْ هَؤُلَاءِ وَعَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ فَانْتَصِرَ أَنْتَ لِدِينِكَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ قَالَ الشَّيْخُ ③: وَهُوَ الْكَثِيرُ ④. ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أَيْ: تَبَعَتْ جَمِيعُ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ حَتَّى التَّائِينَ الَّتِي هِيَ مَحَالُ السَّيْرَانِ تَبَعَتْ عُيُونًا ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أَيْ: مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرِدَ﴾ أَيْ: أَمْرٍ مُقَدَّرٍ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾: كَثِيرٍ، لَمْ تُمْطِرِ السَّمَاءُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا بَعْدَهُ إِلَّا مِنَ السَّحَابِ، فَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالْمَاءِ مِنْ غَيْرِ سَحَابٍ، ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَالْتَقَى الْمَاءَانِ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فَرِدَ ⑤. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ دُوسِرٍ ﴿قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْقُرْطُبِيُّ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: هِيَ الْمَسَامِيرُ ⑥. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ. قَالَ: وَوَاخِذْهَا دِسَارًا. وَيُقَالُ: دَسِيرٌ كَمَا يُقَالُ: حَبِيبٌ وَحَبَاكٌ، وَالْجَمْعُ حُبُكٌ ⑦. وَقَوْلُهُ: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ أَيْ: بِأَمْرِنَا يَمْرَأَى مِنَّا وَتَحْتَ حِفْظِنَا وَكَأَلَيْتَنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ⑧ أَيْ: جَزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ، وَانْتَصَارًا لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قَالَ قَتَادَةُ: أَبْقَى اللَّهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَذْرَكَهَا أَوَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ⑨. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ جِنْسُ السُّفُنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ لَمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَسْحُوحِ ⑩﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نِئْلِهِ مَا

(١) الطبري: ٥٧٦/٢٢ (٢) الطبري: ٥٧٧/٢٢ (٣) القرطبي: ١٣١/١٧ (٤) الدر المنثور: ٦٧٥/٧ (٥) الطبري: ٥٨٠/٢٢ والقرطبي: ١٣٢/١٧ (٦) الطبري: ٥٧٨/٢٢ (٧) الطبري: ٥٨٢/٢٢ (٨) فتح الباري: ٤٨٥/٨ (٩) فتح الباري: ٨/٨ (١٠) الدر المنثور: ٦٧٦/٧ (١١) الطبري: ٥٨٧/٢٢

فَيَسْفُطُ عَلَى الْأَرْضِ، فَتَنْلَعُ رَأْسُهُ فَيَبْقَى جُثَّةٌ بِلاَ رَأْسٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَانَتْهُمْ أَصْحَابُ تَغْلَى مُتَعَمِّرِينَ﴾ فكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾  
 ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِالنَّذْرِ﴾ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَجَدْنَا نَبَعْنَاهُمْ﴾ إِنَّا إِذَا لَقِيَ ضَلَّلَ وَسُعِرَ ﴿أَمْ لَيْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾  
 سَيَعْمُونَ عَذَابًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنْ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرْبٌ مُخَضَّرٌ ﴿فَادَا صَاحِبِهِمْ فَغَطَّى فَقَعَرَ﴾ فكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَدَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾  
 فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَلِمَاتٍ فَخَذَّوْنَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ سُبْحَنَ الْجَمْعِ وَيُولُونَ الذُّبُرِ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ﴾ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

المُفَسِّرِينَ. وَالْمُحْتَظِرُ: قَالَ الشَّدِيدُ: هُوَ الْمَرْعَى بِالضُّخْرَاءِ حِينَ يَبْسُ وَيَحْتَرِقُ وَتَسْفِيهِ الرِّيحِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَتْ الْعَرَبُ يَجْعَلُونَ حِطَارًا عَلَى الْإِبِلِ وَالْمَوَاشِي مِنْ يَبْسِ السَّوْكِ، فَهُوَ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ﴾.

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَدَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

[قِصَّةُ قَوْمِ لُوطٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ لُوطٍ كَيْفَ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ وَخَالَفُوهُ، وَارْتَكَبُوا الْمَكْرُوهَ مِنْ إِبْتِئَانِ الذُّكُورِ، وَهِيَ

وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ ثُمُودَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ صَالِحًا ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَجَدْنَا نَبَعْنَاهُمْ﴾ إِنَّا إِذَا لَقِيَ ضَلَّلَ وَسُعِرَ ﴿أَمْ لَيْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ ثُمَّ تَعَجَّبُوا مِنْ إِلْقَاءِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ خَاصَّةً مِنْ ذُوْنِهِمْ ثُمَّ رَمَوْهُ بِالْكَذِبِ فَقَالُوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ أَيْ: مُتَجَاوِزٌ فِي حَدِّ الْكَذِبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَعْمُونَ عَذَابًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنْ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أَيْ: اخْتَبِرَا لَهُمْ، أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ نَاقَةً عَظِيمَةً عَشْرَاءَ، مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءَ طَبَقَ مَا سَأَلُوا؛ لِيَكُونَ حُجَّةً اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي تَصْدِيقِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أَيْ: انْتَظِرْ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْهُمْ، وَاصْبِرْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ، وَالنَّصْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: يَوْمَ لَهُمْ، وَيَوْمَ لِلنَّاقَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُزْ شَرْبِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا غَابَتْ حَضَرُوا الْمَاءَ. وَإِذَا جَاءَتْ حَضَرُوا اللَّبَنَ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَادَا صَاحِبِهِمْ فَغَطَّى فَقَعَرَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: هُوَ عَاقِرُ النَّاقَةِ، وَاسْمُهُ فُذَارُ بْنُ سَالِفٍ، وَكَانَ أَشَقَى قَوْمِهِ. كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقْنَهَا﴾ [الشمس: ١٢] ﴿فَغَطَّى﴾ أَيْ: [فَجَسَرَ] ﴿فَقَعَرَ﴾ فكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي أَيْ: فَعَاقَبْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِي وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولِي ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ﴾ أَيْ: فَادَا عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ، وَخَمَدُوا وَهَمَدُوا كَمَا يَهْمَدُ يَبْسُ الرُّزْعِ وَالنَّبَاتِ. قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنْ

[قِصَّةُ ثُمُودَ]

وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ ثُمُودَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ صَالِحًا ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَجَدْنَا نَبَعْنَاهُمْ﴾ إِنَّا إِذَا لَقِيَ ضَلَّلَ وَسُعِرَ ﴿أَمْ لَيْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ ثُمَّ تَعَجَّبُوا مِنْ إِلْقَاءِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ خَاصَّةً مِنْ ذُوْنِهِمْ ثُمَّ رَمَوْهُ بِالْكَذِبِ فَقَالُوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ أَيْ: مُتَجَاوِزٌ فِي حَدِّ الْكَذِبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَعْمُونَ عَذَابًا مِنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنْ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أَيْ: اخْتَبِرَا لَهُمْ، أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ نَاقَةً عَظِيمَةً عَشْرَاءَ، مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءَ طَبَقَ مَا سَأَلُوا؛ لِيَكُونَ حُجَّةً اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي تَصْدِيقِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أَيْ: انْتَظِرْ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْهُمْ، وَاصْبِرْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ، وَالنَّصْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: يَوْمَ لَهُمْ، وَيَوْمَ لِلنَّاقَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُزْ شَرْبِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا غَابَتْ حَضَرُوا الْمَاءَ. وَإِذَا جَاءَتْ حَضَرُوا اللَّبَنَ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَادَا صَاحِبِهِمْ فَغَطَّى فَقَعَرَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: هُوَ عَاقِرُ النَّاقَةِ، وَاسْمُهُ فُذَارُ بْنُ سَالِفٍ، وَكَانَ أَشَقَى قَوْمِهِ. كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقْنَهَا﴾ [الشمس: ١٢] ﴿فَغَطَّى﴾ أَيْ: [فَجَسَرَ] ﴿فَقَعَرَ﴾ فكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي أَيْ: فَعَاقَبْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِي وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولِي ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ﴾ أَيْ: فَادَا عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ تَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ، وَخَمَدُوا وَهَمَدُوا كَمَا يَهْمَدُ يَبْسُ الرُّزْعِ وَالنَّبَاتِ. قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنْ

## [قِصَّةُ آلِ فِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ: إِنَّهُمْ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونُ بِالْبَشِيرَةِ إِنْ آمَنُوا، وَالنَذَارَةِ إِنْ كَفَرُوا، وَأَيَّدَهُمَا بِمُعْجَزَاتٍ عَظِيمَةٍ وَآيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَكَذَّبُوا بِهَا كُلَّهَا، فَأَحَذَهُمُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ أَيْ: فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ وَلَا غَيْرٌ وَلَا أَثَرٌ.

## [نُصْحُ قُرَيْشٍ وَتَهْدِيدُهُمْ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكْفَرُكُمْ﴾ أَيْ: أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيائِكُمْ﴾ يَعْنِي مِنَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنْ أَهْلِكُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَكُفْرِهِمْ بِالْكِتَابِ، أَلَأَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيائِكُمْ؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أَيْ: أَمْ مَعَكُمْ مِنَ اللَّهِ بَرَاءَةٌ أَنْ لَا يَنَالَكُمْ عَذَابٌ وَلَا نَكَالٌ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ أَيْ: يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَتَنَاصَرُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَنْ جَمْعَهُمْ يُغْنِي عَنْهُمْ مَنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَبْرُهُمْ لَجَمْعٌ وَيُؤْلَوْنَ الذُّبُرُ﴾ أَيْ: سَيَقْرَأُ شَمْلَهُمْ وَيُغْلِبُونَ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ: «أَنْشُدْكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبِدْ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا». فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِيَدِهِ وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ. فَخَرَجَ وَهُوَ يَتْبَعُ فِي الدَّرْعِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيَبْرُهُمْ لَجَمْعٌ وَيُؤْلَوْنَ الذُّبُرُ﴾ (١) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٢).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ يُونُسَ بْنِ يُونُسَ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ: نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَكَّةَ وَإِنِّي لَجَارِيَةُ أَلْعَبُ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (٣). هَكَذَا رَوَاهُ هَهُنَا مُخْتَصَرًا، وَرَوَاهُ فِي فَصَائِلِ الْقُرْآنِ مُطَوَّلًا (٤)، وَلَمْ يُخْرِجْهُ مُسْلِمٌ.

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٥) يَوْمَ يَسْجُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُوفُوا مَسَّ سَفَرٍ (٦) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٧) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٨) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَذَكَّرٍ (٩) وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (١٠) وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍّ (١١) إِنَّ الْفَلَّاحِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ (١٢) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ (١٣)

الْفَاحِشَةُ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَلِهَذَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ هَلَاكًا لَمْ يَهْلِكْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَمَلَ مَذَائِبَهُمْ حَتَّى وَصَلَ بِهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ وَأَرْسَلَهَا وَأَنْبَعَثَ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ مَنْصُودٍ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وَهِيَ الْحِجَارَةُ ﴿إِلَّا مَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُ بِسَرٍّ﴾ أَيْ: خَرَجُوا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَجَعُوا مِمَّا أَصَابَ قَوْمَهُمْ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِلُوطٍ مِنْ قَوْمِهِ أَحَدٌ وَلَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، حَتَّى وَلَا أَمْرَئُهُ، أَصَابَهَا مَا أَصَابَ قَوْمَهَا، وَخَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ لُوطٌ وَبَنَاتُ لَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ سَالِمًا لَمْ يَمَسْسْهُ سُوءٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (١٤) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا أَيْ: وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ قَدْ أَنْذَرَهُمْ بِأَسَاسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ فَمَا اتَّقَوْا إِلَى ذَلِكَ، وَلَا أَضْعَوْا إِلَيْهِ، بَلْ شَكُّوا فِيهِ وَتَمَارَوْا بِهِ.

﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِيهِ﴾ وَذَلِكَ لَيْلَةً وَرَدَّ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فِي صُورِ شَبَابٍ مُرْدٍ حَسَنٍ؛ مِخْنَةً مِنَ اللَّهِ بِهِمْ، فَأَضَافَهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَعَثَتْ أَمْرَأَتُهُ الْعَجُوزَ السُّوءَ إِلَى قَوْمِهَا فَاعْلَمَتْهُمْ بِأَضْيَافِ لُوطٍ، فَأَقْبَلُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَأَغْلَقَ لُوطٌ دُونَهُمُ الْبَابَ، فَجَعَلُوا يُحَاوِلُونَ كَسْرَ الْبَابِ، وَذَلِكَ عَشِيَّةً، وَلُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْفِئُهُمْ وَيَمَانِعُهُمْ دُونَ أَضْيَافِهِ وَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ﴾ يَعْنِي: نِسَاءُهُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلَاءِينَ﴾ [الحجر: ٧١] ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَنَا فِيهِنَّ أَرْبٌ ﴿وَرَأَيْتَ لَنَا كَلْعًا مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] فَلَمَّا اسْتَدَّ الْحَالُ وَأَبْوَا إِلَّا الدُّخُولَ، خَرَجَ عَلَيْهِمْ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضَرَبَ أَعْيُنَهُمْ بِطَرَفِ جَنَاحِهِ، فَانْطَمَسَتْ أَعْيُنُهُمْ، فَزَجَعُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ يَتَحَسَّسُونَ بِالْحَيْطَانِ، وَيَتَوَعَّدُونَ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الصَّبَاحِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ أَيْ: لَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهُ، وَلَا انْقِصَاكَ لَهُمْ مِنْهُ ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ (١٥) وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ مَالُ فِرْعَوْنَ الذُّبُرُ﴾ (١٦) كَذَبُوا بِبَيْنَانَا كُلِّهَا فَلَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْنَدٍ (١٧) أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (١٨) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (١٩) سَيَبْرُهُمْ لَجَمْعٌ وَيُؤْلَوْنَ الذُّبُرُ (٢٠) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٢١)

(١) فتح الباري: ٤٨٥/٨ ٤٨٦ (٢) فتح الباري: ٤٨٦/٨

(٣) فتح الباري: ٦٥٥/٨

## [عاقبة المجرمين]

يُخْبِرُنَا تَعَالَى عَنِ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ وَشُعْرٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالْإِضْطِرَابِ فِي الْأَرَءِ، وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ مِنْ كَافِرٍ وَمُتَّبِعٍ مِنْ سَائِرِ الْفِرَقِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أَيُّ: كَمَا كَانُوا فِي شُعْرٍ وَشَكٍّ وَتَرَدُّدٍ أَوْزَنَهُمْ ذَلِكَ النَّارَ، وَكَمَا كَانُوا ضَلَالًا يُسْحَبُونَ فِيهَا عَلَى وُجُوهِهِمْ لَا يَذَرُونَ أَيْنَ يَذْهَبُونَ، وَيُقَالُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوَيْخًا: «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ».

## [كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كَقَوْلِهِ: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا» وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ سُبُوتَ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى» أَيُّ: قَدَّرَ قَدْرًا، وَهَدَى الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ، وَلِهَذَا يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَيْمَةُ السُّنَّةِ عَلَى إِبْتِنَاتِ قَدْرِ اللَّهِ السَّابِقِ لِخَلْقِهِ، وَهُوَ عِلْمُهُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَكِتَابَتُهُ لَهَا قَبْلَ بَرَأِثِهَا، وَرَدُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَمِمَّا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّابِتَاتِ عَلَى الْفَرْقَةِ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ نَبَغُوا فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذَا الْمَقَامِ مُفَصَّلًا وَمَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي شَرْحِ كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلِنَذْكُرْ هَهُنَا الْأَحَادِيثَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

رَوَى أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُخَاصِمُونَهُ فِي الْقَدْرِ فَتَزَلَّتْ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٣٨)﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (١). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ (٢). وَرَوَى الْبَرَاءُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: مَا تَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٧)﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٣٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٣). وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٣٨)﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤) قَالَ: «تَزَلَّتْ فِي أَنْاسٍ مِنْ أُمَّتِي يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَكْذِبُونَ بِقَدْرِ اللَّهِ» (٥).

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رِيَاحٍ قَالَ: أَتَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَنْزِعُ مِنْ زَمْرَمَ، وَقَدْ ابْتَلَتْ أَسَافِلُ نِيَابِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَذْكَرٍ (٥) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥١) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ (٥٢) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥١) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ (٥٥)

## سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ (٥) وَالتَّجَمُّمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَكِكُمْهُمُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ (١٢) وَالرَّيْحَانُ (١٣) فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ (١٤) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ (١٥) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٦) فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ (١٧)

تُكَلِّمُ فِي الْقَدْرِ، فَقَالَ: أَوْقَدْ فَعَلُوها؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَّا فِيهِمْ «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٣٨)﴾ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (١) أُولَئِكَ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَا تُعَوِّدُوا مَرْضَاهُمْ، وَلَا تُصَلُّوا عَلَى مَوْتَاهُمْ، إِنْ رَأَيْتَ أَحَدًا مِنْهُمْ فَقَاتْ عَيْنِيهِ بِأُصْبَعِي هَاتَيْنِ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: كَانَ لِابْنِ عُمَرَ صَدِيقٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يُكَاتِبُهُ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَكَلَّمْتَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقَدْرِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُكْتَبَ إِلَيَّ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي

(١) أحمد: ٤٤٤/١ (٢) مسلم: ٢٠٤٦/٤ وتحفة الأحوزي: ١٧٦/٩ وابن ماجه: ٣٢/١ (٣) كشف الاستار: ٧٢/٣ إسناده ضعيف قال الهيثمي في المجمع ١٢٠/٧ رواه البزار وفيه يونس بن الحارث وثقه ابن معين وابن حبان وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. وقال ابن حجر: ضعيف [تقريب] قال أحمد: أحاديثه مضطربة وقال ابن معين أيضًا: لا شيء [تاريخ الدوري ٦٨٧/٢ العلل ١/١٠٢] (٤) الطبراني: ٢٧٦/٥ (٥) جزء الحسن بن عرفة: ٤٦ فيه ابن جريج مدلس وقد عنعن ولم يصرح

أَمْثَالَكُمْ وَسَلَفَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ  
﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أَي: فَهَلْ مِنْ مُعْظٍ بِمَا أَخْرَى اللَّهُ  
أُولَئِكَ وَقَدَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجِيلَ  
بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِمَّنْ قَبْلُ﴾ [سبا: ٥٤]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أَي: مَكْتُوبٌ  
عَلَيْهِمْ فِي الْكُتُبِ الَّتِي بِيَايِدِي الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﴿وَكُلُّ  
صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أَي: مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ أَي: مَجْمُوعٌ  
عَلَيْهِمْ وَمُسْتَطَرٌّ فِي صَحَائِفِهِمْ، لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً  
إِلَّا أَحْصَاهَا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا عَائِشَةُ! إِنَّا كِ وَنَحْنُ وَمُحَقَّرَاتِ  
الدُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا»<sup>(١١)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ  
مَاجَهَ<sup>(١٢)</sup>.

### [عَاقِبَةُ الْمُتَّقِينَ الْحَسَنَةُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّيْقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ أَي: يَعْكُسُ مَا  
الْأَشْيَاءُ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالشُّعْرِ وَالسَّحَبِ فِي النَّارِ عَلَى  
وُجُوهِهِمْ، مَعَ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ أَي: فِي دَارِ كَرَامَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَفَضْلِهِ  
وَأَمْنِيَّتِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنِدٍ﴾ أَي: عِنْدَ  
الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَمُقَدِّرِهَا. وَهُوَ مُقْتَدِرٌ  
عَلَى مَا يَشَاءُ مِمَّا يَطْلُبُونَ وَيُرِيدُونَ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ  
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يُبْلَغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: «الْمُسْطَظُونَ  
عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ  
يَمِينِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ»<sup>(١٣)</sup>.  
وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(١٤)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اقْتَرَبَتْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ  
التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

أَقْوَامٌ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدْرِ»<sup>(١١)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ  
حَنْبَلٍ<sup>(١٢)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجَزُ وَالْكَيْسُ»<sup>(١٣)</sup>. وَرَوَاهُ  
مُسْلِمٌ مُتَّفِرِدًا بِهِ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ<sup>(١٤)</sup>.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «اسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، فَإِنْ  
أَصَابَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي  
فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا، فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»<sup>(١٥)</sup>.

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «وَأَعْلَمُ  
أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوا بِشَيْءٍ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ  
لَكَ لَمْ يَنْفَعُوا، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ  
يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ، جَبَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَّتِ  
الْصُّحُفُ»<sup>(١٦)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ  
عُبَادَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ  
أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي،  
فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَمْ  
تَطْعَمِ الْإِيمَانَ وَلَمْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ حَتَّى تُؤْمِنَ  
بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ! وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا  
خَيْرُ الْقَدْرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ  
لِيُصِيبَكَ وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ! إِنِّي  
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ،  
ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ  
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَا بُنَيَّ! إِنْ مِتُّ وَلَسْتُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتُ  
النَّارَ»<sup>(١٧)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(١٨)</sup>.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». زَادَ ابْنُ وَهْبٍ:  
﴿وَكُنَّ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]<sup>(١٩)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ  
وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(٢٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾  
وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ نُفُوذِ مَشِيئَتِهِ فِي خَلْقِهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِنُفُوذِ  
قَدْرِهِ فِيهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أَي: إِنَّمَا نَأْمُرُ  
بِالشَّيْءِ مَرَّةً وَاحِدَةً لَا نَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ بِنَانِيَّةٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ  
الَّذِي نَأْمُرُ بِهِ حَاصِلًا مَوْجُودًا كَلَمْحِ الْبَصَرِ، لَا يَتَأَخَّرُ طَرَفَةٌ  
عَيْنٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يَعْنِي:

### [التَّهْدِيدُ بِتَنْفِيزِ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾  
وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ نُفُوذِ مَشِيئَتِهِ فِي خَلْقِهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِنُفُوذِ  
قَدْرِهِ فِيهِمْ فَقَالَ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أَي: إِنَّمَا نَأْمُرُ  
بِالشَّيْءِ مَرَّةً وَاحِدَةً لَا نَحْتَاجُ إِلَى تَأْكِيدٍ بِنَانِيَّةٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ  
الَّذِي نَأْمُرُ بِهِ حَاصِلًا مَوْجُودًا كَلَمْحِ الْبَصَرِ، لَا يَتَأَخَّرُ طَرَفَةٌ  
عَيْنٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يَعْنِي:

(١) أحمد: ٩٠/٢ (٢) أبو داود: ٢٠/٥ (٣) أحمد: ٢/١١٠ (٤) مسلم: ٢٠٤٥/٤ (٥) مسلم: ٢٠٥٢/٤ (٦) تحفة الأحوذى: ٢١٩/٧ (٧) أحمد: ٣١٧/٥ (٨) تحفة الأحوذى: ٣٦٨/٦ (٩) مسلم: ٢٠٤٤/٤ (١٠) تحفة الأحوذى: ٣٧٠ (١١) أحمد: ١٥١/٦ (١٢) تحفة الأشراف: ٢٥٠/١٢ وابن ماجه: ١٤١٧/٢ (١٣) أحمد: ١٦٠/٢ (١٤) مسلم: ٣/١٤٥٨ والنسائي: ٢٢١/٨

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[تَوَاتُتْ عَنْ سُورَةِ الرَّحْمَنِ]

السَّيَاقُ فِي تَعْلِيمِهِ تَعَالَى الْقُرْآنَ، وَهُوَ أَدَاءٌ يَلَاوِيهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِتَبْيِيرِ النُّطْقِ عَلَى الْخَلْقِ وَتَسْهِيلِ خُرُوجِ الْحُرُوفِ مِنْ مَوَاضِعِهَا مِنَ الْحَلْقِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ عَلَى اخْتِلَافِ مَخَارِجِهَا وَأَنْوَاعِهَا.

[آيَاتُ اللَّهِ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أَيُّ: يَجْرِيَانِ مُتَعَاقِبَيْنِ بِحَسَابٍ مُقَنَّيْنِ لَا يَخْتَلِفُ، وَلَا يَضْطَرِبُ ﴿لَا الشَّمْسُ بَلَّغَى لَهَا أَنْ تَذُرِكَ الْقَمَرُ وَلَا آيَلُ سَابِقِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ آيَلُ سَكَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بَعْدَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى أَنَّ الشَّجَرَ مَا قَامَ عَلَى سَاقٍ<sup>(١)</sup>. فَرَوَى عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: النَّجْمُ مَا انْبَسَطَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يُعْنِي مِنَ النَّبَاتِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ وَشُقْبَانُ التَّوْرِيُّ<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: النَّجْمُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَظْهَرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ...﴾ [الآية: الحج: ١٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يُعْنِي: الْعَدْلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٦] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أَلَا تَطَّلِعُوا فِي الْمِيزَانِ﴾ أَيُّ: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ لِتَكُونَ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أَيُّ: لَا تَبْخُسُوا الْوَزْنَ، بَلْ زِنُوا بِالْحَقِّ وَالْقِسْطِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وَقَوْلُهُ

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زُرٍّ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: كَيْفَ تَعْرِفُ هَذَا الْحَرْفَ مِنْ (مَاءٍ غَيْرِ آسِينِ) أَوْ (آسِينِ)؟ فَقَالَ: كُلُّ الْقُرْآنِ قَدْ قُرِئْتُ؟ قَالَ: إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفْصَلَ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَقَالَ: أَهَذَا كَهَذَا الشَّعْرُ لَا أَبَا لَكَ؟ قَدْ عَلِمْتُ قَرَأَنِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي كَانَ يَقْرَأُ قَرِيبَتَيْنِ قَرِيبَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ الْمُفْصَلِ، وَكَانَ أَوَّلُ مُفْصَلِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿الرَّحْمَنُ﴾<sup>(١)</sup>. وَرَوَى أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَسَكَتُوا فَقَالَ: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ». ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ أَوْ قُرِئَتْ عِنْدَهُ فَقَالَ: «مَا لِي أَسْمَعُ الْجِنِّ أَحْسَنَ جَوَابًا لِرَبِّهَا مِنْكُمْ؟». قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قَالَتْ الْجِنُّ: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمِ رَبَّنَا نُكَذِّبُ»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ الْحَافِظُ الْبَزَّازُ<sup>(٥)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَا تَطَّلِعُوا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَاقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْسَاءِ (١٠) فِيهَا فَكَّهُمُ وَاللَّخْلُ دَاثُ الْأَكْثَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)

[الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ الرَّحْمَنُ وَعَلَّمَهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى عِبَادِهِ الْقُرْآنَ، وَبَسَّرَ حِفْظَهُ وَفَهَمَهُ عَلَى مَنْ رَحِمَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) قَالَ الْحَسَنُ: يُعْنِي: النُّطْقُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ

(١) أحمد: ٤١٢/١ (٢) تحفة الأحوذى: ١٧٧/٩ (٣) الحاكم: ٤٧٣/٢ (٤) الطبري: ٢٣/٢٣ (٥) كشف الأستار: ٧٤/٣ (٦) الطبري: ١١/٢٣ (٧) الطبري: ١١/٢٣ (٨) الطبري: ١١/٢٣ (٩) الطبري: ١٢/٢٣ (١٠) الطبري: ١٢/٢٣ (١١) (١٢)

سورة الرحمن

٥٣٢

سورة الرحمن

رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿١٨﴾  
 مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا  
 كُذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا  
 كُذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾  
 فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهِ فَاِنٌ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ  
 وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٢٨﴾  
 يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا  
 كُذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا  
 كُذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَنْعَشُ لِمَنْ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفَعُوا لَا تَنْفَعُكُمْ  
 إِلَّا الْإِسْلَامُ ﴿٣٣﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ  
 مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٣٦﴾  
 فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا  
 كُذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْعَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا  
 كُذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضُ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أَيُّ: كَمَا رَفَعَ السَّمَاءَ وَصَعَ الْأَرْضَ وَمَهَّدَهَا وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ الشَّامِيَّاتِ، لِيَسْتَقَرَّ لِمَا عَلَى وَجْهِهَا مِنَ الْأَنَامِ وَهُمْ الْخَلَائِقُ الْمُخْتَلِفَةُ أَنْوَاعُهُمْ وَأَشْكَالُهُمْ وَالْوَلَوْنُهُمْ وَالسِّتْمُهُمْ فِي سَائِرِ أَقْطَارِهَا وَأَرْجَائِهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: الْأَنَامُ: الْخَلْقُ<sup>(١)</sup>. ﴿فِيهَا فِكْهَةٌ﴾ أَيُّ: مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ؛ لِشَرْفِهِ وَتَعَوُّدِ رُطْبًا وَيَاسَسًا. وَالْأَكْمَامُ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ أَوْعِيَةُ الطَّلَعِ<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَهُوَ الَّذِي يَطْلُعُ فِيهِ الْفَنُو ثُمَّ يَنْشَقُّ عَنِ الْعُغْضُودِ، فَيَكُونُ بُسْرًا ثُمَّ رُطْبًا ثُمَّ يَنْضَجُ وَيَتَنَاهَى يَنْعُهُ وَاشْتِوَاؤُهُ.

﴿وَالْعَلْبُ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَالْعَلْبُ ذُو الْعَصْفِ﴾ يَعْنِي: التَّبَنُّ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ الْأَخْضَرِ الَّذِي قُطِعَ رُؤُوسُهُ، فَهُوَ يُسَمَّى الْعَصْفَ إِذَا بَيَسَ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو مَالِكٍ: عَصْفُهُ: نَبْتُهُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: وَالرَّيْحَانُ يَعْنِي: الْوَرْقُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ رَيْحَانُكُمْ هَذَا<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ خَضِرُ الزَّرْعِ<sup>(٨)</sup>. وَمَعْنَى هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْحَبَّ كَالْقَلَمِ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوَهُمَا لَهُ فِي حَالِ نَبَاتِهِ عَصْفٌ. وَهُوَ مَا عَلَى السُّبُلَةِ، وَرَيْحَانُ، وَهُوَ الْوَرْقُ الْمُتَلَفُّ عَلَى سَاقِهَا. وَقِيلَ: الْعَصْفُ الْوَرْقُ أَوَّلُ مَا يَنْبُتُ الزَّرْعُ بَقْلًا، وَالرَّيْحَانُ: الْوَرْقُ يَعْنِي: إِذَا أَدَجَنَ وَانْعَقَدَ فِيهِ الْحَبُّ.

[الْإِنْسَانُ مَغْمُورٌ بِنِعْمِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ﴾ أَيُّ: فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا يَا مَعْشَرَ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ كُذِّبَانِ؟ قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ بَعْدَهُ، أَيُّ: النَّعْمُ ظَاهِرَةٌ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ بِهَا، لَا تَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهَا وَلَا جُحُودَهَا، فَتَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْجِنَّ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ: اَللَّهُمَّ وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَانِكَ رَبَّنَا نَكْذُبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ. وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَا بِأَيُّهَا يَا رَبِّ، أَيُّ: لَا نَكْذُبُ بِشَيْءٍ مِنْهَا<sup>(٩)</sup>.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ

مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿٥﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٦﴾ رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿٧﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿١٠﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿١١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿١٢﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿١٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿١٤﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿١٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهِ فَاِنٌ ﴿١٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٧﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿١٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿١٩﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٢٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٢١﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٢٢﴾ يَنْعَشُ لِمَنْ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفَعُوا لَا تَنْفَعُكُمْ إِلَّا الْإِسْلَامُ ﴿٢٣﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٢٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٢٥﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٢٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٢٧﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْعَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٢٩﴾ فَيَا أَيُّهَا الرِّبَا كُذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

[بَيَانُ خَلْقِ آدَمَ وَالْجَانِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَهُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلْقَهُ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَهُوَ طَرَفُ لَهَبِهَا. قَالَهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١)</sup>. وَبِهِ يَقُولُ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:

(١) الطبري: ١٦، ١٥/٢٣ (٢) الدر المنثور: ٦٩٣/٧ (٣) الطبري: ١٨/٢٣ العوفي ضعيف (٤) الطبري: ١٨/٢٣ (٥) الطبري: ١٨/٢٣ (٦) الطبري: ١٩/٢٣ (٧) البغوي: ٤/٢٦٨ (٨) الطبري: ٢١/٢٣ (٩) الطبري: ٢٣/٢٣ (١٠) الطبري: ٢٦/٢٣ الضحاک لم يسمع من ابن عباس (١١) الطبري: ٢٧/٢٣

وَلَمَّا كَانَ اتَّخَذَ هَذِهِ الْحَلِيَّةَ نِعْمَةً عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، امْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ بِغْنِي الشُّفْنِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا رُفِعَ وَلُغُهُ مِنَ الشُّفْنِ فَهِيَ مُنْشَأَتٌ، وَمَا لَمْ يُرْفَعْ وَلُغُهُ فَلَيْسَ بِمُنْشَأَتٍ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿الْمُنْشَأَتُ﴾ يَعْنِي الْمَخْلُوقَاتِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ:

(الْمُنْشَأَت) بِكسر الشين يعنى البادئات **﴿كَلَّا عَلَّمَكُم﴾** أي: كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المفقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح الناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾<sup>(١١)</sup> وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ<sup>(١٢)</sup> فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ<sup>(١٣)</sup> يَنْتَلُهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ<sup>(١٤)</sup> فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ<sup>(١٥)</sup>

[بَيَانُ شَأْنِ اللَّهِ وَبَقَائِهِ وَغِنَاهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ سَيَذْهَبُونَ وَيَمُوتُونَ أَجْمَعُونَ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَا يَبْقَى أَحَدٌ سِوَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ لَا يَمُوتُ بَلْ هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا. قَالَ قَتَادَةُ: أَنْبَأَ بِمَا خَلَقَ ثُمَّ أَنْبَأَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ فَانٍ. وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، يَا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِرَحْمَتِكَ نَسْتَعِثُ، أَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ». وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِذَا قَرَأْتَ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فَلَا تَشْكُتْ حَتَّى تَقْرَأَ ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾<sup>(١٦)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٨٨] وَقَدْ نَعَتَ تَعَالَى وَجْهَهُ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّهُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أَيُّ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُخَالَفَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعُشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٨٨] وَكَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْ

مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ مِنْ لَهَبِ النَّارِ مِنْ أَحْسَنِهَا<sup>(١٧)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»<sup>(١٨)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ.

[الْإِمْتِنَانُ بِكُونِهِ رَبِّ الْمَشْرِقِينَ وَالْمَغْرِبِينَ]

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِينَ وَرَبُّ الْمَغْرِبِينَ﴾ يَعْنِي مَشْرِقِي الصَّبِيفِ وَالشَّمَاةِ وَمَغْرِبِي الصَّبِيفِ وَالشَّمَاةِ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بَيْنَ الشَّرِّ وَالْقَرِّ﴾ [المعارج: ٤٠] وَذَلِكَ بِاخْتِلَافِ مَطَالِعِ الشَّمْسِ وَتَنَقُّلِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَتَبَرُّوْزِهَا مِنْهُ إِلَى النَّاسِ. وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]. وَهَذَا الْمُرَادُ مِنْهُ جِنْسُ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَلَمَّا كَانَ فِي اخْتِلَافِ هَذِهِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ مَصَالِحٌ لِلْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ قَالَ: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تَكَذِّبَانِ﴾.

[الْإِمْتِنَانُ بِنَوْعِي الْبَحْرِ وَالشُّفْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ: أَرْسَلَهُمَا<sup>(٢٠)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَيُّ: مَنَعَهُمَا أَنْ يَلْتَقِيَا بِمَا جَعَلَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْبَرْزَخِ الْحَاجِزِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا<sup>(٢١)</sup>. وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾: الْمِلْحُ وَالْحُلُوفُ. فَالْحُلُوفُ: هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجَرًا مَخْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣] [بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ] أَيُّ: وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا، وَهُوَ الْحَاجِزُ مِنَ الْأَرْضِ؛ لِئَلَّا يَبْغِي هَذَا عَلَى هَذَا، وَهَذَا عَلَى هَذَا، فَيُفْسِدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ وَيُزِيلُهُ عَنْ صِفَتِهِ الَّتِي هِيَ مَقْصُودَةٌ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وَاللُّؤْلُؤُ مَعْرُوفٌ، وَأَمَّا الْمَرْجَانُ فَقِيلَ: هُوَ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَأَبُو رَزِينٍ وَالضَّحَّاكُ، وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ<sup>(٢٢)</sup>. وَقِيلَ: كِبَارُهُ وَجَيِّدُهُ. حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ<sup>(٢٣)</sup>.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ فَتَحَتِ الْأَصْدَافُ فِي الْبَحْرِ أَقْوَاهَا فَمَا وَقَعَ فِيهَا، يَغْنِي مِنْ قَطْرِ فَهَوِ اللَّؤْلُؤُ<sup>(٢٤)</sup>. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

(١) الطبري: ٢٦/٢٣ (٢) أحمد: ١٦٨/٦ (٣) مسلم: ٤/

٢٢٩٤ (٤) الطبري: ٢٩/٢٣ (٥) الطبري: ٣١/٢٣ (٦)

الطبري: ٣٣/٢٣ والقرطبي: ١٦٣/١٧ (٧) الطبري: ٣٤/٢٣

(٨) الطبري: ٣٥/٢٣ (٩) الطبري: ٣٧/٢٣ (١٠) القرطبي:

١٦٤/١٧ (١١) الدر المنثور: ٦٩٨/٧



وَرَهَقَهُمْ ذُلٌّ مَّا لَمَمَ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغْشِيَتْ رُؤُوسَهُمْ  
 قَطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾  
 [يونس: ٢٧] ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ  
 وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصَرِفَانِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ:  
 الشَّوَاظُ: هُوَ لَهَبُ النَّارِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: الشَّوَاظُ هُوَ  
 اللَّهَبُ الَّذِي فَوْقَ النَّارِ وَدُونَ الدُّخَانِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ:  
 ﴿شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ﴾ سَيْلٌ مِنْ نَارٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قَالَ  
 عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَنُحَاسٌ﴾: دُخَانُ  
 النَّارِ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى مِنْهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبِي  
 سِنَانٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الدُّخَانَ  
 نُحَاسًا، بِضَمِّ النُّونِ وَكَسْرِهَا، وَالْقُرَاءُ مُجْمِعَةٌ عَلَى  
 الضَّمِّ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: النُّحَاسُ الضُّفْرُ يَذَابُ فَيَصْبُ  
 عَلَى رُؤُوسِهِمْ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ:  
 «وَنُحَاسٌ» سَيْلٌ مِنْ نُحَاسٍ، وَالْمَعْنَى: لَوْ ذَهَبْتُمْ هَارِبِينَ  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَدَّتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ وَالزَّبَانِيَةُ بِإِزْسَالِ اللَّهَبِ مِنْ  
 النَّارِ، وَالنُّحَاسُ الْمَذَابُ عَلَيْكُمْ لِتَرْجِعُوا، وَلِهَذَا قَالَ:  
 ﴿فَلَا تَنْصَرِفَانِ﴾<sup>(٧)</sup> فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.

﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾<sup>(٨)</sup> فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا  
 تُكَذِّبَانِ<sup>(٩)</sup> فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ<sup>(١٠)</sup> فَإِنِّي  
 ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ<sup>(١١)</sup> يَعْرِفُ الْجَحِيمُونَ بِسَمِهِمْ فَيُؤْخَذُ  
 بِالتَّوَصِيِّ وَالْأَقْدَامِ<sup>(١٢)</sup> فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ<sup>(١٣)</sup> هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي  
 يُكَذِّبُ بِهَا الْجَحِيمُونَ<sup>(١٤)</sup> يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ءَانٍ<sup>(١٥)</sup> فَإِنِّي ءَالَآءَ  
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ<sup>(١٦)</sup>

[بَيَانُ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَأَحْوَالِ الْمُحْرِمِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا دَلَّتْ  
 عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ مَعَ مَا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي  
 مَعْنَاهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهٍةٌ﴾  
 [الحاقة: ١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُزَلُّ الْمَلَكُةُ  
 تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] وَقَوْلُهُ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وَأَوَّلَتْ لِرَبِّهَا  
 وَحَقَّتْ<sup>(١)</sup> [الانشقاق: ٢٠، ٢١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً  
 كَالدِّهَانِ﴾ أَيُّ تَدُوبٌ كَمَا يَدُوبُ الدُّرْدِيُّ وَالْقَيْصَةُ فِي

الْمَصْدَقِينَ: ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِيَوْمِهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] قَالَ ابْنُ  
 عَبَّاسٍ: ﴿ذُو الْجَلَدِ وَالْأَكْرَامِ﴾ ذُو الْعِظَمَةِ وَالْكَبِيرَاءِ<sup>(٢)</sup>.  
 وَلَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَسَاوِي أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ فِي  
 الْوَفَاةِ، وَأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ فَيَحْكُمُ فِيهِمْ ذُو  
 الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ قَالَ: ﴿فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا  
 تُكَذِّبَانِ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَسْتَلُّونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ  
 يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ وَافْتِقَارِ  
 الْخَلَائِقِ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَنَاءِ، وَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ بِلسَانِ  
 خَالِهِمْ وَقَالِهِمْ، وَأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. قَالَ الْأَعْمَشُ  
 عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ عُثَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قَالَ:  
 مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجِيبَ دَاعِيًا أَوْ يُعْطِيَ سَائِلًا، أَوْ يَفْكَ عَائِنًا أَوْ  
 يَشْفِي سَقِيمًا<sup>(٣)</sup>.

﴿سَتَفَرِّجُ لَكُمْ آيَةَ الثَّقَلَيْنِ﴾<sup>(٤)</sup> فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ<sup>(٥)</sup> يَمْتَسِرُ  
 الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَظَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
 فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ<sup>(٦)</sup> فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ<sup>(٧)</sup>  
 يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصَرِفَانِ<sup>(٨)</sup> فَإِنِّي ءَالَآءَ  
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ<sup>(٩)</sup>

[تَهْدِيدٌ لِلثَّقَلَيْنِ وَبَيَانٌ لَهُوَلِ مَا يُصِيبُهُمَا]

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿سَتَفَرِّجُ لَكُمْ﴾ أَيُّ: سَتَقْضِي لَكُمْ.  
 وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: سَتَحَاسِبُكُمْ، لَا يُشْغِلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ<sup>(١)</sup>.  
 وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، يُقَالُ: لَا تَفَرِّغَنَّ لَكَ. وَمَا  
 بِهِ شُغْلٌ، يَقُولُ: لَا أَخْذَنَّاكَ عَلَى غِرَّتِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
 ﴿آيَةُ الثَّقَلَيْنِ﴾ الثَّقَلَانِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ كَمَا جَاءَ فِي  
 الصَّحِيحِ: «يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ:  
 «إِلَّا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ». وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ: «الثَّقَلَانِ:  
 الْإِنْسُ وَالْجِنُّ»<sup>(٣)</sup> ﴿فَإِنِّي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ثُمَّ قَالَ  
 تَعَالَى: ﴿يَمْتَسِرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَظَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أَيُّ: لَا  
 تَسْتَطِيعُونَ هَرَبًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُمْ، لَا  
 تَقْدِرُونَ عَلَى التَّخْلُصِ مِنْ حُكْمِهِ وَلَا التَّمُودِ عَنْ حُكْمِهِ  
 فِيكُمْ، أَيْمًا ذَهَبْتُمْ أَجِيطُ بِكُمْ، وَهَذَا فِي مَقَامِ الْحَشْرِ،  
 الْمَلَائِكَةُ مُحْدِقَةٌ بِالْخَلَائِقِ سَنَعُ صُفُوفٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،  
 فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الذَّمَّابِ ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أَيُّ: إِلَّا بِأَمْرِ  
 اللَّهِ ﴿يَقُولُ الْإِنْسُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْآفَرَّ﴾<sup>(٤)</sup> كَلَّا لَا وَرَدَ<sup>(٥)</sup> إِنْ رَكَ يَوْمَئِذٍ  
 لَأَسْتَفِرَّ [القيامة: ١٠-١٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا

(١) الطبري: ٨٦/٢٣ (٢) الطبري: ٣٩/٢٣ (٣) فتح الباري: ٤٨٧/٨  
 (٤) فتح الباري: ٢٤٤/٣ (٥) الطوال للطبراني: ٢٧٣  
 (٦) الطبري: ٤٥/٢٣ (٧) الطبري: ٤٧/٢٣ (٨)  
 الطبري: ٤٧/٢٣ (٩) الطبري: ٤٨/٢٣ (١٠) الطبري: ٢٣/٢٣  
 ٤٨ (١١) الطبري: ٤٨/٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣٣

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَيَايَ  
 ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ  
 ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حِمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ  
 ﴿٤٥﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ  
 ﴿٤٧﴾ ذُوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ  
 تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ  
 رَوْحَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مَثْبُوحِينَ عَلَى فُرُشٍ  
 بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا  
 تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنْ قَصَصَتْ الْأَطْرَفُ لَمَ يَطْمَئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ  
 وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ  
 وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ  
 الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ  
 ﴿٦١﴾ وَمَنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴿٦٢﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ  
 ﴿٦٣﴾ مُدَاهَاتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا  
 عَيْنَانِ مُضَاعَفَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَايَ ءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

ابْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ: يُؤْخَذُ الْعَبْدُ فَيَحْرُكُ بِنَاصِيَّتِهِ فِي ذَلِكَ  
 الْحِمِيمِ حَتَّى يَذُوبَ اللَّحْمُ وَيَبْقَى الْعَظْمُ وَالْعَيْنَانِ فِي  
 الرَّأْسِ، وَهِيَ كَالَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فِي الْحِمِيمِ ثَمَرٌ فِي  
 النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢] وَالْحِمِيمُ الْآنَ يَعْنِي الْحَارَّ،  
 وَعَنِ الْقُرْطُبِيِّ رَوَايَةٌ أُخْرَى «حِمِيمٌ ءَانٍ» أَيُّ: حَاضِرٌ. وَهُوَ  
 قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ أَيْضًا<sup>(٨)</sup>. وَالْحَاضِرُ لَا يُنَافِي مَا رَوَى عَنْ  
 الْقُرْطُبِيِّ أَوْ لَا أَنَّهُ الْحَارُّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «تَشَقَّى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ»  
 [الغاشية: ٥] أَيُّ: حَارَّةٌ شَدِيدَةُ الْحَرِّ لَا تُسْتَطَاعُ، وَكَقَوْلِهِ:  
 «غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ» [الأحزاب: ٥٣] يَعْنِي: اسْتَوَاءُهُ وَنُضْجُهُ،  
 فَقَوْلُهُ: «حِمِيمٌ ءَانٍ» أَيُّ: حِمِيمٌ حَارٌّ جِدًّا. وَلَمَّا كَانَ  
 مُعَاقِبَةُ الْعَصَاةِ الْمُجْرِمِينَ وَتَنَعِيمُ الْمُتَّقِينَ مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ  
 وَعَذْلِهِ وَلَطْفِهِ بِخَلْقِهِ، وَكَانَ إِنْذَارُهُ لَهُمْ عَنْ عَذَابِهِ وَبَاسِهِ

السَّبَكِ، وَتَتَلَوْنَ كَمَا تَتَلَوْنَ الْأَصْبَاغُ الَّتِي يَدُهُنَّ بِهَا، فَتَارَةٌ  
 حُمْرَاءُ وَصَفْرَاءُ وَزُرْقَاءُ وَخَضْرَاءُ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ  
 وَهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَكُونُ كَلَوْنُ  
 الْبَغْلَةِ الْوَرْدَةِ، وَتَكُونُ كَأَمْهَلِ كَدُّوَيْ الزَّيْتِ. وَقَالَ  
 مُجَاهِدٌ: ﴿كَالِدِهَانٍ﴾: كَأَلْوَانِ الدِّهَانِ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُؤْخَذُ لَا يَسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾  
 وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْفَعُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ  
 فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦، ٣٥] فَهَذَا فِي حَالٍ، وَثُمَّ فِي  
 حَالٍ يُسْأَلُ الْخَلَائِقُ عَنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
 ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾  
 [الحجر: ٩٢، ٩٣] وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَيُؤْخَذُ لَا يَسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ  
 إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ قَالَ: قَدْ كَانَتْ مَسْأَلَةٌ ثُمَّ خُتِمَ عَلَى أَفْوَاهِ  
 الْقَوْمِ وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٣)</sup>. قَالَ  
 تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ﴾ أَيُّ: بِعَلَامَاتٍ تَظْهَرُ  
 عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: يَعْرِفُونَهُمْ بِاسْوَدَادِ الْوُجُوهِ  
 وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ<sup>(٤)</sup>. (قُلْتُ): وَهَذَا كَمَا يَعْرِفُ الْمُؤْمِنُونَ  
 بِالْغَرَّةِ وَالْتَّحْجِيلِ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أَيُّ يَجْمَعُ  
 الزَّبَانِيَةَ نَاصِيَّتَهُ مَعَ قَدَمَيْهِ وَيُلْقِفُونَهُ فِي النَّارِ كَذَلِكَ. وَقَالَ  
 الْأَعْمَشُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُؤْخَذُ بِنَاصِيَّتِهِ وَقَدَمَيْهِ فَيَكْسَرُ كَمَا  
 يُكْسَرُ الْحَطَبُ فِي النَّوْرِ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أَيُّ:  
 هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِوُجُودِهَا، هَاهُنَا حَاضِرَةٌ  
 تُشَاهِدُونَهَا عَيْنَانِ، يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَضْعِيفًا  
 وَتَحْقِيقًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حِمِيمٍ ءَانٍ﴾ أَيُّ:  
 تَارَةً يَعْدَبُونَ فِي الْجَحِيمِ، وَتَارَةً يُسْقَوْنَ مِنَ الْحِمِيمِ، وَهُوَ  
 الشَّرَابُ الَّذِي هُوَ كَالنَّحَاسِ الْمَذَابِ يَقْطَعُ الْأَمْعَاءَ  
 وَالْأَحْشَاءَ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذِ الْأَغْلَلُ فِيَ آَعْنَقِهِمْ  
 وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾<sup>(٦)</sup> فِي الْحِمِيمِ ثَمَرٌ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾  
 [غافر: ٧١، ٧٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَانٍ﴾ أَيُّ: حَارٌّ قَدْ بَلَغَ الْعَايَةَ فِي  
 الْحَرَارَةِ لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي  
 قَوْلِهِ: ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حِمِيمٍ ءَانٍ﴾ أَيُّ: قَدْ انْتَهَى عَلَيْهِ،  
 وَاشْتَدَّ حَرُّهُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ  
 وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَالثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ  
 أَنْ طَبَخَهُ مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدٌ

(١) الطبري: ٥٠/٢٣ (٢) الطبري: ٥٢/٢٣ (٣) الطبري: ٥٤/٢٣  
 (٤) الدر المنثور: ٧٠٤/٧ (٥) الطبري: ٥٤/٢٣ (٦) الطبري: ٥٥/٢٣  
 (٧) الطبري: ٥٥/٢٣ (٨) الطبري: ٥٥/٢٣

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ يَعْنِي: أَنَّ بَيْنَ ذَلِكَ بَوْنًا عَظِيمًا وَفَرْقًا بَيِّنًا فِي التَّضَاضِلِ.

﴿مُكَيَّنَ عَلَى فُرُشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَيٍّ الْخَنَيْنِ دَانٍ﴾ (٤٦) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٤٧) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٤٨) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٤٩) ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَلَكَهٍ زَوْجَانِ﴾ (٥٠) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥١) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٢) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٣) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٤) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٥) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٦) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٧) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٨) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٩) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٦٠) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٦١)

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مُكَيَّنَ﴾ يَعْنِي أَهْلَ الْجَنَّةِ. وَالْمُرَادُ بِالْإِتِّكَاءِ هَهُنَا: الإِضْطِجَاعُ، وَيُقَالُ: الْجُلُوسُ عَلَى صِفَةِ التَّرْبِيعِ. ﴿عَلَى فُرُشٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ﴾ وَهُوَ مَا غُلِظَ مِنَ الدِّيَابِجِ. قَالَ عِكْرَمَةُ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ (١). وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ: هُوَ الدِّيَابِجُ الْمَزِينُ بِالذَّهَبِ، فَتَبَّهَ عَلَى شَرَفِ الطَّهَّارَةِ بِشَرَفِ الْبَطَانَةِ، فَهَذَا مِنَ التَّنْبِيهِ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى. قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ هُبَيْرَةَ بْنِ بَرِيمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: هَذِهِ الْبَطَانُ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتُمُ الطَّوَاهِرَ (٢). ﴿وَحَيٍّ الْخَنَيْنِ دَانٍ﴾ أَيُّ: ثَمَرُهُمَا قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ مَتَى شَاءُوا تَنَاولُوهُ عَلَى أَيِّ صِفَةٍ كَانُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَطُوفُهَا دَانِيَةً﴾ [الحاقة: ٢٣] وَقَالَ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ فُطُوفُهَا لِرَّيْلًا﴾ [الإنسان: ١٤] أَيُّ: لَا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ تَنَاولَهَا، بَلْ تَنْحَطُّ إِلَيْهِ مِنْ أَغْصَانِهَا ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ الْفُرُشَ وَعَظَمَتَهَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿فِيهِمَا﴾ أَيُّ: فِي الْفُرُشِ ﴿فَصِرَتْ الظَّرْفُ﴾ أَيُّ: غَضِيضَاتٌ عَنْ غَيْرِ أَرْوَاجِهِنَّ، فَلَا يَرَيْنَ شَيْئًا فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنَ مِنْ أَرْوَاجِهِنَّ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ (٣). وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ تَقُولُ لِبُعْلِهَا: وَاللَّهِ مَا أَرَى فِي الْجَنَّةِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْكَ. وَلَا فِي الْجَنَّةِ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ لِي وَجَعَلَنِي لَكَ.

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْرَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانَّ﴾ أَيُّ: بَلْ هُنَّ أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابٌ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَحَدٌ قَبْلَ أَرْوَاجِهِنَّ مِنَ الْإِنْسِ

مِمَّا يُزْجِرُهُمْ عَمَّا فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ مُمْتَنًا بِذَلِكَ عَلَى بَرِيَّتِهِ: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾.

﴿وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (٤٦) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٤٧) ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٤٩) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٥٠) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥١) ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَلَكَهٍ زَوْجَانِ﴾ (٥٢) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ (٥٣)

### [أَحْوَالُ الْمُتَّقِينَ وَنَعِيمُهُمْ فِي الْجَنَّتِ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠] وَلَمْ يَطْعُ وَلَا أَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعَلِمَ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى فَادَى فَرَاضِ اللَّهِ، وَاجْتَنَبَ مَحَارِمَهُ، فَلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ قَيْسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فَضِيَّةِ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رِذَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ» (١). وَأَخْرَجَهُ بِقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِهِ (٢). وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَهِيَ مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْجَنَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِذَا آمَنُوا وَاتَّقَوْا، وَلِهَذَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الثَّقَلَيْنِ بِهَذَا الْجَزَاءِ فَقَالَ: ﴿وَلَمْ يَخَفْ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (٤٦) ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ ثُمَّ نَعَتْ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ فَقَالَ: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أَيُّ: أَغْصَانٍ نَضِرَةٌ حَسَنَةٌ، تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ ثَمَرَةٍ نَضِيجَةٍ فَائِقَةٍ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ هَكَذَا قَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَجَمَاعَةٌ: إِنَّ الْأَفْنَانَ أَغْصَانُ الشَّجَرِ يَسُوسُ بَعْضُهَا بَعْضًا. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أَيُّ: تَسْرَحَانِ لِسْفِي تِلْكَ الْأَشْجَارِ وَالْأَغْصَانِ فَتَتَمَرُّ مِنْ جَمِيعِ الْأَلْوَانِ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِحْدَاهُمَا يُقَالُ لَهَا: تَسْنِيمٌ، وَالْأُخْرَى: السَّلْسِيلُ (٣). وَقَالَ عَطِيَّةٌ: إِحْدَاهُمَا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَالْأُخْرَى مِنْ خَمِرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ (٤). وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَلَكَهٍ زَوْجَانِ﴾ أَيُّ: مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ مِمَّا يَعْلَمُونَ وَخَيْرٌ مِمَّا يَعْلَمُونَ، وَمِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾. قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا فِي الدُّنْيَا ثَمَرَةٌ حُلُوةٌ وَلَا مُرَّةٌ إِلَّا وَهِيَ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى الْحَنْظَلِ (٥).

(١) فتح الباري: ٤٩١/٨ (٢) مسلم: ١٦٣/١ وتحفة الأحوذى: ٢٣٢/٧ والنسائي في الكبرى: ٤١٩/٤ وابن ماجه: ٦٦/١ (٣) القرطبي: ١٧٨/١٧ (٤) القرطبي: ١٧٨/١٧ (٥) القرطبي: ١٧٩/١٧ (٦) الطبري: ٦١/٢٣ والقرطبي: ١٧/١٧ (٧) الطبري: ٦٢/٢٣ إسناده ضعيف مداره على أبي إسحاق السبيعي وهومدلس ولم يصرح (٨) الطبري: ٦٣/٢٣ ٤١/٢١

سورة الرحمن

٥٣٤

سورة الرحمن

فِيهَا فَكَيْهَةٌ وَخُلُوعٌ وَمَأْنٌ ﴿٦٨﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾  
فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ﴿٧٠﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ  
مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾  
لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ  
﴿٧٥﴾ مُتَكِينِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حَسَنَاتٌ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّي  
ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

## سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْفَعُهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾  
إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾  
فَكَانَتْ هَبَاءً مُبْنًيًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ  
الْمَيْمَنِ مِمَّا أَصْحَابُ الْمَيْمَنِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الشَّعْمَةِ مِمَّا أَصْحَابُ  
الشَّعْمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّادِقُونَ السَّادِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾  
فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ  
﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا ثَمَنٌ فَلِيلٍ ﴿١٦﴾

وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

هَاتَانِ الْجَنَّتَانِ دُونَ اللَّيْنِ قَبْلَهُمَا فِي الْمَرْتَبَةِ وَالْفَضِيلَةِ  
وَالْمَنْزِلَةِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾  
وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا،  
وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، فَلَاؤِلَيَانِ لِلْمُقَرَّبِينَ  
وَالْآخِرَتَانِ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٧﴾. وَقَالَ أَبُو مُوسَى: جَنَّتَانِ  
مِنْ ذَهَبٍ لِلْمُقَرَّبِينَ وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ،  
وَالدَّلِيلُ عَلَى شَرَفِ الْأَوَّلِينَ عَلَى الْآخِرِينَ وَجُودُهُ:  
أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ نَعَتَ الْأَوَّلِينَ قَبْلَ هَاتَيْنِ، وَالتَّقْدِيمُ يَدُلُّ عَلَى  
الِإِغْتِنَاءِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي  
شَرَفِ التَّقْدِيمِ وَعُلُوِّهِ عَلَى الثَّانِي.

وَقَالَ هُنَاكَ ﴿ذَرَانَا أَفْنَانِ﴾ وَهِيَ الْأَغْصَانُ أَوْ الْفُتُونُ فِي

(١) الطبري: ٦٥/٢٣ (٢) الطبري: ٦٧، ٦٦/٢٣ (٣) مسلم:

٢١٧٨/٤ (٤) فتح الباري: ٦/٣٦٧ و٤١٧ ومسلم: ٤/

٢١٧٩، ٢١٨٠ (٥) أحمد: ١٤١/٣ (٦) فتح الباري: ١٩/٦

(٧) فتح الباري: ٤٩١/٨

وَالجَنِّ، وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى دُخُولِ مُؤْمِنِي الْجَنِّ  
الْجَنَّةَ. وَقَالَ أَرْطَاهُ بْنُ الْمُتَنَذِرِ: سِئِلَ ضَمْرُهُ بْنُ حَبِيبٍ: هَلْ  
يَدْخُلُ الْجَنِّ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَيَتَكَبَّرُونَ، لِلْجَنِّ جَنِّيَاتٌ،  
وَاللَّائِسُ إِنْسِيَّاتٌ. وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا  
جَانٌ﴾ ﴿٦٨﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾. ثُمَّ قَالَ يَنْعَتُهُنَّ  
لِلْخُطَّابِ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ  
وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ: فِي صَفَاءِ الْيَاقُوتِ وَيَبَاضِ الْمَرْجَانِ،  
فَجَعَلُوا الْمَرْجَانِ هَهُنَا اللَّوْلُؤَ ﴿٧٠﴾.

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: إِنَّمَا  
تَفَاخَرُوا وَإِنَّمَا تَذَاكُرُوا، الرَّجَالُ أَكْثَرُ فِي الْجَنَّةِ أَمِ النِّسَاءُ؟  
فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَوَلَمْ يَقُلْ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ  
تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةُ الْبَدْرِ، وَالتِّي تَلِيهَا عَلَى  
[أَصْوَةٍ] كَوْكَبِ ذُرِّي فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ  
زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مِخْ شَوْقُهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي  
الْجَنَّةِ أَغْرَبٌ» ﴿٣﴾. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي  
الصَّحِيحَيْنِ ﴿٤﴾. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْعُدُوءُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رُوحَةُ خَيْرٍ مِنَ الدُّنْيَا  
وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ، أَوْ مَوْضِعُ قَدِهِ - يَغْنِي  
سَوْطُهُ - مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَطْلَعَتْ  
امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا  
رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ  
الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ﴿٥﴾. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِنَحْوِهِ ﴿٦﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أَيْ لَا  
لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ،  
كََمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَّيٍّ وَزِيَادَةٌ﴾  
[يونس: ٢٦]، وَلَمَّا كَانَ فِي الَّذِي ذَكَرَ نِعَمٌ عَظِيمَةٌ لَا  
يَقَاومُهَا عَمَلٌ، بَلْ مُجَرَّدُ تَفَضُّلٍ وَامْتِنَانٍ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ:  
﴿فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ﴿٦٨﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾  
مُذْهَبَانِ ﴿٧٠﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ فِيهَا عَيْنَانِ  
نَضَّاحَتَانِ ﴿٧٢﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ فِيهَا فَكَيْهَةٌ وَخُلُوعٌ  
وَرَمَانٌ ﴿٧٤﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ﴿٧٦﴾  
فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٨﴾ فَإِنِّي  
ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٨٠﴾ فَإِنِّي  
ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨١﴾ مُتَكِينِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي  
حَسَنَاتٌ ﴿٨٢﴾ فَإِنِّي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٣﴾ نَبْرَكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّفُوفُ: الْمَحَابِسُ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ: هِيَ الْمَحَابِسُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الْعَلَاءُ بْنُ [بَدْرٍ]: الرَّفْدُ عَلَى السَّرِيرِ كَهَيْئَةِ الْمَحَابِسِ الْمُتَدَلِّي. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَعَبْقَرِيَّ حِسَانٍ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: الْعَبْقَرِيُّ: الزَّرَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

ثُمَّ قَالَ: «لَبَّكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أَيْ هُوَ أَهْلُ أَنْ يُجَلَّ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُكْرَمَ فَيُعْبَدُ، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» ذِي الْعِظَمَةِ وَالْكَبِيرِيَّةِ<sup>(٤)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَذِي السُّلْطَانِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْعَالِي فِيهِ، وَلَا الْجَافِي عَنْهُ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رِبْعَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلْطَوُا بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ أَلْطَأَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ إِذَا لَزِمَهُ، وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَلْطَوُا بَيَادَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ أَيْ الزَّمُوا. وَيُقَالُ: الْإِلْطَاطُ هُوَ الْإِلْحَاحُ.

(قُلْتُ) وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ مِنَ الْآخِرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهُوَ الْمُدَاوِمَةُ وَاللُّزُومُ وَالْإِلْحَاحُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَالشَّيْخِ الْأَرْبَعَةِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَا يَقْعُدُ بَعْثِي بَعْدَ الصَّلَاةِ إِلَّا يَقْدِرُ مَا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»<sup>(٨)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

الْمَلَادُ، وَقَالَ هَهُنَا «مُدَاهَمَتَانِ» أَيْ: سَوْدَاوَانِ مِنْ شِدَّةِ الرِّيّ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «مُدَاهَمَتَانِ» قَدْ اسْوَدَّتَا مِنَ الْخُضْرَةِ مِنْ شِدَّةِ الرِّيّ مِنَ الْمَاءِ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ «مُدَاهَمَتَانِ»: مُمْتَلِئَتَانِ مِنَ الْخُضْرَةِ، وَلَا شَكَّ فِي نَضَارَةِ الْأَغْصَانِ عَلَى الْأَشْجَارِ الْمُشْتَبِكَةِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ.

وَقَالَ هُنَاكَ: «فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ» وَقَالَ هَهُنَا: «فَضْلَانِ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ فَيَاضَتَانِ وَالْجُرْيُ أَقْوَى مِنَ النَّضْخِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: «فَضْلَانِ» أَيْ مُمْتَلِئَتَانِ وَلَا تَنْقُطَعَانِ<sup>(١١)</sup>.

وَقَالَ هُنَاكَ «فِيهَا مِنْ كُلِّ فِكْهَةٍ زَيَّانٌ» وَقَالَ هَهُنَا: «فِيهَا فِكْهَةٌ وَخَلٌّ وَرَمَانٌ» وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَوَّلَى أَعَمُّ وَأَكْثَرُ فِي الْأَفْرَادِ وَالتَّنَوُّعِ عَلَى فَكْهَةٍ، وَهِيَ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ لَا تَعْمُ، وَلِهَذَا لَيْسَ قَوْلُهُ: «وَخَلٌّ وَرَمَانٌ» مِنْ بَابِ عَطَفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ كَمَا قَرَّرَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ النَّخْلَ وَالرَّمَانَ بِالذِّكْرِ لِشَرْفِهِمَا عَلَى غَيْرِهِمَا.

ثُمَّ قَالَ: «فِيهِنَّ خَيْرَتٌ حِسَانٌ» قِيلَ: الْمُرَادُ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ حَسَنَةٌ فِي الْجَنَّةِ قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: خَيْرَاتٌ جَمْعُ خَيْرَةٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الْحَسَنَةُ الْخُلُقِيَّةُ الْحَسَنَةُ الْوَجْهِ، قَالَهُ الْجُمْهُورُ. وَرَوَى مَرْفُوعًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ<sup>(١٢)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: أَنَّ الْحُورَ الْعَيْنِ يُغْنَيْنِ: «نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحِسَانُ، خُلِقْنَا لِأَزْوَاجِ كِرَامٍ»<sup>(١٣)</sup>. ثُمَّ قَالَ: «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ» وَهُنَاكَ قَالَ: «فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ» وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّتِي قَدْ قَصُرَتْ طَرَفُهَا بِنَفْسِهَا أَفْضَلُ مِمَّنْ قَصُرَتْ وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ مُخَدَّرَاتٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فِي الْخِيَارِ». رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ»<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَاهُ أَيْضًا وَقَالَ: «ثَلَاثُونَ مِيلًا»<sup>(١٥)</sup>.

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَلَفْظُهُ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلٌ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»<sup>(١٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَمْ يَطْمِئِنَّ قُلُوبَهُمْ» وَلَا جَانٌّ قَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ سَوَاءً إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي وَصْفِ الْأَوَائِلِ بِقَوْلِهِ: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالزَّيْرَانُ»<sup>(١٧)</sup> فَإِنَّ مَاءَهُمَا نَكِدَا بَيْنَهُمَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ»

(١) الدر المنثور: ٧١٥/٧ (٢) الدر المنثور: ٧١٦/٧ (٣) الطبري: ٣٥٧/٢٣ (٤) الطبري: ٧٥/٢٣ (٥) الطبراني في الأوسط: ٢٥٧/٧ فيه سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدي [مجمع الزوائد ٧/١٢٢] (٦) فتح الباري: ٤٩١/٨ (٧) فتح الباري: ٣٦٦/٦ (٨) مسلم: ٢١٨٢/٤ (٩) الطبري: ٨٣/٢٣ (١٠) الطبري: ٨٤/٢٣ (١١) الطبري: ٨٥/٢٣ (١٢) الطبري: ٨٦/٢٣ (١٣) أبو داود: ١٧٤/٥ إسناده ضعيف لهجالة أبي كنانة. [تقريب ٩٩٢٨] (١٤) أحمد: ١٧٧/٤ (١٥) النسائي في الكبرى: ٤٧٩/٦ (١٦) مسلم: ٤١٤/١ وأبو داود: ١٧٩/٢ وتحفة الأحوذى: ١٩٢/٢ والنسائي: ٦٩/٣ وابن ماجه: ٢٩٨/١

## تفسير سورة الواقعة وهي مكية

### [فصل سورة الواقعة]

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَارَسُوا اللَّهَ! قَدْ شَبَّتْ، قَالَ «شَبَّيْنِي هُوَذَا الْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ كَتَحْوٍ مِنْ صَلَاتِكُمْ الَّتِي تُصَلُّونَ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُخَفِّفُ، كَانَتْ صَلَاتُهُ أَخْفَ مِنْ صَلَاتِكُمْ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْقَجْرِ الْوَاقِعَةَ وَتَحْوَهَا مِنَ السُّورِ<sup>(٢)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (١) لَيْسَ لَوْقَعَهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ لَشِرَافُهُمْ (٩) وَأُولَئِكَ الْمُرْجُونَ (١٠) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ (١١)

### [ذكر أحوال يوم القيامة]

الْوَاقِعَةُ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِتَحَقُّقِ كَوْنِهَا وَوُجُودِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيُؤْخَذُ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَوْقَعِنَا كَاذِبَةٌ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَوْقُوعِهَا إِذَا أَرَادَ اللَّهُ كَوْنَهَا صَارِفَ بِضَرْفِهَا وَلَا دَافِعَ يَدْفَعُهَا كَمَا قَالَ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧] وَقَالَ: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١١) لِلْمُكَفِّرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ [المعارج: ٢٠، ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُلُّ نَفْسٍ لَوْ كُنْتُ ظَهِيرًا لَبِئْسَ مَا كُنْتُ بِهِ﴾ (١٢) وَهُوَ الْخَبِيرُ [الأنعام: ٧٣]. وَمَعْنَى «كَاذِبَةٌ» كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَيْسَ فِيهَا مَثْنِيَّةٌ وَلَا أَزْدَادٌ وَلَا رَجْعَةٌ<sup>(٣)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْكَاذِبَةُ مَصْدَرٌ كَالْعَاقِيَةِ وَالْعَاقِيَةِ<sup>(٤)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أَيُّ تَخْفِضُ أُنْوَاعًا إِلَى أَسْفَلٍ سَافِلِينَ إِلَى الْجَحِيمِ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَعْرَاءَ، وَتَرَفُّعَ آخَرِينَ إِلَى أَعْلَى عُلْيَى إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا وَضَعَاءَ. هَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «خَافِضَةٌ

رَافِعَةٌ» أَسْمَعَتِ الْقُرْبَى وَالْبَعِيدَ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: خَفَضَتْ فَأَسْمَعَتِ الْأَذْنَى، وَرَفَعَتْ فَأَسْمَعَتِ الْأَفْصَى. وَكَذَا قَالَ الصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أَيُّ حُرِّكَتْ تَحْرِيكًا فَاهْتَزَّتْ وَاضْطَرَبَتْ بِطُولِهَا وَعَرْضِهَا، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أَيُّ زُلْزَلَتْ زَلْزَالًا<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ: تَرُجُ بِمَا فِيهَا كَرَجِ الْعُزْبَالِ بِمَا فِيهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾ [الزلزلة: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبِّكُمْ﴾ (١٣) زَلْزَلَةَ السَّكَاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ [الحج: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ أَيُّ فَتَنَّتْ فَتَنًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ: وَغَيْرُهُمْ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: صَارَتِ الْجِبَالُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَيْبًا مَهِيلاً﴾<sup>(٨)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا﴾ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَبَاءٌ مُتْبِنٌ» كَرَهَجِ الْعُبَارِ يَسْطَعُ ثُمَّ يَذْهَبُ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا﴾ الْهَبَاءُ الَّذِي يَطِيرُ مِنَ النَّارِ إِذَا اضْطَرَمَّتْ يَطِيرُ مِنْهُ الشَّرُّ فَإِذَا وَقَعَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الْمُتْبِنُ: الَّذِي قَدْ ذَرَتْهُ الرِّيحُ وَبَثَّتْهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: «هَبَاءٌ مُتْبِنٌ» كَبَيْسِ الشَّجَرِ الَّذِي تَذَرُوهُ الرِّيَّاحُ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَأَخَوَاتِهَا الدَّالَّةُ عَلَى زَوَالِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَذَهَابِهَا وَتَشْيِيرِهَا وَتَسْفِيفِهَا [أَيُّ قَلْعِهَا] وَصَيْرُورِهَا كَالْعِهْنِ الْمُتَفَشِّشِ.

### [الناس ثلاثة أقسام يوم القيامة]

وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أَيُّ يَنْقَسِمُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: قَوْمٌ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ. وَهُمْ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ شِقِّ آدَمَ الْأَيْمَنِ، وَيُؤْتَوْنَ كُتُبُهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الْيَمِينِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: وَهُمْ جُمْهُورُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَآخَرُونَ عَنْ يَسَارِ الْعَرْشِ، وَهُمْ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ

(١) تحفة الأحوذى: ١٨٤/٩ (٢) أحمد: ١٠٤/٥ فيه سماك بن حرب عن عكرمة وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة كما مر ذكره وليست هذه منها وقد تغير آخره فكان ربما تلفن. (٣) الطبري: ٨٩/٢٣ (٤) الطبري: ٨٩/٢٣ (٥) الطبري: ٩٠/٢٣ (٦) الطبري: ٩١/٢٣ (٧) الطبري: ٩٣، ٩٢/٢٣ (٨) الطبري: ٩٣/٢٣ (٩) الطبري: ٩٤/٢٣

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهْةً مِمَّا تَحْتَضِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَعَلَّ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَحْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَبْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهْةً كَثِيرَةً ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرشٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَعْنَهُمْ أَتْكَارًا ﴿٣٦﴾ عَرَبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْكَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشَّامَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّامَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُومٍ وَحِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيَدَانَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَلَمْ نَلْعَبُوهُنَّ ﴿٤٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا أَلَوْ لَوْنٌ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

بِقَوْلِهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣). وَلَمْ يَحْكُ غَيْرُهُ وَلَا عَزَاهُ إِلَى أَحَدٍ، وَمِمَّا يُسْتَأْنَسُ بِهِ لِهَذَا الْقَوْلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ» (٣٩) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٣٨﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَزَلَّتْ: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ» (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثَلَاثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، بَلْ أَنْتُمْ نِصْفُ أَهْلِ الْجَنَّةِ - أَوْ: شَطْرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ - وَتَقَاسِمُونَهُمُ النِّصْفَ الثَّانِي». وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٤).

وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَهُنَا، فِيهِ نَظَرٌ، بَلْ هُوَ

شَقَّ آدَمَ الْأَيْسَرَ وَيُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِشِمَالِهِمْ وَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشَّامَالِ، وَهُمْ عَامَّةُ أَهْلِ النَّارِ - عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ صَنِيعِهِمْ - وَطَائِفَةٌ سَابِقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُمْ أَحْصَى وَأَحْطَى وَأَقْرَبَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ الَّذِينَ هُمْ سَادَتُهُمْ، فِيهِمُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ، وَهُمْ أَقْلُ عَدَدًا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالصَّادِقُونَ السَّابِقُونَ [الواقعة: ٨-١٠] وَهَكَذَا قَسَمَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ فِي آخِرِ السُّورَةِ وَقَدْ اخْتَصَرَاهُمْ، وَهَكَذَا ذَكَرَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ لِإِذْنِ اللَّهِ...» (آيَةُ [فاطر: ٣٢]).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَأَبُو حُرْزَةَ وَيَعْقُوبُ بْنُ مُجَاهِدٍ: «وَالصَّادِقُونَ السَّابِقُونَ» هُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُمُ أَهْلُ عَلِيٍّ.

وَالْمُرَادُ بِالسَّابِقِينَ هُمُ الْمُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ كَمَا أَمُرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] فَمَنْ سَابَقَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَسَبَقَ إِلَى الْخَيْرِ، كَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْكِرَامَةِ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جَنَسِ الْعَمَلِ، وَكَمَا تَدِينُ تَدَانُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

«ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ» (٣٩) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٣٨﴾ عَلَى سُرْرِ مَوْضُوعَةٍ (٥) مُتْرَكِينَ عَلَيْهَا مُتَنَدِّلِينَ (١١) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ (١٩) وَفَكَهْةً مِمَّا يَحْتَضِرُونَ (٢٠) وَلَعَلَّ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)

[السَّابِقُونَ وَجَزَاءُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ أَنَّهُمْ «ثَلَاثَةٌ» أَيَّ جَمَاعَةٍ «مِنَ الْأَوَّلِينَ» (٣٩) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ: «الْأَوَّلِينَ» وَ«الْآخِرِينَ» فَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِينَ الْأُمَمُ الْمَاضِيَّةُ، وَبِالْآخِرِينَ هَذِهِ الْأُمَّةُ. وَهَذَا رَوَايَةٌ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، رَوَاهَا عَنْهُمَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَهُوَ اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ (٢). وَاسْتَأْنَسَ

(١) القرطبي: ١٧/١٩٩ (٢) الطبري: ٢٣/٩٨ (٣) فتح الباري: ١١/٥٢٦ (٤) أحمد: ٢/٣٩١ إسناؤه ضعيف فيه شريك بن عبدالله سيء الحفظ ووالد محمد بياح الملاء وهو عبدالرحمن بن خالد بن ميسرة مجهول لكن يشهد لقوله: "انتم ثلث أهل الجنة" حديث ابن مسعود عند أحمد ٤٣٢٨ وحديث جابر أيضا عنده ٣/٣٤٦، ٣٨٣.

عَنْهَا، وَلَا يَشِيُونَ وَلَا يَتَعَيَّرُونَ ﴿١٠﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِقٍ وَكُلٌّ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿١١﴾ أَمَّا الْأَكْوَابُ فَهِيَ الْكِرْزَانُ الَّتِي لَا خَرَاطِيمَ لَهَا وَلَا آذَانٌ. وَالْأَبَارِقُ الَّتِي جَمَعَتِ الْوُصْفَيْنِ. وَالْكَؤُوسُ: الْهَنَابَاتُ. وَالْجَمِيعُ مِنْ خَمَرٍ مِنْ عَيْنٍ جَارِيَةٍ مَّعِينٍ، لَيْسَ مِنْ أَوْعِيَةٍ تَنْقَطِعُ وَتَفْرُغُ، بَلْ مِنْ عُيُونٍ سَارِحَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ أَيُّ لَا تَصْدَعُ رُؤُوسَهُمْ وَلَا تَنْزِفُ عُقُولَهُمْ، بَلْ هِيَ ثَابِتَةٌ مَعَ الشَّدَةِ الْمُطَرِّبَةِ وَاللَّذَّةِ الْحَاصِلَةِ، وَرَوَى الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: فِي الْخَمْرِ أَرْبَعُ خِصَالٍ: السُّكْرُ، وَالصَّدَاعُ، وَالْقَيْءُ، وَالْبَوْلُ، فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَمَرَ الْجَنَّةِ وَزَوَّجَهَا عَنْ هَذِهِ الْخِصَالِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطِيَّةُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا﴾ يَقُولُ: لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا صَدَاعٌ رَأْسِي<sup>(٦)</sup>. وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُزْفُونَ﴾ أَيُّ لَا تَذْهَبُ بِعُقُولِهِمْ<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفَكَهَمَ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾<sup>(٨)</sup> وَلَمْ يَطْرُقْ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ أَيُّ: وَيَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَتَخَيَّرُونَ مِنَ الثَّمَارِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ أَكْلِ الْفَاكِهَةِ عَلَى صِفَةِ التَّخَيَّرِ لَهَا.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَابِتٍ قَالَ: قَالَ أَنَسٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تُعْجِبُهُ الرُّؤْيَا، فَرُبَّمَا رَأَى الرَّجُلَ الرُّؤْيَا فَسَأَلَ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ، فَإِذَا أَتَتْهُ عَلَيْهِ مَعْرُوفٌ كَانَ أَعْجَبَ لِرُؤْيَاهُ إِلَيْهِ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ فَأُخْرِجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَأَدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَسَمِعْتُ وَجْهَ اتَّحَبْتُ لَهَا الْجَنَّةَ، فَتَنْظَرْتُ فَإِذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، وَفُلَانُ بْنُ فُلَانٍ فَسَمِعْتُ اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا - كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ بَعَثَ سَرِيَّةً قَبْلَ ذَلِكَ - فَجَاءَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ نِيَابُ طُلَسٍ تَشَخَّبَ أَوْدَاجُهُمْ، فَقِيلَ: اذْهَبُوا بِهِمْ إِلَى نَهْرِ الْبَيْدَخِ - أَوْ الْبَيْدَخِ - قَالَ: فَفَمِسُوا فِيهِ فَخَرَجُوا وَوُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَأَتُوا بِصَفْحَةٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بُسْرٌ، فَأَكَلُوا مِنْ بُسْرِهِ مَا شَاءُوا، فَمَا يَقُولُونَهَا مِنْ وَجْهِ إِلَّا أَكَلُوا

قَوْلٌ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، فَيَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمُقَرَّبُونَ فِي غَيْرِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، بَلِ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُقَرَّبِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي هَذَا الْمَقَامِ هُوَ الرَّاجِحُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيُّ مِنْ صَدَرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السَّرِيِّ بْنِ يَحْيَى قَالَ: قَرَأَ الْحَسَنُ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾<sup>(٩)</sup> أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ<sup>(١٠)</sup> فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ<sup>(١١)</sup> ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ قَالَ: ثُلَّةٌ مِّمَّنْ مَضَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَرَوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(١٢)</sup> وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ أَوْ يَرْجُونَ أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ أَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَوَّلَ كُلِّ أُمَّةٍ خَيْرٌ مِنْ آخِرِهَا، فَيَحْتَمِلُ أَنْ تَعَمَّ الْآيَةُ جَمِيعَ الْأُمَمِ، كُلُّ أُمَّةٍ بِحَسَبِهَا، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا مِنْ غَيْرٍ وَجْهٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الْقُرُونِ قُرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»<sup>(١٣)</sup>. الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ. وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ». وَفِي لَفْظٍ: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ كَذَلِكَ»<sup>(١٤)</sup>. وَالْغَرَضُ: أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَشْرَفُ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، وَالْمُقَرَّبُونَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا، وَأَعْلَى مَنْزِلَةً لِشَرَفِ دِينِهَا وَعِظَمِ نَبِيِّهَا، وَلِهَذَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَفِي لَفْظٍ: «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا» وَفِي آخَرٍ: «مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيُّ مَرْمُولَةٍ بِالذَّهَبِ، يَعْنِي مَسْجُوجَةٌ بِهِ<sup>(١٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ<sup>(١٦)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَمِنْهُ يُسَمَّى وَضِئُ النَّاقَةِ الَّتِي تَحْتَ بَطْنِهَا، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، لِأَنَّهُ مَضْفُورٌ، وَكَذَلِكَ السُّرُّ فِي الْجَنَّةِ مَضْفُورَةٌ بِالذَّهَبِ وَاللَّائِلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ﴾ أَيُّ: وَجُوهُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، لَيْسَ أَحَدٌ وَرَاءَ أَحَدٍ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أَيُّ: مُخَلَّدُونَ عَلَى صِفَةِ وَاحِدَةٍ، لَا يَتَكَبَّرُونَ

(١) البخاري: ٣٦٥١ ولفظ البخاري "خير الناس قرني..." وقد تقدم هذا. (٢) البخاري: ٧١، ٣١١٦، ٣٦٤٠، ٣٦٤١، ٧٣١١، ٧٣١٢، ٧٤٥٩، ٧٤٦٠ وغير ذلك. (٣) الطبري: ٩٩/٢٣ (٤) الطبري: ٩٩/٢٣، ١٠٠ (٥) القرطبي: ١٧/٢٠٤ إسناده منقطع والضحاك لم يسمع من ابن عباس (٦) الطبري: ١٠٣/٢٣، ١٠٤ (٧) الطبري: ١٠٤، ١٠٤/٢٣، ١٠٥



تَعَالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْأَخْوَصِ وَقَسَامَةُ بْنُ زُهَيْرٍ وَالسَّفَرِيُّ بْنُ نَسِيرٍ، وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ وَالسَّيِّدِيُّ وَأَبُو حَزْرَةَ وَغَيْرُهُمْ: هُوَ الَّذِي لَا شَوْكَ فِيهِ<sup>(٣)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الْمَوْقَرُ بِالثَّمَرِ. وَهُوَ رَوَايَةٌ عَنْ عِكْرَمَةَ وَمُجَاهِدٍ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ أَيْضًا: كُنَّا نَحْدُثُ أَنَّهُ الْمَوْقَرُ الَّذِي لَا شَوْكَ بِهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَرَادَ هَذَا وَهَذَا، فَإِنَّ سِدْرَ الدُّنْيَا كَثِيرُ الشَّوْكِ قَلِيلُ الثَّمَرِ، وَفِي الْأَخِرَةِ عَلَى الْعُكُوسِ مِنْ هَذَا، لَا شَوْكَ فِيهِ، وَفِيهِ الثَّمَرُ الْكَثِيرُ الَّذِي قَدْ أَثْقَلَ أَصْلُهُ، وَعُتِبَ بِنُ عَبْدِ السَّلْمِيِّ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَجَاءَ أَغْرَابِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَسْمَعُكَ تَذَكُّرُ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً لَا أَغْلَمُ شَجَرًا أَكْثَرَ شَوْكًا مِنْهَا، يَغْنِي: الطَّلْحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ مِنْهَا ثَمَرَةً، مِثْلَ خُصْوَةِ التَّيْسِ الْمَلْبُودِ، فِيهَا سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ، لَا يُشْبِهُ لَوْنٌ آخَرَ»<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَطَلْحٍ مَّخْضُودٍ﴾ الطَّلْحُ: شَجَرٌ عَظَامٌ يَكُونُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ مِنْ شَجَرِ الْعِصَاءِ، وَاجِدَتْهُ طَلْحَةً، وَهُوَ شَجَرٌ كَثِيرُ الشَّوْكِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مَّخْضُودٍ﴾ أَيْ مُتَرَاكِمُ الثَّمَرِ يُذَكَّرُ بِذَلِكَ قُرَيْشًا، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْجَبُونَ مِنْ وَجْهِ وَظِلَالِهِ مِنْ طَلْحٍ وَسِدْرٍ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: ﴿وَطَلْحٍ مَّخْضُودٍ﴾ قَالَ: الْمَوْزُ. قَالَ: وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَالْحَسَنِ وَعِكْرَمَةَ وَقَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ وَقَتَادَةَ، وَأَبِي حَزْرَةَ مِثْلَ ذَلِكَ<sup>(٦)</sup>. وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ. وَزَادَ فَقَالَ: أَهْلُ الْيَمَنِ يَسْمُونُ الْمَوْزَ الطَّلْحَ<sup>(٧)</sup>. وَلَمْ يَحْكِ ابْنُ جَرِيرٍ غَيْرَ هَذَا الْقَوْلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَطَلْحٍ مَّخْضُودٍ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، أَفْرُؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَطَلْحٍ مَّخْضُودٍ﴾»<sup>(٨)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، أَفْرُؤُوا إِنْ شِئْتُمْ:

مِنَ الْفَائِكَةِ مَا أَرَادُوا، وَأَكَلْتُ مَعَهُمْ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ مِنْ تِلْكَ السَّرِيَّةِ، فَقَالَ مَا كَانَ مِنْ رُؤْيَا: كَذَا وَكَذَا. فَأُصِيبَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ حَتَّى عَدَّ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَرْأَةَ، فَقَالَ: «قُصِّي رُؤْيَاكَ» فَقَصَّصَتْهَا وَجَعَلَتْ تَقُولُ: فَجِئْتُ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ كَمَا قَالَ. هَذَا لَفْظُ أَبِي يَعْلَى<sup>(١)</sup>. قَالَ الْحَافِظُ الضَّيَاءُ: وَهَذَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَطِحَ ظَنِرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ ظَنِرَ الْجَنَّةِ كَأَمْثَالِ الْبُخْبِ، يَرَعَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ هَذِهِ لَطَبِيرٌ نَاعِمَةٌ، فَقَالَ: «أَكَلَهَا أَنْعَمَ مِنْهَا» قَالَهَا ثَلَاثًا «وَأَنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَأْكُلُ مِنْهَا»<sup>(٢)</sup>. انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أَيْ: كَأَنَّهُنَّ اللَّوْلُؤُ الرُّطْبُ فِي بَيَاضِهِ وَصَفَائِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ وَصَفُوهُنَّ أَيْضًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَرَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي أَتَحَفَّنَاهُمْ بِهِ مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنُوا مِنَ الْعَمَلِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَنًّا وَلَا تَأْنِيًا﴾<sup>(٣)</sup> إِلَّا فِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا أَيْ: لَا يَسْمَعُونَ فِي الْجَنَّةِ كَلَامًا لَا غِيَا أَيْ: عَبَثًا خَالِيًا مِنَ الْمَعْنَى، أَوْ مُشْتَمِلًا عَلَى مَعْنَى حَقِيرٍ، أَوْ ضَعِيفٍ كَمَا قَالَ: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَيْكَةً﴾ [الغاشية: ١١] أَيْ: كَلِمَةً لَا غِيَةَ ﴿وَلَا تَأْنِيًا﴾ أَيْ وَلَا كَلَامًا فِيهِ فُتْحٌ ﴿إِلَّا فِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا﴾ أَيْ: إِلَّا التَّسْلِيمَ مِنْهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتِمَّتْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠] وَكَلَامُهُمْ أَيْضًا سَالِمٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالْإِلْمِ.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾<sup>(٤)</sup> فِي سِدْرِ مَخْضُودٍ<sup>(٥)</sup> وَطَلْحٍ مَّخْضُودٍ<sup>(٦)</sup> وَطَلْحٍ مَّخْضُودٍ<sup>(٧)</sup> وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ<sup>(٨)</sup> وَفَيْكِهِمْ كَثِيرٌ<sup>(٩)</sup> لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ<sup>(١٠)</sup> وَفُتْرٍ مَرْفُوعَ<sup>(١١)</sup> إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً<sup>(١٢)</sup> لَجَعَلْنَهُمْ أَكْبَارًا<sup>(١٣)</sup> عَرَبًا آثَرًا<sup>(١٤)</sup> لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ<sup>(١٥)</sup> ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ<sup>(١٦)</sup> وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ<sup>(١٧)</sup>

[أَصْحَابُ الْيَمِينِ وَجَزَاؤُهُمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَالَ السَّابِقِينَ وَهُمْ الْمُقَرَّبُونَ، عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَهُمْ الْأَبْرَارُ، كَمَا قَالَ مِيمُونُ ابْنُ مِهْرَانَ: أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَنَزَلَتُهُمْ دُونَ الْمُقَرَّبِينَ فَقَالَ: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ أَصْحَابُ الْيَمِينِ؟ وَمَا حَالُهُمْ؟ وَكَيْفَ مَالُهُمْ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ فَقَالَ

(١) أحمد: ١٣٥/٣ ومسند أبي يعلى: ٤٤/٦ (٢) أحمد: ٣/٢٢١ (٣) الطبري: ١١٠/٢٣ (٤) البعث لابن أبي داود: ٥٩ وانظر الصحبة لللاباني: ٢٧٣٤ (٥) الطبري: ١١٤/٢٣ (٦) الطبري: ١١٢/٢٣، ١١٣ (٧) الطبري: ١١٣/٢٣ (٨) فتح الباري: ٤٩٥/٨ (٩) مسلم: ٤/٢١٧٥

﴿وَلَيْلٍ مَّزْمُورٍ﴾<sup>(١)</sup> وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٣)</sup>، وَكَذَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَفَعَهُمْ كَثِيرٌ﴾<sup>(٥)</sup> لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ أَي: وَعِنْدَهُمْ مِنَ الْفَوَائِدِ الْكَثِيرَةِ الْمُنْتَوَعَةِ فِي الْأَلْوَانِ مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أَذُنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُنْشِبِينَ﴾ [البقرة: ٢٥] أَي: يُشْبِهُ الشَّكْلَ الشَّكْلَ، وَلَكِنَّ الطَّعْمَ غَيْرَ الطَّعْمِ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي ذِكْرِ سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى: «إِذَا وَرَفَّهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وَتَبَفَّهَا مِثْلَ قِلَالٍ هَجَرَ»<sup>(٦)</sup>. وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالتَّاسُ مَعَهُ، فَذَكَرَ الصَّلَاةَ، وَفِيهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْنَاكَ تَنَاولْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعَّمْتَ، قَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْحَبَّةَ فَتَنَاولْتُ مِنْهَا عُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُه لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا»<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عُثْبَةَ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِيِّ يَقُولُ: جَاءَ أَغْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ عَنِ الْحَوْضِ وَذَكَرَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ الْأَغْرَابِيُّ: فِيهَا فَاكِهَةٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهَا شَجَرَةٌ تَدْعَى طُوبَى» - قَالَ: فَذَكَرَ شَيْئًا لَا أَدرِي مَا هُوَ - قَالَ: أَيُّ شَجَرٍ أَرْضِنَا نُسْبُهُ؟ قَالَ: «لَيْسَتْ نُسْبُهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرٍ أَرْضِكَ». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَيْتَ الشَّامَ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «نُسْبُهُ شَجَرَةٌ بِالشَّامِ تَدْعَى الْجُوزَةَ، تَنْبُثُ عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ، وَيَنْفَرُشُ أَغْلَاهَا». قَالَ: مَا عِظَمُ أَصْلِهَا؟ قَالَ: «لَوْ ارْتَحَلْتَ جَذْعَةً مِنْ إِبِلٍ أَهْلَكَ مَا أَحَاطَتْ بِأَصْلِهَا، حَتَّى تَنْكَسِرَ تَرْفُوتُهَا هَرَمًا» قَالَ: فِيهَا عِنَبٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَمَا عِظَمُ الْعُنُقُودِ؟ قَالَ: «مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْغُرَابِ الْأَبْعَ وَلَا يَقْتَرُ». قَالَ: فَمَا عِظَمُ الْحَبَّةِ؟ قَالَ: «هَلْ ذَبَحَ أَبُوكَ تَبَسًا مِنْ غَنَمِهِ قَطُّ عَظِيمًا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَسَلِّحْ إِهَابَهُ فَأَعْطَاهُ أَمَّكَ فَقَالَ: اتَّخِذِي لَنَا مِنْهُ دَلُوقًا؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ الْأَغْرَابِيُّ: فَإِنَّ بِلَکَ الْحَبَّةَ لَتُسْبِعُنِي وَأَهْلَ بَيْتِي؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَعَامَّةَ عَشِيرَتِكَ»<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أَي: لَا تَنْقَطِعُ شِتَاءً وَلَا صَيْفًا، بَلْ أَكُلَهَا دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا، مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ شَيْءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ تَنَاولِهَا عُودٌ وَلَا شَوْكٌ وَلَا بَعْدٌ<sup>(٩)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ: إِذَا تَنَاولَ الرَّجُلُ الثَّمَرَةَ عَادَتْ مَكَانَهَا

أُخْرَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفُتِحَ مَرْجُومٌ﴾ أَي: عَالِيَةٌ وَطِيبَةٌ نَاعِمَةٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً﴾<sup>(١٠)</sup> فَعَلَّتْهُمْ أَبْكَارًا<sup>(١١)</sup> عُرُبًا أَتْرَابًا<sup>(١٢)</sup> لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ جَرَى الضَّمِيرُ عَلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ. وَلَكِنْ لَمَّا دَلَّ السِّيَاقُ وَهُوَ ذِكْرُ الْفُرْشِ عَلَى النِّسَاءِ اللَّاتِي يُصَاحِبْنَ فِيهَا، اكْتَفَى بِذَلِكَ عَنْ ذِكْرِهِنَّ، وَعَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِنَّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِيَّادُ﴾<sup>(١٣)</sup> فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ<sup>(١٤)</sup> [ص: ٣١، ٣٢] يَعْنِي: الشَّمْسُ. عَلَى الْمَشْهُورِ مِنْ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ﴾ أَصْمَرَهُنَّ وَلَمْ يُذَكَّرَنَّ قَبْلَ ذَلِكَ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ذُكِرْنَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾<sup>(١٦)</sup> كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوكِ الْكَثُورِ<sup>(١٧)</sup> فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ﴾ أَي: أَعَدْنَاهُنَّ فِي النَّشْأَةِ الْأُخْرَى بَعْدَ مَا كُنَّ عَجَائِزَ رُفَصًا، صَرْنَ أَبْكَارًا عُرُبًا، أَي: بَعْدَ الثَّبُوتِ عُذُنْ أَبْكَارًا عُرُبًا مُتَحَبِّبَاتٍ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ بِالْحَلَاوَةِ وَالظَّرَافَةِ وَالْمَلَاخَةِ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةٌ كَذَا وَكَذَا فِي النِّسَاءِ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَيُعْطَى ذَلِكَ؟ قَالَ: «يُعْطَى قُوَّةٌ مِائَةٌ»<sup>(١٨)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(١٩)</sup>. وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ نَصِلُ إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءٍ»<sup>(٢٠)</sup>. قَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَقْدِسِيُّ: هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدِي عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عُرُبًا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: مُتَحَبِّبَاتٍ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الثَّاقَةِ الضَّبِيعَةِ؟ هِيَ كَذَلِكَ. وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْعُرْبُ: أَلْعَوَاشِقُ لِأَزْوَاجِهِنَّ، وَأَزْوَاجُهُنَّ لَهُنَّ عَاشِقُونَ<sup>(٢١)</sup>. وَكَذَا

(١) أحمد: ٤٨٢/٢ (٢) مسلم: ٢١٧٥/٤ (٣) فتح الباري: ٣٦٨/٦ (٤) عبد الرزاق: ٤١٧/١١ (٥) فتح الباري: ٣٤٩/٦ ومسلم: ١٤٦/١ (٦) فتح الباري: ٦٢٧/٢ ومسلم: ٦٢٦/٢ (٧) أحمد: ١٨٣/٤ (٨) الطبري: ١١٨/٢٣ (٩) الطبري: ١١٨/٢٣ (١٠) الطبري: ١١٨/٢٣ (١١) مسند الطيالسي: ٢٦٩ (١٢) تحفة الأحوذى: ٢٤١/٧ فيه تدليس قتادة ولم يصرح (١٣) الطبراني الصغير: ٦٨/٢ (١٤) الدر المنثور: ٨

وَجُوهَ الرِّجَالِ». قَالَ: «أَرْضَيْتَ؟». قُلْتُ: «قَدْ رَضِيتُ رَبَّ». قَالَ: «فَإِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». قَالَ: وَأَنْشَأَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ - قَالَ سَعِيدٌ: وَكَانَ بَدْرِيًّا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ قَالَ: فَقَالَ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». قَالَ: أَنْشَأَ رَجُلٌ آخَرُ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ فَقَالَ: «سَبَقَتْ بِهَا عَكَاشَةُ» قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ - فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي - أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّبْعِينَ فَافْعَلُوا، وَإِلَّا فَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الظَّرَابِ، وَإِلَّا فَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الْأَفْقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ نَاسًا كَثِيرًا قَدْ تَأَشَّبُوا حَوْلَهُ». ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالَ: فَكَبَّرْنَا، قَالَ ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٦﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٦٧﴾» قَالَ: فَقُلْنَا بَيْنَنَا: مَنْ هَؤُلَاءِ السَّبْعُونَ أَلْفًا؟ فَقُلْنَا: هُمْ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا. قَالَ: فَلَبَّغَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «بَلْ هُمْ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَطْفِرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ فِي الصَّحاحِ وَغَيْرِهَا<sup>(٢)</sup>.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَبَ الشِّمَالِ﴾ (١) فِي سُورَةِ وَحْمٍ ﴿٤٧﴾ وَظَلَمَ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٨﴾ لَا بَارِدَ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٥٠﴾ وَكَانُوا يَمُرُّونَ عَلَى الْجَنَّةِ الْعُلْيَا ﴿٥١﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَعْمُومُونَ ﴿٥٢﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا وَالْأَوَّلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٥٤﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أُنِيتُمْ أَضْأَلُوهَا الْمَكِيدُونَ ﴿٥٦﴾ لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٧﴾ فَالْتَوْنْ مِنْهَا الْبَاطُونَ ﴿٥٨﴾ فَتَنَبَّهُوا عَلَيْهِ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿٥٩﴾ فَتَنَبَّهُوا عَنْ شَرِّ الْهَيْمِ ﴿٦٠﴾ هَذَا زُرَّعُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٦١﴾

[أَصْحَابُ الشِّمَالِ وَأَحْوَالُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ عَطَفَ عَلَيْهِمْ بِذِكْرِ أَصْحَابِ الشِّمَالِ فَقَالَ: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَبَ الشِّمَالِ﴾

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَرْجَسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَيَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ وَعَطِيَّةٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْزَابًا﴾ قَالَ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني فِي سِنٍّ وَاحِدَةٍ، ثَلَاثٌ وَثَلَاثِينَ سَنَةً<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَنْزَابُ: الْمُسْتَوِيَّاتُ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: الْأَمْثَالُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ عَطِيَّةٌ: الْأَقْرَانُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أَيُّ: خُلِقُوا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، أَوْ أُدْخِلُوا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، أَوْ زُوِّجُوا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَالْأَطْهَرُ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا أَنْشَأْنَاهُمْ إِنشَاءً﴾ ﴿٥٥﴾ فَهَلَكْتَهُمْ أَتَكَالًا ﴿٥٦﴾ عُرُبًا أَنْزَابًا ﴿٥٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٥٨﴾ فَتَقْدِيرُهُ أَنْشَأْنَاهُمْ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَهَذَا تَوْجِيهُ ابْنِ جَرِيرٍ<sup>(٤)</sup>.

قُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ مُتَعَلِّقًا بِمَا قَبْلَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَنْزَابًا﴾ ﴿٥٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أَيُّ: فِي أَشْنَانِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى صُورِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتَغَلَّوْنَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمُسْكُ، وَمَجَامِيرُهُمُ الْأَلْوَدُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، أَخْلَافُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٦﴾ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٦٧﴾» أَيُّ: جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَأْخُذُ عَنْ بَعْضٍ قَالَ: أَكْرَمْنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ عَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَالَ: «عَرَضْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهَا بِأَمِّيَّتِهَا، فَيَمُرُّ عَلَى النَّبِيِّ، وَالنَّبِيِّ فِي الْعِصَابَةِ، وَالنَّبِيِّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَالنَّبِيِّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ». وَتَلَا قَتَادَةُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿الَّذِينَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] قَالَ: «حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي كَبْكَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» قَالَ: «قُلْتُ: رَبِّي، مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» قَالَ: «قُلْتُ: رَبِّ فَأَيْنَ أُمِّي؟ قَالَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ فِي الظَّرَابِ» قَالَ: «فَإِذَا وَجُوهَ الرِّجَالِ». قَالَ: «قَالَ: أَرْضَيْتَ؟». قَالَ: «قُلْتُ: قَدْ رَضِيتُ رَبَّ». قَالَ: «انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ عَنْ يَسَارِكَ، فَإِذَا

(١) الطبري: ٢٣/١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣ (٢) الدر المنثور: ١٦/٨ (٣) الطبري: ٢٤/٢٣ (٤) الطبري: ١٢٥/٢٣ (٥) فتح الباري: ٤١٧/٦ ومسلم: ٢١٧٩/٤ (٦) الحاكم: ٤٧٧/٤ (٧) فتح الباري: ١٠/١٦٤ و ٢٢٤ و ٣١٢/١١ و ٤١٣ ومسلم: ١٩٨/١٩٩ وتحفة الأحوذ: ١٣٩/٧ وأحمد: ٤٠١/١

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٥٣٦

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الصَّالُّونَ الْمُكَذَّبُونَ ﴿٥٦﴾ لَا كُيُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ ﴿٥٥﴾  
فَمَاتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٦﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٦﴾ فَشَرِبُوا  
شَرْبَ الْحَمِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا تَرْكُومُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا  
تَصَدَّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ  
الْمَخْلُقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾  
عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَ لَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ  
عَلَّمْنَا النَّشَأَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾  
أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ  
حُطًا فَظَلَمْتُمْ تَفْكَهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾  
أَفَرَأَيْتُمْ يَتْرُكُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ  
أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُنْجَابًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾  
أَفَرَأَيْتُمْ التَّارَاتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ  
نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾  
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ  
بِمَوْقِعِ الْجُورِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

وَهَائِمَةٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ  
وَعِكْرِمَةُ: الْهَيْمُ: الْإِبِلُ الْعَطَاشُ الظَّمَاءُ ﴿٧٦﴾. وَقَالَ  
السُّدِّيُّ: الْهَيْمُ دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فَلَا تُرَوَّى أَبَدًا حَتَّى تَمُوتَ،  
فَكَذَلِكَ أَهْلُ جَهَنَّمَ لَا يَزُودُونَ مِنَ الْحَمِيمِ أَبَدًا. ثُمَّ قَالَ  
تَعَالَى: ﴿هَذَا تَرْكُومُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أَيُّ: هَذَا الَّذِي وَصَفْنَا هُوَ  
ضِيَاقَتُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ حِسَابِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ  
الْمُؤْمِنِينَ: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ  
الْأَفْرُوسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] أَيُّ: ضِيَاقَةٌ وَكَرَامَةٌ.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ  
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ  
بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَ لَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾  
وَلَقَدْ عَلَّمْنَا النَّشَأَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ هُمْ فِيهِ أَصْحَابُ السَّمَاءِ؟ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ  
فَقَالَ: ﴿فِي سُبُورٍ﴾ وَهُوَ الْهَوَاءُ الْحَارُّ ﴿وَجِيمٍ﴾ وَهُوَ الْمَاءُ  
الْحَارُّ ﴿وَطَلٍ مِنْ يَحْيُومٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ظِلُّ الدُّخَانِ <sup>(١)</sup>.  
وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ  
وَعَبْرُهُمْ <sup>(٢)</sup>. وَهَذِهِ تَفْوِيلُهُ تَعَالَى: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ  
تَكَذِّبُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٦٩﴾ لَا ظِلِيلٌ وَلَا يُغْنِي  
مِنَ الْهَلَبِ ﴿٦٩﴾ إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ﴿٦٩﴾ كَأَنَّهُ جَنَّتٌ  
صُفْرٌ ﴿٦٩﴾ وَيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿[المرسلات: ٢٩-٣٤]﴾ وَلِهَذَا  
قَالَ لَهُنَا: ﴿وَطَلٍ مِنْ يَحْيُومٍ﴾ وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ ﴿لَا بَارِدٌ  
وَلَا كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: لَيْسَ طَيِّبُ الْهُبوبِ، وَلَا حَسَنُ الْمُنْظَرِ،  
كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: وَلَا كَرِيمُ  
الْمُنْظَرِ <sup>(٣)</sup>. قَالَ الضَّحَّاكُ: كُلُّ شَرَابٍ لَيْسَ بِعَذِيبٍ فَلَيْسَ  
بِكَرِيمٍ <sup>(٤)</sup>.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى اسْتِحْقَاقَهُمْ لِذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ  
كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أَيُّ: كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُتَعَمِّينَ  
مُقْبِلِينَ عَلَى لَذَاتِ أَنْفُسِهِمْ، لَا يَلُودُونَ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ  
﴿وَكَانُوا يَمُرُّونَ﴾ أَيُّ: يَقِيمُونَ وَلَا يَتَوَّعُونَ تَوْبَةَ ﴿عَلَى الْحَبْثِ  
الْعَظِيمِ﴾ وَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ، وَجَعَلَ الْأَوْتَانِ وَالْأَنْدَادِ أَرْبَابًا  
مِنْ دُونِ اللَّهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْحَبْثُ الْعَظِيمُ: الشُّرْكُ.  
وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ  
وَعَبْرُهُمْ <sup>(٥)</sup>. ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَلَا  
نَلْعَبُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؟ يَعْنِي: أَأَنْهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ  
مُكَذِّبِينَ بِهِ، مُسْتَبْعِدِينَ لِقُودُوعِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلْإِنَّ  
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٨﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِقْدَرٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ أَيُّ:  
أَخْبَرَهُمْ يَا مُحَمَّدُ! أَنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ  
سَيُجْمَعُونَ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ  
وَمَا تُؤَخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ﴾ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا  
بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقٌّ وَسَعِيدٌ [هود: ١٠٤، ١٠٥] وَلِهَذَا قَالَ  
هَهُنَا: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِقْدَرٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ أَيُّ: هُوَ مَوْقِفٌ يَوْفَى  
مُحَدَّدٌ، لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الصَّالُّونَ الْمُكَذَّبُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ لَا كُيُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ  
رَقُومٍ ﴿٥٥﴾ فَمَاتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٦﴾ وَذَلِكَ أَنَّكُمْ تَقْبُضُونَ وَيَسْجَرُونَ  
حَتَّى يَأْكُلُوا مِنْ شَجَرِ الرُّقُومِ حَتَّى يَمْلَأُوا مِنْهَا بُطُونَهُمْ  
﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ ﴿٥٦﴾ فَشَرِبُوا شَرْبَ الْحَمِيمِ وَهِيَ الْإِبِلُ  
الْعَطَاشُ، وَاجِدَهَا أَهْيَمُ وَالْأَتْنَى هَيْمَاءُ، وَيُقَالُ: هَائِمٌ

(١) الطبري: ١٢٩/٢٣ (٢) الطبري: ١٢٩/٢٣، ١٣٠ (٣)

الطبري: ١٣١/٢٣ (٤) الطبري: ١٣١/٢٣ (٥) الطبري:

١٣٢/٢٣ (٦) الطبري: ١٣٦/٢٣

## [بُتُ الْفِيَامَةِ وَدَلِيلُ الْمَعَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُفَرِّرًا لِلْمَعَادِ، وَرَادًّا عَلَى الْمُكَذِّبِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ، مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وَقَوْلُهُمْ ذَلِكَ صَدْرَ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِعْجَالِ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ أَيُّ: نَحْنُ ابْتَدَأْنَا خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، أَفَلَيْسَ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى الْبُدْءَةِ، بِقَادِرٍ عَلَى الْإِعَادَةِ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْأُخْرَى؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَوْلَا نُصِفُونَ﴾ أَيُّ: فَهَلَا تُصَدَّقُونَ بِالْبَعْثِ! ثُمَّ قَالَ: مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ؟ أَيُّ: أَنْتُمْ تَقْرُونَهُ فِي الْأَرْحَامِ وَتَخْلُقُونَهُ فِيهَا، أَمْ اللَّهُ الْخَالِقُ لِذَلِكَ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَهُ الْمَوْتَ﴾ أَيُّ: صَرَفْنَاهُ بَيْنَكُمْ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: سَاوَى فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (١) وَمَا نَحْنُ بِمُسَبِّحِينَ﴾ أَيُّ: وَمَا نَحْنُ بِعَاجِزِينَ ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ أَيُّ نَعْيَرُ خَلْقَكُمْ يَوْمَ الْفِيَامَةِ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ مِنْ الصَّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيُّ: قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، فَخَلَقَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، فَهَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَتَعْرِفُونَ أَنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى هَذِهِ النَّشْأَةِ - وَهِيَ الْبُدْءَةُ - قَادِرٌ عَلَى النَّشْأَةِ الْأُخْرَى - وَهِيَ الْإِعَادَةُ - بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْأُخْرَى؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَالِيهِ﴾ [الروم: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧] ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٥٩) وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٦٠) فَلْيُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٧-٧٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرْكَ سُنًى﴾ (٦١) أَلَمْ يَكْ نُفْلَعُ مِنْ مَتْنٍ يَمِينٍ (٦٢) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُلْقًى فَسَوًى (٦٣) جَعَلَ مِنْهُ الْزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٦٤) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيْهِ أَنْ يُحْيِيَ الْقَوْتَ [الفيامة: ٣٦-٤٠].

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ (٦٥) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٦) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٧) إِنَّا لَمَعْرُومُونَ (٦٨) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٩) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٧٠) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٧١) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٢) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧٣) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ

الْمُنْشِئُونَ (٧٤) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتْنًا لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٦)

[التَّائِبِيَّةُ عَلَى تَفَرُّدِ اللَّهِ بِالزَّرْعِ وَإِنْزَالِ الْمَاءِ، وَخَلْقِ النَّارِ، وَهِيَ مِنْ أَقْرَبِ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ وَهُوَ شَقُّ الْأَرْضِ وَإِنْزَالُهَا وَالْبَذْرُ فِيهَا ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أَيُّ: تُنْبِتُونَهُ فِي الْأَرْضِ ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أَيُّ: بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ نَقْرُهُ قَرَارَهُ وَنُنْبِتُهُ فِي الْأَرْضِ. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُولُوا: زَرَعْتُ وَلَكِنْ قُلْ: حَرَثْتُ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ (٦٥) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أَيُّ: نَحْنُ أَنْبِئَانَهُ بِطُفْنَانٍ وَرَحْمَتِنَا، وَأَبْقَيْنَاهُ لَكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ، بَلْ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا أَيُّ: لَا يَبْسُتَانَهُ قَبْلَ اسْتِوَائِهِ وَاسْتِحْصَادِهِ ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَمَعْرُومُونَ﴾ (٦٧) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَيُّ: لَوْ جَعَلْنَاهُ حُطَامًا لَطَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ فِي الْمَقَالَةِ، تَتَوَعَّونَ كَلَامَكُمْ فَتَقُولُونَ تَارَةً: ﴿إِنَّا لَمَعْرُومُونَ﴾ أَيُّ: لَمْلُقُونَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: إِنَّا لَمَوْلَعٌ بِنَا (٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: مُعَذِّبُونَ. وَتَارَةً تَقُولُونَ: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٤). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تَلَاوُمُونَ (٥). وَقَالَ الْحَسَنُ وَتَقَادَةُ وَالسَّيِّدِي: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾: تَنْدَمُونَ (٦). وَعَنَاهُ إِذَا عَلَى مَا أَنْفَقْتُمْ أَوْ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، قَالَ الْكِسَائِيُّ: تَفَكَّهُ مِنْ الْأَضْدَادِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: تَفَكَّهُتُ بِمَعْنَى: تَنَعَّمْتُ، وَتَفَكَّهُتُ بِمَعْنَى: حَزَنْتُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٧٠) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ؟ يَعْنِي: السَّحَابِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٧١). ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ يَقُولُ: بَلْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْحًا﴾ أَيُّ: زُعَاقًا مَرًّا، لَا يَصْلُحُ لِشَرْبٍ وَلَا زَرْعٍ ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ: فَهَلَا تَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي إِزْزَالِهِ الْمَطَرِ عَلَيْكُمْ عَذَابًا زُلْزَالًا! ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرْابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (٧٢) يُنَبِّئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

(١) القرطبي: ٢١٦/١٧ (٢) الطبري: ١٣٩/٢٣ (٣) الطبري:

١٤١/٢٣ (٤) الطبري: ١٤١/٢٣ (٥) الطبري: ١٤٠/٢٣

(٦) الطبري: ١٤٠/٢٣ (٧) الطبري: ١٤٣/٢٣

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ ٥٣٧  
إِنَّهُ لَقَرَّءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفِيْهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٦﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٧﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٨﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٨٩﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الصَّالِينَ ﴿٩١﴾ فَتَرْزُلُ مِنْ حِيمٍ ﴿٩٢﴾ وَنَصْلَةٌ مِنْ حِيمٍ ﴿٩٣﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا حُوقٌ الْيَقِينِ ﴿٩٤﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٥﴾

### سُورَةُ الْحَجِّ ٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

إِلَى ذَلِكَ فِي مَثَلِهِ أُخْرِجَ زَنْدَهُ وَأَوْرَى، وَأَوْقَدَ نَارَهُ فَاطْبَحَ بِهَا وَاضْطَلَى بِهَا وَاشْتَوَى، وَاسْتَأْنَسَ بِهَا، وَانْتَفَعَ بِهَا سَائِرَ الْإِنْتِفَاعَاتِ، فَلِهَذَا أَفْرَدَ الْمُسَافِرِينَ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَامًّا فِي حَقِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أَي: الَّذِي يَقْدِرُتْهُ خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ الْمُتَضَادَّةَ: الْمَاءَ الرُّؤَالَ الْعَذْبَ الْبَارِدَ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مِلْحًا أَجَاجًا كَالْبَحَارِ الْمُعْرِقَةِ. وَخَلَقَ النَّارَ الْمُحْرِقَةَ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مَضْلَحَةً لِلْعِبَادِ، وَجَعَلَ هَذِهِ مَنَفَعَةً لَهُمْ فِي مَعَاشِ دُنْيَاهُمْ، وَزَجْرًا لَهُمْ فِي الْمَعَادِ.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ وَإِنَّهُ لَفَسَدَ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقَرَّءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١]. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أَي: تَقْدَحُونَ مِنَ الزَّوَادِ، وَتُسْتَخْرِجُونَهَا مِنْ أَصْلِهَا ﴿أَأَنْتُمْ أَشْنَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُسْتَشُونَ﴾ أَي: بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ جَعَلْنَاهَا مَوْدَعَةً فِي مَوْضِعِهَا. وَلِلْعَرَبِ شَجَرَتَانِ إِحْدَاهُمَا الْمَرْخُ، وَالْأُخْرَى الْعُقَارُ، إِذَا أَخَذَ مِنْهُمَا غَضَّانِ أَخْضَرَانِ فَحَكَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، تَنَاطَرَ مِنْ بَيْنَهُمَا شَرُّ النَّارِ.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَي تَذَكُّرُ النَّارِ الْكُبْرَى<sup>(١)</sup>. قَالَ قَتَادَةُ: ذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا قَوْمُ! نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي تُوقِدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ. قَالَ: «إِنَّهَا قَدْ ضَرَبْتَ [بِالْمَاءِ] ضَرْبَتَيْنِ - أَوْ مَرَّتَيْنِ - حَتَّى يَسْتَفْتَعَ بِهَا بَنُو آدَمَ وَيَذْنُوْنَ مِنْهَا»<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا الَّذِي أَرْسَلَهُ قَتَادَةُ قَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَضَرَبْتَ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنَفَعَةً لِأَحَدٍ»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي يُوقِدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ. فَقَالَ: «إِنَّهَا قَدْ فَضَّلَتْ عَلَيْهَا يَتَسَعَةُ وَسِتِّينَ جُزْءًا»<sup>(٤)</sup>. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزِّنَادِ<sup>(٥)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالنَّضْرُ بْنُ عَرَبٍ: يَعْنِي بِالْمُتَّقِينَ: الْمُسَافِرِينَ<sup>(٦)</sup>. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَقَالَ: وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَقْوَبَ الدَّارُ، إِذَا رَحَلَ أَهْلُهَا<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: الْمُتَّقِيُّ هَهُنَا: الْجَانِعُ. وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سَلِيمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَمَتَّعْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾: لِلْحَاضِرِ وَالْمُسَافِرِ، لِكُلِّ طَعَامٍ لَا يُضْلِحُهُ إِلَّا النَّارُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: قَوْلُهُ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ يَعْنِي: الْمُسْتَمْتَعِينَ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا ذَكَرَ عَنْ عِكْرَمَةَ. وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَعَمُّ مِنْ غَيْرِهِ، فَإِنَّ الْحَاضِرَ وَالْبَادِيَّ مِنْ غَنِيِّ وَفَقِيرٍ، الْجَمِيعَ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهَا لِلطَّبْخِ وَالِإِضْطِلَاءِ وَالِإِضْآءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ، ثُمَّ مِنْ لَطْفِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ أَوْدَعَهَا فِي الْأَحْجَارِ وَخَالِصِ الْحَدِيدِ، بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الْمُسَافِرُ مِنْ حَمْلِ ذَلِكَ فِي مَتَاعِهِ وَبَيْنَ يَتِيَابِهِ، فَإِذَا احتَاجَ

(١) الطبري: ١٤٤/٢٣ (٢) الطبري: ١٤٤/٢٣ (٣) أحمد: ٢٤٤/٢ (٤) الموطأ: ٩٩٤/٢ (٥) فتح الباري: ٣٨٠/٦ ومسلم: ٢١٨٤/٤ (٦) الطبري: ١٤٥/٢٣ (٧) الطبري: ١٤٦/٢٣ (٨) الطبري: ١٤٥/٢٣

إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٨٦﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٩﴾  
[قَسَمَ اللَّهُ عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ]

لَيْسَتْ «لَا» زَائِدَةٌ لَا مَعْنَى لَهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، بَلْ يُؤْتَى بِهَا فِي أَوَّلِ الْقَسَمِ إِذَا كَانَ مُقْسَمًا بِهِ عَلَى مَعْنَى، كَقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَا، وَاللَّهِ! مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا هَهُنَا تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: لَا، أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كَهَانَةٌ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ كَرِيمٌ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أَفْسِسُ﴾ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْقَسَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقِيلَ: أَفْسِسُ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا أَفْسِسُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: مَوَاقِعِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ وَيُقَالُ: مَطَالَعُهَا وَمَشَارِقُهَا<sup>(٣)</sup>.

وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ قَتَادَةَ: مَوَاقِعُهَا: مَنَازِلُهَا<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَئِنَّ لَقَسَمًا لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمًا﴾ أَيُّ: وَإِنَّ هَذَا الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمْتُ بِهِ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ، لَوْ تَعْلَمُونَ عَظَمَتَهُ لَعَظَمْتُمْ الْمُقْسَمَ بِهِ عَلَيْهِ ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ أَيُّ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ لِكِتَابٍ عَظِيمٍ ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾ أَيُّ: مُعْظَمٌ، فِي كِتَابٍ مُعْظَمٍ مَحْفُوظٍ مُوقَرٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قَالَ: الْكِتَابُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ يَعْنِي: الْمَلَائِكَةَ<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَنَسٌ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو الشَّعْنَاءِ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَبُو نَهْيَكٍ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: عَنْ قَتَادَةَ: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قَالَ: لَا يَمْسُهُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَمْسُهُ الْمَجْسُوسُ النَّجِسُ، وَالْمُنَافِقُ الرَّجْسُ. وَقَالَ: وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (مَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ لَيْسَ أَنْتُمْ، أَنْتُمْ أَصْحَابُ الدُّنُوبِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: زَعَمْتُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾<sup>(١١)</sup> وَمَا يَبْغِي هُمْ وَمَا

يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿١٣﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ قَوْلٌ جَيِّدٌ، وَهُوَ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْأَقْوَالِ الَّتِي قَبْلَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ هَذَا الْقُرْآنُ مُنَزَّلٌ مِّنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ سِحْرٌ أَوْ كَهَانَةٌ أَوْ شِعْرٌ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ نَافِعٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ مُكْذِبُونَ غَيْرُ مُصْذِقِينَ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَأَبُو حَزْرَةَ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُدْهِنُونَ﴾ أَيُّ: تُرِيدُونَ أَنْ تُثَالِثُوهُمْ فِيهِ وَتَرْكَنُوا إِلَيْهِمْ<sup>(٤)</sup>. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ بِمَعْنَى شُكْرِكُمْ: أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ. أَيُّ: تُكْذِبُونَ بَدَلَ الشُّكْرِ. وَقَدْ رَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمَا قَرَأَاهَا: (وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ)<sup>(٥)</sup> كَمَا سَيَأْتِي.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا مُطِرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا أَصْبَحَ بَعْضُهُمْ كَافِرًا، يَقُولُونَ: مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ)<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِيَّةِ فِي إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ فِي اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ»<sup>(٧)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِي، كُلُّهُم مِّنْ حَدِيثِ مَالِكٍ بِهِ<sup>(٨)</sup>.

(١) فتح الباري: ٥٠٤/٨ (٢) الطبري: ١٤٧/٢٣ (٣) الطبري: ١٤٨/٢٣ (٤) الطبري: ١٤٨/٢٣ (٥) الطبري: ١٤٨/٢٣ (٦) الطبري: ١٤٩/٢٣ (٧) الطبري: ١٥٠/٢٣ فيه ضعف العوفي (٨) الطبري: ١٥٠/٢٣، ١٥١ والقرطبي: ١٧/٢٣٥ (٩) الطبري: ١٥٢/٢٣ (١٠) الطبري: ١٥١/٢٣ (١١) الطبري: ١٤٩/٢٣ عن الضحاك. (١٢) الطبري: ١٥٣/٢٣ (١٣) الطبري: ١٥٣/٢٣ (١٤) الطبري: ١٥٣/٢٣ (١٥) الطبري: ١٥٤/٢٣، ١٥٥ (١٦) الطبري: ١٥٤/٢٣ (١٧) الموطأ: ١٩٢/١ (١٨) فتح الباري: ٣٨٨/٢ ومسلم: ٨٣/١ وأبو داود: ٢٢٧/٤ والنسائي: ١٦٥/٣

أَحْضَارِهِمْ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفَرِّينَ، أَوْ يَكُونَ مِنْهُمْ دُونَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ، الضَّالِّينَ عَنِ الْهَدَى، الْجَاهِلِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ أَي: الْمُخْتَصَرُ ﴿مِنَ الْمُفَرِّينَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ فَعَلُوا الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضَ الْمُبَاحَاتِ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَحَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ أَي: فَلَهُمْ رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ، وَتَبَشَّرَهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ: أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ تَقُولُ: أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتَ تَعْمُرِيهِ، اخْرُجِي إِلَى رَوْحِ وَرَيْحَانِ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانٍ<sup>(١)</sup>.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَرَوْحٌ﴾ يَقُولُ: رَاحَةٌ ﴿وَرَيْحَانٌ﴾، يَقُولُ: مُسْتَرَاخَةٌ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ الرُّوحَ: الْإِسْتِرَاحَةُ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو حَزْرَةَ: الرَّاحَةُ مِنَ الدُّنْيَا، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ: الرُّوحُ: الْفَرَحُ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ جَنَّةٌ وَرَخَاءٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَرَوْحٌ﴾: فَرَحْمَةٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَرَيْحَانٌ﴾: وَرِزْقٌ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَّفَاقَةٌ صَحِيحَةٌ، فَإِنَّ مَنْ مَاتَ مُقَرَّبًا حَصَلَ لَهُ جَمِيعُ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّاحَةِ وَالْإِسْتِرَاحَةِ، وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ ﴿وَحَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: لَا يُفَارِقُ أَحَدٌ مِنَ الْمُفَرِّينَ حَتَّى يُؤْتَى بِغَضَنِ مِنْ رَيْحَانِ الْجَنَّةِ، فَيَقْبِضُ رُوحَهُ فِيهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَا يَمُوتُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هُوَ أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خَضِرٍ، تَسْرَحُ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ» الْحَدِيثُ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ: كَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ عَرَفْتُ فِيهِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى: رَأَيْتُ شَيْخًا أَيْضَ الرُّأْسِ وَاللِّحْيَةِ عَلَى حِمَارٍ، وَهُوَ يَتَّبِعُ جَنَازَةً فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَدَّثَنِي فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». قَالَ: فَأَكْبَ الْقَوْمُ يَنْتَوُونَ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكُمْ؟». فَقَالُوا: إِنَّا نَكْرَهُ الْمَوْتَ. قَالَ:

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا الْحَسَنُ فَكَانَ يَقُولُ: بِشَسِّ مَا أَحَدَ قَوْمٍ لِأَنْفُسِهِمْ، لَمْ يَرْزُقُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا التَّكْذِيبَ، فَمَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ هَذَا: وَتَجْعَلُونَ حَظَّكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ قَبْلَهُ: ﴿أَفَبِهَذَا لَأُخَذِثَ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ وَأَنْتُمْ جَنِيذٌ نُنْظَرُونَ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ﴾ ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿﴾

[عَدَمُ اسْتِطَاعَةِ رَدِّ الرُّوحِ حِينَ تَبْلُغُ الْحُلُقُومَ، دَلِيلٌ عَلَى الْمُحَاسَبَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾ أَي: الرُّوحُ ﴿الْحُلُقُومَ﴾ أَي: الْحَلْقَ، وَذَلِكَ حِينَ الْإِحْضَارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ أَتْرَافِي﴾ وَقِيلَ مَنْ لَاقِي ﴿وَلَقَدْ أَنَّهُ الْقَرَأْتُ﴾ وَالنَّفْسُ النَّاسُ بِالسَّاقِ ﴿إِنْ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَافُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَأَنْتُمْ جَنِيذٌ نُنْظَرُونَ﴾ أَي: إِلَى الْمُخْتَصَرِ وَمَا يُكَابِدُهُ مِنَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أَي: بِمَلَائِكَتِنَا ﴿وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ﴾ أَي: وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَهُوَ أَفْهَرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسَرُّ الْحَكِيمِينَ [الأنعام: ٦١، ٦٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ تَرْجِعُونَهَا مِنْغَاهُ فَهَلَّا تَرْجِعُونَ هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي قَدْ بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ، إِلَى مَكَانِهَا الْأَوَّلِ، وَمَقَرَّهَا مِنَ الْجَسَدِ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾: غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَنْتُمْ تُدَانُونَ وَتُبْعَتُونَ وَتُجْزَوْنَ، فَرُدُّوا هَذِهِ النَّفْسَ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غَيْرَ مُوقِنِينَ.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفَرِّينَ﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَحَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ فَمُرٌّ مِنْ حَمِيرٍ ﴿وَصَلِيَّةٌ جَمِيمٌ﴾ إِنَّ هَذَا لَكُوْهُ حَقٌّ لَيَقِينَ ﴿فَسَجَّ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

[أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ الْإِحْضَارِ، وَمَصِيرُ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ]

هَذِهِ الْأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَحْوَالُ النَّاسِ عِنْدَ

(١) الطوال: ص ٢٣٨ (٢) الطبري: ١٥٩/٢٣ (٣) الطبري:

١٦٠/٢٣ (٤) الطبري: ١٦٠/٢٣ (٥) مسلم: ١٥٠٢/٣



غَرِيبٌ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي آخِرِ كِتَابِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: شُبْحَانُ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، شُبْحَانُ اللَّهِ الْعَظِيمِ»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ<sup>(٧)</sup>. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَدِيدِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ الْحَدِيدِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ الْمُسَبِّحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ وَقَالَ: «إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ»<sup>(٨)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ عَنْ بَقِيَّةٍ بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٩)</sup>. وَالْآيَةُ الْمُسَارُ إِلَيْهَا فِي الْحَدِيثِ هِيَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - قَوْلُهُ تَعَالَى: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» كَمَا سَبَّأَتِي بَيَانُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ..

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»<sup>(١)</sup> لَمْ يُلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِحَيْثُ وَبُيُتٌ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(٢)</sup> هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ<sup>(٣)</sup>  
[يُسَبِّحُ جَمِيعُ الْكَوْنِ لِلَّهِ وَذَكَرَ بَعْضُ صِفَاتِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، أَيُّ: مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنبَاتَاتِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا عَفْوًا» [الْإِسْرَاءُ: ٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَهُوَ الْعَزِيزُ» أَيُّ:

(١) أحمد: ٢٥٩/٤ (٢) فتح الباري: ٣٦٤/١١ ومسلم: ٤/٢٠٦٥ (٣) البخاري: تفسير سورة الواقعة. (٤) الطبري: ٢٣/١٦٢ (٥) تحفة الأحوذى: ٤٣٤/٩ والنسائي في الكبرى: ٦/٢٠٧ (٦) فتح الباري: ٥٤٧/١٣ (٧) مسلم: ٤/٢٠٧٢ وتحفة الأحوذى: ٤٣٤/٩ والنسائي في الكبرى: ٦/٢٠٧ وابن ماجه: ١٢٥١/٢ (٨) أحمد: ١٢٨/٤ (٩) أبو داود: ٣٠٤/٥ وتحفة الأحوذى: ٢٣٨/٨ ٢٥١/٩

«لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ إِذَا اخْتَضَرَ» فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرَيْنِ<sup>(٨٨)</sup> فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَجِيمٌ فَإِذَا بُشِّرَ بِذَلِكَ أَحَبُّ لِقَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْقَائِهِ أَحَبُّ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ<sup>(٩١)</sup> فَزُلْ مِنْ حِمِيمٍ<sup>(٩٢)</sup> وَنَصْلِيَّةٌ جَحِيمٌ فَإِذَا بُشِّرَ بِذَلِكَ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لِلْقَائِهِ أَكْرَهُ<sup>(٩٣)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَفِي الصَّحِيحِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شَاهِدٌ لِمَعْنَاهُ<sup>(٩٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» أَيُّ: وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمُخْتَضِرُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ أَيُّ تَبَشَّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ تَقُولُ لِأَحَدِهِمْ: سَلَامٌ لَكَ، أَيُّ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، أَنْتَ إِلَى سَلَامَةٍ، أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، كَمَا قَالَ عِكْرَمَةُ: تَسَلَّمَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٌ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»<sup>(٩٥)</sup> نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ<sup>(٩٦)</sup> تَزَلًا مِنْ عَفْوٍ رَحِيمٍ [فصلت: ٣٠-٣٢] وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: «فَسَلَّمَ لَكَ» أَيُّ: مُسَلِّمٌ لَكَ أَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَالْأَعْيَتْ (إِنْ) وَبَقِيَ مَعْنَاهَا كَمَا تَقُولُ: أَنْتَ مُصَدِّقٌ مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ، إِذَا كَانَ قَدْ قَالَ: إِنِّي مُسَافِرٌ عَنْ قَلِيلٍ، وَقَدْ يَكُونُ كَالدَّعَاءِ لَهُ كَقَوْلِكَ: سُبِّحًا لَكَ مِنَ الرَّجَالِ، إِنْ رَفَعْتَ السَّلَامَ، فَهُوَ مِنَ الدَّعَاءِ<sup>(٩٧)</sup>. وَقَدْ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ هَكَذَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَالَ إِلَيْهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ<sup>(٩٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ» فَزُلْ مِنْ حِمِيمٍ<sup>(٩٢)</sup> وَنَصْلِيَّةٌ جَحِيمٌ أَيُّ: وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُخْتَضِرُ مِنَ الْمَكْذِبِينَ بِالْحَقِّ الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَى فَزُلْ أَيُّ: فَضِيافَةٌ مِنْ حِمِيمٍ وَهُوَ الْمَذَابُ الَّذِي يَضْهَرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَنَصْلِيَّةٌ جَحِيمٌ أَيُّ: وَتَقْرِيرٌ لَهُ فِي النَّارِ الَّتِي تَعْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ» أَيُّ: إِنَّ هَذَا الْخَبَرُ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ، الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، وَلَا مَحِيدَ لِأَحَدٍ عَنْهُ «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ: شُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ». هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣٨

سُورَةُ الْحَدِيدِ

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَلِّغَ لِيخْرِجَ حُكْمَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْئَوِي مِنْكُمْ مَن أُنْفِقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ ۖ وَاللَّهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، أَقْضِ عَنَّا الدِّينَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ. وَكَانَ يَرَوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ<sup>(١)</sup>.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ [سَمُورٌ عِلْمُ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ خَلْقِهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ بِاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، بِمَا أُغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

الَّذِي قَدْ خَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيَىٰ وَيُمِيتُ﴾ أَيُّ: هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ، فَيَحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ: مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمُسَارُ إِلَيْهَا فِي حَدِيثِ عَزْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي زَمِيلٍ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ أَجَدُّهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَاللَّهِ! لَا أَتَكَلَّمُ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ لِي: أَشَيْءٌ مِنْ شَأْنِكَ؟ قَالَ: وَضَحِكُ، قَالَ: مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ. قَالَ: حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾... [يونس: ٩٤] الْآيَةُ. قَالَ: وَقَالَ لِي: إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>. وَقَدْ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَقْوَالُهُمْ عَلَى نَحْوِ مِنْ بَضْعَةِ عَشَرَ قَوْلًا.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ يَحْيَى: الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَالْبَاطِنُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ شَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمِزِّي: يَحْيَى هَذَا هُوَ ابْنُ زَيْدٍ الْفَرَاءِ، لَهُ كِتَابُ سَمَاءِ «مَعَانِي الْقُرْآنِ» وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ النَّوْمِ: «اللَّهُمَّ! رَبِّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، مُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ. أَقْضِ عَنَّا الدِّينَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَهْلِ قَالَ: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ! أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ

(١) أبو داود: ٣٣٥/٥ (٢) فتح الباري: ٣٧٤/١٣ (٣)

أحمد: ٤٠٤/٢ (٤) مسلم: ٢٠٨٤/٤

عَمَلٌ أَحَدِهِمْ حَسَنَةً وَاحِدَةً يُضَاعَفُهَا إِلَى عَشْرَةِ أَمْثَالِهَا ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الانبيا: ٤٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أَيْ: هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْخَلْقِ، يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَيُقَدِّرُهُمَا بِحِكْمَتِهِ كَمَا يَشَاءُ، فَتَارَةً يَطْوِلُ اللَّيْلَ وَيَقْصُرُ النَّهَارَ، وَتَارَةً بِالْعَكْسِ، وَتَارَةً يَبْتَزُّكُمَا مُعْتَدِلِينَ، وَتَارَةً يَكُونُ الْفَضْلُ شِتَاءً، ثُمَّ رَبِيعًا ثُمَّ قَظًا ثُمَّ خَرِيفًا، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِمَا يُرِيدُهُ بِخَلْقِهِ ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ: يَعْلَمُ السَّرَائِرَ، وَإِنْ دَقَّتْ، وَإِنْ خَفِيَتْ.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِلْيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْرِئُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَمِيزُ الْتَقْوَى وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْلَا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ وَالْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ]

أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَى الْوُجْهِ الْأَكْمَلِ، وَالذَّوَامِ وَالثَّبَاتِ عَلَى ذَلِكَ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَحَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ أَيْ: مِمَّا هُوَ مَعَكُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعَارِيَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي أَيْدِي مَنْ قَبْلَكُمْ ثُمَّ صَارَ إِلَيْكُمْ، فَأَرَشَدَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى اسْتِعْمَالِ مَا اسْتَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ فِي طَاعَتِهِ، فَإِنْ يَفْعَلُوا وَإِلَّا حَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ وَعَاقِبَتُهُمْ لِتَرْكِهْمُ الْوَاجِبَاتِ فِيهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ مُخْلِفًا عَنْكَ، فَلَعَلَّ وَارِثَكَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ، فَيَكُونُ أَسْعَدَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْكَ، أَوْ يَعْصِي اللَّهَ فِيهِ فَتَكُونُ قَدْ سَعَيْتَ فِي مُعَاوَنَتِهِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ يَعْلَمُ عَدَدَ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنْ حَبٍّ وَقَطْرِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ مِنْ نَبَاتٍ وَزَرْعٍ وَثِمَارٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَمْطَارِ، وَالثَّلُوجِ وَالْبُرْدِ، وَالْأَقْدَارِ، وَالْأَحْكَامِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْزُجُ فِيهَا﴾ أَيْ: مِنْ عَمَلِ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلِ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيْ: رَقِيبٌ عَلَيْكُمْ، شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ وَأَيْنَ كُنْتُمْ بَرًّا أَوْ بَحْرًا، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فِي الْبُيُوتِ أَوْ الْفُقَارِ، الْجَمِيعِ فِي عِلْمِهِ عَلَى السَّوَاءِ، وَتَحْتَ بَصَرِهِ وَسَمْعِهِ، فَيَسْمَعُ كَلَامَكُمْ، وَيَرَى مَكَانَكُمْ، وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَنَجْوَاكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّ يَسْتَعَفُونَ بِيَابِهِمْ يَعْلَمُ مَا يُبَيِّرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِجَبْرِئِلَ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْإِحْسَانِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أَيْ هُوَ الْمَالِكُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣] وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصاص: ٧٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْخَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [سبا: ١] فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكٌ لَهُ، وَأَهْلُهُمَا عِبِيدٌ أَرْقَاءُ أَدْلَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدٌ﴾ ﴿١٣﴾ لَقَدْ أَحْضَنَهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ [مریم: ٩٣-٩٥] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أَيْ: إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، وَلَا يُظْلَمُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، بَلْ إِنْ يَكُنْ

(١) مسلم: ١٦٢/١ (٢) فتح الباري: ١٤٠/١

وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُهُمَا وَعِنْدَهُ خَزَائِنُهُمَا، وَهُوَ مَالِكُ الْعَرْشِ بِمَا حَوَى، وَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]. وَقَالَ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، أَنْفَقَ وَلَمْ يَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَاقًا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سَيُخْلِفُهُ عَلَيْهِ.

### [فَضْلُ الْإِنْفَاقِ وَالْقِتَالِ قَبْلَ الْفَتْحِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ﴾ أَيُّ: لَا يَسْتَوِي هَذَا وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ كَفْعِلَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ الْحَالُ شَدِيدًا، فَلَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ حِينَئِذٍ إِلَّا الصَّادِقُونَ، وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ فَإِنَّهُ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ ظُهُورًا عَظِيمًا، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ أَعْطَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِنَا﴾ وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْخُسَى وَالْجُمُهورُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ هَهُنَا فَتْحُ مَكَّةَ، وَعَنِ الشَّعْبِيِّ وَغَيْرِهِ: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ هَهُنَا صَلَاحُ الْحُدَيْبِيَّةِ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كَلَامٌ، فَقَالَ خَالِدٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: تَسْتَطِيلُونَ عَلَيْنَا بِأَيَّامٍ سَبَقْتُمُونَا بِهَا، فَبَلَّغْنَا أَنَّ ذَلِكَ دُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «دَعُوا لِي أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنْفَقْتُمْ مِثْلَ أُحُدٍ - أَوْ مِثْلَ الْجَبَالِ - ذَهَبًا، مَا بَلَغْتُمْ أَعْمَالَهُمْ»<sup>(٢)</sup>. وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْلَامَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الْمُوَاجِهَ بِهَذَا الْخُطَابِ كَانَ بَيْنَ صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ وَفَتْحِ مَكَّةَ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُسَاجِرَةُ بَيْنَهُمَا فِي بَنِي جَدِيْمَةَ الَّذِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بَعْدَ الْفَتْحِ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأًا، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَأَمَرَ خَالِدٌ بِقَتْلِهِمْ وَقَتْلَ مَنْ أُسِرَ مِنْهُمْ، فَخَالَفَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُمَا، فَاخْتَصَمَ خَالِدٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بِسَبَبِ ذَلِكَ. وَالَّذِي فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيْفَهُ»<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْخُسَى﴾ يَعْنِي: الْمُتَفَقِّهِينَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَبَعْدَهُ، كُلُّهُمْ لَهُمْ ثَوَابٌ عَلَى مَا عَمِلُوا، وَإِنْ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿«أَلْهَكُمْ الشَّكَاوَةُ»﴾ [التكاثر: ١] يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟<sup>(٤)</sup> وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَزَادَ: «وَمَا سِوَى ذَلِكَ، فَذَاهِبَ وَتَارِكًا لِلنَّاسِ»<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ تَرْغِيبٌ فِي الْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِلْيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أَيُّ: وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالرَّسُولِ بَيْنَ أَظْهَرُكُمْ، يَدْعُوكُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَيَبَيِّنُ لَكُمْ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ، وَقَدْ رَوَيْنَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ طُرُقٍ فِي أَوَائِلِ شَرْحِ كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟». قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ. قَالَ: «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟». قَالُوا: فَلَا نَبِيَّاءَ. قَالَ: «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ؟» قَالُوا: فَتَحْنُ. قَالَ: «وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرُكُمْ؟ وَلَكِنْ أَعْجَبَ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا، قَوْمٌ يَجِئُونَ بَعْدَكُمْ، يَجِدُونَ ضُحْفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا»<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ ذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيفَكُكُمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧] وَيَعْنِي: بِذَلِكَ بَيْعَةَ الرَّسُولِ ﷺ. وَزَعَمَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي صَلْبِ آدَمَ، وَهُوَ مَذْهَبُ مُجَاهِدٍ فَاللَّهُ أَعْلَمُ<sup>(٧)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِلُّ عَلَى عَبْدِهِ عَائِنَتَ يَسْتَبْ﴾ أَيُّ: حُجَجًا وَاضِحَاتٍ وَدَلَائِلَ بَاهِرَاتٍ وَبَرَاهِينَ قَاطِعَاتٍ ﴿يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أَيُّ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْكَفْرِ وَالْآرَاءِ الْمُتَضَادَّةِ، إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أَيُّ: فِي إِثْرَالِهِ الْكُتُبَ وَإِزْسَالِهِ الرُّسُلَ لِهَدَايَةِ النَّاسِ وَإِزَاحَةِ الْعِلَلِ وَإِزَالَةِ الشُّبُهَةِ وَلَمَّا أَمَرَهُمْ أَوَّلًا بِالْإِيمَانِ وَالْإِنْفَاقِ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ قَدْ أزال عَنْهُمْ مَوَانِعَهُ، حَثَّهُمْ أَيْضًا عَلَى الْإِنْفَاقِ فَقَالَ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَمِيزُ أَسَوَاتٍ وَالْأَرْضُ﴾ أَيُّ: أَنْفَقُوا وَلَا تَخْشَوْا فَقَرًا وَإِفْلَاقًا، فَإِنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِهِ هُوَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ،

(١) أحمد: ٢٤/٤ (٢) مسلم: ٢٢٧٣/٤ (٣) المجموع: ١٠/٦٥

(٤) الطبري: ١٧٢/٢٣ (٥) الطبري: ١٧٥/٢٣ (٦)

أحمد: ٢٦٦/٣ (٧) مسلم: ٢٥/٤

كَانَ بَيْنَهُمْ تَفَاوُثٌ فِي تَفَاضُلِ الْجَزَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخُسْفَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] وَهَكَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ»<sup>(١)</sup>. وَإِنَّمَا نَبَّهَ بِهَذَا، لِئَلَّا يَهْدَرَ جَانِبُ الْآخِرِ بِمَدْحِ الْأَوَّلِ دُونَ الْآخِرِ، فَيَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمُ ذَمُّهُ، فَلِهَذَا عَطَفَ بِمَدْحِ الْآخِرِ وَالشَّاءَ عَلَيْهِ، مَعَ تَفْضِيلِ الْأَوَّلِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ: فَلْيَخْبِرْتِهِ فَأَوْتِ بَيْنَ ثَوَابٍ مِّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِيُعْلِمُوهُ بِقَصْدِ الْأَوَّلِ وَإِخْلَاصِهِ النَّامِ وَإِنْفَاقِهِ فِي حَالِ الْجَهْدِ وَالْقِلَّةِ وَالضَّيْقِ، وَفِي الْحَدِيثِ:

«سَبَقَ دِرْهَمٌ مِّائَةَ أَلْفٍ»<sup>(٢)</sup>. وَلَا شَكَّ عِنْدَ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنَّ الصَّدِّيقَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ الْحِظُّ الْأَوْفَرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ سَبَقَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ سَائِرِ أُمَمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُ أَنْفَقَ مَالَهُ كُلَّهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ نِعْمَةٌ يَحْزِيهِ بِهَا.

[الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقِيلَ: هُوَ التَّنْفِقُ عَلَى الْعِيَالِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَيْتٍ خَالِصَةٍ، وَعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ دَخَلَ فِي عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَمْ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] أَيُّ: جَزَاءٌ جَمِيلٌ وَرِزْقٌ بَاهِرٌ، وَهُوَ الْجَنَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنَّ اللَّهَ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ!». قَالَ: أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: فَتَأَوَّلَهُ يَدُهُ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَاطِطِي - وَلَهُ حَاطِطٌ فِيهِ سِتْمِائَةٌ نَخْلَةٌ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا - قَالَ: فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَنَادَاهَا: يَا أُمُّ الدَّحْدَاحِ! قَالَتْ: لَبَّيْكَ، قَالَ: أَخْرِجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ. وَفِي رَوَايَةٍ أَنَّهَُا قَالَتْ لَهُ: رِبْحَ بَيْعِكَ يَا أَبَا

الدَّحْدَاحِ! وَتَقَلَّتْ مِنْهُ مَتَاعُهَا وَصَبِيانُهَا وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَّاحٍ فِي الْجَنَّةِ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ» وَفِي لَفْظٍ: «رُبَّ نَخْلَةٍ مَدْلَاةٍ، عُرِفَتْهَا دُرٌّ وَيَأْفُوتُ، لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ»<sup>(٣)</sup>.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يُعْطَى الْمُؤْمِنُونَ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَصَدِّقِينَ: أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قَالَ: عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ يَمْرُونَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الْجَبَلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ النَّخْلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهُ مِثْلُ الرَّجُلِ الْقَائِمِ، وَأَذْنَاهُمْ نُورًا مِنْ نُورِهِ فِي إِبْهَامِهِ يَتَّقَدُّ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا يُعْطَىٰ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا انْتَهَوْا إِلَى الصِّرَاطِ طُفِيَ نُورُ الْمُتَنَافِقِينَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ أَشْفَقُوا أَنْ يُطْفَأَ نُورُهُمْ كَمَا طُفِيَ نُورُ الْمُتَنَافِقِينَ فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: ٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: أَيُّ وَبِأَيْمَانِهِمْ: كُتُبُهُمْ<sup>(٥)</sup>. كَمَا قَالَ: ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ بِمَعِينِهِ﴾ [الاسراء: ٧١] وَقَوْلُهُ: ﴿بُشْرَانُكَ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيُّ: يُقَالُ لَهُمْ: بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ، أَيُّ: لَكُمْ الْبَشَارَةُ بِجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: مَا كُنْتُمْ فِيهَا أَبَدًا ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١) مسلم: ٢٠٥٢/٤ (٢) النسائي: ٥٩/٥ (٣) جزء الحسن بن عرفة: ٩٢ صحيح لشواهد له شاهد من حديث أنس عند ابن حبان (٧١٥٩) (٤) الطبري: ١٧٩/٢٣ (٥) الطبري: ١٧٩/٢٣

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ  
 بُشْرَتُكُمْ أَيُّومَ حَتَّى تَجْرِيَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ  
 هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ  
 ءَامَنُوا انظُرُوا نَفْسِي مِنْ نُوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا  
 فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورَةٍ. بَابُ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُ مِنْ قِبَلِهِ  
 الْعَذَابُ ﴿١٧﴾ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتننهم أنفسكم  
 وتربصنهم فارتبتم وعزبتكم الأماشي حتى جاء أمر الله وعزبكم  
 بالله العزور ﴿١٨﴾ قالوا لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ما  
 تؤنكم النار هي مولنكم وبش المصير ﴿١٩﴾ ألم يأن للذين ءَامَنُوا  
 أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ  
 فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٠﴾  
 أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ  
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْمَصْدَقِينَ وَالْمَصْدَقَاتِ وَأَقْرَضُوا  
 اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٢٢﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ الْمُتَافِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْيَاءَ يُنَاجُونَهُمْ وَيَعْتَشِرُونَهُمْ، وَكَانُوا مَعَهُمْ أَمْوَاتًا، وَيُعْطُونَ النُّورَ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَطُفَأَ النُّورُ مِنَ الْمُتَافِقِينَ إِذَا بَلَغُوا السُّورَ، وَيُمَارَ بَيْنَهُمْ حِينَئِذٍ.<sup>(٨)</sup>

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ﴾ أَيُّ: هِيَ مَصِيرُكُمْ وَإِلَيْهَا مُتَقَلِّبُكُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هِيَ مَوْلَانُكُمْ﴾ أَيُّ: هِيَ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ عَلَى كُفْرِكُمْ وَارْتِيَابِكُمْ، ﴿وَبَشِ الْمَصِيرِ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾

(١) الطبري: ١٨٢/٢٣ (٢) الطبري: ١٨٢/٢٣ وابن أبي شيبه: ١٧٥/١٣ (٣) الطبري: ١٨٣/٢٣ (٤) الطبري: ١٨٢/٢٣ (٥) الطبري: ١٨٤/٢٣ (٦) الطبري: ١٨٥/٢٣ (٧) الطبري: ١٨٥/٢٣ (٨) الطبري: ١٨٤/٢٣

## [أَحْوَالُ الْمُتَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُوا نَفْسِي مِنْ نُوْرِكُمْ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعُرْصَاتِ مِنَ الْأَحْوَالِ الْمُزْجِجَةِ وَالزَّلَازِلِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأُمُورِ الْفَطِيعَةِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْجُو يَوْمِيذٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ رَجَرًا. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمَا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَمَا النَّاسُ فِي ظُلْمَةٍ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ نُورًا، فَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ النُّورَ تَوَجَّهُوا نَحْوَهُ، وَكَانَ النُّورُ دَلِيلًا مِنَ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَلَمَّا رَأَى الْمُتَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ انْطَلَقُوا اتَّبَعُوهُمْ، فَأَظْلَمَ اللَّهُ عَلَى الْمُتَافِقِينَ، فَقَالُوا حِينِيذٍ: ﴿انظُرُوا نَفْسِي مِنْ نُوْرِكُمْ﴾ فَإِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا. قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ مِنْ حَيْثُ جِئْتُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ فَالْتَمِسُوا هُنَالِكَ النُّورَ.<sup>(١)</sup>

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورَةٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هُوَ حَاطِطٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]<sup>(٣)</sup> وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرِ وَاحِدٍ<sup>(٤)</sup>. وَهُوَ الصَّحِيجُ. ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ - أَيُّ: الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا وَظُهُرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ أَيُّ النَّارِ. قَالَه قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا<sup>(٥)</sup>.

﴿يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أَيُّ يُنَادِي الْمُتَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ: أَمَا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا نَشْهَدُ مَعَكُمْ الْجُمُعَاتِ وَنُصَلِّي مَعَكُمْ الْجَمَاعَاتِ، وَنَقِفُ مَعَكُمْ بَعْرَفَاتٍ، وَنَحْضُرُ مَعَكُمْ الْغَزَوَاتِ، وَنُوَدِّي مَعَكُمْ سَائِرَ الْوَاجِبَاتِ؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أَيُّ: فَأَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَافِقِينَ قَائِلِينَ: بَلَى قَدْ كُنْتُمْ مَعَنَا ﴿وَلَكِنْ كُنَّا فَنَنْتَرُفُسْكُمْ وَتَرَبَّصْنَمُ وَارْتَبْتُمْ وَعَزَبْتُمْ الْأَمَاشِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَتَرَبَّصْنَمُ﴾ بِالْحَقِّ وَأَهْلِهِ ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أَيُّ: بِالْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿وَعَزَبْتُمْ الْأَمَاشِ﴾ أَيُّ قُلْتُمْ: سَيُفْقَرُ لَنَا. وَقِيلَ: عَزَبْتُمْ الدُّنْيَا ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أَيُّ: مَا زِلْنَاهُ فِي هَذَا حَتَّى جَاءَكُمْ الْمَوْتُ ﴿وَعَزَبَكُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورُ﴾ أَيُّ: الشَّيْطَانُ<sup>(٦)</sup>. قَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا عَلَى خُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ! مَا زَالُوا عَلَيْهَا حَتَّى قَذَفَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ<sup>(٧)</sup>. وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُتَافِقِينَ أَنْكُمْ كُنْتُمْ مَعَنَا، أَيُّ: بِأَبْدَانٍ لَا نَبِيَّةَ لَهَا، وَلَا قُلُوبَ مَعَهَا، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ فِي حَيْرَةٍ وَشَكٍّ، فَكُنْتُمْ تُرَاوُونَ النَّاسَ، وَلَا تَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ  
عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا  
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ  
الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ  
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَهُيجُ فَتَرَاهُ  
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ  
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ ﴿١٩﴾  
سَاقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ  
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٠﴾ مَا أَصَابَ  
مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ  
مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢١﴾ لِكَيْلَا  
تَأْسَوْا عَلَىٰ مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ  
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ  
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٣﴾

[الْحَضُّ عَلَى الْخُشُوعِ وَالْتِهْيُ عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ أَهْلِ  
الْكِتَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَمَّا أَنْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ  
اللَّهِ، أَيْ تَلِينَ عِنْدَ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَتَقْهَمُهُ  
وَتَتَقَادُّ لَهُ وَتَسْمَعُ لَهُ وَتُطِيعُهُ. رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ غَاتَبَنَا اللَّهُ  
بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ  
اللَّهِ... الْآيَةِ﴾ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ، كَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي آخِرِ  
الْكِتَابِ <sup>(١)</sup>، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ <sup>(٢)</sup>.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ  
عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا  
بِالَّذِينَ حُمِلُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لَمَّا  
تَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ بَدَلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بِيَدَيْهِمْ، وَاشْتَرَوْا  
بِهِ نَسْمًا قَلِيلًا، وَبَدَّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْأَرَءِ  
الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَقْوَالِ الْمُتَوَاتِفَةِ، وَقَلَّدُوا الرِّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ،  
وَاتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ  
قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، فَلَا يَقْبَلُونَ مَوْعِظَةً، وَلَا تَلِينَ قُلُوبُهُمْ بِوَعْدِ  
وَلَا وَعِيدِ ﴿وَكَبُرَتْ بَيْنَهُمْ فَصْفُوتٌ﴾ أَيْ: فِي الْأَعْمَالِ،  
فَقَلُوبُهُمْ فَاسِدَةٌ، وَأَعْمَالُهُمْ بَاطِلَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا  
نَقَضِهِمْ بَيْنَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً يَجْعَلُونَ  
الْكَلِمَةَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾  
[المائدة: ١٣] أَيْ: فَسَدَتْ قُلُوبُهُمْ فَقَسَتْ، وَصَارَ مِنْ  
سَجِيَّتِهِمْ تَحْرِيفُ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَرْكُوُ الْأَعْمَالِ الَّتِي  
أُمرُوا بِهَا، وَارْتَكَبُوا مَا نَهَوْا عَنْهُ، وَلِهَذَا نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ  
أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْفَرَعِيَّةِ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا  
لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلِكِكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُلِينُ  
الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسَوَتِهَا، وَيَهْدِي الْخَيَارَى بَعْدَ ضَلَّتِهَا، وَيَفْرُجُ  
الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ  
الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَئَانِ الْوَابِلِ، كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ  
الْقَاسِيَةَ بِزَاهِمِ الْقُرْآنِ وَالِدَّلَائِلِ، وَيُوجِّعُ إِلَيْهَا الثُّورَ بَعْدَ أَنْ  
كَانَتْ مُقَفَّلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ  
يَشَاءُ بَعْدَ الضَّلَالِ، وَالْمُصِلُ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ، الَّذِي  
هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَالٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ،  
اللطيفُ الْخَبِيرُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَفْرَضُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ

وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ  
الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ  
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٥﴾  
[أَجْرُ الْمُصْذِقِ وَالصَّادِقِ وَالشَّهَدَاءِ وَمَصِيرُ الْكُفَّارِ]  
يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يُنِيبُ بِهِ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ  
بِأَمْوَالِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ وَالْمُسْكِنَةِ ﴿وَأَفْرَضُوا اللَّهَ  
قَرَضًا حَسَنًا﴾ أَيْ: دَفَعُوهُ بَيْنَهُ خَالِصَةً ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ،  
لَا يُرِيدُونَ جَزَاءً مِمَّنْ أَعْطَوْهُ وَلَا شُكُورًا، وَلِهَذَا قَالَ:  
﴿يَضْعَفُ لَهُمْ﴾ أَيْ: يُقَابِلُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا،  
وَيَزَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، وَفَوْقَ ذَلِكَ ﴿وَلَهُمْ  
أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أَيْ: ثَوَابٌ جَزِيلٌ حَسَنٌ، وَمَوْجِعٌ صَالِحٌ  
وَمَأْتٍ كَرِيمٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ  
هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هَذَا تَمَامُ الْجُمْلَةِ، وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ  
وَرُسُلِهِ بِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ، قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: هَذِهِ مَقْصُولَةٌ ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾<sup>(١)</sup>. وَقَالَ أَبُو الصُّحَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ فَقَالَ: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الصُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: هُمْ ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٌ: يَعْنِي: الْمُصْذِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فَفَرَّقَ بَيْنَ الصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا صِنْفَانِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الصَّادِقَ أَعْلَى مَقَامًا مِنَ الشَّهِيدِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْمُوَطَّأُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبُ الدَّرِّيُّ الْغَابِرُ فِي الْأَفَقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَتَلَقَّاهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رَجُلًا آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ». اتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى إِخْرَاجِهِ<sup>(٣)</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: هَذِهِ مَقْصُولَةٌ ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾<sup>(١)</sup>. وَقَالَ أَبُو الصُّحَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ فَقَالَ: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الصُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: هُمْ ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٌ: يَعْنِي: الْمُصْذِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فَفَرَّقَ بَيْنَ الصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا صِنْفَانِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الصَّادِقَ أَعْلَى مَقَامًا مِنَ الشَّهِيدِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْمُوَطَّأُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبُ الدَّرِّيُّ الْغَابِرُ فِي الْأَفَقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَتَلَقَّاهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رَجُلًا آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ». اتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى إِخْرَاجِهِ<sup>(٣)</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: هَذِهِ مَقْصُولَةٌ ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾<sup>(١)</sup>. وَقَالَ أَبُو الصُّحَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ فَقَالَ: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَالضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الصُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: هُمْ ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٌ: يَعْنِي: الْمُصْذِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فَفَرَّقَ بَيْنَ الصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهُمَا صِنْفَانِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الصَّادِقَ أَعْلَى مَقَامًا مِنَ الشَّهِيدِ، كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْمُوَطَّأُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبُ الدَّرِّيُّ الْغَابِرُ فِي الْأَفَقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَتَلَقَّاهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رَجُلًا آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ». اتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى إِخْرَاجِهِ<sup>(٣)</sup>.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزْنٌ وَقَفَّارٌ بَيْنَكُمْ وَكَثِيرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَجَبَ الْكُفَّارَ بَانَهُ ثُمَّ يَجِيءُ فَرَّتْهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾  
[الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَهُوَ وَلَعِبٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُوهِنًا أَمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمُحَقِّقًا لَهَا ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزْنٌ وَقَفَّارٌ بَيْنَكُمْ وَكَثِيرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أَيُّ إِنَّمَا حَاصِلُ أَمْرِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا هَذَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفَنَاصِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَنَاصِبِ﴾ [آل عمران: ١٤] ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي أَنَّهَا زَهْرَةٌ فَانِيَةٌ وَنِعْمَةٌ زَائِلَةٌ فَقَالَ: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ قُتُوطِ النَّاسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرُوا﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَجَبَ الْكُفَّارَ بَانَهُ﴾ أَيُّ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ نَبَاتُ ذَلِكَ الزَّرْعِ الَّذِي نَبَتَ بِالْغَيْثِ، وَكَمَا يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ذَلِكَ، كَذَلِكَ تُعْجِبُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْكُفَّارَ، فَإِنَّهُمْ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَأَمِيلُ النَّاسِ إِلَيْهَا ﴿ثُمَّ يَجِيءُ فَرَّتْهُ مُمْصِرًا ثُمَّ

(١) الطبري: ١٩١/٢٣ (٢) الطبري: ١٩١/٢٣ (٣) فتح الباري: ٣٦٨/٦ ومسلم: ٢١٧٧/٤ (٤) مسلم: ١٥٠٢/٣ (٥) أحمد: ٢٣/١ (٦) علل الحديث: ٣٤٩/١ (٧) تحفة الأحودي: ٢٧٤/٥



الصَّحِيحُ: أَنَّ قُرَّاءَ الْمُهَاجِرِينَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟». قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ. قَالَ: «أَفَلَا أَذَلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ سَبَقْتُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ: تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتُحَمِّدُونَ ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ». قَالَ: فَارْجِعُوا فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأُمُورِ مَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»<sup>(٣)</sup>.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup> لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُوتُ بَيْنَهُمُ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ تَوَلَّى فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٤﴾ [كُلُّ مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ فَهُوَ بِقَدَرٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَدَرِهِ السَّابِقِ فِي خَلْقِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْرَأَ الْبَرِيَّةَ فَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ الْخَلِيقَةَ وَنَبْرَأَ السَّمَةَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قَالَ: هِيَ السُّنُونُ بِعَيْنِي: الْجَذْبُ ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يَقُولُ: الْأَوْجَاعُ وَالْأَمْرَاضُ، قَالَ: وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُصِيبُهُ خَدَشُ غُودٍ وَلَا نَكْبَةُ قَدَمٍ، وَلَا خِلْجَانُ عِرْقٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَغْنُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ<sup>(٤)</sup>.

وهذه الآية الكريمة العظيمة مِنْ أَدَلِّ دَلِيلٍ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ نَفَاةِ الْعِلْمِ السَّابِقِ - فَحَبَّهُمُ اللَّهُ - وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَدَّرَ اللَّهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَرَادَ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إِنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا وَكِتَابَتَهُ لَهَا طَبَقٌ مَا يُوجَدُ

يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي: يَهِيْجُ ذَلِكَ الزَّرْعُ فَتَرَاهُ مُضْفَرًا بَعْدَ مَا كَانَ خَضِرًا نَضِرًا، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ حُطَمًا أَي: يَصِيرُ نَبَسًا مُنْهَضًا، هَكَذَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا تَكُونُ أَوَّلًا شَأْنَةً، ثُمَّ تَكْتَهِلُ، ثُمَّ تَكُونُ عَجُوزًا شَوْهَاءَ، وَالْإِنْسَانُ يَكُونُ كَذَلِكَ فِي أَوَّلِ عُمُرِهِ وَغُنْفَوَانٍ شَبَابِهِ غَضًا طَرِيًّا لَيِّنَ الْأَعْطَافِ، بَهِي الْمُنْظَرِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْرُعُ فِي الْكُهُولَةِ فَتَتَغَيَّرُ طِبَاعُهُ، وَيَقْطَعُ بَعْضُ قُوَّاهُ، ثُمَّ يَكْبُرُ فَيَصِيرُ شَيْخًا كَبِيرًا ضَعِيفَ الْقُوَى، قَلِيلَ الْحَرَكَةِ يُعْجِزُهُ الشَّيْءُ الْيَسِيرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ دَالًّا عَلَى زَوَالِ الدُّنْيَا وَانْقِصَائِهَا وَقَرَأَهَا لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ كَانَتْ لَا مَحَالَةَ، حَذَرَ مِنْ أَمْرِهَا وَرَغَبَ فِيهَا مِنْ الْخَيْرِ فَقَالَ: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي: وَلَيْسَ فِي الْآخِرَةِ الْآتِيَةِ الْقَرِيبَةِ إِلَّا إِمَّا هَذَا، وَإِمَّا هَذَا، إِمَّا عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَإِمَّا مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي: هِيَ مَتَاعٌ فَإِنْ غَارَ لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتُغْبِهُ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا دَارَ سِوَاهَا، وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا، وَهِيَ حَقِيرَةٌ قَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلْحَنَّةِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»<sup>(١)</sup>. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ فِي الرَّاقِ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ<sup>(٢)</sup>. فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى اقْتِرَابِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِهَذَا حَبَّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ، مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ الَّتِي تُكْفِّرُ عَنْهُ الذُّنُوبَ وَالزَّلَّاتِ، وَتُحَصِّلُ لَهُ الثَّوَابَ وَالذَّرَجَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالْمَرَادُ جَنَسُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وَقَالَ هُنَا: «أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ» ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هَذَا الَّذِي أَهْلَهُمُ اللَّهُ لَهُ هُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنْعِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي

(١) أحمد: ٣٨٧/١ (٢) فتح الباري: ٣٢٨/١١ (٣) مسلم:

٤١٦/١ (٤) الطبري: ١٩٦/٢٣ (٥) أحمد: ١٦٩/٢ (٦)

مسلم: ٢٠٤٤/٤ وتحفة الأحادي: ٣٧٠/٦

سُورَةُ الْحَدِيدِ

٥٤١

سُورَةُ الْحَدِيدِ

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ. وَالْعِيبِ أَنْ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَوْلَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنِ شَاءَ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

رَفْعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿[الرحمن: ٧]﴾ وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أَي: بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَطَاعَتُهُمْ فِيمَا أَمَرُوا بِهِ، فَإِنَّ الَّذِي جَاءُوا بِهِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ كَمَا قَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَي: صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَلِهَذَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا تَبَوَّءُوا غُرَفَ الْجَنَّاتِ، وَالْمَنَازِلَ الْعَالِيَاتِ، وَالسَّرَرِ الْمَصْفُوفَاتِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

### فَوَائِدُ الْحَدِيدِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أَي: وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ رَادِعًا لِمَنْ أَبَى الْحَقَّ وَعَانَدَهُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ

فِي حَبِينَهَا: سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ.

### [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَكُنْ تَأْسَا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾ أَي: أَعْلَمْنَاكُمْ بِتَقَدُّمِ عِلْمِنَا وَسَبْقِ كِتَابِنَا لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَتَقْدِيرِنَا الْكَاتِبَاتِ قَبْلَ وُجُودِهَا، لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكُمْ، وَمَا أَخْطَاكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكُمْ، فَلَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ، لِأَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ لَكَانَ ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾ أَي: جَاءَكُمْ، وَتَفْسِيرُ ﴿ءَاتَاكُمْ﴾ أَي: أَعْطَاكُمْ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَاوِمٌ، أَي: لَا تَفْرَحُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَعْيِكُمْ وَلَا كَدِّكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَرِزْقِهِ لَكُمْ فَلَا تَتَّخِذُوا نِعَمَ اللَّهِ أَشْرًا وَبَطْرًا، تَفْرَحُونَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أَي: مُخْتَالٌ فِي نَفْسِهِ، مُتَكَبِّرٌ فَخُورٌ أَي: عَلَى غَيْرِهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا هُوَ يَفْرُحُ وَيَحْزَنُ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا الْفَرَحَ شُكْرًا، وَالْحُزْنَ صَبْرًا<sup>(١)</sup>.

### [دَمُّ الْبَخِيلِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ أَي: يَقْعِلُونَ الْمُتَكَبِّرَ وَيَحْضُونُ النَّاسَ عَلَيْهِ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أَي: عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ بِالْعِيبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٢٥﴾

### [أَرْسَلَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْمُعْجَزَاتِ وَالْعَدْلِ وَالْحَقِّ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي: بِالْمُعْجَزَاتِ، وَالْحُجَجِ الْبَاهِرَاتِ، وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وَهُوَ النُّقْلُ الصَّدْقُ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وَهُوَ الْعَدْلُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا<sup>(٢)</sup>. وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُخَالَفَةُ لِلْأَرَاءِ السَّقِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ وَتَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلْفًا فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ

أَتَّبَعُوهُ ﴿وَهُمُ الْحَوَارِيُّونَ﴾ ﴿رَافَةً﴾ أَيْ رِفَّةً وَهِيَ الْحَشِيَّةُ ﴿وَرَحْمَةً﴾ بِالْخَلْقِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أَيْ: ابْتَدَعَهَا أُمَّةُ النَّصَارَى ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: مَا شَرَعْنَاهَا لَهُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ التَّزَمُّوْهَا مِنْ تَلَقَّاءِ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ رِضْوَانَ اللَّهِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ<sup>(٢)</sup>. (وَالْآخَرُ) - مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أَيْ: فَمَا قَامُوا بِمَا التَّزَمُوا حَقَّ الْقِيَامِ، وَهَذَا ذِمَّةٌ لَهُمْ مِنْ وَجْهَيْنِ (أَحَدُهُمَا) - الْإِيتِدَاعُ فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ اللَّهُ. وَ (الثَّانِي) - فِي عَدَمِ قِيَامِهِمْ بِمَا التَّزَمُوْهُ مِمَّا زَعَمُوا أَنَّهُ قُرْبَةٌ يَقْرَبُ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ مُلُوكُ بَعْدَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَّلَتِ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَكَانَ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَقِيلَ لِمُلُوكِهِمْ: مَا نَجِدُ شَيْئًا أَشَدَّ مِنْ شَيْءٍ يُشْتَمُونَاهُ هَؤُلَاءِ إِنَّهُمْ يَقْرَأُونَ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ مَعَ مَا يَعْبُونَنَا بِهِ مِنْ أَعْمَالِنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَأُوا كَمَا نَقَرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا، فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ أَوْ يَتْرَكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ؟ دَعُونَا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أَسْطُوَانَةً، ثُمَّ ارْزُقُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطُونَا شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا فَلَا نَرُدُّ عَلَيْكُمْ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: دَعُونَا نَسِيحٌ فِي الْأَرْضِ، وَنَهَيْمُ وَنَشْرِبُ كَمَا يَشْرِبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ فَاقْتُلُونَا، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفَيَافِي، وَنَحْتَقِرُ الْآبَارَ وَنَحْرُثُ الْبُقُولَ، فَلَا نَرُدُّ عَلَيْكُمْ، وَلَا نَمُرُّ بِكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَّا لَهُ حَيِّمٌ فِيهِمْ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْجَهَادُ فِي

ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً تُوحَى إِلَيْهِ السُّورُ الْمَكِّيَّةُ، وَكُلُّهَا جِدَالٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَيَبَيِّنُ وَإِبْصَاحٌ لِلتَّوْحِيدِ، وَيَبَيِّنُ وَدَلَالَاتٌ، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ خَالَفَ، شَرَعَ اللَّهُ الْهَجْرَةَ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِتَالِ بِالسُّيُوفِ وَضَرْبِ الرِّقَابِ وَالْهَامِ لِمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ وَكَذَّبَ بِهِ وَعَانَدَهُ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالسُّيُوفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يَعْنِي: السَّلَاحَ، كَالسُّيُوفِ وَالْحِرَابِ وَالسَّيِّفِ وَالنَّصَالِ وَالدُّرُوعِ وَنَحْوِهَا ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أَيْ: فِي مَعَايِشِهِمْ كَالسَّكَّةِ وَالْفَاسِ وَالْفُدُومِ وَالْمِشْشَارِ وَالْإِرْمِيلِ وَالْمِجْرَفَةِ وَالْأَلَاتِ الَّتِي يُسْتَعَانُ بِهَا فِي الْحِرَاةِ وَالْحِيَاطَةِ وَالطَّبْخِ وَالْحَبْرِ، وَمَا لَا قِيَامَ لِلنَّاسِ بِدُونِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَبْصُرُ وَرَسُولُهُ بِالْعَبَثِ﴾ أَيْ: مَنْ يَنْتَهِي فِي حَمْلِ السَّلَاحِ نَصْرَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أَيْ هُوَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ يَنْصُرُ مَنْ نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ مِنْهُ إِلَى النَّاسِ، وَإِنَّمَا شَرَعَ الْجِهَادَ لِيَلْبُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾<sup>(٦)</sup> ثُمَّ فَقَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَقَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَتَأْتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾<sup>(٧)</sup>

[فَسَقَ الْكَثِيرُ مِنْ أُمَّمِ الْأَنْبِيَاءِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مِنْذُ بَعَثَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُرْسَلْ بَعْدَهُ رَسُولٌ وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَكَذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، لَمْ يُتْرَكْ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا وَلَا أُرْسَلَ رَسُولًا وَلَا أُوحِيَ إِلَى بَشَرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ حَتَّى كَانَ آخِرُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الَّذِي بَشَّرَ مِنْ بَعْدِهِ بِمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ فَقَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَقَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

(١) أحمد: ٥٠/٢ وأبو داود: ٣١٤/٤ (٢) الطبري: ٢٣/

٢٠٣ (٣) الطبري: ٢٠٣/٢٣ والنسائي: ٢٣١/٨

سَبِيلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى وَلَقَطَهُ:  
«لِكُلِّ أُمَّةٍ رَهْبَانِيَّةٌ، وَرَهْبَانِيَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فَقَالَ: أَوْصِنِي. فَقَالَ: سَأَلْتُ عَمَّا  
سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِكَ: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ،  
فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ  
الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَبِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ رُوحُكَ فِي  
السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ»<sup>(٢)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ، وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ  
رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ  
اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

الْعَظِيمِ ﴿٢٨﴾

[يُؤْتِي مُؤْمِنٍ أَهْلَ الْكِتَابِ الْأَجْرَ مَرَّتَيْنِ]

قَدْ تَقَدَّمَ فِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ حَمَلَ هَذِهِ  
الْآيَةَ عَلَى مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ  
مَرَّتَيْنِ، كَمَا فِي الْآيَةِ الَّتِي فِي الْقَصَصِ، وَكَمَا فِي حَدِيثِ  
الشَّعْبِيِّ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ  
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ:  
رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ، وَغَدٍ  
مَمْلُوكٌ آدَى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ آدَبَ  
أُمَّتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ»  
أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٤)</sup>. وَوَأَفَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَلَى هَذَا  
التفسير الضحَّاكُ وَعُتْبَةُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ وَغَيْرُهُمَا، وَهُوَ  
اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>.

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَفَقَّوْا  
اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ  
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: سَأَلَ عُمَرُ  
ابْنَ الْخَطَّابِ حَبْرًا مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ: [كَمْ] أَفْضَلُ مَا  
ضَعَفَ لَكُمْ حَسَنَةً؟ قَالَ: كِفْلٌ - ثَلَاثُمِائَةٍ [وَأَحْمُسُونَ]  
حَسَنَةً - قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهُ عُمَرُ عَلَى أَنَّهُ أَعْطَانَا كِفْلَيْنِ، ثُمَّ  
ذَكَرَ سَعِيدُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾  
قَالَ سَعِيدُ: وَالْكِفْلَانِ فِي الْجُمُعَةِ مِثْلُ ذَلِكَ، رَوَاهُ ابْنُ  
جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>. وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ  
ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِثْلُكُمْ وَمِثْلُ الْيَهُودِ

وَالنَّصَارَى كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عَمَلًا فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي  
مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِرَاطٍ قِرَاطٍ؟ أَلَا  
فَعَمِلْتُ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى  
صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِرَاطٍ قِرَاطٍ؟ أَلَا فَعَمِلْتُ النَّصَارَى، ثُمَّ  
قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ  
عَلَى قِرَاطَيْنِ قِرَاطَيْنِ؟ أَلَا فَانْتُمْ الَّذِينَ عَمِلْتُمْ، فَغَضِبَ  
النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقْلَ عَطَاءً،  
قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُمْكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ:  
فَإِنَّمَا هُوَ فَضْلِي أُوتِيَهُ مِنْ أَسَاءٍ»<sup>(٦)</sup>. وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٧)</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:  
«مِثْلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَعْمَلَ  
قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ،  
فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا فِي أَجْرِكَ  
الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا، وَمَا عَمِلْنَا بِاطِلٍ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا  
تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا  
وَتَرَكُوا، وَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ بَعْدَهُمْ فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ  
وَلَكُمْ الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ  
جِنٌّ صَلُّوا الْعَصْرَ قَالُوا: مَا عَمِلْنَا بِاطِلٍ، وَلَكِ الْأَجْرُ  
الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، فَإِنَّمَا  
بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَأَبَوْا. فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا  
لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ فَعَمِلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ،  
فَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَةَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مِثْلُهُمْ وَمِثْلُ مَا  
قِيلُوا مِنْ هَذَا الثَّوْرِ». تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ<sup>(٨)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ  
اللَّهِ﴾ أَيُّ: لِيَتَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى رَدِّ مَا أَعْطَاهُ  
اللَّهُ، وَلَا إِعْطَاءٍ مَا مَنَعَ اللَّهُ ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ  
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَدِيدِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(١) أحمد: ٢٦٦/٣ إسناده ضعيف فيه زيد العمي وهو ضعيف  
[تقريب] (٢) أحمد: ٨٢/٣ فيه حجاج بن مروان الكلاعي (٣)  
فتح الباري: ٢٢٩/١ ومسلم: ١٣٤/١ (٤) الطبري: ٢٠٨/٢٣  
و ٢١٠ (٥) الطبري: ٢١٠/٢٣ (٦) أحمد: ٦/٢ ١١١ (٧)  
فتح الباري: ٥٢١/٤ ٥٧١/٦ (٨) فتح الباري: ٥٢٣/٤

## تفسير سورة المجادلة مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١)

[سَبَبُ النُّزُولِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ النَّبْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (١). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ تَعْلِيلًا (٢). وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ (٣). وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: تَبَارَكَ الَّذِي أَوْعَى سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَتُخْفِي عَلَيَّ بَعْضَهُ وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَكَلْتُ مَالِي، وَأَفْنَيْتُ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبُرَتْ سِنِّي وَانْقَطَعَ وَلَدِي، ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ! إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ. قَالَتْ: فَمَا بَرَحْتُ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهِذِهِ الْآيَةِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾. قَالَتْ: وَزَوْجُهَا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ (٤).

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعِظُ يَهُوَ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطَاعًا سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)

[الظَّهَارُ وَكَفَّارَتُهُ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ قَالَتْ: فِي - وَاللَّهِ - وَفِي أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ أَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ، قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاغَهُ بِشَيْءٍ، فَعَضِبَ فَقَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَنْ نَفْسِي، قَالَتْ: قُلْتُ: كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسُ خَوْلَةَ بِنْدِهِ! لَا

سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ

٥٤٢

سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ

## سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعِظُ يَهُوَ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطَاعًا سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوزًا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْثَرُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)

تَخْلُصَ إِلَيَّ، وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ. قَالَتْ: فَوَائِنِي فَأَمْتَعْتُ مِنْهُ، فَعَلَّيْتُ بِمَا تَغْلِبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ فَالْقَيْتُهُ عَنِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابًا، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ وَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا خَوْلَةُ! ابْنِ عَمَّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَأَتَيْتُ اللَّهَ فِيهِ». قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ! مَا بَرَحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِي الْقُرْآنِ، فَتَعَشَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ يَتَعَشَّاهُ ثُمَّ سَرَّيَ عَنْهُ فَقَالَ لِي: «يَا خَوْلَةُ! قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَتْ:

(١) أحمد: ٤٦/٦ (٢) فتح الباري: ٣٨٤/١٣ (٣) النسائي:

١٦٨/٦ وابن ماجه: ٦٧/١ والطبري: ٢٢٥/٢٣ (٤) الطبري:

حَرَمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَغْنِي الْغُشْيَانُ فِي الْفَرْجِ، وَكَانَ لَا يَرَى بَأْسًا أَنْ يَغْشَى فِيمَا دُونَ الْفَرْجِ قَبْلَ أَنْ يُكْفَرَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسَّ» وَالْمَسُّ النِّكَاحُ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَطَاءٌ وَالزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: لَيْسَ لَهُ أَنْ يُقْبَلَهَا وَلَا يَمَسَّهَا حَتَّى يُكْفَرَ. وَقَدْ رَوَى أَهْلُ الشُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عِكْرَمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي ظَاهَرْتُ مِنْ أَمْرَأَتِي فَوَقَعْتُ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ أُكْفَرَ. فَقَالَ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ؟» قَالَ: رَأَيْتُ خَلْعَ خَالَهَا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ. قَالَ: «فَلَا تَقْرُبُهَا حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» أَيُّ: فَاِعْتَاقُ رَقَبَةٍ كَامِلَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا، فَهَئِنَا الرَّقَبَةُ مُطْلَقَةٌ غَيْرُ مُقَيَّدَةٍ بِالْإِيمَانِ، وَفِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ مُقَيَّدَةٌ بِالْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ذَلِكُمْ تَوْعُظُونَ بِهِ» أَيُّ: تُزَجُّرُونَ بِهِ «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» أَيُّ: خَبِيرٌ بِمَا يُضِلُّكُمْ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا» قَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ الْأَمْرَةُ بِهَذَا عَلَى التَّرْتِيبِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي قِصَّةِ الَّذِي جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي رَمَضَانَ<sup>(٥)</sup>. «ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» أَيُّ شَرَعْنَا هَذَا لِهَذَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» أَيُّ: مَحَارِمُهُ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالْعَافِينَ عَذَابَ أَلِيمٍ» أَيُّ: الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَا التَّزَمُوا بِأَحْكَامِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْبَلَاءِ، كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، بَلْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

«إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْبَنَاتِ الْبَنَاتِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ» يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ<sup>(٦)</sup> أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا

فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُرِيهِ فَلْيُعْتَقِ رَقَبَةً». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا عِنْدَهُ مَا يُعْتَقُ. قَالَ: «فَلْيُصِمِ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ! إِنَّهُ لَنَسِيخٌ كَبِيرٌ، مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ. قَالَ: «فَلْيُطْعِمِ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا ذَاكَ عِنْدَهُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَأَنَا سَأُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ. قَالَ: «قَدْ أَصَبْتُ وَأَحْسَنْتُ فَادْهَبِي فَتَصَدَّقِي بِهِ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمَلِكٍ خَيْرًا». قَالَتْ: فَفَعَلْتُ<sup>(١)</sup>.

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الطَّلَاقِ مِنْ سُنَنِهِ<sup>(٢)</sup>. وَعِنْدَهُ خَوْلَةٌ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ، وَيُقَالُ لَهَا: خَوْلَةُ بِنْتُ مَالِكِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، وَقَدْ تَصَغَّرَ فَيُقَالُ: خَوْلَيْلَةُ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، فَالْأَمْرُ فِيهَا قَرِيبٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «الَّذِينَ يَطْهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ» أَصْلُ الظَّهَارِ مُشْتَقٌّ مِنَ الظَّهْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا إِذَا ظَاهَرَ أَحَدُهُمْ مِنْ أَمْرَأَتِهِ قَالَ لَهَا: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي. وَكَانَ الظَّهَارُ عِنْدَ الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا، فَأَرْحَصَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَجَعَلَ فِيهِ كَفَّارَةً، وَلَمْ يَجْعَلْهُ طَلَاقًا، كَمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ» أَيُّ: لَا تَصِيرُ الْمَرْأَةُ بِقَوْلِ الرَّجُلِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي أَوْ مِثْلُ أُمِّي، أَوْ كَظْهَرِ أُمِّي وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ، لَا تَصِيرُ أُمُّهُ بِذَلِكَ، إِنَّمَا أُمُّهُ اللَّائِي وَلَدَتْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَلِإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا» أَيُّ: كَلَامًا فَاجِشًا بَاطِلًا «وَلَيْتَ اللَّهُ لَعَنَ عُفُورًا» أَيُّ: عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَهَكَذَا أَيْضًا خَرَجَ مِنْ سَبْقِ اللِّسَانِ، وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُ، وَلَوْ قَصَدَهُ لَحَرُمَتْ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عَلَى الصَّحِيحِ بَيْنَ الْأُمِّ وَبَيْنَ غَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الْمَحَارِمِ مِنْ أُخْبٍ وَعَمَةٍ وَخَالَةٍ وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ يَطْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» قَالَ الشَّافِعِيُّ: هُوَ أَنْ يُمَسِكَهَا بَعْدَ الْمُطَاهَرَةِ زَمَانًا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُطَلَّقَ فِيهِ فَلَا يُطَلَّقُ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: هُوَ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْجِمَاعِ أَوْ يَغْرِمَ عَلَيْهِ: فَلَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى يُكْفَرَ بِهَذِهِ الْكُفَّارَةِ، وَقَدْ حُكِيَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ الْعَزْمُ عَلَى الْجِمَاعِ وَالْإِنْسَاكِ. وَعَنْهُ أَنَّهُ الْجِمَاعُ. عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: «ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» يَعْنِي: يُرِيدُونَ أَنْ يَعُودُوا فِي الْجِمَاعِ الَّذِي

(١) أحمد: ٤١٠/٦ (٢) أبو داود: ٦٦٢/٢ و٦٦٤ (٣) الطبري: ٢٣١/٢٣ (٤) أبو داود: ٦٦٦/٢ وتحفة الأحوذى: ٣٨٠/٤ والنسائي: ١٦٧/٦ وابن ماجه: ٦٦٦/١ (٥) فتح الباري: ١٩٣/٤ ومسلم: ٧٨١/٢

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

٥٤٣

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

[بَيَانُ عَاقِبَةِ أَعْدَاءِ الدِّينِ]

يُخَبِّرُ تَعَالَى عَمَّنْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَعَانَدُوا شَرْعَهُ ﴿٨﴾ كَيْتُ مَا كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٩﴾ أَيُّ: أَهْيَاوُا وَلَعْنُوا وَأُخْزُوا كَمَا فَعَلَ بِمَنْ أَشَبَّهُهُمْ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ ﴿١٠﴾ وَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ بَيِّنَاتٍ ﴿١١﴾ وَأَضْحَايَ، لَا يُعَانِدُهَا وَلَا يُخَالِفُهَا إِلَّا كَافِرٌ فَاجِرٌ مُكَابِرٌ ﴿١٢﴾ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٣﴾ أَيُّ: فِي مُقَابَلَةٍ مَا اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ شَرْعِ اللَّهِ، وَالْإِنْفِيَادِ لَهُ وَالْخُضُوعِ لَدَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَسْعَاهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ﴿١٤﴾ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴿١٥﴾ أَيُّ: فَيُخَبِّرُهُمْ بِالَّذِي صَنَعُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿١٦﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَفُسَّوهُ ﴿١٧﴾ أَيُّ: ضَبَطَهُ اللَّهُ وَحَفِظَهُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ قَدْ نَسُوا مَا كَانُوا عَمِلُوا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٩﴾ أَيُّ: لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَخْفَى وَلَا يَنْسَى شَيْئًا.

[عِلْمُ اللَّهِ مُحِيطٌ بِالْخَلْقِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ وَسَمَاعِهِ كَلَامَهُمْ، وَرُؤْيَاهُ مَكَانَهُمْ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ أَيُّ: مِنْ سِرِّ ثَلَاثَةٍ ﴿٢٠﴾ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴿٢١﴾ أَيُّ: مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَسِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَرُسُلُهُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ تَكْتُبُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ، مَعَ عِلْمِ اللَّهِ بِهِ وَسَمْعِهِ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ [التوبة: ٧٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وَلِهَذَا حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعِيَّةَ عِلْمِهِ تَعَالَى، وَلَا شَكَّ فِي إِدَارَةِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ سَمِعَهُ أَيْضًا مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: افْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ وَاخْتَتَمَهَا بِالْعِلْمِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنْ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْتَجِبُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَكَ حَيْوَتُكَ بِمَا لَمْ يَحْكِكْ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُتْسَلِّمُونَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّيُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّيُوا بِالْإِيمَانِ وَالْقَوْلِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ اسْكُرُوا فَأَسْكُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

[بَيَانُ شَرَارَةِ الْيَهُودِ]

قَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنْ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ﴾ قَالَ: الْيَهُودُ. ﴿وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ وَزَادَ: كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الْيَهُودِ مُوَادَعَةٌ، وَكَانُوا إِذَا مَرَّ بِهِمُ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ جَلَسُوا يَتَنَاجَوْنَ بَيْنَهُمْ، حَتَّى يَظُنُّ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُمْ يَتَنَاجَوْنَ

عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: سَامٌ عَلَيْكَ، ثُمَّ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ؟ فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَوْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسَبَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ الْمَصِيرَ﴾<sup>(١)</sup>. إِسْنَادٌ حَسَنٌ وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.

### [آدَابُ النَّجْوَى]

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُؤَدِّبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَكُونُوا مِثْلَ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِنَّمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أَيُّ: كَمَا يَتَنَاجَى بِهِ الْجَهْلَةُ مِنْ كَفَرَةٍ أَهْلُ الْكِتَابِ وَمَنْ مَالَاهُمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أَيُّ: فَيُخَبِّرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ الَّتِي قَدْ أَحْصَاهَا عَلَيْكُمْ، وَسَيَجْزِيكُمْ بِهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا النَّجْوَى - وَهِيَ الْمَسَارَةُ حَيْثُ يَتَوَهَّمُ مُؤْمِنٌ بِهَا شَوْءًا - ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يَعْنِي: إِنَّمَا يَصُدُّ هَذَا مِنَ الْمُتَنَاجِيَنِ عَنْ تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ ﴿لِيَحْزُنَكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيُّ: لَيْسَ شَوْءُهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّنَاجِي حَيْثُ يَكُونُ فِي ذَلِكَ تَأْذٌ عَلَى مُؤْمِنٍ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»<sup>(٤)</sup>. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ<sup>(٥)</sup>.

(١) الدر المنثور: ٨٠/٨ (٢) الطبري: ٢٣٦/٢٣ و ٢٣٧ (٣) فتح الباري: ٤٦٦/١٠ (٤) الطبري: ٢٤٠/٢٣ (٥) فتح الباري: ٤٦٣/١٠ (٦) أحمد: ١٧٠/٢ (٧) أحمد: ٤٢٥/١ (٨) فتح الباري: ٥٨/١١ ومسلم: ١٧١٨/٤ (٩) عبد الرزاق: ٢٦/١١ (١٠) مسلم: ١٧١٧/٤

يَقْتُلِهِ، أَوْ بِمَا يَكْرَهُ الْمُؤْمِنُ، فَإِذَا رَأَى الْمُؤْمِنُ ذَلِكَ حَشِيَهُمْ فَتَرَكَ طَرِيقَهُ عَلَيْهِمْ، فَتَهَاكُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النَّجْوَى فَلَمْ يَتَّبِعُوا، وَعَادُوا إِلَى النَّجْوَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ﴾<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِنَّمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أَيُّ: يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿بِالْإِنَّمِ﴾ وَهُوَ مَا يَخْتَصُّ بِهِمْ ﴿وَالْعُدُونِ﴾ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِمْ، وَمِنْهُ مَعْصِيَةُ الرُّسُولِ وَمُخَالَفَتُهُ يُصِرُّونَ عَلَيْهَا وَيَتَوَاصُونَ بِهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَوْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَهُودٌ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ». قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُهُمْ يَقُولُونَ: السَّامُ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مَا سَمِعْتَ أَقُولَ: وَعَلَيْكُمْ؟». فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَوْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُمْ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ وَاللُّعْنَةُ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيْنَا»<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ أَتَى عَلَيْهِمْ يَهُودِيٌّ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا قَالَ؟» قَالُوا: سَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «بَلْ قَالَ: سَامٌ عَلَيْكُمْ». أَيُّ: تُسَامُونَ دِينَكُمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُدُّوهُ». فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقُولُوا: عَلَيْكَ». أَيُّ: عَلَيْكَ مَا قُلْتُ<sup>(٤)</sup>. وَأَصْلُ حَدِيثِ أَنَسٍ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ بِنَحْوِهِ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أَيُّ: يَفْعَلُونَ هَذَا، وَيَقُولُونَ مَا يَحَرِّفُونَ مِنَ الْكَلَامِ وَإِيْهَامِ السَّلَامِ، وَإِنَّمَا هُوَ شَتَمٌ فِي الْبَاطِنِ، وَمَعَ هَذَا يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا لَعَذَّبَنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ لَهُ فِي الْبَاطِنِ، لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا نُسِرُهُ، فَلَوْ كَانَ هَذَا نَبِيًّا حَقًّا لَأَوْشَكَ أَنْ يُعَاجِلَنَا اللَّهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَسَبَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أَيُّ: جَهَنَّمَ كِفَايَتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ الْمَصِيرَ﴾ وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤٤

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَدَعَا بِأَيْدِي بَنَاتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بِيَدِي بَنَاتِكُمْ صَدَقَتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ءَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّنْ تَعْنِي عَنْهُمْ ءُمُورُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ءَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ءَلَا إِن حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ءَأُولَٰئِكَ فِي ءَأْدِ الَّذِينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لِأَمْرِ اللَّهِ رَفَعَ اللَّهُ قَدْرَهُ وَنَشَرَ ذِكْرَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ: خَيْرٌ يَمُنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ وَيَمُنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ: أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ قَالَ: اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمْ ابْنَ أَبِزَى رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا، فَقَالَ عُمَرُ: اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ، عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَاضٍ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا إِنَّ

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١١﴾

### [آدَابُ الْمَجَالِسِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُؤَدِّبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا لَهُمْ أَنْ يُحْسِنَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْمَجَالِسِ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ وَفَرَىء (فِي الْمَجَالِسِ) ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا أَشْبَاهَ كَثِيرَةً، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا رَأَوْا أَحَدَهُمْ مُقْبِلًا ضَنُّوا بِمَجَالِسِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَفْسَحَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ<sup>(٣)</sup>.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالشَّافِعِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُقِمُّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا»<sup>(٤)</sup>. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُقِمُّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ افْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ أَيْضًا بِلَفْظٍ: «لَا يَقُومُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ مِنْ مَجْلِسِهِ، وَلَكِنْ افْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ»<sup>(٧)</sup> تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ.

وَقَدْ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بَعْثِي فِي مَجَالِسِ الْحَرْبِ قَالُوا: وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ أَيُّ: انْهَضُوا لِلْقِتَالِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ أَيُّ: إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى خَيْرٍ فَأَجِيبُوا<sup>(٩)</sup>.

### [فَضْلُ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ: لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُ إِذَا فَسَّحَ أَحَدٌ مِنْكُمْ لِأَخِيهِ إِذَا أَقْبَلَ، أَوْ إِذَا أَمَرَ بِالْخُرُوجِ فَخَرَجَ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ، بَلْ هُوَ رِفْعَةٌ وَرُتْبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُضِيعُ ذَلِكَ لَهُ، بَلْ يُجْزِيهِ بِهَا فِي

(١) فتح الباري: ١/٦٤٨ (٢) مسلم: ٤/٢٠٧٤ (٣) الطبري: ٢٣/٢٤٤ (٤) أحمد: ٢/١٢٦ وترتيب الشافعي: ١٨٦/٢ (٥) فتح الباري: ١/٦٤٨ ومسلم: ٤/١٧١٤ (٦) أحمد: ٢/٥٢٣ (٧) أحمد: ٢/٣٣٨ (٨) الطبري: ٢٣/٢٤٤ والقرطبي: ١٧/٢٩٩ والدر المنثور: ٨/٨٢ (٩) الطبري: ٢٣/٢٤٥

نَبِّئُكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ [أَقْوَامًا] وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> «أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً قَدْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»<sup>(٤)</sup>

[الْأَمْرُ بِالصَّدَقَةِ قَبْلَ أَنْ يُنَاجِيَ الرَّسُولَ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يُنَاجِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ: يُسَارُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، أَنْ يُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُ وَتُزَكِّيهِ وَتُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يَصْلَحَ لِهَذَا الْمَقَامِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ» ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا» أَيُّ: إِلَّا مَنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ لِقَفَرِهِ «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فَمَا أَمَرَ بِهَا إِلَّا مَنْ قَدَّرَ عَلَيْهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً» أَيُّ: أَخِفْتُمْ مِنْ اسْتِمْرَارِ هَذَا الْحُكْمِ عَلَيْكُمْ مِنْ وَجُوبِ الصَّدَقَةِ قَبْلَ مُنَاجَاةِ الرَّسُولِ «فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» فَسَخَّ وَجُوبَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِهِذِهِ الْآيَةِ قَبْلَ نَسْخِهَا سِوَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِحٍ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: «فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً» وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرُوا الْمَسَائِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى شَفَّوْا عَلَيْهِ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ: [صَبَرَ] كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَفُّوا عَنِ الْمَسْأَلَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ هَذَا: «أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً» فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَوَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُضَيِّقْ<sup>(٥)</sup>.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً» نَسَخَهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا «أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً» إِلَى آخِرِهَا<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ ابْنِ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبَّانَ: سَأَلَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَخَفَّوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ فَفَطَمَهُمُ اللَّهُ بِهِذِهِ الْآيَةِ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا كَانَتْ لَهُ الْحَاجَةُ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْضِيَهَا حَتَّى يُقَدِّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ صَدَقَةً، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الرُّخْصَةَ بَعْدَ ذَلِكَ: «فَإِنْ لَمْ

تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ: «إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةً» إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ، مَا كَانَتْ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ<sup>(٨)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ عَلِيُّ: مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ غَيْرِي حَتَّى نُسِخَتْ، وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَمَا كَانَتْ إِلَّا سَاعَةً<sup>(٩)</sup>.

﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»<sup>(١١)</sup> اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»<sup>(١٢)</sup> لَنْ نَعْفَى عَنْهُمْ أُنُوكُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»<sup>(١٣)</sup> يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ»<sup>(١٤)</sup> اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ»<sup>(١٥)</sup>

[دَمُ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي مُوَالَاتِهِمُ الْكُفَّارِ فِي الْبَاطِنِ، وَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا مَعَهُمْ وَلَا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا» [النساء: ١٤٣] وَقَالَ هَهُنَا: «لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» يَعْنِي: الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا الْمُنَافِقُونَ يُمَالِئُونَهُمْ وَيُوَالُونَهُمْ فِي الْبَاطِنِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ» أَيُّ: هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَيْسُوا فِي الْحَقِيقَةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! وَلَا مِنَ الَّذِينَ يُوَالُونَهُمْ وَهُمْ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ، وَهُمْ عَالِمُونَ بِأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا، وَهِيَ الْيَمِينُ الْغُمُوسُ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ حَالِهِمُ اللَّعِينِ عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا جَاؤُوا الرَّسُولَ حَلَفُوا لَهُ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِيمَا حَلَفُوا بِهِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ صِدْقَ مَا قَالُوهُ، وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُطَابِقًا، وَلِهَذَا شَهِدَ اللَّهُ بِكَذِبِهِمْ فِي أَيْمَانِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ لَذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا

(١) أحمد: ٣٥/١ (٢) مسلم: ٥٥٩/١ (٣) الطبري: ٢٣/٢٤٩

(٤) الطبري: ٢٣/٢٥٠ (٥) الطبري: ٢٣/٢٤٨

مرسل (٦) الطبري: ٢٣/٢٤٩ (٧) عبد الرزاق: ٣/٢٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤٥

سُورَةُ الْحَشْرِ

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ  
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ  
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ  
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا  
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ  
﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ  
لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ  
حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ  
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ  
فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ  
الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ  
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ  
الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾

[ذِلَّةُ الْمُخَالِفِينَ لِلَّهِ وَعَلَيْهِ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُعَانِدِينَ الْمُحَادِّينَ لِلَّهِ  
وَرَسُولِهِ، يَعْنِي: الَّذِينَ هُمْ فِي حَدِّ وَالشَّرْعِ فِي حَدٍّ، أَيُّ:  
مُجَانِبُونَ لِلْحَقِّ، مُشَاقُونَ لَهُ، هُمْ فِي نَاحِيَةٍ، وَالْهُدَى فِي  
نَاحِيَةٍ ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أَيُّ فِي الْأَشْقِيَاءِ الْمُتَبَعِينَ  
الْمُطْرُودِينَ عَنِ الصَّوَابِ، الْأَذَلِّينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.  
﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أَيُّ: قَدْ حَكَمَ وَكَتَبَ فِي  
كِتَابِهِ الْأَوَّلِ وَقَدَرَهُ الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يُدَلُّ،  
بِأَنَّ النُّصْرَةَ لَهُ وَلِكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا

كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾ أَيُّ: أَرَضَدَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الْعَذَابَ  
الْأَلِيمَ عَلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَهِيَ مُوَالَاةُ الْكَافِرِينَ  
وَنُصْحُهُمْ وَمُعَادَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَغَشُّهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿أَتَخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: أَظْهَرُوا  
الْإِيمَانَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَاتَّقُوا بِالْإِيمَانِ الْكَاذِبَةَ، فَظَنَّ كَثِيرٌ  
مِّمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ صِدْقَهُمْ فَاعْتَرَّ بِهِمْ، فَحَصَلَ  
بِهَذَا صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِبَعْضِ النَّاسِ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾  
أَيُّ: فِي مُقَابَلَةِ مَا افْتَنَّهُوا مِنَ الْحَلْفِ بِاسْمِ اللَّهِ الْعَظِيمِ فِي  
الْإِيمَانِ الْكَاذِبَةِ الْحَاقِثَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنفِكَ عَنْهُمْ  
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أَيُّ: لَنْ يَذْفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ  
بِأَسَا إِذَا جَاءَهُمْ ﴿أُولَئِكَ أَصْعَبُ النَّاسِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ثُمَّ  
قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أَيُّ: يَخْشَرُهُمْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ عَنْ آخِرِهِمْ فَلَا يَعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا  
يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أَيُّ: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ عَزَّ  
وَجَلَّ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى وَالْإِسْقَامَةِ كَمَا كَانُوا يَحْلِفُونَ  
لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ  
وَبُعِثَ عَلَيْهِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا كَانَ  
يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ، فَيَجُرُّونَ عَلَيْهِمُ الْأَحْكَامَ الظَّاهِرَةَ،  
وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أَيُّ: حَلِفُهُمْ بِذَلِكَ  
لِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ حَسْبَانَهُمْ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ  
الْكَاذِبُونَ﴾ فَكَأَنَّ الْخَبَرَ عَنْهُمْ بِالْكَذِبِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:  
﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: اسْتَحْوَذَ عَلَى  
قُلُوبِهِمُ الشَّيْطَانُ حَتَّى أَنْسَاهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ،  
وَكَذَلِكَ يَصْنَعُ بِمَنْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ  
أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ  
ثَلَاثَةٍ فِي قَرِيَّةٍ وَلَا بَدْوٍ، لَا تَقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدْ  
اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ  
الدُّبُّ الْفَاصِيَةَ» قَالَ زَائِدٌ: قَالَ السَّائِبُ: يَعْنِي الصَّلَاةَ فِي  
الْجَمَاعَةِ <sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يَعْنِي  
الَّذِينَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ  
تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ  
اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا  
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ  
كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

أَرَى مَا رَأَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ تُمْكِنُنِي مِنْ فَلَانٍ - قَرِيبٍ لِعُمَرَ - فَاقْتُلْهُ، وَتُمْكِنُ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ، وَتُمْكِنُ فَلَانًا مِنْ فَلَانٍ، لِيَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَتْ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ... الْقِصَّةُ بِكَمَالِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أَيُّ: مَنْ انْصَفَ بِأَنَّهُ لَا يُؤَادُّ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ، فَهَذَا يَمُنُّ كَتَبَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الْإِيمَانَ، أَيُّ: كَتَبَ لَهُ السَّعَادَةَ وَقَرَّرَهَا فِي قَلْبِهِ وَزَيَّنَ الْإِيمَانَ فِي بَصِيرَتِهِ. قَالَ الشَّدْيِيُّ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ جَعَلَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أَيُّ: قَوَّاهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَلُّهُمْ حَتَّى تَبْجُرَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كُلُّ هَذَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سِرٌّ بَدِيعٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا سَخَطُوا عَلَى الْقَرَائِبِ وَالْعَشَائِرِ فِي اللَّهِ تَعَالَى، عَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِالرَّضَا عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ عَنْهُ بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالْفَضْلِ الْعَمِيمِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيُّ: هَؤُلَاءِ حِزْبُ اللَّهِ، أَيُّ: عِبَادُ اللَّهِ وَأَهْلُ كَرَامَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تَنْوِيهِ بِفَلَاحِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِي مُقَابَلَةِ مَا ذَكَرَ عَنْ أُولَئِكَ بِأَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. أَخِيرَ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

### تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَشْرِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: سُورَةُ بَنِي النَّضِيرِ<sup>(٢)</sup> رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ: لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ الْحَشْرِ. قَالَ: أَنْزَلْتُ فِي بَنِي النَّضِيرِ. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، عَنْ هُشَيْمٍ بِهِ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ الْحَشْرِ؟

لَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ<sup>(٤)</sup> يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعِيرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر: ٥١، ٥٢] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلَنَكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] أَيُّ: كَتَبَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ أَنَّهُ الْعَالِبُ لِأَعْدَائِهِ، وَهَذَا قَدَرٌ مُحْكَمٌ وَأَمْرٌ مُبَرَّمٌ، أَنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

#### [لَا يُؤَادُّ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أَيُّ لَا يُؤَادُّونَ الْمُحَادِّينَ وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْأَقْرَبِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَخُذُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُكَفِّرِينَ وَلَا الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ فِي دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْهُمْ ثَمَنًا وَيُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾... [الآية (آل عمران: ٢٨)].

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَبْتُمُوهَا وَبَنَادِرٌ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَسَكَاتٌ رَضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وَقَدْ قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَغَيْرُهُ: أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾... إِلَى آخِرِهَا، فِي أَبِي عُبَيْدَةَ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ، حِينَ قَتَلَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ جَعَلَ الْأَمْرَ شُورَى بَعْدَهُ فِي أُولَئِكَ السَّنَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: وَلَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ حَيًّا لَأَسْتَحْلَفْتُهُ. وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتُهُمْ﴾ فِي أَبِي عُبَيْدَةَ قَتَلَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ أَوْ عُمَيْرُ بْنُ يَوْمِيذٍ فِي مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَتَلَ أَخَاهُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَوْمِيذٍ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ فِي عُمَرَ قَتَلَ قَرِيبًا لَهُ يَوْمِيذٍ أَيْضًا، وَفِي حَمْرَةَ وَعَلِيٍّ وَعُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ قَتَلُوا عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَالْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ يَوْمِيذٍ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قُلْتُ: وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ حِينَ اسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَسَارَى بَدْرٍ، فَأَشَارَ الصَّدِيقُ بِأَنْ يُقَادُوا، فَيَكُونُ مَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَقَالَ عُمَرُ: لَا

(١) انظر الإصابة ترجمة عامر بن عبدالله بن الجراح. (٢) فتح الباري: ٤٩٧/٨ (٣) فتح الباري: ٤٩٧/٨ ومسلم: ٢٣٢٢/٤

قَالَ: سُورَةُ بَنِي النَّضِيرِ<sup>(١)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(١)</sup>  
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ  
الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ  
اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ حَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ  
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأَوَّلِ  
الْأَنْبِيَاءِ<sup>(٢)</sup> وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا  
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ<sup>(٣)</sup> ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ  
يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(٤)</sup> مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ  
تَرَكَتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أَوُصُلِهَا فَيَاذَنْ اللَّهُ وَلِخِزْيِ الْفَاسِقِينَ<sup>(٥)</sup>  
[يُسَبِّحُ لِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
مِنْ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لَهُ وَيُمَجِّدُهُ وَيُقَدِّسُهُ، وَصَلَّى لَهُ وَيُوحِّدُهُ،  
كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَنْ يَنْ  
شَيْءٌ إِلَّا يَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَيُّ: مُنِيعُ الْجَنَابِ ﴿الْحَكِيمُ﴾  
فِي قُدْرِهِ وَسُرْعِهِ.

[ذِكْرُ مَا حَلَّ بِبَنِي النَّضِيرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ  
الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ  
وَالزَّهْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup>: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ  
الْمَدِينَةَ هَادِنَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ عَهْدًا وَدَفَنَهُ، عَلَى أَنْ لَا يَقَاتِلَهُمْ  
وَلَا يَقَاتِلُوهُ، فَتَفَضَّلُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَأَحْلَلَ  
اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ قَضَاءَ الَّذِي  
لَا يُصَدُّ، فَأَجْلَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ  
الْحَصِينَةِ الَّتِي مَا طَمِعَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ، وَظَنُّوا هُمْ أَنَّهَا  
مَانِعَتُهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،  
وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ بِإِلَهُمْ، وَسَيَّرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
وَأَجْلَاهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى  
أَدْرِعَاتٍ مِنْ أَعَالِي الشَّامِ، وَهِيَ أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ،  
وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ ذَهَبُوا إِلَى حَبِيرٍ، وَكَانَ قَدْ أَنْزَلَهُمْ مِنْهَا عَلَى  
أَنْ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ إِبِلُهُمْ، فَكَانُوا يُخْرِبُونَ مَا فِي بُيُوتِهِمْ مِنْ  
الْمَثْقُولَاتِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُحْمَلَ مَعَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأَوَّلِ  
الْأَنْبِيَاءِ﴾ أَيُّ تَفَكَّرُوا فِي عَاقِبَتِهِ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَخَالَفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٥٤٦  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ<sup>(٤)</sup> مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكَتُمْهَا قَائِمَةً  
عَلَى أَوُصُلِهَا فَيَاذَنْ اللَّهُ وَلِخِزْيِ الْفَاسِقِينَ<sup>(٥)</sup> وَمَا آفَاءَ اللَّهُ  
عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ<sup>(٦)</sup> مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ  
وَلِلَّذِي الْقُرَى وَلِلسَّيِّئِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ  
دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَاءَ أَنْتُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا  
نَهَكُمْ عَنْهُ فَأْتُوهُ وَأَتَّفَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(٧)</sup>  
لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ  
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَبْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ  
هُمْ الصَّدُوقُونَ<sup>(٨)</sup> وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً  
مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ  
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ<sup>(٩)</sup>

رَسُولَهُ، وَكَذَّبَ كِتَابَهُ، كَيْفَ يَحُلُّ بِهِ مِنْ بَأْسِهِ الْمُخْزِي لَهُ  
فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.  
رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ بَنِ مَالِكٍ،  
عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ كُفَارَ قُرَيْشٍ كَتَبُوا إِلَى  
ابْنِ أَبِيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ يُعِيدُ الْأَوْثَانَ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ،  
وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ: إِنَّكُمْ أَوْتِئْتُمْ  
صَاحِبَنَا وَإِنَّا نَفْسُكُمْ بِاللَّهِ لَتَقَاتِلَنَّهُ أَوْ [لَتُخْرِجَنَّهُ] أَوْ لَنَسِيرَنَّ  
إِلَيْكُمْ بِأَجْمَعِنَا، حَتَّى نَقْتُلَ مَقَاتِلَتَكُمْ وَ[نَسَبِيحَ] نِسَاءَكُمْ،  
فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عِبَدَةِ  
الْأَوْثَانَ، [اجْتَمَعُوا] لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ  
النَّبِيُّ ﷺ لَقِيَهُمْ فَقَالَ: «لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ  
الْمَبَالِغَ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا  
بِهِ أَنْفُسَكُمْ، تُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ؟» فَلَمَّا  
سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ تَفَرَّقُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ كُفَارَ قُرَيْشٍ،

خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ الْقَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرِ الَّذِينَ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ؛ لِلْجَوَارِ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَقَدَ لَهُمَا فِيمَا حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ، وَكَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي عَامِرِ عَقْدٌ وَحَلْفٌ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ الْقَتِيلَيْنِ قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! نُعِينُكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ مِمَّا اسْتَعَنْتَ بِنَا عَلَيْهِ، ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ - وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ - فَمَنْ رَجُلٌ يَغْلُو عَلَى هَذَا الْبَيْتِ، فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيَرِيحُنَا مِنْهُ؟ فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جِحَاشِ بْنِ كَعْبٍ أَحَدَهُمْ فَقَالَ: أَنَا لِذَلِكَ. فَصَعَدَ لِيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً كَمَا قَالَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَاتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ فَقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ.

فَلَمَّا اسْتَلَبْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ قَامُوا فِي طَلْبِهِ فَلَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ، فَقَالَ: رَأَيْتُهُ دَاخِلًا الْمَدِينَةَ، فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ، فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ بِمَا كَانَتْ يَهُودُ أَرَادَتْ مِنَ الْعَدْرِ بِهِ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالتَّهَيُّؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فَتَحَصَّنُوا مِنْهُ فِي الْحُصُونِ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَطْعِ النَّخْلِ وَالتَّحْرِيقِ فِيهَا، فَتَادَوْهُ: أَنْ يَا مُحَمَّدُ! قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَتُعِيبُهُ عَلَى مَنْ يَصْنَعُهُ، فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا؟. وَقَدْ كَانَ رَهْطٌ مِنْ بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزَرَجِ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُوفٍ وَوَدِيعَةُ وَمَالِكُ بْنُ أَبِي قُوفَلٍ وَسُوَيْدٌ وَدَاعِسٌ، قَدْ بَعَثُوا إِلَى بَنِي النَّضِيرِ أَنْ انْبُتُّوا وَتَمَنَّعُوا، فَإِنَّا لَنْ نُسْلِمَكُم، إِنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ، وَإِنْ خَرَجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ، فَتَرَبَّصُوا ذَلِكَ مِنْ نَصْرِهِمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا، وَقَدَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجْلِيَهُمْ وَيَكْفَ عَنْ دِمَائِهِمْ عَلَى أَنْ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا الْحَلَقَةَ. فَقَعَلَ. فَاحْتَمَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ الْإِبِلُ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَهْدِمُ بَيْتَهُ عَنْ إِبْجَافٍ بَابِهِ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ

فَكَتَبَتْ كُفَّارٌ قُرَيْشٍ بَعْدَ وَفْعَةِ بَذْرِ إِلَى الْيَهُودِ: إِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَلَقَةِ وَالْحُصُونِ، وَإِنَّكُمْ لَتَقَاتِلُنَّ مَعَ صَاحِبِنَا، أَوْ لَتَفْعَلُنَّ كَذَا وَكَذَا، وَلَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَدَمِ نِسَائِكُمْ شَيْءٌ - وَهِيَ الْخَلَائِلُ - فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ [أَجْمَعَتْ] بَنُو النَّضِيرِ بِالْعَدْرِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: اخْرُجْ إِلَيْنَا فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ وَلِيُخْرِجْ مِنَّا ثَلَاثُونَ حَبِيرًا حَتَّى نَلْتَقِيَ بِمَكَانِ الْمُنْصِفِ، [فَيَسْمَعُوا] مِنْكَ، فَإِنْ صَدَّقُوكَ وَآمَنُوا بِكَ آمَنَّا بِكَ. فَلَمَّا كَانَ الْعَدَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَا تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلَّا بِعَهْدٍ تُعَاهِدُونَنِي عَلَيْهِ». فَأَبَوْا أَنْ يُعْطَوْهُ عَهْدًا فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ عَدَا مِنَ الْعَدِ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بِالْكَتَائِبِ، وَتَرَكَ بَنِي النَّضِيرِ وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يُعَاهِدُوهُ فَعَاهَدُوهُ، فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ وَعَدَا إِلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالْكَتَائِبِ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ، فَجَلَّتْ بَنُو النَّضِيرِ وَاحْتَمَلُوا مَا أَقْلَتْ الْإِبِلُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ وَأَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ وَخَشَبِهَا، وَكَانَ نَحْلُ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا وَخَصَّهُ بِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْفَقْتُهُ عَلَيْهِ مِنْ خِيَلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يَقُولُ: بَغِيرِ قِتَالٍ، فَأَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَهَا لِلْمُهَاجِرِينَ، قَسَمَهَا بَيْنَهُمْ وَقَسَمَ مِنْهَا لِرَجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَا ذَوِي حَاجَةٍ، وَلَمْ يَقْسِمِ مِنَ الْأَنْصَارِ غَيْرَهُمَا، وَبَقِيَ مِنْهَا صَدَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي فِي أَيْدِي بَنِي فَاطِمَةَ<sup>(١)</sup>. وَلَنَذْكُرَ مُلْحَصَ غُرُورِ بَنِي النَّضِيرِ عَلَى وَجْهِ الْإِخْصَارِ، وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

#### [سَبَبُ غُرُورِ بَنِي النَّضِيرِ]

وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ فِيمَا ذَكَرَهُ أَصْحَابُ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ أَصْحَابُ بَيْتِ مَعُونَةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانُوا سَبْعِينَ، وَأَقْلَتْ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ قَتَلَ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ، وَكَانَ مَعَهُمَا عَهْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمَانٌ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ عَمْرُو، فَلَمَّا رَجَعَ أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ قَتَلْتَ رَجُلَيْنِ لِأَدْبِهِمَا». وَكَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي عَامِرٍ حَلْفٌ وَعَهْدٌ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ لِيَسْتَعِينَهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ الرَّجُلَيْنِ، وَكَانَتْ مَنَازِلُ بَنِي النَّضِيرِ ظَاهِرَ الْمَدِينَةِ عَلَى أُمِّيَالٍ مِنْهَا شَرَفِيهَا<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ فِي كِتَابِهِ السِّيَرَةِ: ثُمَّ

(١) أبو داود: ٤٠٤/٣ صححه الألباني في صحيح سنن أبي

داود (٢) الدرر في اختصار المغازي والسير: ١٨٠، ١٨١ وابن

هشام: ١٩٥/٣

سُيَعِدُّهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مَعَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ<sup>(٣)</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أَيُّ: حَتْمٌ لَا زِمَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاتُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ ذَلِكَ، وَسَلَطَ عَلَيْهِمْ رَسُولُهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَكَذَّبُوا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْبَشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

[مَا وَقَعَ مِنْ قَطْعِ التَّخِيلِ كَانَ بِإِذْنِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكْتَةٍ قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ اللَّيْنُ نَوْعٌ مِنَ التَّمْرِ وَهُوَ جَيِّدٌ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَهُوَ مَا خَالَفَ الْعَجْوَةَ وَالْبَرْزِيَّ مِنَ التَّمْرِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ كَثِيرُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: اللَّيْنَةُ أَلْوَانُ التَّمْرِ سِوَى الْعَجْوَةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هُوَ جَمِيعُ النَّخْلِ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ وَهُوَ الْبُورَةُ أَيْضًا، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا حَاصَرَهُمْ أَمَرَ بِقَطْعِ نَخِيلِهِمْ إِهَانَةً لَهُمْ وَإِرْهَابًا وَإِزْعَابًا لِقُلُوبِهِمْ، فَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ وَقَتَادَةَ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَبَّانٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: فَبَعَثَ بَنُو النَّضِيرِ يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّكَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ فَمَا بِالكَ تَأْمُرُ بِقَطْعِ الْأَشْجَارِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ، أَيُّ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ وَمَا تَرَكْتُمْ مِنَ الْأَشْجَارِ فَالْجَمِيعُ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ وَرِضَاؤِهِ، وَفِيهِ نَكَايَةٌ بِالْعَدُوِّ وَخِزْيٌ لَهُمْ، وَإِزْعَامٌ لَأَنُوفِهِمْ<sup>(٦)</sup>.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَهَى بَعْضُ الْمُهَاجِرِينَ بَعْضًا عَنْ قَطْعِ النَّخْلِ، وَقَالُوا: إِنَّمَا هِيَ مَعَانِمُ الْمُسْلِمِينَ، فَتَزَلَّ الْفُرَّانُ بِتَضَدِّقِي مَنْ نَهَى عَنْ قَطْعِهِ وَتَحْلِيلِ مَنْ قَطَعَهُ مِنَ الْإِثْمِ، وَإِنَّمَا قَطَعَهُ وَتَرَكُهُ بِإِذْنِهِ، وَقَدْ رَوَى نَحْوُ هَذَا مَرْفُوعًا<sup>(٧)</sup>. فَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ: يَسْتَتِرُونَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ. وَأَمَرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ فَحَاكَ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: قَطَعْنَا بَعْضًا

فَيَنْطَلِقُ بِهِ، فَخَرَجُوا إِلَى حَبِيرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ إِلَى الشَّامِ وَخَلَّوْا الْأَمْوَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةٌ يَصْعَقُهَا حَيْثُ يَشَاءُ، فَقَسَمَهَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ إِلَّا سَهْلَ بْنَ حَنْثَلٍ وَأَبَا دُجَانَةَ - سِمَاكَ بْنَ خَرْشَةَ - ذَكَرَا فَقَرَأَا فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: وَلَمْ يُسَلِّمْ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ إِلَّا رَجُلَانِ: يَامِينَ بْنُ عُمَيْرٍ بْنُ كَعْبٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ جِحَاشٍ وَأَبُو سَعْدِ بْنِ وَهَبٍ أَسْلَمَا عَلَى أُمُومَاهُمَا فَأَحْرَزَاهَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ آلِ يَامِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِيَامِينَ: «أَلَمْ تَرَ مَا لَقِيتُ مِنْ ابْنِ عَمِّكَ وَمَا هَمَّ بِهِ مِنْ شَأْنِي؟». فَجَعَلَ يَامِينَ بْنُ عُمَيْرٍ لِرَجُلٍ جُعْلًا عَلَى أَنْ يَقْتُلَ عَمْرُو بْنُ جِحَاشٍ فَقَتَلَهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَنَزَلَ فِي بَنِي النَّضِيرِ سُورَةُ الْحَشْرِ بِأَسْرِهَا<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ يَنْحُو مَا تَقَدَّمَ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي: بَنِي النَّضِيرِ ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ أَيُّ فِي مَدَّةِ حِصَارِكُمْ لَهُمْ وَقَصْرُهَا، وَكَانَتْ سِتَّةَ أَيَّامٍ مَعَ شِدَّةِ حُصُونِهِمْ وَمَنْعَتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَطَنُوا أَنَّهُمْ مَا لَعَنَهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أَيُّ: جَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيَسَّ لَهُمْ مِنَ الْفَوَائِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَائِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أَيُّ: الْخَوْفَ وَالْهَلَعَ وَالْجَزَعَ، وَكَفَيْ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ ذَلِكَ وَقَدْ حَاصَرَهُمُ الَّذِي نَصِرَ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿يَخْرُجُونَ بِيَوْمِهِمْ بِالْيَدِ الْيُمْنِيَّةِ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ابْنِ إِسْحَاقَ لِدَلِيلِكَ، وَهُوَ نَقْضُ مَا اسْتَحْسَنُوهُ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ وَتَحَمُّلِهَا عَلَى الْإِبِلِ. وَكَذَلِكَ قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: لَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْجَلَاءَ -

وَهُوَ النَّقْيُ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ - لَكَانَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَذَابٌ آخَرٌ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. قَالَهُ الزُّهْرِيُّ عَنْ عُرْوَةَ وَالسُّدِّيِّ وَابْنِ زَيْدٍ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ

(١) ابن هشام: ١٩٩/٣ - ٢٠٢ (٢) القرطبي: ٤/١٨ (٣)

الرازي: ٢٤٥/٢٩ (٤) الرازي: ٢٤٦/٢٩ (٥) الطبري: ٢٣/

٢٦٨ (٦) الطبري: ٢٧١/٢٣ فيه عن ابن إسحاق وهو مدلس

ولم يصرح (٧) الطبري: ٢٧١/٢٣

وَلَا يُمَانَعُ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾<sup>(١)</sup> أي: جميع البلدان التي تفتح هكذا فتحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفتيء ووجوهه. روى الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما آفأ الله على رسوله، مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان يئق على أهله منها نفقة سنته - وقال مرة: قوت سنته - وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل<sup>(٢)</sup>. هكذا أخرجه أحمد ههنا مختصراً، وقد أخرجه الجماعة في كتبه إلا ابن ماجة، وقد رويناه مطولاً<sup>(٣)</sup>.

وروى أبو داود رحمه الله عن مالك بن أوس قال: أرسل إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تعالى النهار، فجيئته فوجدته جالسا على سرير مفضيا إلى رماله فقال حين دخلت عليه: يا مالك! إنه قد دفأ أهل أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشيء فأقسم فيهم، قلت: لو أمرت غيري بذلك؟ فقال: خذه، فجاءه يرفأ فقال يا أمير المؤمنين! هل لك في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص؟ قال: نعم. فأذن لهم فدخلوا، ثم جاءه يرفأ فقال: يا أمير المؤمنين! هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلوا، فقال العباس وعلي: يا أمير المؤمنين! إفض بيني وبين هذا يعني عليا، فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين! إفض بينهما وأرحهما، قال مالك بن أوس: خيل إلي أنهما قدما أولئك التفر لذلك، فقال عمر رضي الله عنه اتبدا، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي ياديه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا تورث، ما تركنا صدقة» قالوا: نعم. ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكم بالله

وتركتنا بعضا، فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾<sup>(٤)</sup>.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق<sup>(٥)</sup>. وأخرجه صاحب الصحيح بنحوه<sup>(٦)</sup>. ولفظ البخاري عن ابن عمر، قال: حاربت النضير وقرظته فأجلى بني النضير، وأقر قرظته ومن عليهم حتى حاربت قرظته، فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لجحوا بالنبي ﷺ فأمتهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود بالمدينة<sup>(٧)</sup>. ولهما أيضا عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، وقطع - وهي البويرة - فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ رَكَّبْتُمُوهَا فَإِيْمَةً عَلَىٰ أَوَّلِهَا فَيَذَنَ اللَّهُ وَيُخْرِىَ الْفَسِقِينَ﴾<sup>(٨)</sup>. قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد وبعد بدر معونة.

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٩)</sup> ما آفأ الله على رسوله من أهل القرى لله وللرسول ولذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

### [أموال الفتيء ومصارفها]

يقول تعالى مبينا ما الفتيء وما صفته وما حكمه؟ فالفتيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يوجب المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصالحة، بل نزل أولئك من الرغب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبه رسول الله ﷺ، فأفأه الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء، فردة على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير ﴿فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعني: الإبل ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو قدير لا يغالب

(١) النسائي في الكبرى: ٤٨٣/٦ (٢) أحمد: ٧/٢ (٣) مسلم: ١٣٦٥/٣ (٤) فتح الباري: ٣٨٣/٧ (٥) فتح الباري: ٣٨٣/٧ (٦) فتح الباري: ٤٩٨/٨ (٧) فتح الباري: ١٣٧٦/٣ وأبو داود: ٣٧١/٣ وتحفة الأحوذى: ٣٨١/٥ والنسائي: ١٣٢/٧



سُورَةُ الْحَشْرِ

٥٤٧

سُورَةُ الْحَشْرِ

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ أَلْدَبْرَةُ مَا لَا يُصِرُّونَ ﴿١٣﴾ لَأَسْتَأْذِنَ شِدْرَ رَبِّهِمْ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٤﴾ لَا يَقْبَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَدِّمْ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ سَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرَّبُوا قِوَامًا بِأَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾

وَالْمُتَعَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُتَعَرِّبَاتِ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَلَمَّا بَلَغَ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ فِي النَّبْتِ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَغْقُوبَ، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: بَلَّغْنِي أُنْكَ قُلْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، قَالَ: مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَتْ: إِنِّي لَأَقْرَأُ مَا بَيْنَ لَوْحِيهِ فَمَا وَجَدْتُهُ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ قَرَأْتِهِ فَقَدْ وَجَدْتِهِ، أَمَا قَرَأْتَ: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحِذُّوهُ وَمَا نَهَكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْهُ. قَالَتْ: إِنِّي لَأَظُنُّ أَهْلَكُمْ يَفْعَلُونَهُ، قَالَ: أَذْهَبِي فَانْظُرِي، فَذَهَبَتْ فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا، قَالَ: لَوْ كَانَ كَذَا لَمْ تَجِئِي عِنَّا<sup>(٣)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

الَّذِي يَأْذِنُهُ تَقْوَمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ هَلْ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً» فَقَالَا: نَعَمْ. فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ حَصَرَ رَسُولَهُ بِخَاصَّةٍ لَمْ يَخْصُصْ بِهَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مِثْلِ شَيْءٍ قَلِيلٍ﴾ فَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَفَاءً عَلَى رَسُولِهِ أَمْوَالُ بَنِي النُّضَيْرِ فَوَاللَّهِ! مَا اسْتَأْثَرَ بِهَا عَلَيْكُمْ وَلَا أَخْرَزَهَا دُونَكُمْ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْخُذُ مِنْهَا نَفَقَةً سَنَةً - أَوْ نَفَقَتَهُ وَنَفَقَةَ أَهْلِهِ سَنَةً - وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ أَسْوَةَ الْمَالِ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَوْلِيكَ الرَّهْطِ فَقَالَ: أَسْتَدْعِيكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي يَأْذِنُهُ تَقْوَمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ هَلْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيِّ وَالْعَبَّاسِ فَقَالَ: أَسْتَدْعِيكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي يَأْذِنُهُ تَقْوَمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ هَلْ تَعْلَمَانِ ذَلِكَ؟ قَالَا: نَعَمْ. فَلَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَنْتَ وَهَذَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، تَطْلُبُ أَنْتَ مِيرَاثَكَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، وَيَطْلُبُ هَذَا مِيرَاثَ أُمْرَائِهِ مِنْ أَبِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةً» وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُ لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ، فَوَلَّيَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا تَوَفَّى، قُلْتُ: أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَلِيُّ أَبِي بَكْرٍ فَوَلَّيْتُهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَلِيَهَا، فَجِئْتُ أَنْتَ وَهَذَا، وَأَنْتُمَا جَمِيعٌ وَأَمْرُكُمَا وَاحِدٌ فَسَأَلْتُمَانِيهَا، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتُمَا فَإِنَّا أَدْعُوهَا إِلَيْكُمَا عَلَى أَنْ عَلَيْكُمَا عَهْدُ اللَّهِ أَنْ تَلْبِيَاهَا بِالَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْبِيهَا، فَأَخَذْتُمَاهَا مِنِّي عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ جِئْتُمَانِي لَأَقْضِيَ بَيْنَكُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ! لَا أَقْضِي بَيْنَكُمَا بِغَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّى تَقْوَمَ السَّاعَةُ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَرُدَّاهَا إِلَيَّ<sup>(١)</sup>. أَخْرَجُوهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ بِهِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ أَيْ جَعَلْنَا هَذِهِ الْمَصَارِفَ لِمَالِ الْفَقِيءِ كَيْلًا يَبْقَى مَا كَلَّةٌ يَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بِمَحْضِ الشَّهَوَاتِ وَالْآرَاءِ، وَلَا يَصْرِفُونَ مِنْهُ شَيْئًا إِلَى الْفُقَرَاءِ.

[الْأَمْرُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ وَيَنْهَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحِذُّوهُ وَمَا نَهَكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ أَيْ مَهْمَا أَمَرَكُمْ بِهِ فَافْعَلُوهُ، وَمَهْمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ شَرٍّ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْوَأَشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَمَتِّمَاتِ

(١) أبو داود: ٣٦٥ (٢) فتح الباري: ١٣/٢٩٠ ومسلم: ٣/

١٣٧٧ وتحفة الأحوذى: ٥/٢٣٣ والنسائي: ٧/١٣٦ (٣)

أحمد: ١/٤٣٣ (٤) فتح الباري: ٨/٤٩٨ ومسلم: ٣/١٦٧٨

أَرَهُ فِي الْكُتُبِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حِينَ خَرَجَ مَعَهُ إِلَى الْوَلِيدِ، قَالَ: دَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْصَارَ أَنْ يَنْقَطِعَ لَهُمُ الْبُحْرَيْنِ. قَالُوا: لَا، إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ لِإِخْوَانِنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِثْلَهَا قَالَ: «إِنَّمَا لَا، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي، فَإِنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ بَعْدِي أَثَرُهُ»<sup>(٤)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَتْ الْأَنْصَارُ: أَفَسِمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخْلِ، قَالَ: «لَا». فَقَالُوا: أَتَكْفُونَنَا الْمَوْتَةَ وَتُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ. قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا<sup>(٥)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ دُونُ مُسْلِمٍ.

[كَانَ الْأَنْصَارُ لَا يَحْسُدُونَ الْمُهَاجِرِينَ]

«وَلَا يَحْسُدُونَ فِي ضُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا» أَيُّ وَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَسَدًا لِلْمُهَاجِرِينَ فِيمَا فَضَّلَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ، وَالتَّقْدِيمِ فِي الذِّكْرِ وَالرُّتْبَةِ. وَقَوْلُهُ: «مِمَّا أُوتُوا» قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي فِيمَا أُعْطِيَ إِخْوَانُهُمْ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ.

[يُثَارُ الْأَنْصَارُ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» يَعْنِي: حَاجَةً أَيْ يُقَدِّمُونَ الْمَحَاطَبَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَيَبْذِرُونَ بِالنَّاسِ قِبَلَهُمْ فِي حَالِ احتياجهم إِلَى ذَلِكَ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جَهْدُ الْمُثَلِّ»<sup>(٦)</sup> وَهَذَا الْمَقَامُ أَعْلَى مِنْ حَالِ الَّذِينَ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْهٍ» [الإنسان: ٨] وَقَوْلُهُ: «وَعَاقَى أَلْمَالِ عَلَى حَيْهٍ» [البقرة: ١٧٧] فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَصَدَّقُوا وَهُمْ يُجِبُونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ وَلَا ضَرُورَةٌ بِهِ، وَهَؤُلَاءِ أَثَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خَصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا أَنْفَقُوهُ، وَمِنْ هَذَا الْمَقَامِ تَصَدَّقَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِجَمِيعِ مَالِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا الْمَاءُ الَّذِي عَرَضَ عَلَى عِكْرِمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ فَكُلُّ مِنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إِلَى

أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» أَيِ اتَّقَوْهُ فِي امْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَأَبَاهُ، وَارْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُ وَنَهَاهُ.

«لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْرُوهَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ»<sup>(٩)</sup> وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحْسُدُونَ فِي ضُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّ شَيْئًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»<sup>(١٠)</sup> وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ<sup>(١١)</sup>

[بَيَانُ الْمُسْتَحَقِّينَ الْآخَرِينَ لِأَمْوَالِ الْفَيْءِ، وَفِيهِ فَضْلُ

الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا حَالَ الْفُقَرَاءِ الْمُسْتَحَقِّينَ لِمَالِ الْفَيْءِ أَنَّهُمْ «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا» أَيُّ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَخَالَفُوا قَوْمَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ «وَيَصْرُوهَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» أَيُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَدَّقُوا قَوْلَهُمْ بِفِعْلِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ سَادَاتُ الْمُهَاجِرِينَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مَا دَخَا لِلْأَنْصَارِ وَمُيَبَّنًا فَضْلَهُمْ وَشَرَفَهُمْ وَكَرَمَهُمْ، وَعَدَمَ حَسَدَهُمْ وَإِثَارَهُمْ مَعَ الْحَاجَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أَيُّ سَكَنُوا دَارَ الْهَجْرَةِ مِنْ قَبْلِ الْمُهَاجِرِينَ وَآمَنُوا قَبْلَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ. قَالَ عُمَرُ: وَأَوْصِي الْخَلِيفَةُ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ وَيَحْفَظَ لَهُمْ كَرَامَتَهُمْ، وَأَوْصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلُ، أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَأَنْ يَغْفُو عَنْ مُسِيئَتِهِمْ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ هُنَا أَيْضًا<sup>(١٢)</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» أَيُّ مِنْ كَرَمِهِمْ وَشَرَفِ أَنْفُسِهِمْ يُجِبُونَ الْمُهَاجِرِينَ وَيُؤَاوِسُونَهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مُوَاسَاةٍ فِي قَلِيلٍ، وَلَا أَحْسَنَ بَذْلًا فِي كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمَوْتَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَةِ، حَتَّى لَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ. قَالَ: «لَا، مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ»<sup>(١٣)</sup>. لَمْ

(١) فتح الباري: ٤٩٨/٨ ومسلم: ٩٧٥/٢ (٢) فتح الباري:

٤٩٩/٨ (٣) أحمد: ٢٠٠/٣ (٤) فتح الباري: ١٤٦/٧ (٥)

فتح الباري: ١١/٥ (٦) أبو داود: ١٤٦/٢ (٧) تحفة

الأحادي: ١٦١/١٠

الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ فُقَرَاؤُهُمْ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ، وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ، ثُمَّ الْأَنْصَارُ، ثُمَّ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ بَرَاءةٍ: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ هُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِأَثَارِهِمُ الْحَسَنَةِ وَأَوْصَافِهِمُ الْجَمِيلَةِ، الدَّاعُونَ لَهُمْ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أَيُّ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا﴾ أَيُّ بَعْضًا وَحَسَدًا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وَمَا أَحْسَنَ مَا اسْتَبْتَضَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الرَّافِضِيَّ الَّذِي يَسُبُّ الصَّحَابَةَ لَيْسَ لَهُ فِي مَالِ الْفَيْءِ نَصِيبٌ، لِعَدَمِ اتِّصَافِهِ بِمَا مَدَحَ اللَّهُ بِهِ هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ فَسَبُّهُمْ، ثُمَّ قَرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ...﴾ (الآية ٦).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلَوْنَ أَلْدَبَرُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿لَئِنْ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لَا يَقْنَلُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ خَشِيتُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿لَا كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتَا آلِهَةٍ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ

صَاحِبِهِ، وَهُوَ جَرِيحٌ مُثْقَلٌ آخُوْجٌ مَا يَكُونُ إِلَى الْمَاءِ، فَرَدَّهُ الْآخَرُ إِلَى الثَّالِثِ، فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّالِثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَسْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَصَابَنِي الْجَهْدُ، فَأَرْسَلْ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُ هَذَا، اللَّيْلَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَذَا ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا تَدْخِرِيهِ شَيْئًا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ! مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصَّبِيَّةِ. قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ الْعِشَاءَ فَتَوَمِّمِمْهُ وَتَعَالَى فَاطْفِئِ السَّرَاجَ، وَنَطْوِي بَطُونَنَا اللَّيْلَةَ، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ عَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَقَدْ عَجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - أَوْ ضَحِكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ»<sup>(١)</sup> وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيُؤَيِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ عَنْ فَضِيلِ بْنِ عَزْوَانَ بِهِ نَحْوَهُ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ تَسْمِيَةُ هَذَا الْأَنْصَارِيِّ بِأَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أَيُّ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّحِّ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ. رَوَى أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ»<sup>(٣)</sup> انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ هِلَالٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونُ قَدْ هَلَكْتُ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَأَنَا رَجُلٌ شَحِيحٌ، لَا أَكَادُ أَنْ أُخْرَجَ مِنْ يَدَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَيْسَ ذَلِكَ بِالشُّحِّ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، إِنَّمَا الشُّحُّ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَنْ تَأْكُلَ مَالَ أَخِيكَ ظُلْمًا، وَلَكِنْ ذَاكَ الْبُخْلُ، وَبِشَيْءٍ الشَّيْءِ الْبُخْلُ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ هَؤُلَاءِ هُمُ

(١) فتح الباري: ٥٠٠/٨ (٢) فتح الباري: ١٤٩/٧ ومسلم: ١٦٢٤/٣ و١٦٢٥ وتحتفة الأحوذى: ١٩٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٤٨٦/٦ (٣) أحمد: ٣٢٣/٣ (٤) مسلم: ٤/١٩٩٦ (٥) الطبري: ٢٩/٢٨ في إسناده المسعودي المختلط وقال الهيثمي في المجمع ١٢٥/٧-١٢٦: رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن أبي مريم وهو ضعيف. (٦) روى مسلم نحوه: ٢٣١٧/٤

بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾  
[وَعَدُ الْمُنَافِقِينَ الْكِذْبَ لِبَنِي النَّصِيرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْرَابِهِ، حِينَ بَعَثُوا إِلَى يَهُودِ بَنِي النَّصِيرِ يَعِدُونَهُمُ النَّصْرَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيُّ لَكَادِبُونَ فِيمَا وَعَدُوهُمْ بِهِ: إِمَّا لَا يُنْهَمُ قَالُوا لَهُمْ قَوْلًا، وَمِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ لَا يَقُولُوا لَهُمْ بِهِ. وَإِمَّا لَا يُنْهَمُ لَا يَقَعُ مِنْهُمْ الَّذِي قَالُوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ قَوْلُهُمْ لَا يُصْرِحُهُمْ﴾ أَيُّ لَا يَقْبَلُونَ مَعَهُمْ ﴿وَلَكِنْ نَصْرُهُمْ﴾ أَيُّ قَاتَلُوا مَعَهُمْ ﴿لِيُؤْثِرُوا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُصْرَحُوا﴾ وَهَذِهِ بَشَارَةٌ مُسْتَعْلَةً بِنَفْسِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ يَخَافُونَ مِنْكُمْ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ اللَّهِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا فِرَقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُغْنِيكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ يَعْني أَنَّهُمْ مِنْ جُنُبِهِمْ وَهَلَعِهِمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُوَاجَهَةِ جَيْشِ الْإِسْلَامِ بِالْمُبَارَزَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ، بَلْ إِمَّا فِي حُصُونٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ مُحَاصِرِينَ، فَيَقَاتِلُونَ لِلدَّفْعِ عَنْهُمْ ضَرُورَةً.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ سَدِيدٌ﴾ أَيُّ عَدَاوَتُهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ شَدِيدَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمْ بَعْضٌ بِأَسْ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَحْصِيهِمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أَيُّ تَرَاهُمْ مُجْتَمِعِينَ فَتَحْصِيَهُمْ مُؤْتَلِفِينَ، وَهُمْ مُتَخِلِفُونَ غَايَةَ الْإِخْتِلَافِ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: يَعْني أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرَّبُوا بَأْسَهُمْ وَأَمْرَهُمْ وَكَلَّمَ عَذَابُ آلِهِمْ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَذَلِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْني يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعٍ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ<sup>(٢)</sup>.

[مَثَلُ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ فِي هَذِهِ الْقُضِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ يَعْني مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ فِي اغْتِرَابِهِمْ بِالَّذِينَ وَعَدُوهُمْ النَّصْرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَقَوْلُ

فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَوُا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَاهَا عَلَى الْقُرْآنِ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشَعًا مُتَضَدًّا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ

الْمُنَافِقِينَ لَهُمْ: لَئِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ، ثُمَّ لَمَّا حَقَّتْ الْحَقَائِقُ وَجَدَّ بِهِمُ الْحِصَارُ وَالْقِتَالُ، تَخَلَّوْا عَنْهُمْ وَأَسْلَمُوهُمْ لِلْهَلَكَةِ، وَمِثْلُهُمْ فِي هَذَا: كَمِثْلِ الشَّيْطَانِ إِذْ سَوَّلَ لِلْإِنْسَانِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - الْكُفْرَ، فَإِذَا دَخَلَ فِيمَا سَوَّلَ لَهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَتَنَصَّلَ، وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ فَكَانَ عَاقِبَةُ الْأَمْرِ بِالْكَفْرِ وَالْفَاعِلُ لَهُ، وَمَصِيرُهُمَا إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ جَزَاءُ كُلِّ ظَالِمٍ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَوُا اللَّهَ وَلَتَنْظُرَ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالِاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُمَاءُ عُرَاةٌ مُجْتَابِي الثَّمَارِ - أَوْ الْعَبَاءِ - مُتَقَلِّدِي السُّبُوفِ، عَامَتُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ، بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍّ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، قَالَ: فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِإِلَاقَةٍ فَأَذَّنَ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وَفَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِيْنَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ -: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفَّهُ تَعْجُزُ عَنْهَا، بَلَّ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَتِيَابَ، حَتَّى رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ مُذْمَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ»<sup>(١)</sup> انفرد بإخراجه مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ<sup>(٢)</sup>، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَمْرٌ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ تَشْمَلُ فِعْلَ مَا بِهِ أَمْرٌ، وَتَرْكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أَيُّ حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَانْظُرُوا مَاذَا أَدَّخَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ لِيَوْمِ مَعَادِكُمْ وَعَرَضِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تَأْكِيدٌ ثَانٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ اعْلَمُوا أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِكُمْ جَلِيلٌ وَلَا حَقِيرٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أَيُّ لَا تَنْسُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَنْسِيَكُمْ الْعَمَلَ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمْ الَّتِي تَتَفَعَّلُكُمْ فِي مَعَادِكُمْ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أَيُّ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، هَالِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

[لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أَيُّ لَا يَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَنْجَلْنَاهُمُ النَّارَ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَنَّا هُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنَى قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْفُجَّارِ؟ فِي آيَاتٍ آخَرَ دَلَالٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُكْرِمُ الْأَبْرَارَ وَيُهِينُ الْفُجَّارَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أَيُّ النَّاجُونَ السَّالِمُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خُسْفًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ<sup>(٤)</sup> هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>(٥)</sup> هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ<sup>(٦)</sup>

[بَيَانُ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُعْظَمًا لِأَمْرِ الْقُرْآنِ وَمُبَيِّنًا عُلُوَّ قَدْرِهِ، وَأَنَّهُ يَبْغِي أَنْ تَخْشَعَ لَهُ الْقُلُوبُ وَتَتَصَدَّعَ عِنْدَ سَمَاعِهِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ الْحَقِّ وَالْوَعِيدِ الْأَكِيدِ ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خُسْفًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أَيُّ فَإِذَا كَانَ الْجَبَلُ فِي غِلْظَتِهِ وَقَسَاوَتِهِ، لَوْ فَهَمَ هَذَا الْقُرْآنُ فَتَدَبَّرَ مَا فِيهِ، لَخْشَعَ وَتَصَدَّعَ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ يَا أَيُّهَا الْبَشَرُ أَنْ لَا تَلِينَ قُلُوبُكُمْ وَتَخْشَعَ وَتَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَدْ فَهَمْتُمْ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَتَدَبَّرْتُمْ كِتَابَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَوَاتِرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا عَمِلَ لَهُ الْمُنِيرُ، وَقَدْ كَانَ يَوْمَ الْخُطْبَةِ يَقِفُ إِلَى جَانِبِ جَذْعٍ مِنْ جُدُوعِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا وَضِعَ الْمُنِيرُ أَوَّلَ مَا وَضِعَ وَجَاءَ

النَّبِيِّ ﷺ لِيُخَاطَبَ فَجَاوَزَ الْجِدْعَ إِلَى نَحْوِ الْمُنِيرِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَنَ الْجِدْعُ وَجَعَلَ يَبْنُ كَمَا يَبْنُ الصَّبِيُّ الَّذِي يَسْكُنُ، لِمَا كَانَ يَسْمَعُ مِنَ الذَّكْرِ وَالْوَحْيِ عِنْدَهُ، فِيهِ بَعْضُ رَوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بَعْدَ إِيرَادِهِ: فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَسْتَأْذِنُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْجِدْعِ<sup>(١)</sup> وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ إِذَا كَانَتِ الْجِبَالُ الصُّمُّ لَوْ سَمِعَتْ كَلَامَ اللَّهِ وَفَهَمَتْهُ، لَخَشَعَتْ وَتَصَدَّعَتْ مِنْ خَشْيَتِهِ، فَكَيْفَ بِكُمْ وَقَدْ سَمِعْتُمْ وَفَهَمْتُمْ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلُمُوتٌ...﴾ الْآيَةُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَيُّ لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ لَمَّا يَنْفَجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْفَجَرُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْفَجَرُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

#### [تَمْجِيدُ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ لِلْوُجُودِ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَبَاطِلٌ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَيُّ يَعْلَمُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ الْمَشَاهِدَاتِ لَنَا وَالْغَايِبَاتِ عَنَّا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، مِنْ جَلِيلٍ وَخَفِيرٍ، وَصَغِيرٍ وَكَبِيرٍ حَتَّى الذَّرُّ فِي الظُّلُمَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الشَّامِلَةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَهُوَ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ فَضَّلَ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ أَيُّ الْمَالِكِ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَصَرِّفِ فِيهَا بِلَا مُمَانَةٍ وَلَا مُدَافَعَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ قَالَ وَهَبُ ابْنِ مُثَنَّبٍ: أَيُّ الطَّاهِرِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَيُّ الْمُبَارَكِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: تُقَدِّسُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ<sup>(٣)</sup>.

﴿السَّلَامُ﴾ أَيُّ مِنْ جَمِيعِ الْغُيُوبِ وَالتَّقَاتِصِ، لِكَمَالِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:

#### [كُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لِلَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كَقَوْلِهِ

(١) فتح الباري: ٦/٦٩٦ والدارمي: ١/٣٥، ٣٤ (٢) الطبري: ٢٣/٣٠٢ الدر المنثور: ٨/١٢٣ الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٤) الدر المنثور: ٨/١٢٣ (٥) الطبري: ٢٣/٣٠٣ (٦) الطبري: ٢٣/٣٠٣ (٧) البغوي: ٤/٣٢٦ (٨) مسلم: ٤/٢٠٢٣ (٩) فتح الباري: ١١/٢١٨ ومسلم: ٤/٢٠٦٣

سُورَةُ الْمُحْتَجَّةِ

٥٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ  
إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ  
وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ  
وَإِنِّي أَخْفِيْتُمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ  
وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١ إِنْ  
يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَالسِّبْغَ  
بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ  
يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ  
كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ  
إِنَّا بَرَاءٌ وَأَنْتُمْ مَعَكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْبَىٰ وَإِنَّا  
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۝٤ إِلَّا  
قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ  
رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَكَ مَا هَدَيْتَنَا وَتَكُنْ لَنَا آيَةً وَأَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥

تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ  
إِلَّا يَسْجُدُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾  
[الإسراء: ٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَي فَلَا يُرَامُ  
جَنَابُهُ ﴿الْمُحْكِمُ﴾ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.  
أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحُسْرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير سورة الممتحنة وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ  
بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ  
تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَإِنِّي أَخْفِيْتُمْ  
بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ  
يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ  
كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ  
إِنَّا بَرَاءٌ وَأَنْتُمْ مَعَكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُرْبَىٰ وَإِنَّا  
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۝٤ إِلَّا  
قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ  
رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَكَ مَا هَدَيْتَنَا وَتَكُنْ لَنَا آيَةً وَأَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥

[سَبَبُ نَزُولِ سُورَةِ الْمُحْتَجَّةِ]

كَانَ سَبَبُ نَزُولِ صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ قِصَّةَ حَاطِبِ  
ابْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ حَاطِبًا هَذَا كَانَ رَجُلًا مِنْ  
الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ أَيْضًا، وَكَانَ لَهُ بِمَكَّةَ  
أَوْلَادٌ وَمَالٌ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْفُسِهِمْ، بَلْ كَانَ حَلِيمًا  
لِعُمَيْانَ، فَلَمَّا عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا نَقَضَ  
أَهْلُهَا الْعَهْدَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّجْهِيزِ لِعَزْوِهِمْ  
وَقَالَ: «اللَّهُمَّ! عَمِّ عَلَيْهِمْ خَيْرَنَا». فَعَمَدَ حَاطِبٌ هَذَا  
فَكَتَبَ كِتَابًا وَبَعَثَهُ مَعَ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ،  
يُعَلِّمُهُمْ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوِهِمْ، لِيَتَّخِذَ  
بَذَلِكَ عِنْدَهُمْ يَدًا، فَأَطَاعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ اسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِ الْمَرْأَةِ فَأَخَذَ  
الْكِتَابَ مِنْهَا، وَهَذَا بَيِّنٌ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ:  
أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ - وَقَالَ مَرَّةً: إِنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ  
أَبِي رَافِعٍ أَخْبَرَهُ - أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:  
بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُبَيْرُ وَالْمُذَنَّبُ فَقَالَ: «انْطَلِقُوا  
حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ فَإِنَّ بِهَا طَبِيعَتَهُ مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ

مِنْهَا» فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بَيْنَا حَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا  
نَحَرٌ بِالطَّبِيعَةِ قُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، قَالَتْ: مَا مَعِيَ  
كِتَابٌ، قُلْنَا: لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ تَلْقَيْنَ الثِّيَابَ، قَالَ:  
فَأَخْرَجَتِ الْكِتَابَ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَخَذْنَا الْكِتَابَ فَأَتَيْنَا بِهِ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى...  
(أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) بِمَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ! مَا هَذَا؟»  
قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأًا مُلْصِقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ  
أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ  
قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ بِمَكَّةَ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ  
مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي،  
وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ  
بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ صَدَقَكُمْ». فَقَالَ  
عُمَرُ: دَعْنِي أَضْرِبَ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ إِلَى  
أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». وَهَكَذَا

[الحج: ٤٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أَيِ إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِي بَاغِينَ لِمَرْضَاتِي عَنْكُمْ، فَلَا تَوَالُوا أَعْدَائِي وَأَعْدَاءَكُمْ، وَقَدْ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ حَقًّا عَلَيْكُمْ وَسَخَطًا لِدِينِكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شِيرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أَيِ تَعْمَلُونَ ذَلِكَ وَأَنَا الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ وَالظَّاهِرِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ① إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالشُّوْءِ أَيِ لَوْ قَدَرُوا عَلَيْكُمْ لَمَا اتَّقَوْا فِيكُمْ مِنْ أَدَى يَنَالُونَكُمْ بِهِ بِالْمَقَالِ وَالْقَعَالِ ﴿وَوَدُّوا أَنْ تُكْفَرُوا﴾ أَيِ وَتَحْرُصُونَ عَلَى أَنْ لَا تَتَالُوا خَيْرًا، فَهُمْ عَدَاؤُهُمْ لَكُمْ كَامِنَةٌ وَظَاهِرَةٌ، فَكَيْفَ تُوَالُونَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ؟ وَهَذَا تَهْيِيجٌ عَلَى عَدَاؤِهِمْ أَيْضًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيِ قَرَابَاتِكُمْ لَا تَنْفَعُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ سُوءًا، وَتَنْفَعُهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ إِذَا أَرْضَيْتُمُوهُمْ بِمَا يُسَخِطُ اللَّهُ، وَمَنْ وَافَقَ أَهْلَهُ عَلَى الْكُفْرِ لِيَرْضِيَهُمْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ عَمَلُهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ قَرَابَتُهُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَوْ كَانَ قَرِيبًا إِلَى نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ» فَلَمَّا قَفَى دَعَاهُ فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» ②. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ ③.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ إِلَّا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ④ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِرُ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑤ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⑥

لِلْمُسْلِمِينَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِهِ فِي

أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا ابْنَ مَاجَهَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ بِهِ، وَزَادَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَعَارِي: فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وَقَالَ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ: قَالَ عَمْرُو: وَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وَقَالَ: لَا أَذْرِي الْآيَةَ فِي الْحَدِيثِ أَوْ قَالَ عَمْرُو: قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى ابْنُ الْمَدِينِيِّ: قِيلَ لِسُفْيَانَ: فِي هَذَا نَزَلَتْ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؟ فَقَالَ سُفْيَانُ: هَذَا فِي حَدِيثِ النَّاسِ حِفْظُهُ مِنْ عَمْرُو، مَا تَرَكْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَلَا أَذْرِي أَحَدًا حَفِظَهُ غَيْرِي ①.

[الْأَمْرُ بِعَدَاوَةِ الْكُفَّارِ وَتَرْكِ مَوَالِيهِمْ]

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوُا إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يَعْنِي الْمُسْرِكِينَ وَالْكُفَّارَ الَّذِينَ هُمْ مُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ شَرَعَ اللَّهُ عَدَاؤَهُمْ وَمُضَارَمَتَهُمْ، وَنَهَى أَنْ يَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ وَأَصْدِقَاءَ وَأَجَلَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وَهَذَا تَهْلِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِمَّنْ الذِّمَّةُ أُنْفُتْ أَلَيْسَ لِكُلِّ فِتْنَةٍ كُفَّارٌ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا عَلَيْكُمْ مَغْلَقًا يُمْنًا﴾ [النساء: ١٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ فَتَنَةَ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وَلِهَذَا قِيلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُذْرٌ حَاطِبٍ، لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مُضَانَعَةً لِقُرَيْشٍ، لِأَجْلِ مَا كَانَ لَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَيَتَاكُمُ﴾ هَذَا مَعَ مَا قَبْلَهُ مِنَ التَّهْيِيجِ عَلَى عَدَاؤِهِمْ وَعَدَمِ مَوَالِيهِمْ، لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الرُّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، كَرَاهَةً لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أَيِ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيْمَانُكُمْ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ بَغْيًا حَتَّىٰ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾

(١) فتح الباري: ١٦٦/٦ و ٥٩٢/٧ و ٥٠٢/٨ و مسلم: ١٩٤١/٤  
 وأبو داود: ١٠٨/٣ و تحفة الأحوذى: ١٩٨/٩ و النسائي في  
 الكبرى: ٤٨٧/٦ (٢) أحمد: ٢٦٨/٣ (٣) مسلم: ١٩١/١  
 وأبو داود: ٩٠/٥



## تَبْرِيهُمْ عَنْ قَوْمِهِمُ الْكَفَّارِ

يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ بِمُصَارَمَةِ الْكَافِرِينَ وَعَدَاوَتِهِمْ وَمُجَانِبَتِهِمْ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أَيِ وَاتَّبَاعِهِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ﴾ أَيِ تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ ﴿وَمِمَّا تَقُولُونَ مِنْ دُورِ اللَّهِ كُفْرًا يَكُفُّ﴾ أَيِ بِدِينِكُمْ وَطَرِيقِكُمْ ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ بِعَيْنِي وَقَدْ شَرَعْتَ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ مِنَ الْآنَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ فَتَحْنُ أَبَدًا نَبْرًا مِنْكُمْ وَتُبْغِضُكُمْ ﴿حَتَّى تَقُومُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أَيِ إِلَى أَنْ تُوَحِّدُوا اللَّهَ فَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مَعَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَنَادِيدِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ﴾ أَيِ لَكُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَأَسَّوْنَ بِهَا إِلَّا فِي اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِياهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَدْعُونَ لِأَبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ وَاسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ وَيَقُولُونَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا كَانَتْ لِلتَّيْبِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِياهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْفَى حِيلَةٍ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيِ لَيْسَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ أُسْوَةٌ أَيِ فِي الْاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ، هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَتَنَادَوْا وَمَقَاتِلُ ابْنُ حَيَّانَ، وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ حِينَ فَارَقُوا قَوْمَهُمْ وَتَبَرَّعُوا مِنْهُمْ، فَلَجَّأُوا إِلَى اللَّهِ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أَيِ تَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ وَسَلَّمْنَا أُمُورَنَا إِلَيْكَ وَقَوَّضْنَاها إِلَيْكَ ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أَيِ الْمَعَادُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ لَا تُعَذِّبْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَلَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ فَيَقُولُوا: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ عَلَى حَقٍّ مَا أَصَابَهُمْ هَذَا<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ. وَقَالَ قَتَادَةُ:

## سُورَةُ الْمَمْتَحَنَةِ

٥٥٠

## سُورَةُ الْمَمْتَحَنَةِ

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَّبِعِ الْآيَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَى كُفْرَ اللَّهِ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوهُمْ مِّنْ دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَى كُفْرَ اللَّهِ عَنِ الَّذِينَ قَبَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوهُمْ مِّنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَتَاوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

لَا تَظْهَرُهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا بِذَلِكَ، يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ظَهَرُوا عَلَيْنَا لِحَقِّ هُمْ عَلَيْهِ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا تُسَلِّطُهُمْ عَلَيْنَا فَيَفْتِنُونَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْرِضْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيِ وَاسْتَرْ ذُنُوبَنَا عَنْ غَيْرِكَ، وَاعْفُ عَنْهَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أَيِ الَّذِي لَا يُضَامُ مِنْ لَدَى جَنَابِكَ ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ، وَشَرْعِكَ وَقَدْرِكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وَهَذَا تَأَكِيدُ لِمَا تَقَدَّمَ وَمُسْتَشْنَى مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ أَيْضًا، لِأَنَّ هَذِهِ الْأُسْوَةَ الْمُثَبَّتَةَ هَهُنَا هِيَ الْأُولَى بِعَيْنِهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تَهْيِيجُ إِلَى ذَلِكَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ وَالْمَعَادِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّبِعِ الْآيَاتِ﴾ أَيِ عَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَكْهَرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَعَلِيُّ

حَمِيدٌ [إبراهيم: ٨] وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿لَعَنَ﴾ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي غِنَاهُ وَهُوَ اللَّهُ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَبْغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفَاءٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿حَمِيدٌ﴾ الْمُسْتَحْمَدُ (\*) إِلَى خَلْقِهِ، أَيْ هُوَ الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَنْتَكِرَ وَيَنْ أَلِيزِينَ عَادِيَتِهِمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) لَا يَنْهَكُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوهُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجَكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)

[عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْدَائِهِمْ مَوَدَّةً] يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ بِعَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ يَنْتَكِرَ وَيَنْ أَلِيزِينَ عَادِيَتِهِمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ أَيْ مَحَبَّةً بَعْدَ الْبُغْضَةِ، وَمَوَدَّةً بَعْدَ النِّفَرَةِ، وَأُلْفَةً بَعْدَ الْفُرْقَةِ ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أَيْ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَنَافِرَةِ وَالْمَتَابِنَةِ وَالْمُخْتَلِفَةِ، فَيُؤَلِّفُ بَيْنَ الْقُلُوبِ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالْقَسَاوَةِ فَتُصْبِحُ مُجْتَمِعَةً مُتَّفِقَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى الْأَنْصَارِ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ ... الْآيَةُ [آل عمران: ١٠٣]. وَكَذَا قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ يَي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللَّهُ يَي؟» (١). وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِقُرْبِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (١١) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [الأنفال: ٦٢، ٦٣] وَفِي الْحَدِيثِ: «أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِضَتِكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغَضُ بَغِضَتِكَ هَوْنًا مَا، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبِكَ يَوْمًا مَا» (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ يَغْفِرُ لِلْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِذَا تَابُوا مِنْهُ وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ بِكُلِّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، مِنْ أَيْ ذَنْبٍ كَانَ.

[يَجُوزُ الْإِحْسَانُ إِلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَ فِي

الدِّينِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْهَكُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ

وَلَمْ يُخْرِجُوهُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ أَيْ يَعُونُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، أَيْ لَا يَنْهَاكُمْ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكُفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ، كَالنِّسَاءِ وَالضَّعَفَةِ مِنْهُمْ ﴿أَنْ تَبْرُوهُمْ﴾ أَيْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ تَعْدِلُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: قَدِمْتُ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ» (٣).

أَخْرَجَاهُ (٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَدِمْتُ قَتِيلَةً عَلَى ابْنَتِهَا أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ بِهَذَا يَابَا: ضَبَابٍ وَأَطِطٍ وَسَمْنٍ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فَأَتَيْتُ أَسْمَاءَ أَنْ تَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا وَأَنْ تَدْخُلَهَا بَيْتَهَا. فَسَأَلْتُ عَائِشَةَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْهَكُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. فَأَمَرَهَا أَنْ تَقْبَلَ هَدِيَّتَهَا وَأَنْ تَدْخُلَهَا بَيْتَهَا (٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْحُجُرَاتِ، وَأُورِدَ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ: «الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» (٦).

[النَّبِيُّ عَنْ مَوَالِيَتِ الْمُحَارِبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجَكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ أَيْ إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ عَنِ مَوَالِيَةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَاصَبُوكُمْ بِالْعَدَاوَةِ، فَقَاتَلُوكُمْ وَأَخْرَجُوكُمْ، وَعَاوَنُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ مَوَالِيَتِهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِعَدَاوَتِهِمْ، ثُمَّ أَكَّدَ الْوَعِيدَ عَلَى مَوَالِيَتِهِمْ فَقَالَ: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا رَجْعَهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآوَاهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَافِرِ وَسَلُّوْا مَا أَنْفَقْتُمْ

(\*) أي يحين إلى الناس ما يستوجب حمد الناس إليه فهو المستحمد (١) فتح الباري: ٦٤٤/٧ (٢) تحفة الأحوذ: ٦/ ١٣٣ (٣) أحمد: ٣٤٤/٦ (٤) فتح الباري: ٢٧٥/٥ ومسلم: ٦٩٦/٢ (٥) أحمد: ٤/٤ (٦) مسلم: ١٤٥٨/٣



سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ

٥٥١

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ  
بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ  
بِهَتْنٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ  
فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ  
(١٢) يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
قَدْ بَيَّسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا بَيَّسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)

## سُورَةُ الصِّفَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ  
(١) يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)  
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ  
اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ  
بُيُوتٌ مَرْضُوضَةٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّلُ لَكُمْ  
تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا  
زَاغُوا زَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)

الْمُؤْمِنَاتُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: «يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ  
يَبَايَعُكَ» إِلَى قَوْلِهِ «غَفُورٌ رَحِيمٌ»

قَالَ غُرُوزُ: «قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْ  
الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ: «قَدْ بَايَعْتُكَ» كَلَامًا، وَلَا  
وَاللهُ! مَا مَسَّتْ يَدُهُ امْرَأَةً فِي الْمُبَايَعَةِ قَطُّ، وَمَا يَبَايَعُهُنَّ  
إِلَّا بِقَوْلِهِ: «قَدْ بَايَعْتُكَ عَلَى ذَلِكَ» (١) هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ قَالَتْ: أَتَيْتُ  
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نِسَاءٍ لِنَبَايَعُهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا مَا فِي الْقُرْآنِ  
أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا... الآية، وَقَالَ: «فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ  
وَأَطَقْتُنَّ» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، قُلْنَا: يَا  
رَسُولَ اللهِ! أَلَا تُصَافِحُنَا؟ قَالَ: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ،  
إِنَّمَا قَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، كَقَوْلِي لِمَائَةِ امْرَأَةٍ» (٥). هَذَا

أَزْوَاجَهُنَّ، وَحَكَّمَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِثْلَ ذَلِكَ إِذَا جَاءَهُنَّ  
امْرَأَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرُدُّوا الصَّدَاقَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَقَالَ:  
«وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ» (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهَا أَنْفَقُوا» أَيْ  
وَطَالِيُوا بِمَا أَنْفَقْتُمْ عَلَى أَزْوَاجِكُمُ اللَّاتِي يَذْهَبْنَ إِلَى الْكُفَّارِ  
إِنْ ذَهَبْنَ، وَلِطَالِيُوا بِمَا أَنْفَقُوا عَلَى أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي  
هَاجَرْنَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ يَنْتَكُمُ» أَيْ فِي  
الصُّلْحِ وَاسْتِثْنَاءِ النِّسَاءِ مِنْهُ، وَالْأَمْرُ بِهَذَا كُلُّهُ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ  
يَحْكُمُ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» أَيْ عَلِيمٌ بِمَا يَصْلُحُ  
عِبَادَهُ، حَكِيمٌ فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَلَنْ تَنَالُوا شَيْءًا مِنْ  
أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَاتُمْ فَتَاوَا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ يَنْتَلِ مَا  
أَنْفَقُوا» قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: هَذَا فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ  
عَهْدٌ إِذَا فَرَّتْ إِلَيْهِمْ امْرَأَةٌ وَلَمْ يَدْفَعُوا إِلَى زَوْجِهَا شَيْئًا،  
فَإِذَا جَاءَتْ مِنْهُمْ امْرَأَةٌ لَا يُدْفَعُ إِلَى زَوْجِهَا شَيْءٌ حَتَّى يَدْفَعَ  
إِلَى زَوْجِ الدَّاهِيَةِ إِلَيْهِمْ مِثْلَ نَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ (٢). وَرَوَى ابْنُ  
جَرِيرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَقَرَّ الْمُؤْمِنُونَ بِحُكْمِ اللَّهِ فَأَدُّوا مَا  
أَمُرُوا بِهِ مِنْ نَفَقَاتِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي أَنْفَقُوا عَلَى نِسَائِهِمْ،  
وَأَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَقْرُوا بِحُكْمِ اللَّهِ فِيمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ  
أَدَاءِ نَفَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ: «وَلَنْ  
تَنَالُوا شَيْءًا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا قَاتُمْ فَتَاوَا الَّذِينَ ذَهَبَتْ  
أَزْوَاجُهُمْ يَنْتَلِ مَا أَنْفَقُوا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ».

فَلَوْ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ امْرَأَةٌ مِنْ أَزْوَاجِ الْمُؤْمِنِينَ  
إِلَى الْمُشْرِكِينَ، رَدَّ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى زَوْجِهَا النَّفَقَةَ الَّتِي أَنْفَقَ  
عَلَيْهَا مِنَ الْعَقَبِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ، الَّذِي أَمُرُوا أَنْ يَرُدُّوهَ عَلَى  
الْمُشْرِكِينَ مِنْ نَفَقَاتِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوا عَلَى أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي  
آمَنَ وَهَاجَرْنَ، ثُمَّ رَدُّوا إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَضْلًا إِنْ كَانَ بَقِيَ  
لَهُمْ، وَالْعَقَبُ مَا كَانَ بَقِيَ مِنْ صَدَاقِ نِسَاءِ الْكُفَّارِ حِينَ آمَنَ  
وَهَاجَرْنَ (٣).

«يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللهِ  
شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ  
بِهَتْنٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ  
فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)»

[الْأُمُورُ الَّتِي يَبَايَعُ عَلَيْهَا النِّسَاءُ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ غُرُوزَةَ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ  
أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنْ

(١) الطبري: ٣٢٩/٢٣ (٢) الطبري: ٣٣٨/٢٣ (٣) الطبري:

٣٣٧/٢٣ (٤) فتح الباري: ٥٠٤/٨ (٥) أحمد: ٣٥٧/٦

قَتْلَهُ وَهُوَ جَنِينٌ، كَمَا قَدْ يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْجَهْلَةِ مِنَ النِّسَاءِ تُطْرَحُ نَفْسُهَا لِثَلَا تَحْبُلَ، إِمَّا لِعَرَضٍ فَاسِدٍ أَوْ مَا أَشَبَّهُهُ.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَيْنِ يَقْرِبَيَا بَيْنَ أَيْدِيَيْنِ وَأَرْجُلَيْنِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي لَا يُلْحِقَنَّ بِأَرْوَاجِهِنَّ غَيْرَ أَوْلَا دِهِمَ<sup>(٩)</sup> وَكَذَا قَالَ مُقَاتِلٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ يَعْنِي فِيمَا أَمَرَهُنَّ بِهِ مِنْ مَعْرُوفٍ وَنَهَيْتَهُنَّ عَنْهُ مِنْ مُنْكَرٍ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قَالَ: إِنَّمَا هُوَ شَرْطُ شَرْطَةِ اللَّهِ لِلنِّسَاءِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ يَمِينُ بْنُ مِهْرَانَ: لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ طَاعَةَ لِنَبِيِّهِ إِلَّا فِي الْمَعْرُوفِ، وَالْمَعْرُوفُ طَاعَةٌ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ وَهُوَ خَيْرُهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ: فِي الْمَعْرُوفِ<sup>(١٢)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أُمِّ عَطِيَّةٍ الْأَنْصَارِيَّةِ قَالَتْ: كَانَ فِيمَا اشْتَرَطَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ حِينَ بَايَعَنَا، أَنْ لَا نَنْوَحَ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي فُلَانٍ: إِنَّ بَنِي فُلَانٍ أَسْعَدُونِي فَلَا حَتَّى أَجْزِيَهُمْ، فَاَنْطَلَقْتُ فَاسْعَدْتُهُمْ ثُمَّ جَاءَتْ فَبَايَعَتْ، قَالَتْ: فَمَا وَفَى مِنْهُمْ غَيْرَهَا وَغَيْرُ أُمِّ سُلَيْمٍ ابْنَةِ مِلْحَانَ أُمِّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ<sup>(١٣)</sup>.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ طَرِيقِ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ، عَنْ أُمِّ عَطِيَّةٍ نُسَيْبَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ الْبُرَادِ، عَنْ امْرَأَةٍ مِنَ الْمُبَايَعَاتِ قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ: أَنْ لَا نَخْمِسَ وَجْهًا، وَلَا نَتَشَرَّ شَعْرًا، وَلَا نَتَّقُ حَيْثًا، وَلَا نَذْعُو وَيْلًا.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾<sup>(١٥)</sup>

يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ كَمَا نَهَى عَنْهَا فِي أَوَّلِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ

إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(١٦)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أُمِّ عَطِيَّةٍ قَالَتْ: بَايَعَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْنَا: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكَ بِإِلَهِ سَيِّئًا﴾ وَنَهَانَا عَنْ التَّبَاخَةِ، فَقَبَضَتِ امْرَأَةٌ يَدَهَا قَالَتْ: أَسْعَدْتُنِي فَلَانَةٌ فَأَرِيدُ أَنْ أَجْزِيَهَا، فَمَا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيِّئًا، فَاَنْطَلَقْتُ وَرَجَعْتُ فَبَايَعَهَا<sup>(١٧)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١٨)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ: «تَبَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ سَيِّئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ - قَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي أَخَذْتُ عَلَى النِّسَاءِ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ - فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسْتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ﴾<sup>(١٩)</sup> أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢٠)</sup>.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّتِي إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ﴾ أَيُّ مَنْ جَاءَكَ مِنْهُنَّ يَبَايَعُ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ فَبَايَعَهَا ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ سَيِّئًا وَلَا يَسْرِقَ﴾ أَمْوَالِ النَّاسِ الْأَجَانِبِ، فَمَا إِذَا كَانَ الزَّوْجُ مُقْصِرًا فِي نَفَقَتِهَا، فَلَهَا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةٌ أَمْثَلِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ، عَمَلًا بِحَدِيثِ هِنْدِ بِنْتِ عُتْبَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ لَا يُعْطِينِي مِنَ الثَّقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ، مَا يَكْفِيكَ وَيَكْفِي بَنِيكَ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا [الإسراء: ٣٢] وَفِي حَدِيثِ سَمُرَةَ: ذَكَرَ عُقُوبَةُ الزِّنَاةِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي نَارِ الْجَحِيمِ<sup>(٢٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عُتْبَةَ تَبَايَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ عَلَيْهَا: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ سَيِّئًا وَلَا يَسْرِقَ وَلَا يَزِينَنَّ﴾... الْآيَةَ، قَالَ: فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا حَيَاءً، فَأَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْهَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَقْرَى أَتَيْتُهَا الْمَرْأَةَ! فَوَاللَّهِ! مَا بَايَعَنَا إِلَّا عَلَى هَذَا، قَالَتْ: فَتَعَمَّ إِذَا، فَبَايَعَهَا بِالْآيَةِ<sup>(٢٣)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ قَتْلَهُ بَعْدَ وُجُودِهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ، وَيَتِمُّ

(١) تحفة الأحادي: ٢٢٠/٥ والنسائي: ١٤٩/٧ والنسائي في الكبرى: ٤٨٨/٦ وابن ماجه: ٩٥٩/٢ (٢) فتح الباري: ٨/٥٠٦ (٣) مسلم: ٦٤٦/٢ (٤) أحمد: ٣١٤/٥ (٥) فتح الباري: ١٨٣/١٣ (٦) فتح الباري: ١٨٣/١٣ (٧) أحمد: ٩/٥ (٨) أحمد: ١٥١/٦ (٩) الطبري: ٣٤٠/٢٣ (١٠) فتح الباري: ٥٠٦/٨ (١١) القرطبي: ٧٣/١٨ (١٢) الطبري: ٣٤٥/٢٣ (١٣) الطبري: ٣٤٦/٢٣ (١٤) البخاري: ٤٨٩٢

بِهِ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِالْوَعْدِ مُطْلَقًا، سَوَاءَ تَرْتَبَ عَلَيْهِ غُرْمٌ لِلْمَوْعُودِ أَمْ لَا، وَاحْتَجَّوْا أَيْضًا مِنَ الشَّيْءِ بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»<sup>(٤)</sup>. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ فِي الصَّحِيحِ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعَهَا»<sup>(٥)</sup>. فَذَكَرَ مِنْهُنَّ إِخْلَافَ الْوَعْدِ، وَقَدْ اسْتَفْصَيْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثْنُ، وَلِهَذَا أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَامِرِ ابْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا صَبِيٌّ، فَذَهَبَتْ لِي أُخْرَجَ لِأَلْعَبَ فَقَالَتْ أُمِّي: يَا عَبْدَ اللَّهِ! تَعَالَي أَعْطِكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ؟» قَالَتْ: تَمْرًا. فَقَالَ: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَقْعَلِي كُنَيْتَ عَلَيْكَ كَذِبَةً»<sup>(٦)</sup>. قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: لَوْ نَعْلَمُ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ لَعَمِلْنَا بِهِ، فَذَلَّهِمُ اللَّهُ عَلَى أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ فَبَيَّنَ لَهُمْ، فَأَبْثَلُوا يَوْمَ أُحُدٍ بِذَلِكَ، فَوَلَّوْا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُذْبِرِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وَقَالَ: أَحْبَبَكُمْ إِلَيَّ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِي<sup>(٧)</sup>.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أُنْزِلَتْ فِي شَأْنِ الْفِتَالِ، يَقُولُ الرَّجُلُ: قَاتَلْتُ. وَلَمْ يُقَاتِلْ. وَطَعَنْتُ. وَلَمْ يَطْعَنْ. وَضَرَبْتُ. وَلَمْ يَضْرِبْ. وَصَبَرْتُ. وَلَمْ يَصْبِرْ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ تَوْبِيخًا لِقَوْمٍ كَانُوا يَقُولُونَ: قَتَلْنَا وَضَرَبْنَا وَطَعْنَا وَفَعَلْنَا، وَلَمْ يَكُونُوا فَعَلُوا ذَلِكَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ وَمَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَاسْتَحَقَّ مِنَ اللَّهِ الطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ، فَكَيْفَ تَوَالُونَهُمْ وَتَتَّخِذُونَهُمْ أَصْدِقَاءَ وَأَحْيَاءَ، وَقَدْ يَتَّبِعُونَ مِنَ الْآخِرَةِ، أَيِ مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا فِي حُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْسَبِ الْقُبُورِ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ الْأَحْيَاءَ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ أَنْ يَجْتَمِعُوا بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ لَا يَغْتَفِدُونَ بَعَثًا وَلَا نُشُورًا، فَقَدْ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ مِنْهُمْ فِيمَا يَغْتَفِدُونَهُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي، مَعْنَاهُ: كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ هُمْ فِي الْقُبُورِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ. قَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي الصُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْسَبِ الْقُبُورِ﴾ قَالَ: كَمَا يَبْسُ هَذَا الْكَافِرُ إِذَا مَاتَ وَعَايَنَ ثَوَابَهُ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَمُقَاتِلَ وَابْنِ زَيْدٍ وَالْكَلْبِيِّ وَمَنْصُورٍ<sup>(٨)</sup>. وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جُرَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(٩)</sup>. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثْنُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّفِّ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ الصَّفِّ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ: تَذَاكُرْنَا أَنْتُمْ يَا نَبِيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَيَسْأَلُهُ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَلَمْ يَسْمَعْ أَحَدٌ مَنَّا، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْنَا رَجُلًا، فَحَمَمَنَا فَقَرَأَ عَلَيْنَا هَذِهِ السُّورَةَ، يَعْنِي سُورَةَ الصَّفِّ كُلَّهَا<sup>(١٠)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(١)</sup> يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيِّنَتْ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾

[ذَمٌّ مَنْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفْعَلُهُ]

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ غَيْرَ مَرَّةٍ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يَعِدُ عِدَّةً أَوْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفْعَلُ

(١) الطبري: ٣٤٨/٢٣ (٢) الطبري: ٣٤٨/٢٣ (٣) أحمد: ٤٥٢/٥

(٤) فتح الباري: ١١١/١ ومسلم: ٧٨/١ (٥) فتح الباري: ١١١/١ (٦) أحمد: ٤٤٧/٣ وأبو داود: ٢٦٥/٥

إسناده ضعيف لجهالة مولى من حوالي عبدالله بن عامر إلا أن الشيخ الألباني أورده في الصحيحة (٧٤٨) لشواهده (٧) الدرر المشور: ١٤٦/٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٢

سُورَةُ الصَّفِّ

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبِئُ إِسْرَءِيلَ إِنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٥﴾ وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَبِالنُّورِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدْرَكُوهُ عَلَى حَرِّ ذَنْبِكَ مِمَّنْ خَلَعُوكَ مِنْ عَدَابِ اللَّهِ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَاطِلًا كَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٠﴾ وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧١﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا مَنْ تَطَايَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿٧٢﴾

رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يعني التَّوْرَةَ قَدْ بَشَّرَتْ بِي، وَأَنَا مُصَدِّقٌ مَا أَخْبَرَتْ عَنْهُ، وَأَنَا مُبَشِّرٌ بِمَنْ بَعْدِي، وَهُوَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْعَرَبِيُّ الْمَكِّيُّ أَحْمَدُ. فِعْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَءِيلَ، وَقَدْ أَقَامَ فِي مَلَأِ بَنِي إِسْرَءِيلَ مُبَشِّرًا بِمُحَمَّدٍ، وَهُوَ أَحْمَدُ، خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِي لَا رِسَالَةَ بَعْدَهُ وَلَا نُبُوَّةَ. وَمَا أَحْسَنَ مَا أوردَ الْبُخَارِيُّ الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَى فِيهِ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْ، وَأَنَا الْعَاقِبُ»<sup>(٤)</sup> وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ بِهِ نَحْوَهُ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبَرْنَا

الَّذِينَ يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا: قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُقَاتِلُ الْعَدُوَّ إِلَّا أَنْ يُصَافَهُمْ، وَهَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup>. قَالَ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ مَرْصُوسٌ﴾ أَيُّ مُلْتَصِقٍ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ مِنَ الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: مُلْتَصِقٌ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ مَرْصُوسٌ﴾ مُثَبَّتٌ لَا يَزُولُ، مُلْتَصِقٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبِئُ إِسْرَءِيلَ إِنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٦﴾

[خَطَابُ مُوسَى لِقَوْمِهِ عَلَى إِذَا هُمْ وَإِزَاغَةُ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أَيُّ لِمَ تُوصِلُونِ الْأَذَى إِلَيَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ. وَفِي هَذَا تَسْلِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا أَصَابَهُ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَمَرَ لَهُ بِالصَّبْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: «رَحِمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»<sup>(٣)</sup>. وَفِيهِ نَهْيٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّالُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ يُوصِلُوا إِلَيْهِ أَدَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٦٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أَيُّ فَلَمَّا عَدَلُوا عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنْ الْهُدَى، وَأَسْكَنَهَا الشَّكَّ وَالْحَيْرَةَ وَالْخُذْلَانَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْ لَمْ يَرْوُ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١١٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

[تَبْسِيرُ عِيسَى بَنِيَّانَا ﷺ بِاسْمِهِ أَحْمَدُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبِئُ إِسْرَءِيلَ إِنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا

(١) القرطبي: ٨١/١٨ (٢) الدر المنثور: ١٤٧/٨ (٣) فتح الباري: ٦٥٢/٧ (٤) فتح الباري: ٥٠٩/٨ (٥) مسلم: ٤/١٨٢٨





السُّورَةِ وَمِنْ جُمْلَتِهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَخْرَجٍ تُخْرِجُكُمْ مِنْ عَذَابِ إِلَهِكُمْ ثُمَّ فَسَّرَ هَذِهِ التَّجَارَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي لَا تَبُورُ، الَّتِي هِيَ مُحَصَّلَةٌ لِلْمَقْصُودِ، وَمُرِيدَةٌ لِلْمُخْدَرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَتَذَكَّرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ مِنْ تِجَارَةِ الدُّنْيَا وَالْكَدِّ لَهَا وَالنَّصْدِيِّ لَهَا وَحَدَهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أَيُّ إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَدَلَّكْتُكُمْ عَلَيْهِ، غَفَرْتُ لَكُمْ الزَّلَّاتِ، وَأَدْخَلْتُكُمْ الْجَنَّاتِ وَالْمَسَاجِدِ الطَّيِّبَاتِ وَالذَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَدُلُّكُمْ جَنَّتَ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَبَّحْنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّتٍ عَدْوٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُفْرِجْ يُخَوِّنَهَا﴾ أَيُّ وَأَرْيِدُكُمْ عَلَى ذَلِكَ زِيَادَةً تُحِبُّونَهَا، وَهِيَ: ﴿تَصَرُّ بِرَبِّ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرِيبٌ﴾ أَيُّ إِذَا قَاتَلْتُمْ فِي سَبِيلِهِ وَنَصَرْتُمْ دِينَهُ، تَكَمَّلَ اللَّهُ بِنَصْرِكُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَغْلِبْكُمْ وَيَلَيْتَ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ نَصْرِي لِلَّهِ مَنْ يَنْصُرُهُوَ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفَتَحَ قَرِيبٌ﴾ أَيُّ عَاجِلٌ، فَهَذِهِ الزِّيَادَةُ هِيَ خَيْرُ الدُّنْيَا، مَوْصُولٌ بِنِعَمِ الْآخِرَةِ لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَنَصَرَ اللَّهَ وَدِينَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَثِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ فَقَامَتِ طَائِفَةٌ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا

طَائِفِينَ ﴿١٤﴾

[الْمُسْلِمُونَ أَنْصَارُ الَّذِينَ فِي كُلِّ حَالٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَيَّدَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أَيُّ نَصَرْنَاهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ مِنْ فِرْقِ النَّصَارَى ﴿فَأَصْبَحُوا طَائِفِينَ﴾ أَيُّ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ بِنِعْمَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ فِي بَيْتٍ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً فَقَالَ: إِنْ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنْتُ بِي، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي فَيَقْتُلَ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِيَ فِي دَرَجَتِي؟ قَالَ: فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًا فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: نَعَمْ أَنْتَ ذَاكَ.

قَالَ: فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبْهَ عِيسَى وَرَفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ رُورَتِهِ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا شَبْهَهُ فَقَتَلُوهُ، وَصَلَبُوهُ، وَكَفَرُوا بِهِ بَعْضُهُمْ ائْتَنَى عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنُوا بِهِ، فَتَفَرَّقُوا فِيهِ ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَمْنُنَ اللَّهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ قُلْ إِنْ أَلْمَزْتُمْ النَّاسَ نَفَرْتُمْ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلَاقِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝

فِرْقَةٌ: كَانَ اللَّهُ فِينَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ لَا الْبُعْقُوبِيَّةُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَيْهِ وَهُوَ لَا السُّطُورِيَّةُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَهُوَ لَا الْمُسْلِمُونَ. فَتَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَتَقَتْلُوهُمَا فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فَطَامَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ يَغْنِي الطَّائِفَةُ الَّتِي كَفَرَتْ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي زَمَنِ عِيسَى، وَالطَّائِفَةُ الَّتِي آمَنَتْ فِي زَمَنِ عِيسَى ۝ فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَذُوبَةٍ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ۝ بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ ﷺ دِينَهُمْ عَلَى دِينِ الْكُفَّارِ ۝ هَذَا لَفْظُهُ فِي كِتَابِهِ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُنَنِهِ ۝ فَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ لَا يَزَالُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ، وَحَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجَالُ مَعَ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الصَّفِّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ وَهِيَ مَدْنِيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بِسُورَةِ الْجُمُعَةِ وَالْمُنَافِقِينَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ۝

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝

### [يُسَبِّحُ لِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، أَيُّ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ نَاطِقَةً وَجَامِدَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» ثُمَّ قَالَ

تَعَالَى: «الَّذِي الْقُدُّوسُ» أَيُّ هُوَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِحُكْمِهِ، وَهُوَ الْمُقَدَّسُ، أَيُّ الْمُنَزَّهُ عَنِ النَّقَائِصِ، الْمُوصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُمَا غَيْرَ مَرَّةٍ.

### [الْأُمِّيَّتَانِ بِعِنْتَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ» الْأُمِّيُّونَ هُمُ الْعَرَبُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسْلَمْتُمْ» فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدُوا وَلَمْ يَقُولُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ [آل عمران: ٢٠] وَتَخْصِيصُ الْأُمِّيِّينَ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ، وَلَكِنَّ الْمِنَّةَ عَلَيْهِمْ أُبْلِغَ وَأَكْثُرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: «وَإِنَّهُمْ لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْلِكَ» [الزخرف: ٤٤] وَهُوَ ذِكْرٌ لِغَيْرِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ، وَكَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» [الشعراء: ٢١٤]

(١) الطبري: ٢٣/٣٦٦ (٢) النسائي في الكبرى: ٦/٤٨٩ (٣)

فتح الباري: ١٣/٣٠٦ ومسلم: ٣/١٥٢٤ وأبو داود: ١١/٣

(٤) مسلم: ٢/٥٩٧ و٥٩٩

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾. قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُمْ حَتَّى سِئِلَ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup>.  
فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ، وَعَلَى عُمُومِ بَعْثِهِ ﷺ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، لِأَنَّهُ فَسَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ﴾ بِفَارِسٍ، وَلِهَذَا كَتَبَ كُتُبُهُ إِلَى فَارِسَ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قَالَ: هُمْ الْأَعَاجِمُ<sup>(٣)</sup> وَكُلُّ مَنْ صَدَّقَ النَّبِيَّ ﷺ، مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ: ذُو الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يَعْنِي مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ النَّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا خَصَّ بِهِ أُمَّتَهُ مِنْ بَعْثِهِ ﷺ إِلَيْهِمْ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> قُلْ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمْ أَتْلِيَاءَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْلَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ<sup>(٥)</sup> وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَسَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ<sup>(٦)</sup> قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُقَرِّبُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِقِكُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَلَيْهِ الْعَنْبِ وَالشَّهَادَةَ فَيُنْفِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿٨﴾

لَدَمَّ الْيَهُودَ وَدَعَوْتُهُمْ لَتَمْنِي الْمَوْتَ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَاهَلَةِ يَقُولُ تَعَالَى ذَا لِمَا لِيَهُودَ الَّذِينَ أُعْطُوا الثَّوْرَةَ وَحُمِلُواهَا لِلْعَمَلِ بِهَا ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا: مَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، أَيُّ كَمَثَلِ الْحِمَارِ إِذَا حَمَلَ كُتُبًا - لَا يَدْرِي مَا فِيهَا - فَهُوَ يَحْمِلُهَا حَمَلًا حَسِيًّا وَلَا يَدْرِي مَا عَلَيْهِ،

وَهَذَا وَأَمثَالُهُ لَا يَتَابِعُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَابِعُهَا النَّاسُ إِنْ رَسُلُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨] وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَذَكَّرُ بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ﴾ [الأنعام: ١٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِنْخِبَارًا عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عُمُومِ بَعْثِهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَحْمَرِهِمْ وَأَسْوَدِهِمْ، وَقَدْ قَدَّمْنَا تَفْسِيرَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِالْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ مُصَدِّقٌ إِجَابَةِ اللَّهِ لَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، حِينَ دَعَا لِأَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ عَلَى حِينِ فِتْرَةِ مِنَ الرُّسُلِ وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وَقَدْ اشْتَدَّتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، وَقَدْ مَقَّتَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ عَرَبُهُمْ وَعَجَبَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَيُّ نَزَرَا يَسِيرًا يَمُنُّ تَمَسَّكَ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَمِنَ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا قَدِيمًا مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ وَقَلَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَاسْتَبَدَّلُوا بِالتَّوْحِيدِ شِرْكًَا وَبِالْيَقِينِ شَكًّا، وَابْتَدَعُوا أَشْيَاءَ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللَّهُ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كُتُبَهُمْ وَحَرَّفُواهَا وَغَيَّرُوهَا وَأَوَّلُوهَا، فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِشَرْعٍ عَظِيمٍ كَامِلٍ شَامِلٍ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ، فِيهِ هِدَايَتُهُمْ وَالنِّبَاطُ لِجَمِيعِ مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَالدَّعْوَةُ لَهُمْ إِلَى مَا يَقْرُبُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَرِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ، وَالتَّهْنِئَةُ عَمَّا يَقْرُبُهُمْ إِلَى النَّارِ وَسَخَطُ اللَّهِ تَعَالَى حَاكِمِ فَاصِلٍ لِجَمِيعِ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالرَّيْبِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَجَمَعَ لَهُ تَعَالَى وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ جَمِيعَ الْمَحَاسِنِ يَمُنُّ كَانَ قَبْلَهُ، وَأَعْطَاهُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَلَا يُعْطِيهِ أَحَدًا مِنَ الْآخِرِينَ. فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

[مُحَمَّدٌ رَسُولُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

(١) فتح الباري: ٥١٠/٨ (٢) مسلم: ١٩٧٢/٤ ونحفة الأحوذني: ٢٠٩/٩ و٤٣٣/١٠ والنسائي في الكبرى: ٧٥/٥ و٤٩٠/٢٣ والطبري: ٣٧٥/٢٣ (٣) الطبري: ٣٧٤/٢٣

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾

## سُورَةُ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاخْذِرْهُمْ فَإِنَّهُمْ لِلَّهِ أَنْ يُوَفَّقُونَ ﴿٤﴾

مُلَقِّحِكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلَاقِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْشِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿أَيُّهَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوعٍ مُشِيدُونَ﴾ [النساء: ٧٨]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾

[الجمعة والأوامر والآداب يوم الجمعة]

إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْجُمُعَةُ جُمُعَةً لِأَنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجَمْعِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي كُلِّ أَشْبُوعٍ مَرَّةً بِالْمَعَايِدِ الْكِبَارِ، وَفِيهِ كَمُلُ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، فَإِنَّهُ الْيَوْمُ السَّادِسُ مِنَ السَّنَةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَفِيهِ خَلَقَ آدَمَ وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ

(١) أحمد: ٢٤٨/١ (٢) فتح الباري: ٥٩٥/٨ وتحفة الأحودي: ٢٧٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦ و٣٠٨

وَكَذَلِكَ هُوَ لَا فِي حَمْلِهِمُ الْكِتَابَ الَّذِي أَوْتُوهُ حَفِظُوهُ لَقَطًا وَلَمْ يَتَفَهَّمُوهُ وَلَا عَمِلُوا بِمُقْتَضَاهُ، بَلْ أَوَلُّوهُ وَحَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ فَهُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَمِيرِ، لِأَنَّ الْحِمَارَ لَا فَهْمَ لَهُ، وَهُوَ لَا لَهُمْ فَهْمٌ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفٰٔلِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿يَسْأَلُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعِثَابِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أُولَئِكَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيْ إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى، وَأَنْ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ عَلَى صِلَالَةٍ، فَادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى الصَّلَاةِ مِنَ الْفٰٔتِنِينَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، أَيْ فِيمَا تَزْعُمُونَهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَمَتُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ بِمَا يَعْمَلُونَ لَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفُجُورِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وَقَدْ قَدِمْنَا الْكَلَامَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى هَذِهِ الْمَبَاهِلَةِ لِلْيَهُودِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَنْ يَمَتُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَجِدْتَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ مِنَ الْمَوْتِ أَشْرَكَوا بِوُدِّ أَحَدِهِمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦] وَقَدْ أَسْلَفْنَا الْكَلَامَ هُنَاكَ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمُرَادَ أَنْ يَدْعُوا عَلَى الصَّلَاةِ مِنَ أَنْفُسِهِمْ أَوْ خُصُومِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَتْ مَبَاهِلَةُ النَّصَارَى فِي آلِ عِمْرَانَ ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَآبَاءَنَا وَنَسَاءَنَا وَنَسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] وَمَبَاهِلَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ ﴿قُلْ مَنْ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلْيَنْتَهِدْ لَهُ الزَّمَنُ مَدًّا﴾ [الأنعام: ١٧٥].

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - : إِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَأَيِّنَّهُ حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُقْبِهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ فَعَلَ لَأَخَذَنَاهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَتُّوا الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا»<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي يُنْفَرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ

أَخْرَجَاهُ<sup>(٥)</sup>. قَالَ الْحَسَنُ: أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالسَّعْيِ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَلَقَدْ نَهَى أَنْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ إِلَّا وَعَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَكِنْ بِالْقُلُوبِ وَالنِّيَّةِ وَالْخُشُوعِ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي أَنْ تَسْعَى بِقَلْبِكَ وَعَمَلِكَ وَهُوَ الْمَشْيُ إِلَيْهَا<sup>(٦)</sup>. وَكَانَ يَتَأَوَّلُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أَيِ الْمَشْيِ مَعَهُ. وَرَوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرِهِمَا نَحْوَ ذَلِكَ<sup>(٧)</sup>.

وَيُسْتَحَبُّ لِمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ أَنْ يَغْتَسِلَ قَبْلَ مَجِيئِهِ إِلَيْهَا، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ»<sup>(٨)</sup>. وَلَهُمَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ»<sup>(٩)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَقٌّ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، يَغْسِلُ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ»<sup>(١٠)</sup>. وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ غُسْلُ يَوْمٍ، وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتَّنَائِي وَابْنُ حِبَّانَ<sup>(١١)</sup>.

### [فَضْلُ الْجُمُعَةِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ غَسَلَ وَاعْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَبَكَرَ وَابْتَكَرَ وَمَسَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْعَ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةِ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»<sup>(١٢)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ وَأَلْفَاظٌ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ وَحَسَنَةُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(١٣)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَهُ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ

السَّاعَةِ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ.

وَقَدْ كَانَ يُقَالُ لَهُ فِي اللُّغَةِ الْقَدِيمَةِ يَوْمُ الْعُرُوبَةِ، وَثَبَتَ أَنَّ الْأَمَمَ قَبْلَنَا أَمَرُوا بِهِ فَضَلُّوا عَنْهُ، وَاخْتَارَ الْيَهُودُ يَوْمَ السَّبْتِ الَّذِي لَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقُ آدَمَ، وَاخْتَارَ النَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ الَّذِي ابْتَدَى فِيهِ الْخَلْقُ، وَاخْتَارَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ فِيهِ الْخَلِيقَةَ، كَمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيِّدْ أَيْدِيكُمْ وَأُتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ إِنَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالْتَأَسُّ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ عَدَا وَالنَّصَارَى بَعْدَ عَدٍ»<sup>(١٤)</sup>. لَفْظُ الْبُخَارِيِّ وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «أَصْلُ اللَّهِ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»<sup>(١٥)</sup>.

### [الْأَمْرُ بِالسَّعْيِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ]

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْاجْتِمَاعِ لِعِبَادَتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَيِ أَفْضَدُوا وَاعْمِدُوا وَاهْتَمُّوا فِي سَبْرِكُمْ إِلَيْهَا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالسَّعْيِ هَهُنَا الْمَشْيُ السَّرِيعُ، وَإِنَّمَا هُوَ الْإِهْتِمَامُ بِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقْرَأْنِيهَا: (فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)<sup>(١٦)</sup>. فَمَاذَا الْمَشْيُ السَّرِيعُ إِلَى الصَّلَاةِ فَقَدْ نَهَى عَنْهُ لِمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ وَلَا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتُوا»<sup>(١٧)</sup>. لَفْظُ الْبُخَارِيِّ. وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ سَمِعَ جَلْبَةَ رَجَالٍ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قَالُوا: اسْتَعْجَلْنَا إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ: «فَلَا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَامْشُوا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتُوا».

(١) فتح الباري: ٥٢٦/١١ ومسلم: ٥٨٦/٢ (٢) مسلم: ٢/٥٨٦  
(٣) الطبري: ٣٨١/٢٣ (٤) فتح الباري: ١٣٨/٢  
(٥) مسلم: ٤٢٠/١ (٦) فتح الباري: ١٣٧/٢ ومسلم: ٤٢٢/١  
(٧) الطبري: ٣٨٠/٢٣ (٨) فتح الباري: ٤١٥/٢ ومسلم: ٥٧٩/٢ (٩) فتح الباري: ٤١٥/٢ ومسلم: ٥٨٠/٢ (١٠) مسلم: ٥٨٢/٢  
(١١) أحمد: ٣٠٤/٣ والنسائي: ٩٣/٣ وابن حبان: ٢٦٢/٢  
(١٢) أحمد: ٩/٤ (١٣) أبو داود: ٢٤٦/١، ٢٤٧ وتحفة الأحوذ: ٣/٣ والنسائي: ٩٥/٣ وابن ماجه: ٢٤٦/١

## طَلَبِ الرِّزْقِ بَعْدَهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذُرُوا النَّبِيَّ﴾ أَيِ اسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَاتَّركُوا النَّبِيَّ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ، وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى تَحْرِيمِ النَّبِيِّ بَعْدَ النَّدَاءِ الثَّانِي، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيِ تَرْكُكُمْ النَّبِيَّ وَإِفْئَالُكُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَإِلَى الصَّلَاةِ خَيْرٌ لَكُمْ أَيْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أَيِ فُرُغَ مِنْهَا ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ لَمَّا حَجَرَ عَلَيْهِمْ فِي النَّصْرِفِ بَعْدَ النَّدَاءِ وَأَمَرَهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ أَدْنَى لَهُمْ بَعْدَ الْفَرَاغِ فِي الْأَنْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ وَالِابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ أَنْصَرَفَ، فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أَيِ فِي حَالِ بَيْعِكُمْ وَشَرَائِكُمْ وَأَخَذِكُمْ وَإِعْطَائِكُمْ أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَلَا تَشْغَلْكُمْ الدُّنْيَا عَنِ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ دَخَلَ سُوقًا مِنَ الْأَسْوَاقِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا حَتَّى يَذْكُرَ اللَّهَ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ

اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمَنِ الْيَجَرَةُ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

[الْنَهْيُ عَنِ الْإِنْصِرَافِ مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ]

يُعَاتِبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى مَا كَانَ وَقَعَ مِنَ الْإِنْصِرَافِ عَنِ الْخُطْبَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى التَّجَارَةِ الَّتِي قَدِمَتْ الْمَدِينَةَ يَوْمَئِذٍ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أَيِ عَلَى الْمِنْبَرِ تَخْطُبُ، هَكَذَا ذَكَرَهُ غَيْرُ

فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ أَخْرَجَاهُ<sup>(١)</sup>.

وَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَلْبَسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ وَيَتَطَيَّبَ وَيَتَسَوَّكَ وَيَتَنَطَّفَ وَيَتَطَهَّرَ. وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُسَدِّدِ «غُسْلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَالسَّوَالُكُ، وَأَنْ يَمَسَّ مِنْ طَيِّبٍ أَهْلِهِ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طَيِّبٍ أَهْلِهِ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ، وَلَبَسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعَ إِنْ بَدَأَ لَهُ وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يَصَلِّيَ، كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخَرَى»<sup>(٣)</sup>. وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: «مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوْ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْنِ مَهْنَتِهِ»<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَرَأَى عَلَيْهِمْ ثِيَابَ التَّمَارِ فَقَالَ: «مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْنِ مَهْنَتِهِ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٥)</sup>.

## [الْمُرَادُ بِالنَّدَاءِ أَذَانُ الْخُطْبَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا النَّدَاءُ هُوَ النَّدَاءُ الثَّانِي الَّذِي كَانَ يُفْعَلُ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ فَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَإِنَّهُ كَانَ حِينَئِذٍ يُوَدَّنُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ، فَأَمَّا النَّدَاءُ الْأَوَّلُ الَّذِي زَادَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّمَا كَانَ هَذَا لِكَثْرَةِ النَّاسِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: كَانَ النَّدَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوَّلُهُ إِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ عَلَى الْمِنْبَرِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بَعْدَ زَمَنِ وَكَثُرِ النَّاسِ، زَادَ النَّدَاءَ الثَّانِي عَلَى الزَّوْرَاءِ يَعْنِي يُوَدَّنُ بِهِ عَلَى الدَّارِ الَّتِي تُسَمَّى بِالزَّوْرَاءِ<sup>(٦)</sup>. وَكَانَتْ أَرْفَعُ دَارٍ بِالْمَدِينَةِ بِقُرْبِ الْمَسْجِدِ.

[حُزْمَةُ النَّبِيِّ وَالشَّرَاءُ بَعْدَ نَدَاءِ الْجُمُعَةِ وَالتَّرْغِيبُ فِي

(١) فتح الباري: ٢/٤٢٥، ومسلم: ٢/٥٨٢ (٢) فتح الباري: ٢/٤٢٣ (٣) أحمد: ٥/٤٢٠ (٤) أبو داود: ١/٦٥٠ وابن ماجه: ١/٣٤٨ (٥) ابن ماجه: ١/٣٤٩ (٦) فتح الباري: ٢/٤٥٧ (٧) القرطبي: ١٨/١٠٨ (٨) تحفة الأحوذى: ٩/٣٨٦

يَقُولُونَ، وَلِهَذَا اعْتَرَضَ بِحُمْلَةِ مُخْبِرَةٍ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهِ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيِّ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ وَإِنْ كَانَ مُطَابِقًا لِلخَارِجِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَعَقَّدُونَ صِحَّةَ مَا يَقُولُونَ وَلَا صِدْقَهُ، وَلِهَذَا كَذَّبَهُم بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيِ اتَّقُوا النَّاسَ بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ وَالْحَلْفَاتِ الْإِثْمَةِ لِيُصَدِّقُوا فِيمَا يَقُولُونَ، فَاعْتَرَضَ بِهِمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ حَلِيلَةَ أَمْرِهِمْ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، قَرِيبًا اقْتَدَى بِهِمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ وَصَدَّقَهُمْ فِيمَا يَقُولُونَ، وَهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْبَاطِنِ لَا يَأْلُونَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ خَبَالًا، فَحَصَلَ بِهِذَا الْقُدْرِ ضَرَرٌ كَبِيرٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّمَا سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أَيِ إِنَّمَا قُدِّرَ عَلَيْهِمُ التَّغَيُّرُ لِرُجُوعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرَانِ، وَاسْتِنْدَالِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، فَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ. أَيِ فَلَا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ هُدًى وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا خَيْرٌ، فَلَا تَعْيٍ وَلَا تَهْتِدِي.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا سَمِعَ لِقَوْلِهِمْ﴾ أَيِ كَانُوا أَشْكَالًا حَسَنَةً وَذَوِي فَصَاحَةٍ وَالسِّنَةِ، وَإِذَا سَمِعَهُمُ السَّامِعُ يَضْغِي إِلَى قَوْلِهِمْ لِيَبْلَاغَتِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْخَوَرِ وَالْهَلَعِ وَالْجَرَعِ وَالْجُبْنِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صِدْقَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ كُلِّمَا وَقَعَ أَمْرٌ أَوْ كَانَتْهُ أَوْ خَوْفٌ يَتَعَقَّدُونَ لِحُبْنِهِمْ أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِسُوا فَأَحْطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩] فَهُمْ جَهَامَاتٌ وَصُورٌ بِلَا مَعَانِي، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمْ أَلْمَدُورُ فَاحْذَرُهُمْ فَلَنَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أَيِ كَيْفَ يُضَرَفُونَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا: تَحِيَّتُهُمْ لِعُتَّةٍ، وَطَعَامُهُمْ نُهْبَةً، وَغَنِيمَتُهُمْ

وَاحِدٌ مِنَ التَّابِعِينَ، مِنْهُمْ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ، وَزَيْدُ بْنُ أَشْلَمَ، وَقَتَادَةُ<sup>(١)</sup>. وَزَعَمَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ أَنَّ التَّجَارَةَ كَانَتْ لِذِيحَةَ بْنِ خَلِيفَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، وَكَانَ مَعَهَا طَبْلٌ فَأَنْصَرَفُوا إِلَيْهَا، وَتَرَكُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا عَلَى الْمُسْتَبِرِّ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ، وَقَدْ صَحَّ بِذَلِكَ الْخَبَرُ فَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَدِمْتُ عِيرَ مَرَّةٍ الْمَدِينَةَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فَخَرَجَ النَّاسُ وَبَقِيَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا فَتَرَكْتُ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ (٢). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ سَالِمِ بِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَائِمًا. وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُطْبَتَانِ يَجْلِسُ بَيْنَهُمَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَذْكُرُ النَّاسَ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيِ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوَمِنَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أَيِ لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَطَلَبَ الرِّزْقَ فِي وَفْقِهِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّمَا سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا سَمِعَ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْهُمْ حُسْبٌ مُسْتَدَّةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِدْقَةٍ عَلَيْهِمْ هُوَ أَلْمَدُورُ فَاحْذَرُهُمْ فَلَنَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)

[أَحْوَالُ الْمُنَافِقِينَ وَتَقَلُّبَاتُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّقُوهُنَّ بِالْإِسْلَامِ إِذَا جَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَّا فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ فَلْيَسُوا كَذَلِكَ، بَلْ عَلَى الضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أَيِ إِذَا حَضَرُوا عِنْدَكَ وَاجْهَوْكَ بِذَلِكَ، وَأَظْهَرُوا لَكَ ذَلِكَ، وَلَيْسُوا كَمَا

(١) الطبري: ٣٨٧/٢٣ (٢) أحمد: ٣١٣/٣ (٣) فتح الباري:

٥١١/٨ ومسلم: ٥٩٠/٢ (٤) مسلم: ٥٨٩/٢ (٥) الطبري:

عُلُولٌ، لَا يَقْرُبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا، مُسْتَكْبِرِينَ، لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، حُسْبٌ بِاللَّيْلِ صُحْبٌ بِالنَّهَارِ» وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ مَرَّةٍ: «سُحِبَ بِالنَّهَارِ»<sup>(١)</sup>.  
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَنُخْرِجَنَّكَ أَوَّاعًا لَمْ يَلِكْ لَكَ خِزْيَانٌ لَنَا وَمِنَّا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْفِكَ أَحَدُكُمْ أَلَمُوتٌ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ النِّجَابِ

عُلُولٌ، لَا يَقْرُبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا، مُسْتَكْبِرِينَ، لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، حُسْبٌ بِاللَّيْلِ صُحْبٌ بِالنَّهَارِ» وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ مَرَّةٍ: «سُحِبَ بِالنَّهَارِ»<sup>(١)</sup>.  
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَنْ رَجَعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَنُخْرِجَنَّكَ أَوَّاعًا لَمْ يَلِكْ لَكَ خِزْيَانٌ لَنَا وَمِنَّا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

إِعْرَاضُهُمْ عَنِ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ وَعَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ أَنَّهُمْ: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ» أَيُّ صَدُّوا وَأَعْرَضُوا عَمَّا قِيلَ لَهُمْ اسْتِجَابًا عَنْ ذَلِكَ وَاحْتِقَارًا لِمَا قِيلَ لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» ثُمَّ جَازَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِيرَادُ الْأَحَادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ هُنَاكَ.  
 وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ كُلَّهُ نَزَلَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ كَمَا سَنُورِدُهُ قَرِيبًا إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ. وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السَّيَرَةِ: وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، يُعْنِي مَرْجِعَهُ مِنْ أُحُدٍ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ كَمَا حَدَّثَنِي ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ لَهُ مَقَامٌ يَقُومُهُ كُلُّ جُمُعَةٍ، لَا يُنْكِرُ، شَرَفًا لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ فِيهِمْ شَرِيفًا، إِذَا جَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ قَامَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أَكْرَمَكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَأَعَزَّكُمْ بِهِ فَانْصُرُوهُ وَعَزِّزُوهُ وَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، ثُمَّ يَجْلِسُ حَتَّى إِذَا صَنَعَ يَوْمَ أُحُدٍ مَا صَنَعَ، يُعْنِي مَرْجِعَهُ بِثَلَاثِ الْجَيْشِ وَرَجَعَ النَّاسُ، قَامَ يَفْعَلُ ذَلِكَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ، فَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ بِشِيَابِهِ مِنْ تَوَاجِيهِ وَقَالُوا: اجْلِسْ أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ لَسْتَ لِذَلِكَ بِأَهْلٍ وَقَدْ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ، فَخَرَجَ يَخْطِئُ رِقَابَ النَّاسِ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ

لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بُجْرًا أَنْ قُمْتُ أَشَدُّ أَمْرُهُ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ بَابَ الْمَسْجِدِ فَقَالُوا: وَتِلْكَ مَالِكٌ؟ قَالَ: قُمْتُ أَشَدُّ أَمْرُهُ فَوُتِبَ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَجِدُونَنِي وَيَعْتَفُونَنِي، لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بُجْرًا أَنْ قُمْتُ أَشَدُّ أَمْرُهُ. قَالُوا: وَتِلْكَ أَرْجَعُ يَسْتَغْفِرُ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَتَّبِعِي أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَذَلِكَ أَنَّ غُلَامًا مِنْ قَرَابَتِهِ انْطَلَقَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَدَّثَهُ بِحَدِيثٍ عَنْهُ وَأَمْرٍ شَدِيدٍ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَخْلِفُ بِاللَّهِ وَيَتَبَرَّأُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقْبَلَتِ الْأَنْصَارُ عَلَى ذَلِكَ الْغُلَامِ فَلَاوَمُوهُ وَعَزَّلُوهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ مَا تَسْمَعُونَ، وَقِيلَ لِعَدُوِّ اللَّهِ: لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يُلَوِّي رَأْسَهُ، أَيُّ لَسْتَ فَاعِلًا<sup>(٣)</sup>.

(١) أحمد: ٢٩٣/٢ قال الهيثمي في المجمع ١١٢/١ رواه أحمد والبخاري وفيه عبد الملك بن قدامة الجمحي قال ابن حجر: ضعيف [تقريب: ٤٧٠٧] (٢) ابن هشام: ١١١/٣ (٣) الطبري: ٢٣/٣٩٩



وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ فَنَامُوا وَنَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ<sup>(١)</sup>.  
وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ:  
سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي  
غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ  
الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ،  
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ دَعْوَاهَا  
فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ».

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ: وَقَدْ فَعَلُوهَا، وَاللَّهُ  
لَيَنْ رَجَعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ  
جَابِرٌ: وَكَانَ الْأَنْصَارُ بِالْمَدِينَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ  
قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ  
عُمَرُ: دَغْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:  
«دَعُوهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»<sup>(٢)</sup>.  
وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup>.

وَذَكَرَ عِكْرَمَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ النَّاسَ لَمَّا قَتَلُوا  
رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ [ابْنُ أَبِي ابْنِ  
سُلُوفٍ] هَذَا عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ فَبَعَلَ النَّاسُ  
يَمُرُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَالَ لَهُ ابْنُهُ:  
وَرَأَيْكَ! فَقَالَ: مَا لَكَ وَبِئْسَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَجُوزُ مِنْ هَهُنَا  
حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ وَأَنْتَ الدَّلِيلُ،  
فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِنَّمَا يَسِيرُ سَافَةً، فَشَكَا إِلَيْهِ  
عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي ابْنِهِ، فَقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ  
اللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا حَتَّى تَأْذَنَ لَهُ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:  
أَمَّا إِذَا أَذِنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَزِ الْآنَ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى أَبُو  
بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْحُمَيْدِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هَارُونَ  
الْمَدَنِيِّ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سُلُوفٍ  
لِأَبِيهِ: وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ الْمَدِينَةَ أَبَدًا حَتَّى تَقُولَ: رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ الْأَعَزُّ وَأَنَا الْأَذَلُّ. قَالَ: وَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ  
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ أَبِي؟ فَوَ  
الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا تَأَمَّلْتُ وَجْهَهُ قَطُّ هَبْنِي لَهُ، وَلَيْسَ  
شَيْءٌ أَنْ آتِيكَ بِرَأْسِهِ لَأَتَيْتُكَ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَى قَاتِلَ  
أَبِي<sup>(٦)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ

وَقَالَ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ  
يَحْيَى بْنُ حَبَّانَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَعَاصِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ  
قَتَادَةَ فِي قِصَّةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِيمٌ  
هُنَاكَ اقْتَتَلَ عَلَى الْمَاءِ جَهْجَاهُ بْنُ سَعِيدٍ الْغِفَارِيُّ، وَكَانَ  
أَجِيرًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَسِنَانُ بْنُ وَبَرٍ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:  
فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ حَبَّانَ قَالَ: أَرْدَحَمَا عَلَى الْمَاءِ  
فَاقْتَتَلَا، فَقَالَ سِنَانُ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْجَهْجَاهُ:  
يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ وَتَمَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَ  
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، فَلَمَّا سَمِعَهَا قَالَ: قَدْ تَأَوَّرُونَا فِي بِلَادِنَا،  
وَاللَّهُ مَا مَثَلْنَا وَجَلَابِيبُ قُرَيْشٍ هَذِهِ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:  
سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ، وَاللَّهُ لَيَنْ رَجَعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ  
الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَقَالَ:  
مَا صَنَعْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَخَلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ  
أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَفَفْتُمْ عَنْهُمْ لَتَحَوَّلُوا عَنْكُمْ مِنْ  
بِلَادِكُمْ إِلَى غَيْرِهَا، فَسَمِعَهَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
فَذَهَبَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ عَلِيمٌ - عِنْدَهُ عُمَرُ  
ابْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرُ، فَقَالَ عُمَرُ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُرْ عِبَادَ بْنَ بَشْرٍ فَلْيَضْرِبْ  
عُنُقَهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَفَيْتَ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ يَا  
عُمَرُ، أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، لَا، وَلَكِنْ نَادِ يَا عُمَرُ  
الرَّحِيلَ» فَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنَّ ذَلِكَ قَدْ بَلَغَ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ أَنَاهُ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَخَلَفَ بِاللَّهِ مَا قَالَ مَا قَالَ عَلَيْهِ  
زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، وَكَانَ عِنْدَ قَوْمِهِ بِمَكَاثٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ  
اللَّهِ، عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغُلَامُ أَوْهَمَ وَلَمْ يُثْبِتْ مَا قَالَ  
الرَّجُلُ.

وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُهَجَّرًا فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَرُوحُ  
فِيهَا، فَلَقِيَهُ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ  
بِحَبِيَّةِ النَّبَوَّةِ ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ رُحْتُ فِي سَاعَةٍ مُنْكَرَةٍ مَا  
كُنْتُ تَرُوحُ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ  
صَاحِبُكَ ابْنُ أَبِي؟ زَعَمَ أَنَّهُ إِذَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ سَيُخْرِجُ الْأَعَزُّ  
مِنْهَا الْأَذَلَّ» قَالَ: فَأَنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - الْعَزِيزُ وَهُوَ  
الدَّلِيلُ. ثُمَّ قَالَ: ارْزُقْ بِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ  
بِكَ وَإِنَّا لَنَنْظِمُ لَهُ الْخَزَرَ لِنُتَوَّجَهُ، فَإِنَّهُ لَيَرَى أَنَّ قَدْ سَلَبْتَهُ  
مُلْكًا، فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ حَتَّى أَمْسَوْا وَلَيْلَتُهُ حَتَّى  
أَصْبَحُوا، وَصَدَرَ يَوْمِهِ حَتَّى اشْتَدَّ الضُّحَى ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ  
لِيَسْغَلَهُمْ عَمَّا كَانَ مِنَ الْحَدِيثِ، فَلَمْ يَأْمِنْ النَّاسُ أَنَّ

(١) ابن هشام: ٢٩٠-٢٩٢/٢ (٢) دلائل النبوة: ٥٣/٤ (٣)

أحمد: ٣٩٢/٣ (٤) البخاري: ٤٩٠٧ ومسلم: ٢٥٨٤ (٥)

الطبري: ٤٠٣/٢٣ و٤٠٥ (٦) مسند الحميدي: ٥٢٠/٢

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ  
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ  
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾  
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ  
عَلِيمُ بَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ  
فَدَاوُوا بِأَلْ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ  
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى  
اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَغَوَّلُوا عَلَى وَرَثِ  
لَتَبْعَنَ ثُمَّ لَتَبْنُونَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ  
يَجْعَلُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَافِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ  
صَالِحًا يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٢﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمُ بَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣﴾  
[التَّسْبِيحُ لِلَّهِ وَذِكْرُ خَلْقِهِ وَعِلْمِهِ]

هَذِهِ السُّورَةُ هِيَ آخِرُ الْمُسَبِّحَاتِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى  
تَسْبِيحِ الْمَخْلُوقَاتِ لِإِبَارَتِهَا وَمَالِكِهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أَيُّ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ  
الْكَائِنَاتِ، الْمُحْمَدُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ. وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ مَهْمَا أَرَادَ كَانَ بِلَا  
مُنَافِعٍ وَلَا مَدَافِعٍ وَمَا لَمْ يَسَأْ لَمْ يَكُنْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ  
الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أَيُّ هُوَ الْخَالِقُ لَكُمْ  
عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، وَأَرَادَ مِنْكُمْ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَجُودِ  
مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ وَمَنْ  
يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَةَ، وَهُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ وَسَيَجْزِيهِمْ  
بِهَا أَنْتُمْ الْجَزَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ  
بَصِيرٌ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ

ذِكْرُ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ ﴿١﴾  
وَأَنفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ  
لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾  
وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾  
[الْحَثُّ عَلَى عَدَمِ الْإِسْتِغَالِ بِأَسْبَابِ الدُّنْيَا، وَعَلَى  
الصَّدَقَةِ قَبْلَ الْمَوْتِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ، وَنَاهِيًا  
لَهُمْ عَنْ أَنْ تَشْغُلَهُمُ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ عَنْ ذَلِكَ، وَمُخْبِرًا  
لَهُمْ بِأَنَّهُ مَنْ التَّهَيَّأَ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَبِّتِهَا عَمَّا خُلِقَ لَهُ  
مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَذِكْرِهِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ يَخْسِرُونَ  
أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ حَثَّهُمْ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي  
طَاعَتِهِ فَقَالَ: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ  
الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ  
الصَّالِحِينَ﴾ فَكُلُّ مُفْرَطٍ يَنْدُمُ عِنْدَ الْإِحْضَارِ، وَيَسْأَلُ طُولَ  
الْمُدَّةِ وَلَوْ شَيْئًا يَسِيرًا لِيَسْتَعْتِبَ وَيَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَهُ وَهِنِهَا،  
كَانَ مَا كَانَ وَأَتَى مَا هُوَ آتٍ، وَكُلُّ بِحَسَبِ تَقْرِيطِهِ، أَمَّا  
الْكُفَّارُ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ  
فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ  
وَنَسْتَجِبِ الرَّسْلَ أَوَلَمْ تَكُفِّرُوا بِنَفْسِكُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمُ مِنْ  
رِزَالِي﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ  
الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا  
إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾  
[الْمُؤْمِنُونَ: ٩٩، ١٠٠]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا  
إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ لَا يُنْظَرُ أَحَدًا بَعْدَ  
حُلُولِ أَجَلِهِ. وَهُوَ أَعْلَمُ وَأَخْبِرُ بِمَنْ يَكُونُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ  
وَسُؤَالِهِ وَمَنْ لَوْ رَدَّ لَعَادَ إِلَى شَرٍّ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ  
التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّغَابُنِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ وَقِيلَ: مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿يَسِّحُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ  
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ

أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أَيُّ لَتُخْبِرُنَّ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ جَلِيلَهَا وَخَفِيرَهَا، صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أَيُّ بَعْثُكُمْ وَمُجَارَاتُكُمْ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقَسِّمَ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى وَفُوعِ الْمَعَادِ وَوُجُودِهِ، فَلَا أَوْلَىٰ فِي سُورَةِ يُوسُفَ ﴿يَسْتَسْتَوِيكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَشَدُّ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الآية: ٥٣] وَالثَّانِيَةُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ... الْآيَةُ. وَالثَّالِثَةُ هِيَ هَذِهِ ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنُيَعْتَبَأَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَمُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْوَرَّاءَ الَّذِينَ أُنزِلَتْ﴾ يُعْنِي الْقُرْآنَ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أَيُّ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَافِيَةٌ.

### [ذَكَرَ يَوْمَ التَّغَابُنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، سَمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُجْمَعُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسَمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيُنْذِرُهُمُ الْبَصَرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لُهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴿[الواقعة: ٤٩، ٥٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُغْبَتُونَ أَهْلَ النَّارِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ: لَا غَبْنٌ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُدْخَلَ هُؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُذْهَبَ بِأُولَئِكَ إِلَى النَّارِ. قُلْتُ: وَقَدْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَصَوِّرَكُمْ فَاحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أَيُّ أَحْسَنَ أَشْكَالِكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَبِيرُ﴾ [الأنفطار: ٦-٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ... الْآيَةُ [غافر: ٦٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْيَوْمَ الْمَصِيرُ﴾ أَيُّ الْمَرْجِعِ وَالْمَأْبِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُنْفِرُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُنَا بِمَا نَكْفُرُ وَتَوَلَّوْا وَآسَأْتَنِي اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَبِيدٌ

### [الْإِنذَارُ بَيَانُ إِهْلَاكِ مَنْ سَبَقَ مِنَ الْكُفَّارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَسْمِ الْمَاضِينَ وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ خَبَرُهُمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهم﴾ أَيُّ وَخِيمَ تَكْذِيبِهِمْ وَرَدِيءِ أفعالِهِمْ، وَهُوَ مَا حَلَّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْجَزَاءِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مُضَافٌ إِلَى هَذَا الدُّنْيَا، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيُّ بِالْحُجُجِ وَالذَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿فَقَالُوا أَبَشِّرْهُنَا بِمَا نَكْفُرُ أَيُّ اسْتَبَعَدُوا أَنْ تَكُونَ الرِّسَالَةُ فِي الْبَشَرِ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ عَلَى يَدَيِ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ﴾ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا أَيُّ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ وَنَكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ ﴿وَآسَأْتَنِي اللَّهُ﴾ أَيُّ عَنْهُمْ وَاللَّهُ عَنِّي حَبِيدٌ.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنُيَعْتَبَأَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فَاتَمُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْوَرَّاءَ الَّذِينَ أُنزِلَتْ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

### [الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَمَاتِ حَقٌّ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُلْحِدِينَ

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

[مَا يُصِيبُ الْمَرْءَ فَهُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا بِمَا أَخْبَرَ بِهِ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. وَهَكَذَا قَالَ هُنَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِأَمْرِ اللَّهِ، يَغْنِي عَنْ قَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَيْ وَمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَعَلِمَ أَنَّهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ وَاسْتَسَلَّمَ لِقَضَاءِ اللَّهِ هَدَى اللَّهُ قَلْبَهُ. وَعَوَّضَهُ عَمَّا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا هَدَى فِي قَلْبِهِ وَبَيَّنَّا صَادِقًا، وَقَدْ يُخْلِفُ عَلَيْهِ مَا كَانَ أَحَدٌ مِنْهُ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ يَغْنِي يَهْدِ قَلْبَهُ لِلْيَقِينِ، فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ<sup>(١)</sup>.

وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»<sup>(٢)</sup>.

[الْأَمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أَمْرٌ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِيمَا شَرَعَ، وَفَعَلَ مَا بِهِ أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ نَهَى وَرَجَرَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ إِنْ تَكَلَّمْتُمْ عَنِ الْعَمَلِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ مِنَ الْبَلَاغِ، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ. قَالَ الزُّهْرِيُّ: مِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةُ وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ<sup>(٣)</sup>.

[التَّوْحِيدُ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فَلَا أَوَّلَ خَبَرٍ عَنِ التَّوْحِيدِ وَمَعْنَاهُ مَعْنَى الطَّلَبِ، أَيْ وَحْدُوا الْإِلَهِيَّةَ لَهُ وَأَخْلَصُوهَا لَدَيْهِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ ﴿١١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٣﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَاطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾ إِنْ تَقْرَضُوا مِنَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٨﴾ عَلِمُوا الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَاطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾ إِنْ تَقْرَضُوا مِنَ اللَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٨﴾ عَلِمُوا الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾

[التَّحْذِيرُ مِنَ فِتْنَةِ الْأَرْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَرْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ: إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَدُوٌّ الزَّوْجِ وَالْوَالِدِ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَلْتَمِيهِ بِهِ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي عَلَى دِينِكُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ قَالَ: يَحْمِلُ الرَّجُلُ عَلَى قَطِيعَةٍ

(١) الطبري: ٤٢١/٢٣ (٢) مسلم: ٢٢٩٥/٤ (٣) البخاري:

توحيد، باب ٤٦

## [التَّوْبَةُ فِي الصَّدَقَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أَيِ وَابْذُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ عَلَى الْأَقَارِبِ، وَالْفُقَرَاءِ، وَالْمَسَاكِينِ، وَذَوِي الْحَاجَاتِ. وَأَحْسِنُوا إِلَى خَلْقِ اللَّهِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ لَا تَفْعَلُوا يَكُنْ شَرًّا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْتِ شَيْءًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ، وَذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةَ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَقَرَّضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضَعِفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أَيِ مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ. وَمَهْمَا تَصَدَّقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ، وَنَزَلَ ذَلِكَ مَثَلُهُ الْقَرْضُ لَهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «مَنْ يَقْرِضُ غَيْرَ ظُلْمٍ وَلَا عَدِيمٍ؟»<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُضَاعَفُهُ لَكُمْ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فِيضَعُفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أَيِ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ السَّيِّئَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ أَيِ يَجْزِي عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ ﴿حَلِيمٌ﴾ أَيِ يَضْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ وَالْخَطَايَا وَالسَّيِّئَاتِ ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَاللَّهْدَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ.

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّلَاقِ  
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْحَةٍ مُنِيئَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [تَطْلُقُ الْمَرْأَةُ لِعِدَّتِهَا، وَلَا تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا، وَتُحْصَى

الرَّحِمُ أَوْ مَعْصِيَةُ رَبِّهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ مَعَ حُبِّهِ إِلَّا أَنْ يُطِيعَهُ، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ قَالَ: فَهَؤُلَاءِ رِجَالٌ أَشْلَمُوا مِنْ مَكَّةَ، فَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ يَدْعُوهُمْ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ رَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَفَهُوا فِي الدِّينِ، فَهَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَنْ تَعْمُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّمَا الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ فِتْنَةٌ أَيْ اخْتِبَارٌ وَابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِخَلْقِهِ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ﴾ أَيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ [آل عمران: ١٤] وَالتِّي بَعْدَهَا، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بَرِيدَةَ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ، فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ، يَمْسِيَانِ وَيَعُورَانِ، فَتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُنْبَرِ، فَحَمَلَهُمَا، فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْسِيَانِ وَيَعُورَانِ، فَلَمْ أَضِبْ حَتَّى قَطَعْتُ حِدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ<sup>(٣)</sup>.

## [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى بِقَدْرِ الْإِسْطَاعَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أَيِ جُهِدْكُمْ وَطَاقَتْكُمْ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أَيِ كُونُوا مُتَقَاتِلِينَ لِمَا يَأْمُرُكُمُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَلَا تَحِيدُوا عَنْهُ بِمَنَّةٍ وَلَا بَسْرَةٍ، وَلَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا تَتَخَلَّفُوا عَمَّا بِهِ أَمَرْتُمْ. وَلَا تَرْكَبُوا مَا عَنْهُ رُجْرُكُمْ.

(١) تحفة الأحوذى: ٢٢٢/٩ (٢) أحمد: ٣٥٤/٥ (٣) أبو داود: ٦٦٣/١ وتحفة الأحوذى: ٢٧٨/١٠ والنسائي: ١٠٨/٣ وابن ماجه: ١١٩٠/٢ (٤) فتح الباري: ٢٦٤/١٣ ومسلم: ٢/٩٧٥ (٥) مسلم: ٥٢٢/١

عَدَّتْهَا

خُوطِبَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلًا تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا ثُمَّ خَاطَبَ الْأُمَّةَ بَعَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ طَلَّقَ امْرَأَةً لَهُ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَعَيَّظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «لِيَرَا جَعَلَهَا ثُمَّ يُمَسِّكُهَا حَتَّى تَطْهَرُ، ثُمَّ تَحِيضُ فَتَطْهَرُ، فَإِنْ بَدَأَ لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا، فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَمْسَسَهَا، فَيَلِكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ بِهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ هَهُنَا، وَقَدْ رَوَاهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ وَمُسْلِمٌ وَلَفْظُهُ: «فَيَلِكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلِّقَ لَهَا النِّسَاءَ»<sup>(٢)</sup>.

وَأَمْسَ لَفْظُ يُوْرِدُ هَهُنَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَيْمَنَ مَوْلَى عَزَّةَ يَسْأَلُ ابْنَ عُمَرَ وَأَبُو الزُّبَيْرِ يَسْمَعُ: كَيْفَ تَرَى فِي الرَّجُلِ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا؟ فَقَالَ: طَلَّقَ ابْنُ عُمَرَ امْرَأَتَهُ حَائِضًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِيَرَا جَعَلَهَا - فَرَدَّهَا وَقَالَ: - إِذَا طَهَّرْتَ فَلْيُطَلِّقْ أَوْ يُمَسِّكْ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عَدَّتِهِنَّ)<sup>(٣)</sup>. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ قَالَ: الطُّهْرُ مِنْ غَيْرِ جَمَاعٍ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ، وَعَطَاءٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَالْحَسَنِ، وَابْنِ سِيرِينَ وَقَتَادَةَ، وَمَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ مِثْلَ ذَلِكَ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ عِكْرِمَةَ، وَالضَّحَّاكِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ قَالَ: لَا يُطَلِّقُهَا وَهِيَ حَائِضٌ وَلَا فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ، وَلَكِنْ يَتْرُكُهَا حَتَّى إِذَا حَاضَتْ وَطَهَّرَتْ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ الْعِدَّةُ: الطُّهْرُ وَالْقُرْءُ: الْحَيْضَةُ. أَنَّ يُطَلِّقُهَا حُبْلَى مُسْتَيْبِنًا حَمْلَهَا، وَلَا يُطَلِّقُهَا وَقَدْ طَافَ عَلَيْهَا، وَلَا يَذَرِي حُبْلَى هِيَ أُمٌ لَا؟ وَمِنْ هَهُنَا أَخَذَ الْفُقَهَاءُ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ وَقَسَمُوهُ إِلَى طَلَاقِ سُنَّةٍ وَطَلَاقِ بِدْعَةٍ: فَطَلَاقِ السُّنَّةِ أَنْ يُطَلِّقَهَا طَاهِرَةً مِنْ غَيْرِ جَمَاعٍ، أَوْ حَامِلًا قَدْ اسْتَبَانَ حَمْلَهَا. وَالْبِدْعَةُ هُوَ أَنْ يُطَلِّقَهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ، أَوْ فِي طُهْرٍ قَدْ جَامَعَهَا فِيهِ، وَلَا يَذَرِي أَحْمَلَتْ أَمْ لَا. وَطَلَاقُ ثَالِثٍ لَا سُنَّةَ - فِيهِ - وَلَا بِدْعَةَ وَهُوَ طَلَاقُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٨

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَنَكَاحُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُهَا فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ فَدَجَّلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبْسُنُ مِنَ الْمَحْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ رَزَقْتُمْ فَعَدَّتِهِنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

الصَّغِيرَةَ وَالْآيِسَةَ وَغَيْرَ الْمَدْخُولِ بِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أَيِ اخْفَظُوهَا وَاعْرِفُوهَا ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً، لِئَلَّا تَطُولَ الْعِدَّةُ عَلَى الْمَرْأَةِ فَتَمْتَنِعَ مِنَ الْأَزْوَاجِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أَيِ فِي ذَلِكَ.

[الْفَقْهُ وَالسُّكْنَى عَلَى الرَّوْجِ فِي عِدَّةِ الرَّجْعِيَّةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ﴾ أَيِ فِي مُدَّةِ الْعِدَّةِ، لَهَا حَقُّ السُّكْنَى عَلَى الرَّوْجِ، مَا دَامَتْ مُعْتَدَّةً مِنْهُ. فَلَيْسَ لِلرَّجُلِ أَنْ يُخْرِجَهَا وَلَا يَجُوزَ لَهَا أَيْضًا الْخُرُوجُ، لِأَنَّهَا مُعْتَقَلَةٌ لِحَقِّ الرَّوْجِ أَيْضًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أَيِ لَا يُخْرِجَنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ إِلَّا أَنْ تَرْتَكِبَ الْمَرْأَةُ فَاحِشَةً مُبَيَّنَةً، فَتَخْرُجَ مِنَ الْمَنْزِلِ، وَالْفَاحِشَةُ الْمُبَيَّنَةُ: تَشْمَلُ الزُّنَا كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ

(١) فتح الباري: ٥٢١/٨ (٢) فتح الباري: ٢٥٨/٩ و ٣٩٣ ومسلم: ١٠٩٤/٢ و ١٠٩٥ (٣) مسلم: ١٠٩٨/٢ (٤) الطبري: ٤٣٢/٢٣ (٥) الطبري: ٤٣٢/٢٣ و ٤٣٤ (٦) الطبري: ٤٣٥/٢٣

الْحَدِيثُ.

وَرَوَى أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ، أُخْتِ الصَّحَّاحِ بْنِ قَيْسٍ الْقُرَشِيِّ، وَرَوَّجَهَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ حَفْصٍ بْنُ الْمُعْبِرَةِ الْمَخْزُومِيُّ فَقَالَتْ: إِنَّ أَبَا عَمْرٍو بْنَ حَفْصٍ أَرْسَلَ إِلَيَّ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ فِي حَبَشٍ إِلَى الْيَمَنِ بِطَلَّاقِي، فَسَأَلْتُ أَوْلِيَاءَهُ الثَّقَفَةَ عَلَيَّ وَالسُّكْنَى، فَقَالُوا: مَا أَرْسَلَ إِلَيْنَا فِي ذَلِكَ شَيْئًا وَلَا أَوْصَانًا بِهِ، فَاَنْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا عَمْرٍو بْنَ حَفْصٍ أَرْسَلَ إِلَيَّ بِطَلَّاقِي، فَسَأَلْتُ أَوْلِيَاءَهُ السُّكْنَى وَالثَّقَفَةَ عَلَيَّ، فَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُ: لَمْ يُرْسِلْ إِلَيْنَا فِي ذَلِكَ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا السُّكْنَى وَالثَّقَفَةُ لِلْمَرْأَةِ إِذَا كَانَ لِرُجُوعِهَا عَلَيْهَا رَجْعَةٌ، فَإِذَا كَانَتْ لَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ رُجُوعًا غَيْرَهُ: فَلَا نَفَقَةَ لَهَا وَلَا سُكْنَى»<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٨)</sup>.

«فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَهُنَّ فَاتَّسَبَّحْنَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَْ كَمَا يُوَكَّلُ بِهٖ مَن كَانَ يَدِينُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا»<sup>(٩)</sup> وَرَفَعَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا»<sup>(١٠)</sup>

[الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُطْلَقَةِ سَوَاءً أَرَادَ الرَّجْعَةَ أَوْ الْفِرَاقَ]

يَقُولُ تَعَالَى: فَإِذَا بَلَغَتِ الْمُعْتَدَاتُ أَجَلَهُنَّ، أَيِ شَارَفْنَ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَقَارَبْنَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَمْ تَقْرُغِ الْعِدَّةُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَحَيِّزٌ إِمَّا أَنْ يَعْزِمَ الرُّجُوعَ عَلَى إِسْمَاعِهَا، وَهُوَ رَجَعْتُهَا إِلَى عِصْمَةِ نِكَاحِهِ وَالِاسْتِمْرَارُ بِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ عِنْدَهُ «بِمَعْرُوفٍ» أَيِ مُحْسِنًا إِلَيْهَا فِي صُحْبَتِهَا، وَإِمَّا أَنْ يَعْزِمَ عَلَى مُفَارَقَتِهَا بِمَعْرُوفٍ، أَيِ مِنْ غَيْرِ مُقَابَحَةٍ وَلَا مُشَاتَمَةٍ وَلَا تَغْنِيفٍ، بَلْ يُطْلَقُهَا عَلَى وَجْهِ جَمِيلٍ وَسَبِيلِ حَسَنِ.

عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالشَّعْبِيُّ، وَالْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو قَلَابَةَ، وَأَبُو صَالِحٍ وَالصَّحَّاحُ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالسُّدِّيُّ وَسَعِيدُ بْنُ أَبِي هِلَالٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١١)</sup>. وَتَشْمَلُ مَا إِذَا نَشَرَتْ الْمَرْأَةُ أَوْ بَدَتْ عَلَى أَهْلِ الرَّجُلِ، وَادَّعَتْ فِي الْكَلَامِ وَالْفِعَالِ. كَمَا قَالَ أَبُو بِنٍ كَعْبٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» أَيِ شَرَائِعُهُ وَمَحَارِمُهُ «وَمَن يَلْعَدْ حُدُودَ اللَّهِ» أَيِ يَخْرُجُ عَنْهَا، وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى غَيْرِهَا وَلَا يَأْتِمِرُ بِهَا «فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» أَيِ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

[مَصْلَحَةُ الْإِعْتِدَادِ فِي بَيْتِ الرُّجُوعِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» أَيِ إِنَّمَا أَتَيْنَا الْمُطْلَقَةَ فِي مَنْزِلِ الرُّجُوعِ فِي مَدَّةِ الْعِدَّةِ، لَعَلَّ الرُّجُوعَ يَنْدُمُ عَلَى طَلَّاقِهَا وَيَخْلُقُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَجْعَتَهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَيْسَرَ وَأَسْهَلَ. قَالَ الزَّهْرِيُّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» قَالَتْ: هِيَ الرَّجْعَةُ<sup>(١٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ الشَّعْبِيُّ، وَعَطَاءُ، وَقَتَادَةُ، وَالصَّحَّاحُ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَالتَّوْرِيُّ<sup>(١٤)</sup>.

[لَا نَفَقَةَ وَلَا سُكْنَى لِلْمَبْتُوتَةِ]

وَمِنْ هُنَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ السَّلَفِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ، إِلَى أَنَّهُ لَا تَجِبُ السُّكْنَى لِلْمَبْتُوتَةِ وَاعْتَمَدُوا أَيْضًا عَلَى حَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ الْفُهْرِيَّةِ حِينَ طَلَّقَهَا أَبُو عَمْرٍو بْنُ حَفْصٍ آخِرَ ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ، وَكَانَ غَائِبًا عَنْهَا بِالْيَمَنِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا بِذَلِكَ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا وَكَيْلُهُ بِشَعِيرٍ يَعْنِي نَفَقَةَ فَسَخَطَتْهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَيْسَ لَكَ عَلَيْنَا نَفَقَةٌ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ» وَلِمُسْلِمٍ: «وَلَا سُكْنَى» وَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدَ فِي بَيْتِ أُمِّ شَرِيكٍ ثُمَّ قَالَ: «تِلْكَ أَمْرَاةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي، اعْتَدِي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ نِيَابَكَ»<sup>(١٥)</sup>. الْحَدِيثُ.

وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى بِلَفْظٍ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْظُرِي يَا بِنْتُ آلِ قَيْسٍ إِنَّمَا الثَّقَفَةُ وَالسُّكْنَى لِلْمَرْأَةِ عَلَى رُجُوعِهَا، مَا كَانَتْ لَهُ عَلَيْهَا رَجْعَةٌ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهَا رَجْعَةٌ فَلَا نَفَقَةَ وَلَا سُكْنَى، اخْرُجِي فَانْزِلِي عَلَى فُلَانَةٍ» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا، انْزِلِي عَلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فَإِنَّهُ أَعْمَى لَا يَرَاكَ»<sup>(١٦)</sup>. . . وَذَكَرَ تَمَامَ

(١) الطبري: ٤٣٨/٢٣ والقريطي: ١٥٦/١٨ والدر المنثور: ٨/

١٩٤ (٢) الطبري: ٤٣٨/٢٣ (٣) الطبري: ٤٤١/٢٣ (٤)

الطبري: ٤٤٢/٢٣ والقريطي: ١٥٧/١٨ والدر المنثور: ٨/١٩٤

(٥) مسلم: ١٤٨٠ (٦) أحمد: ٣٧٣/٦ (٧) الطبراني في

الكبير: ٣٨٢/٢٤ (٨) النسائي: ١٤٤/٦

[الْأَمْرُ بِالْإِشْهَادِ عَلَى الرَّجْعَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أَيُّ عَلَى الرَّجْعَةِ إِذَا عَزَمْتُمْ عَلَيْهَا. كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ ثُمَّ يَفْعُ بِهَا وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَلَاقِهَا وَلَا عَلَى رَجْعَتِهَا، فَقَالَ: طَلَّقْتَ لِغَيْرِ سُنَّةٍ وَرَجَعْتَ لِغَيْرِ سُنَّةٍ، أَشْهَدْ عَلَى طَلَاقِهَا وَعَلَى رَجْعَتِهَا وَلَا تَعُدُّ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ كَانَ عَطَاءٌ يَقُولُ: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ قَالَ: لَا يَجُوزُ فِي نِكَاحٍ وَلَا طَلَاقٍ وَلَا رَجَاعٍ إِلَّا شَاهِدَا عَدْلٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ عُدْرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ وَإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ إِنَّمَا يَأْتِمُرُ بِهِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنَّهُ شَرَعَ هَذَا وَمَنْ يَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

[يَجْعَلُ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُمْ وَيُكْفِيهِمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا<sup>(٢)</sup> وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَيُّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَا عَنْهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ أَيُّ مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِأَيْلِهِ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ: إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ<sup>(٣)</sup>﴾ [النحل: ٩٠] وَإِنَّ أَكْبَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَرَجًا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وَقَالَ عِكْرَمَةُ مَنْ طَلَّقَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمَسْرُوقٌ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ إِنْ شَاءَ أَعْطَى وَإِنْ شَاءَ مَنَعَ ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَيُّ مِنْ حَيْثُ لَا يَذَرِي<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أَيُّ مِنْ شَهَاتِ الْأُمُورِ وَالْكُرْبِ عِنْدَ الْمَوْتِ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ مِنْ حَيْثُ لَا يَرْجُو وَلَا يَأْمَلُ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ

يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجُمِعَتِ الصُّحُفُ<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ أَيُّ مُنْهَظَ قَضَائَاهُ وَأَحْكَامَهُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يُرِيدُهُ وَيَشَاءُهُ ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿وَالَّذِي يَسِّرُ مِنَ الْمَهِضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا<sup>(٩)</sup>﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ لِإِيَّاكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا<sup>(١٠)</sup>﴾

[عِدَّةُ الْآيَةِ وَالَّتِي لَمْ تَحْضْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبَيِّنًا لِعِدَّةِ الْآيَةِ، وَهِيَ الَّتِي انْقَطَعَ عَنْهَا الْمَحِيضُ لِكِبَرِهَا، أَنَّهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، عِوَضًا عَنِ الثَّلَاثَةِ قُرُوءٍ فِي حَقِّ مَنْ تَحِيضٌ، كَمَا ذَكَرْتُ عَلَى ذَلِكَ آيَةَ الْبَقَرَةِ، وَكَذَا الصَّغَارُ اللَّائِي لَمْ يَبْلُغْنَ سِنَّ الْحَيْضِ: أَنَّ عِدَّتَهُنَّ كَعِدَّةِ الْآيَةِ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ:

(أَحَدُهُمَا) وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ كُمُجَاهِدٍ وَالرُّهْرِيِّ وَابْنِ زَيْدٍ أَيُّ إِنْ رَأَيْتُمْ دَمًا وَشَكَكْتُمْ فِي كَوْنِهِ حَيْضًا أَوْ اسْتِحَاضَةً وَارْتَبْتُمْ فِيهِ<sup>(١١)</sup>. (وَالْقَوْلُ الثَّانِي) إِنْ ارْتَبْتُمْ فِي حُكْمِ عِدَّتِهِنَّ وَلَمْ تَعْرِفُوهُ فَهُوَ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ. وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جُرَيْجٍ<sup>(١٢)</sup>. وَهُوَ أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَا رَوَاهُ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ عَدَدًا مِنْ عِدَّةِ النِّسَاءِ لَمْ تَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ: الصَّغَارِ وَالْكِبَارِ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّتِي يَسِّرُ مِنَ الْمَهِضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ<sup>(١٣)</sup>﴾. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادٍ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنْ نَاسًا مِنْ

(١) أبو داود: ٦٣٧/٢ وابن ماجه: ٦٥٢/١ (٢) أحمد: ٥/

١٧٨ (٣) الطبري: ٤٤٦/٢٣ (٤) الطبري: ٤٤٥/٢٣ ٤٤٦

(٥) الطبري: ٤٤٨/٢٣ (٦) أحمد: ٢٩٣/١ (٧) تحفة

الأحادي: ٢١٩/٧ (٨) الطبري: ٤٥٠/٢٣ (٩) الطبري:

٤٥٢/٢٣ (١٠) الطبري: ٤٥١/٢٣



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٩

سُورَةُ الطَّلَاقِ

أَسْكُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا نِصَارُوهُمْ لِيُصَيِّفُوا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنْ أَوْلَتْ حَمْلًا فَلْيَنْقُصُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَبْضَعَنَّ حَمْلَهُمْ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَامْسُوهُمْ أَمْجُورَهُمْ وَأَتِمُّوا إِلَيْنَاكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَرِّضْهُ لَهَا أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعِيَّتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيبِهِ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِهَا عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خَسِرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَلَؤُوا الصَّلَاحَاتِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

وَقَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكِكَ فَقَالَ لَهَا: مَالِي أَرَاكِ مُتَجَمِّلَةً؟ لَعَلَّكَ تَرْجِينَ النِّكَاحَ، إِنَّكَ وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بِتَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ.

قَالَتْ سَبِيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَقَاتَنِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزْوِيجِ إِنْ بَدَأَ لِي <sup>(٦)</sup>. هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُخْتَصَرًا <sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْقِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أَيُّ يُسْهَلْ لَهُ أَمْرُهُ وَيُسْرُهُ عَلَيْهِ، وَيَجْعَلْ لَهُ فَرْجًا قَرِيبًا وَمَخْرَجًا

أَهْلَ الْمَدِينَةِ لَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ فِي عِدَّةِ النِّسَاءِ قَالُوا: لَقَدْ بَقِيَ مِنْ عِدَّةِ النِّسَاءِ عِدَّةٌ لَمْ يَذْكُرْنَ فِي الْقُرْآنِ: الصَّغَارُ وَالْكِبَارُ اللَّائِي قَدْ انْقَطَعَ مِنْهُنَّ الْحَيْضُ، وَذَوَاتُ الْحَمْلِ. قَالَ: فَأَنْزَلَتْ الَّتِي فِي النِّسَاءِ الْقُصْرَى: ﴿وَالَّتِي يَبْسَنَ مِنَ الْمَجْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ <sup>(١)</sup>.

[عِدَّةُ الْحَامِلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَمَنْ كَانَتْ حَامِلًا فَعِدَّتُهَا بِوَضْعِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْدَ الطَّلَاقِ، أَوْ الْمَوْتِ بِفَوَاقِ نَاقَةٍ، فِي قَوْلِ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، كَمَا هُوَ نَصُّ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَكَمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ. رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ جَالِسٌ فَقَالَ: أَفْتِنِي فِي أَمْرَاءٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آخِرُ الْأَجَلَيْنِ. قُلْتُ أَنَا: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَا مَعَ ابْنِ أَجِي - يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ - فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ غُلَامَهُ كُرَيْبًا إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ يَسْأَلُهَا فَقَالَتْ: قِيلَ زَوْجٌ سَبِيْعَةُ الْأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حُبْلَى، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَخُطِبَتْ فَأَنكَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِيْمَنْ خُطِبَهَا <sup>(٢)</sup>. هَكَذَا أَوْرَدَ الْبُخَارِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ هَهُنَا مُخْتَصَرًا، وَقَدْ رَوَاهُ هُوَ وَمُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ الْكُتُبِ مَطْوَلًا مِنْ وَجْهِ أُخَرٍ <sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُسَوِّدِ بْنِ مَخْرَمَةَ: أَنَّ سَبِيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةَ تُوفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ حَامِلٌ فَلَمْ تَمُتْ إِلَّا لَيَالِي حَتَّى وَضَعَتْ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا خُطِبَتْ، فَاسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي النِّكَاحِ فَإِذَنْ لَهَا أَنْ تَنْكِحَ، فَنَكَحَتْ <sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ طَرَفٍ عَنْهَا <sup>(٥)</sup>. كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ بْنُ الْحَجَّاجِ: عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ: أَنَّ أَبَاهُ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيِّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى سَبِيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ، فَيَسْأَلَهَا عَنْ حَدِيثِهَا وَعَمَّا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ اسْتَفْتَتْهُ، فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُخْبِرُهُ أَنَّ سَبِيْعَةَ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ - وَكَانَ مِنْ شُهَدَا بَدْرًا - فَتُوفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةٍ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشُبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ

(١) الحاكم: ٤٩٢/٢ (٢) فتح الباري: ٥٢١/٨ (٣) فتح الباري: ٣٧٩/٩ ومسلم: ١١٢٣/٢ وتحفة الأحمدي: ٣٧٥/٤ والنسائي: ١٩٢/٦ (٤) أحمد: ٣٢٧/٤ (٥) فتح الباري: ٩/٣٧٩ و٣٦٠/٧ وأبو داود: ٧٢٨/٢ والنسائي: ١٩٠/٦ و١٩٦ وابن ماجه: ٦٥٤/١ (٦) مسلم: ١١٢٢ (٧) فتح الباري: ٩/٣٧٩

إِضْرَارٍ وَلَا مُضَارَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿لَا تُضَاكِرْهُنَّ أُولَهُنَّ وَلَا مَوْلُودَهُنَّ مِنْهُنَّ يَوْمَ يَأْتِيَنَّكَ رُسُلُنَا بِالنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعَاَسَ رِجَالُ فُسْطَاحٍ لِّأُخْرَىٰ﴾ أَيْ وَإِنْ اخْتَلَفَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ فَطَلَبَتِ الْمَرْأَةُ فِي أَجْرَةِ الرِّضَاعِ كَثِيرًا، وَلَمْ يُجِبْهَا الرَّجُلُ إِلَىٰ ذَلِكَ، أَوْ بَذَلَ الرَّجُلُ قَلِيلًا وَلَمْ تُوَافِقْهُ عَلَيْهِ، فَلْيَسْتَرْضِعْ لَهُ غَيْرَهَا، فَلَوْ رَضِيتِ الْأُمُّ بِمَا اسْتَوْجَرَتْ بِهِ الْأَجْنِيَّةُ فَهِيَ أَحَقُّ بِوَلَدِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ أَيْ لِيُنْفِقَ عَلَى الْمَوْلُودِ وَالِدُهُ أَوْ وَلِيُّهُ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [البقرة: ٢١٨].

### [قِصَّةُ الْمَرْأَةِ الْمُتَّقِيَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وَعَدُّ مِنْهُ تَعَالَى وَوَعْدُهُ حَقٌّ لَا يُخْلَفُهُ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن مَّعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦٠٥] وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ حَدِيثًا يَحْسُنُ أَنْ نَذْكُرَهُ هُنَا: فَرَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ مِنَ السَّلَفِ الْخَالِي لَا يَقْدِرَانِ عَلَى شَيْءٍ، فَجَاءَ الرَّجُلُ مِنْ سَفَرِهِ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ [جَائِعًا] قَدْ أَصَابَتْهُ مَسْغَبَةٌ شَدِيدَةٌ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَبْتِيزُ أَتَانَا رِزْقُ اللَّهِ، فَاسْتَحْتَمَهَا فَقَالَ: وَيَحَكِ ابْتِغِي إِنْ كَانَ عِنْدَكَ شَيْءٌ، قَالَتْ: نَعَمْ هُنِيئَةً - تَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ - حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيْهِ الطُّولُ قَالَ: وَيَحَكِ قُومِي فَابْتِغِي إِنْ كَانَ عِنْدَكَ شَيْءٌ فَاقْبِئِي بِهِ، فَإِنِّي قَدْ بُلِغْتُ وَجُهِدْتُ، فَقَالَتْ: نَعَمْ، الْآنَ نَفْتَحُ التَّنَوُّرَ فَلَا تُعْجَلْ، فَلَمَّا أَنْ سَكَتَ عَنْهَا سَاعَةً وَتَحَيَّنَتْ أَنْ يَقُولَ لَهَا، قَالَتْ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهَا: لَوْ قُمْتُ فَنَطَرْتُ إِلَى تَنَوُّرِي، فَقَامَتْ فَنَطَرْتُ إِلَى تَنَوُّرِهَا مَلَانٍ مِنْ جُثُوبِ الْعَنَمِ، وَرَحِييَهَا تَطْحَنَانٍ، فَقَامَتْ إِلَى الرَّحَى فَفَضَّصَتْهَا وَاسْتَخْرَجَتْ مَا فِي تَنَوُّرِهَا مِنْ جُثُوبِ الْعَنَمِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَوَ الَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ هُوَ قَوْلُ مُحَمَّدٍ ﷺ: «لَوْ أَخَذْتُ مَا فِي رَحِييِهَا وَلَمْ تَنْفَضْهَا [لَطَحَنَتْهَا] إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٤)</sup>.

﴿وَكَايَن مِّن رَّبِّهِ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا

عَاجِلًا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أَيْ حُكْمُهُ وَسَرْعُهُ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ بِوَاسِطَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ يَقُولُ اللَّهُ يَكْفُرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا﴾ أَيْ يَذْهَبُ عَنْهُ الْمَحْذُورُ، وَيَجْزِلُ لَهُ الثَّوَابُ عَلَى الْعَمَلِ الْمُسِيرِ.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنَ مِّنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِيُضْفِقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلَ فَلْيَضْفِكُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ إِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَضَوُّهُنَّ أَجُورُهُنَّ وَأَتَرُوا بَيْنَكُمْ مَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَ رِجَالُ فُسْطَاحٍ لِّأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٣] لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا

عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

### [تَسْكُنُ الْمُطَلَّقةُ حَسَبَ مَا يَجِدُ الزَّوْجُ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ الْمَرْأَةَ: أَنْ يُسْكِنَهَا فِي مَنْزِلٍ حَتَّى تَنْفَضِيَ عِدَّتُهَا فَقَالَ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنَ﴾ أَيْ عِنْدَكُمْ ﴿مِّنْ وُجْدِكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي سَعَتِكُمْ<sup>(١)</sup>. حَتَّى قَالَ قَتَادَةُ: إِنْ لَمْ تَجِدْ إِلَّا حَنْبَ بَيْتِكَ فَاسْكِنَهَا فِيهِ<sup>(٢)</sup>.

### [الْأَنْهَى عَنِ التَّضْيِيقِ عَلَى الْمُطَلَّقةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِيُضْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قَالَ مُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانٍ: يَعْنِي يَضَارُجُهَا لِتَقْصُرَ مِنْهُ بِمَالِهَا أَوْ تَخْرُجَ مِنْ مَسْكَنِهَا. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ أَبِي الضُّحَى: ﴿وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِيُضْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قَالَ: يُطْلَقُهَا فَإِذَا بَقِيَ يَوْمَانِ رَاجِعَهَا<sup>(٣)</sup>.

### [نَفَقَةُ الْحَامِلِ الْبَائِسِ عَلَى الزَّوْجِ حَتَّى تَضَعَ الْحَمْلَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلَ فَلْيَضْفِكُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ هَذِهِ فِي الْبَائِسِ، إِنْ كَانَتْ حَامِلًا أَنْفَقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا، بِدَلِيلٍ: أَنَّ الرَّجْعِيَّةَ تَجِبُ نَفَقَتُهَا سِوَاءَ كَانَتْ حَامِلًا أَوْ حَائِلًا.

### [تَأْخُذُ الْأُمُّ الْمُطَلَّقةُ أَجْرَةَ الرِّضَاعَةِ إِنْ أَرْضَعَتْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أَيْ إِذَا وَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَهُنَّ طَوَالِقٌ فَقَدْ بَنَ بِانْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ، وَلَهَا جِزْيَةٌ أَنْ تُرْضِعَ الْوَلَدَ وَلَهَا أَنْ تَمْتَنِعَ مِنْهُ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُغْذِيَ بِاللَّبَنِ، وَهُوَ: بَاكُورَةُ اللَّبَنِ الَّذِي لَا قِيَامَ لِلْمَوْلُودِ غَالِبًا إِلَّا بِهِ، فَإِنْ أَرْضَعَتْ اسْتَحَقَّتْ أَجْرَ مِثْلِهَا، وَلَهَا أَنْ تَعَاقِدَ أَبَاهُ أَوْ وَلِيَّهُ عَلَى مَا يَتَّفِقَانِ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَضَوُّهُنَّ أَجُورُهُنَّ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَرُوا بَيْنَكُمْ مَعْرُوفٍ﴾ أَيْ: وَلِتَكُنْ أُمُورُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ

(١) الطبري: ٤٥٧/٢٣ (٢) الدر المنثور: ٢٠٧/٨ (٣) القرطبي: ١٦٨/١٨ (٤) أحمد: ٤٢١/٢

وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهَا أَمْرًا حُسْرًا ﴿٩﴾  
 أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ  
 أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ﴿١٠﴾ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ  
 وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا  
 قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿١١﴾  
 [جَزَاءُ الْعُتُوِّ عَنْ أَمْرِ الرَّبِّ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ  
 وَسَلَّكَ غَيْرَ مَا شَرَعَهُ، وَمُخْبِرًا عَمَّا حَلَّ بِالْأَمَمِ السَّالِفَةِ  
 بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّيْنِ مِنْ قَرْنَيْهِ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا  
 وَرُسُلِهِ﴾ أي تَمَرَّدَتْ وَطَعَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ عَنْ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ  
 وَمُتَابَعَةِ رُسُلِهِ ﴿فَمَاسَبَتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾ أي  
 مُنْكَرًا فَظِيمًا ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي غِيبَ مُحَالَفَتِهَا، وَنَدِمُوا  
 حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿وَكَانَ عِقَبُهَا أَمْرًا حُسْرًا﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ  
 عَذَابًا شَدِيدًا ﴿أَي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَعَ مَا [عَجَلَ] لَهُمْ مِنْ  
 الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ مَا قَصَّ مِنْ خَبَرِ  
 هَؤُلَاءِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ﴾ أَيِ الْأَفْهَامِ  
 الْمُسْتَقِيمَةِ، لَا تَكُونُوا مِثْلَهُمْ، فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ يَا أُولِي  
 الْأَلْبَابِ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيِ صَدَقُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ  
 إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ  
 وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

### [صِفَةُ الرُّسُولِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ قَالَ  
 بَعْضُهُمْ: رُسُلًا مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ بَدَلُ اسْتِمَالٍ وَمُلَابَسَةٍ،  
 لِأَنَّ الرُّسُولَ هُوَ الَّذِي بَلَغَ الذِّكْرَ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:  
 الصَّوَابُ: أَنَّ الرُّسُولَ تَرْجُمَةٌ عَنِ الذِّكْرِ يَعْنِي تَفْسِيرًا  
 لَهُ<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ  
 مُبَيِّنَاتٍ﴾ أَيِ فِي حَالِ كَوْنِهَا بَيِّنَةً وَاضِحَةً جَلِيلَةً ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:  
 ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾  
 [إبراهيم: ١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُغْفِرْ لَهُمْ  
 مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أَيِ مِنَ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ  
 وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى  
 الْوَحْيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ نُورًا؛ لِمَا يُحْصَلُ بِهِ مِنَ الْهُدَى، كَمَا  
 سَمَّاهُ رُوحًا، لِمَا يُحْصَلُ بِهِ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ فَقَالَ تَعَالَى:  
 ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

عِلْمًا ﴿١٢﴾  
 [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ]  
 يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ  
 لِيَكُونَ ذَلِكَ بَاعِثًا عَلَى تَعْظِيمِ مَا شَرَعَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ  
 ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ  
 قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾  
 [نوح: ١٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ  
 فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أَيِ  
 سَبْعًا أَيْضًا: كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ  
 الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي صَحِيحِ  
 الْبُخَارِيِّ: «خُسِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ»<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ ذَكَرْتُ  
 طَرَفَهُ وَالْفَاضِلَ وَعَزَوُّهُ فِي أَوَّلِ «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» عِنْدَ ذِكْرِ  
 خَلْقِ الْأَرْضِ<sup>(٤)</sup>. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَمَنْ حَمَلَ ذَلِكَ  
 عَلَى سَبْعَةِ أَقَالِيمٍ فَقَدْ أَبْعَدَ التَّجَعُّعَ، وَأَغْرَقَ فِي التَّرَعُّعِ،  
 وَخَالَفَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ بِلا مُسْتَنَدٍ.  
 آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطَّلَاقِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّحْرِيمِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّلِ مِنْ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ  
 عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكَ نِكَاحَ أَيْمَنِكَمُ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ  
 الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٢ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا بَيَّنَّاتِ  
 بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا بَيَّنَّاهَا بِهِ  
 قَالَتْ مَنْ أَتَبَاكَ هَذَا قَالَ تَبَيَّنَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٣ إِنْ نُبَوِّأُ إِلَى اللَّهِ

(١) الطبري: ٤٦٨/٢٣ (٢) فتح الباري: ١٢٤/٥ ومسلم: ٣/

١٢٣٢ (٣) فتح الباري: ١٢٤/٥ (٤) البداية والنهاية: ١/

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ ١ قَدْ فُضَّ اللَّهُ لَكُمْ نِكَاحُ أَيْمَنِكُمْ وَاللَّهُ مُؤَلِّمُكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْعَزِيمُ ٢ وَإِذَا أَسْرَأْتِنِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ هَاهُنَا قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ تَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ٣ إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَتٍ تَبْنِي عِدَّتٍ سَدِّحَتٍ تَبْنِي وَأَبْكَارًا ٥ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَنْعِدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا يُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧

التي أجد، فإنه سيقول لك: «سقتني حفصة شربة غسل» فتولي جرس نخله العرفط وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفيته ذلك، قالت: تقول سودة: فوالله ما هو إلا أن قام على الباب، فأزنت أن أناذبه بما أمرتني فرقا منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: «لا» قالت: فما هذه الرياح التي أجد منك؟ قال: «سقتني حفصة شربة غسل» قالت: جرس نخله العرفط، فلما دار إلي قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفيته قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أشفيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه» قالت: تقول سودة والله لقد حرمتها، قلت لها: أسكني<sup>(٤)</sup>. هذا لفظ البخاري. وقد رواه مسلم<sup>(٥)</sup>، وعنده قالت: وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الرياح<sup>(٦)</sup>. يعني الرياح

(١) فتح الباري: ٥٨٢/١١ (٢) فتح الباري: ٢٨٧/٩ (٣) مسلم: ١١٠٠/٢ (٤) فتح الباري: ٢٨٧/٩ (٥) مسلم: ٢/ ١١٠٢، ١١٠١ (٦) مسلم: ١١٠٢/٢

فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ١ عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَتٍ تَبْنِي عِدَّتٍ سَدِّحَتٍ تَبْنِي وَأَبْكَارًا ٥ [عِتَابُ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ فِي تَحْرِيمِهِ الْحَلَالِ وَبَيَانِ كَفَّارَتِهِ، وَتَأْدِيبِ الْأَزْوَاجِ عَلَى تَضْيِيقِهِ]

روى البخاري في كتاب الأيمان والتدوير عن عبيد بن عمير قال: سمعت عائشة تزعم أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلا، فتواطأت أنا وحفصة أن أتينا دخل عليها النبي ﷺ فقلنا: إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير؟ فدخل على أحدهما النبي ﷺ فقالت ذلك له. فقال: «لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولكن أعود له» فزلت: «يأتينا النبي ﷺ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ» - إلى قوله تعالى - «إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» لعائشة وحفصة «وَإِذَا أَسْرَأْتِنِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا» لقوله: «بل شربت عسلا» وقال إبراهيم بن موسى عن هشام: «ولن أعود له وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحدا»<sup>(١)</sup>. وهكذا رواه في كتاب الطلاق بهذا الإسناد ولفظه قريب منه<sup>(٢)</sup>. ثم قال: المغافير شبيه بالصمغ يكون في الرمث فيه خلاوة: أعقر به الرمث: إذا ظهر فيه. واجدها مغفور، ويقال: [المغافير]، وهكذا قال الجوهري قال: وقد يكون المغفور أيضا للعسر والتمام والسلام والطلح. قال: والرمث بالكسر: مرعى من مراعي الإبل، وهو من الحمض. قال: والعرفط: شجر من العضاة ينضح المغفور.

وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب الطلاق من صحيحه عن عائشة به، ولفظه كما أورده البخاري في الأيمان والتدوير<sup>(٣)</sup>. ثم روى البخاري في كتاب الطلاق عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والغسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نساءه فيدئو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة غسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدئو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير، فإنه سيقول لك «لا»، فقولي له: ما هذه الرياح

تُنْكِرُ أَنْ أَرَا جَعَلَكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَا جَعَلَهُ وَتَهَجَّرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ. قَالَ: فَانْطَلَقْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ: أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَتَهَجَّرُهُ إِحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَخَسِرَ، أَفَتَأْمُرُنَّ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا لِعِصَابِ رَسُولِهِ فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ، لَا تُرَاجِعِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَا تَسْأَلِيهِ شَيْئًا وَسَلِّبِي مِنْ مَالِي مَا بَدَا لَكَ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْسَمَ - أَيَّ أَحْمَلَ - وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكَ - يُرِيدُ عَائِشَةَ - .

قَالَ: وَكَانَ لِي جَارٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكُنَّا تَتَنَاقَبُ التَّرْوَلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا فَيَأْتِينِي بِخَبَرِ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَآتِيهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ. قَالَ: وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنْ عَسَانُ تُنْعَلُ الْخَيْلَ لَتَغُرُّنَا، فَتَزَلُ صَاحِبِي يَوْمًا ثُمَّ أَتَى عِشَاءَ فَضْرَبَ بَابِي ثُمَّ نَادَانِي فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: حَدِّثْ أَمْرَ عَظِيمٍ، فَقُلْتُ: وَمَا ذَلِكَ أَجَاءَتْ عَسَانُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَطْوَلُ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ. فَقُلْتُ: قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ، قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ هَذَا كَائِنًا حَتَّى إِذَا صَلَّيْتُ الصُّبْحَ شَدَّدْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، ثُمَّ نَزَلْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ وَهِيَ تَبْكِي فَقُلْتُ: أَطَلَّقَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: لَا أَدْرِي، هُوَ هَذَا مُعْتَرِلٌ فِي هَذِهِ الْمَشْرُوبَةِ، فَأَتَيْتُ غُلَامًا لَهُ أَسْوَدُ فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمْرٍ، فَدَخَلَ الْغُلَامُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ فَقَالَ: ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمْتُ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُ الْمُنْبَرِ، فَإِذَا عِنْدَهُ رَهْطٌ جُلُوسٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ، فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ قَلِيلًا ثُمَّ عَلَنِي مَا أَجِدُ، فَأَتَيْتُ الْغُلَامَ فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمْرٍ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ، فَصَمْتُ، فَوَلَّيْتُ مُذْبِرًا، فَإِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي فَقَالَ: أَدْخُلْ قَدْ أَذِنَ لَكَ، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى رُمَالٍ حَصِيرٍ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقُلْتُ: أَطَلَّقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نِسَاءَكَ؟ فَزَعَّ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ: «لَا» فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ. وَلَوْ رَأَيْتُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ

الْخَيْبَةَ، وَلِهَذَا قُلْنَا لَهُ أَكَلْتُ مَغَافِيرَ، لِأَنَّ رِيحَهَا فِيهِ شَيْءٌ، فَلَمَّا قَالَ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا» قُلْنَا: جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطُ، أَيُّ: رَعَتْ نَحْلَهُ شَجَرُ الْعُرْفُطِ الَّذِي صَمَغُهُ الْمَغَافِيرُ، فَلِهَذَا ظَهَرَ رِيحُهُ فِي الْعَسَلِ الَّذِي شَرِبْتَهُ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: جَرَسَتْ النَّحْلُ الْعُرْفُطُ تَجْرُسُ إِذَا أَكَلَتْهُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلنَّحْلِ: جَوَارِسُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

\* نَظَّلَ عَلَى النِّمْرَاءِ مِنْهَا جَوَارِسُ \*

وَقَالَ: الْجَرَسُ وَالْجَرَسُ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ. وَيُقَالُ: سَمِعْتُ جَرَسَ الطَّيْرِ إِذَا سَمِعْتُ صَوْتَ مَنَاقِيرِهَا عَلَى شَيْءٍ تَأْكُلُهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «فَيَسْمَعُونَ جَرَسَ طَيْرِ الْجَنَّةِ» قَالَ الْأَصْبَغِيُّ: كُنْتُ فِي مَجْلِسِ شُعْبَةَ، قَالَ: فَيَسْمَعُونَ جَرَسَ طَيْرِ الْجَنَّةِ - بِالْشَّيْنِ - فَقُلْتُ: جَرَسٌ، فَتَنَظَّرَ إِلَيَّ فَقَالَ: خُذُوهَا عَنْهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِهَذَا مِنْهَا<sup>(١)</sup>. وَالْغَرَضُ: أَنَّ هَذَا السِّبَاقَ فِيهِ أَنَّ حَفْصَةَ هِيَ السَّاقِيَةُ لِلْعَسَلِ، وَهُوَ مِنْ طَرِيقِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ، وَفِي طَرِيقِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ عَبْدِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ هِيَ الَّتِي سَقَتْهُ الْعَسَلُ، وَأَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ تَوَاطَا وَتَنَظَّاهِرَتَا عَلَيْهِ فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُمَا وَاقِعَتَانِ وَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ كَوْنَهُمَا سَبَبًا لِتُرْوَلِ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَظَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هُمَا الْمُتَنَظَّاهِرَتَانِ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ حَيْثُ قَالَ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ نَوَّيَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حَتَّى حَجَّ عُمَرُ وَحَاجَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَدَلَ عُمَرُ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ، فَتَبَرَّرَ، ثُمَّ أَتَانِي فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ، فَتَوَضَّأَ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مِنَ الْمَرْأَتَانِ مِنَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ نَوَّيَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فَقَالَ عُمَرُ: وَاعْجَبَا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ: قَالَ الرَّهْرِيُّ: كَرِهَ - وَاللَّهُ - مَا سَأَلَهُ عَنْهُ وَلَمْ يَكْتُمَهُ قَالَ: هِيَ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ.

قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ يَسُوقُ الْحَدِيثَ قَالَ: كُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ قَالَ: وَكَانَ مِنْزِلِي فِي دَارِ أُمِّئَةَ بِنْتِ زَيْدٍ بِالْعَوَالِي، قَالَ: فَغَضِبْتُ يَوْمًا عَلَى امْرَأَتِي فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي فَقَالَتْ: مَا

فَنَادَيْتُ فَقُلْتُ: يَا رَبَّاحُ، اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... فَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ إِلَيَّ أَنْ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَسْقُ عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ، فَإِنْ كُنْتُ طَلَقْتُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتُهُ وَجِبْرِيلُ وَمِيكَالُ، وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ، وَقَلَمًا تَكَلَّمْتُ - وَأَحْمَدُ اللَّهِ - بِكَلَامٍ إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي، فَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ آيَةَ التَّخْيِيرِ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقْتُكَ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾، ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فَقُلْتُ: أَطَلَقْتُهُنَّ؟ قَالَ:

«لَا» فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَتَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: لَمْ يُطَلَّقْ نِسَاءً. وَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] فَكُنْتُ أَنَا إِسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعِكْرَمَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَالصَّحَّاحُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٦)</sup> ﴿وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، زَادَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَعُثْمَانُ، وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سَلِيمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقْتُكَ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ فَتَرَكْتُ هَذِهِ الْآيَةَ<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ وَافَقَ الْقُرْآنَ فِي أَمَاكِنَ مِنْهَا فِي تَرْوِيلِ الْحِجَابِ، وَمِنْهَا فِي أُسَارَى بَذْرِ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: لَوْ اتَّخَذْتُ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: بَلَغَنِي شَيْءٌ كَانَ بَيْنَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَفَرَيْتُهُنَّ أَقُولُ: لَتُخَفَّنَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ اللَّهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ مَا يَعْظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعْطَهُنَّ، فَأَمْسَكْتُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ فَغَضِبْتُ عَلَى امْرَأَتِي يَوْمًا فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي فَقَالَتْ: مَا تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ؟ قَوَّ اللَّهُ إِنَّ أَرْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لِكِرَاجِعَتِهِ، وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ، فَقُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُنَّ وَخَسِرَتْ، أَفَتَأْمَنُ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا لِعِصَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ.

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَقُلْتُ لَا يَغْرَتُكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْسَمَ أَوْ أَحَبَّ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكَ. فَتَبَسَّمَ أُخْرَى، فَقُلْتُ: أَتُسَاتِنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَجَلَسْتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فِي الْبَيْتِ، قَوَّ اللَّهُ مَا رَأَيْتُ فِي الْبَيْتِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ إِلَّا [أُهْبَ مَقَامَةً]، فَقُلْتُ: أَدْعُ اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ يُوَسِّعَ عَلَيَّ أُمَّتِيكَ، فَقَدْ وَسَّعَ عَلَى فَارِسٍ وَالرُّومِ وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَاسْتَوَى جَالِسًا وَقَالَ: «أَفِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَوْلَيْكَ قَوْمٌ عَجَلْتُ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فَقُلْتُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ.

وَكَانَ أَقْسَمَ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا مِنْ شِدَّةِ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِنَّ حَتَّى عَاتَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ<sup>(٢)</sup>. وَأَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَكَّثْتُ سَنَةً أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنْ آيَةٍ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْأَلَهُ هَبْنِي لَهُ، حَتَّى خَرَجَ حَاجًّا فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَكُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، عَدَلْتُ إِلَى الْأَرَاكِ لِحَاجَةٍ لَهُ، قَالَ: فَوَقَفْتُ حَتَّى فَرَغَ ثُمَّ سِرْتُ مَعَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ اللَّتَانِ تَطَاهَرْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ<sup>(٣)</sup>. هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ، وَلِمُسْلِمٍ: مِنَ الْمَرْأَتَانِ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَا عَلَيْهِ﴾؟ قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ. ثُمَّ سَأَلَ الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ<sup>(٤)</sup> وَمِنْهُمْ مَنْ اخْتَصَرَهُ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، حَدَّثَنِي عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا اعْتَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْكَبُونَ بِالْحَصَى وَيَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤَمَّرَ بِالْحِجَابِ فَقُلْتُ لَأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي دُخُولِهِ عَلَى عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَوَعِظِهِ إِيَّاهُمَا، إِلَى أَنْ قَالَ: فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَّاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَشْكَفَةِ الْمَشْرِبَةِ،

(١) أحمد: ٣٣/١، ٣٤ (٢) فتح الباري: ١٨٧/٩، ١٣٧/٥ ومسلم: ١١١/٢ وتحتفة الأحوذى: ٢٢٤/٩ والنسائي في الكبرى: ٣٦٦/٥ (٣) فتح الباري: ٥٢٥/٨ (٤) مسلم: ٢/ ١١٠٨ (٥) مسلم: ١١٠٥/٢ (٦) الطبري: ٤٨٦/٢٣ (٧) فتح الباري: ٥٢٨/٨

فَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاصْرَبُوهُ عَلَيْهَا هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٨)</sup>.

[وَقُوْدُ جَهَنَّمَ وَمَلَأَتْهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وَقُوْدُهَا أَيُّ حَطَبُهَا الَّذِي يُلْقَى فِيهَا جُثْثُ بَنِي آدَمَ ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْأَصْنَافُ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَالسُّدِّيُّ: هِيَ حِجَارَةٌ مِنْ كِبَرِيَّتٍ. زَادَ مُجَاهِدٌ: أَتْنُنٌ مِنْ الْجِيفَةِ<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُكُهُ غَلَاطٌ شِدَادٌ﴾ أَيُّ طِبَاعُهُمْ غَلِظَةٌ قَدْ نَزَعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةَ بِالْكَافِرِينَ بِاللَّهِ ﴿شِدَادٌ﴾ أَيُّ تَرْكِيبُهُمْ فِي غَايَةِ الشَّدَةِ وَالْكَثَافَةِ وَالْمَنْظَرِ الْمُرْعَجِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أَيُّ مَهْمَا أَمَرَهُمْ بِهِ تَعَالَى يَتَّبِعُونَ إِيَّاهُ، لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى فِعْلِهِ لَيْسَ بِهِمْ عَجْزٌ عَنْهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الزَّبَانِيَةُ - عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْهُمْ -.

[لَا يَقْبَلُ عُذْرَ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُعْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ يُقَالُ لِلْكَافِرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَا تَعْتَذِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْكُمْ، وَلَا تُعْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، وَإِنَّمَا تُعْزَوْنَ الْيَوْمَ بِأَعْمَالِكُمْ.

[الترغيب في التوبة النصوح]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أَيُّ تَوْبَةً صَادِقَةً جَارِمَةً، تَمْحُو مَا قَبْلَهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَتُلْمَسُ شَعَثُ النَّائِبِ، وَتَجْمَعُهُ وَتَكْفُهُ عَمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ الذَّنَائَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفَرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وَعَسَىٰ مِنَ اللَّهِ

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قِيلَتْ يَنْبَغِي عَلَيْكَ سَخِرَتْ نَيْبِي وَأَبْكَارًا﴾<sup>(١)</sup> وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي رَدَّتْهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ وَعْظِ النِّسَاءِ، هِيَ أُمُّ سَلَمَةَ كَمَا [ثَبَّتَ] ذَلِكَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ<sup>(٢)</sup>.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قِيلَتْ يَنْبَغِي عَلَيْكَ سَخِرَتْ﴾ أَيُّ: صَائِمَاتٍ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءٌ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيُّ وَأَبُو مَالِكٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَالصَّحَّاحُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَنْبَغِي وَأَبْكَارًا﴾ أَيُّ مِنْهُنَّ نَيْبَاتٍ وَمِنْهُنَّ أَبْكَارًا لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ، فَإِنَّ التَّنَوُّعَ يَسْطِوُ النَّفْسَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَنْبَغِي وَأَبْكَارًا﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فُوبُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غَلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُعْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ<sup>(٥)</sup> يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفَرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ فُورَهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورًا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>(٦)</sup>

[تعليم الأهل الأدب والدين]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فُوبُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يَقُولُ: إِعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَاتَّقُوا مَعَاصِي اللَّهِ، وَأَمُرُوا أَهْلِيكُمْ بِالذِّكْرِ يُنَجِّكُمْ اللَّهُ مِنَ النَّارِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فُوبُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ قَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ وَأَوْضُوا أَهْلِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَأْمُرُهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَتَنْهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَأَنْ تَقُومَ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَتَأْمُرُهُمْ بِهِ وَتُسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتَ لِلَّهِ مَعْصِيَةً قَدْغَتْهُمْ عَنْهَا وَرَجَزْتَهُمْ عَنْهَا<sup>(٩)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ الصَّحَّاحُ وَمُقَاتِلٌ: حَقٌّ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلَهُ مِنْ قَرَابَتِهِ وَإِمَائِهِ وَعِيَدِهِ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَمَا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(١٠)</sup>.

وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ سَبْرَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ،

(١) الطبري: ٤٨٨/٢٣ (٢) فتح الباري: ١٦/٨ (٣) الطبري: ٤٩٠/٢٣ والقرطبي: ١٩٣/١٨ والدر المنثور: ٢٢٤/٨ (٤) الطبري: ٤٩١/٢٣ (٥) الطبري: ٤٩٢/٢٣ (٦) الطبري: ٤٩٢/٢٣ (٧) القرطبي: ١٩٦/١٨ (٨) أحمد: ٤٠٤/٣ وأبو داود: ٣٣٢/١ وتحفة الأحوذ: ٤٤٥/٢ (٩) الطبري: ١/٣٨١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٦١

سُورَةُ الْحَرَامِ

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ  
 أَن يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَذْخَبُكُمْ جَنَّتِ بَعْرَى  
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا  
 مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا  
 أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾  
 يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلَظَ عَلَيْهِمْ  
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا  
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ  
 عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا  
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾  
 وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ  
 قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ  
 وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ  
 عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا  
 وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ الْفَائِزِينَ ﴿١٢﴾

كَانَتَا عَلَىٰ غَيْرِ دِينِهِمَا، فَكَانَتِ امْرَأَةُ نُوحٍ تُطْلَعُ عَلَى سِرِّ  
 نُوحٍ، فَإِذَا آمَنَ مَعَ نُوحٍ أَحَدٌ أَخْبَرَتْ الْجَبَّارَةَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ  
 بِهِ، وَأَمَّا امْرَأَةُ لُوطٍ، فَكَانَتْ إِذَا أَصَافَ لُوطٌ أَحَدًا أَخْبَرَتْ  
 بِهِ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِمَنْ يَعْمَلُ الشُّوْءَ (٣). وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا بَعَثَ امْرَأَةُ نَبِيِّ قَطٍّ إِنَّمَا كَانَتْ حَيَاتُهُمَا فِي  
 الدِّينِ (٤). وَهَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ  
 وَغَيْرُهُمْ (٥).

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ  
 ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ  
 الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا  
 فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ الْفَائِزِينَ ﴿١٢﴾

مُوجِبَةً ﴿يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أَيُّ وَلَا  
 يُخْزِيهِمْ مَعَهُ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ  
 وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ  
 لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ  
 وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ: هَذَا يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُونَ  
 حِينَ يَرَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ طَفِيَ (١). وَرَوَى  
 الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا تُخْزِنِي  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ  
 جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ  
 نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ  
 فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ  
 الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

[الْأَمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ:  
 هُوَ لَا بِالسَّلَاحِ وَالْقِتَالِ، وَهُوَ لَا بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ  
 ﴿وَاعْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ  
 الْمَصِيرُ﴾ أَيُّ فِي الْآخِرَةِ.

[لَا يَنْتَفِعُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ عِنْدَ اللَّهِ مَهْمَا كَانَ قَرِيبًا]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ فِي  
 مُخَالَطَتِهِمُ الْمُسْلِمِينَ وَمُعَاشَرَتِهِمْ لَهُمْ: أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجِدِي  
 عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، إِنْ لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ  
 حَاصِلًا فِي قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَثَلَ فَقَالَ: ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ  
 وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أَيُّ  
 نَبِيِّنِ رَسُولَيْنِ عِنْدَهُمَا، فِي صُحْبَتِهِمَا لَيْلًا وَنَهَارًا،  
 يُؤَاكِلَانِهِمَا وَيُصَاجِعَانِهِمَا، وَيُعَاشِرَانِهِمَا أَشَدَّ الْعَشِيرَةِ  
 وَالْإِحْتِلَاطِ ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أَيُّ فِي الْإِيمَانِ لَمْ يُؤَافِقَاهُمَا عَلَى  
 الْإِيمَانِ، وَلَا صَدَقَاهُمَا فِي الرِّسَالَةِ، فَلَمْ يُجِدِ ذَلِكَ كُلُّهُ  
 شَيْئًا وَلَا دَفَعَ عَنْهُمَا مَحْذُورًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ  
 يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أَيُّ لِكُفْرِهِمَا ﴿وَقِيلَ﴾ أَيُّ  
 لِلْمَرَأَتَيْنِ ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ:  
 ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فِي فَاحِشَةٍ بَلْ فِي الدِّينِ، فَإِنَّ نِسَاءَ الْأَنْبِيَاءِ  
 مَعْصُومَاتٌ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْفَاحِشَةِ لِحُرْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا  
 قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ حَيَاتَتُهُمَا أَنَّهُمَا

(١) الطبري: ٤٩٦/٢٣ (٢) أحمد: ٢٣٤/٤ وقال الهيثمي في  
 المجمع رواه أحمد ورجاله ثقات (٣) الطبري: ٤٩٨/٢٣ (٤)  
 الطبري: ٤٩٨/٢٣ (٥) الطبري: ٤٩٨/٢٣ إسناده ضعيف



[لَا يَضُرُّ الْكَافِرَ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ اللَّهِ]

وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنََّّهُمْ لَا تَضُرُّهُمْ مُخَالَطَةُ الْكَافِرِينَ إِذَا كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُ﴾ [آل عمران: ٢٨] قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ فِرْعَوْنُ أَعْتَى أَهْلَ الْأَرْضِ وَأَكْفَرَهُمْ، فَوَ اللَّهِ مَا ضَرَّ امْرَأَتَهُ كُفْرَ زَوْجِهَا حِينَ أَطَاعَتْ رَبَّهَا، لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ، لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: كَانَتْ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ تُعَذِّبُ فِي الشَّمْسِ، فَإِذَا انْصَرَفَ عَنْهَا أَظْلَمَتْهَا الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَيْهَا، وَكَانَتْ تَرَى بَيْتَهَا فِي الْجَنَّةِ<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي بَرَّةٍ قَالَ: كَانَتْ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ تَسْأَلُ مَنْ غَلَبَ؟ فَيَقَالُ: غَلَبَ مُوسَى وَهَارُونَ، فَتَقُولُ: آمَنْتُ بِرَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فِرْعَوْنُ فَقَالَ: انْظُرُوا أَعْظَمَ صَخْرَةٍ تَجِدُونَهَا، فَإِنْ مَضَتْ عَلَى قَوْلِهَا فَالْقُوها عَلَيْهَا، وَإِنْ رَجَعَتْ عَنْ قَوْلِهَا فَهِيَ امْرَأَتِي، فَلَمَّا أَتَوْهَا رَفَعَتْ بَصَرَهَا إِلَى السَّمَاءِ فَأَبْصَرَتْ بَيْتَهَا فِي الْجَنَّةِ، فَمَضَتْ عَلَى قَوْلِهَا وَانْتَزَعَتْ رُوحَهَا وَأُلْقِيَتِ الصَّخْرَةُ عَلَى جَسَدِ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ<sup>(٣)</sup>. فَقَوْلُهَا: ﴿رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَيٍّ مِنْ عَمَلِي﴾ أَيُّ خَلْصِي مِنْهُ فَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ عَمَلِي وَبِخَيٍّ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ هِيَ أَسِيَّةُ بِنْتُ مُزَاجِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرَجَهَا﴾ أَيُّ حَفِظْتَهُ وَصَانَتْهُ، وَالْإِحْصَانُ هُوَ الْعِفَافُ وَالْحُرِّيَّةُ ﴿فَنَخْنَسُ فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا﴾ أَيُّ بِإِوَاسِطَةِ الْمَلِكِ وَهُوَ جِبْرِيلُ فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَهُ إِلَيْهَا، فَتَمَثَّلَ لَهَا فِي صُورَةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ، وَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْفُخَ فِيهِ فِي جَنْبِ دِرْعِهَا، فَتَزَلَّتِ التَّخْخُةُ فَوَلَجَتْ فِي فَرجِهَا، فَكَانَ مِنْهُ الْحَمْلُ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَخْنَسُ فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ أَقْلَيْنِ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ وَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ بِنْتُ مُزَاجِمٍ امْرَأَةُ

فِرْعَوْنَ»<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطُّعَامِ»<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ ذَكَرْنَا طُرُقَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَالْفَاطِظَا وَالْكَلامَ عَلَيْهَا فِي قِصَّةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي كِتَابِنَا (الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ)<sup>(٦)</sup> وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّحْرِيمِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَلِكِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ الْمَلِكِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ سُورَةَ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثِينَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ: ﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَدُّهُ الْمُلْكُ﴾»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ أَهْلُ الشُّنَنِ الْأَرْبَعَةُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٨)</sup>.

وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ وَالْحَافِظُ الضَّيَاءُ الْمُقَدِّسِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سُورَةُ فِي الْقُرْآنِ خَاصَمَتْ عَنْ صَاحِبِهَا حَتَّى أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ: ﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَدُّهُ الْمُلْكُ﴾»<sup>(٩)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَدُّهُ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَتُكُونُونَ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُوفُ<sup>(٢)</sup> الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَانْجِبِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ<sup>(٣)</sup> ثُمَّ انْجِبِ الْبَصَرَ كَرَيْنَ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ<sup>(٤)</sup> وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ<sup>(٥)</sup> اتَّحِيدُ اللَّهُ وَذَكَرْ خَلْقَهُ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، وَالسَّمَاوَاتِ

العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (١) الطبري: ٥٠٠/٢٣ (٢) الطبري: ٥٠٠/٢٣ (٣) الطبري: ٥٠٠/٢٣ (٤) أحمد: ١/ ٢٩٣ (٥) فتح الباري: ٥١٤/٦ (٦) مسلم: ١٨٨٦/٤ (٧) البداية والنهاية: ٦١/٢ (٨) أحمد: ٣٢١/٢ (٩) أبو داود: ١١٩/٢ وتحفة الأوحدي: ٢٠٠/٨ والنسائي في الكبرى: ٤٩٦/٦ وابن ماجه: ١٢٤٤/٢ (٩) الطبراني في الأوسط: ٣٩١/٤

## سُورَةُ الْمَلِكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَإِنَّهُمْ بَالِغٌ أَلْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَرْجِعُ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا الْفُتُورُ فِيهَا سَعَوْهَا مَا شَبَّ قَاوِي تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَسَوْفَ نَأْتِيهِمْ فَنَسُفَحُكُمَ الْأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

الْمُنْقَطِعُ مِنَ الْإِغْيَاءِ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِنَّكَ لَوْ كَرَّرْتَ الْبَصَرَ مَهْمَا كَرَّرْتَ لَا تَقْلِبُ إِلَيْكَ، أَي لَرَجَعَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ ﴿خَاسِئًا﴾ عَنْ أَنْ يَرَى عَيْنًا أَوْ خَلًّا ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أَي كَلِيلٌ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ الْإِغْيَاءِ مِنْ كَثَرَةِ التَّكْرُرِ، وَلَا يَرَى نَقْصًا، وَلَمَّا نَفَى عَنْهَا فِي خَلْقِهَا النِّقْصَ بَيَّنَّ كَمَالَهَا وَرَبَّتَهَا فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الَّتِي وُضِعَتْ فِيهَا مِنَ السَّيَّارَاتِ وَالنُّوَابِثِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ عَادَ الصَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ عَلَى جِنْسِ الْمَصَابِيحِ لَا عَلَى عَيْنِهَا، لِأَنَّهُ لَا يُرْمَى بِالْكَوَاكِبِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ بَلْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِهَا وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَمَدَّةً مِنْهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أَي جَعَلْنَا لِلشَّيَاطِينِ هَذَا الْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ فِي الْآخِرَى، كَمَا

## وَالنُّجُومِ

يُحْجَدُ تَعَالَى نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ وَيُخْبِرُ أَنَّهُ بِيَدِهِ الْمُلْكُ أَيُّ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِمَا يَشَاءُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ قَالَ إِنَّ الْمَوْتَ أَمْرٌ وَجُودِيٌّ، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ أَوْجَدَ الْخَلَائِقَ مِنَ الْعَدَمِ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّ يَخْتَارُهُمْ أَتَاهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمُونًا فَلَاتُخْلِكُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فَسَمَّى الْحَالَ الْأَوَّلَ وَهُوَ الْعَدَمُ مَوْتًا وَسَمَّى هَذِهِ النَّشْأَةَ حَيَاةً، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُعْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَي خَيْرَ عَمَلًا كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَجَلَانَ، وَلَمْ يَقُلْ: أَكْثَرَ عَمَلًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أَي هُوَ الْعَزِيزُ الْعَظِيمُ الْمُنِيعُ الْجَنَابِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَفُورٌ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ بَعْدَ مَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى عَزِيزًا، هُوَ مَعَ ذَلِكَ يَغْفِرُ وَيَرْحَمُ وَيَضْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أَي طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ، وَهَلْ هُنَّ مُتَوَاصِلَاتٌ بِمَعْنَى أَنَّهُنَّ عُلوِيَّاتٌ بَعْضُهُنَّ عَلَى بَعْضٍ أَوْ مُتَفَاصِلَاتٌ بَيِّنُهُنَّ خَلَاءً، فِيهِ قَوْلَانِ أَصْحَهُمَا الثَّانِي كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ الْإِسْرَاءِ وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ أَي بَلْ هُوَ مُصْطَحَبٌ مُسْتَوٍ لَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَافُرٌ، وَلَا مُخَالَفَةٌ، وَلَا نَقْصٌ وَلَا غَيْبٌ وَلَا خَلَلٌ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أَي أَنْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَأَمَّلْهَا هَلْ تَرَى فِيهَا عَيْنًا أَوْ نَقْصًا أَوْ خَلًّا أَوْ فُطُورًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالتَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أَي شُقُوقٍ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾: أَي مِنْ خُرُوقٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أَي هَلْ تَرَى خَلًّا يَا ابْنَ آدَمَ؟.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَيْنٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَرَّتَيْنِ ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذَلِيلًا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: صَاغِرًا<sup>(٤)</sup>. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَغْنِي وَهُوَ كَلِيلٌ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: الْحَسِيرُ

(١) الدر المنثور: ٢٣٥/٨ والقرطبي: ٢٠٩/١٨ والطبري: ٢٣/

٥٠٧ (٢) القرطبي: ٢٠٩/١٨ (٣) الطبري: ٥٠٧/٢٣ (٤)

الطبري: ٥٠٧/٢٣ (٥) الدر المنثور: ٢٣٥/٨

سورة الملك

٥٦٣

سورة الملك

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذْتُمْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ اتَّخَذْتُمْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْفِضُنَّ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَمُرُّكُمْ مِنْ دُونِ أَرْحَمِنَ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَنَ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بِكُلِّ جُحَا فِي عَتَوٍ وَتَقَوُّرٍ ﴿٢١﴾ أَفَن يَمْشِيَ مُكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَن يَمْشِيَ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الْبُخْتَرِيِّ الطَّائِفِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يَعْذُرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

[جَزَاءٌ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ بِالْغَيْبِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ يَخَافُ مَقَامَ رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِذَا كَانَ غَايِبًا عَنِ النَّاسِ، فَيَتَكَبَّرُ عَنِ الْمَعَاصِي وَيَقُومُ بِالطَّاعَاتِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، بِأَنَّهُ لَهُ ﴿مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أَيْ تَكْفُرُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ وَيَجَازَى بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «سَبْعَةٌ يُظَاهَرُهُمُ اللَّهُ

(١) الطبري: ٥٠٨/٢٣ (٢) الطبري: ٥٠٨/٢٣ (٣) أحمد:

٢٩٣/٥

قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ الصَّافَّاتِ: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِرَبِّنَا الْأَكْوَاعِ﴾ وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى النَّفَا الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ مُخَوِّرًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ [الصافات: ٦-١٠] قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّمَا خُلِقَتْ هَذِهِ النُّجُومُ لثَلَاثِ خِصَالٍ خَلَقَهَا اللَّهُ زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا. فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ بِرَأْيِهِ، وَأَخْطَأَ حَقَّهُ وَأَضَاعَ نَصِيحَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(١)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَّاسٌ أَلَمَصِيرُ﴾ ﴿٦﴾ إِذَا أَلْقُوا فِيهَا سِعُومًا لَّمَّا شَهِقُوا وَهِيَ تَمُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

[صِفَةُ جَهَنَّمَ وَالِدَّاحِلِينَ فِيهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿و﴾ أَعْتَدْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَّاسٌ أَلَمَصِيرُ﴾ أَيْ بِسْرِ الْمَالِ وَالْمُنْقَلَبِ ﴿٦﴾ إِذَا أَلْقُوا فِيهَا سِعُومًا لَّمَّا شَهِقُوا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يُعْنِي الصَّبَاحُ<sup>(٢)</sup> وَهِيَ تَمُورُ ﴿٧﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ: تَغْلِي بِهِمْ كَمَا يَغْلِي الْحَبُّ الْقَلِيلُ فِي الْمَاءِ الْكَثِيرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أَيْ تَكَادُ يَتَفَصَّلُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَيْهِمْ وَحَتْفِهَا بِهِمْ ﴿٨﴾ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٩﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١٠﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى عَذْلَهُ فِي خَلْقِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْدُبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَإِزْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمَا فَتُحِثُّ أَوْبَهُمَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُذَكِّرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] وَهَكَذَا عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا تَنْفَعُهُمُ النَّدَامَةُ فَقَالُوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أَيْ لَوْ كَانَتْ لَنَا عُقُولٌ نَسْتَفْعِلُ بِهَا، أَوْ نَسْمَعُ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ، لَمَا كُنَّا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِغْوَارِ بِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَنَا فَهْمٌ نَعِي بِهِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَلَا كَانَ لَنَا عَقْلٌ يُرْشِدُنَا إِلَى اتِّبَاعِهِمْ.

تَغْذِيهِمْ يَسْبِبُ كُفْرَ بَعْضِهِمْ بِهِ وَعِبَادَتِهِمْ مَعَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيُؤْجِلُ وَلَا يُعْجِلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا تُلَاقِي اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [يس: ٤٥] وَقَالَ هُتَا: ﴿يَأْمَنُ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أَيُّ تَذَهَبُ وَتَجِيءُ وَتَضْطَرُّبُ ﴿أَمْ أَمِنَ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أَيُّ رِيحًا فِيهَا حَصْبَاءُ تَدْمَعُكُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنْتَ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وِكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٨] وَهَكَذَا تَوَعَّدُهُمْ هُنَا بِقَوْلِهِ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ أَيُّ كَيْفَ يَكُونُ إِنْذَارِي وَعَاقِبَتِي مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ وَكَذَّبَ بِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أَيُّ فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ وَمُعَاقِبَتِي لَهُمْ، أَيُّ عَظِيمًا شَدِيدًا أَلِيمًا.

[طَبِيرَانِ الطُّيُورِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ بَصِيرٌ بِكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِبٌ وَيَقِينُونَ﴾ أَيُّ تَارَةً يَصْفُونَ أَجْنِحَتَهُنَّ فِي الْهَوَاءِ، وَتَارَةً تَجْمَعُ جَنَاحًا وَتَنْشُرُ جَنَاحًا ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أَيُّ فِي الْجَوِّ ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ أَيُّ بِمَا سَخَّرَ لَهُنَّ مِنَ الْهَوَاءِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ﴿إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُبْصِرُونَ﴾ أَيُّ بِمَا يُضْلِعُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿أَمِنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (١) أَمِنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَحُوا فِي غُرُورٍ وَتَقْوَرٍ (٢) أَمِنَ يَتَشَوَّى مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمِنَ يَتَشَوَّى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٤) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٥) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ

تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ﴾ فَذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلًا «دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلًا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ بِمِثْلِهِ» (١). ثُمَّ قَالَ مُتَّبِعًا عَلَى أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى الصَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيُّ بِمَا يَخْطُرُ فِي الْقُلُوبِ. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أَيُّ أَلَا، يَعْلَمُ الْخَالِقُ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

[نِعْمَةُ اللَّهِ فِي تَسْخِيرِ الْأَرْضِ لِعِبَادِهِ]

ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي تَسْخِيرِهِ لَهُمُ الْأَرْضَ وَتَذْلِيلِهِ إِيَّاهَا لَهُمْ، بِأَنْ جَعَلَهَا قَارَةً سَاكِنَةً، لَا تَمِيدُ وَلَا تَضْطَرُّبُ، بِمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَأَنْبَعٍ فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، وَسَلَكَ فِيهَا مِنَ الشُّبُلِ، وَهَيَّأَ فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَمَوَاضِعِ الزَّرْعِ وَالثَّمَارِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أَيُّ فَسَافِرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ أَطْطَارِهَا وَتَرَدَّدُوا فِي أَقَالِيمِهَا وَأَرْجَائِهَا، فِي أَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ وَالتَّجَارَاتِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَعْيَكُمْ لَا يُجْدِي عَلَيْكُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُسِّرَهُ اللَّهُ لَكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ فَالْسَّعْيُ فِي السَّبَبِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» (٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (٣). فَأَثْبَتَ لَهَا رَوَاحًا وَغَدَاً لِيُطْلَبَ الرِّزْقُ مَعَ تَوَكُّلِهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الْمُسَخَّرُ الْمُسِيرُ الْمُسَبَّبُ ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أَيُّ الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ: مَنَاجِبُهَا: أَطْرَافُهَا وَفَجَاجِبُهَا وَنَوَاجِبُهَا (٤).

﴿يَأْمَنُ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١) أَمِنَ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ (٢) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٣) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِبٌ وَمَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُبْصِرُونَ (٤)

[كَيْفَ تَأْمَنُونَ عَذَابَ اللَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى مُوَآخَذَتِكُمْ كَيْفَمَا شَاءَ]

وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى

(١) فتح الباري: ١٦٨/٢ ومسلم: ٧١٥/٢ (٢) أحمد: ١/ ٥٢ (٣) تحفة الأحوذى: ٨/٨ والنسائي في الكبرى في الرقائق وتحفة الأشراف: ٧٩/٨ وابن ماجه: ١٣٩٤/٢ (٤) الطبري: ٥١٢/٢٣ والقرطبي: ٢١٥/١٨

وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٧﴾  
[لَا يَنْصُرُكُمْ أَحَدٌ وَلَا يَرْزُقُ إِلَّا اللَّهُ]

يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا مَعَهُ غَيْرُهُ يَبْتَغُونَ عَنْهُمْ نَصْرًا وَرِزْقًا، مُكِبًّا عَلَيْهِمْ فِيمَا اعْتَقَدُوهُ وَمُخْبِرًا لَهُمْ، أَنَّهُ لَا يَخْصُلُ لَهُمْ مَا أَمَلُوهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أَيُّ لَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاكِ وَلَا نَاصِرٍ لَكُمْ غَيْرُهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَزُفُّكُمْ إِنْ أَسْكَنَ رِزْقَهُ﴾ أَيُّ مِنْ هَذَا الَّذِي إِذَا قَطَعَ اللَّهُ عَنْكُمْ رِزْقَهُ يَزُفُّكُمْ بَعْدَهُ، أَيُّ لَا أَحَدٌ يُعْطِي وَيَمْنَعُ وَيَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيَنْصُرُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَيُّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ غَيْرُهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلْ لَمَوْا﴾ أَيُّ اسْتَمَرُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ وَإِفْكَهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿وَفِ عَتَوْ وَتَفَرُّوْا﴾ أَيُّ فِي مُعَانَدَةٍ وَاسْتِكْبَارٍ وَتَفَوُّرٍ عَلَى إِذْبَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، لَا يَسْمَعُونَ لَهُ وَلَا يَتَّبِعُونَهُ.

[مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَهَذَا مَثَلُ ضَرْبِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، فَالْكَافِرُ مَثَلُهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ: كَمَثَلٍ مَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ، أَيُّ يَمْشِي مُنْحِنًا لَا مُسْتَوِيًّا عَلَى وَجْهِهِ. أَيُّ لَا يَذَرِي أَيْنَ يَسْلُكُ وَلَا كَيْفَ يَذْهَبُ بَلْ تَأَنَّهُ حَائِزٌ ضَالًّا، أَهْدَى أَهْدَى ﴿أَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أَيُّ مُتَّصِبُ الْقَامَةِ ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيُّ عَلَى طَرِيقٍ وَاضِحٍ بَيِّنٍ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُسْتَقِيمٌ وَطَرِيقُهُ مُسْتَقِيمَةٌ، هَذَا مَثَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ يَكُونُونَ فِي الْآخِرَةِ، فَالْمُؤْمِنُ يُحْشَرُ ﴿يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مُفْضٍ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ يُحْشَرُ يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ. ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ. الْآيَاتِ [الصافات: ٢٢-٢٦]. أَرْوَاهُمْ: أَشْبَاهُهُمْ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى وَجْهِهِمْ؟ فَقَالَ: «الَّذِينَ لَا يَمْشِيهِمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَى وَجْهِهِمْ»<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup>.

[فُتْرَةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَذَلَالَتُهَا عَلَى الْمَعَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ أَيُّ ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكَورًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أَيُّ الْعُقُولَ وَالْإِدْرَاكَ ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أَيُّ فَلَمَّا تَسْتَعْمِلُونَ هَذِهِ الْقُوَى الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فِي طَاعَتِهِ، وَامْتِنَالِ أَوَامِرِهِ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ بَنَىكُمْ وَنَسَرَكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا مَعَ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ فِي لُغَاتِكُمْ وَالْوَانِكُمْ، وَجِلَاكُم وَأَشْكَالِكُمْ وَصُورِكُمْ ﴿وَالَّذِينَ تُحْشَرُونَ﴾ أَيُّ تُجْمَعُونَ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ وَالشَّتَاتِ، يَجْمَعُكُمْ كَمَا فَرَّقَكُمْ، وَيُعِيدُكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُتَكِبِينَ لِلْمَعَادِ الْمُسْتَعْبِدِينَ وَقُوْعُهُ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ مَتَى يَقَعُ هَذَا الَّذِي تُخْبِرُنَا بِكَوْنِهِ مِنَ الْاجْتِمَاعِ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ لَا يَعْلَمُ وَقَدْ ذَكَرَ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ أُخْبِرَكُمْ أَنَّ هَذَا كَائِنْ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ فَاحْذَرُوهُ ﴿وَلِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ وَإِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ وَقَدْ أَدْبَيْتُهُ إِلَيْكُمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وَجْهُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ لَمَّا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَشَاهَدَهَا الْكُفَّارُ وَرَأَوْا أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ قَرِيبًا، لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ، وَإِنْ طَالَ زَمَنُهُ، فَلَمَّا وَقَعَ مَا كَذَّبُوا بِهِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ لِمَا يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ هُنَاكَ مِنَ الشَّرِّ، أَيُّ فَأَحَاطَ بِهِمْ ذَلِكَ وَجَاءَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَالٍ وَلَا حِسَابٍ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [الزمر: ٤٨] وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّفَرُّيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ أَيُّ تَسْتَعْجِلُونَ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ﴿٩﴾

[مَوْتُ الْمُؤْمِنِ لَا يُجِيرُ الْكَافِرَ فَلْيَتَكَبَّرْ فِي خِلَاصِهِ]  
يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْجَاوِدِينَ لِنِعْمِهِ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أَيُّ خَلَصُوا أَنْفُسَكُمْ فَإِنَّهُ

(١) أحمد: ١٦٧/٣ (٢) فتح الباري: ٣٥٠/٦ ومسلم: ٤/

لَا مُنْقَذَ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ وَالرُّجُوعُ إِلَى دِينِهِ، وَلَا يَنْفَعُكُمْ وَقُوعُ مَا تَتَمَنَّوْنَ لَنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ، فَسَوَاءٌ عَذَّبَنَا اللَّهُ أَوْ رَحِمَنَا فَلَا مَنَاصَ لَكُمْ مِنْ نَكَالِهِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ الْوَاقِعِ بِكُمْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أَيُّ أَمَّنًا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ مَنَّا وَمِنْكُمْ وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[التذكيرُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ فِي نَبْعِ الْمَاءِ وَالتَّخْوِيفُ بِذَهَابِهِ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِظْهَارًا لِلرَّحْمَةِ فِي خَلْقِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أَيُّ ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ إِلَى أَسْفَلٍ، فَلَا يَبْقَى إِلَّا بِالْفُؤُوسِ الْجِدَادِ وَلَا السَّوَاعِدِ الشَّدَادِ، وَالْعَائِزِ: عَكْسُ النَّابِغِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أَيُّ نَابِغٍ سَائِجٍ جَارٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، أَيُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَمِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ أَنْبَعَ لَكُمْ الْمِيَاءَ وَأَجْرَاهَا فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَيْهِ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُلْكِ.

## تفسير سورة ن وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُورُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ (٦) إِنْ رَّبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧)

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حُرُوفِ الْهَجَاءِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ت﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ص﴾. ﴿ت﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ، وَتَحْرِيرِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا.

[تفسير القلم]

وقوله تَعَالَى: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهُ جِنْسُ الْقَلَمِ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكُمَ﴾ (٢) الَّذِي عَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ (٣) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٤) [العلق: ٣-٥] فَهُوَ قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى وَتَنْبِيهُ لِيُخَلِّقَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ: مِنْ تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ الَّتِي بَهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٥٦٤ سُورَةُ الْقَلَمِ  
قَلَمًا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتٌ وَجْهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُورُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ (٦) إِنْ رَّبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تَطْعُ الْمُكْذِبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَاظٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَسِيمٍ (١١) مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَسِيرٍ (١٢) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَتَلَّاهُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالَا كَاسْطِيرٍ الْأَوَّلِينَ (١٥)

تَنَالُ الْعُلُومَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا يَسْطُورُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَغْنِي وَمَا يَكْتُبُونَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: وَمَا يَسْطُورُونَ يَغْنِي الْمَلَائِكَةُ وَمَا تَكْتُبُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْمُرَادُ هَهُنَا بِالْقَلَمِ الَّذِي أَجْرَاهُ اللَّهُ بِالْقَدَرِ حِينَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ عَامٍ.

وَأُورِدُوا فِي ذَلِكَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذِكْرِ الْقَلَمِ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: دَعَانِي أَبِي، حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنْ إِلَى الْأَبَدِ»<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقٍ<sup>(٣)</sup>. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ

(١) الطبري: ٥٢٧/٢٣، ٥٢٨ (٢) الطبري: ٥٢٦/٢٣ (٣)

يَه، وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(١)</sup>.  
وَلَا بِالْقَصِيرِ<sup>(٢)</sup>. وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَلَا يَبِي عَيْسَى  
التَّرْمِذِيُّ فِي هَذَا كِتَابُ السَّمَائِلِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا ضَرَبَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ قَطُّ، وَلَا ضَرَبَ امْرَأَةً، وَلَا ضَرَبَ  
بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا خَيْرَ بَيْنَ  
شَيْئَيْنِ قَطُّ إِلَّا كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَيْهِ أَيْسَرُهُمَا حَتَّى يَكُونَ إِثْمًا،  
فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الْإِثْمِ، وَلَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ  
مِنْ شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ، فَيَكُونَ هُوَ  
يَنْتَقِمُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ  
قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ  
الْأَخْلَاقِ» تَفَرَّدَ بِهِ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَسَبِّحْ وَبُصِّرْ» بِأَيْتِكُمُ الْمَفْتُونُ  
فَسَتَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ، وَسَتَعْلَمُ مُحَايِلُوكَ وَمُكَذِّبُوكَ: مَنِ  
الْمَفْتُونُ الصَّالِّ مِنْكَ وَمِنْهُمْ؟ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «سَبِّحُوا  
عَدَا مَنِ الْكَذَّابُ الْآثِرُ» [القمر: ٢٦] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّ  
إِبْرَاهِيمَ لَعَلَّى هَدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» [سبا: ٢٤] قَالَ ابْنُ  
جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: سَتَعْلَمُ وَيَعْلَمُونَ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «بِأَيْتِكُمُ  
الْمَفْتُونُ» أَيِ الْمَجْنُونِ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ<sup>(٧)</sup>.

وَمَعْنَى «الْمَفْتُونُ» ظَاهِرٌ أَيْ الَّذِي قَدْ افْتَتَنَ عَنِ الْحَقِّ  
وَضَلَّ عَنْهُ. وَإِنَّمَا دَخَلَتِ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ «بِأَيْتِكُمُ» لِتَدُلَّ  
عَلَى تَضَمُّنِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ: «فَسَبِّحْ وَبُصِّرْ» وَتَقْدِيرُهُ  
فَسَتَعْلَمُ وَيَعْلَمُونَ، أَوْ: فَسَتُخْبِرُ وَيُخْبِرُونَ «بِأَيْتِكُمُ  
الْمَفْتُونُ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ  
بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» أَيِ هُوَ يَعْلَمُ تَعَالَى  
أَيِ الْفَرِيقَيْنِ - مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ - هُوَ الْمُهْتَدِي، وَيَعْلَمُ  
الْحِزْبُ الصَّالِّ عَنِ الْحَقِّ.

﴿لَا تُطِيعُ الْكَاذِبِينَ﴾ (٨) وَدَوَّا لَوْ تَدَّهَنُ فَيَدَّهَنُونَ (٩) وَلَا تُطِيعُ كُلَّ  
حَلَاظٍ مِهِينٍ (١٠) هَئَاتِ مَسَاءً بَنِيصِيرٍ (١١) مَنَاجٍ لِلْحَرِيرِ مَعْتَدٍ أَتَمِيرُ (١٢)  
عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبِيرُ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى

(١) تحفة الأحوذى: ٢٣٢/٩ (٢) الطبري: ٥٢٨/٢٣ (٣)  
الطبري: ٥٢٩/٢٣ (٤) الطبري: ٥٢٩/٢٣ والدر المثور: ٨/  
٢٤٣ (٥) الطبري: ٥٣٠/٢٣ (٦) الطبري: ٥٢٩/٢٣ (٧)  
عبد الرزاق: ٣٠٧/٣ (٨) مسلم: ٥١٣/١ (٩) فتح الباري:  
٤٧١/١٠ ومسلم: ١٨١٤/٤ (١٠) فتح الباري: ٦٥٢/٦  
(١١) أحمد: ٢٣٢/٦ (١٢) أحمد: ٣٨١/٢ (١٣) القرطبي:  
٢٢٩/١٨ (١٤) الطبري: ٥٣١/٢٣ (١٥) الطبري: ٥٣٠/٢٣

وَقَوْلُهُ: «مَا أَنْتَ بِبَغِيَّةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ» أَيِ لَسْتُ وَ  
الْحَمْدُ بِمَجْنُونٍ، كَمَا يَقُولُهُ الْجَهْلَةُ مِنْ قَوْمِكَ، الْمُكَذِّبُونَ  
بِمَا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ الْمُبِينِ، فَتَسْبُوكُ فِيهِ إِلَى  
الْمَجْنُونِ، «وَلَنْ لَكَ لِأَجْرٍ غَيْرَ مَمْنُونٍ» أَيِ بَلْ إِنَّ لَكَ الْأَجْرَ  
الْعَظِيمَ، وَالْثَوَابَ الْجَزِيلَ الَّذِي لَا يَقْطَعُ وَلَا يَبِيدُ؛ عَلَى  
إِبْلَاجِكَ رَسُولَ رَبِّكَ إِلَى الْخَلْقِ، وَصَبْرِكَ عَلَى أَذَاهُمْ،  
وَمَعْنَى «غَيْرَ مَمْنُونٍ» أَيِ غَيْرَ مَقْطُوعِ كَقَوْلِهِ: «عَطَاءٌ غَيْرَ  
مَجْدُوزٍ» [هود: ١٠٨] «لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرَ مَمْنُونٍ» [التين: ٦] أَيِ غَيْرَ  
مَقْطُوعِ عَنْهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «غَيْرَ مَمْنُونٍ» أَيِ غَيْرَ  
مَحْسُوبٍ<sup>(١)</sup>. وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا قُلْنَاهُ.

[تَفْسِيرُ إِنْكَ لَعَلَّى خُلُقِي عَظِيمٍ]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَنْكَ لَعَلَّى خُلُقِي عَظِيمٍ» قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ  
ابْنِ عَبَّاسٍ: وَإِنَّكَ لَعَلَّى دِينَ عَظِيمٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ<sup>(٢)</sup>.  
وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو مَالِكٍ وَالسَّيِّدِيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ  
أَنَسٍ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ  
أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: «وَلَنْكَ لَعَلَّى خُلُقِي عَظِيمٍ» ذَكَرَ لَنَا  
أَنْ سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
فَقَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى نَحْوُهُ  
عَبْدُ الرَّزَّاقِ<sup>(٦)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ  
حَدِيثِ قَتَادَةَ بِطَوِيلِهِ<sup>(٧)</sup>.

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَارَ امْتِنَالِ الْقُرْآنِ  
أَمْرًا وَنَهْيًا سَجِيَّةً لَهُ، وَخُلُقًا تَطَعَهُ، وَتَرَكَ طَبْعَهُ الْجِبَلِّيَّ،  
فَمَهْمَا أَمَرَهُ الْقُرْآنُ فَعَلَهُ، وَمَهْمَا نَهَاهُ عَنْهُ تَرَكَهُ، هَذَا مَعَ مَا  
جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ: مِنَ الْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ  
وَالشَّجَاعَةِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ، وَكُلُّ خُلُقِي جَمِيلٍ كَمَا ثَبَتَ  
فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَدَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ  
سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أَفٌ قَطُّ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ  
فَعَلْتُهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتُهُ؟ وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَيْسَتْ خَزَا وَلَا حَرِيرًا  
وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا شِمْمَتْ  
مِسْكًا وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٨)</sup>.  
وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا وَأَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ

سورة القلم

٥٦٥

سورة القلم

عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَلَطُهُ <sup>(١٥)</sup> أَوَّلِينَ <sup>(١٦)</sup> سَنَسِفُهُ عَلَى الزُّلُمِ <sup>(١٧)</sup>  
[الْتَهِي عَنْ قَبُولِ ضَغْطِ الْمَكْذِبِينَ وَمُفْتَرِحَاتِهِمْ بَيْنَ  
الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: كَمَا أَعْنَمْنَا عَلَيْكَ وَأَعْطَيْنَاكَ الشَّرْعَ  
الْمُسْتَقِيمَ، وَالْخُلُقَ الْعَظِيمَ ﴿فَلَا تَطْعِ الْمَكْذِبِينَ﴾ <sup>(١٨)</sup> وَدُّوْا لَوْ  
تَذْهَبُ فَيَذْهَبُونَ ﴿قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ تَرُخَّصُ لَهُمْ  
فَيَرْخُصُونَ﴾ <sup>(١٩)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَدُّوْا لَوْ تَذْهَبُ فَيَذْهَبُونَ﴾  
تَرْكُنْ إِلَى إِلَهِتِهِمْ وَتَتْرُكْ مَا أُنْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ <sup>(٢٠)</sup>. ثُمَّ قَالَ  
تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْعِ كُلَّ حُلَايٍ مِثْلِهِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَاذِبَ  
لِضَعْفِهِ وَمَهَانَتِهِ إِنَّمَا يَبْقَى بِإِيمَانِهِ الْكَاذِبَةُ الَّتِي يَجْتَرِئُ بِهَا  
عَلَى أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاسْتِعْمَالِهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ فِي غَيْرِ  
مَحَلِّهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلْمِثِينَ: الْكَاذِبُ <sup>(٢١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَازِلٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: يَغْنِي  
الْإِغْتِيَابَ <sup>(٢٢)</sup>. ﴿مَسْلَمٌ بِنَسِيمٍ﴾ يَغْنِي الَّذِي يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ  
وَيُحَرِّشُ بَيْنَهُمْ، وَيَنْقُلُ الْحَدِيثَ لِفَسَادِ ذَاتِ الْبَيِّنِ وَهِيَ  
الْحَالِيقَةُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ مُجَاهِدٍ عَنْ  
طَاوُسٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَبْرَيْنِ  
فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا  
فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي  
بِالنَّمِيمَةِ... الْحَدِيثُ <sup>(٢٣)</sup>. وَأَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ فِي  
كُتُبِهِمْ مِنْ طَرُقٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ بِهِ <sup>(٢٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ حُذَيْفَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ» <sup>(٢٥)</sup>. رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ  
إِلَّا ابْنُ مَاجَةٍ <sup>(٢٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٌ﴾ أَيُّ يَمْنَعُ مَا عَلَيْهِ  
وَمَا لَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ ﴿مُعْتَدٍ﴾ فِي تَنَاوُلِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ  
يَتَجَاوَزُ فِيهَا الْحَدَّ الْمَشْرُوعَ ﴿أَيْمٌ﴾ أَيُّ يَتَنَاوَلُ  
الْمُحَرَّمَاتِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ أَمَّا  
الْعُتْلُ فَهُوَ الْفُظُّ الْغُلِيظُ الصَّحِيحُ الْجَمُوعُ الْمُنَوَّعُ. وَرَوَى  
الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَّعِفٍ لَوْ  
أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ. أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ  
جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ» <sup>(٢٧)</sup>. وَقَالَ وَكِيعٌ: «كُلُّ جَوَاطٍ جَعْفَرِيٍّ  
مُسْتَكْبِرٍ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَبَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا أَبَا  
دَاوُدَ، مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَشُعْبَةَ، وَكِلَاهُمَا عَنْ  
سَعِيدِ بْنِ خَالِدٍ بِهِ <sup>(٢٨)</sup>.

قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْجَعْفَرِيُّ: الْفُظُّ الْغُلِيظُ. وَالْجَوَاطُ:  
الْجَمُوعُ الْمُنَوَّعُ. وَأَمَّا الزَّيْمُ فَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَهُ زَنَمَةٌ  
مِثْلُ زَنَمَةِ الشَّاةِ <sup>(٢٩)</sup>. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ كَانَ مَشْهُورًا بِالسَّوءِ  
كَشَهْرَةِ الشَّاةِ ذَاتِ الزَّنَمَةِ مِنْ بَيْنِ أَخَوَاتِهَا، وَإِنَّمَا الزَّيْمُ فِي  
لُغَةِ الْعَرَبِ هُوَ الدَّعِي فِي الْقَوْمِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ  
مِنَ الْأَثَمَةِ.

(١) الطبري: ٥٣٣/٢٣ (٢) الطبري: ٥٣٣/٢٣ (٣) الطبري: ٥٣٣/٢٣  
(٤) الطبري: ٥٣٤/٢٣ (٥) فتح الباري: ٣٥٨/١  
ومسلم: ٢٤٠/١ (٦) أبو داود: ٢٥/١ وتحفة الأحوذى: ١/١  
٢٣٢ والنسائي: ٢٨/١ و٤١٢/٤ وفي الكبرى: ٤٩٦/٦ وابن  
ماجه: ١٢٥/١ (٧) أحمد: ٣٨٢/٥ (٨) فتح الباري: ١٠/١  
٤٨٧ ومسلم: ١٠١/١ وأبو داود: ١٩٠/٥ وتحفة الأحوذى: ٦/١  
١٧٢ والنسائي في الكبرى: ٤٩٦/٦ (٩) أحمد: ٣٠٦/٤  
(١٠) فتح الباري: ٥٣٠/٨ ومسلم: ٢١٩٠/٤ وتحفة الأحوذى:  
٣٣١/٧ والنسائي في الكبرى: ٤٩٧/٦ وابن ماجه: ١٣٧٨/٢  
(١١) البخاري: ٤٩١٧



تَعَالَى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ أَي أَصَابَتْهَا أَفَّةٌ سَمَاقِيَّةٌ ﴿فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَاللَّيْلِ الْأَسْوَدِ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: مِثْلُ الزَّرْعِ إِذَا حُصِدَ أَي: هَشِيمًا يَبَسًا. ﴿فَنَادَا مُصِيبِينَ﴾ أَي لَمَّا كَانَ وَقْتُ الصُّبْحِ نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَذْهَبُوا إِلَى الْجَذَاذِ أَي: الْقَطْعِ: ﴿أَنِ اعْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَرِيمِينَ﴾ أَي تُرِيدُونَ الصَّرَامَ ﴿فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ﴾ أَي يَتَنَاجُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِحَيْثُ لَا يُسْمِعُونَ أَحَدًا كَلَامَهُمْ. ثُمَّ فَسَّرَ اللَّهُ سُحْنَانَهُ وَتَعَالَى عَالِمُ السِّرِّ وَالتَّجْوِي مَا كَانُوا يَخْخَفُونَ بِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ﴾ أَن لَّا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ أَي يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تُمْكِنُوا الْيَوْمَ فَقِيرًا يَدْخُلُهَا عَلَيْكُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدْنَا عَلَى حَرْبٍ أَي قُوَّةً وَشِدَّةً ﴿فَقَدِرِينَ﴾ أَي عَلَيْهَا، فِيمَا يُزْعَمُونَ وَيُزْعَمُونَ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَسَّالُونَ﴾ أَي فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا وَأَشْرَفُوا عَلَيْهَا، وَهِيَ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ اسْتَحَالَتْ عَنْ تِلْكَ النَّصَارَةِ وَالزَّهْرَةِ وَكَثْرَةِ الثَّمَارِ إِلَى أَنْ صَارَتْ سُودَاءَ مُذْلَهَمَةً لَا يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ مِنْهَا، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَأُوا الطَّرِيقَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا لَسَّالُونَ﴾ أَي قَدْ سَلَكْنَا إِلَيْهَا غَيْرَ الطَّرِيقِ فَتُهِنَّا عَنْهَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ. ثُمَّ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ وَتَقَبَّلُوا أَنَّهَا هِيَ فَقَالُوا: ﴿بَلْ عَنَّا عُزُومُونَ﴾ أَي بَلْ هِيَ هَذِهِ، وَلَكِنْ نَحْنُ لَا حِطَّ لَنَا وَلَا نَصِيبُ.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ: أَيِ اعْدَلُّهُمْ وَخَيْرُهُمْ<sup>(٣)</sup>. ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ لَوْلَا سُحُونُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿لَوْلَا سُحُونُ﴾ أَي لَوْلَا تَسْتَنُونَ<sup>(٤)</sup>. قَالَ السُّدِّيُّ: وَكَانَ اسْتِنَاؤُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ تَسْبِيحًا وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هُوَ قَوْلُ الْقَائِلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ<sup>(٥)</sup>.

وَقِيلَ مَعْنَاهُ: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ لَوْلَا سُحُونُ﴾ أَي هَلَّا تُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَتَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أُنُوا بِالطَّاعَةِ حَيْثُ لَا تَنْفَعُ، وَتَذْمُوهُ، وَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْجَعُ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿فَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ﴾ أَي يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَا كَانُوا أَصْرُوا عَلَيْهِ مِنْ مَنَعَ الْمَسَاكِينِ مِنْ حَقِّ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ وَابْنُنَا قَالَ أَسْطِطِرَ الْأَرْلَيْنِ يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا - مُقَابِلَةً مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ - كَفَرُ بِآيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَغْرَضَ عَنْهُ، وَزَعَمَ أَنَّهَا كَذِبٌ مَأْخُودٌ مِنْ أَسْطِطِرِ الْأَوَّلِينَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا<sup>(٦)</sup> وَبَنِينَ شُهُودًا<sup>(٧)</sup> وَمَهْدَتْ لَهُ تَهْنِيدًا<sup>(٨)</sup> ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أُزِيدَ<sup>(٩)</sup> كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِابْنَيْنَا عَيْنِدَا<sup>(١٠)</sup> سَأْتُهُمْ صَعُودًا<sup>(١١)</sup> إِنَّهُمْ فَكَّرَ وَقَدَّرَ<sup>(١٢)</sup> فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ<sup>(١٣)</sup> ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ<sup>(١٤)</sup> ثُمَّ نَظَرَ<sup>(١٥)</sup> ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ<sup>(١٦)</sup> ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ<sup>(١٧)</sup> فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ<sup>(١٨)</sup> إِن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ<sup>(١٩)</sup> سَأَصْلِيهِ سَفَرًا<sup>(٢٠)</sup> وَمَا أَزْكُرُكَ مَا سَفَرًا<sup>(٢١)</sup> لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ<sup>(٢٢)</sup> لَوَاكِبًا لِلْبَشَرِ<sup>(٢٣)</sup> عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ<sup>(٢٤)</sup> [المدر: ١١-٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿سَسِئْتُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: سَسْبِينُ أَمْرُهُ بَيَانًا وَاضِحًا، حَتَّى يَعْرِفُوهُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ كَمَا لَا تَخْفَى عَلَيْهِمْ السَّمَةُ عَلَى الْخُرَاطِيمِ<sup>(٢٥)</sup>. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿سَسِئْتُ﴾ سِمَةُ أَهْلِ النَّارِ يَعْنِي نُسُودَ وَجْهَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَبَّرَ عَنِ الْوَجْهِ بِالْخُرُطُومِ.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْبَنَةِ إِذْ أَوْسُوا لِيَصْرَبْنَهَا مُصِيبِينَ﴾ وَلَا يَسْتَنُونَ<sup>(٢٦)</sup> فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ<sup>(٢٧)</sup> فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ<sup>(٢٨)</sup> فَنَادَا مُصِيبِينَ<sup>(٢٩)</sup> أَنِ اعْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَرِيمِينَ<sup>(٣٠)</sup> فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ<sup>(٣١)</sup> أَن لَّا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ<sup>(٣٢)</sup> وَعَدَدُوا عَلَى حَرْبٍ قَدِيرِينَ<sup>(٣٣)</sup> فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَسَّالُونَ<sup>(٣٤)</sup> بَلْ عَنَّا عُزُومُونَ<sup>(٣٥)</sup> قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ لَوْلَا سُحُونُ<sup>(٣٦)</sup> قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ<sup>(٣٧)</sup> فَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ<sup>(٣٨)</sup> قَالُوا بَلَوْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ<sup>(٣٩)</sup> عَنَى رَبَّنَا أَنْ يُبْدِلَ خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ<sup>(٤٠)</sup> كَذَلِكَ الْقَدَابُ وَقَدَابُ الْآخِرَةِ أَكْثَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ<sup>(٤١)</sup>

[مِثْلٌ لِلذَّهَابِ كَسْبُ الْكُفَّارِ]

هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِكُفَّارٍ قُرَيْشٍ، فِيمَا أَهْدَى إِلَيْهِمْ: مِنَ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَأَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ الْجَسِيمَةِ، وَهُوَ بِنِعْمَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَابَلُوهُ بِالتَّكْدِيبِ وَالرَّدِّ وَالْمُحَارَبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أَيِ اخْتَبَرْنَا هُمْ ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْبَنَةِ﴾ وَهِيَ الْبُنْتَانُ الْمُسْتَمِيلُ عَلَى أَنْوَاعِ الثَّمَارِ وَالْفَوَاكِهِ ﴿إِذْ أَوْسُوا لِيَصْرَبْنَهَا مُصِيبِينَ﴾ أَيِ حَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ لِيَجِدَنَّ ثَمَرَهَا لَيْلًا، لِئَلَّا يَعْلَمَ بِهِمْ فَقِيرٌ وَلَا سَائِلٌ لِيَتَوَقَّرَ ثَمَرُهَا عَلَيْهِمْ، وَلَا يَتَصَدَّقُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ أَيِ فِيمَا حَلَفُوا بِهِ، وَلِهَذَا حَسَنَهُمُ اللَّهُ فِي أَيْمَانِهِمْ فَقَالَ

(١) الطبري: ٥٤١/٢٣ (٢) الطبري: ٥٤٤/٢٣ (٣) الطبري:

٥٥٠/٢٣ والدر المنثور: ٢٥٢/٨ (٤) الطبري: ٥٥١/٢٣

والدر المنثور: ٢٥٣/٨ (٥) الطبري: ٥٥٠/٢٣

الْجُدَاذِ، فَمَا كَانَ جَوَابَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِلَّا الْإِعْتِرَافَ بِالْخَطِيئَةِ وَالذَّنْبِ ﴿قَالُوا بَوَئِلَنَا إِنَّا كُنَّا طٰغِيْنَ﴾ أَيِ اعْتَدَيْنَا وَنَعَيْنَا وَطَغَيْنَا، وَجَاوَرْنَا الْحَدَّ حَتَّى أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلٰك رَبَّنَا رٰغِبُونَ﴾ قِيلَ: رَغِبُوا فِي [بَدْلِهَا] لَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: اخْتَسَبُوا ثَوَابَهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانُوا مِنْ قَرِيَّةٍ يُقَالُ لَهَا: ضَرَوَانُ، عَلَى سِتَّةِ أُمِّيَالٍ مِنْ صَنْعَاءَ. وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ، وَكَانَ أَبُوهُمْ قَدْ خَلَفَ لَهُمْ هَذِهِ الْحَبَّةَ، وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ كَانَ أَبُوهُمْ يَسِيرُ فِيهَا سِيرَةً حَسَنَةً، فَكَانَ مَا يَسْتَغْلُ مِنْهَا يَرُدُّ فِيهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَيَدَّخِرُ لِعِيَالِهِ قُوَّتَ سِتَّتِهِمْ وَيَتَصَدَّقُ بِالْفَاضِلِ، فَلَمَّا مَاتَ وَوَرِثَهُ بَنُوهُ قَالُوا: لَقَدْ كَانَ أَبُونَا أَحْمَقَ إِذْ كَانَ يَصْرِفُ مِنْ هَذِهِ شَيْئًا لِلْفُقَرَاءِ، وَلَوْ أَنَا مَتَعْنَاهُمْ لَتَوَثَّرَ ذَلِكَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ عُوفُوا بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ، فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا بَأْيَدِيهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ: رَأْسَ الْمَالِ وَالرَّيْحَ وَالصَّدَقَةَ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَيْءٌ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أَيِ هَكَذَا عَذَابُ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَبَخَلَ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وَمَنْعَ حَقَّ الْمُسْكِينِ وَالْفَقِيرِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ، وَبَذَلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴿وَلَعَلَّابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَيِ هَذِهِ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا كَمَا سَمِعْتُمْ. وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ ﴿فَتَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَمْعِ﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ آيْمُنٌ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ ﴿إِنْ كَانُوا صٰدِقِينَ﴾

[جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ وَأَنَّهُمْ لَا يُجْعَلُونَ كَالْمُجْرِمِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَا أَصَابَهُمْ فِيهَا مِنَ النِّعَةِ، جِئَ عَصَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ - بَيْنَ أَنْ لِمَنِ اتَّقَاهُ وَأَطَاعَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا تَفْرُغُ، وَلَا يَنْقُصِي نَعِيمُهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَمْعِ﴾ أَيِ أَفْتَسَاوِي بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَزَاءِ؟ كَلَّا وَرَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيِ كَيْفَ تَطُنُّونَ ذَلِكَ؟!

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَفَأَيَّدِيكُمْ كِتَابٌ مُزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ، تَدْرُسُونَهُ وَتَحْفَظُونَهُ وَتَتَدَاوُلُونَهُ، بِقَوْلِ الْخَلْفِ عَنِ السَّلَفِ، مُتَضَمِّنٌ حُكْمًا مُؤَكَّدًا كَمَا تَدَّعُونَهُ؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ آيْمُنٌ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أَيِ أَمَعَكُمْ عُهْدٌ مِنَّا وَمَوَاقِيقُ مُؤَكَّدَةٌ؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أَيِ أَنَّهُ سَيَحْصُلُ لَكُمْ مَا تَرِيدُونَ وَتَشْتَهُونَ ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أَيِ قُلْ لَهُمْ: مَنْ هُوَ الْمُتَضَمِّنُ الْمُتَكَفِّلُ بِهِذَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ: أَيُّهُمْ بِذَلِكَ كَفِيلٌ<sup>(١)</sup>. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أَيِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ إِنْ كَانُوا صٰدِقِينَ.

﴿يَوْمَ يُكَنِّفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُو إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْطِيعُونَ﴾ ﴿خَشِيعَةً أَنْصَرِمُ رُءُفَهُمْ إِلَهٌُ﴾ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سٰلِمُونَ ﴿قَذَرِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهِذَا لِلْوَيْتِ سَسَدًا رَجُومًا مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَأَمَّا لَهُمْ إِنْ كَذَبَ مَتِينٌ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكِيدُونَ﴾

[هَؤُلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ ﴿لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ بَيْنَ مَتَى ذَلِكَ كَائِنٌ وَوَاقِعٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكَنِّفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُو إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْطِيعُونَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ: مِنَ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ وَالْبَلَاءِ، وَالْإِمْتِحَانِ وَالْأُمُورِ الْعِظَامِ. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ هَهُنَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُكَنِّفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبَ لِيَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا» وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَفِي غَيْرِهِمَا مِنْ طُرُقٍ، وَلَهُ أَلْفَاظٌ، وَهُوَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ مَشْهُورٌ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَشِيعَةً أَنْصَرِمُ رُءُفَهُمْ إِلَهٌُ﴾ أَيِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، بِإِجْرَامِهِمْ وَتَكْبِيرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَعُوفُوا بِنَقِيضِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَلَمَّا دُعُوا إِلَى الشُّجُودِ فِي الدُّنْيَا قَامَتْنَعُوا مِنْهُ مَعَ صِحَّتِهِمْ وَسَلَامَتِهِمْ، كَذَلِكَ عُوفُوا بِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، إِذَا تَجَلَّى الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ فَيَسْجُدُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ وَلَا الْمُنَافِقِينَ أَنْ يَسْجُدَ، بَلْ يَعُودُ ظَهْرُ أَحَدِهِمْ طَبَقًا وَاحِدًا، كَلَمَّا أَرَادَ

(١) الطبري: ٥٥٤/٢٣ (٢) فتح الباري: ٥٣١/٨ و٥٣٢  
ومسلم: ١٦٧/١

مُعَاضِبًا عَلَى قَوْمِهِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ: مِنْ رُكُوبِهِ فِي  
الْبَحْرِ، وَالْتِقَامِ الْحُوتِ لَهُ، وَشُرُودِ الْحُوتِ بِهِ فِي الْبَحَارِ،  
وِظْلَمَاتِ غَمَرَاتِ اللَّيْلِ، وَسَمَاعِهِ تَسْبِيحِ الْبَحْرِ بِمَا فِيهِ  
لِلْعَالِي الْقَدِيرِ، الَّذِي لَا يَزِدُّ مَا أَنْفَذَهُ مِنَ التَّقْدِيرِ، فَجَبَّتْ  
نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ: «إِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ  
مِنَ الظَّالِمِينَ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ  
الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» [الأنبياء: ٨٧] وَقَالَ تَعَالَى:  
«فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٢٣﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَوْمَ  
يُنْعَثُونَ» [الصافات: ١٤٣، ١٤٤] وَقَالَ هُنَا: «إِذْ نَادَى وَهُوَ  
مَكْطُومٌ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: وَهُوَ مَعْمُومٌ<sup>(٢)</sup>.  
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَاجْتَنِبْ رَبُّهُ فَعَمَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ  
مَتَّى»<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٤)</sup> وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ  
حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ<sup>(٥)</sup>.

### [إِصَابَةُ الْعَيْنِ حَقًّا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلَمُوا بِأَبْصَارِهِمْ» قَالَ  
ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا «لِيُزْلَمُوا»: لِيَنْفُذُونَكَ<sup>(٦)</sup>  
«بِأَبْصَارِهِمْ» أَيَّ يَعْينُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ، بِمَعْنَى يَحْسُدُونَكَ  
لِيُغْضِبَهُمْ بِإِيَّاكَ، لَوْلَا وَقَايَةُ اللَّهِ لَكَ وَحِمَايَتُهُ إِيَّاكَ مِنْهُمْ.  
وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ إِصَابَتُهَا وَتَأْثِيرُهَا  
حَقٌّ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ  
الْمَرْوِيَّةُ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَثِيرَةٍ.

(حديث بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى أَبُو  
عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ مَاجَةَ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «لَا رُفْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»<sup>(٧)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ  
مَاجَةَ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بُرَيْدَةَ مَوْقُوفًا  
وَفِيهِ قِصَّةٌ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ<sup>(٩)</sup>. وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثُ  
الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ  
مَوْقُوفًا: لَا رُفْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ<sup>(١٠)</sup>.

(١) فتح الباري: ٢٥٥/٨، ومسلم: ١٩٩٧/٤ (٢) الطبري: ٥٦٣/٢٣ (٣) أحمد: ٣٩٠/١ (٤) فتح الباري: ٥١٩/٦

(٥) فتح الباري: ١٤٤/٨، ومسلم: ١٨٤٦/٤ (٦) الطبري: ٥٦٤/٢٣ (٧) ابن ماجه: ١١٦١/٢ (٨) مسلم: ١/١٠

(٩) تحفة الأحوذى: ٢١٧/٦ (١٠) فتح الباري: ١٠/١٦٣ وأبو داود: ٢١٣/٤ وتحفة الأحوذى: ٢١٧/٦

أَحَدُهُمْ أَنْ يَسْجُدَ خَرًّا لِقَفَاهُ عَكْسَ السُّجُودِ، كَمَا كَانُوا فِي  
الدُّنْيَا بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ.

### [وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ يَكْذِبُ بِالْقُرْآنِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْخَبِيرِ» يَعْنِي  
الْقُرْآنَ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ أَيْ دَغْنِي وَإِيَّاهُ مِنِّي وَمِنْهُ، أَنَا  
أَعْلَمُ بِهِ كَيْفَ اسْتَدْرَجُهُ وَأَمُدُّهُ فِي عَيْهِ، وَأَنْظُرُهُ ثُمَّ أَخْذُهُ  
أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ  
لَا يَحْتَسِبُونَ» أَيْ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ بَلَّ يَعْتَبِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ  
اللَّهِ كَرَامَةً وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ إِهَانَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
«يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ شَأْنٍ لَّهُمْ فِي الْخَيْرِ  
بَلْ لَا يَشْعُرُونَ» [المؤمنون: ٥٦] وَقَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا سَوَوْا مَا  
دُكِّرُوا بِهِ، فَتَحَنَّنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُزِحُوا بِمَا  
أَوَّلُوا أَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةً إِذَا هُمْ كَايِسُونَ» وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: «وَأَمَلَى  
لَهُمْ إِنْ كِيدَى مَتِينٌ» أَيْ وَأَوْحَرَهُمْ وَأَنْظَرَهُمْ وَأَمِدَّهُمْ،  
وَذَلِكَ مِنْ كَيْدِي وَمَكْرِي بِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ  
كَيْدِي مَتِينٌ» أَيْ عَظِيمٌ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَكَذَّبَ رُسُلِي،  
وَاجْتَرَأَ عَلَى مَعْصِيَتِي.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ  
تَعَالَى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ:  
«وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ» [إِنْ أَخَذَهُ إِلَهُ  
شَدِيدٌ] [هود: ١٠٢]<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَمْ تَسْتَأْذِنُ أَجْرًا فَهُمْ  
مِنْ مَعْرِي مُنْقَلُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ عَنْدهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ» تَقَدَّمَ  
تَفْسِيرُهُمَا فِي سُورَةِ الطُّورِ، وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ: أَلَيْكَ يَا  
مُحَمَّدُ تَذَعُّوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَلَا أَجْرَ تَأْخُذُهُ مِنْهُمْ،  
بَلْ تَرْجُو ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ يَكْذِبُونَ بِمَا  
جَنَّهُمْ بِهِ بِمَجَرَّدِ الْجَهْلِ وَالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ.

«فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْطُومٌ ﴿٤٨﴾  
لَوْلَا أَنْ تَدَارَكْتُمْ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِنَّا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْ رَبُّهُ  
فَعَمَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلَمُوا بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا  
يَسْمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَنَجْوَاهُمْ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾»  
[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَعَدَمُ الْإِسْتِعْجَالِ مِثْلُ يُونُسَ عَلَيْهِ  
السَّلَام]

يَقُولُ تَعَالَى: «فَاصْبِرْ» يَا مُحَمَّدُ عَلَى أَدَى قَوْمِكَ لَكَ  
وَتَكْذِيبِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَحْكُمُ لَكَ عَلَيْهِمْ وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ  
وَلَا تَتَّبِعْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْتِ»  
يَعْنِي ذَا الثَّنُونِ وَهُوَ يُونُسُ بْنُ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ ذَهَبَ

سورة القلم

٥٦٦

سورة القلم

خَشَعَةً أَنْصَرَهُمْ تَرْهَقَهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ نَحْنُ لَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنْ يُبَدِّلَ أَعْرَافَهُ وَهُوَ مُدْمِومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْ رُبَّهُ فَعَلَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

## سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْخَافَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَافَةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَاغِيَةٍ ﴿٥﴾ وَأَمَّا وَعَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

حَقٌّ<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَاهُ<sup>(١١)</sup>. وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ»<sup>(١٢)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ.

(حَدِيثُ أَسْمَاءَ بِنْتِ عَمِيْسٍ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرْقِيِّ قَالَ: قَالَتْ أَسْمَاءُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَنِي جَعْفَرٍ نَصَبِيهِمُ الْعَيْنُ أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقْتَهُ الْعَيْنُ»<sup>(١٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(١٤)</sup> وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتْ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا»<sup>(١)</sup> أَنْفَرَدَ بِهِ دُونُ الْبُخَارِيِّ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُوذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ يَقُولُ: «أَعِذْكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ الثَّامَةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ» وَيَقُولُ: «هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَعُوذُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَأَهْلُ السُّنَنِ<sup>(٢)</sup>.

(حَدِيثُ أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ سَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ سَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ قَالَ: مَرَّ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ بِسَهْلٍ بْنُ حُنَيْفٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ فَقَالَ: لَمْ أَرْ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ مُحَبَّاءَ، فَمَا لَبْتَ أَنْ لُبَطَ بِهِ فَأَتَيْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ لَهُ: أَدْرَكَ سَهْلًا صَرِيحًا قَالَ: «مَنْ تَهْتُمُونَ بِهِ؟» قَالُوا: عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ قَالَ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ» ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَأَمَرَ عَامِرًا أَنْ يَتَوَضَّأَ، فَيَغْسِلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ وَرُكْبَتَيْهِ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَضْبَ عَلَيْهِ. قَالَ شُفَيَّانٌ: قَالَ مَعْمَرُ عَنِ الزُّهْرِيِّ: وَأَمَرَ أَنْ يَكْفَأَ الْإِنَاءَ مِنْ خَلْفِهِ<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ طُرُقٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ: وَكَفَأَ الْإِنَاءَ مِنْ خَلْفِهِ<sup>(٤)</sup>.

(حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ) رَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ أَعْيُنِ الْجَانِّ وَأَعْيُنِ الْإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ الْمُعَوَّذَاتَانِ، أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ<sup>(٦)</sup>.

(حَدِيثُ آخَرُ عَنْهُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: اِسْتَكْبَيْتَ يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْفِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ وَعَيْنٍ تَشْنِيكَ، وَاللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْفِيكَ»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ<sup>(٨)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَوْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اِسْتَكَى فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ»<sup>(٩)</sup>.

(حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَيْنَ

(١) مسلم: ١٧١٩/٤ (٢) فتح الباري: ٤٧٠/٦ وأبو داود: ٥/١٠٤ وتحفة الأحوذى: ٢٢٠/٦ والنسائي في الكبرى: ٢٥٠/٦ وابن ماجه: ١١٦٤/٢ (٣) سنن ابن ماجه: ٣٥٠٩ (٤) النسائي في الكبرى: ٧٦١٧-٧٦١٩ (٥) ابن ماجه: ١١٦١/٢ (٦) تحفة الأحوذى: ٢١٨/٦ والنسائي: ٢٧١/٨ (٧) أحمد: ٢٨/٣، ٥٦ (٨) مسلم: ١٧١٨/٤ وتحفة الأحوذى: ٤٦/٤ والنسائي في الكبرى: ٢٤٩/٦ وابن ماجه: ١١٦٤/٢ (٩) أحمد: ٥٨/٣، ٧٥ (١٠) أحمد: ٣١٩/٢ (١١) فتح الباري: ٢١٣/١٠ ومسلم: ١٧١٩/٤ (١٢) ابن ماجه: ١١٥٩/٢ (١٣) أحمد: ٤٣٨/٦ (١٤) تحفة الأحوذى: ٢١٩/٦ وابن ماجه: ١١٦٠/٢

## تفسير سورة الحاقة وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ﴾ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعَدِ  
بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَتَا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَلَمَّا عَادَ فَأَهْلِكُوا  
بِرَيْحٍ صَرْصَرٍ عَلِيٍّ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ  
حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ نَثَلٌ خَاوِيَةٌ (٧) فَهَلْ  
تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤَيَّدَاتُ  
بِالطَّاغِيَةِ (٩) فَغَصَا رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا  
الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَكُمُ لَكَ تَذَكُّرًا وَلِنَعْلَمَ أَوَّلَ  
وَعِيَةٍ (١٢)

[التَّنبِيهُ عَلَى عِظَمِ الْقِيَامَةِ]

الْحَاقَّةُ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ فِيهَا يَتَحَقَّقُ الْوَعْدُ  
وَالْوَعْدُ، وَلِهَذَا عَظَّمَ اللَّهُ أَمْرَهَا فَقَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا  
الْحَاقَّةُ﴾.

[ذِكْرُ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ]

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى إِهْلَاكَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبِينَ بِهَا فَقَالَ تَعَالَى:  
﴿فَأَتَا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وَهِيَ الصَّيْحَةُ الَّتِي أَشْكَتْهُمْ  
وَالزَّلْزَلَةُ الَّتِي أَشْكَتْهُمْ. هَكَذَا قَالَ فَتَادَةُ: الطَّاغِيَةُ:  
الصَّيْحَةُ (٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الطَّاغِيَةُ: الدُّنُوبُ، وَكَذَا قَالَ  
الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَابْنُ زَيْدٍ إِنَّهَا الطُّغْيَانُ. وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ:  
﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١]

﴿لَمَّا عَادَ فَأَهْلِكُوا بِرَيْحٍ صَرْصَرٍ﴾ أَيُّ بَارِدَةٍ. قَالَ فَتَادَةُ  
وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالثَّوْرِيُّ: ﴿عَالِيَةٍ﴾ أَيُّ شَدِيدَةٍ  
الْهُبُوبِ، قَالَ فَتَادَةُ: عَثَّتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى نَقَبَتْ عَنْ  
أَفْتِدَانِهِمْ (٧). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿صَرْصَرٍ﴾ بَارِدَةٌ ﴿عَالِيَةٍ﴾  
عَثَّتْ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ رَحْمَةٍ وَلَا بَرَكَهٍ (٨). وَقَالَ عَلِيُّ وَغَيْرُهُ:  
عَثَّتْ عَلَى الْخَزَنَةِ فَخَرَجَتْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٩).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ سَلَطَهَا عَلَيْهِمْ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً  
أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أَيُّ كَوَامِلٍ مُتَتَابِعَاتٍ مَشَائِمٍ. قَالَ ابْنُ

الْتَّرِيمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ (١).

(حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) رَوَى ابْنُ مَاجَهَ عَنْ  
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهَا أَنْ تَسْتَرْفِيَ  
مِنَ الْعَيْنِ (٢). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٣).

(حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي  
أَمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
خَرَجَ وَسَارُوا مَعَهُ نَحْوَ مَكَّةَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشَيْبِ الْخَرَارِ  
مِنَ الْجُبْفَةِ، اغْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَكَانَ رَجُلًا أَبْيَضَ  
حَسَنَ الْجِسْمِ وَالْجِلْدِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ أَخُو بَنِي  
عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَلَا جِلْدَ  
مُحِبَّاءٍ، فَلَبِطَ سَهْلٌ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ  
اللَّهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ! وَاللَّهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَلَا يُفِيقُ،  
قَالَ: «هَلْ تَتَهَمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟» قَالُوا: نَظَرُ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ  
رَبِيعَةَ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامِرًا فَغَضِبَ عَلَيْهِ وَقَالَ: «عَلَامَ  
يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ، هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَكْتَ؟» ثُمَّ  
قَالَ - اغْتَسَلَ لَهُ «فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَمِرْقَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ  
وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ وَذَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صَبَّ ذَلِكَ الْمَاءَ  
عَلَيْهِ، فَصَبَّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ يَكْفَأُ  
الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ فَرَّاحَ سَهْلٍ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ  
بَأْسٌ» (٤).

(حَدِيثُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ  
عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: انْطَلَقَ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ وَسَهْلُ بْنُ  
حُنَيْفٍ يُرِيدَانِ الْغُسْلَ، قَالَ: فَانْطَلَقَا يَلْتَمِسَانِ الْخَمْرَ.  
قَالَ: فَوَضَعَ عَامِرٌ جُبَّةً كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ صُوفٍ فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ،  
فَأَصْبَتْهُ بِعَيْنِي، فَزَلَّ الْمَاءُ يَغْتَسِلُ، قَالَ: فَسَمِعْتُ لَهُ فِي  
الْمَاءِ فَرْقَعَةً فَأَتَيْتُهُ فَتَادَيْتُهُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُجِبْنِي، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ  
فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: فَجَاءَ يَمْشِي فَخَاضَ الْمَاءَ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى  
بَيَاضِ سَاقَيْهِ، قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ  
اضْرَفْ عَنْهُ حَرَّهَا وَبَرِّدْهَا وَوَصِّبْهَا» قَالَ: فَقَامَ، فَقَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ، أَوْ مِنْ نَفْسِهِ،  
أَوْ مِنْ مَالِهِ مَا يُعْجِبُهُ، فَلْيَبْرِكْ فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ» (٥).

[رَمَى الْكُفَّارِ وَجَوَابُهُمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّمَا لَمْجُونٌ﴾ أَيُّ يَزْدُرُونَهُ بِأَعْيُنِهِمْ  
وَيُؤْذُونَهُ بِاللِّسَانِ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَمْجُونٌ أَيُّ لِمَجِيئِهِ  
بِالْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ نَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(١) تحفة الأحوذى: ٢٢٠/٦ والسنائي في الكبرى: ٣٦٥/٤

(٢) ابن ماجه: ١١٦١/٢ (٣) فتح الباري: ٢١٠/١٠ ومسلم:

١٧٢٥/٤ (٤) أحمد: ٤٨٦/٣ (٥) أحمد: ٤٤٧/٣ (٦)

الطبري: ٥٧١/٢٣ (٧) الطبري: ٥٧٢/٢٣ (٨) الطبري:

٥٧٢/٢٣ (٩) الطبري: ٥٧٢/٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٦٧

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿١﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿٢﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿٣﴾ لَنَجْعَلَنَّ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ وَتَعِيَهَا أَذْنٌ وَّعِيَةٌ ﴿٤﴾ وَإِذَا نْفَخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةً وَاحِدَةً ﴿٥﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَاحِدَةً ﴿٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٧﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿٨﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنِينٌ ﴿٩﴾ يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٠﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِسْمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ أَوْفَى كِتَابِهِ ﴿١١﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءِ ﴿١٢﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٣﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٤﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٥﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابِهِ بِسْمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ ﴿١٧﴾ وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ ﴿١٨﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿١٩﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَةَ ﴿٢٠﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّتُهُ ﴿٢١﴾ خَذُوهُ فَعْلُوهُ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَحِمِمْ صَلْوَهُ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٥﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٢٦﴾

تَعَالَى مُنْتَنَا عَلَى النَّاسِ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ وَهِيَ السَّفِينَةُ الْجَارِيَةُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿لَنَجْعَلَنَّ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ وَتَعِيَهَا أَذْنٌ وَعِيَةٌ﴾ عَادَ الضَّمِيرُ عَلَى الْجِنْسِ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ، أَيْ وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنْ جِنْسِهَا مَا تَرْكَبُونَ عَلَى تِيَارِ الْمَاءِ فِي الْبَحَارِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَفْئَاكٍ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿١٧﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴿١٨﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَبَاهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١٩﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٢٠﴾ إِيْس: (٤١، ٤٢) وَقَالَ قَتَادَةُ: أَبْقَى اللَّهُ السَّفِينَةَ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ <sup>(١)</sup>. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعِيَهَا أَذْنٌ وَعِيَةٌ﴾ أَيْ وَتَفْهَمُ هَذِهِ النُّعْمَةَ وَتَذْكُرُهَا أَذْنٌ وَاعِيَةٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَافِلَةٌ سَامِعَةٌ <sup>(٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَذْنٌ وَعِيَةٌ﴾ عَقَلَتْ

مَسْعُودٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ: حُسُومًا مُتَبَاعَاتٍ <sup>(٣)</sup>. وَعَنْ عِكْرِمَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ خُنَيْمٍ: مَشَائِيمَ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي أَيَّامٍ يَحْسَابٍ﴾ [فصلت: ١٦] وَيُقَالُ: إِنَّهَا الَّتِي تُسَمِّيهَا النَّاسُ الْأَعْجَازَ، وَكَأَنَّ النَّاسَ أَخَذُوا ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ حَاقِيَةٌ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿حَاقِيَةٌ﴾ خَرَبَةٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بِأَلِيَّةٍ أَيْ جَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ بِأَحَدِهِمُ الْأَرْضَ فَيَجْرُ مِيتًا عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ، فَيَنْشِدُخُ رَأْسُهُ وَتَبْقَى جُثَّتُهُ هَامِدَةً، كَأَنَّهَا قَائِمَةٌ النَّخْلَةَ إِذَا خَرَّتْ بِلَا أَغْصَانٍ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلِكَتُ عَادَ بِالذَّبُورِ» <sup>(٤)</sup>. «فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟» أَيْ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَقَايَاهُمْ، أَوْ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ؟ بَلْ بَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُمْ خَلْفًا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ قُرِئَ بِكَسْرِ الْقَافِ أَيْ وَمَنْ عِنْدَهُ مِمَّنْ فِي زَمَانِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ مِنْ كُفَّارِ الْقُطَيْطِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِفَتْحِهَا، أَيْ: وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأُمَمِ الْمُشْبِهِينَ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ وَهُمْ الْأُمَمُ الْمُكَذِّبُونَ بِالرُّسُلِ ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ وَهِيَ التَّكْذِيبُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالَ الرَّبِيعُ: ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أَيْ بِالْمَعْصِيَةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِالْخَطَايَا <sup>(٥)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وَهَذَا جِنْسٌ، أَيْ: كُلُّ كَذَّبٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أُرْسِلَ هُوَ وَبَعْدُ﴾ وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْجَمِيعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥، ١٢٣، ١٤١] وَإِنَّمَا جَاءَ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ وَاحِدٌ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ أَيْ عَظِيمَةً شَدِيدَةً أَلِيمَةً، قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رَابِيَةً﴾ شَدِيدَةً <sup>(٦)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مُهْلِكَةً.

[التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ السَّفِينَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أَيْ زَادَ عَلَى الْحَدِّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَارْتَفَعَ عَلَى الْوُجُودِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: ﴿طَغَا الْمَاءُ﴾ كَثُرَ <sup>(٧)</sup>. وَذَلِكَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ جِئْنِ كَذْبُوهُ وَخَالِفُوهُ، فَعَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَعَمَّ أَهْلَ الْأَرْضِ بِالطُّوفَانِ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نُوحٍ وَذُرِّيَّتِهِ. وَلِهَذَا قَالَ

(١) الطبري: ٥٧٤، ٥٧٣/٢٣ (٢) مسلم: ٦١٧/٢ (٣) الطبري: ٥٧٦/٢٣ (٤) الطبري: ٥٧٧/٢٣ (٥) الطبري: ٥٧٧/٢٣ (٦) الطبري: ٥٧٨/٢٣ (٧) الطبري: ٥٧٩/٢٣

عَنِ اللَّهِ فَانْتَفَعْتُ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿رَبِّهَا أَدْنُ وَبِعِهَا﴾ سَمِعْتُهَا أَدْنُ وَوَعْتُ. أَي: مَنْ لَهُ سَمْعٌ صَحِيحٌ وَعَقْلٌ رَجِيحٌ، وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ فَهِمَ وَوَعَى.

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ۖ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۖ﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَتْ كُنْهُ بِسَمِيهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً ۖ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّةٌ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ فِي جَنَّةٍ عَلَيْهِمْ ۖ فُطُوفُهَا دَائِمَةٌ ۖ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ﴾

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۖ﴾

### [ذَكَرَ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

[فَرَحَهُ مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِسَمِيهِ وَحُسْنُ حَالِهِ] يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سَعَادَةِ مَنْ يُؤْتَى كِتَابُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَمِيهِ وَفَرَحِهِ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَهُ: ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً﴾ أَيِ خُذُوا إِقْرَأُوا كِتَابِيَّهِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ وَحَسَنَاتٌ مُحَضَّةٌ، لِأَنَّهُ وَمَنْ بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: مَعْنَى ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً﴾ أَيِ هَافِرُوا كِتَابِيَّهِ وَ(وَم) زَائِدَةٌ. كَذَا قَالَ، وَالظَّاهِرُ: أَنَّهَا بِمَعْنَى «هَاسَمٌ».

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْفَرْعِ ثُمَّ يَعْقِبُهَا نَفْخَةُ الصُّعْقِ، حِينَ يَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ بَعْدَهَا نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْبُعْثِ وَالنُّشُورِ، وَهِيَ هَذِهِ النَّفْخَةُ، وَقَدْ أَكْثَرَهَا هَهُنَا بِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ، لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّارٍ وَلَا تَأْكِيدٍ. وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أَيِ فَمَدَّتْ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِي، وَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أَيِ قَامَتِ الْقِيَامَةُ ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُتَخَرِّقَةٌ وَالْعَرْشُ بِجِذَائِهَا ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ الْمَلَكُ إِسْمٌ جِنْسٍ، أَيِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أَرْجَاءِ السَّمَاءِ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ يَقُولُ: عَلَى مَا اسْتَدَقَّ مِنَ السَّمَاءِ يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ غَسِيلِ الْمَلَائِكَةِ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُوقِفُ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُيَدِّي أَيْ يُظْهِرُ سَيِّئَاتِهِ فِي ظَهْرِ صَاحِبِهِ فَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ عَمِلْتَ هَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيِ رَبِّ. فَيَقُولُ لَهُ: إِنِّي لَمْ أَفْضَحْكَ بِهِ وَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكَ، فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّةٌ حِينَ نَجَا مِنْ فُضِيحَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ أَيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ الْعَرْشَ ثَمَانِيَّةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الشَّئِ مِنْ سَنَنِهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذْنٌ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ: أَنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ» هَذَا لَقَطُ أَبِي دَاوُدَ<sup>(١)</sup>.

### [عَرَضُ بَنِي آدَمَ عَلَى اللَّهِ]

وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ النَّجْوَى فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُذْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقْرُؤُهُ بِذُنُوبِهِ كُلِّهَا، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ بِسَمِيهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» [هود: ١٨]<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّةٌ﴾ أَيِ قَدْ كُنْتُ مُوفِقًا فِي الدُّنْيَا أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كَائِنٌ، لَا مَحَالَةَ، كَمَا قَالَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أَيِ تُعْرَضُونَ عَلَى عَالِمِ السِّرِّ وَالنَّجْوَى، الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ، بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِالظُّوَاهِرِ وَالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ

(١) أبو داود: ٩٦/٥ (٢) أحمد: ٤١٤/٤ إسناده ضعيف فيه تدليس الحسن البصري ولم يصرح بالسماع (٣) ابن ماجه: ٢/ ١٤٣٠ (٤) تحفة الأحوذى: ١١١/٧ (٥) أحمد: ٧٤/٢ والبخاري: ٤٦٨٥ ومسلم: ١٧٦٨

تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَطْنُونَ أَيْهَمَ مُلْكُوتِهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿نَهْوٌ فِي عَيْسَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أَيْ مَرْضِيَةٍ ﴿فِي جَنَّةٍ عَلِيَةٍ﴾ أَيْ رَفِيعَةٍ قُصُورُهَا، حِسَانِ حُورُهَا، نَعِيمَةٍ دُورُهَا، دَائِمِ حُبُورُهَا.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةٌ دَرَجَةٌ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَطَوَّفَتْهَا دَايَةً﴾ قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ: أَيْ قَرِيبَةً، يَتَنَاولُهَا أَحَدُهُمْ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى سَرِيرِهِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَبْتَنَا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْآلِيَةِ﴾ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَفَضُّلاً عَلَيْهِمْ وَامْتِنَاناً وَإِنْعَاماً وَإِحْسَاناً، وَإِلَّا فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اعْمَلُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بِشِمَالِهِ﴾ يَقُولُ يَلْتَنِي لَوْ أَوْفَى كَيْفِيَّةً<sup>(٤)</sup> وَلَوْ أَدْرَ مَا جَسَّابِيَّةً<sup>(٥)</sup> يَلْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ<sup>(٦)</sup> مَا أَقْنَى عَنِّي مَالِيَّةً<sup>(٧)</sup> هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً<sup>(٨)</sup> خُدُّهُ فَعَلُوهُ<sup>(٩)</sup> ثُمَّ الْحَجِيمَ صَلُّوهُ<sup>(١٠)</sup> ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ<sup>(١١)</sup> إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ<sup>(١٢)</sup> وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْيَسِينِ<sup>(١٣)</sup> فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهْنَا حِمِيمٌ<sup>(١٤)</sup> وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ<sup>(١٥)</sup> لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ<sup>(١٦)</sup>﴾

[سوء حالٍ مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ] وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ إِذَا أُعْطِيَ أَحَدُهُمْ كِتَابُهُ فِي الْعَرَصَاتِ بِشِمَالِهِ، فَجَبْتِلْ يَنْدُمُ غَايَةَ النَّدَمِ ﴿فَقَوْلُ يَلْتَنِي لَوْ أَوْفَى كَيْفِيَّةً<sup>(٤)</sup> وَلَوْ أَدْرَ مَا جَسَّابِيَّةً<sup>(٥)</sup> يَلْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي مَوْتَهُ لَأَحْيَا بَعْدَهَا. وَكَذَا قَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ كَعْبٍ وَالرَّبِيعُ وَالسُّدِّيُّ. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَمَتَّى الْمَوْتُ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِنْهُ<sup>(٤)</sup>. ﴿مَا أَقْنَى عَنِّي مَالِيَّةً<sup>(٧)</sup> هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً﴾ أَيْ لَمْ يَدْفَعْ عَنِّي مَالِي وَلَا جَاهِي عَذَابَ اللَّهِ وَرَأْسَهُ، بَلْ خَلَصَ الْأَمْرُ إِلَيَّ وَحْدِي، فَلَا مُعِينَ لِي وَلَا مُجِيرَ، فَعِنْدَهَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خُدُّهُ فَعَلُوهُ<sup>(٩)</sup> ثُمَّ الْحَجِيمَ صَلُّوهُ﴾ أَيْ يَا مُرَّ الزَّبَانِيَةِ أَنْ تَأْخُذَهُ عَنَّا مِنَ الْمَحْشَرِ، فَتَعْلُهُ، أَيْ: تَضَعُ الْأَغْلَالَ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ تُورِدُهُ إِلَى جَهَنَّمَ فَتُضْلِيهِ إِيَّاهَا أَيْ: تَعْمُرُهُ فِيهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ: كُلُّ حَلَقَةٍ مِنْهَا قَدْرُ حَدِيدِ الدُّنْيَا. وَقَالَ

الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جُرَيْجٍ: بِذِرَاعِ الْمَلِكِ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ تُدْخَلُ فِي اسْتِهِ ثُمَّ تُخْرَجُ مِنْ فِيهِ، ثُمَّ يُنْظَمُونَ فِيهَا كَمَا يُنْظَمُ الْجَرَادُ فِي الْعُودِ حِينَ يُشَوَّى. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُسْلَكُ فِي دُبُرِهِ حَتَّى يُخْرَجَ مِنْ مَنْخَرِهِ حَتَّى لَا يَقُومَ عَلَى رِجْلَيْهِ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ [لِرِصَاصَةٍ] مِثْلَ هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى جُمُجْمَةٍ - أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، لَبَلَّغَتْ الْأَرْضَ قَبْلَ اللَّيْلِ وَلَوْ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ مِنْ رَأْسِ السَّلْسِلَةِ لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ قَعْرَهَا أَوْ أَصْلَهَا»<sup>(٧)</sup>. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ<sup>(١٢)</sup> وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْيَسِينِ﴾ أَيْ لَا يَقُومُ بِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَلَا يَنْفَعُ خَلْقُهُ وَيُؤَدِّي حَقَّهُمْ، فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُوَحِّدَهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَلِلْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَقٌّ الْإِحْسَانِ وَالْمُعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ، وَقَبْضِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهْنَا حِمِيمٌ<sup>(١٤)</sup> وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ<sup>(١٥)</sup> لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أَيْ لَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ مَنْ يُنْقِذُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى لَا حَمِيمٌ - وَهُوَ الْقَرِيبُ - وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ، وَلَا طَعَامٌ لَهُ هَهْنَا إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ، قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ شَرُّ طَعَامِ أَهْلِ النَّارِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ شَجَرَةٌ فِي جَهَنَّمَ. وَقَالَ شَيْبَةُ بْنُ بَشِيرٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: الْغِسْلِينُ الدَّمُ وَالْمَاءُ يَسِيلُ مِنْ لُحُومِهِمْ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ: الْغِسْلِينُ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ.

﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُصِّرْتُ<sup>(١٨)</sup> وَمَا لَا بُصِيرُونَ<sup>(١٩)</sup> إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ<sup>(٢٠)</sup> وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ<sup>(٢١)</sup> وَلَا يَقُولُ كَافٍ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ<sup>(٢٢)</sup> نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(٢٣)</sup>﴾

(١) البخاري: ٢٧٩٠ (٢) الطبري: ٥٨٦/٢٣ (٣) فتح الباري: ٣٠٠/١١ (٤) الطبري: ٥٨٧/٢٣ (٥) الطبري: ٢٣/٥٨٩ (٦) الطبري: ٥٨٩/٢٣ (٧) أحمد: ١٩٧/٢ (٨) تحفة الأحوذى: ٣١٣/٧ (٩) النسائي في الكبرى: ٢٥٨/٤ (١٠) الطبري: ٥٩١/٢٣



## [الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُقْسِمًا لِخَلْقِهِ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِهِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا غَاب عَنْهُمْ مِمَّا لَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْمُعْجَبَاتِ عَنْهُمْ: إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا بُصِّرُونَ﴾ (٢٨) وَمَا لَا بُصُرُونَ (٢٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ، أَضَافَهُ إِلَيْهِ عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ، لِأَنَّ الرَّسُولَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبْلَغَ عَنِ الْمُرْسِلِ، وَلِهَذَا أَضَافَهُ فِي سُورَةِ التَّكْوِينِ إِلَى الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (١٠) مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ ﴿التَّكْوِينِ: ١٩-٢١﴾ وَهَذَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئُقِ الْمَلَيْنِ﴾ يَعْنِي أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى جَبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أَيُّ بِمَتَّهِمْ.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وَهَكَذَا قَالَ ههنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿فَأَضَافَهُ اللَّهُ تَارَةً إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ وَتَارَةً إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُبْلَغٌ عَنِ اللَّهِ مَا اسْتَأْمَنَهُ عَلَيْهِ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكَيْنِ﴾.

﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (١٢) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (١٣) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (١٤) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (١٥) وَإِنَّهُ لَنَذْكُرُهُ لِلْمُتَّقِينَ (١٦) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (١٧) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٨) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (١٩) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٢٠) [لَوْ يَقُولُ النَّبِيُّ شَيْئًا عَلَى اللَّهِ لَأَخَذَهُ اللَّهُ بِعَذَابٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ مُحَمَّدًا ﷺ لَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ مُفْتَرِيًا عَلَيْنَا، فَرَادَ فِي الرِّسَالَةِ أَوْ نَقَصَ مِنْهَا، أَوْ قَالَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فَسَبَّهَ إِلَيْنَا - وَلَيْسَ كَذَلِكَ - لَعَاجِلُنَاهُ بِالْعُقُوبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تَقْتَضِي مِنْهُ بِالْيَمِينِ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِي الْبَطْشِ، ﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ نِيَاطُ الْقَلْبِ وَهُوَ الْعِرْقُ الَّذِي الْقَلْبُ مُعَلَّقٌ فِيهِ (١). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالْحَكَمُ، وَتَفَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَمُسْلِمُ الْبَطِينُ، وَأَبُو صَخْرٍ حُمَيْدُ بْنُ زَيْدٍ (٢). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ هُوَ الْقَلْبُ وَمَرَافَهُ وَمَا يَلِيهِ (٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أَيُّ فَمَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَحْجِزَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِذَا

## سُورَةُ الْحَاقَّةِ

٥٦٨

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهنا جَمِيمٌ (٢٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ (٢٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِطُونَ (٢٧) فَلَا أَقْسِمُ بِمَا بُصِّرُونَ (٢٨) وَمَا لَا بُصُرُونَ (٢٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٣٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٣١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٣٢) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٣) وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٣٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٣٥) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٣٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٣٧) وَإِنَّهُ لَنَذْكُرُهُ لِلْمُتَّقِينَ (٣٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٣٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٤٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٤١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٤٢)

## سُورَةُ الْمَعَارِجِ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَدِيدًا (٥) إِنَّهُمْ بَرُونَ بِعَيْدِ (٦) وَرَنَّهُمْ فَرِيحًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا (١٠)

أَرَدْنَا بِهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا: بَلْ هُوَ صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُقَرَّرٌ لَهُ مَا يُبْلَغُهُ عَنْهُ، وَمُؤَيَّدٌ لَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالذَّلَالَاتِ الْقَاطِعَاتِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَذْكُرُهُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ أَيُّ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ سَيُوجَدُ مِنْكُمْ مَنْ يَكْذِبُ بِالْقُرْآنِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَإِنَّ التَّكْذِيبَ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٤). وَحَكَاهُ عَنْ قَتَادَةَ بِمِثْلِهِ (٥). وَيَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى الْقُرْآنِ، أَيْ وَإِنَّ الْقُرْآنَ وَالْإِيمَانَ بِهِ لَحَسْرَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى الْكَافِرِينَ،

(١) الطبري: ٥٩٣/٢٣ (٢) الطبري: ٥٩٣/٢٣ (٣) الطبري: ٥٩٤ (٤) الطبري: ٥٩٤ (٥) الطبري: ٥٩٥  
المشور: ٢٧٦/٨ (٣) القرطبي: ٢٧٦/١٨ (٤) الطبري: ٢٧٦/٢٣  
٥٩٥ (٥) الطبري: ٥٩٥/٢٣

وَأَمَّا الرُّوحُ فَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُشَبِّهُونَ النَّاسَ وَلَيْشُوا نَاسًا. قُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ جِبْرِيلُ، وَيَكُونَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِسْمُ جِنْسٍ لِأَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ، فَإِنَّهَا إِذَا قُبِضَتْ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبَرَاءِ<sup>(٥)</sup>.

[الْمُرَادُ بِيَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الْمُرَادُ بِذَلِكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قَالَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَرَوَاهُ الثَّوْرِيُّ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ عِكْرَمَةَ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يَوْمُ الْقِيَامَةِ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنجِ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قَالَ: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْكَافِرِينَ مِقْدَارَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ<sup>(٧)</sup>. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ فِي مَعْنَى ذَلِكَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عَمْرِو الْعُدَنِيِّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ بْنِ صُعَصَعَةَ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا أَكْثَرُ عَامِرِيِّ مَالًا، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، رُدُّوهُ إِلَيَّ فَرُدُّوهُ فَقَالَ: نُبِتَتْ أُنْثَى دُو مَالٍ كَثِيرٍ. فَقَالَ الْعَامِرِيُّ: إِيَّيْ وَاللَّهِ إِنْ لِي لِمِائَةِ حُمْرًا وَمِائَةِ أَدْمًا، حَتَّى عَدَّ مِنْ أَلْوَانِ الْإِبِلِ وَأَفْئَانِ الرِّقَاقِ، وَرِبَاطِ الْخَيْلِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِيَّاكَ وَأَخْفَافَ الْإِبِلِ وَأَطْلَافَ النَّعَمِ، يُرَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى جَعَلَ لَوْنُ الْعَامِرِيِّ يَتَغَيَّرُ فَقَالَ: مَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَسُولُهَا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَجْدَتُهَا وَرَسُولُهَا؟ قَالَ: «فِي عُشْرِهَا وَيُسْرِهَا، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَعْدَمَ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرَهُ وَأَسْمَنِيهِ وَأَشْرَهُ، ثُمَّ يَبْطَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ فَتَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا، فَإِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُفْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ﴾ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ. [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَلَنْهُمْ لَحَقٌ آتِيٍّ﴾ أَيِ الْخَبَرِ الصَّدْقِ الْحَقِّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أَيِ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ.

أَجَزُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَاقَّةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

## تَفْسِيرُ سُورَةِ سَائِلِ سَائِلٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ② مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَنجِ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَأَصْبَحَ صَبْرًا حَسْبًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦

[الْأَسْتِعْجَالُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فِيهِ تَضَمُّنٌ دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ الْبَاءِ كَأَنَّهُ مَقْدَرٌ: اسْتَعْجَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَتَجْلُوكَ بِالعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أَيِ وَعْدَائِهِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قَالَ: ذَلِكَ سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ دَعَا دَاعٍ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ يَقَعُ فِي الْآخِرَةِ. قَالَ: وَهُوَ قَوْلُهُمْ: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَطْرَعْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» [الأنفال: ٣٢]<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاقِعٍ﴾ ① لِلْكَافِرِينَ أَيِ مُرْصَدٌ مُعَدٌّ لِلْكَافِرِينَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَاقِعٍ﴾ جَاءَ ﴿لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ أَيِ لَا دَافِعَ لَهُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ كَوْنَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَتَى اللَّهَ ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

[تَفْسِيرُ ذِي الْمَعَارِجِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ يَخْنِي الْعُلُوفَ وَالْفَوَاضِلَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ مَعَارِجُ السَّمَاءِ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنجِ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿تَنجِ﴾ تَصْعَدُ.

(١) الطبري: ٥٩٩/٢٣ (٢) الطبري: ٥٩٩/٢٣ (٣) الطبري: ٦٠٠/٢٣

(٤) الطبري: ٦٠٠/٢٣ (٥) الطوال للطبراني: ٢٣٨

(٦) الطبري: ٦٠١/٢٣ (٧) الطبري: ٦٠٣/٢٣

وَإِذَا كَانَتْ لَهُ بَقَرٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَسُولَهَا، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَعْدَ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرُهُ وَأَسْمَنِيهِ وَأَشْرَهُ، ثُمَّ يُطْحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، فَتَطْوُهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلْفٍ بِظَلْفِهَا وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا، لَيْسَ فِيهَا عَفْصَاءٌ وَلَا عَضْبَاءٌ، إِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ.

وَإِذَا كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرَسُولَهَا فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَعْدَ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنِيهِ وَأَشْرَهُ حَتَّى يُطْحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ فَتَطْوُهُ كُلُّ ذَاتِ ظَلْفٍ بِظَلْفِهَا وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا، لَيْسَ فِيهَا عَفْصَاءٌ وَلَا عَضْبَاءٌ، إِذَا جَاوَزَتْهُ أَخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ فَقَالَ الْعَامِرِيُّ: وَمَا حَقُّ الْإِبِلِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: أَنْ تُعْطِيَ الْكَرِيمَةَ وَتَمْنَحَ الْغَزِيرَةَ، وَتُفَقِّرَ الظَّهْرَ وَتَسْقِي الْإِبِلَ<sup>(\*)</sup> وَتُطْرِقَ الْفَحْلَ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup>.

(طَرِيقٌ أُخْرَى لِهَذَا الْحَدِيثِ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ إِلَّا جُعِلَ صَفَاتِحَ، يُحْمَلُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَتُكْوَى بِهَا جَهَنَّمُ وَجَنَّتُهُ وَظَهَرُهُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تُعْدُونَ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ» وَذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ فِي الْغَنَمِ وَالْإِبِلِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَفِيهِ: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ» إِلَى آخِرِهِ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بِتَمَامِهِ مُتَّفَرِّدًا بِهِ دُونَ الْبُخَارِيِّ<sup>(٤)</sup>. وَالْغَرَضُ مِنْ إِيرَادِهِ هَهُنَا قَوْلُهُ: «حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

### [تَلْقِيْنُ النَّبِيِّ الصَّبْرَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَاصْبِرْ صَبْرًا حَسِيلًا» أَيِ اصْبِرْ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ، وَاسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ اسْتِغْنَاءًا لَوْفُوعِهِ كَقَوْلِهِ: «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِقُونَ مِمَّا وُعِدُوا أَنَّهَا الْحَقُّ» [الشورى: ١٨] وَلِهَذَا قَالَ: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا» أَيِ وَفُوعَ الْعَذَابِ. وَفِيَامِ السَّاعَةِ يَرَاهُ الْكَافِرَةُ بَعِيدَ الْوُفُوعِ بِمَعْنَى مُسْتَحِيلِ الْوُفُوعِ وَزَيْدُهُ

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

٥٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُصَرُّوهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَيْتِهِ<sup>(١١)</sup> وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ<sup>(١٢)</sup> وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوِّبُهُ<sup>(١٣)</sup> وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ<sup>(١٤)</sup> كَلَّا إِنَّمَا لَطَى<sup>(١٥)</sup> زُرْعَةَ لِلشَّوَى<sup>(١٦)</sup> تَدْعُوا مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّى<sup>(١٧)</sup> وَجَعَ فَأَوْعَى<sup>(١٨)</sup> إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا<sup>(١٩)</sup> إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزَعًا<sup>(٢٠)</sup> وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا<sup>(٢١)</sup> إِلَّا الْمُسْلِمِينَ<sup>(٢٢)</sup> الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ<sup>(٢٣)</sup> وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ<sup>(٢٤)</sup> لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ<sup>(٢٥)</sup> وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ اللَّهِ<sup>(٢٦)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُسْفِقُونَ<sup>(٢٧)</sup> إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ<sup>(٢٨)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ<sup>(٢٩)</sup> إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ<sup>(٣٠)</sup> فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ<sup>(٣١)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ<sup>(٣٢)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ<sup>(٣٣)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ<sup>(٣٤)</sup> أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ<sup>(٣٥)</sup> قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قُلْ مَهْطِعِينَ<sup>(٣٦)</sup> عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ<sup>(٣٧)</sup> يُطِيعُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ<sup>(٣٨)</sup> كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ<sup>(٣٩)</sup>

وَقِيًّا<sup>(٤٠)</sup> أَيِ الْمُؤْمِنُونَ يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ قَرِيبًا، وَإِنْ كَانَ لَهُ أَمَدٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِنْ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ فَهُوَ قَرِيبٌ وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ.

﴿يَوْمَ تَكُونُ النِّسَاءُ كَالْهَلَلِ﴾ (٨) وَتَكُونُ الْغِيَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا (١٠) يُصَرُّوهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَيْتِهِ (١١) وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوِّبُهُ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّمَا لَطَى (١٥) زُرْعَةَ لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَعَ فَأَوْعَى (١٨) إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزَعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُسْلِمِينَ (٢٢)

### [أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: الْعَذَابُ وَاقِعٌ بِالْكَافِرِينَ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ النِّسَاءُ كَالْهَلَلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ وَالشَّيْثِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيِ كَذُرْدِي الزَّيْتِ وَتَكُونُ الْغِيَالُ كَالْعِهْنِ أَيِ كَالصُّوفِ الْمُنْفُوشِ، قَالَهُ

(\*) وفي بعض النسخ: وَتَسْقِي اللَّبَنَ (١) أحمد: ٤٨٩/٢ (٢) أبو داود: ٣٠٤/٢ والتَّسَائِيُّ: ١٢/٥ (٣) أحمد: ٢٦٢/٢ (٤)

مُجَاهِدٌ وَتَنَادَةُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(١)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَيْدٌ حَيْبًا﴾<sup>(٢)</sup> يُصَرِّوهُمْ أَي لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ يَرَاهُ فِي أَسْوَ الْأَحْوَالِ، فَتَشْغَلُهُ نَفْسُهُ عَنْ غَيْرِهِ، قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَبْرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]<sup>(٣)</sup>. وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكُرَيْمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفَافًا رَكَعًا وَآخَسُوا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القمان: ٣٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ نَدَعِ ثَغْلَهُ إِلَى حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْكُفْرُ مِنْ أَيْحِهِ﴾<sup>(٤)</sup> وَأَمِيرِهِ<sup>(٥)</sup> وَصَحْبِهِ وَبَيْنَهُ<sup>(٦)</sup> لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [عبس: ٣٤-٣٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ الْمُجِزْمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِيهِ﴾<sup>(٧)</sup> وَصَحْبِهِ وَأَيْحِهِ<sup>(٨)</sup> وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبَعُ<sup>(٩)</sup> وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَيْمًا ثُمَّ يُبْجِيهِ<sup>(١٠)</sup> كَلَّا أَي لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدَاءٌ وَلَوْ جَاءَ بِأَهْلِ الْأَرْضِ وَبِأَعَزِّ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْمَالِ وَلَوْ بَجَلِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، أَوْ مِنْ وَلَدِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا حَشَاشَةً كَبِيدَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ - إِذَا رَأَى الْأَهْوَالَ - أَنْ يَفْتَدِيَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِهِ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ.

قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ قَبِيلَتُهُ وَعَشِيرَتُهُ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: فَخِذِهِ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ، وَقَالَ أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ: فَصِيلَتُهُ: أُمُّهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا لَطْفٌ يَصِفُ النَّارَ وَشِدَّةَ حَرِّهَا نَزَاعَةً لِلشَّوَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: جِلْدَةُ الرَّأْسِ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَثَابِتُ الْبُنَانِيُّ: ﴿نَزَاعَةً لِلشَّوَى﴾ أَي مَكَارِمَ وَجْهِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿نَزَاعَةً لِلشَّوَى﴾ أَي نَزَاعَةً لِهَامِيَتِهِ وَمَكَارِمَ وَجْهِهِ وَخَلْقِهِ وَأَطْرَافِهِ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تَبْرِي اللَّحْمِ وَالْجِلْدَ عَنِ الْعِظَمِ حَتَّى لَا تَتْرَكَ مِنْهُ شَيْئًا<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الشَّوَى: الْأَرَابُ الْعِظَامُ<sup>(١٥)</sup>. فَقَوْلُهُ نَزَاعَةً قَالَ: تُقَطَّعُ عِظَامُهُمْ، ثُمَّ تُبَدَّلُ جُلُودُهُمْ وَخَلْقُهُمْ.<sup>(١٦)</sup>

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أَي تَدْعُوا النَّارَ إِلَيْهَا أَبْنَاءَهَا الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ لَهَا، وَقَدَّرَ لَهُمْ

أَنَّهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَعْمَلُونَ عَمَلَهَا، فَتَدْعُوهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلسَانٍ طُلِقَ ذَلِكَ، ثُمَّ تُلْتَقِطُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ كَمَا يُلْتَقِطُ الطَّيْرُ الْحَبَّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَانُوا مِنْكُمْ ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ أَي كَذَّبَ بِقَلْبِهِ وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِجَوَارِحِهِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أَي جَمَعَ الْمَالَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَأَوْعَاهُ، أَي: أَوْكَاهُ، وَمَنَعَ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ فِي النِّقَمَاتِ وَمِنْ إِخْرَاجِ الرِّكَاتِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا تُرْعِي فِرْعَوْنِي اللَّهُ عَلَيْكَ»<sup>(١٧)</sup>.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾<sup>(١٨)</sup> إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا<sup>(١٩)</sup> وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا<sup>(٢٠)</sup> إِلَّا الْمُصَلِّينَ<sup>(٢١)</sup> الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ<sup>(٢٢)</sup> وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ<sup>(٢٣)</sup> لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ<sup>(٢٤)</sup> وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّاتِ اللَّهِ<sup>(٢٥)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ<sup>(٢٦)</sup> إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ<sup>(٢٧)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُجِهِمْ حَافِظُونَ<sup>(٢٨)</sup> إِلَّا عَلَى أَرْجَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ<sup>(٢٩)</sup> فَمَنْ ابْتَدَعَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَادُونَ<sup>(٣٠)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ذُرُوعًا<sup>(٣١)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ<sup>(٣٢)</sup> وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ<sup>(٣٣)</sup> أُولَئِكَ فِي حَبَشَةٍ مُكْرَمُونَ<sup>(٣٤)</sup>

فِي حَبَشَةٍ مُكْرَمُونَ<sup>(٣٥)</sup>

[الْإِنْسَانُ هَالِعٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ وَمَا هُوَ مَجْبُولٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الدِّينِيَّةِ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ يَقُولُهُ: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أَي إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ فَرَعَ وَجَزَعَ وَانْخَلَعَ قَلْبُهُ مِنْ شِدَّةِ الرُّغْبِ، وَأَيْسَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أَي إِذَا حَصَلَتْ لَهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بَخِلَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ، وَمَنَعَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شُحُّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ»<sup>(٣٦)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُقْرِئِ، بِهِ، وَلَيْسَ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ عِنْدَهُ سِوَاهُ<sup>(٣٧)</sup>.

(١) الطبري: ٦٠٤/٢٣ (٢) الطبري: ٦٠٥/٢٣ العوفي ضعيف (٣) الطبري: ٦٠٦/٢٣ (٤) الطبري: ٦٠٨/٢٣ (٥) الطبري: ٦٠٩/٢٣ (٦) الطبري: ٦٠٩/٢٣ (٧) الطبري: ٦٠٩/٢٣ (\*) كذا عندنا، والرواية عند ابن جرير عن ابن زيد:

ثُمَّ يُجَارَدُ خَلْقُهُمْ وَتُبَدَّلُ جُلُودُهُمْ (٣٤٨٩٤). وبه تستقيم العبارة

(٨) مسلم: ٧١٣/٢ (٩) أحمد: ٣٠٢/٢ (١٠) أبو داود: ٣/



الْعَزِيزِينَ: الْعَصَبُ مِنَ النَّاسِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ مُعْرِضِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ حُلِقَ فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ عَزِيزِينَ؟»<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَيُّطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِمَّنْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ»<sup>(٣)</sup> كَلَّا؟ أَيْ: أَيُّطَعُ هَؤُلَاءِ- وَالْحَالَةُ هَذِهِ مِنْ

فِرَارِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَفِرَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ - أَنْ يُدْخِلُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟ كَلَّا؟ بَلْ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرَّرًا لِيُوقِعَ الْمَعَادِ وَالْعَذَابَ بِهِمْ الَّذِي أَنْكَرُوا كُونَهُ،

وَاسْتَبَعَدُوا وَجُودَهُ مُسْتَدِلًّا عَلَيْهِمْ بِالْبِدْأَةِ الَّتِي الْإِعَادَةُ أَهْوَنُ مِنْهَا، وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ» أَيْ مِنَ الْمُنِيِّ الضَّعِيفِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «الَّذِي تَخَلَّكُم مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ» [المرسلات: ٢٠] وَقَالَ: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ

مِمَّ خُلِقَ»<sup>(٤)</sup> خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَاقِ<sup>(٥)</sup> يَخْجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ<sup>(٦)</sup> إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ<sup>(٧)</sup> يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ<sup>(٨)</sup> قَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [الطارق: ٥-١٠] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»

أَيُّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا، وَسَحَّرَ النُّجُومَ تَبْدُو مِنْ مَّشَارِقِهَا وَتَغِيبُ فِي مَغَارِبِهَا. وَتَقْرِيرُ الْكَلَامِ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ أَنْ لَا مَعَادَ وَلَا

حِسَابَ، وَلَا بَعَثَ وَلَا نُشُورَ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ وَاقِعٌ وَكَائِنْ لَا مَحَالَةَ، وَلِهَذَا أَتَى بِـ لَا، فِي ابْتِدَاءِ الْقَسَمِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ

الْمُقَسَّمِ عَلَيْهِ نَفْيٌ، وَهُوَ مَضْمُونُ الْكَلَامِ، وَهُوَ الرَّدُّ عَلَى رَغْبِهِمُ الْفَاسِدِ فِي نَفْيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ شَاهَدُوا مِنْ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ إِقَامَةِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ خَلْقُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَسْخِيرِ مَا فِيهِمَا: مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ وَسَائِرِ صُنُوفِ الْمَوْجُودَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ

النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [غافر: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتِ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [الاحقاف: ٣٣] وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ»<sup>(٩)</sup> إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ

شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [يس: ٨١، ٨٢] وَقَالَ هُنَا: «فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ»<sup>(١٠)</sup> عَلَى أَنْ نُبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

٥٧٠

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ<sup>(١١)</sup> عَلَى أَنْ نُبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ<sup>(١٢)</sup> فَنَذَرُهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَؤُودُونَ<sup>(١٣)</sup> يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ<sup>(١٤)</sup>

سُورَةُ الْبُورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ<sup>(١)</sup> قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ<sup>(٢)</sup> أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْفُسَهُ وَأَطِيعُوا<sup>(٣)</sup> يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

<sup>(٤)</sup> قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا<sup>(٥)</sup> فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا<sup>(٦)</sup> وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْنَعَهُمْ فِيءًا ذَانَهُمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَارًا

<sup>(٧)</sup> ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا<sup>(٨)</sup> ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا<sup>(٩)</sup> فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا<sup>(١٠)</sup>

أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُعِيدُهُمْ بِأَبْدَانٍ خَيْرٍ مِنْ هَذِهِ فَإِنَّ قُدْرَتَهُ صَالِحَةٌ لِّذَلِكَ «وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» أَيُّ بَعَاجِزِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامَهُ»<sup>(١١)</sup> بَلَى قَدِيرٌ عَلَى أَنْ

سَوِّىَ بَنَانَهُ [القيامة: ٣، ٤] وَقَالَ تَعَالَى: «نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ»<sup>(١٢)</sup> عَلَى أَنْ نُبْدِلَ أَمْثَلَكُمْ وَلَيْسَتَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ [الواقعة: ٦٠، ٦١] وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ «عَلَى أَنْ نُبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ» أَيْ: أُمَّةً تُطِيعُنَا وَلَا تُعَصِّيَانَا، وَجَعَلَهَا كَقَوْلِهِ: «وَأَنْ تَنْزِلُوا بِسَبْدٍ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ»

وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرَ لِدَلَالَةِ الْآيَاتِ الْآخِرَةِ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «فَنَذَرُهُمْ» أَيْ يَا مُحَمَّدُ «يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا» أَيُّ دَعَاهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ «حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَؤُودُونَ» أَيُّ فَسَيَعْلَمُونَ غِيبَ ذَلِكَ

(١) الطبري: ٦٢٠/٢٣ (٢) أحمد: ٩٣/٥ ومسلم: ٣٢٢/١ (٣) أبو داود: ٥٦١/١ والنسائي: ٤/٣ والطبري: ٦٢٠/٢٣

أَيُّ يُمَدُّ فِي أَعْمَارِكُمْ وَبَدْرًا عَنْكُمْ الْعَذَابَ الَّذِي إِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ أَوْقَعَهُ بِكُمْ، وَقَدْ يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الطَّاعَةَ وَالْبِرَّ وَصِلَةَ الرَّحِمِ يَزَادُ بِهَا فِي الْعُمُرِ حَقِيقَةً، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ: «صِلَةَ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ بَادِرُوا بِالطَّاعَةِ قَبْلَ حُلُولِ النَّقْمَةِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَمَرَ تَعَالَى بِكَوْنِ ذَلِكَ لَا يُرَدُّ وَلَا يُمَانَعُ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ فَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، الْعَزِيزُ الَّذِي دَانَتْ لِعِزَّتِهِ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۝ فَمَا زِلْتُ إِلَّا فِي دَعْوَتِهِمْ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَأَسْتَغْفِرُوا أَسْجِدًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَتَلَّتْهُمْ وَانْتَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ يَتَنَبَّهَ لَكُمْ جَنَّتْ وَتَجَعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝ أَتُؤْتُوا نَفْسًا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۝ وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِآبَاءٍ ۝ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فِيهَا وَخَرُجَكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ سِطًا ۝ لِيَسْلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا ۝ فِجَارًا ۝﴾

[شَكْوَى نُوْحٍ مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ اسْتَكَى إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ، وَمَا صَبَرَ عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَلْفُ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَمَا بَيْنَ لِقَائِهِمْ وَوَضَحَ لَهُمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الرُّشْدِ وَالسَّبِيلِ الْأَقْوَمِ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أَيُّ لَمْ أَتْرُكْ دُعَاءَهُمْ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ امْتِنَالًا لِأَمْرِكَ وَابْتِغَاءً لِطَاعَتِكَ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أَيُّ كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَقْتَرِبُوا مِنَ الْحَقِّ قَرُّوا مِنْهُ وَحَادُوا عَنْهُ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ۝ فَمَا زِلْتُ إِلَّا فِي دَعْوَتِهِمْ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَأَسْتَغْفِرُوا أَسْجِدًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَتَلَّتْهُمْ وَانْتَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ يَتَنَبَّهَ لَكُمْ جَنَّتْ وَتَجَعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝ أَتُؤْتُوا نَفْسًا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۝ وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِآبَاءٍ ۝ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فِيهَا وَخَرُجَكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ سِطًا ۝ لِيَسْلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا ۝ فِجَارًا ۝﴾ [فصلت: ٢٦].

(١) ابن شهاب: ٩٣/١ إسناده حسن، راجع الصحيحة للالباني (١٩٠٨).

وَيَذُوقُونَ وَبَالَهُ ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَعْدَانِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أَيُّ يَقْرَعُونَ مِنَ الْقُبُورِ إِذَا دَعَاهُمْ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَوْفِقِ الْحِسَابِ يَنْهَضُونَ سِرَاعًا ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ: إِلَى عِلْمٍ يَسْعَوْنَ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَيَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ إِلَى غَايَةِ يَسْعَوْنَ إِلَيْهَا. وَقَدْ قَرَأَ الْجُمْهُورُ: (إِلَى نُصُبٍ) يَفْتَحُ الثُّنُونَ وَإِسْكَانِ الصَّادِ وَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمُنْصُوبِ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿نُصُبٍ﴾ بِضَمِّ الثُّنُونَ وَالصَّادِ وَهُوَ الصَّنَمُ أَيُّ كَأَنَّهُمْ فِي إِسْرَاعِهِمْ إِلَى الْمَوْفِقِ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَهْرُولُونَ إِلَى النُّصُبِ إِذَا عَابَتْهُمْ، ﴿يُوفِضُونَ﴾ يَتَنَبَّهُونَ أَيُّهُمْ يَسْتَلِمُهُ أَوَّلٌ. وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ مُجَاهِدٍ وَيَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ وَمُسْلِمِ الْبُطَيْنِ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَأَبِي صَالِحٍ، وَعَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ وَابْنِ زَيْدٍ وَغَيْرِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلْقَةً أَصْنَعُهُمْ﴾ أَيُّ خَاصِصَةً ﴿لَهُمْ هَذِهِ ذَلَّةٌ﴾ أَيُّ فِي مُقَابَلَةِ مَا اسْتَكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. أَخْرَجَ تَفْسِيرُ سُورَةِ ﴿سَالَسَاتٍ﴾، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْتَفَوْهُ وَأَطِيعُوا ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ۝ إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾

[دَعْوَةُ نُوحٍ لِقَوْمِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَى قَوْمِهِ أَمْرًا لَهُ أَنْ يَنْذِرَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ قَبْلَ حُلُولِهِ بِهِمْ، فَإِنْ تَابُوا وَأَنَابُوا رَفَعَ عَنْهُمْ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ بَيْنَ النَّذَارَةِ ظَاهِرُ الْأَمْرِ وَاضِحُهُ، ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْتَفَوْهُ﴾، أَيُّ أَنْتَرَكُوا مَحَارِمَهُ وَاجْتَنَبُوا مَا يَنْهَى عَنْهُ ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَأَنَهَاكُمْ عَنْهُ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أَيُّ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَصَدَقْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَ﴿مِنْ﴾ هُنَا قِيلَ: إِنَّهَا زَائِدَةٌ وَلَكِنَّ الْقَوْلَ يَزِيدُهَا فِي الْإِثْبَاتِ قَلِيلٌ. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾

الْمَاءِ الْغَائِقِ

٥٧١

سُورَةُ نُوحٍ

يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ اللَّقْمَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمُ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَنْ لَا بَرَّةَ لَهُ وَلَوْلَدُهُ الْإِخْسَارُ ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤُهُمْ كِبَارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْذِرُنَا الْهَيْتَكُمْ وَلَا تَنْذِرُنَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَنْفَعُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُونَا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَنْذِرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوكَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

أَيُّ وَاحِدَةٍ فَوْقَ وَاحِدَةٍ، وَهَلْ هَذَا يُتَلَقَّى مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ فَقَطُّ أَوْ هُوَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحِسِّ مِمَّا عُلِمَ مِنَ التَّنْصِيرِ وَالْكُشُوفَاتِ؟ وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ سُحْبَانُهُ وَتَعَالَى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ اللَّقْمَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ أَيُّ فَارَتْ بَيْنَهُمَا فِي الْإِسْتِنَارَةِ فَجَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا أُنْمُودَجًا عَلَى حِدَةٍ، لِيُعْرِفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ بِمَطْلَعِ الشَّمْسِ وَمَغِيبِهَا، وَقَدَّرَ لِلْقَمَرِ مَنَازِلَ وَبُرُوجًا وَفَارَتْ نُورُهُ، فَتَارَةً يَزْدَادُ حَتَّى يَتَنَاهَى، ثُمَّ يَنْسَحُ فِي النَّقْصِ حَتَّى يَنْسَتِرَ لِيُذِلَّ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيئًا وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَ مَنَازِلَ لِنَسْلُمَا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ هَذَا إِسْمٌ مَصْدَرٌ وَالْإِنْبَاتُ بِهِ هَهُنَا أَحْسَنُ ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أَيُّ إِذَا مِتُّمْ

ثِيَابُهُمْ ﴿١١﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تَنْكَرُوا لَهُ لِئَلَّا يَعْرِفَهُمْ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ: غَطُّوا رُؤُوسَهُمْ لِقَلَّا يَسْمَعُوا مَا يَقُولُ. ﴿وَأَصْرُوا﴾ أَيُّ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ: مِنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ الْعَظِيمِ الْقَطِيعِ ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ أَيُّ وَاسْتَنَكَفُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أَيُّ جَهْرًا بَيْنَ النَّاسِ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَفْلَسْتُ لَهُمْ﴾ أَيُّ كَلَامًا ظَاهِرًا بِصَوْتٍ عَالٍ ﴿وَاسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أَيُّ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَتَوَقَّعَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةُ لِتَكُونَ أَنْجَعَ فِيهِمْ.

[مَا قَالَ نُوحٌ حِينَ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ]

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أَيُّ ارْجِعُوا إِلَيْهِ وَارْجِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، وَتَوْبُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ، فَإِنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ مَهْمَا كَانَتْ فِي الْكَفْرِ وَالشُّرْكِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٢٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أَيُّ مُتَوَاصِلَةً الْأَمْطَارِ، وَلِهَذَا تُسْتَحَبُّ قِرَاءَةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي صَلَاةِ الْإِسْتِسْقَاءِ لِأَجْلِ هَذِهِ الْآيَةِ. وَهَكَذَا رَوَى عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ صَعِدَ الْمِنْبَرَ لِيَسْتَسْقِيَ فَلَمْ يَرِدْ عَلَى الْإِسْتِسْقَاءِ وَقِرَاءَةِ الْآيَاتِ فِي الْإِسْتِسْقَاءِ، وَمِنْهَا هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٢٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ طَلَبْتُ الْغَيْثَ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: يَتَّبِعُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ أَيُّ إِذَا ثَبُتُمْ إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفَرْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ، كَثُرَ الزَّرْقُ عَلَيْكُمْ، وَأَسْفَاكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ، وَأَنْبَتَ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ، وَأَنْبَتَ لَكُمْ الزَّرْعَ، وَأَدَّرَ لَكُمْ الصَّرْعَ وَأَمْدَكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ أَيُّ أَعْطَاكُمْ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ، وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ، فِيهَا أَنْوَاعُ الثَّمَارِ، وَخَلَّلَهَا بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهَا. هَذَا مَقَامُ الدَّعْوَةِ بِالْتَّرْغِيبِ. ثُمَّ عَدَلَ بِهِمْ إِلَى دَعْوَتِهِمْ بِالْتَّرْهيبِ فَقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أَيُّ عَظَمَةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ <sup>(١)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تُعْظَمُونَ اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ <sup>(٢)</sup>. أَيُّ لَا تَخَافُونَ مِنْ بَاسِهِ وَيَقَمَّتِهِ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلَاقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَيَحْيَى بْنُ رَافِعٍ، وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾



[أَصْنَامُ قَوْمِ نُوحٍ وَمَا صَارَتْ إِلَيْهِ]

﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا﴾ (٢١) وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿وَهَذِهِ أَسْمَاءُ أَصْنَامِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ: أَمَّا وَدٌّ فَكَانَتْ لِكَلْبٍ يَدُومَةُ الْجَنْدَلِ. وَأَمَّا سُوَاعٌ فَكَانَتْ لَهُذَيْلٍ. وَأَمَّا يَغُوثٌ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرُفِ عِنْدَ سَبَا. وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لَهُمْدَانٍ. وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمَيْرٍ لِأَلِ ذِي كَلَاعٍ، وَهِيَ: أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ أَنْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ عِكْرِمَةَ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَابْنِ إِسْحَاقَ نَحْوَ هَذَا، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هَذِهِ أَصْنَامُ كَانَتْ تُعْبَدُ فِي زَمَنِ نُوحٍ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ «وَيَعُوقُ وَنَسْرًا» قَالَ: كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاكُمْ كَمَا كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَّرْنَاكُمْ، فَصَوَّرُوهُمْ، فَلَمَّا مَاتُوا وَجَاءَ آخَرُونَ، دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ فَقَالَ: إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرُ، فَعْبَدُوهُمْ.

[دُعَاءُ نُوحٍ عَلَى قَوْمِهِ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَصْلَوْا كَبِيرًا﴾ يَعْنِي الْأَصْنَامَ الَّتِي اتَّخَذُوهَا أَصْلًا بِهَا خَلَقًا كَثِيرًا، فَإِنَّهُ اسْتَمَرَّتْ عِبَادَتُهَا فِي الْقُرُونِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا، فِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَسَائِرِ صُوفِ بَنِي آدَمَ، وَقَدْ قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَائِهِ: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥) رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴿[إِبْرَاهِيم: ٣٥، ٣٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ دُعَاءٌ مِنْهُ عَلَى قَوْمِهِ لَتَمْرُدِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، كَمَا دَعَا مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا أَطِيسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا

﴿وَيُخْرِجَكُمُ إِيْرَاجًا﴾ أَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعِيدُكُمْ كَمَا بَدَأَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ الْآرْضِ سَاطِطًا﴾ أَيَّ بَسْطَهَا وَمَهْدَهَا وَقَرَّرَهَا وَثَبَّتَهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَّاتِ، الشُّمُّ الشَّامِيَّاتِ ﴿لِتَسْكُنُوا مِنْهَا سُبُلًا فَقَجَا﴾ أَيَّ خَلَقَهَا لَكُمْ لِتَسْتَقِرُّوا عَلَيْهَا وَتَسْكُنُوا فِيهَا أَيْنَ شِئْتُمْ مِنْ تَوَاجِيعِهَا وَأَرْجَائِهَا وَأَقْطَارِهَا، وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يُبَيِّنُهُمْ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْمِهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا جَعَلَ لَهُمْ: مِنَ الْمَنَافِعِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ، فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ جَعَلَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَالْأَرْضَ مِهَادًا وَأَوْسَعَ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ رِزْقِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَيُوحَّدَ، وَلَا يُشْرَكَ بِهِ أَحَدٌ، لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ وَلَا يَدَ وَلَا كُفَّءَ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدَ، وَلَا وَزِيرَ وَلَا مُشِيرَ، بَلْ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمُ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَرَّ بَرْدَهُ مَالَهُ وَلَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢٢) وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٤﴾ وَقَدْ أَصْلَوْا كَبِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٥﴾

[شَكْوَى نُوحٍ إِلَى رَبِّهِ لِمَا أَجَابَ بِهِ قَوْمُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَنهَى إِلَيْهِ - وَهُوَ الْعَلِيمُ الَّذِي لَا يَغْرُبُ عَنْهُ شَيْءٌ - أَنَّهُ مَعَ الْبَيَانِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرَهُ وَالِدَعْوَةَ الْمُتَوَعِّعَةِ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى التَّرْغِيبِ تَارَةً وَالتَّرْهِيْبِ أُخْرَى: أَنَّهُمْ عَصَوْهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ، وَاتَّبَعُوا أَبْنَاءَ الدُّنْيَا مِمَّنْ غَفَلَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَتَمَتَّعَ بِمَالٍ وَأَوْلَادٍ، وَهِيَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ اسْتِدْرَاجٌ وَإِنْظَارٌ لَا إِكْرَامَ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَرَّ بَرْدَهُ مَالَهُ وَلَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ فُرِيءَ: (وَوُلْدُهُ) بِالضَّمِّ وَبِالْفَتْحِ وَكِلَاهُمَا مُتَقَارِبٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿كَبِيرًا﴾ أَيَّ عَظِيمًا<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿كَبِيرًا﴾ أَيَّ كَبِيرًا وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَمْرٌ عَجِيبٌ وَعَجَابٌ وَعَجَابٌ، وَرَجُلٌ حَسَنٌ وَحَسَانٌ وَجَمَالٌ وَجَمَالٌ، بِالْخَفِيفِ وَالشَّدِيدِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ<sup>(٢)</sup>. وَالْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كَبِيرًا﴾ أَيَّ بِأَتْبَاعِهِمْ فِي تَسْوِيلِهِمْ لَهُمْ: أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهَدَى، كَمَا يَقُولُونَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿بَلْ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالْهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا.

(١) الطبري: ٦٣٨/٢٣ (٢) الطبري: ٦٣٨/٢٣ (٣) فتح الباري: ٥٣٥/٨ (٤) الطبري: ٦٤٠/٢٣

سُورَةُ الْجِنِّ

٥٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مِلسًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشِهَابًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمِعْ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَائِفًا قَدْ دَأَّ ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعْرِجَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهْدَىٰءَ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: إِلَّا هَلَاكًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِلَّا خَسَارًا. أَيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ. وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا أَحَدًا ٢ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ٧

الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِكُلِّ مِّنَ النَّبِيِّينَ فِي قَوْمِهِ، وَأَغْرَقَ أُمَّتَهُ بِتَكْذِيبِهِمْ لِمَا جَاءَهُمْ بِهِ.

﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَغْرَقُوا فَأَدْجَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ١٥ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ١٦ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ١٧ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ١٨

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ﴾ وَفُرِيَ: (خَطَابَتُهُمْ) ﴿أَغْرَقُوا﴾ أَيُّ مِّنْ كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَعَتُوهُمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ ﴿أَغْرَقُوا فَأَدْجَلُوا نَارًا﴾ أَيُّ نَقِلُوا مِّنْ تَيَّارِ الْبَحَارِ إِلَى حَرَارَةِ النَّارِ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ أَيُّ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُعِينٌ وَلَا مُعِيتٌ، وَلَا مُجِيرٌ يُنْقِذُهُمْ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّجَعُ﴾ [هود: ٤٣] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أَيُّ لَا تَتْرُكْ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا دَيَّارًا. وَهَذِهِ مِّنْ صَيَغٍ تَأْكِيدِ الْبَقِي، قَالَ الضَّحَّاكُ: ﴿دَيَّارًا﴾ وَاحِدًا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الدَّيَّارُ الَّذِي يَسْكُنُ الدَّارَ. فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، فَأَهْلَكَ جَمِيعَ مَن عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ حَتَّى وَلَدَ نُوحٍ لِّصْلَبِهِ الَّذِي اغْتَزَلَ عَنْ أَبِيهِ، وَقَالَ: ﴿سَنَاقِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] وَنَجَّى اللَّهُ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمْ الَّذِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ بِحَمْلِهِمْ مَعَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْضُلُوا عِبَادَكَ﴾ أَيُّ إِنَّكَ إِن أَبْقَيْتَ مِنْهُمْ أَحَدًا أَضَلُّوا عِبَادَكَ، أَيُّ الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ بَعْدَهُمْ ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أَيُّ فَاجِرًا فِي الْأَعْمَالِ كَافِرِ الْقَلْبِ، وَذَلِكَ لِخَبَرَتِهِ بِهِمْ وَمُكْنَتِهِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: يَغْنِي مَسْجِدِي. وَلَا مَانِعَ مِّنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا وَهُوَ أَنَّهُ دَعَا لِكُلِّ مَن دَخَلَ مَنْزِلَهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دَعَاءٌ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَذَلِكَ يَعُمُّ الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، وَلِهَذَا يُسْتَحَبُّ مِثْلُ هَذَا الدُّعَاءِ اقْتِدَاءً بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمِمَّا جَاءَ فِي الْأَنَارِ وَالْأَدْعِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الْمَشْرُوعَةِ.

## [اِسْتِمَاعُ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ وَإِيْمَانُهُمْ بِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنَّ يُخْبِرَ قَوْمَهُ أَنَّ الْجِنَّ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ، فَأَمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ وَانْقَادُوا لَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾ يَهْدِي إِلَى الرَّشْدِ أَيُّ إِلَى السَّدَادِ وَالتَّجَاحِ ﴿فَتَأْمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ رَبَّنَا أَهْلًا﴾ وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الاحقاف: ٢٩] وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهَا هُنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ تَكَلَّمَ جَدُّ رَبَّنَا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَدُّ رَبَّنَا﴾ أَيُّ فِعْلُهُ وَأَمْرُهُ وَقُدْرَتُهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَدُّ اللَّهِ: الْآوَةُ وَقُدْرَتُهُ وَنِعْمَتُهُ عَلَى خَلْقِهِ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ: جَلَالُ رَبَّنَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَعَالَى جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ وَأَمْرُهُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَعَالَى أَمْرُ رَبَّنَا. وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَمُجَاهِدٍ أَيْضًا، وَابْنُ جُرَيْجٍ: تَعَالَى ذِكْرُهُ.

## [إِقْرَارُ الْجِنِّ بِأَنَّ اللَّهَ مُنْزَهُ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أَيُّ تَعَالَى عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ، أَيُّ قَالَتْ الْجِنُّ: تَنَزَّ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ - حِينَ اسْلَمُوا وَأَمَنُوا بِالْقُرْآنِ - عَنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ ثُمَّ قَالُوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿سَفِيهُنَا﴾ يَغْنَوْنَ إِبْلِيسَ. ﴿شَطَطًا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ: ﴿شَطَطًا﴾ أَيُّ جَوْرًا. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَيُّ ظُلْمًا كَبِيرًا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِمْ سَفِيهُنَا إِسْمُ جِنْسٍ لِكُلِّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ لِلَّهِ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أَيُّ قَبْلَ إِسْلَامِهِ ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أَيُّ بَاطِلًا وَزُورًا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أَيُّ مَا حَسِبْنَا أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ يَتِمَّلُونَ عَلَى الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي نِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعْنَا هَذَا الْقُرْآنَ وَآمَنَّا بِهِ، عَلِمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ فِي ذَلِكَ.

## [مِنْ سَبَبِ طُغْيَانِ الْجِنِّ اسْتِعَادَةُ الْإِنْسِ بِهِمْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أَيُّ كُنَّا نَرَى أَنَّ لَنَا فَضْلًا عَلَى الْإِنْسِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعُوذُونَ بِنَا إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا أَوْ مَكَانًا مُّوحِشًا مِّنْ

الْبَرَارِي وَغَيْرِهَا، كَمَا كَانَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَعُوذُونَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنَ الْجَانِّ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَشِيءٌ يَسُوؤُهُمْ، كَمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَدْخُلُ بِلَادَ أَعْدَائِهِ فِي جَوَارِ رَجُلٍ كَبِيرٍ وَذِمَامِهِ وَخِفَارَتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ الْجِنُّ أَنَّ الْإِنْسَ يَعُوذُونَ بِهِمْ مِّنْ خَوْفِهِمْ مِنْهُمْ، زَادُوهُمْ رَهَقًا أَيُّ خَوْفًا وَإِرْهَابًا وَذُعْرًا، حَتَّى بَقُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ مَخَافَةً وَأَكْثَرَ تَعَوُّدًا بِهِمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أَيُّ إِنَّمَا وَازْدَادَتْ الْجِنُّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَرَاءً. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أَيُّ اِزْدَادَتْ الْجِنُّ عَلَيْهِمْ جُرْأَةً<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ الرَّجُلُ يَخْرُجُ بِأَهْلِهِ فَيَأْتِي الْأَرْضَ، فَيَنْزِلُهَا فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنَ الْجِنِّ أَنْ أَضُرَّ أَنَا فِيهِ أَوْ مَالِي أَوْ وَلَدِي أَوْ مَا شِئْتِي. قَالَ قَتَادَةُ: فَإِذَا عَادَ بِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، رَهَقَتْهُمْ الْجِنُّ الْأَذَى عِنْدَ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: كَانَ الْجِنُّ يَفْرُقُونَ مِنَ الْإِنْسِ، كَمَا يَفْرُقُ الْإِنْسُ مِنْهُمْ أَوْ أَشَدَّ، فَكَانَ الْإِنْسُ إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا وَادِيًا هَرَبَ الْجِنُّ فَيَقُولُ سَيِّدُ الْقَوْمِ: تَعُوذُ بِسَيِّدِ أَهْلِ هَذَا الْوَادِي، فَقَالَ الْجِنُّ: نَرَاهُمْ يَفْرُقُونَ مِنَّا كَمَا نَفْرُقُ مِنْهُمْ فَدَنَوْا مِنَ الْإِنْسِ فَأَصَابُوهُمْ بِالْحَبْلِ وَالْجُنُونِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أَيُّ إِنَّمَا. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: ﴿رَهَقًا﴾ أَيُّ خَوْفًا وَقَالَ مُجَاهِدٌ: زَادَ الْكُفَّارَ طُغْيَانًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أَيُّ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ رَسُولًا، قَالَهُ الْكَلْبِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مُلْبَسَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانِ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَوِيدٍ يَمِنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠

[اِسْتِرَاقُ الْجِنِّ خَبَرَ السَّمَاءِ قَبْلَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ وَرَمِيهِمْ بِالشُّهْبِ بَعْدَ الْبُعْثَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْجِنِّ حِينَ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَكَانَ مِنْ حِفْظِهِ لَهُ، أَنَّ السَّمَاءَ مُلْبَسَتٌ

(١) الطبري: ٦٤٨/٢٣ (٢) إسناده منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٣) الطبري: ٦٥٥/٢٣

وَأَنَّا مَنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾  
وَالْوَالِدَاتُ يُغْضِبْنَ بِنُسْرِئِهِمْ ذُرِّيَّتَهُنَّ فَإِنَّ عُذْرَهُنَّ إِلَىٰ طَرَفٍ لَّا تُسْقِنَهُمْ مَّا هُنَّ حَقٌّ لِّنَفْسِنَهُمْ  
فِيهِ وَمَنْ يَعْزُضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٦﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ  
يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ  
بِهِ أَحَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي  
لَنْ يُخِيرَ بِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢١﴾ إِلَّا بَلَاغًا  
مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ  
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَائِدَةً فَاسْجُدُوا فَسَجَدُوا  
مَنْ أَعْصَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ  
مَائِدَتِهِمْ أَمْ يَبْعَثُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٤﴾ عَلِيمُ الْغُيُوبِ فَلَا  
يُظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ  
يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٦﴾ لِّيَعْلَمَ مَنْ قَدِ ابْلَغُوا  
رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٧﴾

يَسْتَمِعُونَ مَا يَحْدُثُ فِي السَّمَاءِ مِنْ أَمْرٍ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ  
مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيًّا رَسُولًا رُجِعُوا لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فَفَزِعَ لِدَلِكِ  
أَهْلُ الطَّائِفِ فَقَالُوا: هَلَكَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِمَا رَأَوْا مِنْ شِدَّةِ  
النَّارِ فِي السَّمَاءِ وَاخْتِلَافِ الشُّهُبِ، فَجَعَلُوا يُعْتَقُونَ  
أَرْقَاءَهُمْ وَيُسَيِّبُونَ مَوَاشِيَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ يَالِيلِ بْنِ عَمْرِو  
ابْنِ عُمَيْرٍ: وَيَحْكُمُ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الطَّائِفِ، أَمْسِكُوا عَنْ  
أَمْوَالِكُمْ وَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَالِمِ النُّجُومِ، فَإِنْ رَأَيْتُمُوهَا مُسْتَقَرَّةً  
فِي أَمَكِّيَّتِهَا فَلَمْ يَهْلِكْ أَهْلُ السَّمَاءِ، إِنَّمَا هَذَا مِنْ أَجْلِ ابْنِ  
أَبِي كُبَيْشَةَ يَغْنِي مُحَمَّدًا ﷺ، وَإِنْ نَظَرْتُمْ فَلَمْ تَرَوْهَا فَقَدْ  
هَلَكَ أَهْلُ السَّمَاءِ. فَنَظَرُوا فَرَأَوْهَا، فَكَفُّوا عَنْ أَمْوَالِهِمْ  
وَفَزَعَتِ الشَّيَاطِينُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَأَتُوا إِبْلِيسَ فَحَدَّثُوهُ  
بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فَقَالَ: اتُّوْنِي مِنْ كُلِّ أَرْضٍ بِقَبْضَةٍ  
مِنْ تُرَابٍ أَشْمُهَا، فَأَتَوْهُ فَسَمَّ فَقَالَ: صَاحِبُكُمْ بِمَكَّةَ،

حَرَسًا شَدِيدًا وَخُفِظَتْ مِنْ سَائِرِ أَرْجَائِهَا، وَطُرِدَتْ  
الشَّيَاطِينُ عَنْ مَقَاعِدِهَا الَّتِي كَانَتْ تَقْعُدُ فِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ،  
لَيْلًا يَسْتَرْقُوا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَيُلْقُوهُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْكُهَنَةِ  
فَيَلْتَمِسُ الْأَمْرَ وَيَخْتَلِطُ وَلَا يَذَرِي مِنَ الصَّادِقِ، وَهَذَا مِنْ  
لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِخَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَحِفْظِهِ لِكِتَابِهِ  
الْعَزِيزِ، وَلِهَذَا قَالَ الْجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَنَسْتَأْذِنُكَ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ  
كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٨] أَيُّ مَنْ يَرُومُ أَنْ  
يَسْتَرْقِيَ السَّمْعَ الْيَوْمَ، يَجِدُ لَهُ شَهَابًا مُرْصَدًا لَهُ لَا يَخْطِئُهُ  
وَلَا يَتَعَدَّاهُ بَلْ يَمْحَقُهُ وَيُهْلِكُهُ. ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمِنُ  
فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٩] أَيُّ مَا نَدْرِي  
هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي قَدْ حَدَثَ فِي السَّمَاءِ، ﴿لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ  
يَمِنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وَهَذَا مِنْ أَدْبِهِمْ فِي  
الْجَبَّارَةِ حَيْثُ اسْتَدُّوا الشَّرَّ إِلَىٰ غَيْرِ فَاعِلٍ، وَالْخَيْرَ أَصَافُوهُ  
إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»<sup>(١)</sup>. وَقَدْ  
كَانَتْ الْكَوَاكِبُ يُزَمَّى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِكَثِيرٍ بَلْ  
فِي الْأَحْيَانِ بَعْدَ الْأَحْيَانِ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ:  
بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ  
فَقَالَ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» فَقُلْنَا: كُنَّا نَقُولُ يُوَلِّدُ  
عَظِيمٌ، يَمُوتُ عَظِيمٌ فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا  
قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ  
أُورِدْنَاهُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ بِتَمَامِهِ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي  
حَمَلَهُمْ عَلَى تَطَلُّبِ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ، فَأَخَذُوا يَضْرِبُونَ  
مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَوَجَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ  
بِأَصْحَابِهِ فِي الصَّلَاةِ. فَعَرَفُوا أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي خُفِظَتْ مِنْ  
أَجْلِهِ السَّمَاءُ، فَأَمَّنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، وَتَمَرَّدَ فِي طُعْيَانِهِ مَنْ  
بَقِيَ. كَمَا تَقَدَّمَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ فِي  
سُورَةِ الْأَحْقَافِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ  
الْقُرْآنَ﴾... [الاحقاف: ٢٩]<sup>(٣)</sup>.

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَمَّا حَدَثَ هَذَا الْأَمْرُ، وَهُوَ كَثْرَةُ الشُّهُبِ  
فِي السَّمَاءِ وَالرَّمْيُ بِهَا، هَالَكَ ذَلِكَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَانْزَعَجُوا  
لَهُ وَارْتَاعُوا لِذَلِكَ. وَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ لِحَرَابِ الْعَالَمِ، كَمَا  
قَالَ السُّدِّيُّ: لَمْ تَكُنِ السَّمَاءُ تُحَرَسُ إِلَّا أَنَّ يَكُونَ فِي  
الْأَرْضِ نَبِيٌّ أَوْ دِينَ لِلَّهِ ظَاهِرٌ، فَكَانَتْ الشَّيَاطِينُ قَبْلَ  
مُحَمَّدٍ ﷺ قَدْ اتَّخَذَتْ الْمَقَاعِدَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا،

(١) مسلم: ٥٣٥/١ (٢) مسلم: ١٧٥٠/٤ (٣) فتح الباري:

يُنْقَضَ مِنْ حَسَنَاتِهِ أَوْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ غَيْرُ سَيِّئَاتِهِ<sup>(٢)</sup>. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] ﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ﴾ أَي مِّنَ الْمُسْلِمِ وَمِنَ الْقَاسِطِ، وَهُوَ الْجَائِرُ عَنِ الْحَقِّ النَّكِيبُ عَنْهُ، بِخِلَافِ الْمُقْسِطِ فَإِنَّهُ الْعَادِلُ ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رِسْدًا﴾ أَي طَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمُ النَّجَاةَ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أَي وَقُودًا تُسْعَرُ بِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذًّا﴾<sup>(١١)</sup> لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ. اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى هَذَا عَلَى قَوْلَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامَ الْقَاسِطُونَ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَعَدَلُوا إِلَيْهَا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذًّا﴾ أَي كَثِيرًا، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ سَعَةُ الرِّزْقِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أَي لِنَحْبِرَهُمْ، كَمَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: لِنَفْتِنَهُمْ لِنَبْتِلَاهُمْ مَنْ يَسْتَوِرُ عَلَى الْهِدَايَةِ مِمَّنْ يَزِيدُ إِلَى الْغَوَايَةِ.

(ذِكْرُ مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ) رَوَى الْعَوْفِيُّ نَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَطَاءٌ وَالسُّدِّيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ، وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ حِينَ مُنِعُوا الْمَطَرَ سَنَةَ سِنِينَ.

(وَالْقَوْلُ الثَّانِي) ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أَي: الضَّلَالِ ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذًّا﴾ أَي: لَأَوْسَعْنَا عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ اسْتِدْرَاجًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَوَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] وَقَوْلُهُ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُضَاهُهُمْ مِنْ مَّاءٍ وَتِينٍ﴾<sup>(١٢)</sup> شَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ [المؤمنون: ٥٦] وَهَذَا قَوْلُ أَبِي مِجْلَزٍ لِأَحِقِّ بْنِ حُمَيْدٍ، فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أَي طَرِيقَةَ الصَّلَاةِ. رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٣)</sup>. وَحَكَاهُ الْبُغَوِيُّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَالْكَلْبِيِّ وَابْنِ كَيْسَانَ<sup>(٤)</sup>. وَلَهُ اتِّجَاهٌ، وَيَتَأَيَّدُ بِقَوْلِهِ: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أَي عَذَابًا [شَاقًّا شَدِيدًا] مُوجِعًا مُؤْلِمًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

فَبَعَثَ سَبْعَةَ نَفَرٍ مِنْ جِنِّ نَصِيبِينَ فَقَدِمُوا مَكَّةَ فَوَجَدُوا نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَدَنُّوا مِنْهُ جِزْصًا عَلَى الْقُرْآنِ، حَتَّى كَادَتْ كَلَامُهُمْ تُصِيبُهُ، ثُمَّ أَسْلَمُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُمْ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَقَدْ ذَكَّرْنَا هَذَا الْفَصْلَ مُسْتَقْصَى فِي أَوَّلِ الْبَعْثِ مِنْ (كِتَابِ السِّيَرَةِ) الْمُطَوَّلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَأَنَا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ دُونِ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَادًا﴾<sup>(١٣)</sup> وَأَنَا ظَنَنْتَ أَنْ لَنْ تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ تُعْجِزَهُ هَرَبًا<sup>(١٤)</sup> وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدْيَ ءَامَنَّا بِهِ. فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ. فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا<sup>(١٥)</sup> وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رِسْدًا<sup>(١٦)</sup> وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا<sup>(١٧)</sup> وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً عَذًّا<sup>(١٨)</sup> لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا<sup>(١٩)</sup>

[لِلْجِنِّ أَصْنَافٌ: مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُ، وَالضَّالُّ وَالرَّاشِدُ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا مُخْبِرِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ: ﴿وَأَنَا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَ دُونِ ذَلِكَ﴾ أَي غَيْرِ ذَلِكَ ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَادًا﴾ أَي طَرَائِقَ مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً وَأَرَاءَ مُتَرَفِّقَةٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَادًا﴾ أَي مِمَّا الْمُؤْمِنُ وَمِمَّا الْكَافِرُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ بْنُ سُلَيْمَانَ التَّجَادُّ فِي أَمَالِيهِ سَمِعْتُ الْأَعْمَشَ يَقُولُ: تَرَوْحُ إِلَيْنَا جَنِّي فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْكُمْ؟ فَقَالَ: الْأَرُزُّ، قَالَ: فَأَتَيْنَاهُمْ بِهِ فَجَعَلْتُ أَرَى اللَّقَمَ تَرْفَعُ وَلَا أَرَى أَحَدًا، فَقُلْتُ: فَيْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي فِينَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: فَمَا الرَّافِضَةُ فَيْكُمْ؟ قَالَ: شُرْنَا. عَرَضْتُ هَذَا الْإِسْنَادَ عَلَى شَيْخِنَا الْحَافِظِ أَبِي الْحَسَنِ [الْمُزِّي] فَقَالَ: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى الْأَعْمَشِ.

[إِفْرَارُ عِلْمِهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ الثَّامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا ظَنَنْتُ أَنْ لَنْ تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ تُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أَي نَعْلَمُ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ حَاصِمَةٌ عَلَيْنَا وَأَنَا لَا نُعْجِزُهُ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ أَمَكَّنَّا فِي الْهَرَبِ فَإِنَّهُ عَلَيْنَا قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنَّا ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدْيَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ يَفْتَحِرُونَ بِذَلِكَ وَهُوَ مَفْخَرٌ لَهُمْ، وَشَرَفٌ رَفِيعٌ، وَصِفَةٌ حَسَنَةٌ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: فَلَا يَخَافُ أَنْ

(١) الطبري: ٦٥٩/٢٣ (٢) الطبري: ٦٦٠/٢٣ (٣) الطبري:

٦٦٣/٢٣ (٤) البغوي: ٤٠٤/٤

تَلْبُدُ عَلَيْهِ جَمِيعًا<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قَالَ: تَلْبَدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لِيُطْفِئُوهُ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ وَيَمْضِيَهُ وَيُظْهِرَهُ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ<sup>(٨)</sup>. وَهَذَا قَوْلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَقَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ<sup>(٩)</sup> وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْتُرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أَيْ قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَمَّا آدَوهُ وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَظَاهَرُوا عَلَيْهِ لِيُطْفِئُوا مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْحَقِّ وَاجْتَمَعُوا عَلَى عِدَاوَتِهِ ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ أَيْ إِنَّمَا أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَسْتَجِيرُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ﴿وَلَا أَشْتُرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

[الرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ وَلَا الرُّشْدَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أَيْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يُوحَى إِلَيَّ وَعَنْدَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، لَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فِي هِدَايَتِكُمْ وَلَا غَوَايَتِكُمْ، بَلِ الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يُجِيرُهُ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ أَيْ لَوْ عَصَيْتُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى إِنْقَادِي مِنْ عِدَائِهِ ﴿وَلَنْ أَحْدَ مِنْ دُونِهِ مُنْتَحَدًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: لَا مَلْجَأَ<sup>(١٠)</sup>.

[لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ إِسْتِثْنَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أَيْ لَا يُجِيرُنِي مِنْهُ، وَيُخَلِّصُنِي إِلَّا بِإِذَاغِي الرِّسَالَةِ الَّتِي أَرْجَبَ أَدَاءَهَا عَلَيَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ أَيْ أَنَا أَبْلَغُكُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ فَمَنْ يَعْصِ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ جَزَاءٌ عَلَى ذَلِكَ نَارُ جَهَنَّمَ، خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا أَيْ لَا مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَعَوْا مِمَّنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا﴾ أَيْ حَتَّىٰ إِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ

وُمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿عَدَابًا صَعْدًا﴾ أَيْ مَشَقَّةً لَا رَاحَةَ مَعَهَا<sup>(١١)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ<sup>(١٢)</sup>. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: يَفْرُ فِيهَا.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا<sup>(١٣)</sup> قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْتُرِكُ بِهِ أَحَدًا<sup>(١٤)</sup> قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا<sup>(١٥)</sup> قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَحْدَ مِنْ دُونِهِ مُنْتَحَدًا<sup>(١٦)</sup> إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا<sup>(١٧)</sup> حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَعَوْا مِمَّنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا<sup>(١٨)</sup>.

[الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَاجْتِنَابِ الشِّرْكِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ أَنْ يُوحِدُوهُ فِي مَحَالِّ عِبَادَتِهِ وَلَا يُدْعَى مَعَهُ أَحَدٌ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قَالَ: كَانَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَيَعْبَهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُوحِدُوهُ وَحْدَهُ<sup>(١٩)</sup>. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ قَالَ: قَالَتِ الْجِنُّ لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَ الْمَسْجِدَ وَنَحْنُ نَاوُونَ؟ أَيْ بَعِيدُونَ عَنْكَ، وَكَيْفَ نَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَنَحْنُ نَاوُونَ عَنْكَ؟ فَتَرَكْتُ: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾<sup>(٢٠)</sup>.

[إِزْدِحَامُ الْجِنِّ عَلَى سَمَاعِ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَمَّا سَمِعُوا النَّبِيَّ ﷺ يَتْلُو الْقُرْآنَ كَادُوا يَرْكَبُونَهُ مِنَ الْجِرْصِ، لَمَّا سَمِعُوهُ يَتْلُو الْقُرْآنَ وَدَنُوا مِنْهُ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِمْ حَتَّىٰ أَنَاهُ الرُّسُولُ فَجَعَلَ يَقْرَأُهُ: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ. هَذَا قَوْلٌ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ الْجِنُّ لِقَوْمِهِمْ: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قَالَ: لَمَّا رَأَوْهُ يُضَلِّي وَأَصْحَابُهُ يَرْكَعُونَ بِرُكُوعِهِ وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ، قَالَ: عَجِبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ قَالَ: فَقَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾<sup>(٢١)</sup>. وَهَذَا قَوْلٌ ثَانٍ وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ أَيْضًا<sup>(٢٢)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ: لَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ كَادَتِ الْعَرَبُ

(١) الطبري: ٦٦٤/٢٣ (٢) الطبري: ٦٦٤/٢٣ (٣) الطبري:

٦٦٥/٢٣ (٤) الطبري: ٦٦٥/٢٣ (٥) الطبري: ٦٦٧/٢٣

(٦) الطبري: ٦٦٧/٢٣ (٧) الطبري: ٦٦٨/٢٣ (٨) الطبري:

٦٦٧/٢٣ (٩) الطبري: ٦٦٨/٢٣ (١٠) الطبري: ٦٦٩/٢٣

النَّبِيِّ ﷺ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢﴾ قَالَ: أَرْبَعَةُ حَفَظَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعَ جِبْرِيلَ. ﴿لِيَعْلَمَ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (٣) وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَهَكَذَا رَوَاهُ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ: لِيَعْلَمَ نَبِيُّ اللَّهِ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغَتْ عَنِ اللَّهِ وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ حَفَظَتْهَا وَدَفَعَتْ عَنْهَا (٤). وَكَذَا رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ (٥). وَقَالَ الْبُغُويُّ: قَرَأَ يَعْقُوبُ: (لِيَعْلَمَ) بِالضَّمِّ أَيَّ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا (٦).

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ قَوْلُ حَكَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «رَادِ الْمَسِيرِ». وَيَكُونُ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ يَحْفَظُ رُسُلَهُ بِمَلَائِكَتِهِ لِيَتِمَّ كُنُوفُهُمْ مِنْ أَدَاءِ رِسَالَاتِهِ، وَيَحْفَظُ مَا يُنْزِلُهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ: لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَيَكُونُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرُّسُولَ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا قَطْعًا لَا مَحَالَةَ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْجِنِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْمَلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[سَبَبُ نَزُولِ سُورَتِي الْمُرْمَلِ وَالْمُدَّثِّرِ]

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْخَالِقِ الْبَزَّازُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ فِي دَارِ النَّدْوَةِ

الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا يُوعَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَسَيَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ مَنْ أضعَفَ نَاصِرًا وَأَقْلَ عَدَدًا، هُمْ أُمُّ الْمُؤْمِنُونَ الْمُؤَحَّدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، أَيُّ بَلٍ [الْمُشْرِكُونَ] لَا نَاصِرَ لَهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ وَهُمْ أَقْلُ عَدَدًا مِنْ جُنُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ (١) عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٣) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٤) [الرَّسُولُ ﷺ لَا يَعْرِفُ وَقْتُ السَّاعَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِوَقْتِ السَّاعَةِ، وَلَا يَذْرِي أَقْرَبَ وَقْتُهَا أَمْ بَعِيدَ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أَيُّ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي يَنْدَوُلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْجَهْلَةِ مِنْ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «لَا يُؤَلَّفُ» (٥) تَحْتَ الْأَرْضِ كَذِبٌ لَا أَصْلَ لَهُ، وَلَمْ نَرَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ، وَقَدْ كَانَ ﷺ يُسْأَلُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ فَلَا يُجِيبُ عَنْهَا، وَلَمَّا تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ أَغْرَابِيٍّ، كَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ؟ قَالَ: «مَا الْمُسْتَوْوُلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». وَلَمَّا نَادَاهُ ذَلِكَ الْأَغْرَابِيُّ بِصَوْتِ جَهْرِيٍّ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَيَحْكُ إِنَّهَا كَانَتْ»، فَمَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَعِدْ لَهَا كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ: «فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قَالَ أَسْ: فَمَا فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ (٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ وَهَكَذَا قَالَ هُئِنَا: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ وَأَنَّهُ لَا يَطْلُعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ وَهَذَا يُثْمُّ الرُّسُولَ الْمَلَكِيَّ وَالْبَشَرِيَّ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أَيُّ يَخْصُصُهُ بِمَزِيدٍ مُعَقَّبَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَيُسَاقِفُونَهُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ الضَّمِيرُ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يَعُودُ إِلَى

(\*) أي لا يتم عليه في قبره ألف سنة إلا وقد تقوم الساعة الكبرى  
(١) فتح الباري: ١٤٠/١ (٢) الطبري: ٦٧٣/٢٣ (٣) عبد  
الرزاق: ٣٧٣/٣ (٤) الطبري: ٦٧٣/٢٣ (٥) البغوي: ٤/٤٠٦

## سُورَةُ الْمَزْمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ (١) قُرْ أَيْلًا لَا قِيلًا (٢) نَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قِيلًا (٣) أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَزَلَ الْقُرْآنَ تَرْبِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ أُولَى النِّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمَامًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَمْهِلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَنْقُوتُ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ أَخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩)

الرَّحِيمُ (٤). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: كَانَ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ آيَةَ آيَةٍ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ (٤) [الفاتحة: ١-٤] رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ (٥).

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّرْتِيلِ وَتَحْسِينِ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» (٦). وَ«لَيْسَ مَثًا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ» (٧). وَ«لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِرْمَارًا مِنْ مِرْمِيرِ آلِ

فَقَالُوا: سَمُّوا هَذَا الرَّجُلَ اسْمًا يَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ، فَقَالُوا: كَاهِنٌ. قَالُوا: لَيْسَ بِكَاهِنٍ. قَالُوا: مَجْنُونٌ. قَالُوا: لَيْسَ بِمَجْنُونٍ. قَالُوا: سَاحِرٌ. قَالُوا: لَيْسَ بِسَاحِرٍ، فَتَفَرَّقَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى ذَلِكَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَتَزَمَّلَ فِي ثِيَابِهِ وَتَدَثَّرَ فِيهَا. فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ (١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْمُورُ﴾. ثُمَّ قَالَ الْبَرَاءُ: مُعَلَّى بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَدْ حَدَّثَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَاحْتَمَلُوا حَدِيثَهُ، لَكِنَّهُ تَفَرَّدَ بِأَحَادِيثَ لَا يَتَّبَعُ عَلَيْهَا (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ (١) قُرْ أَيْلًا لَا قِيلًا (٢) نَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قِيلًا (٣) أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَزَلَ الْقُرْآنَ تَرْبِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) [الْأَمْرُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَتْرَكَ التَّزَمُّلَ وَهُوَ التَّغَطِّي فِي اللَّيْلِ وَيَنْهَضَ إِلَى الْقِيَامِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. وَكَذَلِكَ كَانَ ﷺ مُتَمَثِّلًا مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَقَدْ كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَيْلِيلٌ فَهَجَدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَخْمُومًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وَهَهُنَا بَيِّنٌ لَهُ مِقْدَارُ مَا يَقُومُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ (١) قُرْ أَيْلِيلًا لَا قِيلًا (٢) [المزمل: ١، ٢]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ يَعْنِي يَا أَيُّهَا النَّاسِمُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمَزْمَلُ فِي ثِيَابِهِ (٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَصَفَهُ﴾ (٢) بَدَلٌ مِنَ اللَّيْلِ ﴿أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قِيلًا﴾ (٣) أَوْ زَدَ عَلَيْهِ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ (١) لَاحِرَجَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ.

[طَرِيقَةُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَزَلَ الْقُرْآنَ تَرْبِيلًا﴾ أَيِ اقْرَأْهُ عَلَى تَهْمُلٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ عَوْنًا عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ. وَكَذَلِكَ كَانَ يَقْرَأُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ يَقْرَأُ السُّورَةَ فَيَرْتَلُّهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلُ مِنْ أَطْوَلٍ مِنْهَا (٣). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: كَانَتْ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يَمْدُ بِسْمِ اللَّهِ وَيَمْدُ الرَّحْمَنَ وَيَمْدُ

(١) كشف الأستار: ٧٧/٣ إسناده ضعيف جدا وفيه معلى بن عبد الرحمن الواسطي وهو كذاب (٢) الطبري: ٦٧٧/٢٣ (٣) مسلم: ٥٠٧/١ (٤) فتح الباري: ٧٠٩/٨ (٥) أحمد: ٦/٣٠٢ وأبو داود: ٢٩٤/٤ وتحفة الأحوذى: ٢٤١/٨ (٦) فتح الباري: ٥٢٧/١٣ (٧) فتح الباري: ٥١٠/١٣



دَاوُدَ<sup>(١)</sup>. يَعْنِي أَبَا مُوسَى، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ كُنْتَ تَسْمَعُ قِرَآءَتِي لَحَبْرَتُهُ لَكَ تَخْيِيرًا. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: لَا تَتَرَوُهُ نَزَلَ الرَّمْلَ وَلَا تَهْدُوهُ هَذَا الشَّعْرَ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمٌّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ. رَوَاهُ الْبَغَوِيُّ<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ اللَّيْلَةَ فِي رَكْعَةٍ. فَقَالَ: هَذَا كَهَذَا الشَّعْرَ، لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا بَيْنَهُنَّ، فَذَكَرَ عَشْرِينَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ<sup>(٣)</sup>.

### [عَظْمَةُ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَلَفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قَبِيلًا﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَيُّ الْعَمَلِ بِهِ وَقِيلَ: ثَقِيلٌ وَقَتٌ نَزُولُهُ مِنْ عَظَمَتِهِ، كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَجَدَّهُ عَلَى فَخْدِي فَكَادَتْ تُرَضُّ فَخْدِي<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ تُحْسِنُ بِالْوَحْيِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْمَعُ صَلَاحًا ثُمَّ أَسْكُتُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَا مِنْ مَرَّةٍ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسِي تُقْبَضُ». تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ<sup>(٥)</sup>. وَفِي أَوَّلِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ: «أَحْيَانًا يَأْتِي فِي مِثْلِ صَلَاحَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ، فَيَقْضِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَمَثُلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ». قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ﷺ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَقْضِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَقَصَّدُ عَرَقًا. هَذَا لَفْظُهُ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِذَا كَانَ لِيُوحَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَتَضْرِبُ بِجَرَانِهَا<sup>(٧)</sup>. الْجِرَانُ هُوَ بَاطِنُ الْعُنُقِ.

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهُ ثَقِيلٌ مِنَ الْوُجْهِينِ مَعًا. كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنِ أَسْلَمَ، كَمَا ثَقُلَ فِي الدُّنْيَا ثَقُلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمَوَازِينِ.

### [شَرَفُ قِيَامِ اللَّيْلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وَقَالَ عُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ: اللَّيْلُ كُلُّهُ نَاشِئَةٌ<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٩)</sup>. يُقَالُ: نَشَأَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: بَعْدَ الْعِشَاءِ<sup>(١٠)</sup>. وَكَذَا قَالَ

أَبُو مِجَلَزٍ وَقَتَادَةُ وَسَالِمٌ وَأَبُو حَازِمٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ<sup>(١١)</sup>. وَالْغَرَضُ: أَنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ سَاعَاتُهُ وَأَوْقَاتُهُ، وَكُلُّ سَاعَةٍ مِنْهُ تُسَمَّى نَاشِئَةً وَهِيَ الْآتَاةُ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ هُوَ أَشَدُّ مُوَاطَاةً بَيْنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَأَجْمَعُ عَلَى التَّلَاوَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أَيُّ أَجْمَعُ لِلْخَاطِرِ فِي آدَاءِ الْقِرَاءَةِ وَتَقْهَمِهَا مِنْ قِيَامِ النَّهَارِ، لِأَنَّهُ وَقْتُ انْتِشَارِ النَّاسِ وَلَغَطِ الْأَصْوَاتِ وَأَوْقَاتِ الْمَعَاشِ. وَأَخْرَجَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ: عَنْ الْأَعْمَشِ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَصْوَبُ قِيلًا) فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّمَا نَقَرُوهَا ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾. فَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَصْوَبَ وَأَقْوَمَ وَأَهْيَأَ وَأَشْبَاهَ هَذَا وَاحِدٌ<sup>(١٢)</sup>.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ: الْفَرَاغُ وَالنَّوْمُ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو مَالِكٍ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: فَرَاغًا طَوِيلًا. وَقَالَ قَتَادَةُ: فَرَاغًا وَنُعْمَةً وَمُتَلَبِّيًا. وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا﴾ قَالَ: لِحَوَائِجِكَ فَافْرُغْ لِدِينِكَ اللَّيْلُ. قَالَ: وَهَذَا حِينَ كَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ قَرِيبَةً ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ عَلَى عِبَادِهِ فَخَفَّفَهَا وَوَضَعَهَا وَقَرَأَ: ﴿ثُمَّ آتِلْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلَاثِ أَلِيلٍ بِضِفِّمْ حَتَّى بَلَغَ﴾ فَافْرُوهَا مَا بَسَّرَ مِنْهُ<sup>(١٤)</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٧٩] وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ، كَمَا قَالَهُ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ هِشَامٍ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَبِيعَ عَقَارًا لَهُ بِهَا، وَيَجْعَلَهُ فِي الْكُرَاعِ وَالسَّلَاحِ، ثُمَّ يُجَاهِدُ الرُّومَ حَتَّى يَمُوتَ، فَلَقِيَ رَهْطًا مِنْ قَوْمِهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّ رَهْطًا مِنْ قَوْمِهِ سَبَّهَ أَرَادُوا ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

(١) فتح الباري: ٧١٠/٨ (٢) معالم التنزيل: ٢١٥/٨ (٣) فتح الباري: ٢٩٨/٢ (٤) فتح الباري: ١٠٨/٨ (٥) أحمد: ٢٢٢/٢ (٦) فتح الباري: ٢٥/١ (٧) أحمد: ١١٨/٦ (٨) الطبري: ٦٨٣/٢٣ (٩) الطبري: ٦٨٢/٢٣ (١٠) الطبري: ٦٨٢/٢٣ (١١) الطبري: ٦٨٣/٢٣ (١٢) مسند أبي يعلى: ٧/٨٨ (١٣) الطبري: ٦٨٦/٢٣ (١٤) الطبري: ٦٨٦/٢٣

كُنْتُ أَدْخُلُ عَلَيْهَا لِأَتَيْتُهَا حَتَّى تُسَافِهَنِي مُسَافِهَةً<sup>(١)</sup>. هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِتَمَامِهِ وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بِنَحْوِهِ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾ قَامُوا حَوْلًا حَتَّى وَرَمَتْ أَقْدَامُهُمْ وَسُوقُهُمْ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] قَالَ: فَاسْتَرَحَّ النَّاسُ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ۖ يَصْفَهُ أَوْ انْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۖ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ خَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَرَجَمَهُمْ، فَأَنْزَلَ بَعْدَ هَذَا ۖ «عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَآخَرُونَ يَقْرِءُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى «فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ» فَوَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَهُ - الْحَمْدُ - وَلَمْ يُصَيِّقْ<sup>(٥)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ كَرِهَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ إِذَا فَرَعْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمُورٍ دُنْيَاكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَأُنْصَبْ﴾ [الشرح: ٧] أَيِ إِذَا فَرَعْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ فَأُنْصَبَ فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَتَكُونَ فَارَغَ الْبَالِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ بِمَعْنَاهُ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ<sup>(٦)</sup>. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَعَطِيَّةٌ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ «وَيَبْتَغِي إِلَيْهِ تَبَيُّلاً» أَيِ أَخْلَصَ لَهُ الْعِبَادَةَ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ: اجْتَهِدْ وَابْتَغِ إِلَيْهِ نَفْسَكَ<sup>(٨)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يُقَالُ لِلْعَابِدِ مَتَبَّلٌ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ: نَهَى عَنِ التَّبَتُّلِ يَعْنِي الْإِنْقِطَاعَ إِلَى الْعِبَادَةِ وَتَرَكَ التَّرَوُّجَ<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ الْشَّرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أَيِ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَكَمَا أَفْرَدَهُ بِالْعِبَادَةِ فَأَفْرَدَهُ بِالتَّوَكُّلِ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] [في] آيَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى فِيهَا الْأَمْرُ بِإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَتَخْصِيصِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ.

«أَلَيْسَ لَكُمْ فِي أَسْوَةِ حَسَنَةٍ؟» فَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَأَشْهَدَهُمْ عَلَى رَجْعَتِهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْنَا، فَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ أَتَى ابْنَ عَبَّاسٍ فَسَأَلَهُ عَنِ الْوُثْرِ فَقَالَ: أَلَا أُنَبِّئُكَ بِأَعْلَمَ أَهْلِ الْأَرْضِ بِوُثْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَسَأَلْتُهَا ثُمَّ أَرْجَعُ إِلَيَّ فَأَخْبِرُنِي بِرَدِّهَا عَلَيْكَ. قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلَى حَكِيمِ بْنِ أَلْفَحٍ فَاسْتَلْحَفْتُهُ إِلَيْهَا فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِبِهَا إِلَيَّ نَهَيْتُهَا أَنْ تَقُولَ فِي هَاتَيْنِ الشَّيْعَتَيْنِ شَيْئًا فَأَبَتْ فِيهِمَا إِلَّا مُضِيًّا، فَأَقْسَمْتُ عَلَيْهِ فَبَجَاءَ مَعِيَ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا فَقَالَتْ: حَكِيمٌ وَعَرَفْتُهُ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: مَنْ هَذَا الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَ: سَعِيدُ بْنُ هِشَامٍ. قَالَتْ: مَنْ هِشَامٌ؟ قَالَ: ابْنُ عَامِرٍ. قَالَ: فَتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ وَقَالَتْ: نِعَمَ الْمَرْءُ كَانَ عَامِرًا. قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ، ثُمَّ بَدَأَ لِي قِيَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾ قُلْتُ: بَلَى. قَالَتْ: فَإِنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتَمَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنِي عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا مِنْ بَعْدِ فَرِيضَةٍ. فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ثُمَّ بَدَأَ لِي وَثْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ وَثْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: كُنَّا نَعُدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطْهَرَهُ فَيَسْعُهُ اللَّهُ لِمَا شَاءَ أَنْ يَسْعَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَسْرُوكَ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يُصَلِّي ثَمَانَ رَكَعَاتٍ، وَلَا يَجْلِسُ فِيهِنَّ إِلَّا عِنْدَ الثَّامِنَةِ، فَيَجْلِسُ وَيَذْكُرُ رَبَّهُ تَعَالَى وَيَدْعُو، ثُمَّ يَنْهَضُ وَمَا يُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُومُ لِيُصَلِّيَ الثَّاسِعَةَ ثُمَّ يَقْعُدُ فَيَذْكُرُ اللَّهَ وَحْدَهُ ثُمَّ يَدْعُوهُ، ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُنَا، ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ، فَيَلِكُ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكَعَةً يَا بُنَيَّ، فَلَمَّا أَسَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخَذَهُ اللَّحْمُ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَ مَا يُسَلِّمُ فَيَلِكُ تِسْعَ يَا بُنَيَّ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يَدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا شَغَلَهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ أَوْ مَرَضٌ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكَعَةً، وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، وَلَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ. فَأَتَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَحَدَّثَنِي بِحَدِيثِهَا فَقَالَ: صَدَقْتُ، أَمَا لَوْ

(١) أحمد: ٥٣/٦ (٢) مسلم: ٥١٢/١ (٣) الطبري: ٢٣/٦٧٩ (٤) الطبري: ٦٨٠/٢٣ (٥) الطبري: ٦٧٩/٢٣ (٦) الطبري: ٦٨٩/٢٣ (٧) الطبري: ٦٨٨/٢٣ (٨) الطبري: ٦٨٨/٢٣ (٩) الطبري: ٦٨٧/٢٣

وَالْتَّوْرَى ﴿أَخَذًا وَيَلًا﴾ أَيْ شَدِيدًا<sup>(٣)</sup>. أَيْ فَاحْذَرُوا أَنْتُمْ أَنْ تُكَذِّبُوا هَذَا الرَّسُولَ فَيُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ فِرْعَوْنَ، حَيْثُ أَخَذَهُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنذَهُ اللَّهُ تَكَلَّ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥] وَأَنْتُمْ أُولَى بِالْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ إِنْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَكُمْ، لِأَنَّ رَسُولَكُمْ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ. وَيُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ.

[الْتَّهْدِيدُ بِعَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ يَوْمًا مَعْمُولًا لِتَتَّقُونَ كَمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (كَيفَ تَخَافُونَ أَيُّهَا النَّاسُ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا إِنْ كَفَرْتُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ تُصَدِّقُوا بِهِ)<sup>(٤)</sup>؟ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْمُولًا لِكُفْرَتُمْ فَعَلَى الْأُولَى: كَيْفَ يَخْصُلُ لَكُمْ أَمَانٌ مِنْ يَوْمٍ هَذَا الْفَزَعُ الْعَظِيمُ إِنْ كَفَرْتُمْ، وَعَلَى الثَّانِي: كَيْفَ يَخْصُلُ لَكُمْ تَقْوَى إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجَحَدْتُمُوهُ، وَكِلَاهُمَا مَعْنَى حَسَنٌ، وَلَكِنْ الْأُولَى أَوْلَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أَيْ مِنْ شِدَّةِ أَهْوَالِهِ وَزَلَّازِلِهِ وَبَلَايِهِ، وَذَلِكَ جِئَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَدَمَ: ابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ فَيَقُولُ: مِنْ كَمْ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاجِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ أَيْ بِسَبَبِهِ مِنْ شِدَّتِهِ وَهَوْلِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أَيْ كَانَ وَعْدُ هَذَا الْيَوْمِ مَفْعُولًا أَيْ وَاقِعًا لَا مُحَالَةً، وَكَانَتْ لَا مَحِيدَةً عَنْهُ.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾<sup>(٥)</sup> إِنْ رَزَقَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَعْمُ أَدْنَى مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَتُسَمُّ وَتُلَاقِي مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُعَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ فَبَاتَ عَلَيْكَ قَافِرًا مَا يَبْسُرُ مِنَ الْقُرْآنِ عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكَ رَاضٍ وَآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَقُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخِرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَعُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدْهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>(٦)</sup>

[هَذِهِ السُّورَةُ تَذْكِرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أَيْ السُّورَةَ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أَيْ

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِطْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾<sup>(٧)</sup> وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا<sup>(٨)</sup> إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا<sup>(٩)</sup> وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا<sup>(١٠)</sup> يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا<sup>(١١)</sup> إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا<sup>(١٢)</sup> فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَيَلًا<sup>(١٣)</sup> فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا<sup>(١٤)</sup> السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ<sup>(١٥)</sup> كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا<sup>(١٦)</sup>

[الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْكُفَّارِ وَبَيَانُ

مَا لَهُمْ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُهُ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، وَأَنْ يَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا، وَهُوَ الَّذِي لَا عِتَابَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ مُتَهَدِّدًا لِكُفَّارِ قَوْمِهِ وَمَتَوَعِّدًا، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَقُومُ لِنُصْبِهِ شَيْءٌ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ أَيْ دَعْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ الْمُتَرَفِّعِينَ أَصْحَابِ الْأَمْوَالِ، فَإِنَّهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَهُمْ يُطَالِبُونَ مِنَ الْحُقُوقِ بِمَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أَيْ رُوَيْدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَهِيَ الْقِيُودُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَطَاوُسٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ وَأَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ وَأَبُو مِجْلَزٍ وَالضَّحَّاكُ، وَحَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ، وَقَتَادَةُ وَالشَّدِّي، وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَالتَّوْرِيُّ، وَغَيْرٌ وَاحِدٌ<sup>(١٧)</sup>. وَجَحِيمًا وَهِيَ السَّعِيرُ الْمُضْطَرَّمَةُ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْشِبُ فِي الْحُلُقِ فَلَا يَدْخُلُ وَلَا يَخْرُجُ<sup>(١٨)</sup>. وَعَذَابًا أَلِيمًا<sup>(١٩)</sup> يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ أَيْ تُزَلْزَلُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا أَيْ تُصِيرُ كَكُتْبَانِ الرَّمْلِ بَعْدَ مَا كَانَتْ جِجَارَةً صَمَاءً، ثُمَّ إِنَّهَا تُنْسَفُ نَسْفًا، فَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا ذَهَبٌ، حَتَّى تُصِيرَ الْأَرْضُ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾<sup>(٢٠)</sup> لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا [طه: ١٠٦، ١٠٧] أَيْ وَادِيًا ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ أَيْ رَابِيَةً، وَمَعْنَاهُ: لَا شَيْءَ يَنْخَفِضُ وَلَا شَيْءَ يَرْتَفِعُ.

[رَسُولُكُمْ ﷺ مِثْلَ رَسُولِ فِرْعَوْنَ وَتَعْلَمُونَ مَصِيرَ

فِرْعَوْنَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحَاطًا لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَالْمُرَادُ سَائِرِ النَّاسِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ بِأَعْمَالِكُمْ ﴿كَأَنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾<sup>(٢١)</sup> فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَيَلًا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالشَّدِّي

(١) الطبري: ٦٩٠/٢٣، ٦٩١ والدر المنثور: ٣١٩/٨ (٢)

الطبري: ٦٩١/٢٣ (٣) الطبري: ٦٩٣/٢٣ (٤) الطبري:

يَتَذَكَّرُ بِهَا أُولُو الْأَلْبَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] أَيِّ مِمَّنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى هِدَايَتُهُ كَمَا قَيَّدَهُ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

[نَسَخَ وَجُوبَ قِيَامَ اللَّيْلِ وَذَكَرَ أَغْذَارِهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أَيُّ تَارَةً هَكَذَا وَتَارَةً هَكَذَا، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْمُواظَبَةِ عَلَى مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ لِأَنَّهُ يَسْقُ عَلَيْكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَيُّ تَارَةً يَغْتَدِلَانِ، وَتَارَةً يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا وَهَذَا مِنْ هَذَا ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ أَيُّ الْفَرَضِ الَّذِي أَوْجِبَهُ عَلَيْكُمْ ﴿فَاقْرَءُوا مَا نَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أَيُّ مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ بِوَقْتٍ، أَيُّ وَلَكِنْ قَوْمُوا مِنَ اللَّيْلِ مَا تَيَسَّرَ، وَعَبَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ بِالْقِرَاءَةِ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ شُبْحَانَ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أَيُّ بِقِرَاءَتِكَ ﴿وَلَا تَخَافُهَا﴾ [الإنشراح: ١١٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْحُومٌ وَمَاخْرُومٌ يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَاخْرُومٌ يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ عِلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ذَوُو أَغْذَارٍ فِي تَرْكِ قِيَامِ اللَّيْلِ مِنْ مَرَضَى لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ، وَمُسَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فِي الْمَكَاسِبِ وَالْمَتَاجِرِ، وَآخَرِينَ مُشْغُولِينَ بِمَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي حَقِّهِمْ مِنَ الْعَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ بَلِ السُّورَةُ كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ وَلَمْ يَكُنِ الْقِتَالُ شُرْعَ بَعْدَ، فَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْإِخْبَارِ بِالْمُعْتَبَاتِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا نَزَّلَ مِنْهُ﴾ أَيُّ قَوْمُوا بِمَا تَيَسَّرَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أَيُّ أَقِيمُوا صَلَاتَكُمْ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ وَآتُوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَهَذَا يَدُلُّ لِمَنْ قَالَ: إِنَّ قَرَضَ الزَّكَاةَ نَزَلَ بِمَكَّةَ، لَكِنْ مَقَادِيرُ النَّصَبِ وَالْمَخْرُجِ لَمْ تُبَيَّنْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَفَتَاةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَسَخَتْ الَّذِي كَانَ اللَّهُ قَدْ أَوْجِبَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَوَّلًا مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ»<sup>(٢)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
٥٧٥  
إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَنَّابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْحُومٌ وَمَاخْرُومٌ يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمَاخْرُومٌ يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ  
عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ غَفْوَرٍ رَحِيمٌ

### سُورَةُ الْمَزْمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ<sup>(١)</sup> قُرْآنُكَ<sup>(٢)</sup> وَرَبِّكَ فَكَيْدٌ<sup>(٣)</sup> وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ<sup>(٤)</sup>  
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ<sup>(٥)</sup> وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ<sup>(٦)</sup> وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ<sup>(٧)</sup>  
فَإِذَا نَفَخَ فِي النُّفُورِ<sup>(٨)</sup> فَذَلِكَ يَوْمُ مَيزِيزٍ عَسِيرٍ<sup>(٩)</sup> عَلَى الْكَافِرِينَ  
غَيْرِ مَيسِرٍ<sup>(١٠)</sup> ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا<sup>(١١)</sup> وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا  
مَمْدُودًا<sup>(١٢)</sup> وَبَنِينَ شُهُودًا<sup>(١٣)</sup> وَمَهْدَتْ لَهُ النَّهْجَ<sup>(١٤)</sup> ثُمَّ يَطْمَعُ  
أَنْ أَرِيدَ<sup>(١٥)</sup> كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِنْتِنَاءٍ عِنْدَ<sup>(١٦)</sup> سَارِقَتِهِ صَعُودًا<sup>(١٧)</sup>

[الْأَمْرُ بِالتَّصَدُّقِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا﴾ يَعْنِي مِنَ الصَّدَقَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُجَازِي عَلَى ذَلِكَ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَرَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ أَيُّ جَمِيعُ مَا تَقْدِمُوهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَهُوَ لَكُمْ حَاصِلٌ وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا أَتَيْتُمُوهُ لِأَنْفُسِكُمْ فِي الدُّنْيَا. وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِثْلُ مَنْ أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِ وَارِثِهِ قَالَ: «اعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» قَالُوا: مَا نَعْلَمُ إِلَّا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِنَّمَا مَالٌ أَحَدِكُمْ مَا

(١) الطبري: ٦٧٩/٢٣، ٦٨٠ والدر المنثور: ٣٢٢/٨ (٢) فتح الباري: ١٣٠/١، ١٣١/١

قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا آخَرُ<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٢)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ وَاسْتَغْفَرِهِ فِي أُمُورِكُمْ كُلِّهَا، فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ اسْتَغْفَرَهُ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَدْثَرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَدْثَرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ<sup>(١)</sup> قُرْ فَأَنْذِرْ<sup>(٢)</sup> وَرَبِّكَ فَكْذِرْ<sup>(٣)</sup> وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ<sup>(٤)</sup> وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ<sup>(٥)</sup> وَلَا تَنْتَنِ تَسْكَكِرْ<sup>(٦)</sup> وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ<sup>(٧)</sup> فَإِذَا نَقَرَ فِي الْغَاوِرِ<sup>(٨)</sup> فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ<sup>(٩)</sup> عَلَى الْكَافِرِينَ عَذِيرٌ سِيرٌ<sup>(١٠)</sup>﴾

[أَوَّلُ آيَاتٍ نَزَلَتْ بَعْدَ اقْرَأْ]

ثَبَّتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوُحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «فِينَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِجَاءٍ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَرَمَلُونِي. فَأَنْزَلَ [اللَّهُ تَعَالَى]: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ<sup>(١)</sup> قُرْ فَأَنْذِرْ<sup>(٢)</sup> إِلَى ﴿فَاهْجُرْ﴾ - قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَالرُّجْزُ الْأَوْتَانُ - ثُمَّ حَمِيَ الْوُحْيُ وَتَنَاعَ هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ<sup>(٣)</sup>. وَهَذَا السِّيَاقُ يَقْضِي أَنَّهُ قَدْ نَزَلَ الْوُحْيُ قَبْلَ هَذَا، لِقَوْلِهِ: «إِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِجَاءٍ». وَهُوَ جِبْرِيلُ حِينَ أَنَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ<sup>(٤)</sup> خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ<sup>(٥)</sup> اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْبَرُ<sup>(٦)</sup> الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ<sup>(٧)</sup> عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ<sup>(٨)</sup>﴾ [العلق: ١-٥] ثُمَّ إِنَّهُ حَصَلَ بَعْدَ هَذَا فِتْرَةٌ ثُمَّ نَزَلَ الْمَلَكُ بَعْدَ هَذَا.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ثُمَّ فُتِرَ الْوُحْيُ عَنِّي فِتْرَةً، فِينَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ فَرَقًا حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ:

لَهُمْ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي فَرَمَلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ<sup>(١)</sup> قُرْ فَأَنْذِرْ<sup>(٢)</sup> وَرَبِّكَ فَكْذِرْ<sup>(٣)</sup> وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ<sup>(٤)</sup> وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ<sup>(٥)</sup> ثُمَّ حَمِيَ الْوُحْيُ وَتَنَاعَ<sup>(٦)</sup>. خَرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ بِهِ<sup>(٧)</sup>. وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ صَنَعَ لِقُرَيْشٍ طَعَامًا، فَلَمَّا أَكَلُوا مِنْهُ قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَاحِرٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِسَاحِرٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَاهِنٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِكَاهِنٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: شَاعِرٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِشَاعِرٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ سِحْرٌ يُؤْتَرُ، فَأَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنَّهُ سِحْرٌ يُؤْتَرُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَحَزَنَ وَقَتَعَ رَأْسَهُ وَتَدَثَّرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ<sup>(١)</sup> قُرْ فَأَنْذِرْ<sup>(٢)</sup> وَرَبِّكَ فَكْذِرْ<sup>(٣)</sup> وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ<sup>(٤)</sup> وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ<sup>(٥)</sup> وَلَا تَنْتَنِ تَسْكَكِرْ<sup>(٦)</sup> وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ<sup>(٧)</sup> وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾ أَيْ شَمِّرْ عَنِ سَاقِ الْعَزْمِ، وَأَنْذِرِ النَّاسَ، وَبِهَذَا حَصَلَ الْإِرْسَالُ كَمَا حَصَلَ بِالْأَوَّلِ النَّبُوءَةِ. ﴿وَرَبِّكَ فَكْذِرْ﴾ أَيْ عَظَّمْ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ يَعْنِي لَا تَكُنْ ثِيَابَكَ الَّتِي تَلْبَسُ مِنْ مَكْسِبٍ غَيْرِ طَائِبٍ، وَيُقَالُ: لَا تَلْبَسْ ثِيَابَكَ عَلَى مَعْصِيَةٍ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَيْ اغْسِلْهَا بِالْمَاءِ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ لَا يَطْهَرُونَ فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَطْهَرَ وَأَنْ يُطْهَرَ ثِيَابَهُ<sup>(١٠)</sup>. وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١١)</sup>.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ وَقَلْبَكَ وَنَبْتَكَ فَطَهِّرْ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَخُلِقْتَ فَحَسِّنْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَالرُّجْزُ﴾ وَهُوَ الْأَصْنَامُ فَاهْجُرْ<sup>(١٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ: إِنَّهَا الْأَوْتَانُ<sup>(١٣)</sup>. فَكَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الاحزاب: ١] وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ

(١) مسند أبي يعلى: ٩٧/٩ (٢) فتح الباري: ١١/٢٦٤ والنسائي: ٢٣٧/٦ (٣) فتح الباري: ٦/٣٦١ ومسلم: ١/١٤٣ (٤) أحمد: ٣/٣٢٥ (٥) فتح الباري: ١/٣٧ ومسلم: ١/١٤٣ (٦) الطبراني: ١١/١٢٥ (٧) الطبري: ٢٤/١١ (٨) الطبري: ٢٤/١٢ (٩) الطبري: ٢٤/١٢ (١٠) الطبري: ٢٤/١٣ (١١) الطبري: ٢٤/١٣ (١٢) الطبري: ٢٤/١٣

الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ [الأعراف: ١٤٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْتَنُ سِتْكُزْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تُعْطِ الْعُطِيَّةَ تَلْتَمِسُ أَكْثَرَ مِنْهَا. وَقَالَ خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْتَنُ سِتْكُزْ﴾ قَالَ: لَا تَضْعُفُ أَنْ تَسْتَكْثِرَ مِنَ الْخَيْرِ، قَالَ: تَنْتَنُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: تَضْعُفُ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَامْزِرْ﴾ أَيِ اجْعَلْ صَبْرَكَ عَلَى أَذَاهُمْ لِيُوجِبَ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: إِصْبِرْ عَطِيَّتِكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٣)</sup>.

[التَّذْكِيرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ﴾<sup>(٤)</sup> فَذَلِكَ يَوْمُ يَوْمِ عَسِيرٍ<sup>(٥)</sup> عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرَ يَسِيرٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ «النَّافِرُ» الصُّورُ<sup>(٦)</sup>. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهُوَ كَهَيْئَةِ الْقُرْنِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشْجِيُّ: حَدَّثَنَا أَشْبَاطُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ عَطِيَّةِ الْعَوْفِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ﴾ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ انْقَمَ الْقُرْنُ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْشُغُ؟» فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: حَشِبْنَا اللَّهَ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَشْبَاطٍ بِهِ<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أَيُّ شَدِيدٍ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرَ يَسِيرٍ. أَيُّ غَيْرِ سَهْلٍ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى قَاضِي الْبُصْرَةِ أَنَّهُ صَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ، فَقَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ﴾<sup>(٩)</sup> فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ<sup>(١٠)</sup> عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرَ يَسِيرٍ. شَبَّهَ شَهْفَةً ثُمَّ خَرَّ مَيِّتًا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى<sup>(١١)</sup>.

﴿ذَرَى وَمَنْ خَلَقْتَ وَجِدًا﴾<sup>(١٢)</sup> وَجَعَلْتَ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا<sup>(١٣)</sup> وَبَيْنَ شُهُودًا<sup>(١٤)</sup> وَمَهْدَتْ لَهُ نَهْجِدًا<sup>(١٥)</sup> ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ<sup>(١٦)</sup> كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِنْتِنَا عَنِيدًا<sup>(١٧)</sup> سَأَهْقَهُمْ صُغُودًا<sup>(١٨)</sup> إِنَّهُ ذَكَرَ وَقَدَّرَ<sup>(١٩)</sup> فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ<sup>(٢٠)</sup> ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ<sup>(٢١)</sup> ثُمَّ نَظَرَ<sup>(٢٢)</sup> ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ<sup>(٢٣)</sup> ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ<sup>(٢٤)</sup> فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ<sup>(٢٥)</sup> إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ<sup>(٢٦)</sup> سَأَصْلِيهِ سَفَرًا<sup>(٢٧)</sup> وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ<sup>(٢٨)</sup> لَا بُدَّيْ وَلَا نَذْرٌ<sup>(٢٩)</sup> لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ<sup>(٣٠)</sup> عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشَرَ<sup>(٣١)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧٦

سُورَةُ الْمَدَّثَرِ

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٣﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٤﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٥﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٦﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٧﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٨﴾ سَأَصْلِيهِ سَفَرًا ﴿٩﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ﴿١٠﴾ وَلَا بُدَّيْ وَلَا نَذْرٌ ﴿١١﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿١٢﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشَرَ ﴿١٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا لِمَلَائِكَةٍ وَمَا جَعَلْنَا عَنْتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً ﴿١٤﴾ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرْذُرَ الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُوا وَلَا يَرْثَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ خُجُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرُ لِلْبَشَرِ ﴿١٥﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا دُبِرَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿١٨﴾ إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ ﴿١٩﴾ نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٠﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٢١﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينٌ ﴿٢٢﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٢٣﴾ فِي جَنَّتِ نِسَاءُ لَوْنٌ أَخضرٌ ﴿٢٤﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٢٦﴾ قَالُوا لَوْلَا رَبَّنَا هَذَا الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٧﴾ وَأَلْوَنَّا نُنْعَمُ الْيُسْكِينِ ﴿٢٨﴾ وَكُنَّا نَحْنُ خَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ نَكْتُبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٣٠﴾ حَقِّ أَتْنَا الْيَقِينَ ﴿٣١﴾

[تَهْدِيدُ مَنْ قَالَ: أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِهَذَا الْخَبِيثِ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِنِعَمِ الدُّنْيَا فَكَفَرَ بِأَنْعَمِ اللَّهُ وَبَدَّلَهَا كُفْرًا، وَقَابَلَهَا بِالْجُحُودِ بآيَاتِ اللَّهِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهَا، وَجَعَلَهَا مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ، وَقَدْ عَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَهُ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَرَى وَمَنْ خَلَقْتَ وَجِدًا﴾ أَيُّ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَحْدَهُ، لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، ثُمَّ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَالًا مَمْدُودًا﴾ أَيُّ وَاسِعًا كَثِيرًا وَجَعَلَ لَهُ ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَغِيْبُونَ<sup>(١)</sup>. أَيُّ حُضُورًا عِنْدَهُ لَا يُسَافِرُونَ بِالتَّجَارَاتِ بَلْ مَوَالِيَهُمْ وَأَجْرَاؤُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَهُمْ قُعُودٌ عِنْدَ آبِيهِمْ يَتَمَتَّعُ بِهِمْ وَيَتَمَلَّى بِهِمْ، وَكَانُوا فِيهَا ذَكَرَهُ السُّدِّيُّ وَأَبُو مَالِكٍ وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ كَانُوا

(١) الطبري: ١٦/٢٤ (٢) الطبري: ١٦/٢٤ (٣) البغوي: ٤/

٤١٤ (٤) الطبري: ١٨/٢٤ (٥) الطبري: ١٨/٢٤ (٦)

أحمد: ٣٢٦/١ (٧) العوفي (٧) الحاكم: ٢٠٦/٢ (٨)

البغوي: ٤١٤/٤ (٩) الدر المنثور: ٣٢٩/٨

عَشْرَةً<sup>(١)</sup>. وَهَذَا أُبْلَغَ فِي النِّعْمَةِ وَهُوَ إِقَامَتُهُمْ عِنْدَهُ. ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أَيَّ مَكْتَبَةٍ مِنْ صُنُوفِ الْمَالِ وَالْأَثَاثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿ثُمَّ يَطْعَمُ أَنْ أَزِيدَ﴾<sup>(٢)</sup> كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَانَا عِندَنَا أَيَّ مُعَايَدًا وَهُوَ الْكُفْرُ عَلَى نِعْمِهِ بَعْدَ الْعِلْمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿صَعُودًا﴾ صَخْرَةً فِي جَهَنَّمَ يُسْحَبُ عَلَيْهَا الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿صَعُودًا﴾ صَخْرَةً مَلْسَاءَ فِي جَهَنَّمَ يُكَلَّفُ أَنْ يَصْعَدَهَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا﴾ أَيَّ مَسْقَةٍ مِنَ الْعَذَابِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: عَذَابًا لَا رَاحَةَ فِيهِ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ فَكَرُوا وَمَكَرُوا﴾ أَيَّ إِنَّمَا أَرْهَفْنَاهُ صَعُودًا أَيَّ قُرْبَانَهُ مِنَ الْعَذَابِ الشَّاقِّ لِيُعْلِمَهُ عَنِ الْإِيمَانِ لِأَنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ، أَيَّ تَرَوَى مَاذَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْقُرْآنِ فَفَكَرَ مَاذَا يُخْتَلَقُ مِنَ الْمَقَالِ ﴿وَمَكَرُوا﴾ أَيَّ تَرَوَى ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا﴾<sup>(٦)</sup> ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا دُعَاءَ عَلَيْهِ ﴿ثُمَّ نَظَرُوا﴾ أَيَّ أَعَادَ النَّظْرَةَ وَالتَّرَوِيَّ ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أَيَّ قَبَضَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَطَبَ ﴿وَبَسَرَ﴾ أَيَّ كَلَحَ وَكَرِهَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَكْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أَيَّ صَرَفَ عَنِ الْحَقِّ وَرَجَعَ الْفَقْهَرَى مُسْتَكْبِرًا عَنِ الْإِنْقِيَادِ لِلْقُرْآنِ ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ أَيَّ هَذَا سِحْرٌ يُثْقَلُ مُحَمَّدٌ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ قَبْلَهُ، وَيَحْكِيهِ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ﴾ أَيَّ لَيْسَ بِكَلَامِ اللَّهِ، وَهَذَا الْمَذْكُورُ فِي هَذَا السِّيَاقِ هُوَ الْوَلِيدُ ابْنُ الْمُغِيرَةِ الْمُخْزُومِيُّ أَحَدُ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِ فِي هَذَا مَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: دَخَلَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي فُحَّافَةَ فَسَأَلَهُ عَنِ الْقُرْآنِ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ خَرَجَ عَلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ: يَا عَجَبًا لِمَا يَقُولُ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ بِشِعْرِ وَلَا بِسِحْرِ وَلَا يَهْدِي مِنَ الْجُنُونِ، وَإِنَّ قَوْلَهُ لِمَنْ كَلَامُ اللَّهِ فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ النَّفَرُ مِنْ قُرَيْشٍ اتَّخَمُوا وَقَالُوا: وَاللَّهِ لَئِنْ صَبَأَ الْوَلِيدُ لَتَضْبُو قُرَيْشٌ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: أَنَا وَاللَّهِ أَكْفَيْكُمْ شَأْنَهُ فَأَنْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ لِلْوَلِيدِ: أَلَمْ تَرِ إِلَى قَوْمِكَ قَدْ جَعَمُوا لَكَ الصَّدَقَةَ؟ فَقَالَ: أَلَسْتُ أَكْثَرَهُمْ مَالًا وَوَلَدًا؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: يَتَحَدَّثُونَ أَنَّكَ إِنَّمَا تَدْخُلُ عَلَى ابْنِ أَبِي فُحَّافَةَ لِتُصِيبَ مِنْ طَعَامِهِ، فَقَالَ الْوَلِيدُ: أَقَدْ تَحَدَّثْتَ بِهِ عَشِيرَتِي؟ فَلَا وَاللَّهِ لَا أَقْرَبُ ابْنَ أَبِي فُحَّافَةَ وَلَا عَمَرَ، وَلَا ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ، وَمَا قَوْلُهُ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ

خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَا بُدَّيَّ وَلَا نَذْرٌ﴾<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: زَعَمُوا أَنَّهُ قَالَ: وَاللَّهِ، لَقَدْ نَظَرْتُ فِيمَا قَالَ الرَّجُلُ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ بِشِعْرِ، وَإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ وَمَا يُعْلَى عَلَيْهِ، وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ سِحْرٌ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا﴾... الْآيَةُ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قَبَضَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَكَلَحَ<sup>(٨)</sup>. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرًا﴾ أَيَّ سَأُغْمِرُهُ فِيهَا مِنْ جَمِيعِ جَهَنَّمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ﴾ وَهَذَا تَهْوِيلٌ لِأَمْرِهِمَا وَتَقْصِيمٌ، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا بُدَّيَّ وَلَا نَذْرٌ﴾ أَيَّ: تَأْكُلُ لِحُومَهُمْ وَعُرُوفَهُمْ وَعَصَبَهُمْ وَجُلُودَهُمْ، ثُمَّ تُبَدِّلُ غَيْرَ ذَلِكَ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيُونَ. قَالَ ابْنُ بَرِيْدَةَ وَأَبُو سَيَانَ وَغَيْرُهُمَا<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوَاسَّةٌ لِلْبَشَرِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيَّ لِلْجِلْدِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿لَوَاسَّةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أَيَّ: حَرَّاقَةٌ لِلْجِلْدِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تُحَرِّقُ بَشَرَةَ الْإِنْسَانِ<sup>(١١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا نِسْعَةٌ عَشْرٌ﴾ أَيَّ: مِنْ مُقَدِّمِي الزَّيَّاتِ عَظِيمٌ خَلَقَهُمْ غَلِيظَ خُلُقَهُمْ.

﴿وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلَكًا وَبَرَدًا﴾ وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيحَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَبَرَدًا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا وَلَا بَرَنَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ<sup>(١٢)</sup> كَلَّا وَالْقَمَرِ<sup>(١٣)</sup> وَالْأَيْلِ إِذْ أَذْبَرَ<sup>(١٤)</sup> وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ<sup>(١٥)</sup> إِنَّمَا يَلْمِزُ الْكَاذِبُ<sup>(١٦)</sup> نَذِيرًا لِلْبَشَرِ<sup>(١٧)</sup> لِمَن شَاءَ مَكْرًا أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ يَتَلَخَّرَ<sup>(١٨)</sup>

[عَدَدُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ وَمَا قَالَ الْكَافَرُ حَوْلَ ذَلِكَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا خَزَانَهَا﴾ وَلَا مَلَكًا<sup>(١٩)</sup> زَيَّاتِيَّةً غَلَاظًا شِدَادًا، وَذَلِكَ رَدٌّ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ حِينَ ذَكَرَ عَدَدُ الْخَزَنَةِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا يَسْتَطِيعُ كُلُّ عَشْرَةٍ مِنْكُمْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَتَغْلِبُونَهُمْ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا النَّارَ إِلَّا مَلَكًا﴾ أَيَّ: شِدِيدِي الْحَلْقِ لَا يَقَاوِمُونَ وَلَا يُعَايُونَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ أَبَا الْأَشَدِّينَ وَاسْمَهُ كَلْدَةُ بْنُ أَسِيدٍ بْنُ خَلْفٍ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَكْثَرُونِي مِنْهُمْ اثْنَيْنِ وَأَنَا أَكْفَيْكُمْ مِنْهُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ؛ إِعْجَابًا

(١) الطبري: ٢١/٢٤ (٢) الدر المنثور: ٣٣١/٨ (٣)

الطبري: ٢٣/٢٤ (٤) الطبري: ٢٣/٢٤ (٥) الطبري: ٢٤/

٢٤ (٦) الطبري: ٢٥/٢٤ (٧) الدر المنثور: ٣٣٢/٨ (٨)

الطبري: ٢٧/٢٤ (٩) الطبري: ٢٨/٢٤

مِنْهُ بِنَفْسِهِ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْقُوَّةِ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ عَلَى جِلْدِ الْبَقَرَةِ وَيَجَادِبُهُ عَشْرَةَ لَيِّنِزَعُوهُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ فَيَتَمَرَّقُ الْجِلْدُ وَلَا يَتَزَحْزَحُ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ: إِنَّمَا ذَكَّرْنَا عَدَتَهُمْ أَنَّهُمْ تِسْعَةُ عَشْرَ، إِنْخِبَارًا مِنَّا لِلنَّاسِ لِيَسْتَفِيحُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَيْ: يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّسُولَ حَقٌّ، فَإِنَّهُ نَطَقَ بِمُطَابَقَةٍ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيَّانَا﴾ أَيْ: إِلَى إِيْمَانِهِمْ [أَيْ]: بِمَا يَشْهَدُونَ مِنْ صِدْقِ إِنْخِبَارِ نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَلَا يَرْجَبُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُتُؤَمِّنُونَ وَلَيَقُولَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرْءٌ﴾ أَيْ: مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أَيْ: يَقُولُونَ مَا الْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ هَذَا هُنَا؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ: مِنْ مِثْلِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ يَتَأَكَّدُ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِ أَقْوَامٍ وَيَتَزَلْزَلُ عِنْدَ آخَرِينَ. وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ.

[لَا يَعْلَمُ جُنُودَ اللَّهِ إِلَّا هُوَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ: مَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ وَكَثْرَتَهُمْ إِلَّا هُوَ تَعَالَى؛ لِئَلَّا يَتَوَهَّمُ مَوْتَهُمْ أَنَّهُمْ تِسْعَةُ عَشْرٍ فَقَطْ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ الْمَرْوِيِّ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي صِفَةِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الَّذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: «فَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَّا ذِكْرُنَا لِلنَّاسِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: ﴿وَمَا مِنْ﴾ أَيْ: النَّارُ الَّتِي وُصِفَتْ<sup>(٢)</sup> ﴿إِلَّا وَذِكْرُنَا لِلنَّاسِ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾<sup>(٣)</sup> وَالْيَلِّ إِذْ أَذْبَرَ﴾ أَيْ: وَلَى ﴿وَالصَّبْحِ إِذَا أَشْرَقَ﴾ أَيْ: أَشْرَقَ ﴿إِنَّمَا لَإِخْدَى الْكَفَرِ﴾ أَيْ: الْعِظَائِمِ يَغْنِي النَّارَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ<sup>(٤)</sup>. ﴿كَذِبًا لِلنَّاسِ﴾ لِمَنْ شَاءَ يَنْكُرُ أَنْ يَقْتَمَ أَوْ يَنْتَهَرَ﴾ أَيْ: لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَقْبَلَ التَّدَارَةَ وَيَهْتَدِيَ لِلْحَقِّ أَوْ يَتَأَخَّرَ عَنْهَا وَيُؤَلِّي وَيُرَدِّهَا.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾<sup>(٥)</sup> إِلَّا أَصْحَابَ الْبَيْتِ<sup>(٦)</sup> فِي جَنَّةٍ يَسَاءَلُونَ<sup>(٧)</sup> عَنِ الْمُجْرِمِينَ<sup>(٨)</sup> مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ<sup>(٩)</sup> قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصْلِينَ<sup>(١٠)</sup> وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِقِينَ<sup>(١١)</sup> وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَاطِئِينَ<sup>(١٢)</sup> وَكَذَلِكَ نَبَيُّوهُمُ الَّذِينَ<sup>(١٣)</sup> حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ<sup>(١٤)</sup> فَما

سُورَةُ الْقِيَمَةِ ٥٧٧  
 سُورَةُ الْقِيَمَةِ  
 فَما نَعْمُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ<sup>(١٨)</sup> فَما لَهُمْ عَنِ التَّذِكُّرَةِ مُعْرِضِينَ<sup>(١٩)</sup> كَانَهُمْ حُمْرٌ مُتَسَنَّفِرَةٌ<sup>(٢٠)</sup> فَتَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ<sup>(٢١)</sup> بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً<sup>(٢٢)</sup> كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ<sup>(٢٣)</sup> كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ<sup>(٢٤)</sup> فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ<sup>(٢٥)</sup> وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْغَفْوَةِ<sup>(٢٦)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ<sup>(١)</sup> وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ<sup>(٢)</sup> أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ يَجْمَعَ عَظَامُهُ<sup>(٣)</sup> بَلْ يَدْرِي بَلَدَيْنِ عَلَى أَنْ سُويَ بَنَانُهُ<sup>(٤)</sup> بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ<sup>(٥)</sup> يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ<sup>(٦)</sup> فَإِذَا رَأَى الْبَصُرَ<sup>(٧)</sup> وَخَسَفَ الْقَمَرُ<sup>(٨)</sup> وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ<sup>(٩)</sup> يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ<sup>(١٠)</sup> كَلَّا لَا وَزَرَ<sup>(١١)</sup> إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ<sup>(١٢)</sup> يَبْتَغُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ<sup>(١٣)</sup> بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ<sup>(١٤)</sup> وَلَوْ لَقِيَ مَعَاذِرَهُ<sup>(١٥)</sup> لَا تَحْجِرْكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ<sup>(١٦)</sup> إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ<sup>(١٧)</sup> فَإِذَا قُرْءَانُهُ فَالْتَمَعُ قُرْءَانَهُ<sup>(١٨)</sup> ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانَهُ<sup>(١٩)</sup>

لَنَعْمُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ<sup>(١٨)</sup> فَما لَهُمْ عَنِ التَّذِكُّرَةِ مُعْرِضِينَ<sup>(١٩)</sup> كَانَهُمْ حُمْرٌ مُتَسَنَّفِرَةٌ<sup>(٢٠)</sup> فَتَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ<sup>(٢١)</sup> بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً<sup>(٢٢)</sup> كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ<sup>(٢٣)</sup> كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ<sup>(٢٤)</sup> فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ<sup>(٢٥)</sup> وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْغَفْوَةِ<sup>(٢٦)</sup>

[مَا يَدُورُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنَ الْحَوَارِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ أَيْ: مَعْتَقَلَةٌ بِعَمَلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ<sup>(١)</sup>. ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْبَيْتِ﴾ فَإِنَّهُمْ ﴿فِي جَنَّةٍ يَسَاءَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> عَنِ الْمُجْرِمِينَ<sup>(٣)</sup> أَيْ: يَسْأَلُونَ الْمُجْرِمِينَ وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ وَأُولَئِكَ فِي الدَّرَكَاتِ قَائِلِينَ لَهُمْ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾<sup>(٤)</sup> قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصْلِينَ<sup>(٥)</sup> وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِقِينَ<sup>(٦)</sup> أَيْ: مَا عَبَدْنَا رَبَّنَا وَلَا أَحْسَنَّا إِلَى خَلْقِهِ مِنْ جَنِينَا ﴿وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾

(١) فتح الباري: ٣٤٨/٦، ومسلم: ١٤٦/١ (٢) الطبري: ٢٤/٢٤

٣٢ (٣) الطبري: ٣٣/٢٤ (٤) الطبري: ٣٥/٢٤



## تفسير سورة القيامة وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ (٢) اَيْحَسِبُ  
الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْعَ عِظَامُهُ (٣) بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ سُئِيَ بَنَانُهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ  
الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ أَتَى يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٦) فَإِذَا رَفَى الْقَمَرُ (٧)  
وَحَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجَمَعَ النَّفْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ  
الْقَمَرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يَبْنُو الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ  
بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى  
مَكَاوِيرَهُ (١٥)

[الْقَسَمُ عَلَى وَفُوعِ الْمَعَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالرَّدُّ عَلَى حِيلِ  
الْمُتَحَابِلِينَ]

قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مُتَنَبِّهًا جَارَ  
الْإِثْبَاتِ «بَلَا» قَبْلَ الْقَسَمِ لَتَأْكِيدِ النَّفْيِ. وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ هَهُنَا  
هُوَ إِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَالرَّدُّ عَلَى مَا يُزْعِمُهُ الْجَهْلَةُ مِنَ الْعِبَادِ مِنْ  
عَدَمِ بَعْثِ الْأَجْسَادِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ  
الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴿وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلَى أَقْسَمُ  
بِهِمَا جَمِيعًا﴾ (٨). وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ  
جُبَيْرٍ (٩). فَأَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَعْرُوفٌ، وَأَمَّا النَّفْسُ اللَّوَامَةُ  
فَقَالَ قُرَّةُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ  
الْمُؤْمِنَ وَاللَّهِ مَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ. مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟ مَا  
أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَا أَرَدْتُ بِحَدِيثِ نَفْسِي... وَإِنَّ الْفَاجِرَ  
يَمْضِي قُدَمَا قُدَمَا مَا يُعَابِتُ نَفْسَهُ (١٠). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ  
سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ قَالَ:  
تَلُومٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَنَحْوُهُ عَنْ عِكْرِمَةَ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ  
أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: تَنْدُمُ عَلَى مَا فَاتَ وَتَلُومُ  
عَلَيْهِ (١١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْعَ عِظَامَهُ﴾ أَيْ: يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ؟ أَيُظَنُّ أَنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى إِعَادَةِ عِظَامِهِ وَجَمْعِهَا مِنْ

أَي: تَنَكَّلُمُ فِيمَا لَا نَعْلَمُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كُلَّمَا غَوَى غَاوٍ  
غَوَيْنَا مَعَهُ (١). ﴿وَكَلَّا تَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (٢) حَتَّى آتَنَّا الْيَقِينَ ﴿يَعْنِي الْمَوْتَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ  
الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هُوَ -  
يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ مَطْعُونٍ - فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ» (٣).  
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أَيْ: مَنْ كَانَ  
مُتَّصِفًا بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةُ  
شَافِعٍ فِيهِ؛ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ إِنَّمَا تَنْجَعُ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا،  
فَأَمَّا مَنْ وَافَى اللَّهَ كَافِرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُ لَهُ النَّارُ لَا مَحَالَةَ  
خَالِدًا فِيهَا.

[النَّكْبَرُ عَلَى إِعْرَاضِ الْكُفَّارِ وَمَوْقِفِهِمْ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَمْ يَنْ تَذَكَّرْ مُعْرِضِينَ﴾ أَيْ: فَمَا  
لَهُؤُلَاءِ الْكَفَرَةُ الَّذِينَ قَبْلَكَ عَمَّا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتَذَكَّرْهُمْ بِهِ  
مُعْرِضِينَ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ أَيْ:  
كَأَنَّهُمْ فِي نَفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ حُمُرٌ مِنْ حُمُرِ  
الْوَحْشِ إِذَا فَرَّتْ مِنْ يَمَنٍ يُرِيدُ صَيْدَهَا مِنْ أَسَدٍ. قَالَ أَبُو  
هُرَيْرَةَ (٦). وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ  
يُوسُفَ بْنِ [مِهْرَانَ]، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأَسَدُ بِالْعَرَبِيَّةِ.  
وَيُقَالُ لَهُ بِالْحَبَشِيَّةِ: قَسْوَرَةٌ، وَبِالْفَارِسِيَّةِ: شَيْرٌ، وَبِالْبَطْنِيَّةِ  
أَوْبَا (٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا  
مُنَشَّرَةً﴾ أَيْ: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ  
يُنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ كَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ  
وغيره (٥). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ  
حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ  
رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ قَتَادَةَ: يُرِيدُونَ أَنْ  
يُؤْتُوا بَرَاءَةً بِغَيْرِ عَمَلٍ (٦). فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يُخَافُونَ  
الْآخِرَةَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَفْسَدَهُمْ عَدَمُ إِيْمَانِهِمْ بِهَا، وَتَكْذِيبُهُمْ  
بُوقُوعَهَا.

[الْقُرْآنُ تَذَكُّرٌ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ تَذَكَّرُوا﴾ أَيْ: حَقًّا إِنَّ الْقُرْآنَ  
تَذَكُّرَةٌ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ (١٠) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ  
أَهْلُ الْفَتْرِ وَأَهْلُ الْخَيْرِ﴾ أَيْ: هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُخَافَ مِنْهُ، وَهُوَ  
أَهْلٌ أَنْ يُغْفَرَ ذَنْبُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ. قَالَهُ قَتَادَةُ (٧).  
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَدَّثَرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(١) الطبري: ٣٧/٢٤ (٢) البيهقي: ٤٠٦/٣ (٣) الطبري: ٤٢/٢٤  
(٤) الطبري: ٤٢/٢٤ إسناده ضعيف علي بن زيد بن  
جدعان ضعيف كما مر (٥) القرطبي: ٩٠/١٩ (٦) الطبري: ٤٣/٢٤  
(٧) الطبري: ٤٤/٢٤ (٨) الطبري: ٤٨/٢٤ (٩)  
الدر المنثور: ٤٧/٨ والقرطبي: ٩١/١٩ (١٠) القرطبي: ١٩/٩٣  
(١١) الطبري: ٥٠/٢٤

الْمُنْتَفِرُ أَي: الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ.

[أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ تَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنَؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أَي: يُخْبِرُ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِ قَلْبُهَا وَحَدِيثِهَا، أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُكُوعًا﴾ [الكهف: ٤٩] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرُهُ أَي: هُوَ شَهِيدٌ عَلَى نَفْسِهِ عَالِمٌ بِمَا فَعَلَهُ وَلَوْ اعْتَذَرَ وَأَنْكَرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ يَقُولُ: سَمِعُهُ وَبَصَرُهُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ وَجَوَارِحُهُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: شَاهِدٌ عَلَى نَفْسِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: إِذَا شِئْتَ وَاللَّهِ رَأَيْتُهُ بَصِيرًا يُعْيِيبُ النَّاسَ وَذُنُوبَهُمْ غَافِلًا عَنْ ذُنُوبِهِ. وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّ فِي الْإِنْجِيلِ مَكْتُوبًا: يَا ابْنَ آدَمَ تَبَصَّرْ الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَتَرُكُ الْجَلْعَ فِي عَيْنِكَ لَا تَبْصُرُهُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرُهُ﴾ وَلَوْ جَادَلَ عَنْهَا فَهُوَ بَصِيرٌ عَلَيْهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرُهُ﴾ وَلَوْ اعْتَذَرَ يَوْمَئِذٍ يَبْطُلُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرُهُ﴾ حُجَّتُهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ لِمَ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [المجادلة: ١٨] وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرُهُ﴾ هِيَ الْأَعْتِدَارُ، أَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢] وَقَالَ: ﴿وَأَلْفُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ [النحل: ٨٧] ﴿فَأَلْفُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٢٨] وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]<sup>(٥)</sup>.

﴿لَا تُحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعَجَّلَ بِهِ﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ<sup>(٦)</sup> فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْبَاقِ قُرْآنَهُ<sup>(٧)</sup> ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ<sup>(٨)</sup> كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْفَاحِشَةَ<sup>(٩)</sup> وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ<sup>(١٠)</sup> وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ<sup>(١١)</sup> إِلَىٰ ذِكْرِهَا نَاطِقَةٌ<sup>(١٢)</sup> وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَايِسَةٌ<sup>(١٣)</sup> تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرَةٌ<sup>(١٤)</sup>

[تَعْلِيمٌ تَلْقَى الْوَحْيَ]

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي كَيْفِيَّةِ تَلْقَائِهِ

أَمَا كَيْفَ الْمُتَمَرِّقَةِ؟ ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّىَ بَنَانَهُ﴾ أَي: أَيْطَلُ الْإِنْسَانُ أَنَّا لَا نَجْمَعُ عِظَامَهُ؟ بَلَى سَنَجْمَعُهَا قَادِرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوِّىَ بَنَانَهُ أَي: قُدْرَتُنَا صَالِحَةٌ لِجَمْعِهَا، وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَاهُ أَرْيَدَ مِمَّا كَانَ فَتَجْعَلُ بَنَانَهُ -وَهِيَ أَطْرَافُ أَصَابِعِهِ- مُسْتَوِيَةً، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يَعْنِي الْأَمَلَ. يَقُولُ الْإِنْسَانُ: أَعْمَلْتُ ثُمَّ أَتُوبُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ هُوَ الْكُفْرُ بِالْحَقِّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ. قَالَ سَعِيدٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي يَضْمِي قُدَمًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ لِيَمْضِيَ أَمَامَهُ رَاكِبًا رَأْسَهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الْكَافِرُ يَكْذِبُ يَوْمَ الْحِسَابِ<sup>(١)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ<sup>(٢)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَي: يَقُولُ: مَتَى يَكُونُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؟ وَإِنَّمَا سُؤَالُهُ سُؤَالُ اسْتِيعَادٍ لِقُوعِهِ وَتَكْذِيبٍ لَوْجُودِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعْرِضُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ [سبا: ٢٩، ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّمَا يَرَى النَّفَرُ﴾ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو بُنُ الْعَلَاءِ ﴿يَرَى﴾ بِكَسْرِ الرَّاءِ أَي: حَارَ. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ شَيْبَةُ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَرِيدُ إِلَيْهِمْ طَرَفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٤] أَي: بَلْ يَنْظُرُونَ مِنَ الْفَرَجِ هَكَذَا وَهَكَذَا لَا يَسْتَقِرُّ لَهُمْ بَصَرٌ عَلَى شَيْءٍ مِنَ شِدَّةِ الرُّعْبِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ: (بَرَقَ) بِالْفَتْحِ، وَهُوَ قَرِيبٌ فِي الْمَعْنَى مِنَ الْأَوَّلِ، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْأَبْصَارَ تَنْبَهَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَخْشَعُ وَتَحَارُ وَتَذِلُّ مِنْ شِدَّةِ الْأَهْوَالِ وَمِنْ عِظَمِ مَا تُشَاهِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأُمُورِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحُصِفَ الْقَرُورُ﴾ أَي: ذَهَبَ ضَوْؤُهُ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ قَالَ مُجَاهِدٌ: كُورًا<sup>(٣)</sup>. وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ [التكوير: ٢٠، ٢١] وَرَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَ: (وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنِّي لَمَكْرُومٌ﴾ أَي: إِذَا عَايَنَ ابْنُ آدَمَ هَذِهِ الْأَهْوَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَئِذٍ يُرِيدُ أَنْ يَقِرَّ وَيَقُولَ: أَأَيْنَ الْمَقْرُومِ؟ أَي: هَلْ مِنْ مَلْجَأٍ أَوْ مَوْئِلٍ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَفِرُ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَي: لَا نَجَاةَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أَي: لَيْسَ لَكُمْ مَكَانٌ تَتَكَبَّرُونَ فِيهِ، وَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لَا وَزَرَ﴾ أَي: لَيْسَ لَكُمْ مَكَانٌ تَعْتَصِمُونَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

(١) الطبري: ٥٤/٢٤ (٢) الطبري: ٥٤/٢٤ (٣) الطبري:

٥٧/٢٤ (٤) الطبري: ٦٢/٢٤ (٥) الطبري: ٦٤/٢٤ (٦)

الطبري: ٦٥/٢٤ (٧) الطبري: ٦٤/٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧٨

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١٦﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿١٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿١٨﴾  
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿١٩﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٠﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢١﴾  
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّارَاقِي ﴿٢٢﴾ وَقِيلَ مِنْ رَأَيْكَ ﴿٢٣﴾ وَظُنُّ أَنْهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٤﴾ وَالنَّفْسُ  
السَّاقِي بِالسَّاقِ ﴿٢٥﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ ﴿٢٦﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَٰى  
﴿٢٧﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٢٩﴾ أُولَٰئِكَ  
فَأُولَٰئِكَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ ﴿٣١﴾ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٢﴾  
أَلَمْ يَكُنْ نَفْسُهُ مِنْ صَبِيءٍ ﴿٣٣﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَلَقٍ فَسَوَىٰ ﴿٣٤﴾ فَعَمِلَ مِنْهُ  
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدَرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٣٦﴾

## سُورَةُ الْإِنشِرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾  
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا  
بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾  
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ  
الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

وَجَلَّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ مِنْ طُرُقٍ  
مُّتَوَاتِرَةٍ عِنْدَ أَيْمَةِ الْحَدِيثِ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهَا وَلَا مَنَعُهَا،  
كَحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ  
نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ تَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟  
فَقَالَ: «هَلْ تُضَاوُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا  
سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ  
كَذَلِكَ»<sup>(١)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَبْرِ، قَالَ: نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ  
هَذَا الْقَمَرَ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ  
طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا قَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»<sup>(٢)</sup>. وَفِي أَفْرَادٍ  
مُسْلِمٍ عَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ

الْوَحْيِ مِنَ الْمَلِكِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُبَادِرُ إِلَىٰ أَخْذِهِ وَيُسَاقُ  
الْمَلِكُ فِي قِرَاءَتِهِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا جَاءَهُ الْمَلِكُ  
بِالْوَحْيِ أَنْ يَسْتَمِعَ لَهُ، وَتَكْفَلَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَجْمَعَهُ فِي صَدْرِهِ،  
وَأَنْ يُبَيِّنَهُ لِأَدَائِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَلْفَاهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبَيِّنَهُ لَهُ  
وَيُفَسِّرَهُ وَيُوضِّحَهُ. فَالْحَالَةُ الْأُولَى جَمْعُهُ فِي صَدْرِهِ،  
وَالثَّانِيَةُ تِلَاوَتُهُ، وَالثَّلَاثَةُ تَفْسِيرُهُ وَإِبْصَاحُ مَعْنَاهُ. وَلِهَذَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَاجِلَ بِهِ﴾ أَيْ: بِالْقُرْآنِ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ  
وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا  
عَلَيْنَا جَمْعُهُ﴾ أَيْ: فِي صَدْرِكَ ﴿وَوُضِّعَتْهُ﴾ أَيْ: أَنْ تَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا  
قَرَأْتَهُ﴾ أَيْ: إِذَا تَلَاهُ عَلَيْكَ الْمَلِكُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّيَّ  
قُرْآنُهُ﴾ أَيْ: فَاسْتَمِعَ لَهُ ثُمَّ اقْرَأَهُ كَمَا أَقْرَأَكَ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا  
بَيَانَهُ﴾ أَيْ: بَعْدَ حِفْظِهِ وَتِلَاوَتِهِ نُبَيِّنُهُ لَكَ وَنُوضِّحُهُ  
وَنُلْهِمُكَ مَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَدْنَا وَشَرَعْنَا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ  
شِدَّةً، فَكَانَ يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ قَالَ: فَقَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَا  
أَحْرَكُ شَفْتَيْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ، وَقَالَ  
لِي سَعِيدٌ: وَأَنَا أَحْرَكُ شَفْتَيْ كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُ  
شَفْتَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمَاجِلَ بِهِ﴾  
إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَوُضِّعَتْهُ قَالَ: جَمْعُهُ فِي صَدْرِكَ ثُمَّ تَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا  
قَرَأْتَهُ فَاتَّيَّ قُرْآنُهُ﴾ أَيْ: فَاسْتَمِعَ لَهُ وَأَنْصَتَ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا  
بَيَانَهُ﴾ فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا انْطَلَقَ جَبْرِيلُ قَرَأَهُ كَمَا أَقْرَأَهُ<sup>(٣)</sup>.  
وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ. وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ: فَكَانَ إِذَا أَنَا  
جَبْرِيلُ أَطْرُقُ، فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٤)</sup>.

[سَبَبُ تَكْدِيبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُبُّ الدُّنْيَا وَالْعَفْلَةُ عَنِ

الْآخِرَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿١٦﴾ أَيْ:  
إِنَّمَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّكْدِيبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمُخَالَفَةِ مَا أَنْزَلَهُ  
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ  
الْعَظِيمِ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا هَمَّتْهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ وَهُمْ  
لَاهُونَ مُتَشَاغِلُونَ عَنِ الْآخِرَةِ.

[رُؤْيَا اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ مِنَ النَّصَارَةِ أَيْ:  
حَسَنَةُ بَهِيَّةٌ مُشْرِقَةٌ مُسْرُورَةٌ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أَيْ: تَرَاهُ عَيْنَانَا  
كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي صَحِيحِهِ «إِنَّكُمْ  
سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيْنَانَا»<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ ثَبَّتَتْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ عَزَّ

(١) أحمد: ٣٤٣/١ (٢) فتح الباري: ٣٩/١ و ٥٤٧/٨ و ٥٤٩ و ٥٥٠  
٥٥٠ و ٧٠٧ و ١٣/٥٠٨ و مسلم: ٣٣٠/١ (٣) فتح الباري:  
٤٣٠/١ (٤) فتح الباري: ٤٣٠/١٣ و ٤٣١ و مسلم: ١/١  
١٦٧ و ١٦٣ (٥) فتح الباري: ٤٢٩/١٣ و مسلم: ٤٢٩/١

## [يَحْضُلُ الْيَقِينُ عِنْدَ الْاِخْتِصَارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالَةِ الْاِخْتِصَارِ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ الْاَهْوَالِ - تَبَيَّنَا اللَّهُ هُنَاكَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ الْقُرْآنَ﴾ إِنَّ جَعَلْنَا كَلَّا رَادِعَةً فَمَعْنَاهَا: لَسْتُ يَا ابْنِ آدَمَ، هُنَاكَ تُكْذِبُ بِمَا أُخْبِرْتُ بِهِ، بَلْ صَارَ ذَلِكَ عِنْدَكَ عِبَانًا. وَإِنْ جَعَلْنَاهَا بِمَعْنَى: حَقًّا فَظَاهِرٌ، أَيْ: حَقًّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ الْقُرْآنَ أَيْ: انْتَزَعَتْ رُوحَكَ مِنْ جَسَدِكَ وَبَلَغَتْ تَرَاقِيكَ، وَالتَّرَاقِي جَمْعُ تَرَقُّوةٍ، وَهِيَ الْعِظَامُ الَّتِي بَيْنَ ثُغْرَةِ النُّحْرِ وَالْعَاتِقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ وَأَنْتَ حِينُذِ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْكُمْ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿الواقعة: ٨٣-٨٧﴾ وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ الْقُرْآنَ﴾ يَقُولُ مَنْ رَأَى ﴿وَقِيلَ مَنْ رَأَى﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ مِنْ رَأَى يَرْفِي ﴿٦﴾. وَكَذَا قَالَ أَبُو فَلَانَةَ: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَأَى﴾ أَيْ: مِنْ طَيِّبٍ شَافٍ ﴿٧﴾. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ ﴿٨﴾. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَاللَّفَّتِ النَّاسُ بِالنَّاسِ﴾ يَقُولُ آخِرَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ، فَتَلْقَى الشَّدَّةُ بِالشَّدَّةِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿٩﴾. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ﴿وَاللَّفَّتِ النَّاسُ بِالنَّاسِ﴾ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ بِالْأَمْرِ الْعَظِيمِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بَلَاءٌ بِلَاءً. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّفَّتِ النَّاسُ بِالنَّاسِ﴾ هُمَا سَافَاكَ إِذَا التَفَتَا ﴿١٠﴾. وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: مَاتَتْ رَجُلًا فَلَمْ تَحْمِلْهُ وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمَا جَوَالًا ﴿١١﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ النَّفْسُ﴾ أَيْ: الْمَرْجِعُ وَالْمَأْتِ، وَذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ تَرْفَعُ إِلَى السَّمَوَاتِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: رُدُّوا عِبْدِي إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ الطَّوِيلِ ﴿١٢﴾. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿الأنعام: ٦١، ٦٢﴾.

الْحَنَّةُ الْحَنَّةُ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تَبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْحَنَّةَ وَتُخْرِجْنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْثِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿١﴾. وَفِي أَفْرَادٍ مُّسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ فِي حَدِيثِهِ: «إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ بِضَحْكٍ» ﴿٢﴾. يَعْني: فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْعَرَصَاتِ، وَفِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ. وَلَوْلَا خَشْيَةُ الْإِطَالَةِ لَأُورِدْنَا الْأَحَادِيثَ بِطَرَفِهَا وَأَلْفَاطِهَا مِنْ الصَّحَاحِ وَالْحِسَانِ وَالْمُسَانِيدِ وَالسَّنَنِ، وَلَكِنْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ مُفَرَّقًا فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ. وَهَذَا بِحَمْدِ اللَّهِ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ وَهَذِهِ الْأَنَامِ.

## [تَسْوَدُ وَجُوهُ الْعُصَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿٤٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يَقُولَ بِهَا قَاوِرَةٌ هَذِهِ وَجُوهُ الْفَجَّارِ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَاسِرَةً. قَالَ قَتَادَةُ: كَالِحَةً ﴿٣﴾. وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَغَيَّرَ أَلْوَانُهَا ﴿٤﴾. «تَظُنُّ» أَيْ: تَسْتَيْقِنُ «أَنْ يَقُولَ بِهَا قَاوِرَةٌ» قَالَ مُجَاهِدٌ: ذَاهِيَةٌ ﴿٥﴾. وَقَالَ قَتَادَةُ: شَرٌّ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: تَسْتَيْقِنُ أَنَّهَا هَالِكَةٌ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: تَظُنُّ أَنَّ سَدَّخُلَ النَّارِ، وَهَذَا الْمَقَامُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ﴿٢٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّشْتَبِرَةٌ ﴿٣٦﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَيْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَرَّةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ [عبس: ٣٨-٤٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خُشِعَةٌ﴾ ﴿١٠٠﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿١٠١﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿١٠٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿١٠٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿١٠٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-١٠] فِي أَشْبَاهِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالسِّيَاقَاتِ.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ الْقُرْآنَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَأَى ﴿٦٧﴾ وَظَنَّ أَنَّ اللَّهَ الْفَرَّاقُ ﴿٦٨﴾ وَاللَّفَّتِ النَّاسُ بِالنَّاسِ ﴿٦٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ النَّفْسُ ﴿٧٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٧١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٧٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمْتَطِي ﴿٧٣﴾ أَوَّلَ لَكَ قَاوِرٌ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ أَوَّلَ لَكَ قَاوِرٌ ﴿٧٥﴾ ائْتَسَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرْكَبَ سُدًى ﴿٧٦﴾ أَلَمْ يَكُ نَفْطَةً مِنْ مَّيِّ يَمْنَىٰ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٧٨﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ الْوَجْدَيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٧٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ الْوَلَدَ ﴿٨٠﴾

(١) مسلم: ١٦٣/١ (٢) مسلم: ١٧٨/١ (٣) الطبري: ٢٤/٧٤ (٤) القرطبي: ١١٠/١٩ (٥) الطبري: ٧٤/٢٤ (٦) الطبري: ٧٥/٢٤ (٧) الطبري: ٧٥/٢٤ (٨) الطبري: ٧٨/٢٤ (٩) الطبري: ٧٦/٢٤ (١٠) الطبري: ٧٨/٢٤ (١١) القرطبي: ١١٢/١٩ (١٢) الطوال للطبراني: ٢٣٨

## [ذِكْرُ حَالِ الْمُكَذِّبِ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿هَذَا إِجْبَارٌ عَنِ الْكَافِرِ الَّذِي كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُكَذِّبًا لِلْحَقِّ بِقَلْبِهِ مُتَوَلِّيًا عَنِ الْعَمَلِ بِقَالِيهِ، فَلَا خَيْرَ فِيهِ بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣٢) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (٣٣) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿أَيُّ: جَذَلَانٌ أَشِيرًا بَطِرًا كَسَلَانٌ لَا هِمَّةَ لَهُ وَلَا عَمَلَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَنْفَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ أَنْفَلُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِمْ مُسْرُولًا﴾ (٣٤) إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ ﴿أَيُّ يَرْجِعُ﴾ (٣٥) إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٣-١٥] وَقَالَ الصَّحَّاحُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أَيُّ: يَخْتَالُ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: يَتَمَتَّعُ<sup>(٢)</sup>. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ فَالُوكِ الْغُلُوكِ﴾ ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكِ ﴿وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَافِرِ بِهِ، الْمُتَبَخِّخِرِ فِي مَشْيِهِ أَيُّ يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَمْشِيَ هَكَذَا، وَقَدْ كَفَرْتَ بِخَالِقِكَ وَبَارِئِكَ؟ كَمَا يُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّهْكُمِ وَالتَّهْدِيدِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَشَرِبُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ [الزمر: ١٥] وَكَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَّالُهُ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَرَوَى أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَوَلَيْكَ فَالُوكِ الْغُلُوكِ﴾ (٣٤) ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي جَهْلٍ ثُمَّ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٣)</sup>. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَيْكَ فَالُوكِ الْغُلُوكِ﴾ (٣٤) ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكِ ﴿وَعِيدٌ عَلَى أَثَرِ وَعِيدٍ كَمَا تَسْمَعُونَ، وَزَعَمُوا أَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ أَبَا جَهْلٍ، أَخَذَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ بِمَجَامِعِ يَتَابِيهِ ثُمَّ قَالَ: «أَوَلَيْكَ فَالُوكِ، ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكِ» فَقَالَ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ: أَنْتَ عَدُوُّنِي يَا مُحَمَّدٌ؟ وَاللَّهِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلَا رَبُّكَ شَيْئًا، وَإِنِّي لَأَعَزُّ مِنْ مَسَى بَيْنَ جَبَانِيهَا.

## [لَا يَتْرُكُ الْإِنْسَانُ هَمَلًا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرُكَ سُؤْيَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي: لَا يَتَّعِثُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّافِعِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: يَعْنِي لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى. وَالظَّاهِرُ: أَنَّ الْآيَةَ تَعْمُ الْحَالَيْنِ أَيُّ: لَيْسَ يَتْرُكُ فِي هَذِهِ

الدُّنْيَا مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى، وَلَا يَتْرُكُ فِي قَبْرِهِ سُؤْيَ لَا يَتَّعِثُ، بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، مَحْشُورٌ إِلَى اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا: إِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَالرُّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الرِّبْعِ وَالْجَهْلِ وَالْعِنَادِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُسْتَدِلًّا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْبُدْءَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ تُطْفَئُ مِنْ مَنِيِّ يَتْنَى﴾ أَيُّ: أَمَا كَانَ الْإِنْسَانُ تُطْفَئُ ضَعِيفَةً مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿يَتْنَى﴾: يُرَاقُ مِنَ الْأَصْلَابِ فِي الْأَرْحَامِ.

﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَطَلَقَ سَوًى﴾ أَيُّ: فَصَارَ عِلْقَةً ثُمَّ مُضَعَّةً، ثُمَّ شَكْلٌ وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ فَصَارَ خَلْقًا آخَرَ سَوًى سَلِيمَ الْأَعْضَاءِ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَجْعَلُ مِنْهُ الِزْوَاجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيْنَا أَنْ يُجِئَ الْمَوْتُ﴾ أَيُّ: أَمَا هَذَا الَّذِي أَنْشَأَ هَذَا الْخَلْقَ السَّوِيَّ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ الضَّعِيفَةِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ؟! وَتَتَأَوَّلُ الْقُدْرَةَ لِلْإِعَادَةِ إِمَّا بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى بِالنَّسَبَةِ إِلَى الْبُدْءَةِ، وَإِمَّا مُسَاوِيَةً عَلَى الْقَوْلَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وَالْأَوَّلُ أَشْهُرُ. كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الرُّومِ بَيَانُهُ وَتَقْرِيرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

## [الدُّعَاءُ عِنْدَ خِتَامِ السُّورَةِ]

رَوَى أَبُو دَاوُدَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ، فَكَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿الَّذِينَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيْنَا أَنْ يُجِئَ الْمَوْتُ﴾ قَالَ: سُبْحَانَكَ قَبْلِي. فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(٤)</sup>. تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ، وَلَمْ يَسْمَعْ هَذَا الصَّحَابِيُّ وَلَا يَضُرُّ ذَلِكَ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْسَانِ  
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[قِرَاءَةُ سُورَةِ السَّجْدَةِ وَالْإِنْسَانِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ]

قَدْ تَقَدَّمَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

(١) الدر المنثور: ٣٦٣/٨ (٢) الطبري: ٨١/٢٤ (٣) النسائي في الكبرى: ٥٠٤/٦ (٤) أبو داود: ٥٤٩/١

تَزِيلُ السَّجْدَةِ وَ «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا» (٢) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٣) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٤)

[خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ أَوْجَدَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا يُذَكِّرُ لِحَقَارَتِهِ وَضَعْفِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا» ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ أَيُّ: أَخْلَاطٍ. وَالْمَشْجُ وَالْمَشِيجُ: الشَّيْءُ الْمُخْتَلَطُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ» يَعْنِي مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ إِذَا اجْتَمَعَا وَاخْتَلَطَا (٣). ثُمَّ يَنْتَقِلُ بَعْدَ مِنْ طُورٍ إِلَى طُورٍ وَحَالٍ إِلَى حَالٍ وَلَوْ نَ إِلَى لَوْنٍ. وَهَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالرَّبِيعُ بُنُ أُنْسٍ: الْأَمْشَاجُ هُوَ اخْتِلَاطُ مَاءِ الرَّجُلِ بِمَاءِ الْمَرْأَةِ (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «نَّبْتَلِيهِ» أَيُّ نَحْنَبِرُهُ، كَقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: «يَلْبُوكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» [الملك: ٢] «فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» أَيُّ: جَعَلْنَاهُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا يَتِمَكَّنُ بِهِمَا مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

[هَدَاهُ اللَّهُ السَّبِيلَ فَهُوَ إِمَّا شَاكِرٌ وَإِمَّا كَفُورٌ]

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ» أَيُّ: بَيَّنَّاهُ لَهُ وَوَضَّحْنَاهُ وَبَصَّرْنَاهُ بِهِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: «وَأَمَّا نُمُودُ فَبَدِّعْنَاهُمْ فَأَسْتَخْبَبُوا أَلْعَنَى عَلَى الْهَدْيِ» [فصلت: ١٧]، وَكَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: «وَهَدَيْنَاهُ الْجَنَّتَيْنِ» [البلد: ١٠] أَيُّ: بَيَّنَّاهُ لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ الشَّرِّ. وَهَذَا قَوْلٌ عِكْرِمَةَ وَعَطِيَّةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَمُجَاهِدٌ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ وَالْجُمْهُورُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» تَقْدِيرُهُ: فَهُوَ فِي ذَلِكَ إِمَّا شَقِيًّا وَإِمَّا سَعِيدًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُرُ فَبَائِعَ نَفْسِهِ، فَمُورِبُهَا أَوْ مُعْتَقُهَا» (٤).

«إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَاقًا وَسَعِيرًا» (٥) إِنَّا الْأَشْرَارَ يُشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٦) عَيْنَا يُشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٧) يُوفُونَ بِالْأَنْزَارِ وَيَخَافُونَ يُومًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٨) وَيُطِيعُونَ الْأَطْعَامَ عَلَى حَيْثُ وَشْيِكَا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٩) إِنَّمَا نَنْطَعُكُمْ لَوْمِيهِ اللَّهُ لَا تَرْبُدْ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (١٠) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُوبًا

فَطِيرًا (١١) فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١٢)

وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٣)

[جَزَاءُ الْكَافِرِينَ وَالْأَبْرَارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَرْصَدَهُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ خَلْقِهِ بِهِ مِنْ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَاقِ وَالسَّعِيرِ، وَهُوَ اللَّهَبُ وَالْحَرِيقُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِذَا الْأَغْلَاقُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ» (٦) فِي الْحَمِيرِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» [عافر: ٧١، ٧٢]، وَلَمَّا ذَكَرَ مَا أَعَدَّهُ لِلْهُولَاءِ الْأَشْقِيَاءِ مِنَ السَّعِيرِ قَالَ بَعْدَهُ: «إِنَّا الْأَبْرَارَ يُشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا» وَقَدْ عَلِمَ مَا فِي الْكَافُورِ مِنَ التَّبْرِيدِ وَالرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ اللَّذَازَةِ فِي الْحَتَّةِ. قَالَ الْحَسَنُ: بَرْدُ الْكَافُورِ فِي طِيبِ الرَّنَجِيلِ، وَلِهَذَا قَالَ: «عَيْنَا يُشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» أَيُّ: هَذَا الَّذِي مُرِجَ لِلْهُولَاءِ الْأَبْرَارِ مِنَ الْكَافُورِ هُوَ عَيْنٌ يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ صَرْفًا بِلا مُزْجٍ وَيَزْوُونَ بِهَا، وَلِهَذَا ضَمَّنَ يُشْرَبُ مَعْنَى «يُرْوَى» حَتَّى عَدَّاهُ بِالْبَاءِ وَنَصَبَ عَيْنًا عَلَى التَّمْيِيزِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» أَيُّ: يَنْصَرِفُونَ فِيهَا حَيْثُ شَاؤُوا، وَأَيُّنَ شَاؤُوا مِنْ قُصُورِهِمْ وَدُورِهِمْ وَمَحَالِسِهِمْ وَمَحَالِهِمْ، وَالتَّفْجِيرُ هُوَ الْإِنْبَاقُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِكَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا» [الاسراء: ٩٠]، وَقَالَ: «وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا» [الكهف: ٣٣].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» يَقُودُونَهَا حَيْثُ شَاؤُوا (٥) وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَتَقَادَةُ (٦). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: يُصَرِّفُونَهَا حَيْثُ شَاؤُوا (٧).

[أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يُوفُونَ بِالْأَنْزَارِ وَيَخَافُونَ يُومًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا» أَيُّ: يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ فِيمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَةِ بِأَصْلِ الشَّرْعِ، وَمَا أَوْجَبُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِطَرِيقِ التَّنْذِيرِ. قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْأَيْلِيِّ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِيعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ» (٨). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ

(١) مسلم: ٥٩٩/٢ (٢) الطبري: ٨٩/٢٤ (٣) الطبري: ٢٤

٨٩، ٩٠ (٤) مسلم: ٢٠٣/١ (٥) الطبري: ٩٤/٢٤ (٦)

الدر المنثور: ٣٦٩/٨ (٧) الطبري: ٩٥/٢٤ (٨) الموطأ: ٢

## سورة الإنسان

٥٧٩

## سورة الإنسان

عَيْنَا شَرِبَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿١﴾ يُؤْفُونَ بِالَّذِئِذِ وَمِخَافُونَ  
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٢﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا  
وَيَتِمَّوْا أَسِيرًا ﴿٣﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نَرْبُدْ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا  
﴿٤﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿٥﴾ فَوَقَدْتُمْ أَنَّ اللَّهَ شَرٌّ ذَلِكُ  
الْيَوْمِ وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا ﴿٦﴾ وَحَزَنُكُمْ بِمَا صَبَرُوا أَجَنَّةً وَحَرِيرًا  
﴿٧﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿٨﴾  
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيرًا ﴿٩﴾ وَطُفَافٌ عَلَيْهِمْ كَذَانِيَّةٍ  
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٠﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١١﴾  
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ مِنْ أَجْهَازٍ نَخِيلًا ﴿١٢﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا  
﴿١٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَوْهُمُ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا  
﴿١٤﴾ وَإِذَا رَأَوْتُمْ رَأَيْتُمْ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا ﴿١٥﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ  
خُضْرٌ وَأَسْتَرْقٌ وَحُلُوفٌ أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا  
طَهُورًا ﴿١٦﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿١٧﴾ إِنَّا  
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١٨﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعِ  
مَنْهُمْ إِنَّمَا أَوْفَكَوْا ﴿١٩﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٠﴾

عَبَّاسُ: ﴿عَبُوسًا﴾ ضَمِيمًا. ﴿قَطَطِيرًا﴾: طَوِيلًا ﴿١٢﴾. وَقَالَ  
عِكْرَمَةُ وَغَيْرُهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ قَالَ: يَعْنِي  
الْكَاوِرُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْهِ عَرَقٌ مِثْلُ  
الْقَطِيرَانِ ﴿١٣﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿عَبُوسًا﴾ الْعَابِسُ الشَّقِيقَيْنِ  
﴿قَطَطِيرًا﴾ قَالَ: [تَقْبِضُ] الْوَجْهَ [بِالْبُورِ]. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ  
جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: تَعْبَسُ فِيهِ الْوُجُوهُ مِنَ الْهَوْلِ. ﴿قَطَطِيرًا﴾:  
تَقْلِيصُ الْجَبِينِ وَمَا بَيْنَ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الْهَوْلِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ،  
الْعَبُوسُ: الشَّرُّ، وَالْقَطَطِيرُ: الشَّدِيدُ.

[بَعْضُ التَّفْصِيلِ لِجَزَاءِ الْأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ

## النَّعِيمِ]

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَقَدْتُمْ أَنَّ اللَّهَ شَرٌّ ذَلِكُ الْيَوْمِ وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ

- (١) فتح الباري: ٥٨٩/١١ (٢) الطبري: ٩٦/٢٤ (٣)  
الطبري: ٩٦/٢٤ (٤) فتح الباري: ٣٣٤/٣ (٥) الطبري:  
٩٧/٢٤ (٦) عبد الرزاق: ٣٣٧/٣ (٧) القرطبي: ١٢٩/١٩  
(٨) الطبري: ٩٨/٢٤ (٩) السائي في الكبرى: ٢٥٨/٤ (١٠)  
الطبري: ٩٨/٢٤ (١١) الطبري: ٩٨/٢٤ (١٢) الطبري:  
١٠٠/٢٤ (١٣) الطبري: ٩٩/٢٤

مَالِكٍ ﴿١﴾. وَتَرْكُونَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي نَهَاكُمْ عَنْهَا؛ خِيفَةً مِنْ  
شَوْءِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي شَرُّهُ مُسْتَطِيرٌ  
أَيُّ: مُشْتَبِهٌ عَامٌّ عَلَى النَّاسِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ. قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ: فَاشْتَبَاهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: اسْتَطَارَ - وَاللَّهُ - شَرُّ ذَلِكَ  
الْيَوْمِ حَتَّى مَلَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿٢﴾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَىٰ حَبِّهِ﴾ قِيلَ: عَلَى حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى،  
وَجَعَلُوا الضَّمِيرَ عَائِدًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ  
عَلَيْهِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى الطَّعَامِ أَيْ:  
وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ فِي حَالِ مَحَبَّتِهِمْ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ، قَالَ  
مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ ﴿٣﴾. كَقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿وَأَمَّا أَلْمَالُ عَلَىٰ حَبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ  
نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

وَفِي الصَّحِيحِ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ  
صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ» ﴿٤﴾. أَيْ: فِي  
حَالِ مَحَبَّتِكَ لِلْمَالِ وَجَزْصِكَ عَلَيْهِ وَحَاجَتِكَ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا  
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِمَّوْا أَسِيرًا﴾،  
أَمَّا الْمَسْكِينُ وَالْيَتِيمُ فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُمَا وَصِفَتُهُمَا، وَأَمَّا  
الْأَسِيرُ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَالصَّحَّاحُ: الْأَسِيرُ  
مِنْ أَهْلِ الْقَبْلَةِ ﴿٥﴾. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ أَسْرَاؤُهُمْ يَوْمَئِذٍ  
مُشْرِكِينَ ﴿٦﴾. وَيَشْهَدُ لِهَذَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ  
يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ يُكْرِمُوا الْأَسَارَى، فَكَانُوا يُقَدِّمُونَهُمْ عَلَى  
أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْغَدَاةِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: هُمُ الْعَبِيدُ ﴿٧﴾. وَاخْتَارَهُ  
ابْنُ جُرَيْرٍ، لِغُمُومِ الْآيَةِ لِلْمُسْلِمِ وَالْمُشْرِكِ ﴿٨﴾. وَهَكَذَا قَالَ  
سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَقَدْ وَصَّى رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَرْقَاءِ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ، حَتَّى أَنَّهُ  
كَانَ آخِرُ مَا أَوْصَى أَنْ جَعَلَ يَقُولُ: «الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ  
أَيْمَانُكُمْ» ﴿٩﴾. قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْمَحْبُوسُ ﴿١٠﴾. أَيْ  
يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ لَهُؤْلَاءِ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ وَيُحِبُّونَهُ قَائِلِينَ بِلِسَانِ  
الْحَالِ: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ أَيْ: رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ وَرِضَاهُ  
﴿لَا نَرْبُدْ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أَيْ: لَا نَطْلُبُ مِنْكُمْ مُجَازَاةً  
نُكَافِئُونَهَا بِهَا، وَلَا أَنْ تَشْكُرُونَا عِنْدَ النَّاسِ. قَالَ مُجَاهِدٌ  
وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَمَّا وَاللَّهُ مَا قَالُوهُ بِالْإِسْتِثْنَاءِ، وَلَكِنْ عَلِمَ  
اللَّهُ بِهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِهِ، لِيَرْغَبَ فِي ذَلِكَ  
رَاغِبٌ ﴿١١﴾. ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ أَيْ: إِنَّمَا  
نَفْعَلُ هَذَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَنَا وَيَتَّقَنَا بِطُغْيَانِهِ فِي الْيَوْمِ  
الْعَبُوسِ الْقَطَطِيرِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ

﴿فُطُوهُنَا نَدِيلًا﴾ أَي: مَتَى تَعَاطَاهُ دَنَا الْقُطْفُ إِلَيْهِ وَتَدَلَّى مِنْ أَعْلَى غُضْبِهِ كَأَنَّهُ سَامِعٌ طَائِعٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فُطُوهُنَا دَانِيَةً﴾ [الحاقة: ٢٣] قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿رَدُّلَتْ فُطُوهُنَا نَدِيلًا﴾ إِنْ قَامَ ارْتَفَعَتْ مَعَهُ بِقَدَرٍ، وَإِنْ قَعَدَتْ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى يَنَالَهَا، وَإِنْ اضْطَجَعَ تَدَلَّتْ لَهُ حَتَّى يَنَالَهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَدِيلًا﴾<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا يَرُدُّ أَيْدِيَهُمْ عَنْهَا شَوْكٌ وَلَا بَعْدُ<sup>(٥)</sup>.

### [آيَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٌ]

وَقَوْلُهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أَي يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْخَدَمُ بِأَوَانِي الطَّعَامِ، وَهِيَ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابِ الشَّرَابِ، وَهِيَ الْكَيْزَانُ الَّتِي لَا عُرَى لَهَا وَلَا خَرَاطِيمَ، وَقَوْلُهُ: ﴿قَوَارِيرًا﴾<sup>(٦)</sup> قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ ﴿فَالْأَوَّلُ مَنْصُوبٌ بِخَبَرٍ كَانَ أَي: كَانَتْ قَوَارِيرُ، وَالثَّانِي مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْبَدَلِيَّةِ أَوْ تَمْيِيزٍ لِأَنَّهُ بَيَّنَّهَ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: بَيَاضُ الْفِضَّةِ فِي صِفَاءِ الرُّجَاجِ<sup>(٧)</sup>. وَالْقَوَارِيرُ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ رُجَاجٍ، فَهَذِهِ الْأَكْوَابُ هِيَ مِنْ فِضَّةٍ، وَهِيَ مَعَ هَذَا شَفَافَةٌ يَرَى مَا فِي بَاطِنِهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، وَهَذَا مِمَّا لَا تُظَاهِرُهُ فِي الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدَرُهَا قَدِيرًا﴾ أَي: عَلَى قَدَرِ رَبِّهِمْ، لَا تَزِيدُ عَنْهُ وَلَا تَنْقُصُ، بَلْ هِيَ مُعَدَّةٌ لِدَلِّكَ مُقَدَّرَةٌ بِحَسَبِ رِيٍّ صَاحِبِهَا. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي صَالِحٍ، وَقَتَادَةُ وَابْنُ أَبِي زَيْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عُيَيْدٍ بَنِي عُمَيْرٍ، وَقَتَادَةُ وَالشَّعْبِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٨)</sup>. وَهَذَا أُبْلَغُ فِي الْأَعْتِنَاءِ وَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ.

### [شَرَابُ الرَّنَجِبِيلِ وَالسَّلْسِيلِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ رِزَاجُهَا رَنَجِبِيلًا﴾ أَي: وَيُسْقَوْنَ بِغَيْرِ الْأَبْرَارِ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْأَكْوَابِ ﴿كَأْسًا﴾ أَي: خَمْرًا ﴿كَانَ رِزَاجُهَا رَنَجِبِيلًا﴾ فَتَارَةٌ يُمَزَّجُ لَهُمُ الشَّرَابُ بِالْكَافُورِ وَهُوَ بَارِدٌ، وَتَارَةٌ بِالرَّنَجِبِيلِ وَهُوَ حَارٌّ؛ لِيَعْتَدِلَ

وَسُرُورًا. وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّجَانُّسِ الْبَلِيغِ ﴿وَقَفَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أَي: آمَنَهُمْ مِمَّا خَافُوا مِنْهُ ﴿وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ﴾ أَي: فِي وُجُوهِهِمْ ﴿وَسُرُورًا﴾ أَي: فِي قُلُوبِهِمْ. قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ<sup>(٩)</sup>. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ﴾<sup>(١٠)</sup> صَاحِبُكَ مُسْتَبَشِّرَةٌ ﴿وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا شَرَّ اسْتَنَارَ الْوُجْهُ. قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا شَرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ فِلَقَةٌ قَمَرٍ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَسْرُورًا تَبَرُّقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ. الْحَدِيثُ<sup>(١٢)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَزَّهَمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أَي: بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ أَغْطَاهُمْ وَتَوَلَّاهُمْ وَبَوَّاهُمْ جَنَّةً وَحَرِيرًا أَي: مَنْزِلًا رَحْبًا وَعَيْشًا رَعْدًا وَلِبَاسًا حَسَنًا. وَرَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ هِشَامِ بْنِ سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ قَالَ: قُرِئَ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ سُورَةُ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ فَلَمَّا بَلَغَ الْقَارِئُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَّهَمَ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ قَالَ: بِمَا صَبَرُوا عَلَى تَرْكِ الشَّهَوَاتِ فِي الدُّنْيَا.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾<sup>(١٣)</sup> وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّنَا وَذُلَّتْ فُطُوهُنَا نَدِيلًا<sup>(١٤)</sup> وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا<sup>(١٥)</sup> قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا قَدِيرًا<sup>(١٦)</sup> وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ رِزَاجُهَا رَنَجِبِيلًا<sup>(١٧)</sup> عَيْنًا فِيهَا سَعْيٌ سَلْسِيلًا<sup>(١٨)</sup> وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنْهُمْ مَخْلُودُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُودًا<sup>(١٩)</sup> وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُنَاجَا كَبِيرًا<sup>(٢٠)</sup> عَلَيْهِمْ يُتَابُ سُنْبُ حَضَرٍ وَاسْتَرْقَتْ وَحُلُوُ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا<sup>(٢١)</sup> إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا<sup>(٢٢)</sup>

### [ذِكْرُ الْأَرَائِكِ، وَأَنَّهُ لَا حَرٌّ وَلَا بَرْدٌ فِي الْجَنَّةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ وَمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ، وَذِكْرُ الْخِلَافِ فِي الْإِتِّكَاءِ، هَلْ هُوَ الْأَضْطِجَاعُ أَوْ التَّمَرُّقُ أَوْ التَّرْتُّجُ أَوْ التَّمَكُّرُ فِي الْجُلُوسِ، وَأَنَّ الْأَرَائِكَ هِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أَي: لَيْسَ عَنْدهُمْ حَرٌّ مُزْعِجٌ وَلَا بَرْدٌ مُؤْلِمٌ، بَلْ هِيَ مِرَاجٌ وَاحِدٌ دَائِمٌ سَرْمَدِيٌّ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا جَوْلًا.

### [دُنُوُ الظَّلَالِ وَالْقُطُوفِ]

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّنَا﴾ أَي: قَرِيبَةً إِلَيْهِمْ أَغْصَانُهَا ﴿وَذُلَّتْ

(١) الطبري: ١٠١/٢٤ (٢) فتح الباري: ٦٥٣/٦ (٣) فتح الباري: ٦٥٣/٦ (٤) الطبري: ١٠٣/٢٤ (٥) الطبري: ٢٤/١٠٣ (٦) الطبري: ١٠٥/٢٤، ١٠٦ (٧) الطبري: ٢٤/١٠٦، ١٠٧ والقرطبي: ١٩/١٤١



الْأَمْرُ، وَهَؤُلَاءِ يُمَزَّجُ لَهُمْ مِنْ هَذَا تَارَةً، وَمِنْ هَذَا تَارَةً، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَإِنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا صَرْفًا. كَمَا قَالَ قَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا ﴿عَيْنَا يَتَرَّبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ وَقَالَ هَهُنَا: ﴿عَيْنَا فِيهَا سَمْعٌ سَلْسِيلًا﴾ أَيِ: الزَّنَجِيلِ عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ تُسَمَّى سَلْسِيلًا. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: اسْمُ عَيْنٍ فِي الْجَنَّةِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ، لِسَلْسِلَةِ مَسِيلِهَا وَجِدَّةٍ جَرِيهَا<sup>(٢)</sup>.

### [الْوِلْدَانُ وَالْخِدْمَةُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ أَيِ: يَطُوفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ لِلْخِدْمَةِ وَلَدَانِ مِنَ وَلَدَانِ الْجَنَّةِ ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أَيِ: عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مُخَلَّدُونَ عَلَيْهَا لَا يَتَغَيَّرُونَ عَنْهَا، لَا تَزِيدُ أَعْمَارُهُمْ عَنْ تِلْكَ السَّنِّ، وَمَنْ فَسَّرَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُخَرَّصُونَ فِي أَذَانِهِمُ الْأَقْرَطَةُ، فَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَعْنَى بِذَلِكَ، لِأَنَّ الصَّغِيرَ هُوَ الَّذِي يَلِيْقُ لَهُ ذَلِكَ دُونَ الْكَبِيرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ أَيِ إِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي انْتِشَارِهِمْ فِي فِضَاءِ حَوَائِجِ السَّادَةِ وَكَثْرَتِهِمْ وَصَبَاحَةِ وَجُوهِهِمْ، وَحُسْنِ أَلْوَانِهِمْ وَنَيَابِهِمْ، وَحُلِيِّهِمْ، حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا، وَلَا يَكُونُ فِي التَّشْبِيهِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا، وَلَا فِي الْمَنْظَرِ أَحْسَنُ مِنَ اللَّؤْلُؤِ الْمَنُورِ عَلَى الْمَكَانِ الْحَسَنِ.

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أَيِ: وَإِذَا رَأَيْتَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ثُمَّ﴾ أَيِ: هُنَاكَ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا وَسَعَتِهَا وَارْتِفَاعِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَبَرَةِ وَالسُّرُورِ ﴿رَأَيْتَ نَيْمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ أَيِ: مَمْلُوكَةً لِلَّهِ هُنَاكَ عَظِيمَةً وَسُلْطَانًا بَاهِرًا. وَتَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَخْرِ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَيْهَا: إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا<sup>(٣)</sup>. فَإِذَا كَانَ هَذَا عَطَاؤُهُ تَعَالَى لِأَذْنَى مَنْ يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا هُوَ أَعْلَى مَنْزِلَةً وَأَحْظَى عِنْدَهُ تَعَالَى؟.

### [اللباسُ والحلي]

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدِّيٌّ خَضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أَيِ لِبَاسٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيهَا الْحَرِيرُ وَمِنْهُ سُدُسٌ وَهُوَ رَفِيعُ الْحَرِيرِ كَالْقَمِصَّانِ وَنَحْوَهَا مِمَّا يَلْبَسُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْإِسْتَبْرَقُ مِنْهُ مَا فِيهِ بَرِيقٌ وَلَمَعَانٌ، وَهُوَ مِمَّا يَلْبَسُ الظَّاهِرَ كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي اللَّبَاسِ ﴿وَمَلَأُوا أَصْوَارَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

٥٨٠

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

وَمِنْ أَلِيلٍ فَأَسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٧﴾ خَلَقْتَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١﴾

### سُورَةُ الْإِنْسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْصَقْتَ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَرَقْتَ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلَقَيْتَ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ تَنْذَرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَلَبَّ يَوْمَ يَدُ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَبِّعُهمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَلَبَّ يَوْمَ يَدُ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

الْأَبْرَارِ، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُحَلَّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وَلَكَمَا ذَكَرَ تَعَالَى زِينَةَ الظَّاهِرِ بِالْحَرِيرِ وَالْحُلِيِّ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أَيِ طَهَّرَ بِوَاطِنِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحَقْدِ وَالْعِلِّ وَالْأَدَى وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ، كَمَا رَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا انْتَهَى أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ وَجَدُوا هُنَاكَ عَنَبَيْنِ، فَكَأَنَّمَا أَلْهَمُوا ذَلِكَ، فَشَرِبُوا مِنْ إِحْدَاهُمَا، فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ أَدَى، ثُمَّ اغْتَسَلُوا مِنَ الْآخَرَى، فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحَالِهِمْ الظَّاهِرِ وَجَمَالِهِمُ الْبَاطِنِ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا﴾ مَشْكُورًا أَيِ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ؛ تَكْرِيمًا لَهُمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

(١) الطبري: ١٠٧/٢٤ (٢) الطبري: ١٠٨/٢٤ (٣) مسلم:

١٧٣/١ (٤) القرطبي: ٤٧/١٩

أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ [الحاقة: ٢٤] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوَدُّوْا أَنْ تَلَٰكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ أَيْ جَزَاكُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ ٢٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءَائِيًا أَوْ كَقُرْآنٍ ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٢٤ وَمِنْ أَلِيلٍ فَاسْتَجِدْ لَهُمْ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَّيْلًا﴾ ٢٥ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْنَهُمْ تَبَدُّلًا ﴿إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ٢٦ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ٢٧

[ذِكْرُ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ وَالْأَمْرِ بِالصَّبْرِ وَالذِّكْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُثْنًا عَلَى رَسُولِهِ ﷺ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تَنْزِيلًا: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أَيْ: كَمَا أَكْرَمْتُكَ بِمَا أُنْزِلُ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ عَلَى قَضَائِهِ وَقُدْرِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَيَذَرُكَ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ﴿وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ ءَائِيًا أَوْ كَقُرْآنٍ﴾ أَيْ: لَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ أَرَادُوا صَدَّكَ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، بَلْ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، فَلَا تَيْمُ هُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ، وَالْكَفُورُ هُوَ الْكَافِرُ قَلْبُهُ ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَيْ: أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ﴿وَمِنْ أَلِيلٍ فَاسْتَجِدْ لَهُمْ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾ ٢٥ فَرِ أَلِيلٍ إِلَّا قَلِيلًا ﴿يَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ٢٦ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْيِيلًا [المزمل: ١-٤].

[ذِمُّ حُبِّ الدُّنْيَا وَالتَّوْبَةُ عَلَى يَوْمِ الْمَعَادِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُثْنًا عَلَى الْكُفَّارِ وَمَنْ أَشَبَّهُهُمْ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَالْإِنْصِبَابِ إِلَيْهَا، وَتَرْكِ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَّيْلًا﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي خَلَقْنَاهُمْ <sup>(١)</sup>. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْنَهُمْ تَبَدُّلًا﴾ أَيْ: وَإِذَا شِئْنَا بَعَثْنَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبَدَّلْنَاهُمْ فَأَعَدْنَاهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِالْبَدَاءَةِ عَلَى الرَّجْعَةِ. وَقَالَ

ابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْنَهُمْ تَبَدُّلًا﴾ أَيْ: وَإِذَا شِئْنَا أَتَيْنَا بِقَوْمٍ آخَرِينَ غَيْرِهِمْ <sup>(٢)</sup>. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ٢٨ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [فاطر: ١٩، ٢٠].

[الْقُرْآنُ تَذْكِرَةٌ وَالْهُدَايَةُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يَعْنِي: هَذِهِ السُّورَةُ تَذْكِرَةٌ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أَيْ: طَرِيقًا وَمَسْلَكًا أَيْ: مَنْ شَاءَ اهْتَدَىٰ بِالْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ... الْآيَةُ [النساء: ٣٩]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَهْدِيَ نَفْسَهُ، وَلَا يَدْخُلَ فِي الْإِيمَانِ وَلَا يَجُزَّ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيْ: عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ فَيَسِّرُهَا لَهُ وَيُقَيِّضُ لَهُ أَسْبَابَهَا، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَاثِيَ فَيَصْرِفُهُ عَنِ الْهُدَى. وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيْ: يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَمَنْ يَهْدِهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْسَانِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ وَقِرَاءَتُهَا فِي الْمَغْرِبِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيَّنَّمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَارٍ بِمِنَى إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ﴾ فَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا، وَإِنِّي لَأَتَلْقَاهَا مِنْ فِيهِ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اقْتُلُوهَا». فَابْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقِيَّتْ شَرَكُكُمْ، كَمَا وَقِيَّتُمْ شَرَهَا» <sup>(٣)</sup>. وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ <sup>(٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أُمِّهِ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ

(١) الطبري: ١١٨/٢٤ (٢) الطبري: ١١٨/٢٤، ١١٩ (٣)

فتح الباري: ٤٢/٤ (٤) مسلم: ١٧٥٥/٤

بِالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا<sup>(١)</sup>. وَفِي رِوَايَةِ مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أُمَّ الْفَضْلِ سَمِعَتْهُ يَقْرَأُ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ أَذْكَرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ إِنَّهَا لَأَخْرُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ<sup>(٢)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ بِهِ<sup>(٣)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ① فَأَلْمِيقَاتٍ ذِكْرًا ② عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ③ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ ④ فَإِذَا الْتُخُمَ طُمِسَتْ ⑤ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑥ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ ⑦ وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ ⑧ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ⑨ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑩ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ⑪ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑫

[قَسَمُ اللَّهِ بِأَشْيَاءٍ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ]

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ قَالَ: الْمَلَائِكَةُ. وَرَوَى عَنْ مَسْرُوقٍ وَأَبِي الضُّحَى وَمُجَاهِدٍ فِي إِحْدَى الرِّوَايَاتِ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ مِثْلَ ذَلِكَ، وَرَوَى عَنْ أَبِي صَالِحٍ أَنَّهُ قَالَ: هِيَ الرُّسُلُ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: أَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ. وَهَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ فِي الْعَاصِفَاتِ وَالنَّاشِرَاتِ وَالْفَارِقَاتِ وَالْمُلْقِيَاتِ: أَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كَهْلِيلٍ، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ، عَنْ أَبِي الْعُبَيْدِينَ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا قَالَ: الرِّيحُ. وَكَذَا قَالَ فِي الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا: إِنَّهَا الرِّيحُ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٥)</sup>. وَقَطَعَ ابْنُ جَرِيرٍ بِأَنَّ الْعَاصِفَاتِ عَصْفُ الرِّيَّاحِ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمَنْ تَابَعَهُ. وَتَوَقَّفَ فِي النَّاشِرَاتِ نَشْرًا هَلْ هِيَ الْمَلَائِكَةُ أَوْ الرِّيحُ كَمَا تَقَدَّمَ؟ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ: أَنَّ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا هِيَ الْمَطَرُ، وَالْأَطْهَرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَفِّعَ﴾ [الحجر: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] وَهَكَذَا الْعَاصِفَاتُ هِيَ الرِّيَّاحُ، يُقَالُ: عَصَفَتِ الرِّيَّاحُ إِذَا هَبَّتْ بِتَضْوِيَتٍ، وَكَذَا النَّاشِرَاتُ هِيَ الرِّيَّاحُ الَّتِي تَنْشُرُ السَّحَابَ فِي أَقَاقِ السَّمَاءِ كَمَا يَشَاءُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَلْمِيقَاتٍ ذِكْرًا﴾ ② عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ③ يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ

وَالثَّوْرِيُّ<sup>(٦)</sup>. وَلَا خِلَافَ هَهُنَا فَإِنَّهَا تَنْزِلُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى الرُّسُلِ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهَدَى وَالْعَيِّ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَتُلْقِي إِلَى الرُّسُلِ وَخِيَا فِيهِ إِغْدَارًا إِلَى الْخَلْقِ وَإِنْدَارًا لَهُمْ عِقَابَ اللَّهِ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ﴾ ④ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ بِهِذِهِ الْأَقْسَامِ أَيُّ: مَا وَعَدْتُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ وَالنَّفْخِ فِي الصُّورِ وَبَعَثِ الْأَجْسَادِ وَجَمْعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَمُجَارَاةِ كُلِّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، إِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَوَاقِعٌ أَيُّ: لَكَائِنْ لَا مَحَالَةَ.

[ذَكِّرْ بَعْضَ مَا يَحْدُثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْتُخُمَ طُمِسَتْ﴾ ⑤ أَيُّ: ذَهَبَ ضَوْوُهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْتُخُمَ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْكُوكُوبَاتُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ ⑥ أَيُّ: انْفَطَرَتْ وَانْشَقَّتْ وَتَذَلَّتْ أَرْجَاؤُهَا وَوَهَتْ أَطْرَافُهَا.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ﴾ ⑦ أَيُّ: ذَهَبَ بِهَا فَلَا يَبْقَى لَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَأَلُوكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا... الْآيَةَ [طه: ١٠٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نُسَبِّحُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرَتْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ﴾ ⑧ قَالَ الْعُوفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: جُمِعَتْ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَقْنَتْ﴾ ⑧ أُجِّلَتْ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﴿أَقْنَتْ﴾ ⑧ أَوْعِدَتْ<sup>(١٠)</sup>. وَكَأَنَّهُ يَجْعَلُهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ⑨ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑩ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ⑪ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑫﴾ [المرسلات: ١٢-١٥] يَقُولُ تَعَالَى: لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ الرُّسُلُ، وَأَرْجَى أَمْرُهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعَدِيهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو

(١) أحمد: ٦/٣٣٨ (٢) الموطأ: ١/٧٨ (٣) فتح الباري: ٢/٢٨٧ ومسلم: ١/٣٣٨ (٤) الطبري: ١٢٤/٢٤، ١٢٥ (٥) الطبري: ٢٤/١٢٣ و١٢٤ و١٢٥ و١٢٦ (٦) الطبري: ٢٤/١٢٩، ١٢٨ (٧) الطبري: ٢٤/١٢٩ (٨) الطبري: ٢٤/١٣٠ (٩) الطبري: ٢٤/١٣٠ (١٠) الطبري: ٢٤/١٣٠

## سورة المرسلات

٥٨١

سورة المرسلات

أَنفَخَ ۙ يَوْمَ تَبُدُّ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ سَوَآءٌ ۚ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۚ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨] وَهُوَ يَوْمَ الْفُضْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ الْفُضْلِ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا لِشَأْنِهِ: ﴿وَمَا أَزِيدُكَ مَا يَوْمَ الْفُضْلِ﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿أَيُّ وَيَلْ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَذَابٌ﴾

﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿كَذَلِكَ نَفَعُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْسًا شَهِيدًا وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

[الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِأَنْوَاعٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦] يَعْنِي مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ الْمُخَالِفِينَ لِمَا جَاءُواهُمْ بِهِ ﴿ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أَيُّ: مِمَّنْ أَشْبَهَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَفَعُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُثَمِّنًا عَلَى خَلْقِهِ وَمُحْتَجًّا عَلَى الْإِعَادَةِ بِالْبِدْءَةِ: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ أَيُّ: ضَعِيفٍ حَقِيرٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا فِي حَدِيثِ [بُسْرِ] ابْنِ جِحَاشٍ: «ابْنُ آدَمَ أَتَى تُعْجِزَنِي وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ مِثْلِي هَذِهِ؟!»<sup>(١)</sup>

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ يَعْنِي: جَمَعْنَاهُ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ قَرَارُ الْمَاءِ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَالرَّجْمِ مُعَدٌّ لِدَلِّكَ حَافِظٌ لِمَا أُوْدِعَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يَعْنِي: إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَوْ تِسْعَةٍ أَشْهُرٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كِفَاتًا﴾ كِنًا<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُكْفَتُ الْمَيْتُ فَلَا يَرَى مِنْهُ شَيْءٌ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ بَطْنُهَا لِأَمْوَاتِكُمْ، وَظَهَرُهَا لِأَحْيَائِكُمْ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَفَادَةً<sup>(٥)</sup>. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْسًا شَهِيدًا﴾ يَعْنِي الْجِبَالَ، أَرَسَى بِهَا الْأَرْضَ؛ لِئَلَّا تَمِيدَ وَتَضْطَرِبَ ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أَيُّ: عَذَابًا زَلَالًا مِنَ السَّحَابِ أَوْ مِمَّا أَتْبَعَهُ مِنْ عُيُونِ الْأَرْضِ ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيُّ: وَيَلْ لِمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَسْتَمِرُّ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَكُفْرِهِ.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثٍ

شُعْبٍ ﴿لَا ظِلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَلَبِ﴾ إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْفَصْرِ ﴿كَأَنَّهُ جِمَلٌ صَفَرٌ﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْدِرُونَ ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفُضْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿إِنْ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُلٍ وَعُيُونٍ﴾ وَفَوَكَهَهُمْ مَنَاسِكُهُنَّ ﴿كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ كُلُّوا وَتَمْنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تَجْرُمُونَ ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَكُونُوا لَا يَرْكَبُونَ ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

شُعْبٍ ﴿لَا ظِلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَلَبِ﴾ إِنَّمَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْفَصْرِ ﴿كَأَنَّهُ جِمَلٌ صَفَرٌ﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْدِرُونَ ﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفُضْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾

[سَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى مَا وَاهُمْ فِي جَهَنَّمَ وَشَيْءٌ مِنْ كَيْفَتِهَا]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَنَّهُمْ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثٍ شُعْبٍ يَعْنِي لَهَبِ النَّارِ إِذَا ارْتَفَعَ وَصَعِدَ مَعَهُ دُخَانٌ، فَمِنْ شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ أَنَّ لَهُ ثَلَاثَ شُعْبٍ ﴿لَا ظِلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَلَبِ﴾ أَيُّ: ظِلِّ الدُّخَانِ الْمُقَابِلِ لِلْهَلَبِ لَا ظِلِيلٌ هُوَ فِي نَفْسِهِ، وَلَا يُغْنِي مِنَ

(١) الطبري: ١٣١/٢٤ (٢) أحمد: ٢١٠/٤ (٣) الطبري:

١٣٤/٢٤ (٤) الطبري: ١٣٤/٢٤ (٥) الطبري: ١٣٤/٢٤

(٦) الطبري: ١٣٤/٢٤، ١٣٥

وَأَشْرَوْا هَيْتًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٣﴾  
وَبِلْ يَوْمَيْدٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ كَلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَبِلْ  
يَوْمَيْدٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٣٧﴾ وَبِلْ يَوْمَيْدٍ  
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٨﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

### [مَالُ الْمُتَّقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ عَبْدُوهُ بِأَدَاءِ  
الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ: أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُونَ  
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ أَيْ: بِخِلَافِ مَا أُولَئِكَ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ مِنْ  
ظُلِّ الْيَحْمُومِ وَهُوَ الدُّخَانُ الْأَسْوَدُ الْمُتَنِّينُ. وَقَوْلُهُ [تَعَالَى]:  
﴿وَفَوْكَهٖ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ أَيْ: وَمِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ مِمَّهَا  
طَلَبُوا وَجَدُوا ﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ:  
يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى  
مُخْبِرًا خَبْرًا مُسْتَنَافًا: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ هَذَا  
جَزَاؤُنَا لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلِ ﴿وَبِلْ يَوْمَيْدٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

### [تَهْدِيدٌ لِمُنْكَرِي الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ خِطَابٌ  
لِّلْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الدِّينِ، وَأَمَرُهُمْ أَمْرٌ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ، فَقَالَ  
تَعَالَى: ﴿كَلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا﴾ أَيْ: مَدَّةً قَلِيلَةً قَرِيبَةً قَصِيرَةً  
﴿إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ أَيْ ثُمَّ تُسَاقُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي تَقَدَّمَ  
ذِكْرُهَا ﴿وَبِلْ يَوْمَيْدٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنَمُتْنَهُمْ قَلِيلًا  
ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى:  
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ مَنَعَ فِي  
الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا  
كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ  
ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أَيْ: إِذَا أَمِرَ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنْ  
يَكُونُوا مِنَ الْمُصَلِّينَ مَعَ الْجَمَاعَةِ امْتَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ  
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبِلْ يَوْمَيْدٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثُمَّ  
قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾. أَيْ: إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا  
بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَبِأَيِّ كَلَامٍ يُؤْمِنُونَ بِهِ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ  
حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

أَخِيرَ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ  
التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

اللَّهِ يَعْني: وَلَا يَقْبِضُ حَزَّ اللَّهَبِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا  
تَرَىٰ بِسُكْرِ كَالْقَصْرِ﴾ أَيْ: يَتَطَايَرُ الشَّرُّ مِنْ لَهَبِهَا كَالْقَصْرِ.  
قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كَالْمُحْصُونَ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ  
وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرِهِمْ: يَعْنِي أَصُولُ  
الشَّجَرِ<sup>(٢)</sup>. ﴿كَأَنَّكُمْ جُمِلْتُمْ صُمْرًا﴾<sup>(٣)</sup> أَيْ: كَالْإِبِلِ السُّودِ.  
قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ  
جَرِيرٍ<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ:  
﴿جُمِلْتُمْ صُمْرًا﴾ يَعْنِي: جِبَالُ الشُّفَنِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ  
ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿إِنَّمَا تَرَىٰ بِسُكْرِ كَالْقَصْرِ﴾  
قَالَ: كُنَّا نَعْبُدُ إِلَى الْخَشْيَةِ ثَلَاثَةَ أَذْرُعَ وَفَوْقَ ذَلِكَ فَزَعَمُوهُ  
لِلْبِنَاءِ فَتَسَمَّيَ الْقَصْرَ ﴿كَأَنَّكُمْ جُمِلْتُمْ صُمْرًا﴾ جِبَالُ الشُّفَنِ  
تُجْمَعُ حَتَّى تَكُونَ كَأَوْسَاطِ الرِّجَالِ<sup>(٥)</sup> ﴿وَبِلْ يَوْمَيْدٍ  
لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

### [عَجَزُ الْمُجْرِمِينَ عَنِ الْكَلَامِ وَتَقْدِيمُ الْعُذْرِ]

### وَعَدَمُ الْإِقْدَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْقُونَ﴾ أَيْ لَا يَتَكَلَّمُونَ  
﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أَيْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْكَلَامِ وَلَا  
يُؤْذَنُ لَهُمْ فِيهِ لِيَعْتَذِرُوا، بَلْ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَوَقَعَ  
الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ، وَعَرَصَتْ الْقِيَامَةُ  
حَالَاتٍ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُخْبِرُ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً، وَعَنْ  
هَذِهِ الْحَالَةِ تَارَةً، لِيَذِلَّ عَلَى شِدَّةِ الْأَهْوَالِ وَالزَّلَازِلِ  
يَوْمَيْدٍ، وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْدَ كُلِّ فَضْلِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ: ﴿وَبِلْ  
يَوْمَيْدٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْكُمُ وَالْأَوَّلِينَ﴾<sup>(٦)</sup> فَإِنْ كَانَ  
لَكُمْ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ وَهَذِهِ مُحَاطَةٌ مِنَ الْخَالِقِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ  
يَقُولُ لَهُمْ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْكُمُ وَالْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ  
جَمَعَهُمْ بِقُدْرَتِهِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفَذُهُمُ  
الْبَصَرُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ﴾ تَهْدِيدٌ  
شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدُ أَيْ: إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى أَنْ تَتَخَلَّصُوا مِنْ  
قَضَاتِي وَتَنْجُوا مِنْ حُكْمِي فَافْعَلُوا، فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى  
ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنَمَسَحَنَّ أَلْيَنَ وَالْإِبْرَاسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ  
تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْهَدُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا  
بِإِطْلَاقِنَا﴾ [الرحمن: ٣٣] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾  
[هود: ٥٧]، وَفِي الْحَدِيثِ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا  
نَعْمِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي»<sup>(٧)</sup>.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾<sup>(٨)</sup> وَفَوْكَهٖ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٣٨﴾ كَلُوا

(١) الطبري: ١٦٣/٢٤ (٢) الطبري: ١٣٨/٢٤ (٣) الطبري:

١٣٩/٢٤-١٤١ (٤) فتح الباري: ٥٥٦/٨ (٥) مسلم: ٤/

## تفسير سورة النبأ وهي مكية

سورة النبأ

٥٨٢

الأنبياء

### سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ ﴿٣﴾  
كَلَّا سِعَامُونَ ﴿٤﴾ قُلْ كَلَّا سِعَامُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٦﴾  
وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سُبُلًا ﴿٩﴾  
وَجَعَلْنَا الْوَيْلَ لِبِئْسَ أَتْلَلٍ ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا  
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا  
مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا  
الْأَفَّااقَ ﴿١٦﴾ إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ  
فَنُتَوَّنُ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَنُفِثَتِ السَّمَاةُ كَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ  
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ  
مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لِيُثَبِّتَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَدْخُلُونَهَا فِيهَا بَرْدٌ وَلَا شَرَابٌ  
﴿٢٤﴾ إِلَّا جِئِمًا وَغَسَقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا  
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ  
أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ (٣) كَلَّا سِعَامُونَ (٤) قُلْ كَلَّا سِعَامُونَ (٥) أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سُبُلًا (٩) وَجَعَلْنَا الْوَيْلَ لِبِئْسَ أَتْلَلٍ (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَعَلْنَا الْأَفَّااقَ (١٦)

[الرَّدُّ عَلَى إِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ لَوْفُوعِ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْأُلِهِمْ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ إِنْكَارًا لَوْفُوعِهَا ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴿أَيُّ شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ؟ عَنْ أَمْرِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ، يَعْنِي: الْخَبَرُ الْهَائِلُ الْمُفْطَعُ الْبَاهِرُ﴾ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ ﴿٣﴾ يَعْنِي: النَّاسُ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ مُؤْمِنٌ بِهِ وَكَافِرٌ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمُنْكَرِي الْقِيَامَةِ: ﴿كَلَّا سِعَامُونَ﴾ (٤) قُلْ كَلَّا سِعَامُونَ ﴿٥﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ.

[ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ كَالدَّلِيلِ عَلَى قُدْرَتِهِ]

عَلَى الْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ]

ثُمَّ شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبَيِّنُ قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْغَرِيبَةِ وَالْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَغَيْرِهِ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ (٦) أَيُّ: مُمَهَّدَةً لِلْخَلَائِقِ ذُلُولًا لَهُمْ، قَارَةً سَاكِتَةً ثَابِتَةً ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧) أَيُّ: جَعَلَهَا لَهَا أَوْتَادًا أَرْسَاهَا بِهَا وَثَبَّتَهَا وَقَرَّرَهَا حَتَّى سَكَتَتْ وَلَمْ تَضْطَرْبِ بِمَنْ عَلَيْهَا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨) يَعْنِي: ذَكَرًا وَأُنْثَى يَتَمَتَّعُ كُلُّ مِنْهُمَا بِالْآخِرِ وَيَحْضِلُ النَّتَاجَ بِذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ عَائِنِهِمْ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سُبُلًا﴾ (٩) أَيُّ: قَطْعًا لِلْحَرَكَةِ، لِتَحْضِلَ الرَّاحَةَ مِنْ كَثْرَةِ التَّرْدَادِ وَالسَّعْيِ فِي الْمَعَاشِ فِي عَرْضِ النَّهَارِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَ لِبِئْسَ أَتْلَلٍ﴾ (١٠) يَعْنِي النَّاسُ ظِلَامُهُ وَسَوَادُهُ كَمَا قَالَ: ﴿وَالْأَيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤] وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَ لِبِئْسَ أَتْلَلٍ﴾ (١٠) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١) أَيُّ: جَعَلْنَاهُ

مُشْرِقًا نَبْرًا مُضِيًّا؛ لِيَتَمَكَّنَ النَّاسُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ وَالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ لِلْمَعَاشِ وَالتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (١٢) يَعْنِي السَّمَوَاتِ السَّبْعَ فِي اتِّسَاعِهَا وَارْتِفَاعِهَا، وَإِحْكَامِهَا وَثِقَاتِهَا، وَتَرْبِيعِهَا بِالْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (١٣) يَعْنِي الشَّمْسَ الْمُنِيرَةَ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ الَّتِي يَتَوَهَّجُ ضَوْوُهَا لِأَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (١٤) قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ (١٥) أَيُّ: مِنَ السَّحَابِ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ أَيْضًا وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكُ، وَالْحَسَنُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالثَّوْرِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: هِيَ السَّحَابُ الَّتِي تَحْتَلِبُ بِالْمَطَرِ وَلَمْ تُمَطِّرْ بَعْدُ، كَمَا يُقَالُ: امْرَأَةٌ مُعْصِرٌ إِذَا دَنَا

(١) الطبري: ١٥٢/٢٤ (٢) الطبري: ١٥٤/٢٤ (٣) الطبري:

١٥٣/٢٤، والبغوي: ٤٣٧/٤

وَرَوَى الْبَخَارِيُّ [فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: «يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَقْوَامًا» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قَالُوا: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: «أَبَيْتُ». قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: «أَبَيْتُ» قَالَ: «ثُمَّ يُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَنْبُتُ، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجَبُ الذَّنْبِ، وَهُوَ يُرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٩)</sup>.

«وَفِي حَتِّ السَّمَاءِ فَكَانَتْ أَبْوَابًا» أَيْ طُرُقًا وَمَسَالِكَ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ «وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا» كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَازِمَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» [النمل: ٨٨] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» [القارة: ٥] وَقَالَ هُنَا: «فَكَانَتْ سَرَابًا» أَيْ يُخَيَّلُ إِلَى النَّاطِرِ أَنَّهَا شَيْءٌ، وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ وَبَعْدَ هَذَا تَذَهَبُ بِالْكُلِّيَّةِ فَلَا عَيْنَ وَلَا أَثَرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَسَتَلَوْنَهَا عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا»<sup>(١٥)</sup> فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا<sup>(١٦)</sup> لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا<sup>(١٧)</sup> [طه: ١٠٥-١٠٧] وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَوْمَ نُسِرَّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً» [الكهف: ٤٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا» أَيْ: مُرْصَدَةً مُعَدَّةً لِلظَّالِمِينَ وَهُمْ الْمُرَدَّةُ الْعُصَاةُ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ «مَتَابًا» أَيْ مَرْجَعًا وَمُنْقَلِبًا وَمَصِيرًا وَنَزَلًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا» أَيْ مَا كَثِيرِينَ فِيهَا أَحْقَابًا وَهِيَ جَمْعُ حُقْبٍ، وَهُوَ الْمُدَّةُ مِنَ الزَّمَانِ. وَقَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ: هَذِهِ الْآيَةُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ<sup>(١٨)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَالِمٍ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يُسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا» قَالَ: أَمَّا الْأَحْقَابُ فَلَيْسَ لَهَا عِدَّةٌ إِلَّا الْخُلُودُ فِي النَّارِ، وَلَكِنْ ذَكَرُوا أَنَّ الْحُقْبَ سَبْعُونَ سَنَةً، كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ<sup>(١٩)</sup>. وَقَالَ سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا» وَهُوَ مَا لَا انْقِطَاعَ لَهُ، وَكُلَّمَا مَضَى حُقْبٌ جَاءَ حُقْبٌ بَعْدَهُ.

حَضُّهَا وَلَمْ تَحْضُ<sup>(٢٠)</sup>. وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتَنُفِّرُ سَحَابًا مَبْسُطًا فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ جَلَلِهِ» [الروم: ٤٨] أَيْ: مِنْ بَيْنِهِ. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: «مَاءٌ نَجْمًا» قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: نَجَاجًا: مُنْصَبًا<sup>(٢١)</sup>. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: مُتَنَابِعًا<sup>(٢٢)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَثِيرًا<sup>(٢٣)</sup>. وَفِي حَدِيثِ الْمُسْتَحَاضَةِ حِينَ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْعَتُ لَكَ الْكُرْسُفَ». يَعْنِي أَنَّ تَحَنُّنِي بِالْقَطْنِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا أَتُجَّ نَجًا<sup>(٢٤)</sup>. وَهَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى اسْتِعْمَالِ النَّجِّ فِي الصَّبِّ الْمُتَنَابِعِ الْكَثِيرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا» وَجَعَلَتْ أَلْفَاظُ «حَبًّا» يَدْخُرُ لِلْأَنْبَاسِيِّ وَالْأَنْعَامِ «وَنَبَاتًا» أَيْ: خُضْرًا يُؤْكَلُ رَطْبًا «وَجَعَلَتْ» أَيْ: بَسَاتِينَ وَحَدَائِقَ مِنْ ثَمَرَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَالْوَلَوَانِ مُخْتَلِفَةٍ وَطُغُومٍ وَرَوَائِحٍ مُتَفَاوِئَةٍ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ مُجْتَمِعًا. وَلِهَذَا قَالَ «وَجَعَلَتْ أَلْفَاظًا». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: «أَلْفَاظًا» مُجْتَمِعَةً<sup>(٢٥)</sup>. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَوِّدٌ وَجَعَلَتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٍ وَخَيْلٍ صِنَانٍ وَغَيْرِ صِنَانٍ يُغْنِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَتُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» [الزمر: ٤٨].

«إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا»<sup>(٢٦)</sup> يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَقْوَامًا<sup>(٢٧)</sup> وَفِي حَتِّ السَّمَاءِ فَكَانَتْ أَبْوَابًا<sup>(٢٨)</sup> وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا<sup>(٢٩)</sup> إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا<sup>(٣٠)</sup> لِلظَّالِمِينَ مَتَابًا<sup>(٣١)</sup> لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا<sup>(٣٢)</sup> لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بِرَدٍّ وَلَا سَرَابًا<sup>(٣٣)</sup> إِلَّا حِمِيمًا وَنَسْفًا<sup>(٣٤)</sup> جَزَاءً وَفَقَاءً<sup>(٣٥)</sup> إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا<sup>(٣٦)</sup> وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا<sup>(٣٧)</sup> وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا<sup>(٣٨)</sup> فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا<sup>(٣٩)</sup>

[تفسير يوم الفصل وتفصيل ما فيه]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفَصْلِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ مُوَقَّتٌ بِأَجَلٍ مُعْدُودٍ لَا يُزَادُ عَلَيْهِ، وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُ، وَلَا يَعْلَمُ وَقْتَهُ عَلَى التَّعْيِينِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعْدُودٍ» [هود: ١٠٤] «يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ فَأَتُونَ أَقْوَامًا» [النبأ: ١٨] قَالَ مُجَاهِدٌ: زُمْرًا زُمْرًا<sup>(٤٠)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَعْنِي: تَأْتِي كُلُّ أُمَّةٍ مَعَ رَسُولِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ» [الإنسان: ٧١]<sup>(٤١)</sup>

(١) البغوي: ٤٣٧/٤ (٢) الطبري: ١٥٥/٢٤ (٣) الطبري:

١٥٥/٢٤ (٤) الطبري: ١٥٥/٢٤ (٥) أبو داود: ١٩٩/١

(٦) الطبري: ١٥٦/٢٤ (٧) الطبري: ١٥٨/٢٤ (٨) الطبري:

١٥٨/٢٤ (٩) فتح الباري: ٥٥٨/٨ (١٠) الطبري: ٢٤/

١٦٣ (١١) الطبري: ١٦٢/٢٤

سُورَةُ النَّبَاِ

٥٨٣

سُورَةُ النَّبَاِ

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارِجَ (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا (٣٣) وَكَأْسًا  
 دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً  
 حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا يَمْلِكُونَ  
 مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ  
 إِلَّا مَن أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن  
 شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ  
 يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِي كُنتُ تَرَبًّا (٤٠)

## سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا (١) وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُفًا (٢) وَالسَّيِّحَاتِ سَبَّحًا (٣)  
 فَالسَّيِّدَاتِ سَبَّحًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦)  
 تَتَّبِعُنَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَرُهَا  
 خَشِيعَةٌ (٩) يَقُولُونَ إِنْ نَأْمُرُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ (١٠) إِنْ دَاكُنَا  
 عِظْمًا فَاخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ  
 وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَنتَكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: مُتَنَزَّهَاً (٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ  
 وَقَتَادَةُ: فَارْزَوْا فَتَجَوُّوا مِنَ النَّارِ (٧). وَالْأَطْهَرُ هَهُنَا قَوْلُ ابْنِ  
 عَبَّاسٍ؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ: «حَدَائِقَ» وَ«كَوَاعِبَ أَزْوَاجًا» أَيُّ: وَحُورًا  
 التَّخِيلِ وَغَيْرِهَا «وَأَعْنَابًا» (٣٢) وَ«كَوَاعِبَ أَزْوَاجًا» أَيُّ: (كَوَاعِبِ)  
 أَيُّ: نَوَاهِدُ، يَعْنُونَ أَنَّ تُدَيِّهَنَّ نَوَاهِدُ لَمْ يَتَدَلَّيْنِ؛ لِأَنَّهُنَّ  
 أَبْكَارٌ عُرُبٌ أَتْرَابُ أَيُّ: فِي سِنٍّ وَاحِدٍ (٨). كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ  
 فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَأْسًا وَدِهَاقًا» قَالَ ابْنُ  
 عَبَّاسٍ: مَمْلُوءَةٌ مُتَتَابِعَةٌ (٩). وَقَالَ عِكْرِمَةُ: صَافِيَةٌ. وَقَالَ  
 مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: «دِهَاقًا» أَلْمَلَأَى  
 الْمُتَرَعَّةَ (١٠). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا»

[وَذُكِّرَ لَنَا أَنَّ الْمُحْتَبَ ثَمَانُونَ سَنَةً (١)]. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ  
 أَنَسٍ: «لَيَتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا» لَا يَعْلَمُ عِدَّةَ هَذِهِ الْأَحْقَابِ إِلَّا  
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَذُكِّرَ لَنَا أَنَّ الْمُحْتَبَ الْوَاحِدَ ثَمَانُونَ سَنَةً،  
 وَالسَّنَةُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ يَوْمًا، وَكُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا  
 تَعُدُّونَ. رَوَاهُمَا أَيْضًا ابْنُ جَرِيرٍ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا يَدْفُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا» أَيُّ: لَا  
 يَجِدُونَ فِي جَهَنَّمَ بَرْدًا لِقُلُوبِهِمْ وَلَا شَرَابًا طَيِّبًا يَتَعَدُّونَ بِهِ،  
 وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا» قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ:  
 اسْتَبْنَيْ مِنَ الْبَرْدِ الْحَمِيمُ، وَمِنَ الشَّرَابِ الْعَسَاقُ (٣). وَكَذَا  
 قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: فَأَمَّا الْحَمِيمُ فَهُوَ الْحَارُّ الَّذِي قَدْ  
 انْتَهَى حَرُّهُ وَحُمُوهُ، وَالْعَسَاقُ هُوَ مَا اجْتَمَعَ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ  
 النَّارِ وَعَرَفِهِمْ وَدُمُوعِهِمْ وَجُرُوحِهِمْ، فَهُوَ بَارِدٌ لَا يُسْتَطَاعُ  
 مِنْ بَرْدِهِ وَلَا يُوَاجَهُ مِنْ تَنَبُّهِهِ - أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ  
 وَكَرَمِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «جَزَاءً وَفَاقًا» أَيُّ: هَذَا الَّذِي  
 صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْعُقُوبَةِ وَفَقَ أَعْمَالِهِمُ الْفَاسِدَةِ الَّتِي  
 كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ  
 وَاحِدٍ (٤). ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا»  
 أَيُّ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ثَمَّ دَارًا يُجَازَوْنَ فِيهَا وَيُحَاسَبُونَ  
 «وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا» أَيُّ وَكَانُوا يَكْذِبُونَ بِحُجَجِ اللَّهِ  
 وَدَلَالِهِ عَلَى خَلْقِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ ﷺ، فَيَقَابِلُونَهَا  
 بِالْكَذِبِ وَالْمُعَانَدَةِ. وَقَوْلُهُ: «كِذَابًا» أَيُّ تَكْذِيبًا، وَهُوَ  
 مُصَدَّرٌ مِنْ غَيْرِ الْفِعْلِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ  
 كِتَابًا» أَيُّ: وَقَدْ عَلِمْنَا أَعْمَالَ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ وَكَتَبْنَاهَا  
 عَلَيْهِمْ، وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا  
 فَشَرٌّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَذَرُّوْهُ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا» أَيُّ:  
 يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ: ذَرُّوْهُ مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا  
 مِنْ جَنْسِهِ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاجٌ. قَالَ قَتَادَةُ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ  
 الْأَزْدِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: لَمْ يَنْزَلْ عَلَى أَهْلِ  
 النَّارِ آيَةٌ أَشَدَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ «فَذَرُّوْهُ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا»  
 قَالَ: فَهُمْ فِي مَزِيدٍ مِنَ الْعَذَابِ أَبَدًا (٥).

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارِجَ (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا (٣٣) وَكَأْسًا  
 دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً  
 حِسَابًا (٣٦)﴾

## [الْفَوْزُ الْكَبِيرُ لِلْمُتَّقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السَّعَادَةِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ تَعَالَى مِنَ  
 الْكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارِجَ

(١) الطبري: ١٦٢/٢٤ (٢) الطبري: ١٦٢/٢٤ (٣) الطبري:

١٦٥/٢٤ (٤) الطبري: ١٦٧/٢٤ (٥) الطبري: ١٦٩/٢٤

(٦) الطبري: ١٧٠/٢٤ والبغوي: ٤٣٩/٤ (٧) الطبري: ٢٤/

١٦٩، ١٧٠ (٨) الطبري: ١٧٠/٢٤ والدر المنثور: ٣٩٨/٨

(٩) الطبري: ١٧٣/٢٤ (١٠) الطبري: ١٧٢/٢٤



## [الْقِيَامَةُ قَرِيبَةً]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ بِعُنَى: يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَتَأْكُدُ وَقُوعِهِ صَارَ قَرِيبًا؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أَيْ: يُعْرِضُ عَلَيْهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ خَيْرَهَا وَشَرُّهَا. قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْقَى الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْتَنِي كُتُّ ثُرَابًا أَيْ: يَوَدُّ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُ كَانَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ثُرَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خُلِقَ وَلَا خَرَجَ إِلَى الْوُجُودِ، وَذَلِكَ حِينَ عَايَنَ عَذَابَ اللَّهِ، وَنَظَرَ إِلَى أَعْمَالِهِ الْفَاسِدَةِ قَدْ شَطَرَتْ عَلَيْهِ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ. وَقِيلَ: إِنَّمَا يَوَدُّ ذَلِكَ حِينَ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، فَيَفْصِلُ بَيْنَهَا بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقْتَصِرُ لِلشَّاءِ الْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْنَاءِ، فَإِذَا فَرَعَ مِنَ الْحُكْمِ بَيْنَهَا قَالَ لَهَا: كُونِي ثُرَابًا، فَتَصِيرُ ثُرَابًا. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَلْتَنِي كُتُّ ثُرَابًا﴾ أَيْ: كُنْتُ حَيَوَانًا فَأَرْجِعْ إِلَى الثَّرَابِ. وَقَدْ وَرَدَ مَعْنَى هَذَا فِي حَدِيثِ الصُّورِ الْمَشْهُورِ، وَوَرَدَ فِيهِ آثَارٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَغَيْرِهِمَا. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّبَأِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثْنُ. وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

تفسير سورة النَّازِعَاتِ  
وهي مَكِّيَّة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا﴾ (١) وَالنَّشِيطَاتُ تَشَاطُؤًا (٢) وَالسَّيِّحَاتُ سَبَاحًا (٣) فَالسَّيِّحَاتُ سَبَاحًا (٤) فَالْمُدْرَاتُ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تُرْجَفُ الرَّابِيعَةُ (٦) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) فُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَرُهَا خَشَعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَوَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) لَوْ كُنَّا عِظَمًا نَجْرَةً (١١) قَالُوا بَلْ كُنَّا إِذَا كَرِهَ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالنَّاهِرَةِ (١٤)

[الْقَسَمُ بِخَمْسَةِ أَوْصَافٍ عَلَى وَقُوعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ

كَقَوْلِهِ: ﴿لَا لَقَوْ فِهَا وَلَا تَأْتِيهِ﴾ [الطور: ٤٣] أَيْ: لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ لَاغٍ عَارٍ عَنِ الْفَائِدَةِ وَلَا إِثْمٌ كَذِبٌ، بَلْ هِيَ دَارُ السَّلَامِ، وَكُلُّ مَا فِيهَا سَالِمٌ مِنَ النَّقْصِ. وَقَوْلُهُ: ﴿جَزَاءُ بَنِ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ جَازَاهُمْ اللَّهُ بِهِ وَأَعْطَاهُمُوهُ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ أَيْ: كَافِيًا وَافِيًا شَامِلًا كَثِيرًا، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَعْطَانِي فَأَحْسَنِي أَيْ: كَفَانِي، وَمِثْلُهُ: "حَسْبِيَ اللَّهُ" أَيْ: اللَّهُ كَافِيٌّ.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (١٥) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (١٦) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْخَلْقُ فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَى رَّبِّهِ مَذَابًا (١٧) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْتَنِي كُتُّ ثُرَابًا (١٨)

[لَا يَجْتَرِءُ أَحَدٌ عَلَى التَّكَلُّمِ أَمَامَ اللَّهِ حَتَّى الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بَعْدَ الْإِذْنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَأَنَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الَّذِي شَمَلَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى ابْتِدَاءِ مُخَاطَبَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ الْمُرَادُ بِالرُّوحِ هَهُنَا هُوَ جَبْرِيلُ. قَالَهُ الشَّعْبِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالصَّحَّاحُ (١). كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (٢) عَلَنَ قَلْبِكَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وَقَالَ مَقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ: الرُّوحُ هُوَ أَشْرَفُ الْمَلَائِكَةِ وَأَقْرَبُ إِلَى الرَّبِّ، عَزَّ وَجَلَّ وَصَاحِبُ الْوَحْيِ (٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥] وَكَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ» (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أَيْ: حَقًّا، وَمِنَ الْحَقِّ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. كَمَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ وَعِكْرَمَةُ (٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْخَلْقُ﴾ أَيْ: الْكَائِنُ لَا مَحَالَةَ ﴿فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَى رَّبِّهِ مَذَابًا﴾ أَيْ: مَرْجِعًا وَطَرِيقًا يَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَمِنْهَا جَاءَ يَمُرُّ بِهِ عَلَيْهِ.

(١) الطبري: ١٧٦/٢٤ والقرطبي: ١٨٦/١٩ (٢) الدر المنثور:

٤٠٠/٨ (٣) فتح الباري: ٤٣٠/١٣ (٤) الطبري: ١٧٨/٢٤

سُورَةُ النَّازِعَاتِ ٥٨٤

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَهْبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾  
 قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَىٰ ﴿١٨﴾ وَاهْدِكِ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ  
 آيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَسَ نَعْسَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ  
 فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾  
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَسْهَا  
 ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾  
 وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَهَامَرَهَا عَنْهَا ﴿٣١﴾  
 وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٣٢﴾ مَنَّاعًا لِّكُمُوعًا وَأَلْمَاحًا ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ  
 الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَبْدَأُ الْإِنْسَانُ مَاسِعًا ﴿٣٥﴾ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ  
 لِمَن بَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ  
 هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾  
 فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾  
 فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَدًا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ  
 مِّنْ يَّحْشُهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوِضْهَا ﴿٤٦﴾

سُورَةُ عَبَسَ ٥٨٥

وَأَبُو صَالِحٍ وَأَبُو الضُّحَى وَالسُّدِّيُّ وَالشَّعْبِيُّ غَرَّبَا: الْمَلَائِكَةُ، يَغْنُونُ حِينَ تَنْزِعُ أَرْوَاحَ بَنِي آدَمَ<sup>(١)</sup>. فَمِنْهُمْ مَّنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِعُسْرِ فَتَغْرُقُ فِي نَزْعِهَا، وَمِنْهُمْ مَّنْ تَأْخُذُ رُوحَهُ بِسُهُولَةٍ وَكَأَنَّمَا حَلَّتْهُ مِنْ يَسَاطِيطٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَالنَّيْطِلَتِ نَشْطًا﴾: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ<sup>(٢)</sup>. وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّيْحَتِ سَبْعًا﴾ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَمُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي صَالِحٍ مِثْلَ ذَٰلِكَ<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالسَّيْقَتِ سَبْعًا﴾ رَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَمَسْرُوقٍ وَمُجَاهِدٍ وَأَبِي صَالِحٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يَعْني الْمَلَائِكَةُ<sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْمَذْيَبَاتِ أَمْثَرًا﴾ قَالَ عَلِيٌّ وَمُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ<sup>(٦)</sup>. زَادَ الْحَسَنُ: تُدَبِّرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، يَعْني: بِأَمْرِ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ.

[صِفَةُ الْقِيَامَةِ وَصِفَةُ النَّاسِ وَأَقْوَالُهُمْ فِيهَا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ تَنْبُعُهَا الرَّادِفَةُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا التَّمْخَنَاتَانِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٨)</sup>. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَمَّا الْأُولَى: وَهِيَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ فَكَفَّوْهُ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمّل: ١٤] وَالثَّانِيَةُ: وَهِيَ الرَّادِفَةُ فِيهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَّةً﴾<sup>(٩)</sup> [الحاقة: ١٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْبُ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْني: خَائِفَةٌ<sup>(١٠)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(١١)</sup>. أَضْمَرُهَا خَشْيَةً أَيُّ: أَضْأَارُ أَصْحَابِهَا - وَإِنَّمَا أَضْيِفْتُ إِلَيْهَا لِلْمَلَابِسَةِ - أَيُّ: ذَلِيلَةٌ حَقِيرَةٌ مِّمَّا عَائِنَتْ مِنَ الْأَهْوَالِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاوِرِ﴾ يَعْني مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ فِي إِنْكَارِ الْمَعَادِ. يَسْتَبْعِدُونَ وَقُوعَ الْبُعْثِ بَعْدَ الْمَصِيرِ إِلَى الْحَاوِرَةِ وَهِيَ الْقُبُورُ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ<sup>(١٢)</sup>. وَبَعْدَ تَمْزِقِ أَجْسَادِهِمْ وَتَفْتَتِ عِظَامِهِمْ وَنُحُورِهَا، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا نَّخِرَةً﴾ وَقُرِئَ:

(نَاجِرَةً) وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَيُّ: بَالِيَةً<sup>(١٣)</sup>.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ الْعَظْمُ إِذَا بَلِيَ وَدَخَلَتِ الرِّيحُ فِيهِ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: ﴿يَاكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: قَالَتْ قُرَيْشٌ: لَيْتَ أَحْيَانَا اللَّهُ بَعْدَ أَنْ تَمُوتَ لِنَحْشُرَ<sup>(١٤)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾<sup>(١٥)</sup> فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ أَيُّ: فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لَا مَثْنُوِيَّةٌ فِيهِ وَلَا تَأْكِيدٌ، فَإِذَا

النَّاسُ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَهُوَ أَنَّ يَأْمُرَ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً الْبُعْثِ، فَإِذَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ يَنْظُرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثْتُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإنشراح: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] قَالَ

(١) الطبري: ١٨٥/٢٤ والقرطبي: ١٩٠/١٩ والدر المنثور: ٨/

٤٠٤ (٢) الطبري: ١٧٨/٢٤ (٣) الدر المنثور: ٨/٤٠٤ (٤)

الطبري: ١٩٠/٢٤ والقرطبي: ١٩٣/١٩ (٥) القرطبي: ١٩/

٩٣ والدر المنثور: ٨/٤٠٤ (٦) الطبري: ١٩٠/٢٤ القرطبي: ١٩٤/١٩ والدر المنثور: ٨/٤٠٣-٤٠٥ (٧) الطبري: ٢٤/

١٩١ (٨) الطبري: ١٩١/٢٤، ١٩٢ (٩) الطبري: ٢٤/١٩٢

(١٠) الطبري: ١٩٣/٢٤ (١١) الطبري: ١٩٣/٢٤ والبغوي:

٤٤٣/٤ (١٢) الطبري: ١٩٥/٢٤ (١٣) الطبري: ١٩٥/٢٤

(١٤) القرطبي: ١٩٨/١٩

وَحَاصِلُهُ: أَنَّهُ كَثُرَ قَلْبُهُ فَلَمْ يَتَّعِزْ لِمُوسَى بِبَاطِنِهِ وَلَا بِظَاهِرِهِ، وَعَلِمَهُ بِأَنَّمَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ عِلْمَ الْقَلْبِ، وَالْإِيمَانَ عَمَلُهُ، وَهُوَ الْإِنْفِيقُ لِلْحَقِّ وَالْخُضُوعُ لَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ أَيُّ فِي مُقَابَلَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَهُوَ جَمْعُهُ السَّحَرَةُ لِيُقَابِلُوا مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ أَيُّ فِي قَوْمِهِ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ قَالَهَا فِرْعَوْنُ بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] بِأَرْبَعِينَ سَنَةً<sup>(٤)</sup>. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَاخَذَهُ اللَّهُ تَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أَيُّ انْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُ انْتِقَامًا جَعَلَهُ بِهِ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِأَمْثَالِهِ مِنَ الْمُتَمَرِّدِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْسُ الرِّقْدَ الْمَرْفُودَ﴾ [هود: ٩٩] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْكُرُ إِلَى الشَّكْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ أَيُّ لِمَن يَتَعَطَّى وَيَتَزَجَّرُ.

﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَنَّمَا فَتَنَّاهُمْ﴾ رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّاهَا ﴿وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صَهْجَهَا﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴿مِنَّا لَكُرٌّ وَلَاقْتِمَاتُ﴾ [القصص: ٣٣]

[خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَشَدُّ مِنْ إِعَادَةِ الْخَلْقِ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْتَجًا عَلَى مُنْكَرِي الْبُعْثِ فِي إِعَادَةِ الْخَلْقِ بَعْدَ بَذْنِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَنَّمَا فَتَنَّاهُمْ﴾ بَلِ السَّمَاءُ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَنَاهَا﴾ فَسَرَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أَيُّ: جَعَلَهَا عَالِيَةَ الْبِنَاءِ بَعِيدَةَ الْفَنَاءِ مُسْتَوِيَةَ الْأَرْجَاءِ مُكَلَّلَةً بِالْكَوَاكِبِ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صَهْجَهَا﴾ أَيُّ: جَعَلَ لَيْلَهَا مُظْلِمًا أَسْوَدَ حَالِكًا وَنَهَارَهَا مُضِيئًا مُشْرِقًا نَبْرًا وَاضِحًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَعْطَشَ لَيْلَهَا: أَظْلَمَهُ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ

ابْنُ عَبَّاسٍ: السَّاهِرَةُ الْأَرْضُ كُلُّهَا<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَفَتَادَةُ وَأَبُو صَالِحٍ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: السَّاهِرَةُ وَجْهُ الْأَرْضِ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا بِأَسْفَلِهَا فَأَخْرَجُوا إِلَى أَعْلَاهَا. قَالَ: وَالسَّاهِرَةُ: الْمَكَانُ الْمُسْتَوِي<sup>(٨)</sup>.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿وَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نُسَبِّحُ الْجِبَالَ تَسْبِيحًا وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] وَبَرَزَتْ الْأَرْضُ الَّتِي عَلَيْهَا الْجِبَالُ وَهِيَ لَا تُعَدُّ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ وَهِيَ أَرْضٌ لَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا حَظِيئَةٌ وَلَمْ يُهْرَقْ عَلَيْهَا دَمٌ.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى﴾ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُ﴾ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشَى﴾ ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ تَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [القصص: ٢٨-٣٣]

[ذِكْرُ قِصَّةِ مُوسَى وَأَنَّهَا عِبْرَةٌ لِّمَن يَخْشَى] يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ ابْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَأَيَّدَهُ اللَّهُ بِالْمُعْجَزَاتِ، وَمَعَ هَذَا اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ حَتَّى أَخَذَهُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ، وَكَذَلِكَ عَاقِبَةُ مَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى﴾ أَيُّ: هَلْ سَمِعْتَ بِخَبَرِهِ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أَيُّ: كَلَّمَهُ نِدَاءً ﴿بِالْوَادِ الْقَدَسِ﴾ أَيُّ: الْمَطَهَّرِ طُوًى وَهُوَ اسْمُ الْوَادِي عَلَى الصَّحِيحِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ طه، فَقَالَ لَهُ: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤] أَيُّ: تَجَبَّرَ وَتَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُ﴾ أَيُّ: قُلْ لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُجِيبَ إِلَى طَرِيقَةٍ وَمَسَلِكٍ تَرْكَبُ بِهِ أَيُّ: تُسَلِّمُ وَتُطِيعُ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أَيُّ: أَذْكُكُ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ ﴿فَخَشِيَ﴾ أَيُّ: فَصَيَّرَ قَلْبَهُ خَاضِعًا لَهُ مُطِيعًا خَاشِعًا بَعْدَ مَا كَانَ قَاسِيًا خَبِيثًا بَعِيدًا مِنَ الْخَيْرِ ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ يُعْنِي: فَأَظْهَرَ لَهُ مُوسَى مَعَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْحَقِّ حُجَّةً قَوِيَّةً وَذَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ أَيُّ: فَكَذَّبَ بِالْحَقِّ وَخَالَفَ مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ،

(١) الطبري: ١٩٨/٢٤ (٢) الطبري: ١٩٨/٢٤ (٣) الطبري:

١٩٨/٢٤ والدر المنثور: ٤٠٨/٨ (٤) القرطبي: ٢٠٢/١٩

(٥) الطبري: ٢٠٦/٢٤ (٦) الطبري: ٢٠٧/٢٤ والدر المنثور:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨٥

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَسَىٰ رَبُّكَ ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْنَىٰ ۖ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَبْرُكُ ﴿١﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرُ ۖ أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَىٰ ﴿٢﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٣﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْبُكِي ۖ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٤﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٧﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿٨﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۖ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿٩﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٠﴾ قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١١﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٢﴾ مِنْ نُّفْثَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٣﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴿١٤﴾ ثُمَّ أَمَانَةً أَفْوَرَهُ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَشْرَهُ ﴿١٦﴾ كَلَّا لَمَّا بَقِضَ مَا أَمَرَهُ ﴿١٧﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿١٨﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿١٩﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٠﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢١﴾ وَعَبَا وَقَضَا ﴿٢٢﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٣﴾ وَحَدَادِقَ غُلْبًا ﴿٢٤﴾ وَفَكْهَةً وَأَبَا ﴿٢٥﴾ مَنَّاعًا لِّكُرِّ ۖ وَلَا تَعْمِكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٢٦﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٧﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٨﴾ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٢٩﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ﴿٣٠﴾ ضَاكِكَةٌ مِّنْ مُّسْتَبْشِرَةٍ ﴿٣١﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٣٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٣٣﴾

بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَافَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ، وَنَهَىٰ نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا، وَرَدَّهَا إِلَىٰ طَاعَةِ مَوْلَاهَا ﴿١﴾ فَإِنَّ الْحِجَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٢﴾ أَيُّ: مُقْلَبُهُ وَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَىٰ الْحِجَّةِ الْفَيْحَاءِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُّسْمَاُهَا﴾ ﴿٣﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَبِهًا ﴿٥﴾ أَيُّ: لَيْسَ عِلْمُهَا إِلَيْكَ وَلَا إِلَىٰ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، بَلْ مَرَدُّهَا وَمَرْجِعُهَا إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَقْتُهَا عَلَى التَّعْيِينِ ﴿٦﴾ نَفْثَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿٧﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَبِهًا﴾ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» ﴿٨﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾ أَيُّ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِتُنْذِرَ النَّاسَ وَتُحَذِّرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، فَمَنْ

وَجَمَاعَةٌ كَثِيرُونَ ﴿٩﴾ وَأَخْرَجَ صُحُفَهَا ﴿١٠﴾ أَيُّ: أَنْتَارَ نَهَارَهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ حِمِّ السَّجْدَةِ أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا دُحِيتَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ أَخْرَجَ مَا كَانَ فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ﴿١١﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ أَيُّ: قَرَّرَهَا وَأَثْبَتَهَا وَأَكْدَهَا فِي أَمَاكِنِهَا وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، الرَّؤُوفُ بِخَلْقِهِ الرَّحِيمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْعًا لِّكَ وَلَا تَمِيزُكَ﴾ أَيُّ: دَحَا الْأَرْضَ فَأَنْبَعَ عُيُونُهَا، وَأَظْهَرَ مَكُونُهَا، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا، وَأَثْبَتَ زُرُوعَهَا وَأَشْجَارَهَا وَبِمَارَهَا. وَتَبَّتْ جِبَالُهَا لِتَسْتَوِيَ بِأَهْلِهَا وَيَقَرَّ قَرَارُهَا، كُلُّ ذَلِكَ مَنَاعًا لِّخَلْقِهِ وَلِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَتْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا وَيَرْكَبُونَهَا مَدَّةَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمَدُ، وَيَقْضِيَ الْأَجَلَ.

﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ﴾ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿١٣﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَىٰ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿١٥﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿١٨﴾ فَإِنَّ الْحِجَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿١٩﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُّسْمَاُهَا ﴿٢٠﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٢١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَبِهًا ﴿٢٢﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا ﴿٢٣﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رُبُوعَهَا لَوْ يَسْأَلُونَكَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ صُحْحًا ﴿٢٤﴾

[يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ وَالْجَحِيمِ وَأَنَّ وَقْتُهَا غَيْرُ مَعْلُومٍ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿٢٥﴾. سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَطُمُّ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ هَائِلٍ مُّفْطِعٍ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّاعَةُ أَهْوَىٰ وَأَمْرٌ﴾ ﴿٢٦﴾ يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٢٧﴾ أَيُّ: حِينَئِذٍ يَذَّكَّرُ ابْنُ آدَمَ جَمِيعَ عَمَلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرُ﴾ [البلد: ٢٣] ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَىٰ﴾ أَيُّ: أَظْهَرَتْ لِلنَّاطِقِينَ فَرَاها النَّاسُ عِيَانًا ﴿٢٨﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٢٩﴾ أَيُّ: تَمَرَّدَ وَعَتَا ﴿٣٠﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣١﴾ أَيُّ: قَدَّمَهَا عَلَىٰ أَمْرِ دِينِهِ وَأَخْرَاهُ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٣﴾ أَيُّ: فَإِنَّ مَصِيرَهُ إِلَى الْجَحِيمِ وَإِنْ مَطَّعَهُ مِنَ الرُّقُومِ، وَمَشْرَبُهُ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٣٤﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيُّ: خَافَ الْقِيَامَ

(١) الطبري: ٢٠٨/٢٤ (٢) الطبري: ٢١١/٢٤ (٣) فتح

الباري: ١٤٠/١

خَشِيَ اللَّهَ وَخَافَ مَقَامَهُ وَوَعِيدَهُ اتَّبَعَكَ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ،  
وَالْخَبِيئَةُ وَالْخَسَارُ عَلَى مَنْ كَذَبَكَ وَخَالَفَكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَا يُلْهَوْنَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ أَي: إِذَا قَامُوا مِنْ  
قُبُورِهِمْ إِلَى الْمَحْشَرِ يَسْتَقْصِرُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَتَّى  
كَانَتْهَا عِنْدَهُمْ كَانَتْ عَشِيَّةً مِنْ يَوْمٍ أَوْ ضُحًى مِنْ يَوْمٍ. وَقَالَ  
جُوَيْرٍ عَنْ الصَّحَّاحِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَا  
يُلْهَوْنَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ أَمَّا عَشِيَّةٌ فَمَا بَيْنَ الظُّهْرِ إِلَى غُرُوبِ  
الشَّمْسِ ﴿أَوْ ضُحًى﴾ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى نِصْفِ  
النَّهَارِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: وَقُتَّ الدُّنْيَا فِي أَغْنِ الْقَوْمِ حِينَ  
عَايَنُوا الْآخِرَةَ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّازِعَاتِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

### تفسير سورة عبس وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى<sup>(١)</sup> أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى<sup>(٢)</sup> وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ يَرَى<sup>(٣)</sup> أَوْ  
يَذْكُرُ فَتَنَّهُمُ الذِّكْرَى<sup>(٤)</sup> أَمَّا مَنْ اسْتَقْبَلَ<sup>(٥)</sup> فَانْتَكَرَ<sup>(٦)</sup> لَمْ يَصْدَقْ<sup>(٧)</sup> وَمَا  
عَلَيْكَ إِلَّا يَرْكَبُ<sup>(٨)</sup> وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى<sup>(٩)</sup> وَهُوَ يَخْفَى<sup>(١٠)</sup> فَانْتَكَرَ<sup>(١١)</sup> عَنْهُ  
لَعْنَى<sup>(١٢)</sup> كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ<sup>(١٣)</sup> لِمَنْ شَاءَ ذِكْرًا<sup>(١٤)</sup> فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ<sup>(١٥)</sup>  
مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ<sup>(١٦)</sup> بِأَيْدِي سَفَرَةٍ<sup>(١٧)</sup> كِرَامٍ بَرَرَةٍ<sup>(١٨)</sup>﴾

[عَتَابُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عُيُوسِهِ فِي وَجْهِ رَجُلٍ ضَعِيفٍ:  
ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ]

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ  
يَوْمًا يَخَاطِبُ بَعْضَ عِظَمَاءِ قُرَيْشٍ وَقَدْ طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِ،  
فَبَيْنَمَا هُوَ يَخَاطِبُهُ وَيُنَاجِيهِ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَ مِمَّنْ  
أَسْلَمَ قَلِيلًا، فَجَعَلَ يَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ وَيُلِحُّ  
عَلَيْهِ، وَوَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَوْ كَفَّ سَاعَتَهُ تِلْكَ؛ لِيَتِمَّ مِنْ  
مُخَاطَبَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ؛ طَمَعًا وَرَغْبَةً فِي هِدَايَتِهِ. وَعَبَسَ فِي  
وَجْهِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخَرِ،  
فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى<sup>(١)</sup> أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى<sup>(٢)</sup> وَمَا يُدْرِيكَ  
لَعَلَّ يَرَى<sup>(٣)</sup>﴾ أَي: يَحْضُلُ لَهُ زَكَاةٌ وَطَهَارَةٌ فِي نَفْسِهِ ﴿أَوْ يَذْكُرُ  
فَتَنَّهُمُ الذِّكْرَى<sup>(٤)</sup>﴾ أَي: يَحْضُلُ لَهُ اتِّعَاطُ [وَانْزَجَارُ] عَنِ  
الْمَحَارِمِ ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَقْبَلَ<sup>(٥)</sup> فَانْتَكَرَ<sup>(٦)</sup> لَمْ يَصْدَقْ<sup>(٧)</sup>﴾ أَي: أَمَّا الْغَنِيُّ  
فَإِنَّهُ تَتَعَرَّضُ لَهُ لَعَلُّهُ يَهْتَدِي ﴿وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْكَبُ<sup>(٨)</sup>﴾ أَي: مَا  
أَنْتَ بِمُطَالِبٍ بِهِ إِذَا لَمْ يَحْضُلْ لَهُ زَكَاةٌ ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ

يَسْعَى<sup>(٩)</sup> وَهُوَ يَخْفَى<sup>(١٠)</sup>﴾ أَي: يَقْصِدُكَ وَيُؤْمُكُ؛ لِيَهْتَدِيَ بِمَا  
تَقُولُ لَهُ ﴿فَانْتَكَرَ<sup>(١١)</sup> عَنْهُ لَعْنَى<sup>(١٢)</sup>﴾ أَي: تَتَشَاغَلُ، وَمِنْ هُنَا أَمَرَ اللَّهُ  
تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَخْصُصَ بِالْإِنْذَارِ أَحَدًا، بَلْ يُسَاوِي  
فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ، وَالْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ، وَالسَّادَةِ  
وَالْعَبِيدِ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالصَّغَارِ وَالْكِبَارِ، ثُمَّ اللَّهُ  
تَعَالَى يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ  
الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ.

وَرَوَى أَبُو يَعْلَى وَابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أُنْزِلَتْ  
﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى<sup>(١)</sup>﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى، أَتَى إِلَى رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ أُرْشِدْنِي، قَالَتْ: وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
رَجُلٌ مِنْ عِظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَتْ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ  
يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ: «أَتَرَى بِمَا أَقُولُ  
بِأَسَاسًا؟». فَيَقُولُ: لَا، فَبَيَّنَ هَذَا أُنْزِلَتْ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى<sup>(١)</sup>﴾  
وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ  
عَائِشَةَ<sup>(٣)</sup>.

(قُلْتُ): كَذَلِكَ هُوَ فِي الْمَوْطِئِ<sup>(٤)</sup>.

[أَوْصَافُ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ<sup>(١)</sup>﴾ أَي: هَذِهِ السُّورَةُ أَوْ  
الْوَصِيَّةُ بِالسَّوَادَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي إِبْلَاحِ الْعِلْمِ بَيْنَ شَرِيفِهِمْ  
وَوَضِيعِهِمْ وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسَّيِّدِي: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ<sup>(١)</sup>﴾ يَعْنِي  
الْقُرْآنَ ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ<sup>(٢)</sup>﴾ أَي: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي  
جَمِيعِ أُمُورِهِ وَيَحْتَمِلُ عَوْدَ الضَّمِيرِ إِلَى الْوَحْيِ لِذِلَالَةِ  
الْكَلَامِ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ<sup>(٣)</sup> مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ<sup>(٤)</sup>﴾ أَي  
هَذِهِ السُّورَةُ أَوْ الْعِطَّةُ وَكِلَاهُمَا مُتَلَاوِمٌ، بَلْ جَمِيعُ الْقُرْآنِ  
فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ أَيْ مُعَظَّمَةٍ مُوقَرَةٍ ﴿مَرْفُوعَةٍ<sup>(٥)</sup>﴾ أَي: غَالِيَةٍ  
الْقَدْرِ ﴿مُطَهَّرَةٍ<sup>(٦)</sup>﴾ أَي: مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ. وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ<sup>(٧)</sup>﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ  
وَابْنُ زَيْدٍ: هِيَ الْمَلَائِكَةُ<sup>(٨)</sup>.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: ﴿سَفَرَةٍ<sup>(٩)</sup>﴾: الْمَلَائِكَةُ، سَفَرَتْ أَصْلَحَتْ  
بَيْنَهُمْ وَجَعَلَتْ الْمَلَائِكَةُ إِذَا نَزَلَتْ بِوَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَأْدِيبِهِ  
كَالسَّفِيرِ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ الْقَوْمِ<sup>(١٠)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كِرَامٍ

(١) الدر المنثور: ٤١٣/٨ (٢) الطبري: ٢٤/٢١٧ (٣) تحفة

الأحوذى: ٢٥٠/٩ (٤) الموطأ: ٢٠٣/١ (٥) الطبري: ٢٤/

٢٢١ والدر المنثور: ٤١٨/٨ (٦) فتح الباري: ٥٦١/٨

وَمِنْهُ يُقَالُ: الْبُعْثُ وَالنُّشُورُ ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] (وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَنْشُرُهَا ثُمَّ نَخْشُوهَا لَحْمًا) [البقرة: ٢٥٩] فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبَ الدَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وَفِيهِ يَرْكَبُ»<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ جَلَّ ثَنَاهُ: كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ هَذَا الْإِنْسَانُ الْكَافِرُ مِنْ أَنَّهُ قَدْ آدَى حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوا﴾ يَقُولُ: لَمْ يُؤَدِّ مَا فَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَرَائِضِ لِزَبْنِهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٩)</sup>.

وَالَّذِي يَقَعُ لِي فِي مَعْنَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّ الْمَعْنَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَشْرَمُ﴾ أَيْ بَعَثَهُ ﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوا﴾ أَيْ: لَا يَفْعَلُهُ الْآنَ، حَتَّى تَنْقَضِيَ الْمُدَّةُ وَيَفْرُغَ الْقَدَرُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِمَّنْ كَتَبَ اللَّهُ أَنْ سَيُوجَدُ مِنْهُمْ، وَيَخْرُجَ إِلَى الدُّنْيَا، وَقَدْ أَمَرَ بِهِ تَعَالَى كَوْنًا وَقَدَرًا، فَإِذَا تَنَاهَى ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ أَشْرَمَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ وَأَعَادَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ.

[إِبْنَاتُ الْحَبِّ وَغَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ فِيهِ امْتِنَانٌ وَفِيهِ اسْتِذْلَالٌ بِإِحْيَاءِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ الْهَامِدَةِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ مَا كَانَتْ عِظَامًا بَالِيَةً وَتُرَابًا مُتَمَرِّقًا ﴿إِنَّا صَبَّأْنَا اللَّهْلَةَ صَبًّا﴾ أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أَيْ: أَشْكَنَاهُ فِيهَا، فَدَخَلَ فِي تَحْوِمِهَا وَتَحَلَّلَ فِي أَجْزَاءِ الْحَبِّ الْمُودِعِ فِيهَا، فَنبَتَ وَارْتَفَعَ وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ﴿فَالْبُنَا فِيهَا جَبًّا﴾ وَعَبًّا وَقَضًّا ﴿فَالْحَبُّ كُلُّ مَا يُذَكَّرُ مِنَ الْحُبُوبِ، وَالْعَبَبُ مَعْرُوفٌ، وَالْقَضْبُ هُوَ الْفُضْفُضَةُ الَّتِي تَأْكُلُهَا الدَّوَابُّ رَطْبَةً، وَيُقَالُ لَهَا: الْقَتُّ أَيْضًا. قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: الْقَضْبُ: الْعَلْفُ.

(١) أحمد: ٤٨/٦ (٢) فتح الباري: ٥٦٠/٨ ومسلم: ٥٤٩/١ وأبو داود: ١٤٨/٢ وتحفة الأحوذى ٢١٥/٨ والنسائي في الكبرى: ٥٠٦/٦ وابن ماجه: ١٢٤٢/٢ (٣) القرطبي: ١/٩ ٢١٧ الضحاك لم يسمع من ابن عباس (٤) البغوي: ٤٤٨/٤ (٥) الطبري: ٢٢٣/٢٤ العوفي ضعيف (٦) الدر المنثور: ٨/٤١٩، ٢٢٣، ٢٢٤ (٧) الطبري: ٢٢٤/٢٤ (٨) فتح الباري: ٤١٤/٨ ومسلم: ٢٢٧٠/٤ (٩) الطبري: ٢٢٥/٢٤ (١٠) الطبري: ٢٢٦/٢٤

بَرَرٌ ﴿أَيُّ: خَلَقَهُمْ كَرِيمٌ حَسَنٌ شَرِيفٌ وَأَخْلَقَهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ بَارَةٌ طَاهِرَةٌ كَامِلَةٌ، وَمِنْ هُنَا يَبْغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ عَلَى السَّدَادِ وَالرَّشَادِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ، مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»<sup>(١)</sup>. أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ<sup>(٢)</sup>.

﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ (٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَ (١٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ (١١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَشْرَمُ (١٢) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُوا (١٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (١٤) إِنَّا صَبَّأْنَا اللَّهْلَةَ صَبًّا (١٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (١٦) فَالْبُنَا فِيهَا جَبًّا (١٧) وَعَبًّا وَقَضًّا (١٨) وَزَيَّنَّاهَا لَخَلَاءِ (١٩) وَحَلَّابِينَ عَلَيْهَا (٢٠) وَفَكَهَنَهَا وَإِبًّا (٢١) مَلَكًا لَكْرًا وَلَاسْتَمِعَكُمُ (٢٢)

[الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ] يَقُولُ تَعَالَى ذَامًا لِمَنْ أَنْكَرَ الْبُعْثَ وَالنُّشُورَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ﴾ لِمَنْ الْإِنْسَانُ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ: وَهَذَا لِجِنْسِ الْإِنْسَانِ الْمَكْذِبِ لِكثْرَةِ تَكْذِيبِهِ بِلَا مُسْتَنَدٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْإِسْتِغْنَادِ وَعَدَمِ الْعِلْمِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿مَا أَكْفَرُ﴾ أَيْ: مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿مَا أَكْفَرُ﴾: مَا أَلْعَنَهُ<sup>(٤)</sup>. ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى لَهُ كَيْفَ خَلَقَهُ مِنَ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ، كَمَا بَدَأَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمُ﴾ (٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقْتُمُ فَقَدَرْتُمُ ﴿أَيُّ: قَدَّرَ أَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَسَقِيَّ أَوْ سَعِيدٌ ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَ﴾ قَالَ الْعُوفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ثُمَّ يَسَّرَ عَلَيْهِ خُرُوجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] أَيْ بِنَاءَهُ لَهُ وَأَوْضَحْنَاهُ وَسَهَّلْنَاهُ عَلَيْهِ عَمَلَهُ، وَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٧)</sup>. وَهَذَا هُوَ الْأَرْجَحُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أَيْ: أَنَّهُ بَعْدَ خَلْقِهِ لَهُ أَمَانَةٌ فَأَقْبَرَهُ أَيْ: جَعَلَهُ ذَا قَبْرِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: قَبِرْتُ الرَّجُلَ إِذَا وَلِيَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَأَقْبَرَهُ اللَّهُ. وَعَصَبْتُ قَرْنَ الثَّوْرِ وَأَعْصَبَهُ اللَّهُ. وَتَبَرَّتْ ذَنْبُ الْبُعِيرِ وَأَبْتَرَهُ اللَّهُ. وَطَرَدْتُ عَنِّي فَلَانًا وَأَطْرَدَهُ اللَّهُ، أَيْ: جَعَلَهُ طَرِيدًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَشْرَمُ﴾ أَيْ: بَعَثَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ

الصَّحِيحُ فِي أَمْرِ الشَّفَاعَةِ أَنَّهُ إِذَا طُلِبَ إِلَى كُلِّ مِنْ أُولَى الْعَرْمِ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْخَلَائِقِ يَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي، حَتَّى إِنْ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَقُولُ: لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي، لَا أَسْأَلُكَ مَرْيَمَ الَّتِي وَلَدْتَنِي<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُغَرِّقُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ<sup>(٢)</sup> وَأُخْتِهِ وَأَبِيهِ<sup>(٣)</sup> وَصَنِيْعِهِ وَبَنِيهِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: الْأَحَبُّ فَلَا أَحَبَّ، وَالْأَقْرَبُ فَلَا أَقْرَبَ مِنْ هَؤُلَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أَيُّ: هُوَ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ غَيْرِهِ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ مُشَاةَ غُرُلَا» قَالَ: فَقَالَتْ زَوْجَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَنْظُرُ - أَوْ يَرَى - بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ؟ قَالَ: «لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» - أَوْ قَالَ: - مَا أَشْغَلَهُ عَنِ النَّظَرِ<sup>(٤)</sup>.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلَا». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: أَيُّبَصِرُ - أَوْ: يَرَى - بَعْضُنَا عَوْرَةَ بَعْضٍ؟ قَالَ: «يَا فُلَانَةُ، لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ». ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٥)</sup>.

[وُجُوهُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ<sup>(٦)</sup> ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ أَيُّ: يَكُونُ النَّاسُ هُنَالِكَ قَرِيقَيْنِ وَجُوهُ مُسْفَرَةٌ أَيُّ: مَسْرُورَةٌ فَرِحَتْ مِنَ الشُّرُورِ فِي قُلُوبِهِمْ، قَدْ ظَهَرَ الْبُشْرُ عَلَى وَجْهِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ<sup>(٧)</sup> تَرْفَعُهَا قَدَرَةٌ﴾ أَيُّ: يَعْلُوهَا وَيَعْشَاهَا قَدَرَةٌ أَيُّ: سَوَادٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿تَرْفَعُهَا قَدَرَةٌ﴾ أَيُّ: يَعْشَاهَا سَوَادُ الْوُجُوهِ<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أَيُّ: الْكَافِرَةُ قُلُوبُهُمْ، الْفَجَرَةُ فِي أَعْمَالِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَذْكُرُ إِلَّا فَالْجَارَ كَفَارًا﴾.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ عَبَسَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَرَبُّنَا﴾ وَهُوَ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ أَدَمٌ وَعَصِيرُهُ أَدَمٌ وَيُسْتَصْبَحُ بِهِ وَيَذْهَبُ بِهِ ﴿وَنَحْلًا﴾ يُؤْكَلُ بَلَحًا وَيُسْرًا وَرَطْبًا وَتَمْرًا وَيَبْتًا وَمَطْبُوحًا وَيُعَصَّرُ مِنْهُ رَبُّ وَخَلٌّ ﴿وَحَدَائِقَ غُلَابًا﴾ أَيُّ: بَسَاتِينَ. قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿غُلَابًا﴾: نَخْلٌ غِلَاطٌ كِرَامٌ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: كُلُّ مَا التَّفَّ وَاجْتَمَعَ<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفَكَكُمُ رَبَّا﴾ أَمَّا الْفَاكِهَةُ فَكُلُّ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ مِنَ الثَّمَارِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْفَاكِهَةُ كُلُّ مَا أُكِلَ رَطْبًا. وَالْأَلْبُ: مَا انْتَبَتِ الْأَرْضُ مِمَّا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ وَلَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ<sup>(١١)</sup>. وَفِي رَوَايَةٍ عَنْهُ: هُوَ الْحَشِيشُ لِلْبَهَائِمِ<sup>(١٢)</sup>.

وَرَوَى أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ قَالَ: سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَكَكُمُ رَبَّا﴾ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تَطْلُنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تَقْلُنِي إِنْ قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ<sup>(١٣)</sup>. فَأَمَّا مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿عَسَ وَنَوَّلَ﴾ فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَفَكَكُمُ رَبَّا﴾ قَالَ: قَدْ عَرَفْنَا الْفَاكِهَةَ فَمَا الْأَلْبُ؟ فَقَالَ: لَعَمْرُكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنْ هَذَا لَهُوَ التَّكْلُفُ<sup>(١٤)</sup>. فَهُوَ إِسْتَادٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ أَنَسٍ بِهِ، وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ شَكْلَهُ وَجَنْسَهُ وَعَيْنَهُ وَالْأَلْبُ فَهُوَ وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ لِقَوْلِهِ: ﴿فَالْبَنَاتُ فِيهَا جَبَّ<sup>(١٥)</sup> وَعَبَا وَفَضَا<sup>(١٦)</sup> وَزَيَّنَا وَنَحْلًا<sup>(١٧)</sup> وَحَدَائِقَ غُلَابًا<sup>(١٨)</sup> وَفَكَكُمُ رَبَّا﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَعَا لَكُمْ وَلَاتَعْمَلُوا كَمَ عَيْشَةِ لَكُمْ وَلِإِنْعَامِكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ<sup>(١٩)</sup> يَوْمَ يَغْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ<sup>(٢٠)</sup> وَأُخْتِهِ وَأَبِيهِ<sup>(٢١)</sup> وَصَنِيْعِهِ وَبَنِيهِ<sup>(٢٢)</sup> لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ<sup>(٢٣)</sup> وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ<sup>(٢٤)</sup> ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ<sup>(٢٥)</sup> وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ<sup>(٢٦)</sup> تَرْفَعُهَا قَدَرَةٌ<sup>(٢٧)</sup> أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ<sup>(٢٨)</sup>﴾

[يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفَرَأَ النَّاسِ فِيهَا مِنْ أَقَارِبِهِمْ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الصَّلَاةُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَظَّمَهُ اللَّهُ وَحَذَرَهُ عِبَادَهُ<sup>(٢٩)</sup>. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: لَعَلَّهُ اسْمٌ لِلنَّفْحَةِ فِي الصُّورِ<sup>(٣٠)</sup>. وَقَالَ الْبَغَوِيُّ: الصَّلَاةُ يُعْنِي صِيْحَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَصْخُ الْأَسْمَاعُ أَيُّ تُبَالِغُ فِي إِسْمَاعِهَا حَتَّى تَكَادُ تَضْمُنُهَا<sup>(٣١)</sup>. ﴿يَوْمَ يَغْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ<sup>(٣٢)</sup> وَأُخْتِهِ وَأَبِيهِ<sup>(٣٣)</sup> وَصَنِيْعِهِ وَبَنِيهِ﴾ أَيُّ: يَرَاهُمْ وَيَفْرُ مِنْهُمْ وَيَبْتَغِدُ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ الْهَوَلَ عَظِيمٌ وَالْخَطْبُ جَلِيلٌ. وَفِي الْحَدِيثِ

(١) الطبري: ٤٢١/٢٢٨، ٢٤ (٢) الطبري: ٢٢٧/٢٤ (٣)

الطبري: ٢٣٠/٢٤، ٢٣١ (٤) الدر المنثور: ٤٢١/٨ (٥)

البغوي: ٤٤٩/٤ مرسل (٦) الطبري: ٢٢٩/٢٤ (٧) الطبري:

٢٣٢/٢٤ (٨) الطبري: ٢٣١/٢٤ (٩) الطبري: ٤٤٩/٢٤

(١٠) مسلم: ١٨٢/١ (١١) الحاكم: ٢٥١/٢ (١٢) تحفة

الأحودي: ٢٥١/٩ (١٣) الدر المنثور: ٤٢٤/٨

تفسير سورة التَّكْوِير  
وهي مكية

[مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ وَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾». <sup>(١)</sup> وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ <sup>(٢)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلِفَتْ (١٣) فَلَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ (١٤) الْجَوَارِ الْكُنْزِ (١٥) وَالْإِنِّلُ إِذَا عَسَسَ (١٦) وَالصُّبْحُ إِذَا انْفَسَسَ (١٧) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٨) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (١٩) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢٠) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢١) وَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٢) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٣) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٤) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٥) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٧) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٨)

[مَا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ تَكْوِيرُ الشَّمْسِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يَعْني: أَظْلَمَتْ <sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْهُ: ذَهَبَتْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ذَهَبَ ضَوْؤُهَا <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿كُوِّرَتْ﴾ غُورَتْ <sup>(٥)</sup>. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: ﴿كُوِّرَتْ﴾ أُلْفِيَتْ، وَالتَّكْوِيرُ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهُ تَكْوِيرُ الْعِمَامَةِ وَجَمْعُ الثَّيَابِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ جَمْعُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لُفَّتْ فَرْمِي بِهَا، وَإِذَا فَعِلَ بِهَا ذَلِكَ ذَهَبَ ضَوْؤُهَا.

رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُكْوَرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» <sup>(٦)</sup>. انفردَ بِهِ الْبُخَارِيُّ، وَهَذَا لَفْظُهُ.

[انْكَدَارُ النُّجُومِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أَي: انْتَثَرَتْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ وَأَصْلُ الْانْكَدَارِ: الانْصِبَابُ. قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أَبِي إِبْنِ كَعْبٍ قَالَ: سَبَّ آيَاتِ قَبْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بَيْنَا النَّاسُ فِي أَسْوَاقِهِمْ إِذْ ذَهَبَ ضَوْءُ الشَّمْسِ فَيَبْنِمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ تَنَازَرَتْ النُّجُومُ، فَيَبْنِمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ وَقَعَتِ الْجِبَالُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَتَحَرَّكَتْ وَاضْطَرَبَتْ وَاخْتَلَطَتْ، فَفَزَعَتِ الْجَنُّ إِلَى الْإِنْسِ، وَالْإِنْسُ إِلَى الْجِنِّ، وَاخْتَلَطَتِ الدَّوَابُّ وَالطَّيْرُ

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلِفَتْ (١٣) فَلَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ (١٤) الْجَوَارِ الْكُنْزِ (١٥) وَالْإِنِّلُ إِذَا عَسَسَ (١٦) وَالصُّبْحُ إِذَا انْفَسَسَ (١٧) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٨) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (١٩) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢٠) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢١) وَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٢) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٣) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٤) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٥) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٧) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٨)

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

وَالْوُحُوشُ، فَمَاجُوا بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قَالَ: اخْتَلَطَتْ ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قَالَ: أَهْمَلَهَا أَهْلُهَا ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قَالَ: قَالَتِ الْجَنُّ نَحْنُ نَأْتِيكُمْ بِالْخَبَرِ، قَالَ: فَانْظَلُّوا إِلَى الْبَحْرِ فَإِذَا هُوَ نَارٌ تَتَّجَجُ، قَالَ: فَيَبْنِمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ تَصَدَّعَتِ الْأَرْضُ صَدْعَةً وَاحِدَةً إِلَى الْأَرْضِ السَّابِغَةِ السُّفْلَى وَإِلَى السَّمَاءِ السَّابِغَةِ الْعُلْيَا، قَالَ: فَيَبْنِمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرِّيحُ فَأَمَاتَتْهُمْ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ <sup>(٧)</sup>. وَهَذَا لَفْظُهُ.

[تَسْيِيرُ الْجِبَالِ، وَتَعْطِيلُ الْعِشَارِ وَحَشْرُ الْوُحُوشِ]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أَي: زَالَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا وَنُسِفَتْ فَتَرَكَتِ الْأَرْضُ قَاعًا صَفْصَفًا وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ: عِشَارُ

(١) أحمد: ٢٧/٢ (٢) تحفة الأحوزي: ٢٥٢/٩ (٣) الطبري: ٢٣٧/٢٤ (٤) الطبري: ٢٣٨/٢٤ ضعيف (٥) الطبري: ٢٣٨/٢٤ (٦) فتح الباري: ٣٤٣/٦ (٧) الطبري: ٢٣٧/٢٤



الإبل<sup>(١)</sup>. قَالَ مُجَاهِدٌ: «عُطِلَتْ» تُرِكَتْ وَسِيَتْ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ أَبُو بَنِي كَعْبٍ وَالضَّحَّاكُ: أَهْمَلَهَا أَهْلُهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: لَمْ تُحْلَبْ، وَلَمْ تُصَرَّ تَحْلَى مِنْهَا أَرْبَابُهَا<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: تُرِكَتْ لَا رَاعِيَ لَهَا<sup>(٥)</sup>. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا كُلِّهِ مُتَقَارِبٌ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْعِشَارَ مِنَ الْإِبِلِ وَهِيَ خَيْرُهَا، وَالْحَوَامِلُ مِنْهَا الَّتِي قَدْ وَصَلَتْ فِي حَمْلِهَا إِلَى الشَّهْرِ الْعَاشِرِ - وَاجْتَدَتْهَا عَشْرَاءٌ وَلَا يَزَالُ ذَلِكَ اسْمُهَا حَتَّى تَضَعُ - قَدْ اسْتَعْلَى النَّاسُ عَنْهَا وَعَنْ كَفَالَتِهَا وَالْإِنْتِفَاعَ بِهَا بَعْدَ مَا كَانُوا أَرْغَبَ شَيْءٍ فِيهَا بِمَا دَهَمَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الْمُفْطَعِ الْهَائِلِ، وَهُوَ أَمْرُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَانْعِقَادِ أَشْبَابِهَا وَوُفُوعِ مُقَدَّمَاتِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ» أَيُّ جُمِعَتْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُنْمَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ لِكِ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» [الأنعام: ٣٨] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُحْشَرُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الذَّبَابُ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ<sup>(٦)</sup>. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَالطَّيْرُ يَحْشَرُ» أَيُّ مَجْمُوعَةٌ.

#### [تَسْجِيرُ الْبَحَارِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ» رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ رِضِيِّ اللَّهُ عَنْهُ لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ: أَيْنَ جَهَنَّمُ؟ قَالَ: الْبَحْرُ. فَقَالَ: مَا أَرَاهُ إِلَّا صَادِقًا، «وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ» [الطور: ٦] «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ»<sup>(٧)</sup>، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ».

#### [تَرْوِيجُ النَّفُوسِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ» أَيُّ: جُمِعَ كُلُّ شَكْلٍ إِلَى نَظِيرِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» [الصفات: ٢٢] وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ««وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ» قَالَ: الضَّرَبَاءُ: كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ عَمَلَهُ وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً» ⑦ فَأَصْحَبُ الثَّمِينَةِ مَا أَصْحَبُ الثَّمِينَةِ ⑧ وَأَصْحَبُ الثَّمِينَةِ مَا أَصْحَبُ الثَّمِينَةِ ⑨ وَالْكَاسِيُونَ الْكَاسِيُونَ» [الواقعة: ٧-١٠] - قَالَ -: هُمُ الضَّرَبَاءُ<sup>(٨)</sup>.

#### [سُؤَالُ الْمَوْدَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا الْمَوْدَةُ سُئِلَتْ» ⑩ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ

هَكَذَا قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ «سُئِلَتْ». وَالْمَوْدَةُ هِيَ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدُسُّونَهَا فِي التُّرَابِ؛ كَرَاهِيَةِ النَّبَاتِ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تُسْأَلُ الْمَوْدَةُ عَلَى أَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَهْدِيدًا لِقَاتِلِهَا، فَإِنَّهُ إِذَا سُئِلَ الْمَظْلُومُ فَمَا ظَنُّ الظَّالِمِ إِذَا؟ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَإِذَا الْمَوْدَةُ سُئِلَتْ» أَيُّ: سَأَلَتْ. وَكَذَا قَالَ أَبُو الضَّحَى: (سَأَلَتْ) أَيُّ: طَالَبَتْ بِدَمِهَا<sup>(٩)</sup>. وَعَنِ الشَّيْخِ وَقَادَةَ مِثْلُهُ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْدَةِ، فَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ، عَنْ [جُدَامَةَ] بِنْتِ وَهْبٍ أُخْتُ عُكَّاشَةَ قَالَتْ: حَضَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نَاسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيَلَةِ فَتَظَرَّتْ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ، فَإِذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ، وَلَا يَصُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا». ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنِ الْعَزْلِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ الْوَأْدُ الْخَفِيُّ، وَهُوَ الْمَوْدَةُ سُئِلَتْ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَةٍ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(١١)</sup>.

#### [كَفَّارَةُ وَأَدِ النَّبَاتِ]

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذَا الْمَوْدَةُ سُئِلَتْ» قَالَ: جَاءَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَأَدْتُ بَنَاتٍ لِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ: «أَعْتَقَ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي صَاحِبُ إِبِلٍ قَالَ: «فَانْحَرِ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَدَنَةً»<sup>(١٢)</sup>.

#### [نَشْرُ الصَّحْفِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا الصَّحُفُ نُشِرَتْ» قَالَ الضَّحَّاكُ: أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ صَحِيفَتَهُ بِسْمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: يَا ابْنَ آدَمَ، تُمْلِي فِيهَا ثُمَّ تُطْوَى، ثُمَّ تُنْشَرُ عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَنْظُرْ رَجُلٌ مَاذَا يُمْلِي فِي صَحِيفَتِهِ<sup>(١٣)</sup>.

(١) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٢) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٣) الطبري: ٢٤٠/٢٤

(٤) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٥) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٦) القرطبي: ٢٢٩/١٩ (٧) الطبري: ٢٤٢/٢٤ (٨) الطبري: ٢٤٠/٢٤

(٩) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (١٠) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (١١) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (١٢) الطبري: ٢٤٠/٢٤

(١٣) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (١٤) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (١٥) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (١٦) الطبري: ٢٤٠/٢٤

(١٧) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (١٨) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (١٩) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٢٠) الطبري: ٢٤٠/٢٤

(٢١) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٢٢) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٢٣) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٢٤) الطبري: ٢٤٠/٢٤

(٢٥) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٢٦) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٢٧) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٢٨) الطبري: ٢٤٠/٢٤

(٢٩) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٣٠) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٣١) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٣٢) الطبري: ٢٤٠/٢٤

(٣٣) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٣٤) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٣٥) الطبري: ٢٤٠/٢٤ (٣٦) الطبري: ٢٤٠/٢٤

وَعِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ إِذَا أَقْبَلَ وَإِنْ كَانَ يَصِحُّ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْإِذْبَارِ أَيْضًا، لَكِنَّ الْإِقْبَالَ هُهْنَا أَنْسَبُ، كَأَنَّهُ أَقْسَمَ بِاللَّيْلِ وَظَلَامِهِ إِذَا أَقْبَلَ، وَبِالْفَجْرِ وَضِيَائِهِ إِذَا أَشْرَقَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ [الليل: ٢٠، ٢١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالصُّحُورِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَجَلَّى ۝﴾ [الضحى: ٢٠، ٢١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَمَلَ اللَّيْلِ سَكَنًا ۝﴾ [الأنعام: ٩٦] وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ: إِنَّ لَفْظَةَ عَسَسَ تُسْتَعْمَلُ فِي الْإِقْبَالِ وَالْإِذْبَارِ عَلَى وَجْهِ الْإِشْرَاكِ، فَعَلَى هَذَا يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ كُلُّ مِنْهُمَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالصُّحُورِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: إِذَا طَلَعَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا أَضَاءَ وَأَقْبَلَ<sup>(٩)</sup>.

[الْقُرْآنُ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ وَلَيْسَ مِنْ نَتِيجَةِ الْجُنُونِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يَعْنِي: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَتَبْلُغُ رَسُولُ كَرِيمٍ أَيْ: مَلَكٌ شَرِيفٌ حَسَنُ الْخَلْقِ بَهِي الْمَنْظَرِ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيُّ وَمِمْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١٠)</sup>. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦٠، ٦١] أَيْ: شَدِيدُ الْخَلْقِ شَدِيدُ الْبُطْشِ وَالْفِعْلِ ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أَيْ: لَهُ مَكَانَةٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ ﴿مُطَّلِعٌ ۝﴾ أَيْ: لَهُ وَجَاهَةٌ وَهُوَ مَسْمُوعُ الْقَوْلِ، مُطَّلِعٌ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى قَالَ قَتَادَةُ: ﴿مُطَّلِعٌ ۝﴾ أَيْ: فِي السَّمَوَاتِ يَعْنِي: لَيْسَ هُوَ مِنْ [أَفْنَاءِ]<sup>(\*)</sup> الْمَلَائِكَةِ، بَلْ هُوَ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَشْرَافِ مُعْتَنَى بِهِ ائْتَجِبَ لِهَذِهِ الرَّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمِينٍ﴾ صِفَةٌ لِجِبْرِيلَ بِالْأَمَانَةِ، وَهَذَا عَظِيمٌ جَدًّا أَنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ يُرَكِّي عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْمَلَكِيَّ جِبْرِيلَ، كَمَا زَكَّى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الْبَشَرِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِجُنُونَ﴾ قَالَ الشَّعْبِيُّ وَمِمْمُونُ بْنُ

[كَشَطُ السَّمَاءِ وَتَسْعِيرُ الْحَجِيمِ وَتَقْرِيبُ الْجَنَّةِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: اجْتَذِبَتْ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كُشِفَتْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُفِرَتْ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: أُحْمِيَتْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ وَأَبُو مَالِكٍ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: أَيْ قُرِبَتْ إِلَى أَهْلِهَا.

[كُلُّ أَحَدٍ يَلْعَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا أَحْضَرَهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَمِلَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ هَذَا هُوَ الْجَوَابُ أَيْ: إِذَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ حِينَئِذٍ تَلْعَلُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَأَحْضَرَتْ ذَلِكَ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنُو الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخُسِّ ۝﴾ الْجَوَارِ الْكُسِّ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝ وَالصُّحُورِ إِذَا تَجَلَّى ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَّلِعٌ ۝ ثُمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِجُنُونَ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئُقِ الْمُبِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ فَإِنَّ زَنْدَهُونَ ۝ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيزَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝

[تَفْسِيرُ الْخُسِّ وَالْكُسِّ]

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ عُمَرُو بْنِ حَرْثٍ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ أَلْصَبَحَ فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخُسِّ ۝﴾ الْجَوَارِ الْكُسِّ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝ وَالصُّحُورِ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ [خَالِدِ] ابْنِ عَرَفَةَ، سَمِعْتُ عَلِيًّا وَسُبُلَ عَنْ ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخُسِّ ۝﴾ الْجَوَارِ الْكُسِّ ۝ فَقَالَ: هِيَ النُّجُومُ تَخْسُنُ بِالنَّهَارِ وَتَكْسُنُ بِاللَّيْلِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: إِقْبَالُهُ بِظُلَامِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَظْلَمَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِذَا نَشَأَ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِذَا غَشِيَ النَّاسَ<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا قَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾: إِذَا أَذْبَرَ<sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَإِبْنَةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ أَيْ إِذَا ذَهَبَ فَنَوَلَى<sup>(٨)</sup>.

(١) الطبري: ٢٤٩/٢٤ (٢) مسلم: ٣٣٦/١ والنسائي في الكبرى: ٥٠٧/٦ (٣) الطبري: ٢٥١/٢٤ (٤) الطبري: ٢٤/٢٥٦ (٥) الطبري: ٢٥٦/٢٤ (٦) الطبري: ٢٥٥/٢٤ (٧) الطبري: ٢٥٦/٢٤ (٨) الطبري: ٢٥٦/٢٤ (٩) الطبري: ٢٥٨/٢٤ (١٠) القرطبي: ٢٤٠/١٩ والدر المنثور: ٤٣٣/٨ (\*) يقال: هذا رجل من أفناء الناس، أي لا يعلم من هو؟ (أفاده د/البناء)

حِينَ قَدِمُوا مُسْلِمِينَ وَأَمَرَهُمْ فَتَلَّوْا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ قُرْآنٍ مُسْلِمَةٍ الْكِتَابِ الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْهَدْيَانِ وَالرَّكَائِكَ فَقَالَ: وَيَحْكُمُ أَيْنَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ؟ وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إِيَّائِي، مِنْ إِلَهٍ. وَقَالَ فَتَادَةُ: «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟» أَيْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» أَيْ: هَذَا الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَتَعَطَّوْنَ «لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ» أَيْ: مَنْ أَرَادَ الْهِدَايَةَ فَعَلَيْهِ بِهِذَا الْقُرْآنُ؛ فَإِنَّهُ [مَنْجَاةٌ] لَهُ وَهِدَايَةٌ، وَلَا هِدَايَةَ فِيْمَا سِوَاهُ «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» أَيْ: لَيْسَتْ الْمَشِيئَةُ مُوَكَّلَةً إِلَيْكُمْ فَمَنْ شَاءَ اهْتَدَى وَمَنْ شَاءَ ضَلَّ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ تَابِعٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. رَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ» قَالَ أَبُو جَهْلٍ: الْأَمْرُ إِلَيْنَا إِنْ شِئْنَا اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ شِئْنَا لَمْ نَسْتَقِم. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»<sup>(٥)</sup>. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكْوِيرِ. وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير سورة الانفطار وهي مكية

### [فضل سورة الانفطار]

رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَامَ مُعَاذُ فَصَّلَى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ فَطَوَّلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفَتَأَنَّ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟ أَيْنَ كُنْتَ عَنْ «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» «وَالضُّحَى» وَ«إِذَا أَلْمَأَتْ أَنْفَطَرْتَ»»<sup>(٦)</sup>. وَأَصْلُ الْحَدِيثِ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٧)</sup>. وَلَكِنْ ذَكَرَ «إِذَا أَلْمَأَتْ أَنْفَطَرْتَ» فِي أَفْرَادِ النَّسَائِيِّ. وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْقِيَامَةِ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: «إِذَا أَلْمَأَتْ

وَمِهْرَانِ وَأَبُو صَالِحٍ وَمَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَحْبُودٍ» يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ<sup>(٨)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْبَيْنِ» يَعْنِي وَلَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ جِبْرِيلَ الَّذِي يَأْتِيهِ بِالرِّسَالَةِ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، لَهُ سِتْمَاةٌ جَنَاحٌ «بِالْأَفْقِ الْبَيْنِ» أَيْ: الْبَيْنِ، وَهِيَ الرُّؤْيَةُ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ بِالْبَطْحَاءِ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى»<sup>(٩)</sup> ذُو مِرْقٍ فَاسْتَوَى<sup>(١٠)</sup> وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى<sup>(١١)</sup> ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى<sup>(١٢)</sup> فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى<sup>(١٣)</sup> فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى [النجم: ٥-١٠] كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ وَتَقْرِيرُهُ، وَالذَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الرُّؤْيَةَ وَهِيَ الْأُولَى، وَأَمَّا الثَّانِيَّةُ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى»<sup>(١٤)</sup> عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى<sup>(١٥)</sup> عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى<sup>(١٦)</sup> إِذْ يَخْتَصِمُ الْمُنْتَهَى مَا يَقَعْنَ<sup>(١٧)</sup> فَبَلَكَ إِنَّمَا ذُكِرْتُ فِي سُورَةِ النَّجْمِ [النجم: ١٣-١٦] وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

### [لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ضَنِينًا فِي ابْلَاحِ الْوُحْيِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ) أَيْ: وَمَا مُحَمَّدٌ عَلَى مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ بِظَنِينٍ أَيْ: بِمُتَّهَمٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ ذَلِكَ بِالضَّادِ أَيْ بِخَيْلٍ. بَلْ يَبْذُلُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ. قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: ظَنِينٌ وَضَنِينٌ سَوَاءٌ أَيْ: مَا هُوَ بِكَاذِبٍ، وَمَا هُوَ بِفَاجِرٍ. وَالظَّنِينُ: الْمُتَّهَمُ وَالضَّنِينُ: الْبَخِيلُ<sup>(١٨)</sup>. وَقَالَ فَتَادَةُ: كَانَ الْقُرْآنُ غَيًّا فَأَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ فَمَا ضَنَّ بِهِ عَلَى النَّاسِ، بَلْ نَشَرَهُ وَبَلَّغَهُ، وَبَذَلَهُ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ<sup>(١٩)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ قِرَاءَةَ الضَّادِ<sup>(٢٠)</sup>.

(قُلْتُ): وَكَلاهما متواتر ومَعْنَاهُ صَحِيحٌ كَمَا تَقَدَّمَ.

### [الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَيْسَ بِوُحْيِ الشَّيْطَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ» أَيْ: وَمَا هَذَا الْقُرْآنُ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ أَيْ: لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ، وَلَا يُرِيدُهُ، وَلَا يَسْتَعِينُ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ»<sup>(٢١)</sup> وَمَا يَلْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ<sup>(٢٢)</sup> إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟» أَيْ: فَأَيْنَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ فِي تَكْذِيبِكُمْ بِهِذَا الْقُرْآنَ مَعَ ظُهُورِهِ وَوُضُوحِهِ وَبَيَانِ كَوْنِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَوْفَدِ بَنِي حَنِيفَةَ

(١) الطبري: ٢٥٩/٢٤ والدر المنثور: ٤٣٤/٨ (٢) الطبري: ٢٦١/٢٤ (٣) الطبري: ٢٦١/٢٤ (٤) الطبري: ٢٦٠/٢٤، ٢٦١ (٥) الطبري: ٢٦٤/٢٤ سفیان الثوري ثقة مدلس وعنعن ولم يصرح بالسماع (٦) النسائي في الكبرى: ٥٠٨/٦ (٧) فتح الباري: ٥٣٢/١٠ ومسلم: ٣٣٩/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨٧

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ  
فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمْتَ  
وَأَخَّرْتَ ⑤ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي  
خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧  
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كَرَامًا  
كَنِينِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ  
الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑭ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الذِّينِ ⑮ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ⑯  
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الذِّينِ ⑰ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑱  
يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ⑲ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ⑳

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا لَوْ أَعْلَى النَّاسِ دَسَّوْهُنَ ②  
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوَّزَوْهُمَّ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ  
مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥

فَوَضَعَ عَلَيْهَا إِصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنِ آدَمَ  
أَتَى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ  
وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَثِدٌ، فَجَمَعْتَ  
وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ وَأَتَى أَوْأُنُ  
الصَّدَقَةُ؟»<sup>(٨)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ» قَالَ مُجَاهِدٌ:  
فِي أَيِّ شَبَهٍ أَبَوْ أُمُّ أَوْ خَالٍ أَوْ عَمٍّ<sup>(١٠)</sup>. وَفِي  
الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،  
إِنَّ أَمْرًا تَرَى وَلَدْتُ غُلَامًا أَسْوَدَ، قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟»  
قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَمَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «فَهَلْ  
فِيهَا مِنْ أَوْزُقٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَتَى أَتَانَهَا ذَلِكَ؟»

كُورَتْ» وَ«إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ» وَ«إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ»<sup>(١)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ» ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ  
فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ ⑤  
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ  
فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ  
بِالذِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كَرَامًا كَنِينِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا  
تَفْعَلُونَ ⑫

[مَا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ» أَي: انشَقَّتْ كَمَا  
قَالَ تَعَالَى: «السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ». «وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ»  
أَي: تَسَاقَطَتْ «وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ،  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَجَّرَ اللَّهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ  
الْحَسَنُ: فَجَّرَ اللَّهُ بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ فَذَهَبَ مَاوُهَا<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ  
قَتَادَةُ: اخْتَلَطَ عَذْبُهَا بِمَالِحِهَا<sup>(٤)</sup>.

«وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُحِثَتْ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ  
السُّدِّيُّ: تُبْعَثُ: تُحْرَكُ فَيُخْرِجُ مِنْ فِيهَا «عَلِمْتَ نَفْسَ مَا  
قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ» أَي: إِذَا كَانَ هَذَا حَصَلَ هَذَا.

[لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْسَى اللَّهَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» هَذَا  
تَهْدِيدٌ، لَا كَمَا يَتَوَهَّمُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَنَّهُ إِزْشَادٌ إِلَى  
الْجَوَابِ حَيْثُ قَالَ: الْكَرِيمُ. حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: غَرَّهُ  
كَرَمُهُ. بَلِ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَا غَرَّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بِرَبِّكَ  
الْكَرِيمِ أَيِ الْعَظِيمِ حَتَّى أَقْدَمْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَقَابَلْتَهُ بِمَا لَا  
يَلِيْقُ. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ:  
يَا ابْنَ آدَمَ، مَا غَرَّكَ بِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ، مَاذَا أَجَبْتَ  
الْمُرْسَلِينَ؟»<sup>(٦)</sup>.

وَقَدْ حَكَى الْبَغَوِيُّ عَنِ الْكَلْبِيِّ وَمَقَاتِلٍ أَنَّهُمَا قَالَا:  
نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَسْوَدِ بْنِ شَرِيْقٍ: ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ  
وَلَمْ يُعَاقَبْ فِي الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «مَا غَرَّكَ  
بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ» أَي: مَا  
غَرَّكَ بِالرَّبِّ الْكَرِيمِ «الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ» أَي:  
جَعَلَكَ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا، مُعْتَدِلَ الْقَامَةِ مُنْتَصِبَهَا، فِي أَحْسَنِ  
الْهَيْئَاتِ وَالْأَشْكَالِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُسْرِ بْنِ  
جِحَاشٍ الْقُرَشِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ

(١) تحفة الأحوذى: ٢٥٢/٩ (٢) الطبري: ٢٦٧/٢٤ (٣) الطبري: ٢٦٧/٢٤ (٤) الطبري: ٢١٧/٢٤ (٥) الطبري: ٢٦٧/٢٤ (٦) تحفة الأشراف: ٧٠/٧ (٧) البغوي: ٤٥٥/٤ (٨) أحمد: ٢١٠/٤ (٩) ابن ماجة: ٩٠٣/٢ (١٠) الطبري: ٢٧٠/٢٤

قَالَ: عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقٌ. قَالَ: «وَهَذَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقٌ»<sup>(١)</sup>.

[سَبَبُ الْغُرُورِ، وَالتَّنْبِيْهُ عَلَى تَسْجِيلِ الْمَلَائِكَةِ لِأَعْمَالِ بَنِي آدَمَ]

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِلِّ الْمُطَفِّفِينَ ١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٦﴾ [الزَّيَادَةُ وَالتَّقْصَانُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ سَبَبٌ لِلْوَيْلِ وَالْخُسْرَانِ]

رَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ كَيْلًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبِلِّ الْمُطَفِّفِينَ﴾ فَحَسَّنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>. وَالْمُرَادُ بِالْمُطَفِّفِ هَهُنَا: الْبُخْسُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِمَّا بِالْإِزْدِيَادِ إِنْ اقْتَضَى مِنَ النَّاسِ، وَإِمَّا بِالتَّقْصَانِ إِنْ قَضَاهُمْ. وَلِهَذَا فَسَّرَ تَعَالَى الْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ بِالْخُسَارِ وَالْهَلَاكِ وَهُوَ الْوَيْلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أَيُّ: مِنَ النَّاسِ ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أَيُّ: يَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ بِالْوَافِي وَالزَّائِدِ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أَيُّ: يَنْقُصُونَ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ يُجْعَلَ «كَالُوا» «وَوَزَنُوا» مُتَعَدِّيًا، وَيَكُونُ «هُمْ» فِي مَحَلِّ نَصَبٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهَا ضَمِيرًا مُؤَكَّدًا لِلْمُسْتَبَرِّ فِي قَوْلِهِ: «كَالُوا» وَ «وَزَنُوا» وَيُخْذِفُ الْمَفْعُولَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَكِلَاهُمَا مُتَقَارِبٌ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلَسْتُمْ بِذَلِكَ حَرِيرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكِلْ فَنَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] وَأَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمَ شُعَيْبٍ وَدَمَّرَهُمْ عَلَى مَا كَانُوا يَبْخُسُونَ النَّاسَ فِي الْمِيزَانِ وَالْمِكْيَالِ.

[تَخْوِيفُ الْمُطَفِّفِينَ مِنَ الْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ أَيُّ: إِنَّمَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى مُوَاجَهَةِ الْكَرِيمِ وَمُقَابَلَتِهِ بِالْمَعَاصِي تَكْذِيبٌ فِي قُلُوبِكُمْ بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لحُوظِينَ ١١﴾ كِرَامًا كَبِيرِينَ ١٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ يَعْنِي: وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَمَلَائِكَةٌ حَفِظَةٌ كِرَامًا فَلَا تَقَابِلُوهُمْ بِالْقَبَائِحِ فَإِنَّهُمْ يَكْتُبُونَ عَلَيْكُمْ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآزِفِ ١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ لِيَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ١٩﴾

[جَزَاءُ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَصِيرُ الْأَبْرَارُ إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ، وَهُمْ الَّذِينَ أَطَاعُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِالْمَعَاصِي. ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْفُجَّارُ مِنَ الْجَحِيمِ وَالْعَذَابِ الْمُقِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْقِيَامَةِ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أَيُّ: لَا يَغِيبُونَ عَنِ الْعَذَابِ سَاعَةً وَاحِدَةً، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا وَلَا يُجَابُونَ إِلَى مَا يَسْأَلُونَ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الرَّاحَةِ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْآزِفِ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أَيُّ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى نَفْعِ أَحَدٍ وَلَا خَلَاصِهِ مِمَّا هُوَ فِيهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى، وَنَذَكَّرُ هَهُنَا حَدِيثَ: «يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَتَقْدِرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿لِمَنْ أَلَمَلَكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمَلَكِ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الْآزِفِ﴾ [الفاتحة: ٤] قَالَ قَتَادَةُ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾: وَالْأَمْرُ - وَاللَّهُ - الْيَوْمَ لِلَّهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُنَازِعُهُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَبِهِ

(١) فتح الباري: ٣٥١/٩ ومسلم: ١١٣٧/٢ (٢) مسلم: ١/

١٩٣ (٣) النسائي في الكبرى: ٥٠٨/٦ وابن ماجه: ٧٤٨/٢

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿١٧﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحَّيْنِ ﴿١٨﴾ كِتَابَ مَرْقُومٍ ﴿١٩﴾ وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ابْنُ آدَمَ قَالَ أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يُنَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴿٢٨﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلِمُونَ ﴿٢٩﴾ كِتَابَ مَرْقُومٍ ﴿٣٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُفْرُوقُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٣٢﴾ عَلَى الْأَرَارِكِ يُنْظَرُونَ ﴿٣٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَّحْتَمٍ ﴿٣٥﴾ خِتَمُهُمْ مِنْ مَّسْكٍ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَرْجُئُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٣٧﴾ عَيْنَايَا شَرِبُوا مِنْهُ الْمُفْرُوقُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَزْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٤٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٤٤﴾

مَصِيرُهُمْ وَمَا وَاهُمْ لَفِي سِجِّينٍ فَعِلٌّ مِنَ السَّجْنِ وَهُوَ الضُّيْقُ، كَمَا يُقَالُ: فُسِقَ، وَشَرِيبٌ، وَخَمِيرٌ، وَسَكِيرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا عَظَّمَ أَمْرَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحَّيْنِ﴾ أَيُّ هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَسِجْنٌ مُقِيمٌ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ، ثُمَّ قَدْ قَالَ قَائِلُونَ: هِيَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي رُوحِ الْكَافِرِ أَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينَ - وَسِجِّينٌ هِيَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ <sup>(٨)</sup>. - وَلَمَّا كَانَ مَصِيرُ الْفُجَّارِ إِلَى جَهَنَّمَ وَهِيَ أَسْفَلُ السَّافِلِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [التين: ٥، ٦]

(١) فتح الباري: ٥٦٥/٨ (٢) مسلم: ٢١٩٥/٤، ٢١٩٦ (٣) أحمد: ٣/٦، ٢٨٦٤ وتحفة الأحوذى: ٨٩/٧ (٤) أبو داود: ٤٨٧/١ (٥) الطبري: ٢٨١/٢٤ إسناده ضعيف فيه شريك بن عبدالله وهو سَيِّءُ الحفظ (٦) الطبري: ٢٨٠/٢٤ (٧) أبو داود: ٤٨٦/١ والنسائي: ٢٩٩/٣ وابن ماجه: ٤٣١/١ (٨) الطوال للطبراني: ٢٣٨

مُعْتَدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٨﴾ أَيُّ مَا يَخَافُ أُولَئِكَ مِنَ الْبُعْثِ وَالْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ فِي يَوْمِ عَظِيمِ الْهَوْلِ. كَثِيرُ الْفَرْعِ جَلِيلُ الْخَطْبِ، مَنْ خَسِرَ فِيهِ أَذْخَلَ نَارًا حَامِيَةً؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ يَقُومُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا فِي مَوْقِفٍ صَعْبٍ حَرَجٍ ضَبَقَ ضَنْكَ عَلَى الْمُجْرِمِ وَيَتَشَاوَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا تُعْجِزُ الْقُوَى وَالْحَوَاسَّ عَنْهُ.

رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أَذُنَيْهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَوْنٍ كِلَاهُمَا عَنْ نَافِعٍ بِهِ <sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنَ الطَّرِيقَيْنِ أَيْضًا <sup>(٢)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّادِ يَعْنِي ابْنَ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذْنِبَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قَدَرُ مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ - قَالَ - فَتَضْهَرُهُمُ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ كَقَدَرِ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقَبَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْجَمَامُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ <sup>(٣)</sup>.

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْ ضَبَقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ <sup>(٤)</sup>. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُونَ أَرْبَعِينَ سَنَةً رَافِعِي رُؤُوسِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، لَا يُكَلِّمُهُمْ أَحَدٌ قَدْ أَلْجَمَ الْعَرَقُ بَرَّهُمْ وَفَاجَرَهُمْ <sup>(٥)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ: يَقُولُونَ مِائَةَ سَنَةٍ. رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ <sup>(٦)</sup>. وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَفْتَتِحُ قِيَامَ اللَّيْلِ: يُكَبِّرُ عَشْرًا وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُسَبِّحُ عَشْرًا وَيَسْتَغْفِرُ عَشْرًا وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاهْلِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي» وَيَتَعَوَّذُ مِنْ ضَبَقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ <sup>(٧)</sup>.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿١٧﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحَّيْنِ ﴿١٨﴾ كِتَابَ مَرْقُومٍ ﴿١٩﴾ وَبَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ابْنُ آدَمَ قَالَ أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يُنَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٧﴾﴾

[كِتَابُ الْفُجَّارِ وَبَعْضُ أَحْوَالِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ أَيُّ أَنَّ

وَقَالَ هَهُنَا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ ٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿وَهُوَ يَجْمَعُ الضُّيُقَ وَالسُّفُولَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِإِذَا أُلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا صَبِيحًا مُقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ مَرْفُومٌ﴾ لَيْسَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وَإِنَّمَا هُوَ تَفْسِيرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْمَصِيرِ إِلَى سِجِّينٍ أَيْ مَرْفُومٌ مَكْتُوبٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ لَا يُزَادُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، أَحَدٌ. قَالَهُ مُحَمَّدٌ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِئَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيْ إِذَا صَارُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ السَّجْنِ وَالْعَذَابِ الْمُهِنِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلِئَلَّ﴾ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ الْهَلَاكُ وَالْدَّمَارُ كَمَا يُقَالُ: وَلِئَلَّ لِفُلَانٍ. وَكَأَمَّا جَاءَ فِي الْمُسْنَدِ وَالسَّنَنِ مِنْ رِوَايَةِ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَلِئَلَّ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ النَّاسَ، وَلِئَلَّ لَهُ وَلِئَلَّ لَهُ»<sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُفَسِّرًا لِلْمُكَذِّبِينَ الْفُجَارِ الْكُفَرَةَ: ﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الْبَلَاءِ﴾ أَيْ لَا يُصَدِّقُونَ بِوُفُوعِهِ وَلَا يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ وَيَسْتَبْعِدُونَ أَمْرَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أَيْ مُعْتَدٍ فِي أَفْعَالِهِ مِنْ تَعَاطِي الْحَرَامِ وَالْمُجَاوِزَةِ فِي تَنَاوُلِ الْمُبَاحِ، وَالْأَثِيمُ فِي أَقْوَالِهِ؛ إِنَّ حَدَّثَ كَذِبًا، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا تَكَلَّمَ عَلَيْهِ إِسْمَانَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الرَّسُولِ يَكْذِبُ بِهِ، وَيَطْرُقُ بِهِ ظَنُّ الشَّيْءِ فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُفْتَعَلٌ مَجْمُوعٌ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَيْكَوْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَسْتَبْهَأَ فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان: ٥٠] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ مَا عَلَّمَهَا مِنَ الرِّبِّ الَّذِي قَدْ لَيْسَ قُلُوبُهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وَالرِّبِّ يَعْتَرِي قُلُوبَ الْكَافِرِينَ، وَالْعَنِيمَ لِلْأَبْرَارِ وَالْعَنِينَ لِلْمُقَرَّبِينَ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ

مَاجَهُ مِنْ طُرُقٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»<sup>(٣)</sup> وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ أَيْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَرٌ وَنُزُلٌ سَجِّينَ، ثُمَّ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ ذَلِكَ مَحْجُورُونَ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ. قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّافِعِيُّ: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَئِذٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أَيْ ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا الْجَزْمَانِ عَنْ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ، مِنْ أَهْلِ النَّيرانِ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أَيْ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّضْمِيرِ وَالتَّخْفِيرِ.

﴿كَلَّا إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ ٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ٩ كِتَابٌ مَرْفُومٌ ١٠ يَشْهَدُهُ الْمَلَكُونَ ١١ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ١٢ عَلَى الْأَرْوَاحِ يَنْظُرُونَ ١٣ تَرَوْنَ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ١٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ ١٥ خِتْمُهُمْ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ١٦ وَمِنَاجِهِمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ١٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُتَقَرَّبُونَ ١٨

### [كِتَابُ الْأَبْرَارِ وَجَزَاؤُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ وَهُمْ بِخِلَافِ الْفُجَارِ ﴿لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ أَيْ مَصِيرُهُمْ إِلَى عِلِّيَّينَ وَهُوَ بِخِلَافِ سِجِّينَ. عَنْ هِلَالِ بْنِ يَسَافٍ، قَالَ: سَأَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ كُتُبًا وَأَنَا حَاضِرٌ: عَنْ سِجِّينَ قَالَ: هِيَ الْأَرْضُ السَّابِغَةُ وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْكُفَّارِ. وَسَأَلَهُ عَنْ عِلِّيَّينَ فَقَالَ: هِيَ السَّمَاءُ السَّابِغَةُ وَفِيهَا أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: إِنَّهَا السَّمَاءُ السَّابِغَةُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: عِلِّيُّونَ: عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَنَهَّى<sup>(٧)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ عِلِّيَّينَ مَأْخُودٌ مِنَ الْعُلُوفِ، وَكُلَّمَا عَلَا الشَّيْءُ وَارْتَفَعَ عَظُمَ وَاتَّسَعَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا أَمْرَهُ

(١) الدر المنثور: ٤٤٤/٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٥٠٩/٦

(٣) الطبري: ٢٨٧/٢٤ وتحفة الأحودي: ٢٥٣/٩ والنسائي في الكبرى: ٥٠٩/٦ وابن ماجه: ١٤١٨/٢ (٤) الطبري: ٢٤/٢٤

٢٩١ (٥) الطبري: ٢٩٠/٢٤ (٦) الطبري: ٢٩٢/٢٤ (٧) الطبري: ٢٩٢/٢٤

وَمَفْخَمًا شَأْنَهُ ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلَوْنَ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُؤَكَّدًا لِمَا كَتَبَ لَهُمْ: ﴿كَتَبَ مَرْفُوعًا﴾ يَشْهَدُ الْمَقْرُونُ ﴿وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. قَالَهُ قَتَادَةُ <sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَشْهَدُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مَقْرُبُوهَا <sup>(٢)</sup>.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أَيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ هُمْ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ، وَجَنَاتٍ فِيهَا فَضْلٌ عَمِيمٌ ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ﴾ وَهِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْجِبَالِ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ يَنْظُرُونَ فِي مُلْكِهِمْ وَمَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ الَّذِي لَا يَنْقُصِي وَلَا يَبِيدُ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ يَنْظُرُونَ﴾ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَهَذَا مُقَابِلٌ لِمَا وُصِفَ بِهِ أَوْلِيكَ الْفَجَارِ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ فَذَكَرَ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يَبْأَحُونَ النَّظَرَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ عَلَى سُورِهِمْ وَفُرْشِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أَيَّ تَعْرِفُ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ فِي ﴿وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أَيَّ صِفَةِ الشَّرَافَةِ وَالْجِسْمَةِ، وَالشُّرُورِ وَالذَّعَةِ وَالرِّيَاسَةِ، مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ النِّعَمِ الْعَظِيمِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ﴾ أَيَّ يُسْقَوْنَ مِنْ خَمْرٍ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالرَّحِيقُ مِنْ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ <sup>(٣)</sup>. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَرَاهُ قَدْ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا شَرِبَتْهُ مَاءٌ عَلَى ظَنِّ سَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْحُومِ. وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَعْطَمَ مُؤْمِنًا عَلَى جُوعٍ أَعْطَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ. وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ كَسَا مُؤْمِنًا ثَوْبًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ» <sup>(٤)</sup>. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَمْتُمْ مِسْكَ﴾ أَيَّ خَلَطْتُمْ مِسْكَ <sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: طَيَّبَ اللَّهُ لَهُمُ الْخَمْرَ فَكَانَ آخِرَ شَيْءٍ يُجْعَلُ فِيهَا مِسْكَ حَتَمَ بِمِسْكِ <sup>(٦)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ <sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أَيَّ وَفِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ؛ وَلْيَتَبَاهَى وَيُكَاثِرْ وَيَسْتَبِقْ إِلَى مِثْلِهِ الْمُسْتَبِقُونَ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَاعْمَلِ الْأَعْمَالُونَ﴾ [الصفافات: ٦١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ أَيَّ وَمِزَاجُ هَذَا الرَّحِيقِ الْمَوْصُوفِ: مِنْ تَسْنِيمٍ أَيَّ مِنْ شَرَابٍ يُقَالُ لَهُ: تَسْنِيمٌ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهُ، قَالَهُ أَبُو صَالِحٍ وَالضَّحَّاكُ <sup>(٨)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمَقْرُونُونَ﴾ أَيَّ يَشْرَبُهَا الْمُقْرَبُونَ صِرْفًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨٩

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

عَلَى الْأَرْكَانِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُوبَ الْكَافَرُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾

### سُورَةُ الْأَنْشِقَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًا فَمَلَقْتَهُ ﴿٦﴾ فَمَأْمَنٌ أَوْ فَرِحَ كِتَبُهُ بِبَيْمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقْلُبُ إِلَى أَهْلِهِمْ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوَفَّ كِتَابَهُ إِذْ غَابَ ظَهْرُهُ عَنْهُمْ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١٠﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٣﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٤﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِالسَّفَاقِ ﴿١٥﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٦﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٧﴾ لَتَرْكُنَّ طبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٨﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٠﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿٢١﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٢﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٤﴾

وَتُمَزَّجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَزْجًا. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ <sup>(٩)</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٢٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكَافِرِ يَضْحَكُونَ ﴿٢٤﴾ عَلَى الْأَرْكَانِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ هَلْ تُوبَ الْكَافَرُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾

[إِسَاءَةُ الْمُجْرِمِينَ وَاسْتَهْزَاؤُهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُجْرِمِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يَضْحَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَيَّ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ وَيَحْتَقِرُونَهُمْ،

(١) الطبري: ٢٩٤/٢٤ (٢) الطبري: ٢٩٤/٢٤ (٣) الطبري: ٢٩٦/٢٤ (٤) أحمد: ١٣/٣ إسناده ضعيف فيه عطية العوفي وهو ضعيف مدلس كما مر ذكره عدة مرات أنظر أيضًا سنن الترمذي (٢٤٤٩) (٥) الطبري: ٢٩٧/٢٤ (٦) الطبري: ٢٩٨/٢٤ (٧) الطبري: ٢٩٧/٢٤ (٨) الطبري: ٣٠١/٢٤ (٩) الطبري: ٣٠١/٢٤



وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٣﴾ فَمَا مِنْ أَوْفٍ كِتَابٍ بِسْمِئِهِ ﴿٤﴾ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٥﴾ وَنَقَلَبَ إِلَيْنِ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٦﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿٨﴾ وَيَصِلُنَّ سَعِيرًا ﴿٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٠﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَجُوزَ ﴿١١﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٢﴾

[انْشِقَاقُ السَّمَاءِ وَتَمْدِيدُ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أَيِ اسْتَمَعَتْ لِرَبِّهَا وَأَطَاعَتْ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَهَا بِهِ، مِنَ الْإِنْشِقَاقِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَحُقَّتْ﴾ أَيِ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تُطِيعَ أَمْرُهُ لِأَنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُعَالَبُ، بَلْ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أَيِ بُسِطَتْ وَفُرِشَتْ وَوُسِعَتْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أَيِ أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ وَتَخَلَّتْ مِنْهُمْ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ <sup>(٣)</sup>. كَمَا تَقَدَّمَ.

[جَزَاءُ الْأَعْمَالِ حَقٌّ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أَيِ إِنَّكَ سَاحٍ إِلَىٰ رَبِّكَ سَحًّا وَغَامِلٌ غَمَلًا ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ ثُمَّ إِنَّكَ سَتَلْقَىٰ مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّلَالِيُّ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ جَبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَخْبِثْ [مَنْ] شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُلَاقِيهِ» <sup>(٤)</sup>. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعِيدُ الضَّمِيرَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّكَ﴾ أَيِ فَمُلَاقٍ رَبِّكَ، وَمَعْنَاهُ فَيَجَازِيكَ بِعَمَلِكَ وَيُكَافِئُكَ عَلَى سَعْيِكَ، وَعَلَى هَذَا فَكِلَا الْقَوْلَيْنِ مُتَلَاوِزٌ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ يَقُولُ: تَعْمَلُ عَمَلًا تَلْقَى اللَّهُ بِهِ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا <sup>(٥)</sup>.

(١) مسلم: ٤٠٦/١ والنسائي في الكبرى: ٥١٠/٦ (٢) فتح الباري: ٢٩٢/١ (٣) الطبري: ٣١٠/٢٤ (٤) مسند الطيالسي: ٢٤٢ إسناده ضعيف لضعف الحسن بن أبي جعفر قال ابن حجر: ضعيف الحديث مع عبادته وفضله [تقريب ١٣٥١] وعن عبيد الزبير وهو مدلس وله شاهد من حديث سهل بن سعد عند الطبراني في الأوسط (٤٢٧٨) والحاكم ٣٢٥/٤ والقضاعي في مسند الشهاب ٤٣٥/١ وصححه الحاكم وأقره الذهبي (٥) الطبري: ٣١٢/٢٤

وَإِذَا مَرُّوا بِالْمُؤْمِنِينَ يَتَعَامَزُونَ عَلَيْهِمْ، أَيِ مُحْتَقِرِينَ لَهُمْ ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أَيِ وَإِذَا انْقَلَبَ أَيُّ رَجَعَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ انْقَلَبُوا إِلَيْهَا فَكِهِينَ أَيِ مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا، وَمَعَ هَذَا مَا شَكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، بَلِ اسْتَعْلَوْا بِالْقَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ يَحْفَرُونَ لَهُمْ وَيَحْسُدُونَ لَهُمْ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُونَ﴾ أَيِ لِكُونِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ دِينِهِمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أَيِ وَمَا بَعَثْنَا هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ حَافِظِينَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَضُدُّ مِنْهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَلَا كُلُّفُوا بِهِمْ؟ فَلِمَ اسْتَعْلَوْا بِهِمْ وَجَحَلُوهُمْ نَصَبَ أَعْيُنِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا فِيهَا وَلَا يُكَلِّمُونَ﴾ <sup>(١)</sup> إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَلِرَحْمَتِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿٢﴾ فَاتَّخَذْنَاهُمْ سِجْرًا حَقًّا أَنْسَوْنَاهُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿٣﴾ إِلَىٰ جَزَائِهِمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أَيِ فِي مُقَابَلَةٍ مَا ضَحِكَ بِهِمْ أَوْلَئِكَ ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ﴾ أَيِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مُقَابَلَةٍ مَنْ رَعِمَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ ضَالُونَ - لَيْسُوا بِضَالِينَ بَلْ هُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُقَرَّبِينَ - يُنْظَرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «هَلْ تُوِبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» أَيِ هَلْ جُوزِيَ الْكُفَّارُ عَلَىٰ مَا كَانُوا يُقَابِلُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَسْتِزْهَاءِ وَالتَّقْيِصِ أَمْ لَا، يَعْنِي قَدْ جُوزُوا أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ وَأَكْمَلَهُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[سَجْدَةُ التَّلَاوَةِ فِي سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ]

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَرَأَ بِهِمْ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ فَسَجَدَ فِيهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَجَدَ فِيهَا. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ <sup>(١)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَةَ فَقَرَأَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ فَسَجَدَ، فَقُلْتُ لَهُ: فَقَالَ: سَجَدْتُ خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ فَلَا أَرَأَى أَنْ أُسْجِدَ بِهَا حَتَّىٰ أَلْقَاهُ <sup>(٢)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾

## [الْعَرْضُ وَالْمُنَاقَشَةُ فِي الْحِسَابِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبِهِ يُبَيِّنُ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أَيُّ سَهْلًا بِلاَ تَعْسِيرٍ أَيْ لَا يُحَقِّقُ عَلَيْهِ جَمِيعَ دَقَائِقِ أَعْمَالِهِ فَإِنَّ مَنْ حُوسِبَ كَذَلِكَ هَلَكَ لَا مَحَالَةَ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَفَلَيْسَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ بِالْحِسَابِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ» (١). وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ (٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَلَبَّ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أَيُّ وَيَرْجِعُ إِلَىٰ أَهْلِهِ فِي الْحِجَّةِ قَالَهُ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ «مَسْرُورًا» أَيُّ فَرِحًا مُغْتَبِطًا بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبِهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أَيُّ بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، تُثْنِي يَدَهُ إِلَىٰ وَرَائِهِ وَيُعْطِي كِتَابَهَا بِهَا كَذَلِكَ «فَسَوْفَ يَدْعَوُا بُرًّا» أَيُّ خَسَارًا وَهَلَاكًا «وَيَصِلُ سَعِيرًا» (٤) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا أَيُّ فَرِحًا لَا يُفَكِّرُ فِي الْعَوَاقِبِ وَلَا يَخَافُ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَعْقَبَهُ ذَلِكَ الْفَرْحُ الْبَسِيرُ الْحُزْنَ الطَّوِيلَ «إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لَنْ يَمُوتَ» أَيُّ كَانَ يَحْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ وَلَا يُعِيدُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا (٥). وَالْحَوْرُ هُوَ الرَّجُوعُ. قَالَ اللَّهُ: ﴿بَلَىٰ إِنْ رَأَيْتَهُ كَانَ يَدُهُ بَصِيرًا﴾ يَعْنِي بَلَىٰ سَيُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا بَدَأَهُ، وَيُجَازِيهِ عَلَىٰ أَعْمَالِهِ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا، فَإِنَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا، أَيُّ عَلِيمًا خَبِيرًا.

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالشَّفَقِ﴾ (٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (٧) وَالْقَمَرِ إِذَا أَتَقَىٰ لَرَتَكُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (٨) فَمَا لَمْ لَا يَوْمُونَ (٩) وَإِذَا فُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ (١٠) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (١١) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (١٢) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (١٣) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (١٤)

## [الْقِسْمُ عَلَى رُكُوبِ الْإِنْسَانِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ]

رَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَشَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَمُكْحُولٌ وَبَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُرَزِيُّ، وَبَكْرِ بْنِ الْأَشَّجِ، وَمَالِكٌ، وَابْنُ أَبِي ذُئْبٍ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجَشُونُ، أَنَّهُمْ قَالُوا: الشَّفَقُ: الْحُمْرَةُ (٥). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: الشَّفَقُ: الْبَيَاضُ (٦). فَالشَّفَقُ هُوَ حُمْرَةُ الْأُفُقِ إِذَا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ كَمَا قَالَهُ

مُجَاهِدٌ (٧). وَإِمَّا بَعْدَ غُرُوبِهَا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ. قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: الشَّفَقُ: الْحُمْرَةُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِذَا ذَهَبَ قِيلَ: غَابَ الشَّفَقُ (٨). وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الشَّفَقُ: بَقِيَّةُ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحُمُرُهَا فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الْعَتَمَةِ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ: الشَّفَقُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَقْتُ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ» (٩).

فَفِي هَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّفَقَ هُوَ كَمَا قَالَهُ الْجَوْهَرِيُّ وَالْخَلِيلُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: «وَمَا وَسَقَ» وَمَا جَمَعَ (١٠). قَالَ قَتَادَةُ: وَمَا جَمَعَ مِنْ نَجْمٍ وَدَابَّةٍ (١١).

وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ: «وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ» يَقُولُ: مَا سَاقَ مِنْ ظِلْمَةٍ: إِذَا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى مَاوَاهُ (١٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالْقَمَرِ إِذَا أَتَقَىٰ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا اجْتَمَعَ، وَاسْتَوَى (١٣). وَقَالَ الْحَسَنُ: إِذَا اجْتَمَعَ: إِذَا امْتَلَأَ (١٤).

وَقَالَ قَتَادَةُ: إِذَا اسْتَدَارَ (١٥). وَمَعْنَى كَلَامِهِمْ أَنَّهُ إِذَا تَكَامَلَ نُورُهُ وَأَبْدَرَ جَعَلَهُ مُقَابِلًا لِلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَرَتَكُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ» رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ «لَرَتَكُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ» حَالًا بَعْدَ حَالٍ، قَالَ هَذَا نَبِيُّكُمْ ﷺ. هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِهَذَا اللَّفْظِ (١٦).

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ» حَالًا بَعْدَ حَالٍ (١٧). فَطَبَقًا بَعْدَ مَا كَانَ رَضِيْعًا، وَشَيْخًا بَعْدَ مَا كَانَ شَابًّا. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ» يَقُولُ: حَالًا بَعْدَ حَالٍ (١٨): رُخَاءَ بَعْدَ شِدَّةٍ، وَشِدَّةَ بَعْدَ رُخَاءٍ، وَغَنَى بَعْدَ فَقْرٍ، وَفَقْرًا بَعْدَ غِنَى، وَصِحَّةَ بَعْدَ سَقَمٍ، وَسَقَمًا بَعْدَ صِحَّةٍ.

(١) أحمد: ٤٧/٦ (٢) فتح الباري: ٥٦٦/٨ ومسلم: ٤/٢٢٠٤ وتحفة الأحوذى: ٢٥٦/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٠/٦ والطبري: ٣١٣/٢٤ (٣) الطبري: ٣١٥/٢٤ (٤) الطبري: ٣١٧/٢٤ (٥) القرطبي: ٢٧٤/١٩ (٦) عبد الرزاق: ٣/٣٥٨ (٧) الطبري: ٣١٨/٢٤ (٨) القرطبي: ٢٧٥/١٩ (٩) مسلم: ٤٢٦/١ (١٠) الطبري: ٣١٩/٢٤ (١١) الطبري: ٢٤/٣٢٠ (١٢) الطبري: ٣٢١/٢٤ (١٣) الطبري: ٣٢١/٢٤ (١٤) الطبري: ٣٢١/٢٤ (١٥) الطبري: ٣٢٢/٢٤ (١٦) فتح الباري: ٥٦٧/٨ (١٧) الطبري: ٣٢٣/٢٤ (١٨) الطبري: ٣٢٣/٢٤

سُورَةُ الْبُرُوجِ ٥٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ مُشْهُودٍ ٣  
 قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ٤ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا ٦  
 قُعُودٌ ٧ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٨ وَمَنْقَمُوا ٩  
 مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ١٠ الَّذِي لَهُ مُلْكُ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١١ إِنَّ الَّذِينَ  
 فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ  
 عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٢ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ  
 جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١٣ إِنَّ بَطْشَ  
 رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٤ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ الْوَعْدِ ١٥ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٦  
 ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ١٧ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ١٨ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ١٩  
 فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ٢٠ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ٢١ وَاللَّهُ مِنْ  
 وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ٢٢ بَلْ هُوَ قَوِيٌّ أَنْ جَعَلَهُ ٢٣ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ٢٤

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ ١٥٦

[التَّكْبِيرُ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ وَتَبَشِيرُهُمْ بِالْعَذَابِ، وَأَنَّ النَّعِيمَ لِلْمُؤْمِنِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ٢ أَيُّ فَمَادَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَالَهُمْ إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَكَلَامُهُ - وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ - لَا يَسْمَعُونَ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاخْتِرَامًا؟ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ ٣ أَيُّ مِنْ سَجِيئَتِهِمُ التَّكْذِيبُ وَالْعِنَادُ وَالْمُخَالَفَةُ لِلْحَقِّ ٤ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٥ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ ٦. ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٧ أَيُّ فَأَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ، بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ يَعْنِي لَكِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ يَقْبَلُوهُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَيُّ بِجَوَارِحِهِمْ ٨ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ ٩ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ١٠ ﴿غَيْرِ مَنُونٍ﴾ ١١ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ غَيْرُ مَنُونٍ ١٢. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضُّحَّاكُ: غَيْرُ مَحْسُوبٍ ١٣. وَحَاصِلُ قَوْلِهِمَا أَنَّهُ غَيْرُ مَقْطُوعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوزٍ﴾ ١٤ وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿غَيْرُ مَنُونٍ﴾ ١٥ غَيْرُ مَنُوقٍ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ.

وَالِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

## تفسير سورة البروج وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ مُشْهُودٍ ٣ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ٤ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧ وَمَنْقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٠﴾

[تفسير البروج]

يُفَسِّمُ تَعَالَى بِالسَّمَاءِ وَبُرُوجِهَا وَهِيَ النُّجُومُ الْعِظَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضُّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: الْبُرُوجُ:

النُّجُومُ ١٢. وَقَالَ الْمِنْهَالُ بْنُ عَمْرٍو: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ١ أَلْخَلْقُ الْحَسَنُ ٢. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا مَنَازِلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ بُرْجًا، تَسِيرُ الشَّمْسُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا شَهْرًا، وَتَسِيرُ الْقَمَرُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَوْمَيْنِ وَثَلَاثًا، فَذَلِكَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ مَنَزَلَةً وَيَسْتَسِيرُ لَيْلَتَيْنِ ٣.

[تفسير اليوم الموعود وشاهد ومشهود]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ مُشْهُودٍ ٣ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ» يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَمَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَلَا يَسْأَلُ فِيهَا مِنْ شَرٍّ إِلَّا

(١) الطبري: ٣٢٧/٢٤ (٢) الطبري: ٣٢٧/٢٤ (٣) الطبري:

٣٢٧/٢٤ (٤) القرطبي: ٢٠٠/١٩ (٥) القرطبي: ٢٨٣/١٩

(٦) الطبري: ٣٣٢/٢٤

وَكَلَامُهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاجِرَ ضَرْبُهُ وَقَالَ: مَا حَسَبَكَ؟ وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرْبُهُ وَقَالُوا: مَا حَسَبَكَ؟ فَشَكَكَ ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ السَّاجِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ: حَسْبِيَ أَهْلِي، وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ: حَسْبِيَ السَّاجِرُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَطِيعَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا. فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ أَمْ أَمْرُ السَّاجِرِ؟ قَالَ: فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضِي مِنْ أَمْرِ السَّاجِرِ فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ، وَرَمَاهَا فَفَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ.

فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَيُّ بَنِي، أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي وَإِنَّكَ سَتَبْتَلِي، فَإِنْ ابْتَلَيْتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ جَلِيسٌ فَعَوِيَ فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: أَشْفِينِي وَلَكَ مَا هَهُنَا أَجْمَعُ، فَقَالَ: مَا أَنَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَّنَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ.

ثُمَّ أَتَى الْمَلِكُ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فُلَانُ، مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ فَقَالَ: رَبِّي. فَقَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَيُّ بَنِي بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءُ؟ قَالَ: مَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَوْلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأَتَيْهِ بِالرَّاهِبِ فَقَالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبِي، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبِي، وَقَالَ لِلْغُلَامِ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَدَهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوْا بِهِ الْجَبَلَ قَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ

أَعَادَهُ. ﴿وَمَشْهُودٌ﴾ يَوْمَ عَرَفَةَ<sup>(١)</sup>. وَهَكَذَا رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَقَدْ رَوَى مُوقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ أَشْبَهُ<sup>(٢)</sup>. [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ، وَالضَّحَّاكَ: الْمَشْهُودُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ].

قَالَ الْبَغَوِيُّ: الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الشَّاهِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْمَشْهُودُ: يَوْمَ عَرَفَةَ<sup>(٣)</sup>.

[ظَلَّمَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ الْمُسْلِمِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ﴾ أَيُّ لَعْنٍ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ، وَجَمْعُهُ أَخَادِيدُ وَهِيَ الْخَفْرُ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا خَبْرٌ عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَمَدُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَفَقَهُوهُمْ وَأَرَادُوهُمْ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ، فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ فَحَقَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخْذُودًا وَأَجْبُجُوا فِيهِ نَارًا، وَأَعْدُوا لَهَا وَفُودًا يَسْعُرُونَهَا بِهِ، ثُمَّ أَرَادُوهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ فَقَدَفُوهُمْ فِيهَا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ﴾ الْنَارِ ذَاتِ الْوُودِ ﴿لِإِذْ هَرَّ عَلَيْهَا فُؤُودُ﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَقْعُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ أَيُّ مُشَاهِدُونَ لِمَا تَفْعَلُ بِأَوْلِيكَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَقْعُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أَيُّ وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُضَامُ مَنْ لَا يَجْتَانِيهِ الْمَنِيْعُ الْحَمِيدُ، فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَسُرْعِهِ وَقَدْرِهِ - وَإِنْ كَانَ قَدْ قَدَّرَ عَلَى عِبَادِهِ هَؤُلَاءِ هَذَا الَّذِي وَقَعَ بِهِمْ بِأَيْدِي الْكُفَّارِ بِهِ، فَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ وَإِنْ خَفِيَ سَبَبُ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ تَمَامِ الصِّفَةِ: أَنَّهُ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيُّ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

[قِصَّةُ سَاجِرٍ وَرَاهِبٍ وَغُلَامٍ وَمَنْ أَدْخَلَ الْأَخْذُودَ]

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ضَهَبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ وَكَانَ لَهُ سَاجِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ السَّاجِرُ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرَ سِنِّي وَحَضَرَ أَجْلِي، فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لِأَعْلَمَهُ السَّحْرَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا فَكَانَ يُعَلِّمُهُ السَّحْرَ، وَكَانَ بَيْنَ السَّاجِرِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ رَاهِبٌ فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعَجَبَهُ نَحْوَهُ

(١) الطبري: ٣٣٣/٢٤، ٣٣٤ (٢) ابن خزيمة: ١١٦/٣ (٣) البغوي: ٤٦٦/٤

[تُبَانِ أَسْعَدَ أَبِي كَرَبٍ] وَهُوَ تَبَعُ الَّذِي غَزَا الْمَدِينَةَ وَكَسَا  
الْكَعْبَةَ وَاسْتَضَحَبَ مَعَهُ حَبْرَيْنِ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ  
تَهَوَّدَ مَنْ تَهَوَّدَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ عَلَى يَدَيْهِمَا كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ  
إِسْحَاقَ مَبْسُوطًا، فَقَتَلَ ذُو نُوَاسٍ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ فِي  
الْأَخْدُودِ عَشْرِينَ أَلْفًا وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ سِوَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُقَالُ  
لَهُ: دَوْسُ ذُو ثُعْلَبَانَ، ذَهَبَ فَارِسًا، وَطَرَدُوا وَرَاءَهُ فَلَمْ  
يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، فَذَهَبَ إِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ فَكَتَبَ إِلَى  
النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ جَيْشًا مِنْ نَصَارَى  
الْحَبَشَةِ يَقْدُمُهُمْ أَرْيَاطُ وَأَبْرَهَةَ فَاسْتَقْبَلُوا الْيَمَنَ مِنْ أَيْدِي  
الْيَهُودِ، وَذَهَبَ ذُو نُوَاسٍ هَارِبًا فَلَجَّجَ فِي الْبَحْرِ فَعَرِقَ،  
وَاسْتَمَرَّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ فِي أَيْدِي النَّصَارَى سَبْعِينَ سَنَةً، ثُمَّ  
اسْتَقْبَلَهُ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ الْجُمَيْرِيُّ مِنْ أَيْدِي النَّصَارَى،  
لَمَّا اسْتَحْجَاشَ بِكِسْرَى مَلِكِ الْفُرسِ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ مَنْ فِي  
السُّجُونِ فَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ سَبْعِمِائَةٍ، فَفَتَحَ بِهِمُ الْيَمَنَ وَرَجَعَ  
الْمَلِكُ إِلَى حِمْيَرَ، وَسَدَّكَرَ طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ،  
فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (٣).

### [جَزَاءُ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَيْ  
حَرَقُوا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ  
أَبَرِي (٤). ﴿ثُمَّ لَمْ يَهَيِّؤُوا﴾ أَيْ لَمْ يَقْلِعُوا عَمَّا فَعَلُوا وَيَنْدُمُوا  
عَلَى مَا أَسْلَفُوا ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْخَرِيقِ﴾ وَذَلِكَ  
أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: انْظُرُوا  
إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى  
التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾  
ذَلِكَ الْقَوْلُ الْكَبِيرُ (١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (٢) إِنَّهُمْ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدُ  
(٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (٥) فَقَالَ لِمَا بَرِدُ (٦)  
هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُودِ (٧) فَرَعَوْنَ وَتَمُودَ (٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي  
تَكْذِيبِ (٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (١٠) بَلْ هُوَ فَرْدٌ حَمِيدٌ (١١) فِي  
نَوْجٍ مَحْضُوطٍ (١٢)

### [جَزَاءُ الصَّالِحِينَ وَالْبَطْشُ الشَّدِيدُ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ

#### الْكَافِرِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ

فُتَاهِدُهَا أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى  
الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى،  
فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرُقُورٍ فَقَالَ: إِذَا لَجَجْتُمْ بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ  
رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَعَرِّقُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَجَجُوا بِهِ الْبَحْرَ  
فَقَالَ الْغُلَامُ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَعَرِّقُوا أَجْمَعُونَ.

وَجَاءَ الْغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ  
أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى. ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ:  
إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ، فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ  
مَا أَمَرْتُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي، قَالَ: وَمَا  
هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى  
جَذَعٍ وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ  
الْغُلَامِ. فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَفَعَلَ وَوَضَعَ السَّهْمَ  
فِي كَبِدِ قَوْسِهِ ثُمَّ رَمَاهُ وَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، فَوَقَعَ  
السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ  
وَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَقِيلَ لِلْمَلِكِ:  
أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْدَرُ؟ فَقَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ  
كُلُّهُمْ، فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السَّكِّكِ، فَخَدَعَتْ فِيهَا الْأَخَادِيدُ  
وَأَضْرَمَتْ فِيهَا النَّيرانَ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ،  
وَإِلَّا فَأَقْفُمُوهُ فِيهَا، قَالَ: فَكَانُوا يَتَعَادُونَ فِيهَا وَيَتَدَفَعُونَ،  
فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا ثُرَيْضُهُ، فَكَانَتْهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي  
النَّارِ فَقَالَ الصَّبِيُّ: اضْبِرِّي يَا أُمَّاهُ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ (١).  
وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي آخِرِ الصَّحِيحِ (٢). وَقَدْ أوردَ مُحَمَّدُ  
ابْنُ إِسْحَاقَ بْنُ يَسَارٍ هَذِهِ الْقِصَّةَ فِي السَّيَرَةِ بِسِيَاقٍ آخَرَ،  
فِيهَا مُخَالَفَةٌ لِمَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ أَنَّ أَهْلَ نَجْرَانَ صَارُوا  
بَعْدَ قَتْلِ الْغُلَامِ عَلَى دِينِهِ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ: قَالَ: فَسَارَ إِلَيْهِمْ  
ذُو نُوَاسٍ بِجُنْدِهِ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ أَوْ  
الْقَتْلِ فَاخْتَارُوا الْقَتْلَ، فَخَدَّ الْأَخْدُودَ فَحَرَّقَ بِالنَّارِ وَقَتَلَ  
بِالسَّيْفِ، وَمَثَلَ بِهِمْ حَتَّى قَتَلَ مِنْهُمْ قَرِيبًا مِنْ عَشْرِينَ أَلْفًا،  
فَقَبِي ذِي نُوَاسٍ وَجُنْدِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ:  
﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ (١) النَّارُ ذَاتُ الْوُقُودِ (٢) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا  
مُتَوَدِّ (٣) وَهُمْ عَلَى مَا يَقُولُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٤) وَمَا نَسَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا  
أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَرِيزِ الْحَمِيدِ (٥) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) هَكَذَا ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي  
السَّيَرَةِ: أَنَّ الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ هُوَ ذُو نُوَاسٍ  
وَاسْمُهُ زُرْعَةُ، وَيُسَمَّى فِي زَمَانِ مَمْلَكِيَّةِ يُوُسُفَ، وَهُوَ ابْنُ

(١) أحمد: ١٧/٦ (٢) مسلم: ٢٢٩٩/٤ (٣) ابن هشام: ١/

٣٦ (٤) الطبري: ٣٤٤، ٣٤٣/٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٩١

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③ إِنَّ كُلَّ  
نَفْسٍ لَّمَّا عَلِمَتْ حَافِظًا ④ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ  
دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧  
يَوْمَ بُلِيَ السَّرَائِرُ ⑨ فَالْهُنَّ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا فَانِصِرُ ⑩ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ ⑪  
وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّيْعِ ⑫ إِنَّمَا لَقَوْلُ فَصْلٍ ⑬ وَمَا هُوَ إِلَّا رُجُلٌ ⑭ لَمْ يَكُنْ  
يَكِيدُ وَلَا يُكِيدُ ⑮ وَأَكِيدُ كَيْدًا ⑯ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رَيْدًا ⑰

سُورَةُ الْأَعْلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ③  
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ⑤ سُبْحَتَكَ  
فَلَا تَنسَى ⑥ إِنْ مَأْشَاءَ اللَّهُ إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ⑦ وَيُخَوِّفُ  
لِلنَّاسِ ⑧ فَذَكِّرْ إِنَّ نَفْعَتَ الذِّكْرِ ⑨ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ⑩  
وَيَنْجِنُهَا الْأَشْفَى ⑪ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ⑫ ثُمَّ لَا يَمُوتُ  
فِيهَا وَلَا يَحْيَى ⑬ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَى ⑭ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ⑮

الْبَقَرَةَ وَالنَّسَاءَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفَتَأَنَّ أَنْتَ يَا مُعَاذُ، مَا  
كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقْرَأَ بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا  
وَنَحْوَهَا؟»<sup>(٣)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③ إِنَّ كُلَّ  
نَفْسٍ لَّمَّا عَلِمَتْ حَافِظًا ④ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ  
دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧  
يَوْمَ بُلِيَ السَّرَائِرُ ⑨ فَالْهُنَّ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا فَانِصِرُ ⑩ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ ⑪  
وَالْأَرْضَ ذَاتَ الصَّيْعِ ⑫ إِنَّمَا لَقَوْلُ فَصْلٍ ⑬ وَمَا هُوَ إِلَّا رُجُلٌ ⑭ لَمْ يَكُنْ  
يَكِيدُ وَلَا يُكِيدُ ⑮ وَأَكِيدُ كَيْدًا ⑯ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رَيْدًا ⑰

[الْقَسَمُ عَلَى كَوْنِ الْإِنْسَانِ مُحَاطًا بِنِظَامِ اللَّهِ]

يُقْسِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالسَّمَاءِ وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنْ  
الْكَوَاكِبِ النَّبِيرَةِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ» ثُمَّ قَالَ:  
«وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ» ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: «النَّجْمُ الثَّاقِبُ» قَالَ  
قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا سُمِّيَ النَّجْمُ طَارِقًا لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَرَى بِاللَّيْلِ

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ بِخِلَافِ مَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْحَرِيقِ  
وَالْحَجِيمِ، وَلِهَذَا قَالَ: «ذَلِكَ الْقَوْفُ الْكَبِيرُ» ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:  
«إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ» أَيْ إِنَّ بَطْشَهُ وَانْتِقَامَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ  
الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَخَالَفُوا أَمْرَهُ لَشَدِيدٌ عَظِيمٌ قَوِيٌّ، فَإِنَّهُ  
تَعَالَى ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ كَمَا يَشَاءُ، فِي  
مِثْلِ لَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّهُ هُوَ  
يُبْدِي وَيُخْفِي» أَيْ مِنْ قُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ الثَّامَّةِ يَبْدِي الْخَلْقَ وَيُخْفِيهِ  
كَمَا بَدَأَهُ بِلا مَمَانٍ وَلَا مَدَافِعَ «وَهُوَ الْقَوْفُ الْوَدُودُ» أَيْ يَغْفِرُ  
ذَنْبَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ وَلَوْ كَانَ الذَّنْبُ مِنْ أَيْ  
شَيْءٍ كَانَ، «الْوَدُودُ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هُوَ  
الْحَبِيبُ<sup>(١)</sup>. «ذُو الْعَرْشِ» أَيْ صَاحِبُ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ  
الْعَالِي عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَ«الْمُجِدُّ» فِيهِ قِرَاءَتَانِ:  
الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْجُرُّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ  
لِلْعَرْشِ وَكِلَاهُمَا مَعْنَى صَحِيحٌ «فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ» أَيْ مَهْمَا  
أَرَادَ فَعَلَهُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعِظَمَتِهِ  
وَقَهْرِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، كَمَا رَوَيْنَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ  
قِيلَ لَهُ وَهُوَ فِي مَرَضٍ الْمَوْتُ: هَلْ نَظَرَ إِلَيْكَ الطَّيِّبُ؟  
قَالَ: نَعَمْ. قَالُوا: فَمَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: قَالَ لِي: إِنِّي فَعَالٌ  
لِمَا أُرِيدُ<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ⑦ فَرَعُونَ وَمُؤَدَّةُ ⑧  
أَيُّ هَلْ بَلَغَكَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ النَّبَاسِ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ  
النِّقْمَةِ الَّتِي لَمْ يَزِدْهَا عَنْهُمْ أَحَدٌ؟ وَهَذَا تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:  
«إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ» أَيْ إِذَا أَخَذَ الظَّالِمُ أَخْذَهُ أَخْذًا أَلِيمًا  
شَدِيدًا أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي  
تَكْذِيبٍ» أَيْ هُمْ فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ وَكُفْرٍ وَعِنَادٍ «وَاللَّهُ مِنْ  
وَرَاءِهِمْ مُخِيطٌ» أَيْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ قَاهِرٌ، لَا يَقْوُونَ لَهُ وَلَا  
يُعْجِزُونَهُ «بَلِ هُوَ قَرِيبٌ مَجِيدٌ» أَيْ عَظِيمٌ كَرِيمٌ «فِي لَهَجٍ  
مُحْفَظٍ» أَيْ هُوَ فِي الْمِلَّةِ الْأَعْلَى مُحْفَظٌ مِنَ الزِّيَادَةِ  
وَالنَّقْصِ وَالتَّخْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبُرُوجِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الطَّارِقِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الطَّارِقِ]

وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: صَلَّى مُعَاذُ الْمَغْرِبَ فَقَرَأَ

(١) الطبري: ٣٤٦/٢٤ (٢) القرطبي: ٢٩٧/١٩ (٣) النسائي

في الكبرى: ٥١٢/٦

أَتَيْنَهُمْ رَسُولًا ﴿٧﴾

[الْقَسَمُ عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا وَفَسْلُ مُخَالَفِيهِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الرَّجْعُ: الْمَطَرُ<sup>(١)</sup>. وَعَنْهُ: هُوَ السَّحَابُ فِيهِ الْمَطَرُ. وَعَنْهُ ﴿وَالسَّاءِ ذَاتِ الْبَيْتِ﴾ تَمْطُرُ ثُمَّ تَمْطُرُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَرْجِعُ رِزْقَ الْعِبَادِ كُلِّ عَامٍ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَهَلَكُوا وَهَلَكْتَ مَوَاشِيهِمْ<sup>(٢)</sup>. ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّنْعِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ انْصِدَاعُهَا عَنِ النَّبَاتِ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَأَبُو مَالِكٍ وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَقٌّ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ. وَقَالَ آخَرُ: حُكْمٌ عَدْلٌ ﴿وَمَا هُوَ بِالْمَزَلِ﴾ أَيْ بَلْ هُوَ جِدُّ حَقٍّ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْكَافِرِينَ بِأَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ بِهِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أَيْ يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى خِلَافِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ أَنْظِرْهُمْ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴿أَتَيْنَهُمْ رَسُولًا﴾ أَيْ قَلِيلًا أَيْ وَسْتَرَى مَاذَا أَحْلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ وَالْهَلَاكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنَمْنَعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

[لقمان: ٢٤]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطَّارِقِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَّحِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضْلُ سُورَةِ الْأَعْلَى]

(هِيَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ) وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْنُومٍ، فَجَعَلَا يُقْرَأَانِ الْقُرْآنَ، ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ وَبِلَالٌ وَسَعْدٌ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عَشْرِينَ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرَحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهِ، حَتَّى رَأَيْتُ الْوَلَايِدَ وَالصَّبِيَّانَ يَقُولُونَ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ جَاءَ،

(١) الطبري: ٣٥١/٢٤ (٢) فتح الباري: ٢٥١/٩ (٣) الطبري: ٣٥٢/٢٤ (٤) الدر المنثور: ٤٧٥/٨ (٥) البخاري: ٦١٧٨، ٦١٧٧، ٦١٧٨، ٦١٧٩، ٦١٨٠، ٦١٨١، ٦١٨٢، ٦١٨٣، ٦١٨٤، ٦١٨٥، ٦١٨٦، ٦١٨٧، ٦١٨٨، ٦١٨٩، ٦١٩٠، ٦١٩١، ٦١٩٢، ٦١٩٣، ٦١٩٤، ٦١٩٥، ٦١٩٦، ٦١٩٧، ٦١٩٨، ٦١٩٩، ٦٢٠٠، ٦٢٠١، ٦٢٠٢، ٦٢٠٣، ٦٢٠٤، ٦٢٠٥، ٦٢٠٦، ٦٢٠٧، ٦٢٠٨، ٦٢٠٩، ٦٢١٠، ٦٢١١، ٦٢١٢، ٦٢١٣، ٦٢١٤، ٦٢١٥، ٦٢١٦، ٦٢١٧، ٦٢١٨، ٦٢١٩، ٦٢٢٠، ٦٢٢١، ٦٢٢٢، ٦٢٢٣، ٦٢٢٤، ٦٢٢٥، ٦٢٢٦، ٦٢٢٧، ٦٢٢٨، ٦٢٢٩، ٦٢٣٠، ٦٢٣١، ٦٢٣٢، ٦٢٣٣، ٦٢٣٤، ٦٢٣٥، ٦٢٣٦، ٦٢٣٧، ٦٢٣٨، ٦٢٣٩، ٦٢٤٠، ٦٢٤١، ٦٢٤٢، ٦٢٤٣، ٦٢٤٤، ٦٢٤٥، ٦٢٤٦، ٦٢٤٧، ٦٢٤٨، ٦٢٤٩، ٦٢٥٠، ٦٢٥١، ٦٢٥٢، ٦٢٥٣، ٦٢٥٤، ٦٢٥٥، ٦٢٥٦، ٦٢٥٧، ٦٢٥٨، ٦٢٥٩، ٦٢٦٠، ٦٢٦١، ٦٢٦٢، ٦٢٦٣، ٦٢٦٤، ٦٢٦٥، ٦٢٦٦، ٦٢٦٧، ٦٢٦٨، ٦٢٦٩، ٦٢٧٠، ٦٢٧١، ٦٢٧٢، ٦٢٧٣، ٦٢٧٤، ٦٢٧٥، ٦٢٧٦، ٦٢٧٧، ٦٢٧٨، ٦٢٧٩، ٦٢٨٠، ٦٢٨١، ٦٢٨٢، ٦٢٨٣، ٦٢٨٤، ٦٢٨٥، ٦٢٨٦، ٦٢٨٧، ٦٢٨٨، ٦٢٨٩، ٦٢٩٠، ٦٢٩١، ٦٢٩٢، ٦٢٩٣، ٦٢٩٤، ٦٢٩٥، ٦٢٩٦، ٦٢٩٧، ٦٢٩٨، ٦٢٩٩، ٦٣٠٠، ٦٣٠١، ٦٣٠٢، ٦٣٠٣، ٦٣٠٤، ٦٣٠٥، ٦٣٠٦، ٦٣٠٧، ٦٣٠٨، ٦٣٠٩، ٦٣١٠، ٦٣١١، ٦٣١٢، ٦٣١٣، ٦٣١٤، ٦٣١٥، ٦٣١٦، ٦٣١٧، ٦٣١٨، ٦٣١٩، ٦٣٢٠، ٦٣٢١، ٦٣٢٢، ٦٣٢٣، ٦٣٢٤، ٦٣٢٥، ٦٣٢٦، ٦٣٢٧، ٦٣٢٨، ٦٣٢٩، ٦٣٣٠، ٦٣٣١، ٦٣٣٢، ٦٣٣٣، ٦٣٣٤، ٦٣٣٥، ٦٣٣٦، ٦٣٣٧، ٦٣٣٨، ٦٣٣٩، ٦٣٤٠، ٦٣٤١، ٦٣٤٢، ٦٣٤٣، ٦٣٤٤، ٦٣٤٥، ٦٣٤٦، ٦٣٤٧، ٦٣٤٨، ٦٣٤٩، ٦٣٥٠، ٦٣٥١، ٦٣٥٢، ٦٣٥٣، ٦٣٥٤، ٦٣٥٥، ٦٣٥٦، ٦٣٥٧، ٦٣٥٨، ٦٣٥٩، ٦٣٦٠، ٦٣٦١، ٦٣٦٢، ٦٣٦٣، ٦٣٦٤، ٦٣٦٥، ٦٣٦٦، ٦٣٦٧، ٦٣٦٨، ٦٣٦٩، ٦٣٧٠، ٦٣٧١، ٦٣٧٢، ٦٣٧٣، ٦٣٧٤، ٦٣٧٥، ٦٣٧٦، ٦٣٧٧، ٦٣٧٨، ٦٣٧٩، ٦٣٨٠، ٦٣٨١، ٦٣٨٢، ٦٣٨٣، ٦٣٨٤، ٦٣٨٥، ٦٣٨٦، ٦٣٨٧، ٦٣٨٨، ٦٣٨٩، ٦٣٩٠، ٦٣٩١، ٦٣٩٢، ٦٣٩٣، ٦٣٩٤، ٦٣٩٥، ٦٣٩٦، ٦٣٩٧، ٦٣٩٨، ٦٣٩٩، ٦٤٠٠، ٦٤٠١، ٦٤٠٢، ٦٤٠٣، ٦٤٠٤، ٦٤٠٥، ٦٤٠٦، ٦٤٠٧، ٦٤٠٨، ٦٤٠٩، ٦٤١٠، ٦٤١١، ٦٤١٢، ٦٤١٣، ٦٤١٤، ٦٤١٥، ٦٤١٦، ٦٤١٧، ٦٤١٨، ٦٤١٩، ٦٤٢٠، ٦٤٢١، ٦٤٢٢، ٦٤٢٣، ٦٤٢٤، ٦٤٢٥، ٦٤٢٦، ٦٤٢٧، ٦٤٢٨، ٦٤٢٩، ٦٤٣٠، ٦٤٣١، ٦٤٣٢، ٦٤٣٣، ٦٤٣٤، ٦٤٣٥، ٦٤٣٦، ٦٤٣٧، ٦٤٣٨، ٦٤٣٩، ٦٤٤٠، ٦٤٤١، ٦٤٤٢، ٦٤٤٣، ٦٤٤٤، ٦٤٤٥، ٦٤٤٦، ٦٤٤٧، ٦٤٤٨، ٦٤٤٩، ٦٤٥٠، ٦٤٥١، ٦٤٥٢، ٦٤٥٣، ٦٤٥٤، ٦٤٥٥، ٦٤٥٦، ٦٤٥٧، ٦٤٥٨، ٦٤٥٩، ٦٤٦٠، ٦٤٦١، ٦٤٦٢، ٦٤٦٣، ٦٤٦٤، ٦٤٦٥، ٦٤٦٦، ٦٤٦٧، ٦٤٦٨، ٦٤٦٩، ٦٤٧٠، ٦٤٧١، ٦٤٧٢، ٦٤٧٣، ٦٤٧٤، ٦٤٧٥، ٦٤٧٦، ٦٤٧٧، ٦٤٧٨، ٦٤٧٩، ٦٤٨٠، ٦٤٨١، ٦٤٨٢، ٦٤٨٣، ٦٤٨٤، ٦٤٨٥، ٦٤٨٦، ٦٤٨٧، ٦٤٨٨، ٦٤٨٩، ٦٤٩٠، ٦٤٩١، ٦٤٩٢، ٦٤٩٣، ٦٤٩٤، ٦٤٩٥، ٦٤٩٦، ٦٤٩٧، ٦٤٩٨، ٦٤٩٩، ٦٥٠٠، ٦٥٠١، ٦٥٠٢، ٦٥٠٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥، ٦٥٠٦، ٦٥٠٧، ٦٥٠٨، ٦٥٠٩، ٦٥١٠، ٦٥١١، ٦٥١٢، ٦٥١٣، ٦٥١٤، ٦٥١٥، ٦٥١٦، ٦٥١٧، ٦٥١٨، ٦٥١٩، ٦٥٢٠، ٦٥٢١، ٦٥٢٢، ٦٥٢٣، ٦٥٢٤، ٦٥٢٥، ٦٥٢٦، ٦٥٢٧، ٦٥٢٨، ٦٥٢٩، ٦٥٣٠، ٦٥٣١، ٦٥٣٢، ٦٥٣٣، ٦٥٣٤، ٦٥٣٥، ٦٥٣٦، ٦٥٣٧، ٦٥٣٨، ٦٥٣٩، ٦٥٤٠، ٦٥٤١، ٦٥٤٢، ٦٥٤٣، ٦٥٤٤، ٦٥٤٥، ٦٥٤٦، ٦٥٤٧، ٦٥٤٨، ٦٥٤٩، ٦٥٥٠، ٦٥٥١، ٦٥٥٢، ٦٥٥٣، ٦٥٥٤، ٦٥٥٥، ٦٥٥٦، ٦٥٥٧، ٦٥٥٨، ٦٥٥٩، ٦٥٦٠، ٦٥٦١، ٦٥٦٢، ٦٥٦٣، ٦٥٦٤، ٦٥٦٥، ٦٥٦٦، ٦٥٦٧، ٦٥٦٨، ٦٥٦٩، ٦٥٧٠، ٦٥٧١، ٦٥٧٢، ٦٥٧٣، ٦٥٧٤، ٦٥٧٥، ٦٥٧٦، ٦٥٧٧، ٦٥٧٨، ٦٥٧٩، ٦٥٨٠، ٦٥٨١، ٦٥٨٢، ٦٥٨٣، ٦٥٨٤، ٦٥٨٥، ٦٥٨٦، ٦٥٨٧، ٦٥٨٨، ٦٥٨٩، ٦٥٩٠، ٦٥٩١، ٦٥٩٢، ٦٥٩٣، ٦٥٩٤، ٦٥٩٥، ٦٥٩٦، ٦٥٩٧، ٦٥٩٨، ٦٥٩٩، ٦٦٠٠، ٦٦٠١، ٦٦٠٢، ٦٦٠٣، ٦٦٠٤، ٦٦٠٥، ٦٦٠٦، ٦٦٠٧، ٦٦٠٨، ٦٦٠٩، ٦٦١٠، ٦٦١١، ٦٦١٢، ٦٦١٣، ٦٦١٤، ٦٦١٥، ٦٦١٦، ٦٦١٧، ٦٦١٨، ٦٦١٩، ٦٦٢٠، ٦٦٢١، ٦٦٢٢، ٦٦٢٣، ٦٦٢٤، ٦٦٢٥، ٦٦٢٦، ٦٦٢٧، ٦٦٢٨، ٦٦٢٩، ٦٦٣٠، ٦٦٣١، ٦٦٣٢، ٦٦٣٣، ٦٦٣٤، ٦٦٣٥، ٦٦٣٦، ٦٦٣٧، ٦٦٣٨، ٦٦٣٩، ٦٦٤٠، ٦٦٤١، ٦٦٤٢، ٦٦٤٣، ٦٦٤٤، ٦٦٤٥، ٦٦٤٦، ٦٦٤٧، ٦٦٤٨، ٦٦٤٩، ٦٦٥٠، ٦٦٥١، ٦٦٥٢، ٦٦٥٣، ٦٦٥٤، ٦٦٥٥، ٦٦٥٦، ٦٦٥٧، ٦٦٥٨، ٦٦٥٩، ٦٦٦٠، ٦٦٦١، ٦٦٦٢، ٦٦٦٣، ٦٦٦٤، ٦٦٦٥، ٦٦٦٦، ٦٦٦٧، ٦٦٦٨، ٦٦٦٩، ٦٦٧٠، ٦٦٧١، ٦٦٧٢، ٦٦٧٣، ٦٦٧٤، ٦٦٧٥، ٦٦٧٦، ٦٦٧٧، ٦٦٧٨، ٦٦٧٩، ٦٦٨٠، ٦٦٨١، ٦٦٨٢، ٦٦٨٣، ٦٦٨٤، ٦٦٨٥، ٦٦٨٦، ٦٦٨٧، ٦٦٨٨، ٦٦٨٩، ٦٦٩٠، ٦٦٩١، ٦٦٩٢، ٦٦٩٣، ٦٦٩٤، ٦٦٩٥، ٦٦٩٦، ٦٦٩٧، ٦٦٩٨، ٦٦٩٩، ٦٧٠٠، ٦٧٠١، ٦٧٠٢، ٦٧٠٣، ٦٧٠٤، ٦٧٠٥، ٦٧٠٦، ٦٧٠٧، ٦٧٠٨، ٦٧٠٩، ٦٧١٠، ٦٧١١، ٦٧١٢، ٦٧١٣، ٦٧١٤، ٦٧١٥، ٦٧١٦، ٦٧١٧، ٦٧١٨، ٦٧١٩، ٦٧٢٠، ٦٧٢١، ٦٧٢٢، ٦٧٢٣، ٦٧٢٤، ٦٧٢٥، ٦٧٢٦، ٦٧٢٧، ٦٧٢٨، ٦٧٢٩، ٦٧٣٠، ٦٧٣١، ٦٧٣٢، ٦٧٣٣، ٦٧٣٤، ٦٧٣٥، ٦٧٣٦، ٦٧٣٧، ٦٧٣٨، ٦٧٣٩، ٦٧٤٠، ٦٧٤١، ٦٧٤٢، ٦٧٤٣، ٦٧٤٤، ٦٧٤٥، ٦٧٤٦، ٦٧٤٧، ٦٧٤٨، ٦٧٤٩، ٦٧٥٠، ٦٧٥١، ٦٧٥٢، ٦٧٥٣، ٦٧٥٤، ٦٧٥٥، ٦٧٥٦، ٦٧٥٧، ٦٧٥٨، ٦٧٥٩، ٦٧٦٠، ٦٧٦١، ٦٧٦٢، ٦٧٦٣، ٦٧٦٤، ٦٧٦٥، ٦٧٦٦، ٦٧٦٧، ٦٧٦٨، ٦٧٦٩، ٦٧٧٠، ٦٧٧١، ٦٧٧٢، ٦٧٧٣، ٦٧٧٤، ٦٧٧٥، ٦٧٧٦، ٦٧٧٧، ٦٧٧٨، ٦٧٧٩، ٦٧٨٠، ٦٧٨١، ٦٧٨٢، ٦٧٨٣، ٦٧٨٤، ٦٧٨٥، ٦٧٨٦، ٦٧٨٧، ٦٧٨٨، ٦٧٨٩، ٦٧٩٠، ٦٧٩١، ٦٧٩٢، ٦٧٩٣، ٦٧٩٤، ٦٧٩٥، ٦٧٩٦، ٦٧٩٧، ٦٧٩٨، ٦٧٩٩، ٦٨٠٠، ٦٨٠١، ٦٨٠٢، ٦٨٠٣، ٦٨٠٤، ٦٨٠٥، ٦٨٠٦، ٦٨٠٧، ٦٨٠٨، ٦٨٠٩، ٦٨١٠، ٦٨١١، ٦٨١٢، ٦٨١٣، ٦٨١٤، ٦٨١٥، ٦٨١٦، ٦٨١٧، ٦٨١٨، ٦٨١٩، ٦٨٢٠، ٦٨٢١، ٦٨٢٢، ٦٨٢٣، ٦٨٢٤، ٦٨٢٥، ٦٨٢٦، ٦٨٢٧، ٦٨٢٨، ٦٨٢٩، ٦٨٣٠، ٦٨٣١، ٦٨٣٢، ٦٨٣٣، ٦٨٣٤، ٦٨٣٥، ٦٨٣٦، ٦٨٣٧، ٦٨٣٨، ٦٨٣٩، ٦٨٤٠، ٦٨٤١، ٦٨٤٢، ٦٨٤٣، ٦٨٤٤، ٦٨٤٥، ٦٨٤٦، ٦٨٤٧، ٦٨٤٨، ٦٨٤٩، ٦٨٥٠، ٦٨٥١، ٦٨٥٢، ٦٨٥٣، ٦٨٥٤، ٦٨٥٥، ٦٨٥٦، ٦٨٥٧، ٦٨٥٨، ٦٨٥٩، ٦٨٦٠، ٦٨٦١، ٦٨٦٢، ٦٨٦٣، ٦٨٦٤، ٦٨٦٥، ٦٨٦٦، ٦٨٦٧، ٦٨٦٨، ٦٨٦٩، ٦٨٧٠، ٦٨٧١، ٦٨٧٢، ٦٨٧٣، ٦٨٧٤، ٦٨٧٥، ٦٨٧٦، ٦٨٧٧، ٦٨٧٨، ٦٨٧٩، ٦٨٨٠، ٦٨٨١، ٦٨٨٢، ٦٨٨٣، ٦٨٨٤، ٦٨٨٥، ٦٨٨٦، ٦٨٨٧، ٦٨٨٨، ٦٨٨٩، ٦٨٩٠، ٦٨٩١، ٦٨٩٢، ٦٨٩٣، ٦٨٩٤، ٦٨٩٥، ٦٨٩٦، ٦٨٩٧، ٦٨٩٨، ٦٨٩٩، ٦٩٠٠، ٦٩٠١، ٦٩٠٢، ٦٩٠٣، ٦٩٠٤، ٦٩٠٥، ٦٩٠٦، ٦٩٠٧، ٦٩٠٨، ٦٩٠٩، ٦٩١٠، ٦٩١١، ٦٩١٢، ٦٩١٣، ٦٩١٤، ٦٩١٥، ٦٩١٦، ٦٩١٧، ٦٩١٨، ٦٩١٩، ٦٩٢٠، ٦٩٢١، ٦٩٢٢، ٦٩٢٣، ٦٩٢٤، ٦٩٢٥، ٦٩٢٦، ٦٩٢٧، ٦٩٢٨، ٦٩٢٩، ٦٩٣٠، ٦٩٣١، ٦٩٣٢، ٦٩٣٣، ٦٩٣٤، ٦٩٣٥، ٦٩٣٦، ٦٩٣٧، ٦٩٣٨، ٦٩٣٩، ٦٩٤٠، ٦٩٤١، ٦٩٤٢، ٦٩٤٣، ٦٩٤٤، ٦٩٤٥، ٦٩٤٦، ٦٩٤٧، ٦٩٤٨، ٦٩٤٩، ٦٩٥٠، ٦٩٥١، ٦٩٥٢، ٦٩٥٣، ٦٩٥٤، ٦٩٥٥، ٦٩٥٦، ٦٩٥٧، ٦٩٥٨، ٦٩٥٩، ٦٩٦٠، ٦٩٦١، ٦٩٦٢، ٦٩٦٣، ٦٩٦٤، ٦٩٦٥، ٦٩٦٦، ٦٩٦٧، ٦٩٦٨، ٦٩٦٩، ٦٩٧٠، ٦٩٧١، ٦٩٧٢، ٦٩٧٣، ٦٩٧٤، ٦٩٧٥، ٦٩٧٦، ٦٩٧٧، ٦٩٧٨، ٦٩٧٩، ٦٩٨٠، ٦٩٨١، ٦٩٨٢، ٦٩٨٣، ٦٩٨٤، ٦٩٨٥، ٦٩٨٦، ٦٩٨٧، ٦٩٨٨، ٦٩٨٩، ٦٩٩٠، ٦٩٩١، ٦٩٩٢، ٦٩٩٣، ٦٩٩٤، ٦٩٩٥، ٦٩٩٦، ٦٩٩٧، ٦٩٩٨، ٦٩٩٩، ٧٠٠٠، ٧٠٠١، ٧٠٠٢، ٧٠٠٣، ٧٠٠٤، ٧٠٠٥، ٧٠٠٦، ٧٠٠٧، ٧٠٠٨، ٧٠٠٩، ٧٠١٠، ٧٠١١، ٧٠١٢، ٧٠١٣، ٧٠١٤، ٧٠١٥، ٧٠١٦، ٧٠١٧، ٧٠١٨، ٧٠١٩، ٧٠٢٠، ٧٠٢١، ٧٠٢٢، ٧٠٢٣، ٧٠٢٤، ٧٠٢٥، ٧٠٢٦، ٧٠٢٧، ٧٠٢٨، ٧٠٢٩، ٧٠٣٠، ٧٠٣١، ٧٠٣٢، ٧٠٣٣، ٧٠٣٤، ٧٠٣٥، ٧٠٣٦، ٧٠٣٧، ٧٠٣٨، ٧٠٣٩، ٧٠٤٠، ٧٠٤١، ٧٠٤٢، ٧٠٤٣، ٧٠٤٤، ٧٠٤٥، ٧٠٤٦، ٧٠٤٧، ٧٠٤٨، ٧٠٤٩، ٧٠٥٠، ٧٠٥١، ٧٠٥٢، ٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧٠٥٥، ٧٠٥٦، ٧٠٥٧، ٧٠٥٨، ٧٠٥٩، ٧٠٦٠، ٧٠٦١، ٧٠٦٢، ٧٠٦٣، ٧٠٦٤، ٧٠٦٥، ٧٠٦٦، ٧٠٦٧، ٧٠٦٨، ٧٠٦٩، ٧٠٧٠، ٧٠٧١، ٧٠٧٢، ٧٠٧٣، ٧٠٧٤، ٧٠٧٥، ٧٠٧٦، ٧٠٧٧، ٧٠٧٨، ٧٠٧٩، ٧٠٨٠، ٧٠٨١، ٧٠٨٢، ٧٠٨٣، ٧٠٨٤، ٧٠٨٥، ٧٠٨٦، ٧٠٨٧، ٧٠٨٨، ٧٠٨٩، ٧٠٩٠، ٧٠٩١، ٧٠٩٢، ٧٠٩٣، ٧٠٩٤، ٧٠٩٥، ٧٠٩٦، ٧٠٩٧، ٧٠٩٨، ٧٠٩٩، ٧١٠٠، ٧١٠١، ٧١٠٢، ٧١٠٣، ٧١٠٤، ٧١٠٥، ٧١٠٦، ٧١٠٧، ٧١٠٨، ٧١٠٩، ٧١١٠، ٧١١١، ٧١١٢، ٧١١٣، ٧١١٤، ٧١١٥، ٧١١٦، ٧١١٧، ٧١١٨، ٧١١٩، ٧١٢٠، ٧١٢١، ٧١٢٢، ٧١٢٣، ٧١٢٤، ٧١٢٥، ٧١٢٦، ٧١٢٧، ٧١٢٨، ٧١٢٩، ٧١٣٠، ٧١٣١، ٧١٣٢، ٧١٣٣، ٧١٣٤، ٧١٣٥، ٧١٣٦، ٧١٣٧، ٧١٣٨، ٧١٣٩، ٧١٤٠، ٧١٤١، ٧١٤٢، ٧١٤٣، ٧١٤٤، ٧١٤٥، ٧١٤٦، ٧١٤٧، ٧١٤٨، ٧١٤٩، ٧١٥٠، ٧١٥١، ٧١٥٢، ٧١٥٣، ٧١٥٤، ٧١٥٥، ٧١٥٦، ٧١٥٧، ٧١٥٨، ٧١٥٩، ٧١٦٠، ٧١٦١، ٧١٦٢، ٧١٦٣، ٧١٦٤، ٧١٦٥، ٧١٦٦، ٧١٦٧، ٧١٦٨، ٧١٦٩، ٧١٧٠، ٧١٧١، ٧١٧٢، ٧١٧٣، ٧١٧٤، ٧١٧٥، ٧١٧٦، ٧١٧٧، ٧١٧٨، ٧١٧٩، ٧١٨٠، ٧١٨١، ٧١٨٢، ٧١٨٣، ٧١٨٤، ٧١٨٥، ٧١٨٦، ٧١٨٧، ٧١٨٨، ٧١٨٩، ٧١٩٠، ٧١٩١، ٧١٩٢، ٧١٩٣، ٧١٩٤، ٧١٩٥، ٧١٩٦، ٧١٩٧، ٧١٩٨، ٧١٩٩، ٧٢٠٠، ٧٢٠١، ٧٢٠٢، ٧٢٠٣، ٧٢٠٤، ٧٢٠٥، ٧٢٠٦، ٧٢٠٧، ٧٢٠٨، ٧٢٠٩، ٧٢١٠، ٧٢١١، ٧٢١٢، ٧٢١٣، ٧٢١٤، ٧٢١٥، ٧٢١٦، ٧٢١٧، ٧٢١٨، ٧٢١٩، ٧٢٢٠، ٧٢٢١، ٧٢٢٢، ٧٢٢٣، ٧٢٢٤، ٧٢٢٥، ٧٢٢٦، ٧٢٢٧، ٧٢٢٨، ٧٢٢٩، ٧٢٣٠، ٧٢٣١، ٧٢٣٢، ٧٢٣٣، ٧٢٣٤، ٧٢٣٥، ٧٢٣٦، ٧٢٣٧، ٧٢٣٨، ٧٢٣٩، ٧٢٤٠، ٧٢٤١، ٧٢٤٢، ٧٢٤٣، ٧٢٤٤، ٧٢٤٥، ٧٢٤٦، ٧٢٤٧، ٧٢٤٨، ٧٢٤٩، ٧٢٥٠، ٧٢٥١، ٧٢٥٢، ٧٢٥٣، ٧٢٥٤، ٧٢٥٥، ٧٢٥٦، ٧٢٥٧، ٧٢٥٨، ٧٢٥٩، ٧٢٦٠، ٧٢٦١، ٧٢٦٢، ٧٢٦٣، ٧٢٦٤، ٧٢٦٥، ٧٢٦٦، ٧٢٦٧، ٧٢٦٨، ٧٢٦٩، ٧٢٧٠، ٧٢٧١، ٧٢٧٢، ٧٢٧٣، ٧٢٧٤،

وَسَوَّى كُلَّ مَخْلُوقٍ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هَدَى الْإِنْسَانَ لِلشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ وَهَدَى الْأَنْعَامَ لِمَرَاعِيهَا<sup>(٨)</sup>. وَهَذِهِ الْأَيَّةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِنْخِبَارًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِفِرْعَوْنَ: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]. أَيْ قَدَّرَ قَدَرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»<sup>(٩)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أَيْ مِنْ جَمِيعِ صُنُوفِ النَّبَاتَاتِ وَالزَّرُوعِ ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَشِيمًا مُتَغَيِّرًا<sup>(١٠)</sup>. وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ نَحْوَهُ<sup>(١١)</sup>.

[الْنَّبِيُّ ﷺ لَا يَنْسَى الْوَحْيَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ رَفَعَهُ وَنَسَحَهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُقْرُوكَ﴾ أَيْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿فَلَا تَنْسَ﴾ وَهَذَا إِنْخِبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَوَعْدٌ مِنْهُ لَهُ. بِأَنَّهُ سَيَقْرُؤُهُ قِرَاءَةً لَا يَنْسَاهَا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَنْسَى شَيْئًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَنْسَ﴾ طَلَبٌ، وَمَعْنَى الْإِسْتِثْنَاءِ عَلَى هَذَا مَا يَقَعُ مِنَ النَّسْخِ أَيْ لَا تَنْسَى مَا نُقِرْتُكَ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ رَفَعُهُ، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَنْسَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أَيْ يَعْلَمُ مَا يَجْهَرُ بِهِ الْعِبَادُ وَمَا يُخْفَوْنَهُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ أَيْ يُسَهِّلُ عَلَيْكَ أَفْعَالَ الْخَيْرِ وَأَقْوَالَهُ، وَتُسَرِّعُ لَكَ شَرْعًا سَهْلًا سَمَحًا مُسْتَقِيمًا عَدْلًا، لَا إِعْجَاجَ فِيهِ، وَلَا حَرَجَ وَلَا عُسْرَ.

[الْأَمْرُ بِالتَّذْكِيرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أَيْ ذَكَرْ حَيْثُ تَنَفَّعَ التَّذْكِيرَةُ، وَمِنْ هَهُنَا يُؤْخَذُ الْأَدَبُ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ، فَلَا

(١) فتح الباري: ٥٦٩/٨ (٢) فتح الباري: ٢٣٤/٢ ومسلم: ٣٤٠/١ (٣) أحمد: ٢٧١/٤ (٤) أحمد عن أبي: ١٢٣/٥، عن ابن عباس: ٢٩٩/١ وابن أبي: ٤٠٦/٣، عن عائشة: ٦/٢٢٧ (٥) أحمد: ٢٣٢/١ إسناده ضعيف وفيه تدليس أبي إسحاق ولم يصرح (٦) الطبري: ٣٦٧/٢٤ (٧) الطبري: ٣٦٨/٢٤ انظر لعلته ما تقدم وسبق (٨) الطبري: ٣٦٩/٢٤ (٩) مسلم: ٢٠٤٤/٤ (١٠) الطبري: ٣٦٩/٢٤ (١١) الطبري: ٢٤/٣٦٩، ٣٧٠

فَمَا جَاءَ حَتَّى قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فِي سُورِ مِثْلِهَا<sup>(١)</sup>. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ: «هَلَّا صَلَّيْتُ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ﴿وَالْتَفَتِيسُ وَحُصْنُهَا﴾، ﴿وَالْإِلَّ إِذَا بَغَتْ﴾»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي الْعِيدَيْنِ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَهَلْ أَتَكَ حَدِيثُ الْفَتْشَةِ وَإِنْ وَافَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَرَأَهُمَا جَمِيعًا<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهٍ وَلَقَطَ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ الشُّنَنِ: كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَهَلْ أَتَكَ حَدِيثُ الْفَتْشَةِ وَرُبَّمَا اجْتَمَعَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَقَرَأَهُمَا. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِرَى، وَعَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْوُتْرِ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ زَادَتْ عَائِشَةُ وَالْمُعَوَّذَتَيْنِ<sup>(٤)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سُقْرُوكَ فَلَا تَنْسَ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْفَى (١٠) وَنَجِّنَهَا مِنَ الْغَاسِقِ (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)

[الْأَمْرُ بِالتَّسْبِيحِ وَمَا يَقُولُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»<sup>(٥)</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيِّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى. وَإِذَا قَرَأَ: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فَاتَى عَلَى آخِرِهَا ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَجْحَى النَّوْءُ﴾ [القيامة: ٤٠] يَقُولُ: سُبْحَانَكَ وَلَيَّ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»<sup>(٧)</sup>.

[الْخَلْقُ وَالتَّقْدِيرُ وَإِخْرَاجُ النَّبَاتِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أَيْ خَلَقَ الْخَلِيقَةَ



بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

## سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَنْكَبُوتِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يُؤْمِدُ خَشِيعَةً ﴿٢﴾  
عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تَسْتَقِي مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ ﴿٥﴾  
لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾  
وَجُوهٌ يُؤْمِدُ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِبَهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي حَنَةِ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾  
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾  
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزُرِّيٌّ مُمَثَوَةٌ ﴿١٦﴾  
أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾  
وَالِإِلْهَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾  
فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَعَذَابُ اللَّهِ أَلَمٌ لَّهُ الْعَذَابُ  
الْأَكْبَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

كَانَ يَأْمُرُ النَّاسَ بِإِخْرَاجِ صَدَقَةِ الْفُطْرِ وَيَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ ﴿٢٧﴾  
أَفَلَمْ مِّن تَزَكَّى ﴿٢٨﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٢٩﴾ وَقَالَ أَبُو الْأَحْوَصِ:  
إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ سَائِلٌ وَهُوَ يُرِيدُ الصَّلَاةَ فَلْيَقْدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ  
صَلَاتِهِ زَكَاةً فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿٣٠﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿٣١﴾ وَذَكَرَ  
اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٣٢﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿٣٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن  
تَزَكَّى ﴿٣٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٣٥﴾ زَكَى مَالَهُ وَأَرْضَى خَالِقَهُ ﴿٣٦﴾.

[لَا قِيَمَةَ لِلدُّنْيَا فِي جَنبِ الْآخِرَةِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿٣٧﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ أَيُّ تَقْدُمُونَهَا  
عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ وَتَبْدُونَهَا عَلَى مَا فِيهِ تَفْعَلُونَ وَصَلَّاحُكُمْ  
فِي مَعَاشِكُمْ وَمَعَادِكُمْ ﴿٣٩﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٤٠﴾ أَيُّ ثَوَابِ اللَّهِ  
فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَبْقَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا دُنْيَةٌ فَاتِيَةٌ

يَضَعُهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ  
عَنْهُ: مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ  
فِتْنَةً لِّبَعْضِهِمْ، وَقَالَ: حَدَّثَ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَنْتَجِبُونَ  
أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴿٤١﴾! وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿٤٢﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ  
يَحْتَسِبُ ﴿٤٣﴾ أَيُّ سَيَتَعَطَّ بِمَا تَبْلُغُهُ يَا مُحَمَّدٌ مَنْ قَلْبُهُ يَخْشَى اللَّهَ  
وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُلَافِيهِ ﴿٤٤﴾ وَنَحْنُهَا الْأَشْقَى ﴿٤٥﴾ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ  
الْكُبْرَى ﴿٤٦﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٤٧﴾ أَيُّ لَا يَمُوتُ فَيَسْتَرِيحُ  
وَلَا يَحْيَى حَيَاةً تَنْفَعُهُ، بَلْ هِيَ مَضَرَّةٌ عَلَيْهِ، لِأَنَّ سَبَبَهَا  
يُسْتَعْرَمُ مَا يُعَاقَبُ بِهِ مِنَ أَلِيمِ الْعَذَابِ وَأَنْوَاعِ النَّكَالِ. رَوَى  
الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا  
أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيُونَ، وَأَمَّا  
أَنَاسٌ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِمُ الرَّحْمَةَ فَيَمِيتُهُمْ فِي النَّارِ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمُ  
الشَّفَعَاءُ فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ الضَّابِرَةَ فَيُنْبِتُهُمْ - أَوْ قَالَ: يَنْبِتُونَ  
فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ، أَوْ قَالَ: الْحَيَاةِ، أَوْ قَالَ: الْحَيَوَانِ أَوْ قَالَ:  
نَهْرِ الْجَنَّةِ - فَيَنْبِتُونَ نَبَاتَ الْجَنَّةِ فِي حِمِلِ السَّيْلِ» قَالَ:  
وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا تَرَوْنَ الشَّجَرَةَ تَكُونُ خَضِرَاءَ، ثُمَّ  
تَكُونُ صَفْرَاءَ، ثُمَّ تَكُونُ خَضِرَاءَ؟» قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ:  
كَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ بِالْبَادِيَةِ (٢).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا  
يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيُونَ، وَلَكِنْ أَنَاسٌ - أَوْ كَمَا قَالَ -  
تُصِيبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ - فَيَمِيتُهُمْ  
إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُدِنَ فِي الشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ  
صَبَائِرُ صَبَائِرَ، فُبْتُوا عَلَى أَثْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ  
أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبِتُونَ نَبَاتَ الْجَنَّةِ تَكُونُ فِي حِمِلِ  
السَّيْلِ» قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ حَبِثِيذٌ: كَأَنَّ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ كَانَ بِالْبَادِيَةِ (٣). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ (٥) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٦﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ  
الدُّنْيَا ﴿٧﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿٩﴾  
صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٠﴾

[بَيَانُ أَهْلِ الْفَلَاحِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿١١﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿١٢﴾ أَيُّ طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ  
الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَابَعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى الرُّسُولِ صَلَوَاتِ  
اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ﴿١٣﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٤﴾ أَيُّ أَقَامَ الصَّلَاةَ فِي  
أَوْقَاتِهَا اتِّبَاعًا رِضْوَانِ اللَّهِ وَطَاعَةً لِأَمْرِ اللَّهِ وَآمِنَاتًا لِشَرْعِ  
اللَّهِ. وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ

(١) انظر البخاري كتاب العلم (١٢٧) عن علي تعليقاً وعند مسلم  
في المقدمة من حديث ابن مسعود نحوه (٢) أحمد: ٥/٣ (٣)  
أحمد: ١١/٣ (٤) مسلم: ١٧٢/١ (٥) الطبري: ٣٧٤/٢٤  
فيه أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس ولم يصرح (٦) الطبري: ٢٤/٣٧٤

وَالْآخِرَةُ شَرِيفَةٌ بَاقِيَةٌ، فَكَيْفَ يُؤْتِرُ عَاقِلٌ مَا يَفْنَى عَلَى مَا يَبْقَى وَبِهِمْ بِمَا يُرَوَّلُ عَنْهُ قَرِيبًا، وَيَتْرَكَ الْأَهْتِمَامَ بِدَارِ الْبَقَاءِ وَالْخُلْدِ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضْرَّ بِدُنْيَاهُ، فَأَثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى» تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ<sup>(١)</sup>.

[صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى» صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّجْمِ: «أَمْ لَمْ يَلْبَسْنَا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى» (٢٧) «أَلَا نُرِثُ وَرَثَةً» وَزَدَ أَثَرَهُ (٢٨) «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى» (٢٩) «وَأَنْ سَعْيُهُمْ سَوْفَ يَرَى» (٣٠) ثُمَّ يُجْزِلُهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ (٣١) «وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» الْآيَاتِ إِلَى آخِرِهِمْ [٣٦-٥٥] وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قِصَّةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى<sup>(٢)</sup>. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ هَذَا» إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» (٣٢) وَذَكَرَ أَسَدُ رَبِّهِ فَصَّلَ (٣٣) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٤) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ هَذَا» أَيْ مَضْمُونُ هَذَا الْكَلَامِ «لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى» (٣٥) صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى<sup>(٣)</sup> وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ قَوِيٌّ، وَقَدْ رَوَى عَنْ قَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ نَحْوَهُ<sup>(٤)</sup>. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبِّحْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

## تفسير سورة الغاشية وهي مكية

[قِرَاءَةُ الْأَعْلَى وَالْغَاشِيَةِ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ]

قَدْ تَقَدَّمَ عَنِ الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِسَبْحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَالْغَاشِيَةِ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ أَنَّ الصَّحَّاحَ بْنَ قَيْسٍ سَأَلَ الثَّعْمَانُ بْنَ بَشِيرٍ: بِمَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ مَعَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ؟ قَالَ: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّيْسَانِيُّ<sup>(٧)</sup>، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهَ<sup>(٨)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ (٢) ﴿عَالِمَةٌ

نَاصِيَةٌ﴾ (٣) ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ (٤) ﴿تُثْقَلُ مِنْ عَيْنِ عَائِيَةٍ﴾ (٥) ﴿لَيْسَ لَهُمْ

طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ (٦) ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (٧)

[الْقِيَامَةُ وَمَا يَكُونُ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ فِيهَا]

الْغَاشِيَةُ: مِنْ أَشْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٩)</sup> لِأَنَّهَا تَغْشَى النَّاسَ وَتَعْمُهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ أَيْ ذَلِيلَةٌ قَالَهُ قَتَادَةُ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَخْشَعُ وَلَا يَنْفَعُهَا عَمَلُهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَالِمَةٌ نَاصِيَةٌ﴾ أَيْ قَدْ عَمِلَتْ عَمَلًا كَثِيرًا وَنَصِبَتْ فِيهِ وَصَلَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا حَامِيَةً. رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَرْقَانِيُّ عَنْ أَبِي عُمَرَ الْجَوْنِيِّ قَالَ: مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِذَيْرٍ رَاهِبٍ، قَالَ: فَتَدَاهُ يَا رَاهِبُ، فَأَشْرَفَ. قَالَ: فَجَعَلَ عُمَرُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَبْكِي، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا يَبْكِيكَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: ذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿عَالِمَةٌ نَاصِيَةٌ﴾ (١١) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً فَذَاكَ الَّذِي أَبْكَانِي<sup>(١٢)</sup>.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿عَالِمَةٌ نَاصِيَةٌ﴾ النَّصَارَى<sup>(١٣)</sup>. وَعَنْ عِكْرَمَةَ وَالسُّدِّيِّ: عَالِمَةٌ فِي الدُّنْيَا بِالْمَعَاصِي وَنَاصِيَةٌ فِي النَّارِ بِالْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ أَيْ حَارَةً شَدِيدَةً الْحَرِّ. ﴿تُثْقَلُ مِنْ عَيْنِ عَائِيَةٍ﴾ أَيْ قَدْ انْتَهَى حَرُّهَا وَعَلَيَانِهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(١٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: شَجَرٌ مِنَ النَّارِ<sup>(١٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ

(١) أحمد: ٤١٢/٤ إسناده منقطع المطلب بن عبدالله لم يسمع من أبي موسى الأشعري قال البخاري: لا أعرف المطلب بن (عبدالله) بن حنطب عن أحد من الصحابة سماعاً إلا قوله حدثني من شهد خطبة النبي ﷺ [جامع التحصيل للعلائي] (٢) الطبري: ٣٧٦/٢٤ (٣) الطبري: ٣٧٧/٢٤ (٤) الطبري: ٣٧٦/٢٤ (٥) مسلم: ٥٩٨/٢ (٦) الموطأ: ١١١/١ (٧) أبو داود: ١/٦٧٠ والنسائي: ١١٢/٣ (٨) مسلم: ٥٩٨/٢ وابن ماجه: ١/٣٥٥ (٩) الطبري: ٣٨١/٢٤ (١٠) الطبري: ٣٨٢/٢٤ (١١) عبدالرزاق: ٢٩٩/٢ والحاكم: ٥٢٢/٢ إسناده منقطع فإن أبا عمران الجوني لم يدرك زمان عمر (١٢) فتح الباري: ٥٧٠/٨ (١٣) الطبري: ٣٨٣/٢٤ (١٤) الطبري: ٣٨٥/٢٤

﴿مَبْنُوءَةٌ﴾ أَي هَهُنَا وَهَهُنَا، لِمَنْ أَرَادَ الْجُلُوسَ عَلَيْهَا.  
﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (١٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (١١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (١٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (١٣) فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (١٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (١٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (١٦)  
[الْحَضُّ عَلَى النَّظَرِ فِي خَلْقِ الْإِبِلِ وَالسَّمَاءِ وَالْجِبَالِ وَالْأَرْضِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةً بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ عَجِيبٌ وَتَرْكِيبُهَا غَرِيبٌ، فَإِنَّهَا فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَلِينُ لِلْجِمْلِ الثَّقِيلِ وَتَقَادُ لِلْقَائِدِ الضَّعِيفِ، وَتُؤْكَلُ وَيَتَنَفَّعُ بِوَبَرِّهَا وَيُسْرَبُ لَبَنُهَا. وَتُبْهُوا بِذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ غَالِبُ دَوَابِّهِمْ كَانَتْ الْإِبِلُ. وَكَانَ شَرِيحُ الْقَاضِي يَقُولُ: أَخْرَجُوا بَنًا حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ! أَي كَيْفَ رَفَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْأَرْضِ هَذَا الرُّفْعُ الْعَظِيمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أَي جُعِلَتْ مَنْصُوبَةً فَإِنَّهَا ثَابِتَةٌ رَاسِيَةٌ لِقَلَا تَمِيدُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَعَادِنِ ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أَي كَيْفَ بُسِطَتْ وَمُدَّتْ وَمُهْدَتْ، فَتَبَّهَ الْبَدْوِيُّ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ بَعِيرِهِ الَّذِي هُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهِ، وَالسَّمَاءُ الَّتِي فَوْقَ رَأْسِهِ، وَالْجَبَلُ الَّذِي تُجَاهَهُ وَالْأَرْضُ الَّتِي تَحْتَهُ: عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ ذَلِكَ وَصَانِعِهِ، وَأَنَّهُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَأَنَّهُ الْإِلَهِ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ.

### [قِصَّةُ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ]

وَهَكَذَا أَقْسَمَ ضِمَامٌ فِي سَوَالِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كُنَّا نُهَيِّنَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعَجِّبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلِ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ. فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُ أَتَانَا رَسُولُكَ

عَبَّاسٌ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَأَبُو الْجَوْرَاءِ وَقَتَادَةُ: هُوَ الشَّيْرُقُ. قَالَ قَتَادَةُ: فُرِشٌ تُسَمَّى فِي الرَّبِيعِ: الشَّيْرُقُ، وَفِي الصَّيْفِ: الضَّرِيعُ. قَالَ عِكْرَمَةُ: وَهُوَ شَجَرَةٌ ذَاتُ شَوْكٍ لَا طَلِيَّةَ بِالْأَرْضِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ مُجَاهِدٌ: الضَّرِيعُ نَبْتُ يُقَالُ لَهُ: الشَّيْرُقُ يُسَمَّى أَهْلُ الْحِجَازِ الضَّرِيعَ إِذَا يَبَسَ، وَهُوَ سَمٌ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ هُوَ الشَّيْرُقُ إِذَا يَبَسَ سُمِّيَ الضَّرِيعَ<sup>(٣)</sup>. وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ مِنْ شَرِّ الطَّعَامِ وَأَسْعَى وَأَخْيَرِهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمُونَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ جُوعٌ﴾ يَعْنِي لَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودٌ وَلَا يَنْدَفِعُ بِهِ مَحْذُورٌ.

﴿وَجُوعٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمٌ﴾ (٨) لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْوُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَارٌ مَصْضُوفَةٌ (١٥) وَزَكَاتٌ مَبْنُوءَةٌ (١٦)

### [حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَبَّتَ بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ فَقَالَ: ﴿وَجُوعٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿نَاعِمَةٌ﴾ أَي يُعْرَفُ النِّعِيمُ فِيهَا وَإِنَّمَا حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ بِسَعْيِهَا. وَقَالَ سُفْيَانٌ: ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ قَدْ رَضِيَتْ عَمَلَهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أَي رَفِيعَةٍ بَهِيَّةٍ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَةً﴾ أَي لَا تَسْمَعُ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا كَلِمَةً لَغْوٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مریم: ٦٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ [الطور: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ (١٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: ٢٥، ٢٦] ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أَي سَارِحَةٌ، وَهَذِهِ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا عَيْنًا وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا هَذَا جِنْسٌ يَعْنِي فِيهَا عَيُونٌ جَارِيَاتٌ. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَفْجَرُ مِنْ تَحْتِ تِلَالٍ - أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالٍ - الْمِسْكِ»<sup>(٥)</sup>. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْوُوعَةٌ﴾ أَي عَالِيَةٌ نَاعِمَةٌ كَثِيرَةُ الْفُرَشِ، مُرْتَفَعَةٌ السَّنَكِ عَلَيْهَا الْخُورُ الْعَيْنُ، قَالُوا: فَإِذَا أَرَادَ وَلِيُّ اللَّهِ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى تِلْكَ السُّرُرِ الْعَالِيَةِ تَوَاضَعَتْ لَهُ ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ يَعْنِي أَوَانِي الشَّرْبِ مُعَدَّةٌ، مُرْصَدَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا مِنْ أَرْبَابِهَا.

﴿وَنَارٌ مَصْضُوفَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّارِيقُ الْوَسَائِدُ<sup>(٦)</sup>.

وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالتَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَزَكَاتٍ مَبْنُوءَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْزَّرَائِي: الْبُسْطُ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَمَعْنَى

(١) الطبري: ٣٨٤/٢٤ (٢) فتح الباري: ٥٧٠/٨ (٣)

الطبري: ٣٨٤/٢٤ (٤) الطبري: ٣٨٤/٢٤ (٥) ابن حبان:

٢٦٢٢ (موارد الظمآن) (٦) الطبري: ٣٨٧/٢٤

## سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَلَئِيلٍ إِذَا نَسِرَ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْصُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتَحْبُونَ أَمْالَ حُبَّاجِمَا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دَاكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ يُؤْمِنُ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَنْذِرُ الْإِنْسَانَ وَآفَى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾

ولهذا قال: ﴿فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أَي مَرْجِعُهُمْ وَمُنْقَلِبُهُمْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ أَي نَحْنُ نَحْسَبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَنَجَازِيهِمْ بِهَا، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْغَاشِيَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

(\*) ما بين المعكوفتين زيادة من مسند أحمد وهو غير موجود في نسخ تفسير ابن كثير. (الناشر) (١) أحمد: ١٤٣/٣ (٢) البخاري: ٦٣ ومسلم: ٤١/١ وأبو داود: ٤٨٦ والترمذي: ٦١٩ والنسائي في الكبرى: ٢٤٠١، ٢٤٠٢ وابن ماجه: ١٤٠٢ (٣) الطبري: ٣٩٠/٢٤ (٤) الطبري: ٣٩٠/٢٤ (٥) أحمد: ٣/٣٠٠ (٦) مسلم: ٥٣/١ وتحفة الأحوذى: ٢٦٥/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٤/٦ (٧) فتح الباري: ٩٥/١ عن ابن عمر ومسلم: ٥٢/١

فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: «اللَّهُ» قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ اللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ اللَّهُ أَمْرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةَ أَمْوَالِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ اللَّهُ أَمْرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ [أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا قَالَ: «نَعَمْ، صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ اللَّهُ أَمْرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ] (\*) أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مِنْ اسْطِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: ثُمَّ وَلَّى فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ شَيْئًا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ صَدَقَ لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(٢)</sup>.

[لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾<sup>(٣)</sup> لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ أَي فَذَكِّرْ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ بِمَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْهِمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ<sup>(٤)</sup> أَي لَسْتَ تَخْلُقُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَسْتَ بِالَّذِي تُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ<sup>(٥)</sup>. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُواهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾<sup>(٦)</sup> لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ<sup>(٧)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا<sup>(٨)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٩)</sup>.

[الْوَعْدُ لِمَنْ تَوَلَّى عَنِ الْحَقِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ أَي تَوَلَّى عَنِ الْعَمَلِ بِأَرْكَانِهِ وَكَفَرَ بِالْحَقِّ بِجَنَائِهِ وَلِسَانِهِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾<sup>(١٠)</sup> وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى [الْقِيَامَةُ: ٣١، ٣٢]

## تفسير سورة الفجر وهي مكية

[قراءة سورة الفجر في الصلاة]

رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: صَلَّى مُعَاذٌ صَلَاةً، فَجَاءَ رَجُلٌ فَصَلَّى مَعَهُ، فَطَوَّلَ فَصَلَّى فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا فَقَالَ: مُتَافِقٌ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَ الْفَتَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْتُ أَصَلِّي مَعَهُ فَطَوَّلَ عَلَيَّ، فَأَنْصَرَفْتُ وَصَلَّيْتُ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَعَلَّمْتُ نَاقِيًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفَتَأَنَ يَا مُعَاذُ؟ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» «وَالشَّمْسُ وَضَحَهَا» «وَالْفَجْرِ» «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى»»<sup>(١)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّئَلَّا يُخَيَّرَ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا فَسُخَّرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ١٠ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ ١١ فَآكَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمٌ رَصَادٌ ١٤

[تفسير الفجر وما بعده]

أَمَّا الْفَجْرُ فَمَعْرُوفٌ وَهُوَ الضُّحَى، قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي عُبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ مَسْرُوقٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ: الْمُرَادُ بِهِ فَجْرُ يَوْمِ النَّحْرِ خَاصَّةً، وَهُوَ خَاتِمَةُ اللَّيَالِي الْعَشْرِ<sup>(٣)</sup>. وَاللَّيَالِي الْعَشْرُ الْمُرَادُ بِهَا عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدٌ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ<sup>(٤)</sup>. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ فِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ» يَعْنِي عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ»<sup>(٥)</sup>. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَشْرَ عَشَرَ الْأَصْحَى، وَالْوَتْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالشَّفْعَ يَوْمَ النَّحْرِ»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(٧)</sup>، وَهَذَا إِسْنَادٌ رِجَالُهُ لَا بَأْسَ بِهِمْ، وَعِنْدِي أَنَّ الْمَثَنَ فِي رَفْعِهِ نَكَارَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ» قَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْوَتْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ لِكُونِهِ التَّاسِعِ، وَأَنَّ الشَّفْعَ

يَوْمَ النَّحْرِ لِكُونِهِ الْعَاشِرِ، وَقَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ أَيْضًا<sup>(٨)</sup>. وَفِي تَفْسِيرِهِمَا أَقْوَالٌ أُخْرَى.

[تفسير الليل]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ» قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ إِذَا ذَهَبَ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ» حَتَّى يَذْهَبَ بَعْضُهُ بَعْضًا<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ الْعَلَاءِ، وَقَتَادَةُ، وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَابْنِ زَيْدٍ «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ» إِذَا سَارَ<sup>(١١)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّئَلَّا يُخَيَّرَ» أَيُّ لِّئَلَّا يُخَيَّرَ قَسَمٌ لِّئَلَّا يُخَيَّرَ مِنَ الْعَمَلِ جِزَاءً لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَمِنْهُ جِزْرُ الْبَيْتِ، لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الطَّائِفَ مِنَ اللَّصُوقِ بِجِدَارِهِ الشَّامِيِّ، وَمِنْهُ جِزْرُ الْبِمَامَةِ، وَحَجَرُ الْحَاكِمِ عَلَى فُلَانٍ: إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ «وَيَقُولُونَ جِزْرًا تَحْجُورًا» [الفرقان: ٢٢] كُلُّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ وَاحِدٍ، وَمَعْنَى مُتَقَارِبٍ. وَهَذَا الْقَسَمُ هُوَ بِأَوْقَاتِ الْعِبَادَةِ، وَبِنَفْسِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَجٍّ وَصَلَاةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُرْبِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ عِبَادُهُ الْمُتَّقُونَ الْمُطِيعُونَ لَهُ، الْخَائِفُونَ مِنْهُ الْمُتَوَاضِعُونَ لَدَيْهِ، الْخَاشِعُونَ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

[ذِكْرُ إِهْلَاكِ عَادٍ]

وَلَمَّا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ وَعِبَادَتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ قَالَ بَعْدَهُ: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ» وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُتَمَرِّدِينَ عَنَاءَ جَبَّارِينَ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ، مُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ جَاكِدِينَ لِكُتُبِهِ، فَذَكَرَ تَعَالَى كَيْفَ أَهْلَكَهُمْ وَدَرَّهُمْ وَجَعَلَهُمْ أَحَادِيثَ وَعَبْرًا فَقَالَ: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ» إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ وَهَؤُلَاءِ عَادُ الْأَوَّلَى وَهُمْ وَلَدُ عَادِ بْنِ إِدْرِمَ بْنِ عَوْصِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ<sup>(١٢)</sup>. وَهُمْ الَّذِينَ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولَهُ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ، وَأَهْلَكَهُمْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا» فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَتْعَابُ غُلٍّ حَاقِبَةٍ ٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ

(١) النسائي في الكبرى: ٥٥/٦ (٢) الطبري: ٣٩٥/٢٤  
والبغوي: ٤٨١/٤ (٣) القرطبي: ٣٩/٢٠ (٤) الطبري: ٢٤/٢٤  
٣٩٦ (٥) فتح الباري: ٥٣٠/٢ وأحمد: ٢٢٤/٢ (٦) أحمد:  
٣٢٧/٣ (٧) النسائي في الكبرى: ٥١٤/٦ (٨) الطبري: ٢٤/٢٤  
٣٩٨، ٣٩٧ (٩) الطبري: ٤٠١/٢٤ حكم العوفي تقدم (١٠)  
الطبري: ٤٠١/٢٤ (١١) الطبري: ٤٠١/٢٤ (١٢) الطبري:  
٤٠٤/٢٤

وَالسُّدِّيُّ (٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ❶ فَأَكْرَمُوا فِيهَا  
الْفَسَادَ ❷ أَي تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا وَعَاثُوا فِي الْأَرْضِ بِالْإِفْسَادِ  
وَالْأَذِيَّةِ لِلنَّاسِ ❸ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ❹ أَي أَنْزَلَ  
عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ وَأَحْلَلْ بِهِمْ عُقُوبَهُ، لَا يَرُدُّهَا عَنِ  
الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.

## [الرَّبُّ بِالْمُرْصَادِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ﴾ ❶ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:  
يَسْمَعُ وَيَرَى (٨) يَعْنِي يَرُصُّدُ خَلْقَهُ فِيمَا يَعْمَلُونَ وَيُجَازِي كُلًّا  
بِسَعْيِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَسَيَعْرِضُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ  
عَلَيْهِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِعَدْلِهِ وَيُقَابِلُ كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ، وَهُوَ  
الْمُنَزَّهُ عَنِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ.

❶ ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ❷  
❸ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ ❹  
❺ ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ﴾ ❻ ﴿وَلَا تَحْشُرُونَ عَلَى طَعَامِهِ﴾  
❼ ﴿الْيَتِيمَ﴾ ❽ ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ ❾ ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ﴾  
حُبًّا جَمًّا ❿

[الْغَنَى وَالْفَقْرُ اخْتِيَارًا، وَلَيْسَ مِنْ إِكْرَامِ اللَّهِ أَوْ إِهَانَتِهِ  
لِلْعَبْدِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْإِنْسَانِ فِي اعْتِقَادِهِ إِذَا وَسَّعَ اللَّهُ  
تَعَالَى عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ لِيُخْتَبِرَهُ فِي ذَلِكَ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ  
اللَّهِ إِكْرَامٌ لَهُ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ هُوَ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ كَمَا قَالَ  
تَعَالَى: ﴿أَحْسِبُونَ أَنَّآ نُؤْتِيهِمْ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ❶﴾ ❷ سَارِعٌ لَهُمْ فِي  
الْفِتْرِاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ❸ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وَكَذَلِكَ فِي الْجَانِبِ  
الْآخِرِ إِذَا ابْتَلَاهُ وَامْتَحَنَهُ وَصَبَّقَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ، يَعْتَقِدُ أَنَّ  
ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ إِهَانَةٌ لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ ❹ أَي لَيْسَ  
الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ، لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَيُصَبِّقُ عَلَى مَنْ  
يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَإِنَّمَا الْمَدَارُ فِي ذَلِكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ  
فِي كُلِّ مِنَ الْحَالَيْنِ: إِذَا كَانَ غَنِيًّا بِأَن يَشْكُرَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ  
وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا بِأَن يُصْبِرَ.

مِنْ بَافِكُو ❶ [الحاقة: ٨٠، ٧] وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فَصَّتْهُمْ فِي الْقُرْآنِ  
فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ لِيُعْتَبَرَ بِمَصْرَعِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَوْلُهُ  
تَعَالَى: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ❶ عَطْفُ بَيَانٍ؛ زِيَادَةٌ تَعْرِيفٍ بِهِمْ.  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ❶ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْكُنُونَ بُيُوتَ  
الشَّعْرِ الَّتِي تُرْفَعُ بِالْأَعْمِدَةِ الشَّدَادِ وَقَدْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ  
فِي زَمَانِهِمْ خَلْقًا وَأَقْوَاهُمْ بَطْشًا، وَلِهَذَا ذَكَرَهُمْ هُودٌ بِتِلْكَ  
النُّعْمَةِ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَعْمِلُوهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمُ الَّذِي  
خَلَقَهُمْ فَقَالَ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ  
وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾  
[الأعراف: ٦٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ  
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ  
هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وَقَالَ هَهُنَا: ﴿الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ  
مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ❶ أَي الْقَبِيلَةَ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي بِلَادِهِمْ  
لِقُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ وَعَظَمَ تَرْكِيبِهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ: إِرمَ أُمَّةٌ  
قَدِيمَةٌ يَعْنِي عَادًا الْأُولَى. قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ وَالسُّدِّيُّ: إِنَّ  
إِرمَ بَيْتٌ مَمْلُوكَةٌ عَادٍ. وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ جَيِّدٌ وَقَوِيٌّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ❶ أعَادَ ابْنُ  
زَيْدٍ الضَّمِيرَ عَلَى الْعِمَادِ لِإِزْفَاعِهَا. وَقَالَ: بَنَوْا عُمْدًا  
بِالْأَحْقَافِ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ❶. وَأَمَّا قَتَادَةُ وَابْنُ  
جَرِيرٍ فَأَعَادَا الضَّمِيرَ عَلَى الْقَبِيلَةِ أَي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلُ تِلْكَ  
الْقَبِيلَةِ فِي الْبِلَادِ، يَعْنِي فِي زَمَانِهِمْ ❶. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ  
الصَّوَابُ، وَقَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ وَمَنْ ذَهَبَ مَذْهَبُهُ ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ لَوْ  
كَانَ الْمُرَادُ ذَلِكَ لَقَالَ: الَّتِي لَمْ يُعْمَلْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ،  
وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا النَّصْرَ بِالْوَادِ﴾ ❶ يَعْنِي يَقْطَعُونَ  
النَّصْرَ بِالْوَادِي، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْجُسُونَهَا  
وَيَخْرِقُونَهَا ❷. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ  
زَيْدٍ ❸ وَمِنْهُ يُقَالُ: «مُجْتَابِي النَّمَارِ» إِذَا خَرَقُوهَا، وَاجْتَابَ  
الثَّوْبَ: إِذَا فَتَحَهُ. وَمِنْهُ الْحَبِيبُ أَيْضًا. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
﴿وَتَنْجُسُونَ مِنْكَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

## [ذِكْرُ فِرْعَوْنَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ﴾ ❶ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ: الْأَوْدَادُ الْجُنُودُ الَّتِي يَسُدُّونَ لَهُ أَمْرُهُ ❶. وَيُقَالُ:  
كَانَ فِرْعَوْنُ يُؤْتِدُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ فِي أَوْدَادٍ مِنْ حَدِيدٍ  
يُعَلِّقُهُمْ بِهَا. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ يُؤْتِدُ النَّاسَ  
بِالْأَوْدَادِ ❶. وَهَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ

(١) الطبري: ٤٠٦/٢٤ (٢) الطبري: ٤٠٦/٢٤ (٣) الطبري:

٤٠٨/٢٤ (٤) الطبري: ٤٠٨/٢٤ (٥) الطبري: ٤٠٩/٢٤

العوفي من جملة الضعفاء (٦) الطبري: ٤٠٩/٢٤ (٧) الطبري:

٤٠٩/٢٤ (٨) الطبري: ٤١١/٢٤

يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿١﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢﴾  
وَلَا يُؤْتِيهِمْ وَقْفَةً أَحَدًا ﴿٣﴾ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٤﴾ أَرْجَى  
إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّثْمِنَةً ﴿٥﴾ فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي ﴿٦﴾ وَأَدْخِلْنِي جَنَّتِي ﴿٧﴾

## سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾  
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾  
يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بِلَدًا ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾  
أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلَسْنَا نَأْتِيهِمْ شَفْعَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ  
النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْنَحُمُ الْعَاقِبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَاقِبَةُ ﴿١٢﴾  
فَكِرْفَةٌ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَلْبَسُونَ مَا قَرَبَهُ  
﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا دَامِئَةً ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا  
بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنَادَى ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ  
كَفَرُوا بَيْنَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارُ مُؤَصَّدَةٍ ﴿٢٠﴾

## سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْإِنْسَانُ ﴿١﴾ أَيَّ عَمَلِهِ وَمَا كَانَ أَسْلَفَهُ فِي قَدِيمِ دَهْرِهِ وَحَدِيثِهِ  
﴿وَأَنْ لَّهُ الذِّكْرَى﴾ أَيَّ وَكَيْفَ تَتَفَعَّلُهُ الذِّكْرَى ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي  
قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يَعْنِي يَتَذَمَّرُ عَلَى مَا كَانَ سَلَفَ مِنْهُ مِنَ  
الْمَعَاصِي إِنْ كَانَ عَاصِيًا وَيُؤَدُّ لَوْ كَانَ أَرْزَادًا مِنَ الطَّاعَاتِ  
إِنْ كَانَ طَائِعًا، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ مُحَمَّدٍ  
ابْنِ أَبِي عَمِيرَةَ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،  
قَالَ: «لَوْ أَنَّ عَبْدًا خَرَّ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمٍ وَلَدَ إِلَى أَنْ  
يَمُوتَ هَرِمًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ دَأَّ أَنْهُ رَدَّ  
إِلَى الدُّنْيَا كَيْمَا يَزْدَادَ مِنَ الْأَجْرِ وَالْثَوَابِ» (٥).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ أَيَّ لَيْسَ  
أَحَدٌ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْ تَعَذِّبِ اللَّهِ مِنْ عَصَاةٍ ﴿وَلَا يُؤْتِيهِمْ وَقْفَةً أَحَدًا﴾ أَيَّ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَشَدَّ قَبْضًا وَوَقْفًا مِنَ الزَّبَانِيَةِ لِمَنْ كَفَرَ  
بِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا فِي حَقِّ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْخَلَائِقِ

[مِنْ شَرِّ مَا يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ فِي الْمَالِ]

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ: أَنَّ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ». وَقَرَنَ  
بَيْنَ أَصْبَغِيهِ الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ (١). ﴿وَلَا تَحْشُرُوا  
عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ يَعْنِي لَا يَأْمُرُونَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ  
وَالْمَسَاكِينِ وَيَحْتَبِطُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي ذَلِكَ ﴿وَتَأْكُلُونَ  
الثَّرَاتِ﴾ يَعْنِي الْمِيرَاثَ ﴿أَكَلًا لَمًّا﴾ أَيَّ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ  
حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ ﴿وَتَحْجُبُونَ أَلْمَالَ حُبًّا  
جَمًّا﴾ أَيَّ كَثِيرًا، زَادَ بَعْضُهُمْ فَاجِشًا.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا  
صَفًّا ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ  
الذِّكْرَى﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ  
أَحَدًا﴾ وَلَا يُؤْتِيهِمْ وَقْفَةً أَحَدًا ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾  
أَرْجَى إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّثْمِنَةً ﴿فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي﴾ وَأَدْخِلْنِي  
جَنَّتِي ﴿٢٠﴾

[يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُؤْتَى كُلُّ بِمَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ]  
يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعَظِيمَةِ،  
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ أَيَّ حَقًّا ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا﴾  
أَيَّ وَطُئَتْ وَمُهْدَتْ وَسُوِّيَتْ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، وَقَامَ  
الْخَلَائِقُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّهِمْ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يَعْنِي لِفَضْلِ  
الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا يَسْتَشْفَعُونَ إِلَيْهِ بِسَيِّدِ وَلَدِ  
آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بَعْدَمَا  
يَسْأَلُونَ أُولَى الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَكُلُّهُمْ  
يَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَاكُمْ حَتَّى تَنْتَهِيَ النُّوْبَةُ إِلَى  
مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ: «أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا»: فَيَذْهَبُ فَيُشْفَعُ عِنْدَ  
اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَأْتِيَ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، فَيُشْفَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي  
ذَلِكَ (٢).

وَهِيَ أَوَّلُ الشَّفَاعَاتِ وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ كَمَا تَقَدَّمَ  
بَيَانُهُ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ، فَيَجِيءُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِفَضْلِ  
الْقَضَاءِ كَمَا يَشَاءُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَجِيئُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا  
صُفُوفًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ  
ابْنُ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ:  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ  
زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُونَهَا» (٣). وَهَكَذَا  
رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ

(١) أبو داود: ٣٥٦/٥ (٢) أحمد: ٢٨٢/١ (٣) مسلم: ٤/٢١٨٤  
(٤) تحفة الأحوذى: ٢٩٤/٧ (٥) أحمد: ١٨٥/٤

وَسَجَرُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ، وَإِنَّمَا أَجَلْتُ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، أَلَا فَلْيُلْغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»<sup>(٦)</sup>. وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ فَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذُنْ لَكُمْ»<sup>(٧)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ» وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالسُّدِّيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَخُصَيْفٌ وَشُرْحُبِيلُ بْنُ سَعْدٍ وَغَيْرُهُمْ: يُعْنِي بِالْوَالِدِ: آدَمَ. وَمَا وَلَدَ: وَلَدَهُ<sup>(٨)</sup>. وَهَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ وَأَصْحَابُهُ حَسَنٌ قَوِيٌّ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لِمَا أَقْسَمَ بِأَمِّ الْقُرَى وَهِيَ الْمَسَاكِينُ أَقْسَمَ بَعْدَهُ بِالسَّاكِنِ وَهُوَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ وَلَدَهُ. وَقَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ: هُوَ إِبْرَاهِيمُ وَدُرَّتِيَّةُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٩)</sup> وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَنَّهُ عَامٌ فِي كُلِّ وَالِدٍ وَلَدِهِ. وَهُوَ مُحْتَمِلٌ أَيْضًا<sup>(١٠)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ» وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ وَ[ابْنُ] جُرَيْجٍ وَعَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي كَبَدٍ قَالَ: فِي شِدَّةٍ خَلَقَنِي، أَلَمْ تَرَ إِلَيْهِ... وَذَكَرَ مَوْلَدَهُ وَنَبَاتِ أَسْنَانِهِ<sup>(١١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ «فِي كَبَدٍ» نُطْفَةٍ ثُمَّ عِلَاقَةٌ ثُمَّ مُضْغَةٌ يَتَكَبَّدُ فِي الْخَلْقِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا» [الأحقاف: ١٥] وَأَرْضَعَتْهُ كُرْهًا وَمَعِيشَتُهُ كُرْهٌ فَهُوَ يُكَابِدُ ذَلِكَ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ» فِي شِدَّةٍ وَطَلَبِ مَعِيشَةٍ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: فِي شِدَّةٍ وَطُولٍ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: فِي مَشَقَّةٍ<sup>(١٣)</sup>. وَغَنِ الْحَسَنِ يُكَابِدُ مَضَائِقَ الدُّنْيَا وَشِدَائِدَ الْآخِرَةِ.

[الْإِنْسَانُ مُحَاطٌ بِاللَّهِ وَبِنِعْمَاتِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يُعْنِي «أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» يَأْخُذُ

وَالظَّالِمِينَ. فَأَمَّا النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ الْمُطْمَئِنَّةُ، وَهِيَ السَّائِكَةُ الثَّابِتَةُ الدَّائِرَةُ مَعَ الْحَقِّ فَيَقَالُ لَهَا: «يَأْتِيْنَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ»<sup>(٧)</sup> أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ أَيُّ إِلَى جَوَارِهِ وَتَوَاتِيهِ، وَمَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِي جَنَّتِهِ «رَاضِيَةً» أَيُّ فِي نَفْسِهَا «مَرْضِيَّةٌ» أَيُّ قَدْ رَضِيتَ عَنْ اللَّهِ وَرَضِيَتْ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا «فَادْخُلِي فِي عِبْدِي» أَيُّ فِي جُمْلَتِهِمْ «وَادْخُلِي جَنَّتِي» وَهَذَا يَقَالُ لَهَا عِنْدَ الْأَخْتِصَارِ وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيْضًا. كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُبَشِّرُونَ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ، وَعِنْدَ قِيَامِهِ مِنْ قَبْرِهِ، فَكَذَلِكَ هَهُنَا.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَأْتِيْنَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ»<sup>(٧)</sup> أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَالَ: نَزَلَتْ وَأَبُو بَكْرٍ جَالِسٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَ هَذَا؟ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُ سَمِعَالَ لَكَ هَذَا»<sup>(١)</sup>. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَجْرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَلَدِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
«لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ»<sup>(١)</sup> وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ»<sup>(٢)</sup> وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ»<sup>(٣)</sup> لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ»<sup>(٤)</sup> أَيْحَسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ»<sup>(٥)</sup> يَقُولُ أَهْلُكَ مَا لَا بُدَّ»<sup>(٦)</sup> أَيْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ»<sup>(٧)</sup> أَلَوْ تَجْعَلُ لَنَا عَيْنَيْنِ»<sup>(٨)</sup> وَلِسَانًا وَسُفْيَانُ»<sup>(٩)</sup> وَهَذِيئَةُ التَّجَدُّدِ»<sup>(١٠)</sup> [الْقَسَمُ بِحُرْمَةِ مَكَّةَ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ فِي مَشَقَّةٍ]

هَذَا قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَكَّةَ أُمِّ الْقُرَى فِي حَالِ كَوْنِ السَّاكِنِ فِيهَا حَلَالًا لِئِنَّهُ عَلَى عَظَمَةِ قَدَرِهَا فِي حَالِ إِحْرَامِ أَهْلِهَا. قَالَ خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ «لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ»<sup>(١)</sup> «لَا» رَدٌّ عَلَيْهِمْ «أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ»<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ شَيْبٌ ابْنُ بَشَرَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ» يُعْنِي مَكَّةَ «وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» قَالَ: أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُقَاتِلَ بِهِ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَبِي صَالِحٍ، وَعَطِيَّةُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ زَيْدٍ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَحَلَّهَا اللَّهُ لَهُ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَالُوهُ قَدْ وَدَّ بِهِ الْحَدِيثُ الْمُتَّفَقُ عَلَى صِحَّتِهِ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْصَدُ

(١) ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء المقدسي في المختارة: الدر المنثور: ٥١٣/٨ (٢) الدر المنثور: ٥١٧/٨ (٣) القرطبي: ٢٠/٦٠ والدر المنثور: ٥١٨/٨ (٤) القرطبي: ٢٠/٦٠ والدر المنثور: ٥١٨/٨ (٥) الدر المنثور: ٥١٨/٨ (٦) فتح الباري: ٥٦/٤ (٧) فتح الباري: ٢٣٨/١ (٨) القرطبي: ٢٠/٦١ والدر المنثور: ٥١٩/٨ والطبري: ٤٣٢/٢٤ (٩) الطبري: ٤٣٣/٢٤ (١٠) الطبري: ٤٣٣/٢٤ (١١) الطبري: ٤٣٤/٢٤ (١٢) الدر المنثور: ٥٢٠/٨ (١٣) الطبري: ٢٤/٤٣٣



مِنْ طَرَفٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَرْجَانَةَ بِهِ<sup>(٧)</sup>.  
 رَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ، قَالَ  
 السُّلَمِيُّ: قُلْتُ لَهُ: حَدَّثَنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
 لَيْسَ فِيهِ انْتِقَاصٌ وَلَا وَهْمٌ، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ وَلَدَ  
 لَهُ ثَلَاثَةَ أَوْلَادٍ فِي الْإِسْلَامِ، فَمَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْجَنَّةَ  
 أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَنْ شَابَ شَيْئَةً فِي  
 سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي  
 سَبِيلِ اللَّهِ بَلَغَ بِهِ الْعُدُوَّ أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ كَانَ لَهُ عَتَقٌ رَقَبَةٍ،  
 وَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤِمَّةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ غُضُو مِنْهُ غُضُوًّا مِنْهُ  
 مِنَ النَّارِ، وَمَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ  
 أَبْوَابٍ يُدْخِلُهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ بَابٍ شَاءَ مِنْهَا»<sup>(٨)</sup>. [وَرَوَى مِنْ  
 طَرَفٍ] وَهَذِهِ أَسَانِيدُ جَيِّدَةٌ قَوِيَّةٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ  
 عَبَّاسٍ: ذِي مَجَاعَةٍ<sup>(٩)</sup>. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ  
 وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ<sup>(١٠)</sup>. وَالسَّغْبُ هُوَ الْجُوعُ.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتِمًّا﴾ أَيُّ أَطْعَمَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ يَتِمًّا  
 «ذَا مَرَبَّةٍ» أَيُّ ذَا قَرَابَةٍ مِنْهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ  
 وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(١١)</sup>. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ  
 الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ  
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمُسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى  
 ذِي الرَّجَمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ»<sup>(١٢)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ  
 وَالنَّسَائِيُّ<sup>(١٣)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ  
 مَشْكَا ذَا مَرَبَّةٍ﴾ أَيُّ فَفِيرًا مُذْقِعًا لَاصِقًا بِالتُّرَابِ، وَهُوَ  
 الدَّفْعَاءُ أَيْضًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذَا مَرَبَّةٍ هُوَ الْمَطْرُوحُ فِي  
 الطَّرِيقِ الَّذِي لَا يَبْتَ لَهْ وَلَا شَيْءٌ يَبْقَى مِنَ التُّرَابِ<sup>(١٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيُّ ثُمَّ هُوَ مَعَ  
 هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ الطَّاهِرَةِ مُؤْمِنٌ بِقَلْبِهِ مُحْتَسِبٌ ثَوَابَ  
 ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ

مَالَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَغْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قَالَ: ابْنُ  
 آدَمَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يُسْأَلَ عَنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَأَيْنَ  
 أَنْفَقَهُ<sup>(١٥)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ أَيُّ يَقُولُ  
 ابْنُ آدَمَ أَنْفَقْتُ مَالًا لُبَدًا أَيْ كَثِيرًا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ  
 وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١٦)</sup>. ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ قَالَ  
 مُجَاهِدٌ: أَيُّ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَا قَالَ  
 غَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ أَيُّ  
 يُبْصِرُ بِهِمَا ﴿وَلِسَانًا﴾ أَيُّ يَنْطِقُ بِهِ فَيَعْبِّرُ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ  
 ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يَسْتَعِينُ بِهِمَا عَلَى الْكَلَامِ، وَأَكْلِ الطَّعَامِ،  
 وَجَمَالًا لِيُوجِبَهُ وَفَمِهِ.

### [التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ نِعْمَةً]

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ الطَّرِيقَيْنِ. قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ  
 عَاصِمٍ عَنْ زُرَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﴿وَهَدَيْنَاهُ  
 النَّجْدَيْنِ﴾ قَالَ: الْخَيْرُ وَالشَّرُّ<sup>(١٧)</sup>. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ  
 عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ، وَأَبِي وَائِلٍ وَأَبِي صَالِحٍ، وَمُحَمَّدُ  
 ابْنُ كَعْبٍ وَالضَّحَّاكُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ فِي آخَرِينَ<sup>(١٨)</sup>.  
 وَتَطْيِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ  
 أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢١) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا  
 شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا [الإنسان: ٢، ٣].

﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ (٢٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (٢٣) فَكَ رَقَبَةٍ (٢٤) أَوْ  
 إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (٢٥) يَتِمًّا ذَا مَرَبَّةٍ (٢٦) أَوْ مَشْكَا ذَا  
 مَرَبَّةٍ (٢٧) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا  
 بِالرَّحْمَةِ (٢٨) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْإِيمَانِ (٢٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَابِسُوا هُمْ  
 أَصْحَابُ النَّارِ (٣٠) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَسَّدَةٌ (٣١)

### [الْحُضُّ عَلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ]

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقَبَةَ﴾ أَيُّ أَفْلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ  
 الَّتِي فِيهَا النَّجَاةُ وَالْخَيْرُ ثُمَّ يَتَّيها، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ  
 مَا الْعَقَبَةُ﴾ (٢٢) فَكَ رَقَبَةٍ (٢٣) أَوْ إِطْعَمٌ (٢٤). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ  
 عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَرْجَانَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤِمَّةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ إِرْبٍ - أَيُّ  
 غُضُو - مِنْهَا إِرْبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُعْتِقُ بِالْيَدِ الْيَدَ،  
 وَبِالرَّجْلِ الرَّجْلَ، وَبِالْفَرْجِ الْفَرْجَ». فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ  
 الْحُسَيْنِ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؟ فَقَالَ سَعِيدٌ:  
 نَعَمْ. فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ لِعِلَامٍ لَهُ أَفْرَهُ غِلْمَانِهِ: أَدْعُ  
 مُطَرِّفًا، فَلَمَّا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: أَذْهَبَ فَأَنْتَ حُرٌّ لِيُوجِبَهُ  
 اللَّهُ<sup>(١٩)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ

(١) الطبري: ٤٣٦/٢٤ (٢) الطبري: ٤٣٦/٢٤ (٣) الطبري: ٤٣٧/٢٤ (٤) الطبري: ٤٣٧/٢٤ (٥) الطبري: ٤٤٠/٢٤ (٦) أحمد: ٤٢٢/٢ (٧) فتح الباري: ١٧٤/٥ و ٦٠٧/١١ ومسلم: ١١٤٧/٢ وتحفة الأحوذى: ١٤٤/٥ والنسائي في الكبرى: ١٦٨/٣ (٨) أحمد: ٣٨٦/٤ (٩) الطبري: ٤٤٢/٢٤ (١٠) الطبري: ٤٤٢/٢٤ (١١) الدر المنثور: ٥٢٥/٨ (١٢) أحمد: ٢١٤/٤ (١٣) تحفة الأحوذى: ٣٢٤/٣ والنسائي: ٩٢/٥ (١٤) الطبري: ٤٤٤/٢٤

سُورَةُ الشَّمْسِ

٥٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَنُجْمَتُهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③  
وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ⑥  
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ  
أَفْلَحَ مَنْ رَزَّكَهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩ كَذَبَتْ ثَمُودُ  
بِطُغْيَانِهَا ⑪ إِذِ ابْنَعْتَ أَشْقَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ  
نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ  
عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ⑮

## سُورَةُ الْيَلِينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ① وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③  
إِنْ سَعَيْكُمْ لَاشِقَى ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥  
فَسَنِيسِرُّهُ لِّلْغُيُوبِ ⑦ وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَعْتَى ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑨  
فَسَنِيسِرُّهُ لِّلْعُسْرَى ⑩ وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑪ إِنَّ عَلَيْنَا  
لَلْهُدَى ⑫ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ⑬ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ⑭

[قَسَمَ اللَّهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ عَلَى فَلَاحٍ مَنْ رَزَّكَ نَفْسَهُ وَخَبْثٍ  
مَنْ دَسَّاهَا]

قَالَ مُجَاهِدٌ: «وَالشَّمْسُ وَنُجْمَتُهَا» أَيْ وَضُوءُهَا ⑧. وَقَالَ  
قَتَادَةُ: «وَنُجْمَتُهَا» أَلْهَارُ كُلِّهَا ⑨. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ  
أَنْ يُقَالَ: أَقَسَمَ اللَّهُ بِالشَّمْسِ وَنَهَارِهَا، لِأَنَّ ضَوْءَ الشَّمْسِ  
الظَّاهِرُ هُوَ النَّهَارُ «وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا» قَالَ مُجَاهِدٌ:  
تَبِعَهَا ⑩. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا»  
قَالَ: يَتْلُو النَّهَارُ ⑪. وَقَالَ قَتَادَةُ: «إِذَا تَلَّهَا» لَيْلَةُ  
الْهَلَالِ: إِذَا سَقَطَتِ الشَّمْسُ رُؤْيَى الْهَلَالِ ⑫. وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى: «وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا» قَالَ مُجَاهِدٌ: أَضَاءَ ⑬.

(١) أبو داود: ٢٣١/٥ (٢) مسلم: ١٨٠٩/٤ (٣) أبو داود:  
٢٣٢/٥ (٤) الطبري: ٤٤٧/٢٤ والدر المنثور: ٥٢٦/٨ (٥)  
الدر المنثور: ٥٢٦/٨ (\*) أو حائط والله أعلم (٦) الطبري:  
٤٤٧/٢٤ (٧) فتح الباري: ٢٣٤/٢ ومسلم: ٣٤٠/١ (٨)  
الطبري: ٤٥١/٢٤ (٩) الطبري: ٤٥١/٢٤ (١٠) الطبري:  
٤٥٢/٢٤ (١١) الطبري: ٤٥٢/٢٤ ضعيف (١٢) الطبري:  
٤٥٢/٢٤ ضعيف (١٣) الطبري: ٥٢٩/٢٤

وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا  
[الإسراء: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ  
أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ»... آيَةُ [النحل: ٩٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
«وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصَّوْا بِالرَّحْمَةِ» أَيْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ  
الْعَامِلِينَ صَالِحًا، الْمُتَوَّصِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى النَّاسِ  
وَعَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الرَّاحِمُونَ  
يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ  
فِي السَّمَاءِ» ①. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا  
يَرْحَمُ النَّاسَ» ②. وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو  
يُرويه قَالَ: «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفَ حَقَّ كَبِيرَنَا فَلَيْسَ  
مِنَّا» ③. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا» أَيْ الْمُتَصِفُونَ  
بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

[أَصْحَابُ الْمَشْئِمَةِ وَجَزَاؤُهُمْ]

ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئِمَةِ» أَيْ  
أَصْحَابُ الشَّمَالِ «عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ» أَيْ مُطَبَّقَةٌ عَلَيْهِمْ فَلَا  
مَجِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ  
عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ  
الْقُرْطُبِيُّ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ:  
«مُؤَصَّدَةٌ» أَيْ مُطَبَّقَةٌ ④. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُغْلَقَةٌ  
الْأَبْوَابُ ⑤. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: «مُؤَصَّدَةٌ» حِيطٌ ⑥ لَا بَابَ  
لَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: «مُؤَصَّدَةٌ» مُطَبَّقَةٌ فَلَا ضَوْءَ فِيهَا وَلَا فَرَجَ،  
وَلَا خُرُوجَ مِنْهَا آخِرَ الْأَبَدِ ⑦.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَلَدِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشَّمْسِ وَضَحَاهَا  
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[قِرَاءَةُ وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ]

تَقَدَّمَ حَدِيثُ جَابِرِ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ: «هَلَّا صَلَّيْتَ بِ (سَجِّ) أَسْرَ رَبِّكَ الْآخِلَى»،  
«وَالشَّمْسُ وَنُجْمَتُهَا» «وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى» ①؟ ②.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَالشَّمْسُ وَنُجْمَتُهَا» ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③  
وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا ⑥  
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ  
أَفْلَحَ مَنْ رَزَّكَهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩

قَالَ: فَفَزَعْتُ مِنْهُ فَرَعًا شَدِيدًا. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ خَلَقَهُ وَمِلْكُ يَدِهِ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، قَالَ: سَدَّدَكَ اللَّهُ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لِأَخْبَرُ عَمَلَكَ، إِنَّ رَجُلًا مِنْ مُزَيْنَةٍ أَوْ جُهَيْنَةٍ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَكَادَحُونَ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَمْ شَيْءٌ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيَّهُمْ ﷺ وَأَكَّدْتُ بِهِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ؟ قَالَ: «بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ». قَالَ: فَفِيمَ نَعْمَلُ؟ قَالَ: «مَنْ كَانَ اللَّهُ خَلَقَهُ لِإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لَهَا، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ٧ فَالْمَهْمَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا» ٨. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ ٩.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ١٠ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ١١ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ أَيْ بِطَاعَةِ اللَّهِ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ. وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيَّةِ وَالرَّذَائِلِ. وَيُرْوَى نَحْوُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أَيْ دَسَّاهَا أَيْ أَخْصَلَهَا وَوَضَعَ مِنْهَا، بِخِلَافِهِ إِيَّاهَا عَنِ الْهُدَى حَتَّى رَكِبَ الْمَعَاصِي، وَتَرَكَ طَاعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى اللَّهُ نَفْسَهُ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّى اللَّهُ نَفْسَهُ. كَمَا قَالَ الْعَوْفِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ١٢. وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ٧ فَالْمَهْمَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ وَقَفَّ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا، وَخَيْرٌ مَنْ زَكَّاهَا» ٩.

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ. اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرٌ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ

وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ ١٠ إِنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ يَعْنِي إِذَا يَغْشَى الشَّمْسَ حِينَ تَغِيبُ فَتُظْلِمُ الْأَفَاقُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «مَا» هَهُنَا مَصْدَرِيَّةٌ بِمَعْنَى السَّمَاءِ وَبَيْنَاهَا، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى «مَنْ» يَعْنِي السَّمَاءَ وَبَيْنَاهَا. وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ ١١. وَكِلَاهُمَا مُتَلَاذِمٌ وَ«الْبِنَاءُ» هُوَ الرُّفْعُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ﴾ - أَيْ بِقُوَّةٍ - ﴿وَلَنَا لِمُوسَى﴾ ١٢ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ ١٣ [الذاريات: ٤٧، ٤٨] وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: طَحَّاهَا دَحَّاهَا ١٤. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَمَا لَهَا﴾ أَيْ خَلَقَ فِيهَا ١٥. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: طَحَّاهَا: قَسَّمَهَا ١٦. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَأَبُو صَالِحٍ وَابْنُ زَيْدٍ: ﴿لَهَا﴾ بَسَطَهَا ١٧.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أَيْ خَلَقَهَا سَوِيَّةً مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْفِطْرَةِ الْقَوِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِيَّةٌ أَوْ يُنَصْرَانِيَّةٌ أَوْ يُمَجْسَانِيَّةٌ، كَمَا تَوَلَّدَ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْشُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» أَخْرَجَاهُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ ١٨. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمَجَاشِعِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُفَاءً، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» ١٩.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْمَهْمَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أَيْ فَأَرْشَدَهَا إِلَى فُجُورِهَا وَتَقْوَاهَا، أَيْ: بَيَّنَّ ذَلِكَ لَهَا وَهَدَّاهَا إِلَى مَا قَدَّرَ لَهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿فَالْمَهْمَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بَيَّنَّ لَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ٢٠. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالثَّوْرِيُّ ٢١. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَلْمَهْمَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: جَعَلَ فِيهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٢٢. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّلِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَكَادَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ ﷺ وَأَكَّدْتُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ؟ قُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ. قَالَ: فَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا؟

(١) الطبري: ٥٣/٢٤ (٢) الطبري: ٥٤/٢٤ (٣) الطبري: ٥٤/٢٤ (٤) الطبري: ٥٤/٢٤ (٥) الطبري: ٥٤/٢٤ (٦) فتح الباري: ٢٩٠/٣ (٧) مسلم: ٢٠٤٨/٤ (٨) الطبري: ٢٤/٢٤ (٩) الطبري: ٥٥/٢٤ (١٠) الطبري: ٥٥/٢٤ (١١) الطبري: ٥٥/٢٤ (١٢) أحمد: ٤٣٨/٤ (١٣) مسلم: ٢٠٤١/٤ (١٤) الطبراني: ١٠٦/١١

وَلَيْهَا وَمَوْلَاهَا. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَتَّقُ، وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَدَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا». قَالَ زَيْدٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُهَا هُنَّ وَنَحْنُ نَعْلَمُكُمُوهُنَّ<sup>(١)</sup>. رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَبَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُرَزِيُّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(٨)</sup>.  
أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشَّمْسِ وَضَحَاهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ اللَّيْلِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[قِرَاءَةُ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ فِي الْعِشَاءِ]

تَقَدَّمَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمُعَاذٍ: «فَهَلَّا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾<sup>(٩)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣)  
إِنْ سَعَيْكَ لَشَتَّى (٤) فَلَمَّا مَنَّ أَطَقْنِي وَآتَقْنِي (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦)  
فَسَيِّئِرُهُ لَلْبُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ يَبْغِ بَعْلًا وَاسْتَفْتَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)  
فَسَيِّئِرُهُ لَلْبُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)

[الْقَسَمُ عَلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي سَعْيِهِمْ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى اخْتِلَافِ نَتَائِجِ ذَلِكَ]

أَقْسَمَ تَعَالَى بِـ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أَيَّ إِذَا غَشِيَ الْخَلِيقَةَ بِظُلَامِهِ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ أَيَّ بِضِيَائِهِ وَإِشْرَاقِهِ.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النساء: ٨] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

[الذاريات: ٤٩] وَلَمَّا كَانَ الْقَسَمُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ

كَانَ الْمَقْسَمُ عَلَيْهِ أَيْضًا مُتَضَادًّا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا سَعَيْكَ لَشَتَّى﴾ أَيَّ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مُتَضَادَّةٌ أَيْضًا

وَمُتَخَالِفَةٌ، فَمِنْ فَاعِلٍ خَيْرًا وَمِنْ فَاعِلٍ شَرًّا. قَالَ اللَّهُ

تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا مَنَّ أَطَقْنِي وَآتَقْنِي﴾ أَيَّ أَعْطَى مَا أَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ

وَآتَقْنِي اللَّهُ فِي أُمُورِهِ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أَيَّ بِالْمُجَازَاةِ عَلَى

ذَلِكَ. قَالَه قَتَادَةُ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ خُصَيْفٌ: بِالتَّوَابِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسَيِّئِرُهُ لَلْبُسْرَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي

(١) أحمد: ٣٧١/٤ (٢) مسلم: ٢٠٨٨/٤ (٣) الطبري: ٢٤/٤٥٨

(٤) أحمد: ١٧/٤ (٥) فتح الباري: ٥٧٥/٨ ومسلم: ٢١٩١/٤ وتحتة الأحوذني: ٢٦٨/٩ والنسائي في الكبرى: ٦/٥١٥

(٦) الطبري: ٤٦٠/٢٤ (٧) الطبري: ٤١٦/٢٤ (٨) الطبري: ٤٦١/٢٤ (٩) فتح الباري: ٢٣٤/٢ ومسلم: ١/٣٤٠

(١٠) الطبري: ٤٧٠/٢٤

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوِيهَا﴾ (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَفَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَفَوَّسَهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

[تَكْذِيبُ ثُمُودَ وَإِهْلَاكُهُمْ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ثُمُودَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْبَغْيِ. قَالَه مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ

وغيرُهُما<sup>(٣)</sup>. فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ تَكْذِيبًا فِي قُلُوبِهِمْ بِمَا جَاءَهُ بِهِ

رَسُولُهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أَيَّ أَشْقَى الْقَبِيلَةِ وَهُوَ قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ عَاقِرُ

النَّاقَةِ، وَهُوَ أَحْيَرُ ثُمُودَ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿فَقَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] الْآيَةِ. وَكَانَ هَذَا

الرَّجُلُ عَزِيزًا فِيهِمْ شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ، نَسِيبًا رَئِيسًا مُطَاعًا،

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ قَالَ: خَطَبَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ النَّاقَةَ وَذَكَرَ الَّذِي عَقَرَهَا فَقَالَ: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾...

انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَارِمٌ عَزِيزٌ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ

وَمُسْلِمٌ فِي صِفَةِ النَّارِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا<sup>(٥)</sup>.

[قِصَّةُ نَاقَةِ صَالِحٍ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ يَعْنِي صَالِحًا عَلَيْهِ

السَّلَامُ ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أَيَّ اخْذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ أَنْ تَمْشَوْهَا بِسُوءِ

﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أَيَّ لَا تَعْتَدُوا عَلَيْهَا فِي سُقْيَاهَا فَإِنَّ لَهَا شِرْبَ يَوْمٍ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَفَقَرُوهَا﴾ أَيَّ كَذَّبُوهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ أَنْ

عَقَرُوا النَّاقَةَ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ مِنَ الصَّخْرَةِ آيَةً لَهُمْ وَحُجَّةً عَلَيْهِمْ ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيَّ غَضِبَ عَلَيْهِمْ

فَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ﴿فَفَوَّسَهَا﴾ أَيَّ فَجَعَلَ الْعُقُوبَةَ نَارًا عَلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ. قَالَ قَتَادَةُ: بَلَّغْنَا أَنَّ أَحْيَرَ ثُمُودَ لَمْ يَعْقِرِ النَّاقَةَ

حَتَّى تَابَعَهُ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ وَذَكَرَهُمْ وَأَنَّثَاهُمْ، فَلَمَّا اشْتَرَكَ الْقَوْمُ فِي عَقْرِهَا دَمْدَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ وَثُرِيءٌ: (فَلَا يَخَافُ).

﴿عُقْبَاهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَخَافُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ تَبِعَهُ<sup>(٧)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرُ مِنْ رِوَايَةِ جَابِرٍ) رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْمَلُ لِأَمْرِ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ أَوْ لِأَمْرِ نَسْتَأْذِنُهُ؟ فَقَالَ: «لِأَمْرِ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ» فَقَالَ شِرَاقَةُ: فَيَمِيزُ الْعَمَلُ إِذَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ عَامِلٍ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ»<sup>(٨)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٩)</sup>.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعْتِقُ عَلَى الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ، فَكَانَ يُعْتِقُ عَجَائِزَ وَنِسَاءً إِذَا أَسْلَمْنَ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: أَيُّ بَنِي أَرَاكَ تُعْتِقُ أَنْاسًا ضَعَفَاءَ فَلَوْ أَنَّكَ تُعْتِقُ رَجُلًا جُلْدَاءَ يَقُومُونَ مَعَكَ وَيَمْنَعُونَكَ وَيَدْفَعُونَ عَنْكَ. فَقَالَ: أَيُّ أَبَتِ إِنَّمَا أُريدُ - أَظُنُّهُ قَالَ - مَا عِنْدَ اللَّهِ. قَالَ: فَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ بَيْتِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أُنْزِلَتْ فِيهِ: «وَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى»<sup>(١٠)</sup> وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ<sup>(١١)</sup> فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى<sup>(١٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى» قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ إِذَا مَاتَ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِذَا تَرَدَّى فِي النَّارِ<sup>(١٤)</sup>.

﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ (٧) وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْقَى﴾ (٨) لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْأَشَقَى ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٩) وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَى ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٠) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (١١) وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿﴾ (١٢) [الْهُدَى وَغَيْرُهُ بَيْدَ اللَّهِ]

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أَيُّ نُبَيِّنُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ<sup>(١٣)</sup>. وَقَالَ غَيْرُهُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْهُدَى وَصَلَ إِلَى اللَّهِ وَجَعَلَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» [النحل: ٩] حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(١٤)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أَيُّ الْجَمِيعِ مِلْكُنَا وَأَنَا الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا وَقَوْلُهُ

لِلْخَيْرِ<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ» أَيُّ بِمَا عِنْدَهُ ﴿وَاسْتَقْنَى﴾ قَالَ عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيُّ بَخِلَ بِمَالِهِ وَاسْتَعْنَى عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ<sup>(٢)</sup>. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. «كَذَّبَ بِالْحَقِّ» أَيُّ بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ «فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى» أَيُّ لِيَطْرُقَ الشَّرُّ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَتَقَلَّبَ أَقْبَسَهُمْ وَأَقْصَرَهُمْ» كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْصُونَ ﴿[الأنعام: ١١٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُجَازِي مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ بِالتَّوْفِيقِ لَهُ، وَمَنْ قَصَدَ الشَّرَّ بِالْخُذْلَانِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَقْدِرُ مُقَدَّرٌ وَالْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.

(رِوَايَةُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْمَلُ عَلَى مَا فُرِعَ مِنْهُ أَوْ عَلَى أَمْرِ مُؤْتَنَفٍ؟ قَالَ: «بَلْ عَلَى أَمْرِ قَدْ فُرِعَ مِنْهُ» قَالَ: فَيَمِيزُ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «كُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»<sup>(٣)</sup>.

(رِوَايَةُ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا فِي حِجَارَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْفَةِ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَتَكَسَّ، فَجَعَلَ يَنْكُثُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ - أَوْ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنُوسَةٍ - إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَكَلَّمُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ الشَّقَاءِ؟ فَقَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاءِ فَيَسَّرُونَ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحَقِّ (٦) فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَقْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ (٩) فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (١٠)»<sup>(٤)</sup> وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ<sup>(٥)</sup>.

(رِوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ عَمْرٌو: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَا نَعْمَلُ فِيهِ أَفِي أَمْرِ قَدْ فُرِعَ أَوْ مُبْتَدَأُ أَوْ مُتَبَعٌ؟ قَالَ: «فِيمَا قَدْ فُرِعَ مِنْهُ، فَاعْمَلْ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنَّ كُلَّ مُيَسَّرٍ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلْسَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلشَّقَاءِ»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الْقَدَرِ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٧)</sup>.

(١) الدر المنثور: ٥٣٥/٨ (٢) الطبري: ٤٧٢/٢٤ (٣) أحمد: ٥/١ إسناده ضعيف لإبهام الرجل البصري لكن يشهد له ما بعده (٤) فتح الباري: ٥٧٩/٨ (٥) مسلم: ٢٠٣٩، ٢٠٤٠ وأبو داود: ٦٨/٥ وتحفة الأحوذى: ٣٤٠/٦ و ٢٧٠/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٦/٦، ٥١٧ وابن ماجه: ٣٠/١ (٦) أحمد: ٥٢/٢ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٣٩/٦ (٨) الطبري: ٤٧٥/٢٤ (٩) مسلم: ٢٠٤١/٤ (١٠) الطبري: ٤٧٣/٢٤ إسناده ضعيف منقطع عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبي بكر مرسل بينهما مائة عام وابن إسحاق مدلس ولم يصرح (١١) الطبري: ٤٧٦/٢٤ (١٢) الطبري: ٤٧٦/٢٤ والقرطبي: ٨٥/٢٠ (١٣) الطبري: ٢٤/٢٤ ٤٧٧ (١٤) الطبري: ٤٧٧/٢٤

سُورَةُ الضُّحَىٰ

٥٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَصْلَهُنَّ إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسِيئَ جَبِينِهِ  
الَّذِي (١٧) يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ  
نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)

## سُورَةُ الضُّحَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى (٣)  
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ  
فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا  
فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ (٩)  
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

## سُورَةُ الشُّرَحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي  
أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ  
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

﴿وَسِيئَتُهَا الْآفَتَى (١٥) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩)﴾ وَلَكِنَّهُ مُتَعَدِّمُ الْأُمَّةِ وَسَائِقُهُمْ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ وَسَائِرِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ، فَإِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا تَقِيًّا كَرِيمًا جَوَادًا بَدَّالًا لِأَمْوَالِهِ فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ وَنُصْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَمْ مِنْ دَرَاهِمٍ وَدَنَانِيرٍ بَدَّلَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عِنْدَهُ مِثَّةٌ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكَافِئَهُ بِهَا، وَلَكِنْ كَانَ فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ عَلَى السَّادَاتِ وَالرُّؤَسَاءِ مِنْ سَائِرِ الْقَبَائِلِ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ وَهُوَ سَيِّدُ ثَقِيفٍ يَوْمَ صَلُحِ الْحُدَيْبِيَّةِ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا يَدُكَ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجُزْكَ بِهَا لِأَجْبَتُكَ. وَكَانَ الصَّدِيقُ قَدْ أَغْلَظَ لَهُ فِي الْمَقَالَةِ، فَإِنْ كَانَ هَذَا حَالُهُ مَعَ سَادَاتِ الْعَرَبِ وَرُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ فَكَيْفَ يَمُنُّ عَدَاؤُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠)﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)

(١) الطبري: ٤٧٧/٢٤ (٢) أحمد: ٢٧٢/٤ (٣) أحمد: ٤/

٢٧٤ (٤) فتح الباري: ٤٢٤/١١ (٥) مسلم: ١٩٦/١ (٦)

أحمد: ٣٦١/٢ (٧) فتح الباري: ٢٦٣/١٣

تَعَالَى: ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْقَى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيُّ تَوْهَجٍ (١). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، سَمِعْتُ الثُّعْمَانَ ابْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ: «أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ» حَتَّى لَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِالسُّوقِ لَسَمِعَهُ مِنْ مَقَامِي هَذَا، قَالَ: حَتَّى وَقَعَتْ خَبِيصَةٌ كَانَتْ عَلَى عَاتِقِهِ عِنْدَ رَجُلَيْهِ (٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، سَمِعْتُ الثُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ وَيَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ تَوْضَعُ فِي أَحْصَصٍ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ» (٣). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤).

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا مِنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَيْنِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا» (٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَصْلَهُنَّ إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أَيُّ لَا يَدْخُلُهَا دُخُولًا يَحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ إِلَّا الْأَشْقَى ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ: ﴿الَّذِي كَذَبَ﴾ أَيُّ بِقَلْبِهِ ﴿وَتَوَلَّى﴾ أَيُّ عَنِ الْعَمَلِ بِجَوَارِحِهِ وَأَرْكَانِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَبَى» قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» (٦). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسِيئَتُهَا الْآفَتَى﴾ أَيُّ وَسَيِّئُ خُرْجٍ عَنِ النَّارِ النَّفْيُ النَّفْيُ الْآفَتَى ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أَيُّ يَصْرِفُ مَالَهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ لِيُزَكِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَمَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ أَيُّ لَيْسَ بِذَلِكَ مَالَهُ فِي مَكَافَأَةٍ مِنْ أَسَدَى إِلَيْهِ مَعْرُوفًا، فَهُوَ يُعْطِي فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا دَفَعَهُ ذَلِكَ ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ أَيُّ طَمَعًا فِي أَنْ يَحْصُلَ لَهُ رُؤْيُهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أَيُّ وَلَسَوْفَ يَرْضَى مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

## [سَبَبُ التَّزْوِيلِ وَفَضْلُ أَبِي بَكْرٍ]

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ حَكَى الْإِجْمَاعَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهَا وَأَوَّلَى الْأُمَّةِ بِعُمُومِهَا فَإِنَّ لَفْظَهَا الْعُمُومُ. وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

وَالْفَرَمَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [الأنعام: ٩٦] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أَيُّ مَا تَرَكَكَ ﴿وَمَا قَلَّ﴾ أَيُّ وَمَا أَبْغَضَكَ.

### [الْآخِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَى]

﴿وَلَاخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أَيُّ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ هَذِهِ الدَّارِ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَأَعْظَمَهُمْ لَهَا اطِّرَاحًا، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ سِيرَتِهِ، وَلَكَمَا خَيْرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بَيْنَ الْخُلْدِ فِي الدُّنْيَا إِلَى آخِرِهَا ثُمَّ الْجَنَّةِ، وَبَيْنَ الصَّبْرَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَةِ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ: اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَرٌ فِي جَنْبِهِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ جَعَلَ أَمْسَحَ جَنْبَهُ وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَذْنُتُنَا حَتَّى تَبْسُطَ لَكَ عَلَى الْحَصِيرِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَايِبٍ ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»<sup>(٦)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ مِنْ حَدِيثِ الْمَسْعُودِيِّ بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٧)</sup>.

### [نِعْمَ الْآخِرَةُ الْكَثِيرَةُ تَنْتَظِرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضًا﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ يُعْطِيهِ حَتَّى يُرْضِيَهُ فِي أُمَّتِهِ، وَفِيمَا أَعَدَّهُ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمِنْ جُمْلَتِهِ نَهْرُ الْكُوفَرِ الَّذِي حَافَتَاهُ قِبَابُ اللَّوْلُ الْمُجَوَّفِ، وَطِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ كَمَا سَبَّأَنِي. وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: عَرَضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَنْزًا كَنْزًا فَفَسَّرَ بِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضًا﴾ فَأَعْطَاهُ فِي الْجَنَّةِ أَلْفَ أَلْفِ قَصْرٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ مَا يُبْغِي لَهُ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْخَدَمِ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِهِ<sup>(٨)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ،

رَضِيَ ﷺ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دَعَتْهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ يُدْعَى مِنْهَا ضَرُورَةٌ فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلُّهَا أَحَدٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»<sup>(١)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اللَّيْلِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثْنُ.

## تفسير سورة الضحى وهي مكية

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَاخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضًا (٥) أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَاوِي (٦) وَوَدَّعَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَالِيًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

### [سَبَبُ نَزُولِ سُورَةِ الضُّحَى]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُنْدَبٍ قَالَ: اشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَشْفُ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، فَأَتَتْ: أَمْرَأَةٌ فَقَالَتْ يَا مُحَمَّدُ! مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣). رَوَاهُ الْخَارِجِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٣)</sup> عَنْ جُنْدَبٍ، هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَلِّي، ثُمَّ الْعَلَقِيُّ، بِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ سَمِعَ جُنْدَبًا قَالَ: أَبْطَأَ جَبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: وَدَّعَ مُحَمَّدًا رَبَّهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)<sup>(٤)</sup>.

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنُ أَبْطَأَ عَنْهُ جَبْرِيلُ أَيَّامًا فَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: وَدَّعَهُ رَبَّهُ وَقَلَّاهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (٥). وَهَذَا قَسَمٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالضُّحَى وَمَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الضِّيَاءِ ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ أَيُّ سَكَنَ فَأَظْلَمَ وَادْلَهَمَ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ. وَذَلِكَ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ هَذَا وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَى﴾ (١٠) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ

(١) فتح الباري: ٢٣/٧ ومسلم: ٧١٢/٢ (٢) أحمد: ٤/

٣١٢ (٣) فتح الباري: ١١/٣ و٥٨٠/٨ و٥٨١ و٦١٩ ومسلم: ١٤٢١/٣، ١٤٢٢ وتحفة الأحوذى: ٢٧٢/٩ والنسائي في

الكبرى: ٥١٧/٦ والطبري: ٤٨٥/٢٤، ٤٨٦ (٤) الطبري: ٤٨٦/٢٤ (٥) الطبري: ٤٨٤/٢٤ والقرطبي: ٩١/٢٠ (٦)

أحمد: ٣٩١/١ تحفة الأحوذى: ٤٨/٧ وابن ماجه: ٢/

١٣٧٦ (٨) الطبري: ٤٨٧/٢٤

وَمِثْلُ هَذَا مَا يُقَالُ إِلَّا عَنْ تَوْقِيفٍ.

[ذَكَرَ شَيْءٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُعَدُّ نِعَمَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿أَلَمْ يَخْلُقْنَا مِنْ نَارٍ وَنُفُوسٍ مِنْ نَارٍ وَأَبَاهُ نُفُوسٍ وَهُوَ حَمَلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، ثُمَّ نُفِيتْ أُمُّهُ أَمْنَهُ بِنْتُ وَهَبٍ وَلَهُ مِنَ الْعُمَرِ سِتُّ سِنِينَ، ثُمَّ كَانَ فِي كَفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَى أَنْ تُوفِّيَ وَلَهُ مِنَ الْعُمَرِ ثَمَانُ سِنِينَ، فَكَفَلَهُ عُمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ، وَيُوقِرُهُ وَيَكْفُ عَنْهُ أَدَى قَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ. هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ إِلَى أَنْ تُوفِّيَ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِقَلِيلٍ، فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ سُفَهَاءُ قُرَيْشٍ وَجُهَالُهُمْ فَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ الْهِجْرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ إِلَى بَلَدِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، كَمَا أَجْرَى اللَّهُ سُنَّتَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ أَوْوَهُ وَنَصَرُوهُ وَحَاطُوهُ، وَقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لَهُ وَكَلَاءَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا...﴾ [الشورى: ٥٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ أَيْ كُنْتَ فَقِيرًا ذَا عِيَالٍ فَأَغْنَاكَ اللَّهُ عَنْ سِوَاهُ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ مَقَامِي الْفَقِيرِ الصَّابِرِ وَالْغَنِيِّ الشَّاكِرِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»<sup>(١)</sup> وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَزُرُقَ كَفَافًا، وَفَتَّحَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»<sup>(٢)</sup>.

[كَيْفَ تَقْدُرُ هَذِهِ النِّعَمَ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا اللَّيْلُ فَلَا تَنْهَرُ﴾ أَيْ كَمَا كُنْتَ يَتِيمًا فَأَوَّاكَ اللَّهُ فَلَا تَنْهَرُ الْيَتِيمَ أَيْ لَا تُذِلُّهُ وَتَنْهَرُهُ، وَتَهْنُءُ، وَلَكِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ وَتَلَطَّفَ بِهِ. قَالَ قَتَادَةُ: كُنْ لِلْيَتِيمِ كَأَلَابِ الرَّحِيمِ<sup>(٣)</sup>. ﴿وَأَمَّا النَّهَارُ فَلَا تَنْهَرُ﴾ أَيْ وَكَمَا كُنْتَ ضَالًّا فَهَدَاكَ اللَّهُ فَلَا تَنْهَرُ السَّائِلَ فِي الْعِلْمِ الْمُسْتَرْشِدَ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرُ﴾ أَيْ فَلَا تَكُنْ جَبَّارًا وَلَا

مُتَكَبِّرًا وَلَا فَحَاشًا وَلَا فَظًّا عَلَى الضَّعَفَاءِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي رَدُّ الْمُسْكِينِ بِرَحْمَةٍ وَلِينٍ<sup>(٤)</sup>. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أَيْ وَكَمَا كُنْتَ عَائِلًا فَقِيرًا فَأَغْنَاكَ اللَّهُ فَحَدِّثْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: صَحِيحٌ<sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أُبْلِيَ بِلَاءً فَذَكَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»<sup>(٧)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الضُّحَى، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْنَّازِعَاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِي نَزَّلَ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وَوَضَعَا عَنكَ وَرْزَكَ ﴿الَّذِي أَقْبَضَ ظَهْرَكَ﴾ وَرَفَعَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿إِذَا فُرِغَتْ فَانْصَبْ﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿١﴾

[مَعْنَى شَرْحِ الصَّدْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يَعْنِي أَنَّا شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ أَيْ نَوْرَانَهُ وَجَعَلْنَاهُ فَيْسِحًا رَحِيمًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْسُحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وَكَمَا شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ كَذَلِكَ جَعَلَ شَرْعَهُ فَيْسِحًا وَاسِعًا سَمَحًا سَهْلًا، لَا حَرَجَ فِيهِ وَلَا إِصْرَ وَلَا ضَيْقَ.

[بَيَانُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَضَعَا عَنكَ وَرْزَكَ﴾ بِمَعْنَى ﴿يَغْفِرُ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ﴿الَّذِي أَقْبَضَ ظَهْرَكَ﴾ الْإِنْقَاضُ الصَّوْتُ. وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ:

(١) فتح الباري: ٢٧٦/١١ ومسلم: ٧٢٦/٢ بسند آخر وبهذا الإسناد أحمد ٣١٥/٢ (٢) مسلم: ٧٣٠/٢ (٣) القرطبي: ١٠٠/٢٠ (٤) البغوي: ٥٠٠/٤ (٥) أبو داود: ١٥٧/٥ (٦) تحفة الأحوذني: ٨٧/٦ (٧) أبو داود: ١٥٩/٥ فيه تدليس الأعمش وله شاهد ضعيف عند ابن عساكر مع هذا صحيحه الألباني في صحيح سنن أبي داود



﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أَيِ أَثْقَلَكَ حَمْلُهُ.

[مَعْنَى رَفَعَ ذِكْرَ النَّبِيِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا أَذْكَرُ إِلَّا ذُكِّرْتَ مَعِيَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ<sup>(١)</sup>. وَقَالَ قَتَادَةُ: رَفَعَ اللَّهُ ذِكْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُشْهَدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يُنَادِي بِهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>.

[الْيُسْرُ بَعْدَ الْعُسْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُوجَدُ الْيُسْرُ ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْخَبَرَ.

[الْأَمْرُ بِالذِّكْرِ عِنْدَ الْفَرَاغِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ وَلَكَ رَبُّكَ فَارْغَبْ أَيِ إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَشْغَالِهَا وَقَطَعْتَ عِلَاقَتَهَا فَانصَبْ إِلَى الْعِبَادَةِ، وَقُمْ إِلَيْهَا نَشِيطًا فَارْغُ الْبَالِ وَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ النِّيَّةَ وَالرَّغْبَةَ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدْفِعُهُ الْأَخْبَثَانِ»<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا أُقِمَتِ الصَّلَاةُ وَحَضَرَ الْعَشَاءُ فَابْدَأُوا بِالْعَشَاءِ»<sup>(٤)</sup>. قَالَ مُجَاهِدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِذَا فَرَغْتَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَقُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَانصَبْ لِرَبِّكَ<sup>(٥)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ أَلَمْ نَشْرَحْ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير سورة التين والزيتون وهي مكية

[قِرَاءَةُ التَّيْنِ بِالصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ]

قَالَ مَالِكٌ وَشُعْبَةُ عَنْ عَبْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي سَفَرِهِ فِي إِحْدَى الرُّكْعَتَيْنِ بِالتَّيْنِ وَ الزَّيْتُونِ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ. أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمْ<sup>(٦)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَ الزَّيْتُونِ﴾ وَطُورِ سَيْنٍ<sup>(٢)</sup> وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ<sup>(٣)</sup> لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ<sup>(٤)</sup> ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ<sup>(٥)</sup> إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ<sup>(٦)</sup> فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ<sup>(٧)</sup> أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ<sup>(٨)</sup>

### سُورَةُ التَّيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَ الزَّيْتُونِ<sup>(١)</sup> وَطُورِ سَيْنٍ<sup>(٢)</sup> وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ<sup>(٣)</sup> لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ<sup>(٤)</sup> ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ<sup>(٥)</sup> إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ<sup>(٦)</sup> فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالَّذِينَ<sup>(٧)</sup> أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ<sup>(٨)</sup>

### سُورَةُ الزَّيْتُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفْرَأَيْتُمْ رِبَّكَ الَّذِي خَلَقَ<sup>(١)</sup> خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ<sup>(٢)</sup> أَفَرَأَيْتُمْ أَكْرَمَ<sup>(٣)</sup> الَّذِي عَلَّمَهُ الْقَلَمَ<sup>(٤)</sup> عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ<sup>(٥)</sup> كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَيطغى<sup>(٦)</sup> أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى<sup>(٧)</sup> إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى<sup>(٨)</sup> أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى<sup>(٩)</sup> عَبْدًا إِذَا صَلَّى<sup>(١٠)</sup> أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ لَهْدَى<sup>(١١)</sup> أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى<sup>(١٢)</sup> أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى<sup>(١٣)</sup> أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى<sup>(١٤)</sup> كَلَّا إِنْ لَمْ يَنْتَهِ لِنَفْسِهِ لَلْغَايَةِ<sup>(١٥)</sup> نَاصِيَةً كَذِبُهُ خَاطِفَةٌ<sup>(١٦)</sup> فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ<sup>(١٧)</sup> سَنَنْصُرُ الزَّالِيَةَ<sup>(١٨)</sup> كَلَّا لَا نَطْعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ<sup>(١٩)</sup>

[تَفْسِيرُ التَّيْنِ وَمَا بَعْدَهُ]

الْمُرَادُ بِالتَّيْنِ، كَمَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ مَسْجِدُ نُوحٍ الَّذِي عَلَى الْيُودِيِّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ تَيْنُكُمْ هَذَا<sup>(٧)</sup>. ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ: هُوَ مَسْجِدُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ: هُوَ هَذَا الزَّيْتُونُ الَّذِي تَغْصِرُونُ<sup>(٨)</sup>. ﴿وَطُورِ سَيْنٍ﴾ قَالَ كَعْبُ الْأَخْبَارِ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ<sup>(٩)</sup>. ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ يَعْنِي مَكَّةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ وَكَعْبُ الْأَخْبَارِ<sup>(١١)</sup>. وَلَا

- (١) الطبري: ٤٩٤/٢٤ (٢) الطبري: ٤٩٤/٢٤ (٣) مسلم: ٣٩٣/١ (٤) فتح الباري: ٤٩٨/٩ (٥) الطبري: ٤٩٧/٢٤ (٦) فتح الباري: ٥٨٣/٨ ومسلم: ٣٣٩/١ وأبو داود: ١٩/٢ وتحفة الأحوذى: ٢٢٦/٢ والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦ وابن ماجه: ٢٧٣/١ (٧) الطبري: ٥٠٢/٢٤ العوفي من جملة الضعفاء (٨) الطبري: ٥٠١/٢٤ (٩) الطبري: ٥٠٣/٢٤ (١٠) الطبري: ٥٠٦، ٥٠٥/٢٤

خِلَافَ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَيْمَةِ: هَذِهِ مُحَالٌ ثَلَاثَةٌ بَعَثَ اللَّهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا نَبِيًّا مُرْسَلًا مِنْ أُولِي الْعِزِّ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ:

(فَالأَوَّلُ) مُحَلَّةُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَهِيَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. (وَالثَّانِي) طُورُ سِينِينَ، وَهُوَ طُورُ سَيْنَاءَ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ. (وَالثَّلَاثُ) مَكَّةُ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْأَعْيُنُ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ فِيهِ مُحَمَّدًا ﷺ، قَالُوا: وَفِي آخِرِ التَّوْرَةِ ذِكْرُ هَذِهِ الْأَمَاكِينِ الثَّلَاثَةِ: «جَاءَ اللَّهُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ» يَعْني: الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ «وَأَشْرَقَ مِنْ سَاعِيرٍ» يَعْني جَبَلَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ مِنْهُ عِيسَى «وَأَسْتَغْلَنَ مِنْ جِبَالِ قَارَانَ» يَعْني جِبَالَ مَكَّةَ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْهَا مُحَمَّدًا ﷺ فَذَكَرَهُمْ مُخْبِرًا عَنْهُمْ عَلَى التَّرْتِيبِ الْوُجُودِيِّ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِمْ فِي الزَّمَانِ. وَلِهَذَا أَقْسَمَ بِالْأَشْرَفِ ثُمَّ الْأَشْرَفِ مِنْهُ ثُمَّ بِالْأَشْرَفِ مِنْهُمَا.

[سَقُوطُ الْإِنْسَانِ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ مَعَ كَوْنِهِ خَلْقًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَنَتِيجَةُ ذَلِكَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَشَكْلِ مُنْتَصِبِ الْقَامَةِ سَوِيَّ الْأَعْضَاءِ حَسَنِيهَا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أَيَّ إِلَى النَّارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْحُسْنِ وَالنَّصَارَةِ مَصِيرُهُمْ إِلَى النَّارِ إِنْ لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ وَيَتَّبِعِ الرُّسُلَ. لِهَذَا قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أَيَّ إِلَى أَرْضِ الْعُمُرِ. وَرَوَى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةَ حَتَّى قَالَ عِكْرَمَةُ: مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ لَمْ يَرُدَّ إِلَى أَرْضِ الْعُمُرِ<sup>(٢)</sup>. وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٣)</sup>. وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ لَمَا حَسُنَ اسْتِثْنَاءُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ الْهَرَمَ قَدْ يُصِيبُ بَعْضَهُمْ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مَا ذَكَرْنَاهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَى خُسْرًا ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣] وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أَيَّ غَيْرُ مَقْطُوعٍ كَمَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿لَمَّا يَكُونُ﴾ أَيَّ يَا ابْنَ آدَمَ ﴿بَعْدَ الْبَيْنِ﴾ أَيَّ بِالْجِزَاءِ فِي الْمَعَادِ، وَلَقَدْ عَلِمْتَ الْبِدَاءَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى الْبِدَاءِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الرَّجْعَةِ بِطَرِيقِ الْأُولَى، فَأَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُكَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ وَقَدْ عَرَفْتَ

هَذَا؟. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْسَانَ يَأْمُرُ الْحَكِيمِينَ﴾ أَيُّ أَمَّا هُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا، وَمِنْ عَذْلِهِ أَنْ يُقِيمَ الْقِيَامَةَ فَيَنْتَصِفَ لِلْمَظْلُومِ فِي الدُّنْيَا وَمِنْ ظَلَمِهِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «إِذَا قَرَأَ أَحَدُكُمْ ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونِ﴾ فَأَتَى عَلَى آخِرِهَا ﴿إِنْسَانَ يَأْمُرُ الْحَكِيمِينَ﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»<sup>(٤)</sup>. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

## تفسير سورة اقرأ وهي أول شيء نزل من القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ١ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ٢ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ٣ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ٤ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥  
[بَدْءُ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ فَكَانَ يَأْتِي جِرَاءَ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لَذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى فَجَأَهُ الْوَحْيُ وَهُوَ فِي غَارٍ جِرَاءَ فَجَأَهُ الْمَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قَالَ: فَاحْذِنِي فَعَطْنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَعَطْنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَعَطْنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قَالَ: فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ. فَقَالَ: «يَا خَدِيجَةُ مَا لِي؟» وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ وَقَالَ: «قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا أَبْشِرْ فَوَ اللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَقْرِي

(١) الطبري: ١١٠، ٥٠٩/٢٤ (٢) الطبري: ٥٠٨/٢٤ (٣)  
الطبري: ٥١١/٢٤ (٤) أبو داود: ٥٥٠/١

الرَّحْمَنِ ﴿١﴾ أَرَدَيْتَ الَّذِي يَنْفَعُ ﴿٢﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٣﴾ أَرَدَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿٤﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى ﴿٥﴾ أَرَدَيْتَ إِنْ كَذَّبَ رُؤُوسَ ﴿٦﴾ أَلَمْ يَكُنْ بِأَمْرِ اللَّهِ بِرَى ﴿٧﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿٨﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِلَةٍ ﴿٩﴾ فَلْيَنْعُ نَادِيَهُ ﴿١٠﴾ سَنَعُ الرَّايَةَ ﴿١١﴾ كَلَّا لَا تَطْعَمُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٢﴾

[الْوَعِيدُ عَلَى طُغْيَانِ الْإِنْسَانِ لِأَجْلِ الْمَالِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ دُو فَرَحٍ وَأَشْرٍ وَبَطَرٍ وَطُغْيَانٍ إِذَا رَأَى نَفْسَهُ قَدْ اسْتَغْنَى وَكَثُرَ مَالُهُ، ثُمَّ تَهَدَّاهُ وَتَوَعَّدَهُ وَوَعَّظَهُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِلَهَكَ الرَّحْمَنُ﴾ أَيُّ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ وَالْمَرْجِعُ وَسَيُحَاسِبُكَ عَلَى مَا لَكَ مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهُ وَفِيمَ صَرَفْتَهُ؟

[ذَمُّ أَبِي جَهْلٍ وَالْوَعِيدُ بِمُؤَاخَذَتِهِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَدَيْتَ الَّذِي يَنْفَعُ﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ، تَوَعَّدَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ الْبَيْتِ فَوَعَّظَهُ تَعَالَى بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ أَوَّلًا فَقَالَ: ﴿أَرَدَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ أَيُّ فَمَا ظَنُّكَ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي تَنْهَاهُ: عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمَةِ فِي فِعْلِهِ أَوْ ﴿أَمَرَ بِالْقَوَى﴾ يَقُولُهُ، وَأَنْتَ تَرْجُوهُ وَتَتَوَعَّدُهُ عَلَى صَلَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلَمْ يَكُنْ بِأَمْرِ اللَّهِ بِرَى﴾ أَيُّ أَمَا عَلِمَ هَذَا النَّاهِي لِهَذَا الْمُهْتَدِي أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ. وَسَيُجَازِيهِ عَلَى فِعْلِهِ أَتَمَّ الْجَزَاءِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعَّدًا وَمُتَهَدِّدًا: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ أَيُّ لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الشَّقَاقِ وَالْعِنَادِ ﴿لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أَيُّ لَنَسْمَتُهَا سَوَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ قَالَ: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِلَةٍ﴾ يَعْنِي: نَاصِيَةُ أَبِي جَهْلٍ كَاذِبَةٍ فِي مَقَالِهَا خَاطِلَةٌ فِي أَعْمَالِهَا ﴿فَلْيَنْعُ نَادِيَهُ﴾ أَيُّ قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ أَيُّ لِيَدْعُهُمْ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ ﴿سَنَعُ الرَّايَةَ﴾ وَهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يَغْلِبُ أَحْزَبُنَا أَوْ حِزْبُهُ؟

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكُعْبَةِ لَأَطَّانُ عَلَى عُنُقِهِ، فَلَبَّغَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «لَئِنْ فَعَلَ لَأَخَذْتُهُ الْمَلَائِكَةُ»<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِهِمَا<sup>(٤)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ،

الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدٍ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ أَمْرًا قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: أَيُّ ابْنِ عَمِّ اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ وَرَقَةُ: إِبْنُ أَخِي مَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا التَّائِمُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، لَبَّيْتِي فِيهَا جَذْعًا لَبَّيْتِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِيْ هُمْ؟» فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرُكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.

ثُمَّ لَمْ يَنْسَبْ وَرَقَةَ أَنْ تَوَفَّى وَفَتَرَ الْوُحْيَ فِتْرَةً حَتَّى حَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فِيمَا بَلَّغْنَا - حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَثِيرًا يَرْدَى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكَلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ تَبَدَّى لَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ بِذَلِكَ جَأَشُهُ وَيَتَرَقُّ نَفْسُهُ فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فِتْرَةُ الْوُحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ الْجَبَلِ تَبَدَّى لَهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>. وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ<sup>(٢)</sup>. وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ جِهَةِ سَنَدِهِ وَمَتْنِهِ، وَمَعَانِيهِ فِي أَوَّلِ شَرْحِنَا لِلْبُخَارِيِّ مُسْتَقْصًى، فَمَنْ أَرَادَهُ فَهُوَ هُنَاكَ مُحَرَّرٌ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، فَأَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبَارَكَاتُ، وَهِيَ أَوَّلُ رَحْمَةٍ رَحِمَ اللَّهُ بِهَا الْعِبَادَ وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ.

[عِزَّةُ الْإِنْسَانِ وَشَرَفُهُ بِالْعِلْمِ]

وَفِيهَا التَّنْبِيهُ عَلَى ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ عِلْقَةٍ، وَأَنَّ مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى أَنْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، فَشَرَفَهُ وَكَرَّمَهُ بِالْعِلْمِ وَهُوَ الْقَدَرُ الَّذِي امْتَنَرَ بِهِ أَبُو الْبَرِيَّةِ آدَمُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَالْعِلْمُ تَارَةٌ يَكُونُ فِي الْأَذْهَانِ، وَتَارَةٌ يَكُونُ فِي اللِّسَانِ، وَتَارَةٌ يَكُونُ فِي الْكِتَابَةِ بِالْبَلَانِ، ذَهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ، وَالرَّسْمِيُّ يَسْتَلْزِمُهُمَا مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنزَلْنَا رُؤُوسَكَ الْآكُومَ﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٢﴾ وَفِي الْأَثَرِ: قَيَّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ. وَفِيهِ أَيْضًا: مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ وَرَفَّهُ اللَّهُ عَلَّمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ.

﴿كَلَّا إِنْ الْإِنْسَانُ لَطَاقُ﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَقْبَحَ ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ

(١) أحمد: ٢٣٢/٦ (٢) فتح الباري: ٣٦٨/١٢ ومسلم: ١/ ١٣٩ (٣) فتح الباري: ٥٩٥/٨ (٤) تحفة الأحوذى: ٢٧٧/٩ والنسائي في الكبرى: ٥١٨/٦ (٥) الطبري: ٦٤٩/١٢ ط: علمية.

سُورَةُ الْقَدْرِ ٥٩٨

سُورَةُ الْقَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ❶ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ❷ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ❸ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ❹ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ❺

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ❶ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ❷ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ❸ وَمَا نَفَرْنَا إِلَيْهِمْ أَوْتَوْا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ❹ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ❺ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ❻ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ❼

الْقَدْرُ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ❷ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ❹ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ❺

[فَضْلُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ وَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ وَهِيَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ مُفَصَّلًا بِحَسَبِ الْوُقَاعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا لِشَأْنِ لَيْلَةِ

وَهَذَا لَفْظُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْمَقَامِ فَمَرَّ بِهِ أَبُو جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَمْ أَتُفَكِّ عَنْ هَذَا؟ وَتَوَعَّدَهُ فَأَغْلَظَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَانْتَهَرَهُ، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! بِأَيِّ شَيْءٍ تُهَدِّدُنِي؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَكْثَرُ هَذَا الْوَادِي نَادِيًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَلْيَعِذْ بِكَ بِرَبِّكَ﴾ ❷ سَدَّغَ الرَّيَابِيَّةُ ❸ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ مِنْ سَاعَتِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ❶. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يُصَلِّي كَذَلِكَ لَأَطَّانٌ عَلَى رَقَبَتِهِ، وَلَأَعْمَرَنَ وَجْهَهُ فِي الثَّرَابِ، فَاتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي لِيَطَّأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَعَاظَهُ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَبْقَى بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوَلًا وَأَجْنَحَةً قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ غَضُوءًا غَضُوءًا» قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ - لَا أَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَمْ لَا: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٌ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ❷. وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ❸.

[تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَا تُلْمَعُمْ﴾ يَعْنِي يَا مُحَمَّدُ، لَا تُطْعُهُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ مِنَ الْمُدَاوِمَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَكَثْرَتِهَا، وَصَلَّ حَيْثُ شِئْتَ، وَلَا تَبَالِهْ فَإِنَّ اللَّهَ حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ وَهُوَ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿وَأَسْجُدْ وَقَرَّبْ﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ» ❶. وَتَقَدَّمَ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْجُدُ فِي «إِذَا اسْمَاءُ أَسْقَتْ» وَ«أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» ❷.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ اقْرَأْ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ.

### تفسير سورة القدر وهي مكية

(١) أحمد: ٣٢٩/١ و الترمذي: ٣٣٤٩ و النسائي في الكبرى: ١١٦٨٤ و الطبري: ٦٤٨/١٢ ط: علمية. (٢) الطبري: ١٢/٦٤٩ ط: علمية. (٣) أحمد: ٣٧٠/٢ و مسلم: ٢٧٩٧ و النسائي في الكبرى: ١١٦٨٣ (٤) مسلم: ٣٥٠/١ (٥) مسلم: ١/٤٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ❶ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ❷ لَيْلَةُ

مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَهِيَ لَيْلَةٌ وَتُرَى: تَسْعُ أَوْ سَبْعُ أَوْ خَامِسَةٌ أَوْ ثَالِثَةٌ أَوْ آخِرُ لَيْلَةٍ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَمَارَةَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بَلَجَةٌ - كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا - سَاجِدَةٌ، لَا بَرْدَ فِيهَا وَلَا حَرَّ، وَلَا يَحِلُّ لِكُوكِبٍ يُرْمَى بِهِ فِيهَا حَتَّى يُضَيَّحَ، وَإِنَّ أَمَارَتَهَا أَنَّ الشَّمْسَ صَبِيحَتَهَا تَخْرُجُ مُسْتَوِيَةً لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ، مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَلَا يَحِلُّ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا يَوْمَئِذٍ»<sup>(٥)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ، وَفِي الْمَنْزَنِ غَرَابَةٌ وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ نَكَارَةٌ.

وَقَدْ تَرَجَّمَ أَبُو دَاوُدَ فِي سَنَنِهِ فَقَالَ: «بَابُ بَيَانِ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي كُلِّ رَمَضَانَ» ثُمَّ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَسْمَعُ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَقَالَ: «هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ»<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا إِسْنَادٌ رَجَالُهُ ثِقَاتٌ، إِلَّا أَنَّ أَبَا دَاوُدَ قَالَ: رَوَاهُ شُعْبَةُ وَسُفْيَانُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ فَأَوْفَقَاهُ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ رَمَضَانَ وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ فَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ. ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عَشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِيَ فَلْيَرْجِعْ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنِّي أَنْسِيْتُهَا، وَإِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّخِرِ فِي وَتُرَى، وَإِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ». وَكَانَ سَقْفُ الْمَسْجِدِ جَرِيدًا مِنَ النَّخْلِ وَمَا تَرَى فِي السَّمَاءِ شَيْئًا، فَجَاءَتْ قَرْعَةٌ فَطَطَرْنَا، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَثَرُ الطَّيْنِ وَالْمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ. وَفِي لَفْظٍ: فِي صُبْحِ إِحْدَى وَعَشْرِينَ، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٧)</sup>. قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصَحُّ الرُّوَايَاتِ. وَقِيلَ: لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ لِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُتَيْسٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ<sup>(٨)</sup>.

وَقِيلَ: تَكُونُ لَيْلَةُ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْتِمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَّخِرِ مِنْ رَمَضَانَ فِي تَاسِعَةِ تَبَتَّى، فِي سَابِعَةِ

الْقَدْرِ الَّتِي اخْتَصَّهَا بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهَا فَقَالَ: ﴿وَمَا آدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»<sup>(٩)</sup>.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا خَضَرَ رَمَضَانُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرُ مُبَارَكٍ، افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ، فِيهِ لَيْلَةُ خَيْرٍ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ<sup>(١١)</sup>. وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ تَعْدِلُ عِبَادَتُهَا عِبَادَةَ أَلْفِ شَهْرٍ ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاجْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(١٢)</sup>.

[تُرْوَى الْمَلَائِكَةُ وَقَضَاءُ كُلِّ خَيْرٍ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أَيْ يَكْثُرُ نَزْلُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِكَثْرَةِ بَرَكَتِهَا، وَالْمَلَائِكَةُ يَنْزِلُونَ مَعَ نَزْلِ الْوَحْيِ وَالرَّحْمَةِ، كَمَا يَنْزِلُونَ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَيُحِيطُونَ بِحَلَقِ الذِّكْرِ، وَيَضُمُّونَ أَجْنَاحَهُمْ لِطَالِبِ الْعِلْمِ بِصِدْقٍ تَعْظِيمًا لَهُ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ غَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: سَلَامٌ هِيَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ قَالَ: هِيَ سَالِمَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا سُوءًا أَوْ يَعْمَلَ فِيهَا أَدَى. وَقَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: تُقْضَى فِيهَا الْأُمُورُ وَتُقَدَّرُ الْأَجَالُ وَالْأَرْزَاقُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهَا يَفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: حَدَّثَنَا [هَشْمٌ] عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ قَالَ: تَسْلِيمُ الْمَلَائِكَةِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ عَلَى أَهْلِ الْمَسَاجِدِ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَلَّمَ هِيَ﴾ يَعْني هِيَ خَيْرٌ كُلِّهَا لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ.

### [تَعْيِينُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَعَلَامَاتُهَا]

وَيُؤَيَّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْبَوَاقِي، مَنْ قَامَهُنَّ ابْتِغَاءَ حِسْبَتِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ

(١) الطبري: ٥٣١/٢٤، ٥٣٢ والقرطبي: ١٣٠/٢٠ (٢)  
أحمد: ٢٣٠/٢ (٣) النسائي: ١٢٩/٤ (٤) فتح الباري: ٤/  
٢٩٤ ومسلم: ٥٢٣/١ (٥) أحمد: ٣٢٤/٥ (٦) أبو داود: ٢/  
١١١ فتح الباري: ٣٢٩/٤ (٧) ٣١٨ ومسلم: ٨٢٤/٢ (٨)  
مسلم: ٨٢٧/٢

تَبَيَّنَ، فِي خَامِسَةِ تَبَيَّنَ<sup>(١)</sup>.  
فَسَرَهُ كَثِيرُونَ بِلَيَالِي الْأَوْتَارِ وَهُوَ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ. وَحَمَلَهُ  
الْآخَرُونَ عَلَى الْأَشْفَاعِ. كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ  
حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ<sup>(٢)</sup>.  
وَقِيلَ: إِنَّهَا تَكُونُ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، لَمَّا رَوَاهُ مُسْلِمٌ  
فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهَا لَيْلَةُ  
سَبْعٍ وَعِشْرِينَ<sup>(٣)</sup>.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ لَمْ يَكُنْ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

[قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى أَبِي]  
رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: لِأَبِي بِنِ كَعْبٍ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَمْ  
يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة: ١]» قَالَ:  
وَسَمَانِي لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَبَكَى<sup>(١٢)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ  
وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِهِ<sup>(١٣)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى  
تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ ١ ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ ٢ ﴿فِيهَا كُتِبَ  
قِيمَةٌ ۖ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُدْتُوا إِلَى الْكِتَابِ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ  
الْبَيِّنَةُ ۖ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَسْبُدُوا لِلَّهِ تَخْلِيلًا ۚ لَهُ الَّذِينَ حَفَفَهُ وَيُغْفِرُوا  
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ ٥

[ذَكَرَ حَالِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

وَالْمُشْرِكِينَ]

أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَهُمْ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكُونَ  
عَبْدَةُ الْأَوْتَانِ وَالنَّبْرَانِ مِنَ الْعَرَبِ وَمِنَ الْعَجَمِ. وَقَالَ  
مُجَاهِدٌ: لَمْ يَكُونُوا ﴿مُنْفَكِينَ﴾ يَعْنِي مُتَبَعِينَ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ  
الْحَقَّ<sup>(١٤)</sup>. وَهَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ<sup>(١٥)</sup>: «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» أَيْ

(١) فتح الباري: ٣٠٦/٤ (٢) مسلم: ٨٢٦/٢، ٨٢٧ (٣)  
مسلم: ٨٢٨/٢ (٤) أحمد: ١٣٠/٥ (٥) مسلم: ٨٢٨/٢  
(٦) أحمد: ٣١٨/٥ (٧) أحمد: ٥١٩/٢ (٨) أحمد: ٦/  
١٨٢ (٩) تحفة الأحوذى: ٤٩٥/٩ والنسائي في الكبرى: ٦/  
٢١٨ وابن ماجه: ١٢٦٥/٢ (١٠) الحاكم: ٥٣٠/١ (١١)  
النسائي في الكبرى: ٢١٩/٦ (١٢) أحمد: ١٣٠/٣ (١٣) فتح  
الباري: ٥٩٧/٨ ومسلم: ٥٥٠/١ وتحفة الأحوذى: ٢٩٤/١٠  
والنسائي في الكبرى: ٥٢٠/٦ (١٤) الطبري: ٥٣٩/٢٤ (١٥)  
الطبري: ٥٣٩/٢٤

## دُعَاءُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ

وَالْمُسْتَحَبُّ: الْإِكْتِنَارُ مِنَ الدُّعَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ،  
وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَكْثَرُ، وَفِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْهُ، ثُمَّ فِي  
أَوْتَارِهِ أَكْثَرُ، وَالْمُسْتَحَبُّ أَنْ يُكْتَرَّ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ: اَللَّهُمَّ  
إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي. لَمَّا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ  
أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَمَا

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

٥٩٩

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

## سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُسْرُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

## سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَدِيدِ صَبَحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِبَتِ قَدَحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَتِ صَبَحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾

ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

[ذِكْرُ شَرِّ الْبَرِيَّةِ وَخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَذِكْرُ جَزَائِهِمَا]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَالِ الْفُجَّارِ مِنْ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، الْمُخَالِفِينَ لِكُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ، وَأَنْبِيََاءِ اللَّهِ الْمُرْسَلَةِ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُنِي مَا كَيْتَنَ لَا يَحُولُونَ عَنْهَا وَلَا يَزُولُونَ ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أُنِي شَرُّ الْخَلِيقَةِ الَّتِي بَرَّاهَا اللَّهُ وَذَرَّاهَا، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَبْدَانِهِمْ بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى تَفْصِيلِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْبَرِيَّةِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ لِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أُنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أُنِي بِلَا انْقِصَالٍ وَلَا انْقِضَاءٍ وَلَا فَرَاغٍ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وَمَقَامُ رِضَا

هَذَا الْقُرْآنُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾. ثُمَّ فَسَّرَ الْبَيِّنَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ وَمَا يَتْلُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ مُكْتَسَبٌ فِي الْمَلَا الْأَعْلَى فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ﴾ تَرْوَعُوهُ مُطَهَّرَةً ﴿١٦﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿عيس: ١٣-١٦﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أُنِي فِي الصُّحُفِ الْمُطَهَّرَةِ كُتُبٌ مِنَ اللَّهِ قَيِّمَةٌ عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ لَيْسَ فِيهَا خَطَأٌ، لِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿١﴾.

[إِنَّمَا وَقَعَ الْاِخْتِلَافُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] يَعْنِي بِذَلِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَنَا، بَعْدَ مَا أَقَامَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِي الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ كُتُبِهِمْ وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ: «إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاسْتَفْتَرَقَ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» ﴿٢﴾.

[إِنَّمَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ هُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حُفَاءً﴾ أُنِي مُنَحْنَتَيْنِ عَنِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ الْحَنِيفِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ﴿وَيُضْمُوا الصَّلَاةَ﴾ وَهِيَ أَشْرَفُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِجِ ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أُنِي الْمِلَّةُ الْقَائِمَةُ الْعَادِلَةُ، أَوِ الْأُمَّةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُعْتَدِلَةُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ

الْإِنْسَانَ مَا لَهَا ﴿٢﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿١﴾ يَانَ رَبَّكَ أَوْحَى  
لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ فَمَنْ  
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٥﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ  
شَرًّا يَرَهُ ﴿٦﴾

[يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ حَالُ الْأَرْضِ وَحَالُ النَّاسِ]  
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أَيْ تَحَرَّكَتْ  
مِنْ أَسْفَلِهَا <sup>(١)</sup> ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا﴾ يَعْنِي أُلْقَتْ مَا  
فِيهَا مِنَ الْمَوْتَى، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ  
تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَفْقَا رِيحِكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ  
شَتَّى عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٢﴾  
وَأُلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤، ٣] وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي  
صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «[تَقِيءُ]  
الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَبِدِهَا أَمْثَالَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ،  
فَيَجِيءُ الْقَاتِلُ فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَتَلْتُ، وَيَجِيءُ الْقَاطِعُ  
فَيَقُولُ: فِي هَذَا قَطَعْتُ رَجُلِي، وَيَجِيءُ السَّارِقُ فَيَقُولُ:  
فِي هَذَا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَلَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ  
شَيْئًا» <sup>(٥)</sup>. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ أَيْ  
اسْتَنْكَرَ أَمْرَهَا بَعْدَمَا كَانَتْ قَارَةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً وَهُوَ مُسْتَقَرٌّ  
عَلَى ظَهْرِهَا، أَيْ تَقَلَّبَتِ الْحَالُ فَصَارَتْ مُتَحَرِّكَةً مُضْطَرِبَةً  
قَدْ جَاءَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، مَا قَدْ أَعَدَّهُ لَهَا مِنَ الزَّلْزَالِ  
الَّذِي لَا مَحِيدَ لَهَا عَنْهُ، ثُمَّ أُلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ  
مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَجِيئَ اسْتَنْكَرَ النَّاسُ أَمْرَهَا،  
وَيُبَدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ  
الْقَهَّارِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أَيْ تُحَدِّثُ بِمَا  
عَمِلَ الْعَامِلُونَ عَلَى ظَهْرِهَا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ  
وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:  
قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾  
قَالَ: «أَتَذَرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.  
قَالَ: «فَإِنْ أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَامَةٍ بِمَا عَمِلَ

عَنْهُمْ أَعْلَى مِمَّا أَوْثَرَهُ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ﴿وَرَوْضُوا عَنْهُ﴾ فِيمَا  
مَنْحَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أَيْ هَذَا الْجَزَاءُ  
حَاصِلٌ لِمَنْ خَشِيَ اللَّهَ وَاتَّقَاهُ حَقَّ تَقْوَاهُ، وَعَبْدَهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ  
وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي  
هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ  
الْبَرِيَّةِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَجُلٌ أَخَذَ بِعِتَانِ  
فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كُلَّمَا كَانَتْ هَيْعَةً اسْتَوَى عَلَيْهِ. أَلَا  
أُخْبِرُكُمْ [بِالَّذِي يَلِيهِ؟]» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ:  
«رَجُلٌ فِي ثَلَاثَةٍ مِنْ غَنَمِهِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ. أَلَا  
أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ الْبَرِيَّةِ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «الَّذِي يَسْأَلُ بِاللَّهِ  
وَلَا يُعْطِي بِهِ» <sup>(١)</sup>.

أَخْرَجَ تَفْسِيرَ سُورَةِ لَمْ يَكُنْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ إِذَا زُلْزِلَتْ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: أَتَى  
رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَقْرَأْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ  
لَهُ: «أَقْرَأْ ثَلَاثًا مِنْ ذَوَاتِ الرَّأْيِ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: كَبَّرَ سَيِّئِي  
وَاشْتَدَّ قَلْبِي وَغَلِظَ لِسَانِي، قَالَ: «فَأَقْرَأْ مِنْ ذَوَاتِ حِمٍّ»  
فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ الْأُولَى، فَقَالَ: «أَقْرَأْ ثَلَاثًا مِنْ  
الْمُسَبِّحَاتِ» فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَلَكِنْ أَقْرَأْنِي  
يَا رَسُولَ اللَّهِ سُورَةَ جَامِعَةً، فَأَقْرَأَهُ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ  
زِلْزَالَهَا﴾ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا قَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ  
بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَا أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا، ثُمَّ أَذْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ، أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ» ثُمَّ قَالَ:  
«عَلَيَّ بِهِ» فَجَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: «أَمِرْتُ بِیَوْمِ الْأَصْحَى جَعَلَهُ اللَّهُ  
عِيدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ» فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلَّا  
مَنْبَحَةً أَتْنِي فَأُصْحِي بِهَا؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنَّكَ تَأْخُذُ مِنْ  
شَعْرِكَ وَتَقْلُمُ أَظْفَارَكَ، وَتَقْصُرُ شَارِبَكَ، وَتَحْلِقُ عَانَتَكَ،  
فَذَلِكَ تَمَامُ أَصْحِيَّتِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» <sup>(٢)</sup>. وَأَخْرَجَهُ أَبُو  
دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ <sup>(٣)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ <sup>(١)</sup> وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا <sup>(٢)</sup> وَقَالَ

(١) أحمد: ٣٩٦/٢ فيه أبو معشر نجيب وهو ضعيف كما سبق  
وأبو وهب مولى أبي هريرة مجهول ويشهد له حديث ابن عباس  
عند أحمد (٢١١٦) وإسناده صحيح وحديث أبي سعيد أيضا عنده  
١٦/٣ (٢) أحمد: ١٦٩/٢ (٣) أبو داود: ١١٩/٢ والنسائي  
في الكبرى: ١٦/٥ (٤) الدرر المشور: ٥٩٢/٨ (٥) مسلم:



دَلُوكَ فِي إِنَاءٍ الْمُتَنَسِّقِي، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَحَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ»<sup>(١١)</sup> وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: «يَا مَغْشَرُ نِسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِبَارِيَّتِهَا وَلَوْ فِرْسَنَ شَاةٍ»<sup>(١٢)</sup>. يَعْنِي ظَلْفَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظَلْفٍ مُحْرِقٍ»<sup>(١٣)</sup>.

وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا تَصَدَّقَتْ بِعَيْنَيْهِ وَقَالَتْ: كَمْ فِيهَا مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ<sup>(١٤)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَوْفِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الطُّفَيْلِ، أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّكَ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِيًا». وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(١٥)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَهْلِكُنَّهُ». وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا وَأَجْجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَدَفُوا فِيهَا<sup>(١٥)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ إِذَا زُلْزِلَتْ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير سورة العاديات وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ١ ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ ٢ ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ ٣ ﴿وَأَنْزَلْنَاهُنَّ نَعْمًا﴾ ٤ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا﴾ ٥ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٧ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ٨ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ٩ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ١٠ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ١١

(١) أحمد: ٣٧٤/٢ تحفة الأحوذى: ٢٨٥/٩ والنسائي في الكبرى: ١١٦٩٣ (٢) فتح الباري: ٥٩٨/٨ (٣) الطبري: ٥٤٩/٢٤ (٤) الدر المنثور: ٥٩٢/٨ (٥) الطبري: ٢٤/٥٤٨ (٦) الدر المنثور: ٥٩٣/٨ (\*) كذا في النسخ المطبوعة لدينا، ولعل الصواب: ليعلموا من الإعلام (٧) فتح الباري: ٨/٥٩٨ (٨) مسلم: ٦٨٠/٢ (٩) فتح الباري: ٣٣٢/٣ (١٠) مسلم: ٢٠٢٦/٤ (١١) فتح الباري: ٤٥٩/١٠ (١٢) أحمد: ٣٨١/٥ (١٣) الموطأ: ٩٩٧/٢ (١٤) أحمد: ١٥١/٦ وابن ماجه: ٤٢٤٣ (١٥) أحمد: ٤٠٢/١

عَلَى ظَهْرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَهَٰذِهِ أَخْبَارُهَا» ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَٰذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّخِذْ لَهَا﴾ قَالَ الْبُخَارِيُّ: أَوْحَى لَهَا وَأَوْحَى إِلَيْهَا، وَوَحَى لَهَا وَوَحَى إِلَيْهَا وَاحِدٌ<sup>(٢)</sup>. وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوْحَى لَهَا أَيْ أَوْحَى إِلَيْهَا<sup>(٣)</sup>. وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَٰذَا مُضْمَنٌ بِمَعْنَى أَذِنَ لَهَا. وَقَالَ شَيْبُ بْنُ بُشَيْرٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» قَالَ: قَالَ لَهَا رَهْطًا: قُولِي. فَقَالَتْ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَوْحَى لَهَا أَيْ أَمَرَهَا<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ الْفَرَطِيُّ: أَمَرَهَا أَنْ تَنْسُقَ عَنْهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أَيْ يَرْجِعُونَ عَنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ أَشْتَاتًا أَيْ أَنْوَاعًا وَأَصْنَافًا، مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ مَأْمُورٍ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَأْمُورٍ بِهِ إِلَى النَّارِ. وَقَالَ الشَّيْخُ: أَشْتَاتًا فَرَقًا<sup>(٦)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُزَيَّرَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أَيْ [لِيُعْلَمُوا]<sup>(٧)</sup> وَيُجَازَوْا بِمَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

[الجزء على كل ذرة من العمل]

وَلِهَٰذَا قَالَ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٨)</sup>.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ لثَلَاثَةِ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ. فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ طِيلَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ فِي الْمَرْجِ وَالرَّوْضَةِ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرْقًا أَوْ شَرْقَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاتُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ - وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ - كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، وَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا وَتَعَفُّفًا وَلَمْ يَسَسَّ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِبَاءً وَزِنَاءً فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ» فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخُمْرِ فَقَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَٰذِهِ الْآيَةُ الْفَادَةُ الْجَمِيعَةَ» ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٧)</sup> وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عِدِّيٍّ مَرْفُوعًا: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَبِيعَةٍ»<sup>(٩)</sup>. وَلَهُ أَيْضًا فِي الصَّحِيحِ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تُفْرَغَ مِنْ

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

٦٠٠

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (٢)

## سُورَةُ الْقَارِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا

مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)

(١٠) وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ (١١) نَارُ حَامِيَةٍ (١٢)

## سُورَةُ التَّكْوِينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ

تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ (٥)

عِلْمَ الْيَقِينِ (٦) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٧) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

عَيْنَ الْيَقِينِ (٨) ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٩)

الْقُبُورِ ﴿١﴾ أَيُّ أُخْرِجَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَيْرُهُ: يَعْنِي أَزْبَرَ ﴿١﴾ وَأُظْهِرَ مَا كَانُوا يُسِرُّونَ فِي نَفْسِهِمْ ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أَيُّ لَعَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَيَعْمَلُونَ، وَمُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ، وَلَا يَظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

أَخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَادِيَاتِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَارِعَةِ

## وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ﴾ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ

يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ

﴿الْقَسَمُ بِخَيْلِ الْحَرْبِ عَلَى كُفْرَانِ الْإِنْسَانِ وَحِرْصِهِ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِالْخَيْلِ إِذَا أُجْرِيَتْ فِي سَبِيلِهِ فَعَدَّتْ وَضَبَحَتْ، وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنَ الْقَرَسِ جِئِ تَعْدُو ﴿فَالْمُورِبَتِ قَدَحًا﴾ بَعْنِي اضْطِحَاكَ نَعَالَهَا لِلصَّخْرِ فَتَقْدَحُ مِنْهُ النَّارُ ﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا﴾ بَعْنِي الْإِغَارَةَ وَقَتِ الصَّبَاحِ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُغِيرُ صَبَاحًا وَيَسْمَعُ الْأَذَانَ فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا وَلَا أَغَارَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْمًا﴾ بَعْنِي غَبَارًا فِي مَكَانٍ مُعْتَرِكِ الْخِيُولِ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أَيُّ تَوَسَّطْنَ ذَلِكَ الْمَكَانَ كُلَّهُنَّ جَمْعٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: بَعْنِي إِغَارَةَ الْخَيْلِ صُبْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١). وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْمًا﴾ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي حَلَّتْ فِيهِ، أَثَارَتْ بِهِ الْغُبَارَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرَمَةَ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ: بَعْنِي جَمْعَ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَدُوِّ (٢). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسِمُ عَلَيْهِ بِمَعْنَى أَنَّهُ لِنِعَمِ رَبِّهِ لَكُفُورٌ جَحُودٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَأَبُو الْجَوَازِ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَأَبُو الضَّحَى وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ قَيْسٍ، وَالضَّحَّاكُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَابْنُ زَيْدٍ: الْكُنُودُ الْكُفُورُ (٣). قَالَ الْحَسَنُ: الْكُنُودُ هُوَ الَّذِي يَعُدُّ الْمَصَائِبَ، وَيَنْسَى نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ (٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَشَفِيانُ الثَّوْرِيُّ: وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٥). وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى الْإِنْسَانِ. قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُهُ: وَإِنَّ الْإِنْسَانَ عَلَى كُذُوبِهِ كُنُودًا لَشَهِيدٌ، أَيُّ بِلِسَانِ خَالِهِ، أَيُّ ظَاهِرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أَيُّ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ - وَهُوَ الْمَالُ - لَشَدِيدٌ، وَفِيهِ مَذْهَبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْمَعْنَى وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الْمَحَبَّةِ لِلْمَالِ (وَالثَّانِي) وَإِنَّهُ لَحَرِيصٌ بِخَيْلٍ مِنَ مَحَبَّةِ الْمَالِ؛ وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

## [التَّخْوِيفُ مِنَ الْمَعَادِ]

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُرْهَدًا فِي الدُّنْيَا، وَمُرْعَبًا فِي الْآخِرَةِ، وَمُنْبَهًا عَلَى مَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَ هَذِهِ الْحَالِ، وَمَا يَسْتَقْبِلُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَهْوَالِ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي

(١) الطبري: ٥١٢/٢٤ (٢) الطبري: ٥٦٤/٢٤، ٥٦٥ (٣)

الطبري: ٥٦٦/٢٤ (٤) الطبري: ٥٦٦/٢٤ (٥) الطبري:

٥٧٦/٢٤ (٦) الطبري: ٥٦٩/٢٤

فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسْتَيْنَ جُزْءًا» وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمسْلِمٌ<sup>(٨)</sup>. وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ: «إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسْتَيْنَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرْهَا».

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا مِّنْ لَهُ نَعْلَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ»<sup>(٩)</sup>. وَتَبَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكُلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِتَسْتِينَ: نَفْسِي فِي الشَّيْءِ، وَنَفْسِي فِي الصَّنِيفِ، فَأَشْدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الشَّيْءِ مِنْ بَرْدِهَا، وَأَشْدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الصَّنِيفِ مِنْ حَرِّهَا»<sup>(١٠)</sup> وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ قَيْحِ جَهَنَّمَ»<sup>(١١)</sup>.  
آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَارِعَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

### تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّكَاثُرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿الْهَيْكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتَسْتَنَّ بِيَوْمٍ عَنِ النَّعِيمِ ٨  
[نَتِيجَةُ حُبِّ الدُّنْيَا غَفْلَةٌ عَنِ الْآخِرَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَشْغَلَكُمْ حُبُّ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا وَزَهْرَتُهَا عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ وَابْتِغَائِهَا، وَتَمَادَى بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَكُمْ الْمَوْتُ وَزُرْتُمُ الْمَقَابِرَ، وَصِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي الرَّقَاقِ مِنْهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿الْهَيْكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يَعْنِي: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادٍ مِنْ ذَهَبٍ»<sup>(١٢)</sup>. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ

كَالِهَيْكُمُ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأَمَّهُ هَكَايَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١  
الْقَارِعَةُ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَالْحَاقَّةِ وَالطَّامَّةِ وَالصَّاحَّةِ وَالْغَاشِيَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُعْظَمًا أَمْرَهَا وَمُهَوِّلاً لِسَائِنَهَا: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ يَقُولُهُ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أَيُّ فِي انْتِشَارِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ وَدَهَابِهِمْ وَمَجْبِئِهِمْ مِنْ حَيْرَتِهِمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ، كَأَنَّهُمْ فَرَّاشٌ مَبْثُوثٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالِهَيْكُمُ الْمَنْفُوشِ﴾ يَعْنِي قَدْ صَارَتْ كَأَنَّهَا الصُّوفُ الْمَنْفُوشُ الَّذِي قَدْ شَرَعَ فِي الدَّهَابِ وَالتَّمَرُّقِ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَفَتَادَةُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿كَالِهَيْكُمُ﴾ الصُّوفُ<sup>(١)</sup>. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا يؤولُ إِلَيْهِ عَمَلُ الْعَامِلِينَ، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْإِهَانَةِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَيُّ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أَيُّ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَأَمَّهُ هَكَايَةٌ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ فَهُوَ سَاقِطٌ هَاوٍ بِأَمِّ رَأْسِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَغَبَّرَ عَنْهُ بِأَمِّهِ يَعْنِي دِمَاعَهُ. رَوَى نَحْوُ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَأَبِي صَالِحٍ وَفَتَادَةُ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ فَتَادَةُ: يَهْوِي فِي النَّارِ عَلَى رَأْسِهِ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا قَالَ أَبُو صَالِحٍ: يَهْوُونَ فِي النَّارِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ<sup>(٤)</sup>. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَأَمَّهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا وَيَصِيرُ فِي الْمَعَادِ إِلَيْهَا: (هَآوِيَةٌ) وَهِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَلَئِنَّمَا قِيلَ لِلْهَآوِيَةِ: أُمُّهُ لِأَنَّهُ لَا مَأْوَى لَهُ غَيْرُهَا<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْهَآوِيَةُ: النَّارُ هِيَ أُمُّهُ وَمَأْوَاهُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا، وَيَأْوِي إِلَيْهَا. وَقَرَأَ: ﴿وَمَا وَلَهُمْ النَّكَارُ﴾ [آل عمران: ١٥١]<sup>(٦)</sup> قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنْ فَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ: هِيَ النَّارُ. وَهِيَ مَأْوَاهُمْ<sup>(٧)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُفَسِّرًا لِلْهَآوِيَةِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أَيُّ حَارَّةٌ شَدِيدَةُ الْحَرِّ قُوَّةُ اللَّهَبِ وَالسَّعِيرِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَارُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُوقَدُونَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ؟ فَقَالَ: «إِنَّهَا

(١) الطبري: ٥٧٤/٢٤ (٢) الطبري: ٥٧٥/٢٤، ٥٧٦ والقرطبي: ١٦٧/٢٠ (٣) الطبري: ٥٧٦/٢٤ (٤) الطبري: ٥٧٥/٢٤ (٥) الطبري: ٥٧٥/٢٤ (٦) الطبري: ٥٧٦/٢٤ (٧) الطبري: ٥٧٥/٢٤ (٨) فتح الباري: ٦/٣٨٠ مسلم: ٤/٢١٨٤ (٩) أحمد: ٤٣٢/٢ و١٣/٣ (١٠) فتح الباري: ٦/٣٨٠ ومسلم: ٤٣١/١ (١١) فتح الباري: ٢٠/٢ ومسلم: ١/٤٣٠ (١٢) فتح الباري: ٢٥٨/١١

سُورَةُ الْعَصْرِ

٦٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣

## سُورَةُ الْهَمَزِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣ كَلَّا لَيُبَدِّلَنِي لِحُطْمَةٍ ٤ وَمَا أَذْرَبْكَ مَا لِحُطْمَةٍ ٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ٦ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقَدَةِ ٧ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ٩

## سُورَةُ الْفَيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي تَرَكَيْتَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ٥

وَعَمْرُو جَالِسَانِ إِذْ جَاءَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا أَجَلَسَكُمَا هَهُنَا؟» قَالَا: «وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! مَا أَخْرَجَنَا مِنْ بَيْتِنَا إِلَّا الْجُوعُ». قَالَ: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا أَخْرَجَنِي غَيْرُهُ» فَأَنْطَلَقُوا حَتَّى اتَّوَا بَيْتَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَرْأَةُ فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَيْنَ فَلَانٌ؟» فَقَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَغْدِبُ لَنَا مَاءً، فَجَاءَ صَاحِبُهُمْ يَحْمِلُ قِرْبَتَهُ فَقَالَ: مَرْحَبًا، مَا زَارَ الْعِبَادَ شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنْ نَبِيِّ زَارَنِي الْيَوْمَ، فَعَلَّقَ قِرْبَتَهُ بِكَرْبِ نَخْلَةٍ، وَأَنْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِدْقٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا كُنْتُ اجْتَنَيْتُ؟» فَقَالَ: أَخْبَيْتُ أَنْ تَكُونُوا الَّذِينَ تَخْتَارُونَ عَلَى أَعْيُنِكُمْ، ثُمَّ أَخَذَ الشَّفْرَةَ فَقَالَ لَهُ

قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «أَلَهْنُكُمْ التَّكَاثُرُ» يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَقْنَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟<sup>(١)</sup> وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَقْنَى، أَوْ لَيْسَ فَأَقْبَلَى، أَوْ تَصَدَّقَ فَأَمْضَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ»<sup>(٣)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ مُسْلِمٌ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ»<sup>(٤)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٥)</sup> وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَهْرُمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ وَالْأَمَلُ»<sup>(٦)</sup>. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٧)</sup>.

[الْوَعْدُ بِرُؤْيَا الْجَحِيمِ وَالسُّؤَالُ عَنِ النَّعِيمِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»<sup>(٨)</sup> ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يَعْنِي أَيُّهَا الْكُفَّارُ «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ» يَعْنِي أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ<sup>(١٠)</sup>. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ» أَيُّ لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ الْعِلْمِ لَمَا أَتَيْتُمُ التَّكَاثُرَ عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، حَتَّى صِرْتُمْ إِلَى الْمَقَابِرِ، ثُمَّ قَالَ: «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ»<sup>(١١)</sup> ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ هَذَا تَفْسِيرُ الْوَعِيدِ الْمُنْتَقَدِمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»<sup>(١٢)</sup> ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ تَوَعَّدَهُمْ بِهَذَا الْحَالِ، وَهُوَ رُؤْيَا أَهْلِ النَّارِ الَّتِي إِذَا زَفَرَتْ زَفْرَةً وَاحِدَةً خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُّقْرَّبٍ وَنَبِيٍّ مُّرْسَلٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْعَظَمَةِ وَمَعَانِيَةِ الْأَهْوَالِ، عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ الْمُرَوِيُّ فِي ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» أَيُّ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الصَّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مَا إِذَا قَابَلْتُمْ بِهِ نِعْمَهُ مِنْ شُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الصُّدَائِيُّ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ الْقَاسِمِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا أَبُو بَكْرٍ

(١) أحمد: ٢٤/٤ (٢) مسلم: ٢٢٧٣/٤ وتحفة الأحوزي: ٩/

٢٨٦ والنسائي في الكبرى: ٥٢١/٦ (٣) مسلم: ٢٢٧٣/٤

(٤) فتح الباري: ٣٦٩/١١ (٥) مسلم: ٢٢٧٣/٤ وتحفة

الأحوزي: ٥٠/٧ والنسائي في الكبرى: ٦٣١/٦ (٦) أحمد:

١١٥/٣ (٧) البخاري: ٦٤٢١ ومسلم: ١٠٤٧ (٨) البغوي:

٥٢٠/٤ (٩) الطبري: ٥٨١/٢٤

الْأَوَّانِ، فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ. وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ [عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَفْصِ أَبِي مَدِينَةَ] قَالَ: كَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَقَيَّأَ لَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا عَلَى أَنْ يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخِرِ سُورَةَ الْعَصْرِ إِلَى آخِرِهَا، ثُمَّ يُسَلِّمُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخِرِ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَوَسَّعَتْهُمْ.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾

الْعَصْرُ: الزَّمَانُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ حَرَكَاتُ بَنِي آدَمَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الْعِشِيُّ، وَالْمَشْهُورُ الْأَوَّلُ. فَأَقْسَمَ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، أَيْ فِي خَسَارَةٍ وَهَلَاكِه **﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** فَاسْتَنْتَى مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ عَنِ الْخُسْرَانِ: الَّذِينَ ءَامَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ **﴿وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ﴾** وَهُوَ أَذَاءُ الطَّاعَاتِ، وَتَرْكُ الْمَحْرَمَاتِ **﴿وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾** أَيْ عَلَى الْمَصَائِبِ وَالْأَفْئَادِرِ، وَأَذَى مَنْ يُؤْذِي مِمَّنْ يَأْمُرُونَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَصْرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

### تَفْسِيرُ سُورَةِ وَيلَ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

#### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ٢﴾

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣﴾ كَلَّا لَيَكْبَدَنَّ فِي الْخُطَّةِ ٤﴾ وَمَا أَذْرَكَ

مَا الْخُطَّةُ ٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقِ ٧﴾

إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ٨﴾ فِي عَذَابٍ مُّتَدِمَةٍ ٩﴾

الْهُمَّازُ بِالْقَوْلِ، وَاللَّمَّازُ بِالْفِعْلِ، يَغْنِي يَزِدْرِي النَّاسَ وَيَتَقَصُّ بِهِمْ. وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿هَازٍ مُّشَلِّمٍ﴾** قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ، طَعَانٌ

النَّبِيِّ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ» فَذَبَحَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فَأَكَلُوا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أخرجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، فَلَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَبْتُمْ هَذَا، فَهَذَا مِنَ النَّعِيمِ»<sup>(١)</sup>. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

وُكِّتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَسُنَنِ التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نِعِمَّتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»<sup>(٣)</sup>. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّهُمْ مُقَصَّرُونَ فِي شُكْرِ هَاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ لَا يَقُومُونَ بِوَاجِبِهِمَا، وَمَنْ لَا يَقُومُ بِحَقِّ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ فَهُوَ مَغْبُونٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ عَفَاكَ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَا ابْنَ آدَمَ، حَمَلْتِكَ عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ، وَرَوَّجْتُكَ النِّسَاءَ، وَجَعَلْتُكَ تَرْبُعَ وَتَرَأْسُ، فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ؟»<sup>(٤)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّكْوِينِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

### تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَصْرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[مَعْرِفَةُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ بِهَذِهِ السُّورَةِ]

ذَكَرُوا أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَقَدْ عَلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ عَمْرُو، فَقَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ: مَاذَا أَنْزَلَ عَلَى صَاحِبِكُمْ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ؟ فَقَالَ: لَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ سُورَةٌ وَجِيزَةٌ بَلِيغَةٌ فَقَالَ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: **﴿وَالْعَصْرِ ١﴾** إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣﴾ فَفَكَرَ مُسَيْلِمَةُ هُنِيئَةً ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ مِثْلَهَا، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: وَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: يَا وَبُرَّ يَا وَبُرَّ. إِنَّمَا أَنْتَ أَذْنَانِ وَصَدْرُ. وَسَائِرُكَ حَفَرٌ تَقْرُ. ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تَرَى يَا عَمْرُو؟ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي أَغْلَمُ أَنَّكَ تَكْذِبُ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا بَكْرَ الْخَزَائِمِيَّ أَسْنَدَ فِي كِتَابِهِ الْمَعْرُوفِ (بِمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ) فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْهُ شَيْئًا مِنْ هَذَا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ. وَالْوَبْرُ دَوِيَّةٌ تُشَبِّهُ الْهَرَّ، أَعْظَمُ شَيْءٍ فِيهِ أَذْنَاهُ وَصَدْرُهُ وَبَاقِيهِ [لَطِيفٌ] دَمِيمٌ، فَأَرَادَ مُسَيْلِمَةُ أَنْ يُرْكَبَ مِنْ هَذَا الْهَذْيَانِ مَا يُعَارِضُ بِهِ الْقُرْآنَ. فَلَمْ يَرُجْ ذَلِكَ عَلَى عَابِدِ

(١) الطبري: ٥٨٣/٢٤ (٢) مسلم: ١٦٠٩/٣ (٣) فتح الباري: ٢٣٣/١١ وتحفة الأحوذى: ٥٨٩/٦ وتحفة الأشراف: ٤٦٥/٤ وابن ماجه: ١٣٩٦/٢ (٤) أحمد: ٤٩٢/٢ (٥) ذكره أيضا في البداية والنهاية: ٣٢٠/٦ ط: زمزم، ونحوه الحافظ في الإصابة ٢٢٥/٣ (٦) المعجم الأوسط: ٥٠٩٧ «مجمع البحرين»

مِعْيَاب<sup>(١)</sup>. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الهمزة باليد والعين، واللمزة باللسان. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أَي جَمَعَهُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَأَخْصَى عَدَدَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨] قَالَهُ السُّدِّيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أَلْهَاهُ مَالُهُ بِالتَّهَارِ هَذَا إِلَى هَذَا، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ نَامَ كَأَنَّهُ حِفْظٌ مُنْتَهَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أَي يَظُنُّ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالَ يُخْلِدُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ ﴿كَلَّا﴾ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ، وَلَا كَمَا حَسَبَ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيُبْدَنَّ فِي الْخُلُقَةِ﴾ أَي لِيُلْقِينَ هَذَا الَّذِي جَمَعَ مَالًا فَعَدَّدَهُ، فِي ﴿الْخُلُقَةِ﴾ وَهِيَ اسْمُ صِفَةٍ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ، لِأَنَّهَا تَحْطِمُ مَنْ فِيهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُلُقَةُ﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدَةِ﴾ قَالَ ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ: تَحْرِقُهُمْ إِلَى الْأَفْقِدَةِ وَهُمْ أَحْيَاءُ، ثُمَّ يَقُولُ: لَقَدْ بَلَغَ مِنْهُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ يَبْكِي. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: تَأْكُلُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ فُؤَادَهُ [حَذَوْ حَلْقِهِ]: تَرْجِعُ عَلَى جَسَدِهِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَسَّدَةٌ﴾ أَي مُطْمِئَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ الْبَلَدِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي عَمْرِ مُدَّتِهِ﴾ قَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ: عَمِدَ مِنْ حَدِيدٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: مِنْ نَارٍ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَدْخَلَهُمْ فِي عَمِدٍ مُمَدَّدَةٍ عَلَيْهِمْ - بِعِمَادٍ، فِي أَغْنَانِهِمْ - السَّلَاسِلُ فَسُدَّتْ بِهَا الْأَبْوَابَ<sup>(٤)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُحْمَةٍ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير سورة الفيل وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ١ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ﴾ ٢ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ٣ ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ مِنْ لَبَدٍ﴾ ٤ ﴿أَغْلَجَتْ فِي سُدَّتِهِمْ﴾ ٥ ﴿فَخَبَبَتْهُمْ كَعَصِفٍ مَأْكُولٍ﴾ ٦

هَذِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي أَمْتَرُ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُرَيْشٍ، فِيمَا صَرَفَ عَنْهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى هَذِهِ الْكُعْبَةِ، وَمَحَوِ أَثَرَهَا مِنَ الْوُجُودِ، فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ وَأَرْغَمَ

أَنفَهُمْ وَخَيَّبَ سَعْيَهُمْ وَأَصْلَ عَمَلَهُمْ، وَرَدَّهُمْ بِشَرِّ خَبِيئَةٍ، وَكَانُوا قَوْمًا نَصَارَى، وَكَانَ دِينُهُمْ إِذْ ذَاكَ أَقْرَبَ حَالًا مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْتَانِ، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِزْهَاصِ وَالتَّوْطِئَةِ لِمَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ وُلِدَ عَلَى أَشْهَرِ الْأَقْوَالِ. وَلِسَانُ حَالِ الْقَدْرِ يَقُولُ: لَمْ نَنْصُرْكُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ عَلَى الْحَبْشَةِ لِخَيْرَتِكُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ صِبَاَنَةً لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ الَّذِي سَنَسْرِفُهُ وَنُعْظِمُهُ وَتُوقَرُهُ بِبِعْثَةِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ.

### [قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ بِإِيجَازٍ]

وَهَذِهِ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ عَلَى وَجْهِ الْإِيجَازِ وَالْإِخْتِصَارِ وَالتَّقْرِيبِ: قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ أَنَّ ذَا نُوَاسٍ - وَكَانَ آخِرُ مُلُوكِ جَمَيْرٍ، وَكَانَ مُشْرِكًا - هُوَ الَّذِي قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ، وَكَانُوا نَصَارَى، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمْ يَمُوتْ مِنْهُمْ إِلَّا دَوْسٌ ذُو ثَعْلَبَانٍ، فَذَهَبَ فَاسْتَعَانَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ الشَّامِ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا، فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبْشَةِ لِكُزْنِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ: أَرْيَاطَ وَأَبْرَهَةَ بْنَ الصَّبَّاحِ أَبَا يَكْسُومَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَدَخَلُوا الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَاسْتَلْبَثُوا الْمَلِكَ مِنْ جَمَيْرٍ، وَهَلَكَ ذُو نُوَاسٍ غَرِيبًا فِي الْبَحْرِ، وَاسْتَقَلَّ الْحَبْشَةُ بِمَلِكِ الْيَمَنِ وَعَلَيْهِمْ هَذَانِ الْأَمِيرَانِ: أَرْيَاطَ وَأَبْرَهَةَ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَفَانَلَا وَتَصَافَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اضْطِدَامِ الْجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا، وَلَكِنْ ابْرُزْ إِلَيَّ وَأَبْرُزْ إِلَيْكَ، فَأَيُّنَا قَتَلَ الْآخَرَ اسْتَقَلَّ بَعْدَهُ بِالْمَلِكِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ فِتْيَارًا وَخَلَفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَنَاءً، فَحَمَلَ أَرْيَاطَ عَلَى أَبْرَهَةَ فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ، وَحَمَلَ عَتُودَهُ مَوْلَى أَبْرَهَةَ عَلَى أَرْيَاطَ فَقَتَلَهُ وَرَجَعَ أَبْرَهَةَ جَرِيحًا فِدَاوَى جُرْحَهُ قَبْرًا، وَاسْتَقَلَّ بِتَنْدِيرِ جَيْشِ الْحَبْشَةِ بِالْيَمَنِ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ يَلُومُهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَيَتَوَعَّدُهُ وَيَحْلِفُ لِيُطَاقَ بِلَادَهُ وَيَجُزَّ نَاصِيئَتَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهَةَ يَتَرَفَّقُ لَهُ وَيُصَانِعُهُ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ بِهَدَايَا وَتُحَفٍ وَيَجْرَابٍ فِيهِ مِنْ تُرَابِ الْيَمَنِ وَجَزَّ نَاصِيئَتَهُ، فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ

(١) الطبري: ٥٩٦/٢٤ (٢) الطبري: ٥٩٨/٢٤ والقرطبي:

١٣٨/٢٠ (٣) القرطبي: ١٨٥/٢٠ (٤) الطبري: ٦٠٠/٢٤

وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَأَ الْمَلِكُ عَلَى هَذَا الْجِرَابِ فَيَبِّرَ قَسَمُهُ، وَهَذِهِ نَاصِيَتِي، قَدَبَعْتُ بِهَا إِلَيْكَ فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ وَرَضِيَ عَنْهُ وَأَقْرَهُ عَلَى عَمَلِهِ، وَأَرْسَلَ أَبْرَهُةَ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ إِنِّي سَأُبْنِي لَكَ كَنِيسَةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يَبْنِ قَبْلَهَا مِثْلَهَا، فَسَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَفِيعَةِ الْبِنَاءِ عَالِيَةِ الْفِتَاءِ، مُزَخْرَفَةً الْأَزْجَاءِ، سَمَّيْتُهَا الْعَرَبُ الْقُلَيْسَ لِارْتِفَاعِهَا، لِأَنَّ النَّاطِرَ إِلَيْهَا تَكَادَ تَشْفُطُ فَلَنَسُوهُ عَنْ رَأْسِهِ مِنْ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا، وَعَزَمَ أَبْرَهُةُ الْأَشْرَمَ عَلَى أَنْ يَصْرِفَ حَجَّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحْجُ إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ، وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةَ وَالْفَحْطَانِيَّةَ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا لَيْلًا، فَأَخَذَتْ فِيهَا وَكُرَّ رَاجِعًا، فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةَ ذَلِكَ الْحَدَثَ رَفَعُوا أَمْرَهُ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبْرَهُةَ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِيَبْتِهِمُ الَّذِي صَاهَيْتَ هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبْرَهُةَ لِيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ وَلِيُخَرِّبَتْهُ حَجَرًا حَجَرًا.

وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: أَنَّ فِئَةً مِنْ قُرَيْشٍ دَخَلُوهَا فَأَجْبُوا فِيهَا نَارًا، وَكَانَ يَوْمًا فِيهِ هَوَاءٌ شَدِيدٌ، فَأَخْرَقَتْ وَسَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ.

فَتَأَهَّبَ أَبْرَهُةَ لِذَلِكَ وَسَارَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمَرَمَ لَيْلًا يَصُدُّهُ أَحَدُ عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ فِيلًا عَظِيمًا كَبِيرَ الْحُجَّةِ لَمْ يَرِ مِثْلُهُ، يُقَالُ لَهُ: مَحْمُودٌ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ لِذَلِكَ، وَيُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أَيْضًا ثَمَانِيَةُ أَفْقَالٍ، وَقِيلَ: اثْنَا عَشَرَ فِيلًا غَيْرُهُ فَاللَّهُ أَعْلَمُ. يَعْنِي لِيَهْدِمَ بِهِ الْكَعْبَةَ بِأَنْ يَجْعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ وَتَوْضِعَ فِي عُنُقِ الْفِيلِ، ثُمَّ يَزْجُرُ لِيَلْقَى الْحَائِطَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَمَّا سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَغْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ الْمُحَاجَبَةُ دُونَ النَّبِيِّ، وَرَدُّ مَنْ أَرَادَهُ بِكَيْدٍ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ يُقَالُ لَهُ ذُو نَفَرٍ، فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَزَبِ أَبْرَهُةَ وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ، وَمَا يُرِيدُهُ مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ، فَأَجَابُوهُ وَقَاتَلُوا أَبْرَهُةَ فَهَرَمَهُمْ لَمَّا يُرِيدُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كَرَامَةِ النَّبِيِّ وَتَعْظِيمِهِ، وَأَسِيرَ ذُو نَفَرٍ، فَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ، ثُمَّ مَضَى لَوَجْهِهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَتَمٍ اعْتَرَضَ لَهُ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَتَعَمِيُّ فِي قَوْمِهِ شَهْرَانَ وَنَاهِسَ فَقَاتَلُوهُ، فَهَرَمَهُمْ أَبْرَهُةَ، وَأَسِيرَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ فَأَرَادَ قَتْلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ،

وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّهُ فِي بِلَادِ الْحِجَازِ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ خَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُهَا تَقِيفٌ وَصَانِعُوهُ - خِيفَةً عَلَى بَيْنِهِمُ الَّذِي عِنْدَهُمُ الَّذِي يُسَمُّونَهُ اللَّاتَ - فَأَكْرَمَهُمْ وَبَعَثُوا مَعَهُ «أَبَا رِغَالٍ» ذَلِيلًا، فَلَمَّا انْتَهَى أَبْرَهُةَ إِلَى الْمُعَمَّسِ - وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ - نَزَلَ بِهِ. وَأَعَارَ جَيْشُهُ عَلَى سَرَحِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا فَأَخَذُوهُ، وَكَانَ فِي السَّرَحِ مَائَتًا بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ الَّذِي أَعَارَ عَلَى السَّرَحِ بِأَمْرِ أَبْرَهُةَ أَمِيرُ الْمُقَدَّمَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: الْأَسْوَدُ بْنُ مَقْصُودٍ فَهَجَاهُ بَعْضُ الْعَرَبِ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ، وَبَعَثَ أَبْرَهُةَ حُنَاطَةَ الْجُمَيْرِيِّ إِلَى مَكَّةَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَشْرَفِ قُرَيْشٍ وَأَنْ يُخْبِرَهُ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُدُّوه عَنِ النَّبِيِّ، فَجَاءَ حُنَاطَةُ فَدَلَّ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ وَبَلَّغَهُ عَنْ أَبْرَهُةَ مَا قَالَ. فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللَّهِ مَا تُرِيدُ حَرْبَهُ وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامِ وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ يَمْنَعُهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْنُهُ وَحَرَمُهُ، وَإِنْ يُخْلَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَأَذْهَبْ مَعِيَ إِلَيْهِ، فَذَهَبَ مَعَهُ.

فَلَمَّا رَأَى أَبْرَهُةَ أَجَلَهُ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا جَسِيمًا حَسَنَ الْمَنْظَرِ، وَنَزَلَ أَبْرَهُةَ عَنْ سَرِيرِهِ وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى السَّاطِ، وَقَالَ لِرُجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ لِرُجُمَانِهِ: إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مَائَتِي بِعِيرٍ أَصَابَهَا لِي، فَقَالَ أَبْرَهُةَ لِرُجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْتُ أَعَجَبْتُنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي، أَتُكَلِّمُنِي فِي مَائَتِي بِعِيرٍ أَصْبَحْتُهَا لَكَ، وَتَتَرُكُ بَيْنَنَا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ، قَدْ جِئْتُ لِهَدْمِهِ لَا تَكَلِّمُنِي فِيهِ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنْ لِلنَّبِيِّ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ. قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْنَعَ مِنِّي. قَالَ: أَنْتَ وَذَلِكَ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ ذَهَبَ مَعَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَمَاعَةً مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَعَرَّضُوا عَلَى أَبْرَهُةَ ثَلَاثَ أَمْوَالٍ يَهَامَةُ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ عَنِ النَّبِيِّ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ.

وَرَدَّ أَبْرَهُةَ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَيْهِ، وَرَجَعَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، وَالتَّحَصُّنِ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ، ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحُلُقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ وَاسْتَنْصَرُونَ عَلَى أَبْرَهُةَ وَجُنْدِهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحُلُقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ:

لَا هُمْ إِنَّ الْمَرَّةَ يَمُـ

نَعُ رَحْلَهُ فَاَمْنَعُ حِلَالِكَ<sup>(\*)</sup>

لَا يَغْلِبَنَّ صُلَيْبُهُمْ

وَمَحَالُهُمْ غَدَاً مَحَالِكَ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أُرْسِلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَلَقَةُ الْبَابِ

ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَذَكَرَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ:

أَنَّهُمْ تَرَكُوا عِنْدَ الْبَيْتِ يَأْتِيَهُمْ مَقْلَدَةٌ لَعَلَّ بَعْضَ الْجَيْشِ

يَنَالُ مِنْهَا شَيْئًا يَغِيرُ حَتَّى فَيَسْتَقِيمَ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهُةُ

نَهْيًا لِدُخُولِ مَكَّةَ وَهِيَاءَ فِيهِ، وَكَانَ اسْمُهُ مَحْمُودًا، وَعَبَأَ

جَيْشَهُ فَلَمَّا وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحَوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ

حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ: أَبْرَكَ مَحْمُودُ أَوْ

ارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ،

ثُمَّ أُرْسِلَ أَذُنُهُ فَبَرَكَ الْفِيلُ وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَسْتَدُ حَتَّى

أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ، وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَتَى، فَضَرَبُوا فِي

رَأْسِهِ بِالطَّبَرِزِينَ وَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَ لَهُمْ فِي مَرَاقِهِ [فَبَزَعُوهُ]

بِهَا لِيَقُومَ فَأَتَى، فَوَجَّهَهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يَهْرَوُ،

وَوَجَّهَهُ إِلَى الشَّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهَهُ إِلَى الْمَشْرِقِ

فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجَّهَهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأُرْسِلَ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالُ الْخَطَاطِفِ وَاللِّسَانِ مَعَ كُلِّ

طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِثْقَالِهِ وَحَجَرَانِ

فِي رِجْلَيْهِ أَمْثَالُ الْحِمَّصِ وَالْعُدْسِ، وَلَا يُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا

إِلَّا هَلَكَ. وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ، وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَتَنَدَّرُونَ

الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلٍ لِيَدْلَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ، هَذَا

وَنُفَيْلٌ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ الْجَحَاظِ يَنْظُرُونَ

مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ مِنَ الْقِتْمَةِ، وَجَعَلَ نُفَيْلٌ

يَقُولُ:

أَيُّنَ الْمَفَرِّ وَالْإِلَهِ الطَّالِبِ

وَالْأَشْرَمِ الْمَغْلُوبِ غَيْرُ الْغَالِبِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَقَالَ نُفَيْلٌ فِي ذَلِكَ أَيْضًا:

أَلَا حُبَيْتَ عَنَّا يَا رُدَيْنَا

نَعْمَانَاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا

رُدَيْنَا لَوْ رَأَيْتَ - وَلَا تَرَبُّهُ -

لَدَى جَنْبِ الْمُحَصَّبِ مَا رَأَيْنَا

إِذَا لَعَنَ رَدَيْنِي وَحَمِدَتِ أُمْرِي

وَلَمْ تَأْسَنِ عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا

حَمِدْتُ اللَّهَ إِذَا أَبْصَرْتُ طَيْرًا

وَحِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا

فَكُلُّ الْقَوْمِ تَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ

كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبَشَانِ دِينَا

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَغَيْرُهُ: لَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ

فِي السَّاعَةِ الرَّاهِتَةِ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ

جَعَلَ يَتَسَاقَطُ عُضْوَا عُضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهُةُ وَمَنْ

تَسَاقَطَ عُضْوَا عُضْوًا حَتَّى مَاتَ بِلَادِ خَنْمَ.

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ

وَيَهْلِكُونَ عَلَى كُلِّ مَنَهْلٍ، وَأَصِيبُ أَبْرَهُةُ فِي جَسَدِهِ

وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أُنْمَلَةٌ أُنْمَلَةٌ حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ،

وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، فَمَا مَاتَ حَتَّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ

قَلْبِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ فِيمَا

يَعُدُّ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ وَفَضْلِهِ مَارَدٌ عَنْهُمْ مِنْ

أَمْرِ الْحَبَشَةِ، لِبَقَاءِ أَمْرِهِمْ وَمُدْرِهِمْ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ١ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ٢

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ٣ ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِثْ سِجِّيلٍ﴾ ٤

﴿يَجْعَلُهُمْ كَعَصِيفٍ تَأْكُولُ﴾ ٥ ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾ ٦ ﴿إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةٌ

الْيَسَاءِ وَالْأَصِيفُ﴾ ٧ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ٨ ﴿الَّذِي

أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١-٤] أَيْ لِقَلَّا

يُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ حَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ

الْخَيْرِ لَوْ قَبِلُوهُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامَ: الْأَبَابِيلُ الْجَمَاعَاتُ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ الْعَرَبُ

بِوَاجِدِهِ. قَالَ: وَأَمَّا السَّجِّيلُ فَأَخْبَرَنِي يُونُسُ النَّحْوِيُّ وَأَبُو

عُبَيْدَةَ أَنَّهُ عِنْدَ الْعَرَبِ: الشَّدِيدُ الصُّلْبِ. قَالَ: وَذَكَرَ بَعْضُ

الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمَا كَلِمَتَانِ بِالْفَارِسِيَّةِ جَعَلْتُهُمَا الْعَرَبُ كَلِمَةً

وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا هُوَ سَنَجٌ وَجَلٌّ، يَغْنِي بِالسَّنَجِ: الْحَجَرُ

وَالْجَلُّ: الطِّينُ. يَقُولُ: الْحِجَارَةُ مِنْ هَذَيْنِ الْجِنْسَيْنِ

الْحَجَرِ وَالطِّينِ. قَالَ: وَالْعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ الَّذِي لَمْ

[يُقَصَّبَ]، وَاحِدَتُهُ عَصْفَةٌ<sup>(\*)</sup>. إِنْتَهَى مَا ذَكَرَهُ. وَقَدْ قَالَ

حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زُرَّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَبُو سَلَمَةَ

ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: الْفَرْقُ. وَقَالَ ابْنُ

عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: [أَبَابِيلُ] يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَقَالَ

(\*) جمع جلة وهي جماعة البيوت أي القوم الحلول وقوله:

غَدَاً أَي غَدَاً (١) ابن هشام: ٥١/١ - ٥٦



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٠٢

سُورَةُ الْفِيلِ

## سُورَةُ الْفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ فَرَسٍ ① لَافِهِمْ رَحْلَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ  
 ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ  
 مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④

## سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ ① فَذَلِكَ الَّذِي  
 يَدْعُ الْيَتِيمَ ② وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْيَسْكِينِ ③  
 فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ  
 ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ وَيَسْمَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦

## سُورَةُ الْكَوثرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ②  
 إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③

مَسْرُوفٌ بِنُ أَبْرَهَةَ، ثُمَّ خَرَجَ سَيْفٌ بِنُ ذِي يَرْنَ الْحِمَيْرِيُّ  
 إِلَى كِسْرَى فَاسْتَعَانَهُ عَلَى الْحَبْسَةِ، فَأَنْقَذَ مَعَهُ مِنْ جُيُوشِهِ  
 فَقَاتَلُوا مَعَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُلْكَهُمْ وَمَا كَانَ فِي آبَائِهِمْ مِنْ  
 الْمَلِكِ، وَجَاءَتْهُ وَفُودُ الْعَرَبِ بِالتَّهْنِئَةِ ⑨.

وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَتْحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
 لَمَّا أَطْلَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى الشَّيْءِ الَّتِي تَهَيَّطَ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ،  
 بَرَكْتَ نَافَتُهُ فَرَجَرُوهَا فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَّاتِ الْقَضَاءُ أَيْ  
 حَرَنْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا خَلَّاتِ الْقَضَاءُ، وَمَا  
 ذَاكَ لَهَا بِخُلْقِي، وَلَكِنْ حَسَسَهَا حَاسِسُ الْفِيلِ - ثُمَّ قَالَ: -  
 وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا  
 حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا» ثُمَّ رَجَعَهَا فَقَامَتْ ⑪.

(١) الطبري: ٦٠٥/٢٤، ٦٠٦ (٢) الطبري: ٦٠٦/٢٤ (٣)

الطبري: ٦٠٧/٢٤ (٤) الطبري: ٦٠٧/٢٤ (٥) الطبري:

٦٠٧/٢٤ (٦) الدر المنثور: ٦٣٣/٨ (٧) البغوي: ٥٢٩/٤

(٨) الطبري: ٦٩٩/٢٤ (٩) انظر مفصلاً في سيرة ابن هشام:

١٠٣-٩٦/١ (١٠) فتح الباري: ٣٨٨/٥

الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ: الْأَبَابِيلُ الْكَثِيرَةُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ:  
 [أَبَابِيلُ] شَتَّى مُتَابِعَةٌ مُجْتَمِعَةٌ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْأَبَابِيلُ  
 الْمُخْتَلِفَةُ تَأْتِي مِنْ هَهْنَا، وَمِنْ هَهْنَا أَتَتْهُمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ①.  
 وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: سَمِعْتُ بَعْضَ التَّحْوِيلِينَ يَقُولُ: وَاحِدُ  
 الْأَبَابِيلِ إِبِيلٌ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ  
 بْنِ نَوْفَلٍ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا  
 أَبَابِيلَ﴾ هِيَ الْأَقَاطِيعُ كَأَبَابِيلِ الْمُؤَبَّلَةِ ②. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:  
 ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: لَهُمْ خَرَّاطِيمٌ كَخَرَّاطِيمِ  
 الطَّيْرِ، وَأَكْفٌ كَأَكْفِ الْكِلَابِ ③. عَنْ عُكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ  
 تَعَالَى: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: كَانَتْ طَيْرًا خُضْرًا خَرَجَتْ مِنْ  
 الْبَحْرِ، لَهَا رُؤُوسٌ كُرُؤُوسِ السَّبَاعِ ④. عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ  
 ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قَالَ: هِيَ طُيُورٌ سُودٌ بَحْرِيَّةٌ فِي مَنَاقِيرِهَا  
 وَأَطَافِيرِهَا ⑤ أَلِحْجَارَةُ. وَهَذِهِ آسَانِيدٌ صَحِيحَةٌ.

عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُهْلِكَ  
 أَصْحَابَ الْفِيلِ بَعَثَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَنْشِثَ مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ  
 الْخَطَاطِيفِ، كُلُّ طَيْرٍ مِنْهَا يَحْمِلُ ثَلَاثَةَ أَحْجَارٍ مُجَرَّعَةٍ:  
 حَجَرَيْنِ فِي رِجْلَيْهِ وَحَجَرًا فِي مَقَارِهِ، قَالَ: فَجَاءَتْ حَتَّى  
 صَفَّتْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، ثُمَّ صَاحَتْ وَأَلْقَتْ مَا فِي أَرْجُلِهَا  
 وَمَنَاقِيرِهَا، فَمَا يَقَعُ حَجَرٌ عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ إِلَّا خَرَجَ مِنْ  
 دُبُرِهِ، وَلَا يَقَعُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ إِلَّا خَرَجَ مِنَ الْجَانِبِ  
 الْآخَرِ، وَبَعَثَ اللَّهُ رِيحًا شَدِيدَةً فَضَرَبَتْ الْحِجَارَةَ فَرَادَتْهَا  
 شِدَّةً فَأَهْلَكُوا جَمِيعًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَلَكُمُ الْكَفَّيْنِ مَأْكُولٍ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ  
 جُبَيْرٍ: يَغْنِي الثَّيْنُ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ هَبْرًا. وَفِي رِوَايَةٍ  
 عَنْ سَعِيدٍ: وَرَقُ الْحِنْطَةِ ⑥. وَعَنْهُ أَيْضًا: أَلْعَصْفُ: الثَّيْنُ،  
 وَالْمَأْكُولُ: الْقَصِيلُ يُجَزُّ لِلدَّوَابِّ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ  
 الْبَصْرِيُّ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَلْعَصْفُ: الْقُشْرَةُ الَّتِي عَلَى  
 الْحَبَّةِ كَالْعُلَافِ عَلَى الْحِنْطَةِ ⑦.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَلْعَصْفُ: وَرَقُ الزَّرْعِ وَوَرَقُ الْبَقْلِ إِذَا  
 أَكَلْتَهُ الْبَهَائِمُ فَزَانَتْهُ فَصَارَ [دَرِينًا] ⑧. وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ  
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلَكَهُمْ وَدَمَّرَهُمْ وَرَدَّهُمْ بِكَيْدِهِمْ وَعَظِيمِهِمْ،  
 لَمْ يَتَالَوْا خَيْرًا، وَأَهْلَكَ عَامَتَهُمْ وَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ مُخِيرٌ إِلَّا  
 وَهُوَ جَرِيحٌ، كَمَا جَرَى لِمَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ، فَإِنَّهُ انْصَدَعَ صَدْرُهُ  
 عَنْ قَلْبِهِ حِينَ وَصَلَ إِلَى بَلَدِهِ صَنْعَاءَ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا جَرَى  
 لَهُمْ ثُمَّ مَاتَ، فَمَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ يَكْسُومُ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ أَخُوهُ

أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَكَذَا أَلْبَدَةَ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَمْ كُلْ شَيْءًا  
وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى:  
﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أَيُّ هُوَ رَبُّ الْبَيْتِ، وَهُوَ الَّذِي  
أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أَيُّ تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ  
بِالْأَمْنِ وَالرُّخْصِ، فَلْيُغَرِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،  
وَلَا يَعْبُدُوا مِنْ دُونِهِ صَنْمًا وَلَا نِدًّا وَلَا وَثَنًا، وَلِهَذَا مَنْ  
اسْتَجَابَ لِهَذَا الْأَمْرِ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ أَمْنِ الدُّنْيَا وَأَمْنِ  
الْآخِرَةِ، وَمَنْ عَصَاهُ سَلَبَهُمَا مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ  
اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ  
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَفَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ  
وَالْخَوْفِ يَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ  
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾  
[النحل: ١١٢، ١١٣].

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ إِيْلَافِ قُرَيْشٍ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير السورة التي يذكّر فيها الصّاعون وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ  
الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْصِي عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ ﴿٣﴾ قَوْلِيلٌ  
لِلْمُضِلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ  
بِرَأْمَتِ ﴿٦﴾ وَيَسْتَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾  
[أوصاف مُنْكَرِي الْقِيَامَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى: أَرَأَيْتَ يَا مُحَمَّدُ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ وَهُوَ  
الْمَعَادُ وَالْجَزَاءُ وَالثَوَابُ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾  
أَيُّ هُوَ الَّذِي يَقْهَرُ الْيَتِيمَ وَيَظْلِمُهُ حَقَّهُ، وَلَا يَطْعُمُهُ وَلَا  
يُحْسِنُ إِلَيْهِ ﴿وَلَا يَحْصِي عَلَى طَعَامِ الْيَتِيمِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَخْضُوتُونَ عَلَى طَعَامِ  
الْيَتِيمِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨] يُعْنِي الْفَقِيرَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ  
يَقُومُ بِأَوْدِهِ وَكِفَايَتِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلِيلٌ لِلْمُضِلِّينَ ﴿٤﴾  
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: يُعْنِي  
الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي الْعَلَانِيَةِ وَلَا يُصَلُّونَ فِي

وَالْحَدِيثُ مِنْ أَفْرَادِ الْبُخَارِيِّ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ  
اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: «إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ،  
وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهُ قَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا  
الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، أَلَا فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» (١).  
أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفِيلِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تفسير سورة إِيْلَافِ قُرَيْشٍ وهي مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿إِيْلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ لِإِنْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾  
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ  
وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾

هَذِهِ السُّورَةُ مَفْضُولَةٌ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي الْمُضْحَفِ  
الْإِمَامِ، كَتَبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرًا: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)،  
وَأَنَّ كَانَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمَا قَبْلَهَا كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ  
إِسْحَاقَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ، لِأَنَّ الْمَعْنَى  
عِنْدَهُمَا حَبَسْنَا عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهُ ﴿إِيْلَافِ  
قُرَيْشٍ﴾ أَيُّ لِإِفْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي بَلَدِهِمْ آمِنِينَ،  
وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَأْلِفُونَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ فِي الشِّتَاءِ  
إِلَى الْيَمَنِ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ فِي الْمَتَاجِرِ وَغَيْرِ  
ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى بَلَدِهِمْ آمِنِينَ فِي أَشْفَارِهِمْ،  
لِعِظَمَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ لِكُونِهِمْ سُكَّانَ حَرَمِ اللَّهِ، فَمَنْ عَرَفَهُمْ  
اخْتَرَمَهُمْ، بَلْ مَنْ [ضَوَى] إِلَيْهِمْ وَسَارَ مَعَهُمْ آمِنٌ بِهِمْ،  
وَهَذَا حَالُهُمْ فِي أَشْفَارِهِمْ وَرِحْلَتِهِمْ فِي شَتَائِهِمْ وَصَيْفِهِمْ،  
وَأَمَّا فِي حَالِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْبَلَدِ، فَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
﴿وَأَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾  
[العنكبوت: ٦٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِيْلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾  
لِإِنْفِهِمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ وَمُفَسِّرٌ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿لِإِنْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: الصَّوَابُ  
أَنَّ اللَّامَ لَا مِ التَّعَجُّبِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: اعْجَبُوا لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ  
وَنِعْمَتِي عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، قَالَ: وَذَلِكَ لِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ  
عَلَى أَثْنَمَا سَوْرَتَانِ مُفَصَّلَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ.

ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ فَقَالَ:  
﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أَيُّ فَلْيُحِلُّوهُ بِالْعِبَادَةِ كَمَا  
جَعَلَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا وَبَيْنًا مُحَرَّمًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا

سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ، عَنْ أَبِي الْعُبَيْدَيْنِ: أَنَّهُ سِئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ  
عَنِ الْمَاعُونِ فَقَالَ: هُوَ مَا يَتَعَاطَاهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفَاسِ  
وَالْقُدْرِ وَالذَّلْوِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ<sup>(٦)</sup>.  
آخِرُ تَفْسِيرِ السُّورَةِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَوْثَرِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ، وَقِيلَ: مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ ﴿إِن

شَايَنَّكَ هُوَ الْآزِبُ﴾

رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتَّيَمِيُّ عَنْ أَنَسٍ<sup>(٧)</sup>. وَاللَّفْظُ  
لِمُسْلِمٍ قَالَ: بَيَّنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهَرِنَا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ  
أَغْفَى إغْفَاءً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، قُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا  
رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةُ سُورَةٍ فَقَرَأَ:  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ﴾  
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ ﴿إِن شَايَنَّكَ هُوَ الْآزِبُ﴾ ثُمَّ قَالَ:  
«أَتَذَرُونِ مَا الْكَوْثَرُ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ  
نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ  
عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ،  
فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ  
لَا تَذَرِي مَا أَخَذْتَ بَعْدَكَ»<sup>(٨)</sup>. وَرَوَاهُ أَحْمَدُ ثَلَاثًا عَنْ  
مُحَمَّدِ بْنِ فُضَيْلٍ، عَنِ الْمُخْتَارِ بْنِ قُلْفُلٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ  
مَالِكٍ<sup>(٩)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ خِيَامُ اللَّوْلُؤِ،  
فَضَرَبْتُ يَدَيَّ إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، فَإِذَا مِثْلُ أَذْفَرُ،  
قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ  
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَمُسْلِمٌ  
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ  
قَالَ: «أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ قِيَابُ اللَّوْلُؤِ الْمُجَوَّفِ فَقُلْتُ:

السَّرُّ»<sup>(١١)</sup>. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ  
الصَّلَاةِ وَقَدْ التَزَمُوا بِهَا، ثُمَّ هُمْ عَنْهَا سَاهُونَ، وَإِمَّا عَنْ  
فِعْلِهَا بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَإِمَّا عَنْ فِعْلِهَا فِي  
الْوَقْتِ الْمُقَدَّرِ لَهَا شَرْعًا، فَيُخْرِجُهَا عَنْ وَقْتِهَا بِالْكُلِّيَّةِ،  
كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَأَبُو الضَّحَى<sup>(١٢)</sup>.

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: ﴿عَنْ  
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ<sup>(١٣)</sup>. وَإِمَّا عَنْ  
وَقْتِهَا الْأَوَّلِ فَيُؤَخَّرُونَهَا إِلَى آخِرِهِ دَائِمًا أَوْ غَالِبًا. وَإِمَّا عَنْ  
أَدَائِهَا بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا عَلَى الْوُجُوهِ الْمَأْمُورِ بِهِ. وَإِمَّا عَنِ  
الْخُشُوعِ فِيهَا وَالتَّذَبُّرِ لِمَعَانِيهَا، فَاللَّفْظُ يَشْمَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ،  
وَلِكُلِّ [مَنْ] اتَّصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قِسْطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ،  
وَمَنْ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّ لَهُ نَصِيبُهُ مِنْهَا، وَكَمُلَ لَهُ  
النِّفَاقُ الْعَمَلِيُّ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
قَالَ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، تِلْكَ  
صَلَاةُ الْمُتَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ  
قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَتَفَرَّ أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا  
قَلِيلًا»<sup>(١٤)</sup>. فَهَذَا آخِرُ صَلَاةِ الْعَصْرِ الَّتِي هِيَ الْوُسْطَى، كَمَا  
ثَبَتَ بِهِ النَّصُّ إِلَى آخِرِ وَقْتِهَا، وَهُوَ وَقْتُ كَرَاهَةِ، ثُمَّ قَامَ  
إِلَيْهَا فَتَفَرَّهَا نَفَرُ الْغُرَابِ لَمْ يَطْمَئِنَّ وَلَا خَشَعَ فِيهَا أَيْضًا،  
وَلِهَذَا قَالَ: لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، وَلَعَلَّهُ إِنَّمَا حَمَلَهُ  
عَلَى الْقِيَامِ إِلَيْهَا مَرَاءَةُ النَّاسِ، لَا ابْتِعَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، فَهُوَ  
كَمَا إِذَا لَمْ يُصَلِّ بِالْكُلِّيَّةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ  
يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى  
يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وَقَالَ  
تَعَالَى هَهُنَا: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا  
عِنْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَذَكَرُوا الرِّيَاءَ، فَقَالَ رَجُلٌ يُكْنَى بِأَبِي  
يَزِيدٍ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمِعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ  
خَلْقِهِ، وَحَثَرَهُ وَصَغَرَهُ»<sup>(١٥)</sup>. وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:  
﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لِلَّهِ فَاطْلَعَ عَلَيْهِ  
النَّاسُ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ، أَنَّ هَذَا لَا يُعَدُّ رِيَاءً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أَيُّ لَا أَحْسَنُوا عِبَادَةَ  
رَبِّهِمْ، وَلَا أَحْسَنُوا إِلَى خَلْقِهِ، حَتَّى وَلَا بِإِعَارَةٍ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ  
وَيُسْتَعَانُ بِهِ، مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَيْهِمْ، فَهَؤُلَاءِ لِمَنْعِ  
الرِّكَاءِ وَأَنْوَاعِ الْقُرْبَاتِ أَوْلَى وَأَوْلَى. وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ عَنْ

(١) الطبري: ٦٣٢/٢٤ (٢) الطبري: ٦٣١/٢٤ (٣) القرطبي:  
٢١٢/٢٠ (٤) فتح الباري: ٣٨٦/٦ ومسلم: ٤٣٤/١ (٥)  
أحمد: ٢١٢/٢ (٦) الطبري: ٦٣٩/٢٤ (٧) مسلم: ٣٠٠/١  
وأبو داود: ١١٠/٥ والنسائي في الكبرى: ٥٣٣/٦ (٨) مسلم:  
٣٠٠/١ (٩) أحمد: ١٠٢/٣ (١٠) أحمد: ١٠٣/٣

مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ<sup>(١)</sup>. وَهُوَ لَقَطُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكَوْثَرُ؟ قَالَ: «هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ أَعْطَانِيهِ رَبِّي، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ، فِيهِ طُيُورٌ أَغْنَاهَا كَأَغْنَانِي الْجُزْرِ» قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهَا لَنَاعِمَةٌ. قَالَ: «إِكْلَاهَا أَنْعَمُ مِنْهَا يَا عُمَرُ»<sup>(٢)</sup>.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ فِي الْكَوْثَرِ: هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، قَالَ أَبُو بَشِيرٍ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: فَإِنْ نَاسَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: التَّهَرُّ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ<sup>(٣)</sup>. وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: الْكَوْثَرُ: الْخَيْرُ الْكَثِيرُ<sup>(٤)</sup>. وَهَذَا التَّفْسِيرُ يَعْهُمُ التَّهَرُّ وَغَيْرُهُ، لِأَنَّ الْكَوْثَرَ مِنَ الْكَثَرَةِ وَهُوَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ، وَمِنْ ذَلِكَ: التَّهَرُّ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَالْمَاءُ يَجْرِي عَلَى اللُّؤْلُؤِ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ»<sup>(٥)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٦)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أَيُّ كَمَا أَعْطَيْنَاكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ: التَّهَرُّ الَّذِي تَقَدَّمَ صِفَتُهُ، فَأَخْلَصَ لِرَبِّكَ صَلَاتَكَ الْمَكْتُوبَةَ وَالنَّافِلَةَ وَتَحَرَّكَ، فَأَعْبَدَهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَانْحَرْ عَلَى اسْمِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن صَلَائِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أَمُرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ: يَعْني بِذَلِكَ نَحْرَ الْبَدَنِ وَنَحْوَهَا﴾<sup>(٧)</sup>. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَالْحَكَمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُ أَبِي خَالِدٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ<sup>(٨)</sup>. وَهَذَا بِخِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ السُّجُودِ لِعَبْرِ اللَّهِ وَالذَّبْحِ عَلَى غَيْرِ اسْمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ... [الأنعام: ١٢١].

[عَدُوُّ النَّبِيِّ هُوَ الْأَبْتَرُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أَيُّ إِنَّ

مُبْغِضَكَ يَا مُحَمَّدُ وَمُبْغِضَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ وَالثُّورِ الْمُبِينِ، هُوَ الْأَبْتَرُ الْأَقْلُ الْأَذَلُّ الْمُنْقَطِعُ ذِكْرُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ<sup>(٩)</sup>. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ قَالَ: كَانَ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ إِذَا ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَبْتَرٌ لَا عَقِبَ لَهُ، فَإِذَا هَلَكَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ<sup>(١٠)</sup>. وَقَالَ سَمُرُ بْنُ عَطِيَّةَ: نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ<sup>(١١)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَعِكْرِمَةُ: نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَجَمَاعَةٍ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ<sup>(١٢)</sup>. وَرَوَى الْبَزَّازُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: أَنْتَ سَيِّدُهُمْ، أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الصَّبْرِ الْمُتَّبِعِ مِنْ قَوْمِهِ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَجِيجِ وَأَهْلُ السَّدَانَةِ وَأَهْلُ السَّقَايَةِ! فَقَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، قَالَ: فَتَزَلَّتْ: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ هَكَذَا رَوَاهُ الْبَزَّازُ وَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ<sup>(١٣)</sup>. وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي لَهَبٍ، وَذَلِكَ حِينَ مَاتَ ابْنُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَهَبَ أَبُو لَهَبٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: بَيَّرَ مُحَمَّدٌ اللَّيْلَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانُوا إِذَا مَاتَ ذُكُورُ الرَّجُلِ قَالُوا: بُيِّرَ، فَلَمَّا مَاتَ أَبْنَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: بُيِّرَ مُحَمَّدٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فَتَوَهَّمُوا لِجَهْلِهِمْ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ بَنُوهُ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ، وَحَاشَا وَكَأَلَا، بَلْ قَدْ أَبْقَى اللَّهُ ذِكْرَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَأَوْجَبَ شَرْعُهُ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ، مُسْتَمِرًّا عَلَى دَوَامِ الْآبَادِ، إِلَى يَوْمِ الْمَحْشَرِ وَالْمَعَادِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ النَّتَاجِ. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْكَوْثَرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

(١) البخاري: ٤٩٤٦ (٢) أحمد: ٢٢٠/٣ (٣) فتح الباري:

٦٠٣/٨ (٤) الطبري: ٦٤٧/٢٤ (٥) أحمد: ٦٧/٢ (٦)

تحفة الأحوذى: ٢٩٤/٩ وابن ماجه: ١٤٥٠/٢ والطبري: ٢٤/٢٤

٦٥٠ (٧) الطبري: ٦٥٣/٢٤ (٨) الطبري: ٦٥٤/٢٤ (٩)

الطبري: ٦٥٦/٢٤، ٦٥٧ (١٠) ابن هشام: ٧/٢ ابن إسحاق

عنن (١١) الطبري: ٦٥٧/٢٤ (١٢) الطبري: ٦٥٧/٢٤

(١٣) كشف الأستار: ٨٣/٣

## تفسير سورة قل يأتياها الكافرون وهي مكية

[قراءة هذه السورة في التوافل]

تَبَّتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ بِهَذِهِ السُّورَةَ وَبِ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فِي رَكْعَتَي الطَّوَافِ (١). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ بِهِمَا فِي رَكْعَتَي الْفَجْرِ (٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي الرُّكْعَتَيْنِ، قَبْلَ الْفَجْرِ، وَالرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ بَضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً - أَوْ بَضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً - «قُلْ يَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ» وَ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (٣).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: رَمَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً - أَوْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً - يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَالرُّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ بِ «قُلْ يَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ» وَ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (٤). وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: رَمَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ شَهْرًا، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ بِ «قُلْ يَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ» وَ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» (٥). وَكَذَا رَوَاهُ الثُّرَيْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَأُخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ، وَقَالَ الثُّرَيْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ (٦). وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهَا تُعَدَّلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ تُعَدَّلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«قُلْ يَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ» (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

[البراءة من الشرك]

هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ، وَهِيَ أَمْرَةٌ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ يَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ» يَشْمَلُ كُلَّ كَافِرٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْمُوَاجِهُونَ بِهَذَا الْخِطَابِ هُمْ كُفَرَاءُ قُرَيْشٍ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ دَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ سَنَةً، وَيَعْبُدُونَ مَعْبُودَةَ سَنَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ فِيهَا أَنْ يَتَرَأَّى مِنْ دِينِهِمْ بِالْكَلْبَةِ فَقَالَ: «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» يَعْنِي مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» وَهُوَ اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَ«مَا» هَهُنَا بِمَعْنَى

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

٦٠٣

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

### سُورَةُ الْكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«قُلْ يَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ» (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

### سُورَةُ الْبَصَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

### سُورَةُ الْمُنَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَايَ لِي لَهِيَ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)

«مَنْ» ثُمَّ قَالَ: «وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ» (١) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» (٢) أَيْ وَلَا أَعْبُدُ عِبَادَتَكُمْ أَيْ لَا أَسْلُكُهَا وَلَا أَقْتَدِي بِهَا، وَإِنَّمَا أَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ» (٣) أَيْ لَا تَقْتَدُونَ بِأَوْامِرِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ فِي عِبَادَتِهِ، بَلْ قَدْ اخْتَرَعْتُمْ شَيْئًا مِنْ بَلَاءٍ أَنْفُسِكُمْ، كَمَا قَالَ: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ» [النجم: ٢٣].

فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ فِي جَمِيعِ مَا هُمْ فِيهِ، فَإِنَّ الْعَابِدَ لَا يَدُلُّهُ مِنْ مَعْبُودٍ يَعْْبُدُهُ وَعِبَادَةٍ يَسْلُكُهَا إِلَيْهِ، فَالرَّسُولُ ﷺ وَأَتْبَاعُهُ يَعْبُدُونَ اللَّهَ بِمَا شَرَعَهُ، وَلِهَذَا كَانَ كَلِمَةُ الْإِسْلَام «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» أَيْ لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا طَرِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَالْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ

(١) مسلم: ٨٨٨/٢ في حديث طويل (٢) مسلم: ٥٠٢/١ (٣) أحمد: ٥٨٠٢٤/٢ (٤) أحمد: ٩٩/٢ (٥) أحمد: ٩٤/٢ (٦) تحفة الأحوذى: ٤٧٠/٢ وابن ماجه: ٣٦٣/١ والنسائي:

عِبَادَةٌ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا اللَّهُ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وَقَالَ: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾ [القصاص: ٥٥]. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: يُقَالُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الْكُفْرُ ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الْإِسْلَامُ. وَلَمْ يَقُلْ: دِينِي، لِأَنَّ الْآيَاتِ بِالنُّونِ فَحَذَفَ الْيَاءَ، كَمَا قَالَ: ﴿فَهُوَ يَهُودِيٌّ وَ يَسْخَفِيٌّ﴾ [الشعراء: ٧٨، ٧٩] <sup>(١)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

### [فَضْلُ سُورَةِ النَّصْرِ]

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهَا تَعْدِلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ، وَإِذَا زُلْزِلَتْ تَعْدِلُ رُبْعَ الْقُرْآنِ. وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا ابْنَ عُتْبَةَ، أَتَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قَالَ: صَدَقْتُ <sup>(٢)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ <sup>(١)</sup> وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا <sup>(٢)</sup> فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا <sup>(٣)</sup>

[هَذِهِ السُّورَةُ إِخْبَارٌ عَنْ تَمَامِ أَجْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحَ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: لِمَ يَدْخُلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءُ مِثْلِهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَ لَهُ إِذَا نَصَرْنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكْذَلِكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: مَا تَقُولُ؟ فَقُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَغْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَذَلِكَ عَلَامَةٌ أَجْلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا﴾ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: لَا

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» <sup>(٥)</sup>: يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ. وَأَخْرَجَهُ بَقِيَّةُ الْجَمَاعَةِ إِلَّا التِّرْمِذِيُّ <sup>(٦)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» وَقَالَ: «إِنَّ رَبِّي كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمْتِي، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أَسْبَحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فَقَدْ رَأَيْتُهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ <sup>(١)</sup> وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا <sup>(٢)</sup> فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا <sup>(٣)</sup>». وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ <sup>(٨)</sup>.

وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هَهُنَا فَتْحُ مَكَّةَ قَوْلًا وَاحِدًا، فَإِنَّ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ كَانَتْ تَتَلَوُّ بِإِسْلَامِهَا فَتَحَ مَكَّةَ يَقُولُونَ: إِنْ ظَهَرَ عَلَى قَوْمِهِ فَهُوَ نَبِيٌّ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَلَمْ تَمُضْ سِتَانِ حَتَّى اسْتَوْسَقَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِيْمَانًا، وَلَمْ يَبْقَ فِي سَائِرِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ إِلَّا مُظْهَرٌ لِلْإِسْلَامِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ.

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ الْأَحْيَاءُ تَتَلَوُّ بِإِسْلَامِهَا فَتَحَ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: دَعُوهُ وَقَوْمُهُ، فَإِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ <sup>(٩)</sup> الْحَدِيثُ. وَقَدْ حَرَرْنَا غُرُورَةَ الْفَتْحِ فِي كِتَابِنَا «السِّيَرَةُ» فَمَنْ أَرَادَهُ فَلْيُرَاجِعْهُ هُنَاكَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِثَّةُ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي عَمَّارٍ، حَدَّثَنِي جَارٌ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَدِمْتُ مِنْ سَفَرٍ فَجَاءَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ،

(١) فتح الباري: ٦٠٤/٨ (٢) النسائي في الكبرى: ٥٢٥/٦

(٣) فتح الباري: ٦٠٦/٨ (٤) أحمد: ٢١٧/١ (٥) فتح

الباري: ٦٠٥/٨ (٦) ومسلم: ٣٥٠/١ وأبو داود: ٥٤٦/١

والنسائي في الكبرى: ٥٢٥/٦ وابن ماجه: ٢٨٧/١ (٧) أحمد:

٣٥/٨ (٨) مسلم: ٣٥١/١ (٩) فتح الباري: ٦١٦/٧

أَحْمَدُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا آغَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يَغْنِي: وَلَدُهُ<sup>(٥)</sup>. وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ مِثْلَهُ<sup>(٦)</sup>. وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الْإِيمَانِ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِي حَقًّا، فَإِنِّي أَفْتَدِي نَفْسِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ بِمَالِي وَوَلَدِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿مَا آغَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أَيْ ذَاتَ لَهَبٍ وَشَرَرٍ، وَإِحْرَاقٍ شَدِيدٍ.

[ذَكَرُ مُصِيرٌ أُمَّ جَبِيلٍ امْرَأَةً أَبِي لَهَبٍ]

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ وَكَانَتْ زَوْجَتَهُ مِنْ سَادَاتِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ وَهِيَ أُمُّ جَبِيلٍ، وَاسْمُهَا أَرْوَى بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَتْ عَوْنًا لَزَوْجِهَا عَلَى كُفْرِهِ وَجُحُودِهِ وَعِنَادِهِ. فَلِهَذَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَوْنًا عَلَيْهِ فِي عَذَابِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ يَغْنِي تَحْمِيلَ الْحَطَبِ فَتُلْقِي عَلَى زَوْجِهَا لِيَزْدَادَ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ، وَهِيَ مُهَيَّأَةٌ لِذَلِكَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغُرُوبُهُ: مِنْ مَّسَدِ النَّارِ<sup>(٧)</sup>.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطِيَّةُ الْجَدَلِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ: كَانَتْ تَصْعُقُ الشُّوكَ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْمَسَدُ: اللَّيْفُ، وَالْمَسَدُ أَيْضًا: حَبْلٌ مِنْ لَيْفٍ أَوْ خوصٍ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ أَوْ أَوْبَارِهَا، وَمَسَدُ الْحَبْلِ أَمْسُدُهُ مَسَدًا: إِذَا أَجَدْتُ فَتْلَهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾ أَيْ طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ<sup>(٨)</sup>. أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَرَبَ يُسَمُّونَ الْبُكَرَةَ مَسَدًا؟

[قِصَّةٌ مِنْ إِبْدَاءِ امْرَأَةٍ أَبِي لَهَبٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي وَأَبُو زُرْعَةَ قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْحُمَيْدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ ابْنُ كَثِيرٍ عَنْ [ابْنِ تَدْرُسَ] عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَبِيلٍ

(١) أحمد: ٣٤٣/٣ (٢) فتح الباري: ٦٠٩/٨ (٣) أحمد: ٣٤١/٤ (٤) أحمد: ٣٤١/٤ (٥) الطبري: ٦٧٧/٢٤ (٦) الطبري: ٦٧٧/٢٤ (٧) الدر المشور: ٦٦٧/٨ (٨) الطبري: ٦٨١/٢٤

فَجَعَلَتْ أَحَدَهُ عَنِ افْتِرَاقِ النَّاسِ وَمَا أَحَدُتُوا، فَجَعَلَ جَابِرٌ يَبْكِي، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا»<sup>(١)</sup>. آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّصْرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ تَبَّتْ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ١ مَا آغَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ٥

[سَبَبُ نَزُولِ السُّورَةِ، وَعِنَادُ أَبِي لَهَبٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ] رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْبُطْحَاءِ فَصَعِدَ الْجَبَلَ فَنَادَى: «يَا صَبَا حَاهُ» فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصْبِحُكُمْ، أَوْ مُمْسِكُكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدَّقُونِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ تَبَّا لَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾... إِلَى آخِرِهَا<sup>(٢)</sup>. وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَامَ يَنْفُضُ يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: تَبَّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ الْأَوَّلُ دَعَاءٌ عَلَيْهِ وَالثَّانِي خَبَرٌ عَنْهُ، فَأَبُو لَهَبٍ هَذَا هُوَ أَحَدُ أَعْمَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعَزَى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو [عُتْبَةَ]، وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَبَا لَهَبٍ لِإِشْرَاقِ وَجْهِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْأَذَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْبَغْضَى لَهُ، وَالْإِزْدِرَاءَ بِهِ، وَالتَّنْقِصَ لَهُ وَلِدَيْهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: رَبِيعَةُ بْنُ عَبَّادٍ مِنْ بَنِي الدَّيْلِ، وَكَانَ جَاهِلِيًّا فَأَسْلَمَ، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقٍ ذِي الْمَجَازِ وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِبُوا» وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الْوَجْهِ أَحْوَلُ دُوْ غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، يَتَّبِعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا: هَذَا عُمَةُ أَبُو لَهَبٍ<sup>(٣)</sup>.

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ سُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ أَبِيهِ... فَذَكَرَهُ، قَالَ أَبُو الزِّنَادِ: قُلْتُ لِرَبِيعَةَ: كُنْتُ يَوْمَئِذٍ صَغِيرًا؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، إِنِّي يَوْمَئِذٍ لَأَعْقِلُ، أَنِّي أَزْفِرُ الْقُرْبَةَ<sup>(٤)</sup>. تَقَرَّدَ بِهِ

بُنْتُ حَرْبٍ، وَلَهَا وَلَوْلَةٌ وَفِي يَدَيْهَا فَهْرٌ، وَهِيَ تَقُولُ:  
مَدَمَّمَا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلِينَا وَأَمْرَهُ عَصِينَا  
وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ،  
فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ أَقْبَلْتُ وَأَنَا  
أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَرَاكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا لَنْ  
تَرَانِي» وَقَرَأَ قُرْآنًا اغْتَضَمَ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِذَا قَرَأْتَ  
الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾  
[الاسراء: ٤٥] فَأَقْبَلْتُ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي أَخْبَرْتُ أَنَّ  
صَاحِبَكَ هَجَانِي، فَقَالَ: لَا، وَرَبُّ هَذَا النَّبِيِّ مَا هَجَاكَ،  
فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنَّ ابْنَهُ سَيِّدَهَا. قَالَ:  
وَقَالَ الْوَلِيدُ فِي حَدِيثِهِ أَوْ غَيْرُهُ: فَعَثَرْتُ أُمَّ جَبِيلٍ فِي  
مِرْطَها وَهِيَ تَطُوفُ بِالنَّبِيِّ فَقَالَتْ: نَعَسَ مَدَمَّمٌ، فَقَالَتْ أُمُّ  
حَكِيمٍ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي لَحَصَانٌ فَمَا أَكُلَّمُ، وَتَقَافُ  
فَمَا أَعْلَمُ، وَكِلْتَانَا مِنْ بَنِي الْعَمِّ، وَقُرَيْشٌ بَعْدَ أَعْلَمُ<sup>(١)</sup>.  
آخِرُ تَفْسِيرِ السُّورَةِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

(ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِهَا وَفَضْلُهَا)

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا  
لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ انْشُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:  
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾<sup>(٢)</sup> وَلَمْ  
يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ<sup>(٣)</sup> وَكَذَا رَوَاهُ  
التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ، زَادَ ابْنُ جَرِيرٍ وَالتِّرْمِذِيُّ قَالَ:  
﴿الصَّمَدُ﴾ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ  
إِلَّا سَيَمُوتُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلَّا سَيُورَثُ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ  
وَجَلَّ لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾  
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شِيبَةٌ وَلَا عَذْلٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ<sup>(٤)</sup>. وَرَوَاهُ  
ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالتِّرْمِذِيُّ فَذَكَرَهُ مُرْسَلًا، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ:  
وَهَذَا أَصَحُّ<sup>(٥)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ فِي فَضْلِهَا) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ  
عَبْدِ الرَّحْمَنِ - وَكَانَتْ فِي جِجَرٍ عَائِشَةُ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ -  
عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى  
سَرِيٍّ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَحْتُمُ بِهِ - ﴿قُلْ هُوَ

٦٠٤

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

## سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ  
وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)

## سُورَةُ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ (٢) وَمِنْ  
شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي  
الْعُقَدِ ۝ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ (٥)

## سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ (١) مَلِكِ النَّاسِ ۝ (٢) إِلَهِ  
النَّاسِ ۝ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيِّ ۝ (٤) الَّذِي  
يُوسَسُوفُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ (٥)  
مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝ (٦)

اللَّهُ أَحَدٌ ۝ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:  
«سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَضُنُّ ذَلِكَ؟» فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ  
الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:  
«أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ» هَكَذَا رَوَاهُ فِي كِتَابِ  
التَّوْحِيدِ<sup>(٥)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ أَيْضًا<sup>(٦)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ، عَنْ  
أَنْسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُؤْمِنُهُمْ فِي  
مَسْجِدِ قُبَاءٍ، فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةَ يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي

(١) فتح الباري: ٦١٠/٨ مسند الحميدي (٣٢٥) وقال حسين  
سليم أسد الداراني: "في أصولنا وفي مصادر التخرُّج أيضًا "ابن  
تدرس" والصواب أن الراوي عن أسماء هو تدرس جد أبي الزبير  
وانظر ترجمة كل من الوليد بن كثير وأسماء في "تهذيب الكمال"  
وقال: تدرس جد أبي الزبير ما رأيت له ترجمة. انظر تعليقه على  
المسند للحميدي ٣٢٣/١، ٣٢٤. (٢) أحمد: ١٣٣/٥ (٣)  
تحفة الأحوذى: ٢٩٩/٩ والطبري: ٦٩١/٢٤ (٤) تحفة  
الأحوذى: ٣٠١/٩ (٥) فتح الباري: ٣٦٠/١٣ (٦) مسلم: ٥٥٧/١  
والنسائي في الكبرى: ١٧٧/٦



دَاوُدَ وَالتَّوْمِيذِيَّ وَالنَّسَائِيَّ وَقَالَ التَّوْمِيذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ<sup>(٩)</sup>. وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى، وَلَفْظُهُ «تَكْفِكَ كُلَّ شَيْءٍ»<sup>(١٠)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) فِي الدُّعَاءِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ. رَوَى النَّسَائِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهَا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَجُلٌ يُصَلِّي يَدْعُو يَقُولُ: االلَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ سَأَلَهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ»<sup>(١١)</sup>. وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَيْهَقِيُّ أَصْحَابُ السَّنَنِ<sup>(١٢)</sup>. وَقَالَ التَّوْمِيذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(حَدِيثٌ آخَرٌ فِي الْأَسْتِسْفَاءِ بِهِ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، وَقَرَأَ فِيهِمَا: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وَ«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» وَ«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْاَلْسَانِ» ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ. يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ<sup>(١٣)</sup>. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَهْلُ السَّنَنِ<sup>(١٤)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ① ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ② ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدْ﴾ ③ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ④

قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِهَا، وَقَالَ عِكْرَمَةُ: لَمَّا قَالَتِ الْيَهُودُ: نَحْنُ نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، وَقَالَتِ الْمَجُوسُ: نَحْنُ نَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَالَتِ الْمُشْرِكُونَ: نَحْنُ نَعْبُدُ الْأَوْثَانَ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» بِغَنِيِّ هُوَ

الصَّلَاةِ وَمِمَّا يَقْرَأُ بِهِ، افْتَتَحَ بِـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَقْرَعَ مِنْهَا، ثُمَّ كَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَضَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهِذِهِ السُّورَةَ ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِالْأُخْرَى، فِيمَا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا، وَإِمَّا تَدْعَاهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى، فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَوْكُمُ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ. وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وَكَرَهُوا أَنْ يُؤْمَهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَنَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: «يَا فَلَانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟» قَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، قَالَ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ». هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيْقًا مَجْزُومًا بِهِ<sup>(١)</sup>.

(حَدِيثٌ فِي كَوْنِهَا تَعْدِيلٌ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَفَالَّهَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِيلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ»<sup>(٢)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٣)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَيَعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟» فَسَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيْنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ»<sup>(٤)</sup>. تَفَرَّدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ.

(حَدِيثٌ آخَرٌ فِي كَوْنِ قِرَاءَتِهَا تَوْجِبُ الْجَنَّةَ) رَوَى الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ عُثَيْبِ بْنِ خُنَيْنٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: أَقْبَلْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَجَبَتْ - قُلْتُ: وَمَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: - الْجَنَّةُ»<sup>(٥)</sup>. وَرَوَاهُ التَّوْمِيذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ، وَقَالَ التَّوْمِيذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مَالِكٍ<sup>(٦)</sup>. وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»<sup>(٧)</sup>.

(حَدِيثٌ فِي تَكَرُّارِ قِرَاءَتِهَا) رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَصَابَنَا عَطَشٌ وَظَلَمَةٌ فَانْتَظَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِنَا، فَخَرَجَ فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: «قُلْ» فَسَكَتُ. قَالَ: «قُلْ» قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوَّذَتَيْنِ حِينَ تُمَسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثًا، تَكْفِكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ»<sup>(٨)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو

(١) فتح الباري: ٢/٢٩٨ (٢) فتح الباري: ٨/٦٧٦ (٣) أبو داود: ٢/١٥٢ والنسائي في الكبرى: ٥/١٦ (٤) فتح الباري: ٨/٦٧٦ (٥) الموطأ: ١/٢٠٨ (٦) تحفة الأحوذ: ٨/٢٠٩ والنسائي في الكبرى: ٦/١٧٧ (٧) فتح الباري: ٢/٢٩٨ (٨) أحمد: ٥/٣١٢ (٩) أبو داود: ٥/٣٢٠ وتحفة الأحوذ: ١٠/٢٨ والنسائي: ٨/٢٥٠ (١٠) النسائي: ٨/٢٥١ (١١) النسائي في الكبرى: تحفة الأشراف: ٢/٩٠ (١٢) أبو داود: ١٤٩٣ والترمذي: ٣٤٧٥ وابن ماجه: ٣٨٥٧ (١٣) فتح الباري: ٨/٦٧٩ (١٤) أبو داود: ٥/٣٠٣ وتحفة الأحوذ: ٩/٣٤٧ والنسائي في الكبرى: ٦/١٩٧ وابن ماجه: ٢/١٢٧٥

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأْنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ»<sup>(٤)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

## تَفْسِيرُ سُورَتِي الْمَعُودَتَيْنِ وَهُمَا مَدَنِيَّتَانِ

### [مَوْفُتُ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنَ الْمَعُودَتَيْنِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زُرَّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ابْنِ كَعْبٍ: إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ لَا يَكْتُبُ الْمَعُودَتَيْنِ فِي مُصْحَفِهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَخْبَرَنِي: «أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» فَقُلْتُهَا: قَالَ: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» فَقُلْتُهَا. فَتَحْنُ نَقُولُ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ»<sup>(٥)</sup>.

### [فَضْلُ الْمَعُودَتَيْنِ]

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أَنْزَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلُهَا قَطُّ: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» وَ«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»<sup>(٦)</sup> وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(٧)</sup>.

(طَرِيقُ أُخْرَى) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَقُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَقَبٍ مِنْ تِلْكَ النَّقَابِ إِذْ قَالَ لِي: «يَا عُقْبَةُ أَلَا تَرَكِبُ؟» قَالَ: فَأَشْفَقْتُ أَنْ تَكُونَ مَعْصِيَةً، قَالَ: فَتَزَلَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَكِبْتُ هَنِيئَةً ثُمَّ رَكِبَ ثُمَّ قَالَ: «يَا عُقْبَةُ، أَلَا أَعْلَمُكَ سُورَتَيْنِ مِنْ خَيْرِ سُورَتَيْنِ قَرَأَ بِهِمَا النَّاسُ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَقْرَأْنِي: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» وَ«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ بِهِمَا، ثُمَّ مَرَّ بِي فَقَالَ:

الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ، وَلَا نَدِيدَ وَلَا شَبِيهَ وَلَا عَدِيلَ، وَلَا يُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَحَدٍ فِي الْإِنْبَاءِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «اللَّهُ الصَّمَدُ» قَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْني الَّذِي يَصْمَدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي سُودَدِهِ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي حِلْمِهِ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي حِكْمَتِهِ. وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمَلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّودَدِ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَتَّبَعِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفُوٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ<sup>(٨)</sup>. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ: «الصَّمَدُ» السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ انْتَهَى سُودَدُهُ<sup>(٩)</sup>.

### [اللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْكُفُو]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ. كُفُوًا أَحَدٌ» أَيُّ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ وَلَا صَاحِبَةٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» يَعْنِي لَا صَاحِبَةٌ لَهُ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: «بِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ» [الأنعام: ١٠١] أَيُّ هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نَظِيرٌ يُسَامِيهِ، أَوْ قَرِيبٌ يُدَانِيهِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا»<sup>(١٠)</sup> لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا<sup>(١١)</sup> تَكَادَّ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِصْرُ الْجِبَالِ هَذَا<sup>(١٢)</sup> أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا<sup>(١٣)</sup> وَمَا يَلْبَعِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا<sup>(١٤)</sup> إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا<sup>(١٥)</sup> لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا<sup>(١٦)</sup> وَكُلُّهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرْدًا<sup>(١٧)</sup> [مریم: ٨٨-٩٥].

وَقَالَ تَعَالَى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ»<sup>(١٨)</sup> لَا يَسْتَوُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ<sup>(١٩)</sup> [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا» وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِتْمَامَ لِمُحْضَرُونَ<sup>(٢٠)</sup> سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ<sup>(٢١)</sup> [الصافات: ١٥٨، ٥٩] وَفِي الصَّحِيحِ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: «لَا أَحَدٌ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ، يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»<sup>(٢٢)</sup>. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ

(١) الطبري: ٦٩٢/٢٤ (٢) الطبري: ٦٩٢/٢٤ (٣) فتح الباري: ٣٧٢/١٣ (٤) فتح الباري: ٦١١/٨، ٦١٢ (٥) أحمد: ١٢٩/٥ (٦) مسلم: ٥٥٨/١ (٧) أحمد: ١٤٤/٤ و تحفة الأحوذى: ٣٠٣/٩ والنسائي: ٢٥٤/٨

هَذَا<sup>(١)</sup>. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ: وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾<sup>(٢)</sup> [الأنعام: ٩٦]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أَيْ مِنْ شَرِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَقَالَ ثَابِتُ الْبُنَانِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: جَهَنَّمُ وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ: مِمَّا خَلَقَ. ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: (غَاسِقُ اللَّيْلِ إِذَا وَقَبَ) غُرُوبُ الشَّمْسِ. حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ<sup>(٣)</sup>. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْهُ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ، وَالضَّحَّاكُ وَخُصَيْفٌ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: إِنَّهُ اللَّيْلُ إِذَا أَقْبَلَ بِظُلَامِهِ<sup>(٤)</sup>. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ. وَقَالَ أَبُو الْمُهَزَّمِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الْكَوْكَبُ<sup>(٥)</sup>. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ: الْغَاسِقُ سَقُوطُ الثُّرَيَّا، وَكَانَتْ الْأَسْقَامُ وَالطَّوَاعِينُ تَكْثُرُ عِنْدَ وَقُوعِهَا، وَتَزْتَفِعُ عِنْدَ طُلُوعِهَا<sup>(٦)</sup>.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الْقَمَرُ. (قُلْتُ) وَغَمْدُهُ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَأَرَانِي الْقَمَرَ حِينَ طَلَعَ وَقَالَ: «تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ»<sup>(٧)</sup>. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابَيْهِ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا<sup>(٨)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ شَرِّ الْفَقْدَنِ فِي الْعَقْدِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: يَعْنِي السَّوَاحِرَ<sup>(٩)</sup>. قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا رَقِينَ وَنَفَنَ فِي الْعَقْدِ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ أَنَّ جَبْرِيلَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إشتكى يا مُحَمَّدُ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ أَزْوَاجُكَ مِنْ

«كَيْفَ رَأَيْتَ يَا عَقِيبُ، أَفَرَأَى بِهِمَا كُلَّمَا يَمُتُ وَكُلَّمَا قُمْتُ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ<sup>(١١)</sup>.

(طَرِيقٌ أُخْرَى) رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَعَوَّذُوا بِمِثْلِ هَذَيْنِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»<sup>(١٢)</sup>.

(طَرِيقٌ أُخْرَى) رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: كُنْتُ أُمِشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا عُقْبَةُ قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ؟ فَسَكَتَ عَنِّي ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» قُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾» فَقَرَأْتُهَا حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ: «قُلْ» فَقُلْتُ: مَاذَا أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» فَقَرَأْتُهَا ثُمَّ أَتَيْتُ عَلَى آخِرِهَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِذٌ بِمِثْلِهَا»<sup>(١٣)</sup>.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى النَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَلَا أَدُلُّكَ - أَوْ أَلَا أُخْبِرُكَ - بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾» - وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هَاتَانِ السُّورَتَانِ»<sup>(١٤)</sup>.

وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَيَتَشْتَدُّ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَأَمْسَحَ بِيَدِهِ عَلَيْهِ، رَجَاءَ بَرَكَتِهَا<sup>(١٥)</sup>. وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ<sup>(١٦)</sup>.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ أَعْيُنِ الْجَانِّ وَأَعْيُنِ الْإِنْسَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ<sup>(١٧)</sup>.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿١﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ الْفَقْدَنِ فِي الْعَقْدِ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٤﴾

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: «الْفَلَقُ»: الصُّبْحُ<sup>(١٨)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «الْفَلَقُ»: الصُّبْحُ<sup>(١٩)</sup>. وَرَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَقِيلٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ مِثْلُ

(١) أحمد: ١٤٤/٤ (٢) أبو داود: ١٥٢/٢ والنسائي: ٨/

٢٥٢، ٢٥٣ (٣) الكنى للدولابي: ١٠٦/١ (٤) النسائي: ٨/

٢٥٣ (٥) النسائي: ٢٥١/٨ (٦) الموطأ: ٩٤٢/٢ (٧) فتح

الباري: ٦٧٩/٨ ومسلم: ١٧٢٣/٤ وأبو داود: ٢٢٠/٤

والنسائي في الكبرى: ٨٦٧/٤ و٣٦٨ وابن ماجه: ١١٦٦/٢

(٨) تحفة الأحوذى: ٢١٨/٦ والنسائي: ٢٧١/٨ وابن ماجه:

١١٦١/٢ (٩) الطبري: ٧٠٠/٢٤ (١٠) الطبري: ٧٠١/٢٤

(١١) الطبري: ٧٠٠/٢٤، ٧٠١ (١٢) الطبري: ٧٠١/٢٤

(١٣) فتح الباري: ٦١٣/٨ (١٤) الطبري: ٧٤٨/١٢، ٧٤٩

(علمية) (١٥) الطبري: ١٤٩/١٢ (علمية) (١٦) الطبري:

١٤٩/١٢ (علمية). (١٧) أحمد: ٦١/٦ (١٨) الترمذي:

٣٣٦٦ (١٩) الطبري: ٧٥٠/١٢، ٧٥١

كُلُّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ<sup>(١)</sup>.  
[بَيَانُ سِحْرِ النَّبِيِّ]

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الطَّبِّ مِنْ صَحِيحِهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَجَرَ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيَهُنَّ - قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، إِذَا كَانَ كَذَا - فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ أَتَأْنِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ، قَالَ: لَيْدُ بْنُ أَغْصَمَ: رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ، كَانَ مُنَافِقًا، قَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشِطٍ وَمُشَاطَةٍ، قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، تَحْتَ رَاعُوفَةٍ فِي بئرِ ذَرْوَانَ» قَالَتْ: فَأَتَى الْبِئْرَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ فَقَالَ: «هَذِهِ الْبِئْرُ الَّتِي أَرَيْتُهَا، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نَقَاعَةُ الْحَنَاءِ، وَكَأَنَّ نَحْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ». قَالَ: فَاسْتَخْرَجَ [قَالَتْ] فَقُلْتُ: أَفَلَا تَنْشُرَتْ؟ فَقَالَ: «أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهَ أَنْ أُبَيَّرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا»<sup>(٢)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ سَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْغَيْتَةِ وَالنَّكَاسِ ⑥﴾  
هَذِهِ ثَلَاثُ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ: الرَّبُّوبِيَّةُ وَالْمُلْكُ وَالْإِلَهِيَّةُ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكُهُ وَالْإِلَهُ، فَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ، مَمْلُوكَةٌ عِبْدٌ لَهُ، فَأَمَرَ الْمُسْتَعِيدَ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِالْمُتَّصِفِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ الْمُؤَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزَيِّنُ لَهُ الْفَوَاحِشَ، وَلَا يَأْلُوهُ جُهْدًا فِي الْخَبَالِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينَهُ» قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»<sup>(٣)</sup>.

وَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ فِي قِصَّةِ زِيَارَةِ صَفِيَّةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُتَعَتِّفٌ، وَخُرُوجِهِ مَعَهَا لَيْلًا لِيَزِدَّهَا إِلَى مَنْزِلِهَا، فَلَقِيَهُ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ أَسْرَعََا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حَمِيٍّ» فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: «إِنَّ

الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا، أَوْ قَالَ: شَرًّا»<sup>(٤)</sup>.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ قَالَ: الشَّيْطَانُ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَعَقَلَ وَسَوَسَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَسَسَ<sup>(٥)</sup>. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ<sup>(٦)</sup>. وَقَالَ الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ: ذَكَرَ لِي أَنَّ الشَّيْطَانَ الْوَسْوَاسَ يَنْفُثُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ عِنْدَ الْحُزْنِ وَعِنْدَ الْفَرَحِ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَسَسَ<sup>(٧)</sup>. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قَالَ: هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْمُرُ، فَإِذَا أَطِيعَ خَسَسَ<sup>(٨)</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ هَلْ يَخْتَصُّ هَذَا بِبَنِي آدَمَ كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ، أَوْ يُعْمَ بِبَنِي آدَمَ وَالْجِنِّ؟ فِيهِ قَوْلَانِ: وَيَكُونُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ تَغْلِيظًا. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ اسْتَعْمِلَ فِيهِمْ رِجَالٌ مِنَ الْجِنِّ فَلَا يَدْعُ فِي إِطْلَاقِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ<sup>(٩)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ الْغَيْتَةِ وَالنَّكَاسِ﴾ هَلْ هُوَ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَّهُمْ فَقَالَ: ﴿مِنَ الْغَيْتَةِ وَالنَّكَاسِ﴾ وَهَذَا يُقَوِّي الْقَوْلَ الثَّانِي. وَقِيلَ: قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْغَيْتَةِ وَالنَّكَاسِ﴾ تَفْسِيرٌ لِلَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأَحْدُثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ، لِأَنَّ آخِرَ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ»<sup>(١٠)</sup>. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَائِيُّ<sup>(١١)</sup>.

آخِرُ التَّفْسِيرِ، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) مسلم: ٢١٨٦ (٢) فتح الباري: ١٠/٢٤٣ (٣) مسلم: ٤/٢١٦٧ (٤) فتح الباري: ٤/٣٢٦ (٥) الطبري: ٢٤/٧٠٩  
إسناده ضعيف لأجل شيخ الطبري محمد بن حميد الرازي (٦)  
الطبري: ٢٤/٧١٠ (٧) الطبري: ٢٤/٧١٠ (٨) الطبري: ٢٤/٧١٠  
٧١٠ (٩) الطبري: ٢٤/٧١١ (١٠) أحمد: ١/٢٣٥ (١١)  
أبو داود: ٥/٣٣٦ والتسائي في الكبرى: ٦/١٧١

## مراجع التخریج لمخلص تفسير ابن كثير

- ١ - الأدب المفرد للبخاري، المكتبة الأثرية، بمبائي، الهند.
- ٢ - أسد الغابة لابن الأثير، الشعب.
- ٣ - أطراف المسند لابن حجر، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة.
- ٤ - الأم للشافعي، الشعب.
- ٥ - الإتيقان للسيوطي، الطبعة الثالثة، دار التراث، بالقاهرة.
- ٦ - إرواء الغليل، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٧ - الإصابة لابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ٨ - الاستيعاب لابن عبد البر على أسفل الإصابة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ٩ - البحر الزخار للبخاري، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.
- ١٠ - البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان.
- ١١ - البعث والنشور لابن أبي داود، دار الكتب العلمية بيروت.
- ١٢ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.
- ١٣ - تاريخ الطبري، دار سويدان، بيروت، لبنان.
- ١٤ - التاريخ الكبير للإمام البخاري، بدون ذكر المطبعة.
- ١٥ - تحفة الأحوذى للمحدث عبدالرحمن المباركفوري، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ١٦ - تحفة الأشراف، الدار القيمة، بيوندي، بمبائي، الهند.
- ١٧ - تخریج الإحياء للعراقي، دار العاصمة، الرياض.
- ١٨ - تخریج الكشف لابن حجر، في آخر الكشف، وفي بعض الطبقات أسفله.
- ١٩ - ترتيب مسند الإمام الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٢٠ - الترغيب والترهيب للمنزري، مكتبة شباب الأزهر.
- ٢١ - تفسير البغوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٢٢ - تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية مع التكملة.
- ٢٣ - تفسير عبدالرزاق، مكتبة الرشد، الرياض.
- ٢٤ - تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق د/الغامدي - مسودة.
- ٢٥ - تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، الطبعة الأولى، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.
- ٢٦ - التفسير الكبير للرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٢٧ - تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، لعبد القادر بدران، دار المسيرة، بيروت، لبنان.
- ٢٨ - تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، لبنان.
- ٢٩ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- ٣٠ - جامع المسانيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- بيروت، لبنان. ٣١ - جزء حسن بن عرفة، مكتبة دار الأقصى، الكويت.
- ٣٢ - الجزء المفقود من مصنف ابن أبي شيبة، دار عالم الكتب، الرياض.
- ٣٣ - حلية الأولياء للأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ٣٤ - الدر المنثور للسيوطي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٣٥ - الدرر اختصار المغازي والسير لابن عبد البر، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.
- ٣٦ - دلائل النبوة للأصبهاني، دار الباز، مكة المكرمة.
- ٣٧ - دلائل النبوة للبيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٣٨ - الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، الطبعة الثانية، مكتبة دار التراث، بالقاهرة.
- ٣٩ - الروض الأنف للسهيلى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٤٠ - زاد المعاد لابن القيم، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٤١ - الزهد لهناد بن السري، دار الخلفاء للكتاب الإسلامى، الكويت.
- ٤٢ - سلسلة الأحاديث الضعيفة للمحدث الألباني، المكتب الإسلامى. بيروت.
- ٤٣ - السنة لابن أبي عاصم، المكتب الإسلامى.
- ٤٤ - سنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، دار الحديث، حمص، سورية.
- ٤٥ - سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر.
- ٤٦ - سنن الدارقطني، نشر السنة، ملتان، باكستان.
- ٤٧ - سنن الدارمي، نشر السنة، ملتان، باكستان.
- ٤٨ - سنن سعيد بن منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٤٩ - السنن الكبرى للبيهقي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٥٠ - السنن الكبرى للنسائي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٥١ - سنن النسائي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- ٥٢ - سيرة ابن هشام، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.
- ٥٣ - شرح السنة للبغوي، المكتب الإسلامى، بيروت.
- ٥٤ - الشريعة للأجري، حديث أكاديمى، فيصل آباد، باكستان.
- ٥٥ - شعب الإيمان للبيهقي، الدار السلفية، بمبائى، الهند.
- ٥٦ - شمائل الترمذى، دار العلم، جدة.
- ٥٧ - صحيح ابن حبان، تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٥٨ - صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمى، المكتب الإسلامى.
- ٥٩ - صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربى.
- ٦٠ - صفة الجنة لأبي نعيم، بيروت، لبنان.
- ٦١ - الضعفاء للعقيلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٦٢ - الطوال للطبراني في آخر الجزء للمعجم الكبير.
- ٦٣ - العظيمة لأبي الشيخ، دار العاصمة، الرياض.

- ٦٤ - علل الحديث لعلي بن المديني، بيروت، لبنان.
- ٦٥ - العلل المتناهية لابن الجوزي، إدارة العلوم الأثرية فيصل آباد، باكستان.
- ٦٦ - عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، أحمد شاكر، (بدون اسم المطبعة).
- ٦٧ - عمل اليوم والليلة للنسائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- ٦٨ - عون المعبود للعلامة شمس الحق العظيم آبادي، نشر السنة، ملتان، باكستان.
- ٦٩ - غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧٠ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر، الطبعة الثانية، المطبعة السلفية، بالقاهرة.
- ٧١ - فتح القدير للشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٧٢ - الفردوس للدليمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧٣ - فضائل القرآن لأبي عبيد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٧٤ - فضائل القرآن للإمام النسائي، تحقيق فاروق حمادة، دار الثقافة، المغرب.
- ٧٥ - الفقيه والمتفقه للبغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧٦ - الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٧٧ - كتاب الزهد لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٧٨ - كتاب الصلاة للمروزي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
- ٧٩ - كتاب المجروحين لابن حبان، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
- ٨٠ - الكشف للزمخشري، دار الكتاب العربي.
- ٨١ - كشف الأستار، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- ٨٢ - مجمع الزوائد للهيثمي، دار الكتاب، بيروت، لبنان.
- ٨٣ - المجموع المغيث للمدني الأصفهاني، دار المدني، جدة.
- ٨٤ - المحرر الوجيز لعبد الحق بن غالب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٨٥ - المختارة للضياء، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.
- ٨٦ - المراسيل لأبي داود، المكتبة القاسمية، فيصل آباد، باكستان.
- ٨٧ - المستدرک للإمام الحاكم، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٨٨ - مسند أبي داود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٨٩ - مسند أبي عوانة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ٩٠ - مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت.
- ٩١ - مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، ودار صادر، بيروت.
- ٩٢ - مسند الحميدي، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- ٩٣ - مسند الشهاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- ٩٤ - مشكاة المصابيح للتبريزي، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ٩٥ - مشكل الآثار للطحاوي، دائرة المعارف، حيدرآباد، الهند.
- ٩٦ - المصنف لابن أبي شيبه، الدار السلفية، بمبائي، الهند.

- ۹۷ - المصنف لعبدالرزاق، المكتب الإسلامي، بيروت.
- ۹۸ - المطالب العالية للحافظ ابن حجر.
- ۹۹ - المعجم الأوسط للطبراني، مكتبة المعارف، الرياض.
- ۱۰۰ - المعجم الصغير للطبراني، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
- ۱۰۱ - المعجم الكبير للطبراني، الطبعة الثانية، القاهرة.
- ۱۰۲ - المغازي للواقدي.
- ۱۰۳ - المنتخب من مسند عبد بن حميد، مكتبة السنة، القاهرة.
- ۱۰۴ - موارد الظمان للهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ۱۰۵ - الموطأ للإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.



## الفهرس

٢١	٥	مقدمة الطبعة الأولى
٢١	٨	مقدمة الطبعة الثانية
٢١	٩	شرح الرموز المستعملة في التخریج
٢٢	١١	ترجمة المؤلف
٢٢	١٥	[مقدمة ابن كثير]
٢٢	١٥	[الأمر يفهم القرآن]
٢٢	١٦	[أصول التفسير]
٢٣	١٦	[حكم الروايات الإسرائيلية]
٢٣	١٧	[مكانه تفسير التابيعين]
٢٣	١٧	[التفسير بالرأي]
٢٤	١٧	[الأسكوت عن تفسير غير المعلوم]
٢٤	١٨	[وجوه التفسير]
٢٥	١٨	[السور المكية والمدنية]
٢٥	١٨	[عدد آيات القرآن الكريم]
٢٥	١٨	[عدد كلماته وحروفه]
٢٥	١٨	[تقسيمات أخرى للقرآن الكريم]
٢٦	١٨	[التحزيب والتجزئة]
٢٦	١٩	[معنى السورة واشتقاقها]
٢٧	١٩	[معنى الآية]
٢٧	١٩	[معنى الكلمة]
٢٧	١٩	[العجمة والقرآن]
٢٧	٢٠	سورة الفاتحة
٢٨	٢٠	[أسماء الفاتحة ومعناها]
٢٨	٢٠	[عدد آياتها]
٢٨	٢٠	[عدد كلماتها وحروفها]
٢٨	٢٠	[لماذا سميت أم الكتاب]
٢٨	٢٠	[ذكر ما ورد في فضل الفاتحة]
٢٨	٢١	[قراءة الفاتحة في الصلاة]
٢٨		الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة
٢٩	٢١	من وجوه
		أوجوب قراءة الفاتحة في الصلوات كلها إماماً كان أو
		مأموماً أو منفرداً]
		[تفسير الاستعاذة وأحكامها]
		[الاستعاذة تكون قبل التلاوة]
		[التعوذ عند الغضب]
		[الاستعاذة واجبة أو مستحبة؟]
		[من لطائف الاستعاذة]
		[معنى الاستعاذة]
		[تسميته الشيطان]
		[معنى الرجيم]
		[البسملة أول آية من سورة الفاتحة]
		[الجهر والأسرار بالبسملة في الصلاة الجهرية]
		فضل في فضلها
		[استحبها في بداية كل عمل]
		[بماذا يتعلق بسم الله]
		[معنى لفظ الجلالة «الله»]
		[تفسير: الرحمن الرحيم]
		[معنى الحمد]
		[الفرق بين الحمد والشكر]
		ذكر أقوال السلف في الحمد
		[فضائل الحمد]
		[الألف واللام في الحمد للاستغراق]
		[معنى الرب]
		[معنى العالمين]
		[وجه تسمية العالم]
		[معنى مالك وملك]
		[معنى تخصيص الملك بيوم الدين]
		[معنى يوم الدين]
		[الملك وملك الأملاك هو الله]
		[تفسير الدين]

٤٠	[ذِكْرُ الْمُتَافِقِينَ]	٢٩	[مَعْنَى الْعِبَادَةِ لُغَةً وَشَرْعًا]
٤٠	[مَعْنَى التَّفَاقُقِ]	٢٩	[فَوَائِدُ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ وَالْإِثْقَاتِ]
٤٠	[بِدَايَةُ التَّفَاقُقِ]	٢٩	[الْفَاتِحَةُ إِشَادٌ إِلَى الثَّنَاءِ فَتَجِبُ قِرَاءَتُهَا فِي الصَّلَاةِ]
٤١	[تَفْسِيرُ الْآيَةِ]	٢٩	[تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ]
٤٢	[الْمُرَادُ بِالْمَرَضِ]	٢٩	[تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ]
٤٢	[الْمُرَادُ بِالْفَسَادِ]	٢٩	[تَسْمِيَةُ اللَّهِ نَبِيَّهُ عَبْدًا فِي أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ]
٤٢	[أَنْوَاعُ فَسَادِ الْمُتَافِقِينَ]	٣٠	[الْإِشَادُ إِلَى الْعِبَادَةِ عِنْدَ ضَيْقِ الصَّدْرِ]
٤٣	[مَكْرُ الْمُتَافِقِينَ وَخِدَاعُهُمْ]	٣٠	[سِرُّ تَأْخِيرِ الدَّعَاءِ بَعْدَ الْحَمْدِ وَالْوُصْفِ]
٤٣	[شِبَاطِينُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ]	٣٠	[مَعْنَى الْهِدَايَةِ]
٤٤	[مَعْنَى الْإِسْتِهْزَاءِ]	٣٠	[مَعْنَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ]
٤٤	[مَكْرُ الْمُتَافِقِينَ وَبَالَهُ عَلَيْهِمْ]	٣٠	[سُؤَالُ الْمُؤْمِنِ الْهِدَايَةَ مَعَ اتِّصَافِهِ بِهَا]
٤٤	[الْمَدُّ وَالطُّغْيَانُ وَالْعَمَّةُ]	٣٢	[مُسْتَمَلَاتُ الْفَاتِحَةِ]
٤٥	[مَثَلُ الْمُتَافِقِينَ]		[إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَى اللَّهِ دُونَ الْإِضْلالِ وَالرَّدُّ عَلَى
٤٥	[مَثَلُ آخَرٍ لِلْمُتَافِقِينَ]	٣٢	الْقَدَرِيَّةِ]
٤٦	ذِكْرُ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ فِي ذَلِكَ	٣٢	[التَّائِمِينَ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ]
٤٦	[أَقْسَامُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَقْسَامُ الْكَافِرِينَ وَالْمُتَافِقِينَ]	٣٣	تفسير سورة البقرة
٤٧	[أَقْسَامُ الْقُلُوبِ]	٣٣	ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ آلِ عِمْرَانَ
٤٧	[تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ]	٣٤	[سُورَةُ الْبَقَرَةِ مَدِينَةٌ بِلَا خِلَافٍ]
٤٨	[دَلَالَةُ وُجُودِ الْبَارِي تَعَالَى]	٣٥	[الْكَلَامُ حَوْلَ الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ]
٤٨	[إِبْنَاتُ رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ]	٣٥	[الْحُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ دَالَّةٌ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ]
٤٨	[الْتِحَادِي وَالْإِعْجَازِ]	٣٦	[لَا رَيْبَ فِي الْقُرْآنِ]
٤٩	[مِنْ وَجْهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ]	٣٦	[إِخْتِصَاصُ الْهِدَايَةِ بِالْمُتَّقِينَ]
٥٠	[الْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجَزَةُ الْعُظْمَى لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ]	٣٦	[مَعْنَى الْمُتَّقِينَ]
٥٠	[الْمُرَادُ بِالْحِجَارَةِ]	٣٦	[الْهِدَايَةُ نَوْعَانِ]
٥١	[إِنْ جَهَنَّمَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ]	٣٧	[مَعْنَى التَّقْوَى]
٥١	[جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ]	٣٧	[مَعْنَى الْإِيمَانِ]
٥١	[مُشَابَهَةُ ثَمَارِ الْجَنَّةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ]	٣٧	[الْمُرَادُ بِالْغَيْبِ]
٥١	[أَزْوَاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مُطَهَّرَاتٌ]	٣٨	[مَعْنَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ]
٥٢	[مَثَلٌ لِلنَّبَا]	٣٨	[الْمُرَادُ بِالْإِنْفَاقِ]
٥٣	[الْمُرَادُ بِالْخُشْرَانِ]	٣٨	[مَعْنَى الصَّلَاةِ]
٥٤	[بَيَانُ دَلَالَةِ الْقُدْرَةِ]	٣٨	[أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ]
٥٤	[بِدَايَةُ الْخَلْقِ]	٣٩	[الْهِدَايَةُ وَالْفَلَاحُ مِنْ نَصِيبِ الْمُؤْمِنِينَ]
٥٤	[خُلِقَتِ الْأَرْضُ قَبْلَ السَّمَاوَاتِ]	٣٩	[مَعْنَى الْحُثْمِ]
٥٥	[دُحِيتِ الْأَرْضُ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ]	٤٠	[إِغْرَابُ غِشَاوَةٍ وَمَعْنَاهَا]

- ٥٥ [اسْتِخْلَافَ آدَمَ وَبَنِيهِ لِلْمَلَائِكَةِ وَمَا قَالُوهُ]
- ٥٦ [وُجُوبُ نَصَبِ الْخَلِيفَةِ، وَبَعْضُ مَسَائِلِ الْخِلَافَةِ]
- ٥٦ [فَضْلُ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ]
- ٥٧ [إِظْهَارُ فَضْلِ آدَمَ بِعِلْمِهِ]
- ٥٨ [تَكْرِيمُ آدَمَ بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ]
- ٥٨ [دُخُولُ إِبْلِيسَ فِيمَنْ أَمَرَ بِالسُّجُودِ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ]
- ٥٨ [كَانَتْ الطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالسَّجْدَةُ لِآدَمَ]
- ٥٨ [اسْتِكْبَارُ إِبْلِيسَ]
- ٥٨ [تَكْرِيمُ آخَرٍ لِآدَمَ]
- ٥٨ [خُلِقَتْ حَوَاءُ قَبْلَ دُخُولِ آدَمَ الْجَنَّةِ]
- ٥٩ [إِخْتِيَارُ آدَمَ بِالشَّجَرَةِ وَنَوْعُهَا]
- ٥٩ [بَعْضُ صِفَاتِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٥٩ [لَبَثَ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ وَهَبُوطُهُ مِنْهَا]
- ٦٠ [شُبُهَةٌ وَجَوَابُهَا]
- ٦٠ [تَوْبَةُ آدَمَ وَدَعَاؤُهُ]
- ٦١ [حَضُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ]
- ٦١ [إِسْرَائِيلَ لَقَبُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٦١ [نِعَمَ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ]
- ٦١ [تَذْكِيرُ الْيَهُودِ بِعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ]
- ٦٢ [الْقَهْرُ عَنْ لَيْسَ الْحَقِّ وَكَيْفَانِهِ]
- ٦٣ [إِلَا شَيْعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ]
- ٦٤ [تَذْكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِتَفْضِيلِهِمْ عَلَى الْأُمَمِ]
- ٦٤ [أُمَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ]
- ٦٥ [لَا يُقْبَلُ مِنَ الْكُفَّارِ شَفَاعَةٌ وَلَا فِدَاءٌ، وَلَا يُنْصَرُونَ]
- ٦٦ [تَنْجِيَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَإِعْرَاقُ آلِ فِرْعَوْنَ]
- ٦٦ [صَوْمُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ]
- ٦٧ [إِتِّخَاذُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِجْلِ]
- ٦٧ [تَوْبَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ]
- ٦٧ [طَلَبُ خِيَارِهِمْ رُؤْيَةَ اللَّهِ وَإِمَاتَتَهُمْ وَإِحْيَاؤَهُمْ]
- ٦٨ [تَظْلِيلُهُمْ بِالْعِغَامِ وَإِنْزَالُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ]
- ٦٩ [فَضِيلَةُ صَحَابَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى سَائِرِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ]
- ٦٩ [تَعَنَّتِ الْيَهُودُ بَعْدَ الْفَتْحِ بَدَلًا مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى]
- ٧١ [إِنْجَارُ اثْنَيْ عَشَرَ عَيْنًا]
- ٧١ [طَلَبُهُمُ الطَّعَامَ الدَّيْنِيَّ بَدَلَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى]
- ٧٢ [خَضْبُ الدَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ عَلَى الْيَهُودِ]
- ٧٢ [تَعْرِيفُ الْكِبَرِ]
- ٧٢ [إِلَايْمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ مَدَارُ النَّجَاةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ]
- ٧٣ [تَعْرِيفُ الْمُؤْمِنِ]
- ٧٣ [وَجْهُ تَسْوِيَةِ الْيَهُودِ]
- ٧٣ [وَجْهُ تَسْوِيَةِ النَّصَارَى]
- ٧٣ [الْمُؤْمِنُونَ]
- ٧٣ [الْصَّابِقُونَ]
- ٧٤ [أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ الْيَهُودِ مَعَ رَفْعِ الطُّورِ عَلَيْهِمْ وَتَوَلَّيَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ]
- ٧٤ [إِعْتِدَاؤُهُمْ فِي السَّبَبِ وَمَسْحُهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ]
- ٧٤ [الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ الْمَوْجُودَةُ لَيْسَتْ مِنْ نَسْلِ الْمَسْمُوحَةِ]
- ٧٥ [قِصَّةُ مَقْتُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْبَقَرَةَ]
- ٧٦ [تَعَنُّتُهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنِ الْبَقَرَةِ وَتَضْيِيقِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]
- ٧٦ [إِحْيَاءُ الْمَقْتُولِ وَتَعْيِينُ الْقَاتِلِ]
- ٧٧ [بَيَانُ قَسْوَةِ قُلُوبِ الْيَهُودِ]
- ٧٧ [وُجُودُ قُوَّةِ الْإِذْرَاكِ فِي الْجِمَادَاتِ]
- ٧٨ [قَطْعُ الطَّمَعِ فِي إِيْمَانِ يَهُودَ زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ]
- ٧٩ [الْيَهُودُ كَانُوا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا يُؤْمِنُونَ]
- ٧٩ [مَعْنَى الْأُمِّيِّ]
- ٧٩ [تَفْسِيرُ الْأَمَانِيِّ]
- ٨٠ [وَيْلٌ لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الْمُحَرِّفِينَ]
- ٨٠ [مِنْ أَمَانِيِّ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ لَا يَمُكُونُ فِي النَّارِ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً]
- ٨١ [مُحَرَّرَاتُ الذُّنُوبِ إِذَا اجْتَمَعْنَ يُهْلِكْنَ]
- ٨١ [مِيثَاقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ]
- ٨٢ [بُؤْدُ الْمِيثَاقِ، وَنَقْضُهُمْ لَهُ]
- ٨٣ [اسْتِكْبَارُ الْيَهُودِ وَتَكْذِيبُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَقَتْلُهُمْ إِيَّاهُمْ]
- ٨٤ [رُوحُ الْقُدْسِ هُوَ جِبْرِيلُ]
- ٨٤ [اسْتِمْرَارُ الْيَهُودِ فِي مُحَاوَلَةِ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ]
- ٨٥ [كَانَتْ الْيَهُودُ تَنْتَظِرُ بَعْثَةَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَعُثَ كَفَرُوا بِهِ]
- ٨٦ [إِدْعَاءُ الْيَهُودِ الْإِيْمَانِ مَعَ كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ]

- ١٠٥ [مَا هِيَ كَلِمَاتُ الْإِنْبَاءِ؟]
- ١٠٦ [عَهْدُ اللَّهِ لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ]
- ١٠٦ [فَضْلُ بَيْتِ اللَّهِ]
- ١٠٧ [مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ]
- ١٠٨ [الْأَمْرُ بِتَطْهِيرِ بَيْتِ اللَّهِ]
- ١٠٨ [تَحْرِيمُ مَكَّةَ]
- ١٠٩ [دُعَاءُ الْخَلِيلِ لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ]
- ١١٠ [بِنَاءُ الْكَعْبَةِ وَالدُّعَاءُ بِقَبُولِ ذَلِكَ الْعَمَلِ]
- ذِكْرُ بِنَاءِ قُرَيْشِ الْكَعْبَةِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ سِنِينَ
- [الْتِزَاعُ فِي وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَفَضَاءِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ الْقَضَاءِ الْعَادِلِ]
- ١١٢ [بِنَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ الْكَعْبَةَ عَلَى مَا كَانَ يُرِيدُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ]
- ١١٣ [حَبْسِيٌّ يَهْدُمُ الْكَعْبَةَ قُرْبَ الْقِيَامَةِ]
- ١١٤ [دُعَاءُ الْخَلِيلِ]
- ١١٥ [تَفْسِيرُ الْمَنَاسِكَ]
- ١١٥ [دُعَاءُ الْخَلِيلِ بِبَعَثَةِ النَّبِيِّ ﷺ]
- ١١٥ [تَفْسِيرُ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ]
- ١١٦ [مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ، لَا يَرْغَبُ عَنْهَا إِلَّا السَّيْفِيَّةُ]
- ١١٦ [وُجُوبُ الْإِلْتِزَامِ بِالتَّوْحِيدِ حَتَّى الْمَمَاتِ]
- ١١٧ [عَهْدُ يَعْقُوبَ لِبَنِيهِ عِنْدَ الْمَوْتِ]
- الْمُسْلِمُ يُؤْمِنُ بِجَمِيعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ نَبِيِّ وَنَبِيٍّ]
- ١١٨ [تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ]
- ١٢٠ [فَضْلُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ]
- ١٢١ [مِنْ حِكْمَةِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ]
- ١٢٢ [هَلِ الْقِبْلَةُ عَيْنُ الْكَعْبَةِ أَمْ جِهَةُ الْكَعْبَةِ؟]
- ١٢٣ [مَسْأَلَةُ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ كَانَتْ مَعْلُومَةً عِنْدَ الْيَهُودِ]
- ١٢٣ [مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَيْفَانَهُمُ الْحَقُّ]
- ١٢٤ [لِكُلِّ أُمَّةٍ قِبْلَةٌ]
- ١٢٤ [لِمَذَا تَكَرَّرَ ذِكْرُ نَسْخِ الْقِبْلَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟]
- ١٢٤ [حِكْمَةُ نَسْخِ الْقِبْلَةِ]
- بِعَنْتِهِ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ تُوجِبُ ذِكْرَ اللَّهِ

- [عِصْيَانُ الْيَهُودِ بَعْدَ أَخْذِ مِيثَاقِهِمْ وَرُؤْيِيهِمُ الطُّورَ فَوْقَ رُؤْسِهِمْ]
- ٨٦ [دَعْوَةُ الْيَهُودِ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ]
- ٨٧ [جِرْصُهُمْ عَلَى طَوْلِ الْعُمَرِ]
- ٨٨ [عَدَاوَةُ الْيَهُودِ لِيَجْرِيَل]
- ٨٨ [الْتَفْرِيقُ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ كَالْتَفْرِيقِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ]
- ٩٠ [دَلَائِلُ ثُبُوتِ مُحَمَّدٍ ﷺ]
- ٩٠ [نَقْضُ الْعُهُودِ مِنْ عَادَةِ الْيَهُودِ]
- ٩٠ [الْيَهُودُ طَرَحُوا كِتَابَ اللَّهِ وَأَقْبَلُوا عَلَى السَّحْرِ]
- ٩١ [كَانَ السَّحَرُ قَبْلَ عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ٩١ [قِصَّةُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَتَفْسِيرُ الْمَلَكَيْنِ]
- ٩٢ [تَعْلَمُ السَّحَرُ كُفْرًا]
- ٩٢ [مِنْ السَّحْرِ مَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ]
- ٩٣ [قَضَاءُ اللَّهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ]
- ٩٣ [الْأَدَبُ فِي اخْتِيَارِ الْكَلِمَاتِ]
- ٩٤ [شِدَّةُ عَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ لِلْمُسْلِمِينَ]
- ٩٤ [الْتَسَخُّ وَتَعْرِيفُهُ]
- [بَيَانُ صِحَّةِ التَّسَخُّ وَالرَّدُّ عَلَى الْيَهُودِ فِي اسْتِحَالَتِهِمْ ذَلِكَ]
- ٩٥ [الْتَهْيُ عَنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ]
- ٩٦ [الْتَهْيُ عَنْ سُؤْلِكَ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ٩٧ [الْتَرْتِيبُ فِي الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ]
- ٩٨ [أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ٩٩ [تَنَازُعُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِيمَا بَيْنَهُمْ كُفْرًا وَعِنَادًا]
- ٩٩ [ظُلْمٌ مَنْ مَنَعَ عَنِ الْمَسَاجِدِ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا]
- ١٠٠ [بِشَارَةُ بَعَثَةِ الْإِسْلَامِ]
- ١٠٠ [اسْتِثْقَالُ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَوَاتِ]
- ١٠١ [قِبْلَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ]
- ١٠١ [الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ وَلَدًا]
- ١٠٢ [كُلُّ شَيْءٍ خَاصٌّ وَقَائِتُ اللَّهِ تَعَالَى]
- ١٠٢ [مَعْنَى الْبَدِيعِ]
- ١٠٣ [أَوْصَافُهُ ﷺ فِي التَّوَرَةِ]
- ١٠٤ [مَعْنَى الثَّلَاوَةِ الْحَقَّةِ]
- ١٠٥ [ذِكْرُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَتَوَلِّيَتِهِ إِمَامَةً النَّاسِ]

- وَشَكَرَهُ [١٢٥]
- فَضْلُ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ [١٢٥]
- حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ [١٢٦]
- يُنْتَلَى الْمُؤْمِنُ فَيَصْبِرُ وَيُؤْجِرُ [١٢٦]
- فَضْلُ الْإِسْتِزْجَاعِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ [١٢٧]
- مَعْنَى نَفْيِ الْجُنَاحِ فِي الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ [١٢٧]
- حُكْمُ السَّعْيِ وَأَصْلُهُ [١٢٧]
- الْلَّعْنُ الدَّائِمُ لِمَنْ كَتَمَ الْأَحْكَامَ الدِّيْنِيَّةَ [١٢٨]
- جَوَازُ لَعْنِ الْكَفَرَةِ [١٢٩]
- ذَلَالَةُ التَّوْحِيدِ [١٢٩]
- أَحْوَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَبَرُّؤُ الْمُتَّبِعِينَ مِنْ تَابِعِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [١٣٠]
- الْأَمْرُ بِأَكْلِ الْحَلَالِ، وَالنَّهْيُ عَنِ اتِّبَاعِ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ [١٣١]
- الْمُشْرِكُ مُقْلَدٌ [١٣٢]
- مَثَلُ الْمُشْرِكِ مَثَلُ الْحَيَوَانِ [١٣٢]
- الْأَمْرُ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، وَبَيَانُ الْمُحَرَّمَاتِ [١٣٢]
- إِبَاحَةُ الْحَرَامِ لِلْمُضْطَرِّ [١٣٣]
- ذَمُّ الْيَهُودِ عَلَى كَيْفَانِهِمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ [١٣٤]
- جَامِعُ الْبِرِّ [١٣٥]
- الْأَمْرُ بِالْفَصَاصِ، وَبَيَانُ مَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ [١٣٦]
- لَوْلِي الدِّمِ إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ [١٣٧]
- فَائِدَةُ الْفَصَاصِ وَحِكْمَتُهُ [١٣٧]
- الْأَمْرُ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، ثُمَّ نَسْخُهَا فِي حَقِّ الْوَرَثَةِ [١٣٨]
- الْوَصِيَّةُ لِقَرِيبٍ لَا يَرِثُ [١٣٨]
- الْوَصِيَّةُ بِالْمَعْرُوفِ [١٣٨]
- فَضْلُ الْعَدْلِ فِي الْوَصِيَّةِ [١٣٩]
- الْأَمْرُ بِالصَّوْمِ [١٣٩]
- فَيْدَةُ الصِّيَامِ لِلْعَجْزَةِ وَكِبِيرِي السِّنِّ [١٤٠]
- فَضْلُ رَمَضَانَ وَنَزُولُ الْقُرْآنِ فِيهِ [١٤٠]
- فَضْلُ الْقُرْآنِ [١٤٠]
- إِيجَابُ صَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ [١٤٠]
- مَسَائِلُ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ [١٤٠]
- الْأَيْسَرُ ذَوْنُ الْعُسْرِ [١٤١]
- ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى إِتِمَامِ الْعِبَادَةِ [١٤١]
- اللَّهُ يَسْمَعُ دُعَاءَ عِبَادِهِ [١٤١]
- الدُّعَاءُ يُقْبَلُ وَلَا يَضِيعُ [١٤٢]
- ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ [١٤٢]
- إِلْذَنْ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ فِي لَيْلِي رَمَضَانَ [١٤٢]
- أَجْرُ وَقْتِ السُّحُورِ [١٤٣]
- إِسْتِحْبَابُ السُّحُورِ وَبَيَانُ وَقْتِهِ [١٤٤]
- مَنْ أَصْبَحَ جُنُبًا فَلَا حَرَجَ فِي صِيَامِهِ [١٤٤]
- الصِّيَامُ يَنْتَهِي بِدُخُولِ اللَّيْلِ فَيُسْرِعُ الْإِفْطَارُ عَلَى الْفُورِ [١٤٤]
- النَّهْيُ عَنِ صَوْمِ الرِّصَالِ [١٤٥]
- أَحْكَامُ الْإِغْتِكَافِ [١٤٥]
- الرَّشْوَةُ حَرَامٌ [١٤٦]
- قَضَاءُ الْقَاضِي لَا يُحِلُّ حَرَامًا وَلَا يُحَرِّمُ حَلَالًا [١٤٦]
- السُّؤَالُ عَنِ الْأَهْلَةِ [١٤٦]
- مَدَارُ الْبِرِّ عَلَى الثَّقْوَى [١٤٧]
- الْأَمْرُ بِقِتَالِ مَنْ يُقَاتِلُ، وَيَقْتُلُهُ حَيْثُ وَجَدَ [١٤٧]
- النَّهْيُ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ كَالْمُنْتَلَةِ وَالْعُلُولِ [١٤٧]
- الشَّرْكُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ [١٤٨]
- حُرْمَةُ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ، وَجَوَازُ دَفْعِ الصَّائِلِ [١٤٨]
- الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً [١٤٨]
- حُرْمَةُ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ إِلَّا إِذَا بَدَأَ الْعَدُوُّ بِالْقِتَالِ فِيهَا [١٤٩]
- الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [١٥٠]
- الْأَمْرُ بِإِتِمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ [١٥٠]
- إِذَا أُخْصِرَ الْمُحْرِمُ فِي الطَّرِيقِ فَلْيَذْبَحْ وَلْيَحْلِقْ رَأْسَهُ وَيَتَحَلَّلْ [١٥١]
- مَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ مُحْرِمًا وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْفِدْيَةُ [١٥٢]
- بَيَانُ التَّمَتُّعِ فِي الْحَجِّ [١٥٢]
- إِذَا لَمْ يَجِدِ التَّمَتُّعَ الْهَدْيَ فَلْيَصُمْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ [١٥٣]
- لَا يَتَمَتَّعُ أَهْلُ مَكَّةَ [١٥٤]
- مَتَى يُحْرَمُ لِلْحَجِّ؟ [١٥٤]
- أَشْهُرُ الْحَجِّ [١٥٤]
- النَّهْيُ عَنِ الرَّفَثِ فِي الْحَجِّ [١٥٥]

- ١٥٥ [النَّهْيُ عَنِ الْمُسْقُوفِ فِي الْحَجِّ]
- ١٥٥ [النَّهْيُ عَنِ الْجِدَالِ فِي الْحَجِّ]
- ١٥٥ [التَّرْغِيبُ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَأَخْذُ الزَّادِ فِي الْحَجِّ]
- ١٥٦ [زَادُ سَفَرِ الْآخِرَةِ]
- ١٥٦ [التَّجَارَةُ فِي الْحَجِّ]
- ١٥٦ [الْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ]
- ١٥٧ [وَقْتُ الْإِفَاضَةِ مِنْ عَرَفَاتٍ وَمَزْدَلِفَةَ]
- ١٥٧ [الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ]
- ١٥٧ [الْأَمْرُ بِالْتِزَامِ الْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَالْإِفَاضَةَ مِنْهَا: لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يَقِفُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ]
- ١٥٧ [الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَارِ وَبَعْضُ أَدْعِيَةِ الْإِسْتِغْفَارِ]
- ١٥٨ [الْأَمْرُ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَطَلَبِ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بَعْدَ قَضَاءِ الشُّكِّ]
- ١٦٠ [الذِّكْرُ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلِ وَشُرْبِ]
- ١٦٠ [بَيَانُ الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ]
- ١٦٠ [بَيَانُ أَحْوَالِ الْمَنَافِقِينَ]
- ١٦١ [مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِ رَدُّ النَّصِيحَةِ]
- ١٦١ [مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ إِثَارُ مَرْضَاةِ اللَّهِ]
- ١٦٢ [وُجُوبُ الْأَخْذِ بِالْإِسْلَامِ كَامِلًا]
- ١٦٢ [الْحَثُّ عَلَى عَدَمِ التَّأَخِيرِ فِي الْإِيمَانِ]
- ١٦٣ [عِقَابُ تَبْدِيلِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]
- ١٦٣ [الْأَخْتِلَافُ بَعْدَ مَجِيءِ الْعِلْمِ دَلِيلٌ عَلَى الْبَغْيِ وَالضَّلَالِ]
- ١٦٣ [لَا يَحْصُلُ النَّصْرُ وَدُخُولُ الْجَنَّةِ إِلَّا بَعْدَ الْإِخْتِيَارِ وَالتَّمْيِيزِ]
- ١٦٨ [التَّدْرِجُ فِي تَحْرِيمِ الْخَمْرِ]
- ١٦٩ [الْأَمْرُ بِإِنْفَاقِ مَا فَضَّلَ مِنَ الْمَالِ]
- ١٦٩ [إِصْلَاحُ أَمْوَالِ الْيَتَامَى]
- ١٦٩ [تَحْرِيمُ نِكَاحِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ]
- ١٧٠ [الْأَمْرُ بِاغْتِرَالِ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ]
- ١٧١ [تَحْرِيمُ الْوُطْءِ فِي الدُّبْرِ]
- ١٧٣ [النَّهْيُ عَنِ الْيَمِينِ بِتَرْكِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ]
- ١٧٣ [لَعْنُ الْيَمِينِ]
- ١٧٤ [الْإِيلَاءُ وَحُكْمُهُ]
- ١٧٤ [بَيَانُ عِدَّةِ الْمُطَلَّغَةِ]
- ١٧٥ [مَعْنَى الْفَرْءِ]
- ١٧٥ [يُقْبَلُ كَلَامُ النِّسَاءِ فِي الْحَيْضِ وَالطَّهْرِ]
- ١٧٥ [الزَّوْجُ أَحَقُّ بِالرَّجْعَةِ]
- ١٧٥ [أَحْصَاءُ الزَّوْجَيْنِ]
- ١٧٥ [فَضْلُ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ]
- ١٧٦ [قَصْرُ الطَّلَاقِ عَلَى الثَّلَاثِ، وَبَيَانُ الرَّجْعِيَّةِ وَالْبَائِنَةِ]
- ١٧٦ [النَّهْيُ عَنِ اسْتِزْجَاعِ الْمَهْرِ]
- ١٧٦ [الْإِلْذَنُ بِالْخُلْعِ وَاسْتِزْجَاعِ الْمَهْرِ فِيهِ]
- ١٧٧ [عِدَّةُ الْمُخْتَلَعَةِ]
- ١٧٧ [إِعْغَاءُ حُدُودِ اللَّهِ ظُلْمٌ]
- ١٧٧ [الطَّلَاقُ الثَّلَاثُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ حَرَامٌ]
- ١٧٧ [لَا رَجْعَةَ بَعْدَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ]
- ١٧٨ [اللَّعْنَةُ عَلَى الْمُحْلِلِ وَالْمُحْلَلِ لَهُ]
- ١٧٨ [مَتَى تَحِلُّ الْمُطَلَّغَةُ ثَلَاثًا لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ]
- ١٧٨ [الْأَمْرُ بِحُسْنِ الْمَعَامَلَةِ مَعَ الْمُطَلَّغَةِ]
- ١٧٩ [نَهْيُ الزَّوْجِيِّ عَنْ مَنَعِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَنْكِحَ زَوْجَهَا الْمُطْلُوقَ]
- ١٧٩ [لَا يَنْكَاحُ إِلَّا بَوْلِي]
- ١٧٩ [سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ]
- ١٧٩ [لَا رِضَاعَةَ إِلَّا فِي مُدَّةِ الرِّضَاعَةِ]
- ١٨٠ [رِضَاعَةُ الْكَبِيرِ]
- ١٨٠ [أُجْرَةُ الرِّضَاعَةِ]
- ١٨٠ [لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ]
- ١٨٠ [الْفِطَامُ عَنْ تَرْضَائِ مِنْهُمَا]
- ١٨١ [عِدَّةُ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا]
- ١٨٢ [حُكْمُهُ هَذِهِ الْعِدَّةُ]
- ١٨٢ [عِدَّةُ أُمِّ الْوَلَدِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا سَيِّدُهَا]
- ١٨٢ [وُجُوبُ الْإِحْدَادِ فِي هَذِهِ الْعِدَّةِ]
- ١٨٢ [إِبَاحَةُ التَّعْرِيصِ بِالْخُطْبَةِ فِي الْعِدَّةِ، وَالنَّهْيُ عَنِ النِّكَاحِ فِيهَا]
- ١٨٣ [الطَّلَاقُ قَبْلَ الدُّخُولِ]
- ١٨٣ [مُنْعَةُ الطَّلَاقِ]
- ١٨٤ [لِلْمَرْأَةِ نِصْفُ الْمَهْرِ إِذَا طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ]
- ١٨٥ [الْصَّلَاةُ الْوُسْطَى]

- ١٨٥ [أَلْتَهِيَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ]
- ١٨٦ [صَلَاةُ الْخَوْفِ]
- ١٨٦ [أَلْأَمْرُ بِإِنْتِمَاءِ الصَّلَاةِ فِي حَالَةِ الْأَمْنِ]
- ١٨٦ [تَسْخُ هَذِهِ الْآيَةِ]
- ١٨٧ [وَأُجُوبُ مُتَعَةَ الطَّلَاقِ]
- ١٨٨ [قِصَّةُ هَؤُلَاءِ الْأَمْوَاتِ]
- ١٨٨ [أَلْفِرَارُ مِنَ الْجِهَادِ لَا يَقْرُبُ الْأَجَلَ وَلَا يُبْعِدُهُ]
- ١٨٩ [أَلْقَرَضُ الْحَسَنُ وَتَوَاتُهُ]
- ١٨٩ [قِصَّةُ الْيَهُودِ فِي طَلَبِهِمُ الْمَلِكَ وَالْقِتَالَ مَعَهُ، وَاسْتِقَامَةُ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ وَانْتِصَارُهُمْ]
- ١٩٢ [تَقْضِيلُ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ]
- ١٩٣ [فَضْلُ آيَةِ الْكُرْسِيِّ]
- ١٩٤ [إِسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ]
- ١٩٤ [وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عَشْرِ جُمَلٍ مُسْتَفْلَةٍ]
- ١٩٥ [لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ]
- ١٩٥ [التَّوْحِيدُ هُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى]
- ١٩٧ [مُنَاطَرَةُ خَلِيلِ اللَّهِ مَعَ نُمُرُودَ]
- ١٩٨ [قِصَّةُ عُزَيْرٍ]
- ١٩٩ [طَلَبُ خَلِيلِ اللَّهِ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى]
- ١٩٩ [جَوَابُ طَلَبِ الْخَلِيلِ]
- ١٩٩ [جَزَاءُ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]
- ٢٠٠ [النَّهْيُ عَنِ إِتْبَاعِ الصَّدَقَاتِ الْمَنِّ وَالْأَدَى]
- ٢٠١ [مِثَالُ ضِيَاعِ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ]
- ٢٠٢ [تَرْغِيبُ إِنْفَاقِ الْمَالِ الطَّيِّبِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]
- ٢٠٣ [الْوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِيَّةُ فِي الْإِنْفَاقِ]
- ٢٠٣ [مَعْنَى الْحِكْمَةِ]
- ٢٠٤ [فَضْلُ إِظْهَارِ الصَّدَقَةِ وَإِخْفَائِهَا]
- ٢٠٤ [الصَّدَقَةُ لِلْمُشْرِكِينَ]
- ٢٠٥ [مَنْ أَحَقُّ بِالصَّدَقَةِ]
- ٢٠٥ [مَذْحُ الْمُتَصَدِّقِينَ]
- ٢٠٦ [ذَمُّ أَكْلَةِ الرِّبَا]
- ٢٠٧ [لَا يُبَارَكُ فِي الرِّبَا]
- ٢٠٧ [إِنَّ اللَّهَ يُرِي الصَّدَقَاتِ كَمَا يُرِي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ]
- ٢٠٨ [الْكَافِرُ الْأَيْمُ مُبْعَضٌ عِنْدَ اللَّهِ]
- ٢٠٨ [مَذْحُ الشَّاكِرِينَ]
- ٢٠٨ [أَلْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَاجْتِنَابِ الرِّبَا]
- ٢٠٨ [أَكُلِ الرِّبَا إِغْلَانًا عَنِ الْحَرْبِ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]
- ٢٠٨ [الإِخْسَانُ إِلَى الْمُعْسِرِ]
- ٢١٠ [أَلْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْمُعَامَلَاتِ الْمُؤَجَّلَةِ]
- ٢١٠ [أَلْأَمْرُ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ]
- ٢١٢ [بَيَانُ الرَّهْنِ]
- ٢١٢ [هَلْ يُحَاسَبُ الْعِبَادُ عَلَى مَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ]
- ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي فَضْلِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ
- ٢١٣ [الْكُرَيْمَتَيْنِ نَفَعَنَا اللَّهُ بِهِمَا]
- ٢١٤ [تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ]
- ٢١٥ [تفسير سورة آل عمران وهي مدنيّة]
- ٢١٦ [بَيَانُ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَالْمُحْكَمَاتِ]
- ٢١٧ [لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهَاتِ إِلَّا اللَّهُ]
- ٢١٨ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ]
- [تَهْدِيدُ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ سَيُعْلَبُونَ، وَحَثُّهُمْ عَلَى الْإِغْتِيَارِ]
- ٢١٨ [يَوْمَ بَدْرٍ]
- ٢١٩ [بَيَانُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]
- ٢٢٠ [جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا]
- ٢٢١ [دُعَاءُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمْ]
- ٢٢١ [شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ]
- ٢٢١ [الدِّينُ هُوَ الْإِسْلَامُ]
- [الإِسْلَامُ دِينُ النَّاسِ كَافَّةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا]
- ٢٢٢ [ذَمُّ الْيَهُودِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ]
- ٢٢٣ [ذَمُّ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى عَدَمِ تَحْكِيمِهِمْ كِتَابَ اللَّهِ]
- ٢٢٣ [الإِزْهَادُ إِلَى الشُّكْرِ]
- ٢٢٤ [النَّهْيُ عَنِ مَوَالَاةِ الْمُشْرِكِينَ]
- [اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ، وَيُخْضِرُ كُلَّ أَعْمَالٍ الْعَبْدَ]
- ٢٢٥ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٢٢٥ [حُبُّ اللَّهِ فِي اتِّبَاعِ الرُّسُولِ]
- ٢٢٥ [الْمُصْطَفَوْنَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ]
- ٢٢٦ [قِصَّةُ وَلَادَةِ مَرْيَمَ]
- ٢٢٦ [نُشْوءُ مَرْيَمَ وَكَرَامَتُهَا عَلَى اللَّهِ]

- [تَعْنِيفُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَصَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ  
الله] ٢٢٦
- [تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ طَاعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ] ٢٤٧
- [مَا هُوَ حَقُّ تَقَاةِ اللهِ؟] ٢٤٧
- [الْأَمْرُ بِالْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللهِ وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ] ٢٤٨
- [الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالذَّعْوَةِ إِلَى اللهِ] ٢٤٨
- [النَّهْيُ عَنِ التَّفَرُّقَةِ] ٢٤٩
- [تَمَرَّتْ الْأَلْفَةُ وَالْفَرْقَةُ يَوْمَ الْحَشْرِ] ٢٤٩
- [فَضْلُ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَكَوْنُهَا خَيْرَ أُمَّةٍ] ٢٥٠
- [نَوْعٌ آخَرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ  
وَشَرَفِهَا وَكَرَامَتِهَا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهَا خَيْرُ  
الْأُمَمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] ٢٥٠
- [الْإِشَارَةُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ] ٢٥١
- [فَضْلٌ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ] ٢٥٢
- [بَيَانٌ مِثْلُ مَا يُنْفِقُهُ الْكُفَّارُ] ٢٥٢
- [النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِطَانَةً] ٢٥٣
- [بَيَانٌ غَزْوَةِ أُحُدٍ] ٢٥٤
- [التَّذْكِيرُ بِنَصْرِ اللهِ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ فَلَّةِ الْعَدُوِّ وَالْعُدُوِّ] ٢٥٥
- [النَّصْرُ بِالْمَلَائِكَةِ] ٢٥٥
- [حُرْمَةُ الرِّبَا عَلَى الْإِطْلَاقِ] ٢٥٧
- [التَّنْبِيْهُ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَحُصُولِ الْجَنَّةِ] ٢٥٨
- [بَيَانٌ حِكْمَةِ مَا أَصَابُوا بِهِ يَوْمَ أُحُدٍ] ٢٥٩
- [ذِكْرُ إِشَاعَةِ مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَبَيَانُ  
الْمَوْفِقِ الصَّحِيحِ فِي حَالَةِ مَوْتِهِ] ٢٦١
- [النَّهْيُ عَنْ طَاعَةِ الْكُفَّارِ، وَبَيَانُ أَسْبَابِ مَا حَصَلَ فِي  
أُحُدٍ مِنَ النَّصْرِ وَالْهَرِيمَةِ] ٢٦٢
- [ذِكْرُ مَا أَصَابَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْهَرِيمَةِ] ٢٦٤
- [دِفَاعُ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ] ٢٦٤
- [إِنْزَالُ الْأَمْنَةِ، وَهِيَ النَّعَاسُ أَثْنَاءَ الْغَزْوَةِ، عَلَى  
الْمُؤْمِنِينَ، وَذِكْرُ هَلَاكِ الْمُنَافِقِينَ] ٢٦٥
- [ذِكْرُ تَوَلَّى بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ وَبَيَانُ الْعَفْوِ عَنْهُمْ] ٢٦٦
- [النَّهْيُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي تَغْلِيْقِ الْمَوْتِ وَأُمُورِ الْقَدْرِ  
بِغَيْرِ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى] ٢٦٦
- [مِنْ صِفَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الرَّحْمَةُ وَاللِّينُ] ٢٦٧
- [دُعَاءُ زَكْرِيَّا وَتَبَشِيرُهُ بِيَحْيَى] ٢٢٧
- [فَضْلُ مَرْيَمَ عَلَى نِسَاءِ عَصْرِهَا] ٢٢٨
- [تَبَشِيرُ مَرْيَمَ الصَّدِيقَةِ بِعِيسَى] ٢٢٩
- [كَلَامُ عِيسَى فِي الْمَهْدِ] ٢٢٩
- [خَلَقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبِي] ٢٢٩
- [صِفَاتُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُعْجَزَاتُهُ وَدَعْوَتُهُ] ٢٣٠
- [نُصْرَةُ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ] ٢٣١
- [هَمُّ الْيَهُودِ بِقَتْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ] ٢٣١
- [مَعْنَى مُتَوَفِّكٍ] ٢٣٢
- [التَّحْرِيفُ فِي دِينِ الْمَسِيحِ] ٢٣٢
- [تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] ٢٣٣
- [الْمُسَامَلَةُ فِي خَلْقِ آدَمَ وَعِيسَى] ٢٣٣
- [الدَّعْوَةُ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ] ٢٣٣
- [مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ] ٢٣٥
- [مُحَاجَّةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ] ٢٣٦
- [حَسَدُ الْيَهُودِ لِلْمُسْلِمِينَ وَكَيْدُهُمْ] ٢٣٧
- [بَيَانُ حَالِ أَمَانَةِ الْيَهُودِ] ٢٣٧
- [لَا نَصِيبَ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ خَالَفَ الْعَهْدَ] ٢٣٨
- [تَحْرِيفُ الْيَهُودِ لِكَلَامِ اللهِ بِلَيِّ الْأَلْسُنِ] ٢٣٩
- [النَّبِيُّ لَا يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَلَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ] ٢٣٩
- [أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] ٢٤٠
- [الَّذِينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَلَا يَقْبَلُ غَيْرُهُ] ٢٤١
- [لَا يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ تَابَ] ٢٤١
- [لَا تَقْبَلُ تَوْبَةُ الْكَافِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا فِذْيَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ٢٤٢
- [الْإِنْفَاقُ مِنْ أَحَبِّ الْأَمْوَالِ مِنَ الْبِرِّ] ٢٤٢
- [أَسْئَلَةُ الْيَهُودِ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] ٢٤٣
- [الْكُتْبَةُ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضِعَ لِلْعِبَادَةِ] ٢٤٤
- [وَجْهٌ تَسْمِيَةٌ بَكَّةً، وَأَسْمَاءُ مَكَّةَ] ٢٤٥
- [مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ] ٢٤٥
- [الْحَرَمُ مَقَامٌ أَمِنٌ] ٢٤٥
- [بَيَانُ وَجُوبِ الْحُجِّ] ٢٤٦
- [مَعْنَى الْأَشْطِطَاعَةِ] ٢٤٦
- [مُنْكَرُ الْحُجِّ كَافِرٌ] ٢٤٦



[جَوَازُ الْأَكْلِ لِلْفُقَرَاءِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِقَدْرِ قِيَامِهِمْ عَلَيْهِ] ٢٨٧  
[الْأَمْرُ بِالتَّوَرِثِ وَالرَّضْخِ لِحَاضِرِي الْقِسْمَةِ مِنْ غَيْرِ  
الْوَرَقَةِ] ٢٨٨  
[الْعَدْلُ فِي الْوَصِيَّةِ] ٢٨٨  
[الْوَعْدُ لِمَنْ أَكَلَ مَالَ الْيَتِيمِ] ٢٨٨  
[الْأَمْرُ بِالْمَوَارِيثِ وَالْحَضُّ عَلَى تَعْلِيمِهَا] ٢٨٩  
[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ] ٢٨٩  
[الْأَوْلَادُ يَرِثُونَ بِحِسَابِ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ] ٢٨٩  
[مِيرَاثُ الْبَنَاتِ إِذَا انفردن] ٢٩٠  
[مِيرَاثُ الْوَالِدَيْنِ] ٢٩٠  
[تَقْدِيمُ الذَّيْنِ ثُمَّ الْوَصِيَّةِ عَلَى الْمِيرَاثِ] ٢٩٠  
[مِيرَاثُ الرُّوَجَيْنِ] ٢٩١  
[تَعْرِيفُ الْكَلَالَةِ] ٢٩١  
[حُكْمُ أَوْلَادِ الْأُمِّ مِنْ غَيْرِ أَبِيهِ] ٢٩١  
[الْوَعْدُ عَلَى تَعْدِي الْحُدُودِ فِي الْمَوَارِيثِ] ٢٩٢  
[الْأَمْرُ بِحَبْسِ الزَّانِيَةِ فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ نَسْخُ هَذَا الْأَمْرِ] ٢٩٢  
[قَوْلُ تَوْبَةِ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ] ٢٩٣  
[مَعْنَى إِرْثِ النِّسَاءِ كَرَهَا] ٢٩٤  
[الْهَيْ عَنِ الْإِضْرَارِ بِالنِّسَاءِ] ٢٩٤  
[الْأَمْرُ بِحُسْنِ عَشْرَةِ النِّسَاءِ] ٢٩٥  
[الْهَيْ عَنِ اسْتِرْدَادِ الصَّدَاقِ] ٢٩٥  
[تَحْرِيمُ زَوَاجَاتِ الْأَبِ عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَحُكْمُ مَنْ خَالَفَ  
ذَلِكَ] ٢٩٦  
[بَيَانُ الْمُحَرَّمَاتِ الْأَبَدِيَّةِ وَغَيْرِ الْأَبَدِيَّةِ] ٢٩٦  
[قَدْرُ مَا يُحْرَمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَمَدَّتُهَا] ٢٩٧  
[حُرْمَةُ أُمَّهَاتِ الزَّوْجَاتِ وَبَنَاتِهِنَّ] ٢٩٧  
[الرَّبِيبَةُ حَرَامٌ سِوَاءَ كَانَتْ فِي حَجَرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ] ٢٩٧  
[تَفْسِيرُ الدُّخُولِ] ٢٩٨  
[تَحْرِيمُ زَوَاجَاتِ الْأَبْنَاءِ دُونَ زَوَاجَاتِ الْمُتَبَنَّى] ٢٩٨  
[شُبْهَةٌ وَجَوَابُهَا] ٢٩٨  
[تَحْرِيمُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ فِي النِّكَاحِ] ٢٩٨  
[تَحْرِيمُ الْمُحْصَنَاتِ إِلَّا إِذَا صِرْنَ مَلَكَ الْيَمِينِ] ٢٩٨  
[إِحْلَالُ نِكَاحٍ غَيْرٍ مِنْ ذِكْرَانِ] ٢٩٨  
[بَيَانُ مُتْعَةِ النِّسَاءِ وَحُرْمَتِهَا] ٢٩٩

[الْأَمْرُ بِالشُّورَى وَالْعَمَلُ بِهَا] ٢٦٧  
[التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ بَعْدَ الْمَشُورَةِ] ٢٦٨  
[الْعُلُولُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ] ٢٦٨  
[لَيْسَ الْأَمِينُ وَالْعَالُ سَوَاءً] ٢٦٩  
[بِعَثَّةِ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ] ٢٦٩  
[سَبَبُ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَحِكْمَتُهُ] ٢٧٠  
[فَضْلُ الشُّهَدَاءِ] ٢٧١  
[ذِكْرُ غَرَوَةِ حَمَرَاءِ الْأَسَدِ وَفَضْلُ مَنْ شَهِدَهَا] ٢٧٢  
[تَسْلِيَةُ لِلرُّسُولِ ﷺ] ٢٧٤  
[دَمُ الْبُخْلِ وَالْوَعْدُ عَلَيْهِ] ٢٧٤  
[وَعْدُ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ] ٢٧٥  
[كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ] ٢٧٥  
[لِمَنِ الْقُوْرُ ؟] ٢٧٦  
[الْمُؤْمِنُ يُتْلَى وَيَسْمَعُ مِنَ الْعَدُوِّ الْأَذَى] ٢٧٦  
[دَمُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى تَبْدِ الْعُيُودِ وَكِتْمَانِ الْحَقِّ] ٢٧٧  
[دَمُهُمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ وَحُبُّهُمْ أَنْ يُحَمَّدُوا بِمَا لَمْ يَقْعُلُوا] ٢٧٧  
[دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وَصِفَاتُهُمْ وَقَوْلُهُمْ  
وَدَعَاؤُهُمْ] ٢٧٨  
[اسْتِجَابَةُ اللَّهِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ] ٢٨٠  
[التَّحْذِيرُ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِأَهْلِ الدُّنْيَا، وَبَيَانُ مَا لِلصَّالِحِينَ  
مِنَ الْجَزَاءِ] ٢٨٠  
[حَالُ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَجْرُهُمْ] ٢٨١  
[الْأَمْرُ بِالْمُصَابَرَةِ وَالْمُرَابَطَةِ] ٢٨١  
[تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّسَاءِ] ٢٨٣  
[مَدِينَتُهُ، وَبَعْضُ مَا لِهَذِهِ السُّورَةِ مِنْ فَضَائِلَ] ٢٨٣  
[الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالتَّذْكِيرُ بِالْخَلْقِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ] ٢٨٤  
[الْأَمْرُ بِحِفْظِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى] ٢٨٤  
[الْهَيْ عَنِ نِكَاحِ الْيَتِيمَةِ بِصَدَاقِ دُونِ] ٢٨٥  
[قَصْرُ الزَّوْجِ عَلَى أَرْبَعٍ مِنَ النِّسَاءِ] ٢٨٥  
[الْإِكْتِفَاءُ بِالْوَاجِدَةِ عِنْدَ خَشْيَةِ عَدَمِ الْعَدْلِ] ٢٨٥  
[إِعْطَاءُ الصَّدَاقِ وَاجِبٌ] ٢٨٦  
[الْحَجْرُ عَلَى الشُّهَنَاءِ] ٢٨٦  
[الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْمَحْجُورِينَ بِالْمَعْرُوفِ] ٢٨٦  
[الْأَمْرُ بِاخْتِيَارِ الْيَتَامَى، وَدَفْعِ أَمْوَالِهِمْ لَهُمْ عِنْدَ الرُّشْدِ] ٢٨٦

- ٢٩٩ [جَوَارُ نِكَاحِ الْإِمَاءِ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ نِكَاحَ الْحَرَائِرِ] .....  
 ٣٠٠ [عَلَى الْأَمَةِ إِذَا زَنَتْ يَصْفُ عَذَابُ الْحَرَّةِ] .....  
 ٣٠٠ [النَّهْيُ عَنِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ] .....  
 ٣٠١ [خِيَارُ الْمَجْلِسِ فِي الْبَيْعِ مِنْ تَمَامِ التَّرَاضِي فِي التَّجَارَةِ] .....  
 ٣٠١ [النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ وَالْوَعْدُ عَلَيْهِ] .....  
 ٣٠١ [تُكْفَرُ الصَّغَائِرُ إِذَا اجْتَنِبَتْ الْكِبَائِرَ] .....  
 ٣٠٢ [السَّعْيُ الْمُؤَبَّاتِ] .....  
 ٣٠٢ [النَّهْيُ عَنْ تَمَنِّي مَا فَضَلَ بِهِ غَيْرُهُ] .....  
 ٣٠٣ [عَلَامَةُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ] .....  
 ٣٠٣ [الشُّؤُورُ وَعِلَاجُهُ] .....  
 ٣٠٤ [لَا سَبِيلَ عَلَى الْمَرْأَةِ إِذَا أَطَاعَتْ] .....  
 ٣٠٤ [تَحْكِيمُ حَكَمَيْنِ عِنْدَ خَوْفِ الشَّقَاقِ بَيْنَ الرُّوَجَيْنِ] .....  
 ٣٠٤ [الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَغَيْرِهِمْ] .....  
 ٣٠٥ [حَقُّ الْجَارِ] .....  
 ٣٠٦ [الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْمَمْلُوكِ] .....  
 ٣٠٦ [إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ] .....  
 ٣٠٧ [دَمُ الْبُخْلِ] .....  
 ٣٠٨ [لَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ] .....  
 ٣٠٨ [هَلْ يَخَفُ الْعَذَابُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ] .....  
 ٣٠٨ [مَعْنَى الْأَجْرِ الْعَظِيمِ] .....  
 ٣٠٨ [شَهَادَةُ نَبِيِّنا ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَمَنِّي الْكُفَّارِ الْمَوْتَ] .....  
 ٣٠٩ [النَّهْيُ عَنِ اقْتِرَابِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ الشُّكْرِ وَالْجَنَابَةِ] .....  
 ٣١٠ [بَيَانُ التَّيَمُّمِ] .....  
 ٣١٢ [دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ مَعَ التَّهْدِيدِ] .....  
 ٣١٢ [إِسْلَامُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ عِنْدَ سَمَاعِهِ هَذِهِ الْآيَةِ] .....  
 ٣١٣ [لَا يَغْفِرُ الشُّرْكَ أَبَدًا إِلَّا بِالتَّوْبَةِ] .....  
 ٣١٣ [دَمُ الْيَهُودِ وَلَعْنُهُمْ عَلَى تَرْكِتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِيمَانِهِمْ بِالْحَبِيبِ وَالطَّاغُوتِ وَقَلْبِهِمُ الْهَدَايَةَ وَالْإِيمَانَ] .....  
 ٣١٤ [لَا فَضْلَ لِلْكَفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ] .....  
 ٣١٤ [لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ لِاسْتِنصَارِهِمْ بِالْمُشْرِكِينَ] .....  
 ٣١٥ [بُخْلُ الْيَهُودِ وَحَسَدُهُمْ] .....  
 ٣١٥ [بَيَانُ عَذَابِ مَنْ يُكْفَرُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ] .....  
 ٣١٥ [بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَهُوَ الْجَنَّةُ وَتَعِيمُهَا] .....  
 ٣١٦ [الْأَمْرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ] .....  
 ٣١٦ [الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ] .....  
 ٣١٧ [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ الْأَمِيرِ فِي الْمَعْرُوفِ] .....  
 ٣١٧ [الْأَمْرُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عِنْدَ التَّنَازُعِ] .....  
 ٣١٨ [مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَحَاكَمَ إِلَى مَا سِوَاهُمَا فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ] .....  
 ٣١٨ [دَمُ الْمُنَافِقِينَ] .....  
 ٣١٨ [طَاعَةُ الرَّسُولِ وَاجِبَةٌ حَتْمًا] .....  
 ٣١٨ [لَا يَكُونُ الْمَرْءُ مُؤْمِنًا حَتَّى يُحَكَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي خُصُومَاتِهِ وَيَرْضَى بِهِ فِي فَرَارَةِ نَفْسِهِ] .....  
 ٣١٩ [أَكْثَرُ النَّاسِ يُعَانِدُونَ لِمَا يُؤْمَرُونَ] .....  
 ٣٢٠ [مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَهُوَ مَعَ الْمُكْرَمِينَ عِنْدَ اللَّهِ] .....  
 ٣٢٠ [ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ] .....  
 ٣٢١ [الْأَمْرُ بِأَخْذِ الْحَذَرِ مِنَ الْعَدُوِّ] .....  
 ٣٢١ [مِنْ عِلَاقَاتِ الْمُنَافِقِينَ التَّخَلُّفُ عَنِ الْجِهَادِ] .....  
 ٣٢١ [الْتَرَاغُيبُ فِي الْجِهَادِ] .....  
 ٣٢١ [الْحَضُّ عَلَى الْقِتَالِ لِلِإِنْفَادِ الْمُسْتَضْعَفِينَ] .....  
 ٣٢٢ [الْلُومُ عَلَى حُبِّ تَأَخُّرِ فَوْضِ الْقِتَالِ مِمَّنْ كَانُوا يُرِيدُونَهُ] .....  
 ٣٢٢ [لَا مَفْرَءَ مِنَ الْمَوْتِ] .....  
 ٣٢٢ [طَبِيرَةُ الْمُنَافِقِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ] .....  
 ٣٢٣ [طَاعَةُ الرَّسُولِ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ] .....  
 ٣٢٣ [بَيَانُ سَفَاهَةِ الْمُنَافِقِينَ] .....  
 ٣٢٤ [الْقُرْآنُ حَقٌّ] .....  
 ٣٢٤ [النَّهْيُ عَنِ إِشَاعَةِ الْخَبَرِ دُونَ تَحْقِيقِهِ] .....  
 ٣٢٥ [أَمْرُ اللَّهِ رَسُولَهُ بِأَنْ يُبَايِسَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ] .....  
 ٣٢٥ [تَحْرِيسُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ] .....  
 ٣٢٦ [الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ] .....  
 ٣٢٦ [الْأَمْرُ بِرَدِّ السَّلَامِ بِأَحْسَنِ مِنْهُ] .....  
 ٣٢٧ [الْتَكْبِيرُ عَلَى اخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ فِيمَنْ رَجَعَ مِنْ أُحُدٍ] .....  
 ٣٢٧ [مَنْ يُقَاتِلْ وَمَنْ لَا يُقَاتِلْ؟] .....  
 ٣٢٨ [حُكْمُ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ خَطَأً] .....

٣٥١ [عِبَادُ الْيَهُودِ].  
 ٣٥٢ [جَرَائِمُ الْيَهُودِ]  
 ٣٥٢ [قَوْلُهُمْ فِي مَرِيَمَ وَادْعَاؤُهُمْ قَتْلَ عِيسَى وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ]  
 ٣٥٤ [يُؤْمِنُ جَمِيعُ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ بِالْمَسِيحِ قَبْلَ مَوْتِهِ]  
 [ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي نَزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ]  
 ٣٥٤ [صِفَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ]  
 ٣٥٦ [تَحْرِيمُ طَيِّبَاتِ عَلَى الْيَهُودِ لِأَجْلِ ظُلْمِهِمْ]  
 ٣٥٧ [أَوْحِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ مَا أَوْحِيَ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ]  
 ٣٥٨ [الْمَذْكُورُونَ فِي الْقُرْآنِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ رَسُولًا]  
 ٣٥٨ [فَضْلُ مُوسَى]  
 ٣٥٨ [الْقَصْدُ مِنْ بَعَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ]  
 ٣٦٠ [نَهَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَإِطْرَاءِ]  
 ٣٦١ [فِرْقُ النَّصَارَى]  
 ٣٦١ [الْأَنْبِيَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَسْتَنْجِفُونَ عَنْ كَوْنِهِمْ عِبَادَ اللَّهِ]  
 ٣٦٢ [أَوْصَافُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ]  
 ٣٦٢ [حُكْمُ الْكَلَالَةِ، وَهِيَ آخِرُ آيَةِ نَزُولًا]  
 [ذِكْرُ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَاهَا وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ]  
 ٣٦٣ [تفسير سورة المائدة]  
 ٣٦٤ [فَضَائِلُ الْمَائِدَةِ وَزَمَنُ نَزُولِهَا]  
 ٣٦٥ [بَيَانُ مَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]  
 ٣٦٥ [الْأَمْرُ بِاخْتِرَامِ الْحَرَمِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ]  
 ٣٦٥ [الْإِهْدَاءُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ]  
 ٣٦٦ [تَحْرِيمُ مَنْ قَصَدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ]  
 ٣٦٦ [إِبَاحَةُ الصَّيْدِ بَعْدَ الْحَلَالِ مِنَ الْإِحْرَامِ]  
 ٣٦٦ [الْعُدْلُ وَاجِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ]  
 ٣٦٧ [مَا حُرِّمَ أَكْلُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ]  
 ٣٦٩ [حُرْمَةُ الْاسْتِفْسَامِ بِالْأُزْلَامِ]  
 ٣٦٩ [يَأْسُ الْكُفَّارِ وَالشَّيْطَانِ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ]  
 ٣٧٠ [إِكْمَالُ دِينِ الْإِسْلَامِ]  
 ٣٧٠ [إِبَاحَةُ الْمَيْتَةِ فِي حَالَةِ الْاضْطِرَارِ]  
 ٣٧١ [بَيَانُ الْحَلَالِ]

٣٢٩ [الْوَعْدُ عَلَى قَتْلِ الْعَمْدِ]  
 ٣٢٩ [هَلْ تَقْبَلُ تَوْبَةَ قَاتِلِ الْعَمْدِ؟]  
 ٣٣٠ [السَّلَامُ مِنْ عَلَامَاتِ الْإِسْلَامِ]  
 ٣٣١ [لَا يَسْتَوِي الْمُجَاهِدُونَ وَالْقَاعِدُونَ]  
 [الْهَيْبَةُ عَنِ الْمُكْتَبِ فِي الْمُسْرِكِينَ لِلْقَادِرِينَ عَلَى الْهَجْرَةِ]  
 ٣٣٢ [صَلَاةُ الْفَضْرِ]  
 ٣٣٣ [بَيَانُ صَلَاةِ الْخُوفِ وَأَنْوَاعِهَا]  
 ٣٣٤ [الْأَمْرُ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِبَ صَلَاةِ الْخُوفِ]  
 ٣٣٥ [الْحَضُّ عَلَى مُطَارَدَةِ الْعَدُوِّ رَغْمَ الْجِرَاحِ]  
 ٣٣٦ [الْأَمْرُ بِالْحُكْمِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ]  
 [الْتَرَاغِبُ فِي التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْوَعْدُ لِمَنْ يَكْسِبُ الْإِثْمَ أَوْ يَرِي فِي الْبَرِيءِ]  
 ٣٣٧ [نَجْوَى الْخَيْرِ]  
 ٣٣٨ [جَزَاءُ مَنْ شَاقَّ الرَّسُولَ وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ]  
 ٣٣٩ [الشِّرْكُ لَا يُغْفَرُ وَالْمُشْرِكُونَ يَغْبُدُونَ الشَّيْطَانَ فِي الْحَقِيقَةِ]  
 ٣٣٩ [جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ]  
 ٣٤٠ [الْتَجَاحُ لَيْسَ بِالْأَمَانِيِّ بَلْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ]  
 ٣٤١ [إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ]  
 ٣٤٢ [حُكْمُ النِّسَمَةِ]  
 ٣٤٢ [أَحْكَامُ نُسُوزِ الزَّوْجِ]  
 ٣٤٣ [الْوَصِيَّةُ بِتَقْوَى اللَّهِ]  
 ٣٤٤ [الْأَمْرُ بِالْقِيَامِ بِالْعَدْلِ وَبِإِدَاءِ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ]  
 ٣٤٥ [الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ الْإِيمَانِ]  
 ٣٤٦ [أَحْوَالُ الْمُتَافِقِينَ وَمَصِيرُهُمْ]  
 ٣٤٦ [تَرْبُصُ الْمُتَافِقِينَ بِالْمُسْلِمِينَ]  
 [مُخَادَعَةُ الْمُتَافِقِينَ اللَّهُ وَكَسَلُهُمْ فِي الصَّلَاةِ وَتَدْبِئُهُمْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَفَّارِ]  
 ٣٤٨ [الْتَهْيُ عَنْ وَلَاءِ الْكَفَّارِ]  
 ٣٤٩ [الْمُتَافِقُونَ - الْمُمُولُونَ لِلْكَفَّارِ - فِي أَشْفَلِ النَّارِ إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا]  
 ٣٤٩ [إِلَادُنَ بِالْجَهْرِ بِالسُّوءِ لِلْمُظْلُومِ مَعَ تَرْغِيهِ فِي الْعَفْوِ]  
 ٣٥٠ [الْإِيمَانُ بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَالْكُفْرُ بِبَعْضِهِمْ كُفْرٌ خَالِصٌ]

- ٣٨٨ ... [تَعْجِلُ عُقُوبَةَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةَ الرَّجْمِ]
- ٣٨٨ ... [يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْتَرِمَ الْإِنْسَانَ]
- ٣٨٩ ... [تَهْدِيدُ الْمُسْرِفِينَ]
- ٣٨٩ ... [جَزَاءُ الْمُحَارِبِينَ وَالْأَشْرَارِ]
- ٣٩٠ ... [تَسْقُطُ حُدُودُ الْمُحَارِبِينَ إِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ]
- ٣٩١ ... [الْأَمْرُ بِالْتَّقْوَى وَالْوَسِيلَةَ وَالْجِهَادِ]
- ... لَا تُقْبَلُ الْفِدْيَةُ مِنَ الْكُفَّارِ وَهُمْ يَسْتَمِرُّونَ فِي عَذَابِ
- ٣٩٢ ... [النَّارِ]
- ٣٩٢ ... [الْأَمْرُ بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ]
- ٣٩٢ ... [مَتَى تُقَطَّعُ يَدُ السَّارِقِ؟]
- ٣٩٣ ... [تَوْبَةُ السَّارِقِ مَقْبُولَةٌ]
- ٣٩٤ ... [الْتَّقِينُ بِعَدَمِ الْحُزْنِ عَلَى تَصَرُّفَاتِ الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ]
- ... [تَحْرِيفُ الْيَهُودِ وَمُحَاوَلَةُ انْجِرَافِهِمْ عَنِ الرَّجْمِ فِي قِصَّةِ
- ٣٩٤ ... [الْيَهُودِيِّينَ]
- ٣٩٥ ... [دَّمَ مَقَاصِدِ الْيَهُودِ الرَّائِعَةِ وَمَدَحُ كِتَابِهِمُ التَّوْرَةِ]
- ٣٩٦ ... [سَبَبُ آخَرٍ فِي نُزُولِ هَذِهِ آيَاتِ الْكَرِيمَاتِ]
- ٣٩٧ ... [يُقْتَلُ الرَّجُلُ بِامْرَأَةٍ]
- ٣٩٧ ... [قِصَاصُ الْجُرُوحِ]
- ٣٩٨ ... [قَاعِدَةٌ مُهِمَّةٌ]
- ٣٩٨ ... [الْعُقُوفَةُ كَفَّارَةٌ لِلذُّنُوبِ]
- ٣٩٨ ... [ذِكْرُ عِيسَى وَمَدَحُ الْإِنْجِيلِ]
- ٣٩٩ ... [مَدَحُ الْقُرْآنِ وَوَصْفُهُ وَالْأَمْرُ بِالْحُكْمِ بِهِ]
- ٤٠١ ... [الْتَّهْيُ عَنْ مَوَالِئِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ]
- ٤٠٢ ... [سَبَبُ النُّزُولِ]
- ٤٠٢ ... [مِنْ صِفَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ]
- ٤٠٣ ... [سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ آيَاتِ]
- ٤٠٣ ... [الْتَّهْيُ عَنْ مَوَالِئِ الْكُفَّارِ]
- ٤٠٤ ... [اسْتِهْزَاءُ الْكُفَّارِ بِالصَّلَاةِ وَالْأَذَانِ]
- ٤٠٤ ... [نِقَمُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ]
- ٤٠٤ ... [أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْتَحِقُّونَ شَرَّ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٤٠٥ ... [مِنْ عَادَاتِ الْمُنَافِقِينَ إِظْهَارُ الْإِيمَانِ وَإِطْطَانُ الْكُفْرِ]
- ... [الْتَّكْبِيرُ عَلَى الرِّبَّانِيِّينَ وَالْأَخْبَارِ عَلَى تَرْكِهِمْ النَّهْيَ عَنِ
- ٤٠٥ ... [الْمَعَاصِي]
- ٤٠٦ ... [قَوْلُ الْيَهُودِ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ]
- ٣٧١ ... [حُكْمُ صَيْدِ الْجَوَارِحِ الْمُعَلَّمَةِ]
- ٣٧٢ ... [الْتَّسْمِيَةُ عَلَى الْجَارِحِ عِنْدَ إِسْأَلِهِ]
- ٣٧٢ ... [جَلُّ ذَيْبَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ٣٧٣ ... [جَوَازُ نِكَاحِ الْحَرَائِرِ الْعَفَائِفِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ]
- ٣٧٤ ... [الْأَمْرُ بِالْوُضُوءِ]
- ٣٧٤ ... [الْكَيْتَةُ وَالتَّسْمِيَةُ فِي الْوُضُوءِ]
- ٣٧٤ ... [تَخْلِيلُ اللَّحْيَةِ]
- ٣٧٥ ... [كَفَيْتَةُ الْوُضُوءِ]
- ٣٧٥ ... [وُجُوبُ غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ دُونَ الْمَسْحِ]
- ٣٧٥ ... [ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ]
- ٣٧٦ ... [الْأَمْرُ بِالتَّخْلِيلِ بَيْنَ الْأَصَابِعِ]
- ٣٧٦ ... [الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ سَنَةً ثَابِتَةً]
- ٣٧٦ ... [الْأَمْرُ بِالتَّيَمُّمِ عِنْدَ عَدَمِ وَجُودِ الْمَاءِ وَلِلْمَرِيضِ]
- ٣٧٧ ... [الْإِدْعَاءُ بَعْدَ الْوُضُوءِ]
- ٣٧٧ ... [فَضْلُ الْوُضُوءِ]
- ٣٧٧ ... [الْتَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ الرَّسَالَةِ وَالْإِسْلَامِ]
- ٣٧٨ ... [الْأَمْرُ بِالنِّزَامِ الْعَدْلِ]
- ٣٧٨ ... [كَفُّ أَيْدِي الْكُفَّارِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ]
- ٣٧٨ ... [مِيثَاقُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَعْنُهُمْ عَلَى تَقْضِهِ]
- ٣٧٩ ... [نُقْبَاءُ الْأَنْصَارِ لَيْلَةُ الْعَقَبَةِ]
- ٣٨٠ ... [الْمِيثَاقُ وَتَقْضُهُ]
- ٣٨٠ ... [مِيثَاقُ النَّصَارَى وَنِسْيَانُهُمْ لَهُ وَنَيْبِجَتُهُ]
- ٣٨١ ... [بَيَانُ الْحَقِّ بِالرُّسُولِ وَالْقُرْآنِ]
- ٣٨١ ... [شِرْكُ النَّصَارَى وَكُفْرُهُمْ]
- ٣٨١ ... [الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِمْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ]
- ... [تَذْكِيرُ مُوسَى قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَأَمْرُهُ بِدُخُولِهِمْ فِي الْأَرْضِ
- ٣٨٣ ... [الْمُقَدَّسَةِ وَتَمَرُّدُهُمْ عَلَيْهِ]
- ٣٨٤ ... [خُطْبَةُ يَوْشَعَ وَكَالِبِ عَنِ الْجِهَادِ]
- ٣٨٤ ... [حُسْنُ جَوَابِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ بَدْرٍ]
- ٣٨٥ ... [دُعَاءُ مُوسَى عَلَى الْيَهُودِ]
- ٣٨٥ ... [تَحْرِيمُ دُخُولِ الْيَهُودِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً]
- ٣٨٥ ... [فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ]
- ٣٨٦ ... [تَسْلِيَةُ اللَّهِ لِمُوسَى]
- ٣٨٦ ... [قِصَّةُ هَائِيلَ وَقَائِلَ]

- ٤٢٩ [فَضْلُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَزَمَنُ نَزُولِهَا]
- ٤٢٩ [الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى جَلِيلِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ]
- ٤٣٠ [عِنَادُ الْمُشْرِكِينَ وَتَوَعُّدُهُمْ عَلَيْهِ]
- ٤٣٠ [ذَمُّ الْمُعَانِدِينَ وَإِبَاؤُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا]
- ٤٣١ [اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ فَيَجِبُ الْإِنْقِيَادُ لَهُ]
- ٤٣٢ [اللَّهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْقَاهِرُ]
- ٤٣٣ [أَهْلُ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ]
- ٤٣٣ [يُسْأَلُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ شِرْكِهِمْ]
- ٤٣٣ [لَا يَسْتَفِيدُ الشَّقِيُّ مِنَ الْقُرْآنِ]
- ٤٣٤ [لَا تُفِيدُ الْأَمَانِيُّ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ]
- ٤٣٥ [تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ]
- ٤٣٧ [مُطَالَبَةُ الْمُشْرِكِينَ بِآتِيَةٍ]
- ٤٣٧ [مَا الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ]
- ٤٣٧ [الْكُفَّارُ صَمٌّ وَبُخْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ]
- ٤٣٧ [إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِدُعَائِهِمْ اللَّهُ وَحْدَهُ عِنْدَ الْعَذَابِ]
- ٤٣٧ [الْعَذَابُ]
- ٤٣٩ [الرَّسُولُ لَا يَمْلِكُ خَزَائِنَ اللَّهِ وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ]
- ٤٣٩ [نَهَى الرَّسُولُ عَنْ طَرْدِ أَصْحَابِهِ الضَّعَفَاءِ وَالْأَمْرَ بِتَكْرِيمِهِمْ إِذَا جَاءُوا]
- ٤٣٩ [الرَّسُولُ عَلَى بَيْتَةٍ مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَالْجَزَاءُ بِيَدِ اللَّهِ وَلَيْسَ بِيَدِهِ]
- ٤٤١ [لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ]
- ٤٤٢ [الْعِبَادُ بِيَدِ اللَّهِ قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ]
- ٤٤٣ [بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ وَبَطْشِهِ وَقَهْرِهِ]
- ٤٤٤ [الدَّعْوَةُ إِرشَادٌ بَعْدَ إِكْرَاهٍ]
- ٤٤٤ [النَّهْيُ عَنِ الْجُلُوسِ مَعَ مَنْ يَخْوِضُ فِي آيَاتِ اللَّهِ]
- ٤٤٦ [بَيَانُ نَفْخِ الصُّورِ]
- ٤٤٦ [وَعِظُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ]
- ٤٤٧ [انْكِشَافُ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ]
- ٤٤٧ [هَذَا مَقَامُ الْمُتَنَاظَرَةِ لَا طَلُبُ التَّحْقِيقِ]
- ٤٤٩ [الشِّرْكُ هُوَ الظُّلْمُ الْعَظِيمُ]
- ٤٤٩ [هَبَّةٌ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ لِإِبْرَاهِيمَ فِي شَيْخُوخَتِهِ]
- ٤٥٠ [خُصُوصِيَّةُ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ]
- ٤٥٠ [الشِّرْكُ يَحِيطُ أَعْمَالُ الْمُخْلُوقِينَ حَتَّى الرُّسُلِ]
- ٤٠٦ [يَدَا اللَّهِ مَبْسُوطَتَانِ]
- ٤٠٦ [مَا نَزَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَزِيدُ الْيَهُودَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا]
- ٤٠٧ [لَوْ عَمِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِكِتَابِهِمْ لَحَصَلَ لَهُمْ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ]
- ٤٠٧ [الْأَمْرُ بِالتَّبْلِيغِ وَالْوَعْدُ بِالْعِصْمَةِ]
- ٤٠٨ [لَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ]
- ٤٠٩ [كُفْرُ النَّصَارَى وَدَعْوَةُ الْمَسِيحِ لِلتَّوْحِيدِ]
- ٤١٠ [الْمَسِيحُ عَبْدٌ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ]
- ٤١٠ [الْتَّهْيُّ عَنِ الشِّرْكِ وَالْعُلُوُّ فِي الدِّينِ]
- ٤١١ [لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ]
- ٤١١ [أَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ]
- ٤١١ [ذَمُّ الْمُنَافِقِينَ]
- ٤١٢ [بَيَانُ سَبَبِ النَّزُولِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ]
- ٤١٣ [لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ]
- ٤١٣ [الْعُلُوُّ فِي الْيَمِينِ]
- ٤١٣ [كُفَّارَةُ الْيَمِينِ]
- ٤١٤ [تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ]
- ٤١٥ [تَفْسِيرُ الْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ]
- ٤١٥ [ذَكَرَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي بَيَانِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ]
- ٤١٧ [حُرْمَةُ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ]
- ٤١٧ [جَزَاءُ قَتْلِ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ أَوْ الْإِحْرَامِ]
- ٤١٩ [إِحْلَالُ صَيْدِ الْبَحْرِ لِلْمُحْرِمِ]
- ٤١٩ [تَحْرِيمُ صَيْدِ الْبَرِّ لِلْمُحْرِمِ]
- ٤٢١ [ذَمُّ السُّؤَالِ بِدُونِ فَائِذَةٍ]
- ٤٢٢ [تَفْسِيرُ الْحَيَوَانَاتِ الْمَذْكُورَةِ]
- ٤٢٤ [الْأَمْرُ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ]
- ٤٢٤ [شَهَادَةُ عَدْلَيْنِ عَلَى الْوَصِيَّةِ]
- ٤٢٥ [يُسْأَلُ الْأَنْبِيَاءُ عَنْ أُمَمِهِمْ]
- ٤٢٦ [تَذَكِيرُ عِيسَى بِالنَّعَمِ]
- ٤٢٦ [بَيَانُ نَزُولِ الْمَائِدَةِ]
- ٤٢٧ [وَأَقْعَةُ تَارِيخِيَّةٌ غَرِيبَةٌ]
- ٤٢٨ [الْمَسِيحُ يَبْرَأُ مِنَ الشِّرْكِ وَيُقَرُّ بِالتَّوْحِيدِ]
- ٤٢٨ [لَا يَنْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الصَّدَقُ]
- ٤٢٩ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]

- ٤٧٣ ..... [مَا حُرِّمَ عَلَى الْيَهُودِ مِنَ الْحَلَالِ لِيَتُغِيَّهُمْ]
- ٤٧٤ ..... [حِيلَةُ الْيَهُودِ وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ]
- ٤٧٥ ..... [ذِكْرُ مُعَالِطَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهَا]
- ٤٧٥ ..... [أَلَوْصَايَا الْعَشْرَةِ]
- ٤٧٦ ..... [الْتَّهْيُ عَنْ الشُّرْكِ]
- ٤٧٦ ..... [الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ]
- ٤٧٦ ..... [الْتَّهْيُ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ]
- ٤٧٧ ..... [الْتَّهْيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ]
- ٤٧٧ ..... [تَحْرِيمُ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ]
- ٤٧٨ ..... [الْأَمْرُ بِإِفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ]
- ٤٧٨ ..... [الْأَمْرُ بِالشَّهَادَةِ الْعَادِلَةِ]
- ٤٧٨ ..... [الْأَمْرُ بِإِفَاءِ عَهْدِ اللَّهِ]
- ..... [الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالتَّهْيُ عَنْ اتِّبَاعِ السَّبِيلِ الْأُخْرَى]
- ٤٧٨ ..... [مَذْحُ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ]
- ٤٨٠ ..... [الْقُرْآنُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ]
- ٤٨٠ ..... [تَهْدِيدُ مَنْ سَوَّفَ بِإِيمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ]
- ٤٨١ ..... [ذَمُّ التَّفَرُّقَةِ]
- ٤٨١ ..... [الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا]
- ٤٨٢ ..... [الْإِسْلَامُ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ]
- ٤٨٢ ..... [الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ]
- ٤٨٣ ..... [دَيْنُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ الْإِسْلَامُ]
- ٤٨٣ ..... [الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ التَّوَكُّلِ]
- ٤٨٤ ..... [لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى]
- ٤٨٤ ..... [جَعَلَ اللَّهُ النَّاسَ خَلَائِفَ وَمُتَقَاوِي الدَّرَجَاتِ لِيَبْلُوَهُمْ]
- ٤٨٥ ..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ٤٨٥ ..... [أَحْوَالُ قُرَى أَهْلِكَ]
- ٤٨٦ ..... [بَيَانُ وَزْنِ الْأَعْمَالِ]
- ٤٨٧ ..... [سَائِرُ نِعَمِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ خُلِقَتْ لِلْإِنْسَانِ]
- ٤٨٧ ..... [قِصَّةُ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ وَاسْتِكْبَارِ إِبْلِيسَ]
- ٤٨٨ ..... [أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسَ]
- ٤٨٩ ..... [مَكْرُ الشَّيْطَانِ مَعَ آدَمَ وَحَوَّاءَ وَأَكْلُهُمَا مِنَ الشَّجَرَةِ]
- ٤٩٠ ..... [إِهْبَاطُهُمْ إِلَى الْأَرْضِ]
- ٤٩١ ..... [إِنزَالُ اللَّبَاسِ وَالرِّيَّةِ]
- ٤٥١ ..... [بَشَرِيَّةُ الرُّسُولِ وَإِنزَالُ الْكِتَابِ عَلَيْهِ]
- ..... [لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَقْتَرِي عَلَى اللَّهِ وَيَدَّعِي نُزُولَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ]
- ٤٥٢ ..... [حَالَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ٤٥٣ ..... [التَّعْرِيفُ بِاللَّهِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ]
- ٤٥٥ ..... [ذَمُّ الْمُشْرِكِينَ]
- ٤٥٦ ..... [مَعْنَى الْبَدِيعِ]
- ٤٥٦ ..... [اللَّهُ هُوَ رَبُّكُمْ]
- ٤٥٦ ..... [رُؤْيُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ]
- ٤٥٧ ..... [تَفْسِيرُ الْبَصَائِرِ]
- ٤٥٨ ..... [الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ]
- ٤٥٨ ..... [الْتَّهْيُ عَنْ سَبِّ آلِهِ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَسُبُّوا اللَّهَ]
- ٤٥٨ ..... [طَلَبُ الْمُعْجَزَاتِ وَالْإِقْسَامُ عَلَى الْإِيمَانِ عِنْدَ مَجِيئِهَا]
- ٤٦٠ ..... [لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوٌّ]
- ٤٦١ ..... [أَكْثَرُ النَّاسِ فِي ضَلَالٍ]
- ٤٦١ ..... [إِخْلَالُ مَا دُبِحَ بِاسْمِ اللَّهِ]
- ٤٦١ ..... [تَحْرِيمُ مَا دُبِحَ بِغَيْرِ اسْمِ اللَّهِ]
- ٤٦٢ ..... [وَحْيُ الشَّيْطَانِ]
- ٤٦٢ ..... [تَقْدِيمُ قَوْلِ أَحَدٍ عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ شِرْكَ]
- ٤٦٢ ..... [مِثْلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ]
- ٤٦٣ ..... [أَكْبَارُ الْمُجْرِمِينَ وَحِيلَتُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ]
- ٤٦٦ ..... [تَوَلَّيْتُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ عَلَى بَعْضٍ]
- ..... [تَفْرِيعُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ بِالسُّؤَالِ عَنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَاعْتِرَافِهِمْ بِذَلِكَ]
- ٤٦٦ ..... [الْوَعْدُ بِإِذْهَابِهِمْ إِذَا عَصَوْا]
- ٤٦٨ ..... [بَيَانُ بَعْضِ أَعْمَالِ الشُّرْكِ]
- ٤٦٩ ..... [زَيْنُ الشَّيْطَانِ لِلْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادِهِمْ]
- ٤٦٩ ..... [بَعْضُ تَحْرِيمَاتِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَنْعَامِ]
- ٤٧٠ ..... [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الثَّمَرَ وَالْحَبَّ وَالْأَنْعَامَ]
- ٤٧١ ..... [بَيَانُ الْإِسْرَافِ]
- ٤٧١ ..... [فَوَائِدُ الْأَنْعَامِ]
- ..... [كُلُّوا مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهَا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ]
- ٤٧٢ ..... [بَيَانُ الْأَشْيَاءِ الْمُحَرَّمَةِ]
- ٤٧٣ ..... [بَيَانُ الْأَشْيَاءِ الْمُحَرَّمَةِ]

٥٠٧ [قَتْلُ النَّاقَةِ]

[مُحَاوَلَةُ الْمُفْسِدِينَ بِقَتْلِ صَالِحٍ وَبِدَايَةُ الْعَذَابِ بِهِمْ، ثُمَّ

٥٠٧ نَزُولُ الْعَذَابِ عَلَى ثَمُودَ]

٥٠٨ [قِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

٥٠٩ [قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَدْيَنَ]

٥١١ [إِبْتِلَاءُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ]

٥١٢ [الْبَرَكَاتُ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْبَطْشُ مَعَ الْكُفْرِ]

٥١٣ [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

٥١٤ [عَصَا مُوسَى وَبَدَأُ الْبَيْضَاءِ]

[قَوْلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي مُوسَى: إِنَّهُ سَاحِرٌ وَاتِّفَاقُهُمْ عَلَى

٥١٤ مُعَارَضَتِهِ بِالسَّحَرَةِ]

[اجْتِمَاعُ السَّحَرَةِ وَمُقَابَلَتُهُمْ مَعَ مُوسَى وَتَمْوِيهِهُمْ فِي

٥١٥ تَحْوِيلِ جِبَالِهِمْ وَعَصِيهِمْ حَيَاتٍ]

٥١٦ [غَلَبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحَرَةِ]

٥١٦ [تَهْدِيدُ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَجَوَابُهُمْ لَهُ]

[تَحْرِيسُ الْقَوْمِ وَاسْتِعْدَادُ فِرْعَوْنَ لِقَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ

٥١٧ وَشُكُوكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مُوسَى وَوَعْدُهُ بِنَصْرِ اللَّهِ]

٥١٧ [إِبْتِلَاءُ آلِ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ]

٥١٨ [تَمَرُّدُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعِقَابُ اللَّهِ لَهُمْ بِآيَاتٍ]

[إِغْرَاقُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْيَمِّ وَتَوْرِيثُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

٥١٩ الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ]

[مُجَاوَزَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ وَمُرُورُهُمْ بِمَعْبُودٍ مُجَسَّمٍ]

٥٢٠ [تَذَكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعَمِ اللَّهِ]

٥٢٠ [صَامُ مُوسَى وَانْقِطَعُ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً]

٥٢٠ [طَلَبُ مُوسَى رُؤْيَا رَبِّهِ]

٥٢٢ [إِصْطِفَاءُ مُوسَى وَإِعْطَاؤُهُ الْأُلُوحَ]

٥٢٢ [يُحَرِّمُ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

٥٢٢ [قِصَّةُ عِبَادَةِ الْعُجْلِ]

٥٢٤ [أَخَذَ مُوسَى الْأُلُوحَ بَعْدَ أَنْ سَكَتَ الْغَضَبُ]

[ذَهَابُ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمِيقَاتِ رَبِّهِمْ،

٥٢٤ وَإِهْلَاكُهُمْ]

[رَحْمَةُ اللَّهِ مَكْتُوبَةٌ لِلْمُتَّقِينَ الْمُزَكِّينَ الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ

٥٢٥ وَبِرَسُولِهِ]

٥٢٦ [صِفَاتُ ذَلِكَ الرَّسُولِ ﷺ]

٤٩١ [التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الشَّيْطَانِ]

٤٩١ [عَمَلُ الْكُفَّارِ الْفَاجِسَةِ وَنَسْبُهَا إِلَى اللَّهِ]

٤٩١ [إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، بَلْ بِالْقِسْطِ وَالْإِحْلَاصِ]

٤٩٢ [مَقْهُومُ الْبِدْءِ وَالْعَوْدَةِ]

٤٩٢ [الْأَمْرُ بِالتَّجَمُّلِ عِنْدَ الدَّهَابِ إِلَى الْمَسَاجِدِ]

٤٩٣ [الْهَيْبَةُ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ]

[الْحَرَامُ هُوَ الْفَوَاحِشُ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ وَالشُّرْكُ وَالْإِفْتِرَاءُ

٤٩٤ عَلَى اللَّهِ]

[الْمُشْرِكُونَ الْمُفْتَرُونَ يَتَّالَهُمْ نَصِيْبُهُمْ وَيَصِلُ عَنْهُمْ

٤٩٤ أَوْلِيَائُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ]

٤٩٥ [تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ وَتَلَاغِيهِمْ]

[الْمُكَذِّبُونَ لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ

٤٩٥ الْجَنَّةَ أَبَدًا]

٤٩٦ [بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَأَحْوَالِهِمْ]

٤٩٧ [لِأَهْلِ جَهَنَّمَ حَسْرَةٌ فَوْقَ حَسْرَةٍ]

٤٩٧ [الْأَعْرَافُ وَأَصْحَابُهَا]

٤٩٨ [نَعِيمُ الْجَنَّةِ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ]

٤٩٩ [لَا مَجَالٌ لِلْمُشْرِكِينَ لِلْإِعْتِدَارِ]

٤٩٩ [خُلِقَ الْكَوْنُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ]

٥٠٠ [تَفْسِيرُ الْإِسْتِوَاءِ]

٥٠٠ [اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

٥٠٠ [الْتَرَاغِبُ فِي الدُّعَاءِ]

٥٠٠ [الْهَيْبَةُ عَنِ الْإِعْدَاءِ فِي الدُّعَاءِ]

٥٠١ [الْهَيْبَةُ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ]

٥٠١ [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يُنْزِلُ الْمَطَرَ وَيُخْرِجُ النَّمْرَ]

٥٠٢ [قِصَّةُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ]

٥٠٣ [قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَسَبُ قَوْمِ عَادٍ]

٥٠٣ [مَسَاكِينُ قَوْمِ عَادٍ]

٥٠٣ [مَا دَارَ بَيْنَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

٥٠٤ [مَصِيرُ قَوْمِ عَادٍ]

٥٠٥ [قِصَّةُ وَافِدِ عَادٍ]

٥٠٦ [مَسَاكِينُ قَوْمِ ثَمُودَ وَنَسَبُهُمْ]

٥٠٦ [قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودَ]

٥٠٦ [ثَمُودُ طَلَبَتْ نَاقَةً مِنْ صَخْرَةٍ فَظَهَرَتْ]

- ٥٢٧ ..... [عُمُومُ رِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ]
- ٥٢٩ ..... [عُدْوَانُ الْيَهُودِ فِي السَّبَبِ]
- ٥٢٩ ..... [مَسْحُكُهُمْ قِرْدَةً وَنَجَاهُ النَّاهِيْنَ دُونَ السَّاكِنِيْنَ]
- ٥٣٠ ..... [الذَّلَّةُ الدَّائِمَةُ لِلْيَهُودِ]
- ٥٣٠ ..... [اِنْشِارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ]
- ٥٣١ ..... [رَفْعُ الطُّورِ عَلَى رُؤُوسِ الْيَهُودِ لِتَمَرُّدِهِمْ]
- ٥٣٢ ..... [بَيَانُ الْعَهْدِ الْمَأْخُوذِ مِنْ دُرِّيَّةِ آدَمَ]
- ..... [قِصَّةُ بَلْعَمِ بْنِ بَاعُورَاءَ وَمَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يَنْسَلِخُ عَنْ عِلْمِهِ]
- ٥٣٣ ..... [الْكُفْرُ وَالْقُدْرُ]
- ٥٣٥ ..... [بَيَانُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى]
- ٥٣٦ ..... [بَيَانُ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا]
- ٥٣٧ ..... [الرَّسُولُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا حَتَّى لِنَفْسِهِ]
- ٥٣٩ ..... [كُلُّ النَّاسِ أَوْلَادُ آدَمَ]
- ٥٤٠ ..... [إِلَهَةُ الْمُشْرِكِيْنَ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَنْصُرُ وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا]
- ٥٤٢ ..... [الْأَمْرُ بِالْعَفْوِ]
- ٥٤٣ ..... [عَمَلُ أَهْلِ التَّقْوَى عِنْدَ الْوَسْوَسةِ]
- ٥٤٣ ..... [إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ يُمْدِدُونَ فِي الْغَيِّ]
- ٥٤٣ ..... [طَلَبُ الْمُشْرِكِيْنَ الْآيَاتِ]
- ٥٤٤ ..... [الْأَمْرُ بِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ]
- ٥٤٤ ..... [الْأَمْرُ بِالذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ]
- ٥٤٤ ..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَهِيَ مَدِينَةُ]
- ٥٤٤ ..... [تَفْسِيرُ الْأَنْفَالِ]
- ٥٤٥ ..... [سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ]
- ٥٤٥ ..... [سَبَبُ آخَرٍ فِي نُزُولِ الْآيَةِ]
- ٥٤٦ ..... [أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِيْنَ الصَّادِقِيْنَ]
- ٥٤٦ ..... [زِيَادَةُ الْإِيمَانِ إِذَا تَلَّى آيَاتُ الْقُرْآنِ]
- ٥٤٦ ..... [بَيَانُ التَّوَكُّلِ]
- ٥٤٦ ..... [بَيَانُ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِيْنَ]
- ٥٤٦ ..... [بَيَانُ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ]
- ٥٤٦ ..... [ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ]
- ٥٤٧ ..... [إِتْبَاعُ الرَّسُولِ بِاعْتِ خَيْرٍ لِلْمُؤْمِنِيْنَ]
- ٥٤٨ ..... [اسْتِغَاثَةُ الْمُسْلِمِيْنَ وَاسْتِجَابَةُ اللَّهِ لَهُمْ بِإِنزَالِ الْمَلَائِكَةِ]
- ٥٤٩ ..... [غَلَبَةُ الثُّعَاسِ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ]
- ٥٥٠ ..... [نُزُولُ الْمَطَرِ لَيْلَةَ بَدْرٍ]
- ٥٥٠ ..... [أَمْرُ اللَّهِ الْمَلَائِكَةَ بِتَثْيِيتِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ]
- ٥٥١ ..... [الْهَيْبَةُ عَنِ التَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ وَجَزَاؤُهُ]
- ٥٥٢ ..... [قَتْلُ اللَّهِ لِلْكَافِرِيْنَ وَرَمْيُهُمْ بِالْثَّرَابِ]
- ٥٥٢ ..... [إِجَابَةُ اسْتِغْثَاكِ الْمُشْرِكِيْنَ]
- ٥٥٣ ..... [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]
- ٥٥٣ ..... [الْأَمْرُ بِاسْتِجَابَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ]
- ٥٥٤ ..... [اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ]
- ٥٥٤ ..... [الْتَحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ عَامَّةٍ]
- ..... [تَذَكِيرُ الْمُسْلِمِيْنَ بِمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الذَّلِّ وَالضَّعْفِ وَمَا أَلَا إِلَهَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالنَّصْرِ]
- ٥٥٥ ..... [سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَالْهَيْبَةُ عَنِ الْخِيَانَةِ]
- ..... [ذِكْرُ مَا دَبَّرَهُ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ حَبْسِهِ أَوْ إِجْلَائِهِ]
- ٥٥٦ ..... [زَعَمُ قُرَيْشٍ فِي إِثْبَانِهِمْ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ]
- ٥٥٧ ..... [اسْتِغْثَاكِ الْمُشْرِكِيْنَ وَطَلَبُهُمُ الْعَذَابَ]
- ..... [وُجُودُ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتِغْفَارُ الْمُشْرِكِيْنَ كَانَا أَمَانَتَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ]
- ٥٥٨ ..... [عَذَابُ الْمُشْرِكِيْنَ بَعْدَ ارْتِكَابِهِمُ الْقَطَائِعَ]
- ..... [إِنْشَاقُ الْكُفَّارِ أَمْوَالُهُمْ لِلصَّدَقَةِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يُعَوِّدُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ]
- ٥٥٩ ..... [تَرْغِيبُ الْكُفَّارِ فِي التَّوْبَةِ وَتَرْهِيْبُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ]
- ٥٦٠ ..... [الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ لِإِنْهَاءِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ]
- ٥٦٢ ..... [حُكْمُ الْغَنِيْمَةِ وَالْفِيءِ]
- ٥٦٣ ..... [بَعْضُ تَفَاصِيلِ يَوْمِ بَدْرٍ]
- ٥٦٤ ..... [تَقْلِيلُ اللَّهِ كُلِّ فِتْنَةٍ فِي عَيْنِ الْآخَرَى]
- ٥٦٥ ..... [تَعْلِيمُ آدَابِ الْحَرْبِ]
- ٥٦٥ ..... [الْأَمْرُ بِاللِّبَاطِ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ]
- ٥٦٦ ..... [كَيْفِيَّةُ خُرُوجِ الْمُشْرِكِيْنَ لِيَوْمِ بَدْرٍ]
- ٥٦٦ ..... [تَرْبِيعُ الشَّيْطَانِ وَتَغْرِيرُهُ الْمُشْرِكِيْنَ]
- ٥٦٦ ..... [مَوْفِقُ الْمُتَنَافِقِيْنَ يَوْمَ بَدْرٍ]
- ٥٦٧ ..... [ضَرْبُ الْمَلَائِكَةِ الْكُفَّارَ عِنْدَ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ]
- ٥٦٨ ..... [الْأَمْرُ بِشِدَّةِ ضَرْبِ مَنْ يَكْفُرُ وَيَنْقُضُ الْعَهْدَ]



[شِرْكُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَكُفْرُهُمْ هُوَ سَبَبُ قِتَالِهِمْ] ..... ٥٨٦  
 [مُحَاوَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ إِطْفَاءُ نُورِ الْإِسْلَامِ] ..... ٥٨٧  
 [دِينُ الْإِسْلَامِ يَغْلِبُ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ] ..... ٥٨٧  
 [التَّحْذِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ وَعِبَادِ الضَّلَالِ] ..... ٥٨٧  
 [عَذَابُ مَنْ يَخْزِرُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ] ..... ٥٨٨  
 [السنَّةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا] ..... ٥٨٩  
 [الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ] ..... ٥٩٠  
 [الْقِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ] ..... ٥٩٠  
 [دَمُ النَّصْرَفِ فِي الشَّرْعِ بِالرَّأْيِ] ..... ٥٩١  
 [الْعِتَابُ وَالتَّهْدِيدُ عَلَى الشَّاغِلِ عَنِ الْجِهَادِ] ..... ٥٩٢  
 [اللهُ نَاصِرٌ نَبِيَّهُ ﷺ] ..... ٥٩٢  
 [تَحْسِينُ الْجِهَادِ عَلَى كُلِّ حَالٍ] ..... ٥٩٣  
 [سَبَبُ تَخَلُّفِ الْمُتَأَفِّقِينَ وَبَيَانُ حِيلَتِهِمْ] ..... ٥٩٤  
 [مُعَانَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِذْنِهِ لَهُمْ] ..... ٥٩٤  
 [كَشْفُ أَحْوَالِ الْمُتَأَفِّقِينَ] ..... ٥٩٤  
 [بَيَانُ هَلَعِ الْمُتَأَفِّقِينَ] ..... ٥٩٧  
 [لَمَزُ الْمُتَأَفِّقِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَطَمَعُهُمْ فِيهَا] ..... ٥٩٧  
 [بَيَانُ مَصَارِفِ الزَّكَاةِ] ..... ٥٩٨  
 [الْفُقَرَاءُ] ..... ٥٩٨  
 [الْمَسَاكِينُ] ..... ٥٩٨  
 [الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا] ..... ٥٩٨  
 [الْمَوْلَقَةُ قُلُوبُهُمْ] ..... ٥٩٨  
 [الرَّقَابُ] ..... ٥٩٨  
 [مَا وَرَدَ فِي الْعِتَاقِ] ..... ٥٩٩  
 [الْعَارِمُونَ] ..... ٥٩٩  
 [فِي سَبِيلِ اللَّهِ] ..... ٥٩٩  
 [ابْنُ السَّبِيلِ] ..... ٥٩٩  
 [مِنْ سِمَاتِ الْمُتَأَفِّقِينَ إِذَا ذَاكَ النَّبِيُّ ﷺ] ..... ٥٩٩  
 [أَوْمِنَهَا مُحَاوَلَةُ إِرْضَاءِ النَّاسِ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ] ..... ٦٠٠  
 [أَوْمِنَهَا خَوْفُهُمْ مِنْ إِفْشَاءِ السُّرِّ] ..... ٦٠٠  
 [أَوْمِنَهَا تَحَايُّهُمْ وَاعْتِدَارُهُمْ بِالْبَاطِلِ] ..... ٦٠٠  
 [بَيَانُ بَعْضِ خِصَالِ الْمُتَأَفِّقِينَ الْآخَرَى] ..... ٦٠١  
 [نَصِيحَةُ الْمُتَأَفِّقِينَ بِأَنْ يَغْتَبِرُوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ] ..... ٦٠٢  
 [صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَحْمُودَةِ] ..... ٦٠٢

[الْأَمْرُ بِتَقْضِ الْعَهْدِ عَلَى سَوَاءٍ] ..... ٥٦٨  
 [الْأَمْرُ بِالْإِعْدَادِ حَسَبِ الْمُسْتَطَاعِ حَتَّى يَرْهَبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ] ..... ٥٦٨  
 [الْأَمْرُ بِالْجُنُوحِ لِلِسَّلَامِ إِنْ جَنَحَ لَهَا الْعَدُوُّ] ..... ٥٦٩  
 [التَّذْكِيرُ بِبِعْمَةِ التَّالِيفِ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ] ..... ٥٧٠  
 [التَّحْرِيطُ عَلَى الْقِتَالِ وَالتَّنْبِيهُ بِأَنْ الْقَلِيلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَغْلِبُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْكُفَّارِ] ..... ٥٧٠  
 [وَعْدُ الْأَسْرَى بِعَوَضٍ أَحْسَنَ إِنْ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ] ..... ٥٧٢  
 [الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ] ..... ٥٧٣  
 [لَا وَلَايَةَ لِمَنْ آمَنَ وَلَمْ يَهَاجِرْ] ..... ٥٧٣  
 [الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَلَا وَلَايَةَ لَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ] ..... ٥٧٤  
 [الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا] ..... ٥٧٤  
 [الْإِزَارَةُ لِلْأَقَارِبِ] ..... ٥٧٤  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّوْبَةِ [وهي] مَدِينَةُ] ..... ٥٧٥  
 [لِمَ لَمْ تُكْتَبِ الْبَسْمَلَةُ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ؟] ..... ٥٧٥  
 [إِعْلَانُ الْبَرَاءَةِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ] ..... ٥٧٥  
 [أَمِنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ وَلَمْ يَقْضِ فَعَهْدُهُ إِلَى مَدَّتِهِ] ..... ٥٧٦  
 [هَذِهِ هِيَ آيَةُ السَّيْفِ] ..... ٥٧٦  
 [إِذَا طَلَبَ الْمُشْرِكُ الْأَمْنَ فَيُعْطَى] ..... ٥٧٧  
 [تَأْكِيدُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] ..... ٥٧٧  
 [لَا إِيمَانَ لِأَيَّةِ الْكُفْرِ] ..... ٥٧٨  
 [الْحُتُّ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَبَيَانُ بَعْضِ فَوَائِدِهِ] ..... ٥٧٩  
 [مِنْ حِكْمَةِ الْقِتَالِ اخْتِيَارُ الْمُسْلِمِينَ] ..... ٥٨٠  
 [لَا يَغْمُرُ الْمُشْرِكُونَ مَسَاجِدَ اللَّهِ] ..... ٥٨٠  
 [أَهْلُ الْإِيمَانِ يَغْمُرُونَ الْمَسَاجِدَ] ..... ٥٨٠  
 [سِقَايَةُ الْحَاجِّ وَعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَا يُسَاوِيَانِ الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ] ..... ٥٨١  
 [الْأَمْرُ بِتَرْكِ مَوَالَةِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَقَارِبَ] ..... ٥٨٢  
 [إِنْحِصَارُ الْفَتْحِ عَلَى النَّصْرِ الْعُيُوبِيِّ] ..... ٥٨٢  
 [وَقَفْعَةُ غَزْوَةِ حُتَيْنَ] ..... ٥٨٣  
 [مَنْعُ الْمُشْرِكِينَ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ] ..... ٥٨٤  
 [التَّحْرِيطُ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ] ..... ٥٨٥  
 [الْجِزْيَةُ عَلَامَةُ الذَّلَّةِ وَالْكُفْرِ] ..... ٥٨٥

تفسير سورة يونس - عليه السلام - وهي مكية ... ٦٢٦  
 [لا يكون الرسول إلا بشرا] ... ٦٢٦  
 [الله خالق الكون وربّه والمتصرف فيه] ... ٦٢٦  
 [مرجع الجميع إلى الله] ... ٦٢٧  
 [كل شيء شاهد على قدرة الله] ... ٦٢٧  
 [ماوى منكري الساعة جهنم] ... ٦٢٨  
 [الجزاء الحسن لأهل الإيمان والعمل الصالح] ... ٦٢٨  
 [لا يستجيب الله دعاء الشر مثل استجابته دعاء الخير] ... ٦٢٩  
 [الإنسان يذكر الله عند الشدة وينساه عند الرخاء] ... ٦٢٩  
 [العبدة يهلك الأقران الأولى] ... ٦٢٩  
 [بيان تعنت رؤساء قريش] ... ٦٣٠  
 [ثبوت صدق القرآن] ... ٦٣٠  
 [ما يعتقده المشركون في آلهتهم] ... ٦٣١  
 [الشرك حادث] ... ٦٣١  
 [طلب المشركين آية] ... ٦٣٢  
 [قلوب الإنسان حين تضيئه الرحمة بعد الضر] ... ٦٣٣  
 [مثل الحياة الدنيا] ... ٦٣٣  
 [التزعب في النعم الدائمة التي لا زوال لها] ... ٦٣٤  
 [أجر المحسنين] ... ٦٣٤  
 [جزاء المجرمين] ... ٦٣٥  
 [تبري آلهة المشركين منهم يوم القيامة] ... ٦٣٥  
 [اعتراف المشركين بتوحيد الله في ربوبيته، وإقامته الحجة عليهم بذلك] ... ٦٣٦  
 [القرآن كلام الله حقاً، وبيان إعجازه] ... ٦٣٧  
 [الأمر بالتبري من المشركين] ... ٦٣٨  
 [الشعور بقصر الحياة الدنيا عند الحشر] ... ٦٣٩  
 [ليقتنم من المجرمين سواء في الدنيا أو في الآخرة] ... ٦٤٠  
 [استعجال المنكرين بيوم القيامة وجوابهم] ... ٦٤٠  
 [القيامة حق] ... ٦٤١  
 [القرآن موعظة وشفاء ورحمة وهدى] ... ٦٤١  
 [ليس لأحد سوى الله أن يجل أو يحرم شيئاً] ... ٦٤١  
 [كل صغير وكبير في علم الله] ... ٦٤٢  
 [معرفة أولياء الله] ... ٦٤٢  
 [المرأ بالبشرى الرؤيا الصادقة] ... ٦٤٣

[البشارة للمؤمنين بالنعم الدائمة] ... ٦٠٢  
 [الأمر بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم] ... ٦٠٤  
 [سبب النزول] ... ٦٠٤  
 [هم المنافقين بقتله ﷺ] ... ٦٠٤  
 [ومن سمات المنافقين طلب المال ثم البخل بالصدقة] ... ٦٠٥  
 [ومنها لئلا المطوعين والسخرة من المؤمنين] ... ٦٠٥  
 [التهبي عن الاستغفار للمنافقين] ... ٦٠٦  
 [فرح المنافقين على تخلفهم عن الغزوة] ... ٦٠٧  
 [لا يؤذن للمنافقين بالخروج في الحرب] ... ٦٠٧  
 [التهبي عن الصلاة على المنافقين] ... ٦٠٨  
 [دعم المتخلفين عن الجهاد] ... ٦٠٨  
 [بيان العذر الشرعي لعدم المشاركة في الجهاد] ... ٦٠٩  
 [بيان مكر المنافقين] ... ٦١٠  
 [الأعراب أشد كفراً ونفاقاً] ... ٦١٠  
 [فضائل المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان] ... ٦١١  
 [مناقض الأعراب والمدينة] ... ٦١٢  
 [المؤمنون المتخلفون عن الجهاد كسلاً] ... ٦١٢  
 [الأمر بأخذ الزكاة وبيان فوائدها] ... ٦١٣  
 [الوعيد للعصاة] ... ٦١٣  
 [إرجاء أمر المتخلفين الثلاثة] ... ٦١٣  
 [مسجد الضرر ومسجد التقوى] ... ٦١٤  
 [فضل مسجد قباء والصلاة فيه] ... ٦١٥  
 [الفرق بين المسجدين] ... ٦١٥  
 [اشترى الله من المجاهدين أنفسهم وأموالهم بالجنة] ... ٦١٦  
 [التهبي عن الدعاء للمشركين] ... ٦١٧  
 [لا مواخذة إلا بعد إقامة الحجة] ... ٦١٨  
 [بيان غزوة تبوك] ... ٦١٨  
 [قصه الثلاثة الذين خلفوا] ... ٦١٩  
 [الأمر بقول الصدق] ... ٦٢١  
 [جزاء الخروج للغزوة] ... ٦٢٢  
 [الأمر بجهاد الكفار والأقرب فالأقرب] ... ٦٢٣  
 [إيمان المؤمن يزيد وينقص والمنافقون يزادون رجساً] ... ٦٢٤  
 [إنبياء المنافقين] ... ٦٢٤  
 [بعثة الرسول ﷺ منه من الله تعالى] ... ٦٢٥

[الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْكُونِ دُونَ غَيْرِهِ] ٦٤٣  
 [اللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الرُّوْحَةِ وَالْأَوْلَادِ] ٦٤٤  
 [قِصَّةُ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ] ٦٤٤  
 [الإِسْلَامُ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ] ٦٤٥  
 [عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ السَّيِّئَةِ] ٦٤٥  
 [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ] ٦٤٦  
 [بَيِّنَ مُوسَى وَالسَّحَرَةَ] ٦٤٦  
 [لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ إِلَّا ذُرِّيَّةً] ٦٤٦  
 [تَحْرِيبُ مُوسَى قَوْمَهُ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ] ٦٤٧  
 [أَمْرُهُمْ بِالصَّلَاةِ فِي الْبُيُوتِ] ٦٤٧  
 [دُعَاءُ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ] ٦٤٧  
 [نَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَرَقُ آلِ فِرْعَوْنَ] ٦٤٨  
 [تَمْكِينُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْأَرْضِ وَرِزْقُهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ] ٦٤٩  
 [تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ] ٦٥٠  
 [لَمْ يَنْفَعِ الْإِيمَانُ أَحَدًا عِنْدَمَا جَاءَ الْعَذَابُ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ] ٦٥٠  
 [لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَكْذِبَ النَّاسُ عَلَى الْإِيمَانِ] ٦٥١  
 [الْأَمْرُ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] ٦٥٢  
 [الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ] ٦٥٢  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ٦٥٣  
 [سُورَةُ هُودٍ مِمَّا شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ] ٦٥٣  
 [الْقُرْآنُ وَدَعْوَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ] ٦٥٣  
 [اللَّهُ خَيْرٌ بِكُلِّ شَيْءٍ] ٦٥٣  
 [اللَّهُ مُكْفَلٌ بِأَرْزَاقِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ] ٦٥٤  
 [خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ] ٦٥٤  
 [جِدَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي التَّبْعِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَاسْتِعْجَالُهُمْ لِلْعَذَابِ] ٦٥٥  
 [مَعَانِي الْأُمَّةِ] ٦٥٥  
 [تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ] ٦٥٥  
 [نُصَائِيُ الرُّسُولِ عَنْ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَتَسْلِيَتُهُ] ٦٥٦  
 [بَيَانُ عِجَازِ الْقُرْآنِ] ٦٥٦  
 [مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ حَظٌّ فِي الْآخِرَةِ] ٦٥٧  
 [إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَكُونُ عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ] ٦٥٧  
 [مُضْدَاقُ كُلِّ حَدِيثٍ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ] ٦٥٨  
 [الْمُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الصَّادُونَ عَنْ سَبِيلِهِ هُمُ الْآخَسِرُونَ] ٦٥٨  
 [خِزَاءُ أَهْلِ الْإِيمَانِ] ٦٥٩  
 [مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ] ٦٥٩  
 [قِصَّةُ نُوحٍ وَحِوَارِهِ مَعَ قَوْمِهِ] ٦٦٠  
 [جَوَابُ نُوحٍ] ٦٦٠  
 [مُطَالَبَةُ قَوْمِ نُوحٍ بِالْعَذَابِ وَجَوَابُهُ لَهُمْ] ٦٦١  
 [اسْتِظْرَادُ لَيْثَانَ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ] ٦٦١  
 [الْوَحْيُ إِلَى نُوحٍ بِمَصِيرِ الْقَوْمِ وَالْأَمْرُ بِالِاسْتِعْدَادِ لَهُ] ٦٦١  
 [بِدَايَةُ الطُّوفَانِ وَحَمْلُ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ] ٦٦٢  
 [الرُّكُوبُ فِي السَّفِينَةِ وَجَزْيُهَا فِي الْأَمْوَاجِ الْهَائِلَةِ] ٦٦٣  
 [قِصَّةُ غَرَقِ ابْنِ نُوحٍ الْكَافِرِ] ٦٦٣  
 [نِهَايَةُ الطُّوفَانِ] ٦٦٣  
 [الْعُودُ إِلَى قِصَّةِ ابْنِ نُوحٍ وَذِكْرُ مَا دَارَ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوْلَ ابْنِهِ] ٦٦٤  
 [الْأَمْرُ بِالتَّزْوُلِ مِنَ السَّفِينَةِ بِالسَّلَامِ وَالتَّبَرُّكِ] ٦٦٤  
 [قِصَصُ الْغَيْبِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا هُوَ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ] ٦٦٥  
 [قِصَّةُ هُودٍ وَقَوْمِهِ عَادٍ] ٦٦٥  
 [الْحَوَارُ بَيْنَ عَادٍ وَهُودٍ] ٦٦٥  
 [إِهْلَاكُ عَادٍ وَتَنْجِيَةُ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ] ٦٦٦  
 [قِصَّةُ صَالِحٍ وَتَمُودَ] ٦٦٦  
 [الْحَوَارُ بَيْنَ صَالِحٍ وَتَمُودَ] ٦٦٧  
 [مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَتَبَشِيرُهُمْ إِيَّاهُ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ] ٦٦٧  
 [مُجَادَلَةُ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْمِ لُوطٍ] ٦٦٨  
 [مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى لُوطٍ وَمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الضُّيقِ وَمَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ] ٦٦٩  
 [عَجْزُ لُوطٍ وَتَمَنِّيهِ الْقُوَّةَ، وَإِخْبَارُ الْمَلَائِكَةِ لَهُ بِالْحَقِيقَةِ] ٦٦٩  
 [قَلْبُ قَزِيَّةِ قَوْمِ لُوطٍ وَإِهْلَاكُهُمْ] ٦٧٠  
 [قِصَّةُ مَدْيَنَ وَدَعْوَةُ شُعَيْبٍ] ٦٧١  
 [جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ] ٦٧١  
 [رَدُّ شُعَيْبٍ عَلَى قَوْمِهِ] ٦٧١  
 [جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ] ٦٧٢

[الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْكُونِ دُونَ غَيْرِهِ] ٦٤٣  
 [اللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الرُّوْحَةِ وَالْأَوْلَادِ] ٦٤٤  
 [قِصَّةُ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ] ٦٤٤  
 [الإِسْلَامُ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ] ٦٤٥  
 [عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ السَّيِّئَةِ] ٦٤٥  
 [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ] ٦٤٦  
 [بَيِّنَ مُوسَى وَالسَّحَرَةَ] ٦٤٦  
 [لَمْ يُؤْمِنْ بِمُوسَى مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ إِلَّا ذُرِّيَّةً] ٦٤٦  
 [تَحْرِيبُ مُوسَى قَوْمَهُ عَلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ] ٦٤٧  
 [أَمْرُهُمْ بِالصَّلَاةِ فِي الْبُيُوتِ] ٦٤٧  
 [دُعَاءُ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ] ٦٤٧  
 [نَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَرَقُ آلِ فِرْعَوْنَ] ٦٤٨  
 [تَمْكِينُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْأَرْضِ وَرِزْقُهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ] ٦٤٩  
 [تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ] ٦٥٠  
 [لَمْ يَنْفَعِ الْإِيمَانُ أَحَدًا عِنْدَمَا جَاءَ الْعَذَابُ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ] ٦٥٠  
 [لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَكْذِبَ النَّاسُ عَلَى الْإِيمَانِ] ٦٥١  
 [الْأَمْرُ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] ٦٥٢  
 [الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ] ٦٥٢  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ٦٥٣  
 [سُورَةُ هُودٍ مِمَّا شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ] ٦٥٣  
 [الْقُرْآنُ وَدَعْوَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ] ٦٥٣  
 [اللَّهُ خَيْرٌ بِكُلِّ شَيْءٍ] ٦٥٣  
 [اللَّهُ مُكْفَلٌ بِأَرْزَاقِ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ] ٦٥٤  
 [خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ] ٦٥٤  
 [جِدَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي التَّبْعِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَاسْتِعْجَالُهُمْ لِلْعَذَابِ] ٦٥٥  
 [مَعَانِي الْأُمَّةِ] ٦٥٥  
 [تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ] ٦٥٥  
 [نُصَائِيُ الرُّسُولِ عَنْ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ وَتَسْلِيَتُهُ] ٦٥٦  
 [بَيَانُ عِجَازِ الْقُرْآنِ] ٦٥٦  
 [مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ حَظٌّ فِي الْآخِرَةِ] ٦٥٧  
 [إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَكُونُ عَلَى فِطْرَةِ اللَّهِ] ٦٥٧  
 [مُضْدَاقُ كُلِّ حَدِيثٍ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ] ٦٥٨

٦٨٩ ..... [رُؤْيَا مَلِكٍ مُضَرَ] .....

٦٨٩ ..... [تَغْيِيرُ رُؤْيَا الْمَلِكِ] .....

..... [تَحْقِيقُ مَا جَرَى بَيْنَ يُوسُفَ وَبَيْنَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَنِسْوَةِ

٦٩٠ ..... [مُضَرَ] .....

٦٩١ ..... [مَكَانَةُ يُوسُفَ فِي عَيْنِ الْمَلِكِ] .....

٦٩١ ..... [حُكْمُ يُوسُفَ فِي مُضَرَ] .....

..... [وُرُودُ إِخْوَةِ يُوسُفَ إِلَى مُضَرَ وَرُجُوعُهُمْ مَعَ الْمِيرَةِ

٦٩١ ..... [وَتَعَاهُدُهُمْ بِإِثْنَانِ أَخِيهِمُ الْأَصْغَرَ] .....

٦٩٢ ..... [طَلَبُهُمْ مِنْ يَعْقُوبَ أَنْ يَذْهَبُوا بَيْنِيَامِينَ وَجَوَابُهُ] .....

٦٩٣ ..... [خُرُوجُ الْبُضَاعَةِ مِنَ الْمَتَاعِ] .....

..... [أَمْرُ يَعْقُوبَ بَنِيهِ أَنْ يَدْخُلُوا مُضَرَ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِ مُتَفَرِّقَةٍ

٦٩٣ ..... [خَشْيَةِ الْعَيْنِ] .....

٦٩٣ ..... [تَسْلِيَةِ يُوسُفَ لِبَنِيَامِينَ] .....

٦٩٤ ..... [جَعْلُ صَوَاعِ الْمَلِكِ فِي رَحْلِ أَخِيهِ وَحَبْسُهُ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ] .....

٦٩٥ ..... [إِخْوَةُ يُوسُفَ اتَّهَمُوهُ بِالسَّرَقَةِ] .....

..... [إِفْتِرَاحُ الْإِخْوَةِ أَخَذَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَدَلَ بَيْنِيَامِينَ وَالرَّدُّ عَلَى

٦٩٥ ..... [هَذَا الْإِفْتِرَاحِ] .....

٦٩٥ ..... [مُتَسَاوَرَتُهُمْ وَمَشْوَرَةُ كَبِيرِهِمْ] .....

٦٩٦ ..... [جَوَابُ نَبِيِّ اللَّهِ وَحَالُهُ بَعْدَ سَمَاعِ الْحَبْرِ الْمُؤَلِّمِ] .....

٦٩٧ ..... [الْأَمْرُ بِتَحْسُسِ يُوسُفَ وَأَخِيهِ] .....

٦٩٧ ..... [إِخْوَةُ يُوسُفَ بَيْنَ يَدَيْهِ] .....

٦٩٧ ..... [تَعَرُّفُ يُوسُفَ إِلَى إِخْوَتِهِ وَعَفْوُهُ عَنْهُمْ] .....

٦٩٨ ..... [قَمِيصُ يُوسُفَ وَوَجْدَانُ يَعْقُوبَ رِيحَ يُوسُفَ] .....

٦٩٨ ..... [جَاءَ يَهُودَا بِالْقَمِيصِ بِشِيرًا] .....

٦٩٨ ..... [نَدَامَةُ إِخْوَةِ يُوسُفَ] .....

٦٩٩ ..... [اسْتِثْبَالُ يُوسُفَ أَبَوَيْهِ وَصِدْقُ رُؤْيَا] .....

٦٩٩ ..... [الدُّعَاءُ بِالْخَاتِمَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ] .....

٧٠٠ ..... [مَا سَبَقَ مِنَ الْقِصَصِ هُوَ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ] .....

٧٠٠ ..... [عَدَمُ تَفَكُّرِ النَّاسِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ] .....

٧٠١ ..... [سَبِيلُ الرُّسُولِ ﷺ] .....

٧٠١ ..... [الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا بَشَرًا وَرَجَالًا] .....

٧٠٢ ..... [الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْبَشَرِ لَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ] .....

٧٠٢ ..... [الْعَبْرَةُ فِيمَنْ سَبَقَ] .....

٧٠٢ ..... [النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ وَضِيْقِ الْحَالِ] .....

٦٧٢ ..... [رَدُّ شُعَيْبٍ عَلَى قَوْمِهِ] .....

٦٧٢ ..... [تَهْدِيدُ شُعَيْبٍ قَوْمَهُ] .....

٦٧٣ ..... [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ] .....

٦٧٤ ..... [الْأَتْعَاطُ بِالْفَرَى الْمُهْلَكَةِ] .....

٦٧٤ ..... [إِهْلَاكُ الْفَرَى ذَلِيلٌ عَلَى قِيَامِ السَّاعَةِ] .....

٦٧٥ ..... [حَالُ الْأَشْقِيَاءِ وَمَصِيرُهُمْ] .....

٦٧٥ ..... [حَالُ السَّعْدَاءِ وَمَصِيرُهُمْ] .....

٦٧٦ ..... [الشَّرْكُ ضَلَالٌ لَا شَكَّ فِيهِ] .....

٦٧٦ ..... [الْأَمْرُ بِالْإِسْتِقَامَةِ] .....

٦٧٦ ..... [الْأَمْرُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ] .....

٦٧٧ ..... [إِنَّ الْحَسَنَاتِ تَمْحُو السَّيِّئَاتِ] .....

٦٧٧ ..... [لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ جَمَاعَةٍ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ] .....

٦٧٨ ..... [لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ الْإِيمَانَ لِجَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ] .....

٦٧٨ ..... [الْخَاتِمَةُ] .....

٦٧٩ ..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] .....

٦٧٩ ..... [أَوْصَافُ الْقُرْآنِ] .....

٦٧٩ ..... [سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ] .....

٦٧٩ ..... [رُؤْيَا يُوسُفَ] .....

٦٧٩ ..... [أَمْرُ وَالِدِ يُوسُفَ بِإِخْفَاءِ الرُّؤْيَا حَدَرًا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ] .....

٦٨٠ ..... [تَغْيِيرُ رُؤْيَا يُوسُفَ] .....

٦٨٠ ..... [قِصَّةُ يُوسُفَ وَفِيهَا آيَاتٌ] .....

٦٨١ ..... [اسْتِثْنَانُ الْإِخْوَةِ بِذَهَابِ يُوسُفَ] .....

٦٨١ ..... [جَوَابُ الْأَبِ] .....

٦٨٢ ..... [إِقْلَاءُ يُوسُفَ فِي الْبُئْرِ] .....

٦٨٢ ..... [مَكْرُ إِخْوَةِ يُوسُفَ مَعَ آبِيهِمْ] .....

٦٨٢ ..... [إِخْرَاجُ يُوسُفَ مِنَ الْبُئْرِ وَبَيْعُهُ] .....

٦٨٣ ..... [يُوسُفَ فِي مُضَرَ] .....

٦٨٣ ..... [حُبُّ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لِيُوسُفَ وَمَكِيدَتُهَا بِهِ] .....

٦٨٦ ..... [وُصُولُ الْخَبَرِ إِلَى نِسْوَةِ الْمَدِينَةِ وَمَكِيدَتُهُنَّ بِيُوسُفَ] .....

٦٨٧ ..... [الْقَرَارُ بِسَجْنِ يُوسُفَ وَتَقْيِيدُهُ] .....

٦٨٧ ..... [سَجْنَانِ يَسْأَلَانِ يُوسُفَ عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُمَا] .....

٦٨٧ ..... [دَعْوَةُ يُوسُفَ السَّجِينِينَ إِلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ التَّغْيِيرِ] .....

٦٨٨ ..... [تَغْيِيرُ الرُّؤْيَا] .....

٦٨٨ ..... [قَالَ يُوسُفُ لِلْسَّاقِي أَدْكُرْنِي عِنْدَ الْمَلِكِ] .....

٧١٨ [بَيَانُ عِقَابِ الْكُفَّارِ وَجَزَاءِ الْأَبْرَارِ] ..  
 [يَفْرَحُ الصَّادِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ  
 ﷺ لِتَصْدِيقِ كُتُبِهِمْ] .. ٧١٨  
 [الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا بَشَرًا] .. ٧١٩  
 [الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ لَيْسَ مِنْ مُسْتَطَاعِ الرُّسُولِ] .. ٧١٩  
 [مَا يُمَحَى وَيُزَالُ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ] .. ٧١٩  
 [عَلَى الرُّسُولِ الْبَلَاغُ وَعَلَى اللَّهِ الْحِسَابُ] .. ٧٢٠  
 [مَكْرُ الْكُفَّارِ وَالْوَعْدُ عَلَى ذَلِكَ] .. ٧٢٠  
 [الْأَسْتِثْنَاءُ يُعْلَمُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلرَّسَالَةِ  
 الْمُحَمَّدِيَّةِ] .. ٧٢٠  
 [تفسير سورة إبراهيم - عليه السلام - وهي مَكِّيَّة] .. ٧٢١  
 [التَّعْرِيفُ بِالْقُرْآنِ وَمَقْصُودُهُ وَالْوَيْلُ لِمَنْ خَالَفَهُ] .. ٧٢١  
 [كُلُّ نَبِيٍّ أَرْسَلَ بِلسَانِ قَوْمِهِ لِيَكُونَ الْهِدَايَةُ أَوْ الضَّلَالُ  
 بَعْدَ تَبْيِينِهِ] .. ٧٢١  
 [بِعَنَّةِ يُوسُفَ وَوَعْظُهُ لِقَوْمِهِ] .. ٧٢٢  
 [تَكْذِيبُ الْأُمَمِ لِرُسُلِهِمْ وَمَا دَارَ بَيْنَهُمْ] .. ٧٢٣  
 [الْمُجَادَلَةُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْكَافِرِ] .. ٧٢٤  
 [عَدَمُ اعْتِرَافِ الْكُفَّارِ بِرِسَالَةِ الرُّسُلِ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ بَشَرٌ] .. ٧٢٤  
 [تَهْدِيدُ الْأُمَمِ رُسُلَهُمْ وَتَبْيِشِيرُ اللَّهِ لَهُوْلَاءِ الرُّسُلِ] .. ٧٢٤  
 [مَثَلٌ لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ] .. ٧٢٦  
 [بُرْهَانُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] .. ٧٢٧  
 [مُجَادَلَةُ التَّابِعِينَ وَالتَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ] .. ٧٢٧  
 [خِطَابُ إِبْرَاهِيمَ أَتْبَاعَهُ وَاعْتِدَارُهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] .. ٧٢٨  
 [مَثَلٌ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْقَوْلُ بِالْبَاطِلِ] .. ٧٢٩  
 [تَثْبِيتُ الْمُؤْمِنِ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] .. ٧٢٩  
 [مَقْصِيرٌ مَنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا] .. ٧٣١  
 [الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ] .. ٧٣٢  
 [بَيَانُ نِعَمِ اللَّهِ الْعَدِيدَةِ] .. ٧٣٢  
 [دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَكَّةَ وَلَوَالِدَيْهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ] .. ٧٣٣  
 [إِنْمَهَالُ اللَّهِ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ عَنْ غَفْلَةٍ] .. ٧٣٤  
 [لَا مُهْلَةَ بَعْدَ مَجِيئِ الْعَذَابِ] .. ٧٣٥  
 [لَا يُخْلَفُ اللَّهُ الْوَعْدَ] .. ٧٣٦  
 [أَحْوَالُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] .. ٧٣٦

٧٠٣ [الْعِبْرَةُ لِمَنْ اعْتَبَرَ] ..  
 [تفسير سورة الزعد وهي مَكِّيَّة] .. ٧٠٣  
 [الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ] .. ٧٠٣  
 [بَيَانُ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ] .. ٧٠٤  
 [الْإِسْتِثْنَاءُ] .. ٧٠٤  
 [تَسْخِيرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَجَزَائُهُمَا] .. ٧٠٤  
 [آيَاتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ] .. ٧٠٥  
 [إِنْكَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ عَجِيبٌ] .. ٧٠٥  
 [إِسْتِغْثَالُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ] .. ٧٠٦  
 [طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَةَ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] .. ٧٠٦  
 [عَالَمُ الْعَيْبِ هُوَ اللَّهُ] .. ٧٠٧  
 [عِلْمُ اللَّهِ مُحِيطٌ بِكُلِّ ظَاهِرٍ وَخَفِيٍّ] .. ٧٠٧  
 [الْمَلَايِكَةُ الْحَفَظَةُ] .. ٧٠٨  
 [السَّحَابُ وَالْبُرْقُ وَالرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ] .. ٧٠٨  
 [الدُّعَاءُ عِنْدَ الرُّعْدِ] .. ٧٠٨  
 [تَمْثِيلُ عَجْرِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ] .. ٧١٠  
 [كُلُّ شَيْءٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ] .. ٧١٠  
 [إِبْنَاتُ التَّوْحِيدِ] .. ٧١٠  
 [مَثَلَانِ لِيَقَاءِ الْحَقِّ وَفَنَاءِ الْبَاطِلِ] .. ٧١١  
 [ذِكْرُ مَزِيدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ] .. ٧١٢  
 [جَزَاءُ السَّعْدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ] .. ٧١٢  
 [لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ] .. ٧١٢  
 [أَوْصَافُ السَّعْدَاءِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْجَنَّةِ] .. ٧١٣  
 [أَوْصَافُ الْأَشْقِيَاءِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى اللَّعْنَةِ وَسُوءِ الدَّارِ] .. ٧١٣  
 [السَّعَةُ فِي الرِّزْقِ وَالْقُرْبُ بِإِدِّ اللَّهِ] .. ٧١٤  
 [طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] .. ٧١٤  
 [طَمَأْنِينَةُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ بِذِكْرِ اللَّهِ] .. ٧١٥  
 [بَيَانُ طُوبَى] .. ٧١٥  
 [مِمَّا بُعِثَ بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ، تِلَاوَةُ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَالِدَعْوَةُ  
 إِلَيْهِ] .. ٧١٥  
 [فَضْلُ الْقُرْآنِ وَجُحُودُ الْكُفَّارِ بِهِ] .. ٧١٦  
 [تَسْلِيَةُ لِرُسُولِ اللَّهِ ﷺ] .. ٧١٦  
 [لَا اشْتِرَاكَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ بِوُجُوهِ مِنْ  
 التَّوْحِيدِ] .. ٧١٧

- تفسير سورة الجحر وهي مكية ..... ٧٣٧
- [يَتَمَنَّى الْكُفَّارُ فِي وَفْتٍ مَا أَنْ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ] ..... ٧٣٧
- [يَكُلْ قُرْبَةً أَجَلَ يَتَنَبَّئُ بِهِ] ..... ٧٣٨
- [رَمَى الرَّسُولَ بِأَنَّهُ مَجْنُونٌ وَطَلَبَ نَزُولَ الْمَلَائِكَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ] ..... ٧٣٨
- [اسْتَفْهَاءُ مُشْرِكِي كُلِّ أُمَّةٍ بِرُسُلِهِمْ] ..... ٧٣٨
- [الْمُعَانِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ لَا يُؤْمِنُونَ مَهْمَا رَأَوْا مِنْ الْآيَاتِ] ..... ٧٣٩
- [قُدْرَةُ اللَّهِ وَآيَاتُهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] ..... ٧٣٩
- [خَزَائِنُ كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ] ..... ٧٤٠
- [مُنْعَهُ الرِّيحِ] ..... ٧٤٠
- [الْمَاءُ الْعَذْبُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ] ..... ٧٤٠
- [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ] ..... ٧٤٠
- [مَادَّةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْجَانِّ] ..... ٧٤١
- [خَلَقَ آدَمَ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَتَمَرَّدَ إِبْلِيسَ] ..... ٧٤١
- [إِخْرَاجُ إِبْلِيسَ مِنْ مَقَامِهِ عِنْدَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَإِمَهَالُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ٧٤١
- [تَحَدِّيْ إِبْلِيسَ بِالْإِغْوَاءِ، وَوَعِيدُ اللَّهِ لَهُ بِجَهَنَّمَ] ..... ٧٤٢
- [أَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ] ..... ٧٤٢
- [بَيَانُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَحْوَالِهِمْ] ..... ٧٤٢
- [صِفَةُ إِبْرَاهِيمَ وَتَبْيِيهِمْ إِيَّاهُ بَعْلَامٍ] ..... ٧٤٣
- [سَبَبُ مَجِيءِ الْمَلَائِكَةِ] ..... ٧٤٣
- [مَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَ لُوطٍ] ..... ٧٤٣
- [أَمْرُ لُوطٍ بِخُرُوجِهِ مَعَ أَسْرَتِهِ فِي اللَّيْلِ] ..... ٧٤٤
- [مَجِيءُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ رِجَالٌ] ..... ٧٤٤
- [إِهْلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ] ..... ٧٤٥
- [قُرْبَةُ سُدُومَ عَلَى الطَّرِيقِ] ..... ٧٤٥
- [إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ: قَوْمِ شُعَيْبٍ] ..... ٧٤٥
- [إِهْلَاكُ أَصْحَابِ الْحَجَرِ، وَهُمْ تَمُودُ] ..... ٧٤٥
- [خُلِقَتِ الدُّنْيَا لِمَصْلَحَةٍ مَا، ثُمَّ تَقُومُ السَّاعَةُ] ..... ٧٤٥
- [الْإِمْتِنَانُ بِالْقُرْآنِ وَالْأَمْرُ بِالْمَرْكِزِ عَلَى دَعْوَتِهِ] ..... ٧٤٦
- [الرَّسُولُ نَذِيرٌ مُبِينٌ] ..... ٧٤٦
- [تفسير المُقْتَسِمِينَ] ..... ٧٤٧
- [الْأَمْرُ بِالصَّدْعِ بِالْحَقِّ] ..... ٧٤٧
- [الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَصَمَانٍ كِفَايَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ] ..... ٧٤٨
- [التَّشْجِيعُ عَلَى تَحْمِلِ الْمَسَاقِ، وَالْأَمْرُ بِالنِّزَامِ التَّشْيِيعِ وَالْعِبَادَةِ حَتَّى الْمَوْتِ] ..... ٧٤٨
- [تفسير سورة النحل وهي مكية] ..... ٧٤٩
- [الْإِنذَارُ بِقُرْبِ السَّاعَةِ] ..... ٧٤٩
- [يُرْسِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ بِالْوَحِيدِ] ..... ٧٥٠
- [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْإِنْسَانَ] ..... ٧٥٠
- [الْأَنْعَامُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَنِعْمَةٌ مِنْهُ] ..... ٧٥٠
- [بَيَانُ الطَّرِيقِ الدِّينِيِّ] ..... ٧٥١
- [الْمَطَرُ وَفَوَائِدُهُ وَبَيَانُ أَنَّهُ آيَةٌ] ..... ٧٥٢
- [آيَاتٌ فِي تَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَفِيمَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ] ..... ٧٥٢
- [آيَاتٌ فِي الْبَحَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالسُّبُلِ وَالْجُجُومِ] ..... ٧٥٣
- [الْعِبَادَةُ حَقٌّ لِلَّهِ] ..... ٧٥٣
- [إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ مَخْلُوقَةٌ غَيْرُ خَالِقَةٍ] ..... ٧٥٣
- [لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ] ..... ٧٥٤
- [إِعْرَاضُ الْكُفَّارِ عَنِ الْوَحْيِ وَتَضَاعُفَةُ عِقَابِهِمْ] ..... ٧٥٤
- [بَيَانُ مَا فَعَلَهُ السَّاقِطُونَ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ] ..... ٧٥٥
- [أَحْوَالُ الْكَافِرِينَ عِنْدَ وَقَاتِهِمْ وَبَعْدَهَا] ..... ٧٥٥
- [قَوْلُ الْمُتَّقِينَ فِي الْوَحْيِ وَجَزَائُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ عِنْدَ الْوَفَاةِ وَبَعْدَهَا] ..... ٧٥٦
- [مَعْنَى تَأْخِيرِ الْكَافِرِينَ عَنِ الْإِيمَانِ أَنْتِظَارُهُمْ لِلْعَذَابِ] ..... ٧٥٦
- [اسْتِذْلَالُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى شِرْكِهِمْ بِالْقَدْرِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] ..... ٧٥٧
- [الْبَعْتُ بَعْدَ الْمَوْتِ حَقٌّ، وَفِيهِ حِكْمَةٌ، وَهُوَ هَيِّزٌ عَلَى اللَّهِ] ..... ٧٥٨
- [جَزَاءُ الْمُهَاجِرِينَ] ..... ٧٥٨
- [مَا أُرْسِلَ رَسُولٌ إِلَّا مِنَ الْبَشَرِ] ..... ٧٥٨
- [كَيْفَ يَأْمُرُ الْمُعْجَرُونَ] ..... ٧٥٩
- [سُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ لِلَّهِ] ..... ٧٦٠
- [اللَّهُ وَحْدَهُ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ] ..... ٧٦٠
- [مِنْ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ التَّنْذِرُ لِلْإِلَهَةِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ] ..... ٧٦١
- [نُفُورُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْبَنَاتِ] ..... ٧٦١
- [لَا يُؤْخَذُ بِالْمَعَاصِي فَوْراً] ..... ٧٦٢

[رَمَى الْمُشْرِكِينَ الرَّسُولَ بِالْإِفْتِرَاءِ لِنَسْخِ بَعْضِ الْآيَاتِ،  
وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] ..... ٧٧٣  
[نَسَبَ الْمُشْرِكِينَ تَعْلِيمَ الْقُرْآنِ إِلَى بَشَرٍ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] ..... ٧٧٣  
[قَهَرَ اللَّهُ وَغَضَبَهُ عَلَى الْمُزْنِدِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ عَلَى الْكُفْرِ] ..... ٧٧٤  
[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ] ..... ٧٧٤  
[يُعْفَرُ لِلْمُكْرَهِ إِذْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ بَعْدَ الْإِكْرَاهِ] ..... ٧٧٥  
[مَثَلُ لِمَكَّةَ] ..... ٧٧٦  
[الْأَمْرُ بِأَكْلِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ وَبِالشُّكْرِ وَبَيَانُ الْحَرَامِ] ..... ٧٧٦  
[تَحْرِيمُ بَعْضِ الطَّيِّبَاتِ عَلَى الْيَهُودِ] ..... ٧٧٧  
[ذِكْرُ خَلِيلِ اللَّهِ] ..... ٧٧٧  
[جَعَلَ السَّبَبَ عَلَى الْيَهُودِ] ..... ٧٧٨  
[الْأَمْرُ بِالذُّعْوَةِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ] ..... ٧٧٨  
[الْأَمْرُ بِالسَّوَادَةِ فِي الْقِصَاصِ] ..... ٧٧٨  
تفسير سورة الإسراء وهي مكيّة ..... ٧٧٩  
[فَضْلُ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ] ..... ٧٧٩  
[بَيَانُ الْإِسْرَاءِ] ..... ٧٧٩  
ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْإِسْرَاءِ ..... ٧٨٠  
رِوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ..... ٧٨٠  
رِوَايَةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ ..... ٧٨١  
رِوَايَةُ أَنَسِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ..... ٧٨٢  
رِوَايَةُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ..... ٧٨٣  
رِوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ..... ٧٨٣  
رِوَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ..... ٧٨٤  
رِوَايَةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ..... ٧٨٤  
رِوَايَةُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ..... ٧٨٤  
رِوَايَةُ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ..... ٧٨٥  
[زَمَانَ الْإِسْرَاءِ وَأَنَّهُ كَانَ بِجَسَدِهِ وَرُوحِهِ يَقْظَةُ لَا مَنَامًا] ..... ٧٨٥  
[فَائِدَةٌ حَسَنَةٌ جَلِيلَةٌ] ..... ٧٨٦  
[ذِكْرُ مُوسَى وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَةَ] ..... ٧٨٦  
[ذِكْرُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ الْيَهُودَ يَطْعُونَ مَرَّتَيْنِ] ..... ٧٨٧  
[الْإِسْنَادُ الْأَوَّلُ مِنَ الْيَهُودِ وَجَزَاؤُهُمْ عَلَيْهِ] ..... ٧٨٧  
[الْإِسْنَادُ الثَّانِي] ..... ٧٨٧  
[مَدْحُ الْقُرْآنِ] ..... ٧٨٨  
[عَجَلَةُ الْإِنْسَانِ وَدُعَاؤُهُ عَلَى نَفْسِهِ] ..... ٧٨٨

[نَسَبُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى اللَّهِ مَا يَكْرَهُونَ] ..... ٧٦٢  
[التَّعْزِي بِمَنْ سَبَقَ] ..... ٧٦٢  
[الْقَصْدُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ] ..... ٧٦٢  
[الْعِبْرَةُ وَالنَّعْمَةُ فِي الْأَنْعَامِ وَتَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ] ..... ٧٦٣  
[وَفِي النَّحْلِ وَعَسَلِهَا نِعْمَةٌ وَغَيْرَةٌ] ..... ٧٦٣  
[وَفِي أَطْوَارِ عُمْرِ الْإِنْسَانِ غَيْرَةٌ] ..... ٧٦٤  
[وَفِي أُمُورِ مَعَاشِ الْإِنْسَانِ آيَةٌ وَنِعْمَةٌ] ..... ٧٦٥  
[وَمِنْ النِّعَمِ وَالْآيَاتِ الْأَزْوَاجُ وَالْأَوْلَادُ وَالْأَحْفَادُ] ..... ٧٦٥  
[الْكِبَرُ عَلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ] ..... ٧٦٦  
[مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ أَوْ لِلْوَتَنِ وَالْحَقِّ] ..... ٧٦٦  
[مَثَلُ آخَرٍ] ..... ٧٦٦  
[الْعَيْبُ لِلَّهِ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ] ..... ٧٦٦  
[وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْإِفْتِدَاءُ] ..... ٧٦٦  
[وَفِي تَسْخِيرِ الطَّيْرِ فِي جَوْ السَّمَاءِ آيَةٌ] ..... ٧٦٧  
[الْبَيُوتُ وَالْأَنْثَاثُ وَالْيَابُتُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ] ..... ٧٦٧  
[الظَّلَالُ وَالْجِبَالُ وَسَرَابِيلُ الثُّوبِ، وَالْحَدِيدُ أَيْضًا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ] ..... ٧٦٨  
[مِمَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ] ..... ٧٦٨  
[حَالُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْحَشْرِ] ..... ٧٦٨  
[تَبَرُّ إِلَهَهُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا] ..... ٧٦٩  
[يَسْتَسْلِمُ الْجَمِيعُ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ٧٦٩  
[الرَّبِّيَّةُ فِي عَذَابِ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْكَفَّارِ] ..... ٧٦٩  
[كُلُّ نَبِيٍّ يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ٧٦٩  
[الْقُرْآنُ بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ] ..... ٧٦٩  
[الْأَمْرُ بِالْإِنْصَافِ وَالْإِحْسَانِ] ..... ٧٧٠  
[الْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالتَّهْنِي عَنِ الْقَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبُغْيِ] ..... ٧٧٠  
[وَأَفْعَةُ عَيْنٍ لِعُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] ..... ٧٧٠  
[الْأَمْرُ بِإِيْقَاءِ الْعَهْدِ] ..... ٧٧٠  
[لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً] ..... ٧٧٢  
[التَّهْنِي عَنْ أَنْ يُحْلَفَ لِلْخِدَاعِ] ..... ٧٧٢  
[لَا تَنْفَضُوا الْأَيْمَانَ لِلدُّنْيَا] ..... ٧٧٢  
[الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَجَزَاؤُهُ] ..... ٧٧٢  
[الْأَمْرُ بِالِاسْتِعَادَةِ قَبْلَ التَّلَاوَةِ] ..... ٧٧٢

٨٠٤ ..... [فَصَةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ]

٨٠٥ ..... [أَفْلُكُ مِنْ عَلَامَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ]

٨٠٥ ..... [الْكَفَّارُ لَا يَذْكُرُونَ عِنْدَ الضَّرِّ إِلَّا اللَّهَ]

٨٠٦ ..... [أَلَا يَأْتِي عَذَابُ اللَّهِ فِي الْبُرْءِ؟]

٨٠٦ ..... [وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِي الْبَحْرِ...]

٨٠٦ ..... [بَيَانُ شَرَفِ الْإِنْسَانِ وَكَرَمِهِ]

٨٠٧ ..... [كُلُّ أَحَدٍ يُدْعَى بِإِمَامِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

..... [شِدَّةُ عُقُوبَةِ النَّبِيِّ لَوْ رَكَنَ شَيْئًا قَلِيلًا إِلَى الْكُفَّارِ فِي

٨٠٧ ..... مُطَالَئَتِهِمْ بِتَغْيِيرِ بَعْضِ الْوُحْيِ]

٨٠٧ ..... [سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ]

٨٠٨ ..... [الْأَمْرُ بِإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا]

٨٠٨ ..... [اجْتِمَاعُ الْمَلَائِكَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ]

٨٠٩ ..... [الْأَمْرُ بِالتَّحِيدِ]

٨١٠ ..... [حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

٨١١ ..... [الْأَمْرُ بِالْهَجْرَةِ]

٨١١ ..... [وَعِيدُ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ]

٨١٢ ..... [الْقُرْآنُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ]

٨١٢ ..... [عَادَةُ الْإِنْسَانِ فِي حَالَتِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ]

٨١٢ ..... [ذِكْرُ الرُّوحِ]

٨١٣ ..... [الرُّوحُ وَالنَّفْسُ]

٨١٣ ..... [لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِالْقُرْآنِ]

٨١٣ ..... [التَّحْدِي بِالْقُرْآنِ]

٨١٤ ..... [طَلَبُ قُرَيْشٍ آيَاتِ مُعَيَّنَةٍ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]

٨١٥ ..... [سَبَبُ رَدِّ طَلَبَاتِ الْمُشْرِكِينَ]

..... [إِنَاءُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْإِيمَانِ لِيَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا، وَالرَّدُّ

٨١٦ ..... عَلَيْهِمْ]

٨١٦ ..... [الْهِدَايَةُ وَالْإِضْلَالُ بِيَدِ اللَّهِ]

٨١٦ ..... [جَزَاءُ أَهْلِ الضَّلَالِ]

٨١٧ ..... [الْإِمْسَاكُ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ]

٨١٧ ..... [تِسْعُ آيَاتٍ لِمُوسَى]

٨١٨ ..... [إِهْلَاكُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ]

٨١٩ ..... [نَزْلُ بِالْحَقِّ مُتَّفَقًا]

٨١٩ ..... [الْقُرْآنُ حَقٌّ يَعْرِفُ بِهِ السَّابِقُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ]

٨١٩ ..... [لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى]

٧٨٨ ..... [الْلَّيْلُ وَالنَّهَارُ مِنْ آيَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ الْعِظَامِ]

٧٨٩ ..... [مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابٌ أَعْمَالِهِ]

٧٩٠ ..... [لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ]

٧٩٠ ..... [لَا عَذَابَ إِلَّا بَعْدَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ]

٧٩٠ ..... [مَسْأَلَةُ مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَوْلَادِ الصَّغَارِ]

٧٩١ ..... [كَرَاهَةُ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ]

٧٩١ ..... [قِرَاءَاتُ قَوْلِهِ "أَمْرُنَا" وَمَعَانِيهِ]

٧٩١ ..... [تَهْدِيدُ لِقُرَيْشٍ]

٧٩٢ ..... [جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ]

٧٩٢ ..... [لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ أَحَدًا]

٧٩٣ ..... [الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِحْسَانِ بِالْوَالِدَيْنِ]

٧٩٣ ..... [عُفْرَانُ زَلَّةِ الْوَلَدِ فِي حَقِّ وَالِدَيْهِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى اللَّهِ]

٧٩٤ ..... [الْأَمْرُ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالتَّهْيِ عَنِ التَّبْدِيرِ]

٧٩٥ ..... [الْإِقْبَادُ فِي الْإِنْفَاقِ]

٧٩٥ ..... [التَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ]

٧٩٦ ..... [الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الزِّنَا وَأَسْبَابِهِ]

٧٩٦ ..... [التَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ]

..... [الْأَمْرُ بِالتَّصَرُّفِ الْحَسَنِ فِي مَالِ النَّيِّمِ وَبِالْكَيْلِ الْأَوْفَى

٧٩٦ ..... وَالْوِزْنَ الْمُسْتَقِيمِ]

٧٩٧ ..... [لَا تَكَلَّمُوا إِلَّا بِالْعِلْمِ]

٧٩٧ ..... [دَمٌ مَشِيءُ التَّبَخُّرِ]

٧٩٨ ..... [كُلُّ مَا سَبَقَ وَحْيِي وَحِكْمَةٌ]

٧٩٨ ..... [الرَّدُّ عَلَى الرَّاعِمِينَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ]

٧٩٨ ..... [كُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ اللَّهَ]

٧٩٩ ..... [الْحِجَابُ عَلَى قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ]

٨٠٠ ..... [تَنَاجِي قُرَيْشٍ بَعْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ]

٨٠١ ..... [الرَّدُّ عَلَى مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ]

٨٠٢ ..... [لِيَتَكَلَّمَ الْعِبَادُ بِالْحُسْنِ وَالْأَدَبِ]

٨٠٢ ..... [تَفْضِيلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ]

..... [إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ لَا تَقْدِرُ عَلَى النَّفْعِ وَالضَّرَرِ بَلْ تَطْلُبُ

٨٠٢ ..... الْقُرْبَةَ إِلَى اللَّهِ]

٨٠٣ ..... [تَهْلُكُ أَوْ تُعَذَّبُ قَرَى الْكُفَّارِ كُلُّهَا قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ]

٨٠٣ ..... [سَبَبُ عَدَمِ إِزْسَالِ الْآيَاتِ]

٨٠٤ ..... [إِحَاطَةُ اللَّهِ بِالنَّاسِ وَجَعْلُهُ رُؤْيَا النَّبِيِّ فِتْنَةً لَهُمْ]



٨٤٢ ..... [قِصَّةُ قَتْلِ الْغُلَامِ] ..  
 ٨٤٢ ..... [قِصَّةُ إِقَامَةِ الْجِدَارِ] ..  
 ٨٤٢ ..... [تَأْوِيلُ حَرْقِ السَّفِينَةِ] ..  
 ٨٤٢ ..... [تَأْوِيلُ قَتْلِ الْغُلَامِ] ..  
 ٨٤٣ ..... [تَأْوِيلُ إِقَامَةِ الْجِدَارِ بِغَيْرِ أُجْرَةٍ] ..  
 ٨٤٣ ..... [هَلْ كَانَ الْخَضِرُ نَبِيًّا] ..  
 ٨٤٣ ..... [وَجْهُ تَسْمِيَةِ الْخَضِرِ] ..  
 ٨٤٣ ..... [قِصَّةُ ذِي الْقُرْنَيْنِ] ..  
 ٨٤٣ ..... [كَانَ ذُو الْقُرْنَيْنِ صَاحِبَ سُلْطَةٍ كَبِيرَةٍ] ..  
 ٨٤٤ ..... [دَهَابُهُ وَبُلُوغُهُ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ] ..  
 ٨٤٥ ..... [دَهَابُهُ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ] ..  
 ٨٤٥ ..... [دَهَابُهُ إِلَى أَرْضِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَبِنَاؤُهُ السِّدِّ] ..  
 ٨٤٦ ..... [صَارَ السِّدُّ مَابَعًا وَسَوَفَ يَذُكُّ قُرْبَ الْقِيَامَةِ] ..  
 ٨٤٧ ..... [عَرَضُ جَهَنَّمَ عَلَى الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..  
 ٨٤٧ ..... [أَلَا خَسِرُونَ أَعْمَالًا وَجَزَائُهُمْ] ..  
 ٨٤٧ ..... [جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ] ..  
 ٨٤٨ ..... [لَا تَقْدُ كَلِمَاتُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ] ..  
 ٨٤٨ ..... [مُحَمَّدٌ ﷺ بَشَرٌ وَرَسُولٌ وَالْإِلَهِ وَاحِدٌ] ..  
 ٨٤٩ ..... سُورَةُ مَزِيمٍ وَهِيَ مَكْتَبَةٌ ..  
 ٨٤٩ ..... [قِصَّةُ زَكَرِيَّا وَدُعَاؤُهُ لِلْوَلَدِ] ..  
 ٨٥٠ ..... [قَبُولُ دُعَائِهِ] ..  
 ٨٥٠ ..... [أَلْتَعْجَبُ بَعْدَ قَبُولِ الدُّعَاءِ] ..  
 ٨٥٠ ..... [جَوَابُ الْمَلِكِ] ..  
 ٨٥٠ ..... [عَلَامَةُ الْحَمْلِ] ..  
 ٨٥١ ..... [وِلَادَةُ الْغُلَامِ وَأَوْصَافُهُ] ..  
 ٨٥٢ ..... [قِصَّةُ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ] ..  
 ٨٥٣ ..... [إِسْتِغْرَارُ الْحَمْلِ ثُمَّ الْوِلَادَةُ] ..  
 ٨٥٣ ..... [مَا قِيلَ لَهَا بَعْدَ الْوِلَادَةِ] ..  
 مَرْيَمُ مَعَ الْمَسِيحِ أَمَامَ الْقَوْمِ وَكَبِيرُهُمْ عَلَيْهَا وَرَدَّ  
 الْمَسِيحِ عَلَيْهِمْ] ..  
 ٨٥٤ ..... [عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَلَيْسَ بِوَلَدِهِ] ..  
 ٨٥٦ ..... [أَمَرَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالتَّوْحِيدِ ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ  
 بَعْدَهُ] ..  
 ٨٥٦ ..... [إِنْدَارُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ] ..

٨١٩ ..... [أَلَا مَرُّ بِالْقِرَاءَةِ بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمَخَافَةِ] ..  
 ٨٢٠ ..... [بَيَانُ التَّوْحِيدِ] ..  
 ٨٢٠ ..... سُورَةُ الْكَهْفِ وَهِيَ مَكْتَبَةٌ ..  
 ٨٢١ ..... [أَنْزَلَ الْقُرْآنَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا] ..  
 ٨٢١ ..... [سَبَبُ نَزُولِ السُّورَةِ] ..  
 ٨٢٢ ..... [لَا تَأْسَفْ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِ الْمُشْرِكِينَ] ..  
 ٨٢٢ ..... [أَلَدُنْيَا دَارُ الْإِنْتِلَاءِ] ..  
 ٨٢٢ ..... [قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ] ..  
 ٨٢٣ ..... [إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ وَاعْتِزَالُهُمُ الْقَوْمَ] ..  
 ٨٢٥ ..... [مَوْقِعُ الْكَهْفِ] ..  
 ٨٢٦ ..... [رُفُودُهُمْ فِي الْكَهْفِ] ..  
 ٨٢٦ ..... [إِسْتِيقَاطُهُمْ وَبَعْنُهُمْ أَحَدُهُمْ لِشَرَاءِ الطَّعَامِ] ..  
 ٨٢٧ ..... [عُثِرَ أَهْلُ الْبَلَدِ عَلَيْهِمْ وَبِنَاؤُهُمْ تَذْكَارًا عَلَى الْكَهْفِ] ..  
 ٨٢٨ ..... [عَدَدُهُمْ] ..  
 ٨٢٨ ..... [أَلَا سَيِّئَاءُ عِنْدَ الْعَزْمِ عَلَى فِعْلٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ] ..  
 ٨٢٩ ..... [مُدَّةُ قِيَامِهِمْ فِي الْكَهْفِ] ..  
 ٨٣٠ ..... [أَلَا مَرُّ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَبِالضَّبْرِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ] ..  
 ٨٣٠ ..... [أَلْحَقْ مِنَ اللَّهِ وَجَزَاءُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ] ..  
 ٨٣١ ..... [جَزَاءُ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ] ..  
 ٨٣٢ ..... [مَثَلُ الْمُشْرِكِ الْغَنِيِّ وَالْمُسْلِمِ الْفَقِيرِ] ..  
 ٨٣٢ ..... [جَوَابُ الْمُؤْمِنِ الْفَقِيرِ] ..  
 ٨٣٣ ..... [أَلَتَنِيحُهُ السَّيِّئَةُ لِلْكَفْرِ] ..  
 ٨٣٣ ..... [مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] ..  
 ٨٣٤ ..... [عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ] ..  
 ٨٣٥ ..... [أَهْمُ أَهْوَالِ السَّاعَةِ] ..  
 ٨٣٦ ..... [قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ] ..  
 ٨٣٦ ..... [إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَشْهَدُوا خَلْقَ شَيْءٍ حَتَّى أَنْفُسَهُمْ] ..  
 ٨٣٧ ..... [عَجْزُ الشُّرَكَاءِ عَنِ الْجَوَابِ وَحُضُورُ الْمُجْرِمِينَ النَّارِ] ..  
 ٨٣٧ ..... [تَضَرُّفُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ] ..  
 ٨٣٨ ..... [بَيَانُ تَمَرُّدِ الْكُفَّارِ] ..  
 ٨٣٨ ..... [أَظْلَمُ النَّاسِ مَنْ أَعْرَضَ بَعْدَ التَّذْكِيرِ] ..  
 ٨٣٩ ..... [قِصَّةُ مُوسَى وَالْخَضِرِ] ..  
 ٨٤١ ..... [لِقَاءُ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ وَمُصَاحَبَتُهُ إِيَّاهُ] ..  
 ٨٤١ ..... [قِصَّةُ حَرْقِ السَّفِينَةِ] ..

[إِصْطَفَاءُ مُوسَى وَأَمْرُهُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَبِدَعْوَتِهِ  
بِالْبَيْنِ وَالرَّفْقِ] ..... ٨٧٤  
[خَوْفُ مُوسَى مِنْ فِرْعَوْنَ وَتَثْبِثُ اللَّهِ إِيَّاهُ] ..... ٨٧٤  
[وَعِظُ مُوسَى أَمَامَ فِرْعَوْنَ] ..... ٨٧٥  
[الْحَوَارِ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ] ..... ٨٧٥  
[تَثْبِثُ جَوَابِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ] ..... ٨٧٦  
[أَرَى فِرْعَوْنَ كُلَّ الْآيَاتِ وَلَمْ يُؤْمِنْ] ..... ٨٧٦  
[وَصَفُ فِرْعَوْنَ آيَاتِ مُوسَى بِالسَّحْرِ وَتَذْيِيرُهُ فِي  
الْمُعَارَضَةِ] ..... ٨٧٦  
[اجْتِمَاعُ الْقَرِيقَيْنِ وَدَعْوَةُ مُوسَى لِلْسَّحَرَةِ] ..... ٨٧٧  
[الْمُعَارَضَةُ وَعَلَبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحَرَةِ] ..... ٨٧٨  
[عَذَابُ السَّحَرَةِ] ..... ٨٧٨  
[تَقَلُّبُ فِرْعَوْنَ عَلَى السَّحَرَةِ وَنَهْدِيدُهُ وَجَوَابُهُمْ] ..... ٨٧٨  
[وَعِظُ السَّحَرَةِ أَمَامَ فِرْعَوْنَ] ..... ٨٧٩  
[خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ] ..... ٨٨٠  
[تَذْكِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ] ..... ٨٨٠  
[ذَهَابُ مُوسَى إِلَى مَوْعِدِ اللَّهِ وَوُقُوعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي  
عِبَادَةِ الْعِجْلِ] ..... ٨٨١  
[نَهْيُ هَارُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَإِضْرَارُهُمْ  
عَلَيْهَا] ..... ٨٨٢  
[مَا حَصَلَ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ بَعْدَ مَا رَجَعَ مُوسَى] ..... ٨٨٣  
[كَيْفَ نَحَتَ السَّامِرِيُّ الْعِجْلَ؟] ..... ٨٨٣  
[عِقَابُ السَّامِرِيِّ وَتَحْرِيقُ الْعِجْلِ] ..... ٨٨٣  
[الْقُرْآنُ ذَكَرَ اللَّهَ الْجَامِعَ وَبَيَّنَّ عُقُوبَةَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ] ..... ٨٨٤  
[نَفْخُ الصُّورِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ٨٨٤  
[تَنْسِفُ الْجِبَالِ وَتُصَيِّرُ الْأَرْضَ قَاعًا صَفْصَفًا] ..... ٨٨٥  
[يَسْعَى النَّاسُ لِصَوْتِ الدَّاعِي] ..... ٨٨٥  
[الشَّفَاعَةُ وَالْجَزَاءُ] ..... ٨٨٥  
[أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيَتَّبِعِيَ النَّاسُ وَيَتَذَكَّرُوا] ..... ٨٨٦  
[أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ عِنْدَ النُّزُولِ دُونَ  
الِاسْتِعْجَالِ لِقِرَاءَتِهِ] ..... ٨٨٦  
[قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ] ..... ٨٨٧  
[إِنْزَالُ آدَمَ إِلَى الْأَرْضِ وَوَعْدُ الْخَيْرِ لِمَنِ اهْتَدَى وَالشَّرِّ  
لِمَنِ بَغَى] ..... ٨٨٨

[وَعِظُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ] ..... ٨٥٨  
[جَوَابُ وَالِدِ إِبْرَاهِيمَ] ..... ٨٥٨  
[جَوَابُ خَلِيلِ اللَّهِ] ..... ٨٥٨  
[وَهَبُ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ] ..... ٨٥٩  
[ذَكَرُ مُوسَى وَهَارُونَ] ..... ٨٥٩  
[ذَكَرُ إِسْمَاعِيلَ] ..... ٨٦٠  
[ذَكَرُ إِدْرِيسَ] ..... ٨٦١  
[أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ هُمْ الْمُحِبُّونَ] ..... ٨٦١  
[خَلَقَهُمُ السُّوءَ وَمَنْ صَلَحَ مِنْهُمْ] ..... ٨٦١  
[صِفَةُ جَنَاتِ الثَّانِيْنَ الصَّادِقِينَ] ..... ٨٦٢  
[لَا تَنْتَزِلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ] ..... ٨٦٣  
[تَعْجُبُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَالرُّدُّ عَلَى  
هَذَا التَّعْجِبِ] ..... ٨٦٣  
[كُلُّ يَرُدُّ عَلَى جَهَنَّمَ ثُمَّ يَخْرُجُ الْمُتَّقُونَ] ..... ٨٦٤  
[إِفْخَارُ الْكُفَّارِ عَلَى حُسْنِ حَظِّهِمْ مِنَ الدُّنْيَا] ..... ٨٦٥  
[يُهْمِلُ الْمُتَمَرِّدُ وَلَا يَهْمِلُ] ..... ٨٦٥  
[يُزَادُ فِي هِدَايَةِ الْمُهْتَدِينَ] ..... ٨٦٥  
[الرُّدُّ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنَّهُ يُعْطَى فِي الْآخِرَةِ  
مَالًا وَوَلَدًا] ..... ٨٦٦  
[يَكْفُرُ إِلَهُهُ الْمُشْرِكِينَ بِعِبَادَتِهِمْ] ..... ٨٦٦  
[تَسَلُّطُ الشَّيَاطِينِ عَلَى الْكَافِرِينَ] ..... ٨٦٧  
[حَالُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ٨٦٧  
[النَّكِيرُ الشَّدِيدُ عَلَى نِسْبَةِ الْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ] ..... ٨٦٧  
[يُجْعَلُ حُبُّ الصَّالِحِينَ فِي الْقُلُوبِ] ..... ٨٦٨  
[نَزَلَ الْقُرْآنُ لِلتَّبَشِيرِ وَالْإِنذَارِ] ..... ٨٦٩  
**سُورَةُ طه وَهِيَ مَكِّيَّةٌ** ..... ٨٦٩  
[الْقُرْآنُ تَذْكِرَةٌ وَتَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ] ..... ٨٦٩  
[حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] ..... ٨٧٠  
[أَوَّلُ الْوَحْيِ إِلَى مُوسَى] ..... ٨٧١  
[قَلْبُ عَصَا مُوسَى حَيَّةٌ] ..... ٨٧١  
[يُبَيِّضُ يَدُ مُوسَى مِنْ غَيْرِ سُوءٍ] ..... ٨٧٢  
[أَمْرُ مُوسَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ لِلْبَلَاغِ] ..... ٨٧٢  
[دُعَاءُ مُوسَى] ..... ٨٧٢  
[الْبِسَارَةُ بِقَبُولِ الدُّعَاءِ وَالتَّذْكِيرُ بِالْمَنْ سَابَقَهُ] ..... ٨٧٣

- ٨٨٨ [الْعَذَابُ الشَّدِيدُ لِلْمُشْرِكِينَ]
- ٨٨٩ [فِي إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ عِبْرَةٌ لِلْمُتَعَبِّرِينَ]
- ٨٨٩ [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَبِإِدَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ]
- ٨٨٩ [لَا تَنْظُرْ إِلَى مُنْعَةٍ الْأَغْنِيَاءِ وَاصْبِرْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ]
- ٨٩٠ [طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ آيَةٌ]
- ٨٩١ [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ٨٩١ [فَضْلُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ]
- ٨٩١ [السَّاعَةُ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا]
- ٨٩٢ [وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ]
- ٨٩٢ [لَمْ يَكُنِ الرُّسُلُ إِلَّا بَشَرًا]
- ٨٩٣ [فَضْلُ الْقُرْآنِ]
- ٨٩٣ [كَيْفَ أَهْلَكَ الظَّالِمُونَ؟]
- ٨٩٤ [خَلْقُ الْكَوْنِ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ]
- ٨٩٤ [كُلُّ شَيْءٍ مِلْكٌ لِلَّهِ وَعَبْدٌ لَهُ]
- ٨٩٤ [الرَّدُّ عَلَى الْآلِهَةِ الْكَافِيَةِ]
- ٨٩٤ [الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ وَيَبْنُونَ أَعْمَالَهُمْ وَدَرَجَاتِهِمْ]
- ٨٩٥ [آيَاتُ اللَّهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ]
- ٨٩٧ [لَيْسَ لِأَحَدٍ الْخُلُودُ فِي الدُّنْيَا]
- ٨٩٧ [اسْتِهْزَاءُ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبِيِّ ﷺ]
- ٨٩٨ [اسْتِعْجَالُ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ]
- ٨٩٨ [الْعِبْرَةُ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ]
- ٨٩٨ [إِنْخِدَاعُ الْمُشْرِكِينَ لِيُطَوَّلَ اسْتِمْتَاعُهُمْ بِالدُّنْيَا وَيَبْقَى الْحَقُّ لَهُمْ]
- ٨٩٩ [إِنْزَالُ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ]
- ٩٠٠ [قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ]
- ٩٠٠ [كَسْرُ الْخَلِيلِ الْأَصْنَامِ]
- ٩٠١ [إِعْتِرَافُ الْقَوْمِ بِعَجْزِ الْآلِهَةِ وَوَعْظُ إِبْرَاهِيمَ]
- ٩٠٢ [إِلْقَاءُ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ وَتَصَرُّفُ اللَّهِ فِيهَا]
- ٩٠٢ [هَجْرَةُ خَلِيلِ اللَّهِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَهُ لُوطٌ]
- ٩٠٣ [ذِكْرُ لُوطٍ]
- ٩٠٣ [ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ]
- ٩٢٢ [ذِكْرُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَمَا أُوتِيَا مِنَ الْآيَاتِ وَذِكْرُ قِصَّةِ
- نَفْسِ الْغَنَمِ فِي الرِّزْقِ]
- [سُلْطَنَةُ سُلَيْمَانَ لَا مِثَالَ لَهَا]
- [ذِكْرُ أَيُّوبَ]
- [ذِكْرُ إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذِي الْكِفْلِ]
- [ذِكْرُ يُوسُفَ]
- [ذِكْرُ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى]
- [ذِكْرُ عِيسَى وَمَرْيَمَ الصَّدِيقَةِ]
- [النَّاسُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ]
- [لَا يَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا مَنْ هَلَكَ]
- [ذِكْرُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ]
- [الْمُشْرِكُونَ وَالْهَهُمْ وَقُودُ جَهَنَّمَ]
- [ذِكْرُ حَالِ السَّعْدَاءِ]
- [تَطَوُّى السَّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- [الْأَرْضُ يَرُثُهَا الصَّالِحُونَ]
- [مُحَمَّدٌ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ]
- [خُلَاصَةُ الْوَحْيِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ]
- [لَا يَعْلَمُ وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا اللَّهُ]
- [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- [أَهْوَالُ السَّاعَةِ]
- [دَمٌ مُبْعِي الشَّيْطَانِ]
- [دَلَائِلُ النَّبُتِ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالنَّبَاتِ]
- [تَطَوُّرُ النَّطْفَةِ وَالْجَنِينَ فِي الرَّحِمِ]
- [تَطَوُّرُ الْإِنْسَانِ مِنَ الطُّفُولَةِ إِلَى الشَّبَحَةِ]
- [مِثَالُ آخَرٍ لِلْبُعْثِ مِنَ النَّبَاتِ]
- [بَيَانُ حَالِ رُؤَسَاءِ الْمُتَبَدِّعِينَ وَالصَّالِحِينَ]
- [مَعْنَى الْعِبَادَةِ عَلَى حَرْفٍ]
- [جَزَاءُ الصَّالِحِينَ]
- [لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ مَهْمَا غَاضَ عَدُوَّهُ]
- [إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَ الْفَرَقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- [كُلُّ شَيْءٍ يَسْجُدُ لِلَّهِ]
- [سَبَبُ التَّرْوِيلِ]
- [جَزَاءُ الْكُفَّارِ]
- [جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ]
- [الْوَعْدُ لِمَنْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ]

٩٤٥ ..... [قِصَّةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

٩٤٦ ..... [قِصَّةُ عَادٍ أَوْ ثَمُودَ]

٩٤٧ ..... [ذِكْرُ الْأَمَمِ الْأُخْرَى]

٩٤٧ ..... [قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ]

٩٤٨ ..... [ذِكْرُ عِيسَى وَمَرْيَمَ]

٩٤٨ ..... [الْأَمْرُ بِأَكْلِ الْحَلَالِ وَبِالْعَمَلِ الصَّالِحِ]

٩٤٩ ..... [دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ التَّوْحِيدُ وَالْوَعْدُ لِلَّذِينَ تَقَرَّفُوا]

٩٤٩ ..... [صِفَاتُ أَهْلِ الْخَيْرِ]

٩٥٠ ..... [بَيَانُ عَذَلِ اللَّهِ وَتَقْلِبَاتِ الْمُشْرِكِينَ]

٩٥١ ..... [الْكُرْدُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَدَمَهُمْ]

٩٥١ ..... [الْحَقُّ لَا يَنْتَبِعُ الْهَوَى]

٩٥٢ ..... [الْنَّبِيُّ لَا يَسْأَلُ أَجْرًا وَيَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]

٩٥٢ ..... [ذِكْرُ أَحْوَالِ الْكُفَّارِ]

٩٥٣ ..... [التَّذْكِيرُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ]

٩٥٣ ..... [اسْتِعَاذُ الْمُشْرِكِينَ بِبَعْثِ بَعْدِ الْمَوْتِ]

..... [إِفْرَارُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالزَّامَهُمْ بِذَلِكَ بِتَوْحِيدِ

٩٥٣ ..... [الْأُلُوهِيَّةِ]

٩٥٥ ..... [لَا شَرِيكَ لِلَّهِ]

..... [الْأَمْرُ بِالدُّعَاءِ عِنْدَ حُلُولِ النِّقَمِ وَبِالدَّفْعِ الْحَسَنِ

٩٥٥ ..... [وَبِالتَّوَعُّدِ]

٩٥٥ ..... [تَمَنِّي الْكُفَّارِ عِنْدَ الْإِحْضَارِ]

٩٥٦ ..... [الْبَرْزُخُ وَعَذَابُهُ]

٩٥٧ ..... [النَّفْخُ فِي الصُّورِ وَوَرْنُ الْأَعْمَالِ]

..... [تَوْبِيخُ أَهْلِ النَّارِ وَاعْتِرَافُهُمْ بِشِقْوَتِهِمْ وَطَلَبُهُمُ الْخُرُوجَ

٩٥٧ ..... [مِنْهَا]

..... [جَوَابُ اللَّهِ وَرَدُّهُ عَلَى الْكُفَّارِ]

٩٥٨ ..... [إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقِ الْعِبَادَ عَبَثًا]

٩٥٨ ..... [الشَّرْكُ ظُلْمٌ عَظِيمٌ لَا فَلَاحَ لِصَاحِبِهِ]

٩٥٩ ..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الثَّوْرِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ]

٩٥٩ ..... [أَهَمِّيَّةُ سُورَةِ الثَّوْرِ]

٩٥٩ ..... [بَيَانُ حَدِّ الزَّنَا]

٩٦٠ ..... [لَا تَكُنْ لَدَيْكُمْ رَافَةٌ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ]

٩٦٠ ..... [أَقِيمُوا الْحَدَّ بِحَضْرَةِ النَّاسِ]

٩٦٠ ..... [بَيَانُ حَدِّ الْقَذْفِ]

٩٢٢ ..... [مَسْأَلَةُ إِبْرَاهِيمَ يُبَيِّنُ مَكَّةَ]

٩٢٣ ..... [الْوَعْدُ لِمَنْ أَرَادَ الْإِلْحَادَ فِي الْحَرَمِ]

٩٢٣ ..... [بِنَاءُ الْكَعْبَةِ وَالتَّأْذِينَ بِالْحَجِّ]

٩٢٤ ..... [فِي الْحَجِّ مَنَافِعُ الدَّارَيْنِ]

٩٢٥ ..... [الْأَجْرُ عَلَى اجْتِنَابِ الْمَعَاصِي]

٩٢٦ ..... [جِلَّةُ الْأَنْعَامِ]

٩٢٦ ..... [الْأَمْرُ بِاجْتِنَابِ الشَّرِّ وَالْكَذِبِ]

٩٢٦ ..... [بَيَانُ الْأَصَاحِي وَتَفْسِيرُ شُعَائِرِ اللَّهِ]

٩٢٧ ..... [مَنَافِعُ الْبُذْنِ]

٩٢٧ ..... [الْتِسَاكُ مَشْرُوعٌ فِي جَمِيعِ مَلِكِ الْعَالَمِ]

٩٢٨ ..... [الْأَمْرُ بِتَحْرِ الْبُذْنِ]

٩٢٩ ..... [الْمَقْصُودُ مِنَ الْأُضْحِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ إِخْلَاصُ الْعَبْدِ وَتَقْوَاهُ]

٩٣٠ ..... [بِشَارَةِ الدَّفَاعِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ]

٩٣٠ ..... [الْإِذْنُ بِالْقِتَالِ، وَهِيَ أَوَّلُ آيَةِ الْجِهَادِ]

٩٣١ ..... [وَأَجِبُ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ تَمْكِينِهِمْ مِنَ الْحُكْمِ]

٩٣٢ ..... [عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ]

٩٣٣ ..... [مُطَالَبَةُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ]

٩٣٣ ..... [جَزَاءُ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَأَهْلِ الْفَسَادِ]

٩٣٤ ..... [يُدْخِلُ الشَّيْطَانُ فِي أُمِّيَّةِ الرُّسُلِ وَإِبْطَالِ اللَّهِ ذَلِكَ]

٩٣٥ ..... [لَا يَزَالُ الْكُفَّارُ فِي الشُّكِّ وَالتَّرَدُّدِ]

٩٣٥ ..... [الْأَجْرُ الْعَظِيمُ لِمَنْ هَاجَرَ لِلَّهِ]

٩٣٦ ..... [خَالِقُ الدُّنْيَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا هُوَ اللَّهُ]

٩٣٧ ..... [آيَاتُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ]

٩٣٨ ..... [لِكُلِّ قَوْمٍ مَنَسْكٌ]

٩٣٨ ..... [عِبَادَةُ الْمُشْرِكِينَ غَيْرَ اللَّهِ وَشِدَّةُ إِنْكَارِهِمْ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ]

٩٣٩ ..... [بَيَانُ حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَحِمَاقَةِ عَابِدِيهَا]

٩٣٩ ..... [إِخْتِيَارُ اللَّهِ رُسُلًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَرُسُلًا مِنَ النَّاسِ]

٩٤٠ ..... [الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ وَالْجِهَادِ]

٩٤١ ..... [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]

٩٤١ ..... [الْفَلَاحُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَذِكْرُ صِفَاتِهِمْ]

..... [آيَةُ اللَّهِ فِي تَطَوُّرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنَ التُّرَابِ ثُمَّ مِنَ النُّطْفَةِ

٩٤٣ ..... [إِلَى مَا بَعْدَهَا]

٩٤٤ ..... [آيَتُهُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ]

٩٤٤ ..... [آيَاتُهُ فِي الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَالْأَنْعَامِ]

- [بَيَانُ تَوْبَةِ الْفَاقِدِ] ..... ٩٦٠
- [بَيَانُ اللَّعَانِ] ..... ٩٦١
- [سَبَبُ نَزُولِ آيَةِ اللَّعَانِ] ..... ٩٦١
- [حَدِيثُ الْإِنْفَكِ] ..... ٩٦٢
- [تَأْدِيبُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِشَاعَةِ الْإِنْفَكِ] ..... ٩٦٥
- [فَضْلُ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الْإِنْفَكِ بِتَوْفِيقِ التَّوْبَةِ لَهُمْ] ..... ٩٦٦
- [التَّأْدِيبُ مَرَّةً أُخْرَى] ..... ٩٦٦
- [تَأْدِيبُ مَنْ يُحِبُّ إِشَاعَةَ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ] ..... ٩٦٦
- [التَّذْكِيرُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ خُطُوءَاتِ الشَّيْطَانِ] ..... ٩٦٧
- [حُثٌّ لِأُولِي الْفَضْلِ عَلَى الْعَطَاءِ وَالسَّمَاحِ] ..... ٩٦٧
- [الْوَعْدُ عَلَى رَمِي الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ] ..... ٩٦٨
- [عَاشَةُ طَيِّبَةً لِأَنَّهَا لِأَطْيَبِ الْبَشَرِ] ..... ٩٦٨
- [الْإِسْتِثْنَانُ وَآدَابُ الدُّخُولِ فِي الْبُيُوتِ] ..... ٩٦٩
- [الْأَمْرُ بِغَضِّ الْبَصَرِ] ..... ٩٧١
- [أَحْكَامُ الْحِجَابِ] ..... ٩٧٢
- [آدَابُ مَسِي الْمَرْأَةِ فِي الطَّرِيقِ] ..... ٩٧٣
- [الْأَمْرُ بِالنِّكَاحِ] ..... ٩٧٤
- [الْأَمْرُ بِالِاسْتِعْفَافِ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النِّكَاحِ] ..... ٩٧٤
- [الْأَمْرُ بِمُكَاتَبَةِ الْعَبِيدِ] ..... ٩٧٥
- [الْتِهَانُ عَنْ إِحْرَافِ الْإِمَاءِ عَلَى الرِّثَا] ..... ٩٧٥
- [ذِكْرُ الْأَنْبَاءِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ] ..... ٩٧٥
- [مَثَلُ نُورِ اللَّهِ] ..... ٩٧٦
- [فَضَائِلُ الْمَسَاجِدِ وَآدَابُهَا وَفَضَائِلُ الْمُتَعَاهِدِينَ لَهَا] ..... ٩٧٧
- [مَثَلَانِ لِنَوْعِي الْكُفَّارِ] ..... ٩٧٩
- [كُلُّ يَسْبَحُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَهُ الْمُلْكُ] ..... ٩٨٠
- [الْتِهَانُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ بِخَلْقِ السَّحَابِ وَمَا يَتَّبِعُهُ] ..... ٩٨١
- [قُدْرَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِ الدَّوَابِّ] ..... ٩٨١
- [جَبَلُ الْمُتَأَفِّقِينَ وَحَالُ الْمُؤْمِنِينَ] ..... ٩٨٢
- [وَعْدُ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِخْلَافِ] ..... ٩٨٣
- [الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالطَّاعَةِ، وَبَيَانُ عَجْرِ الْكُفَّارِ وَمَصِيرِهِمْ] ..... ٩٨٥
- [أَوْقَاتُ اسْتِثْنَانِ الْمَمْلُوكِينَ وَالصَّغَارِ] ..... ٩٨٦
- [لَا جُنَاحَ عَلَى الْعَجَائِزِ إِنْ لَمْ يَخْتَجِبْنَ] ..... ٩٨٦
- [الْأَكْلُ مِنْ بُيُوتِ الْأَقْرَبَاءِ] ..... ٩٨٧
- [الْإِسْتِثْنَانُ عِنْدَ الْإِنْصِرَافِ إِذَا مَا كَانُوا عَلَى أَمْرِ جَامِعٍ] ..... ٩٨٨
- [بَيَانُ الْأَدَبِ فِي مُحَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ] ..... ٩٨٩
- [الْتِهَانُ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ] ..... ٩٨٩
- [يَعْلَمُ اللَّهُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ] ..... ٩٨٩
- [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ [وَهِيَ] مَكْنِيَّةٌ] ..... ٩٩٠
- [تَبَارَكَ اللَّهُ] ..... ٩٩٠
- [بَيَانُ سَفَاهَةِ الْمُشْرِكِينَ] ..... ٩٩١
- [أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الْقُرْآنِ] ..... ٩٩١
- [أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الرَّسُولِ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ وَبَيَانُ مَصِيرِهِمْ] ..... ٩٩٢
- [الْأَنْبَاءُ خَيْرٌ أَمِ الْحَقَّةِ] ..... ٩٩٣
- [تَبَرَّى إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ٩٩٤
- [كُلُّ مَنْ سَقَى مِنَ الرَّسُولِ كَانَ بَشَرًا] ..... ٩٩٤
- [بَيَانُ تَعَتُّبِ الْكُفَّارِ] ..... ٩٩٥
- [مُسْتَقَرُّ أَهْلِ الْحَقَّةِ] ..... ٩٩٦
- [أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَتَمَنَّى الظَّالِمِ اتِّخَاذَ سَبِيلِ الرَّسُولِ] ..... ٩٩٧
- [الرَّسُولُ يَشْكُو مُخَالَفَتِهِ] ..... ٩٩٧
- [الْحُكْمَةُ فِي إِتْرَالِ الْقُرْآنِ مُتَفَرِّقًا وَالرَّدُّ عَلَى الْكُفَّارِ وَبَيَانُ سُوءِ مَصِيرِهِمْ] ..... ٩٩٨
- [تَحْوِيفُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ] ..... ٩٩٩
- [إِسْتِهْزَاءُ الْكَافِرِينَ بِالرَّسُولِ ﷺ] ..... ١٠٠٠
- [إِتِّخَاذُهُمْ أَهْوَاءَهُمْ إِلَهَةً وَكُفُّهُمْ أَصْلَ مِنَ الْأَنْعَامِ] ..... ١٠٠٠
- [الْدَّلَائِلُ عَلَى وُجُودِ الْبَارِي وَسَعَةِ قُدْرَتِهِ] ..... ١٠٠٠
- [عُمُومُ رِسَالَتِهِ ﷺ وَتَبَيُّنُهُ عَلَيْهِ وَذِكْرُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ] ..... ١٠٠٢
- [جَهَالَةُ الْمُشْرِكِينَ] ..... ١٠٠٣
- [الرَّسُولُ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ] ..... ١٠٠٣
- [أَمْرُ الرَّسُولِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَذِكْرُ بَعْضِ صِفَاتِهِ] ..... ١٠٠٣
- [دَمُ الْمُشْرِكِينَ] ..... ١٠٠٤
- [بَيَانُ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ] ..... ١٠٠٤
- [بَيَانُ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ] ..... ١٠٠٥
- [مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ إِجْتِنَابُ الشُّرْكِ وَالْقَتْلِ وَالزُّنَا] ..... ١٠٠٦
- [بَعْضُ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ] ..... ١٠٠٧

١٠٢٧..... [الرُّدُّ عَلَى أَفْرَاءِ الْمُشْرِكِينَ]

١٠٢٨..... [الرُّدُّ عَلَى قَوْلِهِمْ فِي النَّبِيِّ ﷺ إِنَّهُ شَاعِرٌ]

١٠٢٨..... [اسْتِثْنَاءُ شُعْرَاءِ الْإِسْلَامِ]

١٠٢٩..... تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّملِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

١٠٢٩..... [الْقُرْآنُ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ نَذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ]

١٠٣٠..... [قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَصِيرُ فِرْعَوْنَ]

..... [ذِكْرُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَتَرْبِيَةُ جُنُودِهِ وَمُرُورُهُ عَلَى وَادِي النَّملِ]

١٠٣١..... [غِيَابُ الْهَظْهَدِ]

..... [الْهَظْهَدُ بَيْنَ يَدَيِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِخْبَارُهُ عَنْ سَيِّئِ]

١٠٣٣..... [كِتَابُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى بَلْقِيسَ]

..... [مُشَاوَرَةُ بَلْقِيسَ مَعَ مَلَائِكَةٍ]

١٠٣٤..... [الْهَدْيَةُ وَجَوَابُ سُلَيْمَانَ]

..... [إِحْضَارُ عَرْشِ بَلْقِيسَ فِي لَحْظَةٍ]

١٠٣٥..... [إِخْتِبَارُ بَلْقِيسَ]

..... [قَالَ: إِنَّهُ صَرَّحَ مُرَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرِ]

١٠٣٧..... [بَيْنَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُؤَدٍّ]

..... [مَكْرُ طَائِفَةِ الْمُفْسِدِينَ وَمَصِيرُ قَوْمِ مُؤَدٍّ]

..... [ذِكْرُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

١٠٣٨..... [الْأَمْرُ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى رُسُلِهِ]

..... [بَعْضُ أَوَّلَةِ التَّوْحِيدِ]

١٠٣٩..... [قِصَّةُ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

..... [بَيَانُ خِلَافَةِ الْأَرْضِ]

١٠٤٠..... [عَالِمُ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ]

..... [اسْتِثْنَاءُ الْبَعْثِ وَالرُّدُّ عَلَيْهِ]

..... [الْقُرْآنُ يَقْصُ أَكْثَرَ اخْتِلَافِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ]

..... [الْأَمْرُ بِالتَّوَكُّلِ فِي الْبَلَاغِ]

..... [خُرُوجُ دَايَةَ الْأَرْضِ]

..... [حَشْرُ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

..... [أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَزَاءُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ فِيهِ]

..... [الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَاللَّعْنَةُ بِالْقُرْآنِ]

..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقُصَصِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

١٠٠٨..... [جَزَاءُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ وَالْوَعْدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ]

١٠٠٨..... تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعْرَاءِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

..... [الْقُرْآنُ وَإِعْرَاضُ الْكُفَّارِ عَنْهُ وَقَهْرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ لَوْ شَاءَ اللَّهُ]

..... [بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

..... [بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسَّحَرَةِ]

..... [بَيْنَ فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ]

..... [خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ]

..... [مُطَارَدَةُ فِرْعَوْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِعْرَاقُهُ وَإِعْرَاقُ قَوْمِهِ]

..... [وَعَظُّ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رَدِّ الشَّرِكِ]

..... [ذِكْرُهُ كَرَّمَ اللَّهُ وَلُطْفُهُ بِهِ]

..... [دُعَاءُ الْخَلِيلِ لِنَفْسِهِ وَأَبِيهِ]

..... [الْمُتَّقُونَ وَالْعَاوُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجِدَالُ الْعَاوِينَ وَحَسْرَتُهُمْ]

..... [ذِكْرُ نُوحٍ وَوَعْظُهُ لِقَوْمِهِ وَجَوَابُهُمْ]

..... [تَهْدِيدُ الْقَوْمِ وَدُعَاءُ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَيْهِمْ وَإِهْلَاكُهُمْ]

..... [وَعَظُّ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ عَادَ]

..... [جَوَابُ قَوْمِ هُودٍ وَعَذَابُهُمْ]

..... [ذِكْرُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُؤَدٍّ]

..... [تَذَكِيرُهُمْ بِأَحْوَالِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ]

..... [جَوَابُ مُؤَدٍّ وَطَلْبُهُمُ الْآيَةَ وَمَجِيئُهُمُ الْعَذَابَ]

..... [ذِكْرُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعْوَتُهُ]

..... [تَكْبِيرُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فِعْلِ قَوْمِهِ، وَجَوَابُهُمْ وَعَذَابُهُمْ]

..... [شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْظُ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ]

..... [الْأَمْرُ بِإِيْفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ]

..... [جَوَابُ قَوْمِ شُعَيْبٍ وَتَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ وَمَجِيئُهُمُ الْعَذَابَ]

..... [الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ]

..... [ذِكْرُ الْقُرْآنِ مَوْجُودٌ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ]

..... [ثَبَتُهُ كُفْرُ قُرَيْشٍ]

..... [الْمُكَذِّبُونَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ]

..... [نَزَلَ بِالْقُرْآنِ جَبْرِيلُ لَا الشَّيْطَانُ]

..... [الْأَمْرُ بِإِنْدَارِ الْأَقْرَبِينَ]

[خَسَفُ قَارُونَ فِي الْأَرْضِ مَعَ دَارِهِ] ..... ١٠٦٦  
 [اتَّعَاظُ الْقَوْمِ بِخَسْفِهِ] ..... ١٠٦٦  
 [نَعَمُ الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ] ..... ١٠٦٦  
 [الْأَمْرُ بِالْبَلَاغِ وَالتَّوْحِيدِ] ..... ١٠٦٧  
**تَفْسِيرُ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ** ..... ١٠٦٨  
 [اخْتِيَارُ النَّاسِ حَتَّى يُعْرِفَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ] ..... ١٠٦٨  
 [الْمُسِيئُونَ لَا يَقُولُونَ اللَّهُ] ..... ١٠٦٨  
 [يُحَقِّقُ اللَّهُ رَجَاءَ الصَّالِحِينَ] ..... ١٠٦٩  
 [الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ] ..... ١٠٦٩  
 [عَادَاتُ الْمُنَافِقِينَ وَسُئَةُ اللَّهِ فِي الْاخْتِيَارِ] ..... ١٠٧٠  
 [جُرْأَةُ الْكُفَّارِ فِي تَحْمِلِ خَطَايَا الْآخَرِينَ بِشَرْطِ عَوْدَتِهِمْ  
 إِلَى الْكُفْرِ] ..... ١٠٧٠  
 [ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ] ..... ١٠٧١  
 [وَعِظُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ] ..... ١٠٧٢  
 [أَدْلَةُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ..... ١٠٧٢  
 [وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ آيَةً فِي النَّارِ] ..... ١٠٧٣  
 [وَعِظُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ] ..... ١٠٧٤  
 [إِيمَانُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِجْرَتُهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ  
 السَّلَامُ] ..... ١٠٧٤  
 [مَا وَهَبَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ، وَمَا جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ  
 مِنَ النَّبِيِّ وَالْكِتَابِ] ..... ١٠٧٤  
 [وَعِظُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا دَارَ بَيْتِهِ وَبَيْنَ قَوْمِهِ] ..... ١٠٧٥  
 [اسْتِئْصَارُ لُوطٍ وَمَجِيءُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ إِلَى  
 لُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ] ..... ١٠٧٦  
 [ذِكْرُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ] ..... ١٠٧٦  
 [ذِكْرُ مَا تَمَّ بِهِ إِهْلَاكُ أَقْوَامٍ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ] ..... ١٠٧٧  
 [تُمَثِيلُ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ] ..... ١٠٧٧  
 [الْأَمْرُ بِالْبَلَاغِ وَالثَّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ] ..... ١٠٧٨  
 [مُجَادَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ] ..... ١٠٧٨  
 [كَوْنُ هَذَا الْقُرْآنِ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَالِدَّلِيلُ عَلَيْهِ] ..... ١٠٧٩  
 [طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ وَجَوَابُهُمْ] ..... ١٠٨٠  
 [اسْتِغْجَالُ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ] ..... ١٠٨١  
 [الْأَمْرُ بِالْهِجْرَةِ وَالْوَعْدُ عَلَيْهَا بِالرِّزْقِ وَالْجَزَاءِ الْحَسَنِ] ..... ١٠٨١  
 [أَدْلَةُ التَّوْحِيدِ] ..... ١٠٨٢

[نَبَأُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ وَمَا أَرَادَ اللَّهُ لِقَوْمِهِمَا] ..... ١٠٤٧  
 [إِيْحَاءُ التَّدْبِيرِ إِلَى أُمِّ مُوسَى] ..... ١٠٤٨  
 [مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَارِ فِرْعَوْنَ] ..... ١٠٤٨  
 [شِدَّةُ حُزْنِ أُمِّ مُوسَى وَرُجُوعُهُ إِلَيْهَا] ..... ١٠٤٩  
 [قَتْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِنَ الْقَبْطِ] ..... ١٠٥٠  
 [قَسْوُ سِرِّ الْقَتْلِ] ..... ١٠٥١  
 [مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَدْيَنَ وَسَفْيُهُ أَغْنَامَ امْرَأَتَيْنِ] ..... ١٠٥٢  
 [مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ يَدَيِ الْوَالِدِ الْمَرَاتَيْنِ وَنِكَاحُ  
 مُوسَى بِإِحْدَاهُمَا عَلَى أَجْرَةٍ رَغِي الْعَنَمِ] ..... ١٠٥٢  
 [رُجُوعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مِصْرَ وَتَكْرِيمُهُ بِالرَّسَالَةِ  
 وَالْمُعْجَزَاتِ فِي الطَّرِيقِ] ..... ١٠٥٤  
 [سُؤَالُ مُوسَى مُؤَاذَرَتَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ وَقَبُولُ ذَلِكَ مِنْ  
 اللَّهِ] ..... ١٠٥٥  
 [مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ يَدَيِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ] ..... ١٠٥٥  
 [اسْتِكَبَارُ فِرْعَوْنَ وَمَصِيرُهُ] ..... ١٠٥٦  
 [بَيَانُ نَعَمِ اللَّهِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ] ..... ١٠٥٧  
 [الْتِّسْبَةُ عَلَى بُرْهَانِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ] ..... ١٠٥٧  
 [تَعَنُّتُ الْكُفَّارِ وَجَوَابُهُمْ] ..... ١٠٥٨  
 [لَا يُؤْمِنُ الْمُتَمَرِّدُونَ بِالْمُعْجَزَاتِ] ..... ١٠٥٩  
 [الْإِفْرَاءُ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالسَّحْرِ] ..... ١٠٥٩  
 [جَوَابُ الْإِفْرَاءِ] ..... ١٠٥٩  
 [ضَلَالُ مَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ] ..... ١٠٥٩  
 [الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ] ..... ١٠٥٩  
 [يَهْدِي اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ] ..... ١٠٦٠  
 [عَذْرُ أَهْلِ مَكَّةَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالرُّدِّ عَلَيْهِمْ] ..... ١٠٦١  
 [التَّعْرِيزُ بِإِهْلَاكِ الْقُرَى وَأَنَّهَا تُهْلَكُ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ] ..... ١٠٦١  
 [الدُّنْيَا فَايَةً لَا يَسْتَوِي صَاحِبُهَا وَصَاحِبُ الْآخِرَةِ] ..... ١٠٦٢  
 [تَبَرُّؤُ الْمُشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهِمْ كُلِّ عَنِ الْآخِرِ] ..... ١٠٦٢  
 [مَوْقِفُهُمْ عَنِ الرُّسُولِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٠٦٣  
 [اللَّهُ مُفَرِّدُ الْخَلْقِ وَالْعِلْمِ بِالضَّمَاوِرِ وَالْإِخْتِيَارِ] ..... ١٠٦٣  
 [اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مِنْ نَعَمِ اللَّهِ وَدَلَالِ تَوْحِيدِهِ] ..... ١٠٦٤  
 [التَّوْبِيخُ وَالزُّجْرُ لِلْمُشْرِكِينَ] ..... ١٠٦٤  
 [ذِكْرُ قَارُونَ وَوَعِظُ قَوْمِهِ لَهُ] ..... ١٠٦٤  
 [خُرُوجُ قَارُونَ فِي الزَّيْتَةِ وَتَعْلِيْقُ الْقَوْمِ عَلَيْهِ] ..... ١٠٦٥

[الَّذِكْرِ بِالنَّعَمِ] ..... ١١٠٢  
 [اعْتَزَأُ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ] ..... ١١٠٣  
 [كَلِمَاتُ اللَّهِ لَا تُحْصَى وَلَا تُنْقَدُ] ..... ١١٠٣  
 [ذِكْرُ قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ] ..... ١١٠٤  
 [الْأَمْرُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْحَشْيَةِ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ١١٠٥  
 [عَالِمُ الْغَيْبِ هُوَ اللَّهُ] ..... ١١٠٥  
 [تفسير سورة الم الشحدة وهي مكية] ..... ١١٠٦  
 [فَضْلُ سُورَةِ الْمِ السَّجْدَةِ] ..... ١١٠٦  
 [الْقُرْآنُ كِتَابُ اللَّهِ لَا شَكَّ فِيهِ] ..... ١١٠٦  
 [اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ لِلْكَوْنِ] ..... ١١٠٧  
 [تَطَوُّرُهُ خَلْقُ الْإِنْسَانِ] ..... ١١٠٧  
 [الَرُّدُّ عَلَى اسْتِغَاةِ الْبُعْثِ] ..... ١١٠٨  
 [بَيَانُ حَالِ الْمُشْرِكِينَ السَّيِّئِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١١٠٨  
 [حَالُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَجَزَائُهُمْ] ..... ١١٠٩  
 [لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْفَاسِقُ] ..... ١١١٠  
 [كِتَابُ مُوسَى وَإِمَامَةُ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ] ..... ١١١١  
 [خُلُوعُ الْجَبْرِ بِالْمَاضِينَ] ..... ١١١١  
 [إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بِالْمَاءِ دَلِيلُ الْبُعْثِ] ..... ١١١١  
 [اسْتِعْجَالُ الْكُفَّارِ لِلْعَذَابِ وَجَوَائِهِمْ] ..... ١١١٢  
 [تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية] ..... ١١١٢  
 [الْأَمْرُ بِالصُّمُودِ فِي وَجْهِ الْكَافِرِينَ وَالْمُتَافِقِينَ، مُتَبَعًا وَحْيَ اللَّهِ، وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ] ..... ١١١٢  
 [إِنطَالُ النَّبِيِّ] ..... ١١١٣  
 [يُنْسَبُ الْمُتَّبَعِيُّ إِلَى أَبِيهِ الْحَقِيقِيِّ] ..... ١١١٣  
 [وَلَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأُمُومَةُ أَرْوَاجِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ] ..... ١١١٥  
 [الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ] ..... ١١١٦  
 [ذِكْرُ غُرُورِ الْأَحْزَابِ] ..... ١١١٦  
 [إِنْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَاقِفُ الْمُتَافِقِينَ فِي وَقْعَةِ الْأَحْزَابِ] ..... ١١١٨  
 [الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الرُّسُولِ] ..... ١١١٩  
 [مَوْقِفُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَحْزَابِ] ..... ١١١٩  
 [مَدْحُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَوْقِفِهِمْ وَإِرْجَاءُ أَمْرِ الْمُتَافِقِينَ] ..... ١١٢٠  
 [رَدُّ اللَّهِ الْأَحْزَابَ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ] ..... ١١٢١  
 [ذِكْرُ غُرُورِ نَبِيِّ قُرَيْظَةَ] ..... ١١٢٢

[كُفْرُ قُرَيْشٍ مَعَ مَا خُصُّوا بِنِعْمَةِ الْحَرَمِ حَوْلَهُمْ] ..... ١٠٨٣  
 [تفسير سورة الزوم وهي مكية] ..... ١٠٨٤  
 [الْتَبَتُ بِغَلَبَةِ الرُّومِ] ..... ١٠٨٤  
 [مَنْ هُمُ الرُّومُ؟] ..... ١٠٨٥  
 [كَيْفَ غَلَبَ قَيْصَرُ عَلَى كَيْسَرِي؟] ..... ١٠٨٥  
 [دَلِيلُ التَّوْحِيدِ] ..... ١٠٨٧  
 [الْأَمْرُ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ] ..... ١٠٨٨  
 [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ] ..... ١٠٨٩  
 [إِعَادَةُ الْخَلْقِ أَهْوَنُ] ..... ١٠٩٠  
 [مَثَلُ يَدُلُّ عَلَى التَّوْحِيدِ] ..... ١٠٩١  
 [الْأَمْرُ بِاتِّزَامِ التَّوْحِيدِ] ..... ١٠٩١  
 [تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الشُّرْكِ وَمِنَ الْفَرَحِ إِلَى الْيَأْسِ حَسَبَ الظُّرُوفِ] ..... ١٠٩٢  
 [الْأَمْرُ بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ وَمَا وَرَدَ فِي رِبَا الْهَدْيَةِ] ..... ١٠٩٣  
 [الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْإِمَانَةُ وَالْإِحْيَاءُ بِيَدِ اللَّهِ] ..... ١٠٩٣  
 [آثَارُ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا] ..... ١٠٩٣  
 [الْأَمْرُ بِالْإِسْقَامَةِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ١٠٩٤  
 [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الرِّيحُ] ..... ١٠٩٥  
 [إِحْيَاءُ الْأَرْضِ دَلِيلُ الْبُعْثِ] ..... ١٠٩٥  
 [الْكُفَّارُ أَمْوَاتٌ، صُمٌّ وَعُمِّيٌّ] ..... ١٠٩٦  
 [ذِكْرُ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ الْمُخْتَلِفَةِ] ..... ١٠٩٦  
 [جَهَالَةُ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] ..... ١٠٩٧  
 [ضَرْبُ الْأَمْثَالِ فِي الْقُرْآنِ وَعَدَمُ اعْتِبَارِ الْكُفَّارِ بِهَا] ..... ١٠٩٧  
 [مَا رُويَ فِي فَضْلِ هَذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ وَاسْتِحْبَابِ قِرَائَتِهَا فِي الْفَجْرِ] ..... ١٠٩٧  
 [تفسير سورة لقمان وهي مكية] ..... ١٠٩٧  
 [مِنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْأَشْتِغَالِ بِلَهْوِ الْحَدِيثِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ] ..... ١٠٩٨  
 [ذِكْرُ مَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنِ] ..... ١٠٩٨  
 [أَدْلَةُ التَّوْحِيدِ] ..... ١٠٩٩  
 [ذِكْرُ لُقْمَانَ] ..... ١٠٩٩  
 [وَصِيَّةُ لُقْمَانَ لِابْنِهِ] ..... ١١٠٠  
 [الْأَمْرُ بِالْإِقْصَادِ فِي الْمَشْيِ] ..... ١١٠١  
 [نَصَائِحُ لُقْمَانَ] ..... ١١٠٢



[تَخْيِيرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ] ..... ١١٢٣  
 [نِسَاءُ النَّبِيِّ لَسَنَ كَعَامَةِ النِّسَاءِ] ..... ١١٢٤  
 [الْأَمْرُ بِآدَابِ تَكُونُ أُمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا أَسْوَةٌ] ..... ١١٢٥  
 [أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ] ..... ١١٢٥  
 [الْأَمْرُ بِالْعَمَلِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ] ..... ١١٢٦  
 [بَيَانُ سَبَبِ الثَّرْوَةِ] ..... ١١٢٧  
 [بَيَانُ سَبَبِ الثَّرْوَةِ] ..... ١١٢٨  
 [عِتَابُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي قِصَّةِ زَيْدٍ وَزَيْنَبَ وَتَرْوِيحُهُ  
 إِثَابَهَا بَعْدَ الطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ لِلْبَطَالِ النَّبِيِّ] ..... ١١٢٩  
 [مَدْحُ الْمُبْلَغِينَ لِرِسَالَاتِ اللَّهِ] ..... ١١٣٠  
 [الرَّسُولُ لَيْسَ أَبَا أَحَدٍ مِنَ الرِّجَالِ] ..... ١١٣١  
 [هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ] ..... ١١٣١  
 [فَضِيلَةُ كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ] ..... ١١٣٢  
 [صِفَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] ..... ١١٣٤  
 [الْمُنْعَةُ وَعَدَمُ الْإِعْتِدَادِ لِلْمُطْلَقَةِ قَبْلَ الْمَيْسِسِ] ..... ١١٣٥  
 [بَيَانُ النِّسَاءِ اللَّاتِي أَخْلَسَ لِلنَّبِيِّ ﷺ] ..... ١١٣٥  
 [تَخْيِيرُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَبُولِ الْوَاهِبَةِ نَفْسَهَا أَوْ رَدِّهَا عَلَى  
 قَوْلٍ] ..... ١١٣٧  
 [الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ] ..... ١١٣٧  
 [مُجَازَاةُ الْأَزْوَاجِ عَلَى اخْتِيَارِهِنَّ صُحْبَةَ الرَّسُولِ] ..... ١١٣٨  
 [آدَابُ الدُّخُولِ فِي بُيُوتِ النَّبِيِّ وَالْأَمْرُ بِالْحِجَابِ] ..... ١١٣٩  
 [الْأَنَّهُ عَنِ إِذَاءِ الرَّسُولِ وَبَيَانُ حُرْمَةِ أَزْوَاجِهِ عَلَى  
 الْمُسْلِمِينَ] ..... ١١٤٠  
 [مَنْ لَا تَحْتَجِبُ الْمَرْأَةُ مِنْهُ مِنَ الْأَقَارِبِ] ..... ١١٤٠  
 [الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ] ..... ١١٤٠  
 [وُجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ الدُّعَاءِ] ..... ١١٤٢  
 [فَضْلُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ] ..... ١١٤٢  
 [وُجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ كُلَّمَا ذُكِرَ] ..... ١١٤٢  
 [الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي ذَلِكَ] ..... ١١٤٣  
 [مَوَاقِعُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ] ..... ١١٤٣  
 [أَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ] ..... ١١٤٣  
 [مَنْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَهُوَ مُلْعُونٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] ..... ١١٤٤  
 [الْوَعْدُ لِلْمُفْتَرِينَ] ..... ١١٤٥  
 [الْأَمْرُ بِالْحِجَابِ] ..... ١١٤٥  
 [الْتِّبِيَةُ وَالتَّهْدِيدُ لِلْمُنَافِقِينَ الْأَشْرَارِ] ..... ١١٤٦  
 [لَا يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا اللَّهُ] ..... ١١٤٦  
 [لَعْنُ الْكُفَّارِ وَخُلُودُهُمْ فِي النَّارِ وَحَسْرَتُهُمْ] ..... ١١٤٦  
 [إِفْتِرَاءُ الْيَهُودِ عَلَى مُوسَى] ..... ١١٤٧  
 [أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّقْوَى وَالصَّدَقِ] ..... ١١٤٧  
 [حَمْلُ الْإِنْسَانِ الْأَمَانَةَ] ..... ١١٤٧  
 [نَتِيجَةُ حَمْلِ الْأَمَانَةِ] ..... ١١٤٨  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ..... ١١٤٨  
 [الْحَمْدُ وَعِلْمُ الْغَيْبِ لِلَّهِ فَقَطْ] ..... ١١٤٨  
 [إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيَّتُهُ لِيُجْزَى كُلُّ حَسَبٍ عَمَلِهِ] ..... ١١٤٩  
 [إِنْكَارُ الْكُفَّارِ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] ..... ١١٥٠  
 [بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى دَاوُدَ] ..... ١١٥٠  
 [فَضْلُ اللَّهِ عَلَى سُلَيْمَانَ] ..... ١١٥١  
 [وَفَاةُ سُلَيْمَانَ] ..... ١١٥٢  
 [كُفْرَانُ سَبَأٍ وَعَذَابُهُمْ] ..... ١١٥٢  
 [سَدُّ مَارِبَ وَسَيْلُ النُّعْمِ] ..... ١١٥٣  
 [تِجَارَةُ سَبَأٍ وَذَهَابُهَا] ..... ١١٥٤  
 [تَضَدُّيقُ إِبْلِيسَ ظَنَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ] ..... ١١٥٥  
 [عَجْزُ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ] ..... ١١٥٥  
 [لَا شَرِيكَ لِلَّهِ فِي أَمْرٍ مَا] ..... ١١٥٦  
 [بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً] ..... ١١٥٧  
 [سُؤَالُ الْكُفَّارِ عَنْ وَقْتِ الْقِيَامَةِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] ..... ١١٥٨  
 [إِتِّفَاقُ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا عَلَى إِنْكَارِ الْحَقِّ وَمُشَاجَرَتُهُمْ  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١١٥٨  
 [تَكْذِيبُ الْمُتَرَفِّعِينَ بِالرُّسُلِ وَاعْتِرَازُهُمْ بِالْأَمْوَالِ  
 وَالْأَوْلَادِ] ..... ١١٥٩  
 [بِرَاءَةُ الْمَلَائِكَةِ مِنْ عَابِدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١١٦٠  
 [أَقْوَالُ الْكُفَّارِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] ..... ١١٦١  
 [طَرِيقُ الْفَضْلِ فِيمَا رَمَوْا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْجُنُونِ] ..... ١١٦١  
 [لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا عَلَى الْبَلَاغِ] ..... ١١٦٢  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ..... ١١٦٣  
 [ذِكْرُ قُدْرَةِ اللَّهِ] ..... ١١٦٣  
 [لَا مُمْسِكَ لِرَحْمَةِ اللَّهِ] ..... ١١٦٤  
 [دَلِيلُ التَّوْحِيدِ] ..... ١١٦٤

[تَخْيِيرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ] ..... ١١٢٣  
 [نِسَاءُ النَّبِيِّ لَسَنَ كَعَامَةِ النِّسَاءِ] ..... ١١٢٤  
 [الْأَمْرُ بِآدَابِ تَكُونُ أُمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا أَسْوَةٌ] ..... ١١٢٥  
 [أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ] ..... ١١٢٥  
 [الْأَمْرُ بِالْعَمَلِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ] ..... ١١٢٦  
 [بَيَانُ سَبَبِ الثَّرْوَةِ] ..... ١١٢٧  
 [بَيَانُ سَبَبِ الثَّرْوَةِ] ..... ١١٢٨  
 [عِتَابُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي قِصَّةِ زَيْدٍ وَزَيْنَبَ وَتَرْوِيحُهُ  
 إِثَابَهَا بَعْدَ الطَّلَاقِ وَالْعِدَّةِ لِلْبَطَالِ النَّبِيِّ] ..... ١١٢٩  
 [مَدْحُ الْمُبْلَغِينَ لِرِسَالَاتِ اللَّهِ] ..... ١١٣٠  
 [الرَّسُولُ لَيْسَ أَبَا أَحَدٍ مِنَ الرِّجَالِ] ..... ١١٣١  
 [هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ] ..... ١١٣١  
 [فَضِيلَةُ كَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ] ..... ١١٣٢  
 [صِفَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] ..... ١١٣٤  
 [الْمُنْعَةُ وَعَدَمُ الْإِعْتِدَادِ لِلْمُطْلَقَةِ قَبْلَ الْمَيْسِسِ] ..... ١١٣٥  
 [بَيَانُ النِّسَاءِ اللَّاتِي أَخْلَسَ لِلنَّبِيِّ ﷺ] ..... ١١٣٥  
 [تَخْيِيرُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَبُولِ الْوَاهِبَةِ نَفْسَهَا أَوْ رَدِّهَا عَلَى  
 قَوْلٍ] ..... ١١٣٧  
 [الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ] ..... ١١٣٧  
 [مُجَازَاةُ الْأَزْوَاجِ عَلَى اخْتِيَارِهِنَّ صُحْبَةَ الرَّسُولِ] ..... ١١٣٨  
 [آدَابُ الدُّخُولِ فِي بُيُوتِ النَّبِيِّ وَالْأَمْرُ بِالْحِجَابِ] ..... ١١٣٩  
 [الْأَنَّهُ عَنِ إِذَاءِ الرَّسُولِ وَبَيَانُ حُرْمَةِ أَزْوَاجِهِ عَلَى  
 الْمُسْلِمِينَ] ..... ١١٤٠  
 [مَنْ لَا تَحْتَجِبُ الْمَرْأَةُ مِنْهُ مِنَ الْأَقَارِبِ] ..... ١١٤٠  
 [الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ] ..... ١١٤٠  
 [وُجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ الدُّعَاءِ] ..... ١١٤٢  
 [فَضْلُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ] ..... ١١٤٢  
 [وُجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ كُلَّمَا ذُكِرَ] ..... ١١٤٢  
 [الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي ذَلِكَ] ..... ١١٤٣  
 [مَوَاقِعُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ] ..... ١١٤٣  
 [أَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ] ..... ١١٤٣  
 [مَنْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَهُوَ مُلْعُونٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] ..... ١١٤٤  
 [الْوَعْدُ لِلْمُفْتَرِينَ] ..... ١١٤٥  
 [الْأَمْرُ بِالْحِجَابِ] ..... ١١٤٥

[بَيَانُ عَيْشِ أَهْلِ الْجَنَّةِ] ١١٨٦  
 [مَكَانُ الْكُفَّارِ بِالْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَجْرُهُمْ] ١١٨٦  
 [الْخِثْمُ عَلَى أَفْوَاهِ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ١١٨٧  
 [إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُعَلِّمْ رَسُولَهُ الشَّعْرَ] ١١٨٨  
 [لَا نَعَامَ آيَةٌ وَنِعْمَةٌ] ١١٨٨  
 [إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ لَا تَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِمْ] ١١٨٩  
 [تَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ] ١١٨٩  
 [إِنْكَارُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَالرَّدُّ عَلَى ذَلِكَ] ١١٨٩  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ١١٩١  
 [فَضْلُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ] ١١٩١  
 [تَشْهَدُ الْمَلَائِكَةُ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِ] ١١٩١  
 [الْمَعْبُودُ الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ] ١١٩٢  
 [تَرْزِيقُ السَّمَاءِ وَجَفْظُهَا مِنَ اللَّهِ] ١١٩٢  
 [ثُبُوتُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ١١٩٣  
 [أَهْوَالُ يَوْمِ الدِّينِ] ١١٩٣  
 [تَخَاضُّمُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ١١٩٤  
 [جَزَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَعِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ] ١١٩٥  
 [اجْتِمَاعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَحَوَارِ أَحَدِهِمْ مَعَ صَاحِبِهِ الْمُشْرِكِ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ يُعَذَّبُ فِي جَهَنَّمَ ... وَشُكْرُهُ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى] ١١٩٦  
 [قِصَّةُ إِسْرَائِيلَ] ١١٩٧  
 [ذِكْرُ شَجَرَةِ الزُّقُومِ وَأَصْحَابِهَا] ١١٩٨  
 [ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ] ١١٩٩  
 [قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ] ١٢٠٠  
 [هَجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ وَابْتِلَاؤُهُ بِذَبْحِ إِسْمَاعِيلَ وَنِعْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ] ١٢٠١  
 [ذِكْرُ الْآثَارِ الْوَارِدَةِ بِأَنَّ الدَّبِيحَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَقْطُوعُ بِهِ] ١٢٠٣  
 [ذِكْرُ مُوسَى وَهَارُونَ] ١٢٠٤  
 [ذِكْرُ إِيَّاسَ] ١٢٠٤  
 [ذِكْرُ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ] ١٢٠٥  
 [ذِكْرُ قِصَّةِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ] ١٢٠٥  
 [الرَّدُّ عَلَى مَنْ يُنْبِئُ اللَّهَ الْوَلَدَ وَيَجْعَلُ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٍ لَهُ] ١٢٠٧  
 [لَا يُؤْمِنُ بِكَلَامِ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ أَصْلٌ مِنْهُمْ] ١٢٠٨  
 [مَقَامُ الْمَلَائِكَةِ وَتَسْبِيحُهُمْ صُفُوفًا] ١٢٠٨

[الْتِمْلِيَةُ بِكَذِيبِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِ وَالتَّيْبَةِ عَلَى الْمَعَادِ] ١١٦٥  
 [جَزَاءُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْمَعَادِ] ١١٦٥  
 [دَلِيلُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ١١٦٥  
 [مَنْ يُرِدُ الْعِزَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيُطِيعِ الْعَزِيزَ] ١١٦٦  
 [أَلْعَمَلُ الصَّالِحِ هُوَ يَرْفَعُ إِلَى اللَّهِ] ١١٦٦  
 [اللَّهُ خَالِقُ وَعَلَامُ الْغُيُوبِ] ١١٦٦  
 [مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ] ١١٦٧  
 [إِلَهَةُ الْمُشْرِكِينَ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قُطْمِيرٍ] ١١٦٨  
 [النَّاسُ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ وَكُلٌّ يَحْمِلُ أَوْزَارَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ١١٦٨  
 [لَا يَسْتَوِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ] ١١٦٩  
 [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ] ١١٧٠  
 [الْمُسْلِمُونَ هُمْ تُجَارُ الْآخِرَةِ] ١١٧٠  
 [الْقُرْآنُ كِتَابُ اللَّهِ الْحَقُّ] ١١٧١  
 [وَرَنَةُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ] ١١٧١  
 [فَضْلُ الْعُلَمَاءِ] ١١٧١  
 [جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَحَالُهُمْ فِي جَهَنَّمَ] ١١٧٢  
 [التَّيْبَةُ عَلَى عَجْرِ الشُّرَكَاءِ وَقُدْرَةُ اللَّهِ الْغَالِيَةِ] ١١٧٤  
 [نَمَتِي الْكُفَّارِ مَجِيءٌ نَذِيرٌ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ كَفَرُوا بِهِ] ١١٧٤  
 [ذِكْرُ النَّاتِجِ السَّيِّئَةِ لَتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ] ١١٧٥  
 [حِكْمَةُ تَأْجِيلِ الْمَوَاحِدَةِ] ١١٧٥  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ يَسٍ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ١١٧٥  
 [الرَّسُولُ بَعَثَ مُنْذِرًا] ١١٧٥  
 [حَالُ مَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ] ١١٧٦  
 [قِصَّةُ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ مَعَ الرُّسُلِ، وَهِيَ تُفِيدُ إِهْلَاكَ الْمُكْذِبِينَ] ١١٧٨  
 [يَا حَسْرَةً عَلَى الْمُكْذِبِينَ] ١١٨١  
 [الرَّدُّ عَلَى عَقِيدَةِ النَّاسُخِ] ١١٨١  
 [ثُبُوتُ الصَّانِعِ لِلْعَالَمِ وَالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ١١٨٢  
 [وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ] ١١٨٢  
 [وَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ حَمْلُهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ] ١١٨٤  
 [بَيَانُ ضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ] ١١٨٥  
 [اسْتِيعَادُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْبَعْثِ] ١١٨٥  
 [نَفْخَةُ الْبَعْثِ] ١١٨٥

[مَالُ الْمَكْذِبِينَ] ..... ١٢٢٩  
 [مَثَلُ الشُّرْكِ] ..... ١٢٢٩  
 [مَوْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفُرُشٌ وَاخْتِصَامُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ] ..... ١٢٢٩  
 [جَزَاءُ الْكَاذِبِينَ الْمَكْذِبِينَ وَالصَّادِقِينَ الْمُصْذِقِينَ] ..... ١٢٣١  
 [اللَّهُ كَافٍ لِعَبِيدِهِ] ..... ١٢٣١  
 [إِعْزَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْكَوْنِ  
 وَإِفْرَارُهُمْ بِعَجْزِ آلِهَتِهِمْ] ..... ١٢٣١  
 [اللَّهُ الَّذِي يُبَيِّتُ وَيُخَيِّي] ..... ١٢٣٢  
 [لَا شَفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَاشْتِرَازُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ  
 ذِكْرِهِ تَعَالَى وَخَدَهُ] ..... ١٢٣٣  
 [تَقْوِيضُ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى اللَّهِ] ..... ١٢٣٣  
 [لَا تُقْبَلُ ذِيَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٢٣٣  
 [تَقَلُّبُ الْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَعْدَ الضَّرِّ] ..... ١٢٣٤  
 [الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْعَذَابُ] ..... ١٢٣٥  
 [ذِكْرُ أَحَادِيثَ فِيهَا نَفْيُ الْقُتُوبِ] ..... ١٢٣٦  
 [عَاقِبَةُ الْكَاذِبِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَاقِبَةُ الْمُتَّقِينَ] ..... ١٢٣٧  
 [اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ، وَالْإِشْرَاكُ بِهِ يُخْطِئُ الْعَمَلُ] ..... ١٢٣٧  
 [مَا قَدَّرَ الْمُشْرِكُونَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ] ..... ١٢٣٨  
 [الْفَتْخُ فِي الصُّورِ وَالْقَضَاءِ وَالْجَزَاءِ] ..... ١٢٣٩  
 [يُسَاقُ الْكُفَّارُ إِلَى جَهَنَّمَ] ..... ١٢٤٠  
 [يُذْهَبُ بِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ] ..... ١٢٤٠  
 [ذِكْرُ سَعَةِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ - نَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ أَنْ  
 يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهَا] ..... ١٢٤٢  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ..... ١٢٤٣  
 [فَضْلُ آلِ حَمٍّ] ..... ١٢٤٣  
 [مِنْ صِفَاتِ الْكُفَّارِ الْجِدَالُ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَبَيَانُ مَا  
 يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ] ..... ١٢٤٤  
 [حَمَلَةُ الْعَرْشِ يَحْمَدُونَ اللَّهَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ] ..... ١٢٤٤  
 [نَدَامَةُ الْكُفَّارِ بَعْدَ دُخُولِ النَّارِ] ..... ١٢٤٥  
 [أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ مَهْمَا كَانَ] ..... ١٢٤٦  
 [وَحْيُ اللَّهِ لِإِنْدَارِ عِبَادِهِ يَوْمَ التَّلَاقِ] ..... ١٢٤٧  
 [الْإِنْدَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَضَاءُ اللَّهِ فِيهِ] ..... ١٢٤٨  
 [عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ السَّيِّئَةِ] ..... ١٢٤٨  
 [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ] ..... ١٢٤٩

[تَمَنَّى فُرَيْشٍ لَوْ كَانَ عِنْدَهَا ذِكْرٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ] ..... ١٢٠٨  
 [الْوَعْدُ بِالنَّصْرِ وَالْأَمْرُ بِالتَّوَلَّى عَنْ فُرَيْشٍ] ..... ١٢٠٨  
 سورة ص ..... ١٢٠٩  
 [تَعَجُّبُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْقُرْآنِ] ..... ١٢١٠  
 [ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ] ..... ١٢١١  
 [التَّذْكِيرُ بِمَنْ أَهْلِكَ مِنَ الْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ] ..... ١٢١٢  
 [ذِكْرُ دَاوُدَ] ..... ١٢١٣  
 [قِصَّةُ الْخُصْمَيْنِ] ..... ١٢١٤  
 [سَجْدَةُ صَ] ..... ١٢١٤  
 [الْوَصِيَّةُ لِلْحُكَّامِ وَالسَّلَاطِينِ] ..... ١٢١٤  
 [الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الدُّنْيَا] ..... ١٢١٥  
 [ذِكْرُ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ] ..... ١٢١٥  
 [إِتِلَاءُ سُلَيْمَانَ ثُمَّ التَّفَضُّلُ عَلَيْهِ] ..... ١٢١٦  
 [ذِكْرُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ] ..... ١٢١٧  
 [ذِكْرُ الْمُضْطَّظِّينَ الْأَخْيَارِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ] ..... ١٢١٩  
 [بَيَانُ مَابِ السُّعْدَاءِ] ..... ١٢١٩  
 [بَيَانُ مَالِ الْأَشْقِيَاءِ] ..... ١٢٢٠  
 [تَخَاضُّمُ أَهْلِ النَّارِ] ..... ١٢٢٠  
 [رِسَالَةُ الرَّسُولِ ﷺ نَبَأٌ عَظِيمٌ] ..... ١٢٢١  
 [قِصَّةُ آدَمَ وَإِبْلِيسَ] ..... ١٢٢١  
 تفسير سورة الزمر وهي مكيَّة ..... ١٢٢٢  
 [فَضْلُ سُورَةِ الزُّمَرِ] ..... ١٢٢٢  
 [الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالرَّدُّ عَلَى الشُّرْكِ] ..... ١٢٢٢  
 [الْإِسْتِشْهَادُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ] ..... ١٢٢٣  
 [يَغْضَبُ اللَّهُ مِنَ الْكُفْرِ وَيَرْضَى مِنَ الشُّكْرِ] ..... ١٢٢٤  
 [مِنْ كُفْرِ الْإِنْسَانِ: ذِكْرُهُ اللَّهَ فِي الشَّدَةِ، وَالشُّرْكَ بِهِ بَعْدَ  
 الْفُرْجِ] ..... ١٢٢٥  
 [لَا يَسْتَوِي الْمُطِيعُ وَالْعَاصِي] ..... ١٢٢٥  
 [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالْهَجْرَةِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ] ..... ١٢٢٦  
 [الْكَوْثُفُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ] ..... ١٢٢٦  
 [الْإِشَارَةُ لِلصَّالِحِينَ] ..... ١٢٢٦  
 [مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] ..... ١٢٢٧  
 [لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْحَقِّ وَأَهْلُ الضَّلَالِ] ..... ١٢٢٨  
 [وَصَفُ الْقُرْآنِ] ..... ١٢٢٨

[إِلْشَارَةُ إِلَى النَّاسِي بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ] ..... ١٢٧١  
 [كُلُّ يُجَازَى حَسَبَ عَمَلِهِ] ..... ١٢٧١  
 [عَلَّمَ السَّاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ] ..... ١٢٧١  
 [تَقَلَّبَ الْإِنْسَانُ حِينَ تُصِيبُهُ السَّرَّاءُ بَعْدَ الضَّرَّاءِ] ..... ١٢٧٢  
 [الْقُرْآنُ وَدَلَائِلُ صَدَقِهِ] ..... ١٢٧٢  
 تفسیر سورة الشوری وهی مکیة ..... ١٢٧٣  
 [الْوَحْيُ وَعَظْمَةُ اللَّهِ] ..... ١٢٧٣  
 [أَوْحَى الْقُرْآنَ لِلْإِنْدَارِ بِهِ] ..... ١٢٧٤  
 [اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَاكِمُ الْخَالِقُ] ..... ١٢٧٤  
 [دِینُ الرُّسُلِ وَاجِدٌ] ..... ١٢٧٥  
 [وَجْهُ الْإِخْتِلَافِ] ..... ١٢٧٦  
 [تَنْبِيْهُ لِمَنْ جَادَلَ فِي الدِّینِ] ..... ١٢٧٧  
 [رَزَقَ اللَّهُ وَعَظَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ] ..... ١٢٧٧  
 [تَشْرِيعُ الْعِبَادِ شِرْكٌ] ..... ١٢٧٨  
 [فَرَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مِيزَانِ الْحَشْرِ] ..... ١٢٧٨  
 [الْإِشَارَةُ بِنِعَمِ الْحَنَّةِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ] ..... ١٢٧٨  
 [رَمَى النَّبِيُّ بِاخْتِلَاقِ الْقُرْآنِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ] ..... ١٢٧٩  
 [اللَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ وَيَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ] ..... ١٢٧٩  
 [الْحِكْمَةُ فِي عَدَمِ بَسْطِ الرِّزْقِ] ..... ١٢٨٠  
 [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ] ..... ١٢٨٠  
 [سَبَبُ الْمَصَائِبِ الْغُضَيَّانِ] ..... ١٢٨٠  
 [الْأَسْفُنُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ] ..... ١٢٨١  
 [صِفَاتٌ مَنْ يَسْتَحِقُّ مَا عِنْدَ اللَّهِ] ..... ١٢٨١  
 [فَضِيلَةُ الْعَفْوِ وَخِيَارُ الْإِنْتِصَارِ مِنَ الظَّالِمِ] ..... ١٢٨٢  
 [حَالُ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٢٨٣  
 [الْحُثُّ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ١٢٨٣  
 [بَيَانُ كَيْفِيَةِ الْوَحْيِ] ..... ١٢٨٥  
 تفسیر سورة الزخرف وهی مکیة ..... ١٢٨٥  
 [تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى تَكْذِيبِ قُرَيْشٍ] ..... ١٢٨٦  
 [إِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ الْخَلْقِ وَمَزِيدُ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ] ..... ١٢٨٦  
 [التَّكْبِيرُ عَلَى جَعْلِ الْمُشْرِكِينَ اللَّهُ وَلَدًا] ..... ١٢٨٧  
 [بَيَانُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا حُجَّةَ لَهُمْ] ..... ١٢٨٨  
 [إِعْلَانُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرَاءَةِ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ] ..... ١٢٨٩  
 [إِعْتِرَاضُ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى اللَّهِ فِي إِنْزَالِ الْقُرْآنِ وَجَوَابُهُ] ..... ١٢٨٩

[تَأْيِيدُ مُوسَى بِرَجُلٍ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَخِطَابُ هَذَا  
 الرجل ..... ١٢٥٠  
 [اسْتِهْزَاءُ فِرْعَوْنَ بِرَبِّ مُوسَى] ..... ١٢٥٢  
 [مُؤَاصَلَةُ خِطَابِ مُؤْمِنٍ آلِ فِرْعَوْنَ] ..... ١٢٥٢  
 [نِهَآئَةُ الْخِطَابِ وَمَصِيرُ الْفَرِيقَيْنِ] ..... ١٢٥٣  
 [ثُبُوتُ عَذَابِ الْقَبْرِ] ..... ١٢٥٣  
 [تَخَاضُّمُ أَهْلِ النَّارِ] ..... ١٢٥٤  
 [نُصْرَةُ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ] ..... ١٢٥٥  
 [الْإِشَارَةُ إِلَى نَجَاحِ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ مُوسَى] ..... ١٢٥٦  
 [وَبَنِي إِسْرَائِيلَ] ..... ١٢٥٦  
 [الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ..... ١٢٥٦  
 [الْأَمْرُ بِالْدُّعَاءِ] ..... ١٢٥٧  
 [آيَاتُ اللَّهِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ] ..... ١٢٥٧  
 [الْتِهَامُ عَنِ الشَّرْكِ وَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالِدَّلِيلُ عَلَيْهِ] ..... ١٢٥٨  
 [مَصِيرُ الْمُجَادِلِينَ الْمُكْذِبِينَ] ..... ١٢٥٩  
 [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالْإِشَارَةُ بِالْفَتْحِ] ..... ١٢٦٠  
 [الْأَنْعَامُ أَيْضًا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ] ..... ١٢٦٠  
 [الْعِبَرَةُ بِحَالِ مَنْ سَبَقَ] ..... ١٢٦٠  
 تفسیر سورة فصلت وهی مکیة ..... ١٢٦١  
 [صِفَةُ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالُ الْمُعْرِضِينَ] ..... ١٢٦١  
 [الدُّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ] ..... ١٢٦٢  
 [بَعْضُ تَفَاصِيلِ خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ] ..... ١٢٦٣  
 [تَنْبِيْهُ لِلْمُكْذِبِينَ وَتَذَكُّيرٌ لَهُمْ بِقِصَّةِ عَادٍ وَثَمُودَ] ..... ١٢٦٤  
 [يَوْمَ الْحَشْرِ تَشْهَدُ أَعْضَاءُ الْمُجْرِمِينَ عَلَيْهِمْ] ..... ١٢٦٥  
 [قُرْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ يُزَيِّنُونَ لَهُمْ سُوءَ الْأَعْمَالِ] ..... ١٢٦٦  
 [تَوَاصِي الْكُفَّارِ بِالْإِمْتِنَاعِ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَجَزَاءُ ذَلِكَ] ..... ١٢٦٦  
 [الْإِشَارَةُ لِلْمُؤَحِّدِينَ دَوِيِ الْأَسْتِقَامَةِ] ..... ١٢٦٧  
 [فَضْلُ الدُّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ] ..... ١٢٦٨  
 [الْحِكْمَةُ فِي الدُّعْوَةِ وَغَيْرَهَا] ..... ١٢٦٨  
 [مِنْ آيَاتِ اللَّهِ] ..... ١٢٦٩  
 [عِقَابُ الْمُتَلَحِّدِينَ وَوَصْفُ الْقُرْآنِ بِكَوْنِهِ مَصُونًا  
 معرُوسًا مِنَ الْبَاطِلِ] ..... ١٢٧٠  
 [الْمُشْرِكُونَ وَأَثَرُ الدُّعْوَةِ فِيهِمْ] ..... ١٢٧٠

[فَضَّلَ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاخْتَلَفُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ] ١٣٠٨  
 [تَحْذِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ سُلُوكِ مَنَهِجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ] ١٣٠٨  
 [لَا تَسْتَوِي حَيَاةُ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَمَمَاتُهُمَا] ١٣٠٨  
 [مُعْتَقِدُ الْكَافِرِ وَحُجَّتُهُ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ] ١٣٠٩  
 [بَغْضُ أَحْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا] ١٣١٠  
 [سُورَةُ الْأَخْفَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ١٣١١  
 [أَلْقُرْآنُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللهِ وَالْكَوْنُ مَخْلُوقٌ لَهُ بِالْحَقِّ] ١٣١١  
 [الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ] ١٣١١  
 [أَقْوَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ] ١٣١٢  
 [أَلْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ الْحَقُّ وَمَوْفِقُ الْكُفَّارِ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهُ] ١٣١٣  
 [وَصِيَّةُ اللهِ بِالْوَالِدَيْنِ] ١٣١٤  
 [أَسْتَبْطَأَ الْحُكْمَ عَلَى مُدَّةِ الْحَمْلِ: سِتَّةَ أَشْهُرٍ] ١٣١٥  
 [ذَكَرَ الْأَوْلَادِ الْعَاقِينَ وَمَصِيرُهُمْ] ١٣١٦  
 [قِصَّةُ عَادٍ] ١٣١٧  
 [قِصَّةُ اسْتِمَاعِ الْجَنِّ لِلْقُرْآنِ] ١٣١٩  
 [دَلِيلُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ١٣٢٠  
 [أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ] ١٣٢٠  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقَتَالِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ] ١٣٢١  
 [جَزَاءُ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ] ١٣٢١  
 [الْأَمْرُ بِضَرْبِ رِقَابِ الْعَدُوِّ وَشَدِّ وَثَاقِهِ ثُمَّ الْمَنُّ أَوْ  
 الْفِدَاءُ] ١٣٢١  
 [فَضْلُ الشُّهَدَاءِ] ١٣٢٢  
 [أَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ] ١٣٢٢  
 [الْثَّارُ لِلْكَفَّارِ وَالْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ] ١٣٢٣  
 [لَا يَسْتَوِي عَابِدُ الْحَقِّ وَعَابِدُ الْهَوَى] ١٣٢٤  
 [نَعْتُ الْجَنَّةِ بِأَنْهَارِهَا] ١٣٢٤  
 [بَيَانُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ وَالْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِسْتِغْفَارِ] ١٣٢٥  
 [حَالُ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ وَمَرِيضِ الْقَلْبِ عِنْدَ نَزُولِ الْأَمْرِ  
 بِالْجِهَادِ] ١٣٢٦  
 [الْأَمْرُ بِتَدْبِيرِ الْقُرْآنِ] ١٣٢٧  
 [دَمُّ الْأَرْتِدَادِ] ١٣٢٧  
 [كُفْتُ سِرِّ الْمُنَافِقِينَ] ١٣٢٨  
 [إِحْبَاطُ عَمَلِ الْكُفَّارِ وَالْأَمْرُ بِمَلَا حَقَّتِهِمْ] ١٣٢٨  
 [بَيَانُ حَقَارَةِ الدُّنْيَا وَالْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ] ١٣٢٩

[لَيْسَ الْمَالُ مِنْ عَلَامَةِ الرِّضَا] ١٢٩٠  
 [السَّيْطَانُ قَرِينُ الْمُعْرِضِ عَنِ الرَّحْمَنِ] ١٢٩١  
 [لَا يُهْدَى مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ] ١٢٩١  
 [إِنْتِقَامُ اللهِ مِنْ أَعْدَاءِ الرَّسُولِ وَاقِعٌ] ١٢٩١  
 [الْحَثُّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْقُرْآنِ] ١٢٩١  
 [آيَاتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَضِحْكُ آلِ فِرْعَوْنَ وَتَنَاقُصُهُمْ  
 عُهْدُهُمْ] ١٢٩٢  
 [خِطَابُ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ وَمُؤَاخَذَةُ اللهِ إِيَّاهُ] ١٢٩٢  
 [إِسْتِخْفَافُ فَرِيْسَ لَابِنْ مَرْيَمَ، وَدَرَجَتُهُ عِنْدَ اللهِ] ١٢٩٣  
 [تَأْتِي الْقِيَامَةُ بَعَثَتُهُ وَتَفْعُ الْعِدَاوَةُ بَيْنَ الْأَخِلَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ] ١٢٩٦  
 [بِشَارَةِ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَدُخُولُهُمُ الْجَنَّةَ] ١٢٩٦  
 [عَاقِبَةُ الْأَشْقِيَاءِ السَّيِّئَةِ] ١٢٩٧  
 [لَيْسَ لِلَّهِ وَلَدٌ] ١٢٩٧  
 [بَيَانُ تَقَرُّدِ الرَّبِّ] ١٢٩٧  
 [نَفْيُ شَفَاعَةِ الْأَوْثَانِ] ١٢٩٨  
 [إِعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِتَوْحِيدِ اللهِ فِي الْخَلْقِ] ١٢٩٨  
 [شُكْوَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَى اللهِ] ١٢٩٨  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ١٢٩٨  
 [فَضْلُ سُورَةِ الدُّخَانِ] ١٢٩٨  
 [نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ] ١٢٩٨  
 [تَحْوِيلُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي تَأْتِي السَّمَاءُ  
 بِالدُّخَانِ] ١٢٩٩  
 [الْقَوْلُ الثَّانِي فِي تَفْسِيرِ الدُّخَانِ] ١٣٠٠  
 [تَفْسِيرُ الْبُطْمَةِ الْكُبْرَى] ١٣٠١  
 [قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَنَجَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ] ١٣٠١  
 [الرَّدُّ عَلَى مُنْكَرِي الْقِيَامَةِ] ١٣٠٣  
 [خُلِقَتِ الدُّنْيَا لِحُكْمَةٍ] ١٣٠٤  
 [حَالُ الْمُشْرِكِينَ وَعَذَابُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ١٣٠٤  
 [حَالُ الْمُتَّقِينَ وَنِعْمَتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ] ١٣٠٥  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّجَافَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ١٣٠٥  
 [الْإِزْشَادُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللهِ] ١٣٠٦  
 [صِفَاتُ الْأَفَّاكِ الْأَيْمِ وَجَزَاؤُهُ] ١٣٠٦  
 [فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ وَغَيْرِهِ آيَاتٌ] ١٣٠٧  
 [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْمُشْرِكِينَ] ١٣٠٧

- [النَّهْيُ عَنِ الظَّنِّ] ..... ١٣٥٠
- [طَرِيقَةُ تَوْبَةِ الْمُتَغَابِ وَالنَّعَامِ] ..... ١٣٥١
- [كُلُّ النَّاسِ بَنُو آدَمَ وَحَوَّاءَ] ..... ١٣٥١
- [الْكُرْمُ بِالتَّقْوَى] ..... ١٣٥٢
- [الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُسْلِمِ] ..... ١٣٥٢
- تفسير سورة ق وهي مكية ..... ١٣٥٣
- [بِدَايَةُ الْمُفَصَّلِ] ..... ١٣٥٣
- [فَضْلُ سُورَةِ ق] ..... ١٣٥٤
- [تَعَجُّبُ الْكُفَّارِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْمَعَادِ، وَالرُّدُّ عَلَيْهِمْ] ..... ١٣٥٤
- [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْمَعَادِ] ..... ١٣٥٥
- [تَذْكِيرُ قُرَيْشٍ بِهَلَاكِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ] ..... ١٣٥٦
- [الْإِعَادَةُ أَسْهَلُ] ..... ١٣٥٦
- [إِحَاطَتُهُ تَعَالَى وَحِفْظُهُ لِكُلِّ مَا عِنْدَ الْإِنْسَانِ] ..... ١٣٥٦
- [التَّذْكِيرُ بِسَكْرَةِ الْمَوْتِ وَتَفْخِ الصُّورِ وَمَا يَلِيهِ مِنْ الْحَشْرِ] ..... ١٣٥٧
- [شَهَادَةُ الْمَلِكِ وَأَمْرُ اللَّهِ بِالْقَاءِ الْكَافِرِ فِي جَهَنَّمَ] ..... ١٣٥٨
- [اِخْتِصَامُ الْإِنْسَانِ وَالشَّيْطَانِ عِنْدَ اللَّهِ] ..... ١٣٥٨
- [أَحْوَالُ جَهَنَّمَ وَالْجَنَّةِ وَأَهْلِيهَا] ..... ١٣٥٨
- [تَهْدِيدُ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ وَأَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ] ..... ١٣٦٠
- [الْأَمْرُ بِالتَّسْبِيحِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ] ..... ١٣٦٠
- [التَّذْكِيرُ بِبَعْضِ مَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٣٦١
- [تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ] ..... ١٣٦١
- تفسير سورة الذاريات وهي مكية ..... ١٣٦١
- [التَّأْكِيدُ عَلَى صِدْقِ وَفُوعِ الْمَعَادِ وَالْحِسَابِ] ..... ١٣٦٢
- [إِخْتِلَافُ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ] ..... ١٣٦٢
- [جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ وَصِفَاتُهُمْ] ..... ١٣٦٣
- [آيَاتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَالنَّفْسِ] ..... ١٣٦٤
- [حَدِيثُ صَيْفِ بْنِ إِسْرَاهِيمَ] ..... ١٣٦٤
- [شَأْنُ الْمَلَائِكَةِ إِهْلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ] ..... ١٣٦٥
- [الْعِبَرُ مِنْ قِصَّةِ فِرْعَوْنَ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ نُوحٍ] ..... ١٣٦٦
- [دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ رُوحَيْنِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ] ..... ١٣٦٧
- [تَكْذِيبُ كُلِّ قَوْمٍ رَسُولَهُمْ عَلَى طَرِيقِ وَاحِدٍ] ..... ١٣٦٧

- تفسير سورة الفتح وهي مدنية ..... ١٣٦٩
- [فَضْلُ سُورَةِ الْفَتْحِ] ..... ١٣٦٩
- [سَبَبُ نُزُولِ سُورَةِ الْفَتْحِ] ..... ١٣٦٩
- [نُزُولُ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ] ..... ١٣٦٩
- [صِفَاتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] ..... ١٣٦٩
- [بَيَعَةُ الرُّضْوَانِ] ..... ١٣٦٩
- ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ ..... ١٣٦٩
- ذِكْرُ سَبَبِ هَذِهِ الْبَيَعَةِ الْعَظِيمَةِ ..... ١٣٦٩
- [الْعُدْرُ الْمَكْذُوبُ مِمَّنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْحُدُوبِ وَوَعِدَ اللَّهُ عَلَيْهِ] ..... ١٣٦٩
- [الْإِخْبَارُ بِمَرِيدِ الْجِهَادِ وَأَنَّهُ يَكُونُ فَوْقَانَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَنَافِقِينَ] ..... ١٣٦٩
- [الْأَعْدَارُ الشَّرْعِيَّةُ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ مَعَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ] ..... ١٣٦٩
- [الْبَشَارَةُ بِالرِّضَا وَالْمَغَانِمِ لِأَهْلِ بَيَعَةِ الرُّضْوَانِ] ..... ١٣٦٩
- [الْبَشَارَةُ بِالْمَغَانِمِ الْكَثِيرَةِ] ..... ١٣٦٩
- [الْبَشَارَةُ بِجَمِيعِ الْفَتْوحَاتِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ١٣٦٩
- [لَوْ قَاتَلَ كُفَّارُ مَكَّةَ بِالْحُدُوبِ لَفَرُّوا وَلَمْ يَضْمُدُوا] ..... ١٣٦٩
- [حُكْمُ اللَّهِ فِي كَفِّ الْقِتَالِ] ..... ١٣٦٩
- [وَفْعُ ضُلْحِ الْحُدُوبِ، مَعَ كَوْنِ الْمُؤْمِنِينَ أَصْحَابَ الْحَقِّ وَالْعَلَبَةِ، وَذِكْرُ مَصَالِحِهِ] ..... ١٣٦٩
- [وَهَذَا ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي قِصَّةِ الْحُدُوبِ] ..... ١٣٦٩
- [بَيَانُ صِدْقِ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ] ..... ١٣٦٩
- [الْبَشَارَةُ بِغَلَبَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْعَالَمِ] ..... ١٣٦٩
- [صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ] ..... ١٣٦٩
- تفسير سورة الحُجُرَات وهي مدنية ..... ١٣٦٩
- [النَّهْيُ عَنِ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْأَمْرُ بِتَعْظِيمِهِ وَالتَّأَدُّبِ مَعَهُ] ..... ١٣٦٩
- [دَمٌ مَنْ يُبَادِي النَّبِيَّ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ] ..... ١٣٦٩
- [الْأَمْرُ بِالتَّثَبُّتِ إِنْ جَاءَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ] ..... ١٣٦٩
- [حُكْمُ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ الْأَصْلَحُ] ..... ١٣٦٩
- [الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ] ..... ١٣٦٩
- [الْأَمْرُ بِالِإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِقِتَالِ الْفِتَنِ الْبَاغِيَةِ] ..... ١٣٦٩
- [النَّهْيُ عَنِ الشَّخَرَةِ وَالِإِخْتِقَارِ] ..... ١٣٦٩

[بَيَانُ صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ] ..... ١٣٨٠  
 [لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وَزْرَ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٣٨٠  
 [بَعْضُ صِفَاتِ الرَّبِّ، وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْإِنْسَانَ كَمَا بَدَأَهُ،  
 وَذَكَرَ بَعْضُ مَا فَعَلَهُ بِعِبَادِهِ] ..... ١٣٨١  
 [الْإِنذَارُ وَالنَّبِيَّةُ وَالْأَمْرُ بِالسَّجْدَةِ وَالْخُضُوعِ] ..... ١٣٨٢  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ..... ١٣٨٢  
 [اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ] ..... ١٣٨٣  
 [ذَكَرَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ] ..... ١٣٨٣  
 [عِنَادُ الْمُشْرِكِينَ وَمَوْفِقُهُمُ السَّيِّئُ] ..... ١٣٨٤  
 [سُوءُ أَحْوَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٣٨٤  
 [قِصَّةُ قَوْمِ نُوحٍ، وَالْعِبْرَةُ بِهَا وَبِقَصَصِ الْأَقْوَامِ] ..... ١٣٨٥  
 [قِصَّةُ عَادٍ] ..... ١٣٨٥  
 [قِصَّةُ ثَمُودَ] ..... ١٣٨٦  
 [قِصَّةُ قَوْمِ لُوطٍ] ..... ١٣٨٦  
 [قِصَّةُ آلِ فِرْعَوْنَ] ..... ١٣٨٧  
 [نُصْحُ فُرَيْسٍ وَتَهْدِيدُهُمْ] ..... ١٣٨٧  
 [عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ] ..... ١٣٨٨  
 [كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ] ..... ١٣٨٨  
 [التَّهْدِيدُ بِتَفْذِيرِ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ] ..... ١٣٨٩  
 [عَاقِبَةُ الْمُتَّقِينَ الْحَسَنَةُ] ..... ١٣٨٩  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ..... ١٣٩٠  
 [تَوْطِئَةٌ عَنْ سُورَةِ الرَّحْمَنِ] ..... ١٣٩٠  
 [الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ الرَّحْمَنُ وَعَلَّمَهُ] ..... ١٣٩٠  
 [آيَاتُ اللَّهِ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ] ..... ١٣٩٠  
 [الْإِنْسَانُ مَعْمُورٌ بِنِعَمِ اللَّهِ] ..... ١٣٩١  
 [بَيَانُ خَلْقِ آدَمَ وَالْجَنَّةِ] ..... ١٣٩١  
 [الْإِمْتِنَانُ بِكَوْنِهِ رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ] ..... ١٣٩٢  
 [الْإِمْتِنَانُ بِتَوْعِي الْبَحْرِ وَالسُّفُنِ] ..... ١٣٩٢  
 [بَيَانُ شَأْنِ اللَّهِ وَبِقَائِهِ وَعَنَاهُ] ..... ١٣٩٢  
 [تَهْدِيدٌ لِلثَّقَلَيْنِ وَبَيَانٌ لِهَوْلِ مَا يُصِيبُهُمَا] ..... ١٣٩٣  
 [بَيَانُ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَأَحْوَالِ الْمُجْرِمِينَ] ..... ١٣٩٣  
 [أَحْوَالُ الْمُتَّقِينَ وَنِعْمَتُهُمْ فِي الْجَنَّاتِ] ..... ١٣٩٥  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ..... ١٣٩٨  
 [فَضْلُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ] ..... ١٣٩٨

[مَا كَانَ خَلْقُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِعِبَادَةِ اللَّهِ] ..... ١٣٦٧  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ..... ١٣٦٧  
 [فَضْلُ سُورَةِ الطُّورِ] ..... ١٣٦٧  
 [قَسَمُ اللَّهِ عَلَى وَقُوعِ الْعَذَابِ] ..... ١٣٦٨  
 [وَصَفُ يَوْمِ الْعَذَابِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ] ..... ١٣٦٩  
 [وَصَفُ مَالِ السَّعْدَاءِ] ..... ١٣٦٩  
 [لُحُوقُ دُرِّيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ فِي الْمَنْزِلَةِ] ..... ١٣٦٩  
 [عَذَابُ اللَّهِ مَعَ أَهْلِ الذُّنُوبِ] ..... ١٣٧٠  
 [وَصَفُ حَمْرِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِ أَهْلِهَا] ..... ١٣٧٠  
 [تَبَرُّتُهُ الرَّسُولِ مِمَّا اتَّهَمَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَتَوَعُّدُهُمْ  
 وَتَحْدِيثُهُمْ] ..... ١٣٧١  
 [أَسْئَلُهُ تَثْبِثُ التَّوْحِيدَ وَتَنْفِي حَيْلَ الْمُشْرِكِينَ] ..... ١٣٧١  
 [بَيَانُ عِنَادِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنَّهُمْ يَعْذَّبُونَ] ..... ١٣٧٢  
 [أَمْرُ الرَّسُولِ ﷺ بِالصَّبْرِ وَالنَّصِيحِ] ..... ١٣٧٢  
 [تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّجْمِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ] ..... ١٣٧٣  
 [أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ] ..... ١٣٧٣  
 [أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَمَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالْوَحْيِ] ..... ١٣٧٤  
 [رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى] ..... ١٣٧٤  
 [مُعَلِّمُ الرَّسُولِ الْأَمِينُ هُوَ الرُّوحُ الْأَمِينُ] ..... ١٣٧٤  
 [تَفْسِيرُ فَكَانَ قَابُ قَوْسَيْنِ] ..... ١٣٧٥  
 [أَهْلُ رَأْيِ النَّبِيِّ ﷺ رَبُّهُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ؟] ..... ١٣٧٥  
 [غَشِيَانُ الْمَلَائِكَةِ وَالنُّورِ وَالْأَلْوَانِ السَّدْرَةِ] ..... ١٣٧٦  
 [الْأَرْدُّ عَلَى عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ وَبَيَانُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ] ..... ١٣٧٦  
 [الْأَرْدُّ عَلَى مُعْتَقِدِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَذْكِيرِ الْأَنْذَادِ وَتَأْيِثِ  
 الْمَلَائِكَةِ] ..... ١٣٧٨  
 [لَا يَحْصُلُ الْخَيْرُ بِالتَّمَنِّي] ..... ١٣٧٨  
 [لَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ] ..... ١٣٧٨  
 [الْأَرْدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي رَعْوِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ  
 اللَّهِ] ..... ١٣٧٨  
 [الْأَمْرُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ] ..... ١٣٧٩  
 [اللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، فَهُوَ يُجَازِي كُلًّا بِحَسَبِهِ] ..... ١٣٧٩  
 [صِفَةُ الْمُحْسِنِينَ وَغَفْرَانُ اللَّحْمِ دُونَ الْكِبَايِرِ] ..... ١٣٧٩  
 [الْتَرَاغِبُ فِي التَّوْبَةِ وَالنَّهْيُ عَنْ تَرْكِيَةِ النَّفْسِ] ..... ١٣٧٩  
 [الَّذَلَمُ لِمَنْ تَوَلَّى عَنِ الطَّاعَةِ وَبَجَلَ بِالْمَالِ، وَالْأَرْدُّ عَلَيْهِ] ..... ١٣٨٠

١٤٢١..... [الظَّهَارُ وَكَفَّارَتُهُ]  
 ١٤٢٣..... [بَيَانُ عَاقِبَةِ أَغْدَاءِ الدِّينِ]  
 ١٤٢٣..... [عِلْمُ اللَّهِ مُحِيطٌ بِالْخَلْقِ]  
 ١٤٢٣..... [بَيَانُ شَرَارَةِ الْيَهُودِ]  
 ١٤٢٤..... [آدَابُ النَّجْوَى]  
 ١٤٢٥..... [آدَابُ الْمَجْلِسِ]  
 ١٤٢٥..... [فَضْلُ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ]  
 ١٤٢٦..... [الْأَمْرُ بِالصَّدَقَةِ قَبْلُ أَنْ يُتَاجَى الرَّسُولُ]  
 ١٤٢٦..... [دَمُّ الْمُنَافِقِينَ]  
 ١٤٢٧..... [ذِلَّةُ الْمُخَالِفِينَ لِلَّهِ وَعَلَيْهِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ]  
 ١٤٢٨..... [لَا يُؤَادُّ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ]  
 ١٤٢٨..... [تفسير سورة النحش وهي مدينة  
 ١٤٢٩..... [يُسَبِّحُ اللَّهُ كُلُّ شَيْءٍ]  
 ١٤٢٩..... [ذَكَرُ مَا حَلَّ بَيْنِي النَّصِيرِ]  
 ١٤٣٠..... [سَبَبُ غَزْوَةِ بَنِي النَّصِيرِ]  
 ١٤٣١..... [مَا وَقَعَ مِنْ قَطْعِ الشَّجَلِ كَانَ بِإِذْنِ اللَّهِ]  
 ١٤٣٢..... [أَمْوَالُ الْفَقْرِ وَمَصَارِفُهَا]  
 ١٤٣٣..... [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ وَيَنْهَى]  
 ١٤٣٤..... [بَيَانُ الْمُسْتَحَقِّينَ الْأَخِيرِينَ لِأَمْوَالِ الْفَقْرِ، وَفِيهِ فَضْلُ  
 ١٤٣٤..... [الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ]  
 ١٤٣٤..... [كَانَ الْأَنْصَارُ لَا يَحْسُدُونَ الْمُهَاجِرِينَ]  
 ١٤٣٤..... [إِيثَارُ الْأَنْصَارِ]  
 ١٤٣٦..... [وَعَدُ الْمُنَافِقِينَ الْكُذْبَ لِبَنِي النَّصِيرِ]  
 ١٤٣٦..... [مَثَلُ الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ]  
 ١٤٣٧..... [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَالِاسْتِعْدَادَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]  
 ١٤٣٧..... [لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ]  
 ١٤٣٧..... [بَيَانُ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ]  
 ١٤٣٨..... [تَمْجِيدُ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ]  
 ١٤٣٨..... [الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى]  
 ١٤٣٨..... [كُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ لِلَّهِ]  
 ١٤٣٩..... [تفسير سورة الممتحنة وهي مدينة  
 ١٤٣٩..... [سَبَبُ نَزُولِ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ]  
 ١٤٤٠..... [الْأَمْرُ بِعَادَاةِ الْكُفَّارِ وَتَرْكِ مَوَالَاتِهِمْ]  
 [لِلْمُسْلِمِينَ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِهِ فِي تَرْبِهِمْ

١٣٩٨..... [ذَكَرُ أَحْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]  
 ١٣٩٨..... [النَّاسُ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]  
 ١٣٩٩..... [السَّابِقُونَ وَجَزَاؤُهُمْ]  
 ١٤٠١..... [أَصْحَابُ الْيَمِينِ وَجَزَاؤُهُمْ]  
 ١٤٠٣..... [أَصْحَابُ الشَّمَالِ وَأَحْوَالُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ]  
 ١٤٠٥..... [ثَبُوتُ الْقِيَامَةِ وَدَلِيلُ الْمَعَادِ]  
 [التَّثْبِيهُ عَلَى تَقَرُّدِ اللَّهِ بِالزَّرْعِ وَإِنزَالِ الْمَاءِ، وَخَلْقِ النَّارِ،  
 وَهِيَ مِنْ أَقْرَبِ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ]  
 ١٤٠٥..... [قَسَمُ اللَّهِ عَلَى عَظَمَةِ الْقُرْآنِ]  
 ١٤٠٧..... [عَدَمُ اسْتِطَاعَةِ رَدِّ الرُّوحِ حِينَ تَبْلُغُ الْخُلُقُومَ، دَلِيلٌ عَلَى  
 ١٤٠٨..... [الْمَحَاسِنِ]  
 [أَحْوَالِ النَّاسِ عِنْدَ الْإِخْتِصَارِ، وَمَصِيرُ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ]  
 ١٤٠٨..... [تفسير سورة الحديد وهي مدينة  
 ١٤٠٩..... [فَضْلُ سُورَةِ الْحَدِيدِ]  
 ١٤٠٩..... [يُسَبِّحُ جَمِيعُ الْكَوْنِ لِلَّهِ وَذَكَرُ بَعْضِ صِفَاتِهِ]  
 ١٤١٠..... [سُمُوعُ عِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتُهُ وَمُلْكُهُ]  
 ١٤١١..... [الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ وَالْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ]  
 ١٤١٢..... [فَضْلُ الْإِنْفَاقِ وَالْقِتَالِ قَبْلَ الْفَتْحِ]  
 ١٤١٣..... [الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ]  
 ١٤١٣..... [يُعْطَى الْمُؤْمِنُونَ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ]  
 ١٤١٤..... [أَحْوَالُ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]  
 [الْحَضْرُ عَلَى الْخُشُوعِ وَالنَّهْيُ عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَ أَهْلِ  
 ١٤١٤..... [الْكِتَابِ]  
 ١٤١٥..... [أَجْرُ الْمُصَدِّقِ وَالصَّادِقِ وَالشَّهَدَاءِ وَمَصِيرُ الْكُفَّارِ]  
 ١٤١٦..... [الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ]  
 ١٤١٧..... [كُلُّ مَا يُصِيبُ الْإِنْسَانَ فَهُوَ بِقَدَرٍ]  
 ١٤١٨..... [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ]  
 ١٤١٨..... [دَمُّ الْبُخْلِ]  
 ١٤١٨..... [أُزِيلَ الْأَنْبِيَاءُ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالْعَدْلُ وَالْحَقُّ]  
 ١٤١٨..... [فَوَائِدُ الْحَدِيدِ]  
 ١٤١٩..... [فُسُقُ الْكَثِيرِ مِنْ أُمَّمِ الْأَنْبِيَاءِ]  
 ١٤٢٠..... [يُؤْتَى مُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ الْأَجْرَ مَرَّتَيْنِ]  
 ١٤٢١..... [تفسير سورة المجادلة مدينة  
 ١٤٢١..... [سَبَبُ النَّزُولِ]



تفسير سورة المنافقين وهي مدنية ..... ١٤٥٥  
 [أَحْوالُ الْمُنَافِقِينَ وَتَقْلَبَانَهُمْ] ..... ١٤٥٥  
 [إِعْرَاضُهُمْ عَنِ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ وَعَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى مَنْ  
 عِنْدَهُ] ..... ١٤٥٦  
 [الْحَثُّ عَلَى عَدَمِ الْإِسْتِغَالِ بِأَشْبَابِ الدُّنْيَا، وَعَلَى  
 الصَّدَقَةِ قَبْلَ الْمَوْتِ] ..... ١٤٥٨  
 تفسير سورة التغابن وهي مدنية وقيل: مكية ..... ١٤٥٨  
 [التَّشْبِيحُ لِلَّهِ وَذِكْرُ خَلْقِهِ وَعِلْمِهِ] ..... ١٤٥٨  
 [الْإِنذَارُ بَيِّنَاتٍ إِهْلَاكِ مَنْ سَبَقَ مِنَ الْكُفَّارِ] ..... ١٤٥٩  
 [الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَمَاتِ حَقٌّ] ..... ١٤٥٩  
 [ذِكْرُ يَوْمِ التَّعَابُنِ] ..... ١٤٥٩  
 [مَا يُصِيبُ الْمَرْءَ فَهُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ] ..... ١٤٦٠  
 [الْأَمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ] ..... ١٤٦٠  
 [التَّوْحِيدُ] ..... ١٤٦٠  
 [التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ] ..... ١٤٦٠  
 [الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى بِقَدْرِ الْإِشْطَاعَةِ] ..... ١٤٦١  
 [التَّرْغِيبُ فِي الصَّدَقَةِ] ..... ١٤٦١  
 تفسير سورة الطلاق وهي مدنية ..... ١٤٦١  
 [تَطْلُقُ الْمَرْأَةُ لِعِدَّتِهَا، وَلَا تُخْرَجُ مِنْ بَيْتِهَا، وَتُحْصِي  
 عِدَّتُهَا] ..... ١٤٦١  
 [الْتَفَتُهُ وَالسُّكْنَى عَلَى الزَّوْجِ فِي عِدَّةِ الرَّجْعَةِ] ..... ١٤٦٢  
 [مَصْلَحَةُ الْإِعْتِدَادِ فِي بَيْتِ الزَّوْجِ] ..... ١٤٦٣  
 [لَا نَفَقَةَ وَلَا سَكْنَى لِلْمَبْثُوتَةِ] ..... ١٤٦٣  
 [الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْمُطَلَّقةِ سَوَاءَ أَرَادَ الرَّجْعَةَ أَوْ  
 الْفِرَاقَ] ..... ١٤٦٣  
 [الْأَمْرُ بِالْإِشْهَادِ عَلَى الرَّجْعَةِ] ..... ١٤٦٤  
 [يَجْعَلُ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُمْ وَيُكْفِيهِمْ] ..... ١٤٦٤  
 [عِدَّةُ الْآيَةِ وَالَّتِي لَمْ تَحْضُرْ] ..... ١٤٦٤  
 [عِدَّةُ الْحَامِلِ] ..... ١٤٦٥  
 [تَسْكُنُ الْمُطَلَّقةُ حَسَبَ مَا يَجِدُ الزَّوْجُ] ..... ١٤٦٦  
 [الْكَفَى عَنِ التَّضْيِيقِ عَلَى الْمُطَلَّقةِ] ..... ١٤٦٦  
 [نَفَقَةُ الْحَامِلِ الْبَائِسِ عَلَى الزَّوْجِ حَتَّى تَضَعَ الْحَمْلَ] ..... ١٤٦٦  
 [تَأْخُذُ الْأُمُ الْمُطَلَّقةُ أَجْرَةَ الرِّضَاعَةِ إِنْ أَرْضَعَتْ] ..... ١٤٦٦  
 [قِصَّةُ الْمَرْأَةِ الْمُتَّقِيَةِ] ..... ١٤٦٦

عَنْ قَوْمِهِمُ الْكُفَّارِ] ..... ١٤٤٠  
 [عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْدَائِهِمْ مَوَدَّةً] ..... ١٤٤٢  
 [يَجُوزُ الْإِحْسَانُ إِلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَ فِي الدِّينِ] ..... ١٤٤٢  
 [الْكَفَّارُ] ..... ١٤٤٢  
 [تَخْصِيصُ الْمُسْلِمَاتِ بَعْدَ رَدِّهِنَّ إِلَى الْكُفَّارِ إِذَا  
 هَاجَرْنَ بَعْدَ الْحُدُوثِ] ..... ١٤٤٣  
 [حُرْمَةُ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَالْمُشْرِكَاتِ عَلَى  
 الْمُؤْمِنِينَ] ..... ١٤٤٣  
 [الْأُمُورُ الَّتِي يُبَايَعُ عَلَيْهَا النِّسَاءُ] ..... ١٤٤٤  
 تفسير سورة الصف وهي مدنية ..... ١٤٤٦  
 [فَضْلُ سُورَةِ الصَّفِّ] ..... ١٤٤٦  
 [دَمٌ مَنْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفْعَلُهُ] ..... ١٤٤٦  
 [خِطَابُ مُوسَى لِقَوْمِهِ عَلَى آدَاهُمْ وَإِزَاعَهُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ] ..... ١٤٤٧  
 [تَبَشِيرُ عِيسَى بَنِيَّانَا ﷺ بِاسْمِهِ أَحْمَدُ] ..... ١٤٤٧  
 [ذِكْرُ أَظْلَمِ النَّاسِ وَالْإِبَارَةُ بِإِتِمَامِ نُورِ الْإِسْلَامِ وَعَلَيْتِهِ  
 عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ] ..... ١٤٤٨  
 [الْجَارَةُ الْمُنْجِيَةُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ] ..... ١٤٤٨  
 [الْمُسْلِمُونَ أَنْصَارُ الدِّينِ فِي كُلِّ حَالٍ] ..... ١٤٤٩  
 [طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ آمَنَتْ بِعِيسَى وَأُخْرَى كَفَرَتْ بِهِ] ..... ١٤٤٩  
 [نَضْرُ اللَّهُ الطَّائِفَةَ الْمُؤْمِنَةَ] ..... ١٤٤٩  
 تفسير سورة الجمعة وهي مدنية ..... ١٤٥٠  
 [فَضْلُ سُورَةِ الْجُمُعَةِ] ..... ١٤٥٠  
 [يُسَبِّحُ اللَّهُ كُلُّ شَيْءٍ] ..... ١٤٥٠  
 [الْأَمْتَانِ بِعِغَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] ..... ١٤٥٠  
 [مُحَمَّدٌ رَسُولُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ] ..... ١٤٥١  
 [دَمُ الْيَهُودِ وَدَعْوَتُهُمْ لِمَتْنَى الْمَوْتِ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَاهَلَةِ] ..... ١٤٥١  
 [الْجُمُعَةُ وَالْأَوَامِرُ وَالْآدَابُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ] ..... ١٤٥٢  
 [الْأَمْرُ بِالسَّعْيِ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ] ..... ١٤٥٣  
 [فَضْلُ الْجُمُعَةِ] ..... ١٤٥٣  
 [الْمَرْأَةُ بِاللَّدَاءِ إِذَا نَافَتْ] ..... ١٤٥٤  
 [حُرْمَةُ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ بَعْدَ نِدَاءِ الْجُمُعَةِ وَالتَّرْغِيبِ فِي  
 طَلَبِ الرِّزْقِ بَعْدَهَا] ..... ١٤٥٤  
 [الْكَفَى عَنِ الْإِنْصِرَافِ مِنَ الْمَسْجِدِ وَالْإِمَامِ يَخْطُبُ] ..... ١٤٥٤

- ١٤٦٧ ..... [جَزَاءُ الْمُتَوَّعِنِ عَنْ أَمْرِ الرَّبِّ]
- ١٤٦٧ ..... [صِفَةُ الرَّسُولِ ﷺ]
- ١٤٦٧ ..... [بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ]
- ١٤٦٧ ..... [تفسير سورة التَّحْرِيمِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٦٨ ..... [عِتَابُ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ فِي تَحْرِيمِهِ الْحَلَالِ وَبَيَانِ كُفَّارَتِهِ، وَتَأْدِيبِ الْأَرْوَاحِ عَلَى تَضْيِيقِهِ]
- ١٤٧١ ..... [تَعْلِيمُ الْأَهْلِ الْأَدَبِ وَالِدِّينِ]
- ١٤٧١ ..... [وَقُودُ جَهَنَّمَ وَمَلَايِكَتُهَا]
- ١٤٧١ ..... [لَا يَقْبَلُ عَذْرُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٧١ ..... [الْتَرَاغِبُ فِي التَّوْبَةِ النَّصُوحِ]
- ١٤٧٢ ..... [الْأَمْرُ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ]
- ١٤٧٢ ..... [لَا يَنْفَعُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ عِنْدَ اللَّهِ مَهْمَا كَانَ قَرِيبًا]
- ١٤٧٣ ..... [لَا يَضُرُّ الْكَافِرَ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ اللَّهِ]
- ١٤٧٣ ..... [تفسير سورة الزُّلْفَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٧٣ ..... [فَضْلُ سُورَةِ الْمُلْكِ]
- ١٤٧٣ ..... [تَمْجِيدُ اللَّهِ وَذِكْرُ خَلْقِهِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، وَالسَّمَاوَاتِ وَالْجُجُومِ]
- ١٤٧٥ ..... [صِفَةُ جَهَنَّمَ وَالِدَّاحِلِينَ فِيهَا]
- ١٤٧٥ ..... [جَزَاءُ مَنْ خَسِيَ رَبَّهُ بِالْغَيْبِ]
- ١٤٧٦ ..... [نِعْمَةُ اللَّهِ فِي تَسْخِيرِ الْأَرْضِ لِعِبَادِهِ]
- ١٤٧٦ ..... [كَيْفَ تَأْمَنُونَ عَذَابَ اللَّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى مُوَاحَذَتِكُمْ كَيْفَمَا شَاءَ]
- ١٤٧٦ ..... [طَبَرَانِ الطُّيُورِ يَقْدِرُهُ اللَّهُ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ بَصِيرٌ بِكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ]
- ١٤٧٧ ..... [لَا يَنْصُرُكُمْ أَحَدٌ وَلَا يَرْزُقُ إِلَّا اللَّهُ]
- ١٤٧٧ ..... [مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ]
- ١٤٧٧ ..... [قُدْرَةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَدَلَالَتُهَا عَلَى الْمَعَادِ]
- ١٤٧٧ ..... [مَوْتُ الْمُؤْمِنِ لَا يُجِيرُ الْكَافِرَ فَلْيَتَوَكَّرْ فِي خَلَاصِهِ]
- ١٤٧٨ ..... [الْتَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ فِي نَبْعِ الْمَاءِ وَالتَّخْوِيفُ بِذَهَابِهِ]
- ١٤٧٨ ..... [تفسير سورة ن وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٧٨ ..... [تفسير القَلَمِ]
- ١٤٧٩ ..... [الْقَسَمُ بِالْقَلَمِ عَلَى عَظَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ]
- ١٤٧٩ ..... [تفسير إِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلَقْتَ عَظِيمًا]
- ١٤٧٩ ..... [الْتَّهْيِي عَنْ قَبُولِ ضَغْطِ الْمَكْذِبِينَ وَمُقْتَرَحَاتِهِمْ بَيْنَ
- ١٤٨٠ ..... [الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ]
- ١٤٨١ ..... [مَثَلٌ لِدَهَابِ كَسْبِ الْكُفَّارِ]
- ١٤٨٢ ..... [جَزَاءُ الْمُتَّقِينَ وَأَنَّهُمْ لَا يُجْعَلُونَ كَالْمُجْرِمِينَ]
- ١٤٨٢ ..... [أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٨٣ ..... [وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ يَكْذِبُ بِالْقُرْآنِ]
- ١٤٨٣ ..... [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَعَدَمُ الْإِسْتِعْجَالِ مِثْلُ يُونسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ]
- ١٤٨٣ ..... [إِصَابَةُ الْعَيْنِ حَقٌّ]
- ١٤٨٣ ..... [رَمِي الْكُفَّارُ وَجَوَائِبُهُمْ]
- ١٤٨٥ ..... [تفسير سورة الْحَاقَّةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٨٥ ..... [الْتَّذْيِيهِ عَلَى عَظَمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٨٥ ..... [ذِكْرُ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ]
- ١٤٨٦ ..... [الْتَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ السَّيْفِينِ]
- ١٤٨٧ ..... [ذِكْرُ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٨٧ ..... [عَرَضُ بَنِي آدَمَ عَلَى اللَّهِ]
- ١٤٨٧ ..... [فَرَحُهُ مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَخُسْنُ حَالِهِ]
- ١٤٨٨ ..... [سُوءُ حَالِ مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ]
- ١٤٨٩ ..... [الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ]
- ١٤٨٩ ..... [لَوْ تَقَوَّلَ النَّبِيُّ شَيْئًا عَلَى اللَّهِ لَأَخَذَهُ اللَّهُ بِعَذَابٍ]
- ١٤٩٠ ..... [تفسير سورة سَاءِلَ سَائِلَ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٩٠ ..... [الْإِسْتِعْجَالُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٩٠ ..... [تفسير ذِي الْمَعَارِجِ]
- ١٤٩٠ ..... [الْمُرَادُ بِيَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ]
- ١٤٩١ ..... [تَلْقِينَ النَّبِيِّ الصَّبْرَ]
- ١٤٩١ ..... [أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ]
- ١٤٩٢ ..... [الْإِنْسَانُ هَالِكٌ]
- ١٤٩٣ ..... [إِسْتِثْنَاءُ الْمُصَلِّينَ مِمَّا سَبَقَ وَبَيَانُ أَعْمَالِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ]
- ١٤٩٣ ..... [الْتَّذْكِيرُ عَلَى الْكُفَّارِ وَتَهْدِيدُهُمْ]
- ١٤٩٥ ..... [تفسير سورة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ]
- ١٤٩٥ ..... [دَعْوَةُ نُوحٍ لِقَوْمِهِ]
- ١٤٩٥ ..... [شَكْوَى نُوحٍ مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ]
- ١٤٩٦ ..... [مَا قَالَ نُوحٌ حِينَ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ]
- ١٤٩٧ ..... [شَكْوَى نُوحٍ إِلَى رَبِّهِ لِمَا أَجَابَ بِهِ قَوْمُهُ]
- ١٤٩٧ ..... [أَصْنَامُ قَوْمِ نُوحٍ وَمَا صَارَتْ إِلَيْهِ]

[دُعَاءُ نُوحٍ عَلَى قَوْمِهِ وَلَمَنْ آمَنَ بِهِ] ..... ١٤٩٧  
 تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ..... ١٤٩٨  
 [إِسْتِمَاعُ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ وَإِيمَانُهُمْ بِهِ] ..... ١٤٩٩  
 [إِفْرَارُ الْجِنِّ بِأَنَّ اللَّهَ مُنْزَعٌ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادِ] ..... ١٤٩٩  
 [مِنْ سَبَبِ طُعْيَانِ الْجِنِّ اسْتِعَاذَةَ الْإِنْسِي بِهِمْ] ..... ١٤٩٩  
 [إِسْتِرَاقُ الْجِنِّ خَبَرَ السَّمَاءِ قَبْلَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ وَرَمِيَهُمْ  
 بِالشُّهْبِ بَعْدَ الْبَعَثَةِ] ..... ١٤٩٩  
 [لِلْجِنِّ أَصْنَافٌ: مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ، وَالضَّالُّونَ  
 وَالرَّائِضِينَ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْهُمْ] ..... ١٥٠١  
 [إِفْرَارُ عِلْمِهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ] ..... ١٥٠١  
 [الْأَمْرُ بِالْوَحِيدِ وَاجْتِنَابِ الشَّرِكِ] ..... ١٥٠٢  
 [إِزْدِحَامُ الْجِنِّ عَلَى سَمَاعِ الْقُرْآنِ] ..... ١٥٠٢  
 [الرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ وَلَا الرُّشْدَ] ..... ١٥٠٢  
 [لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ] ..... ١٥٠٢  
 [الرَّسُولُ ﷺ لَا يَعْرِفُ وَقْتُ السَّاعَةِ] ..... ١٥٠٣  
 تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ..... ١٥٠٣  
 [سَبَبُ نُزُولِ سُورَتَيْ الْمُزْمَلِ وَالْمُدَّثِّرِ] ..... ١٥٠٣  
 [الْأَمْرُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ] ..... ١٥٠٤  
 [طَرِيقَةُ تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ] ..... ١٥٠٤  
 [عَظَمَةُ الْقُرْآنِ] ..... ١٥٠٥  
 [شَرَفُ قِيَامِ اللَّيْلِ] ..... ١٥٠٥  
 [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْكُفَّارِ وَبَيَانُ مَا لَهُمْ عَلَيْهِ] ..... ١٥٠٧  
 [رَسُولُكُمْ ﷺ مِثْلُ رَسُولِ فِرْعَوْنَ وَتَعْلَمُونَ مَصِيرَ فِرْعَوْنَ] ..... ١٥٠٧  
 [التَّهْدِيدُ بِعَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٠٧  
 [هَذِهِ السُّورَةُ تَذَكُّرٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ] ..... ١٥٠٧  
 [نَسْخٌ وَجُوبٌ قِيَامِ اللَّيْلِ وَذِكْرُ أَغْدَارِهِ] ..... ١٥٠٨  
 [الْأَمْرُ بِالتَّصَدُّقِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ] ..... ١٥٠٨  
 تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ..... ١٥٠٩  
 [أَوَّلُ آيَاتِ نَزَلَتْ بَعْدَ افْرَأ] ..... ١٥٠٩  
 [التَّذَكُّيرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥١٠  
 [تَهْدِيدٌ مَنْ قَالَ: أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ] ..... ١٥١٠  
 [عَدَدُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ وَمَا قَالَهُ الْكُفَّارُ حَوْلَ ذَلِكَ] ..... ١٥١١  
 [لَا يَعْلَمُ جُنُودَ اللَّهِ إِلَّا هُوَ] ..... ١٥١٢  
 [مَا يَدُورُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنَ الْجَوَارِ] ..... ١٥١٢  
 [الْكَبِيرُ عَلَى إِعْرَاضِ الْكُفَّارِ وَمَوْفِقِهِمْ] ..... ١٥١٣  
 [الْقُرْآنُ تَذَكُّرٌ] ..... ١٥١٣  
 تَفْسِيرُ سُورَةِ الْقِيَامَةِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ..... ١٥١٣  
 [الْقَسَمُ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالرَّدُّ عَلَى حِيلِ  
 الْمُتَحَايِلِينَ] ..... ١٥١٣  
 [أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ تَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥١٤  
 [تَعْلِيمُ تَلْقَى الْوَحْيِ] ..... ١٥١٤  
 [سَبَبُ تَكْذِيبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حُبُّ الدُّنْيَا وَالْعَقْلَةُ عَنِ  
 الْآخِرَةِ] ..... ١٥١٥  
 [رُؤْيُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ] ..... ١٥١٥  
 [تَسَوُّدُ وَجْهِ الْعُصَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥١٦  
 [يَحْصُلُ الْيَقِينُ عِنْدَ الْإِحْتِسَارِ] ..... ١٥١٦  
 [ذِكْرُ حَالِ الْمُكْذِبِ] ..... ١٥١٧  
 [لَا يَتْرُكُ الْإِنْسَانُ هَمَلًا] ..... ١٥١٧  
 [الدُّعَاءُ عِنْدَ خِتَامِ السُّورَةِ] ..... ١٥١٧  
 تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِنْسَانِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ..... ١٥١٧  
 [قِرَاءَةُ سُورَةِ السَّجْدَةِ وَالْإِنْسَانِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ  
 الْجُمُعَةِ] ..... ١٥١٧  
 [خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ] ..... ١٥١٨  
 [هَذَا اللَّهُ السَّبِيلُ فَهُوَ إِمَّا شَاكِرٌ وَإِمَّا كَفُورٌ] ..... ١٥١٨  
 [جَزَاءُ الْكَافِرِينَ وَالْأَبْرَارِ] ..... ١٥١٨  
 [أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ الْأَبْرَارِ] ..... ١٥١٨  
 [بَعْضُ التَّفْصِيلِ لِجَزَاءِ الْأَبْرَارِ فِي الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ  
 النِّعَمِ] ..... ١٥١٩  
 [ذِكْرُ الْأَرَائِكِ، وَأَنَّهُ لَا حَرَّ وَلَا بَرَدَ فِي الْجَنَّةِ] ..... ١٥٢٠  
 [دُنُوُ الطَّلَالِ وَالْقُطُوفِ] ..... ١٥٢٠  
 [آيَةُ مِنْ فَضْلِ وَأَكْثَابِ] ..... ١٥٢٠  
 [شَرَابُ الرَّنَجِيلِ وَالسُّسْبِيلِ] ..... ١٥٢٠  
 [الْوِلْدَانُ وَالْخَدَمُ] ..... ١٥٢١  
 [الْلِبَاسُ وَالْحُلِيِّ] ..... ١٥٢١  
 [ذِكْرُ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ وَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ وَالتَّذَكُّرِ] ..... ١٥٢٢  
 [دَمُ حُبِّ الدُّنْيَا وَالتَّيْبَةُ عَلَى يَوْمِ الْمَعَادِ] ..... ١٥٢٢  
 [الْقُرْآنُ تَذَكُّرٌ وَالْهُدَايَةُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ] ..... ١٥٢٢

[دُعَاءُ نُوحٍ عَلَى قَوْمِهِ وَلَمَنْ آمَنَ بِهِ] ..... ١٤٩٧  
 تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجِنِّ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ..... ١٤٩٨  
 [إِسْتِمَاعُ الْجِنِّ لِلْقُرْآنِ وَإِيمَانُهُمْ بِهِ] ..... ١٤٩٩  
 [إِفْرَارُ الْجِنِّ بِأَنَّ اللَّهَ مُنْزَعٌ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادِ] ..... ١٤٩٩  
 [مِنْ سَبَبِ طُعْيَانِ الْجِنِّ اسْتِعَاذَةَ الْإِنْسِي بِهِمْ] ..... ١٤٩٩  
 [إِسْتِرَاقُ الْجِنِّ خَبَرَ السَّمَاءِ قَبْلَ بَعَثَةِ الرَّسُولِ وَرَمِيَهُمْ  
 بِالشُّهْبِ بَعْدَ الْبَعَثَةِ] ..... ١٤٩٩  
 [لِلْجِنِّ أَصْنَافٌ: مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ، وَالضَّالُّونَ  
 وَالرَّائِضِينَ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْهُمْ] ..... ١٥٠١  
 [إِفْرَارُ عِلْمِهِمْ بِقُدْرَةِ اللَّهِ التَّامَّةِ] ..... ١٥٠١  
 [الْأَمْرُ بِالْوَحِيدِ وَاجْتِنَابِ الشَّرِكِ] ..... ١٥٠٢  
 [إِزْدِحَامُ الْجِنِّ عَلَى سَمَاعِ الْقُرْآنِ] ..... ١٥٠٢  
 [الرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ وَلَا الرُّشْدَ] ..... ١٥٠٢  
 [لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ] ..... ١٥٠٢  
 [الرَّسُولُ ﷺ لَا يَعْرِفُ وَقْتُ السَّاعَةِ] ..... ١٥٠٣  
 تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ..... ١٥٠٣  
 [سَبَبُ نُزُولِ سُورَتَيْ الْمُزْمَلِ وَالْمُدَّثِّرِ] ..... ١٥٠٣  
 [الْأَمْرُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ] ..... ١٥٠٤  
 [طَرِيقَةُ تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ] ..... ١٥٠٤  
 [عَظَمَةُ الْقُرْآنِ] ..... ١٥٠٥  
 [شَرَفُ قِيَامِ اللَّيْلِ] ..... ١٥٠٥  
 [الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَى الْكُفَّارِ وَبَيَانُ مَا لَهُمْ عَلَيْهِ] ..... ١٥٠٧  
 [رَسُولُكُمْ ﷺ مِثْلُ رَسُولِ فِرْعَوْنَ وَتَعْلَمُونَ مَصِيرَ فِرْعَوْنَ] ..... ١٥٠٧  
 [التَّهْدِيدُ بِعَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٠٧  
 [هَذِهِ السُّورَةُ تَذَكُّرٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ] ..... ١٥٠٧  
 [نَسْخٌ وَجُوبٌ قِيَامِ اللَّيْلِ وَذِكْرُ أَغْدَارِهِ] ..... ١٥٠٨  
 [الْأَمْرُ بِالتَّصَدُّقِ وَعَمَلِ الْخَيْرِ] ..... ١٥٠٨  
 تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ..... ١٥٠٩  
 [أَوَّلُ آيَاتِ نَزَلَتْ بَعْدَ افْرَأ] ..... ١٥٠٩  
 [التَّذَكُّيرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥١٠  
 [تَهْدِيدٌ مَنْ قَالَ: أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ] ..... ١٥١٠  
 [عَدَدُ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ وَمَا قَالَهُ الْكُفَّارُ حَوْلَ ذَلِكَ] ..... ١٥١١  
 [لَا يَعْلَمُ جُنُودَ اللَّهِ إِلَّا هُوَ] ..... ١٥١٢  
 [مَا يَدُورُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنَ الْجَوَارِ] ..... ١٥١٢

١٥٢٢

- تفسير سورة المزلزلات وهي مكية ..... ١٥٢٢
- [تُرْوَلْ هَذِهِ السُّورَةُ وَقَرَأَتْهَا فِي الْمَغْرِبِ] ..... ١٥٢٢
- [أَسْمَ اللَّهُ بِأَشْيَاءَ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى وَفْوَعِ الْمَعَادِ] ..... ١٥٢٣
- [ذَكَرَ بَعْضُ مَا يَحْدُثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٢٣
- [الِدَعْوَةُ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِأَنْوَاعٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ] ..... ١٥٢٤
- [سَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى مَا وَأَهُمْ فِي جَهَنَّمَ وَشَيْءٍ مِنْ كَيْفَتِهَا] ..... ١٥٢٤
- [عَجَزَ الْمُجْرِمِينَ عَنِ الْكَلَامِ وَتَقْدِيمِ الْعَذْرِ وَعَدَمَ الْإِقْدَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٢٥
- [مَالَ الْمُتَّقِينَ] ..... ١٥٢٥
- [تَهْدِيدٌ لِمُنْكَرِي الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٢٥
- تفسير سورة النبا وهي مكية ..... ١٥٢٦
- [الرَّدُّ عَلَى إِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ لَوْفُوعِ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٢٦
- [ذَكَرَ شَيْءٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ كَالدَّلِيلِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ] ..... ١٥٢٦
- [تَفْسِيرُ يَوْمِ الْفَضْلِ وَتَفْصِيلُ مَا فِيهِ] ..... ١٥٢٧
- [الْفَوْزُ الْكَبِيرُ لِمُتَّقِينَ] ..... ١٥٢٨
- [لَا يَجْتَرِءُ أَحَدٌ عَلَى التَّكَلُّمِ أَمَامَ اللَّهِ حَتَّى الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بَعْدَ الْإِذْنِ] ..... ١٥٢٩
- [الْقِيَامَةُ قَرِيبَةٌ] ..... ١٥٢٩
- تفسير سورة النازعات وهي مكية ..... ١٥٢٩
- [الْقَسَمُ بِخَمْسَةِ أَوْصَافٍ عَلَى وَفْوَعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٢٩
- [صِفَةُ الْقِيَامَةِ وَصِفَةُ النَّاسِ وَأَقْوَالُهُمْ فِيهَا] ..... ١٥٣٠
- [ذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَى وَأَنَّهَا عِبْرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى] ..... ١٥٣١
- [خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَشَدُّ مِنْ إِعَادَةِ الْخَلْقِ] ..... ١٥٣١
- [يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ وَأَنَّ وَفَّهًا غَيْرُ مَعْلُومٍ] ..... ١٥٣٢
- تفسير سورة عبس وهي مكية ..... ١٥٣٣
- [عَتَابُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عَبُوسِهِ فِي وَجْهِ رَجُلٍ ضَعِيفٍ: ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ] ..... ١٥٣٣
- [أَوْصَافُ الْقُرْآنِ] ..... ١٥٣٣
- [الرَّدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْحَيَاةَ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ..... ١٥٣٤
- [إِبْنَاتُ الْحَبِّ وَغَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَمَاتِ] ..... ١٥٣٤

- [يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفَرَارُ النَّاسِ فِيهَا مِنْ أَقَارِبِهِمْ] ..... ١٥٣٥
- [وُجُوهُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٣٥
- تفسير سورة التكاوير وهي مكية ..... ١٥٣٦
- [مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ] ..... ١٥٣٦
- [مَا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ تَكْوِيرُ الشَّمْسِ] ..... ١٥٣٦
- [إِنْكَدَارُ النُّجُومِ] ..... ١٥٣٦
- [تَسْيِيرُ الْجِبَالِ، وَتَعْطِيلُ الْعِشَارِ وَخَشَرُ الْوُحُوشِ] ..... ١٥٣٦
- [تَسْجِيرُ الْبَحَارِ] ..... ١٥٣٧
- [تَرْوِيجُ الشَّمْسِ] ..... ١٥٣٧
- [سُؤَالُ الْمُؤْمِنِينَ] ..... ١٥٣٧
- [كَفَّارَةُ وَأَدِ الْبَنَاتِ] ..... ١٥٣٧
- [نَشْرُ الصُّخْرِ] ..... ١٥٣٧
- [كَشْطُ السَّمَاءِ وَتَسْيِيرُ الْجَحِيمِ وَتَقْرِيبُ الْجَنَّةِ] ..... ١٥٣٨
- [كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا أَخْضَرَهُ] ..... ١٥٣٨
- [تَفْسِيرُ الْخُسْفَى وَالْكَسْفِ] ..... ١٥٣٨
- [الْقُرْآنُ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ وَلَيْسَ مِنْ نَسِجَةِ الْجُنُونِ] ..... ١٥٣٨
- [لَمْ يَكُنِ الشَّيْءُ ضَيِّنًا فِي إِبْلَاحِ الْوَحْيِ] ..... ١٥٣٩
- [الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَيْسَ بِوَحْيِ الشَّيْطَانِ] ..... ١٥٣٩
- تفسير سورة الانفطار وهي مكية ..... ١٥٣٩
- [فَضْلُ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ] ..... ١٥٣٩
- [مَا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٤٠
- [لَا يَبْغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْسَى اللَّهَ] ..... ١٥٤٠
- [سَبَبُ الْغُرُورِ، وَالتَّثْبِيهِ عَلَى تَسْجِيلِ الْمَلَائِكَةِ لِأَعْمَالِ] ..... ١٥٤١
- [جَزَاءُ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ] ..... ١٥٤١
- تفسير سورة المطففين وهي مدنية ..... ١٥٤١
- [الزِّيَادَةُ وَالتَّقْصَانُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ سَبَبٌ لِلزَّوِيلِ وَالْخُسْرَانِ] ..... ١٥٤١
- [تَخْوِيفُ الْمُطْفِقِينَ مِنَ الْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] ..... ١٥٤١
- [كِتَابُ الْفَجَّارِ وَبَعْضُ أَخْوَالِهِمْ] ..... ١٥٤٢
- [كِتَابُ الْأَبْرَارِ وَجَزَائِهِمْ] ..... ١٥٤٣
- [إِسَاءَةُ الْمُجْرِمِينَ وَاسْتَهْزَاؤُهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ] ..... ١٥٤٤
- تفسير سورة الانشقاق وهي مكية ..... ١٥٤٥
- [سَجْدَةُ الثَّلَاوَةِ فِي سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ] ..... ١٥٤٥
- [إِنْشِقَاقُ السَّمَاءِ وَتَمْدِيدُ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ..... ١٥٤٥

- ١٥٥٦..... [لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ]
- ١٥٥٦..... [الْوَعْدُ لِمَنْ تَوَلَّى عَنِ الْحَقِّ]
- ١٥٥٧..... تفسير سورة الفجر وهي مكية
- ١٥٥٧..... [قِرَاءَةُ سُورَةِ الْفَجْرِ فِي الصَّلَاةِ]
- ١٥٥٧..... [تَفْسِيرُ الْفَجْرِ وَمَا بَعْدَهُ]
- ١٥٥٧..... [تَفْسِيرُ اللَّيْلِ]
- ١٥٥٧..... [ذِكْرُ إِهْلَاكِ عَادٍ]
- ١٥٥٨..... [ذِكْرُ فِرْعَوْنَ]
- ١٥٥٨..... [الرَّبُّ بِالْمِرْصَادِ]
- ..... [الْغَنَى وَالْفَقْرُ اخْتِيَارًا، وَلَيْسَا مِنْ إِكْرَامِ اللَّهِ أَوْ إِهَانَتِهِ لِلْعَبْدِ]
- ١٥٥٩..... [مِنْ شَرِّ مَا يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ فِي الْمَالِ]
- ١٥٥٩..... [يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُؤْتَى كُلُّ بِمَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ]
- ١٥٦٠..... تفسير سورة البلد وهي مكية
- ١٥٦٠..... [الْقَسَمُ بِحُرْمَةِ مَكَّةَ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ فِي مَشَقَّةٍ]
- ١٥٦٠..... [الْإِنْسَانُ مُحَاطٌ بِاللَّهِ وَبِنِعْمَاتِهِ]
- ١٥٦١..... [الْتَّمِيزُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ نِعْمَةً]
- ١٥٦١..... [الْحَضُّ عَلَى سُلُوكِ سَبِيلِ الْخَيْرِ]
- ١٥٦٢..... [أَصْحَابُ الْمَشْئَةِ وَجَزَائُهُمْ]
- ١٥٦٢..... تفسير سورة الشمس وضحاها وهي مكية
- ١٥٦٢..... [قِرَاءَةُ وَالشَّمْسِ وَضَحَاهَا فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ]
- ١٥٦٢..... [قَسَمُ اللَّهِ بِمَخْلُوقَاتِهِ عَلَى فَلَاحٍ مِنْ رِزْقِهِ نَفْسُهُ وَخَبِيئُهُ مَنْ دَسَّاهَا]
- ١٥٦٤..... [تَكْذِيبُ ثُمُودَ وَإِهْلَاكُهُمْ]
- ١٥٦٤..... [قِصَّةُ نَاقَةِ صَالِحٍ]
- ١٥٦٤..... تفسير سورة الليل وهي مكية
- ..... [الْقَسَمُ عَلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي سَعْيِهِمْ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى اخْتِلَافِ نَتَائِجِ ذَلِكَ]
- ١٥٦٥..... [الْهَدَى وَغَيْرُهُ بِيَدِ اللَّهِ]
- ١٥٦٦..... [سَبَبُ التَّزَوُّلِ وَفَضْلُ أَبِي بَكْرٍ]
- ١٥٦٧..... تفسير سورة الضحى وهي مكية
- ١٥٦٧..... [سَبَبُ تَزَوُّلِ سُورَةِ الضُّحَى]
- ١٥٦٧..... [الْآخِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَى]
- ١٥٦٧..... [نَعْمُ الْآخِرَةُ الْكَثِيرَةُ تَنْتَظِرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]
- ١٥٦٨..... [ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ]

- ١٥٤٥..... [جَزَاءُ الْأَعْمَالِ حَقٌّ]
- ١٥٤٦..... [الْعَرَضُ وَالْمُنَاقَشَةُ فِي الْحِسَابِ]
- ١٥٤٦..... [الْقَسَمُ عَلَى رُكُوبِ الْإِنْسَانِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ]
- ..... [التَّكْبِيرُ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ وَتَبْشِيرُهُمْ بِالْعَذَابِ، وَأَنَّ النِّعَمَ لِلْمُؤْمِنِينَ]
- ١٥٤٧..... تفسير سورة النبزوح وهي مكية
- ١٥٤٧..... [تَفْسِيرُ الْبُرُوجِ]
- ١٥٤٧..... [تَفْسِيرُ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ]
- ١٥٤٨..... [ظَلَمَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ الْمُسْلِمِينَ]
- ١٥٤٨..... [قِصَّةُ سَاحِرٍ وَزَاهِبٍ وَعَلَامٍ وَمَنْ أُذْجِلَ الْأَخْدُودُ]
- ١٥٤٩..... [جَزَاءُ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ]
- ١٥٤٩..... [جَزَاءُ الصَّالِحِينَ وَالتَّبَطُّشُ الشَّدِيدُ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ الْكَافِرِينَ]
- ١٥٥٠..... تفسير سورة الطارق وهي مكية
- ١٥٥٠..... [فَضْلُ سُورَةِ الطَّارِقِ]
- ١٥٥٠..... [الْقَسَمُ عَلَى كَوْنِ الْإِنْسَانِ مُحَاطًا بِنِظَامِ اللَّهِ]
- ١٥٥١..... [كَيْفِيَّةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ ذَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى رَجْعِهِ]
- ١٥٥١..... [يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ قُدْرَةٌ وَلَا نُصْرَةٌ]
- ١٥٥١..... [الْقَسَمُ عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا وَفَسْلٌ مُخَالَفِيهِ]
- ١٥٥١..... تفسير سورة سبح وهي مكية
- ١٥٥١..... [فَضْلُ سُورَةِ الْأَعْلَى]
- ١٥٥٢..... [الْأَمْرُ بِالتَّسْبِيحِ وَمَا يَقُولُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ]
- ١٥٥٢..... [الْخَلْقُ وَالتَّقْدِيرُ وَإِخْرَاجُ النَّبَاتِ]
- ١٥٥٢..... [التَّسْبِيحُ لَا يَنْسَى الْوَحْيَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ رَفَعَهُ وَنَسَخَهُ]
- ١٥٥٢..... [الْأَمْرُ بِالتَّذْكِيرِ]
- ١٥٥٣..... [بَيَانُ أَهْلِ الْفَلَاحِ]
- ١٥٥٣..... [لَا قِيَمَةَ لِلدُّنْيَا فِي جَنْبِ الْآخِرَةِ]
- ١٥٥٤..... [صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى]
- ١٥٥٤..... تفسير سورة الغاشية وهي مكية
- ١٥٥٤..... [قِرَاءَةُ الْأَعْلَى وَالْغَاشِيَةِ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ]
- ١٥٥٤..... [الْقِيَامَةُ وَمَا يَكُونُ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ فِيهَا]
- ١٥٥٥..... [حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]
- ..... [الْحَضُّ عَلَى النَّظَرِ فِي خَلْقِ الْإِبِلِ وَالسَّمَاءِ وَالْجِبَالِ وَالْأَرْضِ]
- ١٥٥٥..... [قِصَّةُ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ]

- |      |   |      |  |
|------|---|------|--|
| ١٥٧٨ | [الْقَسَمُ بِخَلِ الْحَرْبِ عَلَى كُفْرَانِ الْإِنْسَانِ وَحَرْصِهِ]          | ١٥٦٨ | [كَيْفَ تَقْدَرُ هَذِهِ النِّعَمَ]   |
| ١٥٧٨ | [الْخَوْفُ مِنَ الْمَعَادِ]   | ١٥٦٨ | تفسير سورة ألم نشرح وهي مكية   |
| ١٥٧٨ | تفسير سورة الفارعة وهي مكية   | ١٥٦٨ | [مَعْنَى شَرْحِ الصُّدْرِ]   |
| ١٥٧٩ | تفسير سورة التكاثر وهي مكية   | ١٥٦٨ | [بَيَانُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ]   |
| ١٥٧٩ | [تَنْجِيحَةُ حُبِّ الدُّنْيَا غَفْلَةً عَنِ الْآخِرَةِ]                       | ١٥٦٩ | [مَعْنَى رَفْعِ ذِكْرِ النَّبِيِّ]   |
| ١٥٨٠ | [الْوَعْدُ بِرُؤْيَا الْحَجِيمِ وَالسُّؤَالُ عَنِ النَّعِيمِ]                 | ١٥٦٩ | [الْيُسْرُ بَعْدَ الْعُسْرِ]   |
| ١٥٨١ | تفسير سورة العصر وهي مكية   | ١٥٦٩ | [الْأَمْرُ بِالذِّكْرِ عِنْدَ الْفَرَاغِ]  |
| ١٥٨١ | [مَعْرِفَةُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ لِلْعَجَازِ الْقُرْآنِ بِهَذِهِ السُّورَةِ] | ١٥٦٩ | تفسير سورة والتين والزيتون وهي مكية  |
| ١٥٨١ | تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة وهي مكية   | ١٥٦٩ | [قِرَاءَةُ وَالتِّينِ بِالصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ]  |
| ١٥٨٢ | تفسير سورة الفيل وهي مكية   | ١٥٦٩ | [تَفْسِيرُ التِّينِ وَمَا بَعْدَهُ]  |
| ١٥٨٢ | [قِصَّةُ أَصْحَابِ الْفِيلِ بِإِيجَازٍ]                                       |      | [سُقُوطُ الْإِنْسَانِ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ مَعَ كَوْنِهِ خَلْقًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَنَتِيجَةُ ذَلِكَ] |
| ١٥٨٦ | تفسير سورة ليلاف قرنيش وهي مكية   | ١٥٧٠ | تفسير سورة اقرأ وهي أول شيء نزل من القرآن  |
| ١٥٨٦ | تفسير السورة التي يذكر فيها الماعون وهي مكية                                  | ١٥٧٠ | [بَدْءُ بُيُوتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ]  |
| ١٥٨٦ | [أَوْصَافُ مُنْكَرِي الْيَاسَمَةِ]  | ١٥٧١ | [عِزُّ الْإِنْسَانِ وَشَرَفُهُ بِالْعِلْمِ]  |
| ١٥٨٧ | تفسير سورة الكوثر وهي مدنية، وقيل: مكية                                       | ١٥٧١ | [الْوَعْدُ عَلَى طُغْيَانِ الْإِنْسَانِ لِأَجْلِ الْمَالِ]   |
| ١٥٨٨ | [عَدُوُّ النَّبِيِّ هُوَ الْأَبْتَرُ]   | ١٥٧١ | [ذَمُّ أَبِي جَهْلٍ وَالْوَعْدُ بِمَوَاحِدَتِهِ]   |
| ١٥٨٩ | تفسير سورة قل يأتونها الكافرون وهي مكية                                       | ١٥٧٢ | [تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ]   |
| ١٥٨٩ | [قِرَاءَةُ هَذِهِ السُّورَةِ فِي التَّوَافُلِ]                                | ١٥٧٢ | تفسير سورة القدر وهي مكية  |
| ١٥٨٩ | [الْبَرَاءَةُ مِنَ الشُّرْكِ]   | ١٥٧٢ | [فَضْلُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ]  |
| ١٥٩٠ | تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح وهي مدنية                                  | ١٥٧٣ | [نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ وَقَضَاءُ كُلِّ خَيْرٍ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ]   |
| ١٥٩٠ | [فَضْلُ سُورَةِ النَّصْرِ]  | ١٥٧٣ | [تَعْيِينُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَعَلَامَاتُهَا]   |
| ١٥٩٠ | [هَذِهِ السُّورَةُ إِخْبَارٌ عَنْ تَمَامِ أَجَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ]           | ١٥٧٤ | [دُعَاءُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ]   |
| ١٥٩١ | تفسير سورة تبت وهي مكية   | ١٥٧٤ | تفسير سورة لم يكن وهي مدنية  |
| ١٥٩١ | [سَبَبُ نُزُولِ السُّورَةِ، وَعِنَادُ أَبِي لَهَبٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]       | ١٥٧٤ | [قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ السُّورَةَ عَلَى أَبِي]  |
| ١٥٩١ | [ذِكْرُ مَصِيرِ أُمِّ جَمِيلٍ (امْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ)]                       | ١٥٧٤ | [ذِكْرُ حَالِ الْكُفَرَاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ]  |
| ١٥٩١ | [قِصَّةٌ مِنْ إِذَاءِ امْرَأَةِ أَبِي لَهَبٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ]             | ١٥٧٥ | [إِنَّمَا وَقَعَ الْأَخْتِلَافُ بَعْدَ مَجِيئِ الْعِلْمِ]  |
| ١٥٩٢ | تفسير سورة الإخلاص وهي مكية   | ١٥٧٥ | [إِنَّمَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ هُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ]   |
| ١٥٩٢ | [ذِكْرُ سَبَبِ نُزُولِهَا وَفَضْلُهَا]  | ١٥٧٥ | [ذِكْرُ شَرِّ الْبَرِيَّةِ وَخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَذِكْرُ جَزَائِهِمَا]  |
| ١٥٩٤ | [اللَّهُ مُنْزَعٌ عَنِ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْكُفُو]      | ١٥٧٦ | تفسير سورة إذا زلزلت وهي مكية  |
| ١٥٩٤ | تفسير سورتي الموعودتين وهما مدينتان   | ١٥٧٦ | [فَضْلُ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ]   |
| ١٥٩٤ | [مَوْفِقُ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنَ الْمُعَوَّدَتَيْنِ]                            | ١٥٧٦ | [يَوْمَ الْيَاسَمَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ حَالُ الْأَرْضِ وَحَالُ النَّاسِ]                                     |
| ١٥٩٤ | [فَضْلُ الْمُعَوَّدَتَيْنِ]   | ١٥٧٧ | [الْجَزَاءُ عَلَى كُلِّ ذَرَّةٍ مِنَ الْعَمَلِ]  |
| ١٥٩٦ | [بَيَانُ سِحْرِ النَّبِيِّ]   | ١٥٧٧ | تفسير سورة العاديات وهي مكية   |
| ١٥٩٧ | مراجع التخرج لمخلص تفسير ابن كثير   |      |  |

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

**[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)**



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)